

مُدارساتٌ في رسالاتِ الهُدى المنهاجيّ
للقرآنِ الكريمِ من التلقّي إلى البلاغ

الجزءُ الأوّل

فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مُدارساتٌ في رسالاتِ الهُدى المنهاجيِّ للقرآنِ الكريمِ

مِنَ التلقي إلى البلاغ

الجزء الأوّل

تأليف

فريد الأنصاري

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الرابعة
١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الأنصاري ، فريد.
مجالس القرآن : مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ / تأليف فريد الأنصاري . - ط ١ القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠٠٩م] .
٤٠٨ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك X ٧٣٤ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - القرآن علوم .
أ - العنوان . ٢٢٠

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتقاطع مع شارع نور الدين بهجت الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نعمة القرآن

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

باب القرآن

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

حق القرآن

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

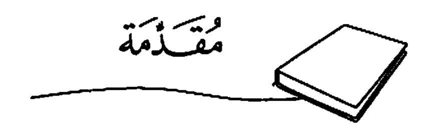
﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا.. ﴾ [الفرقان: ٣٠].

واجب القرآن

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* * *

فِهرِسُ المُحتَوَيات



الحمد للَّه الذي أنزل القرآن العظيم « رُوحًا مِن أَمْرِهِ » جل عُلاه، وجعله نورًا يحيي به موات القلوب ويفرج به ظلمات الكروب، ويمسح به الخطايا، ويشفي به البلايا.

وصلى اللَّه وسلم وبارك على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا محمد النبي الأمي، الذي أرسله اللَّه رحمةً للعالمين؛ فلم يزل ﷺ – مُذ أكرمه اللَّه تعالى بالنبوة الخاتمة – كوكبًا دُرِّيًا، متوقدًا في سماء البشرية إلى يوم الدين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥، ٤٦]. وإنما أشرق نورُه – عليه الصلاة والسلام – بما أنعم اللَّه عليه من جلال الوحي وجماله هذا القرآن العظيم فكان ﷺ بذلك هُدًى للعالمين ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ذلك هو النور..! ولكنْ أين من يرفع بصره إلى السماء؟ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

أما بعد:

فهذه مُدارسات في القرآن الكريم، تعرض مشروع « مجالس القرآن » بصورة عملية، يرجى لها أن تجعل المؤمن يندمج في فضاء القرآن، ويتلقى آياته كلمة كلمة، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا. وهي لذلك تمثل صلب المنهاج الفطريِ الذي ندعو به وإليه، كما بيناه مفصلًا في كتاب « الفطرية ».

فإلى العلماء العاملين.. إلى السادة المربِّين.. إلى أهل الفضل والصلاح.. إلى دعاة الخير والفلاح.. إلى الشباب الباحثين عن وَارِدٍ من نور، يخرجهم من ظلمات هذا الزمن العصيب.. إلى جموع التائبين، الآيبين إلى منهاج اللَّه وصراطه المستقيم.. إلى المثقلين بجراح الخطايا والذنوب مثلي الراغبين في التطهر والتزكية.. والعودة إلى صَفِّ اللَّه، تحت رحمة اللَّه .. إلى الذين تفرقت بهم السبُلُ حيرةً واضطرابًا، مترددين

بين هذا الاجتهاد وذاك، من مقولات الإصلاح.

إليكم أيها الأحباب أبعث رسالات القرآن، إليكم سادتي أبعث قضية القرآن، والسر كل السر في القرآن، ولكن كيف السبيل إليه؟

أليس بالقرآن وبحِكْمَةِ القرآن جعل اللَّهُ - تقدستْ أسماؤه - عبده محمد ابن عبد اللَّه النبي الأمي - عليه صلوات اللَّه وسلامه - معلم البشرية وسيد ولد آدم؟ وما كان يقرأ كتابًا من قبل ولا كان يخطه بيمينه.

ثم أليس بالقرآن - وبالقرآن فقط - بَعَثَ اللهُ الحياةَ في عرب الجاهلية فنقلهم من أمةٍ أميةٍ ضالة إلى أمة تمارس الشهادة على الناس، كل الناس؟

ألم يكن القرآن في جيل القرآن مفتاحًا لعالم المُلْكِ والملكوت؟ ألم يكن هو الشفاء وهو الدواء؟ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢] ألم يكن هو الماء وهو الهواء لكل من كان حيًّا - على الحقيقة - من الأحياء؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

ألم تكن تلاوته - مجرد تلاوته - من رجل قرآني بسيط تُحْدِثُ انقلابًا ربانيًّا عجيبًا، وخرقًا نورانيًّا غريبًا في أمر الملك والملكوت؟ ألم تتنزل الملائكة ليلًا مثل مصابيح الثريا لسماع القرآن من رجل منهم، بات يتبتل في سكون الدُّجى، يناجي ربه بآيات من بعض سوره؟ (١) ألم يقرأ رجل آخر سورة الفاتحة على لديغ من بعض قبائل العرب، اعتقله سم أفعى إلى الأرض، فلبث ينتظر حتفه في بضع دقائق، حتى

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن أسيد بن حضير ﷺ؛ بينما هو ليلةً يقرأ في مربده؛ إذ جالت فرسه. فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضًا قال أسيد: فخشيتُ أن تطأ يحيى [يعني: ابنه الصغير] فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج [جمع سراج: وهي المصابيح] عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول اللَّه ﷺ، فقلت: يا رسول اللَّه بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي؛ إذ جالت فرسي فقال رسول اللَّه ﷺ: « اقرأ ابن حضير » قال: فقرأت؛ ثم جالت أيضًا! فقال، رسول اللَّه ﷺ: « اقرأ ابن حضير » قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا فقال رسول اللَّه ﷺ: « اقرأ ابن حضير » قال: فانصرفتُ. وكان يحيى قريبًا منها، خشيتُ أن تطأه. فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول اللَّه ﷺ: « تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحتْ يراها الناس، ما تستتر منهم » رواه مسلم. وقد روى البخاري نحوه مختصرًا.

إذا قرئت عليه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٤] - التي يحفظها اليوم كل الأطفال - قام كأنْ لم يكن به شيء قط؟ (١).

أليس هذا القرآن هو الذي صنع التاريخ والجغرافيا للمسلمين؛ فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف؟ وكان له هذا الرصيد الحضاري العظيم، الموغل في الوجدان الإسلامي؛ بما أعجز كل أشكال الاستعمار القديمة والجديدة عن احتوائه وهضمه! فلم تنل منه معاول الهدم وآلات التدمير بشتى أنواعها وأصنافها المادية والمعنوية، وبقي - رغم الجراح العميقة جدًّا - متماسك الوعي بذاته وهويته.

وما كانت الأمة الإسلامية قبل نزول الآيات الأولى من (سورة العلق) شيئًا مذكورًا، وإنما كان هذا القرآن فكانت هذه الأمة وكانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أليس القرآن الذي نتلوه اليوم هو عينه القرآن الذي تلاه أولئك من قبل؟

فما الذي حدث لنا نحن أهل هذا الزمان إذن؟

ذلك هو السؤال، وتلك هي القضية.

لا شك أن السر كامِنٌ في منهج التعامل مع القرآن، وذلك هو سؤال العصر، وقد كتب غير واحد من أهل العلم والفضل حول إشكال: (كيف نتعامل مع القرآن؟) (٢).

ولقد أجمع السابقون واللاحقون على أن المنهج إنما هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه من أمر القرآن. فمن ذا اليوم يستطيع الصبر عليه؟ وإنما هو تلقٍّ للقرآن آية آية، وتلَقٍّ عن القرآن حكمةً حكمةً، على سبيل التخلُّق الوجداني، والتمثُّل التربوي لحقائقه الإيمانية العمر كله، حتى يصير القرآن في قلب المؤمن نَفَسًا طبيعيًّا، لا يتصرف إلا من خلاله، ولا ينطق إلا بحكمته، فإذا بتلاوته على نفسه وعلى من

---

(١) عن أبي سعيد الخدري قال: (نزلنا منزلًا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سليم لُدغ؛ فهل من راق؟ فقام معها رجل منًّا، ما كنَّا نظنه يحسن رُقيةً، فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فبرأ، فأعطوه غنمًا وسقونا لبنًا. فقلنا: أكنت تحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب قال: فقلت: لا تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ فأتينا النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: « ما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم »، وفي صيغة البخاري: (فسألوه، فضحك، وقال: « وما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم » متفق عليه.

(٢) منهم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله.

حوله غير تلاوة الناس، وإذا بحركته في التاريخ غير حركة الناس.

وهكذا صنع الرسول ﷺ - بما أُنزِلَ عليه من القرآن آيةً آيةً - نماذج حوَّلت مجرى التاريخ ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فلم تكن له وسائل ضخمة ولا أجهزة معقدة، وإنما هي شِعابٌ بين الجبال، أو بيوتٌ بسيطة، ثم مساجد آمنة مطمئنة عُمرانها: صلاةٌ ومجالس للقرآن وبرامجها: تلاوةٌ وتعلمٌ وتزكية بالقرآن بدءًا بشعاب مكة، ودار الأرقم بن أبي الأُرقم، وانتهاءً بمسجد المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأُولى، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام كانت البساطة هي طابع كل شيء، وإنما العظمة كانت في القرآن، ولمن تشرَّب - بعد ذلك - روحَ القرآن.

هكذا كانت مجالسه ﷺ ثم مجالس أصحابه في عهده، ومن بعده عليه السلام مجالس قرآنية، انعقدت هنا وهناك، وتناسلت بصورة طبيعية؛ لإقامة الدين في النفس وفي المجتمع معًا على السواء، وبناء النسيج الاجتماعي الإسلامي من كل الجوانب، بصورة كلية شمولية؛ بما كان من شمولية هذا القرآن، وإحاطته بكل شيء من عالم الإنسان، وذلك أمر لا يحتاج إلى برهان. واقرأ إن شئت الآية المعجزة، ولكن بشرط: اقرأ وتدبر، تدبرها طويلًا وقِفْ عليها مليًّا حتى بعد طي صفحات هذه الورقات. فيا أيها المؤمن السائر إلى مولاه الباحث بكل شوق عن نوره وهداه أبصر بقلبك - عساك تكون من المبصرين - قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولك أن تشاهد هذه المنة العظمى من خلال عديلتها، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

نعم، هذه هي الآية، وإنها لعلامة وأي علامة فلا تنسَ الشرط.

تلك إذن كانت رسالة القرآن، وتلك كانت رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام-.

فيا أتباع محمد ﷺ، يا شباب الإسلام، ويا كهوله وشيوخه، يا رجاله ونساءه.

ألمَ يئِن الأوان بعد لتجديد رسالة القرآن؟ ألم يئن الأوان بعد لتجديد عهد القرآن؟ وإنما قضية الأمة كل قضيتها هاهنا: تجديد رسالة القرآن ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

فيا أيها الأحباب، لنعد إلى مدرسة رسول الله ﷺ لنعد إلى مدرسة القرآن ومجالس القرآن على منهج القرآن صافية نقية كما شهد عليها اللَّه ﷻ في جيل القرآن، لا كما تلقيناها مشوهة من عصور المواتِ في التاريخ.

من أجل هذا وذاك إذن كانت هذه الورقات. غايتها بيان منهج الاشتغال بكتاب اللَّه، وكيفية إعادة بناء الأنفس على وِزانِه، ووفق مقاييس تصميمه فلا تتخذها مشغلةً لك عن القرآن العظيم، ولا حاجبةً لك عن مكنون دُرِّه الكريم، بل خذها آلة استبصارٍ فحسب كسائر آلات فقه الدين، مستقاة من كتاب اللَّه رأسًا فإنما هي آيات تربطك بآيات، على نوع من التدريج إلى خوض بحر القرآن، حتى إذا وصلت - أخي الحبيب - إلى الغاية، وحصل لك الإبصار بالآيات مُباشَرَةً، وبدأت تكتسب حقائق الإيمان مُشَاهَدَةً؛ فدع عنك هذه الوريقات وأمثالها جانبًا، فما كان ليكون بين اللَّه وعبده من وسيط كيف لا؟ وقد قال لمن هو خيرٌ مني ومنك: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإنما كتبنا هاهنا ما كتبنا من كلمات؛ استجابةً لرغبةٍ ملحةٍ من بعض محبي القرآن العظيم، ورواد مجالسه العامرة؛ من بعدما صدر كتيبنا السابق: (بلاغ الرسالة القرآنية)؛ فكان له ما كان - بفضل اللَّه - من الأثر في لفت الانتباه إلى منهج القرآن، ومدرسته الربانية العظيمة؛ فحدثتْ يقظة لدى بعض أهل الخير، نبهت أرواحهم إلى حياض الروح المتدفقة من شلال القرآن، فرغبوا مني كتابة ورقات، تشبه أن تكون « دليلًا عمليًا »؛ لمساعدة من لا خبرة له سابقة في تدارس القرآن وتدبره، وتشرح الخطوات المنهجية بصورة مبسطة وسهلة؛ حتى يَعِيها كلُّ قارئٍ ومستمع؛ رغبةً في تعميم الاشتغال بالقرآن، والرجوع إليه لتربية الفكر والوجدان، وتمتين نسيج المجتمع على مِنْسَجَةِ الإيمان. وكذلك كان، واللَّه المستعان.

ومن ثَمَّ جاء هذا الكتاب منقسمًا إلى قسمين:

القسم الأول: هو عبارة عن « **مدخل إلى مجالس القرآن** » [1]، القصد منه بيان أهمية هذا المشروع الدعوي؛ بما هو منهاج قرآني صرف، يتخذ كتاب اللَّه مورده الرئيس. منه يتلقَّى نوره وهداه، وعليه يبني قواعده ورُؤاه. كما أنه موضوع منهجيًا لبيان الصورة العملية لإقامة « مجالس القرآن » بكل تفاصيلها الجزئية.

ورغم أن مادة هذا المدخل لا تعدو أن تكون جمعًا لمقالات كتبتها من قبل، وفقرات جمعتها من هنا وهناك [2]؛ فإن لها هاهنا تميزًا خاصًا، وهو أنها رُتِّبتْ خطواتُها، وفصلتْ بصورة « تقنية » متدرجة، مع شروح وإضافات جديدة، قابلة للتصريف العملي في المجتمع بصورة تلقائية. ثم إيراد بعض النصوص من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، مما فيه زيادة بيان للمنهج التطبيقي لإقامة هذه المجالس؛ ولذلك جاءت أشبه ما تكون بـ « الدليل المرشد » إلى مجالس القرآن الكريم.

القسم الثاني: هو عبارة عن نموذج تطبيقي لمدارسة القرآن الكريم، من خلال بعض سوره، ومحاولة لتقديم صورة عملية لكيفية تلقِّي « الهُدَى المنهاجي »، الذي تتضمنه السور المختارة من خلال آياتها وكلماتها. فجاء هذا القسم بيانًا عمليًا لما يُرْجَى أن تسير عليه « مجالس القرآن »، من تلقي رسالات الهُدى الواردة بكتاب اللَّه؛ عسى أن ينال الجلساء المتدارسون من بركات هذا القرآن خُلُقًا ربانيًا، يجعلنا وإياهم – بتوفيق اللَّه – على هدًى من ربنا في أمر ديننا ودعوتنا، تأسيًا بمن « كان خُلُقه القُرآن » [3] عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولقد يسر اللَّه إنجاز مدارسات لسور أربع؛ هي: الفاتحة، والفرقان، ويس، والحجرات. وقد جاء اختيار هذه السور لحكمة تربوية، وموافقات ربانية، ذكرناها مفصلة بمحلها من التمهيد، الذي قدمناه بين يدي المدارسات – في القسم الثاني من هذا الكتاب – حيث شرحنا المصطلحات المفتاحية، التي اعتمدناها في جميع المدارسات بصورة ثابتة.

---

(١) سبق نشره مختصرًا جدًا تحت عنوان: « مجالس القرآن » .

(٢) كان ذلك من كتيبنا (بلاغ الرسالة القرآنية) ومن (ميثاق العهد)، ثم إضافات جديدة وشروح.

(٣) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها .

هذا، وقد جعلنا سيماء هذا الكتاب بعنوان رئيس هو: (مجالس القرآن)، ثم ذيلناه بعنوان هامشي هو: (مُدارساتٌ في رسالاتِ الهدى المنهاجي للقرآن الكريم، من التلقي إلى البلاغ)؛ وذلك لبيان أن « المجالس القرآنية » - على ما شرحنا من أوصاف وشروط - هي القضية المركزية في تجديد الاتصال بالوحي، والتلقي للهدى الرباني، وأنها المسلك الذي عليه الرهان اليوم - كما كان قديمًا - للخروج بالأمة من هذا النفق المظلم الذي تتخبط فيه! فمجالس القرآن هي سفينة النجاة إلى بر الأمان إن شاء اللَّه. إنها وسيلة وغاية في ذاتها ككثير من العبادات في الإسلام؛ غايةٌ يُعبد اللَّه بها ابتداءً، ووسيلةٌ إلى إصلاح النفس والمجتمع؛ ولذلك فقد اجتمع فيها الخير كله.

وبما أنها هي جوهر هذا المشروع الدعوي الذي نقدمه في هذا الكتاب؛ فقد جعلنا عبارتها هي عنوانَه الرئيس وسيماؤه الكبرى، وأما العنوان التابع فهو لبيان أن طبيعة هذه المجالس عبارةٌ عن مُدارساتٍ في رسالات القرآن، التي هي رسالات الهُدى المنهاجي، والتي تطبع متلقيها بخلق الربانية. فالتدارس لكتاب اللَّه هو سبيل الربانية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. والربانية عندما تصبح سمةً غالبةً في المجتمع فتلك هي العلامة الكبرى على تحوله الجذري، وارتقائه من جديد إلى مقام « الخيرية » الشاهدة على الناس ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا يكون ذلك كله إلا بتداولٍ رساليٍّ للقرآن العظيم في المجتمع عبر مجالسه الموصوفة، بما تتضمنه من خطوات منهجية؛ تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا، ثم قيامًا بوظيفة البلاغ والدعوة إلى اللَّه، أمانةً على عاتق كلِ من تلقى عن اللَّه هُدَاهُ! فالأمة اليوم إنما هي في حاجة إلى من يحسن التلقي عن اللَّه ورسوله، ويبلغ في ذلك أعلى منازل الاستجابة لنداء الهُدى، ألا وهي منزلة التعلُّمِ والتعليم؛ فيكون منتفعًا ونافعًا بإذن اللَّه، فإنما غاية هذه الرسالة تخريج الدُّعاة الهداة، حُمَّال رسالات القرآن وهو المقام الذي كان عليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ فأكرِم به من مقام وأنعِم.

ذلك هو منطوق الحديث النبوي الجامع لحكمة هذا المجال، قال ﷺ: « مثل ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء؛ فأنبتت

الكلأ والعُشب الكثير. وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء؛ فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقَوا وزرعوا. وأصابَ منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به؛ فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به » (١).

تلك هي الفكرة التي انبنت عليها ورقة هذا المشروع، فإن أصبتُ في منهج التدليل على التزود من كتاب الله، لتجديد الدين والإيمان فالحمد لله، وإن أخطأتُ فالغاية واضحة، وأستغفر الله! وإنما المقصود هو العودة إلى القرآن، وهو مقصود قطعي والاجتهاد إنما هو في منهج التوظيف والتنزيل. فلا يكن خطئي في منهج التوجيه والبيان صارفًا لك عن حق اليقين، الذي هو هذا القرآن العظيم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وأخيرًا وجب التنويه برد الفضل إلى أهله؛ وذلك ببيان أن هذه المدارسات مدينة- بعد الله تعالى - إلى أستاذنا وأستاذ الأجيال: الدكتور الشاهد البوشيخي، رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليمًا ودعوةً، فلقد مَنَّ الله بصحبته زمنًا ليس باليسير، حيث تلقينا عنه - خلال ذلك - منهج التعامل مع القرآن الكريم، ومفاتح الدخول إلى فضائه الفسيح. وكانت لنا معه مدارسات لا تنسى، ومجالس مباركة، سواء في أقسام الدراسات العليا، أو في مجالسه الخاصة؛ حيث تلقينا عنه أصول المنهج وقواعده، نظريةً وتطبيقًا. فله من الله الجزاء الأوفى، وجعله من أهله وخاصته، وبارك له في علمه وعمله.

كما أنني استفدت في ذلك من « كليات رسائل النور » للأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله، فقد كان لمنهجيته التربوية الفريدة في التعامل مع القرآن الكريم أثر بارز في توجيه هذه المدارسات.

أما من حيث المادة التفسيرية التي صغتها فيما سميته بـ « البيان العام » من فقرات هذه الدراسة؛ فقد انتقيتها مما ترجح لدي من كلام المفسرين ورواياتهم، وعلى رأسهم الإمام أبو جعفر الطبري، والإمام ابن كثير رحمة الله عليهما. كما أنني كنت

---

(١) متفق عليه.

أرجع في تحقيق كثير من القضايا إلى كتاب « الكشاف » لجار الله الزمخشري، و« معالم التنـزيل » للإمام البغوي، و« المحرر الوجيز » لابن عطية الأندلسي، و« الجامع لأحكام القرآن » للإمام أبي عبد الله القرطبي، و « مفاتيح الغيب » للإمام فخر الدين الرازي، و « نظم الدرر » للإمام نجم الدين البقاعي، و « الدر المنثور » للإمام السيوطي، و « التحرير والتنوير » للإمام الطاهر ابن عاشور، ثم إلى كتاب « في ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب رحمة الله عليهم جميعًا. وقد كنت خلال ذلك كله أصوغ ما استفدته من كتب التفسير مُنَزَّلًا على مقتضى العصر؛ حتى يتسنى للدارس تلقي حقائق القرآن غضة طرية، ويشهد ابتلاءاتها في نفسه حية متجددة، بصورة تجعله ينظر إلى حياته خاصة، وإلى الحياة الجارية حوله عامة بموازين القرآن؛ سيرًا في طريق تجديد بناء الأمة، واستئناف حياتها من جديد [1].

تلك غايتنا، والله ولينا، عليه وحده - جلَّ وعلا - توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وكتبه عبد ربه راجي عفوه وغفرانه:

فريد بن الحسن الأنصاري

الخزرجي عفا الله عنه، وغفر له ولوالديه ولسائر المسلمين، آمين.

وكان تمام تصنيفه وتنقيحه - بحمد الله - في صورته الجديدة،

بمستشفى « سماء » في إسطنبول العامرة حرسها الله،

يوم السبت: (٢٦ ربيع الثاني ١٤٢٩هـ -

الموافق لثالث ماي ٢٠٠٨م).

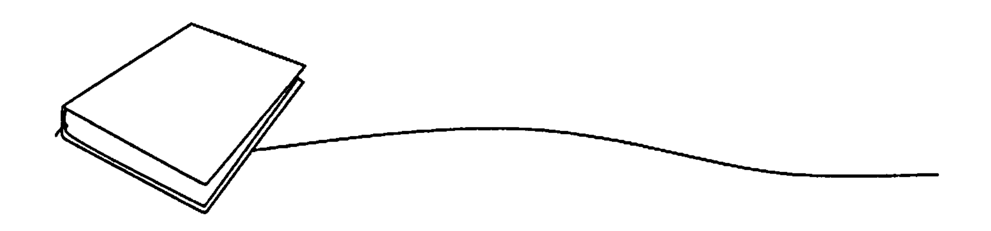
* * *

---

(١) فصلنا بيان ذلك فيما عرضناه بتمهيد المدارسات من القسم الثاني من هذا الكتاب.



القسم الأول: مدخل إلى مجالس القرآن



حاجتنا إلى القرآن العظيم

مَن أنت؟

أنا، وأنت!.. ذلك هو السؤال الذي قلما ننتبه إليه، والعادة أن الإنسان يحب أن يعرف كل شيء مما يدور حوله في هذه الحياة، فيسأل عن هذه وتلك، إلا سؤالًا واحدًا لا يخطر بباله إلا نادرًا، هو: من أنا؟ نعم، فهل سألت يومًا نفسك عن نفسك: مَن أنت؟

ولعل أهم الأسباب في إبعاد ذلك وإهماله يرجع في الغالب إلى معطى وهمي؛ إذ نظن أننا نُعرف أنفسنا فلا حاجة إلى السؤال! تغرنا إجابات الانتماء إلى الأنساب والألقاب، وتنحرف بنا عن طلب معرفة النفس الكامنة بين أضلعنا، التي هي حقيقة (مَن أنا؟) و (مَن أنت؟) ويتم إجهاض السؤال في عالم الخواطر؛ وبذلك يبقى الإنسان أجهل الخلق بنفسه، فليس دون الأرواح إلا الأشباح.

ولو أنك سألت نفسك بعقلك المجرد: مَن أنت؟ سؤالًا عن حقيقتها الوجودية الكاملة؛ لما ظفرت بجواب يشفي الغليل وإذن تدخل في بحر من الحيرة الوجودية.

أنا وأنت، تلك قصة الإنسان منذ بدء الخلق إلى يوم الناس هذا.. إلى آخر مشهد من فصول الحياة في رحلة هذه الأرض، وهي قصة مثيرة ومريرة.

ولذلك أساسًا كانت رسالةُ القرآن هي رسالة اللّٰه إلى الإنسان؛ لتعريفه بنفسه عسى أن يبدأ السير في طريق المعرفة باللّٰه؛ إذ معرفة النفس هي أول مدارج التعرف إلى اللّٰه. وليس صدفة أن يكون أول ما نزل من القرآن: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ١، ٢]. ثم تواتر التعريف بالإنسان - بَعْدُ - في القرآن، في غير ما آية وسورة، من مثل قوله سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١ - ٣] وكذلك آيات السيماء الوجودية للإنسان، الضاربة في عمق الغيب، من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٦ - ٩].

ومن هنا أساسًا كانت قضية الشيطان - بما هو عدو للإنسان - هي إضلاله عن معالم الطريق، في سيره إلى ربه؛ بدءًا بإتلاف العلامات والخصائص المعرفة بنفسه، والكاشفة له عن حقيقة هويته، وطبيعة وجوده حتى إذا انقطعت السبل بينه وبين ربه ألَّه نفسه، وتمرد على خالقه!

ولم يزل الإنسان في قصة الحياة يضطرب بين تمرد وخضوع، في صراع أبدي بين الحق والباطل إلى الآن! فكانت لقصته تلك عبر التاريخ مشاهدُ وفصول، وكانت له مع الشيطان ومعسكره معاركُ ضارية، فيها كر وفر، وإقبال وإدبار.

قال ﷻ حكايةً عن إبليس: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢ - ٦٥].

من أجل ذلك كان للإنسان في كل زمان قصةٌ مع القرآن، وقصةٌ مع الشيطان.

فيا حسرة عليك أيها الإنسان! هذا عمرك الفاني يتناثر كل يوم، لحظةً فلحظة، كأوراق الخريف المتهاوية على الثرى تَتْرَى، أُرْقُبْ غروبَ الشمس كل يوم؛ لتدرك كيف أن الأرض تجري بك بسرعة هائلة؛ لتلقيك عن كاهلها بقوة عند محطتك الأخيرة! فإذا بك بعد حياة صاخبة جزءٌ حقير من ترابها وقمامتها! وتمضي الأرض

في ركضها لا تبالي.. تمضي جادةً غير لاهية - كما أُمِرتْ - إلى موعدها الأخير، فكيف تحل لغز الحياة والموت؟ وكيف تفسر طلسم الوجود الذي أنت جزء منه ولكنك تجهله؟ كيف وها قد ضاعتْ الكتب كلها؟ ولم يبق بين يديك سوى هذا (الكتاب).

فأين تجد الهداية إذن يا ابن آدم؟ وأنى تجدها إن لم تجدها في القرآن؟ وأين تدرك السكينة إن لم تدركها في آياته المنصوبة - لكل نفس في نفسها - علامات ومبشرات في الطريق إلى الله؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

نعم، بقي القرآن العظيم إعجازًا أبديًا، يحيي الموتى، ويبرئ المرضى، ويقصم قلوب الجبابرة، ويرفع هامات المستضعفين في العالمين، ويحول مجرى التاريخ وكل ذلك كان - عندما كان - بالقرآن، وبالقرآن فقط وهو به يكون الآن، وبه يكون كلما حل الإبّان من موعد التاريخ، ودورة الزمان، على يد أي كان من الناس، بشرط أن يأخذه برسالته، ويتلوه حق تلاوته، وتلك هي القضية.

ماذا حدث لهؤلاء المسلمين؟ أين عقولهم؟ أين قلوبهم؟ أليس ذلك هو القرآن؟ أليس ذلك هو كلام الله؟ أليس الله رب العالمين؟ أليس الخلق - كل الخلق - عبيده طوعًا أو كرهًا؟ ففيم التردد والاضطراب إذن؟ لماذا لا ينطلق المسلم المعاصر يشق الظلمات بنور الوحي الساطع، الخارق للأنفس والآفاق؟

ألم يقل الله في القرآن عن القرآن، بالنص الواضح القاطع: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾؟ [الحشر: ٢١]. فهل هذه خاصية ماتت بموت محمد رسول الله؟ أم أن معجزة القرآن باقية بكل خصائصها إلى يوم القيامة؟ ورغم أن الجواب هو من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة لكل مسلم؛ فإن رسول الله ﷺ يلقي البشرى إلى هذه الأمة، نورًا من الأمل الساطع الممتد إلى الأبد؛ فقد دخل - عليه الصلاة والسلام - المسجد يومًا على أصحابه ثم قال: « أبشروا.. أبشروا..! **أليس تشهدون**

ألَّا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه؟ » قالوا: بلى، قال: « **فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد اللَّه، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا** » (١) ومثله أيضًا قوله ﷺ بصيغة أخرى: « **كتاب اللَّه هو حبل اللَّه الممدود من السماء إلى الأرض** » (٢) . تلك حقيقة القرآن الخالدة، ولكن أين من يمد يده؟

ألم يأن للمسلمين - وأهل الشأن الدعوي منهم خاصة - أن يلتفتوا إلى هذا القرآن؟ عجبًا! ما الذي أصم هذا الإنسان عن سماع كلمات الرحمن؟ وما الذي أعماه عن مشاهدة جماله المتجلي عبر هذه الآيات العلامات؟ أليس اللَّه - جل ثناؤه - هو خالق هذا الكون الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؟ أليس هو - جل وعلا - رب كل شيء ومليكه؟ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ أوليس اللَّه هو مالك الملك والملكوت؟ ذو العزة والجبروت؟ لا شيء يكون إلا بأمره، ولا شيء يكون إلا بعلمه وإذنه! أوَليس الخلق كلهم أجمعون مقهورين تحت إرادته وسلطانه؟ فمن ذا قدير على إيقاف دوران الأرض؟ ومَن ذا قدير على تغيير نظم الأفلاك في السماء؟ من بعد ما سوَّاها اللَّه على قدر موزون ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] ومن ذا مِنَ الشيوخ المعمرين قدير على دفع الهرم إذا دبَّ إلى جسده؟ أو منع الوهن أن ينخر عظمه، ويجعد جلده؟ ويحاول الإنسان أن يصارع الهرم والموت! ولكن هيهات! هيهات!

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

الموت والفناء هو اليقينية الكونية المشتركة بين جميع الخلق، كافرهم ومؤمنهم

يولد الإنسان يومًا ما.. وبمجرد التقاط نفسه الأول من هواء الدنيا يبدأ عمره في عدٍّ عَكْسِي نحو موعد الرحيل..! فكان البدء هو آية الختام، هكذا يولد الإنسان

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٧١٣). نشر مكتبة المعارف بالرياض، لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد. طبعة جديدة بتاريخ: (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

(٢) رواه الطبري في تفسيره: (٣١/٤)، نشر دار الفكر، بيروت، لبنان: (١٤٠٥هـ). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٤٤٧٣).

وبعد ومضة من زمن الأرض تكون وفاته ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

ذلك هو الله رب العالمين، يرسل رسالته إلى هذا الإنسان العبد، فيكلمه وحيًا بهذا القرآن، ويأبى أكثر الناس إلا تمردًا وكفورًا، فوَا أسفاه على هذا الإنسان! ويا عجبًا من أمر هؤلاء المسلمين! كأن الكتاب لا يعنيهم، وكأن الرسول لم يكن فيهم ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠].

إن هذا القرآن هو الروح الذي نفخه الله في عرب الجاهلية؛ فأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس، وانبعثوا بروح القرآن من رماد الموت الحضاري؛ طيورًا حية تحلق في الآفاق، وخرجوا من ظلمات الجهل ومتاهات العمى أدِلَّاء على الله، يبصرون بنور الله ويُبصِّرون العالم الضال حقائق الحياة ذلك هو سر القرآن، الروح الرباني العظيم، لا يزال هو هو روحًا ينفخ الحياة في الموتى من النفوس والمجتمعات؛ فتحيا من جديد وتلك حقيقة من أضخم حقائق القرآن المجيد، قال جل ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

مَن أنت؟ تلك قصة النبأ العظيم، نبأ الوجود الضخم الرهيب، من البدء إلى المصير، النبأ الذي جاءت به النُّذُرُ من الآيات: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٧]. وقريبا جدًّا - واحسرتاه! - تنفجر به الأرض والسماوات! ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ذلكم هو النذير القرآني الرهيب، ولقد أعذر من أنذر، وما بقي لمن بلغه النبأ العظيم من محيص؛ إلا أن يتحمل مسؤوليته الوجودية، ويتخذ القرار، قرارًا واحدًا من بين احتمالين اثنين، لا ثالث لهما: النور أو العَمَى وما أنزل الله القرآن إذْ أنزله إلا لهذا، ولقد صرَّفه على مدى ثلاث وعشرين سنة؛ آيةً آيةً، كل آية في ذاتها هي بصيرة للمستبصرين، الذين شَاقهم نور الحق فبحثوا عنه رغبًا ورَهبًا؛ عسى أن يكونوا من

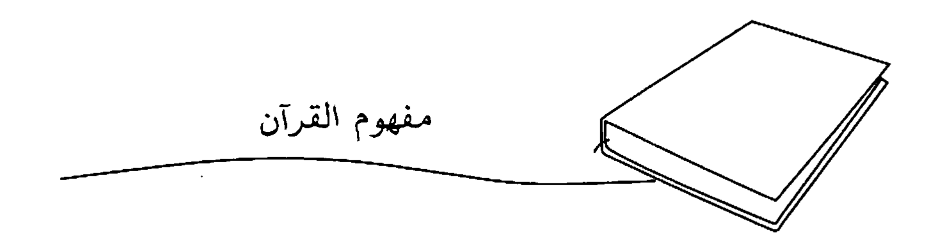
المهتدين. وبقي القرآن بهذا التحدي الاستبصاري يخاطب العُمْي من كل جيل بشري قال الحقُّ جل وعلا: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

من أجل ذلك؛ نرجع آيبين إلى رسالة اللَّه، نقرؤها من جديد، نستغفره تعالى على ما فرطنا وقصرنا، قدوتنا في هذه السبيل رسول اللَّه ﷺ بسنته الزكية، التي لم تكن في كل تجلياتها النبوية - قولًا وفعلًا وتقريرًا - إلا تفسيرًا للقرآن العظيم، وكفى بكلمة عائشة أم المؤمنين، في وصفه - عليه الصلاة والسلام - لما سئلت عن خلقه ﷺ؛ فقالت بعبارتها الجامعة المانعة: « كان خلُقُه القرآن »[1] ولقد ضلَّ وخاب من عزل السنة عن الكتاب.

نرجع إذن إلى القرآن، نحمل رسالته إن شاء اللَّه - كما أمر اللَّه - نخوض بها تحديات العصر، يحدونا اليقين التام بأن لا إصلاح إلا بالصلاح وأن لا ربانية إلا بالجمع بينهما، وأن لا إمكان لكل ذلك - صلاحًا وإصلاحًا وربانيةً - إلا بالقرآن المجيد، وهو قول الحق - جل ثناؤه - في آية عجيبة، آية ذات علامات - لمن يقرأ العلامات - ولكل علامة هدايات. قال تعالى ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] التمسيك بالكتاب، وإقام الصلاة: أمران كفيلان برفع المسلم إلى منزلة المصلحين هكذا: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾. وإن تلك لآية ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. وقد قُرِئَتْ: (تعلمون الكتب) و ﴿ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ للجمع بين وظيفتي التعلم والتعليم، والصلاح والإصلاح؛ إذ بذلك يكون التدارس لآيات القرآن العظيم، بما هي علامات دالة على اللَّه، وراسمة لطريق التعرف إليه جل وعلا، في الأنفس والآفاق. وتلك هي السبيل الأساس للربانية، كما هو واضح من دلالة الحصر المستفادة من الاستدراك في الآية: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾.

* * *

(١) رواه مسلم.



ولنسأل الآن: ما القرآن؟

ما هذا الكتاب الذي هز العالم كله؟ بل الكون كله؟

أجمع العلماء في تعريفهم للقرآن على أنه (كلام اللَّه)، واختلفوا بعد ذلك في خصائص التعريف ولوازمه، ولا نقول في ذلك إلا بما قال به أهل الحق من السلف الصالح. وإنما المهم عندنا الآن هاهنا بيان هذا الأصل المجمع عليه بين المسلمين: (القرآن كلام اللَّه). هذه حقيقة عظمى، ولكن لو تدبرت قليلًا..

اللَّه ﷻ خالق الكون كله.. هل تستطيع أن تستوعب بخيالك امتداد هذا الكون في الآفاق؟ طبعًا لا أحد له القدرة على ذلك إلا خالق الكون سبحانه وتعالى. فالامتداد الذي ينتشر عبر الكون مجهول الحدود، مستحيل الحصر على العقل البشري المحدود. هذه الأرض وأسرارها، وتلك الفضاءات وطبقاتها، وتلك النجوم والكواكب وأفلاكها، وتلك السماء وأبراجها، ثم تلك السماوات السبع وأطباقها... إنه لضرب في غيب رهيب لا تحصره ولا ملايين السنوات الضوئية. أين أنت الآن؟ اسأل نفسك.. أنت هنا في ذرة صغيرة جدًّا، تائهة في فضاء السماء الدنيا: الأرض. وربك الذي خلقك، وخلق كل شيء، هو محيط بكل شيء قدرةً وعلمًا.. هذا الرب الجليل العظيم، قدَّر برحمته أن يكلمك أنت، أيها الإنسان؛ فكلمك بالقرآن.. كلام اللَّه رب العالمين. أوَ تدري ما تسمع؟ اللَّه ذو الجلال رب الكون يكلمك ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٣]. أي وجدان، وأي قلب؛ يتدبر هذه الحقيقة العظمى فلا يخر ساجدًا للَّه الواحد القهار رغبًا ورهبًا؟ اللَّهم إلا إذا كان صخرًا أو حجرًا. كيف وها الصخر

والحجر من أخشع الخلق لله؟! ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١] وهي أمثال حقيقة لا مجاز، ألم تقرأ قول الله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

كلام الله هو كلام رب الكون، وإذا تكلم سبحانه تكلم من عَل: أي من فوق؛ لأنه العلي العظيم ﷻ، فوق كل شيء، محيط بكل شيء علمًا وقدرةً. إنه رب الكون.. فتدبر: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٤]. ومن هنا جاء القرآن محيطًا بالكون كله، متحدثًا عن كثير من عجائبه. قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٢]. سبحانك ربنا ولا بأي من آياتك نكذب.

ذلك هو القرآن.. كلام من أحاط بمواقع النجوم خلقًا، وأمرًا، وعلمًا، وقدرةً، وإبداعًا. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على محمد ﷺ، من بعدما هيأه لذلك، وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]. ومن هنا لما كذب الكفار بالقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم، وقصور إدراكهم، وضعف بصرهم، عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٥، ٦]. وإنه لرد عميق جدًّا. ومن هنا جاء متحدثًا عن كثير من السر في السماوات والأرض. قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]. وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤].

فليس عجبًا أن يكون تالي القرآن متصلًا ببحر الغيب، ومأجورًا بميزان الغيب، بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والحرف إنما هو وحدة صوتية لا معنى لها في اللغة، نعم في اللغة، أما في القرآن فالحرف له معنى، ليس بالمعنى الباطني المنحرف، ولكن بالمعنى الرباني المستقيم. أوَليس هذا الحرف القرآني قد تكلم به اللّٰه؟ إذن يكفيه ذلك دلالة وأي دلالة! ويكفيه ذلك عظمة وأي عظمة! فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **من قرأ حرفًا من كتاب اللّٰه فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول « ألم » حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف** » [١].

ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده اللّٰه إياه، من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حلل الجمال. قال رسول اللّٰه ﷺ: « **يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ ورتِّلْ كما كنت ترتل في دار الدنيا؛ فإن منـزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها!** » [٢] وقال أيضا: « **يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حَلِّه فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زِدْهُ فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه، فيقول: اقرأ، وارقَ ويُزَادُ بكل آية حسنة** » [٣] ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤].

إنه تعالى تكلم، وهو ﷻ متكلم، سميع، بصير، عليم، خبير، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، نثبتها كما أثبتها السلف، بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه. لقد تكلم ﷻ، وكان القرآن من كلامه الذي خص به هذه الأمة المشرفة، أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – فكان صلة بين العباد وربهم، صلة متينة، مثل الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، طرفه الأعلى بيد اللّٰه، وطرفه الأدنى بيد من أخذ به من الصالحين.

قال – عليه الصلاة والسلام – في خصوص هذا المعنى، من حديث سبق: « **كتاب اللّٰه هو حبل اللّٰه الممدود من السماء إلى الأرض** » [٤] وقال في مثل ذلك

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. انظر سنن الترمذي، (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر) . كما رواه الحاكم أيضًا في المستدرك.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٨١٢٢).

(٣) رواه الترمذي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٨٠٣٠).

(٤) سبق تخريجه.

أيضًا: « **أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبدًا** »[١]. وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضًا فيها زيادة ألطف، قال ﷺ: « **أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟** » قالوا: بلى، قال: « **فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا** »[٢].

هي الرسالة وصلت من رب العالمين إليك أيها الإنسان، فاحذر أن تظنك غير معني بها في خاصة نفسك، أو أنك واحد من ملايين البشر، لا يُدْرَى لك موقع من بينهم، كلا! كلا! إنه خطاب رب الكون، فيه كل خصائص الكلام الرباني، من كمال وجلال، أعني أن الله يخاطب به الكل والجزء في وقت واحد، ويحصي شعور الفرد والجماعة في وقت واحد، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩] سبحانه ﷻ ، لا يشغله هذا عن ذاك، وإلا فما معنى الربوبية وكمالها؟ تمامًا كما أنه قدير على إجابة كل داعٍ، وكل مستغيث، من جميع أصناف الخلق، فوق الأرض وتحت الأرض، وفي لجج البحر، وتحت طبقاته، وفي مدارات السماء... إلخ. كل ذلك في وقت واحد - وهو تعالى فوق الزمان والمكان - لا يشغله شيء عن شيء، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فبذلك المنطق نفسه أنت إذ تقرأ القرآن تجد أنه يخاطبك أنت بالذات، وكأنه لا يخاطب أحدًا سواك. احذر أن تخطئ هذا المعنى.. تذكر أنه كلام الله، وتدبر.. ثم أبصر.

قال ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].. فتدبر.

ذلك هو القرآن: الكتاب الكوني العظيم، اقرأه وتدبر، فوراء كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار السماوات والأرض، وحقيقة من حقائق الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرهًا نحو نهايتها. فتدبر.. إن فيه كل ما تريد. ألست تريد

---

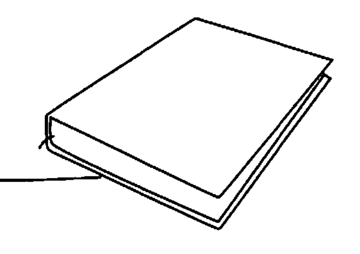
(١) رواه الطبراني بإسناد صحيح. وهو في صحيح الجامع الصغير: (٣٤).

(٢) سبق تخريجه.

أن تكون من أهل اللَّه؟ إذن عليك بالقرآن، اجعله صاحبك ورفيقك طول حياتك؛ تكن من (أهل اللَّه) كما في التعبير النبوي الصحيح. قال عليه الصلاة والسلام: « **إن للَّه تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن هم أهل اللَّه، وخاصته** » [١].

* * *

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢١٦٥).



القرآن العظيم وقضية الأمة
(كلمات اللّه في معركة السلام!)

لا تحرير للأمة اليوم في معركة هذا العصر إلا بالقرآن؛ لأن طبيعة المعركة الجديدة قائمة على « الكلمة » والقرآن العظيم هو الكلام القاهر فوق كل كلام.

ولكن بعد أن نفهم السؤال الإشكالي: ما حقيقة « الكلمة »؟ وما دورها في معركة العصر الجديدة؟

إن « الكلام » ليس « قولًا » وحسب؛ إذ « القول » دال على كل ملفوظ، سواء أفاد معنى أم لم يفده، كما هو معلوم من تعريفات النحاة، بينما « الكلام » لا يكون إلا لفظًا مفيدًا لمقصودٍ مرادٍ للمتكلم، سواء أفاد خيرًا أم أفاد شرًّا على وزان قول ابن مالك:

كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ!

ومن هنا ننطلق من هذا التقعيد النحوي المدرسي البسيط؛ لنجزم بعد ذلك بأن الكلام - على هذا المعنى المؤصل في قواعد العربية - لا يكون إلا فعلًا جاريًا في الواقع، وحدثًا جالبًا لأثرٍ في التاريخ. إن الكلمة - أي كلمة - إنما هي فعل من الأفعال، هذا على المستوى الوجودي. وتأمل كيف أن الخطاب مهما يصدر من منتجه فإنه لا بد يؤثر في الواقع ولو على المستوى النفسي ابتداءً، ثم يكون له بعد ذلك أثر فعلي. وأقل الأثر أن يعود على صاحبه بالخير أو بالشر. ولا يتصور في الواقع والعادة الجارية في الخلق كلام بلا أثر مطلقًا البتة، وهذا يبدأ من مستوى الخلق والإنشاء والتكوين، مما ينسب إلى اللّه ﷻ من الأفعال والأقدار، إلى مستوى الفعل الإنساني والإنجاز البشري في الواقع والتاريخ.

فمثال الأول: قول اللَّه تعالى فيما عرَّف به حقيقةَ نبيه عيسى ﷺ، واصفًا إياه بأنه (كَلِمَتُهُ!) قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١]. فكان عيسى هاهنا هو (كلمة اللَّه) جل علاه، أي أنه راجع إلى أمره القدري التكويني. إنه إذن خَلْقُ اللَّه؛ لأن « الكلمة » راجعة إلى فعله تعالى المتعلق بتدبير شؤون الربوبية؛ خلقًا وتقديرًا وقيُّوميَّةً. وهذا المعنى شامل في كل خلق أو تصرف إلهي، وفي كل قضاء وقدر. لا شيء من ذلك كله يخرج عن (كلمة اللَّه) [1] . ومما يدل عليه أيضًا أن « الكلمة » في القرآن أمرٌ واقعٌ حتمًا؛ قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]، وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٦]. ومثل هذا في القرآن كثير لمن شاء أن يتتبعه. فكل ذلك ونحوه مما تضمن ضميمة (كلمة ربك) دال على معاني الخلق والإنشاء والتكوين والتصيير، وسائر أفعال القضاء والقدر الإلهيين. وليست « الكلمة » قولًا يقال لمجرد القول وكفى؛ بل هي إنجاز حتمي لا يتخلف توقيعه أبدًا، فمتى قيلت « الكلمة » – بهذا السياق – كان معناه أنها فُعِلَتْ، ومن هنا لم تخرج « كلمة اللَّه » عمومًا عن معنى فعل اللَّه جلَّ وعلا، وهو ﷻ لا يخلف القول ولا الميعاد.

ومثال الثاني: قول اللَّه تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. فالأسماء – مهما اختلف في تفسير معناها – فإنه لا اختلاف في أنها « كلام » بالمعنى الشرعي والوجودي للكلمة، ولا يمكن أبدًا أن تتصور « الأسماء » على أنها لغو أو عبث، فهي أساس الناطقية التي فُطر عليها الإنسان، والتي تشكل جوهرًا أساسيًا من ماهيته الوجودية، ووظيفته الكونية، والتي كانت – بعد ذلك – أساس الاستخلاف له في الأرض، ومثلها قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]. ومن هنا كانت مسؤوليته عما يتكلم به كبيرة جدًّا! وهي مسؤولية لا تخرج عن عموم الأمانة التي أنيطت بالإنسان في قول اللَّه جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ

---

(١) سيأتي بسط أوضح لهذا المعنى بعد قليل إن شاء اللَّه.

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فالكلام البشري كله محصيٌّ عليه كَلِمَةً كَلِمَةً، يستوي في ذلك إنشاؤه وخبره؛ لأنه كله يوزن بميزان التحقيق بين الصدق والكذب.

وعليه؛ فتعريف البلاغيين « الخبر » في الدرس البلاغي بأنه: (ما احتمل الصدق والكذب) - بزعمهم - تعريف غير مانع أبدًا، بالمعنى الوجودي لكلمة (خبر)، لا بالمعنى اللغوي العادي، فتعاريف البلاغيين راجعة إلى موازين المنطق الأرسطي الصوري، وقد عُلِمَ ما فيه من خلل منهجي في تحديد المفاهيم والتصورات؛ إذ هو قائم على تحديد الماهيات بحدود عقليات خاضعة لمنطق العقل المجرد عن معطيات الوحي، ولا يمكن لمثل تلك الموازين إلا أن تكون « صورية » فعلًا كما عبروا هم أنفسهم، فإلى أي حد تطابق الصورة الحقيقة؟ تلك هي المشكلة، ومن هنا فحد (الخبر) عندهم هو وإن جمع المقصود فإنه لا يمنع دخول غيره فيه، أي معنى « الإنشاء » ، أرأيت لو أن شخصًا نادى غيره، أو أمره، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك؛ ألا يكون كاذبًا؟ بلى واللَّه؛ فإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأن الـمُنادِي، أو الداعي، أو النادب، أو المستغيث، أو الآمر، أو الناهي.. إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء؛ كل ذلك إذا لم يصادف إرادةً في نفس المتكلم وقصدًا فهو كذبٌ محض، فالإنشاء إذن بهذا - المعنى الوجودي - يحتمل الصدق والكذب أيضًا. وهل يتوجع المتوجع لغير وجع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فَزَع؟ فإن قصد به معنًى آخر من مجاز وغيره، كان ذلك المعنى الجديد المعدول إليه هو أساس الصدق والكذب بعد ذلك، وإنما العبرة بالخطاب قصدُ المتكلم وإرادته، فلا شيء من الإنشاء إلا وهو يحتمل الصدق والكذب أيضًا.

وأزعم أنه لا شيء من الكلام الطبيعي للإنسان إلا وهو يحتملهما، ومن هنا قول اللَّه تعالى الجامع لكل ذلك: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. ويدخل في ذلك قطعًا كل ما تلفظوا به من قول،

كما ستراه بدليله بحول اللَّه تعالى [١] .

ولذلك فقد نال اللسان الحظ الأوفر في الاعتبار في أحكام الشريعة؛ فكانت العقود كلها - سواء كانت عقود الإيمان والإسلام، من بيعة شرعية، أو تعهد ومعاهدة، أو نكاح أو طلاق، أو كانت من المصارفات المالية من بيوع، وإجارات، وأكرية، وغير ذلك مما يمكن أن يتصوره الذهن - كلها إنما هي عند التحقيق « كلام » وليست مجرد لعب أو لهو من الأقوال؛ لأنها قائمة على معنى « مفيد »، أي مقصود مراد للمتخاطبين؛ بما فيها من إيجاب وقبول، وما جرى مجراهما من معاني التراضي والإقرار. ومن هنا قول اللَّه تعالى في محكم كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]. وقوله سبحانه في سياق بيان أن الإنسان محاسب على كل ما يصدر منه من الأقوال، مما أوردناه قبل قليل: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. وفي الحديث: « **وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم** » [٢] وقوله ﷺ أيضًا: « **إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه، لا يلقي لها بالاً؛ يرفعه اللَّه بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه، لا يلقي لها بالاً؛ يهوي بها في جهنم** » [٣] . ومن ثَمَّ لم يكن جِدُّ رسول اللَّه ولا مزاحه ﷺ إلا حقًّا وصدقًا ولم يكن فيه كذب قط حاشاه عليه الصلاة والسلام.

إن الكلام مؤثر جدًّا في إنتاج الفعل الإنساني بل هو عين الفعل الإنساني ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل بالكلام مباشرةً، أو نتيجةً، أو توجيهًا، أو تفاعلاً وإنما بدء التكليف الإلهي للإنسان كَلِمَةٌ، وآخرُه كَلِمَة، منذ قال له: (كُن فَيَكُون)، إلى أن علَّمَهُ (الأسماءَ كلَّها) إلى أن أنزل عليه (كلامه) : القرآن الكريم.

فالذي لا يعير للكلام - أي كلام - الخطورةَ التي يستحقها فهو جاهل بحقائق

---

(١) قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] هو من العام الذي أريد به الخصوص؛ إذ عُلِمَ في الدين أن القول غير المبني على قصد لا يدخل في دائرة المحصي على ابن آدم؛ ولذلك فالقول المقصود هنا هو الكلام المفيد قصدًا ومعنًى.

(٢) جزء حديث رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري.

الدين وحقائق الوجود معًا، وكثير من العقوبات في الإسلام والحدود والتعازير والآثام ...إلخ؛ إنما ترتبت شرعًا عن مجرد (كلام) يتكلم به الإنسان باطلًا! بدءًا بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة، والنميمة، وعبارات السخرية والتنابز بالألقاب، وهلم جرًّا.

كما أن بدء الخير كله « كلمة ». انطلاقًا من كلمة الإخلاص: (لا إله إلا اللَّه)، وما يتممها من (شهادة أن محمدًا رسول اللَّه)؛ إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان؛ كإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإرشاد السائل... وما بين هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته؛ فإنه جميعا يَؤُولُ - في النهاية - إلى بناء عمران الحياة الإنسانية، القائمة على العدل والسلام؛ لأن ذلك كله هو الذي ينتج فعل الخير بمعناه المطلق، ويحقق غاية الوجود البشري في الأرض. ومن هنا كانت أول نعمة امتن اللَّه بها على الإنسان بعد نعمة الخلق أنه علمه البيان؛ ولذلك كان القرآن بين يديه - وهو كلام اللَّه - الأداة الكلامية الفاعلة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان، فتدبَّر قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٩]. وأول الوزن وزن الكلام، الذي هو حقيقة (البيان) ، فإذا خسر؛ خسرت كل الموازين بعده! بدءًا بموازين السياسة - بمعناها العام - وما تتضمنه من موازين الإدارة والاقتصاد؛ إلى موازين التجارة وسائر المصارفات المالية والاجتماعية، الجزئية والكلية... إلى كل طبائع العمران وتجليات الحضارة البشرية؛ إلى كل ما يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكونية.

إن اللغة تصنع الحياة أو تدمرها، ومن هنا كانت مسؤولية الكلمة في الإسلام جسيمة جدًّا.

والإعلام اليوم هذا الطاغية الذي يسمونه (السلطة الرابعة)! ليس في واقع الأمر إلا السلطة الأولى؛ لأن المتسلط على الخلق، الحاكم أمرهم بالحق أو بالباطل؛ إنما وصل إلى مبتغاه من التسلط والتحكم بالكلمة، فحتى عندما يكون الأسلوب المتبع في التسلط قهريًّا؛ فإنما صنع الطاغية أدوات قهره وتجبره في البداية بالكلمة، ولا شيء

يبدأ قبل الكلمة، فبدء الوجود والخلق والتكوين في القرآن الكريم إنما هو كلمة، إنها كلمتُهُ ﷻ : (كن فيكون!) قال جل شأنه: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨١ - ٨٣].

إن الكلمة هي التي تصنع الصورة وتنتجها، بل هي جوهرها وحقيقتها؛ فلا يغرنك أن الإعلام اليوم صار يرتكز أساسًا على الصورة، فإنما هذه - رغم خطورتها - بنت تلك في نهاية المطاف. ولولا الكلمات لما كانت الصور في الوجود أصلًا، أضف إلى ذلك أن الصورة تُعرض حينما تعرض في العادة الغالبة مسبوقةً بالكلمة، أو مقرونة بها، أو ملحقة بها أو كل ذلك جميعًا، فلا تأتي إذن إلا من خلالها! وحينما نتوهم أننا نتلقى صورًا بغير كلمات، فإنما هي لعبة الكلمة المتخفية خلف الصورة، إنك لا تسمعها، نعم؛ ولكنها تتدفق إلى خواطرك في صمت، وتسكن اعتقادك بقوة، ومن ذا الذي قال إن الكلمة هي الصوت فقط؟ إنما الكلمة « مفهوم » يتواصل به الإنسان عبر اللغة الطبيعية، الصوتية أو الإشارية أو الصورية أو السيميائية، إلى غير ذلك مما في الوجود من رموز وأشكال نصبتْ للدلالة على معنى، كل ذلك كلام!

إن الكلمة هي الوجود وما سواها صُور، ومن هنا ترى عمق الآية الكريمة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]؛ فانظر - في ضوء ذلك - إلى هذا الكلام الإلهي العظيم كم هو فعلًا يضرب في عمق الحقيقة، وإلى أي حد هو يوغل في مجاهيل الوجود.

إن الإعلام اليوم كما كان من قبل في التاريخ - رغم اختلاف الأشكال والتجليات - ليعتبر أخطر وسائل التحكم، وأرهب أدوات الصراع الحضاري، وأقوى آليات التدافع العمراني في الأرض.

إن الطواغيت الذين قهروا الناس في الأرض عبر التاريخ لم يكونوا بشرًا فوق البشر في أبدانهم ولا في عقولهم، ولا كانوا « آلهة » في واقع الأمر، وإنما هم « متكلمون » فقط أسسوا أسطورة من الكلام في أذهان الناس وسحروهم بها،

أو ورثوا رصيدًا كلاميًا عن آبائهم وأجدادهم واستمروا في إنتاجه وتجديده؛ حتى تعيش الأسطورة في شعوبهم إلى الأبد، فكان منهم (ابن الشمس) و (حفيد الرب)، و (وكيل الآلهة)، وغير ذلك من سائر أنواع الكلام مما يدخل في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وما كان طغيان فرعون في الأرض واستذلال أهلها؛ إلا من بعد أن أوهمهم بأنه هو ربهم الأعلى، فلم يكن يريهم إلا ما يرى ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]. ومن هنا لما خالفه قائل الحق من رجاله نطق بقوة فقال، كما حكى اللّه تعالى عنه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]. فكان بذلك مثالًا لكل طغيان وتأله وتجبر ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

إنه قهر القوة والسلطان الباطل، الذي يصنعه - فقط - سحر الكلام، وانظر إن شئت إلى هذا البيان السحري الرهيب الذي ألقاه فرعون على قومه من بعد ما زلزلت عرشَه آياتُ موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٤]. وتأمل جيدًا ما أعقب اللّه به خطاب فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ فهو إنما استخف في الواقع عقولهم.

ولقد قرأتُ قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل به فرعون تنكيلًا، فقطع أيديه وأرجله من خلاف، وألقاه على حافة الطريق، فصادف أن كان الطبيب مارًّا بعربته فوجده يَئِن في الظلام، فلما عرفه رقَّ لحاله وحمله إلى بيته، ثم عالجه من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط

والدفن - على عادة قدماء المصريين - والكاهن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصبغه عليه من رداء الربوبية المزيفة، والألوهية المدعاة، والعظمة المكذوبة، ويذكر من شيمه ما لا قبل للبشر به إذا بالطبيب يجد من بين الحاضرين الرجل الغني الذي نكل به فرعون من قبل، وقطع أيديه وأرجله من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: ما كنتُ أعلم أن فرعون كان إلهًا مقدَّسًا إلى هذا الحد، وكأنما يبكي ندمًا على ما فرَّطَ في جنب فرعون، ولم يكن له من الطائعين ومن عباده الصاغرين.

إن الرصيد الأسطوري الذي كان لدى فرعون مما تركه سدنة الفراعنة هو الذي به حكم كل فرعون في التاريخ مملكته. إنه سحر الكلام، أو قل إنها (سلطة الإعلام)، وليست مفاهيم « الحداثة »، و « حرية المرأة »، و « الديموقراطية الليبيرالية » اليوم، أو « العدالة المطلقة »، و « الشرعية الدولية » ، وما شابهها من مقولات ساحرة؛ إلا وسائط إعلامية أنتجها كهنة العصر الكبار؛ للتمكين للمستكبرين وتحقيق غطرسة المتغطرسين وتمديد ظلمهم العتيد، إن الإنسان لما يتوهم أنه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حرًا؛ يخضع بصورة تلقائية لمن غلبه بهذه الأكذوبة.

إن الأسلحة الفتاكة الرهيبة اليوم، مما استُعملَ ويستعمل في الحروب المعاصرة؛ ما كان لها أن تفعل في الإنسان فعلها؛ لولا أن الفراعنة الجدد سحروا أعين الناس واسترهبوهم، سواء في ذلك جنودهم وضحاياهم جميعًا! فقد سحروا أولئك بما أوهموهم من أنه (عمل صالح) فنفذوه، وسحروا هؤلاء بما أوهموهم من أنه لا طاقة لهم بها، فكان لها ما كان من تأثير وتخدير، ثم تدمير، إنها قوة الكلمة، وإنه سحر الكلام.

من هنا كانت معجزة هذا العصر هي القرآن، القرآن بما يملكه من قوة خارقة في تحرير الإنسان من عبودية الشهوات التي تثقله إلى التراب، وتملي عليه تقديس الحياة الفانية، وتخضعه لمن يهدده بالقتل والتشريد فيها. القرآن بما يملكه من سلطان رباني على النفوس يجعلها تبصر حقيقة أنه: لا إله إلا اللَّه الواحد القهار، حركةً حيةً أبديةً في الكون وفي التاريخ، وأن كل استكبار من دونها هو محض افتراء وهراء، القرآن بما له من خاصية التحويل الوجداني العميق لمسار الإنسان؛ من جرم جزئي ضئيل يدور في فلكٍ قصير من متاع الدنيا الشهواني؛ إلى كائن كوني كبير يدور في فلك

الملكوت الرباني الفسيح، في سيره العظيم إلى اللَّه.. حيث يرى - بعين القرآن واستعلاء الإيمان - كيف أن كيد الشيطان كان ضعيفًا حقَّ ضعيف! وكيف أن المعركة كونية، يقودها اللَّه رب العالمين ويدرك آنئذ أن سباع العولمة الطاغية، التي أرهبت العالم بجيشها وسلاحها؛ مجرد نمور من ورق، متى أُهْرِقَ عليها ماء القرآن ذابت في الطين.

نعم، لا فكاك من أكاذيب الكلام وسحره إلا بجهاد ونضال مستميتين؛ لأن كسر أغلال السحر لا بد فيه من تضحية، ولكن؛ لا وسيلة لذلك كله إلا بإنتاج كلام مضاد لذلك السحر ومغالب له، كلام يصنع رجال القرآن ويعدهم إعدادًا، الرجال الذين يرون الحقائق كما هي في الطبيعة، لا كما يصورها السحرة الكبار في خطاب العولمة المحيط بفضاء المستضعفين إيهامًا وتوهيمًا، ذلك هو الأساس الذي لا يفعل شيء في الوجود إلا به حتى إذا غلبه تمكن من نشر سلطانه عليه وقهره. إنه إذن جهاد المقولات والمفاهيم، في معركة عقدية كبرى بين عقيدة الإسلام وإديولوجيا العولمة العلمانية المتوحشة، معركة رفع فيها (النظام العالمي الجديد) راية كلمة الدجل المضللة، ورفع القرآن فيها راية (كلمة اللَّه). ومن هنا قول اللَّه تعالى في بصيرة عظمى من بصائر الآيات، في سياق الحديث عن حجية القرآن العظيم: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

وبهذا المنطق الصادق الصريح كان القرآن هو الذي يصنع السلام العالمي بحق، إن السلام لن تصنعه غطرسة أمريكا وأحلافها؛ ولا جبروت الكيان الصهيوني، وما ينتجه في العالم كله من خراب ودمار. ما كان للظالم - أبدًا - أن يصنع المحبة والسلام، فالنار لا تنتج إلا اللهيب والدخان، وأدرى الناس بهذه الحقائق هو الظالم نفسه ولكنه سحر الكلام، ودجل الإعلام، يجعل السم القاتل عسلًا شافيًا؛ فيأكله الضحية بيده مختارًا! تمامًا كما أكل آدم الفاكهة المحرمة مختارًا، ذلك هو أسلوب الشيطان، ومنطق الباطل أبدًا عبر التاريخ.

إن السلام العالمي لن يكون إلا وليد النور الإلهي، النور الذي يشرق في قلوب المؤمنين بالخير والجمال؛ بما يسكبه القرآن في وجدانهم، من معاني الحق والعدل والحرية، ودون ذلك معركة يخوضها القرآن بكلماته ضد كلمات الشيطان

وإلا بقيت البشرية اليوم تغص حلاقيمها بفاكهة آدم إلى يوم الدين، والقرآن وحده يكشف شجرة النار ويتلف فاكهتها الملعونة.

إن هذا القرآن كلام غير عادٍ تمامًا، إنه كلام خارق قطعًا، ليس من إنتاج هذه الأرض ولا من إنتاج أهلها، وإن كان عليهم تنزل ومن أجلهم تلي في الأرض. إنه كلام اللَّه رب العالمين الذي قال: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. إنه الكلام الذي لم يملك قَبِيلُ الجن إذ سمعوه إلا أن: ﴿ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠]. وقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢].

إن كلمات هذا القرآن - لو تعلمون - قد تَنَزَّلَتْ من السماء محملة بقوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان؛ لأنها جاءت من عند رب الكون، تحمل الكثير من أسرار الملك والملكوت، وهي جميعها مفاتيح لتلك الأسرار؛ بما فيها من خوارق وبوارق لقوى الروح القادمة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة وتدبر قول اللَّه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦]. إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن يقرأ كلامًا وكفى، تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقًّا ولا هو يعرفه بتاتًا! وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به، ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون فيشاهد من جلال الملكوت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهنالك يتكون ومن هنالك يتزود، فآهٍ ثم آهٍ لو كان هؤلاء المسلمون يعلمون، وصدق اللَّه جل وعلا إذ قال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠] نعم؛ يا حسرة على العباد.

أوليست كلمات اللَّه هي التي امتدت من هذه العبارات التي نتلوها إلى أعمق

مما يمكن أن يتصوره الخيال، وأبعد من أن يحيط به تصور بشري من مجاهيل الوجود؟ ألا تقرأ في كتاب الله ذلك صريحًا رهيبًا؟ فاقرأ إذن: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

فأين ينتهي هذا القرآن إذن؟ إنه لا ينتهي أبدًا، ويحك يا صاح! أليس تعلم أن كلام المتكلم صفة من صفاته؟ ومتى كانت صفات اللّه لها نهاية؟ وهو جلَّ جلالُه، وعَزَّ سلطانُه رب العالمين، المحيط بكل شيء، فكيف إذن بمن تَخَلَّقَ بهذا القرآن وتحقق به في نفسه ووجدانه، وصار جزءًا حقيقيًّا من حركة القرآن في الفعل الوجودي؟ وهذا القرآن تلك صفته وحقيقته؟ أوليس حقًّا قد صار جزءًا من القدر الإلهي، الذي لا يتخلف موعده أبدًا؟ أوَليس قد صار جنديًّا بالفعل من جنود اللّه، ممدودًا بسر ملكوت اللّه في السماء وفي الأرض؟ يحمل وسام النصر المبين من اليقين إلى التمكين، وهذا عربونه بين يديه الآن: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وتدبرْ كيف أن (كلمته) تعالى هي فعله القدري النافذ حتمًا، الواقع أبدًا، ذلك أن كلام اللّه فوق كل كلام، إن كلامه تعالى خلقٌ وتكوين وإنشاء، إنه صنع فعلي للموجودات والكائنات جميعًا.. من المفاهيم إلى الذوات، ومن الذرات إلى المجرات وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣]. إنه - جل وعلا - يأمر العدم فيكون وجودًا، فيكفي أن تتعلق إرادته بوجود الشيء ليوجد بالفعل، وإنما كل فعله تعالى في الخلق والصنع والتكوين مجرد (كلمة)، إنها فعل الأمر: (كن) الآمر بالتكوُّن والتكوين، والتجلي من العدم إلى الوجود.

إن كلماته تعالى لا تذهب سدًى في الكون، إنها بمجرد ما تصدر عنه - جل شأنه - تنشأ عنها ذوات وحركات في تدبير شؤون الملك والملكوت، إن كلامه تعالى إذن خلق وتقدير، وأمر وتدبير! (١) ومن هنا كان وصف اللّه لعيسى عليه السلام -

(١) فانظر كم كان خطأ المعتزلة شنيعًا لما زعموا أن القرآن - وهو كلام اللّه - مخلوق.

كما سبق بيانه - بأنه (كلمة اللَّه): ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١]. وإنما جاء ذلك في سياق الرد على الذين زعموا أنه عليه السلام ابن اللَّه - تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - فقوله (كَلِمَتُهُ) دال على أنه تجلي إرادة اللَّه من الخلق والتكوين، وهو ما بينه تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. ومن هنا كانت البشرى لمريم (كلمةً) كلمة غيرت مجرى التاريخ، وبنتْ صرحًا شامخًا في تاريخ النبوة قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]. فكان المسيح عليه السلام هو الكلمة القضية إذن هي في: (كن فيكون) إنها (كلمة اللَّه) [١].

فكلام اللَّه تعالى هو التعبير عن إرادة الخلق والتكوين، والتعبير عن قضائه الرباني وقَدَرِه الوجودي، وإن هذا القرآن العظيم لهو ترجمانه الأزلي، ودستوره الأبدي.

وعليه؛ فإنك إذ تتخلق بالقرآن وتتحقق بمعانيه؛ تنبعث أنت نفسك جنديًّا من جند اللَّه؛ بل أنت آنئذ جزء من قدر اللَّه، وتدبر كيف جعل اللَّه من أتباع موسى عليه السلام أداة قدرية شق بها البحر! تأمل هذا جيدًا: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠] فاللَّه جل جلاله فرق البحر ببني إسرائيل لما كانوا مؤمنين، ولم تكن عصا موسى إلا أداة للفرق، أما العامل الفاعل - بإذن اللَّه - فإنما هو عزائم الإيمان التي استبطنها كثير من أتباع موسى فكانوا جزءًا من الخارقة نفسها ولم يكونوا غيرها فتأمل: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ هكذا: (بكم) وليس (لَكُمْ) وإن كان معنى هذه متضمَّنًا في الأولى، ولكنَّ القصد بيان أن العبد إذا صار وليًّا للَّه كان أداةً بين يدي اللَّه - سبحانه - في تنفيذ قدره في التاريخ، واقرأ إن شئت ما ورد في الحديث القدسي: « **من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب** » إلى قوله عنه: « **فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٤/١٠٣).

استعاذني لأعيذنه » [(١)] .

ألا يا حسرة على العباد حقًّا! وعلى هؤلاء المسلمين بشكل خاص!

وإذن؛ فإن هذا القرآن لو صرَّفه أهله حركةً في الأرض لكان أقوى من أن تثبت أمامه كلمات الشيطان وسحر الإعلام، بل هو الحق الذي قال فيه الحق ﷻ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. لا طاقة لكهان السياسة ببرهانه، ولا قِبَلَ لدجاجلة الإعلام بسلطانه، ولا ثبات لطاغوت الأرض أمام رجاله ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]. وكيف لا؟ وهو قد جاء بفهرست الوجود كله كيف وقد تنَزَّلَ بديوان الكون كله وإن ذلك لَقولُ الحقِّ جلَّ علاه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال: ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني: ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ وإنما جاءت الآية في سياق الخلق والتكوين لا في سياق التشريع كما توهم بعضهم، فهو شمول أوسع من مجرد الأحكام والحدود بكثير، شمول يسع العمران البشري كله، بل يسع عالم الملك والملكوت بما امتد إليه من غيب مجهول.

إن القرآن عندما يأخذه الذين ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١] يكون بين أيديهم نورًا يبدد ظلمات الضلال، وزلزالًا يخسف بحصون الإفك والدجل أنى كانت، ومهما كانت، واقرأ قصة موسى مع سحرة فرعون فإن فيها دلالة رمزية عظيمة على ما نحن فيه، في خصوص زماننا هذا؛ ذلك أن « كلمة الباطل » كانت تمثلها آنئذ زمزمات السحرة، فتجردوا لحرب كلمة الحق التي جاء بها موسى، وخاضوا المعركة على المنهج نفسه الذي يستعمله الباطل اليوم، إنه منهج التكتلات والأحلاف تمامًا كما تراه اليوم في التكتلات الدولية التي تقودها دول الاستكبار العالمي ضد المسلمين في كل مكان، اقرأ هذه الكلمات مما حكاه اللّٰه عن سحرة فرعون لما قالوا: ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٤].. إنه إجماع على الكيد، كهذا المسمى في السِّحر الإعلامي المعاصر: (بالإجماع الدولي) و (الشرعية الدولية) والمواجهة

---

(١) رواه البخاري.

لا تكون إلا بعد جمع كلمة الأحلاف وصنع الائتلاف؛ لمحاصرة الحق من كل الجوانب الإعلامية والاقتصادية والعسكرية ﴿ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ ﴾ ثم يكون توريط المشاركين وتورطهم في الغزو بصورة جماعية، ولو بصورة رمزية، وذلك للتعبير عن « الصف » في اقتراف الجريمة، فيتفرق دم المسلمين في القبائل قالوا: ﴿ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ وتلك - والله - غاية دول الاستكبار العولمي الجديد، التي يصرح بها تصريحًا: السيطرة على العالم بالقوة، والتحكم في مصادر الخيرات والثروات.

ولكن أين أنت أيها الفتى القرآني؟

أنت هنا.. اقرأ تتمة القصة وتأمل: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٥ - ٦٩]. إن القرآن الذي بين يديك أشد قوة من عصا موسى قطعًا فلا تبتئس بما يلقون اليوم من أحابيل ثقافية وإعلامية وسياسية وعسكرية، لا تبتئس بترسانة النظام العالمي الجديد وآلياته الضخمة، حَذَارِ حَذَارِ! وإنما قل لهم: ﴿ بَلۡ أَلۡقُواْۖ ﴾ .. وَتَلَقَّ عن الله كلماته بقوة، أعني قوله تعالى: ﴿ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ وبادر إلى إلقائها بقوة، كما تلقيتَها بقوة: ﴿ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾ إنَّ كلمات القرآن عندما تُتَلَقَّى بحقها تصنع المعجزات، فإذا أُلْقِيَتْ بقوة أزالت الجبال الرواس، من حصون الباطل وقلاع الاستكبار؛ ولذلك قال الله لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦]. وأمره بعد ذلك أن يجاهد الكفار بالقرآن جهادًا كبيرًا وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥٢]. والمقصود بمجاهدة الكفار بالقرآن: مواجهة الغزو الثقافي والتضليل الإعلامي بمفاهيم القرآن وحقائق القرآن.

إن تلك الثقافة وذلك التضليل هما اللذان يجعلان الشعوب تقبل أن تكون حقولًا لتجريب أحدث أسلحة الدمار والخراب، إن العبد لا يكون عبدًا تحت أقدام الجلاد؛ إلا إذا آمن هو أنه عبد، ووطَّنَ نَفْسَهُ للعبودية مستجيبًا بصورة لا شعورية لإرادة الأقوياء. وذلك هو السحر المبين. والقرآن هو وحده البرهان الكاشف لذلك الهذيان

متى تلقته النفس خرجت بقوة من الظلمات إلى النور.

فيا له من سلطان لو قام له رجال!

إن المشكلة أن الآخرين فعلًا يلقون ما بأيمانهم، فقد ألقوا اليوم (عولمتهم) ، لكننا نحن الذين لا نلقي ما في أيماننا ويقف المشهد - مع الأسف - عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٦، ٦٧] ثم لا يكتمل السياق، وتلك مصيبتنا في هذا العصر.

نعم إن كلمات القرآن - عندما تؤخذ بحقها - تصنع رجالًا لا كأي رجال، إنها تصنع رجالًا ليسوا من طينة الأرض؛ ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه؛ فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسموا بـ (أهل الله وخاصته) وبهذا يتحولون إلى قَدَرِ الله الذي لا يرده شيء في السماء ولا في الأرض فَيُجْرِي الله ﷻ بهم أمره الكوني في التاريخ، أولئك الذين تحققوا بمعية رسول الله ﷺ تَعَلُّمًا وتزكيةً: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

إن كلمات القرآن هي السلاح الأوحد لمواجهة تحديات هذا العصر، إنها تتحدى اليوم - بما تزخر به من قوى غيبية - العالمَ كله فهل من مستجيب أو هل من مبارز؟ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، إنها كلمات تصنع كل ما يدور بخيالك من أسباب القوة والمنعة، من الإنسان إلى السلطان ذلك أنها إذا تفجر نورها ببصيرة العبد المتخلق بالقرآن، المتدبر لآيه العظيم، والمتحقق بحكمه؛ جعل منه هو نفسه سلاحًا يسحق ظلمات العصر ويكشفها كشفًا وبرهانًا يدمغ باطل هذا الوابل الإعلامي الذي يهطل بالمصطحات المغرضة، والمفاهيم المخربة للمخزون الوجداني والثقافي للأمة بما يبني من الوجدان الفردي للإنسان ما لا طاقة لوسائل التدمير المادية والمعنوية معًا -

مهما أوتيت من قوة - على تغييره أو تفتيته، ثم هو - في الوقت نفسه - يبني النسيج الاجتماعي للأمة، ويقويه بما لا يدع فرصة لأي خطاب إعلامي مضاد أن ينال منه ولو جاء بشرِّ الخطاب وأشد الخراب كلمةً وصورةً وحركةً.

إنه القرآن سر الكون ومعجزة القضاء والقدر ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. هذا الرب العظيم - لو أنت تعرفه - إنه يتكلم الآن ويقول لك أنت، نعم أنت بالذات؛ لو أنت تستقبل خطابه: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] فَافْتَحْ صناديق الذخيرة الربانية بفتح قلبك للبلاغ القرآني وكن منهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] إذن تتحول أنت بنفسك إلى خَلْقٍ آخر تمامًا، وتكون من (أهل القرآن) أوَ تدري من هم؟ إنهم (أهل الوعد)! وما أدراك ما (أهل الوعد)؟ إنهم بارقة قدرية من: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ٥] أولئك (أهل اللَّه وخاصته) [1] وأولئك أصحاب ولايته العظمى، الذين ترجم لهم رسول اللَّه ﷺ بقوله فيما يرويه عن اللَّه ذي العظمة والجلال: « **من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب!** » [2] ذلك؛ وكفى.

وليس من مصدر لهم إلا كلمات اللَّه، هي المعمل، وهي الزاد، وهي قوت الحياة، وهي المنهاج، وهي البرنامج، وهي الخطة، وهي الإستراتيجية، وما نستهلك دونها من الكلام إلا ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ.. ﴾ [الأنعام: ١١٢] وليس عبثًا أن العرب لما سمعتها تُتْلَى فزعت فصاحت: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٥]. إنه المنهج نفسه الذي يتعامل به العدو اليوم مع القرآن، وهو الأسلوب المخادع عينه الذي تستعمله كل وسائله الإعلامية، بما فيها تلك الأشد فتكًا وضراوةً: الفضائيات المباشرة الكبرى، وإنه لخطأ كبير ذلك الذي يمارسه بعض المخلصين للإسلام، من بعض دعاته؛ عندما يفتون بتحريم صحون الاستقبال الفضائي،

---

(١) قال ﷺ: « أهل القرآن هم أهل اللَّه، وخاصته » . رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢١٦٥).

(٢) رواه البخاري.

أو بطرد جهاز التلفزيون من البيت أو تكسيره وما كانت محاربة الوسائل حلًّا ناجعًا لدفع البلايا قط في التاريخ، وإنما كان أَوْلى بأولئك أن يدعوا إلى إدخال القرآن إلى البيت، وأن يجاهدوا لجعل تلك الصناديق مجالس قرآنية مفتوحة في كل بيت، إن البيت الذي يسكنه القرآن لا يدخله الشيطان أبدًا.

وكأنما يبدو - عندما أقرأ لبعضهم أو أستمع له، وهو يحرم جهاز التلفزيون، أو يحظر وسائل التلقي الأخرى من الفضائيات إلى الإنترنيت - أننا في حاجة إلى تجديد الثقة بالله أولًا. عجبًا! ومتى كان شيء أمضى من حد القرآن؟ نعم فيا من تلعن الظلام في الظلام! إنما كان يكفيك أن تشعل زر النور فقط أشعله من حرارة قلبك ووجدانك، ومن تباريح إيمانك، أَدْخِلِ القرآنَ إلى البيت بقوة تَرَ بنفسك غطرسة الإعلام - هذا الغول الذي أفزع العالم وثبط عزائمه - تتحطم بين يديك، كما تحطمت من قبل أوهام سحرة فرعون تحت عصا موسى، وتَرَ كيف أن نور القرآن يبتلع حبالهم وعصيهم وَتَرَ بعينك أنهم: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] أدخل القرآن نصًا يُتلى، وآياتٍ تتدارس، وحركةً حيةً تملأ كيان الأسرة كلها، وتعمر وجدانَها، رجالًا ونساءً وأطفالًا! اصنع ذلك تَرَ عَجَبًا.. تَرَ كيف أن الأطفال الصغار - من أسرة القرآن - يتولون هم أنفسهم السخرية من فضائيات الطاغوت الإعلامي، ويركلون خبره وصورته ليرفعوا راية القرآن عاليةً، عاليةً في السماء.

وإن ذلك لعمري هو عين التحدي الذي جاء به هذا القرآن، لمن كان يؤمن حقًّا بالقرآن، وما يزال اليقين الذي يعرض به القرآن خطابه الغلاب يرفع التحدي منذ عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم، بل إلى يوم القيامة إنه يقول لك: أعطني - فقط - فرصة لأخاطب الناس أو بالأحرى: أعط الشعوب فرصة للاستماع لهذا القرآن، قال جل وعلا: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦]. نعم، (ليسمع) فقط! ألا إن هذا لهو عين التحدي؛ ذلك أن كلماته كفيلة بإخراج الحياة متدفقة بقوة من ظلمات الموات، ذلك أنه أقوى حقيقة راسخة في هذا الكون كله؛ ذلك أنه القرآن كلام الله رب العالمين وتلك حقيقة لها قصة أخرى.

فلا غلبة إذن لمن واجهه القرآن المبين، لا غلبة له البتة، وإنما هو من المهزومين بكلمة الحق القاضية عليه بالخسران إلى يوم القيامة ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢]. وقُلْ لِفتَى الإيمان حامل راية القرآن: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. فكل أساطيل الظلمة، وما يمارسونه من غطرسة وتقلب في البلاد من أرض إلى أرض تشريدًا وتقتيلًا.. كله، كله يرتد مذمومًا مخذولًا؛ لو – ويا حسرةً على « لو » هذه! – لو يرفع المسلمون راية القرآن فيكون مصير النفقات والإعدادات الاقتصادية الضخمة التي يحشدونها؛ لإبادة الشعوب المسلمة المستضعفة، والتي تعد بملايين المليارات؛ إلى خسار محتوم، واقرأ هذه الآية الصريحة القاطعة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

لكن الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت، هل أخذنا الكتاب بقوة؟ تَلَقِّيًا وإلقاءً.. وهل حملنا معًا راية التحرير، تحرير ذواتنا نحن المسلمين من هذه الوثنية الجديدة، أو هذا الدِّين الوضعي الجديد: العولمة بأصنامها الثلاثة: **الأول**: صنم الإعلام الممجِّد للشيطان. **والثاني**: صنم التعليم العَلماني، الذي يربي الأجيال على التمرد على الله! وينتج ثقافة الجسد، المقدِّسة للغرائز والشهوات البَهَمِيَّة. **والثالث**: صنم الاقتصاد الاستهلاكي المتوحش! المدمر لكل شيء.

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت هل أخذنا العهد معًا من القرآن على العمل بمفاهيم القرآن، ومقولات القرآن؟ أم أننا لا نزال مترددين؟ نرزح تحت تأثير السِّحْرِ الإعلامي والدجل السياسي، نؤله الأصنام الوهمية التي صنعتها لنا ثقافة الآخر وبرامجه التعليمية، وننبطح متذللين تحت أقدام إغراءات ثقافة الاستهلاك نلتهم كل ما يطعموننا من نجاسات.

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت، فهذا القرآن – عهد الله – يفتح أبواب مجالسه للمؤمنين، الذاكرين، المطمئنين، أهل السيماء النبوية، الركع السُّجَّد، السالكين إلى الله عبر مسالك اليقين! متدرجين بالغدو والآصال، ما بين نداءات الصلوات ومجالس القرآن، مُرتِّلين للآيات، متدارسين ومتعلمين؛ حتى يأتيهم اليقين. تلك مدرسة

القرآن؛ لتحرير الإنسان، وفكِّ إسارهِ العتيد من أغلال الأوثان، ومفاهيم الشيطان.

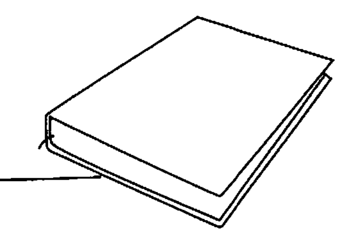
فيا فتية القرآن، ألم يأن لكم أن توحدوا القبلة؟.. فإنما كلمة القرآن عهد أمانكم، لم يزل نورُها يخرق الظلمات إلى يوم الدين: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ثم ألقى اللّه – جل ثناؤه – العهد إلى رسوله محمد بن عبد اللّه ﷺ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧] قرآنًا يتدفق عمرانُهُ الرباني على الأرض، فيملأ العالم أمنًا وسلامًا، ينطلق متدرجًا مثل الفجر؛ من تلاوة الذاكرين الخشَّع إلى صلاة العابدين الرُّكَّع.. ينطلق حركةً قرآنيةً شعارها: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فمن ذا قدير على سماع خطاب اللّه ثم يخلد إلى الأرض، ويرضى أن يكون مع الخوالف ويقعد مع القاعدين؟!.. كيف وذاك عهد اللّه، عهد الأمان؟! فمن ذا يجرؤ على خرق أمانه؟

ويحك يا صاح!.. تلك الأيدي تمتد إلى يد رسول اللّه ﷺ مستجيبة لتوثيق العهد، وهاتيك: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].. إنها مجالس الرضوان، تحت شجرة رسول اللّه ﷺ، تشرق أنوارها الخضراء على زمانك هذا عبر (مجالس القرآن)، مجالس الخير المفتوحة على وجدان كلِّ من ﴿ كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

فاستمع يا صاح.. ذلك نداء اللّه يتنزل عليك، وتلك يد رسول اللّه تمتد إليك ولكن الزمن يتفلت من بين يديك.. فإلى متى أنت لا تمد يدك؟!

* * *



« مجالس القرآن » مفتاح المشروع

منهج تدارس القرآن **بمجالس القرآن** كان لذلك الزمان، وهو لهذا الزمان، منهجٌ دائمٌ متجدد، لا يبلى ولا يتقادم أبدًا؛ لأنه ببساطة هو نفسه منهج القرآن! بلا زيادة ولا نقصان كما سترى بحول اللّه، وإنما القرآن كلام الحق جل علاه وكفى بالقرآن منهجًا لمن كان على نور من ربه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا مشروع « **مجالس القرآن** » : مدرسة شعبية لنشر ثقافة القرآن، وبناء أخلاق القرآن، ودعوة لتداول القرآن في السلوك الفردي والاجتماعي، من خلال الإقبال العام الشعبي على تعلم القرآن، وتدارس القرآن، وفتح « **صالونات القرآن** » داخل الأسر، وبين الأصحاب؛ لتقديم كؤوس الذكر للأهل والأحباب والأقارب والجيران ولا أحلى ولا ألذ من موائد القرآن، ومجالس التدارس الميسّر لسوره وآياته بين يدي الرحمن.

مشروعَ « صالونات القرآن » أو « مجالس القرآن »: مسلك تربوي مبَسَّط؛ لسلوك طريق النور؛ قصد التعرف إلى اللّه مشروعٌ ليس لنا فيه من الاجتهاد إلا الجمع والترتيب، ومراعاة التنزيل في واقع جديد نأخذه كما هو من القرآن والسنة النبوية. مشروع لا منة فيه لأحد، إلا للّه ولا فضل فيه لمبدع أو مخترع، وإنما هو كلام اللّه، ولا انتماء فيه لقائد أو رائد، ولا لتنظيم أو جماعة، بل هو انتساب تعبدي للّه غايته أن نسعى جميعًا - أنا وأنت، ومن شرح اللّهُ صدرَه للقرآن - للاستظلال

بحقيقة مسمًّى: « عبد اللَّه ».

هذا القرآن المجيد أمامك الآن فابحث فيه عن نفسك تجدها مشاركة في بناء « مجالس القرآن » إنه إذن مشروع لا ملكية فيه لأحد، ولا يخضع لأي (ماركة مسجلة)؛ وإنما هو يتوسم ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

دع عنك يا صاحبي الأشكال والألقاب جانبًا ولنطرق باب اللَّه متذللين متواضعين.

« مجالس القرآن » منهج تربوي أسسه محمد رسول اللَّه ﷺ، وانخرط فيه أصحابه عليهم رضوان اللَّه، واستمروا به بعد موته ﷺ؛ مدرسةً تربويةً تخرِّج أفواج التابعين، ولم يزل بعد ذلك نموذجًا مقصودًا - عبر التاريخ - للعلماء العاملين، وللمجددين الربانيين.

« مجالسُ القرآن » عَرْضٌ متجدد لموائد الروح، فهذا القرآن العظيم أمامك الآن! هذا كلام اللَّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا نور الوحي، وطريق الهدى. فاقرأ وافْقَهْ عن اللَّه فهذه السور والآيات تخاطبك أنت بالذات! أنت، نعم أنت! إنها - إن أنصتَّ بصدق - تخاطبك الآن في زمانك هذا، وفي ظروفك هذه ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٣]! استمع إن كنت من المؤمنين باللَّه حقًّا، الراغبين في التلقي عنه تعالى صدقًا.

« مجالسُ القرآن » مشروع ننطلق فيه - كعادتنا - **(من القرآن إلى العمران)** ولنا اليقين أنه منهج كافٍ إن شاء اللَّه - إذا أخذ بشروطه وضوابطه - لبناء النفس المؤمنة في هذا العصر الجديد، وإعادة تشكيلها تربيةً وتزكيةً، ثم بناء النسيج الاجتماعي الإسلامي حضارةً وعمرانًا! وتلك ليست دعوى ندعيها، ولا تمنٍ نتمناه على غير هُدى، كلا وإنما هو منطوق القرآن الحكيم، وحقيقته العمرانية الشاهدة، كما هي في نصه، وكما جربها الإنسان مرارًا في التاريخ؛ وذلك ببساطة لأن القرآن إذا فُعِّلَ في المجتمع صار محركًا يشتغل بنفسه، ومعملًا مبرمجًا من عند اللَّه، يشتغل بصورة تلقائية؛ لتخريج الأجيال وصناعة الأنفس على عين اللَّه ووحيه.

فمجالسُ القرآن: مشروع دعوي تربوي بسيط، سهل التنفيذ والتطبيق، سلس

الانتشار؛ غايته تجديد الدين، وإعادة بناء مفاهيمه في النفس وفي المجتمع.. بعيدًا عن جدل (المتكلمين الجدد) ، وبعيدًا عن تعقيدات التنظيمات والهيئات.. بعيدًا عن الانتماءات السياسية الضيقة، والتصنيفات الحزبية المُربكة.

لكن؛ قريبًا من فضاء القرآن الكريم، بل في بحر جماله النوراني العظيم، وتحت شلال روحه الرباني الكريم.

وانطلاقًا من حلقات المدارسات، وصفوف الصلوات، وحصون المساجد وأفلاك الأوقات؛ سيرًا إلى اللّٰه وحده دون سواه، مخلصين له الدين، راغبين راهبين؛ حتى يأتينا اليقين.

وللدخول في فضاء مجالس القرآن طريقتان أو صورتان، يمكن اعتماد إحداهما أو الجمع بينهما معًا، وهو أفضل:

فأما الأولى فهي صورة (**مجالس القرآن الأسرية**) وتقوم على تأسيس المجلس داخل الأسرة الواحدة. فأنتما أيها الزوجان أو الأبوان، عندما تختل موازين الحياة بينكما داخل البيت، وتضطرب شؤونه، ولا يستقيم بناؤه، فلا تصفو المودة، ولا تخلص المحبة، فهذه وصفة الإيمان جاهزة من صيدلية الرحمن؛ دواء كامل، وشفاء شامل لا يغادر سقمًا: القرآن نعم القرآن. فهل فكرتما في وصفة القرآن؟ إن تِرْيَاق القرآن - للجسم الأسري خاصة - لا يكون بمنهج التلاوة التبركية فقط، بل يكون أساسًا بمنهج التدارس والتدبر الجماعي، كما سنبينه بعدُ بحول اللّٰه. عندما يجتمع الزوجان على آيات بينات من كتاب اللّٰه؛ تلاوةً وتدارسًا وتدبرًا؛ فمعنى ذلك أن القلوب قد انفتحت للتلقي عن اللّٰه، واستعدت أتم الاستعداد لإعادة ترتيب الوجدان على موازين القرآن ومفاهيم القرآن؛ فإذا بالنور ينـزل ليطهر الخواطر من وساوس الشيطان، ويطرد الغشاوة التضليلية عن الأبصار والبصائر، ويعيد بناء الثقة بين الزوجين، على أحسن مما كانت عليه في أي وقت مضى بإطلاق، وجرب تَرَ النتيجة بعينك إن شاء اللّٰه.

قبل هذا وذاك (مجالس القرآن الأسرية) هي لبناء الأسرة على مفاهيم الإسلام، وتكوين الأبناء بمختلف أعمارهم على مواجيد الإيمان، وقيم الدين، والتخلق بجماله وأنواره. إن التربية القائمة على منهج القرآن لهي أيسر الوسائل التربوية، وأضمنها

للوصول بالأبوين أنفسهما والأبناء معهما - داخل الأسرة الواحدة - إلى الاستفادة الفعلية من مقاصد القرآن العالية، والتخلق بأخلاقه الراقية؛ ذلك أن القرآن يربي النفس بصورة تلقائية، لا كلفة فيها ولا تعقيد، بشرط أن يقود الأبوان أنفسُهُما إدارةَ (مجلس القرآن) داخل البيت. فإذن يحصدان نتائج الخير والبركة بإذن اللّه، بما لا يخطر لهما على بال؛ لأن ذلك - ببساطة - هو (منهج الفطرة) ، حيث تنبت القيم والحقائق الإيمانية في أعماق الأنفس؛ تمامًا كما ينبت الزرع في الحقل! وتدبَّرْ حديثَ رسول اللّه ﷺ عن أهمية حضور الأبوين في العملية التربوية. قال عليه الصلاة والسلام: « **كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه** » [1] ومعلوم أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن القرآن هو ديوان الفطرة ومن هنا فليس أقدر من كتاب اللّه تعالى على بناء الأنفس والمجتمعات على الفطرة، أو إعادة بنائها على موازينها، أو ترميمها؛ إذا كان قد حصل فيها انحراف أو ضلال.

وما كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يجعلون أبناءهم وأهليهم بمعزل عن القرآن، بل كانوا يحضرونهم مجالسَه، ويشركونهم موائدَه، ويعيشون معهم لحظات استدرار أنواره، وأوقات التعرض لأسراره. فهذا الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه (كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم) [2].

وكم من أبٍ، أو أمٍّ تعبت وراء السراب؛ بحثًا عن منهج قويم لتربية الأبناء والبنات، فتستغرق ما شاء اللّه من الأيام، في المطالعات للكتب التربوية، والمتابعات للبرامج التلفزيونية والإعلامية، مسائلةً هذا العالم أو ذاك، وقاصدةً الأخصائيين هنا أو هناك؛ للحصول على وصفة تداوي بها انحراف أبنائها وتمرد بناتها، أو تعنت زوجها، وقسوة حماتها... إلخ، حتى إذا قيل لها ما قيل، وكانت النظريات ذات اصطلاح أنيق، والكلمات ذات ألوان وبريق؛ أخذتها فرحة مسرورة كأنما عثرت على كنز ثمين، لكنها عندما تشرع في التطبيق والتجريب لا تجد من مفهوم التربية فيها إلا السراب! وإنما هي كلمات جوفاء، ونظريات خرقاء، لا تُسمن ولا تغني من جوع.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أورده الهيثمي بمجمع الزوائد في (باب الدعاء عند ختم القرآن) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. مجمع الزوائد: الحديث رقم: (١١٧١٣).

وعجبًا لمن يطلب العلاج النفسي، والحل الاجتماعي، في أقصى الدنيا وأبعد الحدود؛ وهذا الشفاء الرباني أقرب إليه من حبل الوريد. القرآن، فهل عرفت – حقيقة – ما معنى القرآن؟ هل حاولت اكتشاف عالم القرآن؟ ذلك هو السؤال المُرُّ! الذي يظن أغلب الناس أنهم على قدرة للإجابة عنه بالإيجاب، ولكن أكثرهم – مع الأسف – أبعد ما يكونون عن الصواب.

وليس كتدارس القرآن وتلاوته شيء أنفع وأجدى – في العالم كله – لتمتين العلاقات الزوجية، ورعاية الطفولة، وتربية الشباب، وإن بيتًا يُتَدارَسُ فيه القرآن ويتلى لَهُوَ بيتٌ لا يسكنه الشيطان أبدًا؛ ولذلك بيانٌ سهلٌ بسيطٌ في هذه الورقات، يأتي بحول اللَّه.

وأما الصورة الثانية من صور الدخول إلى فضاء القرآن؛ فهي صورة: (**صالونات القرآن**). ونقصد بذلك فتح صالون البيت للأحباب والأصحاب؛ من أجل الغاية نفسها، وهي تدارس القرآن الكريم، وتدبره، والإنصات إلى حقائقه وحِكَمِه [1]. وهذا أفضل ما يجتمع عليه الناس من الخير؛ لأن به تتكون الشخصية الإسلامية المتماسكة على المستويين: النفسي والاجتماعي، وبه يحصل « التعارف » بمعناه القرآني الذي يبني الثقة بين الناس؛ قصد التواصل العمراني، وربط العلاقات الاجتماعية، القائمة على التعاطف والتواد والتراحم، مما يعطي للحياة داخل المجتمع الإسلامي معنًى جميلًا. وهو ما بيَّنه رسول اللَّه ﷺ في الحديث النبوي المشهور: « **مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم؛ مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » [2] وما ذاك إلا لما حصل بينهم من « التعارف » على الخير. فالتعارف الذي هو أحد مقومات المجتمع الإسلامي الأساسية، هو منبع وجود « المعروف » الذي هو ضد « المنكر »، ومن هنا قول اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالتعارف – بهذا

(١) لصالونات القرآن أشكال فرعية أخرى، وصور تندرج ضمنها، سنعرض لها بحول اللَّه في أواخر هذا المدخل.

(٢) متفق عليه.

المعنى - وسيلة مهمة جدًّا لبناء التقوى والصلاح داخل المجتمع، بما يتيحه من التنافس في البِر، والتعاون على التقوى.

وأساس ذلك كله إنما هو هذا المفهوم الإسلامي الأصيل؛ لبناء الأخوة الاجتماعية في الإسلام، ألا وهو: (المحبة في اللَّه)؛ ونظرًا لأهمية هذا المعنى في تقوية النسيج الاجتماعي بين الناس؛ فقد حرص الرسول ﷺ على بيان أثره الكبير في ميزان الإيمان والحسنات على نحو ما حكاه - عليه الصلاة والسلام - في قصة المحبة، قال ﷺ: « **خرج رجلٌ يزور أخًا له في اللَّه** ﷻ، **في قرية أخرى، فأرصد اللَّه** ﷻ **بمدرجته** [أي: بطريقه] **ملكًا، فلما مر به قال: أين تريد؟ قال: أريد فلانًا، قال: لِقَرَابَةٍ؟ قال: لا. قال: فلنعمةٍ له عندك تَرُبُّهَا؟ قال: لا. قال: فلم تأتيه؟ قال: إني أحبه في اللَّه. قال: فإني رسولُ اللَّه إليك! إنه يحبك بحبك إياه فيه** »[١]. وفي رواية مسلم: « **قال: فإني رسول اللَّه إليك: بأن اللَّه قد أحبك كما أحببته فيه** » ومن هنا جعل اللَّه المتحابين فيه تعالى تحت ظله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله ﷻ ، وهو ما نص عليه النبي في قوله ﷺ : « **سبعةٌ يظلهم اللَّه في ظله، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابَّا في اللَّه، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل طلبته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه** »[٢] .

في هذا الصنف الرباني الرفيع من العباد إذن؛ يسلك رسول اللَّه ﷺ المتحابين في اللَّه. وما ذاك إلا لِمَا لهذه المحبة من الإخلاص، ولِمَا فيها من الصدق.

وإنما موائد القرآن المقدَّمة في (صالونات القرآن) ، هي الكفيلة - في هذا العصر بشكل خاصٍّ - بتغذية روح التعاطف والتراحم بين المسلمين، وتمتين عمران المحبة العالي بصورة متفردة عجيبة؛ للفوز بأفضل المنازل الإيمانية، وأجمل المعاني الروحانية.

إن مجالس القرآن - بما تصنعه من أخوة صادقة، ومحبة عالية بين الجُلساءِ - لَتُشَكِّلُ شبكةً روحية ذات خطوط عمودية وأخرى أفقية. تتواصل بانسجام فيما بينها أفقيًا، على المستوى الاجتماعي - من جهة - على أدق وألطف ما يكون الانسجام.

---

(١) رواه مسلم، وابن حبان، وأحمد، واللفظ له.

(٢) متفق عليه.

وتمتدُّ - من جهة أخرى - إلى أعلى عموديًّا نحو السماء، موصولة القلوب بحبل اللَّه من المدد الروحي، المتنزل عليها من لدنه تعالى؛ ذِكْرًا في الملأ الأعلى، ورعايةً في الأرض، وتَأَمَّلْ صور هذه الأحاديث التالية تَرَ عجبًا، تَرَ كيف يصوغ القرآن المجيد شبكة الروح الممتدة من المجتمع الإنساني إلى اللَّه رب العالمين! قال رسول اللَّه ﷺ: « **كتاب اللَّه هو حبل اللَّه الممدود من السماء إلى الأرض** » [1] وقال في مثل ذلك أيضًا: (**أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد اللَّه وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبدًا..**) [2] وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضًا فيها زيادة ألطف، قال ﷺ: « **أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفه بيد اللَّه وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا** » [3] فلا ضلال إذن بما وَضَحَ من الطريق السالكة إلى اللَّه، ولا هلكة بما تَمَتَّن من نسيج الأمة وتقَوَّى من عضدها، وما غير منهاج القرآن العظيم بذلك كفيل.

لكن لا بد من بيان أن القرآن لا يشتغل حقيقةً؛ إلا إذا تحرك به قلب العبد المؤمن، نعم واشتعل له وجدانُه وتهيأ كيانُه كلُّه للاشتعال، فالمعاناة الإيمانية النابعة من صدق الإقبال على اللَّه، وشدة الافتقار إليه تعالى؛ هي وحدها الكفيلة بتهيئة النفس وتصفيتها؛ حتى تصلح مرآتها لتعكس أنوار حقائق الإيمان، الكامنة في القرآن، وتستدر أسرار العرفان المكتنزة فيه، إنها هي وحدها تتيح للعبد الصادق تفجير زناد القرآن، وإشعال زيته الوقاد؛ ذلك أن اللَّه جعل قلب العبد المؤمن هو المحرِّك الذي يُشَغِّلُ قاطرة الإيمان، ولا حركة إلا بمحرِّك، فكيف ينطلق النور؟ وكيف يتوهج القرآن؟ وهذا القلب جامد هامد، لا تهب به رياح الأشواق؟

وعليه؛ فإن مجالس القرآن بما تتضمنه من أسرار هذا المنهج، وبما تتيحه من تهييج الشوق إلى اللَّه، وإكْسَابِ القلبِ هذه الصفةَ الحركيةَ الوْجدانية، خصلةً ذاتيةً ومهارةً حيويةً؛ تجعل الجلساء الـمُتحلِّقين بها أشبهَ - فعلًا - ما يكونون بالسُّرُجِ والمصابيح

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الطبراني بإسناد صحيح. وهو في صحيح الجامع الصغير: (٣٤).

(٣) سبق تخريجه.

المعلقة في السماء، تشع بالنور وهي تدور بأفلاكها سيرًا إلى اللَّه.. وذلك بما يَنْقَدِحُ في قلوبهم من نور الإيمان وأسرار القرآن، واقرأ إن شئت - على هذا الوِزَان - آية النور من سورة النور وإنها لآيةٌ وأي آية! فأبْصِرْ..!

قال اللَّه جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

فالآية مَثَلٌ ضربه اللَّه ﷻ للقرآن في قلب العبد المؤمن عندما يتوهج إيمانه، ويَتَّقِدُ وجدانه؛ بما يتدفق عليه من زيت القرآن وهو آياته البينات فذلك: نورٌ على نور! فالمشكاة: هي صدر المؤمن. والمصباح هو: القرآن. والزجاجة هي: قلب المؤمن. فكلما اشتغل العبد بِوَارِدِ القرآن تَوَهَّجَ الإيمان بقلبه واشتعل؛ فتدفق منه النور فهو لذلك كالكوكب الدُّرِّيِّ النابض بالحسن والجمال في علياء السماء، فإلى نحو هذا المعنى ذهب الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله في تفسير الآية؛ نقلًا عن عدد من سلف الصحابة والتابعين، منهم أُبَيّ بن كعب، وابن عباس رضي الله عنهما (١).

وإذا أردت أن تشاهد كيف يفيض نورُ اللَّه على عباده وأوليائه؛ فشاهِدْ قولَ اللَّه جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾! وتَدَبَّرْ أبعادها الكونية العظمى! ثم تابع مشاهد الآية بَعْدُ مُتَسَلْسِلَةً من خلال حديث رسول اللَّه ﷺ كما صح عنه - عليه الصلاة والسلام - في حديثٍ صحيحٍ مليحٍ، تُشَدُّ إليه الرِّحالُ! شعاع من نور اللَّه، يرويه عن رسول اللَّه؛ الصحابيُّ الجليلُ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.. واللَّه ما أحب أن لي به الدنيا وما فيها.. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (قام فينا رسول اللَّه ﷺ بخمس كلماتٍ، فقال: « **إن اللَّه ﷻ لاَ يَنامُ! ولاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ! يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَار قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ!.. لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَات وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ** » (٢) وأيُّ

(١) جامع البيان: (١٨/١٤٠). نشر دار الفكر، بيروت: (١٤٠٥هـ).
(٢) رواه مسلم.

شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ لا يَنْتَهي إليه بَصَرُهُ؟!.. ألا سبحانه! سبحانه! والسُّبُحَاتُ: هي بَهَاءُ النُّورِ وفَيْضُ الحُسْنِ، من الجمال والجلال المتجلي عن ذاته ﷻ [1] فسبحانه وتعالى من رب عظيم! هو النور وحجابه النور.

فعندما يجتمع الجلساء متحلقين بمجالس القرآن، ويشرعون في الاشتغال بكتاب اللَّه جل علاه؛ فإنما هم في الحقيقة يَصِلُونَ أرواحَهم بحبل اللَّه النوراني مباشرةً، ويربطون مصابيح قلوبهم بمصدر النور الأكبر، فإذا بهم يستنيرون بصورة تلقائية، وبقوة لا نظير لها؛ وذلك بما اقتبسوا من نور اللَّه العظيم! وإذا بهم يترقون بِمَعَارِج القرآن ومَدَارِجِه إلى مشاهدة حقائق الإيمان، مشاهدةً لا يُضَامُونَ فيها شيئًا! وما كان للزجاج البلوري إذا أشرقت عليه أنوار الحقائق القرآنية إلا أن يكون مُشعًّا، وذلك هو مَثَلُ أهل الخير المصلحين في الأرض، وَرَثَةِ الأنبياء من الربانيين والصِّدِّيقين.

فلك أن تقول إذن: إن مجالس القرآن وصالوناته - بما ذكرنا لها من إمكانات وخصائص - هي مدارسُ لتخريج مصابيح القرآن في الأمة.

فمن هنا إذن نشرع في بناء عمارة الروح بتصميم « مجالس القرآن »؛ من أجل تجديد الإيمان، وتصفية الوجدان، والسير إلى اللَّه عبر أخصر طريق وأقربه! ومن أجْلِ تداولٍ اجتماعيٍّ للقرآن العظيم، والتزامٍ اجتماعي شامل؛ للمعلوم من مواثيق الدين بالضرورة! عسى أن نسهم في بناء نهضة إسلامية عَمَلِيَّةٍ شاملة، بإذن اللَّه، ما نرى إلا أن إبَّانَها الحضاري قد آن، وأنَّ موسمها الكوني قد حَلَّ بعالم الإنسان، فهذه آمالُها القديمةُ تتمخض اليوم بالفعل لا بالتخمين، عبر آلام كل العالم الإسلامي، تنبت بالُبشرى في كل مكان.

بقيت مسألة واحدة، قد تكون مدخلًا للشيطان - نعوذ باللَّه السميع العليم منه - فيثبط النفس ويثقلها عن المبادرة إلى إنشاء مجالس القرآن؛ وذلك أنه ربما يتسلل إلى الخاطر عبر هذا السؤال: مَن له الأهلية لبناء مجلس قرآني؟ وسرعان ما تتوجه أصابع الاتهام إلى النفس: أنا لست أهلًا؛ وإذن فلننتظر المهدي! ومن هنا فإننا نقول: نعم، العلماء الربانيون أولًا، هم أَوْلى بهذا المشروع من غيرهم، ولكن ليس وحدهم، بل

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/٣).

بعدهم يأتي أهل الخبرة التربوية من الربانيين، وربما كان من هؤلاء من فاق أولئك! خاصة وأن المشروع يشتغل بالمعلوم من الدين بالضرورة، وليس موضوعًا لتخريج الفقهاء والمفتين، فذلك له ميدان آخر غير ما نحن فيه، وإنما مجالس القرآن مجال للصناعة التربوية أساسًا.

وذلك بناءً على يقين حصلناه بالمشاهدة والتجربة: **وهو أن هذا المشروع يصنع أساتِذَتَه**، وهذا سِرٌّ من أسرار القرآن العجيبة، إن مدارسة القرآن العظيم بما هي تعبد محض، وسير قلبي إلى الله؛ إذا أقبل عليها العبد بإخلاص حقيقي فاضت عليه أنوار القرآن وحِكْمَتُه! وكان من شأنه ما كان، من تجليات الروح، وتحصيل التزكية والحِكْمة الربانية، بصورة تلقائية ذاتية، كما سترى مفصلًا بأدلته بَعْدُ بحول الله وتلك لعمري هي أهم خصائص الربانيين، الموكول إليهم تربية الخلق بهذه الأمة، وإنَّ من أسرار الإعجاز في هذا الدين، واستمرار انبعاثه إلى يوم الدين؛ أنَّ تجديده متعلق بسِرٍّ إلهي، يتمثل في فعل من أفعال الله تبارك اسمه؛ إذ يتجلى على بعض عباده من نور إرادته وقدرته، ألا وهو: « البعث »! فتجديد الدين لا يكون إلا « بعثًا »، وإنما « البعث » فعلٌ من قدرة الله وإرادته، لا من فعل الإنسان، وإنما الإنسان فيه مستجيب لإرادة الله، فتَدَبَّرْ بِتَأَنٍّ كبيرِ الحديثَ النبوي المشهور؛ حيث قال ﷺ: « **إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنةَ من يجدد لها دينها** » [1]. وقد جرتْ العادة أن الناس اليوم ينتبهون أكثر إلى فعل « التجديد »، الذي فاعله هو الإنسان، وقلَّما ينتبهون إلى فعل « البعث »، الذي فاعله هو الله ﷻ ، وإنما ذلك ناتج عن هذا، والعكس غير صحيح فلا تجديد إلا ببعث.

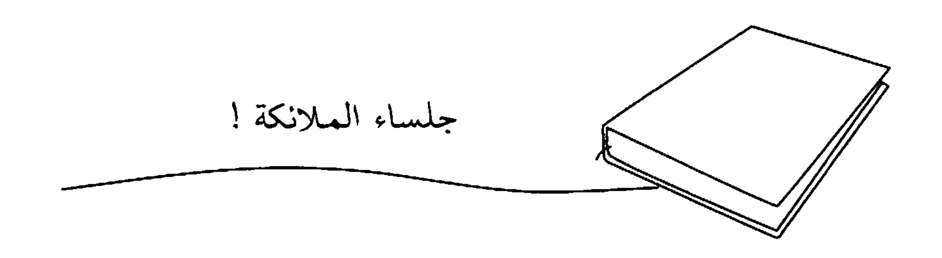
والله جَلَّ وعَلَا بين لنا كيف **يبعث روح التجديد** في النفوس، ببيانات واضحة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. **وإنما ذلك الروح هو: القرآن**، فمن أقبل عليه بصدقٍ كان من أهل الله وخاصته، كما سترى بحول الله. فإن لم يكن عالمـًا كان حكيمًا. ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة، عن أبي هريرة مرفوعًا. وصححه الألباني، رقم: (١٨٧٤) في صحيح الجامع.

فيا من تبحث مثلي عن طريق اللَّه! برنامَجُك العملي وميثاقك الدعوي؛ كتاب واحد، لا ثاني له: هو القرآن العظيم، وشيخُك الراعي وأستاذك الداعي؛ مُرَبٍّ واحدٌ لا نظير له: هو من (كان خُلُقُهُ القرآن) [(١)] محمد رسول اللَّه ﷺ! وأما مَقَرُّك الدعوي، ومُنطلقك (الإستراتيجي) فمكان واحد لا بديل له: هو بيت اللَّه، فاطرق باب المسجد تَجِدْ وجهَ اللَّه، وادخل فضاءَ القرآن تَسْمَعْ كلامَ اللَّه.

* * *

(١) رواه مسلم.



جلساء الملائكة !

« الجلساء » : جمع « جليس » ، وهو الشخص الذي يجلس إليك في مجلس واحد؛ بقصد الاجتماع على حديث ما أو فعل ما؛ ولذلك قال الشاعر:

وَخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمَانِ كِتَابُ!

تلك حكمة قيلت بالنسبة لأي كتاب. فما بالك إذن بمجلس يكون فيه كتاب اللّه – جل ثناؤه – هو جليسك! ثم ما بالك بمجلس يكون فيه « أهل اللّه وخاصته » هم جلساءك! ثم ما بالك به – بعد هذا وذاك – إذا كان الملائكة هم زواره وحضاره.

لا شك أن ذلك مجلس تُشد إليه الرحال، وتقطع في سبيله المسافات والأميال؛ لأنما هو مجلس يتضوع منه مِسْكُ الروح؛ بِمَا حضره من أهل اللّه وملائكته! وبما تَنَزَّلَ عليه من رحمته وبركاته..! وإنَّ قومًا من بني آدم يحضرون مجلسًا تشهده الملائكة هم في الحقيقة (جُلَسَاءُ المَلَائِكَةِ) ومَنْ جَالَسَ قومًا فهو منهم، وما أجمل تعبير النبي ﷺ في مَثَلٍ ضَرَبَهُ لجلساء الخير وجلساء الشر، قال ﷺ: « **إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المِسْكِ ونافخ الكير، حاملُ المسك إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة** » (١) وَلَـمَجْلِسٌ يجتمع فيه الناس على القرآن خيرٌ من الدنيا وما فيها كما سترى بحول اللّه. فأبشروا (جُلَساءَ الملائكةِ) بالخيرات والبركات.

ومن هنا؛ كانت مجالس القرآن هي خير أنواع مجالس الذكر، التي تضافرت

---

(١) متفق عليه.

الأدلة من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ على أنها محبوبة عند اللَّه، مذكورة في مَلَئِهِ الأعلى، تشهدها الملائكة، وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها اللَّه في من عنده. وليس شيءٌ أفيدَ منها في تربية الإنسان المسلم على الصلاح والفلاح. وهي من أهم الوسائل التربوية التي لا غَبَشَ فيها ولا غبار، من حيثُ استنادها إلى الأدلة المتواترة بالمعنى، عبر الأحاديث الوفيرة المستفيضة. نذكر منها الحديث المشهور، الذي رواه أبو هريرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ، والذي فيه: « **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » (١).

وكذلك الحديث المتفق عليه، الذي رواه أبو هريرة أيضًا، مرفوعًا إلى النبي ﷺ قال: « **إن للَّه ملائكة سياحين في الأرض، فضلًا عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذِّكْرِ،** [وفي رواية مسلم: **مجالسَ الذِّكْرِ**] **فإذا وجدوا قومًا يذكرون اللَّه** [وفي رواية مسلم: **فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذِكْرٌ**] **تنادوا: هلُمّوا إلى حاجاتكم، فَيَحُفُّونَهُمْ بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا واللَّه ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا. فيقول: فما يسألونني؟ فيقولون: يسألونك الجنة. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا واللَّه يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار. فيقول اللَّه: هل رأوها؟ فيقولون: لا واللَّه يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة. فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم، إنما جاء لحاجة فيقول: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم** » (٢).

ولم يزل هذا المنهج هو أساس التربية لدى أصحاب رسول اللَّه ﷺ بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، سواء في تزكية أنفسهم وتذكيرها، أو في تربية الجيل الناشئ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

من التابعين. فقد (كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى [يعني: الأشعري ﷺ]، وهو جالس في المجلس: « يا أبا موسى، ذَكِّرنا رَبَّنا! يقرأ عنده أبو موسى، وهو جالسٌ في المجلس، ويَتَلاحَنُ!) [(١)] والتَّلاحُنُ: التغني بالقرآن والتحبير. وعن أبي رجاء العطاردي رَحِمَهُ اللَّهُ، قال متحدثًا عن شيخه أبي موسى الأشعري ﷺ: (تعلمنا القرآن في هذا المسجد - يعني مسجد البصرة - وكنا نجلس حِلَقًا، حِلَقًا، وكأنما أنظر إليه بين ثوبين أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]. قال: وكانت أول سورة أُنزلت على محمد ﷺ) [(٢)] . والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثير.

فاسلُك نفسَكَ وصاحبَكَ في مجلس من « مجالس القرآن » ، وسِرْ من خلاله إلى اللَّه. فذلك منهج النبي ﷺ في تلقين صحابته صفات الصلاح، ومقومات الإصلاح.

تَتَبَّعْ - لبناء النفس وتربيتها - منهج القرآن كما عرضه القرآن، وهو - على الإجمال - ثلاث خطوات قابلة للتفصيل؛ وهي: التلاوة بمنهج التلقي، والتعلم والتعليم بمنهج التدارس، ثم التزكية بمنهج التَّدبُّر. فذلك ما ذكره اللَّه ﷻ بإجمال، عند تحديد وظائف النبوة الثلاث. وهي المذكورة في قوله جل ثناؤه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]. وتلك هي استجابة دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهذه الأمة، بما ورد في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

التلاوة، والتعليم، والتزكية هي الأصول الكلية لمهمة الرسالة، وهي المراحل الأساسية لبناء النفس المؤمنة، وتكوين النسيج الاجتماعي الإسلامي. إلا أنها مراحل متداخلة في عملية الاشتغال بالقرآن الكريم لهذا الغرض؛ إذ يصعب القول بأنها منقطعة مبتوتة المفاصل، بل هي متواصلة، يكمل آخرُها أولَها، ويرفد أولُها آخرَها؛

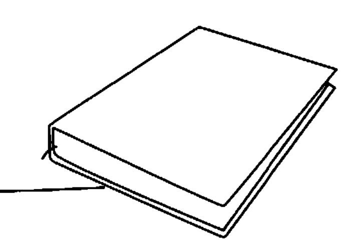
---

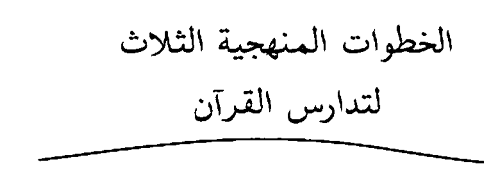
(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والدارمي في سننه، وعبد الرزاق في مصنفه.

(٢) رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) .

إذ تجد بدايات اللاحقة منها منذ الشروع في السابقة، وتجد آثار السابقة مستمرة في اللاحقة، وإنما تتميز عن بعضها بالغلبة ليس إلا. وبيانها كما يلي.

* * *





الخطوات المنهجية الثلاث
لتدارس القرآن

الخطوة الأولى: تلاوة القرآن بمنهج التلقي:

فأما الخطوة الأولى فهي التلاوة: وهي بركة وزكاة في نفسها، فقد ثبت الأجر على كل حرف تتلوه من القرآن الكريم، فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف** » [1]؛ ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه، من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حُللِ الجمال. قال رسول الله ﷺ: « **يقال لصاحب القرآن: اقرأ وَارْقَ، ورَتِّلْ كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها!** » [2]. فلا تنس هذا.

والله ﷻ أمر بالتلاوة للقرآن في غير ما آية. قال سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧] . وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩]. وقال: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤]، ثم قال: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟

---

(١) رواه الترمذي، وقال :حديث حسن صحيح. كما رواه الحاكم أيضًا في المستدرك.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٨١٢٢).

مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: ٢٠]. وفي الحديث الصحيح: « **الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران** »[١].

إلا أن التلاوة إنما تكون بما وُصِفَتْ به من البركة والتأثير الإيماني؛ إذا أُخِذَتْ بما أسميناه بـ (منهج التلقي للقرآن العظيم)؛ حيث يؤخذ القرآن بحضور قلبي، وتُتْلَى آياته على أنها ذِكْرٌ للَّه ﷻ . وبيان ذلك هو كما يلي:

لا شك أن القرآن العظيم رأس الذكر، ومفتاح الذكر، وتاج الذكر. بل القرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢].

والقرآن أيضًا به يكون الذكر قال سبحانه: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص: ١]. والفتنة حينما يطوف بها الشيطان في كل مكان؛ يعمي بها البصائر، فيحفظ اللَّه الذاكرين؛ قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

الإشكال الآن هو: كيف نُحَصِّل الذكر بالقرآن؟

هذا هو السؤال الأهم الآن؛ لأنه ليس كل قارئ للقرآن هو بذاكر.

تبصرة: في أخذ القرآن بمنهج « التَّلَقِّي »:

كثيرون هم أولئك الناس الذين يتلون القرآن اليوم، أو يستمعون له على الإجمال، على أشكال وأغراض مختلفة. ولكن قليل منهم من « يَتَلَقَّى » القرآن.

وإنما يؤتي القرآنُ ثمارَ الذكر حقيقةً لمن تَلَقَّاهُ، وإنما كان رسول اللَّه ﷺ يَتَلَقَّى القرآن من ربه. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦].

ولا يزال القرآن معروضًا لمن يتلقاه، وليس لمن يتلوه فقط.

والتلقي في اللغة: هو الاستقبال عمومًا. كما في قول اللَّه تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣][٢] .

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر ذلك مفصلًا في مفردات الراغب، مادة: (لقي).

وأما تلقي القرآن: فهو استقبال القلب للوحي؛ إما على سبيل النبوءة، كما هو الشأن بالنسبة للرسول ﷺ. على نحو ما في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦]؛ إذ ألقى الله عليه القرآن بهذا المعنى، كما فسره الراغب الأصفهاني من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إشارة إلى ما حُمِّلَ من النبوة والوحي) (١).

وإما أن يكون (تلقي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ.

وهو عام في كل مؤمن أخذ القرآن بمنهج التلقي على ما سنبينه بعدُ بحول الله. فذلك المنهج هو الذي به تنبعث حياة القلوب؛ لأنها تتلقى آنئذ القرآن (روحًا) من لدن الرحمن. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وتلقي القرآن بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ؛ إنما يكون بحيث يتعامل معه العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنزله الآن غضًّا طريًّا! فيتدبره آيةً، آيةً، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيًّا في عصره وزمانه، ومن هنا وصف الله تعالى العبد الذي « يتلقى القرآن » بهذا المعنى؛ بأنه يُلْقِي له السمع بشهود القلب قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]. ذلك هو الذاكر حقًّا، الذي يحصل الذكرى ولا يكون من الغافلين.

أن تتلقى القرآن: معناه إذن أن تصغي إلى الله يخاطبك! فتبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبك روحًا. وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التَّخَلُّقُ بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول الله ﷺ، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، لما سئلت عن خُلُقِه ﷺ؛ فقالت: (كان خُلُقُهُ القرآن) (٢).

وأن تتلقى القرآن: معناه أيضًا أن تتنزل الآيات على موطن الحاجة من قلبك

---

(١) المفردات، مادة: (لقي) .

(٢) رواه مسلم.

ووجدانك، كما يتنزل الدواء على موطن الداء، فآدم عليه السلام لما أكل هو وزوجه من الشجرة المحرمة؛ ظهرت عليهما أمارة الغواية؛ بسقوط لباس الجنة عن جسديهما فظل آدم عليه السلام كئيبًا حزينًا. قال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]. ولم يزل كذلك حتى (تلقَّى) كلمات التوبة من ربه فتاب عليه؛ فكانت له بذلك شفاءً، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]. فهو عليه السلام كان في حاجة شديدة إلى شيء يفعله أو يقوله؛ ليتوب إلى اللَّه، لكنه لا يدري كيف؟ فأنزل اللَّه عليه – برحمته تعالى – كلمات التوبة؛ ليتوب بها هو وزوجه إلى اللَّه تعالى. وهي – كما يقول المفسرون – قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] فبمجرد ما أن تنزلت الآيات على موطن الحاجة من قلبه؛ حتى نطقت بها الجوارح والأشواق؛ فكانت له التوبة خُلُقًا إلى يوم القيامة، وكان آدم عليه السلام بهذا أول التوابين، وذلك أخذه كلمات التوبة على سبيل (التلقي): ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾.

فعندما تقرأ القرآن إذن استمع وأنصت، فإن اللَّه جل جلاله يخاطبك أنت، وادخل بوجدانك مشاهد القرآن، فإنك في ضيافة الرحمن! هناك حيث ترى من المشاهد ما لا عَين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فاقرأ إذن كما استطعت وتعلم؛ لكن بحضور قلبي تام؛ كي تتزكى. فقد رأيت أن التلاوة بدء فعله ﷺ من التعليم والتزكية، كما مر في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. فالتلاوة نور في نفسها. إنها – لو أبصرتها حقًّا – صلة مباشرة برب العالمين؛ ذكرًا ومناجاة، إن العبد التالي لكتاب اللَّه متكلم بكلام اللَّه. وهذا وحده معنى عظيم في نفسه، فتدبر، وهو يمهد القلب ويهيئه للخطوات التربوية التالية.

الخطوة الثانية: التعلم والتعليم بمنهج التدارس:

وأما الخطوة الثانية فهي التَّعَلُّم والتَّعْليم: وذلك لأحكام القرآن العظيم وحِكَمِه، إذ خير العلم إنما هو العلم بالكتاب، فعن عقبة بن عامر الجهني قال: (خرج علينا رسول اللَّه ﷺ ونحن في الصُّفَّةِ فقال: « **أَيُّكُمْ يحب أن يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطحَانَ**

أو العَقِيقِ؛ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بنَاقَتَيـنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ [(١)]**، يَأْخُذُهُمَا بغير إثم بالله ﷻ، ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟** » قالوا: كُلُّنَا يا رسولَ الله! قال: « **فَلأَنْ يَغْدُوَ أحدُكم كلَّ يوم إلى المسجد؛ فَيَتَعَلَّمَ آيتين من كتاب الله ﷻ؛ خيرٌ لَهُ منْ ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ لهُ من أربعٍ ومِنْ أَعْدَادِهِنَّ منَ الإِبِلِ** » [(٢)].

وتحصيل **العلم بالكتاب** للنفس أو تلقينه للغير، إنما يكون بمنهج الدراسة والتدارس لآياته وسوره مبنًى ومعنًى؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فقد قُرِئَتْ (تَعْلَمُونَ) و (تُعَلِّمُون) فهي عملية مزدوجة، الجمع بين شقيها في الفهم والعمل أَوْلى: التَّعَلُّم والتَّعْليم. وأقل ذلك أن تكون أحَدهما: معلمًا أو متعلمًا. بيد أن العلم هاهنا إنما هو ما أفاد العمل. على قاعدة علماء مقاصد الشريعة: أن (كل علم ليس تحته عمل فهو باطل). وعلى هذا يُحمل قوله ﷺ : « **إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالـمًا أو متعلمًا** » [(٣)] وقوله عليه الصلاة والسلام: « **إن الله لم يبعثني مُعنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا؛ ولكن بعثني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا** » [(٤)] . أي: مُعَلِّمًا أعمال الخير والصلاح للعالمين، بمنهج حكيم.

فالمقصود بقوله تعالى: ﴿ تَدۡرُسُونَ ﴾ – من آية آل عمران المذكورة – يعني تدرسون الكتابَ نفسه، على اعتبار أن الدراسة والتدارس أو المدارسة هي منهج التعلم، كما ذهب إليه الإمام الطبري رحمه الله[(٥)] . والتدارس للقرآن الكريم هو المنهج التعليمي الكفيل بالوصول بالدارس إلى الحكمة، التي بمقتضاها يصير (ربانيًّا). وقد روى ابن جرير الطبري رحمه الله – عن ابن عباس وعدد من التابعين – تفسير (ربانيين) في الآية؛ بأنهم: (الحكماء الفقهاء) [(٦)].

---

(١) أهل الصُّفَّة: هم فقراء المهاجرين، كانوا يبيتون بالمسجد النبوي. وأما بُطْحَان فهو: اسم وادٍ قرب المدينة المنورة، وكذلك العقيق مثله. وناقتان كَوْمَاوَانِ: تثنية كوماء، وهي: الناقة العظيمة السَّنَامِ العالية. وزهراء: يعني سمينة، تميل إلى البياض من السِّمنِ.

(٢) رواه مسلم، وأبو داود، وأحمد، وابن حبان، والبيهقي، والطبراني.

(٣) رواه الترمذي، وابن ماجه بسند حسن، كما في صحيح الجامع الصغير: (١٦٠٩).

(٤) رواه مسلم.

(٥) جامع البيان: (٣/٣٢٨).

(٦) جامع البيان: (٣/٣٢٥، ٣٢٦).

فالدراسة والتدارس إذن: هو تتبع صيغ العبارات، ووجوه المعاني والدلالات للمقاصد والغايات، من كل آية وسورة، وتعلُّم ذلك كله ترتيلًا وتفسيرًا؛ بما فيه ضبط ألفاظه وآياته وسوره؛ للتعرف على أسراره وحِكَمِه. وذلك جماع ما كان يفعله جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ في ليالي رمضان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، **فيُدَارِسُهُ القرآنَ**، فَلَرَسُولُ اللَّه ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلة) [1] وهو ما ذكرنا من قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. وذلك تفسير قوله تعالى: – من آيات وظائف النبوة – ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وفُسِّرَتْ الحكمة بأنها: (شيء يجعله اللَّه في القلب ينور له به) [2].

ويجمع المرحلتين المذكورتين قبل، أعني: (التلاوة، ثم التعلم والتعليم بمنهج التدارس) ما جاء عن أنس بن مالك قال: جاء ناسٌ إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالًا يُعَلِّمُونا القُرآنَ والسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إليهم سَبْعِينَ رجلًا من الأنصار. يُقَالُ لَهُمُ القُرَّاءُ. فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ. يقْرَؤُونَ القُرْآنَ، وَيتَدَارَسُونَ باللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ)... الحديث [3]. فالتدارس هو أساس التعلم كما في هذا الحديث؛ إذ لا علم إلا به، فأنت تبحث عن وجوه المعاني وتتدارسها؛ لتتعلم أحكامها ومقاصدها. وَذُكِرَ التدارسُ أيضًا في الحديث النبوي الشريف، من قوله عليه الصلاة والسلام: « **مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » [4].

الخطوة الثالثة: التزكية بمنهج التَّدَبُّرِ:

وأما الخطوة الثالثة فهي التزكية بمنهج التَّدَبُّرِ.

والتزكية: هي عملية التطهير للنفس، والتربية لها بما يخلصها من مراعاة غير اللَّه،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبري عن ابن زيد، جامع البيان: (٥٥٧/١).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

للوصول بها إلى منزلة الإخلاص؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. وقال ابن عباس ﵄ في قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾: (يعني بالزكاة: طاعة اللّٰه والإخلاص) [1]؛ ولذلك فالرسول الكريم ﷺ كان حريصًا على تطهير صحابته من الأهواء، والارتقاء بهم عبر مدارج الإيمان، إلى ما هو (أحسن عملًا). ولا أحسن من تخليص العبودية للّٰه الواحد القهار، وتعبيد القلب له وحده دون سواه.

وانظر - رحمك اللّٰه - كيف ذكر التزكية قبل التعليم في الآيتين من آل عمران والجمعة، مع أنه لا تزكية بغير تعليم ابتداءً، على ما ترجم له الإمام البخاري ﵀ في كتاب العلم من صحيحه قال: (باب العلم قبل القول والعمل). وقد قُدِّمَ ذِكْرُ التعليم على التزكية - بناءً على الأصل - في قوله تعالى من دعوة إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

صحيح أن العطف بالواو - في الآيات كما هو في العربية - لا يفيد الترتيب، لكن التقديم والتأخير في البلاغة يفيد الأهمية؛ ومن هنا جاءت التزكية في الآيتين الأوليين مقدمة على التعليم؛ من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ لشرف الغاية وعلوها؛ وحتى لا يفتتن السائر بالوسيلة عن الغاية؛ فيضل عنها، ويكون من الخاسرين.

وإذا كانت التزكية تربيةً وتنمية لعناصر الخير والإيمان في الإنسان حتى يصفو القلب للّٰه وحده؛ فإنها إذن تحصيلٌ مرتبة النفس الزكية، المتخلقة بالقرآن. وهذا أمر يبدأ في الحقيقة منذ اللحظات الأُولى لشروع العبد في الاشتغال بكتاب اللّٰه تعبدًا. أي منذ بدء عملية التلاوة أو عملية الاستماع للقرآن الكريم بمنهج التلقي، ثم عملية التعلم بمنهج التدارس. وليست التزكية متوقفة على الدخول في مرحلة منفصلة تمام الانفصال، كما بيناه قبل. وإنما التزكية هي عملية متواصلة، تنطلق بانطلاق الدخول في العتبات الأُولى للقرآن الكريم تلاوةً وترتيلًا، ثم تعلمًا وتعليمًا، وتدارسًا وتدريسًا، ثم يكون من المؤمن آنئذ ما يكون من التزكية المنمية لعناصر الخير فيه؛ فإذا به كحقل

---

(١) رواه الإمام الطبري، وكل ما رواه من الأقوال في الآية لا يكاد يخرج عن هذا المعنى، مثل قوله عن ابن جريج: (قال: يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه). جامع البيان: (١/٥٥٨).

القمح الصالح يفيض بالرزق الوفير والبركات، وما أدق وصف النبي ﷺ لأحوال الناس إزاء الهُدَى، فيما ضربه لذلك من مثل عجيب! قال عليه الصلاة والسلام: « **مَثَلُ ما بعثني اللَّه به من الهُدَى والعِلْم كمَثَلِ الغَيْثِ الكثير، أصَابَ أرضًا فكَانَ منها طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتَ الماءَ فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبِ الكثير. وكانتْ منها أجَادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها الناسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا. وأصابَ منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، ولا تُنْبِتُ كلأً ! فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللَّه وَنَفَعَهُ ما بعثني اللَّه به؛ فَعَلِمَ وعَلَّمَ! ومَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بذلك رَأسًا، ولم يَقْبَلْ هدَىَ اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به** »(١).

فهذه إذن أصناف ثلاثة: الصنف الأول منها: هو حال من قَبِلَ الهدى وتفقه في الدين؛ حتى كان منه ما كان من الصلاح لنفسه والإصلاح للناس؛ فانتفع هو ونفع اللَّه به غيره، وهو أحسن الأصناف؛ لأنه أوعى قلبًا، وأبعد أثرًا، وأدوم فضلًا. **والصنف الثاني**: هو حال من آمن ولم يتفقه في الدين، لكنه أسهم في نقل الخير - مما سمع وتعلم - إلى الناس، فكان منهم الذين يتدارسونه ويتفقهون فيه. **وأما الصنف الأخير**: فهو حال من أعرض عن الوحي، ولم يقبل هُدى اللَّه؛ فكان من الخاسرين.

فالصنف الأول إذن؛ الذي مَثَلُه مَثَلُ الأرض الطَّيِّبَة التي قَبِلَتِ الماءَ - يعني القرآن - فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وذلك بسبب أنه (فَقُهَ في دِينِ اللَّه ونَفَعَهُ ما بعثني اللَّه به؛ فَعَلِمَ وعَلَّمَ) كما في الحديث؛ هو الصنف الذي سار في تلقيه عن اللَّه على منهج القرآن مما حُدِّدَ في وظائف النبوة من مراحل، من تلاوة وتدارس؛ لأن بذلك يكون الفقه في الدين أو لا يكون، والـ (فقه) هنا في الحديث ليس بالمعنى الاصطلاحي الضيق، من المعرفة بالأحكام الشرعية التكليفية، بل هو بمعناه القرآني الشامل، الذي يجمع كل معاني العلم باللَّه، وبالحقائق الإيمانية، وما يقتضيه ذلك كله من الحكمة. وهو مقصود قوله تعالى في الآية: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]. ذلك هو الفقه في الدين. وهذا كما تبين إنما هو نتيجة التفاعل مع المراحل الأولى من وظائف النبوة. وهو عين التزكية.

فالتزكية إذن هي أشبه ما تكون بنتيجة للتلاوة والتدارس لكتاب اللَّه. إلا أن هذه النتيجة لن يتم استثمارها على الحقيقة، ولا تحصيلها على التمام إلا إذا الْتُقِطَتْ بمنهج

---

(١) متفق عليه.

التَّدَبُّرِ؛ إذ التَّدبُّر - كما سترى بحول اللَّه - هو الذي يورث القلب الاعتبار، ويمنح النَّفْسَ العزيمةَ على الدخول في الأعمال. فالحقائق الإيمانية والحِكَم القرآنية لا تصطبغ بها النفس إلا عند التدبر والتفكر، وذلك هو معنى التخلق بأخلاق القرآن؛ حيث تصبح تلك الحقائق وتلك الحِكَمُ خُلُقًا طبيعيًا للمسلم. على ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في وصف رسول اللَّه ﷺ بأنه: « كان خُلُقُهُ القرآن » [١].

والتَّدبُّر وإن كان أمرًا ممكنًا حصوله مع الخطوتين السابقتين؛ إلا أنه لا بد لتحصيل نتائجه التخلقية بصورة تربوية صحيحة، تورث زكاة النفس وجمالها؛ من أن تكون له في النفس والوجدان خطوة خاصة يتفرغ القلب لها بجامع شعوره وكامل حضوره؛ لاستخلاص الهدايات التي وردت بها الآيات، واستخلاص سُبُلِ التخلق بها، خطوة خاصة تلي عملية التلاوة والتعلم أو التدارس، لكنها لا تنتهي بنهاية المجلس الذي عقدته لهذه الغاية، بل تستمر في النفس حركةً وجدانيةً لا تتوقف أبدًا، وتلك هي ثمرة القرآن الكريم التي يتذوقها الربانيون حقًّا! وهي غاية الوظيفة النبوية من البلاغ الرسالي في قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾.

فما التدبُّر إذن؟ وكيف يكون؟

تقول: تَدَبَّرَ الشيء في - اللغة - يَتَدَبَّرهُ بمعنى: تَتَبَّع دَوَابِرَهُ، أي نظر إلى أواخره وعواقبه ومآلاته، كيف هو إذا صار إليها؟ وكيف يكون؟ جاء في لسان العرب: (ودَبَّرَ الأَمْرَ وتَدَبَّرَهُ: نظر في عاقبته، واسْتَدْبَرَهُ: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره؛ وعَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّرًا أي بأَخَرَةٍ (...) والتَّدْبِيرُ في الأمر: أن تنظر إلى ما تَؤُول إليه عاقبته، والتَّدَبُّر: التفكر فيه) [٢].

أما التَّدَبُّر في الاصطلاح القرآني فهو: أنك إذْ تقرأ الآيات، وتتعلم وتدرس؛ تنظر إلى مآلاتها، وعواقبها في النفس وفي المجتمع؛ فتبصر حقائقها الإيمانية إبصارًا؛ فتكتسب بذلك من الصفات الوجدانية، ما يعمر قلبك بالإيمان، ويثبت قدمك في طريق المعرفة الربانية، ويضعك على صراط السير إلى التخلق بأخلاق القرآن. وبيان ذلك هو كما يلي:

---

(١) رواه مسلم.
(٢) لسان العرب، مادة: (دبر).

إن منطلقك الأساس، في طريق المعرفة الربانية هو: أن تتعرف على القرآن، بل أن تكتشفه؛ ولذلك جاء الخطاب القرآني يحمل أمر القراءة للقرآن؛ تلاوةً وترتيلًا، وأمْرَ التعلُّم للقرآن مدارسةً وتدبرًا.

والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر، ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان. فالتدبر هو المنهج القرآني المأمور به لقراءة القرآن العظيم؛ ومن هنا زجره تعالى للناس الذين لا يتدبرونه. قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

فتدبر القرآن وآيات القرآن إذن: هو - كما ذكرنا - النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع. وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب اللَّه، فتنظر - إن كانت متعلقة بالنفس - إلى موقعها من نفسك، وآثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبتك منها؟ وما موقعك من تطبيقها أو مخالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك، وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصة والعامة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها، باعتبارها مقياسًا لوزن نفسك وتقويمها. وتعالج أدواءك بدوائها، وتستشفي بوصفاتها.

وأما إن كانت تتعلق بالمجتمع؛ فتنظر في سنن اللَّه فيه كيف وقعت؟ وكيف تراها اليوم تقع؟ وكيف ترى سيرورة المجتمع وصيرورته في ضوئها؟ عند المخالفة وعند الموافقة.. ثم تنظر ما علاقة ذلك كله بالكون والحياة والمصير؟ ثم ما موقع النفس - نفسك أنت! - من هذا كله؟

في الفرق بين التدارس والتدبر:

فَتَبَيَّنَ من ذلك كله إذن أن هناك فرقًا أساسيًا بين التدارس والتدبر، رغم وجود تداخل منهجي بين جميع العمليات والخطوات. فالتدارس: هو عملية تعليمية ذهنية، تشتغل من داخل النص القرآني لا خارجه، وينتجها العقلُ في علاقته بنص الخطاب القرآني مباشرةً، وفي ارتباطه بلغته وأساليبه، على قَدْرِ ما تتيحه تلك اللغةُ من مَعانٍ وحِكَمٍ ودلالات. بينما التَّدَبُّر: عمليةٌ قلبية ذوقية محضة. فهي - وإن صاحبت

التدارس - واقعةٌ في النفس لا في النص، إنها حركة وجدانية تجري خارج النص القرآني، إنها تتلقى المعاني والحِكَمَ من التدارس، ثم تَدْخُلُ بها إلى أعماق النفس، أو تخرج بها إلى مطالعة أحوال المجتمع؛ لتراقب النفس والمجتمع معًا على موازينها. تُشَخِّصُ الأمراضَ والأسقام الواقعة بهما، ثم تنظر إلى وصفات العلاج التي قدمها لها القرآن: كيف تتعامل معها؟ وكيف تستشفى بها؟ وذلك هو عين التخلق بأخلاق القرآن والتزكية بأنواره. فهذا عملٌ في النفس وفي المجتمع، لا في النص القرآني أساسًا، وإن كان مَدارُهُ عليه. وذلك هو المقصود بالتدبر للقرآن في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].. والله تعالى أعلم.

وهنا نلج إلى باب آخر من أبواب القرآن رديف للتدبر، بل هو منه. ذلك هو: التَّفَكرُ، إن التَّفَكرَ غالبًا ما يرد مذكورًا في القرآن في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه من الملك والملكوت، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤] فكل هذه الأدعية العابدة، الحارة، الخاشعة، الباكية؛ إنما هي نابعة عن الإحساس الحاصل للعبد بُعَيد التفكر في خلق الله، فاقرأ الآيات وتدبر.. تجد أن المؤمن لما يسيح في جنبات الكون الفسيح، يشعر بعظمة الله الواحد القهار، وتأخذه الرهبة من جلال ملكه وعظمة سلطانه: فيسرع هاربًا إلى مساكن رحمته، وجمال غفرانه.

وبما أن القرآن كتاب يحيل المتدبر له على سعة الكون وامتداده الفسيح، ويرجع به إلى كشف كثير من أسرار الوجود، وغرائب الخلق؛ فإن (التدبر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة القرآن؛ يحيل الإنسان على (التفكر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة الكون. فيكون كل متدبر للقرآن متفكرًا في الكون. فتقرأ - بقراءة القرآن - كلَّ آيات الله المنظورة والمقروءة سواء.

وبذلك كله يتم لك شيء آخر، هو: الإبصار.

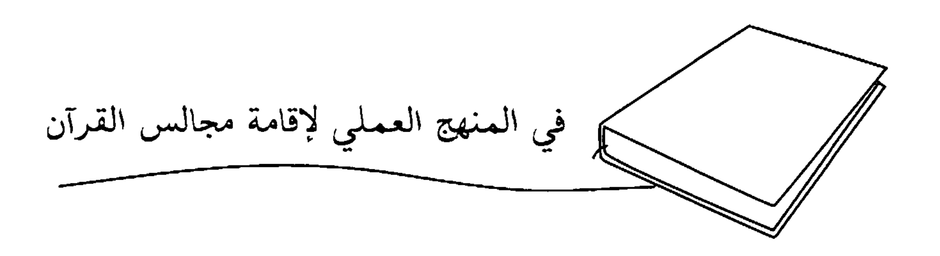
إن التدبر والتفكر كليهما، يعتبران بمثابة الضوء، أو الشعاع المسلط على الأشياء، تمامًا كما تسلط الشمس أشعتها المشرقة - في اليوم الصحو - على الموجودات، فتبصرها الأعين الناظرة. فكذلك التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية، والتفكر يكشف حقائق الآيات الكونية، حتى إذا استنارت هذه وتلك؛ أبصرها المتدبرون والمتفكرون. وكانت لهم فيها بصائر ومشاهدات لا تكون لغيرهم؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]. وقال سبحانه: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

هكذا وجب أن تقرأ القرآن آية آيةً؛ اقرأ وتدبر ثم أبصر!.. عسى أن ترى ما لم تر، وتدرك من حقائقه ما لم تدرك من قبل؛ فتكون له متدبرًا حقًّا.

ذلك كله هو أساس التزكية، ومقياس التصفية، ومنهاج التربية، وسلم العروج إلى رضا الرحمن. فاقرأ القرآن، وتدارس، وتدبر ثم أبصر!.. حتى يأتيك اليقين.

فاصبر على هذا المنهج؛ فإنَّ كل آية تُسلمك إلى الأخرى، وتفتح لك باب أسرارها وأنوارها؛ فتهبك معرفةً جديدةً بنفسك وبربك، وتبني لك من شخصيتك ما لم تستطع أنت بناءه من قبل؛ لعلة ما، أو لمانع ما؛ ذلك أن النور الإلهي المتفجر من الآيات - عند تدارسها - بصائرَ للمتدارسين والمتدبرين؛ يتدفق مباشرة على مرايا نفوسهم، فإذا بها مُشِعَّةٌ بنور الإيمان، مُبْصِرَةٌ ببركة القرآن بإذن اللّٰه، فتتبع مسالك النور حتى تصل، إن شاء اللّٰه.

* * *



تلك إذن هي الصورة العامة لمجالس القرآن العظيم، من حيث فضلها وأثرها التربوي في النفس والمجتمع، ومن حيث وظائفها النبوية، كما تقررت في كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ. بيد أننا هاهنا نخلص بحول اللّه إلى إعطاء صورة تطبيقية عن كيفية عقد مجلس قرآني وإدارته، من بدايته حتى نهايته إن شاء اللّه. وذلك من خلال عرض مجموعة من الضوابط المنهجية، ذات الطابع التنزيلي العملي في الغالب. وبيان ذلك هو كما يلي:

ضوابط لإنجاح مجلس التدارس:

الضابط الأول: لا بد من تجريد القصد للّه! هذا أول الشروط لإنجاح المجلس القرآني؛ حتى يكون مجلسًا تحضره الملائكة بإذن اللّه؛ وتتنزل عليه السكينة، وتغشاه الرحمة، ويذكره اللّه فيمن عنده! واعلم أن القرآن الكريم لا يفتح بصائره إلا للمقبلين عليه بإخلاص، فلا بد من تجديد النية كلما هممت بالخروج إلى مكان المجلس، فهو مجلسُ تَعَبُّدٍ وليس مجلسَ تَعَوُّدٍ، ولا تنس استحضار معنى الحديث النبوي الشريف، الشافي لوساوس الشيطان، الطارد لخبائثه: « **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه** » (١).

وتيقن - بعد ذلك - أن ما كان للّه خالصًا تَقَبَّلَهُ اللّه، وحَفِظَ صاحبَه وتولاه وتيقن أن اللّه خبير بما توسوس به نفسك، وأنه أقرب إليك من حبل الوريد! فلا يغيب

(١) متفق عليه.

عنه تعالى من خواطرك شيء، فإذا أخلصت له وحده بما تسعى إليه من التدارس والتدبر لكتابه؛ فتح لك من أنوار القرآن ما يشرق على قلبك بمعرفة اللَّهِ ﷻ ، ويضيء وجدانَكَ بمحبته تعالى! وذقتَ حقًّا: ما جمال القرآن العظيم! وشاهدت من ملكوته ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر.

ومما يساعد (الجلساء) على تجريد القلب من غير قصد اللَّه، ويُوَطِّنُ النفسَ على إرادة خصوص وجهه الكريم؛ عَدمُ إثقال المجلس بالطعام والشراب، فإن ذلك – إذا ثَقُلَ – مما يذهب ببركة المجلس، ويُضْعِفُ قَصْدَ التعبد فيه؛ وإذن يضيع القصد المحمود، ولا تُنَالُ الغاية المرجوة؛ فلا تكون منه نتيجة تربوية حقيقية. فإن كان ولا بد؛ فشاي وحلوى قليلة، أو فاكهة، أو ما شابه ذلك مما لا مُؤْنَةَ فيه ولا كلفة. ومَن أراد أن يكرم أصحابه فليكن في غير موعد التدارس.

الضابط الثاني: تَـحَيُّنُ أوقاتِ الانشراح النفسي للقرآن، والإقبال الوجداني على الذِّكْر، ومَظَانِّ اليقظة الإيمانية. فلا تجعل مواعيد التدارس في يوم مكدود، مزدحم بالأشغال من أمور الكسب وأعباء الحياة، فمعنى ذلك عدم ضمان صفاء الذهن وخلو البال؛ إذ النفوس المرهقة والأجسام المكدودة لن تشارك في التدارس والتدبر إلا وهي بين اليقظة والنوم فتضعف الفائدة جدًّا، إن لم تنعدم، بل يجب تَـحَيُّنُ يوم الراحة، وساعات الفراغ، ولحظات الحضور الذهني واليقظة القلبية، من الصباح والمساء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج من أحسن أوقات الذكر، وهي أوقات الغُدُوِّ والآصَال. فالغَدُوُّ أو الغَدَاةُ: هي ساعات أول النهار، من الفجر إلى أوائل وقت الضحى. وأما الآصال فمفرده: أصيل، وهو وقت ما بين العصر إلى الغروب. فهو سويعات آخر النهار، حيث يبرد حر الشمس، وتهدأ أشعتها، وتلين أضواؤها، وتطول الظلال وتمتد؛ ولذلك كان من أجمل أوقات النهار. وهذان الوقتان (الغداة والأصيل)، أو (الإشراق والعَشِيِ) هما من لحظات إقبال النفس وانشراح الصدر، والاستعداد للتدبر والتفكر؛ ولذلك نبَّه عليهما اللَّه تعالى في كتابه لهذا الغرض. قال ﷻ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقال سبحانه: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ

وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨]. وقال جل ثناؤه: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فإذا لمَ يكن سبيل إلى عقد مجلس القرآن بأحد هذين الوقتين؛ فليكن بعد المغرب، أي بين العشاءين، وهو وقت داخل أيضًا في مسمى (العَشِيِّ) ؛ لأن العَشِيَّ في الأصل من العَشْوَةِ وهي: بداية الظلمة، عند إقبال الليل وإدبار النهار [١]. ويُتَجَنَّبُ الليلُ والسَّهَرُ ما أمكن، إلا لضرورة، فإن الليل وقت تنهد فيه الأبدان وتخلد إلى النوم، وتسأم فيه النفوس وتميل إلى الارتخاء. وإنما الليل هو الجامع لتعب النهار والْـمُفَرِّغُ له، فمن لم يجد عنه بُدًّا فلا بأس به؛ لما ثبت أن النبي ﷺ قد كره السهر؛ إلا لغرض التفقه في الدين والتعلم والتعليم، وهذا منه [٢].

فإذا حضر رواد المجلس، وحلَّ وقت التدارس المعلوم؛ فلا بد من:

الضابط الثالث: وهو مراعاة أدب المجلس، وذلك بالاعتدال في هيئة الجلوس بما يحفظ للعلم وقاره، وللقرآن جلاله. وينبغي أن يكون ذلك بصورة تساعد على حسن الاستماع، وكمال الإنصات، فلا يصح التمدد، ولا الاسترخاء، إلا لمريض أو ذي عذر؛ أو الجلوس بهيئة تخالف الآداب الإسلامية والأذواق العامة.

فالمجلسُ إنما هو مجلسُ قرآنٍ وذِكْرٍ للّٰه تعالى، وقد قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. ومما يساعد على ذلك أن يعمد الجُلَسَاءُ إلى التَّحَلُّقِ في المجلس - ما أمكن - أي جلوسهم على هيئة

---

(١) جاء في لسان العرب: (قال الأزهري: يقع العَشِيُّ على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عَشِيٌّ. فإذا غابت الشمس فهو العِشَاءُ (...) وقيل: العشِيُّ والعَشِيَّةُ: من صلاة المغرب إلى العَتَمَة) (ن. مادة: عشا).

(٢) ترجم الإمام البخاري في صحيحه من ذلك بابين: أولهما: (باب ما يكره من السمر بعد العشاء)، وثانيهما: (باب السمر في الفقه والخير) . وأخرج تحت كل منهما أحاديث عن النبي ﷺ. مما ينتج عنه كراهة السهر بعد صلاة العشاء إلا في الخير من التفقه في الدين والذِّكْرِ، ونحو ذلك.

حلقة، والتقارب بعضهم من بعض؛ لما ثبت في الحديث من فضل التَّحلُّقِ لطلب العلم والذِّكْر، فمن ذلك أن رسول الله ﷺ قال: « **إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا** قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **حِلَقُ الذِّكْرِ** »[١]. وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **إن للَّه سيارةً من الملائكة يطلبون حِلَقَ الذِّكْرِ** » الحديث[٢].

وتلك أيضًا صورة جلسة التدريس، وهيئة حلقة التعليم لدى الصحابة - رضوان الله عليهم - وقد سبق وصفٌ لذلك مما رواه التابعي الجليل أبو رجاء العطاردي - متحدثًا عن أبي موسى الأشعري ﷺ - قال: (تعلمنا القرآن في هذا المسجد - يعني مسجد البصرة - وكنا نجلِسُ حِلَقًا، حِلَقًا، وكأنما أنظر إليه بين ثوبين أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]. قال: وكانت أول سورة أُنزلت على محمد ﷺ)[٣].

ولا بد من مراعاة المرونة في ذلك طبعًا، على حسب هندسة البيت، أو طبيعة المكان المجتمع فيه. فإن لم يمكن التَّحَلُّقُ فلا حرج، فإنما القصد التقارب بين الأجسام لتحصيل تقارب القلوب، واشتراكها جميعًا في النهل من فيض القرآن، والاستفادة من الأنوار اللطيفة، والبركات الخفية، المتنزلةِ رحمةً وسكينةً من عند الله.

الضابط الرابع: عدم الإخلال بمواعيد اجتماعات « مجالس القرآن »، إفراطًا أو تفريطًا. فلا ينبغي التخلف عن عقد اجتماع واحد على الأقل كل أسبوع؛ حتى لا تَبْهَت حقائقُ الإيمان في القلب ولا تَبْلَى. كما لا يحسن الزيادة على ثلاثة اجتماعات على الأكثر في الأسبوع؛ بناءً على منهج التَّخَوُّلِ في الموعظة، أي جعل تزود القلب من الإيمان على فترات منتظمة وغير متتابعة؛ حتى لا يَكَلَّ ولا يَمَلَّ. فعن أبي وائل قال: (كان عبد الله [يعني ابن مسعود ﷺ] يُذَكِّرُ الناسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لَوَدَدْتُ أنك ذَكَّرْتَنَا كل يوم قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكْرَهُ أن أُمِلَّكُمْ، وإني أَتَخَوَّلُكُمْ بالموعظة كما كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها؛ مخافةَ السآمةِ علينا)[٤].

---

(١) رواه أحمد والترمذي والبيهقي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢) قال الهيثمي: (رواه البزار من طريق زائدة بن أبي الرقاد عن زياد النميري، وكلاهما وثق على ضعفه؛ فعاد هذا إسناده حسنًا) (مجمع الزوائد: ١٠/٧٧).

(٣) رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

(٤) متفق عليه.

ويتفرع عن هذا الضابط ضابط آخر، هو:

الضابط الخامس: عدم طول وقت المجلس الواحد بما يخرجه عن حده. فقد أثبتت التجربة أن الوقت المخصَّصَ للمجلس إذا تعدى ساعتين من الزمان؛ انصرف الناس عن قصده الأصلي إلى غيره، وربما إلى ضده من ضروب اللغو والغيبة، وتلك خسارة للمجتمعين وأي خسارة! وأقل ما يحصل للناس عمومًا عند طول المجالس التَّعَبُ المُمِلُّ، والاستثقال الذي يزهدهم في لقاء الحصة المقبلة وعليه؛ فإذا أُكْمَلَ وقتُ اللقاء قرابةَ ساعتين؛ ما بين التلاوة والتدارس والتدبر؛ فيجب ختمه، والانصراف عن المكان المجتمع فيه، على أحسن ما تكون القلوب رغبةً في المزيد من الخير؛ لإبقاء نبض الشوق متواصلًا إلى لقاء أسبوع قادم.

الضابط السادس: احترام قواعد تدارس القرآن العظيم، مما سبق بيانه مفصلًا من التلاوة بمنهج التلقي، والتعلم والتعليم بمنهج التدارس، والتزكية بمنهج التدبر. فالحرص على التزام منهاج النبوة ووظائفها الرئيسة تجاه القرآن الكريم ضمان - بإذن اللَّه - لنجاح العمل التربوي ونضج ثماره. وبهذا نفتح باب الضوابط الخاصة لإدارة المجلس؛ وهي:

الضابط السابع: مبادرة أحد الجلساء من أهل العلم أو أهل الحِلْم؛ لتسيير المجلس. فلا بد لمجلس الخير من شخص ينظم سيره، ويرتب أولوياته؛ تجنبًا للفوضى والارتجال، أو الانزلاق إلى غير أهداف مجالس القرآن العظيم، وقد يكون هذا المسيِّر من أهل العلم، أو من أهل الصلاح والورع عمومًا، ممن لهم حظ من التجربة في المجال الدعوي والتربوي. وقد صَحَّ عن ابن مسعود ﷺ قوله: (المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة) [(١)].

وقد يكون مَنْ كان سببًا في اجتماع المجلس وانعقاده هو من يتولى ذلك؛ بمبادرةٍ منه أو بطلبٍ من إخوانه، أو ربما هو يوكل الأمر إلى من يراه أصلح أو أقوى عليه. ولا مُشَاحَّةَ في هذا، فقد سبق بيان أن هذا البرنامج يصنع أساتِذَتَه، فبعد بضع

---

(١) رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. كما رواه ابن النجار عن أنس ﷺ بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء) . وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات. كما روى نحوه الديلمي عن عليّ ﷺ.

حلقات من لقاءات المجلس؛ سيكون من أهله - بإذن اللَّه - من تفقه في صناعة التربية، وحِكْمِةِ التوجيه؛ بما للقرآن من قدرة ذاتية على إنتاج أهله، ويكون الإنسان قد سلكت له الطريق إلى الربانية.

إلا أن من أهم الضوابط الأساسية المتعلقة بالمُسَيِّرِ؛ في إدارة مجالس القرآن ما يأتي:

الضابط الثامن: أن يعمد إلى إشراك الجميع في عملية التدارس والتدبر؛ فحضوره بالمجلس - إضافة إلى قيمته العلمية والروحية - له قيمة منهجية. فلا ينبغي له أن يتفرد بالكلام، وإنما يحرص على افتتاح المجلس لوضعه على منهجه الصحيح في اتجاه مقاصده التربوية، ثم يقوم بختمه لتصفية نتائجه من الشوائب، أو يوكل ذلك إلى مَن يحسنه. وما بين هذا وذاك يجعل المجلس عبارة عن لقاء حواري ومنتدى تدارسي؛ إذ يجب التفريق والتمييز بين مجلس الدرس العلمي الصرف، أو الخطبة، أو المحاضرة، أو نحو ذلك، وبين مجلس التدارس؛ فالتدارس « مشاركة » كما تدل عليه صيغة (التفاعل) من عبارته. وذلك منطوق الحديث النبوي الشريف، مما سبق إيراده من قوله ﷺ: « **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه؛ يتلون كتاب اللَّه، ويتدارسونه بينهم...** » الحديث [1]. فالدور التربوي للمسيِّر هاهنا هو أنه موجه للقضايا والأفكار، ومحرك للقلوب والمشاعر؛ عسى أن تشارك في إنتاج الخير؛ بما تتذوقه من الآيات، وما تجده من المشاعر والأحاسيس تجاهها، بعد تلاوتها وتفسيرها ومدارستها، ثم ما ترجع به من زاد إيماني بعد تَدَبُّرِهَا، وذلك بمساعدة أفراد المجلس - من خلال حوار المدارسة - على التخلص من مشكلاتهم التربوية، والتخلق بحقائق الإيمان بصورة ذاتية. وما يدريك؟ فَلَرُبَّمَا رجع بعضُهم بأكثر مما رجع به هو من حقائق الإيمان واليقين، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

الضابط التاسع: ومن القواعد التربوية المساعدة على إشراك الجميع: الحِرْصُ على عدم استفحال عدد الجلساء؛ حتى لا يكون جمهورًا غفيرًا؛ إذْ هنالك وجب أن يُولَدَ مجلسٌ قرآني جديد فرع عن الأول؛ لأن الجمهور الكثير إنما تؤطره المحاضرةُ، أو الخطبةُ، أو الدَّرْسُ؛ لا (التَّدَارُسُ)، فهذا إنما هو خاصٌّ بِالْحِلَقِ كما تبين في النصوص السابقة! والحَلَقَةُ لا يتصور انعقادها إلا بأعداد معقولة. وأحسب أن العدد

---

(١) سبق الحديث بنصه مخرجًا.

الذي يمكن اجتماعه لانعقاد الحلقة بصورة نافعة - في منهج التدارس - هو ما لا يتعدى العشرين جليسًا على الأكثر إلا لضرورة. والمجلس المثالي هو ما لم يتعد عدد جلسائه عشرة. وأقل الجمع ثلاثة.

الضابط العاشر: تجنيب الجلساء الدخولَ في الجَدَلِ العقيم، فما أهلكَ كثيرًا من الناس إلا الجدلُ، وفي الأثر عن بعض السلف الصالح: (إذا أراد اللّه بقوم سوءًا سلط عليهم الجدل، ومنعهم العمل) وذلك لِمَا تجلبه المناقشةُ الجدلية على صاحبها من انحراف النية، وفساد الطوية، وعدم الإخلاص في النصح للّه ولرسوله وللمسلمين، وما تورثه بالقلب من الغِلِّ والضغينة على المؤمنين وكفى بذلك مدخلًا خطيرًا من مداخل الشيطان، فليكن المُسَيِّرُ على بالٍ من هذا الأمر؛ حتى لا تضيع جهود الخير سدًى! ويستعان على ضبط هذا المعنى بضابط منهجي آخر، هو:

الضابط الحادي عشر: الإعراض عن اللغو من القول والابتعاد عنه مطلقًا، والتنزه عن سَفَاسِف الكلام؛ فقد وصف اللّه تعالى خواص المفلحين من المؤمنين، فقال جل ذكره وثناؤه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣]. فلا ينبغي أن يخالط مجلس التدارس إلا ما كان من قبيل العلم، والذِّكر، والتدبر، والتفكر، والاعتبار. وإلا أفسد الشيطان عليك مجلسَك وعبادتَك فاستعذ باللّه منه، واترك لغو الحديث وتفرغ لذكر اللّه وحده، وإذا بدر شيء من ذلك من أحد جلسائك فنبهه بأدب وحكمة.

الضابط الثاني عشر: تحديد أهداف المجلس من التدارس، والتذكير بذلك من حين لآخر. وهو تحصيل التزكية للقلب بكتاب اللّه تعالى، والتخلق بأخلاق القرآن العظيم، من خلال مسالك التَّدَبُّرِ والتفكر. وهاهنا لا بد من التنبيه على قاعدة منهجية مهمة جدًّا لهذا الأمر. وهي الحذَرُ من استغراق الوقت كله في التفسير، وتتبع أقوال المفسرين من دقائق اللغات والبلاغة والإعراب، وتفاصيل الخلافات الكلامية، وتفاريع الأحكام الفقهية... إلخ. فكل ذلك وما في معناه إنما يحتاجه أهل الاختصاص، وأما الغرض مما نحن فيه فإنما هو تحصيل الحِكْمَةِ من الآية، وإتاحة الفرصة للتدبر والتفكر؛ للوصول إلى الهُدَى المنهاجي، أي ما تضمنته الآية من الهُدَى الرباني، ومن طرائق التخلق به، وكل ما من شأنه أن تنتج عنه التزكية التي هي غاية

الوظائف النبوية، والتي من أجلها أساسًا أَنزل اللَّه هذا القرآن في نهاية المطاف، مما اطرد بيانه في كتاب اللَّه بيانًا واضحًا، في كل سياق وكل مناسبة. قال جل ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

ولهذا فإنه يكفي في ذلك كله تحصيل المعنى العام للآية، وما أجمع عليه المفسرون منها، أو ما عليه جمهورهم، فلا يؤخذ من المعاني اللغوية والنحوية وكذا الفقهية؛ إلا ما لا بد منه لفهم المعنى الكلي للآية. فلا ينبغي أن ننسى أن غاية (مجالس القرآن) إنما هو التربية والتزكية، أي تحصيل (الرَّبَّانِيَّة) لا تحصيل (العالِمِيَّة). ويكفيك من العلم لتحصيل الربانية ما يعرفك باللَّه رب العالمين، وأما (العالِمِيَّة) فلها سُبُلُها المعروفة عند أهلها، وإنما هذا برنامج مقصود به سَوادُ الأمة وجمهورها العام، لا خصوص طلبة العلوم الشرعية. والآية الضابطة لهذا المنهاج هي قول اللَّه تعالى، الذي تكرر أربع مرات في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] فمن أراد القرآنَ للذِّكْرِ والذكرى والتربية والتزكية؛ فإنما سبيله اليسر والبساطة، ويكفيه من الأدوات اللغوية الأمر العام المُشْتَرك؛ لأنما المقصود هو وضعُ القلب على هدى الآية واتجاهها الصحيح؛ فإذا صَحَّ له الاتجاه فَقَدْ أُذِنَ له آنئذ بالتدبر والتفكر. قال جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

فالهدى القرآني أو (الهدى المنهاجي) [1] من كل آية يتضمن رسالة أو عدة رسالات، هي خلاصة المقاصد التربوية، ومكنز التعاليم الربانية، التي تبني الشخصية الإيمانية للإنسان المسلم، وتسلك به مسالك العبدية للَّه رب العالمين في نفسه ومجتمعه، والتي من أجلها نزلت تلك الآية، والتي هي أساس التزكية وحكمة

---

(١) « الهُدى المنهاجي » هو اصطلاح أستاذنا العلامة الدكتور الشاهد البوشيخي - حفظه اللَّه وبارك في عمره - رائد هذا المنهج في تفسير كتاب اللَّه ومدارسته.

التخلق بالقرآن العظيم. فوجب على المسيِّر للمجلس إذن أن يوجه الحضور إلى محاولة استنباط هذه الحقائق الإيمانية، وإلى محاولة تَلَقِّي تلك الرسالات الربانية، ومحاولة تبين منازلها في النفس، ومواقعها في المجتمع وجودًا وعدمًا، ثم التساؤل عن كيفية التحقق منها تخلقًا، ومعرفة شروط ذلك وأسبابه، وكذا موانعه ومعوقاته، ثم الشروع في علاج لطائف النفس في ضوء ذلك الهدى، وَإعادة بناء عمرانها على موازينه لَبِنَةً لَبِنَةً. ومن هنا وجب على المتدارسين أن يعتمدوا من كتب التفسير ما هو متضمن لبيان رسالات الهدى من كل آية؛ قصد تيسير عملية التدبر والتلقي على المبتدئين (١).

ومن القواعد التربوية المحصِّنة للمجلس من آفة تبذير الوقت، أو إغراقه بدراسة الوسائل دون الغايات، أو بالخلافيات والجدل العقيم: الاعتمادُ على توزيعٍ متوازنٍ للوقت بين سائر مواد المجلس، على حسب أهميتها، بدءًا من التلاوة حتى التدارس فالتدبر؛ بصورة تعطي لكل مادةٍ حقَّها دون أن تطغى على غيرها، ويمكن أن يكون ذلك بصور شتى. فالعبرة إنما هي بالنتيجة، وهي الوصول بالقلوب إلى الدخول الذاتي في جمال القرآن تدارسًا وتدبرًا؛ لتحصيل التزكية. ومن هنا وجب أن يتحلى

---

(١) التفاسير التي جعل أصحابها هذه المقاصد أساس صناعتها قليلة جدًّا. منها كتاب « في ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب رحمه الله، لكن ليس من السهل الوصول إلى مقاصده المنهاجية؛ بسبب ما طبع الكتاب من لغة أدبية عالية جدًّا، ولكون تلك المقاصد بقيت مندمجة في المعاني التفسيرية، ولم يستخرجها صاحبها رحمه الله في رسالات واضحة مستقلة؛ على سبيل التعليم والتقريب، فكأنه تفسير النخبة العالمة والمثقفة. ويلحق به كتاب « التفسير الحديث » لمحمد عزت دروزة، فهذا أيضًا مما نحا فيه صاحبه منحى استنباط الفقه الدعوي المنهاجي لبناء الأمة؛ ولذلك جعل مدارسته للسور مرتبة على حسب تاريخ النزول؛ قصد اكتشاف المراحل الدعوية ولبناتها التربوية.

والمادة المنهاجية موجودة – على الإجمال – في أغلب كتب التفسير القديمة والحديثة، لكنها مغلفة بالقضايا التفسيرية واللغوية والبلاغية، وغيرها من قضايا علوم القرآن، التي حفلت بها كتب التفسير. وإنما القدير على استخراجها هو من له دراية بتلك العلوم.

ومن هنا قدمنا نماذج – في القسم الثاني من هذا الكتاب – لمدارسات تهدف أساسًا إلى تجريد « رسالات الهدى المنهاجي » بشكل مدرسي مبسط؛ للإسهام في خدمة « مجالس القرآن » ؛ ببيان الصورة التطبيقية للتدارس. ويحسن أن يعتمد المتدارسون لكتاب الله تفسيرًا مختصرًا، مما تلقته الأمة بالقبول، كمختصر تفسير الطبري، أو مختصر تفسير ابن كثير، أو غيرهما. والغاية من اعتماد المختصرات – دون المطوَّلات من كتب التفسير – هو الحصول على المعنى الأساسي للآيات دون الغرق في التفاصيل الكثيرة؛ حتى لا تتضخم العملية التفسيرية بالمجلس على حساب التدارس والتدبر.

المُسَيِّرُ بالمرونة - وبالدقة أيضًا - ويوازن بين الوسائل والغايات في تنظيم الوقت؛ لتحقيق هذا الهدف النبيل.

الضابط الثالث عشر: وهكذا فلْيُقْرَأ القرآنُ أولًا مما هو مقصود بالتدارس لذلك المجلس. ويمكن أن تُتداول التلاوة بين جميع الحضور، أو بين أغلبهم، كما يمكن أن يُكْتَفَى بتلاوة أحدهم فقط، حسب ظروف المجتمعين. ولا شك أن تداول التلاوة بين الجميع، وإنصات بعضهم لبعض أَفْيَدُ في التعلم، وأزكى للتدبر، كما أن تكرار الآيات نفسها التي هي مقرر المدارسة لتلك الحصة أَعْوَنُ للقلب على التفقه. والتلاوة - بضوابطها المذكورة من قبل - عبادة رفيعة جدًّا؛ إذْ تُهيئ القلب للتلقي عن اللّه، فلا ينبغي الاستهانة بها وتجاوزها في مجالس القرآن.

وإذا كان بالمجلس من له حظ من علوم التجويد، فَيَحْسُنُ أن يَقِفَ النَّاسَ على تعلم ما يَقْبُحُ جهلُه لتالي القرآن العظيم ومُرَتِّلِه، فيتعلم من ذلك بالتدريج ما يُشْبِهُ أن يكون من المعلوم من علوم التجويد بالضرورة، أي الأساس من قواعد ذلك العلم، لكن دون إغراق المجلس بالقواعد التي قد تستغرق الوقت كله. ولا ينبغي أن ننسى أن لتالي القرآن - وهو عليه شاق - أجرًا مضاعفًا! كما سبق في الحديث. فلا تستغرقْكَ الوسائلُ دون الوصول إلى الغايات، وإنما هي لأجلها وُضِعَتْ.

الضابط الرابع عشر: فإذا تمت حصة التلاوة والاستماع والإنصات إلى كتاب اللّه، كما يليق بكلام اللّه؛ فليشرع في قراءة خلاصة التفسير قراءةً مسموعة هادئة مفصَّلَةً؛ حتى يستوعب أهلُ المجلس مقاصَد الكلام ومراميه، ثم يُشْرَع بعد ذلك في تدارس الخطاب القرآني من خلال ما تَحَصَّلَ في الذهن من معانٍ إجمالية للآيات.

وللدخول العملي في التدارس يحسن اتباع الخطوات المنهجية الآتية:

الضابط الخامس عشر: تَنَاوُلُ قَدْرٍ قليل من الآيات يُشَكِّلُ معنى يحسن السكوت عليه، والوقوف عنده، سواء كان آية واحدة، أو ثلاث آيات، أو خَمْسًا، أو سبعًا، بشرط ألا يتعدى المقدار المدروس من ذلك كله نِصْفَ ثُمُن الحزب، بالتحزيب المتداول للقرآن الكريم، المطبوع في المصاحف بعلاماته المعروفة (١). فَيُقْرَأُ ما ورد فيها من التفسير.

---

(١) وهو ما يقارب - في الغالب - نصف صفحة، من صفحات المصحف المطبوع في الأحجام العادية المتداولة اليوم.

الضابط السادس عشر: يُتَحَقَّقُ من الفهم العام للمعاني التي وردت بها، وأن أهل المجلس على إدراك حسن للمقصود. ويمكن أن تثار الأسئلة حول ما أشكل منها؛ للوصول إلى بيانٍ أشمل وأوضح؛ ولهذا يمكن مراجعة تفسير الآيات المقصودة بالدراسة أكثر من مرة؛ إن اقتضى الحال، فإذا تبين المعنى العام فلا ينبغي الاستغراق في التفاصيل؛ لأن الغاية هي أبعد من مجرد التفسير كما سترى بحول الله.

ولكن لا بد من التنبيه إلى أمر أساس، وهو: أن على المسيِّر أن يحرص على إيصال الفهم السليم للآيات بأبسط العبارات وأسهلها إلى جميع الجلساء، خاصة إذا تبين له أن هناك شخصًا منعزلًا، أو في حالة شرود، لا تبدو على وجهه أمارات الاهتمام والمشاركة النفسية على الأقل فيقوم بذلك هو بنفسه أو بواسطة غيره من جلسائه بصورة حوارية؛ إذْ بغير الفهم السليم لا يكون شيء من المقصود في نهاية المطاف، والله ولي التوفيق.

الضابط السابع عشر: فإذا اتضح المعنى؛ وجب - بعد ذلك مباشرة - الدخول في محاولة التعرف على الهُدَى المنهاجي للآية أو الآيات، وهو عَيْنُ الحِكَم المطلوب تعلُّمُها، مما ورد في آيات وظائف النبوة: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وذلك بمحاولة استنباط الحقائق الإيمانية التي تتضمنها، والأحوال الخُلُقِيَّة التي تُرْشِدُ إليها، ومحاولة عدها باللسان، وإحصائها بالوجدان، وتداول ذلك بين سائر الجُلَسَاءِ؛ حتى ترسخ بالقلب وتتضح صورتها بما يساعد على تَدَبُّرِها.

الضابط الثامن عشر: وبمعرفة ما تيسر من الحِكَمِ والمقاصد نفتح باب التدبر للآيات، والتفكر في خلق الأنفس والأرض والسماوات؛ وذلك لغاية التخلق بأخلاق القرآن الكريم، والاتصاف السلوكي بِحِكَمِهِ العظيمة، فالتفكر والتدبر - إذا خلص كلاهما لله - يورثان التخلق بأخلاق القرآن بصورة تلقائية، وبلا كلفة، كما بيناه من قبل بشواهده. ثم إن التدبر والتفكر أيضًا - بما ينطويان عليه من إبصار للآيات [1] - يساعدان على معرفة السبل الكفيلة بتذليل النفس وترويضها؛ لقبول هذا الخُلُقِ الرباني أو ذاك، والتحلي بتلك الخصلة النبوية أو تلك. كما يساعدان على تشريح النفس تشريحًا إيمانيًا دقيقًا، ومعرفة عللها الباطنية، واكتشاف موانعها الذاتية،

---

(١) لتفصيل معنى « الإبصار » انظر إن شئت كتابنا: بلاغ الرسالة القرآنية.

مما رسخته فيها العوائدُ الفاسدة، والأهواء الباطلة، والشهوات والخطايا، وسائر إلقاءات الشيطان على الإجمال، ومعالجة ذلك كله بما تحصل لديها - بمجلسها ذاك - من أنوار الهدى القرآني.

الضابط التاسع عشر: فإذا تمت مدارسة السورة بأكملها، بهذا المنهج المُجَزِّئ للوحدات أو الفقرات من كل سورة، في مجلس واحد، إن كانت من السور القصيرة جدًّا، أو عبر عدة مجالس إن كانت من السور المتوسطة أو من الطوال؛ **فلا بد - بعد ذلك - من محاولة قطف الثمرات التالية من ثمار المدارسة، وهي:**

أ - التعرف على القضايا الأساسية التي تعالجها السورة على الإجمال، وهي حقائقها الإيمانية الكبرى، التي تدور بفلك المحور الرئيس في السورة. ثم من خلال معرفة تلك القضايا والحقائق يمكن:

ب - التعرف على المحور الرئيس للسورة على الإجمال؛ فلكل سورة من سور القرآن العظيم شخصيتها المستقلة، التي بها تتميز عن غيرها في نظمها السالك لها بِعَقْدِ الكتاب الحكيم؛ لأن هذا وذاك هو مما يساعد - بإذن اللَّه - على التَّمْسِيكِ بالكتاب؛ لأنه يُمَكِّنُكَ - في كل وقت وحين، بالليل أو بالنهار - من المراجعة والتقويم لِخُلُقِكَ وسلوكك، ولمستواك التربوي عمومًا، في ضوء ما تَحَصَّلَ لديك من الحِكَم والحقائق الإيمانية، من هذه السورة أو تلك؛ فضبط المحور الرئيس للسورة، مع ما يدور حوله من قضاياها الأساسية؛ يساعد على طول التدبر للآيات، والتذكر لحقائقها الإيمانية باستمرار؛ حتى بعد انفضاض المجلس؛ حيث تنطبع المعاني الربانية بالقلب الصافي المتجردِ للَّه تجرد افتقارٍ وإخلاص. فإذا اكتمل لديك تدارس القرآن العظيم بهذا المنهج وتكرر؛ صارت خريطته الكلية مرسومة على قلبك بإذن اللَّه؛ لِمَا تلقيت من حقائقه الإيمانية عن اللَّه جل ثناؤه، في مجالس الملائكة، مع جلسائك من (أهل القرآن: أهل اللَّه وخاصته)؛ فلا تتصرف في سلوكك وخلقك بعدها إن شاء اللَّه إلا بخير، وهذا من أهم مقاصد التدارس لكتاب اللَّه تعالى.

وهكذا نجد أنفسنا ننطلق من الجزء إلى الكل، ومن المعاني والحِكَمِ إلى السلوك والأخلاق، ثم من النفس إلى المجتمع، ومن القرآن إلى العمران، وذلك هو عين التزكية النبوية، التي هي مقصد أهل اللَّه من الربانيين والصِّدِّيقِين، والتي هي غايتهم من

تدارس القرآن العظيم، وتدبره بالغدو والآصال، والله الموفق للصواب والمعين عليه.

الضابط العشرون، وهو: الضابط الجامع: والضابط الكلي، الجامع لضمان سير مجالس القرآن ونجاحها هو: الحفاظ على ميثاق القرآن العظيم، والالتزام به بقوة؛ إذ بذلك يعرف الجليس الصادق من غيره. وإنما برهانُ صِدْقِ الجليس، وحقيقةُ انتسابه إلى أهل الله من (جلساء الملائكة) ، ومصداقية ذلك كله متوقفة على مدى التزامه بميثاق القرآن العظيم. وهو عَهْدَان: عَهْدُ فِعْلٍ وعَهْدُ تَرْكٍ.

– **فأما عهد الفعل فهو يتلخص في ثلاث التزامات:**

– **الالتزام الأول**: الحفاظ على أوقات الصلوات المفروضة بالمسجد، من الفجر إلى العشاء؛ إلا لضرورة شرعية، مع تأكيد النفس وتوطينها على صلاة الفجر وصلاة العشاء، والاجتهاد في ذلك كله لإدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام، على قدر الإمكان. [1] فالصلاة هي خير أعمال المسلم على الإطلاق كما تواتر معناه بطرق شتى، وهي العبادة الوحيدة الحاكمة على ما سواها من الأعمال والعبادات بإطلاق إذا استقامت للمؤمن حقيقتُها وانكشف له سِرُّها؛ استقام له كل شيء من دينه ودنياه كما فصلناه بأدلته بمحله، فتأمل [2] ويكفيك من ذلك قوله ﷺ: « **استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** » [3].

– **الالتزام الثاني**: الحفاظ على تلاوة جزء من القرآن الكريم لكل يوم، على الدوام، في الحَضَرِ والسَّفَر سواء؛ حتى يكون ختم القرآن لكل فرد من أفراد المجلس عند نهاية كل شهر. وبهذا يضمن العبد السالك إلى الله زادًا إيمانيًا يوميًّا، ومنهجًا لتذكر حقائق الإيمان التي استفادها من مجالس التدارس القرآني. فالتلاوة المستمرة تذكيرٌ وأيُّ تذكير! لمن ذاق حقيقتَها وشاهد فضيلتَها.

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن صلى لله أربعين يومًا في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى؛ كُتِبَتْ له براءتان؛ براءةٌ من النار، وبراءةٌ من النفاق » رواه الترمذي في سننه، والبيهقي في شعبه، وعبد الرزاق في مصنفه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، بينما حسنه فقط في صحيح الجامع الصغير.

(٢) انظر إن شئت (البلاغ الرابع) من كتاب (بلاغ الرسالة القرآنية).

(٣) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والدارمي، والبزار، والبيهقي، والطبراني. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (٩٥٢).

- **والالتزام الثالث:** الاجتهاد لضم جليس جديد، أو جلساء جُدُد؛ إلى مجالس القرآن، متى سنحت الفرصة، أو إنشاء مجلس جديد على التمام. وتلك نعمة إيمانية - إن أكرمك الله بها - ولا كأيِّ نعمة (١) فالحرص على نشر الخير والدعوة إليه؛ سِمَةٌ أساسيةٌ للمؤمن الصادق، مهما لقي في سبيل ذلك ما لقي من الحرج والعنت.

والآية التي هي الشِّعَارُ الجامِعُ لذلك كله من كتاب الله جل ثناؤه، هي ما سبقت الإشارة إليه من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. تَـمْسِيكٌ بالكتاب أولًا: وهو الأخذ بحقائقه الإيمانية بقوة، وإقامة للصلاة ثانيًا: وهو إحسان أدائها والسير إلى الله عبر مواقيتها، ثم انطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير. ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ولا أفضل في تلك من خدمة كتاب الله تعالى عمومًا! ثم لا أفضل في هذه من خدمته بإقامة (مجالس القرآن)، والدعوة إلى بنائها وتكثيرها في الأمة، ونشرها بين الأُسَرِ والأقارب، وبين الأحباب والأصحاب، سواء في صورة (المجالس الأسرية)، أو في صورة (صالونات القرآن).

والحقيقة أن المؤمن إذا استفاد من (صالون القرآن) بمجلس عام؛ وجب أن يفكر في أبنائه وأهله، وألا يحرمهم من هذا الخير العظيم، ويتفرد هو من دونهم بالتزود من نوره. وإنما منهج الأنبياء والصديقين أنهم كانوا يدخلون نور الإيمان إلى ذويهم أولًا وقد مدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام بذلك، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥].

ومن هنا فالمجلس القرآني الناجح حقيقة، هو الذي استطاع جلساؤه أن ينقلوا التجربة الإيمانية إلى داخل أسرهم؛ بتكوين (مجالس أسرية) للقرآن الكريم، يكون جلساؤها: الأطفال والملائكة فَأَنْعِمْ به من مجلس مبارك إذن! وأَنْعِمْ به من بيتٍ طاهرٍ، أفاض عليه الله بالنور والجمال.

هذا ويمكن أن تتعدد صور إخراج مجالس القرآن وصالوناته، وذلك بتنظيمها - مثلًا - على حسب المهن، أو على حسب الاختصاصات، أو على حسب الأحياء

(١) لقد تم تفصيل الأدلة الدالة على فضل هذه الأعمال الثلاثة في الإسلام بما فيه الكفاية في كُتيِّب بلاغ الرسالة القرآنية. ضمن (البلاغ السابع) .

السكنية، أو على حسب الأعمار، كـ (**مجالس الشباب**) مثلًا.

ومن أهم الصور الضرورية لمجالس القرآن التي ينبغي أن تبادر الأمة إلى إنتاجها: (**مجالس النساء**)، وقد كان ذلك موجودًا ومطلوبًا على عهد رسول الله ﷺ، بل هو الذي أسسها عليه الصلاة والسلام بنفسه، وأشرف عليها بذاته، فقد ترجم الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه: (باب: هل يُجْعَلُ للنساءِ يومٌ على حِدَةٍ في العِلْمِ؟) ثم أخرج بسنده رحمه الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: (قالت النساء للنبي ﷺ: غَلَبَنَا عليكَ الرِّجالُ فاجْعَلْ لنا يومًا من نفسك! فوَعَدَهُنَّ يومًا لَقِيهُنَّ فيه، فوَعَظَهُنَّ وأَمَرَهُنَّ!).. الحديث [1]. ولا شك أن إحياء (مجالس النساء) بتأسيس مجالس قرآنية لهن خاصة هو إحياء للسنة، ووعي عميق بالضرورات المعاصرة لانطلاق الأمة، واستئناف سيرها في بعثة تجديد الدين.

وإنها لدعوة للإيمان، وخدمة للقرآن، وأي خدمة! لمن رام الدخول في أنوار الآية العظيمة: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥]. والله الموفق للخير والمعين عليه.

– **وأما (عهد الترك) فهو يتلخص في أربع التزامات**، وهي تتحقق عند المؤمن بمعاهدة الله ﷻ على ترك الموبقات الأربع – أعاذنا الله وإياكم منها – والانقطاع عنها بتاتًا، فلا يصح سيرٌ إلى الله ولا يستقيم؛ ما دام العبد متلبسًا بها أو ببعضها، وما دام لم يتب منها توبة نصوحًا وعهده فيها هو كما يلي:

– **الالتزام الأول**: معاهدة الله ﷻ على مقاطعة الشركيات والخرافيات، من تعظيم غير الله على جهة التعبد، سواء كان من الأحياء أو الأموات، وسواء كان بشرًا أو حجرًا أو شجرًا أو غير ذلك، فلا يجوز التوجه إلى شيء من ذلك بالدعاء والاستغاثة وطلب قضاء الحاجات. فمن فعل ذلك وقع في الشرك الصريح، وذلك أكبر الكبائر والعياذ بالله! والمؤمن الحق هو من وَحَّدَ الله في طلبه رَغَبًا ورَهَبًا،

---

(١) رواه البخاري.

وأخلص التوجه إليه وحده دون سواه، في الرخاء والشدة، وآمن أنه لا ضر ولا نفع إلا من اللَّه، وعمل على ذلك بصدق وثبات.

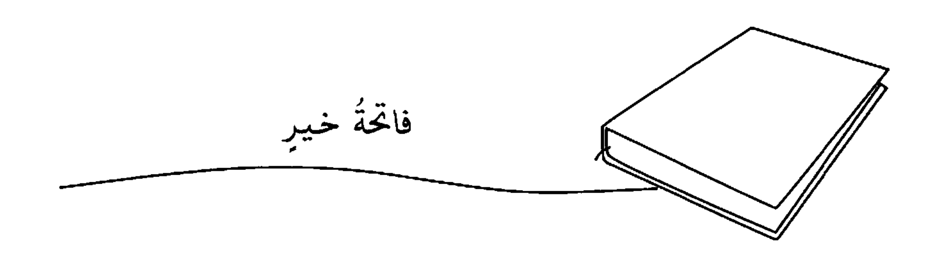
– **الالتزام الثاني**: معاهدة اللَّه تعالى على ترك المال الحرام، وعلى رأسه الربا بكل صوره، وكذلك كل كَسْبٍ حرام، وأكل أموال الناس بالباطل، من رشوة وغيرها.

– **الالتزام الثالث**: معاهدة اللَّه على ترك الزنا، وعدم الاقتراب من طرقه، وأسبابه، ومقدماته، وتجلياته، من مُخَادَنَةٍ، وبَذَاءَةٍ، وعُرْيٍ، وفُحْشٍ في اللباس والكلام والأخلاق...إلخ. وكذا مجاهدةُ النفس على غض البصر، وترك النظر الحرام، لأن النظر الحرام يطمس البصيرة، ويذهب بالحياء، ويطفئ نور التقوى في القلب، ويخسف بجمال الورع في النفس، ثم يمسخ وجه صاحبه وهو سبب كثير من الفساد والبلاء، والعياذ باللَّه! فلا تستهن به.

– **الالتزام الرابع**: معاهدة اللَّه تعالى على ترك الخمر، ومقاطعتها من كل الوجوه بتاتًا: شربها، وإنتاجها، وتجارتها، وسائر الخدمات القائمة عليها بإطلاق! ومحاربة ملحقاتها من سائر أنواع المخدرات.

فإذا ثقلت عليك الانطلاقة إلى اللَّه، ولم ينكشف لك نور القرآن، ولم تتبين لك حقائقه الإيمانية بمجالسه، أو لم تستقم لك الصلوات الخمس على مواقيتها وجماعاتها، أو لم يتخلص لك خشوعُها وجمالُها؛ فراجع نفسك في هذه الموبقات الأربع أو في ملحقاتها وانظر: ما مدى أدائك لحقِّ اللَّه فيها؟ فإنه لا يستقيم للعبدِ سَيْرٌ إلى مولاه؛ ما لم تزل فيه لَوْثَةٌ من هذه اللوثات الأربع! فلتتحرر من عبادة الشيطان أولًا حتى تكون عبدًا للَّه بحق، وتستحق صفة « جليس الملائكة » فإنما « الجلساء » هم الأتقياء وآنئذ يقال لهم ولمن معهم: « **هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم** » كما سبق بيانه في الحديث مفصلًا [1].

(١) لا ينبغي أن يفهم أن هذا الجليس الذي (لا يشقى بهم)، ممن وُصِفَ في الحديث المذكور بذلك؛ أنه امرؤ سوء، أو أنه شخص فاسق أو فاجر ثم مع ذلك صار منهم كلا! فهذا المعنى لا يستقيم، وإنما عبارة الحديث هي قوله ﷺ: « فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان! ليس منهم، إنما جاء لحاجة! فيقول [أي اللَّه تعالى]: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » (متفق عليه) فليس ذلك بمعنى أنه شخص منحرف بالضرورة، كلا قطعًا! وإنما غاية ما يستفاد من العبارة ومن مقتضياتها الدلالية هو أنه شخص=



وبعد:

فهذا مشروع القرآن الكريم بين يديك الآن.. وهذا طريقُه السيَّارُ منفتحٌ على معراج الروح.. وحاجة النفس إلى بصائره مستصرخة مستغيثة خاصة في هذا الزمان إلا أن القرآن لا يفتح أبواب أسراره إلا لمن أقبل عليه بشروطه. وإنما شروطه أمران: إخلاص القصد للّه تعالى، ثم أخذ الكتاب بقوة.

فأما بيان الشرط الأول: فبإخلاص القصد عند بدء السير إلى منازل القرآن، وبتحقيق الصدق في طلب مجالسه؛ يفتح اللّه لك أبواب الخير، ويمهد لك الطريق إلى الجنة، ويوكل بك ملائكة الرضا! وتأمل حديث رسول اللّه ﷺ: « **مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتِمسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللّه له به طريقًا إلى الجَنَّة وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت اللّه يتلون كتابَ اللّه، ويَتَدارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحْمَة، وحَفَّتْهُم الملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّه فيمَنْ عِنْدَهُ ومَنْ أَبْطَأَ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ** »[1] . وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: « **مَنْ سَلَكَ طريقًا يطلب فيه علمًا سَلَكَ اللّه به طريقًا مِنْ طرق الجَنَّة، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحَتَها لطالِبِ العِلْمِ رِضًا بما يَصْنَعُ**

= لم يجلس مع الجلساء لقصد التلاوة والتدارس، أو لقصد التعبد، وإنما جاء لغرض له عند أحدهم فهو ينتظره مثلًا، أو نحو ذلك من المعاني التي لا تقدح في صلاحه ومروءته. وعبارة الحديث لا تمنع أن يكون الرجل من الصالحين؛ ولذلك لحق بهم، ما دام هو الآن جالس في مجلسهم، ولو لغير قصدهم في هذه الساعة وهذا – مع ذلك – لا يمنع أن يقصد قصدهم فيها بالتبع لا بالأصالة، كما يعبر الأصوليون.

(١) رواه مسلم.

وإنَّ فَضْلَ العَالِمَ على العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكَوَاكِبِ، وإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرضِ حتَّى الحِيتَانُ في جوفِ الماء، إنَّ العَلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياء وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دينَارًا ولا دِرْهَمًا، وإنما وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وافِرٍ » [١].

وهل فوق تعلم القرآن - تدارسًا وتدبرًا - عِلمٌ أرقى؟ كلا قطعًا! وهذه شهادة رسول الله ﷺ حاكمةٌ على مراتب الناس من سائر العلوم إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: « **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ** » وله صيغة أخرى: « **إنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ!** » [٢] هكذا على العموم والإطلاق! فلا مجلس أفضل بعد ذلك؛ من (مجالس القرآن) التي نُصِبَتْ بإخلاص لهذه الغاية الرفيعة.

وأما بيان الشرط الثاني: فإن القرآن لا يستقيم سَيْرُ العَبْدِ بين مَسَالِكِهِ إلا إذا أخذه بقوة، ذلك منهج الأنبياء والصِّدِّيقِين. قال الله ﷻ لرسوله موسى عليه السلام: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال لنبيه يحيى عليه السلام: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ [مريم: ١٢] وقال لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]. ثم قال له: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٧، ٢٨].

فـ (الأخذ بقوة) هو: الأخذ بعزم وبحزم، والصبر على حمل الأمانة وثقل الرسالة! والصبر على طول الطريق، والثبات على الحق فالشيطان لك بالمرصاد، يثبطك، ويبطئك عن المضي في طريق الله؛ فالصَّبْرَ الصَّبْرَ على دوام ذكر الله في صحبة الصالحين، ومَعِيَّةِ الربانيين، بمنهج القرآن، وبرنامج القرآن. وإنما الموفق من وفقه الله!

---

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وفي تعليقاته على سننهم.

(٢) رواه البخاري بالصيغتين معًا، عن عثمان رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

فالقرآن العظيم هو عهد اللَّه إلى الناس أجمعين، فهل عقدت عليه عزمَك، وأبرمتَ عليه ميثاقَك؛ أم أنك ما تزال من المترددين؟ نعم لك أن تنظر ماذا ترى؛ ولكن اعلم أن العمر لا ينتظرك، ولا هو ينتظر أحدًا من العالمين وأن الأرض تجري في دورتها الفلكية لتلقي بك عن كاهلها قريبًا، هناك لدى وصولك محطتك الأخيرة، فالبِدَارَ البِدَارَ قبل فوات الأوان.

فلنختم هذا المدخل بما بدأناه به: قول اللَّه جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

فاللَّهم إني عَبْدُكَ، وابْنُ عبدِك وابنُ أمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسْمٍ هو لك، سمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِكَ، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ بهِ في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي.

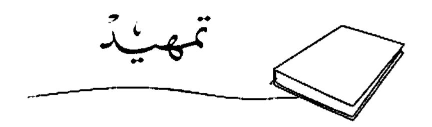
وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

* * *



القسم الثاني: المدارسات القرآنية





الحمد للَّه الذي نزَّل الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأرسل رسوله ﷺ بالْهُدَى كافةً للناس بشيرًا ونذيرًا، وجعله في سماء البشرية كوكبًا دُرِّيًّا وسراجًا منيرًا.

أما بعد:

فهذا هو القسم الثاني من كتاب « مجالس القرآن »، وهو القسم العملي لمشروعنا الدعوي. إنه محاولةٌ لِتَلَقِّي ما أذِنَ اللهُ فيه من رسالات القرآن، وما يسَّره من هُدَاهَا. وذلك من خلال تدارس آياتِه كلمةً كلمةً. وهو نموذج تطبيقي لما يمكن أن يكون أرضية للمتدارسين لكتاب اللَّه تعالى بمجالس القرآن. **أنجزنا منه ما يسر اللَّه من مجالس سورة الفاتحة، وسورة الفرقان، وسورة يس، ثم سورة الحجرات. وقد قصدنا أن نجعل هذا الكتاب متضمنًا لهذه السور الأربع بالذات؛ نظرًا للأمور التالية:**

فأما الفاتحة فهي الباب الأول لكتاب اللَّه، مَوْقِعًا وتدبرًا، وهي سورة الصلاة التي تصحب المؤمن ليله ونهاره، ثم هي صخرة المعراج الأولى الضرورية لكل من أراد التحليق في فضاء القرآن. ومن خلال مدارستها سيتبين لك أنها فعلًا مما ينبغي للمؤمن الابتداء به تخلقًا وتحققًا، عند إرادة الدخول إلى عالم القرآن.

وأما سورة الفرقان - وهي تقع بأواسط القرآن - فقد تبين لنا أنها السورة المعرِّفة بالقرآن الكريم وبدعوته بامتياز! كأن الداخل إليها ينظر إلى قصر القرآن من وسطه، ويتجول في عمارته البديعة يمينًا وشمالًا كما بيناه مفصلًا بمقدمتها. كما أن التخرج بمدرستها الرفيعة كفيلٌ بتأهيل المؤمن لِتَلَقِّي رسالات القرآن، والسلوك بمنازل « عباد الرحمن ».

وأما سورة يس - وهي بوابة الربع الأخير من القرآن - **فهي** مدرسة الدعوة والداعية؛ إذ تضمنت من فقه الدعوة إلى اللَّه وبيان منهاج السير إليه تعالى، قواعدَ رحمانية، ومعالم ربانية، لا حَقَّ لداعية إلى اللَّه أن يكون جاهلًا بها؛ ولذلك فهي جديرة بأن تكون سورة مركزية في التداول التربوي العام والخاص، ومقررًا دراسيًّا

بأقسام الدعوة الإسلامية بكل أصنافها ومستوياتها.

وأما سورة الحجرات - وهي تقف على باب المُفَصَّل - فهي دستور شامل لنظام الأخلاق الاجتماعية في الإسلام الأخلاق بما هي خادمة للأصل الأول من توحيد اللّٰه وتفريده. إنها تَنْفُذُ إلى أعماق النفس الإنسانية بمقارض التهذيب والتشذيب لتستأصل الأنانيات البغيضة، وأمراض الفظاظة والكبرياء، إنها مدرسة ربانية، لا بد للمسلم - أنى كان - أن يتلقى رسالاتها واحدة واحدة، وإلا فشل في الاندماج بمحيطه الاجتماعي.

وأما منهاج هذه المدارسات - كما بيناه قبل مفصلًا بالمدخل - فهو راجع إلى تَلَقِّي رسالات القرآن وبلاغها؛ ذلك أنا وجدنا دعوة محمد بن عبد اللّٰه ﷺ إنما قامت على هذا المنهاج، وأن الدين - كل الدين - إنما هو دائر على تَلَقِّي رسالات اللّٰه والدخول تحت ابتلاءاتها تخلقًا وتحققًا، وعلى ذلك استمر الصحابة من بعده ﷺ، وعليه سار خيار التابعين وكبار الأئمة المجددين عبر التاريخ فلا عبادة للّٰه إلا بتلقي رسالاته، ولا دعوة إلى اللّٰه إلا ببلاغ رسالاته، ولا تجديد لدين اللّٰه إلا بتجديد التلقي لرسالاته، ولا حياة إيمانية إلا بالتخلق بحقائقها في النفس وفي المجتمع فماذا بقي بعد ذلك من الدين خارج رسالات القرآن؟

وإنما السعيد من أكرمه اللّٰه بالاشتغال بالقرآن الكريم، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا وتعليمًا؛ إذ ذلك هو مجمل وظائف الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وعلى رأسهم سيدنا رسول اللّٰه ﷺ. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وتلك هي مَدَارَاتُ رسالات القرآن تَلَقِّيًا وبلاغًا فطوبى لِعُمُرٍ عَمَرَهُ صاحبُه بهذه المعاني العظيمة! وطوبى لعبد حمل هذه الرسالة الربانية؛ فكان بذلك من (أهل القرآن أهل اللّٰه وخاصته) [١].

ولقد تهتُ زمنًا طويلًا في طريق البحث عن الحق في الشأن الدعوي على العموم، حتى مَنَّ اللّٰه بالْهُدَى، ولقد وجدتُ الهدى كل الهدى في كتاب اللّٰه، وبمجرد أن

(١) حديث صحيح، رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢١٦٥).

فتح اللَّه بفضله البصيرة على القرآن اكتشفتُ أدواءَ نفسي المريضة، ففزعت من هول عللها الكثيرة وجروحها الغائرة، ووجدتُ أنني أنا المعني الأول بدعوة القرآن وأدويته فطرقت باب الرحمن مستغيثًا: رَبَّاهُ أنا المريض فداوني! فماذا أَعَلُّ من قلبي الكليل؟ ومن ذا أَهْلَكُ من نفسي المغرورة؟!

ثم وجدت أنه لا نور للمرء إلا بإشعال فتيل قلبه بمواجيد القرآن نبضًا نبضًا على وِزَانِ قول رسول اللَّه ﷺ: « **شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخواتُها** » (١) وأن من لم يكابد حقائق القرآن لهيبًا يُحَرِّقُ باطن الإثم من نفسه فلا حظ له من نوره.

ورأيت أن أول ما ينبغي أن أواجهه بهذه الدعوة هو كبرياء نفسي الخفي، وغرورها الباطن، وأن أول الطريق إلى اللَّه هو تحقيق « العبدية » الخالصة له وحده جل علاه وأن ما دون ذلك من المسالِك إنما هو مَحَالِكُ ومَهَالِك.

ووجدت أن تلميذ القرآن لا يكون « أستاذًا » أو « زعيمًا » أبدًا! (٢) فالقرآن العظيم كلام اللَّه رب العالمين، وما كان للمتلقي الحق عنه إلا أن يكون عبدًا وإنها لنعمة عظمى أن يبقى المؤمن حياته كلها تلميذًا بين يدي ربه الكريم تقدست أسماؤه وذلك أول خُلُقِ سيدنا رسول اللَّه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « **آكُلُ كمَا يأكلُ العبدُ، وأجلس كما يجلس العبدُ** » (٣).

ووجدتُ هذه التجربة الروحية مؤلمة جدًّا! فقد كانت النفس مغرورة بترهات « علم الكلام الحركي! » وكانت حُجُبُهَا من ذلك كثيفة جدًّا، وكانت جراحاتها بسببه عميقة جدًّا فما أصعب الانتقال بالنفس من « أَنَاهَا » إلى « فَنَاهَا ».

وما وَجَدَ رسولُ اللَّه ﷺ نجاتَه إلا في الاعتصام برسالات ربه بلاغًا، وهو صريح قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣] فأدى بلاغَ كلمات ربه ﷻ ، وبلغ على أتم ما يكون البلاغ؛ استجابة لأمره العظيم:

---

(١) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) المقصود هنا الأستاذية المنتفخة بداء الغرور. والزعامة المتورمة بمرض الكبرياء.

(٣) رواه ابن سعد، وأبو يعلى، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ومن هنا جاء الثناء الرباني الكريم نورًا خالدًا يحلي الربانيين ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وما أن أبصرتُ هذه الحقيقة الجميلة والمؤلمة في الوقت نفسه؛ حتى اكتشفت هول ما ضيعت من العمر خارج مدار رسالات القرآن، وحجم ما خسرت من السير خارج فَلَكِ نور الإيمان.

وشاهدت بعد ذلك معنى قول رسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام - في دعائه الكريم: « **أسألك أن تجعل القرآنَ رَبِيعَ قلبي** » (١) والرَّبِيعُ في العربية: هو جدول الماء المتدفق على البطاح والسهول! فما أجمله وما أجَلَّهُ من دعاء! فأن يكون « القرآن ربيع القلب » معناه: أن يكون القرآن هو نبع الماء الصافي المتدفق الرقراق، الذي يسقي الروحَ بنور اللَّه، فماذا يبقى بعد ذلك بهذا القلب من الهم والغم؟ وماذا يبقى به من الدَّرَنِ والضلال؟ أو من الأوجاع والأدواء؟ ولذلك كانت تتمة الدعاء هكذا: (**ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**) (٢).

ومن هنا لم يعد لنا من مورد في التلقي لرسالات اللَّه سوى كتاب اللَّه. وقد يسر اللَّه أن صارت لنا مجالس مع القرآن الكريم في بعض المساجد، ومجالس أخرى مع بعض الأحبة من أشياخنا وإخوتنا في اللَّه، ممن أكرمنا اللَّه بمدارسة بعض سور القرآن وآيه بمعيتهم، فكانت هذه التقييدات التي يرجع الفضل فيها - بعد اللَّه - إلى ما أكرمنا اللَّه به من إشاراتهم وعباراتهم، فما كان مني إلا أن جمعت ما يسر اللَّه

---

(١) مختصر من حديث رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٣٥٢٨).

(٢) والنص الكامل للحديث هو: عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما أصابَ أحدًا قطُّ هَمٌّ ولا حزنٌ فقال: « اللَّهم إني عَبْدُكَ وابْنُ عبدِك وابنُ أمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِكَ، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ بهِ في علم الغيبِ عندك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي! » إلَّا أذهبَ اللَّهُ همَّه وحزنه، وأبدله مكانَه فَرَجًا قال: فقيل: يا رسول اللَّه ألا نتعلمها؟ فقال: « بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها! ».

جمعه في هذه الورقات من « رسالات القرآن »، حتى اكتمل هذا البريد الأول منها. فبعثنا به إلى كافة المؤمنين؛ عسى أن تعم حكمةُ القرآن العظيم، فتمسي سُرُجًا تنير طريق السالكين، وعسى أن يتم التنبيه على منهاجه الدعوي الكريم. فطوبى لمؤمن مخلص للَّه، أكرمه اللَّه بحمل رسالات اللَّه، أخذًا من كتاب اللَّه؛ فأَحْسَن التَّلَقِّي وتَفَانَى في البَلاغ ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

وأما طريقة عرض مادة هذه الرسالات فهي قائمة على المنهج التالي:

أولًا: تقديم: وذلك بتقديم السورة المقصودة بالمدارسة تقديمًا كليًّا، يلخص قضيتها، ويعرف بشخصيتها.

ثانيًا: المجالس: حيث يتم تقسيم السورة إلى مجموعة من « المجالس » مرقمة بشكل ترتيبي، وجعل كل « مجلس » مقتصرًا على مجموعة من الآيات، مما يشكل وحدة متكاملة في ذاته من جهة؛ ومما يمكن استيعاب رسالاته في مجلس واحد من جهة أخرى، أي مما تطيق الفطرة البشرية تلقيه من الرسالات القرآنية والحقائق الإيمانية، تخلقًا وتحققًا في مجلس واحد! على نحو ما كان ينزل من الآيات مُنَجَّمًا - في عهد الرسالة - على قلب رسول اللَّه ﷺ؛ ولذلك فقد كانت أغلب المجالس تتمحور مدارساتها على نحو خمس آيات أو سبع، أو ما يقارب هذه أو تلك، وربما اقتصر المجلس على مدارسة آية واحدة فقط إذا تبين لنا أنها تحمل من الرسالات ما يستلزم وقتًا أطول لتلقي حقائقه الإيمانية، وذلك على حسب ما مَنَّ اللَّه به من تلقي رسالاتها المنهاجية كَمًّا وكَيْفًا.

ثالثًا: كلمات الابتلاء: وقد سمينا مجموع الآيات التي هي موضوع الدرس: « كلمات الابتلاء »؛ باعتبار أن القرآن الكريم كلام اللَّه، وأن آياته من « كلماته » جل علاه، بما لهذا اللفظ في القرآن من عمق دلالي يرتبط بمعاني السَّعة والشمول من جهة، كما هو واضح من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقوله سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

ثم بما لعبارة « الكلمات » - من جهة أخرى - من ارتباط بحقائق الابتلاء

للإنسان المتلقي لها « فكلمات اللّه » المنزلة هي حقائق الابتلاء، ومعاني التكليف التعبدي بهذا الدين، في العقائد والعبادات والتصرفات؛ ومن هنا كانت مقتضياتها ثقيلة: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] وعلى هذا جاء قول اللّه تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]. فقد كانت الكلمات التي تلقاها إبراهيم عليه السلام هي الابتلاءات الإيمانية التي امتُحن بها، وكان من الفائزين الكمَّل، كما كانت الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي عبارات التوبة وحقائقها الوجدانية؛ فكان من المسارعين إلى ربه تائبًا إليه منيبًا ومن هنا كان القرآن كله « كلمات »: أي آيات للعمل والتطبيق، وحقائق للابتلاء والتكليف! لا مجرد كلام للقص أو التأريخ، بل هو عمل وامتحان والناس إزاءه بين مُتِمٍّ لكلماته أو مُقَارِبٍ أو خَائِنٍ، إذ كل كلمة من كلمات اللّه إنما تُتَلَقَّى رسالتُها من هذا القرآن، من خلال الدخول في ابتلاءاتها تخلقًا وتحققًا. ولا يتم ذلك للنفس إلا بمكابدة ومجاهدة ومن هنا ثقل الابتلاء التربوي بهذا القرآن.

وقد كابد الرسول ﷺ تلقي القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة! وكابد معه أصحابه – رضوان اللّه عليهم – مكابدة؛ حتى تحققوا من « مَعِيَّتِهِ الإيمانية » ﷺ خُلُقًا ربانيًا رفيعًا؛ وبهذه السيماء مدحهم اللّه تعالى وأثنى عليهم في القرآن، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يكن القرآن في حياة الرسول وصحبه مجرد مرجع قانوني، ولا مجرد توثيق للأخبار والحقائق التاريخية، ولا مجرد قصص لإشباع فضول المعرفة البشرية كلا! كلا! بل كان كتابَ اللّه الكامل الشامل، الحامل رسالاته إلى الناس أجمعين؛ ابتلاءً لهم بحقائقها قولًا وعملًا، ومنهاجَ حياة يسلكونه في الأرض، على مستوى كل نفس في نفسها خاصة، وعلى مستوى الاجتماع العمراني البشري عامة، على سبيل التعبد، توحيدًا وتفريدًا للّه الواحد القهار! ودون ذلك ما دونه من ثقل الأمانة وشدة وقعها على النفس، ومن ثَمَّ لم يكن من السهل على الإنسان أن يتلقى رسالات هذا القرآن

جملة واحدة! بل كان من رحمة اللَّه بالعباد أن نزَّله عليهم عبر رسالات تترى، الواحدة تلو الأخرى، آيات آيات. ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] وذلك حتى يكون لكل كلمة أثرها الفعلي في الأرض، على مستوى الممارسة البشرية والتنفيذ التعبدي، وهو معنى « الكلمات ». فمن استجاب لابتلائها كانت له صِفَةً وخُلُقًا، ومن خانها لم يكن منها ولا كانت منه في شيء وعلى هذا المعنى جاء قولُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حق رسول اللَّه ﷺ: « كانَ خُلُقُهُ القرآن » (١). وبذلك المنهاج الرباني العظيم تم بناء المجتمع الإسلامي الأول، على عهد سيدنا محمد ﷺ.

ذلك هو القرآن وتلك هي كلماته، ومن رام الاشتغال بدعوته خارج هذه الحقيقة المنهاجية العظمى فقد رام المحال.

رابعًا: البيان العام: بعد عرض كلمات المجلس للتلاوة والتدبر، نورد خلاصة تفسيرية تحت عنوان: « البيان العام ». والمقصود بالبيان العام هاهنا: عرض خلاصة ما قاله المفسرون في الآيات موضوع الدرس، وما مَنَّ اللَّه به إزاءها من معان، وذلك بمنهج يرمي إلى التلخيص والتيسير، دون الإغراق في الجدل الكلامي، أو الاستطراد اللغوي، أو التفريع الفقهي، إلا ما دعت إليه ضرورة البيان؛ إذ الهدف إنما هو تلقي الحقائق الإيمانية والرسالات القرآنية، قصد تيسير العمل بها.

خامسًا: الْهُدَى المنهاجي: إذا تم ذلك انتقلنا إلى عرض ما يسر اللَّه تَلَقِّيهِ من الْهُدَى الوارد في تلك الآيات، وذلك من خلال تخصيص فقرة من تصميم الدراسة تحت عنوان: « الْهُدَى المنهاجي » (٢). والمقصود بالهُدى المنهاجي: هو ما تحصل للقلب من الكلمات المتلوة أعلاه - بعد التدبر - من رسالات منهاجية، توضح خطوات السير القلبي إلى اللَّه دينًا ودعوة، تعرفًا إليه وتعريفًا به تعالى، وتبين مسلك بناء الشخصية الإسلامية في كل ما يلزمها من معانٍ تعبدية وعمرانية، مما جاء هذا القرآن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) هو من اصطلاح أستاذنا - وأستاذ الأجيال - الدكتور الشاهد البوشيخي، رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليمًا ودعوةً.

لبنائه في الإنسان فردًا وجماعةً، في طريق إخراج الأمة المسلمة. ومن هنا فإننا نعمد إلى تقسيم حقائق « الهدى المنهاجي » إلى مجموعة من « الرسالات »، نعرضها الواحدة تلو الأخرى تحت عناوين مستقلة؛ تيسيرًا أيضًا لتلقي أحكامها وحِكَمِهَا؛ فكل رسالة تشكل في نفسها ابتلاءً عمليًا، أو خطوة إيمانية من خطوات إصلاح النفس، ومدرجًا من مدارج الترقي بمعارج القرآن، سيرًا إلى الله تعالى رَغَبًا ورَهَبًا (١) .

سادسًا: مَسْلَكُ التَّخَلُّقِ: ثم نُعَرِّجُ في آخر كل مجلس على بيان المسلك العملي للدخول في تلك الحقائق الإيمانية جميعًا، والمنهاج التطبيقي الميسر الذي يُمَكِّنُ القلب من التخلق بما تلَقَّى من رسالات الهدى. فجعلنا ذلك بعد - عرض « الرسالات » - في فقرة خاصة، تحت عنوان: « مسلك التخلق ». وهكذا نمضي حتى نهاية السورة.

سابعًا: خاتمة: حتى إذا كان المجلس الخاتم جعلنا بعده مباشرة « خاتمة »، ترجع على أهم حقائق السورة المدروسة بالتذكير، مع النظر في علاقتها بالنفس تحقيقًا وتقويمًا.

وبهذا وذاك نرجو أن يتم للمؤمن « تَلَقِّي » حقائق القرآن، وقد سبق لنا تفصيل منهج التلقي لكتاب الله، عرضناه بمحله (٢)؛ إذ التلقي للآيات هو غير التلاوة التبركية العامة، بل هو أعمق من ذلك، إنه تفاعل وجداني مع حقائقها الإيمانية، ودخول فعلي تحت ابتلاءاتها الربانية؛ بما يُخْضِعُ النفسَ لمشارطها ومقارضها تشذيبًا وتهذيبًا فهي بذلك إذن تَخضع لعمليات جراحية روحية، تستأصل زوائد الأمراض وخبائثها من أعماق القلب؛ تخليصًا له من أهوائه الضالة وعاداته الفاسدة عسى أن يخرج بذلك عن داعية هواه، فيكون عبدًا خالصًا لله.

ومن هنا فمَنْ تحقق بتلقي كلمات الله من القرآن؛ فقد تحقق بأهم مفتاح من مفاتح القرآن وإنما يُنال ذلك كله بشرطين، **أولهما**: الصبر على المكابدة، **وثانيهما**: إخلاص قصد السير إلى الله وإنه ليسير على مَن يسره الله له وأكرمه بِهُدَاه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) إيرادنا للرسالات المستنبطة من الهدى المنهاجي لا يعني الحصر طبعًا، بل استنباط المزيد من رسالات الهدى بابه مفتوح إلى يوم القيامة؛ لأن كلمات الله ﷻ لا يحدها حد.

(٢) ن. (الخطوات المنهجية الثلاث لتدارس القرآن) بالمدخل.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اللَّهُمَّ مغفرتُك أوسع من ذنوبي، ورحمتُك أَرْجَى عندي من عملي.

وصلَّى اللَّه وسلَّم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

من التلقي إلى البلاغ

القسم الثاني: المدارسات القرآنية

١ - سُورَةُ الفَاتِحَةِ

وهي مكية ، وعدد آياتها (٧)،

وهي تتضمن خمسة مجالس





١ - هذا القرآن هو الكتاب!

إن أعظم حقيقة في هذا القرآن هي أنه كلام الله.

وكفى بها حقيقة وجودية كبرى تملأ القلبَ رَهَبًا.

كلام الله.. وما أدراك ما كلام الله قال ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

اللهُ ﷻ رب العالمين، خالق السماوات والأرضين، مالك الملك والملكوت، الحي الذي لا يموت، مبدع هذا الوجود كله، غيبه وشهادته، رب الخليقة كلها، إنسها وجنها وأملاكها، وما دون هذه وتلك من كائنات ومخلوقات، مما لا يحصره عد ولا يحيط به خيال. هذا الرب العظيم خالق كل شيء، هو سبحانه يتكلم بهذا القرآن من فوق سبع سماوات ثم يرسله إلى الإنسان في الأرض وحيًا منه تعالى.. ألا إنه لنبأ عظيم! وإنه لتنتصب بين أيدينا هاهنا حقيقتان كبيرتان، لا يحيط بهما عقلٌ ولا يطيقهما وجدان.

أما الحقيقة الأولى: فهي في تَلَقِّي كلام الله نفسه! فعندما تدخل القلوبُ عالَمَ القرآن تاليةً لآياته، ومتلقيةً لرسالاتِه، وتدرك أن المتكلم به إنما هو الله، تنبهر بهذه الحقيقة الكبرى وتنفتح لبصائرها أبوابُ القرآن مشاهدات من نور، تهبها معرفة رفيعة بالله! فلا تملك آنئذ إلا السجود خاضعة بين يديه ﷻ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]. وكيف لا؟ وها هم أولاء يرون هذا الوجود العظيم حولهم، من ذراته إلى مجراته، إلى ما فوق ذلك من طبقات سماواته، يمتد بِسَعَتِهِ وعجائبه إلى ما لا يحيط به خيال، ثم يجري الفكر عبثًا في محاولة تتبع امتداداته، يجري ويجري.. حتى تنقطع أنفاسُه ثم لا يدرك مداه! ويبقى لاهثًا ما بين عَالَمَيْ الغيب والشهادة، لا يدري لفهم هذا

الوجود مفتاحًا لا كيف مبتدؤه ولا كيف منتهاه! ولا عن مصيره أنَّى مُرْسَاه! ثم يُؤخذ بعد ذلك بهذا القرآن ليتلقى أسرار الحقائق، وحيًا من رب هذه العوالم جميعًا. اللَّه أكبر! أَوَليس ذلك مما يملأ القلبَ رَهَبًا؟ وإنه لا يستهين بذلك إلا جاهل باللَّه! ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]

وأما الحقيقة الثانية: فهي تكريم اللَّه للإنسانية بكلامه وإنه لتكريم وأي تكريم! فاللَّه ﷻ وهو خالق كل شيء، الملك العظيم، الذي لا يحيط بوصفه الواصفون سبحانه! ولا يحصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو تعالى كما أثنى على نفسه! هذا الملك العظيم ذو الجلال، يتكرم بفضله وإحسانه؛ فيتكلم إلى هذا المخلوق الضعيف، الإنسان! هذا العبد القابع في كوكب الأرض، الكوكب الذي لا يساوي مقدار ذرة صغيرة في عالم الملك والملكوت! فيجعل له ربُّه صلةً به تعالى، صلة ترفعه وتعليه إلى المقام الأعلى، رحمةً منه تعالى وفضلًا، وما كان للإنسان أن ينال شيئًا من ذلك لولا تكريم اللَّه له بكلامه، قرآنًا عربيًا يتلى على ألسنة بني آدم وكلامًا رحمانيًا سَلْسًا مُيَسَّرًا، وصدق ابن عباس رضي الله عنهما عندما قال: (لولا أن اللَّه يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام اللَّه ﷻ) (١).

ثم إنه لعجيب عجيب! أن يكون بين يدي الإنسان كتابٌ هو كلام اللَّه رب العالمين، كلام فيه من أسرار الربوبية ما يزلزل كيان الإنسان، ويكشف عن أعماق فطرته، ولو توارت في ظلماتها تحت طبقات الشرك والضلال، وقد سبق قوله تعالى في هذا التحدي العجيب: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

ثم بعد هذا وذاك، تتفرد هذه الأمة من دون العالمين بحيازتها لهذا الكتاب، الكتاب الذي هو وحده الآن في الأرض - كل الأرض - كلام اللَّه، فأي رفعة هذه وأي خصوص، ولا وثيقة دون هذا القرآن يستطيع أصحابها إثبات شيء من ذلك، فلم يبق شيء سواه يحقق الصلة الحقيقية بين الإنسان ورب العالمين، تَعَرُّفًا وعبادةً!

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/٣٣٧).

ذلك هو هذا القرآن، كلام اللّه!.. فما أَجَلَّهَا من حقيقة وأعظمها!

وهو - بعد هذا وذاك - كِتَابٌ، بل هو « الكتاب »؛ لأن له كمالًا بنائيًا في ذاته شكلًا ومضمونًا، بما يجعله أكمل كتاب. وهو مكتوب في صورتين: الأولى عند اللّه تعالى في سجل الغيب باللوح المحفوظ: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. والثانية هي التي عند الناس في المصاحف، وهي نسخة مطابقة للأصل على التمام والكمال! وهي مضمونة الحفظ في الأرض أيضًا، تمامًا كما هي في السماء! ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

والكتاب الذي في اللوح المحفوظ في علاقته بالإنسان، أي من حيث هو وحي تَنَـزَّلَ عليه في الزمان - بإذن اللّه - له قصة عجيبة جدًّا! تجعل المؤمن يزداد انبهارًا بهذا القرآن، بما لا يبقى له في وجدانه قوة لاحتضان تدفق أنواره، إلا أن يخر على الأرض صَعِقًا، وبيان ذلك هو كما يلي:

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - ممن بُعِثُوا قبل سيدنا محمد ﷺ إنما أوتوا بعض الكتاب الذي في اللوح المحفوظ، وليس كل الكتاب. وأن هذا النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام -، هو وحده الذي أوتي كل الكتاب [١] وأن أمته ﷺ هي التي جمع اللّه لها الكتاب الكامل الذي في السماء، أعني كتاب الوحي خاصة. بينما لم تؤتَ الأممُ السابقة إلَّا بعضَ الكِتَاب، على ما اقتضته الحكمة الإلهية من إعطاء كل أمة من العلم والحكمة على قدر حاجتها، إنسانًا وزمانًا ومكانًا؛ ولذلك لم يكن إكمال إنزال الكتاب من اللوح المحفوظ إلى الأرض، إلا مع هذا النبي الخاتم محمد بن عبد اللّه - عليه الصلاة والسلام - لتكون دعوتُه بذلك عالميةً إلى الناس كافة، ومستمرة إلى يوم الدين! مما لم تتسم به دعوة قبلها في التاريخ، فكان ذلك من خصائصه عليه الصلاة والسلام [٢] .

والدليل على ذلك ما ورد في كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ من أخبار، بعضها

---

(١) سمعته من أستاذنا الشاهد البوشيخي - حفظه اللّه - على أنه من اجتهاده وثمرة تدبره.

(٢) قال عليه الصلاة والسلام: « أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة! وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة » متفق عليه.

ظاهر الدلالة على ذلك بقوة. منها قوله تعالى بعد ذكر الكتب السابقة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] فجعل القرآن هو (الكتاب) وجعل ما بين يديه (من الكتاب)، ولذلك جعل الكلي مهيمنًا على الجزئي.

ومن هنا يكون ما ورد في القرآن والسنة من نسبة اليهود والنصارى إلى « الكتاب »، هكذا بعمومه؛ حيث وُصِفُوا في غير موطن بأنهم: (أهل الكتاب)، هو من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء.

ومن تأمل موارد النصوص القرآنية والحديثية، المتحدثة - في مساقات مختلفة - عن التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، ظهر له هذا واضحًا، وظهر له أن الكتب السابقة لم تكن - حتى من حيث الحجم - بِقَدْرِ القرآن سعةً، بل كانت أقل منه بكثير.

وقد نص النبي ﷺ على ذلك نَصًّا فيما يتعلق بالزبور، وسماه قرآنًا؛ لأن أصل الكتب كلها واحد، وهو كلام الله المكتوب في اللوح المحفوظ، قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري: « **خُفِّفَ على دَاوُدَ القرآن؛ فكان يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القرآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ** » [١] فواضح جدًّا أن الزبور لم يكن يتعدى في الغالب حجم بضع سور من « المئين »، كما ستأتي الإشارة إليه في حديث آخر.

ولم تكن التوراة بأكبر من ذلك بكثير؛ فهي لا تتعدى في مجملها حجم السبع الطوال ذاتها من القرآن الكريم، كما سيأتي بيانه؛ ولذلك فقد جمعها الله لموسى عليه السلام في بضعة ألواح حملها في يده، ولو كانت مثل حجم القرآن لاحتاج عليه السلام في نقلها - وهي في الألواح - إلى حمل بعير، وواضح من حركته بها وهي في يده أنها لم تكن كثيرة، ومن تدبر كيف ألقاها ساعةَ الغضب - عندما عَايَنَ ما انحرف إليه بنو إسرائيل من عبادة العجل بعده - أدرك أنها كما وصفنا. قال الله تعالى: ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وقد نص الحديث الشريف على أنه كان إلقاءً شديدًا أدى إلى انكسارها! وهو قوله ﷺ: « **ليس الخَبَرُ كالـمعَايِنةِ: إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صَنَعَ قومُه في العِجْلِ، فلم يُلْقِ الألواحَ. فلما عَايَنَ ما صَنَعُوا**

---

(١) أخرجه البخاري.

أَلْقَى الألواحَ؛ فَانْكَسَرَتْ » [١].

وفي حديثٍ آخر صحيحٍ دلالةٌ ظاهرةٌ جدًّا، على استيعاب القرآن الكريم لكل الكتب السابقة، توراةً وزبورًا وإنجيلًا، بل إنه قد فَضُلَ عليها بما ليس فيها جميعِها فعن وَاثِلَةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال: « **أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطُّوَالَ، وأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ المِئِينَ، وأُعْطِيتُ مَكَانَ الإنجيلِ المَثَانِي، وَفُضِّلْتُ بالمفَصَّلِ** » [٢] وهذا ظاهر في استيعاب القرآن لكل الكتب السابقة مضمونًا وحجمًا [٣].

قال الإمام القرطبي: (إن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته، ويستغرق ما فيهما، ويزيد عليهما ما ليس فيهما.) [٤] وقال ابن كثير: (فهو أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب، وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله من الكمالات ما ليس في غيره. فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] [٥].

فمن أراد أن يقرأ التوراة الحق فهي في القرآن، ومن أراد أن يقرأ الزبور الحق فهو في القرآن، ومن أراد أن يقرأ الإنجيل الحق فهو في القرآن، ومن أراد أن يقرأ القرآن كاملًا فهو في القرآن، فالقرآن هو « الكتاب » بشموليته الاستغراقية، كما تشير إليه الآية الأولى من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وهو « القرآن العظيم » الممنون به خصوصًا - مع السبع المثاني وهي منه - على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

وقد تواترت النصوص على العموم في تفرد القرآن الكريم بآيات وسور، مما لم ينزل

---

(١) أخرجه أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، عن ابن عباس مرفوعًا. وصححه الألباني: حديث رقم: (٥٣٧٤) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، بينما حسنه في السلسلة الصحيحة. وحسنه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٣) لا حجة في أحجام « الكتب المقدسة » الموجودة الآن؛ لأنها مليئة بالزيادة والتحريف.

(٤) جامع القرطبي: (١/٢٠٣).

(٥) تفسير ابن كثير: (٢/٦٦). طبعة دار الفكر بيروت: (١٤٠١هـ).

قط على نبي من الأنبياء قبل محمد ﷺ، كما هو الشأن في سورة الفاتحة وأواخر سورة البقرة [(١)] ، وكثير من السور والآيات الأُخر، مما هو مضمن في المفصل وغيره.

فالقرآن إذن هو الكتاب الكامل. كتابٌ بما لكلمة « كتاب » من معنى جامع مانع، بناءً وتنظيمًا وترتيبًا وقراءةً. قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨]. ومعنى « جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ » كما عند البخاري في صحيحه: « الجمع والتأليف ». قال رحمه الله نقلًا عن بعض السلف: (سُمِّيَ القرآنُ لجماعةِ السُّوَرِ، وسُمِّيتِ السورةُ؛ لأنها مقطوعة من الأخرى. فَلَمَّا قَرَنَ بعضَها إلى بعضٍ سُمِّيَ قرآنًا (...) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾: تَأْلِيفَ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ. ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾: فَإِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَلَّفْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، أي: مَا جُمِعَ فِيهِ) [(٢)] وصرح الإمام الطبري في تفسيره بنقل مثل ذلك عن قتادة، أي أنَّ معنى (« جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » قَالَ: حِفْظَهُ وَتَأْلِيفَهُ) [(٣)].

إنه إذن كتاب له فصول على طريقته، وله أقسام على منهاجه، وله مقدمةٌ وخاتمةٌ على وِزَانِه. وهو ليس على أشكال الكتب، ولكنه هو « الكتاب »، كتاب الله رب العالمين، وحديثُ وَاثِلَةَ رضي الله عنه المذكور قبل، واضح في هذا التقسيم المتكامل والتبويب العجيب؛ **فالقسم الأول:** هو السَّبْعُ الطِّوَالُ، وهي من سورة البقرة إلى سورة الأعراف. **والقسم الثاني:** هو المئون، وهي السور التي يبلغ عدد آياتها مائة، وقد تزيد أو تنقص قليلًا. **والقسم الثالث:** هو المثاني، وهي السور التي تنقص عن المئين عددًا، وتُثَنَّى بها سورُ المئين، أي تأتي خلالها على التثنية والتعاقب. **والقسم الرابع والأخير:** هو المُفَصَّل، وهو يبتدئ بسورة الحجرات - أو بسورة « ق » على خلاف - إلى آخر المصحف. والعجيب أن هذا الكتاب له « مقدمة » هي الفاتحة، وله « خاتمة » وِتْرِيَّةٌ، في ثلاث سور قصيرة، هي: الإخلاص والْمُعَوِّذَتَان؛ ولذلك فقد ورد الندب - في السنة - إلى قراءتها،

---

(١) قال رسول الله ﷺ: « أُعْطِيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة؛ من كنز تحت العرش، لم يعطها نبي قبلي! » رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن حذيفة، ورواه أحمد عن أبي ذر. وصححه الألباني. انظر حديث رقم: (١٠٦٠). في صحيح الجامع. وستأتي أدلة أخرى على الفاتحة وغيرها في السياق أعلاه.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، وقد أورد البخاري ذلك في « باب تفسير سورة النور » ، لا في « القيامة ».

(٣) تفسير الطبري: (١٨٩/٢٩).

هكذا ثلاثتها مجتمعة في غير ما مناسبة، حتى لكأنها سورة واحدة [١].

ذلك هو « الكتاب »، الكتاب الذي لم ينـزل قَبْلَهُ ولاَ بَعْدَهُ كتابٌ يدانيه جلالةً وعظمةً وقَدْرًا، ومن هنا كان الدخول إلى عالم القرآن الكريم له جَلالٌ خاص! من شاهد أنوارَه ببصيرةِ الإيمانِ عَنْ بُعْدٍ دَخَلَ متأنيًا متهيبًا، وطَرَقَ الأبوابَ مُسْتَأْذِنًا مُتَعَبِّدًا، ثم قرأ مُتدبرًا، فَانْقَدَحَتْ له مصابيحُ الْهُدَى شَلَّالاتٍ من نور! فاغترف منها ما اغترف، على قَدْرِ قُوَّةِ روحِه وسَعَةِ وجدانه! ومن لم يشاهد شيئًا فإنما هو دخل وخرج؛ لأن بصائر القرآن لا تنفتح أسرارُها إلا لأهلِ اللَّهِ وخَاصَّتِهِ! [٢] وإنما « أهلُهُ وخَاصَّتُهُ »: هم الذين أقبلوا على كتابه تعالى، يطرقون بابَه الكريم، بصدقِ المتَعَبِّدِينَ الخُشَّعِ، والمتذلِّلين الرُّكَّعِ، القائمين بين يديه تعالى.

٢ - الفاتحة باب القرآن:

و « فاتحة الكتاب » هي باب القرآن الأول. هي « فاتحة » نعم، ولكنها ليست كأيِّ فاتحةٍ فإذا كان مِنْ وظائفِ المقدماتِ والفواتحِ تقديمُ مضمونِ الكتاب للناس، على سبيل العرض الإجمالي، فإنَّ اللَّه ﷻ قد ثَنَى القرآنَ كلَّه ثَنْيًا في سورة الفاتحة! وإنما هي سبع آيات بما بهر القلوب بقوة نوره! وأعجز العقول عن إدراك سره فلذلك سماها تعالى « السَّبْعَ الْمَثَانِي »! وبذلك أيضًا كانت هي « أم القرآن »، و « أم الكتاب »! وكانت مفروضةَ التلاوةِ في كل ركعة من كل صلاة، فريضةً كانت أم نافلة! لا تصح صلاةٌ إلا بها! قال ﷺ: « **من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاجٌ فهي خِدَاجٌ! فهي خِدَاجٌ! غَيْرُ تَمَامٍ!** » [٣] والخِدَاجُ: النقصان والفساد واللغو. وقال عليه الصلاة والسلام جازمًا: « **لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب!** » [٤].

---

(١) منها قوله ﷺ « قل هو اللَّه أحد، والمعوذتين، حين تمسي وحين تصبح، ثلاث مراتٍ؛ تكفيك من كل شيءٍ! » أخرجه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وغير هذا في السنة الصحيحة كثير. وفي صحيح البخاري وغيره: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: « قل هو اللَّه أحد » ، و « قل أعوذ برب الفلق » ، و « قل أعوذ برب الناس » . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده. يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده. يفعل ذلك ثلاث مرات.).

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ: « إن للَّه تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن، هم أهل اللَّه وخاصته! » أخرجه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، عن أنس مرفوعًا. وصححه الألباني، حديث رقم: (٢١٦٥). في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) متفق عليه.

ويكفي سورةَ الفاتحةِ قدرًا وعظمةً أنها هي التي امتن اللَّه بها على خليله المصطفى محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]. فجعلها في سياق المنِّ مُوَازِيَةً لكل القرآن العظيم؛ بما ثَنَى فيها من جميع حقائق القرآن! حتى لكأنها هي كل القرآن! وقد صَرَّحَ النبيُّ ﷺ ببيان ذلك فقال: « **أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم!** »[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: « **الحمد للَّه رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني!** »[٢] ومثله قوله ﷺ: « **الحمد للَّه رب العالمين هي: السبع المثاني الذي أوتيته والقرآن العظيم** »[٣] وعن أُبَيٍّ ﵁ أن النبي ﷺ قال: « **السبع المثاني: فاتحة الكتاب** »[٤] والأحاديث الصحيحة في ذلك كما ترى كثيرة وفيرة.

ومن هنا فالفاتحة باب ليس كأي باب، إنها تنفتح بك مباشرة على الملأ الأعلى وتنطلق بك في سياحة روحية كبرى في عالم الملكِ والملكوت وتتدفق منها على مواجيدك المشاهداتُ تَتْرَى! أليس القرآن هو الكتاب الجامع لكل الكتب؟ والكتاب المهيمن على كل الكتب؟ ثم أليس الفاتحة هي أم ذلك الكتاب الجامع والمهيمن؟ فأي مُلْكٍ تنفتح عليه هذه الآيات العظيماتُ وأي ملكوت؟! ذلك ما لا سبيل إلى حده بعبارة! ولا إلي وصفه بإشارة فلا يملك الداخل عبر كلماتها إلى عوالم القرآن، إلا أن يَخِرَّ راكعًا للَّه رب العالمين! وإنما يكفيني مؤونة البيان العاجز، أن أحتمي ببيان رسول اللَّه ﷺ أعلم الخلق باللَّه وبكتابه، قال سيدي مُقْسِمًا بخالقه العظيم على التفرد المطلق للفاتحة عن كل الكتاب وعلى ما تكتنز به اختصاصًا من أسرار اللوح المحفوظ وأنواره! فَاسْتَمِعْ وأبْصِرْ ثم تَدَبَّرْ: « **والذي نفسي بيده! ما أُنْزِلَ في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها! وإنها لسبعٌ من المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُعْطِيتُهُ!** »[٥].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا. وصححه الألباني. حديث رقم : (٣١٨٤) في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه الحاكم. وصححه الألباني، حديث رقم: (٣٦٨١) في صحيح الجامع.

(٥) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا. وصححه الألباني. انظر حديث رقم: (٧٠٧٩) في صحيح الجامع.

ذلك لأنها معراج الروح الأبدي إلى اللّه، بما هو ﷻ رَبُّ العالمين، كُلِّ العالمين فأي باب هذا أم أي طريق؟ ذلك سر من أسرار جَعْلِهَا هي الصلاة! وجعلها مَنَاطَ الصِّلَةِ اليومية باللّه لملايين المسلمين إلى يوم الدين! ثم جعلها مقسومةً بين الرب الكريم وبين عبده المطيع نصفين، حَمْدًا وعَطَاءً مُتَبَادَلَيْنِ، لا ينتهيان أبدًا! فمن ذا يَشِذُّ عن مدارها الجميل شاردًا عن اللّه، إلا ضَالٌّ مَكِينٌ وخَاسِرٌ مُبِين! ذلك بيان سيدي المصطفى – عليه الصلاة والسلام –، في إضافةٍ نوريةٍ على شعاع الحديث السابق، قال: « **ما أنزل اللّه في التوراة ولا في الإنجيل مثلُ أم القرآن وهي السبع المثاني. وهي مقسومة بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل** » [1].

وإن لتنزيل سورة الفاتحة على محمد ﷺ مع خواتيم البقرة، لَقِصَّةً وأي قصة! أخرج مسلم عن ابن عباس ﷺ قال: (بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا بابٌ من السماء فُتح اليوم، ولم يُفتح قط إلا اليوم! فنـزل منه مَلَكٌ فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم! فَسَلَّمَ وقال: أبشر بنورين أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ! فاتحةُ الكتاب وخواتيمُ سورة البقرة لن تَقْرَأَ بِحَرْفٍ منهما إلاَّ أُعْطِيتَهُ!) [2] يعني مما ورد فيهما من الذِّكْرِ والدُّعَاءِ، طَلَبًا طَلَبًا! ورَغَبًا رَغبًا! فأي خسران تحصده الأمة اليوم، وأي غبن تجنيه؛ إذ فَرَّطَتْ في هذا الكنز العظيم.

فيا نفسي الجهولة المغبونة! أَوَ تَدْرِينَ ماذا تخسرين!؟ وكم تخسرين؟! حينما تستفتحين الصلاة بقلبٍ شاردٍ عن مشاهدات الجمال والجلال، وأنتِ قائمةٌ بمحاريب السبع المثاني؟! فواحسرتاه واحسرتاه! على عمر ضاع في متاهات الشرود! وواحسرتاه واحسرتاه! على نَزَقٍ تلطخ بأوساخ الذنوب! والفاتحة بين يديك الآن تتدفق بكوثر الرحمة والغفران، ولا أنتَ يا قلبي الكليل تتعرض لربيعها.

ألا يا أيها القلبُ اللاَّهِثُ عَطَشًا! تركض في متاهات الضلال بين جفافٍ وجفافٍ! ألم تتعب بعد من تلبيسات الشيطان؟! عجبًا لمن يداوي العذاب بعذاب! ومن يتقي الرَّمْضَاءَ بلهيب! فيا أيها الفتى اليائس المريض! هذا بحرُ القرآن العذبُ

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي عن أُبَيٍّ مرفوعًا. وصححه الألباني. حديث رقم: (٥٥٦٠) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه مسلم.

الفراتُ، أمْوَاجُهُ لَكَ مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ فَادْخُلْ بصدركَ في عُبَابِهِ الثَّجَّاجِ، وَاشْرَبْ.

٣ - الفاتحة هي الصلاة!

الدين هو العبادة، والعبادة هي الصلاة، والصلاة هي الدعاء، والقرآن لسانها، والفاتحة خلاصته!

ولقد تبين أن ذلك كله في سورة الفاتحة. ثم إن المصطفى ﷺ قد قرر في الحديث الصحيح أن : (الدعاء هو العبادة!) [1] فجمع بذلك كل ما بيناه! ثم آل الأمر إلى أن جوهر سورة الفاتحة « صلاة »، بما تتضمن كلمة « صلاة » من معاني التَّسْبِيحِ والدُّعَاءِ، ومن جامعية كلية شاملة لمعنى الدين كل الدين.

فالفاتحة إذن هي: الصلاة تلك هي شخصيتها وتلك هي طبيعتها. تمامًا كما سماها الله ﷻ في الحديث القدسي، قال: « **قَسمْتُ الصَّلاة بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعبدُ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »، قال اللَّهُ تَعَالَى: « حَمَدَنِي عَبْدِي...** » [2] إلى آخر الحديث، حيث بَيَّنَ ذلك بذكر آيات الفاتحة، آيةً آيةً، بما يفيد بوضوح تسميته ﷻ الفاتحةَ بالصلاة. كما سَيَرِدُ مفصَّلًا بَعْدُ بحول الله.

ذلكَ ومِيضٌ من بَوَارِقِ رِسَالَاتِهَا، فَلْنَتَلَقَّ إذن كلماتها من البداية.

أَعوذُ باللَّهِ من الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١ - ٧].

والسورة - كما ذكرنا - تتضمن خمسة مجالس.

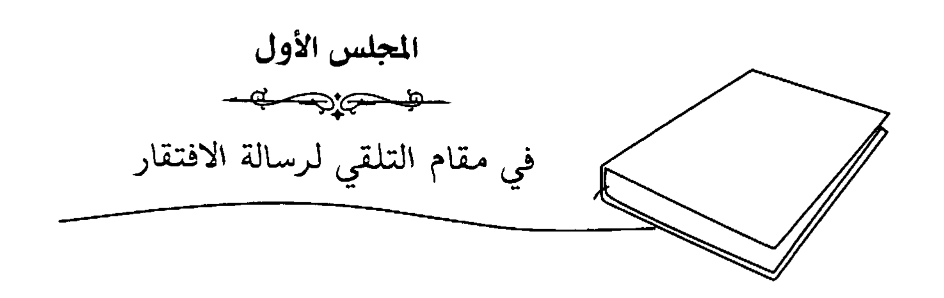
---

(١) أخرجه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم، عن النعمان بن بشير مرفوعًا. وصححه الألباني. حديث رقم: (٣٤٠٧) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه مسلم.

المجلس الأول

في مقام التلقي لرسالة الافتقار



١ - كلمات الابتلاء:

* والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »

٢ - البيان العام:

هذا مقام الفرار إلى الله، وطلب الجوار منه جَلَّ عُلاَه.

عندما يستفتح العبدُ لحظاتِ الاستدرار لنور الله العظيم، تلاوةً لكتابه الكريم، فإنه يخشى أن يسطو الشيطان على قناة الاتصال بوجدانه فيجعله من الغافلين، والشيطان كل متمرد على الله من الجن والإنس. وإبليس اللعين رأس الشياطين في العالمين. وهو عدو مبين، فقد تعهد لرب العالمين بإفساد الأرض وإضلال أهلها أجمعين! ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر:٣٩ - ٤٢].

وقد طرد الله ﷻ إبليسَ من سماواته، ورَجَمَهُ بالشُّهُب الثواقب! فتفرغ اللعينُ لهذا الكيد العظيم! لا يدع للخير بداية إلا أربكها بقاصف الوساوس ونيران الفتن! فجعل الرحمنُ « الاستعاذةَ » لعباده المؤمنين، نجاةً وأمانًا من كل شيطان رجيم. وماذا أعظمُ من جوار الله الواحد القهار سلامًا للمؤمنين؟

ومن هنا كانت صيغة الاستعاذة راجعة إلى معنى قول القائل: أستجير بالله وحده

من الشيطان الملعون، المطرود من رحمة اللَّه، وأعتصم به تعالى من أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق من حقوق ربي! هكذا مطلقًا، لكنها تتخذ لها خصوصًا عند اعتمادها في سياق خاص؛ لتأمين الفعل المقصود بها في ذلك السياق، من تلاوة، أو صلاة، أو نحو هذا وذاك من أعمال البر والصلاح، وسائر التصرفات التعبدية، أو عند مواجهة الإملاءات الشيطانية! فيقوم المؤمن بتطهير مداخل نفسه تطهيرًا من كل طَرْقٍ شيطاني خفي، مستجيرًا بربه القوي العزيز: (أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم!) فتولي الشياطين الأدبار هاربة في متاهات ضلالها، وظلمات كيدها، بعيدًا، بعيدًا عن شلال النور الذي تدفق على القارئ بمجرد طلب الغوث والأمان من رب العالمين.

والاستعاذة بهذه الصيغة ليست آية من كتاب اللَّه، لكن رسول اللَّه ﷺ كان يقرؤها؛ استجابةً لأمر اللَّه تعالى في القرآن: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]. فهي أمر رباني وسنة نبوية.

٣ - الْـهُـدَى المنهاجي:

وهذه الآية مع الصيغة النبوية في الاستعاذة، كلاهما متضمن لخمس رسالات، لا بد للسائر إلى اللَّه - جَلَّ ثناؤه - عَبْرَ مِعْرَاجِ القرآن الكريم من تلقيها جميعًا، الواحدة تلو الأخرى، وإلا فلا وصولَ ولا قَبولَ:

الرسالة الأولى: أنه لا بَدْءَ في طريق اللَّه، ولا فَتْحَ للعبد الطَّارِقِ أبوابَ معَارِجِ القرآن؛ إلا بإعلان الولاء للَّه الحق، والانتظام في صف العابدين له وحده دون سواه! وإعلان معاداة الشيطان بما هو عدو للَّه رب العالمين، والتبرؤ منه ومن حزبه وأتباعه! وإنما الاستعاذة فتح عين القلب على بصيرة قرآنية عظمى، لا يجوز نسيانها أبدًا، هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] إن الاستعاذة ليست مجرد عبارات تُلْقَى في الهواء فحسب، ولكنها اتخاذ موقف فتَدَبَّرْ!

الرسالة الثانية: في أنه لا قوة للعبد على الانطلاق وبدء السير إلى اللَّه والتعرف إليه تعالى؛ إلا بالاحتماء به، والالتجاء إليه ابتداءً! فلا وصول إليه بمجرد الجهد الخاص

والكسب الذاتي، بل لا بد من استدرار توفيقه ورحمته، فالهداية والتوفيق والسداد، كل ذلك إنما هو بيده وحده جل علاه! وذلك من صميم التوحيد والإخلاص. وتحقيق معنى الاستعاذة في النفس تَخَلُّقٌ عميقٌ بهذا المعنى العظيم. ولا صحة لعمل - من حيث القصد التعبدي الخالص - إلا باستدراج هذا الأصل الإيماني في عمق القلب، نيةً تعبدية خالصةً، لتخليص العمل وتصفيته من كل مَنٍّ، ومِنْ كُلِّ حَوْلٍ وقوةٍ، إلا ما كان بالله وله، وحده دون سواه.

الرسالة الثالثة: في أن التعبد بالقرآن تلاوةً، وتزكيةً، وتعلمًا وتعليمًا، لن يؤتي ثماره، ولن يكشف عن أنواره لعبد؛ إلا إذا تبرأ من كل حول وقوة، وقدَّم بين يدي تلاوته علامة الافتقار إلى الله الغني الحميد، وهي الاستعاذة؛ ولذلك ليس كل قارئ للقرآن بقارئ! ولا كلُّ تَالٍ له بِتَالٍ! وإنما القارئ والتالي له هو من يتلوه حق تلاوته. والتحقق بمقاصد الاستعاذة شرط من شروط التلاوة الحق، فمن أخطأ حقيقتَها أو استهان بها عَدِمَ الثمرة، وحُرِمَ النور! فكم من قارئ يقرأ القرآن وهو عليه عمى والعياذ بالله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

الرسالة الرابعة: في أن الشيطان قد يتدخل فيما يقع بقلب العبد من آثار التلاوة - وهو من أشد الكيد - فيفسد الفهم، أو يفسد نية الافتقار والتعبد عند التلقي عن الله، أو يصرف البال عن مشاهدة نور الهداية؛ فلا يخرج العبد من تلاوته بشيء، وربما خرج بضلال وحيرة والعياذ بالله، كما حصل لأهل الضلالة قديمًا وحديثًا عند قراءة القرآن!، وذلك نحو ما في قوله ﷺ: « **سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ!** »(١) فلا ينجو المؤمن من هذا وذاك إلا بطلب الغوث من الله استعاذةً به تعالى؛ لتأمين وصول الواردات إلى قلبه صافيةً خالصةً! لا أثر فيها لإلقاءات الشيطان فهمًا وقصدًا.

الرسالة الخامسة: في أن العبد المستجير آمِنٌ من كل ذلك وغيره بإذن الله؛ لأنه

---

(١) متفق عليه.

استجار بعظيم! وهو - جل وعلا - لا يُضَامُ جَارُه.

فالهُدَى المنهاجي المستنبَط من « الاستعاذة » راجع إلى كونها تعبيرًا عن وصفٍ نفسي وَوِجْدَانٍ إيماني، يقع بقلب العبد قبل أن يقع بلسانه. والتحققُ به هو أول الطريق. وتَلك هي المنزلة الأولى من منازل الإيمان، لمن رام الإقلاع في طريق التعرف إلى الله.. إنها كلمة الأدب بإعلان الافتقار الكامل إلى الله الغني الحميد جل علاه، والتبرؤ من كل حول وقوة في العلم والعمل، إلا ما كان مَنًّا كريمًا وفضلًا جميلًا من الله وحده، فلا انطلاق بغير التخلق بوصفها والتحقق بمقامها. فإن تَفْعَل بصدق وإخلاص فأبشر! إنك آمِنٌ بإذن الله، محروسٌ بجنوده جلَّ عُلاه، فَانْعَمْ مُطْمئِنًّا بِجِوَارِهِ تعالى وحِمَاه.

٤ - مسلك التخلق:

والمسلك العملي للتخلق بما في هذه الكلمات من معنى تعبدي، وحكمة ربانية، راجع إلى إحداث وقفة خاصة مع النفس، ومساءلتها: ماذا تريد؟ ماذا تريد بما هي مقبلة عليه من قراءة أو عبادة؟ أحقًّا تريد الوصول إلى الله؟ أحقًّا تريد القيام بحقه العظيم جل علاه؟ والدخول في القيام بوظيفة الخدمة لدينه؟ وحمل ميثاق عهده وأمانته، وتَلَقِّي رسالاتِ هَدْيِهِ وقرآنه؟ واستدرار مدده وأنواره؟ أم أنها تقرأ وكفى؟! بلا قصد تعبدي، إلا قَصْدَ التَّعَوُّدِ والتسميع، وما دون ذلك من مبطلات الأعمال ومحبطاتها؟! فانشر نَفْسَكَ المريضة يا قلبي على طاولة التشريح؛ لاستئصال ما تجده مندسًّا بخفاياها وجيوبها، من حظوظها الدنيوية، وموانعها الشيطانية، واقطع ذلك كله واحدًا واحدًا، بمقراض « الاستعاذة » تنزيلًا لمقاصدها على مواطن الداء تنزيلًا، فلعلك تنهض سليمًا مُعَافًى، بإذن الله.

حتى إذا صارت لك حقائقُ الاستعاذة الإيمانية خُلُقًا وطَبْعًا، أصبح معناها بقلبك زادًا إيمانيًّا، تجده جاهزًا - إن شاء الله - متى استدعيتَه بقراءتها، عند كل تلاوة، وعند كل تصرف تعبدي أنَّى كان؛ فأَبْشِرْ.

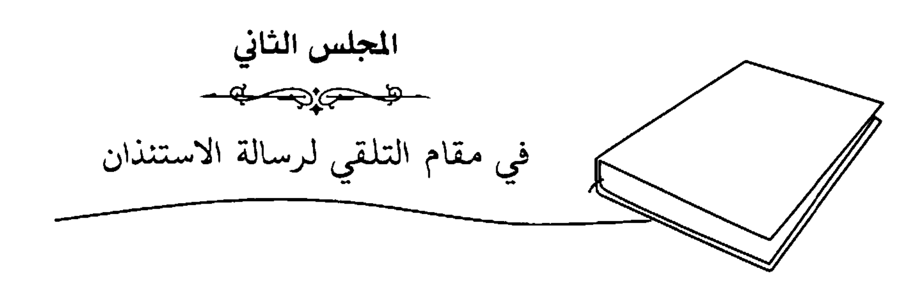
ثم إن أول ما يبعث النفس على الانطلاق السليم - بعد ذلك - هو تخليص الوجهة وتوحيد القبلة، فلك أن تطالع - لهذا القصد - أحوال السابقين الأولين

كيف سبقوا؟! وتشاهد غبطة الواصلين الصادقين كيف وصلوا؟! لقد قرؤوا القرآن بكمال الافتقار إلى اللّه وتَلَقِّي رسالاته هُدًى وشفاءً لقلوبهم؛ فانفتحت لهم مَعَارِجُ الروح، وارتقوا في الدنيا وفي الآخرة! وتلك مَعَارِجُهُمْ لم تزل مفتوحة الأبواب؛ فاقْرَأْ يَا صَاحِ وارْتَقِ!

فيا نفسي المغرورة..!

إلى متى تبقين هكذا شاردة عن باب اللّه؟ إلى متى وأنت تستجيبين لأهوائك؟ تفرين إلى شهواتك وملذاتك؟ وتتلفعين بذاتك وأنانيتك؟ وما أنتِ إلا قطرة من روح في جرة من طين! متى انكسرتْ سالت! آهٍ يا نفسُ! هذه مَسَامُّكِ الصغيرة تتسع من حين لآخر؛ فيتسرب منها الشيطان إلى نفسك ليعيث فسادًا داخل خواطرك وأشواقك! فيَحُول دون انطلاق الروح في رحلة السير الكوني إلى اللّه! عجبًا كيف تصبرين على هذه الحال وها كل الطيور قد أعلنت توبتها، وانطلقت تضرب بأجنحتها بعيدًا في رحلة المحبين؟! ففري إلى اللّه مستعيذةً باللّه! وأعلني الافتقار الكامل له وحده جلَّ عُلاه؛ عسى أن تكوني من أهل النجاة والفتح المبين! ذلك قول الحق ذي القوة المتين: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠]. واجأَرِي إلى مولاكِ باستغاثة الفقراء الصادقين: « أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ».

* * *



١ - كلمات الابتلاء:

* والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

٢ - البيان العام:

أما هذا فمقام الاستئذان، مقامٌ يتدفق بأنوار السكينة والجمال.

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »: هي صيغة البَسْمَلَةِ، مفتاحٌ لكنوز الأسرار والأنوار! وهل يَخْرُقُ العبدُ الأعتابَ والأبواب على سيده بغير طَرْقٍ؟ ولا يراعي مقام العبدية في جانب فعله، ولا مقام الربوبية في جانب سيده، فينتهك كل حرمات الأدب والحياء! إذن يُطْرَدُ مذمومًا مدحورًا! ويُحْرَمُ من بركات النور والهدى.

فاطرقْ أبوابَ القرآن يا قلبي مستأذنًا على مولاك!.. ورَتِّلْ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

والبسملة بهذه الصيغة جزء آية من سورة النمل، وهي في قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام من كتابه إلى بلقيس: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠]. لكنها ليست آية معدودة ضمن سورة الفاتحة [١]. غير أنَّ قراءتها عند بدء السُّوَرِ سنة ثابتة، ما عدا سورة التوبة.

---

(١) ولأبي بكر بن العربي المعافري قول حاسم للخلاف في البسملة أهي من الفاتحة أم لا؟ قال رحمه الله: (ويكفيك أنها ليست بقرآن للاختلاف فيها. والقرآن لا يختلف فيه، فإن إنكار القرآن كفر) أحكام القرآن: (١/ ٦). دار الكتب العلمية. بيروت.

ومعناها: ابدأ بتسمية اللَّه وذِكْرِه دون غيره، بما هو - جل وعلا - « الرحمن »: أي واسع الرحمة، رحمة تَسَعُ كلَّ خلقه، وتشملهم أجمعين، صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم... إلخ. وبما هو « الرحيم »: أي أن له خصوص رحمة متفردة للمؤمنين خاصة دون غيرهم، في الدنيا والآخرة. فقول القائل: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) عند قراءة السورة من القرآن توحيدٌ متضمن معنى الدعاء، فكأنه قال: اللَّهم إني أقرأ هذه السورة باسمك وبإذنك وحدك، ولا مراعاة لغيرك في هذا، معترفًا ومقرًا بأن قراءتي هذه إنما هي تجلٍّ من تجليات رحمتك عليَّ، من حيث أنت الرحمن الرحيم. فبرحمتك الشاملة أتمكن من القراءة فعلًا، وأقدر على ممارستها، وبرحمتك الخاصة أهتدي إليها، وأستفيد من بركاتها وأنوارها. ومن هنا كان الأدب أن أقرأ باسمه هو تعالى لا باسم غيره، فهو وحده صاحب الفضل كله.

فإذا كانت « الاستعاذة » إعلانًا للافتقار وطلبًا للجِوَار، فإن « البسملة » استئذانٌ، واستمداد التوفيق من الرحمن! وكلتاهما عتبةٌ من نور لدخول القلب إلى كنوز الفاتحة.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهدى الآية متضمن لأربع رسالات:

الرسالة الأولى: أنك ما قدَرتَ على ما تريد فعله؛ ولا وُفقت إليه إلا برحمة اللَّه، تلك الرحمة الربانية العظمى التي لا يقوم شيء في الكون إلا بها، وهو من أهم معاني التوحيد والإخلاص، مما يحقق للقلب بركة العمل، وثمرته الإيمانية فعلًا. فلا تغبن نفسك يا صاح، وتخلق بهذا الصلاح.

الرسالة الثانية: في أن العبد لا ينبغي له أن يتصرف في شيء من الأعمال إلا باستئذان سيده، سواء كان ذلك من العبادات أو من العادات؛ تعبيرًا عن مطلق التوكل والخضوع الواقعين بالقلب؛ ولذلك شرع النبي ﷺ بسنته القولية والعملية اعتماد الأذكار، عند بداية كل فعل وتصرف تعبدي أو عادي، من صلاة وصيام وحج، أو بيع وشراء، ودخول وخروج، ومباشرة، ونوم واستيقاظ... إلخ. كل ذلك له في السنن الصحيحة عبارات من الأذكار، تدور حول المعنى الاستئذاني التوكلي، الذي شُرِعَتْ له « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ».

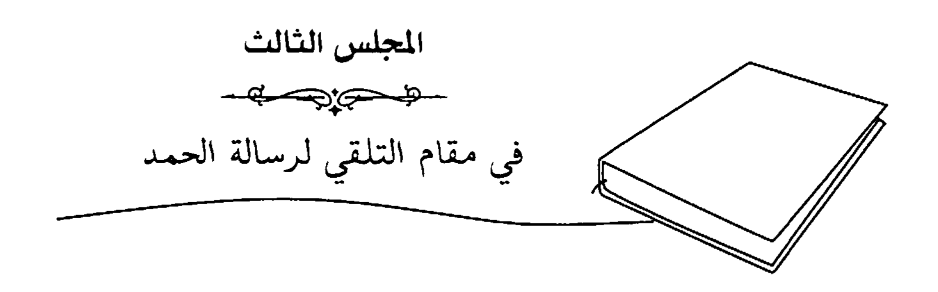
الرسالة الثالثة: في أن المستأذِنَ مُسْتَنِدٌ إلى مولاه ومنتسب في عبوديته إليه، فلا يصول ولا يجول إلا به؛ وبذلك تتجلى عليه بركة الرحمن، قُوَّةً ومَدَدًا! فقيمة المملوك تتحدد بقيمة من يملكه! فمن ذا قدير إذن على إذاية عبد اللّٰه؛ إذا انطلق يحمل شارة الإذن من مولاه؟! ومَنْ مِنَ الناس يستغني بنفسه عن اللّٰه إلا جاهلٌ باللّٰه؟ كيف وهذا سليمان نفسه عليه السلام وهو مَن هو في قوته ومُلكه، يكتب إلى بلقيس نَصَّ الاستئذان من ربه، وشارة الاستناد إليه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠] وإن تلك لعلامة ربانية تفتح النور على الهداية الرابعة، وهي:

الرسالة الرابعة: أن ما كان « باسم اللّٰه » وحده صِدْقًا؛ كان للّٰه وحده قَصْدًا. وما كان كذلك تولاه اللّٰه بالحفظ والرعاية، وبالتسديد والترشيد، وبالنصرة والتمكين، فلا يكون شيءٌ من فعل العبد آنئذ، في الدين والدعوة، وفي سائر ضروب الكسب الدنيوي والأخروي، إلا على عَيْنِ اللّٰه جل جلاله صناعةً ومَعِيَّةً فأَعْظِمْ بِهِ من عَمَلٍ يَتَوَلَّاهُ اللّٰهُ ويَنْصُرُهُ!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق بهذه الكلمات قائم على تحقيق المشاهدة تفكرًا وتدبرًا، لعجزك عن فعل أي شيء إلا باللّٰه، هذا من جهة، ثم تحقيق المشاهدة - من جهة أخرى - لتجليات أسمائه الحسنى في ملكوت السماوات والأرض؛ وهيمنة الرب العظيم على كل شيء، تتدبر ذلك كله وتتبصره، وتتدرج عبر معارفه بمداومته منزلةً منزلةً؛ حتى تعاين يقينًا أن لا شيء يكون في المُلْكِ والملكوت - مهما دَقَّ - إلا بإذنه ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣]

فيا نفسي الأَمَّارة، واهِمَةٌ أنت، كيف تستطيعين العيش خارج جمال الرحمة الإلهية؟ وهذه أنوارها الكبرى تمتد إلى العالمين بأسرار الأسماء الحسنى وبركاتها.. تفيض على العباد بلطف الرعاية، ونور الهداية! كيف؟ وهذا نور الرحمن جل جلاله ؛ لو انقبض عنكِ - لأَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ - لكنتِ عدمًا في عدم! ويحك..! ومن ذا في الكون قائم بغير اسمه تعالى؟ فأعلني الانتساب إلى اللّٰه. وتأدبي عند طرق بابه الكريم؛ معتصمة بسر الاسم: اللّٰه الرحمن الرحيم؛ يَكُنْ لكِ ما تقصدين إن شاء اللّٰه.



١ - كلمات الابتلاء:

والابتلاء فيه واقع بالآيات التالية:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

٢ - البيان العام:

هذا مقام انفتاح الأبواب العليا!.. وما كان للرحمة الإلهية الكبرى إلا أن تنفتح لاستضافةِ عبدٍ فَرَّ إلى اللّه مستجيرًا، ثم طرق بابه مستأذنًا.

فبأي شيء يمكنك أن تبادر ربَّكَ الآن يا عبد اللَّه؟ بأي شيء وهذه نِعَمُهُ عليكَ قد سَبَقَتْ قدومَكَ! أوليس قد خلقك؟ أو ليس قد رزقك؟ أوليس قد رعاك؟ أوليس قد هداك؟ فبأي لسان تتكلم اليوم بين يديه؟ أبلسان الحمد والشكر؟ وأيُّ لغةٍ في العالم قديرة على إنشاء الشكر الكامل والحمد المطلق، لرب أنعم عليك بكمال النعم وبمطلق الإحسان؟ وإنما حقيقة الشكر أن يكون على قَدْرِ النعمة أو يزيد تلك هي القضية!

أَلا لَا حَمْدَ للّهِ ولاَ شُكْرَ إلَّا بما حَمِدَ هو تعالى بِهِ نَفْسَهُ! فادْخُلْ تواضعَ عبوديتك للّه يا عَبْدُ واقرأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

اقرأ حَمْدَ اللّهِ لنفسه، وثناء اللّهِ على ذاتهِ! اقرأه قرآنًا كريمًا مجيدًا، وتَعَبَّدْ! فإنما القرآن وحده هو خطاب الكمال، وهو وحده شُكْرُ الكمال، وهو وحده حَمْدُ الكمال! فإنما هو كلام صادر عن اللّه ذي الجلال والجمال والكمال! وليس غريبًا على سيدنا رسول اللّه ﷺ - وهو أعرف العارفين باللّه، وأعْلَمُهُمْ بِهِ جلَّ عُلَاهُ -

ليس غريبًا عليه أن ينطق بحكمته النبوية الرفيعة، وهو يناجي ربَّه ساجدًا له، مُتَهَجِّدًا في غسق الدُّجَى: « **اللَّهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك** » (١).

ومَنْ يُحْصِي الثناءَ على الله إلَّا هُوَ ﷻ !؟ ولو لم يكن لهذا القرآن من وظيفة إلا أنه أتاح لنا أن نشكر اللّٰه ونحمده بكمال حمده وشكرانه، لكفى به نعمةً عظمى على العالمين فـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ذلك بدء الفاتحة، فاتحة القرآن العظيم، وهي كلمة شكر عظمى، جامعة مانعة؛ جامعة لكل حمد يليق بشؤون الربوبية العليا، بما هو اللّٰه رب العالمين، مانعة من دخول أي أحد سواه فيما يليق به - جل وعلا - من الحمد والثناء. ومعناها: الشكر والثناء خالصًا للّٰه وحده. إنها إذن كلمة حمد وكلمة توحيد وإخلاص.. إنها ثناءٌ على اللّٰه؛ لجمال أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، وشكرٌ له تعالى؛ بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها عدد، ولا يحيط بِمَلَكُوتِهَا أحدٌ! (٢)

ووصفه تعالى بـ ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: أي رب الإنس والجن والملائكة، ورب السماوات والأرَضِينَ، وما فيهن من سائر الخلق أجمعين. قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

و (الرَّبُّ) - في كلام العرب - لفظ جامع لكل معاني المالِكية والهيمنة؛ ولذلك فهو يطلق على السيد المطاع، والمُصْلِح للشيء، والمالك للشيء. وربنا جل ثناؤه: هو السيد الذي لا شبيه له، ولا مثيل في ملكه وسلطانه، وهو المصلحُ أمر خلقِه، والمُدَبِّرُ أمرَ مملكته؛ بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر! ومفتاح معنى الربوبية هو صفة الخالقية؛ ذلك أن المالك الحق للشيء إنما هو الذي خلقه. واللّٰه ﷻ هو: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) وقد قيل: (الحمد للّٰه): ثناءٌ على اللّٰه بأسمائه وصفاته الحُسنى، و (الشكر للّٰه): ثناء عليه بنعمه وأياديه. والتحقيق أن (الحمد) جامع لكل ذلك جميعًا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وإنما دخلت « أل » في « الحمد للّٰه » لإفادة الشمول؛ لأن المعنى: جميع المحامد، والشكر الكامل؛ إنما هو للّٰه دون سواه).

ولذلك كان بحق هو رب العالمين! فكان الحمد له - وحده دون سواه - بكل تلك المعاني الكونية الشاملة، النابعة من قلب المؤمن، والمتوجهة إليه بالعبادة شكرًا وثناءً، بما لجلاله العظيم من سلطان على كل العالمين.

« الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »، سبق البيان أن اسم الجلال: « الرحمن » دال على عموم الرحمة لجميع الخلق، وأن لا شيء قائم في الوجود إلا برحمته، سواء في ذلك عالم الإنسان وغيره من العوالم الأخرى، كعالم الملائكة والجان والكواكب السيارة في الفضاءات والأفلاك الضاربة في المجهول، وما فوقها من طبقات السماوات! ثم نزولًا إلى عالم الحيوان والنبات والجماد، وما بين هذه وتلك من دقائق المخلوقات، وما لا علم للإنسان به من عجائب الكائنات. فكل موجود إنما وجوده تجلٍّ من تجليات رحمانيته تعالى، خلقًا وتقديرًا ثم رعايةً وتدبيرًا، ولولا رحمانيته لكان عدمًا في عدم فبالرحمانية خُلِقَ العالم، وبالرحمانية يقع تدبيره من لدن خالقه الرحمن، وبالرحمانية تتنزل الأرزاق على الخلق أجمعين، من سائر الأجناس والأنواع، من الإنس والجن إلى سائر الحيوان ودقائق الحشرات والجراثيم، إلى عوالم الحيتان والأسماك، إلى شتى ضروب النبات. وبالرحمانية تتصرف القدرة الإلهية في إصلاح شؤون الكون الممتد من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وصيانته ورعايته، ومن هنا ناسب جدًّا أن يَرِدَ وصف الرحمانية في سياق الحمد للَّه، بما هو « رب العالمين ».

وبذلك كله استحق هذا الاسم العظيم من أسماء اللَّه الحسنى، « الرحمن » أن ينال ضربًا من الاستقلال في الدلالة على الذات الإلهية، بما جمعت من شؤون الربوبية وكمال الألوهية! فكاد يكون رديفًا لاسم الجلال الأعظم: « اللَّه » ﷻ ! لا يوازيه في ذلك اسم آخر مما عَلَّمَنَا اللَّهُ - تبارك وتعالى - من سائر الأسماء الحسنى! وهذا واضح جدًّا من استعمالات القرآن لاسم الرحمن بما لم يرد في اسم آخر سواه، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾ [الفرقان: ٥٩، ٦٠]. ومثل ذلك في القرآن

كثير جدًّا؛ بما يدل على سعة هذا الاسم العظيم وشموليته لكل شؤون الربوبية العظمى تمامًا كما لاسم الجلال: « اللَّه » جل علاه. وهذا واضح في السنة أيضًا من مثل قوله ﷺ: « **أحب الأسماء إلى اللَّه عبد اللَّه وعبد الرحمن** » (١).

ثم سبق البيان أيضًا أن اسم « الرحيم » دال على خصوص الرحمة للمؤمنين. وكفى العبدَ المؤمنَ شرفًا وتشريفًا، وكفاه فرحًا باللَّه وأُنْسًا به تعالى، أن يكون له من ربه خصوص رحمة، مستثناة من عموم رحمانيته للعالمين! إنها الرحمة الخاصة، ذات الأسرار والأنوار، رحمة الهدى والجمال، الجمال المتجلي بالإيمان على عباد اللَّه المؤمنين؛ حَذْوًا لهم ضمن قوافل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، إلى دار السلام والنعيم المقيم.

وأما قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، فقد قُرِئَ: « مَلِكِ » بمعنى المُلْكِ، وقُرِئَ: « مَالِكِ » بمعنى المِلْكِ. والدِّينُ في اللغة: الحساب والجزاء، الواقع من اللَّه على الخلائق يوم القيامة. فمعنى الآية على القراءة الأولى: أنه تعالى المنفرد يومئذ بالمُلْكِ، دون الملوك الجبابرة، الذين كانوا في الحياة الدنيا ينازعونه المُلْكَ والسلطان توهمًا واغترارًا، ويدافعونه العظمةَ والكبرياءَ عُتُوًّا واستكبارًا. فيوم الدين لا إمكان أبدًا لمثل هذا الغرور، ولا لمثل ذلك الاستكبار. فالخليقة كلها، ملوكها ودهماؤها، طغاتها ومستضعفوها، كلهم جميعًا خاضعون اليوم لسلطانه، جاثون تحت أمره، في انتظار صدور حكمه، مجردون من كل حول وقوة، ومما ابتلوا به في الحياة الدنيا من مُلك ومالكية. فها هم اليوم حفاة عراة فقراء أذلاء، بين يدي اللَّه الملك الحق، المالك لكل حكم وفصل في هذا اليوم الرهيب! ومنه قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

والمعنى على القراءة الثانية متفرع عن الأولى، وهو: ألَّا أحدَ يملك في ذلك اليوم مع اللَّه حُكْمًا، فهو جل وعلا وحده الذي يملك الحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، وألا شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه تعالى.

فالحمد للَّه - في بدء السورة - واقعٌ للَّه بهذه المعاني جميعًا، أي بما هو

---

(١) رواه مسلم.

﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، وبما هو ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيـمِ ﴾، وبما هو ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾. فذلك كمال الحمد وتمامه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهُدَى الآيات متضمن لأربع رسالات:

الرسالة الأولى: في أن الحمد هو أول مقام وجب أن يتحقق به المؤمن العارف باللَّه حقًّا، وأول منزل وجب أن ينزل به، وأول خُلُقٍ وجب أن يتخلق به؛ إذ الحمد هو مقام التعرف إلى اللَّه بما له - جل علاه - من صفات الربوبية على العالمين رحمانية ورحمة إلى يوم الدين! فكان الحمد بذلك هو أول حق من حقوق اللَّه على العباد، فالحمد أول كلمة في القرآن، والحمد أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام بُعَيْدَ نفخِ الروح فيه مباشرة! (١) فكان الحمد هو كلمة الاعتراف للَّه بالربوبية على العالمين، وكلمة الخضوع لألوهيته في كل شيء. فهو تخلق بمقام الرضا باللَّه ربًّا.

الرسالة الثانية: في أنَّ نِعَمَ اللَّه على العباد أعظم وأوسع من مجرد الاستيعاب بالتخيل، بَلْهَ الإحصاء والاستقراء، وأن الإنسان غارق في بحرها العظيم، خلقًا وتقديرًا، وحفظًا ورعايةً، ورزقًا وهدايةً.. إلخ. وأنه متقلب في ذلك بين رحمانية اللَّه ورحمته. فلا مناص لمن أراد أن يكون لربه شكورًا إلا أن يكون له عبدًا متحققًا بعبديته.

الرسالة الثالثة: في أن الإنسان راحل في سفينة الكون حتمًا، من الوجود الدنيوي إلى الوجود الأخروي، وأن كل يوم يسلخه من عمره هو مرحلة يقطعها نحو الآخرة، وأن وظيفة الحياة الدنيا منحصرة في معنى واحد ووحيد: هو الحرث! وأن الآخرة هي موسم الحصاد! ولا بد للحارث أن يحرث، فإما خيرًا وإما شرًّا! وإنما تمحيص ذلك هو يوم الدين.

وموسمُ الحرثِ فَانٍ، فَانٍ، فانٍ! ويوم الدين بَاقٍ أبدًا! فلا شيء يبقى للعبد إلا ما كان للباقي.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح عَطِسَ، فقال: « الحمد للَّه! » فَحَمِدَ اللَّه بإذنه، فقال له ربُّه: يرحمك اللَّه يا آدم! ».. الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (٥٢٠٩).

الرسالة الرابعة: في أن الحياة الدنيا لم تقم عبثًا، بل هي مراقَبة على العبد، محصاة عليه لحظةً لحظةً، مسؤول عن كل وقت من أوقاتها مما يصرفه من عمره فيها بين ليل أو نهار، ما عمل وما لم يعمل، وأن تصفية حسابها - صغيرِه وكبيره - واقع لا محالة يوم الدين، ذلك اليوم الذي هو غاية الحياة الدنيا، والذي من أجله كان الـخَلْقُ كلُّه، وكان الوجود كله، والذي من أجله تعيش البشرية أعمارَها. علم ذلك من علمه وجهله من جهله؛ ولذلك كانت قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته إيقاظًا له من سباته، وتنبيهًا له من غفلته، وتذكيرًا له بحتمية اليوم الآخر، وحثه على الاستعداد له رَغَبًا ورَهَبًا، بالعمل الصالح، تركًا للمعاصي، وهجرانًا للذنوب، وفعلًا للصالحات، وإقبالًا على الطاعات.

٤ - مسلك التخلق:

فيا نفسي الأمارة الجهولة! ليس أمامك الآن إلا أن تفري إلى اللَّه، وتعتصمي بحبله المتين، فالعواصف الهوج على وشك الضرب بأغصانك الشاحبة! فإلى متى وأنت تُسَوِّفِينَ التوبة من يوم إلى غد؟ فكم من غد بقي لك في أيامك المعدودة المحدودة؟ هذه أنوار « الحمد » تضيء لك علامات الطريق إلى اللَّه، وهذه أورادها العملية منتصبة بين يديك، فَغُذِّي مدارجَ العمل، الواحدة تلو الأخرى وانطلقي! فهذه الصلوات الخمس ونوافلها مدرسة لمجاهدة النفس الظلومة الجهولة، ولمكابدة أخلاق الرضا باللَّه؛ عسى أن تتحققي بمنزلة الحامدين للَّه رب العالمين، فاعقدي العزيمة على تحقيق الشهود القلبي، سيرًا إلى اللَّه ﷻ ، عبر الخطوات القلبية التالية:

الخطوة الأولى: تحقيق تكبيرة الإحرام في كل صلاة؛ لضمان يقظة القلب عند أول مقام الحمد وإلا فاتك شهوده، وضاعت منك لحظة الانطلاق؛ فكنت بذلك من المتخلفين عن ركب السائرين إلى رب العالمين، وأنَّى لك اللحاق وقد حلقت أجنحة الروح عبر معارج القرآن عاليًا جدًّا؟!

الخطوة الثانية: الصلاة في محراب الكون لشهود الجماعة الكبرى بين يدي رب العالمين، والانتظام في صفها الكبير ومسجدها الكوني الفسيح.

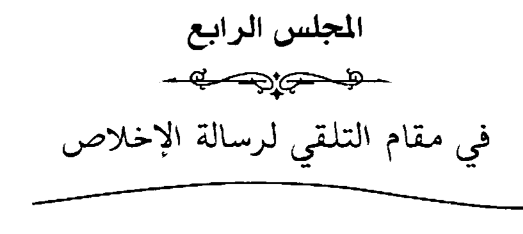
الخطوة الثالثة: مشاهدة نعم الرحمانية والرحمة من خلال تلقي أنوار الأسماء

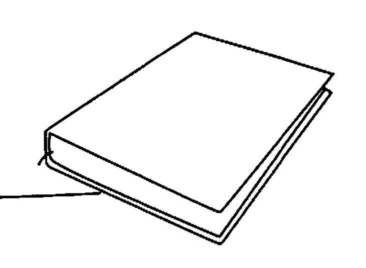
الحسنى، والاغتراف من كوثرها، وحمل النفس على الرحيل إلى منازلها؛ لتلقي تجلياتها، بدءًا بما يتجلى على القلب من رحمانية اللَّه، خالقًا ورازقًا ومحييًا وقيومًا، إلى ما يتجلى عليه من رحمته تعالى هاديًا ونصيرًا ثم شكورًا.

الخطوة الرابعة: مجاهدة النفس على التخلق بأخلاق الرضا باللَّه ربًّا في الشدة والرخاء، وفي المرض والصحة، وفي الابتلاء والعافية. وهو مقام الشكر له والثناء عليه بمجامع الحمد المتقلب في عبودية اللَّه على كل حال.

الخطوة الخامسة: إقامة النفس أبدًا على عتبة الاستعداد للرحيل، إلى مملكة يوم الدين، والتفكر الدائم في نشرة الحساب بين يدي الملك العظيم.

* * *





١ - كلمات الابتلاء:

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

٢ - البيان العام:

أما هذه الآية فهي قلب سورة الفاتحة! وكنز أسرارها! ومنبع أنوراها.

إنها آيةُ الآيات، وأمُّ المُحْكَمَاتِ، وَبيِّنةُ البيِّنَاتِ، ومجمع الدلالات لكل آيات الوظيفة الإنسانية في كتاب اللَّه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إنها مفتاح الفهم الحقيقي لطبيعة الوجود البشري كله! وباب الدخول إلى فَلَكِ الوظيفة الإنسانية الكبرى، المنتظم في مدارات الكون الفسيح، والضارب على هدى الخالق العظيم جل علاه. آيةٌ جامعة مانعة تلخص قصة الخليقة الإنسانية كلها، من أولها إلى آخرها، وجودًا ووظيفةً وغايةً.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾: فضمير النصب المقدَّم: « إِيَّاكَ » يفيد الاختصاص والتفريد، أي: لك وحدك نخضع ونخشع، ولك وحدك نَذِلُّ ونستكين، ولك وحدك ننقاد ونخنع. أنت الغاية وإليك المصير، فلا شيء منا إلا وهو إليك سائر، مملوكون نحن لك، وأنت المالك الحق، فلا شيء منا إلا وهو لك، قد فنيتْ جميعُ ذراتنا في بساط ركوعنا وسجودنا لك، يا خالقنا العظيم! قد جمعنا قلوبَنا عليك وحدك، وصفينا قصدنا خالصًا لك وحدك، وفنينا عن شهود الشهوات والأهواء والأغيار، فلا التفات عن يمين

أو شمال! إنّا أقمنا وجوهنا لك فلا شيء أمامنا سواك! فأنت ربنا لا إله إلا أنت، وأنت خلقتنا ونحن عبادك، ونحن على عهدك ووعدك ما استطعنا. هذه شهادتنا على أنفسنا، نقر بها خاضعين بين يديك، شهادةً خالصة لك وحدك، ذلك قولنا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾: الاستعانة فرع عن العبادة، ولكنْ لأهميتها أُفْرِدَتْ بذاتها، فكانت مسلكًا خاصًا إلى توحيد اللّه وإفراده رَغَبًا ورَهَبًا. فلا استقامة على العبادة - ابتداءً - إلا بالاستعانة باللّه، ولا ثبات على العبادة - انتهاءً - إلا بالاستعانة باللّه، ولا بلوغ إلى رغائب الدين والدنيا جميعها، من أمور العادات والعبادات، وصلاح المعاش والمعاد، إلا بالاستعانة باللّه ولا انطلاق ولا وصول إلا بالاستعانة باللّه، وباللّه وحده دون سواه، ذلك إقرار بعهد، والتزام بميثاق، وشهادة على النفس، على غرار الميثاق الأول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

إن العبد بتلقيه الآيات الأولى من الفاتحة، قد شاهد أن اللّه هو وحده الذي بيده ملكوت كل شيء، وأنه هو وحده الذي بيده خزائن السماوات والأرض، فلا شيء إلا وهو مُدَبَّرٌ بشؤون ربوبية رب العالمين! ومن هنا لا يملك المؤمن الذي تلقى هذا الشهود، إلا أن يهرع إليه تعالى بإخلاص العبادة والاستعانة. وكيف لا؟ وقد رأى ألَّا شيء يكون إلَّا بإذنه! وألَّا شيء ينفع إلا بإذنه! وألا شيء يضر إلا بإذنه! وأي شيء بعد ذلك - يمكن أن يتصوره العقل - يدور خارج فلك رحمانيته؟ وها كل ذرة في الوجود إنما هي قائمة بقيوميته جل علاه؟! والخلق والأمر كله بيده! فأي مسلك بعد ذلك، وأي طريق أنجى للعبد وأضمن من مسلك: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؟

إنها إذن شهادةُ البراءة التامة من كل قصد غير وجه اللّه، وشهادة البراءة التامة من كل شريك غير اللّه، وشهادة البراءة التامة من كل مقصود بالتعبد، توجهًا، وخضوعًا، واستعانةً، وتوكلًا، غيرِ اللّه! وشهادة الفناء التام عن مراعاة خوارم الإخلاص الصافي، من أدق الشركيات الخفية، رياءً وتسميعًا ومباهاةً؛ إلى أغلظها، من تقديس آلهة الأهواء الباطلة، مما يتجلى في أنصاب المال والأعمال والشهرة، وسائر الشهوات، إلى ما قد يتطور عن ذلك من الأنصاب الحجرية والبشرية، مما قد يعبد من دون رب العالمين جهارًا.

فَبِنُورِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، يكشف المؤمن ظلمات النفس، فتحترق

في وهجها الرباني العظيم كلُّ الوساوس والدسائس الشيطانية، فلا يبقى برغائبها شيءٌ غيرُ وجهِ اللَّه! وتتدفق المواجيد خالصة للَّه تترى، فيترقى المؤمن بذلك إلى مقام العبدية العالي؛ تكريمًا من اللَّه وتشريفًا، فاقْرأ يا صَاحِ وارْتَقِ! لكن بشرط الوفاء بإخلاص العهد للَّه وحده! فلا عبادة لغيره ولا استعانة بسواه، من أخفى بواطن الشعور إلى أجلى مظاهر الجوارح وآنئذٍ تُفْتَحُ مَدَارِجُ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بين يديك؛ ويُؤْذَنُ لكَ بالدخول ثم تكون المناجاة بينك وبين الرحمن جمالًا يتدفق بالعطايا والسلام..! فَلَكَ يا عبدَ اللَّه آنئذٍ من اللَّه كل ما سألت.

ذلك مقتضى الحديث القدسي الذي يرويه رسول اللَّه عن رب العزة والجلال. قال عليه الصلاة والسلام: « **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: « قَسمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** ».

فَإِذا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: « حَمدَنِي عَبْدِي ».

وَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: « أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ».

وإِذَا قَالَ: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، قَالَ: « مَجَّدَنِي عَبْدِي »، وقَالَ مَرَةً: « فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ».

فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قَالَ: « هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ».

فَإِذا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ: « هَذَا لِعبدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَل » (١).

القضية هاهنا إذن:

فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قَالَ: « هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي.. ».

فأي كلمات هذه وأي ابتلاءات؟ عبادة واستعانة على تمام التصفية والإخلاص الكاملين للَّه الواحد القهار؟ ألا إنها دعوى عريضة! وإنما يمحصها الحساب! وإنه لا نجاة منها إلا برحمة اللَّه؛ ولذلك وَرَدَا في الحديث متتابعين جوابًا على الدعوى: الحساب والرحمة، فأما الحساب فقوله: « **هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي** » وأما الرحمة فقوله: « **وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** ».

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا.

وما دخل أحد الجنة إلا برحمة اللَّه! بَيْدَ أنها بشارة وأي بشارة! بشارة يزفها الرسول الكريم إلى المؤمنين العاملين ألا يقنطوا من رحمة اللَّه، قال ﷺ: « **لَنْ يُنَجِّيَ أحدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ** » قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ! سَدِّدُوا وقَارِبُوا، واغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا** »[1] وفي صيغة أخرى لنص البشارة: (**سَدِّدُوا، وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واستعينوا بالغَدْوَة والرَّوْحَةِ، وشَيءٍ من الدُّلْجَةِ**)[2] التسديد والتقريب، والصلوات الخمس ما بين الغُدُوِّ والرَّوَاحِ، إلى شيءٍ من قيام الليل، بلا غُلُوٍّ ولا تَنَطُّعٍ، وإنما قَصْدًا وتوسطًا واعتدالًا! هكذا تتدرج بين منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، حتى تبلغ المنزل الأعلى! عطاءً من اللَّه ورحمة فَأَكْرِمْ به مِنْ عَطَاءٍ رباني رحيم!

٣ - الهُدى المنهاجي:

أما ما تتضمنه هذه الآية من رسالات الهدى فهو أعظم من أن يُحاطَ به عَدًّا وإحصاءً! إنها عمران العمر كله، ووظيفة الوجود البشري كله، ومنهاج الحياة أجمعها! بَيْدَ أَنَّا نختصر مقاصدَها ببيان مداخلها الكبرى في الرسالات التالية:

الرسالة الأولى: في أن غاية الدين عبادةً واستعانةً إنما هي تخليص القصد وتصفيته للَّه الواحد الأحد؛ حتى يتحقق المؤمن بمقام الإخلاص صفةً جوهريةً، وخلقًا تلقائيًّا؛ بما يجعله عبدًا للَّه حقًّا وصدقًا. ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣]. فالحذر الحذر من أن تنحرف بك الوسائلُ عن الغايات.

الرسالة الثانية: أن ﴿ إِيَّاكَ ﴾ شهادةٌ على النفس بالتوحيد الكامل، والتزام منها بالإخلاص التام، وإقرار عليها بمقامه ومسلكه. فإما حقًّا وتحقيقًا، وإما كذبًا وافتراءً! كما ورد في البيان القدسي المذكور: « **هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي.. ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ** » ولذلك كانت حقيقتها أنها مناط ابتلاء عظيم! وجب على المؤمن العاقل أن يجعل له من نفسه خلوة أو خلوات؛ للتفكر في شروط الدخول فيه والفوز بمقامه الكريم.

الرسالة الثالثة: أنه لا سبيل إلى ذلك إلا باستغراق العمر كله، أيامه ولياليه، في

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

مجاهدة النفس على هذه الحقيقة، سيرًا إلى اللَّه عبر منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، خَطْرَةً خَطْرَةً، وخُطوةً خُطوةً، ثم مَقَامًا مَقَامًا؛ ولهذا القصد جُعِلَتْ الفاتحةُ صلاةً مفروضةً، تُتْلَى في كل ركعة من كل صلاة، على مدار الليل والنهار فصلاتُك ميزانُك، وصلاتُك مقامُك.

الرسالة الرابعة: أن العطاء والمنع في كل صغيرة وكبيرة إنما هو من اللَّه. فكل عبادة لغيره ظلم عظيم، وكل استعانة بسواه جهل خطير، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ لأنه خروج عن فَلَكِ التعبد، وانحراف عن مَدَارِ التوحيد والإخلاص، ثم ضياع رهيب في تيه الظلمات! فَتَخَلَّصْ من الشركيات والخرافيات تكنْ من الآمنين.

الرسالة الخامسة: أن كل نقض لصفاء الإخلاص عبادةً واستعانةً، إنما هو نقضٌ لعهد اللَّه، وخيانةٌ له جلَّ علاه! وكيف لا؟ وها أنت ذا تقطعه شهادةً على نفسك صباح مساء؟ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ثم تنصرف خلفها إلى سواه؟! فمن يقيك بعد ذلك من عذاب اللَّه؟

الرسالة السادسة: إذا كانت سورةُ الفاتحة هي أم القرآن المجيد وخلاصته وروحه! - كما تبين بأدلته من قبل - فإن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ - بما تَفَجَّرَ من أنوارها وانكشف من أسرارها - هي خلاصة الخلاصة وروح الروح! إنها منطلق الدين، وإنها غاية الدين، وإنها مَدَارُ الدين، وإنها المنهاج العملي الجامع لكل الدين، فلا شيء يبقى خارج فَلَكِهَا من الدين! إنها هي « الكَلِمَاتُ » التي ابتلى بها اللَّهُ هذه الأمة، كما ابتلى إبراهيم من قَبْل بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ لذلك فالناس إزاءها بين وَفِيٍّ وظَالِم! فمن أوفى بها أوفى بعهد الدين، ومن خانها خان عهد الدين! وكان بذلك من الظالمين!

وأما تمامُها فهو مقام الغِنَى العالي، فمن تحقق بها خُلُقًا غَنِيَ باللَّه؛ فكانت له أسماؤه الحسنى جمالًا يَتَلَقَّى أنوارَها عطاءً من اللَّه لا ينفد أبدًا! منذ أن يضع قدمَه على صراط اللَّه المستقيم - سيرًا إليه تعالى عبر مدارج الابتلاء التعبدي - حتى يلقى رحمةَ ربِّهِ وجمالَ رضاه! فما خاب قطُّ عبدٌ أخلص للَّه، ولا خَسِرَ مؤمنٌ استعان به وحده جلَّ عُلاهُ.

٤ - مسلك التخلق:

أول العمل: تحقيق انطلاق الخطو نحو مقام ﴿ إِيَّاكَ ﴾، بما ترتب على مستندها من تفريد في العبادة والاستعانة، وتخليص الوجهة إلى غايتها، ثم شهود مقاماتها في كل صلاة، صقلًا للقلب، ومجاهدةً للنفس، وحراسةً يقِظَةً لأبوابها أن تشرد بعيدًا عن مناجاة اللَّه، أو تغفل لحظة عن مدافعة وسواسها، والتصدي بقوة لخناسها، كلما اعترض إخلاصَها وعكَّر صفوَها؛ بما يلقي إليها من صور الأغيار، وخواطر الفتن والأكدار، وبما ينفث في القلب من الإغراءات والشهوات، وشتى ضروب الأوهام والشبهات. تلك حقيقة الابتلاء بكلمات ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فما أثقلها من رسالة! وما أعظمها من أمانة! ولكنها يسيرة بتيسير اللَّه على من عزم عزمتها.

فيا أسفًا على عجزك وكسلك يا قلبي العليل! ويا حسرة على تمنيك الواهم، وعلى خطوك المتردد الكليل! فأولئك السابقون هم الآن على أبواب الوصول! وأنت هنا في الخلف ما تزال تفرك عيون النوم تقاعسًا، وتتخبط في وحل رياتك وشهواتك! والأوقات تضيع منك هدرًا، والروح في أعماق طينك تستغيث.

فاشرب دواء الإخلاص؛ لعلاج القلب من داء الزيغ عن توحيد اللَّه دعاءً واستغاثةً، واسق جراح الروح لشفائها من أمراض التَّشْمِيع والرياء، ومن علل العُجْبِ والكبرياء.

وأما تحقيق المناط لذلك الأمر بأجمعه، وكأس الشفاء الجامعة لذلك الدواء كله، فيكون بالدخول في ثلاثة مسالك:

- **المسلك الأول:** أن تبادر إلى تحقيق المواقيت في الصلوات الخمس خاصة! وتُسْلِسَ القياد لندائها، وأن تتقلب بين منازلها بكل جوارحك ولطائفك، فجرًا، ثم ظهرًا، ثم عصرًا، ثم مغربًا فعشاءً! تشهد نظامها ولحظة ميلادها، وتحضر موعد توزيع بركاتها وأرزاقها؛ لتنال نصيبك من أسرارها، تسبيحًا وتوبةً واستغفارًا.

فبانتظام المواقيت تنتظم كل مقامات الدين، وبشهودها يتحقق العبد بمنازل الإيمان، منزلةً تلو الأخرى، ويتطهر في كل منزلة من شوائب الأكدار والأغيار، تركًا لكل الفاحشات والمنكرات، ثابت الخطو على سكتي الأمر والنهي، وهو سائر إلى مولاه عبر مدارج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. يحقق نظر القلب إلى مقصدها

عند تلاوتها في كل ركعة، ويدعو ربَّه مستعينًا به وحده، عند كل سجود، فلا يخرج من صلاته تلك إلا وهو عبد مستعين، حتى تدركه الصلاة التي تليها. فإذا شهد صفَّها وميقاتها كانت له زادًا جديدًا كسابقتها، فيخرج منها كما خرج من الأولى. وهكذا يعيش يومَه وليله عبدًا خالصًا للَّه وحده، ومؤمنًا مستعينًا باللَّه وحده.

- **المسلك الثاني**: تحقيق خمس براءات من خمسة مهالك **وأولها**: الخروج الفوري من ظلمات الشركيات الظاهرة والباطنة، من التذلل التعبدي لغير اللَّه، أو التوجه بالدعاء لغير اللَّه، أو الاستغاثة بغير اللَّه، أو تقديم الذبائح والقرابين لغير اللَّه. **الثانية**: الانقطاع الفوري عن أكل المال الحرام، وأخطره الربا، ثم كل مالٍ ترتب عن أي فعل، أو أي تصرف، أو أي عقد حرام. **والثالثة**: الفرار من الزنا بشتى مظاهره، من فحش القول وفحش اللباس والنظر الحرام. **والرابعة**: هجران الخمر والمخدرات بشتى أشكالها، والانقطاع الحاسم عن خبيثة التدخين. **وأما الخامسة**: فهي مجاهدة نفسك أبدًا لحفظ اللسان من كل قول آثم، كذبًا كان أو غيبة ونميمة.

فاحذر أشد الحذر من الاقتراب بَلْهَ الوقوع في هذه المهالك الخمسة، فواحدة منها كفيلة بإحراق كل رصيدك الإيماني والعياذ باللَّه.

- **المسلك الثالث**: أن ترتب على نفسك برنامجًا من الأدعية والأذكار، قوامه ما ورد في السنة الصحيحة من أذكار اليوم والليلة، كدعاء النوم والاستيقاظ، وأدعية الخروج والسفر والركوب، ونحوها، وكذا صلاة الاستخارة قبل الإقدام على عزائم الأعمال، ثم الالتزام بورد يومي - مهما قَلَّ - من سنن التسبيح والاستغفار والصلاة على النبي المختار، عليه الصلاة والسلام. [1] وفي ذلك حِكَمٌ تربوية بالغة، يأتي تأصيلها - مع دعاء الهدى - في المجلس الأخير بحول اللَّه.

والنتيجة: أن العبد المتخلق بمقتضيات هذه المسالك الثلاثة يكون عبدًا محروسًا باللَّه، عليه أمان اللَّه وسلامه؛ ولذلك فهو يهيمن بمقاماته الإيمانية المتجددة على كل تصرفاته وأحواله، سواء منها ما هو من أمور دينه أو دنياه، تاجرًا كان أو موظفًا، ومهنيًّا عامًّا كان أو اختصاصيًّا، ورئيسًا كان في عمله أو مرؤوسًا، لا يفارقه في شيء

---

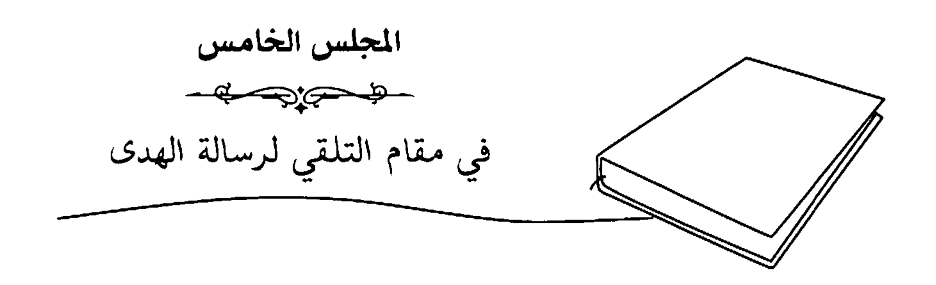
(١) ينظر في ذلك كتاب « الفطرية »، ففيه مقترحات مؤصلة.

من ذلك كله مقامُ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ بما تحقق له من شهود بركة مواقيتها، والتخلق بجمال منازلها، والوفاء بالتزامات عهدها وميثاقها؛ فيكون بذلك - إن شاء اللَّه - من السابقين.

فيا نفسي المغرورة، تلك هي « كلمات الابتلاء » الملقاة عليك، وتلك هي رسالتها العظيمة، فماذا حملت منها وماذا بقي؟ فواحسرتاه عليك! هذا البيان النبوي يجزم أن « **القرآن حجة لك أو عليك** »[1] فكيف بما تقرئينه منه صباح مساء؟ ميثاقًا تلتزمين به بين يدي رب العالمين: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؟!

* * *

(١) رواه مسلم.



١ - كلمات الابتلاء:

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

٢ - البيان العام:

هذه خاتمة المناجاة بينك وبين ربك، الرحمن الرحيم، وبتمامها يغمرك سبحانه بفضله ورحمته، فيقول لك: (**هَذَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ**) لقد وصلتَ الآن إلى الغاية، فتمتع بنور الهداية! هنيئًا هنيئًا! فإنما الهدى جائزة المكابدين لمنازلِ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أما وقد وصلتَ؛ فَلَكَ الآن يا صاح أن تسأل ما تريد..! فماذا تسأل؟ وهل في نِعَمِ اللَّه بهذه الدنيا شيءٌ أعظم من نعمة الهدى؟ ذلك النور العظيم الذي ليس بعده إلا جحيم الظلمات وشقاء الضلال، فافتح قلبك للتلقي يا صاح! ولندخل جميعًا تحت أنوار هذا البيان.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، تعني: أرشدنا يا ربنا إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إليك تحقيقًا، ووفقنا للاستقامة على منهاجه تثبيتًا. فإنما الهداية الكاملة إرشادٌ للعقل وتثبيتٌ للقلب! وتلك هي حقيقة الهُدَى. فالصراط المستقيم: هو الطريق الواضح البَيِّنُ الذي لا اعوجاج فيه، وقد يكون المرء على طريق الإسلام على الإجمال، لكن لا يكون على هدى « الصراط المستقيم »؛ بما قد يعتريه من النقص

والانحراف في الاعتقاد أو في السلوك، أو فيهما معًا؛ مما ينتج عنه اضطراب في المنهاج واختلال، يزيد وينقص على حسب حجم ذلك الاضطراب ونوع ذلك الاختلال.

فالهدَى هنا إذن أخص من عموم الهداية الحاصلة بالإسلام، وإن كانت هذه مقدمة لذاك، ومنطلقًا له، إلا أن هدى « الصراط المستقيم » هو الغاية من كل سلوك، وهو المقصود من كل عبادة، إنه كمال الإيمان وصفاء الإخلاص. فهو معرفة يقينية بمسلك الوصول إلى اللَّه، بعيدًا عن فتن القيل والقال، من المشارب المختلطة بالابتداع العقدي والانحراف السلوكي، مما قد يعتري المنهاج العام للمسلم على الإجمال. فالصراط المستقيم: إنما هو طريق أهل اليقين وكمال الإيمان، ودونه ما دونه من مفاوز المجاهدة والمكابدة، فمن تحقق به فقد نال تاج النعم، وكمال الهدى! فأكرم به وأنعم؛ ولذلك وجب السعي إليه في كل صلاة، دعاءً أبديًا يستغرق العمر كله.

وإلى نحو ذلك ذهب غير واحد من المفسرين، ورجحه ابن عطية الأندلسي بعد ما ذكر اختلافهم في معنى ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ بين معنى القرآن، وبين معنى الإسلام، وبين معنى سنة الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سَنَنَ المنعَم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول اللَّه ﷺ وصاحبيه (...) وأقول: إن كل داعٍ به فإنما يريد: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ بكماله، في أقواله وأفعاله ومعتقداته، فيحسن على هذا أن يدعو في الصراطِ على الكمال مَنْ عنده بعضُه.)[1] يعني: أن الجدير بهذا الدعاء الذي يراد به طلبُ الكمال، إنما هو مَنْ عنده بعض معناه، وهو عموم الإسلام مهما شابه من نقص، أي: ولو لم يكن في التزامه إياه على تمام الكمال؛ ولذلك ناسب أن يسعى إلى غايته ومنتهاه بهذا الدعاء. فيكون طلب الهداية إلى الصراط المستقيم طلبًا لكمال الهدى وتمام الاستقامة.

وخصوص هذا المعنى من مفهوم ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ واضح من بيانه الوارد بعدُ مباشرة في السورة، على سبيل التعريف: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾،

---

(١) المحرر الوجيز: (١/٧٤).

وهؤلاء وقع الكشف عنهم في سورة النساء، بسياق دال على كل كمال التثبيت على الحق، مع صنف خاص من المؤمنين وهم: الكُمَّلُ من أهل السبق واليقين، من طبقة الأنبياء ورفيقهم؛ وذلك قوله تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩]؛ وتقييد الدعاء بهذا الوصف المبعد لفئة المغضوب عليهم، ولفئة الضالين، ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ رغم بُعْدِ المسافة الفاصلة بينهم وبين المنعم عليهم - دال على أن المسلم غير المتحقق بصراط أهل اليقين، وغير المتأسي بهديهم، لا يأمن على نفسه أن تزيغ به الشهوات والأهواء؛ فيتردَّى في جحيم العذاب؛ بما يقع عليه من غضب اللَّه، أو يضيع في متاهات الضلال؛ بما يعبد من هواه! تمامًا كما وقع لليهود من قبل، وكما وقع للنصارى بعدهم.

فقوله تعالى: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ أي غير طريق المغضوب عليهم، وهم « اليهود » الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ أي وغير طريق الضالين، وهم « النصارى »، الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

وموجبات الغضب والضلال كلها أمراض معدية، لا أحد بمنأًى عنها، ولو كان من المسلمين، اللَّهم إلا من عصمه اللَّه بالتثبيت على هدى ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، ووفقه إلى التزام منهاجه القويم. فلا غرو إذن أن يكون ذلك دعاءَنا عند مناجاة الرحمن، في كل ركعة من كل صلاة، سائرين إليه عبر مواقيتها، متقلبين في أحوال العبودية بين يديه تعالى، متقربين ومتزلفين، ما بين منازل الليلِ والنهار، ونحن نتوجه إليه بطلب نعمة الهدى، ونجأر إليه بأصدق ما يكون الْجُآرَ والاستغاثة؛ رجاء بشارة

الاستجابة، بما تفيض به من نور، وتتنزل به من أمان وسلام آمين.

٣ - الهدى المنهاجي:

دعاء الهدى من هذه الآيات هو الغاية التي تنتهي إليها سورة الفاتحة. فإذا كانت آيةُ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هي خلاصتها وروحها، فإن دعاء: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ هو ثمرة تلك الخلاصة، وبشارتها المتنزلة على العبد، هديةً تملأُ قلبه بالأمن والسلام؛ تحيةً من اللَّه السلام! وإذنًا منه - جل علاه - بدخول جنات القرآن! فكانت هذه الآيات هي مصب روافد سورة الفاتحة، ومجمع بحورها، وخزانة أسرارها.

والفاتحة متضمنة لكل رسالات القرآن، فأنى لنا استيعابها في كلمات؟ كيف وها اللَّه ﷻ قد أثقلها بما أثقلها به من كنوز، وجعل فيها ما جعل من عمران، يختصر قصة الوجود ومسيرة الإنسان! ثم طواها لنا طَيًّا، تيسيرًا لتلاوتها في لحظات برحمته، وثناها لنا ثنيًا معجزًا؛ حتى كانت الفاتحة هي « السبع المثاني والقرآن العظيم »[1] فانطوت بذلك على كل حقائق الإيمان، واختصرت كل قصة السير إلى الرحمن فمن ذا قدير على تلقي رسالات الهدى من خاتمتها في لحظات؟!

وإنما لنا أن نبقى مع رحمة الثُّني؛ بما تحيل عليه من رسالات القرآن العظيم، وترشد إليه من مسالك وممالك، وفيما تعرضه من عمران، وتَبْنِيه من مدارج ومعارج، ترتقي بالعبد إلى منازل الجوار العظيم، سيرًا على صراط المنعم عليهم، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

فجعلنا هذه الآيات - لذلك - متضمنةً على الإجمال الكلي لخمس رسالات، هي:

الرسالة الأولى: بما أن دعاء الهدى من هذه السورة، وُضِعَ لِيُتلَى معها في كل صلاة؛ تجديدًا للإيمان، وإلحاحًا على اللَّه تعالى بالحاجة والافتقار؛ فقد حق على العبد الالتزام بأوراد الأدعية والأذكار على كل حال - كما أشرنا إليه في المجلس السابق - وتكرارها بالليل والنهار، والحكمةُ المرجوة منها بهذا المجلس هي أن تكون روافد روحيةً لدعاء الهدى في الفاتحة، ورافعةً للعبد إلى مقام شهوده، بما له من تميز

---

(١) مقتضى حديث صحيح سبق تخريجه.

وخصوص. وبيان ذلك هو كما يلي:

قد تواتر أولًا أن الصلاة هي عماد الدين، وأنها خير العبادات، ثم تواتر أن الفاتحة هي أهم أركانها، وأنها أم القرآن وخلاصته، ثم تحقق أن الدعاء هو ثمرتها ونتيجتها، كما أن الدعاء هو مخ كل عبادة، وقد صح قول النبي ﷺ: « **الدعاء هو العبادة** » [١].

فآل أمر الدين في نهاية المطاف إلى حكمة الدعاء، بما هو سير إلى الله بالافتقار الصادق، الذي يربي القلب على صفاء الإخلاص. فلزم من ذلك كله وجوب سير العبد إلى الله بالدعاء على الإجمال، يحققه في كل عبادة، ويتخذ لنفسه منه أورادًا – مهما قَلَّتْ – على حسب مواقيت الليل والنهار، وعلى حسب أذكار اليوم والليلة.

ذلك صريح منطوق القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] وعلى هذا يفهم قوله ﷺ: « **مَنْ لا يَدْعُ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ** » [٢] أي: بما هو قد استغنى عن الله! فكأنما الحديث تفسير للآية؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: (سَلُوا اللَّه كلَّ شيء حتى الشَّسْعَ! فإن اللَّه ﷻ إن لم يُيَسِّرْهُ لم يَتَيَسَّرْ!) [٣] وهو تعبير بليغ عن حقيقة التوحيد وإخلاص الدين لله؛ عقيدةً وعملًا. وذلك هو جماع مقاصد القرآن، وخلاصة غاية الدين، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣]. فالدعاء هو التعبير الجامع عن حقيقة الإخلاص، بما هو توجه إلى الله بالافتقار الصادق، رغبًا ورهبًا، توحيدًا وتفريدًا. وما من عبادة إلا وهي تؤول إلى هذا المعنى العظيم، الذي هو مخ الدين.

وعليه؛ فكما أن سائر العبادات خادمة للصلاة، باعتبار أن الصلاة هي « عمود الدين »، وأنها خير أعمال المؤمن، كما تواترت بمعناه الأحاديث [٤] ؛ فإن سائر

---

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم، عن النعمان بن بشير مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: « هو حديث حسن ». انظر السلسلة الصحيحة: (٢٦٥٤).

(٣) قال الألباني: « أخرجه ابن السني رقم: (٣٤٩)، بسند حسن ». والشَّسْعُ: أحد سُيُور النَّعْلِ، مما يعقد به.

(٤) من ذلك قوله ﷺ: « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة! ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن. » أخرجه ابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الأدعية خادمة لدعاء الهدى، باعتبار أن هذا أعلى مقام يناله العبد من ربه! فيحتاج لشهود مقامه إلى سير إليه عبر أدعية شتى بالليل والنهار! فانظر كم هو تعيس من يغفل عن أوراد الدعاء.

الرسالة الثانية: في أن هُدَى الصراط المستقيم هو أعظم نعمة نازلة من رب العالمين على الإطلاق، وأعظم رحمة تجلت عن اسميه الكريمين: الرحمن الرحيم؛ فكان ذلك هو خير ما يطلبه المؤمن من مولاه؛ لأن به أو بعدمه يتحدد مصيره الأخروي في مملكة الحق، عند ملك يوم الدين. فيا لتعس من خسر ذلك المصير! ويا لسعد من فاز بنجاته وسلامه، وصار إلى مقام جماله.

فيا نفسي الجهولة، إلى متى وأنت منشغلة بسفاسف الأهواء والشهوات؟ وإلى متى وأنت مُعْرِضَةٌ عن برامج الأوقات والصلوات؟ ولاهية عن مجاهدة الخطايا والزلات؟ ثم إلى متى وأنت متراخية عن التشمير عن ساعد الجد في طلب الهدى، وحث الخطى للحاق بقافلة المُنْعَمِ عليهم، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؟ فبأي رفيقٍ انشغلت عن صحبتهم؟ وبأي فتنةٍ عَمِيتِ عن مشاهدتهم؟ وبأي شيطان انقطعت عن متابعتهم؟ ثم بأي دعوة فاجرة انصرفتِ عن صراطهم المستقيم؟ إنكِ يا نفسُ إن لم تدخلي في العمل الواقف الآن بحقه عليكِ، فعلى دينك السلام! وإنكِ يا نفسُ إن لم تبادري إلى التوبة من التنقل بين السُّبُلِ هلكتِ! فراية القرآن واحدة، ورسالة الهدى لها زمن معلوم هو معيارها، إن فَاتَكِ إبَّانُه فَاتَكِ كلُّ شيء! فالبِدَارَ البِدَارَ قبل فوات الأوان.

الرسالة الثالثة: في أن الحياة سير قهري إلى الله، وإنما الاختيار واقع بين طريق مستقيم موصل إلى رحمة الله، وبين طريق معوج موصل إلى عذاب الله. إننا كادحون إلى الله كدحًا فملاقوه! لا خيار للبشرية في ذلك أبدًا! وإنما وصية الله جاءت ببيان الصراط المستقيم هدًى للعالمين؛ حتى يكون الكدح سيرًا إلى رضا الله لا إلى عذابه ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فيا صاح! إنك راحل إلى الله حتمًا، وما عمرك هذا المتناثر من بين يديك صباح مساء إلا دلالة صريحة على السير الحثيث، فبعد قليل ستنتهي الرحلة، ونقف على

محطة القبر - أنا وأنت - لنلج عالَم البرزخ، في انتظار اجتماع أجيال الخلائق لليوم الموعود!

الرسالة الرابعة: في أن الهدى - بوصفه توفيقًا وتثبيتًا، وبوصفه نعمة ورحمة - لا يكون إلا من الله وبه هو وحده تعالى مصدر الهدى، وهو وحده مصدر التوفيق إليه، والإرشاد إلى صراطه المستقيم، والتثبيت على التزامه، والتحقق من صفاته وشروطه؛ لذلك فلا إمكان للوصول إلا بما دلَّ عليه هو تعالى من آيات وعلامات. فمن رجا أن يهتدي بغير هدي الله فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا! فلا يغرنك قول فلان أو علان ممن نصب نفسه دالًّا على الله بغير منهاج الله! وإنما منهاج الله هو هذا القرآن العظيم. وبذلك جاء الجواب للداعي - بعد ختام دعاء الهدى في الفاتحة مباشرة - بيانًا له، في أول سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ثم ورد البيان النبوي بعد ذلك بعرض منهج الاشتغال بالقرآن وتصريف آياته في الحياة.

فيا قلبي العليل! هذا دواؤك الشافي! فلا تلتفت عنه إلى ما تزينه لك الأهواء، وما يلقيه الشيطان في خواطرك المضطربة، من العدول عن الحق الواضح المبين - في الدعوة والتربية والسلوك - إلى بدعِ أصحاب الأهواء! فإنما تلك فتنة عمياء وضلالة صماء! ورب شيخ نصب نفسه دالًّا على الله، وما هو في الحقيقة إلا حِجَابٌ ثقيلٌ من الحُجُبِ الصَّادَّةِ للخلق عن الله.

فالقرآنَ القرآنَ!.. القرآن زاد الدعوة والدعاة، والقرآن منهاج العبادة والحياة، والقرآن صراط الهدى المستقيم الموصل إلى الله، فماذا تلقيتَ يا صاح بقلبك من هداه؟ وماذا قَدَحْتَ من نوره بين يديك؛ لضبط السير ومعرفة الاتجاه؟ فيا طالب الشفاء للنفس، ويا طالب الغذاء للروح، ويا طالب الصلاح للبلاد والعباد! ذلك هو الحق الذي لا حق سواه! ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

الرسالة الخامسة: في أن من علامات الهدى، ومن شروط السير على صراطه المستقيم، الاقتداءَ الجميل والتأسي الحسن بمجاهدات المُنْعَمِ عليهم، والسير على سَنَنِهِمْ، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، والتشمير عن عزائم الصبر؛ للالتزام بمسلكهم، والدخول في صحبتهم، ونقل الخطى إلى مجالسهم؛ للغَرْفِ من

علمهم، والتخلق بسمتهم، وتلقي حكمتهم، والانضمام إلى قوافلهم السائرة إلى الله. فقوافلهم لا تنقطع أبدًا، ومدرستهم مفتوحة سرمدًا، فسجل قلبك بفصولها، وادْخُلْ مجالس القرآن.

٤ - مسلك التخلق:

وأما الدخول في مسالك هذه الآيات، على سبيل الابتلاء بكلماتها، والتخلق بِحِكَمِهَا، بما هي باب الدخول إلى عالم القرآن، وفاتحة النور الهادي إلى الرحمن، فهو قائم على قطع خمس خطوات منهجية، وهي كالتالي:

الخطوة الأولى: تحقيق شهود الافتقار إلى الله عند تلاوة دعاء ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ومجاهدة النفس أن تشرد في متاهات الغفلة، عند تلقي أنوار التلاوة للكلمات.

الخطوة الثانية: مطالعة معالم الهُدى ومشاهدة جماله، في نماذج المنْعَم عليهم من السابقين، وعلى رأسهم أسوة الخلق أجمعين، سيدنا محمد ﷺ، ثم مَنْ كان معه من الصحابة الميامين، وخاصة منهم خلفاءه الراشدين. فوجب أن نتلقى منه - عليه الصلاة والسلام - هَدْيَهُ في كل شيء، وأن نتعرف على معالم سيرته، ومنهاج سنته، في تعامله مع ربه بالليل والنهار، وتعامله مع أهله، وأصحابه، وأعدائه، في كل أحواله. ثم وجب أن نتدارس سنة خلفائه المهديين الراشدين من بعده، ساداتنا: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضوان الله عليهم أجمعين، ففي سنتهم من معالم الهدى ما وجب أن نعض عليه بالنواجذ.

الخطوة الثالثة: الحرص على شهود صلاة الجماعة بمساجدها؛ لأنها من أهم معالم الهدى، ومقياس دقيق لمعرفة موقعك من هدى الصراط المستقيم. فعن عَبْدِ اللَّهِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى! وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُم سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورِ، ثُمَّ يَعمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ المساجِدِ؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوةٍ يخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً،

وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ) [١].

الخطوة الرابعة: مجاهدة النفس بالقرآن؛ حتى لا تَفْتتِنَ عن منهاج الفطرة، ونور الصراط المستقيم، بالالتفات إلى بهارج الهياكل والألقاب، وملاهي الطوائف والأحزاب. ويتم ذلك بالدخول إلى مجالس التلقي للقرآن الكريم، والالتزام بمواعيدها، فهي خير من الدنيا وما فيها ففي رياضها تتنزل الرحمة والسَكينة، وبفضائها تحتف الملائكة، أنوارًا تصل أرواح الجلساء بالسماء، لتلقي الهدى من اللَّه، ونيل شرف الذكر في الملأ الأعلى فأكرم به مجلسًا وأنعم! ذلك بيان الرسول لمنهاج تلقي القرآن، في قوله ﷺ: « **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » [٢].

فيا جليسَ الملائكةِ أَبْشِرْ بالهدى والصلاح.

الخطوة الخامسة: تخصيص وقت خالص - من حين لآخر - للخلوة إلى النفس، لتنظر فيما بينك وبين ربك؛ حتى يصفو لك النظر إلى سيرك؛ فترى موقعك من صراط اللَّه المستقيم، قُرْبًا أو بُعْدًا، واستقامةً أو حَيْدًا، فتحاور نفسك وتناقشها، مساءلةً عما فات، وبحثًا فيما أضمرت من مقاصدها لما هو آت، على سبيل التقويم والمحاسبة.

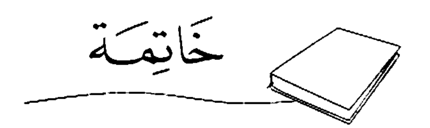
ومقاييسك النقدية التي تحاسب بها نفسك، وتقوم اعوجاجها، عبارةٌ عن مرآة ثلاثية الأبعاد، تكشف لك الصورة الحقيقية لنفسك الأمارة، وتظهر لك كل ما بها من غش وثلمات، أو ما بها من ضعف وهَنَات. فالمقياس الأول: هو مرآة الصلوات والأوقات. والمقياس الثاني: هو برنامج القرآن. والمقياس الثالث: هو مدى انقطاعك عن كبائر المحرمات. وتلك أمور سبق بيان مسالكها العملية ومواردها التطبيقية.

حتى إذا رأيت ما رأيت من نفسك وأحوالها، وشاهدت ما شاهدت من أمراضها وأدرانها، رسمت خطتك للانتقال من حال إلى حال، ووضعت طريقتك للتدرج من مقام إلى مقام. ثم تعزم - بعد ذلك - عزمتك، وتتوكل على اللَّه، مستعيذًا به تعالى

(١ ، ٢) رواه مسلم.

من كل شيطان رجيم، ثم تهرع بالمبادرة إلى صلاتك - فهي أول مداخل التصحيح والتقويم - تجْأَرُ فيها إلى خالقك، وتدعوه رَغَبًا ورَهَبًا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آمين.

* * *



خَاتِمَة

تلك بعض معالم الهدى المتلقَّى من سورة الفاتحة، وتلك بعض رسالاتها. وإنما تتحقق حكمتُها لمن كَابَدَهَا؛ إذ لا حظَّ من الحكمة ولا من التخلق، لقارئ بغير مكابدة ومعاناة، فهذه مسالك العمل واضحة بين يديك، وهذه حجة اللَّه قائمةٌ أبدًا عليَّ وعليك! وهذا العمر ينصرم منا اللحظةَ تِلْوَ الأخرى فالبِدَارَ البِدَارَ قبل وقوع الْخَسار!

ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

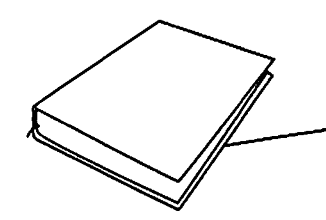
من التلقي إلى البلاغ

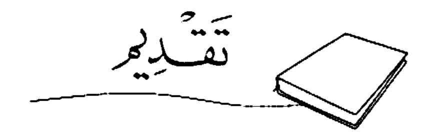
القسم الثاني: المدارسات القرآنية

٢ - سورة الفرقان

وهي مكية ، وعدد آياتها (٧٧) ،

وهي تتضمن خمسة عشر مجلسًا





سورة الفرقان، سورة ولا كأي سورة.

إنها بوابةٌ عظيمة للقرآن الكريم، بوابةٌ لمعارج الروح نحو منازل الأسرار والأنوار. ولسياحة القلب في عالم المُلك والمَلَكُوتِ، حيث جمال الأنس بالله، وحيث استدرار بركاتِ رِضاهُ ونعمةِ هُدَاه. وإنَّ بها لكلمات! وإن لها لرسالات! ما تَلَقَّى عبدٌ شيئًا منها - وهو في مقامها - إلا تَوَهَّجَتْ بصيرتُه بنورِ الهُدَى! وكان له من الله في قلبه نورٌ وفرقانٌ عظيم.

فالداخل منها إلى فضاء القرآن الفسيح يكتسب مَسْلَكًا فريدًا في تلقي رسالاته. إنها موطن التحلي بالخبرات الأساسية التي يتيحها القرآن للمؤمن في الدين والدعوة جميعًا. إنها تعرض خلاصة المنهاج القرآني في السير إلى الله دينًا ودعوةً، بما لا تجده في غيرها بهذا التركيز وبهذا الشمول! ففيها المنهاج، وفيها البرنامج، وفيها التقويم. مدرسةٌ كاملة من أولها إلى آخرها، بها مراحلُها وفيها فصولُها، ومنها دروسُها. وعلى عين رب العزة ﷻ يكون التمدرس فيها. وإن المتخرج منها ليكتسب فرقانية الدعوة وفرقانية الدين.

ولكنها تحتاج مني ومنك إلى تجريد وتفريد.

أما التفريد: فهو توحيد القبلة تجاه هذا القرآن؛ لأن ربيعه الرقراق لا يقبل الشريك في مصدريته التربوية، كما أن مصباحه الدري لا يتوهج إلا بزيته الخالص. فإذا ما عَكَّرْتَهُ بزيت مغشوش، انقبضتْ عن روحِكَ أسرارُه، ولم تنعكس على قلبك أنوارُه. وإذن يفسد الذوق وتختل المقاييس، ويضيع منك الفرقان.

وأما التجريد: فهو تفريغ القلب من الأهواء. والتجرد لله من كل حول وقوة. والدخول إلى جنة كتابه بافتقار كامل وبعبدية خالصة، فالقرآن لا يفتح كنوز أسراره إلا لمأذون، ولا إِذْنَ لمن تعلق بقلبه شيءٌ من كبرياء الهوى واستعلاء الفهوم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فاخضع لربك واخنع قبل طرق الباب.

فيا ربي الكريم! ها أنا ذا عبدك الفقير عدت إليك تائبًا منيبًا! أحمل أثقال ذنوبي وخطاياي! أطرق باب رحمتك وعفوك.. قد أثخنتني الجراح في متاهات الشرود عن واحات منهاجك. وهذه العِلَلُ والأهواء قد هَدَّتْ قلبي وأنهكت روحي. فالعين يلفحها ألم، والأذن يخرسها صمم. والقلب يعصره ندم. وما لي من دواء إلا في سقاء رحمتك ونور فرقانك.

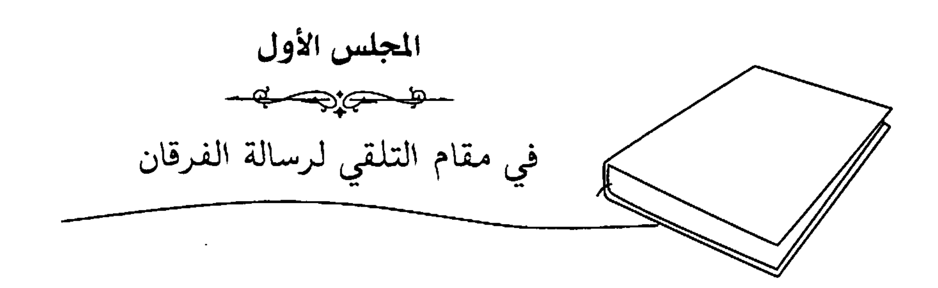
فاللَّهُمَّ أنتَ ربي لا إِلَهَ إلا أنتَ. خَلَقْتَنِي وأنَا عَبْدُكَ، وأنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَّي، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي. فَاغْفِرْ لِي. فإنه لا يَغْفِرُ الذُّنُوب إلَّا أَنْتَ.

وتَكَرَّم اللَّهمَّ بِوَارِدَاتِ الرِّضا والقَبُولِ، وافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ.

* * *

المجلس الأول

في مقام التلقي لرسالة الفرقان



والابتلاء فيه واقعٌ بالكلمات الأولى من السورة، فاقرأ آياتها كلمةً كلمةً. اقرأها ترتيلًا وترسيلًا، اقرأها بشهود القلب لبصائرها، الواحدة تلو الأخرى، ثم تدبر.

فيا نفسي الكسولة الجهولة.. تأدبي بمجلس الدرس. إن للقرآن العظيم لَقَدْرًا، وإن لملائكة الرحمن عليكِ لحقًّا. واجعلي على القلب لسان صدقٍ وميزانَ عبادة؛ ألَّا تَزِلَّ كلمةٌ طائشةٌ عن فَلَكِ القرآن؛ فتنصرفَ عنكِ مَلَائِكةُ الذِّكْرِ، ضاربةً بأجنحة النور نحو السماء، وتدعك غارقة في ظلمات القيل والقال.

١ - كلمات الابتلاء:

أَعُوذُ باللّهِ من الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ
تَقْدِيرًا ۝ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ
لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ١ - ٣].

٢ - البيان العام:

هذه سورة من أعجب السور في القرآن. إنها سورة التعريف بالقرآن، وبرسالة

القرآن، القرآن بما له من الأوصاف التعريفية الجامعة المانعة: « الفرقان »، هذا الوصف الفصل، الذي يميز الوحي الإلهي عن سائر ضروب الخطاب، ويعطيه صبغته الفرقانية التي تقهر وتبهر. وتشق للبشرية الحائرة في ظلمات الضلال طريق النور الواضح المبين.

والفرقان اسم من الأسماء الأعلام على القرآن العظيم، كما هو واضح من مطلع هذه السورة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾، وكما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وفي تسمية السورة بهذا الاسم الجامع دلالة وأي دلالة؛ ولذلك كانت متفردة - من بين سور الكتاب - في شمولها لرسالة القرآن! وفي تعريفها بطبيعة القرآن، وعرضها لقضية القرآن، بما يجعلها في طليعة السور التي لا بد للمؤمن الرباني أن يتلقى رسالاتها كلمةً كلمةً. وأن يدخل في ابتلاءاتها منزلةً منزلةً؛ ولذلك فقد كانت من الشطر المكي الأول من القرآن العظيم (١)، ثم صارت من المحفوظ المتداول لدى كبار الصحابة - رضوان الله عليهم (٢)؛ وذلك حتى تعلم الجماعة المؤمنة الأولى طبيعة هذا الدين الذي آمنت به، وحتى يعلم الناس المخاطبون بالقرآن، طبيعة هذا الوحي الذي يدعوهم إلى الإيمان.

وعليه؛ فإن شئت أن تجعل لهذه السورة موضوعًا رئيسًا، وشخصية خاصة، تميزها عن سائر السور؛ فلك أن تقول: إنها سورة التعريف بالقرآن، بما هو رسالة ذات قضية فرقانية، تعمل آياتها أول ما تعمل داخل تلك النفس التي تلقتها ابتداءً، فإذا بكلماتها تتحول - عند التلقي - إلى مقاصل ومقارض للتهذيب والتشذيب، تُنَفِّذُ عملياتها الجراحية في عمق النفس الإنسانية تزكيةً وتربيةً؛ حتى تُخرج للناس - بعد ذلك - عبدًا فرقانيًا، يكون نموذجًا حيًا لرسالة القرآن.

---

(١) نزلت بعد سورة يس. ورقم ترتيبها حسب النزول هو: (٤٢)، من (٨٦) سورة نزلت بمكة. ينظر ذلك - في دراسة موثقة - في التفسير الحديث للشيخ محمد عزة دروزة: (١/١٥، ١٦).

(٢) يدل على ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما، من قصة اختلاف القراءة فيها بين الصحابيين الجليلين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم بن حزام، وجواب النبي ﷺ بقوله: « إن هذا القرآن أُنزِلَ على سبعة أحرف.. » الحديث.

ومن هنا كانت آياتها من أوقع كلمات القرآن على النفس، وكانت رسالاتها من أشد المسالك ابتلاءً للعباد! ومن ثم كانت زبدة مخيضها أن تَخرَّجَ من محنتها: (عباد الرحمن) بما ذُكِرُوا به من مقامات ربانية، ومنازل رحمانية، لا يدركها إلا من شق مسالكها عقبةً عقبةً.

فيا نفسي المريضة، هذه يد الرحمة الفرقانية تمتد إليك بمشرطة الشفاء، فهل تصبرين؟ فاكشف عن صدرك يا صاح، ولنستسلم معًا - أنا وأنت - على مشرحة الفرقان؛ للَّه رب العالمين؛ عسى أن نكون موضوعًا لكلمات القرآن، وعلاجات القرآن.

فذلك باب الدخول إلى سورة الفرقان. ولنبدأ قضيتنا معها - في مجلسنا هذا - من البداية:

إن نعمة القرآن بما هو نذارة رحمانية مباركة، إنما تنزلت لتشق طريق النور للعالمين، مشكاةً ربانيةً تتدفق أنوارُها من قلب رسول اللَّه ﷺ. وإنها لجديرة إذن بحمدٍ وشكرٍ يستغرقان حياةَ العبد المسبح ربَّه أبدًا، لأن عظمة هذه النعمة أكبر من أن يحيط بها خيال الإنسان إحصاءً ولا عدًّا، وأكبر من أن تستنفد البشرية بركاتها وأنوارها! فأي لسان قدير على شكر ما لا ينحصر بلسان؟ إنه لا كمال لثناءٍ على اللَّه ﷻ إلا بما أثنى هو على نفسه، ﷻ، ولذلك لم يكن كمالُ شكر نعمة القرآن إلا بالقرآن، فقال تعالى حامدًا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله من القرآن العظيم: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ هكذا (تبارك) بهذا التعبير الدال على الرفعة والتكثر والزيادة والاستمرار للبركة، من تَفَاعُلِ فِعْلِهَا الرباني، وتَكَثُّرِ نورها الرحماني. فلن تزال بركات اللَّه علينا تترى ما دام هذا القرآن يتلى، وذلك هو الفضل العظيم الذي لا ينقطع خيره أبدًا، فتبارك اللَّه بما نزل على عبده من بركات! فكان هذا الفرقان نذارة كونية ورسالة عالمية، يخرق نورُها حجبَ الزمان والمكان؛ ليشق طريق الهُدى بقوة؛ كي تستبين سبيلُها للبشرية الضاربة في تيه الظلمات، فلك الحمد ربَّنا كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

وإنما يتعرف المؤمن على عظمة القرآن، عندما يتعرف على عظمة المتكلم بالقرآن: اللَّه رب العالمين، إذْ قيمة الكلام إنما هي بقيمة من تكلم به. فإذا أبصرت هذا السر انكشفت لك كنوز القرآن؛ ولذلك قال سبحانه بعدُ مباشرة، على سبيل التعريف

بمنزل القرآن: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾. فكأنَّ المتلقي عندما سمع فاتحة السورة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.. الآية، ولم يُفصح عن اسم الجلالة: اللّه؛ تساءل: من هذا (الذي..) إذن؟ فجاء البيان بأوصاف الربوبية المطلقة، بما تتضمنه من معاني الفردانية في الملك، والتنزه عن الولد والشريك، وشمولية الخلق والتقدير لكل شيء. فتبين إذن أن المنزل للفرقان هو هذا الرب العظيم، الرب المالك وحده لكل شيء، الخالق وحده لكل شيء، فما من شيء في هذا الوجود، من مُلك السماوات والأرض، إلا وهو صادر عن شؤون ربوبيته، خاضع لعظمة سلطانه، تحت قهره وتدبيره، وحكمة تسخيره وتقديره. ومن هنا صدر عنه ﷻ هذا القرآن، على موازين حكمته ورحمته، ذلك هو هذا (الذي) نزَّل الفرقان، فأبصرْ أيَّ فرقانية عظيمة تحمل كلماتُه للعالمين! وأيَّ عبد كريم هذا الذي بُعِثَ به نذيرًا للناس أجمعين!.

وإن تَعْجَبْ، فَعَجَبٌ كل العجب، أمر هؤلاء الذين يُعرضون عن هذه الحقيقة الكونية العظمى، ثم يتخذون من دون هذا الرب العظيم - بما عرفنا عنه من صفات جليلة - آلهة باطلة عاجزة، لا تملك من صفات الربوبية شيئًا ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾. هذه مفاتح معاني الربوبية الحقة: فعل الخلق، وهؤلاء لا يخلقون شيئًا بل هم قد خُلِقوا خلقًا، وكفى بذلك مفتاحًا للتعرف على اللّه وأي مفتاح! ثم هم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يُحيون ولا يميتون، ولا يبعثون أحدًا من بعد موات، فأي آلهةِ زورٍ هذه؟! وأي أربابِ باطلٍ وبهتان؟! ثم أي ظلم هذا الذي يقترفه الإنسان الضال الجهول عندما يضرب بحق الخالقية عرض الحائط، ويتمرد على الخالق ويعبد المخلوق؟! كيف وها شؤون الربوبية كلها مرجعها إلى اللّه؟! فهو الرب الذي لا إله غيره ولا رب سواه! وهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده جل علاه، الأحد الصمد، الذي لا والد له ولا ولد، ولم يكن له كفؤًا أحد.

٣ - الهُدى المنهاجي:

وهو يتفرع إلى خمس رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن أول الواجب على المؤمن بهذا القرآن هو شكر المنعم

بتنزيله، وخير الشكر إنما هو تلقي رسالاته بالدخول في منازله والتخلق بخُلُقه، أي تَلَقِّيهِ بما هو مُنَزَّلٌ تنزيلًا لا بما هو مُنْزَلٌ إنزالًا فحسب؛ لأن الفرقانية لا تحصل للمؤمن إلا كذلك.

وقد قال تعالى هاهنا: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ هكذا: « نَزَّلَ » بصيغة « فَعَّلَ »، من التكرر والتكثر، بخلاف « أنزل » التي تدل على المرة الواحدة. وعلماءُ القرآن على أن « الإنزال » الذي هو من فعل « أنزل » كان للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وكان ذلك دفعة واحدة في ليلة القدر. بينما « التنزيل » الذي هو من فعل « نَزَّلَ » كان من السماء الدنيا إلى الأرض منجمًا، أي مفرقًا، بقصد التربية والتكوين للإنسان على مهل؛ لبناء النفس المؤمنة والمجتمع الإسلامي، بما يغرس جذوره في تربة العمران البشري، مؤصلة في عمق الوجود إلى يوم القيامة. وهذه الصفة إنما هي خاصة بهذا القرآن. وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجمًا مفرقًا مفصلًا، آيات بعد آيات، وأحكامًا بعد أحكام، وسورًا بعد سور. وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فإذا رغبت في تلقي القرآن حقيقةً، لتتخلق بفرقانيته فما عليك إذن إلا الدخول في ميثاق التنزيل، والشروع في تلقي برنامج القرآن آيةً آيةً؛ حتى يصير لك ذلك منهاج حياة، وتكون - بإذن اللَّه - من الشاكرين لنعمة الفرقان، محققًا لرسالة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ الآية.

الرسالة الثانية: في أن الصفة الوظيفية الجوهرية لهذا القرآن إنما هي كونه فرقانًا، يفرق بين الحق والباطل، والهُدى والضلال، والغي والرشاد، والظلمات والنور. وهي صفة عامة شاملة حتى إنه صارت له اسمًا علمًا، تستقل بتسميه على ما استغرقه اسمه من معان، فهو: الفرقان. وفي ذلك رسالة مهمة جدًّا مقتضاها أن هذا القرآن هو البرنامج الذي وجب على المسلم أن يعتمده في تبين طريق السير إلى اللَّه، وفي تلقي حقائق الإيمان الدالة على سبيل الرشاد. ففيه يجد المؤمن المتبصر معالم كل شيء، مما هو في حاجة إليه من أدوات الكشف عن الصراط المستقيم؛ إنه بوصلة

الخروج من حال الحيرة إلى حال اليقين، ومن ظلمات الفتن إلى نور الحق المبين.

وفي ذلك رسالة أيضًا في أن ابتغاء الهدى من غيره ضلال. وليس عبثًا أن يكون ذلك من آخر وصايا رسول الله ﷺ لهذه الأمة، وهو قوله البَيِّنُ المليح لأصحابه: « **أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟** » قالوا: بلى، قال: « **فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا** » (١).

الرسالة الثالثة: وهي أن هذا القرآن لن يكون له أثره في البشرية من النذارة والإنارة، إلا من خلال نماذج بشرية حية، تشتعل قلوبها هي أولًا بحقائقه الإيمانية، حتى تستنير وتتوهج ثم تنير. وذلك قوله تعالى: ﴿ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ فهذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته. فلما تحقق الرسول بالقرآن خلقًا صار هو – عليه الصلاة والسلام – بذلك للعالمين نذيرًا.

ولا بديل للمؤمن الداعية إلى الخير عن هذا المنهاج الرباني القويم. تلك حقيقة قرآنية راسخة، بَيَّنَتْ معَالمها التطبيقيةَ سيرةُ رسول الله ﷺ، بما كابده طيلة دعوته من آي الفرقان.

الرسالة الرابعة: في أن التعريف بوحدانية الله – في هذا السياق – بما هو منزل الفرقان، وبيان عظمته بتنزيهه عن الشريك، كل ذلك يستوجب تعظيمَ القرآن المنزل من عنده، ثم تفريده بالمصدرية، بحيث لا يُتَلَقَّى من أي شيء سواه توجيهٌ من التوجيهات المتعلقة بالإرشاد التعبدي والدعوي للإنسان في الأرض؛ فالقرآن هو المصدر، والقرآن هو البرنامج، والقرآن هو الوسيلة، والقرآن هو المنهاج. فلا شيء ينافس القرآن في ذلك على الإطلاق، والسنة في ذلك له تبع، فهي دليل السالك عبر مسالكه إلى الله؛ لما تمثله من كمال العبدية لله، وهما شرطان لا ينفكان: المسلك ونموذجه.

وهذا أمر في غاية الأهمية من الناحية المنهاجية، ومخالفة مقتضاه لا تكون سليمة العواقب على الدعوة والداعية، وعلى التربية والسلوك، في التصور وفي الممارسة.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٧١٣).

فتوحيد القبلة تجاه القرآن في السير إلى الله شرط صحة الطريق. قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٣] فتدبر!

الرسالة الخامسة: في أن إخلاص الدين لله هو القضية الأم لهذا القرآن بما هو دعوة للعالمين، ومن هنا كان الشرك هو أكبر ظلم مارسته البشرية الضالة، وذلك بما تنكرت لحق الخالقية، وبما تنكرت لتفرده تعالى بالتوجيه للإنسانية، فيما يصلح معاشها ومعادها! ومن هنا كانت الوظيفة الفرقانية الأولى لهذا الفرقان هي دعوة الناس للرجوع إلى هذا الحق الإلهي العظيم: توحيد الله بالعبادة والإخلاص له في كل شيء. وتلك رسالة في أن مدار دعوة الإسلام إنما هو التوحيد، التوحيد من حيث هو مجاهدة النفس على التحقق بمقام الإخلاص لله الواحد القهار، وإفراده تعالى بالعبادة رَغَبًا ورَهَبًا، والتحقق من ذلك على مستوى الوجدان، خَطْرَةً خَطَرَةً؛ حتى يصفو قصدُك لله، ولله وحده، وتلك هي القضية الأولى للقرآن عبر جميع الأجيال، فلا يضيعن منك ميزان الحق في ترتيب أولويات الدين والدعوة.

ثم تدبَّر هذا البيانَ النبوي العظيم، من خلال ما يرويه الصحابي الجليل معاذ ابن جبل ﷺ قال: (بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: « **يَا مُعَاذُ بْن جَبَلٍ** » قُلْتَ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ! ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: « **يَا مُعَاذُ** » قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ! ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: « **يَا مُعَاذُ** » قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ! قَالَ: « **هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟** » قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُه أَعلَم. قَالَ: « **حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبدوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ». ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: « **يَا مَعَاذُ بْنَ جَبَلٍ** » قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسَولَ اللَّه وسَعْدَيْكَ فَقَالَ: « **هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَاد عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟** » قُلْتُ: اللَّهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ: « **حَقُّ الِعبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ!** ») (١). فتدبر!

---

(١) متفق عليه.

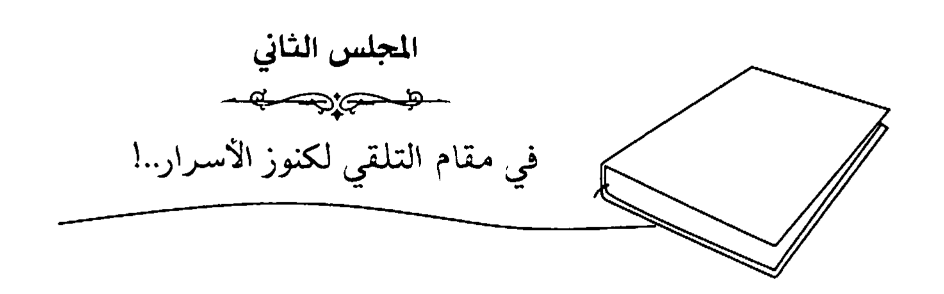
٤ - مَسْلَكُ التخلق:

لا مسلك إلى تَلَقِّي كل تلك الرسالات والتخلق بحقائقها الإيمانية، ومقاماتها الربانية، إلَّا بأخذِ القرآن بقوة واتخاذه فرقانًا في كل كبيرة وصغيرة، حتى لا تشتغل بشيء دون استشارته، ولا تقطع خطوة دون دلالته، فيصير لك منهاج حياة، ويكون لك هو رفيق الطريق؛ فهذا عصر لا مخرج من تيهه الرهيب إلا بالتمسيك بهذا الكتاب.

فيا نفسي الضعيفة المترددة، إن أول شروط الطريق عهدٌ وميثاق؛ عهد يقطع عنك كل تردد، ويعصمك من كل التفات، وعلامَ الالتفات وإلى مَهْ؟ فيا صاح وَحِّد الْقِبْلَةَ، وَحِّد القبلة، فهذا كتاب اللَّه وحده ضمان النجاة، قال جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩، ١٧٠].

ثم إن أول الخطو إلى ذلك هو إدمان تلاوته، وتدبر عباراته، وتلقي إشاراته، ثم صقل القلب بخُلُقِ التقوى على لهيب أنواره. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]. فلا ينبغي أن تجد نفسك في سيرك إلى اللَّه – تربيةً ودعوةً – إلا بين منازل تلاوته في خلواتك وصلواتك، وبين مدارج مدارسته في مساجدك ومجالسك، فهذه مدرسة القرآن يا صاح، مفتوحة الأبواب أمامك، على صراط مستقيم يقودك إلى اللَّه، فادخلها بسلام، إنها ميسرة منورة. قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].. ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

* * *



المجلس الثاني

في مقام التلقي لكنوز الأسرار..!

١ - كلمات الابتلاء:

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦].

٢ - البيان العام:

هذا مقام العروج إلى ملكوت السماوات والأرض، هذا مقام التَّلَقِّي لوارداتِ النور، بصائر تفتح القلبَ على أسرار القرآن العظيم.. ومنهاجًا يرسم طريق العودة للأوابين والتوابين.

من هنا تبدأ الفتوح، فَرَتِّلْ الآيات بقلبكَ ترتيلًا، وتدارس المعاني بفكرك كلمةً كلمةً، ثم رُصَّهَا على أساسِ قلبكَ لَبِنَةً لَبِنَةً، ثم ارفع رأسك إلى الأفق الأعلى تَرَ حبلَ اللَّه يمتد إليك، فإن هذا القرآن (**هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِن السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ**) [١] فاصبر يا صاح على تتبع مدارج الكلمات معنًى معنًى ولا تَعْجَلْ حتى إذا أبصرتَ بَوَارِقَ النُّورِ فأبْشِرْ بالفتح المبين.

أما هذه الآيات فهي تترجم في البدء مقالةَ الكفار في كل زمان، وهذه وسيلتهم

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: (٤/٣١)، نشر دار الفكر، بيروت، لبنان: (١٤٠٥هـ). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم: (٤٤٧٣).

الخبيثة أبدًا: محاولة إبطال المصدر السماوي لهذا القرآن، وربطه بالنسبية البشرية الأرضية؛ حتى يتسنى لهم الطعن في حقيقته وشريعته، ورد دعوته على صاحبه، قديمًا قالها كفار قريش وكثير من أهل الكتاب، واليوم يقولها كثير من أصحاب « القراءات الجديدة »، والتأويلات الباطلة، التي تسعى إلى نفي ربانية هذا الكتاب، وإسكات نداءاته القوية الصادعة، وخنقها في قارورة التاريخ الذي كان فقالوا جميعًا: ما هذا القرآن إلا كذبًا وبهتانًا، اختلقه محمد واخترعه، وأعانه على ذلك قوم آخرون، من بعض رقيق أهل الكتاب، ممن كان تحت سيادة العرب آنئذ.

هكذا يدعون دعوى باطلة بغير علم ولا برهان؛ فيرتكبون بذلك ظلمًا فظيعًا وزورًا شنيعًا؛ حيث ردوا كلمات الله رب العالمين خالقهم وخالق كل شيء وتمردوا بتكذيبهم محمدًا ﷺ على سلطان الله العظيم، وعلى حقه الواقع على العباد أجمعين، ثم إن هذا القرآن ليس مما يمكن لبشر أن يختلقه ولا أن يخترعه؛ فهو حق مطلق، شاهد بذاته على ذاته غني عن الدفاع بقوة خطابه حجةٌ على خصومه، يتحدى البشرية بربانيته إلى قيام الساعة.

وقالوا أيضًا: هو أساطير الأولين، استنسخها محمد، وقد كانت تملى عليه من لدن بعض أهل الكتاب صباح مساء. وهي بالذات دعوى المتكبرين على الله من أهل هذا الزمان، يدورون بذلك في فَلَكٍ واحد من الحيرة والضلال، ويتحصنون بتصنيع المصطلحات والألفاظ في محاولاتهم العديدة لإحباط الحق إفك، افتراء، أساطير، ولمفهوم الأسطورة اليوم دعوى نافقة في سوق الثقافة المتمردة على الدين.

فالأساطير: جمع إِسْطَارَة، وأُسْطُورَة، مثل أَفْكُوهَة، وأُضْحُوكَة، من السَّطْرِ في الكتابة، فكتابٌ مَسْطُورٌ: أي مكتوبٌ، مِنْ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْرًا. ثم اشتهرت الأسطورة في الدلالة على ما سطره الأولون من أساجيع الخرافات. وذكر الطبري أنه (كان بعض أهل العلم يقول: الإسْطَارَةُ لغةً: الخرافات والترهات)[1].

ومن هنا جاء الرد من السماء قويًّا بيِّنًا يتحدى، على أقوى ما يكون التحدي والبيان جاء قاطع الدلالة، بما تحمل الكلمات من العظمة والرهبة، على أن المتكلم الآن - كما هو الشأن في كل القرآن - إنما هو الله رب العالمين.

---

(١) جامع البيان: (١٧١/٧).

فقال الله ﷻ لرسوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦] هكذا يعبر مرة أخرى باسم الموصول: « الذي »، دون التصريح باسم الجلالة « اللَّه »، تنبيهًا للمتلقي إلى التركيز على ما تتضمنه صلة الموصول من معانٍ وصفات، وهو عِلْمُهُ تعالى بأسرار السماوات والأرض، فصاحب ذلك العلم المحيط بأسرار الكون كله هو المتكلم الآن، وهو منزل هذا الفرقان، وهو سبحانه فوق سماواته، محيط بكل مخلوقاته علمًا وتدبيرًا. فإذا تكلم تعالى تكلم من عل محيطًا بكل شيء؛ ولذلك جاء هذا القرآن محمَّلًا بكل شيء من أسرار السموات والأرض، مما تحتاجه البشرية لتدبير حياتها وبناء عمرانها، في علاقتها بنفسها وبمحيطها، وفي سيرها إلى ربها والتعرف إلى خالقها.

وبهذا وأمثاله كان التحدي ولن يزال مستمرًا إلى يوم القيامة، فقوة هذا القرآن هي في ذاته بما يحمل من إعجاز وأسرار، تسلك بالإنسان ما بين السماوات والأرض وهذه كلمات اللَّه بين يديك تتفجر بالأنوار، فتدبر! أوليس التردد من العباد في قبول الحق من رب العباد يستحق الغضب الإلهي؟ فما بال العبد يتمرد على خالقه وسيده؟ ولكن هذا الرب العظيم كما هو عظيم بجبروته تعالى، عظيم أيضًا برحمته التي وسعت كل شيء، فيمهل عباده، ويجعل لهم فسحة للتأمل والتدبر، عسى أن يُقبلوا عليه بعد ذلك تائبين مستغفرين، فقال جَلَّ ذِكْرُه وثناؤه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦] يعني: لمن تاب وآب إلى مولاه قبل فوات الأوان.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو يتفرع إلى أربع رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن الكفار والمنافقين لن يزالوا أبدًا - اليوم وغدًا - يثيرون الشبه والفتن، أمام قوافل السائرين إلى اللَّه والدعاة إليه؛ فوجب الثبات على الحق والعض على هذا القرآن بالنواجذ، والتمسيك بآياته بقوة، وعدم التأثر بما يقولون من الترهات والأباطيل التي يلقون بها في وجه المؤمنين؛ لعرقلة السير وقطع الطريق إلى اللَّه، والتشويش على دعوته جل علاه.

الرسالة الثانية: في أن هذا القرآن رسالة اللَّه المنزلة من السماء إلى الأرض؛

لتعريف الإنسان بربه، وبوظيفته التي خُلق من أجلها، ثم لتنظيم حياته في علاقته بنفسه ومحيطه، ولرسم طريق العودة إلى اللَّه. فمن أخذ به وصل، ومن أعرض عنه ضل، وكفى بذلك حقيقة كونية عظمى.

الرسالة الثالثة: في أن عمق القرآن يمتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ ولذلك فأسراره لا تنتهي أبدًا، ومن هنا فهو يتضمن الهُدى الذي تحتاجه البشرية في مجموعها، والهُدى الذي تحتاجه كل نفس في نفسها، فهو المسلك الجامع لكل المسالك، والمشرب الذي يرفد كل المشارب من موارد الخير والصلاح، على امتداد الزمان. فلا تستهن بعطاءات القرآن فتكون من المغبونين ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

الرسالة الرابعة: في أن المتكلم بهذا القرآن إنما هو اللَّه رب العالمين، فلا يغب عنك هذا عند تلقي رسالاته؛ فَتُحْجَبَ عن أنواره وأسراره، ثم لا تكون من الداخلين في جمال رحمته، المشمولين بلطفه وغفرانه فاقرأ القرآن وتلقَّ الهدى والنور عن اللَّه مباشرةً تكن من المبصرين.

٤ - مسلك التخلق:

أول الخطو في طريق تلقي هذه الرسالات هو تهييء القلب تهييئًا، وإعداده إعدادًا؛ لاستقبال آيات القرآن، تمامًا كما نهيئ البدن والروح معًا بفعل الوضوء؛ للدخول في الصلاة، ولا يكون ذلك إلا بالأخذ بكل مجامع النفس، وكبح كل صوارفها، قصد اعتلاء مقام التلقي عن اللَّه - خلال الصلاة وخارجها - ثم فتح باب الروح لشلال النور، كلما أشرق وارده على القلب من السماء.

ولا تنس يا صاحبي استغلال أحسن الأوقات لذلك، فالأوقات لها أسرار، مما وردت به الآيات والأخبار، سيرًا إلى اللَّه عبر مدار الفَلَك السيَّار، ما بين العشي والإبكار وخلوات الأسحار.

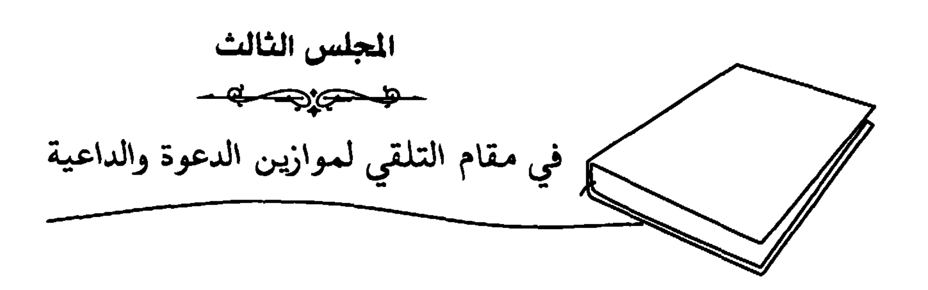
فإذا قدحت بلسانك مصباح القرآن، فافتح بصيرة روحك؛ لمشاهدة جمال أسماء اللَّه الحسنى عند تلاوته، ثم مشاهدة تجليات صفته تعالى بما هو منزل القرآن، وإياك

والغفلة - عند التلاوة - عن أم الحقائق، وهي أن المتكلم بهذا القرآن إنما هو اللّه ﷻ فتأدب عند الوقوف أو الجلوس بين يديه تعالى بأدب العبودية؛ حتى لا تكون من المحجوبين.

ثم بعد ذلك تشرع في محاولة استكناه أسرار الآيات كلمةً كلمةً، والتحقق من موقع كل حقيقة إيمانية تتلقاها: ما حظها من نفسك؟ وما موقعها من سلوكك اليومي؟ وهناك تبدأ باكتشاف الثغرات والثلمات، لتضميدها وعلاجها. ثم كرر التلاوة عند كل ثغرة وأمام كل علة انظر ها هي ذي الجروح تلتئم، وها هي ذي الأمراض تتهيأ للشفاء، فسبح بحمد ربك واستغفره، وكن من الشاكرين ثم قم هذه أنوارٌ من أسرار القرآن صارت لك الآن خُلُقًا، فَأَدِّ للّهِ حَقَّ الدعوة إليه واشتغل بالنذارة للعالمين!.

فيا نفسي العليلة! إلى متى وأنت تُغلِّقِينَ الأبوابَ دونَ دواءِ القرآن؟ إلى متى وإلى متى؟ وهذه آياته تتنزل من الرحمن شفاءً لا يغادر سقمًا!.

* * *



المجلس الثالث

في مقام التلقي لموازين الدعوة والداعية

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۞ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان: ٧ - ١٠].

٢ - البيان العام:

هذا موطن امتحان الرجال، هذا مقام تَلَقِّي العزائم المحمدية، وإنها لَعَزَائِمُ تَنْهَدُّ من تحت قَوَارِعِها الجبالُ، وإنه لا نجاح لداعية خسر هذا التحدي، ولم يفلح في التخلق بمقامه العالي.

فهل تعلمت يا قلبي درس الصبر؟ أم أنها كلمة تجري على اللسان وكفى؟! الصبر على فتنة الاتهامات الباطلة والإشاعات المدمرة والأراجيف القاتلة، وإنها في هذا العصر لمن أشد الشر على المؤمنين، وإنها لتيه من متاهات الغربة بهذا الدين، وإن الصبر على الأذى النفسي لمحنة وأي محنة وإن الدخول فيها لمن أشد مواطن الامتحان لمقامات الإيمان، وإن النجاح بأسلاكها لبشارة للمؤمنين بالفتح المبين.

ألا ما أقسى ظلمات الفتن إذا أقبلت على الإنسان بصورها المموهة الكاذبة، كم تبغته وتبهته، وكم تربكه وتزلزله، حتى إنه لربما صدَّقها وانجرَّ خلف ضلالها

فكان من الهالكين، وكيف النجاةُ وها الفتنةُ ما أَقْدَمَتْ إلَّا وأَقْدَمَتْ بِشُبْهَةٍ، ولَا أَدْبَرَتْ إلَّا وأَدْبَرَتْ بِبيان؟! فلا يكون منها البيان إلا بعد فوات الأوان، وإن شُبَهَهَا عند الإقبال لَتَدَعُ الحليم حيران! ولذلك كانت فتنة!

فيا صاحبي في طريق الآخرة، لِنَتَلَقَّ معًا درسَ الموازين، وإن لكلمات اللَّه هاهنا لقولًا فصلًا، وإن لها لمقياسًا عَدْلًا ثم إن لها من منازل التبصير والتنوير ما لو تَحَقَّقَ به المؤمنُ لكان من أهل اللَّه، لا يرى إلا بنور اللَّه، فأنى للفتن آنئذ أن تزحزح قلبه أو تسحر بصيرته؟!

ثم إن هذا القرآن قد كشف لأهله سنن الحرب الدائرة بين الحق والباطل إلى يوم القيامة، فلا شيء من ذلك إلا وفي كتاب اللَّه ميزانه. وإن من أشد مواطن الضعف في أسلحة الخصوم هو جهلهم بطبيعة هذه الدعوة ورجالها، وإنما هو عِلْمٌ يُنال بالإيمان، وبالإيمان فقط! وهم إذْ عَدِمُوهُ جهلوه! فكانوا من الخاسرين في معركتهم ضد الحق. فاقرأ وتدبر! ولا يفوتنك هذا فإنه لك قوة.

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧].. الآيات. أي: وقال الكفار: ما بال هذا الذي يزعم أنه رسول من عند اللَّه يأكل الطعام مثل الناس؟ فيخضع بذلك لسائر الضرورات البشرية، سواء منها ما يتعلق بلواحق الأكل أو بسوابقه، ثم يمشي في الأسواق لطلب الرزق، فيخالط عامة الناس وأراذلهم، فهلَّا أرسل اللَّه معه مَلَكًا من السماء يشهد على صدقه، ويقوم بالنذارة إلى جانبه؟ أو يُلْقَى إليه كنزٌ؛ فيكون من أصحاب المال والجاه، أو تكون له ضَيْعَةٌ عظيمة، ذات أشجار وثمار يأكل منها، فيستغني بذلك عن طلب الرزق والمشي في الأسواق؟ وإذْ ليس له من هذا كله شيءٌ؛ فقد قال هؤلاء الظالمون المكذبون: ما تتبعون أيها المؤمنون السُّذَّجُ إلَّا رجلًا مسحورًا، أي غلب السِّحْرُ على عقله؛ فلا هو يدري ما يقول.

ثم جاء الرد من عند اللَّه قويًا حاسمًا كالعادة ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩] تعجيبًا من جهلهم وتهافت حجتهم، والخطاب موجه إلى نبيه - عليه الصلاة والسلام - على سبيل التسرية والتطمين، بمعنى: انظُرْ يا محمد إلى تهافت ما جاؤوا به من كذب وبهتان مما قذفوك به من

قولهم: ساحر، مجنون، كذاب، شاعر... إلخ، فكلها أقوال باطلة ساقطة، لا ينطلي بهتانها على أحد ممن يعرفك، أو يعرف ما تتكلم به وما تتلوه من قرآن؛ ولذلك فهم لا يهتدون إلى حقيقة أمرك، ولا يستطيعون سبيلًا إلى دحض حجتك.

ثم عَقَّبَ بعد ذلك بتمجيد ذاته تعالى مرة أخرى، بما عَظُمَتْ بركاتُه وكَثُرَتْ خيراتُه. لكن هاهنا في سياق المواجهة والتحدي، فقال لنبيه: تَبَارَكَ الذي إن شاء جعل لك - أيها الرسول - خيرًا مما ضربوه لك مثلًا من مال الدنيا وجاهها، فجعل لك في هذه الأرض الدنيوية - قبل الآخرة - جنات وبساتين كثيرة تتخللها الأنهار، وجعل لك فيها قصورًا عالية فخمة، وكل ذلك سهل يسير على الله؛ إلا أن حكمته تعالى في النبوة وطبيعة الرسالة تقتضي أمرًا آخر، وهو ما يأتي بيانه في المجلس اللاحق بحول الله.

٣ - الـهُدى المنهاجي:

وهو في هذه الآيات ينقسم إلى أربع رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: أن سنة الله في الرسل والرسالات، وما جاء على منهاجها من الدعوات، أن تحاصرها الألسنة بالاتهامات الباطلة والإشاعات المغرضة، وأنواع السخرية اللاذعة، وسائر ضروب الحرب النفسية، كما تصنع كثير من وسائل الإعلام اليوم - من صحف وفضائيات - بالدعاة المخلصين. فلا بد من توطين النفس على تحمل الأذى النفسي في ذلك، وهو من أشد أنواع الابتلاء، فصبرًا صبرًا على جهل الجاهلين، وكيد الظالمين.

الرسالة الثانية: في تنبيه المؤمن إلى أن غالب طرق الحصار الإعلامي قديمًا وحديثًا قائم - بالإضافة إلى أسلوب الاتهام والسباب - على أسلوب التعجيز ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨] وهو ما يردده اليوم أعداء الدعوة الإسلامية، من مطالبة الدعاة ببرنامج تفصيلي في المال والأعمال، وكثير من الحلول الاجتماعية، التي لا نشك أن الإسلام هو العلاج الحقيقي لها، ولكن مع ذلك نقول إن للإسلام - بما هو دين رب العالمين - أولويات، وأصولًا كليات هي أساس العمل الدعوي، وما سواها فروع. فإذا قامت تلك، قامت هذه - بناءً عليها - بصورة تلقائية. فليكن المؤمن الداعية على

بال من ذلك؛ حتى لا ينجرف إلى رد الفعل، فيجد نفسه يُصَرِّفُ الرسالة الدعوية على غير وجهها، أو بما يخالف ميزان أولوياتها من برامج وخطط ووعود.

الرسالة الثالثة: في جهل الكفار عمومًا بطبيعة الدين والدعوة، إلا ظواهر شكلية، لا تنفعهم في شيء؛ ولذلك فإنهم لا يفلحون في محاصرة الحق أبدًا. فما أخلص عبد للَّه في دعوته إلَّا كان منصورًا. وأما الانحراف بالدعوة والدين إلى صور العمل العادي غير التعبدي، فإنه يسهل على العدو محاصرته بكل الوسائل؛ إذ يفقد ذلك العمل طبيعته الإيمانية، وخاصيته الروحية، المستعصية على التحليل والتأويل، ثم على الحصار والتدمير فلا مقاييس للكفار في تفسير الظواهر إلا مقاييس المادة ولا طاقة لهذه أن تفهم موازين دعوة القرآن، ومن هنا كان رجل القرآن منصورًا! فَأَلْقِ كلمات اللَّه عليهم - يا عبد اللَّه - وأَبْشِرْ بالفتح المبين قال تعالى في مثل هذا السياق: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

الرسالة الرابعة: في أن المؤمن لا ينبغي أن ينهزم أمام الحرب النفسية، وألا يرهبه شيء من هذه الاتهامات والإشاعات، مهما كثرت وتواترت لسبب واحد، هو: أنها جميعها ستسقط مندحرة مهزومة؛ لأنما هي تحارب اللَّه رب العالمين، فلا يبتئسن الداعية إلى اللَّه بشيء من ذلك أبدًا! وليوقن - إذا كان يُمَسِّكُ بالكتاب فعلًا، مخلصًا للَّه صدقًا - بأن كلمات اللَّه هي الغالبة المنتصرة في نهاية المطاف! فما أعلن أحدٌ الحربَ على اللَّه إلا أهلكه اللَّه.

٤ - مسلك التخلق:

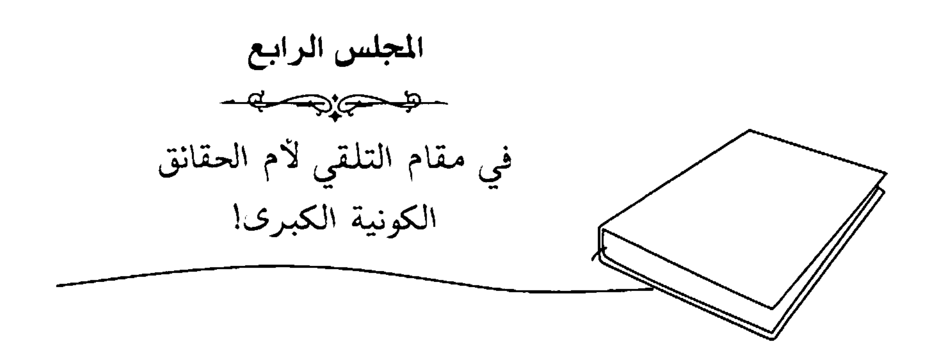
شيء واحد أساس، يعصمكَ من الانجراف وراء المتاهات، ويمنحك الثباتَ أمام مغريات الدعايات، وهو حقيقة إيمانية كبرى: أن تبحث عما يريد اللَّه منك، لا عما تريد أنت منه، فأنت العبد، وهو السيد الرب العظيم ﷻ، فلا ينعكس بين يديك الميزان وبغير ذلك يتيه الدعاة فيقرؤون القرآن - تحت تأثير الاستفزاز الإعلامي والسياسي - كما يريدون هم لا كما يريد القرآن، كل ذلك وهم لا يشعرون! فيتم إخراج الدين للناس على موازين دنيوية فانية، لا على موازين الربوبية والحقائق الأخروية الباقية!.

فيا صاح، اسجد للَّه في سيرك داعيًا إليه، ولا تكن من المفتِيِّتينَ هذا خُلُقُ رسول اللَّه ﷺ بين يدي ربه، عبدًا خاضعًا لجلاله تعالى، لا يشتغل إلا بما أذن له فيه فاحذر أن يقع ببالك أنك أنت الذي تدبر أمر الدين والدعوة فردًا كنت أو جماعة فإنما غاية شرفنا جميعًا - أنا وأنت - أن نحظى برضا اللَّه تعالى إذا ما رضي أن نكون جنودًا من جنده، فأكرم به من شرف وأنعم! واللَّه وحده مدبر أمر الدين والدنيا جميعًا، لا يكون شيء من أمرهما إلا بإذنه، وفي الإبان الذي يريده هو جل علاه فاخضع لمراد اللَّه تكن من المفلحين إن شاء اللَّه.

وإنما خُلُقُ المؤمن في هذا الشأن أن يجاهد نفسه لتحقيق عبوديته للَّه؛ باتباع مسالك القرآن الكريم أنى مضت به، لا يلتفت إلى ما سواها؛ فَيُقَدِّمُ ما قدمه القرآن، ويؤخر ما أخره القرآن، ويعظم ما عظمه القرآن، ويصغر ما صغره القرآن متأسيًا في ذلك كله بسيرة رسول اللَّه ﷺ الذي كان خلقه القرآن، ومن خضع للَّه على هذا الميزان، هداه اللَّه إلى الحق أنى كان.

حكمة: عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية وُجِدَ حكيمُ القرآن الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله غير مبالٍ كثيرًا بأحداثها، والناس آنئذ في هلع عظيم، فسئل في ذلك، فقال: إنني منشغل بما هو أعظم، فقيل: وهل هنالك شيء أعظم من الحرب العالمية؟ قال: نعم، يوم القيامة.

* * *



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان: ١١ - ١٦].

٢ - البيان العام:

بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ.. الله أكبر.

تلك هي المشكلة الكبرى للإنسان، وتلك هي القضية الكبرى للكون كله الساعة؛ إنها هي أعظم بلاغ قرآني - بعد الإيمان بالله - جاءت رسالات الله تحمله إلى الناس! قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١، ٢].

ولذلك كان (الإيمان بالله واليوم الآخر) ثنائية عَقَدِيَّةً تقوم عليها كل الحقائق الإيمانية الأخرى في الإسلام؛ لما لهما في ميزان الله من موقع عظيم في أمره الكوني

القدري، وفي أمره التشريعي التكليفي معًا؛ ولذلك تكرر الخطاب بهما في القرآن والسنة تكرارًا! فلا أمر ولا نهي إلَّا بعد حسم قضيتهما مع الإنسان، قال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال رسوله عليه الصلاة والسلام: « **من أحب منكم أن يُزَحْزَح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر** » (١).

الساعة؟ ذلك النبأ العظيم الذي جاء القرآن لينذر به العالمين، وَبَيَّنَ بيانًا في غير ما موطن من آياته وسوره أن بناء الكون الدنيوي له ساعة ينهار فيها، ثم يفنى بإرادة اللَّه، فلا يبقى شيء إلا اللَّه الواحد القهار وإنه لقريب قريب.

الساعة؟ ذلك هو السؤال الأزلي فلم يزل الإنسان - مُذ كان - يتوجس وقوعها، ويتحسس وقتها وحقيقتها؛ حتى ولو كان من الملحدين؛ لأنها حقيقة فطرية صارخة في عمق الوجود النفساني للإنسان، لكن اللَّه ﷻ أنبأه أنها سر من أسرار قضائه الكوني: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقد ورد في التفاسير أن العرب واليهود كانوا كثيري السؤال لمحمد ﷺ عن الساعة، كانوا يسألونه ظانين أنه حَفِيٌّ عنها، أي كثير السؤال - مثلهم - لربه عنها؛ إذ لا يُتصور في الإنسان - بطبيعته - إلا السؤال عن الغوامض الكونية؛ ولذلك قال: ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إنها حدث كوني عظيم، يمتد من السماء إلى الأرض؛ ليحدث ذلك التحول الرهيب في طبيعة الكون، تدميرًا ثم تكوينًا، وإفناءً ثم خلقًا؛ لاستقبال الحياة الأخرى، وإن أمرها في ميزان اللَّه لعظيم، وإنه لقريب قريب.

والساعة: هي القيامة، والواقعة، والقارعة، والصاخة... إلى غير ذلك من الأسماء التي عبر فيها الرب العظيم عن لحظة نهاية الكون. فالكون الدنيوي إذن تكوين ابتدائي، وحياة فانية، والكون الأخروي تكوين استئنافي، وحياة خالدة أبدًا، قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا

---

(١) رواه مسلم.

عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ومن هنا كان خطاب الله لرسوله ﷺ في شأن هؤلاء الكفار، أن قضيتهم أساسًا ليست في تكذيبك يا محمد؛ بقدر ما هي في التكذيب بالساعة ابتداءً! فما كذبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، ونحوها من العلل الزائفة والضعيفة، بل كذَّبوا بالساعة وما وراءها من جزاء، وهذا التكذيب في حقيقته إنما هو تكذيب من يرفض حقيقتها؛ لأنه لا يريد وقوعها ولا يتمناه، وهو يحمل من خشية تحققها ما يجعله تكذيبًا مهتزًا ضعيفًا! ثم إنه لا حق للإنسان في التكذيب بها؛ لأنها في بَدَهِيَتِهَا كالتكذيب بوجود ذاته هو أو كالتكذيب بوجود خالقه العظيم والتنكر لحقوقه الكونية الكبرى، والتمرد على ربوبيته جل علاه، فكان الوعيد على قدر الجريمة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١].

وإنه لمشهد رهيب يصوره القرآن العظيم بدءًا بلفظ « السعير »؛ تسميةً لجهنم ووصفًا لها، والسعير في العربية: « فعيل » بمعنى « مفعول »، أي أنها مُسَعَّرَةٌ. والسَّعَارُ: الاشتعال الشديد والالتهاب العظيم، وهو وصف لهيجان النار واشتداد حرها وإنما سميت « أسعار السوق » بذلك؛ تشبيهًا لها بحر النار، والسعير في جهنم - والعياذ بالله - أسوأ ما يتصور فيها من دركات العذاب الشديد، اشتعالًا والتهابًا وهيجانًا؛ حتى إنها لتكون ذات صورة حية، واعية بذاتها وبوظيفتها التي خُلقت من أجلها! وهو تعذيب هؤلاء المردة، الكفرة بالله واليوم الآخر، المنكرين للساعة! وها هي ذي جهنم - وهي حقيقة عظمى من حقائق الساعة - تنتقم منهم، فهي لهم اليوم عدو لدود، تنتظرهم من على بُعد، وتترقب وصولهم إليها، وكأنها أعناق وأفواه لاهبةٌ تشرئب إليهم، وعيون مغتاظة غاضبة تنظر وتترقب ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢] إذ يشتد صوت غليانها وزفيرها، من شدة تغيظها حتى إذا أُلقوا في جحيمها من مكان ضيق شديد الضيق - وقد قُرِنت أيديهم بالسلاسل إلى أعناقهم في مشهد مخيف، كما يُسلسل الثورُ من قرنيه فوجدوا من هول العذاب الشديد الذي لا يطاق - دَعَوْا على أنفسهم بالثُّبُور، أي: بالهلاك والفناء؛ للخلاص مما صاروا إليه، فيقال لهم أنئذ تيئيسًا: لا تَدْعُوا اليوم على أنفسكم بالهلاك مرة واحدة فحسب، بل ادعوا به مرات كثيرة، فلا فائدة! ولا نجاة لكم

ولا فناء! فقد صرتم جزءًا من جهنم، تُسَعَّرُ بكم ولكم! فلا خلاص لكم أبدًا.

ثم يستأنف الرحمن خطابه لرسوله الكريم في هذا السياق الملتهب: أنْ قل لهم أيها الرسول المبلغ عن ربه: أهذه النارُ التي وُصِفَتْ لكم بهولها وسُعُرِهَا خيرٌ أم جنة النعيم الدائم الخالد أبدًا؟ الجنة التي وَعَدَهَا الرحمنُ عبادَه الذين كانوا يخافون عذابه، إنها لهم اليوم ثواب عظيم على عملهم، ومصير جميل بعد سفرهم الدنيوي، يؤوبون إليه؛ جزاءً من ربهم الكريم. لهم فيها كل ما يشتهون من ملاذِّ النعيم، ولهم فيها كل ما يحلمون به من أنواع الراحة والجمال، مما يفيض عن لفظ « جنة الْخُلْد » من معاني الخضرة الدائمة، والثمار التي لا تنقطع، والأنهار المتدفقة أبدًا، والظلال المستمرة سرمدًا، وما يتخلل هذا وذاك كله من النعم التي ذكرها اللَّه في كتابه في غير ما آية وسورة؛ يتمتعون بلذائذها وجمالها كما يشاؤون ومتى يشاؤون، متاعًا دائمًا لا يفنى أبدًا، فقد كان دخولهم لها وعدًا على اللَّه سبحانه، يسأله إياه عبادُه المتقون، واللَّه ﷻ لا يخلف وعده.

فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وله الحمد كما ينبغي لكريم إفضاله وتمام إنعامه.

٣ - الهُدى المنهاجي:

وينقسم في هذا المجلس إلى ثلاث رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في بيان مركزية « الآخرة » في الخطاب الدعوي القرآني، باعتبارها أهم قضية وجب أن يتمحور حولها المنهاج الدعوي بلاغًا للدين في العالمين، وتجديدًا له بين المسلمين؛ ذلك أن طبيعة هذه الدعوة طبيعة أخروية بالقصد الأول، فوعودها الأساسية للإنسان إنما هي هناك، وأن كل ما عدا ذلك من صلاح المعاش إنما تابع لصلاح المعاد، ولا عكس! تلك هي طبيعة الرسالة وطبيعة هذا الدين؛ ولذلك جاء تجهيل اللَّه للكفار بحقيقة هذه الرسالة؛ عندما طالبوا رسوله ﷺ من قبل بتحقيق خوارق غيبية، واكتساب إنجازات مادية دنيوية، من كنوز وأملاك وضيعات، فقال لهم: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨] بل هي النبوة! بل هي النذارة! بل هي الوعد الحق، بل هي حقوق اللَّه الخالق لهم،

حقوقه التي ما تزال معلقة فوق رؤوسهم، تنتظر منهم الدخول في رِبْقِهَا، والاستجابة لابتلائها؛ أداءً لحق الخالقية، وهم عنها متنصلون، وعلى ربهم متمردون، ولربوبيته ﷻ منكرون. فسبحانه وتعالى عما يصفون.

إنها رسالة «الساعة» الرسالة الحاملة للإنسان بيان حقيقته ووظيفته، وبيان مقامه الذي وجب أن يدخله متواضعًا لله رب العالمين: مقام العبدية، تلك الوظيفة التي من أجلها جعل الله له في هذه الدنيا ما جعل من تسخير وتيسير؛ حتى تسلس له رحلته العمرانية الابتلائية إلى الآخرة، فكل ما في هذه الدنيا يُطْوَى والساعة جامعة.

الرسالة الثانية: في بيان أن نعمة الإيمان باليوم الآخر؛ بما هو منقذ للبشرية من الخسران المبين، ونجاة لها من المصير الرهيب، لهي من أجلِّ النعم، فلا يملك المؤمن إزاءها إلا الحمد لله كل الحمد، والشكر الدائم له جل علاه؛ بما أنعم على عباده الصالحين من الإيمان بالساعة وإنها لمن أعظم النعم حقًّا! وذلك بما تتيحه للمؤمن من الاصطفاف مع قوافل العابدين السائرين إلى الله ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩] وبما يستفيده العبد من ذلك كله، من جمال الأمان وتمام الاطمئنان، وهو يُحَلِّقُ من مقام الشوق إلى مولاه، ضاربًا في الفضاءات بجناحي الخوف والرجاء في جمال رائق لا يوازيه من زخرف الدنيا شيء البتة.

الرسالة الثالثة: لما كانت حقيقة الساعة - كما وصف الله وأخبر - ساعة الفصل بين أهل السعير وبين أهل جنة الخلد، في مشهد رهيب حملته كلمات الله نذارةً للعالمين؛ كان الخوفُ واقعًا على المؤمن من جهتين: **الأولى**: خوف الوقوع في الخسران المبين! **والثانية**: خوف فقدان النعيم المقيم، فوجب على الكيس الفطن أن يعيش في دينه على حذر واحتياط، وذلك هو معنى التقوى.

فتبين إذن أن التقوى هي أعظم زاد وجب على المسلم - بَلْهَ الداعية إلى الله - أن يتزود به للآخرة! وأن العاقل هو من شَمَّرَ عن ساعد الجد للعمل من أجل هذه الحقيقة، وترك ما دون ذلك من القيل والقال، وكثرة السؤال عما لا ينفع ولا يغني من ضروب المحال وسائر ما يشغله عن المقصد القرآني الجليل، ويفتنه عن قضيته الكبرى مع مولاه ويلهيه عن القيام بحقوقه جل علاه.

٤ - مسلك التخلق:

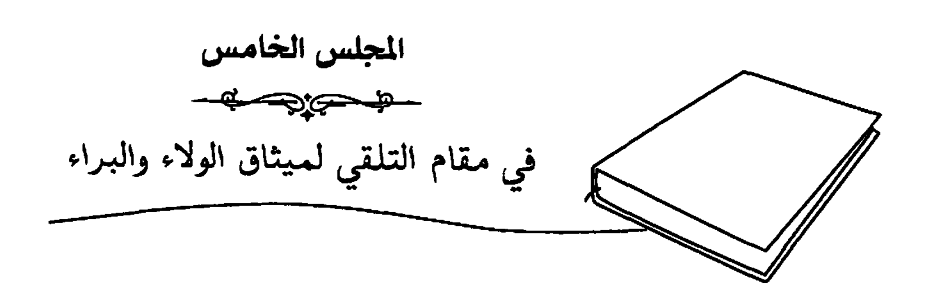
فيا نفسي الأمارة، تلك هي الساعة فماذا أعددت لها؟ ذلك هو السؤال واحسرتاه! فما أنتِ يا نفْسُ - لو تبصرين - إلا ورقة من شجرة، يوشك أن تعصف ريح الخريف؛ فتكونين من بنات الثرى، لقًى يذوي بين أحشاء التراب.

الساعة ها هي ذي تدق خفقاتها بقلبكِ، على عَدٍّ عكسي يمضي بك نحو لحظة الصفر، لا يلوي على شيء ولا أنت تستطيعين إيقاف مضيه الحثيث نحو النهاية، وخفقة فخفقة، ثم تدق الساعة، وتكونين لحظتها قد وصلت إلى باب القبر، ثم تبدأ قصة الآخرة، وتُفتح ملفات العمل! وتلك هي القضية الكبرى.

آهٍ يا نَفْسُ، هل أنت فعلًا مستعدة لدخول باب القبر؟ كيف؟ وأنت لا تدرين أحفرة من حفر النار هو أم روضة من رياض الجنة؟!

فيا قلبي العليل، إن الساعة ساعة دَقَّاتُهَا كَدَقَّاتِكَ فَعُدَّ أَيَامَكَ عَدًّا وتأهَّبْ للرحيل، هذا مسلك أهل الآخرة، مسلك المتقين، مسلك العارفين بالله حقًّا. فلا تجعل من يومك وليلتك عملًا على غير ميزانه؛ وإلا كنت من الخاسرين وإنما عافية الأعمال وسلامتها متحققة بمطالعة أحوال الآخرة! فلا تغفل عن آياتها المتواترة زادًا يوميًا من كتاب الله؛ ذلك إن كانت لك رغبة حقيقية في سلامة دينك ودعوتك وإنما الموفق من وفقه الله.

• • •



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩]

٢ - البيان العام:

الحشر؟ هذا المشهد الرهيب، واحد من أعظم مشاهد الساعة، ومن أشدها ثقلًا على الناس، فهو يوم الجمع الجمع الشامل للبشرية كلها، من أولها إلى آخرها، وهو يوم الفصل الفصل السريع والقضاء العادل! يوم إعلان النتائج! بعد الابتلاء الدنيوي الذي مضى وانقضى قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ في سورة الشورى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]. تلك هي خلاصة الحياة الدنيا بكل ما مرَّ فيها من عجيج وضجيج وبكل ما تعاقب فيها من أجيال وقرون، ومن ظَلَمَةٍ ومظلومين، ومن حكام ومحكومين، ومن طغاة ومستضعفين، ومن كفرة ومؤمنين، خلاصةٌ واحدة: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾.

فعند الحشر يجمع الله المشركين وما كانوا يعبدون من دونه، من أحجار وأشجار، ومن جن وإنس؛ ليناقشهم الحساب حول القضية الكبرى في الدين، قضية الإخلاص

والتوحيد، فيقول سبحانه لهؤلاء المعبودين من دونه: أأنتم فعلًا أضللتم عبادي هؤلاء عن حقيقة الإخلاص؟ وأمرتموهم بعبادتكم من دون الله رب العالمين؟ أم هم ضلوا السبيل من تلقاء أنفسهم؛ فعبدوكم طواعيةً؟ فيقولون منزهين ربهم عن الشرك والشركاء: سبحانك يا ربنا، وتعاليتَ عَمَّا فعل هؤلاء المشركون! فما ينبغي لنا أن نَتَّخِذَ أحدًا سواك وليًا نواليه ضد الإخلاص لك وحدك! ولكن حكمتك قضت أن تُمتع هؤلاء المشركين وآباءَهم في الدنيا - ابتلاءً لهم - بالمال والقوة والجاه والسلطان، فطال عليهم العهد بذلك؛ حتى نسوا ذكرك، وانقطعوا عن كتابك؛ فأشركوا بك ما لم تُنَزِّلْ به سلطانًا، وكانوا بذلك قومًا بورًا، أي: هَلْكَى أشقياءَ خاسرين.

فيقال آنئذ للمشركين: لقد كذَّبكم هؤلاء الذين عبدتموهم في ادِّعائكم عليهم، فلم تبق لكم من حجة فها أنتم هؤلاء لا تستطيعون دَفْعًا للعذاب عن أنفسكم ولا نصرًا لها! والنتيجة أن من يظلم نفسه فيشرك بالله ويعبد غيره، ثم يمت على ذلك، يعذبه عذابًا شديدًا.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا ينقسم إلى ثلاث رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن الحشر حقيقة من أهم الحقائق الإيمانية التي تقوم عليها عقيدة اليوم الآخر في القرآن، و «الحشر» لفظ عميق الدلالة على معنى الجمع الشامل الكامل، لكل من قدر الله جمعه في هذا اليوم بعد البعث والنشور! مما ذكره تعالى في كتابه من الإنس والجن والوحوش وما شاء الله ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الحشرُ بدلالته على خضوع المحشورين، واستسلامهم لمن يحشرهم ويزجرهم إلى ساحة المحشر العظيم، خاضعين مترقبين للوقوف بين يدي ربهم، لهو من أعظم حقائق الإيمان في القرآن مما وجب على المؤمن استحضاره في دينه ودعوته، بالقدر العظيم الذي جعله له القرآن في خطابه، مما لا تكاد تخلو منه سورة من سوره، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨].

فهذا المقصد الإيماني العظيم يورث النفس مقام الذلة لله، ويصفي إخلاصها له وحده دون سواه، ثم ينشط عزائم الروح في سيرها التعبدي رَغَبًا ورَهَبًا، وشَوْقًا إلى لقاء الله.

الرسالة الثانية: في أن الشرك هو فيصل الولاء والبراء في الدين. فهو الذنب الذي لا يغفره الله ﷻ لمن مات عليه أبدًا؛ لأنه خَرْمٌ وخيانةٌ لأعظم حق من حقوق الله بما هو رب العالمين، الخالق للجِنَّةِ والناس أجمعين؛ فَحُقَّ عليهم بذلك عبادته وحده؛ لأنه هو الخالق وحده، فمن خان هذا الحق الإلهي هلك هلاكًا مبينًا، وكان في الآخرة من الخاسرين.

ولذلك وجب على المؤمن في أصول إيمانه أن يتبرأ من الشرك والشركاء، ومن هنا جاءت سورة « الكافرون » في القرآن، بما فيها من نفي مكرر، بصيغ شتى، لأيِّ صورة من صور التداخل بين الشرك والإيمان، براءةً لقارئها المؤمن بها من الشرك، كما في الحديث النبوي الصحيح [(١)]. والشرك بالله ظلم كبير، ينتج عنه من الله عذاب كبير، والعياذ بالله! وهو مقتضى قوله تعالى، في سياقنا هذا من سورة الفرقان: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.

ولذلك بادر هؤلاء ٱلْمُدَّعَوْنَ آلهةً - قبل ذلك - إلى إعلان الولاء لله والبراء من الشرك، مباشرة بعد سماع سؤال الله لهم فيما نُسِبَ إليهم من الإضلال عن التوحيد: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ لأن توحيد الولاء لله في أمر الدين يقتضي البراء التام من كل ضروب الشرك والشركاء؛ إذ هما نقيضان لا يجتمعان في دين الإسلام الخالص أبدًا! وهي قضية لا تنازل فيها ولا تفاوض أبدًا.

---

(١) قال ﷺ: « إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك! » رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي عن نوفل بن معاوية، كما رواه النسائي، والبغوي، وابن قانع، والضياء عن جبلة بن حارثة. وحسنه الألباني. انظر حديث رقم: (٢٩٢) في صحيح الجامع. وأخرج البيهقي بسند صحيح عن أنس أن النبي ﷺ قال: « اقرأ قل يا أيها الكافرون عند منامك فإنها براءة من الشرك » ن. صحيح الجامع الصغير. رقم: (١١٦١).

الرسالة الثالثة: في أن الإسراف في متع الدنيا وشهواتها من شأنه أن يُنسي العبد - شيئًا فشيئًا - حقيقة عبديته لربه؛ فينقطع عن ذكره وتلاوة كتابه، ثم يقع في غفلة شاملة ونسيان روحي عميق فيتيه في ظلمات الشركيات بما تزينه له الأهواء والشهوات، إلى أن يصل إلى دَرَكِ الانحراف الكامل والضلال المبين ويكون من الهالكين.

٤ - مسلك التخلق:

فيا أخي في طريق الآخرة بين يديك الآن في سيرك إلى اللّٰه ثلاثة أمور، هي خلاصة هذا المجلس وزبدته. **الأول:** عمل تلزمه، **والثاني:** حَادٍ تستصحبه، **والثالث:** قاطع طريق تحذره.

فأما العمل الذي تلزمه: فهو تحقيق خُلُقِ الإخلاص في كل عبادتك، والتثبت من ذلك تحقيقًا وتدقيقًا؛ حتى يكون العمل بالفعل كله للّٰه، وذلك بمجاهدة النفس عند مدافعة طوارئ الرياء، وصد رغائب الحظوظ الدنيوية المذمومة، التي ترميك بالخواطر الشيطانية من حين لآخر، فاجعل هذا أساس عملك، ومقياس مقامك، وباب معراجك التعبدي إلى مولاك، لا باب لك سواه! فلأن تُقَدِّمَ بين يدي لقائك باللّٰه عملًا واحدًا مهما قَلَّ، لكن تحققتَ فيه بمقام الإخلاص، خيرٌ لك من القناطير المقنطرة من الأقوال والأفعال التي خرمتها الشركيات الحسية والمعنوية، والنيات الباطلة، المحبطات للأعمال ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦] فالإخلاص هو جوهر العمل في الدين كل الدين. تلك قضية من أمهات قضايا علاقتك باللّٰه ما كان ينبغي لي ولك يا صاح أن ننساها أبدًا.

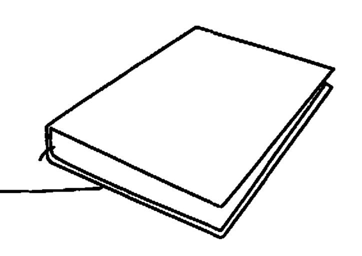
وأما الحادي الذي تستصحبه: فهو مَشْهَدُ الحشر إلى اللّٰه، كما تصوره لك البصائر القرآنية المبينة مَشْهَدُ الأمم من العالمين إنسًا وجنًّا، ووحشًا وطيرًا، وهم ينسلون من قبورهم، ويتدفقون في هلع رهيب إلى ساحة المحشر الكبرى.. كل منهم قد أهمته نفسه، ونفسه فقط ولا تنس يا صاح! فأنا وأنت هنالك بين أمواجهم! يا اللّٰه..! ما أردعه من مشهد عظيم للأهواء والأدواء وما أفزعه للنفس المؤمنة باللّٰه! وما أيقظه لها من غفلتها وما أشده تنشيطًا لها في سيرها إلى مولاها جل علاه.

وأما قاطع الطريق الذي تحذره: فهو الإسراف في استهلاك المباحات، بما يجعلها في نفسك مقدمة لتشهي المحرمات وإذن يثقل خطوك في طريق اللَّه شيئًا فشيئًا؛ حتى تجتالك الشياطين، وتنقطع بك عن طريق الصالحين وذلك استدراج من أخطر حبائل الشيطان اللعين! عافاني اللَّه وإياك من الوقوع في مصائده وشِرَاكِه.

* * *

المجلس السادس

في مقام التلقي لطبيعة الرسالة، وطبيعة الابتلاء بهذا الدين!



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٠ - ٢٤].

٢ - البيان العام:

السنة الإلهية الثابتة في إرسال الرسل، إنما هي قائمة على كونهم بشرًا بالقصد الأول؛ لِـمَا تقتضيه الرسالة من صاحبها، من الدخول في تكاليفها التعبدية، هو بذاته أولًا؛ حتى يكون مبلغًا بأسوته وقدوته البشرية، ومترجمًا بصورة عملية ما يبلغه للناس بلسانه من الوحي. وذلك كله في إطار بشريته المحكومة بالضرورات الطبيعية، التي تحكم جنس الإنسان، متقلبًا بين الفقر والغنى، والصحة والمرض، والضعف والقوة، والنصر والهزيمة، والخوف والجوع... إلخ، مخالطًا للناس في معاشهم وأسواقهم، متعاملًا معهم في تجاراتهم، وإجاراتهم، وسائر تصرفاتهم، وهو في غمرة ذلك كله مبلغ عن الله بقوله وفعله، وسائر أحواله! وذلك هو عين التحدي.

تلك إذن هي سنة الله في الرسل جميعهم؛ سنة ثابتة مستمرة، مؤكَّدة بكل

أدوات التوكيد اللغوية والسياقية، كما هو وراد في الآية: ﴿ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ وعلى ذلك جُعِلَ ابتلاءُ البشرية بالدين؛ الدين الذي يوجههم في كل شؤونهم المعاشية والمعادية، من مساجدهم إلى أسواقهم فإلى أي حدٍّ يستطيع الإنسان الصبر على ذلك؟ وإلى أي حدٍّ يستجيب لنداء الله - وهو متقلب بين شهوات المال والأعمال - متى ناداه بحكم شرعي في أي شيء من ذلك؟ فيقوم بحق ربه فيه! تلك هي قصة الابتلاء بالدين، والله ﷻ بصير بعباده: من يشكر منهم ومن يكفر.

لكن الذين لا يؤمنون بلقاء ربهم؛ لإنكارهم حقيقة البعث والنشور، يملؤهم الكبرياء كلما عُرضت عليهم الدعوة من لدن رُسُلٍ بَشَرٍ، وبهذا المنطق استكبروا على خاتم الأنبياء محمد - عليه الصلاة والسلام - فقالوا له بصلف شديد، على سبيل السخرية والتعجيز: هَلَّا أنزل الله علينا الملائكة نحن أيضًا؟! لتخبرنا مباشرةً بأنك صادق فعلًا، أو نرى ربنا ذاته جَهْرَةً عِيانًا فيخبرنا هو بذلك.

وإن هذا لهو منتهى الغرور والطغيان، وإنه لمنتهى الجهل بالله رب العرش العظيم!

لقد أُعْجِب هؤلاء الكفرة بأنفسهم، واستكبروا استكبارًا فظيعًا، وطغوا طغيانًا كبيرًا؛ إذ تجرؤوا على رب العزة بمقالتهم هذه، التي تقشعر منها أبدان المؤمنين بالله، من الذين يقدرون الله حق قدره؛ لِمَا يعرفون له - جل علاه - من مقام عظيم! فهو وحده الرب المتصرف في ملكه، بما يشاء وكما يشاء، فكيف لجاهل حقير من أضعف خلقه، أن يتدخل في شؤون ربوبيته؟! فيملي هو على مولاه ﷻ كيف تكون طبيعة الرسول وكيف يكون شكل الرسالة، ثم يطلب مواجهة ربه بالرؤية المباشرة! هكذا على سبيل الاشتراط على الله ربه ورب العالمين استكبارًا منه وطغيانًا ألا ذلك هو الجهل العظيم ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٤، ٧٥]. وكيف يراه هؤلاء الجهلة بشروطهم؟ سبحانه سبحانه! كيف وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه ﷺ: « حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَه، لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١)؟

(١) رواه مسلم.

نعم سيرون الملائكة! ولكن بشروط الله لا بشروطهم سيرونهم عند قبض أرواحهم؛ لتبشرهم بالعذاب الأليم، ثم يرونهم بعد ذلك في عذاب القبر، وفي كل مشاهد البعث والنشور، لِتَزْجُرَ زُمَرَهُمْ يوم الحشر إلى جهنم زَجْرًا! بما أجرموا في حق ربهم الخالق العظيم، وفي حق رسوله النبي الأمين وآنئذ ستقول لهم الملائكة: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: إن نعيم الجنة محرم عليكم تحريمًا فالْحِجْرُ: هو الشيءُ المحرَّمُ الممنوع. والقصد هو زيادة تعذيب هؤلاء المجرمين؛ بتيئيسهم من رحمة الله، ولو بعد دهر من العذاب، فهم إلى جحيم دائم أبدًا وفي ذلك فيما فيه من الهول والفزع الذي لا يطاق ولو بمجرد التخيل في الدنيا، فما بالك بمن وقف عليه هناك، وقد ضاعت منه كل فرص التوبة والعياذ بالله؟! هؤلاء هم الملائكة الذين سوف يرونهم حقيقةً! وهذه هي المقالة التي سيسمعون منهم جهرةً، لا ما طلبوه تحديًا وسخريةً، ولا ما اشترطوه على ربهم ورسوله؛ تبجحًا واستكبارًا.

وأما الأعمال التي يدعون فعلها على وجه الإصلاح، مما ظاهره الخير والبر، فإن الله تعالى يكشف مقاصده الباطلة، ويفضح حقيقته المخادعة؛ فيحطمه تحطيمًا ويجعله هباءً منثورًا؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان صاحبه فيه خاضعًا له، على سبيل التعبد، قيامًا بحقه العظيم تعالى. فلا صحة لعمل في الدين إلا ما كان مبنيًا على الإيمان بالله أولًا، إخلاصًا له وتعبدًا، واتباعًا لرسوله المبلغ عنه، خطوةً خطوةً، وأما « الخير » المفعول على سبيل الاستكبار، وتمجيد الذات، وطلب الشهرة والصيت، فهو الشر عينه وإن بَدَا من ظاهره ما بَدَا.

ولذلك فلن يفرغوا من حر الحساب الشديد، حتى يُساقوا إلى قضاء قيلولة مُؤَبَّدَةٍ، لكن في حر أشد من حر الحساب، إنه حر جهنم الرهيب والعياذ بالله.

وفي التفاتة رحمانية من الله إلى عباده المؤمنين الصالحين، يخبر ﷺ أن « أصحاب الجنة » لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إنهم في رحمة الله، ينعمون بجمال الطُّمأنينة الخالدة والاستقرار الكريم، يقيلون تحت ظلال الجنة الوارفة، تجري من تحتهم الأنهار، سالمين آمنين، مكرَّمين منعمين، بعيدًا.. بعيدًا عن حر الجحيم فشتان شتان بين المنزلين! وشتان شتان بين المصيرين! وشتان شتان بين الخلودين!

٣ - الـهُدى المنهاجي:

وهو ينقسم في هذه الكلمات إلى ست رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن الداعية الحق إنما هو الذي يقود الناس بتدينه من وسط الابتلاء الاجتماعي، قدوةً صادقةً حقيقيةً. والذي يدخل تحت ربقة الشريعة عبدًا للّه، مع عامة الناس، فالداعية هو إمام العامة والخاصة جميعًا، كلهم عنده سواء. ولا يكون كذلك إلا إذا حقق عبديته للّه على أجمل صورة من التواضع، والانخراط في مجتمع العامة. فهو قدوة الخلق بما هو عبد اللّه الفقير إلى اللّه. وتلك سنة اللّه في الأنبياء من قبل، كما ورد في قصة نوح عليه السلام؛ إذ قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود: ٢٧].

وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله أن نفرًا من كبراء قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ فوجدوه قاعدًا مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في أُناسٍ من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم! فأتوه فقالوا: « إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تَعْرِفُ لنا العربُ به فضلَنا! فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العربُ مع هؤلاء الأَعْبُدِ، فإذا نحن جئناك فاطردهم فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت »[1] فأنزل اللّه ﷻ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ولذلك كان من دعائه ﷺ: « **اللّهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين** »[2].

فالداعية لا يكون على القدوة السوية حتى يكون إمامًا في الدين لأمثال هؤلاء ولا يستطيع أن يكون كذلك إلا إذا عاش بينهم وصلى في مساجدهم، وأكل طعامهم، ومشى في أسواقهم وينبني على ذلك من الهدى.

---

(١) تفسير الطبري: (٧/٢٠١). والقصة مختصرة في صحيح مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه وعبد بن حميد عن أبي سعيد. ورواه الطبراني والضياء عن عبادة بن الصامت. وقال الشيخ الألباني: صحيح. حديث رقم: (١٢٦١) في صحيح الجامع.

الرسالة الثانية: في أن من التلبيس الشيطاني الذي قد ينحرف بالداعية عن المنهاج القرآني، أن يتوهم بأن عليه أن يحتجب عن الخلق، أو أن ينعزل في برج عالِمِيَّتِهِ بعيدًا عن هموم الناس، وبعيدًا عن آلامهم وآمالهم، متفرغًا للتوجيه والنصح من بُعْدٍ، أو من وارء حجاب، محاطًا بخاصةٍ من أهل المال أو أصحاب الوجاهة الاجتماعية أو السياسية، أو نحو ذلك. ثم يتوهم أنه بذلك مؤدٍّ لحق النذارة، بل وجب عليه أن يخالط عامة الناس بذاته خاصتهم وعامتهم، مثقفيهم ودهماءهم، ليتعرف على أدوائهم وأهوائهم. فالطبيب الذي لا قدرة له على التشخيص لا يمكنه أبدًا أن يصف الدواء.

الرسالة الثالثة: في التنبيه على عدم الانشغال بمجادلة المنكرين للقاء اللّٰه بعثًا ونشورًا، إلا قليلًا، وضرورة الاهتمام الأكبر - بدل ذلك - بمن يؤمن بالبعث ابتداء، مهما كان منه من فسوق وضلال، وهم سواد الأمة الأعظم؛ إذ الإيمان بالآخرة يعتبر بذرة خير عظيم، قابلة للإنبات بإذن اللّٰه، مهما بدا على صاحبها من انحراف.

الرسالة الرابعة: في تنبيه المؤمن إلى عدم الاغترار بما ينجزه الكفار باللّٰه واليوم الآخر، من الأعمال « الخيرية » العامة، في سياق الخدمات المدنية، والمساعدات الطبية والإغاثية... إلخ؛ لأن ذلك كله وما في معناه إنما هو ضرب من تحقيق « الأنا » والاستمتاع بالأضواء الإعلامية، والتمتع بالبطولات الفردية والجماعية، أو بالمقاصد السياسية والمواقع الاجتماعية... إلخ. تمامًا كما حقق حاتم الطائي قديمًا لَذَّتَهُ وذاتَه، في كرمه وجوده؛ بما نال من اشتهاره وانتشار ذكره في الآفاق، وقد ثبت في الصحيح أنَّ مِنْ أول مَنْ تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة رجالًا فعلوا مظاهر عظيمة من « الخير »، ولكن كل ذلك كان تَسْمِيعًا وشُهْرَةً ورياءً؛ فأبطل اللّٰه أعمالهم وكانوا من أهل النار.

وهو قوله ﷺ: « **إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استشُهد فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نعمَه فعرفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استُشهدت قال: كذَبْتَ ولكنك قاتلتَ ليقال جريء؛ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فَأُتِي به فعرَّفه نعمَه فعرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت. ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالِم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل! ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.**

ورجلٌ وَسَّعَ اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ. ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد؛ فقد قيل ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه، ثم أُلْقِيَ في النَّارِ! » [١] وفي رواية أخرى زيادة صحيحة، يقول فيها النبي ﷺ: « **يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق اللَّه تُسَعَّرُ بهم النارُ يوم القيامة** » [٢].

الرسالة الخامسة: في أن حجاب الغيب شرط من شروط « التكليف » بمعناه الرسالي الابتلائي؛ فإذا ارتفع الغيب ارتفع التكليف، فلا قيمة لعمل في الإسلام لم يبن على الإيمان بالغيب؛ ومن هنا كان جوهر التربية الإيمانية معتمدًا على ربط المؤمن بالغيب إيمانًا وعملًا. ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]. والمؤمن مطلوب منه أن يتزود في سيره إلى اللَّه من معين الغيب أبدًا. والداعية مطلوب منه أن يسترشد بنفحات الغيب في دعوته إلى اللَّه أبدًا.

الرسالة السادسة: قد تبين أن طلب المؤمن كشف الغيب، والسعي إلى ذلك قصدًا، ولو في بعض الجزئيات؛ بدعوى طلب الكرامات أو إظهارها للناس، مخالف لمنهج الإسلام في الدعوة والتكليف، وإنما الكرامة الشرعية هبة من اللَّه، ولا تكون للعبد الصالح عادة إلا عند الضرورة، فهي من المواهب وليست من المكاسب، وأما التعبد بقصدها لذاتها، فهو من خوارم الإخلاص.

٤ - مسلك التخلق:

فيا قلبي العليل، أمامك الآن تحديان اثنان، هما خلاصة هذا المجلس. **الأول:** تحقيق العبدية الخالصة للَّه من وسط المجتمع العام، دِينًا ودَعْوَةً. **والثاني:** مراجعة عملك كله، على مقياس القَبُولِ الإلهي؛ قصد تصحيحه للَّه وإلا فذلك هو الخسران المبين لا قدر اللَّه.

فأما الأول: فمسلكه قرارٌ روحي تتخذه، ونقلة وجدانية تنجزها، وعزمة فاصلة

---

(١) رواه مسلم.

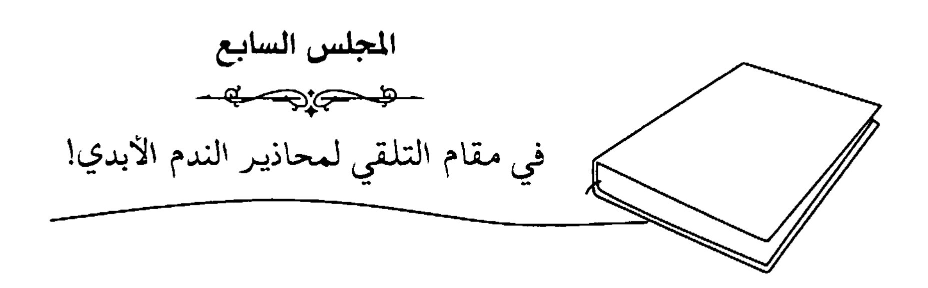
(٢) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

قوية تدخلها؛ للتجرد من أطماع الدنيا؛ حتى تكون عاملًا للآخرة فقط، فآنئذ يمكن أن تكون رجل العامة وإمام المستضعفين المؤمنين حقًّا، تدخل ابتلاء الدين بصلواتك وصيامك وزكاتك، في قلب محيطهم حتى تكون منهم وإليهم، وليس ذلك بالأمر اليسير، فما دامت لك عينٌ تميل إلى ترف الدنيا فإنك لن تستطيع الفكاك فاقطع حبال التراب يا قلبي وانطلق.

وأما الثاني: فمسلكه أن تشاهد بوجدانك موقفك بين يدي الله يوم القيامة، وقد غضب ﷻ غضبته الكبرى، فاسأل نفسك: أي عمل تستطيع أن تدعي الإخلاص فيه له وحده؟ لا سمعة ولا رياء مهما قلَّ أو خفي؛ عسى أن يسلم لك؟ ألا تخشى أن يقال لك أنت أيضًا: كذبت! وتكون المأساة! فاللَّه اللَّه في عملك! واللَّه اللَّه في دينك قبل فوات الأوان حَقٌّقْهُ خَفْقَةً خَفْقَةً، وكَلِمَةً كلمةً، وخطوةً خطوةً، وركعةً ركعةً، وسجدةً سجدةً، ودِرْهَمًا دِرْهَمًا..! عسى أن تكون من الْمُسَدِّدِينَ الْمُقَارِبِينَ. فإذا بَلَغْتَهَا فقد وصلتَ إذْن؛ فأَبْشِرْ! وإن رسول اللَّه ﷺ هو الذي يبشرك بقوله الكريم: « **إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولا يُشَادُّ الدِّينَ أحَدٌ إلا غَلَبَهُ! فَسدِّدُوا، وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واستعينوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ، وشَيءٍ من الدُّلْجَةِ** »[1].

* * *

(١) رواه البخاري.



المجلس السابع

في مقام التلقي لمحاذير الندم الأبدي!

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٥ - ٢٩].

٢ - البيان العام:

هذه كلمات الندم هذه آهات الألم.. هذه رسالات النذير الإلهي الرهيب، هذه بشارات النجاة الخاتمة، وآيات الفرصة الأخيرة، تمتد إليك من الرحمن بوصف حقيقة الندم الأبدي عند فوات الأوان، لكنها تأتيك الآن قبل فوات الأوان جامعة بين مقامات الجلال والجمال فماذا تراك أنت فاعل بنفسك اليوم يا صاح؟

هاهنا يَعْرِضُ المِلِكُ العظيم مشهدًا رهيبًا من مشاهد يوم القيامة، مشهد تشقق السماء وَتَفَتُّحِ أبوابها، من كل جهاتها، وفي كل طبقاتها، سماء بعد سماء؛ إذ يتدفق الغمام بأسراب الملائكة تدفقًا عجيبًا يبهت الأبصار ويبهر القلوب سِرْبًا بعد سِرْبٍ، بما يفيده لفظ « التنزيل » من التفويج والترتيب. فَتُنَـزِّلُ، أفواجُ الملائكة تنزيلًا، كتنزل أصحاب المظلات العسكرية من طائراتها، لامعة تحت أشعة الشمس لكنها خلائق ذات أنوار وجلال، تتنزل على أطراف أرض المحشر، حتى تحيط بالخلائق جميعها من كل جهاتها قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير لفظ « الغمام » هاهنا: هو ظُلَلُ

النور العظيم الذي يبهر الأبصار؛ ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء »[١] وروي عن مجاهد أنه قال: « هذا كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] »[٢].

فالْمُلْكُ الحقُّ في هذا اليوم إنما هو للرحمن، الْمَلِكِ الديَّانِ، وحده دون سواه لا تفويض فيه لأحد ولا تفويت، فقد انتهى زمن الابتلاء بالحكم والسلطان! هذا يوم جمع الملوك والمملوكين، والحكام والمحكومين، على صعيد واحد، سواسية بين يدي مَلِكٍ واحد، هو اللّه رب العالمين، ولذلك كان هذا اليوم شديدًا على الكفار، عسيرًا على الظلمة! الظلمة لحقوق اللّه، والظلمة لحقوق الناس سواء، فالقضاء الإلهي اليوم وحده يفصل بين العباد، لا إمكان ولا أمل في التملص أو التخلص من حكم رب العزة الواحد القهار، رب الملك والملكوت لا غش اليوم ولا رشوة، ولا خلابة ولا خداع فتلك فتن ابتلائية انتهت بنهاية الدنيا وانتصبت محكمة الحق العظمى اللّهُ ﷻ فيها قَاضٍ والملائكةُ شهود.

هذا يومُ يَعَضُّ الظالم على يديه.. هكذا في صورة من أبشع صور الشعور بالندم والخسران، فالعَضُّ على اليد تعبير جنوني عن رغبة هستيرية في الانتقام من النفس الأمارة، ندمًا وحسرةً؛ حيث يندب الظالم - بما فرَّط في جنب اللّه - مصيره المأساوي وحظَّه الخاسر! ويصرخ يائسًا: يا ليتني اتخذت مع الرسول مسلكًا إلى اللّه ويا ليتني اتبعته في اتخاذ الإسلام طريقًا إلى الجنة ثم يصرخ مرة أخرى باكيًا نادبًا، وداعيًا بالويل والهلاك على نفسه والعياذ باللّه: « يَا وَيْلَتِي!.. ليتني لم أتخذ فُلَانًا - تعيينًا بالاسم - من أهل الكفر والضلال خليلًا! فقد كان لي رفيقًا، وقد كان لي صاحبًا، فبئس الصاحب وبئس الرفيق، لقد كان لي خليلًا، أي: ملابسًا لي على كل حال، لا يكاد يفارقني، ولكن على غير طريق الهدى والرشاد! فواحسرتاه! لقد أضلَّني هذا الشقيُّ عن الاستجابة لنداء القرآن بعد إذ بلغني واضحًا صريحًا! ذلك هو قرين السوء، وصاحب الشر، عميل الشيطان ورسوله الذي يقوم باستدراج

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٣١٦).

(٢) تفسير الطبري: (١٩/٦). وكذا تفسير ابن كثير: (٣/٣١٦).

أهل الشهوات والأهواء إلى الهلاك المبين.

ولكن أنَّى ينفع الندم اليوم؟ وأنَّى يفيد التحسر؟! كيف؟ وها الشيطان كلما أغوى أحدًا حتى إذا أيقن بهلاكه أدبر عنه وخذله، وأخلف له كل وعوده الكاذبة. وتلك هي السنة الثابتة في كيد إبليس، كما قررها القرآن الكريم: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ فعجبًا لمن يقامر بمصيره الأخروي، وبمستقبله الوجودي، فيجعله رهين غواية الشيطان وغروره.

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن استحضار المؤمن لهول القيامة، ومشاهدته الإيمانية ليوم الحساب؛ حيث يتفرد الرحمن بالمُلك والقضاء بين العباد، وما يستتبع ذلك من رهبة وجلال، لهو من أهم موارد التزود الروحي لردع نوازع الشهوة في النفس، وقمع خواطر الغواية الواقعة على القلب. كما أنه من أهم موارد تنشيط سير العبد، والتمكين لقلبه من جمال حاله وعلو مقامه، في دينه ودعوته.

الرسالة الثانية: في التحذير من إضاعة سبيل الرسول، فلا مسلك إلى اللَّه إلا خلف رسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام - فهو السالك طريق القرآن، الخبير بأبوابه ومعارجه، المتخلق على الكمال بمحامده، عليه تنزل الكتاب كله، بما لم يتنزل على أحد من العالمين، ولا عرفه أحد قبله أو بعده. فهو الإمام الكامل، والقدوة الشاملة، والأسوة الجامعة المانعة، فلا يبتغي الهدايةَ أحدٌ في غير سبيله إلا كان من الضالين ولا يخرج أحد عن سنته قصدًا واستدراكًا عليه إلا كان من الهالكين.

الرسالة الثالثة: في التحذير من قرين السوء وخليل الشر وبيان أن مخاللة الأشرار والأشقياء من أخطر وسائل الضلال والإضلال، وهذه قاعدة تربوية عامة في الكبار والصغار والذكور والإناث، فمن احتك بقوم إلى درجة الخلة تطبع بطباعهم، وكثير من الناس يستهين بها في نفسه وفي أبنائه، فلا ينتبه إلى خطورته حتى يكون من الهالكين، ويقابله أن من عاشر أهل الخير ناله من فضلهم وحسن خلقهم الشيء الكثير. وقد نبَّه الرسول ﷺ على هذا في عدة مواطن من سنته الشريفة. ومن أشهر

ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « **مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ ونَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. ونَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أنْ يحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً** »(١).

وينبني عليه من الفقه التربوي: استحسان اتخاذ الصاحب الصالح في طريق السير إلى اللَّه، فإنه معين - بإذن اللَّه - في التغلب على أحوال القبض ومنازل الاغتراب، ومنشط في إسراع الخُطى في طريق المجاهدات والمنافسات، والتغلب على الوساوس المثبطات، لكن على غير غلو وابتداع، ولا زيغ عن سنة النبي - عليه الصلاة والسلام - وإلا انقلب من دَالٍّ على اللَّه إلى جدار غليظ حاجب عن اللَّه.

الرسالة الرابعة: في التنبيه على خطورة الغفلة عن تلاوة القرآن، والانقطاع عن الشرب من ربيعه، والورود من نبعه، بما هو ذكر أساسي للمؤمن، وغذاء ضروري لروحه، وزاد لا غنى له عنه لهداه وثباته، فالبعد عن القرآن مؤدٍّ بالضرورة إلى قسوة القلب، تمامًا كما تقسو الأرض العطشى بانحباس الغيث عنها، فلا يلبث إلا قليلًا حتى تتطلع نفسه إلى الشهوات المحظورات، وتلك بداية الانحراف والعياذ باللَّه؛ وكثيرًا ما يكون ذلك بصورة من الخفاء بحيث قد لا يشعر بها المؤمن في بداية الأمر، بل قد لا يكاد يجد بها وعيًا حتى يغرق في وحل الفتنة، فيصعب عليه الرجوع وتثقل التوبة والإنابة! ويحتاج إلى عزيمة أقوى مما لو صادفته خواطر السوء وهو قريب العهد بالقرآن، فإنه آنئذ يكون أقوى بإذن اللَّه على طرد وساوس الشيطان، والتخلص من نوازع الأهواء والشهوات، والرجوع السريع والقوي إلى التشبث بحصون مقامه، وإنما المعصوم من عصمه اللَّه.

الرسالة الخامسة: في التحذير من الافتتان بآراء الرجال ومصطلحاتهم، سواء كانوا من العاملين في مجال الدين والدعوة أو غيرهم، مهما كان شأنهم، مما قد يصدر عنهم مخالفًا لحقائق القرآن وتعابير القرآن، فحذار من الانبهار بالأقدار التي قد تقع بقلبك لفلان أو علان؛ إذْ يأتيك بالفكرة أو بالعبارة، التي تقتضي أمرًا عقديًا أو حكمًا شرعيًا، أو توجيهًا دعويًا، لكنه منقوض بمنهاج القرآن، مخالف لسنة النبي - عليه الصلاة والسلام -

---

(١) متفق عليه.

مرفوضٌ بميزان الشريعة، فإنك إنْ يمل قلبك إلى اتباع ما وقع في نفسك من التعظيم لصاحبه، وتركتَ سبيل القرآن من أجله، فإنه لَيُخْشَى عليك أن تكون من الهالكين ﴿ يَا وَيْلَتِي..! لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا! لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَان لِلإِنسانِ خَذُولًا ﴾.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك ذلك كله يتلخص في تحقيق الندم قبل الندم، ثم الإكثار من مطالعة أحوال الصالحين من الأنبياء والصديقين، والتشمير عن قدم الرحيل إلى منازلهم عبر سبيل القرآن الكريم.

فأما الندم قبل الندم، فراجع إلى تدبر أيام العمر، ومشاهدة ما ضاع منك من فرصها وهو كثير..! هل تستطيع اليوم استعادة الأمس؟ لقد ضاع مني ومنك إلى الأبد! مضى بحسابه واحسرتاه، ولكل يوم حساب جديد! أيامك في هذه الدنيا رصيدك. فانظر يا قلبي ماذا أنت فاعل برصيدك، وأي شيء يمكن أن تستدرك به ما فاتك منه؟ نَدَمُكَ الآن أَمَانُكَ! فاتخذه زادًا قبل الندم العقيم! ندم الآخرة الذي لا ينفع صاحبَه أبدًا.

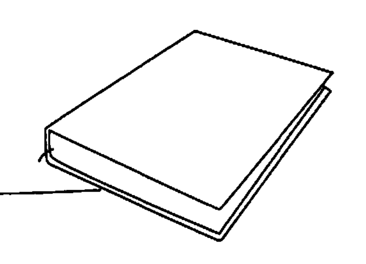
فليس لك اليوم يا صاح إلا أن تفر من نقصان في العمر إلى بركة العمر، والبركة فيض اللَّه الكريم على عباده، مرجعه التخلق بأعمال المبَارَكينَ من الصالحين و « **المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ** » (١)، فَتَخَلَّقْ بمحبتهم تَرَ من نفسك في الإقبال على الخير عجبًا.

* * *

(١) نص حديث متفق عليه.

المجلس الثامن

في مقام التلقي لمنهاج القرآن، وبيان جريمة هجرانه!



١ - كلمات الابتلاء:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٠ - ٣٤]

٢ - البيان العام:

هاهنا صُلْبُ المنهاج الفطري، وروح البرنامج القرآني، وعمود الدعوة الإسلامية! مَنْ تَلَقَّى حقائقه تَلَقَّى الهُدى القرآني كاملًا، ومن فاتته فاته خير عظيم، بل خِيفَ عليه أن تصيبه شكوى رسول الله ﷺ ولئن أصابته ليكونن من الهالكين.

هذا رسول الله اليوم يشتكي إلى الله، فما أرهبه من موقف وما أخطره! ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ الله أكبر، نعم لقد هَجَرَتْهُ قريش حينًا من الدهر. لكن الشكوى مستمرة باستمرار القرآن، وما ترك الله شيئًا من آياته الواصفة للأدواء يتلى في كتابه، إلا لعلمه سبحانه بأن داءه سيظهر في الأمة يومًا من الدهر، فأي هجران للقرآن أفظع مما تمارسه الأمة اليوم؟ أين هي من أحكامه وشريعته؟ أين هي من مصدريته وحاكميته؟ أين هي من أخلاقه وقيمه؟ ثم أين هي من منهاجيته في الدعوة والإصلاح؟ وفي التربية والتعليم؟ وفي السياسة والإعلام؟

وفي الاقتصاد والأموال؟ وفي العلاقات الاجتماعية والأسرية؟ وفي كل مرافق العمران البشري بشتى ميادينه ومجالاته؟ أين الأمة من القرآن؟

أتريد الجواب حقًّا؟ هذه أصداء النداء النبوي ما زالت متدفقة في الفضاء بحزنها العميق، تجأر إلى الله شاكية فَأَنْصِتْ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾.

ويجيبُ ربُّ العزة مبينًا حكمة الابتلاء بهذه الدعوة، وجريمة هجران القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ إنها جريمة إذن لكنها سُنَّةٌ جارية، لها مسارها الثابت عند الله ﷻ ؛ لتتم حكمة الابتلاء بهذا الدين، فليكن من هذه الأمة من يسخر من القرآن العظيم! وليكن من يحارب أحكامه وأهله كما كان في الأمم السابقة! وعلى الداعية إلى الله أن يتمسك بالكتاب في تلك الظروف، ويثبت على حقائقه دينًا ودعوةً! فتلك هي سنة الأنبياء من قبل مع أقوامهم تجاه كتاب الله.

ومن هنا قال تعالى لرسوله الكريم تسليةً له وتطمينًا، على ما اقتضته الآية السابقة: وكما جعلنا لكلِّ نبيٍّ من الأنبياء قبلك - أيها الرسول - أعداءً من مجرمي أقوامهم حاربوا دعوتهم، فقد جعلنا لك أعداء من مجرمي قومك هجروا القرآن وحاربوه! فاصبر كما صبروا!، واعلم أن الله وحده هو الهادي والنصير الذي ينصرك وينصر دعوتك؛ لأن هؤلاء الجهلة إنما يحاربون بصنيعهم الإجرامي هذا الله رب العالمين.

وقال الذين كفروا لمحمد ﷺ على سبيل السخرية: ما بال هذا القرآن يتنزل عليه مفرَّقًا هكذا آيات آيات؟ فهلَّا نُزِّلَ عليه دفعةً واحدة؟! لقد جعل الله هذا الاستفزاز لمحمد ﷺ سببًا في إنزال رد رباني عظيم، رد جاء ببصيرة من أعظم البصائر المنهاجية في كتاب الله بصيرة ترسم المنهاج الشامل للتربية القرآنية في بضع كلمات ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ أي: كذلك نَزَّلْنَاهُ مُفرَّقًا؛ لِنُقَوِّيَ به قلبك، ولتزداد به طمأنينة، فتعي رسالته وأمانته، وتستطيع حملها بقوة؛ ولذلك ألقيناه عليك على مهل آياتٍ أَرْتَالًا.

فالتثبيتُ: التقوية للشيء، والتمكين له والتمتين. كما يبني المرء البناء فيثبته بتقوية أساطينه وأسواره؛ حتى يثبت منتصبًا قويًّا شامخًا.

والترتيل هنا: هو الترسيل، أي إنزال القرآن آيات بعد آياتٍ، مُفرَّقًا لكن على ترتيب دقيق وتنظيم حكيم! حتى إذا جُمِعَ كان أيضًا مُرَتَّلًا ترتيلًا، بمعنى جاء على نظام بديع! فمن معاني الترتيل: التنظيم والتنسيق والترتيب [1]. فالقرآن مرتَّل في تنزيله الأول على حِكْمَةِ بناء الإنسان والأمة، في أول التأسيس لها زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام. وهو مرتل بعد ذلك في بنائه التعبدي المحكم، الذي جمعه الله عليه بعد تمام تنزيله، كتابًا مرتبًا، بآيه وسوره، على نظامه الذي هو في المصحف اليوم، وإلى يوم القيامة. فكان قوله تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ دالًّا على حكمة التفريق وجمال التنجيم زمنَ التنزيل، ودالًّا أيضًا على جمال الجمع وكمال المنع له بعد ذلك.

ومن هنا كان الترتيل بهذا المعنى مرتبطًا بالتثبيت ارتباطًا وثيقًا؛ ذلك أن تقرير منهج الرحمن في تنزيل القرآن مفرَّقًا؛ قصد بناء العمران الإيماني لقلب الرسول ﷺ وصحابته، ثم بناء النسيج الاجتماعي للمجتمع المسلم، كل ذلك جاء على قَدَرٍ معلوم وحكمة سابقة! اقتضت أن ينزل القرآن آيات آيات، بصورة منهجية مرتبة تراعي الأولى فالأولى، في المعاني وفي الزمان والأحوال، في سياق بناء الأمة الإسلامية. فكل آية هي كاللبنة توضع بعناية في قلب المؤمن بمكانها، على ما يناسب حاله في زمانه، وعلى ما يناسب اللبنة التي تليها بدقة متناهية! تمامًا كتناسب خيوط النسيج وهو يُصْنَعُ على عين صاحبه، فهو يرى تناسق فسيفسائه وألوانه - قبل تركيب جزئياته - كيف سيكون، دون غيره من الجهلة بأسرار الصنعة، الذين لا يرون جمال العمل إلا بعد نهايته.

فالإنسان هاهنا هو موضوع العمل، وهو ذاته ميدان البناء ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ وهو المقصود بحمل تكاليف القرآن وشريعة القرآن.

ولأنَّ القرآن بما تضمن من أمانة عظمى قولٌ ثقيلٌ جدًّا: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] فقد كان هذا الإنسان - وهو المخلوق الضعيف - في حاجة إلى بناء أساطينه الإيمانية وعمارته الروحية؛ لتستطيع حمل شريعة القرآن، فاحتاج إذن إلى صناعته وبنائه على عين الله، وتزكية روحه بهذا المنهاج الرباني اللطيف المترسل،

(١) ولذلك سُمِّي تجويد القرآن «ترتيلًا»؛ لأنه تنظيم للحروف عند النطق بها، وترتيب لها عند الأداء، وترسيل للآيات على مهل، الواحدة تلو الأخرى. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

المنجَّم للآيات على قدر ما يطيقه الإنسان، آياتٍ بعد آياتٍ، لكن على منهج البناء المنظم المحكم إلى أن يكتمل العمران في الأمة تامًّا، فردًا وجماعةً فعلى ذلك النظام الإلهي رُتِّلَ القرآنُ تَرْتيلًا ورُسِّلَ ترسيلًا فأَكْرِمْ به من منهاج ربانيٍّ حكيم وأَعْظِمْ! وإنه لدرس للدعوة الإسلامية التجديدية في كل زمان ومكان، ما له من ثمن.

فأي حكمة هذه وأي مَثَلٍ؟

ولذلك خاطب رسوله الكريم بأن الكفار لا يأتونك بشبهة مما يضربونه لك من الأمثال، إلا جئناك بالمَثَلِ الحقِّ، وبالبيان الحق، المتضمن للحكمة الإلهية التي لا يعرفونها ولا يبصرونها؛ بما غشي قلوبهم من ظلمات الكفر والكبرياء. فَمَثَلُ السَّوْءِ إنما ينطبق عليهم هم بالذات؛ إذْ هم الذين سَيُجَرُّونَ إلى جهنم، ويُسْحَبُونَ على وجوههم إلى جحيمها هكذا بصورة منكوسة مقلوبة! كما نكسوا الحقائق وقلَبوا الأمثال في الدنيا أولئك هم شر الناس منزلةً، وأشدهم بعدًا عن الهُدى، وأسوؤهم انحرافًا عن الصراط المستقيم.

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى عشر رسالات كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن هجران القرآن جريمة في الدين! سواء كان ذلك استخفافًا به ومحاربةً له وعدوانًا عليه، وهذا هو الكفر العقدي الصريح أو كان إهمالًا له واشتغالًا بغيره على سبيل اتباع الهوى والتشهي، كما هو غالب أحوال الأمة اليوم، وهذه كبيرة من أعظم الكبائر وكفى بأوضاعنا المتردية الهالكة دينًا ودنيا، دليلًا قاطعًا على حجم الخسائر المادية والروحية، التي تجنيها الأمة بسبب هجرها لكتاب اللَّه! وقد سبقت بشارة رسول اللَّه ﷺ بما في التمسك بالقرآن من الفضل العظيم، والأمان التام للمسلمين في الدنيا والآخرة. فقد دخل عليه الصلاة والسلام المسجد يومًا على أصحابه، ثم قال: « **أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه؟** » قالوا: بلى، قال: « **فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد اللَّه، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا** » (١)

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير،=

الرسالة الثانية: في أن الخروج عن منهاج القرآن في الدعوة والتجديد ضرب من الهجر المنهاجي للقرآن، وهو انحراف - لو تدبره الناس - شنيع، وقد يتخذ هذا النوعُ من الهجر صورًا شتى، منها عدم الاشتغال بنصوصه تلاوةً وتربيةً وتداولًا في الصف الإسلامي، ومنها عدم مراعاة أولوياته الدعوية، ومقاييسه التربوية، وحقائقه الإيمانية، في التعامل مع النفس والمجتمع. فالإعراض عنه إلى البرامج الفكرية المنفصلة، التي قد تشتغل حوله، ولكنها لا تشتغل به، هو نوع من الانحراف المنهاجي الخفي، الذي قد يتطور إلى مناقضة حقائقه، ومخالفة منطقه وموازينه.

الرسالة الثالثة: في أن القرآن يحمل البرنامج الكامل لتطبيقه، والمنهاج الشامل لدعوته، وأن ذلك مرتل - بمعنى منظم ومرتب - فلا يحتاج إلى تدخل اجتهادي إلا على مستوى تخريج الحِكَم والمناطات الدعوية، وتحقيقها على حسب النوازل والمطالب المرحلية.

وعلى هذا الأساس وجب تجديد الإيمان بالكتاب لدى هذه الأجيال المعاصرة! فكأن بعض المسلمين اليوم قد ضعف عندهم التسليم بهذه الحقيقة الإيمانية العظمى فاشتغلوا في مجال الإصلاح الديني ببدائل عن كتاب اللَّه، وبقي القرآن عندهم في الهامش بدل أن يكون في الصلب، كما تقتضيه الكلمات القرآنية موضوع التدارس في مجلسنا هذا، وكما تقتضيه حقائق السيرة النبوية المتواترة.

فالرسالة اليوم هي تجديد الإيمان بالكتاب، ليس باعتباره مصدرًا للتربية فحسب؛ ولكن باعتباره برنامجًا لها أيضًا، وهذا هو الأساس، فهو البرنامج الإلهي للعمل الإسلامي، سورةً سورةً، وآيةً آيةً! وعلى قدر علو قدم المؤمن في معراجه يكون صلاحه وقربه من اللَّه، فردًا وجماعةً. فلا اشتغال إلا به وفيه! فهو الطريق الواضح إلى اللَّه، وما سواه حُجُبٌ عن اللَّه.

وعليه؛ فإن المادة الأساسية لبناء الإنسان في الإسلام تربيةً وتزكيةً وتعليمًا، إنما هي كلمات القرآن! فالآية صريحة في أن « التثبيت » لقلب الرسول ﷺ - بما ذكرنا له من معنى بنائي تربوي - إنما هو واقع بالقرآن: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

= وعبد بن حميد في المنتخب من المسند. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٧١٣).

فلا يحتاج إلى خلطه بغيره على المستوى المصدري، إلا ما كان من بياناته النبوية فهي منه وإليه. وهو معنى قول عائشة رضي الله عنها في حقه عليه الصلاة والسلام: « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ » (١) هكذا على سبيل الاستغراق والشمول.

الرسالة الرابعة: في أن الفاعل التربوي في القرآن إنما هو الله جل جلاله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ فإذا كان القرآن هو مادة التربية والتزكية فإن الله جل جلاله هو المربِّي به وهو المزكِّي به، لكن لمن أقبل عليه بشروطه، حاملًا نية الافتقار إلى الله، متلقيًا عنه كلماته بمنهج القرآن، ترتيلًا وترسيلًا؛ ولذلك فالداخلُ مدرسةَ القرآن - بهذا المعنى - هو عبدٌ فَتَحَ فؤاده لكلمات الله؛ لِيُصْنَعَ على عين الله حتى إذا تم له التخلق بحقائقه الإيمانية، كان جنديًّا من جنود الله وعبدًا خالصًا من عباده، ومؤمنًا من أهله وخاصته، وتلك هي عين الولاية الحق، وهو مقتضى قول الرسول ﷺ، فيما يرويه عنه الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « **إنَّ للَّه تعالى أهْلِينَ مِنَ النَّاسِ: أهل القرآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّه، وخَاصَّتُهُ** » (٢).

الرسالة الخامسة: في أن أخذ القرآن جملة - مهما تكن له من بركات تعبدية على مستوى الذكر - فإنه مع ذلك يمنع الثمرة التربوية البنائية، حيث لا يتحقق معه التثبيت المنهاجي للقلوب، لا على مستوى الأفراد ولا على مستوى المجتمع؛ لأن فعالية الدواء إنما تكون بأخذه على فترات منتظمة، وعلى أقساط متقاربة. فقوة القرآن وعمق كلماته المرتبطة بعالم الغيب، تجعل الناظر إليه بالكلية عاجزًا عن إدراك دقائق بصائره الكامنة في كلماته، فهذه تحتاج إلى اقتراب شديد من آياته عبارةً عبارةً؛ لتحقيق الإبصار! فمن أبصر الحقائق الإيمانية أدرك آنئذ أنه لا طاقة له بأخذها جملةً، بل من أخذها جملة تركها جملة، فالعمق الروحي للآيات والثِّقَلُ الإيماني للكلمات، أعظم من أن تطيق النفس البشرية تَلَقِّيهِ إلا على مَهَلٍ! ولا يستسهل ذلك ويستصغره إلا جاهل بحقيقة القرآن، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] وذلك ما يتطلب زمنًا ليس باليسير، حيث يصير القرآن آنئذ برنامج العمر كله.

وعلى هذا المنهج تنزل على قلب محمد ﷺ، على مدى ثلاث وعشرين سنة!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢١٦٥).

ومن هنا أخذ الصحابة منهج التَّخَوُّلِ النبوي في التربية والإصلاح. فعن أبي وائل قال: (كان عبد اللَّه - يعني ابن مسعود ﷺ - يُذَكِّرُ الناسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لَوَددْتُ أنك ذَكَّرْتَنَا كلَّ يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ! وإني أَتَخَوَّلُكُمْ بالموعظة كما كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلنا بها؛ مخافةَ السآمةِ علينا) (١).

الرسالة السادسة: في أن فقه الأولويات وفقه المراحل، منهج قرآني أصيل لبناء الدين وتجديده، في النفس وفي المجتمع. فمنهج التثبيت والترتيل المذكور في الآية، بما ذكرنا له من معنى تفريقي، وترسيل ترتيبي على فترات، وعلى مهل مُقَدَّرٍ من لدن اللَّه تقديرًا، كل ذلك واضح الدلالة في أن منهج تجديد الدين لا يكون إلا بما بدأ به أول مرة! وهو مراعاة نضج الظروف والأحوال عند كل خطوة، ومراعاة المستوى التربوي والإعداد الروحي، الذي بلغه المتلقون لكلمات اللَّه. فالبناء الشامل للإنسان لا يكون بين عشية وضحاها، بل هو سيرة حياة لجيل كامل، ولعمر كامل وربما لم تكن الثمرة الأرضية إلا لأجيال لاحقة؛ والعبد إنما يشتغل في هذا الشأن لنيل ثمرة الآخرة، واللَّه وحده هو الذي يقدر متى ومن سيشهد لحظة النصر الأرضي، والتدخل في توقيت ذلك أو التعسف في تحيينه ظلمٌ وَتَعَدٍّ، وافْتآتٌ على اللَّه.

الرسالة السابعة: في بيان مفهوم « المرحلية » على موازين القرآن. ذلك أنه قد اختلط معناها على بعض الناس؛ مما أدى إلى اختلافٍ حولها شديد. فاعتبار المراحل له معنيان: تشريعي ودعوي.

- **فالأول: مرحلية تشريعية**، وهي منهج تنزيل أحكام الشريعة على مراحل حسب النوازل والأحوال، وبذلك تعلق النسخ في القرآن، والتأخير لبعض الأحكام إلى المرحلة المدنية. وهذه المرحلية انتهت اليوم، ولا يجوز الرجوع إليها بالتطبيق الحرفي، كما صنعه بعض الجهلة، فسكتوا عن تحريم الخمر مثلًا باعتبار أنها إنما حرمت في المدينة! ونحن الآن في مرحلة مكية، وهذا ضلال مبين فالمرحلية التشريعية قد أُغلقت إلى الأبد وانقطع العمل بها باكتمال نزول القرآن ووفاة الرسول - عليه الصلاة والسلام -

---

(١) متفق عليه.

وإنما بقي الآن من ذلك الاجتهاد في منهج الدعوة إلى الشريعة، نعم هاهنا يحضر المعنى الثاني وهو:

- **المرحلية الدعوية:** وهي الاستفادة من مقتضيات المنهاج القرآني في اعتبار الأولويات التربوية في بناء الإنسان وتأسيس المجتمع، بالتقديم والتأخير الدعوي للقضايا الإيمانية والشرعية على حسب الأولويات البنائية. هذا على مستوى الدعوة لا على مستوى التشريع.

فالمرحلية التشريعية تقرأ هاهنا قراءة تربوية لا فقهية، فَتُسْتَفَادُ حِكَمُهَا لا أحكامُها! ثم تُراعى فيما يُجعل في برنامج الدعوة لهذه المرحلة دون تلك، وفيما يُتخذ قضيةً لهذه المعركة دون تلك، أو لهذه الفترة دون الأخرى. فالحكم الشرعي ثابت والمعركة حوله متغيرة على حسب الظروف والأحوال.

بمعنى أن بعض القضايا قد يقتضي حجمها وموقعها التشريعي في الكتاب والسنة، أن تجعل في بؤرة العمل الدعوي وفي صلبه؛ نظرًا لكونها من الأصول الكبرى، التي إذا سلمت للأمة سلم لها ما ينبني عليها. بينما يكون الاشتغال ببعض فروعها تقديمًا عليها؛ بأن تجعل هي بؤرة العمل الدعوي، وتؤجج حولها المعارك والصراعات، ضربًا من الإلهاء عن العمل البنائي الحق، وضربًا من الانحراف عن منهاج القرآن في عرض قضايا الدين دعوةً وإصلاحًا. وذلك يختلف تقديره حسب الزمان والمكان؛ لأنه مرتبط بالتنـزيل التطبيقي للمنهاج الدعوي القرآني، وأهل العلم بالشريعة وبالواقع بكل مكوناته، هم المؤهلون لتقدير ذلك وتحديده.

فإذا كانت قضية بلد ما، أو زمن ما، تدور بالأساس حول صُلْبِ الهوية الإسلامية مثلًا، والنزاعُ الواقع إنما هو حولها، كما هو الأمر في بعض أقطار العالم الإسلامي، فإنه من العبث آنئذ الدخول مع الناس في معارك البدع الإضافية، والانحرافات الجزئية في الدين، بل المعركة ساعتها إنما هي حول أصل الإيمان! دعوةً وتثبيتًا وترسيخًا ولا يعني ذلك أبدًا مباركة البدع، أو تشجيعها! وإنما هي معارك لم يحن أوانها بعد.

كما أنه يمكن تصور ذلك دعويًّا على المستوى الفردي، في نوازل شتى؛ فعلى سبيل المثال محاولة إصلاح مسلم مبتلى بآفتين: ترك الصلاة، والإدمان على الخمر، فإذا أمكن الجمع له دعويًّا بين الحسنيين فعلًا وتركًا فبها ونعمت؛ أما إذا تبين أنه

لا طاقة له في الجمع بين الفعل والترك في الأمرين معًا، وأن محاولة ثنيه عن شرب الخمر لن تجعله إلا مستمرًا في ترك الصلاة، فهاهنا يركز له على واجب أداء الصلاة أولًا، وتُرْجَأُ معركة الخمر في حقه إلى حين؛ لكن بشرط ألا يعني ذلك إفهامه أن شربها مباح، بل يجب أن يعلم أنها أم الخبائث! ولكن يخاطب بالشريعة دعويًا على قدر استعداده، فَيُدْعَى أولًا إلى التزام الصلاة والحرص عليها، إلى أن تنبت شجرة الإيمان بقلبه وحينها سيكون قلع آفة الخمر من حياته - بإذن الله - أيسر بكثير. ولعله يبادر هو إلى التوبة النصوح قبل ذلك.

فالمرحلية الدعوية تستفيد من المرحلية التشريعية حِكَمَها على مستوى الإصلاح والتربية، دون التطبيق الحرفي لأحكامها على مستوى التشريع والإفتاء؛ لأن ذلك الباب قد أُغلق بكمال الدين وتمام نزول الوحي.

وكما يجري ذلك في النوازل الدعوية الفردية على المستوى الجزئي، فإنه يجري أيضًا في القضايا الدعوية العامة للمجتمع على المستوى الكلي، مما يقدره فقهاء الدعوة وحكماؤها، على حسب نوازلها ومواقعها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. وهو من أدق مواطن الفقه في الدين والدعوة معًا.

ذلك فرق ما بين المرحلية التشريعية والمرحلية الدعوية، وهو خيط الحكمة الرفيع الذي يُجَلِّيهِ لنا القرآن الكريم بمنهاجه الترتيلي. وكذلك الأمر على مستوى جميع أنواع الانحرافات التي تحتاج إلى تصحيح، وجميع الحقائق الإيمانية التي تحتاج إلى إعادة بناء وتجديد، دائمًا الأولى فالأولى. دون أن يعني ذلك تغيير أي شيء من أحكام الشريعة، كلا وحاشا! ولا حقيقة واحدة من حقائقها المحكمة، أو حكمًا واحدًا من أحكامها القطعية الثابتة.

فمنهج التثبيت للقلوب إنما هو قائم على بناء الفروع على الأصول، والعكس غير صحيح. وعلى حسب حجم الهدم الحاصل في المجتمع لمفاهيم الدين وقيمه، تكون أولويات العمل الدعوي ومراحله.

الرسالة الثامنة: في أن الأفئدة والقلوب الإنسانية هي الموضوع الأساس لبناء الدعوة الإسلامية، فردًا وجماعةً.

القلب، أو الفؤاد، هذا المعنى القرآني العظيم، هو محل الخطاب الإلهي في القرآن الكريم. والله ﷻ هو العليم بموقع القلب من الفطرة الإنسانية خَلْقًا وتقديرًا. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

ومن هنا وجب عدم الاستهانة بطرق أبواب القلوب في الخطاب الإسلامي جملة، تربيةً ودعوةً، وأن الإنسان مهما تَعَقَّدَ تركيبه العقلاني، ومهما تميَّز موقعُه الأجتماعي، إنما هو مجرد إنسان! تحكمه أحوال الخوف والرجاء، ولحظات الرغبة والرهبة، ومواقف الضعف والانهيار، والحاجة الشديدة إلى الفرار الروحي نحو الغيب، ولو كان ينكر ذلك ظاهرًا ويجحده استكبارًا، فالعقل البشري أنى كان، يصل بسرعة إلى لحظة العجز المطلق في تفسير قضايا الوجود، وكشف طلاسم الموت والمصير! ولا بد أن يقف الإنسان على حقائق ذلك كله في حياته؛ فلا يملك - إن لم يكن من المؤمنين بالله واليوم الآخر - إلا أن يولي هاربًا من الاستغراق في تأمله والخطاب القرآني وحده يقدم الإجابة واضحة وقوية.

فالاعتناء بتثبيت القلب الإنساني، بناءً إيمانيًا راسخًا، من شأنه أن يوجه كل تصرفات الإنسان العقلية والمادية، ويجعلها في خدمة تجديد العمران البشري بمفهومه الإسلامي الرفيع، وإعادة صياغة الأمة على منهاج القرآن ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

الرسالة التاسعة: في أن الترتيل الأول للقرآن والترتيب الأول لنزول آياته وسوره - حسب أسباب النزول وتاريخه - كان خاصًّا بالتأسيس الأول للأمة الإسلامية زمن رسول الله ﷺ؛ ولذلك فإنه لم يُحفظ بحفظ القرآن. وأن الترتيل الثاني للقرآن حسب الجمع النهائي له؛ هو لضمان استمرار الأمة، ولإعادة تجديد دينها كلما بليت حقائِقُه في مجتمعها، لا لتأسيسه ابتداءً؛ ولذلك فهو الذي حُفظ بحفظ القرآن الكريم.

ومن هنا فإن الحِكَمَ التي قد تفيد الأمة الآن في حاضرها، دينًا ودعوةً، مما يتضمنه الترتيب الأول، هو موجود في الترتيب النهائي المحكم، إضافة إلى ما أودعه الله ﷻ في هذا الأخير من أسرار.

وهذا لا يمنع الاستفادة الإجمالية، مما أُثِرَ من أحاديث موقوفة على بعض الصحابة، في ترتيب القرآن على حسب النزول؛ استئناسًا بها في منهج التعامل مع

القرآن الكريم - بصورته الترتيبية التوقيفية النهائية - في المجال التربوي والدعوي خاصة، وكذا في تبين مراحل الدعوة الإسلامية في سياق التدافع البشري، والتجديد الديني للمجتمع الإسلامي.

الرسالة العاشرة: وفيها دليل على أن هذه الأمة مهما تُصَبْ بالانكسار والانهيار، فإنها لا تموت أبدًا؛ ولذلك فإنها لن تحتاج بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ إلا إلى تجديد البناء. فكان هذا الترتيب المتواتر للقرآن الذي يقرؤه الناس في المصاحف اليوم، هو المحفوظ المحكم بدقة متناهية، لا خلاف فيه ولا اضطراب.

ومن هنا وجب على الدعاة والمسلمين أجمعين أن يستصحبوا أملًا كبيرًا - على قدر إيمانهم باللَّه ويقينهم فيه - في عودة الأمة إلى كامل عزها ومجدها، وعودة الدين وأهله إلى موقع الريادة والشهادة على الناس، متى أَذِنَ اللَّه في ذلك. وإنما على المؤمن أن يعمل متعبدًا بما أمر اللَّه من الدين والبلاغ ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾.

٤ - مسلك التخلق:

ومَسْلَكُ العمل بكلمات هذا المجلس يكون بالتخلق بأمرين:

الأول: صحبة القرآن لتلقي محبته، وذلك بدوام تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، قيامًا بسوره، وتدارسًا لآياته، وتعلمًا لأحكامه، وتلقيًا لحِكَمِهِ. فمن تَلَقَّى محبةَ القرآنِ تَلَقَّى محبةَ اللَّهِ تعالى. وتلك هي علامة الولاية، التي نص عليها الحديث النبوي الشريف، مما يرويه أبو هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ** » [1].

وقد تضافرت الأدلة والنصوص على أن القرآن هو كتاب المحبة.

الثاني: تثبيت القلب بالدخول في ابتلاء كلمات القرآن، برنامجًا مرتلًا ترتيلًا. وإعداده لحمل رسالته الربانية، والجهاد بحقائقه الإيمانية، ومفاهيمه المنهاجية،

---

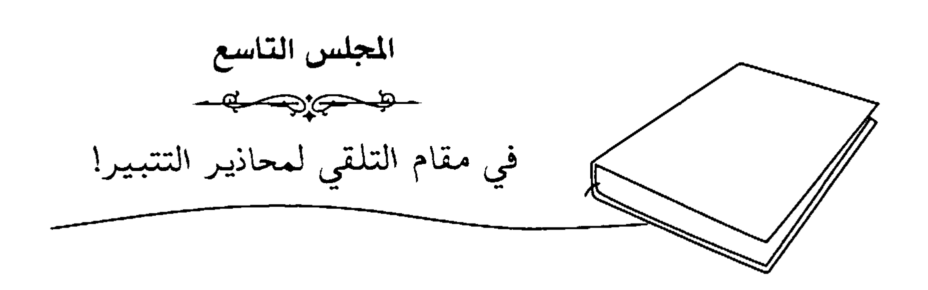
(١) رواه البخاري.

وترويض النفس على الصبر على ثقل أمانته، وهذا لا يكون إلا بالتحقق بالمعنى الأول، وهو القيام بالقرآن للتخلق بمقام المحبة. فالمحب يستصغر النفس والنفيس في سبيل المحبوب؛ ولذلك قال - جل ثناؤه - لعبده في أوائل بداية الطريق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٥].

فيا قلبي العليل! ويا خافقي المريض الخامل إلى متى وأنت هكذا متواكلٌ مُتَمَنٍّ على اللَّه بين زوايا الركود والخمول؟ إلى متى؟ وها قوافل الربانيين قد قَطعتْ فَرَاسِخَ وفَرَاسِخَ من زمن الآخرة، سيرًا في طريق المحبة! يحدوها الشوق إلى اللَّه، ويغذيها الأنس به جلَّ عُلَاه؟!

أَلا فَانْفُضْ عنكَ أدْرَانَ الترابِ يَا صَاحِ وطِرْ..!

* * *



١ - كلمات الابتلاء:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣٥ - ٤٠].

٢ - البيان العام:

هذا مقام التذكير بأيام الله! والبيان الحق لِمَصَارِعِ الأمم وقرون الدول.

هذا بيانٌ للناس، وتبصيرٌ لهم بحقيقة مهلكهم وأسبابه، مما يجهله قوم كثير، أو لا يؤمن به آخرون! فالتَّتْبيرُ عذابٌ إلهي رهيب، وعقوبة ربانية شديدة! وهو إهلاك شامل مخيف، يأتي بمصائب عامة، وكوارث كبيرة تحصد كل شيء؛ ولذلك فهو لا يقع بقوم إلا بغضب شديد من الله ذي الجلال، والعياذ بالله! ولا يغضب سبحانه على أهل الأرض إلا بطغيان ذنوبهم، وتواتر ظلمهم، وتظاهر شرهم، وتمردهم على خالقهم، فمعرفة طبائع الذنوب ودركاتها، وحدود خطورتها شيء ضروري للمؤمن العارف بمقام الله.

وما اقترفت البشرية جرمًا أعظم من التكذيب بكتاب الله ورسله وإعلان الحرب عليهما.

ولقد كانت أعظمُ شَكَاةٍ رفعها محمد بن عبد اللَّه - عليه الصلاة والسلام - إلى اللَّه، ذلك النداء المستغيث الحار الذي تُدُورِسَ بالمجلس السابق: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] فذلك هو بدء سياق مجلسنا هذا، وتلك هي مقدمته، وهاهنا جوابه ونتيجته! وليعلم الناس خطورة هجر القرآن، وخطورة التكذيب بكتاب اللَّه، فقد أورد سبحانه ذكر الأمم البائدة أمثالًا، لما وقعت في نفس الجريمة، تكذيبًا بالكتاب واستهزاءً بالآيات، فنالها بسبب ذلك غضبٌ شديدٌ، وكانوا من المهلكين بقطع دابرهم وَبِتَتْبِيرِهِمْ تَتْبِيرًا، وتلك هي أيام اللَّه.

ومن هنا جاء قول اللَّه تعالى بهذا السياق متوعدًا من كذَّب رسولَه، محمدًا ﷺ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أوقعه بالأمم الماضية المكذبين لرسله؛ فبدأ بذكر موسى عليه السلام، وأنه بعثه بالكتاب إلى قومه، وجعل معه أخاه هارون وزيرًا، أي نبيًّا مؤازرًا ومؤيِّدًا وناصِرًا، فكذبهما فرعون وجنوده، فكان ما كان من تدمير لطغيانهم بالإهلاك والإغراق.

وقد ذُكِرَ موسى في هذا السياق قبل نوح - عليهما الصلاة والسلام - رغم أن موسى متأخر عنه زمانًا؛ للشبه القائم بينه وبين محمد ﷺ في طبيعة الرسالة، فكلاهما أوتي الكتاب من لدن اللَّه، وإن كان كتاب محمد ﷺ أجمع وأمنع، إلا أن الرسالة القائمة على « كتاب » تكون أثقل وأعظم، لما يحمله الكتاب عادة من تعاليم إلهية موثقة، وتكاليف ربانية مفصلة، كلها ابتلاءات تعبدية وتشريعية. وقد عانى محمد ﷺ مع قومه في بلاغ حقائق القرآن، كما عانى موسى عليه السلام في بلاغ حقائق التوراة؛ فكان الإهلاك سنة اللَّه فيمن كذب بالكتاب، وهو عذاب كان معلقًا على رؤوس الكفار من مشركي العرب، إلا أن يتوبوا إلى اللَّه ويؤمنوا بالكتاب، ثم هو عذاب لم يزلْ معلقًا أيضًا على رؤوس البشرية عبر مطلق الزمان، كلما تحدَّت رب العزة، وتظاهرت على حرب الكتاب، إلا أن تتوب إلى اللَّه رب العالمين.

وكذلك فعل ﷻ بقوم نوح من قبل، حين كذبوا رسوله عليه السلام، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم خلالها إلى توحيد اللَّه ﷻ، ويحذرهم نقمته وعذابه، ولكن كذبوه جيلًا بعد جيل ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، فكانوا كأنهم كذبوا عدة رسل، لا رسولًا واحدًا فقط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ

﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ ولم يكن قد بعث إليهم إلا نوحًا فقط. وهو دليل على أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل، أولهم وآخرهم؛ لأنهم جميعًا جاؤوا بحقيقة واحدة من عند اللَّه؛ ولهذا أغرق اللَّه قوم نوح ولم يبق منهم أحدًا، إلا من آمن؛ حيث إنه لم يترك من بني آدم على وجه الأرض آنئذ سوى أصحاب السفينة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي عِبْرةً ودلالةً للأمم اللاحقة، يشاهدون فيها أثرًا من عظمة اللَّه ﷻ وقدرته على المجرمين وإحاطته بالعالمين.

ثم ذكر عادًا وهم قوم هود، وثمودًا وهم قوم صالح، ثم أصحاب الرَّسِّ. فأما أصحابُ الرَّسِّ فقد قال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال عكرمة: هم أصحاب يس. والرَّسُّ: بئر رَسُّوا فيها نبيَّهم، أي دفنوه فيها! [1] وكلهم جميعًا أبادهم اللَّه وقطع دابرهم بغضبه ونقمته! لما كذبوا بآياته ورُسُلِهِ.

فتلك سُنَّةُ اللَّه الثابتة مع الطغاة المكذبين بالدين، ما تحدَّتْ أمةٌ رَبَّ العالمين إلا جعلها من المهلكين ولو بعد حين سُنَّةٌ لا تتخلف أبدًا؛ ولذلك قال: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، أي: وأممًا أخرى كثيرة لم نذكرها لك، أهلكناها أيضًا بناءً على السنة الجارية. ثم قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي وضحنا لهم الأدلة بأبلغ ما يكون البيان، وأقمنا عليهم الحجة، وأزحنا عنهم الأعذار ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾، أي أهلكناهم إهلاكًا والقرن: هو الأمة من الناس، وحَدَّه بعضُهم بمائة سنة، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: « **خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم** » ... الحديث) [2].

ثم أفرد في نهاية الأمثال قوم لوط بذكر خاص؛ لخصوص جريمتهم المخالفة للفطرة الإنسانية، ولخصوص عقوبتهم المدمرة الرهيبة ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني قرية لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي المسماة بـ « سَدُوم »، التي أهلكها اللَّه رجمًا بحجارة من سجيل، وقلَب أرضها خَسْفًا وزلزالًا وجعل عَالِيَهَا سَافِلَهَا! فكانت بعد ذلك آثارًا وعبرة للمعتبرين. وقد كانت العرب تمر عليها قديمًا في رحلتها

---

(١) تفسير الآية عند الطبري.

(٢) ن. ذلك في تفسير الآية عند ابن كثير. وأما الحديث فمتفق عليه.

إلى الشام، فلا تبصر من عبرتها شيئًا، وهو معنى قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. ولهذا قال هاهنا في الفرقان: ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال ثم قال: ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعني المارين بها من الكفار، الذين لم يكونوا يؤمنون بالبعث! ذلك أن المؤمن باليوم الآخر، ولو كفر بما دون ذلك من حقائق الإيمان، فإنه يبصر من خلال ظلمات كفره بصيصًا من نور البعث، قد يجعله يستيقظ على مشاهد أصحاب القبور! وعلى مشاهد أطلال الأمم البائدة، أما المُنْكِرُ للبعث الجاحد للنشور، فظلماته بكماء عمياء صماء! لا أمل فيها للإبصار والعياذ باللَّه؛ إذ المؤمن الحق لا يرى في المقابر انقطاع حياة، أو اندراس وجود بمعنى العدم المطلق المظلم، بقدر ما يرى فيها حضورًا ذاتيًا للموتى، يطل عليه من عالم الروح، وتجليًا لحقيقة الموت، وجودًا واعيًا في عالم البرزخ! فتكون الذكرى أرهبَ وأشجَى ويكون التفكر أعمقَ وأوْعَى.

تلك قصة الرُّسُلِ جميعًا مع أقوامهم لما جحدوا الآيات وكذبوا بالكتاب! نتيجة واحدة ثابتة: دمار شامل وتتبير كامل! فما بال هؤلاء القوم اليوم لا يفزعون من شكاة محمد ﷺ، وهو يجأر إلى اللَّه: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

ومن قال إن المعركة الإيمانية قد انتهت بانقطاع الوحي أو بوفاة رسول اللَّه ﷺ أو بفتح مكة ودخول الناس في دين اللَّه أفواجًا كيف والقرآن حجة اللَّه القائمة على الأمة، وعلى الناس أجمعين إلى يوم القيامة؟! وها هو ذا لا يزال يُعَلِّمُ الدرس نفسه للأجيال كيف وها الأدواء والجرائم التي أبيدت بسببها الأممُ الهالكة تتجلى اليوم ظواهرَ مُخِيفَةً في عالم المسلمين من صدود قوم نوح إلى طغيان فرعون، وظلم عاد وثمود، وعدوان أصحاب الرس، إلى شذوذ قوم لوط ذلك هو الإشكال، وتلك هي القضية، فكيف هُدَاهَا من كتاب اللَّه؟

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم - حسب كلمات هذا المجلس - إلى سبع رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن حوادث الهلاك الشامل للمدن والقرى الحاصل اليوم - من حين لآخر - في هذا العصر، هو من تلك السنة الإلهية الجارية على القوم الذين تكالبوا على إعلان التحدي لرب العالمين، بشتى أنواع الكفر والفجور، وأن المؤمن الحق الذي يرى بنور اللَّه يشاهد غضب اللَّه في ذلك، مشاهدة واضحة لا غبش فيها ولا اضطراب، ويقع بقلبه من الرهبة والخوف ما يقع بقلب المؤمن العارف باللَّه، المشاهِد لعظمة سلطانه، وشمولِ إحاطته بأمره وبجميع شؤون ملكه وملكوته تقديرًا وتدبيرًا.

والمؤمن لا يشوش عليه دجل الإعلام الكبير اليوم، ذلك الدجل الذي يقلب الحقائق؛ بنسبة الكوارث النازلة بالناس إلى فعل الطبيعة، وإلى اختلال حركتها الميكانيكية، وإنما هي في منطق الإيمان مُسَخَّرَةٌ مأمورة، بل إن المؤمن يرى بعين اليقين أن الطبيعة بكل مكوناتها عبدٌ طائع بين يدي اللَّه، وعلى وعي تام بذاتها وبوظيفتها المكلفة بها، تنفذ ما طلب ربها منها، تنفذه كما طلبه بلا زيادة ولا نقصان، فالوجود الطبيعي - بكل مكوناته، الجمادية، والمائية، والهوائية، والنارية، والنباتية... إلخ، كائن حي يسبح بحمد ربه، بلسان حاله ومقاله معًا، ويدور في فلكه سيرًا إلى اللَّه.

فما تحرك شيء من الكوارث في الأرض ولا في السماء إلا بعلم اللَّه، وإلا بإذنه، وإلا بأمره سبحانه جل علاه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وما كان شيء من ذلك كله إلا لحكمة بالغة، معلومة منه سبحانه، رسالاتٍ تترى إلى الناس أجمعين فكل ما ترى وكل ما تسمع من زلازل أرضية وبحرية، وعواصف مدمرة، وفياضانات مهلكة، وخسف رهيب، ومن حروب مجنونة تحرق الأخضر واليابس، وتدمر الإنسان والعمران، في هذا القطر أو ذاك، وفي هذه القارة أو تلك، إنما هو خطاب اللَّه الغضبي المنزل على أهلها انتقامًا والعياذ باللَّه! فَتَفَكَّرْ في مشاهدها من المغرب إلى المشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، وعبر جميع القارات، ثم انظر إليها عبر تاريخ العالم الإسلامي القريب والبعيد، من مأساة الأندلس إلى سقوط الدولة العثمانية، إلى حروب الاستعمار القديم والجديد إلى ضربات الزلازل والعواصف وانفجار البحار! تَرَ جنودَ اللَّه القوية تُغِيرُ على هذا الشعب أو ذاك، وعلى هذه المدن والقرى أو تلك؛

فتحصد الآلاف والملايين وتُلْحِقُ بالظلمة الخسائر والبوار سواء في بلاد المسلمين أو في بلاد الكفار. ويقف الإنسان - مهما أحرز من تقدم علمي - عاجزًا حائرًا مبهوتًا، بين يدي عظمة اللّه الواحد القهار.

سُنَّةٌ جَارِيَةٌ أبَدًا إلى يوم القيامة، وهي صريح قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

الرسالة الثانية: في أن عمى الناس عن هذه الحقيقة اليوم، إنما هو بما ذكره اللّه تعالى في هذا السياق: أنهم نسوا حقيقة البعث والنشور! فهم بين كافر بها مطلقًا فلا يرى من بصيص نورها شيئًا، وبين غافل عنها - كحال كثير من المسلمين اليوم - إلى درجة الختم بما يشبه عمى الكفر، والعياذ باللّه وذلك قوله تعالى في سياقنا هذا: ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ فمن نظر إلى الحقائق الإيمانية بعين الآخرة شاهد منها الشيء الكثير، ومن لم ينظر إليها بها عَمِيَ عن كل شيء! فَتَدَبَّرْ، ثم أَبْصِرْ.

الرسالة الثالثة: في أن تحدي الناس للقرآن إذا صار ظاهرة غالبة في منطقة ما من الأمة، كان مجلبة للهلاك العام فيها، بما قد يقطع دابر تلك المنطقة بعينها! ولا ينقض ذلك حديث النبي ﷺ: « **سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها** [يعني: الجفاف]، **وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها** »[1] لأن وعد اللّه ﷻ ألا يهلك الأمة هاهنا بالجفاف وحبس الغيث، وألا يهلكها بالغرق، إنما هو بمعنى الحفظ من الهلاك العام لوجودها كله! لا لبعض أجزائها! فهي محفوظة على الإجمال من كل ذلك ومما في معناه، لكنها معاقبة بكوارث عامة في بعض أجزائها، أو في عمومها، لكن بما لا يقطع نسلها ودابرها. ويصححه استقراء تاريخها، فقد أصابها من الدواهي العامة مثل ذلك الشيء الكثير، وما يزال يصيبها! فرّج اللّه عنها وفي ذلك أيضًا أحاديث كثيرة صحيحة، منها ما يرويه عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما من قول النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم.

أنه يكون « **في أمتي خَسفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ** » [١] وما يرويه ابن مسعود ﷺ من قوله عليه الصلاة والسلام: أنه يكون « **بين يدي الساعة مَسْخٌ وخَسفٌ وقَذْفٌ** » [٢] نسأل اللَّه العافية لنا وللمسلمين أجمعين.

وكل ذلك إنما هو بسبب المجاهرة بالمعصية؛ لما فيه من إعلان الحرب على اللَّه وعلى شريعته، كتابًا وسُنَّةً، وهو التعليل المصرح به في الأحاديث الصحاح، من رواية عدد من الصحابة بصيغ شتى؛ منها حديث عمران بن حصين في قوله ﷺ: يكون « **في هذه الأمة خَسفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ، إذا ظهرت القِيَانُ، والمعازِفُ، وشُرِبت الخمورُ** » [٣] ومعنى الظهور هنا: الشيوع والانتشار والغلبة والسيطرة؛ حيث تصير هذه المنكرات وضعًا طبيعيًّا عاديًّا.

الرسالة الرابعة: في أن فاحشة الزنى وما يلحق بها إذا فَشَتْ في الناس هي أيضًا حتى أعلنوا بها وتجاهروا؛ كانت سببًا في الهلاك أيضًا بالمعنى الذي ذكرناه قبل. وصح في ذلك قوله ﷺ: « **يا معشر المهاجرين، خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ باللَّه أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فَشَا فيهم الطاعون والأوجاع، التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخِذُوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد اللَّه وعهد رسوله إلا سلط**

---

(١) أخرجه الحاكم عن عبد اللَّه بن عمرو مرفوعًا. وقال الشيخ الألباني: « صحيح ». حديث رقم: (٤٢٥٧) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه ابن ماجه، عن ابن مسعود مرفوعًا. وقال الشيخ الألباني : « صحيح ». حديث رقم: (٢٨٥٦) في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه الترمذي عن عمران بن حصين مرفوعًا. وقال الشيخ الألباني : « صحيح ». حديث رقم: (٤٢٧٣) في صحيح الجامع. وأخرجه الطبراني عن سهل بن سعد مرفوعًا. بسند صحيح كما هو في صحيح الجامع أيضًا، رقم: (٣٦٦٥). كما أخرج نحوه أبو داود عن أنس مرفوعًا، بسند صحيح أيضًا كما في صحيح الجامع برقم: (٧٨٥٩). ولكل ذلك أصل في صحيح البخاري في المسخ قردةً وخنازير، بسبب المجاهرة بالمعصية. وهو ما رواه الصحابيان الجليلان أبو عامر وأبو مالك الأشعري، عن النبي ﷺ قال: « ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف، و لينزلن أقوام إلى جنب عَلَم تروح عليهم سارحتهم، فيأتيهم آت لحاجته فيقولون له: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم اللَّه، ويقع العلم عليهم، ويمسخ منهم آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة » أخرجه البخاري.

الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ﷻ، ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » (١) الله أكبر! ألا وإنَّ واقع الأمة المعاصر لواضح في صحة كل ما ذكر في الحديث، حرفًا بحرف.

الرسالة الخامسة: في أن تلقي الكتاب يلزم عنه - فضلًا عن واجب الدخول في تكاليفه - حملُ رسالته إلى الناس؛ إذ ما أوتي أحد الكتاب إلا أُمِرَ بالبلاغ وُجوبًا! وقيل له كما قيل لموسى وهارون في الآية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الآية. وكما مر معنا في بداية السورة بخصوص نبينا محمد ﷺ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وقال له في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وتلك كانت وظيفة الأنبياء والرسل من قبل، لكنها في هذه الأمة موروثة عن محمد ﷺ، واجبًا معلقًا في ذمة دعاتها وعلمائها إلى يوم القيامة، وبذلك شهد الله بخيريتها.

الرسالة السادسة: في أنه ما حمل رايةَ الدعوةِ الإسلاميةِ العلماءُ الربانيون، ولا المؤمنون الصِّدِّيقُون، أو الحكماء الوارثون، المقتفون أثر الرسول الكريم، إلا جَرَتْ عليهم سُنَّة الأنبياء مع أقوامهم، ابتلاءً لهم وبهم، وجعل الله الطبيعة بكل عناصرها سلاحًا لهم لا عليهم وجعل كوارثها دمارًا معلقًا على رؤوس أعدائهم، وهو من مقتضى الكلمات المتدارسة بهذا المجلس، كما أن شواهده في القرآن وفي التاريخ كثيرة. فقد قال ﷻ في حق رسوله يونس ﵇: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] رسالةً مؤبدةً لكل المؤمنين! وقال في حق قوم لوط: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣] رسالةً مؤبدةً لكل الظالمين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم، عن ابن عمر مرفوعًا. وقال الشيخ الألباني : « صحيح ». حديث رقم: (٧٩٧٨) في صحيح الجامع.

الرسالة السابعة: في أن ترك الأمة - في سوادها العام - لما كُلِّفَتْ به من الدخول في أحكام الشريعة وتكاليفها، سواء على مستوى الشعوب، أو على مستوى المؤسسات والحكومات، وأن طغيان اللادينية والتيارات العلمانية على صناعة القرارات التوجيهية الإدارية الكبرى، مما تعم به البلوى، في السياسة التعليمية والتربوية، والاقتصادية، والإعلامية، وسائر النُّظُم العمرانية، جعل المسلمين يفقدون موقعهم الذي جعلهم الله فيه، من الشهادة على الناس، فحَرِمَوا بركةَ التأييد الإلهي العظيم، وصاروا بذلك عبيدًا للمشركين والكفار في العالم بدل أن يكونوا أهل حجة عليهم وشهادة؛ إذ القاعدة أن فاقد الشيء لا يعطيه.

فتحقيق العبدية الخالصة لله الواحد القهار، هو وحده باب العز في الدنيا ومسلك النجاة في الآخرة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

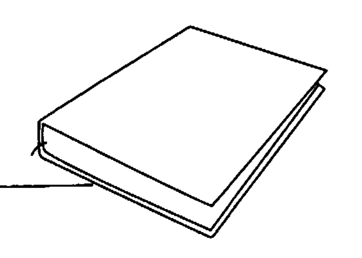
٤ - مسلك التخلق:

وأما مدخل التخلق بهذه الحقائق الإيمانية جميعًا، فعبر مسلك واحد، هو: ترويض النفس وتدريبها على مشاهدة النشور والحياة الأخروية، حركةً حيةً في كل شيء، وفي كل وقت عسى أن ينتعش رجاء الآخرة في القلب، فيفيض شوقًا جميلًا يحدو مواجيده بحداء الخوف والرجاء إلى لقاء الله هنالك؛ وهنالك فقط يتحقق الإبصار.

ودون ذلك يا صاح مكابداتُ الروح، ومعاناةُ الوجدان لليالي القرآن، فهلَّا أشعلتَ قناديلَ الدُّجى؟ وانتصبت بمحراب السَّحَرِ؟!.. ألَا فَالْبَسْ وضوءَك يا قلبي وانْطَلِقْ فعند الصبح يَحْمَدُ المدلِجُونَ السُّرَى.

* * *

المجلس العاشر



في مقام التلقي لاستعظام جريمة الهزء بالرسول ﷺ! والعمى عن حقائق الإيمان والتوحيد!

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١ - ٤٤].

٢ - البيان العام:

« رسول اللَّه » - صفةً ووظيفةً - لَقَبٌ لكل عبد أرسله اللَّه.. فما أعظمها من سيماء وما أكرمها! وكفى بها شرفًا لعبد من عباد اللَّه؛ إذ اصطفاه اللَّه بها من دون العالمين ذلك فضل عظيم، لكنه عَامٌّ في كل الرسل والأنبياء.

أما هاهنا فله خصوص وأي خصوص فسيماء « رسول اللَّه » جاءت بهذه « الكلمات » في حق خير خلق اللَّه، محمد بن عبد اللَّه، أفضل عباد اللَّه في الأرض، وأفضلهم في السماء إنه إمام الرسل والأنبياء سيدنا محمد المرجو شفاعته بين يدي اللَّه، يوم يتأخر عنها الأنبياء جميعًا إلا محمد بن عبد اللَّه، المأذون وحده من عند اللَّه قال عليه الصلاة والسلام: « **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي وأنا أوَّلُ شَافِعٍ وأوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فخر** »[١].

---

(١) أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه عن أبي سعيد مرفوعًا. وقال الشيخ الألباني : « صحيح » =

أَلا صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وعلى سائر الرسل والأنبياء.

فمن ذا قدير على إيذاء سيدنا محمد؟ ومن ذا قدير على التطاول على مقام سيدنا محمد؟ ومن ذا قدير على الاقتراب من شعاع سيدنا محمد، أو من وهج نجمه ونور مداره؟ كيف وها هو ذا - عليه الصلاة والسلام - محروس في الأرض وفي السماء، ينعم بالأمان التام في جوار اللَّه؟! في مقام من الاصطفاء والخُلَّةِ لا يدانيه فيه نبيٌ مُرْسَلٌ ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، أَلَا وإنه لا يتطاول على مجده العالي باللَّه، إلا مجرمٌ جاهلٌ باللَّه، وبمقام رسول اللَّه، وإذن يكون من الهَلْكَى صَعْقًا وحَرْقًا.

ذلكم سيدنا محمد، رسول اللَّه ﷺ تسليمًا كثيرًا..

فما أشنعَها جريمةَ الاستهزاء برسول اللَّه! والسخرية من مقامه العالي باللَّه.

ومن هنا دَانَ القرآن الكريم ذلك الموقف المخزي، وتلك الجريمة الشنعاء، التي عامل بها الكفار - وما يزالون - رسول اللَّه إلى العالمين أجمعين ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ لقد خاطب اللَّه ﷻ نبيه الحبيب عليه الصلاة والسلام مواسيًا ومطمئنًا بكلمات الرحمة والجمال، مبينًا شناعة ما صنع هؤلاء الكفرة الجهلة المنكرون ليوم البعث، الجاحدون لرسالة الإسلام، وكيف أنهم إذا رأوه استهزؤوا به قائلين: أهذا الذي يزعم أن اللَّه بعثه إلينا رسولًا؟ تنقيصًا من قدره، وتسفيهًا لِحِلْمِهِ بأبي وأمي هو عليه الصلاة والسلام! لكن سخريتهم تحمل نقيضها في نفسها، فهم يعترفون له في الوقت نفسه بقوة الحجة والبرهان؛ ولذلك قالوا: إنه كاد أن يصرفنا عن أصنامنا بقوة بيانه! لولا أن ثَبَّتْنَا على عبادتها! لكن اللَّه ﷻ يتولى الإجابة بنفسه سبحانه! منذرًا بالمآل الرهيب الذي ينتظر هؤلاء الذي سخروا من رسول اللَّه ورسالته وأن الحقيقة التي ينكرونها اليوم سيرونها غدًا، عذابًا شديدًا يوم القيامة سيرونها عيانًا حينما يكونون في قعر جهنم، يتلظون بحقيقة جحيمها الأليم وآنئذ يعلمون مَنْ أضلُّ دينًا وطريقًا، ومن أسفه عقلًا وقلبًا، هم أم محمد ﷺ؟

ثم يسأل سبحانه رسولَه سؤالَ تنبيه وتوجيه، في حوار تأنيسي جميل، فيه من إبداء اللطف والود والنصرة لنبيه ما يملأ القلب أُنسًا باللَّه، مُعَجِّبًا مِمَّنْ أطاع هواه

= حديث رقم : (١٤٦٨) في صحيح الجامع.

كطاعة اللَّه، فجعل من شهواته وَثَنًا يعبده من دون اللَّه: أرأيت - يا محمد - هذا الجاهل باللَّه، المستكبر عن عبادته، المنتشي بتمجيد ذاته وهواه؟ أفأنتَ تكون عليه وكيلًا ونائبًا حتى تردَّه إلى الإيمان؟ وهل يمكن لأحد أن ينوب عن أحد في اتخاذ قرار الإيمان؟ وإنما الإيمان قضية عقدية ذاتية، ومسألة وجدانية روحية كلا! فإنما هو هداية من اللَّه.

أم تظن - يا محمد - أن أكثر هؤلاء الكفار يسمعون آيات اللَّه بقلوبهم، أو يَعُونَ ما فيها بعقولهم؟ كلا! كلا! إنهم محجوبون بِكِبْرِهِمْ وكفرهم عن الوعي الوجداني والإدراك الروحي للحقائق والأشياء فما هم في الواقع إلا كالبهائم، التي لا تسمع بوعي ولا تدرك بعقل! إنهم وإياها - في عدم الانتفاع بما يصل إلى ظواهر آذانهم - سواء، بل هم أضل منها سبيلًا، حالًا ومآلًا؛ إذ يملكون من المؤهلات - التي جعل اللَّه لهم خِلْقَةً وفِطْرَةً - ما لا تملك هي لكنهم عطلوها ظلمًا واستكبارًا؛ فكانوا بذلك شرًّا مكانًا وأضلَّ سبيلًا.

فما قيمة سخرية أو هزء يصدر عن أمثال هؤلاء إذن؟

٢ - الهدى المنهاجي:

وينقسم في هذا السياق إلى خمس رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن المسلمين اليوم قد غفلوا - إلا قليلًا - عن المقام المجيد الذي لرسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام - فغمطوه حقه العظيم، وخانوا رسالته، إلا قليلًا فدعك من المظاهرات والمسيرات التي تخرج من هنا وهناك؛ تنديدًا بمتعصبي اليهود والنصارى، كلما صدرت عنهم إساءةٌ لسيدنا محمد، فأُولئك إنما هم اليهود والنصارى.

ولكنْ، ما بالنا نحن المسلمين اليوم نرفع أصواتنا بالدفاع عن سيدنا محمد، ونحن أول من يخون رسالة سيدنا محمد؟! وأول من ينتهك الحرمات التي أسسها سيدنا محمد! والحدود التي حدَّها سيدنا محمد، والشريعة التي جاء بها سيدنا محمد فأنَّى لمن خان سيدنا محمدًا أن يكون نصيرًا لسيدنا محمد؟ وأنَّى لمن شذَّ عن قافلة سيدنا محمد أن ينال رضا سيدنا محمد؟ أوليس يوم القيامة يُطْرَدُ قومٌ من أمة سيدنا محمد عن حوض سيدنا محمد؟ ذلك نذيره الواضح الصريح من قوله ﷺ:

« ألا لَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذَادُ البعيرُ الضال أناديهم: ألا هَلُمَّ ألا هَلُمَّ فيقال: إنهم قد بدَّلُوا بعدك فأقول: سُحْقًا فَسُحْقًا! فَسُحْقًا » (١).

الرسالة الثانية: في أن أداء حقوق المصطفى ﷺ، إنما يكون باتباع سنته، والوفاء بأمانته، والبلاغ لرسالته، تلك هي النصرة الحقيقية لمقامه، والذود الصادق عن شرفه. ومعلوم أن التأهل والتأهيل لذلك كله لا يكون إلا بالدخول في الابتلاء بمنازل أخلاقه، اقتداءً بإمامته ﷺ في ترقي معارج القرآن، ونيل شرف أُخُوَّتِهِ وجمال مَعِيَّتِهِ! وباب ذلك هو قول الله ﷻ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩]. فَتَدَبَّرْ يا قلبي! وانظرْ ما حظك من هذه الصفات؛ تعرفْ مقامَكَ من نصرة سيدنا محمد.

الرسالة الثالثة: في التحذير مما تبثه وسائل الإعلام المعادية للإسلام ظاهرًا أو باطنًا، من دس خفي للمصطلحات المضلِّلَةِ للعقول، والمفاهيم المحرَّفة للمعاني، دِينًا وثقافةً وسياسةً، وما تقوم به من قلب للحقائق وتحريف، فذلك دَيْدَنُ الكفار ومنهجهم الثابت في كلِّ عصرٍ وفي كل مَصْرٍ، كلما أعيتهم الحجة في مواجهة الحق؛ حيث يلجؤون إلى تحريف الكلمات عن مواضعها، واصفين الحق بعبارات الباطل، وواصفين الباطل بعبارات الحق، ثم يصرون على تداول ذلك وفرضه على العالم استعمالًا وتوظيفًا؛ حتى تنطلي الحيلة تحت التأثير النفسي والإعلامي على كثير من الناس، بمن فيهم من الشعوب الإسلامية نفسها، ولذلك سجله القرآن ليحذره المسلمون، وليفضحه العلماء والدعاة إلى الله! فانظر إلى وصف الكفار لفعل رسول الله ﷺ بـ « الإضلال » وإنما هو جاء بالهدى ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ فهو عين الأسلوب المستعمل اليوم على المستوى العالمي؛ حيث تقوم المختبرات اللغوية واللسانية بِسَكِّ أخبث العبارات والأوصاف، وصناعة أسوأ المصطلحات والمفاهيم! ثم تبث ذلك كله وتنشره في الناس، بما تملك من ترسانة إعلامية ضخمة؛ لمحاصرة الدين وأهله في العالم.

---

(١) أخرجه مسلم.

الرسالة الرابعة: في أن الهوى إذا تمكن من صاحبه واستحكم حتى استعبده، كان ختمًا على سمعه وقلبه، وتلك هي الوثنية الخفية التي تصيب المرء بالعمى الروحي. فلا تكون له قدرة - بعد ذلك - على إبصار حقائق الإيمان، مهما تلقى من المواعظ ومهما سمع من الآيات.

وتَمَكُّنُ الهوى إلى درجة التأله والسيطرة على القلب راجع إلى الإصرار الدائم على تلبية رغائب الشهوات، والجري وراءها بلا كابح ولا جامح؛ مما يؤدي إلى إتْبَاعِ الذنوب بالذنوب، ومراكمة بعضها على بعض، بلا توبة ولا استغفار؛ حتى يستحكم نسيجُ حصيرِها الخَشِنِ بالقلب فَيَعْمَى، وذلكم هو الرَّانُ.

فَعَنْ حُذَيْفَةَ ﵁ قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ. قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ والصَّدَقَةُ. ولَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ؟ لِلَّهِ أَبُوكَ).

قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** » (١).

وفي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: « **إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قَلْبه! وإن عاد زيد فيها؛ حتى تعلو على قلبه، وهو الرَّانُ الذي ذكر الله تعالى:** ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢).

---

(١) رواه مسلم. وقوله: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا: يعني فيه لمعَانٌ من شدة السَّوَادِ، والكُوزُ: الإناء كالإبريق. وكونه مُجَخِّيًا: يعني مَنْكُوسًا، بحيث لا يمسك ما فيه.

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (١٦٧٠).

الرسالة الخامسة: في أن الحرب النفسية القائمة على السخرية والاستهزاء بالرسل والدعاة، والتنقيص من شأنهم والتسفيه لدعوتهم، منهج عدواني ثابت في حرب الطواغيت للدعوة وأصحابها، فما من رسول قبل سيدنا محمد ﷺ إلا ولاقى من أعدائه من السخرية نفس المعاناة، وإن اختلفت صيغها وتجلياتها؛ وذلك لتحطيم معنويات الرسل والدعاة إلى اللَّه ومن اتبعهم من المؤمنين، وحصار دعوتهم بهذا الأسلوب الخسيس؛ حتى لا تتسع دائرة الخير والصلاح في المجتمع، ومن قبل كان نوح عليه السلام يصنع سفينة الهدى والنجاة، وكلما مر به قومه سخروا منه، فلا يزيده ذلك إلا ثباتًا: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨].

واليوم لا تفتأ كثير من الجهات الضالة المضلة، تسخر من الدين وأهله ودعاته بوسائل شتى، خاصة من خلال الأفلام والمسرحيات؛ إمعانًا في التضليل والتجهيل، لكنَّ المؤمن الواثق من ربه ودعوته، لا يزيده ذلك إلا يقينًا في نصرة اللَّه، وقرب وعده بالفتح المبين.

٤ - مسلك التخلق:

أما مسلك تلقي تعظيم قَدْرِ المصطفى ﷺ والتخلق الصادق بمحبته، فلا يكون إلا بمجاهدة النفس في سبيل تحقيق « معيته الروحية » عليه الصلاة والسلام، وهي مشروطة بشروطها العملية الواضحة فيما أسلفناه من قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩]. تلك بصائرهم التي بها يتعرفون إلى اللَّه تعالى، وبها يتعرفون على قَدْرِ نبيه ﷺ بوصفه أَعْبَدَ الخلق للَّه، فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ هو مقام المعية الروحية والإيمانية بما يقتضيه ذلك من نصرة شديدة له ولرسالته - عليه الصلاة والسلام - ضد المحاربين من الكفار من جهة، ومن رحمة داخلية بين المؤمنين تعضد رابطة المحبة في اللَّه من جهة أخرى. وإنه لمقام عالٍ رفيع وإنه لمستمر إلى يوم الدين، وإنما ناله من ناله من أهله المتحققين به، بما وصفهم اللَّه به بَعْدُ من كونهم: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ فمن أحرز على ذلك الشرف الرباني، وجد

في قلبه محبة الرسول ﷺ صدقًا خالصًا، وشوقًا ملتهبًا، وذاق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: « **لَا يُؤْمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليه من وَلَدِهِ ووَالِدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ** »(١).

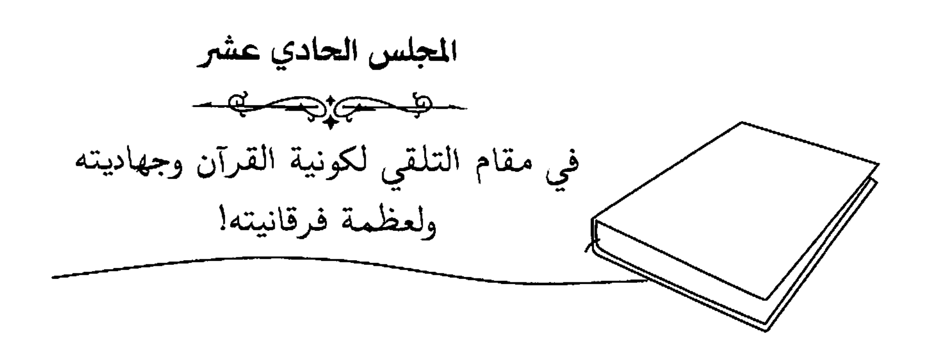
وأما مسلك حفظ النفس من وساوس الإعلام وخطاياه، فإنما يكون بالاشتغال الدائم بتنظيف أجهزة التلقي الروحي، من سمع وبصر وفؤاد! مما تُلْقِيهِ وسائله من الترهات والأكاذيب والاشتغال اليومي بتنقية القلب من الذنوب بالأذكار والاستغفار ومقاطعة الزلات، ومجاهدة الغفلات؛ حرصًا على بقاء القلب موصولًا أبدًا بالله وحفظًا لصفاء إبصاره للحقائق أبدًا.

فيا قلبي الضعيف، ويا نفسي الأمارة المغرورة، هذه الشهوات تُلقى عليك ليل نهار، فهل تقدرين على كبح جماح الشهوة الخبيثة، وغض لجام الطرف بقوة الفرسان إلى الأرض؛ إعراضًا عن مفاتنها الشيطانية؟ أم أنك تتساقطين عليها كما يتساقط الفراش على اللَّهيب؟! ذاك امتحانُكِ، فادخلي كلمات الابتلاء! وهؤلاء هم الملائكة يكتبون! ألَا كتب الله لنا العفو والعافية.

* * *

(١) متفق عليه.

المجلس الحادي عشر



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

[الفرقان: ٤٥ – ٥٥].

٢ - البيان العام:

رَبٌّ واحدٌ، وحركةٌ واحدةٌ، من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء.. الكون كله مشدود بأنوار الأسماء الحسنى إلى مولاه، خَلْقًا وتقديرًا، ورعايةً وتدبيرًا. سلسلة واحدة: من إنزال الماء إلى إنزال القرآن، ومن إحياء الأرض والحيوان إلى إحياء الروح والوجدان، ربٌّ واحد يتصرف بقدرته وبحكمته في شؤون مملكته.

هو الحيُّ، سبحانه، يُنَزِّلُ لكل شيء ما يحييه: ماءً أو قرآنًا ويحرك كلَّ شيءٍ

رعايةً؛ بما يحفظ وجوده وحياته، من الظل في حركته الجزئية مَدًّا وقبضًا، إلى الشمس في حركتها الكلية وهي تَسْبَحُ في فَلَكِهَا العظيم! ومن حوادي الرياح إلى قوافل الغمام، ومن النبات إلى الحيوان إلى الإنسان، فالرسول المبعوث والقرآن المنزل، كلاهما لا يخرج عن هذا النظام الكوني العظيم، ولا عن هذا التدبير الرباني الحكيم، فأي تأمل في حركة الظل، مهما كانت جزئية، تقود الإنسان البصير إلى أعلى.. إلى مشاهدة أنوار القرآن وهي تتنزل من السماء بسم الله الرحمن الرحيم.

ومن هنا كان هذا الخطاب من الله ﷻ لرسوله ﷺ، في سياق الرد على المستهزئين به، وبما جاء به من الآيات: ألم تَرَ يا محمد إلى ربك ذي الجلال كيف مدَّ الظل بشروق الشمس؟ حتى انتشر في كل مكان تحت الجدران والأشجار والأجراف والجبال، وعلى سفح كل مرتفع، ولو شاء لجعله ثابتًا مستقرًا، لا تزيله الشمس ولا تنسخه. ثم جعلنا الشمس علامةً يُسْتَدَلُّ بأحوالها على أحواله. ثم قَبَضَهُ ربُّه - بعد ذلك - إليه قبضًا يسيرًا، أي بصورة هادئة خفية، شيئًا فشيئًا، فكلما ازداد ارتفاع الشمس أول النهار ازداد نقصان الظل، حتى يملأ ضياؤها كل مكان؛ فلا يكاد يبقى له في العراء وجود! ثم إذا زالت الشمس عن كبد السماء قليلًا، بدأ الظل يولد من جديد، شيئًا فشيئًا، حتى إذا كان العصر امتدت الظلال مرة أخرى في كل مكان وهكذا يدور الظل مع الشمس في حركة متوازنة هادئة؛ تبعًا لحركة الفَلَكِ، في دورة الأرض حول الشمس، بصورة تفتح بصيرة المؤمن على مشاهدة القيومية العظمى لرب العالمين، وربوبيته القائمة على شؤون مملكته في حركة دائمة مستمرة، لا تعرف اضطرابًا ولا خللًا ولا انقطاعًا، فمن ذا غيره سبحانه يستحق العبادة والتقديس؟ أَلا ﷻ وعلاه، هو الله الواحد القهار! لا إله إلا هو.

وكيف لا؟ وهو الذي جعل للبشرية الليل لباسًا يسترها بظلامه المحيط بكل شيء، وجعل لها النوم راحة شاملة، وسكينة مطلقة لأبدانها وأنفسها، ثم جعل لها النهار لتنتشر خلاله في الأرض؛ طلبًا لما قَدَّرَ لها من الأرزاق والمعاش، في حركة عمرانية، متداولة بين الليل والنهار سكونًا ونشورًا، في توازن عجيب، كما تُتَدَاوَلُ الشموسُ والظلالُ قبضًا ومدًّا.

وهو سبحانه الذي أرسل الرياح - من أجل الإنسان - تسوق له قوافل السحاب

المحملة بالأرزاق.. تنشر الرحمة بإذن اللَّه غيثًا نافعًا، وتبشر الناس بالخصب والنماء، ثم إنه تعالى أنزل - تبعًا لذلك - من السماءِ ماءً طَاهِرًا مُطَهِّرًا؛ ليبعث به الحياة الطاهرة في الأرض الميتة، ويجري به العيون والغدران، كما تجري الروح في الأبدان، فَيُخْرِجُ به النبات والأشجار والزروع، ويحيي البلد الجدب القاحل بعد يأسه المميت كما يُسْقِي به كلَّ من تكفل سبحانه برزقه من خلقه، من الحيوان والإنسان جميعًا وهكذا تتدفق الحياةُ هبةً ربانيةً، وعطاءً رحمانيًّا من اللَّه.

فالذي أنزل تلك النعم جميعًا هو سبحانه نفسهُ الذي أنزل القرآن؛ ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فالضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعود على القرآن، الذي هو موضوع هذه السورة [(١)]، أي: ولقد صرفنا هذا القرآن بينهم، وما فُصِّلَ فيه من الأحكام والمشَاهِدِ وضروب المعَارِضِ، من مَدِّ الظلال وقبضها، وتعاقب الليل والنهار، وإرسال الرياح وإنزال الأمطار، ما يجعل حقائقه الإيمانية قاطعة البرهان. كما أن تصريف القرآن هو أيضًا بمعنى تفريق نزول آياته على فترات، وتنويع مواضعها على حسب المقاصد والغايات، وترتيب أحكامها على حسب النوازل والحاجات. كل ذلك قصد تزكية الإنسان وتربيته على أقوم منهاج، وتيسير حصوله على الهدى والذكرى؛ بما صُرِّفَ له في هذا القرآن من الآيات الْبَيِّنَاتِ. ولكن أكثر الناس - رغم ذلك - تَعْمَى بصائرهم عن هذا الهُدى الرباني العظيم؛ بسبب ما رَانَ عليها من الأهواء والشهوات؛ فيكفرون جحودًا بحقائقه.

وقد ذَكَرَ سبحانه تصريف آيات القرآن بعد ذكر إنزال المطر؛ لبيان أن آثار القرآن على القلوب التي تستقبله هي كآثار المطر على الأرض الميتة، بما يكون له من بعثٍ وإحياءٍ لها من بعد موات.

ويجوز أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ على آخر مذكور في السياق، وهو المطر [(٢)]؛ فيكون المعنى أن كل ذلك التقدير للأرزاق بين الناس، وكل ذلك التصريف والتقسيم للماء بينهم؛ إنما هو ليتذكر الذين أنزل عليهم المطر؛ فيشكروا

---

(١) وهو اختيار القرطبي، والبقاعي، والبيضاوي، والشوكاني، وقال: هو مذهب الجمهور. فتح القدير: (١١٤/٤).

(٢) وهو اختيار الطبري وابن كثير.

نعمةَ اللَّه عليهم. ثم ليتذكر الذين مُنعوا النعمة؛ فيسارعوا بالتوبة إلى اللَّه؛ عساه يرحمهم ويسقيهم، كما سقى غيرهم، ولكن يأبَى أكثر الناس إلَّا جحودًا لنعمة اللَّه، وكفرًا بمولاها - سبحانه جل علاه - وإنكارًا لحقه العظيم عليهم.

هذا، وإنه لو شاء اللَّه ﷻ لَفَرَّقَ الرسالةَ كما يفرق المطر، فجعل لكل قرية، ولكل بلدة، حصتَها من النذارة الخاصة بها. ولكن حكمته تعالى في هذا الزمان الخاتم، اقتضت أن تكون الرسالة واحدة وعالمية؛ ولذلك جعل رسولَه محمدًا ﷺ مبعوثًا إلى أهل الأرض جميعًا، وأمره أن يبلغهم هذا القرآن، وألا يطيع الكافرين في ترك شيء من شريعته وألا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا، ولا مساومة في التخلي عن أي شيء من أحكامه وحدوده، بل أمره أن يبذل جهده الكامل في تبليغ رسالة الإسلام، وأن يجاهد الكفار بسلاح القرآن وبحقائقه الإيمانية جهادًا كبيرًا.

ثم يستأنف - جلَّ وَعَلَا - عرض مَشَاهِدِ قدرته الفرقانية في الطبيعة، لتطمين عبده على قوة فرقانية القرآن، وعظمة سلاحه، فبين كيف أنه سبحانه خلق البحار متلاطمة الأمواج، وَمرَجَ بعضَها ببعض، أي: وَصَلَ بعضَها ببعض. وقد يكون منها البحر ذو المياه العذبة، والبحر ذو الملوحة الشديدة، ثم تتكسر أمواج بعضهما على بعض، دون أن يؤدي ذلك إلى اختلاط مياههما كليًا! لِمَا جعل ﷻ بينهما من الحِجْر، أي المنع والفرق، وهو الحاجز المائي الذي يفرق بين البحرين المتجاورين المتداخلين، فيحفظ لكلٍّ مياه خصائصَها وبيئتَها، فلا يؤثر بعضها على بعض سلبًا.

ثم يبين فرقانيتَه العظيمة في مشهد تكويني آخر، وهو خَلْقُهُ سبحانه بشرًا سويًّا، مِنَ الماء المهين الذي يمنيه الإنسان، حتى إذا أتم خلقه وتكوينه في بطن أمه، أخرجه إلى الوجود على أعلى ما يكون الخلقُ دِقَّةً وصِنْعَةً وجَمالًا! بما يبهر العقول ويحيرها! فيجعل منه ذريةً تتناسل، لتكوين قرابة النسب وقرابة المصاهرة، ويجعل ذلك كله أساسًا متينًا لتكوين الأرحام، ثم يجعل سبحانه لكل رحم أسرةً خاصة؛ بما يحفظ لها خصائصها الوراثية خِلْقَةً وطبيعةً على مدى السنين رغم تداخل تلك المياه البشرية بالزواج من هاهنا ومن هاهنا! تمامًا كاحتفاظ كل بحر من البحار بخصائصه رغم مَرْج بعضها ببعض، وذلك من أعظم مظاهر قدرة اللَّه الفرقانية؛ ولذلك قال: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

فكذلك هذا القرآن سلاح فرقاني، يفرق به اللَّه ﷻ بين الحق والباطل فما أخذه

عبدٌ مؤمن باللَّه، مجاهدًا به الكفر والضلال! إلا وكانت له هذه الخصائص الفرقانية العظيمة التي عُرض مثلها في مشاهد القدرة الإلهية في المياه البحرية والإنسانية، تفريقًا وتمييزًا، وكذا خلقًا وإنتاجًا وتقديرًا.

ولكن الإنسان مع كل هذه الدلائل العظيمة على قدرة اللَّه وإنعامه على خلقه، يُشرك باللَّه، وَيَعْبُدُ مِنْ دونه مَنْ لا قدرة له البتة وما لا ينفعه إن رجا نفعه بعبادته، ولا يضره إن تركها إلا ما يتوهمه من تلبيسات الشيطان وبهذا يكون الكافر باللَّه ظهيرًا على ربه، أي: متحالفًا مع الشيطان بالتواطؤ معه على الشرك باللَّه والكفر به ومُظَاهِرًا له على التمرد على مولاه جلَّ وعلا.

ومن هنا تَعَيَّنَ على المؤمن أن ينصر ربه، وأن يجاهد حِلْفَ الشيطان! وهذا سلاح الفرقان بين يديه كفيل بتحطيم هياكل الكفر ومظاهره!

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى أربع رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن التوحيد في الإسلام لا يكمل إلَّا بتوحيد المشاهدة، وهو مشاهدة توحيد الإثبات بعد النفي، وذلك بأن تشاهد أن كل شيء في الوجود هو له، وله وحده وهو مقتضى شهادة أن: « لا إله إلا اللَّه ». فنفي الشريك متبوع بإثبات ربوبيته لكل شيء، تفريدًا وتوحيدًا، وهذا معنى عظيم قد تغفل عنه النفس على مستوى الشهود، فتقف عند حد النفي دون الإثبات. والمقصود هنا هو مشاهدة تجليات أسماء اللَّه الحسنى على كل شيء، خلقًا وتقديرًا ورعايةً وتدبيرًا، مشاهدة تجعل المؤمن يحقق توحيد الألوهية في سيره إلى اللَّه، رَغَبًا ورَهَبًا، بما ينبغي له سبحانه من كمال الجمال وعظمة الجلال، ولذلك فقد تواتر عن النبي ﷺ ذِكْرُهُ لربه وتوحيده له، بعبارة فيها من مشاهدات الإثبات ما يملأ النفس خوفًا ورجاءً ومحبةً؛ توحيدًا للَّه الواحد الأحد. وذلك بعبارة: (**لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**) فهذه الصيغة وردت عنه ﷺ بطرق شتى ومناسبات شتى بلغت حد التواتر. وذلك لما فيها من مشاهدة وحدانيته تعالى، في ربوبيته لكل الملك والملكوت، وهذا التوحيد هو الذي يملأ أغلب سور القرآن الكريم.

فهذا المعنى العظيم أنفع في تزكية النفس وإيقاظها من غفلتها؛ ولذلك بادر اللَّه - جلَّ ذكره وثناؤه - رسولَه الكريمَ بهذا السؤال الإرشادي الجميل، كما سبق بيانه، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ الآيات، فقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، أي إلى جمال فعله، وكمال نعمه، وعظمة قيوميته فجعل سبحانه يعرض على عباده دقة صنعه، وكمال إحسانه؛ ليشاهدوا وحدانيته تعالى في كلِّ شيء؛ فلا يتجهوا بالعبادة لأحد سواه في أي شيء.

الرسالة الثانية: في أن القرآن روح، ما نزل ببلدة إلا أحياها، وما أُشْرِبَتْهُ نفس إلا أيقظها، وكان لها نورًا وبركات. إن القرآن هو ماء القلوب وحياتها. ولقد كانت مشاهد الغيث المعروضة في الآيات وهي تتنزل بالرحمة على العباد، صورةً حسية؛ لتقريب مشاهد الأنوار القرآنية وهي تتنزل على القلوب المنشرحة لكتاب اللَّه، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا. أنوار تهطل بالبركات وبالحياة، فعجبًا لمن يغلق أبواب صدره دونها، فيبقى قلبه أرضًا مواتًا يرزح تحت صدأ الذنوب، ويقبع في ظلمات العَمَى.

فيا صاحبي في طريق الآخرة، هذا باب الهدى من كتاب اللَّه فتحه لك سيدنا رسول اللَّه ﷺ فادخلْ إنه باب فسيح يرفعك اللَّه به عبر معراج النور إلى أعلى مقام قال ﷺ: « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والْعِلْم، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقُوا وَزَرَعُوا. وأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِي قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ولَا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ** » (١).

فانظر من ذلك لنفسك يا صاح، ماذا تختار؟!

الرسالة الثالثة: في أن الصبر على حقائق الإيمان في هذا الزمان، زمان الفتن اللاهب الشديد، والقبض على جمر الدين، مشروط بالتمسيك بالقرآن الكريم في مواجهة الكفار، وتيارات الزندقة والأشرار، ودجاجلة السياسة والثقافة والإعلام، ومجاهدتهم بمفاهيمه وحقائقه الإيمانية جهادًا كبيرًا! وتحدي ما يصرون عليه من فتنة

---

(١) متفق عليه.

المسلمين في دينهم ومعتقداتهم، وفي أخلاقهم وأعراضهم وقيمهم.

فالقرآن هو سلاح المؤمن في هذا العصر، سلاح ولا كأيِّ سلاحٍ، إن عبد اللَّه الحق إذا أخذ كتاب اللَّه بحقٍّ، وتلقَّى كلماته بحق، كلمةً كلمةً، كان في يده كـ « عصا موسى » تحطم سحر هذا العصر من كل ضروب الدجل الإعلامي والثقافي والسياسي، وتبطل آثاره المدمرة في النفس وفي المجتمع وإن كلمات القرآن لَتَبْهَتُ دجاجلةَ العصر، كما بَهَتَتْ عصا موسى سحرةَ فرعون قديمًا! فعجبًا لمن يدخل معركة الإيمان مغتربًا في زمان القبض على الجمر، ويخوض حربًا من أجل البقاء بإيمانه، ضد أعداء اللَّه، الذين تجردوا لمحاربة الدين وأهله، في هذا الزمان الشرس، ثم يغفل عن حمل السلاح الحق، سلاح القرآن، ويتدرع بأسلحة أخرى هي أوهى من خيوط العنكبوت.

فيا صاح، هذا رب العزة ﷻ يتوجه إليك تكليفًا برسالة القرآن عبر قضيتين اثنتين: نهي وأمر، ولا يتم لك أحدهما إلَّا بالدخول في الآخر. **وبيان ذلك كالتالي:**

- **أولًا: النهي،** وهو متعلق برفض الطاعة الثقافية للكافرين، وإعلان التمرد على قيمهم وأخلاقهم وثقافتهم! فإذا تحققتَ من ذلك، فاعلم أنك محارب لا محالة؛ ولذلك جهزك اللَّه تعالى بأمر، وهو:

- **ثانيًا: مجاهدة الكفار وأذيالهم بحقائق القرآن ومفاهيمه جهادًا كبيرًا** وذلك هو المجموع نصًّا في الآية المنهاجية العظيمة: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ والسياق واضح في أن هذا الجهاد هو جهاد معنوي كبير، وهو - لمن عرفه وعاشه - أشد على النفس من الجهاد المادي؛ ولذلك أكده بهذا المفعول المطلق توكيدًا موصوفًا بالكِبَرِ؛ زيادةً في التوكيد والتعظيم فقال: ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.

الرسالة الرابعة: في أن شرط عمل القرآن بيد العبد المجاهِدِ به - بما هو سلاح فرقاني - هو تحقيق اليقين في فرقانيته يقين مُشاهَدة، تمامًا كما تشاهد عظمة اللَّه ﷻ عيانًا في معجزة البحار والأنساب خَلْقًا وتقديرًا! وما يتضمن ذلك كله من قوة، وحكمة، ومنفعة، وخير، وبركة! فمتى وجد المؤمن هذا اليقين اشتعل نور القرآن في قلبه وأضاء كل جوانحه، فيصعد بمقامه حتى يصله بنور الملأ الأعلى وآنئذ تشتعل معجزة القرآن الفرقانية بين يديه، سلاحًا كونيًّا لا يرى منه إلا عجبًا! تمامًا كما وصف اللَّه ﷻ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

٤ - مسلك التخلق:

وبيان مسلك الفوز بمقام هذه الكلمات والتحقق بأخلاقها، متعلق ببيان كيفية « الجهاد بالقرآن »، وبيان المدخل العملي للتخلق بمقام ذلك الجهاد! وهو كما يلي:

للجهاد المعنوي بالقرآن - أو « المفهومي » - خطان اثنان: عمودي وأفقي.

- **فأما العمودي**: فهو راجع إلى الدخول الفردي، لكل نفس في نفسها، في ابتلاءات القرآن دخولًا ذاتيًا؛ حتى تكتسب من منازل العبدية الخالصة للّه يقينًا عانيًا يؤهلها لولاية اللّه! ودون ذلك صدق عزيمة وانطلاق مسيرة. أي لا بد للمؤمن أن يتخذ قراره الذاتي الباطن، بالرحيل إلى اللّه، والهجرة إلى منازل الإخلاص واليقين، والالتحاق بقافلة الصديقين بتلقي كلمات القرآن، تهذيبًا وتشذيبًا لنفسه وتخليصًا لها من العلل والأدواء، حتى تتجرد للّه وتصفو له وحده؛ لأن الذي لم يجاهد زوائد نفسه من الشهوات والهفوات لن يستطيع جهاد غيره أبدًا.

- **وأما الأفقي**: فهو الدخول في بلاغ كلمات القرآن، عبر الإسهام الفعال في نشر حقائقه الإيمانية في المجتمع، في سياق مجاهدة مفاهيم الباطل، ومدافعة برامجه المخربة للدين. ولا أبلغ في إنجاز ذلك من تأسيس مجالس القرآن في كل منطقة وقطاع، إن العامل للّه حقًا، الخادم لكتاب اللّه صدقًا، يحمل هم البلاغ القرآني دائمًا أبدًا؛ يسأل عن أحوال المسلمين هنا وهناك، فإذا ما بلغه خبر موقع معلول بادر بالرحيل إليه - كما رحل أصحاب رسول اللّه إلى كل الآفاق! - حاملًا معه الدواء الرئيس، ألا وهو تأسيس مجلس قرآني، بَذْرَةً تتناسل جذورُها - بعد ذلك - لِتُنْبِتَ مجالسَ قرآنيةً أخرى، تملأ البيئة بنور اللّه، فتدفع بذلك المنكر الزاحف على البلاد والعباد، وتستقيم الوجهة للّه. وإن دون ذلك لمعاناة! وإن دون ذلك لمجاهدة! وإن دون ذلك لمكابدة! ولكن، كل معاناة، وكل مكابدة، وكل مجاهدة في سبيل ذلك، تصبح لذة روحية، لا تنتهي حلاوتُها في حلق صاحبها إلى يوم القيامة.

* * *

المجلس الثاني عشر

في مقام التلقي لعزائم التوكل

وأن نجاح الدعوة والداعية لا يكون إلا بالتجرد الكامل للَّه والتزود الدائم من أسرار اسم اللَّه: « الرحمن » !

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٦ - ٦٢]

٢ - البيان العام:

هذه مدرسة التأهيل، وهاهنا فَصْلُ التخرج منها! وإن مستقبل الداعية الصادق، والمؤمن الواثق، رهين بالنجاح في هذا الفصل، فإما أن يكون من « عباد الرحمن » فيكون من الأولياء الربانيين دينًا ودعوةً، وذلك شرط القيادة والريادة وإمامة المتقين وإما أن يكون من سائر المسلمين، والجنة - على كل حال - منازل ومقامات جعلنا اللَّه جميعًا من أهل منازلها العُلَى آمين.

فبعد التجهيز السابق من اللَّه سبحانه لرسوله - عليه الصلاة والسلام - بما يلزم الداعية من بيان طبيعة الجهاد بالقرآن، تكليفًا وأمانةً ورسالةً وفرقانيةً، وما سيلقاه من صدود وعناد وأذى من الكفار، تكرم عليه ﷺ وعلى كل داعية خلفه، ببيان طبيعة

وظيفته في كل ذلك، وما ينبغي له أن يلتزمه في هذا السفر الشاق الطويل، وما وجب أن يتزود به من زاد؛ من أجل الوصول.

فبين له أولًا أن طبيعة هذه الرسالة إنما هي بلاغ لحقيقة الدين، بشارةً ونذارةً وأنه ما أرسله إلا مبشرًا للمؤمنين بالجنة، ومنذرًا للكافرين بالنار! بناءً على موقف هؤلاء وهؤلاء من الاعتراف بحقوق اللَّه أو التمرد عليه، تلك هي خلاصة الدين، وجوهر قضية سيد المرسلين. والداعية لا يخرج عن هذا السنن القويم في بسط دعوته للناس، ولا مشروعية لوسيلة لا تخدم هذا الأصل العظيم، بله أن تكون مما ينقضه ويهدمه.

ومن هنا وجب البيان للداعية في نفسه أولًا، ولمن هم محل خطابه من الناس أجمعين، أن هذه الوظيفة الدعوية لا تقوم على قصد أي حظٍّ دنيويٍّ من المكاسب المادية والمعنوية على الإطلاق وأنها إن دخلها شيء من ذلك بطلت وإنما الدعوة تضحية كاملة تامة والداعية عبد مؤمن متفرغ للدلالة على اللَّه، وبيان سبيل الوصول إليه جل علاه؛ قيامًا بحق ربوبيته على العالمين، وخالقيته للناس أجمعين. يعلن ذلك إعلانًا ويرفع به صوته حالًا ومقالًا ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾.

فإذا كان من صَدٍّ، ولا بد هو كائن وإذا كان من عَدَاءٍ، ولا بد هو كائن، وإذا كان من كيد، ولا بد هو كائن، وإذا كان من أذى، ولا بد هو كائن! فاعتصم باللَّه وادخل منازل التوكل والتعرف الدائم إلى اللَّه بالذكر، تسبيحًا بحمده تعالى، بما هو الحي الذي لا يموت سبحانه تجد عنده آنئذ جوار السلام، وضمان الأمان، وتَرَ النصرة تتنزل عليك من السماء فهو سبحانه لا يخذل عبده أبدًا! ذلك ما قضاه في أمره القَدَرِيِّ منذ الأزل! وإنما عليك أن تختار لنفسك موقعها! كما هو منصوص في سورة « الصافات »: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. فإن يظهر لك شيء من تخلف هذه القاعدة فالخلل قطعًا في صدق الجندية.

أما هو، فهو اللَّه ﷻ ، له صفات الكمال متنزه عن النقص والمحال، هو الحي الذي لا يموت، ما يزال مستويًا على عرشه يدبر أمر مملكته، بعظيم قدرته وجلال سلطانه وشمول علمه لا يخلف وعدًا ولا ينقض ميعادًا، سبحانه وكفى به ربًّا خبيرًا

بذنوب عباده وخلقه، سواء منهم أعداؤه المجاهرون أو من هم محسوبون في الظاهر على جنده، لا يخفى عليه شيء من ذلك مهما دق، ولا خوالج النفس الخفية من المقاصد المذمومة الباطنية، التي تهلك الأعمال وتحصد الحسنات وسيحاسبهم عليها جميعًا.

فالكفاية حاصلة بالله وحده القوي الخبير الذي لا يعجزه شيء! وكيف لا؟ وهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش - أي علا وارتفع - استواءً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه! إنه الرحمن! فاسأل عنه خبيرًا به يعني بذلك سبحانه نفسَه الكريمة، فلا خبرة بالله إلا لله وحده، هو الذي يعلم حقيقة صفاته وعظمة جلاله وجماله، ثم لا أحد من البشر - بعد ذلك - أعلم بالله ولا أخبر به من رسوله محمد ﷺ؛ ولذلك فإنما يُعْرَفُ اللهُ باللهِ، ثم ببيان سيدنا محمد رسول الله.

وهنا يمن الكريم سبحانه على عباده ببيان جمال اسمه العظيم: « الرحمن » وما يكتنزه من أنوار وأسرار و « الرحمن » اسم من أعظم أسماء الله الحسنى وأجمعها فقد ورد في غير ما موطن من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ دالًّا على ذات الله، على سبيل العَلَمِيَّةِ المستقلة بالتسمية إطلاقًا، بما يقارب لفظ الجلال: الله! كما هو في هذا السياق نفسه من سورة الفرقان، وكما هو في غيرها كثير. وذلك على نحو ما ورد في سورة « مريم » من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٨٥ - ٩٦].

ولولا خصوصية هذا الاسم العظيم لما كان معطوفًا على اسم الجلال « الله »، على سبيل الترادف في المحبة الإلهية كما وردت به السنة النبوية الصحيحة، قال عليه الصلاة والسلام: « **أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن** » (١).

(١) أخرجه مسلم.

فـ « الرحمن » اسم له من الإحاطة والشمول بمعاني الربوبية، جلالها وجمالها، ما ليس لسواه من الأسماء الحسنى منفردًا، إلا اسم الجلال الأعظم: اللَّه؛ ولذلك قال تعالى - على سبيل البيان والتعريف - في سياقنا هذا من سورة الفرقان: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ وفي ذلك من الجمال والجلال ما يجعل المؤمن باللَّه يتقرب إلى مولاه بهذا الاسم العظيم، ويجتهد عسى أن يناله من أنواره ما يجعله من « عباد الرحمن »، ولكن بعد أن يتعرف إليه تعالى من خلاله - أي من خلال هذا الاسم الكريم - ويسعى إليه بما يقتضيه من أعمال.

ومن هنا كان أجهل الخلق هو من جهل ذلك عن اللَّه، وأبى أن يسير إلى جماله جلَّ عُلَاه كما هو مبين في السياق؛ حيث كلما قيل للكافرين: « اسجدوا للرحمن! » عبادةً وتوحيدًا وإخلاصًا. قالوا: ما نعرف ما « الرحمن » ثم قالوا على سبيل الإنكار والتجهيل والاستكبار: أنسجد لما تأمرنا بالسجود له؛ طاعةً لأمرك أنت يا محمد؟ فما زادهم دعاؤهم إلى السجود للرحمن إلا بُعْدًا عن الإيمان ونفورًا منه؛ بسبب الكبرياء الذي طمس على بصائرهم، ولقد خسروا خسرانًا مبينًا، وهلكوا هلاكًا مكينًا؛ إذ ضيعوا فرصة العمر في التعرف إلى اللَّه باسمه العظيم ﷻ : « الرحمن ».

ثم شرع ﷻ يفيض على عباده من بركات اسمه « الرحمن » ومن جمال أنواره؛ جودًا منه وكرمًا، فقال جل ثناؤه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ بمعنى: عَظُمَتْ بركات الرحمن وكثرت خيراته؛ بما جعل في السماء من النجوم الكبار الشامخة بمنازلها، والدائرة في أفلاكها، وبما جعل فيها من شمس مشتعلة تُضيء النهار أبدًا، وقمر ينيرُ ما قُدِّرَ له من ليالٍ ومنازل سرمدًا، وبما جعل - بناءً على ذلك - من ليلٍ ونهارٍ متعاقبَين، يَخْلُف أحدُهما الآخر، في صورة كونية عجيبة دائبة، لا اضطراب فيها ولا اختلال بما يدل على عظمة قيوميته تعالى على مُلْكِهِ، خَلْقًا وتقديرًا، ورعايةً وتدبيرًا. كل ذلك تسخيرًا من « الرحمن » لعباده، ونعمةً منه وفضلًا؛ عسى أن يتفكروا في جلال مُلكه، وجمال ملكوته، وما يحيط بهم من مُسَخَّراتِهِ من إفضال وإنعام وعسى أن يكونوا بذلك من الشاكرين.

٣ - الـهُدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في ضرورة الحفاظ على الجوهر الأخروي للرسالة الإسلامية، في مجال العمل الدعوي، بشارةً ونذارةً، وأن مراجعة الدعوة نفسها في ضوء ذلك، خطابًا وسلوكًا وبرنامجًا، هو من أهم الموازين التي تصحح بها مسيرتها.

الرسالة الثانية: في أن مقام الزهد هو من أول مقامات الإيمان، التي وجب على الداعية إلى اللَّه أن يتخلق بها ويدخل ابتلاءها؛ وهو تحقيق التجرد من حظوظ الدنيا في العمل الدعوي وإفراد قصد التعبد الخالص بكل خطوة ينجزها في سبيل اللَّه، خالصة للَّه وحده دون سواه. وما دام شيء من الحظوظ الدنيوية، المادية أو المعنوية، يخالط العمل الدعوي فإنه لا يصفو لصاحبه منه شيء، ولا يثمر في الواقع بركة ولا إصلاحًا.

الرسالة الثالثة: في أن مقام التوكل هو ثاني مقام وجب على الداعية أن يدخل عزيمته، بعد مقام الزهد. والتوكل: هو تحقيق الكفاية باللَّه، وذلك بالاستناد إلى أسمائه الحسنى على كل حال، في الخوف والأمن، وفي الفقر والغنى، وفي الصحة والمرض، دون مراعاة شيء آخر سواه. ويكون ذلك بمداومة المشاهدة لتجليات ذِكْرِهِ تعالى على النفس؛ بما يزيد القلب معرفةً باللَّه؛ فإن من عرف اللَّه بما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وَثِقَ به كِفَايَةً، أي وحده دون سواه، والثقة باللَّه كِفَايَةً هي جوهر التوكل؛ لما تتضمنه من التوحيد الكامل والإخلاص في وقت الشدة؛ حيث تزل الأقدام وتضطرم الأوهام خاصة في السياق الدعوي؛ لما فيه من تدافع قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. وقال أيضًا: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

ويجتمع كمال الأمان وجماله الدائم بهذا المقام، هنا في سورة الفرقان، وذلك بالتوكل على الحي الذي لا يموت مما يبعث الثقة والحيوية والحياة في قلب العبد أبدًا، وهو من أعظم الزاد للمؤمن الرباني في سيره الدعوي إلى اللَّه ذلك وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه.

الرسالة الرابعة: في أن مقام الذِّكْرِ هو ثالث مقام وجب على الداعية أن يتخلق به، أورادًا معنويةً ولفظيةً على الدوام، وهو المقام المغذي لمقام التوكل كما بيناه؛ ولذلك وَرَدَا معًا في سياق واحد من الآية المتدارسة بمجلسنا هذا، في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ فالداعية الذاكر منصور، بينما الداعية الغافل مخذول، وقد أرسل اللَّه رسوله موسى وأخاه هارون إلى فرعون، فَوَجَدَا ما وَجَدَا من الخوف بادئ الأمر؛ فزودهما اللَّه ﷻ بالذِّكْرِ فقال سبحانه: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢] أي لا تَفْتُرَا ولا تَضْعُفَا ولا تنقطعا عنه، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]. ومثل هذا في القرآن كثير جدًّا؛ بما يجعله كُلِّيَّةً قطعيةً في أن النصرة والنجاح للداعية - في وظيفته الربانية - رهين بمداومة الذكر بشتى أنواعه المشروعة، مقامًا لازمًا على كلِّ حال.

الرسالة الخامسة: في أن التعرف إلى اسم اللَّه: « الرحمن » والتزود من أسراره وأنواره، هو المدخل التأهيلي للداعية؛ إذا أراد أن يتخلق بإمامة المتقين ويتحقق بها.

ذلك أن أمامنا مدرسة « عباد الرحمن »، تنتظرنا برامجها العالية، وهي خاصة بشهادة « الإمامة » في التقوى، لا بمجرد التقوى كما سترى بحول اللَّه. إنها مدرسة الحكماء الربانيين، والدعاة الرحمانيين، لكن ليس كل الناس بمؤهَّلٍ لولوج الدراسة بها؛ ولذلك فالمؤمن في حاجة - قبل الولوج إلى مدارجها - أن يدخل مدرسة تأهيلية قبلها، هذه المدرسة هي مدرسة التعريف بالاسم العظيم: « الرحمن » حتى إذا عرف العبدُ ما قَصَد هان عليه ما وجد كما تعبر الحكمة التربوية.

والمدرسة: دراسةٌ وبرامجٌ وعملٌ؛ ولذلك فلنجعل هذا التأهيل الدراسي مخصوصًا بـ « مسلك التخلق » بهذا المجلس العظيم.

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسلك التأهيل للدخول في مدرسة « عباد الرحمن » فإنما ابتلاؤه راجع إلى ترويض النفس على التحلي بمقامين اثنين:

الأول: مَقَامُ التَّذَكُّرِ، وهو تحصيل الذِّكْرَى للقلب، إيمانًا يعمره بنور اللَّه، ويملؤه معرفةً به؛ مما يزيد العبد شوقًا إليه تعالى، رَغَبًا ورهبًا. والتَّذَكُّرُ يحصل بأمرين هما: التفكر والتدبر.

فالتفكر: متعلق بسياحة الفكر في ملكوت السماوات والأرض، مشاهدةً لدلائل الإيمان، وتزودًا من تجليات نور الرحمن، كما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأما التدبر: فهو متعلق بسياحة القلب في مَشَاهِدِ القرآن ومَعَارِضِهِ، والورود من ربيعه العذب رحمةً وسكينةً وجمالًا. ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] فإذا فعل انفتح له باب التعرف على اسم اللَّه « الرحمن »، والتلقي من جمال نوره العظيم؛ إذ القرآن هو كتاب التعريف بالرحمن، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن: ١]. فالداعية إلى اللَّه ملزم بوردين اثنين دائمين: ورد التفكر، وورد التدبر. فهما خلوتان: الأولى في ملكوت اللَّه، والثانية في كتاب اللَّه، وبذلك يكتمل مقام التَّذَكُّرِ للعبد، ويجني ثمرةَ ذِكْرَاهُ، مَقَامًا رَحْمَانيًا راسخًا إن شاء اللَّه.

والثاني: مقام الشكر، وهو يحصل بكثرة السجود. وقد أُمِرَ الكفارُ أنفسُهم في الكلمات المتدارسة بالسجود للرحمن، لكن المقصود التربوي بالنسبة للداعية هاهنا إنما هو قيام الليل، وقد قال سيدنا محمد ﷺ لزوجه عائشة رضي الله عنها لما عذلته في كثرة القيام وطوله؛ حتى تفطرت قدماه الشريفتان: « **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!** »(١).

فهذان مقاما نَيْلِ شرفِ التعرف إلى اسم اللَّه « الرحمن »، والتزود من بركاته وأسراره: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾. فمن جمع الاتصاف بهما كان - بإذن اللَّه؟ مؤهلًا لولوج مدرسة « عباد الرحمن » بما أبرق لعينيه - في تذكره وتشكره - من أسرار هذا الاسم العظيم.

---

(١) متفق عليه.

المجلس الثالث عشر

في مقام الانتساب إلى مدرسة « عباد الرحمن »

(وهو في ثلاثة فصول:)

الفَصِلُ الأولُ: في تحقيق الأخوة الملائكية وتعميق المعرفة بالله

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٦].

٢ - البيان العام:

في التعريف بمدرسة « عباد الرحمن »

هذا مقام العبدية، العالي! مَقَامٌ ولا كأيِّ مقام مقامٌ عظيم بالذلة، غني بالفقر. مُكْتَفٍ بالله جمالًا وجلالًا.

« عباد الرحمن »، إضافة ولا كأيِّ إضافة وانتساب ولا كأيِّ انتساب فالخلقُ كلهم عباد الله طوعًا أو كرهًا أما هؤلاء فإنما هم « عباد الرحمن »! رَغَبًا ورَهَبًا، وشَوْقًا ومَحَبَّةً.

« عباد الرحمن »، إنه تعبير خاص، وسمة خاصة فيها من التقريب الرباني والتحبيب الرحماني، ما ليس في غيرها من الإضافات العَلَمِيَّةِ والوصفية إلى الأسماء الحسنى، فهو لم يرد في القرآن إلَّا مرتين اثنتين فقط، الأولى في وصف هؤلاء السادة العظام، والثانية في وصف الملائكة الكرام، قال ﷻ : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وعبادة الملائكة لله - كما سيأتي في كلام ثمين لابن القيم رحمه الله - عبادةٌ متذللة، تلقائية مسترسلة، مستمرة بلا انقطاع ولا فتور، كالنَّفَسِ لبني آدم وذلك لِمَا يجدون في فِطَرِهِمْ من الشوق والمحبة لا كَلَفَةَ فيها ولا مشقة، فهي مُتْعَتُهُمْ، وهي راحتُهم، وهي حياتُهم ومعنى وجودهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. لا يذوقون للمعصية معنى طاعة تامة وخضوع كامل قال تعالى عن الملائكة العِنْدِيَّةِ: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وهذا لا يكون للإنسان - بما هو إنسان - إلَّا ابتلاءً وتكليفًا! فمن ذا قدير على الدخول في ابتلاء هذا المقام الملائكي العالي؟ إنهم « عباد الرحمن » هؤلاء هم وحدهم الذين شاركوا الملائكة في هذه السيماء الرفيعة، فسبقوا بخرق موانع الشهوات التي ليست للملائكة؛ فكانوا بذلك أئمة في الأرض وفي السماء.

قال العالم الرباني مُحيي السنةِ الإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٦) رحمه الله: (قوله عز وجل: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، أي: أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله!) (١).

أي أن منهم من هو عبدُ ربوبيةٍ فقط، خاضع قهرًا لسلطان الله، ومنهم من هو عبدُ إلهيةٍ، خاضع خوفًا ورجاءً ومحبةً لجلاله تعالى وجماله، ووصف « عبد الرحمن » خاص بالنوع الثاني فقط. قال ابن القيم رحمه الله في التمييز بينهما: (واللَّهُ تعالى جعل العبودية وَصْفَ أكمل خلقه وأقربهم إليه (...) وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هاهنا. ثم يبتدئ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠] فهما جملتان تامتان مستقلتان. أي: إنَّ له مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض عبيدًا ومِلْكًا. ثم استأنف جملة أخرى، فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾، يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته. يعني: لا يأنفون عنها ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون، يقال: حَسِرَ

---

(١) تفسير البغوي: (٦/٩٣).

واسْتَحْسَرَ، أي: إذا تَعِبَ وأَعْيَا. بل عبادتُهم وتسبيحُهم كالنَّفَسِ لبني آدم، فالأول وصف لعبيد ربوبيته، والثاني وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى آخر السورة) [1].

ونقل الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية، كلامًا رفيعًا للإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (في قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الآية، قال: « إن المؤمنين قوم ذُلُلٌ، ذَلَّتْ منهم واللَّه الأسماع، والأبصار، والجوارح حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم واللَّه أصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا عِلْمُهُمْ بالآخرة فقالوا: الحمد للَّه الذي أذهب عنا الحزَن! أمَا واللَّه ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ولكن أبكاهم الخوف من النار إنه مَنْ لم يَتَعَزَّ بعزاء اللَّه، تَقَطَّع نفسُه على الدنيا حسراتٍ! ومن لم ير للَّه نعمةً إلا في مطعم أو مشرب، فقد قَلَّ عِلْمُهُ وحَضَرَ عذابُه) [2].

ذلك تعريف مجمل عام بهذه المدرسة الرحمانية العالية، فلنبدأ حصتنا الأولى فيها إذن من البداية.

شيءٌ ما وَقَرَ في قلوبهم، فما بالهم يمشون على الأرض هونًا؟ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي بسكينة ووقار، من غير تجبر ولا استكبار، لكن لا تَمَاوُتًا ولا تصنعًا ولا رياءً؛ فقد كان رسول اللَّه ﷺ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ، وكأنما تُطْوَى له الأرض طيًّا وإنما القصد أنهم يمشون بمشاعرهم الإيمانية من العبدية الكاملة للَّه، يطأون الأرض بأقدام المحبة، ويسلكون مسالكها بخطوات الخوف والرجاء، ينثرون السكينة التي فاضتْ على أجسامهم من بعد ما ملأت معرفةُ اللَّه قلوبَهم، فكانوا أعرف بعظمته وجلاله، وكانوا أعرف بضعفهم وحاجتهم الشديدة إليه. فَعَلَامَ يستكبرون؟ وعلامَ يتبخترون ويتجبرون؟ ونتيجة الامتحان لما تعلن بعد؟! إنهم مشغولون بِهَمِّ النبأ العظيم! مشغولون بمآلاتهم في المصير الأخروي العظيم، فلا وقت لديهم للالتفات أو الاشتغال بهموم الأرض! ولا بأهلها الغارقين في أوحالها؛ ولذلك فإنهم يَرُدُّونَ أذى الجهلة بالسلام ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾، أي: إذا تعدى عليهم الجُهَّالُ بالقول السيئ السفيه لم يردوا

---

(١) مدارج السالكين: (١/١٠٢).
(٢) تفسير ابن كثير: (٣/٣٢٥).

عليهم بمثله، بل يعفون ويصفحون ويكظمون، ولا يقولون إلا خيرًا؛ لأن الهم أعظم وأكبر، ولكن الجهلة بالله لا يعلمون، أما هم فهم عباد الرحمن في الأرض، الحاملون رسالاته إلى الناس، عِلْمًا وحِلمًا وخُلُقًا، وقد كان رسول الله ﷺ، لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلْمًا؛ دعوةً إلى الله وتعريفًا به تعالى.

ذلك نهارُهم: سلوكُ مع الله ذلةً وخضوعًا، وسلوكُ مع الناس دعوةً وسلامًا.

وأما ليلهم فخير ليل! أحياء غير أموات، يوقدون أنوار القلوب الضارعة إلى الله قيامًا في حركة سائرة إليه تعالى عبر معارج الروح، ركوعًا وسجودًا لا يفترون ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ هكذا بصورة دالة على الحركة المستمرة النشيطة ملتحقين بقوافل الأنبياء والصِّدِّيقين في رحلة الشوق إلى الله؛ وقد وضعوا نصب أعينهم مشاهد الخسران واحتمالاته، فتوهجت مصابيح قلوبهم بلهيب الخوف وجدَّت الأقدام في قطع المسافات ركوعًا وسجودًا وليس كل سائر بمضمون الوصول! فَلِمَ يستعجلون الفرحَ الكاذب والسرور المغرور ذلك هو فص العبادة لله الواحد القهار فلا يرحل إلى مولاه بحادي الحَذَرِ إلا عارفٌ بالله حقًّا، عالم بقدره ومَقامه جل علاه؛ ولذلك قال تعالى في سورة « الزمر »: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال سبحانه هاهنا في « الفرقان »: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ وكأنهم وهم يقطعون مفاوز الدنيا، يشاهدون مضارم النار من بعيد، فيسألون مولاهم الرحمن سؤال استغاثة باكية وتضرع حار ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ والعذاب الغَرَامُ: هو العذابُ المؤبَّدُ أبدًا لا ينقطع ولا يزول ما دامت السماوات والأرض فكيف إذا كان ذلك التأبيد الرهيب في قعر جهنم وجوف جحيمها؟ عذاب ولا كأي عذاب والعياذ بالله! أو ليس هذا مما لا يطيق الخيال تصوره؟ ولا يستطيع القلب تحسسه لما يحمله من هول عظيم؛ ولذلك قالوا: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، أي بئس المنزل هي، وبئس القرار وبئس المصير! فبأي عين يستحلي النومَ والسباتَ أصحابُ مثلِ هذه المشاهَدات؟! وإن لرسول الله ﷺ في

ذلك لبيانًا جليلًا قال: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْـزِلَ. أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ** » [1].

ذلك هو السِّرُّ الذي وَقَرَ بقلوبهم؛ فمشوا على الأرض هونًا، ونشروا المحبة والسلام في الناس، متحملين لكل أصناف الأذى في اللَّه، حتى إذا كان الليل هرعوا - خُفْيَةً - إلى مواعيدهم الحضراء مع الرحمن! وأشعلوا سُرُجَ القلوبِ بكاءً وتضرعًا.

فيا قلبي الكليل الثقيل، أين أنت من كل هذا الجلال والجمال؟

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسمُ إلى أربع رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: الذلة للَّه أول درس.

من هنا تبدأ أولى دروس التزكية بمدرسة « عباد الرحمن »: إنه درس تحقيق الذلة للَّه والافتقار الكامل إليه جلَّ عُلاه؛ حيث يشرب المؤمن من هذا المورد حتى تخشع قدماه ويطيب ممشاه.

فاعلمي يا نفسي المغرورة أن الشيطان قد يلتف على الإنسان استدراجًا؛ فيملؤه كِبْرًا بالدين فيكون - من حيث لا يدري - من الهالكين وكيف يكون الكِبْرُ بالدين؟ ألا ترى أن بعضهم قد يشعر بالتميز بتدينه والتفرد بصلاحه؛ فيملؤه الغرور بربه، ظنًّا منه أنه قد اعتلى، وما هو في الحقيقة إلا قد استكبر واستعلى! فيحبط عمله والعياذ باللَّه.

فمقاربة الذلة والافتقار للَّه رب العالمين شرط الصلاح في كل المؤمنين، لكن كمال الذلة له تعالى وتمام الافتقار؛ حتى لا يرى العبد من عمله شيئًا إلا باللَّه، وحتى تئن خطوته خوفًا من اللَّه، هو أول مفتاح النجاح بمدرسة عباد الرحمن، ولا تستقيم دعوة إلى اللَّه بغير ذلك فاشْهَدْ سجدةَ القلبِ بين يدي مولاك مقامًا لا تَزِلُّ عنه أبدًا.

الرسالة الثانية: في أن اشتغال اللسان بمجادلة الجهلة والسفهاء، والرد عليهم بما قالوا سَفَهٌ مثلُه وأن للسان أولويات في وظيفته الكلامية، رأسها زرع بذرة الهدى في القلوب ونشر كلمات اللَّه هنا وهناك. فتلك هي كلمات الخير، كلمات السلام،

---

(١) رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الداعية إلى دار السلام فليس له من الخطاب غيرها مهما جَهِلَ عليه الجاهلون.

الرسالة الثالثة: في أن قيام الليل أكبر معين على جهاد النهار، وأكبر زاد على الاستمرار في الطريق إلى الله، وأسرع مركبة إيمانية في قطع المسافات الروحية إلى الله عروجًا إلى المنازل العلى في الجنة وأضمن أمان عند الله في النجاة من النار فلا يتركه مطلقًا إلا جاهل بالله وباليوم الآخر ولا ينقطع عنه من المؤمنين إلا منقطع عن مدرسة عباد الرحمن، وإنما الموفق من وفقه الله قال ﷺ في حديث جامع لكل ذلك: « **إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ كُلَّ جُعْظُرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٌ بِالنَّـهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالآخِرَةِ** » [1] وإنما يُجَيِّفُ القلبُ بالليلِ ويَنْتُنُ إذا انقطع صاحبُه عن القيام أمدًا طويلًا فإذا حصل صار بذلك جُعْظُرِيًّا جَوَّاظًا! أي رجلًا غليظ القلب خَشنًا لا يهدأ له صوتٌ في طلب الدنيا وأوساخها، مُضَارِبًا ومخاصمًا وهو عن الآخرة عَمٍ.

فصلاة الليل - ولو ركعتان - هي حياة القلب وإنها لترتقي بصاحبها شيئًا فشيئًا؛ حتى ينال منزلة المحبة ومقام الولاية الحق، فضلًا من الله ونعمة ولا نجاح في مدرسة عباد الرحمن بغير درجات عالية الإخلاص في حصة ناشئة الليل.

الرسالة الرابعة: في أن الخوف من النار وتدبر مشاهدها في القرآن، من أهم المعارف والدروس المعرفة بجلال الله وعظيم سلطانه، وأن ذلك أكبر حَادٍ للعبد في توبته من ذنوبه على الإطلاق، وهو أكبر معنى إيماني يزرع الفقر والذلة في أولياء الله، كما أنه أكبر منبه للقلب للاستيقاظ من مضاجِعِ الخمول، وشهود تجليات النور بمحراب السَّحَر.

ثم إن الزعم المتداول في كتب بعض القوم من أن اشتغالهم بالمحبة أو بذات الله، أنساهم الخوف من الله ومن عذابه لهو من أخطر الضلال، ومن أشد فتن الشيطان،

---

(١) رواه البيهقي وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع. والجُعْظُرِيُّ الجَوَّاظُ: هو المتكبر الغليظ، الخشنُ الأخلاق، والسخبُ والصخبُ، كلاهما بمعنى، وهو: رفع الصوت المنكر كصوت الحمار. والحديثُ كناية عن الرجل همه الدُّنيا والكسب المادي؛ حيث يظل النهار كله في صراع الأسواق والصفقات، لا يحرم حرامًا ولا يحل حلالًا، ولا يعرف لله حقًّا ولا مقامًا، حتى إذا كان الليل خَرَّ على فراشه فنام نومًا ثقيلًا، فَتَنْتُنُ روحه كالجيفة؛ بما يعقد عليه الشيطان من عُقَدِ الغفلة عن الصلاة والقيام.

واستدراجه للعبد السائر إلى الله فلن يكون أحدٌ أعلم بالله من سيدنا رسول الله ﷺ وقد كان - بأبي وأمي هو - أخوف عباد الله من الله، وأخشعهم له وأتقاهم، وقد بكى - عليه الصلاة والسلام - حتى اخضلت لحيته! بل حتى بَلَّ موضع سجوده! لما قرأ في قيامه بالليل: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٢].

فعن عبيد بن عمير ﷺ أنه قال لعائشة ﵂: (أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ! قال: فسكتتْ، ثم قالت: « لمّا كان ليلةٌ من الليالي، قال: « **يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي!** » قلتُ: والله إني أحب قربك! وأحب ما يَسُرُّكَ! « قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حِجْرَهُ! - قالت: وكان جالسًا - فلم يزل يبكي ﷺ حتى بَلَّ لحيتَه! قالت: ثم بكى حتى بَلَّ الأرض! فجاء بلال يُؤْذِنُهُ بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: « يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: « **أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!** » **لقد نزلتْ عليَّ الليلةَ آيةٌ، وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها!** ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾) الآية (١).

فلا يدعي الأمان من النار إلا مغرورٌ جاهلٌ بالله! بَلْهَ أن يكون من أهله وخاصته! وإنما على قَدْرِ خوف العبد من عذابه تعالى يكون مقامُه عنده، وقد رأيتَ ما تواتر عن رسول الله ﷺ من هذا المعنى العظيم، وإنه لمن أعظم دروس « عباد الرحمن » التي يبيتون الليلَ على مواجيدها يبكون ويتضرعون ذلك، فإذا عرفتَ يا صاح فالزم.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك النجاح في تعلم هذه المعارف والتخلق بها، راجع إلى ترتيبين منهجيين اثنين:

الترتيب الأول: ضرورة الاندماج الدراسي، الاندماج في البيئة المؤمنة لعباد الرحمن؛ إذ مدرسة هؤلاء القوم - ككل المدارس - تحتاج ممن يدخل فصولها، بما هي مدرسة، إلى مصاحبة تلاميذها وأشياخها؛ إذ بغير ذلك يكون الطالب وحيدًا،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وعبد بن حميد في تفسيره. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

ويُخشى عليه من الانقطاع! والتمدرس الجماعي أضمن للطالب في المثابرة والاستئناس، والمنافسة والاجتهاد، فلا بد من رؤية الأقران ماذا يفعلون؟ ولا بد من رؤية الأشياخ كيف يسلكون؟ فالطريق شاق وطويل فكذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ مع أنفسهم فيما بينهم، ومع معلمهم سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - رحلة واحدة، وسرب واحد، وأمة واحدة في السفر والحضر، وفي الخوف والأمن، وفي الرخاء والشدة، مُتَوَادِّينَ مُتَرَاحِمِينَ كالجسد الواحد فعلًا.

وإنما وصف الله أعمال « عباد الرحمن » بوصف الجمع، في الأفعال، وفي الضمائر، وأسماء الموصول، ونحو ذلك، سيرًا واحدًا، لا اختلاف فيه ولا اضطراب وفيه إشارة إلى ما ذكرنا من ضرورة الاجتماع على البر والتقوى، والتعاون على التخلق بمنازلهما.

وبذلك يستطيع المؤمن أن يصبر على مشاق الطريق، ويداوم على قيام الليل، ويأنس في وحشة الغربة، ويعيش مع الله مجتهدًا في قطع مفاوز السفر؛ بما يرى من شوق السائرين وعجيب اجتهادهم.

الترتيب الثاني: تلقي معارف الروح بتدرج، شيئًا فشيئًا، ذلك أن المدرسة مستويات، فلا تغامر بدخول الأقسام العليا في بداية الطريق، والولوج إلى حلقات الراسخين من أول أيام الانتساب فلأن تقتصر على قيام ركعتين اثنتين مرة في الأسبوع ابتداءً، مع الحفاظ على الفرائض في مواقيتها وجماعاتها، خير لك من قيام يومي طويل، يدوم أسبوعًا أو عدة أسابيع، ثم ينقطع بك عن أداء الفرائض في مساجدها أو في مواقيتها، فهذا إنما هو انتكاس شنيع والعياذ بالله، وقد نبه المعلم الأول بهذه المدرسة سيدُنا محمد ﷺ على هذا في مناسبات شتى من أحاديثه النبوية الشريفة؛ لِمَا يعلم من أن ذلك من أكبر القواعد المنهجية، لتلقي معارف الروح، والترقي بمنازلها الإيمانية العالية من أخطأه كان من الهالكين.

ويكفيك من ذلك قوله ﷺ: « **إن هذا الدين متين؛ فأوغلوا فيه برفق!** » [1]. وقال عليه الصلاة والسلام: « **إن الدين يُسْرٌ، ولا يُشَادُّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه فسددوا،**

---

(١) أخرجه أحمد عن أنس مرفوعًا. وحسنه الشيخ الألباني. حديث رقم: (٢٢٤٦) في صحيح الجامع.

وقاربوا، وأبشروا.. واستعينوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ، وشيءٍ من الدُّلْجَةِ! »[١]. فقوله: « الغدوة » و « الروحة » كناية عن صلوات النهار والمساء من الفرائض. و « الدلجة » كناية عن قيام الليل، لكنه عبر هاهنا عن القيام بعبارة (شَيْءٍ) للتقليل! والمقصود أن يبدأ المنتسب الابتدائي بقليل النوافل، ويستمر على ذلك القليل زمنًا؛ حتى إذا صار له كالعادة المطَّرِدَةِ أو كالنَّفَسِ التلقائي، زاد على قدر عزيمته ونشاطه، وانتقل بذلك إلى المستوى الأعلى الذي يليه، وهكذا إلى أن يصل مقام التخرج العالي بإذن اللّٰه، فلا يكون إلا للّٰه وبه.

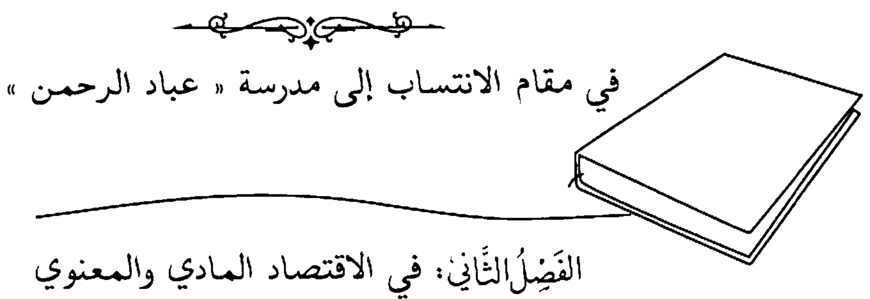
ولا بد في هذا وذاك من استشارة أهل العلم والخبرة بالطريق ومفاوزها، من المعلمين الربانيين، فإنما المدرسة مدرسة، وإنما اللّٰه هو الموفق للخير والهادي إليه.

* * *

(١) أخرجه البخاري.

المجلس الرابع عشر

في مقام الانتساب إلى مدرسة « عباد الرحمن »



الفَصلُ الثَّاني: في الاقتصاد المادي والمعنوي

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٦٧ - ٧١].

٢ - البيان العام:

هذه إحدى ثمرات دروس التهجد، ومقامات الخوف والخشية؛ من نجح هناك أمكن أن يدخل ابتلاءات هذا المقام. فمن اكتحل في ظلام الليل بدموع القرآن أبصر معالم الطريق وحقائقها بالنهار، إبصارًا يؤهله للثبات على صراطها المستقيم، ورأى أشباح الشهوات على حقيقتها وبشاعتها، فلا تسحر عينيه كما تسحر عين أهل الغفلة؛ إذ يرون فيها من الحسن والبهاء ما لم يجعله الله فيها، بل يراها كما هي في قبحها وبشاعتها؛ فينفر منه ويستقذرها.

إنها ثمراتٌ عملية تمنع صاحبها من سلوك طريق المسرفين في المعيشة وفي الذنوب، فعباد الرحمن بما وَقَرَ في قلوبهم من معان ربانية، يكونون فقهاء في طبيعة الدنيا، وأنها ليست للاستغراق في الشهوات ولو كانت من المباحات، بقدر ما هي للحرث الأخروي إنهم أهل اقتصاد عام في المال وفي الأعمال بالمعنى الشمولي

الإسلامي لكلمة « اقتصاد »، الراجعة إلى معنى التوسط والاعتدال.

والمال في الإسلام - على الإجمال - هو ثاني شيء يُعبد به اللَّه بعد الصلاة؛ ولذلك كثيرًا ما تعطف الزكاة على الصلاة في القرآن الكريم عند تحديد شروط التوبة والصلاح، أو تحديد علامة الدخول الجاد في الإسلام. كما في قوله تعالى عن المشركين المحاربين: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١].

والعبادة المالية أنى كانت، سواء في مجال الزكاة أو مجال الصدقة بالمعنى العام، أو في مجال التدبير والنفقة على النفس والعيال، والمشاريع الاقتصادية، مرتبط أشد الارتباط بأصل التوحيد في الإسلام؛ حيث هنالك يقع ابتلاء المؤمن في كيفية التصرف في ماله، هل هو بشعور التملك الحقيقي الأناني؟ أي على وزان قول قارون لما قيل له: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ ﴾ [القصص: ٧٧، ٧٨] أم أنه يتصرف بشعور الابتلاء التعبدي الذي تترجمه قاعدة الاقتصاد الإسلامي القاضية بأن (المال مال اللَّه والبشر مستخلفون فيه!).

فالذي صلَّى حقًّا وقام وتهجد إنما هو الذي نال شرف المعرفة باللَّه توحيدًا له وإخلاصًا، فوجد أن المالك إنما هو اللَّه وإنما الإنسان في ماله - الذي ابتلي به - عَبْدٌ للَّه كما هو عبد له في ركوعه وسجوده بلا تناقض ولا اختلاف، شعور واحد يصحبه بالليل والنهار، وذلك هو الدين الخالص والتوحيد الكامل، ومن هنا فاض هذا السلوك الرباني العجيب على أهل اللَّه هؤلاء، من عباد الرحمن، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم وعلى أهل الحقوق عليهم، فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل هم وسط في كل ذلك، وخير الأمور أوسطها. كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ

كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٩، ٣٠] الآية.

والضابط الاقتصادي التعبدي في الإسلام لذلك الميزان الرباني، إنما هو الإنفاق على قدر الحاجة « الحاجة » بمعناها الشرعي، لا بما تخيله وسائل الإعلام اليوم، القائمة على تكريس ثقافة الاستهلاك المدمر للبلاد والعباد، وقد صح في السنة النبوية الشريفة دعاء النبي ﷺ بقوله: « **اللَّهم اجعل رزق آل محمد قُوتًا!** »(١) والقوت: هو الرزق الذي يسد الحاجة ولا يزيد، فكذلك كان وسط عيشه ﷺ وسيرته في أهله وأصحابه. فعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **قد أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، ورُزِقَ كَفَافًا، وقَنَّعَهُ اللَّهُ بما آتاهُ** »(٢).

ودون هذا ما دونه من مكابدات الليل وسبحات النهار، فمن لم يعرف ذلك ولم يشاهده، فلا سبيل له للدخول في ابتلاءات هذا الفصل الرفيع، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

وبذلك كانوا منزهين عن إتيان أمهات الكبائر في الإسلام، آمنين من الانجذاب إلى لهيبها وفتنها، وعلى رأسها: الشرك باللَّه بدعاء غيره، وقتل النفس بغير حق، والزنى والفواحش، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقد استشكل بعض المفسرين أن يُسْنَدَ تَرْكُ ذلك إلى عباد الرحمن، وقد وُصِفُوا بما وُصِفُوا به من المقامات الإيمانية العالية؛ باعتبار أنهم منزهون عن هذه الكبائر، فليس مثلهم من يمدح بتركها! فأوَّلُوا الآية وأخرجوها عن ظاهرها إلى معان إشارية (٣) والحقيقة أن الآية هي على ظاهرها - كما هو مذهب جمهور المفسرين - ولا إشكال فيها البتة. ذلك أن اللَّه ﷻ يضع بنفي هذه القبائح عن « عباد الرحمن » فاصلًا بينهم وبين أهل الكفر والشرك، وذلك ببيان بُعْدِ المسافة وعمق الاختلاف! من حيث إن المؤمنين متحكمون في نزواتهم الشهوانية والغضبية، منقادون للَّه فيها انقيادًا، خالصون له تعالى في كل ذلك، فلا خيانة ولا إشراك لا تستفزهم النداءات الشيطانية من هنا وهناك، ولا يلتفتون لغير اللَّه! على عكس أحوال المشركين والكفار. ومن هنا

(١) متفق عليه. (٢) أخرجه مسلم.

(٣) ذكره القرطبي رحمه الله في تفسيره نقلًا عن غيره، ورَدَّهُ، الجامع: (١٣/٧٥).

فقد أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس ﵄ أن هذه الآية: (نزلت في أهل الشرك)[١] في سياق مدح عباد الرحمن. وإنما ذلك كان لبيان المقامات العالية لأهل الإيمان من باب قولهم: « وبضدها تتميز الأشياء ».

وأما الحكمة التربوية من كل ذلك فهي: بيان أن المسلم مهما كان مقامه الإيماني مُعَرَّضٌ للفتنة ببشريته فلا ينبغي له أن يغتر بالله، فيهلكه العُجب والمن على الله؛ إذ لا عصمة لأحد بعد رسول الله ثم - وهذا هو الخصوص المنسوب إلى عباد الرحمن هاهنا - إن الحفظ من هذه الكبائر وأضرابها إنما هو نعمة من أكبر النعم التي لا تكون إلا بالله فتستوجب شكرًا لله لا حد له! وحقًّا له على عباده الصالحين لا نهاية له، وعبادُ الرحمن إذْ يشاهدون ذلك، يشاهدون ما أكرمهم الله به من العصمة والأمان، من هذه الفتن جميعها؛ فيزيدهم خشوعًا نَدِيًّا، وبكاءً سَخِيًّا، يروي جمال لياليهم الخضراء.

فآلت الآية إلى أنها ضرب من التأمين الرحماني لعباد الرحمن، من أن يقعوا فيما يقع فيه غيرهم من المشركين أو من عصاة المسلمين وكفى بذلك تكريمًا لهم وتشريفًا وهو في الحقيقة من أجمل ما وُصفوا به في هذا المقام العظيم؛ إذ جاء سيرهم إلى الله متوازنًا بين مقامي التحلي والتخلي. والعظمةُ بالله إنما تكون لمن تعرض للفتنة فثبتَ وأَمَّنَهُ الله! لا لمن لم يعرفها قط، ولم يُبْتَلَ بها على سبيل العرض والإغراء، والأول هو مقام عباد الرحمن، فانظر أي جمال وجلال في هذا الوصف الرباني العظيم لمدرستهم وإن في ذلك لرسالات من « الهدى المنهاجي » عظيمة، نذكرها بعد قليل في محالها بحول الله.

ثم وجَّه سبحانه الوعيد الشديد للمشركين ولأهل المعاصي، من المتمردين على الرحمن المصرين على جرائمهم إصرارًا، بلا توبة ولا أوبة ولا استغفار فوصف مشهد عذابهم يوم القيامة؛ بما يملأ القلب هولًا وفزعًا وبما يُلَمِّعُ ويُعلي مشهد تمتع عباد الرحمن بما سيأتي وصفه من جمال « الْغُرفَةِ » العالية في الجِنَان.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ قال عِكْرِمَةُ في معنى « أثام »: هي

---

(١) تفسير الطبري: (٢١٩/٥).

أودية في جهنم يُعَذَّبُ فيها الزناة، وقال قَتَادَةُ: ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾: نكالًا! وقال السُّدِّيُّ: جَزَاءً. [1] وكلها أقوال في جميع الأحوال تؤول إلى معنى واحد، لا يخرج عن كونه جزاءً رهيبًا من العذاب، من مثل ما فعلوا في الدنيا من الاستجابة لشهوات الحرام والفساد في الأرض، من شرك وقتل وزنى. لكنه جزاء أخروي على وزان ما جعل اللّه في جهنم والعياذ باللّه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أي يُغَلَّظ عليه ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾، أي: حقيرًا ذليلًا في عذابٍ سَرْمِديٍّ لا نهاية له.

ويأبى اللّه خلال هذا الترهيب إلا أن يتجلى على عباده برحمته، فيفتح باب التوبة للناس جميعًا، كافرهم ومسلمهم ممن سقط في وحل المعاصي والذنوب، من مثل هذه الكبائر المذكورة وغيرها. فمقام « عباد الرحمن » ومدرستهم مفتوحة في وجه كل من رغب إلى اللّه بالتوبة التامة النصوح وجاء إلى مولاه يحمل مواجيد الندم ومشاعر الألم! يرجو رحمته وغفرانه فله الحمد من رب رحيم وله الحمد من مَلِكٍ كريم.

فمدرسة عباد الرحمن ليست من المدارس الدنيوية التي يطرد منها الفاشلون طردًا!.. كلا! كلا! فالأمل في الولوج إليها والانتساب لها مفتوح في وجه جميع المؤهلات إلى يوم القيامة، تشجيعًا على الاشتغال الدائم بمحاولة التحقق من شروط الالتحاق أبدًا. إننا لم ننقض ما ذكرناه قبل من كلام في خصوصية مدرسة عباد الرحمن، نعم هي مدرسة عالية عالية لكن تحقيق التأهل لها ممكن في وجه كل من وفقه اللّه، فالمقاييس المادية الحسية هاهنا تفشل في تقدير الإمكانات، المقياس الروحي وحده يتحكم، ففي مجال الدين والتزكية الروحية لا يكون الجهد العملي وحده المؤهل للنجاح، بل هناك التسديد الإلهي والتوفيق الرباني، المبني على ما يستبطنه المؤمن من إخلاص القصد في العمل، وكمال الصدق في الطلب هذا هذا..! إنه المؤهِّلُ الحاسم في ولوج كل مقامات الدين.

فمن كان على ذلك الوزان من الإخلاص والمحبة والشوق - مهما بدا عليه من العجز والضعف - وقد تحقق بالمحبة الكاملة والإخلاص التام؛ كان اللّه له معينًا؛ فأنجز بعد ذلك ما تتعجب منه العقول من جلائل الخطوات والأعمال، إن النجاحات في

---

(١) تفسير الطبري وابن كثير للآية.

الدين لها صلة كبرى بموازين الغيب، أكثر مما لها من ارتباط بمقاييس الشهادة فلا تنس هذا ولك أن تتأمل هذا الحديث النبوي الشريف؛ حيث قال ﷺ: « **لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ!** قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ! والْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا** » (١).

ومن هذا الباب الرحماني العظيم تجلت توبة اللّه عَرْضًا كريمًا على عباده، كل عباده قال سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أي إلَّا من تاب الآن في الدنيا دار الابتلاء، وأقلع إقلاعًا عن هذه الصفات القبيحة، بالشروط المذكورة في الآية، فإن اللّه يتوب عليه، ويجازيه بما هو تعالى أهله من جمال الكرم والجود وهو قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ذهب المفسرون في معنى ذلك مذهبين:

أحدهما: أنهم كانوا قبل توبتهم على فعل السيئات فحولهم اللّه إلى فعل الحسنات، وأبدلهم بالعمل السيئ عملًا صالحًا، أي أنه تعالى أبدلهم بالشرك إخلاصًا، وبالكفر إسلامًا، وبالفجور إحصانًا.. إلخ.

والمذهب الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وقد ثبتت السنة بمعنى ذلك، لكن في سياق آخر قريب. فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ وَآخِرِ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا! فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا كَذَا وَكَذَا! وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا! فَيَقُولُ: نَعَمْ! لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ! وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ! فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً! فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا** » [قال أبو ذر:] فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ!) (٢). وهذا أمر مرتبط برحمة اللّه وكرمه، ولا علاقة لها بحتمية حسابية ولذلك فليس ببعيد عن رحمة اللّه الواسعة، أن يعامل من يشاء من عباده التائبين في

---

(١) متفق عليه. (٢) أخرجه مسلم.

الدنيا، بما يجعل سيئاتهم حسنات بهذا المعنى؛ فلا يدخلون النار أبدًا، ولو لحين من الدهر نجاني اللَّه وإياك من عذابه كل عذابه! وأدخلنا في رحمته برحمته.

إلا أن التوبة المذكورة هاهنا لها شروطها، هي: نفس التوبة أولًا، ثم الإيمان، ثم الدخول في العمل الصالح تَوًّا.

فالتوبة هي: ذلك القرار النفسي المتخذ على مستوى العزيمة والإرادة الذاتية؛ بقصد الانتقال من حال السوء إلى حال الصلاح، قرارًا واعيًا عميقًا، يصحبه الندم على الماضي فهذه خطوة أولى ضرورية.

والخطوة الثانية: أن يكون ذلك القرار قد وقع في النفس بدافع الإيمان باللَّه واليوم الآخر لا بدافع أرضي أو مصلحي، أو عقلاني مجرد من كل معاني الدين، فكثير من الناس يقلع عن عادات سيئة لكن ليس تعبدًا، وإنما استجابة لقوانين العادة والطبيعة؛ حفاظًا على سلامتهم الصحية، أو مكانتهم الاجتماعية، أو نحو هذا وذاك وكل ذلك باطل في ميزان اللَّه إنما التوبة عبادةٌ محضة، إذا خلت من عمقها الإيماني بطلت؛ ولذلك عطف شرط الإيمان هاهنا على شرط التوبة نفسها؛ على سبيل البيان والتعريف وسواء كان مفهوم « الإيمان » هنا متعلقًا بإيمان الدخول في الإسلام ابتداءً، أو كان متعلقًا بالخروج من المعصية بالنسبة لعصاة المسلمين، بمعنى تجديد الإيمان، فهو في ضرورة استحضاره سواء؛ ولذلك قال ﷺ في نص واضح في هذا: « **لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخمر حِينَ يَشْرَبُهَا وهو مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ** »[1]. فوجب لها تجديد الإيمان وليس معناه أنه قد كفر بهذه الذنوب مطلقًا، ولكن ضَعُفَ إيمانهُ حتى لم يعد له من أثر على سلوكه! وأشبه أحوال الكفار في تمرده على اللَّه! فلا بد له من عمران إيماني جديد، ينقله إلى أحوال الإيمان الحق.

وأما **الخطوة الثالثة** المذكورة نصًا هاهنا في الآيات موضوع مجلسنا هذا، فهي العمل الصالح، وهو بمواصفات معينة أيضًا قال تعالى: ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] فقد جعل له مفعولًا مطلقًا؛ للدلالة على عمقه واستمراره واتصاله

---

(١) أخرجه مسلم.

وانقطاعه التام الكامل المطلق عن ماضيه، وانفصاله الكلي عنه! يستقذر الكفر والشرك والمعاصي بشتى أنواعها استقذارًا ويتلذذ بالطاعة والعبادة تلذذًا، فهو الآن إنسان آخر تمامًا! إنه - بميزان اللَّه - إنسان صالح ظاهرًا وباطنًا! فاستحق بذلك الدخول في رحمة اللَّه الواسعة الفياضة، وفي كرمه وجوده العظيم، بما وصفنا في هذا المقام من خصوص: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وكيف لا؟ وقد كان من العبد ما كان من الموبقات والذنوب، فغفرها اللَّه له جميعًا، جميعًا! ثم، رفعه إلى أعلى مقام فأي جود هذا وأي كرم؟ وأي رحمة وأي غفران؟ إنه اللَّه رب العالمين، الرحمن الرحيم فسبحانه وبحمده من ملك غفور رحيم.

وإن هذا لبابٌ عظيم باب من أوسع أبواب الرحمة الإلهية؛ ولذلك فالشيطان يقف على طريقه، مترصدًا بالتوابين والمقبلين يلقي في خواطرهم وساوس التثبيط والتعجيز إما تأجيلًا للتوبة إلى حين، وإما تعجيزًا عنها وتيئيسًا من رحمة اللَّه رب العالمين؛ ولذلك أعقب اللَّهُ سبحانه ذلك الوعد الكريم السابق، بآية أخرى توكيدية عجيبة حق عجيبة تعتبر أصلًا من أصول التربية الإيمانية في الإسلام، وقاعدة من أهم قواعدها الكبرى، ألا وهي المبادرة إلى التوبة قبل تدخل الشيطان وجَعْلِ قرارها النفسي مرتبطًا بإنجازها العملي، دون أدنى أي فارق زمني بين القرار والتطبيق، بل بالمسارعة إلى الدخول في حصن العمل، والتنفيذ والتحول الكلي حالًا، فالزمن ليس في صالح الإنسان على كل حال، وفي هذه الحال على الخصوص وهو ما يزال في برزخ بين الكفر والإيمان، أو مترددًا بين الهدى والضلال، وما تزال روائح الشر ونتونة المنكر تملأ قلبه، والقضية قضية مصير كوني أخروي ولا فرصة لعيش اللحظة أي لحظة إلا مرة واحدة فما يدريه أن تضيع منه حال اليقظة تلك، إلى غفلة لاحقة يغط معها في نوم عميق؟! لا يستيقظ منه إلا على شفير القبر؟!

ذلك هو قوله تعالى بَعْدَ مباشرة: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾، أي من قرر ذلك نيةً وعملًا؛ فإنه ينطلق إليه بقوة وبسرعة ويبادر الشيطانَ إلى باب الغفران مبادرةً تقطع خواطر الوساوس والتردد فيتوب إلى اللَّه متابًا فأكد التوبة هاهنا بالمصدر، ولم يؤكد العمل كما في الآية الأولى؛ لأن العمل هنا ما يزال في مرحلة برزخية، فاحتاج إلى مبادرة الانطلاق، وسرعة تنفيذ القرار؛ ومن هنا أكد

التوبة بما هي عزيمة وجدانية، وهجرة روحية إلى اللّٰه تعالى وجعل ذاته تعالى غايتها، فقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ وهذا معنى آخر غير الذي في الآية الأولى. إنه متعلق ببيان كيفية التوبة وبمنهجية تطبيقها على المستوى النفسي خاصة بما يضمن سلامتها من النقض والتردد فله الحمد بما أكرمنا به من بيان لمسالك التوبة والغفران وكل ذلك إنما هو من فيض رحمته جل علاه.

فماذا تنتظر بعد ذلك يا صاح؟ ماذا تنتظر؟ وها الزمن يتفلت من بين يديك! وها الشيطان لك بالمرصاد! والروح على وشك الغرق والرحمن ﷻ مِنْ عَلٍ يناديك، ويمد لك أسباب النجاة! فعجبًا لماذا لا تمد يدك؟!

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسمُ إلى خمس رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن محاربة النفسية الاستهلاكية بقوة من أهم البراهين العملية والعلامات التصديقية، على حقيقة التحول الإيجابي للمؤمن، وعلى استيعابه لدروس القرآن، وتقدمه الفعلي في فصول مدرسة « عباد الرحمن ». فثقافة الاستهلاك الشيطانية تزينها وسائل الإعلام العالمية اليوم للمسلمين، في إطار الحرب العولمية الكبرى على عالم المستهلكين، الذي يتشكل في معظمه من الشعوب الإسلامية بالدرجة الأولى وإن ذلك التزيين الشيطاني لمن أخطر وسائل إبليس الاقتصادية والثقافية؛ لتدمير الدين والأخلاق في الأمة، ومن أكبر أسباب الانقطاع عن السير إلى اللّٰه سواء لدى الأفراد أو لدى الجماعات؛ ولذلك جعل اللّٰه للإنفاق في الإسلام مقاييس إيمانية خاصة، حدها بحد الحاجة الشرعية، وجعل ذلك من أهم خصائص « عباد الرحمن » في مقابل خصائص « إخوان الشيطان » وهو الذي فسرته الآية الأخرى من سورة الإسراء، في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]. والمفسرون على أن ما أُنْفِقَ في طاعة اللّٰه ليس من التبذير، وإنما التبذير ما أُنْفِقَ على الشهوات والإسراف في المباحات فقوله: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أي: بالإنفاق العابث على غير أولي القربى والمساكين وأبناء السبيل، والغزو العولمي اليوم يرسخ في الذهنية الإسلامية العامة منطق الاستهلاك

بدافع « الجديد » فقط، أي ما يسمى بـ « الموضة »، وهذا من أخطر المصائد الاقتصادية الشيطانية، ومن أسوأ صور الاستهلاك المذموم في الإسلام فاقتناء « الجديد » الذي لا حاجة لك به هو الإسراف الممنوع ذاته، والتبذير الشيطاني عينه، فالتزيين الاقتصادي في منطقه العولمي المعاصر، يعرض على الإنسان زيادةَ الخدمات فيما جَدَّ من تصنيع الآلات والمقتنيات بشتى أنواعها، ميكانيكية، وإلكترونية، ونسيجية، إلى غير ذلك من سائر المركوبات والملبوسات والمفروشات، وجميع الآلات والأدوات... إلخ. كل ذلك يعرضه لك السوق الشيطاني اليوم، بما جد فيه من إغراءات الرفاهية الزائدة عن الحاجة، فيقع الشهوانيون في الفخ؛ بشراء الجديد والتخلص من القديم مع أن ذلك القديم ما يزال في جِدَّتِهِ؛ لأن الجِدَّةَ في الحقيقة إنما هي الكفاية في الخدمة، وهذه ما تزال حاصلة في تلك السلعة التي عندك، ولا حاجة تدفعك إلى هذا الجديد الكاذب، إلا كونه « موضة » اللحظة.

نعم، قد تكون فيه خدمات جديدة وكثيرة، لكن لا حاجة لك بها، ولا وظيفة لها عندك، فيكون شراؤها آنئذ من صميم التبذير الشيطاني، والإسراف الشهواني، وقد لقي عمر بن الخطاب ﷺ أحد الناس يومًا وهو يقلب دينارًا بيده، فقال له: ما أنت فاعل بذلك الدينار؟ فقال الرجل: اشتهيت لحمًا؛ فأريد أن أشتريه. فنطق عمر ﷺ بحكمته الرفيعة، التي هي ترجمة لقاعدة من أهم قواعد الاستهلاك في الإسلام، قال: (أَكُلَّمَا اشْتَهَيْتُمْ اشْتَرَيْتُم؟). مفرقًا بذلك بين منطق « الشهوة » ومنطق « الحاجة » في الاستهلاك والتدبير.

فالمنتسب لمدرسة « عباد الرحمن » إنما يشتري ما يشتري؛ بناءً على منطق الحاجة الشرعية، مما هو سيوظفه فعلًا في منافعه الدينية والعمرانية، المادية والمعنوية، من أكل وشرب ولباس وسكن، أو غير ذلك مما يحتاجه في مجال المهن والاختصاصات والتجارات والوظائف المختلفة، مما لا تقوم حاجته ولا تتيسر حياته إلا به.

وإنما وجب التنبيه إلى أن استعمالنا لمصطلح « الحاجة » هنا ليس بالمعنى الأصولي المقاصدي الدقيق للكلمة، وإنما هو بالمعنى الفطري العام، الذي يلبي الحاجة الفطرية للإنسان، والذي يتضمن المراتب المقاصدية الثلاث: الضروريات والحاجيات والتحسينيات، فكل ذلك داخل في معنى « الحاجة الشرعية » بالمعنى الاقتصادي في

الإسلام، وما تَجَاوَزَهُ كان داخلًا في معنى التشهي المذموم والتبذير الملعون، فالتحسينيات والجماليات مثلًا، حاجة فطرية في الإنسان، لها قَدْرٌ مشروع، هو قدر الحاجة إلى الجمال التحسيني الذي فُطِرَ عليه الإنسان، فما جاوزه كان إسرافًا.

والثقافة العولمية اليوم تدمر مقاييس الفطرة في الإنسان؛ بأن توهمه بأنه في حاجة إلى كذا وكذا؛ بما تعرض عليه من إغراءات وخدمات زائدة، مما لا حاجة له فيه بالفعل؛ ولذلك فقد يشتري الإنسان ما لن يستعمله أبدًا، أو ربما يستعمله لمرة واحدة أو مرتين، وهو إنما صُنِعَ أصلًا للاستعمال اليومي، والأدهى من ذلك أن يكون لديه من هذا المقتنَى مثلُه، مما لا يزال يلبي حاجته كاملة بلا نقصان فيهدر منافعه هدرًا وهو أمر واقع في حياتنا اليومية كثيرًا، وهذا هو الضلال عينه وقد نزه اللّٰه عنه « عباد الرحمن ».

الرسالة الثانية: في أن من علامات النجاح والتقدم في فصول مدرسة عباد الرحمن، الوصول إلى مرتبة استقذار الشرك والكفر، وكبائر الذنوب وسائر المعاصي، استقذارًا يجعل المؤمن في أمان من الوقوع فيها، وحفظ من ملابستها، وهذا في الحقيقة مقام إيماني رفيع؛ لما له من تحويل الذوق الإنساني من ذوق بَهِيمِيٍّ سقيم إلى ذوق إيماني سليم. وقد أشار إليه النبي ﷺ بقوله: « **ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللّٰهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لَا يُحِبُّهُ إلَّا للّٰهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ** » (١).

فانقياد الذوق للّٰه لهو من أكبر علامات عمق الصلاح، ومن أهم العلامات فيما قطعه العبد السائر من المسافات إلى اللّٰه؛ ولذلك فمن ما زالت نفسه تشتهي الحرام وتتوق إليه، ولو لم يقترفه فهذا ما يزال مهددًا بالمرض، وليس معناه أن المؤمن لا تتحرك نوازع الشهوة في نفسه، كلا طبعًا! وإنما القصد أنه يستقذر صورها المحرمة، ولا تتوق نفسه إلا إلى حقائقها الطيبة المباحة، في المشرب والمطعم والمنكح، وغير هذا وذاك، وهو معنى من معاني قوله ﷺ: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لَمَا جِئْتُ بِهِ** » (٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) قال ابن رجب الحنبلي: « حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح » جامع العلوم والحكم: (٣٨٦). وقال ابن حجر في الفتح: « أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات. وقد صححه النووي في آخر الأربعين » فتح الباري: (٢٨٩/١٣).

الرسالة الثالثة: في عدم المجازفة والمغامرة بالترخص في انتهاك المحرمات الكبرى؛ بتحليلٍ غير سليم وأن على المؤمن الصادق، أن يتهم الفتاوى الصادرة بذلك، وأن يقف منها موقف الاحتياط الشديد، خاصة منها ما تعلق بالدماء، فإن بعض من سلكوا طريق الدين قديمًا وحديثًا، قد استدرجهم الشيطان إلى ارتكاب كبائر من عظائم الأمور، قتلًا وتشريدًا، وانتهاكًا لحرمات اللَّه، ولأعراض المسلمين باسم الدين وما واقع الأمة الحي بين أيدينا اليوم ببعيد!. ناهيك عن تجربة الخوارج في التاريخ القديم، وما ورد فيها من أحاديث نبوية صحيحة، حكمت على صلاحهم المزعوم بالنار والعياذ باللَّه منها ما رواه أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « **يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ – وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا – قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ! يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مروقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ** »)[1].

فالحَذَرَ الحَذَرَ من فتاوى تتجرأ على أمهات الكبائر في الإسلام وتجازف بهدر دماء المسلمين تكفيرًا لهم بغير حق فتبوء بإثم عظيم وعذاب أليم، ولقد نص النبي على حرمة الدم المسلم في نصوص شتى، منها قوله ﷺ: « **لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَاَ يبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا! المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذِلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسْلِمَ! كُلُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ: حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُه وَعِرْضُهُ** »[2].

الرسالة الرابعة: في أن من علامات فقه المؤمن، وصحة معرفته باللَّه عدم الاغترار باللَّه، بمعنى أنه لا يأمن نفسه أن تُبَدَّلَ وتُغَيَّرَ، وتنحرف عن طريق اللَّه فلا ثبات إلا لمن ثبته اللَّه، ولا عصمة إلا لمن عصمه اللَّه، ولا حفظ إلا لمن حفظه اللَّه ولا شيء من الصلاح والهدى إلا باللَّه ومن ظن أنه نَاجٍ بمجرد عمله فقد اغتر باللَّه وكان من أكبر الجهلة بربه جل علاه، وقد سبق حديث رسول اللَّه ﷺ في أنه: « **لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ!** » قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** »[3] ولذلك كان أكثر دعائه – عليه الصلاة والسلام – وهو من هو في

(١ – ٣) متفق عليه.

مقام التقوى والورع: « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ!** » فقيلَ لَهُ في ذَلِكَ؟ قالَ: « **إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بينَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ** » (١).

وهذا من كمال التوحيد والإخلاص، ومن تمام الافتقار إلى الله.

الرسالة الخامسة: في أن من صفات « عباد الرحمن » الشعور الدقيق بضآلة الزمن الأرضي في سير العبد إلى الله، وتقدير العمر بمقداره القرآني فلا طول للأعمار قط مهما ظهر أنها طالت؛ لأن العدد الفاني ينتهي بمجرد بداية عده وكذلك العمر ينتهي بمجرد ولادة صاحبه؛ إذ يصير الإنسان في حياته الدنيوية إلى عد عكسي لا تصاعدي! لكنه يَعْمَى عن هذه الحقيقة؛ فيغتر بالحياة الدنيا - وإنما هي دنيا - ويلهيه طول الأمل؛ ولذلك كان عباد الرحمن من التَّوَّابين المسَارِعِينَ يَتُوبُونَ إلى اللَّهِ مَتَابًا.

٤ - مسلك التخلق:

فأما المسلك العملي للتدرب على حياة الاقتصاد الإيماني، والتخلص من النفسية الاستهلاكية المدمرة، فهو راجع إلى منهج « التعاون »؛ وذلك بمعاشرة ثلة من الصالحين من أولي العزم، الذين يجتمعون على هذا الميثاق، ويتواصون به وبالصبر عليه، فالحياة الاجتماعية لها دور مهم جدًّا في إشاعة ثقافة الاقتصاد الإيجابية أو السلبية، على حسب طبيعة المجتمعين عليها، ثم ترفع راية الدعوة إلى هذا المعنى الإيماني العظيم في الإسلام، الذي أهمله - رغم خطورته - كثير من الدعاة اليوم. وإنه لمن أعظم معاني الجهاد الاقتصادي، لو كانوا يعلمون! له ما له من آثار تربوية تعبدية على الفرد والجماعة في الأمة، ثم له ما له من آثار على جبهة التدافع العولمي بين الأمة وأعدائها.

ثم لا بد لك - في خاصة نفسك يا صاح - أن تقوم بمراجعة حياتك الاقتصادية، فيما يتعلق بطريقة عيشك الخاص، لتراجع حاجاتك الحقيقية، تمحصها واحدة واحدة؛ حتى تميز بين حقها وباطلها، فَتُسْقِطُ من قائمةِ مشترياتِكَ الزوائدَ كلَّها، الواحدة تلو الأخرى، حتى تصفو نفقتك لله، بما يَفِي بحاجاتك المعاشية جميعًا،

---

(١) أخرجه الترمذي عن أم سلمة مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع. وقد روي بطرق أخرى صحيحة عن غير واحد من الصحابة في كتب السنن.

ولا يضيع منها شَيْءٌ هَدْرًا.

ثم لا بد من مداومة النظر في سيرة النبي ﷺ في نفسه وأهله، ومشاهدة أحوال الصحابة ﷺ في مطعمهم ومشربهم وملبسهم؛ فإن ذلك من أكبر الزاد المعين على تحدي ثقافة الاستهلاك الغربية الغازية للبلاد والعباد.

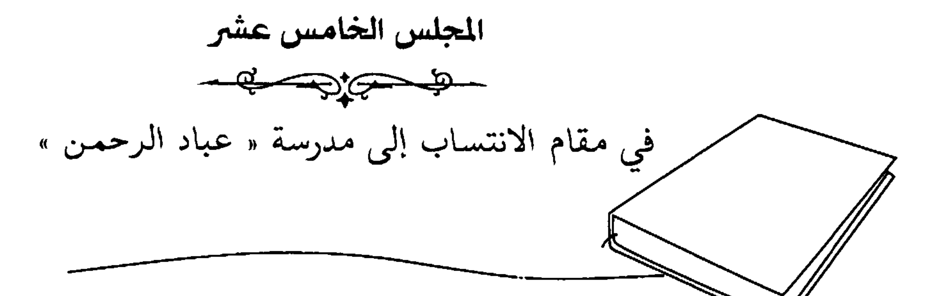
وأما استقذار الذنوب كبائرها وصغائرها، فيكفي أن تواظب على مشاهدة نعم اللَّه من الطيبات من الرزق، وتعيش حلاوتها متعبدًا للَّه بها، فمن ذاق الحلال متعبدًا لم يجد للحرام بعد ذلك في نفسه إلا البغض والاستقذار.

ثم تلزم الإكثار من التوبة والاستغفار وتدخل في أورادهما صباح مساء؛ فذلك من أهم العواصم من موبقات الخطايا والذنوب والاستغفار وقاية وعلاج، ما ينبغي لمؤمن أن يهمله أبدًا! فهو زاد أساسي لا غنى عنه لراكب الطريق إلى اللَّه.

ثم لا تنس - بعد هذا وذاك - خلوات التقويم والمحاسبة فإن إهمالها من أخطر الثغرات المنهجية في بناء عمران الروح.

* * *

المجلس الخامس عشر



الفَصِلُ الثَالِثُ: في معارج التخرج

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢ - ٧٧].

٢ - البيان العام:

هذا مَنْزِلٌ من منازل الأتقياءِ الكُمَّلِ! غايةٌ في مقامات الجلال والجمال، ونهاية في مراتب الورع والكمال، غاية عزيزة غالية ولكنها ممكنة، وقد (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ!)[١] وإنما دونها مجاهداتٌ وطولُ مسير! ومن التزم جادة الطريق مستهديًا بالله، غير متخذٍ سوى القرآن الكريم منهاجًا، وَصَلَ إن شاء الله.

إنها إذن صفة من صفات أهل الله، الأولياء الأتقياء، والصِّدِّيقِينَ النُّجَبَاء! ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ إنها البراءة التامة الكاملة من الزور، الزور بشتى معانيه، من كل صور الباطل وضروب المنكر قولًا

---

(١) متفق عليه.

وفعلًا لا شهود له من لدن هذه الثلة المؤمنة ليس بمعنى أنها لا تقترف شهادة الزور عند استشهادها فحسب، فهذا من بدهياتهم، بل إنها لا تحضر مواطنه أصلًا، ولا تشهد نواديه وتجمعاته، فالشهادة هنا هي بمعنى الحضور والشهود والمعاينة والمخالطة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. بمعنى مَنْ كان حاضرًا عند دخول الشهر في بلده، ولم يكن مسافرًا.

فشهود الزور هنا: حضوره وملابسة مجالسه، ومصاحبة أهله وهم متلبسون به. والزور: جامع لكل ضروب الباطل، من شركيات وخرافيات، وكذب وبهتان، وفسق وفجور، فكل ذلك يقاطع عبادُ الرحمن مجالسَه مقاطعةً تامة بَلْهَ أن يشاركوا فيه بشهادة أو قول فشهادة الزور القضائية هي من أعظم الموبقات، وقد صح قول النبي ﷺ فيها لأصحابه، مما رواه الشيخان عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ » قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ. » وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ! » فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لَا يَسْكُتُ »[(١)] وفي رواية: « حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ ».

وهذا المعنى داخل طبعًا في مقتضى الآية من باب أولى! لكن سياق الدلالة قاض بعموم الأول، وهو نفي حضور الزور بإطلاق، وهو الذي رجحه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ بدلالة ما بعده من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أي: وإذا اتفق مُرُورُهُمْ بِهِ صُدْفَةً مَرُّوا كما يمر عابرُ السبيل، ولم يتدنسوا منه بشيء! لَا الْتِفَاتًا، ولا نظرًا، ولا وُقوفًا، ولا افْتِتَانًا، ولَا مُشَارَكَةً فكانوا كِرَامًا حقًّا، على أعلى ما تكون منازلُ الكَرَم.

واللغو: كل كلام أو قول باطل بدءًا بما كَبُرَ من ذلك وعَظُمَ، مما فيه الضرر على الدين، من تداول الشركيات والكفريات، وسائر التعابير المنكرات، إلى خوارم الأخلاق من عبارات البذاءة والفحش، إلى ما دَقَّ من ذلك، مما لا فائدة منه أصلًا من عبث الكلام ولهوه الباطل، كل ذلك لغو. وقد ورد النهي الشديد عن حضور مجالس الكفر والفجور، مما يُسْخَرُ فيه بالدين أو يستهزأ فيه بالآيات قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ

---

(١) متفق عليه.

عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]. ويلحق به قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

ويَدِقُّ النهي عن ملابسة اللغو واللَّهو إلى درجة التنبيه على التنزه عن كل ما لا فائدة فيه من القول أو الكلام أو اللعب، فعن عطاء بن أبي رباح قال: (رأيت جابر بن عبد اللَّه، وجابر بن عمير الأنصاري يرميان، فمَلَّ أحدُهما فجلس، فقال له الآخر: كسلت؟! سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: « **كُلُّ شيءٍ ليسَ من ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ فهو لَهْوٌ، أو سَهْوٌ! إلَّا أربعَ خصالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بيْنَ الغَرَضَيْنِ، وتأديبُه فرسَه، وملاعبتُه أهلَه، وتعليمُ السِّبَاحَةِ** ») [(١)] وقد أخذ منه الصحابي الجليل معنى الرماية قياسًا؛ فيدخل فيه كل لهو قاصد، أو رياضة هادفة، أو غير ذلك مما يرجى له نفع مشروع.

وأما ما تحقق ضرره من القول فهو الزور عينه، وأما ما لا فائدة فيه منه فهو اللغو وعباد الرحمن منزهون - بما أكرمهم اللَّه به من جلال وجمال - عن كل ذلك! لا يشهدونه ولا يلتفتون إليه ولا يأبهون به، بل إذا مروا به مروا كرامًا اللَّهم إلا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، مدافعين عن حدود اللَّه، فيصير شهودهم لذلك إذن ضربًا من ضروب الجهاد بالقرآن! فَلِلَّهِ دَرُّهُمْ.

ولكن؛ أليس للإنسان - مهما كان - سهوات وغفلات؟ وكيف لا؟ وها (كُلُّ بَنِي آدمَ خَطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائِينَ التَّوَّابُون) [(٢)] ولذلك أورد اللَّه ﷻ مشهدًا عجيبًا لهم، وهو في بيان حال رجوعهم إلى اللَّه كيف يكون؟ أي عند لحظات الضعف الآدمية كلما اعترتهم، لكنها لحظات تَعْبُرُ ولا تقيم، وتلمُّ ولا تدوم! تمر كما تمر الخواطر والأشباح في مخيلة الإنسان، فإذا صادفت فترةً أو غفلةً ألهبتْ بسوطها عينَه أو سمعه أو لسانه، أو يده! فإذا به يستيقظ توًّا على لسعها! فيبادر إلى ربه مستغفرًا

(١) قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد. وصححه الألباني في تعليقه عليه. ن. صحيح الترغيب.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن أنس مرفوعًا. وحسنه الألباني. حديث رقم: (٤٥١٥) في صحيح الجامع.

تائبًا وبذلك لا يمسهم من فتنة الشيطان إلا اللَّمَمُ! وهو صغائر الذنوب وهَنَاتُ القلوب، كما قال الله في حق المحسنين من المؤمنين، في سورة النجم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢].

فلا يكون ذلك كله بالنسبة لعباد الرحمن هاهنا، إلا فرصة للعودة السريعة إلى الله، على أجمل ما يكون العود، وألطف ما يكون الأوب فكان مشهد تذكرهم وتذللهم بين يدي ربهم، من أجمل مشاهد الذكرى وأجلها ومن أوقعها على القلوب العارفة بالله جل علاه وأنه لمقام وأي مقام! فتدبر هذا ثم أبصر: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ الله أكبر! إحالة عجيبة ومقابلة لطيفة بين حال الكفار في سجودهم وركوعهم لآلهتهم، في عبادة جاهلية مظلمة، صَمَّاءَ بَكْمَاءَ عَمْيَاءَ! لا عقل لها ولا سمع ولا إبصار! عَمًى في عَمًى، وضَلال في ضلالٍ! وبين هؤلاء المؤمنين الربانيين في سجودهم وركوعهم لربهم الرحمن، بما لهم من معرفة بالله الحي القيوم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ قدْ ملأت قلوبَهم معرفةُ الله، وانبهروا بجماله جل علاه، وخضعوا لسلطانه العظيم، فلا تملك القلوبُ بين يديه تعالى إلا تقديم مواجيد الرغب والرهب وعيًا منها بمقامه العظيم! وعي على أتم ما يكون الوعي، وعي يملؤه السمع والبصر، ويزوده القلب بالشوق، وتنيره الروح بمشاهد الجلال والجمال، ليجتمع ذلك كله سجودًا بين يدي الرحمن فَأُكْرِمْ به وأعظم من مقام! كذلك قال الملك الكريم - في موطن آخر - في وصف الْمذَكَّرِينَ بآيات الرحمن من الأنبياء والصِّدِّقِينَ: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨]. هكذا يخر عباد الرحمن لربهم، كلما وقعت الذكرى بقلوبهم! يخرون كما تخر الجبال الرواس إذا ازلْزَلَتْ الأرضُ من تحتها وانهارت من أعلاها خشوعًا وخضوعًا لله الواحد القهار! فلا يملك العباد عند ذلك إلا البكاء، البكاء الحار العميق؛ لِمَا وقع في مواجيدهم من المعرفة بِقَدرِ الله العظيم وبمقامه العلي الكريم ولِمَا تنثره أسماؤه الحسنى على قلوبهم المتضرعة من أنوار التسبيح وجمال التقديس! وما يقتضيه ذلك كله من المشاهدة لحقوق الله - جل وعلا - على عباده! فيهرع العبدُ إلى منازلِ البَوْءِ بالنعمة والبَوْءِ بالذنب معًا، تائبًا منيبًا، تسبقه دموعه إلى حدائق السجود ومن ذا قدير على حبس عيون الروح أن تتدفق بأشجان الذكرى؟! إلا من كانوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا فهم لا يفقهون.

أما عباد الرحمن فقد عرفتَ احتياطهم وورعهم، وقد عرفتَ توبتهم وإنابتهم وقد شاهدتَ ما شاهدتَ من أنوراهم وأسرارهم، وما يكابدونه من مجاهداتٍ في أنفسهم وفيما حولهم، سيرًا إلى ربهم على طريق الآخرة، لا اختلاف ولا التفات، سيرًا واحدًا راشدًا. تلك هي الطريق لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا.

لقد اتبعوها صادقين، كما رسمها لهم اللَّه في كتابه، وسلكوها متفقهين، كما بَيَّنَهَا لهم رسول اللَّه عملًا بسنته، فما بقي إلا أن يرسموها هم أيضًا لِخَلَفِهِمْ تربيةً ودعوةً ووصيةً تخلفهم بالعمل الصالح، والأثر الطيب، ذِكْرًا بالخير، ودعاءً بالرحمات والغفران، أجرًا لا ينقطع إلى يوم القيامة؛ ولذلك كان من تمام النعمة عليهم أن ختم اللَّه لهم مَدَارِجَهُمْ العالية؛ طَبْعًا على شهادة تخرجهم من مدرستهم الرفيعة، بهذا الدعاء الحكيم الكريم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ وهو دعاء مركب من أمرين عظيمين في الإسلام:

- **الأمر الأول:** صلاح الأسرة. والأسرة هي ضمان استمرار الدين في المجتمع؛ ولذلك فقد أولاها القرآن الكريم الحظ الأوفر والمساحة الأوسع من تشريعاته، تفصيلًا وتبيينًا لأدق أحكامها؛ بما لم يفصله في غيرها من أصول الإسلام وأركانه وبينت السنة من ذلك تفاصيل أخرى ودقائق وحِكَمًا؛ بما لم يكد يدع مجالًا للاجتهاد! لما له تعالى من علم – وهو العليم الخبير – من أن سلامة الأسرة يعني سلامة مستقبل الإسلام والمسلمين، وأن خرابها يعني خراب كل ذلك جميعًا؛ ولذلك كان الدعاء بهذه الصيغة الإيمانية الجميلة: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ هكذا: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ﴾ لأنها نعمة من النعم الكبرى؛ فلا تكون إلا هِبَةً من الرب الكريم فمهما بذل الأبوان من جهد واجتهاد في التوجيه والتربية – وواجب عليهما أن يبذلا – فإن الأمر بعد ذلك وقبله بيد اللَّه، لأن صلاح القلوب وفسادها – في نهاية المطاف – إنما هو بيد اللَّه وحده والقضية قضية هدى، وقد سبق حديث رسول اللَّه ﷺ من قوله: « **إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ** » (١).

---

(١) أخرجه الترمذي عن أم سلمة مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع. وقد روي بطرق أخرى صحيحة عن غير واحد من الصحابة في كتب السنن.

وكمال العطية وتمام المنة وجمال الهبة في هذا، أن يجعل اللَّه للمؤمن من كامل الأسرة أزواجًا وذريةً « قُرَّةَ أَعْيُنٍ »، لأن انخرام البنيان الأسري من داخله بانحراف أي عنصر من عناصره مؤدٍّ إلى انخرام الكل، أو على الأقل إلى اضطراب تناسق البنيان؛ بما يجعل ثمرته الإيمانية في المجتمع ناقصة عن أداء دورها الرسالي، وعاجزة عن تعقيب الدين وتوريثه دعوةً وإصلاحًا في الأجيال؛ ولذلك كان الدعاء شاملًا؛ بأن تكون الأسرة كلها بكامل تركيبتها وبجميع عناصرها « قُرَّةَ أَعْيُنٍ »! أي: تَقَرُّ العين وتطمئن إلى أحوالهم الإيمانية؛ بما تشاهده فيهم من صلاح الدين وجمال الإيمان، توحيدًا للَّه وعبادة له، وتمسكًا بالإرث الإيماني الذي عليه الأبوان. الإرث الإيماني العالي الرفيع الذي تلقاه هؤلاء الآباء في مدرسة عباد الرحمن، وتخرجوا به وعليه، هكذا في أعلى منازله يورثونه للأبناء والحفدة! ذريةً بعضها من بعض.

- **والأمر الثاني**: إمامة المتقين. وهذا هو ختم شهادة التخرج ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ وإنه واللَّه لختم عظيم، فإنه لا يكون إلا للكُمَّلِ المتمِّين، وللنَّاجِحينَ السَّابقين الأولين وإنه لم يكن على مستوى النبوة - أي بمعنى الإمامة النبوية - إلا لبعض الأنبياء والرسل، من أولي العزم وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ، سيد الأولين والآخرين، الذي تَوَّجَهُ اللَّه بإمامة الأنبياء والمرسلين بَلْهَ عموم المتقين، ولم ينلها سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلا بعد إتمامه ما ابْتُلِيَ به من كلماتٍ إتمامًا قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فقوله: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ إنما هو جزاء على ما أخبر به تعالى عن إبراهيم من أنه إذ ابتلاه بالكلمات أتمهن، وجاء فيهن بكمال النجاح بدءًا بما ابتلاه به من البحث عن الحقيقة نظرًا في النجوم، ثم ما ابتلاه به من تحطيم أصنام الطغاة، ثم ابتلاؤه بإلقاء الكفار له في النار، ثم ابتلاؤه بترك زوجه وطفلها الرضيع بوادٍ غير ذي زرع في مهالك الصحراء ثم ابتلاؤه الرهيب بذبح ابنه إسماعيل.. إلخ. كل ذلك جميعًا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام فيه على أتم ما يكون الفوز والتوفيق! بما لا يستطيعه إلا خُلَّصُ الكُمَّلِ من أولي العزم من الرُّسُلِ فمن ذا قدير على اقتحام مثل هذه العقبات الجسام بلا تَلَكُّؤٍ ولا تردد؟ ولذلك لما سأل إبراهيم « الإمامة » لذريته أيضًا قال له تعالى: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ إنها

مشروطة بشروطها إنها للأوفياءِ الموَفِّينَ فقط! وهو قوله تعالى في موطن آخر: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

فإنما الإمامة كمالٌ! ولا كمالَ إلا بتمامِ النجاحِ بأعلى درجات الامتياز كذلك هي في النبوة، وكذلك هي في الدعوة والداعية، لكن على المستوى البشري الاجتهادي النسبي، فهو كمال دون كمال النبوة طبعًا، ولكنه سَيْرٌ على أثرها، والتزام بنهجها، تدرجًا بمراتب الصِّدِّيقِينَ، وتخرجًا من مدرسة رب العالمين، بما جعله لمنازل « عباد الرحمن »، من نجاح تام وصلاح كامل، وهو متاح لمن وهبه اللَّه إياه وقد (**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ**) [١] كما سبق تقريره في الحديث النبوي الصحيح.

تلك « إمامة المتقين » وهو معنى مصطلح « الداعية »، الذي كثيرًا ما نستعمله اليوم على غير وجهه الحقيقي السليم، وإن العبد لو ينال شرف هذا المقام حقًّا، ويفوز بهذه الصفة الربانية صدقًا، ليكونن إذن من السابقين الأولين ولك أن تتدبر إن شئت حديث رسول اللَّه ﷺ الواضح الصريح في هذه الوظيفة الغالية. لترى فرق ما بين الحقيقة الناقصة في واقعنا، وما بين المثال الكامل قال عليه الصلاة والسلام: « **إنَّ العَالِمَ ليستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإنَّ فَضْلَ العَالِمِ على العَابِدِ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب** » [٢] اللَّه أكبر فأي عَالِمٍ هذا وأي إمام؟ أَلا إنما العالِمُ هنا هو الحائز على إمامة العلم والدعوة كما بيناه في موضعه [٣]. وكما يبينه - بصورة كافية شافية - هذا الحديث النبوي الآخر! وهو قوله ﷺ: « **فَضْلُ العَالِمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم إن اللَّه ﷻ، وملائكته، وأهلَ السموات والأرض، حتى النملة في جُحْرِهَا وحتى الحوت لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ!** » [٤] فتأمل عُلُوَّ الفرق وبُعْدَ المسافة في قوله ﷺ: « **فَضْلُ العَالِمِ على العَابِدِ كفضلي على أدناكم** » إنها الصِّدِّيقيَّةُ إذن وإنما كان ذلك لصاحب هذا المقام؛

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان، عن أبي الدرداء مرفوعًا. وصححه الألباني: حديث رقم: (٦٢٩٧) في صحيح الجامع.

(٣) ن. « مفهوم العَالِمِيَّةِ » للمؤلف.

(٤) أخرجه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا. وصححه الألباني، حديث رقم: (٤٢١٣) في صحيح الجامع.

بما أخلص للَّه وخَلُصَ له فدعا إليه بمقامه هذا وأَرْشَدَ وعَلَّمَ! وإنه لمنزلٌ عزيزٌ جد عزيز وقد صحت عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ حِكْمَةٌ ذهبيةٌ في هذا، قال: (المتقُونَ سَادَةٌ، والفُقَهَاءُ قَادَةٌ، ومُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ!) [١] فكيف إذا تعلق الأمر بسادة السَّادَةِ؟! وهم « أئمة المتقين » أليس ذلك إذن هو غاية المثال وتمام الكمال؟ بلى واللَّه وإنه لا يكون إلا فضلًا من اللَّه ونعمة ولا يحصل لصاحبه - مع كده واجتهاده - إلَّا بِعَطَاءٍ رَبَّانِيٍّ وهِبَةٍ منه تعالى.

ذلك شعاع واحد من أنوار هذا الدعاء الرباني، الخاتم لهذه الرحلة الرحمانية العظيمة فانظر ما جمع اللَّه فيه من الخير العظيم، الخير الذي لا ينقطع فضلُه ولا تَبِيدُ بَرَكَتُهُ! وليس عبثًا أن مدح اللَّه به « عباد الرحمن » بما أتموا من مجاهدات، وبما أكملوا من عبادات، وبما حققوا من نجاحات؛ فكانوا أئمةً في الدين والدعوة جميعًا فلم يزالوا يقولون: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

فَأَعْظِمْ بِهِ من دعاء وأَكْرِمْ به من عطاء!

أما الآن؛ فهذا وعد اللَّه بمقام الجِنَانِ، ووعيده بمصير النيران! خاتمة عامة لهذه السورة العظيمة خطابًا للفريقين: من هؤلاء السادة القادة، ومن أولئك الطغاة المَرَدَةِ.

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾.

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ هكذا خاطبهم باسم الإشارة الدال على البعد، والمفيد - في هذا السياق - لمعاني العلو والرفعة جوابًا على الابتداء الواقع في قوله تعالى من بداية السياق: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الآية، فلما حققوا ما حققوا من كمال الفوز، وأحرزوا ما أحرزوا من تمام النجاح، فيما تعرضوا له من ابتلاءات،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. كما رواه ابن النجار عن أنس ﷺ بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء). وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات. كما روى نحوه الديلمي عن علي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾.

والغرفة منزلة عالية، عالية جدًّا، من منازل الجنان فلو تدري يا صاح ما منازل « أهل الغُرَفِ »؟ ولو تدري ما معنى علوها؟ استمع إلى رسول اللَّه ﷺ يقربها لك تقريبًا، ولكن بهذا المثال قال عليه الصلاة والسلام: « **إنَّ أَهْلَ الجنة ليتَرَاءَوْنَ أهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ** » [(١)] اللَّه أكبر!.. هناك بذلك المقام العالي من الجنة الواسعة العريضة.. تتلقى الملائكةُ المضيفةُ عبادَ الرحمن بتحيات السلام، أنوارًا من جمال السكينة، وأنداءً من أريجِ المحبة، تملأ الجوانحَ متعةً لا تفنى لذاتُها في مواجيد الروح أبدًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ خلودًا ممتدًا إلى الأبد بتلك المتع كلها وبتلك النعم كلها على أحسن ما يكون الاستقرار وأجمل ما يكون المُقَام، وإنه لمشهدُ لا يملك القلب منه إلا الشوق إلى رضوان اللَّه وفضله وإلا فما للخيال إلى تصور جماله الخارق من سبيل.

أوَ تدري أي منزل هذا وأي مَقام؟

إنه « مَقَامُ الصَّبْرِ » يا صاح، فكل ذلك الفوز العظيم، وكل ذلك النجاح الكبير، عبر تلك الأشواط الشاقة، وعبر تلك المسافات الطويلة، إنما كان لهؤلاء السادة الكبار ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ نعم، بما صَبَرُوا!.. فليست فصول مدرسة « عباد الرحمن » بالأمر الذي يصبر عليه ضعفاء العزائم، ممن لم يقطع بَعْدُ صلتهَ بأهل التراب، وبشهوات التراب، ورغائب التراب لا قدرة لجناح الروح على الطيران العالي؛ مَا عَلِقَتْ بريشه أَطْيَانُ الذنوب ووَحلُ الخطايا والآثام، وهو ما تنزه عنه عباد الرحمن، وتخلصوا من أدرانه وأثقاله؛ عندما دخلوا تحت شلالات مدارس عباد الرحمن، بكاءً بالليل ودعوةً بالنهار! فنالوا ما نالوا من مقامات التوبة والغفران وأحرزوا ما أحرزوا من منازل الرحمة والرضوان.

فيا قلبي المغرور، إن الإمامة ابتلاء وإن الابتلاء صبر واصطبار..! فهل كنتَ فعلًا من الصابرين؟

---

(١) متفق عليه.

الصبر؟ تلك هي القضية وتلك هي خلاصة السورة كلها كلمةً كلمةً، وابتلاءً ابتلاءً

وأخيرًا: جاءت الكلمةُ الخاتمة في هذه السورة، بيانًا نهائيًّا موجهًا إلى البشرية جمعاء ليختم سبحانه السورة بما بدأها به نذارةً شاملةً للعالمين وبلاغًا عامًّا للناس أجمعين ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ لكنه عموم يتبعه خصوص؛ عموم للناس نذارةً وبيانًا، وخصوص لمن كذَّب منهم وعيدًا بالعذاب اللازم الحتم. فهو تعالى في الخطاب العام يقرر أنه ما خلق البشرية إلا لعبادته، فلا معنى لوجودها أصلًا إلا هذا وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي قل للناس أجمعين - أيها الرسول المبلغ نذارةَ الرحمن - إن اللَّه لا يكترث بكم، ولا يحفل بكم إن أنتم لم تؤدوا الوظيفة التي خلقكم من أجلها، وهي التوجه إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص، إيمانًا وعملًا، وذلك حقه العظيم عليكم وعبَّر سبحانه عن ذلك بـ « الدعاء »، وفيه من الدلالة اللطيفة أن المستفيد من الإيمان والعبادة - في نهاية المطاف - إنما هو أنتم أنتم الذين في حاجة إليه؛ فتدعونه رغبًا ورهبًا، وإنما الفقير ذو الحاجة هو الذي يدعو. وذلك هو مخ العبادة: التذلل والافتقار إلى اللَّه، وكل الدين إنما يدور حول هذا المعنى. أما هو سبحانه فهو الغني الحميد.

فما قيمةُ عَبْدٍ شرَدَ خارجَ مَدَارِهِ الطبيعي، الذي خُلِقَ من أجل الدوران فيه، فجعل يصطدم بالنظام الكوني كله، إفسادًا وتخريبًا؛ إذ ضل عن فَلَكِهِ الحكيم؟! ما قيمتُهُ بعد ذلك إلا أن يُطرد من هذا المدار بالإهلاك والتتبير؛ ولذلك كانت العبارةُ الأخيرةُ التفاتةً ترهيبيةً من جلال اللَّه العظيم ألقاها الملك الجبار وعيدًا شديدًا إلى الكفرة المردة، دون أي تسمية لهم ولا تكنية، لا باسم صريح، ولا باسم إشارة وإنما أهملهم إهمالًا، وأذلهم إذلالًا! فجعلها كلمةً واحدةً! وحُكْمًا نهائيًّا واحدًا: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ أي: أما أنتم - أيها المكذبون - فقد استوجبتم الهلاك والعذاب لزومًا؛ بما تمردتم على حقوق اللَّه جلَّ وعلا، وعلى سلطانه العظيم [1].

---

(١) جعل الإمام البقاعي: الضمير في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يعود على الكفار. فقال رحمه الله مفسرًا: أي: (ما يعتد بكم شيئًا من الاعتداد لولا دعاؤكم إياه وقت الشدائد، فهو يعتد بكم لأجله نوع اعتداد، وهو المدة التي ضربها لكم في الدنيا لا غيرها، بسبب أنكم قد كذبتم) ن.=

ذلك هو « الفرقان » الذي جاءت هذه السورة بأجمعها تحمله: نذير واقع من السماء بالحق، ثم صراع ناشئ في الأرض بينه وبين الباطل ينتهي دائمًا بالفصل الفرقاني ما بين فريقين، وما بين نموذجين، وما بين طريقين، وما بين مدرستين، وما بين مصيرين ببيانٍ شافٍ كافٍ، يحمل من النذارة للعالمين ما لو تدبره الإنسان واستثمره توبةً نصوحًا، لجعل اللَّهُ له نورًا يمشي به، وفُرْقَانًا يَتَبَصَّرُ بِه.

ذلك، وإنما الموفَّقُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ.

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في ضرورة مقاطعة مجالس المنكر ونواديه، وسائر القنوات الإعلامية التي تصنع الزور وتنتج اللغو، وتُسَوِّقُ الباطل! واستصحاب قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ خُلُقًا راسخًا في النفس على كل حال. فهو من أهم ما يعصم المؤمن من الوقوع الساهي في شباك الإعلام المضلل، ومن الانجذاب إلى صوره الكاذبة، وتخييلاته السحرية، فالنجاح في إتمام كلمات هذا الابتلاء القرآني يجعل عبد اللَّه على يقظة روحية مستمرة، ووعي نقدي دائم. ثم إن الفشل فيه إنما هو فشل في الانتساب إلى مدرسة « عباد الرحمن »، الذين اشتغلوا باللَّه، وانصرفوا عما سواه، فلم يكونوا إلا به وله.

الرسالة الثانية: في أن التذكر الدائم بالقرآن تلاوةً ومدارسةً، لهو من أهم الوسائل الأساسية؛ لدحض ما خلفته وسائل الإعلام في النفس من وساوس وشبهات، وعلاج ما تركته مخالبها على جدران القلب من أمراض وجراحات، ذلك أن كلمات الإعلام السحرية، وصوره الشيطانية، ورسائله الفيروسية، ولو مما وقع بالعين أو بالسمع صدفةً، أو اتفاقًا، أو عبورًا، هو وَسَخٌ يقع بالنفس الإنسانية، فإذا لم يتداركه المؤمن بالغسل والتطهير خُشِيَ عليه أن تتوالد جراثيمه في القلب، ثم تتناسل خَطْرَةً، فَفِكْرَةً، فَسُلُوكًا مُنحرفًا وسقوطًا والعياذ باللَّه.

= نظم الدرر. وقال الشوكاني: (والخطاب لجميع الناس، ثم خص الكفار منهم فقال: « فقد كذبتم) فتح القدير: (٤/١٣١).

والقرآن بما جعل اللَّه فيه من أسرار وأذكار - مما بينا قبل - كفيلٌ وحده بتحصيل الذكر للمؤمن، كلما تلاه بحقه الفرقاني، أو تدارسه بمنهاجه الرحماني. فلا يمكن إلا أن يُخرَّ على مواقع الذكرى بكل جوارحه ومواجده، خاشعًا للَّه، تائبًا له، وإن ذلك لمن أكبر بركات القرآن الكريم. فلا تغبن نفسك بإهماله يا صاح، وأنت تعيش زمن الفتن بشتى ضروبها وإنما فرقانية القرآن هي خلاصك الوحيد من لهيبها.

الرسالة الثالثة: في الاشتغال الدعوي ببناء الأسرة المسلمة، وحفظ هويتها، وإعطائها الأولوية في تجديد الدين على المستوى الاجتماعي. ومعلوم ما يبذله الغرب اليوم من مجهودات جبارة في سبيل تحريف مسار الأسرة المسلمة، وتدمير خصوصياتها الحضارية، وانتمائها الإسلامي، بما يجعلها قابلة للابتلاع العولمي الاستعماري المتوحش، والمدمر للبلاد والعباد.

فالعمل الأُسري اليوم على مستوى الدعوة والإصلاح يعتبر من أهم المواقع الجهادية بمفاهيم القرآن وكلماته، فذلك حصن الأمة الأعظم اليوم لو ينهار في موطن ما - لا قدر اللَّه - فلن تبقى للمسلمين في ذلك الموطن بقية، فما أعظم أن يشتغل الدعاة والعاملون في الصف الإسلامي ببناء مجالس القرآن الأسرية وإن في ذلك ما فيه من الضمان والأمان للأسرة، والتجديد لنسيجها العمراني على موازين القرآن؛ بما يحفظها محميةً محصنةً، ويجعلها أقوى من أن تدمرها وسائل الإعلام؛ أو تخرقها قيم الغرب، وأفكاره المدمرة للنسيج الاجتماعي، ولسائر القيم والأخلاق!

الرسالة الرابعة: في ضرورة تكثير نماذج القيادات العلمية الصادقة، من أهل « الإمامة الدعوية »، واختيار معادنها الرفيعة، وبثها في الأمة؛ ذلك أن من أهم الوسائل المنهاجية لتجديد الدين في البلاد، تخريج أعداد وفيرة من « أئمة التقوى ». فهم وُرَّاثُ الأنبياء، وهم المعلِّمون الربانيون، وهم الأقوياء الأمناء، وإن الواحد منهم بمائة ألف من غيرهم، فالرهان على إنتاج هذه العبقريات الإيمانية يعتبر من صلب المنهاج القرآني، في الدعوة إلى اللَّه وتجديد الدين في الأمة وإن عدم الانتباه إلى ذلك أو إهماله لهو من أهم أسباب الفشل والانحراف عن المنهاج الفطري السليم، دينًا ودعوةً.

الرسالة الخامسة: في أن الاشتغال بأداء حقوق اللَّه ورعايتها عبادةً ودعوةً، هو صمام الأمان للنجاة في الدنيا والآخرة، وإن سلامة السير الإيماني والدعوي رهينة

برضا الله ﷻ على السائرين، وتلك هي خلاصة الخلاصة، من كل ابتلاءات هذه السورة، مقدماتٍ ونتائج ولا تنس كلمة الله الخاتمة: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ وتَلَقَّ فرقانَها كاملًا؛ بمداومة مشاهدة أحوال الجهة الأخرى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ ففي تجديد التلقي تجديدٌ لعزائم الروح.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق بثمار هذا المجلس الكريم راجع إلى الاستعانة بالتزام عملين اثنين:

الأول: عَدَمُ المشَاحَةِ على حدود التقوى، وذلك بالتحرز من الاحتكاك بأطراف المباحات مما يلي مناطق الحرام، وإن لم يكن منها. وهو معنى « الورع ». والورع مقام إيماني عظيم، معناه: ترك ما لا بأس به خشيةَ الوقوع فيما به بأس، وهو أصل الاحتياط للدين والاستبراء له، الذي أوصى به سيد المرسلين، عليه الصلاة والسلام. فقد ورد في الحديث الصحيح عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: - وأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إلى أُذُنَيْهِ - **« إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ وإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ! وبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فيه أَلَا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ! أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ »** (١). وذلك هو بيان معنى الورع، وهو خير الدين، على ما ورد في السنة الصحيحة، من قوله ﷺ: **« وَخَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ »** (٢).

فهذا الاحتياط من أهم المسالك العملية، التي تخرج المؤمن من فتنة الجدل العقيم في التزام التروك، ومجانبة مواردها القريبة منها؛ ما يؤهله للدخول بيسر في التنفيذ العملي لدروس « عباد الرحمن » من ترك اللغو والعبث.

الثاني: التزام أوراد الدعاء الخالص أبدًا، والتوجه الصادق به إلى الله، في ختم كل

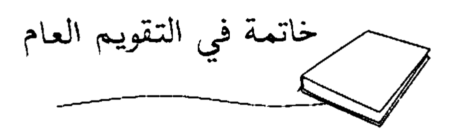
---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم عن حذيفة، كما أخرجه الحاكم أيضًا عن سعد. وصححه الألباني. حديث رقم: (٤٢١٤) في صحيح الجامع.

عمل؛ لما في ذلك من التبرء التام من الحول والقوة، ولما فيه من تحقيق الافتقار الكامل إلى اللَّه، ما يجعل المؤمن ثابتًا على مقام التوحيد الخالص وما يستجلب ولاية اللَّه له، ومباركته تعالى لمسلكه وعمله. وكفى بذلك ضمانًا للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

* * *



خاتمة في التقويم العام

وأخيرًا يا صاح، هذه هي سورة « الفرقان » الآن بين يديك.. فإمَّا أنْ تكونَ قد تَلَقَّيْتَ كلماتِها تلاوةً ومدارسةً وتزكيةً، ونَزَّلْتَ رسالاتِها على نفسك، رسالةً رسالةً؛ فإنك إذن قد تَلَقَّيْتَ من اللَّه - إن شاء اللَّه - فُرقَانًا، فاللَّه ﷻ لا يُخلف وعده أبدًا وإن الرَّبَّ لَشَكُور ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وفرقانية هذه السورة العظيمة « إمامةٌ » على مستوى خِرِّيجِي مدرسة عباد الرحمن، إمَامةٌ تجعل بين ماضيك وبين حاضرك فرقانًا، وتجعل بينك وبين الكفر والفسوق والعصيان فرقانًا، وتجعل بينك وبين الظلمات فرقانًا، وتجعل بينك وبين مَوَاطِنِ الزور واللغو والعبث فرقانًا وتجعل بينك وبين العجز والكسل فرقانًا.

إن فرقانية هذه السورة تجعل منك عبدًا من « عباد الرحمن » ينطلق بكلمات اللَّه في الآفاق، ينشر النور، ويؤسس للقرآن مجالسَ ملائكيةَ الحضور، ويجاهد بالقرآن أشباحَ الظلام ومفاهيمَ الظلام، وأخلاقَ الظلام سَنَدُهُ في ذلك ولايةُ اللَّه، وزاده اليقين في نصرته جلَّ عُلَاه، وغايته الوصول إلى جمال رضاه.

فإن لم تجد شيئًا من ذلك يا صاح، فقطعًا قد غششتَ نفسَك في مرحلة من مراحل الطريق! فَأَعِد الدَّرسَ من البداية ولا يأس من رحمة اللَّه.

وصلَّى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

* * *



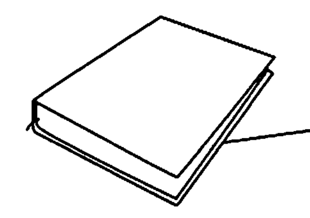
من التلقي إلى البلاغ

القسم الثاني: المدارسات القرآنية

٣ - سورة يس

وهي مكية، وعدد آياتها (٨٣)،

وهي تتضمن تسعة مجالس





أما سورة « يس » فهي مدرسة أخرى تمامًا.

إنها سورة الدعوة والداعية، الداعية الذي عرف ربه فأحبه عرفه بما تجلى عليه من أنوار الجلال والجمال، فانطلق يسعى حثيثًا يحمل وهج الدعوة إليه، وتعريف الناس بما أنعم اللَّه عليه من جمال المعرفة به ﷻ وليس كاسم اللَّه الأعظم أدل على اللَّه، ولا أبلغ في الكشف عن أنوار عظمته سبحانه جل علاه؛ ولذلك كانت هذه السورة تفيض بما لا ينحصر من تجليات الجلال والجمال، الصادرة عن الاسم الأعظم؛ لتزويد الداعية المخلص بما يملؤه يقينًا في اللَّه، ويعمره محبة في مولاه ويجعله - قبل ذلك وبعده - يتحقق بمقام التوحيد الخالص، مشاهدة حسنى لا يضام فيها أبدًا.

فالسورة تمد العارف الداعية إلى اللَّه بمدد من الحكمة والمعرفة لا قِبَلَ للسالكين به، إنها تفيض بمعاني الحياة بكل طبقاتها، وبكثير من أسرار الخلق والإحياء على اختلاف ألوانها وأشكالها، وإنها لتنبض بجلال القيومية، وبعظمة التقدير والتدبير؛ ما يجلي للعبد - من شؤون الربوبية - حقائق اليقين على منزلة الشهود الكامل فيسترخص دمه في طاعة اللَّه، ويهرق أنفاسه رجاء نيل رضاه.

تلك هي سورة يس، فمن أوتيها فقد أوتي خيرًا عظيمًا وفتحًا مبينًا.

إنها سورة تمنح المتلقي لحقائقها منزلةً خاصة من المعرفة باللَّه، وتجعله يعتلي مقامًا من المشاهدات النورانية لا مثيل له فمكابدتها تورث السائر إلى اللَّه ﷻ حقيقة المحبة، بل تورثه الفناء في بحارها، والغرق في أنوارها فعبر مسالكها ارتقى شهيد المحبة إلى عين اليقين.

كانت رياح الشوق تحمله بأجنحتها إلى وطيس الصراع الدائر بين الحق والباطل، فجاء من أقصى المدينة يسعى ليدلي بشهادته النازفة ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسۡعَىٰ ﴾ فكان ثمنها إهراق دمه المشوقِ بحب اللَّه فنادى المرسَلين وهو يجود بدمائه الحرى: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ وجاء الجواب من ملائكة الرحمن

سريعًا، جاءه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، مودعًا عالم التراب الفاني: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فلما رأى ما رأى ووجد ما وجد ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ قالها بعد استشهاده مباشرة، وهو ينطلق محلقًا بأجنحته الخضراء في فضاءات: الجنة العريضة مشرفًا من أعاليها على مَنْ خَلَّفَهُمْ تحت أدران التراب، من جموع الطغاة الجهلة بالله.

ثم ترتقي السورة بالسالك المحب عبر معارج المشاهدات والكرامات، ومباهج السياحات، لِيَتَمَلَّى بما أُذِنَ له من ملكوت الله العظيم، ويتغذى بالنظر في آيات الله الممتدة من دقائق الأنفس إلى عجائب الآفاق، وحركة النجوم السيارة، والأفلاك الدوارة، المتفانية في عبادتها لله تسبيحًا وتفريدًا؛ بما يرسخ يقين المحب في محبوبه، ويذكي شوقه إلى لقائه؛ حتى إذا اكتملت له النعمة، وغمرته السكينة والرحمة، وشاهد من آيات الجمال والجلال ما بهر فؤادَه؛ خَرَّ قَلْبُهُ مسبحًا بين يدي مولاه، فتجلى له نور الطابع الرباني، الخاتم لشهادة تخرجه من مدرسة المحبين، تلاوة تهدهد آلام أشواقه بوعد جميل: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

تلك كانت إشراقات من حقائق الإيمان، النابضة في سماء هذه السورة العظيمة (١).

فما بقي الآن إلا أن نحاول تلقي إشاراتها وأنوارها، وذلك من خلال تسعة مجالس هي كما يلي:

---

(١) قد وردت أحاديث كثيرة في فضل سورة « يس »، وما لها من خصائص وبركات، لكن أغلبها ضعفه أهل الصناعة من علماء الحديث. إلا أن القرآن يشهد بنفسه على نفسه بفضاه وعظمته. ونحن لا نستبعد أن يكون النبي ﷺ قد أشار إلى شيء من ذلك - فيما يخص هذه السورة بالذات - فحض عليها حضًا خاصة وأن الكلام عنها قد ورد عن عدد من الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - كما تداولته كتب الحديث والتفسير، وإن في هذا لدلالة كافية على تفردها وعظمتها.

المجلس الأول

في مقام التلقي لأصول العمل الدعوي
تعريف الداعية بمقامه، وبطبيعة رسالته، وأصناف مخاطبيه

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨
وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ
ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا
قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١ - ١٢].

٢ - البيان العام:

« ياء » و « سين »، من هاهنا يكون البدء في تلقي أنوار الحكمة؛ حرفان كريمان من حروف القرآن الكريم، يفيضان أُنسًا وجمالًا، ويربطان قلب المؤمن بالعمق الغيبي لهذا الكتاب العظيم، ولقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى الأحرف المقطعة الواردة بفواتح بعض السور، وذهبت آراؤهم فيها مذاهب شتى، إلا أنه لم يصح في ذلك عن النبي ﷺ شيء، فليس لنا أن نقرر في شأنها إلا ما يليق بخطاب العرب وبمقام القرآن العظيم.

أما الشيء الذي لا خلاف فيه، فهو أن هذه الأحرف قد بقيت لغزًا من ألغاز القرآن الكريم، ولا أحد استطاع أن يأتي فيها بقول يكشف سرها، ثم يستقيم

ومقاييس العلم روايةً أو درايةً! فكل ما قيل حولها تخمينات وظنون لا تغني عن الحق شيئًا، وبعض المفسرين مال إلى ربطها بحساب الجمل، وهو أمر لم تعرفه العرب، ولم تفسر به خطابها قط. وكل ما ورد في ذلك من الروايات ينتهي أغلبه إلى الإسرائيليات، وفي بعضها من الباطل ما كشفه التاريخ! كتحديدهم عمر هذه الأمة بناءً على جمعٍ لأعداد بعض تلك الحروف على حساب الجمل ثم امتدت الأمة في الزمان أكثر بكثير مما عدوا لها.

الشيء الوحيد الذي بقي مقبولًا في تفسير هذه الأحرف هو أنها - كما ذكرنا - من متشابه القرآن الذي لا يعلمه إلا الله وهذا مُعْطَى علمي مهم جدًّا، نبني عليه بياننا - بحول الله - هاهنا، **وذلك بتسجيل الملحوظات التالية:**

- **أولًا**: أن هذه الأحرف لها في مواضعها من كتاب الله دلالتها الخاصة، وهي دلالات مختلفة؛ لاختلافها هي في نفسها، فـ « الٓمٓ » مثلًا ليست هي « الٓرَ »، ولا هي « الٓمٓرَ »، ولا هي « الٓمٓصٓ »، ولا هي « كٓهيعٓصٓ »، ولا هي « يسٓ » أو « صٓ » أو « قٓ »... إلخ. فكل زيادة أو اختلاف في المبنى، يدل على زيادة أو اختلاف في المعنى.

- **ثانيًا**: أن لها معاني خاصة عند الله تعالى، مرتبطة قطعًا بسورها المذكورة في أوائلها من جهة، ومرتبطة - من جهة ثانية - بطبيعة هذا القرآن، الذي هو كلام الله ﷻ ، فالله تعالى لا يتكلم عبثًا، بل لا يتكلم إلا بالحق، سبحانه ﷻ .

- **ثالثًا**: أن الله تعالى استأثر بحقائق تلك الأحرف في علم الغيب عنده، كما استأثر بكثير من أسمائه الحسنى وصفاته العلى عنده أيضًا، وفي هذا دلالة عظيمة على ثمرة إيمانية كريمة، وهي كما يلي:

- **رابعًا**: أن حقيقة هذا القرآن كله - ما علمنا منه وما لم نعلم - مرتبطة بعالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأنه تعالى إنما بين لنا منه ما تقوم به حياتنا التعبدية، وتتوجه به التكاليف الشرعية العقدية والعملية، ويصلح به العمران البشري، وتقوم به الحجة على الناس، وذلك هو ما يُسِّر منه تيسيرًا كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]. وإلا فمن ذا قدير على أن يتلقى كلام رب العالمين - المحيط بكل شيء في هذا الوجود العظيم - وأن يرتله ترتيلًا؟! ولقد صدق سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ؛ إذ قال في هذا قولته الشهيرة: (لولا أن الله يسره

على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ) (١).

ومن هنا وردت هذه الحروف في كتاب الله من الغوامض التعبيرية؛ وفي ذلك إشارة إلى هذا الأصل الإعجازي العظيم، كأنها تقول للإنسان: انتبه إن هذا الكتاب الذي يُسِّرَ لك أن تقرأه اليوم كتاب غير عادٍ تمامًا إنه كتاب غريب عجيب إنه بحار غير متناهية من الحقائق الغيبية والكونية مما لا يحيط بحقيقته إلا الله رب العالمين فتأدب يا عبد، تأدب بأدب العبودية بين يدي الملك العظيم، وأنت تستفيد - فيما أُذِنَ لك - من نعمة تيسير القرآن المجيد تلاوةً وتدبرًا.

ويكفيك دلالة على هذا التأصيل الأصيل، قول الله تعالى عن كلامه ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] ولقد أشار النبي ﷺ إلى تفرد كل حرف من حروف القرآن العظيم بقيمة ذاتية، لكن ليس بما هو حرف عربي؛ ولكن بما هو جزء من كلام الله ﷻ ، ولذلك رتب الأجر للقارئ على عدد ما قرأ من حروف رغم أن الحرف في اللغة البشرية وحدة صوتية لا معنى لها لكنه هاهنا شيء آخر، إنه حرف مختلف عن أي حرف في أي لغة، إنه حرف قرآني، ويكفيه ذلك ليضرب بجذوره في عمق الغيب، ذلك هو مقتضى الحديث النبوي المشهور، من قوله ﷺ: « **من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول « الم » حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف** » (٢).

ومن هنا أيضًا وردت أغلب الأحرف المقطعة في أوائل السور مرتبطة بالإشارة إلى عظمة القرآن، أو مصدريته، أو في سياق قَسَمِ الله ﷻ به كما في قوله تعالى من فاتحة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ وقوله سبحانه في الأعراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾. وفي يونس: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وفي هود: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ وفي الرعد: ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ ﴾ وفي إبراهيم: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ وقال هنا

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/٣٣٧).

(٢) رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وقَالَ: حديثٌ حسنٌ صحيح. انظر سنن الترمذي، (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر). كما رواه الحاكم أيضًا في المستدرك.

في « يس » مُقْسِمًا: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ كما قال بعدُ في « ق »: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ وغير هذا وذاك في القرآن كثير.

وعليه؛ فقوله تعالى: ﴿ يسٓ ﴾ بمفتتح هذه السورة العظيمة إشارة منه ﷻ إلى عمقها الرباني الممتد في بحار الغيب، وإلى أنها تزخر بنفائس الأسرار وكرائم الأنوار، فهي محملة بنور خاصٍّ من قوله تعالى العام في القرآن كله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦] فلها أسرارها التي تخصها من ذلك، كما أن لكل سورة في كتاب اللَّه أسرارها التي تخصها.

لكن الافتتاح بهذين الحرفين هاهنا على الخصوص « ياء » و « سين »، بما لهما - على المستوى الصوتي - من لطف وجمال، ثم القَسَم بعدهما مباشرة بالقرآن موصوفًا بالحكمة؛ يجعل من ذلك كله إشارة إلى أن هذه السورة مكتنزةٌ بالحِكَم الربانية، ذات اللطف الخفي والجمال البهي، وهي حِكَمٌ لها من الخصوص ما يربط القلب بكرامات الغيب مباشرة، ويجعله محفوظًا باللَّه، لا يرى إلا بنور اللَّه على ما سنبينه بحول اللَّه عند تلقي رسالات الهدى الواردة بالآيات.

فنأخذ هاهنا في هذا البيان العام أن المقسم عليه، المقصود بالخطاب أصالةً، هو أن هذا النبي المصطفى ﷺ رسولٌ من رب العالمين حقيق، رسول ماضٍ على سَنَنِ المرسلين، يتلقى الوحي كما تلقوه من رب العالمين. ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وقد يتساءل المرء بادئ النظر: لماذا هذا التوكيد الشديد من اللَّه ﷻ في خطابه الموجه إلى رسوله ﷺ قصد إثبات قضية هي من أولى المسلَّمات بينهما ابتداءً؟!

إنها توكيدات متتالية متضافرة بدءًا بالقَسَم ثم جعل جوابه مسلحًا بالحرف الناسخ: « إنَّ »، وبلام التوكيد، ثم جعل السياق كله متعاضدًا بجمل اسمية متتابعة كل ذلك من أجل القول: إنك - أيها الرسول - لمن المرسلين بوحي اللَّه إلى عباده، على طريق مستقيم، وهو الإسلام الذي هو مسلك كل الأنبياء والرسل قبلك؛ تنزيل العزيز في انتقامه من أهل الكفر والمعاصي، الرحيم بمن تاب من عباده وعمل صالحًا. إن التوكيد المتضافر هاهنا هو مدد من اللَّه لرسوله، صحيح أن محمدًا ﷺ يعلم أنه رسول اللَّه، ولكنه الآن في خضم معركة، معركة الدعوة إلى اللَّه ومواجهة طغاة

الكفار الذين يكذبون الرسول ويحمون الباطل بقوتهم وجبروتهم، فيثيرون ضده - عليه الصلاة والسلام - وضد دعوته الشبه والتلبيسات، مما يفتن الناس ويحزن الرسول على غرار ما جاء في قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] ومثل هذا في القرآن كثير؛ ومن ثم كان الرسول في حاجة إلى دعم إلهي ومدد رباني، وهو يخوض معركة الحق ضد الباطل، فتتنزل عليه هذه الآيات مسلحة بهذه التوكيدات؛ لتمده بقوة جديدة، وتزيده ثباتًا وصبرًا في مواجهة الباطل، فَتُذَكِّرُهُ بأنه بشر غير عادٍ، بل هو بشر مرسل من رب العالمين إلى كل العالمين بشر نعم، ولكنه من نوع آخر، إنه من نوع المرسلين الموصولين بالله أبدًا، الممدودين منه تعالى بروح القدس، يحمل راية الإسلام ويجدد دعوته حجته هذا القرآن العظيم، الذي هو كلام الله رب العالمين هكذا تتنزل عليه هذه الحقائق القرآنية مددًا عظيمًا في ساعة الشدة، وفي لحظة الضيق والحرج؛ فتضاعف قوته وعزيمته؛ بما يجعله من أولي العزم من الرسل، بل يجعله سيدهم وسيد المرسلين أجمعين، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلوات والتسليم. فأي تسلية هذه وأي تثبيت؟! وأي مدد هذا وأي عطاء؟!

ثم يحدد القرآن للرسول الوظيفة الأساس التي هي مناط رسالته: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ وأفرد النذارة بالذكر - في هذا السياق - دون البشارة؛ لضخامة حجم الضلال، وشدة قتامة التيه الذي كانت تتخبط فيه البشرية زمن الرسالة، عربًا وعجمًا، ثم لخطورة النبأ العظيم الذي نزل به هذا القرآن نذيرًا للناس، والناس يومئذ قد تعاقبت عليهم الأجيال دون ورود خبر من السماء نبوةً أو رسالة، إلا ما كان من بقايا صحف أهل الكتاب التي اختلط حقها بباطلها، فلم تعد تغني من الحق شيئًا، فاشتدت وطأة الجاهلية في الأرض واشتد ليلها وضلالها، إنها غفلة شديدة مديدة، طالت حتى استحكمت الأهواء في الأنفس، وأُشْرِبَتْ طغيانها. فَعُبِدَتْ الطواغيتُ الحجرية والبشرية من دون الله الواحد القهار، وسيطرت شريعة الغاب على العالمين، وصار للظلم والظلمات سَدَنَةٌ غلاظ شداد يحمونهما، فلا رغبة لديهم لسماع كلمة الحق والاستجابة لنداء الهدى ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد صار ما أُشْرِبُوا من حب الكفر والضلال،

أغلالًا تربط أيديهم إلى أعناقهم؛ فهم بذلك مُقْمَحُونَ أي مُشَكَّلو الرؤوس والوجوه إلى أعلى، لا يستطيعون عن هذا الوضع تحولًا، فلا قدرة لهم على إبصار مواضع أقدامهم، ولا على إبصار علامات الهدى المنصوبة على الطريق من الآيات البينات؛ ولذلك لا يصدقون مما يقال لهم عنها شيئًا ولقد صوَّرهم الحقُّ تعالى - بهذا الانقماح العجيب - تمامًا على صورة ما يكونون عليه فعلًا من هيئة، عندما يغشون النوادي برؤوس مرفوعة إلى السماء تكبرًا وغطرسة وطغيانًا، ولذلك فقد أحاط بهم كبرياؤهم الجاهلي، وانتصب سدودًا منيعة من بين أيديهم ومن خلفهم، فوقعت بذلك الغشاوة على أبصارهم؛ فأنى يهتدون؟

ثم يلتفت الخطاب إلى الرسول ﷺ من بعدما بيَّنَ له حجمَ الضلال الذي تعاني منه البشرية في زمانه، منبهًا إياه إلى أن هذا الضرب من الكفار، ممن انتصب كبرياؤه طاغوتًا في الأرض، لن يهتدي أبدًا ولن يصدق من خبر السماء شيئًا، سواء بلغته نذارتك أم لم تبلغه؛ إذ كشف الحقُّ ﷻ ارتباطهم الشديد بكفرهم وكبريائهم فلا استعداد لديهم للخير ولا للهدى أبدًا.

وإنما سيستجيب لدعوتك - أيها الرسول - من أنصت لهذا القرآن بتواضع، صادق الرغبة في معرفة الحق، والقرآن هو كلام اللّٰه المعرف باللّٰه؛ ولذلك ما قرأه أحد بهذا المنهج إلا انفتحت بصيرته على الحق، فتجلت له عظمة اللّٰه ﷻ وامتلأ قلبه خشية وتعظيمًا وكان من المؤمنين. أما هذا فبشره بمغفرة لما كان عليه من كفر وضلال، وبشره بأجر كريم على ما استأنف من حياة إيمانية مباركة.

ثم يقرر القرآن بعد ذلك حقيقة النبأ العظيم، وهو البعث بعد الموت تلك الحقيقة التي رفضها مَرَدَةُ الكفار قديمًا وحديثًا؛ سخرية منهم بالحق واستكبارًا فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ فلا شيء من عمل ابن آدم يضيع أو ينسى، خيرًا كان أم شرًّا، سواء في ذلك ما عمله في دنياه فانقطع بموته، أو ما خلفه متوارثًا بعده، كل شيء يثبته الحق تعالى في أُمِّ الكتاب وسماه هاهنا « إمامًا » لأنه ما أَمَّهُ أحد - بمعنى قصده - لمعرفة شيء إلا وجده فيه فهو إمام مبين في كل شيء، ولذلك قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

تلك إذن قصة هذه النذارة، وذلك هو مناط هذه الرسالة، وإنه لِمَنْ مَلَكَ البصيرةَ لنبأٌ عظيم، إليه يصير الوجود البشري كله.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى ست رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في بيان العمق الغيبي للقرآن الكريم، وما فيه من حكمة ظاهرة، وأخرى خفية لا تظهر للناس، بل إنها لا تتجلى للعبد إلا بعد الشروع في العمل أو بعد الانتهاء منه، وربما تراخت عن ذلك زمانًا على سبيل الابتلاء؛ حتى يدخل العبد في العمل دخول المؤمن بالغيب، المسلم للَّه رب العالمين، ثم إن هذا القرآن - بما هو منزل من لدن العزيز الرحيم، عالم الغيب والشهادة - يتضمن خريطة الحياة البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها بدقة متناهية، لكنها خريطة في أغلب معالمها خفية، فهي تشرف على عالم الشهادة من عالم الغيب. وواجب على العبد المؤمن أن يستشرفها باتباعه الدقيق لتعاليم القرآن.

الرسالة الثانية: في ضرورة اقتناع الداعية برسالته قصدًا ومنهجًا إلى درجة اليقين، وذلك بتحقيق الاستيقان الشهودي بمصدرها الرباني؛ بما يجعله على إيمان راسخ متين بدعوته، وإلا فأي تذبذب يقع له في الإيمان برسالته؛ فإنه يكون قطعًا من الفاشلين! وليس معنى هذا التذبذب في مطلق الإيمان كلا، فقد يكون من المؤمنين الصالحين، وإنما المقصود التذبذب في حمل أمانته، وأداء وظيفته، والغفلة عن حقيقة نصرة اللَّه لجنده، وعدم مشاهدة معيته. فتلك أمور متى غابت عن الداعية فشل في دعوته.

الرسالة الثالثة: في أن استبطان حقيقة النذارة لدى الداعية وتحمل أمانتها، أنشط له في العمل المتواصل الدؤوب، وفي إشعال جذوة الحماس في قلبه، وتلك هي حقيقة النبأ العظيم الذي جاءت به كل الرسالات قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر: ٢٤] ولنا من حديث رسول اللَّه ﷺ تصوير دقيق لحاله وهو يدعو الناس، تصوير فيه من الشفقة البالغة والرحمة الشديدة ما يبين الوضع النفسي والإيماني الذي وجب أن يتحلى به المؤمن الداعية إلى اللَّه إزاء مخاطبيه، فعن

أبي هريرة ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام قال: « **مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاشُ وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يَحْجُزُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها فذلك مَثَلِي ومَثَلُكُمْ، أنا آخذُ بِحُجَزِكُمْ عن النار: هَلُمَّ عن النارِ! هَلُمَّ عن النارِ! فتغلبوني فتقتحمون فيها** » [١]. وفي رواية جابر: « **وأنا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النارِ، وأنتم تُفْلِتُونَ من يدي** » [٢]؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « **وإني أنا النذير العريان فالنَّجَاءَ النَّجَاءَ** » [٣].

الرسالة الرابعة: في أن انقطاع النذارة في بيئة ما، وتوارث أجيالها للجهل بالدين، يجعلها تدخل في غفلة شديدة، وتضرب في ظلمات من التيه، يصعب جدًّا التخلص منها؛ حيث تصير إلى التطبع العميق مع المنكر واستغراب المعروف وتنتهي إلى حال انقلاب المفاهيم مما يثقل مسؤولية الدعاة ويعقدها؛ ولذلك وجب مداومة النظر في معالم الآيات الدعوية من كتاب اللَّه ﷻ؛ لمعرفة خصائص النفس البشرية: مَنْ له قابلية للخير ومن أغلق قلبه دونه، ثم ختم عليه بالضلال المبين، فلكل من هذين الصنفين علامات في كتاب اللَّه. ثم إن على الداعية أن يستفيد من مناهج النذارة النبوية، خاصة في المراحل الأولى من دعوته - عليه الصلاة والسلام - لتشابه أحوال التجديد بأحوال البدء والتأسيس، أعني في مثل هذه الظروف المذكورة، من انقطاع النذارة وتوارث الأجيال للجهل والضلال.

الرسالة الخامسة: في التنبيه على عدم الانشغال الكثير بمجادلة الطواغيت المستكبرين، من سَدَنَةِ الضلال وصُنَّاعِ الفجور وحُماة المنكر، إلا على سبيل إقامة الحجة. وإنما يجب الاهتمام الأكبر بأهل التواضع من المستضعفين، وجموع الحيارى الغافلين، الباحثين عن الحقيقة، ممن إذا عَرَّفْتَهُ باللَّه وقعتْ في قلبه خشيته وانقاد للحق؛ فكان من المهتدين بإذن اللَّه.

الرسالة السادسة: في أن قضية البعث والحساب وما تضمنه اليوم الآخر من حقائق إيمانية، هي أهم قضية - بعد الإيمان باللَّه - وجب على الداعية أن يجعلها

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) متفق عليه.

أساس خطابه ومناط نذارته، فالمصير الأخروي هو قضية القرآن الكبرى، فهو الأصل، وأما ما سواه من الوعود الدنيوية - من صلاح المعاش ورغد العيش - فإنما هو تَبَعٌ، وليس مقصودًا للقرآن دعويًّا إلَّا على سبيل الابتلاء! وعدم التزام الخطاب الدعوي بهذه المراتب قَلْبٌ لموازين القرآن، ففي غزوة الخندق كان رسول الله ﷺ يَرْجُزُ بصوت عالٍ: « **اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة** » [١] وكان أول بيانه لقريش - وهو واقف على الصفا خطيبًا - قوله ﷺ: « **إني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذاب شديد** » [٢].

٤ - مسلك التخلق:

لتحقيق الداعية اليقين بدعوته وجب عليه الاستمداد الدائم من حقائق الغيب، مما أحكمه اللَّه في كتابه، وقراءة كل ما يقع من حوادث هذا العالم من خلال مُنظاره. والتزود من مراتب العلم باللَّه ما يملأ قلب العبد خشية، ويجعله مهمومًا ببلاغ النذارة وإنما تحصل مراتب العلم باللَّه تدرجًا؛ وذلك بالتدبر الدائم لكتاب اللَّه، والدخول في صالح الأعمال من خالص العبادات مع الاقتداء في كل ذلك بأسوة الأمة سيدنا محمد ﷺ، وجعل أحواله في سنته وسيرته نصب العين أبدًا.

وأما النذارة الواقعة من خطاب الداعية، فلا يمكن أن تكون ذات تأثير، إلا إذا صدرت عن قلب تَمَلَّكَهُ الخوفُ حقيقةً من اللَّه ﷻ أما تَصَنُّعُ ذلك وتَكَلُّفُهُ فلا تُرجى منه فائدة دعوية، ومن هنا فالمسلك العملي للتحقق من ذلك خُلُقًا خالصًا، هو التعرف على مقام اللَّه العظيم، ومشاهدةُ الآيات المعرفة بِقَدْرِهِ تعالى وعظمةِ سلطانه قال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤] وقال سبحانه: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

كما يتم ذلك بالمطالعة الدائمة لحقوقه ﷻ المترتبة على عباده؛ بما نالهم منه تعالى من النعم التي لا تحصى، ثم ما وقعوا فيه - بدل الشكر - من العصيان لأمره ونهيه والشرود بعيدًا عن صراطه المستقيم ثم على العبد تطبيق ذلك كله على نفسه، وإخضاعها لمقاييسه؛ ليرى حجم تقصيره في حق ربه، وعظمة ذنبه وكثرة خطيئاته،

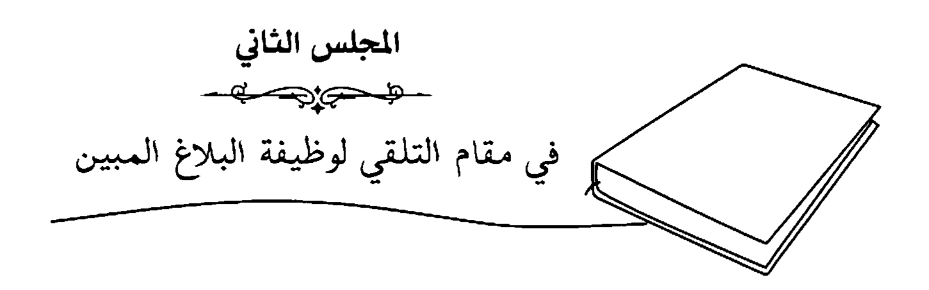
---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

وما باء به من هذا وذاك؛ فذلك كله أدعى لتحقيق الخوف من مقام اللَّه العظيم، وأرجى للداعية في التحقق بخطاب النذارة من دعوته، خُلُقًا مخلصًا للَّه الواحد القهار فما يصدر عنه آنئذ إلا نذير خالص تتخلله الزفرات الصادقة والآهات المكابدة، قال تعالى في حق خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

* * *



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٣ - ١٩].

٢ - البيان العام:

هذا يوم من أيام الله، وقصة من قصص القرآن البليغة، كان ذلك في مدينة أنطاكية الواقعة اليوم في شرق تركيا، وكان يحكمها آنئذ ملك طاغية يعبد الأصنام ويفرضها على قومه، كان ذلك زمان أنبياء بني إسرائيل، وقيل: زمن المسيح عليه السلام، والرسل الثلاثة المذكورون في القصة قيل: هم رسله - من الحواريين - إلى أهل أنطاكية بأمر الله. وقيل: بل هم رسل مباشرون من رسل بني إسرائيل، وهو الذي عليه جمهور المفسرين (١) وهو الذي يؤيده سياق الآيات، وكل ذلك هاهنا سواء، لا تعارض فيه من حيث الحكمة والمقصد الدعوي.

ونظرًا لما تكتنز به هذه القصة من حِكَم بليغة، وسنن ربانية عظيمة، فقد ضربها الله مثلًا لقوم سيدنا محمد ﷺ وبقيت - بعد ذلك - عبرة للبشرية، شاهدة على صراع

(١) ن. تفصيل ذلك في تفسيري الطبري وابن كثير.

الحق والباطل إلى يوم القيامة، بقيت - من حيث مقاصدها الدعوية والتربوية - قصة جديدة لا تبلى أبدًا.

فقد أرسل اللَّه ﷻ إلى طاغوت أنطاكية وقومه رسولين اثنين، يعزز أحدهما الآخر ويؤيده. كانا يحملان رسالة واحدة، مدارها على الدعوة إلى توحيد اللَّه رب العالمين، ونبذ عبادة الأصنام، وما دأب عليه أهل المدينة من الشرك لكن الملأ من سدنة الكفر والضلال كذبوا الرسولين، فعززهما اللَّه برسول ثالث، كل واحد منهم كان يتحدث بما آتاه اللَّه من بلاغة وبيان، ويخاطب القوم بحجج تقوي حجج صاحبه وتبينها، فهذا يفصل مجمل ذاك، وذاك يفسر مبهم هذا؛ بما يجعل كل ردود الكفرة باطلة، وحججهم داحضة، وينير طريق الإيمان أمام جموع المستضعفين؛ مما أفزع طغاة القوم، فعدلوا - عند الهزيمة - إلى إلغاء الحوار، والتجؤوا إلى لغة العنف والتنكيل بالرسل والتهديد بتعذيبهم وقتلهم؛ قصد إخراس كلمة الحق، وحرمان المستضعفين من تلقي رسالات الهدى، شأنَ سائر الطغاة في كل زمان ومكان.

كانت حجة الكفرة قائمة على رفض أن يرسل اللَّه ﷻ رسولًا إلى الناس من جنسهم، وهي حجة راجعة إلى الرغبة في التعجيز، وإلى ما تنطوي عليه النفس المريضة من الكبرياء، لا إلى الجدل المثمر البناء الرامي إلى التحقق من صحة الرسالة وصدق حاملها. وتلك كانت نفس حجة كثير من الأمم الذين كذبوا رسلهم، كما كانت حجة قريش في تكذيبهم لرسول اللَّه ﷺ؛ حجة واحدة تحقق بطلانها مئات المرات عبر التاريخ، ومع ذلك لم يزل الكفار يلجؤون إليها؛ إذ لا محيص لهم عنها، فما من حجة لهم إلا وهي أَوْهَى وأوهن منها ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

وقد أجمل الحق ﷻ خطاب الأنبياء الثلاثة في هذه القصة، وعرضه بأدوات التوكيد التي وردت في السياق، من مثل قولهم: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ بما يفيد أنهم أقاموا الحجج القوية الدامغة على أهل القرية؛ حتى لم يبق معها مجال للشك أو التردد في صدق الرسالة التي جاؤوا بها، وفي بطلان ما عليه القوم من الشرك وعبادة الأوثان. كما أن الخطاب اللاحق في السياق للرجل المؤمن، المتدخل في اللحظة الحاسمة، بما فيه من بيان قوي وتفصيل محكم،

دالٌّ على مضمون خطاب الرسل الثلاثة، وما أقاموه من حجج على قومهم. فلواحق السياق تبين سوابقَه. وهذا من جمال بلاغة القرآن العظيم.

وقولهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ مفيد أنهم قد أدوه على أتم ما يكون الأداء، وأن القضية بعد ذلك إنما هي قضية هداية، وهذا أمر لا يملكونه ولا هم مكلفون به؛ فالهداية إنما هي بيد الله وحده؛ وذلك على غرار ما قال لمحمد ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

وذكرت كتب التفسير أن الله - جل ثناؤه - قد ابتلى القرية بشتى ضروب البلاء، من حبس الغيث وضنك العيش والأوبئة؛ لعلهم يرجعون لكن ذلك ما زادهم إلا طغيانًا، بل اتهموا الرسل بأنهم هم سبب ما أصابهم من بلاء؛ بما سفَّهوا من عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم فكأنما تلك الأصنام قد غضبت فانتقمت من أهل القرية جميعًا، وقد حكى القرآن مقالة الطغاة هاهنا: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وبهذا الجهل من اعتبار الرسل شؤمًا على القرية كلها، ثم تهديدهم بالرجم والتعذيب؛ قطع الطغاة كل أسباب الحوار ومنعوا المستضعفين - ظلمًا وعدوانًا - من سماع كلمة الحق.

لكن الرسل مكلفون بالاستمرار في أداء الرسالة، والثبات على بلاغها للناس أبدًا؛ وعدم الرضوخ لتهديد الطغاة، مهما كلفهم ذلك من ثمن فردوا عليهم ردًّا قويًّا حاسمًا لا مجاملة فيه ولا رَهَب ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي إن كفركم وضلالكم من الإصرار على الشرك، وتكذيب رسل الله هو الشؤم عينه، ثم رموا الكفارَ بسؤال إنكاري شديد! مفاده: أبسبب أننا ذكَّرناكم بالله ربكم ورب العالمين، وبيَّنا لكم بطلان ما أنتم عليه من الشرك؛ حرصًا على هداكم، وبلاغًا من الله ربنا وربكم، أبسبب ذلكم قابلتمونا بالتهديد والوعيد؟ ألا إن هذا لهو الظلم والطغيان المبين.

فما كان من الطغاة آنئذ إلا أن أحاطوا بالرسل واقتادوهم للتعذيب والقتل.

وهنا ينتقل السياق القرآني إلى مفاجأة كبرى في إبراز مأساة هذه القصة العجيبة، وهي تَدَخُّلُ الرجل المؤمن - المسمى حبيب النجار - في اللحظة الحاسمة، تَدَخَّلَ بخطاب عجيب لخص فيه بيان الرسل الثلاثة، وأقام الحجة بطريقة أخرى، على

شناعة ما أقدم عليه الطغاة من الهم بقتل رسلهم! فكان في قصته من العبر البليغة، ما نجعله مدار حديث المجلس الثالث إن شاء اللَّه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى الرسالات الثلاث التالية:

الرسالة الأولى: في أن تعاون الدعاة وتنسيقهم فيما بينهم، من أهم أسباب نجاحهم، وأقرب إلى مرضاة ربهم؛ فالتعاون على الخير والاجتماع عليه قوة له ونصرة، أما اختلافهم بَلْهَ تشاحنهم وتباغضهم فهو الخسران المبين، ولا يجوز اختلاف فيما الأصل فيه عدم الخلاف؛ إلا بسبب تدخل الأهواء؛ ولذلك كان الإخلاص أول عمل ذاتي وجب تحقيقه لدى الداعية في نفسه قبل الانطلاق في دعوته. وما اختلف قوم مخلصون لربهم قط في أصول دعوة لا اجتهاد فيها، وإنما هي بلاغ لحقائق إيمانية معلومة من الدين بالضرورة.

الرسالة الثانية: في أن الحق قوي بذاته، فإذا بلَّغه الداعية الحكيم بما يليق به من بيان، كان منتصرًا بمجرد الكلمة، وذلك كان هو أساس دعوة جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] فلا يستهينن أحد بقوة الكلمة وخطورتها في الخير والشر، فأما كلمة الحق والهدى في الدعوة إلى اللَّه فهي الغالبة بإذن اللَّه أبدًا، فما ينبغي أن تقدم عليها وسيلة من الوسائل مهما كانت براقة، بل يجب أن توظف وسائل العصر الإعلامية، والتقنيات الجديدة كلها؛ لإعلاء كلمة الحق ونشر الهدى؛ بيانًا للناس وبلاغًا. ولو تيسر هذا الأمر بغير موانعَ ولا مَقَامِعَ، لكانت الأمة اليوم في نهضة دينية جديدة، وإنَّ صُبْحَهَا بإذن اللَّه لقريب.

الرسالة الثالثة: في أن أسلوب الطغاة في كل زمان ومكان، إزاء كلمة الحق إنما هو القمع الهمجي والمنع التعسفي لحرية الكلام، ثم التنكيل بالدعاة وتقتيلهم؛ ولذلك وجب على الدعاة إلى اللَّه تجنب أسباب الفتنة، والحرص على عدم استفزاز الطغاة ما أمكن؛ لأن الحق هو المستفيد الأول من أجواء الحرية والأمن العام، وهو المنتصر في النهاية على كلِّ خطاب، وعلى كل إعلام، مهما بلغت قدرته المهنية ودهاؤه التضليلي، فالحق يعلو ولا يُعْلَى عليه، وقد حرص رسول اللَّه ﷺ على الحصول على هدنة من قريش في صلح الحديبية، بعَقد فيه ما فيه من شروط مجحفة بالمؤمنين

ظالمة؛ لأن الحصول على فترة من حرية الكلام والأمان للمسلمين، كانت كفيلة بإسلام أغلب الناس بمكة، ولذلك كان بعدها الفتح المبين.

٤ - مسلك التخلق:

أما مسلك التخلق في هذا الابتلاء هاهنا فقضيته - كل قضيته - في التحقق بحكمة البلاغ المبين، كيف يتمكن الداعية من خُلُقِ الحِلْم، ومن امتلاك البيان الرباني الكريم؟! حتى إذا تكلم وجد الناسُ صدقَه الخالصَ في كل سيماه، وتدفق نور الخشية من وجهه وعلى لسانه، هُدًى يفتح أبواب القلوب على مصاريعها، فكيف السبيل إلى ذلك وكيف الطريق؟

لا بد للداعية أن يديم النظر في شمائل سيد الخلق محمد بن عبد اللَّه، عليه أفضل الصلاة والتسليم، فلا أحد أبلغ منه في الحلم، ومطالعة مواقفه ﷺ في اللحظات الحرجة، كيف كان أقوى على ضبط نفسه - عليه الصلاة والسلام - وكيف كان أعظم في الحلم على جهل الجاهلين، بما يُعجز حكماء الزمان وفلاسفة الأخلاق انظر إليه هُنالِك وتعلم، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: « **إنما العِلْم بالتَّعَلُّمِ، وإنما الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ** » (١).

وأما المسلك العملي للتمكن من بيان دعوي بليغ، فإنما هو المدارسة المتواصلة للقرآن الكريم، خاصة في مساقات البيانات الربانية التي حكاها اللَّه - جلَّ ثناؤه - عن أنبيائه، في مواطن البلاغ المبين لأقوامهم، ففي تلك المواطن من قوة البيان الدعوي المقصود هاهنا ما كان في مقام الإعجاز. وإن كثيرًا من الدعاة الناجحين قديمًا وحديثًا، إنما امتلكوا جمال تعبيرهم، وقوة حجتهم، ونصاعة بيانهم، من الإدمان على كتاب اللَّه، تلاوةً ومدارسةً. وخطبة حبيب النجار الآتية في المجلس الثالث نموذج لذلك البلاغ المبين، وقد كان رسول اللَّه ﷺ خُلُقُهُ القرآن في خطابه وبيانه، كما كان خُلُقهُ في كل شيء (٢) .

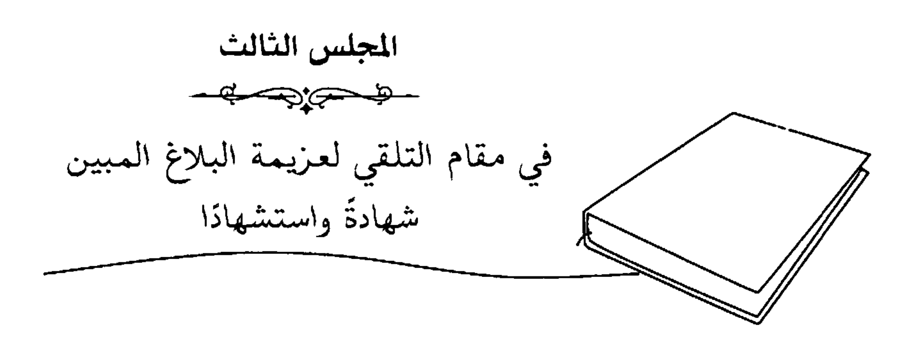
---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد، و الخطيب في التاريخ عن أبي هريرة. كما رواه الخطيب في التاريخ عن أبي الدرداء أيضًا، وقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع. حديث رقم: (٢٣٢٨).

(٢) مشهور حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حقه ﷺ أنه: « كان خلقه القرآن » رواه مسلم.

المجلس الثالث

في مقام التلقي لعزيمة البلاغ المبين
شهادةً واستشهادًا



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا
يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّيٓ إِذٗا
لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي
يَعۡلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٧) ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن
جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ (٢٩)
يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس: ٢٠ - ٣٠].

٢ - البيان العام:

هاهنا يبلغ القص القرآني لهذه الواقعة أوجه، هاهنا تتدفق المحبة الخالصة دماءً تروي مقام المعرفة بالله توحيدًا وإخلاصًا! هاهنا تخرس كلمات الشراح والمفسرين، وتنجذب القلوب واجفة إلى مقام المشاهدة، حبيب النجار رجل من أهل أنطاكية، رجل من عامة الناس، لكنه رجل ليس كأيِّ رجل، إنه فحل من فحول الإيمان بلغته دعوة الرسل الثلاثة، فعرف الحق وآمن، ثم لبث يتلقى أنوار الهدى، كان يسكن بعيدًا في أطراف المدينة، اشتغل بعبادة الله والتعرف إليه تعالى؛ حتى تجلت عليه أنوار الحكمة الربانية؛ فتدفقت على جنانه ولسانه. عرف ربَّه فأحبه، فسلك إليه عبر العبودية الخالصة، يَحْدُوه الخوفُ وَيَشُوقُهُ الرجاء، وتؤرقه مواجيدُ المحبة.

بلغه خبر الجريمة الكبرى؛ من عزم طغاة أنطاكية على قتل رسل اللّٰه فانتفض فزعًا، وانطلق من هنالك، من أقصى المدينة، انطلق إلى مَلَئِهِمْ يُسرع الخطى بشجاعة نادرة، متوجهًا كالسهم إلى حيث اقتيد الرسل للقتل، ما كان أحد يتصور أن يتدخل امرؤ للدفاع عنهم، ولإعلان كلمة الحق، كيف وها السيف الفاجر مصلت؟ كيف وها الطغاة جبابرةٌ عتاة؟ ولكن جذوة الإيمان في قلب حبيب أشد التهابًا، وحر المحبة في قلبه أشد من حر السيف ونار التعذيب فلا صبر على المنكر إذا نادى منادي الشهادة، وما هي إلا لحظات حتى توسط الرجل ناديهم الظالم، وكانت المفاجأة الكبرى!.. ها هو ذا يكشف عن وجهه المتوهج بالنور، ناظرًا مرة إلى ملأ الطغاة، وناظرًا أخرى إلى الرسل الثلاثة، ثم أخرى إلى جموع المستضعفين، فما أعظمها من مناسبة أن يتركها كلمة خالدة في أذن الزمان، تمتد أنوارها إلى يوم القيامة! وما أعظمها من مناسبة أن يلقيها ذكرى في قلوب المستضعفين، يبلغها الشاهد للغائب؛ عسى أن تستيقظ القلوب الواجفة من غفلتها، وتخرج من خوفها الوهمي! وليكن دمُه - بعد ذلك - ثمنًا لظهور الحق وانتصاره، ولانتشار الهدى بين الناس، وليهنأ هو بعدها بالمصير الكريم، شهادةً يَحْيَى بها ولا يموت أبدًا.

وانطلق الشهيد يلقي خطبته الرفيعة ويعلن بلاغَه المبين، ويؤدي شهادتَه الملتهبة:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾.

كانت الكلمات من القوة بحيث تربك الطغاة إرباكًا، وتفتح بصائر المستضعفين على الحقيقةَ بيِّنَةً ناصعة، فهؤلاء الطغاة الذين يهمون الآن بقتل الرسل، يسمعون نداءً شديدًا وأمرًا قويًا باتباع الهدى الذي جاء به المرسلون بدل البوء بجريمة قتلهم، وهم رسل اللّٰه رب العالمين! فهؤلاء هم المهتدون وهم الذين على الحق! يبلغون رسالات اللّٰه ولا يتقاضون على ذلك أجرًا إلا أجر الآخرة، ويلتفت حبيب النجار إلى نفسه ليجعلها مثلًا - وقد كان من أول المؤمنين - ويوجه إليها سؤالًا إنكاريًا شديدًا، القصد به أن يقرع قلوب الطغاة الكفرة، ويكسر أغلال المستضعفين:

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ وإنه لحجاج قوي مبين، كيف لا أعبد الذي خلقني أول مرة؟ وعلى غير مثال سابق! أي أنه ﷻ أبدع خلقي إبداعًا وذلك معنى الفطر. وحجة الخالقية هي أعظم حجة رحمانية على الخليقة كلها؛ ولذلك فقد توجه الداعية حبيب إلى الملأ مناديًا: فمن منكم له مثل هذه الخاصية المعجزة؟ وأَيٌّ من هذه الأحجار الصماء البكماء يصنع مثل ذلك؟ ثم إنكم أيها الملأ جميعًا لميتون، فمن لم يمت اليوم مات غدًا! وإلى الله وحده المرجع والمصير الذي لا محيد عنه أبدًا، فتلك حقيقة يوم الحساب الذي ينتظركم أيها الكفرة الظلمة، ثم كيف لي أن أتخذ من دون هذا الخالق العظيم آلهة زور وبهتان؟ أي جهل هذا وأي سفه؟! كيف؟ ولو قضى الله عليَّ بضر فإن أصنامكم لا تستطيع كشف شيء منه عني أبدًا! لا بذاتها ولا بشفاعتها عند الله؛ لأنها هي أحجار صماء، غدًا ستكون هي نفسها حطبًا لجهنم، فالفاعل في هذا الكون إنما هو الله رب العالمين وحده، هو الخالق له، وهو المدبر له، وهو الراعي له، هو الحي القيوم، القائم على كل نفس وعلى كل مخلوق في السماوات والأرض لا يغيب عنه شيء ولا يعجزه شيء سبحانه ﷻ ولو أنني اتخذت آلهة من دون رب العالمين، فمعنى ذلك إذن أنني في ضلال مبين! وأي ضلال أبين من العدول عن توحيد خالق كل شيء إلى ظلمات الشرك ومتاهاته، واتخاذ الأوثان والأصنام - الحجرية أو البشرية - أربابًا من دون الله الواحد القهار؟! ألا ذلك هو الضلال المبين حقًّا، كلا! كلا! بل أنا مؤمن بالله مصدِّق بما جاء به رُسُلُ الله، ثم التفت الرجل بقوة إلى الرسل الثلاثة وهو يعلن بصوت عالٍ في الملأ كلهم. ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ كلمة أَشْهَدَ الرسلَ عليها؛ توثيقًا لإيمانه - وهو يرى خناجر الغدر تمتد إليه بسرعة - فأعلنها كلمة حق في العالمين.

كانت الكلمات أقوى مما تطيقه آذان الطغاة الكفرة، وكانت أشد مما يتحمله كبرياؤهم العنيد، فما استطاعوا سماع المزيد، أما حبيب فقد كفى وشفى، وبَلَّغ على أتم ما يكون البلاغ، وألقى في الجموع ما يكون ذِكْرَى: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]؛ لذلك ما أن وصل الرجل قمة بيانه وأوج استدلاله، فتبين الحق أبلج لذي عينين؛ حتى انقض عليه الطغاة طعنًا فأردوه على التو قتيلًا، كلا بل شهيدًا يحلق من لحظته تلك في فضاءات الرضا الرباني الكريم، وكانت البشرى

عظيمة وكان المقام رفيعًا، فالله أكبر ولله الحمد.

وما أن فاضت روحه الطاهرة حتى سَمِعَ الإذن الإلهي الكريم، تبشره به الملائكة أن: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فدخلها مباشرة ولا رأى بعدها من كرب أو ضنك، ولا حتى ذاق عنت لحظة انتظار، بل طار على التو بين أشجار الجنان وأنهارها، يسرح حيث يشاء، حيًّا كريمًا، يرزق بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر! [1].

فلله دره من رجل! كان كريمًا في حياته الأولى، وكان كريمًا في حياته الآخرة فلم ينس قومَه وهو في الجنة، ولا ترك الشفقة عليهم، حتى ولو أنهم قتلوه ظلمًا وعدوانًا فبدل أن ينتقم منهم بالدعاء عليهم تأَوَّهَ متحسرًا عليهم! وتمنَّى: ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ وكأن في نفسه شيئًا من تتمة خطابه الذي ألقاه فيهم قبل لحظات، يريد إتمامه الآن..! اللَّه أكبر! أي رجل هذا؟ بل أي مؤمن صِدِّيق هو؟ وأي مخلص للَّه على أتم ما يكون الإخلاص؟!

يا ليت! يا ليت! نداء تمنٍ وحسرة، يا ليت قومي يعلمون بما صرتُ إليه من رحمة اللَّه، غفرانًا شاملًا لما تقدم من ذنبي وما تأخر، وكرمًا فياضًا من لدن رب غفور رحيم! آه لو علموا لتبرؤوا من شركهم ولصاروا مؤمنين، عسى أن يغفر لهم اللَّه كما غفر لي، وعسى أن يكرمهم كما أكرمني. فنلتقي هاهنا أجمعون! فيا ليتهم يعلمون!

وتنتهي قصة حبيب النجار ببيان سُنَّةٍ ربانية ثابتة، هي عبرة للمؤمن، وحسرة وندامة للكافر وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

لكنَّ الأسف الكبير أن الإنسان قلما يتعظ بسنن اللَّه في التاريخ ويظن أن ما مضى لم يكن ليتكرر أبدًا بينما الحياة اليومية تشهد أن سنن اللَّه في الاجتماع البشري ثابتة

---

(١) عن ابن مسعود ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يُتْرَكُوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا؛ حتى نرجع إلى الدنيا؛ فنُقْتَلَ في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكُوا» رواه مسلم.

لا تتبدل ولا تتحول، والإنسان الضال أعمى لا يبصر منها شيئًا! فيا لخسارة البشرية! ها هي ذي تضرب في تيه الظلمات، ومنادي الرحمن على رأسها ينادي أنْ: هذا نور اللَّه فوق رأسك على مدِّ ذراع؛ فَاقْدَحِي زِنَادَ الإيمان تَسْتَنِرْ لك الطريقُ، محجةً بيضاء ليلها كنهارها! ولكنْ وا أسفاه! أين من يمد يده؟! فالمؤمنون هم القليل أبدًا ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

فما من رسول أرسله اللَّه إلا كذَّبه قومُه، ولقي منهم عنتًا، وما من قوم غلب كفارهم على مؤمنيهم إلا أهلكهم اللَّه وقطع دابرهم سنة اللَّه التي لا تتبدل أبدًا ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٩].

والتتبير هو الإبادة الشاملة التي تقطع دابر القوم ونسلهم إلى الأبد، وتلك كانت عاقبة أهل القرية الذين قتلوا حبيب النجار الصديق الشهيد فكان ذلك يومًا من أيام اللَّه، قال ﷻ : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ أي: وما أنزلنا ملائكة القتال من السماء لتعذيب هؤلاء الطغاة، وما كنا منزلين لها على الأمم التي قضينا عليها بالهلاك العام، بل نبعث عليهم عذابًا شاملًا يدمرهم ويقطع دابرهم، فما كان هلاك هؤلاء إلا بصيحة واحدة، فإذا هم موتى هالكون، والخمود: انقطاعُ النفَس وانعدام الحركة.

وهذا من عجيب أمر اللَّه وحكمته البالغة فهو ﷻ قد أنزل ملائكة القتال نصرةً لرسوله محمد ﷺ؛ تخويفًا لكفار قريش، وتثبيتًا للمؤمنين، وقد عَلِمَ سبحانه أن بعضًا ممن قاتل رسوله في بدر من الكفار، سيسلم قريبًا ويقاتل معه يوم أحد وأن كثيرًا ممن قاتله في أُحُدٍ سوف يسلم في نهاية المطاف - بعد الفتح أو قبله - وينصر اللَّه به الدين في مواطن عديدة، في عهد النبوة وبعدها، فكانت الملائكة لذلك لا تقتل إلا من قَدَّرَ اللَّه ألا يسلم أبدًا وربما لم تقتل أحدًا، وإنما أفزعت القوم إفزاعًا؛ فيكون النصر بذلك للمؤمنين. فهي لا تنزل إذن للإبادة الجماعية، بل إذا أراد اللَّه أن يقطع دابر قوم فإنه ﷻ إنما يرسل عليهم عذابًا سريعًا - وربما امتد أيامًا - يفنيهم عن آخرهم؛ كما وقع لقوم نوح، ولعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وغيرهم كثير، نعوذ باللَّه من عذابه وعقابه، قال ﷻ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والصيحة نزلت بهؤلاء القوم كما نزلت بمدين قوم شعيب، وبثمود قوم صالح، ونزلت أيضًا بقوم لوط مع الخسف والرجم بالحجارة والعياذ بالله.

والصيحة صوت عظيم يقع على القوم الظَّلَمة من السماء كالصاعقة، فيزلزل الأسماع بما لا تطيقه الأعصاب؛ حتى يهلكوا عن آخرهم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبق فيهم روح تتردد في جسد!) (١).

سُنَّة الله في الذين طغوا في الأرض وسخروا من أمر الله العظيم ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وإنه لتعبير قرآني عجيب إنه يحكي شعور المؤمن العالم بالله وبأمره؛ إذ يرى إصرار البشرية على الضلال والتيه ويرى المآل المأساوي الرهيب الذي ينتظرها؛ فلا يملك إلا أن يتأسف ويتحسر كما يجوز أن يكون المعنى أنه يحكي حسرة الكفار على أنفسهم وندمهم على ما سخروا من الرسل وكذَّبوا؛ لَمَّا عاينوا عذاب الله يوم القيامة (٢) والأول أنسب للسياق، فهو تعبير دالٌّ على الأسف على هلاك القوم وخسرانهم، تتميمًا لقول حبيب النجار: ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ فهو أسف وحسرة محكية عن المؤمن المتدبر لحالهم، الناظر في مصيرهم كما في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨] فقد كان ﷺ يأسف ويتحسر على إصرار الكفار على كفرهم؛ لِمَا جعل

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/٥٧٣).

(٢) وهو الذي رجحه جمهور المفسرين. وقال القرطبي: (قال ابن عباس: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أي يا ويلًا على العباد، وعنه أيضًا: حل هؤلاء محلَّ مَنْ يتحسر عليهم وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ فتحسروا على قتلهم وترك الإيمان بهم، فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان. وقال مجاهد، وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل وقيل: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لما وثب القوم لقتله. وقيل: إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قَتل القومُ ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحل بالقوم العذاب: يا حسرة على هؤلاء...) تفسير القرطبي: (١٥/٢٣).

اللَّه في قلبه - عليه الصلاة والسلام - من الرحمة والشفقة الشديدة. فأرشده اللَّه تعالى إلى أن أمثال هؤلاء لا يستحقون ذلك، وكذلك قال تعالى - من قبل - في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥].

تلك كانت قصة حبيب النجار ومآلاتها الجليلة، وما حكم اللَّه به بينه وبين قومه إنها قصة رجل أدمن الإيمان حتى تعلق قلبه باللَّه، ثم تدفقت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه فكان مثلًا ربانيًا لِخُلَّصِ الدعاة المؤمنين، وصارت قصته قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة وإنها لقصة تنبض بما لا ينحصر من رسالات الهدى، ما يضيء ظلمات هذا العالم كله لو أشعلت البشرية منها قنديلًا واحدًا.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى إحدى عشرة رسالة هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن البلاغ المبين ليس في زخرف القول، ولا في ترصيف الجمل وتنميق العبارات، وإنما هو في إصدار الكلام الصادق الذي ينبض بالحياة، الكلام الذي ينبع من أعماق القلب، فلا تفارقه حرارة الوجدان ومواجيد المحبة والإخلاص، حتى يقع في قلوب السامعين غضًا طريًا، فالبلاغ المبين هو تعبير عن حرارة الإيمان ومكابدة القرآن، في زمن التيه والضلال حرصًا صادقًا، وإشفاقًا خالصًا، على جموع التائهين، وقوافل الضالين، وقيامًا بحق رب العالمين.

الرسالة الثانية: في أن البلاغ المبين - بهذا المعنى - هبة من اللَّه تعالى، هبة يتلقاها الداعية على قدر إخلاصه وعلى درجة إيمانه وليس صناعة كسبية يستدعيها متى شاء فإن كان فيها شيء من هذا فبالتبع لا بالأصالة وقد حدث ذات يوم أن قُدِّمَ رجلٌ صالح لوعظ الناس في مجمع، لكنه لم يكن قد تعلم من بلاغة الخطاب شيئًا، حتى إذا استجاب بعد إلحاح شديد عليه من بعضهم؛ نظر في الجمع لحظة، ثم بكى حتى بلغ الناسَ نشيجُه، ولم ينبس بكلمة فبكى الجمع كله ببكائه، وكان ذلك أبلغ خطاب وأنصع بيان وبالمقابل قد نرى آخرين يتصدرون المجالس، ويعتلون الكراسي، يرصفون الكلام ترصيفًا، وينمقون التعبير تنميقًا، لكنهم لا يَلقون قبولًا ولا ترحيبًا؛

لأن مفاتيح القلوب بيد اللَّه وحده، لا يفتحها إلا للصادقين.

فالبلاغ المبين قبل أن يكون خطابًا هو شعور، والشعور لا يُكْتَسَبُ، ولكنه يُتَلَقَّى من اللَّه، على قدر تفاني العبد في محبته تعالى وطلب رضاه وذلك هو أساس الطريق إلى القلوب.

الرسالة الثالثة: في أن المحبة الخالصة من أهم أسباب القوة والشجاعة، فعلى قدرها تكون عزيمة المرء في خوض غمار البلاء وقديمًا قالوا: « من عرف ما قصد هان عليه ما وجد » وقال آخر مناجيًا ربَّه ﷻ:

لقد وَضَحَ الطريقُ إليكَ قَصْدًا ... فما أحدٌ أرادكَ يَستَدِلُّ
فإنْ وَرَدَ الشتاءُ ففيكَ صَيْفُ ... وإن وَرَدَ المصِيفُ فَفِيكَ ظِلُّ!

فمن عرف ربَّه حق المعرفة، تعلق به قلبُه رَغَبًا ورَهَبًا، وسعى إليه محبةً وإجلالًا فاللَّه ﷻ رب كريم له الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، تجمَّلَ سبحانه بخصال الكمال، وتَنَزَّهَ عن النقص والمثال، وأفاض على عباده بالنعم خَلْقًا ورزقًا ورعايةً، ثم أرسل رُسُلَهُ الكرام بالهدى والنور؛ لبيان الطريق إلى تفريد جماله وجلاله ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

فمن نظر إلى ذلك ببوارق الصدق، وسعى إليه عبر منازل الإخلاص؛ امتلأ قلبه محبةً ويقينًا، فباع نفسه للَّه، وصار له عبدًا حقًّا ثم أكرمه اللَّه تعالى بعزيمة الصِّدِّيقِينَ.

ولقد أكرم اللَّه عددًا من الصحابة الكرام بهذا المقام العظيم؛ منهم الصحابي الجليل خُبيب بن عدي الأنصاري ﷺ عندما أرسله النبي ﷺ مع نفر من أصحابه إلى قريش، فغدروا بهم وقتلوهم من بعد ما أعطوهم الأمان فلما رأى خبيب أنهم قاتلوه أنشد:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ (١)

ومنهم أيضًا: حبيب بن زيد بن عاصم الأنصاري ﷺ، الذي بعثه رسول اللَّه ﷺ

---

(١) رواه البخاري.

إلى مسيلمة الكذاب، فغدر به وقتله، فقد روى الإمام الطبري بسنده أنَّ كعب الأحبار ﷺ لما (ذُكِرَ له حبيب بن زيد بن عاصم أخو بني مازن بن النجار، الذي كان مسيلمةُ الكذابُ قَطَّعَهُ باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول اللَّه ﷺ فجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول اللَّه؟ فيقول: نعم ثم يقول: أتشهد أني رسول اللَّه؟ فيقول: لا اسمع! فيقول له مسيلمة لعنه اللَّه: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم فجعل يُقَطِّعُهُ عُضْوًا عُضْوًا، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب: - حين قيل له: اسمه حبيب - « وكان واللَّه صاحبُ يس اسمه حَبيب! ») (١).

ما كان لهؤلاء جميعًا أن يهرقوا أرواحهم بهذه الطرق الشجاعة، ولا أن يشهدوا تعذيبهم وتقتيلهم البطيء على ثبات عجيب، ولا أن يتفانوا في نثر أشلائهم شلوًا شلوًا على بساط استشهادهم الطاهر، لولا ما سكن قلوبَهم من وهج الإيمان التحقيقي، ونور المحبة الكاشف لهم عن جلال المقام الإلهي العظيم وجماله، فأولئك هم الأولياء صدقًا، وأولئك هم السادة حقًّا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الرسالة الرابعة: في أن الدعوة إلى الخير، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، تقتضي المسارعة والمبادرة، وذلك هو مقتضى الإيمان الصادق، فالمحب السائر إلى محبوبه لا يعرف التثاقل في طريقه ولا التراخي، بل يقطع المسافات سعيًا وكيف لا؟ والقلب قد التهبت مواجيده بأشواق الوصول، وتعلقت آماله بنيل الرضا والقبول.. وقد جاء حبيب النجار من أقصى المدينة يسعى، والسعي: سير سريع أقرب إلى العَدْوِ جاء يسعى غيرةً على محبوبه، ودفاعًا عن حماه حتى نال ما نال من كرم الشهادة.

ومن ثَمَّ فالداعية الصادق لا يتأخر في طريق دعوته، ولا يتوانى عن إجابة داعي الخير كلَّما دعا، بل يبادر إليه ويسارع، ويجعل تلبية ندائه أول همه ومسعاه، فتلك صفة الصالحين حقًّا التي بها نالوا مقام القبول عند الملك الكريم: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٤].

الرسالة الخامسة: في أن من تمام الحكمة أن تدخر الكلمة المناسبة للموقف المناسب

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق أحمد شاكر: (٥٠٥/٢٠). والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: (٩٥/١).

زمانًا ومكانًا وأن مواجهة الباطل بالقوة قد تكون جهادًا واستشهادًا، وقد تكون فتنة وتهورًا، **والضابط في ذلك أمران اثنان هما:**

– **أولًا**: التحقق من إخلاص العمل للّه نيةً وقصدًا، فكثير من التهورات المدمرة المسماة اليوم (جهادًا) إنما تكون مدخولةً بهوى خفي وعُجْبٍ شقي؛ فتنقلب فتنةً على صاحبها وعلى الناس.

– **ثانيًا**: تحري الحكم الشرعي الصحيح في العمل، ولا يكون ذلك إلا بمراجعة أهل العلم، ممن اشتهر بتخصصه الشرعي، وورعه الديني وفضله الخُلقي، من العلماء الأتقياء الناصحين الفضلاء، فهم أهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور، ولا يُرَاعَى في ذلك صاحب الرأي الشاذ، ولا قول من لم يتمرس بفقه النصوص واستنباط أحكامها، ولو كان من حفاظ المتون، فإنما العلم فَهْمٌ عن اللّه ورسوله. وهذا أمر يلتبس على كثير من الناس، وهو واضح في كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

الرسالة السادسة: في أن التعريف باللّه من أهم عوامل نجاح الخطاب الدعوي، وإنما الغفلة تقع للناس بسبب نسيانهم ربهم الذي خلقهم، فبدل أن يعبدوه يعبدون أهواءهم ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] فالتعريف باللّه ﷻ وبحقوقه على العباد، وما له عليهم من حق الإخلاص والتوحيد؛ بما خَلَقَ ورَزَقَ ورَعَى وهَدَى، هو أساس خطاب الأنبياء جميعهم، وأن له سبحانه يومًا – هو اليوم الآخِر بمآلاته – لعرض ذلك كله جميعًا. فمن عَرَفَ اللّه خاف مقامه، وذلك هو مضمون خطبة حبيب النجار.

الرسالة السابعة: في أن نصرة المؤمنين المستضعفين – متى ما تبين صدقهم وإخلاصهم – واجبة على المسلمين عامة، وعلى الدعاة منهم خاصة! فلربما تعرض المسلمون أو الدعاة، إلى الأذى في اللّه، بهذا البلد أو ذاك، فإذا تبين أنهم أهل صدق في سيرهم وعملهم، وتحققت مظلمتهم، بمعنى أنهم ليسوا أهل فتنة وأهواء؛

فقد وجبت نصرتهم، ولو كلفت ما كلفت من المشقة، هذا هو الأصل الجاري في الدين، والأمر العام المستمر فيه، اللَّهم إلا إذا تبين لأهل العلم أمر آخر؛ لفقهٍ خاص بنازلة معينة، فيتصرفون على غير الأصل؛ مراعاةً للمآل والمصلحة الشرعية الراجحة في تلك المسألة، لكنهم لا يخرجون عن إحدى المراتب الثلاث من مراتب النصرة: النصرة باليد أو باللسان أو بالقلب. سواء كان ذلك سرًّا أو علنًا، على حسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية، التي يحددها العلماء الحكماء.

الرسالة الثامنة: في أن إعلان الإيمان والالتزام بالدين - حيث يكون الإعلان دعوةً إلى اللَّه وتترجح حكمته - من أهم أسباب التقرب إلى اللَّه، ولو أدى ذلك إلى ما أدى إليه من المشقة؛ لما فيه من مصلحة انتشار الهدى وانتصار الحق. وقد سنَّها حبيب النجار كلمةً باقية في عقبه إلى يوم القيامة، عندما صاح في الملأ: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ فإعلان الدين هو الأصل.

وقد شرع الإسلام بعض الشعائر على هذا الأساس مثل الأذان، وصلاة الجماعة بالمساجد، والحج، وغيرها من الشعائر الإعلانية، فالأمر المعلن أقرب إلى الحفظ والاستمرار؛ ولذلك كان إعلان المرء إسلامه والاعتزاز به أصلًا بذاته؛ لما فيه من نصرة الدين وتكثير سواد المسلمين، خاصة في الظروف الحرجة حيث يكون الاضطهاد والظلم لاحقًا بالمسلمين عامة، وبالمؤمنين المتدينين منهم خاصة كما هو واقع بعض البلدان اليوم.

وقد كان الصحابي الجليل بلال ﷺ - كما هو مشهور في السيرة - يُعَذَّبُ بالحجر الصلد في الرمضاء بمكة؛ رجاء أن يتراجع عن دينه، لكنه يعلنها أمام جلَّاديه بقوة: « أَحَدٌ أَحَدٌ » تلك هي العزيمة. وللرخصة محالها المعروفة في مثل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]. ولا خلاف في أن الأجر على قدر المشقة اللَّهم إلا أن تدعو المصلحة الشرعية إلى خلافه استثناء من الأصل، فتلك مقادير يقدرها أهل العلم، وإنما العبرة هاهنا بالأصول التربوية الكلية الجارية على العموم.

والمشكلة أنه ربما أخفى بعضُهم دينَه أو صلاتَه؛ خوفًا من مجرد السخرية - فقط - اللاحقة بالمتدينين في بعض البيئات المغتربة والأوساط العلمانية الفاجرة؛ وهو قطعًا خلاف الأَوْلَى، بل وجب أن يعلنها بقوله وسلوكه، كما أعلنها حبيب: ﴿ إِنِّيٓ

ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ وإلا فلو تَخفَّى كل ذي دين بدينه لاندثر الهُدى والصلاح في المجتمع وتلك أسوأ مفسدة قد تلحق بالأمة، ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]. فقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: صرحوا بتوحيده والتبرؤ مما سواه، كما هو في أغلب كتب التفسير. والأصل في القول الإعلان، ويشهد لذلك أحوال الصحابة الذين أوذوا في الله في المرحلة المكية وبعدها؛ فقد كانوا يعلنونها وسط نوادي قريش إعلانًا. فهم إذن قد أعلنوا إيمانهم بالله وتوحيدهم له جلَّ عُلاه وأظهروه إظهارًا، وهو من مقتضيات قول النبي ﷺ: « **قل: آمنتُ بالله ثم استقم** »(١).

الرسالة التاسعة: في أن على الداعية أن يتخذ الشفقة على الناس، والرحمة بهم، والحرص على نجاتهم، مسلكًا لخطابه ومعاملته لهم، فقد كان أول خطاب حبيب النجار في ملأ الطغاة قوله: (يا قَوْم) بما في هذا النداء من الاحتضان العاطفي، واللطف والعطف والإيناس، وقد بقي ذلك هو شعوره حتى بعد قتلهم إياه، كما تبين من قبل فكان نداؤه المتأسف المتمني: ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ وقد كان رسول الله ﷺ إذا آذاه قومه قال: « **رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** » ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِي ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدمُوهُ فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ « **رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ!** »)(٢) وهو مقتضى قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الرسالة العاشرة: في أن على الداعية أن يحرص على التبرؤ من شهوات الحياة الدنيا والتقلل من متاعها، وألا يجعل لنفسه حظًّا دنيويًّا يجنيه من دعوته، فالدعوة

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.

الصادقة إنما هي الخالصة للّه لا مطمع فيها ولا مغنم، ولا غاية إلا ابتغاء وجه اللّه ورضاه، والاجتهاد في أداء حقه العظيم، دعوةً وبلاغًا، وقد كانت أول حجة حبيب النجار على قومه قوله: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ كما أن اللّه - جلَّ ثناؤه - قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٥٧] فمعنى ذلك أن هذا يجب أن يكون واضحًا في ذهن الداعية والمدعويين على السواء، فهي سبيل واحدة ترتقي مدارجها عبر منازل الزهد والإخلاص، سيرًا إلى اللّه وحده دون سواه، وأن أي انحراف عنها فمعناه خسران الداعية حالًا ومآلًا؛ إلا أن يتغمده اللّه برحمته.

الرسالة الحادية عشرة: في أن اللّه ﷻ مطلع على عباده كلهم، يشكر لمحسنهم، ويمهل مسيئهم حتى تقوم عليه الحجة، فإذا تمادى في طغيانه أخذه أخذ عزيز مقتدر! فَمُدَبِّرُ أمرِ الهدى والضلال إنما هو اللّه تعالى، وأما الدعاة إليه سبحانه فإنما يقومون بوظيفة البلاغ. فلا يظنن أحد أنه هو الصانع لصلاح الناس والمانع لفسادهم، وإنما أسند اللّه الدعوة والبلاغ للمؤمنين ليبتلي الناسَ بعضهم ببعض. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وعليه؛ فمن أخلص العمل للّه في الدعوة إليه تعالى، ليكن على يقين من أن اللّه - جلَّ ثناؤه - يقربه وينصره، فهو تعالى رب شكور، لا يخذل عبده أبدًا فوجب على الداعية المخلص السَّعْيُ لتحصيل اليقين في معية اللّه تعالى له، فلا يفقد المشاهدة في أن اللّه إنما يسوقه للتي هي أحسن؛ ما دام قد صدق اللّه، واجتهد وسْعَهُ، واتخذ جميع الأسباب الشرعية في عمله، فليوقن أن كل ما يحدث له ولدعوته - بعد ذلك - من عسر أو يسر، إنما هو مراد اللّه، وأن الخير - كل الخير - هو في مراد اللّه. فلا يسيئن الظنَّ باللّه أبدًا.

٤ - مسلك التخلق:

البلاغ المبين إنما هو عزيمة، وأما مسلك الدخول في ابتلاءاته فهو راجع إلى تدشين سير تعبدي عميق، يفضي بصاحبه إلى مقام المشاهدة، الذي عنه تتولد منزلةُ

الصِّدِّيقِيَّةِ، وهي أعلى منزلة إيمانية بعد النبوة. كذلك جاءت رتبتها - ذكرًا - في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

وقد كان حبيب النجار صِدِّيقًا شهيدًا؛ فالشهادةُ كانت مآلَه، والصدِّيقيةُ كانت حالَه ومقالَه، وكثير من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا كذلك. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]

والصِّدِّيقِيَّةُ في ذاتها منازل ومراتب، وأبو بكر الصديق ﷺ كان إمامَ الصِّدِّيقِينَ في هذه الأمة، وعلى الداعية أن يجعل هؤلاء الفحول نماذج يقتدي بها في دعوته؛ عسى أن ينال من صفاتهم ما يجعله على طريقهم، وإن لم يصعد إلى قممهم العالية (١). فجبال الإيمان مدارج، كلما اجتهد العبد في مكابدتها ازداد رفعة وعلوًّا؛ حتى يكون من أهل العزائم بإذن اللَّه؛ فَيُجْرِي اللَّه على لسانه عزيمةَ البلاغ المبين.

وإن الطريق العملي لذلك إنما هو الصدق مع اللَّه في القول والعمل، فلا يصدر المؤمن في شيء من ذلك إلا عن خالص الصدق، يتحراه تحرِّيًا في كل شيء؛ فلو صلى أو صام أو تصدق أو جاهد، لم يخط خطوة واحدة في فعله حتى يُخَلِّصَهَا تخليصًا للَّه، فلا يتصرف في شيء من أمره إلا للَّه وبه، وذلك هو الصِّديق. فعن عبد اللَّه ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ،**

---

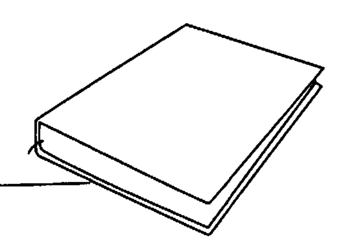
(١) عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المشركِينَ لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المشركِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ المسلمُونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتذر إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ. وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ! يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المشركُونَ! فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نرى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هذِهِ ٱلْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾، إِلَى آخِرِ ٱلْآيَةِ.
وَقَالَ: إِنَّ أُخْتَهُ وَهِيَ تُسَمَّى الرُّبَيِّعَ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأَةٍ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا! فَرَضُوا بِالْأَرْشِ وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ») متفق عليه، واللفظ للبخاري.

وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا! وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (١).

* * *

(١) متفق عليه.

المجلس الرابع



في مقام التلقي لمشاهدات اليقين، سياحةٌ في عالم الملك والملكوت!

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ
مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا
أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا
ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا
صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس: ٣١ - ٤٤].

٢ - البيان العام:

هذه طبقة أعلى من البيان، طبقة لا يبلغها رسولٌ ولا صِدِّيقٌ ولا أي داعية؛ لأن هؤلاء جميعًا يصدر بيانهم من موقع العبدية الخاضعة لله رب العالمين، ولو تفاوتت طبقاتهم في ذاتهم وبيانهم، أما البيان هاهنا فهو صادر عن الذات العلية والمتكلم هاهنا - بلا حكاية - هو الله رب العالمين خالق الأكوان والناس أجمعين يتكلم ﷻ من عَلٍ، عارضًا لهيمنته على مُلْكِهِ ورعايته لخلقه؛ ولذلك فقد جاء الحجاج صادرًا عن شؤون

الربوبية مباشرة، بيانًا لا يستطيعه مَلَكٌ ولا بشر، مهما بلغت منزلته عند ربه، فكانت الآيات هي بيان حقائق القدرة الإلهية والعظمة الربانية، من مشاهد الملك والملكوت.

أجل، هاهنا استأنف الحق تعالى تسفيه إصرار الكفار على تكذيب الرسل، وإنكار حقيقة البعث، وبدأ سبحانه بعرض الآيات البينات على بطلان أوهامهم، قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ألا ينظر هؤلاء المستهزئون إلى من قبلهم من الأجيال التي أهلكناها، أنهم لا يرجعون إلى هذه الدنيا؟ لكنهم جميعًا سيحشرون مع البشرية كلها - أولها وآخرها - ليوم البعث؛ حيث سيتم إحضار كل نفس للمثول يوم الحساب بين يدي رب العالمين.

قال المفسرون: وفي الآية ردٌّ على الدهريين القائلين بالتناسخ والدَّوْر، الزاعمين أن الموتى سوف يبعثون في هذه الدنيا مرة أخرى ولا وجود للآخرة (١) فبين الحق أن البعث إنما هو بعث واحد لا موت بعده، وهو يوم الجزاء الذي تتفرق فيه البشرية - بعد قضاء الحق بين العباد - إلى مصيرين اثنين لا ثالث لهما: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]. جعلنا الله من أهل النجاة برحمته.

ثم شرع سبحانه في عرض مشاهد عظيمة من شؤون ربوبيته، تدل بقوة على قدرته تعالى على البعث والإحياء؛ بما يقطع شك المترددين ويخرس ألسنة الجاحدين قال ﷻ: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

وآيةٌ لهم، والآية: هي العلامة الواضحة الدالة على أمر بقوة. وكما أن القرآن علامات، فإن الكون كله علامات على طريق البشرية.. فمن ذا يفتح بصيرته على مَشَاهِدِهِ ويقرأ؟

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: (ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من قولهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلًا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١]. تفسير ابن كثير: (٥٧٤/٦).

والإحياء آية من أعظم آيات اللَّه في هذا الوجود، وهو سر من أدق أسرار الخلق، وله تجليات شتى لا تكاد تنحصر، والإنسان عاجز عن إدراك كنه الحياة وجوهرها، رغم أنه يتنفسها صباح مساء، وإنما الذي نعرفه هو بعض تجلياتها فقط، كالحركة والنمو وما شابه هذا وذاك؛ لأن الحياة سر من أسرار الحي الذي لا يموت يهبه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. ومن ثَم يفتح القرآن عيوننا على هذه الحقيقة العجيبة، التي ينكرها الكافر بجهله وطغيانه، فينكر البعث والنشور ويضرب لنا إحياء الأرض الموات مثلًا.

والأرض تموت نعم، يغور ماؤها ويُحْتَطَبُ شجرها، وينقرض نباتها فتذروه الرياح، فلا يبقى بها أثر لخضرة، ثم تتصحر ويهجرها أهلها وترحل عنها الحيوانات البرية والطيور، فلا يبقى بها أثر لحياة لقد ماتت وقد تبقى كذلك عدة أجيال وربما مرَّ بها عابر سبيل فيقول: أنَّى يحيي هذه اللَّه بعد موتها؟! حتى إذا أراد اللَّه إحياءها أنزل عليها ماءها غيثًا متواترًا، لا يدعها حتى يبعث فيها الحياة من جديد غضة طرية فتنهض كأجمل وأقوى ما يكون ريعان الشباب حيوية وجمالًا، ثم يعود إليها أهلها بعد هجرة طويلة، يُجْرُونَ عيونها المتدفقة، وأنهارها المترقرقة، ثم يزرعون ويغرسون، فإذا بالحقول ممتلئة حَبًّا وبركة، وإذا بالجنات والبساتين تتدلى أغصانها بمختلف الفواكه والثمار، وإذا بالطيور تملأ الفضاء هديلًا وتغريدًا، وإذا بالروابي تستعيد صيدَها ومرعاها.. ويمر عابر السبيل مرة أخرى فيقول: كأن الموت ما مر من هنا قط.

كل ذلك؛ إنما هو تسخير للعباد من الرحمن، ورزقٌ لهم من فيض رحمته ﷻ، لا حول لهم فيه ولا قوة عساهم يشكرون ويعتبرون، ويشهدون أن اللَّه الذي أحيا هذه الأرض، قدير على إحياء كل موات متى شاء، بما في ذلك الإنسان وسائر الحيوان؛ ولذلك فالمؤمن العالم باللَّه، المتدبر لأحوال الأرض واختلاف تجلياتها بين موتها وحياتها، لا يملك إلا أن يسبح بحمد ربه، ومن ثَم جاءت تتمة السياق - تعليقًا على هذا المشهد العجيب - قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

والتسبيح تنزيه، فهو تعالى تنزه عن العجز الذي يصفه به الكفرة؛ حيث يقولون باستحالة البعث، بل هو تعالى الذي خلق الأزواج كلها، من النبات والإنسان وسائر الحيوان، ومما لا يعلم وجوده أو طبيعته إلا اللَّه، فهو سبحانه الذي جعل الحياة في كل

تلك الخلائق والأنواع، وأودع فيها سر استمرارها بالتزاوج والتناسل، وقد انفرد سبحانه بالخلق؛ فأنَّى يوصف بالعجز، وأنَّى يكون له شريك؟ ألَا سبحانه وتعالى عما يصفون.

ثم يلفت الحق تعالى نظر الإنسان إلى الفَلك الدائر به وفيه، وما حوله من كواكب ونجوم، سخرها له تسخيرًا، لولا وجودها لاستحالت حياته في الأرض قال ﷻ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

والتعبيرُ بالسلخ هنا تعبيرٌ عجيب، فهو نزع غشاء أو غطاء، كما يُسلخ جلد الدابة عن جسدها، مما يدل على أن الليل هو الأصل، وأن هذا الكون وجود مظلم! وإنما يشرق ما يشرق منه؛ بما جعل اللَّه فيه من أجرام نارية وسُرُجٍ مشتعلة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦] وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٣] ولولا ذلك لظلت الأرض في ظلام دامس رهيب قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص: ٧١] وما من نور أو ضياء إلا وهو مستمد من نور اللَّه العظيم؛ إذ هو: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النور: ٣٥].

وكما أن النهار نعمة لا تقدر بثمن، فكذلك الليل نعمة لا تقدر بثمن، ولا يمكن للمؤمن المتدبر لتعاقبهما إلا أن يستجيب للَّه بديع السماوات والأرض بالتوحيد والتفريد؛ حمدًا لآلائه وشكرًا لنعمائه.

وكل ذلك - أجرامًا وأفلاكًا وحركات - مخلوق إلى أجل معلوم بِقَدَرٍ معلوم مُحْكَمٌ بعلم اللَّه ومحكوم بقدرته، لا يعزب عنه تعالى شيء، ولا يخرج عن قبضة سلطانه وجلال عزته شيء فالشمس، هذا النجم الكبير الضخم المتفجر الملتهب، الذي يفوق حجم الأرض أضعافًا مضاعفة، هي أيضًا تجري في فلكها العظيم، سابحة في فضاء اللَّه الفسيح، إلى قَدَرِها الذي قدره اللَّه لها، وميقاتها الذي جعله اللَّه لها، والقمر هذا الكوكب المنير، الذي يستمد نوره من الشمس، يتنقل في دورته عبر منازل مُقَدَّرةٍ بعلم اللَّه ودقة صنعه البديع بدرًا كاملًا ثم أهِلَّةً تختلف أشكالها

وأحجامها منازل، ما بين لحظة الولادة ولحظة الأفول؛ حيث ينتهي إلى ما يشبه شكل عرجون النخلة القديم؛ بما يبدو عليه من شحوب وذبول.

وكما يتعاقب الليل والنهار في تداولهما على حياة الأرض؛ تتعاقب الشمس والقمر في إنارتهما للأرض أيضًا، تعاقبًا يجعل لكلٍّ منهما دوره الخاص به، نورًا أو ضياء، فلا أحد منهما يُفسد دور الآخر أو يبطله، بل لكل منهما منزله أو فلكه الخاص به، وهما يجريان في أفلاك متباعدة مستقلة؛ ولذلك قال: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فالشمس المشتعلة تمد القمر، وتجعله كالمرآة يعكس ضوءَها نورًا هادئًا جميلًا، ثم يرسله إلى الأرض ليلًا عبر منازل معلومة، في دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس؛ فالشمس تخدمه ولا تزاحمه، بل إنه يؤدي وظيفته كاملة بالمقادير والمنازل التي جعلها الله له.

وكما أن للقمر وظيفته المكفولة بتقدير الله العزيز العليم، فإن للشمس أيضًا وظيفتها المكفولة بتقديره تعالى؛ حتى إذا استدارت الأرض نحو الشمس، انفجر ضوؤها على صفحتها الأخرى، فجرًا يسوق بين يديه النهار قهرًا بإذن الله، أي أن ظلام الليل ينقشع بين يدي ضوء الشمس انقشاعًا حتميًا، ولا حيلة له في التخلص منه والانفلات، بل إنه يندثر قَسْرًا، وذلك لما جعل الله من سلطة عجيبة للضياء على الظلام، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ فالسبق هنا بمعنى: الغلبة والتخلص والانفلات، وهو من معانيه في العربية، على غرار قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [الأنفال:٥٩]، وكذا قوله سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤] [١].

وكل ذلك حقائق كونية عجيبة، لم يبلغ العلم البشري الحديث منها - رغم تطوره الهائل بالنسبة إلى ماضيه - إلَّا بعض الظواهر وبعض النِّسَبِ ليس إلا، ولم تزل حقائقها الكونية تضرب في عمق المجهول من عالم الغيب، الخاضع لعلم الله المحيط بكل شيء؛ ما يجعل المؤمن المتدبر لذلك كله لا يملك إلا أن يسبح خالقَ هذا النظام الفَلَكي الجميل الجليل؛ تسخيرًا للإنسان ساكن هذه الأرض، وابتلاءً له في الوقت نفسه.

---

(١) ن. تفسير الآية في « التحرير والتنوير » لابن عاشور.

ثم ينتقل التعبير القرآني - بعد ذلك - لعرض آية أخرى من معجزات الله ﷻ، وعظمة قدرته وسلطانه، وحكمة تدبيره لشؤون العالمين، وهي هذه المراكب الصناعية والحيوانية، المسخرة للإنسان في البحر والبر والجو، التي كان ابتداؤها الصناعي سفينةَ نوح عليه السلام، والتي كانت معجزة ربانية عجيبة، وحقيقة تاريخية غريبة، لا يملك معها الإنسان إلا الحمد لله رب العالمين. فلولاها لما كان للوجود البشري اليوم في الأرض من أثر، ولكن الله قدر أن يستمر النسل الإنساني إلى ما شاء الله؛ فالمفسرون يجمعون على أن المقصود في هذا السياق « بالفُلْكِ المشحون » إنما هو سفينة نوح عليه السلام؛ ولذلك قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ فكل الروايات عن ابن عباس وكثير من التابعين مجمعة على ذلك (١) والسياق يؤيده. ومعنى المشحون: المملوءُ المثَقَّلُ، وذلك بما حمل فيها نوح عليه السلام من أزواج الحيوانات والطيور، إضافة إلى الطائفة المؤمنة من قومه وما معها من متاع، ثم سارت مع ذلك آمنة محفوظة بأمر الله في محيط الأمواج الهائلة الضخمة.

وأما حمل الذرية هاهنا فهو بمعنى حمل النسل، وهو الذي وقع في سفينة نوح، فقد أمر الله نوحًا أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، من الإنسان والحيوان؛ وكان المؤمنون من قومه فقط، هم وحدهم من سُمح لهم بركوبها رجالًا ونساءً، وأغرق الله الباقين، وهو عهد قديم من عهود البشرية؛ حيث لم يكن في الأرض يومئذ من الإنس غير قوم نوح، فلم يستمر النسل البشري بعد ذلك على وجه الأرض إلا بمن نجا من أهل السفينة، وكل من وُجِدَ بعد ذلك في التاريخ إلى يومنا هذا، من ملايين البشر، إنما كانوا من أصلاب تلك الثُلة القليلة من أصحاب السفينة، فالذرية هاهنا بمعنى النسل الذي لم يزل في عالم الذر؛ وهو تعبير استعمله القرآن، كما في قول الله تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فالذرية هاهنا هي النسمات البشرية التي جعلها الله في ظهر آدم (٢)؛ ولذلك لقب المؤرخون نوحًا عليه السلام بآدم الثاني، وهي قصة

---

(١) ن. تفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي... وغيرهم، ومن المعاصرين: ابن عاشور وسيد قطب.

(٢) قال رسول الله ﷺ: « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ؛ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ =

لمن تأملها غريبة رهيبة، تدل على رعاية اللّه البالغة للإنسان ونعمته عليه وفضله.

فهذه السفينة الأولى في تاريخ البشرية، رغم ما يتصور من بدائيتها من حيث الصنع، فإنها لم تغرق بإذن اللّه، رغم أن كل أسباب الغرق كانت متوفرة فيها، فقد كانت مشحونة مثقلة بكل أنواع الكائنات الحية مما كان على وجه الأرض يومئذ ومما قدَّر اللّه استمرار نسله فيها، إضافة إلى الطائفة المؤمنة من الرجال والنساء والأطفال، ثم ظروف الطوفان الرهيب، وما كان عليه من هيجان شديد! مما وصفه القرآن أبدع تصوير في قوله تعالى من سورة هود: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]. بينما ها هي ذي السفن اليوم تتمتع بأحدث الأجهزة الميكانيكية والإلكترونية لضمان سلامتها، ولكن عندما يقدر اللّه إغراقها يجعلها وأهلها من الهالكين! مما يُعْلَمُ معه ألا عاصم من أمر اللّه إلا هو، وذلك قوله تعالى في تتمة السياق: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ والصريخ: المنقذ الذي يُستنجد به، فلا شيء من تقنيات العصر، ولا من تطورات التكنولوجيا تنفع الإنسان إذا حضر أجله إلا إذا تجلت عليه رحمة اللّه، ورحمة اللّه وحده، والإنسان الأعمى اليوم يثق في تقنيات الحفظ والسلامة المعاصرة، ثقة تحجبه عن اللّه، فيعبد العلم البشري ومنتجاته منها ومن غيرها، وينسى أنما هي تسخير من ﷻ، إذا قضى أمره عطلها تعطيلًا، وحوادث العصر دالة على هذا أوضح دلالة! وما استمرار الحياة البشرية على الأرض إلا متاع قريب، له أجل معلوم وينتهي، ثم يُبعث الناس لرب العالمين تلك هي خلاصة القصة البشرية ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو يتضمن الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن الموت والحياة سر من أسرار اللّه في الملك والملكوت

= هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. الحديث...) رواه الترمذي والحاكم، قَالَ أَبو عِيسى: «هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ». كما صححه الألباني في صحيح الجامع. وفي رواية الحاكم: (فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ مِثْلَ الذَّرِّ!) والذَّرُّ: دقيق الغبار المتناثر في الفضاء.

وألا شيء من الخلق إلا وهو مبتلى بهما، والموت حقيقة يقينية لا يستطيع أحد إنكارها، ولا أن يتحداها، ولكن ماهيته لغز مغلق لا يدرك الإنسان منه إلا ظواهره، وأما حقيقته فلا يعرفها إلا بعد أن يذوقه! وكذلك الحياة، بما في ذلك هذه التي بها نحيا ونعيش في الأرض، فإننا لا نعرف منها إلا أعراضها، أما حقيقتها فهي مرتبطة بالروح، والروح من أمر اللَّه المحجوب عن الخلق إلى يوم القيامة الموت والحياة ابتلاءان يحكمان عمر الإنسان وأجله، فلا محيص له من الرضوخ لقدرهما والمؤمن الكيِّس الفطِن هو من يتزود من هذه الحقيقة حياتَه كلَّها، فلا يخطو خطوة إلا على هداها، عابدًا ربه حتى يأتيه اليقين.

الرسالة الثانية: في أن البعث حشرٌ شامل للبشرية جميعها، أولها وآخرها، بين يدي اللَّه رب العالمين؛ لتنال جزاءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر فهذه حقيقة تملأ القلب رهبًا، وهي دواء للغفلة الملمة بالقلوب؛ إذ تجعلها تراجع نفسها وتنظر في سوابق أعمالها ولواحقها، وإنَّ اتخاذها وردًا للقلب يتغذى به يوميًّا؛ لكفيل بترقية العبد إلى منزلة المحاسبة، صفةً كريمةً لا تزول بإذن اللَّه.

الرسالة الثالثة: في أن زخرف الحياة الدنيا جناتها وبساتينها وعمرانها، كل ذلك إلى فناء، وأن التعلق الكامل بها غرور وجهل فظيع بطبيعتها الابتلائية، ثم إن إدمان النظر إليها معزولة عن عمقها الأخروي يورث القلب العمى! فيتعلق بها تعلقًا يحجبه عن اللَّه. فلا تزال تخدره بشهواتها حتى تقوده إلى الخسران المبين، والمؤمن البصير يبني صرح العمران الدنيوي - استخلافًا في الأرض وإصلاحًا - على أساس أخروي، فلا يزال على هدى من ربه حتى [illegible] رَضيًّا.

الرسالة الرابعة: في أن الرزق تقدير إلهي محض، وما من عبد إلا وينال منه ما قُدِّر له، وإنما جعل اللَّه تعالى أسباب الكسب ابتلاء للعباد؛ إذ بها تتعلق أحكام الشريعة من حلال وحرام. وأهل البصائر يرون في الأسباب حكمة اللَّه العزيز الحكيم، فيعبدون اللَّه بها، بينما أهل الغفلة يفتتنون بها؛ فتكون لهم حجبًا عن اللَّه، ثم يعبدونها من دون اللَّه، ومن فهم عن اللَّه حقيقة الرزق، وتلقَّى تجليات اسمه تعالى: « الرزاق » نجا من الهلع، وحلت بقلبه القناعة والسكينة، وإن من جهل ذلك من أرباب الدنيا لفي شقاء شديد.

الرسالة الخامسة: في أن الشكر حق اللَّه على العباد؛ بما خلق ورزق وهدى، وأن التمرد عن عبادته كفران شنيع لأنعُمِهِ! فلا عجب أن كانت أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام حمدًا (١)، وكانت أول آية افتتح بها القرآن الكريم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ولقد امتن اللَّه بنعمه - التي لا تحصى - على عباده وفصل ذلك في القرآن تفصيلًا. وها هو الإنسان غارق في بحارها الكوثرية، لا يستطيع منها فكاكًا أفلا يكون مَن الشاكرين؟ من هنا وجب على العبد أن يتخذ شكر اللَّه جل جلاله وردًا دائمًا يعبد اللَّه به ذكرًا وعملًا، فيستجيب لنداء ربه كلما دعاه، ويلزم حدوده ويتقي محارمه.

الرسالة السادسة: في أن التسخير نعمة من نعم اللَّه الكبرى، وجب ملاحظتها بالتفكر في حركة الكواكب والنجوم والأفلاك، وما يستفيده الإنسان منها - تسخيرًا من الرحمن - من ليل ونهار، ونور وضياء، وفصول وأمطار...إلخ. فمتى دَاوَمَ العبد على هذا الضرب من التفكر التعبدي ازداد معرفةً باللَّه وعلمًا به تعالى، فيرتقي إلى درجة خشيته على قدر مقامه تعالى؛ فلا يخاف بعد ذلك زيغًا ولا ضلالًا بإذن اللَّه.

الرسالة السابعة: في أن الرعاية نعمة أخرى من نعم اللَّه الكبرى، فلا نجاة للإنسان ولا حفظ له ولا أمان إلا برعاية اللَّه له؛ فهو تعالى الذي يرعى وجوده وشؤونه كلها، رزقًا وحفظًا وسلامةً وشفاءً، وإن مطالعة هذا المعنى العظيم تورث القلب التعلق بحب اللَّه، وتكسبه الشوق إلى لقائه، فينشط في سيره إليه، ويصير محمولًا بعبادته لا حاملًا لها، بمعنى أنه لا يجد فيها مشقة ولا عنتًا، بل يجدها لذة وجمالًا، كما أن هذا الضرب من التفكر يمنح القلب أيضًا الشعور بالسكينة والطُّمأنينة والأمان.

٤ - مسلك التخلق:

لقد كان القرآن واضحًا في الدلالة على مسلك التخلق بحقائق هذه الرسالات الإيمانية، وهو إحياء عبادة التفكر في الآيات الكونية، هذه العبادة التي تركها كثير من الناس في هذا الزمان، ولم يزل القرآن يردد: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ [يس: ٣٧]. وهو يلفت نظر الإنسان إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض.

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: « لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح عَطِسَ فقال: « الحمد للَّه! » فَحَمِدَ اللَّه بإذنه؛ فقال له ربه: « يرحمك اللَّه يا آدم! » ... الحديث) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع. رقم: (٥٢٠٩).

ومن ثَمَّ كان على المؤمن أن يجتهد في فتح بصيرة التفكر في كل شيء حوله، حتى يصبح لا يرى شيئًا إلا بعين التفكر، وأما المسلك العملي لذلك فهو أن يبدأ بتدريب نفسه على اتخاذ ساعات معلومة لممارسة التفكر، فردًا أو مع صاحب له، ويستعين بآيات التفكر في القرآن، فهي ترشد إلى الصورة العملية الناجحة في اكتساب مقام التفكر، والوصول إلى حقيقته ونتيجته؛ ذلك أن الله ﷻ أرشد الناس إلى أن التفكر الناجح هو ما كان فرديًا أو ثنائيًا، فإذا تعدى ذلك صار تدارسًا؛ لأن التفكر عملية وجدانية بالأساس، العقل عينها نعم، ولكن القلب هو لسانها المتذوق لها والمتمتع بلذتها، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]. وقال سبحانه في صفة أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وهذه الآية قد يظن المرء - بادئ النظر - أن التفكر واقع فيها بفعل الجماعة، لكن السياق يدلُّ على أنه عمل فردي، ففعل الجماعة هاهنا إنما يصف مجتمع المؤمنين في أحوالهم الخاصة، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، والتفكر على كل حال تأمل قلبي صامت، لا يتصور فيه الاشتراك الجماعي، ومعنى هذا أن تطبيقه يحتاج إلى لحظات من الخلوة الهادئة، بعيدًا عن المؤثرات الخارجية والعلاقات الاجتماعية، التي تقطع الواردات وتتلف المشاهدات.

* * *

المجلس الخامس

في مقام التلقي لبيان غلظ جحود الكفار وتعنتهم، وما تنطوي عليه نفسياتهم من استعلاء واستكبار، وبيان سنة الله فيهم

١ - كلمات الابتلاء:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٥ - ٥٠]

٢ - البيان العام:

كانت الآيات التكوينية من أمر الملك والملكوت، مما عرضه الله ﷻ في الآيات السابقة، على أعلى مقامات البيان قوةً ووضوحًا؛ بحيث تخضع لها أعناق العباد خشية من ربهم العظيم، فأي جريمة نكراء يرتكبها الطغاة الكفرة، إذ يُعرضون عن هذا كله فيجحدون نعمة خالقهم؛ ولذلك نعى عليهم الحقُّ تعالى ضلالهم المبين في تتمة السياق، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فرغم ما بُيِّنَ لهم من قواطع البراهين وآيات الأنفس والآفاق؛ فإنهم مع ذلك إذا قيل لهم: احذروا المصير الأخروي، واتقوا أهوال القيامة والبعث والنشور، مما هو بين أيديكم واقع قريبًا لا محالة! واحذروا تقلبات الدنيا التي هي خلفكم فأنتم مودَّعوها يقينًا واتقوا ما ينزله الله فيها على الظَّلَمَةِ من عذاب وعقاب؛ فلعل الله ﷻ يتداركم برحمته؛ كلما قيل

لهم ذلك أعرضوا، وأصروا على كفرهم وضلالهم.

وفي الآية الأولى حذف بليغ لجواب « إذا »، وهو الجحود والإعراض؛ وذلك لدلالة الآية الثانية عليه، فاستُغني عنه ليكر اللاحق على السابق بالبيان، والقرآن العظيم إنما يخاطب بمثل هذا أولي الألباب.

ومن هنا فإن هؤلاء الكفار اتخذوا مواعظ المؤمنين هزءًا وسخرية، فكلما نصحوهم بالإيمان والإنفاق مما رزقهم اللّٰه من فضله أجابوهم بعبارة ظاهرها الإيمان باللّٰه، وباطنها الكفر المبين، والاستهزاء بآياته والسخرية من المؤمنين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هكذا بهذا العنت البغيض يجيبون المؤمنين، فيقلبون عليهم الحقائق ويصفونهم بما هو من محض كفرهم هم: الضلال المبين، ثم يظهرون أنفسهم أنهم أكثر معرفة باللّٰه؛ إذ هو الذي يوزع مقادير الأرزاق، فلو شاء لأطعم هؤلاء الفقراء والمساكين، فلماذا نخالف إرادة اللّٰه بإطعامهم؟ حجاج شيطاني مبين إنه يستبطن السخرية بالمؤمنين حيث إنهم هم الذين يقولون بأن الرزق مقادير مقدرة من اللّٰه؛ فينكر الكفار عليهم: لماذا إذن تأمروننا بالإنفاق على الفقراء والمساكين؟!

ثم يبلغ جحودهم مداه فينكرون حقيقة البعث ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ تساؤل خبيث عن ميقاته، على سبيل الاستبعاد والإنكار لوجوده؛ ولذلك جاءهم الجواب من الحق ﷻ قويًا قاطعًا لكل جدل عقيم ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فالجواب هو ما سترون لا ما تسمعون صيحة عذاب وهلاك، كصيحة مدين وثمود [1] يصعقهم بها مَلَكٌ من ملائكة الرحمن، تأخذهم على غرة، وهم لاهون في متاهات حياتهم، منهمكون في شؤون معاشهم، غارقون في فتن أسواقهم، مما يتشاحون فيه ويتنازعون ويختصمون، فتبهتهم الصيحة وهم على تلك الحال، فلا يجدون فرصة لوصية تحفظ أموالهم، ولا مهلة للرجوع إلى بيوتهم وأهليهم، بل يصعقون في مواطن فتنتهم، ونوادي شهواتهم، فبئس المصير.

---

(١) قد تكون الصيحة بمعنى نفخة الفزع الأكبر ليوم القيامة، كما ذهب إليه ابن كثير وغيره من المفسرين، لكن السياق أقوى في الدلالة على ما رجحنا، واللّٰه أعلم.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو منقسم إلى ثلاث رسالات:

الرسالة الأولى: في أن قلب الكافر مغلق بأقفال صدئه، ترسبت عليها أوساخ الهوى والكبرياء فلا يسمع نذارة ولا بشارة، ولا موعظة ولا نصيحة، إلا إذا حلت به صيحة العذاب أو صيحة الفزع الأكبر؛ فيكون آنئذ من السامعين وهيهات هيهات أن ينفعه إيمان بعد فوات الأوان.

الرسالة الثانية: في أن المال ومتاعه هو المعبود الأول للكفار، يتكالبون على جمعه بهلع شديد، ولذلك فهم لا يستطيعون إنفاق شيء منه مهما قل إلا إذا وجدوا لهم منفعة مادية في ذلك، من جاهٍ دنيوي، أو ربحٍ مادي، ولو على أمد بعيد، ومن هنا فإنه لا يتحقق إيمان المؤمن بالله إلا بالإنفاق في سبيله، وإهلاك المال في وجوه البر؛ فبذلك يتطهر قلبه من الشرك الخفي، الذي يورثه حب الشهوات من الأموال والتعلق الأعمى بمتاعها.

الرسالة الثالثة: في أن الله منتقم من الكفار حتمًا، فإما أن يسلط عليهم عذابًا في الدنيا قبل الآخرة، وإما أن يمهلهم إلى يوم الحساب. وهما أمران أحلاهما مر، وفي هذه العقيدة راحة للمؤمن المتغيظ من ضروب الظلم وأشكال الطغيان. فكلما استحضر العبد هذا المعنى استراح قلبه من الغم، الذي قد يصيبه في فترات الضعف والإعياء من مشاق الطريق.

٤ - مسلك التخلق:

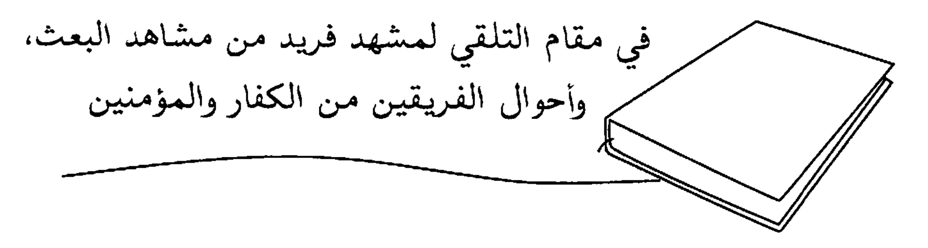
الثمرة العملية لهذه الآيات هي في وجوب تحقيق اليقين بأن الله ﷻ هو مالك لأمر مملكته كله، قاهر لعباده أجمعين؛ فمهما أبدى الكفار من التمرد على الله، فإنهم لا يُعجزون رب العالمين. وإنما هو ابتلاء لهم، هم خاسرون فيه لا محالة، وبهذا يُنتزع الخوف المرَضي من قلوب المؤمنين، والفزع من جبروت الطغاة مهما استكبروا في الأرض واستعلوا، ولا يبقى بأفئدتهم إلا خوف الله العظيم.

ويتحقق ذلك للعبد بمداومة النظر في الآيات المعرفة بالله وأيامه، مما انتقم به من الأمم الظالمة عبر التاريخ ومشاهدة حوادث العصر وكوارثه، مما يقع هنا وهناك، على

ذلك الوزان، وكذا بالمطالعة التفكرية في عوالم المُلْكِ والملكوت، كل ذلك مورث لهذا اليقين؛ فمن عرف اللَّه به لم يخش أحدًا سواه.

* * *

المجلس السادس



في مقام التلقي لمشهد فريد من مشاهد البعث، وأحوال الفريقين من الكفار والمؤمنين

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥١ - ٥٨].

٢ - البيان العام:

كانت صيحة العذاب وعيدًا من الله الواحد القهار لمردة الكفار، فمنهم من سلطها عليه، ومنهم من أهلكه بما شاء وكما شاء؛ حتى إذا كانت الصيحة الأخيرة التي يصعق لها مَن في السماوات والأرض، والتي هي الإعلان الإلهي لنهاية الحياة في كل العالمين، فلم يَبْقَ من حي في الوجود إلا وجهه العظيم ﷻ ؛ كانت بعد ذلك صيحة البعث العظمى، وقد ورد التعبير عنها بفعل ماضٍ مبني للمجهول؛ للدلالة على انحتام وقوعها وعلى شدة قربها، وأن الكفرة بمجرد ما يصعقون في الحياة الدنيا أو يهلكون، لا يكادون يشعرون بزمن إلا وقد فاجأتهم صيحة ثانية لكنها صيحة أدهى وأمر. إنها باب العذاب الشديد.

ولقد صور القرآن الكريم مشهد البعث تصويرًا عجيبًا، فبمجرد انطلاق النفخة من

الصور - وهو البوق الذي ينفخ فيه الملاك إسرافيل - تنفتق القبور عن أصحابها كما تنفتق الأرض، عن النبتة النامية، فتخرج من تحت ظلمات الثرى، وتنشر أوراقها فوق الأرض، فاللَّه ﷻ يعيد خلق البشرية الهالكة خلقًا جديدًا، وينبتهم من تربتهم التي دفنوا فيها أنى كانت في البر أو في البحر، فلا يعجزه تعالى أن تكون أجسامهم قد صارت رميمًا وفنيت في التراب، فهو تعالى عليم بخلقه، قدير على كل شيء، فلكل إنسان يموت بذرة دقيقة، لا يهم في أي تربة وقعت، لكنها إذا نوديت من لدن الرحمن نبتت من جديد إنسانًا سويًّا ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وكل ذلك يقع في أقل من لحظة؛ ولذلك عبَّر بـ « إذا » الفجائية للدلالة على سرعة الاستجابة للنفخة، فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ هكذا: ﴿ يَنسِلُونَ ﴾، أي يمضون بسرعة نحو مكان الحشر، فترى البشرية كلها من آدم إلى آخر من يكون، تتقاطر خارجة من مقابرها في كل مكان على وجه الأرض، ماضية لا تلوي على شيء نحو مكان واحد؛ حيث اللَّه رب العالمين يفصل بين العباد. هنالك يلتهب الفزع الشديد بقلوب الكفار فهم إلى عهد قريب يقولون سخريةً بالمؤمنين واستهزاءً: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فَتَفْجَؤُهُمْ صعقة الموت ثم تفجؤهم صيحة البعث، فلا يملكون في رهبة الموقف إلا أن يدعوا على أنفسهم بالويل والثبور ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ فيأتيهم الجواب سريعًا من ملائكة الرحمن: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ هذا هو الوعد الإلهي الذي جاءتكم به الرسل فكذبتموهم واتخذتموهم سخريًّا، ها هو ذا تشهدونه بأنفسكم في أنفسكم.

نعم، هذا هو يوم البعث الذي يقع بنفخة واحدة يوقعها الملاك في الصُّور، فتنتفض البشرية كلها في لحظة واحدة، وتحشرها الملائكة حشرًا من كل مكان، فلا تشعر إلا وهي جاثية بين يدي ربها فرَقًا، في مشهد يوم عظيم، هنالك يقضي اللَّه بين العباد، ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ والعدل الإلهي هو العدل، فلا تُظْلم نفس شيئًا بنقص حسناتها أو بزيادة سيئاتها، ولا يُجزى الإنسان إلا بما كان يعمله في الدنيا؛ فكل شيء مكتوب في صحيفته.

هذه المواقف الرهيبة من أحوال الفزع وترقب المصير المشؤوم، يكون المؤمنون آمنين

منها يومئذ، وذلك فضلٌ من الله عظيم؛ ولذلك اختصر الرحمن مسيرتهم من البعث إلى الحشر؛ إذ لا يجدون في ذلك فزعًا ولا عذابًا، فيعرض مشهدهم في الجنة مباشرة مشهد ينض بهاءً وجمالًا؛ لما فيه من نعم الخيرات والسلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ إنهم مشغولون عن حال أهل العذاب بنعيمهم المقيم، مما يتفكهون به ويتلذذون، جالسون مع زوجاتهم وأهليهم على أرائك الجنة بما لها من بهاء وضياء، يتنفَّسون أنسام الظلال الممتدة عن الأشجار الوارفة والثمار البهية، ويتخيرون من فاكهة الجنة ما يشتهون، وينالون من كل ما يطلبون ويحبون مشرفون على مشاهد خارقة الجمال، مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، بعيدًا بعيدًا عن فحيح الجحيم ولهيبها.

ذلك، ولكنَّ تمام النعمة وكمال الرضا، يشرق عليهم بعد ذلك؛ إذ يتجلى لهم ربهم الرحيم فيلقي عليهم السلام، فينعمون آنئذ بالأمان التام والسلام الكامل، بشرى خلود في الجنة أبدًا، يتلقونها من ربهم الكريم مباشرة، اللَّه أكبر! أي إحسان هذا وأي عطاء؟! ذلك مشهد لا تستوعبه العبارات، وتقف اللغة البشرية عاجزة عن بيان حقيقته الرحمانية، فلا إمكان أبدًا لتفسير هذه الكلمات القرآنية الجليلة، وإنما جهدنا أن ندعو اللَّه أن يجعلنا من أهل ذلك المقام.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو يتجلى في أربع رسالات، هي كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الأجل غيب لا يعلمه إلا اللَّه، وأن من الجهل باللَّه أن يغتر الإنسان بقوته وسلامة صحته؛ فيطول به الأمل؛ بما يبطئه عن المسارعة إلى التوبة، والمبادرة إلى العمل الصالح، فاستبطان هذه الحقيقة في القلب، كفيل بتنشيط السير إلى اللَّه، والتزام مسالك التقوى، وانكفاف الجوارح عن اقتراف الخطايا، والاقتراب من مواطن السوء. وهي أمان حافظ للداعية من أن تزيغ به الأهواء إلى ابتغاء ما سوى اللَّه والدار الآخرة.

الرسالة الثانية: في أن العدل الإلهي الفاصل بين العباد بمحكمة الآخرة، دواء للقلوب الجريحة في الدنيا، وبلسم لها، يزودها بالصبر الجميل، والاحتساب الخالص،

وإنما على المؤمن أن يَكِلَ المظالم إلى ذلك اليوم؛ فيرتاح من القلق والأسى. فمهما طغى الظالم في الأرض وتجبر؛ فإنه في يوم قريب سيموت! وسيقف قطعًا يوم الجزاء، هو وخصومه من المستضعفين، بين يدي اللَّه الواحد القهار.

الرسالة الثالثة: في أن العمل هو رأسمال العبد في الآخرة، وهو باب النجاة من العذاب، وأن الفوز لا يُنال إلا بكد ومجاهدة؛ فالطريق شاقة، ولا وصول لمن لا زاد له قال ﷻ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقال عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْـمَـنْـزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ اَلْجَنَّةُ** » (١).

الرسالة الرابعة: في أن التعرف على الجنة ونعيمها واجب شرعي؛ ولذلك تضافرت الآيات في كتاب اللَّه على بيان خيراتها وملذاتها. فمن تعرف عليها زَهِدَ في متاع الحياة الدنيا، ونجا من فتنة الشهوات المهلكات بإذن اللَّه. وعلى المؤمن أن يتدبر معارض نعمها في القرآن؛ حتى تصبح حقيقتها أملًا حيًّا في قلبه، وشوقًا يحدوه بقوة إلى الرقي بمعارج الروح.

٤ - مسلك التخلق:

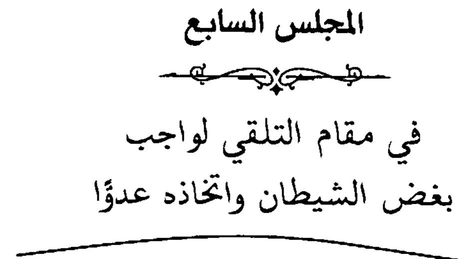
قضية هذا المجلس في مسلك التخلق هي: العمل، كيف السبيل إلى التزام جادته، ومحبة مكابدته؟ إن الحامل الأكبر على الدخول تحت ربقة العمل، والارتقاء إلى مقامه صفةً لازمةً، خاصة في بداية الطريق، إنما هو الخوف، خوف مقام اللَّه العظيم، كما سبق في حديث النبي ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ** » والخوف متبوع بالرجاء تلقائيًّا، لكن الأول هو السائق الحادي. وإنما يتحقق ذلك للمؤمن بمداومة التدبر للآيات المُعرفة باللَّه في القرآن الكريم، والتفكر في أحوال الآخرة، ثم الدخول في خلوات للنظر في النفس وفي الزمن، ومشاهدة تعاقب الليل والنهار وما يصرمانه من العمر الفاني.

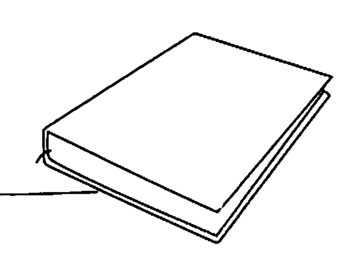
فإذا تم ذلك للعبد تعلق قلبه بما ينتج عن الأعمال من أحوال، وارتقى إلى مقام المحبة، فلا يجد راحته الكاملة ولا لذته التامة إلا بالدخول في حرم العبادات والأعمال الصالحات؛ وإذن لا يخشى على نفسه - بعد ذلك - انقطاعًا أبدًا إن شاء اللَّه.

---

(١) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المجلس السابع





في مقام التلقي لواجب بغض الشيطان واتخاذه عدوًا

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟
ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ
مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا
ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ
فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٨].

٢ - البيان العام:

هاهنا مشاهد رهيبة من أحوال الكفار في موقفهم بين يدي الله يوم القيامة؛ أحوال فيها من الفزع ما يناقض سكينة المؤمنين في جنات النعيم، بفروق ومباعدت لا تطويها مقاييس الأزمنة والمسافات، وقد كانت لنا في المجلس السابق مع المؤمنين مشاهدات، أما هؤلاء فيقال لهم على سبيل الزجر والانتهار: امتازوا أيها المجرمون بمعنى تميزوا وانعزلوا، وهو امتياز حصار وإذلال؛ ليقفوا بعيدًا بعيدًا عن زُمَرِ المؤمنين، مُميَّزِينَ مفصولين، مبعدين كما يُبْعَدُ الجمل الأجرب عن الإبل، ويصفهم الرب ﷻ بشر أوصافهم: « المجرمون ».

هذا يوم البطشة الكبرى؛ حيث يشتد غضب الله على الكفرة فيوبخهم بهذا

السؤال الإنكاري الشديد: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ فذلك عهد اللّٰه للإنسان مذ كان في عالم الذر، وهو عهده الذي تواتر به البلاغ عبر كل الرسالات، إفراد اللّٰه تعالى بالعبودية، ومعاداة الشيطان بدل اتخاذه إلهًا من دون اللّٰه الواحد القهار، فاللّٰه ﷻ لا يقبل من الدين إلا الخالص، الصافي من الشرك والشركاء؛ ولذلك قال تعالى بعدُ: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فلا عبادة للّٰه إلا بتوحيد اللّٰه ومعاداة إبليس، ولا مهادنة للشيطان إلا بتمرد على اللّٰه؛ ولذلك أمر سبحانه العباد باتخاذ الشيطان عدوًّا؛ بما هو لهم عدو مبين، كما جاء في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] وجاء الأمر بفعل « اتخذوا »! والاتخاذ في العربية دال على الإرادة الواعية والقصد المصمم.

وهذا من أهم مقاصد الدين في هذا السياق؛ ذلك أن الإنسان قد يغفل عن استحضار حقيقة الشيطان في ذهنه، وهو ماضٍ في أعماله وأشغاله؛ ومن ثَمَّ تكون الغفلة ويضرب الشيطان ضربته، فالشيطان قد أعلن العداوة للإنسان منذ عهد آدم ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] ولم يزل كذلك ولن يزال حتى تقوم الساعة، ولقد أضلَّ من البشرية الجِبِلَّ الكثير بمعنى الجموع الغفيرة لكن الكفار لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأن اللّٰه طبع على قلوبهم بذنوبهم فهم لا يعقلون، ومن هنا كان واجبًا على المسلم أن يتخذ الشيطان عدوًّا، يحاربه في كل خطوة وخَطْرَةٍ ويعقد لذلك عزمه وإرادته.

ثم يزيد الرب ﷻ الكفار توبيخًا وتقريعًا، بما كذبوا باليوم الآخر والجنة والنار، فيقول: هذه هي جهنم الآن أمامكم، ويأمرهم بدخولها خاسئين لِيَصْلَوْا حرها ويذوقوا عذابها، خالدين فيها والعياذ باللّٰه.

ومن أبشع صور الإهانة والإذلال أن اللّٰه تعالى يختم على أفواههم، ويُلجمها بالخَرَسِ، فلا تستطيع نطقًا، ويأمر تعالى جوارحهم فتتكلم كاشفة عما اقترفته من آثام، وما بطشته من جرائم.

ثم يبين – جَلَّتْ قُدْرَتُهُ – أن قوته وعظمته أكبر مما يتوهمون فلو شاء تعالى لعجل

لهم عقوبة دنيوية، فختم على أبصارهم وطمس عليها طمسًا، كلما سارعوا إلى التعرف على الطريق ضلوا، ثم لو شاء سبحانه لمسخ خلقتهم إلى أسوأ خلقة كما فعل بكفرة بني إسرائيل من قبل؛ فيمسخ هؤلاء الكفرة الآن في أماكنهم التي هم واقفون بها، أو بناديهم الذي هم فيه جالسون، يجادلون في الحق ويستهزئون بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ويجعلهم الجبار تعالى على هيئة مُقْعَدَةٍ غير قابلة للمشي، لا إلى أمام ولا إلى وراء.

لكن الدنيا إلى زوال، فأخر اللَّه عذابهم إلى الآخرة، وذلك أشد لو كانوا يعلمون، وفناء الدنيا حقيقة تشهد بها كل الكائنات، بدءًا بجسد الإنسان نفسه، لو أنهم يتفكرون، فكلما كبر وطعن في السن ضعفت قواه العقلية والجسمانية، حتى يصير - إن عُمِّرَ - إلى أرذل العمر والعياذ باللَّه، فمن لاحظ ذلك أيقن بفناء الحياة، ولم يغتر بقوة ولا جاه، ولكن الكافرين لا يعقلون تنبيهًا ولا إرشادًا.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في أربع رسالات هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أنه ما مِنْ أحد لم يكن عابدًا للَّه إلا وهو عابد للشيطان لا محالة، وإنما قد تختلف مظاهر عبادة الشيطان، وقد تتجلى في صور شتى؛ فما من كُفْرٍ أو ضلال أو فسق أو فجور إلا وهو عبادة للشيطان، وما من تَرْكٍ لعبادة من العبادات المفروضة - بغير عذر شرعي - إلا وهو عبادة للشيطان! والناس كثيرًا ما يزِلُّونَ في فهم هذه الحقيقة، فربما مدحوا المرء وأثنوا عليه بشتى أنواع المدح والثناء، ثم يقولون: « وإن كان لا يصلي » فأي جريمة في الدين - بعد الكفر - أدهى من ترك الصلاة؟!

الرسالة الثانية: في أن اللَّه ﷻ مسيطر على ملكه، قاهر لخلقه، لا شيء يكون في السماوات والأرض إلا بإذنه، فهو تعالى يملك رقاب الكفرة والطغاة، ويملك أسرار خِلْقَتِهِمْ مما لا يعلمه أحد إلا هو، فهو سبحانه وحده الخالق، فلو شاء لأهلك الظالمين بما شاء وكما شاء ومتى شاء، لكنه تعالى يمهلهم لإتمام مدة الابتلاء التي قدرها لهم في الدنيا، وإنه لا يأمن نقمة اللَّه وغضبه إلا جاهل باللَّه مبين، والمؤمن التقي يتزود من

هذا خشيةً ورهبةً تزيده عند اللَّه تعالى رفعة وأمانًا.

الرسالة الثالثة: في أن عقاب اللَّه غير محصور في زمان ولا مكان، وأن خطابه ﷻ بهذا الوعيد من الطمس والمسخ، والعياذ باللَّه، هو خطاب للكفرة والزنادقة في كل عصر ومَصْرٍ، إلى يوم القيامة، ومن الجهل باللَّه أن يعتقد المرء أن القذف كان عقوبة لقوم لوط ولن يتكرر أبدًا، أو أن المسخ كان غضبًا على زنادقة بني إسرائيل لن تحدث بعدهم أبدًا كلا! كلا! فعذاب اللَّه معلق على رؤوس الظلمة والطغاة، فمتى أذن سبحانه وقع بهم، ولا قدرة لأحد ولا حَقَّ له في تحديد عقابه ﷻ كيف يكون وما حوادث عصرنا هذا عنا ببعيدة، فقد رأينا منها من القذف والخسف والأعاصير عجبًا! مما يتجلى فيه غضب الرب تعالى ونقمته، تجليًا واضحًا لا يَعْمَى عنه إلا غَوِيٌّ مبين، فنعوذ برحمته تعالى من نقمته وغضبه، ولقد أنبأ النبي المعصوم - عليه الصلاة والسلام - من هذا بما ينذر القلوب قال ﷺ: « **بين يدي الساعة مَسْخٌ وَخَسْفٌ وَقَذْفٌ** »[1].

الرسالة الرابعة: في أن ملاحظة حركة الزمن في الإنسان وفي الأشياء، توقظ إحساس القلب بتصرم أيام العمر، وتوقفه على مشاهدة تساقطها تباعًا، كما تتساقط أوراق الشجرة في آخر الخريف، الورقة تلو الورقة، حتى تَعْرَى أغصانها تمامًا، فلا غنى لها إلا باللَّه، فلكل جيل من الناس وقت محدود يقضيه على وجه الأرض، فما هي إلا سنوات حتى يشيخ فيهرم، ثم يلقى تحت غيابات الثرى، فكل جيل ينسخ ما قبله نسخًا، ثم ينتظر هو بدوره أبناءَه ليكونوا له ناسخين، فلا بقاء لأحد على وجه الأرض ألَا ما أجهل الإنسان بنفسه وقَدْرِهِ! يتشبث بالوهم ويتترس بالضباب فلا يزداد إلا عَمًى وجهالة.

فيا نفسي المغرورة، إلى متى وأنتِ خاملة الخطو؟ تُرْجِئِينَ عزائم الأعمال إلى غد ليس لك من ضمانة ولا شعرة! هذه حقائبك خاوية، وهذا جرابك فارغ من أي زاد، وبين يديك سفر طويل أنت لا بد كادحة فيه كدحًا، فإلى متى تلهوين عن المصير وإلى متى؟ ألا تكفيك سنوات ضاعت منك في تيه الشهوات والظلمات؟ ألا بُعْدًا لقلبٍ دَقَّ بابه نذيرُ الزمن ثم لا يَرْعَوِي! أَلَا بُعْدًا وسحقًا! فيا إلهي الرؤوف الرحيم،

---

(١) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير. رقم: (٢٨٥٦)، وكذا في السلسلة الصحيحة.

هذه نفسي الضعيفة تجأر إليك مستغيثة برحمتك، فما لي من شيء أستطيع عرضه بين يديك، سوى فقري وذلي وانكساري بين يديك، أنا عبدك المذنب العاصي عدت إليك تائبًا فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

٥ - مسلك التخلق:

أما تحقيق عداوة العبد للشيطان وبغضه، هو وجنده من الإنس والجن، وإخلاص المحبة للَّه رب العالمين توحيدًا وتفريدًا، فإنما يتحقق بأمرين:

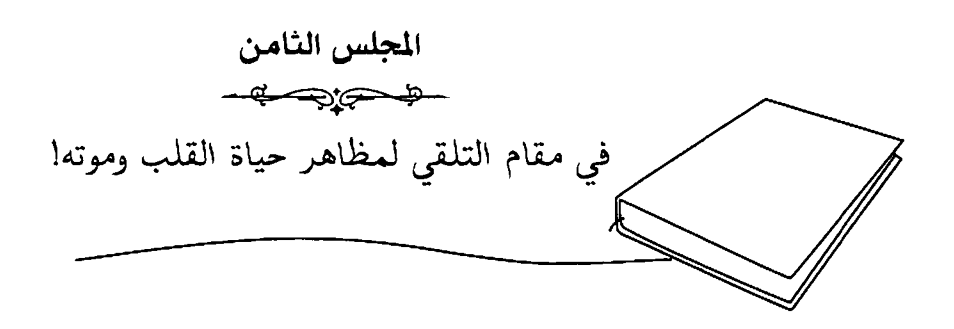
أولهما: معرفة العدو وطبيعته المجبولة على الشر، فمن لم يعرف عدوه حق المعرفة لم يأمن شره، ولم يستعد لكيده الاستعداد الذي يليق بخبثه، فتكون تلك ثغرة هزيمته ومعرفة إبليس - نعوذ باللَّه منه - قد فصلها القرآن الكريم والسنة النبوية، فما على العبد إلا أن يتدبر نصوصهما المتعلقة به؛ ليعرف حجم الكيد الذي يكيده الملعون للإنسان، ويتأمل وجوه الشر التي ينفثها في الصدور، وصور الخراب والظلم والظلمات التي يثيرها في الأرض، وشتى أنواع الفجور التي يمليها على بني آدم إملاءً، فكل الدمار الحاصل في الأرض وكل الشر المستطير هو من الشيطان يلقيه على شياطين الإنس فينفذونه تنفيذًا.

ومن رأى الشر وقبحه أبغضه، ومن عرف خطره وتهديده الدائم للخير والجمال اتخذه عدوًّا.

أما الأمر الثاني: فهو التعرف على اللَّه ذي الجلال والإكرام، وعلى فضله العظيم، وما أسبغه على عباده من نعم، ومشاهدة حِلمه الكبير على حماقاتهم، عندما يغفلون وينحرفون، مما يبثه إبليس في نفوسهم، وكذا ما شرعه لهم سبحانه من جمال التوبة، التوبة النصوح التي تمحو الخطايا وتمسح الذنوب؛ حيث يَمُنُّ سبحانه على عبده المذنب - أنَّى كانت ذنوبه - بالعفو والغفران، وترى كيف أنه تعالى يمد حبل المحبة إلى عباده، وكيف يتلبس الشيطان بالإنسان ليغريه بقطعه؛ حتى يلتحق بحزبه وجنده، ويكون من المفسدين، فأي شر بعد هذا وأي فساد؟!

فلا بد لمن شاهد هذه الحقائق بقلبٍ حيٍّ أن يبغض الشيطان، وأن يتخذه عدوًّا، وأن يحب اللَّه - جل ثناؤه - وحده؛ فيكون له من العابدين المخلصين، ذلك وإنما الموفَّق من وَفَّقَهُ اللَّه.

المجلس الثامن



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس: ٦٩ - ٧٦].

٢ - البيان العام:

أما هذا المجلس فله شأن خاص؛ إنه يستضيء بآيات تحمل أسرارًا ربانية عجيبة، وحقائق إيمانية رفيعة.

كانت دعوة محمد بن عبد اللَّه - عليه الصلاة والسلام - شروقًا قويًا في بيئة أَلِفَ أهلها العيش في الظلام؛ فلم تطق أعينهم مشاهدة النور فحاربوه. حتى كانت منهم فئة طمس اللَّه على قلوبها وأعماها، وألجمها إلجامًا على هيئة لا تطيق بها إبصار الطريق، كما قال في بداية السورة: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ لكن الكفار مهما كادوا لرسول اللَّه ﷺ فقد كانوا يشعرون بالهزيمة الداخلية فيزدادون حنقًا وتغيظًا، والسرُّ في ذلك أنهم احتاروا احتيارًا شديدًا، واضطربوا أمام قوة القرآن وطبيعته، فهو خطاب لا كأيِّ خطاب، خطاب يزلزل القلوب ويسلب الألباب، ويوقظ الفطرة الغافلة والبصيرة الغافية؛ فيسلم له الناس تترى سرًا وجهرًا.

ويرى الكفار زمام المجتمع ينفلت من بين أيديهم انفلاتًا، ويرون سيادتهم تنهار، وكبرياءهم العاتي مهددًا بالزوال، فهؤلاء أبناؤهم يسلمون، وهؤلاء عبيدهم يسلمون ثم تنبعث في قلوبهم جرأة غير معهودة، وشجاعة غير مألوفة، وقوة غريبة في مواجهة طغيان الأسياد وتحدي الظلم والجبروت.

والكفار يعلمون جيدًا أن سرَّ هذا التحول كله إنما هو هذا القرآن فكيف السبيل إلى محاربته وحصاره تلك هي الأزمة التي أرقتهم وأطارت صوابهم؛ فرموه بشتى أنواع التهم ولكن بلا جدوى، كان القرآن - ولا يزال - يعلو ولا يُعلَى عليه.

قالوا: هو ساحر، وقالوا: هو شاعر، وقالوا: مجنون، حاشاه ﷺ، وكانت الشاعرية من أكثر التهم التي استعملوها لمحاولة صد دعوته - عليه الصلاة والسلام - نظرًا لأن العرب كانت تعتقد أن الشاعر إنما يكون كذلك بتنزل الشياطين عليه، فهي التي توحي إليه بالمعاني وموازين القصيد، ولأنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لتصنيف القرآن ضمن صنف من الكلام، يسلب عنه قوته البرهانية وطبيعته الربانية؛ فقد قالوا: إنما هو شعر قالوها وهم يعلمون أنهم كاذبون فرد اللَّه تعالى افتراءهم بهذه الكلمات العميقة: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فاللَّه ﷻ هو الذي صنع محمدًا على عينه، وأعده للنبوة والرسالة إعدادًا، ورعاه لذلك الشأن العظيم مُذ كان في بطن أمه ﷺ إلى أن تنزلت عليه أول كلمات الوحي، فما أتاح له تعالى فرصةَ تعلم الشعر ولا ألهمه قريحته؛ فصار طبعُه يأباه. كما صرفه - قبل الرسالة - عن كثير من مفاسد القوم وضلالهم.

فهي نبوة وليست شاعرية، وفرق بين الحقيقتين كبير، فالشعر تجربة نفسية بشرية تفيض عن النفس الإنسانية عند جيشانها العاطفي، وتضرب بأجنحة الخيال في التعبير والتحبير.. والشاعر مملوك لهواه أبدًا، سواء كان خيرًا أو شرًّا بينما النبوة تَلقٍّ لخطاب الوحي الإلهي، وتجرد مطلق عن الهوى، ونُطْقٍ بحقائق الإيمان الكاملة وتعبير عن مراد اللَّه رب العالمين، بكلام اللَّه رب العالمين، فأين الثرى من الثُّريا ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] ألا ما كان أسفه عقول أولئك الكفار وهم يتهمون محمدًا بأنه مجرد شاعر.

ومن هنا بيَّن الحق ﷻ طبيعة هذا الرجل، لكن بأسلوب رباني راقٍ فبدل أن

يصف شخصه - عليه الصلاة والسلام - وَصَفَ طبيعة ما يصدر عنه من كلام، وفي ذلك ما فيه من قمة التعبير الجمالي وعمق المعنى الدلالي، فقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ بيان حصري عميق لحقيقة هذا الكلام الذي ينطق به محمد ﷺ: « ذكر وقرآن مبين » نعم هو هكذا: ذكر، والذكرُ طَرْقُ يَدِ الغَيبِ لباب القلب الغافل وإيقاظٌ للروح الراقدة في كهف الطين المسنون مخدرة بأدخنة الشهوات والأهواء، وإخراج للوجدان الناسي حقيقتَه من قارورة نسيانه، وتذكير له بالعهد الأول والميثاق الذي وقعه شاهدًا على نفسه في عالم الروح، مجيبًا بين يدي الرب العظيم: ﴿ بَلَىٰ ﴾ [1] مُقِرًّا بالتوحيد والإخلاص، وهو إحياءٌ للفطرة التي ضاعت تحت ركام المعاصي والذنوب، وتجديدٌ لها؛ عساها تحس بالحياة من جديد، ذلك كله هو « الذكر » الذي يقابل معاني الغفلة والنسيان بمعناهما الروحي العميق، ولا أَذْكَرَ للروْح من الروْح! والقرآن العظيم رَوْحٌ نزل به رُوح، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

فمن هنا كان هذا الكلام الذي ينطق به محمد ﷺ « ذكرًا » بهذا المعنى الكوني العميق، وللقرآن أسماء أخرى ذكرها اللّه تعالى في كتابه؛ كالتنزيل والكتاب وغيرهما، لكن « الذكر » هو الاسم الدال على وظيفته الكبرى.

وهو في الوقت نفسه « قُرآنٌ مُبينٌ ». أي قرآن واضح الدلالة على رسالته، قوي الحجة على حقيقته ودعوته، لا ينكر ربانيته إلا غويٌّ مبين.

ولفظ « القرآن » هو: الاسم العَلَمُ الجامع المانع لمعنى كلام اللّه ﷻ المنزل على رسوله محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو اسم دالٌّ على معنى القراءة، فعبارة قرآن مصدر من مصادر فعل « قرأ »، دال على المبالغة والامتلاء، كغضبان بمعنى الممتلئ غضبًا ورحمن لمن وسعت رحمته كل شيء ﷻ، فالقرآن: هو الكتاب المجعول للقراءة الكثيرة المستفيضة، ولذلك فهو قد قُرِئَ ولم يزل يقُرأ في السماء وفي الأرض إلى يوم القيامة، لكن السر الرفيع لهذه السيماء، والمقصد اللطيف لهذا الاسم

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الكريم - أن كتاب الله - جلَّ ثناؤه - لا ينقدح نوره لعبد إلا بإشعال فتيل قراءته بقلبه، فلا تدبر ولا تذكر إلا بقراءة، وليس عبثًا أن يكون أول ما خاطب الله به رسوله ﷺ قوله تعالى: « اقرأ » فمن قرأ الكتاب حق القراءة تذكر، ومن تذكَّر فقد أدرك الغاية، وخرج من الظلمات إلى النور بإذن الله؛ وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾؛ ولذلك قال بعدُ مباشرة: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لتقوم - حسب رواية ورش - أيها الرسول بنذارة البشرية، وإبلاغها النبأ العظيم أو - حسب رواية حفص - ليقوم هذا الكتاب نفسه - بما هو ذكر يُتَلَقَّى بالقراءة الحقة المتدبرة بإنذار من قرأه أو قُرئَ عليه. وخص النذارة دون البشارة بالذكر هاهنا؛ لأن من تذكر فَزِعَ، وغلب عليه الخوف أكثر من الرجاء؛ لما يكون من حال الغافل بعد يقظته، وإدراكه حجم الخطر الذي هو عليه.

ولكن ذلك كله - من أوله إلى آخره - لا يكون إلا لمن كان قلبه حيًّا! أي أن فطرته لم تنطمس تمامًا، ولم يزل بوجدانه حبٌّ للخير، ولو على جهل بطبيعته ولم يزل بضميره تَوْقٌ إلى معرفة الحق، ولو على ضلال عن سبيله وإنما حاجته فقط إلى بيان، وأما الكافر الذي مَرَدَ على الكفر وتمرد على الله رب العالمين، وأُشْرِبَ التكبر والطغيان، فذلك قد انطمست فطرته، ومات شعوره بكل معاني الخير والجمال فلا رجاء في يقظته، ولا إمكان لتذكيره، ولا فائدة من طرق باب قلبه الهالك إلا أن على الرسول تبليغه الدعوة وجوبًا؛ لتقوم عليه الحجة، ويحق عليه حكم الله العادل، وقضاؤه عليه بالخسران المبين.

ويلفت الرحمن تبارك وتعالى - بعد ذلك - نظر هؤلاء الكفرة إلى آيات أخرى من طبيعة أخرى وقد عَمُوا وصموا عن آيات القرآن؛ فيوبخهم ﷻ بسؤال إنكاري شديد؛ أَنْ عَمُوا أيضًا عن النعم التي أغدقها عليهم من بهيمة الأنعام، إبلًا وأبقارًا وأغنامًا، وما ينتج عنها من الخيرات، فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ فهو تعالى الذي خلق تلك الأنعام بيده ﷻ ، ثم مَلَّكها للإنسان وجعلها له بكل منافعها ركوبًا، وأكلًا، وشربًا، ولباسًا، ومالًا، وزينةً، وجمالًا، وكان من الممكن أن يجعلها الله تعالى متوحشة

لا تقبل تأليفًا ولا تدجينًا، ولكنه تعالى ذللها تذليلًا، وأخضعها للإنسان بسنن التسخير فخضعت وانقادت، ثم جعل الطفل الصغير من بني آدم يقود الجمل الفحل الكبير، والثور الضخم العظيم، ويسوق بين يديه القطعان الكبيرة من الإبل والأغنام والأبقار فتنقاد له انقيادًا نعمةً من اللَّه وفضلًا.

ولكن الكفار محجوبون بكبريائهم عن رؤية تجليات أسماء اللَّه الحسنى في ذلك كله، محرومون من قراءة آياته فيما فاض عنها من البركات والخيرات؛ فهم لا يشكرون، بل جحدوا النعمة وكفروها، واتخذوا من دونه تعالى أربابًا من الأحجار والأهواء والأموال والشهوات؛ لعلهم بذلك أن ينصروا ويسيطروا في الأرض، فعُباد الأصنام والأوثان - قديمًا وحديثًا - يعتقدون بجهلهم وضلالهم المبين أن لهذه « الآلهة » وعيًا وإرادةً وسلطانًا، وأنهم بعبادتهم إياها يدخلون تحت حِمَاها ونصرتها، وهي لا تستطيع دفع الأذى حتى عن نفسها كما أن عُباد الأصنام المعنوية والبشرية في العصر الحديث من مال وجاه وسلطان يمرغون وجوههم في التراب من أجلها؛ قصد نيل الجاه، والحصول على أسباب السيطرة، والاحتماء بها من عوادي الزمن والنوائب! ولكنها أوهام واهية فلا شيء يستطيع منع أمر اللَّه إذا جاء ولا رفع قضائه إذا نزل فترى هؤلاء الجهلة باللَّه - من الأقدمين والمحدثين - جندًا مجندين لأصنامهم الحجرية، عبيدًا أذلاء لأسيادهم البشرية، ممن تألَّه وتجبر من الطغاة، يدافعون عنهم ويقاتلون من أجلهم. فهم حاضرون متى استُحضروا، ونافرون متى استُنْفِروا والمعركة كلها من أجل باطل وضلال مبين معرضين بذلك عن نصرة اللَّه رب العالمين متمردين على جلاله وسلطانه العظيم.

ثم يلتفت الرحمن إلى رسوله الكريم بخطاب لطيف محمل بأجمل عبارات المواساة والإيناس - أن لا تحزن يا محمد لا تحزن من جبروتهم وتكذيبهم إياك ولا من سخريتهم من رسالتك ودعوتك، فإنَّ عِلْمَنا قد سبق ما يُسِرُّون في قلوبهم من الكيد والبغضاء للدين ولأهله، وما يعلنونه من القول، توعدًا وتهديدًا وسخريةً وتكذيبًا، كل ذلك نحن له بالمرصاد، وكفى بربك نصيرًا؛ فلا تحزن كل ذلك جاء في كلمات تنبض بالجمال والجلال من قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فأي داعية إلى اللَّه بعد هذا تربكه فتنة الإعلام الشيطاني،

أو يستفزه الطغيان العالمي؟! اللَّهم إلا إذا كان غير موصول القلب باللَّه، ولا مُستَمِدًّا وارداته من رحمته ورضاه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في خمس رسالات هي كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن حياة الروح هي الحياة، وأن الحي حقًّا من بني آدم إنما هو المؤمن، وأما مَنْ سِوَاهُ مِنَ البشر فَهلْكى ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل: ٢١] وهذه الحقيقة جارية بالمعنى الدنيوي وبالمعنى الأخروي معًا، فأما المعنى الأخروي فظاهر؛ ذلك أن اللَّه تعالى وعد المؤمن جنة الخلد، ومتعه بلذة الإيمان به ﷻ ، وباليوم الآخر، وما ينتظره فيه من نعيم مقيم، فالحي الحقيقي إنما هو من ارتبط بالحياة الباقية، وزهد في الحياة الفانية.

وأما حياة الروح بالمعنى الدنيوي فهي متعلقة بطبيعة التمتع بجمال الحياة فوق الأرض، والتذوق لنعم اللَّه المتجلية عليها، فأما هذا فإنما المتمتع به حقًّا إنما هو المؤمن أيضًا، وأما الكافر فمهما نال من ترفها وغناها فليس له من متعتها الحقيقية شيء، بل يأكل ويشرب كما تأكل الأنعام، وبيان ذلك أن المؤمن يرى جمال أسماء اللَّه الحسنى متجلية على كل شيء، فما من نعمةٍ مهما صَغُرتْ - ولا صغير في نعم اللَّه - إلا وهي آخذة بحظٍّ من نورها الوهاج، الرجل الصالح الفقير الذي يقتات بكسرة خبز وبضع حبات من زيتون، يجد من جمال النعمة وكمال اللذة وذُرَى المتعة، ما لا يجده مُلتهِم أطباق اللحوم وشتى أصناف الشهوات، من الجهلة باللَّه واليوم الآخر.

ذلك أن المؤمن الفقير يرى أن حبة زيتونة واحدة، تختزل نعمة اللَّه التي أسبغها على الوجود كله، فيرى فيها قدرة اللَّه على الخلق، وجمال الإبداع والتصوير، وما بثه الرحمن فيها من أنوار وأسرار، مما لا يحصيه عَدٌّ، ولا يحصره حَدٌّ، ثم يرى فيها جمال الرعاية مُذْ كانت بذرة إلى أن صارتْ شجرة، حتى أزهرت بإذن اللَّه وأثمرت، ثم يرى فيها رحمة اللَّه وكرمه وجوده؛ إذ جعلها رزقًا مقدرًا له ولأولاده كما يرى فيها أيضًا هيمنته تعالى على مُلكه، وقدرته على تنفيذ قضائه وقدره؛ إذ ساق إليه هذه الحبة من الزيتون من بين آلاف الموانع، وسائر القوى المتصارعة على

الثمار والأرزاق، فجعلها رغم أنوفهم جميعًا من رزقه! وربما سخر بعض أعدائه - وهم لا يشعرون - لخدمته، والإسهام في إيصال رزقه إلى باب بيته.

وهكذا فتجليات الأسماء الحسنى على حبة الزيتون تلك لا تنتهي، فيأكل الفقير طعامه القليل هنيئًا مريئًا، وهو يشعر بالغنى العالي بالله، فأي حياة هذه وأيُّ هناء؟! ألا تلك هي الحياة وإلا فلا، ولقد تكلَّم رسول الله ﷺ بحكمة بالغة، قال سيدي: « **من أصبح منكم آمنًا في سِرْبِه، مُعَافًى في جسده، عنده قُوتُ يومِه، فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها** » (١) والقوت من الطعام: هو ما يسد الرَّمَقَ ولا يزيد.

ثم انظر إلى تعاسة المترفين كيف شقوا بمالهم، فكانوا له عبيدًا، وهم يظنون أنهم به أسياد، وانظر إلى القلق كيف يقض مضاجعهم، وهم لا يدرون لشقائهم سببًا؟! الخوف يطاردهم، والجشع يُنْهِكُهُم والطمع يعذبهم، هم يجمعون وأبناؤهم يبددون، وهم يتعبون وخدمهم يتمتعون، فأي حياة هذه، بل أي هلاك؟! ألا فذلك هو قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به آخرين.

الرسالة الثانية: في أن القرآن هو حياة القلب وروحه، وهو موقظه ومُذَكِّرُهُ! ترتيله المخلص يصل القلب بالملأ الأعلى، ويجعله يرى الكون من أعلى أبراجه، فتنكشف له حقيقة الحياة الدنيا، ثم ينزاح عنه حجاب الغفلة والغرور، فبمجرد شروع العبد في تلاوته أو سماعه - بافتقار تعبدي صادق - تبدأ كلمات الله تدر عليه من نور الحكمة والتزكية ما يُرَقِّي قلبه إلى مقامات الحضور والمشاهدة فتنكشف له مرآة نفسه، ويرى ما بها من علل وقروح، ثم يشاهد الآيات تتنزل عليها بالدواء الرحماني الشافي؛ حتى إذا برئت جوانحه من جروحها حلَّق في سماء الروح، وارتقى على قدر قراءته وترتيله، حتى يكون مع الله، لا يسمع ولا يبصر إلا به، فلحياة القلب آنئذ أوقات موصولة بالزمن الخالد، أوقات لا تفنى أبدًا، فإنما قارئ القرآن عبد مُصْغٍ إلى ربه يتكلم، وتلك حقيقة إيمانية عُظْمَى لا تستوعبها الأخيلة والعقول، ولا تُدْرَكُ إلا أن تذاق.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن محصن مرفوعًا، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٦٠٤٢).

الرسالة الثالثة: في أنه لا يجوز للداعية أن يشغله شيء عن القرآن، قراءةً وتدبرًا واستمدادًا. مُتخذًا من سوره قناديل ينير بها ليله، قيامًا بين يدي ربه يرتل القرآن ترتيلًا، فهو سميره بالليل وأنيسه بالنهار لا يشغله عنه شعر ولا رجز. وليس معنى هذا ألا ينفتح على أنواع الفنون والشعر والأدب، كلا! وإنما القصد أن يكون القرآن هو إمامه، وهو محور اهتمامه ومدار فَلَكه، وأن تكون كل تلك النوافذ التي يفتحها على الثقافات والفنون الأخرى خادمةً لتدبر القرآن وتبليغ رسالته، غير حاجبة للمؤمن عن نوره، ولا فاتنة له عن السير إلى اللّه بهداه.

الرسالة الرابعة: في أن المؤمن مُلزم بقراءة الكتابين معًا، أعني كتاب اللّه المسطور، وكتابه المنظور، بمعنى التدبر لآيات القرآن الكريم، والتفكر في آيات الكون وما خلق اللّه للإنسان من النِّعم، وما سخر له من تجليات الرحمة والكرم. وشُكْرُ ذلك كله متعلق بذمته حتى يؤدِّيه توحيدًا للّه وإخلاصًا.

والجمع بين القراءتين هو الكمال في مسلك السير إلى اللّه والتعرف إليه، والقراءةُ الحقة للقرآن مفضية بالعبد حتمًا إلى القراءة لكتاب الكون؛ إذ الآيات القرآنية لم تزل تنبه القلب للتفكر في خلق السماوات والأرض، وفي ما جعل الرحمن ﷻ من الآيات في الأنفس والآفاق، وإن ذلك لمَّا يفتح البصيرة ويوسع فضاء الروح. وإنها لعبادة واجبة تركها الناس إلا قليلًا؛ وبذلك عمت الغفلة وتبلد الحس، وما ينبغي للمؤمن - بَلْهَ الداعية - أن يعيش مغبونًا فيما نُصِبَ له من جلائل الآيات الكونية التي تهدي خطواته في طريق التعرف إلى اللّه والتعريف به، وتنير قلبه وبصيرته بما أفاض - جل ثناؤه - على جميع مملكته من جمال أسمائه الحسنى وجلالها.

الرسالة الخامسة: في أن المؤمن آمِن، وأنه لا آمِن إلا من أمَّنَهُ اللّه! وإنما ذلك هو المؤمن الحق، المؤمن الواثق باللّه، الموقن به جلَّ جلاله وعُلاه، بما تحقق لديه من معرفة به تعالى من خلال ما هداه إليه سبحانه، من قراءة الكتابين: القرآن الكريم، وسُنَن اللّه الجارية في الكون العظيم. فلا يزال الجهلة باللّه من عُبَّاد الأوثان الحجرية والبشرية، يلهثون وراء طلب لحظة لراحة الأعصاب، والتخلص من كابوس الخوف من الفقر، وانقلاب الدهر، وذهاب الجاه والسلطان، فلا يجدونها ولو في الأحلام، بينما المؤمن يعيش - بفضل التوحيد والإخلاص - مطمئن البال، آمن الروح، منشرح الوجدان،

راضيًا بقضاء اللَّه فيما قسم له من الأقدار والأرزاق، ثروته القناعة، وجاهه الغنى باللَّه، وسكينته خشية اللَّه. غير آبه بكيد الأعداء، لا تحزنه دعاياتهم المغرضة، ولا إشاعاتهم الكاذبة، ولا دجلهم الإعلامي الخبيث، فهو يستمد أمنه العميق من ثقته باللَّه؛ لأنه تعالى أمان الخائفين، ونصير المستضعفين، وكفى به ﷻ حافظًا ونصيرًا، وكل الذي فوق التراب تراب.

٤ - مسلك التخلق:

قضية هذا المجلس هي حياة الروح، والمسلك العملي المطلوب الدخول فيه هو: كيفية الاستفادة من الروح القرآني؛ بما يحيي القلب ويفتح بصيرته، ويسلكه بعد ذلك بصورة تلقائية في مدارج الشكر والإخلاص.

وقد بينا في أكثر من مجلس أن جلسة التدارس لكتاب اللَّه والتدبر لآياته - هي المفتاح الأساس الذي به تنفتح البصيرة وتستيقظ الروح، فتدب الحياة في القلب من جديد، بما يصيبه من وابل التزكية ونور الحكمة، وبما يناله من فيض العلم باللَّه.

بيد أن بعض الناس قد يشكو قساوة قلبه حتى عند تلاوة القرآن فلا يستطيع تدارسًا ولا تدبرًا، بل بمجرد ما يفتتح التلاوة يغيب في متاهات الشرود، فلا يجد سبيلًا ليقظة قلبه ولا لحياة روحه **وعلاج ذلك بحول اللَّه يكون بثلاثة أمور:**

- **أولها:** الاجتماع على الخير، وذلك بطلب أهل الفضل والصلاح ممن يعقدون مجالس القرآن، والدخول معهم في فضاء التدارس الجماعي؛ إذ إن للاجتماع من الأثر على القلب ما ليس للانفراد، إذا كان الأمر يتعلق بتدارس الكتاب؛ لأن الشيطان من الجماعة أبعد، ومن ثَمَّ قال رسول اللَّه ﷺ: « **عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد** » [1]؛ ولذلك كان الاجتماع حصنًا للفرد من الشرود والتيه، وأَدْعى لحضور عقله وقلبه مع الجماعة. وهذا مقتضى من مقتضيات الحديث القدسي: « **فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم** » [2] ومع أنه ورد في سياق آخر إلا أنه دال على مشاركة الفرد لمن يجالسهم فيما يتلقونه من نور

---

(١) رواه الترمذي والحاكم عن عمر ﷺ مرفوعًا، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ثم صححه الألباني في « صحيح الترمذي ».

(٢) جزء حديث متفق عليه.

وحكمة وواردات، وذلك هو المراد. ومَنْ حلَّق مع السرب استطاع بعد ذلك أن يُحلِّق فردًا، وليس عبثًا أن قال النبي ﷺ في الحديث الشريف: « **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه** » (١).

– **الثاني**: مصاحبة أصحاب الأحوال الصالحة. فبالإضافة إلى ضرورة الاجتماع على الخير، يحسن جدًّا صحبة من يتوسم فيهم سيماء الورع والتقوى، والاجتهاد في الترقي بمنازل الإيمان، ممن بدت عليهم أحوال الخوف والرجاء والشوق والمحبة، وهجروا حياة اللَّهو والدَّعة والخمول، وشمَّروا عن ساعد الجد في طلب المنازل العالية، فألقت عليهم شجرة الإخلاص ثمار الفقر والتواضع ثم أُشْرِبت قلوبُهم محبةَ القرآن الكريم، فأسهروا به ليلهم، وعمَّروا به نهارهم، فكانوا من أهل اللّه وخاصته حقًّا! ذلك أن مصاحبة أمثال هؤلاء تُورث القلب خِصَالَهم، وتوقد فيه أشواقهم، وذلك هو المبتغى، وقد عُلِمَ أن الأحوال في الشر والخير عدوى.

– **الثالث**: ملازمة الاستغفار، والإكثار من الصدقة والصوم عسى أن يتهيأ القلب لاستقبال الخير؛ ذلك أن غالب أحوال القساوة إنما هو ناتج عن كثرة الذنوب وإهمال التوبة والاستغفار فالذنوب إذا تواترت على القلب نسجت عليه غلافًا سميكًا كالحصير يُفقده الإحساس بالخير وتذوق الإيمان، وهو مقتضى قول النبي ﷺ: « **تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوب كَالحَصِير عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: على أبيض مثل الصفا، فلا تضُرُّه فِتْنَةٌ مَا دَامتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ! والآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** » (٢). وَمِنْ هُنَا أُمِرْنَا بإتْبَاع السيئات الحسنات؛ حتى لا تتراكم الآثام على القلب فيقسو، بل وجب أن نُخْضِعهَ – بفعل الحسنات – للتطهير الدائم؛ حتى لا يفقد حياته بإذن اللّه! ولا شك

---

(١) رواه مسلم.

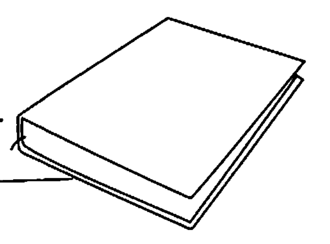
(٢) رواه مسلم. وقوله: « أسود مربادًّا »: يعني فيه لمعان من شدة السواد، والكوز: الإناء كالإبريق. وكونه مجخيًا: يعني منكوسًا، بحيث لا يمسك ما فيه.

أن الاستغفار والصدقة والصيام، من أقوى أعمال البر على كنس القلب من سيئاته وخطاياه، كما تواترت بذلك النصوص الوفيرة الكثيرة، من كتاب اللّٰه وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - ذلك، واللّٰه الموفق للخير والمعين عليه.

* * *

المجلس التاسع

في مقام التلقي لسر الخالقية
حق الله على عباده، وحجة الرسل والدعاة!



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣]

٢ - البيان العام:

أما هذا فمقام العظمة والجلال المشاهدات فيه ترتجف خوفًا مما راعها من بارق النور العظيم، فلختام السورة تَجَلٍّ لحق الله العظيم وحجته البالغة، على مقامٍ لاهبٍ يحرق وجدان العبد المتلقي لآياته، فلم يزل يرى - إن كان من المبصرين - بهذه الخواتم، من أسرار العظمة، وخوارق الربوبية؛ ما يزلزل كيانه، ويهد بنيانه؛ حتى يخر بين يدي ربه صَعِقًا.

هاهنا يخاطب الرحمن مرة أخرى الكافر العنيد، يخاطبه بما هو جنس إنساني خلقه من ماء مَهِين، فيلتفت إليه بسؤال إنكاري شديد يحمل من التهديد والوعيد، وعمق الحُجَة وقوة البيان؛ ما يجعل قلب المؤمن - القارئ أو المستمع - يرتجف خوفًا ورَهَبًا؛ إذ ينكشف له من أسرار الملك والملكوت، ما يجعله صريع النظر إلى عظمة

اللَّه الواحد القهار.

الإنسان هذا المخلوق الضعيف، الذي أسكنه اللَّه هذا الكوكب الصغير السابح في كون لا يحد بخيال، والأرض ذرة لا تكاد تُرى في بحر الملكوت الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، هنا يقبع الإنسان الذي يجادل الرحمن رب العالمين! والإنسان في القرآن لفظٌ غير مريح ولا مستريح، فهو الذي حمل الأمانة فكان ظلومًا جهولًا، وهو الخصيم المبين، وهو المخلوق في كَبَد، وهو الذي كان أكثر شيءٍ جدلًا، وهو الذي قُتِلَ ما أكْفَرَهُ، وهو الذي أقسم عليه رب العزة إنه لفي خُسْرٍ، ثم استثنى المؤمنين، والمستثنى دائمًا هو القليل.

الإنسان هذا المخلوق الضعيف، المحكوم قهرًا بضروراته وطينه، ينتصب فوق تربته السفلى ليجادل اللَّه رب العالمين عجبًا! لكن الرحمن يرد على عبده المتعدي حدوده – مُعَرِّفًا إياه بِقَدْرِه الصغير وبهوان شأنه! وبحجم جهله بنفسه وبربِّه – فقال ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وإنه لخطابٌ قوي مبين، تكلم فيه الرب ﷻ بضمير المتكلم؛ إمعانًا في التصدي الرباني المباشر لمَرَدَةَ الكفار؛ مما يجعل السياق أكثر رهبةً وجلالًا، وخاطب الإنسان بضمير الغائب؛ إمعانًا في التقليل من شأنه والتحطيم لكبريائه الأحمق، ويُذَكِّرُهُ الرب ﷻ بحقيقته، لكن من خلال سؤال إنكاري؛ تبكيتًا له وتعجيبًا منه؛ أن نسي أصل خلقته فطغى وتجبر، وما هو إلا عبد حقير، خلقه اللَّه تعالى بقدرته من نطفة ماء مَهِين، ثم ها هو ذا بعدما كبر وابتلاه اللَّه بالمال والجاه يصير خصمًا شديد الجدال لرب العالمين الذي خلقه من قبل ولم يكن شيئًا مذكورًا فأي جهل هذا وأي ضلال؟!

وتذكر كتب التفسير في سبب نزول هذه الآيات قصة طريفة، نوردها مختصرة لأهميتها في بياننا هذا، وذلك أن أحد الكفار جاء إلى النبي ﷺ، وقد أخذ عظمًا قد أَرَمَّ، أي صار رميمًا، والرميم: هو العظم الذي بلي حتى صار يتفتت، ففته في يده حتى صار غبارًا، ثم نفخ فيه فطارت ذراته في الهواء، فقال: يا محمد أتزعم أن اللَّه يحيي هذا بعدما أرم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: « **نعم، يُميتك اللَّه ثم يحيك ثم يدخلك جهنم** »[1] فأنزل اللَّه تعالى خواتم سورة يس مشيرًا إلى الحادثة المذكورة

---

(١) ن. تفسير الطبري للآية.

في سبب النزول: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ وفي الآية من التعجيب والسخرية من هزال عقل هذا الكافر ما يجعل حجته ضعيفة البناء، بل بليدة التفكير والتدبير، فهذا الضارب لاستحالة إعادة الخلق - في حق رب العالمين - ذلك المثل المادي الجزئي العَيي الذي غاب عنه النظر إلى عمق الوجود، والتفكر في أسرار الحياة والموت، وعَمِيَ عن النظر إلى عظمة اللَّه الواحد القهار، قد جاء بما يُخجِل لو كان من أولي الألباب؛ إذ هو يحتج على اللَّه ورسوله بأنه ﷺ لن يستطيع خلق هذا الرميم المتآكل، ولا إعادته بشرًا سويًّا إلى الحياة من جديد زعَم ذلك ونسي الأحمقُ ذاتَه نفسها، نسي خِلْقته عينها وكيانه الوجودي كله متى كان وكيف؟ وأين كان قبل أن يكون؟ فهذه الهيئة الإنسانية التي بها يتنفس الآن الحياة، والتي بها يخاصم ويجادل، ويبطش ويتجبر - أَوَليس اللَّه ﷻ الذي خلقها من قبلُ ولم تكن شيئًا مذكورًا؟ فالخالق بشرًا من طين، أو من قطرة ماء مهين، والخالق كل شيء من لا شيء؛ لهو تعالى أقدر على إعادة خلق الإنسان من تراب مرة أخرى، وعلى إعادة جمع ذراته أَنَّى طارت، وأيَّان كان مرساها فإنما خلقه للشيء - متى أراده - ﴿ أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ولكن الجهلة باللَّه لا يعلمون.

وقد ثبت في الحديث أن اللَّه تعالى يعيد خلق الإنسان يوم البعث مِنْ عَجْبِ ذَنَبِهِ (١)، وَعجْبِ الذَّنَبِ: هو العظم الصغير الذي به ينتهي العمود الفقري البشري. سُمِي بذلك؛ لأنه موضع الذَّنَب من الحيوانات ذوات الذيول والأذناب. والمقصود أنه تعالى يخلقه من ذرة صغيرة تكون داخل هذا العظم الصغير - ذرة قد لا تُرى بالعين - فكل شيء يفنى من الإنسان إلا هذه الذرة، فهي بمثابة بذرة شجرته فَلْتَطِرْ حيث شاءت، ولو تُدفن حيث قُدِّر لها، ولتكن قد صارت طعامًا لوحش أو لحوت، أوضلَّت في طوفان أو حريق، فَنواتها الدقيقة لن تزال تحتفظ بسرها أبدًا، حتى إذا فَنِي مَنْ في الأرض جميعًا، وحان يوم البعث أَمَر اللَّه الأرض فتخمرت واهتزت وربت ثم أنبتت ملايين البشر، من آدم ﷺ إلى آخر من يكون، ينبتون منتشرين على صعيدها كالبَقل، ثم ينفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يَنْسِلُون وإنَّ

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « كل ابن آدم يأكله الترابُ إلَّا عَجْب الذَّنَبِ، منه خُلِق ومنه يُرَكَّب » رواه مسلم.

ذلك لأهون على اللّه جلت قدرته وعظمته، ولكن الكافرين بربهم يجحدون فسبحانه وتعالى عما يصفون ويقولون.

ولذلك فقد جاء الرد على ضارب المثل السفيه، ردًّا قويًّا حاسمًا؛ إذ شكك الجاحد في أخص خصائص الربوبية: الخالقية فقال تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ وهو رد متين مبين فيه من دقة البلاغة، وقوة الحجة، وشدة الإفحام الملجم للجاحد ما يليق بجلال اللّه الكبير المتعال، فقد أمر تعالى نبيه أن يقول لهذا الجاحد الضال الذي أعرض عنه ربه غَضَبًا: قلْ له يا محمد إن تلك العظام التي طار رميمها من يده يحييها الذي أنشأها أول مرة، ولم يذكر تعالى اسم الجلاله: اللّه؛ لأن هذا الكافر جاهل به تعالى؛ فلا يستحق أن يخاطب باسمه سبحانه ثم لأن عقله السفيه ضلَّ عن النشأة الآخرة، فنبهه اللّه تعالى للتفكر في النشأة الأولى دون أن يذكر له الفاعل لها؛ لأن العرب يومئذ كانت تؤمن بأن الخالق لكل شيء إنما هو اللّه، ولكنها كانت تنكر البعث والنشور وتستبعده - بجهلها - وتستعظمه في حق اللّه، فكما خلق تعالى الخلق الأول يخلق سبحانه الخلق الثاني، والمتعجب من الخلق الثاني - لو كان من العقلاء - لكان أجدر به أن يتعجب من الخلق الأول، والمحيل للخلق الثاني ملزم بالضرورة أن ينكر الخلق الأول وهذا هو عين الضلال وركوب المحال.

ألا ما كان أحرى بالإنسان الذي لا يجحد وجود اللّه تعالى - على الأقل - أن يتأدب مع ربه الذي خلقه حتى ولو كان كافرًا بعد ذلك بكل شيء من أصول الإيمان! فلا يتجرأ على فاطر السماوت والأرض بنقصه سبحانه شيئًا من صفاته، بَلْهَ أن يسلبه أخص خصائص شؤون ربوبيته: صفة الخالقية، ولو كان أتى من باب السؤال الصادق في طلب المعرفة باللّه، متواضعًا بين يدي ربه؛ لهداه اللّه إلى كل حقائق الإيمان، فكان من المهتدين بإذن اللّه، ولكن اللّه لا يهدي المتكبرين.

فمن أخطر أنواع الكفر والجحود - إلى جانب الشرك الغليظ باللّه - إنكار صفة الخالقية في حق رب العالمين والانتقاص من كمالها، وتلك هي الجريمة الكبرى التي وقع فيها ضارب المثل في سياقنا هذا، ومن هنا أردف اللّه تعالى على رده عليه جملة قوية البيان، مُعَرِّفة بكمال قدرته على الخلق بما لا طاقة للعقل البشري على استيعابه،

إلا أن يكون من المؤمنين فقال ﷻ : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ هكذا على الاستغراق الشامل العام الذي لا يستوعبه عدٌّ ولا يحيط به خيال، الخلق الأول والخلق الثاني، والخلق من شيء والخلق من لا شيء! وخلق الذرات وخلق المجرات، وخلق الأرضين وخلق السماوات، وما في جميع الملك والملكوت، ومن ذا قدير على إحصاء خلق اللّه إلا الخالق العظيم! ألا ما أجهل الإنسان بربه الكريم.

ثم يُقَرِّبُ القرآنُ الأدلةَ إلى عقل الإنسان الضعيف بالاقتراب من حياته اليومية ومنافعه المادية، فيقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ وقد تحدث المفسرون قديمًا عن منافع الشجر، وكيف يكون غضًّا نديًّا لا يكاد يصلح لإيقاد النار، ثم يجف بعد ذلك؟ فيحصل به الانتفاع في الاصطلاء والطبخ وفي سائر المنافع التي لا تنحصر من إيقاد النار.

كما تحدثوا عن أنواع خاصة من الشجر - لها خاصية اشتعالية، - كانت العرب تقدح النار بحك أغصانها الخضراء بعضها ببعض .

لكن العلم الحديث زاد الإنسان معرفة بخصائص الغابات الخضراء التي كانت تكسو الأرض في العصور القديمة، فابتلعتها الأرض جرَّاء الزلازل والانجرافات، وغيرها من العوامل، فتخمرت تحت الطبقات السفلى لعدة عصور، ثم تحولت بعامل الحرارة إلى حقول النفط والغاز، ومعادن أخرى؛ كالفحم الحجري وغيره مما صار وقود كل شيء في هذا العصر. حتى إنك لا تكاد تجد - في الغالب - نارًا ولا شررًا إلا وهو يوقد إلا من النفط أو الغاز ومشتقاتهما، وتكاد كل الآلات والمحركات في العالم اليوم لا تشتغل إلا بوقود النفط؛ نعمةً من اللّه وفضلًا، فكيف يجحد الإنسان حق هذا الرب العظيم؟! الرب الذي أخرج له الأشياء من أضدادها؛ لتكون له منفعة في معاشه، وطريقًا واضح المعالم يسلك به إلى معرفة ربه الخالق الكريم.

ثم يرتفع القرآن بالاستدلال إلى المستوى الكوني الشمولي مرة أخرى، مبينًا قدرته تعالى على إعادة خلق الكون - بعد هدمه الكامل وإفنائه الشامل - ليقوم الناس ليوم الحساب فقال ﷻ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ ﴾ فهذا منطق بسيط واستدلال واضح بيِّنٌ، لكنه قوي وعميق، عَميقٌ عُمْقَ ما بين السماوات والأرض، عَميقٌ عُمْقَ لفظ « الخلق » بمعناه المصدري الدال على

فعل اللَّه تعالى، وعُمْقَ دلالة اسم « الخالق » في صفات الرب الجليل وأسمائه الحسنى؛ ولذلك فإنه لا يسع الإنسان السوي العقل، إلا أن يخضع لقوة هذا البرهان وربانية هذا البيان.

ومن ثَمَّ أجاب القرآن بقوة عن السؤال الذي ضُرِبَ به نواصي الكفار، فقال ﷻ بعده مباشرة: ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ مثبتًا هذا الذي أنكره الجهلة في حق اللَّه سبحانه، واصفًا نفسه تعالى باسميه: « الخلّاق » و « العليم » في جملة اسمية قصيرة، ثابتة البناء، متينة التعبير و « الخلاق » بما هو اسم من أسماء اللَّه الحسنى وصفة له تعالى - معنى عميق يكشف عن وجه آخر لخاصية من أعظم خصائص الربوبية فـ « الخلَّاق » صيغة مبالغة من فعل الخلق، وهو فعل خاص باللَّه تعالى فكان من أسمائه الحسنى « الخالق » و « الخلَّاق ».

فهو تعالى خالق بما يقوم به سبحانه من فعل الخلق، وهذا معنى غيبي من أعمق المعاني تجلياته تحيط بهذا الوجود بأكمله، ويمتد نوره الإلهي من عالم الغيب بكل ملكوته، إلى عالم الشهادة بكل عناصره وأنواعه، فهو حجة اللَّه البالغة، ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وبه تحدى الرب ﷻ الكفرة والمشركين في كل عصر ومصر، فقال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١] وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ ﴾ [الحج: ٧٣].

ثم هو - جَلَّ ذِكْرُهُ وثَنَاؤه - « خلَّاقٌ »؛ بما لخالقيته تعالى من الثبات والاستمرار، ومن تعدد المخلوقات؛ بما لا قدرة لأحد على عده وإحصائه. هذا من جهة. ومن جهة أخرى هو تعالى « خلاق »؛ بما لقدرته على الخلق والإبداع من المعنى الإعجازي؛ ما يحير الألباب ويذهل العقول، فأما مخلوقات اللَّه فكل الناس يشاهد منها ما هو مُشاهَد، وأما فعله تعالى من معنى الخلق؛ فلا أحد يستطيع الاقتراب من حقيقته أو معناه، فاللَّه ﷻ إما أن يخلق الشيء من عدم وهذا ما يعجز العقل عن استيعابه، ويحرق خلايا الدماغ إن اقترب من جلاله وإما أن يخلق

تعالى شيئًا من شيء، كخلق آدم عليه السلام من طين، أو خلق ذريته من ماء مَهِين، فهذا أيضًا مما يقف العقل إزاءه حائرًا عاجزًا عن إدراك كيف يتحول الطين المسنون إلى جسم إنساني جميل؟ ووجه مشرق الطلعة، صافي العينين، أسيل الخدين، لطيف الشفتين ناطق اللسان، جيَّاش الوجدان؟! وقد كان قبل ذلك كومة طين من حَمَإٍ مسنون أو صورة من صَلْصَالٍ كالفخار فارغة الجوف كالخابية القديمة! فكيف تحولت كرة الطين في رأسها إلى جمجمة دقيقة الصنع بما تحمل من دماغ لطيف وشعيرات دموية دقيقة؟ وكيف تحول النقش المرسوم على وجهها إلى عينين تدمعان وتشعان بنور الإبصار؟ وإلى رموش ترتعشان بما تشعران به من نسيم الحياة؟ ثم كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ والأسئلة التي لا أجوبة لها لا تنتهي أبدًا! ومن ذا يحيط بحقيقة اسمه تعالى إلا هو تعالى ذلك هو « الخَلَّاقُ العَلِيم » ﷻ ، فسبحانه وتعالى عما يصفون فعلمه الواسع شاملٌ لكل شيء، محيطٌ بكل شيء، فكيف يغيب عنه علم الخلق وفعله مرات ومرات؟ كيف وهو صفة ثابتة من صفاته سبحانه؟!

وقبل أن يدخل العقل البشري في هذه المتاهات، بيَّنَ الباري تعالى أن الخالقية سر من أسرار ربوبيته تستحيل معرفتها على عبيده الذين هم محض خلقه وصنعه فما كان للمخلوق أن يحيط بمعنى الخالق؛ لأن المفعول به في هذا الشأن لا يكون فاعلًا أبدًا ومن ثَمَّ سد الحقُّ تبارك وتعالى الباب على هذا الجهل البشري العابث فقال ﷻ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ هكذا ابتدأ الآية بعبارة « إنما » المفيدة للحصر والتوكيد وصلابة الخطاب؛ لحسم الحكم وحصر الحقيقة؛ بما يقطع جدل العابثين، ويلجم أفواه الجاهلين، ويخبت قلوب المؤمنين المتدبرين و « الأمر » هاهنا - كما هو في كثير من المواطن من كتاب اللَّه - دالٌّ على شأن ربوبيته تعالى، وليس هو بالمعنى المصدري لفعل « أَمَر ». فشأنه تعالى أنه بمجرد ما تتعلق إرادته بخلق شيء فإنه ينصاع فيكون وعبر عن ذلك بأقصر جملة، وأقوى عبارة، وأعمق دلالة، وهي كلمة: « كن فيكون » الدالة على الانصياع الكامل والمطاوعة التامة بما يجعل المخلوق يكون كما أراد الخالق ﷻ بلا زيادة أو نقصان، ولا تأخر عن موعد الكينونة، ولو بطرفة خاطفة من عين الزمان، كما قال تعالى في وصف تعلق أمره بقيام الساعة: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧]

فأنَّى لرب عظيم هكذا شأنه وهكذا خَلْقُهُ وأَمْرُهُ أن يعجزه شيء من أمر البعث والنشور؟ ألا ما أضلَّ الجهلة بالله!

وإن المؤمن لا يملك إذ يمضي مع هذه الحقائق الإيمانية الجليلة - مرتلًا أو منصتًا لكتاب الله - إلا أن تشتاق روحه الخاشعة إلى التسبيح تنزيهًا لله الواحد القهار مما وصفه به الجاهلون؛ ولذلك بادر الحق - تبارك وتعالى - إلى تنزيه ذاته العظيمة، وتقديسها من مقولات الكفار والمشركين، وأوهامهم الباطلة فختم بذلك سورة « يس » ختمةً يبقى صداها يضخ بقلب العبد الأمواج الضخمة، والمتدفقة من محيط عالم الغيب العظيم، فلم يزل القلب يخفق خوفًا ورَهَبًا؛ مما شاهد من تجليات شؤون الربوبية وجلالها قال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

فـ« سبحان »: عبارة تنزيه وتقديس، بمعنى أن الله ﷻ متعالٍ بربوبيته عن صفات النقص والعجز، مما يتوهمه الجاهلون، بل هو تعالى رفيع الدرجات، عَلِيُّ القَدْرِ، كامل الصفات وقياس شأنه تعالى بالشأن البشري من أجهل الجهالات، وأبعد الضلالات، وتلك هي آفة الكفرة والمشركين؛ ولذلك عبَّر تعالى بصفات القدرة، والهيمنة، والتملك، والإحاطة بجميع مملكته، والقهر لكل خلقه - في سياق إضافة التسبيح لنفسه - واصفًا ذاته تعالى بكل ذلك جميعًا من خلال جملة موصولة، لكن دون ذكر لفظ الجلال « الله »، فاحتجب سبحانه باسمه وتجلى بصفاته؛ وذلك لبيان تنزهه، وعلو شأنه، وعظمة قَدْرِه، وترفعه عن جهل المرَدَةِ من عباده.

وعبارة الملكوت في اللغة مبالغةٌ من لفظ الملك. فهي أعمق في الدلالة على عظمة مُلْكِهِ تعالى، وأوسع في التعبير عن دقة صنعه وكمال خلقه، وامتداد مملكته من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح ومن عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فهو تعالى مهيمن على مملكته، بيده تعالى مقاليد كلِّ شيء من جميع خلقه، لا شيء يكون إلا بإذنه، ولا شيء يحدث إلا بعلمه قادر على فعل كل ما يريد في حينه وذلك كله هو معنى كونه تعالى رب العالمين! فمن كان هذا شأنه فأنَّى يَعْسُرُ عليه أو يستحيل في حقه أمر البعث والنشور؟ ولذلك كانت الجملة الخاتمة الحاسمة للسورة بأكملها: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، أي إلى هذا الرب العظيم الذي تنكرون قدرته على البعث، إليه ﷻ تساقون يوم القيامة، خاسئين وبين يديه يومئذ تُحْضَرونَ مذمومين مدحورين، والخليقة

كلها آنئذ جاثية في ساحة الحشر، تنتظر عَرْضَهَا وحسابها في مشهد رهيب.

تلك هي الكلمة الخاتمة الحاسمة وَلْيَبْقَ بعد ذلك هؤلاء الكفرةُ المستكبرون مصرين على طغيانهم واستعلائهم! فلا ضير إن أقدام الموت متواترةُ الخطوِ نحوهم ونحو كل مخلوق، ولسوف يرون - يوم ينفخ في الصور - من صار إلى خسران مبين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الأربع التالية:

الرسالة الأولى: في أن الإنسان لا ينجو حتى يخرج من « أَنَا » الإنسانية إلى مدار العبدية؛ ذلك أن صفة الإنسانية إذا لم تترقَّ إلى مقام التعرف إلى اللّٰه، ولم تصطبغ بالانتساب التعبدي إليه تعالى أَلَّهَتْ ذاتَها! وعَبَدَتْ أَنَاهَا! فكانت دركًا مظلمًا! وتيهًا من الجهالة والضلال! وعلى ذلك أقسم الحق سبحانه في سورة العصر، فقال ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ونحوه قوله تعالى في سورة التين: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين: ٤، ٥]؛ ولذلك كان قوله تعالى فيما نحن فيه من سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ دالًا على الطبيعة الجدلية للإنسان المغروسة في جِبِلَّتِهِ بما هو إنسان! كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤] فإما أن يسلم للّٰه رب العالمين؛ فيخرج من ظلمات إنسانيته إلى نور عبديته لخالقه، وإما أن تقوده إنسانيته إلى الخسران المبين.

الرسالة الثانية: في أن بدء السير إلى اللّٰه تعالى ينطلق من معرفة النفس أولًا، والتفكر في خلقها، والنظر في حقيقتها، ومراقبة أحوالها. فمن وضعها على طاولة التشريح - كأنها شيء مستقل عنه - اكتشف عجزها واضطرارها إلى خالقها فشخص آنئذ أدواءها وَوَصَفَ دواءهَا، ثم استأصل أهواءهَا وكبرياءهَا ودخل مقامَ الإرادة بعد يقظة قلبه، وانتعاش روحه، وكان من السائرين.

لكن معرفة النفس على التمام لا تكون إلا بالبحث عن كمالها، والسعي إلى غناها وبما أن تشريحها أظهر عجزها وكشف فقرها؛ فلا سبيل لها إذن إلا الاعتصام بخالقها العظيم؛ ذلك أن البحث في الذات مُفْضٍ إلى التعرف على رب هذه الذات؛ لأن خاتم

صنعته تعالى مطبوع على كل خلجةٍ من خلجاتها، مرسوم على كل خلية من خلاياها! فإذا توجهتْ أغصانها المنفوضة الأوراق، ممتدة نحو السماء، تستدر ألطاف الرحمن؛ وجدت غناها في فقرها، وقوتها في عجزها، وكمالها في نقصها، كل ذلك باستنادها إلى ربها الخالق العظيم، وانتسابها إليه تعالى بإسلام وجهها كُلِّيَّةً للّه.

الرسالة الثالثة: في أن صفة الخالقية - في ذات اللّه تعالى - هي الباب الأعظم لمشاهدة جلال الربوبية، والتعرف على مقام اللّه العظيم، وقَدْرِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وتلك معرفة رفيعة تشرح القلب وتهيئه لتلقي النور من سائر الأسماء الحسنى، والداعية إلى اللّه إذا أخطأ هذه الطريق فإنه يعجز عن تحقيق المعرفة باللّه، بله أن يكون قادرًا على التعريف به ﷻ لغيره من الناس.

والذي أكرمه اللّه تعالى بتجلي نور اسمه « الخالق » أو « الخلاق » تدفقت جداول المعرفة بأسماء اللّه الحسنى كلها على قلبه فجعل يترقى بمنازلها الإيمانية اسمًا بعد اسم، وصفةً بعد صفة، حتى يكون بإذن اللّه من كُملِ العلماء باللّه.

وليس عبثًا أن استفاض ذكر فعل الخلق ومشتقاته في القرآن الكريم، وتوارد في كلِّ السياقات، العَقَدِيَّةِ والدعوية والتربوية والجهادية والتشريعية حتى لا تكاد تجد سورة إلا وهذا المعنى حاضر فيها بقوة لفظًا أو مفهومًا؛ وما ذلك إلا لِمَا لهذا المفهوم صفةً أو اسمًا، من مركزية نورية في شجرة الأسماء الحسنى، ولما له من عظيم الفتح على القلب المتعرف إلى اللّه، ثم لما له من قوة الحجة على الكفار، والطرق الشديد على أبواب الجاهلين، والإيقاظ القوي لقلوب الغافلين.

الرسالة الرابعة: في أن التسبيح بحمد اللّه وعظمته هو زاد المؤمن المتفكر في خلق السماوات والأرض، وهو كلمة السر المودعة بقلب العارف باللّه الداعية إليه تعالى، السالك إليه - سبحانه - عبر معارج الروح المنصوبة في فضاءات الملكوت، فبالتسبيح تنفتح له أبواب المنازل والمشاهدات! فما يزال يترقى حتى يتلقى من أنوار الجمال والجلال ما يفنيه في حب اللّه، ويخلصه تمام الإخلاص للتفرغ الكامل لعبادة ربه رَغَبًا ورَهَبًا، فيصير بذلك عبدًا حقَّ عَبْدٍ لمولاه، واقفًا أبدًا بباب طاعته قائمًا بحق ربوبيته، لا ينشغل بشيء عن خدمة دينه، والتعريف بربه وبمقامه العظيم فسبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم.

٤ - مسلك التخلق:

لِلرُّقِيِّ مِنْ دَرَك الإنسانية إلى منزل العبدية الكاملة؛ لا بد للمؤمن من العروج بمعراج التفكر التعبدي الذي يسلك به طبقات الملكوت صعودًا؛ حتى يتعرف على مقام الربوبية الأعظم، ويتلقى أنوارَه شيئًا فشيئًا، إلى أن ينصقل قلبه تمامًا، وتصفو مرآته، فلا ينبض بغير النور! ومن ثَمَّ تجري جداول لسانه بالتسبيح والتقديس يقظةً ومنامًا.

إن السياحة التعبدية بين معارض المخلوقات، تفتح بصيرة العبد وتكسبه القوة الروحية على إبصار النور العُلْوِيِّ، فيشاهد من تجليات أسماء اللّٰه الحسنى؛ ما يجذب قلبه إلى فلك السير الأبدي الراحل إلى اللّٰه وإن الإنسان الذي لم يزل أسير إنسانيته الطينية، قابعًا داخل خابية الفخار، مخدرًا برائحة الحمأ المسنون - لا يستطيع إدراك تجليات الجمال والجلال الساطعة على لآلئ الملك والملكوت، فمن ذا قدير على تكسير خابيته، والتحليق بعيدًا بأشواق الروح نحو المنازل العليا؟ إذن يكون من الأَوَّابين! وإذن يتلقى شعاع النور من مثل قوله تعالى: ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] فهنيئًا لك يا عبد بمقامات الرضا والسلام.

* * *



هذه هي قضية الدعوة إلى اللَّه: تعريف الخلق باللَّه وتلك كانت هي قضية سورة « يس » من أولها إلى آخرها. حقائق إيمانية ومشاهدات، بلاغات وبيانات، جهاد ومجاهدات، جدالات وخصومات، مواقف لاهبة وشهادات، كشف مصائر ومآلات، معارض كونية وسياحات. كل ذلك من أجل حقيقة واحدة: التعريف باللَّه ربًّا واحدًا لا شريك له.

ولذلك فقد تضمنت من فقه الدعوة إلى اللَّه، وبيان منهاج السير إليه تعالى - قواعد رحمانية، ومعالم ربانية، لا حق لداعية إلى اللَّه أن يكون جاهلًا بها.

وإنها لجديرة بأن تكون سورة مركزية في التداول التربوي العام والخاص، ومقررًا دراسيًّا بأقسام الدعوة الإسلامية بكل أصنافها ومستوياتها. فكلٌّ يأخذ منها على قَدْرِ ما أهلَّه اللَّه له، والمؤمن عمومًا في مسيس الحاجة إلى التفقه فيها وتلقِّي حقائقها الإيمانية؛ قصد التترس بحصونها الربانية العالية، خاصة في هذا الزمن الصعب. ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

تلك كانت مجالس من سورة « يس »، عِبَرًا وعَبَرات، وهُدى وبركات مما يسر اللَّه تقييده بهذه الصفحات. فسبحانك اللَّهم وبحمدك نستغفرك ونتوب إليك.

* * *

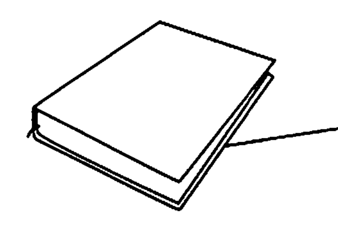


القسم الثاني: المدارسات القرآنية

٤ - سورة الحجرات

وهي مدنية، وعدد آياتها (١٨)،

وهي تتضمن خمسة مجالس





هذه منازل تصفية النفس من أدرانها! وشلالات تطهير الروح من أحزانها هذه مدرسة تخريج مُسمًّى « عَبدِ اللَّه » بحق، المؤمن الهينِّ، الطيِّع اللَّين، والزاهد الصادق، العامل الصامت.

لكنها منازل ذات مقارض ومشاذب تتوغل بمشارطها الجارحة في أعماق القلب، فتفتح جراحه وتفتق أورامه ويكون لذلك ما يكون من المعاناة والألم! فيا قلبي العليل ماذا أعددت من الصبر على مَصَاهِرها الحامية؟ وجراحاتها الكاوية؟

فاستعن باللَّه يا صاح وادخل مشافيها، فإنما المؤمن من صبر لحكم اللَّه.

هذه طريق.. فلنتخذ إلى اللَّه بها سببًا، ولنتلق إشارات السير بقوةٍ يقظةً لا منامًا.

هذه سورة « الحُجُرات » بين يديك فاقرأْ.. اقْرأْ مسالكَها، ورتل معارجَها ترتيلًا ثم أبصر.

فهذه آياتها تنتصب أمامك علامات بينات على طريق واحد رئيس، سيرًا نحو التحقق بمقام إيماني من أعظم مقامات الإيمان وأكملها مقام متميز في ذاته؛ إذ لا وصول للسالك إلى اللَّه بغير التخلق بكل صفاته، ولا كمال لإيمانه بغير التضلع بجميع خصاله.

ذلكم هو: مقام الأدب الأدب بكل معانيه الروحية، سواء في علاقة العبد بربه، أو في علاقته برسوله ﷺ، أو بإخوانه المؤمنين.

إنها سورة جامعة لكل أدب السير إلى اللَّه، سواء على المستوى التعبدي المحض، أو على المستوى الاجتماعي العام، وهذا إنما هو فرع عن ذاك. ولم تزل آياتها العظيمة - من أول السورة إلى آخرها - تؤثث عمران الروح وتحليه بالحِكَم الربانية الرفيعة، وتتناول النفس الإنسانية بالتأديب والتخلية من خبائثها الظاهرة والخفية، وتصفي الحقائق الإيمانية مما عَلِقَ بها من أدران النفس وأوساخ الجاهلية؛ حتى تنجلي مرآتها وتصفو على مقام الإيمان الخالص للَّه ذلكم هو الموضوع الرئيس للسورة.

ثم إن سورة « الحُجُرَات » هي - بالتبع لما ذُكِر - دستور شامل لنظام الأخلاق الاجتماعية في الإسلام، الأخلاق بما هي خادمة للأصل الأول من توحيد اللَّه وتفريده. إنها تَنْفُذُ إلى أعماق النفس الإنسانية بمقارض التهذيب والتشذيب؛ لتستأصل الأنانيات البغيضة، وأمراض الفظاظة والكبرياء؛ حتى تجعل المؤمن لينًا هينًا يَأْلَفُ وُيُؤلَفُ، ولا خير في من لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ، إنها مدرسة ربانية لا بد للمسلم - أَنَّى كان - أن يتلقى رسالاتها واحدة واحدة، وإلا فشل في الاندماج بمحيطه الاجتماعي وكان من الخاسرين، أما المؤمن العامل في صفِّ الدعوة الإسلامية، فله مع هذه السورة قضية أخرى؛ إذ لا نجاح له في دينه ودعوته إلا بتحصيل الإمامة في التخلُّق بمنازلها العالية الرفيعة وتحقيق السبق في الاستجابة العميقة لموانعها وكوابحها.

إن تحقيق الوحدة الشعورية والانسجام النفسي، القائم على آصرة الحب الخالص في اللَّه - مما بشَّرت به الأحاديث النبوية الوفيرة - لا يكون على الحقيقة إلا بإجراء علاجات جراحية على النفس، وانتزاع خبائثها؛ حتى تصفو للَّه، وللَّه وحده؛ إذ بذلك فقط تكون لديها القابلية الروحية للتحقق من تلك الصفات. فقول النبي ﷺ: « **مَثَلُ المؤمنِين في تَوادِهِم وتَراحُمِهِم وتَعَاطُفِهم مَثَلُ الجَسدِ، إِذَا اشْتكَى منه عُضوٌ تَدَاعى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهرِ والحُمَّى** »[1]. وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحبَ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُ لنفسه** »[2] كل ذلك - إذا تأملته - لا ينال بين عَشَيَّةٍ وضُحاها، وإنما ينال بمعاناةٍ ومكابدةٍ، فالحب والتواد والتراحم بهذه الصورة الإيثارية الرفيعة، مَعَانٍ روحية لا يمكن أن تدرك بالاستدعاء الإرادي متى شاء صاحبها، بل لابد أولًا من مكابدة النفس وترويضها؛ للتخلص من حظوظها الدنيوية في علاقاتها الاجتماعية مع المؤمنين؛ حتى تصبح معاني التواد والتحاب في اللَّه سجية نفسية تلقائية، ومقامًا إيمانيًا تعبديًا، تجري عليه أخلاق صاحبه بلا كلفة. ذلك أن العلاقات التي تؤسسها سورة الحُجُرات هي علاقات وجدانية تتحقق على المستوى النفسي أولًا، وهذا ما لا تنجح فيه مظاهر المجاملات المتكلَّفة الباردة، بل هو خُلُقٌ رهينٌ بحرارة المحبة، وبشوق الأخوة، وبمتعة المودة وجمال الإيثار وتلك أمور لا تتحقق إلا بالدخول في مدرسة تربوية ترتقي بالنفس الإنسانية إلى مشاهدات إيمانية

---

(١) رواه مسلم. (٢) متفق عليه.

تربط العبد بالله والدار الآخرة، وتلك هي دروس سورة الحجرات العظيمة.

إنها إذن سورة الموانع والكوابح، صحيح أنها سميت بـ « الحجرات »؛ لما ذُكِرَ فيها من توجيه رباني للأعراب الذين كانوا ينادون الرسول ﷺ من وراء بيوتاته بفظاظة وغلظة، ولا يراعون أدب الاستئذان، ولا مقام سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

ولكن في تسميتها بذلك أيضًا دلالةً على أنها سورة الموانع والكوابح كما ذكرنا؛ لما في معنى الحُجْرة من معاني الحَجْرِ والمنع، الذي هو أصل استعمال هذه المادة في اللغة. فكأن كل آية من آياتها حُجْرةٌ تحفظ دين المؤمن وتستر عِرْضَه وتمنع غيره من التعدي عليه أو إيذائه بأي نوعٍ من أنواع الأذى. ومن هنا جاءت آياتها نسيجًا مشدودًا إلى تعابير النهي القوية الشديدة، القاضية بالانقطاع الفوري والترك الكلي للمنهيات المذكورة مع بيان مفاسدها الاجتماعية وأسبابها الشيطانية.

إنها سورة لكبح جماح شهوات اللسان، وسائر نوازغ الشيطان، ومن هنا كانت « الحُجُرات » سورة اجتماعية من الطراز الأول.

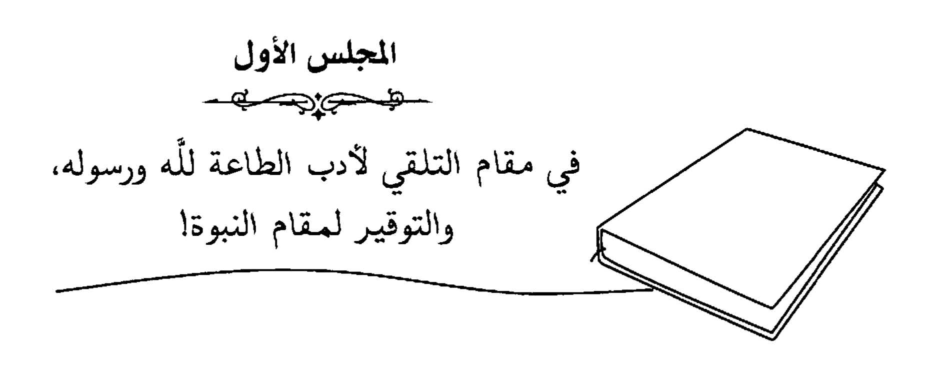
إنها مدرسة لتربية المسلم على مهارة الاندماج النفسي في نسيج العلاقات الاجتماعية، والقدرة على التواصل مع سائر الشرائح والعقليات الإنسانية، وحُسْن إدارة الأزمات الاجتماعية بما يستأصل أورامها من جذورها بعد علاجها، ويقطع أسباب ظهورها قبل ميلادها.

كل ذلك بتزكية الأنفس وتربيتها على التخلُّق بالحقائق الإيمانية، والانقياد لشريعة الإسلام، وكذا بالتغذية الروحية للقلب والوجدان.

والصف الإسلامي الذي لم يتحقق بمقاماتها الإيمانية، ولا تخلق بمنازلها التواصلية، يفشل في تحقيق انسجامه الداخلي، ويَعْدَمُ قدرة التواصل مع ذاته، بَلْهَ التواصل مع الآخرين، وذلك برهان على فشله دينًا ودعوةً ومن هنا كانت دروس هذه السورة الكريمة من الضرورات التربوية الأولى؛ لبناء أخلاق المؤمن في سياقه الاجتماعي بما هو لبنة مُشيدَةٌ ومُسْندَةٌ يُرجى توظيفُها في تجديد بناء صرح الأمة العظيم.

ذلك ما نتدارسه - بحول الله - في خمسة مجالس، هي كالتالي:

* * *



المجلس الأول

في مقام التلقي لأدب الطاعة للّه ورسوله، والتوقير لمقام النبوة!

١ - كلمات الابتلاء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ
عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١ - ٥].

٢ - البيان العام:

هذا باب الدخول إلى رحاب الدين القيم، ومفتاح التحلي بالإخلاص الكامل، فالمؤمن بكل قواه العقلية والفكرية إنما هو عبدٌ للّه يستخدم كل طاقاته للّه والعبد لا يتقدم بين يدي سيده برأي ولا بفهم، ولا باستدراك وإنما يتقدم بين يديه بفقره وبعبديته التنفيذية، إنْ كان عبدًا للّه حقًّا فلا يتصرف بشيء حتى يرد عليه الإذن من مولاه ولا يسبق الوحيَ بشيء من القول أو الفعل، حتى يراجع موارد النصوص من الكتاب والسنة، فإذا ورد الأمر أو النهي عن اللّه ورسوله قال: سمعنا وأطعنا ولا يخرج عن دائرة الشرع قيد أنملة، ولا يميل ميلًا لهوى متبع أو لرأي شاذّ؛ وإنما هو

عبدٌ يدور في فَلَكِ العبودية لسيده أنَّى دار به.

ذلك مقتضى التوجيه الإلهي للمؤمنين، الوارد في مطلع هذه السورة العظيمة، محمولًا بصيغة النداء القوي لأهل الإيمان على الخصوص، مؤسِّسًا لسياق نذارةٍ تربوية تُشْعِرُ القلبَ بالرهبة والجلال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

فقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تنبيه إلى أن الصفة التي يُخَاطَبُ بها هؤلاء إنما هي كونهم عبادًا لله قد أقروا بوحدانية الله، وبنبوة محمد ﷺ، فوجب أن يكونوا تبعًا لله ولرسوله في جميع الأمور. فلا سبق ولا استدراك ولا تشنج، بل هي الطاعة والتسليم لله أولًا وآخرًا، وإلا فما معنى الإيمان؟ ذلك أدب رباني رفيع أدَّبَ الله تعالى به عباده المؤمنين، فيما ينبغي أن يكونوا عليه من مقام تعبدي إزاء الوحي ونصوصه، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما يقتضيانه من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام.

ثم ختم الآية بتحذير ونذير فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بمعنى وخافوا - في هذا الشأن - مقام ربِّكم العظيم؛ إنه تعالى سميعٌ لكلامكم ومقالاتِكم، عليمٌ بما تخفون من نيَّاتكم وفيه من الوعيد والتحذير من مخالفة التنبيه الرباني المذكور، ما يردع قلب المؤمن من مجرد التفكير في محاولة ذلك وإنها لآيةٌ ترسم للعبد الصادق منهاج حياة في سيره إلى الله فتستحق لذلك أن تُتخذ شعارًا للسائرين إليه تعالى.

ثم إن العبد الحق إنما هو من دَاخَلَهُ الخوفُ من سيده؛ لِمَا عَلِمَ عنه من عظمة سلطانه، وسَعة ملكه وملكوته وَلَمَا تجلى على قلبه من نور أسمائه الحسنى وصفاته العُلى؛ فَلَانَ لربه وخضع وخشع حتى إذا كان بين يدي رسوله - عليه الصلاة والسلام - شاهد فيه من مقام النبوة العظيم رسولًا كريمًا من رب كريم فتجلت عليه أحوال الرهبة والرغبة، وأشواق المحبة والسلام؛ توقيرًا وتعظيمًا لمن جاءه بالسلام من الله السلام فلا يملك قَلْبُهُ آنئذ بين يديه - عليه الصلاة والسلام - إلا أن يذعن ويخضع، ثم لا يجد من صوته ولسانه - بعد ذلك - إلا قنوتًا عميقًا وخشوعًا.

ومن هنا ساق الحق تعالى هذا التأديب الثاني للمؤمنين، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ بمعنى: يا أيها الذين تحققوا بالإيمان لا ترفعوا أصواتكم بين يدي النبي ﷺ حتى يعلو صوتكم صوته ولا تخاطبوه على مقتضى عاداتكم في التخاطب فيما بينكم، من رفع الأصوات والتعالي بها بل أَدْخِلُوا على مخاطبتكم إيَّاه لَمْسَة العبادة للّه بخفض الصوت تأدبًا وتحلمًا فمن أكرمه اللّه بنعمة مشاهدة رسول اللّه ولُقْياه - عليه الصلاة والسلام - بَلْهَ مخاطبته ومناجاته؛ فقد نال من رحمة اللّه وفضله ما لم ينله أحد من العالمين بعده فوجب تقدير ذلك وعرفانه؛ شكرًا للّه وتأدبًا مع رسول اللّه وهو ما أرشد إليه القرآن الكريم في سورة النور أيضًا، من قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [النور: ٦٣].

بل قد ألزم الصحابة - في المنسوخ من القرآن - تقديمَ بين يدي نجواه - عليه الصلاة والسلام - صدقة لإشعارهم بنعمة تفردهم بلُقياه ومناجاته ﷺ، وهو رسول الأمة جَمْعَاء، أولها وآخرها فكان حقًّا على من تفرَّد بوقت يسير من محادثته أن يتصدق للّه بصدقة ثم نُسِخَ حُكْمُهَا وَلَمْ تُنْسخ حِكْمَتُهَا، بل بقيت قرآنًا يُتْلَى إلى يوم القيامة؛ لأن الأمة كلها - أولها وآخرها - في حاجة إلى هذا المعنى العظيم كما سيأتي بيانه.

كل ذلك كان في سياق تربية الصحابة - وأجيال الأمة من بعدهم - على الطاعة التامة لرسول اللّه، وهو قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المجادلة: ١٢، ١٣].

فأنى بعد ذلك لمن يكلمه رسول اللّه - عليه الصلاة والسلام - أن يرفع صوته بين يديه صخبًا؟ ولو في سياق مخاصمة غيره من الناس.

ومن هنا فقد كان في مخالفة هذا الأدب من الإثم ما يحبط عمل العبد كله ويخسف بإيمانه والعياذ باللّه إلا أن يتغمده اللّه بالرحمة والغفران وإن الإنسان ربما استهان بذلك واستخفه مع أنه عند اللّه عظيم؛ ولذلك قال هنا في الحجرات:

﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي بما استهان من عِظَمِ ذنبه، وهو لا يدري أنه قد أشعل في زرعه نارًا عاصفة، فأَرْدَتْه في لحظات رمادًا تذروه الرياح.

إنه أدب الخضوع، وإنه لِمَنْ تخلّق به وتحقق له مقَامٌ إيماني عظيم وذلك لِمَا نجح فيه من امتحان وابتلاء، فأتم فيه كلمةَ التقوى، وهو صريح قوله تعالى بعد مباشرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ نعم هكذا: ﴿ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ ﴾ وفي هذا التعبير من وصف جمال الحياء والتوقير لرسول الله ﷺ ما يزيد القلب محبةً له وتعلقًا، فالغضُّ: هو الخفض برفق والعطف بلين. وهو عادة ما يُستعمل في ثني الأمور الرطبة المطاوعة كالأغصان الغضَّة، وأجفان العيون، فكان في التعبير « بغضِّ الصوت » أيضًا هاهنا، ما يجعل خفضه هادئًا رفيقًا لطيفًا، من غير تَكَلُّف ولا تَصَنُّع وذلك منتهى الأدب والجمال فهؤلاء هم ﴿ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي أخلصها للتقوى وصَفَّاهَا، وجعلها لها أهلًا ومحلًّا! فكان لهم من الغفران والأجر العظيم على قَدْرِ هذا المقام العظيم.

وقد رُوي أن هذه الآيات – ابتداءً من مطلع السورة – نزلت في الشيخين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير قال: (قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أَمِّر « القَعْقَاع بن مَعْبد »، وقال عمر رضي الله عنه: بل أَمِّرْ « الأَقْرَع بن حَابِس »، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردتَ إلا خلافي فقال عُمَر رضي الله عنه: ما أردتُ خلافَك! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، حتى انقضت الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية) (١). وقال ابن الزبير: (فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه) (٢).

وقال ابن كثير رحمه الله: (قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه محترم حيًّا، وفي قبره ﷺ دائمًا) (٣).

وهو معنى مستمر إلى الآن في علاقة المؤمن بسنة النبي – عليه الصلاة والسلام –

(١ ، ٢) رواه البخاري.

(٣) تفسير ابن كثير للآية في سورة الحجرات.

أيضًا، كما سنفصله في رسالات الهدَي المنهاجي بحول اللَّه.

وفي سياق ذلك نعى الحق تبارك وتعالى على الذين كانوا ينادون رسول اللَّه ﷺ من خلف بيوت أزواجه، ضاربين بذلك كل آداب الاستئذان وأخلاق الطَّرْقِ عرْضَ الحائِط، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: أكثرهم جُهَّال بدين اللَّه، وبما يلزمهم من حقك وتعظيمك؛ ولذلك فهم لا يدركون حجم ما يقترفون من سوء الأدب، ثم أرشد تعالى إلى الواجب في ذلك، فقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. أي: ولو أنهم انتظروا حتى تخرجَ إليهم على حسب ما يقتضيه وقتك أنت لا وقتهم هم الذين لا ميزان لهم إلا قضاء مآربهم ورغباتهم لو انتظروا لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة. ثم قال - جلَّ ثناؤه - داعيًا إياهم إلى التوبة والإنابة: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: غفورٌ لمن تاب وأناب إلى اللَّه، رحيمٌ به أن يعاقبه بعد توبته، فله الحمد ﷻ على رحمته وغفرانه.

٣ - الهدي المنهاجي:

وينقسم إلى أربع رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن كمال الإيمان والإخلاص هو في كمال الطاعة، وإنما العبد الصادق يكفيه أن يعلم أن هذا الأمر قد جاء عن اللَّه، أو صح عن رسول اللَّه؛ ليقول: سمعنا وأطعنا وليبادر على الفور إلى الدخول في العمل، مجيبًا ربه بنداء الطاعة: لبيك اللَّهم لبيك.

لا يَفْتَئِت على اللَّه بقول، ولا يسبق الكتابَ والسنةَ برأي، ولا يستدرك على الشريعة بهوى، فإنما هو عبدٌ لا يُقَدِم بين يدي مولاه وسيده شيئًا من ذلك كله إلا عبديته وفقره إليه تعالى، وإن ذلك لهو الدين القيم، وإن ذلك لهو الإخلاص الكامل.

الرسالة الثانية: في الكشف عن نافذة نور من أنوار مقام سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - بما هو رسولُ اللَّه رب العالمين إلى الناس أجمعين، وأنه ﷺ أحب الخلق إلى اللَّه وأقربهم إليه العبد الشكور، الشافع المُشَفَّع، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، إمام الأنبياء والمرسلين وسيد الناس أجمعين. آتاه اللَّه الكتاب الكامل، وأرسله

بالرحمة والهُدى والنور إلى العالمين كل العالمين رفعه اللّه إلى أعلى مقام في الدنيا والآخرة، مقام ما أدركه نبيٌّ مُرْسَلٌ ولا مَلَكٌ مقرَّب! أحاطه اللّه بسياج التوقير والتعظيم، وجعله في جواره الأمين؛ حتى كان مجرد صوت يرتفع بحضرته - عليه الصلاة والسلام - غير مُراعٍ لمقام النبوة العظيم كفيلًا بأن يخسف بصاحبه في غيابات جهنم ومن ثَمَّ فإن حبه ﷺ هو الباب إلى محبة اللّه ورضاه، والتعرف عليه جلَّ جلاله وعلاه.

فيا قلبي المجهول ماذا تعرف عن رسول اللّه؟ ألّا فابحث عن نبيك يا صاح وتعرف عليه حق المعرفة، عسى أن تنال من محبته نورًا تسلك به إلى اللّه! فمحمد هو سراج الأمة المشرق بالهُدى في سمائها أبدًا، وإنما الخاسر هو من لم يتلقَ شعاع النور ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٧].

الرسالة الثالثة: في أن خضوع القلب لتوجيهات النبي ﷺ والانقياد لسنته - ميزان دقيق من موازين الصلاح والتقوى في تقويم النفس وتهذيبها. وهو ضرب من الابتلاء في مسلك السير إلى اللّه تعالى؛ حيث تَعْرِضُ للعبد أهواء البدع مما يُزَيِّنه الشيطان على أنه عبادة مخصوصة أو سر من الأسرار تلبيسًا على جهال العباد، فيستدرجهم بذلك إلى مخالفة السنة والارتكاس في حمأة البدع والمنكرات؛ فتحبط أعمالهم وهم لا يشعرون فلا مَسْلك دون مسلك رسول اللّه، كما لا صوت فوق صوت رسول اللّه.

الرسالة الرابعة: في أن الأدب مع أهل الفضل من العلماء الأتقياء والمربين الحكماء الذين وقفوا حياتهم لخدمة الدين تعليمًا ودعوةً - يقتضي التوقير والاحترام. سواء في مخاطبتهم أو في طَرْقِ أبوابهم ومراعاة أوقاتهم؛ لما في ذلك من مصلحة عامة للمسلمين. كما أن خدمة العالم الرباني الذي وهب أوقاته للّه هي من خدمة الدين؛ لأنه لم يَعُدْ مجرد شخص جزئي من المسلمين، بل صار شخصًا معنويًّا تجتمع فيه كثير من مصالح الأمة، فالخادم له إنما هو خادم للأمة.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك الفوز في ابتلاءات هذه الكلمات العظيمة راجع إلى مكابدة خُلُقين اثنين

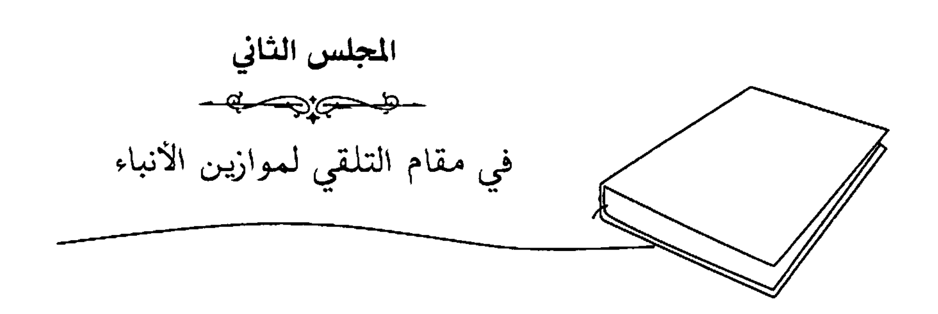
بما يلزم لهما من أعمال:

أولهما: التعرف إلى اللَّه وعلى مقامه العظيم؛ بمداومة النظر في كتابه تلاوةً وتدبرًا، وخصوصًا ما تعلق منه بآيات الخلق والتقدير، والرعاية والتدبير، والإحياء والإماتة، وسائر شؤون ربوبيته ومقتضيات إلهيته، وما تعلق بذلك كله من أسمائه الحسنى خاصةً، فإنها مفتاح عظيم للتعرف إلى اللَّه ومحبته، كما يكون ذلك بمداومة النظر في كتاب الكون ومشاهدة آيات اللَّه فيه، والتفكر في جمال خلقه ودقة صنعه، وسَعَةِ مُلكه وعظمة سلطانه، ومشاهدة تجليّات أسمائه الحسنى في مسيرة الكون كله أرضه وسمائه، وفي معارض تحولات الملكوت ما بين أزمنته وفصوله، ومنازل أفلاكه وكواكبه، فإن في ذلك ما يملأ القلب رَغَبًا ورَهَبًا، ويزيده تقربًا إلى اللَّه تعالى ومعرفة به.

والثاني: الاقتراب من رسول اللَّه ﷺ أكثر وأكثر، والتعرف إليه عن قرب، ومعاينة أحواله وشمائله معاينة روحية، فكثيرٌ منا يظن أنه يعرف رسوله ﷺ وهو في واقع الأمر لا يعرف عنه شيئًا. فإنما تكون معرفة سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - معرفة حقيقية عندما يجد المؤمن محبته مشخصة في قلبه، يعيش مع أحواله وخصاله ليله ونهاره وإنما يؤتى المرء هذا المقام - بعد صدق الطلب وصفاء القصد - بإدمان مطالعة سيرته، والتحقق من صفاته وشمائله، وتَتبُّع أخبار هَدْيه في خاصة نفسه، ومقام عبادته لربه، ومعاملته لأصحابه ﷺ، ومعاشرة كل أخلاقه والاقتراب منها من خلال كتب شمائله وسيرته؛ حتى تكون كلما ذكرته أو ذُكِرَ عندك كأنك تراه ويكون لك من محبته والشوق إليه ما يجعل لسنَّته في قلبك توقيرًا وتعظيمًا.

فإن هذا وذاك كفيل - إن شاء اللَّه - بترقية العبد إلى مقام الاستجابة للَّه، وتلقي رسالاتِ هُدَاهُ في شأن طاعته جَلَّ عُلاه، وطاعةِ رسوله ﷺ والتخلُّق بما يلزم لذلك من معاني العبدية الخالصة له تعالى، وبما يلزم من الأدب في حق رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، وذلك هو مسلك النجاة لمن وفقه اللَّه. جعلني اللَّه وإياك من أهله.

* * *



المجلس الثاني

في مقام التلقي لموازين الأنباء

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحجرات: ٦ - ٨].

٢ - البيان العام:

هذه قاعدة من أعظم قواعد الاجتماع البشري في الإسلام في مراعاتها سلام المجتمع وأمنه وسكينته، وفي الإخلال بها الخراب كل الخراب، ذلك أن كثيرًا من الفتن والمفاسد إنما سببها عدم التثبت في نقل الأخبار، وعدم التريث في تلقي الأنباء، ثم التسرع في اعتماد مقتضياتها من الأحكام والتصرفات دون تمحيصها، فهذه القاعدة صِمَامُ أمان يحمي المجتمع الإسلامي من ضرر الإشاعات الكاذبة، ويقطع دابر القيل والقال ويحمي الأسرة من الأقاويل الباطلة، ويحمي العلاقات الإنسانية من التفكك والانفصال، كما يحمي العقول والقلوب من تلقّي كل ما ترمي به وسائل الإعلام اليوم من أنباء مُضَلِّلَة! مهما أوتيت تلك الوسائل من حَنكةٍ في إخراج أخبارها، ومن دقةٍ في صناعة صورها، فكل هذا وذاك يعرضه المؤمن على هذه القاعدة النقدية الصارمة: التَّبَيُّن وإن تسليطها على الأقاويل والإشاعات لأشبه ما يكون بما لعصا موسى من الأثر على التخييلات السحرية الباطلة ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشُعَراء: ٤٥]

وعلى هذا الأصل العظيم نشأ في الإسلام علم كامل، هو من أَجَل العلوم وأدقها ألا وهو علم أصول الحديث بما يتضمنه من علم الرجال وعلم الجرح والتعديل، وغيرهما من علوم النقد الحديث وقضاياه، فِيمَنْ تُقْبَل روايتُه ومن تُرَدُّ وهذه ثقافة - في الحقيقة، ليست مقتصرة - من حيث الديانة - على علماء الحديث، بل هي أخلاق إسلامية عامة وجب أن يتحلى بها المؤمن أَنَّى كان؛ ولذلك كان الخطاب هاهنا لعموم المؤمنين، بما لهذا النداء الذي ابتُدِئَتْ به الآية من شمول واستغراق: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

فاللَّه ﷻ يأمر المؤمنين - كل المؤمنين - بالتثبت في تلقي خبر الفاسق ليُحْتَرَزَ منه، والفسق هاهنا ليس مقصورًا على المعنى الخلقي فحسب، بل هو بمعناه اللغوي العام أي بمعنى: الانحراف عن الحق مطلقًا، ولو كان ذلك بطريق الخطأ والوهم، كما هو مفهوم من سبب نزول هذه الآيات. وهو متضمن لمعنى الانحراف الخلقي وانخرام العدالة من باب أولى وأحرى، فقد ذكر كثير من المفسرين أنها نزلت في (الوَلِيْد بن عُقْبة بن أبي معيْط) حين بعثه رسول اللَّه ﷺ على صدقات بني المصطلق بعد غزوتهم. فكانت له معهم قصة عجيبة خلاصتها أن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي سيد بني المصطلق ؓ قال: قَدِمْتُ على رسول اللَّه ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه وأقررتُ به، ودعاني إلى الزكاة فأقررتُ بها، وقلت: يا رسول اللَّه ترسل إليَّ رسولًا إبان كذا وكذا؛ ليأتيك بما جمعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارثُ الزكاة وبلغ الإبَّانُ، احتبس عليه الرسولُ ولم يأته، وظن الحارث أنه قد وقعت عليه سَخْطَةٌ من اللَّه تعالى ورسولِه، فدعا قومه فقال لهم: إن رسول اللَّه ﷺ كان وقَّتَ لي وقتًا يُرسل إليَّ رسولَه؛ ليقبض ما عندي من الزكاة، وليس من رسول اللَّه ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سَخَطِه، فانطلِقُوا بنا نأتي رسول اللَّه ﷺ، وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد بعث إليه الوليدَ بن عُقبة بن أبي معَيْط، فلما سار هذا حتى بلغ بعض الطريق رأى جمعهم، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال: يا رسول اللَّه إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول اللَّه ﷺ، وبعث البَعْثَ إلى الحارث ؓ. وأقبل الحارث بأصحابه

حتى إذا استقبل البَعْثَ، قالوا: هذا الحارثُ فلما غشيهم الحارث قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك! قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول اللَّه ﷺ بعث إليك الوليدَ بنَ عُقْبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال ﷺ: لا والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني! فلما دخل الحارث على رسول اللَّه قال له ﷺ: « **منعتَ الزكاة وأردت قتل رسولي** » قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني! وما أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ اللَّه ﷺ، وخشيت أن يكون ذلك سَخْطَةً من اللَّه تعالى ورسوله قال: فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ⑧ ﴾ (١).

وهذا التوجيه الرباني العظيم متفرع عن توجيه مفتتح السورة القاضي بعدم التقديم بين يدي اللَّه ورسوله. وهو قاضٍ بعدم التسرع في إصدار الأحكام بناءً على أخبار لم تثبت حقائقها بدليل صحيح فيكون من عواقب ذلك كله الندم على التصرفات الهوجاء من الظلم للناس أو الاتهام لهم بغير حق! ما يكون سببًا في الفتن والعداوات والاقتتال؛ ومما يؤدي إلى تمزيق نسيج المجتمع، وتفكيك وحدته وانسجامه، وهو من أعظم المفاسد في الإسلام؛ ولذلك وجب رد كل خبر أو إشاعة إلى مقاييس الوحي، وإلى موازين الشريعة، فما صح في منطقها قُبِلَ وإلا فلا.

ومن هنا أمر اللَّه ﷻ المؤمنين أن يذكروا أن فيهم رسول اللَّه، بما هو مُبَلِّغ عن اللَّه، أي بما هو صلة بين السماء والأرض؛ تنبيهًا إلى أن صلاح الناس إنما يتم بالتقيد بمقاييس الرسالة في تَلَقِّي أخبارهم وأنبائهم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ أي اعلموا أن بين أَظْهُرِكم رسولَ اللَّه، فعظِّموه ووقِّروه، وأطيعوه، وأن سُنَّته باقية فيكم إلى يوم الدين فلا تقضوا في أي شيء من أموركم العامة والخاصة دون إذنه واتبعوا ما أرشدكم إليه من الهدى، فإنما هو ناطق بالحق مسدَّد بالوحي. ثم اصبروا على ما أمركم به ولو خالف أهواءكم! فهو أعلم بمصالحكم. ولو أنه أطاعكم فيما تشتهون؛ لأدى ذلك

---

(١) أخرج القصة الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ﷺ. كما رواها أيضًا ابن جرير الطبري عن أم سلمة ﵂.

إلى فساد كبير، وإلى إلزامكم ما لا تطيقون من الحرج والعَنَتِ! واللَّهُ - جلَّ ثناؤه - رحيم بكم؛ فحبب إليكم اتباع النبي ﷺ بما حبب إليكم من الإيمان وزيَّنه في قلوبكم، وبما بَغَّضَ إليكم من الكفر والفسوق وهو كبائر الذنوب، والعصيان وهو جميع الخطايا والآثام مهما دقت وصَغُرت. فكنتم بذلك من الراشدين، أي من الذين قد آتاهم اللَّه رُشْدهم وهُدَاهم. وأيُّ رُشْدٍ يكون دون الإيمان باللَّه ورسوله؟ ثم أيُّ ضلالٍ أبعدُ من الكفر بهما والعياذ باللَّه؟ ولهذا قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات: ٨] بيانًا منه تعالى أن الرُّشْدَ الإيماني هو النعمة الكبرى والفضل العظيم الذي يناله العبد من ربه. فمن أكرمه اللَّه به فقد نال كل شيء ومن حرمه إياه فقد خسر كل شيء.

وإن هذه الكلمات لمن العلوم الربانية الرفيعة، ومن الحِكَم الرحمانية الغالية التي أنزلها اللَّه في كتابه؛ هدًى لمن أكرمه اللَّه تعالى بتلقي أنوارها، وكشف له الحُجُب عن إبصارها، فتخلق بها وصار من أهلها؛ ولذلك ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

٣ - الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن الثقافة النقدية في التلقي والأداء هي من مقتضيات إيمان المؤمن لا يكمل إيمانه إلا بها! وأن نقل أخبار الفساق مع العلم بأحوالهم يعتبر من خوارم المروءة ومن نواقص الأخلاق. كما أن التصديق بكل ما يُلْقَى على النفس من أخبار وإشاعات هو من أسوأ أنواع السفه وأسوأ منه المشاركة في نشرها بين الناس.

الرسالة الثانية: في عدم التسليم لكل ما تُلْقيه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من أخبار وتحليلات! وكذلك عدم التصديق بكل ما تموج به شبكات الإنترنت من إشاعات. فكثير من هذا وذاك هو عبارة عن صناعة إعلامية يتم إخراجها بصورة توجه الوجدان الإسلامي توجيهًا مغرضًا؛ ليتخذ مواقف غير سليمة من القضايا العالمية والإقليمية أقل ما ينتج عنها قلب ميزان الأولويات في العمل والإصلاح، ناهيك عن استصدار الأحكام الخاطئة على الناس، وتَلَقِّي التصورات المنحرفة عن

القضايا والمؤسسات.

فالإعلام اليوم هو سحر العصر دوره هو كدور سَحَرة فرعون تمامًا: التخييل والتدجيل، وقلب الحقائق والتصورات؛ حتى ليُخيل للرائي أنها الحقيقة تسعى إنه يقوم على صناعةٍ دقيقة، وتقنياتٍ عالية، وفنٌّ رهيب! سواء في التصوير، أو الإخراج، أو العرض، أو التأخير، أو التقديم، أو التوقيت، أو التضخيم، أو التقزيم، أو الإعمال، أو الإهمال، حتى إنه قد يجعل بعض الحق هو كل الحق! كما يجعل بعض الباطل هو كل الباطل، بل يقلب الحقيقة قلبًا، فيجعل الحق باطلًا والباطل حقًّا! ويصور النقطة الصغيرة السوداء الواقعة في البقعة الكبيرة البيضاء، فيعرضها معزولة عن بياضها؛ حتى يُخَيَّل للناس أن الحادثة كلها سوداء! والعكس بالعكس أيضًا، فالإعلام اليوم حرب يومية رهيبة مَن دخلها بغير سلاحٍ نقدي كان من الهالكين.

ذلك غالب حاله، وقليلٌ منه الصدوق فلا يَتَلَقَّى خبرَه وتحليلَه بارتياح كامل إلا جهول.

الرسالة الثالثة: في وجوب استشارة الشريعة في كل شيء، وعرض جميع المعلومات - مهما كانت مصادرها محترمة - على ميزانها.

فلا عصمة إلا لرسول اللَّه، ولا قداسة إلا لكتاب اللَّه. وإن ذلك لهو من تمام مقام العبودية، ومن كمال منازل التوحيد والإخلاص، وأن المؤمن المتصف بهذه الخصال محفوظٌ - بإذن اللَّه - في كل أمره، مُسَدَّدٌ بنور اللَّه في كل خَطْوِهِ وتصرفه.

الرسالة الرابعة: في أن اعتماد الأخبار غير الثابتة وتصديق الإشاعات الرائجة، لإنجاز الأعمال واستصدار الأحكام وبناء التصورات، مؤدٍّ إلى ضررٍ كبير على النفس في علاقتها بنفسها وفي علاقتها مع الآخرين، كما أنه مؤدٍّ بالجماعات الواقعة في إثمه إلى الدخول في مسالك الضيق والحرج وإلزام الناس بما لم يُلزمهم اللَّه به، ولذلك كان على الدعاة خاصة أن يتصفوا بالحذر الشديد في التلقي للأخبار كما في البلاغ. وأما مخالفة ذلك فهو هلاك لهم ولمن تَبِعهم من مُقلِّديهم وربما أحدثوا بسبب ذلك من الفتن ما يحرق الأخضر واليابس! فيبؤون بإثم لا تكاد تنقطع جريرته.

الرسالة الخامسة: في أن من تمام رشد المؤمن توظيفَ معطياته الإيمانية، ومقاييسه الشرعية، في نقد أخبار الكفرة والفُسّاق وسائر العصاة، والتثبت في قبول أخبار أهل

الغفلة من بعض المتدينين، وأن التحلي بتلك الأخلاق العالية هو من أكبر نعم اللَّه التي أنعم بها على عباده المؤمنين. ولا رُشْدَ في الحقيقة لمن فاته ذلك، مهما أبدى للناس من دهاء وذكاء.

٤ - مسلك التخلق:

أما بلوغ هذا المقام الخلقي العالي فإنما يكون بتربية لطائف القلب، وتزكية بصائره الإيمانية باتباع السُّنة والتقيد بمنهاجها؛ لاكتساب أخلاق الحِلْم والتأنِّي. وكذلك بمجاهدة النفس؛ للتخلص من نوازغ الأهواء، والتحكم في شهوة الكلام عند التعرض لفتن الأخبار والأنباء، فإن لعموم الأخبار - تَلَقِّيًا وأداءً - لشهوات! من استجاب لها أَورَدَتْه موارد الهلاك.

أما تقوية عزيمة النفس لضبط الخواطر واللسان فيكون بالاجتهاد في إخلاص العبادة للَّه، وتمحيص مداخل الشيطان في كل الأعمال؛ تصفيةً لكل خَطْرَةٍ، وتفريدًا للمعبود في كل خطوة؛ عسى أن ينال العبدُ بذلك محبة اللَّه له، فيجعلَ له نورًا يبصر به مسلك الهدى في الظلمات، وفُرقانًا يُميزُ به الحقَّ من الباطل عند اختلاط الحق بالمتشابهات؛ إذ الحرص على مراجعة الشريعة في كل شيء، واستخارة اللَّه تعالى قبل أي شيء، كل ذلك وما في معناه من الأسباب التي تُعَرِّضُ العبد لنعم اللَّه وفضله، مما يجعله سبحانه في قلبه من البصائر والأنوار.

فمحبة العبد لحقائق الإيمان، وتعلق القلب بأعمال الإسلام، كل ذلك مُؤْذِن بمحبة اللَّه تعالى للعبد، وإكرامه بمقام الولاية الذي هو قمة الفرقان الفاصل ما بين الحق والبهتان. كما هو نص الحديث القدسي الذي يرويه سيدنا محمد ﷺ عن ربه، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « **إن اللَّه تعالى قال: مَنْ عَادَى لي وَلِيًا فقد آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّب إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدِهِ التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التِي يَمْشِي بِهَا، وإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّه** »[1]. فمن كان للَّه كان اللَّه له! ومن كان هذا شأنه فإنه لا يضل بنبأ ولا يشقى بعمل.

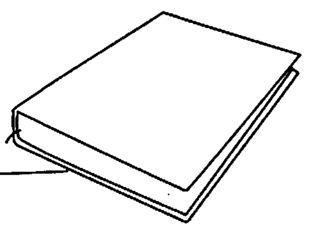
---

(١) رواه البخاري.

المجلس الثالث



في مقام التلقي لموازين العدل والإصلاح وحقيقة الأخوة في الله



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الحجرات: ٩، ١٠].

٢ - البيان العام:

منهاج الاحتياط والتثبت كفيلٌ بحفظ المجتمع من الفتن، ولكن الإنسان - فردًا وجماعةً - قد يغفل عن المنهاج؛ فيبتلى بنتائج غفلته خصامًا وشنآنًا قد يصل إلى حد الاقتتال، ومن هنا جاء القرآن الكريم - بعد إيراد قواعد الوقاية - بتفصيل أساليب العلاج فوصف خطوات السعي بالإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين. فقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾.

وقد أخرج الطبري بسنده - في سبب نزول هذه الآيات - عن أنس ﷺ أنه قال: (قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بن أُبَيٍّ؟ [رأس المنافقين] فانطلق إليه وركب حمارًا، وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة، فلما آتاه رسول الله ﷺ، قال [أُبَيٌّ]: إليك عني، فوالله لقد آذاني نَتْنُ حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لنَتْنُ حمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك قال: فَغَضِبَ لِعَبْدِ الله بنِ أُبَيّ رجلٌ من قومه، وغضب لكلٍّ واحد منهما أصحابه [من المسلمين] قال: فكان بينهم ضرب بالجريد

والأيدي والنعال! فبلغنا أنه نزلت فيهم: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ الآية)[1].

وذكر لذلك روايات أخرى منها ما رواه بسنده عن السُّدِّي (قال: كانت امرأة من الأنصار يقال لها « أم زيد » تحت رجل، فكان بينها وبين زوجها شيء [يعني: من الخصومة]، فرقَّاها إلى عُلَيَّةٍ [أي حبسها بها]، فقال لهم: احفظوا [يعني: لقومه] فبلغ ذلك قومها فجاءوا، وجاء قومه، فاقتتلوا بالأيدي والنعال! فبلغ ذلك النبي ﷺ فجاء؛ ليصلح بينهم. فنزل القرآن: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ الآية)[2].

وقد سمى اللَّه المقتتلين في الآية « مؤمنين » رغم حصول الاقتتال وبهذا استدل أهل السنة والجماعة على أن المسلم لا يُكَفَّر بالمعصية وإن عَظُمَت، وقد ثبت أن رسول اللَّه ﷺ خطب يومًا، ومعه على المنبر الحسن بن علي ﵄، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى ويقول: « إن ابني هذا سيد، ولعل اللَّه تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[3] فكان كما قال ﷺ؛ حيث أصلح اللَّه تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الواقعة بينهما منذ مقتل عثمان ﵁ وقطع الحسن ﵁ بذلك دابر الفتن. فَسُمِّيَ ذلك العام بعام الجماعة.

ومن هنا يتبين أن واجب المؤمن عند وقوع الفتنة بين المسلمين: إما أن يسعى إلى الصلح بينهم، وإما أن يعتزل الطوائف كلها فذلك هو الأسلم له، ذلك أن الدم الإسلامي حرامٌ وهو نص الحديث النبوي الصحيح: « **لا تحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بعضُكم على بيعِ بعض، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخوانًا المسلمُ أَخو المسلمِ، لا يُسْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ولا يحقره، التقوى هاهنا - وأشار إلى صدره - بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كُلُّ المسلم على المسلمِ حرامٌ، دَمُهُ ومَالُه وعِرْضُه** »[4] والقرآن الكريم - قبل ذلك - قد حذر من إهدار دم المسلم أشد

---

(١) تفسير الطبري: (١٢٨/٢٦). وهو وارد في الصحيحين مجملًا.

(٢) تفسير الطبري: (١٢٨/٢٦).

(٣) أخرجه البخاري عن أبي بكرة ﵁.

(٤) رواه مسلم.

التحذير، بحيث يود المسلم لو يُخْطِئ في العفو خيرٌ له من أن يُخْطِئ في العقوبة والانتقام، قال ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ومن هنا كان الصلح بين المتخاصمين من المسلمين واجبًا شرعيًّا لا تبرأ ذمتهم منه حتى يحققوه، وكان الإصلاح واجبًا على من شهد خصومتهم من إخوانهم، لا تبرأ ذمتهم منه حتى يحققوه.

فإنْ كان للجماعة المؤمنة سلطانٌ وجب على ذلك السلطان حمل المتخاصمين على الصلح حملًا، فإذا تَلكأت إحدى الطائفتين واستكبرت عن الصلح بغيًا وعدوانًا؛ وجب عليه قتالها حتى تفيءَ إلى أمر اللّٰه بالدخول في السلم العام مع المؤمنين حتى إذا وضعت الطائفة الباغية سلاحها واستسلمت، وجب آنئذ فصل الخصومة بين المتخاصمين على موازين العدل والقسط؛ لأن ذلك العدل هو وحده الذي يقطع دابر الخصومة، فلا تشتعل نار الفتنة من جديد. ومنع الظلم هو من أهم وظائف السلطان المسلم. وقد ثبت في الصحيح قول النبي ﷺ: « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** » قيل: يا رسول اللّٰه أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال ﷺ: « **تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه** » (١).

ثم قرر تعالى القاعدة الأصل في طبيعة الاجتماع البشري الإسلامي، وبين تعالى بأسلوب الحصر والتوكيد أنه مجتمع الأخوة، بما لهذه العبارة من دلالةٍ إيمانية، ومن معنى روحي عميق، وأن العلاقة التي يجب أن تسود بين المؤمنين – بما هم مؤمنون باللّٰه واليوم الآخر – إنما هي الأخوة لا غير؛ وكأن من انخرم له شيء من عقدها قد انخرم له جزءٌ من إيمانه فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فوجب أن يستمر منهاج الإصلاح على هذا الأساس الإيماني العظيم؛ إذ به تستمر الحياة الإيمانية المباركة، وتتنزل على المؤمنين الرحمات، من سكينة وتعايش سلمي أخوي قائم على أواصر المحبة والتواد والتعاطف والسلام.

وإن المسلمين اليوم – رغم أنهم لا يستفيدون من هذه الآيات إلا قليلًا – يجنون

---

(١) رواه البخاري عن أنس، ومتفق على مثله عن جابر.

من بركاتها سلامًا نفسيًا واجتماعيًا عجيبًا! لا يعرفه إلا من شهد ما عليه المجتمع الغربي، من شقاء نفسي وانعزال نَكِد، مَزَّقَ كل فضيلة وقضى على كلِّ رحمة! بما أُشْرِبَ من أنانيات تَكْفُرُ بالآخر مهما كان! ولو كان أخاه أو أمه وأباه، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ وصف مجتمع المؤمنين بما وصفه به من مُثُلٍ عليا وقيم راقية، لا تتحقق إلا في المؤمنين فقال - عليه الصلاة والسلام - في حكمته البالغة: «**مَثَلُ المُؤْمنينَ في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِم وتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الجَسدِ، إذاَ اشتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**»[1] وإنما ذلك زهرة يانعة، وثمرة طيبة من ثمار الرحمة المنـزلة من الله ﷻ بمقتضى التصالح الإيماني الكريم الواقع بين عباده، والمبني على جمال التقوى وخضوع القلب إلى حكم اللّه، كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

٣ - الهدى المنهاجي:

وأما الهدى الوارد في هذه الآيات فيمكن تلقيه عبر الرسالات الست التالية:

الرسالة الأولى: أن الاقتتال بين المؤمنين خطأ شنيع، فالدم الإسلامي يجب حَقْنُه وحفظه مهما كانت طبيعة الظروف. وإنما المؤمن الصادق هو الذي لا تتلاعب به ريح الفتن والأهواء أَنَّى هَبَّتْ، وهو الذي يستعظم دم أخيه المسلم، ولا ينخدع بتأويلات باطلة واستدراجات شيطانية قاتلة، فلا يلطخ يده ولا لسانه ولا قلبه بدم مسلم.

الرسالة الثانية: في أن الإصلاح بين المؤمنين واجب كفائي، لا بد أن يقوم به بعض المسلمين وإلا أَثِمَ جميعُهم، فحكمه قد تعلق به أمرٌ صريح من القرآن الكريم كما هو واضح في الآية موضوع المُدَارسَة: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ ومن هنا فإن عدم بذل أي جهدٍ للإصلاح هو - على من شَهِدَ التنازع والخصام، وتَعَيَّنَ في حقه الإصلاح - زَلة قبيحة وجبت التوبة منها والاستغفار.

الرسالة الثالثة: أن رفع المظالم واجبٌ على السلطان باستعمال سلطانه، وعلى غيره من أهل العلم ومن لحِق بهم الدعوة إلى ذلك. والسلطان المسلم هو المُكَلَّف وحده شرعًا بمدافعة الطائفة الباغية بالقوة. ولا يجوز قتالها إلا بعد بذل جميع

---

(١) رواه مسلم.

مساعي الإصلاح السلمي، واليأس من نجاعتها، وبعد الاستيقان من تَعَنُّت الطائفة الباغية، وإصرارها على إشهار الحرب على الأمة، ومن علامات البغي في الطوائف هو: رفضها النزول عند مقتضيات الصلح بين المؤمنين، ورفضها الاحتكام إلى كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ.

الرسالة الرابعة: أن العدل دواء ناجع لكل شنآن، كما أن القسط يستدر محبة اللَّه لعباده ونصرته لهم.

ولذلك كان العدل من أصول الاجتماع العمراني في الإسلام. وقد تواترت الآيات والسنن بالأمر به في كل الميادين والمجالات على الإطلاق والعموم. فهو عبادة من أرفع العبادات، كما أن تركه من أشد الكبائر في الدين، وقد صح حديث رسول اللَّه ﷺ فيما يرويه عن ربه: « **قال اللَّهُ تَعَالى: يَا عِبَادي إني حَرَّمْتُ الظُّلم على نفسي وجعلته محرمًا بينكم؛ فلا تَظَالَمُوا** » [1].

الرسالة الخامسة: أن الأخوة مقام إيماني رفيع، واجب على كل مسلم أن يتحقق به تجاه كل المؤمنين وأن يجاهد نفسه لإخراج ضغائنها وأحقادها تجاههم. فكل من شَهِد ألا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه وخضع لمقتضياتها وجبت له الأخوة قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١]. وهذا مقامٌ لا ينال إلا بمجاهدة حقيقية للنفس؛ ولذلك كان دعاء الصالحين: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ولا شك أن تحقيق ذلك عمليًا على المستوى الاجتماعي لا يكون إلا بالتنازل عن كثير من الحقوق تجاه المؤمنين، والصبر على حماقات بعضهم وجهالاتهم، ممن يثير بتصرفاته الهوجاء الحنق والغيظ والغضب فعلًا ومن لم يُرَوِّض نفسه على استيعاب مثل هذا والصبر عليه؛ خسر ذلك المعنى الإيماني العظيم، ولم يذق من حلاوته شيئًا وليس عبثًا أن مدح اللَّه تعالى بذلك عباده المتقين من أهل مقام الإحسان، في قوله جل ثناؤه: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) رواه مسلم.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]. وفي مثل هذا أيضًا قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الرسالة السادسة: في أن مسلك الاستدرار للرحمة وطلب الفرج من الرحمن، عند اشتداد الكرب على المستوى الاجتماعي والمعيشي إنما ينفتح بابُه للعبد بتحقيق التراحم وتعميق التواد بينه وبين المؤمنين. فذلك من أسباب نزول الرحمة الإلهية بالأمة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقد ثبت ضمان ذلك في الحديث النبوي الصحيح، من قوله ﷺ: « **الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء** »[1].

فمسلك الرحمة إنما هو الرحمة، وهو معنى عظيم في الدين والدعوة جميعًا. فما من دعوةٍ قامت على الرحمة إلا وكتب الله لها النجاح والقبول وبارك فيها، وما أخطأت ذلك دعوةٌ أو جماعة إلا فشلت وخسرت، وهذا مقامٌ إيماني من الحكمة الربانية رفيع، مَنْ فاته فاته خيرٌ عظيم، بل يُخشى عليه أن يكون من الهالكين.

٤ - مسلك التخلق:

أما المسلك العملي للتخلق بمقام الأخوة الإيمانية **فهو مُنْبَنٍ على شرطين أساسين هما:**

- **أولًا:** التخلص من الأنانيات ومعالجة مرض تمجيد الذات، وداء تعظيم النفس وتنزيهها، وذلك بترويضها في خلواتها وجلواتها على مشاهدة عيوبها، واكتشاف نقائصها الكثيرة في حق الله. ثم معالجتها بمشاهدة مقامات أهل المنازل السابقين، من الصحابة والتابعين، والأئمة الصدِّيقين، وسائر الربانيين عبر التاريخ.

وما كان لهم جميعًا من سَبْق في مقامات الإيمان، وما اشتهروا به من كمالٍ وزهد عالٍ، ومن لَوْمٍ شديدٍ للنفس، ومحاسبة دائمة لها على دقائقها فتجعل لنفسك

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن ابن عمرو. وصححه الألباني، حديث رقم: (٣٥٢٢) في صحيح الجامع.

برنامجًا عمليًا من جلسات التفكر والتدبر الفردي موضوعه الرئيس: النظر في علل نفسك التي بين جنبيك؛ سيرًا على هذا الطريق ثم محاولة اكتشاف دوائها الشافي عند مناجاة الرحمن وتلاوة القرآن، خاصةً لحظة التهجد به ليلًا فلعلك آنئذ تجد آيتك التي تنقذ حياتك من مخالب نفسك الأمارة بالسوء.

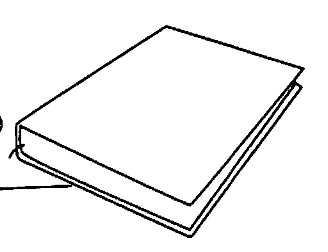
- ثانيًا: التعلق بالآخرة والنظر الدائم إلى فناء الحياة الدنيا، ومعلوم لدى الصالحين أن الخلوات الفردية التفكرية - بليلٍ أو نهار - من أعظم الوسائل المحققة لذلك فانظر إلى الأيام كم سلخت من عمرك وانظر إلى ما ضيعت من أعوام الشرود عن طريق اللَّه، ثم انظر إلى نعمه سبحانه وحقوقه العظيمة على العباد وإلى ضآلة ما أنجزت في طريقه تعالى من أعمال، انظر إليها عملًا عملًا وتفحصها بدقة؛ أيُّ شيء منها خَلُصَ للَّه وحده حقًّا، ولم يثلمه تسميع ولا رياء؟!

فوا حرَّ قَلْبَاهُ عليك يا نفسي الجاهلة المغرورة كيف تمجدين ذاتك وتزكين أعمالك، وها أنت تنامين الليالي الطويلة الثقيلة، ميتة الإحساس، جامدة الشعور؟! كيف؟ وهؤلاء المؤمنون الكُمَّلُ الذين شاهدوا حقائق الإيمان، قد أفزعتهم ذنوبهم؛ فقاموا للَّه مَثْنَى وفرادى ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. فالبِدَار البِدَار قبلَ خَرابِ الدِّيار.

* * *

المجلس الرابع

في مقام التلقي لحقوق الأخوة في اللّه ولجمال التعارف الروحي في ذاته جل علاه



١ - كلمات الابتلاء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٣].

٢ - البيان العام:

هذه مداخل الشيطان الستة، وأسلحته الفتاكة، وهي مزالق المتكلمين بغير موازين، ومصارع الغافلين تحت أقدام إبليس اللعين وإنها لمن أخطر أسباب خراب العلاقات الاجتماعية أنَّى كانت، من الأسرة إلى الجماعة، وهي سبب فشل الإنسان في مد جسور المحبة والتواصل مع المؤمنين. وكلها آفات لسانية وقلبية. وهي كما جاءت مرتبة في الآيات كالتالي: السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، والظن، والتجسس، والغيبة

والناظر في هذه الآفات الست يجد أنها تنقسم إلى قسمين: القسم الأول منها آفاتٌ ظاهرة تُخرِّب الحياة الإيمانية والعلاقات الاجتماعية ظاهرًا. وهي الثلاثة الأولى: (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب). فهذه حرب معلنة على المؤمنين تفسد الحياة،

وتدمر العلاقات، وتؤجج نيران الفتن، وتُهيئ البيئة للاقتتال والقسم الثاني هو الآفات الثلاث الباقية، أي: (الظن، والتجسس، والغيبة). وهن آفات خفية سرية تعمل في غفلة من الناس، وتوقد الحرائق في حقول المحبة الخضراء وهي لا تقل خطورة عن الأولى، بل هي من أهم أسباب اندلاع بوائقها.

وبيان ذلك مفصلًا هو كما يلي:

لما بيَّن الحق تعالى خطر اقتتال المؤمنين فيما بينهم، وبيَّن سبحانه طرائق علاج جروحه، عرج على كشف الأسباب المؤدية إليه في البيئة الإسلامية محذرًا منها، وآمرًا المؤمنين باجتنابها. وهي الآفات الاجتماعية الست المذكورة، فالآيات الواردة في هذا السياق إنما هي للوقاية من خطر الشنآن والخصام والاقتتال بين المؤمنين، قبل الوقوع في جحيمه.

فنهى ﷻ المؤمنين عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، واستصغارهم. وهذا حرامٌ، بل هو كبيرة شنيعة؛ لأن الساخر المحتقر لغيره إنما يفعل ذلك؛ لما توهم من العلو لشخصه ولما وجد من الكبرياء في نفسه ومعلوم ما في الكبر من الوعيد الشديد (١)؛ لأنه ضرب من التألُّه والتجبر على الخلق وتلك كلها أحاسيس تعمي صاحبها أن يرى للناس منازلهم؛ ولهذا قال الحق تعالى - بنوع من التعليل - في سياق النهي عن السخرية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات: ١١].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي لا تلمزوا إخوانكم المؤمنين، فهم بمثابة أنفسكم؛ لأن مجتمع المؤمنين كالجسد الواحد. واللمز: الطعن على المؤمنين بالقول القادح تعريضًا وتلميحًا، وهو من أشنع الأخلاق وأسوئها وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾ أي لا تتنادوا بالألقاب الساخرة مما يطلقه بعضكم على بعض سخريةً وتنقيصًا واستهزاءً، فالنبز طعن أيضًا كاللمز؛ ولذلك قال تعالى بعدها مباشرةً: ﴿ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ [الحجرات: ١١]، أي بئس ما كنتم تصنعون من

(١) قال ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ مِن كِبْرٍ » قيل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا و نعله حسنةً قال: « إن اللّه جميلٌ يحب الجمال. الكبر: بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس » رواه مسلم. وقد شُرح الغَمْطُ بالاحتقار.

التنادي بالأسماء الفاسقة والألقاب الشنيعة مما اعتدتم عليه في الجاهلية.

فذلك كله مما وجب على المؤمن أن يتبرأ منه ويتخلى عن بوائقه، من بعد ما أكرمه اللَّه تعالى بالإيمان والتوبة والصلاح. ومن لم يتب من هذا الفعل الشنيع فأولئك هم الظالمون لأنفسهم، بما لطخوها من السيئات، والظالمون لغيرهم بما وقعوا فيه من الطعن في أعراضهم والحط من أقدارهم، وقد يكون أولئك المطعون فيهم ممن أحبهم اللَّه وأعلى لهم الدرجات وما يدريك فربما طعنت على وَلِي حقيقي من أولياء اللَّه المحروسين بعين اللَّه؟! و (كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَر ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ) (١).

فتلك إذن مشاحنات شنيعة يبوء بها اللسان، وينوء ببوائقها؛ سخريةً ولَمْزًا ونَبْزًا لكنها جميعها ترجع إلى ما يقع بالنفس من أوهام وخواطر شيطانية، مما يَعْقِدُ القلوبَ على الإثم وظن السوء بالمؤمنين، ومن هنا يبدأ الخطر ذلك أن الظن السيئ إذا تُشَكِل في قلب الإنسان لجرّأه على الطعن في الأعراض والحط من الأقدار! سخريةً ولمزًا ونبزًا، ولذلك فقد غاص الخطاب القرآني في أعماق النفس الإنسانية منبهًا المؤمن إلى ضرورة التخلص مما ينعقد بقلبه من الظنون السيئة، وما يلقيه الشيطان إليه، من خواطر سوداء تجاه إخوانه المؤمنين فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

ثم نهى بعد ذلك عما قد يحصل من محاولة التحقق من تلك الظنون والأوهام؛ بالتجسس على المؤمنين، وهو محاولة التحقق الخفي والتَّتبع السري للعورات؛ لفضح ما قد صورته النفس الأمارة عن المؤمنين من عيوب خفيات كما نهى عن إشاعة التصورات السيئة، والمواقف المنتقصة من أقدار الناس، سواء كان ذلك بحقٍّ أو بباطل! فلا يجوز تجريح مؤمن بغيبةٍ أو بأي كلام جارح، مما لو اطلع عليه لغضب منه، وهو ما فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: (قيل: يا رسول اللَّه ما الغيبة؟ قال ﷺ: « **ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْره** » قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: « **إن كان فيه ما تقول فَقَدْ اغْتَبْتَهَ، وإِنْ لم يكن فيه**

---

(١) رواه الترمذي والضياء عن أنس مرفوعًا إلى النبي ﷺ. وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (٤٥٧٣).

ما تقول فقد بَهَتَّهُ » (١) ويلحق بالغيبة في المعنى السعي بالنميمة بين الناس؛ لإفساد ذات بينهم وهو ما ذمه القرآن بشدة في سياق آخر، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

وقد جعل اللَّه تعالى الغيبة في بشاعتها - وما يلحق بها من آفات - كأكل لحم الإنسان وهو ميت، ومعلوم أن النفس الإنسانية تعاف مثل هذا وتستقذره، بل تعاف حتى مجرد تصوره خيالًا فبيَّن اللَّهُ ﷻ أن التجسس والغيبة في بشاعتهما وشناعتهما أشد عند اللَّه من ذلك فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]؛ ولذلك فقد حذَّر النبي ﷺ من هذا وذاك أشد التحذير، فقد رَوى البراءُ بنُ عَازِب وأبو برزة الأسلمي ﵄ قالا: (خطبنا رسول اللَّه ﷺ حتى أسمع العَوَاتِقَ في بيوتها، أو قال: في خدورها، فقال: **« يا معشر مَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قَلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتَّبع عورة أخيه يتبع اللَّهُ عورته ومن يتَّبع اللَّهُ عورته يفضحه في جوف بيته »** (٢) وعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **« لما عُرِجَ بي مَرَرتُ بقومٍ لَهُم أظافر من نُحاس يخمشون وجوهَهم وصدورَهم قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويَقَعُون في أعراضهم »** (٣) ونحو هذا وذاك في السنة النبوية الصحيحة كثير.

وإنما تلك المصائب كلها وليدة الظن السيئ الذي ألقاه الشيطان بالقلب، وهو ما وجب التعوذ باللَّه منه كلما وجده المؤمن في نفسه. والمقصود بالظن السيئ: التهمة بالوهم، والتخون المتخرص للأهل وللناس؛ لأن بعض ذلك إنما يكون إثمًا وظلمًا، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **« إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا »** (٤).

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الأربعة عن البراء بن عازب، ورواه أحمد وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي، كما رواه الترمذي عن ابن عمر. وصححه الألباني: حديث رقم: (٧٩٨٤) في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه أبو داود وأحمد. وصححه الألباني. حديث رقم: (٥٢١٣) في صحيح الجامع.

(٤) أخرجه البخاري.

ومن هنا أمر اللَّه ﷻ - في آخر السياق - المؤمنين بتقوى اللَّه في ذلك كله وإنما تكون التقوى هاهنا بالحرص على تعظيم محارم اللَّه من أعراض المسلمين، وصون شرفها وحفظ كرامتها فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] فوجب بمقتضى ذلك على من وقع في شيء من هذه الكبائر الخطيرة؛ أن يسارع إلى التوبة إلى اللَّه قبل فوات الأوان عسى أن ينجو برحمة اللَّه، ويفوز بغفرانه جل ثناؤه.

ثم ختم تعالى السياق جميعه بقاعدة اجتماعية عظيمة! تعتبر أصلًا من الأصول الكبرى لطبيعة العمران الاجتماعي في الإسلام، المبني على حقائق الإيمان، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فهذا النداء الرباني العظيم إعلام للبشرية جميعًا أنها طينةٌ واحدة، وأنها خِلْقَةٌ واحدة، وأنها جنسٌ واحد؛ ذلك أنه تعالى قد خلق الناس جميعهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما: « آدم » و « حواء »، وكل ما تناسل عنهما من ذكر وأنثى. ثم جعلهم شعوبًا وقبائل، والشعب أعم من القبيلة. وبعد القبيلة تتفرع مراتب أُخر؛ كالفصائل والعشائر والأفخاذ والأُسر، وغير ذلك. فجميع الناس في الشرف - بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام - سواء! وإنما يتفاضلون بالمقامات الدينية، من منازل الصلاح والتقوى. والأتقى: هو الأعرف باللَّه، والأعلم به تعالى مقامًا وخشية! فذلك هو الأكرم على اللَّه الأعز عنده جلَّ علاه وليس صاحب النسب الأصيل، ولا الحسب الأثيل، المجرد عن مكارم الدين، فاعتماد هذا وحده مجردًا عن مقاصده الإيمانية عنصرية بغيضة، وجاهلية منتنة، أبطلها الإسلام؛ ولهذا ورد الخطاب الرباني بذلك - مباشرةً بعد النهي عن غيبة المسلمين واحتقار بعضهم لبعض - منبهًا على تساوي الناس في البشرية.

وقوله تعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي ليحصل التعارف العمراني فيما بينكم؛ من أجل التعاون على البر والتقوى، وبناء الحضارة الإنسانية على عبادة اللَّه وتوحيده، ومن أجل التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حقوق اللَّه، والحقوق العامة والخاصة؛ ولهذا شرعت صلة الأرحام في الإسلام، وجعلها اللَّه ﷻ حقًّا من

حقوقه العظمى؛ إذ بمعرفتها وبصلتها تتم تقوية النسيج الاجتماعي، الذي به يُحفظ الدين في المجتمع، وتحفظ قيم الأمة وأخلاقها، ويضمن استمرار شخصيتها في العالم. وإنما يكون ذلك كله بتمتين روابط الأنساب وحفظ أرحامها أسرةً وقبيلةً وشعبًا، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **تَعَلَّمُوا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإنَّ صلة الرحم مَحَبَّة في الأهل، مَثْرَاةٌ في المال، مَنْسَأَةٌ في الأثَرِ** » (١)، وعن ابن عباس ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال أيضًا: « **اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم فإنه لا قُرْبَ بالرَّحِمِ إذا قُطِعَتْ وإنْ كانت قريبة ولا بُعْدَ بها إذا وُصِلَتْ وإنْ كانت بعيدة** » (٢).

ومن هنا كان تحريف مقاصد الارتباط بالنسب في الإسلام إلى معاني التفاخر الجاهلي والتكاثر العنصري؛ ضربًا من تحريف الدين، والخروج به عن منهاج رب العالمين، فيما جعله تعالى من مقاصد تعبدية في أمر خلق الناس أجمعين؛ ولذلك قال سبحانه في نهاية المطاف: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] أي: إن اللَّه ﷻ عليمٌ بطبائع معادنكم، وأصناف قلوبكم، وحقيقة أقداركم خبيرٌ بخفايا أموركم، ومنازل إيمانكم، وبما تنطوي عليه سرائركم، وما تخفون من نقائصكم وعيوبكم! فما أجهل من يَدَّعي ما لم يجعله اللَّه فيه؛ إذ يُشَنِّعُ على غيره من المسلمين، وقد علم اللَّه أنه ينطوي على أبشع مما شَنَّع به على غيره وأسوأ مما وقع فيه من الطعن في أعراضهم وأقدارهم، غَيْبةً وسخريةً واحتقارًا فمن يحميه إذن من انتقام ربه المطلع عليه وهو - جَلَّتْ عظمته - العليم الخبير؟

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى ست رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن الكلمة مسؤولة! وأن اللسان سنان! وأنه من أخطر جوارح الإنسان، وأبلغها أثرًا على رصيد الإيمان سلبًا وإيجابًا وكثيرًا ما يسهو المؤمن ويغفل عن هذه الحقيقة، وفي ذلك ما فيه من الهلاك والعياذ باللَّه فكان لزامًا على من يرغب في النجاة أن يجعل للسانه ميزانًا يضبطه، وحكمةً تلجمه؛ حتى يتورع عن الخوض

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه الألباني، حديث رقم: (٢٩٦٥) في صحيح الجامع.
(٢) رواه الطيالسي والحاكم، وصححه الألباني، حديث رقم: (١٠٥١)، في صحيح الجامع.

في محارم اللَّه، ويمتنع عن النهش في أعراض المسلمين فيكفي المؤمن - لعقد التوبة من آفات اللسان، وقمع جموحه الشيطاني - أن يجعل شعاره الدائم قول سيدنا محمد ﷺ: « **وَهَلْ يَكُبُّ الناس في النَّارِ على وجوههم - أو قال: على مَنَاخِرِهم - إلا حَصِائِدُ ألسنتِهم؟!** » [(١)].

الرسالة الثانية: في أن أعراض المسلمين وسمعتهم من أعظم محارم الدين وأن التعدي على حِمَاهَا هو من أخطر أنواع الظلم؛ ذلك أن اللَّه ﷻ جعلها من محارمه المحفوظة عنده! مُسَيَّجَةً بحدود شريعته، تحت ظل سلطانه! فصار كل من انتهكها على خطر عظيم!. والكَيِّس الفَطِنُ هو مَنْ يُعَظِّمُ ما عَظَّمَهُ اللَّه ويُوَقِّرُ ما وَقَّرَهُ اللَّه.

الرسالة الثالثة: في أن باطن الإثم وأدران النفس الخفية هي من أولويات التوبة والإصلاح، ومن أول شروط الانطلاق في السير إلى اللَّه لمن رام صادقًا الوصول إلى رضا مولاه ذلك أنه لا وصول لعبد ما تزال نفسه الأمارة متلطخة بأوساخ الناس، سخريةً منهم، أو لَمْزًا لهم ونَبْزًا، أو ظنًّا بهم ظنَّ سوء، أو غيبةً وتجسسًا، فالسير إلى اللَّه عروج بالروح، وتحليق بها في فضاءات المعرفة باللَّه، والتبتل إليه جلَّ ثناؤه وعلاه، والقلب المثقل بالأوساخ لا قدرة له على الانطلاق ولا على بدء المسير، بله أن يكون ممن يُحَلِّقُ أو يطير.

فيا قلبي المغرور متى تتخلص من جهلك العظيم بحق اللَّه، وبشروط السير إلى جمال رضاه، وإلى متى وأنت تلعب بك الأماني الشيطانية، والتسويفات الشهوانية؟ فواحسرة على قلب مَرَّغَ لسانَه في أوحال التراب، وعَمِيَ عن لهيب الحساب.

الرسالة الرابعة: في أن الاندماج في المجتمع، وعدم الانعزال عنه، والصبر على ابتلاءاته؛ قصد الإسهام في إصلاح عمرانه الإنساني، وبناء نسيجه الإيماني، وتعميق وجدانه الروحاني - من أعظم منازل الإيمان وأشرفها.

ولقد جعل رسول اللَّه ﷺ لصاحب هذه المجاهدات درجة أعلى من غيره، كما في الحديث الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام: « **المؤمن الذي يُخالِط الناس ويَصْبِر على أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لا يُخالِط الناس، ولا يَصْبِر على أذاهم** » [(٢)] فذلك

---

(١) جزء حديث رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عمر. وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (٦٦٥١).

من أهم حِكَم الخلق الإلهي وغاياته، كما هو مقتضى الآيات موضوع التدارس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الرسالة الخامسة: في أن من مقاصد الاجتماع البشري في الإسلام أن تذوب المصالح الشخصية في خدمة المصالح الجماعية للأمة، حتى تصير الجماعة كالنفس الواحدة، ويصير كل عضو فيها بمثابة الأخ الوفي لكل الأعضاء. وليحذر المؤمن من أن تتضخم ذاته في نفسه، أو أن تتعاظم « أناه » في ذاته؛ حتى يقع في شَرَكِ عبادة نفسه وتَأْليهها، ثم ليحذر من أن يُفَرِّغ تلك الوثنية الخفية في تعظيم جماعته الصغيرة وطائفته الجزئية، من حزبٍ، أو جماعةٍ، أو طريقةٍ، حتى لا يرى في الأمة سواها، فتصير حاجبة له عن اللّه بدل أن تكون له سفينة تُقِلُّه إلى رضا مولاه، فالحكمة كل الحكمة في تذويب « الأنا » وقتل كبريائها في خدمة كلِّ المسلمين ومحبتهم، وبذل كامل الشفقة لهم، وخفض جناح الرحمة لصالحهم ومُسِيئهم؛ عسى اللّه أن يتوب عنا وعنهم.

الرسالة السادسة: في أن التعارف الروحي هو غاية الخلق الرباني للبشرية فالدين من حيث هو نصوص حقائق مطلقة وقواعد ثابتة. لكنه من حيث هو عمل إنساني، وشعور وجداني، تجربةٌ بشريةٌ، تشرق وتخبو، وتتكدر وتصفو، وتزيد وتنقص والتجربة الإيمانية - وإن اتحدت في الأصول والثوابت - فهي تتميز في الأحوال والتجليّات، وتتعدد في المكاسب والمواهب، وتختلف في ذلك كله باختلاف أصحابها، واختلاف مؤهلاتهم وقابلياتهم. ومن هنا كان للتعارف في اللّه فوائد عظيمة؛ حيث يتم تداول الحكم الإيمانية، والإشراقات النورانية المتلقاة في طريق الحق؛ من أجل توطيد الألفة في اللّه، والأنس بجماله جل علاه، وتكثير سواد السائرين إليه تعالى، وتثبيت أقدامهم في طريق الحق، خاصةً في زمان اختلط فيه الحق بالباطل.

فالتعارف الاجتماعي ليس غاية في نفسه، بل هو وسيلة للتعارف الروحاني الذي هو الغاية الحقيقية من جعل الناس شعوبًا وقبائل كما دلت عليه تتِمَّة السياق: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وليس ببعيد عن هذا قول رسول اللّه ﷺ في الحديث الصحيح: « **الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تعارف منها اِئْتَلَفْ، وَمَا تَنَاكَر منها اخْتَلَفَ** » (١)

(١) رواه البخاري عن عائشة، ورواه مسلم وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة، كما رواه الطبراني عن ابن مسعود.

فابحث عمن تَجَنَّدَ منها في صفِّ اللَّه، وانخرط في طريق السير إلى نيل رضاه، وتعرف إلى مجالسهم ومساربهم، تقطفْ من ثمار الحكمة، ومن أنوار المعرفة به سبحانه ما ترتقي به نحو مراتب التقوى ومنازل الكرامة عنده، جَلَّ ذِكْره وثَنَاؤُهُ.

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسالك التخلق بحكم هذه الكلمات العظيمة فهي كما يلي:

فأما مقام التحكم في اللسان فلا بد للفوز في ابتلاءاته من التحقق بالمجاهدات التالية:

- **أولًا**: التدرب على طول الصمت إلا لحاجةٍ شرعية. وذلك بجعل بصر الإرادة في حالة يَقِظَة أبدًا، قائمًا على طرف اللسان سرمدًا؛ للتحقق من كل كلمةٍ تنازعه ليتلفظ بها، فإما أن تكون صادرة عن حق، ثم مناسبة للمقام؛ فلك أن تأذن له بها، وإلا فإلجام اللسان عنها أَوْلَى، وإِخْنَاس شهوة الكلام عن باطلها أحرى، فتجعل لسانك بذلك خادمًا لجمال صمتك، ورافعًا لمقامه المتعبد بسكونه، فلا يتحرك حتى تنضج ثمرة الكلام.

- **ثانيًا**: اتهام النفس وإدامة النظر في خفاياها؛ تهذيبًا وتشذيبًا، والنظر المنكسر إلى ذنوبها والبكاء على خطاياها. ومَنْ كان هذا شأنه خَجِل من كلامه، فأَنَّى لمذنب أن يتكلم بغير عبارات التوبة والاستغفار؟!

- **ثالثًا**: المبادرة إلى التصدق بشيء - مهما قلَّ - كلما وجد المرء نفسه قد زلَّ، وانزلقت قدمه في وَحْلِ الغَيْبة، أو السخرية بالمؤمنين، أو ما يلحق بهذا أو ذاك من أصناف الأذى. وألا يبيت على شيءٍ من ذلك - مهما صَغُر - دون أن يُحْدِثَ له توبةً، ويتقرب إلى ربه بصدقةٍ، إتْبَاعًا سريعًا. وهو مقتضى قول رسول اللَّه ﷺ: « **اتق اللَّه حيثما كنت، وأَتْبِعْ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخَالق الناسَ بِخُلُقٍ حسن** »[(١)].

وأما مسلك تربية النفس وترويضها على تذويب أنانيتها في خدمة المؤمنين، فهو راجع إلى التعلق باللَّه - جلَّ ثناؤه - وعقد العزم على السير إليه تعالى رَغَبًا ورَهَبًا عبر

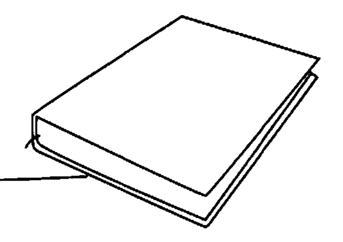
---

(١) رواه أبو داود، وأحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي، عن أبي ذر. كما رواه أحمد والترمذي، والبيهقي أيضًا عن معاذ. ثم رواه ابن عساكر عن أنس. وحسنه الإمام الترمذي، كما حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (٩٧).

منازل التقوى والورع. فمن تعلق قلبه بالله على هذا الوِزَانِ، حَمَلَهُ حادي الشوق إلى المكارم الإيمانية، ورزقه الله بصيرة التعرف إلى خِيَار المؤمنين، وكان ممن يُقَدِّرُ الناس على حسب ما ينطوون عليه من حقائق الإيمان ومعاني الروح ثم صارت المحبة في الله شعاره، ووسيلته في ربط صلته بالناس محسنهم ومسيئهم؛ طلبًا للصلاح ورغبةً في الإصلاح. وعرف ما معنى زيارة أخ له في الله، أو التعرف إليه. ذلك أن المؤمن قد يكون له من كنوز الحقائق الإيمانية حِكَمٌ ينطق بها، أو أحوال ربانية تفيض مواجيده بها، أو مقامات إيمانية يصدر سلوكه عنها، وتتحقق مجاهداته بها، فيتزود منه أخوه المتعرف عليه بركات وفيرة، وأنوارًا كثيرة، تُبَصِّرُهُ بما خفي عليه من أسرار الطريق إلى الله، وكفى بذلك علمًا عظيمًا تُشَدُّ إليه الرِّحَالُ هذا، وإن التعرف على الأتقياء الأكرمين عند الله، نعمةٌ لا يعرف قَدْرَهَا إلا من ذاقها، وشاهد أنوارها وجمالها.

* * *

المجلس الخامس



في مقام التلقي لمفهوم الإيمان الحق،
وفرق ما بينه وبين الإسلام العام!

١ - كلمات الابتلاء:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٤ - ١٨].

٢ - البيان العام:

بعد نقض كل القيم الاجتماعية الجاهلية، من طعن في المؤمنين سخريةً ونبزًا وغيبةً، وما انطوى عليه ذلك كله من فخر بالأنساب والأحساب، ثم بعد جعل قيمة الإيمان وحدها هي المعيار لِأَكْرَمِيَّةِ الإنسان - على حسب ما بلغه من مقامات التقوى الورع - استأنف السياق القرآني نقد المفهوم الخاطئ للإيمان وتصحيح دلالته، بيانًا للسائرين إلى الله، الصادقين في طلب رضاه. فجعل يبين الفروق الدقيقة بين حقيقة الإسلام الشكلي الذي لا يعدو المظاهر العامة، ولا يعبر عن إيمان حقيقي بالله واليوم الآخر، إيمان حي ينبض به القلب رَغَبًا ورَهَبًا. وبين الإسلام الحق الذي يَصْدُق التعبير عنه بالإيمان الكامل، وهو ما حصل فيه إسلام القلب لله رب العالمين، عن

معرفة به تعالى وعلم؛ فسجدت مواجيد صاحبه خاشعة لجلال اللَّه وعظمة سلطانه، وتبعتها الجوارح مسلمة له جل علاه.

وللعلماء في بيان الفرق بين الإسلام والإيمان كلامٌ لطيف مبني على نصوص من الكتاب والسنة، من مثل ما ورد في هذه الآيات موضوع المدارسة، وما ورد في حديث جبريل عليه السلام في محاورته مع سيدنا رسول اللَّه ﷺ، عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فأجابه عن الأول ببيان أركان الإسلام الخمسة، مِنْ نُطْقٍ بالشهادتين، وإِقَام للصلاة، وإيتاء للزكاة، وصوم لرمضان، وحج لبيت اللَّه الحرام. وأجابه عن الثاني ببيان أركان الإيمان الستة، من إيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره حلوه مُره [1]. فكان الإسلام بهذا المعنى هو خضوع الجوارح، والاستجابة للدين بأداء الأعمال الظاهرة. بينما الإيمان هو التصديق بما جاء عن اللَّه ورسوله من أمور الاعتقادات.

إلا أن الغالب أن يَرِدَا مُتَّحِدَيْن في الدلالة، فيُحيل أحدهما على الآخر لزومًا. فلا يكون من فرق بينهما إلا فيما يَسْبِق إلى الذهن منهما، على أن يَتْبَعَهُ الآخر تضمنًا.

وأما هذه الآيات من سورة الحجرات فلها مقام دلالي آخر هو أكثر دقة وأشد بيانًا، ذلك أن اللَّه ﷻ ولو أنه تعالى أقر الأعراب على أنهم قد أسلموا إلا أنه تعالى نفى عنهم الإيمان ولم يُقرهم على ادعائه البتة؛ ذلك أن معنى الإيمان - في هذا السياق، زيادة على التصديق بأركان الإيمان الستة - إنما هو الخضوع الكامل للَّه قلبًا وقالبًا؛ حيث يحقق المؤمن معنى كونه عبدًا للَّه، لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فالمتحقق بهذا المقام هو المؤمن الكامل، وهو العبد الصادق. والإيمان بهذا المعنى تَوَهُّج قلبي بحقائق الإيمان، القائمة على المعرفة باللَّه والعلم به تعالى، والقيام بما ينبغي لمقامه العظيم، خشيةً ورهبةً! بما يجعل مواجيد القلب تتقد شوقًا إلى رِضَا مولاه، فتُبادر إلى الاستجابة الخاضعة الطائعة قولًا وعملًا.

فهذا الإيمان إسلام أيضًا أي أنه أعمال، لكنها أعمالٌ أعمقُ دلالةً؛ لأنها تضرب بجذورها في أعماق القلب، وترتوي من حوض المعرفة باللَّه. فتنطلق أقدامها سائرة

---

(١) الحديث مشهور، رواه بتفصيله الإمام مسلم.

إلى اللَّه، مَسُوقة بحادي الخوف والرجاء، ومَشوقة بنداء المحبة للَّه، فكل إيمان إسلام، وليس كل إسلام إيمانًا بهذا المعنى الخاص للإيمان، بل هذا مقام المؤمنين الكُمَّل، الذين قَدَّمُوا مُهَجَهم وأرواحَهُم وأموالَهُم بين يدي اللَّه، ولم يحتفظوا لأنفسهم ولا لحظوظهم من ذلك بشيء البتة، كما هو مقتضى قوله تعالى بعدُ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]، وتلك هي حقيقة العبودية الكاملة ومعنى الإخلاص التام، وهو مقام أعلى من معنى الإسلام العام، ومن معنى الإيمان العام أيضًا الدال على مجرد التصديق المجمل بالأركان، بل هذا مقام العبدية الكاملة للَّه، وهو المنفي عن الأعراب في هذا السياق بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾.

وقد ذهب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية منافقون بينما ذهب آخرون – منهم ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ – إلى أنهم ليسوا بمنافقين، بل هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم بعد. وإنما الإشكال هنا أنهم أساءوا الأدب مع رسول اللَّه ﷺ؛ بما منوا عليه من إيمانهم! فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه؛ فأدبهم اللَّه ﷻ في هذه الآيات؛ ببيان أن ما حققوه إنما هو مجمل الإيمان، لا الإيمان الكامل الذي هو الإيمان الحق؛ ولذلك قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولو كانوا منافقين لعُنِّفُوا وفُضِحُوا، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمانُ في قلوبكم »، أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد)[1].

وما ذهب إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الراجح فعلًا؛ بدلالة ما بعده من السياق، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤] فقد أخبر سبحانه بأنه لن ينقصهم من أجورهم شيئًا بشرط طاعة اللَّه ورسوله. ويزيده تأكيدًا ما جاء بعدُ في السياق نفسه من قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] فأقر لهم بالإيمان العام الذي يخرجون به من حد الكفر والنفاق العقدي. وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤] فهو فتحٌ لباب التوبة في وجه هؤلاء الأعراب مما وقعوا فيه من سوء الأدب مع اللَّه ورسوله، فضلًا منه تعالى ورحمة. وهو تعالى « غفور رحيم » أبدًا لمن تاب إليه وأناب،

---

(١) ن. تفسير ابن كثير لهذه الآية وما رد به على الإمام البخاري، رحمة اللَّه عليهما.

واستغفره من مثل هذا السفه الدال على الجهل بالله.

وقد رُوِي عن ابن عباس ﷺ أنه قال في سبب نزول هذه الآيات: (جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله ﷺ: « إن فِقْهَهُمْ قليلٌ، وإنَّ الشيطان يَنطِقُ على ألسنتِهم »، ونزلت هذه الآية: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ [الحجرات: ١٧] الآية) [(١)].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] أي إنما المؤمنون الكُمَّل هم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا، بل ثبتوا على الحق، ورسخت أقدامهم في تربته، وارتوت أشواقهم من كوثره، فبذلوا مُهَجَهم ونفائس أموالهم؛ مجاهدةً وجهادًا في طاعة الله وطلب رضوانه وحده دون سواه، توحيدًا وتفريدًا لا سمعةً ولا رياءً، بل إخلاصًا كاملًا لله، ولذلك قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون. لا كهؤلاء الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة، فادَّعوا ما لم يتحققوا به بعد.

فإنما الإيمان المطلوب شرعًا يقين وجداني عميق، تفيض مواجيده بالأعمال الخالصة مجاهدةً في الله وجهادًا. والإيمان العام قد تكون له تجليّات عملية نعم، لكنها ليست قاطعة بحقيقته؛ لأن الظاهر قد يكون على خلاف الباطن، وقد يكون على وفاقه، والوفاق قد يكون بمطابقة أو بغير مطابقة، أي قد يكون رصيد العبد من الإيمان أقل بكثير مما يدَّعيه؛ ولذلك قال تعالى بعد مباشرة: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦] وهذا سؤالُ إنكارٍ على هؤلاء، وتعجيب منهم ومن جهلهم بالله بمعنى: هل أنتم تخبرون الله ﷻ بما تُبْطِنون من الإيمان في قلوبكم؟ وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، ولا مثقال ذرة كيف؟ ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سبحانه جل علاه!

ثم قال تعالى بعد ذلك مخاطبًا رسوله الكريم، ومؤدِبًا لطائفة الأعراب مرة أخرى،

---

(١) ن. الطبري وابن كثير في تفسيرهما للآية، وقد أخرج الحديث أيضًا الإمام الطبراني في الأوسط، وأبو يعلى في مسنده، والبزار.

مبينًا فساد مقالتهم، ومناقضتها لأدب العبودية، ومخالفتها لمقام الإيمان الحق: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] فالمَنُّ بالشيء - في المعاملات البشرية -: هو عطاءٌ له مصحوبًا بالتعالي والافتخار والشعور بالكبرياء على عادة ما كان للعرب في جاهليتهم من كرم تفاخري؛ حيث كانوا يفعلونه طلبًا للصيت والشهرة بين القبائل، ورغبةً في سماع الامتداح فجعل هؤلاء الأعرابُ دخولَهم في الإسلام على ذلك الوزان! وجعلوا يمنون به على رسول اللَّه ﷺ وهو أمر مخالف لطبيعة هذا الدين، ولجوهر الإيمان القائم على الذلة والعبودية، والخضوع الكامل للَّه؛ إذ المَنُّ يُخفي من حظوظِ النفس وعُجْبِهَا ومشاهدةِ أنانيتها ما يناقض فناءَها التام في طاعة اللَّه، الذي هو محضُ الإيمان، ولذلك نزل القرآن بهذا اللوم الشديد: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإنما المنتفع بالإيمان - إن صدق فيه - هو صاحبُه والمنة إنما هي للَّه أوَّلًا وآخرًا لو كانوا يعلمون.

ثم ختم الحق تبارك وتعالى السورة بآية كلية تربط آخر السورة بأولها، وتشد النطاق على موضوعها، - الدائر حول أدب التعامل مع اللَّه ورسوله ومع المؤمنين - وهي آية تتعلق بصفة عظيمة من صفات اللَّه تعالى، مما يقتضي العلم بها الخضوع التام للَّه الواحد القهار، وخوفَ مَقَامِه العظيم والتزامَ آداب السير إليه تعالى. وهي عِلْمُهُ سبحانه جميعَ أمور الغيب مما في السماوات والأرض، وما تضمنه من سائر أعمال بني آدم الظاهرة والباطنة، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨].

وعِلْمُ الغيب - بدلالته القرآنية العميقة - هو من شؤون الربوبية الخاصة باللَّه رب العالمين. وهو مما ينبغي للمؤمن أن يتخذه مسلكًا إيمانيًّا يتعرف من خلاله إلى ربه؛ حتى لا يقع في الجهل به تعالى، ولا يرتكب من سوء الأدب معه ﷻ ؛ ما قد يحبط عمله أو يبطل سعيه، والعياذ باللَّه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى خمس رسالات، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن القلب هو التربة الأساس لغرس بذرة الإيمان، فوجب تخصيبه وإعداده لذلك، تمامًا كما يعد الفلاح الأرض بالحرث والتسميد؛ لحسن تلقي البذور وتجويد الإنبات. فكمال الإيمان إنما يحصل للمؤمن بتزكية القلب، وتهييئه تخليةً وتحليةً وتغذيته بالأعمال الصالحة والأوراد الصافية؛ حتى تَحْصُل له مشاهدة حقائق الإيمان يقينًا، ويَحْصُل له الثبات الراسخ على أركانه جميعها، والتخلق الكامل بمقتضياتها كلها. ومن هنا وجبت مراجعة أحوال القلب باستمرار؛ لضمان سلامته المعنوية، وأهليته الروحية لتلقي رسالات القرآن وحقائق الإيمان.

الرسالة الثانية: في أن الإيمان المحض إنما هو فناء النفس في طاعة اللّٰه، وأن مشاهدة « الأنا » في غير موقع الفقر إليه تعالى غرور وجهل باللّٰه؛ ولذلك كان مسلك الذلة للّٰه والخضوع له رغبةً ورهبةً؛ بما يُشْعِر المؤمن بالافتقار الدائم إليه تعالى - هو طريق العارفين به سبحانه جلَّ عُلاه، المتحققين بكمال الإيمان وبمقامه العالي الرفيع فغاية الإيمان وحقيقته إذن هي جعل الإنسان في مقام العبدية الكاملة للّٰه، تحققًا بمعانيها وتَخَلقًا بأدبها. وإنما يكون ذلك بذبح شهوات النفس على عتبة العبودية للّٰه الواحد القهار، والتوجه إليه سبحانه بالطاعة في كل ما أمر خوفًا وطمعًا، ورد الفضل كله في هذا وذاك إلى اللّٰه، فمن رأى لنفسه فضيلة في طريق التعبد المحض فإنه لم يَذُقْ معنى الإيمان الحق، الذي تجلت به هذه الآيات المباركات من كتاب اللّٰه ولم يبرح بعدُ أشكالَ الرسوم العامة للإسلام إلى التحليق في فضاءاتها الواسعة والترقي بمعارِجها العالية فإنما يحصل غنى القلب بمشاهدة فقره، ويتحقق كماله بإبصار نقصه وضعفه.

الرسالة الثالثة: في أن الجهاد بالمال والنفس مصداق الإيمان الحق وبرهانه؛ لأن الجهاد ثمرة عزيزة من ثمار المجاهدة. وعلامة على انتصار النفس اللوامة على النفس الأمارة! ودلالة على هيمنة الدواء على الأدواء! واستيلاء خاطر الحق على خواطر الأهواء، فالجهاد بذل وتضحية بأعز ما يَشُحُ به ابن آدم ويحرص عليه: ماله ونفسه فإذا بلغ العبد من منازل التخلق بمقامات الإيمان أن فَنِي عن مثل هذه الحظوظ، فتلك علامة على وصوله إلى مقام الإيمان الخالص فليحمد اللّٰه على توفيق اللّٰه وإلا فدونه طريق طويل من المجاهدات.

الرسالة الرابعة: في أن للطريق إلى اللّٰه أدبًا خاصًا، مَنْ جهله عوقب بالحرمان من

الوصول فليس الدين مجرد أعمال، بل هو أعمال وآداب وكثيرًا ما تتوقف صحة الأعمال وقبولها على تلك الآداب، وهذه تبدأ من عالم الوجدان والشعور إلى عالم الألفاظ والتعبير. إلا أن كثيرًا من المسلمين أهملوا تلك الآداب، واستصغروا شأنها في الدين مع أنه ما كان للعبد الحق إلا أن يتأدب بين يدي سيده ومولاه، وقد جاءت سورة الحجرات جامعة لكثير منها، مُجَلِّيَةً لحقائقها ومكانتها عند الله ﷻ؛ فوجب تَلَقِّيها عنه تعالى كما تلقاها أصحاب رسول الله ﷺ، فضربوا المثل الأعلى في التحقق بها سيرًا إلى اللَّه جلَّ ثناؤه؛ فكانوا بذلك أفضل الخلق في هذه الأمة إلى يوم القيامة.

وإن كلمة واحدة من سوء الأدب مع اللَّه قد تحرق رصيد العبد الإيماني كله! كما أن كلمة واحدة من الأدب الرفيع تجاه مقامه العظيم - جلَّ علاه - قد ترفعه إلى مقام الصدِّيقين ولا أدل على ذلك من حديث سيدنا رسول اللَّه ﷺ إذ قال: « **إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رِضْوَانِ اللَّه لا يُلْقِي لها بالًا، يرفعه اللَّه بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ اللَّه لا يُلْقِي لها بالًا يَهْوِي بها في جهنم** »[1] وله رواية أخرى أكثر تفصيلًا عن بلال بن الحارث المُزَني ﷛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رِضْوَانِ اللَّه ما كان يظن أن تَبْلُغَ مَا بلغت؛ يكتب اللَّه تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ اللَّه، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت؛ يكتب اللَّه له بها سخطه إلى يوم يلقاه** »[2].

الرسالة الخامسة: في أن الإيمان بالغيب والتوكل على اللَّه بمقتضاه، وتغذية القلب بحقائقه الكبرى دواء ناجع لكل ضعف أو كَلل في طريق السير إلى اللَّه، وترياق لعلل النفس وتقويتها على تزكية لطائفها، وترويضها على نبذ أنانيتها، وعلى ذبح حظوظها في طاعة اللَّه، فالغيب هو البحر الذي يضخ حقائق الإيمان موجًا يتدفق على صدر المؤمن؛ ولذلك امتدت شواطئه الفسيحة على عرض القرآن العظيم كله فوجب على المؤمن التعرض لموجه المتدفق أبدًا باللآلئ والمرجان وتلقي حقائقه التي

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مالك، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. ثم حسنه الألباني في صحيح الترغيب، بينما صححه في السلسلة الصحيحة.

تغذي القلب بجمال الأنس باللَّه، وكمال اليقين فيه جلَّ عُلاه.

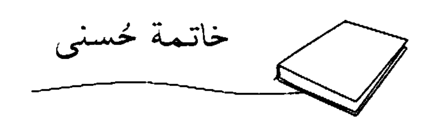
٤ - مسلك التخلق:

أما مسلك التخلق بهذه المقامات الإيمانية الرفيعة، وتحقيق النجاح في ابتلاءاتها الرسالية العظيمة؛ بما يفني « الأنا » في طاعة اللَّه، ويحلي العبد بأدب حب اللَّه، حتى لا يقوم إلا للَّه وبه فهو راجع إلى **مجاهدة النفس - في خلواتها وجلواتها - وتغذيتها بمداومة الأوراد التفكرية التالية:**

- **أولًا:** مشاهدةُ نِعَمِ اللَّه العظيمة على العبد! ومطالعة تجلياتها المادية والمعنوية، خَلْقًا وَرِزْقًا ورعاية وهداية بما يقتضي غَرَق العبد في العجز التام عن مشاهدة « أناه » الواهمة الكاذبة والخجل من النظر إلى عمله الصالح الضئيل جدًّا فيما ينبغي للَّه من حقوق إزاء نعمه العظيمة بَلْهَ النظر إلى سيئاته وذنونه الكثيرة.

- **ثانيًا:** التحقق تفكرًا وتدبرًا من معنى كون المسلم « عبدًا للَّه » وهل العبد إلا شخص مملوك، فاقد لكل معاني المِلْكِيَّة، في نفسه وماله وولده فكل ذلك ملك تام لسيده فلا حظ له في أي شيء منه ولا مقدار قِطْمِير! وإنما شأن العبد الوقوف بين يدي مولاه على عتبة الخدمة! وبمجرد شعوره بأنه قد صار يملك شيئًا فقد استزله الشيطان ويكون آنئذ قد خان سيده، وتعدَّى على سلطانه العظيم؛ فانخرمت بذلك حقيقة عبديته الخالصة فإنما الملك شأن السيد. وما العبد إلا مملوك لمولاه! واللَّه ﷻ بما هو مالك الملك، ورب العالمين سبحانه؛ هو الذي يقوم بكل شؤون عبده خلقًا ورزقًا ورعايةً وتقديرًا. فمن أدرك ذلك بقلبه يقينًا وصل ومن ثَمَّ كان في مداومة هذه المشاهدات تغذيةٌ عظيمة للروح، وتنشيطٌ لها في طريق التخلق والتحقق بمقام العبدية الكاملة، ومنزلة الإيمان الخالص.

- **ثالثًا:** مشاهدة أدب الأنبياء والصِّدِّقين الكُمَّل، وملاحظة سِيَرِهِمْ مع اللَّه، وذلك بالإكثار من مطالعة تراجمهم بدءًا بسيرة سيدنا رسول اللَّه ﷺ، وسير أصحابه الكرام، ومن لحق بهم من خيار التابعين والعلماء الربانيين. ففي مشاهدة أحوالهم تغذيةٌ للقلب عظيمة، وتقويةٌ لأجنحة الروح على التحليق نحو أبراج منازلهم العالية؛ ذلك أن القلب كلما نظر إلى القمم العالية اشتاق إلى التحليق بفضاءاتها.



خاتمة حُسنى

وبعد، ماذا أنت فاعل يا قلبي الكليل بين يدي هذه المعارج العالية الرفيعة؟ وكيف أنت متصرف إزاء هذه الرسالات القوية البليغة؟ كيف؟ وقد قامت عليك الحجة وبلغ البيان؟! قد سَبَقَ المُفَرِّدون وبلغ الصِّدِّيقُون وأنت يا قلبي - واحسرتاه! - ما تزال تلهث متعثرًا، لا تنهض لك عزيمةٌ ولا يستقيم لك سَيْرٌ! تَصْرِفُكَ الشهوات والأهواء عن مواصلة الطريق وفرصة الاستئناف على وَشْكِ الانتهاء والملائكة تستعد لطي الصحف.

أَزِفَت الآزِفَةُ يا صَاحِ وَتقَارَبَ الزمان، فالبِدَار البِدَار قبل فوات الأوان.

فأما هذه السورة، فإذا خرجتَ من امتحاناتها فائزًا بعهدين اثنين، فقد فزت بأهم مقاصدها، وتخلقت بغاية رسالاتها، ونِلْتَ أعلى مقاماتها.

فأما العهد الأول: فهو عهد الأدب مع اللّه ذلةً وافتقارًا.

وأما العهد الثاني: فهو عهد الصمت ومراقبة اللسان.

فذانك موثقان عظيمان بينك وبين ربك، يُصَدِّقُهُمَا العمل أو يكذبهما.

وتلك هي الخاتمة الكلية التي ختم اللّه بها السورة؛ إذ قال ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨].

فيا سيدي، ها أنا ذا قادم إليك، لا أحمل سوى فقري وحاجتي الشديدة إليك قد أرهقتني ذنوبي، وأثقلتني خطاياي وورثتني الآثامُ همًّا يملأني بالندم والأسى فاللّهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي، أنت ربي وأنا عبدك، ولا حول ولا قوة إلا بك، فاغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم.

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

- ولد بإقليم الرشيدية جنوب شرق المغرب سنة: (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني. كلية الآداب المحمدية. المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس. كلية الآداب الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس. كلية الآداب الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد ابن عبد اللّٰه. كلية الآداب فاس. المغرب.

- **صدر له من الدراسات العلمية:**

١ - التوحيد والوساطة في التربية الدعوية - الجزء الأول والثاني - نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة القطرية بالعددين: (٤٧، ٤٨). السنة: (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٢ - أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي. صدر ضمن منشورات الفرقان. الدار البيضاء: (١٩٩٧م).

٣ - قناديل الصلاة « كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة »، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٤ - المصطلح الأصولي عند الشاطبي (أطروحة دكتوراه) نَشْر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس. مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

٥ – الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب دراسة في التدافع الاجتماعي. منشورات الفرقان الدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٦ – بلاغ الرسالة القرآنية، ط. الأولى دار السلام بالقاهرة (١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).

٧ – سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة (منشورات ألوان مغربية. الطبعة الأولى. الرباط طوب بريس: (٢٠٠٣م).

٨ – ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى اللّٰه. مطبعة أنفوبرانت فاس. ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٩ – « مفاتح النور »، دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس. مطبعة نيسل بإستنبول، ط. أولى: (٢٠٠٤م).

١٠ – جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح. ط. الأولى دار السلام بالقاهرة (١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).

١١ – مفهوم العَالِمِيَّة. ط. الأولى دار السلام بالقاهرة (١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).

١٢ – الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب. مطبعة الكلمة مكناس المغرب. ط. الأولى: (٢٠٠٧م).

١٣ – الفطرية بعثة التجديد المقبلة: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام. ط. الأولى دار السلام بالقاهرة (١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).

ومن الأعمال الأدبية:

١ – ديوان القصائد: شعر. مطبوعات الأفق. الدار البيضاء: (١٩٩٢م).

٢ – الوعد: شعر مطبعة أنفوبرانت. فاس: (١٩٩٧م).

٣– جداول الروح: شعر. مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح. مطبعة سندي. مكناس: (١٩٩٧م).

٤– ديوان الإشارات طبع دار النجاح الجديدة. منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب: (١٩٩٩م).

٥- كشف المحجوب: رواية. مطبعة أنفوبرانت. فاس: (١٩٩٩م).

٦- آخر الفرسان، رواية. نشر دار النيل، اسطنبول: (٢٠٠٦م).

* * *



مجالس القرآن

مُدارساتٌ في رسالات الهدى المنهاجيّ
للقرآن الكريم من التلقّي إلى البلاغ

الجزءُ الثّاني

فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مُدارساتٌ في رسالاتِ الهُدى المنهاجيّ للقرآنِ الكريمِ

مِنَ التَّلقي إلى البلاغ

الجزءُ الثاني

تأليف

فريد الأنصاري

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثالثة
١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الأنصاري ، فريد.
مجالس القرآن : مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ / تأليف فريد الأنصاري . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١١م .
ج ٢ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ١٧ ٥٠٥٩ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الأخلاق الإسلامية .
أ - العنوان . ٢١٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتقاطع مع شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نعمةُ القرآن

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

بابُ القرآن

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

حقُّ القرآن

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.. ﴾ [الفرقان: ٣٠].

واجبُ القرآن

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* * *

فِهرسُ المُحتَوَيَاتِ

إهداء

إلى حُمَّالِ رِسَالَاتِ القُرآن..

السَّالِكِينَ بِهَا إلى اللَّهِ، تَعَبُّدًا وبَلَاغًا..

الْـمُكَابِدِينَ بِهَا مِحَنَ هذَا الزَّمَان!

إلى بَلَابِلِ اللَّيالِي الْـخُضْر..

الْـمُرَتِّلَةِ خَوْفَهَا ورَجَاءَهَا بِمَحَارِيبِ السَّحَر!

إلى طَلَائِعِ الْـخُيُولِ الغُبْـر..

الْـمُورِيَةِ بِسَنَابِكِهَا لَهِيبَ الفَتْحِ الْـمُبِين

سَلَامًا وأَمَانًا للعَالَـمِين!

إلى أجْيَالِ الشَّبَابِ الصَّادِقِ الْـمُؤْمِن..

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

إِلَيْكُمْ سَادَتِي.. أُهْدِي هَذِهِ اللَّوعَات..!

خادمكم المحب:

فَرِيدُ الأَنْصَارِي

* * *

مُقَدِّمَة

الحمد للَّه الذي أنزل القرآن العظيم « رُوحًا مِن أمْرِهِ » جل عُلاه! وجعله نورًا يحيي به موات القلوب! ويفرج به ظلمات الكروب! ويمسح به الخطايا، ويشفي به البلايا!

وصلى اللَّه وسلم وبارك على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا محمد النبي الأمي، الذي أرسله اللَّه رحمةً للعالمين؛ فلم يزل ﷺ - مذ أكرمه اللَّه تعالى بالنبوة الخاتمة - كوكبًا دُرِّيًّا، متوقدًا في سماء البشرية إلى يوم الدين! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وإنما أشرق نورُه عليه الصلاة والسلام بما أنعم اللَّه عليه من جلال الوحي وجماله: هذا القرآن العظيم! فكان ﷺ بذلك هُدًى للعالمين. ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ذلك هو النور..! ولكنْ أين من يرفع بصره إلى السماء..؟ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

أما بعد؛

فهذه مدارسات في القرآن الكريم، تعرض مشروع « مجالس القرآن » بصورة عملية، يرجى لها أن تجعل المؤمن يندمج في فضاء القرآن، ويتلقى آياته كلمة كلمة، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا. وهي لذلك تمثل صلب المنهاج الفطري الذي ندعو به وإليه، كما بيناه مفصلًا في كتاب « الفطرية ».

فإلى العلماء العاملين..

إلى السادة المربِّين..

إلى أهل الفضل والصلاح..

إلى دعاة الخير والفلاح..

إلى الشباب الباحثين عن وَارِدٍ من نور، يخرجهم من ظلمات هذا الزمن العصيب!..

إلى جموع التائبين، الآيبين إلى منهج الله وصراطه المستقيم..

إلى المثقلين بجراح الخطايا والذنوب مثلي! الراغبين في التطهر والتزكية.. والعودة إلى صَفِّ الله، تحت رحمة الله..

إلى الذين تفرقت بهم السبُلُ حيرةً واضطرابًا، مترددين بين هذا الاجتهاد وذاك، من مقولات الإصلاح!

إليكم أيها الأحباب أبعث « رسالات القرآن »!

إليكم سادتي أبعث قضية القرآن، والسِّرُّ كلُّ السِّرِّ في القرآن! ولكن كيف السبيل إليه؟

أليس بالقرآن وبحِكْمَةِ القرآن جعل اللهُ - تَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ - عَبْدَهُ محمدًا ابنَ عبدِ الله النبي الأمي - عليه صلوات الله وسلامه - مُعَلِّمَ البشرية وسيد ولد آدم؟ وما كان يقرأ كتابًا من قبل ولا كان يخطُّه بيمينه!

ثم أليس بالقرآن - وبالقرآن فقط! - بَعَثَ اللهُ الحياةَ في عرب الجاهلية فنقلهم من أُمَّةٍ أُمِّية ضالة؛ إلى أُمَّةٍ تمارس الشهادة على الناس كل الناس؟

ألم يكن القرآنُ في جيل القرآن مفتاحًا لعالم المُلْكِ والملكوت؟

ألم يكن هو الشفاء وهو الدواء؟ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ألم يكن هو الماء وهو الهواء لكل من كان حَيًّا - على الحقيقة - من الأحياء؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

ألم تكن تلاوته - مجرد تلاوته - من رجل قرآني بسيط تُحْدِثُ انقلابًا ربانيًّا عجيبًا، وخرقًا نورانيًّا غريبًا في أمر المُلْكِ والملكوت؟

ألم تتنزل الملائكة ليلًا مثل مصابيح الثريا لسماع القرآن من رجل منهم، بات يَتَبَتَّلُ في سكون الدُّجى، يناجي ربه بآيات من بعض سوره؟ [١].

---

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن أُسيد بن حضير ﷺ: بينما هو ليلةً يقرأ في مربده؛ إذ جالت فرسه. فقرأ =

ألم يقرأ رجل آخَرُ سورةَ الفاتحة على لَدِيغٍ من بعض قبائل العرب، اعتقله سم أفعى إلى الأرض، فلبث ينتظر حتفه في بضع دقائق، حتى إذا قُرِئَتْ عليه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ - التي يحفظها اليوم كل الأطفال! - قام كأنْ لم يكن به شيء قط؟ (١).

أليس هذا القرآن هو الذي صنع التاريخ والجغرافيا للمسلمين؛ فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف؟ وكان له هذا الرصيد الحضاري العظيم، الموغل في الوجدان الإسلامي؛ بما أعجز كل أشكال الاستعمار القديمة والجديدة عن احتوائه وهضمه! فلم تنل منه معاول الهدم وآلات التدمير بشتى أنواعها وأصنافها المادية والمعنوية، وبقي - رغم الجراح العميقة جدًّا - متماسك الوعي بذاته وهويته!

وما كانت الأمة الإسلامية قبل نزول الآيات الأولى من (سورة العلق) شيئًا مذكورًا! وإنما كان هذا القرآن فكانت هذه الأمة! وكانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أليس القرآن الذي نتلوه اليوم هو عينه القرآن الذي تلاه أولئك من قبل؟

فما الذي حدث لنا نحن أهلَ هذا الزمان إذن؟

ذلك هو السؤال! وتلك هي القضية!

= ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضًا! قال أسيد: فخشيتُ أن تطأ يحيى [يعني: ابنه الصغير] فقمت إليها، فإذا مثل الظُّلة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج [جمع سراج: وهي المصابيح] عَرجتْ في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي؛ إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: « اقرأ ابن حضير! » قال: فقرأت؛ ثم جالت أيضًا! فقال رسول الله ﷺ: « اقرأ ابن حضير! » قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: « اقرأ ابن حضير! » قال: فانصرفتُ. وكان يحيى قريبًا منها، خشيتُ أن تطأه. فرأيت مثل الظُّلة فيها أمثال السُّرج، عرجتْ في الجو حتى ما أراها! فقال رسول الله ﷺ: « تلك الملائكة كانت تستمع لك! ولو قرأت لأصبحَتْ يراها الناس، ما تستتر منهم! » رواه مسلم. وقد روى البخاري نحوه مختصرًا.

(١) عن أبي سعيد الخدري قال: نزلنا منزلًا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سليم لُدغ؛ فهل من راقٍ؟ فقام معها رجل منّا، ما كنّا نظنه يحسن رُقيةً، فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فبرأ، فأعطوه غنمًا وسقونا لبنًا. فقلنا: أكنت تحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: فقلت: لا تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ، فأتينا النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: « ما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم! »، وفي صيغة البخاري: فسألوه، فضحك، وقال: « وما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم! » متفق عليه.

لا شك أن السر كامِنٌ في منهج التعامل مع القرآن! وذلك هو سؤال العصر! وقد كتب غير واحد من أهل العلم والفضل حول إشكال: (كيف نتعامل مع القرآن؟) [١].

ولقد أجمع السابقون واللاحقون على أن المنهج إنما هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه من أمر القرآن. فمن ذا اليوم يستطيع الصبر عليه؟ وإنما هو تَلَقٍّ للقرآن آيةً آيةً، وتَلَقٍّ عن القرآن حِكْمَةً حِكْمَةً! على سبيل التخلق الوجداني، والتَّمَثُّلِ التربوي لحقائقه الإيمانية العُمُرَ كلَّه! حتى يصير القرآن في قلب المؤمن نَفَسًا طبيعيًّا، لا يتصرف إلا من خلاله، ولا ينطق إلا بحكمته! فإذا بتلاوته على نفسه وعلى من حوله غَيَّرَ تلاوة الناس، وإذا بحركته في التاريخ غير حركة الناس!

وهكذا صنع الرسول ﷺ - بما أُنْزِلَ عليه من القرآن آيةً آيةً - نَمَاذِجَ حوَّلَتْ مَجْرَى التاريخ! ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فلم تكن له وسائل ضخمة ولا أجهزة معقدة! وإنما هي شِعَابٌ بين الجبال، أو بيوتٌ بسيطة، ثم مساجدُ آمنة مطمئنة! عُمْرانُهَا: صلاةٌ ومجالسُ للقرآن! وبرامجها: تلاوةٌ وتعلمٌ وتزكية بالقرآن! بدءًا بشعاب مكة، ودار الأرقم بن أبي الأرقم، وانتهاءً بمسجد المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأولى، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام! كانت البساطة هي طابع كل شيء، وإنما العظمة كانت في القرآن، ولمن تَشَرَّبَ - بعد ذلك - روحَ القرآن!

هكذا كانت مجالسُه ﷺ ثم مجالسُ أصحابه في عهده، ومن بعده ﷺ، مجالسَ قرآنيةً، انعقدت هنا وهناك، وتناسلت بصورة طبيعية؛ لإقامة الدين في النفس وفي المجتمع معًا على السواء، وبناء النسيج الاجتماعي الإسلامي من كل الجوانب، بصورة كلية شمولية؛ بما كان من شمولية هذا القرآن، وإحاطته بكل شيء من عالم الإنسان! وذلك أمرٌ لا يحتاج إلى برهان. واقرأ إن شئت الآية المعجزة! ولكن بشرط: اقرأ وتَدَبَّرْ! تَدَبَّرْهَا طويلًا! وَقِفْ عليها مَلِيًّا! حتى بعد طَيِّ صفحات هذه الورقات! فيا أيها المؤمن السائر إلى مولاه! الباحث بكل شوق عن نوره وهداه! أَبْصِرْ بقلبك - عساك تكون من المبصرين - قولَه تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) منهم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله.

ولك أن تشاهد هذه الْمِنَّةَ العظمى من خلال عديلتها، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

نعم! هذه هي الآية، وإنها لعَلَامَةٌ وأيُّ علامة! فلا تَنْسَ الشرط!

تلك إذن كانت رسالة القرآن، وتلك كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام!

فيا أتباع محمد ﷺ! يا شباب الإسلام! ويا كهوله وشيوخه! يا رجاله ونساءه! ألم يئن الأوان بعدُ لتجديد رسالة القرآن؟ ألم يئن الأوان بعدُ لتجديد عهد القرآن؟ وإنما قضية الأمة كل قضيتها ههنا: تجديد رسالة القرآن! ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

فيا أيها الأحباب! لنعد إلى مدرسة رسول اللَّه ﷺ! لنعد إلى مدرسة القرآن! ومجالس القرآن! على منهج القرآن! صافية نقية! كما شهد عليها اللَّهُ ﷻ في جيل القرآن، لا كما تلقيناها مُشوَّهة من عصور الْمَوَاتِ في التاريخ!

هذا، وقد جعلنا سيماء هذا الكتاب بعنوان رئيس هو: (**مجالس القرآن**)، ثم ذيلناه بعنوان هامشي هو: (**مُدارَساتٌ في رِسَالاتِ الْهُدَى المنهاجي للقرآن الكريم، من التَّلَقِّي إلى البَلَاغ**)؛ وذلك لبيان أن « المجالس القرآنية » هي القضية المركزية في تجديد الاتصال بالوحي، والتلقي للهدى الرباني، وأنها المسلك الذي عليه الرهان اليوم - كما كان قديمًا - للخروج بالأمة من هذا النفق المظلم الذي تتخبط فيه! فمجالس القرآن هي سفينة النجاة إلى بَرِّ الأمان إن شاء اللَّه. إنها وسيلة وغاية في ذاتها ككثير من العبادات في الإسلام، غايةٌ يُعبد اللَّه بها ابتداءً، ووسيلةٌ إلى إصلاح النفس والمجتمع؛ ولذلك فقد اجتمع فيها الخير كله. وبما أنها هي جوهر هذا المشروع الدعوي الذي نقدمه في هذا الكتاب؛ فقد جعلنا عبارتها هي عنوانَه الرئيسَ وسِيمَاءَهُ الكبرى. وأما العنوان التابع فهو لبيان أن طبيعة هذه المجالس عبارةٌ عن مُدَارَسَاتٍ في رسالات القرآن، التي هي رسالات الهدى المنهاجي، والتي تطبع متلقيها بخلق الربانية. فالتدارس لكتاب اللَّه هو سبيل الربانية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. والربانية عندما تصبح سِمَةً

غالبة في المجتمع، فتلك هي العلامة الكبرى على تحوله الجذري، وارتقائه من جديد إلى مقام « الخيرية » الشاهدة على الناس! ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد جاء الجزء السابق من هذا الكتاب مشتملًا على قسمين:

الأول منهما: عبارة عن « مدخل إلى مجالس القرآن »، القصد منه بيان أهمية هذا المشروع الدعوي؛ بما هو منهاج قرآني صرف، يتخذ كتاب اللَّه مورده الرئيس، منه يتلقَّى نورَه وهداه، وعليه يبني قواعدَه ورُؤَاه. كما أنه موضوع منهجيًا لبيان الصورة العملية لإقامة « مجالس القرآن » بكل تفاصيلها الجزئية، بما يشبه أن يكون « دليلًا عمليًا »؛ لمساعدة من لا خبرة له سابقة في تدارس القرآن وتدبره، يشرح الخطوات المنهجية بصورة مبسطة، وسهلة؛ حتى يَعِيَها كلُّ قارئ ومستمع؛ رغبةً في تعميم الاشتغال بالقرآن، والرجوع إليه لتربية الفكر والوجدان، وتمتين نسيج المجتمع على مِنْسَجَةِ الإيمان.

والقسم الثاني: عبارة عن نموذج تطبيقي لمدارسة القرآن الكريم، من خلال بعض سوره، ومحاولة لتقديم صورة عملية لكيفية تَلَقِّي « الْهُدَى المنهاجي »، الذي تتضمنه السور المختارة من خلال آياتها وكلماتها.

فجاء هذا القسم بيانًا عمليًا لما يُرْجَى أن تسير عليه « مجالس القرآن »، من تلقي رسالات الهدى الواردة بكتاب اللَّه؛ عسى أن ينال الْجُلَسَاءُ المتدارِسون من بركات هذا القرآن خُلُقًا ربانيًا، يجعلنا وإياهم - بتوفيق اللَّه - على هُدًى من ربنا، في أمر ديننا ودعوتنا، تأسيًا بمن (كانَ خُلُقُهُ القُرآن) [1] عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولقد يسَّر اللَّه في ذلك الجزء إنجاز مدارسات لسور أربع، هي: الفاتحة، والفرقان، ويس، والحجرات. وقد كان اختيار تلك السور لحكمة تربوية، وموافقات ربانية، ذكرناها مفصلة بمحلها.

ويأتي هذا **الجزء الثاني** استكمالًا لما بدأناه هناك، وهو يشتمل على ما يسر اللَّه من **مجالس سورة « ق »، وسورة الذاريات، وسورة الطور، ثم سورة النجم،** وهي السور الأربع الموالية في ترتيب المصحف لسورة الحجرات التي وقفنا عندها في الجزء الأول.

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأما منهاج هذه المدارسات - كما سبق بيانه من قبل في الجزء الأول - فهو راجع إلى تَلَقِّي رسالات القرآن وبلاغها؛ ذلك أنا وجدنا دعوة محمد بن عبد الله ﷺ إنما قامت على هذا المنهاج. وأن الدين - كل الدين - إنما هو دائر على تَلَقِّي رسالات اللَّه والدخول تحت ابتلاءاتها تخلقًا وتحققًا. وعلى ذلك استمر الصحابة من بعده ﷺ، وعليه سار خيار التابعين وكبار الأئمة المجددين عبر التاريخ! فلا عبادة للَّه إلا بتلقي رسالاته، ولا دعوة إلى اللَّه إلا ببلاغ رسالاته، ولا تجديد لدين اللَّه إلا بتجديد التلقي لرسالاته، ولا حياة إيمانية إلا بالتخلق بحقائقها في النفس وفي المجتمع! فماذا بقي بعد ذلك من الدين خارج رسالات القرآن؟

وإنما السعيد من أكرمه اللَّه بالاشتغال بالقرآن الكريم، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا وتعليمًا! إذ ذلك هو مجمل وظائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم سيدنا رسول اللَّه ﷺ. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وتلك هي مَدَارَاتُ رسالات القرآن تَلَقِّيًا وبلاغًا! فطوبى لِعُمُرٍ عَمَرَهُ صاحبُه بهذه المعاني العظيمة! وطوبى لعبد حمل هذه الرسالة الربانية؛ فكان بذلك من « **أهل القرآن أهل اللَّه وخاصته!** » (١).

ولقد تهتُ زمنًا طويلًا في طريق البحث عن الحق في الشأن الدعوي على العموم، حتى مَنَّ اللَّه عليَّ بالْهُدَى! ولقد وجدتُ الهدى كل الهدى في كتاب اللَّه! وبمجرد أن فتح اللَّه بفضله البصيرة على القرآن اكتشفتُ أدواءَ نفسي المريضة! ففزعت من هول عللها الكثيرة وجروحها الغائرة! ووجدتُ أنني أنا المعنيُّ الأول بدعوة القرآن وأدويته! فطرقت باب الرحمن مستغيثًا: رَبَّاهُ أنا المريض فداوني! فماذا أَعَلُّ من قلبي الكليل؟ ومن ذا أَهْلَكُ من نفسي المغرورة!؟

ثم وجدت أنه لا نور للمرء إلا بإشعال فتيل قلبه بمواجيد القرآن نبضًا نبضًا! على وِزَانِ قول رسول اللَّه ﷺ: « **شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخواتُها!** » (٢)، وأن من لم يكابد حقائق

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢١٦٥).

(٢) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

القرآن لهيبًا يُحَرِّقُ باطن الإثم من نفسه فلا حظَّ له من نوره!

ورأيت أن أول ما ينبغي أن أواجهه بهذه الدعوة هو كبرياء نفسي الخفي، وغرورها الباطن! وأن أول الطريق إلى اللَّه هو تحقيق « العبدية » الخالصة له وحده جل علاه! وأن ما دون ذلك من المسالِك إنما هو مَخالِكُ ومَهالِك!

ووجدت أن تلميذ القرآن لا يكون « أستاذًا » أو « زعيمًا » أبدًا! [1]؛ فالقرآن العظيم كلام اللَّه رب العالمين، وما كان للمتلقي الحق عنه إلا أن يكون عبدًا! وإنها لنعمة عظمى أن يبقى المؤمن حياته كلها تلميذًا بين يدي ربه الكريم تقدست أسماؤه! وذلك أول خُلُقٍ سيدنا رسول اللَّه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « **آكُلُ كمَا يأكلُ العبدُ، وأجلس كما يجلس العبدُ!** » [2].

ووجدتُ هذه التجربة الروحية مؤلمة جدًّا! فقد كانت النفس مغرورة بتُرَّهات « علم الكلام الحركي! » وكانت حُجُبُهَا من ذلك كثيفة جدًّا، وكانت جراحاتها بسببه عميقة جدًّا! فما أصعب الانتقال بالنفس من « أنَاهَا » إلى « فَنَاهَا »!

وما وَجَدَ رسولُ اللَّه ﷺ نجاته إلا في الاعتصام برسالات ربه بلاغًا! وهو صريح قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣] فأدى بلاغَ كلمات ربه ﷺ وبلَّغ على أتمِّ ما يكون البلاغ؛ استجابة لأمره العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ومن هنا جاء الثناء الرباني الكريم نورًا خالدًا يحلي الربانيين ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وما أن أبصرتُ هذه الحقيقة الجميلة والمؤلمة في الوقت نفسه؛ حتى اكتشفت هول ما ضيعت من العمر خارج مدار رسالات القرآن! وحجم ما خسرت من السير خارج فَلَكِ نور الإيمان!

---

(١) المقصود هنا الأستاذية المنتفخة بداء الغرور! والزعامة المتورمة بمرض الكبرياء!

(٢) رواه ابن سعد، وأبو يعلى، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة.

وشاهدت بعد ذلك معنى قول رسول اللّه عليه الصلاة والسلام في دعائه الكريم: « **أسألك أن تجعل القرآنَ رَبِيعَ قلبي!** »[(١)]، والرَّبِيعُ في العربية: هو جدول الماء المتدفق على البطاح والسهول! فما أجمله وما أجَلَّهُ من دعاء! فأن يكون « القرآن ربيع القلب! » معناه: أن يكون القرآن هو نبع الماء الصافي المتدفق الرقراق، الذي يسقي الروحَ بنور اللّه! فماذا يبقى بعد ذلك بهذا القلب من الهم والغم؟ وماذا يبقى به من الدَّرَنِ والضلال؟ أو من الأوجاع والأدواء؟ ولذلك كانت تتمة الدعاء هكذا: « **ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي!** »[(٢)].

ومن هنا لم يعد لنا من مورد في التلقي لرسالات اللّه سوى كتاب اللّه. وقد يسَّر اللّه أن صارت لنا مجالس مع القرآن الكريم في بعض المساجد، ومجالس أخرى مع بعض الأحبة من أشياخنا وإخوتنا في اللّه، ممن أكرمنا اللّه بمدارسة بعض سور القرآن وآيه بمعيتهم، فكانت هذه التقييدات التي يرجع الفضل فيها - بعد اللّه - إلى ما أكرمنا اللّه به من إشاراتهم وعباراتهم، فما كان مني إلا أن جمعت ما يسر اللّه جمعه في هذه الورقات من « **رسالات القرآن** »، فبعثنا بها إلى كافة المؤمنين؛ عسى أن تعم حكمةُ القرآن العظيم، فتمسي سُرُجًا تنير طريق السالكين، وعسى أن يتم التنبيه على منهاجه الدعوي الكريم. فطوبى لمؤمن مخلص للّه، أكرمه اللّه بحمل رسالات اللّه، أخذًا من كتاب اللّه؛ فأَحْسَنَ التَّلَقِّي وتَفَانَى في البَلاغ! ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللّه.

وأما طريقة عرض مادة هذه الرسالات فهي قائمة على المنهج التالي:

أولًا: تقديم، وذلك بتقديم السورة المقصودة بالمدارسة تقديمًا كليًّا، يلخص قضيتها، ويعرِّف بشخصيتها.

---

(١) مختصر من حديث رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى. وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٥٢٨).

(٢) والنص الكامل للحديث هو: عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ما أصابَ أحدًا قَطُّ هَمٌّ ولا حزنٌ فقال: اللّهم إني عَبْدُكَ وابْنُ عبدِك وابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤكَ، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ بِه في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي! إلَّا أذهبَ اللّهُ همَّه وحزنه، وأبدله مكانَه فَرَجًا! » قال: فقيل: يا رسول اللّه ألا نتعلمها؟ فقال: « بلَى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها! ».

ثانيًا: **المجالس**؛ حيث يتم تقسيم السورة إلى مجموعة من « المجالس » مرقمة بشكل ترتيبي. وجعل كل « مجلس » مقتصرًا على مجموعة من الآيات، مما يشكل وحدة متكاملة في ذاته من جهة؛ ومما يمكن استيعاب رسالاته في مجلس واحد من جهة أخرى، أي مما تطيق الفطرة البشرية تلقيه من الرسالات القرآنية والحقائق الإيمانية تخلقًا وتحققًا في مجلس واحد! على نحو ما كان ينزل من الآيات مُنَجَّمًا - في عهد الرسالة - على قلب رسول الله ﷺ.

ثالثًا: **كلمات الابتلاء**، وقد سمينا مجموع الآيات التي هي موضوع الدرس: « كلمات الابتلاء »؛ باعتبار أن القرآن الكريم كلام الله، وأن آياته من « كلماته » جل علاه، بما لهذا اللفظ في القرآن من عمق دلالي يرتبط بمعاني السَّعة والشمول من جهة، كما هو واضح من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقوله سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

ثم بما لعبارة « الكلمات » - من جهة أخرى - من ارتباط بحقائق الابتلاء للإنسان المتلقي لها! « فكلمات الله » المنزلة هي حقائق الابتلاء، ومعاني التكليف التعبدي بهذا الدين، في العقائد والعبادات والتصرفات؛ ومن هنا كانت مقتضياتها ثقيلة: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] وعلى هذا جاء قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]. فقد كانت الكلمات التي تلقاها إبراهيم عليه السلام هي الابتلاءات الإيمانية التي امتُحن بها وكان من الفائزين الكُمَّل! كما كانت الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي عبارات التوبة وحقائقها الوجدانية؛ فكان من المسارعين إلى ربه تائبًا إليه منيبًا! ومن هنا كان القرآن كله « كلمات » أي آيات للعمل والتطبيق، وحقائق للابتلاء والتكليف! لا مجرد كلام للقص أو التأريخ! بل هو عمل وامتحان! والناس إزاءه بين مُتِمٍّ لكلماته أو مُقَارِبٍ أو خَائِنٍ! إذ كل كلمة من كلمات الله إنما تُتَلَقَّى رسالتُها من هذا القرآن، من خلال الدخول في ابتلاءاتها

تخلقًا وتحققًا. ولا يتم ذلك للنفس إلا بمكابدة ومجاهدة! ومن هنا ثقل الابتلاء التربوي بهذا القرآن!

وقد كابد الرسول ﷺ تلقي القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة! وكابد معه أصحابه - رضوان الله عليهم - مكابدة؛ حتى تحققوا من « مَعِيَّتِهِ الإيمانية » ﷺ خُلُقًا ربانيًا رفيعًا! وبهذه السيماء مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم في القرآن، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يكن القرآن في حياة الرسول وصحبه مجرد مرجع قانوني، ولا مجرد توثيق للأخبار والحقائق التاريخية، ولا مجرد قص لإشباع فضول المعرفة البشرية! كلَّا! كلَّا! بل كان كتابَ الله الكامل الشامل، الحامل رسالاته إلى الناس أجمعين؛ ابتلاءً لهم بحقائقها قولًا وعملًا، ومنهاجَ حياة يسلكونه في الأرض، على مستوى كل نفس في نفسها خاصة، وعلى مستوى الاجتماع العمراني البشري عامة، على سبيل التعبد، توحيدًا وتفريدًا لله الواحد القهار! ودون ذلك ما دونه من ثقل الأمانة وشدة وقعها على النفس! ومن ثَمَّ لم يكن من السهل على الإنسان أن يتلقى رسالات هذا القرآن جملة واحدة! بل كان من رحمة الله بالعباد أن نزَّله عليهم عبر رسالات تترى، الواحدة تلو الأخرى، آيات آيات: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] وذلك حتى يكون لكل كلمة أثرها الفعلي في الأرض، على مستوى الممارسة البشرية والتنفيذ التعبدي! وهو معنى « الكلمات ». فمن استجاب لابتلائها كانت له صِفَةً وخُلُقًا، ومن خانها لم يكن منها ولا كانت منه في شيء! وعلى هذا المعنى جاء قولُ عائشة رضي الله عنها في حق رسول الله ﷺ: « كانَ خُلُقُهُ القرآن! » (١). وبذلك المنهاج الرباني العظيم تم بناء المجتمع الإسلامي الأول، على عهد سيدنا محمد ﷺ.

ذلك هو القرآن وتلك هي كلماته! ومن رام الاشتغال بدعوته خارج هذه الحقيقة المنهاجية العظمى فقد رام المحال!

---

(١) رواه مسلم.

رابعًا: البيان العام: بعد عرض كلمات المجلس للتلاوة والتدبر، نورد خلاصة تفسيرية تحت عنوان: « البيان العام ». والمقصود بالبيان العام ههنا: عرض خلاصة ما قاله المفسرون في الآيات موضوع الدرس، وما مَنَّ اللَّه به إزاءها من معان. وذلك بمنهج يرمي إلى التلخيص والتيسير، دون الإغراق في الجدل الكلامي أو الاستطراد اللغوي أو التفريع الفقهي، إلا ما دعت إليه ضرورة البيان؛ إذ الهدف إنما هو تلقي الحقائق الإيمانية والرسالات القرآنية قصد تيسير العمل بها.

خامسًا: الْهُدَى المنهاجي: إذا تم ذلك انتقلنا إلى عرض ما يسر اللَّه تَلَقِّيهِ من الْهُدَى الوارد في تلك الآيات. وذلك من خلال تخصيص فقرة من تصميم الدراسة تحت عنوان: « الْهُدَى المنهاجي » [1]. والمقصود بالهدى المنهاجي: هو ما تحصل للقلب من الكلمات المتلوة - بعد التدبر - من رسالات منهاجية، توضح خطوات السير القلبي إلى اللَّه دينًا ودعوة، تعرفًا إليه وتعريفًا به تعالى، وتبين مسلك بناء الشخصية الإسلامية في كل ما يلزمها من معانٍ تعبدية وعمرانية، مما جاء هذا القرآن لبنائه في الإنسان فردًا وجماعةً، في طريق إخراج الأمة المسلمة. ومن هنا فإننا نعمد إلى تقسيم حقائق « الهدى المنهاجي » إلى مجموعة من « الرسالات »، نعرضها الواحدة تلو الأخرى تحت عناوين مستقلة؛ تيسيرًا أيضًا لتلقي أحكامها وحِكَمِهَا. فكل رسالة تشكل في نفسها ابتلاءً عمليًا، أو خطوة إيمانية من خطوات إصلاح النفس، ومدرجًا من مدارج الترقي بمعارج القرآن، سيرًا إلى اللَّه تعالى رَغَبًا ورَهَبًا [2].

سادسًا: مَسْلَكُ التَّخَلُّق: ثم نُعَرِّجُ في آخر كل مجلس على بيان المسلك العملي للدخول في تلك الحقائق الإيمانية جميعًا، والمنهاج التطبيقي الميسر الذي يُمَكِّنُ القلب من التخلق بما تَلَقَّى من رسالات الهدى. فجعلنا ذلك - بعد عرض « الرسالات » - في فقرة خاصة، تحت عنوان: « مَسْلَك التخلق ». وهكذا نمضي حتى نهاية السورة.

سابعًا: خاتمة: حتى إذا كان المجلس الخاتم جعلنا بعده مباشرة « خاتمة »، ترجع على

---

(١) هو من اصطلاح أستاذنا - وأستاذ الأجيال - الدكتور الشاهد البوشيخي رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليمًا ودعوةً.

(٢) إيرادنا للرسالات المستنبطة من الهدى المنهاجي لا يعني الحصر طبعًا! بل استنباط المزيد من رسالات الهدى بابه مفتوح إلى يوم القيامة؛ لأن كلمات اللَّه ﷻ لا يحدها حد!

أهم حقائق السورة المدروسة بالتذكير، مع النظر في علاقتها بالنفس تحقيقًا وتقويمًا.

وبهذا وذاك نرجو أن يتم للمؤمن « تَلَقِّي » حقائق القرآن؛ إذ التلقي للآيات هو غير التلاوة التبركية العامة، بل هو أعمق من ذلك! إنه تفاعل وجداني مع حقائقها الإيمانية، ودخول فعلي تحت ابتلاءاتها الربانية! بما يُخْضِعُ النفسَ لمشارطها ومقارضها تشذيبًا وتهذيبًا! فهي بذلك إذن تَخضع لعمليات جراحية روحية، تستأصل زوائد الأمراض وخبائثها من أعماق القلب؛ تخليصًا له من أهوائه الضالة وعاداته الفاسدة! عسى أن يخرج بذلك عن داعية هواه، فيكون عبدًا خالصًا للّٰه!

ومن هنا فمَنْ تحقق بتلقي كلمات اللّٰه من القرآن؛ فقد تحقق بأهم مفتاح من مفاتح القرآن! وإنما يُنال ذلك كله بشرطين، **أولهما**: الصبر على المكابدة، **وثانيهما**: إخلاص قصد السير إلى اللّٰه! وإنه ليسيرٌ على من يسَّره اللّٰه له وأكرمه بِهُدَاه! ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اللَّهُمَّ مغفرتُك أوسعُ من ذنوبي، ورحمتُك أَرْجَى عندي من عملي!

وصلى اللّٰه وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد للّٰه رب العالمين.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

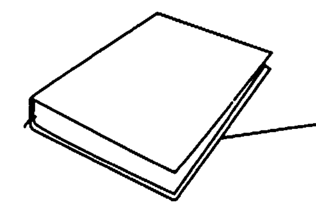
من التلقي إلى البلاغ

المدارسات القرآنية

٥ - سُورَة قٓ

وهي مكية، وعدد آياتها (٤٥)

وهي تتضمن ثلاثة مجالس





أما هذه السورة فهي سورة الآخرة..! بل إنها من أعظم سور اليوم الآخر في القرآن الكريم، الركن الأعظم من أركان الإيمان، بعد ركن الإيمان بالله.

إن سورة « ق » هي فاتحة سور « المفصَّلِ » على القول الراجح [١]، وهي بموضوعها الأخروي الخالص، كأنها تنبئ عن الطبيعة الغالبة على هذا الفصل الأخير من كتاب الله، بما امتاز به من تقرير عقيدة البعث والنشور، وإلقاء النُّذُرِ الشديدة والوعد الوعيد وزلزلة النفس الإنسانية، وإيقاظها بقوة على حقيقة المصير البشري، وفناء الوجود كله، والكشف عن مشاهد جليلة من شؤون الربوبية، وعظمة الله الواحد القهار، وقدرته الخارقة على الخلق، وعلى إعادة الخلق؛ بما يعقد النفس على اليقين القاطع بحقيقة يوم القيامة!

إن سور المفصَّلِ - من سورة « ق » إلى سورة الناس، خاتمة الكتاب - بما لها من خصوصيات تعبيرية، وجمل قصيرة قوية، محملة بذخيرة حية شديدة، هي أشبه ما تكون بشهب ملائكية، أو مُذَنَّباتٍ نارية، تقع من السماء فتقصف ظلمات الشك والريب في النفس الإنسانية، وتدمر حصون الجحود والإلحاد، وتحطم نظريات الكفر بالله واليوم الآخر تحطيمًا!

ولقد كانت سورة « ق » بافتتاحها للمفصل تعبر عن وحدته الموضوعية، وتنبئ

---

(١) اختلف المفسرون في مبتدأ قسم « المفصَّلِ » من القرآن الكريم، بين من يجعله من سورة « ق » ومن يجعله من سورة « الحجرات »، والراجح - إن شاء الله - ما ذكرناه أعلاه؛ لما ورد في ذلك من الآثار؛ ولِمَا لسورة « ق » من خصائص موضوعية وتعبيرية، تنطبق في الغالب الأعم على طبيعة سور المفصل، ذات الوقع الترهيبي، والنذير الأخروي. وهو ما رجحه العلامة ابن كثير رحمه الله، وإن كان مستنده في ذلك إنما هو حديث ضعيف. ونصه: عن أَوْسٍ الثقفي قال: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ وَحْدَهُ!. رواه أبو داود وابن ماجه. وضعفه الألباني وغيره، كما في ضعيف سنني أبي داود وابن ماجه. وبتطبيق هذه الأعداد على سور القرآن مُرَتَّبَةً تكون سورة « ق » أول المفصل. ن. تفسير سورة « ق » عند ابن كثير.

عن محوره الرئيس، الذي تدور حوله جميع فروعه وقضاياه الجزئية، سواء كانت في العقيدة أو التشريع أو القصص.. فمهما كان من هذا وذاك؛ فسورة « ق » تشير إلى أن طبيعة المفصل أخروية خالصة، وكل ما اندرج في سوره من آيات إنما هو يخدم هذه الحقيقة العظمى: الآخرة! بل لك أن تقول: إن حزب المفصل من القرآن الكريم هو كتاب الآخرة! ولذلك كان السلف - رضوان اللّه عنهم - يجعلونه - بجميع ما تضمن من أحزاب وأجزاء - حزبًا واحدًا، ويسمونه « حزب المفصل »! كما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ [1]. وفي الصحيح أن بعض الصحابة كان يسميه: « المحكم »، فَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جَمَعْتُ الْمُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمُحْكَمُ؟، قَالَ: الْمُفَصَّلُ! [2]، وذلك لدورانه في الغالب على محكمات القرآن العقدية، وأركان الإيمان جميعًا [3].

إلا أن اصطلاح « المفصَّل » هو الذي جرى به الاستعمال عند غالب أهل العلم، وأصل ذلك حديث أقسام القرآن، الذي يرويه وَاثِلَةُ بْنُ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث جعل النبي ﷺ سورَ المفصلِ كلَّها قسمًا واحدًا، قال ﷺ: « **أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ!** » [4].

ومن هنا جاءت سورة « ق » - باعتبارها فاتحة المفصل كما ذكرنا - تحمل كل خصائصه التعبيرية والموضوعية؛ حيث إن الموضوع الرئيس الذي تدور حوله السورة، إنما هو تقرير عقيدة البعث، وإثبات حقيقة الحشر، وعرض مشهد النشور، والوقوف بين يدي اللّه يوم القيامة، وما يتعلق بذلك كله من ثواب وعقاب!

إلا أن تقرير ذلك فيها وارد على وجه متفرد في القرآن كله! بما وقع فيها من استعراض مظاهر الرهبة والجلال، من عظمة اللّه رب العالمين، خلقًا للسماوات والأرض

---

(١) ن. تفسير ابن كثير لأول السورة.
(٢) رواه البخاري.
(٣) ربما سمى بعضهم « المفصل » أيضًا باسم: « العربي »، كما يرويه الطبري في مقدمة تفسيره عن خالد الحذَّاء (١/١٠٠). ولم أجد لهذه التسمية وجهًا ولا تفسيرًا يخص المفصَّل بهذا اللفظ، فكل القرآن عربي!
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، بينما حسَّنه في السلسلة الصحيحة. وحسنه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند. كما صحح الشيخ أحمد شاكر أحد سنديه في تفسير الطبري. ن. مقدمة الطبري لتفسيره (١/١٠٠).

وما فيهما من حياة، وإحاطةً بما خلق من ذلك كله، تقديرًا وتدبيرًا ومصيرًا..! وسيطرته الكاملة على كل شيء، ورقابته الصارمة الشديدة على خلقه؛ بما يجعل هذا الإنسان المخاطَب بالتكليف، واقعًا في قبضته ﷻ ، خاضعًا لسلطانه تعالى، محاصرًا من كل جهاته بشمول علمه، ودقة رقابته، خطوةً خطوةً، ولفظةً لفظةً، إلى أن يمثل بين يدي ربه العظيم الذي خلقه فأماته ثم بعثه!

ومن ثم كان وصف الخالقية في ذات الله ﷻ يضرب في هذه السورة ببروق شديدة؛ ليكشف بقوة عن هذه الحقيقة العظمى، الحقيقة التي غفل عنها العالَم: البعث بعد الموت، وخروج الناس مرة أخرى من العدم إلى الوجود؛ حشرًا لهم إلى ساحة الحساب، لتلقي الجزاء خيرًا أو شَرًّا!

إن حديث القرآن عن الآخرة كثير.. ولكل حديث من ذلك جلالُه وجمالُه.. لكنَّ لسورة « ق » من تلك النصوص جميعها خصوصًا! إنها تجعل الإنسان يعيش لحظة البعث بكل كيانه ووجدانه، وترحل بالمتلقي لها في الزمن الآتي؛ حتى تضعه على شفير قبره! فإذا به ينهض مع الناهضين، أشعث أغبر..! يسكنه الذعر ويملؤه الرَّهَب! ويبصر الخليقةَ حواليه وهي تخرج من قبورها هنا وهناك.. ملايين الملايين من الأجداث تلفظ أصحابها! مبعثرة في كل مكان من الأرض، بعضها يلتصق ببعض، وبعضها فوق بعض! يخرجون منها سراعًا، وقد نبتت أجسادهم من تربتها كما ينبت البقل! ثم ينطلقون إلى ربهم عراة كما خلقهم أول مرة!

ويندفع الإنسان في سورة « ق » مع السيل البشري الكبير، يمضي في طريقه إلى اللَّه، معه سائق وشهيد! وليس له من محامٍ أو نصير، سوى الفقر الكامل إلى الله الواحد القهار..!

ويتجلى المِلِكُ العظيم للفصل بين العباد، فيشاهد العبد من جلال الربوبية ما تقشَعِرُ له الأبدان! بل ما تصعق له الأنفس ويَنْهَدُّ له الكيان!.. فتتكلم الأعمال والأنفس والشهود والقرناء! ثم يضرب سيف العدل الإلهي ضربتَه القاضية! فَيُلْقَى أهلُ جهنم في سعيرها، ويُسْتَقْبَلُ أهلُ الجنة بالخير والسلام!

إن سورة « ق » طرقٌ شديد على القلب البشري، طرقٌ يوقظه على مشاهد فقره وعجزه، وحاجته الشديدة إلى رحمة ربه! طرق يزلزل أركانه، ويهز كيانه، ليشاهد

قدرة اللّٰه عليه، وإحصاءَه لدقائق قوله وفعله، وتحكمه في موته وحياته، وفي جميع مآله ومصيره!.. إنها سورة تلطم الإنسان لطمات قوية! ليستيقظ من غفوته فيشاهد سرعة فناء هذه الحياة الدنيا! عساه يبادر إلى تلافي أعماله وأقواله، بالإصلاح والتقويم، ويدخل مسرعًا تحت رِبْقِ العبودية للّٰه رب العالمين، مبادرًا بالتوبة النصوح، قبل نداء ﴿ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝ ﴾.

هذا، وإنَّ حق هذه السورة أن تُدرس كاملة في مجلس واحد؛ لأنها - من أولها إلى آخرها - نبأ واحد، وحقيقة واحدة: الآخرة! ولولا خشية طول المجلس لجعلناها كذلك، وإنما غاية التقسيم تيسير التلقي، وما التوفيق إلا باللّٰه..

فإلى مجالس السورة:

المجلس الأول

في مقام التلقي لحقيقة البعث، وأنها فرع عن صفة الخالقية
وأن جحودها إنما هو إنكار لأعظم حقائق الربوبية!

١ - كلمات الابتلاء:

قال اللّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ
ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥
أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨
وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ
نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ ﴾.

٢ - البيان العام:

ق..! قاف..! بهذا الحرف القوي الشديد افتتح اللّه ﷻ سورة « ق »! وفي ذلك ما فيه من التنبيه القوي على القضية المركزية لهذه السورة: حقيقة البعث بعد الموت، والنشور ليوم الحساب! وقد بينّا في مناسبة سابقة طبيعة الأحرف الافتتاحية لبعض سور القرآن.. وما تشير إليه - بغموضها المقصود - من عمق غيبي لهذا القرآن.. عمق لا طاقة للعقل البشري على استيعابه، وإنما له وعليه أن يتلقى ما كلف به من ظاهر هذا الخطاب الإلهي العظيم!.. ومن ذا قدير على تلقي كلام اللّه؟

وعلى قدر ما يحدثه التلفظ بحرف القاف هكذا مفردًا، وما يثيره في النفس من فزع وانتباه عالٍ كبير؛ يستيقظ القلب ويلقي السمع ليشهد ماذا وراء هذا الغموض المخيف؟ وقبل الجواب يردف الخطاب قسمًا إلهيًا عظيمًا بهذا القرآن نفسه، بما له من مجدٍ عالٍ رفيع عند الله ﷻ ! فيقول تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ ﴾ فتكتسب القاف الافتتاحية - بهذا السياق - معنى القسم أيضًا! [١]، فيثقل وقعها في النفس أكثر وأكثر؛ بما يجعل النفس تترقب خائفةً ماذا وراءها؟ وماذا وراء القسم بهذا القرآن المجيد؟ وماذا يحمل أنباء ونُذُرٍ؟ فيأتي الجواب شديدًا رهيبًا، على ما هُيِّئَتْ له النفس بهذه الافتتاحية القوية: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝ ﴾ صحيح أن هذه الآية ليست بجواب، لكنها بما تحمله من دلالة على إنكار الكفار لنذارة الرسول ﷺ دلت على أن المقسم عليه معنى محذوف - لدلالة السياق عليه - هو إثبات ما ينكره هؤلاء الكافرون! تقديره: « إن البعث ليوم الحساب لحق! » أو « إن نذارة محمد ﷺ بهذه الحقيقة الرهيبة لحق! » أو « إن إعادة خلق الخلق بعد اندثار رميمهم في التراب، وبعثهم أحياء من جديد ليوم القيامة، لأمر واقع لا ريب فيه! » [٢] بل لك أن تقول إن المقسم عليه هو كل ما تثبته هذه السورة من حقائق أخروية بإطلاق، من أولها إلى آخرها، مما لخصناه مركزًا في مقدمتها!

ولهذا وذاك وصف الله - جل ثناؤه - هذا القرآن الذي يحمل خبر البعث والنشور بأنه « مجيد »! ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ فالمجد في اللغة: الشرف، والعظمة، والعلو، والسؤدد، والأصل الكريم. قال ابن منظور: (مَجَدَ [الرَّجُلُ] يَمْجُدُ مَجْدًا، فهو مَاجِدٌ. ومَجُدَ - بالضم - مَجَادَةً، فهو مَجِيدٌ. وتَمَجَّدَ. والْمَجْدُ: كَرَمُ فِعَالِهِ. وأَمجَدَهُ ومَجَّدَهُ كلاهما: عَظَّمَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ) [٣]. فالمجيدُ إذن: صيغة مبالغة من اسم الفاعل « مَاجِد »، وهي صيغة دالة على الرسوخ في المجد الأصيل، والمحتد الكريم،

(١) مذهب الإمام فخر الدين الرازي في تفسير الأحرف الافتتاحية بالقرآن الكريم، أنها تنبيهات للسامع من جهة، وأنها مُقْسَمٌ بها من الله ﷻ على ما يذكر بعدها في السورة. ن. ذلك مفصلًا عنده في تفسير سورة « ق » بكتابه: « مفاتيح الغيب ».

(٢) ن. مفاتيح الغيب للرازي، وفتح القدير للشوكاني، والتحرير والتنوير لابن عاشور.

(٣) لسان العرب، مادة: « مجد ».

والشرف العريق، والغنى الوافر. ومن ثم كان مَثَلُ الأماجد في الناس كَمَثَلِ معدن الذهب بالنسبة إلى سائر الأحجار!

أما مَجَادَةُ القرآن فهي بمعنى شرف منزلته، وربانية طبيعته، ونَفَاسَةِ معدنه، وعلو أصله، وعظمة شأنه، وهيمنة حقائقه، فهو الذي يعلو ولا يُعْلَى عليه! إنه كلام اللَّه رب العالمين! تكلم به - سبحانه - في الأزل من فوق سبع سماوات! فضمنه حقائق الخلق والتكوين، وخارطة القضاء والقدر، مما كان وما سيكون! وقصة خلق الإنسان من يوم خلقه إلى يوم موته، إلى يوم البعث والنشور! فهذا القرآن الناطق بهذه الحقيقة الكونية الكبرى قرآن مجيد مجيد..! ويكفيه مجدًا أنه كلامُ اللَّهِ المجيدِ ﷻ ! وأي شيء أَرْفَعُ قَدْرًا، وأعزُّ منزلةً من كلامٍ مسطور عند رب العزة في اللوح المحفوظ، هناك فوق السماوات العُلَى؟

ووصف القرآن بالمجد، على هذه صيغة المبالغة القوية: « المجيد » - على ما بينا لها من معنى - سيف مشهور في وجه كل من يريد التشكيك في حقائق القرآن، أو الحطَّ من قَدْرِهِ وقَدْرِ مصدره الإلهي المجيد!

ويقسم الرب المجيد بكتابه المجيد.. يقسم لعباده أجمعين على سبيل النذارة والترهيب، وإقامة الحجة على الكافرين، بما لا يدع مجالًا للشك ولا للتردد؛ على أن البعث بعد الموت، وإعادة الخلق لرميم الأجساد، حقيقة كونية لا ريب فيها! ينطق بها هذا القرآن ويَضْمَنُهَا بمجده وشرفه! ويعرضها واضحةً على أنها إرادة اللَّه الواقعة بقضائِه وقَدَرِهِ، حتمًا لا رجعة فيه! ولكن الكافرين - بما تلبس بهم من هوى شيطاني وكبرياء جاهلي - لا يؤمنون، ولا يصدقون بهذه الحقائق الكونية العظمى! رغم أن كل شيء حولهم من السماوات والأرض وما فيهما؛ ينطق بهذه الحقائق والنُّذُرِ! لقد كانت حجتهم - وما تزال - من التفاهة والسذاجة بمكان! ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ ﴾ بمعنى: بَلْ أعماهم عن مشاهدة هذه الحقيقة الصارخة أنهم استهانوا بشخص محمد رسول اللَّه ﷺ، واستبعدوا قدرته على معرفة حقائقَ مثل هذه! بل استبعدوا قصة النبوة وأنكروا حقيقة تلقي الوحي من أصلها! مُتَّهِمين إيَّاه بالجنون، حاشاه ﷺ! والتجديف بكلام يرونه ضربًا من الخرافات والأساطِير! فإنما هو رجلٌ منهم، أي بشر مثلهم، وكان يتصورون

أن الله لا يرسل إلى الناس بشرًا مثلهم وإنما يرسل مَلَكًا! كما جاء في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

وهم بعد هذا كانوا يعرفون محمدًا ﷺ شابًا يتيمًا يرعى الغنم لقريش على قَرَارِيطَ! فأنَّى له أن يأتي بمثل هذه الأنباء!؟ كيف وهو الرجل الأمي الذي لم يقرأ كتابًا ولا خطَّه بيمينه؟ أما أن يقول: إنه تلقى الوحي من السماء ويكلمه مَلَكٌ عظيم؛ فهو ما لم يصدقوه! رغم ما يعرفونه يقينًا من صدق محمد الأمين!

وإنما هو الكبر الجاهلي، الاستعلائي الطاغوتي، يمنعهم من تصديق محمد رسول الله ﷺ! فقد كان أولئك الكبراء من زعماء قريش وشيوخها، يخشون أن يفقدوا مصالحهم الشخصية، المبنية على استغلال النفوذ الرئاسي لقبائل العرب؛ بما كان لهم من زعامة الدين الوثني وتمجيد أصنام بعينها، والسيطرة على البيت العتيق بمكة! وتوظيفه لهذه الأغراض الخسيسة جميعًا! فأن تنتقل رئاسة العرب منهم إلى رجل فقير منهم، لا مال له ولا ولد؛ فذلك ما لم يطيقوه! بل ذلك ما حاربوه بقوة، وضربوا عليه الحصار، ومارسوا على أصحابه شتى صنوف التعذيب والتنكيل! ولهذا وذاك رفضت قريش عقيدة البعث والنشور من أصلها؛ لقطع الطريق أمام كل دعوة إلى التوحيد ونبذ الأصنام، ومواجهة كل ما من شأنه أن يزلزل عروش سيطرتهم على قبائل العرب وأعرابها!

ولم تزل عروش الطغاة عبر التاريخ إلى عصرنا هذا، تخشى عقيدة البعث والنشور بصورتها القرآنية؛ فينكرونها كليًا أو جزئيًا، أو يوجهونها حسب أهوائهم، ويحرفون حقائقها؛ بما يضمن لهم السيطرة الغاشمة على البلاد والعباد، ويؤمن لهم سلامة مصالحهم الاستكبارية الخبيثة!

ولذلك لما أنذر رسول الله ﷺ أسلافهم بخطر اليوم الآخر، تعجَّبوا منه ومن خبره! وعَجِبُوا من أمره تعجيبًا، على سبيل التهكم والسخرية والتكذيب! وكأنهم يتساءلون تساؤل جحود وإنكار: كيف لرجل أمي مثل هذا، أن يتحدث في أمر

ضاقت عن استيعابه عقولهم: بعث الأجساد بعد الموت! كيف؟ وقد بليت في قبورها عبر آلاف القرون حتى صارت رميمًا! بل صارت عدمًا في عدم! أنَّى لها أن تَحْيَى من جديد؟ هذا شيء عجيب! ذلك قولهم: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ ﴾ والرَّجْعُ: العَوْدُ، أي العود إلى الحياة بعد الموت، ورجوع الأجساد إلى أصل خلقتها من بعد رَمِّهَا وبِلَاهَا.. ذلك ما لم تُطِقْهُ عقولهم الضيقة ولم تشاهِدْه أبصارهم المحجوبة؛ فاستبعدوه وأنكروه! ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ ﴾.

ومن ثم جاء جواب رب العزة ﷻ قويًا حاسمًا قاطعًا لكل جدل عقيم! قال سبحانه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝ ﴾ أي أنه ﷻ قد عَلِمَ بمقتضى ربوبيته - وهو العليم الخبير - ما تنقص الأرضُ منهم، بمعنى ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت، وما يتناثر فيها من لحومهم وعظامهم، وجلودهم وأشعارهم وأحشائهم، وما يتفرق من ذلك بعد طول البِلَى ويندثر في ذرات التراب! فالله ﷻ لا يغيب عنه شيء من ذلك، بل ذلك هو محض قَدَرِهِ وتكوينه، وحلقة من حلقات تدبيره لشؤونه ملكه وملكوته، خلقًا وإماتةً، ثم بعثًا ونشورًا! كل شيء من ذلك عند الله في كتاب حفيظ، أودع الله فيه خريطة الغيب، وتفاصيل القضاء والقدر، قد عَلِمَ كلَّ ذرة أين ضلت وأين تاهت! ولا يضل ربي ولا ينسى! ولا يعجزه شيء في السماوات والأرض، سبحانه! فإنما أمره إذا أراد خلق الإنسان - أي إنسان - أن يقول له: « كن فيكون! ».

وهذه الحقيقة الكونية العظمى أقوى من أن تكذبها العقول، أو تنكرها القلوب.. بل هي الحق الذي تهتز له النفس الإنسانية، وتستجيب له الفطرة السليمة! وما كان تكذيب المكذبين إلا عنادًا ومكابرةً وبغيًا في الأرض بغير الحق! ولذلك قال تعالى بَعْدُ مباشرةً: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ ﴾ والأمرُ الْـمَرِيجُ: الأمر المختلط المضطرب والشيء المتردد المحيِّر، من « الْـمَرْجِ » وهو: التداخل والاختلاط والفساد. بمعنى إنهم في حيرة من أمرهم أيستجيبون لفطرتهم فَيَقْبَلُونَ الحق الذي يعرفونه، أم يستجيبون لأهوائهم فينكرون ويجحدون؟ ولقد غلبت عليهم أهواؤهم وشقوتهم فكفروا وجحدوا.. فلم يزالوا في مَرَجٍ من أمرهم وحيرة قاتلة! إذ لم يقم لهم دليل سليم ولا حجة مقاربة؛ لما هم فيه من العمى والضلال، ولا جرى لهم شيء

من ذلك على استقامة واطراد! بل كل كلامهم المنكر للحق مضطرب متناقض!

إنهم يشعرون بالبؤس في أعماق أنفسهم؛ إذ لا يستطيعون إنكار قدرة اللَّه - وهو الرب الخالق للكون كله - على فعل أي شيء. والمنطق العقلي البسيط يقرر أن البادئ للشيء قادر على إعادة فعله من باب أولى! واللَّه ﷻ يستوي عنده البدء والإعادة، لا يزيده فعل الأمر قدرةً على قدرته، على مقتضى منطق التجريب البشري! كلَّا كلَّا! بل قدرته تعالى كاملةٌ مطلقةٌ قبل فعل الفعل، وقبل إعادته! تمامًا كما كان - سبحانه - خالقًا قبل وجود المخلوق، ومَلِكًا مَالِكًا قبل وجود المملوك، ورحيمًا قبل وجود المرحوم، ورازقًا قبل وجود المرزوق، وهاديًا قبل وجود المهدي... إلخ! كذلك يُعَرِّفُ هذا القرآنُ المجيدُ ربَّ العزة ﷻ .

ومع ذلك كله فقد أرشد اللَّه - جل ثناؤه - الإنسانَ إلى النظر في بديع صنع اللَّه، من خلق السماء والأرض، وما جعل فيهما من آيات وعجائب، وما تزخران به من جمال وجلال؛ بما يبهر القلوب ويبهت العقول، وبما يقطع كل شك في قدرة اللَّه الخارقة، على الخلق وإعادته، وعلى كل شيء مما لا طاقة للعقل البشري حتى على مجرد تصوره وتخيله! ومن ثم فقد رد على الكفار بالبعث بهذا السؤال الإنكاري الشديد، الناعي عليهم جمود فكرهم، وعمى أبصارهم، وبلادة حِسِّهم؛ إذ هم لا يبصرون قدرة اللَّه المتجلية للأبصار البصيرة في معارض مُلْكِهِ، ومشاهد خلقه، ودقة صنعه! وهو ما يبتدئ في السورة من قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝﴾.. وهذا تنبيه للعقول كي تنظر إلى خلق السماء وما فيها من نجوم وكواكب.. ولا شك أن علم الفلك المعاصر وما أحرزه من كشوفات في طبقات السماء الدنيا وأفلاكها، يزيد المتدبر انبهارًا بهذا القرآن المجيد من جهة، وما فيه من إشارات دقيقة إلى كثير من الحقائق العلمية المكتشفة أخيرًا، ويفتح الفكر والبصر - من جهة ثانية - على مشاهدة دقة صنع اللَّه وعظمته؛ بما يجعل العقل المتواضع للَّه يسجد لخالقه ويخضع للَّه الواحد القهار! ولا يحيل أبدًا أن يكون الرب العظيم الخالق لهذا العالم السماوي المركب من الأجرام والأفلاك الممتد في المجهول قادرًا على هدمه وإعادة خلقه متى يريد، وذلك هو معنى يوم القيامة ومعنى البعث والنشور..!

والتعبير بفعل « البناء » في خلق السماء دالٌّ على إحكام التركيب لطبقاتها الفضائية، والتوازن الدقيق لأفلاكها، والانتظام البديع لمداراتها ونجومها وكواكبها، وجميع منظوماتها الشمسية ومجرّاتها؛ بما يجعلها مثل قصر بديع محكم المعمار، مزين بفسيفساء مختلفة الأشكال الهندسية والألوان المشعة، لكنها في مجموعها تشكل نسقًا واحدًا لا اختلال فيه ولا اضطراب! وأما التعبير بالتزيين في هذا السياق فهو أمر مشاهد بالعين المجردة، سواء في الليالي الحالكة ذات النجوم المتشابكة الوميض، أو الليالي المقمرة ذات الحسن المتدفق نحو الأرض، أو في النهار ذي الزرقة الصافية والضياء البهيج، بدءًا من ساعة انفلاق الفجر إلى لحظة شروق الشمس، مرورًا عبر جميع منازل النهار حتى لحظة الأصيل ثم الغروب! وسواء غامت السماء أم صحت؛ وسواء أمطرت أم أمسكت؛ فهي في كل ذلك تفيض بالبهاء والجمال، أحوالًا وألوانًا وأشكالًا!

ويتحدث علماء الفلك اليوم عن ثقوب حدثت في طبقات الجو؛ بسبب التصرفات الطائشة للإنسان، وما تفرزه مصانعه وقنابله من غازات ضارة، أدت إلى خروم وخدوش في الأغلفة الفضائية الحامية للبيئة الأرضية! فأدى ذلك إلى اضطرابات شتى في الحياة الحيوانية والإنسانية في الأرض، وإلى اختلالات شتى في موازين الحرارة وهيجان الأعاصير واضطراب البحار.. إلخ. ورغم أن مدارساتنا هذه لم توضع لهذا الغرض، إلا أننا نقتبس من الشروح العلمية المعاصرة حقائق تعيننا على تدبر كلمات اللَّه، فاقرأ ذلك كله ثم تدبر قوله تعالى ههنا: ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ ﴾ والفروج: الشقوق والثقوب! تدرك أن يد اللَّه ﷻ قد أتقنت كل شيء صنعًا، وأن يد الإنسان كلما تدخلت في شيء من أمره من غير إذنه تعالى إلا أفسدته وخربته؛ بما يعود عليها هي نفسها بالهلاك والدمار! وما الأعاصير الرهيبة، الضاربة لكثير من القارات اليوم، إلا رد فعل غاضب من السماء على تدخل الإنسان في بنائها بالإفساد والتخريب!

ويلفت التنبيه القرآني النظر البشري بعد ذلك إلى جمال خلق اللَّه للأرض وما عليها.. ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ والـمَـدُّ: البسط والتوسيع والتذليل.. كذلك هي الأرض بالنسبة لكل من يسكنها من إنسان وحيوان. ورغم أن الأرض كروية الشكل - كما أشار إليه القرآن في غير ما آية -

إلا أنها بالنسبة للإنسان ممدودة منبسطة، تمتد سهولها، وجبالها، وأنهارها، وبحارها، كلها بين يديه لينة متذللة! فيزرع سهولها وجبالها ويسخر أنهارها وبحارها فيما ينفعه وينفع عمرانه! وللرواسي - وهي الجبال - وظيفة أخرى هي التثبيت والترسية. فهي أوتاد الأرض التي تحفظ توازنها في نفسها وفي مدارها؛ بما يطمئن الحياة البشرية على الأرض. وتنفتق التربة بالنباتات والأشجار، وتنبت من كل زوج بهيج أي من كل نوع بهي يفيض بهجة وجمالًا، فترى الخضرة تتدفق على درجات مختلفة من البهاء والنور، فإذا أزهرت الأغصان أو أثمرت، كان لجناتها من البهجة والحبور ما يغري أجناس الأطيار وممالك النحل بعمرانها بالتغريد والتفريد! ولا تكاد بهجة الحقول والبساتين مما خلق اللّٰه وأحيا تقف عند حد تجليات شتى تجعل المتأمل يغرق في بحار جمالها الخلاب! نباتات وأشجارًا تملأ السهول والوديان والهضاب والجبال؛ معبرة عن أن يد اللّٰه ما تزال ترعى كوكب الأرض بالعناية والرعاية والتدبير، عبر كل المنازل والفصول..! عسى أن تستيقظ القلوب على مشاهد أنوار الأسماء الحسنى وآثارها البهية على مرايا الأرض في كل مكان.. فإنما جعل اللّٰهُ ذلك كلَّه ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ والتَّبْصِرَةُ: الموعظةُ الْمُبَصِّرَةُ للقلوب، والدالة لها على آياتِ اللّٰه المرسومة على كل شيء. والذِّكْرَى: الموعظةُ الْمُذَكِّرَةُ للقلوب، أي المفكِّرَةُ لها عند الغفلة والنسيان. والمعنى أن ما ورد من آيات كونية في خلق السماء والأرض، تبصير وتذكير للإنسان، وتنبيه قوي له وبيان لتجليات الرحمة الإلهية على العالمين؛ بما يجعله يدرك أن الرب الذي خلق هذا العالم لم يهمله ولم يغب عنه سبحانه.. بل هو إله حي قيوم، يدبر أمر مملكته ويرعى شؤونها.. وعسى ذلك أن يجعله ينيب إلى خالقه ويدخل تحت ربق عبوديته طوعًا كما هو داخل تحته كرهًا! فإنما العبد المنيب: هو المؤمن الرجَّاع إلى اللّٰه، المسارع إلى طاعته، والتحقق من مقام عبوديته؛ كلما تبصَّر أو تذكَّر.

وبعد استثمار هذه الموعظة العميقة من التنبيه إلى جمال الخلق وبديع الصنع، وذكر ما ينبغي لها من آثار على النفس الإنسانية؛ انتقل الخطاب القرآني إلى عرض مشاهد أخرى من أسرار الحياة والإحياء على وجه الأرض، وما لذلك من ارتباط وثيق بحقيقة البعث والنشور، وأن القدرة المحيية للنبات في دورات متوالية قريبة هي نفسها القدرة المحيية للإنسان بين دورتين: دورة الخلق الأول ثم دورة البعث الآخر.

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝ ﴾.

فمن ألطف الإشارات التي تنبثق عن حركة الأمطار، ومشاهد الرحمة المتنزلة بالغيث، فوق الروابي والمزارع والديار، بما لها من مقدمات الغيوم والرياح، ثم بما يتبعها من صَيِّبٍ نافعٍ، وقَطْرٍ مبارك كريم، متردد بين وَابِلٍ وطَلٍّ، وفي فعل التنزيل المضعَّف هذا ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ إشارة لطيفة إلى حركة الغيث المترسلة، ونزوله فترة بعد فترة حسب الحاجة وأوقات المنفعة؛ بما لا يكون فيه ضرر على الفلاحات والعمران؛ ولذلك وصفه الرحمن بـ « المبارك »، والماءُ المبارك يحيي ولا يقتل، وينفع ولا يضر..!

ثم إن اللَّه – جل ثناؤه – وصف ماء السماء بالبركة هنا أيضًا؛ بسبب ما يكون له من آثار في خروج النبات من تحت الأرض، ونمو الزروع والأشجار، وكل ما يرجو الإنسان حصاده من الخيرات والبركات، من مثل حب الحصيد، وهو القمح وما في معناه من أنواع الزروع والحبوب المدخرة، مما ينبني عليه قوت الإنسان. ثم ما يكون من اخضرار الروابي والبساتين والجنات ذات الخمائل والثمار والأطيار.. ويخص الرحمن أشجار النخيل بالذكر لما لها من جمال أخَّاذ وثمر كريم من جهة، ولما للتمر من قيمة غذائية لا تكاد تضاهى، ثم لأن التمر كان هو فاكهة العرب الأولى وما يزال. والباسقات من النخيل هن الطوال الشاهقات، الضاربات بطولهن في السماء! مترفعات في عزهن بما أخرج اللَّه منهن من طلع نضيد. والطلع هو عراجين النخل بعد بزوغها من أكمامها مباشرة، وقبل انتثار أزرارها، حيث تكون براعيمها الصغيرة آنئذ ما تزال منتظمة بدقة متناهية كانتظام حبات الرمان تحت غشائها، أو كانتظام عيون الشهد المختوم، قبل نزع غلائله الرطبة!

وإنها لمشاهد خارقة الجمال حقًّا! إنك إذ ترى الزروع والثمار، والبساتين الغناء، والنخل الباسقات تلفحك الأشواق التي حلقت بتلك الأغصان عاليًا، وارتفعت بذلك السعف الأخضر الجميل وهو يحتضن أثداء الطلع النضيد، متطلعًا بجوانحه نحو السماء وكأنما هو يعتزم التحليق إلى الأفق الأعلى! وإنك لترى الأشجار فعلًا تتطلع بأغصانها وأكمامها إلى خالقها العظيم!

ثم.. ثم تثقل العراجين بثمارها شيئًا فشيئًا حتى تتدلى نحو الأرض خاشعة!

وكأنما هي أم تحنو على طفلها الرضيع بأثدائها العامرة! وتتدلى التمور والثمار نحو الأرض؛ رزقًا للعباد! تلك هي قصة الماء المبارك، وتلك هي دورة الحياة التي يصرِّفها الرحمن ما بين السماء والأرض؛ فيحيي به الأرض بعد موتها! ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ... ﴾ فترقص فرحة الحياة في العمران، ويخضر الأمل في القلوب، من بعد يأس وقنوط!

إن المتفكر ليرى يد الخالق العظيم حاضرة خلف ستار حركة الكون، فهو تعالى يدبر أمر مملكته، ويرعى شؤون خلقه، ويسوق لهم الأرزاق ويفجر من حولهم أنهار الحياة! وأنت تلحظ أن الأفعال كلها في الآيات السابقة مسندة إلى فاعل واحد هو اللَّه رب العالمين، وأن التعبير فيها جميعًا واقع بضمير المتكلم « نَا » الدال على الحضور القوي! (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا... وَأَلْقَيْنَا فِيهَا... وَأَنْبَتْنَا فِيهَا... وَنَزَّلْنَا... فَأَنْبَتْنَا بِهِ... وَأَحْيَيْنَا..) فهذا الفاعل العظيم الحاضر القوي، المستوي على عرشه يدبر أمر مملكته؛ بما يشاهد الإنسان آثاره حواليه قوية متدفقة بالحياة، هو نفسه سبحانه إذ يعرض تلك المشاهد كلها يقول لنا: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ تمامًا كما ينبت الزرعُ ويولد الطَّلْعُ؛ يخرج الإنسان من تحت التراب كالشجرة الخضراء ليوم النشور..!

ومن أعجب الأحاديث الواصفة لحركة البعث والنشور، ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَا بَين النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ!** - قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ! قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ! قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ! - **ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ! قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى؛ إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ! مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** »(١). قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: (وَكَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَة لَمْ يَسْمَعهَا إلا مُجْمَلَةً؛ فَلِهَذَا قَالَ لِمَنْ عَيَّنَهَا لَهُ: « أَبَيْتُ! ») بمعنى: امتنعت عن بيان المعدود، أهو أربعون يومًا، أم أربعون شهرًا، أم أربعون سنة؟ لأنني هكذا سمعته من النبي ﷺ مجملًا من غير تفصيل.

ولا عبرة عندنا بذلك ههنا، وإنما العبرة هي بقوله ﷺ: « **ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ**

---

(١) متفق عليه.

مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ! » وهو المفسِّر بدقة لما نحن فيه من قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ وهو تشبيه من الدقة بمكان! لأن الإنسان يصير بعد الموت إلى ذرة صغيرة، هي البذرة الدقيقة التي سوف يُسْتَنْبَتُ منها مرة أخرى! وهي ذرة كامنة في عَجْبِ الذَّنَبِ كما في الحديث المذكور. وعجب الذنب هو الفقرة السفلية الأخيرة من العمود الفقري البشري، التي هي موضع الذيل من الحيوانات ذوات الذيول! والذرة الكامنة هناك هي من الصغر والدقة بحيث لا تكاد تُرَى بالعين المجردة! ومع ذلك فهي تحتوي على كافة الأسرار الوراثية والتكوينية لكل إنسان في بدنه! تمامًا كانطواء شجرة اللوز أو شجرة الجوز كلها في نواتها الصغيرة! ففي هذه النواة الصغيرة تكمن جميع العناصر التي منها تتكون شجرتها؛ كالجذور، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار..! فكذلك ذرة عَجْبِ الذنَب في الإنسان! ولذلك فهي لا تبلى ولا تفنى أبدًا! إنها ذرة غير قابلة للتدمير، ولا للتخريب، ولا للاحتراق، ولا لأي نوع من أنواع الفناء والإفناء!

ويعود الخطاب القرآني إلى أصل السياق، من الحديث عن منكري البعث والنشور، في زمن النبي ﷺ وما بعده إلى يوم القيامة؛ ليذكرهم جميعًا بأيام اللّه وسُنَّتِهِ في الذين خلوا من قبل من الكفرة والمكذبين! فكانت النتيجة أن اللّه أهلكهم وتَبَّرَهُمْ، وقطعَ دابرهم في الدنيا! ثم جعلهم حطبًا للجحيم في الآخرة! ذلك وعيد اللّه ونذيره الذي لا تتخلف سُنَّتُهُ على ما رتبه اللّه في كتابه ومحكم وحيه! قال ﷻ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ فهذه كلمات قلائل اختصرت مصارع قرون عديدة من الأمم والشعوب!

فأما قوم نوح فقد أهلكهم اللّه بالطوفان المشهور. وأما أصحابُ الرَّسِّ فهم: بقيةٌ من ثمود - وقيل: من غيرهم - قَتَلُوا نبيهم وألقوه في بئر لهم، على ما ذهب إليه جمهور المفسرين. والرَّسُّ في العربية: الحفرةُ عمومًا، والبئرُ المبنية بالحجارة. تقولُ: رَسَسْتُ رَسًّا، بمعنى: حفرتُ بئرًا. ورُسَّ الميّتُ: قُبِرَ ودُفِنَ [١]. وقد أهلك اللّه ﷻ

---

(١) ن. الصحاح، ولسان العرب: مادة « رسس ».

أصحابَ الرَّسِّ وتَبَّرَهُمْ تتبيرًا، كما هو مذكور بإجمال في سورة الفرقان [١].

وثمود هم قوم نبي الله صالح ﷺ الذين عقروا الناقة المعجزة، وكذَّبوا رسولهم وسخروا منه؛ فأهلكهم الله بالرجفة وبالصيحة! وأما عَادٌ فهم قوم نبي الله هود ﷺ كفروا به؛ فأهلكهم الله بالريح الصَّرْصَرِ ذات الإعصار المدمر! وأما فرعون هنا فهو طاغية مصر المشهور، عدو موسى ﷺ، وقد أغرقه الله وجنوده في اليم! وأما « إخوان لوط » فهم سكان مدينة سَدُومَ، وهم أصحاب الفاحشة الشاذة! وقد أهلكهم الله بالخسف، والقذف بحجارة مدمرة، أرسلتها عليهم الملائكة من السماء!

وأما أصحاب الأيكة - بمعنى أصحاب الشجرة - فهم قوم نبي الله شعيب ﷺ، كانوا بِمَدْيَنَ، وكانت قريتهم محاطة بالأيك، أي الأشجار والبساتين، فسُمُّوا بذلك. ثم كفروا نِعَمَ الله عليهم، وكذَّبوا نبيَّهم، فأهلكهم الله بعذابِ يومِ الظُّلَّةِ! والظُّلَّةُ: غمامة سوداء التهبت عليهم بإعصار فيه نار فأحرقتهم أجمعين! وقد جمع الله عليهم من العذاب - بسبب تماديهم في الطغيان وتحدِّيهم لرب العالمين - الرجفةَ، والصيحةَ، ونارَ الظلة؛ فأهلكهم بذلك جميعًا! [٢].

وأما قومُ تُبَّعٍ فهم أصحابُ تُبَّعٍ ملك اليمن، واسمه: تُبَّانُ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبَ الحِمْيَرِيُّ مَلِكُ اليَمَنِ. وتُبَّعٌ لَقَبٌ لسلسلةٍ من ملوك اليمن، وهم التَّبَابِعَةُ. وهم من نسل سَبَأٍ جَدِّ القبائل اليمنية. عاش تُبَّانُ أَسْعَدُ قبلَ الإسلام، وقد كان على دين إبراهيم حنيفًا، بينما كان قومه على عبادة الأوثان، وقد ثبت في حقه حديثٌ صحيح، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ! » [٣].

ولم يزل تُبَّعٌ هذا يدعو قومَه إلى الإسلام؛ حتى أسلم من أسلم منهم وكفر من كفر، لكنه لما مات ارتدوا جميعًا على أدبارهم إلا قليلًا منهم، فكفروا بأنعم الله مما أفاء عليهم من الجنات والبساتين والثمار، وعادوا إلى عبادة الأوثان من جديد؛

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨، ٣٩].

(٢) ن. تفسير ابن كثير: الآية (٩٤) من سورة هود.

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة (٥/٥٤٨)، وقصة تُبَّع هذا مفصلة في كتب السِّيَرِ، مثل سيرة ابن هشام (١/١٩ - ٢٦)، وسيرة ابن كثير (١/١٨ - ٢١).

فأرسل اللَّه عليهم هلاكًا شاملًا، بما دمر عليهم من سد مأرب! (١).

فكل هذه الأمم والشعوب اشتركت في جريمة الجحود والتكذيب؛ فاشتركت بسبب ذلك في نتيجتها! وهي التعرض لنقمة اللَّه وعذابه من الهلاك والتدمير! وإن اختلفت الصور والتجليات! لكن السُّنة واحدة! وهي قوله تعالى ههنا: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ ﴾ أي وقع وَعِيدُ اللَّه ونذيره الذي حَقَّ على هؤلاء وأولئك جميعًا ووجب عليهم؛ فوقع بهم العذاب على وفق ما أنذرهم اللَّه وأوعدهم؛ لما وقعوا في السبب المحذور!

وبعد عرض هذا الوعيد الشديد، بما ذكر - مجملًا - من مصارع القوم، تنبيهًا على سنة الانتقام الإلهي من كل جبار عنيد، سواء كان من الملوك، أو المدائن، أو الأمم والشعوب؛ رجع الخطاب - في ختام هذه الفقرة - إلى محاجة الكفرة، من منكري البعث والنشور، منبهًا بقوة من خلال سؤال إنكاري إلى قدرة اللَّه على الخلق الأول، وكيف أن الكفر يلبس على أهله فلا يبصرون إمكانية الخلق الجديد، والتكوين الثاني؛ بالقياس على الخلق الأول! وهو بسيط جارٍ على أوضح الأقيسة وأظهرها، ألَا وهو قياس الأَوْلَى! لكن هوى الجحود والإنكار يعمي البصائر عن مشاهدة الحق! وتقع القلوب في لبسٍ وحيرةٍ واختلاطٍ واضطرابٍ في تصورها واستدلاله وكذلك هي نظريات الكفر والإلحاد عبر التاريخ! قال ﷻ: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾ فوجود هذا العالم المخلوق على سعته وشساعته، وعمق امتداده؛ بما لا طاقة لخيال الإنسان على حصره؛ كله دال على أن الذي لم يَعْيَ ولم يعجز عن

---

(١) ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ - بعد بحث مستفيضٍ في الروايات التاريخية - أن تُبَّعًا هذا قد أسلم على دين موسى، وذلك قبل بعثة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنه حج البيت الحرام، وكَسَا الكعبة. ولا خلاف، فدين موسى هو دين إبراهيم، قبل انحراف بني إسرائيل عنه. فلما عاد تُبَّعٌ إلى اليمن أسلم قومُه على يديه، بعد تردد شديد ونكوص. لكنه لما مات عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وعبادة الأصنام والنار! فأرسل اللَّه عليهم سَيْلَ العَرِمِ - وهو سَدُّ مَأْرِبَ - وشرد الذين بقوا أحياء منهم، هائمين على وجوههم في الصحاري والقفار! كما هو مذكور في قصة سبأ! ن. تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦]. والعَرِمُ: جمع عَرِمَةٍ، وهي السُّدَّةُ المبنية لحصر الماء. فلما حطمها اللَّه تدفق عليهم ماء السد العظيم فأهلكهم وشردهم!

خلق هذا العجب العجاب من الكائنات، وهذا الكم الهائل من المخلوقات، بشتى أنواعها وأحجامها ودقائقها؛ هو على خلقها مرة أخرى - بعد إفنائها - أقدر وأحرى! ففيم الإنكار للبعث بعد الموت إذن؟ إن الكفر منطقٌ متهافتٌ متناقض حقًّا! ولذلك قال سبحانه: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾ واللبس: الحجب والتعمية؛ بسبب ما يقع في القلب من الشك والحيرة والاضطراب. وأي لبس أعظم من عدم إبصار هذه الحقيقة الصارخة، التي تنطق بها المخلوقات بشتى أنواعها؟ وكيف يعمى أحد عن هذا المنطق القرآني الواضح العميق؟ قال تعالى في سورة الروم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

ألَا وإنه لا يبصر طرفًا من الخلق الأول، ثم يشك في قدرة اللّٰه على الخلق الثاني إلا أعمى حقًّا! ذلك، وإنما هُدَى اللّٰه هو الهدى! ثبتنا اللّٰه وإياكم على نوره وصراطه المستقيم، وزادنا من فضله هدًى على هدًى، وجعلنا من الشاكرين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات التالية:

الرسالة الأولى: في أن الحقائق المكنونة في القرآن المجيد، صادرة عن غيب مجيد، ببيان مجيد! ومن ثم فإنه من المهم جدًّا أن لا يغفل المؤمن - وهو يتلو كتاب اللّٰه أو يتدارسه - عن أنه كلام متنزلٌ من عالم المجد الأعلى، هناك في اللوح المحفوظ! وأنَّ به أسرارَ ذلك العالم مما بث اللّٰه فيه من حقائق ومقادير أزلية، ترسم طريق السالكين إلى اللّٰه في الأرض! وأنه ما ورد عبدٌ ربيعَ نورِه المجيد، إلا كان من الواصلين الماجدين في الدنيا والآخرة!

الرسالة الثانية: في أن نبأ البعث بعد الموت وخبر النشور والجزاء، هو أعظم خبر في القرآن المجيد! وبذلك جاء النذير..! وعلى هذا مدار الوعد والوعيد في كتاب اللّٰه. كما أن كل قضايا القرآن العقدية، وكذا قضاياه التشريعية، سواء في العبادات أو المعاملات، كلها منوطة بالمصير الأخروي ومنضبطة إليه. ومن ثم وجب على المؤمن أن يجعله نصب عينيه في كل عمله. كما أن على الداعية أن يجعله مرجع خطابه، وحادي دعوته، سواء عند التعريف باللّٰه وبحقوقه، أو عند الدعوة إلى التزام شرع اللّٰه فيما شرع من حقوق عباده.

الرسالة الثالثة: في أن من أهم المسالك المعرفة بالله راجعة إلى فتح نظر الروح؛ لمشاهدة علمه المحيط، وقدرته العظيمة، ومشاهدة هيمنتهما على كل شيء، ومعرفة جميع ما علَّمَنا ﷻ من صفاته، وأسمائه الحسنى.. وأنه ما من ذرة من ذرات الخلق البشري والكوني، إلا وهي محصاة بالكتاب الإمام، الضابط لكل شيء في السماوات والأرض، مما كان وما سيكون إلى يوم القيامة! وأنه لا يقوم إيمان امرئ حتى يؤمن بذلك؛ لأنما هو راجع إلى الإيمان بالقَدَرِ، وهو ركن من أركان الإيمان، وأصل من أصوله الكبرى. وقد أوصى الصحابيُّ الجليلُ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ ﷺ ابنه بكلمات من حديث رسول الله ﷺ قال: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ! قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ!..** » يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي!** »(١).

ذلك قَبَسٌ من نور قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝ ﴾ وإنه لباب من أبواب العلم بالله عظيم!

الرسالة الرابعة: في أن الكفر ظلامٌ أعمى!.. ذلك أن التكذيب بنبأ القرآن المجيد، والتشكيك في قدرة الله ﷻ على الخلق والإحياء، والبعث والنشور، هو أكبر الضلال! فالكفر مهما بلغ من علم الكونيات والطبيعيات، فإنه لا يتعرض لتفسير حقائقهما المصيرية – بما يناقض حقائق القرآن – إلا ويصاب بالاضطراب والاختلال، ويدخل في متاهات الخَرْصِ، ومَرْجِ التأويل والتحليل! ولن تزال نظريات الكفر والإلحاد – باختلاف مذاهبها واتجاهاتها – في أمر مَرِيجٍ؛ إلى أن تتحطم تحت أهوال القيامة!

الرسالة الخامسة: في أن النظر إلى خلق السماوات والأرض بعين الإيمان، يصقل مرآة القلب والعقل؛ فتستقيم معطيات البحث العلمي المادي المعاصر، وتجد راحتها في النسق الإيماني المنتظم على موازين القرآن. وإن المؤمن ليرى آنئذ بهذا المنظار

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير، والطيالسي في مسنده. ومعناه مروي عن ابن عباس أيضًا. وصححه الألباني في تحقيق سنني الترمذي وأبي داود، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع الصغير.

القرآني النافذ، ثم بما عنده من معطيات علمية - ولو كانت قليلة - حقائقَ الكون منتظمةً في صف الصلاة، راكعة للّه وساجدة! بما يشوقه إلى الإنابة إلى ربه، ويغمره بالحنين إلى عبادته.. وإنه بذلك أيضًا ليرى من عجاب الخلق ما لا يراه المتخصص العليم، المتضلع بكثير من المعادلات الدقيقة والمفاهيم الغامضة! وماذا أعجب من أن يسمع المؤمنُ البسيطُ هديلَ الحمام؛ فيقرؤه تسبيحًا وتوحيدًا؟ ولا يَرَى أو لا يُخْبَرُ عن شيء من عجائب المخلوقات، مما كَبُر أو صغُر؛ إلا شاهد موقعه من مسجد الكون الكبير!.. لكن الكفر مهما تحقق به من الكشوفات والمعطيات نظرٌ أعمى!

الرسالة السادسة: في أن الحركة الجارية في الكون هي من أهم ما ينبغي للمؤمن رصده والتفكر فيه؛ لأن الحركة ظاهرة الدلالة على القوة الْـمُحَرِّكَةِ! فمشاهدة حركة الرياح، وحركة المطر، وحركة الفَلَكِ، وحركة الزمان، وحركة الشروق والغروب، وحركة الإنبات اللطيفة، وحركة النمو الخفية، سواء في الإنسان أو الحيوان أو النبات.. إلخ؛ كل ذلك يكشف - لمن تفكر فيه - عن حضور التدبير الإلهي لشؤون الخلق، وأن اللّه - جل ثناؤه - لا يُهمل من مخلوقاته شيئًا على الإطلاق!.. وفي ذلك من الأنس باللّه، والشعور بمعيته تعالى؛ ما يملأ القلبَ إيمانًا، وطمأنينةً، وسكينةً، وفرحًا عظيمًا باللّه!

الرسالة السابعة: في أن دورة النبات وتقلبها بين فصولها الأربعة، وحركة المطر، والنظر في جميع مراحل الخلق والتكوين للزروع والأشجار، وما تمرُّ به من أحوال التخلق والنمو، إلى أن تزهر وتثمر، ثم تُحصد أو تُجنى، ثم تُزرع من جديد.. وكذا مشهد الأشجار؛ إذ تنفض أوراقَها الميتة، ثم تتبرعم بأغصانها وُرَيْقَاتٌ جديدة، وتتفتح بها أزهارٌ جديدة.. إلخ؛ كل ذلك مهم جدًّا في معرفة حقيقة الإنسان، ومشاهدة تطورات مسيرته الوجودية، منذ اللحظات الأولى لخلقه، من ضعفه إلى أَشُدِّهِ، إلى نكوصه نحو ضعفه مرة أخرى، وذبوله تمامًا كما تذبل الشجرة! إلى لحظة موته، ثم بعثه من جديد..! فسبحان اللّه، واللّه أكبر!

الرسالة الثامنة: في أن التكذيب بحقائق الإيمان جريمةٌ تستحق عقاب اللّه ﷻ! وأن سنة اللّه الجارية في الاجتماع البشري، أنه ما من أمة تواطأت على الكفر، والتنكر لحقوق اللّه؛ إلا أذاقها اللّه نكدًا وشقاءً، هنا في الدنيا قبل الآخرة! ولعذاب الآخرة أشد! عافانا اللّه وإياكم من عذابه وسوء عقابه!

ولا يغرنك ما عليه كثيرٌ من دول الكفر من رفاهية دنيوية، ورخاء مادي! فإنما هو بريقٌ خادع! ولمعان كاذب! ولو عشت معيشتهم لوجدت أنها هي الشقاء بعينه! إنهم عبيدٌ لشهواتهم، يكرعون في بحرها الآسن، يشربون ويشربون ثم لا يرتوون!.. ثم ينتحرون! وما ظنك بقوم تمردوا على اللَّه خالقهم؟

٤ - مسلك التخلق:

الْخُلُقُ المطلوب بهذا المسلك هو التحقق باكتساب بصيرة الإيمان! البصيرة المتحلية برهافة الحس، وأذواق الروح، والنظر القلبي النافذ، المشاهِد لتجليات شؤون الربوبية، في خَلْقِ العالم وتدبيره، والمشاهِد لتجليات الأسماء الحسنى، فيما نراه يوميًّا من حركة الفَلَكِ المحيط بنا، ودورات الفصول والأمطار!

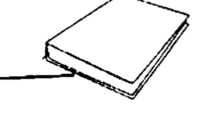
ويكون التحقق بهذه البصيرة خُلُقًا ثابتًا بإذن اللَّه؛ بتدريب القلب على عمل لطيف، هو سر من أسرار الإيمان! وذلك بأن يداوم المؤمن على تأمل مناظر الخلق، بعين التائب إلى اللَّه المنيب إليه، ويشحن نظرَه إليها بعواطف الشوق إلى الخالق العظيم! فإنه عندئذ تتحول تلك المَشَاهِدُ في قلبه إلى ما يشبه الدعاء؛ فتتجلى عليه في لحظة الصفاء والإخلاص أسرارُها الربانية؛ وتبدي له من جمال الأسماء الحسنى وجلالها، ما يرقيه إلى مقام اليقين، إن شاء اللَّه! فلا يرى بعد ذلك شيئًا إلا بنور اللَّه!.. كذلك تُكتسب بصيرةُ الروح، وكذلك تُصقل عيون الإيمان! فالنظر المنيب هو كشاف الحقائق، وصَيْقَلُ البصائر، وذكرى القلوب! ولك أن تتدبر من جديد ما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾.

فاللَّهم ارزقنا صفاء البصيرة، ونقاء السريرة، وطهارة القلب! واجعلنا من عبادك المنيبين إليك!

* * *

المجلس الثاني

في مقام التلقي لحقيقةِ الإنسان العَبْدِيَّةِ،
ورحلته الموثَّقة من الدنيا إلى الآخرة،
وبيان خصامه بين يدي الله تعالى يوم القيامة
وما يترتب عن ذلك كله من جزاء..!



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كان المقطع الأول من السورة في عرض قضية البعث والنشور؛ فجاء هذا المقطع الذي هو وسط السورة وصلبها؛ ليعرض قضية الإنسان ومصيره عند ذلك البعث، وخلال ذلك النشور! فتكشف الآيات عن أهم حقيقة من حقائق خلق هذا الإنسان، وهي أنه مهما تمرد واستعلى، إنما هو مجرد عبد! عبد مربوط إلى عقاله، مقيد من

عنقه، لا يستطيع الفكاك من وثاقه، ولا الإِبَاقَ من سيده أبدًا! فهو في قبضة ربه الذي خلقه، مقهور بقدرته، مُحَاطٌ بعلمه، مراقَبٌ بملائكته، محكوم بقضائه وقدره! فذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

تلك هي العَبْدِيَّةُ التي خُلِقَ عليها الإنسان، وغفل عنها كثيرٌ من الناس، فلم يدخل تحت رِبْقِ العبودية منهم إلا قليلًا! إن الإنسان يستطيع أن يتمرد على عبوديته - ولكل تمرد حساب! - لكنه لا يستطيع أبدًا أن يتمرد على عبديته؛ لأن العبدية ببساطة هي قضاؤه وقَدَرُهُ الذي خُلِقَ به! فإنما هو عبدٌ ضعيف، يصبح رهينَ عمله، ويبيت أسير أجله! فإذا نفخ فيه الشيطان أوهمه أنه عملاقٌ جبار؛ فيطغى في الأرض..! فإذا سقط حتف أنفه تبين له أنما ذلك كان مجرد أوهام! فهذا أشد خطاب وجهه الرحمن - في هذا السياق - إلى منكري البعث والنشور، من الكفرة الفجرة.

ويتكلم الرب الجليل بنفسه عن حقيقة خلق الإنسان، مسندًا أفعال الربوبية وصفاتها العظمى إلى ذاته: الخلق، والعلم، والقدرة. ويجعل الإنسان واقعًا تحت سلطانها، عبدًا مقهورًا لا يستطيع الفكاك! يتكلم الرب العظيم بنفسه، فيقشعر جلد المؤمن لكلامه! ويبهت قلب الكافر لخطابه! يتكلم الرب العظيم فيحسم قضية خلق الإنسان، وأنه هو ﷻ قد خلقه، وهو الحاكم على كل حياته ومصيره! ويتوارد إسناد الأفعال - في الخلق والتقدير والعلم والتدبير - إلى الضمير المتكلم الحاضر « نا »، الدال على الذات الإلهية؛ لقطع كل وساوس الشك والريب في النفوس الضعيفة المريضة، ولإخناس الشيطان المتمرد في قلوب النفوس الجاحدة العنيدة؛ ولذلك ابتدأ هذا الخطاب القوي الرهيب بلام التوكيد، وحرف التحقيق « قد »؛ لنقض أمر الكفار الْمَرِيجِ! فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ... ﴿١٦﴾ ﴾.. هو اللّه الخالق ﷻ يتكلم! فمن ذا قدير على رد كلامه؟ ومن يستطيع إنشاء قصة خلق الإنسان من غير حقائق القرآن المجيد؟ إذن يتهافت أمره المريج كما تهافت صاحب نظرية التطور القِرْدية، وأصحاب ضلالات صدفة الطبيعة!

والخالق العظيم حاضرٌ هنا بقوة، يعبر عن علمه المحيط بكلِّ خوالج هذا الإنسان

النفسية، وبما تماوج في أعماقه من وساوس وهواجس! أليس هو ربه الذي خلقه؟ فكيف يغيب عنه شيء من ذلك؟ كلَّا! كلَّا! بل هو تعالى أقرب إلى عبده من حبل وريده! والوريد هو: شريان القلب النابض بالدم في عنق الإنسان! وكفى بذلك دلالة على إحكام القبضة على هذا المخلوق الضعيف! فمصير حياته كلِّها بيد الرحمن. وقد جعل سبحانه - بمقتضى حكمته التدبيرية وإرادته التكوينية - على الإنسان مَلَكَيْنِ موكلين بتوثيق كل أقواله وأفعاله، وإحصاء جميع تصرفاته في الخير والشر! فكلٌّ منهما يتلقى عن الإنسان كل شيء حتى اللفظة العابرة اللاغية! وما التوثيق الملائكي إلا ليكون الكتاب شاهدًا على ابن آدم يوم القيامة. أما الرب العظيم فهو أعلم بالسر وأخفى.

والتعبير بفعل « التَّلَقِّي » ووصفُ الملَكين به بصيغة اسم الفاعل: « الْـمُتَلَقِّيَانِ »، دال على شدة الرصد، وقوة التمكن من مهمتهما؛ لأن تلقِّي الشيء لا يكون إلا باستجماع الطاقة كلها والانتباه الشديد. ومفعول التلقي هنا محذوف لدلالة السياق عليه، وهو أقوال الإنسان وأعماله. كما أن التعبير بصفة « قعيد » فيه دلالة على دوام القعود والملابسة. وأصل « قعيد » هو بمعنى « قَاعِد »، كعليم وقدير، على وزن « فعيل » مبالغة من « فاعل ». وقيل: بل هو بمعنى « مُقَاعِد »، كما قيل للمُجَالِسِ: جليس. وكلا المعنيين دال على الملازمة الثابتة والمصاحبة الدائمة! وقد روى الإمام الطبري عن غير واحد من السلف منهم مجاهد، وقتادة، والحسن، أن ملَك اليمين يكتب الحسنات، بينما ملَك الشمال يكتب السيئات! (١) فما يلفظ الإنسان من قولٍ، وما ينطق بكلمة من خير أو شر؛ إلا ويلتقطها الملَكُ فيسجلها في صحيفته، إما له وإما عليه! وعبَّر في الآية بلفظ « القول » دون ذكر « الفعل »؛ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأن الكاتب الذي لا يشذ عن توثيقه لفظ واحد يخرج من فم ابن آدم؛ هو أقدر على توثيق تصرفات الأفعال والأعمال!

وقد وصف اللَّه الملَكَ الكاتبَ - سواء الذي عن اليمين أو الذي عن الشمال - بأنه ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨ ﴾ أي أنه شديد الرقابة على الإنسان المكلف به، دائم الترصد لكل أقواله وأفعاله. ثم هو ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي: أنه مُعَدٌّ لتلك المهمة، مُفَرَّغٌ لها تمامًا،

(١) ن. تفسير الطبري للآية.

حاضر عند صاحبه لا يفارقه! قوي على وظيفته، سريع التنفيذ لعمله.

ثم يبين الرحمن ﷻ غاية هذه الرقابة الشديدة ومآل هذا التوثيق الرهيب؛ بذكر الأجل المحتوم الذي تنتهي إليه حياة الإنسان، عند فناء عمره المحدود على وجه هذه الأرض، ثم دخوله في مراحل أخرى من عالم الموت! قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ إنها السكرة التي لا بد لكل إنسان أن يذوقها، وهي الغمرة التي لا بد لكل ابن آدم أن يغرق فيها، لحظات قد تطول وقد تقصر، تقبض الملائكة خلالها روحَه، فتنطلق بها إلى مستودعها من عالم البرزخ الأخروي، ثم يُوَارَى جثمانُه الميت تحت التراب.. وتنتهي قصة الحياة الدنيا - بخيرها وشرها - إلى الأبد!

الموت!.. ذلك هو الحق الذي لا يستطيع بشر أن يجحده، ولا أن يدفعه! ولا أن يحيد عنه أو يتجنب الوقوع فيه! الموت هو الحقيقة اليقينية الكبرى، التي تفرض نفسها كَرْهًا على البشرية جميعها، بشتى مِلَلِهَا ونِحَلِهَا!.. إنها القَدَرُ الذي لا يُدفع بطبٍّ أو حَذَر!

وتبقى البشرية في عالم الموت - بعد هلاك جميع الخلق - ما شاء اللّه لها أن تبقى.. حتى إذا أَذِنَ الرب العظيم بيوم البعث؛ نفخ المَلَكُ في الصور - وهو بوق على هيئة القَرْنِ - فتتدفق الأرواح من برزخها نحو مقابرها، فتسكن أجسادها، بعد أن يكون الرحمن قد أنبتها من الأرض مرة أخرى! وما هي إلا لحظة أقل من لمحة البصر، حتى تكون الخلائق حية صاحية، تسمع وترى! وتنطلق الجموع مندفعة - بقلوب وجلة - نحو ساحة الحشر العظيم! ثم يدخل الإنسان بذلك في مرحلة من أشد مراحل اليوم الآخر! قال ﷻ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ والتعبير بصيغة الماضي في فعل « نُفِخَ » هو للدلالة على قطعية التحقق، وعلى اقتراب الموعد؛ بما يكاد يجعله في حكم الماضي! حتى إذا وقع أدرك الناس أنه يومُ تحققِ الوعيد الذي كانوا يوعدون، وأنه تصديق خبر النذير الذي ورد على ألسنة الرسل والأنبياء!.. ثم تنطلق كلُّ نفسٍ إلى خالقها معها مَلَكَانِ: مَلَكٌ يسوقها إلى ساحة الحشر، ومَلَكٌ آخرُ يشهد بما كان من عملها عند الرحمن!

ثم قال تعالى يخاطب الإنسان الكافر: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ بمعنى لقد كنتَ أيها الإنسان الجاحد محجوبًا بكفرك

عن معرفة حقيقة هذا اليوم! فها أنت ذا اليومَ تحياه بنفسك، وتعيش تفاصيله بذاتك، لحظة بلحظة!

وتخصيص الخطاب في هذه الآية بأنه مُوَجَّهٌ لنموذج الإنسان الكافر - كما قاله غير واحد من المفسرين - هو أوفق للسياق المؤسس للسورة، واستمرار في الرد على الكفرة المنكرين للبعث، الذين: ﴿ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ ﴾.. فإلى هذا الصنف البشري توجه الخطاب بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ ﴾ والآية دالة على أن الإنسان بمجرد ما تأخذه سكرة الموت يكون قد غاب وعيه عن الدنيا، وفتح ناظريه على الآخرة! ورأى الحق كما هو! فلا يبقى كافر عندئذ إلا آمن، ولكن بعد فوات الأوان! فقد تقرر في أصول الدين أنه لا يُقْبَلُ إيمان بعد انكشاف الحجاب.. وذلك معنى الابتلاء!

ويجوز أن يكون الخطاب هنا موجهًا إلى جنس الإنسان بإطلاق - كما رجحه الطبري وابن كثير - فتكون الغفلة المذكورة هنا ليست بمعنى غفلة الكفر والجحود، بل هي بمعنى حجب حقائق الغيب عن الإنسان، مما يصدق على المؤمن والكافر على السواء. فغاية علم المؤمن بحقائق الآخرة أنه مُصَدِّقٌ بها، عامل على ميزانها. وهو لا يعرف من أهوالها، ولا من نعيمها وعذابها، إلا ما وقع في قلبه من تصورات لأخبار الرسل والأنبياء! لكن صورة الحقيقة كما هي محجوبة عنه - لحكمة الابتلاء - بِحُجُبِ الحياة الدنيا! ذلك هو الغطاء الذي يغطي بصر الإنسان كل إنسان؛ فيحجبه عن مشاهدة عالم الغيب، ويبقى حبيس عالم الشهادة إلى أن يموت؛ فينكشف الغطاء بدخوله أَوَّلَ مراحل الغيب، ويعاين الحقائق الإيمانية كما هي؛ لأن الحياة الآخرة بالنسبة إلى الحياة الدنيا كاليقظة بعد النوم الثقيل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ ﴾ من الحِدَّةِ: وهي هنا قوة الإبصار ودقته، ورؤية حقائق الآخرة، وطبيعة الوجود البشري على ما هي عليه.

ذلك أنه إذا مات ابن آدم ذاق معنى الموت حقًّا! وانتقل المؤمن من علم اليقين إلى عين اليقين! وشهد حياة البرزخ حقًّا، ولحظة النفخ في الصور، وانطلاقة السير الرهيب إلى المحشر المهيب..! ثم عاين ما بعد ذلك من حقائق ومشاهد، إلى أن تستقر كل

نفس فيما قضى الرحمن لها به من الجنة أو النار والعياذ بالله!

ثم قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهي آية تختصر - في كلمات - كل تفاصيل الحساب والميزان والفصل بين العباد! والقرين: هو الرفيق المصاحب بإطلاق. والمقصود به هنا: المَلَكُ الذي يشهد بما ثبت لديه من عمل الإنسان. وهذه الآية وما بعدها ترجح مذهب القائلين بأن المخاطَب الموصوف من قَبْلُ بالغفلة عن الآخرة، إنما هو الإنسان الكافر فعلًا (١).

وقوله: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: هذا كلُّ ما عندي من ديوان عمل هذا الإنسان، مما وثَّقه المَلَكانِ في حياته. ها هو ذا لديَّ مُعَدٌّ محفوظ حاضر، ومُهَيَّأٌ بإحصاءٍ دقيقٍ، بلا زيادة ولا نقصان!

حتى إذا أدى المَلَكُ الشَّاهِدُ شهادتَه، وتَلَا ما في صحيفته؛ حكم الرحمن بين العباد.. فقال ﷻ : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ والخطابُ بالتثنية في « أَلْقِيَا » هو لِلْمَلَكَيْنِ: السائق والشهيد، أو الكاتبين؛ إذ يأمرهما رب العزة بإلقاء الكافر في الجحيم؛ بما استحق من العذاب؛ بسبب ضلوعه في الإجرام بكل أصنافه! فأنت ترى إدانة القرآن له، كيف تتابعت فيها صيغ المبالغة، وأوصاف الشر المكين! فهو « كَفَّارٌ » راسخ في كفره، « عنيدٌ » متعنت في جداله، وهو « منَّاعٌ للخير » بما يمنع من وصول الصدقات إلى أهلها، وبما يمنع من أعمال الخير جملة. وهو « مُعْتَدٍ » ظالم للمؤمنين المستضعفين، وهو « مُرِيبٌ! » شَاكٌّ مُشَكِّكٌ، ينشر الشك في كل ما حوله، داعية إلى الزيغ والضلال. وكل من رآه يرتاب في أمره؛ بسبب ما يعيشه من حياة الشك والريب في دينه ومعتقده!.. إنها جرائم بعضها فوق بعض!

وهذه العبارات كلها، بدءًا من صيغة المبالغة « كَفَّارٌ »، مع ما لحقها من صفات الشر، كل ذلك دالٌّ على أن المقصود هنا هم رؤوس الكفر، وقيادات الضلال! فهذا النموذج الشيطاني الخبيث ليس مجرد كافر شهواني تابع، بل هو كافر راسخ في كفره، مجاهر به ومعتز! يجادل عنه وينافح ويقاتل! تمامًا كما ترى صناديد الملاحدة

(١) وهو المعنى الذي اعتمده سيد قطب رحمه الله في ظلاله. كما انتصر له العلامة الطاهر ابن عاشور بقوة! ن. تفسيره للآية.

اليوم يُنَظِّرُونَ للكفر والزندقة، ويدعون إليهما بقوة وجلد، وبعناد شديد..! ولذلك فهو برؤيته الإلحادية يقف في طريق الخير - إن كان صاحبَ سلطان أو ذا قوة حزبية - ويمنع دعوة الخير! ويعتدي على رجالها، وينشر الأراجيف حولها ويبث التشكيكات في نوايا أصحابها! ثم يرفع راية الوثنية المادية، سواء تجلت في عبادة حجر، أو عبادة رمز بشري، أو صنم فكري!

ولا يزال صناع الضلال يبدلون أسماء أصنامهم كلما بهت مصطلح منها، أو مات بريقه الإيديولوجي والسياسي! ومصانع الأسماء الوثنية لا تمل من التصنيع والتصدير. ومهما تغيرت الألفاظ فالصنم واحد! إنه الشهوة والثروة، والسيطرة على المال والاقتصاد!

كل ذلك وما في معناه قد سجَّله المَلَكَانِ في صحيفة هذا الكَفَّارِ العنيد؛ فاستحق ذلك الْـحُكْمَ الإلهي العادل، المناسب لجبروته وطغيانه: ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ويصف القرآن مشهدًا من مشاهد المخاصمة بين يدي الرحمن يوم القيامة.. إنها خصومة بين الكَفَّار العنيد وقرينه الشيطاني، كل منهما يلقي اللائمة على الآخر؛ وكأن هذا الكَفَّار يحاول اتقاء العذاب؛ بإلصاق الجريمة بشيطانه الذي تسبب له فيها، وزينها له بوسواسه! لكنها خصومة يائسة فاشلة، يقطعها الجبار بقوة معلنًا سبحانه أن قضاءه نافذٌ لا يرده شيء! فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقول القرين الشيطاني هنا: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾، هو رد على احتجاج سابق من الكافر، لكنه غير مذكور، وهو مفهوم من سياق هذا الرد، وقد ورد التصريح بنحوه في قوله تعالى من سورة الفرقان: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٩] وفصل جواب الشيطان في قوله تعالى من سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

تلك خصومة الكافر مع الشيطان.. خصومة يائسة قاتلة! يتبرؤ فيها القرين من الإنسان تبرؤًا! ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ هكذا يقول اللعين: « ما أنا الذي جعله يتكبر في الأرض ويطغى!.. ما أنا الذي أرغمه على الكفر بالله رب العالمين!.. بل هو الذي اختار الضلال بهواه، وأوغل في ظلماته بعيدًا بعيدًا! ».. صحيح أن الشيطان يوسوس للنفس ويزين لها شهواتها، لكنه لا يُكره أحدًا على الكفر والفسوق والعصيان.. ولكنها النفس المتمردة على خالقها تستحلي وسوسة إبليس وفتواه، وتستجيب بهواها لنداء النار! ولذلك حق عليها العذاب، ووقع عليه عقاب الله بعدله الحكيم! ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾. هكذا يحسم الرحمن الخصومة اليائسة: لا حق لكم - معشر الجن والإنس - في التخاصم عندي اليوم وتبادل التهم، بما كنتم فيه تشتركون من الكفر والطغيان؛ لا حق لكم في ذلك إطلاقًا، وقد سبق العلم لديكم بما قدمت لكم من النذارة بهذا اليوم، والوعيد بعذابه الشديد.. وقد تتابعت الرسالات من الله تترى مخبرة بخبر هذا المصير.. كما تتابع بعث الرسل والأنبياء عبر تاريخ البشرية الطويل، يبلغون للناس كل الناس خبر هذا الدين، وحق الله رب العباد على العباد أجمعين! فلا مبدل اليوم لقضاء الله، ولا راد لحكمه إذا حكم بين العباد. وحكمه لا يكون - على كل حال - إلا على تمام عدل الله المطلق! وما كان الله ليعذب أحدًا بجرم أحد! بل لا تحاسب كل نفس إلا بما كسبت! فلا عبد يصيبه اليوم ظلمٌ، ولو قدر قِطْمِيرٍ! ونفي الظلم عن الله - جل ثناؤه - ههنا بصيغة المبالغة « ظَلَّام » دالٌّ على شدة النفي لأقل الظلم! فهذا الرب الجليل ملكٌ عظيم لا يظلم عبيده أبدًا!

هذا يوم الحق، هذا يوم الفصل، هذا يوم الجزاء الأكبر..! وإنه لموقف رهيب رهيب؛ إذ يلقي الخطاب القرآني بصورة مخيفة في النفس، يصور في بضع كلمات أفواج الملقى بهم في جهنم؛ بما تُوهِمُ كثرته بأنها قد غصت بأهلها، وأنه لم يعد في دركاتها مكان لعدو آخر من أعداء الله! ذلك ما لا تنطق به العبارة، ولكنها تلقي صورتَه في النفس من خلال جواب جهنم عن سؤال الرب الجليل - وهو أعلم بحالها - إذ قال: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.. وما هو بسؤال للاستعلام - والله ﷻ هو العليم الخبير - ولكنه سؤال للتخويف والترهيب

بحقيقة جهنم، وبيان امتداد شعابها الملتهبة، وعمق دركاتها المظلمة، واستيعابها لجميع الكفرة والعصاة من البشرية جميعًا! فقولها: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾؟ هو قول دال على شعور الجحيم بالحاجة إلى حطب جديد، حطب ليست طبيعته إلا من هذه اللحوم البشرية الكَفَّارة العنيدة! وهو دال على غضبها وهيجانها وتغيظها المخيف! وإن ألسنتها لتمتد من جوفها فتتخطف أهلها تخطفًا فإذا بهم في سواء الجحيم! نسأل اللَّه السلامة والعافية! وفي بيانٍ نبويٍّ لهذه الآية يصف رسولُ اللَّه ﷺ هيجانَ جهنم، في حديث عجيب يرويه أنس بن مالك ؓ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟! حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ؛ فَيَنْزَوِيَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ! وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ! وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ!** »(١).

وعلى منهج القرآن دائمًا، بعد كل ترهيب؛ يَهُبُّ عبير الأمان على الأنفس المؤمنة، التالية الذاكرة، وقد ارتجفت قلوبها، واختنقت حناجرها، وبلغ بها الفزع ما بلغ؛ فيتنزل رَوْحُ السلام والتطمين على عباد اللَّه الصالحين.. كلمات تملأ القلب أنسًا باللَّه، وتغمره رجاءً في رحمة اللَّه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾. والإزلافُ: التقريب. والمعنى: أن الرحمن – جل ثناؤه – يجعل المؤمنين المتقين يوم الحشر في مكان قريب من الجنة، بحيث يرونها إكرامًا لهم وتطمينًا. حتى إذا أُذِنَ لهم في دخولها وجدوها بمكان غير بعيد، وساروا إليها سيرًا غير بعيد. والسير إلى الجنة في ذاته لذة ونعمة! والطريق إليها – ولو طال – يكون غير بعيد؛ لما يغمره من السرور والأشواق! فَلَكَ أن تحمل القرب هنا على كل المعاني الحسية والمعنوية! فكل ذلك داخل في هذه الآية الجميلة الكريمة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾!

ويبين تعالى خصال المتقين، التي بها نالوا هذا الكرم العظيم من الرحمن، فكان أول ذلك أن هذا الوعد الموعود هو ما أعدَّه الرحمن – جل ثناؤه – لكل عبد « أواب حفيظ »! والأوَّابُ: الكثير الأَوْبِ، وهو سرعة الرجوع إلى اللَّه عند كل خلل،

(١) متفق عليه.

والمبادرة إلى التوبة عند كل زلل. والأَوَّابُ أيضًا هو: العبد الكثير الشوق إلى الرحمن؛ بحيث تطول عليه الأوقات الفاصلة بين فرائض الصلوات، فلا يصبر حتى يملأها بنوافل العبادة؛ ولذلك سميت صلاة الضحى بصلاة الأَوَّابين! (١) وأما الحفيظ فهو: المحافظ على عهد الله، الصائن لحقوقه تعالى، الذي عاش حياته وهو يشعر بأمانة الدين، فهو لها راعٍ على كل حال. فإن زل أو غفل تدارك ما ضاع منه بسد الخلات والثغرات، وتجديد التوبة إلى الله.

وإنما يكون ذلك لِما وقع في قلب العبد المتقي من خشية الرحمن بالغيب، وهي خصلة أخرى من خصال التقوى، تنضاف إلى هذا المقام العظيم. والخشية: خوف من عظيم، باعثها هنا معرفة الله بما له من صفات الجلال والجمال! كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي العلماء به سبحانه، العارفون بمقامه؛ ولذلك تعلقت الخشية هنا في سورة « ق » باسمه تعالى: الرحمن! وهو من أدل الأسماء وأجمعها على التعريف بالله رب العالمين. فخشية الرحمن إذن لا تكون إلا عن معرفة بالله وعلم به تعالى. وأما كونها واقعة بالغيب، فمعناه أنها خشية إيمان وإخلاص واقعين بالحياة الدنيا، أي قبل انكشاف الْحُجُبِ في الآخرة. فالحياة الدنيا كلها حُجُبٌ ابتلائية في طريق الإيمان، لا تنكشف حقائقها إلا بموت الإنسان، أو عند ظهور العلامات الكبرى لقيام الساعة. ومن ثم فإن خشية الرحمن بالغيب راجعة إلى عمران القلب بالإيمان إلى درجة اليقين! حتى يصير العبد يحيا مع ربه أبدًا، في خلواته وجلواته! حتى إنه ربما ذكر مولاه في خلوته ففاضت عيناه! كما في الحديث: « **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ!** » (٢). فذلك عبدٌ

---

(١) عن زيد بن أرقم ﷺ أن النبي ﷺ قال: « صَلَاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ » يعني من الضحى. رواه مسلم. يقال: رَمِضَ الفَصِيلُ - وهو ولد الناقة الصغير - إذا اشتد حر الرمل من تحت خُفَّيْهِ؛ بسبب سطوع الشمس. وإنما يكون ذلك بعد تمكن الشمس من وسط الضحى وآخرها. وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: (أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِصَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَبِالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَبِصَلَاةِ الضُّحَى؛ فَإِنَّهَا صَلَاةُ الأَوَّابِينَ!) رواه أحمد، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه.

(٢) تمام الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ! وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ =

عرف اللَّه فأحبه، وسكنه خوفٌ ألا يفوز برضاه! تلك هي الخشية بالغيب، وهي تاج الإيمان وقمة جماله وجلاله!

هذا هو مقام العبد المتقي، الأواب، الحفيظ، الذي خشي الرحمن بالغيب، ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾. و « إنابة القلب » هي الخصلة الخاتمة لهذا النموذج الإيماني الكريم، وقد ورد التعبير بها ههنا بأسلوب جليل، فيه دلالة عميقة على كمال الخضوع وتمام الاستسلام لرب العالمين، والسير الذلول إلى اللَّه.. تمامًا كسير السماء والأرض إلى رب العزة لما نادهما ﷻ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. ومن ثم فهو يصور هنا مجيء العبد إلى ربه يومَ القيامة مستجيبًا مطيعًا، يجيء بقلب تملؤه الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، والخشية والمحبة؛ بما عرف من مقام ربه العظيم! وذلك كله هو الإنابة.. حيث يجيء المؤمن التقي « منيبًا »! أي راجعًا إلى سيده بهذا القلب الثابت على طاعة مولاه، المستمر على ذلك حتى ساعة ملقاه!

ويُخْتَمُ المقطع كله بإعلان خبر الفوز بجائزة الرحمن.. إنها لهؤلاء المتقين، الأوَّابِين، الْـحَفَظَةِ لعهد اللَّه، الذين يخشون الرحمن بالغيب، ويثبتون على ذلك حتى يلقوا ربهم بقلوب منيبة! أولئك هم الفائزون، الذي أزلفت لهم الجنة غير بعيد.. يقال لهم الآن: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.. فهو دخول كريم مكرَّم، إنه ترحيب من الرحمن وأمان منه عظيم. فدخول الجنة بسلام هو دخول إليها من غير سابقة عذاب، وهو أيضًا دخولٌ مُعَطَّرٌ بسلام ملائكة الرحمن.. كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. وقال هنا في « ق »: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾، والتعبير بإضافة « يوم » إلى « الخلود »، بهذه الصيغة المصدرية الجامعة، فيه دلالة على الثبات والاستمرار، وعلى الاستقرار السرمدي في نعيم الجنة المقيم، الذي لا يُخشى له زوال ولا انقطاع، وليس يهدده نَفَادٌ ولا موت أو فناء. فالجنة بما فيها ومن فيها وجود أبدي خالد، وذلك هو النعيم الحق، والسعادة الكاملة المطلقة؛ ولذلك كان التعبير ههنا باسم الإشارة « ذلك » دالًّا على معنى الشرف والرفعة والفوز العظيم!

= بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ! » متفق عليه.

وقطعًا لكل وسواس أو هاجس، قد يلقي في النفس احتمال نفاد النعيم؛ عزز الرحمن خبر خلود الجنة بقوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝ ﴾.. هكذا أهل الجنة – جعلني الله وإياكم من أهلها – ينالون كل ما يشتهون، من غير قيد ولا شرط! فيكفي أن تشتهي الشيء حتى يكون بين يديك في أقل من طرفة عين! حاضرًا جاهزًا كما اشتهيت وأعلى! وإن الخيال ليعجز عن متابعة ألوان النعيم المكنون في الجنة! وإن الأنفاس لتتقطع دون الإحاطة ولا بنعمة واحدة من نعمها الغامرة الوفيرة!

ثم يبهر الرحمن – جل ثناؤه – القلوبَ، لما يختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾..! وهل بقي بعد هذا كله من مزيد؟ عجبًا! وأنَّى للمؤمن أن يستنفد هذا النعيم الأبدي، الذي لا يحصيه عَدٌّ ولا يحصره خيال؟ إن نعيم الجنة لا ينفد ولا يفنى، نعم، ولكن مع ذلك هناك مزيد..! إنه النظر إلى وجه الله العظيم! وفيه من اللذة الغامرة والاستمداد العظيم لجمال النور، ما تضيق عن وصفه العبارات! فَعَنْ صُهَيْبٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ!** » ثُمَّ تَلَا [النبيُّ ﷺ] هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] [١]، وهو أيضًا تفسير عبارة « مَزِيد » في سورة « ق » ههنا، على ما ذهب إليه المفسرون [٢].

إن كلمات القرآن في وصف الجنة وخيراتها، وبيان كراماتها الخالدة، لتختزل من جمال النعيم ما لا طاقة للعقل البشري على استيعابه هنا في هذه الحياة الدنيا! وما أصدق عبارة النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة، قال: « **قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ!** » [٣]، فاللَّهم ربنا إنا نسألك برحمتك الواسعة، أن تجعلنا من عبادك الصالحين، وأن تدخلنا الجنة بغير حساب، ولا سابقة عذاب! آمين!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ن. تفسير الطبري وابن كثير للآية.

(٣) متفق عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن الشعور برقابة الرحمن، والإحساس القلبي الدائم بوجود المَلَكَيْنِ الكَاتِبَيْنِ، عن اليمين وعن الشمال قعيد؛ من أهم حقائق الإيمان، ومن أجلِّ ثمراته. ورغم أن ذلك داخلٌ في ركن الإيمان بالملائكة على الإطلاق؛ إلا أن الإنسان في غمرة الحياة اليومية ينسى وجود المَلَكَيْنِ الكَاتِبَيْنِ خاصة، ويفقد الشعور بملازمتهما إياه على كل حال! ولو تذكر ذلك حق التذكر، واستحضر هذه الحقيقة كأنما يراها، وعاش مستأنسًا بهما ليله ونهاره؛ لما جرؤ على الوقوع في الزَّلات، واكتساب السيئات! ولَصَفَتْ خواطره كلها للَّه، بسبب ما يجد في قلبه من توجيه إلى الخير.

الرسالة الثانية: في أن الكلمة في الإسلام مسؤولة! وأن القول - أي قول - يلقيه القائل، مُلْتَقَطٌ من فمه، مسجَّل في صحيفته، إما له وإما عليه! وهذا من أعظم حقائق الإيمان وأرهبها! ولو أن المؤمن اعتصم بهذه الحقيقة في حياته؛ حفظًا للسانه من الزلات، فلا ينطق إلا بالخير، ولا يتكلم إلا بالحق؛ لتحقق - إن شاء اللَّه - بمقام الصديقين. وقد عُلم أن النبي ﷺ حذر أصحابه في غير ما وصية من حصائد اللسان! ففي حديث معاذ بن جبل ﷺ: (قُلْتُ: يَا رسولَ اللَّه! وإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: « **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟** »)[١].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ! وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ!** »[٢]، وعَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ** ﷻ،

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي، والطبراني. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه بطرقه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيحي الترمذي وابن ماجه. كما صححه بطرقه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢) متفق عليه.

مَا يَظُنُّ أَنْ تَبلُغَ مَا بَلَغَتْ؛ يَكْتُبُ اللَّهُ ﷻ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ﷻ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبلُغَ مَا بَلَغَتْ؛ يَكْتُبُ اللَّهُ ﷻ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! »[1] (فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ!).

الرسالة الثالثة: في أن مجاهدة وسواس النفس من أعظم الجهاد! وأن بقاء خواطر الشيطان حبيسة الوساوس الباطنية معناه أن الشيطان مهزومٌ مدحور، وأن المؤمن المتعرض لذلك منصور بالله؛ ولذلك وصف النبي ﷺ حاله تلك بأنها « **محض الإيمان!** » وفي رواية أخرى قال: « **ذاك صريح الإيمان!** » فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ؛ قَالَ: « **تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ!** »[2]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ؟ قَالَ: « **وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟** » قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: « **ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ!** »[3]، ومن ثم أشار النبي ﷺ - في حديث آخر - إلى أن ذلك دال على هزيمة الشيطان، واندحار كيده، وانخناسه في ظلمات الوسوسة! فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ؛ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!.. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ!** »[4].

وفي هذا فائدة تربوية جليلة مفادها: أن المتعرض للوسواس القهري في عقيدته أو عبادته، يُشفى منه - بإذن الله - بمجرد ما يرسخ في ذهنه أن ذلك الوسواس وضع طبيعي، بل مكسب إيجابي صحي، محسوب له لا عليه! ومن ثم تسري

---

(١) رواه مالك في الموطأ، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن حبان، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، والطبراني في الكبير، وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح ». كما صححه الألباني في الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وفي تحقيق السنن. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢ ، ٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي في الكبرى. وصححه الألباني في تحقيق سنن أبي داود، وفي ظلال الجنة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

الطمأنينة في النفس، وينتصر في القلب السلام والأمان! فيخنس الوسواس بصفة نهائية بإذن اللَّه.

الرسالة الرابعة: في أن الشعور الدائم بوجود القرين الشيطاني، الملابس للإنسان على كل حال، هو من أهم دواعي الحذر من الوقوع في الخطايا والزلات، وهو من أكبر العوامل المساعدة على مواجهة الشر، وطرد خواطر السوء من النفس، والتصدي لإملاءاتها الخبيثة. كما أنه يساعد على معاكسة شهوات النفس، الراغبة في الاستجابة لما زينه لها القرين من الغواية والحرام. وهذا من أهم الثمرات الإيمانية لحقائق العقيدة الإسلامية، التي جعلت قضية الشيطان وقَبِيلِهِ من شياطين الجن، من أهم قضايا الإيمان؛ ولذلك فإن القرآن الكريم لم يفتأ يكشف عن طبيعة الشيطان، ويصف خطواته وحركته، ويفضح كيده للإنسان في غير ما موطن من آياته وسوره؛ حتى يكون المؤمن على بال من هذا العدو اللعين! أعاذنا اللَّه وإياكم منه!

والقرين من أخطر أنواع الوجود الشيطاني، بسبب ملابسته الدائمة للإنسان. ومن ثم كان الإيمان بهذه الحقيقة بصيرةً عظمى للمؤمن السائر إلى ربه. ومن هنا فقد بين النبي ﷺ لزوم القرين الشيطاني لكل بني آدم؛ وذلك حتى يكون المؤمن على وعي شعوري دائم بهذه الحقيقة الابتلائية الكبيرة؛ فيتجرد لها تجردًا؛ عساه يكون من الغالبين بإذن اللَّه، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ!** » قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ؛ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ!** » [1].

الرسالة الخامسة: في أن حقيقة الآخرة بما فيها من حساب ومصير، من أعظم الحقائق الإيمانية والوجودية! لكنها حقيقة محجوبة عن الأعين، وإنما تُتلقى من الوحي! ولا ينكشف منها شيء إلا بالدخول في أول غمرات الموت! فهنالك ينكشف الغطاء الدنيوي الحاجب للغيب الأخروي، ويبصر الإنسان عيانًا طبيعة المصير الذي ينتظره، ولكن بعد فوات الأوان؛ إذ لا قبول لإيمان بعد انكشاف الْحُجُبِ! وإنما يُسمَّى الإيمان « إيمانًا » إذا تعلق بتصديق حقيقة غائبة، أو أمر مستقبل! ومن ثم فإن معرفة أخبار

---

(١) رواه مسلم.

الآخرة - بكل تفاصيلها - من أهم ما يجب على المؤمن التزود منه؛ لتقوية إيمانه، وحمل النفس على مشاق الطريق، سيرًا إلى الله بالرَّغَبِ والرَّهَبِ.

٤ - مسلك التخلق:

أما مسلك التخلق ههنا فهو دائر حول التحقق بطريق النجاة، والثبات على منهاجها، وعدم الحيد عنه حتى لقاء الله.

وهو مسلك راجع إلى مجاهدة النفس على منازل إيمانية خمسة، مجموعة في قوله تعالى، مما تدارسناه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ﴾. وقد تم تفصيلها في البيان العام بما يكفي إن شاء الله. **لكننا نبين هنا معالم المسلك العملي للتحقق بصفاتها وخصالها:**

أما المنزل الأول: فهو يتأسس على التحقق بالتقوى. ومسلكه العملي هو الاستحضار الدائم لعظمة الله، والتذكر اليومي لحقيقة الموت، ومآلات الآخرة. ولقد بينا أن على المؤمن أن يداوم على تغذية القلب بعلم الآخرة، وأن يحرص على طلب حقائقها الإيمانية بالتفصيل، مما ثبت خبره بالكتاب والسنة الصحيحة؛ ولذلك ما فتئ النبي ﷺ يُذَكِّرُ أصحابه باليوم الآخر، ويصور لهم قرب الساعة بما يجعلهم يفزعون إلى الله، ويجأرون إليه طلبًا للأمان! فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ - وغيره - أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟** »، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُمْ: « **قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا!** » وفي رواية ابن عباس ؓ: « **وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ!** »[(١)]، وقد جعل الرحمن مقام التقوى المطلوب للنجاة والفوز ههنا، مبنيًا على التخلق بأربع صفات، تتم بها للمؤمن خمسة منازل، وإنما هي بعضها من بعض، وبعضها مبني على بعض، وبيان ذلك هو كما يلي:

---

(١) هذا حديث صحيح يكاد يكون متواترًا، فقد أخرجه أحمد، والترمذي، وابن حبان، والحاكم عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه أحمد والحاكم عن ابن عباس، وأخرجه أيضًا أحمد والطبراني عن زيد بن أرقم، كما أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة، وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله، وأخرجه الضياء عن أنس. ثم صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وفي تحقيق سنن الترمذي. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

المنزل الثاني: يتأسس على التخلق بوصف الأَوْبِ الدائم إلى الله. وقد تبين أن معنى « الأوَّاب »، هو العبد المتحقق بعمران القلب بمعرفة الله. فمن عرف الله حقًّا اشتاق إليه، ومن اشتاق إلى مولاه كان أوَّابًا! كثير الرجوع إلى سيده، كثير الطَّرْق لبابه بنوافل الخيرات والصلوات. ولعل من داوم على صلاة الضحى ذاق هذا المعنى الكريم.

وأما الثالث: فهو منزل الحفظ. و « الحفيظ » وصف يتحقق لصاحبه كلما تذكر عهد اللَّه، وعلم أنه ميثاقٌ غليظ! وأن نقضه من المهلكات! فعمل على ذلك حياتَه كلها.

وأما الرابع: فهو الخشية. و « خشية الرحمن بالغيب » تحصل لصاحبها بمداومة الذكر، ومدارسة القرآن؛ طلبًا لمعرفة مقام الرب العظيم، والعلم به ﷻ ! ثم بصحبة أهل الخشية من الربانيين، ومشاهدة أحوالهم.

وأما الخامس: فهو الإنابة. وتحصل « إنابة القلب » للعبد بحصر التوجه إلى قِبْلَةٍ واحدة لا غير، والتعلق بمقصود واحد لا غير، فلا يلتفت القلب إلى شيء سوى اللَّه. ثم يجاهد العبد نفسه ليشغلها باللَّه، وباللَّه فقط، وليجعل همه - كل همه - هو اللَّه والدار الآخرة! وعلى قدر نجاح المؤمن في هذا يكون تدرجه بمسلك الإنابة.

تلك مدارج خمسة من تحقق بمنازلها رجا - إن شاء اللَّه - أن يكون من الناجين الفائزين بجنات النعيم، المكرمين بما فيها من مزيد.

فاللَّهم إنا نسألك الثبات على الهدى، حتى نلقاك راضين مرضيين، لا مبدلين ولا مغيرين! ونسألك ربنا أن تدخلنا في رحمتك برحمتك، وأن لا تحرمنا النظرَ إلى وجهك الكريم، آمين.

* * *

المجلس الثالث

في مقام التلقي لمنهج التعامل الدعوي مع جحود الكفار



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

٢ - البيان العام:

يركز هذا المقطع الأخير من السورة، على الخلاصات المنهجية، التي ترسم طريقة التعامل الدعوي مع هؤلاء الكفرة الفجرة، الذين جحدوا حقائق الإيمان، وأنكروا البعث والنشور، وانتصبوا لحرب عقيدة الإسلام. وتُعَلِّمُ المؤمنَ الداعيةَ ما ينبغي أن يتسلح به من الثقة بالله، وترشده إلى زاد الذِّكْرِ والتسبيح والصلاة، والاعتصام بالله وبكتابه المبين؛ كلما تعرض لسخرية الساخرين، ومقولات الملحدين المستهزئين!

ومن ثم يحذر اللهُ ﷻ الكفرة المخاطبين بهذا القرآن إلى يوم القيامة، ويلقي إليهم نذارة التذكير بأيام الله، وبسنته في الذين خلوا من قبلهم من الكفار، فيقول ﷻ :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ ﴾. وهذا خطاب عجيب مزدوج القصد، فيه من النذارة والتحذير للكفار، بقدر ما فيه من التسلية للرسول ﷺ، ولكل داعية إلى الخير من أمته بعده، والتثبيت على عقيدة الثقة العالية بالله. وقد صُدِّرَ التعبيرُ بعبارة « كم » الخبرية الدالة على التكثير؛ تنبيهًا من الجبار ﷻ لطغاة قريش - زمنَ النبوة - ولكل الأمم الطاغية بعدها إلى قيام الساعة؛ إلى كثرة القرون الهالكة في الأزمنة السابقة لهم؛ بسبب تعرضها لنقمة الله وغضبه الشديد، والعياذ بالله! ومعنى القُرُونِ جمعُ قَرْنٍ، وهو: الجيل الواحد من الناس، أو الأُمَّةُ الواحدة من البشر. وبهذا المعنى يَرِدُ لفظُ « القَرْنِ » في القرآن مطلقًا، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦] (١)، وأما دلالته على المائة عام فإنما هو اصطلاح حادث.

فالقرون البائدة ممن أهلك الله ﷻ كعاد وثمود وأضرابهما، كانت أممًا قوية جبارة، ذات طغيان وبطش شديد؛ بما أمدها الله به من قوة جبارة في أبدانها، ووفرة في الخيرات والنعم من الأموال والأنعام والحرث! ومكن الله لها من شدة البطش والجبروت والثراء ما لم يمكِّن لقريش وأضرابها، وأوتي رجالها من أسباب القوة ما جعلهم يُنَقِّبُونَ في البلاد تنقيبًا! والتنقيب من النَّقْبِ وهو: الثقب في الجبل ونحوه، كما يدل على معنى الحفر والبحث. والمقصود أنهم ضربوا في الأرض ورحلوا إلى كل مكان؛ بحثًا على الثروة وطمعًا في الحصول على ما يكون به الخلود في الأرض، وخرطوا لذلك الطرق والنقوب وهي: المسالك الجبلية الوعرة، والبيوت المنحوتة فيها، كما قال تعالى عن ثمود: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

فكل هذه التحصينات والتنقيبات إنما هي محاولات بشرية مغرورة؛ رغبةً في الإفلات من النوائب والزلازل والكوارث والأعاصير التي تواتر في الناس أنها أهلكت

(١) وعليه يحمل أيضًا لفظ « القرن » في قول النبي ﷺ: « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ! » متفق عليه.

هذه الأمة أو تلك، وأبادت هذا القرن أو ذاك! وينسى الطغاة الجهلة أنما هي نقمة اللَّه الواحد القهار، وأنه ﷻ لا يستعصي عليه حصن ولا نقب! فالأرض كلها قبضته والسماوات مطويات بيمينه؛ ولذلك عبر عن فعلهم الفاشل اليائس بقوله تعالى: ﴿ فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ ﴾؟ والمحيص: المفرُّ والْمَلْجأ والْمَهْرَبُ، من حَاصَ يَحِيصُ: إذا حَادَ وانحرف عن الشيء حَذَرًا منه وخوفًا. ولقد حاولت البشرية بشتى أجناسها وحضاراتها، منذ أقدم العصور وما تزال، تبحث عن محيص من الموت، ومهرب من الفناء؛ لكن المفاجأة البئيسة أنها بقدر ما كانت تسرع خطاها في طريق الفرار؛ كانت تسيخ بها أقدامها في جرف الهلاك، حتى تلقى فيه حتفها!.. ولذلك صِيغَ التعبيرُ هنا عن قصد الفرار بأسلوب الاستفهام المفيد للنفي: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ ﴾؟ للدلالة على الفشل والخسران، واليأس من الوصول إلى المراد! فلا نجاة من قَدَرِ اللَّه إذا وقع، ولا فرار من عذابه إذا أخذ قومًا بذنوبهم! ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾! والذِّكْرَى هي بمعنى الْعِبْرَة والموعظة. وإنَّ تدبر تاريخ الشعوب البائدة، ومصارع الأمم الجائرة، ومهالك الطغاة في كل زمان ومكان، وفيما تجري به أحداث الزمان الآن؛ لهو ذكرى لمن كان له قلب حي سليم! ولمن تلقَّى آيات هذه الحقائق وأخبارها بإنصات حديد وانتباه شديد. فإلقاء السمع كناية عن الإنصات الشامل الكامل، والتلقي الوجداني العالي للحقيقة؛ ولذلك قال بعدُ: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، أي شاهد القلب، حاضر العقل، يقظ الشعور، غير شارد ولا غائب في متاهات البلادة والغفلة الثقيلة!

ويستمر الرحمن ﷻ في تسلية رسوله ﷺ وكل داعية سار على نهجه، فيشير تعالى إلى أنه قادرٌ على جميع خلقه، غالبٌ على أمره، لا يعجزه شيء، ولا يتعبه خلق ولا تدبير، وأنه كلما أراد أخذ قوم بطغيانهم إلا وأخذهم أخذ عزيز مقتدر! وأنه متى أراد إفناء هذه الحياة الدنيا وحشر الناس ليوم الحساب إلا وكان ذلك في أقل من لمح البصر! إنه اللَّه رب العالمين، الخالق لكل شيء، القيوم على كل شيء، وهو على كل شيء قدير. كل ذلك يشير إليه ههنا قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ ﴾! فالذي خلق هذا العالم الكوني الرهيب، بجميع تجلياته المادية، وأعماقه الغيبية، بما هو عليه من تقدير موزون،

ونظام محكم بديع، من أطباق السماوات إلى عجائب الأرض، خلق كل ذلك في ستة أيام، وما مسَّه من لغوب، أي ما أصابه تعب ولا عياء، سبحانه، سبحانه! ذلك الرب العظيم هو الذي يكلم البشرية الآن بهذا القرآن، وينذرها بحقيقة البعث والنشور، وحشر العباد ليوم الحساب!

والخالق للشيء قادر على إعادته، بَلْهَ إفناءَه وإبادتَه! وهذا شبيه بما ورد في قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فالسياق كله إذن سياق تسلية وتأنيس، وتثبيت للرسول ﷺ وأتباعه على عقيدة الثقة العالية بالله؛ ثم تلقينه منهاج التعامل مع دجل الملاحدة، وأراجيف الكفرة الفجرة، وطريقة مواجهة الحصار الإعلامي الباغي، والحرب النفسية والكلامية، التي تبوء بوزرها دوائر الشيطان المظلمة، والتي تروم إرباك مسيرة الدعوة إلى الله، ومحاولة إطفاء نورها بكل الوسائل! فيلتفت الخطاب القرآني برفقٍ وحنوٍّ إلى رسول الله ﷺ، ويخاطبه بكلماتٍ منهاجية عميقة المغزى، مُكْتَنِزَةٍ بالحكمة، يخاطبه مُصَبِّرًا ومُعَلِّمًا: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾. وبذلك كان ختام السورة.

وهو ختام يربط نهاية السورة بأولها ويذكر بقضيتها الكبرى، قضية البعث التي جحدها الجاحدون، والتي كانت أول ما أثير عند مفتتح السورة: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾. كذلك كانت مقدمة السورة وفاتحتها، ثم جاء وسط السورة وعرضها؛ لتفصيل البيان لقدرة الله على البعث، وعرض مشاهد لمراحله وصوره ومآلاته، ثم انتهت السورة إلى هذه المعالم المنهجية التي تبين للمؤمن كيفية التعامل مع مقولات الكافرين المذكورة ابتداءً، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴿٣٩﴾ ﴾.. إلى آخر السورة.

وإنه لختام مُكْتَنِزٌ عظيم! جمع فيه الرحمن - جل ثناؤه - للمؤمن الداعية زادًا تربويًّا ومسلكًا منهاجيًّا، كاملَ الخطوات واضح الغايات، لا يضل الآخذ به في دعوته، ولا ينهار ولا ينهزم أبدًا!

فأول زاد الطريق معرفةٌ بالله ﷻ ، والاطمئنان إلى قدرته وعظمة سلطانه. وثاني زاد صبرٌ جميلٌ على أراجيف الدجاجلة والمجرمين، مما يثونه حول الدعوة ورجالها، ومما يحاولون به تشويه عقيدة الإسلام أو تمييع حقائقها! وإنهم ليقولون ويقولون! ولقولهم اليوم أثر خطير؛ لِما لوسائل الإعلام الحديثة من قوة سحرية على قلبْ الحقائق، وتدمير حصون القلوب والعقول! فالصبر على ذلك كله والثبات في نفس الوقت على أداء الرسالة كفيل بنصرة الحق بإذن الله! ولا ينبغي لمؤمن أن تثبطه مقولات المبطلين، وتُرَّهات الدجاجلة والشياطين! فإنما هم يقولون ما يقولون؛ كي تتوقف أنت عن نشر دعوة الخير؛ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴿٣٩﴾ ﴾! وامض في طريقك ثابتًا، لا تلتفت إليهم أبدًا، واشتغل بدعوة القرآن! فإنك مستند إلى رب عظيم وملك كريم! وتزود للمعركة ولطول الطريق من التسبيح بحمد الرب العظيم! ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾!

وجمهور المفسرين على أن المراد بالتسبيح هنا: الصلاة. وتسمى الصلاة تسبيحًا لاشتمالها على حقيقة التسبيح لفظًا ومعنًى. فالركوع والسجود وسائر أفعال الصلاة، مدارها على تحقيق معنى الخضوع والخشوع، والتذلل بين يدي الله رب العالمين؛ تنزيهًا له تعالى وتقديسًا وحمدًا. وذلك معنى التسبيح بحمد الله. وملابسة التسبيح للحمد ههنا - كما هو في كثير من الآيات والأذكار النبوية - دالٌّ على أن المطلوب هو الجمع بين حقيقة التنزيه لله تسبيحًا، وبين عبارات الشكر والثناء عليه تعالى حمدًا. يجمع المؤمن ذلك كله على مستوى العبارات والمعاني والشعور؛ لأن التسبيح والحمد معنيان متكاملان، كلاهما يؤول إلى تمجيد الله رب العالمين، والدخول تحت طاعته وسلطانه. فنحن نسبحه تعالى وننزهه؛ بما هو أهله من الثناء والحمد.

والتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل وإدبار السجود، شامل لكل الصلوات الخمس، وما يلحقها من نوافل وتهجد. مع إشارة تمييز لصلاتي الصبح

والعصر؛ لِمَا لهما من خصوص مذكور في السنة [(١)]. وقوله: ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ محتمل لنوافل الصلوات التي تكون بُعَيْدَ الفرائض المكتوبات، ومحتمل للتسبيحات والأذكار المسنونات، التي تكون بُعَيْدَ الصلوات. ويجوز أن يكون كل ذلك مُرَادًا مقصودًا. وقد قُرِئَتْ عبارةُ: (إِدْبَارَ) بكسر الهمزة على المصدر، من أَدْبَرَ يُدْبِرُ إذا ولَّى وانتهى. كما قُرِئَتْ: (أَدْبَارَ) بفتحها على معنى الظرف، وهو جمع دُبُرٍ بمعنى عَقِبَ وخَلْفَ. ومآل القراءتين واحد لا يختلف؛ لأنَّ كُلًّا منهما مفيدٌ لما بعد الشيء.

ومن لطائف الإشارات ههنا ربط حركة السير التعبدي إلى اللّٰه - تسبيحًا وذكرًا وصلاةً - بحركة الفَلك الدائر السائر إلى اللّٰه، ومراعاة مواقيت مخصوصة من منازل الليل والنهار - قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن الليل.. - مواقيت ذات أسرار، هي عبارة عن محطات خاصة؛ لتجديد زاد التلقي عن اللّٰه، والاستمداد الروحي من بركات التأييد والتسديد. فترى المؤمن يحيا مع اللّٰه على كل حال، يشعر بحركة الزمن الراحل شعورًا عميقًا، ويرى من خلاله ساعة البعث قادمة قريبة! ولذلك قال بعدُ مباشرة: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾! وهذه خطوة منهاجية أخرى من خطوات السير إلى اللّٰه، وزاد جديد في طريق مواجهة أباطيل الكفار وتشكيكاتهم.. التحقق الإيماني بقيام الساعة وحقيقة البعث، تحققًا يجعل الإيمان بذلك على مقام اليقين الراسخ المكين! ولذلك عبر عنه ههنا بفعل الأمر بالاستماع لنداء الحشر، والأمر بالإنصات لنفخة البعث، والترقب لحدث القيامة الرهيب؛ وذلك للدلالة على حتمية الوقوع وعلى أنه أمرٌ قريبٌ وشيك الوقوع! ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾! والمنادي هو المَلَك النافخ في الصور، وسينطلق نداؤه بقوة من مكانٍ قريب حول الأرض؛ حتى ليجدن كل إنسان كأنما هذا النفخ الرهيب واقع عند شحمة أذنه! فيصعق لنفخة الصعقة، وينهض لنفخة البعث! ولا يفصل ما بين النفخة والاستجابة -

---

(١) من ذلك ما في الصحيحين عن جابر بن عبد اللّٰه ﷺ، قال: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: « أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ. فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا - يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ ؟ فَافْعَلُوا! » ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ») متفق عليه.

في كلتا الحالين - ولا مقدار لمحة من بصر! إنه حدثٌ آتٍ قريبًا قريبًا، وإن الأذن المؤمنة لتتوقع سماع النفخة في أي لحظة! وإن النفس - وهي تعيش في غمرات هذه المشاعر الإيمانية الحية - لتضطرب أنفاسُها خوفًا من هول ذلك اليوم! ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝ ﴾! ولكنها تَسْكُنُ بعدُ وتلين مطمئنة إلى ذكر اللّٰه. وتمتلئ مواجيدها بزاد الثقة العالية باللّٰه. وتلتفت إلى مشاهدة عصابات الكفر كيف يكون حالها مع ذلك اليوم الحق، ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ... ۝ ﴾ الحق الذي كانوا ينكرونه ويجحدونه، ها هو ذا الآن ينطلق في أرجاء الكون، صرخةً قويةً مدويةً في كل مكان! صرخةً تصخ الآذان، وتقرع القلوب والأعصاب، فلا يبقى مخلوق إلا واهتز لها اهتزازًا! إنها صيحة الحق ونفخة البعث، وَعْدُ اللّٰه العظيم! فلا ترى بشرًا إلا وهو ينهض من ترابه، ويخرج من قبره، فيسير سعيًا إلى ميعاد ربه! ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝ ﴾!

ويُعَزِّزُ هذا المشهد الرهيب ببيانٍ من الرحمن، أنما هو وحده الفاعل في كل ذلك، إحياءً وإماتةً وحشرًا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾، هكذا بهذا التعبير المؤكد الثابت الراسخ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ... ﴾.. وتلك صفات من أهم صفات الربوبية، أنكرها الجاحدون فكفروا كفرًا شنيعًا، وبذلك استحقوا نقمة اللّٰه وعذابه الشديد! فاللّٰه ﷻ هو الخالق لكل شيء، المحيي لما خلق، وهو المميت لمن يريد، الوارث لكل شيء، وهو المعيد لما أفنى، الباعث لكل نفس، سبحانه كل شيء منه يبدأ، وكل شيء إليه يعود، يحيي ويميت وإليه المصير. فلا شيء إلا وهو يصير إلى ربه، ويؤوب إلى ميعاده المحتوم، وإنه لا حول لمخلوق ولا قوة له إلا باللّٰه. كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

ويستمر الوصف للحظة البعث، وانطلاق الحشر، ههنا في سورة « ق »؛ في لقطة حية تزيد المؤمن ثقة بربه، وتزوده مددًا إيمانيًا لمواجهة أعدائه، فيقول ﷻ ، تتمةً لوصف يوم الحق: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ ﴾، وإنها لتشقق عنهم كما تشقق عن النبات، وعن رؤوس الفسائل الصغيرة، وقرئت « تَشَّقَّقُ » بتضعيف الشين وبتخفيفها، والمقصود واحد. وفيها إيحاء لطيف بمشهد حركة الإنبات المتكررة على الأرض، كما بُيِّنَتْ في أول السورة، تربو الأرض أولًا

وتهتز، ثم تشقق فتخرج الشجيرات فسائل طرية ندية، فلا تزال تنمو حتى تصير أشجارًا! كذلك تخرج أجساد بني آدم من قبورها وأجداثها. وقد سبق حديث النبي ﷺ: « **ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ!** »[1] حتى إذا تم خلقها واستوى، أُمِرَ المَلَكُ بالنفخ في الصور، فتتدفق الأرواح من عالم البرزخ، كل روح يتنزل على جسده لا يخطئه ولا يضل عنه أبدًا! وما هي إلا لمحة خاطفة؛ حتى تكون الحياة قد انتفضت في أجساد البشرية جميعًا! فيخرج الناس من ترابهم إلى ربهم سِرَاعًا، يساقون إلى ساحة الحشر، وهم ينقلون الأقدام الحافية على الأرض مسرعين! وإنه لبعث يسير، وإنه لحشر يسير، يسيرٌ أمره وتكوينه على الخالق العظيم، الذي يقول للشيء: كن فيكون! هذا الأمر الذي ينكره الكفرة، ويحيله الجهلة بالله.. إنه أهون على الرحمن وأيسر، وكيف لا؟ وهو الذي خلق السماوات والأرض من قبل ولم يَعْيَ بخلقهن، ولا بخلق من فيهن! خلق كل ذلك جميعًا ولم يكن شيئًا مذكورًا. فسبحانه وتعالى عما يصفون ويتوهمون!

ويختم الرحمن - جلت عظمته - السورة بهذه الآية المنهاجية الجامعة: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾. وهذه تسلية كريمة لرسول الله ﷺ وتوجيه منهاجي له ﷺ ولكل داعية إلى الخير بعده؛ إذ يخاطبه الرحمن - جل ثناؤه - بهذا الإعلام الكريم: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾! وإن من قوة هذا القرآن أن الرب الجليل سبحانه، متكلم به مع رسوله ﷺ، ومع الناس أجمعين، يتكلم بضمير المتكلم الحاضر الدال على العظمة، هكذا: (نحن). وتصغي - وأنت تتلو القرآن - إلى الله يخاطبك! فما أجله من مقام وما أعظمه من خطاب! هو الرحمن ﷻ يُعْلِمُ عبده الداعي إليه بأنه أعلم بمقالات الكفار، وأعلم بترَّهاتهم ومكائدهم! وكفى بهذه الحقيقة دلالة على أن كل مساعيهم الشريرة ستؤول إلى الخسران المبين، وإلى الفشل الذريع، وأن كل مقولاتهم وأراجيفهم ستتحطم أمام سيل الحق الهادر! فالله ﷻ هو الذي يقود معركة الحق من فوق عرشه! وكفى بذلك طمأنينة وسكينة للقلب المؤمن، وكفى به دلالة على معرفة نتيجة المعركة الفاصلة، وكفى به زادًا إيمانيًّا عظيمًا، يغذي القلب بوارد الثقة بالله!

---

(١) جزء حديث متفق عليه. وقد سبق إيراده بتمامه في المجلس الأول.

ومن ثم يبين الرحمن سبحانه لرسوله ﷺ حقيقة هذه الرسالة الإلهية، وطبيعة هذه الدعوة الربانية، وطبيعة وظيفته إزاءها، وشكل مسؤوليته تجاهها، وأنما هو عبدٌ مبلِّغٌ عن اللَّه، يقيم حجة القرآن على الخلق، ويبين لهم حقائق الإيمان، وما عليهم من حقوق الخالق العظيم، ببلاغ قرآني مبين، لا إكراه فيه، ولا إعنات، ولا تجبر: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ... ﴿٤٥﴾ ﴾! كما قال سبحانه في سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

فدعوة الإسلام ليست دعوة إكراه، يتولاها طاغية جبار، فيقهر بها الناس قهرًا، كما هو شأن كثير من الفلسفات والإيديولوجيات المظلمة، التي حكمت في العصر الحديث كثيرًا من الشعوب المستضعفة بالحديد والنار! وسلطت على كل من خالفها زبانية التعذيب والتقتيل والتشريد! إن الإسلام دين رحمة، ودين قوة في نفس الوقت، يعرض عقيدته على الخلق بالحجة والبرهان. يخبر الناس بحقيقة الحياة الدنيا وطبيعة الوجود البشري فيها، ويعرف الخلق بخالقه، وبما له تعالى عليهم من حقوق الألوهية، ثم يَكِلُهُمْ إلى عقولهم واختياراتهم، فمن اختار الشكر فقد سَلِمَ وأسلم، ومن اختار الكفر فقد تمرد على اللَّه؛ ولذلك خلق اللَّه الجنة والنار. فما الرسول إذن إلا نذيرٌ مُذَكِّرٌ، يُذَكِّرُ البشرية بهذا القرآن: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾. ذلك أن كلمات القرآن إنما تقع موقع الإيمان من القلوب المشفقة من اليوم الآخر، ومن الفِطَرِ السليمة التي تصغي إلى وعيد اللَّه ونذيره؛ فتدرك أنه الحق، ولا تعميها الأهواء والشهوات عن الاستجابة للَّه ولرسوله. بل تدخل في أمان الإيمان طائعة راضية، وتعيش في سلام دائم مع اللَّه.

تلك هي طبيعة هذا الإسلام، وتلك هي دعوة هذا القرآن. فإنما هي كلمة الهدى يلقيها الداعي المبلغ في الناس، فمن آمن فقد أسلم لربه، ومن كفر فإنما على الرسول البلاغ، وحساب الآخرة غير بعيد. وإنما الهدى من اللَّه وما ربك بظلام للعبيد.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في ست رسالات، تعرض أهم الخطوات المنهاجية، التي على المؤمن الداعية أن يتحلى بها عند القيام بدعوته في الناس؛ إذ بالتخلق بها والثبات عليها يكون الوصول إلى الهدف. وهي:

الرسالة الأولى: في أن الذكرى والتذكر والاعتبار، إنما يحصل لأصحاب القلوب الحية، والفِطَرِ السليمة، أو لمن استمع لخطاب القرآن بكليته الوجدانية والعقلية، حتى ولو كان قلبه مريضًا؛ ذلك أن القرآن كفيلٌ بعلاج أسقام القلوب. فلا يمل الداعي من إلقاء كلماته على الناس أبدًا. فمن قُدِّرَ له أن يهتدي فستنبعث فطرته - بإذن اللّه - حيةً معافاةً في يوم ما، وسيستجيب لنداء اللّه إن شاء اللّه. ومن ثم وجب الانتباه إلى أهمية مخاطبة الفطرة الكامنة في الإنسان؛ بما يصلحها ويخرجها من تشوهاتها. وليس كالقرآن أنفع لذلك وأصلح. إنه الكتاب الأوحد الذي يطرق القلوب بكلماته، ويرش لطائف الفطرة النائمة، أو العليلة، بماء الحياة حتى تستيقظ! إنه لا حد لطاقة القرآن العظيم! ولا شيء سواه أبلغ في بث الذكرى في القلوب.

الرسالة الثانية: في أن الواجب على المؤمن أن يقرأ للناس أحداث التاريخ، ويعرضها لهم من خلال منظار القرآن، وأن يفسر كل حركاته الاجتماعية والكونية بمنطق القرآن الرباني؛ ذلك أن الوصول إلى التحقق بمقام قراءة كتاب الحياة، من خلال نظارات القرآن، هدفٌ تربوي عظيم؛ لأن معنى ذلك أن العبد قد صار أعرفَ باللّه، وترقَّى في مراتب العلم به تعالى درجات! فصار لا يفسر شيئًا في الوجود البشري والكوني إلا مربوطًا بمشيئة اللّه! وتلك غاية دعوية إصلاحية أصيلة، وعقيدة يجب أن تصبح ثقافة سلوكية في المجتمع الإسلامي عامة. وهو مسلك مهم جدًّا، من مسالك تحقيق مناطات القرآن الكريم في الأمة، وتيسير الدخول تحت شريعته من جديد، إن شاء اللّه.

الرسالة الثالثة: في أن الصبر في أمور الدين والدعوة، إنما يتم لصاحبه إذا كان قائمًا على التزود من بركات الصلاة، فرائضها ونوافلها، والاستمداد الدائم لواردات الغيب، من مَعِينِ الإيمان باللّه واليوم الآخر.

فأما الصلاة فقد عُلِمَ مدى قوتها الروحية - إذا أُدِّيَتْ على وجهها - في إعداد « عبد اللّه » بحق! وتزويده بما لا قِبَلَ له به من قوة اليقين! وإن ذلك لهو أُسُّ الصبر على ضروب المحن والفتن؛ ولذلك قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال هنا في سورة « ق »: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ

ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ ﴾. وقد بينا أن المقصود بالتسبيح هو الصلاة. فثبت أن تحقيق أفعال الصلاة، خاصة من ذلك خشوعها، وخضوعها، ومناجاتها، وتسبيحاتها؛ هو أعظم وارد رباني لاستمداد الصبر الجميل على كل حال.

وأما الإيمان بالله واليوم الآخر، فهو المصدر العَقَدِيُّ الأول للصبر، والمطلوب هو استحضار حقائق هذه العقيدة في النفس على كل حال، ومشاهدة أنوار الأسماء الحسنى منعكسة على كل شيء، ومعرفة آثار الربوبية على كل حركة في الكون، وكذا ترقب ساعة الآخرة في كل لحظة! فهذه الحقائق ليست تصورات تُعتقد فحسب، ولا مجرد معان تُصَدَّقُ، ويُقِرُّ بها القلب واللسان وينتهي الأمر، كلَّا كلَّا! بل هي ههنا مجاهدة نفسية ومكابدة؛ لأن تزكية النفس حتى يكون إيمانها بالله واليوم الآخر على مقام المشاهدة والترقب؛ إنما هو مقام الإحسان، الذي معناه: « **أن تعبد الله كأنك تراه!** » (١)، وهو المقام نفسه المشار إليه - بالنسبة للشعور الأخروي - في حديث النبي ﷺ: « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟** » فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُمْ « **قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا!** » (٢).

هذه الحقائق هي موارد الصبر الدعوي حسب سياق الآيات في سورة « ق ». ولا شك أن موارده في كتاب الله كثيرة؛ منها الاعتبار بحياة الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وبمجاهَدات الصديقين والشهداء. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الرسالة الرابعة: في أن المؤمن الداعية رجلٌ أخروي، ينظر إلى الحياة الدنيا بعين الآخرة، وإنما هو يعرض للناس مشروعه على أنه دعوة إلى الحياة الآخرة. ولقد كان أول خطبة النبي ﷺ في الناس لما (صَعِدَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: « **يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ!** » لِبُطُونِ قُرَيْشٍ؛ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ؟، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ**

---

(١) متفق عليه.

(٢) حديث صحيح، سبق تخريجه مفصلًا بالمجلس السابق.

أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ » قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا! قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ! ») (١).

فعلى هذا الأساس العقدي العظيم، وجب أن يبني الداعية خطابه، وأن يسوق أدلته وشواهده. وإن ذلك لهو منهاج دعوة الرسل جميعًا كما هي مفصلة في القرآن، وأساس خطاب الرحمن للبشرية في كل زمان. إنه الاستعداد لليوم الآخر؛ بالعمل على تصريف جميع شؤون الحياة الإنسانية عليه، الفردية والاجتماعية سواء.

الرسالة الخامسة: في كون حقيقة الدعوة الإسلامية إنما هي تمكين خطاب القرآن من الوصول إلى القلوب، وطرق أبوابها بآياته وكلماته: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝ ﴾. ذلك أنه قد تقرر في كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ، أن القرآن هو المادة الرئيسة لدعوة الإسلام، وأن من أهم مظاهر العمل الدعوي، والتجديد الديني، بعث التداول الاجتماعي للقرآن الكريم، على جميع المستويات التربوية، والتعليمية، والتشريعية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية... إلخ، إن معنى دعوة الإسلام هو إيصال كلمات اللّه إلى كل مكان! وطرق جميع الأبواب بها على منهج القرآن، طرقًا لا يمل ولا يكل؛ حتى تُحقق الأمةُ هجرتَها من جديد، وتشرق شمس القرآن على العمران!

الرسالة السادسة: في أن الرفق، والشفقة، والتمتع بأخلاق السلوك الاجتماعي، وأدب الحوار، كل ذلك هو أساس نجاح الداعية إلى الخير. وأن الصبر على الأذى النفسي والمادي لهو من أرفع مراتب الأخلاق! ولا يكون الإنسان رفيقًا شفوقًا إلا إذا كان صابرًا.

ومن ثم فلا بد للداعية من مخاطبة مدعويه برفقٍ، وأن يقول لهم قولًا لينًا، يعتمد أساليب التقريب والتحبيب، دون التضجير والتنفير. وهذا لا يتنافى مع خطاب النذارة باليوم الآخر. بل هما يجتمعان ويلتقيان في حقيقة واحدة، بحيث يحدِّث الداعية الناس بحقائق الآخرة، من خلال مشاعر الإشفاق والمحبة، والحرص على نجاتهم! ولنا في رسول اللّه ﷺ أسوة حسنة، فقد حدَّث قومَه - عليه الصلاة والسلام - حديثَ

---

(١) متفق عليه.

أبوّة وأخوّة، وحنو بالغ، وعطف شديد. وأمثلة ذلك في السُّنة النبوية كثير.. ولك أن تتأمل هذا الحديث الشفيق الرفيق، الأَسِيفَ اللطيف، من قوله ﷺ: **« إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ جَعَلَ الْـجَنَادِبُ والْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا! فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا! فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ! هَلُمَّ عَنِ النَّارِ! وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي! فَتَغْلِبُونِي، تَقَحَّمُونَ فِيهَا! »** (١).

ذلك هو مَثَلُ الرفق الدعوي والإشفاق النبوي، الذي مارسه محمد بن عبد اللَّه ﷺ في دعوته. ولا شك أن مخالفة هذا المنطق القرآني الكريم - خاصة في دعوة تجديد الدين بين المسلمين - لا يقود إلا إلى فساد مبين! ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق هنا دائرة حول كيفية التحقق بشخصية دعوية قرآنية ربانية، تتخلق بأخلاق القرآن، وتسلك في دعوتها إلى اللَّه عبر مدارج الصبر الدعوي، وعبر مسلك الصلاة، على مدار الليل والنهار، وتعيش عمرها ودعوتها بأحوال الآخرة، رافعةً في الناس راية القرآن، تلقيًا وبلاغًا. فتثبت على ذلك حتى تلقى اللَّه. تلك هي الصورة النموذجية للداعية الرباني، التي مثَّلها رسولُ اللَّه ﷺ على مقام النبوة والرسالة، ومثَّلها الصحابة الكرام - رضوان اللَّه عليهم - تأسيًا بدعوته ﷺ، على مقامات الصديقية، والشهادة على الناس.

وتلك هي غايتنا في هذا الدرس القرآني العظيم. وإنما لها مسلكٌ عملي واحد رئيس، ألا وهو الدخول في مدرسة القرآن! وإخضاع النفس لمقارضها التربوية، تهذيبًا وتشذيبًا، وتَلَقِّي لَبِنَاتِ التزكية لعمران الروح من كلمات اللَّه، على ما بيناه في مدخل الكتاب وخلال مجالسه. ذلك مسلك رسول اللَّه ﷺ، الذي كان خُلقه القرآن، وهو الطابع العام المميز لجيل القرآن الأول، جيل الصحابة الكرام، رضي اللَّه عنهم أجمعين.

فاللَّهم إني عَبْدُكَ! وابنُ عبدِك وابنُ أمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُك،

---

(١) متفق عليه. وهو حديث مركب من روايتين في الصحيحين، إحداهما لأبي هريرة عن النبي ﷺ، والأخرى لجابر بن عبد اللَّه عنه ﷺ.

عَدْلٌ فِيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ بِه في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همِّي!

* * *

خَاتِمَة

إن ما اشتملت عليه سورة « ق » من حقائق الإيمان الكبرى، وأصوله العظمى، جعلها من أهم السور تعبيرًا عن رسالة القرآن على الإجمال؛ ولذلك فقد ابْتُدِئَتْ بِقَسَمِ الرب ﷻ بالقرآن، ثم اخْتُتِمَتْ بالتذكير بالقرآن، منهاجَ دعوةٍ ومنهاجَ دين! وكأنَ في ذلك إشارة إلى أن مضمونها هو مدار كل قضايا القرآن ورسالته!

وإن اشتمالها على قضايا توحيد الرب ﷻ في خالقيته، وفي جميع أسمائه وصفاته، وإسناد جميع مظاهر الوجود لإبداعه وصنعه، ودقة تقديره، وحكمة تدبيره، ودورانها على عقيدة البعث والنشور، والحشر والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والترهيب من ذلك كله والترغيب بخطاب إلهي مباشر قوي مبين؛ ليجعل سورة « ق » هي سورة البيان الإسلامي العام، الذي تجب تلاوته على جموع المسلمين في كل المناسبات؛ تذكيرًا بحقيقة هذا الدين، وبطبيعته الأخروية!

ولذلك فقد كان رسول اللَّه ﷺ يقرؤها على الناس في المجامع الكبار، كأيام الْجُمَعِ والأعياد، كما هو ثابت في السنة، فَعَنْ أُمِّ هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ رضي الله عنها قَالَتْ: (لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا، سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، إِذَا خَطَبَ النَّاسَ!) [١]، وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ ﴾، وَ ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] [٢].

وفي ذلك دلالة على أن البيان الإسلامي الذي وجب على الداعية إذاعته في الناس، إنما هو - كما ذكرنا - بيان أخروي، ونذارة قرآنية؛ لأن ذلك هو أساس كل مشروع إسلامي، وأصل كل تجديد ديني. ولا نجاح لدعوة لم تؤسِّس هذه العقيدةَ

(١ ، ٢) رواه مسلم.

العظيمة في النفوس، ولم تضع لبناتها الأولى على أصل متين، ولم تغرس جذورها في عمق التربة النفسية والاجتماعية للأمة! ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللّٰه.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

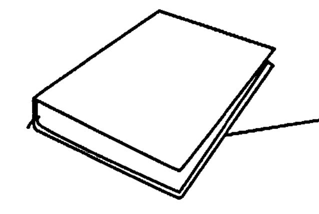
من التلقي إلى البلاغ

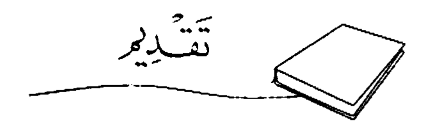
المدارسات القرآنية

٦ - سورة الذاريات

وهي مكية، وعدد آياتها (٦٠)

وهي تتضمن ثلاثة مجالس





أما سورة الذاريات فهي سورة اليقين.. اليقين في إقامة البرهان، واليقين في عرض حقائق الإيمان، وخاصة الأصول الكبرى، وخاصة من تلك الأصول: الإيمان باللَّه واليوم الآخر. إنها ترفع المؤمن إلى مقام اليقين منذ الْـمَدْرَجِ الأول، وتصرع الكافر بقوة اليقين منذ الجولة الأولى!

إن الخطاب في هذه السورة يتركز حول حقيقة البعث والجزاء، وحتمية وقوع يوم الدين. تمامًا كما هو في سورة « ق » وغيرها من السور. لكن سورة الذاريات تتميز عن غيرها؛ بتدفق آياتها على قلب المؤمن من على شرفات اليقين الأعلى! كما تتميز بعرض حقائقها اليقينية، عرضًا يتوجه من رب العزة - بكاف الخطاب - إلى الكفار مباشرة، أهل الْـخَرْصِ والتشكيك، فيلقي عليهم حقائق الإيمان براهين ذات صفعاتٍ، وحججًا ذات لطماتٍ، تقع على وجه الكفر فتبغته بَغْتًا، وتَبْهَتُهُ بَهْتًا!

ومن ثم كان لهذه السورة الرهيبة طبيعةٌ خاصة، ومذاق متميز؛ يجعلها تستقل بشخصيتها، مبنًى ومعنًى، وإشارةً وعبارةً، وحجةً وبرهانًا؛ ويجعلها جوهرة كريمة، لها موقعها الهام، الذي لا يعمره سواها في عقد القرآن المجيد.

إن حقائق الإيمان هنا في « الذاريات » تتجلى سيوفًا وصوارم من ألماس اليقين، يقين يجعلك تتلقى حقيقة اليوم الآخر، وتبصر واقعته، كما أنك الآن تسمع، وكما أنك الآن تنطق! يقين يتسلط على متارس الشك، والْخَرْصِ، والظن المريض، في قلوب الكفرة الفجرة، فيقصمها قصمًا، ويمزقها إربًا إربًا! بل إنها عاصفة من غضبة الحق، تهب على رمال الشك الزاحفة على النفوس الخبيثة، فَتَذْرُوهَا ذَرْوًا؛ حتى لا تبقي منها ذرة واحدة، تصلح حجة لكافر على كفره!

وتتميز سورة الذاريات بكلماتها القوية، ووقعها الشديد، سواء في طريقة البرهنة والحجاج، أو في سبك الأسلوب والتعبير. إنها تعمل على إثبات أركان الإيمان الكبرى جميعها في النفس، بكلمات مختصرة. وتسوق بهذا الأسلوب العجيب

المعجز، حقائقَ الإيمان بالله، واليوم الآخر، والإيمان بالرسل، وبالرسالة والكتاب، وبالملائكة، ثم القدَر. كل ذلك تعالجه السورة وتؤسسه في النفس، على مقام اليقين الراسخ المكين!

ولكنها تتفرد في ذلك كله وتتميز، بأسلوبها في الدعوة إلى الإيمان بيوم الدين خاصة؛ إذ تنتصب عباراتها كلماتٍ وجملًا، هي من القوة بحيث تحطم تخرصات القلب، الحاجبة لبصيرته، الطامسة لفطرته، فتجعله يبصر حقائق الآخرة بيقين الشهود! وكأن في تسميتها باسم « الذاريات » - وهي الرياح - إشارةً إلى أنها سورةٌ ذات اختصاص بِذَرْوِ غبار الباطل، ونسف ركامه نسفًا، وإجلاء آثاره عن البصائر، كلما حجبها ضبابُه عن الإبصار، أو أدخلها في ظلمات الحيرة والضلال!

إن سورة الذاريات هي سورة الوعد الصادق، والخبر الواقع، والحق المبين اليقين؛ ولذلك ترادفت فيها التعابير القوية المتينة، والكلمات الشديدة المكينة، والجمل الاسمية القصيرة، والتوكيدات المتعددة المتتابعة، والفواصل الكثيرة، آيات محكمات مبينة، منزلة من الرحمن، قواطعَ لكل ريب، ومخارسَ لكل جدل! كما تعدد فيها القَسَمُ من رب العزة ﷻ - أوَّلَ السورة ووسطَها - القَسَمُ بعظائم خلقه، ومظاهر قدرته، على وقوع اليوم الآخر وحتميته. قسَمٌ يبني في النفس المؤمنة حصون السكينة ومعراج اليقين، ويحطم في النفس الخبيثة تخرصات الشك، وإلقاءات الشياطين.

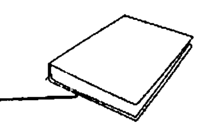
وعلى هذا السياق، ومن أجل هذا الهدف، عَرَضَتْ السورة لآيات الله في الآفاق، ولآياته في الأرض، وفي الأنفس، ثم لسننه الجارية في التاريخ البشري والرسالي، إلى أن تدرجت خواتيمُها نحو باب النجاة، فرارًا إلى الله، ودخولًا تحت أمان عبادته، على مقام اليقين. ثم وقفت على ما بدأت به، من تجديد التهديد والوعيد للخَرَّاصِينَ الظالمين، أعداء اليقين، وجاحدي الحق المبين. ثم بقيت كلماتها أصداء قوية في أُذن الزمان إلى يوم الدين!

تلك خلاصة مركزة عن طبيعة سورة الذاريات، وبيانٌ لمحورها الأساس.

فلنشرع الآن بحول الله في مدارستها، وتَلَقِّي كلماتها على التفصيل، والله المستعان.

المجلس الأول

في مقام التلقي لبرهان اليقين
ومعرفة مآل الخرّاصين ومدارج المتقين



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللّه جلّت حكمته: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣
فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧ إِنَّكُمۡ لَفِي
قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١
يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ
تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ
مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ
لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ
رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ ﴾.

٢ - البيان العام:

يكاد يجمع المفسرون إلا قليلًا، على أن المقصود بهذه العبارات المقسم بها هنا في مفتتح السورة، أمورٌ أربعة، هي من عظيم مخلوقات اللّه، ومظاهرُ من تجليات قدرته ﷻ. فالذاريات هي الرياح، سميت بذلك لما تقوم به من الذَّرْوِ، وهو حركة العصف، والإثارة، والتحريك القوي للأشياء؛ كَذَرْوِ الغيوم في الفضاء، وتهييج الأمواج في البحار، وإثارة الغبار والرمال في الأرض، وشتى ضروب الهشيم والغثاء (١).

(١) نقول: ذَرَا الفلاحُ القمحَ وذَرَّاهُ أيضًا، يَذْرُوهُ ويَذْرِيهِ ويُذَرِّيهِ: إذا جعل يرفع ركامَه في البيدر بالمذراة، ثم يرمي به في الهواء بين يديه؛ لتصفيته من التبن والقذى. ن. مادة « ذرا » و « ذرو » في لسان العرب وغيره.

وأما « الحاملات وِقْرًا » فهي السُّحب المحملة بالأمطار، والْوِقْرُ كالْحِمْلِ، وَزْنًا ومعنًى، جمعه أَوْقَار، وهي: الأحمال والأثقال [١]. وأما « الجَارِيَات يُسْرًا » فهي السفن تجري على البحر بيسر وسهولة، ويلحق بها الناقلات الجارية في البر، والطائرات الضاربات في أعالي الفضاء، فكل ذلك مشمول بوصف « الجاريات ». وأما « الْمُقَسِّمَات أَمْرًا » فهي الملائكة الموكلة بتقسيم الأرزاق والمقادير، على ما قدَّر اللَّه في الأزل وقضى.

هذا هو المشهور عن الصحابة ﷺ في تفسير هذه العبارات الأربع، وقد رُوي ذلك عن علي ﷺ بأسانيد كثيرة، كما عند الطبري [٢]. ورواه البخاري عنه مختصرًا معلقًا [٣]. كما رُوي نحوُه عن ابن عباس وعمر، وبعض التابعين كمجاهد. وقيل: إنما المقصود بهذه الكلمات كلها شيء واحد، هو الرياح، ذُكرت باختلاف صفاتها، وتعدد وظائفها. فهي تهيج فتذرو الأشياء حينًا، وتحمل أوقار الغيوم حينًا، ثم تجري يُسْرًا حينًا آخر، وتقسم مقاييس الأمطار على الأقاليم على ما قدَّر اللَّه، أحيانًا أخرى [٤]. لكن المعنى الأول أرجح؛ لأنه أثبت من جهة، ولأن تعديد البرهان وتنويعه أنسب هنا؛ لإثبات المقسم عليه، من أمر الوعد الحق، والبعث والنشور.

تلك معاني العبارات، فلنشرع الآن – بحول اللَّه – في تدبر الكلمات:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝ ﴾!.. إن هذه الآيات المركَّزة القصيرة، لهي أشبه بطلقات نارية متتابعة شديدة، تخرق صدر الشيطان، المحيط بقلب الكافر الجاحد، يملؤه بالتمرد والعصيان، ويلقي فيه وساوس الشك والتردد والبهتان! وإنها لأشبه أيضًا بصفعات قوية أليمة، تضرب وجه الإنسان الغافل الثقيل، الذي لم يزل يغط في خريف غفلته، وقدمه توشك أن تزلَّ به من على شفا خطر عظيم!

---

(١) قال صاحب الصحاح: (الوَقْرُ بالفتح: الثِّقْلُ في الأُذن. والوِقْرُ بالكسر: الحِمْلُ. يقال: جاء يحمل وِقْرَهُ. وقد أَوْقَرَ بغيرِه. وأكثرُ ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْلِ البغلِ والحمارِ، والوَسْقُ في حِمْلِ البعيرِ. وهذه امرأةٌ مُوقَرَةٌ، إذا حملت حَمْلًا ثقيلًا. وأَوْقَرَتِ النخلةُ، أي كثُر حملها)، مادة: « وقر ».

(٢) ن. تفسيره للآيات.

(٣) ن. كتاب التفسير من صحيحه.

(٤) ن. تفسير الآيات في مفاتيح الغيب للرازي.

وإن التالي للآيات بقلبٍ حيٍّ يقظ، يتلقَّاها قَسَمًا عظيمًا من الرحمن، بل أَقْسَامًا عظيمةً متتاليةً؛ ليكاد يشعر برياح الحق تعصف به عصفًا، بل تكاد تذرو ذرات جسمه في الفضاء ذَرْوًا! وإن الفزع ليهز دقات قلبه هَزًّا! وإن لمشهد الرياح العاصفة وهي تَذْرُو الأشياء ما بين الأرض والسماء، ومشهد الغيوم الزاحفة المحملة بأثقال الأمطار، ومشهد السفن السائرة - ونحوها من الناقلات - تمخر عباب البحار، ومشهد الملائكة وهي منهمكة في نشاطها اليومي في السماء، تقسم الأرزاق بين العباد، وتوزع مكاييل الأمطار على الأقطار، وفق ما استنسخته من مكتوب اللوح المحفوظ؛ فتسوق الرياح على تلك المقاييس وبتلك الموازين، ثم يكون ما قدَّر اللَّه للناس في الأرض، من ثمار وطعام وأرزاق، ثم تجري حركة التجارة بين الشعوب والبلدان، عبر الناقلات الجاريات في البحر، وفي البر، وعبر الطائرات العملاقة الضاربة في أعالي الفضاء، محملة بأطنان الأثقال، فهذه وتلك جميعًا مشمولة بعبارة ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾، كلها تجري يسرًا بالأرزاق؛ لتوصلها إلى مَحَالِّهَا المقدَّرة لها تقديرًا، في علم اللَّه الأزلي!

إن الصورة رغم أنها مكونة من أربعة عناصر مختلفة، إلا أنها تتركب في مشهد كلي واحد، مشهد منسجم ينبض بالحركة والقوة والحياة، ويوحي بأن اللَّه ﷻ قد أحاط بهذا الكون، عِلْمًا وقُدْرَةً ورعايةً وتدبيرًا. وأن حوادث هذه الأرض وما يجري فيها، إنما هي نتيجة وانعكاس لما يُقَسَّمُ في السماء ويجري فيها! وبذلك استحق هذا المشهد الكلي العظيم، بعناصره الأربعة وقواه المختلفة أن يكون مُقْسَمًا به من لدن الرحمن على مقصود السورة وهدفها الأساس، ألَا وهو التحقق الواقع لا محالةَ ليوم الدين.

ذلك أن المتحكم في الأرض بهذه الحركات القوية الجبارة، الجارية بين السماء والأرض تقديرًا وتدبيرًا؛ هو متحكم في مآل ذلك كله، إفناءً وتدميرًا، ثم بعثًا ونشورًا! ولذلك كان جواب القَسَم: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾! فذلك الوعد الموعود، الذي جاءت الرسل بخبره من عند اللَّه، وذلك الدِّينُ المنتظَرُ يَوْمُهُ وساعتُه - والدِّينُ هنا: هو بمعنى الجزاء وتعاطي الحساب - كل ذلك وَعْدٌ صادق، وأمرٌ واقعٌ لا محالة. صادق كصدق الرياح إذا هبت من حولكم، والسحب إذا أمطرتكم بوابل المياه، وكصدق الأرزاق إذا وصلت إلى أفواهكم، عبر آلاف

الأميال التي تقطعها السفن والناقلات البرية والجوية، مُصَدِّقَةً بذلك قضاءَ اللّٰه وقدرَه، ولمقاييس الملائكة المقسمة للأرزاق على ما قدَّر اللّٰهُ وقضَى.

ومن ذا قدير على حبس الريح العاصف إذا ثار؟ أو التحكم في غضب الإعصار؟ أو منع الغيم الثقيل عن الإمطار؟ أو منع وصول مقادير الأرزاق؟ إذن؛ فليمنع وقوع القيامة إذا قامت! أو ليدفع عن نفسه الموت إذا استطاع! كلّا كلّا! ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ ﴾!

وتنهال صفعة أخرى على وجه الإنسان، الإنسان الجاحد المعاند، يتصدرها قَسَمٌ جديد من الرحمن بأمر عظيم، يتبعه جواب منه تعالى، يتوجه مباشرة بكاف الخطاب، إلى الكفرة الفجرة، تحطيمًا لما يلفقونه من تصورات كاذبة، ونظريات جاهلة، مادتها ونسيجها الدجل والبهتان، فيقول ﷻ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝﴾! فهذا القسم الجديد من الرحمن، يعرض جانبًا عظيمًا من بديع صنع اللّٰه ذي الجلال، إنها السماء ذات الْـحُبُكِ؛ أي ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء، على قول ابن عباس وجمهور التابعين [1]، من الْـحَبْكِ وهو: الإحسان، والإحكام، والإتقان في صناعة أنسجة الثوب وغيره. والْـحُبُكُ مفرده حَبِيكَةٌ، وهي: نقوش الريح على الرمل، وما تتركه على كثبانها من خطوط طبيعية والتواءات جميلة. وكذلك الماء الكثير الساكن، إذا مرت به الريح تجعله حَبَائِكَ وحُبُكًا، أي أنها ترسم على سطحه تمَوُّجات صغيرة ذات أشكال بديعة، تُسَمَّى حُبُكَ الماءِ، وحبائك الشَّعر: تدرُّجه إذا مُشط [2].

فمن هنا وُصِفَتِ السماءُ بأنها ذات الْـحبُكِ؛ وذلك بما جعل اللّٰه فيها من أفلاك ومجرّات، وكواكب عظيمة، ونجوم سيارات، وبما جعل في ذلك كله من توازن خارق، يحير العقول ويسلب الألباب! ثم بما لها من تجليات الجمال والجلال تختلف على مدار الفصول، وعلى اختلاف الليل والنهار. فلكل لحظة في السماء تجلٍّ من الحسن، ينسيك بهاؤه بهاءَ التجلي الذي كان قبله! هذا على قدر ما تدركه العين الناظرة، وأما من طالع مقولات علم الفلك الحديث، وأخبار ما تلتقطه المراصد

---

(١) ن. تفسير الآية عند الطبري وابن كثير.

(٢) ن. مادة: « حبك »، في الصحاح، واللسان، والقاموس المحيط.

الفلكية الكبرى من الحقائق العلمية الكونية، فإنه يزداد انبهارًا بهذه الْـحُبُكِ العجيبة! ذلك أن تصور الإنسان لا يبقى حبيس ما تلتقطه العين المجردة، بل يمضي به خياله في تتبع مواقع النجوم الضاربة في عمق السماء، بعيدًا بآلاف السنوات الضوئية! ويتصور المدارات البعيدة، ويتتبع بذهنه حركة النجوم والمذنبات السيارة التي لا يكون موعد مرورها قرب مجرة الأرض، إلا بعد سبعين سنة وأكثر، تمر خاطفة، ثم تمضي بعد ذلك في فلكها الكبير، ضاربة في تيه الكون المجهول! نجوم وكواكب ومذنبات تعد بملايين الملايين، كلها تجري في أفلاكها بمدارات متداخلة شتى! ومع ذلك لا تصطدم ذرة منها بذرة! وتبقى حُبُكُ السماء إعجازًا أبديًّا للبشرية - مهما تطورت معارفها - وتحديًا يخاطبها بعظمة الخالق الكبير المتعال!

تلك ومضة من مضمون القَسَم بالسماء ذات الْـحُبُكِ، وأما جوابه فهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۞ ﴾! والقول المختلف هو الكلام المتناقض المتضارب المضطرب، الذي لا يستقيم على ميزان سليم، ولا استدلال مطرد. كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] بمعنى لوجدوا فيه تناقضًا كثيرًا واختلاطًا واضطرابًا.

ومن بديع التقابل في هذه الآيات - من الذاريات - أنه تعالى أقسم بجمال السماء، وحسن انتظامها، وتوازن نجومها، ودقة ترتيبها، وحبك أفلاكها ومواقعها، أقسم بذلك على اضطراب مقولات الكفار، وتناقض نظرياتهم، وفساد أحكامهم! وإذا حكم الخبير في جمال الصنع والإبداع على فساد شيء واختلاطه فهو حجة دامغة! فكيف إذا أقسم بحسن صنعه وبديعِ حَبْكِهِ؟ نعم ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۞ ﴾! أي إنكم لفي قول متناقض مضطرب، لا يستقيم. وإنما ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۞ ﴾، بمعنى: يضل عن حقيقته وينخدع به، من سبق الضلال إلى قلبه؛ بما سكنه من الهوى، فأعمى الله بصيرته! تقول: « أُفِكَ الرَّجُلُ يُؤْفَكُ »، إذا راج عليه الإفْكُ وانخدع به. والإِفْكُ: هو الكذب الغليظ، والافتراء العظيم، والبهتان المبين. فإذا صار معتقدًا لصحته الموهومة فهو مَأْفُوكٌ. وهو بذلك يُضَلَّلُ عن حقائق الإيمان، وعن حقيقة الحشر والمعاد، فتحطمه الشكوك والظنون؛ بما سكن قلبَه ابتداءً من هوى وضلال! (١)

---

(١) جاء في كتاب « المحيط في اللغة » للصاحب بن عباد: (الإفْكُ: الكَذِبُ، أفِكَ يَأفَكُ أفْكًا، ومنه قولُه ﷻ: =

فكان خلاصة هذه الآية أنه: يُؤْفَكُ بالباطل عن الحق، مَنْ أُفِكَ قبل ذلك بهواه وشهواته. ويؤخذ منها - بمفهوم المخالفة - أن المؤمنين يبصرون الحقَّ حَقًّا ويُرْزَقُونَ اتباعَه، ويبصرون الباطلَ باطلًا ويُرْزَقُونَ اجتنابه؛ بما جعل اللَّه في قلوبهم من الهدى واليقين.

ومن ثم توجه الخطاب إلى الخرَّاصِينَ الكذَّابين، أهلِ الشك والريب، الذين ينشرون نظريات الْـخَرْصِ في الدين بغير الحق، وهو القولُ الجِزَافُ الكاذب، والتخمين الواهم (١)، ويبثون مقولاته في كل مكان، يحاصرون بِتَخَرّصَاتِهِمُ الشيطانية دعوةَ الإسلام هنا وهناك، فأنزل اللَّه عليهم لعنته الشديدة، والعياذ باللَّه! قال ﷻ : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ ﴾! وعبارة الدعاء بالقتل في هذا السياق لعنة! أنزلها اللَّه ﷻ على الخراصين ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ ﴾، والغمرة في الأصل: بِرْكَةُ الماء الكثير، تمتلئ حتى تغطي مقرها، فتغمر من دخلها وتغرقه، وتُستعمل مجازًا للدلالة على الشدة، والزحمة، والسكرة؛ لأن السكران غارق في سكره. يقال: (رَجُلٌ مُغْتَمِرٌ: سَكْرَانُ (...) كأَنَّه اغْتَمَرَه السُّكْرُ، أَي غَطَّى عَلَى عَقْلِه وسَتَرَه!) (٢).

فمعنى ﴿ هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ أي غارقون في سكرة من الضلال، تغمر عقولهم،

= ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾. والأَفائكُ: جَمْعُ الأَفِيكَةِ للكَذِب. ورَمَاه اللَّهُ بالأَفِيكَة: أي بالداهِيَةِ المُعْضِلَةِ. وأَفَكْتُ فلانًا عن هذا الأَمْرِ: أي صَرَفْتُه عنه بالكَذِبِ والباطِل). مادة: « أفك ». وفي لسان العرب: (الإِفْكُ: الكذبُ، والأَفِيكةُ كالإِفْكِ. أَفَكَ يَأْفِك، وأَفِكَ، إِفْكًا، وأُفُوكًا، وأَفْكًا، وأَفَكًا. (...) والأَفَّاكُ: الذي يَأْفِكُ الناس، أَي يصدهم عن الحق بباطله. (...) وأُفِكَ الرجلُ عن الخير: قُلِبَ عنه وصُرِفَ)، مادة: « أفك ».

(١) أصل الخَرْصِ في العربية: تقدير ما يُوزَنُ ويُكَالُ من الأشياء تقديرَ جزاف، أي بغير كيل ولا وزن، بل بالظن والتخمين وحَزْرِ العين. ومنه خَرْصُ التمر على رؤوس النخل. ومن ثم قيل للكذاب خَرَّاصٌ ومُتَخَرِّصٌ؛ لأنه لا وزن لكلامه ولا حقيقة. جاء في اللسان: (خَرَصَ يَخْرُصُ بالضم خَرْصًا، وتَخَرَّصَ، أَي: كَذَب. ورجلٌ خَرَّاصٌ: كذَّابٌ. وفي التنزيل: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ قال الزجاج: الكذَّابون. وتَخَرَّصَ فلانٌ على الباطلِ واخْتَرَصَهُ؛ أَي: افْتَعَلَهُ. قال: ويجوز أَن يكون الخَرَّاصُونَ: الذين إِنما يَظُنُّون الشيءَ، ولا يَحُقُّونَهُ، فيعملون بما لا يعلمون! وقال الفراء: معناه لُعِنَ الكذَّابون، الذين قالوا: « محمد شاعر، وأَشباه ذلك ». خَرَصُوا بما لا عِلْم لهم به. وأَصل الخَرْصِ: التَّظَنِّي فيما لا تَسْتَيْقِنُه، ومنه خَرْصُ النخلِ والكَرْمِ: إِذا حَزَرْتَ التمر؛ لأَن الحَزْرَ إِنما هو تقديرٌ بِظَنٍّ، لا إِحاطة. (...) ثم قيل للكَذِبِ: خَرْصٌ؛ لما يدخله من الظُّنون الكاذبة)، مادة: « خرص ».

(٢) تاج العروس، مادة: « غمر ». مثله في اللسان والقاموس.

وتحجب قلوبهم عن إبصار الحق، فهم مخمورون بشهواتهم، متمسكون بشبهاتهم، ساهون، لاهون، غافلون! تائهون في ظلمات الكفر والإلحاد، لا يرون لشمس الحق ولا بصيص نور! مَرَدُوا على الكفر والزندقة والجحود؛ ولذلك فهم يَتَخَرَّصُونَ الباطلَ على الدين، وعلى سيد المرسلين ﷺ؛ فيتهمونه بشتى الصفات والنعوت التي نزَّهه اللَّه عنها، من مثل قولهم: شاعر، وساحر، وكاهن، وكاذب، ومجنون... إلى غير ذلك من ضروب الخرص الظالم المبير؛ ولذلك فهم يسألون من حين لآخر على سبيل السخرية والاستهزاء والتهكم: ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ﴾؟ أي: متى سيقع هذا اليوم الذي تتوعدنا به؟ فعبارة « أيَّانَ » سؤال عن الزمان بمعنى متى؟ وإنما قصدهم بذلك إنكار حقيقته وجحود وقوعه! والهزء بشخص رسول اللَّه ﷺ، والسخرية منه، بأبي وأمي هو عليه الصلاة والسلام! وسبحان اللَّه! إن أتباعهم في عصرنا هذا لا يزالون يحطون من قَدْرِ رسول اللَّه ﷺ، وقَدْرِ الدعاة إلى اللَّه، ويسخرون منهم بنفس الطريقة ونفس الأسلوب الخبيث!

ويجيب الحق ﷻ بالحق، عن موعد ذلك اليوم، فيقول: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ﴾! بمعنى يوم هم على النار يُعَذَّبُونَ، ويُصْهَرُونَ كما يُصْهَرُ المعدن في التصنيع والتجريب؛ ذلك أن أصل استعمال لفظ « الفتنة » في العربية، هو بمعنى صَهْرِ المعدن بالنار وتذويبه؛ قصد اختباره والتحقق من جودته ورداءته. فاستعمل بعد ذلك مجازًا في كل تعذيب، وفي كل ضروب الابتلاء الشديد للإنسان. وعلى هذا تعددت استعمالاته في القرآن. فقد نقل ابن منظور عن الأَزهري قولَه: (جِمَاعُ معنى الفِتْنَةِ: الابتلاءُ، والامْتِحانُ، والاختبار. وأَصْلُهَا مأخوذٌ من قولك: فَتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ، إذا أذبتهما بالنار؛ لتميز الرديءَ من الجيِّدِ) (١).

فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ﴾! جواب على غير المتوقع؛ لأنه أجابهم بوعيد ما هم له في الأصل منكرون، وبما كانوا به يستهزئون! وهو أسلوب قرآني بليغ في إبطال أوهام الكفار وضلالاتهم. فكأنه قال: إذا كنتم تنكرون حقيقة يوم الدين وعذاب الجحيم، إنكارَ غوايةٍ وجحود؛ فإن الحجة الوحيدة الكفيلة بإقناعكم؛ إنما هي دخولكم الفعلي للنار، واصطلاؤكم بلهيبها وسعيرها، وتقلبكم بين

---

(١) لسان العرب مادة: (فتن).

مواقدها ودركاتها؛ ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾! أي ذوقوا عذابكم الذي كنتم تجحدونه وتنكرونه على رسولنا، وتَتَحَدَّوْنَهُ أن يعجل لكم به؛ إمعانًا منكم في التكذيب والكفران. ها أنتم الآن فيه تُصْهَرُونَ، وتُفتنون كما يُفتن المعدنُ في النار، فذوقوا..! والتعبير بالذوق أشد دلالة على الشعور بالألم والعذاب - والعياذ بالله - وهو أبلغ في الوعيد والتهديد؛ لما في الأمر به من السخرية والتنكيل والتبكيت. وهو أنسب في الرد على سخريتهم بحقائق الدين وبشخص رسول الله ﷺ. وقد أضاف لهم هنا عبارةَ الفتنة وألصقها بهم؛ إمعانًا في بيان أنهم من صُلَاتِهَا يقينًا، ومن أهلها تحقيقًا، وأنهم مُوَاقِعُوهَا لا محالة.

ويجوز أن يكون معنى ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾: ذوقوا جزاءَ فِتْنَتِكُمْ التي فتنتم بها المؤمنين المستضعفين في الدنيا؛ إذ عذبتموهم وشردتموهم، وفتنتموهم في دينهم فُتُونًا! كما قال تعالى في سورة البروج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠]. كذلك فسرها العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله، وهو معنى حسنٌ وجيه (١).

وفي الجهة المقابلة، يصف الرحمن الطائفةَ المؤمنة التي اتَّقت ربها بالغيب، وعملت بمقتضى تقواها، وتدرجت عبر مدارج الإيمان حتى تحققت بمنزلة الإحسان. فلم يضرهم كيد الكائدين ولا إِفْكُ الخرَّاصِينَ، بل ثبتوا على عبادة الله وذكره تعالى، توحيدًا وتفريدًا على كال حال، حتى بلغوا مقامهم العالي في الجنات بفضل الله. ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾. ذلك جزاؤهم: جنات وعيون، هكذا بصيغة الجمع في « الجنات » و « العيون »، بما لذلك من إيحاء جميل كريم، دال على الحياة المتدفقة خضرةً وأنهارًا، ونعيمًا لا ينفد أبدًا؛ ولذلك قال: ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ ﴾، أي متسلمين ما وهبهم ربهم من الخيرات والبركات وأصناف النعيم، متقلبين في أحوال اللذة والغبطة والسعادة والسرور. إنها جنات وعيون تفزع إليها النفس الآن، هاربة من فتنة النار وجحيمها!

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

وأما مسلكهم الذي به وصلوا فهو طريق المجاهَدات! ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾، أي أنهم قبل يوم القيامة، وقبل استحقاقهم النعيم؛ كانوا في هذه الدنيا عاملين على منزلة الإحسان. والإحسانُ كما هو مشهور من قول النبي ﷺ: « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ!** »[1]، وهو عبادة اللَّه ﷻ على ما وقع في قلب العبد، من العلم به تعالى، والمعرفة بجلاله وجماله؛ حتى يكون على ما وصف الرحمن - في موطن آخر - من: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

نعم، ذلك وازع الإحسان في قلوب المتقين الواصلين، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ ﴾؛ بسبب ما عرفوا من مقام الرب العظيم وقَدْرِه الكبير، وبما وهبهم اللَّه من حبه، والتعلق بأنوار أسمائه وصفاته. فهيجتهم الأشواق، وأرَّقتهم المحبة، وطرد النومَ عن عيونهم وقلوبهم حادي الخوف والرجاء، فأسهروا ليلهم في طاعة اللَّه، باكين، خاشعين، متبتلين، وأهرقوا مهجهم بين يدي مولاهم، متفانين في أداء حقوق العباد، بعد أداء حق رب العباد. فهذا بيان إحسانهم: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ ﴾. والهجوع: نوم الليل خاصة[2]. وقد روى الإمام الطبري بسنده عن الحسن البصري - رحمهما اللَّه - كلمات في تفسير هذه الآية، قال: (كَابَدُوا قيامَ الليل، لا ينامون من الليل إلا أقله! ثم مَدُّوا في الصلاة ونَشِطُوا، حتى كان الاستغفار بِسَحَرٍ!)[3]، وروَى أيضًا عن التابعي الكبير الأحنف بن قيس[4] - رحمه اللَّه

---

(١) متفق عليه من رواية أبي هريرة ﷺ.

(٢) ن. مادة: « هجع » في المحيط في اللغة لابن عباد، والقاموس المحيط للفيروز آبادي.

(٣) روى الطبري كلمات الحسن البصري متفرقة، حسب الشواهد عند تفسير هذه الآيات، بينما ساقها ابن كثير هكذا مجتمعة.

(٤) الأحنف بن قيس تابعي جليل، كاد أن يكون صحابيًّا! اشتهر بالحلم والحزم والجهاد والورع. جاء في التهذيب: (الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي، أبو بحر البصري. واسمه الضحاك، وقيل: صخر، والأحنف لقب. أدرك النبي ﷺ ولم يسلم، ويُروى بسند لين أن النبي ﷺ دعا له. روَى عن عمر، وعلي، وعثمان، وسعد، وابن مسعود، وأبي ذر، وغيرهم. وعنه الحسن البصري، وأبو العلاء ابن الشخير، وطلق بن حبيب، وغيرهم، قال الحسن: ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف. ومناقبه كثيرة، وحلمه يضرب به المثل! وذكره محمد بن سعد في الطبقة الأولى من أهل البصرة، قال: وكان ثقة مأمونًا، قليل الحديث. وذكر الحاكم أنه الذي افتتح مَرْوَ الروذ. وقال مصعب بن الزبير يوم موته: ذهب اليوم الحزم والرأي. قيل: مات سنة (٦٧ هـ)، وقيل: سنة (٧٢هـ). =

ورضي عنه - أنه كان يقرؤها فيقول متحسِّرًا: (لستُ من أهل هذه الآية!) (١) كذلك كان الصحابة والتابعون - رضوان الله عنهم - يجتهدون ويجتهدون، فإذا نظروا إلى معارج الآيات ومنازلها؛ لم يروا أنفسهم أنهم صنعوا شيئًا! وهم الرُّكَّعُ السُّجَّدُ كما وصفهم القرآن، الخُشَّعُ الخُضَّعُ، لكنهم مع ذلك لَوَّامُونَ لأنفسهم، مستصغرون لها، بكَّاؤون أوَّاهُونَ! قد كَوَى الخوفُ جُنُوبَهُمْ فهجروا المضاجع فُزَّعًا، وانتصبوا بين يدي ربهم، يجأرون إليه بطلب الجوار وألطاف الأمان! كما قال في السجدة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. ذلك سرُّ قلة نومهم، وما كان لمن سكنه الخوف أن يجد للنوم سبيلًا، إلا قليلًا! قال ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ! أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ! أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْـجَنَّةُ!** » (٢).

وما أَجَلَّ سبحات الاستغفار بالأسحار؛ حيث يسكن الليلُ ويهجع كل شيء، فلا يبقى إلا الله الواحد القهار..! تلك نزهة الروح في خلوات الوصال، وتمتعها العميق بمناجاة الرحمن. والاستغفارُ بالسَّحَرِ قد يراد به معناه الظاهر، من ترديد عبارات الاستغفار، وطلب المغفرة من الله، والترنُّم بأدعية التوبة إليه تعالى، وقد يراد به صلاةُ التهجد في ثلث الليل الآخر، الموافق لوقت السحر؛ وكأن في ذلك تنبيهًا على أهمية الاستغفار في السجود والركوع عند الأسحار، كما تواترت به الآيات والأخبار.

ومن أجلِّ الأحاديث الصحيحة في ذلك قولُ النبي ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة ﷺ قال: قَالَ ﷺ: « **يَنْزِلُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ!** » (٣)، والمقصود بالدعاء والاستغفار إنما هو أثناء صلاة الليل

=[قال ابن حجر]: وقيل: إن اسمه الحارث، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أحمد في الزهد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، ثنا عبد الملك بن معن عن خير بن حبيب أن الأحنف بَلَغَهُ رَجُلَانِ دعاءَ النبي ﷺ [يعني له] فسجد). تهذيب التهذيب (١/١٦٧).

(١) أورده الطبري عند تفسيره للآية.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي. كما صححه الألباني في تحقيق سننه، وفي صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة.

(٣) متفق عليه.

وخلالها، كما بينه حديثُ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ! وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ صَلاَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ! وَذَلِكَ أَفْضَلُ** » (١)، وفي رواية أخرى لمسلم: « **فَإِنَّ قِرَاءَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَحْضُورَةٌ** »، وكلاهما بمعنى واحد.

كذلك حالهم مع اللَّه، وأما حالهم مع خلق اللَّه فهو مراعاة أهل الحقوق، والتصرف فيما رزقهم اللَّه من أموال، على قاعدة أن: « المال مال اللَّه، والبشر مستخلفون فيه »، فيؤدون للَّه حقه، كلما جاءهم ساعيه، من سائلٍ أو محرومٍ، قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾. وحق اللَّه متبوع في كتاب اللَّه بحق عباده؛ لأن ذلك من حقه. تمامًا كما ارتبط إقامُ الصلاة بإيتاء الزكاة في الإسلام. ولا يصح دين عبد ولا يستقيم حتى يعبد اللَّه بجوارحه وماله، ويرعى حقوق اللَّه وحقوق عباده.

والسائل هنا هو: الفقير الناطق بحاجته، المعبر عن فقره بالمسألة والتكفف. وأما المحروم فهو: الفقير المتعفف، الذي لا يسأل الناس إلحافًا، رغم حاجته وفقره؛ فلا يُعطَى الصدقة؛ لظن الناس أنه غير محتاج؛ بما أخفى من حاله. على ما قال اللَّه ﷻ في سورة البقرة: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: « **لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ!** » (٢).

وحقيقة المحروم أنه: من سأل الناس فمنعوه وحَرَمُوهُ! لكن ذلك غير مقصود هنا. وإنما سُمِّيَ محرومًا باعتبار مآلِ حالِه؛ إذ يُتَصَدَّقُ على غيره ممن ظهرت حاجته بنطقه وسؤاله، لكنه هو يُغْفَلُ عنه وَيُنْسَى؛ بسبب خفاء حاله وصمته! فَيُحْرَمَ ما كان يمكن أن يُعْطَى. ويجوز أن يشمل وصف « المحروم » أيضًا، كُلَّ من فقدَ مالَه بسبب جائحة، أو مصيبة أتت على كل ماله؛ حتى صار إلى الفقر؛ فكان بذلك محرومًا.

فأصحاب مقام الإحسان يعطون السائل، ويتحسَّسون هم بأنفسهم من أهل

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري.

الحرمان، ويبحثون عن الصابرين على ما ابتلاهم اللّه به من الفقر، فيطرقون عليهم الأبواب في خفية عن الناس، ويؤدون لهم حق اللّه الذي جعل لهم، يواسونهم بالمال والاحتضان والعطف والسلام.

وقد قَصَرَ بعضُ المفسرين معنى « حق » في هذه الآية، على الزكاة المفروضة فقط، وبعضهم صرفه إلى صدقة التطوع فقط. والحقيقة أنه شامل لهما معًا. فالمحسنون في أموالهم يجعلون على أنفسهم حَقًّا للسائل والمحروم؛ تقربًا إلى اللّه ﷻ. فيدخل فيه حق الزكاة الذي فرضه اللّه، ويدخل فيه ما يرتبونه على أنفسهم من صدقات التطوع الثابتة على الدوام، بِقَدْرٍ معلوم، يجعلونه حقًّا على أنفسهم للفقراء والمساكين، فيلتزمون به التزامهم بالنذور. وذلك نحو ما يجعله المؤمن لأقاربه الفقراء من راتب ثابت، يخرجه من ماله حتى ولو لم يتحقق فيه نصاب زكاة، سواء كان صاحب فلاحة، أو ماشية، أو تجارة، أو صناعة، أو مهنة، أو غير هذا وذاك من أسباب الرزق وموارد المال، فإنه يجعل للسائل والمحروم حَقًّا مما سوى الزكاة وإن قَلَّ. وهذا هو الذي فسرته سورة المعارج بقول اللّه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

ولأهل الإحسان في عبادتهم وأموالهم معراجٌ آخرُ لطيف، يسلكون به خفيةً إلى اللّه - جل ثناؤه - ألا وهو معراج التفكر، وهو مسلك يوصلهم إلى أعلى درجات اليقين، كالإحسان في العبادات المحضة تمامًا. واليقين هو غاية العبادة بشتى أصنافها وهو منتهاها، وهو محور السورة على ما فصلنا قَبْلُ، ولذلك لم تزل الآيات تهدم طرق الشك والخرص، وتبني طريق اليقين، فكان التفكر في ملكوت اللّه العلوي والسفلي، هو تتمة العروج إلى مقام اليقين. قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهذا خطاب مزدوج القصد بشكل عجيب، متداخل المعاني بلا اختلال، على وِزَانِ بلاغة التعبير المعجز في القرآن المجيد؛ إذ بقدر ما فيه من بيانٍ لمقام اليقين، ولمسلك الموقنين، فإن فيه تعريضًا واضحًا بالغافلين المعرضين، وإنكارًا شديدًا لِمَا هم عليه من الغفلة والعمى!

فأما الموقنون فهم يبصرون آيات اللّه مسطورة في كتاب الأرض الكبير، يقرؤون

أحرفها وكلماتها، في طبيعتها، وحركتها، وتنوع تضاريسها، وأحوال فصولها، وثرواتها وخيراتها وبركاتها، مما بثَّه اللَّه فيها. ويتفكرون في عجائبها وأسرارها، وفيما يحيط بها من موازين، سواء في فلكها، أو حركتها، أو جاذبيتها، أو موقعها من الشمس ومن القمر، مما قدر اللَّه لها من موقع دقيق، ومسافات محددة، وحركة ثابتة، لو زادت عليه أو نقصت لاستحالت الحياة على وجهها! وغير ذلك مما ليس هذا محل تفصيله. وإنما نكتفي بإشارات مما يُنقل عن علماء الأرض. ولأصحاب الاختصاص ممن وهبهم اللَّه بصيرة الإيمان، أن يقرؤوا في كتاب الأرض من آيات اليقين ما لا يقرؤه غيرهم.

ولكن التفكر في معارض الأرض البارزة، مما هو متاح للعين المجردة، كافٍ في تمكين صاحبه من قراءة آيات اللَّه فيها، وتلقي مدد اليقين بإذن اللَّه. وبذلك المنهج قرأها الصحابة والتابعون، ومَنْ بَعْدَهُمْ من الموقنين قرونًا قبل ظهور علوم العصر الحديث. فالْمَشَاهِدُ الطبيعية الظاهرة البسيطة - وما هي ببسيطة - فيها من الآيات، ما لو ظل الإنسان عمرَه كلَّه وهو يتدبره، لَمَا أتى على نهايته وختامه! وقد كان بعض الصالحين ينظر إلى دالية العنب، فيعجب من عودها القاسي الخشن، كيف تتخلق منه عناقيد رطبة، طرية، ندية، شفافة اللب، يسيل ماؤها لأدنى خدش، كلما عكست شعاع الشمس صارت مثل دُرَرِ البلُّور الصافي! حتى إنك لتحصي حبات بذورها من خارجها واحدة واحدة!

وإن المؤمن ليبصر في عنقود العنب - وغيره من الثمرات - تجليات شتى لأسماء اللَّه الحسنى، الخالق، البارئ، المصور، البديع، الرزاق، الكريم، الرحيم، اللطيف، الجميل.. إلخ. وإنه إذ يتفكر في قضية الرزق؛ يذكر قطرة الماء كيف قَدِمَتْ من أعالي البحار بعيدًا، وكيف امتطت حصان الريح الراكض في السماء، سُحُبًا مثقلة بالبركات، حتى إذا توسطت بلادَها المبعوثة إليها قصدًا، هطلت بما أذن اللَّه لها فيه من مكاييل ومقاييس، لا تزيد ولا تنقص ولو قطرة! فإذا الأرض تهتز من تحتها وتربو، فتنبت من كل زوج بهيج! وإذا بالأرزاق تساق بمقاديرها إلى أهلها لطفًا من اللَّه القوي العزيز! على ما جاء في قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩] وإن مسالك الأرزاق لأوسع

وأكثر من أن تحصى، تمامًا كنعم اللّه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

تلك نظرة خاطفة إلى كلمة واحدة، بل إلى حرف واحد من آيات الأرض. تكشف لنا جانبًا من عظمة هذا المسلك الرباني التفكري، الذي سلكه المتقون المحسنون، فكانوا به موقنين، على ما قرره الحق سبحانه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وبعد التفكر في كتاب الأرض الكبير، ينبه الرحمن عباده إلى كتاب آخر من كتب التفكر، أعجب وأغرب، ألا وهو كتاب النفس الإنسانية. قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وماذا أغرب وأعجب من النفس الإنسانية؟ وماذا أعمق وأغور من أدغالها ومكانزها؟ النفس بما لها من جذور ضاربة في أعماق الروح، وبما تتضمنه من تجليات مادية عبر هذا الجسم البشري العجيب، الذي تعبت علوم الطب والتشريح والحياة في استكشاف حقائقه الجسمانية والروحية، واستغرقت في سبيل ذلك الجهود والبحوث والطاقات، فلم تزد نتائجها على أن وقفت على شاطئ بحره الزاخر، تغرف حفنات من ماء موجه العظيم، وهي تنظر من بعيد إلى أعالي بحاره، عاجزة عن الخوض البعيد والغوص العميق.

وإن ما كشفه العلم الحديث - رغم ضآلته بالنسبة لحقيقة الجسم الإنساني - لهو من أبهر المعطيات التي تبين عظمة الخالق الكبير المتعال، وترسم للمتفكر المؤمن طرائقَ فسيحة للسلوك إلى مقام اليقين. وإن نظرة واحدة في بعض كشوفات البحث العلمي المتعلقة بالخلية، وأسرارها الوراثية، أو أسرار النشاط العصبي، أو عجائب النمو البيولوجي، والتجدد الحيوي، أو جهاز المناعة الذاتي ونظامه العجيب؛ ليتيح لقلب المؤمن أن يترقى في مدارج العلم باللّه إلى أعلى الدرجات بإذن اللّه.

ومع ذلك يكفي أيضًا أن يعتمد المتفكر في النفس، على معارض الجسم البشري المنصوبة لكل الناس، بلا بحث ولا تشريح؛ ليصل إلى اكتشاف منابع اليقين في عالم الروح؛ لأن اللّه تعالى خاطب بهذا القرآن جميع الناس بكل مستوياتهم، وكلٌّ منهم يجد فيه يقينه على قدر علمه وصفاء قلبه. وهذا من أعظم أسرار الإعجاز في هذا الكتاب.

إن مظاهر التنفس، والهضم، والمرض والشفاء، والجوع والشبع، والخوف والأمن، والنوم واليقظة، ومظاهر الإحساس والذوق، ومراتب هذا وذاك، مما لا يخفى على

عامة الناس، وغير ذلك مما يعتري هذا الجسم البشري من أحوال نفسية ومادية، وما بين هذه وتلك من تداخل وتخالل؛ لكافٍ للوصول بالمتفكر البسيط إلى معرفة اللَّه، والتحصن بمسالح اليقين. وذلك هو ما اختصره اللَّه ﷻ في قوله تعالى حكاية عن نبي التفكر إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

إن كل نظر سليم في النفس يقود حتمًا إلى حقيقة اليقين؛ ولذلك أنكر الخالق ﷻ بشدة على الذين لا يبصرون هذا المسلك الواضح المبين، المتاح لكل نفس في نفسها، وإنما على كل امرئ أن ينظر في نفسه بنفسه، ما بين ليله ونهاره وتقلب أحواله. فإن ذلك هو كتاب النفس الكبير. ومن لم يفعل فما أبلد حسه، وما أطمس بصيرته! ولذلك كان هذا السؤال الإنكاري العنيف في قول الرب العظيم: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ وإنما هذا في الحقيقة بيان منه تعالى لما عليه الكفرة الخراصون من العمى والضلال.

ثم عرض الرحمن كتابًا ثالثًا من كتب اليقين، وهو كتاب السماء، وما يتضمنه من مقادير الأرزاق والأقدار، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ ﴾. وقد سبقت الإشارة إلى السماء بما فيها من حُبُكٍ وجمال، لكن الجديد هنا هو التنبيه إلى كتاب القدر المكنون في السماء، القَدَر بما خُطَّ فيه من مقادير الأرزاق، والخير والشر على الإطلاق، وخاصة من ذلك ما جاء به الوعد والوعيد في الكتاب والسنة، من عقيدة البعث والنشور، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

وهذا كتاب لا يحسن قراءَته - حقَّ قراءته - إلا من عَمر اللَّه قلبَه بالإيمان ابتداءً، وحينئذ لا يرى شيئًا مما يطعمه، أو يلبسه، أو يقتنيه؛ إلا قسمةً أزليةً من اللَّه، وقدَرًا مكتوبًا عنده تعالى في السماء باللوح المحفوظ. كما أن الخير والشر جميعًا مما نزل، ومما هو نازل، ومما لم ينزل بعد، كله قضاء محتوم محسوم، رُسِمَتْ تفاصيلُه في السماء، في غيب اللَّه الذي لا يعلمه إلا هو، وإنما تَستنسخ الملائكةُ منه ما أُذِنَ لها فيه، لتتنزل به على مواقعه في الأرض، فتجري الحوادث على وفق ما أراد اللَّه، لا يتخلف منها شيء زمانًا ولا مكانًا، ولا قيد أنملة. وكذلك شأن الوعد الأكبر يكون، فقيام الساعة

بما اكتنفه من وعد ووعيد، له أجله المعلوم عند اللَّه، لن يتخلف عنه طرفة عين.

ولذلك عقَّب على هذا التنبيه بقسم عظيم، إنه قسم الرب ﷻ بذاته العظيمة العلية على أن وعد اللَّه حقٌّ. قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾. وإن هذه الآية الجليلة لتنضاف إلى سابقاتها لتخدم هدف السورة من ترسيخ الإيمان بيوم القيامة على مقام اليقين. نعم هكذا، ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٣﴾ ﴾، يقسم الرحمن ﷻ بذاته العلية، بما هو الرب الخالق للسماء والأرض، على ما قرأنا في كتابيهما من آيات اليقين، يقسم شاهدًا سبحانه على أن وعده حق، حق واقع لا محالة، مثلما أننا ننطق الآن ونتكلم، ونعبر عن حاجاتنا بألسنتنا.

وتشبيه يقينية الوقوع بما يمارسه الإنسان في حياته اليومية من النطق، فيه دلالة على قرب هذه الحقيقة من الإنسان، وأن ما كُتب منها في غيب السماء هو كالذي قد وقع في الأرض وتحقق، لا فرق. وفيه دلالة أيضًا على ملابسة هذه الحقيقة للإنسان، ملابسة تامة، وأن قَدَرَهُ من الوعد الحق معلقٌ على رأسه، لازم له كما هو ينطق ويتكلم. والنطق من أكبر ظواهر النشاط الإنساني ارتباطًا بكيانه ووجدانه. فكذلك وَعْدُ اللَّه بالبعث والنشور، حق يسكن فطرة الإنسان، وقَدَرٌ معلق على رأسه، يتبعه أنى سار، حتى ينزل إبانه، فيجد نفسَه حيث وضعه عَمَلُهُ.

فاللَّهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن قوى الطبيعة بشتى أنواعها، من سُحُبٍ، وأمطار، ورياح، وأعاصير، وزلازل وبراكين، كلها مرتبطة بقوى الروح. وهذه حقيقة إيمانية لا يبصرها أصحاب المنطق المادي الصرف، لانحباس أعينهم تحت غطاء الكفر والإلحاد. والمؤمن يرى بنور اللَّه، فيجد أن حركة الكون كلها مدبرة بتقدير عليم حكيم، فلا يرى غيمة واحدة إلا وأيقن أن وراءها ملَكٌ كريمٌ يزجرها بإذن اللَّه، ولا قطرات غيث إلا ويعلم أنها تنزلت بمكاييل ميكائيل عليه السلام، ولا يرى رياحًا إلا ويبصر أن لها سائقًا من الملأ الأعلى، ولا يصله رزق إلا ويؤمن أنه نصيبٌ قُسِمَ له عند المقسِّمات أمرًا، على ما قدَّر

اللَّه وقضى.. وهكذا، فالكون لا يسير بذاته، ولكنه مسيَّر من لدن خالقه العظيم، في كل ظواهره وبواطنه. وواجب على المؤمن أن يفتح بصيرته؛ ليرى حركة التدبير الإلهي والمشيئة الربانية في كل شيء، وآنئذ يستفيد من ثمرات الإيمان بالوجه الأكمل، وينتفع بالتواصل الدائم مع عالم الغيب، ويستأنس به في سيره إلى ربه، ويذوق حقًّا معنى اليقين.

الرسالة الثانية: في أن من أهم التنبيهات القرآنية في مجال التفكر مشاهدة الحركة في الكون، الحركة بشتى درجاتها وأنواعها، وأنت ترى كيف أقسم الرحمن ﷻ في مطلع هذه السورة، بأربع قوى ذات حركة عظيمة في نشاطها، وهي: الرياح، والغيوم الممطرة، والناقلات السيارة بتسخير اللَّه، والملائكة النشيطة في وظائفها الكبرى. فالحركة من أهم الظواهر الكونية الدالة على التدبير والتسخير والتسيير. وكلها راجعة إلى معاني أسماء اللَّه الحسنى، وذلك من أعظم أبواب التعريف باللَّه ﷻ ، وتحقيق توحيده.

الرسالة الثالثة: في أن اليقين هو الدين، وأنه لا قيمة لإيمان تخترمه الشكوك والظنون. خاصة فيما يتعلق بأصول الإيمان الكبرى، التي هي: الإيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَرِ خيره وشره. وأن المؤمن هو من يعتقد أن الساعة حقٌّ يقين، وأن البعث حق يقين، وأن الحشر حق يقين، وأن الحساب حق يقين، وأن الجزاء حق يقين، وأن الجنة والنار حق يقين. لا مجال ولا لِقَدْرِ أنملة من الظن في هذا أو الشك؛ وإلا كان من الكافرين! فاليقين هو الدين.

الرسالة الرابعة: في أن تلقي حقائق الإسلام الإيمانية والعملية لا يؤخذ إلا بالوحي ومن الوحي، كتابًا وسنةً، وأن الخرص في الدين من أكبر الإثم؛ لما فيه من التقوُّل على اللَّه ﷻ والافتئات عليه. فقوله تعالى فيما تدارسناه ههنا: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ﴾ شاملٌ لكل خرَّاصٍ فيما لا يجوز فيه الْخَرْصُ؛ لأن الخارص في قضايا الغيب والإيمان لا يكون إلا كذابًا؛ ولذلك فُسرت عبارة « الخرَّاصين » في كتب التفسير بالكذابين. وعلى هذا يفهم قول رب العزة ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ﴾ [الحج: ٨، ٩]. وقال سبحانه:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

وهو تحذيرٌ ووعيدٌ يجريان على الكفار وعلى المسلمين سواء. وقد يَفْجُرُ المسلم فيقع في هذا الوزر العظيم، كما نشاهده في زماننا هذا. وهذه كتب بعض المفتونين بالفلسفات الغربية من المسلمين، تعرض بعض القضايا العقدية الكبرى، وتفسر بعض أمور الغيب تفسيرًا لا أصل له في عقائد الإسلام، وإنما هو مجرد خرص وتخمين، مغلف بمنطق التحليل والتعليل! والخبير يعلم أنه ما في تلك الكتب من حقيقة العلم شيء، وإنما هي الشبهات والأهواء لها تجليات إغرائية، وتزيينات شيطانية. فكل من تقَوَّل على اللَّه بغير الحق فقد عرَّض نفسه لنقمة اللَّه، والعياذ باللَّه!

الرسالة الخامسة: في أن عبادة التفكر في خلق السماوات والأرض، وفي آيات الأنفس، من أهم المسالك الموصلة إلى اليقين، لكن بشرط أن يكون الانطلاق فيها من القرآن إلى الطبيعة؛ لأن القرآن هو مبصار الإيمان. وأما من عزل القرآن عن المحيط الكوني، واستغنى عنه في تفكره ومشاهداته؛ فإنه لا يرجع إلا بالعمى والحيرة والتردد؛ ذلك أن القرآن هو كلمة السر التي بها يفتح الفكرُ طلاسمَ الوجود، وبها يفتح كنوز الأسرار في معرضه الكبير. إن الجبال، والأحجار، والأشجار، والأنهار، والبحار، والأفلاك، والنجوم، إلى غير ذلك من أنواع خلق اللَّه في السماوات والأرض؛ كلما عكست شعاعَ القرآن أتت بوميض شديد، يكشف آثار أسماء اللَّه الحسنى المتجلية على كل شيء. ثم تتدفق منها واردات اليقين لتعمر قلب العبد المتفكر المتدبر. إن الكون هو كتاب اللَّه المنظور، لكن القرآن هو النور الضروري الذي به نقرأ ذلك الكتاب ونتلقى إشاراته.

الرسالة السادسة: في أن التزود الروحي من موارد العبادات، وخاصة منها الصلاة، والتهجد بليل، والاستغفار، وسائر ضروب الأذكار؛ هو من أهم المغذيات الضرورية للسائرين إلى اللَّه، كما أن ذلك من الثوابت التي لا يجوز لمؤمنٍ - بله داعية إلى اللَّه - أن يَقْفَرَّ قلبُه منها، أو تجفو عنها أشواقه وأذواقه. وإن ذلك لمن أهم المؤشرات التي بها تعرف سلامة السير من عدمه. وقد كان رسول اللَّه ﷺ يحث أصحابَه على ذلك حثًّا، رجالهم ونساءهم، كبارهم وصغارهم، وكأنما هو بصدد الدعوة إلى نفير عام!

فعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ! جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ! جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ!** »[(١)].

الرسالة السابعة: في أن خدمة أهل الحاجات من خلق اللَّه، ومواساتهم بالزكوات والصدقات، وإغاثة الملهوفين والفقراء والمحرومين؛ من أعظم القربات المستدرة لرحمة اللَّه ومغفرته ورضاه. وفي حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **الْـمُسْلِمُ أَخُو الْـمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ. وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[(٢)].

وقد كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يثبتون نفقات مهما قلت على بعض أقاربهم الفقراء، وقصة أبي بكر الصديق ﷺ في ذلك مشهورة؛ إذ كان ينفق على ابن عمه مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَلِفَقْرِهِ، فلما بلغه أنه كان ممن تكلم في عائشة ﷺ في حادثة الإفك؛ غضب وقال: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي! فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا![(٣)]، وبمثل ذلك كان الصِّدِّيقُ ﷺ صِدِّيقًا. فرضي اللَّه عنهم أجمعين.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان منهاج التحقق بمقام اليقين، إيمانًا باللَّه واليوم الآخر، وكيفية التخلق بوصفه. **وإنما وسائله العملية مركزة في ثلاث طرائق، مستخلصة مما سبق، وهي:**

الأولى: إدمان التدبر لكتاب اللَّه ﷻ، تدبرًا يستحضر فيه المتدبرُ أن المتكلم بهذا

---

(١) رواه الترمذي، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية، وعبد بن حميد في مسنده. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، بينما حسنه فقط الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢، ٣) متفق عليه.

القرآن هو اللَّه رب العالمين. هذا أمر أساس، إذا انفلت من قلب المتدبر ضاع منه التدبر.

الثانية: التفكر في الخلق من عالم الأنفس إلى عوالم الآفاق، بما حددنا له في الرسالة الخامسة من ضابط اعتماد المنظار القرآني.

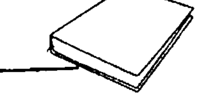
الثالثة: الاستعانة على ذلك كله بإخلاص العبادة للَّه، ومناجاته تعالى بالأدعية والأذكار، في الليل والنهار، وفي خلوات الأسحار.

ذلك، وما التوفيق إلا باللَّه. جعلني اللَّه وإياكم من أهل اليقين الراسخين.

* * *

المجلس الثاني

في مقام التلقي لتجليات اليقين
من قصص المرسلين ومَصَارِعِ الهالكين!
وما في ذلك من الحِكَمِ والعِبَرِ



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٢ - البيان العام:

يعرض القرآن المجيد في هذه الآيات الكريمات ست قصص، بشكل مختصر وجيز، لكن بعبارات متينة، مكتنزة بالحكمة، تسلط أضواء خاطفة قوية، على مشاهد من تجليات العظمة الإلهية، وقدرته تعالى على العطاء والإنعام بما أراد، لمن أراد، كما أراد.

وكذا تجليات القدرة الإلهية في العقاب والانتقام من الطغاة الظالمين. وهذه القصص الست سِيقَتْ في هذه السورة؛ لبيان غَلَبَةِ اللّٰه على أمره، وقدرته تعالى على خلقه، بحيث لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الكفار مهما طغوا وتجبروا فإنهم في قبضة يده، متى أراد أهلكهم ودمرهم تدميرًا! وقد جعل لذلك سُنَّةً جارية ثابتة، ليقرأها الناس ويتفقهوا فيها؛ رحمةً بهم ونذارةً لهم، سنة لها أسبابها ومقدماتها، ولها نتائجها المترتبة عنها حتمًا، ولو بعد حين. فكان تكرار ذلك واستقراره على منهج واحد، مؤديًا إلى ترسيخ أن وعد اللّٰه حق يقين، لا يدخله شك ولا ريب، وأن التاريخ شاهد بذلك، إلى جانب آيات اللّٰه في الأنفس والآفاق، مما تدارسناه بالمجلس السابق.

فكل هذا وذاك مفض إلى نتيجة أساس، وهي أن التكذيب باليوم الآخر وما فيه، أمرٌ مرفوض قطعًا من لدن الرحمن، مرفوض بشدة، وأن من كذَّب رسله، وعصى أمره قصمه! وأنه لا نجاة لأمة ولا لبشر إلا بالدخول تحت أمان اليقين. **ونبين ذلك بحول اللّٰه فيما يلي:**

أما القصة الأولى فهي مشهد من حياة نبي اللّٰه إبراهيم عليه السلام، وهي قصة متداخلة مع مشهد آخر من قصة نبي اللّٰه لوط عليه السلام، ولم يُذكر اسم النبي لوط هنا، وإنما ذُكر قومه المجرمون لبيان مصيرهم الشقي؛ ولذلك فقد عددناهما قصتين، لا قصة واحدة، رغم اندماجهما في سياقٍ واحد؛ وذلك لاختلاف التجلي في القصتين بين الإنعام والانتقام.

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾. فهذا الاستفهام الذي ابتُدِئت به القصة ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ بمعنى: هل بلغك؟ أو هل علمت؟ ليس المقصود منه السؤال، وإنما هو أسلوب عربي للتنبيه والتشويق لسماع القصة، وكذلك التعبير بلفظ « حديث » فيه دلالة على ما يستئنسه الناس من سماع الجديد من الكلام، وما جُبِلَتْ عليه الفطرة الإنسانية من حب

سماع الأخبار. وإنما سمي الحديث « حديثًا » في الأصل؛ لحداثة خبره، وجِدَّتِهِ على السامع، حتى ولو كانت واقعته قديمة، ثم صار كل كلام حديثًا.

ومن ثم كان التعبير بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾.. الآية، تنبيهًا مركَّبًا، القصد منه أن يستجمع المتلقي كافة قواه النفسية والعقلية لتتبع القصة، واستيعاب الحدث من بدايته إلى نهايته، فيحصل الفهم الأكمل، والتدبر الأعمق.

والمقصود بالضيف في الآية: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، جماعةٌ من الملائكة. والضيف لفظ يقع على المفرد والجمع سواء، وأقل الجمع ثلاثة. وقد اختلفت كتب التفسير في عددهم وأعيانهم، فقيل: إنهم ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل غير ذلك. والحق أنه لم يثبت في هذا نص من كتاب أو سنة صحيحة، يكون حجة في التحديد والتعيين. وإنما العبرة عندنا بما أجمله القرآن من أمرهم، وأنهم ملائكة من ملائكة الرحمن نزلوا في صورة بشرية على إبراهيم، فدخلوا عليه مدخل الضيف. وحلَّاهم الله تعالى بوصف ﴿ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ لما حصل لهم من إكرام إبراهيم عليه السلام، وقد كان إكرامًا عظيمًا، ولما في ذلك الوصف أيضًا من الإشارة اللطيفة إلى طرافة الحدث، وعدم انتباه الخليل عليه السلام إلى طبيعتهم الملائكية، فعاملهم بما يعامل به ضيوف البشر من الإطعام والإكرام، فإذا بهم ملائكة يحملون له أخبارًا عظيمة من الخير والشر. فكانت النتيجة على غير ما توقع.

والآيات تشير إلى بعض التفاصيل في الإكرام النبوي، والخُلق الإسلامي الرفيع في الضيافة، كما أن المفسرين وقفوا كثيرًا عند اختلاف عبارة « السلام » في الآية ما بين النصب والرفع، في كُلٍّ من قول الملائكة وقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لِمَا في ذلك من الدلالة على رد التحية بأحسن منها. وهو قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، فقول الملائكة: « سَلَامًا » هو مصدر دال على الجملة الفعلية، كأنهم قالوا: (نُسَلِّمُ عليكَ سلامًا)، بينما قوله: « سلامٌ » هو دال على جملة اسمية تقديرها: (هذا سلامٌ عليكم). ومعروف أن الجملة الاسمية - عكس الفعلية - أدل على الثبات والاستقرار وعدم التغير، فكأنه قال لهم: سلامي عليكم هو سلام أبدي خالد. وبذلك يكون إبراهيم قد رد التحية بأحسن منها.

وأما قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فنحن نرجح أنه حديثٌ نفسي وقع في ذهن

إبراهيم؛ إذ التصريح به في وجوههم منافٍ لأدب الاستقبال، وهو جملة غير منطوقة تقديرها: (هؤلاء قومٌ مُنْكَرُونَ)، إنه استغراب نفسي من إبراهيم كشفه القرآن؛ إمعانًا في بيان خُلق الكرم العظيم، الذي كان نبي الله الخليل يتمتع به؛ إذ أكرم قومًا بحفاوة بالغة، وهو لا يعرف منهم أحدًا، ولا حتى ما جاء بهم! ومن ثم قال: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، والتعبير بفعل « رَاغَ » لطيف عجيب؛ لأن الروغ والروغان هو الميلان في السير إلى الشيء، بحيث لا يُفهم من الرائغ قصدُه بالضبط. والمقصود هنا أن إبراهيم عليه السلام دخل على زوجته من مدخلٍ خفي، أو بطريقةٍ لا تُوحي بأنه سيأتي بطعامٍ، أو أنه سيأمر بإعداد طعام، وذلك تلافيًا لمبادرة الضيوف إلى منعه من إعداد الطعام. كما أن من كمال الإكرام مفاجأة الضيف بالمائدة جاهزة، وعدم استشارته في ذلك؛ لأن الاستشارة تحمل نوعًا من الاعتذار عن الإكرام، كقول القائل لضيفه مثلًا: هل ترغب في طعامٍ؟ أو ما تحب أن تأكل؟ فهذا وأضرابه إنما هو في الحقيقة يحمل في طياته رغبة في التهرب من قِرَى الضيف وإكرامه.

فقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، دال على أنه تحرك بخفاء، فاختار عجلًا سمينًا من حظيرته - وقد كان إبراهيم صاحب بقر كما قيل - فذبحه ثم أدخله في تنور الشواء، فلم يمض إلا وقتٌ يسير حتى كان قد وضعه مشويًّا على مائدة ضيفه! وضعه بين أيديهم حيث هم جالسون، ولم ينقلهم إلى مكان غيره، بل قَرَّبَهُ إليهم. وفي ذلك من أدب الإكرام والحفاوة بالضيف ما فيه. وقد كان التعبير بفاء العطف في سائر الجمل دالًّا على تتابع العمل وتعاقبه، لا تراخي فيه ولا بطء.

لكن المفاجأة أن الضيف لم يأكلوا! فتلطف بهم إبراهيم عليه السلام بكلمة ترحيب: ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وهو تعبير لطيف فيه من التحبيب والتقريب؛ ما يشرح صدر الضيف ويفتح شهيته؛ إذ عبر بصيغة الاستفهام الدالة - في هذا السياق - على الحض والترغيب في الأكل، دون العبارات الخشنة الجافة، التي تنبني على الأوامر الصارمة المنفرة! لكن الضيف مع ذلك لم يأكلوا، وهنا ارتاع قلب إبراهيم عليه السلام، وداخَلَه الخوف؛ لأن العادة أن إمساك الإنسان عن طعامِ شخصٍ ما، لا يكون إلا لشر يريده الممتنع عن الطعام. وقد عبر تعالى عن هذا الموقف نفسه في سورة هود بقوله سبحانه:

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

وقال هنا في الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ ﴾. وهذا من أروع المفاجآت! فأن يتحول حال الإنسان في لحظةٍ واحدةٍ، من الخوف والتوجس وتوقع الشر، مباشرة إلى فرحٍ كبيرٍ، وأمن عظيم، وسلام مكين؛ حيث يكتشف إبراهيم حقيقة الضيف، وأنما هم ملائكة الرحمن، ويتلقى منهم - فوق ذلك - خبرًا سارًا يهمه في حياته الخاصة، بشرى غلام عليم يكون له من زوجه العجوز العقيم؛ فإن ذلك كله مما لا تطيقه خفقات القلب فرحًا!

والجميل في التعبير أنه بمجرد ما داخل إبراهيمَ الخوفُ، وظهرت علاماته على وجهه؛ بادر الملائكةُ إلى طمأنته، وطرد الشعور بالخوف من فؤاده؛ بالكشف عن هويتهم الملائكية الكريمة، وتعزيزها بإلقاء بُشْرَى الولد، بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم. فالرسول آمِنٌ عند ربه، وما كان ليروعه شيءٌ ولا أحدٌ أبدًا! وإنما كان خوف إبراهيم عليه السلام توجسًا، أي شعورًا خفيًا، فقوله: ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾ من الوَجْسِ، وهو: إضمار الشعور بالخوف في النفس [1]. ومع ذلك سارعت الملائكة إلى طرد ذلك الخاطر من قلبه، وتمكين وجدانه من رَوْحِ الأمن والسلام.

وأما الغلام العليم المبشَّر به ههنا، فقد كان نبيَّ الله إسحاق عليه السلام. والنبوة رأس العلم وقمته. وإسحاق هو المصرح به في سورة هود، قال تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]. والمرأة المذكورة هي سارة زوج إبراهيم، وكانت امرأة عقيمًا منذ شبابها الأول، وبقيت مع إبراهيم حتى شاخا ولم تنجب له شيئًا، مع أنه هو عليه السلام أنجب من هاجر سَرِيَّتِهِ ولدَه إسماعيلَ عليه السلام، الذي وُلِدَ له قبل إسحاق، ولذلك لما سمعت سَارَةُ البشرى من الملائكة بهتتها المفاجأة، فصرختْ بِرَنَّةٍ، ولطمت وجهها تعجبًا! فالصَّرَّةُ: الصيحة، من الصرير، وهو الصياح. والصَّكُّ: اللطم والصفع. وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ

---

(١) جاء في الصحاح: (الوَجْسُ: الصوتُ الخفِيُّ. والوَجْسُ أيضًا: فزعةُ القلب. والواجِسُ: الهاجسُ. وأوْجَسَ في نفسه خيفةً، أي أضمر، وكذلك التَوَجُّسُ. والتوجُّسُ أيضًا: التسمُّع إلى الصوت الخفيِّ) مادة: « وجس ».

عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾! وقد ورد أنها قالت في صرتها أو صيحتها: « يَا وَيْلَتَي! » [1]، جاء ذلك في قوله تعالى من سورة هود: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢]. كل ذلك تصرفات نسوية، وردود أفعال أنثوية، تقع منهن كلما فزعن أو تلقين خبرًا غريبًا. وقد سجلها القرآن هنا بدقة، وبين أنها أمور من عادات النساء منذ الزمان القديم.

وجاء جواب الملائكة الكرام قاطعًا لتعجب سارة واستغرابها للبُشْرَى: ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾، أي: كذلك قضى ربك. فقول الله هنا قضاؤه وقدره. وإذا كان الله ﷻ هو الذي قضى الأمر وقدَّره؛ انتفى التعجب والاستغراب؛ لأنه سبحانه هو رب العالم، الذي يُخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: « كن فيكون »! لا عبرة عنده بسُنة جارية، ولا عادة ثابتة، ولا قانون مطرد؛ لأنه هو تعالى خالق السنن والطبائع والقوانين الكونية جميعًا، إذا شاء أعملها وإذا شاء خرقها وأهملها.

وهو سبحانه الْحَكِيمُ في كل ما قضى وقدَّر، الْعَلِيمُ بما لقضائه من منافع ومصالح في معاش الناس ومعادهم. وقد قضى سبحانه أن يكون إسحاق نبيًّا يرث من إبراهيم دعوة التوحيد في بلاد الشام، ثم يورثها لابنه يعقوب عليه السلام، فيتناقلها أنبياء بني إسرائيل إلى عهد عيسى عليه السلام. كما ورث إسماعيل النبوة من أبيه إبراهيم في أرض الحجاز، وبث دعوة التوحيد في عرب الجزيرة، واستمرت زمنًا، حتى حرَّفها المشركون، فبعث الله من نسله محمدَ بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، بتجديد دين إبراهيم عليه السلام ورسولًا إلى كل العالمين، إلى يوم الدين.

تلك كانت القصة الأولى من قصص هذا المقطع القرآني الكريم، وقد انبنت على سياقها قصةٌ أخرى، هي تتمة لما جاء به ضيف إبراهيم من أخبار وأقدار. وذلك أنه لما سكن روع إبراهيم وانشرح للبشرى، علم أن نزول هؤلاء الملائكة بذواتهم إلى الأرض، مرسلين من رب العزة؛ لا يكون إلا لأمرٍ عظيم! فتوجه إليهم بالسؤال: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾؟ ما شأنكم؟ ماذا تريدون؟ وفيم أرسلتم؟ والخَطْبُ: الحدث الجلل،

---

(١) أصل النداء بالويل في العربية: الدعاء بالشر والهلاك، ولكنه قد يرد بمعنى التعجب والاستغراب الشديد، كما هو هنا. ن. مادة « ويل » في لسان العرب.

والأمر العظيم. فكأنه قال: ما المهمة الكبيرة التي أُرسلتم بها، وقَدِمْتُم لأجلها من السماء إلى الأرض؟ فكان الجواب الرهيب حقًّا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾! والقوم المجرمون هنا هم قوم لوط كما هو معروف، وبه صرحت الآية في سورة هود: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

وجريمة قوم لوط جريمة قذرة مشهورة، منصوصة في كتاب الله، في غير ما آية وسورة. فقد كانوا مكذبين بنبي الله لوط عليه السلام أولًا، ثم كانوا يمارسون أقذر الفواحش من الشذوذ الجنسي. قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]. وقوم لوط هم أول من ابتدع هذا المنكر الشنيع، في التاريخ البشري، كما نصت عليه الآية؛ فاستحقوا بذلك قطع دابرهم إلى الأبد. وهو المقصود بقوله ههنا في الذاريات: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾! ومعنى كونهم مسرفين: أنهم تجاوزوا حدود الفطرة الإنسانية، وبالغوا في تعاطي الفاحشة بما يخالف حتى الطبيعة الشهوانية الحيوانية للإنسان!

فكان أن رجمت الملائكةُ قوم لوط بالحجارة، رجمًا رهيبًا، تمامًا كما ترجم الشياطين! وكانت الحجارة المستعملة للرجم من طين ناري متحجر، قد يكون من بركان متفجر، وقد يكون من حجارة جهنم نفسها والعياذ بالله. ولا شيء يستحيل في ذلك على الله. ومعنى كونها مُسَوَّمَةً أي: مُعَلَّمَةً ومُرَقَّمَةً، ذات علامات وأختام وأرقام. وقد قيل: كل حجر منها كُتِبَ عليه اسم المجرم الذي يستحقه، والذي به سيكون فَلْقُهُ وهلاكه! (١)، وذلك كله بما أسرفوا في الكفر والخبائث، وفي التمرد على الله، والاستهزاء برسوله واستضعافه، والنقض الشيطاني لما وضع الله في الفطرة الإنسانية من السنن. ذلك إسرافهم الذي به كانوا من الهالكين!

وأذكر هنا أنني رأيت شريطًا وثائقيًا تقشعر منه الأبدان! وهو عبارة عن عرض لحفريات عميقة، في بعض المناطق القديمة في التاريخ البشري، كان قد دمرها بركان

---

(١) ن. تفسيري ابن كثير والشوكاني للآية.

حسب الشريط، وكانت الحفريات تكشف التراب والصخور عن أجساد بشرية متحجرة، ممن هلك بالرجم البركاني والتدفق الحممي قبل آلاف القرون، وإن مشاهدهم لعجيبة رهيبة، فمنهم من هو ثاوٍ على ركبتيه، ومنهم من هو منكوس على رأسه، ومنهم من هو جالس في مكان كان هو سوقهم، حيث فاجأه الرجم فهلك هناك، ومنهم من كان في حمام أو بيت.. إلخ. ولا تزال أحداث الكوارث العقابية والانتقامية تنزل بالناس، هنا وهناك، في كل سنة تقريبًا، والعياذ بالله (١). ولكن الجهلة بالله يفسرونه تفسيرات مادية عمياء، بينما المؤمنون لا يرون مثل ذلك إلا تجليًا من تجليات عذاب الله، فيزيدهم إيمانًا ويقينًا في الله.

وقد نَجَّى الله برحمته نبيه لوطًا عليه السلام وبنتيه المؤمنتين، ولم يكن قد آمن له سواهما، حتى زوجته كانت مع المجرمين! قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾. أي: فأخرجنا من المدينة ليلًا من كان فيها من المؤمنين، وهذا العموم فيه فائدة تشير إلى أنه لو كان آمن آخرون غير بنتيه لأنجاهم الله، كما أنجى من آمن مع نوح من قبل، ولكن لم يكن من المؤمنين في تلك المدينة المشؤومة سوى أسرة واحدة، هي أسرة النبي لوط نفسه عليه السلام، بل لقد خانتهم زوجته فأهلكها الله مع الهالكين. وهو قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٣].

والتعبير بالإيمان والإسلام كليهما في سياق واحد يدل على اختلافهما وتكاملهما، كما هو وارد في حديث جبريل وغيره من النصوص. فقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾، أي فأنجينا من كان في القرية من المؤمنين الصادقين المخلصين؛

---

(١) ولقد شاهدنا في العصر الحديث مأساة « آرمرو » المدينة الكولومبية المنكوبة، التي اجتاحها الطين البركاني، في الثالث عشر من شهر نوفمبر من عام (١٩٨٥م)، فأتى على الأخضر واليابس، وحصد آلاف الأرواح! كما شهد العالم كله في بداية القرن الميلادي الحالي، طوفان « تسونامي » الرهيب، ذلك الزلزال الخسفي الكبير الذي ضرب عمق المحيط الهندي، في السادس والعشرين من ديسمبر، سنة (٢٠٠٤م)، فارتدت عنه أمواج عملاقة عاتية، محملة بحمم نارية حارقة، انقضت على مدن شاطئية عديدة، لنحو إحدى عشرة دولة، من دول جنوب شرق آسيا، فدمرت العمران والبنيان، والفنادق والملاهي، وحصدت عشرات الآلاف من الأرواح، من السكان الأصليين، ومن السياح الذين نزلوا هناك يحتفلون برأس السنة الميلادي! ومثل هذا وذاك كثير، كما هو معروف، والعياذ بالله.

لأن الإيمان هنا هو سلامة الاعتقاد، وهو مستلزم للعمل الصالح بلا ريب، لكن التركيز المفهومي فيه على الإخلاص، وهو سبب النجاة. وأما قوله تعالى: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، أي الذي أسلموا على الإجمال. وقد يُسْلِمُ المرءُ ظاهرًا ولا يُسلم قلبه، كحال المنافق، وفي ذلك إشارة إلى امرأة لوط، فقد كانت تظهر موالاتها لزوجها علنًا، لكنها كانت تمالئ المجرمين وتساندهم سِرًّا. ولذلك صرح بالنجاة هنا في حق المؤمنين فقط، دون عموم المسلمين.

قال العلامة الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تُظهر الانقياد لزوجها، وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم (...) فَبَيْتُ لوطٍ كان كله من المسلمين، ولم يكن كله من المؤمنين؛ فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معًا) (١)؛ لأن الإيمان مستلزم للإسلام. بينما الإسلام الظاهر لا يستلزم الإيمان. كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولا خلاف في أن الإيمان والإسلام، إذا ذُكِرَ كل واحد منهما في سياق منفرد؛ كان أحدهما بمعنى الآخر، وهو كثير في الكتاب والسنة.

وقد بقيت مَهْلَكَةُ قوم لوط في مدينة سَدُومَ، آيةً من آيات اللّٰه في التاريخ البشري. قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾؛ أي تركنا هذه المدينة وقصتها الرهيبة عبرة، وآية من سنن العقاب الإلهي، يقرؤها كل من سمع بها أو مَرَّ بها من المؤمنين باللّٰه واليوم الآخر. وهي منطقة ما تزال خرابًا إلى اليوم، في الطريق ما بين الشام والحجاز. وقد كانت قوافل العرب قديمًا تمر بها في رحلاتها التجارية، كما نص عليه القرآن في سورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

فتلك هي سدوم مدينة المجرمين، دمرها الجبار جَلَّ جَلَالُهُ، وقطع دابر مجرميها إلى يوم القيامة. وإن المؤمنين ليرتاعون لخبرها، ويتعظون بمنظرها، وتقشعر أبدانهم لآثارها

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

البئيسة؛ لأنهم يبصرون فيها أثرًا من آثار العزة الإلهية المكينة، ومظهرًا من مظاهر الجبروت الرباني العظيم، ولمحة من لمحات عذاب اللَّه الأليم، فيزيدهم ذلك خوفًا ورهبًا، ويزيدهم إيمانًا ويقينًا. وما الآية إلا علامة توجه السالك في الطريق إلى اللَّه، وتزيده معرفة باللَّه.

وأما القصة الثالثة فهي لمحة خاطفة من قصة موسى العظيمة، عليه الصلاة والسلام، لكنها لمحة كافية لبيان الغرض والقصد، وهو بيان قدرة اللَّه على خلقه، وهيمنته على ملكه، وأن لا نجاة إلا بالدخول طوعًا تحت أمره. قال تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝٤٠ ﴾. بمعنى: ولكم في موسى آية أخرى؛ إذ أرسلناه إلى فرعون ببرهانٍ عظيم، ومعجزات قاهرة باهرة، لكن عدو اللَّه فرعون تولى وأعرض عن الحق عُلُوًّا واستكبارًا! واستند إلى ركنه؛ أي إلى قوة سلطانه، من جيشه وملئه المحيط به. ثم رمى موسى ودعوتَه بسهام الاتهام والتشويه الإعلامي، وقال: ساحر أو مجنون. والسحر صفة تنزع عن صاحبها قدسية الحق، وتصنفه مع أهل الدجل وقلب الحقائق. بينما الجنون نزع لصفة العقل والإرادة الواعية، ونفي للفهم السليم للأشياء مطلقًا.

فكانت النتيجة أن الجبار ﷻ أخذه وجنوده فنبذهم في اليم! والتعبير بالأخذ يدل على معنى العقاب والانتقام كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]. وهو تعبير دال على التمكن من العقاب، والإحاطة القوية الشديدة بالعدو؛ ولذلك عبر بعدُ بقوله تعالى: ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝٤٠ ﴾! والنبذ: الإلقاء، والرمي، والتطويح بالشيء، فقد أخذ اللَّه فرعون وجنده فرمى بهم في البحر كما تُرْمَى الحصاة! وقوله: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ جملة حالية يعود ضميرها على الطاغية فرعون، بمعنى أنه كان عند إغراقه وجنوده متلبسًا بما يلام عليه من الجرائم والطغيان.

واللمحة القصصية الرابعة قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾. **وعادٌ قبيلة من العرب البائدة،** وهم قوم نبي الله هود عليه السلام، كانوا على الوثنية والشرك، وكانوا قومًا طغاة جبارين، فجاءهم رسولهم بالتوحيد والدين الخالص، فكذبوه وسخروا منه، فأهلكهم اللَّه بريح عقيم،

وهي الإعصار الشديد، الذي لا يُرجى له نتاج خيرٍ، من ري أو لقاح، بل هي ريح مدمرة، تحطم كل شيء، لا تمر على شيء إلا جعلته كالرميم، أي جعلته فتاتًا متناثرًا، أو حطامًا هشًّا، كالغثاء المتناثر هنا وهناك. فالرميم في لغة العرب هو: ما يَبِسَ وجَفَّ من النبات وأغصان الشجر، وبَلِيَ حتى صار هَشًّا فارغًا منخورًا، لا يصلح لشيء، ويفسره قوله تعالى في حق عاد بسورة الحاقة: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]. وقد ذكر المفسرون أن الريح الشديدة كانت تحمل الناس في الهواء فتضربهم على جماجمهم في الأرض، وتحطم عليهم منازلهم، وتصدمهم بالصخور، فلم تزل عليهم كذلك ثمانية أيام؛ حتى جعلتهم وديارهم كما وصف اللَّه ﷻ كالرميم البالي (١). وهذا الصنف من العذاب مُشَاهَدٌ اليوم في زماننا هذا، في الإعصارات الرهيبة التي تضرب بعض الأقطار بأمر ربها، فتدمر كل شيء، الإنسان، والبنيان، والشجر، والدواب، جميعًا، فلا ترحل حتى تخلف وراءها آلاف القتلى والمشردين، والعياذ باللَّه. وقد رُئِيَتْ بعضُ اللقطات المصورة منها، لسيارات ضخمة، تحطمها الريح كما تحطم البيضة!

واللمحة القصصية الخامسة هي في ثمود، قوم نبي اللَّه صالح صاحب الناقة ﵇، وهم أيضًا من العرب البائدة الهالكة، كانوا أهل شرك وأوثان. وقد كانوا قريبي عهد من قبيلة عاد، لكنهم لم يتعظوا بمصرعهم ولم يعتبروا! فعقروا ناقة نبيهم التي جعلها اللَّه لهم آية ومعجزة، وكذبوه وحاصروه؛ فأهلكهم الجبار ﷻ بصاعقة خارقة، زلزلت أعصابهم وأبدانهم حتى قتلتهم جميعًا! ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥ ﴾. وقد ضرب لهم نبيهم صالح موعدًا لهلاكهم، يحل بعد ثلاثة أيام من عقرهم الناقة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ... ۝٤٤ ﴾، أي: فاستكبروا على ربهم، وطغوا على رسوله، وسخروا من وعيده وكذبوه! ويفسره قوله تعالى من سورة هود: ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، ومع شروق اليوم الرابع نزلت بهم صاعقة غريبة من السماء، صاعقة ذات صيحة شديدة، لا تطيقها الأسماع ولا الأعصاب

(١) تفسير ابن كثير للآية.

البشرية، فلم تزل تصرخ بهم، وهم ينظرون إلى أجسادهم تتمزق من هولها، منبطحين على الأرض، فما استطاعوا من قيام؛ بسبب قوة الصراخ الشديد المستمر، ولا استطاعوا فرارًا من بأسه، وما كانوا منتصرين على أمر اللَّه، ولا ناجين من عذابه! ولم تزل تلك الصاعقة الرهيبة تدوي بهم؛ حتى جعلتهم هلكى خامدين!

ثم قال تعالى في اللمحة القصصية السادسة والأخيرة: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾. **أي: وقد أهلكنا قومَ نوح قبل إهلاك هذه الأمم المذكورة.** فقومُ نوح أسبق في الزمان من كل الأمم، ونوح عليه السلام كان أول الرسل إلى الناس [(١)]. وكان مهلك قومه بما عُلِمَ في كتاب اللَّه من قصة الطوفان العام. وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾، بمعنى: إنهم كانوا منحرفين عن الحق؛ بشركهم وطغيانهم، فكانوا أول من جرت عليهم سُنة الانتقام الإلهي، بالهلاك العام.

وخلاصة هذه القصص الست، أنها سيقت - في هذه السورة - لبيان صدق وعد اللَّه باليوم الآخر يقينًا، وقدرته تعالى على خرق عوائد الطبيعة بشتى أشكالها، فهو سبحانه خالقها، وهو يفعل بها ما يريد، كما يريد، ومتى يريد. وأن كل من خالف أمره وطغى وتجبر بغير الحق؛ فإن سنته جرت بالانتقام الشديد. واطرادُ السنة وثباتها يُنتج في قلوب المبصرين إيمانًا بها على مقام اليقين، تمامًا كما نؤمن بقانون الجاذبية، ونعلم يقينًا أن من ألقى بنفسه من على جبل عالٍ؛ تحطمت جمجمته وأضلاعه. نسأل اللَّه الهدى والثبات، ونسأله تعالى العافية والنجاة، في الحياة الدنيا وبعد الممات.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ثمان رسالات، نفصلها على النحو التالي:

الرسالة الأولى: في أن إكرام الضيف ماديًّا ومعنويًّا، بالإيواء وبذل الطعام وإلانة الكلام، من أهم أخلاق الإسلام، ومن أرفع أصوله الاجتماعية والسلوكية. وتعتبر الضيافة في الإسلام حقًّا على كل مسلم، لها قواعدها وشروطها وآدابها؛ وذلك لما لها

---

(١) جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه: « فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ »، وفيه دليل على أن آدم عليه السلام إنما كان نبيًّا. وقد استمر الإيمان والتوحيد في الأرض، بعد عهده عشرة قرون، ثم انحرف الناس إلى الشرك وعبادة الأوثان، فبعث اللَّه لهم نوحًا عليه السلام رسولًا، فكان أول رسول في التاريخ البشري.

من أثر بليغ في تمتين الروابط الاجتماعية، وتعميق مشاعر الأخوة بين المسلمين. وقد ثبت في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، منها ما في الصحيحين عَنْ أَبِي شُرَيْح الْخُزَاعِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ! » قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ. وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ. وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ! »[(١)]، وفي وصية النبي ﷺ لعبد اللَّه بن عمرو ﷺ قال: « وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا! »[(٢)]، والزَّوْرُ: الضيف.

وهذه الأخلاق النبيلة مفقودة في المجتمعات الغربية النصرانية اليوم، وإنك لترى النسيج الاجتماعي عندهم متلاشيًا هشًّا، لا تسنده العواطف الصادقة ولا المحبة الخالصة، وإنما هو محمي بقوانين قاسية بئيسة، لا تغني عن مشاعر الأخوة شيئًا على الإطلاق. ومن ثم وجب على الدعاة المسلمين الانتباه لهذا، وتجديد خُلق الضيافة والإطعام في بيئاتهم؛ لأن ذلك أدعى لرعاية حقوق اللَّه وحقوق عباده في الأمة.

الرسالة الثانية: في أن السلام هو تحية الإسلام، وإفشاؤه واجب بالكل على المسلمين، بمعنى أنه مندوب للفرد، لكن حصوله على الإجمال في الأمة واجب، ولا يجوزه فقدانه على الإطلاق، كما نشاهده في المدن الصناعية الكبيرة في البلاد الإسلامية! فهذه آفة خطيرة يجب القضاء عليها بإفشاء السلام، لا بد من تربية دعوية عامة، تذكر الناس بهذا الواجب العظيم.

إن تحية السلام التي هي تحية أهل الجنة، وتحية الملائكة، بنص القرآن، لها أثر عظيم في شرح القلوب، وتطهيرها من ضغائن الكراهية والغضب، وخاصة مما يوتر الأعصاب في زماننا هذا، من العلاقات الاجتماعية؛ بسبب طبيعة الأعمال المعاصرة، ذات الضغط الشديد، والسرعة المفتونة، والسباق المجنون.

وإن النبي ﷺ قد جعل السلام جسرًا رحمانيًّا للعبور إلى القلوب، واكتساب محبتها، وذلك أدعى لقضاء المصالح المتبادلة بين المسلمين بأمان ووئام، وأدعى لفعل الخير، وعدم التشنج، وإكرام الآخرين؛ بما يزكي النفس المؤمنة، ويرقيها عند اللَّه في

(١، ٢) متفق عليه.

درجات الجنة! ومن أجمع النصوص في هذا ما رواه أبو هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ: « **لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ** »(١) نعم، بكل هذه البساطة: أفشوا السلام! لأن « السلام » اسم من أسماء اللَّه الحسنى، وإفشاء التحية به في كل مكان كفيلٌ بنشر مشاعر السلام بين الناس، وتحقيق سعادة الأمن والأمان في المحيط الاجتماعي، فتتقوى بذلك روابط الأخوة في الدين، ووشائج المحبة في اللَّه.

ولعل نشوء ظاهرة انعدام السلام بين المسلمين في المدن الكبرى، راجع إلى كثرة الناس وقلة المعارف بينهم. وهذا سبب غير مشروع؛ لأن السلام حقٌّ لكل مسلم، سواء عرفته أم لم تعرفه، وذلك بنص الحديث الصحيح، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: « **تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ** »(٢).

وكما ترى من نص هذا الحديث، فإن السلام فيه معنى الإكرام؛ لارتباطه في السياق بإطعام الطعام، كما أنه عبادة كالصيام والقيام، فأجره عند اللَّه جارٍ على ذلك الوِزَانِ، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيرة، نختار منها حديثَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَلَامٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « **أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ!** »(٣).

وقد بالغ النبي ﷺ في الحض على السلام، حتى جعله مطلوبًا بين المسلمين كلما التقوا من جديد، بعد لقاء سابق قريب، حتى ولو لم يكن الفارق بين لقائهم السابق واللاحق سوى بضعة ثوانٍ! فانظر إلى هذا الحديث العجيب حقًّا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ

---

(١) رواه مسلم. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم. وصححه الترمذي، وقال الحاكم: « صحيح على شرط الشيخين »، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة: « وهو كما قالا ». كما صححه في صحيح الجامع، وفي تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه، وكذا في صحيح الترغيب. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « رجاله ثقات رجال الشيخين ».

أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَيْضًا!** »(١)، وقد ثبت أن الصحابة الكرام كانوا يعملون بمقتضى هذا الحديث بصورة تامة، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يكونون [في سفر أو نحوه] فتستقبلهم الشجرة، فتنطلق طائفة منهم عن يمينها وطائفة عن شمالها، فإذا التقوا سلم بعضهم على بعض)(٢).

فإذا عُلِمَ ذلك عُلِمَ ما لقيمة تحية السلام في الإسلام، وأنها ليست مما يجوز التهاون فيه. ولعل كلمة واحدة ينطق بها المؤمن؛ ينال بها من الدرجات العلى، ما قد لا يخطر له على بالٍ! أما الآثار النفسية والاجتماعية للسلام فهي أعمق بكثير مما يتصور، بل إنها في حاجة إلى دراسة اجتماعية ونفسية، وبحث ميداني؛ لنكتشف مدى عمق كلمة السلام في بناء النسيج الاجتماعي في الإسلام وتمتينه وتحصينه.

الرسالة الثالثة: في أن العطاء الإلهي غير مقيد بسُنة كونية، ولا مرتهن بقانون طبيعي، وأنه تعالى قادر على أن يهب الولد للعقيم، ولو بعد سن اليأس، فيخلق في رحمها جنينًا، بما يخرق كل القوانين البيولوجية والطبيعية. فهو الله الملك الوهاب، سبحانه. وما السنن الكونية والقوانين الطبيعية إلا سُتُرٌ وحُجُبٌ خلقها الله تعالى؛ ليخفي من ورائها قدرته العظيمة، ومشيئته المكينة؛ ابتلاءً للناس وامتحانًا لهم. ولو شاء - سبحانه - لجعل السماء تمطر من غير غيم، ولا برق، ولا رعود. فلا حد لقدرته، ولا مانع على الإطلاق لتصرف مشيئته.

أما بالنسبة لنا معشر بني آدم، فالأخذ بالسنن والأسباب الطبيعية واجب؛ لأنها خُلقت لنا، كي نعبد الله بها، ونتعرف إليه بمدارجها ومعارجها. وإنما لا يجوز أن تصبح الأسباب والسنن حُجبًا تمنع المؤمن من إبصار جلال الربوبية وجمالها، ومشاهدة تصرف المشيئة وسلطانها. فلو وقع الإنسان في ذلك لكان معناه أنه خسر الامتحان، وصار عبدًا للأسباب، أعمى البصيرة.

وعليه؛ فإن المؤمن العارف بالله حقًّا لا يزال يسأل الله من فضله، ويطلب منه

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه. وصححه الألباني في تحقيق سننيهما، وفي صحيح الجامع والسلسلة الصحيحة.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الأوسط، وابن السني في عمل اليوم والليلة. وصححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (٣١٢/١).

حاجته، ولو كانت السنن الطبيعية كلها تعبر عن استحالة الوقوع، لكن المؤمن الحق لا ينقطع عن الدعاء، ولا يدخله اليأس أبدًا؛ لأنه يؤمن أن الله لا يعجزه شيء! ولو أنه انقطع ويئس لكان ذلك معناه: أنه اتهم اللَّه - سبحانه - بالعجز والعياذ باللَّه! ولقد شاهدنا غير ما مرة، في أنفسنا وفيما حولنا، ما قرره القرآن في أكثر من آية، أن الرب الكريم - سبحانه - يجيب دعاء عبده، ولو كانت السنن كلها في حق ذلك العبد سلبية مانعة! وإن ذلك لهو معنى الابتلاء! وتدبر قول رسول اللَّه ﷺ في مناجاته الخاشعة: « **أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ - وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ - اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ** »[1]، والْجَدُّ: الحظ والجاه. فما شاء سبحانه كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا عبرة بقانون ولا سُنَّةٍ. فمن عرف اللَّه بهذا فقد عرفه حقًّا. ذلك امتحان، وإنما ينجح فيه أهل اليقين في اللَّه. جعلني اللَّه وإياكم منهم.

الرسالة الرابعة: في أن حقيقة البُشْرَى بالولد ذكرًا كان أم أنثى؛ إنما هي كونه عبدًا صالحًا، عليمًا بحقوق اللَّه وحقوق عباده، عاملًا على ذلك. وإلا كان شَرًّا على نفسه، وبلاءً على والديه، وفتنةً للناس، والعياذ باللَّه! فانظر إلى الفرق الكبير - في كتاب اللَّه - بين هذين النموذجين من الولد، فالنموذج الأول قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٢ - ١٥]، وأما النموذج الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٧].

---

(١) جزء حديث رواه مسلم، ونصه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ. أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ - وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ - اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ! » وقد كان النبي ﷺ يقول مثل ذلك دُبُرَ كُلِّ صلاة، ففي الصحيحين عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ! » متفق عليه.

ولقد شاهدنا فيما حولنا من الناس من يتمنى لو كان عقيمًا، ولو لم يكن له ولد على الإطلاق؛ بسبب ما صار يكابد من العنت الكبير والشر المبير، في ترويض أولاده، وهم مع كل ما يبذله من جهود لا يزدادون إلا طغيانًا وفجورًا! ولقد رأينا في بعض أهل الثراء، من ألقوا أباهم - لما حضرته الوفاة - على سرير منسي في بعض المستشفيات، وهم يستعجلون موته للاستحواذ على التركة!

ولقد شاهدنا أيضًا أن الولد الصالح هو من أعظم النعم الإلهية فعلًا، ومن أعظم الكرامات التي ينالها العبد من ربه. فمن طلب الولد مجردًا من هذا المعنى العظيم؛ فقد طلب لنفسه شَرًّا كبيرًا. وهذه حقيقة يغفل عنها كثير من الناس؛ بسبب طغيان شهوة المال والولد.

الرسالة الخامسة: في أن وجود المؤمنين - ولو قل عددهم - في بيئة ما؛ يرفع عنها عذاب اللَّه بإذن اللَّه، ما داموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وقد تواترت النصوص بذلك. كما تضافرت الآيات في أنه ما من عقاب ينزل بالطغاة إلا ويكون أهل الإيمان الـخُلَّصُ بمنجاة منه؛ رحمةً من اللَّه وفضلًا. وهو أمر مُطَّرِدٌ مشهور، منذ حدَثِ الطوفان في عهد نوح، وإغراق الكفرة من قومه إلا أهلَ السفينة. وقد قال تعالى في حق هود ﷺ ومن آمن به: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وكذلك الأمر جرى مع مؤمني بني إسرائيل عند إغراق فرعون وجنوده. ثم قال عن أصحاب السبت من بني إسرائيل: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وقد نص القرآن في غير ما موطن على أنها قاعدة مطردة في المؤمنين بإطلاق، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

ولا ينقض ذلك حديثُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ** » - وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ: الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا؟ - قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: « **نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ!** » (١)؛ لأن الهلاك هنا إنما يقتصر على الصلاح السلبي، وهو الذي لا يأمر صاحبه بمعروف ولا ينهى عن منكر، فهو صالح في نفسه وليس بمصلح لغيره. وأما الصلاح الإيجابي فصاحبه آمِنٌ بإذن اللَّه، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدل عليه ما رواه حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ!** » (٢)، وآية سورة هود - قبل ذلك - نص في اطراد نجاة أهل الإصلاح مطلقًا، وهي قاضية على كل ما خالفها، تُقيده وتخصصه. أعني قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وقد قال اللَّه تعالى في حق كفار قريش قبل الفتح: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥]. فمنع اللَّه - سبحانه - العذابَ عن كفار قريش؛ بسبب أن بينهم مؤمنين مستضعفين مستخفين بإيمانهم. قال الإمام الطبري رحمه الله: (وقوله: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة، من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم؛ ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يقول: لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل) (٣)، واللَّه جل جلاله قدير على تمييزهم عند العقاب لو شاء، ولكنه عَلِمَ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في الشعب. وحسنه الألباني في تحقيق سنن الترمذي، وفي صحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

(٣) من تفسير الطبري للآية.

سبحانه ما سَبَقَ في قَدَره، من أن كثيرًا من الكفار هنالك سوف يسلمون بعد حين؛ فأرجأهم ليؤمنوا باللَّه ورسوله ﷺ، ووهب لهم النجاة برحمته. وقد أهلك طواغيت الكفر منهم في غزوة بدر وغيرها. والآية - على كل حال - شاهد قوي على أن للمؤمن حرمةً عظيمة عند اللَّه ﷻ، يحفظه من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وأما تعرض الدعاة للتعذيب والتقتيل، في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه لا يعتبر عذابًا ولا عقابًا، كلَّا وحاشا! وإنما هو تكريم لهم من الرحمن وتشريف، ورفع لدرجاتهم عند اللَّه ﷻ. وإنما المنفي عنهم أن يعمَّهم اللَّه بعذاب منه، مما يسلطه على الكفار من الهلاك العام، في الدنيا قبل الآخرة، من مثل ما وقع لعاد وثمود وغيرهما. فأما هذا فقد كتب اللَّه لهم النجاة منه. كما قررناه بشواهده.

الرسالة السادسة: في أن خلو مدينة، أو دولة، من الدعاة إلى الخير - مهما قلوا - الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حقيقةً، على مقتضى مقام الإخلاص، والتجرد الكامل للَّه، وعلى ميزان قواعد الشرع وحِكَمِهِ؛ يعني أنها مدينةٌ أو دولةٌ معرضة لعذاب اللَّه وانتقامه الشديد، نسأله تعالى العفو والعافية. ونصوصُ الرسالة السابقة كلها دالة على هذا. ويكفي أن نعيد التدبر لقول النبي ﷺ فيما ذكرناه: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْـمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ!** » [(١)].

الرسالة السابعة: في أن جميع ما نراه اليوم مما يسمونه بـ « الكوارث الطبيعية »، إنما هو استمرار لسنة اللَّه الجارية، في الانتقام من أهل الفسق والفجور، والظلم والطغيان، المتمردين على شريعة اللَّه! وأنه لا قوة مدمرة من ذلك، إلا ووراءها طائفة من ملائكة الرحمن، تسلط العذاب على من شاء اللَّه من أعدائه، سواء كانت تلك القوة إعصارًا، أو زلزالًا، أو خسفًا، أو بركانًا متفجرًا، أو بحرًا غاضبًا، أو عاصفة مدمرة، أو صاعقة قاتلة، أو حريقًا زاحفًا مستعصيًا عن الإطفاء... إلى غير ذلك مما نشاهده كل سنة من حوادث العالم.

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في الشعب. وحسنه الألباني في تحقيق سنن الترمذي، وفي صحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

ذلك أن سنة العقاب الإلهي لم تنقطع قط، فمنذ أن نزلت بقوم نوح في التاريخ القديم، وهي مستمرة في الأرض، تقع على أهلها في صور مختلفة، وأماكن مختلفة، وأنها ستبقى ثابتة حتى تقوم بها الساعة على شرار الخلق. ففي كل حين تصيب طرفًا من الناس، في رقعة من الأرض؛ لتجدد النذارة بيوم الدين، وأنه حق يقين، وتطرق بقوة على قلوب الفاسقين والغافلين، أن: فروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين! قال تعالى بما يدل على الثبات والاستمرار: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١]. وكفى بهذا دليلًا على ما أصّلناه.

الرسالة الثامنة: في أن الأدب عند مشاهدة شيء من الكوارث والنوائب ولو كان يسيرًا؛ أن يجأر المؤمن إلى ربه بالدعاء والاستغفار. وقد كان رسول الله ﷺ إذا هبت العاصفةُ كَرِبَ لذلك وارْبَدَّ وجهُه، فلا يستبشر حتى تمطر أو تفتر. فعن أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ ؓ قالَ: (كَانَتْ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ إِذَا هَبَّتْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ!)[١]، وَأوضحُ منه حَدِيثُ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ: « **يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا:** ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] »)[٢].

كما أنه ﷺ كان كلما مَرَّ في سفره بآثار الأمم الهالكة من عذاب الله؛ وَجِلَ قلبُه لذلك واهتز رهبًا، ووعظ أصحابه مذكرًا إياهم بأيام الله، والتخويف من عذابه الأليم، حاثًّا إياهم على التفكر في مَصارع القوم؛ بما يستوجب البكاء والاعتبار. فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ؓ قالَ: (لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجْرِ [ديار ثمود، وذلك في غزوة تبوك]، قَالَ ﷺ: « **لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ! فَإِنْ**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم. وتمام الآية قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

لَمْ تكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ! » ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ!) (١).

ورغم أنه ﷺ أسرع العبور في وادي المعذبين - كما هي عادته ﷺ كلما مر بآثار القوم المهلكين - إلا أنه مع ذلك اغتنم فرصة العبور، فألقى في أصحابه موعظة ميدانية بليغة، وهم كذلك على رحالهم سائرين، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ: « **لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ! وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ** [يعني الناقة] **تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا! فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا؛ فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ ﷻ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ ﷻ** ». قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ!** ») (٢).

٤ - مسلك التخلق:

الخُلق الرئيس الذي وردت به هذه الآيات هو خُلُق الخوف! الخوف بمعناه التعبدي، القائم على معرفة مقام الرب العظيم، الخوف النازل على القلب من شُرُفَاتِ اليقين. ففي التعقيب على مهلك قوم لوط قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧ ﴾، وهو معنى جارٍ في كل مصارع الأمم الأخرى؛ لأنه مفهوم من السياق الكلي، وإنما فائدة قصص المهلكين الترهيب والتخويف من عذاب اللَّه، ومن مغبة عصيانه والتمرد على شرعه ودينه. ومن ثم كان الخوف مقامًا إيمانيًّا من أجَلِّ منازل الإيمان، لا يوصف به إلا أهل اليقين من الأبرار الربانيين.

وقد مدح اللَّه أهله في غير ما موطن من كتابه وسنة نبيه ﷺ. كما حكى سبحانه مقالة الأبرار إذ قالوا: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، والحاكم، والطبراني في الأوسط، كما رواه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقد أورده ابن كثير في البداية والنهاية برواية أحمد، وقال: (وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة واللَّه أعلم)، البداية والنهاية (١٣٧/١). ط مكتبة المعارف، بيروت. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم ».

سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ونحو هذا وذاك في القرآن كثير.

والخلاصة أن الخائف من الله آمن في الدنيا والآخرة بإذن الله. آمن في الدنيا من نقمته تعالى ومن شر خلقه، وآمن في الآخرة من عذابه المقيم والعياذ بالله؛ ولذلك عقَّب على خوف الأبرار من اليوم العبوس القمطرير، فقال سبحانه: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

إن الخوف من الله هو سبب السكينة والسلام، أما الخوف من غيره فهو سبب التعاسة والشقاء. ومن خاف الله وحده كفاه شر كل خوف.

والمسلك الأساس للتحقق بهذا الخلق العظيم هو:

أولًا: تدبر قصص الهالكين في كتاب الله، ومطالعة أخبارهم مستحضرًا أنها حقائق منزلة من عند الله، تتدبرها حتى تجد نفسك كأنك تراها، بل كأنك تعيشها وتحياها! وقد قرأت عن بعض الصالحين، أنه كان كلما قرأ قصة نوح في القرآن، ووقف على مشاهد الطوفان؛ شَعُرَ بالاختناق، وتتابع نبضُه، وضاقت أنفاسه، كأنما هو يغرق! وذلك من شدة الاندماج النفسي مع حقائق القصة!

ثانيًا: الاستيقان من ثبات سنة العقاب إلى يوم القيامة، كما بيناه، وتفسير كل الكوارث العالمية بها، دون شكٍّ ولا تردد، فلا شيء في ملك الله يتحرك بمفرده، أو يحدث بغير علمه وإذنه. فإنما هي مصائب منزلة من سمائه، على ميزان قضائه وقدره، يصيب بها من يشاء من أعدائه. وقد قال ﷻ عن حجارة قوم لوط: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]، أي أنها معلقة على رؤوس الظالمين في كل زمان وفي كل مكان، تنتظر الإذن الإلهي، لتنهال عليهم بالعذاب. فلا تغتر بتحليلات أهل العمى.

ثالثًا: السير في الأرض ما أمكن؛ لمشاهدة آثار الأمم البائدة، سواء ممن ذكرهم الله في كتابه، أو غيرهم. وكثير من آثارهم ما تزال باقية رغم آلاف السنين، شاهدة على سنة الله الجارية في الظالمين. قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى

ﭐلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وإنما الشرط في مشاهدة آثار المعذبين، أن يكون القصد الأساس هو التفكر والتدبر والاعتبار، واستحضار مشاعر الخوف والحزن والبكاء، كما بيناه بدليله في الرسالة السابعة. ولا يجوز بأيٍّ حال من الأحوال السير إلى تلك الآثار وأضرابها بقصد الترفيه والاستجمام. وإنما هي مواطن للذكرى، وإنما تركها اللَّه ﷻ آيةً للذين يخافون العذاب الأليم، كما تدارسناه.

رابعًا: معرفة أن هذه الأمة أيضًا معرضة - في بعض أجزائها - لِمَا أصاب الأمم البائدة، من الخسف والقذف والمسخ! نسأل اللَّه النجاة والعافية برحمته. وهذه حقيقة إيمانية صحت بها الأخبار عن النبي ﷺ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **يَكُونُ فِي أُمَّتِي خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ!** » [(١)]، وفي حديث عمران بن حصين زيادة: (قال رجل من المسلمين: يا رسول اللَّه متى ذلك؟ قال: « **إذا ظهرت القيان والمعازف، وشُربت الخمور!** ») [(٢)]، وقد ذكر النبي ﷺ من علامات الساعة: « **ثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْـمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ!** » [(٣)]، والإنذار بالخسف والقذف والمسخ، حديث متواتر المعنى، فقد روي عن عدد من الصحابة منهم: أم المؤمنين عائشة، وعمران بن حصين، وعبد اللَّه بن عمر، وعبد اللَّه بن عمرو، وسهل بن سعد، وجابر بن عبد اللَّه، وأبو هريرة، وسعيد بن راشد [(٤)].

وقد علمنا بوقوع بعض هذا في السنوات الأخيرة، في بعض البلاد الإسلامية، وخاصة الخسف. والخسف: زلزال عمودي، يجعل الأرض تسيخ بأهلها وعمرانها، فتبتلع ما عليها، وهو شر الزلازل والعياذ باللَّه! نسأله تعالى العافية. والعجيب أنه وقع اليومَ فعلًا في مناطق بلغ بأهلها الفسق والفجور حد الطغيان!

تلك مسالك أربعة من تحقق بمقتضياتها، وشاهد أيام اللَّه من خلالها؛ رجا أن يهبه اللَّه قلبًا خائفًا، فلا يأمن إلا في جوار اللَّه، ولا يطمئن إلا بذكر اللَّه. فذلك الذي

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه. وصححه الألباني في تحقيق سنن ابن ماجه، والسلسلة الصحيحة والجامع الصغير.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

(٣) جزء حديث رواه مسلم.

(٤) ن. ذلك مفصلًا في السلسلة الصحيحة للألباني (٣٩٢/٤).

يُرْجى أن يكون من الناجين المرحومين، إن شاء اللَّه.

فاللَّهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك! سبحانك اللَّهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

* * *

المجلس الثالث

في مقام التلقي لحق الخالقية
وما يترتب عنه من واجب إخلاص التوحيد والعبادة للّه
وبيان أن ذلك هو غاية الوجود البشري
وأن عليه يكون الحساب في اليوم الآخر



١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾.

٢ - البيان العام:

كانت قصص المجلس السابق جسرًا معنويًا، يربط بين الثلث الأُول من السورة، والثلث الأخير منها. وذلك بما رسخت من أن أمر اللّه حق يقين لا مرد له من اللّه، في الإنعام والعقاب سواء. وأن الخراصين المذكورين في أول السورة، إنما هم يضعون أنفسهم - بمقتضى سنن تلك القصص - في مواجهة سنة اللّه، الجارية بالانتقام من الكفرة الفجرة، المكذبين بيوم الدين.

ومن ثم كانت هذه القصص نفسها تمهيدًا لبيان حق اللّه على العباد، وبيان الحكمة التي من أجلها خلقوا، وبيان أمر الذين عوقبوا، لماذا عوقبوا؟ كل ذلك من

خلال الكشف عن حق الخالقية الثابت لله ﷻ منذ الأزل، وبيان ما يترتب عنه من واجب إخلاص التوحيد والعبادة لله، وأن تلك هي الوظيفة الأولى للإنسان في الأرض، وأنها هي حكمة وجوده، وغاية خلقه وتكوينه. وأن اليوم الآخر إنما جعله الله ﷻ من أجل فصل الحساب في هذه القضية الإيمانية الكبرى. ومن ثم فلا دين بغير ترسيخ الإيمان باليوم الآخر على مقام اليقين، كما تبين مفصلًا في الثلث الأول من السورة.

وهكذا جاءت آيات هذا القسم الأخير، ترسم الخلاصات الأساسية، لقضية الإيمان بالله، توحيدًا وتفريدًا، وتضع معالم الطريق للعابدين، وتبين ما لله خالق الجن والإنس على خلقه من حقوق، وتفتح باب النجاة للإنسان كي يفر إلى الله الذي خلقه، وخلق له كل شيء من السماء إلى الأرض، عساه يكون بذلك من الناجين.

وعلى ذلك القصد انتصبت الآيات الأولى من هذا المقطع: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾، تلك ثلاث آيات، كل واحدة منهن تفتح كتابًا من كتب الكون، لكنها لا تفتحه على الصفحات التي فُتح عليها من قبل، في المجلس الأول من هذه السورة، من جمال الْحُبُكِ، وبيان دقة الصنع والتقدير والتدبير، بل تفتحه الآن على مشاهدة صفحات أخرى من عظمة الله ﷻ، وقدرته، ومشيئته، وتصرف إرادته سبحانه، وهو يبني السماء، ويفرش الأرض، ويخلق الأزواج من كل شيء. إنها تبصرنا أساسًا بصفة « الخالقية » في ذات الله ﷻ، وتفتح أعيننا على شعاعٍ جديدٍ من نور اسمه تعالى « الخالق »، ذلك الاسم العظيم الذي به استحق ربوبية العالم، وبه استحق عبادة المخلوقين له ﷻ . فإذا شاهدنا في صدر الصورة جمال الصنع، فإننا نشاهد هنا جلال الصانع. ولا شك هو مقام أعظم وأرقى.

وارتباط هذا المقطع بما قبله من القصص، وورود آياته بعدها مباشرة، يوحي بأن الذي دمر هناك وأهلك، هو الذي بنى هنا وخلق، وأنها قدرة واحدة، ومشيئة واحدة، تُدبر أمر هذا العالم بميزان محكم حكيم. **وبيان ذلك هو كما يلي:**

قال ﷻ : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾، وعبارةُ « الأَيْدِ » هنا ليست جمع يَدٍ، وإنما هي مصدر لفعل: آدَ، يَئِيدُ، أَيْدًا، بمعنى: اشْتَدَّ وقَوِيَ. فالأَيْدُ في اللغة

اسم للقوة [١]. فقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ... ﴿٤٧﴾ ﴾، أي بقوة وإحكام، مع توسيع أرجائها وفضاءاتها وطبقاتها، بما لا قدرة للبشر على حصره ولو بالتخيل! وبعض التصورات الحديثة، في علم الفلك والكونيات اليوم، تقول بأن الكون لا يزال في تمددٍ واتساع، منذ أن انفجر عن ذرة صغيرة في بداية الخلق، وذلك فيما يسمونه بنظرية الانفجار العظيم.

والتعبير بالبناء في الآية مشيرٌ إلى أن السماء ذات تركيب بنائي متوازن، سواء في كواكبها ونجومها ومجرَّاتها، ومواضع أفلاكها، ومواقع كل نجم من تلك الأفلاك، أو بالنسبة إلى طبقاتها الغيبية، التي لا يعلم الإنسان عنها شيئًا، إلا ما جاء عن طريق الوحي. فقد ثبت في أحاديث شتى أن لكل سماء من السماوات السبع بابًا أو عدة أبواب، وأنها سقوف مبنية مغلقة، لا تُخرق جُدُرُهَا إلا بإذن الله. ففي حديث ابن عباس ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ!...) الحديث [٢].

وفي حديث المعراج العجيب إذ كان البراق يخرق بالنبي ﷺ طبقات السماوات، كان جبريل عليه السلام يستأذن له عن كل باب من أبواب السماوات؛ فَيُفْتَحُ له، وفي ذلك قول النبي ﷺ: « **ثُمَّ انطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ،**

---

(١) جاء في اللسان: (الأَيْدُ والآدُ جميعًا القوة (...) وقوله ﷻ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ [ص: ١٨]، أَي: ذا القوة. قال الزجاج: كانت قوته على العبادة أَتم قوة، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وذلك أَشد الصوم، وكان يصلي نصف الليل. وقيل: أَيْدُهُ: قوتُه على إلانةِ الحديد بإذن الله، وتقويته إياه. وقد أَيَّدَهُ على الأَمر، [قال] أَبو زيد: آدَ يَئِيدُ أَيْدًا، إذا اشتد وقوي. والتأْييدُ مصدرُ أَيَّدته، أَي قوَّيته. (...) وفي التنـزيل العزيز: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، قال أَبو الهيثم: آد يئيد إذا قَوِيَ). لسان العرب، مادة: (أيد). وجاء في القاموس: (آدَ يَئِيدُ أَيْدًا اشْتَدَّ، وقَوِيَ. والآدُ الصُّلْبُ، والقُوَّةُ، كالأَيْدِ. وآيَدْتُهُ مُؤَايدَةً، وأَيَّدْتُه تأييدًا، فهو مُؤْيَدٌ ومُؤَيَّدٌ: قَوَّيْتُه). القاموس المحيط: (آد).

(٢) رواه مسلم، وتتمة الحديث: عن ابن عباس ﷺ قال: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ!).

قَالَ: فَفَتَحَ لَنَا، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ » [(١)]، وكانت هذه العبارة تتكرر في الحديث عند كل سماء، من السماء الدنيا حتى السماء السابعة؛ بما يدل على الطبيعة البنائية لكل سماء، وأنها ذات أبواب محروسة، لا يدخلها إلا مأذون من رب العالمين.

ولذلك ورد في كتاب الله عن الكفار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ثم إن بناء السماء بهذه القوة المذكورة، يعني بأنها مرفوعة فوق الطبقات العليا للفضاء، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الرعد: ٢]، ثم إنه تعالى رفعها فوق النجوم والكواكب والشمس والقمر؛ لأن هذه إنما هي زينة للسماء الدنيا فقط، وهي معلقة في سقفها دون سطحها، كما هو ظاهر التعبير القرآني، قال تعالى في سورة الصافات: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

صحيح أن لفظ السماء قد يرد في القرآن بمعنى الفضاء الأرضي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [النحل: ٧٩]، لكن الغالب هو ذكر السماء بمفهومها الغيبي، كما في النصوص السابقة، وكما في كثير من الأحاديث الصحيحة، من مثل ما أوردنا في حديث المعراج وغيره. وهذه السماء، أو بالأحرى السماوات، هي المقصودة بعبارات الرفع والبناء في القرآن، وهي أوسع، وأبعد، وأعمق بكثير من فضاء النجوم والكواكب، رغم شساعته المهولة؛ إذ ما هو إلا زينة للبنية التحتية للسماء الدنيا! والمتدبر لمصطلح السماء في الكتاب والسنة يدرك بسرعة هذه الحقيقة الرهيبة! وإن الدماغ البشري ليصاب بالصداع؛ كلما حاول استيعاب هذا الامتداد الغيبي الواسع الشاسع!.. تلك لمحة من قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾.

ثم قال ﷻ عطفًا على بناء السماء: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ ﴾،

---

(١) جزء حديث متفق عليه، وهو حديث المعراج الطويل.

والفَرْشُ: البَسْطُ والتَّوْطِيءُ. وأما الْمَهْدُ فهو: التذليل والتمهيد والتهيىء. وقوله: ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ ثناءٌ من اللَّه ﷻ على نفسه؛ تذكيرًا بنعمته على خلقه، كأنه قال: « فنعم الماهدون نحن لها من أجلكم! » وفيه تعليم لعباده أن يشكروا النعمة للَّه.

ومعنى الآية في مجملها أن اللَّه ﷻ فَرَشَ الأرضَ بطبقة من التربة، تكون صالحة للحياة البشرية، ولشتى ضروب الزراعات والفلاحات، وأجرى فيها الأنهار وسخر البحار، ثم مهدها للإنسان وأعدها له إعدادًا، قبل خلقه بزمن سحيق. فما أُهبط إليها آدم عليه السلام إلا من بعد ما كانت مفروشة، مهيأة للحياة البشرية الدنيوية، على أكمل صورة وأدق تقدير. كما قال تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠].

ومن كمال فرش الأرض وتمهيدها، أنه تعالى خلق فيها من كل شيء زوجين؛ لإجراء سُنَّةِ التوالد والتناسل والتجدد؛ ضمانًا لبقاء النوع ووفرته، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والطيور والأسماك، وغير ذلك مما اللَّه به عليم، من المسخَّرات الظاهرة والباطنة. وقد يتسع مفهوم « الزوجين » ليشمل كل الثنائيات المتقابلة، كالليل والنهار، والصحة والمرض، والفقر والغنى، والموت والحياة، والخير والشر.. إلخ، مما تذكره كتب التفسير، لكن قصره على المعنى الأول أوفق للسياق. فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. والتذكر: هو الاعتبار، واستخلاص الحكمة، واستفادة نتائج التفكر فيما خَلق اللَّه من الأزواج من كل نوع، وفيما ذُكر قبله من بناء السماء وفرش الأرض، وما في هذا وذاك من فضل اللَّه العظيم على الإنسان، المستفيد الأول من هذا التدبير والتسخير.

وأنت تلاحظ ما أشرنا إليه قبلُ، من أن التعبير في هذه الآيات جميعًا قد أُسْنِدَ فيه الفعل إلى اللَّه ﷻ ، وأنه هو سبحانه يتكلم بخطاب المتكلم الفاعل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾؛ وإنما ذلك كله لفتح البصيرة على مشاهدة يد الصانع وهو يبني، ويفرش، ويمهد، ويخلق ما يشاء، ويبدع ما يريد كما يريد؛ فلا ينشغل الذهن بالمخلوق عن الخالق، ولا يذهل الفكر بالمصنوع عن الصانع. وهذه هي خصوصية هذه الصفحات، المفتوحة هنا من كتاب السماء والأرض وسائر الخلق، كما بينا.

والقدرة الإلهية المتجلية هنا في سماء هذه الآيات، خَلْقًا وتقديرًا، تملأ القلب علمًا باللَّه، ومعرفةً به جل علاه؛ فلا يبقى في القلب شك؛ بما سيق فيها من علامات واضحات، ومعانٍ معجزات، من أن الخالق لهذا الكون هو هذا الرب العظيم، المتكلم بهذا القرآن، خالقًا واحدًا لا شريك له، فيحيل آخِرُ السورة في هذه الآيات على أولها، من ذكر الوعد الحق، الذي بموجبه سَيُنْقَضُ بناءُ السماء ويُطْوَى، ويُجْمَعُ فراشُ الأرض ويُرْكَمُ!

ومن ثم ناسب أن يحصل الاستثمار لهذا التسلسل البرهاني الكريم، من أول السورة إلى حدود هذا البيان؛ بدعوة البشرية إلى الرجوع إلى اللَّه، والاعتصام بحبل هداه، فيرتفع النداء الرباني العظيم، على لسان رسوله الكريم ﷺ، نذيرًا مدويًا فوق رؤوس البشرية إلى يوم الدين: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ ﴾، فلا يبقى لمن عَرِفَ اللَّه حقًّا، وعَرِفَ مقامه العظيم، وما له من حقوق على خلقه، وما عليه العصاة من خطر عظيم، وما ينتظر هذا العالم من دمار وفناء، ثم إحياء وبناء، وحشر الناس إلى يوم الدين؛ لا يبقى لمن عرف ذلك كله إلا الفرار إلى اللَّه! فهو وحده الذي يملك لعباده النجاة من الهلاك المكين والخسران المبين، فلا مناص من الفرار إلى حِمى طاعته، والمبادرة إلى الدخول في ظلال عبادته، بالتوبة السريعة النصوح، والاستقامة على منهاج شريعته، وتوحيده في ربوبيته وألوهيته، وعدم التوجه بالرغب والرهب إلى أحد سواه؛ رجاء التحصن بأمان عفوه ومغفرته، والفوز بسلام رحمته.

وتكرار عبارة: ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ ﴾ فيه دلالة على أن لكلٍّ واحدةٍ منهما مقامًا دلاليًا متميزًا عن الآخر، علاوة على ما يفيده التكرار الشكلي من التوكيد، فالعبارة الأولى، نذارة للناس ليسارعوا إلى التوبة والرجوع إلى اللَّه على العموم، وأما العبارة الثانية فهي نذارة أخص، تتعلق ببيان أن أخطر ما عليه الإنسان من الفسق عن منهاج اللَّه هو الشرك باللَّه، سواء كان إشراكًا في ربوبية العالم، أو كان إشراكًا في عبادة آلهة متعددة! فذلك هو الظلم العظيم، الذي لا يغفره اللَّه لمن مات عليه أبدًا! فتبين أن النذارة الأولى عامة في كل انحراف، كبيرًا كان أو صغيرًا، شاملة لكل فسق، كفرًا كان أو عصيانًا. لكن النذارة الثانية خاصة بالشرك الأكبر، الذي هو

رأس الكبائر، والذي يكون صاحبه مضمون الخلود في النار، والعياذ بالله.

بذلك جاءت النذارة من النذير المبين، محمد رسول الله ﷺ. ومعنى النذارة والإنذار في اللغة: الإخبار بما فيه خطر وخوف، والتحذير من شره. وكون رسول الله ﷺ نذيرًا من الله، معناه: أنه قادم بخبر النذارة من عند الله، ومن جهته وقِبَلِهِ، لا من عند نفسه: ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾. والمبينُ: الفصيح الواضح البليغ، المبلِّغ للمقصود على أكمل ما يكون البلاغ والبيان. وهي نذارةٌ مؤكَّدةٌ ثابتة، بما أحاط عباراتِها من أدوات التوكيد وصيغه التعبيرية؛ ليبقى ذلك النداءُ دعوةً خالدة مستمرة إلى قيام الساعة.

ولقد نادى محمد ﷺ بهذا النداء وما في معناه، منذ أن أمره الله بالصدع بدعوته بين كفار قريش في مكة، في أول عهد البعثة، كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: « يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ! » لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ؟ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: « **أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ؛ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟** » قَالُوا: نَعَمْ! مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ!** » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد: ١، ٢])[1].

ولقد كان النبي ﷺ يحزن من تكذيب قومه، ويشتد ذلك عليه ويغتم؛ فكان الرحمن - جل ثناؤه - يواسيه، ويشد أزره بآيات كثيرة. وعليه؛ فبسبب ما كان من ندائه ﷺ المذكور هاهنا في الذاريات، وما انطوى عليه من بيان جحود الكفار، وعدم استجابتهم للنداء، مما هو مفهوم من صدر السورة وخواتيمها؛ التفت الخطاب القرآني إلى رسول الله ﷺ التفاتَ رحمة ومواساة، مبينًا له أن هذه هي سنة الدعوة الإسلامية وطبيعتها، فالحق لا بد له من كافر يجحده، وشيطان يدافعه، وأن الرسل جميعًا تعرضوا للتكذيب والتشويه، والحصار الإعلامي البهَّات. فذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ ﴾.

---

(١) متفق عليه.

وعبارة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ تستعمل في اللغة لأغراض شتى، منها فَصْلُ الكلام وترتيبه، وربط سياق منه بسياق؛ لإحكام بناء الخطاب وتسلسله. وهو الظاهر المقصود هنا. أي كأنه قال: الأمر كذلك، مشيرًا إلى مضمون النذارة النبوية، وإلى ما كان من ردود الأفعال التي عبر عنها الكفار، من الجحود والتكذيب. مبينًا أنها قاعدة مطردة في الكفر، وطبيعة واحدة في الكفار، رغم اختلاف الزمان والمكان، وأن هذا شأن الأمم السابقة في مخاصمة رسلها، وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ﷺ، ووصفه بالسحر والجنون، هو أمر قد وقع ممن قبلهم لرسلهم. حتى إن الرب الجليل قال بصيغة الاستفهام الإنكاري، مُعَجِّبًا منهم ومُقَرِّعًا: ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ ﴾ بمعنى: هل كانت تلك التُّهم، وتلك الطريقة في التكذيب، وصيةً توارثها كفار الأمم اللاحقة عن السابقة، حتى وصلت إلى هؤلاء؟ ثم أضرب عن ذلك إضرابًا وقال: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ ﴾ بمعنى أن طغيان الكفر على القلب واستيلاءه عليه؛ يجعل أصحابه يطغون في الأرض ويتجبرون، ثم يفكرون بنفس التفكير، ويعبرون بنفس التعبير، ولو فرقت بينهم الأزمنة والأجيال!

والاتهام بالسحر أو بالجنون، هو من أشنع الاتهام؛ لما سبق بيانه من أن السحر فعل شيطاني خبيث، يقلب الحقائق ويصورها على غير واقعها؛ فيخدع الناس. وأما المجنون فهو المغلوب على عقله بتسلط الجن، ومن ثم فإن جاء بغرائب وخوارق، فإنما هي أفعال شيطان، تجري على لسانه أو جسمه قهرًا. وهذا من أشنع ما اتُّهمت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو مناقض تمامًا لحقيقة الوحي، وقدسية الاتصال بالملأ الأعلى، وتنزل الملائكة عليهم، وما يقتضيه ذلك من طهارة الرسول، وصفائه الروحي الكامل؛ ومن ثم كان محمد ﷺ يحزن لسماع مثل هذه الاتهامات المنكرة، ويغتم لها كثيرًا. فجاءت هذه التسلية من الرحمن لِتُسَرِّيَ عنه وتثبته، وتثبت كلَّ داعية إلى الحق الخالص على أثره ومنهاجه.

ويرفع الرحمنُ - جلَّ ثناؤه - اللومَ عن عبده ورسوله محمد ﷺ، ملتفتًا إليه - سبحانه - التفاتَ رحمةٍ وتلطف، آمِرًا إياه بالكف عما يعنته ويجهده، من مناظرة هؤلاء الكفرة الفجرة، ومقارعتهم الجدلية الشديدة، وأن يكتفي بالتذكير بحقائق الإيمان، تذكيرًا بينًا هينًا، لا يعنته ولا يجهده؛ لما للذكرى والموعظة الحسنة، من أثر بليغ على القلب الذي سكنه الإيمان ابتداءً، أو سبق في علم اللَّه أنه سوف ينشرح

للإيمان، ولو بعد حين. فذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾. ومعنى التولي: الإعراض، لكنه إعراض جزئي، يُعرِضُ فيه رسولُ اللَّه ﷺ عما غاظه من كيدهم، وسبابهم، وشتائمهم، ويُعرض عن مشاجبتهم ومجادلتهم العقيمة. فقد بلَّغهم ﷺ الحقَّ على أتم ما يكون البلاغ، فلا لوم عليه بعد ذلك إذا اقتصر على التذكير، فلعل مؤمنًا ينتفع، ولعل حائرًا مترددًا يهتدي. وهو في نفس الوقت توجيه له ﷺ ليشتغل بتزكية من آمن معه من أصحابه، ويهتم بتربيتهم وتعليمهم، إعدادًا لهم في طريق بناء دولة الإسلام، التي سوف ترجع على هؤلاء الكفرة المردة، لتواجههم باللغة التي يفهمونها، ألا وهي القتال والجهاد، وكذلك الأمر كان.

ثم خلصت خواتيم السورة إلى بيان علة هذا كله، وبيان القصد من إنزال الوحي وإرسال الرسل، بل بيان القصد من خلق الخلق، وإبداع الوجود، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾، وهذه آية جامعة مانعة، فيها بيان حجم الانحراف الخطير، الذي وقع فيه الكفار بكفرهم، وتمردهم على الدين، وخروجهم من تحت ربقة العبودية للَّه رب العالمين. والاقتصار على ذكر الجن والإنس من دون سائر المخلوقات، مع أنه ما من شيء في الوجود إلا وهو مخلوق للعبادة، كما هو معروف، من الملائكة إلى ما دونها من الكائنات، كالنجوم والشجر والدواب... إلخ؛ فلأن هذين الجنسين وحدهما ينقضان عهد اللَّه بالكفر والمعصية، أما غيرهما فهو عابد للَّه أبدًا. وتقديم ذكر الجن على الإنس، فيه إشارة إلى سبق خلق الجن على خلق الإنس في الزمان، كما أن فيه إشارة إلى شناعة اتخاذ الجن أربابًا من دون اللَّه، كما هو واقع كثير من الكفار والأديان الشيطانية، فالجن أنفسهم إنما خُلقوا لعبادة اللَّه الواحد الأحد. فدلَّ ذلك على أن المقصود بهذا الخطاب أصالةً هو الإنسان. وأنه هو محور التوجيه والمحاسبة، وهو المخاطب الأول بهذا القرآن، والجن في ذلك له تبع. فالعبادة إذن هي الوظيفة الأولى والأخيرة للإنسان [١].

---

(١) وقد أشكلت هذه الآية على بعض المفسرين؛ لأنهم فسروا إرادة الخلق للعبادة هنا بالإرادة القدرية التكوينية التي لا يجوز تخلفها، فكيف يكون ذلك وهذا أغلب الجن والإنسان يكفرون ولا يعبدون، كما هو ثابت بنص القرآن؟ ومن ثم جعلوا يتأولون العبادة بغير معناها الشرعي المعروف، أو يقولون بأنه عمومٌ =

ومعنى العبادة: الخضوع والانقياد الطوعي للَّه، بالدخول تحت رِبْقَةِ الإيمان قولًا وعملًا، اعتقادًا وسلوكًا. وهي مراتب:

أولاهن: توحيد اللَّه وإخلاص الدين له.

والثانية: الدخول تحت تكاليف الشريعة من العبادات المحضة، وسائر أحكام الحلال والحرام. ويعتبر التخلق بأمهات الفضائل من أركان الإسلام الخمسة، والتخلي عن أمهات الرذائل من المحرمات الكبرى، وكبائر الذنوب؛ هو مدار العبادات العملية في الإسلام.

وأما المرتبة الثالثة للعبادة، فهي: السعي إلى عمران الأرض، وإصلاح المعاش، وتطوير الزراعات والصناعات والتجارات، وتسخير الطاقات المبثوثة في الأرض ومحيطها الكوني؛ بما يحقق ضمان قيام المرتبتين الأولى والثانية.

كل ذلك مشمول بمعنى العبادة، إذا ضُبط بهذا الترتيب المقاصدي. فتكون الدنيا خادمة للآخرة، وتكون حركة الإنسان بهذا الميزان كلها عبادة للَّه رب العالمين، لا يشذ منها شيء البتة، حتى نومه واسترواحه. وبذلك يفهم الحصر الجامع المانع من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾.

=أريد به خصوص، وهو من سبق في علم اللَّه أنهم سوف يعبدون ولا يكفرون. وكل ذلك تعسف بعيد! والحقيقة أنما هو إشكال وهمي؛ لأن الآية تتضمن الحديث عن إرادتين لا إرادة واحدة، **فالأولى:** إرادة قدَرية تكوينية لا تتخلف، وهي المتعلقة بإرادة الخلق للجن والإنس ابتداءً، وقد تحققت كما أراد اللَّه ﷻ. والثانية: إرادة تكليفية تشريعية، وهي إرادة العبادة، وهي منوطة برضا الإنسان وطوعه، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾، وهذه إنما جعلها اللَّه على نظام الثواب والعقاب، فمن جاء بها جوزي خيرًا، ومن خالفها جوزي شرًّا.

فكأنه قال: إنما أردت بخلقي الجن والإنس إرادة التكليف والتشريع لهم. والتكليفُ منوط بطوع الإنسان، والطوع محتمل للطاعة والعصيان. فمن استجاب فقد وافق إرادة التشريع وإرادة التكوين معًا، ومن لم يستجب فقد خالف إرادة التشريع، لكنه وافق إرادةَ القَدَرِ والتكوين؛ لأن إرادة التكوين إنما تتعلق بخلق الإنسان وتهييئه جسمانيًا وعقليًا للعبادة، لا أمره بها، وإنما هو مأمور بالعبادة بإرادة التكليف، لا بإرادة التكوين والقدر، فلا تناقض ولا إشكال البتة. فالإنسان في جميع أحواله غير خارج عن الإرادة القدرية التكوينية. وهذا معنى لطيف، قد أشار إليه الإمام ابن كثير بعبارة وجيزة جدًّا، قال رحمه الله في معنى الآية: (أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم).

ويتأكد هذا المعنى بما جاء بعده مباشرةً من بيانٍ إلهي، يرسخ حصر غاية خلق الجن والإنس في قصد العبادة دون سواه، قال تعالى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝ ﴾. وما من سيد في الأرض يستخدم العبيد، أو يستعمل الخدم والعمال؛ لا يفعل ذلك في جميع الأحوال؛ إلا لجلب منافعه الخاصة، وخدمة مصالحه الشخصية. لكن رب العباد ﷻ هو الغني بذاته عن خلقه. فهو إذ خلقهم لعبادته، فإنما ليستفيدوا هم نَفْعَهَا في حياتهم الدنيا والآخرة. فهو لا يستجلب بهم رزقًا كما يفعله أرباب الأرض، سبحانه، ولا يرجو منهم إطعامًا، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا. بل هو « الرزَّاق »، هكذا بصيغة المبالغة: « الفعَّال »، وبهذا الاستغراق الشامل المفيد للحصر، بمعنى أنه لا رازق لأحد سواه. إنه وحده الرزاق لغيره، من جميع المخلوقات في البر والبحر، المتكفل بإطعامهم ما قدَّر لهم من أقوات كل يوم. وهو سبحانه قوي على ذلك، قدير عليه، متمكن منه بسلطانه العظيم، فهو « ذو القوة » أي: مالك القوة وصاحبها المهيمن عليها. ثم هو « المتين » أي: الشديد، الذي لا يغلبه شيء ولا يقهره أحد، بل هو القاهر فوق عباده. يعطي ويمنع، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. وكل الخلق خاضعون طوعًا أو كرهًا لإرادته وسلطانه.

وفي ذلك نقض لبعض التصورات الجاهلية لمفهوم الربوبية، من مثل ما وقع في مقالات يهود، مما حكاه اللَّه في القرآن، في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقد قرر سبحانه عقيدةَ الربوبية الكاملة المطلقة، وبين استغناء الرب ﷻ عن جميع خلقه، في تعبير واضح صريح، فقال سبحانه في سورة فاطر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]. وذلك حتى لا يقع بالنفس الجاهلة باللَّه، أن الأمر بالعبادة هو لمنفعةٍ يجنيها الخالق من خلقه، كلَّا كلَّا، بل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝ ﴾، كما قرره هنا في الذاريات.

ثم تُختتم السورة أخيرًا بآيتين كريمتين، تربطان آخر السورة بأولها، فكلتاهما وعيدٌ شديد للكفار الظلمة؛ بما أشركوا باللَّه وتمردوا على شرعه، وبما جحدوا من عقيدة اليوم الآخر، وحقائق البعث والنشور، والحساب والجزاء. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ

ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾. وهذا يحيل على ما جاء في صدر السورة من قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾. وذلك لإحكام موضوع السورة، وجعل يقينية اليوم الآخر والبعث والنشور، هو الثمرة الإيمانية الكبرى التي يجنيها المؤمنون بالله، فيُرَسِّخُونَ إيمانهم بالله واليوم الآخر يقينًا.

فقوله هنا: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾، تجميع ختامي للقضية، واستنتاج مرتبط بسياقه الخاص والعام، بمعنى أنه إذا تقرر أنَّ خَلْقَ الخلقِ إنما هو للقيام بوظيفة العبادة للَّه؛ فإنه من الظلم إذن أن يخرج الإنسان عن فطرته، فيكفر بربه ويشرك به، أو يعصيه ويخالف أمره ونهيه. وبذلك استحق الكفار هذا الوعيد الشديد، مما توعدهم اللَّه به، وأعلمهم به، من هذا النصيب الكبير من العذاب المحتوم، الذي جعله لكل طائفة منهم، تلقاه في جهنم جزاءً مفروضًا، لا محيد لها عنه ولا محيص!

والذَّنُوبُ بفتح الذال، معناه في العربية: الدَّلْوُ الكبيرة، التي يُستقى بها الماء من الآبار. وتستعملها العرب كناية عن معنى النصيب، والجزء المقسوم لصاحبه؛ لأنهم كانوا يتداولون الاستقاء من البئر، ويتناوبون عليها، لكل شخص ذَنوب. فقوله تعالى هاهنا: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾، معناه كما أشرنا: فإن لهؤلاء الكفار من قريش، وممن جاء بعدهم من الكفار مطلقًا، نصيبًا ضخمًا من العذاب مقسومًا لهم، كما قُسم لمن سبقهم من أصحابهم الكفرة الظالمين. ومعنى ﴿ أَصْحَـٰبِهِمْ ﴾ هنا: أمثالُهم وأشباهُهم ونظراؤهم، ممن سبقوهم إلى نفس الصفات الشيطانية الخبيثة، من مقولات الكفر والتكذيب.

وقوله: ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾، نهي للكفار عما يقومون به من استعجال النبي ﷺ العذابَ الذي يتوعدهم به. وأصل الفعل: (فَلَا يَسْتَعْجِلُونِي) فحذفت الياء تخفيفًا، وهي ضمير في محل نصب على المفعولية، يعود على ذات المتكلم، وهو اللَّه سبحانه؛ لأن استعجال رسولِه إنما هو استعجالٌ لربه ﷻ، فأمر العذاب والعقاب إنما هو بيده. وحقيقة هذا النهي إنما هي تهكم وتوبيخ للمستعجلين لعذاب اللَّه؛ لأن

العذاب حقيقةٌ واقعةٌ بهم حتمًا، لكن في الأجل الذي قدَّره اللَّه وأراده؛ ولذلك قال في الختام: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾! والويل: الشر والعذاب والهلاك والثبور. وإضافة « يوم » إلى الكفار ﴿ يَوْمِهِمُ ﴾ إلصاق لحقيقته بهم، تلك الحقيقة التي يكذبونها ويتهربون منها، إنها لهم، ويومها هو يومهم، فلينتظروه أو لا ينتظروه فهو يومهم، وإنهم ملاقوه قطعًا!

وهذا توعد رهيب للكفار بعذاب اليوم الموعود. وهو بهذه الصيغة من التوعد بالويل والدعاء عليهم به، يرجع على سخرية الساخرين، المستعجلين لعذاب يوم الدين؛ بالزلزلة العصبية، والترعيب النفسي؛ بما يجعلهم يفقدون الثقة في معتقداتهم الباطلة، ويضطربون في مواجهة هذا الحق القوي الجهير! حتى ولو لم يصرحوا إلا بما يدل على ثباتهم على مواقفهم ظاهرًا؛ بسبب ما سيطر عليهم من الكِبْرِ والهوى؛ إلا أنهم كانوا وما يزالون كلما سمعوا هذا القرآن ووعيده الشديد، تزلزلت أعصابهم، وتخلخلت أفكارهم، وتناقضت هواجسهم، وشعروا بخوف داخلي، يجعل الذين كتب اللَّه لهم الهدى منهم ينشرحون للإسلام ولو بعد حين. ويبقى الذين كتب اللَّه لهم الضلالة في غيهم يعمهون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

وفي هذا وذاك من ترسيخ عقيدة اليوم الآخر ما فيه، فالمؤمن المتلقي لهذه الكلمات الثقيلة، تَرسخ قدمُه في طريق يقينه، ويتزكَّى إيمانُه بربه وبدينه. وأما الكافر فيكفي أنها تحطم عليه جدران قلبه، وتهدم عليه أوهام خرصه، فإما يستجيب للحق فيهتدي، وإما يضل في متاهات الحيرة والعذاب.

ثبتني اللَّه وإياكم على طريق الهدى والنجاة، وجعلنا برحمته ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، آمين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ثمان رسالات نلخصها فيما يلي:

الرسالة الأولى: في أن تدبر صفة الخالقية في ذات اللَّه ﷻ، ومشاهدة تجلياتها في الخلق؛ لا يرجع منه المؤمن إلا بخوف ورهب، ورغبة شديدة في الفرار إلى اللَّه؛

بسبب ما عرف من مقام الرب العظيم. إن فعل الخلق بما هو إيجاد للمخلوق، سواء كان ذلك من عدم، أو كان من مادة أولية؛ لهو من أغرب ما يبهر القلوب ويحير العقول! وإن الإنسان الذي يملك حظًّا من التفكير السليم، لا يملك إلا أن يخر ساجدًا للَّه رب العالمين، كلما نظر ببصره وببصيرته إلى تجليات اسم اللَّه « الخالق » في نفسه، وفيما حوله من جميع المخلوقات، المشكلة بذاتها لهذا الملكوت العظيم، الممتد ما بين السماوات والأرض. إنني عندما أتفكر في لحظة ما قبل وجودي أشعر بالفزع! هل فعلًا أتى عليَّ حين من الدهر لم أكن شيئًا مذكورًا؟ ألا ما أرهبها من حقيقة! وإنما معناها أنه سيأتي حتمًا حين آخر من الدهر، أندثر فيه من سطح هذا الوجود الدنيوي. إن معنى كون الإنسان مخلوقًا، هو أنه واقع في قبضة خالقه، وكفى بتلك الحقيقة رَهَبًا! ولولا صفات الجمال في أسماء اللَّه الحسنى؛ لما وسع الإنسانَ إلا الحزَنُ والبكاء!

الرسالة الثانية: في أن الشرك أكبر الظلم في الدين. وذلك أن رب العالمين واحد، هو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو الهادي وحده، بيده حياة الخلق، وبيده مماتهم، من شاء أحيى، ومن شاء أمات، يصيب من يشاء بالأسقام، ويشفي من يشاء منها، هو الشافي لا شفاء إلا شفاؤه، له الملك وحده، وله الحمد وحده، لا إله إلا هو، من وجده وجد كل شيء، ومن فقده فقد كل شيء، هو اللَّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، الملك الديَّان، وارث الملك والملكوت في الأرض وفي السماء. كل الخلق يفنى، ولا يبقى أحد سواه، سبحانه جل جلاله وعلاه. لا يقع شيء في الأرض ولا في السماء إلا بعلمه، ولا يحدث شيء من خلقه إلا بإذنه. هو الرب المتصرف في ملكه بأمره، لا دخل لأحد في شأنه، هو السيد الحق، والمالك الحق، والجن والإنس له عبيد. ما تمرد عليه من جبار إلا قصمه، ولا جاهره طاغية بالعداء إلا دمره! وهو الرحمن الرحيم، يرعَى خَلْقَهُ بلطفه، ويتولاهم برحمته، يسوق أرزاق الفراخ إلى أفواهها، ويهدي شفاه الرُّضَّعِ إلى أثدائها. يُغيث الملهوف وحده، ويجيب المضطر وحده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فبأيِّ منطقٍ بعد ذلك يشرك الناس في عبادة اللَّه؟ فهل من خالق غير اللَّه؟ وهل

من رازق غير اللَّه؟ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟ فعلامَ يُتَوَجَّهُ بالرَّغَبِ والرَّهَبِ إلى سواه؟ ولماذا يُقْصَدُ غيره بالخوف والرجاء؟ كيف والخلق كلهم له عبيد؟ ألَا ما أضل من طلب العطايا من عند غير اللَّه! ألَا وإن ذلك لهو عين الشقاء!

وإنه لا غرابة أن يكون الشرك مهيمنًا على عبادة الكفار بشتى مللهم ونحلهم؛ لأن ذلك أساس عقائدهم. وإنما العجب العجاب أن تنتشر مظاهر الشرك بين المسلمين! فتنصرف قلوبهم عن اللَّه، ويتوجهون بالاستغاثة وطلب الحاجات إلى غير اللَّه، كيف؟ وهذا القرآن واضح صريح في أن اللَّه لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصًا له وحده! ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

اللَّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه، اللَّهم إني أعوذ بك من الشرك كله ظاهره وباطنه، اللَّهم أخلصني لك وحدك لا شريك لك، ولا تجعل في قولي وعملي حظًّا لأحد سواك. سبحانك لا إله إلا أنت.

الرسالة الثالثة: في أن الحصار الإعلامي والتشويه المعتمد على قلب الحقائق، وبث الأراجيف والإشاعات المدمرة؛ من أهم وسائل الكفار عبر التاريخ في مواجهة دعوات الرسل والأنبياء. وإلى الآن ما يزال الأسلوب هو نفس الأسلوب، ولو تغيرت الوسائل وتطورت. فمن أخطر ما يواجه الدعوةَ والدعاةَ في العصر الحديث؛ ضربُ الحصار الإعلامي المتعدد الأشكال، والتركيز على بعض صور الجهل والانحراف في أشخاص بعض جهلة « الدعاة »، كما قدَّموا أنفسَهم أو قُدِّمُوا، ممن حُرِمُوا الإخلاص الحق، أو حُرموا الفهم السليم للإسلام، أو حُرِمُوا ذلك جميعًا؛ فتقدمهم وسائل الإعلام الشيطانية، على أنهم هم دعاة الإسلام، وأن فكرهم الفج ذاك، هو فكر الدعوة الإسلامية عامة، وطبيعة كل دعوة إصلاحية في الأرض، تتخذ الإسلام غايةً ومنهاجًا!

ثم تسخر الدوائر الإعلامية الكبرى بعض « المفكرين »، من أصحاب الأقلام المأجورة والأصوات الرخيصة؛ لتحليل « الظاهرة الإسلامية »، أو « ظاهرة التدين »، كما يعبرون، فيصورونها بأخبث ما يُلْقِي إليهم الشيطان من مصطلحات ومفاهيم! وفي دول الغرب اليوم مراكز لسانية كبرى، لصناعة مصطلحات خبيثة، توظف في حصار الدين في كل مكان، من مثل مصطلح « الإرهاب »، و « التطرف »، و « الأصولية »، وغيرها من التشنيعات، التي تمضي على أثر سلفهم الفاجر القديم، ممن قالوا في

النبي ﷺ، وغيره من الرسل والأنبياء: ساحر أو مجنون. وقالوا في المؤمنين: سفهاء، وأراذل، وهلم جرًّا.

إن أهم طريقة لمواجهة الحرب الإعلامية الفاجرة، **يكمن في الاعتصام بأمرين اثنين:**

أولهما: عدم الاستجابة للاستفزاز الشيطاني، وعدم الدخول في حرب كلامية خاسرة؛ إذ لا يستفيد منها سوى الخصم الذي يَشْغَلُ الدعوةَ عن ممارسة عملها الرئيس. بل المطلوب هو الثبات على المنهاج الدعوي الهادئ الحكيم، الموزون بقواعد الشريعة ومقاصدها.

الثاني: الاعتصام بالقرآن المجيد، واعتماد آياته وسوره مادةً أساسية في الدعوة والتربية، والتحليل والتعليل، ومخاطبة العامة والخاصة. فكلمات الله لها من القدرات الخارقة على تحطيم الباطل ودعاته؛ ما قد لا يخطر على بال! وهي بذاتها تهدم وتبني، وتُفرغ وتَملأ. إن تأسيس مجالس القرآن في كل منطقة وقطاع، وتدشين نهضة قرآنية في الأمة، تقوم على تجديد التداول الاجتماعي للقرآن المجيد؛ لهو أشبه بشروق عظيم متدفق على القلوب، يكنس آثار الظلام في العمران، ويكشف زيف ما بثته دوائر الشيطان من إعلام، في حق دعوة الإسلام، ثم يعمر العالم بالنور. إن إشهار كلمات الله في وجه طغاة الإعلام - كافٍ بإذن الله للقضاء على كل محاولتهم لحصار الخير، مهما أوتوا من قوة مال وسلطان.

الرسالة الرابعة: في أنه لا فائدة من الجدالات العقيمة، والمناظرات الْـمُغَالِبَةِ، في محاورة طغاة الملاحدة والكفار، اللّهم إلا حوارًا هادئًا تُعْقَدُ مجالسُه لبيان الحقيقة، أو للاستماع لحكماء الدعاة بعيدًا عن منطق الغالب والمغلوب، ومباريات « الاتجاه المعاكس ». إن المناظرة القائمة على قصد المغالبة لا تنفع الجاحد للحق أبدًا. فهو إنما جاء إلى هناك؛ ليغالب وينتصر، كالعدو المقاتل تمامًا. فإن استجاب الداعية لذلك فقد اشتغل بخلاف الأولى. وإنما حق هؤلاء المردة أن تقام عليهم الحجة بالنذارة والبلاغ وكفى؛ إعذارًا إلى الله رب العالمين، على ما قال الله ﷻ عن القرية العادية في السبت من بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وعليه؛ فإنه إذا وصلت كلمة الحق إلى محالها من القلوب؛ فقد انتهت وظيفة

الداعية الحوارية، في هذا السياق خاصة، ولا عليه بعدُ مما قد يكون من نتائجها. وإنما عليه أن يتفرغ للبناء تزكيةً وتعليمًا وإعدادًا، في صفوف المقبلين عليه من أهل الفِطَرِ السليمة، والنيات المخلصة، وهم سواد الأمة الأعظم ولله الحمد. وعلى هذا تجري كثير من النصوص القرآنية، من مثل قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٥ - ١٢].

الرسالة الخامسة: في أن الدعوة إلى الله بالذكرى والموعظة الحسنة، أعظم وسائل الدعوة أثرًا في النفس الإنسانية، سواء تعلق الأمر بالكافرين أو بعصاة المسلمين. وفي غير ما آية من كتاب الله أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالتذكير نذارةً وبشارةً، وبالجدال بالتي هي أحسن، والتلطف بالمدعوِّين والرفق بهم؛ عسى أن يشرح الله صدورهم للحق. فذلك هو المنهاج الناجع، والدواء النافع، إن شاء الله، على ما قرر الله سبحانه هنا في سورة الذاريات: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾، أي المؤمنين حالًا أو استقبالًا، كما بيناه.

الرسالة السادسة: في أن العبادة هي غاية الوجود البشري، فمن دخل تحت رِبْقَتِهَا فقد انخرط في فَلَكِ وظيفته الوجودية، يدور مع شرع الله حيث دار. فبالعبادة يعرف الإنسان ربه، وبها يعرف نفسه، وبها يتذوق معنى الحياة. فيقرأ كتاب الكون بعين قوية بصيرة، تكشف عن أسراره، وتفك طلاسمه، فيرى بنور الله من الحقائق؛ ما ضلَّ عنه الفلاسفة والمفكرون الجاهلون بالله. وقد بيَّنا مراتب العبادة في البيان العام، وامتدادها من معين الإيمان إلى جميع أنشطة العمران، على ميزان من الأولويات معلوم بالكتاب والسنة. لا يضخم شيئًا على حساب شيء. والعابد لله إذا اشتغل بدنياه اشتغل بها عابدًا لله؛ فكفاه اللهُ همَّ دنياه وأُخْرَاهُ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ في الحديثِ القُدْسِيِّ: « **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ؛ وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ!** » [1]، ومعنى التفرغ لعبادة الله أن تجعل العبادات المحضة محور حياتك، وأن تجعل كسبك

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وفي تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه.

الدنيوي خادمًا لها، فتكون عابدًا للّه بجميع أحوالك. وفي حديثِ عَبْدِ اللَّهِ ابن مسعود ﷺ قال: (سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا؛ لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ!** ») (١).

وسيأتي لهذه الرسالة بيان عملي في مسلك التخلق، بحول اللّه.

الرسالة السابعة: في أن الرزق في الإسلام له مفهوم غيبي صرف، مرتبط بأصل الإيمان بالقدَر. فرزق الإنسان مقسوم عند اللّه في اللوح المحفوظ، وهو واصله بعزة اللّه وقدرته، لا محالة، كما دلت عليه الآيات هنا في الذاريات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝ ﴾. فلا أحد يستطيع منع رزق أحد، وما كان ظاهره كذلك في أعين الناس، فإنه لا يخرج أبدًا عما قدر اللّه سلفًا من مقادير الأرزاق، وإنما يبتلي اللّه الناسَ في الرزق بعضهم ببعض، فمن فتح اللّه بصيرته على الحق؛ شاهد مصدر الرزق الحق، ولم تفتنه حُجُبُ الأسباب المادية، عن مشاهدة تجليات اسم اللّه: « الرزّاق ». وقد ثبت في الحديث أن الرزق مما يُكتب للإنسان في بطن أمه عند نفخ الروح فيه، ففي حديثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ** ». الحديث (٢).

الرسالة الثامنة: في أن النذارة باليوم الآخر في القرآن، هي أول الكلام وآخره، وعلى ذلك وجب أن ينبني الخطاب الدعوي في كل مكان. وهذه قاعدة كلية قطعية، مستقرأة من نصوص الكتاب والسنة. فالإسلام دين أخروي بالقصد الأول، وما عمارة الدنيا فيه إلا تبع خادم للآخرة. ومَنْ قلب هذا الميزان في ممارسته الدينية،

---

(١) رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعبه. كما رواه الحاكم عن ابن عمر. وحسنه الألباني في تحقيق سنن ابن ماجه، وفي صحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

(٢) متفق عليه. وتتمته: « فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُهَا! وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا! ».

فجعل الآخرة خادمة للدنيا، أو قَلَبَهُ في خطابه الدعوي، وممارسته الإصلاحية، فعرض الإسلامَ للناس على أنه منهج عمران دنيوي أساسًا، ومشروع حضاري مادي، أو برنامج سياسي يَعِدُ بالرفاه والوفرة في المعاش؛ مُغْفِلًا حقائق الإيمان، أو أنه يجعلها تابعة لهذه المقاصد المتضخمة عنده؛ فإنه يعاني هو في نفسه أولًا من سوء فهم لطبيعة هذا الدين، ومنهاجه في بناء الدنيا والآخرة. فلا تكون حركته إلا ضربًا في الطريق المسدود، وتحريفًا لحقائق الإسلام.

نعم الإسلام يقيم عُمران الدنيا على أكمل مثال، ولكنه عُمران مؤسَّس على جذور الروح، وأصول الإيمان، اعتقادًا وعملًا. ومن ثم فهو يوجه الحضارة البشرية إلى خدمة مقاصد الآخرة. وعلى هذا وجب أن تنبني طبيعة الخطاب الدعوي، وبرامج التجديد الديني في جميع المجالات، بما فيها المجال السياسي والاقتصادي.

٤ - مسلك التخلق:

والمسلك هنا هو في كيفية التخلق بمقام العبادة، على سبيل التفرغ المطلق، والدوران في فلكها أبدًا، على ما تقرر فيما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾. فتلك هي طريق الأنبياء والصديقين. **وللتحقق بهذا المقام ثلاثة مسالك:**

الأول: التزود من العلم بالله والمعرفة به، ما يجعل المؤمن يعيش أبدًا مع الله. وذلك يكون - كما قررناه في غير ما مجلس - بإدمان النظر في كتابين: القرآن المجيد، وكتاب الملكوت المفتوح للناس ملءَ السماوات والأرض.

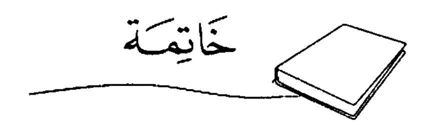
الثاني: النظر الدائم إلى النفس في مقام عبديتها، قبل مقام عبوديتها، بمعنى أن يشاهد المؤمن نفسه على حال حقيقتها، وهي حال الذلة والضعف والفقر، والحاجة الدائمة إلى الله، وأنه لا يستطيع أن يستقل بشيء من مصالح نفسه، إلا بعون ربه وتوفيقه. فإذا تحققت له هذه المشاهدة يقينًا؛ وجد نفسه مَشُوقًا بالدخول في مسلك العبودية الخالصة لله، وكان من العابدين لمولاه على كل حال.

الثالث: التعبد العملي لله، وهو صمام الأمان لسلامة السير في فلك العبودية، وهو راجع إلى القبض على محوره الأساس، ومركزه الرئيس، ألا وهو العبادات المحضة،

من صلاة وزكاة وصيام وحج واعتمار، وما تفرع عنها من نوافلها، ثم الاشتغال بفعل الخير والدعوة إليه. قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وكذا الاستقامة على موازين الشريعة وأحكامها، أمرًا ونهيًا، بما يحقق للنفس صلاحها ويحفظه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

فإذا اجتمعت هذه المجاهدات في حياة العبد، وتحقق بثمارهما الطيبة؛ وجد نفسه يسبح هونًا في فلك العبودية الخالصة للّه، لا يعبد أحدًا سواه، ولا يرى أحدًا غيره. متوجها دائمًا بكليته إلى مولاه، سواء كان في صلاته أو سوقه، وسواء كان في خلوته أو جلوته، وسواء كان في مسجده أو وسط مجتمعه، لا يتصرف ولا يعيش في كل ذلك إلا مع اللّه.

* * *



وختام المسك لمجالس سورة الذاريات، خلاصةٌ تدبرية لطيفة، وهي أن من أدمن النظر في هذه السورة الكريمة، تلاوةً وتدبرًا وتخلقًا، وصحبةً لحقائقها الإيمانية بالليل والنهار؛ **تحقق بإذن اللّه من ثلاث صفات عظمى:**

الأولى: قدرة روحية خاصة على قراءة آيات اللّه في النفس، وفي المحيط الكوني. وكانت له في ذلك بصائر إيمانية نفاذة إلى حقائق الأشياء، فعاش بجسده في الأرض، وعاش بروحه في صحبة الملأ الأعلى، يتلقى البشارات، ويحسن قراءة الإشارات.

الثانية: تعلقٌ قلبي بالعبادة؛ حيث يُرْزَقُ حُبَّهَا إلى درجة الوله. ويكون بذلك عبدًا للّه حقَّ عبدٍ. وعسى أن يكون - إن شاء اللّه - من السبعة الذين يظلهم اللّه يوم القيامة، يومَ لا ظل إلا ظله، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ [أَوِ الْمَسَاجِدِ] إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ!** »[1]، وهذه كما ترى، كلها مقامات من العبادة الرفيعة، لا تحصل إلا لعارف باللّه، سكن قلبه حبُّ اللّه وحبُّ عبادته.

الثالثة: تحققٌ بمقام اليقين، فلا تضيره شبهة ولا فتنة بإذن اللّه، وبذلك يتمتع بسكينة القلب ورسوخ الإيمان؛ بما يجعله لا يقلق من رزق ولا أجل. وكفى بذلك سعادةً في الدنيا وزادًا للآخرة.

تلك بعض ثمار التخلق بسورة الذاريات.

فيا إلهي الرحيم!

---

(١) متفق عليه.

هذه ذنوبي قد أثقلتني عن اللحاق بركب الصديقين، وأهل شهود اليقين.. وهذا ضعفي ما يزال يكبو بنفسي في طريق السائرين، وليس لي من رجاء في الوصول إلا بتجلي رحمتك، والتفات عطفك وحنانك، اللَّهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، واجعلني بفضلك من أهلك وخاصتك، اللَّهم ربي آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وَلِيُّهَا ومولاها. اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك، اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك، اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك، لا حول ولا قوة لي إلا بك، فاغفر لي وأدخلني في رحمتك!

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

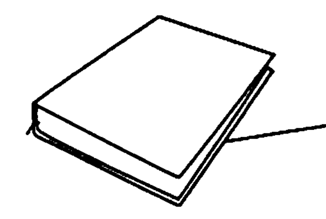
من التلقي إلى البلاغ

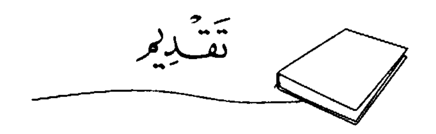
المدارسات القرآنية

٧ - سُورَة الطُّورِ

وهي مكية، وعدد آياتها (٤٩)

وهي تتضمن مجلسين اثنين





سورة الطور هي سورة التحدي.

فالتحدي هو صلب موضوعها، التحدي للكفار الجاحدين ليوم الدين؛ بما أعد الله لهم فيه من عذاب النار. لقد شابهت هذه السورةُ سورةَ الذاريات التي قبلها، من حيث إنهما معًا يعرضان حقيقة اليوم الآخر، عرضًا يفتح للنفس المؤمنة معراج اليقين، ويحطم أوهام الخرص والشك لدى الساخرين والمترددين. إلا أن سورة الطور هذه تتميز – بعد ذلك – ببناء خطاب التحدي على برهان اليقين؛ إذ تنطلق من المقدمات الإيمانية اليقينية؛ لترجع على طائفة المكذبين بإعلان التحدي البرهاني، والمساءلة الإنكارية الشديدة، الكاشفة عن تهافت منطق الكفر والجحود، والواضعة للكافر – أنى كان – في موضعه الطبيعي، ألا وهو موضع العبدية القسرية، بما فيها من عجز مطلق وضعف كلي شامل!

ولقد ابتُدئت السورة بِقَسَمِ الرب ﷻ بأمور ذات شأن عظيم عنده، مثل كتابه المجيد، وبعض مخلوقاته العظيمة، أقسم سبحانه بذلك على حتمية وقوع عذابه بالكفار، وأنه يقينية إيمانية راسخة، لا يعتريها الشك ولا التردد على الإطلاق. وبيَّن سبحانه ما نتج عن مواقف البشرية من هذه الحقيقة من اختلاف وافتراق، فوصف جانبًا من عذاب المكذبين، وجانبًا من تنعم المتقين في جنات النعيم، ثم انطلق الخطاب بعد ذلك مباشرة إلى تفصيل التحدي، مواجِهًا شُبَهَ التكذيب، وناقضًا لها جميعًا، الواحدة تلو الأخرى. وهو في كل ذلك يتحدى الكفار بأن يَرُدُّوا على شيء من هذا أو ذاك، أو أن يتصرفوا في الكون بما يفيد تحكمهم في تدبيره وتسيير شؤونه، أو أن يتصرفوا في أمر الوحي، بما ينقض هذا القرآن، كاشفًا في كل ذلك عن عجزهم، وعن حقيقتهم البشرية القاصرة، التي لا تخرج عن طبيعة المخلوق الضعيف الحقير.

وقع ذلك كله عبر سلسلةٍ من الْمُسَاءَلَاتِ الإنكارية الشديدة، والمحاكمات العلنية العتيدة، الرافعة لأعلام التحدي في كل جملة وفي كل كلمة. وهي آيات استغرقت

كل النصف الآخر من السورة، إلا قليلًا. منها قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ ﴾.

فهذه المعاني من التحدي والفضح والتعرية للكفر، رغم أنه لم يَشْرَعْ في تفصيلها إلا بعد منتصف السورة تقريبًا، إلا أنها مع ذلك تعتبر المحور الرئيس لها؛ لأن صدر السورة إنما كان كالتمهيد لها، أو كالمقدمات المنهجية لحقائقها؛ ولأن نتائج هذا التحدي الحجاجي، مما مارسه الخطاب القرآني هنا، من التوبيخ، والتقريع، والتبكيت، والفضح للكفار؛ هي التي أفرزت خواتيم السورة، من الوعيد الشديد لهؤلاء الطغاة بما هم له مكذبون من جهة، ومن التوجيه الرفيق العميق للرسول الداعية؛ كي يتزود لدعوته بالصبر والتسبيح والعبادة.

تلك هي سورة الطور، سورة ثقيلة كالطور فعلًا، والطور هو الجبل العظيم. وما من سورة في القرآن إلا ولها من اسمها نصيب، غالبًا ما يكون هو قضية السورة، وموضوعها الرئيس. فكانت قوارع التحدي ههنا هي المعبرة عن الثقل العظيم لهذه السورة، فكأن آياتها صخور عالية رفيعة، تساقط على رؤوس الطغاة من عَلُ؛ فترضخها رضخًا! وأما من سَلِمَتْ فطرته الإنسانية من الأهواء؛ ولو كان ما يزال على جهله وضلاله؛ فإنه لا يملك إذا سمع تحدياتها الرهيبة، ونُذُرَهَا الشديدة؛ إلا أن يخضع لها، ويُسْلِمَ وجهَه لله الواحد القهار!

فمما صح من قصص هذه السورة - في هذا السياق - أن الصحابي جُبَيْرَ ابْنَ مُطْعِمٍ ﷺ كان قد قَدِمَ على النبي ﷺ في المدينة، بعد غزوة بدر، وهو ما يزال يومئذ على شركه وكفره، قَدِمَ ليفاوض النبي ﷺ في فداء بعض الأسرى، فأدرك الناس في صلاة المغرب، وبقي حول المسجد ينتظر، فسمع الرسولَ ﷺ يقرأ في الصلاة بسورة الطور، فكان أن قرعت آياتُها قلبَ جبير قرعًا شديدًا؛ بما جعله يعيد النظر في حقيقة

الإسلام، ويكون ذلك أول خطواته النفسية نحو إعلان إسلامه. فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ۝٣٧ ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ!) [1]، يعني: كاد قلبي يطير خوفًا وفزعًا! ثم قال في رواية أخرى للبخاري: (وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي!) [2].

هذا، وقد بينا قَبْلُ أن من الإشكالات المنهجية، في مدارسة أغلب سور المفصل، أنها تمتنع من التجزيء إلى فقرات ومجالس مستقلة؛ لأن آيات كل سورة منها متسلسلة في نفسها تسلسلًا وثيقًا، وهي بذلك كالخطبة الواحدة، التي تخدم قضية واحدة. وسورة الطور هي من هذا القبيل. ورغم أننا وجدنا من المفسرين من قسمها إلى ثلاث وحدات فأكثر؛ إلا أننا مع ذلك فضلنا أن نجعلها في مجلسين اثنين فقط؛ مراعاة للتوازن في عدد الآيات المدروس بكل مجلس من جهة؛ ولأن ذلك هو الأليق بموضوع السورة وطبيعتها، من جهة ثانية. ولو جعلناها في ثلاثة مجالس؛ لاختل توازن الفقرات؛ ولوجدنا أنفسنا ندرس الشيء بمعزل عن مقابله المفسر له. ثم لما أمكن أن نستنبط من الهدى المنهاجي ما تكتمل به الصورة، وتُسَدُّ به الحاجة التربوية لكل مجلس. كذلك، والله أعلم.

ذلك ما يسر الله تقييده من تعريف سورة الطور.

فلندخل الآن مجلسها الأول بحول الله.

والله المستعان.

---

(١) رواه البخاري. ومسلم مختصرًا.

(٢) رواه البخاري.

المجلس الأول

في مقام التلقي لنذارة الترهيب بعذاب اللّه
والتحدي بحتميته وعلامات موعده
وانقسام البشرية عليه، بين أهل التكذيب وأهل الإشفاق

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ
دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ
هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ
عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا
آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)
مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ
بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ
فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾.

٢ - البيان العام:

قَسَمُ الربِّ ﷻ بمخلوقاته في كتابه، لا يكون إلا بما له عنده شأن عظيم، وسر كريم. وعلى هذا جرى مطلع سورة الطور بقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ

مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝ ﴾.

والطُّورُ مكان له خصوصية. ومعناه في اللغة: الجبل الضخم العظيم الذي تعلوه أشجار ونباتات.

لكن لفظ « الطور » في القرآن صار عَلَمًا على الجبل الذي كلم اللَّه فيه موسى تكليمًا. وهو طور سيناء. كما قال سبحانه في سورة مريم: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]، وفيه بقعة مباركة خاصة، قال ﷻ: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٢٩، ٣٠].

والبقعة المباركة هي على سفح الطور؛ حيث يوجد الوادي المقدس طُوَى، وحيث وقع نداء اللَّه لموسى، قال ﷻ: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]. وعند الطور أيضًا وَاعَدَ اللَّهُ بني إسرائيل؛ إذ اختار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه، قال اللَّه تقدست أسماؤه: ﴿ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ [طه: ٨٠].

وقد أقسم اللَّه بهذا الطور في القرآن مرتين، الأولى: هذه التي في سورة الطور، **والثانية:** هي التي في سورة التين: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين: ٢]. والمفسرون مجمعون تقريبًا على أن « طور سيناء » و « طور سينين » كلاهما واحد؛ لأن « سيناء » أو « سينين » عبارة تستعمل هكذا وهكذا بمعنى واحد، وهي دالة على معنى الْحُسْنِ والبركة، كأنك قلت: جبل البركة. وهو لفظ مُعَرَّبٌ في الأصل، قيل: عن الحبشية، وقيل: عن السريانية أو النبطية [(١)].

ورغم أنه لا يجوز في شرعنا شد الرحال إلى جبل الطور [(٢)]؛ إلا أن بركته ما تزال

(١) ن. تفسير سورة التين عند الطبري، والبغوي، وابن كثير، والشوكاني، وغيرهم.

(٢) اتفق جمهور العلماء على عدم جواز شد الرحال إلى الأماكن المقدسة بقصد التعبد، سواء ما ذُكر في القرآن أو غيره؛ إلا ما خصه النبي ﷺ بذلك، وهو ما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره، أن النبي ﷺ قالَ: « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى ». متفق عليه.

ثابتة إلى يوم القيامة؛ ولذلك فالطور لا يدخله المسيح الدجال ولا يستطيعه؛ حيث ثبت في الحديث النبوي الصحيح، أن الدجال: « **لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: الْكَعْبَةَ، وَمَسْجِدَ الرَّسُولِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَالطُّورَ** »[(١)].

ويكفي جبلَ الطورِ بركةً أنه تجلى عليه نور اللّٰه - جلت عظمته وتقدست أسماؤه - وكلم اللّٰه فيه موسى تكليمًا! فتلك بعض الأسرار التي تبدت من قَسَمِ اللّٰه بالطور.

ولما كان الطور مهبط التوراة، ومَجْلَى كلامِ اللّٰه ونوره العظيم، الذي تجلَّى على موسى ﷺ؛ **فقد ناسب أن يكون القَسَمُ الذي يليه، واقعًا من رب العزة بكتابه العظيم: القرآن المجيد**، فهو كلام اللّٰه ﷻ، كلامُه الموثَّقُ المسطور، وكتابه الجامع لكل الكتب، والنور المهيمن على كل نور، الذي جعله اللّٰه معجزة خالدة لرسوله محمد ﷺ. فهو لم يزل مسطورًا في المصاحف، أي مكتوبًا على الورق، منشورًا للتلاوة والتدبر، معروضًا في كل مكان. ومعنى الرَّقِّ في اللغة - بفتح الراء - كل جلد رُقِّقَ جِدًّا حتى يصلح للكتابة. وهو أنسب اليوم للدلالة على الوَرَقِ الحديث في رقته وملوسته وجماله، تنضد عليه سطور القرآن سطرًا تحت سطر، بشكل أنيق جذاب. والمنشور من النشر، وهو: العرض والبسط لكل شيء مثني أو مطوي. والمقصود أن هذه المصاحف مستعملة للتلاوة والدراسة، فهي منشورة مفتوحة مهيأة للناس.

ولو استقريت مطابع العالم اليوم، ودور النشر؛ لما وجدت كتابًا ينافس القرآن الكريم في عدد الطبعات، والنسخ الصادرة منه، هنا وهناك في كل مكان. وربما وجدت كتابًا في الشرق أو في الغرب؛ وصل رقمًا قياسيًّا في عدد المبيعات، لكنها لا تكون إلا سحابة صيف وتمضي! فما هي إلا سنة أو بضع سنوات، ثم يُلقى ذلك الكتاب في رفوف النسيان! أما كتاب اللّٰه ﷻ فلم يزل منذ جمعه الصحابة - رضوان اللّٰه عليهم - في مصحف واحد، تَستنسخ منه بالأيدي ملايين النسخ تلو الملايين! حتى إذا ظهرت الطباعة الحديثة تأسست له مراكز متخصصة - علاوة على دور النشر التجارية - توزع من المصحف كل سنة ملايين النسخ. ولا تكاد الآلة الطابعة - في كل مكان - تفتر من تسطير المصاحف تسطيرًا!

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، وابن أبي شيبة. وصححه الألباني في رسالته: قصة المسيح الدجال، وفي السلسلة الصحيحة. كما صححه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

ثم ناسب - بعد ذلك - أن يكون القَسَمُ الثالث هو ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾. وقد قيل: هو الكعبة، معمورة بالحجاج والمعتمرين أبدًا. وقيل: بل هو البيت المعمور المذكور في حديث المعراج، وهو بيت يماثل الكعبة ويقابلها في السماء السابعة، وقد ثبت أنه: « يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ! »[١]، ولا مانع أن يكون المقصود كليهما معًا، كأنه قال: « والبيت المعمور في الأرض وفي السماء ». وإن كان تفسير « البيت المعمور » هنا بالمسجد الحرام أنسبَ للسياق؛ لِمَا سبق من القَسَمِ بالطور والكتاب المسطور، فبأكناف المسجد الحرام نزل أَوَّلُ ما نزل من القرآن المجيد، وهو أول بيت وُضِعَ للناس على الإطلاق، وإليه حَجَّ الأنبياء والرُّسل قبل محمد ﷺ، آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وبنوه، ثم موسى نفسه، وكثير من الأنبياء بعده، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وقد تكفل اللّٰه بحفظه وأمانه، فإذا خَرِبَ كان ذلك علامةً على ساعة خراب العالم كله! كما ورد به الخبر في السنة النبوية الصحيحة[٢].

« وأما القَسَمُ الرابع فقد كان بـ « السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ »، وهو في أغلب أقوال المفسرين: السماء المرفوعة؛ لأن اللّٰه تعالى جعلها للأرض سقفًا محفوظًا، كما فصلناه في سورة الذاريات. وقيل: هو عرش الرحمن؛ لأنه سقف الجنة. وهو مخلوق عظيم يعلو الكون كله. ولعل القسم بالسماء - خاصة الدنيا - أنسب للسياق، سوابقه ولواحقه؛ لما سيأتي بعدَ جواب القسم، من بيان تخلخلها ومورانها عند قيام الساعة. وأما عظمة السماء فقد بيناها في غير ما مناسبة ومجلس، ويكفي أن نتذكر أن المسافات الفاصلة بين نجومها ومجراتها، لا تقاس إلا بملايين السنوات الضوئية!

---

(١) جزء حديث متفق عليه.

(٢) ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسولَ اللّٰه ﷺ قالَ: « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ! » متفق عليه. وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: « يُبَايَعُ لِرَجُلٍ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلَا يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ! ثُمَّ تَأْتِي الْحَبَشَةُ فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَابًا لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا! وَهُمْ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ! » رواه أحمد، وابن حبان، والطيالسي، والحاكم، وابن أبي شيبة. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح ». وقال ابن حجر رحمه الله معلقًا: (ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ يَقَع فِي آخِرِ الزَّمَانِ، قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ حَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: اللّٰهُ، اللّٰهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالُ: فِي الْأَرْضِ: اللّٰهُ، اللّٰهُ! ») فتح الباري (٣/٤٦١).

وأما القَسَمُ الخامس والأخير فقد كان بـ « الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ »، ومعنى كونه مسجورًا: أي أنه مشتعل وملتهب ومتقد، من السَّجْرِ وهو إشعال النار؛ حيث تكون المحيطاتُ كلها نارًا ملتهبة. وتلك حال تصير عليها البحار أثناء قيام الساعة، وبين يديها. وهو اختيار الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ [1]. وهو معنى ثابت بنص القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦]، ويحتمل أن يكون هو المقصود أيضًا بقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٣]، رغم أن المفسرين فسروا « التفجير » هنا بتحطيم حدود البحار واختلاطها، وكل ذلك محتمل.

فهذه الأقسام الخمسة - جمعُ قَسَمٍ - الواقعة من رب العزة جَلَّ جَلَالُهُ بمجموعة من المقدسات وعظائم المخلوقات؛ كلها جميعًا من أجل إثبات جواب واحد، وترسيخ حقيقة إيمانية واحدة، توكيدًا ويقينًا، ألَا وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾! أي: إن عذاب ربك يا محمد لواقع حتمًا بالكافرين، نازل بهم قريبًا! ليس له شيء يمنعه، أو قوة تدفعه. ومن ذا قدير على التصدي لعذاب اللّٰه أو رفعه، إذا حل بقوم والعياذ باللّٰه؟

وبقدر ما في هذا التعبير من تأنيس لمحمد ﷺ وتثبيت في مواجهة مقولات الكفار، ورميهم إياه بشتى نعوت التكذيب وصفات التسفيه؛ فإن فيه تحطيمًا لمعنويات الكفر في قلوب الجاحدين، وتحديًا لطغاة المنكرين للبعث بحقيقة العذاب، الواقع من الرب العظيم، وأنهم في موعد قريب سَيَصْلَوْنَ نار جهنم خاسئين مدحورين! وذلك عندما تتحرك علامات الساعة الكبرى، من فوقهم، ومن حولهم، ومن تحت أرجلهم، وهو: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾، والْمَوْرُ: حركة شديدة واهتزاز في شكل دائري قوي، كما يحدث في عاصف الريح الدوَّار؛ ولذلك فهو يسمى « الْمُورُ » بضم الميم. وكما يحدث أيضًا في تيار البحر الدوَّار، الذي يُغرق السبَّاحين والزوارق. فالسماء أيضًا لها موعد تمور فيه، فتقع نجومها وكواكبها في كسوفات شديدة، وتخرج عن مداراتها الطبيعية، وأفلاكها المتوازنة، يدور بعضها على بعض، ويصطدم بعضها ببعض؛ فتطير شظاياها كما يطير غبار الريح العاصف! وكذلك الجبال في الأرض، تُقتلع جذورها، وتحطم أركانها

---

(١) ن. تفسير الآية في فتح القدير للشوكاني.

وقممها، ثم تسير كما تسير الرمال في الريح العاصف، فتتناثر ذراتها في الفضاء، حتى لا يبقى لها من أثر!

ذلك يوم وأي يوم! لا أرانا اللّه شرَّه! إنه يوم قيام الساعة - و « **لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق!** » [(١)] - يومَ تُغَيَّرُ طبيعةُ الكون، ويُبَدَّلُ خَلْقُ الوجود على نظام جديد، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ إذ يَهدم رَبُّ العزة العَالَمَ الكوني كله، ثم يخلقه خلقًا جديدًا، ويبنيه بناءً جديدًا: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إنه موعد الكفرة المكذبين مع العذاب، العذاب الذي كانوا به يُكذبون؛ ولذلك صدر هذا الوعيد الرهيب من الجبار ﷻ - هنا في سورة الطور - يتوعدهم بالويل والثبور، عند وقوع ذلك الدمار العظيم، قال ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾. وإن الكفار بشتى مللهم، ونحلهم، وأجناسهم؛ ليلعبون في هذه الحياة الدنيا! يلعبون ويلهون بالمصانع، والزخارف، والمتارف، والمعازف. وما من تعمير للأرض في غير طاعة اللّه وعبادته إلا لعب كلعب الأطفال، بل هو كلعب الكبار من المجانين وسفهاء العقول. وأي جنون أم أي سفه، أشنع ممن أيقن بالموت ثم هو يخوض ويلعب؟ إلى متى؟ وحتى متى؟

ومعنى الخوض هنا: التخليط والتلبيس في الكلام، والانخراط في حديث الباطل، وقول الزور [(٢)]. وذلك ما كانوا يفترونه من وصف الرسول ﷺ بالسحر والجنون، فيتندرون بذلك ويسخرون ويضحكون ويلعبون، وهم يعلمون يقينًا بأن محمدًا ﷺ هو أعقلهم، وأفطنهم، وأحلمهم، وأرزنهم، وأن رجلًا في مثل أخلاقه العالية العظيمة، وأمانته المثالية الكريمة؛ ما كان ليكذب على اللّه أبدًا! حاشاه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) جزء حديث رواه مسلم.

(٢) جاء في لسان العرب: (أَصْلُ الخَوْض المشيُ في الماء وتحريكُه. ثم استعمل في التلبس بالأَمر والتصرف فيه. (...) والتَّخَوُّضُ: تفعُّل منه، وقيل: هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أَمكن. (...) والخَوْضُ: اللَّبْسُ في الأَمر. والخَوْضُ من الكلام: ما فيه الكذب والباطل، وقد خاضَ فيه.) مادة: « خوض ».

فلينتظروا يومهم إذن! ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وهذه آياتٌ فيها من التقريع والتبكيت والتهكم الشديد؛ ما يَصَّدَّعُ له قلب المؤمن حقًّا! إنه جزاء ما لعبوا به من السخرية بدين الله ورسوله ﷺ، وجزاء ما كذبوا وشنعوا وجحدوا من حقائق الإيمان وعذاب الآخرة! فالآن ها هم أولاء ﴿ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾، والدَّعُّ: الدفع القوي، والزجر العنيف، والسوق الشديد! وذلك أن زبانية جهنم - والعياذ بالله - تسوقهم إلى عذابها بالدفع والضرب، كما تساق البهائمُ الْحُرُنُ! واستعمال المصدر « دَعًّا » توكيدًا لفعله المذكور؛ هو هنا للدلالة على شناعة الدَّعِّ الواقع عليهم، وشدته وفظاعته.

ثم يمعن الخطاب القرآني في التقريع والتهكم؛ إذ تقف ملائكة العذاب بالمجرمين على شفير جهنم، فتقول لهم: انظروا! هذه هي النار التي كنتم بها تكذبون، فما رأيكم الآن؟ أهذا سحر أم حقيقة؟ أم أنكم لا تبصرون هذا الجحيم؟ فينبذون في أُوَارِهَا نبذًا، ويُغْطَسُونَ في أعماقها غطسًا، ويقال لهم: « اِصْلَوْهَا! » والصَّلْيُ والصُّلِيُّ: الاحتراق والالتهاب الكامل بالنار. نعم، يُلْقَوْنَ فيها فيقال لهم على سبيل السخرية والتقريع: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فما ينفع الصبر وما ينفع الجزع؟ كل ذلك في البلاء سواء! إنه عذاب شديد خالد، لا يفتر ولا يفنى، والعياذ بالله. وهناك في غمرة الألم الشديد والعذاب المديد، يقال لهم: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، هذا عملكم، هذا تكذيبكم، هذا كفركم وجحودكم، وهذا هزؤكم برسولكم وسخريتكم، ها أنتم أولاء تذوقون جزاءه الآن على تمامه. إنها لآيات تروع القلوب وتقبض النفوس، وتهيج خواطر الخوف والرهب، وتحاصر مواجيد البسطة والسرور؛ فتنقبض النفس انقباضًا. فما أشقى من يقامر بمصيره الأبدي؛ مقابل تمتع دنيوي فانٍ، حتى إذا لقي ربَّه أرداه في مهالك الهوان! نعوذ بالله من الخزي والخذلان!

ذلك تصوير رهيب لمصير المكذبين، بناه الرحمن على برهان اليقين، قَسَمًا بعظائم المخلوقات، وكرائم الكلمات.

تلك كانت آيات مروعات، ثم هبت على إثرها أنسام اللطف والرحمات، فتنفس

القلبُ رَوْحَ الرجاء بعد زمهرير الخوف، وتلقَّى أنداءَ الرَّغَبِ، بعد سَمُومِ الرَّهَبِ، على منهاج القرآن في عرض ثنائية النذارة والبشارة، حداءً ربانيًا متوازنًا؛ لسوق القلوب إلى دار السلام؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ ﴾.

والقضية دائمًا هي في التقوى، التقوى ذات المدارج والمعارج، سيرًا إلى اللَّه عبر مسلك الخوف والحذر في الدين، ومراعاة مقام الرب العظيم. فالمتقون دائمًا هم أهل النجاة، وهم محل الرضا الإلهي الكريم. إنهم يومَ الفزع الأكبر آمنون مطمئنون، يتمتعون ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾، والجمع والتنكير فيهما هو للتعظيم، والنعيم: كل ما تسعد به النفس وتشتهيه من الملذات والمكرمات. ونعيم الجنة جمال لا تحصره العبارات. ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾، والفَاكِهُ هو: المتمتع المسرور، من فَكُهَ يَفْكَهُ: إذا فَرِحَ وسُرَّ وابتهجَ، وطابت نفسه بما أوتي. وقد آتاهم ربهم من نعيم الجنة، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فصاروا بذلك فاكهين، مسرورين، متمتعين أبدًا. ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾، والوقاية: الإنجاء والحفظ والمنع. وإنها لنعمة كبرى ولفوز عظيم أن ينجو العبد برحمة اللَّه من عذاب الجحيم! والجحيم: اسم مخيف من أسماء النار. يقال: جَحَمَ النارَ يَجْحَمُهَا جَحْمًا وجُحُومًا: أوقدها وأضرمها، حتى عظمت وتأججت وهاجت، فصار بعضها يأكل بعضًا، فهي جحيم! وجَحُمَتِ النارُ: اشتدت وهاجت [1].

إن المتقين الآن في الجنة، ولكن أليس من الممكن أن يُنَاقَشَ أحدُهم الحسابَ مناقشةً دقيقةً؛ فلا تفي حسناتُه بدفع سيئاته، وينعكس رجحان الخير على الشر في ميزانه؛ فيكون من الخاسرين؟ بلى، بلى، وكيف لا؟ وها الحديث صريح في أن: « **مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ!** » [2] وأنه: « **لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ!** » **قَالُوا**: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ!** » [3]، فوقاية الرحمن

---

(١) ن. مادة: « جحم » في لسان العرب، والقاموس المحيط.

(٢، ٣) متفق عليه.

للمتقين عذابَ الجحيم تَفَضُّلٌ منه تعالى ورحمة. ومن رحمته تعالى أنه لا يعذب أولياءه، ولا عباده المتقين، مهما ضعفوا عن أداء حقوقه على تمام شروط الكمال. بل يقبل منهم المقاربة والتسديد، والعمل القليل ما خلص لوجهه الكريم، ويعفو - جل ثناؤه - عن العثرات والهنات، سبحانه إنه هو الغفور الرحيم. وإضافة لفظ « رب » إلى ضمير المتقين في الآية: ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى صلة القرب والمودة، والاختصاص بالرحمة والمحبة.

ثم يقال لهم: زيادة في الإكرام والإنعام: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وهذه عبارات ترحيب وتحبيب، تُكرم بها الملائكةُ المتقين في الجنة: كلوا واشربوا من خيرات الجنة، واهنؤوا بما تأكلون وتشربون، بمعنى: اسعدوا وافرحوا. فالعيش الهنيء: هو العيش السعيد الذي لا تكدره الآلام، ولا المخاوف والأحزان. والجنة هي السعادة الهنيئة حقًّا؛ لأنها سعادة حقيقية خالدة، لا تنغصها هموم ولا أحزان، ولا يتبعها موت ولا فناء. وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، أي: بسبب ما تقبل اللّٰه لكم من أعمالكم الخالصة، وبما ضاعف لكم من أجرها؛ تفضلًا منه ورحمة، فكنتم بذلك من أهل النعيم. ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾. وهذا وصف لحالهم في الجنة، فالاتِّكَاءُ على السُّرُرِ والمتكآت تعبير عما هم فيه من أحوال الترف الكريم، والنعيم المكين، الذي لا يُخشى له زوال. والسُّرُرُ: جمع سرير، وهي الفُرُشُ العالية المرتفعة، وتطلق أيضًا على الأرائك الكبيرة والعروش. وقد وصفها الرحمن بأنها « مصفوفة »، بمعنى أنها منظَّمةٌ، مُنَضَّدَةٌ في صفوف، مرتبة بشكل بديع، مهيأة بصورة تغري أهل الجنة بالاتكاء عليها والجلوس.

ثم أكرمهم اللّٰه - جل ثناؤه - بحورٍ عينٍ. ومعنى الحور العين: جمع لصفتين من الجمال، هما: حَوْرَاءُ وعَيْنَاءُ، على وزن فُعْلٍ جمع فَعْلَاءَ، كَحُمْرٍ وحمراءَ، وبِيضٍ وبيضاءَ. فالحَوْرَاءُ: هي المرأة الصافية البياض. والعَيْنَاءُ: المرأة الواسعة العيون. وقيل: الحوراءُ: المرأة ذات العيون الجميلة؛ بما فيها من حَوَرٍ، وهو: شدة صفاء بياض العين في شدة صفاء سوادها. والعيناء: كبيرة العيون واسعة المُقَلِ. وكل ذلك من صفات الجمال في النساء، فهن حُورٌ عِينٌ.

ومعنى التزويج بالحور هنا أنه - تقدست أسماؤه - جعل الحور العين قرينات لهم

وندیمات، يجالسنهم على السُّرر والمتكآت، ويبادلنهم أطايب الكلام والحديث. وفي ذلك ما فيه من جمال التكريم وكمال التأنيس.

ومن تمام نعمة اللَّه على أهل النعيم من المؤمنين المتقين، أنه – جل ثناؤه – يجمع للعبد الصالح ذريته الصالحة في الجنة، ويجعلهم في قصورها متجاورين، على منزلة واحدة. قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ... ﴿٢١﴾ ﴾، وقُرِئَتْ ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الثانية بالإفراد والجمع، وهما سواء، وإن كان الجمع أقوى دلالة على الاستغراق والشمول. والمقصود أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم في الإيمان والعمل الصالح، وإن لم يبلغ الأبناءُ مرتبة الآباء في البر والصلاح؛ فإن اللَّه – جل ثناؤه – يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوها بأعمالهم؛ وذلك لتقر أعين الآباء بالأبناء، فيجمع الرحمن بينهم على أكمل الوجوه؛ إذْ يُلْحِقُ الناقصَ في العمل منهم بالكامل، ويرفعه إلى درجته، دون أن ينقص من درجة الكامل أو يخفضه عن منزلته. فذلك قوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ... ﴿٢١﴾ ﴾، فَالأَلْتُ في اللغة: المنع والبخس والنقص [1]. ومعنى الكلام هنا: وما نقصنا أهلَ الدرجات منهم ولا بخسناهم شيئًا من عملهم، بل زدنا الناقص منهم وكملنا نقصه ورفعناه [2]. وشاهده ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن اللَّه عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته، وإن كان لم يبلغها في العمل؛ ليقر بهم عينه. ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ... ﴿٢١﴾ ﴾ الآية، ثم قال: وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين) [3].

ثم ذَيَّلَ سبحانه الآيةَ بقوله: ﴿ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾، وهذه قاعدة كلية من كليات القرآن الكريم، قاضية على كل إنسان أنَّى كان. فما من عبد إلا وهو

---

(١) جاء في المحيط للصاحب بن عباد: (لَاتَهُ حَقَّهُ يَلُوتُه ويَلِيتُه: أي حَبَسَهُ. وما يَلُوتُكَ عَنِّي؟ أي: ما يَحْبِسُكَ عَنِّي؟) مادة: « ألت ». وفي اللسان: (أَلَتَهُ مَالَهُ وحَقَّهُ، يَأْلِتُه أَلْتًا، وأَلَاتَهُ، وآلَتَهُ إياه: نَقَصَهُ). مادة: « ألت ».

(٢) ن. تفسير الطبري للآية، وابن كثير، والشوكاني، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم.

(٣) رواه الطبري في تفسير الآية، والبغوي في تفسيره، كما رواه البزار، والطحاوي في مشكل الآثار. وهو يروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وموقوفًا على ابن عباس، وهو الأصح، كما ذكره غير واحد من النقاد. لكن الشيخ الألباني صحح رفعه في السلسلة الصحيحة (٦٤٧/٥)؛ باعتبار أنه في حكم المرفوع؛ لما فيه من خبر عن الغيب. قلت: ويجوز أن يكون من فهم ابن عباس رضي الله عنهما للآية؛ لأنها ظاهرة في هذا المعنى، والله أعلم.

رهينُ عملِه يوم القيامة، أي أن مصيره مرهونٌ بما قدمه في الدنيا من عمل، ومتوقف عليه، إنْ خيرًا فخير، وإن شَرًّا فشر، والعياذ بالله. ويتفضل الله على من شاء من عصاة المسلمين، بالعفو والمغفرة؛ فيدخلهم في رحمته وينقذهم من النار، كما يأذن سبحانه لرسوله محمد ﷺ بالشفاعة لمن شاء الله إدخالَه الجنة، ولو لم يبلغها بعمله. لكن الأصل هو: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾، وفيها إشارة إلى أن الذرية غير المؤمنة، لا يُلْحَقُونَ بآبائهم الصالحين، وأن الإلحاق في مراتب الجنة ومنازلها، مشروط باستحقاق دخول الجنة أولًا؛ بما كسبه الإنسان من أعمال الخير والصلاح.

ويشرع القرآن المجيد في وصف مشاهد من أحوال النعيم، الذي يتمتع به المتقون في الجنات، ويبين ما يُمَدُّونَ به من أنواع الفاكهة واللحوم، وأصناف الطعام والشراب، وما يتقلبون فيه من أنواع الملذات، قال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾. ومعنى الإمداد هنا: الزيادة في الإنعام والتكريم، من المَدَدِ وهو: الزيادة في الخير عمومًا. وإمدادُ الرحمن عبادَه من أهل الجنةِ، عَطَاءٌ فوقَ عطاءٍ، وإكرامٌ بعد إكرام، وإنعامٌ لا ينقطع أبدًا؛ إذ يُمِدُّهُمْ سبحانه من فاكهة الجنة ولحومها، أصنافًا وأشكالًا تترى. ومهما يتخيل الإنسان من طبيعة فاكهة الجنة وأصنافها؛ فإنه لن يبلغ حقيقتَها التي لا توصف لذةً وجمالًا! وكذلك لحم الجنة، من مشويات ومطهيات بشتى الفنون والأشكال، مما تشتهيه النفس وتتعلق به الأذواق. كل ذلك يُقَرَّبُ إلى أصحاب الجنة، ويُمَدُّونَ به على أكمل ما يكون الإكرام والإنعام.

وهم خلال ذلك النعيم ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، ومعنى يتنازعون: يَتَسَاقَوْنَ، ويتعاطون، ويتداولون الكؤوس الكثيرة الوفيرة، من نَزْعِ الدلو من البئر: إذا استسقى منها. وكانت العرب تتنازع الدِّلَاءَ، بمعنى أنها كانت تتداول الاستسقاء من البئر، لكل دلو. والعبارة هنا كناية عن اجتماع المتقين بمجالس الشرب في الجنة؛ حيث يتعاطون كؤوس الخمر، وهي خمر لا تذهب بالعقل ولا تخمره، بحيث لا يكون في مجالسها لغو ساقط، كما يكون في مجالس خمر الدنيا الخبيثة. واللغو: فاسد الكلام من الهذر والهذيان. ولا يكون فيها تأثيم، وهو: ما يستوجب الإثم والعقاب من الأقوال والأفعال، كالشتم والضرب، مما هو معهود في سكارى الحياة الدنيا. وإنما خمر الجنة لذة

ومتعة، على أكمل ما تكون اللذات والمتع، لكنها رفيعة كريمة، منزَّهة عن اللغو والفساد.

ثم ختم سبحانه وصف مجالس الطعام والشراب في الجنة، بقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾، والطواف: تكرار المشي على صورة الدوران، بما يفيد أن مجالس أهل الجنة تكون على هيئة الحلقة، أو ما يشبهها، فيطوف عليهم غلمان الجنة بما ذُكِرَ قبلُ من الطعام والشراب، وهو محذوف هنا لدلالة السياق عليه. وغلمان الجنة ليسوا بمماليك، وإنما هم وِلْدَانٌ مخلَّدون خلقهم اللَّه في الجنة لخدمة أهلها، وقوله: ﴿لَّهُمْ﴾ ليس معناه أنهم مملوكون لهم، على عادة الرقيق في الدنيا، وإنما معناه أنهم مخصَّصون لهم، وهو اختيار الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو كلام حسن وجيه [١]. وهم علاوة على ذلك قد أوتوا من كمال الحسن والجمال؛ ما ترتاح له العين وتنبسط له النفس: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾، واللؤلؤ: الدُّرُّ، وكونه « مَكْنُونًا » يعني محفوظًا محجوبًا، مصونًا عن الأيدي. من الكَنِّ، وهو: الحَجْبُ والإخفاء والستر [٢]. والمعنى: أنه ما يزال في صدفه، أو أنه مخزون مكنوز بمخابئه عند أهله؛ لنفاسته وغلاء ثمنه وأصالته، فلا يُخْرَجُ من مخازنه إلا عند إرادة الاحتفال به، فيبقى على صفائه وجِدَّتِهِ، وشدة لمعانه.

ثم ختم الخطابُ مشهدَ الجنةِ وأهلِها في هذا السياق، ببيان السبب الذي به فاز المتقون بهذا النعيم المقيم، وقد مَهَّدَ له الرحمن بآية كريمة لطيفة، فيها رَوْحٌ جميل من التشويق والتحبيب، مثير للانتباه ومُرَغِّبٍ في الاستطلاع، فقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥﴾، وإقبال المرء على صاحبه: التفاته إليه بكليته، بحيث يصير بمواجهته، ينظر بعضهما إلى بعض. وإنما يكون ذلك - في الغالب - عند إلقاء البشارات، أو المناجاة بما يُفْرِحُ ويَسُرُّ. فكذلك يُقْبِلُ أهل الجنة - وهم في مجالس النعيم - بعضهم على بعض، ويدنو بعضهم من بعض، ثم يسأل بعضُهم بعضًا: ماذا كنتم تعملون في الدنيا؟ كيف كنتم في دينكم تسلكون؟ كيف كنتم تتصرفون في

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

(٢) تقول: كَنَنْتُ الشيءَ، إذا خَبَأْتَهُ وسترْتَهُ وأخفيتَه، أَكُنُّهُ كَنًّا وكُنُونًا، فهو مَكْنُونٌ. والكِنُّ: السُّتْرَةُ، والغِمْدُ ووِقَاءُ كُلِّ شيء، والجمع أَكْنَانٌ. والأَكِنَّةُ: الأغطيةُ والحُجُبُ. ن. مادة: « كنن » في الصحاح ولسان العرب.

حقوق ربكم؟ كيف نالكم من هذا العطاء الرباني الكريم ما نالكم؟ كُلٌّ يسأل صاحبَه، وكُلٌّ يحكي قصتَه، وكلُّهم جميعًا مهما اختلفت أشكال تعبيرهم، يدورون في الجواب حول حقيقة واحدة: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾.

إن معنى الإشفاق راجع إلى معنى الخوف المصحوب برحمة، والحذر المصحوب بعناية، ويُقَدَّرُ فيه دائمًا طرفان اثنان، قد يُذكران معًا، وقد يُكتفَى بأحدهما دون الآخر، فالأول: مُشْفَقٌ منه، وهو الشيء الْمَخُوفُ المحذور المرهوب، والثاني: مُشْفَقٌ عليه، وهو الشيء الْمَخُوفُ عليه المرحوم [1]. كما قال تعالى عن المتقين في سورة الأنبياء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩]. أي: مشفقون على أنفسهم منها؛ فيحذرون الوقوع فيما يهوي بهم في عذابها.

ومن ثم فالإشفاق هو وازع التقوى ومَوْرِدُهَا ومغذيها. فمعنى أنهم كانوا في أهلهم مشفقين بيانٌ لما كانوا عليه من قبلُ في الحياة الدنيا، من حال الحذَرِ والرَّهَبِ، ومواجيد الخوف من لقاء الله، والاحتياط في الأعمال ليوم الحساب، والتصرف على ذلك الميزان، وبذلك الشعور الإيماني العميق. وعبروا بأنهم كانوا كذلك في أهليهم؛ لأن الإنسان وَسَطَ أهله وأبنائه أكثر تعرضًا للغفلة والفتنة؛ بسبب ما يصحب العيشَ بين الأزواج والولدان، من الميل إلى الراحة والكسل والدعة، ومن الانشغال بمتع الحياة الدنيا وشهواتها، والانغماس في همومها، والتفكير في الكسب والمال. لكن أهل التقوى لم يشغلهم ذلك كله، رغم عدم تقصيرهم في طلب ما كتب الله لهم منه، ولم يفتنهم عن عبادة الله ورعاية حقوقه، والسير إليه تعالى بقلوب وجلة، وأعمال خالصة، وسط ذلك المحيط الدنيوي المغري بالتنعم العاجل الفاني، بل إنهم أناروا بيوتهم بمصابيح التقوى، ولقنوا أهليهم حقيقة الإشفاق من رب العالمين، فصار الأبناء في ذلك لآبائهم تابعين.

فكانت النتيجة أن الله - تقدست أسماؤه - تفضل عليهم بِمَنِّهِ: فَسَلَّمَهُمْ من عذابه، ونجاهم من عقابه، وأدخلهم جنته، مَنًّا منه وفضلًا. فذلك قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝ ﴾. والسَّمُومُ: ريح جهنم

(١) مفردات الراغب: مادة « شفق ».

الحارقة. وأصلها اللغوي: ريح حارة تهب في جزيرة العرب، وفي كل بلاد شديدة الحر. وكانت من فرط حرارتها تدخل في مَسَامِّ الجلد فتبخر الماء من الجسم.

وفي الأخير اكتمل جواب المتسائلين عما به كان نجاتهم بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾، وسياق الكلام دالٌّ على أن مدار الدعاء، كان حول طلب النجاة من النار، والفوز برضا الرحمن. وقد يتسع معنى الدعاء هنا؛ ليشمل كل معاني العبادة، وعلى رأسها التوحيد والإخلاص. وأما الابتهالُ إلى اللّٰه بالدعاء رَغَبًا ورَهَبًا، فهو حُدَاءُ العبد السائر إلى ربه، بأقدام الخوف والرجاء. وهذا إنما هو من تجليات الإشفاق الذي كانوا عليه من قبل، وهو علامة التقوى، الصفة الأساس التي وصفهم الرحمن بها في صدر السياق.

ومن ثم ختم المشهد كله بهذا التذييل: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾، وقد قُرِئَتْ (أنه) بفتح الهمزة؛ للدلالة على أنهم كانوا يدعونه؛ رجاءَ بِرِّهِ ورحمتِه، أو لأجل أنه هو البَرُّ الرحيم. كما قُرِئَتْ بالكسر (إنه) على الاستئناف؛ للدلالة على توكيد صفة البِرِّ والرحمةِ في ذاته ﷻ؛ وبذلك استحق أن يُدْعَى ويُرْجَى وحده دون سواه. فالجملة في القراءتين معًا تفيد التعليل، لفظًا أو معنًى. واستعمال ضمير الفصل (هو) مقرونا بـ « ألْ » الاستغراقية، في اسميه تعالى: ﴿ ٱلْبَرُّ ﴾ و ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾، يفيد تخصيص ذلك به وحده وقصره عليه، بمعنى أنه لا بَرَّ على الحقيقة سواه، ولا رحيم على الكمال غيره. والصفتان اسمان كريمان من أسماء اللّٰه الحسنى، فالبَرُّ معناه: الكثير العطاء والإحسان، الوفي الذي لا يُخَيِّبُ ظن عبده به. والرَّحِيمُ معناه: الكثير الرحمة، الذي تَسَعُ رحمتُه كلَّ من تاب إليه من عباده ورجاه.

فاللّٰهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي، فاغفر لي وارحمني، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، اللّٰهم اجعلني من عبادك المتقين، المشفقين من يوم لقائك، واجعلني على ذلك من العاملين، ولا تحرمني من فضلك وإحسانك، إنك أنت البَرُّ الرحيم. آمين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن القرآن أمان الأرض ومن عليها. فكما أن الجبال الراسية

بأكنافها، والبحار المتجمعة في محيطاتها، والسماء المشدودة ببروجها ونجومها، كلها توازنات كونية فوق الأرض وحولها، تحفظ الوجود البشري كله وتُؤَمِّنُهُ؛ فإن القرآن المجيد هو كذلك له نفس الوظيفة، إلى جانب وظائفه الدينية الأخرى. فما دام القرآن موجودًا في الأرض، مسطورًا في المصاحف، ومحفوظًا في الصدور، ومتداولًا في المجتمع، فإن الوجود البشري لا يزال في أمان. وهو قصد من مقاصد القَسَم به فيما تدارسناه هنا في سورة الطور، مقرونًا بالثوابت الكونية الأخرى: ﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ ﴾. وإن اختلال واحد من هذه المقسمات معناه اختلال الكون كله، ونزول العذاب والهلاك بأهل الأرض، وهو قيام الساعة، التي لا تقوم إلا على شرار الخلق، كما سبق بيانه في الحديث الصحيح. وعلى ذلك دلَّ جواب القسَم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾.

وعلى هذا أيضًا دلت السنة النبوية الصحيحة، فقد ثبت فيها أن للقرآن كما للجبال والنجوم، وظيفة تأمينية للوجود البشري العام، وأنه ما دام القرآن يُتْلَى ويحفظ ويدرس؛ فإن الناس سيعيشون في أمان. فإذا بدأ يتلاشى تَدَاوُلُ القرآن، ويتدهور طبع مصاحفه ونشرها، ويتناقص عددُ حُفَّاظِهِ شيئًا فشيئًا؛ فتلك علامة شر وشؤم! وإنه لن تقوم الساعة حتى يُرْفَعَ القرآن كله، فلا يبقى شخص واحد في الأرض يذكر آيةً واحدةً من كتاب اللَّه! وهو ما ورد الخبر به في هذا الحديث النبوي الرهيب، عن الصحابي العظيم حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **يَدْرُسُ الإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ!** [١]، **حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ! وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ﷻ فِي لَيْلَةٍ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ! وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا** » [٢]. وإنما هذا وضع تتهيأ فيه الأرض بمن عليها لقيام الساعة!

وقد ثبت في نصوص أخرى، أن وجود القرآن بين الناس وتمسكهم به – أمانٌ لهم

---

(١) دَرَسَ الشيءُ يَدْرُسُ، هو بمعنى: بَلِيَ وقَدُمَ وعَفَا وتلاشَى.

(٢) رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعب الإيمان، والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: « وهو كما قالا ». كما صححه في صحيح ابن ماجه، وصحيح الجامع.

من الهلاك العام. فعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « **أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا! أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟** » قَالُوا: بَلَى، قَالَ: « **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ** [أي: حَبْلٌ] **طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا!** » (١).

الرسالة الثانية: في أن هَمَّ الآخرة هو أعظم هموم الدين، وأن اليوم الآخر هو ما يجب على المؤمن أن يعيش على خوفه ورجائه حياتَه كلها، وقد تقرر ذلك في القرآن بصورة متضافرة، تكاد تشمل كل سوره، من أوله إلى آخره. ويكفي المؤمنَ من ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومن ثم فإن النبي ﷺ الذي كان خُلقه القرآن، إنما كان يعيش الدنيا للآخرة، وللآخرة فقط! فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « **اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ!** » (٢). وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ؛ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: « **مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا!** » (٣). وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ! وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ!** » (٤).

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وعبد بن حميد في مسنده. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا. ورواه عن ابن عباس ﷺ كل من أحمد، والحاكم، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وابن حبان، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة. وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». كما صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وفي تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه. ثم صححه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٤) رواه الترمذي، والبزار، وابن حبان، والطبراني في الأوسط عن أنس. كما رواه ابن ماجه وابن حبان، =

الرسالة الثالثة: في أن تقوى اللَّه تقدست أسماؤه، وخشيته، والإشفاق من لقائه، هو أساس النجاة يوم القيامة، وهو خير المطايا، وأقوى الرحال، في السير إلى اللَّه بلا انقطاع ولا فتور؛ لأن أهل التقوى هم أهل الخوف والخشية، وهم أهل الحذر والإشفاق؛ ولذلك بنوا كل دينهم على العزم والحزم. فلا يزالون في حذر من عاقبة أمرهم، واحتياط في شؤون دينهم، لا يخطون خطوة إلا بعد التحقق من موقعها في الدين، وبأي صحيفة يمكن أن تُستنسخ: عن الشمال أم اليمين؟

فالتقوى هي مركب الأنبياء والصديقين والصالحين، وكلما ازداد العبد ترقيًا في منازل الإيمان؛ ازداد رسوخًا في مقام التقوى، واشتد عليه لهب الخوف. وإذا رأيت الإنسان قد فترت تقواه في الدين، رغم كثرة كلامه عن مدارج الإيمان وحقائق الروح؛ فاعلم أنه قد استُدرج إلى مهاوي الهلاك، وأن قَدَمَهُ قد زلت في الطريق عن سكة الإخلاص. وإنما أهل الحذر هم أهل العمل: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

الرسالة الرابعة: في أن عمل الإنسان هو المؤشر الدال على مصيره إجمالًا، وأن ميزان الأعمال يوم القيامة - وهو ميزان حق - يحسم مصير الإنسان بين الجنة والنار، اللَّهم إلا عبدًا عاصيًا نجا من عقاب اللَّه بعفو اللَّه، أو بشفاعة محمد ﷺ بعد إذن اللَّه. فالأصل أن القاعدة جارية بما قال اللَّه ﷻ فيما تدارسناه هنا: ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾. وهذه قاعدة كلية عظمى من كليات القرآن الكريم، تتضافر الآيات الكثيرة على قطعية حكمها واطرادها، كما قال اللَّه - تقدست أسماؤه - في الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وعلى ذلك جرت نصوص السنة الكثيرة الوفيرة، ولنا أن نختار منها ما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ من الحديث القدسي،

=عن زيد بن ثابت. ورواه الطبراني أيضًا في الكبير عن ابن عباس. وصححه الألباني في تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه، وفي صحيح الجامع الصغير، والسلسلة الصحيحة. ورواية ابن ماجه وابن حبان عن زيد بن ثابت أصح.

قال: « **يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ!** »(١)، وقد تواتر في الكتاب والسنة أن أعمال بني آدم توزن، بميزان يضعه اللّه يوم القيامة لهذا، ويوكل به ملائكته، قال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. فمن رجحت حسناته على سيئاته كان من أهل الجنة برحمة اللّه، ومن رجحت سيئاته كان من أهل النار بعدل اللّه. ويعفو اللّه عن من شاء من عباده العصاة، الذين ماتوا على عقيدة التوحيد.

الرسالة الخامسة: في أن دعاء اللّه بأسمائه الحسنى، وتوحيده بها، والتوسل إليه بها إيمانًا وإخلاصًا؛ من أهم المسالك إلى نيل رضاه ﷻ، والدخول في رحمته، والنجاة من عذابه. **فالدعاء بالأسماء الحسنى يحقق للعبد ثلاثة أمور:**

أولها: معرفة اللّه تعالى بما له سبحانه من صفات الجمال والجلال، فتعلُّم الأسماء الحسنى - كما عرضها القرآن الكريم والسنة الصحيحة - والتحقق بمعانيها الجليلة، ثم التخلق بأنوارها الجميلة، وكذا مشاهدة آثارها في الخلق، وفي سيرورة الوجود الكوني والبشري؛ هو أهم معراج رباني لتلقي العلم باللّه.

الثاني: تحقيق الثناء على اللّه، وهو من أبلغ العبادات وأحبها إلى اللّه، وكلما قرأ المؤمن في صلاته: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من الفاتحة؛ قال الرب ﷻ: « **أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي** »(٢). وكان رسول اللّه ﷺ يثني على اللّه ﷻ بما هو أهله، ثم يقول: « **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** »(٣).

الثالث: أنها من أهم أسباب إجابة الدعاء؛ لما تتضمنه من حقائق التوحيد، والتفريد، والثناء على اللّه ﷻ؛ ولذلك أُمِرْنَا بالتوسل بها إلى اللّه في العبادة والدعاء، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللّه، جعلني اللّه وإياكم من أهل التوفيق والتطبيق.

---

(١) جزء حديث رواه مسلم.

(٢، ٣) جزء حديث أخرجه مسلم.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في التحقق بخلق الإشفاق في الدين، وهو مقام إيماني رفيع، على ما قدمنا في بيان قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾. وقد بينا أيضًا أن معنى الإشفاق من الشيء راجعٌ إلى معنى الخوف منه، كما أن معنى الإشفاق على النفس أو على الغير معناه الخوف عليها أو عليه. لكنه خوف مصحوب برحمة وعناية [1]؛ ولذلك فإن الإشفاق خُلُقٌ إيماني نفسي كريم، يضبط عمل صاحبه على مقام التقوى، وهو المطلوب. **والتخلق به له مسلكان اثنان، على ما ورد في سياقات موارده من القرآن:**

الأول: التعرف على اللّه ذي الجلال، أي بما له من عظمة الملك والسلطان، وبما له من قوة القهر والجبروت، والقدرة على خلقه وعباده، والغلبة على أمره. ومعرفة أنه ﷻ قد ألزم الخلق بشريعة، وحَدَّ لهم حدودًا، وفرض عليهم فرائض، هي حقوقه الواجبة عليهم؛ بما هو ربهم الذي خلقهم، وأنه سبحانه مُسَائِلٌ عبادَه عن ذلك، وأن الناس إليه راجعون، وبين يديه لا محالة واقفون. فهذه حقائق إيمانية من معرفة اللّه والعلم به - جل علاه - وجب تغذية النفس بها، وتزكيتها بتدبرها والتحقق بمعانيها، حتى يقع في النفس شعور الخوف والخشية، فتشفق على ذاتها من لقاء اللّه، وتحذر عذابَه وعقابَه. وقد مدح الرحمن سبحانه عبادَه ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧]. وقال عن الملائكة: ﴿ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وذلك لما عرفوا من جلال اللّه ومقامه العظيم. وهو باب كريم، يورث الخوف والخشية والإشفاق، بإذن اللّه.

الثاني: إدمان مطالعة أخبار الآخرة، وطلب العلم بها، ومعرفة أحداثها وأهوالها، وجميع مراحلها، وما يكون فيها، ابتداءً من أول منزل من منازلها، الذي هو القبر، إلى أن تقوم الساعة ويحشر الناس إلى ربهم، فيقفون بين يديه تعالى لتعاطي الحساب، ثم يفصل الجبار ﷻ بين العباد، ثم يتحدد مصير كل امرئ بما قدر اللّه له. ولا بد من العلم أنه ما فَصَّلَ الربُّ ﷻ في وصف عذاب جهنم ودركاتها؛

---

(١) مفردات الراغب: مادة « شفق ».

إلا ليكون ذلك غذاءً روحيًا؛ لاكتساب خُلق الخوف والرَّهَبِ والإشفاق. فهذا كله وما في معناه، هو المسمى بعلم الآخرة، وهو أعظم زاد - بعد العلم بالله - للتحقق بمقام الإشفاق. وقد جمع الله تعالى المسلك الأول والثاني في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فمن اجتمع له هذا وذاك؛ كان - إن شاء الله - من أهل الإشفاق في الدين. ورجا أن يكون يوم القيامة من الآمنين؛ لأن من خاف في الدنيا أَمِنَ في الآخرة، كما هو متواتر في الكتاب والسنة، وكما هو مفهوم السياق الوارد ههنا في سورة الطور: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ ﴾.

اللَّهُمَّ إنَّا نَستَعِينُكَ ونَستَغْفِرُكَ، ونُثْنِي عَلَيْكَ الخيرَ كُلَّهُ، ونَشْكُرُكَ ولَا نَكْفُرُكَ، ونَخْلَعُ ونَتْرُكَ مَنْ يَفْجُرُكَ، اللَّهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ، ولَكَ نُصَلِّي ونَسْجُدُ، وإليكَ نَسْعَى ونَحْفِدُ، نَرْجُو رحمتَكَ، ونخشَى عذابَكَ، إنَّ عذابَكَ الجِدَّ بالكفارِ مُلْحقٌ!

* * *

المجلس الثاني

في مقام التلقي لبراهين التحدي، والتحطيم لكبرياء الكفرة،
وكشف عبديتهم القسرية لله رب العالمين،
وأنهم واقعون في قبضة الجبار، لا محيص لهم من عذابه.
ثم بيان مسلك الداعية إزاء كيدهم،
وشروط السير إليه تعالى دينًا ودعوةً.

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم
بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا
يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ
ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ
حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

هذا هو القِسْمُ الثاني من سورة الطور، وقد جاء مفصلًا لما ورد فيها من التحدي بحقائق اليقين، من اليوم الآخر والعذاب الواقع بالمكذبين. وهو أكثر ارتباطًا بصدر السورة الأول؛ حيث أقسم الله ﷻ بعظائم الأمور المذكورة، على: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ

لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾، إلى آخر آيات العذاب. وأما البشارات الواردة بعدها فإنما هي ملحقة في المعنى بهذه النذارات؛ لأنها هي تأمين وتطمين للمتقين، الذين وقر الخوف في قلوبهم، بعد سماع النذير، فكانوا في أهلهم مشفقين. فالتحدي بحقائق النذارة، والترهيب بها، هنا في سورة الطور هو أساس الخطاب، وعنه تفرع كل شيء فيها. وبذلك وجبت الذكرى، ومخاطبة المكذبين.

ومن ثم جاء هذا القسم الثاني مرتبطًا بالأول؛ بما يشبه الاستنتاج والتعقيب على ما سبق بيانه من حقائق اليوم الآخر، وبراهينه، ومَشاهده، فخاطب الرحمنُ - جل ثناؤه - رسولَه الكريم ﷺ بالتذكير، وعدم الالتفات إلى ما يرميه به المكذبون من تهم، وما يثيرون حوله من أراجيف، مُسَلِّحًا إياه ببراهين التحدي، وقوارع التصدي! فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، والكاهن: هو الذي يتلقى أخبار الجن فيخبر عن المغيبات. وأما المجنون فهو الذي يعتريه مَسُّ الجن؛ فَيُسْلَبُ عقله كليًّا أو جزئيًّا. والمعنى العام للآية توجيه دعوي من الله لرسوله ﷺ، وتثبيت له في معركة الحق، فكأنه قال: فَذَكِّرْ يا محمد بهذا القرآن، وبما فيه من حقائق النذارة، والوعيد بيوم الحساب، كلَّ من تلقاه، واثْبتْ على منهجك من الوعظ والتذكير، فما أنت بما أنعم الله عليك من النبوة، وكمال الفطنة ورجاحة العقل؛ بكاهن ولا مجنون، كما يفتريه عليك المفترونَ، ويُرْجِفُ به الْمُرْجِفُونَ. كلَّا، كلَّا! بل أنت نبي حق، تتلقى الوحي من السماء، وتُبلغ الناسَ كلماتِ اللّه ورسالاتِه.

وهذه الآية ربطٌ بأول السورة كما ذكرنا، وفتحٌ لفصل جديد من الخطاب، يرتقي بوتيرة التحدي إلى أعلى مراتبه، وأشد حِجَاجِهِ، وأقوى براهينه؛ مما جعل آيات هذا القسم الأخير تصير كلها تقريبًا، معاول تحطم كبرياء هؤلاء المكذبين الفجرة، أو كأنها صخور عظيمة من صخور الطور، تتنزل على تلك الرؤوس القاسية العنيدة، فترضخها رضخًا؛ ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾!

وقد ذكر أهل اللغة أن عبارة « أم » المتكررة هنا في سورة الطور تفيد الإضراب الانتقالي، أي الإضراب عن كلام والانتقال إلى غيره، فهي بمعنى « بل »، مع دلالتها

على الاستفهام الإنكاري والتوبيخ [١]. فقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ ﴾ هو انتقال من إبطال قولهم: « كاهن أو مجنون »، إلى إبطال تهمة أخرى، وهي قولهم: « شاعر ». والمعنى: بل إن منهم من يقول: هو شاعر. وقد أنكره عليهم إنكارًا شديدًا بصيغة الاستفهام الذي تفيده « أم » كما قررناه. كأنه قال مُنْكِرًا ومُعَجِّبًا: أتقولون هو شاعر؟ وفي ذلك من التهديد والوعيد ما فيه.

وتذكر كتب التفسير في قصة ذلك، أن رؤوس قريش اجتمعوا في دار الندوة بمكة؛ للتشاور في كيفية مواجهة محمد ﷺ ودعوته، فقال بنو عبد الدار: إنما هو شاعر نتربص به ريب المنون، فسيموت كما مات الشعراء قبله: زهير، والنابغة، والأعشى، وينقطع أمره [٢]. هكذا تصوروا المسألة بهذه السذاجة. والتَّرَبُّصُ، معناه: الترقب والانتظار. ورَيْبُ الْمَنُونِ: حوادثُ الدهر، ويُكنى بها عن الموت والهلاك. وَوَجْهُ تهمتهم إياه بالشاعرية، هو أنهم كانوا يَلْقَوْنَ من الشعراء الهجائين في الجاهلية عنتًا، فإذا ماتوا استراحوا منهم، فظنوا أن ما يتلوه عليهم النبي ﷺ من القرآن الكريم، وما فيه من النذارة والوعيد هو من هذا القبيل! خاصة وأنه سَمَّى بعض طغاتهم مثل أبي لهب، وجعل لعنه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة. ومن ثم قالوا: هو شاعر نتربص به ريب المنون!

لكن الرد جاء أقوى مما يتصورون، لقد رفع القرآن في وجههم رهان التحدي عاليًا، فقال تعالى: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﷺ، ترقبوا وانتظروا فإنني أنا أيضًا أترقب كما تترقبون، وأنتظر كما تنتظرون! وسنرى من سيهلك منا وتذهب ريحه، وينقطع أمره. ألَا ما أجهلهم وأطغاهم! يترقبون موته ﷺ، وينسون أنهم قد يموتون قبله، وكذلك الأمر كان! إن محمدًا ﷺ كان على يقين من وعد ربه بهلاك طغاتهم هم، وقد هلكوا في غزوة بدر الكبرى، إلا من كتب الله له الإسلام، وكان ﷺ على يقين من انتصار دعوته، وهيمنتها على العالم كله. لقد كان النظر الجاهلي إلى دعوة الإسلام سطحيًا بئيسًا، فأولئك الطغاة ما عرفوا حقيقة معنى النبوة، ولا معنى الرسالة، ولا عرفوا بأن الدعوات الربانية لا تموت أبدًا! وإنه لتحدٍّ كبير يربك النفس الكافرة، ويزلزلها: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ ﴾.

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير، للعلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله.

(٢) ن. تفسير الطبري للآية.

ثم يزيدهم تسفيهًا وتجهيلًا؛ إذْ ساءَلهم مُنْكِرًا ومُعَجِّبًا مرة أخرى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أحقيقةٌ أنهم فكَّروا بأحلامهم، أي بعقولهم وألبابهم، فقالوا ما قالوا؟ أمثل ذلك الكلام يصدر عن عاقل لبيب؟ كلَّا! بل إن كفرهم الطاغي على قلوبهم، قد أعمى بصائرهم وسَفَّهَ عقولَهم، فطغوا في عنادهم وكبريائهم وجحودهم؛ فلم يعودوا ينطقون إلا جهلًا وهَذَرًا! ثم تنتصب مساءلةٌ جديدة وإنكار جديد: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، بمعنى: بل إن منهم من يقول: إنما هو مُفْتَرٍ على الله، حاشاه ﷺ. فقولهم: ﴿ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ هو بمعنى اختلقه، فالتَّقَوُّلُ: هو الكذب والافتراء، ونسبة القول لمن لم يقله. بمعنى إنه اختلق هذا القرآن من عنده، ولم ينزل عليه من السماء شيء! فرد عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، لا يؤمنون بالله حقًّا وصدقًا، على عكس ما يزعمون من عبادة الله وخدمة البيت الحرام. فلو كانوا يؤمنون بالله حقيقة لنظروا في هذا القرآن متجردين عن الهوى، ولأدركوا أنه كلام الله رب العالمين! وهم عرب أعرف بالشعر والكهانة والسحر، تلك ثقافتهم؛ ولذلك فقد كانوا أعلم بأن هذا القرآن ليس من تلك الصنوف جميعًا، وكانوا أعلم بأن محمدًا ﷺ مبرأ من الكذب تمامًا، يعرفون ذلك كله كما يعرفون أبناءهم. فأي إيمان بالله هذا الذي يَدَّعُونَ؛ والحال أن أهواءهم الطاغية تمنعهم من تصديق رسوله الكريم ﷺ وتلقي رسالاته؟

ومن ثم فقد استطرد في التحدي، بل رفع من وتيرته وشدته؛ إذ طالبهم بالإتيان بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين! قال ﷻ : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذه هي الحجة الدامغة، والتحدي المعجز الفاضح! فإذا كان هذا النبي شاعرًا - كما تزعمون - أو كاهنًا، أو ساحرًا؛ فإن منكم عباقرة الشعراء، وكبار الكهان والسحرة، فتفضلوا..! أَبْدِعُوا - إن استطعتم - شيئًا يشبه هذا القرآن الكريم، وانظموا حديثًا أو كلامًا على وِزَانِهِ، إن كنتم صادقين في دعواكم، مستيقنين مما تزعمون! ومن ذا قدير على الإتيان بكلام يحيط بخلق السماوات والأرض، وصفًا وتقديرًا، ويخبر عما كان وما سيكون، بدقة متناهية، وإحاطة شاملة، ويسوق من حِكَمِ التعريف بالله والعلم به، وأخبار الرسل والأنبياء عبر التاريخ، وحقائق التدبير والتشريع، ما تحار منه العقول، وتخضع له القلوب؟ من ذا قدير على ذلك كله إلا الرب الذي خلق هذا الملكوت؟

وبقيت معجزة القرآن خالدة، تخاطب بهذا التحدي العظيم كلَّ كافر به - من أي ملة كان - إلى يوم القيامة!

ويرتقي الحِجَاجُ إلى مستوى أعلى مرة أخرى، وإلى تَحَدٍّ أشد، إنه التحدي بحقيقة « الخالقية »، ذلك السر الإلهي العظيم، والوصف الرباني الكريم، الذي به كان اللَّه ﷻ خالقًا لكل شيء. و « الخالق » اسم من أعظم أسماء اللَّه الحسنى، ومن أجلِّها وأبهرها. وبه وقع التحدي ههنا في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ ﴾. والْخَلْقُ: إبداع الشيء وتكوينه وإخراجه من العدم إلى الوجود. وهو مفهوم من أغمض المفاهيم وأعقدها؛ لأنه سرٌّ من أسرار القدرة الإلهية العظيمة، تتحطم العقول دون معرفة كنهه! وإنما الذي نعرفه منه هو تجلياته، فيما نشاهده في أنفسنا، وفيما حولنا من الخلائق في الأرض وفي الآفاق.

لكنها حقيقة كبيرة نعرف وجودها يقينًا؛ لأننا نحن أنفسنا وُجِدْنَا في هذا العالم، بعد أن لم نكن شيئًا مذكورًا. ومن ثم توجه التحدي بالتقريع والتوبيخ إلى أولئك الكفرة الجاحدين، مسائلًا إياهم ومحاكِمًا: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ ﴾ بمعنى: هل خُلِقُوا من غير خالق؟ أم أنهم هم الذين خَلَقُوا أنفسَهم بأنفسِهم؟ ألا يتدبرون هذه الحقيقة الصارخة؟ ألا يرون أنهم مخلوقون كسائر الخلق، يولدون ثم يموتون؟ ألا يرون أنهم مجرد عبيد فقراء ضعفاء؟ وهذه الآية هي التي أفزعت جُبَيْرَ ابْنَ مُطْعِمٍ ﷺ، لما سمع تلاوتَها من النبي ﷺ، وهو آنئذ ما يزال على شركه؛ حتى كاد قلبه أن يطير، فكانت تلك الصدمة أول خطواته النفسية نحو الإسلام [(١)].

ثم قال سبحانه مستطردًا في التحدي بصفة الخالقية: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ ﴾، أي: هل يستطيعون الزعم بأنهم هم الذين خلقوا هذا الوجود كله وأبدعوه، سماواته وأَرَضِيه؟ وتعليل هذا التحدي هو أنهم بما كانوا يتكبرون في سلوكهم وعنادهم، وبما كانوا يحسمون القول ويجزمون الأحكام بكبرياء، في طبيعة هذا القرآن، وفي الرسالة والرسول؛ يجعلون أنفسهم كأنما هم محيطون بما أحاط به رب هذه الرسالة سبحانه ﷻ ! فخاطبهم اللَّه بهذا التحدي

(١) سبق إيراد القصة بشواهدها في تقديم السورة.

الكبير، بدعوتهم إلى مقاربة صفة الخالقية، والتفكر في شؤون الربوبية؛ لتحطيم غرورهم، وإخناس كبريائهم، وإلزامهم حدهم من العبدية البشرية الضعيفة الحقيرة؛ ولذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى: ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ ﴾، أي لا يقين لهم، لا في إيمانهم الإجمالي بالله، ولا فيما يقولون ويدَّعون من الأباطيل والأراجيف، وإنما هم يخبطون خبط عشواء، ويحاولون رد الحق بما وجدوا من كلام، مع علمهم بأن لا فائدة من ردهم وتهممهم، اللَّهم إلا التعبير عن رفضهم للحق، وإصرارهم على كفرهم وأهوائهم الجاهلية!

وظاهرٌ أن سياق التحدي بحقيقة الخالقية، راجع إلى إبطال ما ورد في أول السورة، من تكذيبهم بالبعث والنشور؛ لأن الْمُقِرَّ بقدرة الله ﷻ على الخلق؛ مُلْزَمٌ بالإقرار بقدرته تعالى على الإعادة، وهو معنى البعث الذي ينكرونه تعنتًا واستكبارًا.

ويستمر خطاب التحدي في تقريع الطغاة، وتجريدهم من كل أوهام التحكم والسيطرة، والحكم على الحقائق بما يشتهون، فيقول رب العزة ﷻ : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝ ﴾ بمعنى: هل هم يتصورون أنفسهم مالكين لخزائن رحمة الله؟ يَهَبُونَ النبوة لمن يحبون، ويمنعونها مَنْ لا يحبون؟ أهم يتحكمون في عطاء الله من الرحمات والأرزاق؟ أم هم يسيطرون على تدبير شؤون الملك والملكوت؟ ألا ما أجهلهم بالله، وبأنفسهم الحقيرة الفانية! تلك حقيقة تقريعية تفهم من هذه الإنكارات الشديدة؛ ولذلك ناسب أن يتبعها هذا التحدي: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾، بمعنى إذا عجزوا عن دَعْوَى الربوبية أو بعض صفاتها، فمن أين لهم إذن بهذه الدعاوى العريضة على النبوة وصاحبها؟ من أين لهم بهذه التخرصات على كتاب الله وعلى رسوله ﷺ؟ أم لهم سُلَّمٌ يرتقون به إلى السماء، فيستمعون فيه إلى حديث الملائكة، على عادة شياطين الجن، فالتقطوا من أخبار الغيب ما يخالف حقائق القرآن؟

وقد عَبَّرَ بالسُّلِّم تهكمًا منهم وسخريةً بهم؛ لأن السُّلَّمَ هو آلة الصعود، قد تكون من خشب، أو حديد، أو بناء، أو غير ذلك، وتصور نصب السلم في الفضاء بهذه الصورة الساذجة فيها من التهكم ما فيه. مع العلم بأن السماء المقصودة بالتسمع أعلى بكثير حتى من هذا الفضاء الخارجي، المليء بالأفلاك والنجوم، كما بيناه في

سورة الذاريات. ومع ذلك تحداهم به فقال ﷻ : ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو تحدٍّ مستمرٌ إلى يوم القيامة، قائم على إنسان هذا العصر، الذي صنع الأقمار الاصطناعية، والمراصد الفلكية الضخمة، والمراكب الفضائية الخارقة للفضاء الخارجي! كلهم جميعًا يقال لهم: ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

ومعنى السلطان هنا: الحجة والبرهان، وكونه « مبينًا » أي: دالًّا بقوة على صدق الدعوى، بأمارات يشاهدها الناس ويتحققون منها. والمعنى: فإذا زعموه فليأت هذا الذي تولى كبره منهم وادعاه، وَلْيُدْلِ بحجته وسلطانه، وليقرأ علينا خَبَرَهُ، إن كان من الصادقين! كلًّا، كلًّا! فلقد سُقِطَ في أيديهم، وإنَّ كهنة العرب أنفسهم قد تنزلت عليهم شياطينهم قبيل البعثة وفي أول عهدها، يصعقها الجزع والفزع، فأنبأت أصحابَها من الإنس، بأن السماء قد ضُرب عليها حصار من حَرَسٍ ملائكي شديد؛ لتأمين نزول الوحي إلى الأرض، وإنه قد بُعث في الناس رسولٌ كريم من رب العالمين، كما تواترت به الأخبار من الكتاب والسنة (١). فلا قدرة لأحد منهم ولا من غيرهم، أن يدعي أنه سمع كلمة واحدة من الغيب، تنقض شيئًا من حقائق هذا القرآن المجيد. وأنى لهم وكيف؟ وهذا الكتاب قد نزل من بحر الغيب الأعلى: اللوح المحفوظ، وسلطانه قائم في نفسه وبذاته، منتصب في خطابه، يرفع راية التحدي إلى يوم الدين.

ويحطم القرآن فرية أخرى من عقائد العرب، وهي زعمهم بأن الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون! فكانوا يعبدونهم من دون الله؛ توسطًا بهم إلى الله! والعجيب أنهم كانوا يكرهون الإناث لأنفسهم، ويتطيرون بالبنات، إلى درجة القيام بجريمة وَأْدِهِنَّ وقتلهن بعد ولادتهن! وإن أسوأ يوم عند أحدهم هو يوم يخبرونه بأن زوجته وضعت أنثى! فيا ويلها ويا ويل ما وضعت! قال تعالى في سورة النحل:

(١) من ذلك ما ورد في صحيح البخاري، أن عمر بن الخطاب ؓ رأى رجلًا - في خلافته - كان يشتغل بالكهانة في الجاهلية قبل الإسلام، فدعاه ثم سأله: (مَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ؟ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا؟ قَالَ عُمَرُ: صَدَقَ، بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ! يَقُولُ: يَا جَلِيحِ، أَمْرٌ نَجِيحٍ، رَجُلٌ فَصِيحٍ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! فَوَثَبَ الْقَوْمُ، قُلْتُ: لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا، ثُمَّ نَادَى: يَا جَلِيحِ، أَمْرٌ نَجِيحٍ، رَجُلٌ فَصِيحٍ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ!) رواه البخاري.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. فكيف يستسيغون هذا التناقض الصارخ في نسبة الذكور لأنفسهم، ونسبة الإناث للَّه؟ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا! كيف؟ وقد تنزه ﷻ عن الصاحبة والولد! فذلك قول اللَّه تعالى هنا في سورة الطور، في سياق التحدي والتوبيخ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝﴾ ما هذا المنطق؟ ما هذا التهافت؟ ما هذا السفه؟ ما هذا الجهل المركب باللَّه؟

وإني لأعجب من الإنسان الغربي المعاصر، الذي بلغ من التقدم العلمي، في تسخير قوانين الطبيعة وسننها، وتطوير التفكير الرياضي الصارم، والتحليل الفيزيائي الدقيق، إلى مستويات ما كانت تحلم بها البشرية من قبل، ومع ذلك تجده في تفكيره الديني حبيس ظلمات الكنيسة وخرافاتها، ينسب للَّه الصاحبة والولد! عجبًا! ألا ما أتعس الإنسان بغير إسلام! وما أسفه عقله ولو كان رأس العباقرة! ثم ما أتعسه ولو ملك الدنيا وما فيها! وما قيمة سيطرة مادية في الدنيا، وما هي إلا وهم عابر من الأوهام العابرة، تنتهي بعد نهاية عمر الإنسان القليل القصير؟

وسِرُّ سَوْقِ هذه الآية في هذا السياق، هو بيانُ أن من كان عقله هكذا، من السفه والتردي بحيث يؤمن بهذه الموازنة المختلة الشنيعة بين الذكور والإناث، أو ينسب إلى اللَّه الولد والزوجة؛ لا يبعد في حقه أن لا يبصر براهين البعث والنشور، لبلادته الروحية، وسذاجته الفكرية، وهو لذلك أجدر بأن يكون ليوم الدين من الجاحدين المنكرين!

ثم يتوجه بالسؤال والإنكار على الكفار مرة أخرى، من خلال مخاطبة رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، بمعنى: أم أنك يا محمد تطلب منهم أجرة مالية معلومة، أو فائدة مادية ترجوها منهم؛ مقابلَ ما تبلغهم إياه من حقائق الإيمان، وجزاءَ ما تلقي عليهم من نذارة وبشارة؛ فهم إذن عاجزون عن اتباعك؛ بما أثقلت عليهم من الثمن الباهظ، وبما أوقعتهم فيه من مَغْرَمٍ ثقيل، لا يجدون له سدادًا! والْمَغْرَمُ: مصدر ميمي، معناه: ما يُفرض على الإنسان دفعُه من المال؛ عِوَضًا عما استفاده، أو عما أفسده، كضرائب الدولة ومغارم القضاء. كلَّا كلَّا! إنهم يعلمون جيدًا أن محمدًا ﷺ لا يطلب مالًا، ولا جاهًا، ولا سلطانًا، ويعلمون يقينًا أنه صاحب دعوة ورسالة، يحمل إلى الناس كلمات اللَّه ويبلغهم رسالاته، وهو يقول

كما قال الأنبياء قبله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. لكنه الهوى الطاغي، وحب البقاء على شرك الجاهلية، الذي به سادوا ظلمًا على الخلق، وبه استعبدوا الناس بغير حق، هو الذي منعهم من قول كلمة الحق، وحجبهم عن اتباع الهدى والنور.

ثم ينتصب بعد ذلك برهان إنكاري، يسائلهم عن مصدر معلوماتهم مرة أخرى، لكن بطريقة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾، وهذه آية تكر على جميع ما قبلها من التهم والدعاوى بالإبطال، إنها ليست تكرارًا معنويًا لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ... ۝﴾، بل هي أعلى من ذلك وأشمل؛ ولهذا عادت على جميع ما تقدمها من الإنكارات؛ لأن فيها دعوى الربوبية، أو على الأقل دعوى الحضور في الملأ الأعلى. والمقصود - إن شاء الله - أن الله ﷻ أنكر عليهم بهذه الآية جميع ما تقدم لهم من أقوال، كأنه قال: أم عندهم مفاتح الغيب الكلي، على ما وصف الله ﷻ نفسه، في قوله من سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أو هل عندهم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ، فهم يستنسخون منه كما تستنسخ الملائكة العندية، وتكتب ما أذن الرحمن لها من مقادير التدبير الإلهي للكون، وشؤون الوحي والنبوات؟

وذلك أن الذي يتبجح بمثل تلك الدعاوى العريضة المغرورة، في حق الله ورسوله، وحق كتابه، وما جاء فيه من حقائق التوحيد، والإيمان بالبعث والنشور؛ إنما هو مُدَّعٍ بشكل غير مباشر لمثل هذا المقام العظيم! وهذا بقدر ما فيه من التوبيخ والإنكار؛ فيه تهديد ووعيد؛ إذ إنهم تسلقوا من الجبال العالية ما لا طاقة لهم به، فأنذرهم الجبار ﷻ أن تزل بهم القدم، فيكونوا من الهالكين، وليس ينتظرهم من تحتهم سوى عذاب الجحيم! وبذلك ختم الرد على المقولات كلها.

ثم شرع بعده في رد المفعولات، ومواجهة الغدرات، وفضح النيات، والمكائد المدبَّرات، فقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝﴾، وهذا وعيد جارٍ على أهل الكيد للدين وأهله، من الطغاة والكفار إلى يوم القيامة. والكَيْدُ: التدبير المخادع بقصد الإساءة والأذى، والتخطيط الماكر لإيقاع الضرر بالغير. وقد كانت قريش تجتمع بدار الندوة في لقاءات مغلقة، لتضع خططًا خفية للقضاء على

محمد ﷺ ودعوته، بمحاولة اغتياله، أو ضرب الحصار عليه، كما حصل في قصة حصار بني عبد المطلب وبني هاشم جميعًا، في شِعْبِ أبي طالب بمكة قبل الهجرة، إلا أبا لهب وبنيه فإنهم انحازوا إلى قريش. ومن ثم فإن اللّٰه ﷻ توعدهم بأنهم هم الْمَكِيدُونَ، أي بأن كيدهم ومكرهم، سيعود عليهم هم أنفسهم بالخسران والهلاك. وهذا إعلام لهم بأن رب العزة سبحانه يكيد لهم، كما يكيدون لرسوله ﷺ، ويمكر بهم من فوق سبع سماوات، وأنهم واقعون في الهلاك قريبًا! فلينتظروا هل من إلَهٍ من آلهة الباطل والزور، بمقدوره أن يحميهم، أو ينصرهم من اللّٰه رب العالمين!

ومن ثم قال بعدُ مباشرةً: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وهذا في نفس الوقت تبكيت لهم وتقريع، على ما هم عليه من الظلم الأكبر، وهو الشرك الأعظم باللّٰه؛ إذ عبدوا من دونه آلهة أخرى، ما أنزل اللّٰه بها من سلطان، ولذلك قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: تَنَزَّهَ اللّٰهُ وترفَّع وتعالى، عن أن يكون له شريكٌ في الْمُلْكِ، وفي ربوبيته للعالمين. فهو اللّٰه الواحد الأحد، لا والد له ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد، كل معبود سواه باطل، وكل شيء غيره زائل، وهو الإله الحق، المعبود وحده بحق. فما أضل الشرك وأهله، وما أبعدهم عن الهدى والنور! وإنما الشرك هو سبب ما وقعوا فيه من جميع هذه الافتراءات والمجازفات، فكانوا بذلك من الهالكين.

ثم انتقل الخطاب في الخواتيم إلى بيان طبيعة هؤلاء الكفار الذين سلط عليهم الرحمن هذه التحديات والتقريعات، فكشف أنهم من العناد والجحود؛ بحيث لو عُلِّقَ العذاب على رؤوسهم لما آمنوا ولما خضعوا! فأي حوار ينفع بعد ذلك مع هؤلاء؟ قال تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾، والكِسْفُ أو الكِسَفُ: جمع كِسْفَةٍ، وهي: القطعة من الشيء الممزق أو المنكسر[١]. والمقصود أنهم لو شاهدوا بأعينهم كِسَفَ السماء ساقطة عليهم؛ لما آمنوا أنه عذاب اللّٰه قد نزل بهم! ولقالوا كما قال الكفرة قبلهم، ممن نزل بهم عقاب اللّٰه: إنه مجرد سحاب أسود محمل بالأمطار، تلبد وتراكم بعضه على بعض.

وما زلنا في بلاد المغرب الأقصى نذكر حادثة مثل هذا؛ إذ تلبدت الغيوم في فصل

---

(١) الصحاح، واللسان، مادة: «كسف».

الصيف، فوق مخيم جبلي شهير، عُرِفَ بالفواحش والخمور والفجور، فظن أهل المخيم - وكانوا بالمئات - أنه مطر عابر، وأنها سحابة صيف، ولكن ما هي إلا لحظات حتى تدفقت السيول الرهيبة من الجبال، وغمرت الوادي كله بطوفان لا قِبَلَ للناس به، ولا شوهد في تلك المنطقة على الإطلاق! فهلك خلق كثير، وجرفت السيول عددًا من السيارات والمخيمات، فصارت الحادثة ذكرى للذاكرين. ولكن ما أقل المعتبِرين مع الأسف الشديد! وما تزال كوارث العالم تتنزل - من حين لآخر - بعذاب الله على بلاد كثيرة. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا حتى يحبون أن يعلموا! نسأل الله النجاة لنا ولكم وللمؤمنين.

كذلك كان النموذج الذي حاوره القرآن من كفار قريش، خاصة كبار طغاتهم، كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة، وأمية رأس الكفر، وغيرهم. ولذلك قال الله ﷻ لرسوله في تتمة الآيات: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾، أي فاتركهم يواجهون مصيرهم الأسود! والتعبير بفعل الأمر هنا: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾، ليس معناه فدع دعوتهم، ولا اترك نصيحتهم، وإنما هو تعبير مجازي يفيد الوعيد الشديد، إنه كناية عن التهديد والترهيب. كما تقول لمن يُقْبِلُ على خطر وهو لا يسمع النصيحة: دعوه! اتركوه! وهو لا يعني اتركوا نصحه ودعوته، وإنما هو تقريع وتوبيخ؛ مبالغةً من الناصح في بيان الخطر المقبل بجهله عليه. وإنما يقال له ذلك بعد أن يمرد على العناد والمكابرة (١).

وحتى لو فرضنا أن الآية فيها إشارة إلى أن الله - تقدست أسماؤه - قد طبع على قلوب أولئك الطغاة بالكفر، وتحدد عند الله مصيرهم، وانتهى كل شيء؛ فإنها لا تلغي الاستمرار في القيام بواجب البلاغ؛ فلعل من بينهم من ليس من شاكلتهم، وإن كان ما يزال معهم على كفره، ولعل الله ينفعه بالتذكير. أما أولئك الطغاة ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾، وهو يوم القيامة، عندما يصعقون بالعذاب والعياذ بالله. والصَّعْقُ: الوقوع في إغماءة أو هلاك؛ بسبب ضرر خطير نازل بالإنسان، مأخوذ من الصاعقة الرعدية. وإضافةُ لفظ « يوم » إلى الضمير العائد على

(١) ن. تفسير الطاهر ابن عاشور للآية.

الكفار: ﴿ يَوۡمَهُمُ ﴾؛ هو للدلالة على حتمية وقوع ذلك اليوم، وملابسته لهم قطعًا، وشهودهم لعذابه. وإنما عبر بذلك؛ بسبب ما سبق من إنكارهم إياه، وسخريتهم من خبره.

ثم وصف حالهم يومئذ، وما يكونون عليه من الذلة والهوان، والخزي والخذلان، فقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾، وفيه توبيخ لهم وتهكم؛ بسبب ما سبق لهم من كيد لرسول اللّٰه ولدعوته، وبيان أن ذلك الكيد هو الذي أوردهم موارد الهلاك في جهنم، فلا ناصر لهم اليوم، ولا منقذ لهم من عذاب اللّٰه، قد ضل عنهم كل ما كانوا يعبدونه من دون اللّٰه، وباؤوا بأشنع الخذلان والعياذ باللّٰه.

ثم ختم هذه الملحمة الكبرى من التحديات، بوعيد من عذاب دنيوي قريب، سوف يرونه ويذوقونه قبل يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾، بمعنى: وإنَّ لهم - بما ظلموا؛ أي: أشركوا باللّٰه أولًا، ثم بما تعدوا على رسوله ﷺ، وعلى المستضعفين من المؤمنين - عذابًا دون عذاب الآخرة وقبله. وفعلًا، قد نزل بهم من عذاب اللّٰه ضروب من البلاء، منها القحط والجفاف، وتسلط الأوبئة والأمراض، ثم حصد رؤوسهم في الحروب والغزوات! لكنهم مع ذلك لم يعلموا أنما ذلك كله رسالات من عذاب اللّٰه، وتجليات لغضبه عليهم ونقمته، فلم يحسنوا قراءة الإشارات من تلك الرسالات. وإنما عدم علمهم بذلك ناشئ عن كبريائهم وطغيانهم، واعتصامهم بكفرهم وأهوائهم.

هذا، وقد يدخل في معنى العذابِ الدُونِ عذابُ القبر؛ لأنه عذاب واقع قبل البعث والنشور. وهو عذاب مستقل عن عذاب جهنم وسابق عليه. أعاذنا اللّٰه وإياكم منه، ومن عذاب جهنم، ومن كل عذاب. آمين.

ثم جاءت خاتمة السورة كلها، عبارة عن التفاتة رحمانية كريمة، تتوجه إلى شخص الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - في غمرة مواجهته للطغاة، على ما يجد ﷺ من المشقة في حمل أمانة هذه الرسالة العظمى، التي ناءت بها السماوات والأرض والجبال، رسالة كلفه اللّٰه بها من فوق سبع سماوات، فأخذها ﷺ تلقيًا من عند اللّٰه، وبلاغًا للعالمين، فجاهد بها في اللّٰه حق جهاده، حتى أتاه اليقين. ولقد صبر - عليه الصلاة والسلام - على ما وجد في سبيل ذلك من العنت والأذى، صبر أولي العزم من الرسل، وزيادة.

فمن هنا تنزلت عليه هذه الخواتيم من سورة الطور، فجاءت مرتبطة بسياقها الجزئي الخاص، وبسياق الدعوة الكلي العام، وكانت الآيات كلمات ذات جمال وجلال، تنزلت عليه ﷺ بالتأنيس، والتثبيت، والتطمين، والتأمين، وإلقاء أنداء السكينة والسلام. ثم وجهته إلى مسلك الرضا بالله، وحكمه وقضائه. كما وجهته إلى مورد التزود الكريم، من مَعِينِ الصبر، والذكر، والصلاة، مما هو الأساس المساعد على تحمل مشاق الدعوة، والصبر على تكاليفها الكبيرة، في طريق الجهاد الطويل. قال جل ثناؤه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾، بمعنى: واصبر يا محمد ﷺ على ما قضى الله لك به وحكم، من تكليفك بأمانة النبوة ووظيفة الرسالة، وحمل ما لم تطق الجبال حمله!

ولقد صبر محمد ﷺ، ولقد جاهد محمد ﷺ، ولقد بَلَّغَ محمد ﷺ، ولقد دعا إلى الله بالليل والنهار، وقام بحقوق ربه على أكمل وجه وأرضاه، فكان بذلك سيد الأولين والآخرين، فلم يكن يُرَى بالنهار إلا داعيًا، أو غازيًا مجاهدًا، أو عابدًا لله في مسجده، أو مُذَكِّرًا لأصحابه ومعلمًا. ولم يكن يُرَى بالليل، إذا هجعت النفوس، إلا قائمًا بين يدي ربه متبتلًا، ينتصب وحده في جوف الليل، عابدًا باكيًا حتى تتفطر قدماه! فإذا هجع نامت عيناه ولم ينم قلبه، وإذا قام قام ذاكرًا لله على كل حال، لا يفتر عن التسبيح والاستغفار. كثير الصوم، دائم الغزو في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله. بأبي وأمي هو من رسول كريم!

تلك لمحة من صبر رسول الله ﷺ، ولقد كان أكمل الصابرين، في دينه ودعوته، ما تردد ولا تلكأ قط! وبذلك أمره رب العالمين: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، بمعنى: فإنك بمرأى منا، وبمشهدٍ مُرَاقَبٍ بأعيننا أبدًا، نراك في كل أحوالك، لا تغيب عن مَرْآنَا ولَا طرفةَ عين، فأنت إذن محروس محفوظ، لا يصل إليك شيء من أذى الكفار، ولا يضرك كيدهم أبدًا. فاصبر على دعوتك، واثبت على منهجك، وامض في سبيلك التي رسم الله لك، لا تهتم بشيء، غير أداء أمانتك وبلاغ رسالتك.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ - على ما في حرف « الباء » من الدلالة على الإلصاق، كما يقول النحاة - فيه ما لا يوصف من معاني المحبة لرسوله ﷺ، وجمال اللطف والود، وفيض الرحمة والسكينة والسلام، والإحاطة بالرعاية والعناية،

والتلطف والتحبيب والتقريب. وإن ذلك لمقام لم يبلغه نبي قبله ﷺ، على وِزَانِ هذه الدرجة العالية الرفيعة.

والرب العظيم ﷻ يبصر جميع خلقه، مؤمنهم وكافرهم، بل هو بكل شيء بصير، لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع البصير. ولكن هذا ليس هو المقصود في هذه الآية، وإنما النظر المقصود هو نظر رحمة خاصة، ونظر حماية وعناية، ونظر حفظ وتمكين؛ بما لا يكون لأي مخلوق. إنه تعبير عن منزلة المحبة العالية الرفيعة، التي لمحمد ﷺ عند رب العالمين. ولا أجمع لذلك الفضل كله من قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.

ثم قال بعدُ سبحانه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝ ﴾، والتسبيح في القرآن كثيرًا ما يُقْصَدُ به الصلاة، فرائضها ونوافلها. كما قد يُقْصَدُ به الذِّكر اللساني، بترديد عبارات التسبيح والتنـزيه، من مثل قوله: « سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم »، أو نحوها من الصيغ، ومنه ما هو واقع داخل الصلاة، ومنه ما هو واقع خارجها، وهو على كل حال كثير؛ ولذلك فقد اختلف المفسرون في تأويل المقصود بالتسبيح هنا اختلافًا كثيرًا. وهو اختلاف لا يضر؛ لأن الذي علم الغاية أدرك أن المقصود هو الارتباط بذكر اللَّه على كل حال، سواء كان ذلك بالصلوات أو بالأذكار، وسواء كان بالليل أو بالنهار. وسيرة النبي ﷺ مع ربه تبين ذلك أكمل بيان.

وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ ﴾، معناه: كلما قمت من نوم أو مجلس، فانهض إلى الصلاة، أو إلى ذكر اللَّه تسبيحًا بإطلاق. والتعبير بفعل « القيام » فيه دلالة على العزم على العمل، ولا يكون القيام إلا من نوم أو مجلس راحة. وإن كانت كل مجالس النبي ﷺ عملًا وتعليمًا، لكن القيام منها يعني النهوض إلى ما هو أعظم، كالصلاة المفروضة مثلًا. ثم قال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝ ﴾، إشارة إلى صلاة الليل عمومًا فرائضها ونوافلها، وما يكون فيها من تهجد وقيام، وكذا من تسبيح واستغفار بالأسحار. وأما إدبار النجوم فواضح أنه الفجر؛ لأن معنى الإدبار: الغياب والاندثار. وهو شامل لصلاته النافلة والفريضة، وما يلحقهما من تسبيحات لسانية وأذكار. والمقصود في نهاية المطاف أن يشتغل الداعية إلى اللَّه بعبادة اللَّه، وذكره على

كل حال، متقلبًا في ذلك ما بين منازل الليل والنهار. فذلك أكبر الزاد - مع الصبر - للثبات بإذن اللَّه على طريق الدعوة الشاق الطويل. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن الداعية مأمور بالثبات على الحق، ولو انقلبت الدنيا كلها عليه، والتذكير بحقائق الإيمان الكبرى، لا يضره من خالفه، ولا يلتفت إلى ما يبثه المرجفون والمثبطون، حتى ينصره اللَّه أو يلقى ربه داعيًا إليه. وإنما شروط النصرة الإلهية للدعوة والدعاة، راجعة إلى التحقق بأمرين اثنين في العمل الدعوي، **أولهما:** الإخلاص الكامل للَّه في الدين والدعوة، والتجرد من الأهواء الذاتية، والشخصانية، والزعاماتية، والحزبية، والقبَلية، والقومية، وغيرها من الأهواء. فإنما المجاهد من جاهد لتكون كلمة اللَّه وحدها هي العليا، من غير خلط. ومن خلط ارتفعت عنه ولاية اللَّه، ووكله اللَّه إلى نفسه وهواه. **والثاني:** الانضباط الدقيق إلى أحكام الشريعة، وحِكَمِهَا، ومقاصدها، وميزان أولوياتها، كما هي في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه، لا كما تمليها الأهواء ورغبات النفس. وعدم تجاوز أي حد من حدود الشريعة في الممارسة الدعوية، مهما قل أو صغر. فإذا ما تحقق للداعية ذلك ورسخ فيه؛ فله أن يخاطب أعداء الدعوة بلسان اليقين: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

الرسالة الثانية: في أن الداعية الذي اتخذ لنفسه أجرة من ضرع دعوته، يغرمها أتباعه بشكل مباشر أو غير مباشر، أو اتخذ قضيته أو مظلمته وسيلة يتاجر بها في العالم ويثري ماله؛ هو داعية هالك لا محالة. وما كان لدعوته تلك أن تثمر خيرًا للأمة. نعم، للأمة أن تفرغ رجال العلم والدعوة المخلصين لهذا الشأن، وعليها أن تقوم بشؤونهم المادية، من غير إسراف ولا تقتير. فهذا أمر لا غبار عليه ولا نكير. ومن عَفَّ أَعَفَّهُ اللَّه وكفاه. وإنما الخطير هو أن تتحول الدعوات هنا أو هناك، إلى مجرد شباك لجمع الأموال، وقضاء أغراض ذاتية ومصالح شخصية لهذا الداعية أو ذاك، ويبقى العمل الدعوي مجرد طلاء رقيق على السطح لخداع الناس. نقول ذلك لأننا نعلم أن فتنة المال على الدعاة - إذا أقبل عليهم - هي أخطر من فتن السجن والتشريد. وقد ثبت في الحديث تخوف النبي ﷺ من هذا، والتحذير الشديد منه.

فعن عَمْرِو بنِ عَوْفٍ الأنصاري ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ! وَلَـكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ!** »(١).

الرسالة الثالثة: في أن إسماع الكفار تحديات القرآن نصًا، فيه فوائد عديدة، منها تحطيم معنويات طغاتهم، ممن مَرَدَ قلبُه على الكفر، وانغلق عليه. ومنها زلزلة أركان التصورات الإلحادية والكفرية، في قلب من له قابلية للتفكر والتدبر والمراجعة، ممن يملك حظًا من الموضوعية والنزاهة النظرية. وكذا خلخلة مفاهيم المعتقدات الباطلة، من الأديان المنحرفة كالنصرانية واليهودية، فلعل ذلك يجعل الكافر يفكر في مصيره الوجودي بروية، ويعيد النظر في موقفه السلبي من دين الإسلام، فيكون بذلك إن شاء اللَّه من الناجين. وما قصة جبير بن مطعم عنَّا ببعيد، وقد مرَّ تفصيلها في البيان العام. بل إن أغلب قصص إسلام كبار الصحابة - رضوان اللَّه عنهم - إنما كان بسبب سماع هذا القرآن، وخاصة منه آيات الترهيب والنذارة.

وقد رأينا في زماننا هذا عددًا من الأساتذة في الثانويات والجامعات الحديثة، ممن اشتهر عنهم الإلحاد والكفر الصريح، زمنًا ليس باليسير، وناضلوا من أجله نضالًا شديدًا، رأيناهم بعد ذلك قد تابوا توبة نصوحًا، ودخلوا المساجد منيبين إلى اللَّه، خاشعين مستغفرين. وإنك لا تخطئ بعضهم في الصف الأول من صلاة الفجر. فسبحان من بيده قلوب عباده يقلبها بين إصبعيه كيف يشاء.

الرسالة الرابعة: في أن مَنْ أشهر عداوته للدين وأهله، وأعلن الحرب على اللَّه، فقد عرض مصيره للهلاك، ووضع نفسه تحت وابل العذاب، مما يصيبه من غضب اللَّه ونقمته في الدنيا والآخرة، اللَّهم إلا أن يكتب له اللَّه توبة قبل موته، فيصلح في الأرض بعد إفسادها. وعليه؛ فإن الكيد العالمي اليوم للإسلام والمسلمين، مآله إلى الخسران المبين. وأن كل ما يبيتونه من تخطيط شيطاني، وتدبير عدواني، فاشل لا محالة. وأما ما يصل منه إلى المسلمين من الأذى والضرر؛ فإنما هو ابتلاء لهم، وإيقاظ من غفلتهم، وإخراج لهم من غمرة شهواتهم التي أردتهم قرونًا. وذلك أن

---

(١) متفق عليه من حديث طويل.

اللَّه ﷻ محيط بكيد الكائدين، ومكر الكافرين. قال ﷻ: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقد سبق قوله تعالى فيما تدارسناه هنا من سورة الطور: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾. تلك قاعدة إيمانية ثابتة إلى يوم الدين.

ومن ثم فالمؤمن البصير يرى أن جحافل الكفر الغازية لبلاد الإسلام والمسلمين، سيأتي عليها يوم تتحطم فيه بإذن اللَّه. وإنما علامة ذلك ظهور جيل المؤمنين الخالصين للَّه، وللَّه وحده.

الرسالة الخامسة: في أن الصبر والتسبيح بحمد اللَّه، صلاةً وذِكْرًا للَّه على كل حال، من أهم المغذيات لثبات الداعية على الحق، وعلى مشاق الدعوة والجهاد. وقد تواتر في كتاب اللَّه أنه ما من رسول أرسله اللَّه إلى قومه، إلا وقد ألزمه بالتزود لذلك بإدامة الذكر والتسبيح والصلاة. وقد قال ﷻ من قبلُ لموسى وهارون، لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢]. والأمر بذلك في حق رسول اللَّه ﷺ كثير جدًا في كتاب اللَّه، كما رأيت هنا في سورة الطور، وفي غيرها، بل في أغلب سور القرآن المجيد؛ ولذلك فقد كانت حياة النبي ﷺ ترجمة فعلية لهذا المسلك العظيم، وتطبيقًا له على أرفع مثال.

ومن ثم فمن علامات الضعف، أن تجد رجال دعوة ما على لين في دينهم، وفتور في صلاتهم وأذكارهم. بل ربما وُجِدَ منهم من يعتبر ذلك مجرد كماليات في الدين، لا علاقة لها بأمر الإصلاح والتجديد. وهذا ضرب من الانحراف في الفهم للإسلام أصلًا، ولطبيعة رسالته الربانية. وإنما الدين عبادات محضة في الإيمان والعمل، قبل أن يكون شيئًا آخر.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق في هذا المجلس راجع إلى محاولة الاقتباس من خُلُقِ رسولِ اللَّه ﷺ، الذي به نال مقام العناية الأكبر، المشهود له بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... ﴿٤٨﴾ ﴾. صحيح أن ذلك مقام خاص بمحمد ﷺ، ولكن للمؤمن أن يقتبس من نوره، ما هو مأذون فيه لأمته. وذلك أنه ما من معجزة من معجزاته ﷺ إلا ولأمته منها نصيب،

بدرجة الكرامة والبشارة. كما قاله غير واحد من أهل العلم.

والذي يحيا في دينه ودعوته بمرأى من الله ﷻ - على هذا المعنى - يكون مشمولًا بعناية الله من كل جوانبه، لا يتحرك حركة إلا بتسديد من الرحمن، ولا يقصده أحد بالأذى إلا والله له بالمرصاد. وإنما مدخل هذا يكون من باب التحقق بولاية الله، في الدين والدعوة. على ما قال الله ﷻ في الحديث القدسي المشهور: « **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ. فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ!** »[1]. وهو ما جاء مجملًا فيما تدارسناه من خاتمة الطور: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝ ﴾.

إلا أن لهذا التقرب المذكور في الحديث شرطًا لا يتحقق إلا به، ألا وهو الإخلاص. فمجاهدة النفس على الإخلاص في كل شيء، هو الطريق الوحيد لتحقيق القرب بالعبادة، والسير الصادق إلى الله؛ حتى يتطابق ظاهر الإسلام في عمل العبد بباطن الإيمان في قلبه، مطابقة تامة كاملة. وهذا هو معنى « الإحسان »، الذي قال رسول الله ﷺ في تعريفه: « **الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** »[2]. وما الإحسان إلا نتيجة لمكابدة الإخلاص.

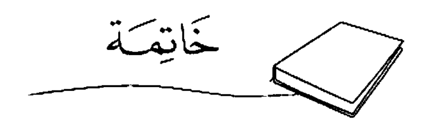
فإذا صَفَتِ الأعمال على مقام الإحسان في الدين والدعوة، بما كابد صاحبها من الإخلاص؛ رجا أن يكون إن شاء الله من عباد الله المخلَصين - بفتح اللام - وكان بإذن الله في كل أمره مشمولًا بعناية خاصة من الله. فلا يخطو في دعوته وفي كل أمره، إلا على عين الله وتسديده، على ما فصله في الحديث القدسي المذكور.

* * *

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه، وهو جزء من حديث جبريل المشهور، وقد رواه مسلم بطوله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مختصرًا.



خاتمة

تلك كانت سورة الطور، سورة التحديات والتقريعات. سورة قوية الوقع، شديدة النذير؛ بما امتازت به من بناء حجاجي رفيع، وأسلوب خطابي بليغ، وحقائق إيمانية عميقة، تحطم أسوار الكفر حول القلوب، وتكسر أغلاله العتيدة. وإنها إذا كانت تهز كيان الكافر هَزًّا، وتزلزل وجدانه زلزالًا؛ فإن وقعها على قلب المؤمن أعمق وأشد. وقد سمعها بعض السلف الصالح، وهو على حال من الخشوع فأغمي عليه كما سيأتي بيانه [١]. ولذلك فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها أحيانًا في بعض الصلوات الجهرية، الفجر والمغرب خاصة، كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما، من حديث أم سلمة، وجبير بن مطعم رضي الله عنهما.

وإن فيها لشفاء عظيمًا من الوساوس والهواجس، تطهر القلب تطهيرًا، وتكنسه كنسًا، وتنفضه من أعشاش الشياطين. ثم توقظه بقوة، وتخرجه من دركات الكسل والغفلة، إلى درجات اليقظة والصحوة؛ وذلك بما تشعل في الوجدان من فتيل الخوف والرهب. خاصة لمن تهجد بها من الليل، وتدارسها بالنهار. فجدير بالداعية إذن أن يستصحبها في قلبه، ويجريها على لسانه، حتى تكون - هي ومثيلاتها - أساس خطابه، في مجالسه ومجامعه.

حكاية: روى ابن أبي الدنيا بسنده عن هشام بن حسان رحمه الله قال: (انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن [يعني البصري]، فانتهينا إليه وعنده رجل يقرأ [وَالطُّورِ]، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ ﴾ بكى الحسن، وبكى أصحابه، وجعل مالكٌ يضطرب حتى غُشِيَ عليه!) [٢].

---

(١) يروى ذلك عن مالك بن دينار رحمه الله، كما بالهامش التالي. وقد روي شيء مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكن بسند ضعيف. ن. تفسير ابن كثير للسورة.

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، الأثر رقم (٩١).

فيا إلهي العظيم!

أولئك الأنبياء والصديقون والصالحون، كلما ذكروك خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا..

عرفوك فخافوك، وما قسا قلبٌ إلا من جهله بالله..

فاللَّهم يا مولاي الكريم، افتح لي من نور معرفتك، ومن كنوز العلم بك؛ ما أشاهد به عظمة مقامك المهيب.. فلعل هذا الصخر القاسي بقلبي ينهار لرؤية جلالك، ويتحطم من تجلي عظمتك، حتى يصير كبرياؤه دَكًّا، ويخر سلطان النفس الأمَّارة صَعِقًا. وعسى أن تصفو مرآةُ الروح، المثقلة بغبار الخطايا والذنوب، فتعكس من جمال التقوى ما يبلغني رضاك، ويجعلني بقربك. آمين.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

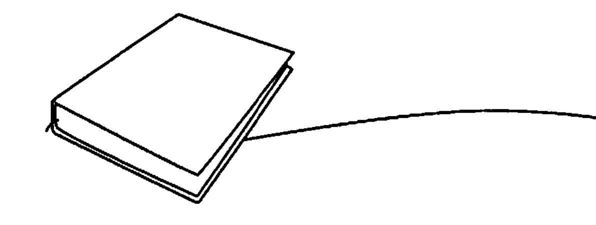
من التلقي إلى البلاغ

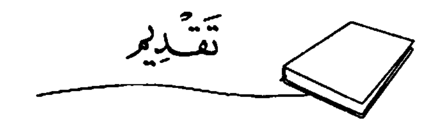
المدارسات القرآنية

٨ - سُورَةُ النَّجْمِ

وهي مكية، وعدد آياتها (٦٢)

وهي تتضمن ثلاثة مجالس





سورة النجم سورة مكية، ذات طابع خاص قضيةً وأسلوبًا. إنها سورة يدور موضوعها الرئيس حول إثبات أن الوحي هو المصدر الوحيد لمعرفة اللَّه ﷻ ، وما يجب له من توحيد وإخلاص في ربوبيته وألوهيته. وأما ما انحرفت إليه البشرية من عبادة الأوثان والأصنام، قديمًا وحديثًا، فإنما مصدره الهوى والظن الكاذب. وبهذه الحجة القوية جعلت السورة تدحض كل مظاهر الشرك التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية، وتبني قواعد التوحيد ببيان أن اللَّه وحده هو رب العالم، وأنه هو وحده المدبر لكل الملكوت، فلا شيء يكون في هذا الوجود إلا بإذنه. هذه هي القضية الكبرى لسورة النجم.

والوثنية ما تزال هي قضية الدعوة الكبرى في العصر الحديث، فأغلب سكان الأرض ما يزالون على الوثنية الغليظة الصريحة الصارخة، كما هو الوضع في شعوب شرق آسيا. وقد زرت بعض الجزر النائية هناك، فرأيت صنم بوذا منصوبًا في كل مكان، توقد حوله الشموع الصغيرة، ويركع الناس بين يديه ثم ينصرفون. ورأيت معابد وثنية بشعة المنظر، بني بعضها على شكل هندسي يمثل صنمًا لِتنِّين ضخم! إن الوثنية الخشنة ما تزال تحتل أجزاء كبيرة من الكرة الأرضية. وإني لأتوجس من أهلها شرًّا على المسلمين في العالم، لا سمح اللَّه - والذي يتابع التحالفات السياسية والعسكرية في العالم اليوم لا يغيب عنه ذلك.

ثم هذه كنائس النصرانية في العالم باختلاف مذاهبها، ملأى بأصنام نحتوها بأيديهم للمسيح ﵇ وأمه، على ما زعموا! كما صنعوا أصنامًا أخرى لبعض الحواريين، وبعض رهبانهم الكبار. وقد سمعت أحد القساوسة الأمريكيين، ممن كتب اللَّه له الهدى فأسلم، يتحدث أنهم كانوا إذا أرادوا السفر؛ دعوا « القديس فلانًا »، وإذا أرادوا قضاء حاجة دعوا « القديس علانًا » وهكذا. يتوجهون تلقاء صنمه المنصوب في الكنيسة فيركعون ويدعون! ثم قال القسيس المسلم معلقًا: فما الفرق بين هذا وبين الوثنية؟

إن الزعم بأن في الأرض اليوم أديانًا سماوية زعم باطل! فإنما هو دين واحد فقط تجوز نسبته إلى اللَّه. قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وكان عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه يكره نكاح الكتابيات ويقول فيهن: (لَا أَعْلَمُ مِنَ الإِشْرَاكِ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ: رَبُّهَا عِيسَى، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ) (١).

ولذلك كله كان صدر سورة النجم منطلقًا قويًا، أو قاعدة متينة، بُني عليها نص السورة؛ لتحطيم كل هذه المعتقدات الباطلة، بما أقسم عليه الرحمن من حقيقة الوحي الكريم، الذي تلقاه نبي الإسلام، محمد عليه الصلاة والسلام. وقد كشف لنا القرآن المجيد من أجل ذلك، عن مشاهد رائعة مهيبة، ملتقطة من عالم الغيب العميق في الملأ الأعلى، بدا فيها أمين الملائكة جبريل عليه السلام، على قرب من أمين الأرض محمد ﷺ، على مقامين اثنين: مقام أرضي وآخر سماوي. وصحبتهما أثناء ذلك تجلياتٌ عظيمة مدهشة، ومعجزات باهرة، لا يملك معها المؤمن إلا الخضوع لعظمة اللَّه الواحد القهار.

ولقد جاءت السورة بهذه الحقائق الغيبية العظمى، في أسلوب لغوي متين، يمتاز بالقصر الشديد في الجمل والآيات، والاكتناز الثقيل بالحقائق والمعاني؛ ما يندهش له القارئ أو المستمع لكتاب اللَّه أنَّى كان كافرًا أو مسلمًا.

والحقيقة أنه لا ينهض في التعريف بكتاب اللَّه شيء غير كتاب اللَّه.

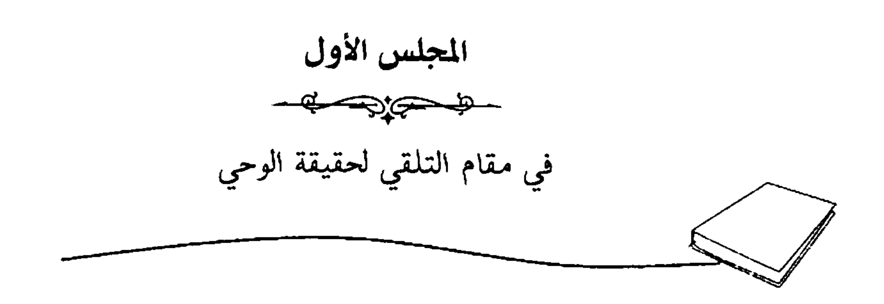
فإلى المجلس الأول من سورة النجم.

واللَّه المستعان.

---

(١) رواه البخاري.

المجلس الأول



في مقام التلقي لحقيقة الوحي

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

٢ - البيان العام:

بهذا القَسَم الإلهي العظيم انطلقت أول كلمات سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾.

وإنه لمشهد رهيب مهيب، مشهد النجم السائر في الأفق بليل، يمضي لامعًا بقوة، وهو يتنقل بين منازله، حتى يهوي إلى مغربه فيغيب عن الأنظار، ضاربًا في فلكه، بعيدًا بعيدًا عن مجرة الأرض، بمسافات لا يكاد يحصرها عَدٌّ، ولا يستوعبها خيال.

أو هو مشهد النجم المذنب، الخارق لسواد الليل في الأفق البعيد، على هيئة شهاب ناري، تتطاير شظاياه الملتهبة في السماء هنا وهناك، يراه الناس يهوي من أفق بعيد مجهول، حتى يسقط في مكان ما من كواكب الفضاء الخارجي، أو ربما سقط على سطح الأرض نفسها، فيكون له من الهول في نفوس الناس ما يكون.

وسواء كان الأمر هذا أو ذاك، فإن المؤمن يرى في حركة النجوم السيارة، والمذنبات الهاوية، سواء منها الكبيرة والصغيرة، تجليًا من تجليات حكمة الربوبية، والتدبير الإلهي للكون. فلا شيء يتحرك في الوجود كله إلا بإذن اللَّه، ولا شيء يكون إلا بأمر اللَّه، ولا يسقط نجم أو يهوي إلا بعلمه. إن المنطق الإسلامي يرى حركة الكون كلها دليلًا على القدرة الإلهية المحيطة بكل شيء، وتجليًا عظيمًا لاسم اللَّه: « الحي القيوم » ﷻ .

ولقد قرأت بعض المقالات المترجمة، عما كتبه علماء غربيون حول ظاهرة المذنبات، فوجدت أنهم يتكلمون بمنطق أعمى، منطق يحلل الظواهر كلها تحليلًا ماديًّا ميتًا، لا روح فيه على الإطلاق، ويفسر الارتطامات بنظرية الاحتمالات العشوائية. ولا يبصرون يد اللَّه - سبحانه - وهو يحرك كل شيء في الأرض وفي السماء. وأما الإنسان المسلم فقد اتخذ القرآن المجيد مبصارًا واضحًا، به يقرأ حركة الكون، وبه يزن كل شيء في هذا الوجود. قال ﷻ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويُقْسِمُ الرحمن سبحانه بالنجم إذا هوى، وهو بذلك يُقْسِمُ بمظهر من مظاهر قدرته وعظمته. يُقْسِمُ على أن هذا الذي يتكلم به رسوله ﷺ هو وَحْيٌ منه تعالى. وَحْيٌ نزل من السماوات العلى، فخرق نورُه الطبقات والظلمات، حتى وصل الأرض، إنه حقيقة ربانية قوية باهرة، تمامًا كذلك النجم الملتهب، الخارق للفضاءات بإذن اللَّه. وكما أن النجم يحمل أسرارًا من عالم الفضاء الخارجي؛ فكذلك هذا الوحي يحمل أسرار الملأ الأعلى.

فالرسول ﷺ إذ ينطق به فإنه ينطق بعلم، ومن ثم كان جوابُ القَسَم هو قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾، أي: إن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - لم ينحرف جهلًا، ولم يضل عن الحق والهدى فيما يتكلم به، ولا هو قد غوَى - والغَيُّ ضد الرشد - بمعنى أنه لم يزغ قلبه عن الهدى بسبب تعلقه برأي فاسد. ولا هو ﷺ ينطق عن داعية هواه، وبما تشتهيه نفسه من الآراء والتصورات والأفكار. وقد عبر هنا عن شخص الرسول ﷺ بقوله:

﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾؛ تعريضًا بكفار قريش، الذين كانوا يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، فهو منهم قبيلةً، وفيهم نشأ عُمُرًا، ويعرفون جيدًا صدقه وأمانته، ومع ذلك لما جاءهم بالهدى كذبوه عُلُوًّا واستكبارًا. فالمقصود بالصحبة هنا إذن، الصحبة الاجتماعية، لا الإيمانية.

ثم حصر طبيعةَ ما يتكلم به الرسول ﷺ في حقيقة واحدة، هي قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾. ومعنى الوحي في اللغة: الإعلام الخفي، والإخبار السري، سواء كان بلفظ، أو كتابة، أو إشارة، أو إيماء [١]. وهو في الشرع: كلام اللّٰه المنزل على رُسُلِهِ بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام. قال ابن الأنباري: (سُمِّيَ وَحْيًا؛ لأَنَّ المَلَكَ أَسَرَّهُ على الخلق، وخَصَّ به النبيَّ المبعوثَ إليه) [٢].

وقوله تعالى: ﴿ يُوحَىٰ ﴾ تأكيد لحقيقة الوحي، بما يدل على التجدد والاستمرار. ثم قال سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾، أي: علَّمه إياه مَلَكٌ عظيم، وهو جبريل عليه السلام؛ إذ خلقه اللّٰه سبحانه على هيأة ذات قُوى شديدة. وقُوى: جمع قوة؛ بما يفيد أن جبريل عليه السلام يملك طاقات لا حصر لها؛ بما يمكنه من تدمير البلدان، وهدم الجبال، وتفريغ البحار، ولو صاح بأهل مدينة لجعلهم جميعًا هلكى خامدين! وهو في كل رحلة من سفارته يخرق السماوات العلى خرقًا، فيكون في الأرض في أقل من لمحة البصر، ثم يعود مثل ذلك! وقد جعل اللّٰه له سلطانًا على جميع الملائكة، فما منهم مَلَكٌ إلا وهو يطيعه. هذا المَلَك العظيم هو الذي جعله اللّٰه أمينَ وحيه إلى رسله في الأرض، فلا تثبت الشياطين في طريقه على الإطلاق.

ثم زاد الرحمن سبحانه في وصف جبريل عليه السلام، فقال: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ... ۝ ﴾، والْـمِرَّةُ تطلق على القوة المادية الجسمانية، وتطلق على القوة العقلية، والذكاء الكبير، وهو المقصود هنا؛ لأن الأول سبق ذكره.

---

(١) قال صاحب الصحاح: (الوَحْيُ: الكتابُ، وجمعه وُحِيٌّ. والوَحْيُ أيضًا: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأَوْحَيْتُ، وهو أن تكلِّمه بكلامٍ تخفيه) مادة: « وحي ». ومثله نصًّا في اللسان. ومما زاد: (قال أبو إسحاق: وأَصل الوحي في اللغة كلها: إعلامٌ في خَفَاءٍ، ولذلك صار الإلهام يسمى وَحيًا. قال الأزهري: وكذلك الإشارةُ والإيماءُ يُسَمَّى وَحْيًا، والكتابة تُسمَّى وحيًا) مادة: « وحي ».

(٢) لسان العرب، مادة: « وحي ».

ثم قال: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ﴾ والمقصود أن جبريل عليه السلام، لما علَّم محمدًا ﷺ ما علمه من القرآن، عند ابتداء الوحي - وكان النبي ﷺ لا يراه إلا في صورة بشر - استوى إلى السماء، وقد تحول إلى هيئته الملائكية التي خلقه اللَّه عليها. وكان محمد ﷺ قد طلب منه أن يكشف له عن صورته الملائكية الأصلية، التي فَطَرَهُ اللَّه عليها [1]. والأفق الأعلى: هو في الغالب أفق خارج الفضاء الأرضي؛ ولذلك وصفه بالأعلى. **فمن هناك بدأ جبريل عليه السلام يتجلى لمحمد رسول اللَّه ﷺ** في صورته النورانية العظيمة، كأنه الكوكب الدري. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾، بمعنى أن جبريل عليه السلام جعل يدنو من الأرض، لكن هذه المرة على صورته الملائكية، يدنو شيئًا فشيئًا، على هيئة التدلي، أي كما يتدلى السِّراجُ في القبة. والتعبير بالدنو والتدلي كليهما فيه إيحاء جميل بحال اللطف والهدوء، في وصف نزول جبريل عليه السلام، وأنه كان نزول رحمة وسلام، ولم يكن هويًّا ولا انقضاضًا!

ومن ثم فإنه عليه السلام جعل يدنو ويتدلى فوق رأس محمد ﷺ حتى صار قريبًا منه جدًّا، بما يمكن قياسُ فَارِقِهِ بنحو: ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾. فمعنى ﴿ قَابَ ﴾: قَدْرَ، والقَابُ في العربية: المقدار والمقياس. والقَوْسُ: عودُ الرَّمْي، وهو عُودٌ مُقَوَّسُ الشكل، على قدر ذراع تقريبًا، يُشد من طرفيه بِوَتَرٍ من جلد، فترمى من خلاله السهام. والعرب تستعمل هذا التعبير في قياس المسافات القريبة. كأنه قال: فاقترب جبريل من محمد عليهما الصلاة والسلام، حتى صار بحيث لا يفصله عنه إلا نحو قوسين أو ذراعين. وقوله: ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، هو بمعنى: أو أقل من ذلك، والمقصود بيان عدم استيفاء المسافة الفاصلة بينهما تمام القوسين، بل أقل قليلًا. وكل ذلك لتأكيد القرب الحقيقي المحسوس، كما وُصِفَ، ولتشخيص هذا الحدث العجيب، بما يرسخ عباراته في الحقيقة الواقعة، ويرفع عنه كل احتمالات المجاز.

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ ﴾؛ أي أن اللَّه تعالى أوحى إلى محمد ﷺ بواسطة الملاك جبريل عليه السلام، على هذه الهيئة الموصوفة، ما أراد أن يوحيه إليه من الحقائق والآيات. وقد أبهم الكلام الموحَى به؛ لتفخيمه وتعظيمه، وأنه ليس مما يدركه الإنسان بالكسب والاجتهاد. والتعبير عن شخص محمد ﷺ هنا بلفظ

(١) سيأتي بيانه بدليله إن شاء اللَّه.

« عَبْدِهِ »، فيه تكريم له عليه الصلاة والسلام، وبيان لدرجته الرفيعة عند ربه؛ وذلك لِمَا للإضافة في مثل هذا السياق من خصوص العناية والتعظيم.

وهذه هي المرة الأولى التي رأى فيها الرسولُ ﷺ جبريلَ عليه السلام في صورته الملائكية، وكان ذلك في أول البعثة. وما رآه على هيئته تلك إلا مرتين كما نص عليه القرآن، الأولى هي هذه، والثانية كانت في ليلة الإسراء والمعراج، عند سدرة المنتهى، كما سنبيِّنه بحول اللَّه. فأما الرؤية الأولى فقد وقعت كما وصف اللَّه تعالى ههنا، وقد صحت فيها أحاديث تفصِّل المشهد بعض تفصيل، منها ما في الصحيحين من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، في بيان قول اللَّه عز وجل: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ قَالَ: (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ ستمائة جَنَاحٍ!) [1]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ (**رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ!**) [2]؛ فتصورْ مَلَكٍ بهذه الخلقة النورانية العظيمة، متدليًا ما بين السماء والأرض، يسد بهيئته أرجاء الفضاء؛ يملأ القلب رهبةً وفزعًا؛ لولا أنه نزل بالسكينة والسلام على رسول اللَّه ﷺ، فسبحان الرب العظيم الذي خلقه وصوره. وإنها لآية من اللَّه لرسوله محمد ﷺ؛ إذ كشف له من الحُجُبِ، ما يبصر به هذا المَلَك العظيم، ويعاين معنى اليقين.

ولذلك قال سبحانه بعدها: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ ﴾، أي ما أخطأ قلبُ محمد ﷺ حقيقةَ جبريل إذ رآه ببصره، وهو يدنو منه ويتدلى، ولا تلبس عليه أمره، ولم يكن تجليه الخاص له، مجرد وهم، أو خيال، بل كان حقيقة. فقلبُه ﷺ كان مستيقنًا من أن هذا الذي يراه الآن ببصره، هو الملك جبريل نفسه عليه السلام، قد تجلى في صورته الملائكية بإذن اللَّه، وقد أعطى اللَّه لرسوله محمد ﷺ من قوة الإدراك والبصر، ما يرى به هذا الجسم النوراني العظيم؛ ولذلك صدَّق القلبُ النظرَ تصديق يقين. ولربما لو تجلى جبريل لغير محمد ﷺ من البشر لكان هلك! فما من أحد يقدر على معاينة أنوار الغيب إلا من هُيِّئَ لذلك تهييئًا.

والآية رد على المشركين المكذبين بالوحي، المنكرين لحقيقة تلقي محمد ﷺ لجبريل عليه السلام. ومن ثم بادرهم بالتوبيخ والإنكار؛ لِمَا صدر عنهم من التكذيب،

---

(١) متفق عليه.　　(٢) رواه البخاري.

فقال ﷻ : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾، بمعنى أتجادلونه بالباطل فيما هو يراه بعينه حقيقة لا خيالًا؟ والْـمُمَارَاةُ والْـمِرَاءُ هنا: الجدال الشديد، والتشكيك [(١)]. وهو تشنيع على من يسبق التكذيبُ إلى لسانه، ويجادل فيما لا علم له به.

وأما المرة الثانية التي رأى فيها محمد ﷺ جبريلَ على صورته، فقد كانت ليلةَ عُرِجَ به ﷺ إلى السماوات العلى، وذلك عند سدرة المنتهى. فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ أي: ولقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عليه السلام على صورته الملائكية مرة أخرى، فالنزلة هنا بمعنى المرة. وكان ذلك في السماء السابعة عند سدرة المنتهى. وهذه الآيات فيها من العمق الغيبي ما لا قدرة للعقل البشري على الإحاطة به؛ ولذلك فهو يرسخ الإيمان بالغيب لدى المؤمن؛ بما يمكنه من درجة اليقين. والكلام في الإسراء والمعراج بغير علم من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه الصحيحة مجازفة. وإنما لنا أن نتكلم فيه بما نص عليه القرآن، وبما بيَّنته السنة النبوية الثابتة. وحديث الإسراء مشهور مُخَرَّجٌ في الصحيحين وغيرهما، وهو حديث عجيب طويل، إلا أن عبارة الرواة اختلفت في تحديد رقم السماء التي توجد بها سدرة المنتهى، فكان الاختلاف ما بين السماء السادسة والسابعة، وكل ذلك في الصحيحين.

ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم، - ويُرْوَى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أيضًا - قال ﷺ: « **ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ. ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْـمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ! قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ؛ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ!** » [(٢)]، وفي تتمة الحديث مراجعة موسى عليه السلام لرسول اللَّه ﷺ، بطلب التخفيف من اللَّه ﷻ، فما زال الرحمن - جل ثناؤه - يخففها حتى جعلها خمس صلوات فقط.

---

(١) جاء في القاموس: (والـمِرْيَةُ بالكسر والضم: الشَّكُّ، والجَدَلُ. ومَارَاهُ مُمَارَاةً ومِرَاءً، وامْتَرَى فيه، وتَمَارَى: شَكَّ). مادة: « مري ».

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فواضح أنه لا يجمع بين هذه السدرة وسدر الأرض إلا الاسم فقط، كما أن الحديث نص على أنها في السماء السابعة. ويطابقه حديثُ مالكِ بْنِ صَعْصَعَةَ ﷺ عند البخاري وفيه: « **فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ (...) وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ!** » .. إلى آخر الحديث (١).

لكنَّ حديثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فيه أنها في السماء السادسة، وفيه من أوصاف السدرة ما ليس في غيره. قَالَ ﷺ: (**لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا. قَالَ: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾، قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا: الْمُقْحِمَاتُ!**) (٢)، بمعنى: وَغُفِرَتِ الْمُقْحِمَاتُ لمن لم يشرك بالله. والْمُقْحِمَاتُ: الكبائر التي تقحم صاحبَها في النار. وأغلبُ شُرَّاحِ الحديث على ترجيح أنها السماء السابعة، وأن في رواية السادسة وهمًا من أحد الرواة.

فهنالك إذن، في ذلك الأفق البعيد جدًّا، عند سدرة المنتهى، في السماء السابعة، كانت رؤية محمد ﷺ لجبريل ﷺ على هيئته الملائكية مرة أخرى، فقد أخرج أحمدُ عَنْ عبدِ اللَّه بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فِي بيانِ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَلَهُ ستمائة جَنَاحٍ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ!** » (٣).

والظاهر أن جبريل ﷺ في رحلته مع النبي ﷺ ليلةَ الإسراء والمعراج، لم يزل محتفظًا بصورته البشرية، التي اعتاد محمد ﷺ أن يراه عليها، وذلك خلال الرحلة كلها، لكنه لما بلغ به سدرة المنتهى، التي هي مَجْلَى الأمر الإلهي، كما سيأتي بيانه، رأى جبريلُ فيضَ النور الرباني يتجلى على السدرة، فلم يملك إلا أن عاد إلى صورته

(١) رواه البخاري. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في دلائل النبوة، وأبو يعلى، وابن حبان. وأصله مختصرًا في الصحيحين. وحسنه الألباني في رسالة الإسراء والمعراج. كما حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

الملائكية، فخرَّ ساجدًا للَّه الواحد القهار. فرآه النبي ﷺ كذلك. وهذا مشهد نادر لطيف نُصَّ عليه في رواية حسنة لحديث ابن مسعود ﷺ، جاء فيها: « **فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ عَادَ فِي صُورَتِهِ وَسَجَدَا** » (١).

فتلك قصة الرؤية الثانية، وذلك بيان قول اللَّه ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ ﴾ وجنة المأوى: اسم من أسماء الجنان، ومنزلة من منازلها العليا، وقد ثبت في حديث أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْـمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْـجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ** » (٢)، والْـمَأْوَى في اللغة: اسم مكان من أَوَى يَأْوِي، إذا قصد إلى مكانٍ ما طلبًا للراحة والسكينة والأمان. والإيواء: الإسكان والضيافة والإكرام، وجنة المأوى هنا: اسمٌ عَلَمٌ على درجة عالية من درجات الجنان؛ كجنة الفردوس وجنة الخلد وجنة النعيم وجنة عدن. فكلها منازل في الجنة الكبرى، أو قل جنات.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾، الغشيان: المخالطة والتغطية والدخول في شيء. تقول: غَشِيَهُ الحزنُ أو السرور: إذا خالطه. وغشيه الماءُ: إذا غمره وأحاط به. وقد فسرت الأحاديثُ المذكورة ذلك بأنه النور المتجلي عن وحي اللَّه، وما ينزل من أمره تقدست أسماؤه؛ لأن السدرة هي منتهى وصول الخلق من الملائكة وغيرهم، فمنها يتلقون ما يتلقون من أمر اللَّه.

ونظرًا لعظمة مشهد السدرة؛ إذ يتجلى عليها النور؛ فإنها تصير على حال من الجمال، ومشهد من البهاء، لا طاقة للعقل ولا للخيال البشري على استيعابه؛ ولذلك أبهمه اللَّه في الآية إبهامًا، فقال: ﴿ مَا يَغْشَىٰ ﴾ للدلالة على التعظيم والتفخيم. وفي حديث أنس وأبي ذر المذكور قبلُ، أنه ﷺ قال: « **فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ؛ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى!** » وقد وَصَفَ ﷺ ذلك الحُسْنَ النازل بالسدرة، في حديث ابن مسعود ﷺ، فقال:

---

(١) رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، وأبو الجعد في مسنده، وأبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة. وحسنه الألباني في رسالة الإسراء والمعراج.

(٢) متفق عليه.

« فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ». ولعل المقصود بالفراش هنا أسراب الملائكة التي تأوي إليها، كما ورد في بعض الروايات [١]. والحقيقة أن معاني هذه العبارات جميعًا هي من أعمق أعماق الغيب، وأنها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والقصد أن رب العزة - جل ثناؤه - قد أكرم رسوله محمدًا ﷺ بمقام رفيع، لم ينله أحدٌ من الرسل والأنبياء قبله، وأنه أراه من عظمة ملكه، وجلال سلطانه، ما لا قِبَلَ للخلق به.

ولذلك قال سبحانه بعدُ: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾. بمعنى أن النبي ﷺ إذ كان يرى ما يرى، من تجليات النور، وآيات ربه الكبرى، عند سدرة المنتهى؛ لم ينحرف له بصرٌ يمينًا ولا شمالًا، ولا طغى في النظر بأن تجاوز الحد المأذون له فيه، بل بقي ثابتًا على مشهد السدرة وأنوارها، وما أتيح له من جمال الجنة وثمارها، ملتزمًا بأدب العبودية بين يدي الرب المعبود، على أكمل ما يكون الأدب. فلم يتجول ببصره فيما لم يُرفع له من مشاهد ولا كُشف له من حجاب، ولم يبحث بعينيه عن مصدر الوحي الإلهي النازل على السدرة، بل بقي ﷺ غاضًا بصره في خشوع عظيم، وخضوع تام، ولذلك مدحه اللّٰه بهذه الآية وأثنى عليه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

ثم ذيَّل الرحمنُ - جل ثناؤه - المقطعَ كله بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾، وهي آية مناسبة لكل ما قبلها؛ لأن النبي ﷺ لم يزل يرى من الآيات العظيمة - وهي هنا بمعنى: الدلائل والخوارق المعجزة - مذ رأى جبريل في أفق السماء بأجنحته الستمائة، وهو ﷺ بالأرض، إلى أن أسري به ليلًا فوق دابة البراق، خارقًا المسافات الأرضية، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن هناك انطلق خارقًا المسافات الفضائية، وطبقات السماوات، فكان لا يمر بسماء إلا رأى فيها من آيات اللّٰه الكبرى ما يبهر القلب، وكان يلتقي في كل سماء نبيًّا، أو أكثر، من الأنبياء

---

(١) ففي رواية ضعيفة لحديث الإسراء عن أبي هريرة، وصفَ فيها رحلة النبي ﷺ مع جبريل ﵇، فلما بلغ سدرة المنتهى قال: « فغشيها نور الخلاق ﷻ، وغشيتها الملائكةُ أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة، قال: فكلمه اللّٰه عند ذلك ». وهو جزء حديث طويل جدًا رواه الطبري، وابن أبي حاتم في التفسير، والبيهقي، والبزار. وضعفه ابن كثير في تفسيره. ونقل الطبري في التفسير أيضًا عن الربيع قال عن السدرة: « غشيها نور الرب، وغشيتها الملائكة من حُبِّ اللّٰه، مثل الغربان حين يقعن على الشجر ». كل ذلك عند الطبري في تفسير قول اللّٰه ﷻ: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾.

والرسل الكرام، من آدم أبي البشر، إلى المسيح عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

حتى ارتقى إلى السماء السابعة؛ حيث وجد إبراهيم عليه السلام، وشاهد البيت المعمور تدخله آلاف الملائكة، وشاهد جبريلَ متجليًا في صورته الملائكية، يتناثر من ريشه شعاعاتُ الدر والياقوت، خاضعًا لربه خاشعًا، على أكمل ما يكون الخضوع والخشوع، ورأى ما ذكرنا من كراماتٍ على سدرة المنتهى، ومدخل جنة المأوى ورحابها الفسيحة. وهذا كله مفصَّل في أحاديث الإسراء في الصحيحين وغيرهما. ثم رأى ما الله به عليم، مما لم يفصل لنا هنا وبقي ضمن التكريم الخاص برسوله ﷺ، ولم يُكشف للخلق عن مضمونه، على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ وهو في الوقت نفسه تأكيد وترسيخ للحقائق المذكورة، وأنها ليست مجرد تخييلات أو تمثيلات، بل هي حقائق يقينية كبرى!

ويجوز أن يكون من بين تلك الحقائق، أن النبي ﷺ قد تلقَّى كلام الله ﷻ عند سدرة المنتهى بصورة مباشرة، أي من غير واسطة المَلَك جبريل، كما حصل لموسى عليه السلام في الأرض عند جانب الطور الأيمن. فقد ذهب طائفة من الشراح والمفسرين إلى أن رب العزة ﷻ كلم نبيه محمدًا ﷺ هنالك بغير واسطة المَلَك، وفرض عليه الصلوات على ما جاء مفصلًا في أحاديث الإسراء. وهو خلاف بين العلماء ذكره ابن حجر رحمه الله (١). ومن المفسرين الذين على مذهب التكليم الإلهي لمحمد ﷺ، الإمامُ ابن كثير، وأبو حيان، والبقاعي، والألوسي، والشوكاني، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم (٢). قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]: (يعني: موسى، ومحمدًا ﷺ، وكذلك آدم) (٣)، وقال الشوكاني فيها: (وهو موسى، ونبينا سلام الله عليهما) (٤).

---

(١) فتح الباري (٧/٢١٦).

(٢) ن. ذلك عند تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. إلا الطاهر ابن عاشور فقد ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٦].

(٣) ن. تفسيره للآية.

(٤) ن. تفسير الآية في فتح القدير للشوكاني.

والتكليم لمحمد ﷺ هو ظاهر الخطاب، وهو مقتضى السياق في أغلب أحاديث الإسراء، ففي حديث أنس المذكور قبلُ أن النبي ﷺ قالَ: « **ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْـمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ. قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ؛ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ** » (١)، ولم يزل النبي ﷺ يطلب التخفيف من ربه بنصح من موسى عليه السلام، كما هو مفصَّل في الحديث؛ إذ قال ﷺ: « **فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى** عليه السلام، **حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً** ».. إلى آخر الحديث (٢)، وفي حديث مالك بن صَعْصَعَةَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قالَ: « **فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي** » (٣)، وفي لفظ آخر عند البخاري: « **فَنُودِيَ: إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا** » (٤)، وهذا شبيه من وجه بقول الله عز وجل في حق موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ إلى آخر الآيات [طه: ١١، ١٢]. ذلك، والله تعالى أعلم.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن الوحي حقيقة كونية، وضرورة إنسانية، وهو أعظم نعمة تلقاها البشر في الأرض. فعالم الشهادة مكشوف لعالم الغيب، بينما عالم الغيب محجوب عن أهل الأرض. ومصير البشر خارطته كلها مرسومة في كتاب الغيب. ومن ثم فَسَيْرُ الإنسانِ من غير تلقي خارطته، ضربٌ في التيه، وخبط في الظلمات. إن البشرية لم تستطع البقاء في الأرض كل هذه القرون العديدة إلا بالوحي، وما من حضارة - حتى ولو كانت كافرة - إلا ومنطلقها الأول هو الوحي. ولا إمكان على الإطلاق للعقل البشري أن يسلك مسلك الاجتماع العمراني؛ لولا توجيهات تنزلت عليه من السماء ابتداءً.

(١ ، ٢) رواه مسلم.   (٣ ، ٤) رواه البخاري.

إن الوحي هو الذي علم الإنسان التوحيد أول ما علمه، والوحي هو الذي علم الإنسان تنظيم علاقات الزواج والتناسل، ومعرفة الحلال من ذلك والحرام؛ بما تجده إلى اليوم متقاربًا بين جميع الملل والنحل إلا قليلًا.

ثم إن الوحي هو الذي علم الإنسان أصل اللغة، والوحي هو الذي علم الإنسان ضروب الصناعة والفلاحة، وما قصص الأنبياء عنا ببعيد، فقد أُلِينَ الحديدُ لداود عليه السلام، وعُلِّمَ صناعة الدروع. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] والسابغات هي: الدروع الحديدية السابغة، أي: الوافية الكافية. وقال سبحانه أيضًا: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وأُسِيلَتْ لسليمان عَيْنُ القِطْرِ، وهو النحاس، فصنع منه أدوات وآلات عديدة. قال ﷻ : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣]. وصنع نوحٌ عليه السلام قبل ذلك أول سفينة حقيقية في التاريخ، بوحي من الله وتعليم. قال سبحانه: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

وهذا وغيره يبين لنا أن منشأ الحضارة البشرية كلها، سواء منها ما هو مادي أو معنوي كله انطلق من الوحي. ثم طور الإنسان من ذلك ما يسر الله له من التطوير؛ بناءً على اكتشاف سنن الله فيما رأى من وحي الله أولًا، ثم فيما سُخِّرَ له من كنوز الطبيعة.

ومن هنا نرى أن المؤرخين للأديان، والتاريخ البشري القديم، يذهبون في تخمينات لا أساس لها من الصحة على الإطلاق؛ إذ يتحدثون عما يسمونه بـ « الإنسان البدائي » بما يشبه الحديث عن وحش! ويزعمون أن الوثنية هي أصل الأديان جميعًا، ثم تطور الدين نحو التوحيد بتطور العقل البشري! بينما هذا القرآن الكريم قاطع في أن آدم أهبط إلى الأرض نبيًّا موحِّدًا، فلم يزل بنوه من بعده رغم ما قد حصل بينهم من خطايا، على

دين التوحيد الكامل، وقد صحت الأحاديث أنهم استمروا على ذلك قرونًا. ثم وقع الانحراف إلى الشرك، بعد نحو عشرة قرون؛ فَبُعِثَ نوح أول الرسل إلى أهل الأرض، وكان من قصته ما كان.

إن بداية الإنسان في الأرض، انطلقت من يوم انطلقت، على أساس قول الله ﷻ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

لقد كان الوحي - ولم يزل - نعمة على الإنسان ورحمة. فلو فرضنا أن البشرية نُبِذَتْ في متاهات الأرض على غير هدى؛ لما استطاعت أن تخطو خطوة واحدة، في بناء استقرارها واجتماعها الحضاري والعمراني، ولجعلت تتطلع إلى أي نور يشرق عليها من السماء، عساها تهتدي إلى مسلك الحياة السليم. لكن العناية الإلهية قد تجلت بالرحمة منذ الأزل، فكانت بعثة الرسل والأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، تضع للإنسان معالم الطريق، في السير إلى ربه وعبادته، وفي تطوير حضارته وشؤون دنياه.

فليس عبثًا إذن أن أقسم الله ﷻ بالنجم، على صدق ظاهرة الوحي، وأنها حقيقة عظمى من حقائق الإيمان، الضرورية لحياة الإنسان. وفي القَسَمِ بالنجم إذا هوى لَفْتٌ لنظر الإنسان نحو السماء، عساه ينتبه إلى أنها مصدر الهدى والنور، وعسى يتنزل عليه شيء من ذلك، كما تهوي أجزاء النجوم. على ما قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾.

الرسالة الثانية: في أن جبريل عليه السلام هو مَلَكُ الوحي الذي يقوم بسفارة الرحمن إلى رسله؛ ولذلك فقد اعتنى القرآن بتعريفه ووصفه، حتى يعرف المسلمون فضله، ويقدِّروه قدره، ثم يعلنوا محبته. وقد فصَّلت الآيات والأحاديث - مما ذكرنا بعضه في البيان العام - في بيان قوته وجمال خلقته، بما يملأ القلب تعظيمًا وتمجيدًا لله الذي خلقه. فسبحان الله العظيم، الخالق العظيم.

فجبريل عليه السلام هو أمين الملائكة، وهو أميرهم في السماء وفي الأرض. فقد قال

الله تعالى في حقه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

ولمكانته العظيمة عند الرحمن كان سبحانه يميزه عن الملائكة، ويفرده عنهم بالذكر، بعد ذكرهم إجمالًا في سياق واحد، كما في قوله تعالى عن النبي ﷺ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] وقوله سبحانه: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]، والروحُ اسمٌ أو لقبٌ لجبريل عليه السلام، كما في قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨] وقوله أيضًا في ليلة القَدْر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤]. ومن تسبيحات النبي ﷺ في صلاته: أنه كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: « **سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ** » (١).

وما من مؤمن صالح في الأرض إلا وجبريل عليه السلام يحبه، فقد ثبتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ! فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ! فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ!** » (٢)، ومن ثم كان جبريل عليه السلام حبيبَ المؤمنين الصالحين، له مكانة خاصة في قلوب المسلمين. وكان له في الكتاب والسنة ما كان من الاعتناء والتقدير. وبهذا وجب الاعتقاد والعمل، والله الموفق للخير والمعين عليه.

الرسالة الثالثة: في أن عالَم الغيب عالَمٌ يفوق عالَمَ الشهادة سعةً وقوةً، أضعافًا كثيرة. وتحصيل العلم بالغيب، مما هو مأذون فيه، زادٌ ضروري للمؤمن؛ وذلك للتحقق أولًا بأركان الإيمان اعتقادًا وعملًا، ثم لتغذية النفس بلباس التقوى والورع، واستشعار الرهبة الكبيرة والخشوع العظيم، كلما طرق العبدُ أبواب الغيب العالي في مسلك العبادة.

فعلى قدر علم العبد بالله، وبمقامه العظيم، ثم بملكوته الممتد من السماوات إلى

---

(١) رواه مسلم عن عائشة مرفوعًا. (٢) متفق عليه.

الأرض؛ يكون إيمان المؤمن وتقواه. ففي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي! يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! » (١)، وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ، وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ! وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ! » [ثم قالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه]: (وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ!) (٢).

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ؛ فَخَطَبَ فَقَالَ: « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ! وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! »، قَالَ [أَنَسٌ]: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ! قَالَ: غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ!، فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا!) (٣)، والخَنِينُ: بكاءٌ بصوت مخنوق في الصدر.

ولهذا وذاك كان أغلب القرآن حديثًا عن الغيب بكل أبعاده، وربطًا لقلوب المؤمنين بحقائقه الإيمانية الكبرى على كل حال. وما كان ذلك ليكون مجرد تسلية للناس في كتاب اللَّه، حاشاه! بل هو برهان قاطع على أن حياة الروح هي الحياة الباقية، وأن ما دونها مصيره إلى زوال. وكفى بذلك نذيرًا لمن يسلخ من عمره الأيام لاهيًا، وهو لا يدري.

الرسالة الرابعة: في أن الأدب عند مشاهدة الآيات، سواء منها الظاهرة العامة، أو الإكرامية الخاصة، أن يلتزم العبد بكمال الخشوع والخضوع للَّه، ولا يخرج عن مقام الفقر والتذلل بين يديه تعالى. وقد رأى رسول اللَّه ﷺ ما رأى من آيات ربه

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، وفي تخريج سنني الترمذي وابن ماجه، ثم في السلسلة الصحيحة.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

الكبرى، مما لم يتح لأحد من البشر على الإطلاق، فظل بصره خاشعًا، لا يزيغ ولا يطغى. وكذلك كان عليه الصلاة والسلام، كلما رأى شيئًا من الآيات الكونية، التي يراها الناس أجمعون، مثل ظواهر الكسوف والخسوف؛ إذ كان ﷺ يفزع إلى ذكر اللّه وإلى الصلاة. فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: (خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ فَزِعًا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ، فَقَامَ يُصَلِّي بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ، مَا رَأَيْتُهُ يَفْعَلُهُ فِي صَلَاةٍ قَطُّ. ثُمَّ قَالَ: « **إِنَّ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُ اللَّهُ، لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرْسِلُهَا يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ، وَدُعَائِهِ، وَاسْتِغْفَارِهِ!** »)[1].

هكذا ينظر المؤمن إلى آيات اللّه، ولا يبقى حبيس المنطق الفلكي الرياضي، وحسابات الخسوف والكسوف، بل يتجاوز ذلك إلى مشاهدة قدرة الحسيب الأعظم، اللّه ﷻ ، الذي وضع سنن الأفلاك والنجوم. فلا يرى المؤمن الحقُّ حركةً في الكون، عاديةً أو غير عادية؛ إلا وتذكر أن للّه موعدًا يهدم فيه هذا النظام الكوني كله، ويطويه طيًّا! فيكون ذلك أدعى إلى تجديد التوبة والاستغفار.

ومن ثم فإن المؤمن كلما نظر في الآيات، وجب أن يرتقي نظره من مشاهدة عظمة المخلوق، إلى مشاهدة عظمة الخالق، ومن مشاهدة مرآة الجمال إلى مشاهدة عين الجمال، ومن رؤية السُّنة الكونية والقانون الطبيعي، إلى رؤية رب السنة والقانون. فما الآيات الكونية في ذاتها، وما كل ما تعلق بها من سنن أو خوارق، سوى حُجُبٍ تتخفى من ورائها يد اللّه الصانعة لكل شيء، والمحركة لكل شيء. وتتستر خلفها تصرفات الربوبية وشؤونها العظمى. والإنسانُ الكافر يبقى نظره حبيس القانون الطبيعي والحساب الرياضي، فيتيه في الظلمات. وأما المؤمن فإنه يفتح بقلبه نوافذ الروح، فينفذ ببصره إلى ما وراء الحجب، وينعم بمشاهدة النور، ويرتوي من منابع الحق والجمال، فيصير بذلك إلى التوحيد الخالص للّه رب العالمين، المتفرد بالجلال والجمال.

الرسالة الخامسة: في أن « الوحي » اسم من أسماء القرآن، وصِفَةٌ من صفاته، فهو معنى جوهري كامن فيه، باقٍ إلى الأبد، لم ينقطع بانقطاع الوحي الذي حدث في

---

(١) متفق عليه.

التاريخ، ولم يرتفع عنه أبدًا. وفرقٌ بين هذا وبين المعنى المصحفي للقرآن؛ لأن هذا معنى مرتبط برسوم الكلمات، وبشكل تسطيرها على المصحف، أو بنمط طباعتها على الورق. والقارئُ الذي يبقى حبيس الرسوم فقط، لا يبصر حقيقة القرآن، ولا يكتشف طبيعته.

أما الذين يقرؤون القرآن اليوم حقيقة، فإنما هم الذين يقرؤونه على أنه وَحْيٌ، أي أنهم إذ يتلونه، أو يتلى عليهم؛ يسمعون كلام الله! على ما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ونعتقد أن هذه المقدمة هي المدخل الأكبر؛ لاكتشاف حقيقة القرآن، والاستفادة من نوره، وبركاته، وهداه. وبيان ذلك بحول الله هو كما يلي:

لا شك أن كل المسلمين اليوم يؤمنون بأن هذا القرآن هو وحي من الله، ولكنهم يحبسون ذلك المعنى بصورة شعورية، أو لا شعورية، في التاريخ الذي كان. هذا غالب أحوالهم. وهذا هو موطن الإشكال! إن تعامل المؤمن مع القرآن على أنه مصحف، شيءٌ حسنٌ، وليس مشكلة في حدِّ ذاته، ولفظ المصحف قد يرادف القرآن في بعض الأحيان (١). ولكن المشكلة هي حينما يجرده - من حيث لا يدري - من صفة الوحي الكامنة فيه. ولا يكون هذا بالنسبة للمؤمن إلا من باب الغفلة. وإذا استحضر تلك الصفة جعلها - في أحسن الأحوال - مجرد حدث وقع في تاريخ القرآن.

---

(١) يراد بالمصحف في اللغة: السِّجِلُّ من الجلد أو الورق، الجامع لعدد من الصُّحُف المكتوبة، ففي اللسان: (إنما سمي المصحف مصحفًا؛ لأنه أُصْحِفَ، أي: جُعِلَ جامعًا للصحف المكتوبة بين الدفتين) مادة: « صحف ». والعبرة إنما هي بما في داخل المصحف وهو القرآن. وإنما يسمى قرآنًا بقراءته، وبجمعه لكلام الله ﷻ. كما حكاه الزركشي في البرهان (١/٢٧٧). وقد أجمع علماء القرآن من أهل السنة على تعريف القرآن بأنه: (كلام الله المعجز، المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته). فتبين أن المصحف هو وعاء للقرآن، وليس هو عين القرآن؛ لأن القرآن هو كلام الله، مكتوبًا كان أو مقروءًا أو مسموعًا. فالمصحف مكتوب فيه كلام الله. وقد تُستعمل عبارتا « المصحف » و « القرآن » على سبيل الترادف؛ باعتبار أن المصحف مدونة للقرآن وجامع له. وفي مثل هذا يقال: لا مشاحة في الاصطلاح. وإنما قصدنا في هذه الرسالة الخامسة أعلاه، تنبيه القلوب إلى الارتباط بالقرآن، الذي هو كلام الله الحي الذي لا يموت، حتى لا تبقى النفوس حبيسة الرسوم والأشكال، وعدد الصفحات والأجزاء؛ فتحرم من كنوز القرآن. والله الموفق للخير والمعين عليه.

نعم الوحي حدث كان ثم انقطع، ولكنه في نفس الوقت صفة لازمة لهذا القرآن، لا تفارقه إلى يوم الدين. **إن مصطلح الوحي في القرآن له دلالتان:**

الأولى: مصدرية، وهي الدالة على الوحي بالمعنى الذي وقع في التاريخ، أي نزول جبريل بالآيات والسور على قلب محمد ﷺ. وهذا أمر كان ثم انقطع طبعًا بوفاة النبي ﷺ.

والثانية: دلالة اسمية، وهي ناتجة عن الأولى؛ حيث سمي وحيًا بسبب أنه في الأصل نزل من السماء.

لكن معنى الوحي في هذه الدلالة الثانية صار صفة لازمة للقرآن أبدًا، لا ترتفع بانقطاع نزول الوحي. بل انقطع الوحي وبقي القرآن وحيًا؛ ولذلك جعل اللَّه مصطلح « الوحي » اسمًا ثابتًا من أسماء القرآن، كسائر أسمائه الأخرى، مثل التنزيل، والفرقان، والذكر، والهدى، والنور، والروح، وغيرها. فهي أسماء للقرآن ذات معنى وصفي، وكذلك الوحي. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد سمى اللَّه تعالى الوحي الذي أنزله نورًا؛ لِمَا يحصل به من الهدى، كما سماه روحًا؛ لِمَا يحصل به من حياة القلوب)[١]. فاستعمل الوحي هنا بالدلالة الاسمية. وشاهده من القرآن قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. أي: بالقرآن. وكذلك قوله في صدر سورة النجم مما تدارسناه هنا: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾، فالضمير « هو » يعود على ما ينطق به محمد ﷺ من القرآن، فسماه وحيًا، بيانًا لمصدره السماوي، وأكده بالفعل الدال على الحدث: « يُوحَى ». فصارت اللفظة ذات دلالة اسمية مأخوذة من الجملة الاسمية: « هو وَحْيٌ ».

وأما من السنة ففي الأثر الصحيح ما ملخصه: (أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ (...) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلَا نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَتَبَّعْ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ!)[٢].

---

(١) ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ١١].

(٢) رواه البخاري.

فواضح جدًّا أن كتابة الوحي هنا هي بمعنى كتابة القرآن، أي الوحي بالمعنى الاسمي؛ لأن الوحي بالمعنى المصدري لا يتلقاه ولا يسمعه أحد غير النبي ﷺ.

والوحي بمعناه الاسمي اصطلاح جرى عليه غير واحد من العلماء المعتبرين، من مثل ما رأينا في نص ابن كثير قبلُ، وأيضًا كما هو واضح من قوله رحمه الله في موطن آخر: (أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار)(١). فإصغاء الكفار إلى الوحي إنما معناه الإصغاء إلى القرآن؛ لأن المعنى الأول مستحيلٌ قطعًا. وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧] قال: (﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: هذَا الوَحْيُ والقُرْآنُ ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾)(٢). فاستعمل رحمه الله عبارتي « الوحي » و « القرآن » على سبيل الترادف والتفسير.

وخلاصة الكلام أن قراءة القرآن باعتباره وحيًا، معناه: تلاوته باعتباره وَحْيًا حَيًّا، أي بما هو كلام اللَّه المتجدد أبدًا، ونوره المتوهج سرمدًا. ذلك أن من يقرؤه بهذا المقام الإيماني يجد نفسه تتزكى وتترقى بمعارج الروح، نحو الملأ الأعلى، ويشاهد بقلبه أن هذا القرآن ما يزال يحتفظ بصلته القوية بالسماء، صلة توقظ القلب، وتحييه وتزكيه. كما يجد أن كل كلمة فيه تخاطبه هو في نفسه، أو في مجتمعه وزمانه. وهذا معنى ثبات صفة الوحي للقرآن، ثبوتًا اسميًا خالدًا أبدًا. ومن ألطف الأحاديث الدالة على هذا المعنى، ما رواه أبو شُرَيْحٍ الخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « **أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا! أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟** » قَالُوا: بَلَى، قَالَ: « **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ** [أي: حَبْلٌ]، **طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا!** »)(٣). وعن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ!** »(٤)، وهذان الحديثان من أدق التعابير على ما قصدناه بالقرآن الوحي.

---

(١) عند تفسيره لقول اللَّه تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢].

(٢) ن. الآية في تفسير السعدي.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وعبد بن حميد في مسنده. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب.

(٤) رواه الترمذي وحسنه، وكذا البيهقي في شعب الإيمان، كلاهما عن زيد بن أرقم مرفوعًا. كما رواه=

فتبين إذن أن مشكلة الأمة اليوم مع القرآن، هي فقدانها لهذا المعنى العظيم في تعاملها معه، وأنها في أحسن أحوالها تشتغل بالقرآن المصحف، أي بالرسوم والأشكال أو الأنغام، وغفلت عن الاشتغال بالقرآن الوحي، إلا قليلًا. والمشتغل بالقرآن المصحف فقط، يبقى حبيس رسوم الكلمات والسطور، ولا يتجاوزها إلى استشراف أنوار تلك الكلمات، ومشاهدة تجليات تلك الآيات، وذلك هو الوحي، وذلك هو القرآن، الذي إذا قرأه المؤمن بحقه تنزلت عليه السكينة، وغشيته الرحمة، وآنسته الملائكة، وذكره اللَّه فيمن عنده. وهي الغاية التي تسعى مجالس القرآن إلى إحيائها في الأمة بإذن اللَّه. ونحسب أن تجديد هذا المعنى في الأمة، ومكابدته بين شبابها تخلقًا وتحققًا؛ كفيل بتجديد جميع أركانها إن شاء اللَّه. ذلك، وما التوفيق إلا باللَّه.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان كيفية التحقق بتلاوة القرآن باعتباره وَحْيًا، لا باعتباره مجرد مصحف، حبيس صفحات معدودة، ورسوم محدودة! على ما فصلناه في الرسالة الأخيرة. **وأما التخلق بتلاوة القرآن وَحْيًا يَصِلُ القلبَ باللَّه، الربِّ العظيم المتكلم بهذا القرآن؛ فله أربعة مسالك، نجملها بتوفيق اللَّه فيما يلي:**

المسلك الأول: استحضار المعنى الأول لمصطلح الوحي، وهو المعنى المصدري للكلمة، أي الوحي بما هو تنزيل للآيات من عند اللَّه، بواسطة الملك جبريل على قلب محمد ﷺ، وبما هو سفارة عظيمة يقوم به الروح الأمين، جبريل عليه السلام، من السماء إلى الأرض. وكذا مشاهدة جميع تجليات معجزة الوحي، مما ورد في الكتاب، وصحت به السنة النبوية الشريفة. وذلك مثل نزول الملك وتدليه في الفضاء، على صورته النورانية فوق محمد ﷺ، كما هو مبين في سورة النجم وفي الحديث الصحيح. وهذا أمر كان قد وقع كثيرًا ومرارًا وتكرارًا، لكن الذي وقع مرتين منه إنما هو مشاهدة النبي ﷺ لذلك ببصره مشاهدة حسية. وإلا فأغلب الوحي نزل به جبريل على صورته، فيتلقاه عنه محمد ﷺ سمعًا دون رؤية بصرية.

= أحمد، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى، عن أبي سعيد الخدري. ورواه أحمد أيضًا عن زيد بن ثابت. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة، وفي تحقيق سنن الترمذي. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

فاستحضار هذا الحدث الكوني الهائل، وما يقع من خرق هذا النور العظيم، لطبقات السماوات والفضاءات نحو الأرض، يجعل المؤمن يقرأ القرآن الآن، وهو يشعر بقيمة ما يقرأ، وأن الذي بين يديه معدن ثمين لا يُقَدَّرُ بثمن، لو اشتعل نوره بقلبه لوصله بالسماء، وهو معنى قراءة القرآن وحيًا.

المسلك الثاني: استحضار أن المتكلم بهذا القرآن هو اللَّه رب العالمين، تكلم به سبحانه في الأزل، ثم جعله محفوظًا في اللوح المحفوظ، إلى أن أذن بإنزاله إلى السماء الدنيا، ثم بتنزيله إلى الأرض مُنَجَّمًا، على ما قضَى وقدَّر. فأن تشعر وأنت تقرأ، بأن اللَّه ﷻ هو الذي يتكلم، فهذا مما لا تسعه الروح هيبةً وإجلالًا! فإذا قرأت القرآن إذن؛ فاستمع وأنصت؛ فإن اللَّه يخاطبك! فالتلاوة منك والخطاب من اللَّه ﷻ. وإن لذلك ما له من الأثر العظيم على النفس؛ إذ يفتح القرآنُ بصيرتَها على منافذ الروح، فتتلقى عن اللَّه أسرار الهدى والنور. وتلك هي قراءة القرآن وحيًا.

المسلك الثالث: استحضار أن اللَّه - تبارك وتعالى - يخاطبك أنت بهذا القرآن، ويكلمك به في خاصة نفسك. وتلك معجزة من معجزات هذا القرآن، فكما أنه خطاب للناس جميعًا، وللأزمنة والأمكنة جميعًا؛ فإنه أيضًا خطاب لكل نفس في نفسها، بخصوص زمانها ومكانها وظروفها، يجيب عن أسئلتها، ويلبي حاجاتها. إنه كالمرآة ما نظر فيها ناظر إلا كشفت له صورته، وبينت له ما فيها من حسن أو قبح. فالقرآن مرآة النفس، ومشرحة القلب. وأنت إذ تستحضر أن اللَّه يخاطبك بهذا القرآن، ويحدثك في خاصة نفسك، يأمرك، وينهاك، ويوجهك، ويزجرك، ويعدك، ويتوعدك، ويبشرك، ويحذرك؛ تستحضر أنه سبحانه في كل ذلك يراك، وأنت تقرأ الآن، وينظر إليك ويراقبك، على ما ورد في الحديث القدسي: « **أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** »(١).

فقراءة القرآن على مقتضى هذا المسلك، باعث لأشواق الروح في القلب؛ بما يفيض عليه من نور الوحي، المكنوز في كلمات اللَّه.

---

(١) متفق عليه، عن أبي هريرة مرفوعًا.

المسلك الرابع: مكابدة التخلق بحقائق هذا القرآن، وممارسة تدبره ومدارسته بالليل والنهار، وعمران خلوات الأسحار بترتيله، تبتلًا بين يدي اللّٰه الواحد القهار. فالمكابدة التطبيقية الفعلية للقرآن، ومجاهدة أهواء النفس وشهواتها بحقائقه الإيمانية؛ هي التي ترتقي بالتلاوة إلى مقام المناجاة. وذلك هو المقصود بقراءة القرآن باعتباره وحيًا. وفي الحديث الصحيح: « **إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ!** »(١)، وقراءة القرآن في الصلاة وخاصة صلاة الليل، لهو من أقوى أسباب صلة القلب باللّٰه، والتخلق بأخلاق القرآن. وكذا نقل الأقدام إلى مجالس القرآن، ومدارسته، والارتياع من حياض الجنة عبر أبوابه.

فمن تحقق بهذه المسالك الأربعة؛ انفتحت منافذ الروح في قلبه، إن شاء اللّٰه، وكان ممن يقرؤون القرآن بوصفه وحيًا كريمًا من اللّٰه، يتجلى عليه نور اللّٰه وجلالُه العظيم، وكان بإذن اللّٰه من المؤمنين المتدبرين الخاشعين. وذلك هو المقصود. وما التوفيق إلا باللّٰه، ولا حول ولا قوة إلا به وحده، جل علاه.

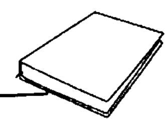
* * *

---

(١) متفق عليه.

المجلس الثاني

في مقام التلقي لأسرارٍ لطيفةٍ من الموازنة بين الهدى والضلال
وبيانِ بُعدِ ما بين تُرّهَاتِ الشرك وحقيقة الدين الخالص
والفرق بين مصدر هذا وذاك
واختلاف مصير أصحابهما في نهاية المطاف



١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللّهُ جلّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كان مطلع السورة مما تدارسناه في المجلس الأول، بيانًا لحقيقة الوحي، وكشفًا لعدد من الخوارق المعجزات، والمشاهد النورانية المتعلقة به، انطلاقًا من موقع التلقي في الأرض، وانتهاءً بآخر منزلة في الملأ الأعلى، عند سدرة المنتهى. ولقد رأينا خلال

ذلك كله من آيات الجمال والجلال، ما يخشع له القلب وتبتهج به الروح.

فناسب بعد ذلك أن ينتقل الخطاب القرآني إلى بيان تهافت دين الهوى والظن الواهم، في مقابلة دين الوحي العالي الكريم، المتجلل بأنوار اليقين، وفضح الضلال الذي يتخبط فيه المشركون، بما اتخذوا من أصنام وأوثان، يعبدونها من دون اللّٰه رب العالمين، ثم بيان ما يعانون من السفه العقلي والشلل الفكري؛ إذ ينحتون أحجارًا بأيديهم، ويجعلون لها أسماء من تلقاء أنفسهم، ثم يؤنثونها بأهوائهم، فإذا بها تتحول في أوهامهم، إلى آلهة تُعبد من دون اللّٰه الواحد القهار. فذلك قول اللّٰه ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ ﴾.

إنه سؤال توبيخ وتهكم واستنكار، فقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ ﴾، هو بمعنى: أتظنون هذه الأصنام الثلاثة آلهة حقًّا؟ أوَتزعمون ذلك؟ هل أوحت لكم بشيء كما أوحى اللّٰه إلى رسوله ﷺ؟ هل رأيتم شيئًا من آياتها، كما رأى محمد ﷺ من آيات ربه الكبرى؟ أم أنها مجرد أحجار صماء بكماء، لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعًا؟ فكيف تتجرؤون على هذا الزعم الباطل السفيه؟

وفي الآية حذف لسؤال إنكاري آخر، تقديره: « أتجعلونها بناتِ اللّٰه؟ » وهذا تقدير معنوي يدل عليه ما بعده من قول اللّٰه تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾؟.. وهذه الأصنام الثلاثة المذكورة هي أشهر ما عبدت قريش وأحلافها في الجاهلية؛ حيث أدمنوا عبادتها حتى صارت مستند أيمانهم وعهودهم، فكانوا يقولون في حلفهم: « واللّاتِ والعُزَّى » وكانوا يُعَبِّدُونَ أسماءَ أبنائِهم لها، فيقولون: « عبد العُزَّى »، وذكر الزمخشري أن العرب كانوا إذا شَرعوا في عملٍ قالوا : « بسم اللات، بسم العزى » [1]. وغير ذلك من مظاهر التعظيم لها في أشعارهم وخطبهم كثير.

فأما اللّاتُ فهي اسمٌ لصنم منحوتٍ من حجر، كان منصوبًا بالطائف، وقد بنوا عليه بناءً، وجعلوا له أستارًا كالكعبة، وله سدنة، وكانت قريش وجمهور العرب

---

(١) ن. الكشاف للزمخشري عند تفسيره لأول البسملة من سورة الفاتحة.

يعبدونه ويعظمونه. وأما العُزَّى فهي أيضًا اسم لصنم من حجر، نُقِشَتْ عليه صورة شجرة، وقد نُصب ببطن نخلة، وهو اسم مكان ناحية مكة، وجُعل عليه أيضًا بناء وأستار وسدنة، وكان معظَّمًا جدًّا عند قريش. وقيل: إن العزى كانت عبارة عن ثلاث شجيرات، تأوي إليهن شيطانة، فتعبدها العرب. والراجح الأول؛ لأن العزى صنم قديم عند العرب، ولعله كان محاطًا بشجيرات أو نخلات اتُّخِذَتْ هي أيضًا أوثانًا. ومعلوم أن الشياطين تأوي إلى جميع الأصنام والأنصاب، حجرًا كانت أم شجرًا، كما تأوي اليوم إلى الأضرحة والمزارات. وأما مناة فهي اسم لصنم آخر من حجر، كان منصوبًا في الْمُشَلَّلِ، والْمُشَلَّلُ: جبلٌ يشرف على منطقة قُدَيْدٍ، بين مكة والمدينة إلى جهة البحر، فعلى ثَنِيَّتِهِ نُصِبَتْ مناةُ. وكانت الأوس والخزرج يطوفون حولها في الحج، عوضًا عن الصفا والمروة.

ووصفُ « مَنَاةَ » بكونها « الثَّالِثَةَ الأُخْرَى » ذم وتهويل وتحقير وتشنيع. فالثالثة رغم أنها كذلك في العد والترتيب التلقائي، إلا أن لها دلالة أخرى هي المقصودةُ أصالةً، وهي عَدُّ الشَّرِّ، وهو كما تقول العرب في المصائب: « ثالثة الأثافي! » (١)، وأما قوله: ﴿ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ فهو مِثْلُ ذلك أيضًا استفظاع وتشنيع، وهو كما يقال - على سبيل التهويل - لمن جاء بزلة: « هذه فضيحة أخرى! ».

هذا هو الراجح من أقوال المفسرين، في ذكر هذه الأصنام الثلاثة، وضبط أماكنها وصفاتها. وقد تعددت في ذلك أقوالهم واختلفت (٢). كما أنهم بالغوا في بحث اشتقاق أسمائها، وساقوا لذلك قصصًا مختلفة ومتناقضة، مما لا ينفع العلم به، ولا يضر الجهل به. والعبرة عندنا أنها أسماء أصنام، كانت تُعبد من دون اللَّه.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝ ﴾، إبطالٌ لِمَا

---

(١) كما في قولهم: « رماه بثالثة الأثافي »، أي بمهلكة عظيمة. والأثافي جمع أُثْفِيَّةٍ، وهي الأحجار التي تُنصب في البادية على الأرض للطبخ عليها؛ حيث تُسند إلى ظهر جبل فتوقد فيها النار، ثم توضع فوقها القدر. والأثافي حجرتان ثالثتهما ظهر الجبل؛ ولذلك جعلوه مثلًا في عظائم المهالك والمصائب. وقد صنعوا « الْمِنْصَبَ » من حديد على ذلك الوِزَانِ، فجعلوا له ثلاث قوائم. ن. مادة: « أثف » و « ثفا » في اللسان، والقاموس المحيط، وتاج العروس.

(٢) ن. تحقيق هذه الأسماء والأماكن في تفسيري الطبري وابن كثير للآية. وهي مبينة بشكل جغرافي في كتب السيرة.

زعموه من أن هذه الأصنام هن بنات اللَّه، كما زعموه في الملائكة أيضًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. وقد صاغه بطريقة الاستفهام الإنكاري؛ لما فيه من التوبيخ والتقريع، ولما يحتويه من الكشف لسفههم، وبلادة عقولهم؛ إذ هم يستقذرون أن تُنسب البنتُ إلى أحدهم، ويأنف الرجل منهم أن تلد له زوجه أنثى، فإذا فعلت أظلمت الدنيا في عينيه. أما إن وضعت له ولدًا ذكرًا؛ فإنه يملأ الأسواق فخرًا وكبرياء. ثم هم مع ذلك ينسبون الأنثى للَّه، ويجعلون له بنات بأهوائهم وأوهامهم، سبحانه. ومن ثم ارتقى التعبير في مراتب السخرية والتهكم بهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾، ومعنى ضِيزَى: جائرة ظالمة، غير عادلة، من الضَّيْزِ، وهو: الظلم والجور [1]. والمقصود أنه لو اقتسم رجلان من البشر الأولاد، فحاز أحدهم الذكور لنفسه وترك الإناث للآخر؛ لكانت تلك إذن قسمة جائرة ظالمة، على عرف العرب في الجاهلية. فكيف تجعلون ذلك في القسمة بينكم وبين اللَّه؟ وهذا أشد التهكم والسخرية والتوبيخ، وأبلغ خطاب في الدلالة على تنزه اللَّه ﷻ عن الولد والصاحبة، وأنما هو اللَّه الواحد، الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد.

ومن ثم جاء التعقيب الرباني على ذلك كله قويًا شديدًا حاسمًا، فقال سبحانه: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ... ﴿٢٣﴾ ﴾، بمعنى أن هذه الأصنام ليس لها من صفة الألوهية شيء، رغم أنكم اتخذتموها كذلك بالباطل، وسميتموها بما يدل على الألوهية ظلمًا، فاللَّاتُ عندهم - كما روي - تأنيث لفظ « اللَّه »، سبحانه وتعالى عن ذلك وتنزه. والعُزَّى تأنيث الأعَزّ، ومَنَاةُ هي بمعنى القدرة [2]. فهي أسماء فارغة، لا حقيقة لها في الواقع؛ لأن مسمياتها مجرد أحجار صماء، لا تنفع ولا تضر. وإنما هي أوهام الشرك وظنون الهوى، ألقاها الشيطان في قلوب المشركين وآبائهم، فتوارثوا هذا الجهل الشنيع، وسموا الأحجار بأسماء الآلهة، ثم عبدوها، بغير حجة من اللَّه، ولا برهان من الوحي، ولا سلطان مبين.

ثم قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ

---

(١) تقول: ضَازَ في الحكم، أي: جَارَ عن الحق ولم يعدل، وضَازَهُ حَقَّهُ يَضِيزُهُ ضَيْزًا، أي: نَقَصَهُ وبَخَسَهُ. والضَّيْزُ أيضًا: الاعوجاج. ن. الصحاح واللسان، مادة: « ضيز ».

(٢) ن. تفسيرها عند الطبري، والزمخشري، وابن كثير، والشوكاني، وغيرهم.

ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، أي أنهم واهمون فيما يسمون من أسماء ويتخذون من آلهة، لا يعتمدون على شيء من العلم بحقائق الأشياء، ولا خبر عندهم في ذلك من السماء، وإنما هم يتبعون الظنون والأهواء، مما تزينه لهم أنفسهم وشياطينهم. وهذا هدى الله يخاطبهم به رسول الله ﷺ، أوحاه الله إليه علمًا يقينًا بالله في ذاته تعالى وصفاته، وبما يجب له من الإخلاص والتنزيه والتوحيد. ومع ذلك أعرضوا عن الهدى والنور، واعتصموا بأهوائهم وطغيانهم، فاستحبوا العمَى على الهدى.

ثم انتقل الكلام في نفس السياق إلى خطاب أعم، مُضْرِبًا عن ضلال المشركين، وملتفتًا إلى جنس الإنسان، ناعيًا عليه انسياقه الشهواني وراء متمنياته ورغباته التي لا حد لها، حقًّا كانت أم باطلًا، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾؛ وذلك لأن المشركين اتخذوا آلهتهم؛ استجابةً لما تمنوه بجهلهم، من أن يكون لتلك الأصنام تأثير في أمورهم المعاشية، أو تكون لها قدرة الشفاعة لهم عند الله. لكن التعبير الاستفهامي المستعمل هنا بأداة «أم» الإضرابية، دال على معنى النفي، بمعنى أن الإنسان لا يملك أن يصل إلى كل ما يتمناه؛ ولذلك جاء عَقِبَهَا تقريرُ التوحيد لله، وأنه - سبحانه وتقدست أسماؤه - هو وحده المقدِّر والْمُدَبِّرُ لمقادير الدنيا والآخرة، ولا دخل لأي مخلوق - مهما كان - في شؤون ربوبيته ومشيئته سبحانه، فذاك قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾. وفي تقديم الحياة الآخرة على الحياة الأولى - أي الدنيا - إشارة لطيفة إلى أن قلب المؤمن يجب أن يتعلق بالآخرة أولًا، وقبل كل شيء، وأن الطريق إلى نيل خَيْرَيْهِمَا إنما هو إفراد الله بالعبادة، والتوجه إليه تعالى بالرَّغَبِ والرَّهَبِ، وحده دون سواه.

ويستطرد سبحانه في بيان هذه الحقيقة الإيمانية الكبرى؛ إمعانًا في دحض أوهام المشركين وأمانيهم الباطلة، فيقول ﷻ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، ولفظ «كَمْ» هنا للتكثير. والقصدُ الرد على أولئك المشركين الجهلة، الذين يتمنون شفاعة الأصنام عند الله سبحانه، والحال أن هؤلاء الملائكة الكرام البررة، المقربين عند الله حقًّا، وهم يعمرون السماوات العلى بألوف الألوف، عابدين لله خاشعين؛ ها هم أنفسهم لا تغني شفاعتهم عند الله شيئًا، ولا تنفع أحدًا، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم،

وفيمن يشاء من عباده، فيجري ذلك كله على وفق مشيئته تعالى ورضاه.

وقد كان هذا السياق أنسب لبيان عقيدة المشركين الفاسدة في الملائكة، وما كان من زعمهم أنهم « بنات الله » سبحانه، ودحض ذلك كله وإبطاله؛ ولذلك قال تعالى بعدُ مباشرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨ ﴾. والذين لا يؤمنون بالآخرة هم هؤلاء المشركون، المنكرون للبعث والنشور، الذين لا يرجون حسابًا ولا جزاءً. لقد كانت عقيدتهم في الملائكة فاسدة أشد ما يكون الفساد، فهم بجهلهم وظنهم الواهم اعتقدوا أن الملائكة قد خلقت على هيئة الأنثى، ثم زادوا تصورهم فسادًا لما جعلوهم بخيالهم الساذج بنات لله، تمامًا كما اعتقدوه في آلهتهم الحجرية. وأنت ترى هنا هذه الجرأة الوقحة على الله وملائكته المكرمين البررة، وتَقَوُّلَهُمْ عليهم بما لا علم لهم فيه على الإطلاق، فلا هم شهدوا خلقهم، ولا هم تلقوا خبر حقيقتهم من السماء، بل لا مصدر لهم في ذلك ولا مستند، إلا اتباع الظن. والظنُّ هنا هو بمعنى الوهم. والظنُّ الواهم لا يغني في معرفة الحق شيئًا، ولا يفيد في علم أبدًا. فما أجهلها من مقولة، وما أسفهه من قائلٍ!

ومن ثم التفت الخطاب إلى الرسول ﷺ، فقال له ﷻ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ﴾، والمقصود بالإعراض هنا ترك مجادلتهم، وعدم الإلحاح على إقناعهم، والحرص الشديد على هداهم ونجاتهم؛ ما دام قد بلغهم رسالات الله، وأنذرهم وحذر، وبين على أتم ما يكون البيان. والمقصود هنا التهديد بسوء العاقبة، أما الدعوة فمستمرة لا تتوقف، كما بيناه فيما يشبهه من الآيات. ذلك أن من تولى عن سماع ذكر الله، بمعنى أنه أدبر عنه استكبارًا، ورفض الاستجابة لنداء القرآن، بعدما بلغه خطابُه ودعوته، ثم قصر همه كله على التمتع بشهوات الحياة الدنيا؛ فهذا لا يستحق من الله التفاتًا ولا عناية، بل يُقَابَلُ بالإعراض كما أعرض هو عن الله ورسوله ﷺ.

ثم قال معقبًا: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ... ۝٣٠ ﴾، أي أن تعلقهم بالحياة الدنيا، وملذاتها الفانية، هو غاية علمهم، ومنتهى عقولهم. وهذا احتقار لهم وتسفيه؛ لأن العقول الكبرى تفكر فيما وراء هذه الحياة الدنيا، وترتقي بمراتب العلم إلى إدراك أن

خلق الإنسان، على هذه الدقة من الصنع، وتسخير كل هذه المخلوقات، والسنن الجاريات، لتكون في خدمته وطوع مصلحته؛ لا يعقل أبدًا أن يكون لمجرد حياة عابرة فوق الأرض، تنتهي بنهاية العمر، بعد سنوات معدودات! لا بد إذن أن في الأمر سِرًّا وحكمةً. ولا يزال الإنسان الفَطِنُ يبحث ويتفكر، حتى إذا بلغه كلام اللّٰه أيقن أنه الجواب الحق، الكاشف للغز الحياة، والفاتح لأبواب السماء، والحياة الخالدة التي لا تفنى أبدًا. أما المنغلقون على معتقداتهم المظلمة، المنحصرون في مستنقع شهواتهم، غير عابئين بأي مصير أخروي؛ فإنهم البلداء حقًّا، الذين لا يفكرون ولا يتدبرون، والذين لم يُؤْتَوْا من العلم إلا ما يدركون به رغائبهم الحيوانية؛ ولذلك قيل فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾.

ثم علل سبحانه الأمر بالإعراض عمن تولى بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾، أي إن ربك يا محمد هو أعلم بمن استكبر عن الحق واتبع هواه، فضَلَّ عن سبيل اللّٰه وصراطه المستقيم، وهو تعالى أعلم بمن وَقَرَ الإيمانُ في قلبه فخضع لرب العالمين، وكان من المهتدين. كل ذلك معلوم عند اللّٰه ثابت في كتاب القدَر. وهذه تسلية منه تعالى للنبي ﷺ وتلطف به، حتى لا يبقى متحسرًا على ضلال المشركين، متأسفًا على إعراضهم، فيكلف نفسه فوق طاقتها؛ بما يبذله من محاولات الإقناع الحجاجي، لقوم طبع اللّٰه قلوبَهم على الكفر العنيد.

ثم أتبعه ببيان أن ما كان من هدى وضلال، هو من محض مشيئته وقدرته، وتصرفات ربوبيته، فقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٣١﴾ ﴾، أي أنه الرب المالك المتصرف في مملكته وحده. وهذه جملة تربط بين ما سبقها وبين ما بعدها، وتبني اللاحق على السابق بناءَ تعليل وتفسير؛ ولذلك قال بعدُ مباشرةً: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾، بمعنى أن تصريفه تعالى لمقادير الهدى والضلال، هو لحكمة الجزاء الذي رتبه تعالى ليوم الحساب في الآخرة؛ حيث جازى المسيئين في الدنيا بما يستحقون من العذاب في الآخرة؛ جزاء ما أفسدوا في الأرض وأضلوا، فإنما هي أعمالهم يلقونها مكتوبة عليهم يوم الحساب. بينما جازى المحسنين بالحسنى، أي بالمثوبة الحسنى، وهي: الجنة، أو منزلة رفيعة من منازل الجنة.

ثم بيَّن خصال هؤلاء الفائزين بالحسنى، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ... ﴾، أي الذين لا يرتكبون كبائر الخطايا والذنوب؛ كالشرك، والسحر، والزنا، والربا، وقتل النفس بغير حقٍّ، وقذف المؤمنات المحصنات، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وأشباهها من أمهات الرذائل والموبقات. والفرق بين الإثم والفاحشة، أن الإثم عام في كل خطيئة، بينما الفاحشة هي ما كان منها فادحًا غليظًا، والعياذ بالله! واللَّمَمُ في اللغة: الشيء القليل الصغير، أو الفعل الخاطف، كالجلوس العابر في المكان يعقبه انصراف سريع، فيقال: أَلَمَّ بالمكان الفلاني، بمعنى حضر به قليلًا ثم انصرف. ومثله قولهم: أَلَمَّ بالطعام: إذا أكل منه قليلًا [1]. واللَّمَمُ هنا في الآية كناية عن صغائر الذنوب؛ كالنظرة الحرام، والدخول في المتشابهات من الأموال والمعاملات. وقيل: اللمم هو الوقوع في الذنب ولو كان كبيرة، لكن من غير أن يكون له عادة، فيندم عليه ندمًا شديدًا، ويتوب منه توبة إلى الأبد. وكلاهما مناسب لمعنى اللمم؛ لأنه الشيء القليل العابر كما بيناه. وإن كان الأول أولى، أعني القول بأنه صغائر الذنوب، ودليله ما رواه الشيخان عن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ! فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ!** ») [2]. ولذلك كان النبي ﷺ يقول:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا [3]

فاللَّمَمُ على كل حال هو كل زلة عابرة، وكل صغيرة غير مداوَمة، وهذا لا ينجو منه إلا معصوم. ولكن ليس معنى الآية أن هؤلاء المؤمنين، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش فقط، ثم لا يتورعون بعد ذلك عن ارتكاب اللمم، كلَّا طبعًا! وإنما الآية تقرير عن واقع، ووصف للطبيعة البشرية، وذلك أنهم يجتنبون اللمم أيضًا، ويحتاطون من صغائر الذنوب كما يحتاطون من كبائرها، لكنهم مهما اجتهدوا فإنهم لا بد بصفتهم بشرًا من أن يخطئوا، فيكون خطؤهم من قبيل اللمم، لا من قبيل الكبائر

---

(١) ن. الصحاح واللسان، مادة: « لمم ». (٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. كما رواه البيهقي في الشعب، والحاكم وصححه على شرط الشيخين. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وصحيح الجامع الصغير.

والفواحش؛ لأن هذه قد عصمهم الله منها بفضله. فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ معناه إلا ما وقعوا فيه خطأً أو غفلةً من اللمم، مع كونهم على حال مستمرة من المراقبة والمجاهدة. والغفلةُ لا ينجو منها أحد.

ولذلك ختم السياق كله بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝ ﴾؛ أي إن ربك أيها النبي ﷺ كثير المغفرة لعباده، وأنه بتجاوزه عن المؤاخذة باللمم من صغائر الذنوب - وهي من الحرام - قد وَسِعَ عبادَه جميعًا برحمته ومغفرته، وأن المنة في ذلك كله لله وحده. فهذه بشرى أهداها الرحمن لرسوله ﷺ، تكريمًا له ولأمته، ونكايةً في أعدائه المشركين، الذين لا رب لهم يغفر خطاياهم.

ومن المعاني التبعية في الآية أن يقال أيضًا: إن ربك أيها العبد التائب من ذنبه واسع المغفرة، بمعنى أن الله - تقدست أسماؤه - يغفر الذنوب جميعًا، كبائرها وصغائرها، ما كان العبد يتوب منها صادقًا.

وهو سبحانه أعلم بعباده؛ لأنه الخالق لهم، العليم بمبتدئهم ومنشئهم، الخبير بتكوينهم، وبما فطرهم عليه من الضعف والقابلية للسقوط، منذ أن خلق الإنسان من طين الأرض، ثم جعله يتناسل بالنطفة المزروعة في الأرحام؛ حيث يخلق الله الأجنَّة على مراحل دقيقة، وبأسرار وراثية عجيبة، ورعاية روحية رفيعة. والأجنَّة: جمع جنين، وهو الإنسان ما دام حملًا في بطن أمه. سمي بذلك لاجتنانه، أي لخفائه واستتاره؛ إذ مدار مادة « جنن » في اللغة كلها على معنى الستر والخفاء.

فرب العباد، الخالق للعباد، أعلم بما فطر عليه الإنسان، من ضعف النفس، والميل إلى الشهوات؛ ولذلك قال سبحانه في ختام الآية: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾، أي: فلا تنزهوا أنفسكم عن النقص بادعاء الكمال، ولا تمدحوها عُجْبًا وفخرًا، وتبجحًا بدعوى الصلاح والتقوى، فهو تعالى أعلم بكم؛ إذ هو الخالق لكم، الخبير بخفايا أنفسكم وسقطاتها، وهو سبحانه أعلم بمن تاب إليه صادقًا، فلم يزل يبكي على خطيئته، نادمًا على زلته، متضرعًا إلى ربه في خلواته وجلواته، سالكًا مسلك الخوف والحذر، من غير رياء ولا تسميع؛ عساه يكون من المتقين. فما نجا من نجا إلا برحمة الله. فاللَّهم اجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن عقائد الشرك والوثنية بشتى أشكالها، قابلة للظهور في أي بيئة وفي أي زمان، والإنسان إذا لم يكن محصنًا بعقيدة الدين الخالص، فهو مهدد بالوقوع في ظلمات الشرك. ومن ثم فخطاب القرآن عن الشرك والأصنام هو خطاب خالد أبدي، لا يتعلق بقريش فقط، ولا بمرحلة الجاهلية التي كانت في التاريخ فحسب، بل هو متعلق أيضًا بإنسان هذا الزمان. وقد كنت أظن ككثير من الناس أن الوثنية مرتبطةٌ بالأمية، والبدائية الثقافية والعمرانية، ثم اكتشفت أن ذلك غير صحيح، وأن الوثنية قابلة للظهور حتى في المجتمعات المسماة « متحضرة » و « متقدمة »، أي على مستوى علوم المادة. وليس ذلك منحصرًا في أوساط عوام الناس فحسب، بل في أوساط المثقفين أيضًا. ولقد وقعت الممارسة الشركية حتى بين بعض الأطباء، والمهندسين، ورجال الثقافة والفكر، وبعض كبار رجال الدولة والسياسة. ومن النوازل السيئة التي بلغتني، أن بعض الشباب المسلم جعل يمارس رياضة « اليوكا »، ذات الأصول الهندية، فلم يزل يتعمق في ممارستها ودراستها؛ حتى افتتن بمذهب من مذاهب الهندوسية، فاعتنقه وارتد عن الإسلام، والعياذ بالله!

والقصد من هذا كله عدمُ الاستهانة بما في القرآن من استطراد وتفصيل، في نقض عقائد الشرك والوثنية بشتى ضروبها؛ لأن الله وهو العليم الخبير سبحانه، عليم بأن البشرية بمن فيها من المسلمين معرضة للوقوع في ظلمات الشرك. ومن ثم فهذه الآيات وأضرابها، يجب أن تكون أساسًا من أسس التربية الإيمانية لأجيال الأمة.

الرسالة الثانية: في أن القول في الدين لا يجوز أن يكون إلا بعلم من الكتاب والسنة، لا بما تمليه الظنون والأوهام، ولا بما تشتهيه الأنفس وتتمناه من التصورات والأهواء. كما أن الحديث عن حقائق الإيمان ومشاهد الغيب، لا يجوز أن يخضع للتخرصات والظنون، ولا يجوز إثبات شيء من ذلك كله، كأوصاف الملائكة مثلًا، أو هيئات السماوات ومعارجها؛ إلا بنص من كتاب أو سنة صحيحة.

وربما وجدت في بعض كتب التفسير، وغيرها من كتب التراث، شيئًا من ذلك،

أعني وصف بعض الغيبيات بغير علم، فتجدهم يفصلون في إيراد الغرائب والعجائب، مما يتناقض مع حقائق الإسلام ولا ينتبهون. فكل ذلك من الإسرائيليات الباطلة، التي لا يجوز اعتمادها، خاصة منها ما خالف نصوص الكتاب والسنة الصحيحة. فالغيب في الإسلام علم، ولا يجوز الحديث فيه إلا بعلم.

الرسالة الثالثة: في أن معرفة توحيد الربوبية، والتحقق بمعرفة اللّٰه ﷻ ربًّا، وتفرده بملكية العالم كله، وبتدبير شؤونه وتقدير مقاديره، وأن لا شفاعة عنده لأحد إلا بمشيئته ورضاه؛ كل ذلك وما في معناه علم ضروري لصلاح الإيمان، وسلامة الاعتقاد من الشرك، كبيره وصغيره؛ ولذلك تجد القرآن المجيد يفصِّل في تعريف حقيقة الربوبية وتجلياتها، تفصيلًا لا ينافسه تفصيل لشيء آخر، من مقاصد القرآن وقضاياه. إلى درجة أنه يمكنك أن تقول: إن القرآن الكريم هو كتاب التعريف باللّٰه. وهذا معناه أن معرفة اللّٰه ربًّا خالقًا لكل شيء، ومهيمنًا على كل شيء، ومدبرًا لكل شيء، وما يتعلق بذلك من توحيد اللّٰه ﷻ في أسمائه وصفاته؛ هو أهم شيء ينبغي للمسلم أن يتعلمه ويتحقق به، إيمانًا وخُلُقًا.

الرسالة الرابعة: في أن من أهم مشكلات الكفر الدنيوية، الممتدة آثارها إلى الآخرة، أنه يجعل نظر صاحبه حبيس حدود العالم المادي، ومن ثم فإن كسبه العلمي إنما هو متعلق بعلوم الدنيا، وبما تلتقطه حواسه وتجاربه منها. ومن ثم فإن دعوته ينبغي أن تقوم على محاولة فتح بصيرته على منافذ الروح؛ عساه يبصر مساحات الزمن الأخروي، وامتداداته التي لا حد لها. كما أن تجديد الدين بين المسلمين أيضًا، يقوم على هذا؛ بسبب أن المرض الحاصل اليوم في الأمة، إنما هو غفلة مزمنة عن حقائق الآخرة، حتى آلت كثير من أحوال المسلمين إلى ما يشبه أحوال الكفار، فيما هم فيه من الضلال والعمى. ومن ثم كانت إشاعة علم الآخرة، مقصدًا أساسيًّا من مقاصد الدين. عليه تقوم الدعوة، وبه يتجدد الدين.

الرسالة الخامسة: في أن تزكية النفس [1]، بمعنى إطرائها، والشهادة لها بالصلاح،

(١) تزكية النفس في الإسلام له معنيان، أحدهما محمود والآخر مذموم؛ فالمذموم هو تزكيتها بمعنى الشهادة لها بالاستقامة، وهذا يكون من باب الفخر والعُجب والرياء، وادعاء التقوى والصلاح، وهو محبط للأعمال والعياذ باللّٰه؛ ولذلك ورد النهي عنه ههنا في سورة النجم، فيما تدارسناه من قوله تعالى: =

والاستقامة والكمال، وتسميع الناس ما تقوم به من أعمال الخير، وكذا حب سماع المدح والثناء عليها من الغير، كل ذلك من أخطر محبطات الأعمال. والمؤمن المخلص لا يقوم بإطراء نفسه، ولا بمدح ذاته، ولا يفخر بأحواله وأعماله، ولا يُسَمِّعُ أعمالَه الصالحة لغيره، اللَّهم إلا لمصلحة شرعية معتبرة. ولذلك فقد حذر النبي ﷺ من مخاطر التسميع في أحاديث كثيرة رهيبة، منها ما رواه جُنْدُب بْنُ عبدِ اللَّهِ البَجَلَيُّ ﷺ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: « **مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ!** »[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ! قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ! وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ! وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ!** »[(٢)].

جعلني اللَّه وإياكم من المخلصين، وغفر لي ولكم أجمعين.

٤ - مسلك التخلق:

ههنا منزلة عظيمة من منازل الجنة، ألَا وهي منزلة الحسنى. وإنما ينالها الذين أحسنوا. أي أحسنوا العبادة للَّه، والاستقامة على صراطه المستقيم. **وإنما يتحقق ذلك للمؤمن بمسلكين اثنين:**

= ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾. وأما المعنى الثاني - وهو المحمود - فتزكية النفس: هو بمعنى تربية النفس وتهذيبها، وترويضها على مسلك الصلاح. وهذا من باب مجاهدة النفس وتخليصها من هواها، وهو مطلوب. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩].

(١) رواه البخاري عن جندب، ورواه مسلم عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم.

المسلك الأول: إخلاص التوحيد لله في ربوبيته وألوهيته. وهو مدار الآيات موضوع الدرس بهذا المجلس كما رأيت. ويلزم عن ذلك الثبات على الطاعات، من أصول العبادات ونوافل الخيرات.

المسلك الثاني: حفظ مكاسب المسلك الأول؛ باجتناب ما يخرمه ويهدمه، وهو كبائر الإثم والفواحش، ومدافعة اللمم. ذلك أن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ... ﴿٣٢﴾ ﴾، فيه معنى اقتضائي، وهو أنهم أخلصوا التوحيد لله أولًا، وبنوا عليه أعمالهم الصالحة، ثم حفظوها باجتناب كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم. وقد بينا قبلُ أن الاستثناء في اللمم معناه: إلا ما وقعوا فيه خطأً وغفلةً من اللمم. فخلاصة مسلك الحسنى إذن؛ أنه التزام صارم بالطاعات، وترك قاطع للمنكرات. ولك أن تلخصه بقول النبي ﷺ: « **قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ!** »[1]. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلا به.

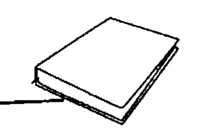
* * *

---

(١) رواه مسلم وغيره.

المجلس الثالث

في مقام التلقي لموازين الجزاء في الدين
وأن الله قدير على إنجاز وعده،
بما لربوبيته تعالى من صفات العظمة والجلال



١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

٢ - البيان العام:

في هذا المقطع الأخير من سورة النجم، تتجمع خلاصات التوحيد، في شكل حِكَمٍ قصيرة مكتنزة. وهي كلها تدور حول بيان موازين الجزاء الأخروي وقواعده، وتبين وجوهًا جليلة من عظمة الربوبية، وهيمنة الرب ﷻ على الدنيا والآخرة، خَلقًا وتقديرًا وتدبيرًا، وأن الخلق كلهم عبيد له، فمن تمرد عليه منهم أهلكه. حتى تختم السورة كلها بآيات عن القرآن المجيد، كلام الله رب العالمين، بما فيه من حِكَمٍ جليلة، وبلاغات مبينة؛

ما لو تفكر فيه الإنسان وتدبر حقًّا لبكى، وخرَّ ساجدًا للّٰه الواحد القهار.

ويبتدئ الخطاب بالتعجيب من نموذج بشري غريب الأطوار والأفكار، نموذج عاش في الوسط العربي الجاهلي بالمجتمع القرشي، ولم يزل وجوده مستمرًا طيلة التاريخ، متجليًا في صور شتى إلى يومنا هذا؛ ولذلك سجله القرآن، ونقضَ منطقه المنحرف، ثم أعلن إدانته إلى يوم الدين.

أخرج الإمام الطبري عن مجاهد وابن زيد أن الوليد بن المغيرة - وهو من أشياخ قريش - كان قد جلس إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فتأثر به الوليد تأثرًا بليغًا، حتى مال قلبُه إلى الإيمان بعض الميل، وعندما انصرف لقيه رجل من المشركين، فلما علم منه ميله إلى الإسلام؛ نفَّره منه تنفيرًا شديدًا، ونعى عليه ترك دين آبائه وأجداده، فقال له الوليد: إنني خشيت عذاب اللّٰه! فقال الرجل: أعطني شيئًا من المال وأنا أحمل عنك عذاب اللّٰه! ولم يكن العرب يومئذ يؤمنون بالآخرة أصلًا، لكن الرجل استغل ما وقع في قلب الوليد من إيمان مذبذب، فقال له ما قال. فأعطاه الوليد مالًا على قدر معلوم متفق عليه، عجَّل له بعضه وأجَّل بعضًا. ثم ارتد الأحمق إلى شركه، وقال في الإسلام قولًا شنيعًا! فلما عاد الرجل إلى الوليد يستقضيه بقية المال؛ أَكْدَى عليه الوليد، أي امتنع وتعاسر عليه (١).

ومن هنا سجل القرآن الكريم هذا الحدث العجيب بصورة مجملة؛ حتى تكون صالحة للعبرة في كل زمان وُجدت فيه، بشكل أو بآخر. وهي كما قلنا لم تكد تنقطع عبر التاريخ إلى يومنا هذا، فعلَّق عليها الرحمن بالكشف عن طبيعة موازين الجزاء الأخروي، وبيان أن لا أحد يمكنه أن يحمل جريمة غيره، أو يتحمل عنه ذنبه أو بعض ذنبه. بل كل نفس تدان بما كسبت. فذلك كله قول اللّٰه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.. إلى آخر الآيات.

فقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾، سؤالٌ القصد منه

---

(١) ن. تفصيل الروايات في تفسير الآيات عند الإمام الطبري، وكذا في الدر المنثور للسيوطي.

الإعلام والتعجيب من حال المسؤول عنه، هذا الذي عرف الحق ثم تولى عنه وأدبر، وافتدى نفسه - على زعمه - من عذاب اللَّه بمال قليل ثم قطعه. فقوله: ﴿ وَأَكْدَىٰٓ ﴾ فعل مشتق من الكُدْيَةِ، وهي الصخرة العظيمة. وكانت العرب إذا حفر الإنسان بئرًا فواجهته أثناء الحفر كُدْيَةٌ؛ انقطع عن الحفر، فتقول فيه: أَكْدَى. فعبروا بالفعل بعد ذلك عن كل انقطاعٍ مادي أو معنوي [(١)]. فكذلك حتى هؤلاء الذين يفتدون أنفسهم من عذاب اللَّه - على غير شرع اللَّه - لا يستمرون في العطاء، بل سرعان ما يبخلون وينقطعون. ويدخل في هذا المعنى بالتبع كل من منع الزكاة، وأعطى عوضها دراهم قليلة جدًّا؛ طلبًا للمغفرة بوهمه، ثم انقطع. فلا يبلغ ما أعطاه شيئًا يستحق الذكر، بالنسبة إلى ما وجب عليه من حق اللَّه، في ماله الضخم الوفير. وهذا نموذج كثير في زماننا هذا، مع الأسف.

وأشكالٌ من هذا الجهل الشنيع باللَّه واليوم الآخر، ما تزال تمارس اليوم في الكنيسة باسم صكوك الغفران، وباسم عقيدة الخلاص، وأن المسيح عليه السلام يتحمل بزعمهم كل جرائم المؤمنين به. ومثل ذلك يُمارس بصورة مشابهة من لدن أحبار اليهود وحاخاماتهم. وهو أيضًا يقع بصورة أخرى لدى بعض جهال المسلمين، الذين يقصدون بعض مشايخ الطرق الصوفية، يدفعون لهم الهدايا ليبشروهم بالمغفرة والرضوان!

ثم تابع الخطابُ الإنكارَ على هذا النموذج المختل، فقال سبحانه: ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥ ﴾، بمعنى كيف يجيز هذا الأحمق افتداء نفسه من عذاب الآخرة، بما دفعه من مالٍ، لقاء أن يتحمل غيرُه عنه العذاب؟ فهل كان له علم بحقائق الغيب كيف تجري يوم القيامة، فهو يرى موازين الحساب كيف تنتصب وكيف تعمل، فتصرَّف بمقتضى ما رأى؟ أم أنه يتبع ما تمليه عليه أوهامه وأهواؤه؟ ذلك سؤال إنكاري شديد، يزلزل النفس الإنسانية، ويوقظ قلوب الجهلة باللَّه من غفلة الشهوات والأهواء.

ومن ثم جاء البيان الإلهي بعده واضحًا قويًّا، يكشف خرافية هذه التصورات الباطلة، ويوضح موازين الجزاء الأخروي، كما وضعها الرحمن، لا كما تتخيلها الأهواء والأوهام، فقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى

(١) ن. مادة: « كدي » في الصحاح، والمحيط لابن عباد، ومادة « كدا » في لسان العرب.

وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾. والاستفهام « بأم » ههنا إضراب انتقالي؛ أي أنه إضراب عن الكلام السابق، وانتقال إلى استفهام إنكاري جديد، ينعي على هذا المفتدي الجهول، الركونَ إلى جهله، والاكتفاء بأوهامه، وعدم السعي الجاد في طلب العلم بالله، وبموازين الجزاء الأخروي كما وردت في كتب الأولين. فما دام هو لم يؤمن بمحمد ﷺ، فقد كان أولى به أن يتحقق من مسألة الفداء، بسؤال أهل الكتاب من أحبار اليهود، فعندهم التوراة، وهي المقصودة هنا بصحف موسى ﷺ، ففيها تفصيل الحق فيما تصرَّف هو فيه بجهل. كما كان عليه أن يتتبع أخبار ما بقي متداولًا عند العرب، من حِكَمِ دين إبراهيم ﷺ، ففيها الجواب عما تذبذب فيه واضطرب. وقد وصف الرحمن ﷻ نبيَّه إبراهيمَ هنا بأنه ﴿ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾، بمعنى أنه الذي أتم الوفاء بعهد الله، في كل ما أمره به من الطاعات، وأتم بلاغ رسالة الدين الخالص للناس. وفي هذا تعريض بالمشركين العرب، الذين حرفوا دين إبراهيم من التوحيد إلى الشرك، ولم يحتفظوا منه إلا بِحِكَمٍ متناثرة، يتداولها مَن سُمُّوا بالمتحنِّفين، أخذًا من « الحنيفية » دين إبراهيم ﷺ. وهم قوم نبذوا عبادة الأوثان قبل مجيء الإسلام، ولم يزالوا يردِّدون بعض حقائق التوحيد المأثورة عن دين إبراهيم، فمنهم من مات قبل البعثة، ومنهم من أدركها ورغم ذلك لم يسلم، كأمية بن أبي الصلت، ومنهم من شهد لمحمد ﷺ بالنبوة ثم مات كورقة بن نوفل ﷺ. فإبراهيم ﷺ كان قد وَفَّى البلاغ وأتمه، ولو طلب هذا المشركُ المذكور هنا حقيقة الآخرة وموازينها، عند هؤلاء المتحنفين لوجدها.

ثم شرع سبحانه في ذكر ما في صحف إبراهيم وموسى، مما يناسب المقام، وينقض عقيدة الذين يظنون إمكان الافتداء من عذاب الله ببيع خطاياهم إلى الآخرين! قال ﷻ : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ وقد أُضمرت ههنا « أنْ » التفسيرية، بمعنى أنَّ ما في الصحف المذكورة هو أَنْ: (لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى). وفعلُ وَزِرَ يَزِرُ وِزْرًا، معناه: أذنبَ ذَنْبًا، واقترف خطيئةً. والمقصود بالوَازِرَةِ: النفسُ المذنبة، حُذف لفظ « النفس » لدلالة السياق عليه. والمعنى أن ميزان الجزاء يوم الحساب قائمٌ على قواعد، منها أنه لا تُعَاقَبُ نفس بجريمة نفس أخرى، ولا إمكان يومئذ أن يتحمل أحد عن أحد شيئًا من الشر، بل كل مجرم يؤخذ بجريمته.

ثم قال في عمل الخير: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝ ﴾، وهذا تتميم لمعنى الآية السابقة، على سبيل التقابل التكاملي، كما تتكامل ثنائيات الترغيب والترهيب في القرآن عمومًا. بمعنى أنه إذا كان ميزان الوزر كما ذُكر؛ فإنه أيضًا ليس للإنسان من الخير يوم القيامة إلا ما كان قدَّم لنفسه في الدنيا من عمل صالح، أو كان سببًا فيه؛ كالصدقة الجارية، والعلم المورَّث، والولد الصالح [1]، ثم ما خصه الدليل من عموم الآية، مما أكرم اللَّه به هذه الأمة كالنيابة في الحج عن العاجز، وقضاء الصوم عن الميت، والدعاء له، والتصدق عليه، ونحو ذلك مما صحت به النصوص. والعملُ يسمى عند العرب سعيًا؛ لأن الإنسان في العادة يسعى لاكتسابه. فذلك ما سوف يُرَى يوم الحساب، عندما تُعرض الأعمال على الميزان بين يدي اللَّه ﷻ. وهنالك يجزي اللَّه العبد الصالح الجزاء الأوفى، أي الأجر الأوفر والأكمل.

ثم استطرد الخطاب في بيان حِكَم أخرى من صحف إبراهيم وموسى، مما دعت الحاجة إلى بيانه للكفار الجهلة باللَّه، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ ﴾، وهذا ترسيخ لعقيدة البعث والنشور، التي أنكرها المشركون العرب وملاحدة هذا العصر، فالإنسان في هذه الحياة الدنيا سائر سيرًا يستغرق عمره كله، فإذا انتهى سيره وجد نفسه ماثلًا بين يدي اللَّه رب العالمين. والتعبير بلفظ ﴿ رَبِّكَ ﴾ هنا التفات خطابي إلى شخص النبي ﷺ، تسليةً له عما قابله به المشركون من الجحود والكفران، وتعريضًا بهم بأن لا رب لهم ينصرهم من اللَّه ﷻ.

واستمر الخطاب يفصِّل حِكَمًا أخرى من شؤون الربوبية، معرفًا بهذا الرب العظيم الذي إليه المنتهى، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ ﴾، وهذه آية عجيبة، دالة على أنه هو وحده - سبحانه - المتحكم في المشاعر الإنسانية، والعواطف البشرية، المتقلبة بين الضحك الذي هو التعبير البشري الفطري عما يجده الإنسان في قلبه من انبساط وسرور؛ وبين البكاء الذي هو التعبير الفطري أيضًا عما يجده من حزن وغم. فالضحك والبكاء، أو الحزن والسرور، كلاهما من الظواهر التعبيرية التي

---

(١) جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول اللَّه ﷺ: « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »، رواه مسلم.

تفرض نفسها على الإنسان فرضًا، متى توفرت أسبابها، وهو لا يستطيع لها ردًّا على الإطلاق، كما أنه لا يستطيع استبدال بعضها ببعض، متى غزاه الشعور بشيء منها. وذلك كله دليل عميق على ضعف الإنسان، وعلى أنه عبدٌ مملوكٌ لِمَالِكٍ، يتحكم في عواطفه ومشاعره، ويخلق فيه الإحساس باللذة والألم. وهذا تجلٍّ عظيم من تجليات الربوبية على العالم البشري.

والتعبير بضمير الشأن في الآية: ﴿ هُوَ ﴾، دال على الحصر والقصر، بمعنى أن اللَّه وحده دون سواه، هو الذي أضحك وأبكى، سواء فيما يتعلق بمسرات الدنيا وأحزانها، أو فيما يتعلق بنعيم الآخرة وعذابها.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾، وهذه أيضًا آية من آيات الربوبية العظمى، تَقْصُرُ فعلَ الإماتة والإحياء على اللَّه وحده، وتبين أن لا أحد يستطيع فعل شيء من ذلك سواه، فهو رب الموت والحياة وخالقهما، وجميعُ أسرارهما بيده وحده، فلا إمكان لمخلوق أن يطَّلع على شيء من خفاياهما. وفيها إشارة إلى أن الموت والحياة من أغرب حقائق الوجود! وأنهما من المعاني التي لا طاقة للعقل البشري على إدراك كنهها على الإطلاق. وإنما الذي نعرفه هو آثار الموت وآثار الحياة، وأعراضهما. ومن ثم فلا أحد يستطيع أن يضع تعريفًا جامعًا مانعًا لمفهوم الموت أو الحياة. وفي هذا تحدٍّ كبير للعقل البشري، وقهر للخلق أجمعين.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾، ذلك أن اللَّه - جل ثناؤه - قد خلق جميع جنس الحيوان - بما فيه من نوع الإنسان، وهو أرقى الأنواع وأكرمها - على هيئة الذَّكر والأنثى، وجعل استمرار النسل في الأرض مبنيًا على سنة الزواج، وجعل في نطفة المني عندما تعلق بالرحم أسرارًا عجيبة، من الخصائص الوراثية والدقائق التكوينية، التي ترسم صورة الإنسان بكل ما فيه من ملامح وسمات، ومن لون، وقامة، وهيئة، وصوت، وبصمات ... إلخ. كل ذلك مكنون في تلك النطفة الممناة، فهنالك داخلها إذ تعلق بالرحم؛ تتحدد طبيعة الإنسان الخِلْقية، ذكرًا سيكون أم أنثى. وذلك على حسب « كروموزومات » الأنوثة والذكورة الكامنة في النطفة. وكشفُ الحجابِ هنا عن هذه الآية العجيبة في أسرار الخلق، العاكسة لتجليات الربوبية الخلَّاقة؛ إنما هو تمهيد استدلالي لبيان أن الفاعل لذلك قادر

على إعادته مرة أخرى، وعلى إحياء الناس ليوم النشور، وهو قوله تعالى بعدُ: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾. والنشأة: اسم مرة من الإنشاء، وهو الخلق والإيجاد. ووصفها بالأخرى هو بمعنى « الأخيرة » أي النشأة التي لا نشأة بعدها، وهي مقابلة في الدلالة للنشأة الأولى، التي هي خلقة هذه الحياة الدنيا. والمقصود أن الله تعالى قد ضمن إعادة الخلق للبشرية بعد بِلَاهَا، وبَعْثِ جميع مَنْ في القبور ليوم النشور.

وبما أن كمال نعمة الخلق لا يكون إلا بضمان نعمة الرزق؛ فقد بيَّن سبحانه أنه هو وحده المقدِّر لمقادير الأرزاق، المهيمن على جميع خلقه عطاءً ومنعًا، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾، فالإغناء: تمليك المال الوافر، الذي يسد الحاجة ويغني عن الناس. والإقناء: تمليك أصول الأموال، للانتفاع الشخصي والاستهلاك الذاتي، مما عدا الْمِلْكَ التجاري، كامتلاك البقر للحلب مثلًا، والسيارة للركوب، والبيت للسكن، والبستان للاستفادة من ثمره، والتنزه فيه، وما شابه هذا وذاك. فالقِنَى في الحقيقة هو تمام الغِنَى؛ ذلك أنه قد يُوجَدُ المال نقدًا بيد الإنسان، من الذهب والفضة أو ما ينوب منابهما من النقد المعاصر، ولكن قد لا يجد الإنسان ما يشتري، ولا ما يقتني بماله ذاك؛ إذا منع الله الثمرة، أو عطل حركة التجارة، أو رفع الأمن عن البلاد والعياذ بالله. فَخَلْقُ الله للنعم من أنواع المكتسبات، والمدَّخرات، والمطعومات، والملبوسات، وسائر العُروض وأصول الأموال، وتيسير اكتسابها للإنسان، هو الذي يعطي للغنَى حقيقته التامة [(١)].

فإذا كان هذا الرب العظيم، هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، المدبِّر لكل شيء؛ فبأي حق يتوجه العبيد إلى غيره بالعبادة؟ كيف وكل معبود سواه إن هو إلا خَلْقٌ من خلقه، وجزء من صنعه؟

---

(١) قال ابن عباد: (قَنَا الإنسانُ غَنَمًا، يَقْنُو قُنُوًا وقُنْوانًا وقُنْيَانًا واقْتَنَى يقْتَنِي اقْتِناءً: وهو أنْ يَتَّخِذَهُ لنَفْسِه لا للبَيْع (...) وَيُقَالُ: قَنَاهُ اللَّهُ وأَقْنَاهُ: أي جَعَلَ له ما يَقْتَنِيهِ. وتَقَنَّى: بمعنى اقْتَنَى). المحيط في اللغة، مادة: « قنو، وقني ». وفي الصحاح: (قَنَوْتُ الغنمَ وغيرها قِنْوَةً وقُنْوَةً، وقَنَيْتُ أيضًا قِنْيَةً وقُنْيَةً، إذا اقتنيتَها لنفسك لا للتجارة). مادة: « قنا ». وفي اللسان: (القِنْوَةُ والقُنْوَةُ والقِنْيَةُ والقُنْيَةُ الكِسْبةُ (...) قَنَوْتُ الشيءَ قُنُوًّا وقُنْوَانًا واقْتَنَيْتُه كسبته. وقَنَوْتُ العنزَ: اتخذتها للحلب. وله غنم قِنْوَةٌ وقُنْوَةٌ: أَي خالصة له ثابتة عليه. والكلمة واوية ويائية. والقِنْيَةُ: ما اكتُسب، والجمع قِنًى. وقد قَنِيَ المالَ قَنْيًا وقُنْيانًا - الأُولى عن اللحياني - ومالٌ قِنْيانٌ: اتخذته لنفسك). مادة: « قنا ».

ومن ثم كانت تتمة السياق التعريضَ بمشركي العرب، على ما هم فيه من شرك وَثَنِيٍّ، وخاصة من انحرف منهم إلى عبادة النجوم، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾، والشِّعْرَى: نجمٌ دري البريق، كانت تعبده قبيلة خزاعة العربية. وكان أول من أحدث ذلك فيهم رجل يقال له: « أبو كبشة »؛ حيث صرف قبيلته عن عبادة الأصنام إلى عبادة النجم. والراجح أنه نقل ذلك عن عُبَّادِ الكواكب والنجوم، الذين كانت العرب تمر بهم في رحلاتها التجارية، وليس هو أول من أحدثه كما يقول بعض المفسرين، وإنما كان أول من فعله من العرب. ولذلك كانت قريش تكني النبي ﷺ ابن أبي كبشة، حاشاه عليه الصلاة والسلام؛ باعتبار أنه خالف دين آبائه بالدعوة إلى التوحيد، كما خالفه أبو كبشة بعبادة النجم من دون الصنم. فجاءت هذه الآية الكريمة لتحسم الموقف، وتلحق الشِّعْرَى باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى! وتقرر أنها جميعًا معبودات باطلة. فالله رب العالمين هو ربها، وهي أفقر ما تكون إليه. وأن الشِّعْرَى نجم كسائر النجوم، يسير في فَلَكِهِ مقهورًا بأمر الله وسلطانه العظيم [1].

ثم شرع الرحمن في عرض النُّذُرِ من أيام الله، وما وقع على أعدائه ﷻ من العقاب في الأرض؛ ترهيبًا للمشركين من عُبَّادِ الشِّعْرَى وغيرها من المعبودات الباطلة، قديمًا وحديثًا. فعذاب الله إنما وقع على الجاحدين لحقوق الربوبية، مما تم بيانه في هذا

---

(١) وقد جعل الطاهر ابن عاشور رحمه الله هذه الآية هي ختام ما قُصد بيانه، مما في صحف إبراهيم وموسى؛ لعلة أن قوله تعالى الآتي بعد: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾، أمرٌ حدث بعد زمنهما بقرون؛ لأن الشعرى – وهي نجم من نجوم السماء – لم تعبدها إلا بعض قبائل العرب في زمن متأخر. فجعل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾ وما بعدها، معطوفًا على « ما » الموصولة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ ﴾ بمعنى: أم لم ينبأ بذلك وبأنه هو رب الشعرى... إلخ.
ويجوز أن يكون السياق مستمرًا، وتكون الآية تابعة لسياق الآيات المعطوفات على قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾، ولا مانع يمنع من أن يكون قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾، مما ذكر في صحف إبراهيم وموسى، كما أنه لا مانع من أن تكون الشعرى قد عبدت زمن إبراهيم وقبله، خاصة وأننا نعلم من كتاب الله أن عبادة النجوم أمر قديم، وقصة إبراهيم نفسه خير شاهد على ذلك.
ويجوز أن يكون المقصود بما في صحف إبراهيم وموسى، هو ما يجيب عن القضية فقط، أي ما عجَّب منه تعالى رسولَه ﷺ؛ إذ قال سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝ ﴾، على ما بيناه قبلُ، وهو يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ ﴾. وكل ما بعده هو استطراد بياني من القرآن.

السياق القرآني المهيب. وسَوْقُهُ ههنا إنما هو لبيان أن وقوع تلك الأيام على الظالمين مرة أخرى، في أزمنة أخرى؛ ليس ببعيد! قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ ﴾.

فأما « عادٌ » فقد قيل إنها أقدم قبائل العرب، وهم قوم هود. وقد ذَكر الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أن سِرَّ وصفها بـ « الأولى »، راجع إلى كونها أول العرب ذِكْرًا في التاريخ، وهي أول العرب البائدة، كما أنها أول أمة أُهلكت بعد قوم نوح [1]. وأما ثمود فهم قوم صالح، وهم أيضًا ممن قطع اللَّه دابرهم، فما أبقى منهم من أحد. وقدَّم القرآنُ ههنا ذكر عاد وثمود، على ذكر قوم نوح؛ لأن أولئك عرب، يلتقون مع عرب الجزيرة زمنَ البعثة، في أصول عرقية واحدة، وخصائص ثقافية واحدة. ومن ثم لم يزل ذكرهم مستمرًا في أشعار عرب الجاهلية وحِكَمِهم، كما أن آثارهم وأطلالهم كانت ما تزال شاخصة قريبًا من ديارهم، وعلى طرقهم. وذلك كله أدعى بقريش ومن ولاها من قبائل العرب إلى التفكر والاعتبار.

وأما وصف قوم نوح بأنهم: ﴿ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ ﴾؛ فإنما كان بسبب أن مدة بقاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيهم كانت أطول بكثير، ورغم ذلك لم يؤمن منهم إلا ثلة قليلة جِدًّا!

وأما الْـمُؤْتَفِكَةُ فمعناها المنقلبة، يقال: أَفِكَهُ فَأْتَفَكَ بمعنى: قلَبه فانقلب. ومنه سمي الكذبُ إِفْكًا؛ لأنه قلبٌ للحقيقة [2]. والْـمُؤْتَفِكَةُ هنا وصف لمدائن قوم لوط؛ لأن اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ قلَبها رأسًا على عقب، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾ [هود: ٨٢]. وقد جمع اللَّه عليهم الخسف والرجم والعياذ باللَّه! وهو مفهوم من قوله تعالى هنا في سورة النجم: ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ ﴾، فـ « أهوى » هو بمعنى أسقط في هاوية، وهو معنى الخسف. والخسفُ زلزال عمودي، يجرف ما فوق الأرض نحو باطنها. وأما التغشية فهي التغطية، وهي إشارة إلى ما تراكم عليهم من الرجم بالحجارة! والتعبير بقوله: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾، بما فيه من إجمال وغموض

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

(٢) لسان العرب، مادة: « أفك ».

مقصود؛ دال على هول ما وقع هناك، من رجم رهيب وعذاب غريب، مما لا تصفه العبارات ولا تحيطه الكلمات. نسأل الله السلامة والنجاء!

ثم عقَّب الجبار ﷻ على ذلك كله بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ وهذا سؤال إنكاري يحمل معنى التقريع والتوبيخ، توجَّه به الحق سبحانه إلى جنس الإنسان. وسياقُه مبنيٌّ على ما سلف من بيان صفات الربوبية وجلالها، بمعنى أنك أيها العبد إذا عرفت من صفات ربك ما عُرِض عليك آنفًا، من أنه هو الرب المتفرد بصفات الخلق والتدبير، والرزق، والرعاية، والعطاء، والإماتة، والإحياء، والبعث، والنشور؛ فبأي حق بعد ذلك تشكك في نعم الله؟ وفي أيٍّ من تلك النعم العظيمة ترتاب؟ وماذا منها تستطيع جحوده وإنكاره؟ فالآلاء هي: النعم، والتماري هنا هو: المجادلة بقصد التشكيك في الحق. ومن ذا يتمارى بنعم الله، وينسبها إلى غير خالقها إلا أعمى!

ثم اختتم الحق سبحانه السورة بهذه الآيات الشديدة الوقع على القلب، آيات فيها من قوة النذارة ما جعل كفار قريش يسجدون لله رَهَبًا، بعد سماعها مباشرةً من الرسول ﷺ، وهو يتلوها عند البيت! قال ﷻ : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝ ﴾..! وقد ثبت أن النبي ﷺ قرأها بمكة قبل الهجرة، فلما بلغ نهايتها سجد، فسجد مَنْ حوله مِنَ المسلمين والمشركين جميعًا، إلا الطاغية أمية بن خلف، فقد تَلَكَّأَ عن السجود! ففي الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: (أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: « وَالنَّجْمِ » . قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ!) [1].

فأما قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾، فهو القرآن. وقد قيل هو الرسول ﷺ. وكلاهما مناسب للسياق، والمغزى واحد. لكن كونه القرآن أرجح؛ لارتباطه الصريح بما قبله وما بعده. وكما يسمى الشخص « نذيرًا » يسمى به الكلام أيضًا. فالرحمن ﷻ يشير إلى ما تُلي من آيات السورة ههنا، أو إلى كل القرآن،

(١) رواه البخاري.

فيخبر المخاطبين بأن هذا الذي يسمعونه ليس تقوُّلًا من محمد ﷺ، وقد اتهمته قريش بذلك، وإنما هو نبأ عن أمر خطير، وتحذير من هول قادم، يهم مصير البشرية، ومصير كل إنسان في نفسه. إنه يوم القيامة! يوم القيامة بما ينطوي عليه من جزاء وحساب، ومآل شقي أو سعيد. إنه نذير من النُّذُرِ التي تنزلت وحيًا من عند اللَّه، وجاء بها الرُّسل كلهم إلى أقوامهم منذرين عبر التاريخ.

ثم قال بعدُ مباشرة، على سبيل البيان لنذارة هذا النذير: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ ﴾، ومعنى أَزِفَتْ: قَرُبَتْ جدًّا حتى ضاق وقتها، وأوشكت أن تقع! والمقصودُ يومُ القيامة. وقد اشتَقَّ لها الرحمن اسمًا من صفة القرب، فسماها الآزِفَة! وعبر بالفعل « أَزِفَ » وباسم الفاعل منه؛ لتأكيد حقيقة القرب الشديد لليوم الآخر، ولوقوع أهوال القيامة. فجاءت الجملة بقصرها هذا قوية جدًّا، مركَّزة المعنى، أشبه ما تكون بصفعة شديدة مفاجِئة! فقال: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾..! نعم أزفت بأهوالها وأحداثها الرهيبة، وهي أهوال وأحداث لا يكشف غمتها إلا اللَّه وحده، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾؛ فلا ملجأ منه تعالى إلا إليه!

ثم توجه في النهاية بالخطاب إلى الجاحدين الساخرين، بصيغة سؤال إنكاري شديد، موبخًا إياهم على عدم إيمانهم بهذا القرآن، وعلى استهزائهم بحقائقه وآياته، وعدم الخضوع لسلطانه، فقال ﷻ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ۝ ﴾! وقد كان الكفار يعجبون مما جاء به هذا القرآن، من أمور البعث، والإحياء بعد الموت، وإعادة الخلق، وأخبار الآخرة عمومًا، وسائر حقائق الإيمان. وإنما كان عجبهم عجب تكذيب وإنكار، واستبعاد لما جاء به الوحي من أخبار، فكانوا يتندرون بذلك في مجالسهم، ويضحكون سخرية من الرسول ﷺ، ومما جاء به من هدى. وكان أولى بهم أن يبكوا كما بكى العارفون بالحق! على نحو ما جاء في قوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، لكن كبرياء الكفرة يجعلهم سامدين لاهين، غافلين عن الحق، لا تلين قلوبهم للإيمان، ولا يخضعون للَّه رب العالمين. والسُّمود معناه: الغفلة والتكبر اللاهي، غير المبالي؛ ولذلك جاءت آيات السياق تحطم في نفوسهم هذا الكبرياء المتعالي، وتُخنس في قلوبهم ذلك العُجْبَ

الشيطاني. ومن ثم خاطبهم الله ﷻ من مقام ربوبيته العظيم، آمرًا إياهم بالدخول فورًا في فلَك عبوديته، والانتظام بمسلك طاعته، وترك حياة التمرد على الرب العظيم، والتبرء من الجحود للحق المبين، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴾.

فهذا الأمر الرباني، الخاتم لتلك القوارع الشديدة، كفيل بزلزلة الكبرياء الجاهلي، الكامن في تلك النفوس الجاهلة بالله، وخلخلة ما بها من تصورات باطلة حول طبيعة القرآن، وحول حقيقة هذا الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام. وكذلك الأمر كان!

وبذلك ارتبط آخر السورة بأولها، واكتمل الغرض المقصود منها؛ ببيان أن لا طريق إلى الله إلا عبر هذا القرآن المجيد، المنزل وحيًا على قلب محمد ﷺ.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن هذا القرآن هو كتاب الموازين الإلهية، التي لا يكمل إيمان المؤمن إلا بالعلم بها، والتخلق بحقائقها إيمانًا وعملًا. وقد جاءت سورة النجم - كما رأيت - مكتنزة بهذه الموازين الربانية الحكيمة. ذلك أن موازين القرآن هي التي تشكل منهاج إقامة الدين في حياة الأمة، وهي أساس التوازن في سير المؤمن إلى ربه، وهي النور الموجه لبصيرته في فهم حقائق الدين، والضابط لكيفية تنزيلها في حياته. فموازين القرآن هي قواعد قرآنية، جامعة لأصول الإيمان وكليات الشريعة. وهي مبثوثة في كتاب الله، ومبيَّنة في سنة رسول الله ﷺ. فمن موازين القرآن مثلًا في مجال العقيدة، قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النساء: ١٧١]، وفي مجال الشريعة قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وفي مجال الدعوة قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي مجال الجزاء الأخروي ما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ ﴾، وكذا قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، ونحو هذا وذاك في القرآن كثير. فبمثل هذه الموازين يستقيم فهم المؤمن للدين ويستوي عمله.

الرسالة الثانية: في أن من موازين هذا الدين أن الإنسان يوم القيامة رهين عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأنه لا أحد ينوب عن أحد في تحمل العقاب، وأن لا ملجأ

في ذلك من اللَّه إلا إليه. وهذه قاعدة هامة في حياة المسلم؛ لما لها من أثر بليغ في الوقاية من الانحرافات الشيطانية، التي توهم الإنسان إمكانَ النجاة في الآخرة؛ إذا هو اتّكل في عمله على غيره، ومسح ذنوبه فيه! كما هو الحال في العقائد الباطلة للنصارى واليهود، وبعض التصرفات المنحرفة لجهلة المسلمين. ومن ثم فإن اللَّه ﷻ قد قرر في القرآن بصيغ شتى، وفي مواطن شتى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ وذلك من أجل بناء الفهم الصحيح لعقيدة المسلم، وضبط عمله الأخروي، وكذا حفظه من الاغترار بدجل الدجاجلة وتلبيسات المشعوذين.

ثم إن هذا الميزان بعد هذا وذاك، قاعدةٌ كلية كبرى؛ لضبط كثير من التصرفات الدنيوية في مجالات شتى؛ كأحكام القضاء، وبعض عقود المعاملات، وأحكام التقويمات الأخلاقية في الشهادات، وفي التعديل والتجريح، وغيرها من المجالات الشرعية والاجتماعية، التي تنبني عليها أمور عملية هامة في الدنيا والدين.

الرسالة الثالثة: في أن طلب العلم باللَّه ربًّا واحدًا، ومعرفةَ ما يجب له من الحقوق على عباده؛ واجبٌ على كل إنسان أنَّى كان. وهو شرط أساس في صحة السير إلى اللَّه ﷻ، ولا وصول لجاهل باللَّه. وإنما أهلك كثيرًا من العُبَّادِ جهلُهم باللَّه. وأصولُ العلم باللَّه مبثوثة في كتاب اللَّه، ثم في سنة رسول اللَّه ﷺ، ولا عذر لمسلم بجهلها. كما أنه أول واجب على غير المسلم أن ينظر فيه ويطلبه. وقد احتج الرحمن جل ثناؤه - كما رأيت - على كفار قريش بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى! فالإنسان بما هو عبدٌ مخلوق مفروضٌ فيه أن يبحث عن خالقه. ومَن بحث عن ربه مخلصًا وَجَدَهُ؛ لأن اللَّه - تقدست أسماؤه - إذا علم صدق عبد ضال، يطلب سيده بإخلاص؛ هداه إليه برحمته. وكيف لا؟ وهو الرحمن الرحيم، الحليم الصبور، الغفور الشكور!

الرسالة الرابعة: في أن العقاب الدنيوي سُنة إلهية جارية إلى يوم القيامة. وما عَرْضُ مهالكِ الأمم البائدة في القرآن؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم؛ إلا لإثبات هذه الحقيقة؛ ولذلك قال ﷻ بعد ذكر مهلكة قوم لوط، خسفًا ورجمًا بالحجارة المسوَّمة: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]. وقد أشرنا في مجالس سابقة إلى حوادث من ذلك في عصرنا الحديث، فلا داعي للإعادة. وإنما العبرة ههنا بالتذكير.

الرسالة الخامسة: في أن أهم خبر جاءت به نذارة هذا القرآن، بعد خبر الإيمان

باللَّه، هو خبر الآخرة. فهي النبأ العظيم، وهي أهم باعث على طلب العلم باللَّه وبدينه، وأهم ضابط لعمل المسلم، وتحقيق تصرفاته على موازين الشريعة، وهي المنشط الأكبر لحادي الخوف والرجاء، والصبر على مشاق السير في الطريق إلى اللَّه.

الرسالة السادسة: في أن بكاء الخشية إنما يكون على قدر علم العبد باللَّه واليوم الآخر؛ ولذلك قال سبحانه عن العلماء باللَّه: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١١١]. وإنما أتممنا سياق الآيات ههنا إلى آخر سورة الإسراء - زيادةً على محل الشاهد من بكاء الخشية - لما فيها من دعوة صريحة إلى طلب العلم باللَّه، ومعرفة ما أثبت سبحانه لنفسه من أسماء وصفات؛ إذ التحقق بذلك هو سر الخشية والخشوع، ومنبع الرِّقَّةِ والدموع!

فبكاء الخشية نعمة، لا يؤتاها إلا من بلغ من منازل العلم باللَّه واليوم الآخر، ما يفتح نظرَه على حقائق اليقين؛ ولذلك فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه في مناسبات شتى: « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! »[(١)].

الرسالة السابعة: في أن الفرار إلى اللَّه، والخضوع لجلاله سجودًا وعبادةً، هو مسلك النجاة من عذاب الدنيا والآخرة، وأن سجود القلب والجوارح هو خير ما ينال به العبد رضا اللَّه. وقد رأيت فيما تدارسناه كيف قدَّم سبحانه الأمرَ بالسجود على الأمر بالعبادة؛ لأنه وإن كان منها فهو أفضلها وأرقاها، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾. وقد قال النبي ﷺ للذي سأله مرافقته في الجنة: « فأعني على نفسك بكثرة السجود! »[(٢)]، والمقصود بذلك كله تقديم الصلاة على سائر العبادات؛ لطي

---

(١) جزء حديث سبق تخريج بعض صيغه بالمجلس الثالث من هذه السورة. وبعضها هو في الصحيحين.

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ قال: كنت أبيت مع النبي ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: « سَلْ »، فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ « أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟ ». قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ».

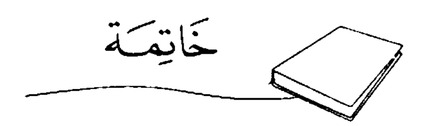
المسافات في الطريق إلى اللَّه، والإكثار من السجود بالليل والنهار. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا دائر حول التخلق بموازين القرآن، والتحقق بمقتضياتها المنهاجية، كما عرَّفناها في الرسالة الأولى بهذا المجلس؛ حتى تجري تصرفات الإنسان على هداها.

وأما المسلك العملي لذلك فهو قائم أساسًا على مداومة التدبر للقرآن الكريم، والتوقف مليًّا عند كل ميزان من موازينه؛ لمعرفة فحواه، والتحقق بمقتضاه. حتى إذا استقرت حقيقته المنهاجية في النفس، جعل المؤمن ينظر إلى حقائق الأشياء من خلاله، ويرتب سائر أعماله وتصرفاته على وفقه. فإذا عَلِمَ مثلًا: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أيقن أنه مسؤول وحده عن خطاياه، وأن لا نجاة له إلا بما قدَّم من عمل صالح، فبطل عنده الارتهان بالوساطات الكاذبة، والوعود الشيطانية الواهمة، وشمَّر عن ساعد الكد والعمل، وقَوِيَ في نفسه وازع الخشية والمحاسبة، والخوف والرجاء، وصارت التقوى له خُلُقًا ثابتًا. وهو معنى التخلق بهذا الميزان. كذلك، فما من ميزان من موازين القرآن إلا وله ثمرة خلقية، يمكن التحقق بها - إن شاء اللَّه - بما ذكرنا هنا من مسلك عملي.

* * *



هذه هي سورة النجم، ذات الحقائق الإيمانية العظمى .. وإنها لمن أجمع السور في التعريف بحقيقة الوحي وعمقه الغيبي؛ ولذلك فهي من أنفع سور القرآن في تلبية أشواق الروح إلى مشاهدة نور الوحي، كيف كان تنزله على النبي ﷺ، وكيف تلقاه عن الملك جبريل عليه السلام.

والسورة بما لها من تأثير قوي في هذا الشأن، وفي التعريف بشؤون الربوبية، وحقائق التوحيد والإخلاص، وعرض بعض الموازين الإلهية في الجزاء الأخروي؛ فإنها كفيلة بوضع المؤمن على هُدًى من أمره في سيره إلى اللّٰه، وترسيخ إيمانه بمقام اليقين. ومن ثم كانت آياتها ذات أثر فعال في مجال التزكية الإيمانية، عظيمةَ الأثر في تلقين العلم باللّٰه وبكتابه المبين. كما أنها بذلك كله، وبما تتميز به من وقع سماعي مهيب؛ مفيدةٌ جدًّا للداعية إذ يلقيها في المجالس العامة والخاصة، بأسلوب خطابي قوي. وقد رأيت كيف أخضعت هذه السورة الجليلة أعناق المشركين بمكة؛ إذ تلاها رسول اللّٰه ﷺ عليهم؛ فانبهرت بها قلوبهم، وكانوا للّٰه من الساجدين، ولو إلى حين!

فاللّٰهم إنا نعوذ بك أن نكون من الجاهلين لِقَدْرِك، الهاجرين لكتابك، الغافلين عن عبادتك. اللّٰهم إنا نستجير برحمتك، وبنور علمك، اللّٰهم اجعلنا لآلائك من الشاكرين، ولنعمائك من الحامدين، اللّٰهم ارزقنا حبك وحب رسولك الكريم، وقَدِّسْ قلوبَنا بنور كتابك العظيم، اللّٰهم بلغنا منازل المتقين، واجعلنا لك من الساجدين العابدين. آمين!

* * *



فريد الأنصاري.

- ولد بإقليم الرشيدية، جنوب شرق المغرب سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب - المحمدية، المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد ابن عبد اللّٰه، كلية الآداب، فاس، المغرب.

- عضو المجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية.

- رئيس المجلس العلمي المحلي بمكناس.

- عضو اللجنة العلمية لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان المولى إسماعيل.

- عضو مؤسس لمعهد الدراسات المصطلحية، التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان محمد بن عبد اللّٰه بفاس.

- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- رئيس سابق لشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب، جامعة السلطان المولى إسماعيل بمكناس، المغرب، لسنوات: (٢٠٠٠ - ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م).

- أستاذ زائر بدار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا بالرباط لسنتي:

(٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م إلى ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م).

- أستاذ بمركز تكوين الأئمة والمرشدات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.

- رئيس وحدة الدراسات العليا: (الاجتهاد المقاصدي: التاريخ والمنهج)، بجامعة السلطان المولى إسماعيل بمكناس.

- وأستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة بالجامعة نفسها.

- ثم أستاذ كرسي التفسير بالجامع العتيق لمدينة مكناس.

صدر له من الدراسات العلمية:

١ - الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب: دراسة في التدافع الاجتماعي، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط. الأولى: (٢٠٠٠م).

٢ - مفاتح النور: دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسل بإستنبول، ط. الأولى (٢٠٠٤م).

٣ - الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس/ المغرب، ط. الأولى (٢٠٠٧م).

٤ - بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٥ - جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٦ - الفطرية : بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٧ - قناديل الصلاة « كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة »، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٨ - مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٩ - مفهوم العَالِميَّة، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

١٠ - الدين هو الصلاة والسجود للّه باب الفرج، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١١ - سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٢ - كاشف الأحزان ومسالح الأمان، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٣ - المصطلح الأصولي عند الشاطبي: (أطروحة دكتوراه)، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٤ - ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى اللّه. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

١٥ - هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها؟ دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

ومن الأعمال الأدبية:

١ - جداول الروح: شعر مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي، مكناس (١٩٩٧م).

٢ - الوعد: شعر، مطبعة أنفوبرانت، فاس (١٩٩٧م).

٣ - ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب (١٩٩٩م).

٤ - آخر الفرسان: رواية، نشر دار النيل، إستنبول (٢٠٠٦م).

٥ - ديوان القصائد: شعر، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

٦ - كشف المحجوب: رواية. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

هذا، وقد توفاه اللّه تبارك وتعالى يوم الجمعة

(١٨ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ) الموافق (٦/ ١١/ ٢٠٠٩م).



مُدارساتٌ في رسالاتِ الهُدى المنْهاجيِّ
لِلْقُرآنِ الكريمِ مِنَ التَّلقِّي إلى البلاغِ

الجُزءُ الثَّالِثُ

فريد الأنْصاري

دار السّلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم
من التلقي إلى البلاغ

الجزء الثالث

تأليف
فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثانية
١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

الأنصاري ، فريد.
مجالس القرآن : مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ / تأليف فريد الأنصاري . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١١م .
ج ٣ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٢ ٠٧٧ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القرآن - تحفيظ .
٢ - القرآن - تفسير .
أ - العنوان .　　٢٢٠,٧

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتقاطع مع شارع نور الدين بهجت الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًّا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نعمة القرآن

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

باب القرآن

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

حق القرآن

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا.. ﴾ [الفرقان: ٣٠].

واجب القرآن

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* * *

فِهْرِسُ ٱلمُحتَوَيَاتِ

* * *
* *
*

إهداء

* إلى حمال رسالات القرآن..
السالكين بها إلى اللَّهِ، تعبدًا وبلاغًا..
المكابدين بها محن هذا الزمان!

* إلى بَلابِلِ اللَّيالِي الْخُضْر..
المرتلة خوفها ورجاءها بمحاريب السحر!

* إلى طلائع الخيول الغبر..
المورية بسنابكها لهيب الفتح المبين
سلامًا وأمانًا للعالمين!

* إلى أجيال الشباب الصادق المؤمن..
﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إليكم سادتي.. أهدي هذه اللوعات..!

خادمكم المحب

فَرِيدُ ٱلأَنْصَارِي

تقديم

الحمد لله الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، عالم السرِّ والنجوى، وكاشف الضرِّ والبلوى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى وحبيبه المُجْتَبَى، من أرسله رحمة للعالمين وهدى، وأنزل عليه كتابه موعظة وذكرى، فقال جَلَّ وعلا: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

أما بعد، فهذه كلمات اقتضت أقدار العليم الحكيم أن أُقدِّم بها لكتاب أستاذنا فضيلة الدكتور فريد الأنصاري تغمَّده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جنانه، وأنَّى لمثلي أن يُقدم للأستاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الأستاذ المعلم والشيخ المربِّي؛ لذلك ترددت كثيرًا قبل الإقدام على كتابة هذا التقديم، ولولا الحاجة إليه لما فعلت، فهو تقديم خدمة وبيان، يهدف إلى التعريف بسياق الكتاب وظروف كتابته ومقاصد مؤلفه رحمه الله تعالى.

هذا الكتاب هو الجزء الثالث من سلسلة « **مجالس القرآن: مُدَارَسَات في رسالات الهُدَى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقِّي إلى البلاغ** »، وهو يشتمل على مدارسات لسورة البقرة وأوائل سورة آل عمران.

والحقيقة أن هذا الجزء يأتي ثالثًا على مستوى ترتيب طبع المدارسات ونشرها فقط، وإلا لو قدَّر الله تعالى لفقيدنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ إتمام مدارسات جميع سور القرآن، لكان ما تضمَّنه هذا الجزء مع مدارسات سورة الفاتحة هو الجزء الأول من كتاب مجالس القرآن، وذلك ما عبَّر عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحوار [1] الذي أُجري معه قبل نصف سنة من وفاته لـمَّا سُئل عن جديد إصداراته بقوله: « .. **الجديد الآن أني أشتغلُ بتأليف مُدَارَسَة لكتاب الله ﷻ، وأنا أثق في الله ثقة تامَّة، أنني إن شاء الله ﷻ أتممها من**

(١) آخر حوار أجرته جريدة المحجة المغربية مع الدكتور فريد الأنصاري في شهر أبريل (٢٠٠٩ م)، وهو الحوار المنشور في عددها المزدوج (٣٣٠/٣٣١)، الذي خصَّصته للدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الصادر بتاريخ (١٦ محرم الحرام ١٤٣١هـ) (٢ يناير ٢٠١٠م).

أول الكتاب إلى آخره؛ أي من سورة الفاتحة إلى سورة الناس » [١].

فذلك ما كان قد عقد العزم عليه رَحِمَهُ اللَّهُ بعدما ولَّى وجهه نهائيًا صوب القرآن الكريم، وتفرَّغ لخدمته محررًا، بيقين صادق، وإقبال كامل، وعزم راسخ. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في الحوار المذكور آنفًا: **« في الآونة الأخيرة وبعد استخارة قررتُ أن أتفرَّغ لكتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ دراسة ومدارسة وخدمة، كانت لي كتيبات كما يعلم القُرَّاء من قبل (رسائل علمية ورسائل دعوية)، ولكن تبين لي أن الأسلم والأحكم أن أشتغل بالقرآن فقط، ولهذا الآن ومنذ أكثر من سنة، أشتغل بدراسة كتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ »** [٢].

وقد جاءت كلماته وعباراته في هذا الجزء - كما كان الأمر في الأجزاء الأخرى - مُزْدَانَة بما كان يرد عليه من الإشراقات وهو يتدبَّر الآيات، وممتزجة بما كان يكابده وهو يتلقَّى ابتلاءات الكلمات، ومقترنة بما كان يخالج قلبه من الأشواق والآهات، خاصَّة وأنها تتعلَّق بسورة البقرة التي تعالج قضية الطاعة، وتعرض منهاج إخراج الأمة المسلمة من البذرة إلى الشجرة، وفق ما انتهى إليه رَحِمَهُ اللَّهُ في مُدَارَسَات السورة، ونص عليه في تقديمها، وأعاد التأكيد عليه وبيانه في الخاتمة المنهاجية التي ختم بها مجالس مدارساتها.

ومن مستلزمات البيان الذي جعلتُه مقصدًا لهذا التقديم، أن أشير إلى أنَّ كتابة مجالس القرآن التي دوَّنها الأستاذ رحمه اللَّه تعالى - بحسب ما حضرته أو علمت به - كانت في معظمها تتويجًا لمدارسات فعلية حضرها رَحِمَهُ اللَّهُ وشارك فيها، أو أشرف عليها وتولَّى تسييرها. وأَخصُّ بالذكر سور: **البقرة والفرقان ويس**؛ فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ يُركِّز على الرسالات المستخلصة من التدارس، ويقتنص الإشراقات والبصائر التي تفيض بها بركات المجلس؛ ليعود إلى بيته رَحِمَهُ اللَّهُ فيدونها، ثم يعيد صياغتها، ويزيدها تفصيلًا وتهذيبًا وشرحًا وتقريبًا، بما آتاه اللَّه من العلم والبصيرة والميزان، وبما حباه به من فصاحة اللسان ونعمة البيان. يضاف إلى ذلك ما كان يصل إليه بتوفيق اللَّه تعالى من البصائر والهدايات، خصوصًا وأنه كان دائم التدبُّرِ لكلام اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، لا يخلو يومه من ساعات أو لحظات يردد فيها آية أو آيتين، يعيش معها مُبحِرًا في أعماقها، داخلًا في ابتلاءاتها،

---

(١) نص الحوار (ص ٥٥، ٥٦).

(٢) نص الحوار (ص ٥٦).

مُكَابِدًا لحقائقها؛ ليصوغ من ذلك كله **هذه المجالس التي تمثل زبدة ما انتهى إليه من الدراسات**، وثمرة ما استخلصه من المدارسات.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أُذَكِّرَ بما كان عليه الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ من عزيمة ثابتة وإرادة راسخة، جعلته يقاوم المرض ويتحدَّى الألم، إذ استمرَّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابة هذه المجالس وتحريرها رغم وطأة الألم الذي ألزمه الفراش في آخر حياته، فكنت أجده رَحِمَهُ اللَّهُ في معظم الوقت متكئًا على شقِّه، ويده على أزرار حاسوبه، يكتب بحرقة ولهفة مجتمعتين، دون كلل أو ملل، حامدًا ربَّه الكريم على ما سخر له من نعمة التفكير والتعبير والقدرة على التحرير، وهذا ما بدا واضحًا في الحوار المشار إليه آنفًا بقوله: « **..فأنا أحمد اللَّه ﷻ، وأجدد له الحمد والشكر كذلك، عندما أشعر أنني قادر على أن أفكر وأكتب بأصابع يدي ما يسَّره اللَّه لي أن أكتب، وعلى أنني قادر على أن أفكر وأعبر بلسان الدعوة إلى اللَّه ﷻ، فتلك نعمة كبرى، أعتبر أن نعمة الصحة والعافية إنما تصحُّ بهذه الأمور بغض النظر عن صحَّة البدن، فمن يسَّر اللَّهُ له استعمال الجوارح في الخير، وفكَّ أسر يديه ولسانه لينطق بالخير ويكتب، فالحمد للَّه هذه صحة وعافية** »[1]. ولذلك كان رَحِمَهُ اللَّهُ دائم الاشتغال بتحرير ما اهتدى إليه وكتابته، مع الحرص على حفظه في حاسوبه الخاص وفي مواضع أخرى، إشفاقًا عليه من الضياع.

وبعدما أتمَّ مدارسات مجالس سورة البقرة، شرع في مجالس سورة آل عمران، وهي السورةُ الثالثةُ في الترتيب التعبُّدي للمصحف الكريم، والمرحلةُ التربوية الثالثة في تخريج الأمة الشاهدة على الناس، وهي تعالج قضية الربانية، كما نبَّه عليه في تقديمها، وظلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يشتغل بها، مُتَلَقِّيًا كلمات ابتلائها إلى أن وافته المنية وهو يُحرر مجلسها الرابع الذي تنتهي آياته بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وقد قسَّم المجلس إلى فقراته الأربع المعهودة، فحدَّد **كلمات الابتلاء** أولًا، وأعقب ذلك بفقرة **البيان العام** للآيات، ثم انتقل إلى الفقرتين المواليتين: (**الهدى المنهاجي**،

---

(١) نص الحوار (ص ٥٦).

ومسلك التخلق)، فذكر فيهما العناوين الكبرى والمحاور العامَّة التي كان يعتزم تحليلها وتفصيلها وإتمام تحريرها، لولا قدر اللَّه الذي اختار لقاءه، والانتقال به إلى دار البقاء؛ لتكون آخر عبارة كتبها، وآخر جملة حرَّرها قبل وفاته ﷺ، في مسلك التخلُّق بالمجلس الرابع من سورة آل عمران، هي قوله: « **وهو ها هنا في بيان كيفية التحقق بمقام المحبة الذي هو طريق الربانية ومسلكها القريب** ».

وفي هذا المجلس تبدو بوضوح طريقة اشتغال الأستاذ في تحرير المدارسات، وأسلوبه في بناء المجالس؛ حيث كان يبدأ ﷺ بتحديد كلمات الابتلاء، وتحديد المقاطع التي ستشكل مجالس السورة ابتداءً، وذلك قبل الشروع في الاشتغال بكلِّ مجلس على حدة، فقد ذكر ﷺ أن مُدَارَسَةَ سورة آل عمران تقع في ثلاثة وعشرين مجلسًا، ونصَّ على ذلك في أول حديثه عن السورة، كما أشار إلى أنها سورة مدنية وأن عدد آياتها مائتان، ثم مهَّد للمجالس بتقديم عام للسورة، تحدَّث فيه عن منزلتها ومكانتها بين سور القرآن الكريم، وعلاقتها بسابقتها (سورة البقرة)، وبين وجه التناسب بين آل عمران وخواتم البقرة المباركة، وتكاملهما معًا، ثم وقف عند بعض أسرار تسميتها نسبة إلى أسرة آل عمران؛ ليبني على ذلك تحديد المحور الرئيس الذي عليه مدار السورة، والقضية الأساس التي تنبني عليها شخصيتها، وهي قضية الربانية، مع توضيح المقصود بمفهوم الربانية، وبيان حقيقتها؛ لينفتح بعد ذلك على أبوابها، ويشرع في مدارسة مجالسها تباعًا، بدءًا من أولها.

وكان ﷺ ينطلق في بناء المجلس - بعد تحديد كلمات الابتلاء الخاصَّة به - بفقرة البيان العام، حيث كان يقدِّم خُلاصة عن بيان الآيات موضوع مجلس المدارسة، اعتمادًا على أقوال المفسرين، مع التركيز على ما ورد عند شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري في كتابه « جامع البيان عن تأويل آي القرآن »، ثم ينتقل إلى استخلاص رسالات الهدى التي تضمَّنتها آيات المجلس، في شكل عناوين كبرى وأفكار عامَّة، قبل أن يعود إليها بالتفصيل والتحليل والبيان والإيضاح، وعلى نفس المنوال يسير في فقرة مسلك التخلُّق، حيث يحدِّد ابتداءً الخلق المركزي الذي تعرضت له الآيات، مما ينبغي التخلُّق به والتحقُّق به، ثم يعمل بعد ذلك على بيان مسالك تطبيقه ووسائل التخلُّق به .

وهو في كلٍّ ذلك يظل وفيًا للمنهج الذي ارتضاه في عملية المدارسة لبناء مجالس القرآن، المنهج الذي فصّله في الجزء الأول من كتاب مجالس القرآن، في تمهيد القسم الثاني من الكتاب - القسم الخاص بالمدارسات القرآنية - حيث تحدَّث عن طريقة عرض مادة الرسالات [1]. وأعاد التنبيه على منهجه المعتمد في الحوار المشار إليه سابقًا، والذي جاء فيه: « **فما أصنعه ليس تفسيرًا بالمعنى الدقيق للكلمة، فيه شيء من التفسير، وهو فقرة من فقرات العمل أُسمِّيه عادة البيان العام، لكن فيه شيء هو مركز الكتاب، وهو ما سمّاه الأستاذ الشاهد البوشيخي بالهدى المنهاجي.**

عند كل طائفة من الآيات نقف على ما يمكن أن نُسَمِّيه برسالة الهدى، وقد تكون الآية تحمل أكثر من رسالة، هذا الذي ركَّزتُ عليه أساسًا. والهدى المنهاجي كما فسَّره أستاذنا هو المعالم الرئيسة التي تحدِّد الوجهة، وتعطِي لبنات البناء للنفس والمجتمع، في طريق استئناف الحياة الإسلامية وتجديد الدين في المجتمع، فهذا يكون مضمنًا في آيات القصص بشكل كبير، وفي كُلِّ الآيات، حتى في آيات الأحكام، ما من آية في كتاب الله إلا وتتضمَّن إشارات أو عبارات من المسمى بالهدى المنهاجي.

وبعد ذلك أخلص إلى ما أسميته بمسلك التخلق؛ أي هذا هو الهدى الذي يطلبه الله منا، فكيف يمكن أن نتحقَّق بذلك خلقًا في أنفسنا وبيئتنا؟ أتحدَّث فيه عن الوسائل العملية والمسالك التطبيقية للتخلُّق بأخلاق القرآن، والتحقُّق بهذه الرسالات الربانية التي هي رسالة الهدى المنهاجي » [2].

وعمومًا، فحسبه رحمه الله أنه أرسى المنهج، ورسم المسلك، وقدَّم النماذج. والرجاء في الله كبير أن يقيض لإتمام هذه المدارسات، والاستمرار في المشروع الذي بدأه، من اصطفاه من عباده واجتباه من أصفيائه. وهي رسالة مستبطنة في نقط الحذف الواردة في آخر ما حرَّره من المجلس الذي توقَّف عنده رحمه الله، فتلك النقط توحي بأن الكلام لم يتم، وأن الصياغة لم تكتمل، وأن التحرير لم ينته، وهو أمانة عظيمة تقع على عاتق الأجيال المقبلة، وقد عبَّر عن ذلك صراحة في الحوار السالف الذكر بقوله:

---

(١) ينظر مجالس القرآن، الجزء الأول ، طبعة دار السلام (١٠١ - ١٠٤).

(٢) نص الحوار (ص ٥٥).

« فأحسب أن السير بهذا المنهاج القرآني من إشاعة تداول عام جماعي للقرآن الكريم، يعتبر هدفًا عظيمًا وتفنى دونه الأعمار، ولا يطمع أحد أن يقول بأنه سيستطيع أن يصل إلى الهدف الذي رسمه القرآن الكريم لطلاب القرآن إلى غايته. ثم هو مشروع الأمة، فهو يحتاج إلى جيل وربما أجيال ... المهم أن يكون الإنسان يخوض الأمر الدعوي في بحر القرآن، ونسأل الله ﷻ السداد والتوفيق، حتى نلقاه ﷻ ونحن على منهاج القرآن الكريم » (١).

وقد سأل اللّه تعالى بصدق، فتوفّاه السميع العليم على منهاج القرآن، ولقي ربَّه بمحبة الفرقان، بعدما حمل رسالة القرآن، واستخرج ما يسَّر اللّهُ له من رسالات الهدى المنهاجي لبعض سور القرآن ، فترقى بها في منازل الإيمان، واستحق بجدارة لقب « **فارس القرآن** ».

جعلني اللّه وإياكم من خُدَّام القرآن الكريم، وحُمَّال رسالاته، السالكين بها إليه تعبُّدًا وبلاغًا، ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

تلميذ الأستاذ المحب

محمد المودني

(١) نص الحوار (ص ٥٦).

مُقَـدِّمَة

الحمد للَّه الذي أنزل القرآنَ العظيم « رُوحًا مِن أمرِهِ » جَلَّ عُلاه! وجعله نورًا يحيي به موات القلوب! ويفرج به ظلمات الكروب! ويمسح به الخطايا، ويشفي به البلايا!

وصلى اللَّه وسلم وبارك على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا محمد النبي الأُمِّي، الذي أرسله اللَّهُ رحمةً للعالمين؛ فلم يزل ﷺ - مذ أكرمه اللَّه تعالى بالنبوة الخاتمة - كوكبًا دُرِّيًا، مُتَوقِّدًا في سماء البشرية إلى يوم الدين! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وإنما أشرق نورُه عليه الصلاة والسلام بما أنعم اللَّه عليه من جلال الوحي وجماله: هذا القرآن العظيم! فكان ﷺ بذلك هُدًى للعالمين ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ذلك هو النور ..! ولكنْ أين من يرفع بصره إلى السماء .. ؟ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

أما بعد:

فهذه مدارسات في القرآن الكريم، تعرض مشروع « مجالس القرآن » بصورة عملية، يرجى لها أن تجعل المؤمن يندمج في فضاء القرآن، ويتلقَّى آياته كلمة كلمة، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا، وهي لذلك تمثل صلب المنهاج الفطري الذي ندعو به وإليه، كما بيناه مُفصَّلًا في كتاب « الفطرية ».

فإلى العلماء العاملين .. إلى السادة المربِّين .. إلى أهل الفضل والصلاح .. إلى دعاة الخير والفلاح .. إلى الشباب الباحثين عن وَارِدٍ من نور، يخرجهم من ظلمات هذا الزمن العصيب!.. إلى جموع التائبين، الآيبين إلى منهج اللَّه وصراطه المستقيم.. إلى المثقلين بجراح الخطايا والذنوب مثلي! الراغبين في التطهر والتزكية.. والعودة إلى

صَفُّ اللَّه، تحت رحمة اللَّه .. إلى الذين تفرَّقت بهم السُّبُلُ حيرةً واضطرابًا، مترددين بين هذا الاجتهاد وذاك، من مقولات الإصلاح!

إليكم أيها الأحباب أبعث رسالات القرآن!

إليكم سادتي أبعث قضية القرآن، والسِّرُّ كل السِّرِّ في القرآن! ولكن كيف السبيل إليه؟

أليس بالقرآن وبِحِكْمَةِ القرآن جعل اللَّهُ - تَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ - عَبْدَهُ محمدَ ابنَ عبدِ اللَّه النبي الأُمِّي - عليه صلوات اللَّه وسلامه - مُعَلِّمَ البشرية وسيد ولد آدم؟ وما كان يقرأ كتابًا من قبلُ ولا كان يخطه بيمينه!

ثم أليس بالقرآن - وبالقرآن فقط! - بَعَثَ اللهُ الحياةَ في عرب الجاهلية فنقلهم من أُمَّةٍ أُمِّية ضالَّة إلى أُمَّةٍ تمارس الشهادة على الناس كلِّ الناس؟

ألم يكن القرآنُ في جيل القرآن مفتاحًا لعالم المُلْكِ والملكوت؟ ألم يكن هو الشفاء وهو الدواء؟ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] ألم يكن هو الماء وهو الهواء لكلِّ من كان حَيًّا - على الحقيقة - من الأحياء؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

ألم تكن تلاوته - مجرد تلاوته - من رجل قرآني بسيط تُحْدِثُ انقلابًا ربانيًا عجيبًا، وخرقًا نورانيًا غريبًا في أمر المُلْكِ والملكوت؟ ألم تتنزل الملائكة ليلًا مثل مصابيح الثريا لسماع القرآن من رجل منهم، بات يَتَبَتَّلُ في سكون الدُّجى، يناجي ربَّه بآيات من بعض سوره [1]؟ ألم يقرأ رجل آخرُ سورةَ الفاتحة على لَدِيغٍ من بعض

---

(١) عن أبي سعيد الخُدريّ ﷺ أن أُسَيْدَ بن حُضَيْرٍ ﷺ؛ بينما هو ليلة يقرأ في مربده؛ إذ جالت فرسه. فقرأ؛ ثم جالت أخرى! فقرأ؛ ثم جالت أيضًا! قَالَ أُسَيْد: فخشيت أن تطأ يحيى؛ (يعني: ابنه الصغير) فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج! (جمع سراج: وهي المصابيح) عرجت فِي الجو حتى ما أراها! قال: فغدوت على رسول اللَّه ﷺ، فقلت: يا رسول اللَّه، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ فِي مِرْبَدِي؛ إذ جالتْ فرسي! فقال رسول اللَّه ﷺ: « اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ! » قال: فقرأت؛ ثم جالت أيضًا! فقال رسول اللَّه ﷺ: « اقْرَأ ابن حُضَيْر! » قال: فقرأت؛ ثم جالت أيضًا! فقال رسول اللَّه ﷺ: « اقْرَأ ابن حُضَيْر! » قال: فانصرفت، وكان يحيى قريبًا منها، خشيت أن تطأه. فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السُّرُجِ عرجت فِي الجو حتى ما أراها! فقال رسول اللَّه ﷺ: « **تلك الملائكة كانت تستمع لك! ولو قرأت لأصبحت يراها الناس، ما تستتر منهم!** » رواه مسلم. وقد روى البخاري نحوه مختصرًا.

قبائل العرب، اعتقله سم أفعى إلى الأرض، فلبث ينتظر حَتْفَه في بضع دقائق، حتى إذا قُرِئَتْ عليه (الحمد للّه رب العالمين) - التي يحفظها اليوم كلُّ الأطفال! - قام كأنْ لم يكن به شيء قط [١]؟

أليس هذا القرآن هو الذي صنع التاريخ والجغرافيا للمسلمين؛ فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف؟ وكان له هذا الرصيد الحضاري العظيم، الموغل في الوجدان الإسلامي؛ بما أعجز كل أشكال الاستعمار القديمة والجديدة عن احتوائه وهضمه! فلم تنل منه معاول الهدم وآلات التدمير بشتى أنواعها وأصنافها المادية والمعنوية، وبقي - رغم الجراح العميقة جدًّا - متماسك الوعي بذاته وهويته؟!

وما كانت الأمة الإسلامية قبل نزول الآيات الأولى من (سورة العلق) شيئًا مذكورًا! وإنما كان هذا القرآن فكانت هذه الأمة! وكانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ! ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أليس القرآن الذي نتلوه اليوم هو عينه القرآن الذي تلاه أولئك من قبل؟

فما الذي حدث لنا نحن أهلَ هذا الزمان إذن؟

ذلك هو السؤال! وتلك هي القضية!

لا شك أن السرَّ كامِنٌ في منهج التعامل مع القرآن! وذلك هو سؤال العصر! وقد كتب غير واحد من أهل العلم والفضل حول إشكال: (كيف نتعامل مع القرآن؟) [٢].

ولقد أجمع السابقون واللاحقون على أن المنهج إنما هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه من أمر القرآن، فَمَنْ ذا اليوم يستطيع الصبر عليه؟ وإنما هو تَلَقٍّ للقرآن آيةً آيةً، وتَلَقٍّ عن القرآن حِكْمَةً حِكْمَةً! على سبيل التخلُّق الوجداني، والتَّمَثُّلِ التربوي

---

(١) عن أبي سعيد الخدري قال: نزلنا منزلًا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سليمٌ لُدِغَ، فهل من رَاقٍ؟ فقام معها رجلٌ مِنَّا، ما كنا نظنه يحسن رُقْيَةً! فَرَقَاهُ بفاتحة الكتاب؛ فبرأ! فأعطوه غنمًا وسقونا لبنًا، فقلنا: أكنت تحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب! قال: فقلت: لا تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ فأتينا النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: « ما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم! ». وفي صيغة البخاري: فسألوه، فضحك، وقال: « وما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم! ». متفق عليه.

(٢) منهم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والدكتور يوسف القرضاوي حفظه اللّه .

لحقائقه الإيمانية العُمُرَ كلَّه! حتى يصير القرآن في قلب المؤمن نَفَسًا طبيعيًّا، لا يتصرَّف إلا من خلاله، ولا ينطق إلا بحكمته! فإذا بتلاوته على نفسه وعلى من حوله غَيَّرَ تلاوة الناس، وإذا بحركته في التاريخ غير حركة الناس!

وهكذا صنع الرسول ﷺ - بما أُنزِلَ عليه من القرآن آيةً آيةً - نماذِجَ حوَّلَتْ مَجْرَى التاريخ! ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فلم تكن له وسائل ضخمة ولا أجهزة مُعقَّدة! وإنما هي شِعَابٌ بين الجبال، أو بيوتٌ بسيطة، ثم مساجدُ آمنة مطمئنة! عُمْرانُهَا: صلاةٌ ومجالسُ للقرآن! وبرامجها: تلاوةٌ وتعلمٌ وتزكية بالقرآن! بدءًا بشعاب مكة، ودار الأرقم بن أبي الأرقم، وانتهاءً بمسجد المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأولى، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام! كانت البساطة هي طابع كل شيء، وإنما العظمة كانت في القرآن، ولمن تَشَرَّبَ بعد ذلك روحَ القرآن!

هكذا كانت مجالسُه ﷺ ثم مجالسُ أصحابه في عهده ومن بعده عليه السلام مجالسَ قرآنيةً، انعقدت هنا وهناك، وتناسلت بصورة طبيعية؛ لإقامة الدين في النفس وفي المجتمع معًا على السواء، وبناءِ النسيج الاجتماعي الإسلامي من كُلِّ الجوانب، بصورة كلية شمولية بما كان من شمولية هذا القرآن، وإحاطته بكلِّ شيء من عالم الإنسان! وذلك أمر لا يحتاج إلى برهان. واقرأ إن شئت الآية المعجزة! ولكن بشرط: اقرأ وتَدَبَّرْ! تَدَبَّرْهَا طويلًا! وقِفْ عليها مَلِيًّا! حتى بعد طَيٍّ صفحات هذه الورقات! فيا أيها المؤمن السائر إلى مولاه! الباحث بكلِّ شوق عن نوره وهداه! أبْصِرْ بقلبك - عساك تكون من المبصرين - قولَه تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وذلك أن تشاهد هذه الْمِنَّةَ العظمى من خلال عديلتها، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

نعم! هذه هي الآية، وإنها لعَلَامَةٌ وأيُّ علامة! فلا تَنْسَ الشرط!

تلك إذن كانت رسالة القرآن، وتلك كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام!

فيا أتباع محمد ﷺ! يا شباب الإسلام! ويا كهوله وشيوخه! يا رجاله ونساءه! ألم يئن الأوان بعد لتجديد رسالة القرآن؟ ألم يئن الأوان بعد لتجديد عهد القرآن؟ وإنما قضية الأمة كل قضيتها ههنا: تجديد رسالة القرآن! ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

فيا أيها الأحباب! لنعد إلى مدرسة رسول اللَّه ﷺ! لنعد إلى مدرسة القرآن! ومجالس القرآن! على منهج القرآن! صافية نقية! كما شهد عليها اللهُ ﷻ في جيل القرآن، لا كما تلقيناها مشوهة من عصور الْـمَوَاتِ في التاريخ!

هذا، وقد جعلنا سيماء هذا الكتاب بعنوان رئيس هو: (**مجالس القرآن**)، ثم ذيلناه بعنوان هامشي هو: (**مُدارَساتٌ في رسَالاتِ الْهُدَى المنهاجي للقرآن الكريم، من التَّلَقِّي إلى البَلاغ**)؛ وذلك لبيان أن « المجالس القرآنية » هي القضية المركزية في تجديد الاتصال بالوحي، والتلقِّي للهدى الرباني، وأنها المسلك الذي عليه الرهان اليوم - كما كان قديمًا - للخروج بالأمة من هذا النفق المظلم الذي تتخبَّط فيه! فمجالس القرآن هي سفينة النجاة إلى بَرِّ الأمان إن شاء الله، إنها وسيلة وغاية في ذاتها ككثير من العبادات في الإسلام، غايةٌ يُعبد اللَّه بها ابتداءً، ووسيلةٌ إلى إصلاح النفس والمجتمع، ولذلك فقد اجتمع فيها الخير كله. وبما أنها هي جوهر هذا المشروع الدعوي الذي نُقدِّمه في هذا الكتاب؛ فقد جعلنا عبارتها هي عنوانَه الرئيسَ وسِيمَاءَهُ الكبرى، وأما العنوان التابع فهو لبيان أن طبيعة هذه المجالس عبارةٌ عن مُدَارَسَاتٍ في رسالات القرآن، التي هي رسالات الهدى المنهاجي، والتي تطبع متلقيها بخلق الربانية، فالتدارس لكتاب اللَّه هو سبيل الربانية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. والربانية عندما تصبح سِمَةً غالبة في المجتمع فتلك هي العلامة الكبرى على تحوله الجذري، وارتقائه من جديد إلى مقام « الخيرية » الشاهدة على الناس! ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويأتي هذا الجزء من الكتاب بعد صدور جزأين.

جاء الجزء الأول منهما مُشْتَمِلًا على « مدخل إلى مجالس القرآن »، قصدت فيه

بيان أهمية هذا المشروع الدعوي؛ بما هو منهاج قرآني صرف، يتَّخذ كتابَ اللَّه مورده الرئيس، منه يتلقَّى نورَه وهداه، وعليه يبني قواعدَه ورُؤَاه، فذلك المدخل موضوع منهجيًّا لبيان الصورة العملية لإقامة « مجالس القرآن » بكلِّ تفاصيلها الجزئية، بما يشبه أن يكون « دليلًا عمليًّا »؛ لمساعدة من لا خبرة له سابقة في تدارس القرآن وتدبره، يشرح الخطوات المنهجية بصورة مبسطة، وسهلة؛ حتى يَعِيَها كلُّ قارئ ومستمع؛ رغبةً في تعميم الاشتغال بالقرآن، والرجوع إليه لتربية الفكر والوجدان، وتمتين نسيج المجتمع على مِنْسَجَةِ الإيمان.

ثم أعقبتُ المدخل النظري بنموذج تطبيقي لمدارسة القرآن الكريم، من خلال بعض سوره، حاولت فيه تقديم صورة عملية لكيفية تَلَقِّي « الْهُدَى المنهاجي »، الذي تتضمنه السور المختارة من خلال آياتها وكلماتها؛ ليكون بيانًا عمليًّا لما يُرْجَى أن تسير عليه « مجالس القرآن »، من تلقِّي رسالات الهدى الواردة بكتاب الله؛ عسى أن ينال الْجُلَسَاءُ المتدارِسون من بركات هذا القرآن خُلُقًا ربانيًّا، يجعلنا وإياهم - بتوفيق اللَّه - على هُدًى من ربنا، في أمر ديننا ودعوتنا، تأسيًا بمن (**كانَ خُلُقُهُ القُرآن**)[١] عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولقد يسَّر اللَّهُ في ذلك الجزء إنجاز مدارسات لسور أربع، هي: الفاتحة، والفرقان، ويس، والحجرات. وقد كان اختيار تلك السور لحكمة تربوية، وموافقات ربانية، ذكرناها مُفَصَّلة بمحلها.

ثم جاء **الجزء الثاني** استكمالًا لما بدأناه هناك، واشتمل على مدارسات ما يسَّر اللَّهُ من مجالس سورة « ق » ، وسورة الذاريات، وسورة الطور، ثم سورة النجم، وهي السور الأربع الموالية في ترتيب المصحف لسورة الحجرات التي وقفنا عندها في الجزء الأول.

وأما منهاج هذه المدارسات - كما سبق بيانه من قبل في القسم النظري من الجزء الأول - فهو راجع إلى تَلَقِّي رسالات القرآن وبلاغها؛ ذلك أنا وجدنا دعوة محمد بن عبد اللَّه ﷺ إنما قامت على هذا المنهاج، وأن الدين - كل الدين - إنما هو دائر على تَلَقِّي رسالات اللَّه والدخول تحت ابتلاءاتها تخلُّقًا وتحقُّقًا، وعلى

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها .

ذلك استمرَّ الصحابةُ من بعده ﷺ، وعليه سار خيار التابعين وكبار الأئمة المُجدِّدين عبر التاريخ! فلا عبادة للّه إلا بتلقِّي رسالاته، ولا دعوة إلى اللّه إلا ببلاغ رسالاته، ولا تجديد لدين اللّه إلا بتجديد التلقِّي لرسالاته، ولا حياة إيمانية إلا بالتخلُّق بحقائقها في النفس وفي المجتمع! فماذا بقي بعد ذلك من الدين خارج رسالات القرآن؟

وإنما السعيد من أكرمه اللّه بالاشتغال بالقرآن الكريم، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا وتعليمًا! إذ ذلك هو مجمل وظائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم سيدنا رسول اللّه ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ! ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وتلك هي مَدَارَاتُ رسالات القرآن تَلَقِّيًا وبلاغًا! فطوبى لِعُمُرٍ عَمَرَهُ صاحبُه بهذه المعاني العظيمة! وطوبى لعبدٍ حَمَلَ هذه الرسالة الربانية؛ فكان بذلك من (**أهل القرآن أهل اللّه وخاصَّته!**)[١].

ولقد تُهتُ زمنًا طويلًا في طريق البحث عن الحقِّ في الشأن الدعوي على العموم، حتى مَنَّ اللّهُ بالْهُدَى! ولقد وجدتُ الهدى كلَّ الهدى في كتاب اللّه! وبمجرد أن فتح اللّه بفضله البصيرة على القرآن اكتشفتُ أدواءَ نفسي المريضة! ففزعت من هول عِلَلِها الكثيرة وجروحها الغائرة! ووجدتُ أنني أنا المعني الأول بدعوة القرآن وأدويته! فطرقت باب الرحمن مستغيثًا: رَبَّاهُ أنا المريض فداوني! فماذا أَعَلَّ من قلبي الكليل؟ ومَنْ ذا أَهْلَكُ من نفسي المغرورة!؟

ثم وجدتُ أنه لا نور للمرء إلا بإشعال فتيل قلبه بمواجيد القرآن نبضًا نبضًا! على وِزَانِ قول رسول اللّه ﷺ: « **شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخواتُها!** »[٢] وأن من لم يكابد حقائق القرآن لهيبًا يُحَرِّقُ باطن الإثم من نفسه فلا حظ له من نوره!

ورأيت أن أول ما ينبغي أن أواجهه بهذه الدعوة هو كبرياء نفسي الخفي، وغرورها الباطن! وأن أول الطريق إلى اللّه هو تحقيق « العبدية » الخالصة له وحده جَلَّ عُلاه! وأن ما دون ذلك من المسالِك إنما هو مَحَالِكُ ومَهَالِك!

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢١٦٥).

(٢) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

ووجدتُ أن تلميذ القرآن لا يكون « أستاذًا » أو « زعيمًا » أبدًا! (١) فالقرآن العظيم كلام اللَّه ربِّ العالمين، وما كان للمتلقي الحق عنه إلا أن يكون عبدًا! وإنها لنعمة عظمى أن يبقَى المؤمن حياتَهُ كلها تلميذًا بين يدي ربِّه الكريم تقدَّست أسماؤه! وذلك أول خُلُقِ سيدنا رسول اللَّه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « **آكُلُ كمَا يأكلُ العبدُ وأجلس كما يجلس العبدُ!** » (٢).

ووجدتُ هذه التجربة الروحية مؤلمة جدًّا! فقد كانت النفس مغرورة بترهات « علم الكلام الحركي! » وكانت حُجُبُهَا من ذلك كثيفة جدًّا، وكانت جراحاتها بسببه عميقة جدًّا! فما أصعب الانتقال بالنفس من « أنَاهَا » إلى « فَنَاهَا »!

وما وَجَدَ رسولُ اللَّه ﷺ نجاتَه إلا في الاعتصام برسالات ربِّه بلاغًا! وهو صريح قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا! ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣] فأدَّى بلاغَ كلمات ربِّه ﷺ وبلغ على أتمِّ ما يكون البلاغ؛ استجابةً لأمره العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ !﴾ [المائدة: ٦٧] ومن هنا جاء الثناء الرباني الكريم نورا خالدًا يحلي الربانيين ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وما أن أبصرتُ هذه الحقيقة الجميلة والمؤلمة في الوقت نفسه؛ حتى اكتشفت هول ما ضيَّعتُ من العمر خارج مدار رسالات القرآن! وحجم ما خَسِرتُ من السير خارج فَلَكِ نور الإيمان!

وشاهدتُ بعد ذلك معنى قول رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام في دعائه الكريم: « **أسألك أن تجعل القرآنَ رَبيعَ قلبي!** » (٣) والرَّبِيعُ في العربية: هو جدول الماء المتدفق

---

(١) المقصود هنا الأستاذية المنتفخة بداء الغرور! والزعامة المتورمة بمرض الكبرياء!

(٢) رواه ابن سعد، وأبو يعلى، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة.

(٣) مختصر من حديث رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٥٢٨).

على البطاح والسهول! فما أجمله وما أجَلَّهُ من دعاء! فأن يكون « القرآن ربيع القلب! » معناه: أن يكون القرآن هو نبع الماء الصافي المتدفِّق الرقراق الذي يسقي الروحَ بنور الله! فماذا يبقى بعد ذلك بهذا القلب من الهمِّ والغمِّ؟ وماذا يبقى به من الدَّرَنِ والضلال؟ أو من الأوجاع والأدواء؟ ولذلك كانت تتمة الدعاء هكذا: (**ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**)!

ومن هنا لم يعد لنا من مورد في التلقِّي لرسالات اللَّه سوى كتاب اللَّه، وقد يسَّر اللَّه أن صارت لنا مجالس مع القرآن الكريم في بعض المساجد، ومجالس أخرى مع بعض الأحبة من أشياخنا وإخوتنا في الله، ممن أكرمنا اللَّه بمدارسة بعض سور القرآن وآيه بمعيتهم، فكانت هذه التقييدات التي يرجع الفضل فيها - بعد اللَّه - إلى ما أكرمنا اللَّه به من إشاراتهم وعباراتهم، فما كان مني إلا أن جمعت ما يسَّر اللَّه جمعه في هذه الورقات من « رسالات القرآن »، فبعثنا بها إلى كافة المؤمنين؛ عسى أن تعمَّ حكمةُ القرآن العظيم، فتمسي سُرُجًا تنير طريق السالكين، وعسى أن يتمَّ التنبيه على منهاجه الدعوي الكريم. فطوبى لمؤمن مخلص للَّه، أكرمه اللَّه بحمل رسالات اللَّه، أخذًا من كتاب اللَّه؛ فأَحْسَنَ التَّلَقِّي وتَفَانَى في البَلاغ!

فمَنْ تحقَّق بتلقِّي كلمات اللَّه من القرآن؛ فقد تحقَّق بأهمِّ مفتاح من مفاتح القرآن! وإنما يُنال ذلك كله بشرطين: **أولهما**: الصبر على المكابدة، **وثانيهما**: إخلاص قصد السير إلى اللَّه! وإنه ليسير على من يسَّره اللَّه له وأكرمه بِهُدَاه! ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اللَّهُمَّ مغفرتُك أوسعُ من ذنوبي، ورحمتُك أَرْجَى عندي من عملي!

وصلى اللَّه وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد للَّه ربِّ العالمين.

فريد الأنصاري



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

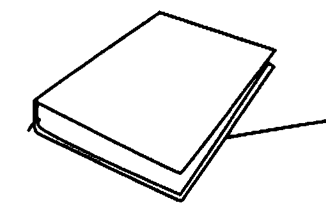
من التلقي إلى البلاغ

المدارسات القرآنية

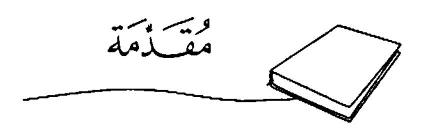
٩ - سورة البقرة

وهي مدنية ، وعدد آياتها (٢٨٥)،

وهي تتضمن تسعة وثلاثين مجلسًا



مُقَـدِّمَة



سورة البقرة!.. وليس شيء في كتاب اللَّه أمنع من سورة البقرة! سورة حصينة منيعة! ترتفع أسوارها على ربوة عالية من القرآن، بحيث تُشْرِفُ على كلِّ سِوره جميعًا! إنها شجرة ضخمة، شجرة ذات أغصان وفروع، تُزْهِر وتُثْمِر، وتُمد المؤمنين بوارِف الظلال! ولأصحابها الذين قرؤوها حق قراءتها تميُّز خاص، سواء في زمن رسول اللَّه ﷺ أو بعده! ليس ذلك لأنها أطول سورة في كتاب اللَّه؛ ولكن لأنها تتضمن منهاج العمل بهذا القرآن، وكيفية تلقِّي هداه! فما من سورة بعدها إلا وهي تستند في هذا إليها!

ذلك أن الموضوع الرئيس الذي تعرضه هذه السورة هو: منهاج إخراج الأُمَّة المسلمة من البذرة إلى الشجرة! فما من آية فيها إلَّا وهي تُرَدُّ إلى هذه الحقيقة وتخدم قضيتها! إنها سورة تعرض الهُدى القرآني الشامل لبناء الإنسان المؤمن فردًا وجماعة، وتعرض مواد ذلك البناء، وأسرار تلك الصناعة، عرضًا دقيقًا مفصَّلًا؛ بحيث يستطيع كل من تتبع خريطتها بدقة، وسلك منهاجها بإخلاص أن يصل - بإذن اللَّه - إلى حقيقة المجتمع الأمة. كما أنها تعرض طريقة صيانته، وأسرار حفظه، وضمان استمراره بعد بنائه وإخراج أمته!

والمنهاج كل المنهاج - كما تعرضه سورة البقرة - بَذْرَةٌ وشَجَرَةٌ! فعن البذرة تنبثق الشجرة، ومن الشجرة تُولَد البذرة، فهما تجلِّيان لحقيقة واحدة! فأما البذرة فهي تختزن سر التكوين، والخواص الوراثية، وطبيعة الشجرة في كلِّ أطوارها وأحوالها: عودها، وغصنها، ولونها، وورقها، وطيبها، وزهرها، وثمرها! صيفها وشتائها! كل ذلك منطوٍ على نفسه في كمون داخل البذرة! وأما الشجرة فهي نشر تلك الخواصِّ كلها، وكشف تلك الأسرار جميعها، وعرض تلك الأحوال وأطوارها! فالحياة في الشجرة، وسرُّها في البذرة! ومنهاج إخراج الأمة المسلمة - كما تعرضه سورة البقرة - دائر على هذين.

فأما البذرة فهي الطَّاعة. نعم، الطَّاعة بكلِ ما تحمل هذه العبارة من حقائق إيمانية ومنازل ربانية. طاعة اللَّه الواحد القهَّار في كلٍّ ما أنزل من هدى، وطاعة رسوله ﷺ في كلٍّ ما بينَّه للناس من تفاصيل ذلك الهدى. طاعة كاملة تامة، بلا تذبذبٍ ولا التواءٍ ولا استدراكٍ على اللَّه ورسوله بشيء! إنها طاعة العبودية التامة للَّه، طاعة الإخلاص والتوحيد والتفريد! فالبذرة التي تعرضها سورة البقرة هي ههنا، إنها التخلُّق الكامل بهذه الصفة الإيمانية الخاصَّة، واستبطان حقيقتها في النفس، والتحقُّق من حيويتها واستجابتها! فمن تخلَّق بها وتحقَّق فقد امتلك بذرة المنهاج وسر صناعته!

وهذا هو السر في تسمية السورة كلها بسورة البقرة! مع أن قصة البقرة لا تكاد تتعدَّى ضمنها بضع آيات! إلَّا أن « البقرة » بعد ذلك صارت رمزًا لذلك المعنى الذي فقده بنو إسرائيل فخسروا الخسران المبين: الطَّاعة! بل أعلنوا مناقضته تمامًا؛ تمرُّدًا صريحًا على اللَّه وعصيانًا، حيث: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٩٣﴾ ﴾ فلم يزالوا مذ أمرهم اللَّه بذبح بقرة يتلكؤون ويفتئتون على اللَّه ويشترطون، حتى ما كادوا يفعلون! ولولا ضرورتهم لما كانوا في الحقيقة يفعلون! ومثل هذا لا يُسَمَّى في المنطق الإيماني طاعة؛ لأن الطَّاعة من المطاوعة، وإنما تكون مع الذلة والمحبة للفعل وللآمِر به. والتلكؤ والتحايل والمراوغة، ولو انتهت إلى إنجاز الأفعال لا يكون لها من معنى الطاعة نصيب! وأما الاتباع الذَّلول والسماع الصدوق، والاستجابة الخالصة للَّه كلما دعا، فهو محض الطاعة حقًّا.

وسورة البقرة تضع هذا المقام الإيماني لطالبي الهدى أوَّل شرط للانطلاق، وتجعله كلمةَ السِّر الخاصَّة لفك رموز المنهاج وفهم خريطته! فمنذ بداياتها عرضت قصة آدم بما تضمنته من ابتلاء بالطاعة، وما كان من ضعف آدم ومعصيته! حتى إهباطه عليه السلام إلى الأرض وأمره وذريته بالطاعة والاتباع! ولم تزل السورة بعد ذلك تعرض مواقف بني إسرائيل من هذه الحقيقة، ونُكُولهم المستمر في شتى المواقف والمشاهد عن الالتزام بمقامها! وتعرض في الآن نفسه نموذج الأمة المسلمة، وسر فلاحها واستخلافها، بما تحلت به من طاعتها لربِّها، حتى ينتهي سياق الآيات في أواخر السورة إلى بيان ذلك الامتياز الذي امتاز به أهلها، حيث استجابوا للَّه بلا تلكُّؤ ولا استدراك: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾ متذللين مستغفرين!

هذه هي البذرة الإيمانية التي تعرضها سورة البقرة، فلا تكاد تجد موطنًا منها، أو سياقًا من مساقاتها إلا ونواتها كامنة من خلفه تمده بالأسرار! فقصة البقرة هي قصة الطَّاعة والعصيان، وهي قضية السورة بأكملها!

وأما الشَّجرة، فإنها ما انبثق عن مفهوم الطَّاعة من الهدى المنهاجي، الذي به تنمو الحياة الإيمانية في الأرض وتترعرع. وهو آيات التشريع الذي امتازت به سورة البقرة. فقد بيّنت من أصوله – أمرًا ونهيًا – القواعدَ الكبرى التي بها يكون المجتمع الإسلامي أو لا يكون! والتي بها يتم إخراج أمته للناس، أمة متميزة متفردة! سواء في العبادات أو العادات والمعاملات. فأركان الإسلام كلها ههنا تَأَسَّسَتْ كلياتها، مع بيان حِكَمِهَا ومقاصدها في المعاش والمعاد. وقضايا المال والاقتصاد فيها فُصِّلت أحكامها، وبُيِّنت مراتبها التشريعية، وموقعها الترتيبي في نظام الأولويات لمريدي تجديد الدين، وإعادة بناء الأمة المسلمة واستئناف حياتها. وأصول النظام الاجتماعي والتشريع الأُسري، فيها دُقِّقت أحكامهما بتفصيل عجيب – لحكمة ربانية عالية – بما لم يكد يَدع للاجتهاد من مزيد! وجَعلت لكلِّ قضية تشريعية موقعًا من سُلَّم أولويات الدين، ومركزًا خاصًّا في دعوته ومنهاجه. ولم تزل في كلِّ غصن وزهرة – من تشريعاتها الخاصَّة – تربط المتلقِّي بالبذرة، وترجعه إلى نواتها الأولى: الطَّاعة! فكانت سورة البقرة بذلك حقًّا خريطة شاملة، لمنهاج إخراج الأمة المسلمة من البذرة إلى الشجرة!

ومن ثَمَّ فليس عبثًا أن حض رسول اللَّه ﷺ على تَعلُّمها على الخصوص وتلقِّي هُداها! فعن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **اقرؤوا القرآن فإنه شافعٌ لأهله يوم القيامة! اقرؤوا الزهراوين: « البقرة وآل عمران »، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو كأنهما فِرقان من طير صَوَافَّ، يُحاجَّان عن أهلهما يوم القيامة! ثم قال: اقرؤوا البقرة! فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَةُ!** »[١] وعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إنَّ لكل شيءٍ سنامًا، وإنَّ سنامَ القرآن البقرةُ، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله**

---

(١) رواه مسلم. والزهراوان: المنيرتان. والغياية: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشيء. والبطلة: السحرة.

الشيطان ثلاث ليال! » [١] وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **لا تجعلوا بيوتكم قبورًا! فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان!** » [٢] وعندما التقى جيش المسلمين بجيش مسيلمة الكذاب يوم اليمامة، انهزم أمامه المسلمون ابتداءً؛ لكثرة ما في جيشه من الأعراب، فانعزل الصحابة عن الجيش وتميزوا، ثم تنادوا: « يا أصحاب سورة البقرة! » فتجمع حولهم جيش من القراء، فقاتلوا حتى ولّى جيش العدو مدحورا! [٣].

فتسلَّحي يا نفسي الضعيفة بمسالح الإيمان! واطردي وساوس التثبيط والخذلان! واعتصمي بجبال الصبر! ثم انطلقي - متوكلةً على الله - إلى مجالس هذه السورة المنيعة!

* * *

* *

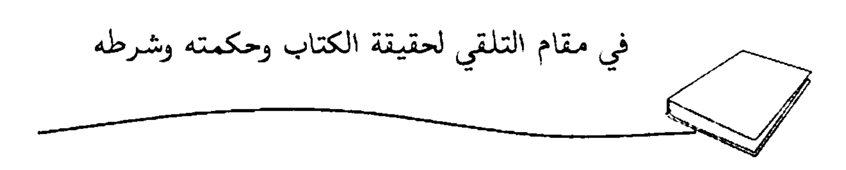
*

(١) رواه الطبراني وابن حبان وابن مردويه عن سهل بن سعد ﷺ. وقال الألباني في صحيح الترغيب: « حسن لغيره ». كما حسّنه في السلسلة الصحيحة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) ن. تفسير ابن كثير: « فضل سورة البقرة ».

المجلس الأول



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللَّهُ جلَّت حِكْمَتُه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ ﴾.

٢ - البيان العام:

افتتح اللَّه ﷻ سورة البقرة بأحرف مُقطَّعة، كما هو الشأن بالنسبة لبعض سور القرآن الأخرى. والأحرف المذكورة هنا ثلاثة: ألف ولام وميم، وهي كغيرها من متشابه القرآن الذي اختلف المفسرون في دلالته كثيرًا. وقد اختصر ابن كثير رحمه الله أقوال العلماء في أحرف القرآن المقطعة في أربعة مذاهب:

الأول: أنها مما استَأْثَر اللَّه بعلمه، فلا تفسير له.

الثاني: أنها أسماء السور المذكورة بها.

الثالث: أنها رموزٌ دالة على بعض أسماء اللَّه وصفاته.

الرابع: أنها بيانٌ لإعجاز القرآن؛ بما هي حروف مما يتكلم به الناس، لكنهم مع ذلك عاجزون عن معارضته. واختاره ابن كثير ثم قال: (حكاه الرازي عن المبرد وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفرّاء، وقرّره الزمخشري ونصره أتمّ نصر، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزّي) [١].

---

(١) تفسير ابن كثير: « ألم البقرة ».

والحقيقة أن هذا الاختيار أيضًا لا يستقيم على التمام، فأقصى ما يقال فيه أنه ضرب من التفسير الذوقي. وهو وإن صحَّ من حيث قصد الإعجاز فهو بالتبع لا بالأصالة. وإلا فَثَمَّ أسئلة ستبقى معلقة على هذا الاختيار بلا جواب. منها: سؤال لماذا جاءت هذه الأحرف بالذات في هذه السورة دون تلك؟ ثم ما علاقة كل منها بسورها المذكورة بها؟ ثم ما وجه تفسيرها جميعها بالمعنى الإعجازي هكذا مطلقًا، رغم اختلافها في نفسها؟ فحروف ﴿ الٓمٓ ١ ﴾ هي غير ﴿ الٓر ﴾ [يونس: ١]، وغير ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١]، ولا ﴿ صٓ ﴾ [ص: ١]، ولا ﴿ حمٓ ﴾ [الأحقاف: ١]، ولا ﴿ قٓ ﴾ [ق: ١]! فهل وجودها بمحالِّها مجرد صدفة؟ أم أن هناك حكمة كامنة وراء كل منها على حِدة؟ ثم لماذا ذكرت هذه الأحرف بذاتها، دون غيرها من حروف العربية، كالباء والتاء والثاء والدال ...إلخ؟

بل إننا نقطع بأن حقيقتها أعمق من القصد الإعجازي البلاغي، الذي هو صفة شاملة للقرآن كله! إنها أوغل في عمق الغيب من هذا المعنى البسيط الذي ذكره بعض المفسرين؛ ولذلك نرى أن قول من قال: « إنها مما استأثر اللَّه بعلمه » هو أقرب للصواب وأعمق في البيان! نعم إنها إشارات إلى بحر الغيب الذي يموج تحت كلمات القرآن! وهذا التفسير لا يدل على عجز القائلين به عن الفهم، بل هو عندي رأس الفهم وقمة البيان، ومقامٌ عالٍ من مقامات العلم باللَّه وبالقرآن!

والمقصود أن القول بالإعجاز هكذا مجردًا عن حقيقته الغيبية، يجعله مجرد تفوُّق في مجال بيان اللسان ليس إلا! وكتاب اللَّه أعلى من ذلك بكثير! ومن هنا وجب أن نجمع بين التفسيرين: القائل بغيبية الأحرف وأنها من علم اللَّه الخاصّ، والقائل بأنها لبيان إعجاز القرآن، على أساس أن يكون معنى الإعجاز تابعًا لمعنى الانتساب إلى علم الغيب الرباني الذي لا يحيط به بشر؛ بما يجعل الإنسان يشعر حقيقة بالعجز عن الفهم التامِّ والإدراك الكامل! نعم العجز عن الفهم للأحرف المقطعة من ناحية، ولما تُشير إليه من حقيقة هذا الكتاب كله، وطبيعته بما هو كلام اللَّه رب العالمين! فمهما تلقَّى البشر من حقائقه المأذونة فهمًا وإدراكًا، فإن الإحاطة بحقائقه وأعماقه ضربٌ من المستحيل! بل يبقى الغائص - مهما استخرج من لآلئ - يلهث دون إدراك أعماقه، عاجزًا عن الوصول إلى نهاياته، تمامًا كما يبقى عاجزًا أمام رموز أحرفه المقطعة « ألم » وأضرابها! وبيان ذلك مُفَصَّلًا هو كما يلي:

إن الشيء الواضح الذي لا مراء فيه، هو أن هذه الأحرف قد بقيت لغزًا من ألغاز القرآن الكريم! ولا أحد استطاع أن يأتي فيها بقول يكشف سرَّها، ثم يستقيم ومقاييسَ العلم روايةً أو درايةً! فكل ما قيل حولها تخميناتٌ وظنونٌ لا تغني عن الحق شيئًا! حتى إن بعض المفسرين مال إلى ربطها بحساب الجمل، وهو أمر لم تعرفه العرب، ولم تفسَّر به خطابها قط. وكل ما ورد في ذلك من الروايات ينتهي أغلبه إلى الإسرائيليات! وفي بعضها من الباطل ما كشفه التاريخ! كتحديدهم عمر هذه الأمة بناء على جمعٍ لأعداد بعض تلك الحروف على حساب الجمل! ثم امتدت الأمة في الزمان أكثر بكثير مما عدُّوا لها!

إن الشيء الوحيد الذي بقي مقبولًا في تفسير هذه الأحرف هو أنها - كما ذكرنا - من متشابه القرآن الذي لا يعلمه إلا اللَّه! وهذا مُعْطَى علمي مهم جدًّا، نبني عليه بياننا - بحول اللَّه - ههنا، **وذلك بتسجيل الملحوظات التالية:**

أولًا: أن هذه الأحرف لها في مواضعها من كتاب اللَّه دلالتها الخاصَّة! وهي دلالات مختلفة؛ لاختلافها هي في نفسها، فـ ﴿الٓمٓ ۝١﴾ مثلًا ليست هي ﴿الٓر﴾ [يونس: ١]، ولا هي ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١]، ولا هي ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١]، ولا هي ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، ولا هي ﴿يسٓ﴾ [يس: ١] أو ﴿صٓ﴾ [ص: ١] أو ﴿قٓ﴾ [ق: ١] ... إلخ. فكل زيادة أو اختلاف في المبنى، يدل على زيادة أو اختلاف في المعنى.

ثانيًا: أن لها معاني خاصَّة عند اللَّه تعالى، مرتبطة قطعًا بسورها المذكورة في أوائلها من جهة، ومرتبطة - من جهة ثانية - بطبيعة هذا القرآن، الذي هو كلام اللَّه ﷻ. فاللَّه تعالى لا يتكلَّم عبثًا، بل لا يتكلم إلا بالحقِّ، سبحانه ﷻ! والقول بأنه لا معنى لها على الإطلاق مجازفة في حقِّ كلام اللَّه رب العالمين!

ثالثًا: أن اللَّه تعالى استأثر بحقائق تلك الأحرف في علم الغيب عنده، كما استأثر بكثير من أسمائه الحسنى وصفاته العلى عنده أيضًا! وفي هذا دلالة عظيمة على ثمرة إيمانية كريمة، وهي كما يلي:

رابعًا: أن حقيقة هذا القرآن كله - ما علمنا منه وما لم نعلم - مرتبطة بعالم الغيب الذي لا يعلمه إلا اللَّه! وأنه تعالى إنما بيّن لنا منه ما تقوم به حياتنا التعبُّدية، وتتوجه به التكاليف الشرعية والعقدية والعملية، ويصلح به العمران البشري، وتقوم به

الحُجَّة على الناس! وذلك هو ما يُسِّر منه تيسيرًا! كما قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]. وإلَّا فمن ذا قديرٌ على أن يتلقَّى كلام ربِّ العالمين - المحيط بكلِّ شيء في هذا الوجود العظيم - وأن يرتِّله ترتيلًا!؟ ولقد صدق سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، إذ قال في هذا قولته الشهيرة: (لولا أن اللَّه يسَّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلَّم بكلام اللَّه ﷻ!) [١].

ومن هنا وردت هذه الحروف في كتاب اللَّه من الغوامض التعبيرية، وفي ذلك إشارة إلى هذا الأصل الإعجازي العظيم! كأنها تقول للإنسان: انتبه! إن هذا الكتاب الذي يُسِّرَ لك أن تقرأه اليوم كتاب غير عاديٍّ تمامًا! إنه كتاب غريب عجيب! إنه بحار غير متناهية من الحقائق الغيبية والكونية مما لا يحيط بحقيقته إلا اللَّه رب العالمين! فتأدب يا عبد! تأدَّب بأدب العبودية بين يدي الملك العظيم، وأنت تستفيد - فيما أُذِنَ لك - من نعمة تيسير القرآن المجيد تلاوةً وتدبرًا!

ويكفيك دلالة على هذا التأصيل الأصيل، قول اللَّه تعالى عن كلامه ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] ولقد أشار النبيُّ ﷺ إلى تفرُّد كل حرف من حروف القرآن العظيم بقيمة ذاتية، لكن ليس بما هو حرف عربي، ولكن بما هو جزء من كلام اللَّه ﷻ! ولذلك رتب الأجر للقارئ على عدد ما قرأ من حروف! رغم أن الحرف في اللغة البشرية وحدة صوتية لا معنى لها! لكنه ههنا شيء آخر، إنه حرف مختلف عن أي حرف في أي لغة، إنه حرف قرآني! ويكفيه ذلك ليضرب بجذوره في عمق الغيب! ذلك هو مقتضى الحديث النبوي المشهور، من قوله ﷺ: « **من قرأ حرفًا من كتاب اللَّه فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول « ألم » حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف** » [٢].

ومن هنا أيضًا وردت أغلب الأحرف المقطعة في أوائل السور مرتبطة بالإشارة إلى عظمة القرآن، أو مصدريته، أو في سياق قَسَمِ اللَّه ﷻ به! كما في قوله تعالى من

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٣٧).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. انظر سنن الترمذي (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر). كما رواه الحاكم أيضًا في المستدرك.

فاتحة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ وقوله سبحانه في الأعراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. وفي يونس: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١] وفي هود: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] وفي الرعد: ﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ١] وفي إبراهيم: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ [إبراهيم: ١] وقال في « يس » مُقْسِمًا: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يس: ١، ٢] ثم قال في « ق »: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] وغير هذا وذاك في القرآن كثير.

فآل الأمر إذن إلى أن قوله تعالى ههنا في بدء سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ... ۝ ﴾ دالٌّ على أن هذا الكتاب، الميسَّر الآن قرآنًا يُتلى، هو من كلام اللَّه ربِّ العالمين! وهذه حقيقة لا قدرة للعقل البشري على الإحاطة بمفهومها كيفًا ووصفًا! وإنما له فقط أن يؤمن بها، وأن يتلقَّى ما أُذِنَ له فيه من تدبُّر آياتها بموازين القرآن. فلا يخرج عن ذلك إلى جدل الكلام العقيم؛ وإلا كان من الضالِّين! فشأن العبد أن يتلقَّى التعاليم من ربِّه أمرًا ونهيًا، فيبادر إلى العمل ويسارع للتنفيذ. وعندما يغترُّ بقوته العقلية المحدودة، فيحاول البحث في طبيعة الكلام الإلهي، ويجازف بمحاولة الاقتراب من الذات الإلهية مما لم يُؤذن له فيه ولا هو يستطيعه، كلما حاول ذلك احترقت بصيرته وارتد خاسئا وهو حسير! ولذلك فإن الحق ﷻ قبل عرض آيات الكتاب المحكمة وهُدَاهُ المفصَّل في هذه السورة؛ قَدَّمَ تعبيرًا مبهمًا غامضًا مُوغِلًا في الإبهام والغموض، وكأنه طلسم مختوم به على كنز دفين! فقال تعالى مخاطبًا الإنسان المتلقي: ﴿ الٓمٓ ۝ ﴾ مُنبِّهًا إياه إلى أن هذا الكتاب هو من ذلك البحر الإلهي العظيم: الغيب! الذي ليس للعبد إلَّا أن يقف على شاطئه مُسَبِّحًا بحمد ربِّه مؤمنًا به، ومغترفًا مما تدفق عليه من أمواجه! ولذلك عبر باسم الإشارة « ذلك » الدال على البعد والمقام العالي! فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ... ۝ ﴾ ذلك الكتاب الذي لا يطيق الإحاطة به أحد، ولا يستطيع تحدِّيه أحد! إنه كلام اللَّه! وكفى بها حقيقةً تهدّ الكيان وتزلزل الوجدان!

ثم انبسط الخطاب إلى الناس بما يطيقون؛ عقيدةً واضحة، وتشريعًا مُحْكَمًا، وقَصصًا يُتلى عِبرةً وحكمة. فكان ذلك كله نعمةً من اللَّه وفضلًا! فلا يغرنك ذلك

الانبساط والتيسير أن تظن أن هذا الكتاب كلام كسائر الكلام! بل هو من بحر ﴿ الٓمٓ ۝ ﴾ كلام الله رب العالمين، فاسجد لربك يا عبد واخضع! ولا تكن من المرتابين المترددين! فإنه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ۝ ﴾ لاريب ولا شك في حقيقته ومصدريته! بل اليقين كل اليقين في أنه كلام الرب العظيم! نزل به الروح الأمين وحيًا محفوظًا، على قلب محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

والقرآن كتابٌ واحدٌ، منَزّل من ربٍّ واحدٍ. يتناسق سابقه مع لاحقه، ويتجاوب أوله مع آخره؛ ومِن ثَمَّ جاءت هذه الفواتح من سورة البقرة؛ جوابًا عن دعاء العبد في سورة الفاتحة: أنْ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فجاء الجواب مباشرة في مطلع السورة التي تليها: البقرة، والتي بها ابْتُدِئَ تفصيل الكتاب، جاء تحقيقًا لمقتضى ذلك الدعاء، وبيانًا لهدى ذلك الصراط. فقال: إنه ههنا في هذا الكتاب! الكتاب العالي الرفيع، الكتاب المنزَّل بالحق يقينًا من ربِّ العالمين، ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ فالهدى الذي تطلبه يا عبدُ قريب.. إنه هنا، هنا في هذا الكتاب! فالتزم شرط التلقِّي واقرأْ! هذه بَسَاتِينه تعرض جمالها وثمراتها بين يديك! وتلك معارجه ترفع روحك إلى مقام العلم بالله!

وهذا الكتاب كتابٌ! فمن معاني هذه العبارة - إضافة إلى المعنى المتداول المشهور، الدال على الشيء المكتوب تأليفًا في قراطيس وصحف - معنى يرتقي بمفهوم الكتاب إلى معنى « الرسالة »، أي الخطاب المرسَل من مُرْسِلٍ إلى مُرْسَلٍ إليه. وهذا من خصائص هذا القرآن. فهو كتاب الله إلى الإنسان، بمعنى رسالته تعالى إليه! وإنه لمعنى كونيٌّ ضخمٌ، ولَمغزًى وجوديٌّ رهيبٌ! لو تدبَّره الدارسون وتفكَّر فيه المتفكِّرون! فما أعظمها وأجلّها من حقيقة! الكتاب: رسالة الله ربِّ العالمين، وخالق الملكوت والناس أجمعين؛ إلى هذا المخلوق الضعيف الحقير: الإنسان! رسالة جاءت لتجيب الإنسان عن أسئلته الخالدة: « من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ » إنها الأسئلة التي ضلَّت عن أجوبتها الفلسفات، وضاعت في متاهاتها الخيالات! ولم تزل تقلق العقل البشري منذ أقدم العصور، أَرَقًا مُدمِّرًا، يقضُّ مضجع الحضارة البشرية إلى يومنا هذا! فمهما عرفت هذه الحضارة من تطوُّر وتقدُّم في كثير من المجالات المادية والعمرانية، فقد ضلَّت ضلالًا بعيدًا، وشقيت شقاءً شديدًا، في طريق البحث عن

سعادتها، والسعي وراء لذّتها وراحتها، لكن دون جدوى!

فالإنسان إزاء هذه الأسئلة على خيارات ثلاثة: إمّا أن يُقْبِلَ عليها بعقل مجرد، فيظلُّ يطرُق أبوابها طرْقًا فلسفيًّا، لكنه قطعًا يموت يلهث دون كشف أسرارها، فإن أتى منها بشيء كان أشبه في سذاجته بخيالات الأطفال! وإمّا أن يُدْبِرَ عنها ويُلْغِي التفكير في طلاسمها، بل قد يحظر السير بمسالكها ويمنعه قهرًا! ثم يختزل الوجودَ البشري كله - علةً وغايةً - في المتعة المادية الأرضية! ولكن ها هو ذا يعيش ويتمتع، ويغرف من الملذّات ما قُدِّرَ له، ويتقلَّب فيما يشتهي!.. ثم بعد سنوات قلائل، جِدٍّ قلائل، يشيخ أو يهرم فيموت! وينتهي كلُّ شيءٍ ويفنى! المتعة واللذة وسائر الشهوات! وهو في كِلَا الخيارين ينتهي إلى خراب ودمار!.. فواحسرتاه! واحسرتاه!

وهو في الثالث قد يُقْبِل بأسئلته الحَرَّى على خالقه، طَارِقًا باب ربِّه وسيده، مُقدِّمًا بين يديه عجزَه وفقره إليه! يدعو خاشعًا بدعاء الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ... ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فآنئذ - وآنئذ فقط - تنفتح له الأبواب وتنكشف الأسرار! فالرَّبُّ - جلَّ ثناؤه - مَلِكٌ كريم ورحمن رحيم! هنالك يتجلَّى الجواب الشافي للعبد الأوَّاب، إزاء كلِّ سؤالٍ من أسئلته المحيِّرة! هُدًى يسلك به ويجتبيه بلطف ورحمة إلى ربِّه الملك الكريم، ويضعه في فلكه الطبيعي، حتى إذا دار هونًا مع الملكوت السائر إلى اللَّه، أدرك معنى وجوده حقًّا، وأبصر وميضَ النُّورِ بالأفق الأعلى، فعرف بذلك نفسه وغايته، ثم ذاق جمال الحياة الصافي، ومُتعة العيش غير المزيفة! مُتعة حقيقية صادقة، لا تنتهي بموتٍ، ولا تذبل بمرضٍ، ولا تشيخ بشيخوخةٍ أو هِرمٍ! فَأَكْرِمْ به من هُدى وأنعم!

ذلك هو هذا الكتاب! ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾، وللمتقين فقط! الذين أقبلوا على اللَّه بقلوب واجفة، قلوب تملؤها الخشية والرهبة؛ لِمَا شاهدوا من تجليات العظمة والجلال في عالم الملك والملكوت! فوقع في قلوبهم ما وقع من خوف مقام رَبِّهم العظيم! ثم وَطَّنُوا القلب على السفر البعيد، وذلّلوا الظهور والأكتاف على حمل تكاليف العبودية، سيرًا إلى اللَّه رَغَبًا ورَهَبًا! وأما ما سوى هؤلاء، ممن يفتح صفحات هذا الكتاب بقلب غليظ، ويقرأ كلماته من برج الاستعلاء والكبرياء، يقرأ كما يقرأ أي كتاب بشري، ناظرًا إليه من عَلٍ! كي يخضعه للنقد والمساءلة والتفتيش! أما هذا الضرب من الناس، فلا فتح ولا كشف ولا هدى! فاللَّه ﷻ يغار على كلامه،

وكتابُه حصن منيع! لا تُفتح أبوابه إلا لمن أقبل عليه عبدًا! ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

فكل الناس يمكن أن يقرؤوا القرآن، لكن ليس كلهم يمكن أن يَتلقَّى هُدَاهُ! فإنما يتلقَّى هُدَاهُ المتقون!

و « الْهُدَى » اسم لمفهوم من أعظم مفاهيم القرآن! ومفتاح من أهم مفاتيحه الكبرى! وهو يُذْكَرُ ههنا - بالصيغة الاسمية - لأول مرة في كتاب اللّه، على ترتيبه التعبُّدِي. وسيصبح بعد ذلك « مصطلحًا » أساسيًا في بيان طبيعة هذا القرآن وحقيقته. وقد ورد في مواطن كثيرة جدًّا من كتاب اللّه، انطلاقًا من سورة البقرة إلى أواخر المفصّل! على نحو ما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقوله سبحانه في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣]. فسمَّى القرآن هنا بـ « الهدى »، هكذا على الشمول والاستغراق.

ولفظ « الهدى » في اللغة راجع إلى معنى الدلالة على المطلوب برفق، والإرشاد إلى الغاية بلطف! (١) تمامًا كما تأخذ بيد الأعمى التائه، فتدلُّه على الطريق بهدوء وأناة. ومن ثَمَّ فالفعل أو التعبير المبني على عنف أو غلظة لا يسمَّى في العربية هُدًى، ولو كان بقصد الدلالة! ومن هنا كان القرآن هو الهدى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ... ﴾ كما ورد في سورتي البقرة والأنعام.

فالعبد المسوق إلى ربِّه بِلَافِحِ التقوى، تتوارد الآيات على قلبه شفاءً ورحمة، وتمنحه سكينةً غامرة وطمأنينة، ثم تحدوه أنوارُها إلى ربِّه مسرورًا! كل ذلك يتلقاه بلطفٍ خفيٍّ وجمالٍ بهيٍّ، لا عَنَتَ فيه ولا تشنُّج! وإنما هو شَوْقٌ وتَوْقٌ، وخوفٌ ورجاءٌ، ومحبةٌ جامحةٌ تكاد تطير بالأكباد! فالمتقون عباد يُسَرُّونَ بخوفهم، ويَسعَدون بدموعهم؛ لِمَا عرفوا من الحقِّ عن ربِّهم! فعمَّروا دنياهم بنظام بديع، جعلوه مطيةً لمنازل آخرتهم، وركبوا الطريق إلى المحبوب، موقنين بالوصول مطمئنين بالقبول. فذلك هو الهُدى الذي جعله اللّه تعالى السِّمةَ الكبرى لهذا الكتاب!

---

(١) المفردات للأصفهاني، والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية المصري، مادة: هدي.

والتقوى مقامٌ إيمانيٌّ رفيع، هو في نفسه منازل ومقامات! تنبض مشكاته أولًا في القلب، ثم تنتشر أنوارها وتفيض على سائر الأعضاء والجوارح! فإذا صَفَتْ زجاجة الإيمان بالقلب كان للتقوى ضياؤها وتوهُّجها، وإلا فلا! ومن ثَمَّ قال سيدي الحبيب المصطفى ﷺ: (« **التقوى ههنا!** » و أشار إلى القلب!) (١).

وبما أن التقوى هي الشرط الأساس لتلقِّي الهُدَى الرَّبَّانِي؛ فقد وقف القرآن عندها وقفةَ بيانٍ خاصٍّ؛ لأن من سَلِمَ له الانطلاق رَجَا أن يَسْلَمَ له الوصول! ولذلك جعل عبارتها ههنا مُلْبِسة بصيغة اسم الفاعل « المتقين »، وفَرَّعَ أوصافَها في صيغ فعلية، تقع في الزمن الحاضر تترى: « الذين يفعلون كذا، ويفعلون كذا..! » إمعانًا في الدلالة على الحركة الحيَّة والمجاهدة المستمرة والفعل الصادق! فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ﴾.

فأول بَوَاعِثِ التقوى وأول شروط وجودها: الإيمان بالغيب. الغيب بما هو لفظ جامع لكلِّ حقائق الإيمان، من إيمانٍ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه حلوه ومرِّه، وما تعلَّق بها جميعها من الحقائق الخفية في عالم الملك والملكوت. فتلك كلها واضح أنها داخلة في مفهوم الغيب؛ لغيابها عن الإدراك البشري، وتعاليها عن دائرة عقله المحدود. لكن ربما ظَنَّ المرءُ أن الرسل والكتب ليست من الغيب؛ باعتبار أن الرسل بشر عاشوا في الأرض، وباعتبار أن الكتب هي صحف ملموسة وقراطيس متداولة. لكن الحقيقة أن كلَّ ذلك ضاربٌ في عمق الغيب؛ إذ الإيمان بالرسول ليس معناه الإيمان بوجوده التاريخي، فهذا أمر لا ينكره أحد حتى الكفار! ولكنه الإيمان بأنه نبي مرسل من عند الله، يوحَى إليه كلام الله، ويستقبله بواسطة الملك جبريل عليه السلام. وكذلك « الكتاب » معنى الإيمان به راجع إلى معنى التصديق بأنه كلام الله، أُوحِي به إلى رسول الله ﷺ! وهذا وذاك هو عين الغيب؛ إذ لا يمكن التحقق منهما حِسًّا، ولا يمكن تلقِّي حقائقهما إلا بالإيمان! ولذلك فالتعبير بالإيمان إنما هو متعلق بالمغيبات، دون الحسِّيات والمادِّيات.

---

(١) جزء حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

وكون الإيمان بالغيب أول شروط وجود التقوى، راجع إلى أن الأساس في صحَّة هذه المنزلة قائم على ما يتغذَّى به الإنسان من معتقدات أولًا. وإجمال الحقائق الإيمانية كلها في لفظ « الغيب » ههنا فيه دلالة على التسليم والاستسلام! فالعبد المؤمن بالغيب الذي لم يره - رغم ضخامة حقائقه، وثقل مقتضياته - إيمانا حيًّا مُتجدِّدًا، معناه أنه قد أسلم وجهه للَّه حقًّا وصار من المتقين! ولذلك ينتج عنه بصورة تلقائية دخوله الإرادي في فلك التعبُّد، إقامةً للصلاة وأداءً للزكاة. وهذان وصفان يعطيان للإيمان بالغيب صورته العملية، وينتصبان برهانًا على صحة وجوده بالقلب!

ومن هنا فالصلاة والإنفاق شرطان أساسيان للتحقُّق من مقام التقوى. إذ هما التجلي الفعلي الأول لحال المتقين. وقد عبَّر عن فعل الصلاة وأدائها بـ « الإقام »، كما هي في غالب مواردها بالقرآن الكريم. ومعنى « الإقام » إحسان الأداء وإتمامه حتى ينتهي إلى كمال غايته. فأَقَامَ الشيء يُقِيمُه إقامًا وإقامةً، أي: نَصَبَهُ وبَنَاهُ بشكل مستقيم. قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [الكهف: ٧٧] فالإقامةُ رَصٌّ وبناءٌ، وإصلاح للشيء حتى يكون على تمام الاستقامة. ومن ثَمَّ فإقام الصلاة معناه: إقبال العبد بصلاته على ربِّه تعالى بالكلية؛ بإتمام خشوعها وركوعها وسجودها، وسائر أركانها، وتحقيق أذكارها من تلاوة وتسبيح ودعاء (١). فالصلاة تعبير عن عبودية الجسم والروح معًا للَّه ربِّ العالمين. ومن لا صلاة له فلا دين له! بَلْهَ أن يسلك بمدارج المتقين!

وأما الإنفاق فهو التعبير عن المملوكية الكاملة للَّه؛ إذ يَخرج العبد عن شعوره بالملكية لأي شيء! فالعبد الحق مملوك، والمملوك لا ينبغي أن يكون مالكًا! ولذلك فهو يشاهد حقيقة المال والمتاع الذي ابتُلي به، أنما هو رزق اللَّه، عَهِدَ به إليه ربُّه على سبيل الإيداع والاستئمان؛ ليتصرف فيه على مقتضى ما أمر اللَّه، لا على مقتضى ما تشتهيه نفسه وتمليه أهواؤه. فالابتلاء بالغنى هو من أشدِّ أنواع الابتلاء في طريق السير إلى اللَّه. فمن تلقى كلمات اللَّه فيه بقوة وأتمهن، تصرف في ماله عبدًا لا سيدا! فصرفه في وجوهه مما أذن له فيه سيده أو أمره به، إنفاقًا في وجوه الخير

---

(١) روي نحو ذلك عن ابن عباس ﷺ وقتادة وغيرهما. ن. تفسيري الطبري وابن كثير.

المشروعة وجوبًا وندبًا. وضنَّ به على وجوه الفساد، مما لا يرضاه ربُّ المال ﷻ !

ثم إن المتقين عبادٌ خاضعون للشريعة كلِّها، لا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كما أنهم - تبعًا لذلك - مؤمنون بالرسالات كلِّها، لا يفرِّقون بين أحد من الرُّسل، وهم لربهم مسلمون في ذلك كلِّه. لسان حالهم ومقالهم في كلِّ ما أمَرَ ونَهَى: « سمعنا وأطعنا! » ذلك هو الوصف الشَّرطي الرابع لصحَّة تخلق المسلم بحلية التقوى.

وأما الوصف الخامس فهو تحقيق اليقين باليوم الآخر: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ ورغم أن الإيمان باليوم الآخر داخل في مفهوم الإيمان بالغيب، فقد أفرده القرآن الكريم بالذِّكر ههنا خاتمة لصفات المتقين؛ باعتبار أن الاعتقاد بالبعث والنشور والحياة بعد الموت، كان وما يزال لدى الكفار، مدار جدل شديد ومثار شكوك وإنكار! وعرب الجاهلية - وكثير ممن قبلهم - وإن كانوا يؤمنون بوجود اللَّه تعالى لم يكونوا يصدِّقون بالبعث! قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد: ٥] وبهذا التشكيك شكَّكوا في الرسالة كلِّها! وجعلوه سببًا للطعن في النبوة، وفي صِدْق الرسول ﷺ! ومِن ثَمَّ طلب الحق تعالى التحقق بوصف الإيمان بالآخرة على درجة اليقين! لأنه إيمان حاكم على ما قبله وجودًا وعدمًا! فمن لم يؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار؛ فلا قيمة لإيمانه باللَّه أو ملائكته أو كتبه ورسله! وأنَّى له بعد ذلك أن يصلِّي أو يزكِّي وهو لا يرجو ثوابًا ولا عقابًا!؟ ومِن ثَمَّ كان من صفات المتقين بعد الإيمان العام باليوم الآخر ضمن مفهوم الغيب - تحقيق اليقين به! ولذلك ما قُرِنَ شيءٌ بالإيمان باللَّه في الكتاب والسنة أكثر من الإيمان باليوم الآخر؛ للدلالة على مركزيته في منظومة الإيمان الكلية ضمن العقائد الإسلامية. وهو في القرآن كثير، من مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ... ۝ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢] وهو كذلك في السُّنة النبوية كثير [١].

تلك أوصاف خمسة للمتقين، وهي شروط صحَّة للتحقق بأول مدارج التقوى!

---

(١) منه قوله ﷺ: « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليَحسن إلى جاره! ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلُيكرم ضيفه! ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت! » متفق عليه.

فهؤلاء هم الذين يتمكَّنون من تلقي الهُدى القرآني ونوره، وهم الذين يفوزون برضا ربهم في الدنيا والآخرة. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾. وقد جاء التعبير هنا بجملتين اسميتين بعد وصف المتقين بجمل فعلية متتابعة؛ لبيان أن تلك الحركة الفعلية السائرة بتلك الشروط، آئلة إلى هذا القرار الثابت، الذي لا يتغير ولا يتبدل: الهُدى والفلاح! فمجاهدة النفس في طريق التقوى، استمدادًا من الغيب بصورة فعلية متجددة، وإقامًا للصلاة وإنفاقًا في الخير، وتعميقًا مُتجددًا لحقيقة الإيمان بالوحي كله، وتوطين القلب على الخضوع الكلي لأحكامه ومقتضياته، وحمل النفس على الترقي إلى مقام اليقين بالآخرة، في سيرها بتلك الأعمال كلها مجاهدةً ومكابدة! كل ذلك مُفْضٍ في النهاية إلى ضمان آمن، وسعادة خالدة، ونعيم مستقر، لا خوف فيه من تغيُّر حال أو تقلُّب زمان، بل هو كمال الأمان، فنعم الوصول!

ومن ثَمَّ جعل اتصاف المتقين بالهُدى ههنا مستندا إلى حرف الجر « على »؛ للدلالة على تمكنهم من هذا الهدى وتحققهم به! قال تعالى: ﴿ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ... ۝ ﴾. ومن سار في طريقه على هُدى من ربِّه وصل. وذلك هو عين الفوز والفلاح. وليس دون ذلك سوى الضلال والخسران المبين!

ذلك هو الكتاب: كلام اللَّه ربِّ العالمين ورسالته إلى الناس أجمعين. وتلك هي حكمته: الهُدى لمن آمن به وتلقاه على شرطه. وذلك هو شرطه: تقوى اللَّه ﷻ .

هذا، وإن البشرية إزاء هذا الهدى على ثلاثة أصناف، فَصَّلَهُم الحقُّ تعالى في مطلع هذه السورة، هكذا على هذا الترتيب: مؤمنون، وكافرون، ومنافقون. وجعل لكلِّ صنف أوصافًا وعلامات. فأما المؤمنون فقد تقدَّم بيان صفتهم الجامعة، وهي: التقوى بما تفرَّع عنها من أوصاف وشروط. وأما الكفار والمنافقون، فتلك قضية المجلس الثاني بحول اللَّه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو يتضمَّن **ست رسالات**، هي كالتالي:

الرسالة الأولى: في أن القرآن هو الكتاب! الكتاب الذي به منهاج بناء الأمة من الفرد إلى الجماعة. فهو الدليل المرشد للدعاة الصادقين والمجددين المخلصين. لا مسلك

لهم سواه. ومِن ثَمَّ وجبت مجاهدة النفس به، تلاوةً وتزكيةً ومُدارسةً؛ لتلقي هُداه الرباني، الذي به تستنير الطريق وتتضح الرؤية. فالقرآن ببياناته النبوية سُنَّةً وسيرةً، هو المصدر الأوحد للمؤمنين الصادقين دينًا ودعوةً. ما من كتاب - مهما كان فيه من خير - إلا وجب أن يكون تحت كتاب اللَّه! وما من برنامج - مهما تضمَّن من حكمة - إلا وجب أن ينبني على آياته وكلماته! فهو المنهاج وهو البرنامج وهو التصوُّر وهو الاستراتيجية! ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه اللَّه! ومِن ثَمَّ فلا غنى للداعية من الصبر على مكابدة آياته حتى يستنير بصره بهداه!

الرسالة الثانية: في أن الاستفادة من القرآن، إنما تحصُل للقلوب الضارعة! القلوب التي طرقت بابه بافتقار كامل، وتلت آياته حقَّ تلاوته! وحقُّ التلاوة معناه: أن يكون القارئ مدركًا بصورة شعورية، حية نابضة، أنما هو يتلقى كلامًا من ربِّ العالمين! فلا يقرأ آيةً ولا يتلقَّى شيئًا من هُدَاهَا إلا بما يجد في قلبه من الرهبة والجلال! ذلك أن هذا القرآن هو كتاب اللَّه ورسالته إلى خلقه، كتاب أوسع من أن تُحيط بكلماته العقول، وأعمق من أن تسبر غوره الفهوم! وإنما يَتَلَقَّى منه الهُدى مَنْ جاء إلى ربِّه يسعى وهو يخشى: المتقون!

الرسالة الثالثة: في أن الهُدى هو جوهر الرسالة القرآنية، وهو أعظم نعمة على الإطلاق أنعم اللَّه بها على البشرية، لمن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر. كل نعمة بدونها تنقلب على صاحبها نقمة! فالهدى هو حاجة العبد الصادق، فلا يزال يطلبه داعيًا ربَّه، ومُصليًا له، وسائرًا إليه عبر أحوال الليل والنهار، يتلو كتابه ويتدبَّر آياته، ويتفكَّر في خلق السموات والأرض. فإذا أُوتيه فقد أُوتي كل شيء! وإذا حُرِمَهُ - والعياذ باللَّه - فقد حُرِمَ كل شيء!

وبالهُدى وجب أن يُخاطِب الداعيةُ إلى اللَّه الناسَ كلَّ الناس، يُعَرِّفهم بحقيقته، ويكشف لهم عن ضرورته، وعمَّا هم فيه من عمى ومن ظُلمات وضلال! ويُنذرهم مغبة الانصراف عنه، بله معاداته ومحاربته! وخلاصة الهدى: أنه بيان اللَّه لعباده منهاجَ عمران حياتهم الدنيا والآخرة، بما ينالون به سعادة الدارين. فذلك هو الصراط المستقيم. وإنما الهُدى كل الهُدى هو بيان ذلك الصراط وتَبيُّنُهُ. قال ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وقال لرسوله ﷺ:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

تلك وظيفة رسول اللّه ﷺ، فأنّى لداعية إلى اللّه أن يخرج عن مقتضاها؟

الرسالة الرابعة: في أن التقوى أول مقام - بعد التوبة - يجب على المسلم التحقُّق به لاستقامة سَيْرِهِ إلى اللّه، ولإصلاح معاشه ومعاده. والعبد لا ينجو حتى يكون متَّقيًا. ولا يصحُّ هذا الوصف في حقٍّ أحد إلا بالتزام أركان الإسلام وأصول الإيمان، والانقطاع عن كبائر الذنوب والمنكرات، والسير على مقتضى ذلك رَغَبًا ورَهَبًا. فتلك هي التقوى، وذلك حدُّها الأدنى الذي يُخَاطَبُ به عموم المسلمين. أما منزلها الأعلى فدونه مُكَابَدَاتٌ ومجاهدات، هي في حقِّ الدعاة إلى اللّه شرط للتمكن من التلقي عن القرآن الكريم بصفاء تامٍّ! وحَدُّ هذا المنزل أن يرتقي المتقون بتقواهم من درجة الخوف إلى درجة الوجل؛ بما عرفوا من الحقِّ! إذ الوجل: خوف أعلى؛ لأنه خوف مشاهَدة! ولأن صاحبه يكون أعرف بمقام اللّه العظيم وأعلم! فهو خوف يصحبه اضطراب في القلب وقشعريرة في البدن. وقد نقل سفيان الثوري بسنده عن أم الدرداء أنها قالت: (الوَجَلُ في القلب كاحتراق السعفة! أما تجد له قشعريرة؟) [1] ولذلك فآية أصحاب هذه المرتبة أنهم متى ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قلوبهم! وإذا قُرِئَ عليهم القرآن اقشعرَّتْ جلودهم! فهؤلاء هم « المؤمنون حَقَّ الإيمان »، الذين ذكرهم اللّه جلَّ ثناؤه في سورة الأنفال، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] وهم المذكورون أيضًا في سورة الزمر، في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

الرسالة الخامسة: في أن الاستمداد الدائم من الغيب إيمانًا مُتَجَدِّدًا، واستحضارًا

---

(١) تفسير ابن كثير لقوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

متواصلًا لحقائقه في كلِّ خَطْرة وخُطْوة، وقراءةً لحوادث عالم الشهادة في ضوئه، ومحاولةً لتلقِّي إشاراته في توجيه الحياة الفردية والجماعية، هو صمام الأمان لعصمة السائر إلى اللَّه من الزلل والضلال. فالمؤمن المهمل لهذا الأصل العظيم لا شك يصطدم في طريقه بعوائق وبلايا. كما أن الداعية إلى اللَّه مفروض في حقِّه أن تكون له نافذة واسعة، مُشْرعةُ الأبواب أبدًا إلى أفق الغيب، يستمد منه السداد والرشاد. وذلك إنما يكون بتخليص الأعمال والعبادات، وتصفية المناجاة وإخلاص الدعاء والابتهالات، حتى تشفَّ روحه، ويتوهَّج قلبه بنور اليقين! فلا يرى بعد ذلك إلا بنور اللَّه!

الرسالة السادسة: في أن تحقيق اليقين باليوم الآخر، وما يتضمَّنه من مشاهد ومواقف، هو الحادي الذي يسوق جميع الأعمال التعبدية.. يُنشط سيرها ويُصفي حقائقها، ويُخَلِّصها من الشوائب والأهواء. ومِن ثَمَّ وجب على المؤمن - بَلْهَ الداعية إلى اللَّه - أن يجعل هذه المنزلة غايته: اليقين بالآخرة! يجاهد نفسه في سبيلها حتى يتخلَّق بها ويتحقَّق. ذلك أن المسلم يؤمن بالآخرة أوَّلًا إيمانَ تصديق، فيكون عمله لها على قدر ذلك التصديق. وهو الحد الأدنى الذي به يصحُّ إسلام المرء، وبفقده يكفر! لكن المطلوب هو الترقِّي في مراتب هذا الإيمان من مجرد التصديق إلى مرتبة التحقيق، والتحقيق: الاجتهاد في مطابقة التصديق للأعمال على الكمال. ثم الترقِّي من التحقيق إلى مرتبة المشاهدة القلبية والمعاينة الروحية، بحيث يعيش دنياه الآن وكأنه في الآخرة! يشاهد درجاتها ودركاتها في كلِّ خلواته وجلواته، فتجري أعماله على وفقها مطواعةً سلسة، بل لا يجد في قلبه راحة حتى يكون بين يدي ربِّه مُتبتِّلًا! قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩] فذلك هو كمال اليقين. جعلني اللَّه وإياكم من أهله، بفضله تعالى وتوفيقه!

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسلك التخلُّق برسالات هذا الهدى، **فهو يتحقَّق بثلاثة أمور:**

الأول: مصاحبة كتاب اللَّه، واتخاذه رفيق حياة! ومناجاة الرحمن من خلاله بالليل والنهار، ثم جعل سوره وآياته مدارج ومعارج للتعرف إلى اللَّه، واتخاذها حديث المجالس، ومثار التدبُّر والتدارس، حتى ترتبط روحك به ارتباطًا، ويصير لكلِّ

سورة منه في قلبك لذة وذوق، وحنين وشوق! تسافر من أجله، وتبحث عن أهله، وتَجِدُّ في طلب علمه.

وأما الثاني: فهو الاجتهاد في التخلُّق بالصفات الخمس - التي هي شروط وجود التقوى - والترقِّي بها إلى أعلى غاياتها ومنتهى كمالها، إتقانًا وإحسانًا، من إيمان بالغيب، وإقام للصلاة وإنفاق للمال في وجوه الخير، وإيمان بالوحي كله أوله وآخره، ثم طلب اليقين بالآخرة.

وأما الثالث: فهو مطالعة أحوال المتقين، في سيرهم إلى ربِّ العالمين. وأتقى الناس إنما هو سيدنا رسول اللَّه، عليه وعلى آله أفضل الصلوات والتسليم. فقد قال: « **أما واللَّه إني لأخشاكم للَّه وأتقاكم له!** »[1] فَتُطَالِعُ سيرتَه ﷺ في هذا الشأن، وتنظر أحواله مع ربِّه في سفره وحضره، وليله ونهاره. فهو ﷺ خير أسوة لأهل التُّقى، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ثم تُطَالِعُ بعد ذلك سِيَرُ الصحابة والتابعين، وسائر العلماء الربانيين من أهل الصلاح والتُّقى، الذين غضُّوا أبصارهم عن محارم اللَّه، وكفُّوا أيديهم وأرجلهم عن الاقتراب من حدود حماه، ومنعوا ألسنتهم من الخوض فيما يُغضب اللَّه، ثم باتوا مُتَبتِّلين بين يديه، باكين فَرَقًا وخشيةً من مقامه العظيم، تلهج ألسنتهم بذكره تعالى ودعائه، مناجين ربَّهم في خلوات الليل، مُستغفرين ومُتضرِّعين، بقلوب وَجِلَةٍ وعيون دامعة، ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]. فإن ذلك كله مفيد جدًّا في شحذ الهمم على ركوب طريق التقوى والصبر على ابتلاءاتها، وعقد العزائم على الترقي بمدارجها. وما التوفيق إلا باللَّه.

* * *
* *
*

---

(١) متفق عليه.

المجلس الثاني

في مقام التلقي لأسباب الحجب عن الهدى
بين ظلمات الكفار وأمراض المنافقين

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝ ﴾.

٢ - البيان العام:

تَاهَتِ البشرية دهرًا طويلًا في ظلمات الجاهلية والضلال، وتخبَّطت في غيِّها تخبطًا شديدًا! وعَانَتْ من الويلات والشرور ما جعل حياتها ضنكى، وتساقطت أجيالها قرونًا بظلماتها هلكى، ولا من يقدح لها شعلة نور! حتى إذا تجلَّت رحمة اللَّه على العالمين، تفتحت أبواب السماء بنور مبين! فنزل هذا القرآن ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ فتلقَّى المؤمنون رحمةَ ربهم، واحتضنوا هُداه بأجنحة التقوى، فكانوا هم المفلحين. واستكبرت طائفتان من الناس: الكفار والمنافقون، أعرضوا عن سماع كلام اللَّه، واستكبروا عن الخضوع لهُداه، فكانوا هم الخاسرين!

وكما جعل اللَّه لمسلك التقوى أوصافًا، فقد جعل أيضًا لمسلك الكفر والنفاق أوصافًا، كشفت حقيقة كلتا الطائفتين كفارًا ومنافقين، وبيَّنَتْ أمراضهما، تحذيرًا للمؤمنين من عدواها، وبيانًا لمنهج التعامل معهما، في سياق بناء الأمة المسلمة، وتركيب نسيجها.

فالإنسان المواجَه بهذا القرآن المدعو إلى هُداه، إما قابل له أو رادّ له، وإما متردد في شأنه شاكٌّ في أمره، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. **فهذه أصناف ثلاثة:**

فالصنف الأول هم الذين قَبِلُوه وهم المؤمنون المتقون، وقد تقدم بيان مسلكهم بالمجلس السابق.

وأما الصنف الثاني: فهم الذين ردُّوه وهم الكافرون. وقد حصر اللَّه تعالى طبيعتهم في آيتين اثنتين، جامعتين لكلٍّ ظلمات الكفر وخبائثه! وبيَّن بذلك منهج التعامل مع هذه الطائفة خلال الدعوة إلى اللَّه وبناء صرح الأمة أو تجديده. فقال لرسوله ﷺ ولكلٍّ داعية بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ فهذا كشف دقيق لطبيعة الكفر، وبيان لحقيقة الكفار. إنه تعريفٌ للكفر الخالص، وتشخيص لدائه الوبيل! فالرسول ﷺ مأمور بأداء بالبلاغ؛ ولذلك فهو يدعو كل الناس، فمن آمن فقد آمن، ومن كفر فلا يزال النبي - عليه الصلاة والسلام - يجتهد في عرض بَلَاغِه عليه بشتى أنواع البيان؛ عسى أن تنكشف الظلمة على من غلبته الشبهات والشهوات. وتلك هي وظيفة الرسل والأنبياء. فلربما استيقظت فطرة الإيمان في قلب أحد من هذه الطائفة، فيلتحق بمن سبقوه إلى الإيمان ويكون من المسلمين.

بَيْدَ أن اللَّه عَلِمَ أن حثالة من البشر ستبقى على الشَّرِّ؛ لأنها آمنت بالشيطان عن وعي، واتخذته إلهًا من دون اللَّه الواحد القهَّار! فهؤلاء هم الكفار حقًّا، قد غضب اللَّه عليهم وحجب عنهم الهُدى! فأخبر رسوله ﷺ وكل داعية إلى الخير بعده، ألا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات! إنهم لن يسلموا أبدًا! لكنه جعلهم - من حيث أعيانهم - نكرة داخل مجموع؛ لتستمر عبادة اللَّه بالدعوة إليه إلى يوم القيامة، ينال فيها الدعاة ما ينالون من المشقة والمطاردة والتنكيل؛ ابتلاء لهم ولأعدائهم؛ ليسعد من سعد برحمة اللَّه، ويشقى من شقي بعدل اللَّه!

وبهذا التقرير تبين أن من عَلِمَ اللَّهُ أنه سُيسلم من الكفار، بعد بلوغ الدعوة إليه، غير داخل تحت حكم الآيتين المذكورتين في حقِّ « الذين كفروا »، ولا هو مقصود بأوصافهما؛ لأنه وإن كان كافرًا في الحال فهو مُسلم في المآل. وأما الكافر المختوم على قلبه فهو الكافر حالًا ومآلًا! فهؤلاء هم الكفرة المردة! الذين طغوا وتجبَّروا واستكبروا عن سماع نداء الرحمن! والقرآن أرشدنا إلى أنه ليس لنا أن نُعَيِّنَهُمْ تعيينًا،

فليس ذلك من وظيفتنا ولا من مقدورنا. ولكن يكفينا أن نُوقِن أنهم موجودون؛ لنعرف كيف نعبد رَبَّنا وندعو إليه، وكيف نجدِّد ديننا ونبني أمتنا، في عالم فيه هذه الزمرة الخبيثة، تحارب الخير وأهله وتكيد لهم كيدًا! وتلك حكمة من أغلى حِكَمِ هذه الآيات!

فالكفر صفة خبيثة، وصف الله بها الذين جحدوا الحقَّ وأنكروا الهدى، واستكبروا أن يكونوا عبادًا لله الذي خلقهم! فأصرُّوا على جحودهم وقلبِهم للحقائق، إذ الكفر في اللغة: تغطية الشيء وتعميته. وهؤلاء غطُّوا وجه الحقِّ بباطلهم وجحدوه! وانتصبوا له أعداء مُصْطَفِّينَ في صفٍّ إبليس عدو الله ربِّ العالمين! فهذا الضرب الشرير من الناس لا تنفعه نذارة نذير ولا بشارة بشيرٍ! واقتصر في الآية على ذكر النذارة دون البشارة؛ لأنها أبلغ في بيان قساوة القلوب التي لم يمسها خوف من الله الواحد القهار!

إن هؤلاء قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، بمعنى أنه ﷻ طبع عليها وغلَّقها تغليقًا؛ فهم لذلك لا يفقهون ولا يسمعون! فأنى يبصرون إذن طريق الهدى؟ ولذلك قال: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ بمعنى أنه صارت على أبصارهم غشاوةٌ، أي حجابٌ وغطاءٌ من الضلال، فلا يرون من نور الهدى بصيصًا! وقدَّم في الآية خَتْمَ القلبِ على ختم السمع، وجعل غشاوة البصر آخِرًا؛ لأن داء الكفر يستولي على القلب أولًا، فإذا وطَّن له أكنافَه استكبر صاحبُه وطغى؛ فجازاه الله بالختم عليه! ومنعه بعد ذلك من سماع الحق، ثم جعل عاقبته العمى، فلا يهتدي في حياته سبيلًا!

فبكفر هؤلاء واستكبارهم على الله ورسوله عاملهم الحق ﷻ بعدله! وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [النساء: ١٥٥] وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥] وأَحْكَمَهُ بقوله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. أي أطبق على قلوبهم وهيمن على أهوائهم ما كانوا يكسبون من الذنوب والموبقات، وما غرقوا فيه من العشق الشيطاني للشهوات والمنكرات؛ بما جعلهم لا يَقبلون عن كفرهم بالله وتمرُّدهم عليه بديلًا! فلذلك غضب الله عليهم وختم على جميع منافذ النور من جوارحهم! وحكم عليهم بعذاب عظيم يوم القيامة والعياذ بالله!

فهذا صنفٌ من البشر موجود يعيش في الأرض، نَبَّهَ إلى خطورته القرآن. صنفٌ اسْتَمْرَأَ الظَّلام وتغذَّى بالفساد، يتأذَّى بالنور ويخاف سماع خطابه! ويرفض أن تتسع دائرة الهدى؛ ولذلك انتصب لها ولأهلها عدوًّا!

وأما الصنف الثالث: فهم الذين ترددوا إزاء الإيمان بهذا الكتاب، ولم يستطيعوا حسم موقفهم منه، حتى آل أمرهم إلى اختيار شيطاني خطير! وهو أن يكونوا مع الطرفين، ويجمعوا بين النقيضين في وقت واحد! والدافع إلى ذلك هو أنهم لم يصدقوا في الواقع من الوحي شيئًا، بل استكبروا على الله ورسوله استكبار الصنف الأول سواء! وودُّوا لو استطاعوا التصريح بكفرهم وجحودهم، لكن ظروف الهجرة إلى المدينة، واجتماع كلمة أهلها على نصرة دين الله ورسوله ﷺ، ألجم أفواههم خوفًا على مصالحهم، وقد كانوا من أهل يثرب، بل كان بعضهم من سادة أهلها ومن الشيوخ المقدَّمين في قبيلتَيْها: الأوس والخزرج! ففضلوا المداهنة والتظاهر بالإسلام إلى حين؛ طمعًا منهم في أن قصة هذا الدين ستنتهي بهجوم عسكري من العدو المتربِّص به، أو بموت رسوله الكريم! كذلك غرَّهم الشيطان! ولذلك سمَّاهم الله تعالى: منافقين! وفضحهم القرآن في غير ما سورة وآية، بل أنزل في شأنهم سورة كاملة، وسمَّاها باسمهم: « المنافقون »! وفصَّل في أوصافهم تفصيلًا! لِمَا سيأتي بيانه من الفقه والحكمة إن شاء الله.

والمنافق في اللغة: هو الذي يمشي تحت الأنفاق أي داخل السراديب المظلمة التي تحت الأرض، ومِن ثَمَّ كانت العرب تُسَمِّي الضبَّ منافقًا؛ لأنه يجعل لجحره عدة أبواب تمويها على مطارده، فإذا دخل من باب لم يدر صياده بعد ذلك من أيها يخرج! ولذلك جعل الله هذه الصفة اسمًا لمن يُظهر الإيمان ويبطن الكفر بإطلاق. ولفظ « النفاق » ومشتقاته وإن لم يرد في سورة البقرة تصريحًا، فإنه صار بعد ذلك هو المصطلح الشرعي الثابت لهذه الطائفة الخبيثة. لأن سورة البقرة هي من أول ما نزل بالمدينة حيث نشأ النفاق، فشرحت المفهوم أولًا، ثم نزل القرآن بعدها بالمصطلح تسمية وضبطًا لهذا الصنف من الناس. ومن هنا فقد احتفلت سورة البقرة بتشريح نفسي دقيق لأحوال المنافقين وطبائعهم؛ بما جعلهم مفضوحين مكشوفين!

والكفر الصريح إنما يكون بدار الكفر، أو بالبيئة التي يظهر فيها الباطل على الحقِّ،

ويغلب فيها الشرُّ على الخير! وأما النفاق - وهو الكفر العقدي الخفي - فإنما يكون عادة بالبيئة التي يظهر فيها الحقُّ على الباطل ظهورًا كليًّا. كما كان الحال في العهد النبوي والعهد الراشدي، وما لحقهما من عهود الخلافة الإسلامية عبر التاريخ. كما يكون أيضًا بالبيئة التي يظهر فيها الحق على الباطل ظهورا جزئيًّا، كما هو حال بعض الأقطار الإسلامية بزماننا هذا! ولذلك فإن النفاق لم يكن بمكة قبل الفتح. كما أن الكفر الصريح لم يكن بالمدينة بعد الهجرة.

ولخطورة أهل هذا الصنف على المجتمع الإسلامي، وتهديدهم المستمر لكيانه؛ فصَّل القرآن في طبيعتهم وصفاتهم؛ حتى لا يغترَّ بهم المؤمنون وهم يبنون صرح الأمة أو يجددون عمرانها، بل حتى يحذَروهم أشد مما يحذَرون الكفار المجاهرين بالكفر! ويحتاطوا لدينهم ودعوتهم منهم أشد احتياط! ولذلك جعلهم في جبهة العداء الصريح، فقال في سورة « المنافقون »: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤]. وقوله: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ معناه العدو الأخطر والأكبر!

ومن ثَمَّ بدأ في سورة البقرة ههنا يكشف عن طبيعتهم النفسية بتفصيل، ويشخص أحوالهم المرضية بدقة، ويحلِّل شخصيتهم وسلوكهم، بصورة تجعل زمرة المنافقين معروفة لدى المؤمنين مفضوحة! جاء ذلك بدءًا من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾.

فاتقاءً لوصفهم بصفة « الكفر »، ولِمَا لها من تبعات سيئة على مصالحهم، رفعوا شعار الإيمان ظاهرًا! فقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾، لكن اللَّه - جلَّ وعلا - فضحهم ونفى عنهم هذه الدعوى وكذبهم بها! فقال: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وعبَّر بالجملة الاسمية المنفية؛ للدلالة على ثبات النفي ومطلق التكذيب! في مقابل تصريحهم المراوغ: ﴿ ءَامَنَّا ﴾، فإيمانهم باللَّه مشوب بالشرك الأكبر، مختلط بظلمه وظلماته! وأما الآخرة فواقع أمرهم أنهم لها منكرون! فهم ما يزالون على أصلهم من الجاهلية العمياء! وبسبب بقائهم على العقيدة الجاهلية، لم تزل تصوراتهم عن الربوبية فاسدة، حيث كانوا يظنون بجهلهم أن اللَّه ﷻ لا يعلم سرائرهم ولا نجواهم،

وأنه تعالى لا يستطيع أن يطَّلع على ما يسرُّون؛ إلَّا إذا صرَّحوا بذلك لرسوله، أو لمن يوصل الخبر إليه! فانظر إلى جهلهم باللَّه وسذاجتهم، وإلى سفه عقولهم! ألا سبحان اللَّه عما يصفون!

وبناء على هذا الاعتقاد الفاسد جعلوا يخادعون اللَّه والذين آمنوا، مطمئنين إلى فلاحهم ونجاحهم في التمويه والتحايل، إلى حين تواتيهم الفرصة للغدر والانقضاض على المؤمنين! فكشف اللَّه ﷻ حقيقتهم للمؤمنين، مبينًا أن وبال هذه المخادعة آئلٌ عليهم بالخسران المبين! فمن خادع اللَّه إنما هو يخادع نفسه ويحكم عليها بالهلاك! وكيف يُخدع اللَّه تعالى وهو الذي: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] ألا ما أجهلَم باللَّه خالقهم وخالق الناس أجمعين!

وقد قرأ نافع بصيغة فعل المشاركة في قوله تعالى: « يخادعون » في الجملتين: الأولى والثانية؛ للدلالة على وحدة الفعل فيهما، وأن حقيقة مخادعة اللَّه إنما هي عين مخادعة النفس؛ لأن اللَّه جلت عظمته لا يُخْدَعُ أبدًا! وقرأ عاصم بفعل المشاركة في الأولى، وبالفعل المجرد منها في الثانية، فقرأ: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾؛ للدلالة على مآل مخادعة اللَّه ونتيجتها، أي أن هذه المخادعة الوهمية تنقلب على صاحبها في النهاية! وكلتا الصيغتين مفضية إلى نفس النتيجة، وهو الخسران المبين. ولكن المنافقين لا يشعرون بذلك؛ لجهلهم باللَّه وبمقامه العظيم. فهذه أول صفة النفاق: الجهل بحقيقة الربوبية وشؤونها العظمى!

ثم شرع تعالى في بيان الصفة الثانية، وهي صفة مَرَضية نفسانية، تحلُّل شخصية المنافق وتفضحها، وتفسّر سلوكه المخادع، قال سبحانه: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ فوصف ما بقلوبهم من النفاق بالمرض؛ لأن قلب المنافق يُعَاني من ازدواج الشخصية وانفصامها، ومن علل الاضطراب والتذبذب والجبن، وعدم الاستقرار على موقف واضح صريح! وهذه شخصية مهزوزة لا تكاد تستقر على حال، تعاني من الوسوسة والخوف والشكوك، إلى درجة مَرضية قاتلة! وبهذا وصفهم اللَّه تعالى في سورة « المنافقون » قال: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المنافقون: ٤] وكذلك في سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ

يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧] وبإصرارهم على هذه الوضعية المرَضية، وعدم إقبالهم على دواء القرآن الكريم، مستشفين ومستغفرين، طائعين لله ورسوله بصدق؛ عاقبهم الله ﷻ بزيادة مرضهم، وأركسهم في اضطرابهم، فهم يعيشون بين المؤمنين في ضنك شديد وقلق مديد! ثم جعل تعالى مصيرهم إلى عذاب أليم هو أشد وأدهى؛ لفظاعته وخلوده! وربط هذا الجزاء الرهيب بتكذيبهم لرسول الله ﷺ وبكذبهم على الله وعلى الذين آمنوا. فبذلك وردت القراءتان عن نافع وعاصم، فقرأ الأول: (بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ) وقرأ الثاني: (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). وبذلك جمع المنافقون بين الشرَّين! فاستحقوا عقاب الدنيا مرضًا نفسيًّا مدمرًا، وعقاب الآخرة عذابًا أليمًا، والعياذ بالله!

ولطبيعة المنافق وشخصيته أوصاف أخرى نجعلها للمجلس اللاحق بحول الله.

٣ - الهدى المنهاجي:

وأما الهدى الذي تكشف عنه هذه الآيات، الواردة في التعريف بالصنفين الأخيرين من البشرية: الكفار والمنافقين؛ فنجمله في **الرسالات الخمس** التالية:

الرسالة الأولى: في أن الكفر المحض شرٌّ محض! وأن قلب الكافر مغلق على ظلمات بعضها فوق بعض! والشر المحض هو خاصية إبليس - نعوذ بالله منه - وهو قد توعد البشرية بالإضلال! فلا بد أن يكون أولياؤه على نهجه، من التعرض للخير بالحرب والانتصاب له بالأذى! والداعية مأمور ببلاغ الدعوة إلى كل الناس؛ لأن الكفار ليسوا سواء، فمنهم من إذا بلغته الدعوة لَانَ قلبه لله فأسلم، ومنهم من تمحَّض للكفر عن عِلْمٍ تام، وبايع الشيطان على الضَّلال والإضلال! فلا بد للداعية من استحضار هذه الحقيقة في طريقه، تمامًا كما يستحضر خطرَ الشيطان في حياته؛ فيتخذ منه حذره واحتياطه!

والعالَم اليوم صار قريةً واحدةً، متقارب الزمان والمكان، ومِن ثَمَّ ازداد احتكاك الخير بالشرِّ، وكما أن الخير صار يطمع في الانتشار في كل مكان، فكذلك الشر هو للخير بالمرصاد في كل مكان! والداعية الذي يعمل في نقطة صغيرة من الأرض، ويظن أنه ودعوته بمنأى عن أذى الكفار؛ هو جاهل بطبيعة الزمان وبطبيعة الكفار! بل لا بد له

من مراعاة ذلك كله في الدعوة إلى الخير والمجاهدة بالقرآن، فيسدد الأعمال ويُحْكِمُهَا، ويوازن الخطوات ويضبطها، ويَحكم على الحال بمظنون المآل. عسى أن يسهم في تجديد الدين بحكمة، ويسلك إلى رَبِّه في غير فتنة.

الرسالة الثانية: في أن على الداعية أن يجتهد في تمييز طوائف الكفار، ومراعاة مِلَلِهِمْ ومذاهبهم وأهوائهم، عسى أن يصل إلى تمييز من يغلب على الظن قبولهم للحقِّ واستجابتهم للهدى متى بُيِّنَ لهم، ومن لا قابلية لهم لذلك، ممن طبع الله على قلوبهم! هذا على الإجمال، إذ الداعية - بطبيعته البشرية - لا قدرة له على التعيين والتدقيق فيمن يهتدي أو لا يهتدي، وما كُلف بهذا بل هو أمر بيد الله. وإنما المقصود قراءة العلامات العامة والإشارات الربانية الواردة في كتاب الله، حتى لا يشغل باله ويهدر وقته بمجادلة من ختم الله على قلبه! فإنما هي دعوة يبلغها تمام بلاغها لكافة الناس، ثم يفرغ لهؤلاء المحرومين من وصول شعاع الهدى، الذين إذا عرفوه أقبلوا عليه باكين مستغفرين! قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] أي ذلك حالهم بعد إسلامهم، فإنهم إذا عرفوا الحق أخذوه بقوة! وكثير من الشعوب غير المسلمة اليوم ممنوعة بقوة السلطان والإعلام من تلقي نور الهدى!

الرسالة الثالثة: في أن النفاق ظاهرة مستمرة في البيئة الإسلامية إلى يوم القيامة! ولذلك قال تعالى عند بدء توصيفه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... ﴿٨﴾ ﴾ الناس بما للعبارة من عموم وشمول، هكذا مجردة عن قيود الزمان والمكان، فلا بد أن تكون طائفة منهم مهما قلت على نفاق! وهي لا تكون بطبيعتها إلا داخل البيئة الإسلامية. سنة الله في خلقه. وقد تضعف هذه الطائفة وتضمر، وقد تقوى وتتجبر؛ وذلك على حسب قوة المجتمع الإسلامي وضعفه.

وقد فصَّل الحق تعالى في أوصافهم تفصيلًا - كما سبق، وكما سيأتي بالمجلس القادم بحول الله - وفي هذا إشارة إلى أن الخطر الأكبر الذي يهدد بناء الأمة، ويعرقل مسيرة تجديدها، إنما هو هذه الطائفة الشريرة: المنافقون! إذ الكفر الصريح عدو واضح، تُعرف مواقعه وخطواته. أما المنافقون فهم شياطين يخربون جسم الأمة من الداخل، ويشتغلون عملاء للكفر الصريح، ينفِّذون برامجه وخططه! ويصرُّون مع

ذلك على الاحتفاظ ببطاقة « مسلم » تقيَّةً ومخادعةً! ومن ثَم كان لا بد للدعاة والمصلحين اليوم من إدخال هذا في الاعتبار؛ لضبط موازين السير في كل خطوة وكلمة.

الرسالة الرابعة: في أن النفاق مَرَضٌ مُعْدٍ، ينتقل إلى الإنسان جزءًا فجزءًا، حتى يستولي عليه كليًّا! ولذلك وجب على المسلم الاحتياط الشديد منه! وذلك باتقاء الوقوع في خصاله والتلوث بأخلاقه الفاسدة. فإن المرء لا يزال يتلبَّس بأحوال المنافقين، ويتخلَّق بأخلاقهم الجزئية، الواحدة تلو الأخرى؛ حتى يصير منافقًا صرفًا! ذلك أن العلماء ميَّزوا بين نوعين من النفاق: أحدهما عقدي، وهو النفاق المحض الذي يجاور الكفر. والآخر: نفاق عملي، وهو يكون بتخلُّق المسلم الفاسق بأخلاق المنافقين، ولو لم يكن على مذهبهم في الاعتقاد، بل هو مع سواد المسلمين. إلا أنه كلما تمادى في نفاقه العملي خُشي عليه أن يختم اللَّه على قلبه بنفاق عقدي؛ فيكون من الهالكين! ومِن ثَمَّ حَذَّرَ النبيُّ ﷺ أشدَّ التحذير من أخلاق المنافقين وخصالهم، فقال: « **أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا! ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجَر!** » (١).

الرسالة الخامسة: في أن إصرار العبد على الذنوب وتسويف توبته خطر عظيم! فلربما أحاطت به خطيئاته؛ فطبع اللَّه على قلبه طَبْعَ كُفْرٍ أو طبعَ نفاق، والعياذ باللَّه! ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال: « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ! وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ! وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا! إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!** » (٢) فالمسارعة إلى التوبة هي الدواء الناجع للقلوب، وهي صمام الأمان من الارتكاس في حمأة الكفر والنفاق، تخلُّقًا أو تحقُّقًا!

وفي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن العبد إذا أخطأ خطيئة**

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم. وقوله: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا: يعني فيه لمعَانٌ من شدة السَّوَادِ! والْكُوزُ: الإناء كالإبريق. وكونه مُجَخِّيًا: يعني مَنْكُوسًا، بحيث لا يمسك ما فيه.

نُكِتَتْ في قلبه نكتة سوداء! فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبُه! وإن عاد زيد فيها؛ حتى تعلو على قلبه! وهو الرَّانُ الذي ذكر اللَّه تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] [1].

٤ - مسلك التخلق:

وقضية هذا المسلك ههنا تتلخَّص في **خُلُقين اثنين:**

الخلق الأول: اليقظة! وذلك باكتساب وعي دقيق بطبيعة الكفر والنفاق، والتفقُّه في أحوالهما مُنَزَّلَةً على هذا العصر. ويتمُّ التوصُّل إلى ذلك بتدبر الآيات التي وردت في هذين الصنفين من الناس من جهة، وبالمقارنة بينها وبين أحوال العالم اليوم من جهة أخرى، إزاء الصراع الدائر بين الحق والباطل. فإذا كان الداعية صافي الروح رأى الحقيقة واضحة؛ فاتخذ حِذْرَهُ وتوكل على اللَّه!

الخلق الثاني: ضرورة اكتساب سلامة القلب، وحفظه من أمراض النفاق وخصاله الجزئية والكلية، سواء في ذلك النفاق العقدي أو العملي، وكذلك الكفر بنوعيه العقدي والعملي. والطريق إلى ذلك يكون **بثلاثة أمور:**

الأول: تقوية جهاز المناعة الإيماني، وذلك بترقية القلب في مدارج التقوى؛ إذ التخلُّق بالتقوى خير حافظ للمؤمن من مزالق الشيطان. وقد فصَّلنا هذا الأمر بالمجلس الأول.

والثاني: المعالجة السريعة لطوارئ الذنوب، بالتوبة السريعة، والمبادرة إلى فعل عمل صالح قبل انقضاء اليوم الذي وقعت فيه الخطيئة. وقد جمع الرسول ﷺ خلاصة هذا المسلك كله في قوله الجامع: « **اتَّقِ اللَّه حيثما كنت! وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حَسن!** » [2].

وأما الثالث: فهو التزام الدعاء بالحفظ من الذنوب والنجاة من الضلال. وقد كان أكثر دعاء النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول: (« **يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قلبي على**

---

(١) أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (١٦٧٠).

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم والبيهقي عن أبي ذر مرفوعا. وقال الترمذي حسن صحيح.

دينك! » فقيل له في ذلك؟ قال: « إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع اللَّه، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ! ») [1].

* * *
* *
*

(١) رواه الترمذي عن أم سلمة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

المجلس الثالث

في مقام التلقي لبيان منهجية المنافقين في الإفساد وأسلوب خداعهم

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا مربط الفرس! ههنا آية النفاق الكبرى: تحريف المفاهيم وقلب الحقائق، وتلبيس الحق بالباطل! ولقد أصاب القرآن المنافقين بهذه الآيات في المقتل! فما عاد بالإمكان أن يغترَّ بهم إلا بليد! ولا أن يضعف عن إبصارهم إلا أعمى! فالقرآن العظيم سلَّط عليهم الضوء هنا، وكشف منهجهم الإفسادي بثلاث **فاضحات**:

الفاضحة الأولى: أن المنافقين يلعبون بالمصطلحات، ويحاولون تزييف حقائقها على الناس، وتحريف مفاهيمها الشرعية. فيسمُّون الزنى والعري وما والاهما من

الفواحش « حرية »، ويسمُّون الخمور « مشروبات روحية! » ويسمُّون الكفار الظلمة « إخوة »! ويسمُّون موالاتهم للعدو المغتصِب « إنسانية »! ... إلى غير ذلك من ضروب التحريف والتزييف! حتى إذا خاطبهم الدعاة إلى الله ألا تفسدوا في الأرض؛ قالوا: بل نحن مصلحون! فسمُّوا الإفساد « إصلاحًا »! وقلبوا الأمر على المؤمنين فجعلوهم « مفسدين »! حيث اعتبروا مداراتهم للكفار وللمؤمنين في نفس الوقت؛ تقريبًا بين الفريقين وإصلاحًا بينهما! لكن فعلهم هذا - كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ إنما يؤول إلى موالاة الكافرين ومناصرتهم على المؤمنين! ثم روى معناه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]؛ ولذلك عقَّب الحق تعالى على زورهم هذا مباشرة، بعبارة قوية حاسمة، مسلحة بأساليب التوكيد والتنديد، فقال سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ لا يشعرون بمدى ما هم عليه من الضلال والتضليل! فليس أخطر على الناس ممن خلط عليهم الحقائق، ودلَّس عليهم الباطل بتزييف المفاهيم وقلب المصطلحات!

الفاضحة الثانية: أنهم يسمُّون الإيمان الخالص « سفهًا »! أو كما يعبرون اليوم « سذاجة »! وربما سموه في بعض الأحيان « إرهابًا »! والسفيه: هو الجاهل الساذج الضعيف الرأي، القليل المعرفة بالمصالح والمضارّ! كذلك وَصف المنافقون زمن رسول الله ﷺ الصحابةَ الكرام، حاشاهم! وكذلك يصفون اليوم كل مؤمن صالح، وكل داعية إلى اللَّه! وهم ههنا لا يصرِّحون بكفرهم تصريحًا وإن عبَّروا عنه ضمنًا، ولكنهم بدهائهم الخبيث يحاولون تقسيم الإيمان إلى نوعين، تمامًا كما يفعلون اليوم. الأول: إيمان البسطاء الأغبياء، والثاني: إيمان المتحضِّرين الأذكياء! وذلك لإضفاء الشرعية على ملابستهم للفساد وموالاتهم للكفار! وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي: وإذا قال لهم الدعاة اتقوا اللَّه! وكونوا في إيمانكم على صراط مستقيم، بلا تناقض ولا اضطراب، على غرار المؤمنين الصادقين، الذين تطابقت أقوالهم مع أفعالهم؛ أجابوا ساخرين ومستنكرين: أنكون كهؤلاء الأغبياء البلداء؟ فنحن مؤمنون ولكن إيماننا هو إيمان العقلاء! ومِن ثَمَّ فضحهم اللَّه تعالى بهذا، وعقَّب عليهم مرة أخرى بقوة: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) ن. تفسير ابن كثير للآيات. وانظر تفصيل الروايات في تفسير الطبري.

لا يعلمون مدى سفههم وجهلهم باللّٰه وبمقامه العظيم! فلو علموا لخافوا عذابه، ولكن اللّٰه أركسهم في ظلمات الجهل بنفاقهم المقيت!

الفاضحة الثالثة: أن علاقتهم بالكفار هي علاقة ولاء عَقَديّ ومعية مذهبية، أو بلغة العصر: « ولاء إيديولوجي »! تلك هي حقيقة أمرهم. أما تظاهرهم بالإيمان فهو مجرد خداع « سياسي »! ولذلك فإنهم إذا خطبوا على المسلمين أو حدَّثوهم - بهذه المناسبة أو تلك - تظاهروا أمامهم بالإيمان، ولكنهم إذا خلوا في اجتماعاتهم الخاصَّة ولقاءاتهم المغلقة إلى ساداتهم من الكفار أكدوا لهم أنهم معهم! هكذا بهذه العبارة الدالة على الولاء الكامل، والنصرة الواضحة، والاندماج التام! ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ...﴾ ونقل الطبري وابن كثير في معنى « شياطينهم » عن غير واحد من الصحابة والتابعين؛ أنهم: سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود، ورؤوس المشركين! [1] لأن هؤلاء هم الذين يملون عليهم خططهم، ويلقون إليهم ببرامجهم؛ فيساندونهم ويناصرونهم على المؤمنين!

ومِن ثَمَّ يؤكد المنافقون لأوليائهم - من خارج البيئة المسلمة - أن ظهورهم في المجتمع بمظهر الدين والتحلِّي بأشكاله، إنما هو مجرد مخادعة للمؤمنين واستهزاء بهم! لأن هذا الأسلوب هو الذي يمكِّنهم من تمرير كافَّة برامجهم التخريبية في التربية والتعليم والإعلام والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وغيرها؛ باسم « الدين المنفتح »، والسلوك الديني « المتسامح »! فذلك استهزاؤهم بالمؤمنين! فأجابهم اللّٰه تعالى بأنه هو ﷻ الذي يستهزئ بهم! أي يستدرجهم من حيث لا يعلمون إلى هلاكهم، بما يحصدون من خراب دينهم وخسران آخرتهم! ولذلك فهو تعالى يَمُدُّهُمْ في فسادهم الشديد هذا، الذي بلغوا به درجة الطغيان! ومعنى « يَمُدُّهُمْ » ههنا: يملي لهم، ويفتح لهم سُبل الشر، وييسرها لهم نكايةً بهم! وهو معنى « الاستدراج » الوارد في قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] فهذا المد الرهيب من اللّٰه ذي الجلال للمنافقين، إنما هو لزيادة ضلالهم وضياعهم في متاهات العَمَهِ! والعَمَهُ: عمى البصيرة! وهو الضلال الشديد

---

(١) ن. تفسير الطبري وابن كثير للآية.

الذي لا يُرجى لصاحبه اهتداء! فذلك هو قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

وما كل ذلك من المنافقين إلا ليربحوا الدنيا؛ لأنها الشيء الوحيد الذي يؤمنون به! فأبرموا صفقة تجارية خطيرة، وباعوا إيمانهم للشيطان على أساس أن يبدلهم به سلطةً وجاهًا وتمكينًا! لكنهم خسروا الصفقة في نهاية المطاف! فلا هم تمكَّنوا من دنيا مريحة مليحة، ولا هم فازوا بسعادة الآخرة! فهذه معيشتهم شقيةٌ ضَنْكَى! وتلك آخرتهم أشد وأنكى! فخسروا بذلك والعياذ بالله مرتين! وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ قال قتادة: (قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة! ومن الجماعة إلى الفُرقة! ومن الأمن إلى الخوف! ومن السُّنة إلى البدعة!) (١).

ثم ضرب الله لهم **مثلين عجيبين**، كل منهما عبرة بليغة للمعتبرين وبيان حكيم للمتدبرين.

فالمثل الأول: أن الله - جلَّت حكمته - شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى بمن أشعل نارًا للاستصباح في ليل بهيم، فلمَّا توهَّجت وأضاءت ما حولها، وصار يرى الحقائق والأشياء والسُّبل انطفأت فجأة! فبات في ظلام دامس أشد مما كان عليه قبل إيقاد النار! لأن الظلمة بعد النور - كما هو معروف - تكون في العادة أحلك وأثقل! فذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ ﴾ فالمنافق بمقتضى هذه الآية يمر بمراحل ثلاث، الأولى: كفره الأول - أي قبل إعلان إسلامه - وهو الظلام الذي من أجله استوقد النار. والثانية: دخوله في الإسلام واستفادته من نوره، وهي النار التي استوقدها. والثالثة: ارتداده إلى كفره الأول، وهي الظلمات الثانية التي أحاطت به بعد انطفاء ناره!

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المنافقين قد آمنوا حقيقة ثم كفروا، بناء على قوله تعالى في سورة « المنافقون »: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

---

(١) رواه الطبري في تفسيره للآية.

يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣] والحقيقة أن صنف المنافقين الذين تتحدَّث عنهم سورة البقرة، لم يكن إيمانهم إيمان تصديق واعتقاد خالص. والنفاق العقدي في ذاته أنواع وأصناف، وإن كانت كلها تنتهي في النهاية إلى طبيعة واحدة، هي إبطان الكفر وإعلان الإيمان!

وأما هؤلاء فلم تسكن قلوبهم للإيمان ولا جوارحهم، وإنما كان إيمانهم إيمان تجريب! وقد كانوا على شكٍّ منه مريب! ولذلك فقد كانوا يُقْبِلُونَ ثم يُدْبِرُونَ مراتٍ عديدة! وهو ما بيَّنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧] فهذا الإيمان لا يكون إيمانًا حقيقيًا. والحاكم على هذا الترجيح هو ما سبق من التعريف الواضح بطبيعة النفاق - ههنا في سورة البقرة - من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ فكيف يكون مثل هذا إيمان حق؟ كيف وقد نفى اللَّه عنهم صراحة حقيقة الإيمان بجملة اسمية ثابتة: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ !۝ ﴾.

ولذلك فالنور الذي استفادوه من إيقاد النار ليس هو نور الإيمان الحق كما ذهب إليه بعض المفسرين، وإنما هو نور معرفتهم للحق مجرد معرفة، ونور إبصارهم لسبيل الرشاد مجرد إبصار! كما يدل - من جهة أخرى - على الأمان على النفس والمال، والسلم الاجتماعي الذي يحرزه المنافق برفع شعار الإيمان! فلما عرفوا ما عرفوا واستفادوا ما استفادوا، ثم لم يستجيبوا بل ارتدوا على أدبارهم كافرين؛ ذهب اللَّه بنورهم! أي ذهب بما نالوه من الأمان فبدَّلهم به خوفًا وقلقًا، وبما عرفوه من الحقِّ فبدَّلهم به حيرةً واضطرابًا! وانتزع منهم إمكان الرجوع إلى إبصار الهدى انتزاعًا! عقوبة لهم على نفاقهم! ولذلك قال بَعْدُ:﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ! ۝ ﴾ أي فهم في حيرتهم هذه بعد انتزاع ما شعروا به من أمن وأمان ومعرفة لطريق الخير، يتعذَّبون الآن في حيرة شديدة واضطراب قاتل! حتى ربما ليودّ أحدهم لو تبينت له طريق الهدى مرة أخرى؛ فيتبعها ويسلك نهجها مع المؤمنين! لكن اللَّه تعالى بما غضب عليهم قد حرمهم هذه الفرصة والعياذ باللَّه! فهم في وضعهم الأخير صُمٌّ عن سماع كلام اللَّه، بُكْمٌ عن النطق بكلمة خير، عُمْيٌ عن إبصار بصيص نور؛ ولذلك فلا أمل لهم في الرجوع إلى فرص الهدى، التي أتيحت لهم من قبل مراتٍ عديدةً، فأهدروها

سخرية بالله وبرسوله والمؤمنين! وقد أكّد الخطاب القرآني استحالة عودتهم إلى الهدى بتعبير بليغ، هو ما يسمَّى عند البلاغيين بأسلوب الالتفات، حيث التفت من المفرد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ... ﴿١٧﴾ ﴾ الآية. وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في البيان، حيث خرج بالحكم من التمثيل إلى الحقيقة!

هذا الضرب من المنافقين هو الذي تتحدَّث عنه سورة البقرة ههنا. وثمة ضروب أخرى من النفاق نذكر بعضها خلال رسالات الهدى المنهاجي إن شاء الله.

المثل الثاني: هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ذهب ابن كثير رحمه الله إلى أن هذا مثل ضربه الله لصنف آخر من المنافقين، وهم قوم يعيشون حالة تردد بين الكفر والإيمان [١]. بينما ذهب جمهور المفسرين - وعلى رأسهم الإمام الطبري - إلى أنه مَثَلٌ آخر لكن لنفس الصنف الأول، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. وحرف « أو » ههنا يفيد التساوي أو التخيير.

فقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴿١٩﴾ ﴾ أي ومَثَلُهُمْ أيضًا كمطرٍ نزل من السماء في ليل بهيم، ثم هو مطرٌ مصحوب بسحبٍ شديدة السواد، فهي إذن ظلمات بعضها فوق بعض! تقذف من حين لآخر بالبروق والرعود، في صورة مخيفة رهيبة! فمَثَلُ المنافقين ههنا كقوم وجدوا أنفسهم بِخَلاء أو فلاة، تحت رهبة هذا الجو المظلم المخيف. فالصَّيِّبُ أي المطر النازل، هو بمثابة الهدى العام النازل من السماء، لكن نفاق هؤلاء يمنعهم من الاستفادة منه كما يستفيد المؤمنون. بل هم في عذاب بما أحاط بهم من أمور ثلاثة: ظلمات ورعد وبرق! فالظلمات هي ما أطبق على قلوبهم من الكفر والشك والريب! والرعد هو ما يصعق قلوبهم من الخوف الشديد؛ بما اقترفوا من جريمة المخادعة للمؤمنين، فهم أبدًا على فزع أن تنكشف حقيقتهم! ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] فكل آية تنزل في شأنهم تكون عليهم

---

(١) تفسير ابن كثير.

كالصاعقة! ولذلك قال: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: والله ﷻ قدير على أخذهم متى أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وإنما هم لجهلهم بالله سبحانه يستخفون بنفاقهم عنه، وهو بكل شيء عليم!

وأما البرق فهو نور الإيمان الذي يتجلى لهم بشكل خاطف سريع، ما بين ظلمات الكفر وقلق النفاق؛ ولذلك فإنهم لا يستطيعون الثبات عليه، ولا القبض على شعاعه الهارب! بل إنه يزيدهم خوفًا وهلعًا! فكلما لمع كاد يحرق أبصارهم؛ لأن عيونهم ألفت ظلمات الهوى والضلال فلا قدرة لها على الانفتاح على النور! بيد أنهم يستفيدون جزئيًا من لمعة البرق هذه، فكلَّما أضاءت لهم مشوا قليلًا، لكنها سرعان ما تظلم عليهم، فإنما هي لمعة برق وليست نورًا ثابتًا! فإذا أظلمت توقفوا حائرين! بمعنى أن إبصارهم للهدى وسماعهم لكلام الله - جل ثناؤه - رغم أنه في نفسه نور عظيم ثابت شاسع يسع العالم كله، فإن المنافقين لا يبصرون منه إلا لمعة برق تضرب في الأفق من حين لآخر وتختفي! فذلك قَدْرُ ما يستفيدونه من معرفة بالحق، لم تفدهم في الثبات على الهدى أبدًا. بل حقيقتهم الثابتة أنهم في ظلام دامس!

وقوله تعالى بعدها: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ هو على حقيقته لا مجاز فيه، بمعنى أنه لو أراد الله تعالى أن يعجِّل لهم بعض العذاب هنا في الدنيا، وينتقم منهم بعض انتقام؛ لختم على آذانهم وطمس على أبصارهم! فصاروا عُمْيًا صُمًّا على الحقيقة الحسية، كما هم كذلك على الحقيقة القلبية! فاجتماع هاتين العاهتين - والعياذ بالله - هو من أسوأ البلاء! وذلك هو حال المنافقين على مستوى القلب! ولو شاء الله لجعله لهم على مستوى الحسِّ أيضًا! فهو ﷻ على كل شيء قدير، وهو ما لا يعرفه هؤلاء المنافقون الجهلة بالله وبقَدْرِهِ العظيم!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو مُتضمِّن **للرسالات السبع التالية:**

الرسالة الأولى: في أن القرآن الكريم سمَّى الحقائق والمفاهيم بأسماء خاصَّة، وعبَّر عنها باصطلاحات شرعية ثابتة، لا يجوز تغييرها ولا استبدال غيرها بها!

لأن ذلك ضرب من التحريف، ونوع من تغيير الكَلِم عن مواضعه! فقد سمَّى اللَّهُ تعالى الإيمانَ « هدى » وسمَّى الإنكارَ له « كفرًا » و « ضلالًا »، وسمَّى المصدِّق بالدين اعتقادًا وعملًا « مؤمنًا » و « مسلمًا ». وسمَّى المنكِر له أو لبعض أركانه « كافرًا ». وسمى الْمُبْطِنَ للكفر والمظهر للإيمان « منافقًا »! تماما كما سمَّى الصلاةَ صلاةً، والزكاةَ زكاةً، والصيامَ صيامًا، والحجَّ حجًّا. كلها اصطلاحات شرعية ثابتة، تغييرها يعني تدمير الدين وتحريف القرآن العظيم!

ومِن ثَمَّ وجب على المؤمنين الثباتُ على لغتهم الشرعية، والعضُّ على اصطلاحاتها الربانية بالنواجذ، وألا ينهزموا أمام الحرب الثقافية والإعلامية، التي تشوِّه مضامين المصطلحات الإسلامية، وتبتدع لها ما يناقضها وتروِّج له؛ لخلط الحق بالباطل، وتلبيس الفساد في الأرض بالصلاح والإصلاح! بل نسمي المحظور في الشرع « حرامًا »، والواجب فيه « واجبًا »، كما نُسمِّي الفساد بشتى ضروبه « منكرًا »، والصلاح « معروفًا ». هذا جهازنا المفهومي لا نقبل فيه مساومة ولا نرضى عنه بديلًا؛ لأن مصطلحاته الشرعية هي أسماء سمَّاها اللَّه! وكلمات من كلماته جلَّ علاه، أنزلها وحيًا على رسوله من فوق سبع سموات! فلا قيمة بعد ذلك للغة التراب!

ففي العالم اليوم حرب مصطلحات شرسة، لابد للمؤمنين والدعاة منهم خاصَّة أن يتسلَّحوا لها بسلاحها! وإنما سلاحها هو القرآن؛ تداولًا لخطابه وانتصارًا لمصطلحاته. وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

الرسالة الثانية: في أن النفاق أصناف وضروب! منها ما ظهر في عهد النبوة، ومنها ما ظهر في العصور اللاحقة. لكن آيات القرآن في المنافقين - مما ورد في سور شتى - جامعة لكلٍّ تلك الأصناف والضروب. مثل ذلك طائفة « الزنادقة » التي ظهرت في المجتمع الإسلامي بعد عصر الفتوح، وهي طائفة دخلت الإسلام ظاهرًا بغرض تخريبه من الداخل! فنشرت العقائد الباطلة بين المسلمين، وأشاعت الفواحش القاتلة، وتزعمت حملة وضع الحديث النبوي والكذب على رسول اللَّه ﷺ بما يحرف الدين تحريفًا خطيرًا! ولذلك فقد كانت أحكام الفقهاء على هؤلاء تختلف عن أحكامهم على المنافقين من الصنف الأول، الذين أظهروا الإسلام خوفًا على

مصالحهم الخاصَّة فقط، فحفظوا لهم بذلك أموالهم ودماءهم. ولكن كان لهم مع الزندقة والزنادقة حساب آخر!

وممن ينطبق عليه قول المفسرين بأنهم آمنوا حقيقة ثم كفروا! قوم آمنوا ابتداءً ثم فتنتهم إغراءات الكفار وشهوات الشيطان؛ فارتدوا على أدبارهم كافرين، مع الاحتفاظ برفع شعار الإسلام! وهؤلاء يجوز وجودهم في عصر الرسالة وبعدها. ويلحق بهم من ورث الدين والإسلام عن والديه وبيئته الإسلامية، ثم فتنته الشهوات والشبهات بما ألقى الشيطان في قلبه من هوى المذهبيات الضالة والإيديولوجيات الإلحادية؛ فتنكر لكلٍّ حقائق الدين، واستخف بما جاء عن سيد المرسلين، لكنه ظلَّ يعمل في خفاء محتفظًا بلقب « مسلم »، على غرار منافقي العهد النبوي! فكل هؤلاء وأولئك داخل تحت ربقة « النفاق ». وأما من أعلن إلحاده وكفره فهو جدير بما صرح به!

الرسالة الثالثة: في أنه ما من طائفة من المنافقين الْخُلَّص، إلا ومن ورائهم سند خارجي يستندون إليه، ويحتَمُون به! تمامًا كما كان المنافقون في العهد النبوي يلتفتون سرًّا إلى شياطينهم من اليهود والمشركين، فيعقدون معهم العهود والاتفاقات؛ لمحاصرة الدعوة الإسلامية والانقلاب عليها! فلكلٍّ زمان منافقوه ولكلٍّ عصر شياطينه، لكن المنهج هو المنهج، والأسلوب هو الأسلوب! فتلك سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّه في الاجتماع البشري، كلما كانت هناك بيئة إسلامية يُخشى رد فعلها ولو بعض خشية ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فكان على الداعية الحكيم أن يقرأ ذلك كله، ويستحضره عند رسم خطواته وضبط مسيرته. وأن يتعرف على الجهات المعادية للدين وأهله تمام التعرُّف، وكذلك على من يقف خلفها ويحمي ظهرها من شياطين العصر هنا أو هناك. فهذا علم قرآني لا يجوز لأصحاب دعوة الخير الجهل به، أو الاستخفاف به. فإنما فصَّل اللَّه البيان في طوائف المنافقين تفصيلًا؛ لعلمه تعالى بأن قضية الأمة معهم خالدة! خاصَّةً كلما عَزَمَتْ على النهوض من سُبَات!

الرسالة الرابعة: في أن المؤمنين إذا ما اتقوا ربهم حق تقاته، وعملوا بمقتضى ما آتاهم اللَّه من هدى؛ فلا خوف عليهم من كيد المنافقين ولا من التفافهم وغدرهم، مهما أوتي هؤلاء من قوة، ومهما كان لهم من سند الشياطين، فإنهم

بإذن اللّه خاسرون مهزومون! فحالهم بين المؤمنين الصادقين والدُّعاة المخلصين هو كما صوَّرهم اللّه تعالى في المثَلَين المضروبين لهم قبل، أي ما بين من استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله فَقَدَ نورَها! وبين من يستفيد لَمْعَةَ برقٍ خاطفٍ في الظلمات، فأنَّى يستقيم له السير؟ وأنى يكون من الفائزين؟ كذلك حالهم في الدنيا والآخرة. ففي اللحظة الحرجة يتخلَّى الشياطين الكبار عن أوليائهم الصغار ويخذلونهم شَرَّ خذلان! وهو ما سجله التاريخ مرارًا وتكرارًا، ولقد شاهدناه في حوادث هذا العصر واضحًا جليًّا!

ذلك نصر إلهي ومدد رباني، ولكن إنما يؤتاه « المتقون »، بشروطهم وأوصافهم المذكورة في أول السورة. جعلني اللّه وإياكم منهم!

الرسالة الخامسة: في أن المسلم إذا اشترى شيئًا من متاع الدنيا وزينتها ببعض دِينِه؛ فقد وقف على حافَّة الهلاك! لأن ذلك هو الباب المفضي إلى هاوية النفاق أو الكفر الصريح والعياذ باللّه! فمن اشترى اليوم بعض الضلالة ببعض الهدى؛ لا يؤمَن عليه غدًا أن يشتري كلَّ الضلالة بكلِّ الهدى! فيخرج بذلك من رِبقةِ الإيمان! وليحذر المؤمن تَزْيِينَات الشيطان التي قد تتلبس أحيانًا بفتاوى بعض العلماء، مما لم يحالفهم فيه الصواب، أو مما كان عندهم خاصًّا بحالات معينة من ضرورة شرعية غير وهمية، فيوسوس لك الشيطان أنك أنت أيضًا معنيٌّ بها، ولو اطلع ذلك العالم على حقيقتك لما أجازها لك! ومن هنا ورد في الحديث الصحيح المليح: « **البِرُّ مَا سَكَنَتْ إليه النفسُ واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثمُ ما لم تسكن إليه النفسُ ولم يطمئن إليه القَلْبُ؛ وإن أفتاك المفتون!** »(١) والعاصم من ذلك كله التزام الورع والبعد عن الشبهات! وفي الحديث: « **وخير دينكم الورع!** »(٢).

الرسالة السادسة: في أن الصبر والاحتساب هو زاد الصالحين والمؤمنين الصادقين، في كل عصر تكالب فيه المنافقون على منابر الثقافة والإعلام! وذلك لِمَا يَلقونه من تسفيه وإهانات وتشويه للصورة والسمعة؛ مما يجعل كثيرًا من ضعيفي النفوس – من

---

(١) رواه أحمد عن أبي ثعلبة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) جزء حديث رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المسلمين - يتحرَّجون حتى من الظهور بمظهر المتدينين! وكم من فتاة مسلمة لا يمنعها من ارتداء لباسها الشرعي الساتر، والاستقامة على منهج الدين قلبًا وقالبًا؛ سوى هذا الوابل السيئ من قذائف السباب والتسفيه التي تشوه المرأة المسلمة وتحطِّم معنوياتها! والأصابع الشيطانية التي تشير إليها من كلِّ مكان! وكثير من الرجال يتخلَّى عن بعض حقوق ربِّه لنفس العلة، لا لفقه خاصٍّ ولا لمقصد شرعي، وإنما هو فقط الخوف من الوقوع ضحية النعوت والألقاب الساخرة! وإنما المؤمن الحق في هذا الزمان هو من يقبض على دينه كما يقبض على الجمر! بذلك ورد الحديث النبوي الشريف: « **يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ!** »[1] فهذا زمان الصبر والمجاهدة بالقرآن. فنسأل اللّٰه العافية والثبات!

الرسالة السابعة: رسالة منهاجية جامعة: وهي في حكمة تقسيم البشرية إلى الأصناف العَقَدِيَّةِ الثلاثة: مؤمنين وكافرين ومنافقين.

فالقرآن هو رسالة اللّٰه إلى الناس أجمعين. والناس في الأرض شعوب كثيرة، ولغات متعددة، وحضارات مختلفة، ومِلَل ونِحَل شتى! فجاء هذا الكتاب بأول خطاب له - بعد الفاتحة المقدمة له - يصنف فيه البشرية تصنيفًا غير معهود! إنه تصنيف على حسب العقيدة فقط، وألغى كل التصنيفات الأخرى، فلا عبرة بالأنساب ولا باللغات ولا بالأعراق! وإنما هي عبرة واحدة: الانتساب التعبدي للّٰه ربِّ العالمين!

لقد جاء هذا القرآن للبشرية بالهدى، معرِّفا إيَّاها باللّٰه خالقها وخالق العالمين أجمعين، فتكلَّم به الربُّ العظيم ﷻ يخاطب عباده كلَّ عباده! واصفًا نفسه تعالى بما هو أهله من الرحمة الواسعة والملك العظيم - كما تبين في الفاتحة - ومن ثَمَّ بيَّن للناس أنهم عباده، وأنهم ملزمون بعبادته وحده دون سواه بما هو ربهم ومالكهم أجمعين! فلا قيمة ههنا لعروبة عربي ولا لعجمة عجمي، ولا عبرة بلون أو عرق أو جنس! فالناس كل الناس عبد! هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تجمع الخليقة كلها في حدٍّ جامعٍ مانعٍ! وبذلك جاء الهدى رحمة للعالمين. نعم هو رحمة لكنها رحمة ملزمة؛ لأن الربَّ الجليل ألزم العبيد بأداء حقِّه عليهم! وما ذلك إلا عين الرحمة!

---

(١) رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح الجامع الصغير.

وما للعبد من خيار، فإما أن يكون مطيعًا فيعمل بمقتضى العبودية، وإما أن يكون عاصيًا فيكون من الآبقين، وإما أن يتذبذب ما بين الأمرين؛ والربُّ ﷻ لا يقبل تذبذبًا؛ فيلحقه بالآبقين!

ومِن ثَمَّ جاء هذا التصنيف الجديد للبشرية على أساس مواقفها من تلقِّي الهدى، والذي عليه ينبني رضا الربِّ أو سخطه! فنظر ﷻ إلى عبيده، وسمَّى المقبلين عليه: « مؤمنين » و « متقين »، وسمَّى الجاحدين المتكبرين: « كافرين »، وسمَّى المتذبذبين: « منافقين »! وميَّز كلَّ فريق بأوصافٍ خاصَّةٍ ونعوتٍ لازمةٍ، وسننٍ ثابتةٍ تحكمه حالًا ومآلًا، أبدًا عبر التاريخ إلى يوم القيامة!

وبمصطلح « الإيمان » جعل اللَّه سبحانه المؤمنين في الأرض - كل الأرض - أمة واحدة! لا فرق بين هذا الشعب أو ذاك، ولا بين هذا الجنس أو ذاك إلا بالتقوى! وإن هذا لمن رحمة اللَّه العظيمة، لو تدبره المتدبرون! يُقتل طفل في فلسطين فيسيل دمه بماليزيا أو بالمغرب، ويذبح شعب بالبوسنة فتضج له القلوب بالسودان أو الباكستان! إنها أمة واحدة، وستبقى أمة واحدةً رغم ما يمزِّقها من المآسي والجراح! كذلك جعلها القرآن: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وكذلك وصفها الرسول عليه الصلاة والسلام: « **مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم؛ مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائر الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّى!** » [(١)].

كما أنه بمصطلح « الكفَّار » جعل اللَّه تعالى الكفر في الأرض - كل الأرض - ملةً واحدةً! مهما اختلفت مِلَلهم ونِحَلهم! فإن بعضهم أولياء بعض، تجمعهم جميعًا عداوة الخير ومحاربته! والتمرُّد على الخالق العظيم ﷻ والتنكُّر لحقوقه! صحيح أن « أهل الكتاب » كان لهم تمييز خاص في القرآن؛ لِمَا امتازوا به من علم سابق بالنبوءة والوحي، ولكنَّ ذلك إنما كان عليهم لا لهم! حيث أقام عليهم القرآن الحجة بلقب « أهل الكتاب »؛ لأنهم عرفوا الحق فجحدوه! ولذلك كانت له معهم في سورة البقرة وغيرها جولات وجولات! قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ

---

(١) متفق عليه.

كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، ومن ثَمَّ أدخلهم الحق تعالى في مصطلح الكفار! ولم يزالوا منذ القديم يتحالفون - يهودًا ونصاري - مع الوثنيين والمجوس والملاحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ ليثبتوا معجزة القرآن في التصنيف الإلهي للبشرية: أن الكفر ملَّة واحدة!

ثم إنه بمصطلح « المنافقين » حاصر القرآن شرذمة الخيانة داخل البيئة الإسلامية، التي توالي العدو سرًّا، وتعلن إيمانها تقيةً! وكشَفَها للمؤمنين كشفًا، بصفاتها اللازمة وخصالها الفاضحة؛ حتى يُحْذَرَ شرُّها ولا يلتبس أمرها على المسلمين! وبذلك أيضًا جعل « النفاق » أمة واحدة! فالمنافقون هم هم، أينما كانوا وأنَّى كانوا! لا فرق بين أعراقهم وقومياتهم! فأنت تراهم اليوم يتعاطفون فيما بينهم ويتوادُّون ويتساندون، في كل بلدان العالم! فكلمَّا أنكر المسلمون على أحد منهم هنا أو هناك؛ قاموا جميعًا محتجين في كلِّ مكان! قاموا باختلاف جنسياتهم وقومياتهم ولغاتهم وألوانهم، لا يجمعهم شيء سوى النفاق! ثم تحقَّقت فيهم سُنَّة اللّٰه الثابتة إلى يوم القيامة: مساندة الكفار لهم ونصرتهم لقضاياهم!

فَبَيْنَ هؤلاء وأولئك تسير قافلة المؤمنين إلى ربِّها، خاشعة عابدة، تسير بتقواها إلى مولاها، حتى يورثها اللّٰه خلافة الأرض، ويجعلَها يوم القيامة حُجَّةً على العالمين!

هكذا انطلق المقطع الأول للقرآن يعرض الهدى للناس، كلِّ الناس، مبينًا أنه لن يستفيد من نوره سوى المؤمنين، الذين تواضعوا للذي خَلَقَهم وجاؤوا إليه طائعين مخبتين! أما من استكبر عن عبادة ربِّه، وألَّهَ نفسَه وكبرياءَه من الكفار والمنافقين؛ فلن يبصروا من حقائقه شيئًا! ومِن ثَمَّ كان هذا الكتاب - من حيث الفائدة - خاصًّا بالمؤمنين به فقط. نعم هو يعرض الهدى للجميع، ويقيم الحجج والبراهين، لكن من أَبَى حُجِبَ، ومن استجاب دخل في حِمَى المؤمنين؛ وكان من الفائزين بما ينال من هدى القرآن الكريم.

ولذلك فنداؤه هو ما بين: « يا أيها الناس » و « يا أيها الذين آمنوا » أو ما في معناهما. لكنه يعتني بالمؤمنين عناية خاصَّة، إنها عناية السيد الكريم بعبده المطيع! فيبين لهم سبيل السير إليه تعالى صراطًا مستقيمًا، ويفصل لهم منهاج بناء أمتهم لبِنةً لبِنةً، فلا يزال المؤمنون بين مدافعة هؤلاء ومدافعة أولئك؛ يعبدون ربَّهم ويُبلِّغون

رسالاته شهادةً على الناس؛ حتى يُمَكِّنَ لهم في الأرض ويُعْلِي منازلهم في الآخرة. وبذلك تتم نعمة اللَّه على عباده الصالحين.

ذلك هو مدخل القرآن - من أوائل سورة البقرة - وصفٌ عام لطبيعة البشرية في الأرض، وتصنيف لأممها على ميزانه، وزرع جديد لبذرة الإيمان وسط تلك الابتلاءات جميعًا!

٤ - مسلك التخلق:

فأما هذا المسلك فهو راجع إلى مجاهدة النفس للتخلُّق **بثلاث حقائق إيمانية**، هي:

أولًا: المجاهدة لفرض لغة القرآن ومصطلحاته الشرعية، وبذل الجهد لإشاعتها في التداول الاجتماعي، والامتناع القاطع عن استعمال مصطلحات الآخرين في التعبير عن حقائق الدين وأهله! ثم ممارسة النقد على لغة السياسة والإعلام، للإسهام في إحداث وعي لدى المسلمين بخطورة حرب المصطلحات! ولا شك أن الاجتهاد في تنمية مجالس القرآن العامَّة والخاصَّة وتكثيرها، لهو من أكبر الوسائل الفعالة لإكساب المسلم مناعَةً ضد المفاهيم المضلِّلة؛ لأن القرآن الكريم يعرض مصطلحاته بقوة ووضوح؛ فيتبين الحقُّ ويزهق الباطلُ! والتمرس على مدارسته تحلِّي المتدارسين بلغته، وذلك هو المطلوب.

ثانيًا: الالتزام بسنن التدافع المبينة في القرآن، والمفصَّلة في السنة النبوية والسيرة الشريفة. وذلك بالاعتكاف على مُدَارسة كتاب اللَّه وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام؛ لتلقِّي الهدى المنهاجي الضابط لمسيرة المؤمنين بدينهم ودعوتهم، خلال ابتلاءات هذا الواقع الموصوف بأصنافه. فتحت كل كلمة من كلمات القرآن حكمة بالغة، وخلف كل قصة من قصصه سُنَّةٌ ثابتة! ومن التهور الجهول الإعراضُ عن تلقِّي ذلك الهدى وعن الالتزام به في السير الدعوي، وعند إنشاء الخطاب الإسلامي الموجَّه للمؤمنين أو لغيرهم؛ لأن ذلك الإعراض ضَرْبٌ من المعصية يستوجب العقاب، كالمخالف لأحكام الحلال والحرام سواء! ومن خالف معالم طريق ضلّ عنها! نسأل اللَّه الهدى والسداد، والعفو والعافية!

ثالثًا: التوكُّل على اللَّه والثقة به تعالى، عند حمل رسالاته بصدقٍ وبلاغِها

بإخلاص. ذلك جوهر التعبُّد وفصُّ الإيمان! وهو السبب الأكبر في استجلاب معيَّة اللَّه تعالى ونصرته! وإنما التوكل يكون بإحكام الفعل بضوابط الشريعة، وتوقيعه على مقتضى قواعد السنن، وتخليص القلب من الأهواء تخليصًا؛ حتى يكون الفعل كله للَّه، وذلك هو العزم. ثم بعده مباشرة يصح استمداد الولاية من اللَّه، وتوطين القلب على الثقة التامَّة به جلَّ علاه. وذلك هو التوكل! قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

* * *
* *
*

المجلس الرابع

في مقام التلقي لحق الله على البشرية جمعاء والتحدي بهذا القرآن ترهيبًا وترغيبًا!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

سبحانك سبحانك! ما أعظم شانك!

بعد رسم خريطة الأرض البشرية، من حيث مواقف الناس من الهدى؛ تجلَّى الملك العظيم على عبيده، بخطاب فيه من الرهبة والجلال ما يجعل القلوب العارفة بالله تسجد لخالقها فرَقًا! قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

هنا بدأ - لأول مرة في كتاب الله - تأسيس حجة الله على خلقه من الناس أجمعين! مؤمنهم وكافرهم، أولهم وآخرهم! حتى يتبين جليًّا هل للكافر حقٌّ في كفره؟ وهل للمنافق حقٌّ في نفاقه؟ أم أن الكفار والمنافقين جميعًا ظلمةٌ طغاةٌ، معتدون على حقوق الله؟! فجاء هذا الأمر القوي الصريح بعبادة الله وحده؛ باعتبار

أن ذلك هو حقُّ اللَّه الأكبر على الناس كل الناس! حقُّه تعالى الآسر لأعناقهم والقابض على نواصيهم جميعًا! وذلك لأن اللَّه هو الربُّ ﷻ! الربُّ الذي خلق الناس، أولَهم وآخرَهم! والرَّبُّ في اللغة هو: السيد المالك للشيء. والمِلْكِيَّةُ الحقيقية إنما تكون لمخترع الشيء ومبدعه. واللَّه ﷻ هو الذي خلق هذا العالم وأبدعه بما فيه من مُلك وملكوت، وبما فيه من ملائكةٍ وإنسٍ وجنٍّ وحيوانٍ. فكيف بهذا الإنسان الحقير أن يتمرَّد على مولاه؟ وما هو - بكل ضجيجه وعجيجه - سوى جزيئة ضئيلة ضئيلة، ضمن ملايين المخلوقات والكواكب والمجرات!

إنه أمر زجري قوي! فهذه البشرية التي تتنصل من حقوق ربِّها إلى درجة التنكر لربوبيته تعالى - كليًا أو جزئيًا - يخاطبها اللَّه ﷻ بهذه العبارة المنبهة الشديدة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ... ﴿٢١﴾ ﴾ أي لا تنسوا أنكم مجرد عبيد لا آلهة، فلا أحد منكم خلق نفسه! فاستجيبوا لسيدكم الذي له الفضل وحده في إخراجكم من ظلمات العدم إلى نور الوجود! إذ بذلك كان حقُّه عليكم: أن تخلصوا له العبادة وحده دون سواه! إنه الخالق الأوحد للبشرية جميعا أولها وآخرها! ومن ثم وجب التخلِّي عن الكبرياء الشيطاني، والخضوع للَّه الواحد القهار خضوع ذلة واستسلام وافتقار، وخوف ورجاء، وشكر ومحبة؛ على ما خلق ورزق وهدى! فذلك مقتضى قوله تعالى: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾.

وقد جعل الجملة الموصولة: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ في معنى التعريف لمفهوم « الرب »؛ لأن صفة « الخالقية » هي المفتاح الأكبر لتوحيد الربوبية، وما يلزم عنه من توحيد الألوهية أو توحيد العبادة. وتلك هي حجة اللَّه الكبرى على العالمين! وهي الواردة بشكل صريح - على سبيل التعريف بالربوبية - في جواب موسى عليه السلام لفرعون لما ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]؛ ولذلك كان كلُّ الأمرِ بعبادة اللَّه وتوحيده في كلِّ ما ينبغي له؛ مستندًا إلى حجة الخالقية صراحة أو ضمنًا. وهو أمر مطَّرد في القرآن لمن استقرأه. منه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ [النساء: ١] وقوله في سياق الإنكار على المشركين: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن

شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠] ومثله قوله سبحانه: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١] ثم قوله: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤] وقال على سبيل التحدِّي: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١] ونعى على الإنسان كفره محتجًا عليه بأنه مجرد مخلوق مهين فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس: ١٧ - ١٩] وغيره في كتاب اللّٰه كثير جدًّا!

فالخالقية هي السرُّ الأعظم والبرهان الأكبر لوجوب توحيد اللّٰه في ربوبيته وعبادته. ذلك أن الخلق - بمعناه المصدري لا الاسمي - فعل من أفعال اللّٰه العظيمة، التي تحتجب بأنوار الغيب احتجابًا تحار إزاءه العقول، وتعجز عن إدراكه الفهوم، وليس للإنسان مهما أوتي من قوة علمية إلا أن يتلقاه بالإيمان! فهو من جِهةٍ حُجَّةٌ قاهرةٌ! لأن عظمة المخلوقات وسعة الأرضين والسموات براهين ناطقة بذاتها بتوحيد الخالق العظيم، لكنه من جهة أخرى معنى غامض شديد الغموض، ضارب في أعماق الغيب بما لا طاقة للعقل البشري على تصوُّره! وكيف لا وهو من أخصِّ شؤون الربوبية؟ وأنَّى للمخلوق - وهو مخلوق - أن يحيط بصفة الخالق؟ إذن لكان « المفعول به » « فاعلًا » في نفس الفعل؛ وهو عين المستحيل! ذلك هو التحدِّي الذي لا يستطيع الاقتراب من حماه أحد! هل تستطيع أن تتصوَّر حقيقة إخراج الشيء من لا شيء؟ وإبداع الوجود من عدم؟ ألا إنه ليُخْتَبَل العقل وتنفجر شرايين الدماغ دون إدراك هذه الحقيقة الرهيبة! ولكن الوجود موجود، ها هو ذا بين يديك ناطقٌ بحيويته المتوهِّجة باسم ربِّه الذي خلق! وها أنا وأنت نتنفس الآن معنى الحياة، وقد أتى علينا حينٌ من الدهر لم نكن فيه شيئًا مذكورا! فسبحان ربنا الخالق العظيم!

وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ إحالة على بداية السورة، حيث جعل تلقِّي هدى الكتاب مشروطًا بتحقيق التقوى! ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾، ذلك أن من أراد من الناس أن يلتحق بالصنف الأول، صنف المؤمنين المتقين؛ فواجب عليه أولًا أن يتحقَّق بِخُلُقِ التوحيد للّٰه ربِّ العالمين. تلك هي الخطوة الأولى التي لا يصحُّ شيء

بعدها إلا بها! توحيده في ربوبيته بأن لا يسند شيء من الخلق والتقدير والتدبير إلى غيره، وتوحيده في ألوهيته بأن لا تتوجَّه القلوب والجوارح بالعبادة إلى أحد سواه. هنالك - وهنالك فقط - يمكن للإنسان أن ينطلق متدرجًا بمنازل التقوى؛ مُتعرِّفًا على مقام اللَّه العظيم، بما شرع له من عبادات شيئًا فشيئًا؛ حتى يكون عبدًا حقًّا! ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

ثم جعل تعالى - بعد ذلك - يعرض بعض صفات ربوبيته تعالى، مما أنعم به على البشرية خاصَّة، عنايةً ورعايةً ورزقًا وتدبيرًا! فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فهو تعالى إذ خلقكم لم يترككم هملًا، كلا! بل أكرمكم برعايته! فهذه الأرض التي هي محض خلقه سبحانه، هي هبةٌ ربانيةٌ لكم، فانظروا: ها هي ذي لكم كالفِرَاش الموطَّأ المريح! مثبتة بجبالها الرواسي، مطمئنة إلى جاذبيتها العجيبة، سائرة بكم الهُوَيْنَى في فلكها، ما بين فصول ممطرة وفصول مزهرة وأخرى مثمرة! وأحاطكم بسماء جميلة، بناها تعالى بإتقان فوق أرضكم حفظًا لها ولكم، وخدمة لمنافعكم واستمرار حياتكم. فأنزل منها أرزاقكم ماءً مباركًا، ينبت به الزرع والثمار وكل ما تحتاجونه، أنتم وأنعامكم مما هو محض رزقٍ منه تعالى لكم! فعجبا ممن يَكفُر بربه تعالى - بعد ذلك - أو يُشرِك به!

ومِن ثَمَّ ورد هذا النهي الشديد للبشرية أن تقع في ضلال الشرك المبين! فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ والأنداد: جمع نِدٍّ، وهو القرين المساوي لقرينه والمعادل له. وهذا في حقِّ اللَّه ﷻ عين المستحيل! وكيف تفعلون هذا وأنتم تعلمون أن اللَّه ﷻ قد تفرَّد بصفات الكمال والجلال خلقًا وتقديرًا وتدبيرًا؟! ألا يكون ذلك هو عين السَّفه وعين الظلم والتعدِّي؟ بلى واللَّه! فبذلك تواترت الآيات كما رأيت، وبه استفاضت الأحاديث النبوية الشريفة. فعن ابن مسعود ﷺ قال: سألت رسول اللَّه ﷺ: أي الذنب أعظم عند اللَّه؟ قال: « **أن تجعل للَّه نِدًّا وهو خلقك!** » (١) وقال ﷺ لمعاذ: « **حق اللَّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا!** » (٢) وفي وصية يحيى بن زكريا عليه السلام لبني إسرائيل: « إن اللَّه

(١) طرف حديث متفق عليه.

(٢) جزء من حديث متفق عليه.

أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مَثَلَ ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بِوَرِقٍ أو ذهبٍ، فجعل يعمل ويؤدي غُلّته إلى غير سيده! فأيكم يَسُرُّهُ أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا! ».. الحديث [1].

وبعد أن فرغ الخطاب من بيان حُجَّة الله الكونية، شرع في بيان حُجَّته القولية. فرفع الحقُّ ﷻ خطاب التحدِّي في وجه الكفار أجمعين، بكل مِلَلِهم ونِحَلِهم، وبكلِّ فهومهم وعلومهم! التحدِّي بهذا الكتاب: القرآن العظيم! كتاب الغيب

---

(١) نص الحديث بتمامه: عن الحارث الأشعري أن نبيَّ الله ﷺ قال: « إن الله ﷻ أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها! فقال له عيسى عليه السلام: « إنك قد أُمِرْتَ بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن؟ » فقال: « يا أخي أخشى إن سبقتني أن أُعَذَّبَ أو يُخْسف بي! » قال: فجمع يحيى ابن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشُّرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

١ - أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مَثَل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بِوَرِقٍ أو ذهبٍ، فجعل يعمل ويؤدي غُلّته إلى غير سيده! فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا!

٢ - وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا!

٣ - وآمركم بالصيام فإن مَثَل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك، في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك!

٤ - وآمركم بالصدقة فإن مَثَل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدُّوا يديه إلى عنقه، وقدَّموه ليضربوا عنقه! فقال: لهم هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه!

٥ - وآمركم بذكر الله كثيرًا، وإن مَثَل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدو سراعا في أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصَّن فيه. وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله! ».

قال: وقال رسول الله ﷺ: « وأنا آمركم بخمسٍ، الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله. فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع! ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم! » قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ فقال: « وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم! فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله ﷻ: المسلمين، المؤمنين، عباد الله! » رواه أحمد والبخاري في تاريخه، والترمذي وقال: « حديث حسن صحيح ». والنسائي ببعضه، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما؟ والحاكم وقال: « صحيح على شرط البخاري ومسلم ». وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

والشهادة، المعرِّفُ بطلسم الكون، وسرِّ الخلق والأمر، ولغز الحياة والموت، والكاشفُ عن قصة البدء والمصير! والعارض لأقوم منهاج، يضمن للبشرية سعادة الحياة الدنيا والآخرة! هذا كلام اللَّه رب العالمين! فمن يأتي بكلمات مثله؟ كلمات تحمل شيئًا من ذلك العمق الوجودي الرهيب؟ إنه المستحيل المطلق! فها هو ذا القرآن مذ نزل والعرب والعجم - كلاهما - يقرؤونه ويدرسونه قرونًا، ولا أحد استجاب للتحدِّي! ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ ﴾ وفي هذا تقرير للنبوة أيضًا وصدق الرسالة؛ مشيرًا إلى أن الرسول محمدًا ﷺ إنما هو عبد مطيع للَّه، يَتلقَّى ما يُنَزَّلُ إليه من عند اللَّه، فيبلِّغ رسالاته تعالى بلا زيادة أو نقصان! إذ لم تزل طوائف من الكفار قديمًا وحديثًا - لما أعجزتهم الحيل عن مواجهة حقائق هذا الدين - يقولون: إنما هذا القرآن كلامٌ مفترًى على اللَّه، وأن محمدًا - حاشاه - قد أنشأه من عنده، وأنه استعان في ذلك بأساطير الأولين، وكتب السابقين من توراة وأناجيل!

ومِن ثَمَّ تصدَّى اللَّه تعالى لهذا الريب والتشكيك بالتحدِّي! فطالب المرتابين المشككين أن يأتوا بسورة من مثله، أي على وزانه ومستواه الإلهي! وأنَّى للمخلوق الضعيف أن يتكلَّم بمثل كلام الخالق العظيم! وعندما حاول بعض سفهاء العرب أن ينشئوا كلامًا على غرار القرآن؛ جاؤوا بمضحكات جعلتهم مثار سخرية الناس عبر التاريخ مؤمنهم وكافرهم! ألا ما أجهل الناس باللَّه!

ثم أعلى الحق تعالى راية التحدِّي إلى أقصاها؛ لما طالبهم بالاستعانة بشهدائهم، أي بأعوانهم وشياطينهم من الإنس والجن، الذين يشهدون كيدهم ويؤازرونهم في ضلالهم؛ دعاهم جميعًا للاجتماع على تأليف شيء من هذا القبيل! وليعرضوه على الناس جهارًا إن كانوا صادقين! أي: صادقين في دعواهم بأن هذا الكتاب كلام مفترى، وأنه مجرد أساطير أو نقل من كتب السابقين! ولكن اللَّه تعالى حسم النتيجة ابتداءً، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ... ۝٢٤ ﴾ لأنه يعلم - وهو العليم الخبير - أنهم قد بُهتوا بحُجَّة هذا القرآن! لكن الكبرياء الجاهلي يمنعهم من الاعتراف بربَّانيته! فأعجز البشريةَ مطلقًا على سبيل التأبيد أن تأتي بشيء من مثله إلى يوم القيامة! حاكمًا على الأجيال جميعًا وعلى المستقبل البشري كلِّه، وذلك رأس الإعجاز وقمة

التحدِّي! ومِن ثَمَّ خاطب الكفرة المشككين فيه، ودعاهم بترهيب شديد إلى أن يتقوا نار جهنم التي أعدَّها للكافرين! عسى ألا يكونوا بعض وقودها؛ فإنما وقودها الناس والحجارة، والعياذ بالله! فقال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فما بالك بجحيم جعل الله الصخر لها حطبًا؟ نسأل الله العفو والعافية!

لكنه بمقابل ذلك بشَّر المؤمنين بالله ورسوله، الذين استقاموا على إيمانهم عملًا صالحًا؛ بجنات ذات أنهار تجري تحت أشجارها وغرفاتها سائحة بسلام (١)، لأهلها فيها رزق كريم لا ينقطع أبدا! وأزواج من حور العين، مطهَّرات منزَّهات عن الخبث والدنس والأذى، مما هو من ضرورات نساء الدنيا. قال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾.

ذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا ... ۝ ﴾ هو بمعنى أن الملائكة تأتيهم بفواكه وثمار من أشجار الجنة، فإذا وُضعت بين أيديهم قالوا: « هذا الذي أُطعمنا من قبل »، فيقال لهم: « كلا! ولكن كلوا فالشكل متشابه والطعم مختلف! » وقال بعضهم: (هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا) والأول أليق بكمال الجنة وجمالها! إذ لا مشابهة بين فاكهة الدنيا الفانية وفاكهة الجنة الباقية! (٢) وهم في هذا وذاك من جمال الجنة في نعيم خالد سرمدًا، لا ينغِّصه موت ولا فناء! وذلك هو تمام النعمة وكمالها. جعلني الله وإياكم من أهلها!

---

(١) عن أنس بن مالك ﷺ قال: « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض؟ لا والله! إنها لسائحة على وجه الأرض، إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت؟ وطينها المسك الأذفر! قال: قلت: ما الأذفر؟ قال الذي لا خلط له! » رواه ابن أبي الدنيا موقوفًا ورواه غيره مرفوعًا. والموقوف أشبه بالصواب. ن الترغيب والترهيب للمنذري. وقد سكت عنه الألباني. والحقيقة - إن صح الموقوف - أنه في حكم المرفوع لإخباره بغيب.

(٢) ن. تفسيري الطبري وابن كثير.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ثماني رسالات نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن تصحيح الاعتقاد في اللّٰه تعالى، بتوحيده في ربوبيته وألوهيته، هو أول العلم باللّٰه الذي ينبغي تلقِّيه من الهدى القرآني. فلا بد من حسم قضية التوحيد؛ بإسناد كل أمور الخلق وأمور التقدير والتدبير والرعاية لكلِّ ما في الملك والملكوت للّٰه ربِّ العالمين! ثم التبرؤ من كل الشركيات والخرافيات التي أضفت على بعض المخلوقات البشرية والشيطانية بعض خصائص الربوبية، مما أفسد عقائد كثير من الناس وأركسهم في الضلال والعمى! فلا انطلاق إلا بتحرير العقول والقلوب من الجهل باللّٰه، وتعليمها ما يجب عليها معرفته من حقائق التوحيد.

الرسالة الثانية: في أن إخلاص العبادة للّٰه وحده دون سواه، هو أعظم حقٍّ من حقوق اللّٰه على العباد. فهذه منبنية على الرسالة الأولى ومتممة لها. إذ الإخلاص ليس معرفة نظرية؛ بل هو إيمان عملي، إنه عمل قلبي وشعور وجداني، يقف خلف كل ما يصدر عن الجوارح من أقوال وأفعال! إنه تصفية النفس من كل قصد سوى قصد العبادة الخالصة للّٰه. فذلك هو التوحيد الخالص والدين الخالص الذي أمر اللّٰه به عباده. فإذا كانت الرسالة الأولى في العلم فهذه في العمل، ولا قيمة لعلم ليس يتبعه عمل! إذ رُبَّ عالمٍ بتفاصيل التوحيد لكن ليس له من حقائقه الإيمانية وأخلاقه التربوية نصيب! وذلك من أعظم الخسران والعياذ باللّٰه!

الرسالة الثالثة: في أن الشرك هو أخطر ذنب قد يقع فيه الإنسان! فكبيره أسوأ الكبائر، وصغيره أسوأ الصغائر! والمشكلة أن بعض المسلمين ربما استهانوا بهذه القضية، مع أن الرسول ﷺ كان حساسًا جدًّا تجاهها، حتى إنه كان يتتبع آثارها في أقوال الصحابة وأعمالهم بدقَّة متناهية! بل إنه كان يحرص على تدقيق التعبير، فيما يتعلَّق بتصفية القول من الشركيات اللفظية، مما قد لا ينتبه إليه بعض الناس، من ذلك مثلًا قوله ﷺ: « **لا تقولوا: ما شاء اللّٰه وشاء فلان!، ولكن قولوا: ما شاء اللّٰه ثم شاء فلان!** »[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فراجعه في

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن حذيفة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

بعض الكلام، فقال: ما شاء اللَّه وشئتَ!؛ فقال ﷺ: « أجعلتني للَّه نِدًّا؟ قل: ما شاء اللَّه وحده! ») [(١)].

ومِن ثَمَّ وجب أن يُعلم أن التوجُّه إلى غير اللَّه بالطلب والاستغاثة والخوف والرجاء - بمعانيها التعبدية - لهو من أخطر الشركيات الخارمة للدين والإيمان! وعلى هذا الوزان يُفهم حديث رسول اللَّه ﷺ: « **إن الرجل ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفا في النار!** » [(٢)] والعياذ باللَّه!

الرسالة الرابعة: في أن التعريف بحقوق اللَّه هو أول ما يجب على الدعاة مراعاته في دعوة الناس! وذلك بعرض نعم اللَّه على عباده خلقًا ورعايةً ورزقًا وهدايةً. فذلك منهج القرآن كما رأيت في التعريف باللَّه وبحقوقه تعالى؛ لأن من عرف ذلك - وكان من أهل الفِطَرِ السليمة - خشع للَّه وخضع، واستحيى ألا يكون من الشاكرين لمن أغدق عليه كل هذه النعم العظيمة! واستيقاظُ فِطْرَةِ الشُّكْرِ في قلب الإنسان معناه استيقاظ إرادة التوبة إلى اللَّه ذي الجلال؛ ولذلك لم يفتأ اللَّه يُذَكِّرُ عبادَه بنعمه التي لا تُـحْصَى، والتي عنها ترتبت حقوقه تعالى على الناس أجمعين! فالرعايةَ الرعايةَ لحقوق اللَّه تعالى، أداءً ودعوةً!

الرسالة الخامسة: في أن صفة « الخالقية » هي مفتاح توحيد الربوبية وما يترتَّب عنه من توحيد العبادة. فما لم يزل الإنسان يعترف أنه مخلوق، ويشاهد ذلك في نفسه وكيانه؛ فإنه يرجى له الاهتداء إلى ربِّه الذي خلقه. ومِن ثَمَّ كان تذكر هذه الحقيقة القرآنية العظمى من أهم المواعظ التي توقظ قلب المؤمن، وتزلزل بقوة قلب الكافر! ولذلك جعلها اللَّه تعالى - كما تبين - مرجع أمره للناس أجمعين بعبادته وتوحيده، قاعدة مطردة لا تكاد تتخلف! مما يدل على أنها من منهاج القرآن في دعوة الخلق؛ ومِن ثَمَّ وجب على الدعاة الانتباه إليها وتوظيف آياتها في خطاباتهم، وكذلك وجب التفقُّه فيما وصل إليه العلم البشري الحديث من حقائقها. سواء فيما يتعلَّق بخلق الإنسان أو خلق الطبيعة ومدارات الأفلاك، وغير هذا وذاك. فكل ذلك مفيد في إحياء عبادة التفكر التي هي من أهم العبادات؛ إذ السياحة في معارض

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الخلق الإلهي ومشاهدها المعجزة، من خلق النفس إلى خلق الكون؛ يترتَّب عنه الشعور بالعبدية للَّه الواحد القهار! ولذلك قال المتفكرون في خلق السموات والأرض: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١]

الرسالة السادسة: في أن التخلُّق بالعبادة الخالصة هو مسلك التحقُّق بمقام التقوى العالي! ذلك أن مجاهدة النفس بإخلاص التعبُّد للَّه في سائر الأعمال والأقوال، هو السبيل الأقوم للتدرُّج بمنازل معرفة اللَّه، وتلقِّي حقائق العلم به تعالى، ومن عرف ربه حق المعرفة عرف قَدْرَهُ تعالى، ومن عرف قدره أجلَّه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه! فبذلك يبلغ العبد أعلى مراتب التقوى! وعلى قدر تقوى المرء يتلقى من هدى القرآن ما يزيده معرفة باللَّه حتى يكون من الصِّدِّيقِينَ! فالتقوى هي باب كل خير! ومفتاحها الاجتهاد في إخلاص العبادة للَّه فعلًا وتركًا. جعلني اللَّه وإياكم من أهلها برحمته تعالى وفضله!

الرسالة السابعة: في أن النصَّ القرآني - ببياناته النبوية - هو ما يجب أن يكون أساس الخطاب الدعوي المعاصر، فلا تجديد للدين إلا بما تأسَّس به ابتداءً! فبالقرآن وقع التحدِّي قديمًا وبه يقع حديثًا، وبالقرآن انتشر الهدى قديما وبه ينتشر اليوم! فالقرآن كلام الحي الذي لا يموت! وهو بذرة الحياة وماؤها المحيي للنفس وللمجتمع، ما وقع على شيء إلا كان له أثر الغيث! إلا ما شاء اللَّه من القيعان التي لا تمسك ماء ولا تُنبت كلأً! أما القلوب التي لم تزل فطرتُها سليمةً، مهما غَشِيها من الأوساخ والأدران؛ فإنها تستيقظ حيةً بكلام اللَّه!

ثم إن القرآن هوكتاب التحدِّي الأكبر للمذهبيات الجاهلية، التي تقف للهدى بالمرصاد هنا وهناك، وتحاول محاصرة الخير؛ فيكشف زيفها، ويعرِّي دجلها، ويسفِّه عقلها وفلسفاتها! ويحطِّم - بما يعرض من حقائق إيمانية ونُظُم اجتماعية معجزة - كلَّ ما تتبجَّح به من فهوم باطلة، وكل ما تتألَّه به من نُظُم فاسدة!

الرسالة الثامنة: في أن التفقُّه في الآخرة والتعريف بحقائقها الإيمانية، ترغيبًا وترهيبًا؛ علم ديني أساس في دعوة الناس! فلا ينبغي أن يبقى الداعية أسير العقلانية المادية التي سيطرت على كثير من الخطابات الإسلامية في هذا الزمان، وكأنها تُعَاني من عقدة النقص تجاه الآخر، وتنظر إلى الخطاب الوعظي نظرة دونية! مع أنه لبُّ الدين وفصُّ

رسالة سيد المرسلين! فالتفقُّه في الآخرة جنتها ونارها، هو أهم علم بعد العلم بالله. قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] ومن أجمل الأحاديث الواردة في هذه الحقيقة قول النبي ﷺ: «إن الله يُبغض كلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ في الأسواق، جيفةٍ بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بالدنيا جاهلٍ بالآخرة!» (١) ومن ثَمَّ كان أول دعوة النبي ﷺ لقريش عندما اعتلى صخرة الصفا خطيبا، أنه نادى: «يا بَني فِهْر! يا بني عَدِيّ! يا بني عبد مَناف! يا بني عبد المطلب! أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقًا! قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!» (٢) فكل هذا - وغيره كثير - دال على أن التعريف بالآخرة من أهم أركان الخطاب الدعوي الإسلامي. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

٤ - مسلك التخلق:

فأما هذا المسلك فقد كان هداه المنهاجي دائرًا - كما رأيت - حول حقائق التوحيد والإخلاص، والرعاية لحقوق الله، والتفقُّه في علم الآخرة دينًا ودعوةً. وكلها حقائق آئلة من حيث مسلك التخلُّق إلى طريق واحد جامع هو: تفكر كل امرئٍ في خلق نفسه خاصَّةً! أي قبل النظر في خلق السموات والأرض. فلو نظرتُ أنا وأنت، كل منا ينظر إلى حقيقة وجوده وحقيقة خلقه منذ وُلِدَ إلى الآن! وكيف كان بمشيئة الله، ولو شاء الله لم يكن! ثم يستشرف لحظة موته القادمة حتمًا؛ لوجد نفسه مجرد عبد لا يملك من أمر نفسه شيئًا، عبدٍ ضعيف عاجز فقير، مشدودٍ من ناصيته إلى قَدَرٍ

---

(١) رواه البيهقي عن أبي هريرة مرفوعًا. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع، بينما ضعَّفه في السلسلة الضعيفة. ومعنى جَعْظَرِيّ: فَظٌّ غليظ وشَرِهٌ أَكُول! والجَوَّاظُ: المتكبر المختال؟ الجمَّاع للمال المتكالب عليه؟ لا يهمه مصدره أمن حلال هو أم من حرام! والسَّخَّابُ في الأسواق - وفي رواية صَخَّاب - أي: الذي يكثر الصياح والصراخ في بيعه وشرائه؛ مما يدل على هلعه؛ ولذلك فهو كالحمار بالنهار من حيث نكارة صوته ونتانة نفسه. وكونه جيفة بالليل: أي أنه ينام على غير صلاة ولا ذكرٍ لله تعالى! وكونه عالمًا بالدنيا: أي عالما بطرق جمع المال ولو بالحرام! وأما جهله بالآخرة: فهو جهله بحقائقها الإيمانية وعدم تفقهه فيها، ولو فعل لشفي مما به من أمراض وخيمة!

(٢) متفق عليه.

اللَّه العظيم! وإنه لتفكُّر صعبٌ رهيبٌ! يزلزل النفس ويوقظ القلب الغافل على فزع شديد! فإذا حصل للعبد ذلك الحال الجارح الأليم، احتاج إلى دواء يغمر قلبه سكينةً وطمأنينةً وإلا كان من الهالكين! ومِن ثَمَّ فالمؤمن يسارع إلى كتاب اللَّه تعالى يَذْكُرُ ربَّه ويناجيه بهذا الوجدان؛ عساه يكون مِنَ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] وفي مثل هذا السياق وردت تلك المناجاة النبوية الرقيقة، من قوله ﷺ: « **اللَّهم إني عَبْدُكَ وابْنُ عبدِك وابنُ أمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمُك، عَدْلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسْمٍ هو لك، سَمَّيْتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَهُ أحَدًا من خَلْقِك، أو أنزلته في كتابك، أو اسْتَأْثَرْتَ بِه في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي!** » (١).

ومِن ثَمَّ فعلى قدر إقبال العبد على اللَّه بالقرآن - ذكرًا وتدُّبرًا - يتلقَّى قلبُه من حقائق الإيمان ما يجعله يتخلَّق - شيئًا فشيئًا - بمنازل التوحيد والإخلاص والرعاية لحقوق اللَّه والتفقُّه في الآخرة! فلا يزال يسير على هذا الهدى الربَّاني؛ حتى يكون من المؤمنين الكُمَّل. جعلنا اللَّه وإياكم منهم!

* * *

---

(١) رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى. وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٥٢٨).

المجلس الخامس

في مقام التلقي لمعجزتي الحياة والموت
وبيان مسلك جديد من التعريف بالله!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

سبحان الحي الذي لا يموت!

ههنا يكشف الحقُّ ﷻ عن وجه جديد لمعجزة الحياة، وعن عمق بعيد لسرِّ الخلق؛ بما يزيد العقل البشري عجزًا وحيرة! فلا يملك العقل المنصف والقلب الصافي إلا الخضوع لله، والتسبيح بحمده؛ لما يشهده في آفاق هذه الأمثال القرآنية من عظمة الله الواحد القهار! وبيان ذلك هو كما يلي:

يروي المفسرون في سبب نزول هذه الآيات عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ أن الله ﷻ لما ضرب الأمثال في القرآن بالعنكبوت والذباب وغيرهما من الحشرات؛ قال الكفَّار على سبيل السخرية والاستهزاء: ما بال هذا الكتاب يُذكر فيه العنكبوت والذباب؟ إن الله أعلى من أن يتحدَّث عن مثل هذا؛ فجعلوا ذلك وسيلة للتشكيك في مصدرية القرآن! فأنزل

اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ (١).

أي أن اللَّه تعالى ﴿ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ ﴾ بمعنى: لا يستنكف ولا يخشى، أن يضرب أيَّ مثلٍ كان بأي شيء كان، صغيرًا أو كبيرًا ولو كان بعوضة! ما دام ذلك المثل فيه من حكمة اللَّه العليم الخبير ما يستوجب تدبُّر العقلاء واعتبار أولي الأبصار! وروي في قوله تعالى: ﴿ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴾ قولان، كلاهما له وجه صحيح في العربية. فأما أحدهما: فهو بمعنى: « فما أكبر منها » وهو ظاهر، وأما الآخر فهو عكسه أي: بمعنى « فما أصغر منها وأحقر »، كما إذا وُصف رجل باللؤم والشح فقال السامع: « نعم وهو فوق ذلك! » بمعنى أحقر مما وصفت! قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا قول أكثر المحققين) (٢).

فأما المؤمنون فيعلمون أنه مثل رباني عميق، ويزيدهم هدى ويقينًا بأن هذا القرآن كلام اللَّه حقًّا. وأما الكفَّار والمنافقون فيسخرون به فيزيدهم ضلالًا! إذ بهذه الأمثال الربانية العميقة - المضروبة في القرآن - يهتدي عقلاء البشر وذوو الفِطَرِ السليمة منهم، ممن إذا عرف الحق تواضع للَّه وخضع له! أما المستكبرون منهم ممن فسقوا عن الحقِّ بعد معرفته فلا تزيدهم إلا ضلالًا!

والسر العظيم في هذه الآية ههنا هو بيان أن البعوض أو ما دونه من مخلوقات وجراثيم دقيقة، مما لا يُرى بالعين المجردة؛ كل ذلك يمثل حقيقة من حقائق هذا الوجود الضخم الكبير! إنها حقيقة الخلق والتكوين والإبداع! فالمرء الذي يقف معجبًا بخلق الجمل أو الفيل أو الحوت العملاق أو خلق الإنسان نفسه وسائر الكائنات الحية في البرِّ والبحر، لو تدبَّر وتفكَّر لوجد أن القدرة التي خلقت هذه الكائنات الكبرى هي نفسها التي خلقت البعوض والذباب والجراثيم! ولوجد أن سرَّ الإعجاز في ذلك كله واحد! لأن الخالق واحد! وأن معجزة خلق النملة لا تقل عن معجزة خلق الفيل! فخلق البعوض مثلًا أو الجرثوم مهما دق، هو لغز من ألغاز هذا

(١) وروى السدي عن ابن عباس وابن مسعود أن قول المشركين: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ ﴾ هو متعلق بالمثلين المضروبين للمنافقين في سورة البقرة قبلُ؟ أي في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ... ﴿١٧﴾ ﴾ وقوله: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴿١٩﴾ ﴾. لكن قول قتادة أوفق للسياق ولذلك رجحناه هنا. ن. تفصيل الروايات في تفسيري الطبري وابن كثير.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

الوجود وسر من أسرار هذا الكون! لغز معجز أبدًا، لا ينفتح سرُّه ولا طلسمه إلى يوم القيامة! ولم يزل القرآن منذ أُنزِل يتحدَّى البشرية بهذا إلى يوم الدين! ومِن ثَّم فإنني أجد آية الذباب في سورة الحج أبين تفسير لآية البعوضة في سورة البقرة، وأدق بيان لها، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فالقوة الربانية والعزة الإلهية مشاهَدة لدى أهل البصائر في خلق الذباب، وأما العُمي فما أبصروا شيئًا؛ ولذلك ما قدروا اللَّه حق قدره! إنه نداء التحدِّي يدوي به هذا القرآن العظيم فوق رؤوس البشرية جميعًا، آمرا إياها بالاستماع لِمَثَلِهِ الكريم في معجزة الخلق والتكوين!

فالسر هنا هو السر هناك، إنه سر الحياة! فيا أيها الإنسان! هذه البعوضة هي أيضًا مثلك من وجه، إنها خلق من خلق اللَّه يكتنز بسرِّ الحياة! إنها تتنفس كما أنت تتنفس، وتجوع كما أنت تجوع، وتخاف كما أنت تخاف، وترجو كما أنت ترجو، وتكدح في طلب رزقها كما أنت تكدح، ثم تموت عند أجلها المقدر لها كما أنت تموت، وهي فوق هذا وذاك تذكر ربَّها وينساه كثير من الناس! هذا بغض النظر عن حكمة خلقها، وغاية تكوينها، وبث أمتها العظيمة في الأرض؛ تؤدي وظيفتها التي خُلقت من أجلها! ولو تتبع المتدبر ذلك لبقي عُمُرَهُ كلَّه مشتغلا بتبين معجزة خلق البعوض! فأي سر هذا وأي إعجاز!

الحياة.. هذا المعنى الغريب الذي نعيشه - ما دمنا أحياء - ولكننا لا نعرفه! ومن ذا يستطيع تعريف جوهر الحياة؟ فدونك كل الشروح والتعريفات في سائر التشريحات والفلسفات، لا أحد استطاع تعريف الحياة إلا بأعراضها! التنفس والإحساس والحركة والكلام وتجدد الخلايا.. ووو إلخ.. كلها كلها جميعًا ما قيل قديمًا وما يقال حديثًا إنما هو نتائج لوجود الحياة لا تعريفات للحياة!

ويموت المخلوق الحي فلا يُدرى للموت تعريف! وإنما يقال: « فقد الحياة! » فكانت معجزتا الحياة والموت وجهين لحقيقة واحدة: قدرة اللَّه الذي يحيي ويميت!

والبعوضة تحمل سرًّا من أسرار تلك القدرة، أي: أنها تحيا بإذن اللّه وتموت؛ فمن يستطيع تفسير لغزها؟ ولذلك فإنه لا يضل عن معجزة خلق البعوضة إلا أعمى!

أمثال وأي أمثال! فليس لنا من التعليق عليها إلا قول اللّه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ثم شرع تعالى في بيان صفات الفاسقين الذين يضلون بأمثال القرآن ولا يهتدون، رغم وضوحها وإحكامها، وما تتضمَّنه من جمال وجلال، وما تضعه بين يدي الإنسان من علامات دالة على الطريق، فقال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطريق المنحرف عنها. وهو في الشرع المنحرف عن الحقِّ، سواء كان انحرافه جزئيًا وهو المسلم العاصي أو المسلم المخطئ، أو كان انحرافه كليًا وهو الكافر المحض. وبكلا المعنيين استعمل لفظ « الفاسق » في القرآن، والسياق هو الذي يحدد المقصود. ولذلك فالمراد بالفاسقين هنا هم الكفار. وقد وصف اللّه تعالى فسقهم الذي يمنعهم من إبصار هدى الأمثال القرآنية بأوصاف ثلاثة هي: نقض عهد اللّه، وقطع ما أمر اللّه به أن يوصل، والإفساد في الأرض؛ وبذلك حكم عليهم بالخسران في الدنيا والآخرة.

فنقض العهد معناه التنكُّر لما جَبَل اللّه عليه الفطرة الإنسانية من الإيمان والتوحيد، وجحود الإقرار الفطري فيها، وهو الميثاق الذي استجابت له وهي ما تزال في عالم الروح، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهو بالإضافة إلى ذلك جحود عهد اللّه الذي عهد به تعالى إلى البشرية، مما جاءت به الرسل جميعًا، والتنكر للأمانة التي حملها الإنسان. كما يدخل فيه أيضًا نقض أهل الكتاب من اليهود والنصارى لعهد اللّه إليهم باتباع محمد ﷺ عندما يبعث للناس، مما جاء خبره في التوراة والإنجيل وإقرارهم بذلك، فلما ظهر الرسول في غير نسلهم تنكَّروا له ونقضوا عهدهم ذاك!

فهذه كلها روايات أوردها الإمام الطبري في تفسيره على أنها مذاهب مختلفة [1]،

(١) تفسير الطبري للآية، وقد حكاها عنه الإمام ابن كثير.

لكنها في الحقيقة تؤول إلى معنى واحد متكامل لا يختلف، وهو ما لخصناه ههنا؛ ولذلك لم يزل نقض العهد - أي عهد - شيمةً لهم ثابتة إلى يومنا هذا، بل إلى يوم الدين! أوليسوا قد بَرَّزُوا اليوم في نقض العهود الدولية وسائر المواثيق؟ ليس لهم من وازع في ذلك نقضًا وإبراما - بشتى مللهم ونحلهم - إلا مصالحهم الشخصية وأنانياتهم الاستعمارية!

وأما « قطعهم لما أمر اللّٰه به أن يوصل » فذلك من شيم الكفر وخصاله البارزة قديمًا وحديثًا: التنكُّر لصلات الخير مطلقًا، سواء كان ذلك في معنى صلة الرحم أو صلة الإنسان لأخيه الإنسان بالخير والصلاح، أو كان بمعنى صلة العبد لربِّه بالثبات على الإيمان والعبادة. وكل ذلك ظاهر الوضوح فيهم، فقد مزَّقوا الأسرة وتنكَّروا لأرحامهم، وتعدَّوا على الإنسانية بشتى أنواع المظالم، وقطَّعوا كلَّ سبب يصلهم باللّٰه خالقهم! فتخصَّصوا في إفساد الأرض بعد إصلاحها! وهذا هو وصفهم الثالث والعياذ باللّٰه.

ثم يختم هذا المقطع بالإنكار الشديد على الكفار، والاحتجاج عليهم بمعجزات الموت والحياة، والخلق لذواتهم ولِمَا أنعم عليهم به، مما حَوْلهم وتحتهم وفوقهم. احتجَّ به عليهم في أنفسهم؛ إذ لم يبصروه حولهم في الذباب والبعوض! فقال ﷻ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ فكيف يجوز للبشرية أن تكفر باللّٰه وهو تعالى الذي خلقها ولم تكن شيئًا مذكورًا؟ لقد كانت أول الأمر في موات، أي أنها كانت عدمًا محضًا قبل خلق آدم، أو أنها - بعد خلقه - نسمات في صلبه عليه السلام ليس لها معنى الحياة الأرضية ولا الوجود الدنيوي. ثم أحياها الخالق الجليل بإرادته تعالى، فجعلها أنفسًا في أجسام سواها في أحسن تقويم، ثم يميتها بعد ذلك فتصير إلى موت جديد وتؤول إلى التراب، كما كانت من قبل! ثم يحييها الحياة الآخرة وهي حياة البعث والنشور!

ثم يضيف تعالى لهذه الحجج الرهيبة حُجَّة أخرى وهي ما أسبغه تعالى على الإنسانية من نعم؛ إذ خلق لها ما الأرض جميعًا، هكذا بهذا الاستغراق الشامل لكلِّ

ما في الأرض، من أنعام وبهائم ووحوش وطير وأسماك وغابات وأنهار وبحار ومعادن.. إلى غير ذلك مما يشمله معنى الأرض وما فيها! كل ذلك إنما هو مخلوق - من يوم خلق الله الأرض - لهذا الإنسان، الذي لن يسكنها إلا بعد خلقها بملايين السنين! فأي فضل هذا وأي تكريم! ثم خلق الله السموات السبع بعد ذلك تبعًا لهذا المعنى العظيم، وهو إبداع هذا الكون الفسيح لما يريده به ﷻ من تكريم البشرية وابتلائها فيه وبه! ولذلك قال في الختام: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ من شتى أنواع مخلوقاته، وما يزخر به هذا الكون من حقائق وكائنات، ومقاصد خلقه لكلِّ شيء منها وحكمته! فتبارك الله أحسن الخالقين! (١).

وبذلك تمت حُجّة الله على خلقه، مؤمنهم وكافرهم، مما استعرضناه في هذا المجلس والذي قبله. فبأي لسان - بعد ذلك - ينطق هذا الإنسان بكفره أم بأي جَنان؟

٣ - الهدى المنهاجي:

أما ما يسَّر الله استنباطه من هدى هذه الآيات فقد جعلناه في **ستِّ رسالات** هي:

الرسالة الأولى: في أن ضرب الأمثال منهج قرآني أصيل في أداء البلاغ المبين؛ ولذلك وجب على الداعية أن يستفيد طريقته في بناء خطابه. وما من خطاب يخلو من ضرب المثل - حيث ينبغي أن يُضرب - إلا وهو خطاب ناقص وبلاغ غير مبين! ومن ثَمَّ كان ضرب الأمثال في القرآن دليلًا على تمام البلاغ وقيام الحجة! وقد صرَّح القرآن بذلك تصريحًا في أكثر من موطن، فتدبَّر قوله تعالى في قيام حجته على من أهلكهم بعذابه من الأمم: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٩]، وقال الله سبحانه: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

(١) ذهب أغلب المفسرين - إلا من شذ، كما قال ابن كثير - إلى أن الأرض خلقت قبل السماء، ولا ينقضه قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣] لأن الدَّحْيَ تتميم لخلقها الأول بجعلها مهيأة للحياة! وذلك بإنزال الأمطار وإنبات الغابات وخلق الجبال وتفجير العيون والأنهار إلخ. وكل ذلك كان كامنًا فيها بالقوة لكنه ما أخرجه تعالى إلى الفعل والوجود إلا بعد خلق السموات السبع. ففي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء. تلك خلاصة كلامه. قلت: فكأن الأرض خلقت يوم خلقت كتلة ميتة لا حياة فيها، ثم دحيت بعد ذلك بمعنى أنها بعثت فيها الحياة! والله تعالى أعلم.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١] وقوله سبحانه: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥] وقال ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

هذا وإن ضرب الأمثال المستقاة من حوادث التاريخ القديم والحديث، ومن قصص السابقين والمعاصرين، لمن أبلغ البيان في بناء الخطاب الدعوي المعاصر. كما أن على الداعية اليوم الاجتهاد للاطلاع على حقائق علوم الطبيعة ودقائق المخلوقات، وطبائعها الفطرية والاجتماعية، مما كشفته العلوم المعاصرة؛ حتى تكون أمثلته في عجائب الخلق صحيحة؛ وذلك لما فيه من بيان عظمة الخالق ووحدانيته تعالى. كما أن له أن ينشئ من فكره أمثلة لما شاء من حقائق الدين في العقائد والعبادات والمعاملات، بشتى أنواع البيانات والتمثيلات؛ بشرط أن تكون على تمام المناسبة لمقام الدين غير خارمة لمقاصده. فضرب الأمثال أصل من أصول التربية والتعليم لا غنى عنه. وعليه قام المنهاج النبوي في بيان حقائق الإسلام. وأمثلته ﷺ في السنة النبوية هي أكثر من أن تُحصَى، بل هي منهاج مطَّرد في بلاغه المبين عليه الصلاة والسلام (١).

الرسالة الثانية: في أن الفسق بمعناه الجزئي - وهو ما يكون عليه المسلم من عصيان وارتكاب للخطايا - مانع للقلب من تلقِّي الهدى الرباني، وحاجب للبصيرة من مشاهدة حقائق الإيمان! وقد سبقت لنا - بالمجلس الثاني من هذه السورة - كلمات حول أثر الذنوب على القلب الذي لا يبادر صاحبه إلى التوبة، وما تضربه عليه من رَانٍ يمنعه من معرفة المعروف وإنكار المنكر. حتى يصبح ذلك القلب « **أَسْوَدَ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا! إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!** » (٢) هذا جانب.

لكن لنا ههنا بهذا المجلس معنى آخر، وهو الإصابة ببلادة الروح! أعني بلادة

(١) انظر على سبيل المثال قوله عليه الصلاة والسلام: « مَثَلِي كمَثَلِ رَجُلٍ استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاشُ وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها! وجعل يَحْجُزُهُنَّ، ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها! فذلك مَثَلي ومَثَلُكم، أنا آخذُ بِحُجَزِكُم عن النار: هَلُمَّ عن النار! هَلُمَّ عن النار! فتغلبوني فتقتحمون فيها! » متفق عليه.
(٢) رواه مسلم. وهو جزء حديث سبق إيراده كاملًا. وقوله: أَسْوَد مُرْبَادًّا: يعني فيه لمعَانٌ من شدة السَّوَاد! والكُوزُ: الإناء كالإبريق. وكونه مُجَخِّيًا: يعني مَنْكُوسًا، بحيث لا يمسك ما فيه.

الإدراك لإشارات القرآن وبوارقه، ولحقائق الإيمان اللامعة في سمائه. وهي بلادةٌ يُطبع عليها من أحاطت الذنوب بقلبه، حيث يفقد القدرة على الإدراك لمقاصد الآيات حتى ولو حاول ذلك! إذ التحلِّي لا يحصل لصاحبه إلا بعد التخلِّي! وهو ما وصفه اللّٰه من حال المنافقين بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦] وهي حالٌ متعديةٌ لكلِّ من كان على شاكلتهم خُلُقًا وإن سلم اعتقاده! ذلك أن القرآن لا يفتح كنوزه إلا لمن طرق بابه تائبًا! فيؤتَى من العلم باللّٰه على قدر إخلاصه للّٰه. وهنالك يتلقَّى من الهدى الرَّبَّاني ما أذن اللّٰه له فيه. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] أي العالمون باللّٰه وبقدره العظيم ﷻ !

فالتطهر اليومي من الذنوب والخطايا إذن؛ شرط لذكاء الروح، وسبب في صقل مرآة القلب لتلقي العلم باللّٰه من كتاب اللّٰه.

الرسالة الثالثة: في أن جوامع الخير دينًا ودعوةً في ثلاثة أمور، أولها: الوفاء بالعهود، بدءًا بعهد اللّٰه من التوحيد والإيمان والعمل الصالح، إلى عهود الناس بشروطها الشرعية. ثانيها: صلة الناس بالخير، بدءًا بذوي الأرحام إلى من سواهم. الثالث: السعي في الأرض بالصلاح والإصلاح. وهي مُتَضَمَّنة في حديث النبي ﷺ: « **اتَّقِ اللّٰهَ حيثما كنت! وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حَسن!** »(١) فالمخالقة الحسنة من أقوى الخطابات الدعوية وأبلغها! والدعاة إلى الخير المصلحون في الأرض، من أهل الفضل والتقى، هم جند اللّٰه المنصورون في حرب الفساد التي يقودها الشيطان في الأرض! فهذه معركة الحقِّ والباطل التي حسم نتيجتها الرحمن بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] وما من عبدٍ صالحٍ في نفسه مصلح لغيره، إلا وهو داخل في معنى جند اللّٰه إلى يوم الدين.

الرسالة الرابعة: في أن الكافر المحض لا ذمة له ولا عهد! ومهما وَفَّى للمسلمين

---

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم والبيهقي عن أبي ذر مرفوعًا. وقال الترمذي حسن صحيح.

بشيء فلمصلحة له خاصَّة. وإلا فالغدر والنقض لكلِّ العهود والمواثيق هو شيمة الكفر في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان. فقد نقضت قريش من قبل عهد رسول الله ﷺ، كما نقضت يهود عهد رسول الله ﷺ! ولم يزل قَبِيلُ هؤلاء وأولئك - من اليهود والكفار - إلى اليوم يبرمون العهود متى ما دعت إليها مصلحتهم، وينقضونها بخرق بنودها وخيانة شروطها غدرًا بالمسلمين؛ متى ما فرغوا من قضاء مصالحهم، أو ظهرت لهم مصالح أخرى على عكس ما رأوه أمس! ذلك هو الكافر! وأنَّى لمن نقض عهد الله ابتداءً، وتمرَّد على ربِّ العالمين أن يفي بعهد المخلوقين؟ وهذا شأن الكفر المحض أيضًا الذي تمثله المؤسسات الاستعمارية الكبرى في العالم اليوم، حيث يتترَّس طواغيت الأرض، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الإعلام، وما يقف خلف ذلك كله من جيوش وسلاح. كلها جميعًا تشتغل اليوم على عين الشيطان الأكبر، أعني إبليس اللعين نفسه! تأتمر بأمره وتتصرَّف بمقتضى وحيه! فتخرب العالم عامَّة والعالم الإسلامي منه خاصَّة! تنقض عهوده، وتمزِّق أوصاله، وتفسد في الأرض!

وهذا لا يمنع من وجود أفراد أوفياء - مجرد أفراد - من بعض أهل الكتاب هنا أو هناك، إذ هم ليسوا سواء في الوفاء، كما وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ومِن ثَمَّ كان الكفر كمؤسسة شرًّا محضًا، لا يُؤْمَنُ ولا يُسْتَأْمَنُ!

الرسالة الخامسة: في أن قضية الحياة والموت من أبلغ القضايا التي تفحم الإنسان وتزلزل كيانه؛ فوجب أن يكون لها حظُّها الوافر في الخطاب الدعوي، تمامًا كما هو وافر في كتاب الله وفي حديث رسول الله ﷺ. فهذه الحقيقة تجعل الإنسان أيًّا كان يشعر بأنه مجرد عبد لا حول له ولا قوة! فالمتفكر فيها يجد أنه وُلد فكان منه ما كان بلا إرادةٍ منه ولا اختيار، ثم يجد نفسه مُقبلًا على الموت بلا إرادةٍ منه ولا اختيار! وكلما أمعن في طبيعة الحياة الدنيا وجدها أنها مجرد عبور إلى الآخرة، وأنه لا بقاء لأحد فيها مهما علا شأنه بين أهلها!

ومِن ثَمَّ كانت حقيقتا الحياة والموت - بما تتضمَّنه كلتاهما من أسرار وألغاز -

أشد طَرْقٍ دعوي على قلوب أهل الغفلة من المسلمين، وأهل الضلالة من الكافرين. إذ توقظ الإنسان على مشهد فنائه! فإن كان ممن كتب اللّه له الهدى بادر إلى التوبة وكان من الصالحين. وإن كان من أهل الشقاء فرَّ إلى ما يمنِّيه الشيطان به ويغريه، وانغمس الجهول في الشهوات عساه ينسى! ولكن إلى متى؟ وحتى متى؟.. فمثل هذا من قال تعالى في حقِّه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

الرسالة السادسة: في أن الإنسان مخلوق رباني كريم، له موقع كوني رفيع في هذا الوجود، فمن أجله خلق اللّه الأرض وما فيها، وأحاطها بالسموات السبع، وجعله مخدومًا فيها غير خادم، على أساس أن يتفرَّغ هو لحمل الخلافة وأداء الأمانة. فيكون إمام العابدين للّه في الأرض، صالحًا مصلحًا فيها، مقدَّما بين يدي اللّه خليفةً عن كل المخلوقات من الإنس والجنِّ والحيوان والطير والنبات والماء والهواء والحجر والتراب! حتى الحوت في البحر، حتى النملة في جحرها! حتى لتقتدي به الملائكة وتُؤَمِّنُ بتأمينه في صلاته، وتدعو له وتستغفر! وبذلك يخدمه من في السموات ومن في الأرض! هذا ما دام ذلك الإنسان عبدًا للّه حَقَّ عبدٍ، يحمل كتاب ربِّه بقوة، ويتصرَّف بمقتضى عهده بأمانة!

ومِن ثَمَّ كانت هذه الأرض - رغم ضآلة حجمها في محيط الأفلاك السيارة والمجرات - كوكبًا مباركًا؛ ببركة ساكنها: الإنسان! وقد ذكر اللّه أنه ﷻ خلقها في يومين ثم دحاها وقدَّر فيها أقواتها وأهَّلَها للحياة في أربعة أيام، فهي ستة أيام! بينما قضى خلق السموات السبع جميعهن في يومين فقط! وبذلك جعلها سبحانه تُذكر عنده في مقابلة السموات السبع جميعًا! إذ يُجْمِلُ خِطابَه تعالى للسموات كلهن في كلمات، ويفرد الأرضَ من ذلك بكلمات خاصَّة! تلك إشارات تومض بها هذه الآيات من سورة البقرة، ولكن تُفَصِّلُهَا بوضوح الآيات التاليات ، فاقرأ وتدبَّر: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا

طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

والنتيجة من ذلك كله هي: معرفة قدر هذا الإنسان عند الرحمن! وكم هو مكرَّم عند اللَّه ذي الجلال! فأي ظلم يرتكبه هذا الجهول عندما يكون من الكافرين، ويظاهر الشيطانَ على اللَّه ربِّ العالمين؟! فتدبَّر حقيقة الكفر، وما فيه من ظلم وظلمات، وما يمارسه الكافر من تخريب لنظام الملك والملكوت! أي جحود للنعمة هو! وأي تمرُّد على اللَّه الواحد القهار!

٤ - مسلك التخلق:

وهو ههنا في بيان طريق التخلُّق بذكاء الروح! أي كيف يكتسب المؤمن قلبًا شفاف الرؤية، لطيف البصيرة، يتلقَّى به النور عن اللَّه؛ كلما قرأ كتابه العظيم، أو ناجى ربَّه في خلوات الصفاء! فالروح الذكي لا تشرق أنواره إلا من قلب صار مشكاةً تتزود من زيت المحبة، وتتوهَّج بنار الخوف والرجاء! قلب ذوَّب هَمُّ الآخرة شحومَه، وطهرت دموعُ الشوق غيومَه؛ فصفت سماؤه على أتمِّ ما يكون الصفاء، وانكشف عن مرآة لامعة كأنها لؤلؤة كريمة، مرآة يتلقَّى بها العلم عن اللَّه وبه! كلما قرأ آية من كتاب اللَّه تناثر عليه الدرُّ من عباراتها وإشاراتها، وتدلت عليه من بوارقها معارج يرتقي بها إلى مقام المشاهدات العالي؛ فلا يسمع ولا يبصر إلا بنور اللَّه!

ومسلك هذا الخلق الرفيع واضح، فقد انكشفت طريقه بالبرق الضارب في سماء الآيات المتدارسة: إنه مسلك مجاهدة الفسق! نعم الفسق بكلِّ معانيه. وهو بالنسبة للمؤمن في أربعة أمور: التحصن بأبراج الصلوات الخمس تَخَلُّقًا بها وتحقُّقًا، والاعتصام بذكر اللَّه على كل حال وِرْدًا لا ينقطع ربيعُه أبدًا، ثم الدخول في مسلك المجاهدة اليومية لكلِّ الخوارم الصغيرة التي قد تقع فيها عينه أو لسانه أو يده أو قدمه، مجاهدة يغسل بها قلبه بقوة، ويُلَمِّعُ مرآته بصابون الاستغفار وسائر الأذكار، مجاهدة حية يَقِظَة، يضعها لجامًا قويًّا على كلِّ جوارحه، ويسوس بها نفسه إلى تجديد التوبة إلى اللَّه. حتى تصير مطهَّرة الذوق! لا تأكل إلا من حلالٍ صافٍ، ولا تفكر في معصية البتة! وتصير مثل بحيرة عذبة المياه، تنبض أمواجها بالشوق إلى رضا اللَّه أبدًا!

فهذه الأمور الثلاثة هي في مجاهدة الفسق في النفس. وأما الرابع فهو: في مجاهدة الفسق في المجتمع، وهو حق اللَّه على المؤمنين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورفع راية الدعوة إلى اللَّه! فإذا تمَّ لك ذلك كله؛ فهنيئًا لك يا قلب آنئذ جمالَ التجليات وصفاءَ المشاهدات! فلروحك من ذكاء الفهم عن اللَّه ما للصِّدِّيقِينَ والمحدَّثين!

* * *
* *
*

المجلس السادس

في مقام التلقي لحقيقة الاستخلاف في الأرض
وبيان شروطه الابتلائية!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٢ - البيان العام:

ذلك هو الكتاب، وذاك هو هداه، وتلك هي حُجَّته. كذلك كان تأسيس الخطاب القرآني - في هذا المدخل العظيم من سورة البقرة - بيانًا لأصناف البشرية الثلاثة، مدحًا لمؤمنيهم وذمًّا لكفارهم ومنافقيهم، وبيانًا لتهافت ما يلتجئون إليه من شبهات وتشكيكات في كتاب اللّه، وفي عظمة قدرته تعالى ومعجزات خلقه.

ليكون ذلك كله جذعًا لبيان شجرة الخلق البشري؛ وأصلًا يبني عليه قصة خلق الإنسان من البداية، بتوضيح حكمته وغايته، وبما يكون به البيان التام لطريق الهدى الذي جاء به هذا القرآن، والتفصيل الشامل لمنهاجه الإصلاحي بناءً وتجديدًا.

فعندما نادى الخالقُ - جلَّ ثناؤه - البشريةَ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ... ﴿٢١﴾ ﴾ وقدَّم بين يدي ذلك حُجَّته التعريفية البالغة، وما هيأه لمعاش الإنسان - قبل خلقه - من أرض وسماء؛ كان سبحانه يَرُدُّهُ إلى أصل طبيعته، وحقيقة خِلقته، ومعنى وجوده؛ ولذلك جاء هذا المقطع الخاتم لهذا المدخل يعرض لنا قصة خلق الإنسان وحكمة تكوينه، وما دار في الملأ الأعلى بين ربِّ العزة وملائكته من حوار في شأنه. فجاءت هذه الآيات الضاربة في عمق الغيب بما يُخْبِتُ القلوب ويبهر العقول! ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ الآيات. كان ذلك خطابًا قبل خلق الإنسان! فيه إخبار للملائكة كي تتهيَّأ لوظيفة جديدة من وظائفها التعبُّدية، هي القيام بشؤون هذا المخلوق الجديد وخدمته فيما أذن اللَّه لها به.

ولم يذكر - في البدء - ههنا لفظ « إنسان » ولا لفظ « بشر » ولا اسم « آدم »، وإنما سماه بوظيفته ابتداءً، فقال: « خليفة! » وذلك للدلالة على انحصار حكمة وجوده في هذا المعنى العظيم: الاستخلاف في الأرض! وأنه لا معنى لحياته إن لم يقم بما كُلِّف به!

وقد اختلف المفسرون في معنى « الخليفة » ههنا على مذاهب، ذكرها الإمام الطبري مُفصَّلة، منها: أنه جنس قوم يخلف بعضهم بعضًا في الأرض، جيلًا بعد جيل. ومنها: أنه خَلْقٌ جديد يخلف سكان الأرض من الجن الذين عمروها قبل الإنسان فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء. ومنها: أنه خلق يسكن الأرض ويعمرها من غير الملائكة. ومنها: أنه خلق يحكم في الأرض باسم اللَّه ويفصل في الخصومات التي تقع بين بني جنسه [1]. وإنما كان سبب الخلاف هو المعنى اللغوي الذي تحيل عليه عبارة الخليفة، فكان جمهور المفسرين يتحرَّجون من وصف الإنسان بـ « خليفة اللَّه » في الأرض؛ لما في مفهوم « الخلافة » من معنى النيابة والوكالة! واللَّه ﷻ لا وكيل له ولا نائب في ربوبيته وألوهيته، سبحان اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

---

(١) ن. الروايات مفصلة في تفسير الطبري للآية.

والحقيقة أن الذين استعملوا هذا التعبير، ما قصدوا هذا على الإطلاق، وإنما كان قصدهم أن الخلافة هي بمعنى: التكليف الابتلائي التعبُّدي بالشهادة على الخلق ليس إلا. إنها مسؤولية نيطت بالإنسان بصفته عبدًا للَّه أولًا، يمارس بها عبوديته لربِّه ويرعى شؤون الناس بمقتضى ما أمره اللَّه به. تمامًا كما قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] وهو ما اختاره الإمام القرطبي وغيره [1]. فـ « الخلافة عن اللَّه » هنا هي: الحكم باسم اللَّه والتصرف على مقتضى وحيه! وهذا لا ينافي توحيده تعالى في ربوبيته ولا ألوهيته، بل هو داخل تحت معنى عبوديته وطاعته. وقد أوكل اللَّه ﷻ وظائف عدة للملائكة، فمنهم المكلف بأمانة الوحي وبلاغها إلى الرُّسُل، والمكلف بزجر السحاب وكَيْل الأمطار، والمكلف بنفخ الأرواح في الأجنة، والمكلف بقبضها عند الموت، ثم المكلف بكتابة أعمال بني آدم... إلخ. ولا ينافي شيء من ذلك كله كمال ربوبيته تعالى. بل هو ﷻ قبل ذلك وبعده على كل شيء قدير وبكل شيء محيط!

ذلك قصدهم بمفهوم « خليفة اللَّه »؛ ومع ذلك فنحن لا نحبذ استعمال هذا التعبير؛ لما فيه من اشتباه. ولا ضير أن تكون « الخلافة » بمعنى أن الإنسان قد خلف غيره من الخليقة الأولى في الأرض، كما قال تعالى في حكاية قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وذلك كله إنما كان في الحقيقة خلافًا على المستوى اللغوي، ولا خلاف في وظيفة الخلافة ما هي، وذلك هو المطلوب.

وعليه؛ فالذي وجب الانتباه إليه أن عبارة « خليفة » قد ارتقت ههنا من المعنى اللغوي المحض إلى معنى اصطلاحي شرعي خاص! فصار لفظ « الخليفة » يطلق مجردًا من كل إضافة - كما جاء في القرآن - لاستقلال العبارة في الدلالة على معناها هكذا مجردة، ولتجاوزها للمعنى اللغوي، وقيامها بنفسها مصطلحًا مستقلًّا من مصطلحات القرآن الكريم، فلا داعي بعد ذلك لإسنادها إلى الإضافات أنى كانت.

فالخلافة إمامة تعبديَّة شاملة، ليست محصورة في المعنى السياسي الجزئي أو المعنى

---

(١) ن. تفسير القرطبي للآية. ومن المعاصرين الذين استعملوا تعبير « خليفة اللَّه » الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

القضائي الضيق، بل هي أوسع من ذلك وأشمل، إنها مسؤولية وابتلاء، وتكليف بأمانة رعاية حقوق الله فيما سخر الله للبشرية من أرض وما فيها! وما أتاح للإنسان من سُنُن بناء التمدُّن والحضارة. إنها تتأصَّل ابتداء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ثم في معنى الشهادة على الناس، في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾. ومن ثم فالناس إزاء الخلافة فريقان: فريق أضاع أمانتها فحاق به حكم الله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وفريق قام بحقها ووفَّى بها فجعله الله أمةً وسطًا تقوم بالشهادة على الناس.

فالمقصود بالخلافة القيام بعمران الأرض وإصلاحها، وتوجيه القلوب إلى توحيد الله رب العالمين. ويجمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وعليه؛ فالأرض بكلِّ ما فيها هي تبع للإنسان في معنى الخلافة، بمعنى أنه إذا صلحت خلافته فيها صلحت الأرض كلها، وإذا فسدت فسدت! ومن هنا كانت إمامته قائمة ليس على الإنسان فحسب؛ بل على كل الكائنات الحيوانية والطبيعية، من كلِّ عناصر البيئة المسخرة له، فهو مسؤول عن المحافظة على صلاح الغابات والأنهار والبحار والهواء والحيوان والطيور والأسماك... إلخ. كل ذلك تابع لشهادته على الناس والقيام فيهم بوظيفة الإصلاح. وهو كله داخل في أمانة الخلافة التي خلقه الله من أجلها ابتداءً. فالخلافة أُمَّةٌ وإمامٌ يخلفون بني جنسهم وغيرهم من المخلوقات، في القيام بين يدي الله بحقِّ الله. فالإمام مقدَّم في أمَّته والكل في ذلك له تبع؛ إلا من أزاغ الله قلبه وخرج عن مقتضى العهد فكان من الخاسرين. فموقع الخليفة ههنا أشبه ما يكون بموقع إمام الصلاة، هو مقدَّم والمأمومون له تبع، لكنه لا يغني في عبادة الله عن أحد شيئًا! بل لابد لكلِّ فرد من الانتظام في صفِّ الصلاة!

ومِن ثَمَّ فالخليفة – بهذا المعنى الشمولي – متعدد وليس فردًا، تمامًا كما تتعدد جماعات الصلوات بتعدد المساجد في البلد الواحد، والقطر الواحد، وعبر أقطار الأرض كلها. نعم، لا خلاف في أن « الخليفة » بالمعنى السلطاني لا يمكن إلا أن

يكون فردًا، ولكن حديثنا ههنا عن « الخليفة » إنما هو بمعنى اسم الجنس، كما تطلق عبارة « إنسان » على معنى الجنس الإنساني دون أن تقصد إنسانًا بعينه. وعليه؛ فكل من حمل أمانة صغيرة أو كبيرة فهو فيها خليفة! كما في حديث: « **كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالإِمَامُ رَاعٍ وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرجلُ رَاعٍ في أهله وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ رَاعِيَةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولةٌ عن رَعِيَّتِهَا، والخادِمُ رَاعٍ في مَالِ سيده وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرجلُ رَاعٍ في مالِ أَبِيهِ وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ. فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ!** »[1]، ثم تجتمع كلمة الأمة بعد ذلك على رجل واحد يكون خليفة الخلفاء.

فهذا هو الخليفة بالمعنى السلطاني، الذي يمثل كلمة الأمة كلها، ويمضي باسمها في تدبير أمورها ورعاية مصالحها. فهو واحد في نفسه لكنه متعدد في مفهومه لأنه ينوب عن أمة كاملة! ومن ثم فالخلافة معنى كلي شامل لهذا وذاك جميعًا. وتلك هي الشهادة الكاملة على الناس. فقوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ هو آدم بالأصالة، وما يمثله من نسل صالح خاصَّة، والكل مجموع في الأمة المؤمنة والورثة الصالحة. ذلك، والله تعالى أعلم.

ولأن الملائكة علمت – بما أعلمها الله به – من أن آدم عليه السلام سيكون له ذريةٌ، وأن منها ما سيقتتل ويسفك الدماء ويفسد في الأرض، تساءلت بين يدي ربِّها – تساؤل دعاء وخضوع – تطلب معرفة الحكمة من خلق هذا المخلوق الجديد؛ إذ ما علمت عنه غير طبيعته الغضبية، وأما وظيفة العبادة فهي تقوم بها في صلاتها الدائمة على أكمل وجه تسبيحًا وتقديسًا: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... ﴿٣٠﴾ ﴾. والتسبيح: تنزيه الله تعالى من كلِّ نقص، والتقديس: التطهير والتعظيم، وهو هنا بمعنى نسبة الله تعالى إلى كمال الطهارات والعظمة. فأجابها الحق سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من طبيعة هذا المخلوق ما لا تعلمون، وأعلم من حكمة استخلافه في الأرض وابتلائه بأمانتها ما لا تدركون، رغم ما سيكون في بعض نسله من إفساد. لكنه إفساد داخل في معنى الحكمة الإلهية، التي اقتضت أن يكون في الأرض من يعبده بإصلاح

---

(١) متفق عليه.

ما أفسد الناس! فهو تعالى سيرسل فيهم الرسل بدءًا بآدم ﷺ نفسه، ويجعل منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وما دخل في معنى هذا وذاك من أولياء وعبَّاد وزهَّاد وعلماء وربَّانيين... إلخ. يجاهدون أنفسهم في طاعة اللَّه وعبادته رغم ما جبلوا عليه من حب الشهوات، ورغم ما قيدوا به من ضرورات الأرض وحاجاتها، ثم يقاتلون في سبيل اللَّه في السراء والضراء، ويسترخصون أنفسهم في ذات اللَّه! وهو ما لا تستطيعه الملائكة المطهرة في سمائها!

ويدخل في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أيضًا ما هيَّأه ﷻ في سابق علمه - مما لا تحيط به الملائكة - من تدبير كوني عظيم بدءًا بخلق الأرض نفسها وسمائها كما تبيَّن قبل، وانتهاءً بمصير الكون كله وفنائه وإعادة خلقه من جديد، ليقوم الناس ليوم الحساب، فيصير من يصير إلى الجنة - جعلنا اللَّه من أهلها - ويصير من يصير إلى النار أعاذنا اللَّه منها. وكذا ما يعلمه تعالى من وجود إبليس اللعين من بين الملائكة - وهو ليس منها - وما يضمره من حسد وكيد لهذا المخلوق الجديد. وما سيكون له من دور في الغواية والتغرير بالإنسان، وما سيكون لها هي أيضًا من دور في نصرة المؤمنين في معركة الحقِّ والباطل إلى يوم الدين.

ثم مع هذا وذاك يعلم سبحانه ما جعل للإنسان من مواهب وقدرات على التعلم والتعليم، والفهم والإدراك، والتخاطب والتواصل، وما جهَّزه به ﷻ من قدرات عقلية خارقة، يكون بها سائر ضروب الاختراع والإبداع، مما تقوم به عمارة الأرض. ومِن ثَمَّ عرض سبحانه على الملائكة آيةً عظيمة لتفوق هذا المخلوق وتميزه، فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أجمع المفسرون على أن هذا بيان من اللَّه - جلَّت حكمته - لشرف آدم على الملائكة، ولوجه عظيم من وجوه حكمة خلقه ﷺ، وأمره تعالى الملائكة بالسجود له! فهذا مقام عظيم له ولذريته الصالحة!

فقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ أي علمه أسماء كل شيء من المخلوقات، من سائر الأمم والأجناس والأنواع، بما فيه أسماء الملائكة نفسها، وأسماء

المعاني والأفعال والحركات وسائر التصرفات. ويدخل في ذلك القدرة على اختراع المفاهيم والألفاظ، واللغات وما تتضمَّنه من إمكانات التخاطب والتواصل والإبداع والتفكير! وقد آتاه اللَّه من ذلك موهبتين متكاملتين هما: التعلم والتعليم؛ لأنه تعالى علَّمه فتعلم، وأمره بتعليم الملائكة فعلَّم! وبهذين كان التطور العمراني في المجتمعات البشرية. فكان للإنسان هذا التفوق العجيب في الغوص على المعاني العميقة، واستنباط الحقائق الدفينة في كلِّ المجالات العلمية، الروحية والحسية سواء، مما لم يؤته اللَّه أحدًا من العالمين! يكتشف الشيء من الأمور المعنوية أو المادية، فيخترع له اسمه، إما بالنظر إلى طبيعته، أو إلى وظيفته، أو إلى صفته، أو مناسبته، أو مشابهته.. إلخ، ويشتق له من الصيغ في جميع الأحوال ما يناسبه. فيجعل ذلك الاسم - وقد كان وليد تفكير - أداة ووسيلة للإبداع والتفكير! ومِن ثَمَّ قيل: « إن اللغة فكر »؛ ولذلك كانت اللغة سرًّا من أعظم الأسرار التي أودعها اللَّه في فطرة الإنسان!

ومِن ثَمَّ أراد الحقُّ تعالى أن يظهر للملائكة بعض ما ينطوي عليه هذا المخلوق الكريم، فعرض عليها مجموعة من الكائنات والحقائق فطلب منها تسمية كل شيء باسمه، فعجزت عن ذلك؛ لأنها لم تُؤْتَ تلك القدرة ولا أُعطيت تلك الموهبة. وقوله تعالى: ﴿ إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي فيما توهمتم من أن بني آدم ليس لهم من قابلية سوى الإفساد في الأرض وسفك الدماء. فلما ظهر عجزهم توجهوا إلى اللَّه بالتسبيح والتنزيه أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، مخبتين بين يديه مستغفرين، ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾، العليم وحده بكلِّ شيء، الحكيم في ما خلق وقدر وأمر، فكل فعله عدل وحكمة، يهب لمن يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء. وهنا أمر اللَّه تعالى آدم بتسمية الكائنات المعروضة فسمَّاها جميعًا؛ فانبهرت الملائكة بما جعل اللَّه في هذا المخلوق العجيب من كمال الخلق والإبداع! ثم قال الحقُّ تبارك وتعالى للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ بمعنى: ألم يسبق قولي لكم بأنني أعلم غيب الملكوت كله مما في السموات والأرض؟ - إشارة إلى قوله تعالى قبل: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ - وبأنني أعلم ما تظهرون وما تخفون. سواء عندي سرائركم وعلانيتكم هكذا على الإطلاق.

والذي أظهروه - في هذا السياق - هو قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾، والذي كانوا يكتمونه هو ظنُّهم أنهم أكرم عند اللّٰه من كلِّ مخلوق، ثم ما كان إبليس اللعين منطويًا عليه من التمرُّد على اللّٰه وعصيان أمره تكبرًا وغرورًا؛ ففضحه اللّٰه بامتحان السجود لآدم!

ثم يُذَكِّرُ الحقُّ سبحانه البشريةَ بهذا الفضل العظيم الممتد إليها مِنْ مَنِّهِ تعالى على أبيها آدم، إذ أمر الملائكة بالسجود له تحيةً وتكريمًا! فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن سجود الملائكة لآدم كان قبل تعليمه الأسماء، فقد أُمِرَتْ بالسجود له قبل خلقه، ليقع مباشرة بعد تسويته ونفخ الروح فيه، وأن هذا مرتبط بالآية الأولى في هذا السياق، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الآية، فهنالك كان الأمر بالسجود، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] فهذا واضح في أن أمر اللّٰه تعالى الملائكة بالسجود لآدم كان قبل خلقه، فهو أَمْرٌ تنفيذه متعلق بشرط، وهو تمام الخلق ونفخ الروح كما تصرِّح به هذه الآية؛ ولذلك استفسرت الملائكة بقولها: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فأجابها الحقُّ جوابًا مجملًا: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأنابت الملائكة إلى ربِّها وأطاعت. لكن إبليس اللعين غاظه ذلك، وكره أن يكون هناك مخلوق أفضل منه، فامتلأ قلبه حسدًا وحقدًا واستكبارًا، وأضمر في نفسه التمرُّد والعصيان لأمر اللّٰه! فكل ذلك كان قبل خلق آدم عليه السلام، فلما خلقه تعالى ونفخ فيه من روحه سجدت له الملائكة كلُّها طاعة لربِّها؛ إلا إبليس فقد افتضح أمره مما لم يكن يعلمه إلا اللّٰه، وظهر للجميع أنه عاصٍ لربِّه مُتمرِّدٍ على أمره! وبعد ذلك جاء امتحان الأسماء فكان منه ما كان مما سبق بيانه. والحكمة من ذلك أن الملائكة مطيعة لربِّها في كلِّ ما أمر، سواء علمت حكمة الأمر أم لم تعلم، فسجدت لآدم أولًا استجابةً لأمر اللّٰه. ثم بيَّن لها الحقُّ تعالى بعد ذلك حكمة خلقه لعبده آدم عليه السلام بما كان من قضية الأسماء.

وقد بيَّن ابن كثير رحمه الله حكمة هذا التقديم والتأخير، عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ... ﴾، قال: (هذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك؛ لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم) [١].

فسجود الملائكة لآدم كان طاعة لله، وتحية لآدم بما كرَّمه الله. لكن إبليس بما أنه لم يكن من جنس الملائكة المفطورة على الطاعة لربِّها، وإنما كان من الجنِّ؛ فقد أظهر ما كان يضمره من الحسد والتكبُّر والعصيان، فأبى السجود وأعلن تـمُرده على الله والعياذ بالله! ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي من الجاحدين لنعمة الله العاصين لأمره، غير الراضين بحكمه. فكان بذلك من المطرودين من رحمة الله الملعونين بلعنة الله إلى يوم الدين! ومِن ثَمَّ كان معنى « إبليس » مشتقًا من الإبلاس، وهو الإياس من الرضا والرحمة، والعياذ بالله!

وهنا بدأت المعركة بين الحقِّ والباطل، وبدأ إبليس اللعين في تنفيذ وعيده وكيده الشرير لآدم ابتداءً، ولكلِّ من يكون من ذريته عليه السلام إلى يوم الدين! فتأسَّست بذلك حكمة الابتلاء الإلهي للبشرية في الأرض بهذه الحياة الدنيا، وما يترتَّب عنها بعد ذلك من فوز أو خسران. قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ ﴾.

خلق الله أنثى الإنسان « حواء » من ضلع آدم عليه السلام[٢] ، فجعلها بحكمته تعالى له زوجًا. ثم أسكنهما الجنة العليا ابتداء، وهو تعالى يعلم أنما هو في تلك المرحلة سكن مؤقت، إذ لا بد للبشرية من سكنى الأرض أولًا، تلك الأرض التي خُلِقت لها ومن أجلها! فقد سبق قوله تعالى قبل خلقه لآدم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾. ولذلك فسكنى الجنة ههنا إنما هو سكن مؤقت؛ لابتلاء آدم وزوجه ابتلاء أوليًا، يخضع فيه لنوع من التعريف بطبيعته البشرية، ومناعته

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع... » الحديث متفق عليه.

الضعيفة تجاه الخطايا والشهوات! أراد الحقُّ تعالى أن يَعْرِفَ الإنسانُ ذلك في نفسه وهو في الجنة! فما بالك إذا كان في الأرض التي هي موطن الرغبات الطينية والنزوات! والحقيقة أنه مشهد عجيب يكشف عن طبيعة الخلقة البشرية بجلاء، فقد أباح اللَّه لآدم الجنة كلها، بجميع أشجارها وثمارها وأنهارها! وبكلِّ سعتها التي عرضها السموات والأرض! فقال: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ... ﴾ هكذا: « حيث شئتما » على الاستغراق الشامل! والرَّغَدُ: العيش الواسع الهنيء. لكن اللَّه منعه من شجرة واحدة فقط، شجرة واحدة من بين ملايير الأشجار والثمار! حتى لا يكاد يجد الناظر ابتداء في هذا العرض الربَّاني الوسيع شيئًا من معنى الامتحان! لولا أمران اثنان هما: تدخل الشيطان اللعين! ثم قابلية الإنسان لتلقي وسواسه! فوسوس إبليس لعنه اللَّه لآدم وزوجه بما جاء في قول اللَّه تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

هكذا أزَلَّ الشيطانُ آدم عن الجنة، أي نحَّاه عنها وأبعده منها، وتسبَّب له بالإخراج مما كان فيه من نعيم. لكن آدم كان بذلك في الحقيقة يتعلَّم! وهذا هو الشيء المهم ههنا. وقد جعل اللَّه فيه خاصية التعلم والتعليم. نعم، تعلَّم آدمُ الدرسَ واستوعبه بصورة كاملة، بعد اختبار وتجريب، وأدرك حق الإدراك معنى كون الشيطان عدوًّا له! ليعلم كيف ينبغي أن يتعامل مع عدو اللَّه إبليس إذا ما أسكنه اللَّه الأرض، حيث لا مناعة للإنسان من الشيطان إلا بذكر اللَّه والاعتصام به!

وانكشف الأمر الإلهي عن قَدَرِ اللَّه القديم: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ هنا في هذه الأرض إذن سيعيش الإنسان معنى الابتلاء حقًّا! فهي مكان هابط وموطن نازل، يحكمه منطق الشهوة والمتاع! ولذلك فهنا يرتقي من يرتقي، ويهوي من يهوي! فالاستخلاف للبشرية ليس أمرًا هَيِّنًا ولا هو تكريم بغير شرط! بل له شرط عظيم هو: الدخول في الابتلاء الإلهي

بأمانة هذا الدين عقيدة وشريعة، فإمَّا طاعة وفوز وإما عصيان وخسران مبين! فمتاع الأرض واستقرارها إنما هو لهذا، وهو أمر محدود بأجل معلوم. لكن الذي ينبغي استيعابه في هذا كلِّه، هو قوله: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ۝ ﴾ فمن نسي حقد الشيطان وتوهَّم أنه عن كيده بمعزل فقد هلك!

ثم يكشف الحقُّ تعالى عن خاصية أخرى من خصائص الإنسان، خاصية من أعظم خصائصه التي فُطِر عليها، خاصية تميزه وترفعه وتعليه وتزكيه، وتجعله أهلًا لما كُرِّمَ به في الملأ الأعلى، ألا وهي خاصية التوبة! التوبة بما تحمل من معاني الندم والاعتراف بالخطأ والإقلاع عن المعصية والعزم على تصحيح المسار! ومخلوق لا يتميز بهذه الصفة الأساس لا يكون أهلًا لحمل أمانة الرحمن والاستخلاف في الأرض. ومِن ثَمَّ ففقدان القابلية للتوبة والإنابة معناه فقدان الإنسان لفطرته، والهبوط إلى درك الطبيعة الشيطانية! فإبليس هو المثال في الإصرار على خطيئته وتمرُّده على خالقه! قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾.

وقد قال بعض المفسرين إن الكلمات التي تلقاها آدم هي قوله تعالى – في سورة الأعراف – حكاية عن آدم وزوجه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] (١) فبالرجوع إلى الله والإنابة إليه توبةً واستغفارا يرتقي آدم مرة أخرى إلى مقام الرضا الإلهي الكريم. وهذا ما يزيد حقد إبليس عليه؛ إذ الشيطان – نعوذ بالله منه – يمنعه كبرياؤه من التوبة والاعتراف بالخطأ! فصارت تلك خاصية في كل شيطان من الإنس والجن إلى الأبد! ومن تاب تاب الله عليه فهو تعالى ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾، هكذا: ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾ بهذه الصيغة الدالة على المبالغة واستيعاب كل معاني العفو على كلِّ أنواع الذنوب؛ ما دام الإنسان يتوب قبل فوات الأوان! وهو تعالى ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي شديد الرحمة والرأفة بعباده المذنبين كلما آبوا وتابوا، فهو تعالى ليس كالآلهة المذكورة في أساطير اليونان، ولا كما تُصوِّره توراة اليهود المحرَّفة إلهًا غضوبًا ذا نزوات وشهوات! سبحانه وتعالى عما يصفون! كلا كلا! إنه ربٌّ توَّابٌ رَحيمٌ، سبقت رحمتُه غضبَه! (٢) فهو تعالى يَرْأَف بعبدِه ويرعاه، ويلطف به

---

(١) ن. الروايات في ذلك بأسانيدها في تفسير الطبري.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال فيما يرويه عن ربِّه: قال الله تعالى: « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي »

للهدى خطوة خطوة، فإذا ما زلَّ أَمْهَلَهُ وأَمْهَلَه ثم أَمْهَلَه؛ عساه يتوب! فإذا تاب رقَّاه مرة أخرى واجتباه! ولا ينتقم إلا مِن جبَّار مستكبر عنيد، أو من طاغية شقي مَريد!

ولذلك قال بعد: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾ فالأمر بالإهباط متعلق بآدم وزوجه وما بِصُلبِه عليه السلام من ذرية، وكذا بإبليس اللعين؛ ولذلك قال: ﴿ جَمِيعًا ﴾. فهناك في الأرض سوف يبعث فيكم الرسل ممن يصطفيهم اللّه لوحيه ورسالاته وينزل عليهم الكتب هدى للناس. فآدم عليه السلام كان رسولًا إلى بنيه وحفدته، ولم تزل الرُّسُل تترى بعده إلى أن ختم اللّه السلسلة بسيد الأنبياء والمرسلين محمد - عليه الصلاة والسلام -. كلهم جاء بشيء واحد: الهدى! فمن اتبع الهدى فهو آمن من عذاب اللّه، ولا يفزع يوم يفزع الكفار يوم القيامة. وأما من كفر بذلك وجحده من بعد ما تبين له الهدى؛ فإن مصيرهم إلى نار جهنم التي أعدَّها الملك جلَّ وعلا للكافرين، عذابًا خالدًا سرمدًا.

وقد ذهب ابن كثير رحمه الله إلى أن هذا الإهباط المذكور ههنا هو غير الإهباط الأول المذكور في الآية السابقة. فالأول متعلق بآدم وزوجه، والثاني متعلق بذريته. وذهب غيره إلى أنهما واحد وأن التكرار ههنا هو للتوكيد، وأن المقصود بالإهباط دائما هو آدم وزوجه وإبليس. ورأس هذا المذهب الإمام الطبري رحمه الله (١) والأمر لا يختلف عندنا في نهاية المطاف؛ لأن المقصود منهما واحد، وهو الاستخلاف في الأرض وعمرانها على وجه الابتلاء والتمحيص تحقيقًا لوعد اللّه تعالى من قوله للملائكة: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ۝ ﴾. ليكون من أمر الابتلاء بهذا الدين ما يكون من مصير معلوم.

ومِن ثَمَّ فلنا ههنا وقفة منهجية، وإضاءة تذكيرية، وهي أنه بهذا المقطع اكتملت غاية البيان الإلهي الوارد في بداية السورة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ فهذا الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو مرتبط بهذه السلسلة الطويلة الكبرى، وأنه تنفيذ لقدر إلهي قديم، يدخل في ذلك إيمان من آمن به من المتقين، وكفر من كفر به من الكافرين والمنافقين. فالمنطلق لذلك كله هو

(١) تفسير الطبري للآية.

حكمة اللَّه مِن خَلْقِ الإنسان، وما خلق له من أرض وسماء، وما جعل في هذه وتلك من مخلوقات، ممن يحبه أو يعاديه. كل ذلك ليتحمل أمانة الاستخلاف في الأرض بقوة، وليبتلى بهذا التدافع الأبدي بين الحق والباطل الذي خلق من أجله؛ حتى يفوز من يفوز برحمة اللَّه ويخسر من يخسر بعدله! فالأرض إنما خلقت لهذا، والإنسان إنما خلق من أجله. فما قصص الرسل والرسالات عبر التاريخ إلا ثمرات لبذرة واحدة هي قصة خلق آدم عليه السلام. فجاء هذا الترتيب الإلهي العجيب بهذا المدخل القرآني الذي اختتم بهاتين الآيتين الأخيرتين من هذا المقطع: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ... ﴿٣٨﴾ ﴾، مبينا علة انقسام البشرية على هذا الكتاب إلى الأقسام الثلاثة المذكورة قبل. وقد أعرض عن ذكر المنافقين هنا؛ لدخولهم في معنى الكفر كما بيناه، إذ لا حاجة ههنا تدعو إلى ذلك التفصيل.

فجاء هذا القرآن مُحَمَّلًا بذلك التاريخ الكوني كله! يقص على البشرية كلها - منذ عهد محمد إلى يوم الناس هذا إلى ما شاء اللَّه - قصة خلقها وحكمة وجودها وطبيعة وظيفتها! جاء هدى للإنسان عساه يبصر معنى كونه إنسانا! فهذه إضاءة ربانية لمعنى كون الكتاب هدى للمتقين، إضاءة تختزل ما لا يكاد ينحصر من السنوات والقرون! لتخبرنا بأن هذا الكتاب جاء حقًّا بنبأ عظيم، كثير من الناس هم عنه غافلون! فيعرف المؤمن معنى كونه مؤمنا، وفي أي موقع هو من صف جند اللَّه يصطف، ويعرف الكافر معنى كونه كافرا وفي أي موقع هو من صف جند الشيطان يصطف! ويعرف كل من هذا وذاك ما رتبه الرحمن من جزاء؛ لإحكام نظام هذا الملكوت الرباني العظيم!

تلك هي قصة هذا القرآن، وتلك هي حقيقة هداه، وبها اكتمل هذا المدخل إلى كتاب اللَّه. ثم يشرع القرآن - بعد ذلك - في بيان صور من التدافع بين الحقِّ والباطل في طائفة من نسل آدم، عند بعثة الأنبياء والمرسلين. وهذا بيان ضروري للمؤمن الداعية ليعرف كيف نبتت شجرة الهدى أول ما نبتت، وكيف يمكن استنباتها من جديد كلما استدعت الضرورة التجديد، مما سنبينه بِمَحَالِّه إن شاء اللَّه!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو بهذا المجلس في إحدى عشرة رسالة، هي كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن وظيفة الاستخلاف في الأرض، وعمرانها بذكر اللَّه، تسبيحًا بحمده وتقديسًا له، هي الحكمة التي من أجلها خُلق الإنسان. وواجب على الدعاة إلى اللَّه اليوم كشف هذه الحقيقة للناس، فأكثر المسلمين اليوم غارقون في التفاهات الجزئية من أمر معاشهم الأرضي، وهو معاشٌ زائلٌ فانٍ! ووعي الإنسان بحقيقة وظيفته الكلية، والمقام الذي أكرمه اللَّه به؛ يجعله يستيقظ على فظاعة ما ضيع من عمره، وما فرط فيه من حقوق اللَّه، وغفل عنه من حمل أمانته وبلاغ رسالته!

الرسالة الثانية: في أن سفك الدماء - بغير حقٍّ - من أعظم الفساد في الأرض! ولذلك كان هو أول ما استبشعته الملائكة من إفساد بني آدم! فرغم أن سفك الدماء نوع من الفساد في الأرض، إلا أنها مع ذلك أفردته بالذكر تخصيصًا؛ لفداحة جرمه وشناعة ذنبه! ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ وقد ثبت في الحديث قوله ﷺ: « **أول ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة في الدماء!** »[1] ولذلك وجب على المؤمن الاحتياط الشديد فيما يتعلَّق بدماء الناس! فلا يكن شيء من قوله - بَلْهَ فعله - سببًا في هدر دم إنسان بغير حق! وهذا مسلك حَرِجٌ جدًّا انزلقت به أقدام كثير من الناس؛ فوقعوا في دماء كثير من الأبرياء؛ بما يجعل لهم خصومًا يوم القيامة بين يدي اللَّه الواحد القهار!

الرسالة الثالثة: في أن الاشتغال بالعلم - تعلمًا وتعليمًا - شرط ضروري لسلامة السير إلى اللَّه، وأساس لازم لصحة عبادته تعالى، ثم هو المنطلق الأول لتجديد الدين واستئناف نشر ظلاله على العالمين. والخلافة إمامة ولا إمامة بغير علم. وأول العلم معرفة اللَّه تعالى، ثم ما يخدم ذلك من علوم الشريعة والطبيعة جميعًا. وقد استفاضت الآيات والأحاديث في هذا مما هو مشهور معروف، إلا أن حكمة طلب العلم قلما ينتبه إليها وقلما تقطف ثمرتها! ذلك أن عصارة العلم - كل العلم - إنما هي التخلُّق بلباس الخشية للَّه جلَّ ذكره. ولا خشية للَّه إلا بمعرفته سبحانه. فإذا جعلت هذا نصب عينيك في طريق العلم صادقًا وصلت إن شاء اللَّه إلى المبتغى.

وعلم الطبيعة كعلم الشريعة موصل إلى اللَّه؛ لأن كُلًّا من الطبيعة والشريعة كتاب

---

(١) متفق عليه.

من اللَّه. لكن فائدتهما إنما تتحقَّق للعبد إذا طلبهما بمنهاج اللَّه. وكم من طالب شريعة ضلَّ بعلمه والعياذ باللَّه! كما ضلَّ الغرب بتفوقه العلمي الخارق ولم يهتد! فالقصد حاكم على العمل، والغاية موجهة له، فمن طلب شيئًا للَّه أكرمه اللَّه بنوره. ذلك أن العلم - أي علم - له ثمرتان: الخبرة والهدى. فخبرة العلم يعطيها اللَّه تعالى لكل من أخذ بأسبابها، بينما الهدى لا يعطيه إلا لمن طلب العلم للَّه. فالغرب مثلًا قد أوتي الخبرة ولم يؤت الهدى، فأفسد في الأرض بالعلم ولم يكن من المصلحين! فهذه المدن الصناعية الكبرى في العالم تعيش في ترف كبير، لكن إنسانها قد بات في شقاء مبين!

الرسالة الرابعة: في أن ضبط الأسماء وتصحيح المفاهيم هو أول خطوة في بناء الدين وتجديده. ومِن ثَمَّ وجب علينا ونحن نبني صرح أمتنا من جديد أن نعيد وضع الأسئلة الأولى عن هويتنا: ما معنى الدين؟ وما معنى كوننا مسلمين؟ ولقد مرَّ على المسلمين اليوم زمن توهَّم الكثير منهم أن هذه الأسئلة قد حُسِمَتْ، وأن الجواب عنها قد صار من البدهيات، بينما المراقب بدقَّة لواقع الحياة الإسلامية - صحوتها وغفوتها - يدرك أن هناك خللًا لدى الناس في المفاهيم الأولى للدين! أقول: بمن في ذلك كثير من المشتغلين بالعمل الإسلامي! نحن في حاجة إلى إعادة تحرير معنى الدين من جديد، ومعنى كون الإنسان عبدًا للَّه ربِّ العالمين، تحرير ذلك على موازين الخطاب القرآني والهدي النبوي، لا كما تلقيناه من هذا المصلح أو ذاك، مهما علا شأنه أو كبرت جماعته!

فتصحيح المفاهيم خطوة ضرورية لبدء السير السليم، وهو ما تَضْمَنُهُ بإذن اللَّه مجالس تدارس القرآن العظيم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

الرسالة الخامسة: في أن على المؤمن أن يعي أنه ما يزال في سيره إلى اللَّه يرتقي، حتى إذا وقع في خطيئة هبط درجة أو درجات! وربما هوى إلى أسفل سافلين! على حسب حجم الخطيئة التي وقع فيها. بيد أن التوبة العاجلة تعود به إلى مقامه العلي. فالإنسان في هذه الحياة الدنيا أشبه ما يكون في سيره الكادح إلى ربِّه كدحًا، بالماشي على حبلين على البدل بينهما، فأحدهما يمتد أمامه طولًا إلى أعلى، والآخر يمتد طولًا إلى أسفل، فإن استقل مشيه بالحبل العلوي لم يزل ما اعتصم به يرتقي إلى أعلى؛ حتى يكون في عليين! وإن استقل مشيه بالحبل السفلي لم يزل ينزل إلى أدنى حتى يكون

أسفل سافلين! لكن المؤمن الكيِّس إنما يستقل بالمشي على الحبل العلوي، بَيْدَ أنه ربما زلت قدمه إلى الحبل السفلي من حين لآخر، فإن لم يتدارك نفسه بالارتقاء إلى الحبل العلوي بسرعة، تدلى إلى دركة عميقة، بما يشق عليه الرقي منها إلى أعلى من جديد!

ولذلك وجب على العبد أن يتترس - قبل الخطايا وبعدها - بحصن أمين حق أمين، ألا وهو الاستغفار! وبيان ذلك هو كما يلي:

الرسالة السادسة: في أن اتخاذ ورد الاستغفار من ضرورات السير إلى اللّه وابتغاء رضاه. فالمستغفر معبر عن وجدان تعبُّدي عميق، مفاده الشعور الدائم بالفقر إلى اللّه، والإحساس المتواصل بالحاجة إلى حماه، كما أنه معبر عن عدم رضا العبد عن نفسه وعما أنجزه من أعمال صالحة، بله الخطايا والذنوب؛ مما يقيه من أمراض العجب والغرور! وما من نبي إلا وله من غذاء الاستغفار حظ عظيم، فهذه أدعية الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم كلها جُآرَاتٌ إلى اللّه وتضرعات بالتوبة والاستغفار! وهذا رسول اللّه سيدنا محمد ﷺ يوصي أمته بإلحاح قائلًا: « **يا أيها الناس! توبوا إلى ربِّكم! فواللّه إني لأتوب إلى اللّه ﷻ في اليوم مائة مرة!** » (١) وقال: « **استغفروا ربَّكم! إني استغفر اللّه و أتوب إليه كل يوم مائة مرة!** » (٢) وقال - عليه الصلاة والسلام - في حديث عجيب: « **إن الشيطان قال: وعزَّتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم! فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني!** » (٣) وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى من الحديث القدسي: « **يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم!** » (٤) فمن ذا يذهل عن استغفار ربِّه وردًا جاريًا على لسانه ليل نهار، إلا جاهل مغبون أو متكبر مفتون؟

الرسالة السابعة: في أن التوبة نعمة رحمانية كبرى تستوجب الشكر. فلولاها لما كان لمذنب مخرج من خطيئته! فانظر إلى آدم عليه السلام حين وقع في الخطيئة فتحولَّت

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البغوي عن الأغر، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده والحاكم عن أبي سعيد، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع.

(٤) رواه مسلم.

أحواله من العلو إلى الهبوط! انظر إليه وهو يئن في أعماقه حَزَنًا على ما فرط في جنب اللَّه! نادمًا يمشي أو يجلس إلى ركن كئيبًا هنا أو هناك، وهو لا يعرف كيف يخرج من همِّه ولا كيف يتخلَّص من ورطته! وأنى للإنسان أن يتخلَّص من شيء وقع؟ وليس لي ولا لك الآن أن نستحضر معنى التوبة في الجواب؛ لأن هذا المعنى لم يشرع آنئذ بعد! فيا له من مضيق مظلم شديد!.. كان قلب آدم عليه السلام يطرق باب الرحمن بيد الندم لكن لم يكن يعرف كيف يتوب! حتى إذا أشرقت عليه رحمة اللَّه بالغفران ناداه ربُّه بكلمات التوبة؛ فتلقَّاها آدم تلقيًا! نعم هكذا عبر القرآن: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والتلقِّي دالٌّ على الاهتمام الكبير والاحتفاء البليغ، مع حرارة الشوق وشدة الانتظار! وبمجرد ما تلقَّاها صارت له خلقا ثابتًا ولباسًا مستقرًا لا يبلى أبدًا! ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] فانظر إلى التوبة أي رحمة هي؟ وأي مِنَّة من اللَّه عظيمة؟ ومِن ثَمَّ قُرِنَ الاستغفار بالتسبيح بحمد اللَّه في كثير من الأذكار والصلوات. وكانت آخر سورة نزلت كاملة من القرآن مختومة بقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر: ٣].

الرسالة الثامنة: في أن عدم الوعي بطبيعة التدافع الاجتماعي بين الحقِّ والباطل يجعل الإنسان فريسة الشيطان وجنده، وأن الاصطفاف في صفِّ جند اللَّه هو العاصم من الهلاك. فاعرف عدوك وأعد له عدَّه، واتخذ قرارَك: أنت مع من؟ وعدوك من؟ ثم توكَّل على اللَّه ينصرك اللَّه! وهذا معنى قد تقرر في غير ما مجلس ورسالة.

الرسالة التاسعة: في أن الفوز بالجنة مشروط بالعمل، عمل يعمر العمر كله، حيث يبني العبد بعبادته للَّه مدارج معراجه الخاص حتى يملأ ما بين الأرض والسماء! صحيح أنه لا يدخل الجنة أحد بعمله كما تقرَّر في الحديث من قوله ﷺ: « سددوا وقاربوا وأبشروا؛ فإنه لن يُدْخِلَ أحدًا الجنةَ عملُه! » قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمَّدني اللَّه برحمته! » [1]، ولكن هذا إنما هو بمعنى أن العمل مهما كثر لا يكفي العبد لاستيفاء كل حقوق اللَّه التي لا يحيط به ولا حتى الأنبياء

---

(١) متفق عليه.

والرسل! ولكن لا بد من العمل على وجه المقاربة والاجتهاد والتسديد، ثم ندخل الجنة بعد ذلك برحمة اللَّه إن شاء اللَّه.

الرسالة العاشرة: في أن كمال الطاعة هو في كمال الاستجابة للأمر الشرعي ولو لم تدرك حكمته! ما دام العبد قد علم مصدره. وهذا هو كمال التعبد وتمام الإيمان للَّه. وقد جاء المشركون إلى أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه وأرضاه يخبرونه أنَّ الرسولَ ﷺ قد حدَّث الناسَ أنه أُسْرِي به الليلة إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء، وهم يقصدون بذلك فتنته كما فتنوا غيره، فما كان منه بعد أن سمع مقالتهم إلا أن قال ﷺ: (إن كان قد قال فقد صدق!) فما زحزحوا من إيمانه الراسخ ولا شعرة! وكان عمر الفاروق ﷺ إذا أقبل في طوافه على الحجر الأسود قال: (واللَّه إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك!) وعندما تحوَّلت القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، قدم رجل من الصحابة على مسجد قباء، فوجد الناس في صلاة إلى القبلة الأولى، فنادى في الجماعة أن اللَّه قد أنزل قرآنًا في تحوُّل القبلة إلى المسجد الحرام! فما كان من الجماعة المصلية آنئذ إلا أن استدارت مباشرة - إمامًا ومأمومين - مُوَلِّيةً وجهها شطر المسجد الحرام! كان ذلك منها دون أن تسأل كيف؟ ولا لماذا؟ ومثل هذا وذاك في السنة والسيرة النبوية كثير.

هكذا كلهم كانوا مؤمنين صديقين! شرط واحد فقط كانوا يتحرَّونه هو كون الذي أمر أو نهى إنما هو اللَّه أو رسوله! فإذا تبين لهم مصدر الخطاب بادروا إلى التنفيذ مباشرة، علموا حكمة الأمر أم لم يعلموا؛ لأنهم قد علموا أن الآمر في جميع الأحوال هو العليم الحكيم!

الرسالة الحادية عشرة: في أن هذا القرآن هو صمام الأمان للسائرين، فمن اتبع هداه وصل ومن فسق عنه ضلَّ! هذا فيما يتعلَّق بالمنهاج العام. وهو بالإضافة إلى ذلك علاج للهم والحزن وكاشف للغمِّ والدجن، إنه ربيع القلب وبلسمه الشافي من ظلمات الاكتئاب ووحشة الاغتراب! وهذا أيضًا مما تقرَّر في غير ما مجلس ورسالة. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسلك التخلُّق بحقائق مجلسنا هذا فهو مرتكز على اكتساب حظٍّ من معنى الاستخلاف في الأرض. بمعنى التحقُّق بحمل أمانة الدين ورعايتها، على القدر الذي هُيِّئَتْ له النفس، وعلى الوجه الذي يُسِّرَتْ له. « **فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ!** » (١)

والتحقُّق بحمل أمانة الدين يحتاج إلى التخلق بخلقين اثنين، **أولهما:** السعي إلى طلب العلم بما يكفي - على الأقل - للقيام بحقِّ العبودية للَّه. وهذا إنما هو لعموم الناس. وأما الداعية فلا بد له من التفرغ لطلب العلم بما يؤهله لأداء البلاغ المبين، تلاوةً وتزكيةً، ترغيبًا وترهيبًا، إفتاءً وتوجيهًا، ثم تعليمًا للعامة والخاصة. وقد تلقى آدم عليه السلام هذا المقام بما علَّمه ربه من أسماء.

وثانيهما: إلجام النفس بلجام العبدية! وهو ابتلاء عظيم، وقد دخله آدم في امتحان الشجرة، فتلقى مقامَه بتلقِّي كلمات التوبة رحمةً من ربِّه تعالى!

ونحن نفرق بين العبدية والعبودية، وإن كانا وجهين لعملة واحدة كما يقال، لكن بينهما فرق دقيق على حسب موقع النظر إلى المعنى. فالعبودية: هي مصدر فعل عبد، وهي تعني توجُّه العبدُ للَّهِ بكلِّ أصناف العبادات رَغَبًا ورَهَبًا. وتوحيده في ذلك يعني تفريده بتلك المعاني وحده دون سواه، وهو معنى الإخلاص. وأما العبدية فهي: النظر إلى النفس في حالها تلك مع اللَّه، أي مشاهدة معنى كونها مملوكة لمولاها لا حول لها ولا قوة إلا به تعالى! وهذا مقام رباني رفيع طالما أشار إليه القرآن الكريم، وهو كما قال تعالى في حقِّ كُلٍّ من سليمان وأيوب عليهما السلام: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠، ٤٤]؛ ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يصف نفسه بهذا المعنى؛ ففي حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يقول: « **آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد** » (٢) وفيه زيادة صحيحة من طريق أخرى هي قوله: (فإنما أنا عبد!) (٣).

فإلجام النفس بلجام العبدية، معناه: الحرص على مشاهدة أحوال الذلة للَّه في

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن سعد وأبو يعلى في مسنده وابن حبان . وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه ابن سعد والبيهقي عن يحيى بن أبي كثير مرسلًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

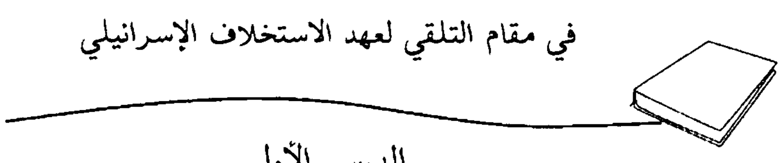
النفس، ورعاية مقتضيات أدب الخدمة، فيما ينبغي أن يكون عليه المملوك وهو واقف بين يدي مولاه، ينتظر أمرًا أو إذنًا أو عفوًا! فالعبد لا يسبق ربَّه بشيء، ولا يقدم بين يدي اللَّه ورسوله؛ حتى يعلم ما يراد منه وكيف؟ حتى إذا تلقى الأمر بادر إلى التنفيذ. فمعرفة هذا بل مشاهدته في النفس تمنعها أن تتخيَّل أنها مالكة أو سائدة! فلا تتصرف إلا بهذا المقتضى. ذلك معنى العبدية.

فإذا أخذ المؤمن ما يُسِّرَ له من حقائق هذا المسلك، وتخلَّق بمقامه وتحقَّق؛ رجا أن ينال قبسا من نور قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ٣٠ ﴾. جعلني اللَّه وإياكم على ما يحب أن يَرى عبدَه ويَرْضَى!

* * *
* *
*

المجلس السابع

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي



الدرس الأول
في فضح خيانة يهود ونقضهم لأركان العهد
وما في ذلك كله من حِكَمٍ وعِبَرِ

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨ ﴾.

٢ - البيان العام:

عندما كان القرآن ينزل في المرحلة المدنية كان يقوم باستكمال بناء الجماعة المؤمنة لبنة لبنة، وذلك ببيان ما يلزمها في دينها تجاه ربها من جهة، وما يلزمها فيه تجاه نفسها من جهة ثانية، ثم ما يلزمها تجاه غيرها من الأمم من جهة ثالثة.

وكان أهل يثرب قبل الإسلام يرون لجيرانهم من اليهود تميزًا وفضلًا؛ لما عندهم من العلم بالكتاب، فكان ذلك يشكل لعرب المدينة عقدة نقص، خاصَّة وهم مجرد عرب أميين! والآن ها هم أولاء قد سبقوا إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام،

وها هو ذا القرآن يتنزَّل فيهم، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون! ها هو الآن يعلمهم حقيقة هذا الصنف البشري الذي كان يستعلي عليهم بعلمه، ويتوعَّدهم بقرب ظهور نبي منهم ينصرهم اللَّه به على أهل الأرض! فها هو ذا النبي قد ظهر بالفعل، ولكن من غيرهم بل من العرب الأميين! ثم ها هم بنو إسرائيل الآن يكفرون به ولا يؤمنون! ومِن ثَمَّ جعل القرآن يطالبهم بالوفاء بعهد الإيمان وتصديق الرسول ﷺ، كاشفا - من جهة - عن مثالبهم وخياناتهم! وفي ذلك ما فيه - من جهة أخرى - من تغذية للجماعة المؤمنة بالمدينة، وشعورها بعزة الإيمان. ولما فضح اللَّه بني إسرائيل بخياناتهم سقطوا في عين أهل يثرب! وانكشفت لهم خرافة السبق الذي كانت تستعلي به يهود عليهم!

كان القرآن قد بشر بالهدى من بداية المدخل القرآني ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾، ثم صنف البشرية إلى الأصناف الثلاثة: مؤمنين وكفَّارًا ومنافقين، ثم طالبها جميعًا بالإيمان محتجًّا عليها بحقِّ الخالقيَّة، وبما جعل اللَّه لآدم من أمانة الاستخلاف في الأرض! ثم ختم ذلك السياق كله بوجوب ترقب الهدى القادم مع الرسل والأنبياء؛ قصد اتباعه؛ إذ بذلك وحده يكون الاستخلاف، وبه وحده تستقيم السبيل إلى اللَّه. والآن، ها هو الهدى قد جاء، جاء قرآنًا عربيًّا واضح البيان، قوي الحجة والبرهان.. فآمن به من آمن، وكفر به بنو إسرائيل مع الكافرين! كفروا به وهم أعلم الناس به! فهم أهل كتاب سابق، كان فيهم هدى، وكان منهم رسل وأنبياء، وصِدِّيقون وشهداء.. ثم قست قلوبهم من بعد ذلك؛ فغيَّروا وبدَّلوا وأفسدوا كثيرًا! فانتزع اللَّه الخلافة منهم، وأنزل عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من اللَّه عظيم، ولعنة منه إلى يوم الدين!

ومِن ثَمَّ جعل يعرض علينا نموذجًا لاستخلاف بني إسرائيل في الأرض، كيف كان؟ وما أسبابه وعلله؟ وما خصاله وطبائعه؟ ثم كيف كان انهياره؟ ولماذا؟..

كان بنو إسرائيل يشكلون جوارًا غير عاديّ للمسلمين، سواء على المستوى الجغرافي أو الديني. وكان لابد في بناء الجماعة المؤمنة من وضع لَبِنَات هذه العلاقة في محلِّها المناسب تصوُّرًا وممارسةً! ولذلك انتقل من قصة استخلاف آدم عليه السلام، إلى قصة استخلاف بني إسرائيل مباشرة، رغم أنهم مسبوقون برسل وأمم شتى!

وخلافة بني إسرائيل هي أوسع خلافة فصَّل القرآن في قصها تفصيلًا. ومنها في هذا الجزء من القرآن مشاهدُ وفصولٌ، هي حِكَمٌ كلها وعِبَرٌ جميعها. ومِن ثَمَّ جعل القرآن يصنع من مادتها لَبِنَاتٍ لعمران المجتمع الإسلامي الجديد، الذي بناه بالمدينة، حتى تمايز المجتمعان واستبانت خصائص كل نموذج منهما! فانكشفت حقيقة مجتمع بني إسرائيل الشيطانية، بما يطبعه من تحدٍّ للربِّ ﷻ وتمرُّد عليه، وبما يطبع معاملتهم لأوامر رسلهم وأنبيائهم من تباطؤ وتلكؤ، بل من غدر وخيانة! دأبوا على الطغيان ومردوا عليه إلى درجة استحقوا بها لعنة العزيز الجبار! وكيف لا؟ وقد صار مجتمعهم بيئة شرٍّ خالص! بيئة ترتفع وتيرة شرِّها إلى حدٍّ قتل الأنبياء والفتك بهم! يا ويلهم! وإلى جانبهم قريبًا تنبت فسيلة خضراء جميلة، طاهرة مطهَّرة، إنها فسيلة المجتمع الإسلامي الجديد، مجتمع المؤمنين المسلمين لله ربِّ العالمين.. قلوبهم مشوقة بحبِّ الله ورسوله، ومواجيدهم تلتهب بجوى الانتظار لأمر رسول الله! جند مجندون لنصرة الحقِّ، مصطفُّون أبدًا ينتظرون من الرسول إشارة! لغتهم رحمة وسلام، وأدبهم سمع وطاعة، وعبادتهم صلاة وجهاد! تمامًا كما وصفهم الرحمن في التوراة والقرآن، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذان مجتمعان يقوم أحدهما على أنقاض الآخر.. تُنزع النبوة من قوم وتبعث في آخرين! ويُمَكَّنُ الاستخلاف لأمة من بعد ما قُبض من أخرى! وإذا أمكن أن نلخِّص طبائع كل من المجتمعين في كلمات فلنا أن نقول: إن مجتمع بني إسرائيل هو مجتمع خيانة وتمرُّد! بينما مجتمع المسلمين هو مجتمع وفاء وطاعة! وإذا تميز المجتمع الإسرائيلي بشعار: « سمعنَا وعصينَا »، فقد تـميَّز المجتمع الإسلامي بشعار « سمعنَا وأطعنَا! » ومن ثم جعل الله المجتمع الإسلامي الأول نموذجًا لكل تجديد عمراني إلى يوم الدين!

وفي هذا دليل على أن احتكاك المسلمين ببني إسرائيل؛ كما كان قضيةً في زمن النبوة؛ فسيكون قضية أيضًا في زمن ما بعد النبوة! تَخْفُتُ نارها حينًا وتتوهج حينا آخر..! ولزماننا هذا في ذلك ما له من حرائق واشتعال! فلنبدأ القصة إذن من أول مشاهدها!

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ ﴾ إسرائيل هو لقب نبي اللّه يعقوب عليه السلام. ومعنى « إسرائيل »: « عبد اللّه ». وأما أبناؤه فهم يوسف وإخوته أصحاب القصة المشهورة. فمن نسلهم جعل اللّه أمة بني إسرائيل، واستخلفهم في الأرض زمنا، وجعل فيهم أنبياء وملوكًا، وأنعم اللّه عليهم بما لم يُؤتِ أحدًا من العالمين! إلى أن حكم اللّه عليهم بالتيه فتفرقوا في الأرض أشتاتًا! ومن شتاتهم كان هناك بالمدينة قبائل هي بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة. وهم الذين احتكُّوا بالمسلمين من أهل يثرب، وكان لهم مع النبي ﷺ جدال وسجال! فسجل القرآن في أجوبته كثيرا من جدالاتهم وأسئلتهم.

وها هو ذا الآن خطاب اللّه يناديهم: أنْ يا بني العبد الصالح إسرائيل! أسلموا للّه مع المسلمين! إنكم أنتم أعرف بطبيعة هذا الخطاب، وإنكم لأدرى بأنه من عند اللّه لا من عند بشر، فاتقوا اللّه وكونوا من المسلمين، وانصروا هذا النبيَّ الذي تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة وانضموا إلى دعوته! واذكروا أنني قد أنعمت عليكم نعمًا لا تحصى بسبب إيمان أجدادكم، وصلاح آبائكم الأولين. لقد واثقكم اللّه ﷻ يومئذ بعهد أن إذا بُعث فيكم نبي مصدقا لما معكم آمنتم به ونصرتموه! فكيف تنقضون اليوم عهد اللّه وكيف تكفرون؟ ويلكم كيف؟ وأنتم أبناء عبد اللّه الصالح يعقوب عليه السلام: إسرائيل! كيف وها هو ذا العهد ما يزال معلقا فوق رؤوسكم؟ يشهد به عليكم اللّه والملائكة والمؤمنون! قال تعالى مبينا بنود ذلك العهد وميثاقه: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢].

فهذا هو عهد بني إسرائيل (١) إنه عهد الإيمان باللّه وبرسله والدخول تحت تكاليف شريعته، ونصرة من يبعثه اللّه من رسله! فمن أوفى بهذا أوفى اللّه له بعهده وهو إدخاله الجنة. وأما من كفر فهم يعلمون ما معنى غضب اللّه ونقمته أكثر من

(١) سيأتي بيانه مفصلًا بهذه السورة خلال المجلس الحادي عشر.

غيرهم؛ لأن فيهم كان المسخ وشتى ضروب الفضح وتكاليف الإصر والأغلال! ولذلك قال بعد التذكير بنعمته عليهم: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ ﴾ فأعقب الترغيب ترهيبًا، على منهج القرآن في الدعوة والبلاغ.

ثم يستأنف خطاب التقريب والتحبيب بقوله تعالى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝ ﴾ أي: آمنوا بهذا القرآن الذي جاء مُصَدِّقًا للتوراة والإنجيل، ومُبَيِّنًا لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه! فهو كتاب من الله قوي الحُجَّة واضح البيان! وأهل الكتاب هم أولى الناس بالإيمان به؛ لِما عرفوا من الحقِّ فيما يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل! ولذلك قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ لأن كفرهم به غير معقول! فربما كان كفر الأميين من عبدة الأوثان أو غيرهم من المجوس مثلًا مما يفهم العقل سببه، فيحتاجون إلى فترات للتأمل ودعوات متوالية للتفكُّر والتدبُّر؛ إذ هؤلاء إنما هم أهل جهل وجهالة! أما أنتم - يا أهل الكتاب - فأهل علم سابق بالكتاب، وبالوحي والنبوة، وبالبعث والنشور والجنة والنار! فكيف تكفرون بمن جاءكم بهذه الحقائق نفسها وتفصيلًا لكلِّ شيء؟ إذن تكونون بذلك ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ... ۝ ﴾ بمعنى أعظم كافر وأشد! فالأَوَّلِيَّةُ ههنا هي أوليةُ ترتيب معنوي لا أولية ترتيب زمني! (١).

ثم نهاهم الحقُّ تعالى عن جعل الإيمان بالقرآن قضية تجارية دنيوية، كأي صفقة من صفقات التجارة! وحذَّرهم من مَغَبَّة هذا الصنيع الشنيع، داعيًا إياهم إلى اتِّقَاء نقمة الله وعذابه! ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝ ﴾ فقد كان لليهود بالمدينة مركز سيادة بما يزعمون أن لهم من العلم والخصوصية! ناشرين في الناس

---

(١) اضطرب في ذلك المفسرون؟ فقد ذهب الإمام الطبري إلى أن « أول » ههنا بمعنى « أول كافر » من أهل الكتاب. (ن. تفسير الطبري) وقال ابن كثير: « أول كافر به » من بني جنسكم أي من بني إسرائيل، وكأن الخطاب موجهٌ ليهود المدينة خاصةً (ن. تفسير ابن كثير) وذلك للخروج من مشكلة الترتيب التاريخي للكفر؛ إذ كانت قريش أسبق إلى الكفر. لكن جعل « أول » بمعنى المرتبة المعنوية، والدرجة في الفعل من حيث القوة والضعف، لا بمعنى الترتيب الزمني، يخرجنا من الإشكال مطلقًا. كما تقول: (فلان أول مصلح، أو أول مجرم) أي أقوى أو أخطر، مع أنه قد يكون مسبوقا في الفعل بكثير. وهذا التوجيه أليق بالسياق القرآني ههنا لمن تدبره. والأولية بمعنى الرتبة المعنوية استعمال عربي فصيح، وشاهده من القرآن نفسه، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١].

خرافة « شعب اللَّه المختار! » فتراءى لهم أنهم إذا ما هم أسلموا ذابوا في المجتمع العام للمسلمين، فلا رياسة بعدُ ولا خصوص! وهي رياسة تدرُّ على أحبارهم وكُهَّانِهم مكاسب مادية من بني إسرائيل أنفسهم ومن غيرهم! وما كان لديهم استعداد للتضحية بهذا الكسب الدنيوي الفاني في سبيل الإيمان بهذا القرآن!

ثم يستأنف الحقُّ تعالى الكشف عن خصيصة ثانية من خصائص يهود، وهي خلط الحقائق، وتلبيس الحق بالباطل! مع كتمان الحقيقة عن الناس؛ قصد التضليل والتجهيل! ولم يزل هذا ديدنهم في السياسة والإعلام وفي كلِّ شيء إلى يوم الناس هذا! قال ﷻ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ واللبس والتلبيس هو بمعنى التغشية والتغليف على سبيل التدليس والتزييف! كالذي يصنع خاتمًا من معدن خسيس فيصبغه بماء الذهب، ثم يعرضه على أنه ذهب خالص! أو - على العكس - كالذي يُهَرِّبُ الذهب الخالص فيصبغه بماء معدن خسيس؛ ليبدو أنه مجرد حديد أو قصدير! وكذلك كانت يهود تصنع بحقائق التوراة! تلبس حقَّها بباطلها وتعرضها للمؤمنين على أن هذا كلامُ اللَّه! لتكتم ما بها من موافقات للقرآن، وكذا ما بها من بشارات بمحمد خاتم النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ولذلك دعاهم اللَّه تعالى إلى الإسلام له وحده دون سواه، والاستسلام إلى الحقِّ المبين الذي نزل من عند اللَّه، وذلك بأمرهم بالصلاة التي هي رمز الخضوع للَّه ربِّ العالمين! وأداء الزكاة التي هي رمز توحيد المالكية والتخلِّي عن الأنانية التي هم في أغلالها يرزحون! فقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي اخضعوا للَّه مع عموم المؤمنين، وادخلوا بتواضع في سواد المسلمين! ودَعُوا كبرياءكم الذي به تتميزون وتتألهون! ثم ترتفع وتيرة الخطاب بسؤال إنكاري شديد التقريع: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ كان أحبار بني إسرائيل يظهرون أنفسهم بمظهر الربيين المصلحين، فيأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير - وينهون الناس عن الكفر بما عندهم من النبوة والعهد مما هو في التوراة، فوبَّخهم اللَّهُ تعالى بهذا السلوك المتناقض، ناعيًا عليهم جحودهم لحقيقة محمد ﷺ الثابتة عندهم في التوراة! ونقضهم لميثاق اللَّه بكفرهم به عليه الصلاة والسلام! فهذا عمل لا يصدر إلا من عقل مُختلٍّ!

ثم يستأنف أسلوب التقريب والترغيب بقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦ ﴾ هذا علاج عظيم من صيدلية الرحمن! إنه علاج داء الوهن! داء حب الدنيا وكراهية الموت، وإنه لعلاج عام لكلٍّ من طلبه.. الاستعانة بالصبر والصلاة؛ فأما الصبر فمنزل من منازل الصديقين. ومعنى الصبر في اللغة المنع والحبس للشيء، فالصابر: المانع، والمصبور: الممنوع. تقول صبر الراعي الفصيلَ أو الْحَمَلَ عن الرضاع منعه منه. ولذلك سُمِّي رمضان بشهر الصبر لأن الصائم يمنع فيه نفسه الطعام والشراب وسائر الشهوات. وهو في الشرع: مجاهدة النفس على الرضا بحمل تكاليف الشريعة، والبقاء داخل حدود اللَّه لا تتعدَّاها فعلًا وتركًا! وإلجامها بلجام الشرع أن تمتد جوارحها أو نظراتها إلى شيء من محارم اللَّه!

وعلى هذا انقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام، أولها: الصبر على الترك، أي ترك ما يثقل على النفس الانقطاع عنه من شهواتها المألوفة لديها! والثاني: الصبر على الفعل، وهو الأفعال الواجبة في الإسلام كالصلاة والزكاة والجهاد، وغيرها فهذه لا تدرك إلا بصبر. والثالث: الصبر على قضاء اللَّه وقدره. والقدر نوعان: خير وشر. وكلاهما يتطلبُ صبرًا. فالصابر على الخير هو القائم بحقِّ اللَّه فيه. والصبر هنا هو بمعنى الشكر. وهو ليس بالأمر اليسير لمن جرَّب الصبر على الغنى مثلًا! وأما الصبر على الشرِّ فهو واضح البيان إذ النفس بطبيعتها تكره الشر. والرضا بقضاء اللَّه فيه والاحتساب هو عين الصبر!

وأما الصلاة فهي زاد الأنبياء والصديقين للمهمات الصعبة! وهي أنيس الغرباء والمهمومين في الليالي الحالكة! ومطية التوابين الذين تأخرت بهم الذنوب حتى غاب الركبُ عنهم وانقطعت أشباحه، فهم الآن بصلاتهم سُرَاةٌ على الأثر يسعون، يستدفئون من برد الليل بدموعهم، ويستأنسون من عوائه بنشيجهم، باكين مُتبتِّلين بين يدي التوَّاب الرحيم! عساهم يحمدون عند الصبح السُّرَى، فيلتقون الأحبة!

نعم هكذا كانوا.. فإذا ثقل عليكم أحبار يهود ترك رياستكم ومفاخر مراكزكم الدينية والاقتصادية فهذا علاج شافٍ كافٍ: الصبر والصلاة! والضمير في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ... ۝٤٥ ﴾ هو عند بعض المفسرين عائد على الصلاة، وعند بعضهم

على الوصية، وهو الأرجح عندنا لأن كلًّا من الصبر والصلاة مشقة، وهما في الوصية بهما كالأمر الواحد! ومثله في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥] يقصد: يُلَقَّى الوصيةَ بالأعمال المذكورة قبل الآية من الدعوة إلى اللَّه، والدفع بالتي هي أحسن.

نعم وإنها لوصية ثقيلة شاقة! ترك الدنيا بما فيها من أجل وعد أخروي صِرْف! هذا أمر لا يطيقه إلا الخاشعون، أي الذين عرفوا مقام ربِّهم فخافوه، وعرفوا حقيقة الدنيا فنبذوها وعرفوا حقيقة الآخرة فأحبُّوها! والخشوع خضوع القلب للَّه ذي الجلال مهابةً ومحبةً! ولا يتحقَّق بكماله إلا لمن عرف اللَّه حقًا! فالأمر بالخشوع أمر باتخاذ أسبابه والسير في طريقه، فإنما هو هبة من اللَّه ذي الجلال والإكرام!

وبَيَّنَ تعالى مسلك تحقيق الخشوع بأمرين، أولهما: تحقيق الظن بلقاء اللَّه أي اليقين باليوم الآخر، نشورًا وحشرًا، وحسابًا وجزاءً، وجنةً ونارًا! ولفظ « الظن » في هذا السياق هو بمعنى اليقين؛ لأن العرب تسمي هذا بذاك. والثاني: تحقيق حسن الظن باللَّه في حكمه، وأن أعمالنا كلها راجعة إليه تعالى وهو لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ثم يستأنف الرحمن سبحانه النداء لبني إسرائيل، بنسبتهم مرة أخرى لأبيهم يعقوب النبي الصالح، على سبيل التحبيب والتقريب إلى الإيمان، مذكرًا إيَّاهم مرة أخرى بنعمه عليهم وما جعله لهم زمن استخلافهم من فضل على كل العالمين! فقال سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ ثم رهَّبهم - بعد ترغيب - باتقاء يوم الجزاء والحساب! يومَ لا يغني أحد عن أحد شيئًا، ولا تقبل شفاعة في كافرٍ مات على كُفْرِه! ولا يقبل في نفس فداءٌ مما يُظَنُّ أنه يَعْدِلُ ما تستحق من العذاب! ولذلك سماه عَدْلًا. وأيُّ عدل يوفي يومئذ بحقوق اللَّه على من مات كافرًا باللَّه؟ كيف؟ وما دخل المؤمنون العاملون الجنة إلا برحمة اللَّه! كيف؟ واللَّه مالك كل شيء وما للعبد المملوك من شيء! ذلك حكم اللَّه على كلِّ نفسٍ كافرة، فلا نصرة لها من أحد ولا إنقاذ! إذ لا مُلك ولا سلطان يومئذ إلا للَّه الواحد القهار! فذلك كله قول الحق موجزًا في كلمات: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝ ﴾ اللَّهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **عشر رسالات** كاملة هي:

الرسالة الأولى: في أن شكر النعم من أعظم حقوق اللّٰه تعالى على العباد. ونعمه تعالى لا تحصى، كل الناس في بحارها غارقون! فالشكر قَيْدُ النعم، وكُفْرُهَا زوالُها. فإن بقيت النعمة مع الكفر بها فهو استدراج لنقمة أعظم من مجرد زوالها! وليس للمؤمن من شكر إلا أن يسلم نفسه للّٰه عبدًا!

وشكر النعمة له ترتيب شرعي، هو أولًا: أداء حق اللّٰه فيها إن كانت مما تجب فيه الزكاة. ثانيًا: صرْفُها فيما جعلها اللّٰه له من وظائف ومصالح شرعية، من أمور المعاش والمعاد. ثالثًا: عدم إتيان منكرٍ بها أو الإعانة بها على ذلك بأي صورة من الصور. وهذا جارٍ في نعمة المال وغيره، بمعنى أنه قانون كل نعمة من أي صنف كانت، فمثلًا نعمة الخِلْقَة مما أنعم اللّٰه به على العبد من يديه ورجليه ولسانه وسمعه وبصره، وسائر جوارحه، كل ذلك واجب أداء حق اللّٰه فيه، وصرف طاقته فيما خلق له من وظائف شرعية، والضن به عن اقتراف الإثم والفحشاء وسائر ضروب المنكر؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **كل سُلامَى من الناس عليه صدقة؛ كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، ودَلُّ الطريق صدقة. وتميط الأذى عن الطريق صدقة** »[1] وكذلك الأمر جارٍ في نعمة العلم، ونعمة السلطان، ونعمة الشباب.. إلخ. فما من نعمة إلا وللّٰه على العبد فيها حقوق. وتصرف المؤمن معها بشهود العبدية في نفسه يحميه من استشعار المالكية ووهم السيادة، وفي ذلك ضمان لتصرفه فيها بما يرضي اللّٰه ﷻ .

الرسالة الثانية: في أن الوفاء بالعهد من أعزِّ الصفات الإيمانية! فالوفاء هو شرف المؤمن وعِزَّته وتاجه وجماله. وتلك خصلة أضاعتها الأمم الكافرة قديمًا وحديثًا؛ بسبب ما عشَّشَ في قلوبهم المريضة من فلسفات نفعية انتهازية! فكما قال الأقدمون منهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] كذلك يقول فَلاسِفَتُهم

---

(١) متفق عليه.

اليوم أن المنفعة هي الإله! وأن الغاية تبرر الوسيلة! وصارت « الميكيافيلية » هي الطابع العام لأنظمة السياسة والاقتصاد والإعلام! ظلمات تعدت محيطها الذي ولدت فيه من غرب العالم، وامتدت أدخنتها إلى هذا العالم الإسلامي الممزق الأشلاء، حيث راجتْ عملةُ الخيانة وعزَّتْ عملةُ الوفاء! والمؤمن وحده يضرب في تيه هذه الظلمات بشمعة وفائه، محاطًا بالرياح الهوج من كلِّ مكان! ومع ذلك! الوفاء الوفاء، فلا دين لمن لا وفاء له!

الرسالة الثالثة: في أن كفر المسلم المرتد هو من أسوأ أنواع الكفر! فإذا قيل لأهل الكتاب إذ نُودُوا للإيمان بالقرآن: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ... ﴿٤١﴾ ﴾ بمعنى أكبر كافر وأسوأ؛ بسبب ما سبق إليهم من العلم القديم؛ فكيف يقال لمن ارتد وقد ولد ونشأ في بيئة مسلمة، يتلى فيها القرآن صباح مساء، ويرفع الأذان وتقام الصلوات، وتؤدَّى الجُمَعُ والجماعات؟ ألا ذلك هو شر الكفر وأفدحه والعياذ باللَّه! إذ كل السبل كانت ميسرة له كي يعرف دينه أصوله وفروعه، لكنه أعرض عن ربِّه واتبع هواه؛ فأعرض اللَّه عنه وأشقاه!

الرسالة الرابعة: في أن الاتِّجار بالدين من أعظم المصائب في الدين! وهو يكون بالأحوال كما يكون بالأقوال. فأما كونه بالأحوال فهو مثل الرجل الذي يتحلَّى بصفات أهل الصلاح في ظاهر ملبسه ومنطقه، لكن قلبه من ذلك خواء! ويتصدَّر للمهمات الدينية ذات الشهرة بين الناس، ويحرص على أن يُعرف بشيء مما يكسبه ثقة الناس، وإنما هو في ذلك كله صاحب مطامع ومنافع! وأما كونه بالأقوال فهو كقارئ القرآن والخطيب والواعظ، يريد بذلك كله حظًّا دنيويًّا وشهرة زائفة، ولا نظر له إلى الآخرة بعمله ذاك البتة، والعياذ باللَّه!

وقد ورد في الحديث تحذير شديد من خطورة هذا وذاك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: « **إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقْضَى - يومَ القيامةِ - عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ** [يعني: فعرَّفه ربُّه نِعَمَهُ] **فَعَرَفَهَا، قال: فمَا عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ! قال: كَذَبْتَ! ولكنك قاتلتَ لأن يقال: هو جريء؛ فقد قيل! ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار! ورَجُلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمه، وقرأ القرآنَ، فأُتِيَ به فعرَّفه نِعَمَهُ فعرَفَهَا، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ**

وعَلَّمْتُهُ، وقرأتُ فيكَ القرآنَ. قال: كذبتَ ولكنك تعلمتَ ليقال: عالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل! ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار! ورَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لكَ! قال: كذبتَ ولكنَّكَ فعلتَ ليقال: هو جواد؛ فقد قيل! ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النَّارِ! » [1] ويقاس على هذه الأمور كل فعل له صبغة دينية أصالة أو تبعًا، كترأس الجمعيات الخيرية، وإدارة المعاهد الدينية، وكل مجالات الظهور باسم الدين. فكل شيء من ذلك طُلبت منفعته في الدنيا لم يكن لصاحبها في الآخرة نصيب! جعلني اللَّه وإيَّاكم ممن أخلص اللَّه أعمالهم وأحوالهم لوجهه الكريم!

الرسالة الخامسة: في أن كتمان العلم من كبائر الذنوب! وأن إصدار الفتاوى على موازين الهوى من أشد الفتن على صاحبها وعلى الناس! سواء كان هوى سياسيًّا أو حزبيًّا أو طائفيًّا. فزيادة على ما في فتوى الهوى من تحريف للحكم الشرعي فهي مُتضمنَّة لمعنى كتمان العلم؛ بتجنبها قول الحق! وهذا كان من أبرز أسباب ضلال بني إسرائيل، حيث صارت الفتاوى بينهم عقود تجارة تباع وتشترى! فما أبقى اللَّه لهم بعد ذلك من دين!

إلا أن لنا ههنا ملحظًا لطيفًا نبينه بحول اللَّه، وهو أن ظاهر تعبير (الفتوى بالهوى) ينصرف في الغالب إلى موالاة السلاطين والـحُكَّام، حيث تُسترخص لهم الرخص بالحقِّ أو بالباطل، وتؤصَّل قراراتهم في الشرع، سواء منها الزلات والصالحات! وهذا واقع معروف. لكن الذي يخفى هو نوع من (الفتوى بالهوى) ربما عده الجاهل تقوى وورعًا! وهو موالاة العامَّة فيما تشتهي! وقد تشتهي العامة تشدُّدًا في هذا الأمر أو ذاك؛ فيبادر المفتي إلى القول بالتحريم والتجريم! وما ذلك منه إلا مراعاة لميول الشارع وموجة التيار، لا لدليل حقيقي ولا لبرهان شرعي! وربما تمسَّك بشيء من ظواهر بعض النصوص، وهو يعلم أنه لو توسع في الاستدلال، وأعطى للاجتهاد حقه الشرعي؛ ربما وصل إلى عكس ما أفتى به تمامًا! ولكنه لا يحب أن يصل إليه بما استقر في قلبه من هوى خفي! فهذا لا يقلُّ في الحقيقة شرًّا من الأول، فكلاهما

---

(١) رواه مسلم.

مُفتٍ بالهوى، وكلاهما كاتمٌ للعلم!

وقد توعَّد اللَّه الذين يكتمون العلم - بغير عذر شرعي - بأشدِّ العذاب في غير ما آية من كتابه الحكيم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ أجارني اللَّه وإياكم من عذابه وسوء عقابه، ونجانا من مزالق الهوى والكتمان!

الرسالة السادسة: في أن الداعية الذي يخالف قولُه عملَه تجارتُه عند اللَّه بائرة وإن نَفَقَتْ في الدنيا، وبضاعتُه في الآخرة كَاسِدَةٌ وإن راجت على الناس! وبغير إطالة أقول: إن حاله كحال الذي يمشي على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ بِشَفِيرِ الجحيم! فَتَدَبَّرْ!

أما أنتِ يا نفسي المغرورة! أيتها الغافلة عن هذا البلاء العظيم! فيكفيكِ - إن كنتِ متعظةً بما تعظين - حديثُ رسول اللَّه ﷺ إذ قال: « **يُؤْتَى بالرَّجُلِ يومَ القيامة فَيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كمَا يَدُورُ الْحِمَارُ في الرَّحَى! فَيَجْتَمِعُ إليهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ! مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فيقول: بَلَى! كُنْتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتِيهِ وأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ!** »[(١)] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنَ النَّارِ! فقلتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبريلُ؟ قال: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ! الذينَ يأمرون النَّاسَ بالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أنفسَهم وَهُمْ يَتْلُونَ الكتابَ أفلاَ يَعْقِلُونَ؟!** »[(٢)].

الرسالة السابعة: في أن الاستقامة على الصلاة والزكاة حقَّ الاستقامة، برهانٌ على صدق التوبة والصلاح. تلك قاعدة القرآن الثابتة في الحكم على الرجال! وقد سبق لنا فيها بيان بالمجلس الأول من هذه السورة المباركة. فالصلاة والزكاة وجهان لحقيقة

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له، كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت والبيهقي في سننه. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

إيمانية واحدة، تختلف تجلياتها في الظاهر لكن جوهرها في القلب واحد! فأما الصلاة الخاشعة فهي أصدق تعبير عن خضوع القلب والجوارح لله رب العالمين، وهي أجمل تعبير عن أشواق الروح إلى منازل الصفاء والبقاء، والاستسلام الكامل لله! وأما الزكاة فهي التعبير العملي عن مشاهدة المؤمن لعبديته، وتحققه من مملوكيته لمولاه المالك الحق؛ إذ يتصرف في ماله بمقتضى أمر سيده دون سواه، فيحقق بذلك قاعدة الاقتصاد الإسلامي: (المال مال الله، والبشر مستخلفون فيه!) وهي لمن تخلَّق بها قاعدة إيمانية كبرى! وليس عبثًا أن جعل الله هذين الركنين العظيمين في الإسلام علامة التوبة الحقيقية للمشركين المحاربين، إذا ما تابوا وأظهروا الإسلام، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥] ثم قال في السياق نفسه: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١]؛ ولذلك ورد في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: « **الصلاة نور، والصدقة برهان!** » (١).

الرسالة الثامنة: في أن الاستعانة بالصبر والصلاة هو منهاج الربانيين عند الدخول في ابتلاءات الأعمال العظيمة من ثبات على الحقِّ، أو دفع لعدو. ففي الصبر تفويضٌ للملك الواحد الأحد، ورضًا بما قدَّر ودبَّر! وبالصَّلاة ينفتح باب القلب على معراج الروح، فتصفو المناجاة للرحمن، ويتَلَقَّى القلبُ مددًا لا ينقطع كوثره الفيَّاض! فلا يخرج العبد من صلاته إلا وقد اكتسب هُدًى جديدًا وتأييدًا سديدًا! ومَسَالِحَ (٢) من ملائكة الرحمن، تحيط به من كل مكان! ذلك ديدن الأنبياء وزاد الصديقين، ولباس الأولياء والصالحين!

---

(١) جزء حديث رواه مسلم، ونصُّه: عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك! كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه، فمعتقها أو مُوبقُها! ».

(٢) المَسَالِحُ: جمع مَسْلَحَة، وهي الجماعة من الحراس المسلحين.

وكان رسول اللَّه ﷺ « **إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاةِ!** » (١) وعن علي ﷺ قال: « لقد رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ بَدْرٍ وما فينا إلا نَائِمٌ غير رسول اللَّه ﷺ يُصَلِّي ويَدْعُو حتَّى أصْبَحَ! » (٢) وروي أن ابن عباس ﷺ نُعِيَ إليه أخوه وهو في سفر، فاسترجع ثم تنحَّى عن الطريق، فأنَاخَ فصلَّى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: « **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ!** » (٣) وعن ابن أبي مليكة قال: (صَحِبْتُ ابنَ عباس ﷺ من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شَطْرَ الليل! فسأله أيوب: كيف كانت قراءته؟ قال: قرأ: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ [ق: ١٩] فجعل يرتل ويكثر في ذلك النشيج!) (٤) تلك أحوالهم، فكيف أحوالك يا قلبي العليل؟

الرسالة التاسعة: في أن الآخرة مرة أخرى ومرات! - نكرِّرها كما كرَّرها القرآن بلا ملل أو سأم - هي صمام الأمان لسير السائرين، ونور الطريق للعباد المدلجين! فكيف حالك يا قلبي القاسي يوم لا يجزي أحد عن أحد؟ الكل يجأر هاربًا إلى اللَّه، والكل يبكي ضارعًا إلى اللَّه! لا يهمه سوى عتق رقبته من النار! كيف حالك يومئذ؛ وما من أحد إلا ويستغيث ربَّه: نفسي! نفسي!؟ كيف حالك ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]. فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ يا قلبُ إن بقي في عِرْقك نبضٌ من حياة! اتخذ لك الآخرة هدفا وحيدا وانطلق! قال سيدي رسول اللَّه ﷺ: « **مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وأتته الدنيا وهي راغمة! ومن كانت الدنيا هَمَّهُ جَعلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بين عَيْنَيْهِ، وفرَّق عليه شَمْلَهُ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ لَهُ!** » (٥).

الرسالة العاشرة: في طبائع يهود: وهي تتلخَّص بهذا المجلس - على ما أشارت إليه الآيات - **في أربعة أمور،** هي: الخيانة، والتلبيس، وكتمان الحق، والتناقض!

أولًا: فأما الخيانة فنقضهم للعهود، بدءًا بعهد اللَّه الذي واثقهم به زمن موسى ﷺ، إلى عهد رسول اللَّه محمد بن عبد اللَّه ﷺ، إلى كثير من العهود التي أبرموها مع

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢ ، ٣) أورده ابن كثير عند تفسيره للآية.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٣٤٢).

(٥) رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المسلمين في العصر الحديث. فما عقدوا عهدًا إلا نقضوه وخانوه! فقد غدر بنو قينقاع بالمسلمين، ونقضوا وثيقة العهد التي أبرمها رسول الله ﷺ غداة هجرته إلى المدينة مع اليهود، فاعتدوا على امرأة مسلمة في سوقهم، وقتلوا رجلًا من المسلمين انتصر لها. كما نقض يهود بني قريظة عهد السلام مرة أخرى عند انضمامهم إلى الأحزاب في غزوة الأحزاب ضد المسلمين، فجعلوا المسلمين يعيشون أشد الحرج والضيق؛ بحصارٍ من الخارج وخيانةٍ من الداخل! باءت بها يهود ومن والاهم من المنافقين. وقد حاولوا مرارًا وتكرارًا اغتيال الرسول عليه الصلاة والتسليم، بالتسميم وبالسحر وبالقتل غيلةً، حيث حاول يهود بني النضير قتله ﷺ بحجر ضخم يلقونه عليه من أعلى حصنهم وهو يحاورهم، فعصمه الله منهم! ولذلك لما نصر الله رسوله قام بمحاصرتهم وإجلائهم من المدينة إلى الأبد. ويشهد التاريخ أن الذين ألَّبوا الغوغاء على قتل عثمان بن عفان ﷺ يهود! وأن الذين أسقطوا الخلافة الإسلامية في العهد العثماني يهود! وأن الذين كانوا وراء نشر الفلسفات الإلحادية والشيوعية في العالم الإسلامي يهود! حتى قيل: « حيثما وجدت خيانة فابحث عن يهودي! ».

وعجبًا لقوم من العرب ما يزالون اليوم يأملون في نجاح معاهدات سلامٍ كاذبٍ مع اليهود! فها هي ذي العقود والعهود قد بقيت رسومًا شاحبةً على صكوكها، وكلامًا فارغ المحتوى ينثرونه للاستهلاك الإعلامي على موائد اللقاءات والمؤتمرات، والدم ينزف سخينا على الأرض بغير انقطاع!

ثانيًا: وأما التلبيس، فإنهم قد احترفوه احترافًا ولهم فيه خبرةٌ شيطانية وأسرارٌ صناعة! فما من مجال تعلَّق بالحقوق أو بالسياسة والإعلام إلا قام منهجهم في صياغته على التلبيس والتدليس! حيث يخلطون الحق بالباطل، ويموِّهون في العبارات، بما يجعل المتلقِّي يفهم ما يطمئنه من جهة، ويجعل لهم مخرجًا للنقض والخيانة من جهة أخرى! فهم يصنعون المصطلح ويحتكرون دلالته وتفسيره! ولهم اليوم في المختبرات اللسانية الحديثة جيوش من كهنة اللغويين، الذين تخصَّصوا في هذه الصناعات الكلامية مما ترمينا به وسائل الإعلام صباح مساء! ذلك هو سحر هذا العصر، وهم كُهَّانه وسدَنَتُه!

ثالثًا: وأما كتمان الحق حيث يجب أن يعلن فهو ظلم، كما يصنعون عند أداء

الشهادات، وعند المعاهدات وعند نقضها، وأمام القضاء الدولي، وفي المؤسسات العالمية التي وكأنها ما أنشئت إلا لمناصرتهم على البغي! فلا تجد منهم من يعلن الحقيقة إذا صدرت منهم خيانة، ويقول: اللّهم إن هذا الفعل خيانة! بل يتواطؤون على المنكر تواطؤًا! ويسكتون على الجريمة، فلا يصرحون ولا بإشارة إدانة للفعل القبيح! بل يمجدون فعل المجرم و (يتفهمونه) كما يعبرون في لغة السحر السياسي اليوم! ثم بما هم يشتغلون في دوائر مظلمة ولوبيات مغلقة، حيث يُعدون للمسلمين من الخراب والدمار ما اللّه به عليم؛ فإن الْمُعَاهِدَ لهم لا يستطيع معرفة مراميهم من كل بند عقدوه! حتى صار الحوار معهم ضربًا من الغرر والمقامرة ليس إلا!

رابعًا: وأما التناقض فهو خُلُقُهم العجيب الذي لا يخجلون منه أبدا! فكما أنهم كانوا يأمرون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم، فكذلك هم اليوم يطالبون الناس بالديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وهم أسوأ خارق للعدالة ولحقوق الإنسان! ويصرح أحدهم تصريحًا هنا لا يجد أي حرج في التصريح بمناقضه هناك! يلعنون دفاع المسلمين عن أنفسهم و « يتفهمون » بطش جيوشهم بهم وتذبيحهم لأطفالهم! حتى اشتهروا في عالم السياسة بمصطلح « الكيل بمكيالين »!

تلك صور من طبائع يهود قديمًا وحديثًا، سُنَّةٌ ثابتة من سنن اللّه في خلقه، الكيد واحد والتجليات شتى! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٤ - مسلك التخلق:

وقضية هذا المسلك هي في الاستفادة الإيجابية من سلبيات بني إسرائيل التي نصَّ عليها القرآن. وهي تتلخَّص في مجاهدة النفس للتحلِّي بالصفات التالية: شكر النعمة، والوفاء بالعهد، والاستجابة للّه، والرهبة، وإخلاص الدين للّه، وأداء حقوق اللّه، وإدانة النفس في جنب اللّه، والصبر، والتهجُّد بليل، ومشاهدة أحوال الآخرة في كلِّ وقت وحين. فهذه عشر صفات، كل صفة منها منزل من منازل الإيمان، لا يُكتسب مقامه - على الحقيقة - إلا بمجاهدة مستمرة، وسير دؤوب.

ويتوسل إلى ذلك كله بمسلكين اثنين، إذا تحقَّق العبد بهما سهل عليه التخلُّق

بالصفات العشر. فالمسلك الأول: معرفة النفس، وذلك بالتفكر العميق فيها، ومراجعة أعمالها من يوم وعيها بنفسها إلى ساعتها هذه، والنظر إلى ذلك كله في ضوء مسيرة الزمن وتصرّم العمر! والمسلك الثاني: معرفة اللَّه، وذلك بالمطالعة الدائمة لشؤون الربوبية، وهذا يحصل بتدبُّر مواطن ذلك في القرآن الكريم، وبالتفكُّر في خلق السموات والأرض. فمن حصل له هذا بالفعل في حقِّ اللَّه خافه! ورجع من سياحته التدبرية أو التفكرية بزاد عظيم، ألا وهو زاد التقوى! فتحقيق المعرفة باللَّه تقي المهالك بإذن اللَّه، وإنما هلكت يهود بسبب جهلها باللَّه! فلما نسبوا إليه - سبحانه - ما لا يجوز من الصفات تجرؤوا على كبائر الموبقات! قال ﷻ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

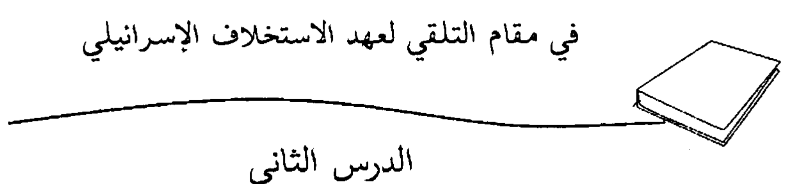
والسبب في كون معرفة اللَّه - بعد معرفة النفس - تجعل العبد يترقى بمراتب الإيمان؛ هو أنه بالتعرف إلى جلال اللَّه وسلطانه العظيم، ومشاهدة أنوار تدبيره لأمر الملك والملكوت؛ بما لا قدرة لبشر على إحصائه ولا على معرفة تفصيله! بذلك وبما في معناه يمتلئ قلب العبد خوفًا ورهبًا، وذلك على قدر ما حقَّق من معرفة وعلم به تعالى. فإذا حصل له ذلك سلس له الطيران بجناحي الخوف والرجاء، وهما مطية كل السائرين إلى اللَّه بصدق. قال النبي المصطفى ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْـزِلَ. أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ! أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ!** » [1].

* * *

(١) رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المجلس الثامن

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي



الدرس الثاني
في عجائب معجزات اللَّه فيهم وغرائب منكراتهم

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

فصَّل القرآن قصة بني إسرائيل - وهي أوسع القصص القرآني على الإطلاق - على خمس مراحل. المرحلة الأولى: هي في قصة يوسف إلى نهايتها برحيل النبي يعقوب عليه السلام مع بنيه وأهله أجمعين من الشام إلى مصر. والمرحلة الثانية: في تغير أحوال بني إسرائيل بمصر - بعد تغير الظروف السياسية - من عزة إلى ذلة وذلك باستعباد المصريين لهم! والمرحلة الثالثة: ظهور النبي موسى عليه السلام فيهم، وبداية تجميع بني إسرائيل للعودة بهم إلى الأرض المقدسة، وما كان من صراعه مع فرعون وجنوده. والمرحلة الرابعة: هي مرحلة التيه في الصحراء. والخامسة: هي مرحلة

التمكين ودخول بيت المقدس. وكل هذه المراحل مفصَّلة في القرآن ما بين سُوَرٍ شتى. كل سورة تضمَّنت منها ما يناسب قضيتها، كما في سور يوسف وطه والشعراء والقصص، وغيرها. فكل مرحلة فصلت هنا أو هناك. وتلك كلها سور مكية، كان الغرض من القصص فيها دعوة الناس جميعًا ببيان أيام اللَّه في الأمم التي خلت. لكنه ههنا في سورة البقرة - وهي سورة مدنية - التقط من أغلب تلك المراحل مشاهد خاصَّة، وحوادث متميزة يُذَكِّرُ بها يهود المدينة خاصَّة، المعاصرين لمحمد ﷺ وكذا من خلفهم من بني إسرائيل عامَّة إلى يومنا هذا؛ مناديًا إيَّاهم بخطاب مباشر: « يا بني إسرائيل! يا بني إسرائيل! » اذكروا كذا وكذا، وإذْ كان منكم كذا وكذا.. »، مشيرًا إلى ما تضمَّنته تلك الحوادث من اللطف الإلهي بهم والإنعام الرحماني عليهم؛ عساهم يتذكَّرون ولعلهم يهتدون، ويدخلون في دين الإسلام مع عموم المسلمين! ولذلك جاءت أغلب تلك الإشارات القصصية مبدوءة بأداة « إذْ » الدالة على التذكير بالظرف الزمني الماضي، مما يعرفونه جيدًا كما يعرفون أبناءهم! ويقرؤونه في كتبهم وقصص أنبيائهم وأجدادهم. والقرآن طبعًا - وهو كتاب اللَّه للناس كافة - لا يغفل أن يدبج كل حدث من تلك الحوادث بسنن ربانية وحِكَمٍ إلهية، من سنن الهدى المنهاجي وحِكَمِه؛ إذ هو في الأصل هدى لهذه الأمة، وتزكيةٌ لها وتنمية من البذرة إلى الشجرة.

فبعد المواعظ الربانية البليغة التي خاطب بها الرحمن بني إسرائيل؛ مذكِّرًا إيَّاهم بنعمته تعالى عليهم وتفضيله إيَّاهم على العالمين زمن استخلافهم - كما فصَّلناه بالمجلس السابق - جعل ههنا يُذَكِّرُهُمْ بوقائع معينة من تاريخهم، وقائع كان له تعالى فيها من الفضل عليهم واللطف؛ ما يستوجب الشكر والتوبة إلى دين اللَّه الحق لو كانوا يعقلون! فذكَّرهم تعالى بما عانوه من سوء الخسف والإذلال على يد فرعون وملئه بمصر، وما كان من تجلِّي رحمة اللَّه عليهم ببعثة موسى عليه السلام الذي أنقذهم بفضل اللَّه من ذلك العذاب الشديد، الذي طال زمنًا وأجيالًا! قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ فقد عرض القرآن ههنا صورة موجزة لأشد فترات الهوان والإذلال الذي نالهم من الفراعنة بمصر، وتلك هي مرحلة الابتلاء

بمذابح « فرعون موسى » ومظالمه، أي فرعون المعلوم في القرآن صاحب القضية الكبرى في دعوة موسى ؈. وقد اختلف المفسرون في اسمه الشخصي، ولا عبرة بما سكت القرآن عن تسميته، وإنما العبرة بفرعونيته الحاكمة!

لقد ذكَّر القرآن بني إسرائيل بتلك الأيام الكالحة! حيث كان الطغاة من ملأ مصر آنئذ يسومونهم سوء العذاب، بمعنى يذيقونهم أشد العذاب، وذلك بتذبيح أطفالهم الذكور واسترقاق إناثهم للخدمة والمتعة! وإنها لجرائم ومصائب ترتعد من هولها القلوب! وذلك أن الطاغية فرعون رأى في منامه أن نارًا خرجت من بيت المقدس فانطلقت عادية حتى دخلت بيوت القبط إلا بيوت بني إسرائيل! فَعُبِرَتْ له بأن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل! فعند ذلك أمر الطاغية الملعون بقتل كل ذكر يولد في بني إسرائيل، وأن تترك البنات للخدمة، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها! فعاش بنو إسرائيل بهذا الوضع أسوأ أيامهم وأشدها بلاءً! ولذلك قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وأي بلاء - في الدنيا - أشد على الإنسان من قتل ولده وهتك عرضه!؟ ولكن اللَّه تعالى كما ابتلاهم بهذا الشر الرهيب، لحكمة ستتجلَّى معالمها فيما يأتي بحول اللَّه - ابتلاهم بعده بخير، وهو بعثة موسى ؈ وإنقاذهم من بين أيدي فرعون وجنوده! وذلك عساهم يعرفون معنى أن يكون الإنسان حرًا! وعسى يعرفون شيئًا من عظمة حقوق اللَّه عليهم، وما ينبغي له تعالى من الحمد والشكر! وبنو إسرائيل - بما ركب اللَّه في طبيعتهم من التمرُّد والعناد - قوم لا يعرفون معنى الحرية إلا بذوقهم لذلة التعبيد! ولذلك لما ضلُّوا عن توحيد اللَّه بعد النبي يوسف ؈ سلط اللَّه عليهم المصريين يسومونهم سوء العذاب!

ثم يُذَكِّرُهُمْ الحقُّ تعالى بمشهد ذلك الإنجاء العجيب، وكيف فَرَقَ اللَّه بهم البحر فأنجاهم، وأغرق فرعون وجنوده وهم ينظرون ويتفرجون! ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ﴾ فقد أمر اللَّه تعالى نبيه موسى بضرب البحر بعصاه، فلما ضربه انفلق فصار كل شِقٍّ منه كالجبل العظيم! واستوى قاعه طريقًا جافة معبّدة؛ ليعبر بها بنو إسرائيل آمنين مطمئنين! وقد كان ذلك مشهدًا حرجًا جدًّا، حيث كان بنو إسرائيل مطاردين من قِبَلَ فرعون وجنوده، فلما وُجِهَ بنو إسرائيل بالبحر، التفتوا فرأوا جيش العدو قد أدركهم! فانهارت قواهم وأيقنوا بالهلاك!

وهو ما فصَّله القرآن في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٣] وعبَر أصحاب موسى البحر بهذا الإكرام الإلهي العجيب والإعجاز الربَّاني العظيم! ولشدة غيظه الجهول تجرَّأ فرعون بعبور البحر كما عبرت بنو إسرائيل! فلما توسَّط هو وجنوده عمق الطريق أعاد اللَّه البحر إلى وضعه الطبيعي، فالتطمت أمواجه العالية بقوة، مغرقة الطاغية وجنوده أجمعين! وهناك على برِّ الأمان من الضفة الأخرى للبحر بنو إسرائيل يتفرَّجون على هذا المشهد الرهيب العجيب! فأي إنعام هذا وأي إكرام لقوم مستضعفين، وقفوا ينظرون إلى من سامهم شر الهوان والإذلال وهو يتخبَّط في الموت غرقًا!؟

ثم يذكرهم بفضيحة العجل! حيث ارتكسوا من عقيدة التوحيد التي بها نجَّاهم اللَّه من فرعون إلى عقيدة الشرك في صورة وثنية بشعة! فاتخذوا صنمًا على هيئة عِجْل، صنعوه من حُلِيِّهم، فجعلوا يعبدونه من دون اللَّه ربِّ العالمين! وقد كان ذلك خلال غياب موسى عن قومه مدة أربعين يومًا لموعد ربِّه. وكان المتوقع في مثل هذه الحال أن تنزل بهم صيحة أو صاعقة تُتَبِّرُهُمْ تتبيرًا وتقطع دابرهم ونسلهم إلى الأبد، كما وقع لأمم غيرهم! ولكن اللَّه كان أرحم بهم فعفا عنهم لعلهم يكونون من الشاكرين لأنعم اللَّه التي لا تفتأ تتدفَّق عليهم! ولما رجع إليهم موسى حرَّق الصنم ونسف رماده في البحر نسفًا! ثم بشرهم بما تلقَّى عن ربِّه من نعمة كبرى: التوراة، نعم التوراة فهي نعمة الهدى والفرقان! يقتدي بها بنو إسرائيل في أمور معاشهم ومعادهم، وترشدهم إلى ما يجوز وما لا يجوز في عبادة اللَّه والسير في سبيل نيل رضاه. ففيها الهدى والفرقان الفاصل بين الحقِّ والباطل، مما لو حافظوا عليه ما ضلُّوا ولو بعد وفاة موسى عليه السلام! وفي تلك الألواح جعل موسى يتلو حكم اللَّه على الذين عبدوا العجل من دون اللَّه، فأخبرهم بأن كفارته القتل! هكذا كانت شريعتهم. فمن استجاب فهي توبته وغفرانه! إنه حكمٌ غليظٌ نَعَم؛ ولكن الجريمة أغلظ! فهذا العبد الذي أخرجه اللَّه قبل قليل من بين فكي الوحش فرعون يخالف الآن إلى الكفر باللَّه الواحد ويتَّخذ من دونه صنمًا؟ ولا أظلم ولا أفظع في كبائر الخطايا عند اللَّه من الشرك! ولذلك عبَّر القرآن في سياق التوبة بقوله تعالى على لسان موسى:

﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ والبارئ: هو الخالق الشيء على غير مثال سابق. وهو ما عبرنا عنه من قبل بحقِّ الخالقية، الذي به استحقَّ الربُّ تعالى عبادته إخلاصًا له وتوحيدًا. وخيانة هذا الحق هي أعظم خيانة وقعت فيها البشرية على الإطلاق!

ومن رحمته تعالى أن جعل ذلك كفارةً لكلِّ مقتول ومغفرة لذنبه وتوبة شاملة له! وقد قال بعض المفسرين: إنه لهم شهادة! (١) وقوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي ليقتل الذين لم يعبدوا العجل الذين عبدوه حدًّا من الله وكفارة! وإنما هم إخوتهم وآباؤهم وأبناؤهم، فكان ذلك كأنما يقتلون أنفسهم، فهو حد كما يشق على المقتول يشق على القاتل أيضًا!

ويُذكرهم مرة أخرى بفضيحة أخرى، وهي طلبهم من موسى أن يريهم الله جهرة أي عيانًا من غير حجاب! وجَعْلِهم ذلك شرطًا لإيمانهم! وهذا منتهى الغواية والضلال! كان ذلك عندما سار موسى إلى ربِّه بسبعين رجلًا من خيار قومه لميقات ربِّه، اتخذهم نُقَبَاء عن بني إسرائيل للاعتذار إلى الله وإعلان التوبة إليه تعالى، فبدل أن يَتَذَلَّلُوا بين يديه تعالى ويستغفروه باكين خلف موسى وهو يتلقَّى كلام الله؛ أبوا إلا أن يزدادوا إثمًا! فأصابتهم صاعقة قتلتهم جميعًا إلا موسى! فجعل موسى يتوسَّل إلى ربِّه ويجأر إليه بالدعاء كي يعفو عنهم فاستجاب له وأحياهم الله بعد مماتهم! بل زادهم نعمًا أخرى هم وقومهم؛ بأن أرسل إليهم الغمام مسخرًا فوق رؤوسهم يستظلُّون به من حرِّ الشمس في الصحراء، وأنزل عليهم طعام المن كشهد العسل، يجدونه معلقًا على الأشجار فيتغذون به، وأرسل بين أيديهم طائر السلوى أسرابًا كثيرة، وهو يشبه طائر السُّمَانَى، وقيل هو نفسه (٢) من فصيلة الدجاجيات يسمن ويتكاثر، يذبحون منه فيطبخون ويشوون عيشًا رغدًا، ورزقًا طيبًا نعمة من الله وفضلًا! ثم هم مع ذلك كله يكفرون ولا يشكرون! ذلك بعض ظلمهم وإنما كان على أنفسهم!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **ستِّ رسالات** نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الإذلال يفسد الطبع البشري ويدمر الشخصية الفطرية

---

(١) روي ذلك عن عبد الرحمن بن زيد كما هو عند الطبري وابن كثير.

(٢) ن. الروايات في ذلك عند الطبري.

للإنسان! ولذلك كان الرسول ﷺ يستعيذ منه بالله، كما ثبت في دعائه: « **اللَّهم إني أعوذ من الفقر والقِلَّةِ والذِّلَّةِ! وأعوذ بك من أن أَظلم أو أُظلم!** » (١) وما سِيمَتْ أمة الذل والهوان إلا فسدت طباعها وانحلت أخلاقها، وشق على المصلحين أمر إصلاحها! ولذلك وردت النصائح النبوية للمؤمن بعدم تعريض نفسه لمواقف الذل! فعن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه: يتعرَّض للبلاء لما لا يطيق!** » (٢) وحُرِّمت المسألة على المسلم - إلا لضرورة - بسبب ما يصيب صاحبها من الذِّل والصَّغَار! ومن الجهل الشنيع إذلال بعض الآباء لأبنائهم بالشتائم والسباب والتنقيص والسخرية؛ مما يحطم معنويات الطفولة ويقهرها! فيجد الطفل نفسه عاجزًا عن كلِّ شيء، حتى إنه يكبر فلا تكبر معه شخصيته! بل يبقى على حال العجز والشعور بالنقص أبدًا!

الرسالة الثانية: في أن المؤمن - فردًا أو جماعة - إذا بلغ من الاستقامة والإخلاص للَّه مبلغ الرضا تلقَّاه ربُّه بالقبول وتولَّاه؛ فجعله أداة من قَدَرِه ﷻ ! ولذلك قال في حقِّ بني إسرائيل لما آمنوا بموسى عليه السلام وآزروه في فتنة فرعون اللعين: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ... ۝ ﴾ والأصل في التعبير (فرقنا لكم)؛ لأنه إنما فرقه لإنقاذهم من الطاغية فرعون وجنوده، وأما الأداة فكانت عصا موسى والفاعل في ذلك كله إنما هو قدرة اللَّه تعالى وإرادته! ولكنه ههنا جعل نفس بني إسرائيل أداة فرق البحر؛ وذلك لما كانت نجاتهم هي الغاية وكانوا في تلك اللحظة على مقام الرضا من اللَّه والإخلاص له جعلهم أداة قدره وأمره العجيب! وكأن السر هو فيهم لا في العصا!

وكذلك كل من تولَّاه اللَّه وجعله من جنده، فتح له وبه ما ينصر به دينه ويرفع رايته!

الرسالة الثالثة: في أن الشريعة رحمة للمؤمنين وأن حدودها كفارات لأصحابها، يطهرهم اللَّه بها ويغفر ذنوبهم! فعندما أصاب ماعز بن مالك حدًّا من حدود اللَّه، وجاء إلى رسول اللَّه معترفًا بذنبه أمر النبيُّ ﷺ بحدِّه، ثم قال في حقِّه: « **استغفروا لماعز بن مالك! لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم!** » (٣) ولما كان خالد

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه مسلم.

ابن الوليد ﷺ يحد المرأة الغامدية التي زنت وهي محصنة، أصابه شيء من دمها فسبها؛ فقال له النبي ﷺ: « **مهلًا يا خالد! لا تسبها! فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له!** »[١] وفي رواية: (**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم! وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله؟**)[٢].

وهذا إنما يكون حيث تُقام الحدود، وتُحفظ محارم الله، وتُرعى حقوقه وحقوق عباده، وتُصَان الأنفس والأعراض والأرزاق، ويَعتَصِم الناس بالشريعة تربيةً وتزكيةً، ثم يكون سلطانهم على ذلك. وإلا فمقترف الحد إنما عليه التوبة؛ بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات، وكثرة الاستغفار والصدقة والقيام والصيام.

الرسالة الرابعة: في أنه باتباع الكتاب يجد المؤمن الهدى الكامل والفرقان التام. وقد تبيَّن من مقدمة السورة أن هذا القرآن هو الكتاب! الكتاب الذي لا كتاب بعده في بيان الهدى. فمن اعتصم به سائرًا على أثر رسول الله ﷺ، نجا من كل سوء في دنياه وأخراه.

الرسالة الخامسة: في أن المؤمنين الصالحين من هذه الأمة متصلُون عبر السند الإيماني بصالحي الأمم السابقة، فالمسلمون أولى بهم من نسلهم المتعاقب عنهم، ممن خرج عن منهاجهم الحق وغيَّر وبدَّل! والمسلمون أولى بحواريي عيسى ﷺ من نصارى هذا العصر وما قبله، ممن خلطوا دينهم بالشرك الغليظ! والمسلمون أولى من يهود بموسى ﷺ وسائر أنبياء بني إسرائيل جميعًا! لا نقبل في إيذاء أحد منهم سومًا ولا عدلًا! فعن ابن عباس ﷺ قال: (قدم رسول الله ﷺ المدينةَ، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: « **ما هذا اليوم الذي تصومون؟** » قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يوم نَجَّى الله ﷻ فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: « **أنا أحقُّ بموسى منكم!** » فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه!)[٣] وعن أبي قتادة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء؟ فقال: « **يُكَفِّرُ السَّنَةَ الماضية!** »[٤].

ومن الطرائف المحمودة أن جماعة من المسلمين في بلاد الغرب رفعت دعوى

(١، ٢) رواه مسلم. (٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

قضائية ضد فلم سينمائي يسخر بالحواريين! وذلك أن احترام الحواريين جزء من وصايا الإسلام، والسخرية بهم طعن فيه!

الرسالة السادسة: في أن جيل الصحابة هم أفضل جيل مؤمن عرفه التاريخ على الإطلاق! فقد آمنوا بمحمد رسول اللَّه ﷺ بغير قيد ولا شرط، لقد أيدوه وعزروه ووقروه ونصروه، وأحبوه محبة جعلتهم يفضِّلونه على أنفسهم وأبنائهم وآبائهم؛ حتى تعجَّب منهم غيرهم! ما أمرهم النبي ﷺ بشيء أو نهاهم إلا قالوا: « **سمعنا وأطعنا!** » ولا أساؤوا الأدب مع اللَّه ورسوله في شيء! أوذوا في اللَّه، وهاجروا إليه، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيله! ولا كان منهم في ذلك شيء من المن والفخار! بل أضاؤوا لياليهم بنور البكاء بين يدي الرحمن مستغفرين! فاستحقوا ما وصفهم اللَّه به في القرآن: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة. كما استحقوا معية محمد رسول اللَّه ﷺ، فكانت تلك شهادة لهم من اللَّه صريحة، كما سبق بيانه بالمجلس السابق من قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩] وبهذا وذاك كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون باللَّه! ولقد تواترت شهادة اللَّه لهم في غير ما موطن من كتاب اللَّه، فأكرم به من جيل وأنعم!

فمن كان مقتديًا بأحد بعد رسول اللَّه ﷺ فبهؤلاء الرجال!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق ههنا هو في العمل على اكتساب مقام الرضا! بمعنى كيف يكون العبد عند ربِّه مَرْضِيًّا؟!

أولًا: لا بد من ملازمة التدبُّر لمواقع رضا اللَّه عن رسله وأنبيائه وعباده الصالحين في القرآن، فثمة تجد شروطًا وصفاتٍ وأخلاقًا، كما في قوله تعالى بعد عرض أحوال رَضِيَّةٍ لعدد من أنبيائه المصطفين الأخيار، وتقرير استجابته تعالى لأدعيتهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا هو الهدى!

ثانيًا: لا بد من الاجتهاد في التأسِّي بخير قدوة: سيدنا محمد ﷺ فهو أرضى الخلق عند اللَّه.

ثالثًا: لا بد من الاشتغال بتتبع سِيَرِ الصحابة ومصاحبتهم في حياتهم! فهم رجال لهم فضل الصُّحبة وبركتها، وهم بهذا غير عاديين نعم، لكنهم من جهة أخرى رجال عاديون، رجال من بني آدم محكومون بضرورات العيش كما نحن محكومون، ومرتبطون بحاجات الأرض كما نحن مرتبطون، لكنهم - رغم ذلك - ارتقوا إلى مصافِّ الصديقين والشهداء؛ بما لم يستطعه إلا قليل من العالمين! فنالوا الرضا الربَّاني بشهادة اللَّه لهم صراحة في الكتاب المبين! قال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

فلو نظرت إلى كليات خِصَالهم لوجدتها في خمسة، **أولها**: سرعة الاستجابة للَّه ولرسوله كلما سمعوا داعي اللَّه! **ثانيها**: الصدق الكامل في الأفعال والأقوال، وذلك أعلى منازل الإخلاص، وبه كان أبو بكر ﷺ صِدِّيقًا! **ثالثها**: سرعة التوبة ومداومة الاستغفار! **رابعها**: التذلُّل بين يدي اللَّه بتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار! **خامسها**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بواجب الدعوة إلى اللَّه والجهاد في سبيله. فمن تحقَّق بهذه الصفات رجا أن يدخله اللَّه تعالى في مقام رضاه عن المهاجرين والأنصار من باب قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ إلى آخر الآية. جعلني اللَّه وإيَّاكم منهم بفضله وكرمه ومحض مَنِّهِ وإحسانه! آمين!

* * *

المجلس التاسع

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي

الدرس الثالث تابع للثاني
في عجائب معجزات الله فيهم وغرائب منكراتهم
وبيان الطبيعة الشهوانية للشخصية اليهودية!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

أَمْرُ بني إسرائيل بدخول القرية المذكورة - وهي بيت المقدس - وقع مرتين، الأولى في عهد موسى ﷺ، بعدما أنجاهم الله من فرعون، وعبر بقومه صحراء سيناء تجاه الأرض المقدسة، التي أمرهم الله بالسير إليها، وكانت آنئذ مسكونة بالعماليق الجبابرة الذين كانوا على الكفر وعبادة الأوثان! لكن بني إسرائيل رهبوهم وضعفوا عن قتالهم فنكلوا عن الاستجابة لأمر الله! وقالوا مقولتهم المشهورة التي حكاها القرآن في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] فغضب موسى من ذلك فدعا عليهم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥] فاستجاب الله دعاءه: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦] فحكم عليهم بالتيه جزاء نكولهم عن الجهاد في سبيله! لكن موسى ندم على ما سبق به لسانه من دعاء، بعدما جاء إليه خُلَّصُ أتباعه يلومونه ويستشفعون! فسلَّاه الله بأن ذلك هو الحق، وذلك هو قوله في الآية الآنفة: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

فرجع موسى ببني إسرائيل إلى التيه بالصحراء، وهنالك خفف الله عنهم من بلوائه؛ فمَنَّ عليهم بالمعجزات المذكورة مِنْ مَنٍّ وسَلْوَى وماءٍ معين. ولم يعودوا إلى بيت المقدس إلا مع نبي الله يوشع بن نون ﷺ! وهو الدخول الموصوف ههنا في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ... ۝ ﴾ حيث أمرهم الله تعالى بدخول بيت المقدس - بعدما نصرهم على من فيه - دخول الخاشعين المتبرئين من كلِّ حول أو قوة؛ لأن النصر إنما كان من الله! وهو كذلك في كلِّ وقت وحين. فأباح لهم ما فيه وما حوله من نعم وعيش رغيد. وأمرهم بالدخول على هيئة السجود، والمقصود الركوع كما حقَّقه الإمام الطبري؛ لأن العرب تطلق هذا وتريد به ذاك. وكذلك روي عن ابن عباس [١]. والقصد هو إعلان الافتقار الكامل إلى الله، واعتقاد أن ما تحقَّق على أيديهم من نصر إنما هو من عند الله. مع أمرهم بالقول: حِطَّةٌ! وهي تعبير عن طلب الغفران بالحطِّ من ذنوبهم وخطاياهم التي جاوزت الحدَّ!

---

(١) تفسير الطبري للآية.

لكنهم ما فعلوا هذا ولا ذاك، وإنما دخلوا يزحفون رافعي رؤوسهم وهم يقولون: « حبة في شعيرة »؛ سخريةً بالأمر الإلهي واستهزاء! بذلك صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ، قال: « قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا: « حبة في شعيرة »! »[1] وفي رواية لابن عباس موقوفة أنهم قالوا: « حنطة! »[2] وأنَّى كان الأمر فالعبرة واحدة، وهي أنهم غيَّروا وبدَّلوا! والحكمة من ذلك بيان أنهم استشعروا عزة النصر بحولهم وقوتهم هم، لا بحول الله وقوته! ورفضوا أن يعلنوا افتقارهم إلى الله الواحد القهار! فدخلوا القرية بغطرسة متكبرين! وضربوا بالأمر الإلهي عرض الحائط! فاستحقوا بذلك عقاب الله رجزًا من السماء! وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

والسياق يوحي بأن هؤلاء الفسقة كانوا أغلب بني إسرائيل، وبأن طائفة من أهل الخير كانت موجودة فيهم، لكن على قلة! وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فقد وعد بالغفران كل من استجاب للأمر، وخصَّ المحسنين بزيادة خير، لكن الظلمة غلبوا على العصيان والتمرد؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو مرض أو وباء مهلك كالطاعون!

ثم يعود بنا السياق القرآني إلى عهد موسى مرة أخرى، مذكرًا بني إسرائيل بما أصابهم من العطش في الصحراء، وما كان من استسقاء موسى ربَّه، ثم ما كان من أمره تعالى نبيه موسى عليه السلام بضرب الحجر بعصاه؛ فلما ضربه انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا! على عدد قبائل بني إسرائيل الذين كانوا اثني عشر سِبْطًا. والسِّبْطُ: السلالة الواحدة. فكل سلالة من بني إسرائيل تنحدر عن أحد أبناء النبي إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام. وقد كان عدد أبنائه كما هو معلوم من القرآن اثني عشر ابنًا. فجعل الله العيون المتفجرة من الحجر بإذن الله قسمة عادلة بينهم، لكلٍّ سبط ماؤه الخاص به! وذلك لِمَا تركب في طبيعتهم من الجشع والأنانية! ولو تخلقُّوا بخلق الإيثار لكفتهم عين واحدة، كما كَفَتْ ركوة من الماء صغيرة - وَضَعَ فيها رسول الله ﷺ يده - جيشَ الصحابة أجمعين شربًا ووضوءًا، وهم يومئذ بالآلاف!

وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(١) متفق عليه.
(٢) تفسير الطبري للآية.

أي: إن هذا الطعام من المن السلوى وهذا الماء المتفجر إنما هو محض كرم من اللَّه، ولولا اللَّه لما وجدتم بهذا التيه طعامًا ولا شرابًا! وكيف لا؟ وإنما هي صحراء قاحلة لا تمطر سماؤها ولا تنبت أرضها! فكلوا واشربوا واعرفوا للَّه ذلك واشكروه! واحذروا أن تُطْغِيكم النعمة فتفسدوا في الأرض! فالعَيْثُ في الأرض أو الْعَثْيُ فيها، كلاهما في العربية بمعنى، وهو الطغيان والتمادي في الفساد! قال الرغب الأصفهاني: (العَيْثُ والعَثْيُ يتقاربان، نحو: جذب وجبذ، إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسًا، والعثي فيما يدرك حكمًا) (١) وفي اللسان عن ابن سيده: (عَثَا عَثْوًا، وعَثِيَ عَثْوًا: أفسد أشد الإفساد) (عثي).

لكن شهوة يهود كانت أقوى من إيمانهم! فما كان منهم إلا أن طالبوا موسى بتغيير هذه الأطعمة؛ وإتيانهم بما ألفوه وهم في عهد الاسترقاق الفرعوني، من بقل وقِثَّاء وفوم وعدس وبصل! وقد اختلفت الروايات عن ابن عباس وغيره في معنى الفوم، فقيل هو الثوم، وقيل هو الحنطة أو نبات يشبه الحنطة، وقيل: هو عام في كل أنواع الحبوب (٢). وأما البقل فهو كل ما كان من صنف البقليات كالنعناع والكزبرة والبقدونس والزعتر ونحوها، وأما القثاء: فهو فاكهة تشبه الخيار بل هو من فصيلته، لكنه يطول أكثر من الخيار، ويسميه المغاربة الفقوس أو القروم. وأما العدس والبصل فمعروفان مشهوران.

والمقصود من ذلك كله بيان أن بني إسرائيل لم يستطيعوا ترك مألوفاتهم في سبيل اللَّه، ولا الانقطاع عن شهواتهم الترابية رغم أن اللَّه تعالى أبدلهم بها رزقًا أحسن منها! فسرعة الملل وانعدام الصبر في اللَّه، وضعف التحكم في شهوة النفس ورغائبها؛ هي شيمهم التي صرَّح بها القرآن! وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ... ﴿٦١﴾ ﴾ وهذا ما عرضَّهم لغضب اللَّه تعالى وسخطه؛ فحكم عليهم بالذِّلة والمسكنة وأنزل عليهم لعنته: ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو

---

(١) المفردات: مادة « عثي ».

(٢) تفسير الطبري للآية.

بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ فقوله: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْـرًا ﴾ يعني أي مصر من الأمصار، وأي قرية من القرى، فهناك تجدون ما تشتهون مما طلبتم. وهو مطلوب هينٌ متوافرٌ كثيرٌ، لكن دونه ذلَّتكم ومَسْكنَتِكم! ولذلك وصف قصد المصر بالهبوط؛ لأنه استبدال لوضيعٍ برفيعٍ! فيا لبئس ما اخترتم! والذلة: الصَّغار. والمسكنة: الهوان. ومعنى﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِـمُ ... ﴿٦١﴾ ﴾: أي فُرضت عليهم في أنفسهم فصارت خصلة من طبيعتهم، ولم تزل الشعوب تفرضها عليهم بما لديهم من قابلية لذلك! وباؤوا بغضب من اللَّه، أي: انصرفوا محمَّلين بغضب اللَّه. يقال: باء بالشيء: بمعنى انصرف به يحمله. فكأن غضب اللَّه جبل يحملونه على ظهورهم إلى يوم القيامة!

وعلَّل الحقُّ تعالى هذه العقوبة التي أنزلها ببني إسرائيل - إضافةً إلى ما سبق - بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللَّه، والمقصود ههنا بـ « الآيات »: هذه المعجزات، والكرامات التي كان اللَّه يُكرِمُهم بها، من شقِّ البحر وتفجير الأنهار وإنزال المنِّ والسلوى وتظليلهم بالغمام، وغيرها من العجائب! فما من نعمة من هذه إلا كَفَروها وما شَكَروها! ثم هم إلى جانب ذلك قتلوا بعض الأنبياء ممن جاء بعد موسى ﷺ، كيحيى بن زكريا ﷺ وحاولوا قتل المسيح لولا أن اللَّه رفعه إليه! ويقتلون كل آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر! ويتمرَّدون على أحكام اللَّه وشريعته، ويعتدون على حقوقه إلى درجة الطغيان!

ولما ذكر ما ذكر من سخط اللَّه عليهم، ثَنَّى بذكر رضاه - جلَّ ثناؤه - على عباده الصالحين. سواء كان من المؤمنين قبل عهد بني إسرائيل، أو كان منهم ممن عاش زمن استخلافهم، أو كان من النصارى، أو من الصابئين. كل من آمن باللَّه واليوم الآخر واكتسب بإيمانه عملًا صالحًا؛ فإن اللَّه تعالى لا يبخسهم أجرهم، بل يؤمِّنهم على مصيرهم ويبشِّرهم بالجنة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾. لكن لا بد من البيان أن كل إيمانٍ من هؤلاء الطوائف مشروط قبوله بوجوده في عصره، وعدم بعثة نبي جديد في حياته وبلوغه دعوته. فإن كلَّ ملةٍ حاكمة على التي قبلها، فاليهود مثلًا الذين أدركوا بعثة

المسيح ﷺ ولم يؤمنوا به فهم كفَّار، ولا يدخلون في ظلِّ الأمان الإلهي المذكور في الآية للذين هادوا! وكذلك الشأن في كلِّ تلك الطوائف جميعًا، كل من أدرك منهم بعثة محمد ﷺ، وبلغته دعوته؛ فهو ملزم بالإيمان به واتباعه، وإلا برئت منه ذمة اللَّه وكان من الكافرين!

وقد اختلف المفسرون في معنى الصابئين، ورجح محقِّقوهم أنهم العرب الحنفاء (١)، أي الذين اعتزلوا عبادة الأوثان، وقالوا نحن على دين إبراهيم، فاكتفوا بالتوحيد من دون العبادات إذ لا شريعة عندهم يتبعونها؛ فقبل اللَّه منهم عذرهم وقضى لهم بالنجاة بمجرد التوحيد، مع ما كانوا يعملون من العمل الصالح، من سقاية الحاج وخدمة البيت وإكرام الضيف ونجدة الضعيف ونصرة المظلوم... إلخ. فلما جاء الإسلام نسخ ذلك كله! وحكم على الأديان جميعها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم ذكرهم بإحدى العجائب الأخرى التي تبين تمرُّد بني إسرائيل وما قابلهم اللَّه به - رغم ذلك - من رحمة بهم! وهي واقعة رفع الجبل! ذلك أن يهود نكلوا عن العمل بالتوراة ما شاء اللَّه، فحشرهم اللَّه تبارك وتعالى في مكان واحد، ورفع جبلًا عظيمًا فوق رؤوسهم فجعلوا ينظرون إليه حتى ظنوا أنه ساقط عليهم! فأصابهم من الفزع ما أصابهم وجعلوا يجأرون إلى اللَّه ويستغفرون! فجعل اللَّه شرط سلامتهم وتوبته عليهم منوطا بأخذ العهد منهم ميثاقًا من اللَّه أن يأخذوا الكتاب بقوة أي بحزم وجد وألا يخونوا أمانته، وأن يحتكموا إليه في كلِّ كبيرة وصغيرة! فسجدوا للَّه مذعنين فعفا سبحانه عنهم، ونجَّاهم من الموت سحقًا بذلك الجبل الرهيب! وهو ما فصَّله تعالى في قوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١] وعجبًا لقوم يحتاجون لكلِّ هذا الضغط الشديد ليقولوا أطعنا! ولكنهم بمجرد ما رجعوا إلى حياتهم العادية تراخوا عن الوفاء بعهدهم مرة أخرى ورجعوا إلى فسادهم المعتاد!

---

(١) ن. الروايات في ذلك عند الطبري وابن كثير.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٤ ﴾ أي أن رحمته تعالى بهم استمرَّت رغم ذلك؛ وذلك ببعثة أنبياء جدد منهم يذكرونهم ويجتهدون لإصلاحهم. ولولا حكمة تجديد الدين بإرسال رسل وأنبياء فيهم لكان أهلكهم وقطع نسلهم! أو لكان مسخهم أجمعين كما فعل بأصحاب السبت! الذين جعلهم الله قردةً وخنازيرَ!

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٦ ﴾ وكان هؤلاء اليهود الممسوخون أهل قرية بحرية قيل هي « أيلة »، وكانوا يمتهنون صيد السمك، فلما جعل الله عليهم السبت لا يفعلون فيه شيئا، جعل الحيتان تأتي إلى الشاطئ رافعة رؤوسها؛ ابتلاءً لهم واستدراجًا؛ حتى ليكاد المرء يقبضها بيده! فعجزت عزيمة أكثرهم عن الكفِّ عن الصيد يوم السبت، فتحيَّلوا إلى ذلك بوضع الشِّباك من آخر يوم الجمعة، حتى إذا كان يوم السبت وقعت بها الحيتان المقبلة، فلا تستطيع الخروج، فإذا كان آخر يوم السبت من ليلة الأحد جمعوا الشباك وأخذوا الأسماك! ولما فشت فيهم هذه الحيلة البليدة أبغضهم الله ومسخهم قردة خاسئين، أي على ذلٍّ وصغار! فالخاسئ: الذليل. وهذه القصة مبينة في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وقال في سورة المائدة: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠] والقردة الممسوخة لم تتناسل ولم تعقب، بل ماتت بعد أيام كما ذكره المفسرون! ويؤيده قول النبي ﷺ لما سئل عن هذه القردة التي نراها: أهي منهم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: **« إن الله تعالى لم يجعل لمسخ نسلًا ولا عقبًا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك »** [١].

---

(١) رواه مسلم.

فجعل اللَّه تلك العقوبة بذلك المسخ الرهيب نَكَالًا، أي عِبْرةً زاجرة مخيفة لكلٍّ بني إسرائيل ممن في القرى الأخرى، ولكلٍّ من جاء بعدهم منهم ومن غيرهم، كما جعلها تعالى موعظة للمؤمنين الذين يخافون مقام ربهم ويعظِّمونه، تزيدهم - كلما ذكروها وتدارسوها - إيمانًا به تعالى وتعظيمًا! اللَّهم إني أعوذ برضاك من سخطك! وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك! وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك! آمين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **اثنتي عشرة رسالة هي:**

الرسالة الأولى: في أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الاستقامة واليقين بمعية اللَّه! وتلك عبادة الأنبياء. إلا أن البلاء منه ما ينزل تأديبًا ومنه ما ينزل تمحيصًا. ففي الأول قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال في الثاني: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. والمؤمن في جميع الأحوال يسأل اللَّه العفو والعافية. وقد نهينا عن تمني لقاء العدو كما في قوله ﷺ: « **أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا اللَّه العافية! فإذا لقيتموهم فاصبروا..! واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف!** »(١).

والصبر مع التقوى وصلاح الحال، والرضا بقدر اللَّه واليقين برحمته تعالى، والرجاء في عفوه وعدم اليأس من رَوْحِه، كل ذلك بابٌ عظيمٌ من أبواب الفرج، ومخرج واسع من كل أنواع الضيق وكل أنواع البلاء؛ ولذلك قال تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

الرسالة الثانية: في أن شكر النصر يكون بزيادة التسبيح بحمد اللَّه، والاستغفار، والخضوع له تعالى والتذلُّل بين يديه جلَّ وعلا. وكان النبي ﷺ خاضعًا لربِّه في كلِّ أمره، وكان أخضعَ ما يكون عند استقباله لنعمة النصر! وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام

(١) متفق عليه.

دخل مكة يوم الفتح من الثَّنِيَّةِ العُليا، وهو مُنْحَنٍ على راحلته على هيئة الركوع تواضعًا للَّه وتخشُّعًا؛ حتى إنَّ عُثْنُونَهُ ليكاد يمس مَوْرِكَ رَحْلِهِ، أو وَاسِطَةَ رَحْلِهِ! [١] كما ثبت أنه ﷺ مذ نزلت عليه سورة النصر وهو يستغفر ربَّه في صلاته، مستجيبًا لقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر: ١ - ٣]، فلم يزل بعدها - حتى قبض - يقول في ركوعه وسجوده: (« **سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي!** » يتأول القرآن!) [٢] أي يستجيب لمقتضى القرآن؛ تطبيقًا لما نزل عليه في سورة النصر.

الرسالة الثالثة: في أن عدم التعدِّي في استعمال النعمة جزء من شكرها الذي به دوامها. وأن من التعدِّي الإسراف في استعمالها وهدرها في غير مصلحتها! وكذلك التطاول على حقوق الغير فيها، وعدم أداء حق اللَّه فيها! فالنعمة أمانة اللَّه عند عباده، من حفظها ورعاها وأحسن تدبير تصريفها حفظها اللَّه له، وزاده من فضله؛ ولذلك قال: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ ﴾. ومن خانها وأساء تدبيرها نزعها اللَّه منه وجعله من المحرومين! بل جازاه على تعديه هبوطًا وذلَّة ومسكنةً والعياذ باللَّه!

الرسالة الرابعة: في أن القناعة والرضا بما قسم اللَّه من الرزق من أعظم مسالك الوصول إلى رضا اللَّه. والقناعة في ذاتها نعمة كبرى! قال ﷺ: « **مَن أصبحَ منكم آمنًا فِي سِرْبِه، مُعَافًى في جسده، عنده قُوتُ يومه فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها!** » [٣] والقوت: قدر ما يسدُّ الرمقَ من الطعام. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

---

(١) روى ابن إسحاق عن عبد اللَّه بن أبي بكر، والحاكم عن أنس: (أن رسول اللَّه ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته مُعْتَجِرًا [أي: متعممًا] بشِقَّةِ بُرْدٍ حَبِرَةٍ؟ وإن رسول اللَّه ﷺ ليضع رأسه تواضعًا للَّه، حين رأى ما أكرمه اللَّه به من الفتح؛ حتى إن عُثْنُونَهُ ليكاد يمس واسطةَ الرَّحْلِ!) والعثنون: في الأصل شعراتٌ تحت لحي الناقة، ويطلق فيراد به اللحية. والمعنى: أنه ﷺ انحنى على ظهر ناقته؛ حتى لامست شعراتُ لحيته عودَ الرَّحْلِ.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وابن ماجه عن عبد اللَّه بن محصن مرفوعًا، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

«**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللَّه تعالى وليس في وجهه مُزْعَةُ لحم!**»[١].

وعن حبشي بن جنادة ﷺ قال: (سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: «**من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الجمر!**»)[٢] وأخرجه الترمذي بلفظ أطول عن حبشي قال: (سمعت رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع وهو واقف بعرفة، أتاه أعرابي فأخذ بطرف ردائه فسأله إيَّاه فأعطاه وذهب، فعند ذلك حُرمت المسألة! فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن المسألة لا تحل لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ، إلا لذي فقر مُدْقِعٍ، أو غُرْمٍ مُقطع! ومن سأل الناس لِيُثْرِيَ به مالَه كان خُمُوشًا في وجهه يوم القيامة! ورَضْفًا يأكله من جهنم! فمن شاء فليُقلل ومن شاء فليُكثر!**» قال المنذري: زاد فيه رزين: «وإني لأعطي الرجلَ العطيةَ فينطلق بها تحت إبطه وما هي إلا النار!» فقال له عمر: ولِمَ تعطي يا رسول اللَّه ما هو نار؟ فقال: «**أبَى اللَّه لي البخلَ وأبَوْا إلا مسألتي!**» قالوا: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة؟ قال: «**قَدْرُ ما يغديه أو يعشيه!**»)[٣].

والخلاصة أنه لا يجوز لمؤمن أن يسلك مسلك مَذَلَّة من أجل متاع الدنيا، بل يحفظ كرامته وعزَّته، ولو كان فيها نقص مال أو متاع! ومن الحكم قولهم: «تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدييها!»

الرسالة الخامسة: في أن للدعاء أدبًا لا بد من التزامه، وهو تقديم آيات الخضوع للَّه، والتبتل إليه بالحمد والثناء عليه تعالى بما أثبت لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى؛ فعسى أن يكون ذلك مدعاة لرحمة اللَّه! وقد كان بنو إسرائيل بجهلهم وكبريائهم يسيؤون الأدب مع اللَّه في دعائهم، فما طلبوا شيئًا إلا قالوا لموسى أو لمن بعده من الأنبياء: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ... ﴿٦١﴾﴾ هكذا يا ويلهم! كأنه تعالى ليس لهم

---

(١) متفق عليه. والمُزْعَةُ: القطعة.

(٢) قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، كما رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي، وقال الألباني في صحيح الترغيب: «صحيح لغيره».

(٣) قال المنذري: وهذه الزيادة لها شواهد كثيرة لكنني لم أقف عليها في شيء من نسخ الترمذي. والحديث بكلِّ زياداته صححه الألباني لغيره، كما هو في صحيح الترغيب. والمِرَّةُ: هي الشدة والقوة. والسَّوِيُّ: هو التام الخلق السالم من العاهات المانعة للعمل. ومعنى يُثْرِي: يزيد ماله به ويكثره.

بربٍّ! وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الكبر والبعد عن الله والعياذ بالله! بينما قال تعالى لرسول هذه الأمة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ فلم يزل المؤمنون يدعونه مباشرة بقلوب رقيقة ملؤها المحبة والخوف والرجاء، ولم يزل تعالى يستجيب لهم ما دعوا وتبتَّلوا! فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه!

الرسالة السادسة: في أنه لا ضياع لعمل أخلصه صاحبُه للَّه، ما دام موافقًا لشرع اللَّه، فهو تعالى لا يضيع عمل عامل مهما قل! فمن رحمته تعالى بعباده أنه كتب النجاة للصابئين - كما ذكرنا - من العرب وغيرهم، ممن اعتزلوا عبادة الأوثان ووحَّدوا اللَّه؛ فكتب لهم اللَّه الجنة ولو لم تكن لهم شريعة يعملون بها! وقد كتب اللَّه النجاة للنجاشي ملك الحبشة بمجرد التوحيد والإيمان برسول اللَّه ﷺ! حتى إن رسول اللَّه ﷺ صلَّى عليه عند موته صلاة الغائب! كما ثبت في الصحيح، قال عليه الصلاة والسلام: « **إن أخاكم النجاشي قد مات فقوموا فصلُّوا عليه!** »(1) كما كتب اللَّه النجاة لورقة بن نوفل بما كان عليه من توحيد للَّه، وبما صدَّق برسول اللَّه مجرد تصديق؛ إذ مات رحمه الله قبل نزول التشريع! فصحَّ فيه قول الرسول ﷺ: « **لا تسبُّوا ورقة بن نوفل! فإني قد رأيت له جنة أو جنتين!** »(2).

الرسالة السابعة: في أن مذاكرة الكتاب مما يساعد على أخذه بقوة! ذلك أن « الأخذ بقوة » معناه الدخول تحت تكاليفه بحزم؛ تعبُّدًا بأحكامه وبلاغًا لرسالته! وأما مذاكرته فهي بمعنى مدارسته، وذلك ما يورث العبدَ العلم والعمل معًا، فيتفقَّه فيه ويتخلَّق به، ويدعو إلى اللَّه به ولا يخاف في اللَّه لومة لائم. وبذلك يكون آخذًا للكتاب بقوة! وهو مقام الأنبياء والصِّديقين والشهداء! ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] هو مقامٌ عالٍ رفيعٌ نعم، لكنه مُدْرَكٌ بإذن اللَّه بالصبر على مسلك المذاكرات والمدارسات، ففي كلِّ مدارسة تزكية وفي كلِّ مذاكرة ترقية؛ ما خَلُص السيرُ للَّه!

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه الحاكم عن عائشة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الرسالة الثامنة: في أن طلب كشف الحجب وإظهار الخوارق عمل مذموم! ذلك أنه إذا حصل صار بلاء على طالبه! وصار شكره عليه مضاعفًا! وأما كفره به فيستوجب غضب اللَّه ونقمته! ذلك أن آيات اللَّه في الطبيعة براهين ناطقة بذاتها، توحد خالقها، وتسير إليه عبر ناموسها الذي جعلها اللَّه فيه. واللَّه تعالى لا يخرق نظامها عبثًا. فإذا أظهر اللَّه لقوم معجزة من نبي، أو كرامة من عبد صالح، ثم كفروا بعد ذلك؛ فقد استوجبوا عقاب اللَّه في الدنيا والآخرة! تمامًا كما وقع لبني إسرائيل بكفرهم وقد أظهر اللَّه فيهم من عجائب أمره خوارق وغرائب! فكشف الحجب له ثمن! وهو علو مقدار الشكر أو مضاعفة العقوبة والعياذ باللَّه! وقد تخلَّق أصحاب محمد ﷺ بخلُق التواضع للَّه والحياء منه جل علاه، فلم يسألوا رسولهم إظهار المعجزات والخوارق! بل عبدوا ربهم بالأسباب، إلا ما أكرمهم اللَّه به عند اضطرارهم، وذلك هو مقام العبودية الكامل!

الرسالة التاسعة: في أن ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي؛ فيما دون الوحي، كما قَرَّرَه الإمام الشاطبي في موافقاته رَحِمَهُ اللَّهُ. وإنما ضابط ذلك أن يكون صاحبها - **أولًا** - مستقيمًا في كل أمره على منهاج الكتاب والسنة، يعامل رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بمقتضى أمره ونهيه، ومنهاج شريعته. التقوى لِبَاسُهُ والورَعُ حِلْيَتُهُ. **الثاني:** أن تكون الكرامة الظاهرة خادمة لمقتضى الشرع غير مناقضة له، فإن ناقضته فهي من خوارق الشيطان! **والثالث:** ألَّا تكون من شخص يجعلها هدفًا لعبادته ومجاهداته، فإن الشيطان كثيرًا ما يدخل على المرء من خلال هذا المسلك! وغالب الكرامات إنما يؤتاها المؤمن حال الضرورة، ولا تكون تحت الطلب، فمن كان شأنه أنها تجيئه كلما طلبها فمشكوك في أمره! لأن من دخل في العبادات من أجل الكرامات هو مخروم الإخلاص، عابد للكرامة لا للَّه!

وقد صحَّ حدوث كرامات شتى لـخُلَّص عباده الصالحين، وعلى رأسهم ساداتنا بحقٍّ أصحاب رسول اللَّه ﷺ. من أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله كرامات شتى في موافقة القرآن [1] وقصته في نداء البعيد وإسماعه عبر آلاف الأميال مشهورة،

(١) أخرج البخاري وغيره عن أنس قال: قال عمر: (وافقت ربي في ثلاث: قلت يا رسول اللَّه لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصَلًّى، فنزلت ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ... ﴾ وقلت: يا رسول اللَّه إن نساءك =

وذلك أنه ﷺ أرسل جيشًا إلى « نهاوند » من أرض العجم، تحت إمرة رجل يقال له « سارية »، فبينما عمر يخطب الجمعة بمسجد المدينة إذ نادى بأعلى صوته: « يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ! » - ثلاثًا - فتعجب الناس من أمره! فلما قدم رسول الجيش بعد ذلك سأله عمر الخبر، فقال: يا أمير المؤمنين هُزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا ينادي: « يا ساريةُ الجبلَ! » ثلاثًا؛ فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم اللَّه. فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك! »[1].

الرسالة العاشرة: في أن قتل العلماء والدعاة إلى اللَّه - بغير حقٍّ - مِنْ أنكر المنكرات وأعظم البليات! ولا يبوء به إلا من أعمى اللَّه بصيرته، وكتب عليه الشقاوة في الدنيا والآخرة! وما باء بنو إسرائيل بغضب اللَّه ولعنته إلا بسببه! وما استكبر طاغية في الأرض وتـجبَّر إلا جعل اللَّه خاتمة أمره هوانًا! وألبسه لباس الذل والصَّغار! ذلك أن الداعية إلى اللَّه بصدق وإخلاص إنما هو عبد تولَّاه اللَّه، وأدخله في حِمَاه! فمن آذاه فقد أعلن الحرب على اللَّه! وفي مثله قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: (مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ!)[2] ولا يتجرَّأ على محاربة ربِّ العالمين إلا هالك!

الرسالة الحادية عشرة: في أن تحريف الدين من أعظم الجرائم في الدين ومن أكبر الظلم! سواء كان تحريف لفظ أو تحريف معنى! كل ذلك يستوجب غضب اللَّه ولعنته والعياذ باللَّه! وهو ذنب عظيم موازٍ للشرك والكفر؛ ولذلك وصف اللَّه ﷻ المبدِّلين بالظلم، قال: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ... ﴿٥٩﴾ ﴾، وقد سَمَّى الشركَ ظلمًا في غير

= يدخل عليهن البر والفاجر؛ فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول اللَّه نساؤه في الغيرة؛ فقلت لهن: « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن » فنزلت كذلك!) وأخرج مسلم عن ابن عمر عن عمر قال: (وافقتُ ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي مقام إبراهيم، وفي أسرى بدر).

(١) وردت القصة بطرق وروايات شتى منها الضعيف ومنها الصحيح، وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية وقال: « هذا إسناد حسن جيد! » البداية والنهاية لابن كثير (١٤٦/٧). كما ذكرها ابن حجر في الإصابة وقال: إسناده حسن. وذكر القصة غير واحد من أصحاب الطبقات، فقد أخرجه البيهقي وأبو نعيم كلاهما في دلائل النبوة، واللالكائي في شرح السنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، والخطيب في رواة مالك عن نافع عن ابن عمر. وأخرجه ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر.

(٢) طرف حديث رواه البخاري.

ما آية من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] وعليه؛ فإذا رأيت الرجل يعمد إلى آيات الله المحكمات فيؤولهن على غير المعنى المحكم فيهن قصدا، مما لا خلاف فيه بين العلماء؛ فاعلم أنه مدخول في إيمانه!

الرسالة الثانية عشرة: في أن التحيل على أحكام الدين من أبشع الخطايا وأسوئها! فعلاوة على ما فيه من خرم لأحكامه ونقض لمقاصد شريعته؛ ففيه فساد عقدي كبير! وهو اتهام الله تعالى بأنه غير عليم بخفايا النوايا ولا خبير بمقاصد العباد! وبما أن المتحايل مُشَوِّهٌ للشريعة فإن الله ﷻ يجزيه جزاء من جنس عمله؛ فكانت عقوبته عنده المسخ والتشويه والعياذ بالله! وقد رأيتَ ما فعل بمن تحايل على شرعه من بني إسرائيل. وذلك كائن في هذه الأمة أيضًا! نسأل الله السلامة والعافية! فمن لم يظهر عليه عقاب الله في الدنيا فلا يأمن أن يشوِّه الله خلقته في الآخرة! إلا أن يتوب أو يتغمَّده الله بعفوه ورحمته!

وأما أحاديث المسخ والخسف والقذف - في هذه الأمة - فهي متواترة بالمعنى! فقد رواها - على الأقل - نحو أحد عشر صحابيًا - رضوان الله عليهم -! [١] وقد أخرج أحاديثهم في ذلك كل من الإمام أحمد والبخاري والحاكم والترمذي وابن ماجه وأبو داود وابن حبان والطبراني وابن أبي الدنيا، كلهم يروونها عن رسول الله ﷺ بأسانيد صحاح، ما عدا البخاري فإنه يرويه تعليقًا عن أبي عامر وأبي مالك الأشعري، لكنه موصول بطرق أخرى صحيحة. ولنا ههنا أن نختار منها حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري أنه ﷺ قال: « **ليكونن في أمتي أقوام يستحلُّون الخز والحرير والخمر والمعازف! ولينـزلن أقوام إلى جنب عَلَم تروح عليهم سارحتهم فيأتيهم آت لحاجته فيقولون له: ارجع إلينا غدا! فيبعثهم الله ويقع العَلَمُ عليهم! ويمسخ منهم آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة!** » [٢] قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

(١) وهم: عبد الله بن عمرو، وعمران بن حصين، وعائشة، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وسهل ابن سعد، وعبد الله بن مسعود، وعبادة بن الصامت، وأبو عامر الأشعري، وأبو مالك الأشعري، وأبو أمامة الباهلي. ذلك ما تيسر إحصاؤه من صحيح الترغيب والترهيب وصحيح الجامع الصغير. وقد يجد المستقصي لكتب الحديث أكثر من هذا العدد.

(٢) رواه أبو داود والبخاري معلقًا، وقد وصله غيره بطرق صحيحة، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وفي صحيح الجامع وصحيح الترغيب.

(وفي هذا الحديث وعيد شديد على من تحيَّل في تحليل ما يحرم بتغيير اسمه!) [١] ثم ما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف! قيل: يا رسول اللَّه! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث!** » [٢] وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف: إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور!** » [٣] وقال ﷺ في وصيته لأنس رضي الله عنه: « **يا أنس، إن الناس يمصرون أمصارًا، وإن مصرًا منها يقال لها البصرة أو البصيرة، فإن مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها وكلاءها وسوقها وباب أمرائها! وعليك بضواحيها؛ فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف! وقومٌ يَبِيتُونَ؛ يُصْبِحُونَ قردةً وخنازيرَ!** » [٤].

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق بهذا المجلس نخصُّه - على ما غلب من رسالاته - بخلقين اثنين، **أولهما**: الرضا باللَّه وبأمره. **والثاني**: الصدق في معاملته.

فأما الرضا باللَّه وبأمره؛ فنقصد به محبة العبد ربه، وفرحه بكونه تعالى له ربًّا! لما عَرَفَ عنه تعالى في ربوبيته من جلال وجمال. وكذا محبته لرسوله محمد ﷺ؛ بما هو نبي اللَّه ومصطفاه المبعوث رحمة للعالمين. ومِن ثَمَّ فالعبد مسرور بكلِّ ما يأتيه من ربِّه، سواء أكان أمرًا تشريعيًّا أم أمرًا قدريًّا. فهو راضٍ بكلِّ ذلك لعلمه أن سيده لا يريد به إلا خيرًا؛ فيدخل تحت تكاليف شريعته مسرورًا بما تَلَقَّاهُ من أمره ونهيه، متحريًا أشد التحرِّي أن يكون على تمام مراد اللَّه في عبادته وخُلقه؛ بتتبع خطوات رسوله والعمل بسنته في أكلِّ أمره! وذلك هو حقيقة معنى الطاعة. وفي هذا ثبت قوله ﷺ: « **ذاق طعم الإيمان من رضي باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا** » [٥] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **يا أبا سعيد، من رضي باللَّه ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًّا وَجَبَتْ له الجنة! وأخرى يُرْفَعُ**

---

(١) فتح الباري (١٠/٤٩).
(٢ ، ٣) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع.
(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع.
(٥) رواه مسلم.

بها العبدُ مائةَ درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض: الجهاد في سبيل اللَّه! الجهاد في سبيل اللَّه! » [١].

وأما الصدق في معاملة ربِّه فمعناه: كمال الإخلاص! وعلامته أن صاحبه يَتَّسِم بسرعة الاستجابة للَّه كلما سمع نداءه، وبشدة الخشية للَّه عند دخوله في الأعمال! فلا مَنَّ ولا وعُجْبَ ولا رياء ولا تسميع، وإنما أنين وتوجع ألا يتقبَّل اللَّه منه؛ فيكون من الخاسرين!

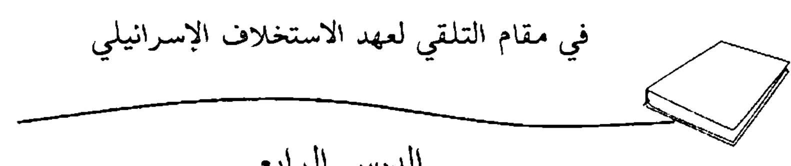
وإنما تنال هذه المرتبة وتلك بمداومة النظر إلى مقام اللَّه العظيم، والتدرُّج في منازل العلم باللَّه، القدير على كل شيء، العليم بكلِّ شيء! ثم بإلهاب مدامع القلب بنذارة اليوم الآخر! قال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٨، ١٩].

* * *
* *
*

(١) رواه مسلم.

المجلس العاشر

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي



الدرس الرابع
في قصة البقرة: المعجزة والعبرة!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

٢ - البيان العام:

هذه قصة البقرة! إنها قصة بني إسرائيل الكاملة، والترجمان الشامل لطبيعتهم وعقليتهم! فما من قصة من قصصهم في القرآن إلا وهي راجعة في المغزى لقصة البقرة! إنها قصة التلكؤ والليّ لأوامر الله، والتمرُّد على شرعه، والتعنيت لأنبيائه ورسله، والكفر بنعمته، والجحود لآياته ومعجزاته! إنها قصةٌ تعرض قساوة القلب الإسرائيلي وتحجرُّه، وما فرضه الله عليهم - جزاء ذلك - من إصر وأغلال في شريعتهم! فكانت شريعة غليظة الأحكام على وِزَانِ غِلَظِ قلوبهم! قوم غرَّهم أنهم

أسباط نبي اللَّه يعقوب عليه السلام، وأن الأنبياء والرسل إنما هم فيهم ومنهم، زمنًا طويلًا وقرونًا عديدة! فتوهَّموا أنهم « شعب اللَّه المختار! » وأن اللَّه ﷻ عما يقولون لا غنى له عنهم! فإن لم يعبدوه هم فلا عابد له في الأرض من دونهم! قال تعالى يصف عقيدتهم الفاسدة: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]؛ ولذلك استكبروا على اللَّه وطغوا على أنبيائه وعاثوا في الأرض فسادًا! ولم يزالوا كذلك إلى يوم الدين!

ومن رحمة اللَّه بهذه الأمة أنه تعالى جعل يربيها بقصِّ القصص عامَّة، وبقصص بني إسرائيل خاصَّة. فجمع لها من الهدى والحكمة في ذلك القصص ما كان لها منهاجًا مستقيمًا، وخلقًا قويمًا. ومن تَدَبر قصَّةَ البقرة وتلقَّى حكمتها الجامعة كفته في التعرف إلى اللَّه والعلم به تعالى؛ ما يصل به إن شاء اللَّه إلى مقام رضاه!

والعجيب في منهاج القصِّ القرآني أنه يُعْنَى بإبراز الثمرة أولًا، دون الالتزام بتتبع الحدث على وفق ترتيبه الزمني! وهو منهاج غالب على القصص القرآني جملة. ومنه هذه القصة العجيبة. فقد ذكَر اللَّه تعالى بني إسرائيل خاصَّة، ومن يتلقَّى هذا القرآن عامَّة؛ بطلب موسى من قومه أن يذبحوا بقرة بأمر اللَّه، فجعل القرآن يصف ردَّ الفعل الإسرائيلي بتفصيل، خطوة فخطوة! لكنه ذكر ذلك كله قبل ذكر السبب الذي جعل موسى يأمرهم بذبح البقرة، أي قصة القتيل الذي وقع بينهم دون معرفة قاتله، وشكايتهم معضلته إلى موسى! بل أخَّر هذا مع أنه مرتب زمنيًا في القصِّ في مقام الابتداء! لكن اللَّه تعالى قصد بيان العقلية اليهودية أولًا، فقدَّم ما يصوِّرها أبلغ تصوير، وأرجأ تفاصيل القصة إلى الأواخر؛ لتأخُّر حكمة ذلك عن حكمة الطاعة للَّه، وتمام العبودية له، مما حُرمته العقلية الإسرائيلية! ذلك أن ثنائية الطاعة والعصيان هي البنية المركزية التي تقوم عليها سورة البقرة كلها! والتي بها تمَّ بناء هذه الأمة المسلمة للَّه، فقامت خلافتها على أنقاض خلافة بني إسرائيل، فكانت خير أمة أُخرِجت للناس! دينًا ودعوةً وشهادةً على الناس!

وخلاصة القصَّة هي فيما أخرجه الطبري وابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني،

قال: « كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثَه، فقتله [يستعجل الميراث] ثم احتمله ليلًا فوضعه على باب رجل منهم، [أي من الأسباط الآخرين من غير سبطه] ثم أصبح يدعيه عليهم؛ حتى تسلَّحوا وركب بعضهم على بعض! فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى: علام يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول اللَّه فيكم؟ فأَتَوْا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧ ﴾ وفي رواية عن السدي: قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول: اذبحوا بقرة! أتهزأ بنا؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال السلماني: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدَّدوا فشدَّدَ اللَّه عليهم! حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: واللَّه لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا! فأخذوها بملء جلدها ذهبًا، فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ قال: هذا - مشيرًا إلى ابن أخيه - ثم مال ميتًا! فقتلوا القاتل ولم يعطَ من ماله شيئًا، ولم يورث قاتل بعد! »[(١)].

فأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فهو أمر تعبُّدي من اللَّه لبني إسرائيل ابتلاء لهم واختبارًا. لكنهم أبوا إلا عنادًا واستكبارًا؛ فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ وفيه من سوء الأدب مع اللَّه ورسوله ما أغضب اللَّه عليهم! وكأنهم اتهموا موسى بالافتراء على اللَّه، حاشاه! ولذلك بادر موسى إلى الرد مباشرة بقوله: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي الجاهلين بمقام اللَّه وبِقَدْرِهِ العظيم! لكنهم لم يكونوا مستعدين لذبح بقرة جزاء كشف حقيقة القاتل؛ لما في ذلك من بذل ثمنها! وقد ورد في القصة أعلاه أنهم لو ذبحوا أي بقرة مهما كان ثمنها رخيصًا لأجزأتهم، لكنهم تلكؤوا وتمرَّدوا! فزاد اللَّه في شروط البقرة ما لم يكونوا يحتسبون!

---

(١) تفسير الطبري وابن كثير. وقال ابن كثير: وهذه الروايات عن عبيدة والسدي مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقله، ولكن لا تصدَّق ولا تكذَّب. قلت: وهي على كل حال موافقة لسياق القرآن غير مناقضة له.

فلما سألوا موسى سؤال لَيٍّ وتعنيت: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أي: إنها بقرة ليست بفارض وهي البقرة الهرمة، ولا بكر وهي الصغيرة التي لم يلقحها الفحل، وإنما هي نَصَفٌ بين ذلك، وهي أقوى ما يكون من البقر وأحسن ما يكون! فافعلوا ما تؤمرون به قبل أن يزداد التشديد عليكم! لكنهم أبوا إلا تعنيتًا طمعًا في رفع الأمر عنهم وإلغاء ذبح البقرة! لكن الله ﷻ أبى إلا عقابهم بزيادة شروطها وتدقيق أوصافها؛ مما يجعلها بقرة معينة بصورة نادرة! ولذلك لما ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي إنها بقرة جميلة ذات لون أصفر فاقع، تعجب بصفاء لونها وجمالها كل من نظر إليها! وهنا علموا أن الزيادة في التعنيت ليس في صالحهم وهم مضطرون إلى معرفة القاتل على كل حال؛ وإلا قامت بينهم حرب ضروس تأكل الأخضر واليابس! فورد طلبهم الأخير: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ فهذا التعبير متضمن لشيء من اللين؛ ولذلك رجوا أن يصلوا إلى البقرة المقصودة بالفعل بقولهم: ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي: اختلط علينا لكثرة التشابه فيه، وبتعليق هدايتهم بمشيئة الله! وهنا ورد البيان الأخير: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ... ﴿٧١﴾ ﴾ أي: إنها بقرة غير مُذَلَّلة ولا مُدَرَّبة للحرث والسقي، بل هي بقرة مكرَّمة غير مهانة، سالمة من كل عيب، صحيحة، لا شِيَةَ فيها، أي: صافية اللون لا لطخة فيها ولا قرحة ولا ندوب!

وهنا تعينت الدابة وعُلمت بهذه الأوصاف الدقيقة، لكنهم لم يجدوها إلا عند رجل منهم ليس له سواها! فكان من ثمنها ما كان من غلاء فاحش! فلما عثروا عليها ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وهو تعبير بقدر ما يحمل من معنى رغبة التطبيق والتنفيذ للأمر يتضمَّن أيضًا نوعًا من التعريض بموسى ؑ؛ إذ بقولهم: ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ ﴾ يشيرون إلى أنه لم يكن قد أتى بالحق من قبل! حاشاه ؑ! فذبحوا البقرة مرغمين، وقد ودوا لو لم يفعلوا! وما كانت نيتهم على الطاعة لأمر الله ورسوله لولا ضرورة معرفة القاتل! واختلف المفسرون في سبب تلكؤ بني إسرائيل عن ذبح البقرة: أهو البخل بثمنها أم خوف

الفضيحة إذا ما انكشف القاتل وعُرف! وذهب الطبري إلى أنهما معًا [١].

وفي الأخير ذكَّر القرآن بأصل القصة وسببها؛ لما فيه من بيان نعمته تعالى على بني إسرائيل وإظهار معجزته في البعث والإحياء، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ أي أن الأمر بذبح البقرة كان من حيث السبب لهذه الواقعة، التي هي قتلكم نفسًا واختلافكم في أمر قاتلها حتى أشرفتم على الاقتتال! وذلك هو معنى الادِّرَاءِ والتَّدَارُؤِ. بينما كان من حيث الحكمة ابتلاءً لحقيقة عبوديتكم ولمدى طاعتكم للَّه! ولذلك قدم هذا في سرد القصة على ذاك كما بيَّنَّاه. واللَّه تعالى مخرج ما تكتمون من الحقِّ، ومظهر أمر القتيل وقاتله! وذلك بهذا الفعل الإعجازي العجيب، وهو أن تُضرب جثة القتيل ببعض أجزاء البقرة المذبوحة؛ فإذا هو ينهض من موته جالسًا! ويستعيد كل وعيه وشعوره بالحياة! وهنالك سألوه: من قتلك يا فلان؟ قال: ابن أخي هذا! قالها ثم سقط ميتا! وقد اختلف المفسرون في « البعض » المقصود في الآية من قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ وحاول بعضهم تعيينه بناء على روايات بني إسرائيل؛ لكن المحققين منهم ذهبوا إلى أن تعيينه أمر باطل؛ لأن اللَّه تعالى إنما قال: « ببعضها »، وأيما جزء منها يصدق عليه معنى « بعض ». ورغبة التفصيل بعد ذلك علم باطل ليس تحته عمل! ولو كان مفيدًا لنص عليه القرآن.

ثم علَّق القرآن على الحدث بقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ وهذه حكمة أخرى وبرهان جديد عاينه بنو إسرائيل، من قدرة اللَّه تعالى على البعث والإحياء، في معجزة هي من أغرب الخوارق، لعلهم يعقلون! أي لعلهم يفقهون حكمة الأمر بذبح البقرة، ولعلهم يتَّعظون بما شاهدوا من قدرة اللَّه على الإحياء؛ فيتذكَّروا ما ينتظرهم يوم البعث الأكبر من الحساب! لكنهم رغم ذلك كله بدل أن ترق قلوبهم وتلين لذكر اللَّه قست وغلظت!

وهنا ختم القرآن السياق بتوبيخ شديد لبني إسرائيل! قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ

---

(١) تفسير الطبري للآية.

قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ نعم إنهم كذلك! وكيف لا؟ وهم قتلة الأنبياء والمصلحين وقتلة الدعاة إلى الله والعجزة والنساء والأطفال! قلوب كالحجارة في قسوتها وشدتها وغلظها! لا تتأثر بتذكرة ولا تلين بموعظة، رغم ما شاهدوه وعاينوه من عجائب المعجزات وغرائبها! قلوب اشتدت قسوتها إلى درجة إعلان الحرب على الله بتغيير كتابه وتحريف كلماته! ولذلك قال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ إنها قلوب يهود، قلوب كالحجارة الميتة الصمَّاء التي لا تخرج ماء ولا تنبت كلأً..! إذ من الحجارة ما هو أفضل منهم بكثير.. فمنها ما تتفجَّر منه العيون بالأنهار الجارية والشلالات المتدفقة! ومنها ما يتشقَّق فيسيل بالعيون الصغيرة والجداول الجميلة، ومنها ما يهبط صخره من رأس الجبل خضوعًا لله وخشية له! والجبال خلق من خلق الله لا تفتأ تسبِّح بحمد الله، حقيقةً لا مجازًا! تسبح رَبَّهَا بوعي كامل وشعور حي، على ما هَيَّأهَا الله له من الوعي والشعور، مما لا يعلمه إلا هو! (١) فتخر حجارتها بين الفينة والأخرى هابطةً من القمة نحو السفوح؛ خشيةً لله، وفَرَقًا من عظمته تعالى وجلاله! وكيف لا؟ وما هي - مهما عظمت أحجامها وارتفعت قممها - سوى رؤوس صغيرة على كوكب ضئيل هو الأرض! وما الأرض في محيط الفضاء الفسيح إلا ذرة سابحة مع كواكب ونجوم تكبرها حجمًا أضعافًا كثيرة! حتى لا تكاد الأرض تُرَى من بين ملايير النجوم والكواكب! كلٌّ يجرى في فلكه بنظام ربَّاني دقيق! وكل يسبح بحمد ربِّه تعالى بما ألهمه الله من العبادة والتسبيح! ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ [الإسراء: ٤٤] ذلك أنه ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ ﴾ [النور: ٤١] فالعجب العجب! ما بال يهود لا يتعظون، ولا يسبحون ربهم ويستغفرون؟!

---

(١) وفي الصحيحين أنه ﷺ قال عن جبل أُحُد: « هذا جبل يحبنا ونحبه! » وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عَلَيَّ قبل أن أبعث!.. إني لأعرفه الآن! ».

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في عشر رسالات كلهن قواعد كليات في فقه الدين وتزكية النفس، وأصول في منهاج السير إلى اللَّه، وهي كما يلي:

الرسالة الأولى: قاعدة في أن الاستجابة لأمر اللَّه مشروطة ببيان الكيفيات والهيئات، لا ببيان الحكم والعلل! بمعنى أن الحجة قائمة على المؤمن بمجرد ورود الأمر وبيان صورة تطبيقه، لا بمعرفة حكمته. فمعرفة الحكمة شيء مهم لكنه غير لازم في قيام حجة الأمر؛ ما دام العبد قد علم أنه صادر عن اللَّه نصًّا أو اجتهادًا! فإنما التزم الشارع ببيان صورة الفعل من حيث كيفية التطبيق، وفي هذا ورد قوله ﷺ: « **صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي!** » وقوله في أعمال الحج: « **خذوا عنِّي مناسككم!** » وكذلك وقع الأمر في كلٍّ ما يراد تطبيقه من تكاليف الشريعة. وهذا معنى قول الأصوليين في قاعدتهم: « لا يجوز أن يتأخَّر البيان عن وقت الحاجة » والمقصود بيان صورة العمل، ووقت الحاجة هو وقت التطبيق. ولم يلتزم الشارع ببيان كل حكمة من كل فعل. فكثير من الشرائع هي « تعبدية المعنى » كما يقول الفقهاء، أي أنها غير مدركة بالعقل. لكنه بَيَّنَ كثيرًا من الحكم في سياق كثير من التشريعات الأخرى، كالمعاملات والعادات، كما أن الراسخين في العلم قد يتجلَّى لهم من الحِكَم ما لا يتجلَّى لغيرهم؛ حتى في المجال التعبدي المحض! ومع ذلك نقول: إن كمال التعبُّد في الإسلام هو الاستجابة للأمر والنهي بغير قيد ولا شرط؛ ما دام ذلك صادرًا عن اللَّه ورسوله ﷺ. وقد كان عمر رضي الله عنه يُقَبِّلُ الحجر الأسود عند الطواف ويقول: (واللَّه إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيتُ رسول اللَّه ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك!) وفي ذلك ما فيه من كمال الطاعة والاتباع!

هذا مع العلم أن الوحي قد التزم ببيان الحكم على التمام والكمال، لكن في مجال غير مجال التشريع التعبُّدي، وهو مجال العقائد وأصول الإيمان! فههنا وردت الحجج العقلية والبراهين الإدراكية بما تقوم به الـحُجَّة كاملة على العقل البشري! حتى إذا خضع الإنسان لربِّه وآمن؛ دخل بقلب تعبُّدي تحت تكاليف الشريعة، ما علم حكمته منها وما لم يعلم! وتلك هي علامة الإيمان الحق! إذ قد رسخ بذهنه

أن اللَّه لا يأمره إلا بخير ولا ينهاه إلا عن شرٍّ (١).

فحسن الاستجابة ثمرة تربوية ثمينة، لا بد للداعية أن يجعلها هدفًا في تنشئة الجيل المؤمن. ولن يستطيع ذلك إلا إذا كان خلقه هو مع ربِّه نموذجًا يُحتذَى على ذلك الوزان! وتجديد الأمة اليوم في حاجة إلى استنبات جيل رباني قوي أمين، عالم ومتعلم، سريع الاستجابة للَّه ولرسوله، يجمع بين رهبانية القلب وعقلانية الوعي، وصحة الفهم عن اللَّه والرسول.

الرسالة الثانية: قاعدة في أن حقيقة الأمر الشرعي هي على الفور لا على التراخي! وأن المتراخي في الأداء على خطر عظيم! بمعنى أن الواجب في أوامر الشريعة أن يبادر المكلَّف إلى تنفيذها بمجرد تلقِّيها! ما دامت قد حضرت أسبابها وانتفت موانعها وتوفَّرت شروطها، فلا معنى بعد ذلك للتراخي، والإرجاء إلى غد ليس المكلف له بضامن! وربما لم يزل يؤجل الفعل المطلوب حتى يثبطه الشيطان عنه تثبيطًا؛ فيثقل عليه ويحول اللَّه بينه وبين الفعل؛ فيكون من المحرومين! وقد علمتَ ما وقع للثلاثة الذين تخلَّفوا عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك، وهم من خيرة الصحابة - دعك من المنافقين! - إذ لم يزل أحدهم يقول: غدًا أخرج فألحق بهم، فيأتي الغد ولا يخرج، ثم يقول: غدًا أخرج فلا يخرج؛ حتى عاد رسول اللَّه ﷺ بجيشه؛ وسُقِطَ بأيدي الصحابة المتخلفين! ولم يزالوا في كرب عظيم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت؛ حتى نزلت توبتهم فتاب اللَّه عليهم!

فثبت أن التراخي - على المستوى التربوي - في أداء حقوق اللَّه وبلاغ رسالاته إنما هو مدخل من مداخل الشيطان! وكل دعوة تسلط عليها هذا الداء محكوم عليها بالفشل! ومن القصص العجيبة التي قصَّها النبيُّ ﷺ في شأن التراخي الدعوي ما وقع لبعض أنبياء بني إسرائيل، قال عليه الصلاة والسلام: « **إن اللَّه ﷻ أمر يحيى ابن زكريا** عليه السلام **بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها! فقال له عيسى** عليه السلام: « **إنك قد أُمِرْتَ بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن؟** » فقال: « **يا أخي**

---

(١) سبق بيان لهذا المعنى - بطريقة أخرى - في « الرسالة العاشرة » من المجلس الخامس من هذه السورة المباركة.

أخشى إن سبقتني أن أُعَذَّبَ أو يُخْسف بي! » **قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشَّرف فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:** « **إن اللَّه أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن...** » الحديث [١] وكان جزاء ذلك البيان أن قتله بنو إسرائيل! فكان من الأنبياء الشهداء.

الرسالة الثالثة: قاعدة في النهي عن السؤال المتعنِّت وأن من تشدَّد شدَّد اللَّه عليه! والسؤال المتعنت هو السؤال الذي يسأل صاحبه تدقيق أمر فيه سَعَةٌ؛ فيضيق بسبب مسألته! وهو أمر منهي عنه شرعًا. وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة مستفضية، منها قوله ﷺ: « **ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم! فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه!** » [٢] وسأل أحدهم الرسول ﷺ: « أحجنا لعامنا هذا أم لكل عام حج؟ » بمعنى هل حجة واحدة تكفي أم علينا أن نحج لكل سنة؟ فكره النبي ﷺ سؤاله هذا لما فيه من التعنُّت؛ فقال: « **لو قلت نعم لوجبت! ولو وجبت لم تقوموا بها؛ ولو لم تقوموا بها عذبتم!** » [٣] وفي الصحيحين وغيرهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْمًا مَنْ سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين؛ فحرم عليهم من أجل مسألته!** » [٤] وفي صحيح البخاري أنه ﷺ قال: « **ومن شَاقَّ شَقَّ اللَّه عليه يوم القيامة!** » [٥].

وثمرة هذه الرسالة أن على المربِّي أن يجتهد في تنشئة من معه على خلق السماحة واليسر في السلوك وفي الخطاب، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « **ادعوا الناس وبشِّروا ولا تنفِّروا..! ويسِّروا ولا تعسِّروا..!** » [٦] وهي قاعدة جليلة القدر عظيمة الأثر، من خالفها هلك وأهلك!

---

(١) سبق إيراد الحديث وتخريجه بتمامه على هامش البيان العام بالمجلس الرابع.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٤) متفق عليه.

(٥) جزء حديث رواه البخاري في صحيحه.

(٦) رواه مسلم.

الرسالة الرابعة: قاعدة في النهي عن كلِّ علم ليس تحته عمل وكراهة السؤال عن ذلك. وهذا المعنى قريب من الأول لكنه يختصّ بالسؤال عما ليس تحته عمل وهو العلم الباطل! وذلك نحو اشتغال بعضهم بطلب معرفة كلب أهل الكهف أذكرًا كان أم أنثى؟ والمرأة التي تزوجها موسى ﷺ أهي الصغرى أم الكبرى؟ وبعض البقرة المضروب به قتيل بني إسرائيل أهو القلب أم اللسان أم غيرهما؟ فكل ذلك مما سكت عنه القرآن. وسكوته دال على أنه مما لا نفع لنا فيه ولو كان فيه مصلحة لنا لذكره. فطلبُ معرفة ذلك وأضرابه هدرٌ للوقت، وإضاعة للطاقة، وإشغال للعقل بما لا حاجة له به، وتَلَهٍّ به عن العمل الحق المترتب في الذمة! وكفى بذلك كله مفسدة في الدين والدنيا! وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يكرهون الخوض فيما لا عمل تحته! وكان من دعاء النبي ﷺ قوله: « **اللَّهم إني أعوذُ بك من عِلْمٍ لا ينفع، ومِن قَلْبٍ لا يخشع، ومِن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا يستجابُ لها!** »[١].

قال أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله: (كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعًا (...) وقد كان مالك بن أنس يكره الكلام فيما ليس تحته عمل)[٢]. (وقد اشتهرت قاعدة تربوية - تنسب إلى بعض السلف - هي من فصِّ الحكمة، وهي قولهم: (إذا أراد اللَّه بقوم سوءًا سلط عليهم الجدل ومنعهم العمل!)

وثمرة ذلك أن من صفات جيل الفتح أنهم لا يعرفون للفراغ معنى! فهم ما بين دعوة وجهاد أو صلاة وعبادة! تمامًا كما قال اللَّه تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح: ٧] أي إذا فرغت من شأن الجهاد والدعوة وهموم الناس فانتصب قائمًا متبتلًا بين يدي اللَّه! فلم يبقَ بعد ذلك وجود لفراغ!

الرسالة الخامسة: قاعدة في أن إيراد الآيات القرآنية والحقائق الدينية على سبيل اللَّهو واللعب والمزاح - بله السخرية والاستهزاء - من أكبر الكفريات! وربما لم ينتبه إلى خطورة ذلك كثير ممن يجعلون بعض حقائق القرآن مزحة أو لهْوًا للتسلِّي! وربما

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الموافقات للشاطبي.

إذا عوتبوا في ذلك قالوا: إنما نحن نمزح! وقد ردَّ القرآن ردًّا حاسمًا على هذا اللَّهو البغيض بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥] ومن ذلك حديث رسول اللَّه ﷺ: « **إن الرجل ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النار!** »(١) في الصحيحين أنه ﷺ قال: « **إن العبد ليتكلَّم بالكلمة ما يتبين فيها؛ يزلّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب!** »(٢) كذلك والعياذ باللَّه!

وثمرة ذلك أن جيل الفتح جيلٌ جادٌّ غير لاهٍ، وأنه أكثر توقيرًا للَّه ولرسوله ﷺ، لا يستعمل كلمات اللَّه ومفاهيم الدين إلا في الحقِّ!

الرسالة السادسة: في قاعدة المعاملة بنقيض المقصود. وهي القاعدة التي بنى عليها الفقهاء حرمان القاتل مورثَه من الميراث. ولنا ههنا فيها فائدة تربوية، وهي أن العبد ما سعى إلى مصلحة من مصالح الدنيا بسبب غير مشروع إلا حرَمه اللَّه تعالى من مراده! وربما قصد جمع المال فيجمع اللَّه له منه ما يضره ولا ينفعه! وكم من شخص شَقِيَ في الدنيا بكثرة ماله! وكم من مؤمن قنوع عاش جمال الحياة بمال قليل! وما من عبد ناقض شرع اللَّه إلا أشقاه اللَّه معاشًا ومعادًا! قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

ومِن ثَمَّ فعباد اللَّه الْخُلَّصُ قوم أسلموا مقاصدهم للَّه، لا يشتغلون ولا يعملون إلا بمراد اللَّه! آيتهم الزهد والرضا بالقليل! وجيل لا يشيع فيه هذا الخلق العظيم لا فتح له ولا نصر!

الرسالة السابعة: قاعدة في أن جريمة القتل بغير حقٍّ مكشوفة لا محالة! وأن القاتل ظلمًا مهما تستَّر لا بد مفضوح بإذن اللَّه! وذلك أمر مستقرَى من مجاري الحوادث والعادات! فما حدثت جريمة قتل إلا كشف اللَّه صاحبَها، طال الزمن أم قصر! وما ذلك إلا لكرامة النفس عند اللَّه، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣٢].

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.
(٢) متفق عليه.

وثمرة هذه الرسالة أن المؤمن الحقَّ هو أجبنُ النَّاسِ فيما يتعلَّق بدماء المسلمين! ومن لحق بهم في هذا الحقِّ من أهل ذمتهم. ولا عدوان إلا على الظالمين! والمؤمن على العموم تقيٌّ ورع، لكنه أَوْرَعُ ما يكون في الدماء! والدعوة الناجحة هي التي تجعل الكلمة الطيبة سيفها، والبلاغ المبين سلاحها، ولا تخطو خطوة إلا بناء على فقه مكين وعلم متين!

الرسالة الثامنة: قاعدة في أن اللَّيَّ والمراوغة في أداء الحقوق طبيعة يهودية مُتَجَذِّرة! ذلك علاوة على ما بيناه من خيانة العهود في المجالس السابقة. فاللَّيُّ هو منهج تعاملهم مع غيرهم كلما تعلَّق بهم حقٌّ من الحقوق الخاصَّة أو العامَّة! فتراهم يراوغون ويتباطؤون حتى ييأس صاحب الحق من الحصول على حقِّه! ذلك خلقهم، فيا لتعاسة من تخلَّق بأخلاق اليهود من المسلمين! وما أرهب نذارة رسول اللَّه ﷺ إذ قال: « **ومن تشبه بقوم فهو منهم!** »[1].

وثمرة هذا أن المؤمن وَفِيٌّ صدوق! ولربما كان بخلقه العظيم هذا أكثر تأثيرًا على المستوى الدعوى من كثير من المتكلمين والخطباء! وإن كان هذا العصر هو عصر تحدٍّ إعلامي للكلمة والصورة فيه الحكم والفصل؛ فهو كذلك عصر تحدٍّ خُلقي، للسلوك فيه والمعاملة اليومية ما قد يصدق الإعلام أو يكذبه!

الرسالة التاسعة: قاعدة في أن تدبُّر الآيات والتفكُّر فيها واجب شرعي على كل من وقف عليها. سواء أكانت من كتاب اللَّه المقروء أم من كتابه المنظور، وسواء أكانت من ثوابت الحقائق أم من طوارئ الخوارق! وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ في ذلك حديث عجيب! فعن عبيد بن عمير ﵁: أنه قال لعائشة ﵂: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول اللَّه ﷺ! قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: « **يا عائشة! ذريني أتعبد الليلة لربي!** » قلت: واللَّه إني أحب قربك، وأحب ما يسرك! قالت: فقام فتطهَّر ثم قام يصلِّي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حجره! قالت: وكان جالسًا فلم يزل يبكي ﷺ حتى بَلَّ لحيته! قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض! فجاء بلال يُؤْذِنُهُ بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول اللَّه! تبكي وقد غفر اللَّه لك ما تقدَّم من ذنبك

---

(١) جزء حديث رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني عن ابن عمر مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

وما تأخَّر؟ قال: « **أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت علي الليلةَ آيةٌ وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها!** » [فقرأ] ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ .. الآية [(١)].

وثمرة هذه الرسالة أن جيل الفتح جيل عميق الشعور بما حوله من الآيات، رقيق الذوق لما يصل إلى أذنه أو سمعه أو قلبه من مشاهدها! عميق الفهم عن اللّه، واسع الإدراك لحقيقة الكون، دائم السياحة في محيط الملك والملكوت! يعيش في الأرض بوجدان السماء!

الرسالة العاشرة: قاعدة في أن تعهُّد القلب بالموعظة والتذكير مطلب شرعي أكيد؛ عسى ألا يطول عليه الأمد فيقسو كما قست قلوب بني إسرائيل! تلك وصية الرحمن لهذه الأمة، قال جلَّ ثناؤه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] وقد استفاضت الأحاديث النبوية في هذا المعنى؛ دعوةً للمسلمين بتعهد قلوبهم بماء الذكر والموعظة. ففي وصية رسول اللّه ﷺ لأمته أنه قال: « **وآمركم بذكر اللّه كثيرًا! ومَثَلُ ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، حتى أتى حصنًا حصينًا فأحرز نفسه فيه! وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر اللّه!** » [(٢)] وفي الحديث القدسي أن رسول اللّه ﷺ قال: « **يقول اللّه: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي! وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم! وإن تقرَّب إليّ شِبرًا تقرَّبت إليه ذراعًا! وإن تقرَّب إلي ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا! وإن أتاني يمشي أتيته هرولة!** » [(٣)].

وثمرة ذلك أن العبد الصالح - ولا إرث لغير الصالح - عبد دائم التبتل، فهو ما بين شؤون الدعوة إلى اللّه بالنهار، وقيام بين يدي اللّه بالليل! لا تخطئه مجالس القرآن، ولا تفوته خلوات الذكر والابتهال! وقد حُكي عن صلاح الدين الأيوبي أنه خرج بليل يتفقَّد أحوال الجند في المعسكر، فمرَّ بخيمة سمع منها مُتهجدًا يتلُو القرآن بصوت خاشع شجي؛ فقال: « من ههنا يأتي النصر! ».

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه وغيره، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) جزء حديث طويل رواه الترمذي وابن خزيمة في صحيحه واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) متفق عليه.

٤ - مسلك التخلق:

قبل الحديث عن مسلك التخلُّق نذكر خلاصة لما تجمَّع لدينا من خصال جيل الفتح، مما نتج عن تلقِّي الهدى المنهاجي لقصة البقرة، وذلك أن هذا الجيل كما سبق وصفه في الرسالة الأولى: « جيل رباني، قوي أمين، عالم ومتعلم، سريع الاستجابة للَّه ولرسوله، يجمع بين رهبانية القلب وعقلانية الوعي، وصحة الفهم عن اللَّه والرسول ﷺ ». وهو يتسم بالصفات التالية: الاستجابة الطَّيِّعَة، والمسارعة في الخيرات، وعمران الوقت بالعمل، والتوقير للَّه ولرسوله، والزهد، والإخلاص، والورع، ولين القلب ورقَّته، والصدق والوفاء، والسماحة واليسر، والتدبُّر والتفكُّر، والتعلُّم والتعليم، والجهاد والتبتل!

فهذه الخصال ضرورية لكلِّ بناء دعوي سليم. إنها مكونات أساسية لبناء الأمة المسلمة، فهي منها بمثابة الجذور الكبرى من الشجرة، أو بمثابة الأركان الأساسية من الصرح. وهي منازل إيمانية كلها موجودة في القرآن، ومسلك التخلُّق الموصل إليها رهين بوجود قلب حي، قلب قابل للتلقي عن اللَّه! فكيف الوصول إلى حياة القلوب؟ إنه ببساطة واقع بالرجوع بها إلى فطرتها؛ وذلك بحفظها من داء القسوة أو بعلاجها منه! فمن لان قلبه للَّه فقد وصل! ذلك أن قسوة القلب هي الران الذي أهلك بني إسرائيل؛ فكان منهم ما كان من فساد في الأرض وما يزال! فاستحقوا لعنة اللَّه وغضبه والعياذ باللَّه! ونحن نستعين باللَّه في حفظ قلوبنا من هذا الداء الوبيل، بما أرشدنا إليه اللَّه ورسوله من الحِمْيَةِ والأدوية النافعة. حتى تكون قلوبنا وعاء صافيًا لمحبة اللَّه! على ما وصفه رسول اللَّه ﷺ بقوله: « **إن للَّه تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربِّكم قلوب عباده الصالحين! وأحبها إليه ألينها وأرقها!** » [1] والمسلك المختصر لكلِّ ذلك هو - إن شاء اللَّه - في مجاهدة النفس للتخلق بأربعة خصال هي:

- أولًا: الدوام على تلاوة القرآن ومدارسته.
- ثانيًا: التزام ذكر اللَّه بالتسبيح والاستغفار وما يلحق بهما.
- ثالثًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

- رابعًا الصمت عن فضول الكلام.

ويجمع ذلك كله ما جاء في وصية النبي ﷺ لأبي ذرٍّ الغفاري، قال ﷺ: قلت: يا رسول اللّٰه أوصني! قال: « **أوصيك بتقوى اللّٰه فإنها زين لأمرك كله!** » قلت: يا رسول اللّٰه زدني! قال: « **عليك بتلاوة القرآن وذكر اللّٰه ﷻ** »؛ فإنه ذكرٌ لك في السماء ونورٌ لك في الأرض! قلت: يا رسول اللّٰه زدني! قال: « **عليك بطول الصَّمت! فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك!** » قلت: زدني! قال: « **وإياك وكثرة الضحك! فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه!** » قلت: زدني! قال: « **قل الحقَّ وإن كان مرًّا!** » قلت: زدني! قال: « **لا تخف في اللّٰه لومة لائم!** » **قلت: زدني! قال:** « **ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك!** »(١).

والأصل الكلي الجامع لهذه المراتب جميعًا والهادي إليها هو القرآن مرة أخرى! لأن بتلاوته وتدبُّره والاشتغال به آناء الليل وأطراف النهار؛ يلين القلب وتذوب قسوته، ويكون أوعى وأصفى للتلقِّي عن اللّٰه؛ وبذلك يترقَّى بمدارج التزكية إلى المنازل العليا إن شاء اللّٰه! قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] فهذه الآية كافيةٌ - حِمْيَةً ودواءً - لمن أخذها بقوة! فعُضّ عليها يا صاح بالنواجذ! واجعلها شعارك في سيرك إلى اللّٰه! ثم اجعلها لك مصباحًا منيرًا تتبصَّر به آيات اللّٰه عند كل مجلس ومدارسة، وتتلقَّى هداه!

وفقني اللّٰه وإياكم إلى نيل محبته تعالى ورضاه، وجعلنا بفضله من أهل التقى والورع، المكرَّمين بالرضا والقبول، الحاملين رايات الفتح المبين، وبشارات الوصول!.. آمين!

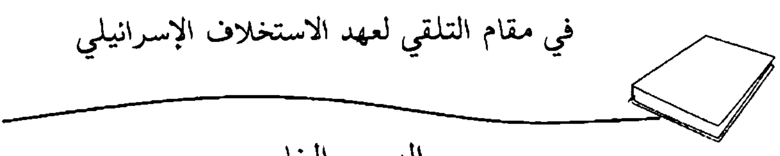
* * *
* *

---

(١) رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد. وقال الألباني في صحيح الترغيب: صحيح لغيره.

المجلس الحادي عشر

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي



الدرس الخامس
في التينيس من إيمان بني إسرائيل
وبيان جهلهم بالله

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا خطابٌ للجماعة المؤمنة في عهد رسول الله ﷺ وفي كلِّ عهد، خطاب تقرير من الرحمن على صيغة سؤال؛ للتيئيس مما يأمله المؤمنون ويرجونه في شأن إسلام اليهود! ذلك أن المسلمين آنئذ - من الأنصار خاصَّةً - كانوا يطمعون أن يقتنع بنو إسرائيل بهذا الدين الجديد، ويدخلوا في دين الله جميعًا، خاصة وأنهم كان لهم

منهم أحلاف وصداقات في الجاهلية، وكانوا أهل جوار، ثم هم أهل كتاب، لهم خبر عن اللَّه وعن كثير من الأنبياء، وعن أمور البعث والجنة والنار، على عكس كفار قريش وغيرهم من عباد الأصنام، المنكرين لليوم الآخر والبعث بعد الموت؛ ومِن ثَمَّ طمع المؤمنون في إسلام يهود، ورغبوا في أن تتقوَّى شوكة الإسلام بهم.

فبعدما عرض ما عرض من أمور الاستخلاف الإسرائيلي، وما وقع فيه من خيانات اليهود للَّه ولرسله، التفت الخطاب إلى المؤمنين مُنَبِّهًا إيَّاهم إلى عدم التعلُّق بوهم ربح انضمام هؤلاء وإيمانهم بمحمد عليه الصلاة والسلام. وكيف يؤمنون وهم على ما وصف اللَّه من قساوة القلب وغلظه؟ ثم كيف يؤمنون وقد بلغوا من شدة التمرُّد على اللَّه أنه كان منهم ومن أحبارهم من يسمع كلام اللَّه تعالى مما تعلمه من التوراة ثم يحرفه بعد تلقِّيه عن علم وبينة! فيجعل الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلًا والباطل فيها حقًّا!

ومن جَهْلهم باللَّه أن بعضهم كان إذا لقي المؤمنين اعترف لهم بنبوة محمد ﷺ نفاقًا؛ وإذا خلوا إلى أنفسهم اختصموا في ذلك وتلاوموا! فقال بعضهم لبعض: لا تحدثوا المسلمين بما فتح اللَّه عليكم من العلم في كتبكم، ولا تخبروهم به؛ حتى لا يحتجُّوا به عليكم عند اللَّه! ولا تعترفوا لمحمد ﷺ بنبوة! وقد علمتم أن ربَّكم قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ونصرته، فاجحدوه ولا تقرُّوا لهم به!

وينسى هؤلاء الجهلة باللَّه أنه تعالى محيط بكل شيء علمًا! وأنه سبحانه يعلم سرَّهم ونجواهم وعلانيتهم ويحصي جميع ذلك عليهم!

ومن هؤلاء اليهود أُمِّيون لا يقرؤون ولا يكتبون، ولم يكونوا يعلمون من التوراة شيئًا، ورغم ذلك يتكلمون عما فيها ظنًّا وتخرصًا، فيختلقون الكلام مما يخالف حقائق القرآن، ويقولون هو من التوراة! أماني يتمنَّونها، والتمني في هذا الموضع هو تخلُّق الكذب وتخرُّصه! وآخرون منهم قارئون للكتاب، لكنهم يكتبون الكلام مما يختلقون من تلقاء أنفسهم ثم ينسبونه إلى اللَّه! فذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ ذلك أن بعض أحبارهم كانوا يفتئتون الكلام على اللَّه

ويكتبونه في قراطيس يبعونها للناس على أنها أجزاء من التوراة! فتوعَّدهم اللَّهُ تعالى بالويل أي: بالهلاك والعذاب عما أكلوا من السُّحت، وبما افتروا على اللّه الكذب!

وكان من زيادة جهلهم باللَّه اعتقادهم بأنهم مهما فعلوا من عظائم الموبقات وكبائر المنكرات؛ فلن تمسهم النار إلا بضعة أيام، ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها المسلمون بزعمهم! وبذلك تجرؤوا على اللَّه بالكذب والافتراء ولم يبالوا! فذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ... ﴿٨٠﴾ ﴾ فأجابهم الحقُّ تعالى بقوله: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بمعنى: هل وقع لكم من اللَّه بذلك عهد ووعد؟ فإن كان وقع فاللَّه ﷻ لا يخلف وعده ولا ينقض عهده، لكن بما أن شيئا من ذلك لم يقع فإنما أنتم تكذبون على اللَّه وتفترون! ولذلك فقد أتى بـ « أم » التي بمعنى « بل »، أي: بل تقولون على اللَّه ما لا تعلمون من الكذب والبهتان! ثم قال: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ يعني اليهود الذين زعموا أنهم لن يلبثوا في جهنم إلا أيامًا معدودة، فتوعدهم اللَّه تعالى بالخلود فيها والعياذ باللَّه! وبالمقابل بشَّر المؤمنين الصالحين - الذين زعمت يهود أنهم سيخلفونهم في جهنم أبدًا - بجنة خالدين فيها أبدًا! ولذلك قال بعدُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾. فأخبر الحقُّ تعالى أن أمر الجنة والنار ليس على ميزان ما تمنَّتْ يهود ولا على ما اشتهت! بل هو على ميزان الإيمان والعمل الصالح!

والآيات فوق ذلك هي على عمومها، إذ هي تقرر قاعدة كلية من قواعد الدين، فكل من طغى على كسبه الشر ولم يتب، وأحاطت به خطاياه - بمعنى أنه جاء يوم القيامة مُحَاصرًا بذنوبه من الشرك والكفر - فهو من أصحاب النار! وأما من آمن وكسب في إيمانه خيرًا فهو في الجنة. فهذا ميزان حاكم على الناس جميعًا، حتى ولو كانوا ممن ينتسبون إلى الإسلام اسمًا ولقبًا وهم ينقضون حقائقه شركًا باللَّه وكفرًا! ودليله قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤] جعلني اللَّه وإياكم من أهل النجاة برحمته!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في **الرسالات الخمس** التالية:

الرسالة الأولى: في أن المجتمع اليهودي مجتمع مغلق! فالعقائد الباطلة التي يتربَّون عليها، سواء في حقِّ اللَّه أو في حقِّ الناس، وكذا التصوُّرات الخطيرة التي يتخذونها تجاه الإنسانية عامَّة والمسلمين خاصَّة؛ تجعل منهم مجتمعًا غير قابل للحوار! ولذلك فهم ككتلة لا يسلمون أبدًا! نعم قد يسلم آحادهم ممن استطاع التفلُّت من أخطبوط اللوبيات، وتأثير الحاخامات، لكن جبهة اليهود مبنية أساسًا على رفض الآخر، دينًا ووجودًا! ومِن ثَمَّ فما من حوار يعقدونه كمؤسسات إلا وهو حوار مغشوش!

الرسالة الثانية: في أن النفاق خُلُقٌ يهودي ثابت! فمتى ما شعر اليهودي بالعجز ذلَّ واستكان وطلب حاجته بالتذلل، فإذا استقوى طغى وتجبَّر! فاليهود هم الذين أمْلَوْا على منافقي العرب من أهل المدينة صناعة النفاق! فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ... ﴿٧٦﴾ ﴾ ورد بهذه السورة - كما رأيت - مرتين، فالأولى في منافقي عرب المدينة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ وقد سبق البيان أن شياطينهم هم اليهود كما قاله المفسرون. وفي الثانية التي هي في منافقي اليهود قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ بما يدل على أن النفاق نبت أول ما نبت فيهم!

الرسالة الثالثة: في أن الاتجار بالدين والدعوة من أخطر الجرائم في الدين! وجعل شعائر الدين من العبادات المحضة وقضايا الدعوة إلى اللَّه عرضًا تجاريًّا، ومجالًا للكسب الدنيوي بالقصد الأول مهلكةٌ لصاحبه وخسران مبين! وقد سبق بيان ذلك بالمجلس السادس من هذه السورة، وفي مثل هذا وجبت المذاكرة والتذكير.

الرسالة الرابعة: في أن مقياس الفوز في الإسلام هو العمل الصالح المؤسس على الإيمان الخالص باللَّه واليوم الآخر. وهو أساس الاستخلاف في الأرض، والحكمة من إنزال الشرائع وإرسال الرسل. فمن أتى بالأركان والفرائض على وجهها الشرعي، ولقي اللَّه لا يشرك به شيئا، ولم تتعلَّق بذمته مظلمة لأحد؛ دخل الجنة برحمة اللَّه.

وبالاجتهاد في نوافل الطاعات والعبادات تُنال المنازل العالية في الجنة!

فعن ربيعة بن كعب ﷺ قال: « كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضُوئه وحاجته، فقال لي « **سَلْنِي!** » فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة! قال: « **أو غير ذلك؟** » قلت: هو ذاك! قال: « **فأعنّي على نفسك بكثرة السُّجود!** » [1] وعن أبي ذر الغفاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في الحديث القدسي: « **قال الله تعالى: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله! ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنّ إلا نفسه!** » [2].

الرسالة الخامسة: في أن العبد كلما ازداد علمًا بالله ازداد خشية له! وقد كان هلاك كثير من بني إسرائيل بسبب ما نسبه أحبارهم لله من الصفات الباطلة التي لا تليق بكمال ربوبيته تعالى! ولذلك كانت معرفة الله في الإسلام هي رأس العلم، فجاء القرآن من ذلك بما سمَّى به الله تعالى نفسه من أسماء حُسْنى، وبما وصف به ذاته تعالى من صفات الجلال والجمال؛ فوجب على كل مؤمن تعلُّم ذلك والتحقق به. فمعرفة الله بدء الطريق.

٤ - مسلك التخلق:

ومن هنا كان مسلك التخلُّق بهذا المجلس دائرًا على كيفية التعرف على الله، والتحقُّق بما وجب من العلم به تعالى. وهو راجع إلى التخلُّق بخُلُقَين اثنين:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم. ونص الحديث بتمامه: « قال الله تعالى: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرمًا بينكم فلا تظالموا! يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديتُه؛ فاستهدوني أَهدكُم! يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أُطعمْكم! يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أَكسكم! يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم! يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا! يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا! يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر! يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله! ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنّ إلا نفسه! ».

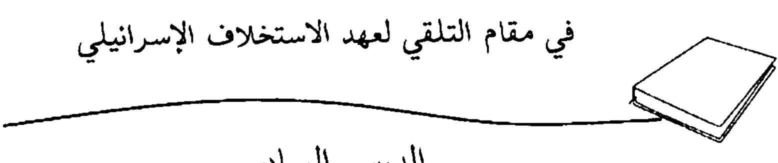
- الأول: العمل على اكتساب العلم به تعالى، مما ينبغي وما لا ينبغي له ﷻ من صفات وخصال. وهذا مبثوث في القرآن الكريم بوفرة. فبتدبر الآيات المعرفة بالله في كتاب الله يكتسب العبد علمًا وافرًا به تعالى؛ فيقع بقلبه من التقدير والإجلال لربِّه ما يجعله مُتعلِّقا بمولاه توحيدًا وتفريدا، وما يعصمه من الوقوع في العصيان الحاصل بسبب الجهل بالله، من مثل ما وقع فيه جهلة بني إسرائيل. ثم إنه مكتسب أيضًا من مشاهدة شؤون الربوبية في تدبير أمور الملك والملكوت، وقراءة أحوال النفس وما يقع لها - ليلَها ونهارها - في ضوء ذلك، وكذلك ربط حوادث العالم كله بتصرفات ربِّ العالمين وتدبيره الحكيم لأمر مملكته. فذلك كله يجلِّي للعبد من حقائق الإيمان ما يجعله يترقَّى بمدارج العلم بالله إلى مراتب اليقين.

- الثاني: الاجتهاد في الترقِّي بمنازل التَّعَبُّد، ذلك أن السير إلى الله بصالح الأعمال، من صلوات وصدقات وصيام وقيام وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، كله يكشف للعبد من معرفة الله ما يجعله أشد حبًّا لله، وأحرص على اتباع أمره ونهيه والتخلُّق بجمال شريعته.

* * *
* *
*

المجلس الثاني عشر

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي



الدرس السادس
في نقض بني إسرائيل لميثاق التوحيد
وخُلق الإحسان والتنصل من أحكام الشريعة

١ - كلمات الابتلاء:

قال اللّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

ميثاق بني إسرائيل الذي أخذه اللّه منهم زمن موسى عليه السلام له عدَّة بنود، ذُكِرَتْ في القرآن الكريم مفرَّقة حسب حاجة السياق. فقد ذكر منها ههنا في سورة البقرة الأركان التالية: وهي التوحيد، والإحسان الخاصّ والعامّ، والتزام الصلاة والزكاة. ثم ما تفرَّع عن ذلك من أحكام الشريعة وعلى رأسه: حقن الدماء وعدم البغي على الخلق. وبمثل ذلك أُمرت هذه الأمة في غير موطن من الكتاب والسنة. ثم أضيف إليها في سورة المائدة نصرة الأنبياء وتصديق الرسل. وهو قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ

مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢].

ولقد نقضت بنو إسرائيل ذلك كله! نقضت ركن التوحيد الذي هو أعظم حق من حقوق اللَّه تعالى وأعلاها! وبه أمرت جميع الأمم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل: ٣٦] ونقضت ركن الإحسان خَاصِّهِ وعامِّه، أي سواء منه الإحسان إلى الوالدين، أو إلى عموم الخلق. وقد ذكر الإحسان ههنا مرتبًا، الآكد فالآكد، فالإحسان إلى الوالدين أولُ حقٍّ على العبد بعد حقِّ اللَّه تعالى. ثم يليه الإحسان إلى ذوي القربى فاليتامى والمساكين، ثم معاملة الخلق كلهم بالمنطق الحسن، بشاشةً وصدقًا ونصحًا. وقد قال المفسرون: إنه يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير؛ لأن ذلك خير القول الحسن. كما نقضوا ما تفرَّع عن أصل التوحيد من العبادات وعلى رأسها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فقطعوا بذلك ما يصلهم باللَّه وبخلقه! وكان توليهم عنه جحودًا وإعراضًا، بمعنى أنهم كانوا واعين بما يصنعون من المنكر والكفر، عالمين بما عليهم من حقوق اللَّه وحقوق الناس، فجحدوها عمدًا وبغيًا، إلا من صلح منهم وهم القليل!

ثم نقضوا حقوق السلام فسفكوا الدماء وبغوا على الخلق، نقضوا ما أُلزموا به من ذلك فيما بينهم أولًا، ثم صَيَّروه بعد ذلك إلى العالم كله! فكانوا وراء كل فتنة وسدنة كل حرب وتُجَّارها، يوقدون نيرانها ويؤجِّجون لهيبها!

وقد ذكر المفسرون [1] أن عرب المدينة من الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: « بنو قينقاع »، و « بنو النضير » وهؤلاء كانوا حلفاء الخزرج، ثم « بنو قريظة » وهم كانوا حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بين القبيلتين قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه؛ فيقتل اليهود إخوانهم اليهود! وهو حرام عليهم في دينهم بنصِّ كتابهم،

---

(١) ن. الروايات في ذلك في تفسير الطبري للآيات.

ويخرجونهم من بيوتهم غصبًا، ثم ينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال! حتى إذا وضعت الحرب أوزارها افتكَّ كل فريق منهم أسراه من عند العرب؛ عملًا بالتوراة التي تحرم عليهم بقاء أسيرهم عند غيرهم! وهذه غاية الجهل والتناقض! وهو ما نعاه اللَّه تعالى عليهم بقوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾ إذ كانوا لا يبالون بقتل إخوانهم وتشريدهم طمعًا في الغنيمة، فيستجيزون سفك دمائهم وغصب أموالهم، في حروب جاهلية لا شأن لهم بها أصلًا، فإنما مدارها بين عُباد الأصنام من العرب، بينما هم أهل كتاب وتوحيد! يستجيزون تلك الجرائم كلها ثم لا يستجيزون بقاء أسيرهم عند غيرهم!

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ... ﴿٨٤﴾ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه بالإثم والعدوان أي لا ينصر عليه غيره ظلمًا وبغيًا بغير حقٍّ. فهذا ميثاق أقرُّوا به واعترفوا، وشهدوا بصحَّته ثم نقضوه! وإنما ذلك من أجل عَرَضٍ زائل من متاع الحياة الدنيا. ومِن ثَمَّ توعَّدهم الحقُّ تعالى بعذابه في قوله تعالى: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ والخزي: الذل والصَّغار. وهو عذابهم في الحياة الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أشد، لا يخفف عنهم ولا ساعة، ولا ينقذون منه أبدًا والعياذ باللَّه. وتلك سنة ثابتة وقاعدة جارية في كل من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فردًا كان أو جماعة. واشتراء الحياة الدنيا بالآخرة معناه: التضحية قصدًا بحقٍّ من حقوق الدين الواجبة؛ طمعًا في ربح دنيوي فانٍ!

٣ - الهدى المنهاجي:

ونلخصُّه هنا في الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن عهد اللَّه وميثاقه مستمر في هذه الأمة، فهي وارثة الأمم السابقة الشاهدة على الناس، ولذلك تعلَّق بذمَّتها إقامة حدود اللَّه، والعمل على حفظ شريعته، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل اللَّه. وهو مقتضى قول اللَّه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ

عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وتفاصيل ذلك في الكتاب والسنة كثير.

الرسالة الثانية: في أن للدين بنودًا ومعالم واضحة، هي أصوله وأركانه ومحرماته الكبرى، من التزمها نجا ومن خانها هلك. قال عليه الصلاة والسلام: « **إن للإسلام صُوًى وَمَنَارًا كمنار الطريق** » (١) وقد لخصها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، منها حديث جبريل المشهور، حيث أحصى أركان الإسلام وأركان الإيمان وفسَّر مفهوم الإحسان، وبيَّن في أحاديث كثيرة كبائر الذنوب وأمهات الرذائل. فمن استجاب للأمر والنهي مخلصًا نجا بإذن اللّه. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

الرسالة الثالثة: في أن دستور الأخلاق في الإسلام ومعاملة الناس بالإحسان يعتبر من أساس الشريعة وأصولها؛ ولذلك ورد في القرآن مقرونًا بأركان الإسلام الكبرى من توحيدٍ وصلاةٍ وزكاةٍ. وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: « **ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْنِ الخلق! وإن صَاحِبَ حُسْنِ الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم و الصلاة!** » (٢) وقال عليه الصلاة والسلام: « **إن المؤمنَ ليدرك بحُسنِ الخلق درجة القائم الصائم!** » (٣).

الرسالة الرابعة: في أن سفك الدماء بغير حقٍّ من أبشع المنكر الذي يستجلب غضب اللّه وسخطه! ولذلك جعله اللّه تعالى أول قضاء يقضيه يوم القيامة بين العباد، وهو صريح قوله ﷺ الثابت في الصحيحين: (**أول ما يُقْضَى بين الناس يوم القيامة**

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير. والصُّوَى: هي الأحجار الكبيرة التي تُجعل معالم بجانب الطريق في الصحراء، يهتدي بها المسافرون.

(٢) رواه الترمذي عن أبي الدرداء مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٣) رواه أبو داود وابن حبان عن عائشة مرفوعا؟ وصححه الألباني في صحيح الجامع.

في الدماء!) [١] ومن أخطر مداخل الشيطان في ذلك أن يزيِّن اللعين لجهَلَة بعض الناس سفك الدماء باسم الشريعة! فيعتمدون فتاوى رجال لم ترسخ أقدامهم في فقه الدين، ولا هم من أهل العلم المتحققين به. وهو مزلق خطير زلَّت به الخوارج من قبل. ولم يزل بعض المسلمين يفتنون به كلما ذَرَّ قَرْنُ الفتن إلا من عصم اللَّه!

الرسالة الخامسة: في أن الأمة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة؛ ولذلك ذمَّ اللَّه تعالى قتل بني إسرائيل بعضهم بعضًا بقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ... ﴿٨٥﴾ ﴾ فالأمة الواحدة نفس واحدة، لا تقتتل ولا تتظالم. وتلك هي صفة المؤمنين الصادقين فيما بينهم، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يُسْلِمُهُ** » [٢]. وقال أيضًا: « **لا تَحَاسَدُوا! ولَا تَنَاجَشُوا! ولَا تَبَاغَضُوا! ولَا تَدَابَرُوا! ولا يبع بعضكم على بيع بعض! وكونوا عباد اللَّه إخوانًا! المسلم أخو المسلم، لا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا** - وأشار إلى صدره - **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم! كل المسلم على المسلم حرام: دَمُهُ ومالُه وعِرْضُه!** » [٣] والنصوص في ذلك كثير.

الرسالة السادسة: في أن أبشع خيانة قد يرتكبها الإنسان في حياته هي خيانة اللَّه! وذلك عندما يشترى الحياة الدنيا بالآخرة فينتهك حرمات اللَّه!

الرسالة السابعة: في أن الخزي الواقع على أمة المسلمين اليوم، وما تعانيه من ذلٍّ وهوان إنما هو بسبب جريان سنة اللَّه عليها فيمن باع دنياه بأخراه! فما يقع بين أبنائها - على شهود منها - من انتهاك الحرمات، وتدنيس المقدسات، وإشاعة الفحشاء والمنكر والبغي، والإعراض عن شرع اللَّه؛ إرضاء لأهوائها وشهواتها من جهة، وإرضاء لمؤسسات الكفار العالمية من جهة أخرى، كل ذلك ومثله أوقعها فيما هي فيه من تسلط عدوها عليها من اليهود والنصارى، يسومونها سوء العذاب!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق بهذا المجلس راجع إلى الاجتهاد لاكتساب صفة « الأخروية »؛

(١، ٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا. والتناجش: المخادعة في البيع. والتدابر: العداوة والتقاطع والهجران.

لأنها ضمان الوفاء بعهد اللَّه وميثاقه، وهي أمان العبد من الانحراف عن شرع اللَّه وانتهاك حدوده. والمقصود بـ « الأخروية »: أن يشتري المؤمن أخراه بدنياه لا العكس، فيعيش في الدنيا بروح الآخرة رغبًا ورهبًا، ولا يرى لشيء من أمور الدنيا قيمة إلا بمقدار ما له من وزن في ميزان الآخرة. والعبد الأخروي هو الموصوف في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وأما اكتساب هذه الصفة فهو قائم – بعد توفيق اللَّه – على التغذية الدائمة من زاد العلم باللَّه وحقائق الإيمان الأخروية، كما تشير إليه الآية المذكورة، وهي أمور متاحة للمؤمنين المتدارسين لكتاب اللَّه بشروطه الربانية، المتبتلين به قيامًا بين يدي اللَّه، والمتفكرين في حقائق الحياة الدنيا وفنائها! كما أن مما يساعد على ذلك مصاحبة المؤمنين الأخرويين، الذين تذكِّر أحوالهم باللَّه!

* * *
* *
*

المجلس الثالث عشر

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي

الدرس السابع
في تكذيب بني إسرائيل للرسل والأنبياء وقتلهم لبعضهم، واستكبارهم على الله ﷻ، بما استحكم في أنفسهم من الأهواء وحب الحياة الدنيا!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ

أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

هذا بيان جديد من اللَّه - جلَّ ثناؤه - لوجه آخر من جحود بني إسرائيل، عبر تاريخ استخلافهم الطويل؛ إمعانًا في كشف طبيعتهم للمؤمنين، ومواصلة لأصل السياق في التيئيس من إمكان دخول يهود في الإسلام، وبيانًا لأسباب نزع الخلافة النبوية منهم وتحويلها إلى غيرهم. ذلك أن اللَّه تعالى ما أرسل إليهم من رسول إلا كذَّبوه أو قتلوه! فإن آمنوا به عاندوه وعنّتوه! وما تركوا عهدًا من كتاب ربهم إلا نبذوه، ولا ميثاقًا إلا نقضوه وخانوه!

فقد أرسل اللَّه فيهم موسى عليه السلام بالتوراة، فلم يلبثوا أن حرَّفوها وبدَّلوها، ثم أرسل تعالى الرسل والنبيين من بعد موسى يحكمون بشريعته ويجددون عهده؛ فكذبوا بعضهم وقتلوا آخرين! والتقفية الإرداف والمتابعة، فكانت الرسل فيهم تترى. حتى ختم اللَّه أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم عليه السلام، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠]، كما ألزمهم بما صحَّ من أحكام التوراة. فأيَّده اللَّه لذلك بالبينات والمعجزات ما يقنع بني إسرائيل بنبوته، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإخباره بالمغيَّبات، ونفخه بفمه فيما يخلق بيده من الطين على هيئة الطير فيكون طائرًا بإذن اللَّه! وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام. عسى يدلهم ذلك كله على صدقه عليه السلام فيما جاءهم به. لكن النتيجة أن اشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسده أحبارهم واغتاظوا له، فحاولوا قتله كما قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام، لولا أن اللَّه رفعه إليه!

ولم تزل تلك طبيعتهم متوارثة عبر أجيالهم، حتى إنهم حاولوا بعدُ اغتيال النبي محمد ﷺ عدة مرات! فسَمَّمُوه مرة، وسحروه مرة، وألقوا عليه صخرة من على حصنهم مرة أخرى! بل إن موته عليه السلام إنما كان بما عاوده من سُمِّ يهود! فقد قال

لزوجه في مرض موته ﷺ: « **يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم!** »[1].

هذا، وقد كان من شدة عنادهم وجحودهم أن كانوا يجيبون رسلهم وأنبياءهم بقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ... ۝ ﴾ والقلب الأغلف هو القلب المطبوع المغلق الذي لا يعي ولا يفقه شيئًا، فلا أمل في استجابته! لكن اللّه تعالى استدرك عليهم ببيان أن ما بقلوبهم إنما هي لعنة اللّه اللازمة لهم؛ بما كفروا بالحق الذي جاءهم؛ ولذلك لا يخلص من الإيمان إلى قلوبهم إلا القليل! فإن آمنوا بشيء من الحقِّ كفروا بشيء! وإن صدَّقوا ببعض الكتاب كفروا ببعض!

ومِن ثَمَّ لم يكن موقفهم من القرآن الكريم بأحسن حالًا مما جاءهم من الحق قبله! رغم أنهم كانوا يستفتحون - أي يستنصرون - على المشركين من عرب المدينة - قبل ظهور الإسلام - بقرب ظهور نبي يقاتلون تحت لوائه فيقتلون العرب قتل عَادٍ! فلما ظهر بالحقِّ ووجدوه من غير جنس بني إسرائيل حسدوه فكفروا به وبكتابه! رغم أنهم عرفوا حقيقة القرآن يقينًا، وأنه لا يكون إلا وحيًا من اللّه، فهو مثل الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام؛ ولذلك استحقوا لعنة اللّه مرة أخرى، فلعنهم كما لعن أجدادهم! ثم نعى عليهم هذا الموقف المخزي، فقال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ ﴾ ومعنى: « اشتروا أنفسهم » ههنا أي: باعوها، فهو من الأضداد اللغوية. وهو ذم وتحقير لما قاموا به من معاوضة خاسرة، حيث غامروا بمصيرهم الأخروي وعرضوا أنفسهم للهلاك والخسران المبين؛ باختيارهم الكفر بالقرآن العظيم وبرسوله الكريم! وذلك كله إنما هو بسبب كراهتهم أن يجعل اللّهُ النبوةَ في رجل من غيرهم، أي من غير جنس بني إسرائيل، وإنما محمد بن عبد اللّه رجل عربي! وهذا تدخل جهول في شؤون الربوبية، وهو منتهى الوقاحة والتألِّي على اللّه ربِّ العالمين! ومِن ثَمَّ اشتد غضب الربِّ عليهم وتوعَّدهم بعذاب مهين، فقال ﷻ : ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ

---

(١) رواه البخاري عن عائشة.

مُّهِينٌ ﴾ والمعنى: أنهم استوجبوا غضبًا جديدًا، على ما تراكم عليهم من غضب اللَّه تعالى من قبل، إذ كان غضب اللَّه عليهم متتابعًا عبر التاريخ؛ لتتابع جرائمهم والعياذ باللَّه! ووصف العذاب بـ « المهين » هنا هو في مقابلة تكبُّرهم واستعلائهم عن الانصياع للَّه ولرسوله عليه الصلاة والسلام؛ فعوملوا بالإهانة والصَّغار وأُلبِسوا الذلة في الدنيا والآخرة.

ثم جعل الحقُّ تعالى ينعى عليهم بعد ذلك تناقضاتهم في مسألة الإيمان، بسبب ما تلبس بقلوبهم من الهوى والكبر، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ذلك أن حُجَّتهم في رفض نبوة محمد ﷺ كانت قولهم: إنما هم ملزمون فقط بما جاء به أنبياء بني إسرائيل دون سواهم، رغم معرفتهم بأن ما يتحدَّث به محمد ﷺ هو وحي حق، مصدق لما نزل قبله من التوراة والإنجيل! فرد عليهم اللَّه تعالى بتكذيبهم حتى فيما يزعمون من الإيمان بما عندهم من التوراة، فساءلهم - على سبيل التشنيع والإنكار - عن سبب قتل الأنبياء الذين أرسلوا فيهم، وقد كانوا من جنس بني إسرائيل لا من غيرهم؟ وإنما كانوا يأمرونهم باتباع التوراة وتجديد عهدها!

بل إنهم كفروا بما جاءهم به موسى من التوحيد وهو ما يزال حيًّا بين أظهرهم، فبمجرد ما غاب عنهم مؤقتًا للقاء ربِّه انحرفوا إلى عبادة صنم صنعوه على هيئة عِجْلٍ! ومِن ثَمَّ لم تزل لعنة اللَّه تتبعهم بما عبدوا من العجل، فلا يكادون يؤمنون بحقٍّ ولا هم يستقيمون على خير! حتى عندما أخذ اللَّه ميثاقهم عند رفع الطور فوق رؤوسهم، وتهديدهم بسحقهم تحته، حيث أمروا بأخذ الكتاب بقوة، والعمل بأحكامه بحزم، فإنهم بمجرد ما رجعوا إلى دنياهم ارتدوا إلى عصيانهم وتمرُّدهم على اللَّه! وكان جوابهم لأمر اللَّه تعالى بالسمع والطاعة أن ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٩٣﴾ ﴾ ذلك أن قلوبهم قد أُشربت هوى العجل والكفر باللَّه الواحد القهار! فهذه هي حقيقة الإيمان الذي يزعمون؛ فبئس الإيمان هو! وبئس ما يأمرهم به من الكفر والجحود!

ثم ينتقل الخطاب القرآني إلى بيان بعض ما جَرَّأَهُمْ على التمرُّد، مما اعتقدوه من العقائد الباطلة، وهو زعمهم بأن الجنة إنما أعدت في الدار الآخرة خالصة لهم من

دون الناس! فتحدَّاهم الحقُّ تعالى بأن يتمنوا الموت - ولو مجرد تمنٍ - للتعجيل بدخول الجنة! وبأن يباهلوا المسلمين على ذلك مباهلة إن كانوا صادقين! واللَّه تعالى عليم بأن لا يقين لهم فيما يزعمون، وأنهم لا يستطيعون تمني الموت ولا مباهلة المسلمين على دعواهم؛ وذلك لِمَا قدَّموا من عظائم الذنوب وكبائر الجرائم والموبقات! فلا رغبة لهم في الآخرة ولا يتمنَّون رؤيتها، وإنما أهل دنيا وشهوات، جمَّاعون منَّاعون، يحرصون على الحياة الدنيا ولا يُقْبِلُونَ على الآخرة أبدًا! بل هم أجبن الناس وأذلهم! وقد شَابَهوا المشركين الذين لا إيمان لهم بالبعث أصلًا، ولا يرجون حياة بعد الموت ولا نشورًا! وساووهم في الحرص على الحياة الدنيا، حتى إن أحدهم ليودُّ لو يعيش ألف سنة! وكل ذلك إنما هو لجهلهم باللَّه وبحقيقة الإيمان، إذ لا يغني عن الكافر من عذاب اللَّه شيء حتى ولو عاش طويلًا، فإنما خلق اللَّه تعالى الحياة الدنيا يوم خلقها لتفنى عند أجل معلوم، فلا يغتر بها إلا جهول مفتون! فها هم أولاء يتمتعون - على كفرهم - بالعيش في الحياة الدنيا، ولكن أعمالهم جميعها محصاة عليهم ليوم الحساب! ولذلك قال في آخر السياق: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾.

فماذا يرجَى بعد ذلك من أمثال هؤلاء من خير؟

٣ - الهدى المنهاجي:

ويمكن إجماله في **الرسالات السبع التالية:**

الرسالة الأولى: في أن القلب اليهودي منغلق عن كلِّ حُجَّة أو برهان، وجاحد لكلِّ حقٍّ، مُعرِض عن كلِّ خطاب إلا ما كان يلبي شهواته المادية ومصالحه الدنيوية المحضة. فمن أخطأ هذا القانون في فهم الشخصية الإسرائيلية أخطأ في معاملتها وفشل في حوارها.

الرسالة الثانية: في أن طبيعة النفسية اليهودية طبيعة وثنية! وأن المنطق الذي يتحكَّم في تصرفاتها هو المنطق الماديّ المحض! ولذلك فإن اليهود شابهوا المشركين والملاحدة في كثير من الطباع والخصائص. فمذ عبدوا العجل أُشرِبُوا صَنَمِيَّتَهُ فجعل اللَّه نفسيتهم وثنية الهوى، مادية التفكير.

الرسالة الثالثة: في أن من لا يَرْعَوِي عن قتل الرسل والأنبياء لا يتردد - بعد ذلك -

في ممارسة أبشع الجرائم كقتل الأطفال والعجزة والنساء، وإبادة الشعوب! وتلك خاصية بني إسرائيل، فالقلب اليهودي قلب أغلف، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، ولا يراعي في الإنسانية كلها إلًّا ولا ذمة!

الرسالة الرابعة: في أن بني إسرائيل قد استغلوا التوراة - بعد تحريفها - وأسسوا عليها أساطير تسوغ لهم كل ما يقترفون من جرائم! فجعلوا أنفسهم « أبناء اللَّه » و « أحباءه »، واحتكروا الجنة لأنفسهم من دون العالمين، وجعلوا شعوب العالم كلها مخلوقة فقط لخدمتهم؛ ولذلك فلا حرج عليهم فيما ينتهكون ويغتصبون من أموالهم وأرواحهم وسائر حرماتهم!

الرسالة الخامسة: في أن المصلحين الصادقين والدعاة إلى اللَّه المخلصين هم أول المُتَّخَذِين أعداء عند يهود، وهم أول المعرضين للأذى من قبلهم! فمن الطبيعي أن تتعرض مؤسسات الخير والإصلاح في كلِّ العالم لحصارهم، ويتعرَّض رجالها لمطارداتهم وأذاهم! ومِن ثَمَّ وجب على المؤمنين اتخاذ الحيطة اللازمة والحذر المطلوب لحماية دعوتهم.

الرسالة السادسة: في أن التدخل في شؤون الربوبية بالاعتراض من أعظم الكبائر التي تستوجب غضب اللَّه ولعنته؛ لأنه خرم لأصل التوحيد ونقض له، واستدراك على قضاء اللَّه وكفر به، واتهام لفعل اللَّه العظيم بعدم الحكمة، وهو تعالى الحكيم العليم! وهو وحده له الملك يفعل ما يشاء وهو على كلِّ شيء قدير، لا إله إلا هو. وأن المؤمن الحق هو من استسلم للَّه وسلم أمره كله له. وهذا مناط الفرق بين أمة بني إسرائيل الذين قالوا: ﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ... ﴿٩٣﴾ ﴾ وبين أمة المسلمين الذين قالوا: ﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾.

الرسالة السابعة: في أن الحرص على الحياة الدنيا هو غير العيش فيها من أجل الآخرة. فالحرص خلق مذموم. وأن العمر مهما طال لا قيمة له إذا لم يعمر بصالح الأعمال. فالزمن الدنيوي كله ظِلٌّ زائل، لا يغتَّر به إلا جهولٌ. فطول الأعمار في الدنيا لا يتحقَّق بكثرة السنين؛ إذ ليس لِعَدٍّ متبوع بنهاية طول! وإنما العمر الطويل في الحقيقة هو العمر المبارك، وهو العمر المعمور بالمنجزات الصالحات، التي يمتد تأثيرها حتى بعد موت صاحبها، فيستغرق من الزمان والمكان ما لا يستطيع صاحبه إدراكه بنفسه.

٤ - مسلك التخلُّق:

أما بركة العمر فلا تكون إلا مقامًا إيمانيًا، وأما طريقة التحقُّق بها فهي راجعة إلى الاجتهاد للتخلُّق بخلق القناعة. والقناعة: هي الاكتفاء من الدنيا بما يسدُّ الحاجة من متاعها، فعن فضالة بن عبيد ﷺ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع!** »[1] ويساعد على اكتساب هذا الخلق الرفيع الرِّضَا باللَّه رَبًّا فيما أعطى ومنع، وأنه تعالى أعطى ما أعطى لحكمة ومنع ما منع لحكمة. ثم الغوصُ بالنظر في شهوات الحياة الدنيا تَدَبُّرًا وتَفَكُّرًا، ومطالعةُ مآلاتها بما هي فانية لا تدوم لأحد. فمن تحقَّق بالقناعة أمِنَ الجشَع، واشتغل في عمران وقته بالصالحات وبورك له في عمره، وهو مقتضى الحديث النبوي الحكيم الذي يرويه الصحابي الجليل عبد اللَّه بن محصن عن رسول اللَّه ﷺ قال: « **من أصبح منكم آمنًا في سِرْبِه، مُعَافًى في جسده، عنده قوت يومه؛ فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها!** »[2].

ومن الأعمال الصالحة التي يبارك اللَّه بها العمر ويزكيه بِرُّ الوالدين وصلة الرحم، وكذا سائر أعمال البر. فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **مَنْ سرَّه أن يُمدَّ له في عمره ويزاد في رزقه؛ فَلْيَبَرَّ والديه ولْيَصِلْ رحمه!** »[3] وعن سلمان ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لا يرد القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البر!** »[4].

* * *

* *

*

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح كما رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه أحمد وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره.

(٤) رواه الترمذي وحسنه، كما حسنه الألباني في صحيح الترغيب.

المجلس الرابع عشر

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي

الدرس الثامن والأخير
في نهاية الاستخلاف الإسرائيلي وتحول يهود من اتباع الوحي إلى اتباع السحر ومن عبادة الرحمن إلى عبادة الشيطان!

١- كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا مفترق الطرق! ههنا نقطة التغير والانتقال من دين الرحمن إلى دين الشيطان، ومن تلقِّي الوحي إلى تلقِّي السحر! لقد عادت بنو إسرائيل بجهلها

وكبريائها جبريل عليه السلام؛ فقطعت كل صلتها بالله ربِّ العالمين! وجبريل رسول الله من السماء إلى الأرض، نزل بالوحي على جميع الرسل والأنبياء وهو عليه قوي أمين، ائتمنه الله على التوراة والزبور والإنجيل والقرآن. فهو صاحب موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وهو نصير جميع الأنبياء. وهو ولي من أولياء الله المقربين في الملأ الأعلى. فتجرأت يهود بجهلها واتخذته عدوًّا! يا ويلها! والله جل جلاله يصرِّح في الحديث القدسي بأن « **من عادي لي وليًا فقد آذنته بالحرب!** » (١).

والقصة أن يهود ناظرت النبي صلى الله عليه وسلم يومًا - وقيل عمر بن الخطاب رضي الله عنه - في مسائل لا يعلمها إلا نبي، وزعموا أنهم إن أخبرهم بحقيقتها اتبعوه، وكان منها سؤالهم عن الملَك الذي ينزل عليه بالوحي، فلما أخبرهم بأنه جبريل عليه السلام قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والشدة، ذاك عدونا! إنك لو قلت: إنه ميكائيل لاتبعناك، فهذا الملك هو صاحبنا وهو ولينا، وهو الذي ينزل بالرحمة والغيث (٢). فانتصر الله جل جلاله لوليه جبريل وأنزل غضبه على بني إسرائيل مرة أخرى! وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ إلى آخر الآيات. بمعنى أن من عادى جبرائيل فقد عادى الروح الأمين، الذي نزل بالذكر الحكيم على قلب رسول الله، وحيًا من الله بإذن الله. وما كان لملك - بله أمين الملائكة المقرب - أن يخترع شيئًا من عنده أو يفتئت كلمة واحدة على الله سبحانه! لكن النسيج الأسطوري لبني إسرائيل جعل من الملائكة صديقًا وعدوًّا! فَبَيَّنَ الله تعالى لهم ولسواهم أن من عادى مَلَكًا واحدًا فقد عادى جميع الملائكة والرسل! كما أن من آمن بواحدٍ منهم فهو ملزم بالإيمان بجميعهم. ثم مدح جلَّ ثناؤه عبدَه جبريل وبيَّن بأنه هدى لقلوب المؤمنين وبشرى لهم بالجنة والسلام. وأما الكفرة فهو عدو لهم حرب عليهم لا أمن لهم منه ولا سلام؛ وذلك بما كانوا أعداءً لله ربِّ العالمين. ثم بيَّن الحقُّ تعالى أن من أعلن العداوة لله وملائكته ورسله، وجبريل وميكائيل فإن الله جل جلاله يعلن العداء له والحرب! وقد خصَّ الملكين: جبريل وميكائيل بالذكر ههنا للتسوية بينهما في ولاية

(١) طرف حديث رواه البخاري.

(٢) ن. الروايات مفصلة في ذلك في تفسيري الطبري وابن كثير للآيات.

اللَّه ردًّا على تفريق يهود، مبينًا أن عداوة واحد منهما تعني عداوة الآخر، بل عداوة اللَّه أيضًا!

ثم خاطب الحقُّ تعالى نبيه محمدًا ﷺ مبينًا أن هذا القرآن الذي أنزله عليه هو آيات بينات، بمعنى أنه علامات قاطعات في ذاته على أنه كلام اللَّه ربِّ العالمين، وعلى نبوة محمد ﷺ. فلا يكفر بهذه الدلائل القاطعة إلا فاسق عن الحقِّ مُتَنَكِّبٌ عن الإنصاف، وذلك حال يهود مع كتاب اللَّه ورسوله، فقد خانوا فيهما عهد اللَّه وميثاقه. وهذا دَيْدَنُهُمْ مع كلِّ عهد وميثاق! قال الحسن البصري: « نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غدًا! » [1].

ثم آلَ الخطاب إلى أصل القضية التي بها وقع الانحراف الكلي ليهود، وهي استبدالهم دين الشيطان بدين الرحمن، واتخاذهم السحر وسيلة للمعرفة ولقضاء المآرب والحاجات، بدل الوحي الكريم النظيف. فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ... ﴿١٠٢﴾ ﴾. والفريق من الذين أوتوا الكتاب هنا هم اليهود. بمعنى أنهم تنكَّروا للقرآن الكريم وجحدوا نبوة محمد ﷺ، ونبذوا كتاب اللَّه خلفهم لا يلتفتون إليه، على علم يقين بربانيته! نبذوا كتاب اللَّه كله سواء في ذلك التوراة والقرآن؛ لتطابقهما في الإخبار بنبوة محمد ﷺ. والنبذ فعل مسيء دال على إهانة! وبدل أن يتبعوا ما نزل به الملك جبريل على رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام من الحقِّ؛ اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر. وتتلو هنا هي بمعنى تكذب وتفتري. وذلك أن طائفة من بني إسرائيل كانوا يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام لم يكن نبيًّا وإنما كان ساحرًا، وقد اتهموا القرآن بالخلط في ذلك، وزيَّن لهم الشيطان أن سليمان عليه السلام إنما حكم الجن وركب الريح بالسحر لا بتسخير إلهي! فجعلت الشياطين تعلِّم الناس السحر وتنسبه إلى مُلك سليمان وعلمه! فبرأه اللَّه تعالى مما قالوا، مبينًا أن السحر شرٌّ وكفر، وسليمان نبي كريم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير.

كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ... ﴿١٠٢﴾ ﴾.
وقد وردت روايات كثيرة عن مفسري الصحابة والتابعين في قصة « هاروت وماروت »، تتفق في أشياء وتختلف في أشياء أخرى. ولابن كثير تعليق حكيم عليها، قال رحمه الله: « وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال » (١) قلت: ولذلك فنحن نرجِّح منها ما يوافق السياق اللغوي الصريح لكتاب الله، والمنطق القرآني السليم. فقد رُوي عن الحسن البصري وغيره أن هاروت وماروت مَلَكَانِ نزلا ببابل؛ لتعليم الناس السحر؛ حتى يَحْذَروه، ويعلموا ما تشتغل به الشياطين في إضلال الناس (٢). وقد نُسب تعليم السحر في الآية صراحة للشياطين، كما نسب تعليمه تقديرًا للملكين. لكن تعليم الشياطين هو على سبيل الإضلال، بينما تعليم الملكين هو على سبيل الوقاية. ومعرفة الشر أصل صحيح؛ لأن من لا يعرف الشرَّ فهو أحرى بأن يقع فيه! وقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ عن الشرِّ مخافة أن يدركه! (٣) ومِن ثَمَّ كان الملكان هاروت وماروت عبارة عن نذير للناس؛ وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ والفتنة هنا: الابتلاء والاختبار، فكانا يحذران الناس من توظيف ما تعلموا من مسالك السحر أن يدخلوها فيكونوا من الكافرين! لأن السحر لا يصحُّ لصاحبه إلا بعبادة الشيطان! إذ هو تحالف مع الجن وتبادل للمنافع الفاسدة معها: الساحر يعبدها من دون الله وهي تخدمه بطاقاتها الخفية وأعمالها الشريرة.

لكن الناس أعرضوا عن تحذير الملكين ولم يعيروه اهتمامًا، ودخلوا مسالك السحر المظلمة، فجعلوا يوظِّفون ذلك في الإفساد في الأرض؛ مقابل ما يتقاضون من طالبه من السحت والأجر الخبيث! فينشرون الفساد والضرر في الأرض، كالتفريق بين المرء

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

(٢) وهو ما ذهب إليه الطبري وخالفه ابن كثير.

(٣) عن حذيفة بن اليمان قال: « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني... » الحديث. متفق عليه.

وزوجه، وغير ذلك من المفاسد والشرور! وخصَّ مفسدة التفريق بين الزوجين بالذكر؛ لأن تخريب الأسرة هو من أعظم الشرور وأخطرها على استمرار الدين في الأرض! فالأسرة المسلمة هي القناة الأولى لتوارث حقائق الإيمان، وهي صمام الأمان الحافظ لصلاح الأجيال. وتخريبها عمل شيطاني رهيب! فقد روى مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرِ بنِ عبد اللَّه ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً! يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا! فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ! قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ؛ وَيَقُولُ « نِعْمَ أَنْتَ! » فَيَلْتَزِمُهُ!** »[1].

لكن اللَّه تعالى بين في الآيات أن الضرر الحاصل من السحرة إنما هو من قدَر اللَّه، فلا يقع شيء من ذلك إلا بإذنه، إذ يبتلي بعضَ الناس ببعض؛ ليكتسب بعضهم خيرًا ويكتسب بعضهم شرًا. وذلك أصل وضع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى في خاتمة السياق: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ بمعنى: وما كان تعلم السحر في صالح بني إسرائيل قط، إذ استبدلوه بمسلك الوحي الكريم، واشتروه بدلًا عن الإيمان بمحمدٍ رسول اللَّه! فتوعدهم اللَّه بالخسران المبين؛ ولذلك ما جعل لهم في الآخرة من خَلاقٍ أي من نصيب! فما أسوأها من صفقة! وما أخسرها من تجارة! خسروا فيها أنفسهم وآخرتهم! ولو أنهم تخلَّصوا من كبريائهم وأهوائهم، وتطهَّروا من الحسد واللؤم؛ لربحوا شرف الدنيا والآخرة، ولأثابهم اللَّه أجرًا عظيمًا. ولكن الكِبر أعمى لا يزيد صاحبه إلا جهلًا!

وبهذا المآل البئيس انتهت قصة بني إسرائيل، وبهذا الاختيار الأرعن أضاعوا الطريق إلى الأبد!

كانت تلك هي العناصر الأساسية من وجوه التمرُّد على اللَّه والعصيان لأنبيائه، مما استعرضنا خلال هذه الدروس الثمانية السابقة، المستخلصة من عهد استخلافهم،

---

(١) رواه مسلم.

وتلك كانت هي الأسباب الرئيسة في انتزاع الخلافة النبوية منهم، وإسنادها إلى غيرهم، وإنهاء تاريخ من احتكار العلم الإلهي وكتمان الحق عن الناس، وإضلالهم بالشعوذة والسحر والدَّجَل. فنزل الوحي على النبي العربي محمد بن عبد اللَّه - عليه الصلاة والسلام - قرآنا عربيًّا ميسرًا للذكر، يجري غضًّا طريًّا على كل لسان إلى يوم الدين. فتمت بذلك نعمة اللَّه على الناس أجمعين. والحمد للَّه رب العالمين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو بهذا المجلس ملخص في الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن خيانة العهود ونقض المواثيق صفة ثابتة في الشخصية الإسرائيلية مُتَأَصِّلة فيها. فثقافة الغدر والخيانة صارت عبر التاريخ جزءًا جوهريًّا من طبيعة السلوك اليهودي. ذلك صريح التعبير القرآني الذي توسل إلى تقرير هذه القاعدة بعبارة: (كلما) الدالة على المداومة والمعاودة، قال تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾. ومعنى « الفريق » هنا هو الفئة الغالبة المسيطرة، التي بيدها اتخاذ القرار. ولا يمنع أن تجد من بينهم أوفياء، ولكنهم قليل، فاللَّه تعالى حكم بفساد أغلبيتهم بقوله سبحانه: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

الرسالة الثانية: في أن الخيانة من أول أسباب نزع الأمانة، وفقدان مقام الشهادة على الناس. وتلك سُنَّةٌ من سنن اللَّه في التاريخ البشري. وهي جارية على مستوى الأفراد والجماعات والأمم سواء. وقد وصف رسول اللَّه ﷺ قبض الأمانة من هذه الأمة في حديث رهيب، يرويه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيظل أثرها مثل الوَكْتِ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيظل أثرها مثل المَجْلِ، كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء! فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة! حتى يقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا! حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه حَبَّة خَرْدَلٍ من إيمان!** »[١].

(١) متفق عليه. ومعنى « الوَكْتِ »: نقطة تحدث بالشيء ذات لون مغاير لأصله، ومنه وَكْتُ التمر: وهو =

الرسالة الثالثة: في أن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، ركن كلي لا يقبل التجزيء والتفريق. وقد أعلى اللَّه الإيمان بها إلى مستوى الركنية من دون كثير من الغيبيات الواجب الإيمان بها، كالإيمان بالجنِّ مثلًا؛ نظرًا لعلو مقام الملائكة عند اللَّه تعالى، ولما لها من حضور دائم في حياة الإنسان، مما جعل اللَّه لها من وظائفها السامية. فمنهم رسل اللَّه إلى الناس ينزلون بالوحي وبغيره، ومنهم الملائكة الحفظة، والملائكة الكتبة، وملائكة الذكر الطوَّافون، وغيرهم كثير مما نعلم ولا نعلم. فهذه الخلائق النورانية جعل اللَّه لها حضورًا إيجابيًّا في حياة الإنسان، وجعل الإيمان بها ركنًا من أركان الإيمان. وهي تملأ حياة المؤمن أُنسًا وسلامًا، وتنشط سيره في طريقه إلى اللَّه. ومِن ثَمَّ كان الكفر بها أو ببعضها كفرًا بالدين كله! وكذلك السخرية بها أو وصفها بما لا يليق بها من التكريم والتوقير.

الرسالة الرابعة: في أن الإعراض عن أحكام القرآن وما ورد في السنة الصحيحة من بيانات؛ من غير عذر شرعي يعتبر من أكبر الخطايا! فإن كان ذلك بسبب عدم الاعتقاد بصلاحيتها كان كفرًا والعياذ باللَّه! فالعمل بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ واجب على المسلمين على العموم، وتحكيم شريعة الرحمن فريضة، واجب عليهم تهييء البلاد والعباد بالدعوة إلى اللَّه للدخول تحت تكاليفها؛ عبادة للَّه الواحد القهار، واستجابة لأمره. ومن استبدل بها غيرها كان ذلك من أكبر المصائب في الدين!

الرسالة الخامسة: في أن السحر وما يلحق به من الكهانة والعرافة من أكبر الكبائر، وأخطر الموبقات! لأنه في حقيقته عبادة للشيطان وكفر بالرحمن! لا يستقيم سحر لصاحبه إلا بهذا. وهو في كل نوازله يفرض على ضحاياه الدخول في أعمال خبيثة من شر الكبائر، كالشركيات، وهتك الأعراض، وانتهاك الحرمات، وتدنيس المقدسات، وغيرها من المصائب والعياذ باللَّه! ومِن ثَمَّ حرَّم الإسلام إتيان السحرة والكهنة

= نقر الطيب البادي في أول باكوره. وأما المَجْلُ: فهو ما يقع بالكف من قروح تنتفخ يسيرًا بسبب العمل بفأس أو نحوها. وقوله: «كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا» أي مثل جمر رميته برجلك فَنَفِطَ: أي انتفخ بسبب اشتعاله حتى فناء مادته؛ فيبقى مُنْتَبِرًا: بمعنى ظاهر الاتقاد والاحمرار على غير حقيقة. فهو في واقع الأمر جمر فان لا يوقد نارًا ولا يقدح فتيلًا، فلو نفخت فيه لطار رماده في الهواء ولم يبق منه شيء. وقد ضربه مثلًا للرجل الذي يبدو في ظاهره من أهل العدالة والوقار وهو خائن لا أمانة له ولا عهد.

والعرَّافين وأضرابهم من الدجاجلة والمشعوذين. فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **من أتى عرَّافا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزِل على محمد!** »(١).

الرسالة السادسة: في أن الأسرة من أعظم الحرمات الشرعية، وأن الطلاق لغير ضرورة مفسدة كبرى. وقد أحاط الإسلام الأسرة بسياج متين من التشريعات لحفظ بنائها من الضرر. وما عُلم في القرآن شيء حظي بتفصيل الأحكام مثل الأسرة وما يتعلَّق بها. فهي أضمن قناة لاستمرار الدين والقيم في الأمة عبر التاريخ. وما زالت الأمة بخير ما دامت الأسرة بخير. وإنما تبدأ سلامة الأسرة بسلامة ما تقوم عليه من أحكام شرعية، بدءًا بعقد الزواج وانتهاء بما ينشأ عنه من علاقات يعبد اللّٰه بها وأرحام تحفظ للأمة أخلاقها ودينها؛ ولذلك كان من أخطر مخططات الغرب الاستعماري هدم مفهوم الأسرة بمعناه الشرعي بين المسلمين؛ لأن بذلك تنهدم قوتهم المناعية، وتذوب شخصيتهم الإسلامية، وينقطع وجودهم الحضاري في التاريخ!

الرسالة السابعة: في أن النفع والضر لا يكونان إلا من اللّٰه، وأن الأسباب المنصوبة في الخير والشر هي - لمن لا بصيرة له - حُجُبٌ عن اللّٰه. فالدخول في أسباب الخير واتقاء أسباب الشر أمر مطلوب شرعًا، لكن بشرط ألا يعتقد المؤمن أن تأثيرها الإيجابي أو السلبي هو من ذاتها وبذاتها، بل هو بتسخير اللّٰه وإذنه، فهو وحده تعالى الفاعل في كل شيء. وإنما ابتلى اللّٰه الناس بالأسباب ابتلاء لهم بالخير والشر؛ ليكتسب كلُّ عبد ما وفقه اللّٰه إليه. والأمر للّٰه من قبل ومن بعد. وفي حديث ابن عباس ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ قال له: « **يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ اللّٰه يحفظك! احفظ اللّٰه تجده تجاهك! إذا سألت فاسأل اللّٰه! وإذا استعنت فاستعن باللّٰه! واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّٰه لك! ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّٰه عليك! رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُّحفُ!** »(٢).

---

(١) رواه أحمد والحاكم، وصححه الألبانيّ في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وابن حبان، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. كما صححه الألباني في صحيح الجامع.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق ههنا دائر حول حقيقة الطاعة والاتباع للوحي كتابًا وسنة، فالمؤمن الحقُّ إنما هو العبد المطيع، لا يراجع مولاه ولا يستدرك عليه، وإنما هو واقف بباب الخدمة سريع الاستجابة للأمر والنهي. وهذا الخلق إنما يحصل للعبد على قدر ما وقر في قلبه من رغب ورهب ومحبة، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة مقامين. الأول: مقام الربِّ، والثاني مقام العبد. فأما معرفة مقام الربِّ فهي تحصل بمشاهدة شؤون الربوبية، ومطالعة تجلياتها في كتاب اللَّه تعالى، وفي ملكوت السموات والأرض. والتزوُّد أثناء ذلك بحقائق الإيمان المشاهَدة، فإنها غذاء للقلب، وتزكية للنفس، وتذليل لها على الطاعة لمولاها. وأما معرفة مقام العبد فهي تحصل بمشاهدة أحوال الضعف والحاجة والافتقار، مما هو طبيعة جبلية في النفس الإنسانية، وعدم الاغترار بالغنى المادي والجسدي الظاهر، فإنما هو صفة عارية توشك أن تزول! وما طغيان النفس إلا بتوهمها الاستغناء عن مولاها، ولو أبصرت حقيقتها من الضعف والحاجة لذلَّت لسيِّدها. فمن عرف تركيبها ومخادعها ساسها برفق إلى باب الطاعة والاتباع وعرَّفها بمولاها.

* * *
* *
*

المجلس الخامس عشر

في مقام التلقي لنعمة الاستخلاف للأمة المسلمة
وما كان من رد فعل اليهود والنصارى

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

٢ - البيان العام:

هذا أول خطاب مباشر للمؤمنين في سورة البقرة، وبه انتقل القرآن من عرض

تاريخ التمرُّد الإسرائيلي، وما كان من مأساة النبوة بينهم، وما حصل من خيانات في تجربتهم الاستخلافية الفاشلة؛ إلى وضع أسس المجتمع الإسلامي الجديد. فقد كان أول النداء من ربِّ العالمين متوجهًا إلى عموم البشرية؛ تأسيسًا لعالمية الإسلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. ثم جاء النداء بعد ذلك خاصًّا ببني إسرائيل، الذين استخلفوا في الأرض بنبوة متوارثة دهرًا طويلًا، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾. ثم آلَ الخطاب إلى استخلاص العبر والدروس من ذلك التاريخ الطويل، وجعل يوظف ذلك كله في بناء أسس المجتمع المسلم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

لقد كان أول البناء لمجتمع المؤمنين هو توطين القلوب على تعبدية التلقِّي لكلام اللَّه، وحسن الاستجابة لأمره ونهيه، وفرض في سياق ذلك التبجيل لنبيه والتوقير. فخاطب المؤمنين بصفتهم الإيمانية التي تلزمهم بالسمع والطاعة، ونهاهم عن استعمال التعابير الخارجة عن مقام الأدب في مخاطبة رسول اللَّه ﷺ؛ لِمَا لها من دلالة على العصيان والتمرُّد، فقال تعالى: ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ ﴾.

ولهذا التعبير المنهي عنه قصة مع يهود في مخاطبتهم للنبي ﷺ، فقد كانوا يؤذونه عليه الصلاة والسلام باستعمال التعابير المشتركة بين الخير والشر، ويُوَرُّونَ بها في التنقيص من قدره حاشاه! فإذا أرادوا أن يقولوا: « اسمع لنا » قالوا: « رَاعِنَا »، وهو مرادف له، لكنهم إنما يقصدون اسم الفاعل من « الرعونة » وهي الجبن واللؤم، حاشاه عليه الصلاة والسلام! كما كانوا يحرفون لفظ « السلام » في تحيته ﷺ، فيقولون - كما ورد في الصحيحين - « السَّامُ عليكم! » والسَّامُ: الموت والهلاك! وقد فضحهم اللَّه تعالى بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦].

فبين للمؤمنين أن أول الطريق هو إسلام القلب للَّه ربِّ العالمين، وتقديم آيات

السمع والطاعة بين يدي اللّه ورسوله؛ وذلك باجتناب خُلُقِ التمرد وعبارات السوء التي دأبت بنو إسرائيل على استعمالها لإذاية الأنبياء.

ثم أخبر تعالى بما صار عليه أهل الكتاب والمشركون من الحسد للمؤمنين، وما آلَ إليه واقعهم النفسي تجاه الأمة المسلمة؛ حتى يدرك المسلمون موازين التعامل مع غيرهم، فيقدموا بين يدي ذلك من الحيطة والحذر ما يجعلهم ينجحون في حواراتهم ودعوتهم، وينجون من كيدهم وخداعهم. فقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٠٥ ﴾؛ ذلك أن يهود كانت تطمع أن يكون النبي المبعوث منهم على ما اعتادوا في تاريخ استخلافهم فخاب ظنُّهم، كما أن المشركين من العرب وغيرهم صاروا يجدون المؤمنين على مقام أعلى؛ بما زوَّدهم به اللّه من الكتاب والحكمة! فبين الحقُّ تعالى أن النبوة نعمة من نعمه ورحمة من رحمته، هو تعالى أعلم فيمن يضعها ولمن يورثها. وكان بذلك فضل اللّه على المسلمين عظيمًا، وهو ذو الفضل العظيم.

وقد غاظ أهل الكتاب أن تُتجاوز التوراة والإنجيل بكتاب ناسخ لشريعتهما، ومهيمن عليهما، فبين الحقُّ تعالى أنه فعَّال لما يريد، وأنه لا يتصرف في شيء من النسخ جزئيًّا كان أم كليًّا إلا بحكمة، فهو تعالى الحكيم العليم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧ ﴾، فقطع الطريق بذلك على اعتراض أهل الكتاب وغيرهم ممن لم يستوعبوا حكمة النسخ في آيات اللّه وكتابه. فهو تعالى له الملك وحده لا شريك له، يتصرَّف في ملكه كما يشاء. وما ينسخ من آية لحكمةٍ يريدها إلا جاء بأحسن منها أو مثلها، فيما ينفع الناس ويحفظ مصالحهم الدنيوية والأخروية. وليس للناس من دون اللّه من ولي يرجعون إليه، ولا نصير يحتمون به، فما من كائن إلا وهو مخلوق من مخلوقات اللّه خاضع لسلطانه العظيم طوعًا أو كرهًا.

والنسخ جارٍ في الآيات والأحاديث النبوية، ومعناه عند الأصوليين والفقهاء: « رفع العمل بحكم شرعي بدليل متأخِّر عنه ». أو بعبارة أيسر: إلغاء العمل بحكم

شرعي سابق بدليل شرعي لاحق. أي بنصٍّ شرعي ورد متأخرًا عن الأول؛ لحكمة شرعية، تتعلَّق - على الإجمال - بِسُنَنِ التدُّرج التربوي والتشريعي في بناء الأمة المسلمة.

ثم تابع أصل السياق بالنهي عن تعنيت النبي ﷺ بالأسئلة التي يقصد به التعجيز والإحراج، لا الاستفهام عن تفاصيل العلم والعمل مما هو مطلوب شرعًا. ذلك أن أسئلة التعجيز والتعنيت إنما تدل على إضمار الكفر والتمرد والعصيان، كما كان حال بني إسرائيل مع موسى إذ سألوه أن يريهم اللَّه جهرة! قال تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾، بمعنى أن هذا منهج فاسد لا يقود صاحبه إلا إلى الكفر والضلال! وقد سألت قريش النبي - عليه الصلاة والسلام - أن يجعل لها الصفا ذهبًا! وأن ينزل الملائكة من السماء عيانًا، وأن تكون له جنة في الأرض يأكل منها! وسألته يهود أن ينزل عليها كتابًا من السماء تقرؤه، وأضاع بعضُ الأعراب ناقته فجعل يسأله عنها! وغير ذلك من أسئلة التعنيت كثير. فحذَّر اللَّه المؤمنين من دخول هذا المسلك الفاسد في تعاملهم مع النبيِّ ﷺ، وأن يقدموا بين يدي مخاطبته كامل التوقير والاحترام؛ تربية لهم على خُلق السمع والطاعة والانضباط لأمر اللَّه ونهيه.

ثم جعل يفصِّل منهج معاملة أهل الكتاب فيما وقع في قلوبهم من حسد للمؤمنين، من بعد ما تيقنوا أن نبوة محمد ﷺ حقٌّ لا ريب فيه! حتى صاروا يتمنون لو أن المسلمين انقلبوا إلى جاهليتهم الأولى وصاروا كافرين! قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ فأمر المؤمنين أن يتصرَّفوا أولا بالعفو والصفح؛ محاولةً منهم إطفاءَ نار الحسد، ورغبة في تأليف من له قابلية للتأليف والتقريب. وفي ذلك أمر للمؤمنين بالصبر على أذى الكفار في سياق الدعوة إلى اللَّه، مُبشِّرًا إيَّاهم بأن عاقبة ذلك هو النصر القريب والفتح المبين إن شاء اللَّه. وهو قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم أمرهم بالصلاة

والزكاة؛ لِمَا في ذلك من الاستعانة على طلب رضا الرحمن، الذي به يكون النصر والتوفيق. فاللّه تعالى يدخر العمل الصالح لصاحبه عنده ويُرْبِيهِ له، وهو تعالى بصير بما يعمل عباده من خيرٍ أو شرٍّ. وكلٌّ يُجَازَى على وِزَان عمله.

ثم جعل سبحانه - بعد ذلك - يفند ما اخترعه أهل الكتاب من دعَاوَى ومزاعم كاذبة؛ مما حملهم عليه البغض والحسد. فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ فاليهود جعلوا الجنة حكرًا عليهم، والنصارى جعلوها أيضًا حكرًا عليهم. فبين اللّه تعالى أنما هي أماني كاذبة يتمنُّونها! فطالبهم بدليل من كتاب اللّه على ذلك؛ للدلالة على كذبهم وافترائهم على اللّه! ثم بين تعالى أن الجنة إنما هي لمن كسب في إيمانه خيرًا من المسلمين؛ إذ لا بد لنيلها من إيمان خالص للّه وعمل صالح صحيح. فهؤلاء لهم الأمان من اللّه ولهم السلام. وذلك هو قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾. ثم نقض مقالة اليهود والنصارى في المسلمين ببيان تناقضهم فيما بينهم وتلاعنهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾. فبين تعالى أن اليهود والنصارى - مهما بدا بينهم من وفاق في ظاهر الأمر - هم متباغضون متلاعنون. فكل طائفة تدَّعي ضلال الأخرى، وتكفر بما عندها، مع أنه لا يجوز التفريق بين موسى وعيسى عليهما السلام، ولا بين التوراة والإنجيل، فكلاهما كلام اللّه. وذلك كله مسطور في الكتاب الذي يقرؤه هؤلاء وهؤلاء، لكنهم يُعرضون عنه فيبدِّلون ويغيرون! وقد تابع المشركون أهلَ الكتاب في دعواهم - وهم جهلة لا علم لهم ولا كتاب - فقالوا: ليس محمد على شيء! فعقَّب اللّه تعالى عليهم جميعًا بوعيد مضمر؛ مبالغة في التهديد والترهيب! فقال تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ بمعنى يحكم بضلال كل تلك الطوائف وكفرها، ويعاقبها بما تستحق من العذاب جزاءَ إنكارها للحقّ، وكفرها بِرُسُلِ اللّه عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم محمد ﷺ.

٢ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الست التالية:

الرسالة الأولى: في أن أول العلم الواجب على المؤمن هو معرفة الله ﷻ، وما ينبغي له من التنزيه والتعظيم. وذلك جوهر التوحيد وحقيقة الإخلاص. فعلى قدر معرفة العبد بمقام الآمر تكون خشيته لله وطاعته، وعلى قدر ذلك أيضًا تكون استجابته للأمر. وقد سبق بيان مسلك ذلك أنه في تدبُّر القرآن والتفكُّر في خلق الملكوت، ويضاف إلى ذلك تبين أثر الأسماء الحسنى في حوادث العالم، بدءًا بما يجري لنفسك ذاتها في كسبها ومعاشها، وسقمها وعافيتها، وضيقها وفرجها، وسائر أحوالها، وانتهاء بما ترى من مجريات الأحداث العالمية، بما يريك عظمة الخالق وحكمته ﷻ في تدبير شؤون مملكته.

الرسالة الثانية: في أن أول مدارج التزكية الإيمانية التربيةُ على السمع والطاعة، وتزكية الأنفس وتوطينها على الخوف والرجاء، وعلى أشواق المحبة، وسائر حقائق المعرفة بالله والعلم به. فالمؤمن العالم بمولاه عبدٌ مطيعٌ، كما سبق بيانه. ولِمَا يعلم من مولاه فهو يرجو رحمته ويخاف عذابه، ثم هو لِمَا شاهد من صفات جماله، وحسن أسمائه، وسَبْقِ نعمه وآيات رحمته وكرمه وجوده؛ فهو يحبه ويعمل جاهدًا لحمده وشكره، ونيل نور رضاه، ودوام نعمته عليه ورحمته، والشوق إلى لقائه. فعبدٌ على هذا المقام من الحقائق الإيمانية لا يكون إلا عبدًا مطيعًا. وعليه وعلى أمثاله يُحمل رحل الدعوة إلى الله وأمر تجديد الدين في الأمة.

الرسالة الثالثة: في حرمة تعنيت العلماء والدعاة إلى الله بأسئلة التعجيز، وإشغالهم بالجدل الذي ليس تحته عمل! لأن العالم الحق قائم مقام النبي ﷺ، وتعنيته بالسؤال عما لا عمل تحته من أكبر المفاسد في الدين، ولا يرجع منه صاحبه إلا بأوزار وآثام! فزيادة على ما فيه من التعدي على عبد من عباد الله ناط به الله أمر دينه ودعوته، وما فيه من الاشتغال بما لا فائدة فيه، ومن المخالفة لحكم الشارع الوارد بالنهي عن السؤال عما لا فائدة فيه؛ فهو هدرٌ لطاقة الأمة وإشغال لمحرك من محركاتها العلمية والدعوية في الفراغ! في وقت هي أحوج ما تكون إلى الاستفادة من كل جهودها في جهاد عدوِّها وتجديد دينها!

الرسالة الرابعة: في أنه لا يجوز التكذيب بكلٍّ ما عند أهل الكتاب بإطلاق، مما يروونه من أمور الدين، إلا ما ثبت نقضه بالقرآن الكريم، وهو معروف مشهور. فقد أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نقف موقف الحذر والاحتياط مما يحدثنا به أهل الكتاب، فلا نصدِّقهم ولا نكذِّبهم. فعن أبي نملة الأنصاري ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إذا حدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا باللَّه وكتبه ورسله. فإن كان حقًّا لم تكذِّبوهم، وإن كان باطلًا لم تصدِّقوهم** » [١].

الرسالة الخامسة: في أن الحسد من كبائر الذنوب، وأنه قد ينحرف بالمسلم إلى تكفير أخيه المسلم وقتاله! وأن مواجهة الحسود إنما تكون بالاستعاذة وبالصفح والعفو، ومعاملته بإسداء الخير وصنائع المعروف، على سبيل العلاج لنفسيته المريضة. ثم إن الاشتغال بعمران الوقت بالصلاة والزكاة وذكر اللَّه تعالى والدعوة إليه، وسائر أعمال البر؛ هو من خير ما يواجه به الحسود.

الرسالة السادسة: في أنه لا يجوز الحكم على إنسان بشخصه على سبيل التعيين والتحديد بأنه لن يدخل الجنة، أو أنه من أهل النار. فعلاوة على ما فيه من سوء الأدب مع اللَّه، والتدخل في شؤون الربوبية، فهو رجم بالغيب؛ إذ لا يدري أحد ما تكون عاقبة ذلك الشخص، فلعل اللَّه يختم له بالحسنى فيكون من أهل الجنة!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق ههنا تابع لما سبق تقريره بالمجلس السابق من معنى السمع والطاعة وحسن الاتباع. لكننا ههنا نضيف مسلكًا جديدًا وردت به الآيات في تقرير منهج التخلُّق بهذا المقام الإيماني الرفيع، وذلك هو تدبُّر مآلات العصيان وحوادث التمرُّد على الرحمن في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأمم قديمًا وحديثًا. فتدبُّر القصص علم تربوي في غاية الأهمية؛ لأنه محمل بالسنن الإلهية التي جعلها اللَّه مسالك للأفراد والجماعات، ترشد إلى أسباب ورود النعم وأسباب انتزاعها.

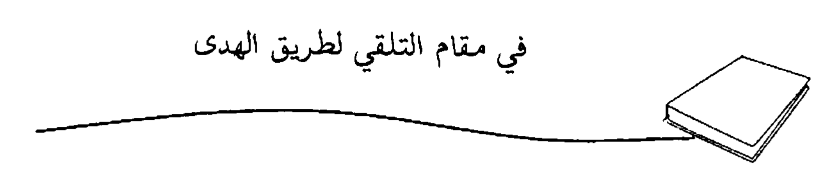
* * *

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وعبد الرزاق في مصنفه، والبيهقي، والطبراني. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند. وهو عند البخاري مختصرًا عن أبي هريرة.

المجلس السادس عشر

في مقام التلقي لطريق الهدى



١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

المسجد هو أول مؤسسة وجب تأسيسها في المجتمع المسلم. فهو مركز الإشعاع الروحي ومدرسة التعليم الإيماني والتزكية للمسلمين. وقد فرض الله تعالى عليهم حفظ مساجدهم بناءً وصيانة وتطهيرًا. وكذا حمايتها مِن كلٍّ مَن يحاول تخريبها أو منع المؤمنين من عمرانها.

فكل جماعة من المؤمنين في الأرض توفر فيها خلق السمع والطاعة للّه ربِّ العالمين،

وجب عليها بناء مسجدها؛ لعمرانه بذكر اللَّه وبالصلاة، واتخاذه مدرسة لضمان استمرار الدين في الأجيال. وقد شدَّد اللَّه النكير على أعدائه الذين يمنعون مساجد اللَّه أن يُذكَر فيها اسمه ويسعون في خرابها، وجعل ظلمهم ذاك أكبر ظلم؛ لأن فيه هدمًا لأهم معالم الدين العمرانية في الأرض، وهو فساد كبير! ولذلك توعدهم بالخزي والعذاب العظيم! قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وقد ثبت أن نصارى الروم حملهم بغضٍ اليهود على مساعدة بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس! ومكّنوه من ذلك حتى خربه وأمر أن تُطرح فيه الجيَف! كما حاول أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة فأهلكه اللَّه! وثبت أن كفار قريش قد منعوا النبي ﷺ ومن معه يوم الحديبية من دخول مكة والطواف بالبيت! كما منعوه قبل ذلك من الصلاة عند الكعبة في البيت الحرام. والآية بعد ذلك عامَّة في كلِّ مسجد وفي كلِّ مخرب إلى يوم الدين.

ومِن ثَمَّ فإن اللَّه تعالى بشَّر المؤمنين الذين ظُلموا في مساجدهم بالنصر والتمكين، وبإخزاء المفسدين المخربين، حتى يأمن ذاكر اللَّه في مساجده، ولا يدخلها أعداء اللَّه إلا خائفين! وقد حرَّم اللَّه البيت الحرام على الكفار، ومِن ثَمَّ قال بعض المفسرين إن قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ هو خبر في معنى الطلب؛ ولذلك لما فتح اللَّه مكَّةَ نادى النبي ﷺ: ألَّا يحج بعد ذلك العام مشرك! فعن أبي هريرة: (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمَّره عليها رسول اللَّه ﷺ قبل حجة الوداع، يومَ النحر، في رهط يؤذن في الناس: ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان!) [1] وجعل اللَّه الرعب في قلب كلِّ كافر محارب، وفي كل مخرب لبيوت اللَّه إذا دخل المساجد ولو خفية. قال قتادة: «لا يدخلون المساجد إلا مسارقة!» [2].

ثم خاطَبَ اللَّهُ المؤمنين الذين أُخرجوا من مساجدهم، أو غُلِّقَتْ دونهم أبوابها ظلمًا وعدوانًا، بأن لهم أن يصلوا في أي مكان يأمنون فيه، ولو اضطروا إلى الصلاة

(١) متفق عليه.
(٢) تفسير ابن كثير.

لغير القبلة، فلا حرج عليهم؛ لأن اللَّه تعالى قِبَلَهُمْ حيثما ولُّوا وجوههم. فكلُّ الجهات هي له تعالى، مَشرِقًا كانت أم مَغرِبًا أو غيرهما، فهو سبحانه حاضر فيها جميعها بعلمه وسلطانه، لا يغيب عنه شيء، فأيما عبد سجد للَّه مُتَخَفِّيًا بدينه بقعر بيته أو ظلمة خلوته، فاللَّه تعالى يراه في كلِّ ركعة وسجدة، عليم بما يرتل سرًّا ويدعو. فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

وقد ناسب هذا التقرير لشمولية مُلك اللَّه تعالى مشرقًا ومغربًا، وسعة سلطانه لكلِّ شيء، تفنيدُ مزاعم اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين جعلوا للَّه ولدًا سبحانه. فكلٌّ طائفة ادعت ذلك على ما يناسب هواها! قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] وعندما ادَّعى كفَّار قريش بأن الملائكة « بنات اللَّه » ﷺ ردَّ عليهم الرحمنُ ﷻ بقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧]. وأجملَ الرد على ذلك كله ههنا في سورة البقرة، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ فهو تعالى إذْ رد تلك الدعاوى الباطلة، بين أن كل ما في الوجود من كائنات مملوكة له، خاضعة لجلاله ولسلطانه العظيم. والقنوت: كمال الخضوع والخشوع. فالكون كله يعلن عبوديته الكاملة للَّه؛ لأنه تعالى هو الخالق المبدع لكلِّ شيء. وبذلك مَلَكَ ما خَلَقَ. وقد كان خَلْقُهُ تعالى للعالم وما فيه واقعًا على سبيل الإبداع. والإبداع: هو إحداث الشيء على غير مثال سابق، وخلقه على غير نموذج يُحْتَذَى، فهو تعالى بديع السموات والأرض. فكان خَلْقُهُ ﷻ فعلًا معجزًا، لا سبيل للعقل البشري إلى تصوُّره، ولا قدرة له على تعقُّله، وإنما له أن يشاهد آثاره ويتدبَّر نتائجه، من عجيب خلقه وصنعه! ومِن ثَمَّ جاء هذا التعبير الحامل لهذه الحقيقة الغيبية العميقة، بما تحمل من إعجاز وتحدٍّ: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

ثم نعى على الكفار جهلهم بهذا الربِّ العظيم، الرب الذي شأنه الخلق والإبداع؛

إذ تجرؤوا عليه ﷺ، وأساؤوا الأدب مع رسوله الكريم، فطالبوه بأن يكلمهم الله جهرًا، أو ينزل عليهم من السماء معجزة، من مثل إنزال الملائكة على هيئة ظاهرة، وغير ذلك من التعنيتات التي طالب بها كفارُ قريش واليهود؛ محاولين إحراج النبي ﷺ مع ربه، ثم مع الناس. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾، فأشار إلى أن هذه المقالات التي تدل على سفه أصحابها وجهلهم الكبير بالله - وهو القدير على كلِّ شيء - هي مقالات السابقين من جَهَلَةِ بني إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ﴾ [النساء: ١٥٣]. فقد تشابهت قلوبهم جميعًا - الأولون والآخرون - من حيث ما تستبطن من الكفر والجحود. وأما الدلائل والآيات فهي مبينةٌ بهذا القرآن، واضحة لمن خلا قلبه من الهوى والكبرياء، وطلب الحق صادقًا، فأيقن أنه الحقُّ من ربِّه.

ثم التفت إلى رسوله الكريم، مُثَبِّتًا إيَّاه ومسليًا، ومؤكِّدًا له حقيقة نبوته، وأنه مُرسلٌ بالحقِّ من عند الله ربِّ العالمين، بشيرًا للمؤمنين نذيرًا للكافرين. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ وقد قُرِئت: (وَلَا تَسْأَلْ!) على سبيل النهي، كما قرئت: (ولاَ تُسْأَلُ) على سبيل الخبر والتقرير. والمقصود بقراءة النهي: منع النبي ﷺ من الإشفاق على هؤلاء الكفرة والمجادلة عنهم. وأما القراءة الدالة على الخبر فهي تطمين له - عليه الصلاة والسلام - بأنه غير مسؤول يوم القيامة عن كُفْر من كَفَر، من بعدما استحقوا عذاب الجحيم! فإنما هو ﷺ مكلف بالبلاغ، وقد أداه على أحسن ما يكون الأداء.

وقد كان الرسول ﷺ يتألف قلوب أهل الكتاب بالكلمة الطيبة، والأدب الحسن، ويحسن معاملتهم، ويقبل هداياهم ويعفو عن إساءاتهم، وكان يغشى مجالسهم من حين لآخر، فيعظهم ويدعوهم إلى الله بالتي هي أحسن؛ لعلهم يتبعونه ويصدقونه. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ فكشف الله بهذا نية أهل الكتاب، وأنهم بإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ وتلكؤهم، وإعناته بالأسئلة المحرجة، إنما يحاولون استمالته - عليه الصلاة والسلام - إلى

اليهودية أو النصرانية، فيقول ببعض مقولاتهم الباطلة! فقال له الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ وما سواه هو الضلال! مبينًا بذلك أنه لا مساومة في الحقِّ، ولا لين في التبرؤ من الباطل! ولذلك جاء التهديد والوعيد الشديد لمن لان إلى اليهود والنصارى، واتبعهم في بعض أهوائهم مما افتروه من دينهم على الله ربِّ العالمين! وكيف يترك مسلم ما جاءه من العلم الحق عن الله مما فصَّله في القرآن آيات محكمات بينات، ويتبع ضلالات اليهود والنصارى؟ فهذا قد أعلن الحرب على الله، فما له من الله من وليٍّ يخاصم عنه ولا نَصيرٌ يحميه! بل هو هالك لا محالة!

ثم بين لرسوله ﷺ وللمسلمين أن الذين صدقت نياتهم من أهل الكتاب، وتخلَّصوا من الحسد والأهواء، إذا قرؤوا التوراة أو الإنجيل حق تلاوته، أي بلا تحريف ولا تبديل، ثم نظروا بعد ذلك إلى دعوة محمد ﷺ وإلى ما جاء به من قرآن من عند ربِّه آمنوا به وصدقوا.. فذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ وهذا نظير قوله تعالى في حقِّ الصادقين من النصارى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] وأما إنذاره الكفار منهم ومن غيرهم بالخسران؛ فلأنهم اشتروا الأهواء والشهوات بالإيمان والاستجابة لنداء القرآن، فأعرضوا عنه وهم يعلمون أنه الحق من ربِّهم! ومن ثَمَّ ذكَّر الله تعالى بني إسرائيل مرة أخرى بنعمته تعالى عليهم، محذِّرا إياهم مغبة يوم الحساب، فقال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ فما كان ينبغي لمن آتاهم الله من النعم بما جعل فيهم من النبوة والملك، وفتح عليهم خيرات السماء والأرض، وآتاهم ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين؛ أن يكونوا كافرين! فهم أبناء العبد الصالح النبي يعقوب ﷺ، وهم أدرى بخطاب الوحي، فكيف يسمعون نداء القرآن - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - ثم لا يستجيبون؟ فأي كفرٍ هذا بنعم الله وأي جحود؟ ولذلك جاء هذا الترهيب بمآل ما اختاروا من مسلك شيطاني مريد، محذِّرا إيَّاهم من سوء يوم الحساب، حيث لا تدفع نفس عن نفس عذابًا، ولا يحمل أحد عن أحد وزرًا، ولا يُقبل ممن حقَّ عليه

العذاب عدل أي فدية، ولا تنفعه شفاعة أحد ولا نصرته من دون اللَّه الواحد القهار! فذلك يوم لا ملجأ فيه من اللَّه إلا إليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في **تسع رسالات** من الحكمة الربانية، هي:

الرسالة الأولى: في بيان مركزية المساجد في العمل الدعوي، وأن الدعوة المنطلقة من المسجد دعوة مباركة منصورة. صحيح أن على الداعية أن يَطرُقَ جميعَ الأبواب، وأن يَلِجَ جميع النوادي لتبليغ كلمة اللَّه، ولكن على أساس أن يكون المسجد هو قاعدته التي ينطلق منها وإليها يعود؛ وذلك حتى يمكن التائبين والمستجيبين للَّه من ارتياد بيوت اللَّه؛ إذ المسجد هو مكان الاحتضان الضروري للمؤمن، به يحتمي من غوائل الشيطان، وفيه يتغذّى من معين الإيمان. وبأداء الصلوات الخمس فيه يكون المؤمن معصومًا من الغفلة والعصيان، محفوظًا باللَّه ليله نهاره. ثم إن ربط الدعوة بالمسجد هو ربط للمؤمنين باللَّه لا بالهيئات ولا بالأشخاص، وفي ذلك ما فيه من كمال التوحيد والإخلاص ما يستجلب رضا اللَّه ونصرته. فلا ينوب عن المسجد في وظيفته التربوية والتعبدية شيء البتة! ولا يجوز العدول عنه إلا لضرورة!

الرسالة الثانية: في أن الظلَمة إذا تعدَّوا على بيوت اللَّه بالتخريب، وعلى أهلها بالإيذاء كانت تلك علامة على قرب نهايتهم، وأفول سلطانهم! فمن تعدَّى على بيوت اللَّه فقد أعلن الحرب على اللَّه! ومن آذى المصلين وروَّعهم فقد آذى أولياء اللَّه! فلينتظر حتفه وهلاكه! ومن هنا ما كان ينبغي أن يكون شيء من ذلك تثبيطًا للمؤمنين أو تيئيسًا لهم! وَلْيُوَاجِهُوا ذلك كله بالصبر والاحتساب، فما هو إلا علامات الفرَج، وبشارات النصر المبين!

الرسالة الثالثة: في أن على المسلم - إذا مُنع من عبادة اللَّه وتوحيده في مكان، وأُجبر على الكفر جبرًا، ولم يستطع مواجهة التحدِّي - أن يفرَّ بدينه ودعوته إلى حيث يجد الأمان على عقيدته وعبادته، فيستأنف دعوته إلى اللَّه. فما ينبغي للدين والدعوة أن تتوقف حركتهما في الأرض، فحيثما توجه العبد فاللَّه قِبَلَهُ، إن اللَّه واسعٌ عليم. وأما أن يترك العبد شيئًا من حقوق اللَّه العظمى بسبب ذلك، كالتوحيد

والصلاة وما في معناهما من الأركان والأصول، أو يداهن الظلمة بإتيان بعض المنكرات؛ فهو من المهلكات لدينه ووجوده! وما هلك المورسكيون من أهل الأندلس إلا بمثل هذا، فلم يزالوا يداهنون النصارى حتى ذابوا في المجتمع المسيحي وتنصروا هم وأبناؤهم والعياذ بالله! وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

الرسالة الرابعة: في أن توحيد الله وتنزيهه، وعبادته بما ينبغي له ﷻ من الإخلاص، مما لا ينبغي لمسلم التفريط فيه ولا المساومة عليه. فالتوحيد هو أصل الأصول في الدين، كما أن التوجُّه إلى الله بالإخلاص في العبادة هو غاية الدين. وقد حاول كفَّار قريش من قبل مفاوضة النبي ﷺ في هذه الحقائق الإيمانية الكبرى؛ فأنزل الله عليه سورة البراءة من الشرك، وهي سورة « الكافرون »، ذات الحسم والفصل! فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.

الرسالة الخامسة: في أن الأدب مع الله تعالى من أصول الدين، فلا يوصف تعالى إلا بما وصف به نفسه، ولا يُسأَل إلا بما أذن فيه من الخطاب، ولا يستعمل شيء من الكلام عن الله ورسوله في سياق اللَّهو والخوض واللعب أو السخرية، ولا تُوظَّف آيات القرآن في شيء من ذلك. فذلك كله وما في معناه من الكفريات التي تهوي بصاحبها سبعين خريفًا في جهنم والعياذ بالله! ففي مثل هذا قال النبي ﷺ: « **إن الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النار!** »[1].

الرسالة السادسة: في أنه لا يجوز اتباع أهواء اليهود والنصارى، ولا تقليدهم في مللهم ونحلهم، وما انبنى على ذلك من شعاراتهم واحتفالاتهم وأعيادهم وأزيائهم ذات الطابع الديني. مثل حمل الصليب مجسمًا في الحلي والخواتم، أو مصورًا على الألبسة والأمتعة، وكذا الاحتفال بعيد الميلاد المسيحي، أو غير ذلك مما هو نابع عن

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

معتقداتهم الباطلة. وفي مقابل ذلك يجب إحياء السنن النبوية، والاعتزاز بالشخصية الإسلامية. فما ابتغى مسلم العزة في غير دينه إلا أذله اللَّه!

الرسالة السابعة: في أن من يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه الهدى كل الهدى. سواء الهدى العام الذي يحتاجه كل إنسان، أو الهدى الخاص به في نفسه مما هو في حاجة إليه على الخصوص. والتلاوة الحقة للقرآن تكون بجمع القلب على ما يقرأ من كلام اللَّه في كتاب اللَّه، ووضع النفس ممددة على طاولة مشرحته، تستجيب لمشارطه ومقارضه، وتكابد مشاهده وزواجره. وذلك يبدأ بالدخول في محراب القرآن بنية الافتقار إلى اللَّه والتلقِّي عنه معالم الهدى، فلا يقرأ آية من القرآن إلا بشعور أن اللَّه ﷻ يخاطبه بها هو! حتى يشاهد في الآية عَبْدِيَّتَهُ، كما يشاهد فيها جلال المتكلِّم به وهو اللَّه رب العالمين. وبذلك ينفتح عليه من كنوز القرآن وأسراره ما لا قِبَلَ له به! فمن جمع هذه الخصال في تلاوة القرآن يكون قد تلاه حق تلاوته؛ فلا يزيده آنئذ إلا إيمانًا ويقينًا!

الرسالة الثامنة: في أن التقوى تحصل للعبد باستحضار حقيقة اليوم الآخر في قلبه أبدا، حتى يعيش ليله ونهاره مع مَشاهد المصير الأخروي، مدركًا حقَّ الإدراك أنه إما أن ينجيه عملُه برحمة اللَّه، وإما أن يوبقه عصيانه وجحوده؛ فيهلك بعدل اللَّه. جعلني اللَّه وإياكم من أهل النجاة برحمته تعالى.

الرسالة التاسعة: في أن القرآن العظيم بنى ترهيبه ونذارته كلها على حقيقة اليوم الآخر، مما يدل على أن الخطاب الدعوي يجب أن يكون على نفس الوزان، ويربط الناس بحقائق الآخرة، فهي مناط الصلاح لدينهم ودنياهم جميعًا. وأن أي خطاب إسلامي حاول دعوة الناس بوعدهم بجنة أرضية، دون النظر إلى الآخرة كان مصيره الفشل! وأنتج جيلًا يخترمه الهلع والطمع!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق بهذا المجلس يسعى إلى تحقيق هدفين اثنين. **أولهما:** التزام المساجد، **والثاني:** البراءة من اليهود والنصارى.

فأما الأول: فالتخلُّق بارتياد المسجد لا يتحقُّق للعبد إلا بمحبة! ذلك أن هذا

المسلك مقام إيماني رفيع لا يؤتاه إلا المحبون من خواص عباد اللّٰه. ودليله قول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم اللّٰه في ظله يوم لا ظل إلا ظله: « ...**ورجلٌ قلبه معلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه!** »[1] فتعلُّق القلب بالمسجد على الصورة المذكورة في هذا الحديث تدل على محبة شديدة إلى درجة الوَلَهِ! فهذا عبد لا يجد راحة قلبه إلا في ظلال المسجد، فإذا خرج منه لمعاشه أو حاجته كان همه الأساس هو متى يعود إليه! وكأنه إذ يغادر المسجد يترك قلبه معلَّقا بين سواريه أو تحت قبابه مثل المصابيح المنيرة! فلا راحة له حتى يعود إلى قلبه! وإنما معنى هذا تعلّق العبد بحبِّ مولاه، وارتباط قلبه بعبادته جلَّ علاه. فإذا أحبَّ العبدُ ربَّه التزم بيته. ومحبة اللّٰه هبة منه تعالى يؤتيها لمن تعرف إليه وسعى إليه. ويستعان على ذلك بإخلاص الدعاء، وبرفقة الصالحين من عُمّار المساجد، وملازمة موكبهم ذهابًا إلى المسجد وإيابًا، وكذا الارتباط بِحِلَقِ الذِّكْرِ ومَجَالِسِ القرآن المنعقدة بالمسجد. فذلك وما في معناه يورث العبدَ محبةَ ربِّه ومحبة بيوته؛ فينال ذلك المقام العالي من رضا اللّٰه يوم القيامة، ويجعله من السبعة المظلَّلين بظله تعالى.

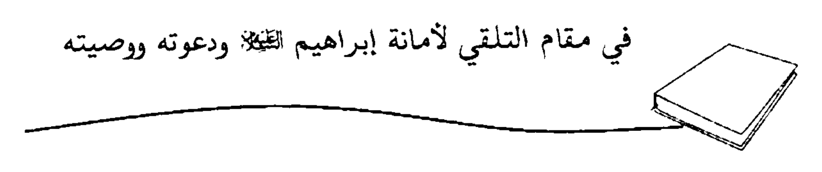
وأما الهدف الثاني: الذي هو البراءة من أهواء اليهود والنصارى، فالتخلُّق بمقامها رهين بتدبر ما عليه القوم من ضلال، سواء ما فصَّله القرآن الكريم أو ما تطور إليه حالهم من الانحراف والشذوذ الفكري والخلقي، والطغيان السياسي والعسكري، وما نشروه في الأرض من الظلم والفساد. ثم النظر في طبيعة العقيدة الإسلامية السمحة وما وضعته في الأرض من الأمن والسلام للمسلمين ولغيرهم من أهل الكتاب، فعاش غير المسلمين في مجتمع المسلمين بأمان عدة قرون! فذلك مسلك كفيل بجعل المسلم يعتزُّ بشخصيته الإسلامية، ويأبى على نفسه أن يكون ذيلًا تابعًا لغيره من أهل الملل والنحل الباطلة.

---

(١) ونص الحديث بتمامه هو كما يلي: قال رسول اللّٰه ﷺ: « سبعةٌ يظلهم اللّٰه في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة اللّٰه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه! ورجلان تحابًا في اللّٰه فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر اللّٰه خاليًا ففاضت عيناه! ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللّٰه ربَّ العالمين! ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه! » رواه بهذه الصيغة مالك والترمذي وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري معًا رضي الله عنهما، كما رواه باختلاف يسير أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة. وقد صحح الشيخ الألباني هذه الصيغة في صحيح الجامع الصغير.

المجلس السابع عشر

في مقام التلقي لأمانة إبراهيم ﷺ ودعوته ووصيته



١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا
وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ
النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ
أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ
إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)
إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ
إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ
يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾.

٢ - البيان العام:

كانت بنو إسرائيل في سياق رد فعلها على دعوة محمد ﷺ تزعم أن إبراهيم ﷺ كان يهوديًا؛ لأنها علمت أن محمدًا ينسب دينه إليه، عليهما الصلاة والسلام. فبعدما أبلغ القرآن في وعظ أهل الكتاب عامَّة، وبني إسرائيل خاصَّة، وتذكيرهم بعهد الله

وميثاقه؛ جعل يعرض حقيقة خليل اللَّه إبراهيم ﷺ، ويبين طبيعة ملَّته ومقامه العظيم. فبدأ بالتذكير بما أهَّله ليكون للناس إمامًا بإذن اللَّه، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

وقد ذكر الإمام الطبري رحمه اللَّه تعالى مذاهب المفسرين في تأويل « الكلمات » التي ابتلي، على خلاف بينهم قابل للجمع، فمنهم من قال: هي كلمات التوحيد وشرائع الإسلام التي كُلِّف بها، ومنهم من قال: هي خصال الفطرة، ومنهم من قال: هي دعوته المذكورة في القرآن، ومنهم من قال هي المحن التي ابتُلي بها. وكل ذلك جائز أن يكون مقصودًا، كما يجوز أن يكون المقصود بعضه، كما قرَّره الطبري رحمه الله(1). وإن كان لا بد من ترجيح فنحن نرجح أنها المحن التي ابتلي بها؛ لأنها يصدق عليها معنى الابتلاء حقًّا، ثم هي متضمنة لحقائق التوحيد والطاعة الكاملة للَّه ربِّ العالمين. ففي كلِّ محنة ابتلي بها ﷺ كان على أتمِّ ما تكون الطاعة والاستجابة للَّه، وهو معنى الإتمام، ومعنى الوفاء أيضًا المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧] وهذا القول مروي عن الحسن البصري رحمه الله، وهو قول وجيه مناسب لسياق الآية. فقد أخرج الطبري بسنده قال: (كان الحسن يقول: إي واللَّه! ابتلاه بأمر فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر؛ فأحسن في ذلك، وعرف أن ربَّه دائم لا يزول، فوجَّه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين. ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرًا إلى اللَّه. ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك. فابتلاه اللَّه بذبح ابنه وبالختان، فصبر على ذلك)(2).

فالكلمات المبتلى بها كلها كانت تدور حول مقاصد التوحيد والإخلاص، والطاعة، وإسلام الوجه للَّه ربِّ العالمين. وهو جوهر دين إبراهيم. وإنما نال فيه إبراهيم ﷺ مرتبة الإمامة؛ بسبب فوزه التام فيما ابتلي به من عظيم البلاء في هذه المقاصد، فلم يتزلزل ولا قيد أنملة! وإمامةُ إبراهيم قدوة للعالمين في معاني الطاعة والتوحيد. وبذلك وصفه اللَّه أيضًا بأنه كان « أمة! » قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

(١، ٢) تفسير الطبري للآية.

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] ومن هنا جعله اللّٰه حُجَّة على من انتسب إليه زورًا من أهل الكتاب، الذين خانوا ما وفَّى به إبراهيم، وما كان به للناس إمامًا! وقد أشارت الآية إلى هذا الانحراف عندما سأل إبراهيم ربَّه أن يجعل الإمامة والنبوة في ذريته أيضًا، فقال تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ مع العلم أنه سبحانه إنما جعل النبوة في ذريته من ولد إسماعيل وإسحاق، لكن الآية إشارة إلى أن من ظلم منهم بالتغيير والتبديل نزع منه تلك الأمانة. وهو حال اليهود والنصارى وعرب الجاهلية الذين كانوا في الأصل على دين إبراهيم، فانحرفوا جميعًا - هؤلاء وأولئك - إلى الشرك والقول على اللّٰه بغير الحقِّ.

ثم انتقل الخطاب إلى بيان معالم دين إبراهيم، فبدأ بأبرز مناسكه التي ضيعها أهل الكتاب وحرَّفتها العرب، ألا وهو حج البيت العتيق. مبرزًا حقائق التوحيد والإخلاص التي بُني عليها في الأصل، ومحتجًا بذلك على من لا يحجه من اليهود والنصارى، رغم أنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم عليه السلام، ويعلمون أنه هو الذي بني هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، ولكنهم لا يفعلون شيئًا من ذلك! فكيف ينتسبون لإبراهيم وهم لا يأتون من شريعته شيئًا؟

وقد ثبت أن موسى عليه السلام حجَّ البيت، كما حجَّه كثير من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام. فعن ابن عباس أن رسول اللّٰه ﷺ مرَّ بوادي الأزرق فقال: « أيُّ وادٍ هذا؟ » فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: « **كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطًا من الثَّنِيَةِ، وله جُؤَارٌ إلى اللّٰه بالتلبية!** » ثم أتى على ثَنِيَةِ هَرْشَى فقال: « **أيُّ ثَنِيَةٍ هذه؟** » قالوا: ثَنِيَةُ هَرْشَى، قال: « **كأني أنظر إلى يونس بن مَتَّى عليه السلام على ناقة حمراء جَعْدَةٍ، عليه جُبَّةٌ من صوف، خِطَامُ ناقته خُلْبَةٌ وهو يلبي!** » (١) وقال ﷺ: « **صلى في مسجد الخَيفِ [وهو بِمِنًى] سبعون نبيًّا منهم موسى ﷺ كأني أنظر إليه وعليه عباءتان قطوانيتان وهو محرم على بعير من إبل شَنُوءَةَ، مخطوم بخطام ليف له ضفيرتان** » (٢)

---

(١) رواه مسلم. وثنية هَرْشَى: اسم مكان قرب الجحفة، والخُلْبَةُ: الحبل الغليظ.

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في صحيح الترغيب وفي السلسلة الصحيحة. وشنوءة: قبيلة من اليمن.

وعن ابن عباس ﵄ قال: « لقد سلك فجَّ الرَّوْحَاءِ سبعون نبيا حُجَّاجًا، عليهم ثياب الصوف، ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبيًا! »[١].

ومِن ثَمَّ قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ والمَثَابَةُ في اللغة: المكان الذي يجتمع فيه الناس حينًا بعد حين. ومَثَابُ الماء: حوضه ووسطه الذي يجتمع فيه. يقال: ثَابَ يَثُوبُ ثَوْبًا ومَثَابَةً. وهو في جميع الأحوال دال على الاجتماع والرجوع. فجَعْلُ اللَّه - جلَّ ثناؤه - البيتَ الحرام مثابةً للناس أي: جعله منسكًا يجتمعون فيه للطواف والاعتكاف والصلاة، يأتونه ثم يعودون إليه، فلا يخلو أبدًا من حُجَّاج أو معتمرين. كما جعله آمنًا مطمئنًا لا يختطف قاصده ولا يسلب ولا يُغِيرُ عليه أحد. وكذلك كان حتى في الجاهلية، فقد يلقى فيه الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يؤذيه! وفي هذا نعمة كبرى من اللَّه على قريش الذين كانوا يسكنون مكة، بجوار البيت العتيق. وما حولهم من قبائل العرب في فتنة وخوف دائمين، فهم في حروب مستمرة وغارات لا تنتهي، وسبي وغصب وثارات تعقبها ثارات! لا أحد في الجزيرة يأمن على نفسه وماله وعرضه! إلا قبيلة قريش، فهي تتمتع بأمن وسلام، سواء داخل مكة أو خارجها، لما لها في قلوب العرب من احترام؛ بسبب مجاورتها للبيت العتيق وخدمتها له ولحجاجه. فلم تزل للكعبة حرمة عند العرب وقداسة منذ عهد إسماعيل ﵇، رغم ما انحرفوا إليه من الشرك وعبادة الأوثان. وهذا من أسرار هذا البيت وما كرَّمه اللَّه به من الحرمة والتقديس.

وقد جعل اللَّه تعالى للبيت علامة على عتاقته، فجعل لها امتيازًا خاصًا، ألا وهي مقام إبراهيم. وهو عبارة عن حجر اتخذه إبراهيم ﵇ سُلَّمًا يرتفع عليه لبناء جدران الكعبة، فلما فرغ تركه هناك، ومن العجيب أن موطئ قدميه لم يزل ظاهرًا محفورًا عليه إلى يوم الناس هذا! وهو أمر قديم كان معروفًا عند العرب في جاهليتها، وشاهده قول أبي طالب في قصيدته اللامية:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ!

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي موقوفًا على ابن عباس.

وقد أَمَرَ اللَّهُ الطوَّافين بالصلاة خلف مقام إبراهيم، فمن أكمل سبعة أشواط صلى خلفه ركعتين. وقد قُرئت: « وَاتَّخِذُوا » بصيغة الأمر، كما قُرئت: « واتَّخَذُوا » على صيغة الخبر. والنتيجة في كلا الحالين أن اللَّه جعله مصلى خاصًّا للمسلمين، له امتياز زائد على سائر بقاع المسجد الحرام. وقد ثبت أن النبي ﷺ صلى خلف المقام في حجته، ففي حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه أن النبي ﷺ: « استلم الركن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا [يعني في الطواف] ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ... ﴿١٢٥﴾ ﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت فكان يقرأ في الركعتين: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] و ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] »(١).

وإنما شرف المقام بشرف صاحبه، وهو خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. فصار ذلك تذكيرًا للأمة بهذا الرجل العظيم إمام الناس وقدوتهم، باني البيت العتيق، وناصر التوحيد، وهادم الأصنام! وقد أمر اللَّه تعالى إبراهيم وابنه إسماعيل بتطهير البيت للطوَّافين من الحجَّاج والمعتمرين، وللعاكفين وهم المقيمون فيه من أهله وغيرهم، وبه فَسَّرَ أغلب المفسرين معنى « العاكفين »، بناء على قوله تعالى: ﴿ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ ﴾ [الحج: ٢٥]. وأما « الرُّكَّعُ السُّجُودُ » فهو جمع راكع وساجد، وهما صيغتان دالتان على الحركة المستمرة، وذلك المتفرغون بالبيت للصلوات فرائضها ونوافلها المكثرون منها. والمقصود بـ « تطهير » البيت هنا: حفظه من الأوثان والأصنام، وتنزيهه من الشرك والخبائث والرجس. وقد جعل اللَّه هذا الأمر عهدًا عهد به إلى إبراهيم وإسماعيل وإلى من ورث أمانة خدمة البيت بعدهما إلى يوم القيامة. ومعروف أن العرب من ولد إسماعيل قد نقضوا هذا العهد لما أدخلوا الشرك في دينهم، ونَجَّسُوا البيت الحرام بعشرات الأصنام، بلغت في عهد البعثة ثلاثمائة وستين صنمًا! حتى طهَّره رسول اللَّه ﷺ في فتح مكة، فحطَّم الأصنام ونصر التوحيد، وجدَّد بذلك عهد اللَّه!

وفي سياق ذكر ما أنعم اللَّه به من بركات على أهل مكة وزُوَّارها ذكر تعالى ما استجاب له من دعاء إبراهيم، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ

---

(١) مختصر حديث متفق عليه.

أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ فكانت مكة بذلك بلدًا آمنًا بتأمين اللَّه شرعًا وقدرًا، إذ كان تحريمها مكتوبًا عند اللَّه في علمه تعالى قبل دعاء إبراهيم. ففي الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم فتح مكة: « **إن هذا البلد حرَّمه اللَّه يوم خلق السموات والأرض! فهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة! وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار. فهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة! لا يُعضد شوكه، ولا يُنفر صيده، ولا يُلتقط لُقَطَتُهُ إلا من عرَّفها، ولا يُختَلَى خَلاهَا!** »[1]. وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاحَ!** »[2].

ولم تزل الأرزاق إلى اليوم تجبى إلى مكة - وهي البقعة القاحلة - بما ليس في كثير من البلاد الخصبة المطيرة! فضمن اللَّه لهذه البقعة المباركة من الأرض الأمن والغذاء، وهما قوام الاستقرار والعمران البشري. كل ذلك ليتفرَّغ الناس لعبادة اللَّه وحده لا شريك له، كما هو مشار إليه في سياق الآية، وقد صرَّح به في سورة إبراهيم، قال سبحانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وهو ما امتنَّ اللَّه به على قريش بعدُ، قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٣، ٤] وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

هذا، وقد قَصَر إبراهيم عليه السلام دعاءه بالأمن والرزق على المؤمنين فقط؛ لكن اللَّه وسع ذلك على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم، فقال سبحانه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ذلك أن متاع الحياة الدنيا عام في المؤمن والكافر، وإنما جعل اللَّه التفاوت في الآخرة. وقد ضمن اللَّه الرزق للكافر حتى لا تبقى له حجة على اللَّه. ومن كان مصيره إلى النار فلا متاع له في الحقيقة مهما عُمِّر! ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

ثم استأنف إبراهيمُ دعاءَه، لكن هذه المرة بطلب عطاء الآخرة وصلاح الدين، له ولذريته، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩ ﴾ أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم: (جاء فوافق إسماعيلَ من وراء زمزم يصلح نبلًا له، فقال: يا إسماعيل! إن ربك أمرني أن أبني له بيتًا. قال: أطع ربَّك! قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه! قال: إذن أفعل! - أو كما قال - قال: فقاما فجعل إبراهيمُ يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾) الحديث [1] وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ ﴾ يعني: السميع لدعائنا هذا، العليم بما في قلوبنا من الإخلاص لك في عملنا هذا.

والآيات دالة على أن تأسيس البيت كان على الإخلاص، فرفع القواعد يعني بناء الأركان والسواري، والأسس التي عليها يقام البيت، فبهذه يُبدأ في البناء، ومع تأسيسها كان النبيّان عليهما السلام يدعوان الله بالدعاء المذكور سائلين الله - جلَّ ثناؤه - القبول؛ لأنهما إنما يبنيان البيت لله، ولله وحده! فلم يجز لأحد أن يجعله بعد ذلك لغير الله. ثم سألا الله تعالى أن يجعلهما مُسْلِمَيْنِ له، أي عَبْدَيْنِ خَالِصَيْنِ له وحده. فمعنى الإسلام هنا: إسلام الوجه لله توحيدًا وتفريدًا، والاستسلام له، والخضوع الكامل لسلطانه، كما قال تعالى - في آخر هذا السياق - عن إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١ ﴾، فلا شيء من دينه ودنياه يصرفه لغير الله. وهو معنى قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وقد سأل النبيان - عليهما الصلاة والسلام - ذلك لهما ولذريتهما، فاستجاب الله لهما وجعل من ولد إسماعيل وإسحاق - ابني إبراهيم - أمةً مسلمة لله.

---

(١) جزء حديث رواه البخاري.

وأما قوله تعالى حكاية عنهما: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾، فقد اختلف المفسِّرون في معنى « المناسك »، فقيل: هو مكان ذبح النُّسُك. والنسك: الذبيحة تذبح تقرُّبا إلى اللَّه. وقيل: بل هي مناسك الحج والعمرة أي شعائرهما وأعمالهما. وهو أنسب للسياق. وقيل: هي جميع المتعبَّدات؛ لأن معنى « نَسَكَ » في اللغة: عَبَدَ. وهذا أعم، فكأنه قال: وعَلِّمْنَا كيف نعبدك ونقيم شعائرك. ولعلَّ هذا أولى بالصواب. ثم سألا اللَّه تعالى التوبة مستندين إلى اسميه سبحانه: التواب والرحيم. توبة فيها من التواضع للَّه والافتقار إليه تعالى؛ ما يدل على ما كان عليه هذان النبيان الكريمان من كمال العبودية للَّه رب العالمين!

ثم كانت خاتمة الدعاء دعوتهما بالإنعام على هذه الأمة من ولد إسماعيل بالنبوة؛ لتجديد الدين والصلاح في ذريتهما، فوافقت دعوتهما قدر اللَّه السابق بالبعثة المحمدية، فذكرا خصائصها ووظائفها - بما ألهمهما اللَّه - تمامًا كما وصفها اللَّه تعالى في غير ما موطن من كتابه الكريم، وذلك قوله تعالى حكايةً عنهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾. وقد ذكر اللَّه تعالى هذه الوظائف المحمدية في سورة البقرة مرتين، وفي سورة آل عمران مرة، ومرة أخرى في سورة الجمعة. قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد فصَّلنا في بيان هذه الآية بمدخل هذا الكتاب بما يكفي إن شاء اللَّه، لكننا نذكر ههنا ما يناسب السياق من دعاء إبراهيم وابنه عليهما السلام. فمن تمام نعمة اللَّه على عباده أن جعل الرسل والأنبياء يبعثون من نفس أقوامهم، ومن صميم أنسابهم؛ وذلك ليكون الرسول أبلغ وأحكم في البيان. لا من حيث اللغة فحسب؛ ولكن أيضًا من حيث المعرفة بالوسط الاجتماعي للقوم والعادات والتقاليد، ومواطن الخير والشر فيهم، وغير ذلك مما يُمَكِّنُ الرسول من وضع خطابه في محلِّه المناسب، وكل ذلك داخل في معنى اللسان. وتلك هي الحكمة من قولهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ... ﴿١٢٩﴾ ﴾. وأما تلاوة الآيات عليهم فهي من نعمة الوحي؛ وطلبهما ذلك هو

لتجديد صلة الناس باللَّه؛ ولأن بالوحي تنبعث الحياة من جديد في المجتمع، وهو أساس كل رسالة إلهية. ثم إن أول الدعوة وآخرها إنما يكون بتلاوة الآيات، وتلقِّي حقائقها الإيمانية عن اللَّه تدبرًا فيها وتفكرًا. ومن خلال الوحي يتعلَّم المؤمنون من رسولهم الكتاب والحكمة، فتعلُّم الكتاب يحصل بمدارسته لتعلم أحكامه وحلاله وحرامه وسائر شعائره، ثم يتلقَّوْن من نبيهم الحكمة وهي منهج تنزيل أحكام الكتاب في واقع الزمان والمكان، وهي السنة والفقه في الدين. ثم ختما النبيان عليهما السلام هذه الوظائف بوظيفة التزكية للمؤمنين، باعتبار أنها غاية الدين والمقصد الجامع من تلاوة الآيات وتعلم الكتاب والحكمة. ومعنى التزكية: التربية للنفس بما يجعلها تترقَّى في مدارج الإيمان، وتتخلَّق بمقاماته، سيرًا إلى اللَّه بجناحي الخوف والرجاء، وأشواق المحبة؛ حتى تتخلَّص بتقواها من هواها وتكون خالصة لمولاها.

وقد وردت « التزكية » في جميع موارد هذه الآية من كتاب اللَّه مذكورة بعد وظيفة « تلاوة الآيات » مباشرة: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] كما في سورتي آل عمران والجمعة، وفي الآية الأخرى من سورة البقرة أيضًا: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ... ﴿١٥١﴾ ﴾؛ إلا في دعوة إبراهيم فقد ذكرت في آخر الوظائف كما رأيت. وذِكْرُهَا هنا متأخرة هو لتعود على ما قبلها من الوظائف بالاستثمار، أي أن كلًّا من التلاوة والتعليم للكتاب والحكمة ينبغي أن يكون مثمرًا للتزكية. وأما عطفها على التلاوة مباشرة في الآيات الأخرى فلبيان أن التزكية تحصل للمؤمن من أول خطوة يتلقَّى فيها آيات اللَّه مؤمنًا بها، وأن تلاوة الكتاب حق تلاوته لا تكون إلا مزكية لصاحبها. وفي ذلك دليل على أن خطوات التعليم للكتاب والحكمة يجب أن تكون مسبوقة بإعداد إيماني وتهييء تربوي للمتعلم، وإلا كان علمه وبالًا عليه.

وقد بعث اللَّه محمد بن عبد اللَّه - بِعِزَّتِه تعالى وحكمته - رحمةً للعالمين، في وسط جاهلي عنيف، فجعل يتلو على الناس آيات ربِّه، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم. فكانت سيرته - عليه الصلاة والسلام - أعلى نموذج لهذا المنهاج الرباني الرفيع! وكان بذلك مُحقِّقًا لقدَر إلهي عظيم، قضى به تعالى، فأصلح الأرض برجل أُمِّي يتيم! وإنما كان يصنع - عليه الصلاة والسلام - رجالَه بهذا القرآن العظيم، معتمدًا

منهاج التلاوة والتزكية والتعليم. وفي ظرف زمني وجيز تخرَّج جيل الصحابة الكرام الذين فتحوا العالم! وهذا من كمال عزة اللَّه تعالى وقدرته وحكمته، ولذلك فقد كان دعاء إبراهيم وابنه عليهما السلام بالبعثة المحمدية مختومًا بقولهما ثناءً على اللَّه عز وجل: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

وبعد أن ختم اللَّه ذكر دعوة إبراهيم وابنه عليهما السلام، توجه بالإنكار على أهل الكتاب، ممن اتخذوا غير دين إبراهيم ملةً، واصفًا إيَّاهم بالسَّفَه، وذلك من خلال استفهام إنكاري شديد، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ قال القرطبي رحمه الله: « وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفي »[1]؛ وذلك لإفادة الحصر، بمعنى: أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نَفْسَهُ. أي: إلا من أهلك نفسه بجهله! وكيف يحيد الناس عن دين إبراهيم وهو الذي اصطفاه اللَّه عز وجل واجتباه باتخاذه رسولًا وخليلًا، فكان إمام الموحدين الحنفاء، وأبا الرسل والأنبياء؛ حتى يكون إمامًا وقدوة في الدنيا لكلٍّ من جاء بعده من الأمم. وما جاء أحد من الأنبياء بعده إلا بما جاء به من التوحيد والإخلاص، وكانوا جميعًا على أصول شريعته، فكلهم صلَّى وزكَّى وصام، وكثير منهم حج البيت العتيق كما سبق بيانه بدليله، إلا ما جعل اللَّه من استثناء تشريعي جزئي لبعض رسله فيما يخص أقوامهم. حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فجدَّد اللَّه به دين إبراهيم فكان إمام الناس وقدوتهم كما كان إبراهيم، عليهما وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: أنه عند اللَّه من أوليائه المقربين، الفائزين بأعلى المنازل في الآخرة. قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (والصالح من بني آدم: هو المؤدِّي حقوق اللَّه عليه. فأخبر - تعالى ذِكْرُهُ - عن إبراهيم خليله، أنه في الدنيا صَفِيٌّ وفي الآخرة وَلِيٌّ، وأنه وَارِدٌ مَوَارِدَ أوليائه المُوفِينَ بعهده)[2] وبين الحقُّ تعالى علَّة ذلك فقال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: أنه استجاب لربِّه على أتم ما تكون الاستجابة، وأسلم له جميعَ قلبِه وجوارحِه، حتى

---

(١) تفسير القرطبي للآية في كتابه: الجامع لأحكام القرآن.

(٢) تفسير الطبري للآية.

لم يبقَ منه شيء - دِينًا ودنيا - لغير اللَّه؛ فحقَّق بذلك معنى العبودية الكاملة للَّه أداءً وإخلاصًا!

فهذه الحقائق الإيمانية الحنيفية ورَّثها إبراهيم عليه السلام وَصِيَّةً لمن بعده مِنْ ولده وحفدته، منهم إسرائيل عليه السلام، وهو نبي اللَّه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، جد بني إسرائيل ووالدهم. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ ﴾. فالدين المصطفى هو الإسلام دين إبراهيم، فأوصى النبيان إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أبناءَهما بالحفاظ على هذه الملة والتزامها أبدا حتى الموت؛ لتبقى ميراثًا صالحًا ووصيةً خالدةً يتوارثها الأبناء عن الآباء.

وقد رجَّح ابن كثير رحمه الله أن يعقوبَ وُلِدَ لأبيه إسحاق في حياة جده إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، فقد قال اللَّه تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢] قال: وهذا يقتضي أنه وُجد في حياته، حيث وَهَبَ له ربُّه ابنًا ثم حفيدًا [(١)]. وبذلك يكون إسرائيل قد تلقَّى وصية جدِّه إبراهيم مباشرة، ثم وصَّى بها هو أيضًا بنيه؛ ولذلك قُرِنَ ذِكرهما معًا في سياق واحد، فجُعلت وصيتهما في كلمات موحدة كما ترى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ ﴾؛ وذلك لبيان علو السند بهذه الوصية، وأن إسرائيل أخذها عن جدِّه مباشرة ثم وصَّى بها بنيه. ثم أُفردت وصية يعقوب بعد ذلك بعبارات أخرى لكن بنفس المعنى؛ وذلك لإقامة الحجة على بني إسرائيل في وجوب اتباع ملة إبراهيم! فثبت أن الإسلام هو دين اللَّه الحق، ودين جميع الرسل والأنبياء بلا استثناء. وهو صريح قول النبي ﷺ: « **الأنبياء أولادُ عَلاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد** » [(٢)] ذلك هو الدين فلا يزيغ عنه إلا هالك.

ثم ختم تعالى السياق بتحذير بني إسرائيل وغيرهم ممن يتوهَّم أن نَسَبَهُ ينفعه

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

(٢) متفق عليه. والعَلاتُ: الضرائر من النساء.

عند اللَّه، أو أن صلاحَ آبائه وأجداده ينجيه من عذاب يوم القيامة، وبيَّنَ أن كلَّ نفس إنما تجزى على حسب ما كسبت من خير أو شر. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا تُحاسَبون بأعمالهم. وهذا بيان في أنه لا أحد يشفع لأحد عند اللَّه إلا من أذن له، وأن النبوة نفسها ما هي إلا محض فضل من اللَّه ونعمة، وأنه لولا فضل اللَّه ورحمته لهلك الأنبياء أنفسهم! فكيف بمن دونهم من الناس؟ فلا يتعلَّق بمجرد النسب إليهم طلبًا للنجاة إلا جاهل باللَّه. وفي الحديث: « **ومن أبطأ به عَمَلُهُ لم يسرع به نَسَبُهُ!** »(١).

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في **ثلاث عشرة رسالة** هي:

الرسالة الأولى: في أن الإمامة في الدين لا تنال إلا بالتخرُّج من مدرسة الابتلاء بحقائق هذا القرآن، والتخلُّق بشريعة الرحمن، ومجاهدة النفس أولًا بالقرآن، ومكابدة حقائقه الإيمانية، تهذيبًا لها وتشذيبًا حتى تسلم وجهها للَّه، وتتحقَّق بمقام الإخلاص فلا تراعي أحدًا سوى اللَّه، ثم توطن لحمل رسالات القرآن، لمجاهدة مفاهيم الضلال في المجتمع دعوةً وإصلاحًا، وذلك بتلقِّي كلمات اللَّه بعزيمة الأنبياء وحكمتهم، ثم الصبر على المصاب بسبب ذلك.

الرسالة الثانية: في أن الظَّلَمَةَ محرومون من رضا اللَّه، ممنوعون من تلقِّي عهده وأمانته. فلا يقبل من الظالم قضاء ولا شهادة، سواء أكان ظلمه بمعنى الشرك الأكبر أم بمعنى المعصية، وقد حرَّم اللَّه الظلم على العباد وتوعَّد الظالمين بشرٍّ العقاب في الدنيا والآخرة. ففي الحديث القدسي: « **قال اللَّه تعالى: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرمًا بينكم فلا تَظَالَمُوا!** »(٢) وضمن اللَّه تعالى للعبد المظلوم إجابةَ دعوته ما دعا على الظالم، قال رسول اللَّه ﷺ: « **اتقوا دعوة المظلوم! فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة!** »(٣) وقال عليه الصلاة والسلام: « **اتقوا دعوة**

(١) جزء حديث رواه مسلم. (٢) طرف حديث رواه مسلم.

(٣) رواه الحاكم عن ابن عمر مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المظلوم وإن كان كافرًا! فإنه ليس دونها حجاب! »[١].

الرسالة الثالثة: في أن المسجد الحرام أمان الخائفين والمكروبين، ومساجد الأرض كلها تبع له في ذلك على المستوى النفسي والإيماني، فمن ضاقت عليه الأرض بما رحبت وتحامت عليه الهموم فليقصد بيوت الله لذكر الله وللصلاة، فهي مكان محضور بملائكة الرحمن، عُمَّارُهَا مذكورون عند الملك الديان محفوظون بعنايته تعالى، يبشرهم بالأمن والسلام. قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

الرسالة الرابعة: في أن قوامة المساجد وخدمتها واجب كفائي على الأمة، وأن على كلِّ بلدة وعلى كلِّ حي أن يقوم أهله بحفظ مساجدهم وتطهيرها من الدنس، وحمايتها من المشعوذين والدجاجلة؛ حتى تبقى بيوتًا خالصة للَّه. كما أن عليهم أن يَعمُروها بذكر اللَّه وبالصلاة، وبما يخدم ذلك من مجالس العلم والدعوة إلى اللَّه. وما من قوم هجروا مسجدهم إلا هلكوا!

الرسالة الخامسة: في أن من العبادة خدمة ضيوف الرحمن من الحجاج والمعتمرين، وكذا خدمة الصالحين عموما من الركع السجود بأي مكان، وخدمة سائر أهل الفضل والعلم المتفرغين لتدريس العلم الشرعي والدعوة إلى اللَّه. فقد ثبت في الحديث أن من الصدقة: « **أن تعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو ترفع له عليها** »[٢]. فكيف إذا كنت تعين رجلًا صالحًا وتمكنه من قضاء مصالحه، أو تخدم داعية إلى اللَّه أو عالـمًا مُتفرِّغًا لتعليم الناس ما ينفعهم؟ ذلك من باب أولى وأحرى. وقد أمر اللَّه ﷻ خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام بخدمة عُمّار بيت اللَّه الحرام، سواء الغرباء منهم والمقيمون.

الرسالة السادسة: في أن على المسلم - والداعية بشكل مخصوص - العمل على

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس مرفوعًا، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) متفق عليه.

حفظ أمن البلاد التي يعيش فيها، والإسهام الفعال في استقرارها، سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الغذائي. فانتشار الفتن وشيوع الخوف والجوع والعياذ بالله شرٌّ كبيرٌ! يرجع بالضرر على الناس في دينهم كما يضرهم في دنياهم. ورفع الضرر مطلب شرعي أصيل. والدِّين إنما نزل ليطبق في مجتمع مستقر؛ ولهذا وجب على المسلم أن يسهم في استقرار بلده، لا أن يكون سبب فتنته. قال اللَّه تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

الرسالة السابعة: في أن العمل الذي لا تبنى قواعده على الإخلاص منذ أول تأسيس لا يبارك اللَّه فيه ولا يقبله. بخلاف العمل المؤسس على الإخلاص من أول يوم، فإن اللَّه تعالى يبارك فيه ويتولاه، سواء كان ماديًّا أو معنويًّا، كبناء مسجد أو مدرسة، أو إنشاء دعوة إصلاحية أو عمل خيري، أو نحو هذا وذاك. وليجعل المؤمن من لحظة البدء في الخير ساعةَ خلوةٍ إلى ربِّه، ناظرًا في خفايا نفسه بالتهذيب والتشذيب؛ حتى يفرغ القصد للَّه وحده، وليحرس إخلاصه بالدعاء من لحظة بدء العمل حتى نهايته، وليتقرَّب إلى اللَّه متذلِّلا بالدعاء، من مثل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ مع الحفاظ على تجديد التوبة والاستغفار من خواطر السوء. ذلك أن لحظة التأسيس للأعمال التعبدية لحظة حاسمة في توجيه العمل إلى النجاح أو الفشل. فإذا جُرِّدَ فيها القصد للَّه وحده تولَّى اللَّه ذلك العمل بالتأييد والتسديد، وكان مباركًا في حياة صاحبه وبعد موته، فلا يزال الناس ينتفعون به ماديًّا ومعنويًّا إلى ما شاء اللَّه. وفي ذلك ما فيه من الأجر العظيم لصاحبه.

الرسالة الثامنة: في أن السعي لصلاح الذرية والأبناء من أهم واجبات الآباء، فضلًا عما فيه من عدم انقطاع أعمالهم بالموت، ويكون ذلك بالدعاء المستمر لهم، وبإشراكهم في أعمال البر والخير، وتعليمهم الصَّلاة، وحضِّهم عليها بالتحبيب والتقريب، وتعليمهم القرآن الكريم، وحفظهم من مخالطة الأشرار، والإكثار من محادثتهم ومحاورتهم، وعدم الغياب الكثير عنهم، والاجتهاد لتمثيل القدوة الصالحة لهم من لدن أبويه معًا. والاجتهاد في تحري جميع الأسباب الشرعية المساعدة على صلاحهم، وتفويض الأمر إلى اللَّه قبل ذلك وبعده في أمرهم، واللَّه لا يخيب عباده المصلحين.

الرسالة التاسعة: في أن الوصية من الوسائل التربوية الناجعة في إصلاح الأبناء، ثم هي عهد من اللّٰه يؤديه المؤمن بتنفيذه. وقد غلب على الناس إنشاء الوصايا فيما يصلح دنيا أبنائهم، وقلما يجمعونهم على وصية تَهُم دِينهم وآخرتهم، وهذا جهل عظيم بما ينفعهم في حقيقة الأمر. وقد شاهدنا أن الوصية تنفع الأبناء في دينهم حتى ولو انحرفوا حينًا من الدهر، فإنها لا تزال تدق على قلوبهم حتى يؤوبوا إلى اللّٰه تائبين، ويستقيموا على نهج آبائهم الصالحين. وقد كان العلماء من هذه الأمة يحرصون على جمع أبنائهم على وصايا دينية تَهُم آخرتهم أساسًا، وبعضهم كان يوثقها كتابة، ومن أجمل ما أُثِرَ من ذلك وصية عالم الأندلس أبي الوليد الباجي لولديه رحمة اللّٰه عليهم أجمعين، فقد كتبها بأسلوب مؤثر بليغ، متحدثًا فيها عما عليهما من حقوق اللّٰه وحقوق الأرحام، وما ينبغي لهما اتباعه في طلب العلم من المراحل، وأمور أخرى من الحِكَمِ في غاية الأهمية. حتى صارت الوصية - رغم صغر حجمها - رسالة عزيزة يتداولها الناس ويستنسخونها، وينتفعون بها جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا! [١].

الرسالة العاشرة: في أن طلب العلم الشرعي - على قدر ما يعرف به العبد مناسكه وعباداته - واجب على كل مسلم، لا تبرأ منه ذمته إلا بتحصيله! وقد سأل نبي اللّٰه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ربهما أن يريهما مناسكهما ويعلمهما كيف يعبدانه. ذلك أن اللّٰه لا يُعبد إلا بعلم؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم!** » [٢] وصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « **من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللّٰه به طريقًا من طرق الجنة! وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع!** » [٣].

---

(١) قمنا بإنجاز دراسة لهذه الوصية، ولله الحمد، في رسالتنا: « مفهوم العالِمية ». والوصية مطبوعة بملحق الرسالة. وقد طبعت قبل ذلك أكثر من مرة.

(٢) رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب عن أنس، ورواه الطبراني في الصغير والخطيب البغدادي عن الحسين ابن علي، ورواه الطبراني أيضًا في الأوسط عن ابن عباس، ورواه تمام عن ابن عمر، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود، والخطيب البغدادي عن علي، والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري.

(٣) طرف حديث رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان عن أبي الدرداء.

وقد قال العلماء - منهم ابن حزم - أن أهل المصر إذا عدموا من يعلمهم وجب عليهم أن ينتدبوا من أبنائهم من يرحل في طلب العلم الشرعي إلى حيث يوجد أهل العلم المتحققين به، فلا تبرأ ذمتهم إلا بتحصيله، والعودة إلى قومهم بالنذارة والتعليم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

الرسالة الحادية عشرة: في أن الدعوة الإسلامية الناجحة هي التي تلتزم بمنهج النبوة في البلاغ، فتقوم على الوظائف الثلاث المذكورة في كتاب اللَّه: التلاوة للآيات بمنهج التلقِّي، والتعلُّم والتعليم للكتاب والحكمة بمنهج التدارس، والتزكية للنفس بمنهج التدبُّر. وقد فصَّلنا في بيان هذه الخطوات في مدخل هذا الكتاب، بما نحسبه كافيًا إن شاء اللَّه. ثم لَخَّصْنا منها ما يناسب المقام بمسلك التخلُّق الآتي بحول اللَّه.

الرسالة الثانية عشرة: في أن إسلام المؤمن نَفْسَهُ للَّه ربِّ العالمين، والوقوف بقلبه وجوارحه على باب الطاعة، لا يتصَّرف بشيء إلا بإذن مولاه، هو غاية الدين كل الدين؛ لأن بذلك يكون عبدًا للَّه حقّ عبد! وما نال أحدٌ درجة عند اللَّه أعلى من درجة العبدية. وما مُدح محمد رسول اللَّه ﷺ من لدن ربِّه بشيء أحب إليه من وصف « العبد »، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: « **آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد** » [1] وذلك بما أسلم وجهه للَّه ربِّ العالمين كما أسلم له إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، على ما فسَّرنا في البيان العام.

الرسالة الثالثة عشرة: في أن المسلم العاقل هو من نظر إلى عيب نفسه، وأهمته ذنوبه وخطاياه، وتقصيره في أداء حقوق اللَّه، وعلم أنه لا نجاة من عذاب الآخرة إلا بعملٍ صالحٍ مشفوعٍ بعفو اللَّه ورحمته، ثم ترك التعويل على الأنساب والألقاب، واستند إلى اللَّه وحده، ثم فرغ لنفسه ولنشر الخير في الناس، ممسكًا لسانه عن التنقيص من شأن غيره. وقد كان السلف الصالح عندما يُذْكَرُ بين أيديهم أحد السابقين من أهل الفضل بسوء يَتلُون قول اللَّه تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ قاصدين بذلك صرف

(١) رواه ابن سعد وأبو يعلى وابن حبان عن عائشة، وصححه الألباني في الجامع الصغير.

المتكلم عن غيره إلى النظر في عيوب نفسه، وما قدَّم من عمل، فذلك الذي يُسأل عنه يوم القيامة! وقد صارت هذه الآية عند العلماء قاعدة في الاحتياط من الوقوع في أعراض الناس، فعن أبي راشد مولى التابعي الجليل عبيد بن عمير قال: (جاء رجال من أهل البصرة إلى عبيد بن عمير [بمكة]، فقالوا: « إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك عن علي وعثمان رضي الله عنهما ! » [يعني السؤال عن حكمهما جرحًا وتعديلًا؛ بسبب ما وقع في زمانهما من الفتن!] فقال: « وما أقدمكم شيء غير هذا؟ » قالوا: نعم! قال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1]) وفي ذلك تعريض بهم وبسفههم؛ إذ رحلوا في طلب علم يضرُّهم ولا ينفعهم، وتركوا السؤال عما يصلح دينهم ويهم آخرتهم.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق راجع إلى التحقُّق بمنزلة الإسلام، بالمعنى الذي تحقَّق به إبراهيم، والأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام. فالإسلام باعتباره مقامًا إيمانيًا أرفع من معناه الاصطلاحي العام، فهو ليس مجرد تصديق بالجنان وعمل بالأركان، بل هو سير بتلك الحقائق إلى مقام الإحسان! إنه خروج بالنفس من أناها، وتخلُّص كامل من هواها، واستسلام مطلق لمولاها، حتى لا يبقى لها من حظوظها الدنيوية قصد مقصود، فتكمل بذلك عبديتها للّٰه ربِّ العالمين. وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم في خطاب اللّٰه تعالى لرسوله محمد ﷺ قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ومسلك السير إلى هذا المقام على ثلاث طرق: طريق النظر في الملكوت، وطريق الاقتداء الحسن، ثم طريق الدعاء.

فأما طريق النظر في الملكوت: فهو مسلك إبراهيم عليه السلام فبسَيْره إلى اللّٰه عز وجل من خلال التفكُّر الدائم في ملكوت السموات والأرض بلغ إلى منزلة اليقين؛ فأسلم للّٰه ربِّ العالمين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/١٠٥).

وأما طريق الاقتداء الحسن: فهو النظر في سِيَرِ الكُمَّلِ من الأنبياء والصديقين، وعلى رأسهم الخليلان: محمد رسول اللَّه وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وأما طريق الدعاء: فبإخلاص السؤال للَّه في لحظات الصفاء التفكرية والتعبدية، أن يجعلنا وإياكم مسلمين له تعالى حَقَّ مسلمين. وقد كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما مُتحقِّقان بالإسلام العام قطعًا - يدعوان اللَّه بما حكاه عنهما القرآن: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... ١٢٨ ﴾. وما دعا اللَّهَ عبدٌ يسأل خيرًا إلا استجاب له، وآتاه من فضله العظيم.

ويجمع تلك الطرقَ الثلاثَ كلها وغيرها، الدخولُ الكلي في « مجالس القرآن »؛ القائمة على منهاج التلقِّي للقرآن من خلال الوظائف النبوية الثلاث، المذكورة في دعوة إبراهيم وغيرها من الآي، كما بيناه في « البيان العام ». وهي التلاوة والتعليم والتزكية. فبالدخول فيها على شروطها يتحقَّق العبدُ بمنزلة الإسلام الكامل للَّه ربِّ العالمين. وقد سبقت الإشارة إلى أننا درسنا هذه الوظائف بتفصيل في مدخل هذا الكتاب. ولكونها مسلكًا حقيقيًا للتخلُّق بالدين إسلامًا وإيمانًا وإحسانًا نلخِّص منها ههنا خُلاصة مُرَكَّزة. وذلك كما يلي:

فأما التلاوة: فهي قراءة القرآن بمنهج التَّلَقِّي. ومعنى التلقِّي للقرآن: استقبال القلب للوحي على سبيل الذِّكْرِ. وإنما يكون ذلك بحيث يتعامل معه العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنزُّله الآن غضًّا طريًّا! فيتدبَّره آيةً، آيةً، باعتبار أن آياته تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيًّا في عصره وزمانه! ومن هنا وصف اللَّه تعالى العبد الذي « يتلقَّى القرآن » - بهذا المعنى الذي ذكرنا - بأنه يُلْقِي له السمع بشهود القلب! قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]. ذلك هو الذاكر حقًّا بالقرآن، التالي له حق تلاوته، الذي يحصل الذكرى به ولا يكون من الغافلين.

وأما التعليم للكتاب والحكمة: فهو تَعَلُّمٌ وتعليم لأحكام القرآن العظيم وما انطوى عليه من الحكمة. والحكمة ما شرعه النبي ﷺ من سننه في بيان منهاج التخلُّق بأخلاق القرآن وشريعته، والتنزيل المتلطف لذلك كله بما يناسب الزمان وأهله. وعلم القرآن هو خَيْرُ العلم على الإطلاق. قال رسول اللَّه ﷺ: « **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ**

وعَلَّمَهُ! » وله صيغة أخرى: « إنَّ أفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ! » [(١)] وعن عقبة ابن عامر الجهني ﷺ قال: « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّةِ فقال: « أيُّكُمْ يحب أن يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطْحَانَ أو العَقِيقِ؛ فيأْتِيَ مِنْهُ بناقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ [(٢)]، يَأخُذُهُما بغير إثْمٍ باللَّه ﷻ، ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟ » قالوا: كُلُّنَا يا رسولَ اللَّه! قال: « فَلأَنْ يَغْدُوَ أحدُكُم كلَّ يَوْمٍ إلى المسْجِدِ؛ فيَتَعَلَّمَ آيتين من كِتَابِ اللَّهِ ﷻ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ناقتين! وثَلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأرْبعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أرْبعٍ! ومِنْ أعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ! » [(٣)].

وتحصيل العلم بالكتاب للنفس أو تلقينه للغير، إنما يكون بمنهج الدراسة والتدارس لآياته وسُوره مَبْنىً ومَعْنىً؛ لقول اللَّه تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فقد قُرِئَتْ (تَعْلَمُونَ) و(تُعَلِّمُونَ) فهي عملية مزدوجة، الجمع بين شقيها في الفهم والعمل أولى: التَّعَلُّم والتَّعْلِيم. وأقل ذلك أن تكون أحَدَهما: معلّمًا أو متعلّمًا.

فالمقصود بقوله تعالى: ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ - من آية آل عمران المذكورة - يعني تدرسون الكتابَ نفسه، على اعتبار أن الدراسة والتدارس أو المدارسة هي منهج التعلم، كما ذهب إليه الإمام الطبري ﷺ[(٤)]. والتدارس للقرآن الكريم هو المنهج التعليمي الكفيل بالوصول بالدارس إلى الحكمة، التي بمقتضاها يصير ربانيًّا. وقد روى ابن جرير الطبري ﷺ عن ابن عباس وعدد من التابعين - تفسير « ربانيين » في الآية؛ بأنهم: (الحكماء الفقهاء) [(٥)].

فالدراسة والتدارس إذن: هو تتبع صيغ العبارات، ووجوه المعاني والدلالات للمقاصد والغايات، من كلِّ آية وسورة، وتعلُّم ذلك كله ترتيلًا وتفسيرًا، بما فيه ضبط ألفاظه وآياته وسوره؛ للتعرف على أسراره وحِكَمِه.

---

(١) رواه البخاري بالصيغتين معًا، عن عثمان ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(٢) أهل الصُّفَّةِ: هم فقراء المهاجرين كانوا يبيتون بالمسجد النبوي. وأما بُطْحَان فهو: اسم وادٍ قرب المدينة المنورة، وكذلك العقيق مثله. وناقتان كَوْمَاوَانِ: تثنية كوماء، وهي: الناقة العظيمة السَّنَامِ العالية. وزهراء: يعني سمينة، تميل إلى البياض من السِّمَنِ.

(٣) رواه مسلم.

(٤، ٥) تفسير الطبري لآية آل عمران المذكورة: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾.. الآية.

وأما التزكية: فهي عملية التطهير للنفس، والتربية لها بما يخلصها من مراعاة غير اللَّه، للوصول بها إلى منزلة الإخلاص! قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ... ۝ ﴾: (يعني بالزكاة: طاعة اللَّه والإخلاص)(١)؛ ولذلك فالرسول الكريم ﷺ كان حريصًا على تطهير صحابته من الأهواء، والارتقاء بهم عبر مدارج الإيمان، إلى ما هو (أحسن عملًا). ولا أحسن من تخليص العبودية للَّه الواحد القهار، وتعبيد القلب له وحده دون سواه.

لكن التزكية لن يتم استثمارها على الحقيقة، ولا تحصيلها على التمام إلا إذا الْتُقِطَتْ بمنهج التَّدَبُّر؛ إذ التَّدبُّر هو الذي يورث القلب الاعتبار، ويمنح النَّفْسَ العزيمةَ على الدخول في الأعمال. فالحقائق الإيمانية والحِكَم القرآنية لا تصطبغ بها النفس إلا عند التدبُّر والتفكُّر! وذلك هو معنى التخلُّق بأخلاق القرآن، حيث تصبح تلك الحقائق وتلك الحِكَمُ خُلُقًا طبيعيًّا للمسلم. على ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في وصف رسول اللَّه ﷺ بأنه: (كان خُلُقُه القرآن!)(٢).

فتدبُّر القرآن وآيات القرآن: هو النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع. وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب اللَّه، فتنظر - إن كانت متعلِّقة بالنفس - إلى موقعها من نفسك، وآثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبتك منها؟ وما موقعك من تطبيقها أو مخالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصَّة والعامَّة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها، باعتبارها مقياسًا لوزن نفسك وتقويمها. وتعالج أدواءك بدوائها، وتستشفي بوصفاتها. وأما إن كانت تتعلَّق بالمجتمع؛ فتنظر في سنن اللَّه فيه كيف وقعت؟ وكيف تراها اليوم تقع؟ وكيف ترى سيرورة المجتمع وصيرورته في ضوئها؟ عند المخالفة وعند الموافقة.. ثم تنظر ما علاقة ذلك كله بالكون والحياة والمصير؟ ثم ما موقع النفس - نفسك أنت! - من هذا كله؟

---

(١) رواه الإمام الطبري عند تفسيره لآية البقرة أعلاه: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ... ۝ ﴾.. الآية. وكل ما رواه من الأقوال في قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ... ۝ ﴾ لا يكاد يخرج عن هذا المعنى الذي أثبتناه، مثل قوله عن ابن جريج: (قال: يطهِّرهم من الشرك ويخلصهم منه).

(٢) رواه مسلم.

المجلس الثامن عشر

في مقام التلقي لصبغة الله
ولمنهاج الحِجَاجِ مع أهل الكتاب

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

عندما رفض أهل الكتاب دعوة محمد ﷺ جعلوا يواجهونه بضروب من الاستكبار والتعنُّت، وبدل أن يستجيبوا لدعوته أو يعرضوا عنه صامتين، وهم على يقين بنبوته - عليه الصلاة والسلام - جعلوا يدعونه هم إلى دينهم، من باب السخرية والتيئيس له من قبول دعوة الإسلام! وجعلوا ينتجون جدلًا وحجاجًا لمواجهة دعوته ﷺ! فنزل القرآن الكريم يلقِّن النبي والمسلمين حجتهم البالغة! قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فكل من اليهود والنصارى جعل يخاطب محمدًا وصحبه أن اتبعونا نحن، فإن فعلتم كنتم آنئذ مهتدين! فردَّ اللَّهُ تعالى عليهم بتلقين محمد ﷺ هذه

الحجة البالغة: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إذن فلنعد إلى الأصل الأول! ولنتبع جميعًا ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وما كان عليه من إخلاص وتوحيد، بعيدًا عن الشرك الذي أدخلتموه في الدين الحنيف فأفسدتموه وحرَّفتموه! والحنيف المستقيم على الإخلاص البريء من الشرك.

وههنا مسألة اصطلاحية لا بد من بيانها: فاليهودية والنصرانية كلاهما دين مبتدَع، لا علاقة له لا بموسى ولا بعيسى عليهما السلام! فاليهودية نسبة إلى اليهود لا إلى موسى عليه السلام، ولا لأي من أنبيائهم ممن جاء بعده. وأما موسى فإنما كان على دين الإسلام. والنصرانية منسوبة إلى النصارى لا إلى عيسى عليه السلام! ولذلك فأنت ترى أن القرآن يسميهم « نصارى » نسبة إلى مدينة « الناصرة » التي انطلقوا منها، ولا يسميهم « مسيحيين »؛ لأن المسيح عليه السلام بريء منهم ومما انتحلوه من كفرٍ صريحٍ، إذ غيَّروا دين اللَّه من التوحيد إلى التثليث. صحيح أن اليهود والنصارى يعتمدون إجمالًا على التوراة والإنجيل بزعمهم، لكنها كتب محرفة بالزيادة والنقصان وبالتغيير والتبديل، فلا يجوز القطع بنسبة شيء منها إلى اللَّه.

ولذلك طالب القرآن كُلًّا من اليهود والنصارى بالعودة إلى الأصل من دين إبراهيم، الذي عليه الإجماع الكامل. حيث إن اليهود يكفرون بما عليه النصارى وهؤلاء يكفرون بما عليه اليهود. وإنما يتفقون على تصحيح نبوة إبراهيم واحترامه. والمسلمون مصدقون لجميع الأنبياء، فكان إبراهيم عليه السلام هو مركز الإجماع الإيماني لكل هذه الفرق. فكانت دعوة محمد ﷺ لأهل الكتاب باتباع الأصل حجة قائمة عليهم لا يستطيعون ردَّها بأي منطق! لكنهم مع ذلك يراوغون ويتراجعون! وهنا لقَّن اللَّهُ النبيَّ ﷺ حجة أخرى مفادها التصريح بالإيمان بكلٍّ الأنبياء على الإطلاق بدءًا بإبراهيم وانتهاء بمحمد ﷺ، بمن في ذلك أنبياء بني إسرائيل جميعًا. وليس شيء أفحم من هذا لو كانوا صادقين! قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾. وشمل بلفظ « الأسباط » كل أنبياء بني إسرائيل؛ لأن معنى « الأسباط »: حفدة نبي اللَّه إسرائيل عليه السلام وما تفرَّع عنهم من قبائل، كل قبيلة تنتسب إلى واحد من أبناء يعقوب الاثني عشر. قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقد قدَّم في الآية الإيمان باللَّه أولًا ثم الإيمان بما أنزل على محمد ثم ذكر إبراهيم ومن بعده من الأنبياء؛ وذلك لبيان أن اللَّه تعالى ربَّ العالمين هو المتحكم في ملكه يرسل لمن يشاء ويصطفي من يشاء، ولا حق لعبد من عباده في التدخُل في شؤون ربوبيته تعالى، ثم هو إشارة إلى أن هذا الذي « أُنْزِلَ إلينا » هو الذي أَمَرَنَا بالإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى وسائر أنبياء بني إسرائيل. فعجبًا لهؤلاء اليهود والنصارى يناديهم المسلمون إلى الإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون بين يدي ندائهم الإيمان بموسى وعيسى وجميع أنبيائهم، لكنهم مع ذلك يكْفرُون ويجْحَدون!

فهذا الإيمان الشامل الكامل، يجمع بين الأنبياء ولا يفرِّق كما فرَّقت اليهود والنصارى. فالمسلم أصدق من اليهود في محبة موسى عليه السلام، وأصدق من النصارى في محبة عيسى عليه السلام. كما أنه أصدق منهم جميعا في محبة اللَّه ﷻ ، حيث أسلم قلبَه وجوارحَه له تعالى، فكان عبدًا له حَقَّ عبد، خاضعًا لجلاله وسلطانه العظيم. فذلك هو معنى الإسلام، الذي كان عليه إبراهيم وأبناؤه، ويعقوب وأبناؤه الأوائل، وهو ما كان عليه موسى وعيسى وسائر أنبياء بني إسرائيل. إلا الذين حرَّفوا وبدَّلوا تبديلًا، فكانوا يهودًا أو نصارى. حتى جاء هذا النبي العربي محمد بن عبد اللَّه، عليه الصلاة والسلام، مبعوثًا بهذا القرآن من عند اللَّه، فجدَّد به دين إبراهيم، وكان بذلك رحمة للعالمين.

تلك حجة القرآن القاطعة لجدل أهل الكتاب؛ ولذلك قال بعدُ مباشرة: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ فهذا هو الهدى، وهذا هو الحق، وهذا هو العدل والإنصاف التام: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ فإن تخلَّصوا من أهوائهم وجنحوا إلى الاعتراف بالحقِّ، فآمنوا على هذه الصورة التي آمنتم بها معشر المسلمين، فقد اهتدوا وأسلموا للَّه ربِّ العالمين. وإن جحدوا ورفضوا فإنما هم في شقاق أي: في خصام لئيم، وجدال عقيم، ومراء سقيم! لا نية لهم في حوار جاد أبدا، ولا قصد لهم في الوصول إلى دين اللَّه الحق! فاللَّه ﷻ سيكفيكهم ويقيك شرَّهم ويحفظُك من كيدهم. فهو تعالى سميعٌ لما يقولون من الباطل، عليم بما يبيِّتون من الخداع والنفاق. وهو ﷻ قدير على ردِّ كيدهم في نحورهم، لكنه تعالى يقيم الحجة عليهم بهذا القرآن، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل. وأما من كفاه اللَّه فهو من الآمنين المنصورين.

أما من أُشْرِبَ جمال هذا الدين والتزم طريقه فقد أُشْرِبَ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ۝١٣٨ ﴾ والصِّبْغَةُ: من الصباغة، فكما يتشَّرب الثوبُ الصباغةَ فيتَّخذ لونها ظاهرًا وباطنًا، حتى لا يُعْرَف إلا بها، فكذلك الإسلام تَشَرَّبَهُ المؤمنون فصاروا به « مسلمين ». فتلك هي صبغة اللَّه التي لا صبغةَ من الملل والنحل أحسنُ منها. وقد ذكر المفسِّرون عن قتادة وغيره أن اليهود كانت تَصبغُ أبناءها باليهودية فيكونوا يهودًا، وكانت النصارى تَصْبغُ أبناءها بالنصرانية فيكونوا نصاري [١]. ثم صار هؤلاء وأولئك يطمعون في صبغ المسلمين بملتهم؛ فقال اللَّه تعالى لرسوله ومن معه: قولوا لهم: بل نتبع ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾؛ لأن صبغة اللَّه هي دين الفطرة الذي زاغ عنه أهل الكتاب بالتحريف والتصحيف، فضلُّوا وأضلُّوا! وأما المسلمون فهم صادقون فيما اصطبغوا به من الدين؛ لِمَا يقيمون من العبادة الخالصة للَّه رب العالمين. وأما غيرهم فإنما يعبدون الشيطان والعياذ باللَّه!

ثم زود اللَّهُ رسولَه بحجة أخرى ردًّا على جدالهم، مشيرًا هذه المرة إلى النظر في أعمال كِلَا الطرفين، فالعمل دال على حقيقة صاحبه صدقًا أو كذبًا، وعلى مدى إيمانه بربِّه والاجتهاد في طاعته. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩ ﴾ فهذا سؤال إنكاري، فيه تسفيه لعقول أهل الكتاب إذ يجادلون المسلمين في ربهم، وفي تقرُّبهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص اعتقادًا وعبادةً. فكيف ينكر اليهود والنصارى ذلك على المسلمين؟ كيف وهو ﷻ ربهم جميعًا؟ بل كان أولى بأهل الكتاب أن يتقرَّبوا إليه سبحانه كما يفعل المسلمون لا أن يحاولوا ثنيهم عن مسلك الحقِّ المبين! ومِن ثَمَّ أحالهم اللَّه تعالى على المقارنة بين الأعمال؛ لمعرفة مدى الفرق بين الأعمال الخالصة للَّه، القائمة على أساس الصدق والتوحيد، نقية من الدنس مطهرة من الشرك؛ وبين الأعمال الضالة، القائمة على الأهواء والمفرقة بين الأنبياء، المشربة بالشرك والجحود، فأي ناظر لها بعين الإنصاف يدرك أنه لا علاقة لها بالمعنى المقدس للعبادة! وإنما العابدون للَّه حقًّا

---

(١) تفسير الطبري للآية.

المخلصون له تعالى هم المسلمون. ومِن ثَمَّ بيَّنَ اللَّه للمؤمنين بهذه الآية أن إخلاصهم للَّه يقتضي منهم التبرُّؤ من أعمال اليهود والنصارى، وما هم عليه من الشرك والضلال، والقول على اللَّه بغير الحقِّ. فذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

ولما أعيتهم الحجج جعلوا يقولون: إن هؤلاء الأنبياء المذكورين جميعًا هم منا، فجعل كل من اليهود والنصارى ينسبونهم إليهم: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ .... ﴿١٤٠﴾ ﴾، مع العلم أن كُلًّا من الديانتين محرَّفٌ عن التوراة والإنجيل، والأنبياء المذكورون ههنا بأسمائهم ماتوا قبل نزولهما بزمن بعيد! وأما الأسباط فمنهم من عاش قبل موسى عليه السلام ومنهم من عاش في زمنه أو بعده، وصالحِوهم على كل حال كانوا على دين اللَّه الحق: الإسلام. وما اليهودية والنصرانية إلا بدعتان ابتُدعتا بعد موسى وعيسى عليهما السلام! ومن ثم ردَّ اللَّهُ تعالى هذه الدعوى الجاهلة بالحقائق التاريخية فقال: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ذلك أنهم كانوا يتحدَّثون عن الأنبياء تخرصًا بغير علم، وينسبونهم إلى هذا الدين أو ذاك رجمًا بالغيب، لا مرجع لهم في ذلك سوى أهوائهم! وقد كانوا يجدون في التوراة والإنجيل شهادةً من عند اللَّه بأن هؤلاء الأنبياء جميعًا كانوا مسلمين على دين أبيهم إبراهيم، وأن محمدًا ﷺ سيكون خاتمهم، فلم تَرُقْهم هذه الشهادة الإلهية فحرَّفوها وكتمُوها! وكأن اللَّه سبحانه لا يعلم ما يعملون! ولذلك وصف كتمانَهم هذا بأنه أكبر الظلم! وصاغه على أسلوب الاستفهام الإنكاري! ثم ضمَّن تعالى آخِرَ الآية تهديدًا ووعيدًا شديدًا فقال سبحانه: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى يحصي أعمالهم جميعَها، كبيرَها وصغيرَها، خَفِيَّهَا وظاهرَها، ثم يعذبهم بها في نار جهنم والعياذ باللَّه!

وختم السياق كله بعد ذلك بقاعدة الكسب المذكورة قبل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ فكان فيها ما في الآية الأولى من معانٍ، وزادت عليها هذه بتضمين الوعيد بالعقاب، ذلك أن السياق الأول كان في بيان صلاح إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وذكر

وصاياهم بالدين الحنيف، فختمته آية الكسب بنفي انتفاع بني إسرائيل بمجرد الانتساب العِرْقي إليهم، وأن صلاح الآباء لا ينفع الأبناء إذا انحرف هؤلاء عن دين آبائهم. بينما كان سياق الآية الثانية في بيان افتراءات بني إسرائيل على آبائهم، وكَذِبِهم على اللَّه تعالى، وكتمانهم الحق الذي ائتُمِنوا عليه؛ فجاءت الآية محمَّلة بوعيد العقاب على كلٍّ هذه المظالم والخطايا! فنَفْيُ الانتفاع في الآية الأولى أصيلٌ والوعيد فيها تابعٌ، بينما الوعيد في الآية الثانية أصيل ونفْيُ الانتفاع فيها تابعٌ. فالعبارات واحدة والمعنى مختلف أصالةً وتبعًا.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **الرسالات الخمس** التالية:

الرسالة الأولى: في جواز محاورة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن؛ دعوةً لهم إلى اللَّه، وإبراءً للذمة، وإقامة للحجة عليهم بالبلاغ المبين، وعسى أن يهدي اللَّه بعضهم فيسلم للَّه ربِّ العالمين. وأن على الداعية أن يتوقَّف عن الجدال إذا انحرفوا إلى المراء والشقاق؛ لأن المراء في الدين والجدال العقيم، قد يؤدِّي بالمسلم إلى إساءة الأدب مع اللَّه أو مع أحد من أنبيائه، أو إلى تأويل آية من كتاب اللَّه بغير علم؛ فيكون بذلك مفتئتًا على اللَّه، ومُتَكَلِّمًا عنه بغير علم. وفي ذلك ما فيه من الوزر العظيم! ثم إن الجدال العقيم مدخلٌ من مداخل الشيطان، ومَرْكَبٌ من مراكبه، حيث يفقد الإنسان فيه نية الإصلاح، وتتأجَّج في نفسه رغبة الإفحام والانتقام! وهذا لا يزيد الضَّالَّ إلا ضلالًا وجحودًا، فيتحمل المسلم بعض الوزر في ذلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: « **أنا زعيم ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقًّا! وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا! وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُه!** »(١) ورَبَضُ الجنة: محيطها الداخلي وحواشيها التي حول قصورها.

---

(١) رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة مرفوعًا، وحسنه الألباني في صحيح الجامع والسلسلة الصحيحة.

الرسالة الثانية: في أن الداعية المخلص المجاهد الحكيم منصور بالله مَكْفِيٌّ به تعالى. فمن سَلَكَ مسلكَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودخل في ذلك بنيّة خالصة للّه، مُتسلِّحًا بسلاح العلم، منضبطا بضوابط الحكمة؛ جعل اللّه له نورًا وفرقانًا مبينًا وكان منصورًا. فإن أصابه شيء من الأذى في اللّه كان ذلك شهادة من اللّه على رضاه عنه، وكان له رفعةً عند اللّه ومقامًا عليًّا، وجعل لدعوته القبول فينصرها اللّه ولو بعد حين.

الرسالة الثالثة: في أن الدين صِبْغَةٌ، وأن حقيقة الإسلام الكامل للّه أن يصطبغ المؤمن بأصول الدين وفروعه، ويتشَرّب حقائقه إيمانًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، كما يتشَرّب الثوبُ الصباغةَ حتى لا يعرف إلا بها! فالاصطباغ بصبغة اللّه انتسابٌ كامل إلى اللّه على سبيل العبودية الخالصة. وهو المقصود بما أُمر به رسول اللّه ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. فالأولية ههنا هي بمعنى السبق الْمَقَامِي، والسبق في الرتبة عند اللّه، لا بمعنى السبق التاريخي. فهو ﷺ « أول المسلمين » بمعنى أخلصهم للّه وأتقاهم له وأعبد! فلم يبلغ أحد ما بلغ عليه الصلاة والسلام من كمال الاصطباغ بدين اللّه. فصار هو قدوة الناس الكاملة في صبغة اللّه إلى يوم الدين.

الرسالة الرابعة: في أن كتمان شهادة الحق من كبائر الذنوب! وأن على المسلم أن يؤدِّي ما عنده من شهادة للقاضي العادل، ولكلٍّ من طلبها منه إذا كان يُؤْمَنُ جانبُه؛ إلا أن يلحقه أذى بأدائها، سواء من لدن المحكمة أو الناس؛ فآنئذ يُرفع عنه الحرج، ويسقط عنه حكم الوجوب. كما أن عليه أداء شهادة الحقِّ فيما يتعلَّق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على قدر ما عنده من العلم. فإنكار المنكر شهادة يُحَاسب العبد على كتمانها! قال رسول اللّه ﷺ: « **إن اللّه تعالى ليسأل العبد يوم القيامة حتى يسأله: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لَقَّن اللّهُ العبدَ حُجَّتَهُ قال: يا ربِّ رَجَوْتُكَ وفَرَقْتُ من الناس!** »[1] الفَرَقُ: هو الخوف. ذلك أن الدعوة إلى اللّه والتعريف بالإسلام وبيان أحكامه شهادة واجبة على كل مسلم يطيق شيئًا من ذلك،

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

وهو من معاني قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾.

الرسالة الخامسة: في قاعدة الكسب، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وقد فصَّلنا في هُدَاهَا المنهاجي بالمجلس السابق، لكنا نضيف ههنا كلمة حسب سياقها الثاني، وذلك أن الإنسان إنما يهلك بما كسبت يداه، وأن الكافر مُخلَّد في النار بكفره، وأن المسلم العاصي يعذب بخطاياه إلا أن يتغمَّده اللَّه بعفوه ورحمته. فما كسب أحد من خير فلنفسه، وما كسب من شرٍّ فعليها! نجَّانا اللَّه وإياكم من عذابه، وأدخلنا مع الصالحين في رحمته، آمين!

٤ - مسلك التخلق:

وهو ههنا في كيفية الاصطباغ بصبغة اللَّه. ويبدأ ذلك أولًا بالنسبة للمسلم بالتخلُّق بأركان الإيمان الستة: إيمانًا باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، خيره وشَرِّه حلوه ومُرِّه. فأول الطريق التحقُّق بهذه الأركان ركنًا ركنًا، حتى يعيش المؤمن في وجدانه مع اللَّه مُسَلِّمًا له كل أمره. ومعنى التحقُّق بها: أن يتجاوز المسلم مرحلة الاعتقاد العام الذي هو بمعنى التصديق، إلى مرحلة الشهود، حيث يجد هذه الحقائق تملأ شعوره وتوُّجه قلبه في كلِّ حركة وسكنة. ثم يرجع بعد ذلك على ما يقوم به أصلًا من أعمال الإسلام، بدءًا بأركانه الخمسة: من شهادتين، وصلاة، وزكاة، وصيام، وحج، إلى ما يتفرَّع عنها من نوافل وصدقات وسائر أعمال الخيرات، فيدخل فيها بما تحقَّق لديه من شهود إيماني لأركان الإيمان، حتى يكون ممن يعبد اللَّه كأنه يراه. وذلك هو معنى الإحسان المذكور في حديث جبريل [(١)]. فآنئذ

---

(١) ونصُّه: عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال:

(بينما نحن جلوس عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه مِنَّا أحدا حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام! فقال رسول اللَّه ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا.» قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان! قال: «أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيره وشره.» قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان! قال: «أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!» قال: فأخبرني عن =

لا يجد في قلبه لذة أعظم من عبادة اللَّه، ولا قذارة أسوأ من معصيته! فتعاف نفسه الذنوب، ويتعلَّق قلبه بالطاعات شوقًا ومحبة، حتى لا يجد راحته إلا فيها! فإذا بنور اللَّه يملأ قلبه فيفيض على كلِّ جوارحه خشوعًا وورعًا، حتى إن كل من يراه يذكر اللَّهَ به! بسبب ما بدا عليه - بصورة تلقائية - من الصبغة الربانية الخالصة!

وإنما يعين على ذلك كله: أن يتدرَّج المؤمن مع كتاب اللَّه تلاوةً وتعلمًا وتزكية، مع مصاحبة ثلة من الصالحين السالكين نفس الطريق. وعلى قَدْرِ صدق العبد في طلب مراده تكون سرعة سيره، فطوبى للسابقين! وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه.

* * *
* *
*

= الساعة! قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل!» قال: فأخبرني عن أماراتها! قال: «أن تلد الأمةُ رَبَّتَهَا، وأن ترى الحفاةَ العُراةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يتطاولون في البنيان!» قال: ثم انطلقَ فلبثتُ مَلِيًّا، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل» قلت: اللَّه ورسولُه أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم!» رواه مسلم عن عمر، ورواه البخاري عن أبي هريرة.

المجلس التاسع عشر

في مقام التلقي لقبلة الإسلام وِجهَةِ الدين الحنيف
وأمانة الشهادة على الناس

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ
عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ
أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا
ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ
لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ
بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ
هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ
مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ
رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم

مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا تأسيس جديد لقاعدة من قواعد الأمة، في سياق بناء المجتمع الإسلامي. وتطور كبير في طريق المفاصلة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى وغيرهم. وتزويد للشخصية الإسلامية الفتية بخصائص بارزة، وسمات قوية، تمنحها التميز والاستقلال عن سائر الأمم والملل والنحل. بل تؤهلها لوظيفة الريادة والقيادة والشهادة على الناس!

ههنا منعطف قرآني كبير، فيه تدشين لمرحلة جديدة من مراحل بناء الأمة الإسلامية. مرحلة فاصلة حاسمة، أخرجت المسلمين من مجرد طائفة من الطوائف المنشغلة بالدفاع عن وجودها الذاتي، بين طوائف من اليهود والنصارى ومشركي العرب، لها وجودها القديم وتاريخها في الجدل الكلامي.. ولبعضها سلطان في الأرض، وإمبراطوريات يُهاب جانبها كالروم مثلًا! فتنزَّلت الآيات لتجعل المسلمين على مستوى العالَمية، بل تدفعهم إلى الصدارة والشهادة على النَّاسِ كل النَّاسِ! وتعلن أن دين الوسطية دين مهيمن على كلِّ الأديان في العالم!

إن تحويل القبلة من وجهة بيت المقدس إلى وجهة البيت الحرام ليس مجرد تغيير جغرافي لوجهة المصلين فحسب؛ بل هو أعمق من ذلك بكثير! وليس عبثًا أن وقف القرآن العظيم عنده مليًا، وفصَّل في أحكامه وحِكَمِهِ تفصيلًا!

وتبدأ قصة القبلة من أول بعثة النبي ﷺ بمكة، حيث أمره اللَّه تعالى بالصلاة منذ أول عهده بالنبوة، فجعل يصلي كما علمه جبريل عليه السلام شَطْر بيت المقدس. ورغم أنه كان يصلِّي كثيرًا داخل البيت الحرام بمكة، إلا أن حكمة اللَّه جل جلاله اقتضت أن يولي وجهه - هو ومن آمن معه - شطر المسجد الأقصى. وكان محمد ﷺ يحب الكعبة بيت اللَّه الحرام، ويعلم أنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، بينما كان الأقصى قبلة بني إسرائيل! وكان يودُّ لو كانت الكعبة قبلته. ولكن أمر اللَّه كان في البدء على ما ذكرنا، ولا راد لأمره تعالى فهو سبحانه عزيز حكيم. ولم يزل النبي ﷺ ومن معه على قبلة المقدس حتى هاجر إلى المدينة، وبقيت القبلة - مع ذلك - على ما كانت عليه نحو سنة وبضعة أشهر. وهو عليه الصلاة والسلام لم يزل يرجو لو جعل اللَّه قبلته إلى

المسجد الحرام، كلما صلَّى رفع بصره إلى السماء ودعا؛ حتى نزل جبريل ﷺ بالبشرى مخبرًا إيَّاه بأن اللَّه تعالى يأمره بالتحوُّل إلى قبلة أبيه إبراهيم ﷺ، وأن يولِّي وجهه شطر المسجد الحرام. ونزل في ذلك من عند اللَّه بقرآن يتلى!

أما اليهود فقد كان رد فعلهم سيئًا، إذ كانوا مغتبطين بصلاة النبي ﷺ ومن معه إلى قبلتهم، باعتبار أنهم كانوا يرون في ذلك نوعًا من التبعية والتقليد لهم! وأما المشركون والمنافقون فقد جعلوها فرصة للطعن في الدين، ووصفه بالتغير وعدم الثبات والاستقرار، فنزل القرآن يثبت المؤمنين ويبين لهم الحِكَم الربانية العظيمة من تحويل القبلة شطر المسجد الحرام. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

والسَّفِيه: هو ضعيف العقل، قليل التمييز، الذي لا يدرك ما يصلحه. ذلك أن الكفَّار الذين عابوا على المسلمين تحوُّل قبلتهم تجاه البيت الحرام، لم يعرفوا المصلحة الشرعية التي جناها المسلمون من ذلك، ولو كانوا عقلاء لاتبعوهم فيها هم أيضًا. وإنما قالوا ما قالوا حسدًا من عند أنفسهم! فعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ في أهل الكتاب: « إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا اللَّه لها وضلوا عنها! وعلى القبلة التي هدانا اللَّه لها وضلوا عنها! وعلى قولنا خلف الإمام: « آمين! » »[1] وقال عليه الصلاة والسلام: « **إنَّ اليهودَ قَوْمٌ حُسَّدٌ!** »[2].

وقد بَيَّنَ القرآن أولًا أنَّ مسألة القبلة بمعناها الجغرافي مسألة رمزية في الدين، فالمشرق والمغرب وسائر الجهات كلها للَّه! ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، وحيثما توجَّه العبد فاللَّه تعالى قِبَلَهُ؛ ولذلك أجاز الفقهاء لمن ضلَّت عنه القبلة في سفر أو ظلمة أن يجتهد وُسْعَهُ في تحديدها، ولْيُصَلِّ بعد ذلك حيثما اتفق، ولو لم تكن الوجهة نحو القبلة في نفس الأمر. وقد كان رسول اللَّه ﷺ يصلِّي النوافل في سفره على راحلته حيثما توجهت به، دون مراعاة للقبلة. إلا أن اللَّه ﷻ قد يقدِّس بعض البقع في الأرض، فيجعلها مركزًا لاجتماع قلوب المؤمنين في الأرض. فبين أن أقدس

---

(١) رواه الإمام أحمد عن عائشة مرفوعًا، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) جزء حديث رواه ابن خزيمة في صحيحه عن عائشة مرفوعًا، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

مكان فيها هو البيت الحرام الذي بناه خليل الرحمن إبراهيم ﷺ. فأرشد المسلمين إليه لتوحيد الوجوه والقلوب في الصلاة إليه. لأنه أول مسجد وُضع للناس على الإطلاق في تاريخ البشرية. فعن أبي ذرٍّ الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **أول مسجد وُضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، وبينهما أربعون سنة** » [١] ومِن ثَمَّ كانت له حرمة عند الله لا توازيها حرمة، وجعل فيه من البركات والأسرار ما لم يجعل في غيره. فكانت: « **صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه!** » [٢] كما في الحديث. وجعله الله مَثَابَةً للطائفين والعاكفين والرُّكع السُّجود؛ ولذلك كان التحوّل شَطْرَهُ هُدًى من الله ونعمة كبرى، وهو معنى قوله تعالى ههنا: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾. أي: إلى طريق مستقيم في سياق وضع الأمة على مسار السير السليم إلى الله، والتحلّي بمراتب الكمال في عبادتها له تعالى؛ حتى تكون خير أمة أُخرجت للناس؛ بما تميّزت به من الهدى والصلاح وأمانة الشهادة على الناس.

ولذلك قال بعدُ مباشرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ... ۝ ﴾. فالوَسَطُ هنا هو بمعنى: الأجود والأفضل والخيار. يقال: فلانٌ وَسَطٌ في قومه بمعنى: أشرفهم. وإنما نالت هذه الأمة مرتبة الوسط بين الأمم؛ بما حباها الله به من الهدى إلى دين الفطرة الذي كان عليه إبراهيم ﷺ. وفي التوجُّه نحو قبلته دلالة رمزية على هذا الانتماء الأصيل. فدين إبراهيم الحنيف دين نقي لم يخالطه تحريف ولا تصحيف، ولا شابته لوثة من وثنية أو تجسيم أو تثليث، بل رفع راية التوحيد الخالص لله ربِّ العالمين، ومِن ثَمَّ جعل الله المؤمنين به خير أمة أُخرجت للناس، وحمل على عاتقهم أمانة الشهادة على الناس في الدنيا والآخرة، بما شهد عليهم رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٨] فهي شهادة على الناس في الدنيا بتقديم النموذج البشري الصالح المصلح، وشهادة عليهم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، والشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

في الآخرة بما بلَّغ الرسل والأنبياء، إذا أنكر الكفار البلاغ وجحدوه. فكل تلك المعاني العميقة مضمَّنة في حُكْمِ التحول إلى قبلة إبراهيم أبي الأنبياء والمرسلين؛ ولذلك كان حدثًا عظيمًا في تنمية أمة المسلمين.

ثم هو - إضافةً إلى ذلك كله - امتحانٌ للمجتمع الإسلامي الناشئ بالمدينة، وتصفية له من الدخلاء والمنافقين، حيث انكشف بهذا التحويل المفاجئ أمر بعض من كان يتستَّر بغطاء الإسلام ويخفي كفره، فلما حدث ما حدث من اللغط حَوْلَ القبلة فضحه اللَّه فكان من الخائضين! إذ ثقل عليه أن يتحوَّل مع المؤمنين طاعةً للَّه، وكَبُرَ عليه ذلك وشَقّ. ولعل ولاء المنافقين لليهود جعلهم يكرهون التحول عن قبلة بيت المقدس؛ إسعادًا لأوليائهم. ومِن ثَمَّ صَفَا للَّه عبادُه المخلصون. قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ واللَّه تعالى عليم بالمنافقين قبل اختبارهم، لكنه يريد بذلك كشف حقيقتهم لرسوله وللمؤمنين؛ إذ جعلوا يتقوَّلون ويخوضون. أما الصحابة الكرام فقد ثبتوا على الحقِّ وانقادوا طائعين للَّه ولرسوله عليه الصلاة والسلام. حتى إنهم أَسِفُوا على من مات منهم قبل شهود الصلاة إلى القبلة الجديدة، وخشوا أن لا تُقبل صلاتهم التي صلُّوها إلى المسجد الأقصى، فقالوا: يا رسول اللَّه! ما بال من مات منا قبل تحول القبلة؟ فهل ضاعت عبادتهم وصلاتهم سُدًى؟ فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ لأنما القبلة - كما بينا - مجرد رمز لطاعة اللَّه، وقد مات أولئك على طاعة اللَّه. وما كان لِربٍّ رؤوف رحيم أن يعذب عباده المؤمنين.

ثم هو تزكية للمؤمنين وتربية لهم على كمال الطاعة للَّه، وتمام الاتباع لرسوله ﷺ؛ إمعانًا في تعميق خُلُقِ ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾ فيهم؛ بما يحقِّق نموذجيتهم التعبدية، ووسطيتهم الإيمانية، وشهادتهم على الناس. ولقد تعامل الصحابة مع هذا الحدث على أتمِّ ما تكون الطاعة للَّه ولرسوله، حتى إن بعض من كان يقطن منهم بضواحي المدينة، لما ناداهم منادٍ بخبر تحويل القبلة وهم راكعون في صلاتهم؛ استداروا على هيئتهم تلك من الركوع، من وجهة القدس إلى وجهة الكعبة؛ استجابةً لأمر اللَّه! وقد سجَّلت كتب الحديث الصحيحة من ذلك حوادث

عجيبة جدًّا! ففي صحيح البخاري عن البراء بن عازب ﷺ قال: (لما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبُّ أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ... ﴾؛ فوُجِّهَ نحو الكعبة. وصلَّى معه رجلٌ العصرَ ثم خرج، فمرَّ على قوم من الأنصار، فقال: « هو يشهد أنه صلَّى مع النبي ﷺ وأنه قد وُجِّهَ إلى الكعبة »؛ فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر!)[1] وعن أنس ﷺ: (أن رسول اللَّه ﷺ كان يُصلِّي نحو بيت المقدس فنزلت ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ... ﴾ فمرَّ رجل من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلَّوا ركعة، فنادى: « ألا إن القبلة قد حُوِّلت! ألا إن القبلة قد حُولت إلى الكعبة! » قال: فمالوا كما هم نحو القبلة!)[2].

فأنت ترى كيف سجَّل حدث تحويل القبلة هذه الدلالات الإيمانية العميقة، وهذه التزكيات الربانية الرفيعة، وهذه المفاصلات الدينية القوية، وهذه التصفيات العقدية الكاشفة، وهذه التكريمات التأهيلية لمقام الشهادة على الناس! فأي حدث هذا أم أي تدبير إلهي عظيم؟ ولقد كان بالإمكان أن تُجعل القبلة من أول البعثة بمكة نحو الكعبة، لكن اللَّه سبحانه أجَّلها بحكمته البالغة إلى زمان نضج المجتمع الإسلامي بالمدينة، بعد نجاحه في امتحانات الهجرة، واجتماع الأنصار والمهاجرين على آصرة الإيمان، لا عرقية ولا قبلية! وليقول أهل الكتاب والمشركون والمنافقون ما قالوا، وليستيقن المؤمنون أنهم صاروا أُمَّة مستقلة عن سائر الأمم في العالم، وأنهم مطالبون بأداء شهادتهم على الناس. ومِن ثَمَّ كان حدث تحوُّل القبلة هجرة أخرى إلى اللَّه، لا تقلّ شأنًا عن حدث الهجرة إلى المدينة، بما جعل اللَّه فيها من الحِكَم والأحكام، من التأسيس والتطوير لأمة المسلمين؛ ولهذه الأسباب جميعًا كانت عناية القرآن بها كبيرة، ففصَّل فيها كل هذا التفصيل.

ومن هنا خاطب اللَّهُ تعالى رسولَه بهذا الأمر الواضح الصريح، جاعلًا المسجدَ الحرامَ قِبْلَةَ المسلمين الأبدية، قبلة واحدة مُوحدَّة. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم وأحمد واللفظ له.

فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ... ﴿١٤٤﴾ ﴾ وبهذا الأمر الإلهي الكريم تبدَّدت حيرة رسول اللَّه ﷺ؛ بما كان يقلب وجهه في السماء منتظرًا ومترجيًا نزول جبريل بهذا الخبر السعيد، فتحقَّق رجاؤه عليه الصلاة والسلام، وقرَّت عينه بقبلة أبيه إبراهيم، وتأكَّدت حقيقة انتسابه هو وأمته لِمِلَّتِهِ الحنيفية السمحة ﵇. ولم يعد خافيًا على أحدٍ من أهل الكتاب وغيرهم أن محمدًا وأمته ﷺ أولى بإبراهيم فعلا. فلا خفاء على اليهود ولا النصارى أن الكعبة هي أول بيت وضع للناس؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ فكتمانهم للحقِّ وجحودهم له، وكيدهم لهذه الأمة، كل ذلك معلوم عند اللَّه تعالى محصي عنده، وسيحاسَبون عليه يوم القيامة.

ثم بين اللَّه تعالى لرسوله الكريم أنه ما كان لأهل الكتاب أن يتبعوا قبلة المسلمين، رغم علمهم اليقين أنها قبلة آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فحسدهم الذي حملهم على الكفر بنبوته - عليه الصلاة والسلام - لم يزل يمنعهم بقوة من الالتقاء مع المسلمين على الحقِّ، سواء في العقائد أو في العبادات! وبذلك كان تحويل القبلة آية المفاصلة البارزة بينهم وبين المسلمين. قال سبحانه: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ فمهما يُقَدِّم النبيُّ ﷺ من الآيات والدلائل، على وجوب اتباع قبلة إبراهيم، فإن أهل الكتاب لن يتأثروا بشيء من ذلك، ولا بما كان من صلاته - عليه الصلاة والسلام - إلى قبلتهم من قبل! فلا أمل في هداهم واجتماعهم مع المسلمين على كلمة سواءٍ من التوحيد والإخلاص! ولا على قبلة طائفة منهم، فاليهود يستقبلون بيت المقدس، بينما النصارى يستقبلون جهة المشرق مطلقًا؛ بحجة أن المسيح ﵇ صُلِبَ - بزعمهم - إلى جهة الشرق! وما ينبغي للرسول ولا لأحد من أمته أن يداهن هؤلاء ولا أولئك فيتبع قبلتهم، أو شيئًا من مِلَّتهم مما لم يَرِدْ به شرعنا في كتاب ربِّنا وسُنَّة نبينا. فكما أنهم أمم متشبثون بما هم عليه من الأهواء؛ فنحن أيضًا أمة مُتشبِّثة بما آتاها اللَّه من الهدى والحقِّ. وما ينبغي لأحد من المسلمين أن يتَّبع

أهواءهم؛ ومن يفعل يكن إذن من الظالمين لنفسه! فلا أحد ينصره من دون اللَّه!

ذلك أن هذا الدين هو الحق، وأن نبيه - عليه الصلاة والسلام - حق، فهو دعوة إبراهيم وبشارة موسى وعيسى عليهما السلام، وأن اليهود والنصارى يعرفون ذلك يقينًا في محمد بن عبد اللَّه، كما يعرفون أبناءهم الذين من أصلابهم، يعرفونه في صفاته، وفيما ينزل عليه من قرآن كريم، وفيما صار إليه من قبلة أبيه إبراهيم. كل ذلك وغيره من العلامات والصفات مكتوب عندهم في بقايا التوراة والإنجيل التي عندهم! فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟ ذلك مضمون قوله تعالى الوارد بعدُ في هذا السياق: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: فلا تتأثر بافتراءات أهل الكتاب وتشويشهم، ولا تكن من المرتابين فيما بين يديك من الكتاب، فهو الحق اليقين.

ثم بَيَّنَ اللَّهُ تعالى أنه قضى بأن يجعل لكلِّ أُمَّة وجهتها التي تحاسب عليها يوم القيامة. فلكلٍّ طائفة من أهل الأديان والملل والنِّحل مذهبها الذي ترتضيه من الحقِّ أو الباطل، وكلٌّ يدعي أنه يعبد الإله الحق، وأن دينه هو الحقُّ، واللَّه تعالى مُطَّلِعٌ على جميعهم، فليعملوا إذن! فإن اللَّه تعالى لا يقبل إلا ما كان من وحيه الخالص، غير مشوب بشركٍ أو هوى، وقد أقام الحجة على العالمين بالبلاغ المبين! فما عليكم معشر المسلمين إلا الاجتهاد والمسابقة في الخيرات والطاعات، فأعمالكم وحدها مقبولة عند اللَّه تعالى؛ ما انبت على الإخلاص واتباع شريعته. فهو سبحانه جامع الناس ليوم الحساب، يحشرهم بعد البعث من جميع الأرض؛ ليروا أعمالهم! إنه تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ. فذلك قوله تعالى بعد بيان تعنت أهل الكتاب: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

ثم خاطب رسوله الكريم وأمته مرة أخرى بأمر اتخاذ البيت الحرام قبلةً، وذلك للمرة الثانية ثم للمرة الثالثة! في تكرار بياني عجيب، وكما هي عادة التكرار في القرآن: اللفظ واحد والمعنى متعدد [(١)]؛ جاء الأمر فيه من قوة الجزم والإلزام، ما يجعل القبلة بدلالاتها التوحيدية العميقة من أهم شعائر هذا الدين، ومن أخصِّ خصائصه البارزة!

---

(١) ن. تفسير الآية في « مفاتيح الغيب » لفخر الدين الرازي رحمه الله.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

فجاء الأمر الأول في سياق التبشير للرسول ﷺ، يزف إليه خبر تحقيق رجائه، وإجابة دعائه، وقطع حيرته ﷺ مما كان عليه من طول انتظار، وتقليب وجهه الكريم في السماء، فنزل جبريل بالبشرى من اللَّه، وأمره بالتحوُّل إلى قبلة إبراهيم عليه السلام.

ثم جاء الأمر الثاني في سياق الردِّ على أهل الكتاب وغيرهم، ممن غاظهم هذا التحوُّل المفاجئ، يحمل التثبيت للرسول وصحبه، ويكشف لهم مقاصد أهل الكتاب من ردِّ فعلهم السيئ، وأن هذا هو الحق الذي لا مراء فيه، فلا تنشغلوا بهم وانشغلوا بأعمالكم أنتم فذلك الذي ستحاسبون عليه.

ثم جاء الثالث مبينًا للمؤمنين أن بهذا الحكم يزداد أهل الكتاب يقينًا بصحَّة نبوة محمد ﷺ؛ لأنهم يجدون في التوراة والإنجيل أن اتخاذ قبلة إبراهيم من صفات النبي الخاتم [1]. فلا تكنْ لهم حُجَّة عليكم ببقائكم على قبلتهم! ولا يَشْتَغِلُنَّ بها عليكم! وقد كانوا يقولون من قبل: ما عرف محمد وصحبه قبلتهم حتى دللناهم عليها نحن! [2] فبثباتكم اليوم على قِبلة الحقِّ، قِبلةِ إبراهيمَ، سيزداد الجميع احترامًا لكم وهيبة! إلا الظلمة منهم ممن يمتلئون حقدًا وحسدًا، فلا تخشوهم! وقد قيل: إن المقصود بالظلمة ههنا كُفَّار قريش، حيث قالوا: «لقد تحير على محمد دينه فرجع إلى قبلتنا وغدًا سيرجع إلى ديننا!» [3] وجعلوا يشيعون ذلك في الناس، ويفتنون به دهماء العرب. فأما هؤلاء فلا تخافوا أراجيفهم، ولا تخشوا سخريتهم! واصبروا فأنتم الذين على الحقِّ! واخشوا اللَّه ربَّكم وحده دون سواه يزدكم قوةً وثباتًا! ويتمم لكم الهدى الذي آتاكم، بإتمام شريعته، ومتابعة تنزيل آياته حتى تمام كتابه، وكمال دينه، فتتم نعمته عليكم، قال تعالى في آخر ما نزل من القرآن: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. فتلك هي

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢، ٣) تفسير الطبري.

نعمته الكبرى عليكم، إكمال نزول القرآن وإتمام شريعته. وهي النعمة الموعود بها ههنا في سورة البقرة: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٠﴾. أي: ولعلكم بذلك تهتدون في طريق السير إلى اللَّه ربِّكم، وتفوزون بما لم يفز به غيركم من الأمم الضالة عن الهدى؛ فتكونوا خير أمة أُخرجت للناس.

وقد وقع بدء نعمة اللَّه على هذه الأمة ببعث النبيِّ محمد ﷺ في قوم من العرب قد أعمتهم الجاهلية وأطغتهم، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور، حتى امتدَّ نوره إلى كلِّ العالم. ثم تمت النعمة بعد ذلك على الأمة بتمام نزول القرآن وختم الوحي! ولذلك لما أمر اللَّه تعالى المؤمنين بخشيته ﷻ وحده دون سواه في سياق تحويل القبلة؛ مُرَجِّيًا إيَّاهم بإتمام نعمته تعالى عليهم وجعلهم على كمال الهدى، ذكَّرهم ببدء نعمته تعالى عليهم، وهي إكرامهم بنبوة محمد ﷺ، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ أي أن إتمام نعمتي عليكم سيكون كما بدأتها لكم ببعثة هذا الرسول الكريم فيكم. وبذلك وجب عليكم ذكري وشكري؛ أداءً لحقِّي عليكم في هذا. فإن فعلتم ذكرتكم أنا أيضًا فيمن عندي، وزدتكم من فضلي، وأدمت عليكم نعمتي، وشكرتها لكم في الدنيا والآخرة؛ جزاءً موفورًا. وأما من ترك الذكر والشكر فقد كفر نعمةَ اللَّه وجحدها؛ وإذن يعاقبه اللَّه ﷻ برفعها ونزعها، ولو حفظ له ظاهرها ابتلاءً وإمهالًا حرمه بركتها!

وهذه آية من آيات وظائف النبوة الواردة في كتاب اللَّه أربع مرات كما بينا قبل، تلاوةً للآيات، وتزكيةً للأنفس، وتعليمًا للكتاب والحكمة. وبها مجتمعة يتم الهدى والصلاح للأمة. وقد لـخَّصنا فيها القول بالمجلس السادس عشر، عند ورودها خلال دعوة إبراهيم [1]. ونُذَكِّرُ ههنا بأن وظيفة التزكية قد ذُكرت في هذه الآية متقدمة بعطفها على التلاوة مباشرة، وكذلك هي في سورتي آل عمران والجمعة. وفي هذا التقديم دليل على أن المقصد التربوي من تزكية الأنفس، يجب أن يكون حاضرًا لدى المعلم والمربِّي من اللحظة الأولى، مُصَاحِبًا لأول فعل التلاوة، بل إن التلاوة نفسها

(١) لك أن تطالعها مدروسة بتفصيلٍ في المدخل المنهجي لهذا الكتاب.

فعل تربوي منتج للتزكية، ولتهذيب النفس، وتعريفها باللّه. وأن التعليم الذي لا ينبني على هذا الأصل لا يكون علمًا نافعًا.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **الرسالات التسع** التالية:

الرسالة الأولى: في أنه ما ينبغي للداعية إلى اللَّه - ولا للمسلم عمومًا - أن يتأثَّر بما يشيعه المنافقون والملاحدة عن الدين والمتدينين من إشاعات وأراجيف، ولا بما تختلقه وسائل إعلامهم من دجل وتضليل! ذلك أن أعداء الدين اليوم يمارسون على المتدينين حربًا نفسية شديدة، معتمدين في ذلك على ما لديهم من وسائل الإعلام بشتى أصنافها! فليكن المسلم على بال من ذلك! ولا يَهِن ولا يحزن، وليعلم - إن صبر واحتسب - أنه منصور بإذن اللَّه، وليجاهد تضليلهم وكيدهم بالقرآن الكريم، تلقيًا لرسالاته وبلاغًا لها في الناس. قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢] والمجاهدة بالقرآن هي المدافعة بمفاهيمه وحقائقه الإيمانية؛ لإبطال مفاهيم السحر الإعلامي الباطلة ونقضها. ولا يعلو على كتاب اللَّه شيء مهما أوتي من قوة!

الرسالة الثانية: في أن رضا اللَّه تعالى إنما يتمُّ للمسلم باجتهاده في التخلُّق بكمالات الإسلام؛ حتى يكون وَسَطًا في قومه، أي: قدوةً يتأسَّى الناسُ به؛ لكمال خُلقه ومعاملاته وعبادته. وذلك هو مناط الشهادة على الناس. وبانتشار هذه النماذج الوَسَطِ في الأمة، تتبوَّأ منزلة الصدارة والقيادة للعالم، وتستأنف شهادتها على الناس. فلا شهادة إلا بتمام العدالة والصلاح. ومن سقطت عدالته بطلت شهادته!

الرسالة الثالثة: في أن مسلك النجاة، وطريق التحقُّق بمراد اللَّه تعالى من هذا الدين، هو في كمال الاتباع لرسول اللَّه ﷺ وتمام الطاعة للَّه ربِّ العالمين. وأما اتباع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فإنما يتمُّ باتباع سنته، سواء في عبادته لربِّه، أو في معاملته للناس وحسن خُلقه.

الرسالة الرابعة: في تحريم اتباع اليهود والنصارى في شيء من دينهم مهما صغر، أو مجاملتهم بالمشاركة معهم في شيء من تقاليدهم الدينية، سواء داخل كنائسهم

أو خارجها. فكل ذلك من كبائر المحرمات. وقد سبق بيان ذلك في الرسالة السادسة من المجلس الخامس عشر من هذه السورة. وإنما القصد ههنا التذكير بأمر عمت به البلوى بين المسلمين!

الرسالة الخامسة: في أن الالتزام الحق بالدين والاعتزاز بالشخصية الإسلامية، في غير صَلَفٍ ولا كبرياء، وكذا الحرص على الاستقلال الديني عن كل الملل والنحل، مع التعامل السمح مع أهل الكتاب وغيرهم، بما تقتضيه أخلاق الإسلام من بِرٍّ وإحسان؛ لا يزيد المسلم إلا احترامًا وتقديرًا. وأن ذوبانه داخل محيطهم كليًّا أو جزئيًّا لا يزيده عندهم وعند غيرهم إلا ذلًّا وصَغارًا! ولو أظهروا له - نفاقًا - أنهم يحترمونه ويفرحون بانتسابه إليهم وتقليده إيَّاهم، فإنما هم في الحقيقة يمتهنونه ويسخرون منه! وما العزة إلا للَّه ولرسوله وللمؤمنين.

الرسالة السادسة: في أن المسلم الحقّ هو من يؤدِّي حقَّ اللَّه حيثما حلَّ وارتحل، فلا يترك صلاة واجبة للَّه، سواء كان بمشرق الأرض أو بمغربها، وسواء حلَّ بشمالها أو بجنوبها، فحيثما أدركته الصلاة توجَّه شَطْر المسجد الحرام وصلَّى. لا يخاف في ذلك لومة لائم، ولا سخرية كافر، ولا تهديد حاقد. وليدخل في صلاته مكبِّرًا ربَّه، فاللَّه أكبر! وقد قال ﷻ لرسوله ﷺ لما منعه أبو جهل من الصلاة في المسجد الحرام أوَّلَ العهد المكي: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩] فجعل الصلاة معركة مصيرية في قضية الإيمان! وأنها مما لا ينبغي للمؤمن أن يساوم فيه ولا أن يلين ولا أن يهون!

الرسالة السابعة: في أن على المسلم إذا دخل في الصلاة مستقبلًا المسجد الحرام، من أي بقعة في الأرض كان مقامه أو عبوره؛ أن يوقن بأن اللَّه أمامه. وليعلم متى شرع في التلاوة والذكر قائمًا فراكعًا وساجدًا، أنه يناجي ربَّه! وفي الحديث: « **إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يُنَاجِي ربَّه!** »(١) والمناجاة خطاب القرب والمحبة! كما أن عليه إذا توجَّه للَّه شطر المسجد الحرام، أن يعلم أن مئات الملايين من المسلمين في كلِّ أنحاء العالم يتوجَّهون إلى نفس البقعة المباركة؛ أداءً لحقوق اللَّه

---

(١) متفق عليه.

وطلبًا لرضاه. فيجد بذلك شعور الصلاة في الجماعة، ولو صلَّى فردًا في سفره أو غربته. فيدرك آنئذ حقيقة الجمع فيما يقرأ في صلاته من قول اللّه تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. ويدرك أيضًا أن هذه الأمة مهْمَا بدا من تفرُّقها وتمزُّقها السياسي؛ فإنها في العمق أمة واحدة، وستعود بإذن اللّه كما كانت واحدة! قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

الرسالة الثامنة: في أن بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن الكريم، نعمتان لا توازيهما نعمة؛ ولذلك فقد وجب شكرهما للّه. فأما شكر القرآن فيتمُّ بالعمل بما فيه، وعدم هجرانه، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار وِرْدًا دائما، وقيام جزء من الليل به، ثم حضور مجالسه؛ لتدارسه وتدبره وتلقي أحكامه وحِكَمِه. وأما شكر نعمة النبوة فيتم بالحرص على اتباع سنة محمد ﷺ، والتخلق بخُلقه العظيم، والتحقُّق بمحبته. ثم تخصيصه بالصلاة والسلام عليه، عند تلاوة الأذكار والتسبيحات، وكلما ذُكر اسمه أو صفته عليه الصلاة والسلام.

الرسالة التاسعة: في أن الذِّكر والشكر عمومًا حقَّان للّه على كلِّ عباده؛ بما أسبغ عليهم من نعمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، خلقًا ورزقًا ورعايةً ثم هُدًى. وأن من ترك ذلك فقد كفر بنعمة ربِّه! ورأس الذكر الصلاة لوقتها، ثم تلاوة القرآن، فسائر الأذكار من التهليل والتسبيح والاستغفار ونحوها. وأما الشكر فهو الاجتهاد - بعد التحقُّق من الفرائض - في الإتيان بنوافلها، من صلوات، وصدقات، وصيام، وحج نافلة، وعمرة، وما تفرَّع عنها جميعها من الخيرات. وقد كان رسول اللّه ﷺ يقوم الليل شكرًا لربِّه، ويطيل القيام حتى تَتَفَطَّر قدماه! فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: « كان رسول اللّه ﷺ إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّرَ رِجْلَاه! قالت عائشةُ: يا رسولَ اللّهِ! أتصنعُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: « **يا عائشةُ! أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟** » [1].

٤ - مسلك التخلق:

وقضية هذا المسلك راجعة إلى التخلُّق بوصف الوسطية. ويكون ذلك بمجاهدة

---

(١) رواه مسلم.

النفس للتحقُّق بحقائق الإيمان، والاستقامة على أعمال الإسلام، حتى يصطبغ العبد أولًا بصبغة اللَّه، على ما بينا في مسلك المجلس السابق. ثم يزيد ههنا **ثلاث مجاهدات:**

أولها: سرعة الاستجابة للَّه ولرسوله ﷺ طاعةً واتباعًا. فلا يتردد في قَبول أي حكم شرعي عَلِمَ أنه من عند اللَّه، ولا يتأخَّر عن تطبيق أي سُنَّة تهمه في نفسه وعبادته، ما دام قد ثبتت عن رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام. فينضبط لهما كما ينضبط إلى القبلة في صلاته، لا يستدرك على اللَّه ولا على رسوله بشيء، وإنما يقول: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾.

والثانية: أن يجاهد نفسه للتخلُّق بمقام الإحسان إلى الخلْق، والإشفاق على الناس ولو كانوا عُصَاةً، وذلك هو معنى الحِلْم، وهو صفة من صفات اللَّه ﷻ، واسم من أسمائه الحسنى. وقد آتاه تعالى خَلِيلَيْهِ الكريمين: إبراهيم ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام، فكانا خير خلق اللَّه في العطف والحِلْم على عباد اللَّه.

والثالثة: أن يشتغل بوظيفة الأنبياء، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإشاعة الخير والصلاح في المجتمع. ثم الصبر على ما أصابه في ذلك من الأذى النفسي أو المادي. فإذا فعل ذلك كله كان أحد الشهداء على الناس حقًّا. وبوفرة هذا النموذج الرباني الرفيع تتحقَّق الأمة بوصف الشهادة على العالم كلِّه.

* * *
* *
*

المجلس العشرون

في مقام التلقي لمنزلة الصبر
والترهيب من كتمان الحق

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

هذا سياقٌ مؤسَّسٌ على السياق السابق ومرتبط به؛ ذلك أن اللَّه تعالى لما ختم قضية تحويل القبلة بتوجيه المسلمين إلى الذِّكر والشُّكر على ما أنعم عليهم من الهدى فيها، وفي أمر النبوة ببعثة الرسول المعلِّم عليه الصلاة والسلام؛ أمرهم بعد ذلك مباشرةً بالصبر! لأن دوام العبد على الذِّكر والشُّكر لا يتم إلا بالاعتصام برديفٍ لهما وهو: الصبر. فالمؤمن الحقُّ لا تخرج أحواله عن أحد أمرين: فإما أن يكون شاكرًا، وإما أيكون صابرًا، وهو بكلا الحالين ذاكر للَّه. فعن صهيب الرومي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

« عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره له كله خير! وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له! » [١].

ومِن ثَمَّ أمر تعالى بالاستعانة بالصبر وبالصلاة؛ لأن الصلاة هي المورد الذي يتزود منه المسلم بالصبر، وبها يقع انفتاح القلب المكروب على اللّه مفرج الكروب، ويتزود من رَوْحِهِ تعالى بالقوة والأمل. قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ أي استعينوا بالصبر والصلاة على ما يواجهكم من المحن والشدائد، وعلى ما تجدونه من أذى الكفار، وكذا على مشاق التكاليف التي تؤمرون بها، كالجهاد، والصيام، والحج، والإنفاق في سبيل اللّه، ونحوها.

وقد مرَّ نظير هذه الآية في خطاب اللّه لبني إسرائيل بقوله سبحانه: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾. والفرق بين الآيتين أن هذه خوطب بها من عَلِمَ اللّه أنهم لا يستجيبون لها، وإنما أقام عليهم الحجة بها! ولذلك قال: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ وأما الثانية وهي التي نتدارسها الآن في هذا السياق الجديد، فإنما خُوطب بها المؤمنون باللّه واليوم الآخر، الذين عَلِمَ تعالى أنهم يستجيبون لها؛ ولذلك بشَّرهم بِمَعِيَّتِهِ تعالى فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ وكفى بمعية اللّه تعالى عونًا للعبد الصابر، وبشارة له بالفرج والأجر العظيم! فلا ينال مَعِيَّتَهُ سبحانه إلا من فاز برضاه! فهنيئًا لك يا عَبْدُ الْحِمَى الآمِنَ الحصين!

ومعنى الصبر: مجاهدة النفس عند اشتداد الشدائد، على التسليم للّه فيما قضى وقدَّر، وتلقِّي البلاء النازل بقلب مؤمن، مُتحقِّق بالرضا عن اللّه، واليقين في جمال حكمته تعالى وسعة رحمته. غير مُتسخِّط ولا جَزِع. وهذا مقام لا يؤتاه إلا من ثبته اللّه! فرُبَّ عبد تراه رابط الجأش عند المصيبة، جَلدًا مُتجلِّدًا، وهو في داخل نفسه ساخط عن ربِّه، غير راضٍ بما قدَّر عليه! فما هذا بصابر ولا هو بمحتسب والعياذ باللّه! وإنما الصبر إيمان باللّه ورضا بقضائه وقدره، واستسلام كامل له تعالى. رزقنا اللّه وإياكم العفو والعافية!

والصبر ضروب؛ منها الصبر على دوام الطاعات، والثبات على مَكَارِه العبادات،

---

(١) رواه مسلم.

والصبر على مقاطعة الشهوات المحرمات، والإعراض عن مغريات المنكرات، ثم الصبر على أذى الناس ومخالطتهم، والصبر على البلوى وما ينـزل من مصائب، وعلى الخصاص في الأرزاق والأبدان والأولاد وغيرها من النعم، والصبر على مشاقِّ الجهاد في سبيل اللَّه، ثم الصبر على شكر النعمة للَّه، وعدم الطغيان فيها.

ولما كان الخطاب مُؤَسَّسًا على سياق مواجهة أهل الكتاب ومَنْ والاهم من الكُفَّار والمنافقين، فيما ألحقوه بالمسلمين من الأذى؛ بسبب ما هداهم اللَّه إليه من الحقِّ؛ أفرد الصبر على مشقة الجهاد وما يخلف من شهداء، بآية تبشر المؤمنين بالجزاء العظيم والعطاء الكريم! قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ فالشهيد الحقُّ في سبيل اللَّه حي بمعنيين: فهو حي في الأمة لأنها بشهادته هي الآن تَحْيَا! وبذلك يمتد أجره طولًا وعرضًا إلى يوم القيامة! وأما المعنى الثاني فهو مترتب عن الأول؛ ولذلك كان أعظم وأكرم! وهو ما يهبه اللَّه تعالى للشهيد من خصوصية ليست لغيره! فكل الموتى تُودَعُ أرواحُهم في عالم البرزخ إلى يوم يبعثون؛ إلا الشهيد! فهو يُكرم بدخول الجنة مباشرة، ولا يعرف لعالم البرزخ معنى، بل يعيش حياة حقيقية، لا مجاز فيه ولا تمثيل! فعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **إن أرواح الشهداء في جوف طير خُضْرٍ لها قناديل معلَّقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اِطِّلَاعَةً فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رَأَوْا أنهم لم يُتْرَكُوا من أن يَسْأَلُوا قالوا: يا ربِّ نريد أن تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا؛ حتى نرجع إلى الدنيا فَنُقْتَلَ في سبيلك مرة أخرى! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكُوا!** » (١) فتلك حياة الشهداء حياة في قمَّة الحياة! ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ تمامًا كما أننا لا نشعر بحياة الملائكة في الملأ الأعلى بما نحن محجوبون بحجب العالم المادي.

ثم اتسع الأمر بالصبر ليشمل الصبر على جميع الشدائد التي قد تصيب المسلمين، سواء كانت من إرهاب الكفَّار، أو من حصارهم الاقتصادي، أو كانت

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

من موت، أو من جفاف شديد، ونقص في الغِلَال الزراعية وهلاك الماشية، ونحو هذا وذاك والعياذ بالله. فكل ذلك ابتلاء من الله تعالى وجب تلقِّيه بعزيمة الصبر، وعدم الجزع، ولا الميل إلى الكفار، أو السعي إليهم بالممالأة؛ بما يهدم بعض أحكام الدين، ولا استحلال المحرمات من أجل كسب مال خبيث، إلا لضرورة شرعية يقدرها العلماء ويحكمون بها. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ فإنما هي ابتلاءات رحمة، أو كما سمَّاها بديع الزمان النورسي رحمه الله: « لطمات الرحمة »؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ ﴾؛ للتقليل من ضره، والتهوين من خطبه. فليس هو خوفًا أو جوعًا أو نقصًا من النعم، وإنما هو شيء يسير منه، سلَّطه الله سبحانه على عباده ليبتليهم به؛ فيجعل للصابرين عليه درجات عالية عنده؛ رحمةً منه تعالى. مثلما يأخذ الأطباء جرثومًا ضعيفًا فيحقنون به جسم الإنسان لتحصينه وتقويته. فهي مصائب إذا حلَّت بالعبد المؤمن استبشر بها وازداد إيمانًا! ولذلك قال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ فهذا يقين في الله عظيم، إذ يشاهد المؤمن عبوديته لله كاملة، ويرى أنما هو عبدٌ لله، مملوك له وحده تعالى بما خَلَقَهُ ورزقه، راضٍ بما أعطى راضٍ بما منع، فله تعالى ما أعطى وله ما منع.

وله تعالى الرُّجْعَى في الدار الآخرة، حيث يجد الصابرون أن ما مُنِعُوهُ أو فَقَدُوهُ في الدنيا قد ادَّخره الله لهم في الدار الآخرة، فأَرْبَاهُ لهم أضعافًا كثيرة. فالصابرون يشاهدون هذه الحقائق الإيمانية الآن في الدنيا؛ بما أوتوا من ثقة عالية بالله ويقين، فَيُعَبِّرُونَ عن مشاهداتهم تلك بهذا التعبير الرباني الرفيع: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ فهؤلاء قوم فازوا وأفلحوا، وأتموا كلمات الله فيما ابتلاهم به؛ فكان لهم من الله ثناء عظيم ومقام كريم! قال سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ وصلاة الله على عباده غفران، وهي ههنا صلوات وليس صلاة واحدة؛ بما يشمل جميع ذنوبهم بالغفران، ويبدلهم بما صبروا جنة الرضوان! ثم لهم أيضًا منه تعالى رحمة، وهي ههنا فضل زائد على الغفران، إنها عِلَاوَةٌ في الأجر، وزيادة في الدرجات، وإكرام من الله. وهو تعالى يقدِّم للعبد الصابر من ذلك مقدمة في الدنيا

رأفةً به وودًّا؛ وذلك بما يسعده به من أُنس، وبما يُنزل عليه من سكينة، ويزيده من إيمان، ثم بما يُخْلِفُ له من واسع خزائنه وفضله. فمن كان هذا شأنه فهو المهتدي حقًّا إلى حقيقة الإيمان، المتخلّق صدقًا بمنزلة الإسلام.

وبعد الفراغ من بيان منزلة الصبر للمؤمنين، خاطبهم بآية من أحكام الحجِّ، ذات ارتباط خاص بسياق الصبر وما قبله من سياق القبلة. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾. ذلك أن السعي بين الصفا والمروة، شعيرة تعبدية تُذَكِّرُ العبد بما عانته « هَاجَرُ » وولدها إسماعيل عليه السلام من شِدَّةٍ، أَوَّلَ نزولهما بوادي مكة، وهي آنئذ خلاء مقفر، لا أثر فيها للحياة! وما كان من سعيها الشديد بين جبلي الصفا والمروة؛ بحثًا عن قطرة ماء أو إنجاد، بعد نضب ثديها وعطش ابنها وبكائه المستمر! ولحكمته تعالى لم يفجِّر عين زمزم مذ حلَّت هاجر وابنها بالوادي القاحل مباشرةً، ولا فجَّرها بعد الشوط الأول من سعيها، ولا بعد الثاني أو الثالث.. إلخ. وإنما جاء الفرج من الرحمن بعد تمام الشوط السابع! وهذا درس في الصبر بليغ! فهاجر برغم أنها كانت تمد بصرها في أفق الوادي، تارة من على الصفا، وتارة من على المروة، فلا ترى طيفًا قادمًا ولا خيال إنسان، فهي - مع ذلك - لم تزل تسعى بقوة دون سأم أو ملل! لولا أنها سمعت صوتًا غريبًا ناحيةَ ابنها إسماعيل، فنظرت فإذا مَلَكٌ قائم بين يديه، يضرب الأرض بجناحه، ويفجِّر زمزم كوثرًا متدفقًا!

ومِن ثَمَّ وثَّق اللَّه تعالى هذا الدرس الإيماني البليغ؛ بجعله شعيرة تعبدية ضمن أعمال الحج والعمرة، فريضةً على جميع المسلمين! لكن طول زمن الجاهلية ألقى بغبار النسيان على هذه الحقائق، حتى إن بعض المسلمين لما حجُّوا في بداية إسلامهم تحرَّجوا من السعي بين الصفا والمروة؛ بسبب ما كانوا يعهدونه عليهما من أصنام، إذ وضعت قريش على الصفا صنم « إِسَافٍ » ووضعت على المروة صنم « نَائِلَة »، فظنوا أن السعي بين الصفا والمروة إنما هو من أجل هذين الصنمين؛ حيث كانوا يتمسحون بهما تعبُّدًا وتبرُّكًا! فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا نكره الطواف بَينهما لأنهما من شعائر الجاهلية! حتى نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾)(١).

---

(١) رواه البخاري والنسائي واللفظ له.

والشعائر في اللغة هي: المعَالِم، جمع شعيرة. فشعائر اللَّه: معالمه التي يُذْكَرُ عندها، والمناسك التي يُعبد بها؛ ولذلك وردت الآية برفع الحرج عن المسلمين في ذلك، وبيان أن الصفا والمروة من شعائر اللَّه؛ تذكيرًا بقصة هاجر وما خلفته من درس عظيم للمسلمين. فأمر اللَّه تعالى عباده بالسعي بينهما؛ لِتَلَقِّي هذه الحقائق الإيمانية الرفيعة، من صبر ويقين وثقة باللَّه! قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره، وذله، وحاجته إلى اللَّه في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لتفريج ما هو به! » (١).

ومعنى قوله تعالى ههنا: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾، بيان أن اللَّه تعالى كما رفع الحرج عن السعي بينهما لمن حجَّ الحجة الواجبة المفروضة، فقد رفع الحرج أيضًا عمن تطوَّع بحجَّة نافلة أو عمرة، فاللَّه شاكر له سعيه، عليم بأنما قصده تلبية نداء اللَّه وتوحيده لا عبادة حجرٍ! والزيادة في الخير خير. وفي هذه الآية ذات الدرس البليغ إشارة جديدة إلى حكمة اتخاذ البيت الحرام قبلة، وما جعل اللَّه تعالى فيه وحوله من بركات، ومن آثار الأنبياء والصِّدِّيقين!

ثم أشار مرة أخرى إلى أن أهل الكتاب يعلمون كثيرًا من هذه الحقائق الإيمانية، كما يعلمون أن آباءهم الصالحين من الأنبياء والصديقين قد حجُّوا واعتمروا، وسعوا بين الصفا والمروة، وأن تجديد ذلك وإحياءه هو من صفات نبي اللَّه الخاتم محمد ﷺ! لكنَّ خَلَفَهُمْ جحد هذا كله وكتم حقائقه! فصبَّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عليه غضبه ولعنته! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ والمقصود أحبار اليهود أولًا، ثم كل من سلك مسلكهم من كتمان أحكام الشريعة! وآياتها البيِّنات، وما جعله اللَّه فيها من الهدى، بيانًا واضحًا للناس في كتابه العظيم، فهؤلاء يلعنهم اللَّه ويلعنهم اللاعنون. واللاعنون هنا: هم الملائكة والناس أجمعون، كما سيأتي قريبا! وأما لعنة اللَّه: فهي الطرد من رحمته والعياذ باللَّه! ثم جعل للتائبين مخرجًا من هذه اللعنة الرهيبة، وأركس فيها من لم يتب! فقال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾. بمعنى: إلا من تاب إلى اللَّه وندم عما كتم فبادر إلى البيان؛ لإصلاح ما أفسد بكتمانه. وأما من أصرَّ على جحوده للحقِّ وكتمانه، وبقي على ذلك حتى مات والعياذ باللَّه؛ فأولئك تنزل عليهم لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، ثم تتبعهم إلى الآخرة، حتى تهوي بهم في نار جهنم! فيخلدون فيها أبدًا، لا يُخفَّفُ عنهم من سعيرها ولا من مدَّتِها والعياذ باللَّه! ولا هم يُنْظَرُونَ أي: لا يُمْهَلُونَ يوم القيامة ولا يؤجَّلون، ولا تُعْطَى لهم فرصة للاعتذار! بل يبدؤهم العذابُ حالَ موتهم مباشرةً! نجَّانا اللَّه وإيَّاكم من عذابه وسوء عقابه، وجعلنا من أهل نجاته ورضوانه، وأدخلنا في واسع رحمته!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو بهذا المجلس في **تسع رسالات** هي:

الرسالة الأولى: في أن الصبر عبادة من أجل العبادات، قد تبلغ بالمؤمن أعلى الدرجات! إذ به يعرف العبدُ ربَّه حق المعرفة، فتزداد ثقته به تعالى ويرسخ يقينه؛ ولذلك كان الصبر في الحقيقة هبةً ربانية، إنما يهبها اللَّه – جلَّ ثناؤه – لمن يحبه من عباده، فعن محمود بن لبيد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إذا أحبَّ اللَّهُ قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع!** »(١) فمعنى قوله: (فله الصبر) أي: له جزاء الصبر، بما هو عبادة خالصة للَّه، تستحق المنازل العالية في الجنة! قال عليه الصلاة والسلام: (**إن العبد إذا سبقتْ له من اللَّه منزلةٌ فلم يبلغها بعمل؛ ابتلاه اللَّه في جسده أو ماله أو في ولده، ثم صبر على ذلك؛ حتى يبلغه المنزلة التي سبقتْ له من اللَّه ﷻ!**)(٢) وذلك أن المؤمن كلمَّا صبر على شيء من الأذى واحتسبه في اللَّه، كفَّر اللَّه عنه خطاياه، حتى يصير طاهرًا من الذنوب! فعن أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **ما يصيب المؤمنَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشَّوكة يُشَاكُهَا؛ إلا كفر اللَّه بها من خطاياه!** »(٣).

---

(١) رواه أحمد، وقال المنذري في الترغيب: رواته ثقات. وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير والأوسط. وصححه لغيره الشيخ الألباني في صحيح الترغيب.

(٣) متفق عليه.

والصبر بعد ذلك باب من أبواب الفرَج، وسبب من أسباب انكشاف البلاء وذهاب الشدة. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: إذا ابْتَلَيْتُ عبدي المؤمنَ فلم يَشْكُنِي إلى عُوَادِهِ، أطلقتُه من إساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل!** »[(١)].

الرسالة الثانية: في أن من معاني الصبر عدم فقدان الأمل، ومحاربة اليأس، والتحلّي باليقين، وسَعَةِ الرجاء في اللَّه، والأخذ بأسباب النصر، والسير في طريق الوصول، ثم انتظار الفَرَجِ من اللَّه، فانتظار الفَرَجِ عبادة! وقد رأيتَ - كما فسَّرنا في البيان العام - كيف أن هاجر لم تصل إلى مرادها إلا بعد الشوط السابع من السعي الشديد بين جبلَي الصفا والمروة، ورضيعها جالس في حرِّ الشمس يبكي عطشًا! وهي لم تزل تركض وَلَهًا! وفي ذلك ما فيه من المشقة المادية والمعنوية! وكان بقدرة اللَّه تعالى أن يفجِّر لها الماء بمجرد نزولها وابنها بتلك الفلاة المخيفة! لكن اللَّه تعالى يُعَلِّمُ عباده كيف يَثْبُتُونَ على الإيمان وعدم اليأس، وكيف يستأنسون بِرَوْحِ اللَّه، وجمال الرجاء فيه، ولو طال زمن الابتلاء واشتد! وقد قال يعقوب لبنيه من قبل، وقد يئسوا من العثور على يوسف: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

الرسالة الثالثة: في أن على الداعية أن يصبر على نضج دعوته. فعلاوة على وجوب تخلُّقه بضروب الصبر مما ذكرنا في البيان العام، أي من الصبر الواجب على جميع المسلمين؛ فهو مطالب بالتخلُّق بمقام خاص من الصبر، وهو الصبر الدعويّ، فلا يستعجل ثمرة عمله، ولا يتسرَّع فيها بمحاولة قطفها قبل إبَّانِهَا، بل عليه أن يتحلَّى بالصبر والتأنِّي؛ حتى يأذن اللَّه فيها بما يبدو من أماراتها ومحيطها. فعن خَبَّاب ابْنِ الأَرَتِّ ﷺ قَالَ: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: « **كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ! وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا**

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما. وصححه الألباني في صحيح الترغيب وصحيح الجامع.

يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ! وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ؛ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ! وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ! »[1] والداعية العامل للَّه حقًّا، ما ينبغي أن يحرص على رؤية ثمارها بنفسه في الدنيا! بل ربما مات قبل أن تغل وتثمر! فإنما هو عبد للَّه يعبده بما أمره به من بلاغ رسالاته. وأما مراعاة الثمار وطلبها فربما خالطه شيء من مراعاة حظوظ النفس، والتمتُّع بما عملت يداه هنا في الدنيا قبل الآخرة. وربما أفسد هذا منهج العمل وأخرجه عن قواعد الشرع وضوابط الحكمة!

نعم؛ واجب عليه أن يسدد العمل، ويضبط الخطوات، وأن يراعي الأنسب للبيئة، والأوفق للكتاب والسنة، والأصلح لإنتاج الثمار، والأوفر مردودًا، والأخف كَلَفَةً ومجهودًا؛ ولكن للأمة لا لنفسه! ولمصلحتها لا لحظِّه! أما هو فقد باع نفسه للَّه؛ واتجه بكلِّ نظره وأشواقه نحو الآخرة!

الرسالة الرابعة: في أن صلاة الليل قيامًا بين يدي اللَّه وتبتُّلا، من أهم ما يتزوَّد به الداعية في دينه ودعوته، وأنه إذا جمع بينها وبين التخلُّق بالصبر - على ما ذكرنا - نالته ولاية اللَّه ومعيته؛ فكان مُسَدَّدًا وكان منصورًا. قال اللَّه ﷻ للرسول ﷺ وهو يُعِدُّهُ لحمل الرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٥] ثم جمع له بين الأمر بالصبر والأمر بالذكر وصلاة الليل، من بعدما لحقه أذى الكفار، فقال سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٤ - ٢٦].

فثلث الليل الآخر هو موعد المهمومين والمكروبين مع اللَّه تعالى، وهو قبل ذلك موعد الأنبياء والصدِّيقين والعلماء الربَّانيين؛ حيث تتنزَّل عليهم الرحمات والبركات، فلا يدركهم الصبح إلا وقد انكشفت الغمة وانفرجت الكربة، ورجعوا من عند ربِّهم بالعطايا والأمان، وحمدوا سُرَاهُمْ. فعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قَالَ: « **يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟** »[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

الرسالة الخامسة: في أن المداومة على ذكر اللَّه من أهم ما يستعان به على التحلِّي بالصبر والثبات عليه، وقد مدح اللَّه تعالى الصابرين وبشَّرهم بالأجر العظيم والْـخَلَفِ الكريم، في الدنيا والآخرة، وقيَّد ذلك بما وصف من ذكرهم للَّه تعالى عند المصيبة، وأنهم يَسْتَرْجِعُونَ، أي يقولون: « إنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون! » ثم إن ذكر اللَّه تعالى على كل حال يستجلب معية اللَّه ورضاه، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه: « **يَقُولُ اللَّهُ** ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً! » (١).

الرسالة السادسة: في أن الجهاد في سبيل اللَّه يبدأ بمجاهدة النفس أولًا؛ حتى تفنى عن حظوظها الدنيوية في اللَّه، وتصبح خالصة بعبوديتها له وحده! وما الجهاد بمعنى القتال إلا ثمرة لتلك المجاهدة. وذلك معنى كونه (ذروة سنام الإسلام)، أي: أعلى قمته! كما ثبت في الحديث الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام: « **رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سِنَامِهِ الجِهَادُ!** » (٢)؛ لأن المؤمن لا يصل إلى الذروة إلا بعد التحقُّق من القواعد والأركان؛ ولذلك نال الشهيد ما نال من الأجر العظيم كما أوردناه في البيان العام.

لكنْ ليس كل من قُتِل في الصفِّ الإسلامي يعتبر شهيدًا عند اللَّه! ولذلك ترجم الإمام البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب لا يقول: فلان شهيد!) ثم روى في الباب بسنده حديثًا عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ، وَفِي أَصْحَابِ رسول اللَّه رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ! فَقِيلَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ!** » فَقَالَ رَجُلٌ مِن الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي، والطبراني. وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح ». وقال الشيخ الألباني: « صحيح ». حديث رقم (٥١٣٦) في صحيح الجامع.

شَدِيدًا؛ فَاسْتَعْجَلَ الْـمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ! فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! قَالَ: « وَمَا ذَاكَ؟ » قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْـمَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْـجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْـجَنَّةِ!** »)[١].

والسبب في ذلك ما قد يستبطنه الإنسان من أهواء، وحظوظ نفس، ومراءاة تفسد إخلاصه، وتبطل أجره، وتحبط عمله والعياذ بالله، ولو بدا للناس أنه يجاهد في الصَّفِّ الإسلامي ويرفع شعارات الدين!

الرسالة السابعة: في أن أهم زاد - بعد تقوى الله - وجب على الحاج أن يتزود به هو: الصبر! الصبر على مشاقِّ الحج، سواء مما تعلَّق بأعماله ومناسكه، أو ما تعلَّق بالانقطاع عن كثير من شهواته، أو ما تعلَّق بأذى الناس وجهلهم، وازدحامهم وتدافعهم حول المناسك حتى الموت! وهو قول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ... ﴿١٩٧﴾ ﴾ وهذا لا يُدْرَكُ إلا بصبر! ولذلك قَرَنَ رسولُ اللَّه ﷺ بين مشقة الحجِّ ومشقة الجهاد، فقال: « **إن الحجَّ والعمرة لَمِنْ سبيل اللَّه! وإن عمرةً في رمضان تعدل حجة!** »[٢] فقوله: « **لَمِنْ سبيل اللَّه** » هو بمعنى: لمن الجهاد في سبيل اللَّه! على اصطلاح القرآن بهذا التعبير.

الرسالة الثامنة: في أن البلاء النَّازِل بالناس على ثلاثة أنواع: بلاء رحمة، وبلاء نقمة، وبلاء تأديب. فأما بلاء الرحمة: فهو ما يُسَلِّطه اللَّه على عباده المؤمنين الصادقين من الامتحان؛ تطهيرًا لهم وتقريبًا؛ ولذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاء. ففي الحديث: « **أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم!** »[٣].

---

(١) متفق عليه. وقد اختصرنا نصَّه قليلًا من صحيح البخاري لطوله.

(٢) رواه الحاكم عن أم معقل مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والحاكم، عن فاطمة بنت اليمان مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

وأما بلاء النقمة: فهو بلاء العذاب والعياذ باللَّه! وإنما يسلطه اللَّه على أعدائه لا على أوليائه. ومثله ما نزل بالأمم البائدة من عذاب، مثل عادٍ وثمود وقوم لوطٍ، وغيرهم ممن ذكر اللَّه في كتابه.

وأما بلاء التأديب: فهو ما يسلطه اللَّه على عباده المؤمنين كلما خالفوا أمر اللَّه تعالى وأمر رسوله ﷺ؛ وذلك لتقويم انحرافاتهم، وتخليصهم من أهوائهم، وردهم إلى المنهاج القويم. على نحو ما حدث للمسلمين في غزوة أحد، من بعدما خالف الرماة أمر رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام. وكذا على نحو ما حدث لبعض الحركات الإسلامية في العصر الحاضر، ببعض الأقطار الإسلامية، حيث أعجبتهم كثرتهم، وغلبتهم أهواؤهم؛ فاستعجلوا الثمار قبل بُدُوِّ نضجها؛ فسلط اللَّه عليهم عدوهم فشرَّدهم تشريدًا، ودمَّر ما بنوا تدميرًا!

الرسالة التاسعة: في أن كتمان العلم الذي تتوقَّف عليه مصلحة الأمة في دينها ودنياها مَهْلَكَةٌ لكاتمه! لِمَا يستوجب من لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين! وأن الداعية إلى اللَّه مطالب بالبيان لحكم اللَّه في كلٍّ ما سئل عنه مما هو من علمه؛ إلا أن يعلم أن في الجواب ضررًا على الأمة يلحقها على العموم، فتلك إذن فتنة وجب السكوت عنها، ولا يسمَّى ذلك كتمانًا. وأما إذا كانت مظنة الضرر إنما تتعلَّق به وحده فقط ولا تتعدَّى إلى المجتمع، فهو بين أمرين: إما أن يأخذ بالرخصة وقد جعل اللَّه له بها مسلكًا، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقد سبق إيراد حديث النبي ﷺ: « **إن اللَّه تعالى ليسأل العبد يوم القيامة حتى يسأله: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقَّن اللَّهُ العبدَ حُجَّتَهُ قال: يا ربِّ رَجَوْتُكَ وفَرِقْتُ من الناس!** »[١]. أي: خفت من الناس! وإنما يصح ذلك حيث يكون أذاهم متوقعا لا متوهما!

وإما أن يأخذ بالعزيمة فيكون من أهل الدرجات العلى، كرجل سورة « يس »، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لأداء شهادة الحق، فقتله الكفرة مكانَه! فأدخله اللَّه الجنة حَالَه![٢] وعن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **سيد**

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد مرفوعا؟ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٢) ن. ذلك مفصَّلا في مدارستنا لسورة يس.

الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمره ونهاه؛ فقتله! » [١] وقال عليه الصلاة والسلام: (**أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر!**) [٢].

٤ - مسلك التخلق:

وأما الطريق إلى التخلُّق بمنزلة الصبر فهو التَّصَبُّر. والمقصود بالتصبر: حمل النفس التي لا تستطيع الصبر، على الرضا بأمر اللَّه، ومجاهدتها على ذلك شيئًا فشيئًا؛ حتى تخضع لحكم اللَّه مؤمنةً بما قضى وقدَّر؛ فتصبر وتحتسب. ذلك أن الصبر هبة رحمانية كما أشرنا قبل، لكن اللَّه جعل له أسبابًا، فمن أخذ بها صادقًا، وجاهد نفسَه بها في اللَّه؛ أعانه اللَّه ووفقه، وتنزَّلت عليه رحمته تعالى بصبر جميل. فذلك قول رسول اللَّه ﷺ: « **مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّه، ومَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدًا عَطاءً هو خيرٌ له وأَوْسَعُ من الصَّبْرِ!** » [٣].

وأما مسالك التصبُّر فكثيرة، وعلى رأسها الصلاة؛ إذ هي التي قُرِنَتْ بالصبر في الآية المدروسة، كما رأيتَ. فالصلاة أعظم مسلك للصبر وأكبر وسيلة للتصبُّر، خاصَّة صلاة الليل. ثم تدبُّر القرآن الكريم، ففيه من التعريف باللَّه ما يملأ القلب أُنسًا به تعالى، وما يجعل العبد المؤمن راضيًا بقضائه تعالى وقدره. ثم الدعاء على كلِّ حال، وخلال كل سجود من فريضة أو نافلة، وخاصَّة في ثلث الليل الآخر عند القيام، فتلك ساعة لا يُرَدُّ فيها سائل ولا مستغيث! ثم مطالعةُ سِيَرِ أئمة الصبر وفحوله، وخاصَّة الأنبياء الثلاثة: إبراهيم وأيوب ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ثم من اقتدى بهم من الصدِّيقين، والشهداء، والصالحين، والعلماء المجاهدين.

* * *
* *
*

---

(١) رواه الحاكم والضياء عن جابر مرفوعًا، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد، كما رواه عن أبي أمامة، ورواه عنه أيضًا أحمد والطبراني والبيهقي في شعبه، كما رواه أحمد والنسائي والبيهقي في الشعب عن طارق بن شهاب. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) متفق عليه.

المجلس الواحد والعشرون

في مقام التلقي لحقائق التوحيد والإخلاص
من خلال كتاب الخلق

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

التوحيد - أو الإخلاص - هو ذلك الفلَك النوراني الذي تدور به كل آيات القرآن الكريم وسوره؛ ولذلك كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن! (١) فالإخلاص هو الحقيقة الإيمانية العظمى، والقضية القرآنية الكبرى. وهو النداء الرباني الخالد، الذي خُوطِبت به البشرية كلها، وكُلف الرسل والأنبياء جميعهم ببلاغه إلى الناس. ومِن ثَمَّ جعله الله علاجَ جميع العلل والأدواء. فهو عُدَّةُ الصابرين، وملاذ الخائفين، وسلاح المظلومين، ومنجاة المذنبين، وزاد الذاكرين؛ ولذلك بُني سياقه على ذكر الصبر والصابرين، وما سبق من جدال أهل الكتاب والمشركين، مما ورد بالمجالس

---

(١) قال رسول الله ﷺ: « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن! » رواه البخاري.

السابقة، فقال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

فهذا خطاب عام لجميع البشر، كأنه قال: « وإلهكم أيها الناس إله واحد ». فمن آمن به ووحده فقد آمن، ومن كفر أو أشرك فهو إله واحد لا إله إلا هو! تلك هي الحقيقة الكونية التي ستبقى.. وكل ما عداها من باطل وبهتان فهو زائل! فلا معبود بحقٍّ سواه. هو إله العالمين، لا نجاة لمخلوق إلا بعبادته وتوحيده. ومعنى الإله: المألوه، أي المتوجَّه إليه بالعبادة خوفًا ورجاءً، والمقصود بالتذلُّل شوقًا ومحبة. تقول: أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهًا ووَلَهًا، بمعنى عبد وتذلَّل وأحبَّ. قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال أبو الهيثم: (...) ولا يكون إِلَهًا حتى يكونَ مَعْبُودًا، وحتى يكونَ لعابده خالقًا، ورازقًا، ومُدبِّرًا، وعليه مقتدرًا. فمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عُبِدَ ظُلْمًا. بل هو مخلوق ومُتَعَبَّد. قال: وأَصل إِلَهٍ وِلاهٌ، فَقُلِبَتِ الوَاوُ همزةً، كما قالوا للوِشاح إشاحٌ، وللوِجاحِ - وهو السِّتْر - إِجاحٌ. ومعنى وِلاهٍ: أَن الـخَلْقَ يَوْلَهُون إليه في حوائجهم، ويَضْرَعُون إليه فيما يصيبهم، ويَفْزَعُونَ إليه في كل ما ينوبهم، كما يَوْلَهُ كل طِفْل إلى أُمِّه!) [١].

ولأنه سبحانه كان كذلك، أي مألوها، مقصودًا بالرَّغَبِ والرَّهَبِ، والخوف والرجاء، والشوق والمحبة؛ فقد وصف نفسه تعالى بأنه هو « الرحمن الرحيم ». والرحمن بما هو اسم من أسماء اللَّه الحسنى، لفظ جامع لكلِّ معاني الرحمة، شامل لجميع تجلياتها، سواء منها رحمة اللَّه لعباده بما أنعم عليهم في الدنيا من نعم لا تحصى، أو رحمته تعالى بما أنعم عليهم في الآخرة من جِنَانٍ لا تفنى! فهو لفظ دالٌّ بصيغته اللغوية على السَّعة والشُّمول والامتلاء؛ ولذلك كان معنى « الرحمن »: الرب الذي وَسِعَ الْـخَلْقَ كلهم برحمته في الدنيا والآخرة. فمن تجليات رحمانيته تعالى على الناس في الدنيا أولًا: أنه خلقهم ورزقهم، وأحاطهم بعنايته تعالى ورعايته، وأمدهم بنعمه التي لا تحصى، وسخَّر لهم كل شيء في هذه الأرض، وفتح لهم من بركات كل شيء وخيراته، ثم أرسل فيهم الرسل بالهدى يبلغونهم رسالات ربهم! فيدخل في رحمته تعالى - بهذا المعنى - الخلق كلهم، مؤمنهم وكافرهم، بَرُّهُمْ وفاجرهم.

وأما تجليات رحمانيته عليهم في الآخرة، فهي ما ادخره لعباده المؤمنين الصالحين

---

(١) لسان العرب: مادة « أله ».

خاصَّة، من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا يفنى، ولا يفسد ولا يبلى! نعيم حي يفيض بالحياة، وبالجمال المتجدِّد أبدا! نعيم لا تساوي نعم الدنيا كلها منه قطرة أو ذرة!

وأما اسمه تعالى « الرحيم »؛ فهو اسم دال على معنيين اثنين، أولهما: رحمة التوبة والغفران، والثاني: رحمة الرأفة بالناس وما رفع عنهم ربهم من الحرج والمشاق.

وقد استفدنا هذين التعريفين من استقراء موارد اسم « الرحمن »، وموارد اسم « الرحيم » في القرآن الكريم. فقد استُعمل لفظ « الرحمن » في سياق استعراض رحمة اللّٰه الدنيوية والأخروية سواء، كما استعمل في الدلالة على ذات اللّٰه تعالى، أي بمعنى اسم الجلال: « اللّٰه » دلالة شاملة كاملة؛ ولذلك كان اسم الرحمن مستغرقًا لكلِّ معاني أسماء اللّٰه الحسنى على الإطلاق. أما وروده دالًّا على رَحْمَتَي الدنيا والآخرة معًا، فهو في مواطن كثيرة منها « سورة الرحمن »، حيث كان معنى « الرحمن » أنه الذي علم القرآن، والذي خلق الإنسان علمه البيان، والذي سخَّر له ما في الملك والملكوت من شمس وقمر ونجم وشجر، وسماء مرفوعة وأرض موضوعة للأنام، وما فيها من فاكهة ونخل وحَبٍّ وريحان، ثم هو الذي أكرمه - بعد ذلك - بالجِنَانِ وما فيها من شتى ألوان النعم. وأما من قصر اسم « الرحمن » على رحمة اللّٰه في الدنيا فقط فلم يصب! فالقرآن دال على استغراقه لرحمة الآخرة أيضًا، كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٠، ٦١]

كما أن لفظ « الرحمن » اسمٌ جامعٌ لكلِّ معاني الأسماء الحسنى - كما ذكرنا - ولذلك كان هو الاسم الوحيد منها الذي يستقل بالدلالة الجامعة على اسمه تعالى: « اللّٰه »! والذي يُستعمل في مواطنه على البدل الشامل الكامل، كما بيناه مُفصَّلا في مدارسة سورتي الفاتحة والفرقان. ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وغيرها كثير جدًّا.

وأما اسمه تعالى « الرحيم »، فهو دالٌّ - كما ذكرنا - على **معنيين اثنين، أولهما:** رحمة التوبة والعفو والغفران، **والثاني:** رحمة الرأفة بالناس وما رفع عنهم ربُّهم من الحرج والمشاق. فأما رحمة التوبة والعفو والغفران فدليلها ورود هذا الاسم في

سياقاتها بكتاب الله بكثرة، حتى كان ذلك هو الغالب على موارده، فأكثر ما يرد اسم « الرحيم » مقرونًا باسمه تعالى « التوّاب » أو « الغفور »، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]. وهذا وذلك في القرآن الكريم كثير جدًّا.

وقد يرد اسم « الرحيم » مقرونًا باسمه تعالى « العزيز »، فلا يخرج عن معنى الغفران أيضًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]، فالعزيز: هو بمعنى القوي القادر على عقاب من كفر، والرحيم: بمعنى الغفور لمن تاب منهم. ومثله قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢] وقد قرن اللّهُ العزةَ مع المغفرة – بدل الرحمة – صراحة في عدَّة مواطن، منها قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]. فدلَّ ذلك على أن الرحمة المقرونة بالعزَّة هي مغفرة أيضا، خاصَّة والسياق يقتضيها كما تبين في آيتي الشعراء والدخان.

وأما رحمة الرأفة بالناس ورفع الحرج عنهم وما لا يطاق من المشقة، فمثل قوله تعالى في آية البقرة المدروسة قَبْلُ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣ ﴾، بمعنى: وما كان اللّه ليبطل صلواتكم لغير قبلة إبراهيم قبل تشريعها، بل رفع الحرج عنكم فيما سلف من صلاتكم شطر المسجد الأقصى وتقبلها؛ رأفةً بكم ورحمة. هذا في العبادات. وأما في العادات فقال بعد النَّهي عن محرمات المطعومات: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣ ﴾، وقال في سياق ذكر الأنعام: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٧]، وقال سبحانه في سياق الرأفة بالمؤمنين: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

ومن هنا كانت رحمته تعالى بما هو « الرحمن الرحيم »، شاملة لكلِّ نعمة،

وجامعة لكُلِّ رأفة، ومستغرقة لكلِّ خير في الدنيا والآخرة جميعًا.

ومن كان في رحمته كذلك، أي موصوفًا بأنه « الرحمن الرحيم »، كان هو وحده أهل العبادة والألوهية، ولا حَقَّ لأحد سواه في أن يُعبد من دونه. ومِن ثَمَّ قال تعالى لجميع خلقه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

ثم أرشد الناس إلى مسلك الوصول إلى هذه الحقيقة الإيمانية العظمى، فدلَّهم على طريق التفكُّر في خلق السموات والأرض؛ لأن التوحيد حقيقة كونية محيطة بكل شيء في الملك والملكوت.

فـفـي كـلِّ شـيء لـه آيـةٌ تـدل عـلـى أنـه واحـدُ

قال ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

عن عطاء بن أبي رباح قال: (نزلتْ على النبيِّ ﷺ بالمدينة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾، فقال كفَّار قريش بمكة: « كيف يَسَعُ النَّاسَ إلهٌ واحدٌ؟ » فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [قال:] فبهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء)[1].

فبيَّن تعالى بذلك أن الآيات الدالة على وحدانيته، مُشَاهَدَةٌ في خلق السموات والأرض، وفيما ذكر بعدهما من آيات، من كتاب الملكوت الضخم الكبير. ورغم أن عبارة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ شاملة لكلِّ ما ذكر بعدها من ظواهر كونية، إلا أن اللَّه ﷻ فصَّل في عرضها؛ لتقريب التفكُّر فيها وتيسيره للناس، ثم لأن كُلَّ ما ذكر منها هو مما يشاهده الإنسان مباشرةً، ويتأثَّر به في حياته اليومية على الأرض. فظاهرة اختلاف الليل والنهار هي من أغرب الظواهر الكونية التي تحيط بالإنسان، لكن إحساسه تجاهها مات بسبب الإلف والتعود! ولو أنه تدبَّر حركتها،

---

(١) رواه ابن جرير الطبري عند تفسيره للآية، وكذا ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ.

وتفكَّر في وظيفتها، لوجدها هي ذلك العَدَّادَ الرهيب الذي يَعُدُّ عليه عُمُرَهُ، يومًا يومًا وليلة ليلة! ولشاهد الأرض وهي تدور به متقلبةً بين حِضْنَيْهِمَا، تجري به على وِزَانِ سرعتهما، حتى تصل به إلى محطته الأخيرة، حيث ينتظره أجله المحتوم، فتنتهي قصته على الأرض إلى الأبد! فالليل والنهار هما عقربا ساعة العمر، فما حُدِّدَ لي ولك يا صاح منهما، عددٌ مضبوط مُقَدَّرٌ تقديرًا، لا يزيد يومًا ولا ينقص ليلةً.

ثم جعل اللَّه رزق الإنسان ومقاديره من الخير والشرِّ، مخبأة تحت جناحيهما، لا يرى منها شيئًا حتى يفاجئه بها ليلٌ أو نهارٌ! ثم إنهما معيار الغلاف الزمني المحدود الذي وُهِبَهُ الإنسان؛ لعمرانه بالعمل الصالح، فلا يُخْلَفُ له ما ضاع له منهما، ولا يُسْتَرَدُّ ما مضى منهما أبدًا! فمَنْ غَيْرُ رب السماء والأرض قدير على خلق ظاهرة الليل والنهار، وما تنطوي عليه من غرائب وعجائب؟ ومَنْ غَيْرُهُ قدير على تدبير اختلافهما؟ وإنشاء فصولهما الأربعة، وتقدير منازلهما من القَرِّ والحَرِّ؟ فكل ما ينطويان عليه من ظواهر، وما يفيض عنهما من تجليات، إنما يعكس أنوار الأسماء الحسنى للَّه الواحد الأحد، وأنه الخالق لكلِّ شيء، وهو على كلِّ شيء وكيل!

فكل ما يجري على الأرض، بَرِّهَا وبحرها وفضائها، محكومٌ بقيد حركة الليل والنهار، خاضعٌ لمعيار اختلافهما. فجريان السفن في البحر، والسيارات في الأرض، والطائرات في الفضاء، كلها كلمات حية نابضة بالحياة، كتبها الخالق تعالى على صفحات الزمن الجاري ما بين ليل ونهار؛ متاعًا للناس إلى حين.

وقد خصَّ اللَّهُ تعالى حركةَ السفن في البحر بالذكر؛ لأنها كتاب قريب للقراءة، يجمع بين العمق والسهولة، وتشهد كلماته بوضوح على وحدانية اللَّه، وأنه تعالى خالق سنن التسخير للبحر الرهيب؛ حتى يستجيب لإبداع الإنسان الصناعي، وما علَّمه اللَّه سبحانه من قدرة على اكتشاف سننه تعالى في الطبيعة؛ قصد الانتفاع بها، ولتكون حُجَّة له إذا شكرها لخالقها، أو حجة عليه إذا كفرها! ثم ذكر حركة الغيث، وهي ظاهرة عجيبة، مرتبطة بحياة الإنسان أشد الارتباط، بل هي مناط عيشه، وقوام حياته! فالغيث مخلوق مائي سائر إلى ربِّه، عبر منازل ذات تحولات، في فلك يدور به ما بين السماء والأرض، عابرًا ما بين البحر والفضاء والتراب. وقد جعل اللَّه فيه سر الخصب والنماء، وأناط به استمرار حياة الإنسان في الأرض؛

إذ يحيي به اللَّه الأرض الموات، ويبعث فيها الحياة من جديد، بما يجعل فيها من ثمار وأرزاق وطير وحيوان.

ثم أرشد سبحانه العباد إلى التفكُّر في ظاهرة أخرى لصيقة بحياة الإنسان، ألَا وهي حركة الرياح بشتى أصنافها، فبين تعالى أن جريانها ليس حركة ميكانيكية ميتة، بل هي مخلوقات أيضًا من خلق اللَّه، خاضعة لمشيئته، دائرة في فلك عبوديته، ولا تتحرك إلا بإذنه! إذا هَبَّتْ فإنها تكون مرسلات من عند اللَّه، مُصَرَّفَةً بِقَدْرٍ معلوم، وسرعة معلومة، وهدف معلوم من الخير أو الشر! وكذلك ما يسوقه اللَّه ببعضها من سحاب كريم، مكتنز بالخير والأرزاق، حتى يصل إلى أهله المقصودين به، من إنسان أو حيوان أو مَرَاعٍ أو غابات. فلا صدفة ولا عشوائية ولا عبث. بل كل ذلك وما في معناه آياتٌ في كتاب إلهي كبير، معروض للعقلاء من بني آدم، ممن يحسنون القراءة التفكرية في ملكوت السموات والأرض. لكن أكثر الناس لا يقرؤون ولا يتفكرون! قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وبهذا قامت الحجة القاطعة بوحدانيته تعالى، والبرهان الساطع على أحديته سبحانه. فكل شيء في الكون ناطق - بما جعل اللَّه فيه من أسرار الخلق والتكوين - بأنه واحد أحد، لم يتخذ شريكًا ولا صاحبة ولا ولد! سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا! فأي ظلم يرتكبه الكفار عندما يتَّخذون من دونه آلهة أخرى، فيجعلونها للَّه أندادًا، وقد شهدت المخلوقاتُ جميعها بأنه الواحد القهَّار؟ تلك نتيجة يخرج بها الإنسان المتفكِّر فيما عرضه اللَّه من آيات كونية، من خلق السموات والأرض. فما من شيء يفحصه الإنسان بعين التفكُّر إلا ويجد عليه خاتم التوحيد واضحًا! ولذلك قال بعدُ مباشرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴿١٦٥﴾ ﴾. والأنداد جمع نِدٍّ، وهو: الصِّنْوُ والمثيل، والقرين المساوي والنظير. فأهل الكتاب والمشركون عمومًا اتخذوا أصنامًا وأوثانًا يعبدونها من دون اللَّه، سواء كانت تلك الأوثان حجرية أم بشرية. وأُشْرِبُوا عبادتَها والعياذ باللَّه إلى درجة المحبة! مما هو مفروض أن يجعلوه للَّه وحده دون سواه، إذ لا يجوز التعلق بأحد على مستوى المحبة التعبدية سوى اللَّه، ولا التوجه إلى وثن

بالرَّغَبِ والرَّهَبِ، أو الخوف والرجاء. فذلك هو أكبر الظلم على الإطلاق! وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: « **أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك!** » الحديث (١)؛ ولذلك وصف الله الشرك بالظلم العظيم؛ لأنه تَعَدٍّ على سلطان الله وافتراء عليه! قال سبحانه في وصية لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

ومِن ثَمَّ توعَّد الله ههنا المشركين بشتى أصنافهم - بمن فيهم أهل الكتاب - بالعذاب الشديد! وذلك بعد قيام الحجة الكونية عليهم. قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ وقد قُرِئَتْ: (ولو ترى) بالتاء بمعنى: ولو ترى يا محمد حال الكفَّار في العذاب، كيف يرجعون إلى التوحيد، لكن بعد فوات الأوان! كما قُرئت بالياء بمعنى: ولو يرى هؤلاء المشركون مواقعهم من النار؛ بما ظلموا من الشرك؛ لأدركوا حينئذ أن الله واحد أحد، وأنه لا صاحبة له ولا ولد؛ وذلك لِمَا يقفون عليه معاينةً في الجحيم، من أن القوة كلها لله الواحد القهَّار! وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن الآلهة التي عبدوها ظلمًا وعدوانًا إنما هي آلهة زور! فها هي الآن لا تستطيع أن تدفع عنهم شيئًا من العذاب، بل هي الآن خاضعة خاشعة بين يدي العظيم الجبَّار! فإذ عَمُوا في الدنيا عن قراءة الآيات التفكرية، والنظر في خلق السموات والأرض، وصَمُّوا عن سماع الآيات القرآنية؛ فعذاب الله الشديد سيفتح عيونهم وآذانهم على حقيقة التوحيد والإخلاص!

وعندئذ تتبرَّأ منهم آلهتهم التي ظلموها هي أيضًا بجعلها أندادًا لله الواحد. فمن عبد الحجر تبرَّأ منه الحجر، ومن عبد المسيح تبرَّأ منه المسيح، ومن عبد الملائكة تبرَّأت منه الملائكة! قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] بل حتى من عبد الشيطان صراحةً تبرَّأ منه الشيطان! قال

---

(١) طرف حديث متفق عليه.

اللَّه سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦] فكل معبود ظلمًا يتبرأ من عابده يوم القيامة، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

ذلك ما يحدث للمشركين جميعًا، بعد معاينتهم لمواقعهم من جهنم والعياذ باللَّه. وهو المقصود ههنا بقوله تعالى فيما نحن فيه من مدارسة: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ فقوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ أي: تقطعت بهم أسباب النجاة والنجدة، كما يتقطَّع حبل النجاة بالغريق فيكون من الهالكين! فيجدون ألا محيص من عذاب الجحيم! وهنالك يتحسَّر التابعون الجهلة على متابعتهم لأولئك الظلمة، فيتمنون لو أنهم أُعِيدُوا إلى الدنيا؛ فيتبرؤوا من آلهتهم وسادتهم كما تبرَّأ هؤلاء منهم الآن في الآخرة! فيندمون جميعًا ندمًا لا ينفع أحدًا منهم، ولا يخرجه من عذاب النار والعياذ باللَّه! فليس بعد انكشاف حجب الابتلاء الدنيوي توبة! جعلنا اللَّه وإياكم من التوَّابين ومن المتطهرين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أنَّ مَنْ جاء بالتوحيد الخالص يوم القيامة، وبما وُفِّقَ إليه من عمل صالح؛ نجا برحمة اللَّه، ومن جاء به مخرومًا كان من الهالكين ولو جاء بملء الأرض عملًا! ورُبَّ عبدٍ أدخله اللَّه الجنة بمجرد شهادته: أن لا إله إلا اللَّه مخلصًا بها قلبُه! فَعُفِيَ بها عن سيئاته وما قَصَّرَ فيه من عمل، ونجا بها من النار مطلقًا! وقد أذن اللَّه لنبيه محمد ﷺ في الشفاعة لمن قال: « لا إله إلا اللَّه » صادقًا. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول اللَّه! مَنْ أَسْعَدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول اللَّه ﷺ: « **لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لِمَا رأيتُ من حرصك على الحديث! أَسْعَدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال:**

« لا إله إلا اللَّه » خالصًا من قلبه أو نفسه! » (١).

وأجمع العلماء على أنه لا يخلد مُوَحِّدٌ عاصٍ في النار أبدًا، وذلك لِمَا ثبت عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « **يُخْرَجُ من النار من قال: « لا إله إلا اللَّه » وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يُخرج من النار من قال: « لا إله إلا اللَّه » وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّةً، ثم يُخرج من النار من قال: « لا إله إلا اللَّه » وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة!** » (٢).

الرسالة الثانية: في أن عبادة اللَّه بالتفكُّر في خلق السموات والأرض من أهم المسالك المعرِّفة باللَّه، والموصِّلة إلى العلم به تعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] فالْجُدَدُ: هي المسالك التي جعلها اللَّه بين الجبال. والغَرَابِيبُ: صخور شديدة السواد. وأما العلماء هنا: فهم العلماء باللَّه، الرُّكَّعُ الْخُشَّعُ، المتفكرون في خلق اللَّه. أي الذين نالوا ما نالوا من علم رباني بممارسة عبادة التفكر. دل على هذا سياق الآية، حيث أورد خشية العلماء بعد عرضٍ مَشَاهِدَ من بديع خلقه تعالى وجميل صنعه؛ فكان علم الخشية إذن نتيجة للتفكُّر فيما ذكر.

ولذلك أمر اللَّه تعالى الكفار بالتفكر في خلق السموات والأرض؛ بما هو مسلكٌ مضمون للوصول إلى الحق. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] وعندما نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] قال النبي ﷺ: « **لقد نزلتْ عَلَيَّ الليلةَ آيةٌ، وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها!** » (٣).

---

(١) رواه البخاري. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

الرسالة الثالثة: في أن من أهم مقاصد التفكُّر - إضافةً إلى مشاهدة بديع صنع اللَّه وإتقانه - مشاهدةَ خاتم التوحيد المطبوع على آثار تصرفات الرحمن، فيما يسميه العلماء بشؤون الربوبية، وهي: تصرفات الربِّ تعالى في شؤون تدبير ملكه، وما يحدثه سبحانه من حركة حكيمة في الكون، مثل: إنزال الغيث، وسوق الرياح، ونشر السحاب. وكذا تصرفه تجاه خلقه، خلقًا ورزقًا ورعاية. فتشاهد كيف يرزق ضعيفًا، وكيف يغيث ملهوفًا، ويسلي حزينًا، ويشفي مريضًا ميؤوسًا، وينصر مظلومًا، وينتقم من ظالم، ويهلك طاغيةً، ويكشف غُمَّةً، ويفرِّج كربةً، ويحيي بلادًا فيجعلها عامرةً، ويميت أخرى فيجعلها خلاء كأن لم تَغْنَ بالأمس! ولذلك لما لاحظ إبراهيم عليه السلام أن حركة الكون وسائر الحوادث في العالم، هي منضبطة إلى تصرُّفات ربٍّ واحد؛ حصل له يقين التوحيد وكمال الإخلاص، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]. ومِن ثَمَّ اتخذ تصرفات الرحمن في شؤون ربوبيته حُجَّة على قومه فقال لنمرود: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ وقال لعموم المشركين من قومه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢].

الرسالة الرابعة: في أن رأس العبادة حبُّ اللَّه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا ... ﴿١٦٥﴾ ﴾، وهو حب محمول على جناحي الخوف والرجاء؛ ذلك أن من عرف اللَّهَ حقًّا، فعرف عظمته وجلاله، وكرمه وجوده، ثم عرف جماله وإحسانه؛ خافه ورجاه ثم أحبَّه! ولذلك عرض ﷺ للناس مسالكَ معرفته، بما أرشدهم إليه من التفكُّر في خلق السموات والأرض. حيث إنه سبحانه بسط أنوار أسمائه الحسنى على كلِّ مخلوقاته، فعكست جمالَها، كما يعكس البدرُ في الليالي البيض أشعةَ الشمس فيبهر الناظرين! واللَّه سبحانه وتعالى عن النظير والشبيه، هو جاعل كل نور، قال ﷺ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]. ومن نوره تعالى تقتبس الكائنات أنوارَها، قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النور: ٣٥]. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن اللَّه تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعه، ويُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل! حِجَابُهُ النورُ، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِهِ!** »[1] قال الإمام النووي في شرح مسلم: (معنى سُبُحَاتِ وجهه: نُورُه وجلالُه وبهاؤه)[2]. وبالنظر في جمال خلق اللَّه المبثوث في كلٍّ ملكوته، وجميل صنعه تجاه خلقه، وما أفاض عليهم من كرمه وجوده وكمال رعايته، وحسن معاملته؛ تنفتح بصيرةُ العبد على جمال اللَّه؛ فيحبه ويتعلق به قلبُه؛ فيكون له من العابدين على مقام الإحسان!

الرسالة الخامسة: في أن قول اللَّه تعالى: ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ ﴾ إلى آخر الآيات، يدخل فيه كل تابع ومتبوع في حركة الباطل عبر التاريخ، بشتى ألوانها وتجلِّياتها! سواء في ذلك التبعيات الإيديولوجية الملحدة، والتبعيات المذهبية الباطلة، والتبعيات العلمانية الجاحدة، وسائر الانتماءات والتحزبات التي تعادي الدين وتحاربه. فكلها جميعًا يتبرَّأ قادتها من أتباعهم يوم القيامة. وتنقطع بهم أسباب النجاة، ويتحسَّر الأتباع على ما وقعوا فيه من تقليد أعمى للقادة، وعلى ما وثقوا به من أهوائهم وأيديولوجياتهم، وما عظموه من سادتهم ورموزهم! فيوم القيامة يلعن بعضهم بعضًا! قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩].

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان منهج الوصول إلى الحقائق الإيمانية، والتخلُّق بيقين التوحيد الخالص، من خلال عبادة التفكُّر. ويكون ذلك بمطالعة أسماء اللَّه الحسنى، الواردة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شرح النووي على مسلم (٣/١٤).

في كتاب اللَّه، وفيما صحَّ من سُنَّةِ رسول اللَّه ﷺ، والتحقُّق من معانيها، ومن خلاصةِ أقوال العلماء فيها، ثم اتخاذها آلات استبصار، أو نَظَّارَاتٍ؛ قصد السياحة بها في ملكوت السموات والأرض، كل اسم على حدة. ثم البحث عن آثار كل اسم في صفحات الكون، وعن خاتمه المطبوع على بديع صنع اللَّه؛ قصد مشاهدة تجليّات الأسماء في مظاهر الإتقان وكمال الإحسان، وفي دقائق نقوش الجمال، وصفات العظمة والجلال! ثم مطالعة آثارها القوية في حركة المخلوقات، من الذرات إلى المجرات، وفي حوادث العالم البشري، وما يعتريه من تحوُّلات وتغيُّرَات. فالنظر إلى مظاهر الملكوت بمنظار الأسماء الحسنى، يرتقي بالمؤمن صُعُدًا إلى مقام التوحيد الخالص، ويحلِّيه بحقائق الإيمان اليقينية، فيكون من الصِّدِّيقين! هذا منهج بَيِّنٌ واضح، ومسلك سالكٌ ناجح. ولم يبقَ بعد تمام البيان إلا الدخول في العمل! واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

* * *

المجلس الثاني والعشرون

في مقام التلقي لهَدْيِ اللَّه في الأطعمة حلالِها وحرامِها وبيان ما له على عباده من حق العبادة والشكر

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كان من نعمة اللَّه على الناس أن رزقهم من كلِّ الثمرات، ومن بهيمة الأنعام؛ نتيجة ما أنزل من السماء من ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثَّ فيها من كلِّ دابة، مما بيناه مفصَّلًا بالمجلس السابق. فانبنى على هذا السياق مخاطبةُ اللَّهِ عِبَادَهُ أجمعين، بما مَنَّ عليهم به من وفير الرزق حلالًا طيبًا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى ما كان يزينه

الشيطان لبعض العرب في الجاهلية، من تحريم بعض الحلال من الإبل؛ افتراءً على اللَّه، كتحريم البحائر والسوائب والوصائل، وهي ضروب من الإبل خصَّصوها لأصنامهم، فحرَّموا على أنفسهم لحومَها أو ألبانها أو ظهورها. وهو ما بيَّنه اللَّه مفصَّلًا في سورة الأنعام، قال سبحانه: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فَالْبَحِيرَةُ: هي الناقة التي يُخَصَّصُ لبنُها للأصنام وقفًا عليها؛ فلا يحلبها أحد. والسَّائِبَةُ: هي الناقة التي كانوا يُسَيِّبُونَهَا لآلهتهم فلا يُحْمَل عليها شيء. والوَصِيلَةُ: الناقةُ البِكْرُ تلد في أول نِتَاجِهَا أنثى، ثم تُثَنِّي بعدها مباشرة بأنثى، موصولةً بها ليس بينهما ذكر؛ فيسمونها وَصِيلَةً، ويجعلونها لآلهتهم! وأما الحامي: فهو فَحْلُ الإبل يَضْرِبُ الضِّرَابَ المعدود، أي: يلقح عددًا محدودًا من النوق، فإذا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ للآلهة أيضًا، فحرَّموا ظهره، فلا يُحمل عليه شيء، وسَمَّوْهُ: الحامي.

وقد حرَّموا أشياء أخرى من الحرث والأنعام، وجعلوها خاصَّة بخُدَّام الأوثان وسدنة الأصنام، لا يأكلها غيرهم! وفرَّقوا في تحريم ما تلده السوائب والوصائل بين الرجال والنساء، فأباحوا أكله لذكورهم وحرَّموه على إناثهم! إلى غير ذلك من ضروب الجهل والضلال! ثم ينسبون تشريع هذه الطامات كلها إلى اللَّه! قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩].

وقد أنكر اللَّه سبحانه ذلك الافتراء كله، وندَّد بهذه المظالم جميعها، كما رأيتَ في آية المائدة والأنعام، ووصفه ههنا في آية البقرة بأنه من خطوات الشيطان، ونهى الناس عن اتباعها! وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ ﴾ ومعنى « خطوات الشيطان »: مسالكه التي يسلكها بمن يضل من الناس، وهي مسالك الوسوسة والإغراء والتزيين والتغرير. ولذلك أكَّد اللَّه ﷻ عداوتَه للناس، بما يفيد

أنها عداوة قديمة من عهد آدم عليه السلام، وما كان من تغريره به وإخراجه من الجنة هو وزوجه. فالشيطان - نعوذ بالله منه - مطبوع على الشرِّ والأذى! قال الله سبحانه في سورة الأعراف ، حكاية عن إبليس اللعين: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

ولذلك فهو لم يزل يأمر الناس بالسوء والفحشاء، ويغريهم باتباع خطواته نحوهما. والسوء: كل عمل سيئ مُنْكَرٍ. والفحشاءُ: ما كَبُرَ من الشرِّ وعَظُم، كالشرك، والزنا، وأكل السحت والربا، وقتل النفس التي حرَّم اللَّه، وغيرها من كبائر الذنوب وموبقاتها. كما يغريهم ويزيِّن لهم أن يقولوا على اللَّه ما لا يعلمون، وذلك بالافتراء عليه، تحريمًا لما أحلَّه وإباحةً لما حرَّمه! ومنه إسناد الباطل إلى اللَّه سبحانه، بما ينسبون له من الولد والشريك، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فهؤلاء الذين خالفوا أمر اللَّه تعالى وتحذيره، واتبعوا خطوات الشيطان، فلم يتوبوا ولم يؤوبوا، طبع اللَّه على قلوبهم، وأركسهم بما زيَّن لهم الشيطان من أهواء، فلم يعد بمقدورهم أن يسمعوا خطاب الهدى! وهو قوله تعالى بعد مباشرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ فهم قد ورثوا الضلال عن آبائهم فتعلَّقت به أهواؤهم، وبنوا على ذلك مجدهم الزائف، وحصَّنوه بكبريائهم الجاهلي، فلم يعد بمقدورهم أن يتخلُّوا عن ذلك كلِّه، ويدخلوا في دين يُلغي الفوارق الجاهلية كلها، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى.

فأصنامهم إنما كانت رموز كبريائهم ومفاخراتهم، فقد كان لكل قبيلة صنمها الذي تعبده وتقدِّسه، وتذبح له الذبائح وتقدم له القرابين! وتفخر بذلك على غيرها من القبائل في أشعارها وأسواقها. ومن ثَّم إذا دعاهم الرسول إلى الحق، وإلى اتباع الهدى بتوحيد العبادة للَّه، صلاةً ودعاءً ونُسُكًا، وألَّا يتوجَّهوا بذلك إلى أحد سواه؛ رفضوا وقالوا: بل نتبع دين آبائنا. فالإنسان العربي كان يفخر بآبائه فخرًا جاهليًّا عنصريًّا! وكان هواه في ذلك يمنعه من سماع الحقِّ؛ ولذلك سفَّه اللَّه تعالى عقولهم

وعقول آبائهم أجمعين! وجعل يُعَجِّبُ من جهلهم وعمى عقولهم، وينكر عليهم إصرارهم على اتباع ما كان عليه آباؤهم من الجهل والضلال! وعدم النظر فيما ورثوه عنهم من تراث جاهلي ونقده بعين فاحصة متبصرة!

ثم ضرب لهم مثلًا، فشبَّههم بالغنم التي يصيح بها الراعي عندما تنحرف عن الطريق أو تضل عن مرعاها، فلا تفقه ما يقول، فهو يدعوها ويناديها لكنها تبقى على ضلالها! قال الرازي: (نعق الراعي بالغنم: إذا صاح بها. وأما نعق الغراب فبالغين المعجمة)[١]. وهو قول الزمخشري أيضًا[٢]. فالغنم عندما ينعق بها الراعي ويزجرها فإنها لا تسمع، بمعنى لا تفقه من كلامه شيئًا، إلا ما تدركه بغريزتها من أصوات دعائه وندائه. والدعاء يكون للقريب، بينما النداء يكون للبعيد. قال الشيخ الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات التي تفهمها الغنم، فالدعاء: ما يخاطب به الغنم من الأصوات الدالة على الزجر، وهي أسماء الأصوات، والنداء: رفع الصوت عليها لتجتمع إلى رعاتها)[٣]. فذلك مَثَلُ الكفار مع دعوة الإسلام، يدعوهم الرسول ﷺ (ويناديهم، فيكون حالهم معه كحال المواشي مع راعيها، تسمع نداءه ودعاءه، فربما اجتمعت بين يديه، فإذا خطب عليها بعد ذلك مُحذِّرًا إيَّاها من الضَّلال أو العصيان، ومُبَيِّنًا لها ما ينبغي أن تسلكه من طرقها، وما تقصده من مراعيها، لم تفقه شيئًا! فكذلك الكُفَّار يسمعون صوت النبي ﷺ ودعاءه ونداءه، لكنهم لا يفقهون من كلامه شيئًا؛ لأن عقولهم مغلقة بما طبع اللَّه عليها من أهوائهم وكبريائهم! ولذلك قال في وصفهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ فكيف تُرْجَى استجابة الأصم الأبكم الأعمى للنداء، وهو لا يبصر ولا يسمع من مناديه شيئًا؟ ولا حتى لغة الإشارات تفيد في إبلاغه بسبب عماه! ثم لا إمكان لمعرفة رد فعله – إن وصله شيء – لبكمه! وهذه عاهة من أسوأ العاهات المركبة والعياذ باللَّه! فأَتْعِسْ به مثلًا للذين كفروا!

ثم خصَّ المؤمنين – بعد ذلك – بِمَنٍّ كريمٍ وخيرٍ عميمٍ، حيث أذن لهم في الأكل

---

(١) تفسيره للآية في كتابه: « مفاتيح الغيب ».

(٢) قال ذلك في الكشاف عند تفسيره للآية.

(٣) تفسيره للآية في التحرير والتنوير.

من طيبات ما رزقهم، وأمرهم بالشكر له تعالى على ما أنعم عليهم؛ وذلك بالتوجه إليه وحده دون سواه، في عبادتهم إياه بالنسك والذبائح، وسائر التقربات. وألا يحرِّموا على أنفسهم إلا ما حرَّمه اللَّه من الخبائث، وهي المحرمات الأربع: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغير اللَّه، أي: ما ذُبح لغير اللَّه، فَقُدِّمَ قربانا لصنم أو قبر أو غيرهما. والإهلال: رفع الصوت مطلقًا، وهو هنا ما كانت العرب تصيح به من النداء باسم الصنم الذي تعبده عند الذبح له. فذلك كله قول اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾. فهذه هي كبائر المحرمات من المطعومات. وأما الخمر فهي من كبائر المحرمات من المشروبات.

ويلحق بمحرمات المطعومات كل ذي ناب من السباع، وهي جميع الوحوش المفترسة. وكل ذي مخلب من الطير، وهي الطيور الآكلة للحوم. وكذا لحم الحمار الأهلي دون الوحشي. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي نابٍ من السباع، وعن أكل ذي مِخلبٍ من الطير!) [١] كما (نهى عن أكل لحوم حُمُر الأهلية.) [٢] وقال: « إنها رجس! » [٣] وأما ما ذُكر من المحرمات في سورة المائدة، زيادة على الأربع، فإنه تفصيل لأنواع الميتة. أعني قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة: ٣]. فالمنخنقة: هي التي ماتت خنقا، والموقوذة: التي ماتت ضربًا، والمتردية: التي سقطت من جبلٍ أو سطحٍ أو نحوهما فماتت، والنطيحة: التي ماتت بسبب المناطحة، ويكون ذلك بين فحول الأكباش والثيران. وأما ما أكل السبع: فهو الشاة يعدو عليها الذئب أو الضبع فيقتلها قبل أن يدركها الراعي. وقال: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أي: إلا ما أدركتم من ذلك جريحًا أو كسيرًا، فذبحتموه قبل موته؛ ثم مات بسبب الذبح وإهراق الدم بالشكل المشروع، لا بسبب ما وقع له من حادث. ويلحق بهذه الأنواع جميعًا ما صدمته سيارة أو آلة فمات، وما صُعق بكهرباء، أو قُتل بالرصاص في غير صيد.

---

(١) رواه مسلم، وهو أيضًا عند أحمد وأبي داود والنسائي.

(٢) متفق عليه، عن البراء، وجابر، وعلي، وابن عمر، وأبي ثعلبة، رضي اللَّه عنهم أجمعين.

(٣) متفق عليه.

والناظر في هذه المحرمات الأربع وملحقاتها، يجد أنها خبائث تَعافُها النفس وينفر منها الطبع، وهي أشياء محددة معدودة، بينما ما أباحه اللّه للمسلمين من الطيبات نِعَمٌ لا تُعد ولا تحصى! ومن رحمة اللّه - جل ثناؤه - بعباده المؤمنين أن رفع عنهم الحرج في أكل هذه المحرمات عند الضرورة؛ حفظًا للنفس وإحياءً لها. ومعنى الضرورة ههنا: ما قد يجده الإنسان - عافانا اللّه وإياكم - من الجوع الشديد القاتل؛ بسبب حصار عدو، أو مجاعة عامة، أو حبس سلطان ظالم، أو غيرها، وكذا أن يكون المسلم أسيرًا عند العدو فيكرهونه على أكل بعض هذه المحرمات. ففي هذه الأحوال وأشباهها يجوز للمضطر أن يأكل من المحرمات ما يحفظ به نفسه. بل إن الفقهاء أوجبوا عليه ذلك واعتبروا الرخصة ههنا من قبيل العزيمة. فذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي غير باغٍ في أكل الحرام بمجرد أنه يشتهيه، كمن يشتهي لحم خنزير، أو اللحم مطلقًا وليس عنده غير ميتة أو شاة مذبوحة على النُّصُبِ، فيأكل منها وعنده ما يسد جوعه من التمر أو العدس أو غيرهما. فهذا بَاغٍ أي ظالم بترك الحلال إلى ما يشتهي من الحرام. وأما العادي: فهو المضطر يأكل من المحرم فوق حاجته، فبدل أن يقتصر على تناول ما يسد حاجته ويحفظ نفسه، يَتفَنُّ في طبخه بأشكال شتى! وأما من التزم بما حده له الشرع من ضوابط الضرورة في المحرم ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي: لا حرج عليه، فاللّه - جلّ ثناؤه - يغفر له ذلك؛ لأنه تعالى رحيم بالمؤمنين؛ إذ رفع عنهم مشقة التكليف عند الضرورة، وما لا طاقة لهم به.

وقد كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يجدون ذلك كله في كتبهم، ويعرفون أن أنبياءهم وصالحيهم ما كانوا يأكلون ميتةً، ولا دمًا مسفوحًا، ولا لحم خنزير، ولا ما ذُبح على الأصنام من الأنعام، ويقرؤون في كتبهم من صفات النبي الخاتم أنه يحرم تلك المطعومات الخبيثة. لكنهم يكتمون ذلك كله! ومِن ثَمَّ نزل فيهم - وفيمن سلك مسلكهم - هذا التوبيخ الشديد! قال ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من سَفَلَتِهِم الهدايا والمآكل، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بُعث محمد ﷺ من غيرهم خافوا ذَهابَ مأكلهم وزوال رياستهم؛ فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فغيروها ثم أخرجوها إليهم! فلما نظرت السَّفَلَةُ إلى النعت المغيَّر وجدوه مخالفًا لصفة محمد ﷺ فلم يتبعوه!) (١). والآيات عامَّة في أحبار اليهود ورهبان النصارى أيضًا كما سترى، ثم إن المقصود بالنعت في هذا السياق الذي نحن فيه، هو أن محمدًا ﷺ يُحرِّم عليهم ما ذُكر من خبائث المطعومات. ودليله قول الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. الآية. وهو قول الله تعالى ههنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ... ﴿١٧٣﴾ ﴾ إلى آخر الآية. فهذه هي الصفة المقصودة ههنا بالكتمان من لدن أهل الكتاب، كما كتموا غيرها من الصفات. وهي ثابتة عند اليهود في التوراة، كما أنها ثابتة عند النصارى في الإنجيل، فغيَّروا وبدَّلوا.

ولذلك قال الله ﷻ في سياقنا هذا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ فالمقصود بالكتاب ههنا التوراة والإنجيل، وأما الثمن القليل فهو - كما قال البغوي - ما كانوا يستفيدونه من جُهَّالهم وعامَّتهم من هدايا ومآكل. فأخبرهم الله تعالى أنهم بذلك إنما يأكلون النار، ويملؤون بطونهم بجمرها، وصفًا لما يكون عليه حالهم في جهنم والعياذ بالله! وبسبب غضبه ﷻ عليهم فإنه لا يكلمهم يوم القيامة بما يسرهم، بل يُعرض عنهم سخطًا! ولا يزكي لهم عملًا ولا يقبله، ثم يُلْقَى بهم في جهنم يَصلَوْن سعيرها! وقد وصف عذابهم ههنا بالأليم؛ جزاء ما تَلذَّذُوا به من مال حرام في الدنيا مقابل كتمان الحقِّ. ثم قال تعالى بَعْدُ مباشرة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ

(١) تفسير البغوي للآية.

بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ بمعنى أن هؤلاء الأحبار والرهبان بما أكلوا من السحت والمال الحرام، إنما اشتروا لأنفسهم الضلالة وعذاب جهنم، ودفعوا مقابلهما ثمنًا باهظًا، وهو الهدى والغفران والفوز بالجنة! فما أتعسَهَا من صفقة! وما أخسَرَها من تجارة! ولذلك قال: ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ وهذا تعجيب للمؤمنين من ضلالهم؛ إذ يقترفون ما يعلمون أنهم به صَالُو الجحيم، ثم لا يرعوُون ولا يتوبون عجبًا لهم! فكيف يصبرون على عذاب النار؟ لقد ظلموا أنفسهم ظلمًا كبيرًا، وما كان اللَّه ليظلمهم، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ بمعنى أن ما أصابهم من عذاب اللَّه وغضبه إنما هو بسبب أن اللَّه تعالى نزَّل الكتاب ناطقًا بالحقِّ، أنزله على موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فهي كُتب يصدِّق بعضُها بعضًا، كأنها كتاب واحد. فكتم أهل الكتاب ما في كُتُبهم من الحقِّ، ثم جحدوا ما في القرآن الكريم واختلفوا فيه، وهو الحق الواضح الصريح! ولذلك فإنما هم في ﴿ شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾، أي في خصام ونزاع بعيد عن الحقِّ! إذ لا قصد لهم أصلًا في تبين أمر هذا النبي الكريم حقيقة، ولا إلى معرفة ما إذا كان ما يتلوه من قرآن هو وحي من عند اللَّه أم لا! كلا! بل كانوا على علم بأنما هم أمام نبي حقيقي، وعلى يقين بأن هذا القرآن هو كلام اللَّه! فهم يعرفون ذلك كله من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] فأي شقاقٍ أَبْعَدُ من هذا وأي نفاقٍ؟

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **الرسالات التسع** التالية:

الرسالة الأولى: في أن اللَّه تعالى جعل في الأرض رزق العباد كلهم إلى يوم القيامة، أولهم وآخرهم، لا ينقص بتوالد، ولا يفنى بتكاثر. وأن المجاعات القاتلة التي تقع من حين لآخر ببعض بقاع الأرض، إنما هي بسبب الحروب والحصارات، وما يمارسه طغاة الاقتصاد العالمي على الشعوب المستضعفة من مظالم؛ لا بسبب نفاد خزائن اللَّه ﷻ عن ذلك. فاللَّه جلَّ ثناؤه قد جعل في الأرض من الأرزاق ما يكفي البشرية كلها - لو أحسنت التدبير - إلى يوم القيامة. قال ﷻ : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ

مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠]. والأقوات هنا شاملة لأرزاق الإنسان والحيوان والطير، وسائر الدواب في البرِّ والبحر. فهي أرض مباركة من اللّٰه، مكتنـزة بما لا يفنى من كنوزه وخيراته. وأما ما يشيعه الكفار اليوم في بعض المؤتمرات من نفاد الأرزاق، فإنما هو ضرب من التضليل والتجهيل! المقصود منه توجيه السياسات العالمية إلى ما يخدم رفاهيتهم وثراءهم هم! ومن لم يزل يعتقد خُلُوَّ ما يسمى بـ (المؤتمرات العلمية) من الأيديولوجيا مطلقًا، فهو جاهل بحقيقتها وبحقيقة الصراع العالمي!

الرسالة الثانية: في أن للشيطان – نعوذ باللّٰه منه – خطوات، يغري الناس باتباعها، فمن استجاب له في خطوة واحدة أَسَره! فصار منقادًا له في جميع الخطوات، لا يستطيع الفكاك؛ إلا أن يمن اللّٰه عليه بتوبة نصوح! لأن من أوقعه الشيطان في المعصية انكشف عنه ستار الهيبة لها، وسقط عنه لباس الحياء من ربِّه ومن الناس؛ فعاودها وعاودها، ثم تجرَّأ بعدها على مثيلاتها! حتى إذا صار عبدًا للشيطان عَمِيَ عن طريق الهدى، فلا يرى أمامه إلا ما يزينه له إبليس اللعين من مسالك الهوى والشهوات المحرمات!

الرسالة الثالثة: في أن الذنوب والمعاصي إذا كثرت واستحكمت بالإنسان، أغلقت عليه نوافذ قلبه، ومنعته من استيعاب خطاب القرآن، وحالت دون تلقيه لحقائق الإيمان فلم يبرح ظلمات المعاصي؛ حتى يصطبغ قلبه بالرَّان، فيُمْسِي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا! كما في حديث النبي ﷺ قال: « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ! وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا! إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!** » (١).

الرسالة الرابعة: في أن على المسلم أن يرتقي من إيمان المتابعة والتقليد إلى إيمان

---

(١) رواه مسلم عن حذيفة. وقوله: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا: يعني فيه لمعَانٌ من شدة السَّوَادِ! والْكُوزُ: الإناء كالإبريق. وكونه مُجَخِّيًا: يعني مَنْكُوسًا، بحيث لا يمسك ما فيه.

التحقُّق والتجديد؛ وذلك بقراءة القرآن لنفسه قراءةَ تدبر، حتى يتحقَّق له التلقي عن اللَّه، والإنصات له بسمع قلبه، وأشواق روحه، والتخلُّق بمنازل الإيمان بما اكتسبه من تجربته، وسياحته في الملكوت! فيؤتيه اللَّه - جلَّ ثناؤه - حُبَّهُ، وحُبَّ رسولِه ﷺ، وحُبَّ المؤمنين. ثم يكره الكفر والكافرين كما يكره أن يُلقى في النار! ويوقن باليوم الآخر وما فيه من عرض وحساب، وما ينتهي إليه الناس من جنة أو نار، ويوقن بسائر أركان الإيمان، ثم يجعل عمله جاريًا على ذلك. فالاجتهاد في تجديد الدين والإيمان للنفس ضرورة، فربما كان بعض الآباء على ضلال في أمر دينهم، حتى ولو كانوا مسلمين؛ وذلك بما قد يرتكسون فيه من البدع المنكرة في العقائد والعبادات. وربما وقعوا في عبادة الشيطان وهم لا يشعرون؛ بما يعتقدونه من خرافات ويمارسونه من شركيات! وحتى ولو كانوا مسلمين صالحين بُرَآءَ من الجهل والضلال؛ فلا بد للابن من التحقُّق بمقام اليقين في إيمانه وعقيدته، ولا يكون ذلك بالتقليد لآبائه ومجرد الاتباع. فيكفي آباءَه الصالحين أنهم قد وضعوه على طريق الهدى، وأرشدوه إلى صالح الأعمال، وربُّوه على أعمال الإسلام من صلاة وصيام وغيرهما. أما التحقُّق بالإيمان الشهودي، والإخلاص الحقيقي، فإنما يكون بالاجتهاد الشخصي، ولا يتصوَّر فيه تقليد البتة.

الرسالة الخامسة: في أنه لا يجوز للمؤمن أن يزهد فيما أحلَّه اللَّه له من الطيبات، ولا أن يتركها - مع اليسر والجِدَةِ - على سبيل التعبُّد، ولا أن يحرم شيئًا منها على نفسه بيمين، أو نذر، أو مراهنة، أو نحوها؛ فتلك خطوة من خطوات الشيطان! قال التابعي الجليل مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أُتِيَ عبدُ اللَّه بن مسعود بِضِرْعٍ ومِلْحٍ فجعل يأكل [يعني: في جماعة]، فاعتزل رجلٌ من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبَكم! فقال: لا أريده. فقال: أَصَائِمٌ أنت؟ قال: لَا. قال: فما شَأْنُكَ؟ قال: حَرَّمْتُ أَنْ آكُلَ ضِرْعًا أَبَدًا! فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان! فَاطْعَمْ وَكَفِّرْ عن يَمِينِكَ!) (١).

الرسالة السادسة: في أن من حقوق اللَّه على عباده أن يوحِّدوه بشكر النعم التي

(١) رواه ابن أبي حاتم، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي شيبة، وعبد الرزاق في مصنفه، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كما رواه سعيد بن منصور في سننه وقال: سنده صحيح. ورواه الطبراني في الكبير. قال أبو بكر الهيثمي في مجمع الزوائد عن سند رواية الطبراني: رجاله رجال الصحيح.

أنعم عليهم. فلا يرتكبوا بها معصية ولا خطيئة، ولا يقدِّموها قربانًا لوثن، أو صنم، أو قبر، أو شجر، أو حجر. فذلك كله من كُفْرِ النعمة! وأما شكرها فإخراج زكاتها، والتصدُّق منها على الفقراء والمساكين من أولي الأرحام وغيرهم، وحمد اللَّه عليها، والثناء عليه بذكره بها، والاعتراف له بالجميل فيها؛ توحيدًا له وتفريدًا. وعدم التبذير والإسراف فيها، ثم إنفاق عفوها في وجوه البِرِّ والإحسان.

الرسالة السابعة: في أن الأكل من الرزق الحلال الطيب سبب لِتَقَبُّلِ الدعاء والعبادة، ويجعل صاحبَه من الصالحين. كما أن الأكل من الطعام الحرام، والتموُّن من المال الخبيث يمنع قَبُولَ الدعاء والعبادة، ويجعل صاحبَه من الغاوين. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا! وإِنَّ اللَّه أَمَرَ المؤمنينَ بما أَمَرَ بِه المرسلينَ**، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ... ﴿١٧٢﴾ ﴾. ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ: « يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! » ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِّيَ بالحرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ »)[1].

الرسالة الثامنة: في أن الضرورات تبيح المحظورات. كما أن الضرورة تُقَدَّرُ بقدرها. ومعنى الضرورة: المنفعة التي بدون استيفائها يلحق الإنسانَ الضررُ والأذى، ويقع في مشقة خارجة عن المعتاد! وأما المشقة المعتادة فهي موجودة في جميع تكاليف الشريعة؛ ولذلك سميت تكاليف. بل هي موجودة في جميع أنشطة الحياة، وفي كل مجالات الكسب الدنيوي، سواء عند المسلمين أو غيرهم. وقد توسع كثير من الناس في زماننا هذا في معنى الضرورة بغير علم ولا كتاب منير؛ فأحلوا لأنفسهم ما حرَّم اللَّه! وسمُّوا كلَّ ما يشتهون ضرورة! وهم يعلمون جيدًا أن بإمكانهم الاستغناء عنها بغيرها، خاصَّة في مجال المعاملات والربويات، وكثير من المقتنيات. مع العلم أن الرخصة في مثل هذه الأمور نوازل، تختلف من شخص إلى شخص، ومن بلد إلى بلد؛ فلا يجوز الأخذ فيها بفتوى عامَّة. والاحتياط للدين أنفع لأهل التقوى والورع. ففي مثل هذه الفتاوى قال النبي ﷺ: « **اسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ**

---

(١) رواه مسلم.

أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ! » (١) وعن أبي ثعلبة الخشني ﷺ قال: (قلت: يا رسول اللَّه! أخبرني بما يحل لي ويحرم عليَّ! قال: فَصَعَّدَ النبي ﷺ وصَوَّبَ فِيَّ النظرَ، فقال: « **البِرُّ ما سَكَنَتْ إليه النفسُ وَاطْمَأَنَّ إليه القلبُ. والإثم: مَا لم تَسْكُنْ إليه النفسُ ولم يَطْمَئِنَّ إليه القلبُ؛ وإنْ أفتاكَ المفتون!** ».. الحديث (٢).

الرسالة التاسعة: في أن على العالِم بأحكام اللَّه وسنة رسول اللَّه أن يبين للناس شرع اللَّه، وأن ينشر فيهم الهدى. فوظيفة البلاغ والدعوة إلى اللَّه واجبٌ عَيْنِيٌّ على كل عالِم من علماء الأمة، لا تبرأ ذممهم منه حتى يؤدوه للَّه، على قَدْرِ ما علمهم اللَّه. وأن كتمان الحق في وقت الحاجة إليه - من غير عذر شرعي - هو من أكبر الكبائر. فإن كان كتمانه بسبب رشوة أو مال يتقاضاه، كان ذلك موجبًا لغضب اللَّه ولعنته، والعياذ باللَّه.

٤ - مسلك التخلق:

ومقصد هذا المسلك التخلُّق بمقام الورع فيما يتعلَّق بالأرزاق، من مطعم وملبس ومشرب ومُقْتَنَى. حتى لا يأكل العبد إلا حلالًا طيبًا، ولا يلبس إلا حلالًا طيبًا، ولا يقتني إلا حلالًا طيبًا، ولا يكتسب من المال إلا حلالًا طيبًا! وبذلك يكون فعلًا من أهل الورع. وبه يكون مستجابَ الدعاء، رَضِيًّا عند اللَّه مَرْضِيًّا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ!** » (٣).

وأما مسلك الوصول إلى هذا المقام؛ فيكون بمعاهدة اللَّه على التحرِّي أولًا في الكسب؛ إذ الكسب هو الباب الذي يدخل منه البلاء على العبد، إذا لم يتحر فيه الحلال الطيب! فلا تبسط يدك لرزق حرام أبدًا، ولا لمال مشتبه فيه. إذْ لا يكون المسلم وَرِعًا حتى يترك المتشابهات! فإذ صَفَا لك كسبك سهل عليك تصفية الباقي.

ثم تجاهد نفسَك - ثانيًا - على محاربة آفة الاستهلاك! والمقصود بالاستهلاك:

---

(١) رواه البخاري في تاريخه عن وابصة. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند، كما صححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) جزء حديث رواه البزار والطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك، عن حذيفة مرفوعا. كما رواه الحاكم عن سعد مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

عادة إنفاق المال في شراء المشتهيات الزائدة، والمقتنَيات التافهة، واتباع ما يُسَمَّى بـ (الموضات)، مما لا يسد خَلَّةً ولا يلبِّي حاجةً حقيقيةً. فالإنسان المريض بآفة الاستهلاك لا يُشْبِعه شيء، ولا يكفيه مال البتة؛ لأنه كلما اشتهى اشترى! وشهوات النفس ليس لها حد؛ ومِن ثَمَّ فإنه لا يستطيع التورُّع فيما يكتسب ولا فيما ينفق. وإذن لا وَرَعَ بغير اقتصاد في المطعم والملبس والْمُقْتَنَى. وأما عادة الاستهلاك، واللَّهاث وراء (الموضات)، فهي من خطوات الشيطان! لأنها هي التبذير المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

ويستعان على هذه المجاهَدات بمطالعة سِيَرِ الصحابة والتابعين، لمعرفة كيف كانوا في زهدهم وورعهم، والتأثُّر بأخلاقهم. ثم مصاحبة أهل الرشد من الصالحين، الذين يجتهدون في سلوك هذا الطريق.

فمن طاب كسبه، وانضبط إنفاقه، وصَفَا قصده؛ سهل عليه - إن شاء اللَّه - ألا يأكل إلا حلالًا طيبًا؛ وارتقى إلى ما ذكرنا من منزلة الورَع! جعلني اللَّه وإياكم من أهلها بعونه وتوفيقه!

* * *
* *
*

المجلس الثالث والعشرون

في مقام التلقي لحقيقة البِرّ
ولِخُلُقِ العدل في القِصَاصِ والوَصَايَا

١- كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كانت اليهود تكْفُر بما عليه النصارى، وكانت النصارى تكْفُر بما عليه اليهود، وهم جميعًا يكفرون بما عليه المسلمون! وكُلٌّ كان - ولم يزل - على قبلة تختلف عن قبلة الآخرين، كما بيناه في مجلس سابق. فاليهود يُصلُّون إلى قبلة الأقصى، والنصارى يصلُّون إلى شروق الشمس، والمسلمون يصلون إلى قبلة الحقِّ شَطْرَ المسجد الحرام. ولم يزل أهل الكتاب يتناقضون في أمر النبوات ويختلفون، ويجحدون حقائق القرآن فيها، وينكرون أحكامه وتشريعاته في الحلال والحرام. فكان

ذلك كله سياقًا طويلًا بنى عليه القرآن بيانًا جديدًا، يَهُم أهل الكتاب والمسلمين جميعًا. فقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

والبِرُّ: اسم جامعٌ لكلِّ خصال الخير والصلاح. وكانت اليهود والنصارى كُلٌّ يدعي أنه أَبَرُّ بالله وبطاعته! وكل طائفة منهم تلعن أختها! فَمَنْ منهم أصدق في دعواه؟ ومَنْ منهم أخلص لله؟ فجاءت هذه الآية العظيمة تكذيبًا لهم وتوبيخًا، وتحذيرًا للمسلمين أيضًا وترهيبًا! حيث أنكر الله أن يكون البر مجرد ارتباط شكلي بجهة جغرافية من شرق أو غرب، يتجهون نحوها بصلاة فارغة، وقلبٍ مُصِرٍّ على المعاصي مَرِدٍ على النفاق! فما ذلك بِرٌّ ولا هو بطاعةٍ وإخلاصٍ!

وإنما البِرُّ: هو ما عليه المؤمن الصادق من الدين، المؤمن الذي أعطى البرهان الساطع على صدقه، والدليل القاطع على إخلاصه؛ وذلك بما أنجز من الأعمال الجليلة التي لا يستطيعها الكذبة والمنافقون! فآمن بالله ولم يشرك به سواه، ووصفه بما يليق به من الأسماء والصفات، ثم أخلص له عمَلَه ولم يعبد أحدًا سواه. وآمن باليوم الآخر، ورجا خيره وخاف عذابه، فكان عمله على ذلك. وآمن بالملائكة وما جعل الله لهم من وظائف الأعمال في الدنيا والآخرة، فزاده ذلك خشية من الله. وآمن بالكتاب كله، سواء ما أنزل الله منه على موسى، أو على عيسى، أو على محمد، عليهم الصلاة والسلام. وآمن بالأنبياء والمرسلين جميعهم ولم يفرق بين أحد منهم. ثم أعطى البرهان على إيمانه هذا بكل هذه الأركان؛ بما أنفق تطوعًا من حُرِّ ماله، وكريم طعامه، في غير غنى عنه ولا استغناء، بل على حُبِّه والرغبة فيه! فآتاه المحتاجين من قرابته أولًا، ثم اليتامى الْمُعْوِزِينَ، وضَعَفَةَ المساكين، ومن نَفَدَ مالُه في سفر من أبناء السبيل، وأعطى كل سائل يسأله بوجه الله، ثم أنفق منه في فكِّ الأسرى وتحرير الرِّقاب من المستعبَدين أو المعتقَلين.

ثم كان - قبل هذا وبعده - مقيمًا للصلاة على وجهها من الاستقامة والسكينة

والإخلاص لله! مؤدِّيًا لحقِّ الله في المال من فريضة الزكاة، وَفِيًّا بعهد الله كلما عاهد ربَّه على أمر، أو نذر له شيئًا من الطاعات، وَفِيًّا بما بينه وبين الناس من عهود وعقود، غير غادر ولا مخادع. ثم كان - وهذا تاج البراهين - من الصابرين على جميع ضروب البلاء! وتلك قمة الدلالة على التحقُّق بمقام البرِّ! ولذلك نصب «الصابرين» في الآية على المدح! وجعل يبين مواطن الصبر الشديدة حيث يتبين يمتحن صبر الصابرين، فقال: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾. فالبأساء: شدة الفقر، والضراء: شدة المرض وطوله، والبأس: القتال عند الجهاد في سبيل الله. فمن كان متخلِّقًا بهذه الخصال، مُتحقِّقًا بمنازلها، كان صادقًا في بِرِّهِ وإيمانه، وكان من المتقين.

وفي هذا تحضير للمسلمين وتهييء إيماني لهم؛ لتلقِّي أحكام شرعية من أعظم التشريعات في الإسلام! وهي: أحكام القِصاص في القتلى، وأحكام الوصايا، وأحكام الصيام، وأحكام القتال في سبيل الله، وبعض أحكام الحج، وغيرها مما سيأتي بيانه في محلِّه إن شاء الله. وكلها أحكام لم تعرفها العرب، أو عرفتها على غير وجهها الشرعي؛ ولذلك ثقل تشريعها على المنافقين! وفي هذا أيضًا إعداد للجماعة المؤمنة الفتية لدخول مرحلة جديدة من مراحل بناء الأمة، مرحلة ذات طبيعة أخرى، وذلك بتنزيل تشريعات تعبُّدية وجنائية، ترفع الأنفس في مقامات التزكية، وترسِّخ قدمها في أعمال البرِّ، وتعلي صلتها بالله ﷻ ، هذا من جهة. ثم تطور - من جهة أخرى - العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، وتقوِّي النسيج الاجتماعي الذي نشأ حديثًا بعد الهجرة، وتُـمَتِّنه بصورته الجديدة، حيث تمَّ نبذ العصبيات والجاهليات مما ألفته النفوس، ونشأت عليه الأجيال، وتوارثته عن عشرات القرون! فنزلت الآيات تحطِّم الفوارق العنصرية بقوة، وتبني أمة العدالة الاجتماعية. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾.

ذلك أن بعض قبائل العرب القوية، كانت إذا قَتَلَ العبدَ منهم عبدٌ من قبيلة أخرى؛ لم يرضوا إلا بقتل سيده الحر من القبيلة القاتلة، رغم أنه لم يكن هو قاتل

العبد! وإذا قَتَلَت امرأةٌ من غيرهم امرأةً منهم، قتلوا بها زوجها أو أباها أو أخاها فإن لم يكن قتلوا أي رجل منهم! فلا يرضون بثأر الأنثى منهم إلا بقتل رجل من عدوِّهم! وإذا قُتِلَ رجلٌ واحد منهم قَتَلُوا به عِدَّةَ رجال من الآخرين! فينهض الآخرون للثأر؛ فلا تنطفئ نيران الحروب أبدًا! [١].

ثم أسلم من أسلم من العرب، وهاجروا إلى المدينة من شتى أنحاء الجزيرة العربية، ومن مختلف القبائل، ولم يزل بعضهم في أول عهد تأسيس المجتمع المسلم يحمل في عقله هذه الرواسب الجاهلية، فحدث أن اقتتل بعض الناس فيما بينهم في عهد الرسول ﷺ، فكانت بينهم جروح ودماء؛ فأنزل الله هذه الآيات الفاصلة بالحق في أمر القصاص [٢]، ملغية بذلك زمن الاستعلاء الجاهلي وأخلاق الفوضى والعدوان، وبانية لِلَبِنَةٍ جديدة في صرح الأمة المسلمة، هي لبنة العدل والمساواة بين دماء المسلمين وأنفسهم، ذكورًا وإناثًا، عبيدًا وأحرارًا! وفرض عليهم ألا يقتلوا بالمرأة المقتولة إلا المرأة القاتلة لا رجلًا، وألا يَقتُلوا بالعبد المقتول إلا العبد الذي قتله لا سيده، وبالرجل الحر رجلًا واحدًا، لا عشرة رجالٍ! وهو ما أجمله في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] والمقصود هو أنه لا يُقْتَلُ إلا القاتل دون البريء، سواء أكان ذكرا أم أنثى، وسواء أكان حرًا أم عبدًا، فدماء المسلمين سواءٌ في الإسلام؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ**» [٣]. فكان تشريع القِصَاصِ من التنظيمات الجنائية الأساسية، التي قَوَّى بها اللَّهُ سبحانه النسيجَ الاجتماعي في الإسلام؛ وردَّ بها العلاقات الاجتماعية إلى أصل العدالة والمساواة؛ إذْ معنى القِصَاصِ في اللغة: الْمُتَابَعَةُ والْمُمَاثَلَةُ في الفعل، تقول: اقْتَصَّ فُلَانٌ أَثَرَ فُلَانٍ: إذا اتَّبَعَهُ وفَعَلَ مِثْلَهُ. وهو في الاصطلاح الشرعي: القَوَدُ، أي: قتل القاتل حَدًّا؛ جَزَاءَ قَتْلِهِ نَفْسًا مؤمنةً عَمْدًا.

(١، ٢) ن. الروايات في ذلك في تفسير الطبري للآية.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحاكم، عن علي مرفوعًا، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند، والشيخ الألباني في صحيح الجامع.

ومن رحمة اللَّه تعالى بهذه الأمة أنه تعالى شرع لهم العفو في القصاص، أي جواز عفو أولياء المقتول عن القاتل، وعدم الاقتصاص منه بقتله. وقد كان الواجب على بني إسرائيل في التوراة القتل فقط، ولم يكن مسموحًا لهم بالعفو في القصاص وأخذ الدية! بينما كان الواجب على النصارى في الإنجيل العفو فقط دون القصاص [١]. ثم خير اللَّه تعالى هذه الأمة بين القصاص وبين العفو وأخذ الدية، على حسب ما يختاره أولياء القتيل بين يدي القاضي. قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾. وهذا من جمال تعبير القرآن الكريم، فرغم أن القضية تتعلَّق بالحكم في جريمة قتل، إلا أنه لم يفتأ يذكر المسلمين بأخوَّتهم، فجعل المقتول أخًا للقاتل، تمتينًا لأخوة الإيمان من جهة، وحضًّا لأولياء المقتول بالعدول عن القصاص إلى العفو والرضا بالدية!

هكذا طبيعة التشريع الإسلامي في سائر المجالات سواء منها التعبدية أو الجنائية أو الاجتماعية أو المالية، فهي لا تخالف القانون الوضعي في الأحكام فحسب، بل تخالفه قبل ذلك بتميُّزها عنه بالعدل العزيز، وتزكية الأنفس، وتغذية الروح، وإشاعة المحبة والسلام، بما لا طاقة لأكبر العقول القانونية والفلسفية أن تفعله! نعم هكذا يتكلَّم القرآن ودم القتيل لم يجف بعد: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ بمعنى أن على أولياء القتيل - إذا عَفَوْا عن القصاص - أن تكون متابعتهم للجاني في اقتضاء الدية بالمعروف، لا تعنيف ولا تعنيت، وليس لهم أن يبالغوا فيها أكثر مما حدَّه الشارع، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، إذ كانوا يجعلون دية الشريف منهم أضعاف دية الوضيع! بل للمعفو عنه أن يؤديها لهم أقساطًا على حسب جِدَتِهِ. فذلك هو المعروف المطلوب منهم في المتابعة. ولكن على الجاني أن يؤدِّي ما عليه من ذلك بإحسان، أي بغير مماطلة ولا التواء. فإذا وُجِدَ لديه قَدْرُهَا جميعًا أدَّاها جميعًا، بلا تقسيط. ومِن ثَمَّ كان هذا التخيير في الحكم تخفيفًا من اللَّه ورحمة، رحمة لم تنلها أمة قبل هذه الأمة.

---

(١) تفسير البغوي للآية. وقد رواه البخاري ملخصًا عن ابن عباس.

ثم لم يُجزِ اللَّهُ ﷻ لمن عفا عن قاتل أن يغدر به فيقتله بعدما أخذ منه الدية! بل توعده بالعذاب الأليم، وقلب عليه الحكم، وسمَّاه مُعتدِيًا، فأهدر دمه وجعله حقًّا لأولياء القتيل الجديد، يقتلونه حدًّا! فذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٨ ﴾ ثم قال تعالى بَعْدُ مباشرة: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. وهذا تعبير يجمع بين الجلال والجمال! فالقصاص جلال، والحياة جمال! وهو تعالى أخرج هذا من ذاك، كما يُخرج الحي من الميت! ذلك أن بالقصاص العادل يُضمن الأمن والسلام في المجتمع، وتُحفظ الأرواح، وتُحقَن الدماء، وتُصان الأنفس والأعراض والأموال، وتُنْفَى الثارات الجاهلية المسرفة، والانتقامات الفوضوية المرعبة، ثم تصفو الحياة!

وإنما يدرك هذه الحقائق التشريعية وحِكَمَهَا أولو الألباب، أي العقلاء، الذين يتدبَّرون أحوال المجتمعات الجاهلية، قديمها وحديثها، ويلاحظون ما تعانيه من فقدان الأمن والسلام، وما تعيش فيه يوميًّا من خوف ورعب؛ بسبب فساد قوانينها الجنائية، وفشل برامجها التربوية. ثم يقارنون بينها وبين المجتمع الإسلامي قبل إصابته بالأمراض، فيدركون حقيقة ما في القِصاص من حياة! وبذلك يحصل لهم الشعور بالتقوى، فيخضعون لحكم اللَّه، ويرضَوْن بشريعته، ويُسَلِّمُونا تسليمًا.

ولمناسبة الاقتتال على الإجمال، وما يكون بسببه من موت، أدرج أحكامًا شرعية تتعلَّق بالوصايا، عند الإحساس بدُنوّ الأجل على الإطلاق، مرشدًا المسلمين بذلك إلى أهمية إملاء وصاياهم عند الاحتضار أو قبل ذلك، ومُبَيِّنًا ما ينبغي للموصي من فعل الوصية، وما ينبغي لمتلقِّيها أو لموثقها من أمانة وإصلاح. قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٨١ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في آية الوصية ههنا؛ لأن ظاهر الخطاب يوجب الوصية للوالدين والأقربين، فقال بعضهم إنها منسوخة بآيتي المواريث على الإطلاق، وهي قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ .. ﴾ إلى آخر

الآيات [النساء: ١١ - ١٢]. وقد سبق بيان معنى النسخ في مجلس سابق [١] بأنه: « رفع العمل بحكم شرعي بدليل متأخر عنه ». أي: إلغاء العمل بحكم شرعي سابق، بدليل شرعي لاحق. أي بنصٍّ شرعي ورد متأخرًا عن الأول؛ لحكمةٍ شرعيةٍ.

وقال آخرون بل هي منسوخة في حق الوالدين فقط؛ لأن اللَّه جعلهما وارثين في جميع الحالات، وبقيت محكمة في حق الأقربين من غير الورثة. واختُلف في حكم الوجوب، فقيل: قد نُسخ إلى الندب، وقيل: بل بقي كذلك في حق الأقربين الذين لا سهم لهم في الميراث. وقيل: بل هي آية محكمة غير منسوخة، وإنما هي من العام المبيَّن، إذ بينتها آية المواريث، فبقيت الوصية فرضًا واجبًا على الغني في حق الوالدين غير الوَارِثَيْنِ، وهما الوالدان الكافران، وكذا في حق الأقربين من غير الورثة أيضًا. ولكل مذهب من هذه الأقوال ما ينصره من اختيارات الصحابة أو التابعين، أو هما معا [٢]. ونحن نرجح القول بوجوبها على الغني الموسر في حق غير الوارث من القرابة؛ جمعا بين الآيتين، ولقول النبي ﷺ: « **إنَّ اللَّهَ قد أعطى كلَّ ذِي حَقٍّ حقَّه، فَلَا وصِيَّة لوَارِث!** » [٣] فكلٌّ من عبارة: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ ... ﴿١٧٨﴾ ﴾ وعبارة: ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ دال على الوجوب. فإن نُسِخَ ذلك في حقِّ الوالدين فهو محكم في حقِّ من لا يرث من الأقربين. وإنما تجب الوصية على من ترك « خيرًا »، أي مالًا كثيرًا وثروة

---

(١) ن. المجلس الرابع عشر، عند بيان قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ ... ﴿١٠٦﴾ ﴾.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوجوب الوصية على الموسر للوالدين؟ ولغير الورثة من الأقربين. ثم قال مُجادلًا: (فإن قال [قَائِلٌ]: فإنك قد علمت أن جماعة من أهل العلم قالوا: الوصيةُ للوالدين والأقربين منسوخةٌ بآية الميراث؟ قيل له: وخالفهم جماعةٌ غيرهم فقالوا: هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازع بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاءُ عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجة يجب التسليم لها، إذ كان غير مستحيل اجتماعُ حكمُ هذه الآية وحكمُ آية المواريث في حال واحدةٍ على صحة، بغير مدافعةِ حكم إحداهما حُكمَ الأخرى، وكان الناسخ والمنسوخ هما المعنيان اللذان لا يجوز اجتماع حكمهما على صحة في حالة واحدة، لنفي أحدهما صَاحبه). تفسير الطبري للآية.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي أمامة، ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي والدارقطني عن عمرو بن خارجة، ورواه ابن ماجه والبيهقي والدارقطني عن أنس بن مالك، كما رواه الدارقطني عن جابر بن عبد اللَّه. وقد صحح الشيخ الألباني كل هذه الروايات في صحيح الجامع وفي تعليقه على السنن. كما صحح الشيخ شعيب الأرناؤوط ما رواه منها الإمام أحمد، تصحيحًا لغيره، وقد حسن بعضها. ويكفيه قوة أنه ورد عن أربعة من الصحابة بطرق يقوِّي بعضها بعضًا.

معتبرة، كما ذهب إليه المفسرون. وقد حدَّد بعضُ الصحابة للمال المسمى « خيرًا » مقاديرَ من الدنانير، لكن مفهوم الثراء يختلف باختلاف الزمان والمكان. وقد وُصِفَتِ الوصيةُ في الآية بأنها تكون (بِالْمَعْرُوفِ)، والمقصود ألا يتعدَّى الموصي في وصيته مقدار ثلث ثروته؛ حتى لا يجحف بورثته. ففي الحديث عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه: (جاءه النبي ﷺ يعوده (...) ولم يكن له إلا ابنة واحدة، فقال: يا رسول اللَّه! أوصي بمالي كله؟ قال: « لا! » قال: فالنصف؟ قال: « لا! » قال: فالثلث؟ قال: « الثلث، والثلث كثير! إنك أَنْ تدع ورثتَك أغنياءَ خير من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون الناس في أيديهم! » [١].

هذا، وقد نبَّه اللَّه تعالى على وجوب أمانة المتلقي للوصية والموثق لها، سواء كان من الورثة أو من غيرهم. وتوعَّد بالعقاب كُلَّ من خانها؛ فغيَّر شيئًا منها، أو كتمها، أو أتلفها. إلا أن يقصد إصلاحًا فلا إثم عليه. قال سبحانه: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨٢ ﴾. فاللَّه تعالى - وهو الرقيب على كل شيء - سميع لما يقول الموصي، عليم بما يتصرَّف به الموثق أو الشاهد من صدق وأمانة، أو غشٍّ وخيانة! فمن بدَّل أو غيَّر فقد بَاءَ بإثمه ووزره، والموصي بريء من ذلك. أما إذا جَنَفَ الموصي أي أخطأ التعبير فعبر بما لا يقصد من الكلام، أو بما يؤول إلى عكس ما يريد من الإيصاء، أو بما يخرج الوصية عن حدِّ المعروف والعدل، وكذلك إذا أَثِمَ فيها، أي ظَلَمَ فيها قصدًا وعمدًا، كأن يريد الإضرار ببعض الورثة؛ لسبب من الأسباب، فهذا مما يجوز للموثق إصلاحه، إما بتبديله ووضع العبارة المناسبة لشرع اللَّه، والموفية بقصد الوصية الشرعي، أو بالتدخُّل بين الموصي وورثته للإصلاح بينهم. فهذا عمل مرفوع عنه الإثم، مغفور لصاحبه، مشمول برحمة اللَّه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في **الرسالات الست** التالية:

الرسالة الأولى: في أن البرَّ في الدِّين إيمانًا وعملًا، من أرفع المنازل الإيمانية عند اللَّه؛ لأن معنى البِرِّ: كمالُ الطاعة والتفاني في الخدمة. والمؤمنُ البَرُّ: هو الذي

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما.

يَفِي ويُوَفِّي بما كلَّفه اللَّه به على التمام، أو ما يقارب التمام. قال سبحانه في حقِّ خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧]. والبِرُّ صِنْوُ الوفاءِ ورَدِيفُهُ، تقول: بَرَّ فلانٌ بيمينه إذا لم ينقضها ولم يحنث، أي: وَفَى بما أقسم عليه وأتمه. ومن هنا فالمؤمنون البررة إنما يكونون على درجة الصِّدِّيقين؛ بما تخلَّقوا من أخلاق الأنبياء؛ لأن الناظر فيما ذكر اللَّه تعالى ههنا من خصال في آية البرِّ، يجد أنما هي متمثلة حقًّا في الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي من تأسَّى بهم من الصِّدِّيقين. وجَعْلُ هذا المقام العالي هدفًا في السير إلى اللَّه يجعل المؤمن يفوز - على الأقل - بمنزلة من منازل الصالحين. وأَكْرِمْ به من فوز وأَنْعِمْ!

الرسالة الثانية: في أن تطبيق الحدود إنما يصلح في مجتمع المؤمنين البررة! إذ لا بد فيه من إعداد الناس وتزكيتهم، وإشاعة الصلاح بينهم حتى يظهر الخير على الشرِّ ويغلب عليه. ومن الخطأ الشنيع اختزال تطبيق الشريعة في أحكام العقوبات والتعازير فقط! فالشريعة الإسلامية أوسع من هذا بكثير.. بل إن العقوبات في الإسلام لا تتعدَّى ستة حدود فقط. ثم ما يوكل إلى اجتهاد القاضي من تعزير. ومن الجهل بحكمة التشريع المطالبةُ بذلك في بيئة أكثر أهلها لا يصَلُّون ولا يُزكُّون! وظهرت فيهم الفواحش وكبائر الموبقات، كالشرك والزنى وشرب الخمر؛ حتى أعلنوا بذلك وجهروا به في الطرقات! بل فيهم من يطالب بإلغاء ما بقي للناس من أحكام الزواج والطلاق والإرث، ووضع القوانين الباطلة محله! فمثل هذا الوضع المريض جدًّا يحتاج إلى علاج وإحياء أولا، لا إلى حدود وتعزيرات!

إن الأمة اليوم في حاجة إلى أخلاق البرّ أولا! فواجب العلماء والمصلحين والدعاة إلى اللَّه، هو العمل على تجديد حقائق البرّ في الناس، بما فيها من إيمان باللَّه واليوم الأخر، وما يلحق بهما من أركان الإيمان، ثم تجديد معاني العبادات في النفوس، من صلاة وزكاة وصيام وصدقات، ثم إشاعة أصول الأخلاق الاجتماعية كالوفاء والأمانة، وكذا أصول الأخلاق النفسية كالصبر والإخلاص. فهذه هي أركان البرِّ وأسسه المذكورة في الآية. وهي مناط العمل الدعوي أساسًا. لا قيام لشيء غيرها من شرع اللَّه حتى تستقيم هي أوَّلًا، وتغلب على الناس في الأمة، وترسَّخ في قلوبهم. وقد علمتَ أن القرآن الكريم لم يزل ينزل على الرسول ﷺ - طيلة الفترة المكية -

بأصول التزكية الإيمانية، ويحذِّر الصحابة من استعجال شرع الله! قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧]. وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبري وغيره بسند صحيح عن ابن عباس ﵄: (أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أتوه [وهو بمكة] فقالوا: يا رسول الله! كنا في عِزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذِلَّة! فقال ﷺ: « **إنِّي أُمِرْتُ بِالعَفْوِ فَلا تُقَاتِلُوا!** » فلما حَوَّلَهُ الله إلى المدينة، أُمِرَ بالقتالِ فَكَفُّوا!) [١] وأخرج أيضا بسنده عن قتادة قال: (كانَ أُنَاسٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ، وهو يومئذ بمكة قبل الهجرة، تَسَرَّعُوا إلى القتال، فقالوا لنبي الله ﷺ: ذَرْنَا نَتَّخِذ مَعَاوِلَ فنقاتل بها المشركين بمكة! فنهاهم نبي الله ﷺ عن ذلك، قال: « **لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ!** » فلما كانت الهجرةُ، وأُمِرَ بالقتالِ، كَرِهَ القَوْمُ ذَلِكَ!) [٢].

ومن ثَمَّ لم يزل النبي عليه الصلاة والسلام - وهو بمكة - يتلو على أصحابه آيات ربِّه، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، حتى إذا رسخت أقدامُهم في أخلاق البرِّ، أَذِنَ الله لهم بالهجرة إلى المدينة، فتكونت الأمة المسلمة الوليدة، بعلاقاتها الاجتماعية الجديدة، وبدأت تشريعات الأحكام الجنائية آنئذ تتنزل على رسول الله ﷺ.

إلا أنه لا بد من بيان أن هذا يختلف في الأمة اليوم من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، فَرُبَّ قُطْرٍ هو مهيَّأ الآن لتطبيق حدود الجنايات؛ لغلبة الصلاح على أهله، أو أن شيئًا من ذلك ما يزال مطبقًا فيه أصلًا، ورُبَّ قُطْرٍ آخَرَ ما يزال في بداية الطريق.

ثم لا بد من بيان أن الوظيفة التربوية للعلماء والدعاة، من تلاوةٍ للآيات، وتزكيةٍ للأنفس، وتعليم للكتاب والحكمة؛ ليس لها مرحلةٌ تنتهي عندها، بل هي وظيفة أبدية، تبدأ من أول بذرة من بذور العمل الدعوي، وتبقى مُستمرَّةً مع نضج الأمة،

---

(١) تفسير الطبري للآية. وقد رواه أيضًا النسائي في سننه، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في مستدركه، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في تحقيق سنن النسائي.

(٢) تفسير الطبري للآية.

مدرسةً نبويةً لا تغلق أبوابها أبدًا! لأن بقاء الأمة في الوجود رهين ببقاء هذه الوظيفة الربانية فيها.

الرسالة الثالثة: في أن العفو في الجنايات والخصومات من أهم خصال البرِّ. وهو يدخل في ركنه الخلقي، أي: الصبر. لأن العفو لا يتأتى لصاحبه إلا بصبر! فالعفو مقام إيماني رفيع؛ إذ المتخلق به يراعي أخوة الإسلام في أحرج الظروف النفسية، وهي ظروف الغيظ الشديد والغضب الرهيب. وهذه منزلة لا تُنال إلا بمجاهدة للنفس كبيرة! ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]. وقد رأيت كيف حافظ القرآن على تعبير الأخوة بجمالية راقية، في سياق عرض أحكام القتل، قِصَاصِهِ وعفوه، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ... ﴿١٧٨﴾﴾ وقد مدح اللّه تعالى أهل العفو في غير ما موطن من كتابه الكريم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال جلَّ ثناؤه في: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فالعَفْوُ صِفَةٌ من صفات اللّه ﷻ ، و العَفُوُّ اسم من أسمائه الحسنى، ولا أحد أعفى منه سبحانه على المذنبين! فهو تعالى العَفُوُّ الغَفُورُ. ومن تقَّرب إلى اللّه بهذا المسلك كان من المفلحين. جعلني اللّه وإياك منهم!

الرسالة الرابعة: في أنه فرق كبير بين حدِّ القصاص في القتل وبين حدِّ القتل في الحِرَابَةِ. فهذا لا عفو فيه البتة! ومعنى الحِرَابَةِ: حمل السلاح على المسلمين، قصد اغتصاب أموالهم وأعراضهم. كما يفعل قطاع الطرق والعصابات المسلحة. قال ابن جزي الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف المُحَارِبِ: (هو الذي شَهَرَ السلاحَ وقطع الطريقَ، وقَصَدَ سَلْبَ الناسِ، سواء كان في مَصْرٍ أو قَفْرٍ (...) وكذلك من حَمَلَ السلاحَ على الناس من غير عَداوة ولا ثَارَةٍ: فهو مُحَارِبٌ. ومن دخل دارًا بالليل وأخذ المال بالكره، ومَنَعَ من الاستغاثة فهو محارِب. والقاتلُ غِيلَةً: محارِبٌ. ومن كان معاونًا للمحارِبين، كالكَمِينِ والطَّلِيعَةِ، فحكمه كحكمهم (...) وإذا أُخِذَ المحاربُ قبل توبته؛ أُقِيمَ عليه الحدُّ، وهو: القتل، أو الصلب، أو قطع اليد والرجل، أو النفي (...) وإن قَتَلَ المحاربُ فلا بد من قتله! سواء قَتَلَ حُرًّا أو عبدًا أو ذِمِّيًّا. ولا يجوز عفو ولي

المقتول عنه. وإن لم يَقْتُلْ فالإمام مخيَّر بين القتل أو القطع أو النفي، يَفْعَلُ في ذلك ما يراه نظرًا) [١].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فَمَنْ كان من المحارِبين قد قَتَلَ فإنه يقتله الإمامُ حدًّا لا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء! (...) ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول، بخلاف ما لو قَتل رجلٌ رجلًا؛ لعداوة بينهما أو خصومة أو نحو ذلك من الأسباب الخاصَّة؛ فإن هذا دمه لأولياء المقتول، إن أحبوا قتلوا، وإن أحبوا عفوا، وإن أحبوا أخذوا الدية؛ لأنه قَتَلَهُ لغرضٍ خاصٍّ. وأما المحارِبون فإنما يَقتلون لأخذ أموال الناس، فضررُهم عام بمنزلة السُّرَّاق، فكان قتلهم حَدًّا للَّه. وهذا متفق عليه بين الفقهاء) [٢]. أما إذا تاب المحارِبُ وسلَّم نفسَه للسلطان قبل القبض عليه، فيعفى عنه، إلا أن يكون قد قتل نفسًا فيصير حكمه آنئذ إلى حكم القصاص في القتلى، وإن سرَق مالًا غُرِّمَ.

وذلك كله في قول اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

الرسالة الخامسة: في أن الوصية بالمعروف من أهل الثراء - سواء كانت واجبة أو مندوبة - هي من أعظم الصدقات، يوصي بها الغني للفقراء من قرابته، ثم لمصالح المسلمين. ويا حبذا لو تكون بشيء يدوم نفعه، فتكون له صدقة جارية، كأن يوصي ببعض منازله لتكون مدرسة قرآنية، أو مكتبة للعموم، أو مستشفى خيريًّا، أو مطعمًا للفقراء، أو مأوى للمشرَّدين. ويجعل لذلك أوقافًا تجارية أو فلاحية، تصير غلالها وأرباحها للإنفاق على تلك الصدقة الجارية، وخدمة مصالحها.

ويحسن بالموصي أن يبادر إلى توثيق وصيته بمجرد عقد النية عليها؛ فلا يدري متى ولا كيف يكون أجله! فعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **مَا حَقُّ امرئٍ مسلمٍ، له شَيْءٌ يُوصِي فِيه، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ!** » [٣] فقال

(١) القوانين الفقهية لابن جزي، الباب الثامن من الكتاب السابع: في الدماء والحدود.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/٣١٠-٣١١).

(٣) متفق عليه.

ابن عمر: (مَا مَرَّتْ عليَّ ليلةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ ذَلِكَ إلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي!) (١).

الرسالة السادسة: في أن للنسخ وظائفَ تربوية، وحِكَمًا دعوية، قلمَّا يذكرها الأصوليون والفقهاء في كُتُبهم. فهم يقسمون النسخ في القرآن - كما عرَّفناه ببيان هذا المجلس - إلى ثلاثة أنواع: **الأول** منها: نسخٌ للحكم الشرعي ولنصِّه الثابت به معًا، بحيث يرفع اللَّه العمل بالحكم ويرفع الآية المتعلِّقة به أيضا، فلا يبقى لها رَسْمٌ في المصحف. وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ... ﴿١٠٦﴾ ﴾.

والثاني: نسخٌ للآية وإبقاءٌ لحكمها معمولًا به في الشرع. وإنما يُسْتَدَلُّ عليه آنئذ بالسُّنة، كما هو الشأن في حُكم رجم الزاني المحصن، فقد كان آية تتلى في كتاب اللَّه ثم نسخها اللَّه ورفعها، فلم يبقَ لها في المصحف رسْمٌ، لكن حكمها لم يزل ثابتًا بالسُّنة (٢).

والثالث: رفعٌ للحكم وإبقاءٌ لآيته مَتْلُوَّةً في القرآن، مرسومةً في المصحف، تتلى تعبدًا كسائر الآيات. وذلك مثل آية الوصية للوالدين، التي تدارسناها بمجلسنا هذا، فقد نُسخ حكمها وبقي رسمها ثابتا في المصحف. ويلحق بها آياتٌ أُخَرُ في مواطن مختلفة من كتاب اللَّه، كالحكم بإمساك الزانية في البيت حتى الموت، ثم نسخه - بعد ذلك - بعقوبة الجلد التي في سورة النور. ومع ذلك بقي الحكم المنسوخ آيةً تتلى في كتاب اللَّه إلى يوم الدين! وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥] وكإيجاب قيام الليل إلا قليلًا،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ. فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ! وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوِ الاعْتِرَافُ) متفق عليه.

على الرسول ﷺ وأصحابه في المرحلة المكية فترةً من الزمن، ثم نسخه إلى الندب على قدر الطاقة. فكلا الحكمين، الناسخ والمنسوخ، ثابت في المصحف، يُتعبد بتلاوته في سورة المزمل.

والسرُّ في ذلك يرجع إلى أمرين؛ **الأول منهما:** أن النسخ بجميع أنواعه مكتنز بالحِكَم والمصالح التشريعية؛ لِمَا يدل عليه من مراعاة القرآن لسنن التدرج والتلطف بالإنسان؛ رحمةً من اللَّه، في سياق تربيته وتزكيته، وترقيته إلى مقام التلقي عن اللَّه!

والثاني: أن النوع الثالث منه خاصَّة، وهو ما نُسِخَ حُكْمُهُ وبقيت تلاوتُه - وهو الأكثر وقوعًا في القرآن - هو الأغنى بالدلالات على أسرار الصناعات! وقد يستغرب الإنسانُ - أوَّلَ النظرِ - بَقَاءَ آيةٍ منسوخةِ الحكم في كتاب اللَّه مرسومةً في المصحف؟ ثم يتساءل: لِمَ لَمْ يُرفع رَسْمُهَا كما رُفِعَ حُكْمُهَا، على ما ورد الخبر عن الآيات الأُخَرِ؟ فهل بقي رسمها لمجرد التلاوة فقط؟ أم بقي هكذا عبثًا؟ كلاَّ! كلاَّ! بل إنني ما أحب أن يكون لي برفعها من كتاب اللَّه حُمْرُ النَّعَمِ!

إن هذه الآياتِ المنسوخةَ حُكْمًا، الثابتةَ تلاوةً - علاوةً على فائدتها التعبدية، كما هو ثابت في أجر القارئ لكتاب اللَّه عمومًا - هي عبارة عن علامات ظاهرة جعلها اللَّه في كتابه؛ لفائدة التدبُّر والتبصُّر، ومعرفة كيف كانت مسيرة الوحي في بناء الأمة الإسلامية، تربيةً وتزكيةً وتشريعًا، ودعوةً ونذارةً وجهادًا. حتى يستفيد الداعيةُ الحكيم قواعدَ تجديد الدين، وأسرارَ الصناعةِ في إعادة بناء صرح الأمة، ومعرفة مراحل ذلك خطوةً خطوةً، من النفس إلى المجتمع، ومن الفرد إلى الجماعة، ومن الشتات إلى الوحدة، ومن الاستضعاف إلى التمكين. إنها مَعَالِمُ بَيِّنَةٌ على منهج إعادة البناء والتركيب للمحرك الإيماني، الذي به تستأنف الأمة حياتها الشاهدة على الناس؛ ولذلك كان بقاؤها مرسومةً في كتاب اللَّه - رغم نسخ أحكامها - كبقاء المفاتح على الأقفال! هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: فإن ما يُتْلَى من منسوخ القرآن الكريم، الثابت في كتاب اللَّه، المرسوم في مصحفه - إضافةً إلى فائدته المنهجية على المستوى الدعوي - له فائدة عملية على المستوى التعبدي والتشريعي! وما يدريك؟ فلعل الأمة تجد نفسها في

حاجة إلى تطبيق بعض أحكامه في فترة من الزمان! لِمَا قد تمرُّ به كلها أو بعضها من ظروف شديدة، تجعلها تلتجئ إلى بعض هذا المنسوخ المتلو؛ للعمل به في تلك الأوضاع المفروضة، والظروف الخاصَّة العصيبية! فكتاب اللَّه تعالى يشبه - من حيث أحكامُه التشريعية - صيدليةً مكتنزة بالأدوية، فلعل دواءً منها لا يطلبه اليوم أحد، لكن بقاءه على رفوف الصيدلية وخزائنها، دالٌّ على أن الأمة ستحتاجه في يوم من الأيام، هنا أو هناك، مهما امتدت القرون وتعاقبت السنوات!

٤ - مسلك التخلق:

البِرُّ صِدْقٌ وتقوى! فقد ختم اللَّه تعالى صفات أهل البرِّ - كما رأيت - بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ فبالصدق والتقوى إذن يتحقَّق للعبد مقام البرِّ، ويصير له خُلُقًا ثابتًا بإذن اللَّه. ويكون ذلك بالسير إلى اللَّه عبر ثلاثة مسالك، هي:

المسلك الأول: صِدْقُ التوجُّه إلى اللَّه في كلِّ شيء بحقائق الإيمان ﴿ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾. فلا يغيب عنك شيء منها وأنت تمارس حياتك، سواء منها التعبدية والعادية. فكل فِعْلٍ يُبْنَى على هذه الحقائق الإيمانية هو فعل صادق.

المسلك الثاني: وهو مُنْبَنٍ على الأول؛ فمن عرف اللَّه واليوم الآخر، وما يلحق بهما من أصول الإيمان، وعاش ذلك في حياته كلها - كما قلنا - وُهِبَ خُلُقَ الخشية للَّه فكان من المتقين. وبتقواه استقامت عبادتُه، وخَلُص إنفاقُه للَّه ربِّ العالمين: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

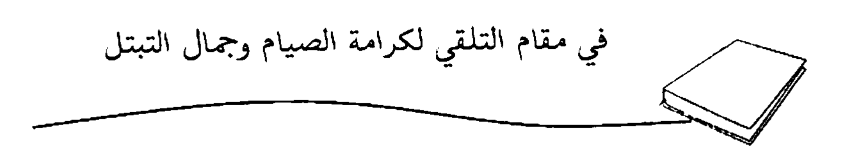
وأما **المسلك الثالث:** فهو إحسان الأخلاق بما وُهِبَ من صدق الإيمان وتقوى القلب. وذلك بأن يتحقَّق بخلقين اثنين هما مفتاح جميع الأخلاق الفاضلة. فأما الخلُق الأول فهو الأمانة في المعاملات: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾، والوفاء روح الأمانة. وأما الخلق الثاني: فهو الصبر على قضاء اللَّه وقدره، في كل ما ينـزل بالعبد من ابتلاء في رزقه، أو بدنه، أو نفسه، أو أمنه.

فتلك المسالك الثلاثة، مَنْ جاهد نفسَه على الدخول فيها، وقطع مسافاتها سيرًا

إلى اللَّه؛ نال بإذن اللَّه منزلة الأبرار. ومن كان بَرًّا بربِّه سهل عليه - بعد ذلك - كل تكليف أمره به، وتلقَّى حدود اللَّه وتشريعاته بتمام الرضا. فهو العبد الصابر والصادق التقي. وتلك هي حقيقة البرِّ.

* * *
* *
*

المجلس الرابع والعشرون



١- كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٤ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٨٧ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨ ﴾.

٢ - البيان العام:

أما هذا فهو مقام التبتل الملائكي!.. إنه بُرَاقُ العبادات، وروح التكاليف، وشلَّال الإخلاص، وبحر الصفاء، ورياح الرحمة والغفران! من دخله كان من التوَّابين وكان

من المتطهرين.. فَأَكْرِمْ به من عطاء رباني! وأَنْعِمْ به من جمال رحماني! قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

فههنا يتم تشريع الصيام، ركنًا رئيسًا من أركان الإسلام، بعد تشريع الصلاة والزكاة. والصيامُ عبادة ولا كأي عبادة! إنه رحمة كله، ومغفرة كله، وفوز كله! فأن تلبس جلباب الصوم يعني أنك من المتبتِّلين، إذ تنقطع للَّه وحده، فلا تحيا إلا به، ولا تبصر إلا به، ولا تسمع إلا به! تمسي وتصبح ذاكرًا للَّه في صمت بكل أحوالك.. فإذا بك - ليلَك ونهارَك - محفوفٌ بأجنحة الملائكة! مذكور في الملأ الأعلى! وكيف لا؟ وَهَا الرحمنُ - جلَّ ثناؤه - يقول في الحديث القدسي: « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ!** »[1].

والفقهاء يُعَرِّفُونَ الصوم بأنه: « الإمساك عن شهوتي البطن والفرج، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس »، لكنه تعريف قاصر! لأن الصائم ممسك بصومه أيضًا عن اللغو وفضول الكلام، وعن الصخب والفسوق ورد الخصام. قال الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام: « **وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ! فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ!** »[2] ثم هو - قبل ذلك وبعده - منقطع إلى الرحمن، منشغل بذكره تعالى على كلِّ حال. وهذا هو العنصر الأساس في الصيام؛ لأن العبد لما انشغل بربِّه كُلِّيَّةً أمسك عما سواه! وهذا واضح جدًّا من قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ: الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ - قَالَ اللَّهُ ﷻ: - إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ! يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي! لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ** [أي: رائحة فمه] **أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ!** »[3] فالحديث دال على أن أجر الصائم هو فوق السبعمائة ضعف، أي أنه بغير حساب! وذلك لأن الصائم إنما يصوم للَّه وحده، ويترك ما يترك من أجل اللَّه وحده! فلا عبادة أضمن للإخلاص من الصيام. وهذا هو فَصْلُ حَدِّهِ وأساسُ تعريفه. فأين تعريف الفقهاء من هذا كله؟

(١، ٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وفي قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ... ﴿١٨٣﴾ ﴾ دليل على أن اللَّه قد فرض الصيام على أهل الكتاب قبلنا فأضاعوه! ثم إنه سبحانه قد شرع الصوم على هذه الأمة، في بداية الأمر، ثلاثةَ أيام من كل شهر فقط! ولذلك قال في الآية بعدُ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾؛ تدريبًا للمسلمين الأوائل، وإعدادًا لهم لتحمُّل صيام شهر كامل من كلِّ سنة، وقد كانوا عَرَبًا لا سابقة لهم في الصوم. حتى إذا نزل قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ .. الآية، تحوَّل الفرض من ثلاثة أيام شهريًّا إلى صيام شهر رمضان كاملًا! وبقي صيام الثلاثة أيام سُنَّةً مندوبةً، وتطوُّعًا محمودًا! حَدَّثَ ابن أبي ليلى عن أصحاب النبي ﷺ قال: « حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَمَرَهُمْ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ أُنْزِلَ رَمَضَانُ، وَكَانُوا قَوْمًا لَمْ يَتَعَوَّدُوا الصِّيَامَ وَكَانَ الصِّيَامُ عَلَيْهِمْ شَدِيدًا؟! فَكَانَ مَنْ لَمْ يَصُمْ أَطْعَمَ مِسْكِينًا؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾، فَكَانَتِ الرُّخْصَةُ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ، فَأُمِرُوا بِالصِّيَامِ! »(١). فذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾. وأما قوله تعالى في تتمة هذه الآية: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، فهو تحفيز للمتكاسلين عن الصوم - في بداية تشريعه أيامًا معدودات - وحَضٌّ لهم على صيام الأيام الثلاثة بدل الفدية، ثم هو إعداد لهم لتلقِّي تشريع صوم رمضان شهرًا كاملًا، فرضًا لا تطوعًا.

ومِن ثَمَّ نزل قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في تعليقه على سننه. وعن معاذ بن جبل ﷺ: (أن رسول اللَّه ﷺ قَدِمَ المدينةَ فَصَامَ يَوْمَ عاشوراء، وثلاثةَ أيام من كل شهر، ثم أنزل اللَّه ﷻ فَرْضَ شهر رمضان) وهو جزء حديث أخرجه أحمد، والحاكم، وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ». ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في سننه، والطبري عند تفسيره للآية. وقد ذكر الألباني أن عددًا من النقاد قد أعلَّ الحديث؛ بسبب ضعف أحد رواته، وهو المسعودي، لكنه قال بعد: « ولكن له شاهد »، ولعله يعني حديث ابن أبي ليلى المذكور.

مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ وبهذا خصَّ اللَّهُ فريضةَ الصيام بشهر رمضان خاصَّة، وجعل ما دونه من الشهور والأيام للتطوع. ذلك أن اللَّه ﷻ قد عظَّم هذا الشهر، وميزه على سائر الشهور؛ لِمَا وقع فيه من الحوادث العظام، وعلى رأسها نزول القرآن كما نصَّت عليه الآية. والقرآن كلام اللَّه ربِّ العالمين خاطب فيه عباده من الجِنَّةِ والناس أجمعين! فنزل بذلك الهدى للبشرية بعد ضلال طويل.. وجاء من اللَّه بمعالم واضحات، وآيات مُحْكَمات بينات، تدل الناس بتفصيل على طريق الهدى، بلا اختلاف ولا اضطراب ولا اختلال، وتضع بين أيديهم نور الفرقان، يستطيع كل من استنار به أن يفرق بين الحق والباطل بسهولة، فلا ينطلي عليه دجل الكذَّابين والمنافقين من أهل الملل والنِّحَل الأخرى!

شهر رمضان هو شهر الوحي، فيه نزل القرآن على نبي اللَّه الخاتم محمد ﷺ، وفيه نزلت - قبل ذلك - صحف إبراهيم، وفيه نزلت التوراة على موسى، وفيه نزل الزبور على داود، وفيه نزل الإنجيل على عيسى، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. فعن وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أن النبي ﷺ قال: « **أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لأَرْبَعَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ** » [1] فرمضان هو شهر اتصال الأرض بالسماء، وشهر احتفال الروح بذكرى النور والهدى.. فكان بذلك سيد الشهور وتاجها! ولذلك جعل اللَّه فيه كل سَنَةٍ من التحولات الكونية، والاحتفالات الروحية، ما لم يجعله في أي شهر آخر! فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَت الشَّيَاطِينُ!** » [2] وعنه ﷺ أنه: (لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ**

---

(١) رواه أحمد، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، والطبراني في الكبير والأوسط، والطبري في تفسيره، وابن أبي حاتم في تفسيره أيضًا، كلهم عن واثلة مرفوعًا، إلا أبا يعلى فقد رواه عن جابر بن عبد اللَّه مرفوعًا. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة، وقال فيها: (وهذا إسناد حسن رجاله ثقات، و في القطان كلام يسير) (١٤٩/٤).

(٢) متفق عليه.

فِيهِ أَبْوَابُ الـجَنَّةِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ. فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا قَدْ حُرِمَ! »[١] فكان رمضانُ بذلك أعظم مدرسة للتقوى!

ومِن ثَمَّ جعله اللَّه مَعْلَمَةً تعبُّدية من أكبر معالم الإسلام، وشعيرة من أعظم شعائره، فكان هو الركن الثالث من أركانه الخمسة، لا يصح إسلام المرء إلا به! فانضاف إلى خصال البرِّ المدروسة في المجلس السابق، مُثَلِّثًا للصلاة والزكاة، ومُزَوِّدًا لمعين الصبر فيها بمدد عظيم! ولذلك سمَّاه رسول اللَّه ﷺ في الحديث الثابت: « **شهر الصبر!** »[٢].

هذا، وقد نزلت هذه الآية بأحكام جديدة، وتفاصيل مفيدة، ناسخة بعض أحكام الآية السابقة، ومؤكِّدة بعضها، ومضيفة مسالك جديدة للعابدين. فكما دلَّ حديث ابن أبي ليلى الـمذكور قبلُ فإن رخصة الإفطار بقيت ههنا في حقِّ المريض والـمسافر فقط، ومن أُلْـحِقَ بهما كالمرضع والحامل. وأما المقيم الصحيح فقد أُلْزِمَ الصوم بعموم قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ أي أن على كل من شَهِدَ الشهر - بمعنى أنه كان حاضرًا ببلده لما دخل شهر رمضان، ولم يكن غائبًا في سفر - فقد وجب عليه الصوم فريضةً من اللَّه! ولم يعد بإمكان القادر المطيق له أن يفطر وهو مقيم ببلده ثم يفدي، كما كان الشأن في مرحلة التدريب.

وإذا أفطر صاحب العذر لمرض أو سفر، أو ما يلحق بهما، فقد وجب عليه القضاء دون فدية. إلا الشيخ الهرم، والمريض مرضًا مزمنًا يمنعه من الصوم، فكلاهما يفدي عن كل يوم مقدار طعام مسكين، ولا قضاء عليه. فاللَّه تعالى ما كان يريد بفرض الصيام أن يشُقَّ على العباد، وإنما يريد سبحانه ليزكِّيهم ويطهِّرهم تطهيرًا، ولا شيء أزكى للنفس من انقطاعها للَّه صومًا وتبتُّلًا؛ ولذلك قال بعد: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾. أي أن إيجاب القضاء على من لم يصُمْ لعذر؛ هو من أجل

(١) رواه أحمد، والنسائي، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند، وقال: « هذا إسناد رجاله رجال الشيخين ». كما صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٢) وردت بذلك عدة أحاديث عن النبي ﷺ رواها أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه. وصححها الألباني في صحيح الجامع.

أن يكمل عدة ما فاته من رمضان. ثم أرشد المؤمنين إلى شكر اللَّه وحمده وتكبيره، عند تمام أعمالهم الصالحة، بما أنعم عليهم من الهدى فيها. فقد كان الأولى بجميع الطوائف من أهل الكتاب أن يصوموا رمضان، ففيه أنزل اللَّه صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل، ثم القرآن، كما ذكرناه قبلُ. وقد كان صيامه شريعةَ أنبيائهم. لكنهم ضلُّوا عنه بما حرَّفوا وبدَّلوا! فهدى اللَّه المسلمين إليه كما هداهم إلى غيره من معالم الهدى؛ ولذلك فقد كان رسول اللَّه ﷺ يكبِّر اللَّه ﷻ كلما أكمل عدة شهر رمضان صيامًا، فيملأ طريقه - هو وأصحابه - إلى المصلَّى صبيحةَ عيد الفطر تكبيرًا (١).

وقد أشار اللَّه - جلَّ ثناؤه - إلى رضاه عن العبد الصائم، واستجابته دعاءَه أثناء صيامه وبُعَيْدَهُ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾. والآية رغم ورودها في سياق الصيام فهي عامَّة في كلِّ عباد الرحمن، كلما دَعْوا ربَّهم. إلا أن فيها إشارة - بمقتضى سياقها - إلى كون الصائمين منهم أقرب إلى اللَّه وأحب؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ! لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ!** » (٢).

وإنها لآية من أعظم الآيات، ما أُحِبُّ أن لي بها مالَ الدنيا كله! ولِمَ لا؟ وها الرحمن - جلَّ ثناؤه - يفتح من خلال أنوارها تجلِّيات رحمته على عباده! فما دعاه عبدٌ تحقَّق بعبديته وعبوديته له، إلا أعطاه ما سأل! وخزائنُ الرحمن أَبْحُرٌ لا تفنى.. قال ﷻ في الحديث القدسي: « **يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ!** » (٣). ومن جمال عقيدة الإسلام أن العبد -

(١) قال الشيخ الألباني رحمه الله: (روى الدارقطني: « أن ابن عمر كان إذا غدا يوم الفطر ويوم الأضحى يجهر بالتكبير حتى يأتي المصلَّى ثم يكبِّر حتى يأتي الإمام ». ومن هذا الوجه أخرجه ابن أبي شيبة والفريابي والبيهقي) قال الألباني: وهذا إسناد جيد، وصححه. إرواء الغليل (٣/١٢٢) وفي صحيح الجامع الصغير أن النبي ﷺ: (كان يكبر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتي المصلَّى) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر مرفوعا، وصححه الألباني. وعلى هذا جمهور الفقهاء.

(٢) جزء حديث متفق عليه.

(٣) رواه مسلم عن أبي ذر مرفوعًا.

أيَّ عبد - له أن يسأل اللَّه ما يريد من خيري الدنيا والآخرة، وله أن يدعو ويستغفر، وله أن يناجي مولاه تائبًا منيبًا، كل ذلك بلا واسطة ولا كهنوت، ولا طقوس اعتراف كاذب، كما هو الأمر عند قساوسة النصارى! حيث لا غفران - كما يزعمون - إلا باعتراف المذنب بخطيئته بين يدي القسيس! وما القسيس إلا عبد مذنب يحتاج إلى التكفير عن خطاياه! وقد علَّم الرسول ﷺ المسلمين تلاوةَ ما سماه بـ « سيد الاستغفار »، وفيه اعتراف العبد للَّه وحده، وبلا وسيط، بما اقترف من ذنب؛ وبذلك كانت عباراته أكمل صيغ التوبة والاستغفار! فقد روى البخاري عن شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: « **سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: « اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ! » قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ! وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ!** »[1].

وهكذا قال ههنا في الآية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ دون ذكر فعل الأمر: « قُلْ! » كما هو الشأن في قاعدة السؤال والجواب في القرآن، على نحو ما سيأتي قريبًا من قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ وقال في السورة نفسها: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾. ومعنى قوله تعالى في ذلك كله: « قُلْ! » أمْرٌ لرسوله محمد ﷺ أن يجيب أولئك السائلين. وهذا في كتاب اللَّه كثير. إلا أنه ههنا قال في الجواب: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ دون ذكر عبارة « قُلْ! » للدلالة على القرب من جهة، ولبيان أن العبد - من جهة ثانية - لا يحتاج إلى واسطة بَشَرٍ - مهما كان صلاحه - في أمر الدعاء والاستغفار والتوجه إلى اللَّه؛ لأن هذا السياق سياق تعبد خالص، حيث سأل عبادُ اللَّه عن ربِّهم، لا عن حكم شرعي، بل عن أمر هو من خصوص العلم باللَّه! وهذا لا ينوب فيه أحد عن أحد. بينما سياق الآيات

---

(١) رواه البخاري.

الأخرى ومثيلاتها هو سياق تعليم للأحكام الشرعية؛ فاحتاج إلى حضور الرسول المعلم ﷺ في كلٍّ جزئية.

نعم؛ كان النبي ﷺ يعلم أصحابه صيغ الدعاء والذكر والاستغفار، وكان - عليه الصلاة والسلام - يدعو لهم ويستغفر لهم، وهذا شيء آخر لا علاقة له بما نحن فيه. ولكنه ما كان ﷺ ينوب عنهم في توجههم إلى اللّه، ولا يشترط واسطته في تحقيق التوبة، ولا الاعتراف بين يديه بالخطايا، وإلا فلا توبة ولا غفران! كما هو شأن الكهنوت النصراني! بل قال لرجل من أصحابه: « **كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟** » قَالَ: أَتَشَهَّدُ، وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ النَّارِ. أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ!** »)[1] والدندنة: هي الكلام الخافت الذي لا يفهم. وفي ذلك دليل على أن العبادة في الإسلام - بما فيها من ذكر ودعاء - عمل ذاتي، لا واسطة فيه. بل إن التوسط في مثل هذه الأمور على الطريقة النصرانية هي الشرك عينه! وما نرى النصارى في هذا إلا متأثرين بالوثنيات القديمة.

ومن هنا فاللّه - جلَّ ثناؤه - يجيب دعوة الداعي كلما دعاه مباشرةً، ما لم يدع بإثم. فما على الناس إذن إلا أن يستجيبوا لربِّهم ويؤمنوا به؛ ولذلك قال في تمام الآية: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾. فالاستجابة للّه: هي سرعة الدخول تحت طاعته كلما أمر أو نهى. وأما « الإيمان به » ههنا: فهو التصديق بكلِّ ما نزَّل على رسوله ﷺ من آيات وأحكام اعتقادًا وعملًا، فلا يَرُدُّ للّه حكمًا البتة. وإذن يكون من الراشدين، أي من العقلاء الحكماء، المهتدين إلى طريق الحق التي تسلك به إلى الفوز والنجاة. ومن اللطائف قول الفخر الرازي رحمه الله في تفسيرها: (إنه تعالى قال: أنا أجيب دعاءك مع أني غنيٌّ عنك مطلقًا، فكن أنت أيضًا مجيبًا لدعائي مع أنك محتاج إليَّ من كل الوجوه! فما أعظم هذا الكرم!)[2] فمن ذا الذي لا يستجيب لهذا الرب الكريم ولا يؤمن به جملة وتفصيلا إلا أعمى!

ثم إنه تعالى بعد هذه الجائزة العظيمة والمنحة الكريمة، التي وهبها للصائمين، ولعباده الصالحين، استأنف بيان ما أنعم به على جميع المسلمين من جمال أحكام

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وابن خزيمة. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) ن. تفسيره للآية في كتابه « مفاتيح الغيب ».

الصوم، وما أكرمهم فيه من الرخص، فقال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾. ذلك أن الصحابة في أول عهدهم بتشريع الصوم، كان الواحد منهم إذا نام من أول الليل قسطًا ولو قليلًا، ثم استيقظ؛ لم يجز له طعام، ولا شراب، ولا جماع، بل يصوم ما بقي من الليل إلى غروب شمس اليوم الموالي! فشق ذلك عليهم؛ ثم أنزل الله هذه الآية. وفي تتمة حديث ابن أبي ليلى المذكور قبل: (قَالَ: وحَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا قَالَ: وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُصْبِحَ! قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ فَأَرَادَ امْرَأَتَهُ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ نِمْتُ، فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُّ فَأَتَاهَا. فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَرَادَ الطَّعَامَ، فَقَالُوا حَتَّى نُسَخِّنَ لَكَ شَيْئًا فَنَامَ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [(١)]. وعن البراء ابن عازب ﷺ قال: (كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ، لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ! وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ. وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ! فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ! فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ ﴾؛ فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا! وَنَزَلَتْ: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ [(٢)].. الآية.

والرَّفَثُ: ما يكون من كلام الرجل لزوجته عند مغازلتها، وكَنَّى به ههنا عن الجماع. وقد أباحه الله بهذه الآية لليالي الصيام، من بعدما كان محظورًا كما رأيت. وعبر بلفظ الحِلِّيَّةِ إمعانًا في رفع الحرج، قال سبحانه: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ ﴾. ثم وصف علاقة الزوجين الخاصَّة وصفًا فيه من جمال التحبير ووقار التعبير، ما لا يتيسر إلا لخطاب الوحي. فقال سبحانه: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ ﴾ واللباس هو أقرب شيء إلى جسم الإنسان، إلا أن اللباس ههنا ليس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري.

دالًّا على القرب بالمعنى الجسماني فحسب، بل هو دالٌّ - قبل ذلك - على القرب الروحي والنفسي، وما جعل اللَّه بين الزوجين من محبة ومودة ورحمة. ثم إن الزوج سِتْرٌ لزوجته كاللباس تمامًا، كما أنها هي سِتْرٌ له، وحصانة من الانحراف.

ومِن ثَمَّ فإن بعض الصحابة لم يستطيعوا اعتزال أزواجهم ليالي رمضان، فكانوا يخونون أنفسهم، ويخالفون ما نهى اللَّه عنه قبل نزول الإباحة من مباشرة الأزواج ليلة الصيام. وقد عبَّر القرآن بالاختيان وهو شدة الخيانة؛ لِمَا كان في ذلك من الإثم! لكن اللَّه تاب عنهم وعفا، قال تعالى: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾. أي: ابتغوا ما كتب اللَّه لكم من حصول الحمل، وما قدَّر من الولد.

كما نزلت إباحة الطعام والشراب طيلة الليل، سواء ناموا أم لا، فقال سبحانه: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾. أي: أنه لا حرج عليكم في تناول الطعام والشراب في أي وقت من الليل شئتم، حتى نهاية وقت السحر، حيث يتبين للناظر في الأفق ضوء الفجر وهو ينسخ بانفلاقه ظلام الليل. فآنئذ وجب الانقطاع عن جميع المفطرات، والشروع في الصيام إلى حدود غروب الشمس. وقد فسَّر النبيُّ ﷺ هذه الآية عندما جاءه الذي اتخذ خيطين، أحدهما أسود والآخر أبيض، فجعلهما تحت وساده، ثم جعل يأكل وينظر إليهما في الظلام، فلما تبين له الأسود من الأبيض كفَّ عن الأكل! فقال له النبي ﷺ: « **إن وِسَادَكَ إذن لعريض! إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل** »[1] وقوله: (إن وسادك إذن لعريض!) كناية عن الوصف بالبلادة.

ثم أردف ذلك نهي المعتكفين عن مباشرة الأزواج ليالي رمضان، مبينًا أنه لا يحل لهم كما يحل لغيرهم من غير الداخلين في الاعتكاف. قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ﴾. والاعتكاف: هو التزام المؤمن المسجدَ عند صيامه فلا يخرج منه إلى بيته أو غيره إلا لضرورة، والتفرُّغ طيلة أيام اعتكافه للعبادة والذكر وتلاوة القرآن، وتعلم العلم أو تعليمه. وقد كان رسول اللَّه ﷺ يعتكف

---

(١) متفق عليه.

بمسجده طيلة العشر الأواخر من رمضان. وندب المسلمين إلى ذلك. فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ)[1] وقد حرَّم اللَّه تعالى على المعتكف مباشرة النساء كما رأيت. ثم قال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾. ومعنى الحدود هنا: ما حَدَّ من تشريعات، مما ذكر في أحكام الصيام ومنهياته، وما بَيَّنَ من شروط الاعتكاف. فنهى عن اقترابها، أي عن تجاوزها وخيانتها. وقوله: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أبلغ في النهي وأشد في التحذير! ثم أخبر تعالى أن بيانه لهذه الأحكام الشرعية وما شابهها؛ إنما هو من أجل تزكية المؤمنين وتحليتهم بخلق التقوى. فلا حد ولا شرع في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ إلا وهو مؤسَّس على هذا المقصد العالي النفيس: معرفة اللَّه وتقواه!

ثم ختم تعالى هذا السياق بالنهي عن أكل المال الحرام من السحت والرِّشَا. قال ﷻ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. وهذه آية ذات ارتباط وثيق بأحكام الصيام وأجوائه؛ إذ هي خطاب للمؤمنين الذين يصومون، وينقطعون عن الطعام والشراب طاعة للَّه، ألا ينسوا ما تخرجوا به من مدرسة الصيام من التقوى والورع. فكما قاطعوا المفطرات في صيامهم وجب أن يقاطعوا المحرمات في إفطارهم! فلا يأكل بعضهم مال بعض بالباطل، ولا يتحايلوا على ذلك برفع قضاياهم إلى القضاة؛ لِمَا قد يعلمون من أن الخصم لا يملك حجة، يمكنه إقناع الحاكم بها واسترداد ماله، أو لِمَا قد يفعلونه من إرشاء القاضي الفاسق ببعض الأموال؛ فيأكلوا بذلك جزءًا من أموال الناس ظلمًا وعدوانًا، وهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون!

والآية رغم أنها عامَّة في كل مؤمن، والنهي فيها مطلق في كل مال حرام، فإنها تُذَكِّرُ المؤمن بوجوب المحافظة على ما اكتسبه خلال شهر الصيام من تقوى وورع، وتبين له بأن أسرع ما يرتكب الإنسان من الخطايا، ويخرم صلاحه، هو المال الحرام. وما صام من لم يصم عن المحرمات! نسأل اللَّه لنا ولكم العصمة، وعافانا اللَّه وإياكم من نقض الأعمال الصالحة!

---

(١) متفق عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **الرسالات الخمس** التالية:

الرسالة الأولى: في أن الصيام - فرضًا وتطوعًا - تَبَتُّلٌ كلي إلى اللَّه، وانقطاع كامل لذكر اللَّه بالحال والمقال. وأنه قَطْعٌ لعلاقات التراب، واتصال بالملك الوهاب. ففيه يستطيع العبد الرقيّ بنفسه في مدارج التزكية؛ تحليًا بالكرامات، وتخليًا عن الخطيئات. فوجب على كلٍّ من دخل في صوم - فرضًا أو تطوُّعًا - أن يعقد العزم على الرحيل من مواطن الطين إلى منازل اليقين! ويعلم أن الصوم هو حياة للروح في معية اللَّه! فلا يكون إلا للَّه وبه! وقد سبق حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ من أن رَسُولَ ﷺ قال في الحديث القدسي: « **قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ! وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ! فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ! لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ!** » [(١)].

الرسالة الثانية: في أن صيام شهر رمضان إيمانًا واحتسابًا، بما فيه من صلوات وقيام وتدبُّر للقرآن، دورة روحية كبرى تغذِّي النفس وتزكيها، وتزودها بما يحتاجه المؤمن في سيره إلى اللَّه السَّنَةَ كلها! فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ** » [(٢)]؛ ولذلك جعله اللَّه ركنًا من أركان الإسلام، وأصلًا من أصوله الخمسة. ووعد من تحقَّق بصيامه وقيامه من عباده بالرحمة والغفران! فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ!** » [(٣)] وفي حديث آخر عنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ!** » [(٤)] وجعل اللَّه فيه ليلة القدر التي أُنزل فيها القرآن إلى السماء الدنيا، فجعل فيها من البركات والأسرار ما لو وافقها عبد مؤمن بالدعاء والقيام لغُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه! فعن أبي هريرة ﷺ أن المصطفى ﷺ قال: « **مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ**

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣، ٤) متفق عليه.

لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ! وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ! »[(١)].

الرسالة الثالثة: في أن القرآن الكريم أعظم نعمة أكرم اللَّه بها هذه الأمة، فهو كلام اللَّه ربِّ العالمين، فيه الهدى والنور للبشرية. به تعرف معنى وجودها، وحقيقة مصيرها، وطبيعة وظيفتها؛ فتستقيم على الصراط المستقيم، ولا تضل طريقَها إلى سعادتها؛ ولذلك كان القرآن عظيمًا في السموات، وعظيمًا في الأرض، ولِمَ لا؟ فهو كلام الخالق العظيم، وهو كتابه الكريم. فيه الهدى للناس، وفيه معالم بينات للسائرين على طريق اللَّه، وهو الفرقان الذي فَرَّقَ اللَّهُ به مسلك الحقِّ عن مسلك التيه والضلال، من بعدما أتلف الشيطان معالمهما إمعانًا في إضلال الناس! ومن بعد ما أضاع اليهود والنصارى التوراة والإنجيل بالتحريف والتزوير! فجاء هذا القرآن وميَّز الحق من الباطل، ووضع على كل طريق منهما معالم تخصه، وآيات بينات تُعَرِّفُهُ، لا يضل عنها إلا من أعمى اللَّه قلبه، وطمس بصيرته. ومن ثم فقد أمر اللَّه الناس بتلاوته وتدبُّره، ومدارسته على كل حالٍ. ثم فرض له شهرًا كاملًا من كل سنة للاحتفال به، هو شهر رمضان! فتتهيَّأ السموات بمن فيهن من الملائكة لذلك، وينقطع المسلمون في شتى بقاع العالم لتلاوته والتهجد به كل ليلة في صلوات التراويح! فكان هذا القرآن حجة اللَّه على العالمين أجمعين، به يُحَاكَمُونَ يوم القيامة، وفيه يُسْأَلُونَ! فيا تَعْسَ من يجد القرآن متوفرًا بين يديه ثم لا يقرؤه!

الرسالة الرابعة: في أن الدعاء على كلِّ حال من أقرب المسالك الموصلة إلى اللَّه؛ ذلك أن المناجاة للَّه والابتهال - بالدعاء والثناء عليه تعالى- تورث القلب إشراقًا نورانيًا خاصًا، يجعل العبد شفافَ الروح، صافي الوجدان، يرى بنور اللَّه.. فإذا به يتدَّرج - ما داوم على ذلك - عبر مدارج الإيمان نحو منزلة الولاية! حتى يكون ممن أوتي البركةَ والحكمة من الصِّدِّيقِينَ والرَّبَّانِيِّينَ!

فأنْ تناجيَ اللَّه بالدعاء يعني أنك تعبده بصدق! لأن الدعاء إنما يكون عند الشعور بالافتقار! وذلك سِرُّ الإخلاص، وحقيقة التوحيد؛ إذ الدعاء هو التعبير الصادق عن الاحتياج والافتقار إلى اللَّه؛ فكان بذلك هو أصفى لحظات العبادة للَّه وأخلصها

---

(١) متفق عليه.

لوجهه الكريم!.. والمؤمن الصادق المخلص هو أولى به وأجدر! فسير العبد إلى اللّٰه كُلُّهُ دعاءٌ بهذا المعنى.. سواء في ذلك صلاتُه، وصيامه، وزكاته، وذكره، وشكره، وخوفه ورجاؤه، وسائرُ عمله. كل ذلك إنما حقيقته طلب رضا اللّٰه، وابتغاء وجهه جلَّ علاه. وما معنى الدعاء غير هذا؟ فلم يبق شيء من الدين إذن لم يدخل في معناه! فلَكَ أن تقول: إن الذي لا يدعو ربَّه - على كلِّ حال - لا يعبده بصدق؛ بما هو لا يمارس العبادة على وجهها الحقيقي، أي: تحقيق معنى الافتقار إلى اللّٰه في كلِّ شيء، سواء على مستوى الوجدان أو التعبير! ولذلك كان الدعاء هو جوهر العبادة وروحها! ومِن ثَمَّ كان ذلك البيان النبوي البليغ - من جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ - مما رواه الصحابي الجليل النعمان بن بشير ﷺ، أن النبي ﷺ قال: « **إنَّ الدُّعَاءَ هو العِبَادَةُ!** »[(١)].

وعلى هذا يفهم قوله ﷺ: « **إنه من لم يسأل اللّٰه تعالى يغضب عليه!** »[(٢)] وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ لا يَدْعُ اللّٰهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ!** »[(٣)] أي بما هو قد استغنى عن اللّٰه! ولذلك قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « سَلُوا اللّٰهَ كلَّ شيء! حتى الشِّسْعَ! فإن اللّٰه ﷻ إن لم يُيَسِّرْهُ لم يَتَيَسَّرْ! »[(٤)] وهو تعبير بليغ عن حقيقة التوحيد وإخلاص الدين للّٰه؛ عقيدةً وعملًا. وليس عجبًا أن يكون أول من دعا ربَّه بشتى صيغ الابتهالات، وشتى ضروب الرغائب والحاجات، هم الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام. وقد قصَّ علينا القرآن الكريم أحوالهم في تحقيق هذا المعنى العظيم، ونقل إلينا عباراتهم الرقيقة، ومواجيدهم الجميلة، في مناجاة اللّٰه، والابتهال إليه رَغَبًا ورَهَبًا[(٥)].

الرسالة الخامسة: في أن إِتْبَاعَ الأعمال الصالحة بالخطايا والسيئات يحبطها

---

(١) أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد في مسنده، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: « إسناده صحيح ». كما أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان، والحاكم. وصححه الألباني أيضا في تحقيقه لسننهم، وهو في صحيح أبي داود برقم: (١٣٢٩). وأما وروده بلفظ « الدعاء مخ العبادة » فضعيف كما قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في مشكاة مصابيح السنة برقم: (٢٢٣٠)، وفي السلسلة الضعيفة.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: « هو حديث حسن ». انظر السلسلة الصحيحة: (٢٦٥٤).

(٤) قال الألباني: « أخرجه ابن السني رقم: (٣٤٩)، بسند حسن ». والشِّسْعُ: أحد سُيُورِ النَّعْلِ، مما يعقد به.

(٥) هذه الرسالة مُلَخَّصة من مقدمة كتابنا « كاشف الأحزان ».

وينقضها! فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فإن السيئات أيضًا يذهبن الحسنات ويحرقنها! فعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **إن الشيطانَ قد يَئِسَ أن تُعْبَدَ الأصنامُ في أرض العرب، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك: بِالْـمُـحَـقَّرَاتِ، وهي الْـمُوبِقَاتُ يومَ القيامة! اتَّقُوا الظُّلْمَ ما استطعتم! فإنَّ العبدَ يجيء بالحسناتِ يومَ القيامة، يَرَى أنها ستنجيه، فما زال عَبْدٌ يقول: يا رَبِّ ظلمني عَبْدُكَ مَظْلَمَةً! فيقولُ [الربُّ]: اُمْحُوا مِنْ حَسَنَاتِهِ! ومَا يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة من الذنوب! وإنَّ مَثَلَ ذلك كَسَفْرٍ نَزَلُوا بِفَلاةٍ من الأرض، ليس معهم حَطَبٌ، فتفرق القومُ ليحتطبوا، فلم يلبثوا أن حطبوا فأعظموا النار، وطبخوا ما أرادوا، وكذلك الذنوب!** »⁽¹⁾ أي: وكذلك الذنوب يحتطبها الإنسان في الدنيا فيأكلها، وإنما هي نارٌ تَحرق حسناته! وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **أَتَدْرُونَ مَنِ الْـمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْـمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْـمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ!** »⁽²⁾.

٤ - مسلك التخلق:

وقضية هذا المسلك هي في كيفية التحقُّق بمنزلة التَّبَتُّلِ عند الدخول في الصوم. ومعنى التَّبَتُّلِ: الانقطاع الكلي إلى اللّه. وهو يتحقَّق بالصوم وبغيره من العبادات كقيام الليل مثلا. إلا أنه في الصوم أظهر وأبرز، بل إن التَّبَتُّلَ هو جوهر الصوم وحقيقته، وهو غايته ومقصده. وأما مسلك التخلُّق به فهو في الخطوات الخمس التالية:

الخطوة الأولى: التحضير النفسي ليوم الصوم - فرضًا كان أم نافلةً - باستحضار عظمة ما هو مقبل عليه من عمل، وتهييء القلب للدخول في حَرَمِهِ، بعقد العزم على السير إلى اللّه به والإخلاص له.

---

(١) رواه الحاكم، وأبو يعلى، والبيهقي في الشعب واللفظ له، وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ». وقال الألباني في صحيح الترغيب: صحيح لغيره.

(٢) رواه مسلم.

الخطوة الثانية: تخصيص يوم الصوم وليلته لذكر اللَّه وتلاوة القرآن. سواء كان في بيته أو في عمله أو في مسجده.

الخطوة الثالثة: مجاهدة النفس على التقليل من الكلام إلا ما لا بد منه، والصمت عما لا فائدة فيه، بَلْهَ لَغْوِهِ وَرَفَثِهِ وإثمه، والانقطاع الحاسم عن المراء والجدل والخصام. وليس معنى ذلك أن يدخل الصائم في صمت مطلق، فهذا عمل منهي عنه شرعًا (١). بل له أن يتكلَّم شريطة ألا يتكلَّم إلا بخير، وإلا فالصمت أولى.

الخطوة الرابعة: أن يقاطع مجالس اللغو، وأهل الدنيا، إلا ما لا بد منه في تجارة أو وظيفة أو عمل، وإلا أن يغشى مجالسهم واعظًا وداعيًا إلى اللَّه، فذلك من كمال الصوم.

الخطوة الخامسة: أن يستعيذ باللَّه من الشيطان كلما وقع بقلبه خَاطِرُ سوء، وأن يُكثِر من الدعاء قُبَيْلَ يوم الصوم وأثناءه، سائلا ربَّه أن يحفظه من الزلل والغفلة، وأن يجعل صومه خالصًا للَّه، وألا يخرمه بما يخرجه عن تبتله الخالص.

وفقني اللَّه وإيَّاكم وجميعَ المؤمنين؛ لنكون من عباده المتبتلين، وأوليائه الـخُلَّصِ الْمُسَدَّدِينَ، آمين.

* * *
* *
*

---

(١) قال النبي ﷺ: « لا صُمَاتَ يَوْمٍ إلى اللَّيْلِ! » رواه أبو داود عن علي رضي الله عنه مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المجلس الخامس والعشرون

في مقام التلقي لراية الجهاد في سبيل الله ومقاصده التعبدية والأخلاقية

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

٢ - البيان العام:

أما هذه فمرحلة أخرى تمامًا.. إنها مرحلة جديدة من مراحل بناء الأمة، وخطوة مُتقدِّمة من حياة الصحابة رضوان الله عليهم. وهي لمن بعدهم علامة من علامات الطريق! فها هنا علَّم الله المؤمنين كيف يحيون لله ولله فقط! وكيف يشاهدون الوجود كله من خلال حياة الروح، بعيدًا بعيدًا عن كهوف الصلصال، وخارج خوابي الطين المسنون! ههنا ينثر المحبون جُمَانَ أرواحهم بين يدي المحبوب؛ تصديقًا لكلمات الله، وتعبيرًا عن فنائهم الكامل في طاعته جلَّ عُلَاه!.. عندما تشتعل القلوب بزيت القرآن الصافي، تحترق الحجب، وتبتهج مشكاتها بالنور المتدفِّق من مصباح المحبة! فتطير الشعاعات إلى أعلى، مشوقة بقناديل الشهادة المعلَّقة تحت

عرش الرحمن! وينسكب الدم على الأرض، وتتغنى الجراحات بأفراحها في ملحمة القتال في سبيل اللَّه! وتعلن منازل السماء عن أعراس الروح!

فهل تراك يا قلبي قدير على مدارسة آيات النزيف؟ وتلقِّي كلمات الابتلاء الدامي؟ ومشاهدة أحوال الصحابة الأبرار، وهم يدفعون عن رسول اللَّه ﷺ سهام العدو ورماحه، بصدورٍ عارية، وأكتاف عالية؟ فتتبع سَبَبًا من معالمهم، وتمضي على الطريق!.. تلك ثمرة تجنيها عند إبَّانِهَا يا صاح إن كنت من الصادقين! فتوشح سلاحَ عزيمتك يا قلبي.. وادخل محراب المدارسات!

قال عبد ربِّه راجي عونه وعفوه: مِنْ بعدما تمَّ تشريع أهم أحكام الصيام، كما تدارسناه بالمجلس السابق، بدأ الخطاب القرآني يتَّجه نحو تشريع أهم أحكام الحج؛ ليتمَّ بذلك تشريع الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام. لكنه بمجرد ما استهل موضوع الحج بآية واحدة حتى عَرَّجَ على موضوع آخر، لكنه يعتبر من أهم وسائل الحج، بحيث لا يتمكن الحاج والمعتمر من الوصول إلى المسجد الحرام إلا به، ألا وهو الجهاد في سبيل اللَّه! ذلك أن تأمين الطريق إلى الحج لم يحصل ابتداء إلا به. ثم إنه لا دوام لأمن منطقة الحرم والطريق إليه من كل جهات الأرض إلا باستمرار الجهاد! فإذا تُرِكَ الجهاد لم يستطع كثيرٌ من الناس أداء مناسكهم، وربما أُحْصِرَ المسلمون كافة عنه، لا قَدَّرَ اللَّه! ومِن ثَمَّ فرض اللَّهُ الجهادَ على المسلمين بآيات تخلَّلت أحكام الحجِّ؛ مُبيِّنًا أن هذا من ذاك، وأن الحج والجهاد صنوان؛ بسبب كثير من الروابط التي تربطهما، كما سيتبين بحول اللَّه. ليس من الناحية الوَسَلِيَّةِ فحسب؛ ولكن أيضًا من حيث طبيعة كل منهما، وما يتضمنانه من المجاهدة والمشقة.

فعن أم معقل رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن الحجَّ والعمرة لَمِنْ سبيل اللَّه!** »(١) أي: لمن الجهاد في سبيل اللَّه؛ لأن عبارة (في سبيل اللَّه) كما هو معروف لا تَرِدُ في الكتاب والسنة غالبًا إلا دالة على معنى الجهاد؛ حتى صارت اصطلاحًا عليه. وقد ورد ذلك صريحًا عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: « **الحج جهاد كل ضعيف** »(٢) يعني: كل ضعيف عن القتال من الرجال والنساء. وعن

(١) رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير، وأبو يعلى. وحسنه لغيره الشيخ الألباني =

الحسن بن علي رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لرجل ضعيف: « **هلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج!** »[١] وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (استأذنتُ النبيَّ ﷺ في الجهاد فقال: « **جهادكن الحج!** »)[٢] وفي رواية أخرى صحيحة، عنها رضي الله عنها قالت: (يا رسول اللَّه! هل على النساء جهاد؟ قال: « **نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة!** »)[٣]؛ ولذلك قرن النبي ﷺ بين الجهاد والحج والعمرة جميعًا في سياق واحد، كأنها جميعها أمر واحد، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **الغازي في سبيل اللَّه، والحاج، والمعتمر، وَفْدُ اللَّه، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم!** »[٤] ومِن ثَمَّ فقد كان كثير من الأمراء الصالحين، والعلماء الربانيين - عبر التاريخ - يحجون سنةً ويغزون سنةً!

وكما دخل الحج في الجهاد بنصوص الحديث النبوي الشريف؛ فقد تخاللت آيات الحجِّ مع آيات الجهاد في كتاب اللَّه، وصارت قضيتهما قضية واحدة! قال جل جلاله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ ثم استطرد قليلًا في بيان بعض أحكام الجهاد وآدابه، ليعود بعد ذلك إلى تفصيل أحكام الحج. وقد خصَّصنا لكلٍّ منهما مجلسًا مستقلًّا، ولولا خشية الإثقال على الجلساء لجعلناهما في مجلس واحد؛ لما بينهما من تداخل واشتراك.

= في صحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع. بينما ضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وعبد الرزاق في مسنده. وقال المنذري في الترغيب: رواته ثقات. وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه البخاري.

(٣) قال الشيخ الألباني: (رواه أحمد، وابن ماجه، والدارقطني، بإسناد صحيح). وقال عن رواية الدارقطني: (وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين) إرواء الغليل: (٤/١٥١). وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين).

(٤) رواه ابن ماجه واللفظ له، وابن حبان في صحيحه. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب.

هذا، وقد ذكر المفسِّرون في سبب نزول آية الأهلة، أن بعض أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول اللَّه! ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يمتلئ نورًا، ثم يعود دقيقًا كما بدأ، ولا يكون على حالة واحدة؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ... ﴾ (١) وقد قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما سألوا عن حكمة ذلك؛ ولذلك أجيبوا بمقتضاها (٢). وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾. أي أن دورة القمر في فلكه، وما يكون بسبب ذلك من ظهور الأهلة وغيابها، هو من أجل أن ينتبه الإنسان إلى حركة الزمان، فيستفيد ذلك في قضاء مصالحه العادية والتعبدية، وجلب منافعه الدنيوية والدينية. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]. ونِعَمُ إحصاءِ الزمان، وعَدِّ السنين، والأشهر، والأيام، ومعرفة الفصول والمنازل، لا يحصي عددَها ولا تجلِّياتها إلا اللَّه.

وقد كان التعبير بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾، دالًّا على استفادة الإنسان مما يسَّره اللَّهُ له من توقيت الزمان، سواء في حياته العادية، كمواقيت الفلاحات وأنواع الزراعات، وتوقيت الأعمال والإدارات، ومواعيد الأشغال والتجارات، وضبط الأسفار والرحلات.. إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر من المصالح الدنيوية المحضة. وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾، حيث دخل في عموم « الناس » كل جنس الإنسان، سواء في ذلك المسلمون والكفار؛ لأن منافع الدنيا هي موضوعة لكل بني آدم. وأما قوله: ﴿ وَٱلْحَجِّ ... ﴾، فهي المصالح الدينية والمنافع التعبدية، وهذا طبعًا خاصٌّ بالمسلمين. إذ جعل اللَّه دورة القمر وحركة الأهلة مناطًا لكثير من العبادات الواجبة والمندوبة، مثل: رمضان، وصيام الأيام البيض، وعاشوراء، ويوم عرفة، وغيرها من المندوبات. وبذلك أيضًا نعرف مواقيت النُّسُكِ والأضاحي، ووقت مناسك الحجِّ. وبه تعرف المرأة عِدَّتها في الطلاق والوفاة، إلى غير ذلك من المنافع التعبدية.

وقد أفرد اللَّه سبحانه « الحج » بالذكر في الآية، نيابةً عن سائر التعبدات؛ لأمرين،

---

(١) ن. روايات ذلك في تفسير الطبري، والبغوي، والرازي، وغيرهم.

(٢) ن. تفسيره للآية في مفاتيح الغيب.

الأول منهما: أن الحجَّ مرتبط بزمانه ارتباطًا ثابتًا، بحيث لا يمكن إخراج مناسكه عن شهر ذي الحجة إلى غيره من الشهور، لا أداءً ولا قضاءً، كما هو الشأن مثلًا في رمضان، حيث جاز قضاؤه في ﴿ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴾ لذوي الأعذار. ثم في الحجِّ يومٌ من فاته فاته الحج كله، ولا عِوَضَ له! وهو يوم عرفة. فكان الحجُّ بذلك أكثر العبادات ارتباطًا بميقاته. وأما الثاني: فإنه تمهيد لتشريع الحجِّ والعمرة، وبيان بعض أحكامهما، كما سيأتي بيانه خلال آيات الجهاد وبعدها. بحول الله.

ثم قال في الآية نفسها: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهذا توجيهٌ يتعلَّق بتصحيح عادة في الإحرام بالحجِّ أو العمرة. ذلك أن العرب في الجاهلية وأول عهد الإسلام، كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا بيوتهم ولا بساتينهم من أبوابها؛ وفاءً لما هم عليه من إحرام. فإن كان الرجل من أهل المدن والحضر، نقب نقبًا في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج، أو يتخذ سلمًا فيصعد منه! وإن كان من أهل البادية والوبر خرج من خلف الخيمة. وفي جميع الأحوال لا يدخل ولا يخرج من الباب، إلى أن يحلَّ من إحرامه! فنزلت هذه الآية تنسخ ذلك [١] وبيَّن تعالى أن البر والوفاء لله لا يتحقَّق للمؤمن بهذا التصرّف الغريب، وإنما يتحقَّق له بتقوى الله ﷻ، وهو ما فصَّله في آية البرِّ التي تدارسناها قبل.

ولذلك أمر تعالى بتقوى الله ﷻ على الوجه المشروع؛ لأن به وحده يتحقَّق العبد بالفوز والفلاح. ثم قال: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ على وجه الحقيقة والمجاز معًا. فعلى الحقيقة: إشارةٌ لما في إتيان البيوت من ظهورها من مفاسد كثيرة، منها إفزاع أهله، والكشف عن مستور عيبهم، والتجسُّس عليهم، ومباغتتهم، ونحو ذلك من المفاسد. وعلى المجاز: إرشادٌ إلى أن صلاح الأعمال والأشغال، إنما يكون بإتيانها من مقدماتها الطبيعية، وإلى أن طلب المصالح الدينية والدنيوية إنما يتحقَّق بطلبها من أهلها المختصين بها، كطلب الفتوى من العالم لا من الحداد، وطلب العلاج من الطبيب لا من الفقيه، وطلب تصميم العمران من المهندس لا من الطبيب.. وقس

(١) تفاسير الطبري، والبغوي، وابن أبي حاتم، والسيوطي. وقد روى البخاري ذلك مختصرًا عن البراء بن عازب ﷺ.

على هذا المنحى. فكل ذلك وما في معناه إتيانٌ للبيوت من أبوابها. ومِن ثَمَّ صارت الآية مثلًا سائرًا، لبيان منهج جلب المصالح في الأعمال والأقوال.

وبعد استهلال موضوع الحجِّ بهذه الآية، قال سبحانه مباشرةً: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ وهو أمر جهير وإذنٌ صريح بالقتال في سبيل اللَّه؛ لإعلاء كلمة اللَّه، وللتمكين لدين اللَّه في الأرض، وتأمين مسالك الحجِّ، ورحلات الدعوة إلى اللَّه، وضمان مصالح الأمة التعبدية والسياسية والاقتصادية... إلخ. فكل ذلك في سبيل اللَّه، وكل ذلك إعلاء لكلمة اللَّه. فقد ثبت أن كفار قريش منعوا النبيَّ ﷺ وَصَحْبَهُ - قبل فتح مكة - الوصولَ إلى المسجد الحرام لأداء العمرة! فحصروهم عند الحديبية سنة ست للهجرة؛ حيث كان الصلح المشهور، بشروط مجحفة بحقوق المسلمين؛ على أن يعتمر النبيُّ ﷺ وصحبه من العام المقبل، ثم يستمر عهد الصلح بعد ذلك. لكنَّ قريشًا نكثت عهدها بعد عامين، ففتح اللَّه مكة لرسوله ﷺ وللمؤمنين سنة ثمان للهجرة؛ فجعل الناسُ يدخلون في دين اللَّه أفواجًا! ومِن ثَمَّ كان تشريع الجهاد منذ السنة الأولى للهجرة؛ دفعًا لما كان مُتوقَّعًا من هذه المشكلات كلها، وتحقيقًا لهذه المقاصد جميعها. ومِن ثَمَّ جاءت أحكام « القتال في سبيل اللَّه » - بهذا المقطع - مبثوثة خلال آيات الحج والعمرة؛ بيانًا لمقاصده التعبدية الخالصة، وأنه كالحج أو كالعمرة، خروج إلى اللَّه، وإلى اللَّه فقط!

فقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: قاتلوا أعداء اللَّه، إعلاءً لكلمة اللَّه، واستجابةً لأمر اللَّه، وخدمةً خالصة لدين اللَّه، قتالًا تعبديًّا خالصًا، لا رياء فيه ولا سمعة ولا عصبية، ولا ثاراتِ عمياءَ ولا حَمِيَّة جاهلية، ولا طلبًا لِـمُلْكٍ شخصي ولا لغنيمة أو ثروة. وإنما هو قتال في اللَّه ولوجهِ اللَّه؛ تمكينًا لدينه في الأرض، ونشرًا لسلطانه فيها، وتأمينًا لعبادته في كلِّ بقاعها. وذلك هو المعنى الحقيقي لمصطلح « الجهاد » في سياقه القتالي. وقد توهَّم بعضهم أن قوله تعالى ههنا: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ منسوخ بآية سورة التوبة، التي يسميها المفسرون والفقهاء « آية السيف »، وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾.. الآية [التوبة: ٥]،

باعتبار أن هذه الآية عامةٌ في كل مشرك، وفي كل مكان، بينما آية البقرة خاصَّة فقط بمن بدأ المسلمين بالقتال، كما توهَّموه. إلا أن الراجح عند المحقِّقين منهم أنها غير منسوخة. وقد غالى بعض المفسرين في القول بالنسخ مطلقًا، وفي موضوع القتال خاصَّةً؛ حتى ما تركوا آية من آيات القتال، فيها أدب وتسامح أو عفو وصفح؛ إلا قالوا إنها منسوخة بآية السيف! حتى بلغ ذلك نحو مائة آية كلها جعلوها من المنسوخ! وهذا غلوٌّ كبير! نقول ذلك ونحن لا ننكر أن الجهاد جهاد دفع وجهاد طلب، وأن من حقِّ الإسلام تحطيم طواغيت الأرض أينما كانوا! لكن لكلِّ آية سياقها، وظرفها المتعلِّق بها، وصورتها العملية الخاصَّة بها، عند تطبيقها وتحقيق مناطها. فآيات العفو عند العفو، وآيات السيف عند السيف. ولكلٍّ حُكْمٍ حِكْمَتُهُ التي شُرِعَ من أجلها، لا تَنَاقُضَ بين ذلك ولا اختلاف.

وقاعدة الأصوليين أن: (الجمع أولى من الترجيح إن أمكن)، وهو ممكن جدًّا بين آية البقرة وآية السيف، بلا تعسُّفٍ ولا تعنُّتٍ. وهو قول ابن عباس ﵄، وعمر ابن عبد العزيز، ومجاهد، وغيرهم، كما أنه اختيار الطبري وابن كثير رحمة الله عليهم جميعًا [1]. فكلهم ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ إنما عنى به الذين اصطفُّوا لقتالكم في المعركة، دون العَجَزة، والنساء، والأطفال، والرهبان الذين اخْتَلَوْا بصوامعهم وأديرتهم، ودون من ألقى إليكم السَّلَمَ وكفَّ يَدَهُ عنكم، ودون المعاهدين من أهل الذمة. فإن قتلتم أحدًا من هؤلاء فقد اعتديتم! فذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ فعن ابن عُمَرَ ﵄ قَالَ: (وُجِدَت امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ!) [2] وفي رواية أخرى صحيحة: (فَأَنْكَرَ ذَلِكَ! وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ!) [3] ويدخل في ذلك ارتكاب محظورات الحرب في الإسلام، كالْمَثَلَةِ وهي: تشويه جثث القتلى، والغُلُولُ: وهو أخذ شيء من الغنائم دون إذن الإمام، وكذا تحريق الأشجار لغير ضرورة القتال، وإفساد الأنهار، وقتل الحيوان لغير

---

(١) ن. تفسير الطبري وابن كثير للآية. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه مالك في الموطأ، وأحمد في المسند، وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

مصلحة شرعية. فعن بُرَيْدَةَ ﷺ قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: « اُغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ! قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ! اُغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا! وَلاَ تَغْدِرُوا! وَلاَ تُمَثِّلُوا! وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا! »).. الحديث (١).

ذلك هو الوجه الأنسب لتفسير الآية، وإلا فكيف تكون آيةٌ مذيلةٌ بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ ﴾ منسوخةً؟ كيف والعدل صفة لله تعالى دائمة؟ ألا سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا! ولذلك فإن الإمام الطبري أبطل قول القائلين بالنسخ ههنا، ثم قال مُعلِّلًا ذلك: (لان دعوى المدَّعي نَسْخَ آيةٍ يُحْتَمَلُ أن تكون غيرَ منسوخة، بغير دلالة على صحة دعواه، تحكُّم! والتحكم لا يَعْجِزُ عنه أحدٌ!) (٢) وهذا كلامٌ نفيس تُشَدُّ إلى مثله الرِّحَالُ! ثم تبقى آية السيف على إطلاقها وعمومها، كما تبقى هذه الآية على إطلاقها وعمومها، ولا تعارض!

ثم قال ﷻ : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ ﴾ وهذا تحريض للمؤمنين، وإغراء لهم بالأعداء الذين هِمَّتُهم قتال الإسلام وأهله، فأمر المجاهدين بقتالهم حيثما ثَقِفُوهُم، أي حيثما وجدوهم وأدركوهم، ما داموا في حالة حرب! وأن يطردوا كلَّ مشرك من الحَرَمِ! وهو مكة ومحيطها. خاصَّة وأنهم بدؤوا بالعدوان؛ إذ أخرجوا الرسول ﷺ وصحبه المهاجرين من مكة؛ بما سلَّطوا عليهم من ألوان التعذيب! ثم عَقَّبَ تعالى على هذه الأحكام بقاعدة ثمينة، تُعتبر من الكليات القرآنية الثابتة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ ﴾ أي أن ما يقوم به الكفار من فتنة المسلمين المستضعفين في دينهم، بالتنكيل، والتعذيب، والسجن، والنفي، والتشريد، والحصار، لحملهم على الكفر والارتداد عن الإسلام، وكذا ما يقومون به من تحريض الناس على مقاطعة المسلمين والتضييق عليهم، وما يبثُّونه من إشاعات ضد الإسلام ورسوله ﷺ، تربك عقول غير المتبصرين تجاه هذا الدين؛ كل ذلك وما في معناه هو فتنة أشد من القتل، وأشد من تحمل مشقة الجهاد في سبيل الله! فلا يكن هذا الهاجس مانعًا لكم أيها المؤمنون من قتال الكفار!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) تفسير الطبري للآية.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾ أي: ولا تقاتلوا مَنْ بالمسجد الحرام ومحيطه من المشركين، كما كان الشأن قبل فتح مكة، ولا من التجأ إليه من الكفار مطلقًا، كما قد يحدث في أي زمان؛ حتى يكونوا هم الذين يبدؤونكم بالقتال. وذلك حفظًا لما جعله الله لمنطقة الحرم الشريف من قداسةٍ وأمنٍ وسلامٍ. فإن شَهَرَ الكفارُ فيه السلاح قوتلوا فيه؛ حفظًا لتلك القداسة نفسها وضمانًا لاستمرارها. وكذلك إذا هاجموه زحفًا، أو احتلوه عنوةً - لا قدر الله- فآنئذ وجب قتالهم فيه أيضًا! وقد هاجمه القَرَامِطَةُ من قبل سنة: (٣١٧هـ)، وقتلوا آلاف الحجيج، وأفسدوا فيه فسادًا كبيرًا! [١]. وتحدَّث النبي ﷺ عن هجوم يقع على الكعبة في آخر الزمان، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ!** » [٢].

كما يُقَاتَلُ فيه المسلمُ المحارِبُ، الذي يحتل الحرَمَ؛ حِرَابَةً للمسلمين وخروجًا عن طاعة الإمام. فإن انتهى الكفار عن القتال بالحرم، وتابوا إلى الله بالدخول في الإسلام، أو بترك الحرابة بالنسبة للمحارِبين، عُفي عنهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي: غفور لما سبق منهم من الشرك والكفر والإفساد والتقتيل، رحيم بجعله تعالى الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله وينسخه، مهما أتى الإنسان قبل إسلامه من الفساد في الأرض!

ثم قال تعالى بعدُ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا رجوع إلى أصل الخطاب وعطف عليه؛ لبيان غايات الجهاد ومقاصده، أعني قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾؛

---

(١) القَرَامِطَةُ: فرقة من الزنادقة الملاحدة، تأثروا بفلاسفة الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك وماني، وكانوا يبيحون المحرمات كالخمر والزنى، ويسقطون الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام. قويت شوكتهم في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجري، بعد ضعف الدولة العباسية. ثم هاجموا الحرم المكي سنة: (٣١٧هـ)، بقيادة زعيمهم الطاغية الحسن بن بهرام الجنابي، وقتلوا آلاف الحجاج، وأخذوا الحجر الأسود، وقد بقي عندهم نحو عشرين سنة!

(٢) متفق عليه.

ولذلك قال ههنا: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ... ﴾، وهذا أَمْرٌ بجهاد الكفار حتى ترتفع الفتنة التي يفرضونها على المسلمين في كلِّ مكان من الأرض، وحتى يكون الدين الظاهر عليها هو دين اللّه الحق: الإسلام. ذلك أن غاية الجهاد في سبيل اللّه هي إعلاء كلمة اللّه، ونشر سلطانها في الأرض، والقضاء على الطاغوت الذي يفتن المسلمين في دينهم، وينشر بينهم المعتقدات الباطلة، والأيديولوجيات الملحدة، ويخضعهم قهرًا تحت رايات جائرة، ترفع علنًا شعار المعاداة للدين! ثم يصد الناس - كل الناس - عن الهدى، ويضلل الباحثين عن الحق من غير المسلمين؛ بما لديه من قوة مادية جبارة، وترسانة إعلامية مكّارة، وقوة اقتصادية استعمارية، تستعبد المستضعفين، وتحاصر المجاهدين، وترهِّب المسلمين! فأي فتنة أشد من هذه وأنكى؟

ومِن ثَمَّ فالجهاد ضد الطاغوت ماضٍ إلى يوم القيامة، على حسب ظروف المسلمين، وظروف أمتهم، ومراحل نمو شوكتهم؛ إحقاقًا للحقِّ وإزهاقًا للباطل، وإعلاءً لكلمة اللّه. لا توضع راية الجهاد في سبيل اللّه حتى تتحطم حدود الظلم، ويرتفع الحصار عن دعوة الإسلام، أو يتوب طواغيت الاستعمار عما هم فيه من الكفر والحرب للإسلام، ويدخلوا في دين اللّه، فآنئذ لا عداء عليهم ولا قتال، وإنما العدوان على الظلمة المعتدين! فالعدوان هنا هو بمعنى: رد العدوان. فذلك قول اللّه ﷻ: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقد حظر اللّه القتال خلال الأشهر الْحُرُم، وهي أربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ثم محرَّم. وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه ﷺ قَالَ: (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى أَوْ يُغْزَوْا! فَإِذَا حَضَرَهُ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ!)(١) فاستغل المشركون ذلك وجعلوا يُعِدُّونَ لقتال المسلمين في الأشهر الحرم، فرفع اللّه الحرج عن رسوله ﷺ وعن المؤمنين؛ بترخيصه القتال خلال الأشهر الحرم؛ لضرورة القِصَاصِ والدفاع عن النفس، على ألا يكونوا هم البادئين بالقتال. فقال سبحانه: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. أي: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، وهتكوا حرمته، فقاتلوهم فيه مكافأة لهم، ومجازاة على فعلهم! والْحُرُمَاتُ: جمع حُرْمَةٍ،

---

(١) رواه أحمد، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

وهي: ما حرَّم اللَّه انتهاكه. وإنما وردت الْحُرُمَاتُ جمعًا ههنا؛ لأنه قصد الشهر الحرام، والبلد الحرام، ثم حرمة الإحرام بالحج أو العمرة. والقِصاص: المساواة في العقاب. والمقصود: أن من هتك حرمةً عليكم، لكم أن تهتكوا حرمةً عليه قِصاصًا! وفصَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ أي: أن من بدأكم بالقتال في منطقة الحرَم، أو بعد الشروع في الإحرام، أو خلال الشهر الحرام؛ فردوا عليه عدوانه بمثل ما اعتدى عليكم! إذ ليس للمسلمين أن ينتهكوا هذه الحرمات إلا على سبيل القصاص، لا على سبيل الابتداء! ولذلك قال سبحانه في تتمة الآية: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: أنه سبحانه ينصر المتقين الذين يتَّقون حرماته، ويقفون عند حدوده، ينصرهم بجنده، ويكلؤهم بعينه، ويؤيدهم بمعيَّته! سبحانه وجلَّ جلاله.

وقد رأيتَ كيف جعل اللَّهُ - جلَّ ثناؤه - أحكامَ الجهاد، متداخلة بحرمات الحجِّ والعمرة؛ لما سبق بيانه من حِكَمٍ بليغة، ثم ليتفرَّغ بعد قليل لتشريع الحجِّ وتفصيل بعض أحكامه. ومِن ثَمّ فقد ختم سياق القتال كله بقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾. وقد تناقل المفسّرون في سبب نزول هذه الآية أثرًا صحيحًا، عن الصحابي العظيم أبي أيوب الأنصاري ﷺ، ضمن قصة عجيبة يرويها التابعي الجليل « أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ التُّجِيبِيُّ »، تجمع بين البيان العلمي والتربية الجهادية. قال أبو عِمْرَانَ رَحَمَهُ اللَّهُ: (كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ [يعني القُسْطَنْطِينِيَّةِ] فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِن الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِن الْـمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ! (...) فَحَمَلَ رَجُلٌ مِن الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ! فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ! وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا؟ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ ... ﴿١٩٥﴾ ﴾ فَكَانَت التَّهْلُكَةُ: الْإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلَاحِهَا

وَتَرَكْنَا الْغَزْوَ! » [قَالَ أَبُو عِمْرَانَ:] فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ!) وفي رواية أبي داود وغيره: (فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ!) [١].

فتبين أن الإنفاق في سبيل اللّه ههنا: هو الإنفاق في تجهيز الجيوش الإسلامية والمجاهدين في سبيل اللّه، على ما ذكرنا قبلُ من دلالة تعبير (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) في الكتاب والسنة. ذلك أن الجهاد لا ينعقد لواؤه إلا بمددٍ ماليٍّ كبيرٍ من المسلمين، وهو ما يسمَّى بـ « الجهاد المالي »، الذي ورد الأمر به في أكثر من موطن من كتاب اللّه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ الآية [التوبة: ٤١]، ونحو ذلك في القرآن كثير. وفي الحديث الصحيح: عن زَيْد بْنِ خَالِدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا! ».. الحديث [٢].

فآية البقرة التي نحن فيها الآن من ذاك. حيث إنه تعالى لما أمر بالقتال في سبيله – للمصالح الشرعية المذكورة – أمر بما يسنده ويكفله، ويضمن استمراره، وهو إنفاق المال عليه. ونهى عن البخل به عند النفير في سبيله، ووصفه بأنه تهلكة! لِمَا فيه من تعريض النفس لسخط اللّه ونقمته والعياذ باللّه! بل أمر بالإحسان في الإنفاق الجهادي! وهو: الجود بالموجود في ذات المعبود، أو إنفاق المال على مقتضى الصِّدِّيقِيَّةِ، أو مقام الإحسان، وهو إنفاق المؤمن الموقن بالخَلَفِ، كأنهما هو يراه! ولذلك ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ ترغيبًا في المسارعة إلى التحقُّق بالإحسان؛ إذْ محبةُ اللَّهِ عَبْدَهُ ورضاه عنه، هو غاية ما يطلبه العباد؛ لِمَا فيه من أزكى كرامات الشهود في الدنيا، وأعلى درجات الخلود في الآخرة! جعلني اللّه وإياكم من أهل الفردوس الأعلى! الذين أدلجوا إلى مولاهم متدثرين برداء طاعته، وغدوا إليه ناثرين مُهَجَهُمْ في سبيل محبته! آمين!

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم، والبيهقي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ » وقال: الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في صحيحي أبي داود والترمذي، وفي السلسلة الصحيحة.

(٢) متفق عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **عشر رسالات** نوردها مُجْمَلة كما يلي:

الرسالة الأولى: في أنَّ العباداتِ الْـمُوَقَّـتَـةَ بالزمان أو بالمكان أو بهما معًا، لها أسرار ربانية، وحِكَمٌ نورانية، تتعلَّق بزمانها الموقَّت لها، ومكانها المحدد لها، مَنْ أخطأهما أضاع بركاتها! وإنما مثل المتخلِّف عن المواقيت الزمانية والمكانية كَفَلَّاحٍ تكاسل عن موسم الحرث حتى فاته الزرع، أو تمادى عن موسم الحصاد حتى فسدت الغلال! فأنى له بعد ذلك أن يزرع أو أن يجني ثماره؟ ومِن ثَمَّ فما من عبادة في الإسلام إلا وقد جعل اللَّه لها معيارًا من الزمن، إما مُضَيَّقًا، وإما مُوَسَّعًا وإما مُطْلَقًا، لكنه زَمَنٌ فَانٍ على كلٍّ حال! فمن لم يتدارك الأعمال في زمانها كان من المحرومين.

والمكان أخو الزمان في الأسرار؛ إذ بهما معا تُرْبَطُ المنافع الدينية في الإسلام، وكلاهما نصَّبه اللَّه علامة لمحطة تعبدية في حياة الإنسان. قد يجتمعان وقد يفترقان. فصلاة الصبح مثلًا لها ميقات زماني هو الفجر، وهو وقت ملائكي مشهود. ولها ميقات مكاني هو المسجد، وهو مكان ملائكي مشهود أيضًا. فمن أضاع أحدًا منهما حُرِمَ الكثير من أسرار صلاة الفجر وبركاتها! وكذلك جميع الصلوات، وصلاة الجمعة، وثلث الليل الآخر للمتهجِّدين، وصيام شهر رمضان، وصيام الأيام المخصوصة بالنافلة، كالأيام البيض وعاشوراء وعرفة، ثم مواقيت الحج الزمانية والمكانية. وغير ذلك من العبادات. ما من توقيت وضعه الشارع الحكيم علامة على عبادة، إلا وجعل تحته سر تلك العبادة! فَمُخْرِجُهَا عما حدَّه اللَّه لها زمانًا أو مكانًا، هو كمن وقف بعرفات في غير يوم عرفة، أو وقف يوم عرفة لكن في غير منطقة عرفات! وهو في جميع الأحوال - علاوةً على بطلان حجه - قد حُرِمَ بركات التجلِّي الإلهي لأهل عرفات! وفاته جني أسرار الزمان والمكان!

ولا شك أن ارتباط بعض العبادات بزمانها أو بمكانها، ليس بالحتمية التي في مثل موقف عرفات، لكن الذي لا شك فيه أيضا أن أسرار المواقيت وبركاتها في جميع الأحوال، ضاربة في عمق الغيب بما لا يعلم مداه إلا اللَّه! فلا يتثاقل عن السعي إلى رباطاتها، ولا يغيب عن شهود معالمها إلا محروم!

الرسالة الثانية: في أن تَدَبُّرَ حركة الزمان، من أهم مجالات التفكُّر التعبُّدي، المفضي إلى معرفة حقيقة النفس الفانية، وبقاء الخالق العظيم الحي القيوم! ومِنْ أخطر مكائد الشيطان استغفال المسلم عن مشاهدة حركة الزمن فيما حوله، كمطالع الأهلة، واختلاف الليل والنهار، والشروق والغروب، وتغيُّر الفصول والمنازل؛ بما يفقده الشعور بفوات الحياة، وضرورة السعي إلى عمرانها بصالح الأعمال قبل فوات الأوان! ولذلك ترى أن اللَّه تعالى قد شرع لنا عند كلِّ محطة زمانية بارزةٍ عبادةً من العبادات المهمة؛ لِمَا في ذلك الوقت من أسرار تعبُّدية من جهة، ولِمَا فيه - من جهة ثانية - من إيقاظ قوي لقلب العبد المسلم؛ حتى يشعر بسير العمر الراحل إلى اللَّه! بدءًا بالصلوات الخمس، وقتًا وقتًا، وانتهاء بالعبادات السنوية، كرمضان، وفريضة الزكاة، والأضاحي.

وقد كان رسول اللَّه ﷺ يتأثر بدورة الزمان وحركته تأثُّرًا بالغًا! وينبه المسلمين إلى ذلك تنبيهًا، ويربط حرمة الشعائر بحرمة الزمان والمكان. فكان من عجيب كلامه ﷺ في خطبة حجة الوداع: « **إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ [اللَّهُ] السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ! السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ. وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.** » ثم قال ﷺ: « **أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟** » (...) **أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟** قُلْنَا: بَلَى! قَالَ: « **فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟** (...) **أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟** » قُلْنَا: بَلَى! قَالَ: « **فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟** (...) **أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟** » قُلْنَا: بَلَى! قَالَ: « **فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا!** » [١] وكان يقول في حجَّته تلك: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ! فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاهُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا!** » أو قال: « **لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ!** » [٢].

الرسالة الثالثة: في أن البرَّ لا يتحقَّق للمؤمن - بعد تقوى اللَّه - إلا بالدخول إلى العبادات من أبوابها! وإنما أبوابها هي مداخل السنة النبوية الشريفة! فرسول اللَّه ﷺ دليل كل سالك إلى اللَّه، ما أخطأه عبدٌ في سيره إلا ضلَّ! فباتباع خطواته الشريفة -

---

(١) مختصر حديث متفق عليه.

(٢) رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط، وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في إرواء الغليل.

عليه الصلاة والسلام - يصل المؤمن إلى دار السلام. فهو ﷺ عَلَمُ المحبين، وراية السائرين إلى ربِّ العالمين. من طَرَقَ سقف السماء من غير بابه ﷺ لم يُفتح له، وعاد إلى التراب خائبًا! فلا محبة للّه إلا بمحبة هَدْيِهِ، ولا قَبُولَ عند اللّه إلا باتباع سنته. فكأني أراه ﷺ يمشي والصحابة - رضوان اللّه عليهم - يمشون متأدِّبين من خلفه، يقتفون في شوق أثر سيره، وينقلون الأقدام على موازين خطوه؛ برًّا بما جاءهم به عن ربِّه، وتصديقًا لما وقر في قلوبهم من عظيم حبه.. فمن ذا يصرّ على طرق الجدار بغير بابه إلا أعمى؟ ألَا عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم!

الرسالة الرابعة: في أن القتال إذا لم ينبن على مقاصده الشرعية، ولم ينضبط إلى أخلاقه الإسلامية؛ فهو قتال في غير سبيل اللّه، ولا يستحق آنئذ أن يُسمَّى « جهادًا »، بل كان آنئذ « عدوانًا » و « فتنة »!.. نعم! حتى ولو رفع القائمون به شعار الإسلام، وسَمُّوا أنفسهم بلقب « المجاهدين! » ذلك أن جماع مقاصد الجهاد في سبيل اللّه هو القتال لتكون كلمة اللّه هي العليا! ولا يكون مسلم كذلك إلا إذا جاهد نفسه في اللّه أولًا؛ حتى فني عن حظوظها!

وأما الانضباط إلى أخلاقه الإسلامية، فمعناه الوقوف عند حدود العلامات المنصوبة على « سبيل اللّه ».. وهي أحكامه ومحظوراته الشرعية، فلا يتسرَّع في قتال لم تصدر فتواه من جمهور أهل العلم المتحقِّقين به، لا من شَواذّ آحادهم، ولا من المتشبِّهين بهم. خاصَّة إذا كان تحت راية لم تتميز فيها صفوف الحقِّ عن الباطل! أو في قتال لم تترجَّح فيه مصلحة الإسلام والمسلمين. وهذا أمر من الخطورة والدقة بمكان، بحيث لا يقدر على تمييزه إلا العلماء الحكماء، والربانيون الفقهاء!

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه والإمام البغوي في تفسيره - رحمهما اللّه - نصًّا عجيبًا، يتضمَّن مناظرة طريفة بين عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما ورجلٍ خرج في ثورة عبد اللّه بن الزبير، فجعل الرجل يلوم عبد اللّه على عدم الخروج. قال نافع: (جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير؛

- فقال: ما يمنعك أن تخرج؟

- قال: يمنعني أن اللّه تعالى قد حرَّم دمَ أخي!

- قال: ألا تسمع ما ذكره الله ﷻ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحجرات: ٩].

- قال: يا ابن أخي! لَأَنْ أُعَيَّرَ بهذه الآية ولاَ أقاتِل، أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أُعَيَّرَ بالآية التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

- قال: ألم يقل اللَّه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... ﴿١٩٣﴾ ﴾.

- قال: قد فعلنا على عهد رسول اللَّه ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يُفْتَنُ في دينه، إما يقتلونه، أو يعذبونه! حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين كله للَّه. وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة! ويكون الدين لغير اللَّه!) [(١)].

الرسالة الخامسة: في أن نصرة المسلمين المستضعفين في الأرض؛ بما يقع عليهم من عدوهم من الفتن والمحن، هنا أو هناك في أي بقعة من بقاع العالم، واجب شرعي على كلِّ المسلمين. كُلٌّ على قَدْرِ ما هيَّأه اللَّه له ويَسَّرَهُ. فذلك من مقتضيات ما نتدارسه بهذا المجلس من قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ حيث وجب بذلك كسر شوكة كل طغيان يفتن المسلمين المستضعفين، وإنقاذهم من أوحال الفتنة في الدين، وتحطيم طاغوت الكفر حتى يكون الدين للَّه! فذلك قصد شرعي أصيل من مقاصد الجهاد في الإسلام. قال ﷻ : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

الرسالة السادسة: في أن اللَّه قد حَرَّمَ ثلاثة أمور، بمعنى أنه أَمَّنَهَا وقدَّسها، وفرض فيها السلام على الناس. وذلك معنى من معاني التحريم. فقد حرَّم من الزمان أربعة أشهر، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومُحَرَّم. وحرَّم من المكان: مكة

---

(١) أوردها البغوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... ﴿١٩٣﴾ ﴾، كما أوردها ابن كثير في تفسيره، والسيوطي في الدر المنثور. وقد رواها البخاري في صحيحه باختلاف يسير.

والمدينة ومحيطهما، وحرَّم من العبادات.. الحج والعمرة. فهي ثلاثة مجالات لا يجوز للداخل فيها قتال، ولا حمل سلاح، إلا اضطرارًا. بل إن الحيوان البري، والطير، والشجر، بل حتى الشوك نفسه آمن بمنطقة الحرم أبدًا! وهذا مما أنزله اللَّه على هذه البقاع المقدسة من بركات. كما أنه لا يجوز للحاجِّ والمعتمر انتهاك شيء من ذلك، بدءًا من ميقات إحرامه، حتى يتحلَّل وحتى يخرج من محيط الحرم وحدوده التي حدَّها الشارع الحكيم. فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. [يعني يوم فتح مكة] لَا يُخْتَلَى خَلاَهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلَّا لِمُعَرِّفٍ!** » الحديث.. قال البخاري في آخره: (وَعَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا لا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا؟ هُوَ أَنْ يُنَحِّيَهُ مِن الظِّلِّ يَنْزِلُ مَكَانَهُ!) [١] وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « **لَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا!** » [٢] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَمًا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ حَرَامًا مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا** [أي: جبليها] **أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلاَحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا تُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلْفٍ! اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا! اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا! اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا! اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا! اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا! اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا! اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ!** » [٣] ومن ثَمَّ كان حفظ أمن منطقة الحرمين واجبًا على كلِّ الأمة الإسلامية أفرادًا وجماعات.

وقد حظر اللَّه تعالى على المسلمين إعلان الحرب في الأشهر الحرم، وهي الأربعة المذكورة قبل. وقد كان حكمًا لم يزل معمولًا به عند العرب قبل الإسلام، منذ زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فأقَرَّه الإسلام وأكَّده. وذلك جارٍ على المسلمين في أي بقعة من الأرض! إلا أن يضطروا إلى ذلك اضطرارًا؛ دفاعًا عن أنفسهم. قال جل جلاله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ ... ﴿٢١٧﴾ ﴾.

---

(١) رواه البخاري. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

ومن حِكَمِ تحريم القتال في الأشهر الحرم، إعطاء فرصة للكلمة؛ حتى تصل إلى الناس، وفسح المجال للكفار حتى يسمعوا كلام اللَّه، وينصتوا إلى حقيقة هذا الدين، ثم تأمين الطريق لكلِّ كافر يستجير بالمسلمين، أو يقصدهم للتعرف على طبيعة الإسلام. كما أنه تأمين لطرق الحجاج، وضمان لسلامة أداء شعائر الحجِّ ومناسكه. حيث جاءت ثلاثة أشهر من الأربعة الْحُرُم موافقةً لزمن الحجِّ، فأولها شهر ذي القعدة وهو مقدمة لموسم الحج، فيه تقع غالبًا حركة رحلاته ذهابًا. وثانيها شهر ذي الحجة وهو وقت أداء مناسكه وإتمام شعائره. وثالثها شهر محرم، وهو لتأمين رحلات الإياب. وبقي شهر رجب - وهو الرابع - فضلًا؛ للمقاصد السلمية والدعوية. ومِن ثَمَّ كان تحريم القتال على المسلمين خلال هذه الأشهر ضمانا لسلامة الحجاج - كما ذكرنا - وضمانًا لسلامة الركن الخامس من أركان الإسلام. فالحج لما عظَّمه اللَّهُ حرَّم مكانَه وزمانَه.

الرسالة السابعة: في أن ردَّ العدوان عن المسلمين، وطلب العدوِّ في أرضه وبلاده، كما يطلبنا في أرضنا وبلادنا؛ مقصد شرعي أصيل؛ لما بيناه من قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ صحيح أن العفو والصفح من شِيَمَ الإسلام، لكن اللَّه ﷻ علَّم المسلمين أن من ترك العقاب مطلقًا في حدود اللَّه وحرماته، لا يمكنه بعد ذلك أن يصفح ولا أن يعفو! لِمَا ينزل عليه من الذلة والصَّغَار! ففي الحديث عن ابن عمر ﭭ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُم الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ!** »[1] ومعنى بيع العِينَةِ: شراء سلعة بثمن إلى أجل، ثم بيعها لصاحبها في حينه بثمن أقل منه ناجزًا. فيترتَّب عنه دَيْنٌ في الذمة بفائدة ربوية، وتكون السلعة لغوًا! وهو ضرب من ضروب التحايل على الربا. والمقصود جمع المال من غير مراعاة الحلال والحرام! وقوله: « **وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ** » وفي رواية لأحمد: « **اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ**»: كناية عن الاشتغال بالزراعة والرعي حتى يغفل العبد عن ربِّه، ويدخل فيه الافتتان بتنمية المال الفلاحي عمومًا، مع ترك حق اللَّه

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود واللفظ له، كما رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وأبو يعلى في مسنده، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، والسلسلة الصحيحة، وصحيح أبي داود.

فيه، والتنافس في شهوات الكسب واتخاذ الضيعات، وترك الجهاد في سبيل اللَّه. فكل ذلك مؤدٍّ إلى ما ذكره في الحديث من الذلة والهوان، وتكالب الأعداء على الأوطان! ولذلك حضَّ الإسلام على التربية الجهادية للمسلمين، والحفاظ على شوكتهم قوية ضد كل عدوان، وعدم الركون إلى الاستسلام لشهوات الدنيا، المثبطة عن النفير الجهادي.

الرسالة الثامنة: في أن السلام العالمي لن يتحقَّق حتى يكون الدين للَّه، وذلك بانتصار الإسلام، دعوةً وجهادًا، وظهوره على ملل أهل الأرض! كما أن ذهاب الفتن لن يتأتى إلا بكسر شوكة الطغيان الاستعماري. فالإسلام هو المنهاج الوحيد لإقرار الأمن في العالم؛ لأنه لا يترك فرصة لتضخم إمبراطوريات الطغاة! ويقطع أطراف السرطانات الاقتصادية، واللوبيات الرأسمالية المتوحشة! ويهدم الوثنيات الأيديولوجية، ويرفع راية التوحيد الخالص، وسلطان الملة الحنيفية السمحة؛ فيضمن بذلك الحرية للمستضعفين، والأمن والسلام للعالمين.

الرسالة التاسعة: في أن من جمال الإسلام أن باب التوبة مفتوح للكافر، مهما كان من ظلمه وتجبُّره وطغيانه في كفره! فإنه إن دخل في الإسلام - قبل فوات الأوان - دخل مغفور الذنب، محفوظ النفس، غير مُتَابَعٍ بجريمة! والتوبة في الإسلام لا يفوت لها أَوَانٌ، إلا بإشراف الإنسان على الموت غَرْغَرَةً، أو بظهور علامات الساعة الكبرى، كطلوع الشمس من مغربها! ثم إذا أسلم الكافر وَجَبَتْ أُخُوَّتُه، وحُقَّتْ محبَّتُه، وتعلَّقت بذمَّة المسلمين حمايتُه! قال ﷻ عن الكفار المحاربين: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١] وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (لما ألقى اللَّه ﷻ في قلبي الإسلام، أتيتُ النبي ﷺ ليبايعني فبسطَ يدَه إليَّ فقلتُ: لا أبايعك يا رسول اللَّه حتى تغفر لي ما تقدَّم من ذنبي! فقال لي رسول اللَّه ﷺ: « **يا عمرو أما علمتَ أن الهجرة تَجُبُّ ما قبلها من الذنوب؟ يا عمرو أما علمت أن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله من الذنوب؟** »)[(١)].

الرسالة العاشرة: في أن الإنفاق في سبيل اللَّه - بمعناه الجهادي - يشمل كل عمل دعوي خالص للَّه. خاصَّة إذا كان يواجه حصارًا وتضييقًا، ودفعًا من لدن أعداء

---

(١) أخرجه أحمد، وقال الألباني في إرواء الغليل: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

الإسلام؛ لأن الدعوة إلى اللّٰه آنئذ تصبح عملًا جهاديًا صرفًا، ويصبح الإنفاق عليها كالإنفاق على الغزو في سبيل اللّٰه. وقد تقدم حديث النبي ﷺ: « **مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا!** »[1] والإنفاق في سبيل اللّٰه هنا يكون بإسناد العمل الدعوي بما يقومه من المال، ويضمن استمراره، كتجهيز الدعاة إلى اللّٰه بما يلزمهم من وسائل، والإنفاق على طلبة العلم الشرعي، وبناء المدارس الإسلامية، وفتح المكتبات وتجهيزها، وتعليم اللغة العربية بالبلاد التي تحارَب فيها. كما يدخل في ذلك بناء المساجد بالدول غير الإسلامية؛ لِمَا للمسجد عمومًا في الإسلام من وظائف تعبدية وتعليمية، ولما له ببلاد غير المسلمين خصوصًا، من دور كبير في نشر الإسلام، والحفاظ على دين المسلمين المهاجرين وصلاح أبنائهم.

٤ - مسلك التخلق:

وهو بهذا المجلس في بيان كيفية التخلُّق بمقام ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴾! وما أدراك ما مقام ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؟ إنه كمال المنازل الإيمانية، وقمة المدارج الجهادية! فكيف التخلُّق به؟ أو بعبارة أخرى: كيف تتحق النفس من خروجها المطلق عن أَنَاهَا إلى فَنَاهَا، وتتبرأ من كل حظوظها وهواها؛ حتى تكون خالصة لمولاها؟ ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ!** »)[2] وفي رواية للبخاري: (قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ، وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، مَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟) فأجابه بنفس الجواب. ذلك أن ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ مقام إيماني رفيع، يتربَّع على أعلى مراتب الإخلاص، بل هو غايتها ومنتهاها، تُبنى عليه الأعمال الصالحة، وعلى رأسها « الجهاد في سبيل اللّٰه »؛ ولذلك كان (ذِرْوَةَ سِنَامِ الإِسْلَامِ!) فمن تحقق بمنزلة ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ كان من المؤمنين الكُمَّلِ، سواء ابْتُلِيَ بالقتال في سبيل اللّٰه أم لا!

والسبيل إلى الارتقاء بالنفس إلى هذا المقام الإيماني الكريم، رهينٌ بجمع القلب على **ثلاث معارف**، هي مجاهَدات ومشاهَدات! وهي:

(١، ٢) متفق عليه.

الأولى: معرفة أن اللَّه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه، غير مَشُوبٍ بهوى، أو عُجْبٍ، أو سمعة، أو رياء، أو حظ نفس! ثم إيقاف النفس على هذه الحقيقة مجاهَدةً ومشاهَدةً. خاصَّةً في مجال الدعوة والجهاد في سبيله؛ لأن ما خالطه شيء من هذه المدنَّسات لم يجعله اللَّه في سبيله أبدًا!

الثانية: معرفة أن الدخول إلى مقام ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿١٥٤﴾ ﴾ مَغْرَمٌ لا مَغْنَمٌ، وعطاءٌ دون أخذ، وبَذْلٌ دون كسب، إلا ما تكسبه الدعوة وأوقافها! أما أنا وأنت وما بأيدينا فكلنا للَّه! والتحقُّق بهذا الخلُق الكريم إنما يكون بمجاهدة نفسك على الدخول في مسلك الدين؛ باعتبارك عبدًا لا زعيمًا، وبصفتك خادمًا لا سيدًا، فإنما السيد - فيه وفيما سواه - اللَّه رب العالمين!

الثالثة: معرفةُ رِجَال ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وطلائعهم، والإدمانُ على مشاهدة أحوالهم، وهم أصحاب رسول اللَّه ﷺ. ثم مجاهدة النفس على التخلق بعزائمهم العالية! فعن خَبَّاب بنِ الأَرَتِّ ﵁ قَالَ: (هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ؛ وَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ! [أي: وَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّه]، فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا نُكَفِّنُهُ فِيهِ إِلَّا نَمِرَةً، كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ! فَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ! فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ بِهَا وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ الْإِذْخِرَ!) (١) والْإِذْخِرُ: نبات طيب الرائحة. وقد كان مصعب ﵁ من فتيان مكة الأغنياء، عاش أول حياته مُدَلَّلا عند أمِّه، فلَمَّا أَسْلَمَ وتعلَّق قلبُه بحبِّ اللَّه، هاجر إلى اللَّه ورسوله ﷺ، وترك متاع الدنيا وراءه، ولم يزل زاهدًا فيها حتى استشهد يومَ أُحُدٍ كما رأيت، فما ترك لنفسه من اللباس وَلا مِقْدَارَ كَفَنٍ! فَلِلَّهِ دَرُّهُ! أيَّ رَجُلٍ كَان!

* * *
* *
*

---

(١) متفق عليه.

المجلس السادس والعشرون

في مقام التلقي لأسرار الحج والعمرة
وكيف يتزود العبد لسفر الروح الطويل..!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا نجني ثمرة المجلس السابق، ههنا يقطف المؤمنون غِلَالَ القتال في سبيل اللَّه، حَجَّةً تامَّةً، وعُمْرَةً كاملةً؛ بما أنعم اللَّه عليهم من إتمام الحج والعمرة للَّه. نعم؛ حتى ولو وقع إحْصَارٌ بعدُ، أو صَدٌّ من عَدُوٍّ مُباغِتٍ لا قدَّر اللَّه، فقد أَعْذَرَ المجاهدون إلى اللَّه، وتنزَّلت رحمة اللَّه رخصةً لجميع الحجاج والمعتمرين بما استيسر من الهدي! بذلك نزلت الآيات الأولى من أحكام الحجِّ، وبذلك أيضا تمَّ تشريع الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام، وانتظم عِقْدُ العبادات للمسلمين، واستبانت سبيلُ السير إلى اللَّه لقوافل المحبين، وارتفعت الأعلامُ الخمسةُ مُرَفْرِفَةً على رأس الأمة إلى يوم القيامة! شهادةً، وصلاةً، وزكاةً، وصيامًا، ثم حَجًّا! فاللَّه أكبر وللَّه الحمد!..

ثم توالت آيات الرحمن تضع معالم الطريق على أحكام الحج والعمرة، ترحيبًا بوفد اللَّه (١)، الذين جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق، يلبُّون نداء الرحمن شُعْثًا غُبْرًا؛ حتى حطُّوا الرِّحال على المواقيت بباب مملكة الروح!.. وانطلقت الحناجر الْمَشُوقَةُ بلقاء الحبيب تُلَبِّي: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ! لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ!.. إنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ!) فتجلَّى لهم الرحمن بِوَابِلِ الرحمة والغفران!.. فيا لجلال العطاء ويا لجمال الكرم!

قال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴿١٩٦﴾ ﴾ تمامًا كما خرج المجاهدون ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، يأمر تعالى وَفْدَهُ بالتجرُّد في الخروج إلى الحجِّ والعمرة للَّه، وللَّه وحده! فتلك أم مقاصد الحج والاعتمار: التخلُّق بكمال التوحيد، والتحقُّق بصفاء الإخلاص! ومعنى الإتمام: تفريد اللَّه بالحجِّ والعمرة، تخرج إليه قصدًا لا تريد سواه. فعن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: (إتمامهما: أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة! وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنتَ قريبًا من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت! وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره!) (٢) والإتمام أيضًا إتقان مناسكهما، والإتيان بجميع أعمالهما، والالتزام بشروطهما حتى

---

(١) سبق إيراد قول النبي ﷺ: « الغازي في سبيل اللَّه، والحاج، والمعتمر، وَفْدُ اللَّه، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم! » رواه ابن ماجه واللفظ له، وابن حبان في صحيحه. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه عنه الطبري بسنده، عند تفسيره للآية.

تمام التحلُّل. كما أن من معاني الإتمام إكمال أعمالهما وجوبًا لمن شرع فيهما، وفقدانه خيار توقيتهما! فقد اتفق العلماء على أن من شرع في أعمال الحجِّ والعمرة لزمه الإتمام، ولم يجز له أن يقطعهما، سواء قيل بوجوب العمرة أو بندبها.

وبهذا وذاك يكون إتمام الحج والعمرة هو الدخول في عزيمتهما مُشَاهَدَةً، وتلقي ابتلاءاتهما مُجَاهَدَةً، على التمام والكمال، بلا رفثٍ ولا فسوقٍ ولا جدالٍ، تمامًا كما ﴿ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾.

ومِن ثَمَّ اتسق قوله تعالى بعدُ مباشرة: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾. والإحصار: حدوث مانع من موانع إتمام الحجِّ والعمرة، من عدو، أو مرض، أو كَسْرٍ، أو نحوه. فمن منعه العدو تحلل من حَجِّه أو عمرته حيث حصل له المنع في الطريق، وذبح هديه، شاةً أو بقرةً أو جملًا، ووقع أجره على الله، ولا قضاء عليه. وهذا من تمام الفضل وجمال الكرم! ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ ﴾، عطفًا على مبدأ السياق من قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ بمعنى أنه لا يجوز للحاجِّ غير المحصر أن يحلق رأسه؛ حتى ينحرَ هَديه يوم النحر؛ تعبُّدًا للَّه، وانشغالًا عن نفسه بذكره. فمن اضطر للحلق قبل يوم النحر؛ لمرض أو أذى في رأسه، فعليه صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، نصف صاعٍ لكلِّ مسكين، أو ذبح شاة يتصدَّق بلحمها على الفقراء، وهو معنى النُّسُكِ. وذلك كله على التخيير. فعن كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ قال: (حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي! فَقَالَ: « **مَا كُنتُ أُرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا! أَمَا تَجِدُ شَاةً؟** » قُلْتُ: لاَ. قَالَ: « **صُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ!** »)[(١)] وعنه ﷺ قال: (أَتَى عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي! فَقَالَ: « **أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟** » قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: « **فَاحْلِقْ! وَصُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ نَسِيكَةً!** »)[(٢)].

ثم أمر الْمُتِمِّينَ للحجِّ والعمرة في زمن الأمن، على سبيل التمتع، بذبح هَدْيٍ، شاة فما فوقها على حسب اليسر، أو فعل ما ينوب عنه من صيام في عدم الاستطاعة.

---

(١) رواه البخاري. (٢) متفق عليه.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ والتمتع المقصود هنا: هو الإحرام بالحجِّ والعمرة معًا على الإطلاق، سواء كان ذلك على سبيل القِرَانِ، وهو الجمع بينهما بغير تحلل حتى نهاية الحجِّ، أو كان على سبيل التفريق بينهما بِحِلٍّ، وهو التمتع الاصطلاحي الخاص بتعبير الفقهاء [1] فكل ذلك يلزمه فيه هدي. وأما من لم يستطع ذلك لفقره؛ فعليه صيام عشرة أيام كاملة، ثلاثة منها في أيام الحجِّ، وسبعة إذا رجع إلى أهله. وأما من كان من سكان مكة فلا هَدْي عليه ولا صيام، ولو قَرَنَ أو تمتع؛ لأن ذلك إنما وجب على أهل الآفاق؛ لاستفادتهم من جمع الحجِّ والعمرة في سفر واحد، والأصل أن يكون لكلٍّ منهما سفره الخاص. وهو أمر لا معنى له في حقِّ المقيمين بمكة وضواحيها. وكما هو منهج التشريع الإسلامي ربط الأحكام بأصولها ومقاصدها التعبدية؛ لأنه أضمن لأمانة التطبيق والتنفيذ، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ بمعنى: واتقوا اللَّه فيما حد لكم من هذه التشريعات وغيرها، ولا تخالفوا أحكامها، فإنما الرقيب عليكم هو اللَّه الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ونياتكم، وهو ﷻ شديد العقاب إذا عاقب والعياذ باللَّه!

ثم شرع سبحانه في بيان مقاصد الحجِّ من خلال عرض ضوابطه الأخلاقية، قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾ والمقصود بالأشهر المعلومات: أشهر الإحرام بالحجِّ إلى تمام أعماله، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشرة أيام الأولى من ذي الحجة. وقد عبر بجمع «الأشهر» على جهة التغليب، لأنما هما شهران وثلث فقط. وقد ذهب الشافعي إلى أنه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه! بخلاف الجمهور، أبي حنيفة ومالك وأحمد، فإنهم يرون جواز الإحرام به خلال جميع أشهر السنة، كالعمرة، لكن على أساس أن يستمر في إحرامه حتى يدخل شهر ذي الحجة،

---

(١) يقسم العلماء الحج إلى ثلاثة أنواع: القِرَان والتمتع، وهما مشروحان بالمتن أعلاه، ثم الإفراد: وهو الإهلال بالحج منفردًا من دون عمرة، لا تمتعًا ولا قِرَانًا.

ويشرع في أعمال الحجِّ مع الحجَّاج، من يوم التروية إلى يوم النحر! ويرون تخصيص الأشهر المعلومات في القرآن أنه خرج مخرج الغالب أو الأفضلية.

وهو وإن خصَّ بيان أحكام الحج ههنا من دون العمرة، بدءًا من قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ... ﴿١٩٧﴾ ﴾، إلى آخر السياق؛ فإن الكلام واحد من الناحية المقاصدية، أعني أن الحديث عن الحجِّ في القرآن حديثٌ عن العمرة، من حيث الأهداف التربوية والإيمانية كما سترى إن شاء اللَّه. خاصَّة إذا اعتبرنا قول من يرى أن الجمع بينهما على سبيل التمتع أو القِرَانِ أفضلُ من الإفراد. لقول النبي ﷺ: « **دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..! ثُمَّ أَنْشَبَ أَصَابِعَهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ!** »[1] وبهذا يكون الكلام عنهما واحدًا، إلا ما زاد الحج عليها من أحكام.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أي بدخوله في الإحرام، وتَعَيُّنِ فَرْضِهِ عليه لتلك السنة؛ فقد وجب عليه الانضباط إلى شروط الحجِّ الأخلاقية، وهي مقاطعة كل ما لا يليق بقداسة المكان والزمان والشعائر التي دخل فيها، من التصرفات التي تفسد العبادة. وعلى رأسها الرَّفَثُ، وهو: جماع النساء، ومحادثتهن بخطاب الغَزَلِ وما في معناه. ثم الفسوق وهو: كل المعاصي والتصرفات الآثمة أصلًا، من الأقوال والأفعال، كالكذب، والسِّباب، والتعدِّي على الناس... إلخ. وكذلك ارتكاب ما نُهي عنه في الإحرام، من قتل الصيد، وحلق الشعر، وتقليم الأظفار. ثم الجدال وهو: المراء، والمخاصمات الكلامية، والحوار المتشنِّج الذي لا يؤدِّي إلى تعلُّم أو تعليم، وإنما يحمل المتجادلين على التعصُّب والانتصار للنفس! وذلك كله إنما هو لبيان أن الحجَّ مدرسة روحية؛ للارتقاء بالنفس إلى مقام الورع، وتدريبها على الانقطاع للَّه، والخروج من شهوات الدنيا الفانية، وعدم الانغماس فيها إلى درجة الافتتان! ولذلك كانت منهيات الإحرام، فيها ما هو من المباحات خارج الحجِّ، كالرفث إلى الزوجة. وفيها ما هو من الممنوعات مطلقًا، كالفسوق، والجدال المستفز الخارج عن أدب الحوار. ومِن ثَمَّ أمر تعالى الحُجَّاج بعمران الوقت بما ينفعهم

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي عن ابن عباس مرفوعا. وروى نحوه مسلم عن جابر. وقد صحح رواية أحمد وأصحاب السنن الشيخ الألباني في إرواء الغليل، وفي تحقيقاته على سننهم. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط - في تعليقه على المسند - عن بعض طرقه: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

من أعمال الخير والصلاح، والتزود لها ومنها بعزائم التقوى، مخاطبًا فيهم عقولهم وفطنتهم وكياستهم؛ لأن أكبر الجهل والسفه هو ألا يتقي العبد ربه خلال الحج، وقد دخل في ثلاث حرمات مقدسات! هن: حرمة العبادة، وهي الركن الخامس من أركان الإسلام، وحرمة الزمان، وهي الأشهر الحرم، وحرمة المكان، وهو المسجد الحرام ومحيطه! فذلك كله قول اللَّه سبحانه: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ فمن قصد الحج بغير زاد التقوى وَصَلَهُ باغيا! ومن رجع منه بغير زاد التقوى رجع خاويا!

ثم جعل سبحانه يزاوج في الخطاب ما بين موعظة وبيان حكم شرعي، على منهج القرآن كما أنت ترى، فأعلن للحجاج رخصته الكريمة بجواز الاتجار، وجلب المصالح الدنيوية، خلال الإحرام بالحج، منبها إياهم إلى ضرورة الاعتصام بالذكر، والاحتياط من الاستغراق في الأسواق بما ينسيهم ذكر اللَّه ﷻ، أو يلهيهم عن أداء المناسك على وجهها! فقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾. أخرج البخاري عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: (كَانَتْ عُكَاظٌ، وَمَجَنَّةُ، وَذُو الْمَجَازِ، أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ تَأَثَّمُوا مِن التِّجَارَةِ فِيهَا [يعني خلال أشهر الحج]؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ. قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَذَا) (١) وذلك رفعًا للحرج وتوسعة على الناس. فعن أبي صالح مولى عمر بن الخطاب قال: (قلتُ لعمر: يا أمير المؤمنين، كنتم تَتَّجِرُونَ في الحجِّ؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا في الحج!) (٢).

وقد أمر اللَّه المسلمين بعد نهاية الوقوف بعرفة التي هي أم أركان الحجِّ، أن يفيضوا نحو الْمَشْعَرِ الحرام. ومعنى الإفاضةِ: الزَّحْفُ في جَمَاعَةٍ، والدَّفْعُ في السير بكثرة وبقوة قريبًا من الركض. والْمَشْعَرُ الحرام: مكان بين جبلي مزدلفة، شُرِعَ الوقوف فيه لذكر اللَّه والدعاء. وسُمِّي مَشْعَرًا؛ لأنه مَعْلَمٌ من مَعَالِم الحجِّ، ومحطة تعبدية من محطاته. فالمشاعر مَعَالِمُ جعلها اللَّه للناس، يقفون عندها لذكره وتوحيده؛ شكرًا له

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبري عند تفسيره للآية.

تعالى على ما أنعم من الهدى، وما أكرم به المؤمنين من الإسلام، وما أنزل عليهم من الوحي، فعرَّفهم بربِّهم، وعرَّفهم بأنفسهم، ومعنى حياتهم، وحقيقة وجودهم، وطبيعة دنياهم، وقصة هذا الوجود كله! علمهم كل ذلك وقد كانوا قبله من الضالين، يتخبَّطون في ظلمات الحيرة والتيه! وها هي ذي أمم من حولهم لم تزل تتخبط في جاهليتها إلى اليوم! مختنقة في كهوف الطين المظلمة، لا تكاد تبصر خيط نور يخرج بها إلى فضاء الهدى، وضياء المعرفة بالله! ومِن ثَمَّ جعل الله مشاعر الحج من أكبر المعالم في الدين، يجتمع حولها ملايين المسلمين كل سنة، رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير؛ لإعلان بلاغ التوحيد في الناس!

وقد كانت قريش في جاهليتها تجعل من موسم الحجِّ مناسبة لإظهار تميزها على قبائل العرب، فتسلك في أداء المناسك غير ما يسلكه الناس؛ استعلاءً وفخرًا! فكانت إذا وقف الناس بعرفة وقفت هي ومن والاها بعيدًا في بطحاء مزدلفة؛ ترفعًا عن النزول إلى مستوى عامَّة العرب! وحرصًا على إظهار رئاستها الدينية! بينما الحجُّ إنما شُرِعَ في الأصل لإظهار التواضع والافتقار، والتذّلل بين يدي الله الواحد القهار، لا للتفاخر والتظاهر كما هي عادة العرب في أسواقها وأشعارها؛ ولذلك أنزل الله قرآنا يحطم هذه العادة الشنيعة، ويلفت الخلق كلهم إلى مشاهدة ذنوبهم وخطاياهم فيستغفروا الله ويتوبوا إليه، مستدرِّين رحمته، باكين مُتذلِّلين! قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾. ذلك أن الناس كانوا يفيضون من عرفات أولًا، ثم من المشعر الحرام، حتى يأتوا مِنًى فيرمون الجمرة الكبرى، ثم يفيضون إلى البيت العتيق للطواف. هكذا بهذا الترتيب الذي شرعه الله منذ زمان إبراهيم، حتى غيرته قريش بكبريائها؛ إذ جعلت تفيض من نصف الطريق، من موقفها المستعلي بمزدلفة! فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ « الْحُمْسَ »، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ فَيَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾)[1].

---

(١) متفق عليه.

والْحُمْسُ جمع أَحْمَس، ومعناه: القوي الشديد، من الحماسة والتحمس. قال ابن حجر في الفتح: (عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: الْحُمْسُ: قُرَيْشٌ وَمَنْ كَانَ يَأْخُذُ مَأْخَذَهَا (...) وَالأَحْمَسُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الشَّدِيدُ! وَسُمُّوا بِذَلِكَ لَمَّا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَكَانُوا إِذَا أَهَلُّوا بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ لا يَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَلا يَضْرِبُونَ وَبَرًا وَلا شَعْرًا، وَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ وَضَعُوا ثِيَابَهُم الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ!) (١).

فأبطل اللّه تعالى ذلك الضلال كله؛ فكان رسول اللّه ﷺ إذا وقف بعرفات مع الناس، بعد زوال تاسع ذي الحجة، لا يفيض منها حتى تغرب الشمس. ثم يدفع إلى مزدلفة، فيصلِّي المغربَ والعشاء بها جمعًا، ثم يضطجع إلى الفجر، فإذا صلَّى توجَّه نحو المشعر الحرام، فوقف به يدعو ويبتهل كما صنع في عرفات، حتى إذا أسفر الصبح جدًّا أفاض إلى منى قبل شروق الشمس من يوم النحر. فإذا رمى الجمرة الكبرى بها ضُحًى، نحر هديه وحلق رأسه، وتحلل التحلل الأصغر. ثم دفع إلى البيت العتيق فطاف به، ثم عاد في نفس اليوم إلى منى؛ لذكر اللّه في أيام التشريق، توحيدًا وتفريدًا وتكبيرًا (٢).

وقد كانت العرب تعقد أسواقها في هذه الأيام بمنى، وتعقد نوادي للشعر، تفخر بأمجادها وذكر آبائها وأنسابها! فأنزل اللّه تعالى ما يُقَوِّمُ هذا الانحراف، ويرفع هذا الضلال، ويلغي كل الفوارق العنصرية، وجميع العصبيات الجاهلية، ويجمع القلوب على ذكر اللّه وحده! قال ﷻ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ... ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ومِن ثَمَّ تحوَّلت خيامُ مِنًى ومسجدُها، ونواديها وأسواقها، إلى مواسم للتهليل والتكبير! تملأ القلوب خشوعًا، وتزيدها معرفة باللّه! وقد ثبت أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يُكَبِّرُ في خيمته بِمِنًى، فيكبر أهل السوق بتكبيره؛ حتى تَرْتَجَّ مِنًى تكبيرًا..! أخرج البخاري في صحيحه قال: (بَابُ التَّكْبِيرِ أَيَّامَ مِنًى، وَإِذَا غَدَا إِلَى عَرَفَةَ. وَكَانَ عُمَرُ ﷺ يُكَبِّرُ فِي قُبَّتِهِ بِمِنًى، [أي: خَيْمَتِهِ] فَيَسْمَعُهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فَيُكَبِّرُونَ، وَيُكَبِّرُ أَهْلُ الأَسْوَاقِ؛ حَتَّى تَرْتَجَّ مِنًى تَكْبِيرًا..! وَكَانَ

---

(١) فتح الباري: (٥ - ٣٣٦).

(٢) ن. ذلك مفصلا فيما رواه مسلم في صحيحه، عن جابر ﷺ، في حديث طويل. ون. أيضا كتاب (حجة النبي ﷺ) للشيخ الألباني رحمه الله.

ابْنُ عُمَرَ يُكَبِّرُ بِمِنًى تِلْكَ الأَيَّامَ، وَخَلْفَ الصَّلَوَاتِ، وَعَلَى فِرَاشِهِ، وَفِي فُسْطَاطِهِ، وَمَجْلِسِهِ، وَمَمْشَاهُ، تِلْكَ الأَيَّامَ جَمِيعًا. وَكَانَتْ مَيْمُونَةُ تُكَبِّرُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَكُنَّ النِّسَاءُ يُكَبِّرْنَ خَلْفَ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، لَيَالِيَ التَّشْرِيقِ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْمَسْجِدِ!) (١) وبذلك غلب الذكر - أيَّامَ الحجِّ - على التجارة، وغلبت العبادة على العادة. فصارت رخصة اللَّه للحجاج بإقامة الأسواق واللَّمِّ بالتجارات، مندرجةً تحت معنى العبادة، وخادمة لمعنى الحجِّ ومقاصده!

ومن هنا علَّم اللَّه المسلمين كيف يجمعون في دعائهم ورغائبهم بين خيري الدنيا والآخرة، ذامًّا من قصر همه على طلب الدنيا والدنيا فقط! ناسيا آخرته ومصيره فيها! قال سبحانه: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢ ﴾ ويدخل في حسنة الدنيا كل متعها المباحة، المعينة على العبادة والصلاح، كالزوجة الصالحة والزوج الصالح، والبيت الواسع، والرزق الحلال الطيب.

أما حسنة الآخرة فلا أكرم فيها من دخول الجنة بلا سابقة عذاب ولا عسر حساب، والنجاة من النار! وقد كان النبي ﷺ يردد هذا الدعاء الجميل، ويلقنه لأصحابه في كلِّ أحوالهم، سواء في الحجِّ أو بعده. ومن طرائف حديثه ﷺ في ذلك ما رواه مسلم عن أَنَس بن مالك ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ خَفَتَ [أي: هزل من شدة المرض] فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟** » قَالَ: نَعَمْ؛ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **سُبْحَانَ اللَّهِ! لا تُطِيقُهُ، أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ! أَفَلاَ قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟** » قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ!) (٢).

ثم ختم السياق كله ببيان حكم شرعي أخير، متعلق بآخر معلم من مَعَالِم الحجِّ،

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) رواه مسلم.

مُخيرًا المسلمين بين إتمام أيام التشريق أو التعجيل فيها، والاقتصار على يومين منها فقط. قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ وأيام التشريق ثلاثة بعد يوم النحر؛ لقول النبيِّ ﷺ: (أَيَّامُ مِنًى ثَلاثَةٌ، ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾)[1] فهي أيام جعلها الله أيامَ عيدٍ واحتفال، وفَرحٍ بذكره تعالى وشكره على نعمه. ومن ثَمَّ نهى النبي ﷺ عن صيامها إلا لمن كان عليه دَيْنٌ من هدي. فعن عائشة وابن عمر رضي الله عنهما قالا: (لَمْ يُرَخَّصْ في أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدْ الْهَدْيَ!)[2] وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ وَأَوْسَ بْنَ الْحَدَثَانِ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ؛ فَنَادَى: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ! وَأَيَّامُ مِنًى أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ!)[3].

وقد أباح الله للحجيج ختم الموسم، والنفير منه - كما رأيتَ - بعد يومين من أيام التشريق للمستعجلين، المرتبطين بمصالحهم ومواعيد أسفارهم، أو إتمام ثلاثة أيام لمن شاء، لا حرج فيما كان القرار، ولا إثم عليه ﴿ لِمَنِ اتَّقَىٰ ... ﴿٢٠٣﴾ ﴾، أي: بشرط التزود بالتقوى اللازم لخوض غمار الحياة. ثم علَّق في النهاية على هذا المشهد العظيم، من تجمع هذا العدد الضخم من الناس، طيلة أيام الحجِّ، ثم افتراقهم في الآفاق زُمَرًا؛ بالتذكير بمشهد الحشر يوم القيامة، وما ينبغي للعباد من الاستعداد له، وأن الذي جمع الناس ثم فرَّقهم في الدنيا، قادر على جمعهم مرة أخرى ليوم الدين! عندما يبعث الله البشرية، فيخرجون من مقابرهم سراعًا، ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١] ثم يُحْشَرُونَ إلى الله من كلِّ جهات الأرض! قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فما أدقها من عبارات وأرهبها! وما أنسبها لهذا الختام وأبلغها! جعلني الله وإياكم من الناجين! وحشرنا في زمرة سيد المرسلين!.. آمين!

---

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، والحاكم، والبيهقي، عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعا. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، وفي صحيح الجامع، وفي تعليقاته على كتب السنن الأربعة. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) رواه البخاري. (٣) متفق عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في تسع رسالات، نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الحجَّ والعمرة دورة روحية كبرى، ورياضة للنفس عظمى.. فالحج - بما دخل فيه من عمرة - رحلة إلى اللّه فريدة، وسياحة للروح سعيدة. وهو وإن كان سفرًا في الأرض فهو سفر في السماء، ومعراج للروح، وتحرُّر من علاقات التراب، وتجرُّد للّه من كلِّ شيء.. وقصدٌ إليه تعالى وحده بالسير، توحيدًا وتفريدًا. مَنْ أَتَمَّ أعماله للّه وحده، وأتى بها على وجهها وشروطها، آتاه اللّه من بركاته ما يزكيه العمرَ كلَّه، وزوَّده من التقوى ما يكفيه لقطع ما بقي له من مسافة الدنيا! ومِن ثَمَّ كان الحجُّ واجبًا على المسلم مرة واحدة في العمر فقط، ومع ذلك جعله ركنًا من أركان الإسلام! لِمَا علم تعالى من كفايته لمن بَرَّ فيه بربِّه، ودخل فيه بحقِّه! قال سيد المرسلين ﷺ: « **الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِـمَا بَيْنَهُمَا. وَالْـحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ!** »[١] وقال ﷺ: « **مَنْ حَجَّ لِلَّهِ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ!** »[٢] أي: مغفور الذنب كله!

الرسالة الثانية: في أن لكلِّ مَعْلَمٍ من معالم الحجِّ قصته، ولكلِّ مَشْعَرٍ من مشاعره مناسبته، فالحجُّ قصص إيمانية شجية، ينبغي استحضارها عند كلِّ مَعْلَمٍ من معالمه؛ قصد التعبُّد للّه بما يناسبه من مواجيد وأذواق؛ حتى يشهد القلب مقاصد كل مَشْعَرٍ، ويذوق من بركات كل مَعْلَمٍ. فأعمال الحجِّ لمن دخل فصولها بحقِّها تتضمَّن دروسًا إيمانية عميقة، ومعارج روحية رفيعة. فمن وقع في قلبه هذا، وتجلَّت له مشاهد إبراهيم وإسماعيل وزوجته هاجر عليهم السلام وهم يخطُّون معالم الحجِّ بأمر من اللّه وعلى عينه، ويرسمون مشاعره بمكابداتهم، وبما أنزل اللّه عليهم من ابتلاءات عظيمة، عانى مشاعر الحجِّ وذَاقَ حَلاوَتَه! وسهل عليه السير بها إلى اللّه رَغَبًا ورَهَبًا. فهي جميعها حركات جماعية قوية، تدور ما بين سير وتجمع. فالسير كالطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، وحركة الإفاضة أو الدفع من المواقف. والتجمع هو في الوقوف بالمشاعر المحددة، كعرفات والمشعر الحرام، وكذا في التجمهر بمنى طيلة يوم

(١، ٢) متفق عليه من رواية أبي هريرة.

النحر وأيام التشريق. ثم إن السير والتجمع كليهما، مشهدان من أهم مشاهد يوم القيامة. فمن كان له في تلك موعظة لهذه تحقق بمعنى الحج، وفاز بثماره الإيمانية.

الرسالة الثالثة: في أنَّ أحوال الإحرام بالحجِّ وشروطه، من تجرُّد من المخيط والمحيط، وامتناع عن كثير من المباحات كمعاشرة الزوجات، وعدم تقليم الأظافر، أو قصِّ الشَّعر، كل ذلك وما في معناه، رموز تعبدية تعبر عن استسلام العبد الكامل للَّه! ودروس إيمانية بليغة تعلِّم المسلم كيف يتواضع للَّه ويتذلَّل له. فمظاهر الإهمال للجسد، وما عليه من شعر، وأظفار، ولباس بسيط غير مخيط، كل ذلك دال على مشاهدة حياة الروح والفناء فيها، حتى ليقف الحاج بالمناسك أَشْعَثَ الرأسِ أَغْبَرَ؛ بما أهمل من نفسه انشغالًا عنها بربِّه! فعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ يَقُولُ انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا!** »(١) ذلك أن الجسد ترابٌ، ومآله إلى التراب، وإنما الذي يبقى هو هذا الروح الرفيع! فبه تتجدَّد حياة الآخرة وتستمر في خلق جديد! ومِن ثَمَّ كان كُلُّ عَمَلٍ عُلِّقَ بتزكية الروح عملًا باقيًا، وكُلُّ عمل عُلِّقَ برغائب الجسد عملًا فانيًا! فكان الدخول في شروط الإحرام فَتْحًا لبصيرة العبد على هذه الحقيقة الإيمانية العظمى! فأشرقت الأرواح واستعلت على غُبْرَةِ الأجساد وأوساخها، وَاشْرَأَبَّتْ إلى أعلى مَشُوقَةً بمناجاة خالقها الكريم؛ فتجلَّى لها الرحمن بالعطاء والغفران!

الرسالة الرابعة: في أن الأخلاق الاجتماعية من أهم مقاصد الحج التربوية، جعلها اللَّه شروطًا أساسيةً لتمام المناسك؛ بما يُعَلِّمُ المسلمَ حُسْنَ التَّواصل مع الخلق، والاندماج السهل في المجتمع البشري، والنجاح في ربط العلاقات الإيجابية، والإسهام الفعال في تمتين النسيج الاجتماعي؛ ولذلك جعل من شروط تمام الحج الانقطاع عن الرفث والفسوق والجدال، والتحلِّي بخلق التواضع للناس، والدخول مع عامتهم في شهود المناسك والمواقف والإفاضات، وأمر بالتزود للحجِّ ومنه بالتقوى؛ حتى ينجح العبد في علاقاته مع الخلق، ويتحلَّى بالصبر كلما وصله أذاهم، ولا بد

---

(١) رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والأوسط. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وفي صحيح الجامع. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

وَاصِلُهُ؛ لِمَا في الحج من تجمهر عظيم للناس من كلِّ الأعراق والأجناس والأقطار، وما يحصل فيه تلقائيًا من ازدحام على المناسك والمواقف، وعند الإفاضة منها. فهنالك فعلًا يرى العبد مدى حِلْمِ نفسه وحدود صبرها، وهناك يتعلَّم - بما فرض اللَّه عليه من مجاهَدات - كيف يكون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. فإذا رجع من الحجِّ بهذا الخلق الكريم فقد رجع بخير!

الرسالة الخامسة: في أن سَوْقَ الْهَدْيِ من الإبل والبقر والضأن؛ حتى تُنحر أو تُذبح في محلِّها من يوم النحر؛ عبادةٌ جليلة، ونُسُكٌ عظيم، فيه من معاني التوحيد والإخلاص ما ليس في غيره من العبادات! لأن فيه معنى ذبحِ النفس الأمَّارة بالسوء، وإهراقِ خابية الروح بين يدي المحبوب؛ شكرًا له تعالى على ما أحيا من نفوسنا! لأن أصل النُّسُكِ والأضاحي هو ما ابتلى اللَّه به خليلَه إبراهيم، من ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وما كان من فداء اللَّه له بَعْدُ بكبش عظيم! فالنُّسُكُ فيه معنى مزدوج، الأول: تعبير عن فناء العبد في عبادة سيده. والثاني: شكرٌ له على ما تجلى من رحمته وعفوه. فالمؤمن إذ يذبح هديه للَّه يشاهد أنما المنع والعطاء بيد اللَّه، وبيد اللَّه وحده! وأنه هو خالق الموت والحياة، وربُّ الملك والملكوت! أرواحنا وأرزاقنا جميعًا بيده، لا أحد يشاركه في ملكه! فما بذواتنا من شيء إلا وهو منه وإليه سبحانه، لا إله إلا هو! وفي ذلك ما فيه من التوحيد والإخلاص! فَسَوْقُ الهدي في الحج إنما هو سيرٌ إلى اللَّه بهذه المعاني الكبار!

الرسالة السادسة: في أن إباحة الاتجار وإقامة الأسواق خلال أيام الحجِّ، تدريب للمسلم على عمران المقاصد الدنيوية بالمقاصد التعبدية، وعدم الفصل بين الدين والدنيا؛ حتى ترتقي معاملاته في المجال الدنيوي والعلاقات التجارية والوظيفية، إلى مستوى التعبُّد، من حيث الأمانة والصدق والإخلاص؛ مراعاةً لوجه اللَّه. وحتى تقوم مصالح دنياه على مراعاة مصالح أخراه، فينال من الحسنات على تجارته وإجارته ووظيفته، تمامًا كما ينال على صلاته وصدقاته وصومه وحَجِّه! فمن كمال عبادة المؤمن وتمام دينه، أن يحافظ على صفاء النفس الذي يخرج به من المسجد، خارج المسجد! ويصطحب شعورَه التعبُّدي إلى كلِّ مكان؛ ليخوض به غمار الحياة، ويعيش به طاهرًا كما هو، حتى في الأسواق! والحجُّ المبرور أكبر مدرسة لتخليق العبد بهذا المقام.

الرسالة السابعة: في أن الذِّكْرَ من أهمِّ مقاصد الحجِّ وأطيب ثماره. قال اللَّه ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ... ﴾ ولذلك كان من كمال العبودية للَّه أن يشتغل العبد بذكر اللَّه على كلِّ حال، سواء كان في سوقه أو إدارته أو معمله، أو سفره أو حضره.. فالذكر سفينة النجاة، ومطية العبد الراحل إلى اللَّه.. وما يزال المؤمن بخير ما دام لسانه رطبًا بذكر اللَّه. فهو الحصن الحصين، والحبل المتين. ما اعتصم به مؤمن إلا نجا، وما غفل عنه عبد إلا أوشك أن يكون من الهالكين! وقد كان رسول اللَّه ﷺ ذاكرًا لربِّه على كلِّ حالٍ، في خلوته وجلوته، وفي صمته ونطقه. ولم يزل ﷺ يحضّ أصحابه على مداومة الذكر حتى التحق بربِّه ﷻ! فعن أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَلاَ أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟** قَالُوا: بَلَى! **قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى!** » قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ! .[1] والأحاديث الصحيحة في ذلك أكثر من أن تحصى!

الرسالة الثامنة: في أن من مقاصد الحجِّ التقرُّب إلى اللَّه بالدعاء، والبكاء على الذنب، وإدانة النفس، والتوبة والاستغفار. وما بكى عبد على ذنبه خير له من البكاء في موقف عرفات، وما دعا بدعاء خيرٌ له مما لهجت به شفتاه فيه! وما أثنى مؤمن على ربِّه بثناء أفضل من كلمة التوحيد: « لا إله إلا اللَّه! ».. فعن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!** »[2].

وقد جعل اللَّهُ مناسكَ الحجِّ كلها موسمًا للرحمة الشاملة والغفران العميم، وموعدًا لقبول التوبة وإجابة الدعاء.. فعن عبد اللَّه بن عمر ﷺ قال: (جَاءَ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَلِمَاتٍ أَسْأَلُ عَنْهُنَّ! (...) فقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) رواه مالك والترمذي وابن ماجه. وصححه الألباني في تحقيقه لسننهما، وفي صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، ومشكاة المصابيح.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في تعليقه على سننه، وفي السلسلة الصحيحة، وفي صحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

« جِئْتَ تسألني عن الحاجِّ، مَا لَهُ حينَ يخرج من بيته؟ ومَا لَهُ حينَ يَقُومُ بِعَرَفَاتٍ؟ ومَا لَهُ حينَ يَرْمِي الجِمَار؟ وما لَهُ حين يَحْلِقُ رَأْسَهُ؟ وما لَهُ حين يَقْضِي آخِرَ طوافٍ بالبيتِ؟ » فقال: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَالَّذِي بَعَثَكَ بالحقِّ مَا أَخْطَأْتَ مما كانَ في نَفْسِي شَيْئًا! قال ﷺ: **« فإنَّ لَهُ حين يخرج من بيته أنَّ رَاحِلَتَهُ لا تخطو خطوةً إلا كَتَبَ اللَّه بها حَسَنَةً، أو حَطَّ عنه بها خطيئةً. فإذا وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ فإنَّ اللَّه ﷻ ينـزل إلى سماءِ الدنيا، فيقولُ: أُنْظُرُوا إلى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا! اِشْهَدُوا أنّي قد غَفَرْتُ لهم ذُنُوبَهُمْ! وإنْ كانتْ عَدَدَ قَطْرِ السماءِ، ورَمْلِ عَالِجٍ! وإذا رَمَى الجِمَارَ لَا يَدْرِي أَحَدٌ ما لَهُ حتى يتوفَّاه اللَّه يومَ القيامة! وإذا قَضَى آخِرَ طَوَافٍ بالبيتِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ! »**)[1].

فما أجهل من ينشغل عن الدعاء والاستغفار خلال حجه أو عمرته، ولا يتزود منهما وِرْدًا ثابتًا للسير به إلى اللَّه حتى يلقى اللَّه!

الرسالة التاسعة: في أن من علامات الحجِّ المبرور أن يعود العبد منه، وقد تعلَّق قَلْبُهُ بالآخِرَةِ رَغَبًا ورَهَبًا، وتحقَّق بالتقوى خُلُقًا ثابتًا، وجرت أعمالُه كلها على ذلك الوِزَانِ. فقد رأيتَ كيف ختم اللَّه تعالى سياقَ الحجِّ بقوله سبحانه: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ والمؤمن الذي عَلِمَ - ببشرى رسول اللَّه ﷺ - أنه قد عاد من حَجِّه مغفورَ الذنب، نقيًا منها كيوم ولدته أمه، كما أثبتناه بالأحاديث الصِّحَاح قبل، فإنه يضن بروحه الطاهرة أن يمرِّغها في وحل الخطايا والذنوب مرة أخرى! بل يحرص على التطهُّر من الأنجاس والأرجاس، والمسابقة إلى فعل الخيرات؛ بما يزيد مرآةَ روحِه رونقًا وصَفَاءً، فتكونُ أبهى في تَلَقِّي نُورِ الهدى، وأجلى في عكس مَشَاهِدِ الآخرة، وأَبْصَرَ في التفكُّر فيها، بَعْثًا ونُشُورًا، وحَشْرًا وحِسَابًا، وصِرَاطًا ومِيزَانًا، وجَنَّةً ونَارًا..! فلا قيمة لشيء عنده - بعد ذلك - إلا بما له من قيمة أخروية! فذلك هو الحاجُّ حقًّا، الذي قطع مسافات النفس سيرًا إلى اللَّه، وكان من الواصلين! جعلني اللَّه وإياكم من طلائعهم بفضله، وأدخلنا في زمرة سيد المرسلين ﷺ برحمته! آمين!

---

(١) رواه البزار، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب. وعَالِجٌ: اسم مكان بصحراء الجزيرة كثير الرمل.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك هذا المجلس هو في كيفية التخلُّق بحقيقة الحجِّ، مقاما إيمانيًا ثابتًا ذلك أن معنى الحج: السَّفَرُ قصدًا إلى مكان معلوم. تقول: حَجَّ فلانٌ المكان الفلاني، أي قصده ورحل إليه. وهو هنا: السفر لأداء شعائر تعبُّدية معلومة، بالمسجد الحرام ومحيطِه المحرَّم. والمؤمن إذا تحقَّق بأعماله، والتزم بشروطه، ارتقى إلى مقامه، وصار له الحجُّ صفةً إيمانية ثابتة! حتى إذا عاد إلى أهله، لم يزل يسير إلى ربِّه حاجًّا في كلِّ أحواله، سواء في عبادته، أو عمله، أو تجارته، وسائر تصرفاته... إلخ. لا يجد نفسه في كلِّ ذلك إلا حاجًّا إلى اللَّه، سائرًا إليه أبدًا، انطلاقًا من فجاج نفسه العميقة! وذلك ما قصدناه هنا بالمقام الإيماني للحجِّ.

وأما مسلك التحقُّق به، فهو في مجاهدة النفس على الإنصات إلى **ثلاثة حُدَاةٍ** (١)، هم كالتالي:

فأما الحادي الأول: فهو نداء السير، وانطلاق النفير. وهو صوت الزمان الراحل، الذي لم يزل بحركته اليومية ينادي البشرية مع كلِّ شروق وغروب، صائحًا: « النَّفِيرَ النَّفِيرَ! لقد أَزِفَ الرحيل! ».. ويكون الإنصات إليه بمشاهدة سيره الدؤوب، من خلال تجلِّيات الشموس والأقمار، واختلاف الليل والنهار. فمن سمع صوت هذا القطار الرهيب، كان خليقًا به أن يحجَّ إلى ربِّه رغبًا ورهبًا، قبل أن تنتهي وريقات عمره المحدود! وأن يصبح الحجُّ بالنسبة إليه سَفَرًا أبديًّا، لا ينتهي بختام شعائره وأشهره. فمن تزود من هذا المعنى عند انطلاقه إلى حجِّ بيت اللَّه الحرام لأداء المناسك، تجلَّت له حقائق تلك الشعائر، وأشرقت بقلبه أنوارًا ربانية، لن تزال - بعد ذلك - تلهب روحه بشوق السير إلى اللَّه في كلِّ أحواله، حتى يلقى ربَّه بخير إن شاء اللَّه!

وأما الحادي الثاني: فهو حادي الذِّكر. فإذا تحقَّق العبدُ من ذكر ربِّه خلال موسم الحج، وأخلص للَّه في ذلك، ولم يرفث، ولم يفسق، ولم يخاصم أحدًا؛ وَقَعَ حُبُّ الذِّكرِ بقلبه، وصار له وِرْدًا أبديًّا؛ وكان لنداء التلبية صَدًى قويٌّ في روحه، لن يزال مترددًا بين تلالها أبدًا! فحيثما حلَّ وارتحل سمع أَشْوَاقَهُ اللَّاهِبَةَ تنادي : (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ

---

(١) الحادي: هو من يسوق القافلة بصوت نشيده. وهو معنى الحُدَاءِ.

لَبَّيْكَ! لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ!.. إنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ!) فلا تملك نفسه إلا الانخراط الباكي في ذكر الله؛ عساها تطمئن بتجليات رحمته تعالى وجمال سكينته! وذِكْرُ اللَّهِ - كما رأيتَ في هذه المدارسات - رُكْنٌ من أركان مقاصد الحجِّ. قال جلَّ ثناؤه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ... ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ومِن ثَمَّ كان مَنْ تخلَّق به مُتحقِّقًا بالحجِّ مقامًا إيمانيًا ثابتًا. ومَنْ أخلصَ للَّه فيه حَاجًّا وَهَبَهُ اللَّه إياه أبَدًا، وكان من الذاكرين اللَّه على كلِّ حال، سائرًا إليه به مع السابقين. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ ﷺ: « سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ!.. سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ! » قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ! » [١]) فالسبق هنا ليس سَبْقَ السير على الأرض، بل هو سبق الروح في معارج السير إلى اللَّه! وإنما كان سياق الحديث والنبيُّ ﷺ في طريق مكة، يقصد الحج أو العمرة، أو عَوْدًا منهما، كما دلَّت عليه رواية أحمد [٢]. فجعل - عليه الصلاة والسلام - الذكر مَطِيَّةَ السابقين إلى اللَّه. مشيرًا إلى مقصد من أهم مقاصد الحج الإيمانية، حيث جعل الذكر سيرًا وسفرًا إلى اللَّه، بل سَبْقًا إليه تعالى. وذلك ما نقصده بالمقام الإيماني للحجِّ. فمن التزم أوراده كان خليقًا به، مُتحقِّقًا بمنزلته إن شاء اللَّه.

وأما الحادي الثالث: فهو حادي الوقوف بين يدي اللَّه! ذلك أن من شهد مواقف الحجِّ بعرفات والمشعر الحرام، وشهد تجمعاته التعبدية، كتجمع مِنًى، ومسجد نَمِرَةَ، والمسجدِ الحرام، فشاهد في ذلك حقائق الحشر والنشور؛ لم يزل يسمع بقلبه حادي السير إلى تجمعات الخير مطلقًا؛ استعدادًا لتجمع الوقوف بين يدي اللَّه يوم القيامة! فلا يقف في صلاة جماعة أو جمعة، ولا يجلس في مجلس علم ومحاضرة، أو أي

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ونصه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَتَى عَلَى جُمْدَانَ، فَقَالَ: « هَذَا جُمْدَانُ! سِيرُوا! سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ! » قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا ». ثُمَّ قَالَ: « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ! » قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ! » قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: « وَالْمُقَصِّرِينَ! ») فدلَّ ذلك على أن السفر كان في حجٍّ أو عمرة. رواه أحمد، وصحَّحه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على مسنده.

تجمُّع بشري؛ إلا تـجلَّت له حقيقة الوقوف بين يدي اللَّه، فيمتلئ قلبُه خوفًا ورجاءً، وتَجِدُّ روحُه في قطع مسافات السير المعنوي!

فتلك مسالك ثلاثة، من استجاب لِـحُدَاتِهَا، وانخرط في قافلتها، كان حَاجًّا إلى ربِّه على كلِّ حال، وارتقت روحه بمعارج الحجِّ مقامًا إيمانيًّا، وسلوكًا ربانيًّا لا ينقطع أبدًا!

فيا إلهي..! ها أنا ذا قَادِمٌ إليكَ.. قَادِمٌ إليكَ بفقري وذُلِّي.. أُكَابِدُ أحزاني وجراحي.. أَجُرُّ أخشابَ خَطَايَاي.. وأحمل أسقام ذنبي وَوِزْرِي.. قاصدًا مَشَافِيكَ الرحيمة، ومواعيدَك الكريمة.. فلَا مَنْ ينقذني دونك، ولَا مَنْ يرحمني سواك!.. لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ! لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ!.. إنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ!

* * *
* *
*

المجلس السابع والعشرون

في مقام التلقي لميثاق الصِّدقِ والسِّلْمِ، ونَبْذِ الفساد في الأرض والسير على بَيِّنَاتِ الهدى

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

٢ - البيان العام:

هذه الفقرة من الآيات جِسْرٌ عظيم من التزكية الإيمانية، ينتصب في طريق السائرين إلى الله، ويربط ما بين عدة جبال من التشريعات والتكليفات؛ ضمانًا لأمن المكلفين وسلامة عبورهم، في طريقهم إلى الله! فقد سبق إرساء جبال الصوم والجهاد

والحج والعمرة. وفيما يلي من السورة تنتصب تشريعات أخرى، تتعلَّق ببيان وجوه إنفاق المال، وبيان بعض أحكام القتال، وبيان أحكام الخمر والميسر، وما يتعلَّق بإصلاح اليتامى. ثم يتطرَّق الخطاب - بعد ذلك - إلى بيان أحكام العلاقات الزوجية، ومنهج بناء الأسرة المسلمة، وتمتين النسيج الاجتماعي في الأمة؛ ليضمن حماية الدين في المجتمع، ويحفظ أصول التكاليف المذكورة وما تفرَّع عنها من أحكام، مما نتدارسه في المجالس اللاحقة إن شاء اللَّه.

ومِن ثَمَّ كانت هذه الطائفة من الآيات، المعروضة للمدارسة بهذا المجلس، عبارة عن جسر من نور، يربط ما سبق بما لحق، وينشر الطمأنينة واليقين، في قلوب العابرين! قال ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ ﴾ وهذا غوص في أعماق النفس الإنسانية، وما قد يعتريها من خداع ونفاق، وهي تسلك ظاهرًا بمسالك الإيمان، على ما سبق بيانه من تكليفات، صلاةً، وزكاةً، وصومًا، وحجًا، وقتالًا.. فترجع على ذلك كله بالإبطال؛ إذا لم يكن خالصًا للَّه الواحد القهَّار! مبينة أن حقيقة التشريع في الإسلام، إيمانٌ يتربَّع على عرش القلب، وصدق يصفي خواطر النفس، وسِلْمٌ يضبط خطواتها، ويأخذ بعنانها إلى اللَّه، بعيدًا عن حرائق الفساد في الأرض. فذلك هو الميثاق الذي جعله اللَّه مَناطَ التشريع، والميزان الذي نصبه لتمييز الأعمال والأقوال!

وأما النفاق والخداع في الدين، فهو وإن انطلى على البشر؛ فإنه لا ينطلي على من ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]! فقد يكون الإنسان حلو اللسان، بليغ الكلام، خبيرًا بطرائق القول الدنيوي، صاحب صنعة في تنميق المجاملات، وترقيش العبارات؛ بما يبهت السامع ويسحره! فلا يظن أن أحدًا أفضل منه صلاحًا وخلقًا! لكنه بمجرد ما يتولَّى إلى أهله، ويدخل في معارك كسبه، يتبخر كل ما بدا ظاهرًا من صلاح دينه، وينتصب إفسادُه العَتِيُّ على أفجر ما يكون الشيطان! فيسعى في الأرض بالإفساد والتخريب، يدمر حرثَها ويُهلك نسلها من الإنسان والحيوان! والحرث والنسل هما رمز الخصب والنماء، ومناط الحياة في الأرض! واللَّه ﷻ إنما استخلف الإنسان في الأرض لإصلاحها وإعمارها، والحفاظ

على مُقَدَّرَاتِهَا وأقواتِها، لا لإفسادها وتدميرها. فهو سبحانه خلق الأرض فأتقن صنعها، وقدر فيها أقواتها وأرزاقها بما يكفي البشرية إلى يوم الدين، وأخرج منها ماءَها، ومرعاها، وسخَّر بحرها، وأجرى أنهارَها، وطيَّب تربتَها وهواءَها، وأصلح زرعها وثمارها، وبثَّ فيها صيدَها وأنعامَها. فكيف يحب ﷻ - بعد ذلك - تخريبَها وإفسادَها؟ كيف؟ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾!

والإفساد في الأرض قد يكون بصورة همجية مباشرة، على نحو ما يمارسه العدو الكافر في الحروب والغارات، من تحريق للغابات، وإهلاك للزراعات، واجتثاث للأشجار المثمرات، وإبادة للحيوانات، وتقتيل للنساء والأطفال؛ بما يقطع نسل المسلمين، ويوهن عزائم المجاهدين!

وقد يكون ذلك بنصب أسباب الفساد. وهذا كما يقع من الكافرين يقع من عصاة المسلمين وفُجَّارهم! كمن يتسبَّب في إيقاظ الفتن، وإغراء العدو بالصالحين، وموالاة الكافرين؛ بما يؤدِّي إلى تجويع المستضعفين، وحصار المسلمين، وتلويث الطبيعة، وإهلاك البلاد والعباد؛ حرصًا منه في كلِّ ذلك على الإثراء الجشع، والاستغناء الطاغي الشنيع! ثم هو مع ذلك يصلِّي ويصوم مع المسلمين، ويحجُّ ويعتمر، ويعلن الصدقات والتبرعات! ويُشْهِدَ اللَّهَ في المجالس والمجامع على ما في قلبه! مُقْسِمًا أنه من الصادقين، وأنه لا يريد إلا الصلاح والإصلاح! ولكن اللَّه عليم بأنما هو عدو مبين، شديد الخصام للدين، خائن للَّه ولرسوله ولأمة المسلمين! معبوده الدرهم والدينار، قد باء في كسبهما بأسباب الفساد، لا ترده موعظة، ولا ينظر إلى يوم المعاد! بل إذا ذُكِّرَ بالتقوى استكبر واستعلى! وأصرَّ على ذنبه، واعتزَّ بإثمه، وغضب لكبريائه، وثار لحميته، ثم أدبر وتولَّى! فلا دواء له إلا الجحيم! هي حسبه وكفايته، وهي مِهَادُهُ، أي فِرَاشُهُ وَوِطَاؤُهُ، الذي مَهَدَهُ لنفسه؛ بفسقه وفجوره، وتمرُّده على ربِّه. فبئس الفِرَاشُ وبئس المهاد! فذلك قول اللَّه ﷻ في وصف هذا الطاغوت البغيض: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

ثم ثَنَّى بعد ذلك ببيان صورة المؤمن الصادق في دينه، المخلص في إسلامه، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. فبهذه الكلمات المختصرة البليغة، رسم صورة نموذجية لمفهوم « عبد اللَّه »، المسلم للَّه،

الذي باع نفسه ودنياه، واشترى مرضاة اللّٰه! فربح البيع، وفازت الصفقة، وكان من المفلحين! ولذلك عاش حياته عبدًا للّٰه، لا يتصرَّف في شيء إلا بإذن اللّٰه. بذل في نصرة دينه مالَه ونَفْسَهُ، وضحَّى براحته وأمنه، من أجل صلاح أمته وبلاده. ينفق ويقتحم، في السرِّ وفي العلن. يحضر عند المغرم، ويغيب عند المغنم، لا يريد من متاع هذه الدنيا سوى وجه اللّٰه، والفوز برضاه! فهذا ينال وعد اللّٰه بالجنة يقينًا، ويشمله سبحانه برأفته في الدنيا والآخرة. ومعنى الرأفة: ما رَقَّ من الرحمة ولَطُفَ. وذاك غاية العطف ومنتهى المحبة والحنان. فيا له من عطاء! ويا له من كرم! ويا ليت الكفَّار يعلمون ما هم منه محرومون! ويا ليت المسلِمين يعلمون ؟ إذا صَدَقُوا اللَّهَ - ما هم به مَوْعُودُونَ!

وعلى هذا الأساس نادى الناس جميعًا، ودعاهم إلى الدخول في أمان دينه، وجمال طاعته، وسكينة عبادته، ورأفةِ رحمته! محذرا إيَّاهم من اتباع خطوات الشيطان، وهي مسالكه الخفية، وطرائقه الإغوائية، وحيله الاستدراجية، التي نَصَبَهَا في طريق الإنسان - بما هو له عدو مبين - لإضلاله عن دين اللّٰه، وحرمانه من سلمه وسلامه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ ولا عُذرَ بعد ذلك لمن وصله البلاغ. وبلاغ اللّٰه كتاب مبين، آياته محكمات وكلماته بيِّنَاتٌ! أنزله على رسول صادق أمين، وأظهر عليه من المعجزات ما يقطع حُجَّة الكافرين! فمن زَلَّ أو ضَلَّ بعد ذلك فإنما ضلَّ بهواه! لا حُجَّة له عند اللّٰه! قال سبحانه: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ عزيز بقدرته على الانتقام من عدوه، ومن عصاة عباده. حكيم فيما تَصرَّف به من أمره، عَدْلٌ فيما قضى به من عقوبته؛ بما سبق من إنذاره وبلاغه.

ذلك نداء اللّٰه قوي مبين.. فماذا ينتظر المترددون؟ وإلى متى يتمرَّد المتمردون؟ إلى متى؟ وحتى متى؟ وقصة الدنيا كلها تقترب من نهايتها.. يا ويلهم! ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ ذلك وعيد اللّٰه الشديد: مجيء رب العزة يوم القيامة للفصل بين العباد، مجيئًا يليق بجلاله العظيم. وظُلَلُ الغمام: هي مظلات السحاب، جمع ظُلَّةٍ. وكل ما أَظَلَّكَ فهو ظُلَّةٌ، كالخيمة وما في معناها. على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ

كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١]. ومجيء الرب ﷻ وملائكته، ليوم الحساب، مشهد رهيب ورد في كتاب الله بتجليات شتى، مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقوله ﷻ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥] وقوله ﷻ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الفرقان: ٢٥] وقوله ﷻ: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨].

وهو مشهد يملأ قلب المؤمن رَهَبًا! توعَّد اللهُ به المَرَدَةَ من خلقه، عُصَاةً وكُفَّارًا! إذ يقضي في أمرهم بما قد مضى سَلَفًا في علمه! ولذلك عبر بالفعل الماضي مبنيًا للمجهول: ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ ﴾ فهلاكهم أمر محسوم محتوم! وهم اليوم في الدنيا عن هذا عَمُونَ، غَرَّهُمْ وَهْمُ أنهم لها مالكون، وما الملك في الدنيا والآخرة إلا للّه الواحد القهار! ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيما سبق وفيما هو لاحق. لكن أكثر الناس عن هذا غافلون!

وما كان اللّه – جلَّ ثناؤه – ليظلم عباده، كلَّا! فقد أقام عليهم الحجج والبراهين، وأنار لهم الطريق إليه تعالى واضحة بينة؛ بما أرسل فيهم من الرسل والأنبياء، وبما أجرى على أيديهم من المعجزات، وما آتاهم من الآيات البينات، معالم كبرى تدل على صراط اللّه المستقيم. فاسأل إن شئت أهل التوراة والإنجيل من بني إسرائيل – وهم أكثر الأمم تلقيًا للنبوات والرسالات – كم آتاهم اللّه من بيانٍ بليغٍ، وحُجَّةٍ قاطعةٍ، تضع أقدامهم على طريق اللّه، وتمكِّنهم من سبيل الهدى، وما أنعم عليهم في سياق ذلك من كرامات وبركات، كإنزال المنِّ والسلوى، وإظلالهم بالغمام، وإنقاذهم من جبروت فرعون، وتأييد نبيهم موسى عليه السلام بالمعجزات، وما جعل له في عصاه من فتوحات! ثم ما أيدَّ اللّه به نبيه عيسى عليه السلام من إبراء الأَكْمَهِ والأبرص وإحياء الموتى! ثم ما جعل لأولهم وآخرهم من هدى في التوراة والإنجيل.. لولا أنهم غيروا وبدلوا! ونقضوا عهد اللّه وخانوا ميثاقه العظيم! فكيف لا ينتقم اللّه من الظالمين؟ ولذلك قال تعالى في تتمة السياق: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وأي نعمة أكرم

من نور الوحي وهدى الكتاب؟ وأي ظلم أشد من تحريف آياته وإتلاف معالمه؟ فكيف لا يأخذ اللَّه هؤلاء بأشد العذاب؟

وإنما غَرَّ هؤلاء الجهلةَ غرقُهم في شهوات الحياة الدنيا وزينتها، وما أُوتُوا فيها من مالٍ وجاه وسلطان، حتى توهَّموا أنهم فيها خالدون! وحتى إذا لقوا المؤمنين أو سمعوا مواعظهم تفرَّقوا من حولهم ساخرين مستهزئين! وذلك أشد السكر، وأسوأ العمى! قال سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾. ذلك أن الكفار إنما سخروا من المؤمنين؛ بما غرَّهم من أموالهم ومناصبهم، وما ابتلاهم اللَّه به من ثراء؛ فاستغنوا عن ربِّهم - زعموا - واستعلوا على المؤمنين! وهم يجهلون أن اللَّه قد جعلهم تحتهم يوم القيامة، هناك في الدركات السفلى من جهنم، ورفع هؤلاء الفقراء المستضعفين بتقواهم إلى الدرجات العلى، بعيدًا بعيدًا عن النار وحسيسها، وأكرمهم بالمنازل العالية في الجنة، يرزقهم منها بغير حساب! ولذلك فهؤلاء المتقون اليوم في الدنيا أغنى باللَّه! فذلك مقام الغنى العالي، فأَكْرِمْ بِه وأَنْعِمْ!

ثم لَـخَّصَ في الأخير قصة البشرية تجاه الهدى، واختلاف مواقفها من الدين، وكيف كان الناس أمة واحدة على الحقِّ، من عهد آدم عليه السلام إلى أن ضلُّوا قُبَيْلَ بعثة نوح عليه السلام، باتخاذهم الأصنام والأوثان؛ مما استدرجهم إليه الشيطان - وهم أهل صلاح يومئذ - عندما قصدوا تكريم بعض من مات من صالحيهم، فصنعوا لهم تماثيل تُخلِّدهم؛ فلم يلبثوا أن عظَّموها ثم عبدوها! وكان ذلك أول انحراف عن دين اللَّه في تاريخ البشرية! ذلك ما ورد مُجمَلًا في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾. فالاختلاف ههنا نوعان: اختلاف قبل بعثة الرسل، وخاصة نوح وإبراهيم عليهما السلام، وهو ما انحرف إليه الناس من عبادة الأصنام، كما تقتضيه قراءة ابن مسعود التفسيرية فيما سيأتي. واختلافٌ بعد بعثة الرسل، وهو تردد الكفار وتناقضهم، واختلافهم على ما جاءت به الرسل من الهدى، وعدم اجتماعهم عليه.

وأما الأمة الواحدة ههنا فهي ما كان عليه الناس من الاجتماع على الدين الخالص، من عهد آدم عليه السلام وبنيه، إلى حدود زمن الجاهلية الأولى، قبيل بعثة نوح عليه السلام. ثم ما كان عليه نوح وقومه بعد الطوفان، إلى ما قبل بعثة إبراهيم عليه السلام، حيث وقع الانحراف مرة أخرى.

وبيان ذلك هو فيما أخرجه الإمام الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحقِّ، فاختلفوا، فبعث اللَّه النبيين مبشِّرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد اللَّه [ابن مسعود]: « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا » [1] ويؤيد هذه القراءةَ التفسيرية قولُ اللَّه عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩]. كما يؤيد حديثَ ابن عباس رضي الله عنهما ما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في عَدِّ ما بين آدم ونوح من قرون، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: (أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه! أنبيًّا كان آدم؟ قال: « **نعم؛ مُكَلَّمٌ!** » قال: كم كان بينه وبين نوح؟ قال: « **عشرة قرون** » قال: يا رسول اللَّه! كم كانت الرسل؟ قال: « **ثلاثمائةٍ وخمسةَ عشَر!** ») [2].

وقد كان نوح عليه السلام أول رسول إلى البشرية بعد ضلال. فكان من أمره مع قومه ما كان، حتى أذن اللَّه بالطوفان، وأنجى نوحًا ومن آمن له في السفينة، وأغرق جميع الكفار، فلم يبقَ في الأرض بعد ذلك أثرٌ لكافر! وصار الناس - كل الناس - أمة مؤمنة واحدة، إلى أن أزلهم الشيطان مرة أخرى فاختلفوا على الهدى، وعبدوا الأصنام! ثم بعث اللَّه الرسل بالهدى تَتْرَى بلاغًا للناس. وكان إبراهيم عليه السلام مُحطِّم

---

(١) ن. الرواية عند تفسير الطبري للآية. ورواه ابن أبي حاتم أيضًا في تفسيره، عن قتادة، ونحوه عن ابن عباس. وصحح ابن كثير سند الطبري. كما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. » ووافقه الذهبي. واعتمده الشيخ الألباني شاهدًا في كتابه تحذير الساجد (ص ٩٠).

(٢) قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: أخرجه أبو جعفر الرزاز في « مجلس من الأمالي »: (ق ١/١٧٨). وقال الألباني: « وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات، رجال مسلم، غير الديرعاقولي، وهو ثقة ثبت ». كما أخرجه ابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير والأوسط، والحاكم في المستدرك، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ». ووافقه الذهبي.

الأصنام وأبا الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين. فَبُعِثَ من صُلْبِهِ إسماعيلُ وإسحاق عليهما السلام. ومن نسل إسحاق وابنه يعقوب بُعث جميع أنبياء بني إسرائيل. ومن نسل إسماعيل بُعث نبي اللّه محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وكان بلاغ جميع الأنبياء والرسل واحدًا، ودينهم واحدًا. فبشارتهم واحدة ونذارتهم واحدة: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ... ﴾. وكان ما معهم من الكُتُبِ ما يؤول إلى معنى الكتاب الواحد؛ لما بينها من التكامل والتطابق في الدعوة إلى الحقِّ، وجمع الناس عليه. سواء في ذلك التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾. لكن الناس إنما اختلفوا في الدين وتفرَّقوا فيه بأهوائهم، وبما زيَّن لهم الشيطان من الضلال؛ فحرَّفوا وغيروا وبدَّلوا! وذلك الوزر إنما وقع من أهل التوراة والإنجيل. وهو معنى قوله تعالى بعدُ مباشرة: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ فجاء القرآن كتاب اللّه الخاتم بالفرقان والتصحيح؛ فهدى اللّه المسلمين برحمته ومحض فضله، لِمَا اختلف فيه أهل الكتاب، ولما ضلُّوا فيه ولم يهتدوا إليه من العقائد والشرائع؛ بسبب ما سبق منهم من التحريف والتزوير! ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. فكان الإسلام هو الصراط المستقيم، الذي كان عليه آدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومحمد عليهم الصلاة والسلام!

فبهذا البلاغ العظيم، وما فيه من وعظٍ بليغ، هيأ اللّه تعالى قلوب المؤمنين، لتلقِّي تكاليف جديدة من أحكام الشريعة، والامتثال لحدودها، والدخول التعبُّدي تحت رسومها؛ ارتقاءً بالمجتمع المسلم إلى مرحلة جديدة من مراحل بنائه وتمتين نسيجه. وذلك ما سنتدارسه بحول اللّه في المجالس اللاحقة.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **ست رسالات** نعرضها على النحو التالي:

الرسالة الأولى: في أن الإنسان مؤاخذ بكلِّ ما يدخل في معنى الفساد في الأرض. وذلك كلما تصرَّف بإتلاف منافعها - وإن قَلَّتْ أو صَغُرَتْ - على غير وجه المصلحة الشرعية. كإتلاف الزرع والنبات والأشجار، ولو كان غصنا صغيرًا

أو بقلة! فلا يحقُّ له اجتثاثها إلا إذا دعته حاجة للاستفادة منها. أما إتلافها على وجه العبث واللَّهو فهو ضرب من الفساد في الأرض. ويدخل في هذا المعنى تلويث الماء، والتراب والهواء؛ بما يؤدي إلى إبادة الحياة الطبيعية، في الغابات والبراري والأنهار والبحار. وكذلك قتل الحيوان أو الطير للتلهِّي والتسلِّي، لا على وجه الصيد المشروع الذي يُنتفع به. فهذا فساد مذموم يحاسب عليه العبد يوم القيامة. فعن ابن عمر ﵄ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن أعظم الذنوب عند اللَّه رجلٌ (...) يَقْتُلُ دَابَّةً عَبَثًا!** » [1] وعن عبد اللَّه بن حبشي ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ!** » وقد (سُئِلَ أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم؛ عبثًا وظلمًا بغير حقٍّ يكون له فيها؛ صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ في النَّارِ!) [2].

كما أن الإسراف في استعمال المنافع بما يتجاوز الحاجة فسادٌ في الأرض! ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

الرسالة الثانية: في أن المؤمن يَرْعَوِي عند الموعظة، ويستجيب للنصيحة، ولو كانت صادرةً ممن هو دونه علمًا أو منصبًا ومكانة، لا تأخذه العزة بالإثم، بل يقول كلما خُوطِب بنداء الإيمان: « سمعنا وأطعنا! » وقد كان بلال ﵁ - وإنما هو عبد أسود أعتقه الإسلام - يؤذن بالصلاة من على سطح المسجد؛ فيجيبه كبار الصحابة رضوان اللَّه عليهم، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأضرابهم. كلهم يذكرون اللَّه بذكره، ويستجيبون للصلاة بندائه، طائعين مخبتين، مُتذلِّلين للَّه ربِّ العالمين.

وكان أمراء هذه الأمة وعلماؤها إذا قيل لأحدهم: « اتقِ اللَّه »؛ تواضع للَّه وأناب إليه. وما كان يخشى أحدٌ من العامَّة والخاصَّة أن يتصدَّى لخليفة أو أمير بالنصح. فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ يُسَرُّ بمن يقول له: « اتقِ اللَّه يا عمر! »

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أبو داود، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الكبرى. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، والسلسلة الصحيحة.

ويقول: (أَحَبُّ الناس إِلَيَّ من رفع إلي عيوبي!) [١] وخطب يومًا يحدد مهور النساء؛ (فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر! يعطينا الله وتحرمنا؟ أليس الله ﷻ يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٢٠] فقال عمر: « أصابت امرأةٌ وأخطأ عمر! ») [٢].

وربما كان الناصح غير مخلص في نصيحته، بل ربما قصد الاستفزاز والإهانة أحيانًا! ورغم ذلك فإنهم لا يقدمون بين يدي الأمر بتقوى الله! بل يقولون: « سمعنا وأطعنا! » فقد رُوِيَ: (أن الخليفة المنصور صعد المنبر، فشرع [في ذكر الله]، فقام رجلٌ، فقال: « يا أمير المؤمنين! اُذْكُرْ مَنْ أنتَ في ذِكْرِهِ! » فقال: « مرحبًا! لقد ذَكَّرْتَ جليلًا، وخَوَّفْتَ عظيمًا، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم! والموعظةُ مِنَّا بَدَتْ، ومن عندنا خرجت، وأنت يا قائلَها، فَأَحْلِفُ باللهِ مَا اللهَ أردتَ! إنما أردتَ أن يقال: قام فقال؛ فعوقب فصبر! فَأَهْوِن بها مِنْ قَائِلِهَا! وأَهْتَبِلُهَا مِنَ اللَّه، وَيْلَكَ إني قد غَفَرْتُهَا! ») [٣].

وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (سمعتُ ابنَ عُيَيْنَةَ يقول: قال رجلٌ لمالك ابن مِغْوَلٍ [٤]: اِتَّقِ اللَّهَ! فوضع خَدَّهُ بالأرض!) [٥] وعن يزيد بن كميت أنه (سمع رَجُلًا يقول لأبي حنيفة: « اِتَّقِ اللَّهَ! » فانتفضَ واصْفَرَّ وأَطْرَقَ! وقال: « **جزاك الله خيرًا!** ») [٦].

الرسالة الثالثة: في أن الحياة على منهاج الدين والعبادةِ للَّه ربِّ العالمين، حياةٌ في ظلِّ السِّلم والسَّلام. ذلك أن الإيمان مأخوذ من الأمن والأمان. فالمؤمن آمِنٌ، سواء على المستوى النفسي أو الاجتماعي. فهو يجد أمنه وسلامه من الناحية النفسية؛ بما يجد من الأمن الروحي في طاعة الله، وما يهبه الله من بشاشة الإيمان وبشائره،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٩٣/٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩٩/٥).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٤/٧، ٨٥).

(٤) مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ: من خيار علماء الكوفة وأورعهم، عابد زاهد. من رجال البخاري ومسلم. توفي سنة (١٥٩هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٧٥/٧).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤٠٠/٦).

لا يعرف يأسًا ولا قنوطًا، ولا يجد ضيقًا ولا حرجًا! بينما من يعلن الحرب على اللَّه بكفره أو عصيانه؛ فإنه يحيا حياة ضَنْكًا، لا يجد راحةً نفسيةً ولا لذة عيش.

أما من الناحية الاجتماعية فإن المؤمن يجد أمنه وسلامه؛ بما يطبع النسيج الاجتماعي الإسلامي من تَوَادٍّ وتعاطفٍ وتراحم. فعنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى! »[1] ولا يعكر على ذلك ما قد يتعرَّض له المؤمن من ابتلاء في الدنيا؛ بسبب ما يهبه اللَّه تعالى من جمال الصبر، وجلال الاحتساب. فلا يفقد أمنه وسلامه الروحي حتى ولو كان في سجن أو منفى!

وأما في الآخرة فله الأمن الكامل، والأمان التام. قال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩].

ويجمع ذلك كله قول اللَّه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال ﷻ : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقال ﷻ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤] فالدين أمنٌ وسلامٌ على صاحبه في دنياه وأُخْرَاهُ جميعًا؛ ولذلك قال ههنا في سورة البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ... ۝ ﴾.

الرسالة الرابعة: في أن من مقتضيات الدخول في السلم الاشتغالَ بالصلاح والإصلاح. فالنموذج المقابل للمنافق المفسد في الأرض، هو المؤمن الذي ﴿ يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ... ۝ ﴾، أي: الذي يبيع نفسه للَّه، كما فسَّرناه في البيان العام. وهو المجاهد الداعية إلى هُدَى اللَّه. فهو يعمل على إحياء الحرث والنسل والإصلاح في الأرض؛ بإصلاح الإنسان. وذلك بإحياء القلوب أولًا، وسَقْيِهَا بوابل

---

(١) متفق عليه.

الإيمان، وغيث القرآن. فالداعية المصلح الذي يتلافى الفساد بالإصلاح، ويتحمَّل ما أصابه في سبيل اللَّه من الأذى صابرًا محتسبًا؛ هو النموذج القرآني للمؤمن المرضي عند اللَّه؛ لأنه اشتغل بوظيفة الأنبياء، وتحقَّق بوسام هذه الأمة المفضلة عند اللَّه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الرسالة الخامسة: في تحريم السخرية من المؤمنين، ولو كانوا مخطئين في تديُّنهم أو كنتَ على خلاف معهم في فهم الدين. ذلك أن السخرية تدلُّ على شعور صاحبها بالكبر والاستعلاء على الآخرين. والكبر كبيرة من الكبائر في الدين! فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (« **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ!** » قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ!** »)[1] فالساخر من المؤمنين لا يسخر إلا عن تكبُّر، وشعور بالأفضلية؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]. وأسوأ ما في ذلك أن يسخر المرء من المؤمنين بسبب ما هم عليه من دين! فهذا إنما هو خُلُقُ الكفار والعياذ باللَّه، على ما صرَّح به اللَّه ﷻ ههنا في الآية المدروسة من البقرة: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴿٢١٢﴾ ﴾. وكما في قوله : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠].

الرسالة السادسة: في أن المسلمين في العالم كله أُمَّةٌ واحدة، وإن اختلفت لغاتهم، وتعدَّدت أقطارهم، واختلفت دولهم. ولئن تمزَّقت أقطار العالم الإسلامي اليوم؛ بسبب ما توارثه الأمراء والولاة من أنانية السلطان منذ عدة قرون، وبسبب الكيد الاستعماري وما قام به الأعداء من تجزيء للخلافة الإسلامية من جهة أخرى؛

---

(١) رواه مسلم.

فإن الأمة واحدة! لأنها كذلك عند الله. قال ﷻ : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢] هذا ما يجب على المؤمن اعتقاده والشعور به. فوطن المسلم الإسلام، وجنسيته الإسلام، وقوميته الإسلام!

وحيثما ذُكِرَ اسمُ اللهِ في بَلَدٍ عَدَدْتُ أَرْجَاءَهُ من لُبِّ أَوْطَانِي!

وعلى مقتضَى هذه العقيدة وجب تربيةُ الجيلِ؛ لأن وحدة الأمة ليست قائمة على مستوى الشعور فحسب؛ بل هي المستقبل الموعود به في الدين، فيما يتعلّق بعمران الأرض، على كلِّ المستويات التي هي قوام مفهوم الدولة، جغرافيًّا، وسياسيًّا، وعسكريا، واقتصاديا... إلخ، كما هو مقتضى كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة، من مثل قول رسول الله ﷺ: « **تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا. ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا. ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا. ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا. ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ! ثُمَّ سَكَتَ** » (١).

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك مجلسنا هذا هو في كيفية التخلُّق بوصف « مُصْلِحٍ في الأرض ». وقد سبق البيان أن كلمة سر الإصلاح هي: « الإحياء ». إحياء القلوب، التي بها يكون الصلاح. فأول مدارج ذلك أن يتحقَّق العبد من حياة قلبه هو أولًا؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. والقلب الحيُّ حقيقةً لا يمكنه إلا أن يكون عاملًا على حياة سواه. وهو معنى الإصلاح في الأرض. وحياة القلوب إنما هي بيد الحي الذي لا يموت. لكنه تعالى أرشدنا إلى ما يحيي قلوبنا بإذنه، وهو هذا القرآن. فالقلب إذا أُشْرِبَ حقائقَه انبعثت فيه حياة الإيمان!

وقد قَرَنَ اللَّهُ تعالى في كتابه بين الغيث والقرآن في عدة سياقات؛ لبيان أنَّ أثرَ القرآن على القلوب كأثر الغيث على النبات والحيوان والإنسان! قال ﷻ :

---

(١) رواه أحمد، والطيالسي، عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح والسلسلة الصحيحة. كما حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠]

فالضمير في قوله تعالى: « صَرَّفْنَاهُ » عائد على القرآن. بمعنى: أننا قد صرفنا آيات هذا القرآن بين الناس، كما صرَّفنا السُّحبَ المحملة بالغيث، لكن القلوب التي تحجَّرت بفسادها وكفرها؛ لا تقبل حياةً ولا تحفظ ماءً. أما القلوب ذات التربة الطيبة فهي تستجيب لماء القرآن فتحيا بإذن اللَّه! فإذا حَيِيَ المؤمن ورأى الحرائق والأراضي الموات تمتد من حوله؛ انطلق بصورة تلقائية يسقي تربتها بالقرآن الكريم، ويُحيي مواتَها بروحه العظيم. وذلك هو عين الإصلاح في الأرض. صفة ربانية، ومقام إيماني، يُكتسب بتشرب حقائق القرآن. وقد بينًّا غير ما مرة أن مجالس تدارس القرآن وتدبره؛ كفيلةٌ - إن شاء اللَّه - بتحقيق هذا الهدف النبيل. ذلك، واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

* * *
* *
*

المجلس الثامن والعشرون

في مقام التلقي لمفاتيح الجنة
وابتلاءاتها الجهادية في الأموال والأنفس

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كانت الموعظة البليغة بالمجلس السابق جسرًا من نور، يرتفع نحو هذا الجبل العظيم

من التكليفات. ومن ثَمَّ يَفْتَتِحُ الخطابُ القرآني ههنا سلسلةً من التشريعات الكبرى في الإسلام، هي مسالك عالية ترتفع نحو أبواب الجنة! لكنه يجعل المفاتيح كلها مُعلَّقة بآية واحدة، تختزل ضروب الابتلاء في كلمات! قال ﷻ:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ لقد كان اختلاف الناس على الهدى، من بعد ما كانوا أُمَّةً واحدة، تمييزًا لهذه الأمة المسلمة، التي هَدَاهَا اللَّه إلى صراط مستقيم. لكن نعمة الهدى لها ثمن دنيوي، وجزاء أخروي. فأما الثمن الدنيوي فهو إثبات صدق المحبة والشكر للَّه، وإخلاص التوحيد له وحده جلَّ علاه. ولا يكون ذلك إلا بإتمام كلمات الابتلاء النازلة من عند اللَّه! سُنَّةَ اللَّه في الذين خلوا من قبل. وأما الجزاء الأخروي فهو كرامة الفوز بالجنة رحمةً من اللَّه. فكانت كلمات الابتلاء هي مفاتيح الكنز العظيم والنعيم المقيم.

فيا نفسي المغرورة! هذا يوم تقديم البرهان، وإثبات صدق المحبة للرحمن. فلا مناص من تلقي الكلمات، ودخول غمار الامتحان! فهل أنت قدير يا قلبي على الثبات بأرض، لم تزل ساحاتُها تزَلْزَلُ بنوازل البأساء والضراء وبطش الأعداء؟ فإنه كذلك كان أتباع الأنبياء من الحواريين والشهداء، يسلكون إلى اللَّه ثابتين بمسالك البأساء، وهي: شدة الحاجة، وضيق الأرزاق. ويحملون على كواهلهم مكابدات الضراء، وهي: ضروب العلل والأسقام. ثم يعانون ما يعانون من بطش الأعداء، وما يرمونهم به من الحصار والتجويع والتخويف! وإنما ذلك كله بسبب شيء واحد، هو: كونهم مؤمنين! ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] ذلك مفتاح الجنة العالية، زلازل من البلاء وكيد الأعداء؛ تجعل المؤمنين يتوقون إلى ساعة الفرج، ويتساءلون عن لحظة النصر الموعود..! تساؤلًا مِلْؤُهُ المعاناةُ الشديدةُ والألم! فيجأرون إلى اللَّه في السِّر وفي العلن: (مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟) ويرجع الجواب من اللَّه أسرع ما يكون، وأرحم ما يكون: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

حدَّثَ الصحابيُّ المجاهدُ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى

رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ! وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ! وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ؛ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ! وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ!) [1].

وتخضع القلوب للَّه وتخنع، فَتُعْرَضُ عليها مفاتيح الجنة مُعلَّقةً بِظُلَلٍ من الابتلاءات على التفصيل.. فتبصر مفتاحًا منها معلقًا بحكم اللَّه في الأموال؛ فيستجيب المؤمنون للَّه، ويسألون النبي المعلم ﷺ ماذا ينفقون وكيف؟ فينزل الجواب من اللَّه بالبيان: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ فالإنفاق هو البرهان على صدق الإيمان؛ بما جُبِلَ عليه الإنسان من شحِّ النفس وحبِّ المال. وفي الحديث: « **وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ!** » [2] ولذلك كان الإنفاق - بعد الصلاة المفروضة - مُقدَّمًا على جميع الأعمال. والمالُ الطيب الحلال خير، وإنفاقه خير؛ ولذلك قال في أول الجواب: ﴿ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴿٢١٥﴾ ﴾ ثم قال في آخره: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ ﴿٢١٥﴾ ﴾؛ فليكن للوالدين أولًا، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. فبالوالدين والأقربين تتماسك الأرحام. والرحمُ هي سرُّ الترابط الأسري في الإسلام، وهي سرُّ استمرار الدين في المجتمع. وأما كفالة اليتامى، وإطعام المساكين، وأبناء السبيل من الغرباء العابرين؛ فذلك سرُّ متانة النسيج الاجتماعي في الإسلام.

وأما المفتاح الثاني فهو فرض القتال في سبيل اللَّه. وقد فُرِضَ ههنا بإطلاق، أي في غير سياق الحجِّ والعمرة؛ لفكِّ الإحصار وتأمين الطرق، كما سبق بالمجلس الرابع والعشرين. بل صار شرع القتال ههنا مبدأً عامًّا، وحُكمًا شرعيًّا مطلقًا. قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ فإذا كان المفتاح الأول مُتعلِّقًا بالإنفاق من الأموال، فهذا المفتاح مُتعلِّق بالإنفاق من الأنفس! ولذلك فإن الطبيعة البشرية تكرهه؛ لِـمَا جُبِلَتْ عليه من حبِّ البقاء..! لكن اللَّه ﷻ - وهو العليم الخبير - بيَّن للمؤمنين أن القتال ضرورة من ضرورات البقاء أيضًا! لكنه البقاء الشريف العزيز، لا البقاء الذليل الْـمَهِين! وأن صلاح الأرض لا يتمُّ إلا بمدافعة

---

(١) رواه البخاري. (٢) رواه مسلم.

الفساد وأهله. فإذا كان من نتيجة الجهاد استشهاد بعض الأنفس - وهو خير - فإن به تبقى الأمة مستمرة في الوجود، وهو خير أيضًا. بينما البقاء تحت سيطرة العدو الكافر هو الشر عينه! ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾﴾ فالشر إن لم تقاتله قاتلك، فمن ظنَّ أنه يمكن عقد صلح وسلام مع الشيطان فهو واهم؛ اللَّهم إلا أن يصير هو نفسه عبدًا للشيطان!

وهذا هو النظر الشمولي لحقيقة القتال الذي نبّه عليه القرآن ههنا؛ حتى لا ينخدع المسلم بما قد يرفعه العدو أحيانًا من نداءات السلام الكاذب؛ وخنجره لَمَّا يَجِفَّ من دماء المسلمين! ولذلك قال في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي لا تعلمون فضل القتال في سبيل اللَّه، ولا تعلمون نتائجه المحمودة في حياتكم الدنيا وحياتكم الآخرة. ولا تعلمون طبيعة العمران البشري، ولا حقيقة الشر وأهله، وكيف أنه متعدٍ بطبيعته، وأنكم إن لم تقاتلوه قَتَلَكُمْ! ومن ثم كُتِبَ عليكم القتال طلبًا للحياة..! والآية حكمة جارية على إطلاقها، فربما أحب الإنسان ما يضره من حيث لا يدري، وربما كره ما ينفعه من حيث لا يدري أيضًا!

وكان طبيعيًا أن يتساءل المسلمون - بعد فرض القتال بهذا العموم - عن حكم القتال في الأشهر الْحُرُمِ، وهي رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، كما سبق بيانه بمجلس سابق. فكان الجواب إقرار ما كان عليه العرب في جاهليتهم من أمر هذه الأشهر، وهو وضع السلاح وترك القتال. رغم أنهم كانوا ينتهكون حرمتها بين الفينة والأخرى! وإنما هي أشهر حُرِّمَ فيها سفك الدماء، وخُصصت للتواصل السلمي. وتلك عادة عربية متوارثة من بقايا دين إبراهيم عليه السلام؛ ومِن ثَمَّ أقرّه الإسلام وثَبَّتَهُ حكمًا قرآنيًا مؤبدًا. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾. أي: وِزْرٌ كَبِيرٌ! وذلك أنه وقع من إحدى سرايا المسلمين - في ظروف خاصة - قَتْلُ رجلٍ من المشركين في شهر رجب - وهو شهر حرام - فجعلت قريش تُعَيِّرُ النبيَّ ﷺ بذلك كما سيأتي بيانه مُفصَّلًا. فنزل القرآن يرد عليهم بأن ما هم عليه من الكفر، والحرب للإسلام، والصدُّ عن الدين وعن المسجد الحرام، أكبر مما يعيرون به المؤمنين وأفظع! قال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أي..

أنكم معشر المشركين لستم أهلًا لنقد المسلمين؛ لأن ما اقترفه طُغَاتكم بمكة من جرائم، أكبر من القتل في الشهر الحرام! وعلى رأسها صَدُّ الناس عن الإسلام، والكفرُ باللَّه، وعبادةُ الأوثان بالبلد الحرام، وتدنيس الكعبة بها، ثم صَدُّ المسلمين عن المسجد الحرام، ومنعهم ظلمًا من الحجِّ والاعتمار! وقبل ذلك مضايقة المؤمنين وتعذيبهم حتى أخرجتموهم من مكة، وهي بلد اللَّه الحرام الذي أَمِنَ أهلُه بأمان اللَّه منذ عهد إبراهيم الطَّيْلا! وَفِتْنَتُهُمْ عن دينهم بالتعذيب والتنكيل؛ عسى أن يرتدوا إلى الشرك والكفر والعياذ باللَّه! فذلك كله فتنة باء بها كفار قريش، والفتنة عند اللَّه أشد من القتل في الشهر الحرام وفي غيره!

وفيما يلي نسوق قصة نزول هذه الآية؛ لأن بها يتَّضح سياق الخطاب وينجلي. فقد حكى الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لَا خِلَافَ بين أهل التأويل جميعًا في سبب نزول هذه الآية، فروى بسنده عن عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عبدَ اللَّه بن جحش الأسدي في رَجَبٍ مَقْفَلَهُ، من بدر الأولى، وبَعَثَ معه بثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد. وكَتَبَ له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين (...) فلما سار عبدُ اللَّه بن جحش يومين، فتح الكتاب ونظر فيه، فإذا فيه: « إذا نظرتَ إلى كتابي هذا، فَسِرْ حتى تنزل نخلةَ بين مكة والطائف، فَتَرْصُدَ بها قريشًا، وتَعْلَمَ لنا من أخبارهم! » فلما نظر عبدُ اللَّه بن جحش في الكتاب قال: « سمعًا وطاعة »! (...) فمضى، ومضى معه أصحابه، فلم يتخلَّف عنه أحد (...) حتى نزل بنخلةَ، فَمَرَّتْ به عِيرٌ لقريش تحمل زبيبًا وأَدَمًا وتجارةً من تجارة قريش، فيها منهم عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد اللَّه بن المغيرة، وأخوه نوفل ابن عبد اللَّه بن المغيرة المخزوميان، والْحَكَمُ بن كيسان مولى هشام بن المغيرة (...) وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من جمادى، فقال القوم: واللَّه لئن تركتم القومَ هذه الليلةَ لَيَدْخُلُنَّ الحرمَ؛ فَلَيَمْتَنِعُنَّ به منكم! ولئن قتلتموهم لَتَقْتُلُنَّهُمْ في الشهر الحرام! فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شَجُعُوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأَخْذِ ما معهم. فرمَى وَاقِدُ بْنُ عبدِ اللَّه التميمي عَمْرَو بْنَ الحضرمي بسهم فقتله! وَاسْتَأْسَرَ عثمانَ بن عبد اللَّه، والحكمَ بن كيسان، وأَفْلَتَ نوفلُ بن عبد اللَّه فأعجزهم (...).

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: « **مَا أَمَرْتُكم بقتال في الشهر الحرام!** » فَوَقَفَ العِيرَ والأسيرين، وأَبَى أن يأخذ من ذلك شيئًا! فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، سُقِطَ في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا! وعنَّفهم المسلمون فيما صنعوا، وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال! وقالت قريش: قد اسْتَحَلَّ محمدٌ وأصحابه الشهرَ الحرام، فسفكوا فيه الدمَ، وأخذوا فيه الأموال وأَسَرُوا..! (...)

فلما أَكْثَرَ النَّاسُ في ذلك أنزل اللَّه جل وعز على رسوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (...) فلما نزل القرآنُ بهذا الأمر، وفَرَّجَ اللَّه عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَقِ؛ قَبَضَ رسولُ اللَّه ﷺ العِيرَ والأسيرين) [١].

وقد ذهب كثير من المفسِّرين إلى أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. بينما ذهب آخرون إلى أن تحريم الأشهر الحرم مُحْكَمٌ غير منسوخ، وهو الحقُّ إن شاء اللَّه، على ما رجَّحناه في مجلس سابق. فقد صَحَّ عَنْ جَابِرِ بن عبد اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى أَوْ يُغْزَوْا، فَإِذَا حَضَرَ ذَلِكَ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ!) [٢] وقال ابن جريج: (حَلَفَ لي عَطَاءٌ [بن أبي رباح] باللَّه ما يحل للناس أن يغزوا في الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه!) [٣]. وانتصر له الشوكاني في تفسيره انتصارًا قويًّا، واعتبر كلَّ الآيات الآمرة بالقتال مقيَّدةً بتحريم القتال في الأشهر الحرم، والقتال في منطقة الحرَمِ. وبين أن ما رُوي في الصحيح من غزوه ﷺ في بعض الأشهر الحرم، إنما هي حرب ابْتُدِئَتْ قبلها ثم استمرت [٤].

وذلك هو الذي تضافرت عليه آيات القرآن الكريم، قال تعالى علاوةً عن الآية

---

(١) رواه الطبري عند تفسيره للآية.

(٢) رواه أحمد في مسنده، والطحاوي في مشكل الآثار، والطبري في تفسيره. وصححه ابن كثير في تفسيره للآية. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه الطبري عن تفسيره للآية.

(٤) وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ [التوبة: ٣٦]. فتح القدير (٢/٥٢٢).

موضوع الدرس: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦]. وهذا السياق يقتضي تأبيد تحريم الأشهر الأربعة؛ لأن ذلك كان منذ خلق اللّه السموات والأرض، ثم هو أمر ثابت في « كتاب اللّه » كما نصَّت عليه الآية، والمقصود بـ « كتاب اللّه » هنا: اللوح المحفوظ؛ وهو أدل على تأبيد التحريم. ثم قال:﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] وهذا تعبير صريح دال بنفسه وبسياقه على الإحكام وعدم القابلية للنسخ. ومن ثَمَّ ورد النهي الصريح عن استحلال الأشهر الحرم، قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٢]. وقال سبحانه: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٩٧].

وأما آية السيف : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] فلا نسخ فيها لما نحن فيه؛ لأنها مُقيَّدة في صيغتها بانسلاخ الأشهر الحرم. وإنما الذي جعل الكثير يقول بنسخ آيات تحريم الأشهر الأربعة، هو ما وقع في السِّيَرِ والمغازي من بعض حوادث الغزو فيها، وقد ذكرنا جواب الشوكاني عن ذلك بأنها هي حربٌ ابْتُدِئَتْ من قبل ثم استمرت. وهو توجيه وجيه.

ثم قد ثبت في خطبة حجة الوداع – وهي من آخر وَصَايَا النبي ﷺ – تصريحه عليه الصلاة والسلام بتحريمها، على سبيل التأكيد والتأبيد! فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ : (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ » قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ! قَالَ: « فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ » قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ! قَالَ: « فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ » قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ! قَالَ: « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا! » فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ ».. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ : فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ؛ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ!) (١) وهذا من آخر كلام النبي ﷺ، حيث تُوفِّيَ عليه الصلاة والسلام في السنة نفسها؛ فلا ناسخ له.

---

(١) رواه البخاري، ومتفق على نحوه من حديث أبي بكرة ﵁.

والعلماء على أنه لا يُصَارُ إلى القول بالنسخ إلا بنصٍّ قطعي الدلالة والثبوت، أو بإجماع. ولا شيء من ذلك حصل ههنا. ثم إنه لا خلاف بين العلماء في أن للمسلمين إذا ابْتُدِئُوا بقتال في الأشهر الحرم، أو في منطقة الحرم؛ أن يقاتلوا عدوهم آنئذ. ويدخل في معناه ما إذا توقعوا باستعلاماتهم هجوم العدو أن يبدؤوه بالقتال قبل أن يباغتهم؛ لأن ذلك في حقيقته دفاع لا هجوم. وهذا كله لا يلغي جهاد الطلب خارج الأشهر الحرم. ذلك، والله الموفق للصواب.

ثم أضاف تعالى في سياق الردِّ على المشركين، وفضح ما هم عليه من الكفر والضلال، بيان سوء طويَّتهم، وإصرارهم على الكيد للمسلمين والإعداد لقتالهم أبدًا، فمتى سنحت لهم الفرصة هاجموا المؤمنين؛ حقدًا عليهم وبغضًا، ونقمةً منهم؛ أَنْ آمنوا بالله وحده دون سواه. وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢١٧﴾ تلك طبيعة الكفر أينما كان، وأنَّى كان، ومتى كان! يستوي في ذلك القديم والحديث. فالطغاة في العالم يتضايقون بمجرد وجود طائفة من المؤمنين الصالحين في الأرض؛ فلا يزالون يَجْهَدون لحصارهم، ويتفقون على تجويعهم، ويتعاونون على قتالهم؛ حتى يردوهم عن عقيدتهم، أو يبيدوهم من على وجه الأرض إبادة شاملة! وهذا بيان عجيب من الله تعالى لطبيعة الكفار وطغاتهم، وتحذير للمسلمين من الثقة بهم، والاستسلام لهم، والميل إلى كفرهم، أو الارتداد عن الدين كليةً؛ ذلك أن من ارتد فمات على كفره؛ حبط كل عمله الصالح الذي أنجزه في الإسلام، وصارت حسناته السابقة لغوًا لا قيمة له، وكان - والعياذ بالله - في النار من الخالدين!

ثم أشاد تعالى - في مقابل ذلك - بالمؤمنين الثابتين على دينهم، الصابرين المحتسبين، رغم ما أصابهم من أذى الطغاة وبطشهم، غير متأثِّرين بشيء من تضليلهم وترهيبهم، بل آمنوا، ثم هاجروا.. حتى إذا أذن الله لهم بالقتال جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم طاعةً لله! فهؤلاء حُقَّ لهم أن يرجوا الفوز بالجنة رحمةً من الله. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ غفورٌ لِمَا وقع منهم في سيرهم إلى الله من

هَنَاتٍ وزَلَّاتٍ، رحيمٌ بهم إذْ أكرمهم بدخول الجنة. ولا يدخل الجنةَ أحدٌ - مهما كان - إلا برحمة الله.

وبمناسبة مخاطبة الله المؤمنين بأحكام الجهاد، بَيَّنَ تعالى طبيعة الخمر وشقيقها الميسر، مُحَرِّمًا إياهما إشارةً؛ تمهيدًا لتحريمهما عبارةً. وذلك هو المفتاح الثالث من مفاتيح الجنة في هذا السياق. ووجه المناسبة أن العرب كانت تشرب الخمر عند القتال؛ باعتبار أنها تشجع الجبان على الحرب، كما تدفع البخيل إلى البذل والإنفاق! حيث لا يستطيع أن يكون شجاعًا ولا كريمًا إلا بفقد عقله وغياب وعيه! أو بسلبه مالَه عن طريق الميسر والقمار، لا بالتطوع والخيار..!

ومن شِعْرِ حسان بن ثابت في الخمر قبل إسلامه:

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا لا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ!

أما الإسلام فلا يَتَعَبَّدُ الناسَ لربِّهم إلا بتمام العقل وكمال الوعي، ويملؤهم شجاعةً بيقين الجنة! ولا يأخذ منهم أموالهم إلا طوعًا؛ إذ لا عبادة في الإسلام بالإكراه. ومِن ثَمَّ أجاب الله ﷻ عن سؤال المسلمين في ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... ﴿٢١٩﴾ ﴾ أي أن المصالح المقصودة في شرب الخمر وتجارتها، وفي لعب القمار وكسبه، هي مصالح وهمية؛ بسبب ما ينتج عن ذلك كله من فساد كبير في المجتمع، كخراب البيوت، وطلاق الزوجات، وشتات الأُسَرِ، وتشريد الأطفال، وانتشار الأمراض، وشيوع الجريمة، وسيطرة الخوف، وكثرة الحوادث ...إلخ. هذا علاوة على أن كُلًّا من الخمر والميسر يُفْقِدُ الرجلَ غيرتَه، وكرامتَه، ورزانتَه، ويجعله سخريةً للساخرين، وعرضةً للمتهكِّمين! والمسلم الحق أعز على الله من أن يصيبه شيء من ذلك؛ فحرم عليه هذه الخبائث تحريمًا!

ثم يبين الحكيم ﷻ للمؤمنين مقادير الإنفاق، من بعد ما بين لهم مصارفه في الآيات السابقة، فيجيب عن سؤال المؤمنين في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ... ﴿٢٢٠﴾ ﴾ والعَفْوُ هنا هو: ما عَفَا عن حاجتك. أي ما فَضُلَ عن مصالحك.

ومن الكلام العربي: (أَطْعِمُونَا مِنْ عَوَافِيكُمْ دَامَتْ لَكُمْ عَوَافِيكُمْ!) [١] فاللَّه ﷻ لا يكلف المؤمنين ما يشقُّ عليهم، بل يمن عليهم بسدِّ حاجاتهم الخاصَّة أولًا، ثم يأمرهم بعد ذلك أن ينفقوا ما فَضُلَ عنهم في مصارف الصدقات والزكوات؛ تقويةً لمواقع الهشاشة من المجتمع، ومنعًا لتكدس الثروة بأيدي القلة. فعن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال في الحديث القدسي، فيما يرويه عن ربه ﷻ: (**يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ! وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ! وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**) [٢].

ذلك بيانٌ من اللَّه الحكيم العليم؛ عسى أن يتفكَّر العبد في حقيقة الدنيا وطبيعتها الفانية، وأنه لا غِنَى فيها على الحقيقة؛ لأنما المالُ مالُ اللَّه، والبَشَرُ مستخلفون فيه. والغَنِيُّ الحقُّ إنما هو الغَنِيُّ باللَّه. وأن غِنَى الآخرة هو الغِنَى الباقي. وهو أيضًا مراتب ودرجات، تُكْتَسَبُ - بفضل اللَّه - على قدر الإنفاق في الدنيا.

والأمة المجاهدة أُمَّةٌ متكافلة بالضرورة؛ لِمَا يترتَّب عن القتال في سبيل اللَّه من شهداء وأرامل وأيتام؛ ومِنْ ثَمَّ فقد نَبَّهَ اللَّهُ - جَلَّتْ حِكْمَتُه - على أهمية كفالة الأيتام في المجتمع الإسلامي، واحتضانهم داخل الأسر المؤمنة الصالحة؛ لتقوية النسيج الاجتماعي، وحفظه من الانحراف والضياع. فكان هذا مفتاحًا رابعًا من مفاتيح الجنة، المعلقة بآية الابتلاء المذكورة قَبْلُ؛ تمهيدًا لهذه الطائفة من الأحكام العظيمة. قال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ فالأمة التي يُكَرَّمُ فيها اليتيمُ ولا يُظلم، ولا يُهَمَّشُ ولا يُهضم؛ خليقة بأن تكون أمة شاهدة على الناس.

وهذه الآيةُ لها قصةٌ تُجَلِّي معناها، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]؛ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ

---

(١) معنى العوافي الأولى: ما فَضُلَ في القدور من الطعام. والعوافي الثانية: من العافية، وهي السلامة. والعبارة في « أساس البلاغة » للزمخشري، مادة: « عفو ».

(٢) رواه مسلم.

عِنْدَهُ يَتِيمٌ، فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ! فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ ... ﴿٢٢٠﴾ ﴾ الآية؛ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ) [(١)]
وفي رواية النسائي: (فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ).

ذلك أن اليتيم قد يكون وارثَ مالٍ عن أبيه، فيحتضنه زوج أُمِّه؛ أو عمِّه، أو غيرهما، فيتحرَّج الوَصِيُّ من خلط طعامه بطعامه؛ بسبب ما أنزل اللَّهُ ﷻ في أكل أموال اليتامى ظُلْمًا من تخويف وترهيب. فنزلت هذه الآية ترفع الحرج، وترشد إلى أن مخالطة اليتيم في الطعام والشراب وغيرهما خَيْرٌ له وأصلح؛ لأن بالمخالطة يحصل له الشعور بالدفء الأسري، الذي هو أحوج إليه من الطعام والشراب، ولا تنطوي نفسيته على عُقَدِ العزلة وكآبة الاغتراب. فماذا ينفعه ماله بعد ذلك إذا نشأ بشخصية مريضة مهزوزة؟ ومِنْ ثَمَّ عبَّر بتعبير « الأخوة »، الجامع لكلِّ معاني المحبة والمودة والعطف والحنان.. التي لا تنبع في الأصل إلا من منابع الأرحام! فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ ﴾.

نعم؛ واجِبٌ على الأوصياء أن يتورَّعوا عن أكل أموال اليتامى، كما سيأتي بيانه بحول اللَّه وتوفيقه في مجالس مقبلة. لكن لا يجوز عزل اليتيم عن مائدة الأسرة المشتركة، ولا عزله عن سياقها الاجتماعي؛ إلا فيما حَدَّتْهُ الشريعةُ من حدود؛ لأن التربية للفرد إنما تحصل له على المستوى النفسي والإيماني؛ بالاندماج الاجتماعي داخل وسط أسري صالح. فلا يكون التخوُّف من أكل ماله سببًا لفساد دينه واختلال عقله! ولذلك قال سبحانه بعدُ مباشرةً: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾، أي: يعلم من يخون اليتيم؛ فيجعل مخالطتَه وسيلةً لأكل ماله، ومن ينصحه ويخلص له؛ فيجعل مخالطته وسيلةً لتربيته ونصحه، وسببًا لتزكية ماله وإنمائه! لأن المطلوب من الوَصِيِّ أو الكافل، هو أن يكون عَامِلًا في مال اليتيم بالاتجار؛ حتى يتضاعف

(١) رواه أبو داود واللفظ له، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه. وحسنه الألباني في صحيح سنني أبي داود والنسائي. وضمنها رواية النسائي المذكورة أعلاه.

رأس ماله ولا ينقص. وقد ثبت عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لَا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ!)[١].

ومِن ثَمَّ رَفَعَ اللَّهُ الحرجَ عن المسلمين إذا أكلوا من مال اليتيم شيئًا، في سياق المخالطة الإيجابية، والمشاركة الصالحة؛ ولذلك قال في آخِر الآية: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. أي: ولو شاء تعالى لَشَقَّ عليكم، ولأنزل عليكم من التكاليف ما لا تطيقون، أو ما يحرجكم وَيُضَيِّقُ عليكم، ولكن اللَّه برحمته شرع لكم ما يخدم مصالحكم، ومصالح أيتامكم، في الدنيا والآخرة، بلا ضرر ولا ضرار. وهو تعالى عزيزٌ، أي قويٌّ مَنِيعُ الحِمَى، قديرٌ على معاقبة من انتهك حرماتِه. كما أنه سبحانه حكيمٌ فيما أنزل من الآيات، لا يشرع حُكمًا إلا لحكمة بالغة ومصلحة شاملة. فسبحانه وتعالى من ربٍّ عزيز حكيم!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في **ثماني رسالات**، نلخِّصها فيما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الابتلاء سُنَّةٌ من سنن اللَّه في هذا الدين. فمن تمسك به صادقًا امتحنه اللَّه فيه. إما بجهاد عدو للَّه، أو مواجهة حصار اقتصادي، أو تشويه إعلامي، أو سخرية اجتماعية جاهلة. فإن لم يكن؛ كان بعلل وأسقام تقوم مقام ذلك، أو بنقص في الأرزاق، أو نحو هذا وذاك. ونص القرآن صريح في هذا كما رأيت؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ! فَيُبتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صَلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ. فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ!** »[٢]. وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ

---

(١) رواه مالك بلاغًا، ورواه الدارقطني موصولًا، والبيهقي وصحَّحه، وابن أبي شيبة. وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل موقوفًا على عمر. بينما ضعف رفعه إلى النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي شيبة. وعلقه البخاري. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح سنني الترمذي وابن ماجه، وفي صحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع الصغير.

أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: « الْأَنْبِيَاءُ ». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: « ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: « ثُمَّ الصَّالِحُونَ! ») (١). لكن اللَّه تعالى بمجرد ما يطهر عباده من شوائب الشرك الخفي، ويصفي إيمانهم بنار الابتلاء؛ يفرِّج عنهم الكرب، ويكشف عنهم الغم، ويؤيدهم بالفتح المبين والنصر المكين. ويرفع من مات منهم في سبيل ذلك درجات في الجنة. وتكون عاقبة النصر لهم، فنصر اللَّه قريب من المؤمنين الصابرين المخلصين.

الرسالة الثانية: في أن الإنفاق في وجوه الخير من أعظم القربات إلى اللَّه، وأن المؤمن الحق هو من يكثر التصدُّق بعفو ماله، ليس بِجَمَّاعٍ ولَا مَنَّاعٍ. وقد قدَّم اللَّه ﷻ ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في غير ما موطن من كتابه الكريم، كما قدَّم الإنفاق ههنا على فرض القتال في سبيله. والسرُّ في أهمية الإنفاق أنه - زيادةً على تزكيته للنفس من الشحِّ، وتمتينه للنسيج الاجتماعي - يُرَقِّي العبد في مدارج الإخلاص، ويطهِّره من الأهواء؛ حتى يبلغ مقام الصِّدِّيقِينَ؛ فَمِنْ بينِ (**سَبْعَةٍ يُظِلُّهُم اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ (...) رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ!**) (٢) فبمداومة الصدقة، وتثبيت الإنفاق - بِقَدْرٍ معلوم - على الفقراء، والمحتاجين، والأرامل، واليتامى، يكتسب العبدُ صلاحًا في كلِّ دينه، فكأن الإنفاق وسيلة لإصلاح دينه وصلاته، وتقوية له على ترك الخطايا والذنوب؛ بما يجعل اللَّه له به من حفظ وعصمة.

الرسالة الثالثة: في أن القتال في سبيل اللَّه فريضة على هذه الأمة، به قِوَامُهَا، وبه عِزَّتها، وبه استمرارها. وهو حق اللَّه تعالى على المؤمنين، فَرَضَهُ عليهم حفظًا لدينه وإعلاءً لكلمته. ومِن ثَمَّ وجب على المسلم إذا دُعِيَ له من قِبَلِ الأمراء أو العلماء

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، وأبو يعلى في مسنده، والحاكم، وصححه على شرط مسلم. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، وصحيح سنن ابن ماجه.

(٢) متفق عليه. ونصه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ؛ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ! وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ! وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ! ».

المعتبَرين، أن يكتتب فيه؛ لقول النبي ﷺ: « **لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا..!** » (١) فإن لم يُدْعَ وجب عليه أن يجعل نصوصه الشرعية في مسلك تربيته، وألا يلغيه من باله بإطلاق، وأن يرتِّب حياته على توقعه، سواءٌ غزَا أو لم يَغْزُ. ففي الحديث: « **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ!** » (٢) وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **مَنْ لَمْ يَغْزُ، أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا، أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ؛ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ!** » (٣).

إلا أن عليه - في نفس الوقت - أن يحتاط من الدعوات الطائشة، والجماعات الضالة، فلا يستجيب إلا لجمهور أهل العلم، من الفقهاء المعتبَرين، والحكماء الصالحين، وإلا كان من الهالكين! ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً! وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ! وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ؛ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ!** » (٤) ومعنى « رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ »، هو: الشعار الأعمى! الذي يجتمع تحته الناس دون تحقُّق ولا تبيُّن، فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ باسم الدين عُمِّيَّةً! كما هو حال بعض التنظيمات في زماننا هذا! قال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم: العُمِّيَّةُ: (هِيَ الأَمْرُ الأَعْمَى لَا يَسْتَبِينُ وَجْهُهُ. كَذَا قَالَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْجُمْهُورُ) (٥). وأما العَصَبَةُ: فهي الجماعة، أو الحزب، أو « التنظيم » بلغة العصر. يتعصَّب له العضو عُمِّيَّةً! فيقتل تحت رايته البَرَّ والفاجرَ، والمؤمنَ والكافرَ سواء! وقد رأينا في عصرنا هذا من يفعل ذلك كله؛ باسم « الجهاد في سبيل الله »! وقَدْ وَاللَّهِ قَتَلَ مَنْ سَمَّوْا أنفسَهم (مجاهدين) كثيرًا من المسلمين، بل قَتَلُوا - يا ويلهم! - دعاةً إلى الله مخلصين، وعلماء ربانيين! وقتلوا أطفالًا ونساء من أُمَّة محمد ﷺ! كل ذلك باسم الدين، وما هي إلا الضلالة والعَمَى! ووسوسةُ مخابرات الشياطين! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود، وابن ماجه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الكبرى، والدارمي، وعبد بن حميد. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وفي صحيح سنني أبي داود وابن ماجه.

(٤) رواه مسلم. (٥) شرح النووي على مسلم (٣٢٢/٦).

الرسالة الرابعة: في أن طبيعة الكفر طبيعة ظالمة متعدية. فإن لم تُكسر شوكته امتدت بالأذى إلى بلاد المسلمين. تلك حقيقته الأبدية، التي قرَّرها الله ﷻ بعبارة دالة على الاستمرار في الزمان والمكان، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ... ﴿٢١٧﴾ ﴾ ومِن ثَمَّ وجب على المسلمين ألا يركنوا إلى الكفار، وألا يثقوا بهم في عهد أو اتفاق، إلا على حذر واحتياط. كما أن عليهم الإعداد الدائم للجهاد في سبيل اللَّه، والنفير له كلما دعا داعيه.

الرسالة الخامسة: في أن كفالة الأيتام والأرامل من أعظم الأعمال الصالحة في الإسلام. وهي ضرب من ضروب الجهاد في سبيل اللَّه؛ لأنها احتضان لليتامى عمومًا، ولأسر الشهداء في سبيل اللَّه خصوصًا، وحفظ للنسيج الاجتماعي من التمزُّق والضياع؛ ولذلك جعل اللَّه لعائل الأرملة واليتيم أَجرَ المجاهدِ في سبيله! فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « **السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ!** » (١) والأرملةُ والمسكينُ ههنا هما على العموم والشمول، سواء كانوا من قرابة الساعي عليهما أو من غير قرابته. والقرابة أولى. ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

أما رعايةُ أُسَرِ المجاهدين في سبيل اللَّه، فهي جهاد حقيقي؛ وهي عمل قد ينوب عن خروج المسلم بنفسه للقتال، إذا تخلَّف لسبب من الأسباب؛ لأنه إذ يَخْلُفُ المجاهدين في أسرهم وأطفالهم بخير، فهو في الحقيقة يقوِّي معنوياتهم، ويبعث لهم مَدَدًا من القوة المعنوية في مواجهة العدو! ولذلك كان له من الأجر في الدين ما كان للمقاتل نفسِه في سبيل اللَّه. وقد ثبت في الصحيحين: عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِـي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا** » (٢). فأن تَخْلُفَ المجاهدَ في أهله بخير، يعني أنك تحفظ عِرْضَهُ، وتُطعم أبناءَه. وإذا استُشهد أن تعول أرملته وتكفل يتيمه. فذلك هو خير الخير! وأي خير أعظم من أَجرٍ يرتقي بصاحبه إلى أعلى درجات الجنة؟ هناك بجوار الأنبياء والشهداء! بل بجوار سيد الخلق أجمعين محمد رسول اللَّه! فعَنْ

(١، ٢) متفق عليه.

أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **كَافِلُ الْيَتِيمِ - لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ - أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ! وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى** »(١).

وهو أمر ليس خاصًّا بأيتام الشهداء وأراملهم فحسب؛ بل هو عامٌّ في كلِّ أيتام المسلمين وأراملهم جميعًا، كما هو مقتضى النصوص؛ فضلًا من اللَّه ونعمة.

الرسالة السادسة: في أن على المؤمن أن يستخير اللَّه تعالى في الأمور كلِّها، وخاصَّة في الاختيارات المتدافعة، والقرارات المتناقضة، والمسالك المترددة، مما لا يترجَّح خيره أو شره، ولا يستبين نفعه أو ضره! فطبيعة الأشياء من الأقوال والتصرفات والاختيارات؛ لا يعلمها على تمام حقيقتها إلا اللَّه ﷻ ، وأنَّ نَظَرَ الإنسانِ - مهما أوتي من العلم والخبرة - قصيرٌ جِدًّا! ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ ومِن ثَمَّ شرع اللَّه لنبيه ﷺ الاستخارة بكلمات معلومة. فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ! يَقُولُ: « **إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ؛ ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ! فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ! اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي؛ فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ! وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي؛ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ!** » قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ)(٢) يعني أنه يُسَمِّي حاجته أثناء الدعاء، كأن يقول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا السَّفَرَ، أو هذا الزَّوَاجَ، أو هذه التِّجَارَةَ... إلخ. على حسب ما هو مُقْبِلٌ عليه من قرار، أو تصرف.

واستخارةُ اللَّه سبحانه في جميع الأحوال - فضلًا عن منفعتها في التصرف المستخار فيه - فإنها تربيةٌ للمؤمن على التوكُّل، وترقيةٌ له بمدارج الإيمان، وزيادةُ معرفةٍ له باللَّه، وسَيْرٌ به إلى مقام اليقين! وأما جواب الاستخارة فإنه يكون في الغالب

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة، ورواه البخاري عن سهل بن سعد.

(٢) رواه البخاري.

بتيسير الأمر إن كان فيه خير، أو بتعسيره وتعطيل أسبابه إن كان فيه شر. ولا يكون بالضرورة عن طريق الرؤى والمنامات، كما يتوهَّمه كثير من الناس.

الرسالة السابعة: في أن المرتد عن الإسلام - إن لم يتب قبل موته - خالدٌ في النار والعياذ باللَّه! وأن اللَّه تعالى يُحبط له كل عمله السابق في الإسلام! فكما أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله من خطايا وآثام؛ فكذلك الرِّدَّةُ تَجُبُّ ما قبلها من صالح الأعمال! فيخلد صاحبها في النار! ثَبَّتَنَا اللَّه وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة!

الرسالة الثامنة: في أن الخمر والميسر - أو القمار - آفاتان خبيثتان. وأنهما ما تسلطان على أُسْرَةٍ إلا خَرَّبَاهَا! ولا على أُمَّةٍ إلا أهلكاها، ولا على حضارة إلا أفنياها! ولا على تجارة أو عمل إلا هدماه! ومِن ثَمَّ فليس الواجب على المسلم هو أن يتركهما شُرْبًا ولَعِبًا وتجارةً فحسب؛ بل الواجب عليه أن يقاطع كل المؤسسات والشركات التي بها خمر أو قمار، وألا يشتري شيئًا ولا أن يبيعه منها ولها، وأن يسهم في ضرب الحصار على هذين الورمين الخبيثين! وما حديث رسول اللَّه ﷺ في وجوب حصار الخمر عنا ببعيد! فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالْمُشْتَرِي لَهَا، وَالْمُشْتَرَاةُ لَهُ!)[١] ويدخل في ذلك بيع ما يدخل في صناعتها، أو تجارتها، ولو كان في نفسه حلالًا طيبًا، كأن تبيع دفترًا أو قلمًا لحسابها، وأنت تعلم، أو عَجَلَةً لشاحنتها، أو سيارتها، أو إصلاح شيء من ذلك. كما لا يجوز خدمتها بكِراء، أو إجارة، أو نحوهما، ولا تيسير أي أمر من أمورها. فكل ذلك ملعون بلعنة اللَّه ورسوله!

وكذلك تحرم مجالسة أهلها وهم يشربونها، وإن لم يكن الجليس شاربًا لها، اللَّهم إلا إذا كان ناهيًا عن المنكر! قال ﷺ: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ!** »[٢].

---

(١) رواه الترمذي واللفظ له، وابن ماجه، والطبراني في الأوسط. وصححه الألباني في صحيح سنني الترمذي وابن ماجه، وفي صحيح الترغيب. وقد روي هذا الحديث بصيغ متقاربة عن عدد من الصحابة.

(٢) جزء حديث رواه أحمد، والدارمي في سننه، والطبراني في الكبير والأوسط، عن جابر. ورواه الطبراني عن ابن عباس. وصححه لغيره الشيخ الألباني في صحيح الترغيب. كما حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

وأما القمار فهو من أكبر الكبائر، وأخطر الموبقات! ويكفي فيه قوله ﷺ: « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ! »(١) والنَّرْدَشِيرُ: أداةٌ من أدوات القمار. والحديث دالٌّ على أن القمار خبيث! وماله خبيث! ولاعبه خبيث! وقد كثرت اليوم أشكاله وتعددت أساميه، ولكن تعددت الأسماء والخبث واحدٌ! وكل ما قيل في الخمر وأهله، يقال في القمار وأهله، لعبًا، وتجارةً، وخدمةً، ومجالسةً... إلخ. وما يجب في حصار ذاك يجب في حصار هذا، على التمام والكمال.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق ههنا راجع إلى التحقُّق من تلقِّي مفاتيح الجنة، المعلقة بآيتها الابتلائية: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ وقد تبيَّن أن ما بعدها هو تفصيل لها وبيان. أما الوصول إلى التعلُّق بمفاتيحها فهو مشروط بالتخلُّص من أربع أنانيات مستحكمة في النفس الإنسانية، أولاهن: أنانيةُ الإِثْرَاءِ الجَشِع. والثانية: أنانية حب الدنيا وكراهية الموت. والثالثة: أنانية الهوى واتباع الشهوات. والرابعةُ: أنانيةُ الأَثَرَةِ، وحب النفس، وعدم إيثار الغير. فعلى التخلص من هذه الأنانيات الأربع مدار الفوز بمفاتيح الخير. ومسلك ذلك راجع إلى الدخول فيما بيَّنَهُ الله تعالى من أعمال صالحة، وذلك بمجاهدة النفس وتدريبها على ما يلي:

- إكرام الوالدين والإنفاق عليهما، وإرضاؤهما فيما يرضي الله.
- الإنفاق قدر الإمكان على الفقراء من ذوي القربى، وغيرهم. وخاصَّةً طلاب العلم النافع.
- الاجتهاد للتمكن من كفالة يتيم فقير. أو الإنفاق الثابت على أرملة مع أيتامها في بيتها.
- تربية النفس تربية جهادية؛ بحملها على نبذ شهواتها، وإشهادها حقيقةَ الدنيا الفانية، وتشويقها إلى نعيم الجنة.

---

(١) رواه مسلم.

- مقاطعة الخمر والميسر، وسائر الموبقات، وضرب الحصار من جهتك على تجارتها، والدعوة إلى ذلك.

فهذه الأعمال - كلها أو بعضها - كفيلة بتطهير النفس من أنانيتها، وتأهيلها لتلقِّي كلمات اللَّه من آية الابتلاء، وإتمامهن. وإنما الموفق من وفَّقه اللَّه.

* * *
* *
*

المجلس التاسع والعشرون

في مقام التلقي لأصول بناء الأسرة المسلمة وإنشاء الأرحام
وما يترتب عن ذلك كله من حقوق وواجبات

وهو ثلاثة دروس

الدرس الأول: في تأسيس الأسرة وشروط نجاحها

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا ينتقل التشريع القرآني إلى مرحلة أخرى، ويرتقي بمجتمع المؤمنين درجة أعلى من التماسك والانسجام. فقد بَيَّنَ الله سبحانه - كما رأينا بالمجلس السابق - أن هذه الأمةَ أمةٌ مجاهدة، لا تستكين لعدو ولا تلين في دين. وأنها أمة متكافلة متراحمة، لا يجوع فيها فقير ولا مسكين، ولا تتشرد فيها أرملة ولا يتيم. وذلك

لا يكون إلا بوجود أسر مبنية على أساس متين، محمية بسياج من الدين، تتولَّى رعاية الأرامل وكفالة الأيتام. ومِن ثَمَّ ناسب ذلك كله بيان أحكام بناء الأسرة المسلمة، وتفصيل أحكام إدارتها، فيما تلا ذلك من الآيات.

وقد تبين بنصوص الكتاب والسنة، وبسنن الله في التاريخ والاجتماع البشري؛ أن مؤسسة الأسرة هي أقوى مؤسسات المجتمع الإسلامي، وأضمنها حفظًا للدين، وأمكنها توريثًا للعقيدة والأخلاق، وأنجعها في تربية الأجيال، وأقواها في ترسيخ مفهوم الأمة، واستمرار الوعي به في التاريخ. فالأسرة هي محضن التوعية التلقائية بالشخصية المستقلة للأمة، ومصدر تسييجها بمشاعر الغيرة والاعتزاز بالذات الحضارية؛ بما يجعلها منيعة الحصون، غير قابلة للابتلاع والذوبان.

فالمجتمع الذي فقد نظامه الأسري، وتلاشى فيه مفهوم الرَّحِم، مجتمعٌ منهار حضاريًّا، فاقد لهويته، لا قدرة له على الجهاد، ولا على تحمل تبعاته الاجتماعية، من كفالة اليتامى ورعاية الأرامل.

فلهذا وذاك كان ورود أحكام الأسرة ههنا مناسبًا جدًّا لهذا السياق، ومكمِّلا لما سبق من تشريع، مما تدارسناه في مجالس سابقة، من أركان الإسلام الخمسة، وما يخدمها من تشريعات، كالجهاد، والإنفاق، والتكافل الاجتماعي. وبيان ذلك هو كما يلي:

ففي البدء استهل الله ﷻ التشريع الأسري بإرشاد المؤمنين إلى أن الخطوة الأولى في بناء الأسرة، هي اختيار التربة الصالحة. وأعلمهم سبحانه بحكمته البالغة أن الصبغة الإيمانية هي مناط الاختيار للأزواج والزوجات، محذرًا إياهم من إفساد المجتمع، وخرم انسجامه الإيماني؛ بالزواج من المشركين والمشركات. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ والنكاح ههنا: هو العَقْدُ بالزواج. تقول نَكَحَ الرَّجُلُ: إذا تزوج لنفسه. وأَنْكَحَ: إذا زَوَّجَ غَيْرَهُ؛ ولذلك قال: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بضم التاء، بمعنى: لا تزوجوهم بناتكم.

والمقصود بالمشركين والمشركات في هذا السياق هم: جميع أصناف الكفار،

سواء كانوا من عَبَدَةِ الأوثان والأصنام، أو عَبَدَةِ النار من المجوس، أو كانوا من أهل الكتاب، فهم أيضًا على شرك في المسيح وعُزَيْر.

فهؤلاء جميعًا حرَّم اللَّه تعالى على المسلمين الزواج من نسائهم، كما حرَّم على المسلمات الزواج من رجالهم. ثم خصَّ بعد ذلك نساء أهل الكتاب فأباح الزواج بهن لرجال المسلمين. قال سبحانه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥]. والأَخْدَانُ: جمع خِدْنٍ، وهو الخليل أو الخليلة في الحرام. وهو لفظ يقع على الذكر والأنثى، كما قاله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

وبقي المشركات من غير الكتابيات محرمات على المسلمين أبدًا. كما بقي رجال المشركين بجميع أصنافهم حرامًا على المؤمنات أبدًا، سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم. وأكدَّه اللَّه تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فَعَمَّ بالكفار كل من لا يؤمن بالإسلام، فلا تحل المسلمة إلا لمسلم. وعلى هذا إجماع المسلمين.

وقد منع اللَّه مخالطة الكفار بالمصاهرة، على ما بينا من أحكام عامَّة وخاصَّة؛ لضمان انسجام المجتمع الإسلامي، وحفظ دينه، وحفظ الأسرة المؤمنة من الاختلال؛ إذ هي مناط التوريث للعقائد والأديان كما بينا. وأما رخصة اللَّه تعالى للمؤمنين بالزواج من الكتابيات؛ فلا يضر هذا النسق؛ لأن المرأة في غالب الأحوال تتبع دين زوجها. وأما إن بقيت على دينها فتأثير الأب يغلب على دين أبنائه. بشرط أن يعيش في بيئة إسلامية - كما هو الأصل - ولا يلتحق بمجتمعات الكفار.

وقد أنزل اللَّه تعالى هذه الآيات في سياق بناء الأمة المسلمة، ووضع قواعدها على أساس قوي، في دينها وعمرانها الاجتماعي. مبينًا أن الإيمان هو الحجر المتين، والركن المكين، الذي عليه تُؤَسَّسُ الأسرة المسلمة. وأنه لا عبرة بالأنساب والأحساب،

---

(١) ذكره في « الكشاف » عند تفسيره للآية: ٥، من سورة المائدة.

ولا بالجاه والثروة والسلطان، ولا بالطبقات والألقاب، إذا كان ذلك على غير أساس من الدين. وقد كان بعض المسلمين في أول العهد المدني من نزول القرآن، يرغبون في مصاهرة بعض أشراف العرب من المشركين؛ طلبًا لأصالة النسب؛ فنزل القرآن العظيم يشجب ذلك بقوة، ويبين أن الشرف إنما هو شرف الإيمان! وأن النسب إنما هو نسب الإسلام! وأن الجمال إنما هو جمال الدين! فقال سبحانه: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ... ﴿٢٢١﴾ ﴾ وقال: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ فالأَمَةُ المؤمنة الصالحة، والخَادِمَةُ التقية النقية، واليتيمة المسلمة؛ خير من الكافرة النجسة، التي لا تُحلُّ حلالًا ولا تحرِّم حرامًا! ولو اجتمع فيها من جمال الشكل كل مظاهره! وكذلك العبد المؤمن، أو الخادم التقي، واليتيم الفقير المسلم؛ خير من الكافر الخبيث. لأن الكفار بسلوكهم الخارق لكلِّ الحدود الشرعية، وبمنطقهم المتمرد على المقدسات الإسلامية، يدعون إلى الكفر والضلال، ويقودون إلى جهنَّم والعياذ بالله! ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فاللَّهُ - جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه - يدعو الناس إلى الجنة والغفران، وإلى التوبة والإيمان، والتعرض للرحمة والرضوان؛ وذلك بما أنزل من الوحي والقرآن، وبما جعل في قلوب المؤمنين من إيمان وأمانة وصلاح؛ فكان منطقهم، وسلوكهم، وأحوالهم، وسائر تصرفاتهم، دعوةً إلى الجنة دار السلام. فهؤلاء هم الأشراف حقًّا، وهم السادة صدقًا! ومِن ثَمَّ فلا كرامة للشرك والكفر على الإطلاق، ولا حسب له ولا نسب، ولا مكان له في الأسرة المسلمة.

ومن هنا إذا تزوَّج المسلمُ بكتابية فهو مسؤول عن سلامة الدين في الأسرة، ولا يجوز أن يكون فيها سلطان لغير الإسلام! سواء في التربية، أو في التعليم، أو في التحاكم، أو التعاقد، وسائر التصرُّفات.

ففيما سلف - وفيما يأتي - من أحكام، بيانٌ من اللَّه لِـحِكَمِ المنهاج الرباني في بناء الأسرة المسلمة، وكشفٌ لِـمَا في التشريع الإسلامي من أسرارٍ تحفظ سلامة الدين، وتضمن استمراره في العمران البشري، وبقاءَه حيًّا في وجدان الأمة، يجدِّد حياتها ويقوِّي شخصيتها؛ ولذلك قال في آخر الآية: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يعتبرون بسنن اللَّه في الاجتماع البشري، والتاريخ الإنساني، وما في هذا وذاك من تدافع في العقيدة، ومغالبة في الدين. فهي سنن كشفها العليم الخبير بعلامات الأحكام

الشرعية. من خالفها كان من المغلوبين الخاسرين! ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] وَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينتقل الخطاب من تشريع طهارة العَقْدِ والتأسيس، إلى تشريع طهارة المعاشرة والمباشرة؛ لِمَا في ذلك من خدمة لطهارة الأبدان والأنفس، وتزكية للعواطف والمشاعر. قال سبحانه: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝ ﴾. وهذا السؤال له قصة، ذلك أن اليهود في المدينة كانوا يستقذرون المرأة الحائض، فإذا حاضت المرأة منهم اعتزلوها في الطعام والشراب والمؤاكلة والمجالسة! وعاملوها بطريقة تشعرها بالإهانة والاحتقار! وكان الأنصار من أهل يثرب يقلِّدونهم في كثير من الأمور قبل الإسلام؛ ومِن ثَمَّ جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ يسألونه عن المحيض. [1] فأنزل اللَّه الآية بيانًا لحدود الله، التي لا غلُوّ فيها، ولا إفراط ولا تفريط. فبين سبحانه أن الحيض إنما يمنع جماع المرأة فقط، لا إقصاءها من الحياة الاجتماعية للأسرة! وعلَّل ذلك بنجاسة دم الحيض، وما يمكن أن يسببه للزوج من ضرر. لكن الاعتزال يبقى في حدود المعاشرة الخاصَّة. أما ما عدا ذلك فقد أبقى العلاقة فيه طبيعية عادية، بكلِّ مكوناتها الاجتماعية والنفسية والعاطفية! حتى إنه أجاز مباشرة الحائض فيما دون الفرج والدبر، بأي صورة كانت. فعن ميمونة رضي الله عنها قالت: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَاشِرُ نِسَاءَهُ فَوْقَ الْإِزَارِ وَهُنَّ حُيَّضٌ!) [2] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّكِئُ فِي حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ!) [3].

وقد نهى اللَّه تعالى عن جماع الحائض حتى تطهر، أي حتى ينقطع الدم. ثم صرَّح بالإباحة بعد التطهر، وهو: الاغتسال. فهاهنا طهارتان، طهارة طبيعية: وهي انقطاع الدم. وطهارة تعبدية: وهي الاغتسال. وبينهما مرحلة مسكوت عنها. وهي ما بعد انقطاع الدم وقبل الاغتسال، فكان حكمها الكراهة. لأن التحريم الصريح إنما هو مُتعلِّق بما قبل الانقطاع. وأما الاغتسال فإنما جاء بعد الأمر الدال على الإباحة.

---

(١) ن. الرواية في ذلك عن أنس بن مالك، في تفسير البغوي وابن كثير للآية.

(٢، ٣) متفق عليه.

فصار ما بينهما من قبيل المكروه. وكان أبو حنيفة يقول بجواز مباشرة الزوجة الطاهرة من الحيض، قبل اغتسالها، بينما حرَّمه الجمهور. والراجح ما ذكرناه، واللَّه أعلم.

ثم أمر اللَّه تعالى المؤمنين أن يقتصروا في إتيان نسائهن على موضع الحرث الطبيعي، فقال سبحانه: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ وهو المكان الذي منه يكون الحمل، والذي به يستمر النسل. وهو الذي يوافق الميل الفطري للإنسان السَّوِيِّ. بلا شذوذ ولا انحراف، ولا مصادمة لسنن اللَّه في الخلق. مُرْشِدًا عبادَه المؤمنين إلى الترقِّي بمراتب التطهر المادي والروحي، وإلى التوبة من مقاربة الخبائث النَّجِسَاتِ؛ فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾. ثم بَيَّنَ سبحانه أن الأصل في العلاقة العاطفية بين الزوجين إنما هو قصد استمرار النسل، وأما الاستمتاع فإنما جعله اللَّه وسيلة لضمان التناسل، وإنشاء الأرحام. فهو من المقاصد التبعية لا الأصلية؛ ولذلك سُمِّي الجماعُ حرثا، وهو تعبير قرآني كريم نبيل، مشيرًا إلى جواز استمتاع الزوجين بعضهما ببعض، على أي هيئة كانت، لكن بشرط أن لا ينحرف عن مكان الحرث إلى ما سواه. فقال تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. والتقديم للنفس هنا هو إصلاح النيات، وامتثال الطاعات، عند إتيان الزوجات؛ وذلك ببناء المباشرة على مقاصد التعبد، من طلب الولد الصالح، وإشباع رغبة التمتع الفطري؛ تحصينًا للنفس، وأداءً لحقوق الزوجة، وعدم السقوط بمعاشرتها في مستنقعات الشيطان النجسة، وأوضاعه الشاذة القَذِرَةِ؛ ولذلك قال بعدُ على سبيل الترهيب والترغيب: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فوَعَظَ الأزواجَ بالتزام تقوى اللَّه ﷻ ، ونَبَّهَهُم إلى ترقُّب يوم الحساب، حيث تُعرض على اللَّه ﷻ أعمالُ بني آدم فردًا فردًا، فَيُسْأَلُ الإنسان عن كُلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ. ومِن ثَمَّ بَشَّرَ سبحانه المؤمنين، الذين التزموا حدوده، وكانوا متقين؛ بالفوز والنجاة. وهذا في الحقيقة أنجع دواء لعلاج انحراف الأزواج في معاشرة الزوجات؛ لأن العلاقة العاطفية بين الزوجين أمر خفي يستحيل التحقق منه بوسائل الإثبات القضائية المادية. فالتعويل على إيمان المسلم، وتغذيته بالوعظ البليغ، والتخويف من اللَّه الذي ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] هو أضمن وسيلة لحفظ الأسرة من التمزُّق والانهيار.

والسرُّ في حرص القرآن الكريم على بيان حقوق الاستمتاع بين الزوجين، ومقصد طلب الولد، والتقديم للنفس بالتزام حدود اللَّه، وتوقِّي أيام الحيض، واجتناب ما نهى اللَّه عنه من المرأة؛ هو بيان أن ذلك كله وما في معناه، من أهم عناصر استقرار الأسرة، التي هي أساس استقرار المجتمع.

ومِن ثَمَّ كان السياق مناسبًا للتحذير من مُهَدِّدَاتِ النجاح الأسري، من التصرُّفات والأقوال. وعلى رأسها معاملة الزوجة بأساليب الإضرار، والتلويح كل حين بعصا الهجران أو الفراق! فمن الجهل والسفه أن يشحن الرجل كل خصوماته مع زوجه بعبارات التهديد بالطلاق! أو الحَلِفِ على ذلك! فالمخاصمة والمغاضبة بين الزوجين أحيانا - والمودة ثابتة - شيء طبيعي. لكن الذي ليس بطبيعي هو أن يكون الرجل في خصامه حَلَّافًا، مُهَدِّدًا كل حين في سَوْرَةِ الغضب الشيطاني بالطلاق! وإنما الطلاق قرارٌ يُتَّخَذُ بعد تفكير طويل، وبعد مراحل كثيرة من العلاج، كما سيأتي بيانه - بحول اللَّه - في مجالس مقبلة. وليس عَصًا يرفعها الرجل على زوجه كلما خاصمها أو أغضبته. فهذا إنما يدل على ضعف شخصيته، وفشل إدارته لمؤسسة الأسرة، ليس إلَّا!

ومن هنا نهى اللَّه ﷻ عن تعليق الخصومات بالأيمان الغاضبة، مُنبِّهًا إلى تقوى اللَّه في اسم اللَّه ﷻ وعدم استعماله في يمين غاضبة، يشحنها الشيطان بالأنانيات المدمرة، والأهواء الجاهلية. فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾. والعُرْضَةُ: القوة، والحجة، والتُّرْسُ. بمعنى: لا تَتَرَّسُوا بالحَلِفِ باللَّه، ولا تجعلوا اليمين حُجَّةً ووسيلةً؛ لعدم فعل الخير والبِرِّ والتقوى، والإصلاح بين الناس. فقوله: ﴿أَن تَبَرُّوا۟﴾ هو بمعنى النفي، كأنه قال: « أَنْ لا تَبَرُّوا ». حذفت فيه « لَا » النافية لدلالة السياق عليها؛ فهو سياق منفي ابتداءً. وهو تعبير عربي معروف. فربما حلف الرجل ألا يكلم زوجته، أو ألا يصل رحمه، أو ألا يتصدق على فقير معين، أو غير ذلك من الأيمان الآثمة؛ حتى إذا قيل له: افعل كذا، وكذا، من وجوه البر؛ قال: سبق أن حلفتُ لا أفعل! فنهى اللَّه تعالى عن ذلك، وبين أنه احتجاج باطل، وأرشد إلى كفارة مثل هذه اليمين، وإتيان ما وجب عليه، أو نُدب إليه، من البِرِّ والتقوى والإصلاح. ثم قال في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾، سميع لما تتلفظون به من أقوال وأيمان، عليم بما وقع في قلوبكم من مقاصد ونيات.

ومِن ثَمَّ بَيَّنَ أنه تعالى لا يحاسب العبد على يمين اللَّغْوِ، وهو الحلف الذي يجري على اللسان على سبيل العادة، دون قصد من صاحبه إلى اليمين الشرعية، كأن يقول: واللَّهِ لَتَأْكُلَنْ، واللَّهِ أريدُ كذا أو كذا ...إلخ، فهذا وأضرابه لا حنث فيه ولا كفارة. وإنما يحاسب اللَّه العبد ويؤاخذه على عزائم الأيمان، وما عقد عليه نيته من القَسَمِ الغليظ. فقال سبحانه: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾، وكَسْبُ القلبِ ههنا: هو عَمْدُهُ وقَصْدُهُ، الذي انعقدت عليه نيته، كما قال سبحانه: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ ﴾ [المائدة: ٥٨]. ثم قال في آخر آية البقرة ههنا: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي: واللَّه غفورٌ لِمَا سبق به اللسان من غير العمد، ولما تاب منه العبد من اليمين الكاذبة. وهو تعالى حَلِيمٌ بعباده، لا يكلفهم ما يشق عليهم، إذْ عَفَا لهم عن يمين اللغو، وأمهل المتعمد العاصي عساه يتوب.

وهذا كله بيانٌ لأدب الْحَلِفِ باللَّه عمومًا، وهو - في الوقت نفسه - تمهيدٌ لبيان حكم الحلف على الزوجة بالهجران خصوصًا. وهو الإِيلَاءُ. ومعناه في اللغة: القَسَمُ والْحَلِفُ، يقال: آلَى الرجلُ أن يفعل كذا، يُؤْلِي، إيلاءً، وَأَلِيَّةً: إذا حَلَفَ وأَقْسَمَ. وهو في الاصطلاح الشرعي: الْحَلِفُ على هجران الزوجة في الفراش، وعدم مضاجعتها. سواء كان ذلك إضرارًا أو تأديبًا. وقد ثبت إيلاءُ النبي ﷺ من أزواجه على سبيل التأديب. فعن أنس بن مالك ﷺ قال: (آلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا، وَقَعَدَ فِي مَشْرَبَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّكَ آلَيْتَ عَلَى شَهْرٍ! قَالَ: **إِنَّ الشَّهْرَ يكون تِسْعًا وَعِشْرِينَ**) (١). وقد جرى اصطلاح الفقهاء بَعْدُ على أن المسمى (إيلَاءً) إنما يكون فيما إذا كانت مدة الهجران المقسم عليها أربعة أشهر فأكثر (٢). وهذا بيان حكمه الشرعي:

---

(١) رواه البخاري. ومتفق عليه على مثله من حديث عائشة وأم سلمة.

(٢) اختلف الفقهاء في كثير من أحكام الإيلاء. ومن ذلك اختلافهم في مُدَّتِه. فالجمهور على أنه لا يُسَمَّى « إيلاء » إلا بمضي أربعة أشهر، وتأولوا حديث البخاري أعلاه بأن الإيلاء المذكور فيه إنما هو بالمعنى اللغوي لا الاصطلاحي، كذلك قال ابن حجر في الفتح والنووي في شرح مسلم. وخالفهما الشوكاني في نيل الأوطار، معتبرًا إيَّاه إيلاء حقيقيًّا، ومبينًا أن الآية إنما تحد المدة القصوى للإيلاء، ولا حد =

قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ . فقد حَدَّ اللَّه تعالى لمن آلَى على زوجته مدة أربعة أشهر، فإن استوفاها وجب عليه آنئذ الفَيْءُ، وهو الرجوع إلى مباشرة زوجته؛ ولذلك قال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غفورٌ لما سلف من الزوج من قصد الإضرار بتعديه الأربعة أشهر، رحيم بالزوجة إذ حفظ لها حقها بإيقاف زوجها عن الإيلاء. فإن هو أبَى ألزمه القاضي الطلاق! وإنما شرع اللَّه - جل ثناؤه - هذا الحكم؛ حفظًا لحقوق الزوجة، ومنعا لإضرار الزوج بها؛ ولذلك قال في ختام الآية:

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾، أي عليم بما وقع من الزوج من إيلاء، وبما عقد عليه نيته من الإضرار. سميع لما نطق به من يمين، ولما يمكن أن ينطق

= فيها لأدناه. قلت: وهو كلام وجيه جدًا. وهو رأي الإمام الطاهر ابن عاشور أيضًا في تفسيره لآية الإيلاء في التحرير والتنوير. وهو ما رواه الطبري (عن سعيد بن المسيب: أنه إن حلف رجل أن لا يكلم امرأته يومًا أو شهرًا، قال: فإنا نرى ذلك يكون إيلاءً. وقال: إلا أن يكون حلف أن لا يكلمها، فكان يمسُّها فلا نرى ذلك يكون من الإيلاء). (تفسير الطبري (٤/٤٦٣) . وهو قول الحسن البصري وإسحاق. وهو مذهب الإمام البخاري، كما قاله ابن حجر في الفتح؛ لأنه أورد حديث إيلاء النبي ﷺ في باب واحد مع آية الإيلاء، وجمع بينهما، جاعلًا هذا من ذاك.

والسبب في هذا الخلاف إنما هو الاختلاف في علة الإيلاء، أهي الإضرار فقط أم قصد التأديب أيضًا، فالجمهور على أن الإيلاء إنما يكون للإضرار؛ ولذلك كره الشراح تسمية إيلاء النبي ﷺ من نسائه شهرًا « إيلاء » بالاصطلاح الفقهي؛ لكون هذا فعلًا مذمومًا عند الفقهاء! وكأنهم فهموا ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾؛ لأن المغفرة إنما تتعلَّق بما فيه إثم. لكن العبارة إنما هي مُتعلِّقة بمن تجاوز الأربعة أشهر، فيكون آنئذ مضارًا. ولو كان الإيلاء محرمًا بإطلاق لما أجاز اللَّه تعالى الاستمرار فيه إلى حد أربعة أشهر، ولحرم منه اليوم واليومين! ولكون الحِكَم والنيات غير منضبطة في تعليل الأحكام الشرعية؛ فقد حدَّ تعالى أربعة أشهر في الإيلاء على الإجمال، سواء كان بقصد التأديب أو الإضرار؛ لأن ذلك لا يتبين للحاكم إلا ببرهان مادي وهو المدة.

ولا خلاف في أن من امتنع عن مضاجعة زوجته لعذر شرعي كمرض أحدهما، أو تلافيًا للحمل في مدة الرضاع، أو نحو ذلك لا يسمى إيلاء. وقال بعضهم: إن استيفاء مدة الإيلاء تقع بمجرده طلقةٌ بائنة، وهو مذهب أبي حنيفة. وقال الجمهور: بل يوقف المولي بعد أربعة أشهر، فإن فاء فإن اللَّه غفور رحيم؛ وإلا ألزمه القاضي الطلاق، فإن أبى طلقها عليه! وقيل: هي طلقة رجعية، وقيل: بل بائنة. إلى غير ذلك من الخلافات والتفريعات التي لا نرى لها محلًا في مثل هذا الكتاب. فليراجعها من شاء في كتب الفقه والخلاف العالي.

به من ألفاظ الطلاق؛ فلا يحسبن أحد إن خدع القاضي، أو زوجته؛ أنه يستطيع خداع اللَّه ﷻ !

وهذه المواعظ في التشريع الإسلامي هي المعوَّل عليها في الوفاء بحدود اللَّه، قبل قضاء القاضي وعقوبته. وهي سر نجاح الشريعة الإسلامية في ضبط المجتمعات البشرية، على اختلاف أجناسها وبيئاتها ولغاتها. فسبحان الذي يعلم أسرار النفس الإنسانية؛ فأنزل لها من التشريع ما عجزت عقول الفلاسفة وعلماء الاجتماع عن إدراك أسراره!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في **ثماني رسالات** نلخِّصها فيما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الإيمان هو سَدَى النسيج الاجتماعي في الإسلام، وهو أساس البناء الأسري. فالإسلام قد نقل مفهوم الزواج من معنى العادة إلى معنى العبادة، وجعل عَقْدَهُ ميثاقًا إيمانيًا غليظًا، وقدَّس العلاقة الزوجية تقديسًا، ورقَّاها من المستوى البَهَمِيِّ إلى المستوى التعبُّدي، وجعل الفضاء الأسري محرابًا لطاعة اللَّه، وجعل خدمة الزوجين بعضهما لبعض من أعظم مراتب التعبُّد. ومِن ثَمَّ ألزم المسلمين شَرْطَ الإيمان في الزواج؛ حيث لا إمكان لتحقيق كل هذه المعاني الرفيعة إلا بوجوده في الطرفين. فالأسرة المؤمنة هي القلب الذي يضخُّ الإيمان في المجتمع، والزوجان هما الشِّرْيَانَانِ المسؤولان عن وصل الأبناء بدين الأمة. فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانه أَوْ يُمَجِّسَانه!** » (١). وزاد فيه مسلم: « **فَإِنْ كَانَا مُسْلِمَيْنِ فَمُسْلِمٌ** » (٢).

ومِن ثَمَّ كان فساد دين أحد الزوجين كفساد أحد شرايين القلب!

الرسالة الثانية: في أن جمال الروح هو الجمال الذي لا يبلَى، والكنز الذي لا يفنى! ولا يزيده تقدم السن إلا بهاءً. ذلك أن المؤمنة إذا تعلَّق قلبها باللَّه انعكست عليها أنوار الأسماء الحسنى، ففاض نور الرضا على وجهها، وكانت مثالا للحُسْنِ الْحَيِيِّ، والجمالِ البَهِيِّ، والخُلق الصافي النقيِّ! ومِن ثَمَّ كان جمال الدين هو أول

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

ما يُراعَى في اختيار الزوجة. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **تُنكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ!** »[١]، وقال ﷺ « **الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْـمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ** »[٢].

الرسالة الثالثة: في أن زواج المسلم بالكتابية لا يحل إلا بخمسة شروط، فرضتها ظروف العصر الجديد وطبيعته، وهي:

أولها: أن تكون المرأة كتابية حقًّا؛ لأن كثيرًا من نساء الغرب اليوم تخلُّوا عن النصرانية، وصاروا ملاحدة. والملحدة لا يجوز تزوُّجها بأي حال من الأحوال.

الثاني: ألا تكون عديمة الغيرة على عرضها. ومعلوم أن الثقافة الغربية اليوم قد خرَّجت أجيالًا منهم بلا غيرة. فكثير منهم لا يرى الزنى إثمًا ولا عيبًا! والمسلم لا يتزوَّج زانية إلا أن تكون قد تابت. قال سبحانه: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣]؛ ولذلك منع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عُمَّالَهُ من تزوُّج الكتابيات. فعن شقيق، قال: (تَزَوَّجَ حُذَيْفَةُ ﷺ يهوديةً فكتَب إليه عُمَرُ ﷺ: خَلِّ سبيلَها! فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلِّي؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تَعَاطَوْا الْـمُومِسَاتِ منهن!)[٣]. والْـمُومِسَةُ: هي الزانية.

والثالث: ألا يكون موظفًا في أمر من أمور الدولة، وألا يكون مكلفًا بأمر من أمور الدين فيه أسرار للدعوة والدعاة؛ لما يخشى من خيانة الزوجة الكتابية، وأن تكون قد تزوجته لغرض التجسس على المسلمين، وقد وقع بسبب ذلك هزائم وأضرار للمسلمين قديمًا وحديثًا. وهو معنى من المعاني التي منع عُمَرُ من أجلها حُذَيْفَةَ ابْنَ الْيَمَانِ من تزوُّج يهودية، وقد كان عاملًا له على المدائن.

الرابع: أن تكون شخصيته التربوية والدينية أقوى من شخصيتها؛ حتى يضمن سلامة دين أبنائه ونشأتهم على الإسلام، وإلا حوسب على ذلك.

الخامس: أن يسكن في ربوع الوطن الإسلامي؛ فذلك أقوى له عليها، وعسى

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبري والبيهقي وعبد الرزاق في مصنفه، وقال ابن كثير عن رواية الطبري: « وهذا إسناد صحيح ».

أن تتأثَّر هي بالإسلام فتُسْلِم، أو على الأقل أن يحتمي أبناؤه من دينها ببيئتهم الإسلامية، تربيةً وتعليمًا.

الرسالة الرابعة: في أن المباشرة المبنية على التطهر وقصد التحصين وإنشاء الأرحام - أو على بعض ذلك - عبادةٌ. وأن كُلًّا من الزوجين مأجور على ذلك. وقد ذكره رسول الله ﷺ في سياق التسبيح، والتهليل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال عليه الصلاة والسلام: « **إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْـمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِـي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِـي حَرَامٍ؛ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِـي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا!** »(١).

الرسالة الخامسة: في أن القَسَمَ بالله أمرٌ عظيم! فالله ﷻ هو ربنا وربُّ العالمين! فلا ينبغي استعمال اسمه تعالى في القسم على كلِّ ما يعن للقلب من الأمور، وفي كلِّ ما يجري على اللسان من الأقوال. وأما اليمين الظالمة الفاجرة، التي يقصد بها صاحبُها أَكْلَ مالِ أخيه بالباطل؛ ظلمًا وعدوانًا؛ فهي اليمين الغَمُوسُ التي تغمس صاحبَها في النار! قال عليه الصلاة والسلام في بيان بعض الكبائر: « **الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ!** »(٢) وقال أيضًا: « **مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ؛ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ!** »(٣) ويمين الصبر: هي اليمين التي تطلب من الإنسان عند الخصام، أو التي يُلزمه بها القاضي. فلا يكون جزاء الكاذب فيها متعمدًا إلا النار والعياذ بالله! ولو كان أَكَلَ بها قَدْرَ جناحِ بعوضة من المال الحرام! قال عليه الصلاة والسلام: « **مَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللَّهِ يَمِينَ صَبْرٍ، فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ؛ إِلَّا جُعِلَتْ نُكْتَةً فِـي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!** »(٤) وفي رواية ابن حبان: « **إِلَّا كانتَ كَيَّةً في قَلْبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** »(٥).

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن حبان، والحاكم، والطبراني في الكبير والأوسط، والبيهقي في الكبرى؛ عن عبد الله بن أنيس مرفوعًا. وحسنه الألباني في صحيح الجامع وصحيح الترغيب.

(٥) حسَّنها الألباني ضمن الرواية السابقة.

وإنه لا يقسم بالله على كذب أو ظلم إلا جاهلٌ بالله! ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

الرسالة السادسة: في أن الحلف على فعل المعصية معصيةٌ، وكذلك الحلف على ترك الطاعات، أو الإضرار بالأهل والزوجات، أو على قطع صلة قرابة من ذوي الأرحام، كأن يقول: والله لا أزور عمَّتي! أو أبي! أو والله لا أكرم زوجتي! أو والله لا أتصدَّق على أحد! أو غير ذلك من أيمان المعاصي والآثام؛ ولذلك ألزم النبي ﷺ من فعل مثل ذلك أن يحنث ويُكفِّرَ عن يمينه. فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **وَاللَّهِ لَأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ!** »[١] ومعنى (لَجَّ) من اللِّجَاجِ: وهو الإِصْرَارُ والعِنَادُ. والحديث دالٌّ على أن البقاء على يمين المعصية والإضرار بالأهل إثم كبير، وأن على العبد أن يتحلَّل من يمينه تلك ويُكَفِّرَ عنها؛ ولذلك قال ﷺ: « **إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا!** »[٢]. وقال ﷺ في وصيته لعبد الرحمن بن سَمُرَةَ ﷺ « **وإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ!** »[٣] ثم قال - عليه الصلاة والسلام - على سبيل العموم والشمول: « **مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ!** »[٤].

الرسالة السابعة: في أن العبرة في الشريعة من الأقوال، بما وقع في القلب وصَدَّقَهُ اللسان، وأن ما يسبق به اللسان عن غير قصد فمعفوٌّ عنه. كما حكاه النبيُّ ﷺ في مَثَلِ الذي أَضَلَّ ناقتَه في الصحراء، فلما وجدها قال: (« **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ!** » **أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ!**)[٥] فرغم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي الكفر، فهو معفو عن صاحبه؛ لعدم القصد إلى المعنى السيئ، بل هو معدود من الشاكرين الحامدين؛ لأن ذلك هو قصده ونيته. والأمور بمقاصدها. وعلى ذلك تجري أيمان اللغو والخطأ والسهو، وما في معناها.

(١ - ٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.

الرسالة الثامنة: في أنَّ الإيلاءَ وَسِيلةٌ تأديبية، لا يجوز للمسلم أن يستعملها للإضرار بزوجته. وإنما هي رسالة تربوية للتعبير عن عدم رضاه عنها. فإذا وصلت الرسالة وظهر أثرها التربوي حَسُنَ به الفيء إلى زوجه قبل نهاية مدة الأربعة أشهر، ويكفِّر عن يمينه. فإن استوفاها أُلزم بمباشرتها، وإلَّا طُلِّقَتْ عليه بشكواها.

وأما المرأة فعليها أن تتلقَّى رسالة الإيلاء بالتوبة من إغضاب زوجها، والسعي إلى مصالحته. فطاعة الزوج المؤمن من طاعة الله، وإرضاؤه إرضاءٌ لله. ويكفي في وجوب طاعة المرأة لزوجها قول رسول الله ﷺ: « **لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا! وَلا تُؤَدِّي الْـمَرْأَةُ حَقَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا كُلَّهُ حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا عَلَيْهَا كُلَّهُ! حَتَّى لَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ لَأَعْطَتْهُ إِيَّاهُ!** »[1].

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسلك الارتقاء بالأسرة إلى مقام الأسرة المسلمة الناجحة الصالحة، فهو مبني على **ثلاث مجاهدات**، يُطلب الدخول فيها من كلا الزوجين. وهي:

الأولى: مجاهدة النفس على التخلُّق بصلاح الدين. فإن قدَّر الله أن الزواج قد حصل قبل توبة أحدهما أوكليهما؛ فالانتقال إلى مقام الصلاح ممكن بإذن الله في كلِّ وقت وحين. وقد أَسْلَمَتْ كثير من الأسر زمن النبي ﷺ فانتقلت بتوفيق الله من حضيض الجاهلية إلى أعلى مقامات الإيمان، وكانت مثالًا في صلاح العشرة، وتربية الأبناء. ومن هنا كانت مجاهدة النفس على الترقِّي بمراتب الإيمان أول خطوة لتحقيق نجاح الأسرة. فالدين هو عصا موسى التي تضرب حجر القلوب فيتفجَّر ماءً زُلالًا! فالإيمان إذا خالطتْ بشاشتُه قلبَ عبدٍ - مهما كانت غلظته وجهالته - حَوَّلَتْهُ إلى إنسان وديع الطبع، طيب المعشر، سريع الألفة.

الثانية: مجاهدة النفس للتحقُّق بخلق الرفق واللين. وهو أمر من لوازم الدين.

---

(١) القَتَبُ: رَحْلُ الجَمَلِ الذي يُسرج عليه توطئةً لراكبه. والحديث رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي. وقال الألباني: في السلسلة الصحيحة عن رواية أحمد: « وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم ». كما صححه في صحيح الترغيب، وصحيح سنن ابن ماجه. بينما قال الأرناؤوط في تحقيق المسند: « حديث جيد ».

بل من أهم آثاره ونتائجه. لكن كثيرًا من الناس بجهلهم فرَّقوا بينهما. فبعضهم ظن الفظاظة والعبوس علامة التدين المتين، والالتزام المكين! وما هو والله إلا نقيضه على التمام! ولا نجاح لأسرة كان أحد طرفيها على مثل هذا الخلق المشين! وقد تواترت معاني الأحاديث في الحضِّ على الرفق واللين والخلق الحسن الجميل. منها قول النبي ﷺ: « **إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِـي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ!** »[1] وقال عليه الصلاة والسلام: « **إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ!** »[2] وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْـخُشَنِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا! وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلاقًا! الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ!** »[3] والْمُتَفَيْهِقُونَ: هم المتكبرون. وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « **أَكْمَلُ الْـمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلاقًا، الْـمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لا يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ!** »[4] وفي رواية: « **وَلا خَيْرَ فِي مَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ!** »[5].

ولا شك أن الأسرة - زوجًا وأبناءً - هي أول من يحق له الاستفادة من حُسْنِ خُلق الزوج. لقول النبي ﷺ: « **خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ؛ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي** »[6].

الثالثة: مجاهدة النفس على الوقوف عند حدود الله في المعاشرة الزوجية خصوصًا، وفي سائر الأقوال والأفعال عمومًا. فمن كان في معاشرة زوجه توَّابًا متطهرًا، لا يقرب مواطن الشذوذ منها ولَا الأَقْرَاءَ والنجاسات، وكان في مقاصده

(١، ٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وابن حبان في صحيحه. وصححه الألباني في صحيح الجامع وفي صحيح الترغيب. كما حسنه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والصغير، والبيهقي في الشعب. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، بينما حسنه في صحيح الجامع.

(٥) رواه الطبراني في الصغير. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٦) رواه الترمذي وصححه، وابن حبان، والدارمي، والبيهقي في الشعب، كلهم عن عائشة. كما رواه ابن ماجه، وابن حبان عن ابن عباس. ورواه الطبراني عن معاوية. وصححه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، والمشكاة. وقال في السلسلة الصحيحة عن رواية الترمذي: صحيح على شرط الشيخين.

من المتعبدين؛ بارك اللَّه له في أسرته، وأصلح له أهله وولده؛ ولذلك يحسن بالمسلم أن يقدم بين يدي مباشرته البسملةَ والدعاء. فقد ثبت أن النبي ﷺ قال: « **لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: « بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا!** » **فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا!** »[1] وفي هذا وذاك ما فيه من تغذية العلاقة بين الزوجين بمعاني التعبد، والسمو الروحي النبيل.

فهذه المجاهدات الثلاث كفيلة - بعد اللَّه تعالى - بتحقيق جو التعبد في الروابط الأسرية، ورفع علاقات الرَّحِمِ إلى مراتب التقديس، أُبُوَّةً، وأُمُومَةً، وبُنُوَّةً، وخُؤُولَةً، وعُمُومَةً...إلخ. وبذلك ترتقي الأسرة إلى أعلى مراتب النجاح، وتتحقَّق بمقاصد الشريعة في إنشاء الأرحام، وتنهض بما وُكِلَ بها من وظائف نبيلة، في تغذية الأمة بالموارد البشرية الصالحة؛ مما يرسِّخ شخصيتها الحضارية، ويقوي جبهتها في التدافع العالمي، ويجعلها شاهدةً على الناس.

* * *
* *
*

---

(١) متفق عليه.

المجلس الثلاثون

في مقام التلقي لأصول بناء الأسرة المسلمة وإنشاء الأرحام
وما يترتب عن ذلك كله من حقوق وواجبات

الدرس الثاني: في حدود الطلاق ومقاصده الإصلاحية

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

٢ - البيان العام:

كان الحديث عن الإيلاءِ - بالمجلس السابق - مقدمةً للحديث عن الطلاق؛ لأنه نتيجة محتملة من نتائجه من جهة؛ ولأنه درس من دروس التشريع الأسري في الإسلام من جهة ثانية.

فالطلاق حَدٌّ من حدود اللّه التشريعية، وآيَةٌ من آياته الاجتماعية، وآلة جراحية لعلاج العلاقات الأسرية السقيمة؛ ولذلك لا يلتجئ إليه المؤمن الصالح إلا لمقصد صالح! وليس الطلاق في عمقه القرآني جَهْلَةً يجهلها الزوج أو ثَوْرَةً يثورها! كلا! ولا هو نقمة ينقمها أو غضْبةٌ يغضبها! وإنما هو قرارٌ هادئ حكيم، تسبقه استشارات واستخارات، وخطوات علاجية كثيرة. فهو جراحة طبية للعلاقات الاجتماعية، وعلاج إيماني للنفس الإنسانية، سواء نفس الزوج أو نفس الزوجة. وهو إصلاح اجتماعي للأسرة؛ يُتَلَافَى به من المفاسد في الدين والدنيا ما هو أرجح من البقاء على عقد الزواج! ومِن ثَمَّ جعل اللّه الطلاق تصرفا تربويًّا حكيمًا؛ لا يزيد الزوجين المنفصلين إلا صلاحًا في الدين، وحرصًا على حفظ حدود ربِّ العالمين. فهو ﴿ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ ... ﴿٢٢٩﴾ ﴾؛ طلبًا لتقوى اللّه، إذا تعذر طلبها بزواجٍ لم يُبنَ على أساس متين. ذلك أصل تشريع الطلاق في الإسلام، فمن خرج به عن مقاصده الشرعية كان من الظالمين.

ونلخِّص هنا حقيقة الطلاق الشرعي، وما حدَّ اللّه فيه من حدود، على ما هو وارد في هذا السياق من سورة البقرة. وقد قدَّم اللّه - جلَّ ثناؤه - ههنا الحديث عن الحقوق المتعلِّقة بالنسل؛ لأنه المقصود الأصلي من الزواج الذي كان. قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ﴾. ففرض سبحانه على المطلقات من الزوجات المدخول بهن، من ذوات الحيض، أن يتربَّصن بأنفسهن ثلاثةَ قُرُوءٍ، أي تنتظر إحداهن من يوم الطلاق مدةَ ثلاث حيضات، تعتد بهن على التمام عِدَّةً قبل أن تَبِينَ من زوجها (١)؛ لِمَا له من حقِّ المراجعة خلال تلك المدة. حتى إذا انتهت العِدَّةُ دون مراجعته بَانَتْ منه وتمَّ الفراق؛ وجاز لها حينئذ أن تستقبل الْخُطَّابَ غيره. فإن عاد إليها زوجها الأول فلا يكون ذلك إلا بخطبة جديدة ومَهْرٍ جديد.

---

(١) بَانَتِ المرأةُ من زوجها بَيْنُونَةً: إذا تمَّ طلاقها بنهاية عدتها، وفقد الزوج حقَّ المراجعة المخوَّل له خلال العدة؛ فصارت أحق بنفسها، تتزوج من شاءت غيره. فإن رغب فيها من جديد؛ خطبها من جديد، وتزوجها - إن قَبِلَتْ - بعقدٍ جديد. ولها أن تتزوج غيره إن شاءت. والبَيْنُونَةُ نوعان: صغرى وكبرى. فالصغرى هي ما ذكرنا. والكبرى: هي ما بعد الطلقة الثالثة.

وقد اختلف العلماء في معنى القُرْءِ، اختلافًا يترتب عنه اختلاف في الأحكام؛ بسبب كون القُرْءِ في اللغة بمعنى: الوقت. وهو بهذا مشترك الدلالة بين الحيض والطهر؛ لأن كلًّا منهما وقت. فذهب مالك والشافعي وأبو ثور وغيرهم إلى أن القُرُوء هي الأطهار. وهو مروي عن عائشة، وزيد بن ثابت، وعبد اللّه بن عمر. وذهب أبو حنيفة والثوري والأوزاعي إلى أنها الحيضات. وهو مروي عن عدد من الصحابة أيضًا منهم عمر وعلي وابن مسعود. واختلفت الرواية في ذلك عن أحمد ابن حنبل. والفرق بين المذهبين هو أن من رأى أن القُرُوء هي الأطهار؛ رأى أنه إذا دخلتِ المطلقةُ الرَّجْعِيَّةُ في الحيضة الثالثة لم يكن للزوج عليها رَجْعَةٌ، وحَلَّتْ للخُطَّاب. ومن رأى أنها الحيضات لم تحل عنده حتى تنقضي الحيضة الثالثة [1].

وربما كانت المطلَّقة حاملًا؛ فحرَّم اللّه عليها كتمان الحمل، كما حرَّم عليها كتمان حالها من الحيض أو الطهر؛ لِمَا في قول الحقيقة والتصريح بها من ضمان لعدم اختلاط الأنساب، وضمان لحقوق الزوج المطلِّق من الرجعة في مدة العدة. فربما تكتم شيئًا من ذلك؛ رغبةً منها في تقصير مدة العدة، أو رغبةً في تطويلها؛ طلبًا لمصلحة من مصالحها الشخصية على غير الوجه المشروع! فربما عمدتْ إلى تقصير العدة؛ بقصد الزواج بمن ينتظرها من الرجال. وربما عمدت إلى تطويلها - وقد بانت - رغبة في العودة إلى الزوج الأول، أو رغبة في إثقال كاهله بنفقة زائدة على الحدِّ المشروع. وكل ذلك تَعَدٍّ على حدود اللّه؛ لما فيه - في حال تقصير العدة - من تضييق على حقِّ الرجعة للزوج المطلِّق، وتعرضها للخُطَّاب قبل نهاية عِدَّتها، ولما فيه من احتمال اختلاط الأنساب، إن هي أخفت حملها الحديث العهد. ثم لما فيه - إن هي أطالت المدة بكتمانها - من احتمال رجعتها للزوج الأول - وقد بانت منه - بلا مهر ولا عقد زواج! وغير ذلك من المفاسد المحتملة. ومِن ثَمَّ فقد أوكل اللّه ذلك إليهن، وأناط التصريح فيه بإيمانهن، وتوعَّدهن بجزاء اليوم الآخر؛ إن هن كتمن الحقيقة، أو قلن كذبًا وزورًا! فذلك كله قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾.

---

(١) بداية المجتهد لابن رشد (٢/٧١، ٧٢).

ثم قال ﷻ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾. والبُعُولَةُ: جمع بَعْلٍ، وهو الزوج. والآيةُ ضمانٌ لحقِّ الزوج المطلِّق بارتجاع زوجته ما دامت في عِدَّتها، ولم تَبِنْ منه بَيْنُونَةً صغرى أو كبرى؛ إذا كان يريد بارتجاعها الخير والإصلاح، لا الإضرار بها. وللنساء على الأزواج مثل ما للأزواج على النساء، من حُسْنِ التَّبَعُّلِ، وصدق التودد، وإخلاص المحبة، وإحسان العِشْرَةِ والمعاملة. ثم على الرجل أن يؤدِّي ما فرض اللَّه عليه من حقوق زوجته بالمعروف، كما أن على المرأة أن تؤدِّي ما فرض اللَّه عليها من حقوق زوجها بالمعروف. لا ضرر ولا ضرار. ثم أخبر تعالى بأن للرجال عليهن درجةً. وهي درجة الكدح والقوامة والإدارة للأسرة. ويدخل فيها تحمل تكاليف شرعية زائدة، أعفيت منها المرأة، كالقتال في سبيل اللَّه!

ثم ذَيَّلَ سبحانه الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾؛ مُنَبِّهًا على قدرته ﷻ على عقاب كلِّ من تعدَّى حدوده، وانتهك حرماته التشريعية عمومًا، والأسرية منها خصوصًا؛ لِمَا لهذه على وجه الخصوص من أثر كبير على صلاح المجتمع وفساده! وهو تعالى حكيمٌ في كلِّ ما حَدَّ وشَرَعَ، لا يفرض شيئًا على الناس ولا يحظره إلا لحكمة عظيمة، عَلِمَهَا من علمها، وجهلها من جهلها.

ثم رجع على الرجال بضبط فُرَصِ الطلاق عليهم؛ حَدًّا من إمكانات الإضرار بالنساء؛ فقال سبحانه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ ﴾. ذلك أن الطلاق في الجاهلية كان غير منحصر بعدد. فكان الرجل إذا أراد الإضرار بزوجته طلقها، حتى إذا أوشكت عدتها على الانتهاء ارتجعها، ثم يفعل ذلك مرارًا كثيرة، لعدة سنوات! فتبقى المرأة معلقة، لا هي بزوجة تتمتع بحقوق الزوجية، ولا هي بمطلقة بائنة تتزوج رجلًا آخر! (١) فأنزل اللَّه الآية حدًّا لهذه الفوضى، وصيانة لحقوق الزوجات. فجعل فرصة التطليق والرجعة مرتين فقط! والثالثة تَبِينُ منه بَيْنُونَةً كبرى؛ بحيث لا تصلح له بعد ذلك حتى تتزوَّج رجلًا غيره، زواجًا شرعيًّا صحيحًا، بقصد الدوام والاستمرار، ثم يطلقها طلاقًا شرعيًّا صحيحًا! فآنئذ فقط يمكن للزوج الأول أن يخطبها، ويتزوَّجها بعقد شرعي إن قبلت! فانتهت بذلك فرص الإضرار

---

(١) تفسير الطبري للآية.

والتلاعب بالطلاق والرجعة، ولم يعد للزوج إلا أن يمسك زوجته بمعروف، ويتَّقِي اللَّه في معاملتها؛ أو أن يفارقها بإحسان؛ مؤدِّيًا كل ما لها عليه من حقوق، غير منتقص شيئًا من كرامتها المادية والمعنوية.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ وذلك أن من مقاصد الإضرار بالزوجة الضغطَ عليها؛ حتى تتنازل عن حقوق الطلاق! أو تطلب الْخُلْعَ بسبب شقاقه لها؛ فتدفع له تعويض الفراق بدل أن يدفع لها! وهو إثم كبير، وظلمٌ مُبِيرٌ..! ومِن ثَمَّ حرم على الرجال أخذ شيء مما دفعوه لزوجاتهم المطلقات في الصداق أو غيره. فمن فعل ذلك أكل سُحْتًا! اللَّهم إلا أن تكون الزوجة قد أبغضت زوجها لغير عيب في خُلُقِهِ ودينه، ولم تستطع الانسجام معه لاختلافٍ الطباع والأذواق، ونحو ذلك من المعاني النفسية، والعواطف الوجدانية، التي قد تتأجج سلبًا إلى درجة أن تكره مضاجعته، وتجد نفسها مكرهة نفسيًّا على عصيانه، وربما خافت على نفسها التفكير في غيره، وهي ما تزال في عصمته! وهذا وذاك هدمٌ لحدود اللَّه! فهاهنا أجاز الإسلام للمرأة أن تفارق زوجها بِعِوَضٍ تدفعه له، تفدي به نفسها وتطلب صلاحها؛ فيأخذه مالًا حلالًا طيبًا. وهو المسمَّى عند الفقهاء بالْخُلْعِ، فيقع به طلاق بائن [1]. وهو قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ ﴾.

ثم قال سبحانه في ختامها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ ﴾ بمعنى أن ما شرع لكم من توقير الزوجات وعدم الإضرار بهن، وتحريم إكراههن على الخلع والتنازل عن حقوقهن، والنهي عن أكل أموالهن بالباطل، كلها حدودٌ حدها اللَّه وأحكامٌ شرعها؛ لإصلاح دينكم ودنياكم؛ فلا تعتدوها ولا تخونوها! ولذلك قال بَعْدُ: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ

(١) ذهب مالك وأبوحنيفة والشافعي في الجديد إلى أن الخلع طلاق بائن. وخالفهم أحمد، والشافعي في القديم. وقالا: ليس بطلاق يعتدُّ به، بل هو فسخ. واتفقوا جميعًا على أنه لا رجعة للمخالع في العدة إلا برضاها؛ لأنها قد ملكت نفسها. بما بذلت له من الفداء. وله هو خاصَّة أن يتزوَّجها في العدة؛ لأن العدة إنما هي على غيره. بداية المجتهد (٢/٥٧).

﴿حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾ لزوجاتهم من جهة، ولأنفسهم من جهة أخرى؛ بما عرضوها لغضب اللَّه وعقابه!

ويضع اللَّه ﷻ مَعْلمًا آخر على منهج بناء الأسرة المسلمة، وحفظها من التسيُّب والضياع؛ فيجعل الطلاق الثالث نهايةً لعبث الزوج بهذا الحكم الشرعي الغليظ! ولا يجيز له الرجوع إليها إلا بعد زواجها من غيره، زواجا شرعيًّا صحيحًا بقصد الدوام والاستقرار، لا على سبيل التحليل الملعون! والتَّحَيُّلِ المأفون! حتى إذا طلقها الزوج الثاني لسبب من الأسباب، لا بقصد سابق تحيلًا؛ جاز للزوج الأول خطبتها، والعقد عليها من جديد بعد قبولها. وهذا احتمال ضعيف رغم إمكانه؛ ولذلك سمَّى العلماء التطليقة الثالثة بالبَيْنُونَةِ الكبرى! وهو قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾. فقوله في البداية: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الأول. وقوله في الثانية: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني. والضمير في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ وما بعدها، يعود على المرأة مع الزوج الأول. بمعنى فلا حرج عليهما أن يتصالحا ويتزوَّجا من جديد - بعد طلاقها من الزوج الثاني بما وصفنا من شروط - إن تَيَقَّنَا أن موانع النجاح التي كانت في الزواج الأول قد زالت الآن، وأنهما اليوم أقدر على إقامة حدود اللَّه في زواجهما الجديد؛ بحفظ دينهما، وتحصين أنفسهما، وإصلاح أبنائهما... إلخ. فتلك الأحكام جميعًا هي حدودٌ ومعالم، وضعها اللَّه على طريق الصلاح الأسري والإصلاح الاجتماعي، وبيَّنها بوضوح لأهل العلم؛ هُدًى للناس وإرشادًا.

ثم فَصَّلَ ما أجمله من تحريم الإضرار بالزوجات في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ كما بيَّنَّاه قبل، فأخرج المعنى من الإشارة إلى العبارة؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ وقد ذكرنا ما كانت عليه العرب في جاهليتها، وفي أول عهد الإسلام بالمدينة؛ من القصد إلى تطويل العدة على الزوجة؛ منعًا لها من المصير إلى زوج غيره؛ وذلك بارتجاعها في آخر عِدَّتها، ثم تطليقها، ثم ارتجاعها في آخر عِدَّتها مرة أخرى، بلا عدد محصور؛

فتبقى الزوجة هكذا مُعلَّقة أبدًا! فوضع اللَّه حدًّا لهذا المنكر؛ بحصره فرص الرجعة في طلقتين فقط! لكن من كان ضعيف الدين، سيئ الخلق؛ ربما ضَارَّ زوجته حتى بهذا العدد المحصور! فربما كان مُصمِّمًا على طلاقها فعلًا، لكنه رغم ذلك يطيل عليها المدة؛ باستيفاء الطلقتين ورجعتهما على التمام؛ فلا تتحَرر منه المرأة إلا بالطلقة الثالثة! ومِن ثَمَّ أمر اللَّه ﷻ الأزواج باتخاذ القرار المناسب عند نهاية العدة الأولى، إما الاسترجاع والإمساك بمعروف، أي بقصد التصالح والتصافي. وإما اتخاذ قرار الطلاق إذا كان هو الحل الأمثل، ومفارقة الزوجة بمعروف أيضًا، بعدم إكراهها على التنازل عما يترَّتب لها على الزوج من تعويضات، وتمتيعها بكافة حقوقها، المادية والمعنوية. وأما من اعتدى عليها فأمسكها ضرارًا، من غير رغبة صادقة فيها؛ فقد ظلم نفسه وأهلكها؛ بتعريضها لما لا طاقة لها به من عذاب اللَّه والعياذ باللَّه!

ومِن ثَمَّ حذَّر سبحانه من العبث بأحكامه وآياته الكريمة! لأن الضرار - بما وصفنا من أسلوب خبيث - هو تحيُّل على شرع اللَّه وعبث بأحكامه المحكمة! مُذَكِّرًا المسلمين بما كانوا عليه من الجهالة والضلال قبل الإسلام، ثم بما أنعم عليهم بعد ذلك من الهدى والنور؛ إذْ بعث فيهم محمدًا ﷺ يعلمهم الكتاب والسنة، ويعظهم بما فيهما من الحكمة؛ فضلًا منه تعالى ورحمةً؛ ولذلك فهم أجدر بتقوى اللَّه ﷻ وشكره على ما أنعم؛ بالصدق في طاعته، والإخلاص في عبادته. فذلك كله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ ﴾. إذ لا يخفى عليه شيء مما تكتمون أو تعلنون، من ضروب الخداع للنفس، والتحايل على أحكام اللَّه وشريعته.

وختم قضية الضرار بإرشاد أولياء المطلقات إلى عدم عَضْلِهِنَّ! والعَضْلُ: مَنْعُ الرَّجُلِ ابْنَتَهُ أو أُخْتَهُ المطلقةَ، البائنةَ بينونة صغرى؛ من الرجوع إلى زوجها الذي طلقها؛ انتقامًا منه! فأمَر اللَّهُ الأولياءَ بترك عَضْلِ المرأة إذا هي كانت راضية بالرجوع إلى زوجها، وكان الزوج صادقَ الرغبةِ فيها. وكلاهما نادم على ما فات من الأخطاء، عازم على تجديد الثقة باللَّه، واستئناف بناء الأسرة على هدى من اللَّه، وأساس متين من تقواه تعالى، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا

تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ... ﴿٢٣٢﴾﴾. وهذه الآية لها قصة وهي ما رواه الترمذي بسند صحيح، عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ ﷺ: (أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا مِن الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً لَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَت الْعِدَّةُ! فَهَوِيَهَا وَهَوَتْهُ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَّابِ! فَقَالَ لَهُ: « يَا لُكَعُ! أَكْرَمْتُكَ بِهَا، وَزَوَّجْتُكَهَا؛ فَطَلَّقْتَهَا! وَاللَّهِ لا تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا! آخِرُ مَا عَلَيْكَ! » قَالَ: فَعَلِمَ اللَّهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ الآية. فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ: « سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً! » ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: « أُزَوِّجُكَ وَأُكْرِمُكَ! ») [(١)].

والعجيب أنه خاطب الفريقين: الأزواج المطلِّقين وأولياءَ المطلَّقات بخطاب واحد؛ كأنهما فريق واحد، وأسرة واحدة؛ وفي ذلك إشارة إلى أن الأصل في مجتمع المؤمنين أنه جسم واحد، مَنْ خاصم أخاه المؤمن فيه؛ فكأنما خاصم نفسه! فتدبَّر قوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾.. الآية؛ فجعل المخاطَب جَمْعًا واحدًا، مع أن المطلِّقَ هو غيرُ العَاضِلِ! ولذلك ختم هذه الطائفة من الأحكام – على منهج القرآن التشريعي الثابت – بتثبيت ضمانات الاستجابة لحكم الله، وهي المناطات الوعظية التي تُعَلَّقُ بها أمانةُ حفظِ حدود الله وأحكامه جلَّ علاه، مذكِّرًا في ذلك مرةً أخرى بالله واليوم الآخر، وما يقع بالنفس المؤمنة من رَغَبٍ ورَهَبٍ عند ذكرهما. فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. وأي شيء أزكى للنفس من الإخلاص والصدق مع الله؟ وأي شيء أطهر لها من رعاية حقوقه تعالى والتزامِ هُدَاهُ؟ فمن التزم حدوده سَلِم، ومن اتبع معالمه غَنِم؛ لأنه تعالى أعلم بعباده، وبما يُصلح أنفسهم الأمَّارة بالسوء! ومن ذا عليم بطبائع الخلق وأسرار النفس سواه؟ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]. ألَا سبحانه وتعالى من ربٍّ حكيم عليم!

---

(١) رواه البخاري، والترمذي واللفظ له، وقال: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». كما رواه أبو داود في سننه، والنسائي في الكبرى، والطيالسي في مسنده، والبيهقي في الكبرى أيضًا، والطبراني في الكبير.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **ثماني رسالات** قرآنية، نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن عِدَّةَ المطلقة الرجعية - كما هي حق للزوج، وحفظٌ لنسله - هي حق للزوجة أيضًا، وفرصة لهما معًا لمراجعة أنفسهما ومحاسبتها. وهي دليل على ما ذكرناه من أن الطلاق تشريع تربوي علاجي، وليس تشريعًا انتقاميًّا، وأنه قرار هادئ حكيم، يتم على مراحل وعلى مَهَل؛ ولذلك فقد اشترط الشارع على الزوج ألا يوقع الطلاق على زوجته وهي حائض، تجنبًا للأحوال النفسية المضطربة، التي قد تصحب المرأة فترةَ الحيض؛ فتوتر العلاقة بين الزوجين. ولم يجز الطلاق إلا في طهر صحيح لم يجامعها فيه زوجها! وحديث عبد الله بن عمر في ذلك مشهور، قال ﷺ: (طَلَّقْتُ امْرَأَتِي عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ: « **مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيَدَعْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ حَيْضَةً أُخْرَى، فَإِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْهَا قَبْلَ أَنْ يُجَامِعَهَا، أَوْ يُمْسِكْهَا! فَإِنَّهَا الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ** ». [١] وهذا الترتيب المتمهل البطيء، تَنْزِيهٌ لقرار الطلاق من التسرُّع والاستعجال، وإخراج له من ضيق الظروف النفسية المتشنِّجة.

ولذلك أوجب الإسلام على الزوج استبقاء زوجته المطلقة في بيته، طيلة مدة العدة، وحرم عليه إخراجها، كما منعها من مغادرة بيتها من تلقاء نفسها، ولو إلى بيت أهلها! ذلك ما أجمله ههنا بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾ وهو ما فصَّله في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١]. ذلك أن إبقاء المطلقة ببيتها إلى جانب زوجها طيلة العدة، يطعمها مما يطعم، ويسقيها مما يشرب، ويكسوها مما يلبس؛ حقًّا واجبًا عليه، بلا ضرر ولا ضرار - إضافة إلى ما فيه من تبيُّن احتمالات الحمل - هو امتحان لجدية الطلاق، ولعزيمة القلب على الفراق!

---

(١) متفق عليه.

وفرصة للمراجعة ومحاسبة النفس بالنسبة لكلا الطرفين. فلربما ندم الزوج وتراجع عن قراره، ولربما ندمت الزوجة، وتخلَّت عن نشوزها وتَعَنُّتِها، فلانت لزوجها، وصالحته؛ وعادت المياه إلى مجاريها؛ ولذلك قال تعالى في آية الطلاق: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١].

الرسالة الثانية: في أن الأنساب مُقَدَّسَة في الإسلام، يمنع اختلاطها، ويحرم تدنيسها؛ لأنها أساس معرفة الأرحام، المأمور بتقواها في كتاب اللَّه؛ حفظًا وصلةً ورعايةً؛ ولذلك ألزم المطلقات والأرامل بالعدة، وهي وإن اختلفت مقاديرها، وتعدَّدت مقاصدها؛ فمن بينها التحقق من براءة الرحم من الحمل، أو التأكُّد من وجوده؛ فيلحق بنسبه الصحيح، وتثبت له حقوقه الشرعية؛ ولذلك حرَّم الإسلام التبني الذي يؤدِّي إلى إلحاق الأطفال بغير آبائهم وأمهاتهم. وهو ما بَيَّنَه اللَّه تعالى في قوله، قال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٤، ٥]. كما حرَّم انتساب المرء لغير والديه وهو يعلم، وكل ما يؤدِّي إلى اختلاط الأنساب. فعن سَعْد بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَأَبِي بَكْرَةَ ﵄ أن النبيَّ ﷺ قال: « **مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ؛ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ!** » [1] وهو سبب أيضًا من أسباب تحريم الزنى. ذلك أن الرَّحِمَ في الإسلام شجر مقدس طاهر؛ فلا يُغرس إلا بزواج طاهر.

الرسالة الثالثة: في أن الرجل هو المسؤول الأول عن الأسرة، وهو مديرها التربوي. والزوجة هي نائبته وسنده المعين. صحيح أن الزوجة مسؤولة عن إدارة بيتها، وراعية في مال زوجها، لكن المسؤولية الرئاسية هي للزوج؛ بما جعل اللَّه في الرجل من شخصية قيادية، ونزعة رئاسية؛ وبما فطر اللَّه النساء على المرؤوسية والتبعية. هذا هو الأصل في فطرة الذكر والأنثى. وقد يشذ من الرجال من لا يستطيع إدارة أسرته؛ فتتولَّاها الزوجة، كما قد يشذ من النساء من تترجَّل فترأس أسرتها، وربما رأست

---

(١) متفق عليه.

دولة! وهو في الاستقراء التاريخي - قديمًا وحديثًا - نادر وشاذ. ودونك الأمم الغربية التي تدَّعي مساواة المرأة للرجل في كلِّ شيء؛ فانظر ما نسبة رئاسة النساء للمؤسسات والحكومات! تجد أن القاعدة المطردة هي ما بين اللَّه - جَلَّتْ حكمتُه - في كتابه الكريم. فذلك كله من الهدى المنهاجي المكنون في قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾. فمن مقتضيات عِزَّته ﷻ أن مَنْ خالفه هديه تعالى؛ فجعل القيادة بيد المرأة في كلِّ شيء؛ ضلَّ وخسر. كما أن مِنْ مقتضيات حكمته سبحانه أن ما أسنده تعالى لكلٍّ من الرجل والمرأة من وظائف، على تنُّوع بينهما واختلاف؛ هو الأنسب للفطرة البشرية فيهما معًا، وهو الأوفق لجمال التكامل الإنساني، والنجاح الأسري. ذلك حكم اللَّه ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

الرسالة الرابعة: في أن العلاقات الاجتماعية في الإسلام مبنية على أساس من التقوى متين؛ فلا يهدمها طلاق ولا يخرمها شقاق! بل تبقى علاقة الأصهار بعد الطلاق - كما كانت قبله - محمية بسياج المعروف، محفوظة بضمان الإحسان! ولذلك وصف سبحانه الطلاق، فقال بأنه: ﴿ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ كما تدارسناه. وقال: ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١] ثم قال تعالى عن المنفصلين بالطلاق، فيما سيأتي بيانه - إن شاء اللَّه - من هذه السورة نفسها: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. وربما افترق الزوجان وبينهما بنُّوة مشتركة، فتستمر بينهما علاقةُ رَحِم مقدسة بصورة غير مباشرة. فلا تسوء مشاعر التقدير والاحترام، ولو اختلفت الطباع، وتعسَّرت العِشْرَةُ. ذلك أن ولاية الإيمان وأخوة الإسلام، ما كان لها أن تنقطع أبدًا، مهما كانت الظروف والأسباب! قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

الرسالة الخامسة: في أن أحكام الأسرة في الإسلام من حدود اللَّه العظيمة. حماها اللَّه ﷻ بنفسه، وجعل آياتها من أمهات وحيه، ومحكمات كتابه. فسيَّجها بحماه، وحرسها بحفظه! ثم توعَّد من حاول الاقتراب منها بالتلاعب والضِّرار، أو بالتحريف والتزوير! فقال مُهَدِّدًا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وقال مُحذِّرًا: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ ... ﴿٢٣١﴾ ﴾ ومِن ثَمَّ كانت نصوص القرآن وحدها أضمن حافظ للنظام الأسري الإسلامي، وأقوى حام لحدوده على الإطلاق. ولو أن الناس اشتغلوا بتدارس كتاب اللَّه تعالى؛ لَمَا كان لزنادقة الجمعيات النسوية التابعة للغرب بيننا من أثر، ولما كان لدعاة التحلُّل من أحكام اللَّه ﷻ في الأسرة؛ جرأة على ما هم به اليوم يجهرون! وما هم به يطالبون، من إلغاء العقد الشرعي في الزواج، وإباحة الزنى بين الخطيبين! وهدم نظام الإرث الشرعي! وغير ذلك من الطامَّات! فتسليط ضوء القرآن العظيم - بشعاع شاسع - على الناس؛ كفيل وحده بفضح خفافيش الظلام!

الرسالة السادسة: في أن الخلع حقٌّ للمرأة كما أن الطلاق حقٌّ للرجل؛ حفظًا لدينها، وصيانة لحقوقها النفسية والعاطفية! كما بيَّنَّاه من قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ ﴾ وقد أنكر قوم الخلع قديمًا وحديثًا، ولا حُجَّة لهم! فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ ابْنِ قَيْسٍ أَتَت النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟ » قَالَتْ: نَعَمْ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « اقْبَلِ الْـحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً! »)[(١)] وفي رواية له: (لَكِنِّي لَا أُطِيقُهُ!) وفي رواية ابن ماجه: (لَا أُطِيقُهُ بُغْضًا!)[(٢)].

وقولها: (وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ!) كناية لطيفة عن عدم حُبِّها لزوجها، وعن عدم استجابتها النفسية الصادقة له في الفراش، وكذا عن خوفها من تطلعها إلى غيره وهي في عصمته؛ وهو أدهى وأخطر!

وهذا نص مُفَسِّرٌ لكتاب اللَّه تعالى، قاضٍ بجواز الخلع، وجعله بيد المرأة، كما جعل الطلاق بيد الرجل تمامًا. وألزمها أداء تعويضه لزوجها، كما ألزمه تعويض الطلاق تمامًا. على تخفيف عنها بالمقارنة به؛ إذ حرم عليه الشارع الحكيم أخذ شيء مما أعطاها، إذا كان هو الذي طلق، وألزمه فوق ذلك أداء عوض المتعة؛ تعويضًا لها

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح سننه، وفي إرواء الغليل.

عن أضرار الطلاق! كما ألزمه النفقة عليها خلال العدة، وعلى أبنائها منه إلى سنِّ البلوغ. بينما لم يلزمها الشارع إذا هي اختلعت من زوجها إلا بإرجاع مقدار الصداق، ليس إلا!

الرسالة السابعة: في أن القصد إلى هدم الأسرة بالطلاق أو بالخلع؛ عَبَثًا وبغير سبب شرعي؛ ظُلْمٌ، وتَعَدٍّ لحدود الله! وكذلك مَنْ سعَى مِنَ الأولياء إلى منع استئنافها بالعضل، أو من أسهم في إيقاع الطلاق؛ بالنميمة أو بالوشاية ونحوها. ففي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: « **لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا!** »(١) ويلحق به مَنْ خَبَّبَ رَجُلًا على زوجته. والتَّخْبِيبُ: إيغَارُ الصدر بالكراهية، وإثارة الأحقاد والبغضاء. فهذا إنما هو فعل شيطاني خبيث! فعَنْ جَابِرِ بنِ عبد اللَّه ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْـمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً! يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا! فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْـنَ امْرَأَتِهِ! قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ؛ وَيَقُولُ: « نِعْمَ أَنْتَ! » فَيَلْتَزِمُهُ!** »(٢).

ولذلك حرَّم اللَّه على الزوجات استفزاز أزواجهن عند الخصام - والخِصَامُ العابِرُ أمرٌ طبيعي - بالمطالبة بالطلاق، أو بالسعي إلى الاختلاع؛ دون تَرَوٍّ ولا تفكُّرٍ؛ لِمَا فيه من العبث والسَّفَهِ! فعن ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **أَيُّـمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلاقَ فِـي غَيْرِ مَا بَأْسٍ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ!** »(٣) وعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **الْـمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ!** »(٤) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **الْـمُخْتَلِعَاتُ وَالْـمُنْتَزِعَاتُ هُنَّ الْـمُنَافِقَاتُ!** »(٥) ولعلَّ هذه النصوص وأضرابها

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في الشعب، وابن حبان، والحاكم، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح سنن أبي داود، والسلسلة الصحيحة. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، والدارمي، والطبراني في الأوسط، والحاكم وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في صحيح الترغيب، والإرواء، وصحيح الجامع، وصحيح سننهم.

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح سننه، وصحيح الجامع الصغير.

(٥) رواه أحمد، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى. كما رواه الطبراني في الكبير =

هي التي أوهمت المانعين للخلع ما ذهبوا إليه. وإنما هي مقيدة بمن فعل ذلك (فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ)، كما هو نصُّ الحديث. أي: في غير ما مفسدة تُدْرَأ. وهو طلاق العبث واختلاع السَّفَهِ، ولا خلاف في منع هذا.

الرسالة الثامنة: في أن تزوُّج الرجل المرأة ثم تطليقها؛ بقصد تحليلها لمن طلقها ثلاثًا؛ خبيثةٌ من الخبائث، وضربٌ من ضروب الزنى! ملعونٌ فاعلُه والمفعولُ له، على لسان رسول الله ﷺ! فعن عُقْبَة بْنِ عَامِرٍ ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْـمُسْتَعَارِ؟** » قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: « **هُوَ الْـمُحَلِّلُ! لَعَنَ اللَّهُ الْـمُحَلِّلَ وَالْـمُحَلَّلَ لَهُ!** » (١) وروي عن غير واحد من الصحابة: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ الْـمُحِلَّ وَالْـمُحَلَّلَ لَهُ!) (٢) وهي لعنة تدخل فيها ؟ ضِمْنًا - المرأةُ التي قبلت ذلك، وكل من سعى فيه وهو يعلم! وقد صحَّ في فتاوى الصحابة أنه: (جاء رجل إلى ابن عمر ﷺ، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا، فتزوَّجها أَخٌ له، من غير مؤامرة منه؛ ليحلَّها لأخيه! هل تـحلُّ للأول؟ قال: لَا! إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ! كنا نَعُدُّ هذا سِفَاحًا على عهد رسول الله ﷺ!) (٣) ولا يقبل ذلك في زوجته إلا رجلٌ ماتت غيرته، وانعدمت كرامته!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك هذا المجلس هو في بيان المنهج الكفيل بحفظ الأسرة من خطر الطلاق العابث أو الجهول، والخلع السفيه، مما لا مصلحة تجلب به ولا مفسدة تُدْرَأُ. وأما الطلاق الشافي من مخالفة حدود الله فهو قرار حكيم. وإنما مسلكنا هذا مُتعلِّق بما لا حكمة فيه. وهو الكثير الجاري على ألسنة أغلب المطلقين اليوم. وهو ضرب من اتخاذ آيات الله هزوًا! ومسلك التحرُّز منه راجع إلى الدخول في **ثلاث مجاهدات**، هي:

= عن عقبة بن عامر. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(١) رواه ابن ماجه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والدارقطني، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، والإرواء، وصحيح سنن ابن ماجه.

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم، وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ » وصححه الألباني في الإرواء، وفي صحيح سننهم.

(٣) رواه البيهقي في الكبرى، والحاكم وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه! » ووافقه الذهبي. وقال الألباني في الإرواء: وهو كما قالا.

الأولى: منع اللسان من النطق بألفاظ الطلاق وعباراته، تجاه زوجته، ولو مزاحًا. فقد ثبت أن النبيَّ ﷺ منع الهزل بألفاظ الطلاق، وألزم من فعل ذلك به! فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلاَقُ، وَالرَّجْعَةُ!** »(١) لما في ذلك كله - لو أُبقِيَ على هزله - من تلاعب بعواطف المرأة، وجرح لكرامتها!

الثانية: عدم الاستجابة لوسواس الشيطان؛ بالتركيز على نقطة النقص في المرأة - ولا مخلوق يخلو من النقص - ومدافعته بصرف النظر إلى مواطن الحُسْنِ الخِلْقِيِّ والخُـلُقِيِّ فيها، وهو الغالب الكثير. فتلك هي سنة النبي ﷺ، ووصيته الثمينة للأزواج. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ!** »(٢) والفَرْكُ: البغض.

الثالثة: صبر النفس على اختلاف الطباع - والاختلاف لا بد واقع - ما لم يُخْشَ انتهاكُ حدود اللَّه. والزوج مطالَبٌ بالصبر أكثر؛ لِمَا يغلب على المرأة من تقلب العواطف وجيشانها، واضطراب النفس عند الحيض وعند الحمل وغيرهما. وذاك هو المقصود في الحديث بكونها خُلقت من ضلع أعوج، كما سيأتي بيانه. فالاعوجاج ليس بالمعنى المادي قطعًا، بل هو بمعنى الجيشان العاطفي، والفوران الوجداني، الذي فُطرت عليه المرأة، وهو في الأصل معنى إيجابي؛ لأن به تتمكن من الاستجابة النفسية الكاملة لوظائفها التربوية؛ بما لا قدرة للرجل على تلبيته. فمن لم يحسن التعامل مع هذا من الرجال اصطدم بزوجته. وفي هذا السياق استوصى النبيُّ ﷺ بالنساء خيرًا. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال في وصيته بالنساء: « **اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ! فَإِنَّ الْـمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِـلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِـي الضِّلْعِ أَعْلاهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْـوَجَ. اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا!** »(٣) فالاعوجاج - هو من جهة - انحناءٌ جمالي؛ إذ الأضلاع خُلقت بشكل منحنٍ لحفظ القلب واحتضانه! ومِن ثَمَّ كانت دلالته الرمزية عند العرب مشيرة إلى

---

(١) رواه الأربعة إلا النسائي، كما رواه البيهقي في الكبرى، والحاكم، والدارقطني. وحسنه الألباني في صحيح سننهم، وفي الإرواء، وصحيح الجامع.

(٢، ٣) رواه مسلم.

العواطف الوجدانية الجميلة، كالشوق والحب. وهو - من جهة أخرى - ثورة عاطفية قد تؤذي الآخر أحيانًا، وهو الاعوجاج المحذَّر منه! ولذلك جاء في رواية أخرى للحديث المذكور، أن النبيَّ ﷺ قال: « **إِنَّ الْـمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ؛ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا! وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا!** »[1] ولا يكسرها إلا زوج ضعيف فاشل! ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

* * *

* *

*

---

(١) رواه مسلم.

المجلس الواحد والثلاثون

في مقام التلقي لأصول بناء الأسرة المسلمة وإنشاء الأرحام
وما يترتب عن ذلك كله من حقوق وواجبات

الدرس الثالث

في حقوق المطلقات، والأطفال الرُّضَّع، وعِدَّةِ المتوفَّى عنها.

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً

لِأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

٢ - البيان العام:

لما فرغ من الكلام عن حقيقة الطلاق وأشكاله - كما بيّناه بالمجلس السابق- شرع ههنا في بيان ما يترتب عنه من حقوق وواجبات. فبدأ بالحديث عن المطلّقات عامة، والمُرضعات منهن خاصّة. وانْجَرَّ معه إثبات حق الرُّضَّعِ بالتبع. صحيحٌ أن الأمهات قد فُطِرْنَ على الشفقة والعطف الكبير على أولادهن، والقيام بجميع شؤونهم، من رضاع ورعاية؛ بما لا يحتاج إلى إيجاب وإلزام؛ لكنه لما كان السياق سياق طلاق، وبيانِ الحقوق والواجبات، فقد أرشد المطلَّقةَ بِرضيعٍ إلى أن تُرضعه عَامَيْنِ كاملين، إذا أراد الزوج المطلِّقُ إتمام مدة الرضاع. ومن ثم ألزمه الشارع الإنفاق على مطلَّقته المرضع أُجرَةً لها، بما يُغطي كل ما يتعلق بضرورياتها وحاجياتها، من طعام وشراب، وكسوة، وتطبيب...إلخ؛ وبما يوفر اللبن في ثديها للطفل، ويحفظ سلامتها لسلامته! قَدْرًا معلوما يحدده القاضي، على حسب طاقة الأب وسَعَتِهِ، من غير ضرر ولا ضرار يعود على الطرفين، أو على الرضيع، فلا يجوز للمطلَّقة أن تُلقي ولدها على زوجها إضرارًا به؛ فلا يجد من يُرضعه! ولا يجوز له أن ينتزعه منها وهي تُحب أن تُرضعه، فهي أولى به! قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾.

فالوارث الراشد - في حال ما إذا مات والد الرضيع - مُطَالَبٌ بالنفقة على أُمِّ الرضيع - من أجل رضيعها - مُدَّةَ الرضاع، على سبيل تكافل الأسرة وتراحمها. والمقصود بالوارث هو وارث الصبي من قِبَلِ أبيه من عصبته، أَخًا كان، أو عَمًّا، أو ابن عم، أو ابن أخ. وقيل: هو وارث الوالد الميت، من أبنائه الكبار خاصة، فربما كانوا غير أشقاء للصبي؛ فتثقُل نفقة أمه عليهم. ويجوز أن يكون كل ذلك مقصودًا،

فيطالبون بالنفقة عليها جميعًا. سواء كان ذلك على الترتيب أو تعاونًا على العاقلة، تكافلًا بينهم جميعا. وهو مروي عن عمر بن الخطاب ﷺ، وكثير من كبار التابعين، كالحسن البصري وغيره. (١) فالطفل مكفول الحق، محفوظ من الضياع في جميع الأحوال. ذلك أن جمهور السلف على وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض (٢).

ثم بيَّن تعالى أنه إذا اتفق الوالدان على فِصَالِ الصبي أي فِطَامِهِ، قبل نهاية الحولين، عن تراض بينهما وتشاور، فلا إثم عليهما؛ إذا كان ذلك لمصلحة الرضيع، كما لو كان الفطام لعارض صحي أَلَمَّ بالأم؛ قد يؤدي إلى فساد اللبن، والإضرار بالصبي، أو غير ذلك من الأعذار المقبولة شرعًا وعقلًا. فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ ... ﴿٢٣٣﴾ ﴾. وفيه دلالة على أن حرمان الطفل من الرضاع الضروري؛ لسبب تافه، كحرص الأم على حفظ جمالها الشكلي؛ هو إثم وظلم للرضيع! اللَّهم إلا أن تُتَّخَذَ له مُرْضِعٌ أخرى ترضعه بثديها وتكفله. وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. وقد نَدب سبحانه في هذه الآية إلى مكافأة المرأة المُرضع بأُجرة على إرضاعها؛ لما فيه من زيادة عنايتها بالطفل والإحسان إليه. وهو المقصود بقوله: ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ﴾. ثم أمر بتقوى اللَّه ﷻ؛ محذرًا من مخالفة هَدْيِهِ تعالى؛ بما قد يعود بالضرر على الطفل، أو على أحد الوالدين. فهو سبحانه بصير بعباده وبكل ما يعملون في السر والعلن، لا يخفى عليه شيء من النيات والمقاصد. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ولما بيَّن سبحانه عِدَّةَ المطلَّقات، وما يترتب على الطلاق من حقوقهن وحقوق أطفالهن، انتقل إلى بيان عدّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها. فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾. فأمر تعالى الأرامل بالحِداد على أزواجهن مُدّة أربعة أشهر وعشر ليالٍ. سواء كانوا قد دخلوا بهن أم لا إجماعًا. ولا يُستثنى من ذلك إلا المتوفَّى عنها زوجها وهي

(١) ن. الروايات في ذلك في تفسير الطبري للآية.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

حامل، فقد ذهب جميع فقهاء الأمصار إلى أن عدّتها هي أن تضع حملها؛ بناءً على عموم قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]، وهو مذهب أغلب الصحابة، بينما ذهب علي بن أبي طالب، وابن عباس ﷺ إلى أنها تعتد بأبعد الأجلين، فإن كان حملها مستمرًا إلى ما بعد أربعة أشهر وعشر، اعتدت به حتى تضعه. وإن وضعت قبل ذلك أتمّت أربعة أشهر وعشرًا، جمعًا بين الآيتين في عدّة المتوفى عنها وعدّة أُولات الأحمال. وهو قولٌ وجيهٌ؛ لولا حديثُ سُبَيْعَةَ بنتِ الحارث رضي الله عنها: (أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْد بْنِ خَوْلَةَ فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ. فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا؛ تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ، فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ، تَرَجِّينَ النِّكَاحَ؟ فَإِنَّكِ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ! قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ؟ فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي. وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي)[1]. فهذا الحديث هو أقوى مستند للجمهور- إن لم يثبت نسخه - لأن آية أُولات الأحمال، إنما هي في سياق الطلاق لا الوفاة، فلا دلالة فيها على مذهبهم.

والمرأة المُتوفَّى عنها زوجها، لا يجوز لها أن تتحلّى بشيء من أدوات الزينة، والتقيين، والحُلّي، واللباس، طيلة عدّتها الثابتة بكتاب اللّه. فعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قالت: (جَاءَت امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَقَد اشْتَكَتْ عَيْنُهَا؛ أَفَنَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لا »! مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ: « لا! » ثُمَّ قَالَ: « إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا! »).. الحديث[2]. فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها - بعد ذلك - فيما فعلت في نفسها من التزين؛ بشرط ألا تتبرج به لغير النساء والمحارم. وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ أي خبير بالمخالفات وبما خفي من النّيات. وفيه وعيد لمن تجاوزت حدود اللّه في العدّة، أو في التزين - بعدها - بما يخرج عن ضوابط الشرع وآدابه.

ثم قرّر تعالى أنه لا يجوز لها أن تتعرض للخُطّابِ خلال العدّة، وليس لأحد أن

(١، ٢) متفق عليه.

يخطبها لنفسه ولا لغيره، إلا تعريضًا غير صريح، حتى تنتهي العدّة. والتعريض: أن يُرسل الرجل إلى المُعتدّة هدية، أو أن يدعو أمامها بزوج صالح، أو بزوجة صالحة، دون تصريح بقصدها وتعيينها. أما التصريح فقد شدّد الله ﷻ في تحريمه، كما شدَّد في تحريم العقد عليها خلال عدتها من باب أحرى! وحرَّم المواعدة السرية بالزواج، وحرَّم التعبير عن عواطف الحب والتعلق - خلالها - والمراسلة بذلك سِرًّا أو علنًا. قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾. فلا بأس بالتعريض بالخطبة - كما وصفنا من إشارات رمزية، دون تصريح - أو إِكْنَانُهَا بمعنى إضمارها في النفس، حتى تنتهي العدة. والتعريض الإشاري هو المقصود بـ« القول المعروف » في الآية.

وقد أجمع العلماء على بطلان عقد الزواج المُبرم خلال العدَّة، واعتبروه كبيرة من الكبائر! فمن تزوج امرأة في عدة الوفاة ودخل بها، تمّ التفريق بينهما. وقال مالك رحمه الله بتحريمها عليه بعد ذلك تأبيدًا! بناءً على قاعدة المعاملة بنقيض المقصود. ومن ثم توعّد الله المخالفين في ذلك، وحذّرهم من التحايل الخفي على شرعه، فقال ﷻ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾ ثم بشَّر المخالفين نهيه خطأً، لا عمدًا وقصدًا، وكذا التائبين من خطيئة العمد، برحمته تعالى وغفرانه، فقال بعدها مباشرةً: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. والحِلْمُ: الإمهال والتريث في معاملة العُصاة، وعدم المسارعة إلى عقابهم؛ رغبةً في توبتهم.

ثم انتقل الخطاب بعدها إلى بيان حقِّ المطلقات قبل الدخول بهن، ممن لم يُسَمَّ لهنَّ صداق معلوم، إذا كن قد فوَّضن لأزواجهن تقديره - وهو المسمَّى عند الفقهاء بنكاح التفويض - فجعل لهن مُتْعَةً مالية مفروضة على الأزواج بالمعروف، أي على قدر الطاقة وحسب السَّعَةِ، لا ضرر ولا ضرار. سواء كان الزوجُ المطلِّقُ مُوسِعًا أو مُقْتِرًا، أي سواء كان غَنِيًّا أو فقيرًا. فكل أولئك واجب عليهم الإحسان إلى زوجاتهم المطلقات قبل الدخول، بمتعة تزيد أو تنقص حسب غنى الزوج أو فقره، قَدْرًا معلومًا يحدده أهلُ الخبرة بالعُرف أو القاضي. قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾. أما إن كان قد سمَّى لها صداقًا وعيَّنه، ثم طلقها قبل الدخول، فلها عليه نصف مقدار ذلك الصداق، إلا أن تعفو وتتنازل له عنه، أو يعفو وَلِيُّهَا الذي يعقد نكاحها. وهو قوله تعالى بعدُ: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾. وقد فسّر بعضهم ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾ ههنا بأنه الزوج، يعفو بالتنازل لمطلَّقته عن الصداق كله تطوعًا، ولا يقتصر على أداء نصفه فقط. وقيل: بل هو الولي يتنازل للزوج عن نصف الصداق الواجب أداؤه عليه. وكل ذلك قول حسن؛ ولذلك قال بعدُ: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. فالعفو عن المُشَاحَّةِ بين المسلمين مُكَارَمَةٌ. وهي الأصل في العلاقات الاجتماعية الإسلامية. سواء في تعويضات الطلاق، أو النفقات، أو سائر المعاملات؛ لانبناء ذلك على مقاصد التعبد، وعلى تقوى الله تعالى في السرِّ والعلن. وهو الفضل المأمور بحفظه بين المسلمين وعدم نسيانه، والذي أحصاه الله بعلمه وبصره، فأجزل عليه الأجر الكريم، حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وهنا ينقل القرآن المخاطبين نقلة عجيبة! حيث يسوق الوعظ التشريعي الذي دَأَبَ على بَثِّه خلال آيات الأحكام، ويجعله ههنا أَمْرًا بالمحافظة على الصلاة! قال جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾. والذي لا يُدرك أسرار منهج التشريع الإسلامي قد يتساءل: ما الذي حشر هاتين الآيتين في هذا السياق؟ فنقول: نعم! هو إيقاظ للقلوب، وتنبيه للعقول، وإرشاد للمؤمنين، إلى أن قضايا التشريع في العلاقات الاجتماعية والمالية، هي كقضايا العبادات المحضة تمامًا! أساسها وغايتها تقوى الله ﷻ! وذلك أكبر ضمان لالتزامها وتطبيقها من لدن المؤمنين، والتشريع القانوني الأرضي في ذلك بئيس فقير!

فالآيتان وصفة طبية لعلاج القلوب، وبيان لكون المحافظة على الصلاة في أوقاتها، وأدائِها بِقُنُوتِهَا - والقنوت في هذا السياق هو: الخشوع والخضوع - كل ذلك أكبر

ضمان لصلاح الأُسر ونجاح الزواج، وأكبر ضمان لحفظ حدود اللَّه عند ضرورة الطلاق، وهو سبب لفتح أبواب الخير، لكل واحد من الزوجين بعد الفراق! ومن ثم أمر بالتزام الصلاة بمواقيتها على تمام أركانها وشروطها، مُنَبِّهًا إلى أن سيد الأركان فيها هو القنوت والخشوع، وإلى الاحتراز الشديد من فوات الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر؛ بسبب كونها تقع في وقت من النهار، يكون فيه أغلب الناس غارقين في تجاراتهم، وفلاحاتهم، وإداراتهم؛ فتدخل عليهم الغفلة عن الصلاة، فلا ينتبهون حتى تتوارى الشمس بالحجاب! وتلك خسارة في الدين وأي خسارة! فحفظ الوقت هو أول معاني حفظ الصلاة والمحافظة عليها، وإنما الصلاة وقت!

ومِن ثَمَّ لم يُجِز اللَّه ﷻ إخراج الصلاة عن وقتها، ولو كان العذر عذر قتال وجهاد في سبيله! بل حتى ولو كانت اللحظة لحظة اشتباك، هجومًا أو دفاعًا! فلا مناص من أداء الصلاة في الوقت! تؤدَّى في الخندق، أو فوق الحصان، أو على الدبابة، أو الطائرة! وهي المُسمَّاة عند الفقهاء بصلاة الخوف، تؤدَّى قصرًا ركعةً واحدة! لقول ابنِ عَبَّاسٍ ﵄ : (إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ الصَّلاة عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ عَلَى الْمُسَافِرِ رَكْعَتَيْنِ، وَعَلَى الْمُقِيمِ أَرْبَعًا، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً!) [١] فتنوب عن الصلاة الرباعية أو غيرها. وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ... ﴾ أي: إذا كانت اللحظة لحظة حرب وخوف، فأدّوا الصلاة في وقتها، سواء كنتم تقاتلون على أرجلكم، أو كنتم تقاتلون راكبين! فالرِّجَالُ والرُّكْبَانُ هنا: جمع رَاجِلٍ ورَاكِبٍ. فيُصلِّي المقاتلُ بالإيماء والإشارة، مُقْبِلًا، ومُدْبِرًا، وسَائِرًا أو جالسًا، على أي هيئة كان، بغير شرط استقبال القبلة، وقيل: بل تُؤدَّى على وِزَانِ صلاة السفر، ركعتين ركعتين [٢].

وهذه الصلاة هي غير صلاة الخوف الأخرى، المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢] فهذه تؤدَّى في حالة الترقُّب لا في حال الاشتباك، كما سيأتي تدارسه إن شاء اللَّه وبه الثقة. ثم رجع إلى ما بدأ به، من الأمر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ن. الخلاف في ذلك عند القرطبي في تفسيره للآية.

بأداء الصلاة، بعد زوال الخوف وانتهاء القتال، بكمال خشوعها وقنوتها، وتمام شروطها وركعاتها. فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾. فالمقصود بذكر اللَّه هنا هو الصلاة. تُؤدَّى في حال الأمن على أتمّ ما يكون الخشوع، وعلى ما علّم اللَّه المؤمنين في كتابه وسنة نبيه ﷺ، من هيئاتها وعدد ركعاتها؛ حمدًا له تعالى على ما هَدَى، وشكرًا له على ما أنعم.

تلك موعظة الصلاة البليغة! وإنها لموعظة وأي موعظة! حقنة روحية في شرايين المسلمين، وإخراج للمُتلقّين لأحكام الأسرة من دقائق الحقوق والواجبات إلى معارج الصلوات، وصَبْغٌ للتشريع الأُسري بصبغة التعبد الخالص! تزكيةً للقلب وإراحةً للنفس، تماما كما كان النبي ﷺ يقول: « **يَا بِلالُ! أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا!** » (١) حتى إذا ارتوى العبد بهذا الوابل الروحاني العظيم، عاد به إلى حِكَمِ التشريع الأسري. واستأنف الكلام عنه ببيان حقوق النساء المتوفَّى عنهن أزواجهن، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٍۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

هذه وصية كريمة من اللَّه – جل ثناؤه – بالأرامل. وقد قُرِئَتْ (وَصِيَّةٌ) و(وَصِيَّةً) بالرفع وبالنصب (٢). وكلاهما دالٌّ على أنها وصية من اللَّه للرجال في أزواجهم، بأن يُوصوا لهن – قبل وفاتهم – أن يُمَتَّعْنَ حولًا كاملًا بعدهم بالسكنى في مساكنهن، ولا يُخرِجُهُنَّ الورثةُ منها؛ إمهالًا لهن سنةً كاملة؛ وذلك لما في الإمهال من الرفق بهن، وأن الأرملة في كثير من الأحيان يصعب عليها الانتقال من بيت زوجها المتوفى إلى غيره، خاصةً إن لم يكن لها منه ولد ذكر؛ ولذلك تُمهل حولًا كاملًا حتى تنظر لنفسها، أو ينظر لها وليها مسكنا جديدًا. فإن خرجت باختيارها؛ بسبب زواج جديد

(١) رواه أحمد، وأبو داود واللفظ له، والطبراني في الكبير. وصححه الألباني في المشكاة، والسلسلة الصحيحة، وصحيح سنن أبي داود، وصحيح الجامع الصغير. وقال الأرناؤوط في تحقيق المسند: رجاله ثقات.

(٢) قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، والكسائي، كلهم بالرفع؛ على أن ذلك مبتدأ لخبر مقدَّم محذوف، تقديره: (عليهم وَصِيَّةٌ)، أو نحو ذلك. وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر؛ بالنصب على تقدير فعل محذوف. بمعنى: (فَلْيُوصُوا وَصِيَّةً)، أو (أَوْصَى اللَّهُ وَصِيَّةً). ن. تفصيل ذلك في تفسير الطبري، ومفاتيح الغيب للرازي، وروح المعاني للألوسي، وفتح القدير للشوكاني، وغيرهم.

قبل تمام الحول، وبعد تمام العدَّةِ، فلا حرج عليها ولا على وَلِيِّهَا فيما فعلت في نفسها، مما لا ينكره الشرع من معروف؛ ولذلك قال بعد: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، إنذارًا لمن خالف حكمته التشريعية من النساء والرجال، وتوعُّدًا له بالانتقام؛ على ما تقتضيه عزته ﷻ من قوة ومَنَعَةٍ.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة؛ لِـمَا فهموا منها من إلزام الأرملة أن تعتد حولًا كاملًا، وإنما عدّتها المجمع عليها أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ. بينما ذهب آخرون إلى أنها محكمة غير منسوخة. وهو الحق إن شاء اللَّه؛ إذ لا إلزام فيها بالحول، وإنما هي وصية من اللَّه بالأرامل أن يُمكَّنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا، إن هن اخترن ذلك. وهذا إنما هو من باب الرفق والإحسان، لا من باب التكليف والإلزام. فأما إذا انقضت عدّتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج من ذلك المنزل إلى غيره، فإنهن لا يمنعن؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾. ويؤيده ما أخرجه البخاري في صحيحه عن مجاهد قال: (جَعَلَ اللَّهُ لَهَا تَمَامَ السَّنَةِ: سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةً، إِنْ شَاءَتْ سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ)[١]. فهي أربعةُ أشهرٍ وعشر على سبيل الإلزام، يُضاف لها سبعةُ أشهرٍ وعشرون ليلة؛ لتمام الحول، وهذه إنما هي على الاختيار. وروى الفخر الرازي نحو ذلك عن أبي مسلم الأصفهاني وانتصر له[٢]. كما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير في تفسيره، وغيرهم[٣].

ثم ختم اللَّه سبحانه هذا السياق التشريعي بالمنِّ على جميع المطلَّقات بمنحة منه تعالى، ارتفاقًا بهن؛ إذ فرض لهن مُتعة على مُطَلِّقِيهِنَّ، حَقًّا لهن عليهم، قال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وقد اختلف المفسرون والفقهاء اختلافًا شديدًا في علاقة المتعة المذكورة ههنا بالتي ذُكرت قبلها في قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ

---

(١) رواه البخاري.
(٢) ن. تفسير الآية في « مفاتيح الغيب ».
(٣) ن. تفسير ابن كثير للآية.

أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾. فقال بعضهم بتخصيص عموم المطلَّقات في الآية الثانية: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بالآية الأولى، أي بالمطلَّقات غير المدخول بهن، اللائي لم يُحَدَّدْ لهن مهر معلوم، وأنه لا متعة لغيرهن. وكأنهم فهموا ذلك من المفهوم المخالف للآية؛ لما فيها من تقييد المتعة بالطلاق قبل الدخول والتفويض في الصداق. ومعنى التفويض في اصطلاح الفقهاء: أن تُفَوِّضُ المرأة تحديد قيمة الصّداق لزوجها، فلا يُسَمِّي لها قَدْرَهُ إلا بعد تمام العقد. وهو المذكور في الآية الأولى. وتأوَّل آخرون المتعة المذكورة في الآية الثانية بأنها نفقة العدّة. وحملها آخرون على الظاهر فقالوا بوجوب المتعة لكلِّ مُطلَّقة على العموم.

والحق أنه لا تدافع بين الآيتين، فالأولى تنصُّ على رفع الحرج عن طلاق المفوَّضة قبل الدخول، وتُوجب لها متعة. وقد خصَّها من دون سائر المطلقات بالذكر - رغم ما سيأتي في الآية الثانية من تعميم المتعة على جميع المطلقات -؛ لما قد يسبق إلى الذهن من أن عدم الدخول بها، وعدم تسمية الصداق لها؛ مدعاة لعدم تمتيعها؛ لأن هذا الطلاق إنما هو إنهاء لحياة زوجية لم تبدأ بعد. فكأنه لا علة في تمتيع المطلقة على هذه الصورة؛ فدفع اللَّه - جلَّت حكمته - هذا الوهم بالنص الصريح على فرض المتعة لها هي أيضا؛ جبرًا لخاطرها وحفظا لكرامتها؛ ولما يحتمل جدًّا من منعها حقَّها. ثم عَمَّ جميع المطلقات في الآية الثانية بهذا الفرض، على سبيل التشريع العام، فقال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فوجبت المتعة لكل مُطلَّقة على الشمول. إلا ما استثناه الدليل من المطلقات قبل الدخول، اللائي سُمِّيَ لهنّ الصداق؛ فقد فرض اللَّه لهن نصف الصداق كما رأيناه.

وقد أمر النبي ﷺ بتمتيع عموم المطلقات المدخول بهن، اللائي سُمِّيَ لهن صداقهن؛ تأكيدًا لظاهر الخطاب القرآني من قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾. فعن جابر بن عبد اللَّه ﵄ قال: (لَمَّا طَلَّقَ حَفْص بْنُ الْمُغِيرَةِ امْرَأَتَهُ فَاطِمَةَ فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فقالَ لِزَوْجِهَا: « **مَتِّعْهَا!** » قال: لَا أَجِدُ مَا أُمَتِّعُهَا. قالَ: « **فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الْمَتَاعِ! مَتِّعْهَا وَلَوْ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ!** » [1] وهو قول علي بن أبي طالب وعبد اللَّه

(١) رواه البيهقي في الكبرى، وقال: (وقصتها المشهورة في العدَّة دليل على أنها كانت مدخولا بها واللَّه أعلم). وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

ابن عمر ﷺ، فقد أخرج مالك في موطئه عن نافع أنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ مُتْعَةٌ، إِلَّا الَّتِي تُطَلَّقُ وَقَدْ فُرِضَ لَهَا صَدَاقٌ وَلَمْ تُمَسّ؛ فَحَسْبُهَا نِصْفُ مَا فُرِضَ لَهَا). [١] وهو مذهب الشافعي، ورواية عن أحمد [٢].

وفي الأخير ختم هذه التشريعات الأسرية كلها، عَوْدًا على ما بدأناه في الدرس الأول، من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ... ﴾ .. الآية، إلى آخر الحديث عن متعة المطلقات ههنا، وذلك ببيان شامل حول أهمية هذه الأحكام، وما تنطوي عليه من الحكمة، ومن الضبط لمؤسسة الأسرة في الإسلام، والحفظ لها من التمزق والتلاشي، وما يكمن في ذلك كله من إقامة المصالح الضرورية؛ لتمتين النسيج الاجتماعي الإسلامي، وتزويد الأمة بمقومات التجدد والحياة! فكانت تلك التشريعات ذاتها آياتٍ للعقلاء، وعلاماتٍ للمتفكرين، دالة على عظمة هذا الدين، وعلى أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون وحيًا من ربِّ العالمين! فذلك قوله جَلَّتْ حكمتُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

---

(١) الموطأ: (بَاب مَا جَاءَ فِي مُتْعَةِ الطَّلَاقِ). وقد رواه عنه الشافعي في مسنده. ولعل مالكًا لم يحمل قول ابن عمر على الوجوب، وإنما فهمه على الاستحباب كما هو مذهبه.

(٢) اختلف فقهاء الأمصار في متعة الطلاق فذهب بعضهم إلى أن المتعة – في جميع صورها – مستحبة لكلِّ مُطلَّقة على الإطلاق، ولا وجوب فيها البتة. وهو قول مالك وأصحابه. قال أبو عمر بن عبد البر: (وحجة مالك: أن المتعة لو كانت فرضًا واجبًا يُقْضَى به؛ لكانت مُقَدَّرَةً معلومةً، كسائر الفرائض في الأموال. فلما لم تكن كذلك خرجت من حدِّ الفروض إلى حدِّ الندب والإرشاد والاختيار، وصارت كالصلة والهدية.) (الاستذكار لابن عبد البر (١٢١/٦)). وقال آخرون بوجوبها لكل مطلقة على العموم، وهو مذهب الشافعي، وحجته عموم قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾. وهو مروي عن علي وابن عمر، كما ذكرناه أعلاه.

وقال آخرون بوجوب متعة المفوَّضة إذا طُلِّقَتْ قبل الدخول، عملًا بالآية الأولى، وباستحبابها لكل مطلقة عملًا بالثانية. وهو مذهب أبي حنيفة. وهو أيضا قول الثوري، والأوزاعي، وأبي ثور. (الاستذكار لابن عبد البر (١٢١/٦، ١٢٢)). واختلفت الرواية في ذلك عن أحمد بن حنبل، ومشهور مذهبه القول بوجوب المتعة للمفوَّضة غير المدخول بها، واستحبابه لكل مُطلّقة، وفاقا لأبي حنيفة. وقال في رواية أخرى بوجوبها لكل مطلقة، وفاقًا للشافعي. (المغني لابن قدامة: ٥٣/٨).

٣ - الهُدى المنهاجي:

وهو في ست **رسالات** منهاجية، هي:

الرسالة الأولى: في أن إرضاع الأطفال من أهم أصول بناء الأسرة في الإسلام! على المستوى النفسي والاجتماعي والتربوي؛ ولذلك فهو يعتبر من أخص خصائص الأبوة والأمومة، ومن أهم مسؤوليات الوَالِدَيْنِ تجاه أبنائهما الرُّضَّعِ. ذلك أن الرضاع - كما قرَّرته الدراسات العلمية الحديثة - ليس تغذية جسمية للطفل فحسب، بل هو فوق ذلك تغذية نفسية له، وبصمة عاطفية عميقة في لاشعوره، تُسهم بشكل كبير في تنمية شخصيته، وتوازنها النفسي والعاطفي. كما أنها تؤثر بعمق في ارتباطه الوجداني بأبويه، وفي تعميق إحساسه بانتمائه إلى أسرته ورَحِمِهِ، عُمُومَةً وخُؤُولَةً؛ ولذلك ألزم اللَّه ﷻ الوالدين معًا بالإرضاع، فأمر الأم بتوفير الثدي للرضيع، وأمر الأب بالإنفاق على المرضع، وكفايتها في غذائها وشرابها ولباسها وعلاجها؛ حفظا لصحتها وعافيتها، ولصحة الطفل وعافيته، وتوفيرًا للبن ثديها، وضمانا لسلامة الإرضاع. وما من أب يتراخى عن مسؤوليته في ذلك؛ بُخْلًا وشُحًّا، من غير فقر ولا حاجة، فهو ظالمٌ آثم! مخالف لأمر اللَّه ﷻ بالإنفاق على الرضع وأمهاتهن! وما من أم تتنصل من مسؤولية الإرضاع، وتلجأ إلى الرضاع الاصطناعي - كما يفعله كثير من الأمهات اليوم؛ حفظًا لرشاقتهن وجمالهن الشكلي - فقد خانت أمومتَها، وأمانتها التي ناطها اللَّه بها! فذلك كله هدى منهاجي مكنون في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ... ۞﴾. وإنما الموفق من وفّقه اللَّه.

الرسالة الثانية: في أنه يَحْرُمُ بالرضاع ما يَحْرُمُ بالنَّسَبِ. وهذا مبني على ما تقرَّر في الرسالة السابقة، من الآثار العميقة للرضاع. ذلك أن الرضاع في حقيقته هو المرحلة الثانية من الحمل! فإذا كانت الأم بحملها جنينَها في بطنها تسعة أشهر، تكتسب جزءًا عظيمًا جدًّا من أمومتها له - بعد أمومة النطفة الْمُخَصَّبَةِ بين الزوجين - فإنها برضاعها إياه تكتسب جزءًا آخر مُكمِّلًا للأمومة؛ لأن الرضاع في مدته البيولوجية، المقررة بنصِّ القرآن، مؤثر جدًّا في تكوين شخصية الطفل، وإكسابه خصائص وراثية أخرى، كتلك التي اكتسبها من النطفة والرَّحِمِ. ومن ثَمَّ فقد قَرَّرَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ -

وهو العليم بخلقه، الخبير بأسراره – أن رضاع الطفل من غير أمه يجعل له رَحِمًا حقيقيةً إلى مرضعته، وإلى ما ارتبط بها من محارم وأرحام! فذلك صريح قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « **يَحْرُمُ مِن الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ!** »(١).

ومن الحقائق الإعجازية أن الأحاديث النبوية قد تواترت في تأكيد الحقيقة القرآنية العظمى، من أن الرضاع المُؤثِّر، إنما هو ما كان خلال الحولين الأَوَّلَيْنِ من عمر الطفل! تلك التي سميناها مرحلة الحمل الثاني. قال اللَّه – جلَّتْ حِكْمَتُه –: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]. ففي هذا دليل قوي على أن الرضاع خلال الحولين استمرار لوظيفة الحمل؛ لأن الوَالِدِيَّةَ – كما هو ظاهر الآية – كانت بسبب الحمل وما تضمَّنه من نطفة مشتركة، ثم بسبب ما تبع الحملَ من الرضاع خلال العامين! وهو تفسيرٌ لآية البقرة ههنا، وكشفٌ لعلَّة إلزام الوالداتِ إرضاعَ أطفالهم حولين كاملين، لمن أراد أن يُتِمَّ الرضاعة إلى آخر مدّتها. وفيه بيانُ أَنَّ الرضاع بعد نهاية الحولين – وإن كانت له قيمة غذائية – فليست له قيمة وراثية! وذلك ما فصَّلته الأحاديث النبوية بوضوح، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: « **إِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِن المَجَاعَةِ!** »(٢) يعني المجاعة الأولى خلال الحولين. وتوضيحه هو ما ورد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **لا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ!** »(٣) قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي رحمه الله بعد إيراد هذا الحديث: (وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ الرَّضَاعَةَ لَا تُحَرِّمُ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ! وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ فَإِنَّهُ لا يُحَرِّمُ شَيْئًا!) وهو تفسير ما رواه جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لَا رَضَاعَ بَعْدَ فِصَالٍ!** »(٤) والفِصَالُ: الفِطَامُ، كما بيناه.

---

(١) رواه البخاري. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي، وقال: « هذا حديث حسن صحيح ». ورواه النسائي في الكبرى، وابن حبان، والطبراني في الأوسط. كما رُوي نصه مرفوعا عن عبد اللَّه بن الزبير، وعائشة، وأبي هريرة. وقال الألباني في إرواء الغليل عن رواية الترمذي: « إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم ». وصحّحه أيضًا في صحيح سننه، وصحيح الجامع.

(٤) أخرجه الطيالسي. وصححه لغيره الشيخ الألباني في الإرواء.

وعلى ذلك جرت الفتوى عند الصحابة رضوان اللّه عنهم، كما قال الترمذي قبلُ. فعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَصَصْتُ عَنِ امْرَأَتِي مِنْ ثَدْيِهَا لَبَنًا، فَذَهَبَ فِي بَطْنِي! فَقَالَ أَبُو مُوسَى: لَا أُرَاهَا إِلَّا قَدْ حَرُمَتْ عَلَيْكَ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: « أُنْظُرْ مَاذَا تُفْتِي بِهِ الرَّجُلَ! » فَقَالَ أَبُو مُوسَى: « فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟ » فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: « لَا رَضَاعَةَ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْحَوْلَيْنِ! » فَقَالَ أَبُو مُوسَى: « لا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ مَا كَانَ هَذَا الْحَبْرُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ! »)[1] وعلى هذا سار جمهور فقهاء الأمصار.

كما أن هناك حُكْمًا شرعيًا مُهِمًّا في الرضاع، قد وَجَدْتُ بعضَ الناس لا ينتبهون له، وهو ما سمَّاه الفقهاء بـ « لبن الفحل! » والمقصود به أن الرضيع كما يكتسب رحمًا أخرى برضاعه من امرأة أخرى غير أُمِّه، فتصبح مرضعته أُمًّا له من الرضاع، وأبناؤها إخوةً له من الرضاع أيضًا، فإنه كذلك يكتسب أُخُوَّةَ رَضَاعٍ لجميع أبناء زوجها من امرأة أخرى غيرها! وهم أبناؤه من ضرائرها! لأن زوج المرضع قد صار أبًا للطفل من الرضاع أيضًا؛ حيث إن لبنها إنما اكتسبه ثديُها بسببه؛ فكذلك يكون أبناؤه من أي امرأة أخرى غيرها إخوةً له! وهو معنى الأخوة من « لبن الفحل ». وبهذا يحرم على الرضيع الزواج من كلٍّ هؤلاء جميعًا؛ لأنهم إخوته من الرضاع، وكذلك ما اتصل بهم من رحم محرَّم، كالأعمام والأخوال. فجميع أولئك أرحام له من الرضاع!

وفي ذلك كله ما فيه من تقويةٍ للبناء الأُسري في الإسلام، ومن تمتين للنسيج الاجتماعي في الأمة، بما لا تجده لدى أمة أخرى على الإطلاق! وهو سرٌّ من أسرار كون هذه الأمة - رغم محنها الشديدة - عصية على التذويب والابتلاع! فسبحان اللّه الحكيم الخبير بما شَرَعَ وحَكَم، وله الحمد تعالى بما هَدَى وأَنْعَم!

الرسالة الثالثة: في أن التكافل الأسري أساس التكافل الاجتماعي في الإسلام، وسر نجاحه؛ لأن ارتباط أولي الأرحام بعضهم ببعض، وفرض صلة الرحم مهما بعُدت علاقتها، ومضاعفة أجر الصدقة فيها، كفيلٌ بتقوية المواساة والتكافل في المجتمع كله. فالتربية على التعاون الأُسري هي أساس الشعور بعاطفة التعاون

---

(١) موطأ مالك.

الاجتماعي؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٤]. ومن أجمل الأحاديث النبوية في ذلك ما ورد في الصحيحين عن أبي مُوسَى الأشعري ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « **إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ! فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ!** » [1] وهذا من أرفع صور التكافل الأسري المثالي في الإسلام!

ومِن ثَمَّ كانت المسؤوليات التكافلية تُوَرَّثُ، كما تُورَّثُ الأموال والممتلكات! وهذا من أعجب خصائص التشريع الأُسري في الإسلام وأنبلها! وهو قوله تعالى - فيما بيّناه قبلُ - من نفقة المرضعات المطلَّقات: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ ... ۝ ﴾. وهذا جَارٍ في الأرامل المرضعات من غير المطلقات، من باب أولى وأحرى. وكذلك الشأن في الأيتام، والأرامل ولو كن غير مرضعات. فوارث الوالد مسؤول عن مواصلة ما كان يقوم به من رعاية وإعالة. سواء كان الوارث هو الابن الأكبر للميت، أو كان أخاه، أو ابن أخيه، أو غيرهم، فالكفالة مُوجّهة عليهم جميعًا، الأقرب فالأقرب.

فإذا لم يكن لليتيم قريب، فكفالته واجب كفائي على أهل بلدته جميعًا، لا تبرأ ذمتهم حتى يقوم بها بعضهم! كما هي واجبة على السلطان في خزينة الدولة، حتى يبلغ اليتيم سِنَّ الرشد.

الرسالة الرابعة: في أن عِدَّة المرأة المتوفَّى عنها، لا تتزين ولا تتزوج؛ ضَرْبٌ من الوفاء لزوجها والحِدَادِ عليه. ولم يُجِزِ النبيُّ ﷺ الحِدَادَ على أحد فوق ثلاثة أيام، ولو كان أَبًا أو أُمًّا! إلا الزوج، فقد جعل له على زوجته أربعةَ أشهرٍ وعشرًا! فَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ ﵂ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « **لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ فَوْقَ ثَلاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ! فَإِنَّهَا لا تَكْتَحِلُ، وَلاَ تَمَسُّ طِيبًا، وَلا تَلْبَسُ ثَوْبًا مَصْبُوغًا، إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ** » [2]. وثَوْبُ العَصْبِ: نوعٌ من اللباس كان يُجْلَبُ من اليمن، وكانت صناعته تتم بأن يُعْصَبَ غَزْلُهُ أي يُفْتَلُ، ثم يُصبغ مفتولًا، ثم ينسج [3]. وسياق الحديث يقتضي أن صباغته لم تكن تضفي عليه زينةً؛ ولذلك رُخِّص فيه. ويُقاس عليه كل ثوب باهت

(١، ٢) متفق عليه.

(٣) ن. شرح النووي على مسلم (٥/٢٥٩ »، وفتح الباري لابن حجر (١٥/١٩٢).

اللون، لا يلفت الأنظار، ولا أصل لاشتراط البياض فيه على الخصوص، كما جرى عليه العمل في بلاد المغرب.

الرسالة الخامسة: في أن مُتعة الطلاق، وسائر الحقوق المادية والمعنوية للمرأة المطلقة، وسيلة لإبقاء الأخوة الإسلامية مستمرة بعد الفراق. وقد سبق بيان قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾. فالطلاق في الإسلام لا يعني بالضرورة القطيعة والشنآن! كلَّا قطعًا! بل هو ﴿ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ ﴾ أو ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾، بتعبير الخطاب القرآني، كما تدارسناه في المجلس السابق. نعم، قد يفترق الزوجان على خصام، لكن ذلك لا يكون هو الـمُسَوِّغ الشرعي للطلاق كما بيّناه قبلُ مُفصَّلًا. وإنما الطلاق حَلٌّ شرعي لعُسْر التعايش الأُسري أو لاستحالته. وإنما يكون الخصام منجرًّا معه، وتابعًا له، لا أصلًا مستقلًّا بذاته. ومن ثم جعل اللَّه المتعة على الرجل مواساةً للمرأة المطلقة، وتطييبا لخاطرها بعد طلاقها؛ حفظًا للعلاقة الاجتماعية من الانقطاع بين الأسرتين، وحفظا لما يكون قد نشأ عن ذلك الزواج الفاشل من أبناء وأرحام؛ ولذلك حرّم النبي ﷺ القطيعة بين المسلمين مطلقًا، تحريمًا شديدًا. وحرَّمها - من باب أولى وأحرى - على من تربطهم علاقةُ قرابةٍ، أو رحم، أو مصاهرة ولو انقطعت بالطلاق! قال ﷺ: « **لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا! وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ!** »[1] وقال عليه الصلاة والسلام: « **لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ؛ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا! وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ!** »[2]. فيا له من خُلُقٍ كريم وديع! ويا له من دينٍ عظيم رفيع!

الرسالة السادسة: في أن الصلاة حِزَامُ أَمَانِ المجتمع الإسلامي، وضَمَانُ أَمْنِهِ وسلامِه. وهي حفظٌ له من التمزق الأُسري، ومن التعفن الأخلاقي؛ ولذلك ورد الأمر بها في هذا السياق الاجتماعي كما بيّناه. وثبت القول بأولويتها في أحاديث كثيرة جدًّا، تبلغ بمجموعها حدّ التواتر! فقد سُئل النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - عن أحب الأعمال إلى اللَّه فقال: « **أَحَبُّ الأعمال إلى اللَّه الصَّلَاةُ لوقتها! ثم بِرُّ**

(١، ٢) متفق عليه.

الوالدين، ثم الجِهَادُ في سبيل اللّه » (١). وعن ابن مسعود ﷺ قال: (سألتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أيُّ الأعْمَالِ أفْضَلُ؟ قَالَ: « **الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا!** » قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: « **بِرُّ الوَالِدَيْنِ** ». قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: « **الجِهَادُ في سَبِيلِ اللّهِ** ».) (٢)؛ ولذلك كانت الصلاة خير الأعمال في الإسلام على الإطلاق! فعن ثوبان ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: « **اِسْتَقِيمُوا ولَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةُ! ولَنْ يُحَافِظَ عَلَى الوُضُوءِ إلَّا مُؤْمِنٌ** » (٣).

وقد خُصّت صلاةُ العصر بتأكيد زائد؛ لِمَا لها من توقيت متداخل - بطبيعته - مع ظروف الانغماس في الأشغال، والعلاقات الاجتماعية والمالية. فَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: « **الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ!** » (٤) وقال ﷺ: « **مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ!** » (٥).

ومعنى ذلك كله أن الأساس الذي تُبنى عليه الأسرة المسلمة، ثم الأمة المسلمة، هو الصلاة! ومن أخّر رتبتها فقد قلب الميزان! ذلك هُدَى اللّه في الإصلاح الاجتماعي والدعوة إلى دينه، تأسيسًا وتجديدًا. واللّه الموفق للخير والمعين عليه.

٤ - مسلك التخلق:

والمسلك العملي بهذا المجلس، هو في بيان كيفية التخلق بِخُلُقِ الفضل، الجامع لأخلاق المكارمة والمواساة بين المسلمين، كما بيّناه. وهو المأمور به فيما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾. والمُبَيَّنُ في المثَلِ النبويِّ الرفيعِ من قوله ﷺ: « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى!** » (٦).

(١، ٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، وابن ماجه بإسناد صحيح، وابن حبان، والدارمي، والبيهقي، والحاكم وقال صحيح على شرطهما. ورواه ابن ماجه، والبزّار، عن ابن عمرو وأبي أمامة أيضًا، كما رواه الطبراني عن سلمة بن الأكوع. وصحّحه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/٣٨١). وقال الألباني في صحيح الترغيب: صحيح لغيره. بينما صححه مطلقا في صحيح الجامع الصغير. حديث رقم (٩٥٢).

(٤) متفق عليه. (٥) رواه البخاري.

(٦) متفق عليه.

وأما مسلك التخلُّق بذلك فيكون بالتحقُّق من ثلاثة أمور، هي:

أولًا: التحقُّق بالأُخوة الإيمانية؛ بتعميق الإيمان بالله، ومُوَالاَةِ من وَالاَهُ. قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ [التوبة: ١١]. فهذا أصلٌ عظيم، وجب مجاهدة النفس على التخلُّق بمقتضاه؛ حتى يجد المؤمن نفسه أنه يُحبُّ من أحبَّ اللَّهَ ويبغضُ مَن حَارَبَ اللَّهَ.

ثانيًا: النظر إلى الآخرة والعمل لها، والإيمان بأن من أعظم العمل في الدين الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، من أهل القربى وسائر المسلمين، وخدمة المرضى وإغاثة المستضعفين. والنصوص في ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تُحصى. فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ! وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »(١). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ!** »(٢).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ: (أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ! وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ [لَهُ] أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا! وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ! وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ - وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ - مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ، أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ!** »)(٣) وهذا حديثٌ تُشَدُّ إلى مِثْلِهِ الرِّحَالُ!

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والصغير. وابن أبي الدنيا، والأصبهاني. وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

ثالثًا: الاستيقان بأن الإنفاق على الغير مأجورٌ بالـخَـلَفِ المضاعَف، وببركةِ الرزق في الدنيا، والأجر الأعظم في الآخرة. ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا!** ، **وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا!** ») [١] وعن أبي كَبْشَةَ الأَنْـمَارِيِّ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ أَقْسَمَ: « **مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ!** » [٢].

فمن جاهد نفسه للتخلُّق بهذه الحقائق الإيمانية الثلاث كان - إن شاء اللَّه - من أهل الفضل، الـمتُحُققين بمقامه، الـمتُخلِّقين بصفاته وخصاله، وكان مشمولًا ببركة الآيات والأحاديث المادحة لأهله، والمبشرة لهم بالرحمة والرضوان. جعلني اللَّه وإيَّاكم من أهل فضله وإحسانه، وأدخلنا في رحمته ورضوانه!

* * *

---

(١) متفق عليه.

(٢) جزء حديث رواه أحمد، والترمذي وصححه، والطبراني في الكبير. ثم صححه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، والمشكاة، وصحيح سنن الترمذي.

المجلس الثاني والثلاثون

في مقام التلقي لمسلك القتال في سبيل الله
ومنهاجه التربوي في تزكية النفس وتصفيتها لله

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ

وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

٢ - البيان العام:

أما هذا المقطع فهو مقام تربوي صرف، وهو غير بعيد عن سياق التشريع السابق، بل هو متمم لحكمته، ومُرَسِّخٌ لمغزاه، وهو وسيلة لربط القلوب بالخضوع للّه، والاستسلام لحكمه تعالى فيما قضى وشرع. قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: (اِعْلَمْ أَنَّ عادتَه تعالى في القرآن أَنْ يَذْكُرَ - بعد بيان الأحكام - القصص؛ ليفيد الاعتبارَ للسامع، ويحمله ذلك الاعتبارُ على ترك التمرد والعناد، ومزيدِ الخضوع والانقياد!) [١] ومِن ثَمَّ قال سبحانه بعد سلسلة التشريعات السابقة، على سبيل التمكين لأحكامها في النفوس: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

وهذه قصةٌ عجيبةٌ من غرائب قصص بني إسرائيل، وقعت فيهم بعد نبيهم موسى عليه السلام بزمنٍ طويلٍ! وذلك أن بعض قومهم كانوا يسكنون مدينة من المدن العامرة، قيل: هي « دَاوَرْدَان » ناحيةَ مدينةِ « وَاسِط » بالعراق، فأصابها الطاعون، وكثُر الموت في الناس؛ فتضايقوا من ذلك ثم خرجوا بأعداد كثيرة، بلغت أكثر من عشرة آلاف، وربما أضعاف ذلك إلى نحو أربعين ألفا، كما نصّت عليه بعض الروايات [٢]، وهو الأوفق لتعبير « الألوف » الدال على جمع الكثرة.. فخرجوا من

---

(١) مفاتيح الغيب، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾.

(٢) اختلفت الروايات في أعدادهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه - في رواية أخرى - أنهم كانوا أربعين ألفًا. وقيل: ثلاثين. وقيل: بل سبعين ألفًا. وجمهور المفسرين - الطبري، والزمخشري، والبغوي، والرازي، وغيرهم - على أنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف؛ لأن عبارة « ألوف » جمع كثرة، كما قرّرناه بالمتن، والكثرة لا تطلق إلا على ما فاق العشرة.

ديارهم هائمين على وجوههم في البراري، فرارًا من الموت والهلاك، حتى إذا بلغوا واديًا نزلوا به وملأوا ما بين ضفتيه، فقال لهم اللَّه: مُوتُوا..! فهلكوا جميعا مَوْتَةَ رَجُلٍ واحدٍ! وقيل في رواية أخرى: بل فَرُّوا من قتال أعدائهم الذين هاجموا مدينتهم وكانوا طغاةً من عبدة الأصنام - ففرّ بنو إسرائيل منهم، وأخلوا مدينتهم رعبًا، ولم يصمد منهم أحد للقتال؛ فأماتهم اللَّه عقوبةً لهم! ومُعَامَلَةً بنقيض المقصود؛ إذ فَرُّوا طلبًا للحياة وطول الأعمار؛ فأوقعهم اللَّه فيما فَرُّوا منه، وهو الموت والهلاك! (١) وسواء فرُّوا من الطاعون أو فرُّوا من الزحف؛ فالعبرة واحدة، وهي الفرار من الموت!

ومِن ثَمَّ عاقبهم اللَّه ﷻ بإنزال الموت بهم جميعًا زمنًا، ثم أحياهم؛ عبرةً لهم في أنفسهم، وعبرةً لمن كان في زمانهم، ولمن سيأتي بعدهم من الناس إلى يوم الدين. وقد وقع في بعض الروايات أن ذلك كان في زمن نبي اللَّه « حِزْقِيل »، الذي أمره اللَّه بجهاد العدو هو وقومه، فخانوه وجبنوا، ووَلَّوا مدبرين، وتركوا النبيَّ وحده؛ فأهلكهم اللَّه بالصيحة! تمامًا كما قالوا لموسى من قبلُ: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ثم إن « حِزْقِيلَ » قد مرَّ بهم - بعد ذلك - وهم موتى، تملأ جثثهم البالية وأشلاؤهم عَرْضَ الوادي؛ فأسف لذلك، ثم دعا اللَّه أن يحييهم، فأحياهم، ثم أمرهم بالقتال الذي فَرُّوا منه! (٢) فكان ذلك من فضل اللَّه ولطفه؛ أن لم يجعلها عليهم موتة أبدية، لا يحيون منها حتى يبعثون بذنوبهم ليوم الحساب! ولذلك قال بعدُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ﴾ حيث غدروا بعد ذلك وخانوا فضل رَبِّهم، ورجعوا إلى ما كانوا عليه من التمرُّد والفسوق والعصيان! والآية جارية على عمومها في فضل اللَّه على الناس جميعا، وقلة من يتلقَّى ذلك بالشكر الجميل والعرفان!

ثم التفت الخطاب إلى المسلمين، مُنَبِّهًا إيَّاهم إلى استخلاص العبر من قصص بني إسرائيل، وأنه لا مَنْجَا من اللَّه إلا به، ولا ملجأ منه تعالى إلا إليه، وأن الموت لا يكون بمرض أو قتال، وإنما يكون بما قدَّره اللَّه من الآجال. صحيح أن اللَّه جعل الأسباب في العادة الجارية؛ لإنتاج المسبَّبَات، لكنه تعالى جعل طلب الموت في سبيل اللَّه سببًا

---

(١) كِلا الروايتين مروي عن ابن عباس وغيره. ن. ذلك مفصلا في تفسير الطبري للآية.

(٢) ن. الروايات في تفسير الطبري للآية.

للحياة! باعتبار أن المؤمن يموت من أجل أن تحيا الأمة! ويحيا الإيمان في النفوس، وتستمر العقيدة في العمران. ومِن ثَمَّ جاء الأمر الصريح ههنا للأمة بالقتال في سبيل اللَّه. قال ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. وقد أَعْلَمَ سبحانه باسميه: السميع والعليم؛ تنبيهًا لمن يُدبج الكلام عن الجهاد، تحريضًا أو تنفيرًا؛ أن اللَّه ﷻ سميع لكلامه، عليم بنيته فيه، مُحْصٍ له عليه، إن خيرًا فخير، وإن شَرًّا فَشَرٌّ.

والمنهج الثابت في القرآن أن الأمر بالجهاد لا يَرِدُ إلا متبوعًا أو مسبوقًا بالأمر بالإنفاق في سبيل اللَّه، والحضّ عليه صراحةً أو ضمنًا؛ لأن الجهاد المالي يؤدّي وظيفةً ضرورية لإنجاح المعارك والغزوات، سواء في الإعداد لها وتجهيز رجالها، أو في علاج آثارها، واحتواء ما قد تُخلِّفه من تبعات، كعلاج الجرحى، وكفالة اليتامى والأرامل. ولذلك قال بعدُ مباشرةً: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. والقَرْضُ الحسَنُ: هو إنفاق المال في أمور الجهاد في سبيل اللَّه. عبَّر عنه بالقرض؛ كناية عما يناله صاحبه من عِوَضٍ، وأجر عظيم عند اللَّه ﷻ. وأما وصفه بالحسن، فهو دلالة على أنه مال طيب حلال، وأن صاحبه إنما بذله إخلاصًا للَّه لا سمعةً ورياءً. وقد وعد اللَّه - جَلَّتْ قُدْرَتُه - الْـمُنْفِقِينَ في سبيله بمضاعفة الأجر أضعافًا كثيرة. أي بما يفوق الميزان المشهور في إحصاء الحسنات، من أن الحسنة بعشر أمثالها! فهو ههنا بسبعمائة ضعف أو تزيد! فعن أبي سعيد الْـخُدْرِيِّ ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **الْـحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مائَةِ ضِعْفٍ! وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا!** »(١) ومِن ثَمَّ حضَّ اللَّه - جلَّ ثناؤه - المؤمنين على الإنفاق، والتنافس فيه، مشيرًا إلى أن العبد لن يخشى حاجة ولا فقرًا، ولو أنفق ماله كله في سبيله! ذلك أن اللَّه وَعَدَه الغنى والخَلَف في الدنيا قبل الآخرة، وهو قوله تعالى في الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. بمعنى أنه تعالى هو الذي يبسط الرزق لعباده، ويُوسع لهم فيه، وهو الذي يقبضه فيُضيِّق عليهم إذا يشاء. ومِن ثَمَّ وعد الـمُنفقِين ببسط الرزق والغنى، فخزائنه تعالى لا تنفد.

---

(١) رواه البخاري.

وإنما الأجر الأعظم والعِوَضُ الأضخم هو ما ادَّخره الربُّ الكريم لهم يومَ القيامة. فذلك قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

ثم استأنف القصّ - في السياق نفسه - عن غرائب بني إسرائيل، مُورِدًا قصةً أخرى من أبلغ القصص القرآني في قضايا الجهاد وفقه الدعوة، فيها من الحِكَمِ والعِبَرِ، ورسالات الهدى؛ ما يرسم منهاج التربية والتزكية بوضوح، ويكشف عن كثير من قضاياها المنهاجية، للدعاة والمجاهدين. قال جَلَّتْ حِكْمَتُه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾.

اتفقت كثير من الروايات عن السُّدِّيِّ، ووَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ، وغيرهما من التابعين، وبعضها عن ابن عباس ﵄، على مسار هذه القصة (١)، وخُلاصتها أن بني إسرائيل كانوا بعد موسى ﵇ على صلاح واستقامة مدةً من الزمان، ثم انحرفوا وضلّوا بتمُّردهم وفسقهم؛ حتى عبد بعضهم الأصنام! وكان الأنبياء يُبْعَثُونَ فيهم تَتْرَى، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. فلما طغوا وأعلنوا التمرُّد والعصيان؛ سَلَّطَ الله عليهم عدوهم من العمالقة عُبَّادِ الأصنام، واسم ملكهم يومئذ « جَالُوتُ ». فأحدثوا فيهم مَقْتَلةً عظيمة! وأسروا خلقًا كثيرًا، وصادروا منهم أرضًا واسعة، وضربوا عليهم الجزية، وأذلوهم إذلالًا كبيرًا! ولم يكن أحد يقاتل بني إسرائيل - قبل ذلك - إلا غلبوه؛ وذلك أنه كان عندهم تابوت موسى ﵇، يتوارثونه كَابِرًا عن كَابِرٍ، فيه سكينة لهم وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هارون. فكانوا لا يقاتلون عدوًّا فيقدِّمون التابوت بين أيديهم زحفًا به، إلا نصرهم الله! فلما تمادوا على الضلال هزمهم العدو واستلب منهم التابوت! وصَادَرَ التوراة من بين أيديهم، ولم يبقَ من يحفظها منهم إلا القليل! كما كانت النبوة قد انقطعت من أسباطهم! ولم يبقَ من سِبْطِ « لاَوِي » الذي استمرت النبوة فيه إلا أرملةٌ، قُتِلَ زوجها فتركها حاملًا.

---

(١) ن. تفسير الطبري، وتفسير البغوي، والدر المنثور للسيوطي.

فلم تزل المرأةُ تدعو اللَّه تعالى أن يرزقها غلامًا صالحًا؛ حتى سمع اللَّه لها، ووهبها غلامًا سمته « شَمْوِيلَ »، ومعناه: « سَمِعَ اللَّهُ دُعَائِي ». فلما شَبَّ الغلامُ آتاه اللَّه النبوةَ، وأمره بالدعوة إلى التوحيد، وإصلاح بني إسرائيل. فلما دعاهم إلى اللَّه طلب منه مَلَؤُهُمْ - وهم سادتُهم وكبراؤهم - أن يجعل لهم مَلِكًا يُوَحِّدُ صفوفهم، ويجمع جيوشهم، فيقاتلون عدوهم تحت رايته وسلطانه. وكان الْـمُلْكُ قد انقرض فيهم بانقراض النبوة؛ عقوبةً من اللَّه ﷻ . فقال لهم نبيهم: أرأيتم لو جعل اللَّه لكم مَلِكًا فنكثتم عهدكم، وخُنتم وُعُدَكم، وجَبُنتم عن القتال؟ قالوا: نعم، كان ذلك قبل انهزامنا، والْـمُلْكُ ما يزال بأيدينا، فَرَكَنَّا إلى ملذّات الحياة الدنيا وشهواتها، وتركنا الجهاد! أما وقد هُزِمْنَا، وقُتِّلْنَا، وسُبِيَتْ ذرارينا، وصُودِرَتْ أموالُنا، وأراضينا، وخسرنا كل شيء؛ فلا بد من القتال! .. لكن الحقيقة كانت غير ما زعموا، فلم تزل شهواتهم، وفسادهم، وحبهم للحياة الدنيا وملذاتها - ولو تحت سيطرة العدو - تُكَبِّلهم إلى أغلال الذل والهوان! ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وإنما كانوا ظالمين لأنفسهم؛ بما خانوا عهد اللَّه مرة أخرى، إذ جَبُنوا عن الجهاد، وتولَّوا عنه مُدْبِرين إلا قليلًا منهم!

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾!

كان طَالُوتُ رجلًا صالحًا في بني إسرائيل، لكنه كان شخصًا عاديًا، فلا هو من الملأ ولا من أبناء الملوك، وإنما كان سَقَّاءً فقيرًا، ومع ذلك فقد كان جنديًا مخلصًا، ماهرًا بالقتال شجاعًا، مؤمنًا صادق الإيمان؛ ولذلك جعله اللَّه مَلِكًا على بني إسرائيل. فلما أخبرهم النبيُّ بذلك ثاروا عليه، وغضبوا؛ إذ لم يرضوا برجل من العامَّة أن يكون مَلِكًا عليهم! وفيهم من أسباط الملوك وأحفادهم من كانوا يرغبون في ذلك، ويرون أنفسهم أحق من طالوت به، وكيف يكون له الْـمُلْكُ ولا سَلَفَ له فيه؟ كيف وهو

رجل فقير لا يملك حتى ما يصنع به عظمة السلطان لنفسه؟ فأجابهم النبيُّ بأن الْـمُلْكَ بيد اللَّه يورثه من يشاء من عباده! وأن طالوتَ السَّقَّاءَ هو خيرُهم وأحقُّهم به! لِمَا وَهَبَه اللَّهُ من صلاح الدين، وما بسط له من قوة الجسم، والعلم باللَّه توكُّلًا ويقينًا، وإتقانه لصناعة القتال وخطط الحروب. ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾، أي أنه تعالى وَسِعَ بفضله الخلقَ أجمعين، يهب منه ما يشاء لمن يشاء. عليمٌ بما يُصلح الناس، وبمن هو أهلٌ للمُلك والفضل منهم. فما أجهل من يستدرك على اللَّه، ويعترض على قضائه!

ومن رحمته تعالى ببني إسرائيل أنه - جلَّ ثناؤه - جعل لهم سببًا تلين به قلوبهم، وعلامةً على صدق نبوة « شمويل » وأحقية طَالُوتَ بالملك؛ وذلك أن الملائكة أخذت التابوت الذي انتزعه العمالقة منهم، وجاءت به تحمله في الهواء، على مشهد ومرأى من بني إسرائيل، بما فيه من آثار آل موسى وهارون - قيل: منها عصا موسى، وأجزاء أصلية من ألواح التوراة، أو بعض كُسَارِهَا - حتى وضعته في بيت طَالُوتَ، تماما كما وعدهم نبيهم! فما كان منهم إلا أن صَدَّقُوا بنبوة شمويل، وخضعوا لـمُلْكِ طَالُوتَ! وهو حقًّا مشهد عجيب رهيب! فأن يحصلوا على الصندوق الأثري الجليل، الذي كان موسى يحفظ فيه ألواح التوراة، ولم تزل به بعض قطعها الأصلية محفوظة، وبعض الآثار الأخرى من أمتعة موسى وهارون، فيرونه بأعينهم مُحلِّقًا في الهواء، تحمله الملائكة؛ لهو من البراهين العظمى، التي تتنزل عليهم بالسكينة في نفوسهم، والتطمين لقلوبهم، ما يزيدهم إيمانًا ويملؤهم يقينًا! ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فمن لم يؤمن بعد هذه الآية المعجزة فلا آمَنَ بعدُ!

وتدخل القصة مرحلة أخرى من التشويق والتعقيد..! وتزداد الْـمَلْحَمَةُ اضطرامًا! قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ لقد كانت أول الخطة

العسكرية التي رسمها طالوتُ - بإلهام من اللَّه ﷻ - أن يبدأ بتصفية جنده من المنافقين والخونة! فما كان لجيش خالطه الفُسَّاق أن ينصره اللَّه! ومن ثم لما فَصَلَ طالوتُ بجيشه عن القدس وفارق عمرانها، وكان يومَ صيفٍ شديدِ الحر، قال لهم: إن اللَّه تعالى سيختبر صبركم بنهر - وهو النهر الموجود بين الأردن وفلسطين - فمن شرب منه فلا يصحبني! وأما من صبر واستجاب لأمر اللَّه فلم يذق منه شيئا؛ فذلك الذي يصحبني. اللَّهم إلا من اغترف غرفة واحدة بيده بَلَّ بها ريقه، فلا بأس عليه! فإنما يكون النصر على العدو بالمؤمنين الصادقين الصابرين!

فلما وصلوا النهر، جعل أغلب بني إسرائيل يَكْرَعُونَ منه ويشربون؛ حتى انتفخت بطونهم، وثقُلت أجسامهم وترهَّلت! فلم يستطيعوا العبور! فتركهم جالوتُ وعَبَرَ بمن لم يشرب من جيشه وهم القليل! ولذلك لما شاهدوا عدوهم استكثروهم، وتَقَالُّوا أنفسَهم؛ فخالط قلوبَهم الخوف! رغم أنه ما بقي مع جالوت منهم - بعد عبور النهر - إلا المؤمنون! فلما مَسَّهُمْ ما مسَّهم من الخوف والتردد؛ ﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ... ﴿٢٤٩﴾ ﴾ وذلك لِمَا شاهدوا من كثرة جيشه وضخامة أجسامهم! وقد كان عددهم بالآلاف، بينما لم يتعدّ جيش المؤمنين الثلاثمائة إلا قليلا! تمامًا كجيش محمد ﷺ في غزوة بدر! فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: (كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلاثُ مائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ. وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ!)[1].

فخطب فيهم أهل العلم باللَّه منهم واليقين فيه، الذين يوقنون بلقاء ربهم، وبنصره تعالى للصابرين، وبما أعدّه للشهداء في سبيله من نعيم مقيم. وأولئك هم القليل من القليل! وخاصَّة الخاصَّة منهم! فقالوا لهم مُشَجِّعِينَ ومَثَبِّتِينَ: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ وتلك سُنَّةٌ من سنن اللَّه، فالنصر لا يكون بكثرة العدد، ولا بقوة العُدَّةِ والسلاح، وإنما يكون بصدق الإيمان، والصبر على بأس القتال! واستجلاب ولاية اللَّه بالإخلاص التام، فمن تولَّاه اللَّه نصره ولو كان في نفسه ضعيفًا! فبإخلاص العبادة للَّه والدعاء، يُرْزَقُ العبدُ الصبر الذي به يكون النصر! ولذلك قال: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ فالمعية ههنا هي معية

(١) رواه البخاري.

التثبيت والنصر. ولا تُنال إلا باليقين والإخلاص؛ ولذلك لما برزوا لعدوهم وتوسَّطوا ساحة القتال، جعلوا يبتهلون إلى اللَّه، ويسألونه الصبر على مواجهة هذا العدو الشرس، والتثبيت لأقدامهم عند الاشتباك، وعدم الفرار من الزحف، وأن يرزقهم النصر عليهم، قال ﷻ : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ وهذا الدعاء يدل على أن تذكير العلماء باللَّه لقومهم قد أعطى نتيجته وأثمر؛ فهو دعاء المؤمن الصادق، الموقن بوعد ربِّه، الواثق في نصره، لا دعاء المتردد الخائف! وعبارة: ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ تعبير بليغ عن عزيمة الإقدام على القتال، وعمق الإخلاص في الدعاء، والشعور الصادق بالحاجة إلى اللَّه! فكأنما الصبر الذي يطلبونه هو بحجم السيل العظيم! سألوا اللَّه أن يُفرغه عليهم، فيتدفق فوق رؤوسهم مثل الشلال! فيمنحهم قوة غير عادية، وثباتًا كثبات الجبال! لأن ذلك وحده هو الكفيل بمواجهة جيش العمالقة العتاة! وكذلك كان!

ومِن ثَمَّ نصر اللَّه هذه الطائفة القليلة من بني إسرائيل على ذلك العدو الرهيب! رغم ما يملكه من عدّة وعددا! ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾. فهاهنا كشف اللَّه جلّت حكمته أمر النبي داود ﵇! بما أظهر على يديه من معجزة وكرامة؛ إذ مَكَّنَهُ تعالى من قتل الطاغية جالوت، ملك العمالقة وقائدهم العسكري! فأَوْرَثَ اللَّهُ داودَ ﵇ نبوةَ شَمْوِيلَ ومُلْكَ طالوت معًا، وجمع له بين النعمتين! وآتاه الحكمة، وعلّمه من أسرار العلوم ما يشاء سبحانه، فكان له من التسابيح والأذكار والابتهالات الرقيقة، ما يجعل الطير تخشع له، فتُسبِّح بتسبيحه مُؤْتَمَّةً به! وما يجعل الجبالَ الصُّمَّ تلين لترتيله وتَحْبيرِهِ، فتُرَدِّدُ معه ما يُجَوِّدُهُ من أذكاره وزَبُورِهِ! قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ١٨ - ٢٠] فكان قُوَّةً وهُدًى لبني إسرائيل دهرًا.

ثم ختم اللَّه - جَلَّتْ حِكْمَتُه - هذه القصة البليغة بقاعدة كلية من قواعد العمران البشري، وسُنَّةٍ من سنن الاجتماع الإنساني، فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وقد قُرِئَتْ: ﴿ دَفْعُ ﴾ و(دِفَاعُ) بزيادة ألف المشاركة. وكلاهما بمغزى واحد. أي لولا أن اللَّه جعل من المؤمنين رجالا يُقْبِلُونَ على الموت بشجاعة، ويطلبون الشهادة في سبيل اللَّه، ويدفعون بأنفسهم عدو اللَّه، ويدافعونه؛ لغلب شِرَارُ الخلق على الأرض فَخَرَّبوا العمران، وأهلكوا الحرث والنسل، واستعبدوا المستضعفين، وحظروا الدين، وهدموا المعابد والمساجد، ونشروا في الأرض الفساد..! وهو ما فصَّله اللَّه في آية أخرى في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]. فاللَّه - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - يُدافع بمؤمن واحد عن آلاف المؤمنين، وعما لا يُحصى من المصالح الدينية والدنيوية. ولذلك كان أجر المجاهد في سبيله بأرفع درجات الجنة!

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾. أي ذو نعمة على العالمين؛ بما فرض على المؤمنين من الجهاد في سبيله والضرب على أيدي المفسدين! وقوله: ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ مُشعر بأن الجهاد الحق، الخالص للَّه؛ ينشر السلام في العالم كله، ويُوفر الأمن لجميع البشر، مؤمنهم وكافرهم! وهذا من أعجب خصائص هذا الدين الحنيف. وقد مرَّ على المسلمين حين من الدهر، كانوا يقومون فيه بواجب الجهاد؛ فكانوا ملاذًا لليهود المضطهدين من قِبَلِ متعصبي النصارى، وملاذًا لبعض طوائف النصارى المطارَدين من قِبَلِ إخوانهم، من أهل المذاهب النصرانية الأخرى! فكان حمى الإسلام يومئذ ملجأ لكلِّ مستضعف خائف، مسلمًا كان أو غير مسلم! وإنما ذلك أمن وسلام وَفَّرَتْهُ دماءُ الشهداء المسلمين لكل العالمين، ما عدا الظلمة المستكبرين، والطغاة المتجبِّرين! وإن في ذلك لآية دالّة على ربانية هذا الدين، وأنه الحق من رب العالمين، وأن هذا النبي الأمين، محمد بن عبد اللَّه - عليه الصلاة والسلام- هو حَقًّا خاتم الأنبياء والمرسلين؛ بما كشف من خفايا قصص الأولين، وبما بلَّغ عن اللَّه من الْهُدَى والحِكَم، والقواعد والسُّنن! وبهذا وقعت حجة اللَّه بالحق على الناس أجمعين! ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وتلك آياتٌ وعلاماتٌ لا يستطيع أهل الكتاب - بما عندهم من علمٍ بالصحف الأولى - أن ينكروها، ولكن لهم أن يجحدوها! أما الصادقون منهم

فلا يستكبرون. كما قال تعالى عنهم في عدة مواطن من كتابه الحكيم. قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۩ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣] فالله أكبر، ولله الحمد..!

٣ - الهدى المنهاجي:

وأما الهدى الذي تكتنز به هذه الآيات فلا يكاد ينحصر! وإنما لنا أن نلخصه هنا في سبع عشرة رسالة منهاجية، نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أنه لا يُغْنِي حَذَرٌ من قَدَر، وأن الأعمار بآجالها. وأن الإيمان بالموت من صميم الإيمان بالقضاء والقدر. قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فلا يجوز لمسلم أن يمنعه خوف الموت من الاستجابة لواجب شرعي، كالجهاد إذا توفَّرت شروطه، وتعيَّن فرضه، أو وجب على الكلية. وما كل من قاتل في سبيل الله قد قُتِلَ. ولو قُتِلَ لما كان معدودًا في الموتى! ولما حضرت خالدَ بن الوليد ﷺ الوفاةُ قال: (لقد شهدتُ مائةَ زَحْفٍ أو زُهَاءَهَا، وما في جسدي موضعُ شِبْرٍ إلَّا وفيه ضربةٌ، أو طعنةٌ، أو رَمْيَةٌ، ثم ها أنا ذَا أموتُ على فراشي كما يموتُ العِيرُ! فلا نامتْ أعينُ الجُبَنَاءِ!) [1]. ومن الحكم البليغة المروية عن بعض السلف: (حَارِسُ العُمْرِ الأَجَلُ!).

الرسالة الثانية: في أنَّ الفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ من أكبر الكبائر، وأخطرها! ومعنى « الفرار مِنَ الزَّحْفِ »: التولي عن القتال في سبيل الله، والهروب من المعركة! فذلك من أخطر المحرَّمات في الإسلام، ومن أعظم المُوبِقَاتِ! لِمَا فيه من خِذْلانٍ للأُمَّةِ، وخيانةٍ لله ورسوله، وكُفْرٍ بالإيمان بالقَدَرِ وهو من أركان الإيمان! ففي الصحيحين

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (١/١٢٧). والعِيرُ: هو الحمار، وحشيًّا كان أو أهليًّا.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ!** » قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: « **الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ!** » (١) وبَعَثَ النبيُّ ﷺ إلى أهل اليمن كتابًا في الفرائض، والسنن، والدِّيات، والزكاة، فذكر فيه: « **وإنَّ أَكْبَرَ الكَبَائِرِ عند اللَّه يوم القيامة: الإشراكُ باللَّه، وقتلُ النفس المؤمنة بغير حقٍّ، والفرارُ في سبيل اللَّه يومَ الزَّحْفِ، وعقوقُ الوالدين، ورَمْيُ الْـمُحْصَنَةِ، وتَعَلُّمُ السِّحْرِ، وأكلُ الرِّبَا، وأكلُ مَالِ اليتيم!** » (٢) والفرارُ من الزحف هو من أخطرها جميعًا وشرِّها! قال ﷺ: « **الكَبَائِرُ سَبْعٌ، أَعْظَمُهُنَّ: إشراكٌ باللَّه، وقتلُ النفس بغير حقٍّ، وفِرَارٌ يَوْمَ الزَّحْفِ!** » (٣) (وسُئِلَ النبي ﷺ: مَا الكَبَائِرُ؟ قال: « **الإِشْرَاكُ باللَّه، وقتلُ النفسِ المسلمة، وفِرَارٌ يومَ الزَّحْفِ!** ») (٤) وغير هذا في السنة الصحيحة كثير.

والعلماءُ على أنه لا يدخل في هذا المحظور الفِرَارُ من القتال؛ لِخُطَّةٍ عسكرية، على سبيل الكَرِّ والفَرِّ، أي ما يسمَّى اليوم (بالتكتيك الحربي).

الرسالة الثالثة: في أن « المعاملة بنقيض المقصودِ » - عند المخالفة لشرع اللَّه وعصيان أمره ونهيه - سُنَّةٌ من سنن اللَّه في تربية البشر، وقاعدةٌ من قواعد الفقه الإسلامي. فمن فَرَّ من قضاءِ اللَّه وحُكْمِهِ لغير عذر شرعي؛ أوقعه اللَّه فيما فَرَّ منه أو أعظم! ومن قصد الاستغناء بالمال الحرام أفقره اللَّه، ولو كان كَسْبُهُ منه كثيرًا! وجعله يعيش ضنكَ الحياةِ وشقاءَ الْجَشَعِ، ولم يُذِقْهُ حلاوة القناعة! وربما سلَّط عليه من الأمراض الفتاكة ما يذهب بماله كله! وأما في فقه الأموال فإن النبي ﷺ منع قَاتِلَ مُوَرِّثِهِ من إِرْثِهِ؛ معاملةً له بنقيضِ مَقْصُودِهِ؛ حيث استعجل مَوْتَهُ ليأخذ ميراثه! فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **القَاتِلُ لا يَرِثُ!** » (٥)

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وغيره.

(٣) رواه النسائي، وحسنه الألباني في صحيح سننه، وفي إرواء الغليل.

(٤) رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٥) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح سننيهما، وفي صحيح الجامع الصغير.

وقال عليه الصلاة والسلام: « لَيسَ لِلْقَاتِلِ شَيْءٌ! وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَارِثٌ [يعني القتيل] فَوَارِثُهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ. وَلا يَرِثُ القَاتِلُ شَيْئًا! » (١).

الرسالة الرابعة: في أن الاستدراك على اللَّه ورسوله ﷺ، لا يزيدُ المرءَ إلا خَسَارًا! وإنما هلك بنو إسرائيل باستدراكهم على أنبيائهم، وردِّهم حُكمَ رَبِّهم، واشتراطهم عليه ﷺ في قضايا الإيمان، والجهاد، وسائر الأحكام! وتَلَكُّئِهِمْ وترددهم في اتباع أوامر رسلهم وأنبيائهم! وأما المؤمنون الصادقون فلا يستدركون على ربهم، وإذا ورد عليهم الأمر أو النهي من اللَّه لم يقولوا: « وَلَكِنْ »! وإنما قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴾ ودخلوا تحت حكم اللَّه خاشعينَ مُخْبِتِينَ! فذلك هو الإيمان الحق، وبه مدح اللَّه - جلَّ ثناؤه - الصالحين من هذه الأمة؛ إذْ سلَّموا الأمر كله للَّه، ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾.

الرسالة الخامسة: في أن القتال في سبيل اللَّه - رغم استثقال النفس له، وكُرْهِهَا له - هو نعمة من اللَّه على المؤمنين، وعِزٌّ للأمة، وحفظ لها وأمانٌ؛ لأن فيه إقبالَ العبد على الموت؛ دفاعًا عن دين اللَّه، وإعلاءً لكلمته في العالمين! وهذا هو قصده الأصيل. ولا يكون ذلك إلا عند من تحقق باليقين باليوم الآخر. ثم هو بعد ذلك سببٌ لِمَنَعَةِ الأمة وعزتها. وقد حرَّم اللَّه على المسلمين أن يعيشوا أذلَّة تحت سيطرة العدو. قال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] وقال تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]؛ ولذلك جعل سبحانه أجر المجاهد في سبيله أعلى من كل أجر! فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: « لا تَسْتَطِيعُونَه! » قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: « لَا تَسْتَطِيعُونَهُ! » وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: « مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ، الْقَائِمِ، الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْـمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى! » (٢).

الرسالة السادسة: في أنه لا يجوز تـمنِّي لقاء العدو، وإنما الواجب تربية النفس على مسلك الجهاد، والعيش على طريق الإعداد له والاستعداد. فقد قال النبي ﷺ: « أَيُّهَا النَّاسُ! لا تَـمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ! فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا! وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ! » (٣) ولا يكون الصبر على القتال إلا بتربية جهادية مستمرة.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سننه، وفي صحيح الجامع.

(٢، ٣) متفق عليه.

وكل من له حظ من البصر والبصيرة يُدرك أن زماننا هذا هو أولى بذلك! فهو زمن الاستكبار العالمي، والتسلط الصهيوني على المسلمين. فالتربية الجهادية هي أساس تزكية النفس في الإسلام، وهذه الأجيال المعاصرة أولى بها وأحرى! فلا حياة للأمة ولا تخلص لها من عدوها إلا بالتدرج في مسلك الجهاد في سبيل الله! ولا نجاة لها يوم القيامة إلا بالسير إلى الله عبر منازله وأحواله!

الرسالة السابعة: في أن الإنفاق الجهادي في سبيل الله لا تحده حدود التبذير، ولا تقيده حِكَمُ التدبير! ولا يجري عليه حُكْمُ الإسراف، ولو أنفق فيه المسلمُ مالَه كلَّه! وإنما تنطبق تلك الحدود والضوابط على ما دونه من الصدقات والنفقات! ولذلك قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ في تجهيز الغزوات يأتي بماله كله! ومنهم من كان يأتي بنصفه! ولم يكن النبي ﷺ يردّ شيئًا من ذلك، إلا رجلًا جاء بمثل ذلك في الصدقات العامّة، فما كان النبي ﷺ يقبل منهم فوق الثلث، ويقول: « **فَالثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ! إِنَّكَ لأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ!** »[1] أما الجهاد المالي فلم يجعل لهم فيه حدًّا! لأن الله ﷻ يُعجل فيه بالخَلَفِ على صاحبه أضعافًا كثيرة! ثم يجعل له من الأجر الأخروي ما لا يحصى من الدرجات! فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِي ﷺ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: « **نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ** »، قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي - وَحَائِطُهُ فيه سِتُّ مِائَة نَخْلَةٍ! - ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْحَائِطِ فَنَادَى يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، وَهِيَ فِي الْحَائِطِ وعِيَالُهَا، فَقَالَتْ: لَبَّيْكَ، فَقَالَ: اخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي! [2]، فقال النبي ﷺ: « **كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُعَلَّقٍ أَوْ مُدَلَّى فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ!** »)[3] وقد سيق هذا الحديث سياقًا آخر، وفيه: « فَقَالَ يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ!

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبرني في الكبير، وأبو يعلى، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في تعليقه على كتاب « مشكلة الفقر » للقرضاوي.

(٣) رواه مسلم.

أُخْرِجِي مِن الْحَائِطِ فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ! فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ! »[١].

الرسالة الثامنة: في أن الجهاد في سبيل الله إنما يستقيم إذا كانت الجيوش الإسلامية تحت سلطان صالح أو أمير ناجح، وانطلق من أرض خاضعةٍ لحكم اللّه، خالصة الولاء له تعالى شَعْبًا وسلطانًا! وأن القتال العشوائي لا ثمرة له! بل كان ضرره على الإسلام والمسلمين أكثر من نفعه! وقد حرم اللّٰه الجهاد على المسلمين – زمن البعثة – وهم مستضعفون في مكة ثلاث عشرة سنة! فلما فَرض عليهم الهجرة، ونشأت دولة الإسلام في المدينة؛ أوجب عليهم القتال في سبيله، رغم صغر الدولة وضعفها عُدَّةً وعَدَدًا! وأنت ترى أن بني إسرائيل إنما كانوا يقاتلون مع الأنبياء انطلاقًا من أرض مُحرَّرة. بينما لم يُؤمروا بذلك وهم بمصر تحت حكم فرعون. وأما قول البخاري رحمه الله في صحيحه: (بَابُ: الْجِهَادُ مَاضٍ مَعَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « الْـخَيْلُ مَعْقُودٌ فِـي نَوَاصِيهَا الْـخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! »)[٢] فأما كون الجهاد ماضيًا إلى يوم القيامة، فهو معنى تواترت به الأحاديث الصحيحة واستفاضت به الأخبار عن النبي ﷺ، بما يفيد القطع واليقين. وأما كونه ماضيًا مع السلطان الفاجر، فهو من فقه الإمام البخاري، وهذا ليس على إطلاقه، فربما كان السلطان سفيها، وربما دخل حروبًا عبثية؛ حميةً وعصبيةً، لا إعلاءً لكلمة اللّه، ودفاعًا عن بيضة الإسلام وأرضه – كما عشناه في عصرنا هذا مرارًا – فيورد البلاد والعباد المهالك! ولعلَّ البخاري استنبط ما استنبط من الفقه اعتبارًا بخلفاء زمانه، فأولئك مهما فسقوا أو فجروا، فقد كان للعلماء عندهم مكانة محترمة، وكانوا هم قادة القتال عندما يُعْلَنُ النفير العام. أما حُكَّام زماننا هذا فلا يجري عليهم ذلك إلَّا قليلًا منهم.

الرسالة التاسعة: في أن السلطان في الإسلام لا يكون وِرَاثَةً بالضرورة، وأن وَرَثَةَ الْـمُلْكِ إذا طغوا وفسقوا انتزعه اللّه منهم، وجعله في غيرهم! قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال ﷻ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ – ٢٨] وقال ﷻ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ

(١) رواه أحمد، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه: « إسناده صحيح على شرط مسلم ».
(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد.

مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وكذلك جميع المسؤوليات الدينية والدعوية والجهادية، فأيما جماعة انحرفت عن منهاج ربها نزع الله البركة منها وأفشلها، وجاء بجيل جديد مُخلص لربِّه، يأخذ الكتاب بقوة وأمانة؛ فيتولّاه الله وينصره، ويُورثه الأمانة. قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩] وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤]. ثبتني الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة!

الرسالة العاشرة: في أن على أصحاب المسؤوليات الدينية والدعوية، والعمرانية؛ أن يعتنوا بتقوية أجسامهم، وتثقيف عقولهم بالعلم الضروري لصناعتهم، وبما يكفيهم من العلم الشرعي لعبادة ربهم، وإتقان أداء مهمتهم، فيما نِيطَ بهم من وظائف وأعمال، في شتَّى المجالات والمهن والتخصصات. فالقوة مطلوبة من المؤمن بكل صورها المادية والمعنوية. قال ﷺ: « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِن الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ! وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ! ..** » الحديث [1].

الرسالة الحادية عشرة: في أن أول مراحل الجهاد في سبيل الله، جهاد النفس حتى تنقاد لصاحبها في طاعة الله، وتصفو من دسائس الشيطان، وخواطر الرياء والمباهاة والتسميع. وأن من لم يتخلَّص من أهوائه فهو غير مُؤَهَّل للقتال في سبيل الله، فإن فعل أفسد في الأرض وأهلك الحرث والنسل! وقد رأينا في زماننا هذا أقواما نادوا بالجهاد بغير علم، وإنما شعورًا منهم بالفخر والاستعلاء على عموم المسلمين، فلم يلبثوا أن فتنهم الله بأهوائهم؛ فسقطوا في القول بعقيدة الخوارج، وتكفير عامَّة

---

(١) رواه مسلم.

المسلمين، فاستباحوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم! فكانوا بذلك من الخاسرين! وانطبق عليهم والله قول النبي ﷺ: « **سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ! يَمْرُقُونَ مِن الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيَّةِ!** .. » الحديث [١].

الرسالة الثانية عشرة: في أن الله - جَلَّتْ حِكْمَتُهُ - جعل مدارج السير إليه، دينًا ودعوةً وجهادًا؛ منصوبة على عقبات الابتلاء في النفس؛ لتخليصها وتصفيتها. فلا يتم الوصول إليه تعالى إلا بالنجاح في إتمام التخلص من جميع الآفات التربوية، والتحقق بالإخلاص الكامل لله! وقد ابتلَى اللَّهُ قومَ شموِيلَ عليه السلام كما رأيتَ في بداية نهضتهم الجديدة، وأول خروجهم من عهد المذلَّة؛ بتمحيص نياتهم وسلامة مقاصدهم فيما طلبوه من نبيهم، من ضرورة تنصيب مَلِكٍ منهم للقتال معه، فامتُحنوا بتعيين ملك فقير عليهم! ثم ابتُلوا بالأمر بقتال العدو، ثم بالسير إليه وغزوه في أرضه، وعدم انتظار هجومه، ثم بعدم الشرب من ماء نهر الأردن في الطريق، رغم حرّ الصيف وضنك السفر في الصحراء! ثم بلقاء عدو غير عَاديٍّ في جسمه وعُدَّتِهِ وعدده، وهم العمالقة! ثم بما وقع في قلوبهم من الخوف والتردد أول الأمر! فكانت طريقهم كلها مليئة بالعقبات الابتلائية الشداد.. فمن خالف أمر الله في كل ذلك، أو خانه في أي مرحلة من مراحل الطريق؛ سقط قبل الوصول! ومن صبر واصطبر وَصَل! وكان من الناجين، أو من الصِّدِّيقين!

الرسالة الثالثة عشرة: في أن النصر ليس بكثرة العدد، ولا بقوة العُدَّةِ، وإنما النصر بالله، وبالله وحده! وأن الهزيمة لا تقع على المسلمين إلا بسبب داخلي، من فُشُوِّ الخيانات وفساد النِّيَّات! لا بتفوق العدو العسكري والتكنولوجي. صحيحٌ أنهم أُمِرُوا بالإعداد لعدوهم ما استطاعوا من قوة، ولكن ذلك إنما هو على قدر الطاقة والوسع الممكن. وإنما الرهان الأكبر هو على إخلاص القصد، والتحقق بولاية الله، وبالجندية الكاملة له وحده دون سواه! فلا يكون القتال إلا تحت رايته، ولا لقصدٍ سوى قَصْدِ إعلاء كلمته! فإذا تحقق هذا فلا عبرة بعد ذلك بتفوق العدو العسكري والمادي، فإن

---

(١) متفق عليه.

اللَّه ناصرٌ جنده قطعًا! قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ!** » (١) فكيف والمسلمون اليوم بمئات الملايين؟ إن المشكلة إذن ليست في العُدَّةِ والعَدد، وإنما هي الغُثائية! وهي الكثرة الفارغة! قال ﷺ: « **يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُم الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا!** » فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: « **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ.. وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ! وَلَيَنْتَزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُم الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُم الْوَهَنَ!** » فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: « **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ!** » (٢).

الرسالة الرابعة عشرة: في أنه لا يجوز للمسلم أن تُرهبه غطرسة العدو وقوته، ولا أن ينخدع بسحر إعلامه، وترهيبه للمسلمين وتثبيطه، مهْمَا بلغ من علوٍّ في الأرض وفساد، ومهما حقَّق من تفوُّق عسكريٍّ وتكنولوجيٍّ! فإنما العزَّة للَّه وللمؤمنين! وإن انتصار الإيمان وتفوق الإرادة وعلو الهمة لهو أكبر سلاح مرهب للعدو! ولقد فزع فرعون من قبل عندما واجهه السحرةُ الذين آمنوا، وتحدُّوه بعقيدة الشهادة والاستشهاد! ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧١ - ٧٣] وبذلك كان تثبيت علماء بني إسرائيل لقومهم، عندما فزعوا من جالوت وجيشه؛ إذْ: ﴿ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، وابن خزيمة، والحاكم وصححه. كما صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح سنني الترمذي وأبي داود، وفي صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح سنن أبي داود، وصحيح الجامع.

فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ وبذلك أيضًا مدح الله أصحابَ محمد ﷺ، إذ قال ﷻ في حقهم، وفي حق كل من تأسَّى بهم إلى يوم القيامة: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وأما الخوف من العدو والفَرَقُ من الكفار، فإنما هو صفة الجبناء المصابين بداء الوهن، كما ذكرناه في الرسالة السابقة. نسأل الله لنا ولكم العافية والثبات!

الرسالة الخامسة عشرة: في أن صدق التعبُّد، وإخلاص الدعاء؛ من أهم أسباب النصر في الإسلام. وقد رأيت كيف دعا المؤمنون من خُلَّصِ بني إسرائيل - عند مواجهة جالوت وجنوده - بذلك الدعاء الخالص العميق! قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ وقد باتَ رسولُ الله ﷺ ليلةَ غزوةِ بَدْرٍ الكبرى قائمًا يبتهل إلى الله ويبكي بين يديه ﷻ ! ولما تراءى الجيشان جعل يدعو ويدعو رافعًا يديه إلى السماء؛ حتى سقط رداؤه من على منكبيه! فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي! اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي! اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ!** » فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ؛ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ! فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: « يَا نَبِيَّ اللَّهِ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ! فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ! » فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ!)(١).

الرسالة السادسة عشرة: في صحة ثبوت كرامات الصالحين حَقًّا وصدقًا. سكينةً لهم من ربهم وتطمينًا. كمشاهدة الملائكة، وسماع الهواتف الرحمانية، والرؤى الصادقة، أو حدوث خوارق للمؤمن يُنجيه الله بها من عدوه عند الضرورات. ففي

---

(١) رواه مسلم.

صحيح مسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ مِن الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِن الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ؛ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ! وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: « أَقْدِمْ حَيْزُومُ! » فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ! فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ! فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: « **صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ!** »)(١) وحَيْزُومُ: اسم الفرس الذي كان يركبه المَلَكُ المقاتل.

ومثل ذلك ما حدث لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إبَّانَ خلافته، من مناداة البعيد وإسماعه عبر آلاف الأميال، في قصة عجيبة مشهورة، وذلك أنه ﷺ أرسل جيشا إلى بلاد « نهاوند » من أرض العجم، تحت إمرة رجل يقال له « سَارِيَةُ »، فبينما عمر يخطب الجمعة بمسجد المدينة إذ وجد نفسه يُنادي - في غير سياق الخطبة - بأعلى صوته: « يَا سَارِيَةُ الجبَلَ الجبَلَ! » - ثلاثًا - فتعجَّب الناس من أمره! فلما قَدِمَ رسولُ الجيش بعد ذلك سأله عمر الخبر، فقال: يا أمير المؤمنين هُزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا ينادي: « يَا سَارِيَةُ الجبَلَ الجبَلَ! » ثلاثا؛ فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم اللَّه! فقيل لعمر: إنك كنت تُصيح بذلك! »(٢)، وقصص الكرامات الصادقة في كتب الطبقات كثير. صحيحٌ أن عددًا منها هو مجرد خرافة لا تثبت لصاحبها، ولكن الصحيح الثابت منها كثير أيضًا. ولا تسمى الخارقة كرامةً إلا إذا كان صاحبها من المؤمنين العدول الصالحين. وأما مُخْرَقَات الزنادقة والفساق - ولو ادّعوا الصلاح - فهي من أعمال الشياطين! بمجرد ما يراها العالم باللَّه يكشف باطلها. وإنما ينطلي دجلها على الجهال!

الرسالة السابعة عشرة: في أن فرض القتال في سبيل اللَّه على المسلمين أساس

---

(١) رواه مسلم.

(٢) وردت القصة بطرق وروايات شتى منها الضعيف ومنها الصحيح، وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية وقال: « هذا إسناد حسن جيد! » البداية والنهاية لابن كثير (١٤٦/٧). كما ذكرها ابن حجر في الإصابة وقال: إسناده حسن. وذكر القصة غير واحد من أصحاب الطبقات، فقد أخرجه البيهقي وأبو نعيم كلاهما في دلائل النبوة، واللالكائي في شرح السنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، والخطيب في رواة مالك عن نافع عن ابن عمر. وأخرجه ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر.

السلام العالمي، ليس للمسلمين وحدهم، ولكن للبشرية كلها، مسلميها وكفارها! كما عرضناه في « البيان العام » من هذا المجلس، عند بيان قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فالسلام العالمي هو من مقتضيات « فضل اللّه على العالمين ». وقد جعل اللّه - جَلَّتْ حِكْمَتُه - دماء الشهداء المسلمين في الجهاد، هي الطريق الوحيد إلى تحقيقه! وما كان الجهاد قط سببَ فتنةٍ ولا بابَ خوفٍ، إلا على الظالمين! ولا هو « إرهابٌ » مطلق، كما يُصَوِّره شياطين الإعلام اليوم وكُهَّانُهُ الكبار! كلَّا! وإنما هو تحطيم للطغيان العالمي، الذي يُذَبِّحُ المستضعفين في العالم، من المسلمين وغير المسلمين! ويحاصرهم بجبروته؛ فيزيدهم فقرًا على فقر، ويسلبهم حرياتهم، وحقهم في عبادة اللّه الواحد القهار!

وقد كان عدل المسلمين من قبل، واشتهارهم بالأمانة وحفظ العهود، من أهم أسباب النصر على العدو؛ حيث كانت الشعوب في كثير من الأحيان تنقلب على حكامها الطغاة لصالح المسلمين الفاتحين؛ رغبةً في العيش تحت سلطان مسلم ينشر العدالة والسلام، ويُؤَمِّنُ لأهل الذِّمَّة معاشَهم وتجارتهم! وقد تواترت بهذا الأخبارُ عن الغزوات والفتوحات الإسلامية. فالإسلام قد جعل « عهد الذِّمَّة » - ومعناه عقد الشرف - الذي كان يُعْطَى لأهل الكتاب، من اليهود والنصارى، حَقًّا للّه تعالى، يُعَاقَبُ من خانه أشد العقاب! فعن عبد اللّه بن عَمْرٍو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْـجَنَّةِ! وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا!** »[(١)] قال ابن حجر رحمه الله: (وَالْمُرَاد بِهِ: مَنْ لَهُ عَهْدٌ مَعَ الْـمُسْلِمِينَ، سَوَاءٌ كَانَ بِعَقْدِ جِزْيَةٍ، أَوْ هُدْنَةٍ مِنْ سُلْطَانٍ، أَوْ أَمَانٍ مِنْ مُسْلِمٍ)[(٢)] فالسلام الذي يحميه اللّه من فوق سبع سموات، هو السلام العالمي الحق! لا السلام الكاذب الذي يُبرمه مع المسلمين اليوم، طغاةُ الاستكبار العالمي من اليهود والنصارى؛ لأهداف استعمارية محضة، فينقضونه عليهم ألف مرة ومرة! وإن ذلك لعلامة بارزة على بداية انهيار الظلم العالمي، وإنه لفأل خير كبير للمسلمين، رغم ما هم فيه من محن! قال تعالى:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري (١٢/٥٩). طبعة دار المعرفة، بيروت.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان منهاج التخلُّق بمواصفات « الشخصية الجهادية »، وشرح مسالكه العَمَلية. ويكون ذلك للمؤمن بمجاهدة النفس على التحقُّق بِعَشْرِ خِصَالٍ. يتم جمعها باستقراء حِكَمِ هذه القصة القرآنية البليغة، الْمُكْتَنِزَةِ هُدًى، وعِبَرًا، وحِكَمًا. ونستطيع - بإذن اللّه - حصر ذلك كله في **المجاهَداتِ العَشْرِ** التالية:

المجاهدة الأولى: في الإيمان بالقضاء والقدر، إيمانَ يقينٍ وشُهودٍ قلبي دائم. بحيث يجد العبدُ كلَّ ما ينزل به من المكَارِهِ، كأنما هي رَغَائِبُ طلبها من اللّه فاستجاب له! فتنسجم نفسه مع مراد اللّه في كل شيء. وكأنما هو يرى بعينه ما تسوقه تلك المقادير - رغم شدتها - من البشائر والبركات، وما تنطوي عليه - في عالم الغيب - من الخيرات والفتوحات؛ فيفرح بها ولا يقرح! ولا يعترض على ربه في شيء منها البتة، مهما شقَّت واشتدَّت! بل يستسلم لمولاه ويُسَلِّمُ له تسليمًا، شاكرًا وحامدًا! فذلك هو الإيمان الحق بالقَدَرِ. فمجاهدة النفس على التخلق به، موصلٌ إلى مقام الرضا عن اللّه. وهو أساس الشخصية الجهادية. لا خطوة ممكنة في هذه السبيل قبل التحقق به!

المجاهدة الثانية: في الإيمان بالآخرة، إيمانَ يقينٍ أيضا، والعيشِ على أملها طيلةَ العمر. والنظر الدائم إلى فناء الحياة الدنيا وفوات الأعمار! ومن أَجَلِّ الأحاديث المُرَسِّخَة لهذه الحقيقة الإيمانية العظمى، ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ [مُضْطَجِعٌ] عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ؛ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَو اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا! فَقَالَ ﷺ: « **مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا!** »)[1].

---

(١) رواه أحمد، وابن حبان، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير، والحاكم، وقال: « صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة. وقد روي هذا الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (اضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جِلْدِهِ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا فَفَرَشْنَا لَكَ عَلَيْهِ شَيْئًا يَقِيكَ مِنْهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا! ») رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، =

المجاهدة الثالثة: في التخلُّص من أنانية الشُّح، وحمل النفس على الإنفاق على الدعوة إلى اللَّه، والجهاد في سبيله؛ حتى تألفه النفسُ وتستعذبه؛ فيصير سجية ثابتة لها.

المجاهدة الرابعة: العيش بنية الجهاد، ولو لم تتوفر دواعيه وأسبابه، وإعداد الجسم والعقل لذلك. فإذا توفَّرت الشروطُ نَفَرَ له إذا اسْتُنْفِرَ، وأسهم في الإنفاق عليه بما يستطيع، من مال، أو دعوة، أو إعلام. واجتهد في إخلاص الدعاء لرجاله بالليل والنهار.

المجاهدة الخامسة: التقلُّل من الدنيا، وعدم الاغترار بشهواتها، ومجاهدة النفس على التخلُّص من عادة الاستهلاك الذميمة! وترك الإسراف في تناول الطعام، والشراب، واللباس، وسائر المُقْتَنَيَات.

المجاهدة السادسة: الدخول في تلقي دروس الصبر، والتخلُّق بحقيقته، وتذوُّق طعمه، والتعرف إلى كُنْهِهِ ، في كلِّ ما يعرض للمؤمن من ابتلاءات في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو صحته.

المجاهدة السابعة: التدرُّب على شجاعة النطق الحكيم بالحقِّ المبين، في كلِّ أمور الدعوة والدين، من غير تَهَوُّرٍ ولا مباهاة أو رياء!

المجاهدة الثامنة: تَذَكُّرُ سؤالِ اللَّهِ عَبْدَهُ التاركَ للجهاد، ومحاسبته تعالى إِيَّاهُ - يومَ القيامةِ - لِمَ تركه وقد تَعَيَّنَ عليه؟

المجاهدة التاسعة: النظر إلى مصالح الدين المهدَّدة بالخراب، وإلى المؤمنين المستضعفين المعرَّضين للهلاك؛ إن هو ترك الجهاد.

المجاهدة العاشرة: جعل آية من آيات الجهاد، أو بضع آيات؛ شعارًا لك في الحياة! تُرددها كثيرًا في صلاتك، وأذكارك، وتُذَكِّرُ بها نفسك، وتـجُدد بها إيمانك، من مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]. أو قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ

= وأبو يعلى، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب. وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة.

لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبه: ٣٨، ٣٩].

فمن تخلَّق بهذه الخصال العشرة، ونجح في ابتلاءاتها، وأتم كلماتِها ومجاهَداتِها؛ كان من المجاهدين، ولو لم يَلْقَ عَدُوًّا ولم يدخل قتالًا! ودخل في مقام قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فيا مولاي! أيها الخالق العظيم!..

أعوذ بنور وجهك الكريم أن أكون من القاعدين! فَأَكْرِمْنِي بثقةٍ فيك عالية، ويقين مكين! وأخرجني من رُكام الغثاء المُهين! وثبت قدمي على خُطا نبيك الأمين ﷺ، واجعلني من عبادك المُخْلَصِين، الدَّاعين إلى صراطك، المجاهدين في سبيلك، السائرين إليك برهبانية الليل وفروسية النهار! غايتهم وجهك الكريم، وإمامهم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾ [الفتح: ٢٩] والله ولي المتقين.

* * *
* *
*

المجلس الثالث والثلاثون

في مقام التلقي لأعظم منزلة من منازل العلم بالله!
وما بين الرسل من تفاضل بالنسبة إليها ثم اختلاف الناس
من درجات الهُدَى والإيمان، إلى دَرَكَاتِ الكفر والعصيان

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كانت قصصُ الأمم السالفة - بالمجالس السابقة - قد ساقت إلينا وَابِلًا من الحكمة، ورسالاتٍ من الهدى. فبيَّنَ اللَّهُ جَلَّتْ حكمتُه - خلالها - ما به فَضَّلَ بعضَ الأمم على بعض، في مدارج الهُدى والصلاح. ثم ما به فاز فريقٌ برضاه، وما به بَاءَ فريقٌ آخر بسخطه، والعياذ بالله!

أما ههنا فقد نَصَبَ سبحانه - تَبَعًا لذلك - ميزانَ المعرفة باللَّه؛ ليكشف عن درجات التفاضل بين الرسل والأنبياء أولًا؛ على قَدْرِ ما آتاهم اللَّه من العلم به تعالى والحكمة. لكن منازلهم، وإن تفاضلت بذلك الاعتبار؛ فهي جميعها على درجات الرضا العالي الرفيع، ولا شيء منها يخرج عن مقام النبوة الكريم؛ ولذلك عَبَّرَ في بداية الكلام بما يدل على التكريم العام، والتفضيل الشامل، فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ... ﴿٢٥٣﴾ ﴾ واسم الإشارة ههنا دال على علو منزلة المخاطَب، وارتفاع مقامه. تماما كما قال من قبلُ - في بداية السورة - عن القرآن الكريم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ... ﴿٢﴾ ﴾.

أما عموم الناس، فإن الميزان يُميِّزهم قُربًا وبُعدًا عن اللَّه؛ ما بين درجات الصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، وبين دَرَكَاتِ الكفار والعصاة والفاسقين! ومن ثم فقد كشف سبحانه لهذه الأمة - وهي أفضل الأمم، ونبيها سيد الأنبياء - أقربَ الطرق الموصلة إلى اللَّه، وأوسعَ أبواب العروج إليه تعالى، وأعظمَ آيةٍ من آيات التعريف بمقامه العظيم! بما يجعل المؤمن يترقى في مراتب العلم باللَّه؛ حتى يكون من الصِّدِّيقِينَ والمقرَّبين. فخصَّها سبحانه - تفضيلًا لها وتكريمًا - بإنزالِ آيةٍ هي لِسَانُ الميزان، ومفتاح التعرف إلى الرحمن، تكشف عن مواقع النفوس في منازل سيرها إليه تعالى، ومراتب العلم به جل علاه. إنها أعظم آية في كتاب اللَّه على الإطلاق! لا تَفْضُلُهَا آيةٌ في التعريف باللَّه، وبيانِ عظمته ومقامِ ربوبيته العالي الكبير! لقد أنعم - جَلَّ ثناؤه - على هذه الأمة ببيان المعراج الخفي، الذي به يكون الوصول إلى اللَّه، بل السبق والترقِّي؛ حيث أنزل على رسوله محمد ﷺ - أحب الخلق إليه - آيةَ الكرسي، آية الكنوز والأسرار..! إنها آيةٌ بقدر ما تتضمَّن من منازل التعريف باللَّه، تتضمن أيضا منهاج السير إليه تعالى، ومنهاج اكتساب العلم به جلَّ عُلاه. كل ذلك في كلمات! فَأَعْظِمْ بها من آية وأكرم!

ولنعرض الآن مراتب الميزان بالنسبة للأنبياء! قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾. وهو ما قرَّره أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥] فهذا تقريرٌ من اللَّه - جلَّ وعلا - أن الرسلَ والأنبياءَ مَنَازِلُ ودرجاتٌ، بعضها أرقى من بعض. وهي كلها عنده سبحانه بمقامٍ عَلِيٍّ، ونَظَرٍ رَضِيٍّ.

ولقد أشار تعالى في سورة البقرة ههنا إلى بعض معالم التفضيل والتقريب، فجعل المخصوصين بتكليمه ﷻ على درجة من الأفضلية. وقد اشتهر بذلك نبي الله موسى ﷺ. كما ثبت التكليم الشريف في حقِّ آدم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - [1]. ثم أفصح عن مقام روح الله عيسى ابن مريم ﷺ؛ بما آتاه الله من عجائب البينات، كالنطق في المهد، وإحياء الموتى، وإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ والأبرص، وغيرهما. ثم بما جعل له من مساندة روح القدس، وهو جبريل ﷺ، إذ كان يسنده - بإذن الله - في إظهار جميع المعجزات!

وجمهور المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى في واسطة الكلام: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ... ﴿٢٥٣﴾ ﴾ هو محمد عليه الصلاة والسلام. إذ المقصود بالبعض ههنا إنما هو المفرد لا الجمع، رغم أنه مشترك الدلالة عليهما. والسياق يقتضي أن هذه « الدرجات » مقامٌ أعلى من جميع المنازل والمقامات! فما بين محمد ﷺ وسائر الرسل والأنبياء جميعًا درجاتٌ، وليس درجةً واحدة! وقد أَبْهم الله سبحانه التعبير ههنا، ولم يُسمِّ الرسول محمدًا ﷺ باسمه؛ للتعظيم والتفخيم! كما قاله غير واحد من المفسرين [2]. مثل ما تقول في الخطاب العادي: « مَنْ قال هذا الكلام؟ » أو « من صنع هذا الصنيع؟ » فيقال لك قبل البوح به: « شخص عظيم! » أو « رجل رفيع! » لترسيخ عظمته في النفوس.

وقد تواترت النصوص واستفاضت الأخبار بأن محمدًا ﷺ خير ولد آدم

---

(١) فأما موسى ﷺ فقد تواتر القرآن بذلك. وأما آدم ﷺ فظاهرُ القرآن في حقِّه التكليم أيضًا، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ... ﴿٣٣﴾ ﴾. ويؤيده حديث النبي ﷺ « آدَمُ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ! » قال الألباني في الصحيحة: أخرجه البزار، وابن حبان، والطبراني في الكبير والأوسط، والحاكم في المستدرك، وقال « صحيح على شرط مسلم »، ووافقه الذهبي. وكذلك قال ابن منده. وصححه الألباني في الصحيحة. وأما نبينا محمد ﷺ فقد ثبت في حقِّه التكليم أيضًا في حديث المعراج الطويل، عند فرض الصلوات الخمس. وهو ثابت في الصحيحين عن أنس ﷺ. وفيه: (ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ (...) ثُمَّ عَلا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَدَنَا لِلْجَبَّارِ رَبِّ الْعِزَّةِ (...) فَقَالَ الْجَبَّارُ: يَا مُحَمَّدُ! قَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ! قَالَ: إِنَّهُ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ!).

(٢) البغوي في تفسيره، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والسيوطي، والألوسي، وغيرهم كثير. وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن عامر الشعبي.

أجمعين، وسيد الأنبياء والمرسلين! ففي الحديث: عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي! وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلا فَخْرَ! » الحديث [١]. وفي رواية أحمد: « وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ! » [٢].

وفي الصحيحين حديثٌ طويلٌ عن الدرجة الرفيعة، التي أُوتِيَهَا محمدٌ ﷺ - نورده هنا مختصرًا - فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُم الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ! فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ: بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ! فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلام، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ! اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ! وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ! وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اِذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ! فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ! إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ! فَيَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اِذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ! فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اِذْهَبُوا إِلَى مُوسَى! فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ؛ اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ! فَيَقُولُ: إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اِذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ! فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا! اِشْفَعْ لَنَا إِلَى

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، والترمذي واللفظ له، ورواه ابن ماجه، وأبو يعلى. وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح ». كما صححه الألباني في صحيح سننه، وصحيح سنن ابن ماجه، وصحيح الترغيب.

(٢) صححه الألباني ضمن الرواية السابقة، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: « إسناده جيد ».

رَبِّكَ! فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ! وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ! - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اِذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ! فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؛ اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ! قَالَ: فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي! ثُمَّ يُقَالُ: « يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ! سَلْ تُعْطَهْ! وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ! » فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ! أُمَّتِي يَا رَبِّ! أُمَّتِي يَا رَبِّ! فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ! وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ. ثُمَّ قَالَ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ! أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى! » (١).

تلك درجة محمد ﷺ التي رفعه الله بها على سائر الأنبياء والمرسلين دَرَجَاتٍ!

ومِن ثَمَّ فقد كان النبي ﷺ ليلةَ الإسراء والمعراج يخترق السموات السبع، على ظهر البراق، بمعية جبريل عليه السلام، وكان يجد في كل سماء عددًا من الرسل والأنبياء، كل مجموعة منهم في سماء على قدر منازلهم، فيُسلِّم عليهم ويُسلِّمون عليه. ثم ارتقى في معراجه، حتى وصل السماء السابعة، فوجد فيها نبي الله إبراهيم مُسْنِدًا ظهره إلى « البيت المعمور »، وفي رواية وجد بها موسى. كل ذلك في حديث أنس رضي الله عنه الثابت في الصحيحين بصيغ متقاربة. وفيه: (ثُمَّ عَرَجَ بِهِ [الْبُرَاقُ] إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ (...) ثُمَّ عَلا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَدَنَا لِلْجَبَّارِ رَبِّ الْعِزَّةِ..! (...) فَقَالَ الْجَبَّارُ: يَا مُحَمَّدُ! قَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ! قَالَ: إِنَّهُ لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ!) (٢) وهذا دليل على أن محمدًا ﷺ قد ارتقى - بنعمة الله عليه - أعلى الدرجات على الإطلاق!

ولا يُشوش على ذلك ما ورد من النهي عن المُفاضلة بينه ﷺ وبين الأنبياء، مما رواه أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لُطِمَ

(١، ٢) متفق عليه.

وَجْهُهُ! فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ - مِنَ الأَنْصَارِ - قَدْ لَطَمَ وَجْهِي! قَالَ: « **أُدْعُوهُ!** » فَدَعَوْهُ، قَالَ: « **لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟** » قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ! قُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ فَلَطَمْتُهُ! قَالَ ﷺ: « **لا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ! فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ! فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ! فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي؛ أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ!** »)(١) وقد ذهب المفسرون والشُّرَّاحُ في تأويل هذا الحديث مذاهب شتى، لكنَّ أحسنها أنه كما يقتضيه سياقه، نهي عن المُفَاضَلَة في حال المُخَاصمة والمراء؛ لِمَا تؤول إليه من التنقيص من قَدْرِ بعض الرسل! وربما وقع في النفس شيء من الكُره لهم! وهو من أعظم الكبائر، بل ربما أدَّى إلى الكفر والعياذ بالله! إذ الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان، وذلك يقتضي محبتهم جميعا، لا نُفرِّق بين أحد منهم، عليهم الصلاة والسلام.

تلك منازل الأنبياء، وتلك مكانتهم العالية عند الله رفيعة! وأما أتباعهم من الأمم، فمنهم من بدَّل وغيَّر، ففسق وكفر! ومنهم من صدَق اللَّهَ فثبت على الإيمان وبَرَّ. ومن ثَمَّ نشأ بين الفريقين صراع الحق والباطل؛ فتباينت منازلهم ما بين الدرجات والدركات! قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾. ذلك أن بني إسرائيل اختلفوا من بعد موسى، رغم ما بين أيديهم من التوراة، وما فيها من الهُدى والبينات؛ فحرَّفوا الكلم عن مواضعه، وغيَّروا وبدَّلوا كثيرًا! وكانوا بذلك من الكافرين! ثم اضطهدوا الأنبياء الذين جاؤوا بعده عليه السلام لتجديد شريعته، حتى إنهم قتلوا بعضهم، وهم منهم قَرَابَةً ونَسَبًا! ولقد حاولوا قتل المسيح عليه السلام، لولا أن الله رفعه إليه! أما النصارى فقد هلكوا لما جعلوا عيسى نِدًّا لله رب العالمين! فكفروا به عليه السلام من حيث ظنوا أنهم قد عظَّموه! وكفر هؤلاء وأولئك جميعا؛ بإنكارهم نبوةَ محمد ﷺ، وبجحودهم لِمَا في التوراة والإنجيل من الآيات المُبَشِّرة به عليه الصلاة والسلام. ومن ثمّ نشأ القتال بين المؤمنين والكافرين؛ ابتلاءً من الله لهم جميعًا، على ما اقتضته مشيئته التكوينية، وإرادته

---

(١) متفق عليه.

القدرية، من الحكمة في تدبير شؤون الخلق، وفي صرف فريق منهم للجنة، وفريق للسعير. جعلني اللَّه وإيَّاكم من أهل الجنة، ومن الناجين برحمته!

ومِن ثَمَّ فقد أرشد الرحمن هذه الأمة إلى ما يكون به سَبْقُها ونَجاتُها، وهو إنفاق المال في وجوه الخير، من الزكوات، والصدقات، والدعوة إلى اللَّه، والجهاد في سبيل اللَّه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ فقوله: ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ تذكير للنفس البخيلة بأنما المال مال اللَّه، والرزق رزق اللَّه! وأنها لم تكسب منه ما كسبت إلا بإذن اللَّه! ثم حَذَّرَ ﷻ من حساب اليوم الآخر، حيث لا إمكان لشراء حسناتٍ ولا لبيع ممتلكاتٍ؛ للافتداء من عذاب يومئذ! ولا وجود لِخُلَّةٍ، وهي الصحبة العظيمة والمحبة العميقة، من التخالل والتداخل! فلا خليل ولا قريب بمقدوره أن ينفع خليله أو قريبه! ولا مَنْ يشفع لمن حَقَّ عليه العذاب أو يدفع عنه! فالكل يقول: نفسي، نفسي! ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وهو حكم فيه معنى الحصر؛ لشدة المقت والإدانة، والعياذ باللَّه!

ثم فتح لعباده المؤمنين باب الرحمة، وأَغْدَقَ عليهم وَابِلَ النعمة! وأرشدهم إلى ما به الرقي في معارج الدرجات، بعيدًا بعيدًا عن النار وحسيسها.. إذْ آتاهم - جل ثناؤه - مفتاح التعريف به سبحانه، وفتح لهم معراج الرقي إليه، الذي به ينال العلماء علمهم باللَّه، ويكتسبون مقامات الخشية ومنازل التقوى. فجاءت آية الكرسي ههنا - التي هي أعظم آية في كتاب اللَّه - تعرض منهاج التَّعرُّف إلى اللَّه، وطريق العلم به تعالى، بما لا مثيل له في القرآن كله!

قال جلَّ ثناؤه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

إنها كلمةُ سِرٍّ..! ومفتاحُ كَنْزٍ..! ومشكاةُ نورٍ لا تكاد تطيقُ تَوَهُّجَهُ القلوبُ والأبصار..! إنها آيةُ العزة، وتَـجَلِّي العظمة، ومَكْنَزُ العلم، وتعريف القدرة المحيطة بجميع الملكوت! إنها صَوْلَجَانُ الْـمُلْكِ، وبرهان السلطان! كلماتها مَطْرَدَةٌ للشيطان،

وتلاوتها كاشفةٌ للكروب والأحزان! إنها حصن الجلال، وسِيمَاءُ الجمال، ومعراج القلب إلى باب الوصال! ومِن ثَمَّ كانت أعظمَ آيةٍ في القرآن! فَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **يَا أَبَا الْـمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟** قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: **يَا أَبَا الْـمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟** قَالَ: قُلْتُ: « [آيَةُ الْكُرْسِيِّ] ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: **وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْـمُنْذِرِ!** »[١] وفي رواية أحمد زيادة صحيحة في آخره: (« قَالَ: **لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ!** »)[٢].

فما من جملة فيها إلا وهي مفتاح من مفاتيح الكنوز والأسرار..! وقاعدة من قواعد الإيمان العظمى، وأصل من أصول التوحيد. وفيها كلمة السر التي تفتح باب العروج إلى الرحمن، وتكشف الحجاب عن الكنوز المبثوثة في عالم الـمُلْك والملكوت! تلك الكلمة هي: « اسمُ اللَّه الأعظمُ »، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى.. إنه جوهرة الأسماء الحسنى: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ﷻ ! فقد روى الإمام التابعي الجليل القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق، عن أبي أمامة الباهلي ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي سُوَرٍ ثَلاثٍ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَهَ** ». قال القاسم: فالتمستُها فوجدتُ في سورةِ البقرةِ آيةَ الكُرْسِي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢]، وفي سورة طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١][٣].

إن عظمةَ آيةِ الكرسي وسِرَّهَا الْمَصُونَ كَامِنٌ في أنها تُلَخِّصُ - في كلمات - حقائق التعريف باللَّه ربِّ العالمين! وتكشف للمؤمن البصير جمال الألوهية، وجلال الربوبية؛ بما يَبْهَتُ القلوبَ، ويبهر الأبصار..! ولذلك كانت تتميز بأنها ترسم للعبد منهاج التعرف إلى اللَّه، وطريقة اكتساب صفة العلم به جَلَّ علاه، وتنصب له مدارج السير

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه: « إسناده صحيح على شرط مسلم ».

(٣) رواه ابن ماجه، والطبراني في الكبير، والحاكم. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح سنن ابن ماجه.

إليه تعالى، في قواعد كلية، وأصول علمية، هي من أكرم قواعد الدين، وأعظم أصول الإسلام! إنها منهاجٌ عَقَدِيٌّ شامل، وبرنامج تربوي كامل، مكنونٌ في آية واحدة!

ولنبدأ في مُدارسة تلك القواعد، واستخراج ما يسَّر اللَّه من تلك الأسرار..!

فأما القاعدة الأولى: فهي قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ۝ ﴾. وهذه أعظم كلمة في الإسلام على الإطلاق! فهي عنوانه الجامع، وحَدُّهُ المانع. وهي الهوية والقضية، والراية والشعار. وهي أصل الأصول، وأُسُّ الاعتقاد، وأعظم الثناء على اللَّه، وخير ما ورد في التسبيحات والأذكار، عبر كل الأزمنة والأعصار..!

ومعناها راجع إلى إثبات وحدانية الألوهية للَّه الواحد القهار، وتنزيهه عن الشرك والشركاء. لكنَّ لها ذوقًا إيمانيًّا عجيبًا، وأثرًا تربويًّا لطيفًا، يُغذِّي الروح، ويُزكِّي النفس، ويغمرها بأحلى المواجيد، وأجمل الأشواق! ذلك أن أصل عبارة: ﴿ إِلَٰهَ ﴾ - كما قرَّرته كتب اللغة والتفسير - راجع إلى معاني الشوق، والحنين، والوجد، والاستغاثة، والمحبة، والسكينة! جاء في لسان العرب: (وقيل فِي اسم الباري سبحانه: إنه مأْخوذ من أَلِهَ يَأْلَه: إذا تَحَيَّرَ؛ لأَنَّ العقولَ تَأْلَهُ في عظمته! وأَلِهَ أَلَهًا أَي: تَحَيَّرَ. وأَصلُه: وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهًا. وقد أَلِهْتُ على فلانٍ، أَي: اشتدَّ جَزَعِي عليه، مثل وَلِهْتُ. وقيلَ: هو مأْخوذٌ من أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا، أَي: لَجَأَ إليه؛ لأَنَّهُ سبحانه المَفْزَعُ الذي يُلْجأُ إليه في كلِّ أَمْرٍ)[1].

وقال الفخر الرازي: (إشْتِقَاقُهُ مِنْ أَلِهَ: الفَصِيلُ، إذَا وَلَعَ بِأُمِّهِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ العِبَادَ مُولَهُونَ مُولَعُونَ بِالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ!)[2] وهذا كلام جميل جدًّا! وهي كلها معانٍ تجمع بين الجلال والجمال. والفَصِيلُ: هو ابن الناقة الذي يكون حديث عهد بالفصال أي بالفطام، فلا يزال يحنُّ إلى ضِرْعِ أُمِّهِ، فإذا فصلوه عنها لم يزل يَرْغُو ويصيح شوقًا وحنينًا إليها! تمامًا كما يبكي الرضيع على ثدي أمه! ولذلك قال أبو الهيثم: (ولَا يكونُ إِلَهًا حَتَّى يَكُونَ مَعْبُودًا، وحتَّى يَكُونَ لِعَابِدِهِ خَالِقًا، ورَازِقًا، ومُدَبِّرًا، وعليه مُقْتَدِرًا! فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كذلكَ فَلَيْسَ بِإِلَهٍ، وإِنْ عُبِدَ ظُلْمًا. بَلْ هو مخلوقٌ ومُتَعَبَّدٌ. قالَ: وأَصْلُ إلَهٍ وِلاهٌ، فَقُلِبَتِ الوَاوُ همزةً (...) ومَعْنَى وِلَاهٍ: أَنَّ

(١) اللسان، مادة: (أله).

(٢) مفاتيح الغيب: تفسير سورة الفاتحة. ن. في ذلك أيضا: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشري، والمفردات للأصفهاني، وتاج العروس للزبيدي. وغيرها.

الـخَلْقَ يَوْلَهُون إليه في حوائجهم، ويَضْرَعُون إليه فيما يصيبهم، ويَفْزَعُونَ إليهِ في كُلِّ ما يَنُوبُهُمْ كمَا يَوْلَهُ كُلُّ طِفْلٍ إلَى أُمِّهِ!) [١].

فقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾، تقريرٌ منه ﷻ أنه اللّه رب العالمين، وإله المخلوقين، جل جلاله وعزَّ ثناؤه. وأنه هو وحده المستحق للعبادة. لا ينبغي للقلوب أن تخضع لسواه، ولا أن تركع لغيره. بل له وحده تَذِلُّ وتَخْنَعُ، وبهِ تَتَعَلَّقُ وتَوْلَعُ، وله تَحِنُّ وتشتاقُ، وإليه تَفْزَعُ وتَضْرَعُ، وإليه تُسَاقُ مَوَاجِيدُ المحبة، ومَشَاعِرُ الخوف والرجاء! فمن خَرَمَ شيئًا من ذلك، فصرفه إلى غيره كان من المشركين! وغُلِّقَتْ دونه أبوابُ المعرفة باللّه والعلم به جل علاه، وكان من الخاسرين! فذلك ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تبارك اسْمُهُ وتعالى جَدُّهُ!

وأما القاعدة الثانية: فهي اسمه تعالى ﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وهو اسم اللّه الأعظم، ووصفه الأكرم! كما دل عليه الحديث المذكور قبل. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي الْـحَلْقَةِ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ فِي دُعَائِهِ: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ الْمَنَّانُ! يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ! يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ! يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ! إِنِّي أَسْأَلُكَ... » فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « **أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا اللَّهَ؟** » فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟ قَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى!** ») [٢] وقد كان من بين ما دعا به: (يا حي يا قيوم!) وإن كان الاسم الأعظم قد تكون له عدة تـجلِّيات من الأسماء والصفات، كما قرَّرناه بشواهده في موطن آخر [٣]. إلا أن مدار أكثر النصوص على هذه العبارة. فقد كانَ رسولُ اللَّه ﷺ إذا نزلَ بِهِ كَرْبٌ أو ضَيْقٌ دَعَا اللَّهَ بها، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ؛ قَالَ: « **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**

---

(١) اللسان، مادة: (أله).

(٢) رواه أحمد واللفظ له، ورواه الأربعة في سننهم، والطبراني في الصغير، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في المشكاة، وصحيح الترغيب، وفي تحقيقه للسنن الأربعة. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٣) ن. تمهيد رسالتنا الصغيرة: « كاشف الأحزان ».

بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ! ») [(١)] وقال لابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : **(مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟ أَنْ تَقُولِي إِذَا أصبحتِ وإذَا أمسيتِ: « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ! أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ! »)** [(٢)].

﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ ﷻ ! ذلك هو الاسم الأعظم، الوارد ههنا على سبيل التعريف بالله، بعد كلمة التوحيد مباشرةً. وفيه من الأسرار والأنوار ما لا طاقة للقلب البشري على تلقيه! وإنما له أن يقتبس من أشعته على قدر مقامه! فهو من أعظم المفاتيح لحقيقة الربوبية؛ لأنه سبحانه ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾ ﷻ الحقُّ، أَصَالَةً لا تَبَعًا. أي أنه ﷻ لم يكتسب صفة الحياة من أحد غيره. بل هي صفة قائمة بذاته، ثابتة له، أصيلة فيه تعالى، كسائر أسمائه وصفاته. فهو الحيُّ واهبُ الحياة! وما من حَيٍّ غيره إلا وهو يستمد منه تعالى الحياة! فيحيا بالله تعالى لا بذاته، ولو سلب الربُّ عنه الحياةَ لالتحق بعالم الفناء والعدم!

والحياة سِرٌّ من أغمض أسرار الوجود وأعقدها! بدءًا من أضخم المخلوقات وانتهاءً بأحقرها وأدقِّها! كالبعوض وما دونه من الجراثيم الدقيقة، التي لا تُرى بالعين المجردة! فلا أحد منا يعرف معنى الحياة، رغم أنها صفة قائمة به! وإنما الذي نعرفه هو أعراض الحياة وآثارها، كالحركة، والتنفس، والإحساس المادي والنفسي، وغيرها من الآثار والأعراض. وأما تعريف « الحياة » بما هي جوهر مستقل، وحقيقة من حقائق الوجود؛ فهو ضرب من المستحيلات قطعًا! لأنه لا أحد يحيط بمفهوم الحياة، ولا مخلوق يملكها، وإنما حياتنا جميعًا مستعارة من الحي الذي لا يموت! إنها نفخة من روحه نعيش بها إلى حين! فكونه تعالى ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾ حقيقةٌ تقهر العقول، وتبهر القلوب! وتملأ النفس الفانية فقرًا إليه تعالى؛ عساها تنال من كرمه العظيم، قَطْرًا من فيض الحياة فَتَحْيَا.. وإلَّا كانت من الهالكين!

والحياة - بعد هذا وذاك - طبقاتٌ من المعاني والأسرار..! فحياةُ الإنسان هي

---

(١) رواه الترمذي. وحسنه الألباني في صحيح سننه، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، وصحيح الكلم الطيب.

(٢) رواه النسائي في الكبرى، والطبراني في الأوسط والصغير، والبيهقي في الشعب، والحاكم وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. » بينما حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

غير حياة الحيوان، ولا هي حياة النبات، ولا حياة الجانِّ، ولا حياة الملائكة، أو غير هؤلاء وأولئك مما اللَّه به عليم. فلكل طبقة من طبقات الحياة معنى آخر، ووجود آخر، وذوق آخر، يختلف في تجلياته، وآجاله، وسائر أعراضه وآثاره عن غيره. ويبقى جوهر الحياة خاصية من خصائص ربِّ العالمين، لا يعلمه على حقيقته إلا هو، فسبحانه وتعالى من خالق عظيم!

وتكتمل صيغة الاسم الأعظم بالجمع بين اسميه تعالى ﴿ ٱلْحَيُّ ﴾ و ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وكلاهما هو في نفسه اسم من أسماء اللَّه الحسنى. وبالجمع بينهما في الذكر أو في الدعاء، ينفتح للعبد مقام الاسم الأعظم! ولفظ ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ راجعٌ في اللغة إلى معنى القِوَامَةِ والتدبير. وهي صيغةُ مبالغةٍ دالة على امتلاء اللفظ بمعنى القَيُّومِيَّةِ. فَالقَيُّومُ: هو القائم بشؤون الكون، القَيِّمُ على خَلْقِهِ، وتدبير أَمْرِهِ، وإصلاحِ شأنه. وحفظ نظامه، ورعاية مصالحه من الذرات إلى المجرات ومن السموات إلى الأرض، وما فيهما من كائنات ومخلوقات!!

وللقيومية - عند التدبر - وَقْعٌ في النفس رهيب! إذ يشاهد القلب كيف يقوم الرب الجليل بشؤون كل هذه العوالم والمخلوقات، وكيف يحفظ نظام الأفلاك، والكواكب السَّبَّاحَات، والنجوم السيّارات! وكيف يسدّ حاجات الخلائق من ذوات الأرواح، من كل الأجناس والأنواع والطبقات! ولو تأمّلتَ فعلًا واحدًا من قيوميته لرجع ذلك على القلب ببرهان قاصم؛ فجعله دَكًّا وخَرَّ القلبُ صَعِقًا! فانظر كيف يجيب في تجلٍّ واحدٍ، من تجليات فعلٍ واحدٍ، في وقتٍ واحدٍ؛ جميعَ حاجاتِ عباده من الملائكة، والإنس، والجن، والحيوان، والطيور، والحيتان، والحشرات... إلخ. كل يدعو بلغته، مع اختلافها وكثرتها، وتفاوت طبقاتها، ناهيك عن تعدد لغات كل جنس في ذاته، واختلافها في نوعها! فيُجيب القيومُ سبحانه كُلَّ أولئك جميعا، ويعطي كلَّ ذي مسألة مسألته، في وقت واحد! فلا يشغله دعاء عن سماع دعاء آخر وإجابته، في خضم بلايين الدعوات والرغبات! كلا! ولا تتزاحم عليه الطلبات وقضاء الحاجات! وهو ﷻ بقيوميته يُدبِّر حركة الكواكب والمجرّات، والأرضين والسموات، ولا شيء من ذلك ينفلت عن طوعه، أو يشذ عن نظام تدبيره! فسبحانه وتعالى من ربٍّ عظيم حي قيوم!

ومِن ثَمَّ كان اسم ﴿ ٱلۡحَىُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ سكينةً للنفس، ويقينًا لها في استنادها إلى مولاها. كلما دعت به ربها وجدت يقين الإجابة يسري في ثناياها!

وأما القاعدة الثالثة: فهي في قوله تعالى: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوۡمٌ ... ۝ ﴾. وهي من تمام قيوميته، وكمال ربوبيته. والسِّنَةُ: من الوَسَنِ، وهي الغفوة الخفيفة من النُّعَاسِ! والنُّعَاسُ: هو مقدمة النوم. فكانت السِّنَةُ أَخفَّ من ذلك جميعًا، حيث يَغْفُو النَّاعِسُ وهو ما يزال على شيءٍ من الوعي واليقظة. فتلك هي السِّنَةُ. وهي مستحيلةٌ في حقِّ الحْيِّ القَيُّومِ ﷻ ! بَلْهَ النُّعَاسُ أو النوم! وقد عبَّر بقوله: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ ﴾ بمعنى: لا تغلبه ولا تتسلط عليه؛ لأن السِّنَةَ والنعاس والنوم، كلها إنما تدخل على ذات الوَسْنَانِ أو النائم غفلةً، وتسيطر عليه عُنْوَةً، وتتمكن منه على غير إرادة منه، فهي من الأحوال الداخلة على الإنسان والحيوان قهرًا! وكل ذلك مستحيل في حق الخالق سبحانه، فهو القاهر فوق عباده. وما النوم وطبقاته إلا أحد مخلوقاته، الخاضعة لعزَّته وجلاله! وكيف يغفو أو ينام مَنْ هو قَيُّومُ العالمين؟ إذن يختل النظام الوجودي كله، وتنهار سمواته على أراضيه! وتهوي المخلوقات جميعها في غيابات العدَم! كَلَّا.. كَلَّا! فالرَّبُّ الجليل لا ينام. قال عليه الصلاة والسلام: « **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ – وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ – يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ. حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ!** »[1] ذلكم اللَّهُ رب العالمين! فسبحانه مِنْ مَلِكٍ عظيم!

وسرُّ هذه القاعدة كامنٌ في أنَّ العبدَ كلَّما تلقَّى كلماتها بإخلاص، وجد جمال الأمان في نفسه، وارتفع عنه الخوف والقلق، واطمأن إلى تدبير مولاه؛ حيث يدرك أن اللَّه مُسْتَوٍ على عرشه أبدًا، يُدبِّر أمر مملكته سَرْمَدًا، متى طلبه وجده، وأنَّى دعاه سمعه. فليس يغفو ولا يشرد عن تدبير شؤون خلقه، ولا طرفة عين! ولا يُتْعِبُهُ خَلْقٌ ولا أمر. سبحانه ﷻ .

وأما القاعدة الرابعة: فهي قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾. وهذه الجملة هي بمثابة المفتاح لكنوز الْمُلْكِ. فهي جامعة لصِفَةِ المالكية، وما يلزم

---

(١) رواه مسلم.

عنها من صفات الخالقية؛ لأنه ما مَلَكَ إلا بما خَلَقَ. والتعبير هنا بلفظ ﴿ مَا ﴾ الموصولية، دالٌّ على الاستغراق الشامل، والعموم الكامل. فَمُلْكُهُ العظيم محيط بكلِّ العالمين من السموات والأرضين، وما فيهن من مخلوقات. فالعَالَـمُونَ مخلوقون مملوكون، وهو وحده تعالى المالك الخالق! لا إله إلا هو. وهذه القاعدة تجري في مسلك تربية النفس على الاستغناء بالله وحده عن سائر خلقه، والثقة في عظمة ملكه وسلطانه وسَعَةِ غناه. وهي دواء للعبد المستجير بمولاه؛ خوفًا من طاغية أو فَرَقًا من ظالم! فالله وحده الذي ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ ... ﴾ مالك لناصية كل جبَّارٍ في الأرض من الإنس والجن، قاهر بعظمة ملكه وجبروت سلطانه فوق جميع عباده. فكل شيء في السموات والأرض مملوكون له وحده، خاضعون له طوعًا أو كرهًا. لا ملجأ لأحد منه إلا إليه، ولا مَنْجَا له إلا به. لا مهرب منه ولا مفر، فكل شيء له. ومِن ثَمَّ كانت هذه الكلمات قُوَّةً، وسَنَدًا عظيمًا لكلِّ عبدٍ انتسب بِعَبْدِيَّتِهِ إلى مولاه، وكان في استناده إليه من الصادقين.

وأما القاعدة الخامسة: فهي ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ ... ﴾، ومعناها: أنه لا أحد من الملائكة، أو النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، يتجرَّأ على التدخُّل عند الله؛ والشفاعة لأحد من الخلق، اللَّهم إلا إذا كان مأذونًا في ذلك من ربِّه! وذلك لِمَا يجدونه من رهبة المخاطبة لله ذي الجلال والكبرياء والجبروت والعظمة! وقد رأينا في حديث الشفاعة، كيف كان جميع الأنبياء يقولون للناس يوم القيامة: « **إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ! وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي!** » حتى وصلوا إلى محمد ﷺ، فسجد تحت العرش، ودعا بما خصَّه الله به وفتح عليه من الثناء عليه تعالى، فقال له الجبار ﷻ: « **يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ! سَلْ تُعْطَهْ! وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ!** »[1].

والمقصود أنه تعالى له الإرادة المطلقة فيما يحكم ويريد. لا أحد بمقدوره رد قضاء الله إذا قضى! فهو القاهر فوق عباده، مَاضٍ فيهم حُكْمُهُ، عدلٌ فيهم قضاؤه. وفائدة هذه القاعدة أن العبد لا يملك الفرار من الله إلا إليه، ولا النجاة من عقابه إلا بعفوه

---

(١) متفق عليه.

ورحمته؛ ومِن ثَمَّ يُجْرِي أعمالَه على ذلك الوِزَانِ، ويحمل نفسه على التوبة إلى اللَّه في كلِّ وقت وحين.

وأما القاعدة السادسة: فهي ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... ۝ ﴾، وهي في وصف علم اللَّه ﷻ المحيط بكلِّ شيء. وفيها تقرير أنه تعالى يعلم ما بين أيدي الناس من الأحداث الجارية، سواء في المقاصد والنيات، أو في الوقائع والتصرُّفات. كما يعلم ما بين أيديهم من الحقائق الغيبية، المخفية تحت غيوم المستقبل القريب والبعيد إلى يوم القيامة. وهو تعالى يعلم ما خلفهم مما سبق من أفعالهم وأفعال الناس أجمعين، مما خلفه التاريخ البشري والوجودي كله. ذلك قبس من علم اللَّه المحيط بالسموات والأرض ومن فيهن. وهي قاعدة تصفِّي قلب المؤمن من التحيل على شريعة اللَّه، ومن إضمار الغشِّ والخداع في معاملة اللَّه ومعاملة الناس. وتُعِينُ المؤمنَ على التخلُّص من آفة الرياء والنفاق. وتملؤه يقينًا في اللَّه ﷻ ، بما هو سبحانه مُطَّلِعٌ على ما بطن من أعماله ونياته. فلا يزيده ذلك إلا صلاحًا وإخلاصًا. كما أنها تبث السكينة في قلب العبد المبتلَى؛ بما له من يقين في أن اللَّه تعالى عليم بحاله، وأنه هو الذي يُجري عليه ما يشاء من أقداره؛ فيزيده ذلك صبرًا ورجاء في اللَّه، وتلقِّيًا للبشارات من رَوْحِهِ الكريم.

وأما القاعدة السابعة: فهي ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... ۝ ﴾، ذلك أن علم اللَّه مكنون مصون بِعِزَّتِه تعالى وقدرته، وحجاب سلطانه. فلا أحد ينال منه شيئًا إلا بإذن اللَّه؛ مَنًّا منه تعالى وفضلًا. فكل المعارف البشرية، سواء من العلوم الدينية، أو العلوم الدنيوية، من الكشوفات والاختراعات العلمية، في جميع المجالات والميادين. كلها جميعًا من عند اللَّه؛ بما هيَّأ للإنسانية من سُنَنِ التيسير والتسخير في العمران البشري، على مقادير معلومة عنده، مضبوطة بإرادته. لا شيء منها يزيد أو ينقص عمَّا حدَّه تعالى لهم! سواء في مقداره أو في أجله وإِبَّانِهِ! فاكتشاف زراعة ما مثلًا، أو صناعة، أو دواء، أو آلة، أو سلاح... إلخ. كل ذلك - رغم ما فيه من جهد بشري وبحوث علمية طويلة ومضنية - إنما هو قَدَرٌ من قَدَرِ اللَّه، وعطاءٌ من عطاءِ اللَّه، محكوم بإرادة اللَّه! لا يزيد عما قدَّره ولا ينقص شيئًا! ولعلك ترى تأخُّر البشرية في اكتشاف بعض الأدوية لبعض الأمراض المستعصية، أو بعض الآلات لجلب

بعض المصالح الضرورية أو الحاجية؛ فإنما معنى ذلك أن اللَّه الحكيم العليم لم يأذن في ذلك الاكتشاف بعدُ..! والناس - في غالب الأحيان - ينخدعون بما بين أيديهم من أسباب البحث والاختراع، وينسبون إليها علومهم واختراعاتهم. وأهل اليقين في اللَّه، يشاهدون أنما تلك الأسباب حُجُبٌ أخفَى اللَّه بها أسرار إرادته؛ ابتلاء للناس! ويدركون يقينًا أيضًا أن لا علم من علوم الدين والدنيا إلا وهو مَنٌّ من اللَّه وهُدًى منه تعالى، ولولا أنْ هَدَى البشريةَ إليه بمحض رحمته؛ لظلَّت في ضلالها القديم إلى يوم الدين! ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... ﴾.

وفيها تصفية لعقيدة المؤمنين من الدعاوى الجاهلة والخرافات الباطلة، التي يستعملها الكَهَنَةُ والمنجمون لتضليل الناس، والزعم أنهم يعلمون ما خفي من غيوبهم، ويخبرون السُّذَّج منهم بما تخفيه أبراجهم وأيامهم المقبلة! فالآية قاصمة لهذا الجهل المبين، ومُحَطِّمة لهذا الدجل البهيم!

وأما القاعدة الثامنة: فهي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾. ولا بد ههنا - قبل تقرير الفائدة التربوية لهذه القاعدة - من بيان أن المختار عندنا هو السير على منهج السالف الصالح - رحمهم اللَّه - في أمور الأسماء والصفات، وما أثبته اللَّه تعالى لنفسه منها، أو ما ثبت من ذلك بالأحاديث الصِّحَاح. وكذا ما أضافه اللَّه ﷻ إلى نفسه من أفعال، كالعلوِّ، والنزول، والاستواء على العرش، ونحوها. من غير تشبيه أو تجسيم، ولا تعطيل أو تأويل مُفْتَئِتٍ على اللَّه بغير علم. لِمَا في ذلك من الحِكَم العظيمة، والأدب الرفيع مع اللَّه تعالى، ولِمَا فيه من العلم به سبحانه. على ما سنقرره بحول اللَّه في رسالاتِ الْهُدَى المنهاجي لهذه الآية.

وقد اختلف السلف في تفسير عبارة « الكرسي » على مذاهب كثيرة، ذكرها المفسِّرون. فمن قائل بأن الكرسي حقيقة في معناه غير مجاز، وهو دون العرش. ومن قائل: إنه هو عينه. ومن قائل: إنه حقيقة في العلم، فالكرسي هنا هو علم اللَّه تعالى وإحاطته بالسموات والأرض؛ لأن من معاني مادة (كرس) في اللغة: ما علا من الأرض واشتدَّ، وما اجتمع من الدِّمَنِ أو التراب. ويَرِدُ بمعنى العلم، والأصل الكريم، كما أجمعت عليه معاجم اللغة [1]، ولذلك قيل للعلماء: الكراسيّ، ومنه

---

(١) ن. مادة « كرس » في كتاب العين للخليل، وأساس البلاغة للزمخشري، والمحيط للصاحب بن عباد، =

الكراسة التي يُدَوَّنُ فيها العلم. واختاره ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (١) ومن قائل: بل هو مجاز في معنى القدرة التي بها يمسك اللَّه ﷻ السموات والأرض. وقائل: هو مجاز في معنى عظمة اللَّه وسلطانه (٢).

والمنهج عندنا في مثل هذه الآيات الإيمان بها، وبما دلَّ عليه ظاهرها. فالكرسي هو الكرسي، كما أن العرش هو العرش. وكلاهما موضع للجلوس والاستواء. ولا يلزم عن ذلك تصوُّر هيئة الكرسي ولا العرش، ولا تصوُّر هيئة الجلوس، على ما هو معروف عند الناس. وههنا موطن الانزلاق، ومدخل الاختلاف. وهو ما حمل المتأولين على إخراج اللفظ عن ظاهره إلى معنى غيره، وهو أيضًا ما أوقع غيرهم في التجسيم الخشن. وكلاهما قول منكر باطل. بل القول الحق - إن شاء اللَّه - هو أن هيئات الأفعال المضافة إلى اللَّه ﷻ منحصر علمها عند اللَّه وحده. والدخول في تفاصيل ذلك ضَرْبٌ من المغامرات العقلية الخاسرة! وهو أمر منهيٌّ عنه شرعًا. قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. وليس لنا أن نتجاوز في مثل هذه الآيات حدود ما ورد به القرآن والسنة الصحيحة، كما سَنُبَيِّنه بحول اللَّه في الهدى المنهاجي لهذا المجلس. وإنما الذي يمكن إثباته في الكرسي ههنا - بعد إثبات حقيقته - هو أنه شيء غير العرش، لِمَا رواه الطبري وغيره بسند حسن، عن أبي ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « **ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة! وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة!** » (٣).

= والصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز آبادي.

(١) تفسير الطبري لآية الكرسي.

(٢) ن. الروايات في ذلك عند الطبري، والبغوي، وابن كثير، والشوكاني، في تفاسيرهم للآية. وكذا الدر المنثور للسيوطي.

(٣) رواه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١/١١٤) قال :(حدثنا الحسن بن أبي ليلى أنبأنا أحمد ابن علي الأسدي عن المختار بن غسان العبدي عن إسماعيل بن سلم عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذَرٍّ الغفاري قال: « دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول اللَّه ﷺ وحده فجلست إليه، فقلت: يا رسول اللَّه أيما آية نزلت عليك أفضل، قال: آية الكرسي، ما السموات السبع... ») الحديث.

قال الألباني: وهذا سند ضعيف! إسماعيل بن سلم لم أعرفه، وغالب الظن أنه إسماعيل بن مسلم، فقد ذكروه في شيوخ المختار بن عبيد، وهو المكي البصري وهو ضعيف .والمختار روى عنه ثلاثة، ولم يوثقه أحد. =

وأما ما دون ذلك من الأحاديث فلا يصحُّ رفعه إلى النبي ﷺ، وأغلبها إنما هو من الإسرائيليات. قال الشيخ الألباني رحمه الله: (والحديث خرج مخرج التفسير لقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾. وهو صريح في كون الكرسي أعظمَ المخلوقات بعد العرش، وأنه جِرْمٌ قائمٌ بنفسه، وليس شيئًا معنويًّا. ففيه ردٌّ على من يتأوَّله بمعنى الْمُلْكِ وسَعَةِ السلطان، كما جاء في بعض التفاسير (...) [ثم قال:] واعلم أنه لا يصحُّ في صفة الكرسي غير هذا الحديث! كما في بعض الروايات أنه موضع القدمين! وأن له أَطِيطًا كأطيط الرَّحْلِ الجديد! وأنه يحمله أربعة أملاك، لكلٍّ

= وفي « التقريب »: أنه مقبول . قال الألباني: ولم ينفرد به إسماعيل بن مسلم، بل تابعه يحيى بن يحيى الغساني، رواه حفيده إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني، قال: حدثنا أبي عن جدي عن أبي إدريس الخولاني به .أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات »، (ص ٢٩٠). قال الألباني: وهذا سند واهٍ جدًّا! إبراهيم هذا متروك كما قال الذهبي، وقد كذَّبه أبو حاتم.

وتابعه القاسم بن محمد الثقفي، ولكنه مجهول كما في « التقريب ». أخرجه ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير (٢ / ١٣ - طبع المنار) من طريق محمد بن أبي السري (الأصل : اليسري) العسقلاني أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم به. والعسقلاني والتميمي كلاهما ضعيف .

وللحديث طريقان آخران عن أبي ذر؛ الأول: عن يحيى بن سعيد السعدي البصري، قال: حدثنا عبد الملك ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمر الليثي عنه به .أخرجه البيهقي وقال: « تفرَّد به يحيى بن سعيد السعدي، وله شاهد بإسناد أصح » قال الألباني: ثم ساقه من طريق الغساني المتقدم، وما أراه بأصحَّ من هذا، بل هو أوْهَى! لأن إبراهيم متهم كما سبق، وأما هذا فليس فيه من اتهم صراحة، ورجاله ثقات، غير السعدي هذا، قال العقيلي: « لا يتابع على حديثه ». يعني هذا .وقال ابن حبان: « يروي المقلوبات، والملزقات، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفردا! ».

الثاني: عن ابن زيد قال حدَّثني أبي قال: قال أبو ذر فذكره. أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (٥/٣٩٩). حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد به. قال الألباني: وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات. لكني أظن أنه منقطع! فإن ابن زيد هو عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وهو ثقة من رجال الشيخين يروي عنه ابن وهب وغيره. وأبوه محمد بن زيد ثقة مثله، روى عن العبادلة الأربعة: جده عبد الله، وابن عمرو، وابن عباس، وابن الزبير، وسعيد بن زيد بن عمرو. فإن هؤلاء ماتوا بعد الخمسين، وأما أبو ذر ففي سنة: اثنتين وثلاثين؛ فما أظنه سمع منه.

قال الألباني: وجملة القول: إن الحديث بهذه الطرق صحيح، وخيرها الطريق الأخير، والله أعلم السلسلة الصحيحة (١/١٧٤). قلت: والحقيقة أن الحديث - كما رأيتَ من ضعف جميع طرقه بلا استثناء - لا يرتقي إلى مرتبة الصحيح كما ذكره الألباني رحمه الله بل غايته أن يكون حسنًا لغيره، إن شاء الله. هذا على شيء من التساهل فيه. خاصَّة وهو يقرر أمرًا عقديًّا في غاية الخطورة!

ملك أربعة وجوه! وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة! ... إلخ. فهذا كله لا يصحُّ مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وبعضه أشد ضعفًا من بعض!) [(١)].

وعليه؛ إذا ثبت أن معنى الكرسي هو في حقيقته أصالةً؛ فلا يمنع - بعد ذلك - دلالته على معاني القوة والسلطان والسيطرة تبعًا، أي عن طريق اللزوم. كدلالة لفظ « النافذة » - مثلًا على معنى الشباك أصالةً، ثم على معنى الجدار والحجرة تبعًا. إذ الكرسي الذي وَسِعَ السمواتِ والأرضَ واحتواهما، يدل على سيطرة صاحبه عليهما، وهو المقصود بالمعنى التبعي ههنا. ولا إشكال فيه.

والفائدة التربوية من هذه القاعدة أنها تملأ قلبَ المؤمن ثقةً باللّٰه، واطمئنانًا على قدرته على فعل ما يريد، وأنه ﷻ على كلِّ شيء قدير، لا يعجزه شيء في السموات والأرض، بل كل شيء فيهما، وكل مخلوق من الإنس والجنّ وغيرهما خاضع لجلاله وسلطانه. وذلك ما يعين العبد على دخول منازل التوكل، واليقين، والغِنَى العالي باللّٰه. وعلى الشجاعة في الحقّ، والتخلُّص من خوف كل طاغية مهما بلغت قوته وجبروته، وتوحيد الخوف في الربِّ العظيم، الذي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

وأما القاعدة التاسعة: فهي ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾. ومعنى يَؤُودُهُ: يُثْقِلُهُ ويُتْعِبُهُ. تقول: آدَ الحَمْلُ الرَّجُلَ: إذا أثقله حتى انْحَنَى ظَهْرُهُ! ويقالُ: انْآدَ الغُصْنُ: إذا انعطف وانحنى من ثقل ما يحمل من الثمر. والأَوَدُ: الاعْوِجَاجُ، يقال: آدَهُ الكِبَرُ أو الجوعُ [(٢)] ومعنى العبارة في الآية أن اللّٰه - ﷻ - لا يُتْعِبُهُ إمساك السموات والأرض أنْ تَزُولَا، ولا يثقله القيام على شؤونهما حفظًا ورعايةً، بما فيهما من طبقات وخلائق، وما يصلحهما من نظامٍ وصيانةٍ وتدبيرٍ! وهذا كله راجعٌ إلى معنى قيوميته تعالى على ملكه العظيم. والجديد ههنا هي أنه سبحانه لا يَتْعَبُ ولا يَنْصَبُ من تدبير شؤون خلقه، مهما عَظُمَ الخَلْقُ وكَبُرَ؛ لأنه - جلَّ وعَلا - أعظم وأكبر! وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا

---

(١) السلسلة الصحيحة (١/١٧٤).

(٢) ن. أساس البلاغة للزمخشري، والمفردات للأصفهاني، والصحاح للجوهري، واللسان لابن منظور، والقاموس للفيروز آبادي.

مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] واللُّغُوبُ: التَّعَبُ والنَّصَبُ. فكما نفاه عن ذاته سبحانه عند خلقهما، كما في سورة « ق »، فقد نفاه عنه ههنا أيضًا فيما يتعلَّق بحفظهما وصيانتهما. وكذا فيما يلزم عن ذلك من إحياء، وإعاشة، وإعالة، ورعاية، وفي كلِّ ما يتعلَّق بأمور التقدير والتدبير. وكيف لا؟ وهو الرب الخالق العظيم، الْمُنَزَّهُ عن كلِّ صفات العجز والنقص!

والفائدة التربوية من هذه القاعدة: هي تحصيل المؤمن لسلام الروح، وسكينة النفس؛ بما يتلقَّى عن عبارتها من الحقائق الإيمانية، الدالة على قدرة اللَّه سبحانه على إجابة دعائه، وقضاء حاجاته، وحفظ مهجته، من كلِّ عدو. وكل ذلك يمنحه ثقة باللَّه ويقينًا فيه؛ فلا يتردد عن الاستناد إليه في كل أمره. ومن تعلَّق بحافظ السموات والأرض فهو محفوظ.

وأما القاعدة العاشرة: فهي ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝ ﴾. ومعناها أنه تعالى رفيع الدرجات، متعالٍ على خلقه، يدبِّر شؤون ملكه من فوق سمواته. وأنه سبحانه عظيمُ الشأن، جليلُ القَدْرِ، مَهِيبُ الْمَقَامِ، واسع الْمُلْكِ، رهيب السطوة والسلطان، ذو الجلال. فَعُلُوُّهُ تعالى تنزيهٌ له عن خلقه. وعظمتُه تمجيدٌ لكبرياء ذاته، ولجلال سلطانه. وكلاهما ثناءٌ على اللَّه وتنزيهٌ.

وأما فائدتها التربوية فهي ما يتلقَّاه المؤمن عنها من العلم القاضي بتفرُّد اللَّه ﷻ بالعلو والعظمة؛ بما يتحدَّى جميع الخلق ويقهرهم تحت سلطانه! وأن الطغاة مهما عَلَوْا في الأرض واستكبروا فإنهم عبيد مقهورون تحت جبروته العظيم ﷻ . أما من سوَّلت له نفسه منازعة الربِّ في عظمته وكبريائه؛ فإنه يقصمه ويقذفه في النار..! والقاعدة في جميع الأحوال قاضية بغلبة اللَّه على خلقه، وسيطرته على مُلْكِهِ، غير مُنَازَعٍ في أمره. وفي ذلك ما فيه من تعميق الثقة باللَّه في قلب العبد المؤمن، المعتصم بربه، المتوكل عليه.

وبهذه القواعد الكلية في التعريف باللَّه ربِّ العالمين، كانت آيةُ الكرسي أعظمَ آيةٍ في كتاب اللَّه، لا يتدَّرج عَبْدٌ بمنازلها، مُتَحَصِّنًا بمقامها، ومُتَخَلِّقًا بخصالها، ومُتَحَقِّقًا بعلومها؛ إلا كان من العلماء باللَّه الخاشعين، وأوليائه المحروسين! ولنا إن شاء اللَّه وقفة أخرى مع هذه القواعد العشر؛ لبيان منهاجها العملي، ومدخلها التطبيقي، بمسلك التخلُّق من هذا المجلس.

فتلكم هي آية الكرسي، الْمُعَرِّفَةُ بالله ومُلْكِهِ العظيم، وذلكم هو الله رب العالمين، الذي جاهد فيه المجاهدون، وفَنِيَ في عبادته المؤمنون، ودَعَا إليه الأنبياء والمرسلون. له الأسماء الحسنى والصفات العُلَى. فلا يمكن لمن عرفه بقلب خَالٍ من الأدواء والأهواء إلا أن يحبَّه، ويكون له من العابدين! ومِن ثَمَّ كان كلام الله في القرآن كله تعريفًا به ﷻ ، سواء في ذلك آيات العقائد أو القصص أو التشريع. كلها مَعَالِمُ تُعَرِّفُ بالله وتهدي السَّائِرَ إليه جَلَّ عُلاه. ومن هنا فقد قرَّر سبحانه أن المؤمن إنما هو مَنْ عرفَ الله فأحبه، وكانت طاعته له وعبادته إياه عن رضا عميق واقتناع كامل. فهذا القرآن قد ميَّز طريق الهدى عن طريق الباطل؛ بما لم يُبقِ معه سبب لتردد حائرٍ أو ضلال كافر.

وقد كانت آية الكرسي أعظمَ بطاقةٍ في التعريف بالله؛ ومن ثم قال بعدها مباشرةً: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ۝ ﴾. وهذه قاعدة جامعة جاءت تعقيبًا ونتيجة لقواعد آية الكرسي، المعرفة بالله، والمبيِّنة لحقائق الربوبية والألوهية. وهي تعود على ما ذُكِرَ قَبْلُ من الأمر بالقتال في سبيل الله، مبينة أن وظيفة الجهاد القتالي محدودة في تحطيم الحواجز والعقبات، التي نصبها الطغاة في طريق دعوة الإسلام، وتحطيم الأنظمة الظالمة في الأرض، التي تعلن العداء لله. فهذه النظم الطاغية، والمؤسسات الظالمة، تُحْمَلُ بقوة السيف على الدخول تحت طوع النظام الإسلامي العالمي؛ وذلك بالتخلِّي عن غطرستها وجبروتها، والاستسلام لسلطان الإسلام على الإجمال.

أما الأفراد من الأمم والشعوب فلا إكراه في الدين! لأن الإسلام - بعد تحطيم مؤسسات الكفر وأنظمة الطغيان - يكفل حرية الاعتقاد لغير المسلمين، ويمنحهم حقَّ المواطنة بِجِزْيَةٍ يؤدونها سنويًّا، في مقابل ما يؤدِّي المسلم من زكاة. ثم يلتزم النظام الإسلامي بحمايتهم، كما يحمي المسلمين من أي عدوان داخليٍّ أو خارجيٍّ؛ لأنهم يكونون آنئذ مضمونين بذمة الله، وبعهده المفروض حِفْظُهُ على المسلمين. وهذه حقيقة شرعية، وحقيقة تاريخية تتحدَّى اليهود والنصارى في كلِّ مكان! فعلى رغم ما وجدوا في ظلِّ دولة الإسلام قديمًا وحديثًا من الأمن والأمان؛ فإن المسلمين لم يلقوا منهم إلا التقتيل والتذبيح والتهجير..! والإكراه على التَّنَصُّرِ والتخلِّي عن عقيدة الإسلام! كما حدث في محاكم التفتيش بإسبانيا الصليبية، بعد سقوط الأندلس، وكما حدث

في القرون الأخيرة بالجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، إبان الاتحاد السوفييتي البائد، وكذا في أوربا الشرقية في ألبانيا والبوسنة وغيرهما. ثم ما حدث وما يزال يحدث للمسلمين في فلسطين - فَكَّ اللَّه أسرها! - من إبادة وتهجير، على يد اليهود أخزاهم اللَّه!

أما الإسلام فقد أعلن في العالمين أعظم حق من حقوق الإنسان! ونادى بِأَنْ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ... ﴾ مَبْدأً ربانيًا يتحدَّى التاريخ البشري! ثم ضمن اللَّه تطبيقَه في المجتمع الإسلامي فعلًا، وحماه بإيمان المسلمين وأخلاقهم، ثم بسلطانهم وسلاحهم! ذلك أن الدين إنما هو طاعة قلبية للَّه، قبل أن يكون أعمالًا ظاهرة، من العبادات والتصرفات. صحيحٌ أنه لا إيمان بغير عمل، وأن الإيمان ما وَقَرَ في القلب وصدَّقه العمل؛ لكن صحَّة ذلك كله وقبوله عند اللَّه، إنما هو مبنيٌّ على مدى صدق صاحبه فيما يعتقده باطنًا، من الإيمان باللَّه واليوم الآخر، وسائر أركان الإسلام.

إن الدين هو الرضا باللَّه رَبًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا. فالقضية كلها ههنا: الرضا! فمن لم يَرْضَ، ودخل في الإسلام كرهًا، أو خدعة؛ فلا دين له! وهو عين الزندقة المقيتة، وعين النفاق الموعود بالدرك الأسفل من النار! إن اللَّه - جَلَّ ثناؤه - يريد عبادًا يؤمنون به طوعًا لا كرهًا، ويدعونه رَغَبًا ورَهَبًا، ويعبدونه خوفًا ورجاءً. قد ذَلَّتْ له قلوبهم، وانقادتْ له أنفسهم، وخَشَعَتْ أبصارهم، وفرحت أرواحهم، فنهضت بحقِّه عابدةً، ومجاهدةً، وعاملةً، تغمرها المحبة، ويحدوها الشوق العظيم إلى لقائه، وإلى مقامِ جواره الكريم. فذلك هو الإيمان، وذلك هو الإسلام. فإمَّا مُسْلِمٌ على الطَّوْعِ الصادق والرضا العميق، وإلَّا فَلَا! ذلك أن اللَّه سبحانه قد بَيَّنَ بكتابه المبين طريقَ الرُّشْدِ والْهُدَى، وبَيَّنَ طريقَ الغَيِّ والضلال، وغَشَّى هذه بعلامات من الأدخنة والظلمات، بينما غَمَرَ طريقَ الهدى بالنور؛ فلا يَضلّ عنها إلا أعمى! فانكشفت حقيقةُ الرُّشْدِ للناس، وعرفوا أين هو الاختيار الكَيِّسُ الفَطِنُ، والقَرَارُ الحكيم النَّزِيهُ. وأين هو الاختيار الضَّالُّ الجهول، والقرار الغَاوِي السَّفِيهُ!

ومِن ثَمَّ ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. فإنما المؤمن هو من كَفَرَ بالطَّاغُوتِ وحَطَّمَ إِسَارَهُ! والطَّاغُوتُ: صيغةُ مبالغةٍ للطَّاغِي. والاسم: الطغيان، وهو ما جاوز الحدود من كلِّ

شيء، وخرج عن المعتاد. كالسيل الجارف إذا فاض، وتدفَّق بما لا طاقة للناس على حصره، على نحو ما وقع في الطوفان! قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. ومِن ثَمَّ صار كُلُّ معبود من دون اللَّه طَاغِيَةً؛ لأن ذلك أكبر مجاوزة للحدِّ الطبيعي، الذي فطر اللَّه عليه المخلوقين. فبدل أن يكون العبد لخالقه الكريم من العابدين؛ ينصِّب نفسه معبودًا من دون اللَّه ربِّ العالمين! ومن هنا كان أكبر الطغاة هو إبليس اللعين، ثم من انتسب إلى منهاجه من الجِنَّةِ والناس أجمعين! ويدخل في ذلك ما اتَّخذه الوثنيون – قديمًا وحديثًا – من الأنصاب والأصنام، وما يؤلهه بعض الناس اليوم من الأفكار الإلحادية، والنظريات المعادية للدين، وما يقدِّسونه من الزعامات والقيادات، المتمرِّدة على الربِّ العظيم! وكذا المؤسسات العالمية الظالمة، والدول الكبرى العاتية، التي تفرض سياستها على المستضعفين، وترهبهم بعلوِّها في الأرض واستكبارها، وتَحمِلُهم كَرْهًا على الخضوع لهيمنتها الاقتصادية والسياسية، وعلى التزام منهاجها الجاهلي في الحياة! وكل ذلك تمرُّد على الخالق العظيم، وكل ذلك طَاغُوتٌ غَوِيٌّ مبين!

فمن نزع عن عنقه رِبْقَةَ الطاغوت وكفر به! وأعلن براءَته منه ومن حزبه، وأَشْهَرَ إيمانَه باللَّه ربِّ العالمين، توحيدًا لربوبيته وألوهيته، وتوحيدًا لحاكميته وسلطانه؛ فقد استمسك بالعروة الوثقى، العروة التي لا تنفصم ولا تتمزَّق! تمامًا كعروة الحديد المعلقة بالباب العظيم، قوية متينة، لا تنفصم ولا تَبْلَى. ذلك مَثَلُ مَنْ أعلن إسلامَه للَّه ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾؛ فلا يمكن خداعه سبحانه ولا الاحتيال عليه، بل هو سميعٌ لكلِّ ما يلفظ به عباده، عليمٌ بما يخفون من سرائرهم، ويبطنون من مقاصدهم ونياتهم. فيعامل سبحانه كُلَّ عَبْدٍ على وِزَانِ ما أظهر وأبطن، سبحانه وتعالى لا يفوته شيء، ولا تغيب عنه كبيرةٌ ولا صغيرةٌ..! تلك صفته العَلِيَّةِ التي تقرَّرت في آية الكرسي، آية التعريف باللَّه.

هذا هو الدين، وهذا هو الإسلام، العروةُ الوثقى التي نِيطَتْ بباب الهُدَى، من أخذ بها فتح اللَّه عليه من أنوار رحمتِه وغفرانه، فنال تأييدَه ورضاه، ثم أدخله جنته، وكان من الفائزين. كذلك فَسَّرَهَا النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح. فَعَنِ التَّابِعِيِّ الصَّالِحِ، قَيْسِ بْنِ عبادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: (كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ فِي نَاسٍ فِيهِمْ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ [وَهُوَ الصَّحَابِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه] فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: « هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ! هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ! » فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ يَتَجَوَّزُ

فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ، فَاتَّبَعْتُهُ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ وَدَخَلْتُ، فَتَحَدَّثْنَا، فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ قُلْتُ لَهُ: « إِنَّكَ لَـمَّا دَخَلْتَ قَبْلُ قَالَ رَجُلٌ كَذَا وَكَذَا! » قَالَ: « سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لاَ يَعْلَمُ! وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ: رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ: رَأَيْتُنِي فِي رَوْضَةٍ - ذَكَرَ سَعَتَهَا وَعُشْبَهَا وَخُضْرَتَهَا - وَوَسَطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ وَأَعْلاَهُ فِي السَّمَاءِ! فِي أَعْلاَهُ عُرْوَةٌ. فَقِيلَ لِي: اِرْقَهُ! فَقُلْتُ: لَهُ لاَ أَسْتَطِيعُ! فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ [وَهُوَ الْخَادِمُ أَوِ الوَصِيفُ] فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي، فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلاَهَا، فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ. فَقِيلَ لِي: اسْتَمْسِكْ! فَلَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي! فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: « **تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلاَمُ، وَذَلِكَ العَمُودُ عَمُودُ الإِسْلاَمِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى. وَأَنْتَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ!** »)(١).

وبناءً على نتيجة الاختيار بين الرُّشْدِ والغَيِّ، والاستمساك بالعروة الوثقى أو التنصُّل منها؛ ميَّز الرحمن - جَلَّ ثناؤه - كُلَّ فريقٍ بولايته وقيادته، وطبيعة سيره ومسلكه. فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾. وهذا أعظم فوز للمؤمنين في الدنيا والآخرة: التَّحَقُّقُ بِوِلاَيَةِ اللَّه! ومن تولَّاه اللَّهُ جعله من أهله وخاصَّته، وأدخله في حصنه ورحمته، محميًّا بحفظه وحراسته! وأخرجه من ظلمات الجهالة والضلال، إلى نور الإيمان والأمن والسلام! وأحاط سيره إليه تعالى بالنور، يتوهَّج بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته. فلا يزال المؤمن مغمورًا بالنور، يفيض من قلبه على كلِّ جوارحه، ويمتد إلى ما حواليه من كل جهاته، في مشهد روحاني عجيب! فمن دعاء النبي ﷺ « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَعَظِّمْ لِي نُورًا..!** »(٢).

فالرحمن جَلَّ ثناؤه يتولَّى أولياءَه الذين خلعوا رِبْقَةَ الطاغوت، وتحقَّقوا بمقام: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) توحيدًا وتفريدًا للَّه، وكُفرًا بأعداء اللَّه، فيخرجهم من ظلمات الحيرة والضلال إلى نور الإسلام وسكينة الإيمان. ولا يزال ينير طريقهم برحمته تعالى

(١، ٢) متفق عليه.

حتى يوصلهم إلى الجنة دار السلام! أما الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ فأولياؤهم الطاغوت! والطاغوت لفظ يقع على المفرد والجمع سواء، وهو ههنا الشيطان وكل من انتصب معبودًا من دون اللَّه. فهؤلاء جميعًا هم قادة الذين كفروا، يقودونهم إلى عَمايَةٍ وغِوَايَةٍ، ويخرجونهم - بما يرسمون لهم من خطوات التضليل الشيطاني، والتزيين الشهواني - من نور الهدى إلى ظلمات التيه والضلال! فنور الْهُدَى واحدٌ، كما أن اللَّه واحد، بينما الكفر متعدد، عقائدُ ومذاهبُ شتى، ومِلَلٌ ونِحَلٌ، وأفكارٌ ونظرياتٌ، وأديانٌ وفلسفاتٌ، وأنظمةٌ ومؤسساتٌ، فهو ظُلُمَاتٌ..! ظُلُمَاتٌ متعددة بتعدد الطواغيت والشياطين والضلالات! كثرةٌ تُلْقِي بصاحبها في متاهات الحيرة والشَّقَاوَاتِ! ولذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ ولقد ضرب اللَّهُ لهذا العَمَى الرهيبِ مثلًا بليغًا، وصوَّره أبدع تصوير، قال سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] ومِن ثَمَّ لم يكن مِنْ مَصِيرٍ لَائِقٍ بهذا العَمَى الجاهلي الطاغي سوى الجحيم! ولذلك كان تذييل الآية - موضوع الدرس ههنا - بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ تلك نتيجة الاختيار السفيه لطريق الغَيِّ والضلال، وتلك نتيجة الاستجابة لنداء الشهوات والغوايات، والتخلِّي الفاجر عن طريق الرُّشْدِ، والخروج العامد عن سبيل الهدى والنور، رغم ما نَصَبَ اللَّه على هذا وذاك من عَلامَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وآياتٍ مُحْكَمَاتٍ!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رسالةً، هي:

الرسالة الأولى: في أن الرسول محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأكملهم عبادةً لربِّه، وأبلغهم جهادًا فيه. فهو خيرُ قدوةٍ جُعلت للناس على الإطلاق! ولذلك فقد أوتي ما أوتي من المقام المحمود، والدرجة الرفيعة. كما بيناه بشواهده في البيان العام. فمن كان مقتديًا بأحد من الـخَلْقِ فَبِهِ - عليه الصلاة والسلام - وإلا فَلا..! فقد عُلِّمَ ﷺ من العبادات، وضروب الأذكار،

والأدعية، والمناجاة؛ ما لا قِبَلَ لأحد به، لا قَبْلَهُ ولا بعده! ومن ظنَّ أن أحدًا من الأولياء والصالحين قد عُلِّمَ مَا لَمْ يُعَلَّمْ محمدٌ ﷺ، أو أُوتِيَ من الأسرار ما لم يُؤْتَ عليه الصلاة والسلام فقد هلك! وهذا منزلقٌ خطيرٌ زَلَّتْ به أقدام كثير من جَهَلَةِ العُبَّادِ، فشرعوا لأنفسهم ومريديهم من العبادات والأوراد - زيادةً على الشرع ونقصًا - ما لم يأذن به اللَّه! وذلك بما استدرجهم إليه الشيطان من الضلالات والأوهام، وبما زينت لهم أنفسهم من البدع والأهواء!

الرسالة الثانية: في أن المؤمنين الصالحين درجات، تتراوح منازلهم في الجنة ما بين مراتب الصديقين والشهداء والصالحين. وفي كلِّ مرتبة من هذه المراتب الثلاث ما لا ينحصر من الدرجات! فَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْـخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ أَهْلَ الْـجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ!** » قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: « **بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْـمُرْسَلِينَ!** » [(١)] وإنما الدرجات الرفيعة لأهل العلم بالله. قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨]. والمقصود بالعلماء هنا: هم العلماء بالله، أي أهل الخشية والتقوى والورع، الذين سكن خوفُ اللَّه قلوبهم؛ بما عرفوا من قَدْرِهِ العظيم! [(٢)] قال البخاري رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ « **أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ** ». وَأَنَّ الْـمَعْرِفَةَ فِعْلُ الْقَلْبِ!) وساق له حديث النبي ﷺ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ؛ قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ! ثُمَّ يَقُولُ: « **إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا!** » [(٣)] أي أنهم كانوا يودون الزيادة على ما شرع لهم من النوافل والعبادات. فيخبرهم عليه الصلاة والسلام بأنه أعلمهم بالله وأخشى، وأن ما شرعه لهم هو القدر المطلوب شرعًا، الذي لا يجوز تعديه.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن جرير الطبري عن ابن عباس، عند تفسيره للآية في سورة فاطر.

(٣) رواه البخاري.

فالعلم بالله والمعرفة به تعالى هي إِذَنْ، أساسُ الرُّقِيِّ في مراتب الدرجات. قال سفيان ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: (العلماء ثلاثة: عالم بالله، وعالم بأمر الله، وعالم بالله وبأمر الله. فأما العالم بالله: فهو الذي يخاف الله ولا يعلم السُّنة. وأما العالم بأمر الله: فهو الذي يعلم السُّنة ولا يخاف الله. وأما العالم بالله وبأمر الله: فهو الذي يعلم السُّنة ويخاف الله. فذلك الذي يُدْعَى عظيمًا في ملكوت السموات!)[١] وفي رواية الدارمي: (الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللَّهِ يَخْشَى اللَّهَ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ. وَعَالِمٌ بِاللَّهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ يَخْشَى اللَّهَ، فَذَلِكَ الْعَالِمُ الْكَامِلُ. وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ لَا يَخْشَى اللَّهَ، فَذَلِكَ الْعَالِمُ الْفَاجِرُ!) فالعلم الحق بالله إذن هو الجمع بين معرفة الشرع ومعرفة الله.

الرسالة الثالثة: في أن إنفاق المال في وجوه الخير، من أهم مسالك النجاة، وأسرع الْـمَعَارِجِ إلى أعالي الدرجات، كما دلَّ عليه سياق هذه الآيات. فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « **لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْـنَ يَدَيِ اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَلا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ! ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَالًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى! ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى! فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ! ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلا يَرَى إِلَّا النَّارَ! فَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ! فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ!** »[٢] تلك النجاة من النار، أعاذنا الله وإيَّاكم منها برحمته! وأما الدرجات فإنها تُنَالُ - مِنْ بين ما تُنَالُ به - بكثرة الصدقات، بل هي من أسرع المسالك إليها، وأرقى المعارج. فقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه (أَنَّ فُقَرَاءَ الْـمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْـمُقِيمِ! فَقَالَ: « وَمَا ذَاكَ؟ » قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟** » قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: « **تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً** ». قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْـمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا؛ فَفَعَلُوا مِثْلَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **ذَلِكَ فَضْلُ**

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والدارمي في سننه.

(٢) متفق عليه.

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ! ») [١] واللَّه ذو الفضل العظيم. جعلني اللَّه وإياكم من أهل فضله وإحسانه!

الرسالة الرابعة: في أن آية الكرسي هي أعظم آية في التعريف باللَّه! وإنها لذلك لَشَيْءٌ عظيم! فَأَنْ تجد ما يعرفك بخالقك، وأَنْ تجد ما يعلمك حقيقةَ ربك؛ معناه أنك قد وجدت كل شيء! وجدت ذاتك، ووجدت حياتك، ووجدت دنياك، ووجدت آخرتك، وذقت لذة العيش ولو كنت أفقر الناس! وامتلأ قلبك بالأمل العظيم في اللَّه، تستنشق من رَوْحِ اللَّه ما يحدو قلبك إلى نعيم الآخرة! زَادُكَ الطاعة، وغذاؤك القناعة؛ وإن هذا لهو الغنى العالي باللَّه! كل ذلك لأنك وجدت ربك الذي خلقك! وأما مَنْ فَقَدَهُ - ويَا لَتَعْسَ مَنْ فَقَدَهُ! - فَقَدْ فَقَدَ كُلَّ شيء! فَأَتْعِسْ بها من حياة يحياها! ولو كان يملك الثروة بالملايير! ألَا وإنه لفقيرٌ فقيرٌ..! وما ضَلَّ من ضَلَّ من الأمم القديمة والحديثة إلا بسبب جهلهم الفظيع باللَّه! فما في الدنيا لذةٌ ولا نعمةٌ أَجَلُّ ولا أَكْرَمُ من معرفة اللَّه!

ومن هنا كانت آية الكرسي هي أعظم آية في كتاب اللَّه! وكانت تاج آيات الذكر الحكيم؛ بما فيها من عِلْم باللَّه، ومن عجائب الأسرار والأنوار. ومِن ثَمَّ وجب تعليمها للكبار والصغار، ووجب تلقينها للأطفال، وتعريفهم بحقائقها الإيمانية على قدر ما تستوعبه عقولهم. ذلك أن آية الكرسي بذاتها مسلك إلى اللَّه، وحِصْنٌ حصينٌ للمؤمن، ما تلاها بيقين وإخلاص. فهي خير أوراده وأذكاره، سواء بُعَيْدَ صَلاتِهِ أو عند منامه، بليله أو نهاره، أو في سفره وحضره، وسائر أحواله. فعن أبي أمامة الباهلي ﷺ أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: « **مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتُ!** » [٢].

ومن أشهر الأحاديث الواردة فيها، القصةُ الطريفة التي رواها الصحابي الجليل أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: (وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ! قَالَ:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه النسائي في الكبرى، والطبراني في الكبير وفي الشعب، وابن حبان في صحيحه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

إِنِّي مُحْتَاجٌ، وعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ! قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ. فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟** » قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا؛ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ! قَالَ: « **أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ!** » فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ! قَالَ: دَعْنِي! فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟** » قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا؛ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ! قَالَ: « **أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ..!** » فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ! وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ..! قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا! قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ! قال: فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟** » قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا؛ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: « **مَا هِيَ؟** » قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ. وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ! تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟** » قَالَ: لَا. قَالَ: « **ذَاكَ شَيْطَانٌ!** ») (١).

تلك آية الكرسي، وتلك بعض آثارها العجيبة! فاجعلها أساسَ وِرْدِكَ، ومنهاجَ حياتك! ومجال تَدَبُّرِكَ وتَفَكُّرِكَ!

الرسالة الخامسة: في أن أشرف العلوم الإيمانية هو العِلْمُ الْمُعَرِّفُ باللَّه ﷻ ، توحيدًا وتفريدًا. كما اتفق عليه علماء الإسلام سلفهم وخلفهم؛ لأن شَرَفَ العلم بشرف المعلوم، فلما كانت ذاتُ اللَّه تعالى أشرف الذوات، وأرفع المعلومات؛ كان العلم باللَّه ﷻ أشرفَ العلوم، وأرفع المعارف. ولو تدبرتَ كتاب اللَّه تعالى لوجدت مداره كله على هذا المعنى. ولا يدخل في ذلك علم الكلام القائم على الجدل المراوغ

---

(١) رواه البخاري.

الذميم، والنظر العقلي العقيم؛ لأنه لا يورث تقوى ولا خشية ولا يقينًا. وإنما العلم الحقُّ بالله هو ما عرَّف العبدَ بربِّه، وغمر قلبَه بنور اليقين، وأكسبه مشاهدة حقائق الإيمان، وتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى، بما عرف من جلال ربوبيته، وجمال ألوهيته؛ فتعلَّق قلبه به، وسار إليه تعالى إجلالًا وتعظيمًا، وخوفًا ورجاءً، وشوقًا ومحبةً، وتدرَّج في مراتب الإخلاص حتى يكون من الصِّدِّيقين. وذلك هو علم التوحيد المأخوذ من الكتاب والسنة رأسًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَخَشْيَتِهِ، وَإِخْلاصِ الدِّينِ لَهُ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِأَخْبَارِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ [هو] مِمَّا يَتَبَايَنُ النَّاسُ فِيهِ، وَيَتَفَاضَلُونَ تَفَاضُلًا عَظِيمًا. وَيَقْوَى ذَلِكَ كُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَدَبُّرًا لِلْقُرْآنِ، وَفَهْمًا وَمَعْرِفَةً بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَتَفَقُّرِهِ إلَيْهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِهِ؛ بِحَيْثُ يَجِدُ اضْطِرَارَهُ إلَى أَنْ يَكُونَ تَعَالَى مَعْبُودَهُ وَمُسْتَغَاثَهُ؛ أَعْظَمَ مِنَ اضْطِرَارِهِ إلَى الأَكْلِ وَالشُّرْبِ!)[١] وقال في موطن آخر: (فَإِنَّ اللَّذَّةَ وَالْفَرْحَةَ وَالسُّرُورَ، وَطِيبَ الْوَقْتِ، وَالنَّعِيمَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ؛ إنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَوْحِيدِهِ، وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَانْفِتَاحِ الْحَقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ، وَالْمَعَارِفِ الْقُرْآنِيَّةِ).[٢]

الرسالة السادسة: في أن حقائق الأسماء الحسنى والصفات العُلَى من أهم أصول العلم بالله، وأن معرفة العبد بالله تكون على قدر معرفته بها، وتحقُّقه بمقتضياتها، وتخلُّقه بمنازلها. فمن شرح الله صدره لها، وعَمَرَ قلبَه بأنوارها؛ تَلَقِّيًا لحقائقها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ لم يزل يشاهد تجلِّياتها في كل شيء من ملكوت السموات والأرض. فلا يرى شيئًا من المخلوقات الكبيرة والصغيرة، ولا شيئًا من الحقائق الكونية، والحوادث العالمية، وسائر الأقوال والأفعال، والتصرفات البشرية وغير البشرية؛ إلا أثرًا من آثارها، وتجلِّيًا من تجلياتها! وهذا معنى من معاني توحيد الربوبية. فمن شاهد المخلوقات علم أنها انعكاس لنور اسمه الخالق ﷻ ، ومن شاهد صورها علم أنها انعكاس لنور اسمه المصوِّر ﷻ ، ومن شاهد الأرزاق علم أنها تجلٍّ لاسمه الرزاق ﷻ ، ومن شاهد المصائب والمهالك، والزلازل والأعاصير والبراكين؛ علم أنها

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٦٠٦). طبعة دار عالم الكتب بالرياض.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٣١).

تجلّ لصفات الإرادة، والعزة، والقوة، والقهر، والجبروت؛ القائمة بذاته ﷻ ، وكذا ما يدل عليها من أسماء حسنى، مثل القَوِيِّ، والقهَّار، والجبَّار، ونحوها، مما علمنا وما لم نعلم! وهكذا ما من شيء أو فعل حادث في الكون إلا وهو من تجلِّيات الأسماء الحسنى والصفات العلى وانعكاس لأنوارها. ذلك أن الربَّ العظيم ﷻ ، إنما علمنا من أسمائه وصفاته ما علمنا؛ لِنُرْجِعَ كل شيء في هذا العالم إليه، خَلْقًا وتقديرًا، ورعايةً وتدبيرًا! كما تدارسناه في آية الكرسي ههنا. وهذا المسلك هو أهم المسالك المعرفة بالله والموصلة إليه. لأن من تحقق بهذا التوحيد مشاهدةً وتخلُّقًا؛ تحقق بتوحيد الألوهية خضوعًا وخشوعًا، وخوفًا ورجاء، وشوقًا ومحبة. وترقَّى في مراتب الإخلاص إلى أعلى الدرجات!

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ كُلَّ مَا يُعْلَمُ وَيُقَالُ يَدْخُلُ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ؛ إذْ لَا مَوْجُودَ إلَّا وَهُوَ خَلَقَهُ. وَكُلُّ مَا فِي الْمَخْلوقَاتِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالأَسْمَاءِ، وَالأَقْدَارِ وَالأَفْعَالِ، فَإِنَّهَا شَوَاهِدُ وَدَلائِلُ عَلَى مَا للَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى؛ إذْ كُلُّ كَمَالٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ فَمِنْ أَثَرِ كَمَالِهِ. وَكُلُّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِمَخْلوقٍ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ بِهِ. وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ مَخْلُوقٌ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ بِتَنْزِيهِهِ عَنْهُ (...) وَأَسْمَاءُ اللَّهِ مُتَضَمِّنَةٌ لِصِفَاتِهِ، لَيْسَتْ أَسْمَاءَ أَعْلامٍ مَحْضَةً، بَلْ أَسْمَاؤُهُ تَعَالَى؛ كَالْعَلِيمِ، وَالْقَدِيرِ، وَالسَّمِيعِ، وَالْبَصِيرِ، وَالرَّحِيمِ، وَالْحَكِيمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. كُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَا لَمْ يَدُلّ عَلَيْهِ الاِسْمُ الآخَرُ، مِنْ مَعَانِي صِفَاتِهِ. مَعَ اشْتِرَاكِهَا كُلِّهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى ذَاتِهِ. وَإِذَا كَانَ مِنْ أَسْمَائِهِ مَا اخْتَصَّ هُوَ بِمَعْرِفَتِهِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ مَا خَصَّ بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ عُلِمَ أَنَّ تَفَاضُلَ النَّاسِ فِي مَعْرِفَتِهِ أَعْظَمُ مِنْ تَفَاضُلِهِمْ فِي مَعْرِفَةِ كُلِّ مَا يَعْرِفُونَهُ)[1].

وهذا أجلّ العلوم وأشرفها، وهو الغاية المقصودة بدراسة توحيد الأسماء والصفات، تخلُّقًا وتحقُّقًا.

الرسالة السابعة: في أن من أعظم ما يتقرَّب به العبد إلى الله دعاؤه تعالى بالأسماء الحسنى، والثناء عليه بما أعطانا من عباراتها المنيرة وألفاظها الكريمة. قال ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. إلا أنه لا بد من بيان أن عدد الأسماء الحسنى غير

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٧٠، ٥٧١).

محصور، وإنما أوتينا منها تسعة وتسعين اسمًا، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا – مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا – مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ!** »[(١)] فأما عدم حصر الأسماء الحسنى فقد دَلَّتْ عليه السنة الصحيحة؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « **مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ؛ فَقَالَ: « اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي! »؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا!** » فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: « **بَلَى! يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا!** »[(٢)] فقوله ﷺ: « **أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ** » نص صريح في استئثار اللَّه ببعض أسمائه ﷻ . ويؤيده أيضا حديث الشفاعة المذكور قبلُ، وفيه قوله ﷺ: « **فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي!** »[(٣)] وإنما يكون الثناء على اللَّه بأسمائه وصفاته. ومعناه أن اللَّه – جَلَّ ثناؤه – يكشف لمحمد ﷺ يوم الحشر، من أسمائه الحسنى؛ ما لم يكشفه لأحد قبله من العالمين، ولا كشفه له هو نفسه ﷺ قبل ذلك في الدنيا!

الرسالة الثامنة: في أن « الاسم الأعظم » هو جوهرة الأسماء الحسنى. وذلك لِـمَا يتضمَّنه من التمجيد والتعظيم، والثناء الكبير على اللَّه ﷻ، ولِـمَا أودع اللَّه فيه من أسرار صفاته وعظيم قدرته. ومِن ثَمَّ فقد ثبتت الأحاديث في أنه ما دعا به عبدٌ رَبَّهُ صادقًا إلا استجاب له! وقد اختلف العلماء كثيرًا في تحديده؛ بسبب اختلاف

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ». وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الكلم الطيب. وقد ضعَّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط؛ بناء على ما تناقله بعض نقاد الحديث كالذهبي، من جهالة أحد رواته، وهو المكنى « أبا سلمة الجهني ». إلا أن الشيخين أحمد شاكر والألباني – رحمة اللَّه عليهما – قد اكتشفا أنه: « موسى الجهني » وهو من رجال مسلم. فصحَّ قول الحاكم بذلك قبلهما؛ فثبتت صحَّة الحديث على شرط مسلم! وفي ذلك بحث بديع أنجزه الألباني رحمه الله في كتاب السلسلة الصحيحة: (١/٣٣٧).

(٣) متفق عليه.

الأحاديث الصحيحة الواردة فيه. والراجح عندنا أن ذلك دليل على أن له تجلّيات شتى، وليس مجرد عبارة واحدة أو عبارتين فقط. فقد ثبت فيه ما أوردناه قبلُ، مما رواه القاسم الإمام التابعي الجليل رحمه الله عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « **اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي سُوَرٍ ثَلاَثٍ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَهَ** ». قال القاسم: فالتمستُها فوجدتُ في سورةِ البقرةِ آيةَ الكُرْسِي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢]، وفي سورة طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١] (١). فآل الاسم الأعظم إلى أنه ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ كما قرَّرناه قبل. ولكن وردت له صيغ أخرى غير هذه، فَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾.** » (٢) وعن بُرَيْدَةَ الأسلمي رضي الله عنه (أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ سمع رجلًا يقول: « اللَّهم إني أسألك، بأني أشهد أنك أنت اللَّه، لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ! » فقال ﷺ: « **لقد سألتَ اللَّه بالاسم الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطَى، وإذا دُعِيَ به أجاب!** ») (٣)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (مَرَّ النبي ﷺ بأبي عياش - زيد بن الصامت الزرقي - وهو يُصَلِّي، وهو يقول: « اللَّهم إني أسألك بأنَّ لكَ الحمدُ، لا إله إلا أنت، يا حَنَّانُ! يا منَّانُ! يا بديعَ السموات والأرض! يا ذا الجلال والإكرام! » فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لقد سألتَ اللَّه باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى!** ») (٤).

---

(١) رواه ابن ماجه، والطبراني في الكبير، والحاكم. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح سنن ابن ماجه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، والدارمي، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب. كلهم عن أسماء بنت يزيد. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح سننهم، وفي صحيح الترغيب، وصحيح الجامع برقم (٩٨٠).

(٣) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه كذلك ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال صحيح على شرطهما. وصححه الألباني في صحيح سننهم، وصحيح الترغيب، والمشكاة.

(٤) رواه أحمد واللفظ له، وابن ماجه. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان، والحاكم. قال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب: « حسن صحيح ». وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « حديث صحيح، وهذا إسناد قوي ».

فهذه أربع صيغ صحيحة من صيغ الاسم الأعظم، وكل صيغة منها مركَّبة من عدد من الأسماء والصفات، يجوز أن يكون الاسم الأعظمُ أحدَها، ويجوز أن يكون جميعَها؛ فيصير الاسم الأعظم بذلك أكثر من أربع صيغ.

والحاصل أن العبد إذا ما ناجى رَبَّهُ بهذه العبارات، وابتهل إلى اللَّه بها مخلصًا، وافقَ الاسمَ الأعظمَ بدعائه ومناجاته، ونطق بما عَظُمَ عند اللَّه من عبارات الثناء عليه، والحمد لجلال وجهه، وعظيم سلطانه؛ فنال الرضا والقبول، وفاز بكرم الاستجابة والعطاء!

الرسالة التاسعة: في أَنَّ آيةَ الكُرْسِيِّ تتضمَّن أَصْلًا عظيمًا من أصولِ التوحيد في الإسلام، أَلَا وهو توحيد الأسماء والصفات. ومعناه راجع إلى إثبات ما أثبته اللَّه لنفسه من أسماء حسنى وصفاتٍ عُلَى، وكذا ما أثبته له رسوله ﷺ منها، مما ثبت به الحديث الصحيح. ثم نَفْيِ ما نَفَاهُ اللَّهُ ورسولُه ﷺ عن ذاته ﷻ ، من صفات النقص والمثال. وهو معنى التنزيه والتسبيح. فَالْجُمَلُ الْمَنْفِيَّةُ في آية الكرسي نَفْيٌ لِمَا لا يليق بجلال وجهه وكمال ذاته سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ۝ ﴾ وقوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾. وأما الْجُمَلُ الْمُثْبَتَةُ، ففيها إثباتٌ لِمَا تضمنته من الأسماء والصفات. كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ فهذه هي عقيدة الصحابة والتابعين، وكبار علماء الأمصار الْمُتَّبَعِينَ. عقيدة سَالِمَة من التأويل والتعطيل، ومن التكييف والتمثيل. بمعنى أن صفات البارئ تعالى التي ظاهرها التجسيم - مما ثبت في الكتاب والسنة - كالوجه، والعين، واليد، ونحوها، وكذا ما أضافه اللَّه تعالى لنفسه من أفعال؛ كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء يوم القيامة.. ونحوها؛ كل ذلك صفاتٌ ذَاتٍ وصفاتُ أفعالٍ للَّه رب العالمين، نثبتها له ﷻ كما تلقَّيناها عنه سبحانه، أو عن رسوله ﷺ. ولكن دون محاولة تصوُّرِها بالتخيُّل والتعقُّل؛ لأن ذلك إنما يوقع المرء في التشبيه والتجسيم! وهو قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فالكُرْسِيُّ والعَرْشُ مثلًا يجب الإيمان بوجودهما، ثم الإيمان باستواء الرحمن على عرشه تعالى. ولا يلزم عن ذلك استحضار الذهن لحقيقة الكرسي وكُنْهِهِ، ولا لجوهر الكرسي وهيئته، ولا لكيفية استواء الرحمن على عرشه! تمامًا كما نؤمن باللَّه ﷻ

وبوجوده، ولا نستحضر له هيئة ولا صورة. فَعِلْمُ ذلكَ كلِّه موكولٌ إليه تعالى وحده. وهذا معنى قولهم: « إِثْبَاتُ الْمَعْنَى وتَفْوِيضُ الكَيْفِ ». قال الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد تخريج حديث تـجلِّي الرحمن للمؤمنين يوم القيامة: (قَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مِثْلُ هَذَا؛ مَا يُذْكَرُ فِيهِ أَمْرُ الرُّؤْيَةِ؛ أَنَّ النَّاسَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ، وَذِكْرُ الْقَدَمِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ. وَالْمَذْهَبُ فِي هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الأَئِمَّةِ؛ مِثْلِ: سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ، وَوَكِيعٍ، وَغَيْرِهِمْ؛ أَنَّهُمْ رَوَوْا هَذِهِ الأَشْيَاءَ، ثُمَّ قَالُوا: تُرْوَى هَذِهِ الأَحَادِيثُ وَنُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا يُقَالُ: « كَيْفَ؟ » وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ: أَنْ تُرْوَى هَذِهِ الأَشْيَاءُ كَمَا جَاءَتْ، وَيُؤْمَنُ بِهَا، وَلَا تُفَسَّرُ، وَلَا تُتَوَهَّمُ، وَلَا يُقَالُ: كَيْفَ؟ وَهَذَا أَمْرُ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَارُوهُ وَذَهَبُوا إِلَيْهِ)[1].

فمعنى قوله: « لَا تُفَسَّرُ »؛ أي: لَا تُفَسَّرُ هيئاتُـها ولا حقائقُها. وليس معناه عَدَمَ تفسير ألفاظها؛ لأن تفسير الألفاظ هو معنى إثباتها ومعنى الإيمان بها، وقد أثبته الترمذي لأهل العلم. والفَرْقُ بينهما شَاسِعٌ جِدًّا. فتفسير لفظ الكرسيِّ مثلًا معناه القول بأن الكرسيَّ هو الكرسيُّ، فهذا إثباتٌ لوجوده أولًا، وإيمانٌ بالآية الواردة به ثانيًا. وأما تفسير الهيئة، فهو محاولة الكشف عن صورة الكرسي وشكله، وبيان جوهره، وحقيقته! وهذا ما لا يجوز شرعًا؛ إذ لم يرد به دليل من كتاب أو سنة، بل هو إقحام للعقل فيما لا طاقة له به!

وعندنا ههنا وقفةٌ مع الذين يميلون إلى تأويل مثل هذه الآيات والأحاديث، ويُخْرِجُونَ الألفاظ عن ظاهرها إلى معانٍ أخرى، كتأويل الكرسيِّ بأنه السلطان أو القدرة، ونفي وجوده وحقيقته! فمشكلة هؤلاء أنهم لا يستطيعون التخلُّص من تداعي الصور والهيئات الدالة على التشبيه والتجسيم؛ كلما نطقوا بمثل هذه العبارات! فالفرار من هذا إلى التأويل كالفرار من الرَّمْضَاءِ إلى النار! ألا ترى أن في ذلك من المغامرة والجرأة على الله ما يعجب منه ذو لب سليم؟ إذ كيف يغامر مسلم بالقول على الله: إنه كذا وكذا؟ وإن كرسيه أو عرشه كذا وليس كذا؟ وإن استواءه فوق عرشه، وعلوه فوق سماواته، إنما هو هكذا وليس هكذا؟! عجبًا! إن معنى ذلك أن هذا القائل قد أحاط علمًا بذات الله وصفاته كَيْفًا وهيئةً! ومعناه أنه قد أوتي علم

---

(١) سنن الترمذي: (بَابُ مَا جَاءَ فِي خُلُودِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ).

الكمال المطلق؛ وهذا ضَرْبٌ من ادِّعاء علم الربوبية من حيث لا يدري! فسبحان اللَّه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا! وإنما التواضع العلمي، والإيمان الحقيقي، أن يسلم المؤمن للَّه فيما وصف به نفسه، من غير تكييف ولا تشبيه، ومن غير تأويل ولا تعطيل! لأن هذا وذاك ظُلْمٌ وافْتِرَاءٌ على اللَّه! ومن أجمل ما نُقِلَ في ذلك كلامٌ للإمام محمد بن إدريس الشافعي، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (آمَنْتُ بِاللَّهِ ، وبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ على مُرَادِ اللَّهِ ، وآمنتُ بِرَسُولِ اللَّهِ، وبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ علَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ) (١). ورحم اللَّه شيخ المقاصد أبا إسحاق الشاطبي، فقد قَعَّدَ في هذا قاعدةً من ذهب! قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق بيان قواعد التفسير: (مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ علَى بَالٍ مِنَ النَّاظِرِ والْمُفَسِّرِ والْمُتَكَلِّمِ عَلَيْهِ أَنَّ مَا يَقُولُهُ تَقْصِيدٌ مِنْهُ لِلْمُتَكَلِّمِ، والقُرآنُ كَلامُ اللَّهِ، فَهُوَ يَقُولُ بِلِسَانِ بَيَانِهِ: « هَذَا مُرَادُ اللَّهِ مِنْ هَذَا الكَلامِ! » فَلْيَتَثَبَّتْ أَنْ يَسْأَلَهُ اللَّهُ تَعَالى: « مِنْ أَيْنَ قُلْتَ عَنِّي هَذَا؟ » فَلَا يَصِحُّ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بِبَيَانِ الشَّوَاهِدِ!) (٢).

الرسالة العاشرة: في أن عقيدة الوَلَاءِ والبَرَاءِ أساسُ الاستمساك بالعروة الوثقى. وأن موالاة الكفار - وإنما هم أولياء الشيطان - هي موالاةٌ للشيطان نفسه! وتلك خيانةٌ للَّه ورسوله ولأمة المسلمين! وهذا من الهدى المنهاجي الحكيم الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ... ۝ ﴾. فالكفر بالطاغوت بَرَاءٌ من الكفر والكُفَّار، والإيمانُ باللَّه وَلَاءٌ للَّهِ وللمؤمنين. وقد رأينا بسبب ضعف هذه العقيدة في المسلمين بهذا الزمان، مَنْ تواطأ مع اليهود وغيرهم من الكفار في حروبهم ضد المسلمين! عجبًا! تمامًا كما وقع من قبل في الأندلس من تعاون بعض ملوك الطوائف مع النَّصارَى الإسبان؛ لغزو بعض الإمارات الإسلامية هناك! فأخزاهم اللَّه جميعًا؛ ونصر عليهم الكفار! ثم طردوا المسلمين جميعًا من الأندلس قاطبة! وكانت نهاية حزينة ذليلة! وكانت المأساة التي ما يزال المسلمون يؤدُّون ضريبتها إلى اليوم! وها هي ذي بعض الأقطار الإسلامية اليوم، أو بالأحرى بعض الحكومات « الإسلامية » تسلك نهج ملوك الطوائف بالأندلس حَذْوَ النَّعْلِ بالنعلِ تمامًا! فتتواطأ للتمكين لليهود في فلسطين، والتمكين للنَّصارى في بعض البلاد الإسلامية الأخرى، وكأنها أعطت وَلَاءَهَا لِلغَرْبِ

---

(١) لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي.

(٢) الموافقات (٤/٤٢٣).

الكافر، وتَبَرَّأَتْ من دينها وشعوبها المسلمة! ومن هنا وجب تربية الجيل على عقيدة الولاء والبراء، والتخلُّق العميق بحقائقها الإيمانية، ومقتضياتها الشرعية.

وقد جاء تفصيلُ عقيدةِ الوَلَاءِ والبَرَاءِ وبيانها في مواطن شتى من كتاب اللَّه. قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣] وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] فمن وَالَى الكفارَ ونَاصَرَهُمْ نزع اللَّهُ عنه ولايته، وتركه يتخبَّطُ في ظلمات الحيرة والضلال، والمقت والخذلان والعياذ باللَّه! لأنه قد وَالَى الطَّاغُوتَ ونَاصَرَهُ! فالبَرَاءُ يقتضي التَّبَرُّءَ من الكفر وأهله، والكُرْهَ لِمَا هم عليه من التمرُّد على اللَّه، والإنكار لحقائق الإيمان. قال ﷻ: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَـٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤] وأما الولاء فهو الانتساب إلى اللَّه ورسوله ﷺ دينًا وإيمانًا، والاصطفاف مع المؤمنين تحت طاعة اللَّه قولًا وعملًا، مع الصدق في محبتهم، والإخلاص في مناصرتهم، وإعلان الحرب على من حاربهم، والبغض لمن أبغضهم. قال سبحانه: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١]. ومثل هذا وذاك في كتاب اللَّه كثير.

الرسالة الحادية عشرة: في أنَّ وِلَايةَ اللَّه ضَمَانُ الأمنِ والأمانِ والهدى والسلام؛ لِمَا سبق بيانه من قول اللَّه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ... ﴿٢٥٧﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]. وأن مراتب الولاية في الناس هي على قدر علمهم باللَّه. وأن العلم باللَّه يُدْرَكُ بمجاهدة النفس للتخلُّق بالقرآن الكريم، والتحقُّق بمقتضى ما فيه

من أسماء اللَّه وصفاته. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾. وعلى هذا المعنى يجري قول النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه: « **إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ: مَنْ عادى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَني أعْطَيتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ!** »[(١)].

الرسالة الثانية عشرة: في أن المنهاج الدعوي الإسلامي قائم على الإقناع السلمي، لا على العنف والإكراه. وأن حججه راجعة إلى بيان الرُّشد من الغي، والهُدى من الضلال، في أمور العقائد، والشرائع، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وغيرها من حقائق الإسلام. وقد تواتر ذلك عن رسول اللَّه ﷺ. فعندما غدر يهود خيبر بالمسلمين، وقرَّر النبي ﷺ غزوهم وإجلاءهم، أمر - رغم ذلك - بالتلطُّف بهم على المستوى الدعوي، وتقريب الدين إليهم بالبيان الهادي والإقناع الرفيق. فعن سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ ﷺ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: « **لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** » قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟** » فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ! قَالَ: « **فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ!** » فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ! فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: « **انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ.. حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ؛ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ! وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ! فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ!** »[(٢)] وَحُمْرُ النَّعَم: هي الإبل الحمراء الجميلة، وهي خير أموال العرب يومها. وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يجوز أن تكون الرغبة في الغنيمة مانعًا من الدعوة إلى اللَّه، وقبول الإسلام ممن هدى اللَّهُ قَلْبَهُ، ولو كان من قوم محارِبين! والحديثُ حَضٌّ من النبي ﷺ للمسلمين على وجوب الدعوة

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

بالرفق، والإقناع بالـحُجَّة والبيان، حتى ولو كان القوم ممن يستحقون القتال ابتداءً. وقد كانت وصيته ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل عند مبعثهما إلى اليمن: « يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا! » (١).

وقد بينا أن الجهاد القتالي إنما شُرِعَ لتحطيم مؤسسات الكفر، والطواغيت المنصوبة للعبادة من دون اللَّه، وكسر الحواجز الحائلة دون وصول كلمة الإسلام إلى الجماهير. أما جموع الناس فلا إكراه لهم على الدين، وإنما هو خطاب الحكمة والرفق واللين، وتقديم الوعظ الحسن والْخُلُقِ الأمين.

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسلك التخلُّق ههنا، فهو دائر على التحقُّق بما في آية الكرسي من مَقَامٍ عالٍ رفيع. وهو مقام « العلم باللَّه »! الذي إذا صار مَنْزِلًا ثابتًا للمؤمن كان - إن شاء اللَّه - من أهل اللَّه وخاصته، وكان من الصِّدِّيقِينَ المذكورين في الملأ الأعلى!

والوصولُ إلى هذا المقام رهينٌ بالنجاح في التدرُّج إليه تخلُّقًا وتحقُّقًا، عبر المنهاج التربوي المكنون في الآية العظيمة. وأما مَدَارِجُهُ فهي تنتصب بين يدي السالك في عشر خطوات، على وِزَانِ ما ذكرناه في بيانها العام من قواعد. وذلك بتحويل تلك القواعد نفسها إلى خطوات عملية، تستجيب لما قصدناه بمسلك التخلُّق من منهاج تطبيقي، كفيل بتيسير التحلِّي بأخلاق القرآن وحقائقه الإيمانية. وهي:

الخطوة الأولى: في التحقُّق بمنزلة الإخلاص والتوحيد. وهي خطوة تتحقَّق بمراقبة النفس على الدوام، وتصفيتها من شوائب الهوى، والخلوة إلى اللَّه بالعبادة والابتهال؛ حتى يصفو القلبُ للَّه، وللَّه وحده. ودون ذلك ما دونه من مُجَاهَدَةِ نَفْسٍ، ومُكَابَدَةِ سَيْرٍ؛ لا يزال العبد يتدرَّج بمنازله؛ حتى يفتح اللَّه له باب الرضا والقبول! وإنما مفتاحُه أَنْ لَا يُقْدِمَ على عملٍ حتى يخلو له مع اللَّه خلوة، يتحقَّق فيها من إخلاص القصد وتوحيد الوجهة للَّه! فكثير من الناس يجري ظاهره على وِزَانِ أعمال الخير والصلاح؛ من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وعمرة، ودعوة إلى اللَّه، ووعظ، وإرشاد، لكن قلبه لا يصفو - في كل ذلك أو بعضه - من أهواء العُجْبِ، وحب الصَّدَارَةِ،

---

(١) متفق عليه.

والشهرة، والتسميع، والتلميع! وهذا من أخطر مبطلات الأعمال! وهذه الخطوة لا بد فيها - على كلِّ حال - من عَزِيمَةٍ وقَرَارٍ! تمامًا كعزيمة التوبة النصوح! حتى يفتح في نفسه صفحة جديدة، يجعل فيها حياته كلها لله، دينًا ودعوةً. فيكون قد تحقَّق بمعنى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ۝ ﴾ حقًّا وصدقًا.

والخطوة الثانية: في التعرُّف على الله بتلقي اسمه الأعظم: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، ومشاهدة أسراره في العبادات والأدعية والأذكار. وهي خطوة تتحقَّق بمصاحبة هذا الاسم في السرِّ والعلن، ومشاهدة تجلِّياته في الكون، وتدبُّر آثاره في النفس والمجتمع. وإحسان التَّوكُّل على الله بالاستناد إلى ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وتعميق الثقة به تعالى، ومجاهدة النفس به على إخلاص الذِّكْرِ لله والدعاء، والالتجاء إليه وحده تعالى في العسر واليسر، من باب ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾؛ ودعائه به رَغَبًا ورَهَبًا. والاستغاثة به سبحانه عند الضيق بنداء: (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ!) ثلاث مرات على الأقل. ويجوز الدعاء بها في السجود. وحيثما كان العبد في السفر والحضر، رَاكِبًا أو مَاشِيًا أو قاعدًا أو راقدًا. ويَشْهَدُ اللَّه أنني ما دعوتُ بها مُخْلِصًا في ضَيْقٍ قَطُّ إلَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْفَرَجِ! وقد سبق حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ فيها، قَالَ: « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ! »[١].

الخطوة الثالثة: التعرُّف على الله من خلال صفة القَيُّومِيَّةِ الدائمة، التي لا تضطرب بِسِنَةٍ، ولا تنقطع بنوم! ومعنى ذلك تحصيلُ اليقين بأنَّ اللَّهَ ﷻ مُسْتَوٍ علَى عرشِه أبدًا، يُدَبِّرُ أَمْرَ مملكتِه سَرْمَدًا. وهو في ذلك يراك حيث أنت، يَعْلَمُ أمرَك كله، ويسمع نَجْوَاكَ! لا يخفى عليه شيءٌ من همِّك، أو حاجتك، أو مظلمتك! فهو تعالى القَيُّومُ القائم على شؤون العالمين رِزْقًا، ورعايةً، وقضاءً للحاجات، يسمع هذا وذاك، ويجيب كلَّ سائلٍ ومُستغِيث، من كل أمم المخلوقات في الأرض وفي السماء، ومن جميع أجناسها وأنواعها، لا يشغله شيء عن شيء سبحانه، ولا يملؤه دعاء عن دعاء، ولا يحجزه تدبير عن تدبير! بل يقضي كل شيء، ويسمع كل شيء، ويدبِّر كل شيء، ولا يحيطه مكان أو يفوته زمان! سبحانه ﷻ هو فوق الزمان وفوق المكان! فمن عرف الله بهذا في دعائه وعبادته؛ فتح عليه الله من كنوز بركاتِه، وأسرارِ العلمِ به؛ ما يجعله من الصِّدِّيقِينَ إن شاء الله!

---

(١) رواه الترمذي. وحسنه الألباني في صحيح سننه، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، وصحيح الكلم الطيب.

الخطوة الرابعة: التعرُّف عليه سبحانه من خلال عَظَمَةِ مُلْكِهِ وامتداد ملكوته. فهو اللَّه الذي ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢٥٥﴾ ﴾. فههنا يشاهد العبد عظمة خزائن الرحمن، وكثرة كنوزه، وغزارة أرزاقه، مما في أرضه وسماواته؛ بما لا يحصيه عَدٌّ ولا يحصره خيال! فَيُسْنِدُ كُلَّ شَيْءٍ للَّه، ويرى الخلقَ - كُلَّ الخلقِ - فقراءَ إلى اللَّه، لا حول لهم ولا قوة إلا باللَّه! وأن الأموال في يد الأغنياء والأثرياء مجرد عارية! ويرى حقيقة أن المال مال اللَّه والبشر مستخلفون فيه؛ فَسَالِكٌ وهالك! وهذا المعنى العظيم هو من كمال توحيد الربوبية، وعنه ينتج في القلب توحيد الألوهية الخالص، حيث يتمتع المؤمن بصفاء القلب للَّه. فطبيعة هذه الخطوة راجعة إلى أن التحقُّق بهذا الاعتقاد والتخلُّق به؛ يمنح القلب كمال الثقة باللَّه، وجمال الطمأنينة على ضمان الأرزاق والحاجات! والشعور العميق بسعادة الغِنَى العالي باللَّه! ومقامًا عظيمًا من المعرفة باللَّه.

الخطوة الخامسة: في مشاهدة عظمة كبريائه، وتفرُّده بأمره، لا يتدخَّل أحد في شأنه، ولا مكان عنده للشفعاء إلا بإذنه: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وهذا وجه آخر من وجوه عظمته ﷻ ، كاشفٌ لضعف الخلق كلهم تحت جلال سلطانه، وعظمة كبريائه وجبروته! فلا وَسَائِطَ وَلَا وَجَاهَات! ولا استثناءَ ولَا شفاعات؛ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذنه! وقد رأيتَ في حديث الشفاعة قَبْلُ كيف هَابَ آدمُ عليه السلام مَقَامَ رَبِّهِ، ولم يستطع الشفاعة للخلق عنده، وكان مما قال: (إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ! وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ!) لكن نُوحًا عليه السلام قال مثل قوله ثم قال: (اذهبوا إلى إبراهيم!) فقال إبراهيم مثل ذلك، وأرسلهم إلى موسى! فقال مثل قولهم، ثم أرسلهم إلى عيسى، لكنه قال مثل ما قالوا جميعًا، عليهم الصلاة والسلام، ثم أرسلهم إلى محمد ﷺ. فسجد النبيُّ ﷺ تحت العرش ولم يرفع رأسه حتى أُذِنَ له بالشفاعة! ولا يشفع إلا لمن أَذِنَ اللَّه فيه! فالأمر للَّه جميعًا، لا إله إلا هو! وهذه عقيدةٌ من تحقَّق بها عِلْمًا وعَمَلًا، كان مُوَحِّدًا للَّه على كمال التوحيد والإخلاص! وارتقى في طريق السير إلى اللَّه إلى مقام أعلى من العلم باللَّه والخشية له!

الخطوة السادسة: في التعرُّف عليه تعالى من خلال علمه الشامل، المحيط بكلِّ خلقه. وهذا وجه آخر من وجوه عظمته تعالى، وكنز آخر من كنوز آية الكرسي.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ فلا أحد يستطيع إخفاء شيء عن اللَّه، من خاطرة، أو نية باطنة، أو حيلة أو خيانة أو غدر...إلخ. فلَا خَطْرَةَ نفسٍ، ولا طَرْفَةَ عين، إلا وهو يعلمها ﷻ . فمن عاملك من الناس بنية خائنة لا تعلمها، وأنت معه من الصادقين؛ فاعلم أن وَكِيلَكَ اللَّه! الذي ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فهو تعالى كَاشِفُهُ لكَ اليومَ أو غدًا! وكان - إن لم يتب إلى اللَّه - من الخاسرين! وإن اللَّه تعالى بما وَثِقْتَ به، وتوكلتَ عليه بهذا الاعتقاد؛ لن يُسْلِمَكَ إلى عدوك أبدًا، وكان تعالى لك ناصرًا! وقد ثَبَتَ أنه: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. فالإيمان بشمولية علم اللَّه، والعمل بمقتضاه، كما هو مبين في آية الكرسي؛ مستجلب لتأييد اللَّه ونصره. وهو قبل ذلك وبعده، حامل للنفس على التخلُّق بمقام الخشية العظيم، الذي هو مقام العلماء باللَّه. والخطوة العملية من هذا تقتضي استحضار صفة العلم الإلهي في النفس أبدًا، وتذكيرها بأنه تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، حقيقة تعيشها النفس، ويتدبَّرها القلب، وتتغذَّى بها الروح؛ فترتقي بمعراج المعرفة باللَّه ما شاء اللَّه!

الخطوة السابعة: في تحقيق الإيمان بامتناع علمه واحتجاب سره. وهذا من أعظم الكنوز! وهو مكنون تحت أنوار قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ وهذا إضافةً إلى ما فيه من بيان سَعَةِ عِلْمِ اللَّه؛ فيه بيانٌ لاختصاصه به تعالى وامتناعه عن خَلْقِهِ. وهذا مفيد في تـحقُّق العبد بالتوحيد الكامل؛ حيث لا يُصَدِّقُ شيئًا من أمر الكهنة والعرافين، وسائرِ الدَّجَاجِلَةِ والمشعوذين، كما حرَّرناه في البيان العام. وفي هذا راحةٌ للقلب، وتزكية للنفس، وتقوية للشخصية، وترقية للإيمان، وعُمْرَانٌ للروح بنور اليقين. فهذه الخطوة عقيدةٌ عظيمةٌ تتحقَّق للعبد بإسناد العلم كله للَّه، والحذر من الوقوع في شِرْكِ الدجاجلة، ومُدَّعِي الولايةِ وكشفِ الغيوب، من جَهَلَةِ المتصوفة وزنادقتهم.

الخطوة الثامنة: في مُشَاهَدَةِ سَعَةِ سلطان اللَّه العظيم، وهَيْبَةِ مُلْكِهِ القديم، وإحاطته بالعالمين، وقهره تعالى للخلق أجمعين. وهذا أيضًا وَجْهٌ آخر من وجوه عظمة اللَّه. مكنونٌ تحت نور قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾. وهو

إضافة إلى ما فيه - مما سبق بيانه - من سَعَةِ علمه، وعظمة سلطانه، وقدرته على جميع خلقه، وقهره لعباده، وأنه لا أَحَدَ بمقدوره الفرار من قبضته؛ فيه أيضًا بيانُ أَنَّ كُلَّ مُلْكٍ في الأرض مما يُنْسَبُ إلى البشر مُلْكٌ زائفٌ، وسلطانٌ وهمي! وأن كل كرسي أو عرش سيتحطم في النهاية لا محالة! وأنما الـمُلْكُ - كُلُّ الـمُلْكِ - لله الواحد القهار! وأن الخَلْقَ - كُلَّ الخلقِ - خاضعون لحكمه، مقهورون بقدرته. فالملوك والأمراء، والقادة والرؤساء، كلهم جميعا عَبِيدٌ خاضعون قهرًا لجلاله! فلا تَظُنَّنَّ أحدًا - مهما عَظُمَ شأنه - بمنأى عن سلطان الله! بل الخلق كلهم في قبضته، والحوادث كلها تجري بِقُدْرَتِه، لا يقع شيءٌ إلا بإذنه، ولا تسقط مِنْ ورقةٍ إلا بعلمه، ولا تخطو نملةٌ في غَسَقِ الليل إلا تحت نظره! هو وحده الـمَلِكُ الـمُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجبار، لا إله إلا هو الواحد القهار! لم يزل مستويًا على عرشه، يدبِّر أمر مملكته، فهو الـمَلِكُ الذي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ ﴾. فمن تخلَّق بهذا الإيمان، وتحقَّق بخطوته، وشَهِدَ حقيقته بقلبه، وهو يسير إلى الله رَغَبًا ورَهَبًا؛ تنزَّلت عليه السكينة والأمان، وكان من المحروسين بالله.

الخطوة التاسعة: في مشاهدة عدم عجزه تعالى عن حفظ مُلْكِهِ، وصيانة ملكوته. وهو سِرٌّ عظيم، ونورٌ كريمٌ، مَكْنُونٌ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ ﴾. فمن تحقَّق بهذا المعنى إيمانًا به واستيقانًا؛ انكشف له من نور الثقة بالله؛ ما يجعله على أعلى منازل التوكُّل عليه والاعتماد! فالتوكل على الله لا يتخلَّق برسمه، على كمال حقِّه وتمام شرطه، إلا العلماءُ بالله، العارفون به جلَّ جلاله وعُلاه! الموقنون بقدرته تعالى على حفظ خلقه، ورعايةِ مُلْكِهِ وملكوته. وهذا قول يقال، ومعلومٌ من ظاهر المقال؛ لكنَّ شُهُودَهُ في النفس حقيقةً، والرُّقِيَّ بِمَدَارِجِ مِعْرَاجِهِ، في مسلك السير إلى الله؛ سِرٌّ لا يكشفه الله إلا لمن آمَنَ يقينًا بِمَكْنُونِهِ، وعَمِلَ علَى وِزَانِ مضمونِه! فثبتت قدماه على طريق الإيمان، لَا تَثْنِي عَزْمَهُ النوائبُ، ولا تزعزعه المصائب، ولا يُشَكِّكُهُ في قدرة اللهِ ونُصْرَتِهِ حِجَابٌ حَاجِبٌ!

الخطوة العاشرة: في العلم بصفة العلو في ذاته، وعظمة الشأن في سلطانه. وهو من مكنون قوله تعالى في ختام آية الكرسي: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝ ﴾. فتؤمن أن الله ﷻ قد تعالى عن خلقه، وتعاظم فوقهم بذاته. تَقْصُرُ عن وصفه الكلمات، وتعجز عن تعريفه العبارات! فهذه الجملة الخاتمة للآية، هي في الحقيقة فاتحةٌ لِمَا لا

ينتهي من الكمالات، ولِمَا لا يَنْحَدُّ من السياحات والتجلِّيات! فكلما تحققتَ بمقام إيماني من مقامات: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، وكلما تَلَقَّيْتَ عنها من علم رباني، وكلما ارتقيتَ بمنازلها، أو عَرَجْتَ بِمَعَارِجِهَا؛ شَاهَدْتَ المنازلَ فوقك أرفع وأبهى! ووجدتَ المقام الرباني أعظم وأعلى! وما أمكنك إلا أن تقول كما قال رسولُ الله ﷺ في مناجاة ربِّه: « **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ! أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ!** »[1] وهذا غَايَةُ العلم بالله، ومنتهى المعرفة به! وبذلك يزيدك الله من فضله، ويَكْلَؤُكَ بعينه، ويحفظك بأمره، ويحرسك بجنده، ويُقَدِّسُكَ بِسِرِّهِ! وتكون قد ارتقيت إلى مقام العلم به على وِزَانِ مَعَارِجِ آية الكرسي.

ذلكَ بَعْضُ بَرَكَاتِ هذه الآيةِ العظيمة، مَنْ سَلَكَ مِنْهَاجَهَا، واسْتَمْسَكَ بحقائقها ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ فَلْيَجْنِ بعدها من بُسْتَانِ وِلَايِةِ الله ثمارَ الْهُدَى والسَّلام! فمما جاء بعدها: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ فهذا منشور الولاية، وهو ثمرة آيَةِ الكرسي، لمن تَخَلَّقَ بحقائقها، وكَابَدَ خطواتها، ثَابِتَ القَلْبِ، عَالِيَ الهِمَّةِ، مَتِينَ العزيمةِ، لا يَفْتُرُ عن مجاهدةِ نَفْسِهِ في طريق الله! فيا أيها العبد المتلقي لجلالها وجمالها! هنيئًا لكَ العِلْمَ بالله! وهنيئًا لكَ وِلَايَةَ الله! وإنما الموفَّق من وفقه الله.

فاللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ. أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ - وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ - اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ! اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَبِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ! أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ!

* * *
* *
*

---

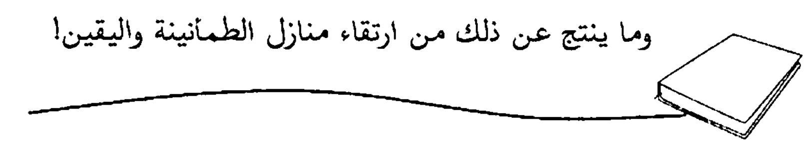
(١) رواه مسلم.

المجلس الرابع والثلاثون

في مقام التلقي لتوحيد الربوبية

من خلال مَشَاهِدَ من تدبير شؤون الملكوت، وعجائب من أسرار الإماتة والإحياء

وما ينتج عن ذلك من ارتقاء منازل الطمأنينة واليقين!



١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

٢ - البيان العام:

كان المجلس السابق حافلًا بمشاهدةِ منازلِ رُسُلِ اللَّه، متألقًا بأنوار التعريف باللَّه؛ بما تدارسناه فيه من مدارج آية الكرسي، وبما تلقَّيناه عنها من قواعد العلم باللَّه تعالى، ثم بما ورد بعدها من بيان الفرق بين أولياء الطاغوت، وأولياء اللَّه العلماء باللَّه. ومن ثَمَّ جاءت الآيات بعد ذلك بهذا المجلس؛ تعرض نماذج من أولئك وهؤلاء، وتبيِّن مدى آثار العلم باللَّه والجهل به على كُلِّ فريق من الفريقين. فساق اللَّه - تبارك وتعالى -

لذلكَ قَصَصًا قرآنيةً شَيِّقةً، تُتَرْجِمُ ما جاء في آية الكرسي، من جَلاَلِ الْمُلْكِ وعظمة السلطان، في حوارات قصصية ساخنة، ومُحَاجَّةٍ دعوية ملتهبة، بين أوليائه وأعدائه. ثم من خلال مشاهدات لعجائب مُلْكِهِ، وغرائب معجزاته، وعظمة قدرته، مما تجلَّى عن اسمه الأعظم: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾، من أسرار التدبير، والتسخير، والإماتة، والإحياء. وذلك كله في ثلاث قصص عجيبة، كل واحدة منهن مختزلة في كلمات!

أما القصة الأولى فهي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والْـمَلِكُ المقصود ههنا هو الطاغية نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ، حَاكِمُ مملكةِ بَابِلَ، في زمن نبي الله إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، كما أجمعت عليه الروايات. وقد قيل: إنه أَوَّلُ مَلِكٍ تَجَبَّرَ في الأرض بعد زمن نوح ﷺ، وقد عُمِّرَ طويلًا، واستمر سلطانه نحو أربعة قرون! وهو الذي بنى مدينةَ بَابِلَ بالعراق وصَرْحَهَا الكبير! [1] فغرَّته قوته وجبروته، وطول مُلكه؛ فَادَّعَى الألوهية لنفسه! ولذلكَ عَجَّبَ اللَّهُ ﷻ منه تعجيبًا؛ فقال لنبيه ﷺ، ولكل من قرأ هذا القرآن بعده:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ يعني: ألَا تعلم؛ ألَا تعجب من هذا المغرور؟ الذي جعل يجادل نبي الله إبراهيم ﷺ في ربِّه، منكرًا وجود الخالق ﷻ ! ألا ترى إلى هذا الطغيان والجهل العظيم؟ كيف يجرؤ هذا المغرور على ذلك؟ كيف؟ وإنما اللَّه ربُّ العالمين هو الذي أعطاه الملك وابتلاه به! فبدَل أن يشكر كان من الكافرين! وقد ذكر المفسِّرون قصصًا مختلفة في سبب نشوء هذا الجدال، لكن الأوفق لسياق القرآن منها، هو أن إبراهيم ﷺ لما دعا الناس في أرض بابل إلى اللَّه، فأبوا عليه؛ بادر إلى ما نصبوه من أصنام، فحطَّمها تحطيمًا! كما هو وارد في قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وقد اتخذ البابليون آلهةً كثيرة جِدًّا، وجعلوا لها تماثيلَ وأنصابًا، وجعلوا لها أسماء،

---

(١) ن. ذلك في تفسير الطبري للآية.

منها: « أَدَد »، و« أَشْنَان »، و« عَشْتَار » و« مَرْدُوك » أو « مَرْدُوخ »، وغيرها كثير، كما تذكره كتب التاريخ القديم. كما جعلوا لكلِّ صنم منها اختصاصًا ووظيفةً؛ فهذا إله الرياح والأمطار، وذاك إله الخصب والنماء، وآخر إله الأوبئة والحروب... إلى غير ذلك من ضروب الضلال العجيب. ومن هذه الآلهة الباطلة، أو بعضها، كان يستمد نمرود ألوهيته المزعومة!

فلما حطَّمها إبراهيم بفأسه تَمَالأَ القومُ ضده؛ فحكموا عليه بالتحريق بالنار، وبنوا له تنُّورًا ضخمًا في مشهد احتفالي كبير أعدُّوه لذلك! لكن الله تعالى أيَّد نبيه بمعجزة عظيمة؛ إذ أُلْقِيَ في النار فلم يتأذَّ منها بشيء، بل خرج منها سالمًا، وكأنما كان يسبح في بحيرة باردة! قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠] وههنا عَظُمَ أَمْرُهُ عند الناس؛ فخشي الملك على انفلات سلطانه؛ فاستدعى إبراهيمَ لمناظرته بنفسه! فكانت القصة المذكورة ههنا في سورة البقرة، حيث جعل نمرود يسأل إبراهيمَ عليه السلام: « مَنْ ربُّك؟ » تمامًا كما قال فرعونُ من بَعْدُ لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. وهذا الجواب لم يكن بعيدًا عن جواب إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ... ۝٢٥٨ ﴾.

وهذه هي أعظم حُجَّة أوتيها الأنبياء، حُجَّة الـخَلْقِ والإحياء والإماتة! وإنها لمن أعمق المفاهيم الضاربة في الغيب!.. الـخَلْقُ! هذا الفعل الرباني الغريب العجيب! فعلٌ لا طاقة للعقل البشري أن يدركه، ولا أن يكشف سرَّه أَبَدًا! بل لا قدرة له حتى على أن يتصوَّره بالذهن أو يستحضره بالخيال! وكيف يمكن للذهن أن يتصوَّر خَلْقًا من عدم؟ كيف وهَا العدمُ شيءٌ غَيْرُ قَابِلٍ للتصوُّر ولا للتخيُّل، بله الفهم والإدراك؟! ثم بعد الخلق يجعل البارئ منه - إذا يشاء - كائنًا حيًّا يتنفَّس أنسامَ الحياة! ثم إذا شاء نزعها منه بَعْدُ؛ فجعله ميتًا كأن لم يكن بالأمس قط! ولقد بينا في غير ما مجلس أن « الموت » و« الحياة » كليهما من أغرب المفاهيم الوجودية، ومن أعجب الحقائق الإيمانية! حتى إن معرفتهما حَدًّا وجوهرًا لهو من المستحيلات العقلية! وإنما الذي للإنسان أن يدركه منهما - رغم أنه يتقلَّب بين أطوارهما حَيًّا ومَيِّتًا - إنما هو

أعراضهما وآثارهما، لا حقائقهما وجوهرهما! لأن الموت والحياة كليهما فِعْلٌ من أفعال اللَّه الحي الذي لا يموت! ولا أحد يحيط بفعل اللَّه عِلْمًا. جَلَّ جلاله وعَزَّ ثناؤه. ومِنْ ثَمَّ لم يدرك نمرودُ الطاغيةُ الجهولُ مقصدَ إبراهيم عليه السلام من حُجَّته، وإنما أدرك منها جانبها المادي الحسي؛ فقال البليد: ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ... ﴾ روى المفسِّرون: أن الأحمق أتى برجلين استحقا الإعدام في حكمه؛ فأطلق سراح أحدهما وقتل الآخر؛ ثم قال: « ها أنا ذا قد أَحْيَيْتُ هذَا وأَمَتُّ ذاك! » (١).

وهنا أدرك إبراهيم أن عقل الطاغية أصغر وأحقر من أن يستوعب حُجَّة الموت والحياة! ولو كان أدرك عمقها لَبُهِتَ من حينه! ولكن جهله وكبرياءه جعلاه يستمر في الحِجَاج! فانتقل به إبراهيم إلى استدلال مادي صِرْف، على قدر عقله وفهمه! مُلْفِتًا نَظَرَهُ إلى فعل اللَّه في جِرْمِ الشمس، وتحوُّل منازلها ما بين شروق وغروب، وما يكون من دوران الأرض حولها واختلاف الليل والنهار: ﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ وههنا أدرك نمرود حُجَّة إبراهيم البالغة؛ فَبُهِتَ وانقطع عن الحجاج والمناظرة! والبَهْتُ: الخَرَسُ المفاجئ الذي يصيب الإنسان؛ بسبب وقوع أمر غريب لا قِبَلَ له به! ولذلك سُمِّيَ اغتياب الإنسان بما ليس فيه بَهْتًا وبُهْتَانًا؛ لِمَا فيه من غرابة الكذب والزور! وإنما أصل البَهْتِ في اللغة المفاجأة والإغراب، سواء كان ذلك بالحقِّ أو بالباطل (٢).

ومن هنا فقد بَهَتَ إبراهيمُ الطاغيةَ نمرودَ؛ ببيان حُجَّة اللَّه العظيمة في تدبير أمر الملك والملكوت، وبما أعجزه من التحدي بطلب قلب الشروق غروبًا والغروب شروقًا! ولذلك توقف الرجل عن المناظرة وانقطع! وأصابه الخذلان والخرس والإحباط! قال تعالى: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هو في هذا السياق بمعنى: لا يرشدهم إلى دليل، أو حجة لنصرة الباطل. وإنما يُربكهم ويختم على قلوبهم وعقولهم؛ فلا يجدون سبيلًا لمتابعة الجدال، ولا حيلة للفرار من حُجَّة اللَّه القائمة عليهم. وبذلك أخزى اللَّه الطاغيةَ نمرود.

وقد ذكر المفسِّرون أن اللَّه ﷻ سلَّط عليه، وعلى ملئه، جيشًا من البعوض،

---

(١) رواه الطبري عن قتادة عند تفسيره للآية.

(٢) ن. تفسير الطبري للآية، وكذا مادة « بهت » في الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور.

فدخلت إحداهن في منخره، ولم تزل تزعجه سنين عددًا؛ حتى جعل يطلب من بعض حاشيته أن يضربوه بالنعال على قفاه! فلم يزل كذلك حتى هلك! (١) وتلك سُنَّةُ اللّه في كل من ادّعى الألوهية من الطغاة، أو نصَّب نفسه معبودًا للناس من دون اللّه الواحد القهار؛ فإن اللّه يجعل نهايته على أذلّ ما تكون الخواتيم!

وهذا الاستدلال من إبراهيم عليه السلام هو انتقال من الأعلى إلى الأدنى، على عكس ما ذهب إليه بعض المفسِّرين؛ لأنه انتقال من الدليل المعنوي العميق، إلى الدليل المادي الظاهر؛ مراعاةً للمستوى العقلي السطحي الذي يملكه نمرود. صحيحٌ أن حركة الأفلاك واختلاف الليل والنهار من أعجب آثار الربوبية في الخلق؛ لكن مفهوم الإماتة والإحياء أشد عمقًا وغرابةً! لأن العقل يدرك بعض قوانين الدليل الفلكي، وشيء من أسراره؛ بما يشاهده ببصره المجرد أولًا، ثم بما يستنبطه من حقائق كونية بالنظر الرياضي والاستدلال العلمي؛ وبذلك يقع العقل في الانبهار، ويدرك وجهًا من وجوه الإعجاز.

أما الحياة والموت فهما مفهومان مغلقان إلى يوم القيامة! وهما في قمَّة التحدِّي والإعجاز؛ ولكن لِمَنْ له قدرة على تدبُّر غرابتهما! ومِن ثَمَّ فهما محجوبان عن الملاحدة والماديين الذين لا يرون الحياة إلا حركة ميكانيكية من بيولوجيا الطبيعة. أما الذين يدركون أن وراء مظاهر الحياة سِرًّا عميقا جِدًّا، سِرًّا لا طاقة للعقل البشري بإدراكه، هو المفهوم الجوهري للحياة التي وهبها اللّه للأحياء؛ بما نفخ فيهم من روح، وبما جعل فيهم من أنسام؛ أما هؤلاء فهم الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأما **القصة الثانية** فهي قصة نبي اللّه عُزَيْرٍ، وهي تَجَلٍّ آخَرُ من تجلِّيات الاسم الأعظم: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ... ﴾، وبيانٌ لبعض مظاهر الربوبية الواردة في آية الكرسي، ولبعض آثارها في الخلق إماتةً وإحياءً. كما أنها بيان لبعض ما عجز عن إدراكه نمرود في حُجَّة إبراهيم الأولى: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾. ذلك أن عُزَيْرًا عليه السلام – وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل – مَرَّ على مدينة القدس راكبًا حمارَه، بعدما خرَّبها الطاغيةُ بَخْتَنْصَرُ، الذي مَلَكَ بَابِلَ بعد زمان نمرود، فجعلها خرابًا تعوي به الرياح! ثم وقف عُزَيْرٌ على أطلالها الخاوية متأسفًا، فعبَّر بما يدل على يأسه من عودة الحياة إليها، ويأسه من قدرة بني إسرائيل على إعمارها من جديد..! فلما كان

---

(١) ن. تفسير الطبري للآية.

ذلك منه جعله اللّٰه هو نفسه، وحماره، وطعامه؛ نموذجًا لقدرة اللّٰه العجيبة، ومعجزته الغريبة؛ على الإماتة والإحياء والبعث والنشور! فقال سبحانه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

ومعنى «العُرُوشِ» - في هذا السياق - جمع عَرْشٍ، وهو البناء المرتفع. ومنه سُمِّيَ كرسي الملك عَرْشًا؛ لارتفاعه وعلوه. ومعنى كون عروش المدينة خاوية، أي: أن مساكنها كانت خَرِبَةً، خالية، مُتهدِّمة، قد صارت أطلالًا بالية؛ ولذلك لما وقف عليها نبي اللّٰه عُزَيْرٌ متدبِّرًا ومتفكِّرًا؛ استبعد أن تعود إليها الحياة من جديد بعد خرابها، أو أن تتمتع مرة أخرى بعمرانها ونشاطها. ولم يكن يدري أنه سبق في علم اللّٰه أنها ستُبعث بعد موتها، وأن الحياة العمرانية ستنهض فيها بالحيوية والنشاط!

ومِن ثَمَّ فقد جعله اللّٰه آيةً في نفسه لنفسه، وفي حماره؛ بِأَنْ أماتهما قرنًا من الزمان، ثم أحياهما! فكان ذلك دليلًا من اللّٰه على إمكان البعث، وقدرته تعالى عليه، وكان معجزةً لِعُزَيْرٍ عليه السلام، ولمن شهده من بني إسرائيل، ثم لمن تلقوا خَبَرَهَا قرآنًا منقولًا بالتواتر القطعي إلى يوم الدين. وقد عمَّر اللّٰهُ مدينةَ القدسِ أثناء موت عُزَيْرٍ، ورَدَّ إليها بني إسرائيل على فترات؛ حتى إذا مضى على موت عزير نحو سبعين سنة [1] كان عمران المدينة قد اكتمل، وأصبحت مساكنها، ونواديها، وأسواقها؛ عامرةً تضج بالحياة! ثم بعث اللّٰه عُزَيْرًا - بعد ذلك - على رأس مائة عام من موته! وكان قد تمدَّد نائمًا في ضُحى اليوم الذي مرَّ فيه على بيت المقدس، قريبًا من أطلالها الخاوية، فقبضه اللّٰه في نومه ذاك مائة عام، ولكنه لم يشعر بمضيّ كل هذا الزمان! فلما أحياه اللّٰه أرسل إليه مَلَكًا، فخاطبه قائلًا: «كَمْ لَبِثْتَ يَا عُزَيْرُ في رَقْدَتِكَ هَذِهِ؟» وكانت الشمس قد آبت إلى الأصيل، في طريقها نحو الغروب؛ فظن عُزَيْرٌ أنها شمس اليوم نفسه الذي نام فيه! ولذلك ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فأخبره المَلَكُ بالمفاجأة

(١) تفسير ابن كثير للآية.

الكبرى: ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ كذا..؟ اللَّه أكبر! ولكن كيف؟ وما الدليل؟ عجبًا! وهل يحتاج خبر اللَّه إلى دليل؟ صحيحٌ أن أنبياء اللَّه أول المؤمنين باللَّه، ولكنَّ فطرة الإنسان تجد نفسها أسيرةً لمثل هذه الأسئلة؛ طلبًا لليقين بأن ما وقع فعلًا قد وقع! ولذلك قال له اللَّه تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ فنظر العُزَيْرُ إلى أمرين مختلفين متناقضين، في أغرب ما يكون التناقض والاختلاف! هذا طعامُه في قفته ما يزال طريًّا نديًّا، تمامًا كما تركه قبل مائة عام! وقد كان معه - فيما ذكرت الروايات - عِنَبٌ وتِينٌ وعَصِيرٌ (١)، وهذا أولى بأن يسرع إلى الفساد من حمار قد يُعمِّر سنوات! ولكن الغريب أن الطعام لم يَتَسَنَّهْ، أي: لم يَنْتُنْ ولم يَفْسُدْ. بينما حمارُه قد هلك منذ زمان بعيد، فها هو ذا هيكله العظمي متناثر أمامه، وها هي ذي فقراته وأضلاعه قد تَفَتَّتَتْ في التراب! فجعل ينظر إلى بقايا تلك العظام تتجمع أمام عينيه، فيرتبط بعضها ببعض، كل مفصل يعود إلى موضعه، وكل فقرة ترجع إلى محلها، وكل عظم يتركَّب مع ما يناسبه من الفقرات، أو المفاصل، أو الأضلاع! ويرى ما تفتت منها وصار رميمًا ينمو بسرعة، ويشتد ويَقْوَى، فما هي إلا لحظة حتى كانت عظام الحمار قد استوت، وتركبت جميعها في مواضعها! ثم جعل ينظر إليها وهي تُنْبِتُ اللحم، كما تُنبت الأرضُ البقلَ والزرع! فرأى العروق تمتد بين الخلايا والأعصاب، وتمتلئ بالدماء، فتغذِّي جسم الحمار كله، فإذا بالجلد يكسو اللحم وإذا بالشعر ينبت فوقه في لحظات! حتى إذا استوى الحمار خَلْقًا كاملًا؛ نهض وجعل ينهق بين يدي صاحبه، تمامًا كما كان حين ربطه ههنا قبل قرن من الزمان! فرأى عُزَيْرٌ النُّشُورَ بعينيه، وشاهد حركتَه في نفسه وحماره! ولذلك قال له الربُّ ﷻ : ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ وعبارة ﴿ نُنشِزُهَا ﴾ قرأها وَرْشٌ عن نافع « نُنْشِرُهَا » بالراء، بينما قرأها حفص عن عاصم: « نُنْشِزُهَا »، بالزاي. ومعناهما واحد. فالنشور والنشوز كلاهما بمعنى. وهو: الرفع والإنهاض والبعث والإحياء. فلما تبين له أن اللَّه قد جعل منه ومن حماره معجزة للناس؛ ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

---

(١) ن. الآية في تفسيري الطبري وابن كثير.

بمعنى أنني على يقين بقدرة اللّه تعالى على الخلق والنشور، وعلى كل فعل تعلَّقتْ به إرادته ﷻ ! وكيف لا يقولها؟ وهو نبي اللّه المكلَّم بوحي اللّه! ثم كيف لا؟ وها قد رأى ذلك بنفسه في نفسه وحماره عيانا! والعِيَانُ أعلى درجات اليقين!

وتروي بعضُ كتبِ التفسير أن عُزَيْرًا عليه السلام لما قام من موته ذاك؛ قصد بني إسرائيل، وقد أرسله اللّه لهم نبيًّا مجدِّدًا، فوجدهم قد عمَّروا مدينة القدس بعد خرابها، فلم يعرف أحدًا منهم ولا هم عرفوه. ولما طرق بيته لم يجد فيه إلا خادمة لهم تركها على سن العشرين فوجدها قد جاوزت المائة والعشرين! وقد هَرِمَتْ وعَمِيَتْ، فدعا اللّه لها فأبصرت. فلما رأته أيقنت أنه عزير! ثم دلَّته على مساكن أبنائه وحفدته، فوجد أحفاده قد شاخوا! ووجد من بقي من أبنائه يكابد ضعف الهرم! لكن العجيب أنه هو بقي كما كان يوم خرج، على سنِّ الخمسين، أو الأربعين! على اختلاف في الروايات. فلما استيقنت منه بنو إسرائيل بعد شك وتردد؛ التفُّوا حوله، وذكروا له أنه لم يبقَ أحدٌ ممن يحفظ التوراة على قيد الحياة! أما صُحُفُهَا فقد أتلفها الطاغية بختنصر وحرَّقها تحريقًا، عند هجومه عليهم قبل أكثر من مائة سنة! وقد ضلُّوا بعد فقدانها ضلالًا بعيدًا! فجلس عُزَيْرٌ إليهم، وجعل يُمْلِي عليهم التوراة مرة أخرى وهم يكتبون. وبها جدَّد دينَ بني إسرائيل ما شاء اللّه من الزمان! (١) فذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ... ﴿٢٥٩﴾ ﴾.

وأما **القصة الثالثة** فهي مشهد آخر من تجلِّيات اسم اللّه ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ﷻ . وهي إكرام اللّه جلَّ ثناؤه لنبيه إبراهيم الخليل عليه السلام بمعجزة أخرى من معجزات الإحياء بعد الموت! قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

كان إبراهيم عليه السلام - كسائر الأنبياء - على علم اليقين بأن اللّه يحيي الموتى. وتلك كانت حُجَّة إبراهيم على نمرود من قبل، كما رأينا. لكنه الآن يدعو ربَّه بأن يكرمه بمعاينة ذلك؛ حتى يرتقي إيمانه من علم اليقين إلى عين اليقين. والسياق ينفي توهُّم الشك عن إبراهيم عليه السلام (٢)؛ ولذلك لما قال له اللّه، وهو أعلم به: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ

(١) نسبه البغوي في تفسيره إلى السدي والكلبي. وأسنده السيوطي إليهما في الدر المنثور.

(٢) نَفَى النَّبِيُّ ﷺ الشَّكَّ عن إبراهيم عليه السلام في هذه الآية؛ مما يدل على صحة ما ذكرناه من أن سؤاله =

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... ۝﴾ فالطمأنينة المرجوة ههنا هي يقين الْمُعَايَنَةِ والمشاهَدة. ومِن ثَمَّ استجاب الله دعاءه؛ فأمره أن يأخذ أربعة طيور مختلفة الأنواع، فأخذ دِيكًا، وحمامًا، وطاووسًا، وغرابًا [١]. وأمره أن يَصُورَهُنَّ أي: يقطِّعهن أجزاءً بعد ذبحهن - مِنْ: صَارَ يَصُورُ أي قطع - ثم ينثر أطرافهن بعد خلطها على قمم الجبال. فلما فعل جعل يناديهن بأنواعهن كأن يقول: يا ديك! ويا حمام! ويا طاووس! ويا غراب! فما أن أتمها حتى رأى أجزاء الطير من بعيد تتطاير، وترتفع من على رؤوس الجبال، يتبعها ريشها المتناثر هنا وهناك، فيلتئم كل جزء مع ما يناسبه من نوعه، ويعود كل ريش إلى محله؛ حتى استوت الطيور كما كانت، ديكًا، وحمامًا، وطاووسًا، وغرابًا!

والحقيقة أن ما رآه إبراهيم عليه السلام من كيفية إحياء الموتى، إنما هو عَرَضٌ من أعراض ذلك الكيف، ومعاينة لوجه من وجوه ذلك الإمكان، ومشاهدة لحقيقة من حقائق تلك القدرة. أما جوهر الإحياء فهو عِلْمٌ محجوب عن البشر مطلقًا؛ لأنه من صلب علم الروح، وهو من خصوص العلم الإلهي الممتنع؛ ولذلك قال له ربُّه في الختام: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالعِزَّةُ قُوَّةٌ ومَنَعَةٌ. أي أنه تعالى قَوِيٌّ على فعل ما يشاء، خَلْقًا وإحياءً وإماتةً، أو بعثًا ونشورًا. حكيمٌ في كلِّ ما فعل، سواء أَحْيَا أو أَمَاتَ. لا شيء من قَدَرِهِ وتدبيره يقع عبثًا، وذاك هو عين الحكمة.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو ههنا - على قلة رسالاته - بليغ جدًّا؛ لما يتضمَّنه من بيان معالم السير في طريق تجديد الدين، على مستوى الفرد والجماعة، وما به تكون نهضة الأمة ونصرتها. ونلخِّصه في الرسالات السبع التالية:

= راجع إلى طلب الإيمان المبني على عين اليقين. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ؛ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» (متفق عليه) قال الشُّرَّاحُ: ومقصود النبي ﷺ ههنا المبالغة في نفي الشكِّ عن إبراهيم عليه السلام. كَأَنَّهُ ﷺ قال: من ظن أن إبراهيم قد شكَّ في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فقد ظنها بي أنا أيضًا! وقد علمتم أنه لا شك عندي؛ فإبراهيم أولى. وهذا من التعبير العربي الوارد بالإثبات في مقصد النفي. قال ابن حجر في شرحه: (قِيلَ: مَعْنَاهُ إِذَا لَمْ نَشُكَّ نَحْنُ فَإِبْرَاهِيمُ أَوْلَى أَنْ لا يَشُكَّ!) (فتح الباري: ٤١١/٦) وقد رواه النووي عن المزني صاحب الشافعي، وجزم به (شرح النووي لصحيح مسلم ١٨٣/٢).

(١) رواه الطبري عن غير واحد من السلف.

الرسالة الأولى: في أن مشاهدة آثار الأسماء الحسنى، وتجلِّياتها في الخلق؛ من أقرب الطرق الموصلة إلى اللَّه. وخاصَّة ما تعلَّق منها بالخلق والإحياء والإماتة، وتدبير حركة الأفلاك والزمان واختلاف الليل والنهار. وسائر الأسماء والصفات. وقد رأيتَ كيف اتَّخذها إبراهيمُ عليه السلام حُجَّةً على خصمه، وكيف جعلها اللَّه - جلَّ ثناؤه - قبل ذلك أساسًا للتعريف بذاته تعالى، ومسلكًا إيمانيًا للوصول إليه. وقد ذكرنا ما يتعلَّق بتدبرها - في المجلس السابق - من حيث هي من أصول التوحيد. ونذكر الآن تبعًا لذلك ما يتعلَّق بتدبُّرها من حيث هي مُعَرِّفَةٌ باللَّه ﷻ، مورثة لحقائق الإيمان، من الخوف، والرجاء، والخشية، والخشوع، والشوق، والمحبة... ونحوها من منازل الإيمان القلبية. وخلاصتها أن المؤمن إذا انكشفت له آثار الأسماء الحسنى في الخلق، وما يتعلَّق بها من شؤون الربوبية وتدبير أمر الملكوت؛ انكشفت له أنوارها، فتلقى عن اللَّه من خلالها علمًا به تعالى، يزداد تدفُّقه بزيادة مشاهدة أنوار الأسماء والصفات؛ حتى يصير أعرف بربِّه وأقرب إليه! فذلك هو العالم باللَّه، أو العارف باللَّه، الأحق بخشيته ومحبته.

فإذا شاهدت حبة القمح من حين تزرع في التراب، ثم تسقى بالماء، إلى أن تنبت، ثم تشتَّد نبتتها وتخضَّر، ثم تُخرج سنبلتَها، إلى أن تنضج وتصفر، ثم تتكسَّر فتصير حُطامًا! فلو تتبعت ذلك بعين التدبُّر والتفكُّر؛ لرأيت فيها من تجلِّيات أسماء اللَّه الحسنى وصفاته الشيء الكثير! ولرأيت جلال اسمه تعالى: « الخالق » في مكنون تلك الحبة وأسرارها الوراثية، وفي كلِّ مراحل الإنبات والإسبال! ولرأيت اسمه تعالى: « الحي » بما وهب تلك الحبة من خصائص الحياة؛ وأخرجها من ذرة جامدة يابسة إلى بقلة يانعة خضراء تنمو وتخرج السنبل الكريم، ولرأيت اسمه تعالى « المصوِّر » في جمال السنبلة الخاشعة، وفي خضرة أوراقها اليانعة، ولرأيت تجلِّي اسمه « الرزاق » في كُلِّ من كُتِبَ له حصادُها، وطَعْمُ قمحها، من إنسٍ أو طير. ولرأيت اسمه تعالى: « الرحمن » في وصول حبات من حصيدها إلى حَوَاصِلِ فراخ صغار يَقْبَعْن في أعشاشهن! ووصولِ كِسَرٍ من رغيفها أو خبزها إلى فقير مُعْدِمٍ، أو صبية جائعين. ولرأيت اسمه تعالى: « الكريم » بما جاد على هؤلاء جميعًا من فضله. ولرأيت اسمه تعالى « الوارث »، وصفته تعالى « المميت » في حصيدها

وحطامها وهشيمها! واسمه تعالى « الحكيم » فيما فعل في كل ذلك، من إنبات، وإطعام، ورزق، ورعاية، وابتلاء..إلخ.

ولك من ذلك وغيره تجلّيات أخرى لما لا ينحصر من الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم تزل أنوارها تشرق على الوجود؛ فترى آثارها في خلق الأشجار، والثمار، والورود، والزهور..إلخ. وقبل ذلك في خلق الإنسان، والحيوان، والطير، والبعوض، والحيتان، وخلق الأنهار والبحار، والجبال، والأرضين، والسموات، والأفلاك، والكواكب والنجوم. ثم فيما يتعلّق بذلك كله من نظام رباني محكم عظيم، وتدبير رحماني عزيز حكيم!

فمن أَدْمَنَ هذه المشاهدات للأسماء الحسنى والصفات العُلَى، مع مطالعة سياقاتها في القرآن الكريم؛ أكرمه الله من معرفته به تعالى والعلم به؛ ما لا يصله كثير من العُبَّادِ غير المتدبرين المتفكرين!

الرسالة الثانية: في أن طول النعمة ودوامَها مُطْغٍ لصاحبها، إلا من عصمه الله. سواء كانت مُلْكًا وسلطانًا، أو غِنًى، أو صِحَّةً وعَافِيَةً، أو نحو هذا وذاك. ومِن ثَمَّ وجب على المؤمن الذي أكرمه الله بشيء من ذلك؛ أن يتَّخذ لنفسه أورادًا من الذكر والشكر، وعادات من الأعمال الصالحة، كنوافل الصلوات، والزكوات، وضروب الصدقات؛ حتى لا تتدحرج به تلك النعمة في مزالق الاستدراج؛ فتكون سبب هلاكه والعياذ بالله! عن أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ ﷺ قال: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فَقَالَ ﷺ: « يَا أَبَا ذَرّ..! » قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: « مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا! تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ؛ إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ! إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ: هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا! » [مُشِيرًا بِكِلْتَا يَدَيْهِ] عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ. ثُمَّ مَشَى فَقَالَ: « إِنَّ الأَكْثَرِينَ [مَالًا] هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! إِلَّا مَنْ قَالَ: هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ. وَقَلِيلٌ مَا هُمْ! »)[1] ويقصد بقوله: « إِلَّا مَنْ قَالَ: هَكَذَا وهَكَذَا وهَكَذَا »، أي: من أنفق على من حواليه من كلِّ جهاته.

---

(١) متفق عليه.

الرسالة الثالثة: في أنه ما من جَبَّارٍ يبلغ به الطغيان إلى مستوى ادعاء الألوهية إلا أذله اللَّه! سواء كان ادعاؤه لها صراحةً، كنمرود وفرعون، أو كان ضِمْنًا؛ بأن يدَّعي لنفسه بعض صفات الربوبية وخصائصها، أو يرضى بتذلُّل الناس بين يديه بما يشبه العبادة، كما هو حال كثير من الزعماء في زماننا هذا. وقد رأيت في البيان العام كيف أخزى اللَّه الطاغية نمرود، وكيف كانت نهايته الذليلة المهينة. وقد أخزى بعده فرعون؛ فملأ فمه من طين البحر! وجعل خاتمته غرقًا؛ ليكون عبرة للمتجبِّرين. فسنة اللَّه جرت بأن ينتقم الربُّ ﷻ من الطغاة؛ بإذاقتهم إِذْلالًا ونَكَالًا دنيويًا، وآخَرَ أخرويًّا، وهو أشد وأبقى! قال تعالى عن فرعون: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣- ٢٦] وهذا كما هو جَارٍ في الأفراد؛ جَارٍ أيضًا في الأمم العظمى والدول الكبرى، كما استكبرتْ وتَـجَبَّرَتْ!

الرسالة الرابعة: في أن الظالم مكشوف مفضوح لا محالة! سواء كان ظلمه في العقيدة أو في المعاملات. وأن اللَّهَ يُبْطِلُ حُجَّتَهُ وبَيِّنَتَهُ. وأنه مهْمَا خدع الناس فسيأتي الوقت الذي يفضحه اللَّه فيه، ويقْلِبُ عليه الأدلة والبراهين، وينتقم منه بعزَّته وسلطانه؛ بما يجريه على أيدي الناس من سلطان، أو بما يختص به تعالى من عقابٍ في الدنيا والآخرة. وأن من أولى خطوات الإصلاح، ومن أهم شروط النهضة الإسلامية؛ محاربة الظلم وإقامة العدل! فالظلم يعتبر من الأبواب الأولى التي تنفتح بالشرِّ على الناس، كما أن العدل من أعظم الأبواب التي تنفتح بالخير على الناس. ففي الحديث: عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ قَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ! ») [(١)].

الرسالة الخامسة: في أنه لا يجوز للمؤمن أن يستبعد شيئًا عن قدرة اللَّه. وألا يفقد

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والبيهقي في الشعب، وأبو يعلى. وقال الترمذي: « هذا حديث صحيح ». وصححه الألباني في صحيح سننهم، وفي صحيح الجامع الصغير، وصحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة.

أمله في عودة الحياة إلى هذه الأمة. فمن سلامة إيمان المسلم، وصحَّة اعتقاده؛ أن يوقن بأن المستقبل لهذا الدين، وأن النصر للإسلام والمسلمين، وأن هذه الأمة - رغم تمزُّقها وعمق جراحها - لن تبرح حتى تعود إلى موقع الصدارة، والشهادة على الناس، والقيادة لأمم العالم أجمع. فمن شكَّ في ذلك فقد شكَّ في قدرة اللَّه ووعده! ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١]. وقد أحيا اللَّه أممًا شتى، ودولًا شتى، بعد هلاكها وخرابها، فأعادها إلى موقع العِزَّة والريادة، كما رأيت في قصة عُزَيْرٍ عليه السلام. وكما وقع للقدس مرة أخرى - في تاريخ الإسلام - من تخريب على أيدي الصليبيين، فلبثت على ذلك قرونًا حرَّرها صلاح الدين الأيوبي، فأهلك اللَّه على يديه جيوش النَّصارى المتدفِّقة على العالم الإسلامي من كلِّ الأقطار! وغير ذلك في تاريخ الإسلام من الوقائع والحوادث كثير.

فقد ضمن اللَّه لهذه الأمة ألا يكون هلاكها على يد أعدائها أبدًا، ففي صحيح مسلم: عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا! وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا! وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ! وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ** [أي: مَجَاعَة عَامَّة، وجَفَاف قَاتِل]، **وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ! وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ! وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ؛ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا!** [يعني: أَقْطَارَ الأَرْضِ كُلِّهَا]؛ **حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا!** »[1].

ففي هذا الحديث دليل على أن سلطان الإسلام سيمتد إلى كُلِّ العالم، وأن الكفار مهْمَا اتَّحدوا ضد المسلمين؛ فلن يفلحوا - إن شاء اللَّه - أَبَدًا! وهذه حقيقة تواترت بها الأخبار والأحاديث من فم رسول اللَّه ﷺ. فاللَّه أكبر، وللَّه الحمد!

الرسالة السادسة: في أن نهضة الأمة، وتجديد دينها، وانبعاث عمرانها، وتفوُّقها على غيرها في كلِّ المجالات، الروحية، والمادية، والاقتصادية، والعسكرية؛ يمكن أن يتحقَّق لها في أقلِّ من قرن من الزمان! وقد تحقَّق لها في زمن النبوة في نحو ربع قرن،

---

(١) رواه مسلم.

وتحقَّق لبني إسرائيل في عهد عُزَيْرٍ في نحو سبعين سنة، كما رأينا في البيان العام. من بعدما خَرَّبَ بَخْتَنَصَرُ البَابِلِيُّ دولتَهم تخريبًا، حتى إن العُزَيْرَ لما وقف على أطلالها: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴾ فعمَّرها الله تعالى في أقلَّ من سبعين سنة! فلما انبعث عُزَيْرٌ بعد مائة عام؛ وجدها تضج بالحيوية والنشاط، غنية بأنواع الزراعات والصناعات! ومِن ثَمَّ فإنه لَمِنَ الاضطراب الإيماني، والشك العقدي، والشرك الخفي؛ أن يستبعد المسلم تفوُّق الأمة على الغرب المتصنع! كما يجري على ألسنة كثير من المنهزمين اليوم، الذين يرون ذلك من المستحيلات! أو أنه لا يمكن حصوله إلا بعد بضعة قرون من الزمان! كَلَّا! كَلَّا! إنما هو رهينٌ برحيل جيل خائن مَهِينٍ، ونشوء جيل قوي أمين! والتعويل في ذلك - بعد الله - على تكثيف التربية الإيمانية والجهادية، وبناء أصول الدعوة الإسلامية على أساس الإخلاص، وتوجيه الجيل إلى طلب العلم، بكافة أصنافه الشرعية والمادية.

الرسالة السابعة: في أن تربية الجيل على تجديد الإيمان، وطلبِ عُمْرَانِ القلب بالطمأنينة واليقين، والتَّحَقُّقِ من الثقة بالله خُلُقًا ثابتًا؛ هو أول شرطٍ للنجاح في طريق النهضة، واستعادة الأمة لمجدها. وقد تحقَّق ذلك المقام الإيماني لإبراهيم ﷺ بما طلبه من مشاهدة المعجزة. لكن إذا كان الله ﷻ قد جعل وسائل ذلك - في الأمم السابقة - معجزات أجراها على يد أنبيائه، كما في هذه الأمثلة من قصة إبراهيمَ وعُزَيْرٍ، وغيرهما مما ورد في مواطن أخرى من القرآن الكريم؛ فإن الله - جلَّ ثناؤه - قد جعله لهذه الأمة في معجزة محمد ﷺ الكبرى، ألا وهي هذا القرآن العظيم! فالقرآن معجزة ربانية خالدة، ليست رهينةً بزمان ولا مكان، بل هي رهن إشارة الأمة في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان! فمتى صَدَقَ الجيلُ في تلقِّي حقائق القرآن الإيمانية، وفي الاستجابة لِسُنَنِهِ الربانية؛ مَكَّنَ الله له في الأرض ونصره على عدوه، وتحقَّق فيه وعد الله المنشود. فهذا القرآن هو عصا موسى التي تقلب الجمادَ حَيَاةً، وتفجر الحَجَرَ ماءً. وإنما المطلوب قلوبٌ مؤمنةٌ ترتقي بمعارج هذا القرآن؛ إلى أعلى درجات اليقين!

٤ - مسلك التخلق:

وهو ههنا في بيان كيفية التخلُّق بطمأنينة القلب، وتحقيق اليقين والثقة الكاملة بالله. ومسلك ذلك هو الدخول في مدارسة هذا القرآن، وإقامةِ مَجَالِسِهِ العامرة؛

لِتَلَقِّي حقائقِه الإيمانية؛ مما كشف اللَّه فيه من أسرار هذا الوجود، وما جعل فيه من جمال العلم باللَّه، والمعرفة بأسمائه تعالى وصفاته، وما عرض فيه من حِكَمِ التشريع ومكارم الأخلاق، وما أخبر به من مصير الحياة الدنيا وفنائها، وما عرضه من حقائق اليوم الآخر ومشاهده. وكذا ما أودعه اللَّه ﷻ في قصصه من سنن التاريخ والاجتماع البشري، وما بثَّه في آياته من عجائب الخلق والتكوين. فتغذية الروح بهذه الحقائق وأمثالها، على نظام ثابت مستقر؛ رهين - إن شاء اللَّه - بالرقي بالقلب إلى أعلى مراتب اليقين والثقة باللَّه، وإكسابه طمأنينة الإيمان، التي تؤهِّل العبد ليكون من أهل اللَّه وجنده، ويكون نموذجًا حقيقيًّا من جيل النصر المرتقَب بإذن اللَّه.

ولا يتحقَّق ذلك للمؤمن إلا بمكابدة القرآن ومعاناة كلماته! كما بيناه مرارًا، في هذا الكتاب وغيره. أما أساس مكابدة القرآن فمدارسةٌ خالصةٌ لآياته أطرافَ النهار، على ما بيناه من شروط [1] وقيام خاشعٌ بسوره في جوف الليل! فمن جمع بين هذين رأى من نفسه عجبًا! وتَلَقَّى عن اللَّه أسرارًا وأنوارًا! ولو أن الأمة أطبقت على هذا المنهاج النبوي الأصيل؛ لأنعم اللَّه عليها بالرضا والقبول، ولأخرجها من ظلمات الذلِّ والهوان، إلى نور الهدى والعزة والكرامة، في زمن قياسي قريب، جِدُّ قريب!

* * *

(١) يُنظر ذلك في كتاب « الفطرية »، وفي القسم الأول من كتاب مجالس القرآن (الجزء الأول) الذي هو عبارة عن « مدخل إلى مجالس القرآن » قدمناه بين يدي هذه المدارسات.

المجلس الخامس والثلاثون

في مَقَامِ التَّلَقِّي لِبَرَكَاتِ الإنفاقِ الخَالِصِ في سَبِيلِ اللَّهِ

وبَوَارِ مَا كانَ دَافِعُهُ الْمَنَّ والرِّيَاءَ!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

وماذا يمكن لمن تحقَّق قلبُه باليقين والثقة بالله؛ إلا أن يكون مجاهِدًا في سبيل الله بنفسه وماله؟ لقد كانت المجالس السابقة دروسًا في تلقِّي كمالات اليقين، وجلال العلم بالله. حتى إذا تمَّ للعبد من ذلك ما تمَّ؛ جاءه التوجيه الرباني يدعوه إلى الدخول في عمل أهل اليقين، ألا وهو الإنفاق في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وهو معنى

الجهاد المالي! وسورة البقرة كلها - كما ترى - سورة مبنية على قصد بناء الأمة المسلمة، وتأسيس أركانها على أصول الإيمان الكبرى، وأمهات العبادات، والدعوة إلى اللَّه، والجهاد في سبيله. وعلى ما يتطلَّبه ذلك من تشكيل الجماعة المؤمنة، وتشريع أحكامها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية. وههنا رَبْطٌ بذلك السياق الكلي العام، واستثمار لذلك اليقين الْمُتَحَصَّلِ من مشاهدة آيات اللَّه في الخلق والتكوين، ومن تجلِّيات أسمائه الحسنى على كلِّ شيء.

فأهل اليقين الخُلَّصُ هم المخاطَبون ههنا بآيات الإنفاق في سبيل اللَّه، والجهاد بالمال؛ لإعلاء كلمة اللَّه! حاشا المنافقين والانتهازيين الْمُرَائِينَ، من أصحاب المصالح الشخصية، والمطامع الاقتصادية، والأغراض السياسية، الذين قد يتصدَّرون لائحة المنفقين، وإنما هم يخططون للوصول إلى منافذ الغرم المضاعف من خزائن المسلمين! أو يشترون بذلك مواقع ومناصب تعود عليهم بأرباح مادية خبيثة!

أما الإنفاق في سبيل اللَّه المقصود في هذا السياق فهو شيء آخر تمامًا. لقد وردت آياته على وجه جديد لم يرد من قبل. إن الإنفاق ههنا معنى رفيع، وخلق كريم، وجهاد عظيم! إنه إيداع للأرصدة المباركة في الجنة مباشرةً! وتَعَرُّضٌ لنفحات اللَّه، وتَلَقٍّ لبركاته! ومُشَاهَدَةٌ قلبيةٌ لكنوز الروح العظيمة، وهي تنفتح أبوابها الثمانية؛ لاستقبال ودائع الصدِّيقين، واستثمارات الصالحين!

هذا ما بناه القرآن على مقام اليقين، المتحصِّلِ من مشاهدة قضية الموت والحياة، في قصص إبراهيمَ وعُزَيْرٍ، وفيما تجلَّى - خلالها وقبلها - من أنوار الاسم الأعظم، وكثير من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى. فالإنفاق الخالص للَّه، وللَّه وحده؛ هو برهان النجاح في التحقُّق بمقام الإيمان العالي. وأصحابُه هم الْمَوْعُودُونَ بالرضا الرباني، والقَبُولِ الرحماني، والأجر الأخروي الْمُضَاعَفِ إلى سبعمائة ضعف! ولقد بَيَّنَ الرحمنُ ذلك في مَثَلٍ قرآني عجيب، تنبض آيَتُهُ بالجمال والجلال! قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

إن مَثَلَ الْـمُنْفِقِ مَالَهُ في سبيل اللَّه، مخلصًا للَّه؛ لتجهيز الجهاد أو الدعوة الخالصة إلى اللَّه؛ لهو كالفلَّاح المؤمن باللَّه، المتوكل على اللَّه، يُلْقِي حبة القمح في الأرض، فتغيب عنه تحت التراب أيامًا، حتى إذا أكرمه اللَّه بالغيث، أو بماء العيون والأنهار، فسقَى وأَرْوَى؛ اهتزت التربةُ ببركاتها، فأخرجت نباتًا خَضِرًا، حتى إذا نَمَا واشتد أخرج سنبلًا مباركًا بهيجًا. في كلِّ نبتة سَبْعُ سنابل، وفي كلِّ سنبلة مائةُ حبة! فذلك أجر المؤمن المنفق مَالَهُ في سبيل اللَّه، الحسنةُ الواحدة بسبعمائة ضعف! ذلك مقام المجاهد في سبيل اللَّه، المتوكل بيقينه على اللَّه. ولو استجاب الفَلَّاحُ لوسوسة الشيطان لَـمَا أَقْدَمَ على المغامرة بإلقاء الزرع تحت غيب التراب؛ فأي ضامن له بنزول المطر؟ وأي ضامن له بخروج الزرع من تحت غيابات التراب؟ ومن يحمي حَبَّهُ من حشرات الأرض أو مناقر الطير؟ تلك وساوس الشيطان، وموانع التوكل على اللَّه، وخوارم الإيمان باللَّه؛ ولذلك يكنز الجهلة باللَّه أموالَهم، ويبخلون بالنفقة في سبيل اللَّه! أو يجعلونها في بنوك الربا الخبيث! فينزع اللَّه بركاتها، وتكون عليهم سُحقًا وسُحتًا في الدنيا، وعذابا أليمًا في الآخرة والعياذ باللَّه! وإنَّ غياباتِ التراب وبقاءَ الْـحَبِّ تحتها أيامًا قبل الإنبات؛ لهي كَحُجُبِ الحياة الدنيا وأيامها القليلة، الفاصلة ما بين النفقة في سبيل اللَّه؛ وبين أجرها العظيم في الجنة تمامًا! فدرهمٌ في سبيل اللَّه كحبة تحت التراب؛ ما هي إلا أيام حتى تراها كما تحب؛ سُنْبُلَةً بهيجةً تفيض بالخير والبركات!

تلك أضعافٌ مضاعفة من الخيرات والحسنات، يضاعفها اللَّه لمن يشاء من عباده المؤمنين المتوكلين، ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أي: واسعٌ فَضْلُهُ، كثيرةٌ خَزَائِنُهُ، لو أعطى منها لكلِّ إنسان ما طلبه لما نقصت شيئًا! كنقرة الطير في البحر لا تُعتبر شيئًا! وهو تعالى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالمنفقين المخلصين، وبالمرائين المتربصين؛ ولذلك قال بَعْدُ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾. فهؤلاء هم أهل الأجور المضاعفة، الذين يتقربون بنفقتهم إلى اللَّه، لا يراعون فيها سوى وَجْهِ اللَّه، ماضين بها في سبيل اللَّه، تمتلئ قلوبُهم فَرَقًا وخوفًا من اللَّه. عالمين بأن اللَّه مُطَّلِعٌ على أخفى سرائرهم، وأدق خواطرهم! فإذا أنفقوا نفقة في سبيل اللَّه تضرَّعوا بالدعاء الخالص إلى اللَّه؛ أن يطهِّرها من المنِّ والرياء، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم. ويحتاطون أشد الاحتياط

من أن يصدر منهم مَنٌّ بصدقاتهم على اللَّه، أو على أحد من عباد اللَّه! أو أن يُتْبِعُوهَا أَذًى لخلقه المستفيدين منها، أو لأحدٍ من العاملين عليها، القائمين على صرفها في مصارفها الشرعية. والْمَنُّ: هو التعبير عن الفخر بالصدقات، والاستعلاء بها والكبرياء، واحتساب الفضل على الفقراء، أو على المجاهدين بها في سبيل اللَّه! وهذا في حدٍّ ذاته ضرر معنوي كبير، وإيذاء نفسي شديد للفقراء وللمؤمنين؟ فما بالك إذا لحقه أذى أشد وأخطر؟ كالعمل على غرم النفقات بالسطو على أموال الأمة، أو باستخدام الفقراء في جلب مصالحه الشخصية، وامتهانهم بما مَنَّ عليهم مِنْ نفقاتٍ وصدقاتٍ! أما هذا فليس له من نفقته إلا الخسار والبوار!

وأما المؤمنون المخلصون الذين لم يُتْبِعُوا نفقاتِهم شيئًا من هذه الخوارم الخبيثة؛ فَأَجْرُهُمْ محفوظٌ عند ربِّهم مضاعَفٌ مبارَك، ولا خوف عليهم من فزع يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من زهرة الحياة الدنيا الفانية، ولا على ما خَلَّفُوا من ذرية، فاللَّهُ يرزقهم ويكفلهم. أما المتاجِرون بصدقاتهم، المَنَّانُونَ، المُرَاؤُونَ، الكَذَّابُونَ؛ فلا أَمْنَ لهم ولا أمان! ولذلك قال بعدُ: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾، أي: كلمةٌ طيبةٌ، وعَفْوٌ عن إساءةِ مخطئٍ، وغفرانها له؛ خير من أن يتصدق الرجل بصدقة مغشوشة، يُتْبِعُهَا أذى وإضرارًا بالمؤمنين! ذلك أن اللَّه تعالى غَنِيٌّ عن المتصدِّقين، قدير على كفاية الفقراء والمساكين، وعلى نصرة جُنْدِه المجاهدين، بغير أموال المنافقين والمخلصين، ولا أموال الناس أجمعين! وإنما شَرَعَ الصدقاتِ والإنفاقَ في سبيل اللَّه ابتلاءً للعباد. وهو تعالى ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بعباده المخطئين، لا يسارع إلى معاقبتهم، بل يمهِلُهم، ويمدُّ لهم في فرص التوبة إليه؛ فيغفر للمذنب ويصفح عن المسيء.

ومِن ثَمَّ التفت الخطابُ إلى المؤمنين، مُحَذِّرًا إيَّاهم من إِتْبَاعِ صدقاتهم بالمنِّ والأذى؛ لِمَا في ذلك من إحباط الأجر، وخسران الجزاء عند اللَّه، وألا يكونوا كالمنافق الذي لا يؤمن باللَّه واليوم الآخر، ولا هو يرجو أجرًا أو ثوابًا، وإنما ينفق ما أنفق رِيَاءً للناس، وتسميعًا لفضله المزعوم! ولذلك فإن اللَّه يحبط عمله! وقد ضرب له مثلًا بليغًا، إذ شَبَّهَ عَمَلَهُ بِقِشْرَةٍ رقيقةٍ من تراب، فوق صخرةٍ صلبةٍ ملساء، من رأى ظاهرَها ظنها تُرْبَةً خِصْبَةً، صالحةً للزراعة والإنبات، لكن بمجرد ما يسقط عليها مطر شديدٌ يجرف قشرة التراب، ويُعَرِّي الصخرة، ويكشفها تمامًا، ثم يتركها

صَمَّاءَ بَكْمَاءَ لَا تُمْسِكُ ماءً، ولَا تُنبت زرعًا، ولَا عُشْبًا، ولَا كَلأً! فذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ والصَّفْوَانُ: هو الحَجَرُ الأَمْلَسُ؛ ولذلك فإنه إذا تَعَرَّضَ لِوَابِلٍ - وهو المطر الشديد - انجرف ما عليه من تراب بسرعة، وانزلق مِنْ عَلَى سطحه الأملس بسهولة؛ فبقي الحَجَرُ صَلْدًا، أي: صَلْبًا بَيِّنَ الْـمُلُوسَةِ. فكذلك الْـمُرَاؤُونَ بصدقاتهم، لا يَقْدِرُونَ على إمساك شيء من حسناتهم، إذ يجرفها الرياء والْمَنُّ والأذى إلى سفوح الخسران، وقيعان النيران! ولذلك قال في ختام الآية: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أنه تعالى لا يُبَصِّرُهُمْ بالحقِّ في نفقاتهم، ولا بما ينفعهم فيها؛ بسبب ما أبطنوا من الغشِّ لأنفسهم، من ضروب الرياء والنفاق!

ثم ضرب بعد ذلك مثلًا كريمًا للمؤمنين المنفقين أموالَهم ابتغاءَ رضوان اللَّه، مخلصين لوجهه الكريم، لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادًا، وإنما غايتهم الفوز برضا الرحمن، والتثبيت لقلوبهم على طريق الإيمان والجهاد في سبيل اللَّه، وتصفية أنفسهم من البخل والشح، وتزكيتها بخالص الإحسان. فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. فقد جعل اللَّهُ - جَلَّ ثناؤه - مَثَلَ ما هم عليه من الإنفاق كَمَثَلِ جَنَّةٍ، أي: حَدِيقَةٍ بهيجةٍ عَامِرَةٍ، أو بُسْتَانٍ مَلِيءٍ بالأشجار، من شتى أنواع الثمار، انتصبَ على رُبْوَةٍ من الأرض، وهي: التَلُّ العَالي. و« الرُّبْوَةُ » تُقْرَأُ بضم الراء وفتحها سواء. فهي إذا أصابها وَابِلٌ من المطر؛ أنتجت من الثمار ضِعْفَ ما يُنتج غَيْرُهَا من الْـجَنَّاتِ والبساتين. وإن لم يصبها مَطَرٌ كفاها ما ينفحها من الطَّلِّ، وهو النَّدَى أو الرَّذَاذُ الخفيف، الذي لا تخلو منه - في العادة - قِمَمُ الروابي والتلال؛ فأثمرت الحديقةُ بإذن ربِّها من الغلال ما تَقَرُّ به عَيْنُ صاحبها من الأُكْلِ - بتسكين الكاف وضمِّها سواء - وهو الثمر. وفي ذلك إشارة إلى أن أجور الإنفاق في سبيل اللَّه تتفاوت مقاديرها؛ على وِزَانِ مراتب الإخلاص فيها؛ ولذلك قال تعالى بَعْدُ: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾، أي: خبيرٌ بما عليه كل مؤمن من درجات الإقبال على الله، ومراتب الإخلاص له، عليمٌ بحقيقة ما يقوم به من الطاعات في الأموال وغيرها، لا يخفى عليه شيء من المقاصد والنيات المكنونة وراء الأعمال، من إخلاص لله وابتغاء رضاه، أو رياء وتسميع للناس لتحقيق جاه؛ فيجازي كُلَّ عبدٍ على قَدْرِ عَمَلِهِ، لا ينقصه شيئًا، بل الحسنةُ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ! وقد يزيده تعالى من فضله!

ثم استأنف التحذيرَ للمؤمنين من مغبة الاستجابة لهوى التسميع والرياء في الإنفاق، وما يؤول إليه صاحبه من الخسران المبين! ضاربًا لذلك مثلًا بليغًا حَقَّ بليغ! لا يملك قارئه إلا أن يمتلئ قلبُه خوفًا ورَهَبًا! ويَقْشَعِرَّ جِلْدُهُ من خشية الله! قال ﷻ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ بمعنى: هل يرغب أحدكم أيها المؤمنون أن يكون مَثَلُهُ في الآخرة كَمَثَلِ رَجُلٍ أصابه الكِبَرُ؛ فَشَاخَ وهَرِمَ، وكُلُّ مَالِهِ بستانٌ جميل، تجري من تحته الأنهار، كثير العيون والسواقي، مليءٌ بأشجار النخيل والأعناب - وهي خير أشجار العرب وأحبُّها إليهم - وله فيها أشجارٌ أخرى من كلِّ الثمرات. فكانت هذه الجنة هي أساس عيشه، ومصدر رزقه، وقوت عياله. حتى إذا أينعت ثمارها، وحان قِطَافُهَا؛ أصابها إعصارٌ شديد، وضربتها الصواعقُ النارية؛ فاحترقت! فإذا أشجارها وثمارها فحمٌ ورمادٌ! فخسر الرجل التعيس كُلَّ شيء! وهو على شيخوخته؛ له أطفال صغار ضعفاء، لا يقدرون على شيء من الكدح والعمل، ولا على إصلاح ما هلك من الأشجار. فليس أَحَدٌ أَفْقَرَ منه يومئذ ولا أَحْوَجَ! وإنه لَمَشْهَدٌ مأساوي رهيب! يعتصر القلبُ إزاءَه بالحسرة والألم! فذلك مَثَلُ المنافق المرائي بعمله وصدقاته، يراها الإنسان كبستان ذلك الشيخ، جنةً من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار! حتى إذا جاء رَبَّهُ يوم القيامة وجد أعمالَه وصدقاتِه قد احترقت! وصارت رمادًا تذروه الرياح؛ بما أحرقها من لهيب الرياء، وما أحبطها من حُبِّ الشهرة والتسميع! ووجد نفسه أضعف ما يكون، وأفقر ما يكون! وأحوج إلى أعمال صالحة وبضع حسنات! تمامًا كحاجة ذلك الشيخ الضعيف إلى بضع ثمراتٍ يُقِمْنَ أَوَدَه وذريته الصغار! فَيَأْسَى ويتحسَّر! ويندم على ما أَسْلَفَ في

الحياة الدنيا، من مفاسد النيات، وعدم الإخلاص في إتيان الصالحات! يندم ويتحسَّر نعم؛ ولكن بعد فوات الأوان! ولذلك قال تعالى في ختام الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: بمثل هذه الأمثلة الحكيمة يبين الله لكم - أيها المؤمنون - علامات الطريق، ومعالم السير المستقيم على الهدى، ويكشف لكم عن مزالق الشيطان، وعلامات الخطر والضلال؛ عساكم تتفكرون فيها، وتعتبرون بأمثالها، وتنزلونها على مقاصدها وحِكَمِهَا، ثم تتدبرون مصير الحياة الدنيا، ومآلات الناس فيها، وما ينتظركم من حسابٍ ومساءلة بعد الموت؛ فتبادروا إلى التوبة إلى اللَّه، وإلى تَلافِي الأعمال بالتصحيح والإخلاص؛ حتى لا تقعوا في أَسَفٍ لا يَدْفَع، ونَدَمٍ لا ينفع، كندم المنافق يومئذ، مما ضرب اللَّه لمصيره التعيس من مثَل مأساوي رهيب! نجانا اللَّه وإياكم من الخسران المبين، وجعلنا من أهل الفوز والنجاة يوم الدين! وأكرمنا بفضله وإحسانه أجمعين. آمين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في **الرسالات السبع** التالية:

الرسالة الأولى: في أن الإنفاق الخالص في سبيل اللَّه من أعظم مظاهر العبودية للَّه. وأنه برهان الصِّدِّيقِيَّةِ الكاملة، وعلامةُ العِلْمِ الحق باللَّه، وكمال المعرفة به تعالى. فحديثنا ههنا ليس عن أي إنفاق، وإنما هو عن الإنفاق المبني على الإخلاص الكامل للَّه، حيث يكون العبد قد باع نفسه للَّه، وشاهد حقيقةً أَنَّ مَالَهُ - كُلَّ مَالِهِ - للَّه. وأنما هو مجرد موظف مستأمَن، أو عَبْدٍ قائم على حراسة مال مولاه، فلا حق له بالتصرُّف في شيء من مال اللَّه إلا بإذن اللَّه! فإذا استجاب لربِّه تعالى بالإنفاق منه في سبيل اللَّه؛ لم يَرَ لنفسه في ذلك مَنًّا ولا فَضْلًا؛ لأنه إنما يقوم برد المال إلى مولاه! سواء كان ذلك سِرًّا أو عَلَنًا. لا يتغيَّر إخلاصُه بين هذا وذاك. فذلك هو الإنفاق الجهادي الخالص للَّه، وهو الذي به يبلغ العبد الدرجات العُلَى مما ذكره اللَّه.

الرسالة الثانية: في أن أجر الإنفاق الخالص في سبيل اللَّه، جهادًا في اللَّه واحتسابًا؛ مُضَاعَفٌ لصاحبه يوم القيامة بسبعمائة ضِعْفٍ! تمامًا كما بَيَّنه القرآن الكريم في مَثَلِ حبة القمح وسنابلها السبع. وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النبي ﷺ قال: « كُلُّ

عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ: الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مائَة ضِعْفٍ! » .. الحديث [١] وقد فصَّل النبيُّ ﷺ إجمالَ هذا الحديث، وبيَّن أن الإنفاق في سبيل الله من أهم ما يدخل تحت ميزان السبعمائة ضِعْفٍ في الأجر والحسنات. فعن أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَبِسَبْعِ مائَةٍ! وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ عَلَى أَهْلِهِ، أَوْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ مَازَ أَذًى عَنْ طَرِيقٍ؛ فَهِيَ حَسَنَةٌ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا. وَمَنِ ابْتَلاهُ اللَّهُ بِبَلاءٍ فِي جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ!** » [٢] أي: مغفرة. وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ!** ») [٣] ومعنى مَخْطُومَة: عليها خِطَامٌ، وهو الزِّمَامُ أو اللِّجَامُ.

الرسالة الثالثة: في أن المنفق المخلص في سبيل الله محفوظٌ بحفظ الله، آمِنٌ بإذن الله، مُثَبَّتٌ بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وأن علاج البخل والشُّحِّ هو الإنفاق نفسه! وذلك بتدريب العبد على الإنفاق في سبيل الله ولو قليلًا! حتى إذا وجد حلاوتَه الإيمانية ارتفع عنه ما يجد من شُحٍّ، وبَرِئَ من مرض البخل بإذن الله! ذلك أن نفقة المؤمن في سبيل الله يزيده الله بها إيمانًا وتثبيتًا. ويكون ذلك بعضَ أجره في الدنيا قبل الآخرة، حيث يرتقي إيمانه إلى مقام اليقين. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ ينفقون في الجهاد - في بعض الأحيان - كلَّ ما يملكون، فَيُخْلِفُ اللَّه عليهم ما أنفقوا مُضَاعَفًا، ثم ينفقون فيخلف لهم، ثم ينفقون فيخلف... وهكذا. فهم لما اكتشفوا تَجَاوُبَ الرحمن معهم؛ لم يزالوا ينفقون وينفقون، لا يفتُرون؛ بما يجدون من لذةٍ عجيبةٍ في معاملة ربِّهم والتجاوب معه! وهذا من التحقُّق بمقام اليقين، والإيمان الشهودي الكريم! ومِنْ ثَمَّ لا يتردد أحدهم أن ينفق أعز ماله وأطيبه! وقد سبق في مجلس سابق بيان أن الإنفاق الجهادي لا تحده ضوابط الإسراف والتبذير. ولو أنفق العبدُ كلَّ مالِهِ في الجهاد في سبيل الله، والدعوة الخالصة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، وأبو يعلى في مسنده. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: « إسناده حسن ».

(٣) رواه مسلم.

إلى اللَّه! فلا يُسَمَّى ذلك إسرافا؛ لأنه مضمون الـخَلَفِ في الدنيا قبل الآخرة [١].

ومن الأحاديث البليغة في هذا، ما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا ... ﴾ الآية (البقرة: ٢٧١). عن عامر الشعبي قال: (أُنْزِلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، أَمَّا عُمَرُ فَجَاءَ بِنِصْفِ مَالِهِ، حَتَّى دَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ « **مَا خَلَّفْتَ وَرَاءَكَ لأَهْلِكَ يَا عُمَرُ؟** » قَالَ: خَلَّفْتُ لَهُمْ نِصْفَ مَالِي. وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَجَاءَ بِمَالِهِ كُلِّهِ، يَكَادُ أَنْ يُخْفِيَهُ مِنْ نَفْسِهِ، حَتَّى دَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: « **مَا خَلَّفْتَ وَرَاءَكَ لأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟** » قَالَ: عِدَةَ اللَّهِ وَعِدَةَ رَسُولِهِ. فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا اسْتَبَقْنَا إِلَى بَابِ خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا كُنْتَ سَابِقَنَا إِلَيْهِ!) [٢].

---

(١) ن. الرسالة السابعة من المجلس الواحد والثلاثين.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم للآية، وأخرجه ابن مردويه، وابن عساكر، والأصبهاني في الترغيب. قلت: وهو حديث مرسل صحيح. والراجح رفعه. وسنده قال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، ثَنَا الْـحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ الْـمُحَارِبِيُّ مُؤَذِّنُ مُحَارِبٍ، أَنْبَأَ مُوسَى بْنُ عُمَيْرٍ، عَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: فذكره. قلت: وهذا سَنَدٌ جَيِّدٌ، متصل إلى الشعبي، وهو من كبار التابعين، روى عن جَمٍّ غفير من الصحابة. لكنه لم يصرح ههنا بالصحابي، فأرسل الحديث. فإما أن يكون قد سمعه عن أحدهم، وإما أن يكون سمعه من تابعي مثله. والراجح أنه سمعه من أحد الصحابة؛ لغلبة الصِّحَّة على مراسيله كما سيأتي بيانه. وإليك دراسة سند الحديث:

- ابن أبي حاتم: الإمام الثقة الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي الرازي. توفي سنة (٣٢٧هـ). روى عن أبيه وعن الإمام مسلم صاحب الصحيح، وغيرهما. وروى عنه عدد من أهل الحديث منهم ابن حبان البستي. ألف كتاب الجرح والتعديل، وتفسير القرآن، وغيرهما. مجمع على ثقته. نقل الذهبي عن أبي يعلى الخليلي قال: « كان ابن أبي حاتم زاهدًا يُعَدُّ من الأبدال ». سير أعلام النبلاء: (٢٦٤/١٣). ن، ترجمته في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، والوافي بالوفيات للصفدي. والتهذيب لابن حجر، كل ذلك فيمن اسمه « عبد الرحمن بن محمد ». وقد كتب الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، محقق كتاب الجرح والتعديل ترجمة وافية له بمقدمته.

- أبو حاتم: هو الإمام الحافظ النقادة محمد بن إدريس الحنظلي، مجمع على جلالته. من طبقة البخاري ومسلم. روى عنه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابنه عبد الرحمن، وغيرهم. توفي سنة (٢٧٧هـ). ن، ترجمته في: التهذيب (٢٨/٩).

- أما الْـحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ الْمُحَارِبِيُّ: فهو أبو بكر الحسن بن زياد الكوفي، مؤذن مسجد بني محارب. روى عن موسى بن عمير، وبزيع اللحام، وهذيم صاحب جعفر بن محمد. قال ابن أبي حاتم: (سمع منه أبي، سألت أبي عنه فقال: « هو شيخ »). (الجرح والتعديل ١٥/٣) وقد ذكره ابن حبان في الثقات، ثم قال: =

الرسالة الرابعة: في أنَّ السيئاتِ يُذْهِبْنَ الحسناتِ كما أنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات! وذلك حين تُبْنَى الأعمالُ الصالحة على ما يحبطها من الأهواء! كالرياء، والْـمَنِّ، والعُجْبِ، وحُبِّ الشهرة، وما شابهها من الأمراض. فذلك كله وما في معناه من أخطر مُحْبِطَاتِ الأعمال الصالحة! كما صرَّح به القرآن فيما تدارسناه. وفي الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغفاري ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُم اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ!** » قَالَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا! مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **الْـمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْـمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ!** »[1] وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

= « مستقيم الحديث ». (ثقات ابن حبان ١٧٣/٨).

- أما مُوسَى بْنُ عُمَيْرٍ: فهو العنبري التميمي الكوفي روى عن الشعبي وغيره. وثَّقه الذهبي في (من له رواية في الكتب الستة: (٢/ ٣٠٧) . كما وثَّقه أبو حاتم في الجرح والتعديل (١٥٥/٨) وقال ابن حجر في لسان الميزان: (وثَّقه ابن معين، وأبو حاتم، والخطيب). وقال عنه في التقريب: (ثقة من كبار السابعة: (٢٢٧/٢) .

- أما عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ: فهو عامر بن شراحيل الشعبي. قال ابن حجر: (ثقة مشهور، فقيه فاضل، من الثالثة) (تقريب التهذيب (٤٦١/١) . روى عن جمٍّ غفير من الصحابة يفوق الثمانين، كما قال العجلي في « ثقاته ». منهم العبادلة الأربعة، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وأبو موسى الأشعري، وأبو هريرة، والنعمان بن بشير، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعائشة، وأم سلمة، وميمونة بنت الحارث، وغيرهم كثير. وأرسل عن عمر بن الخطاب، وطلحة، وابن مسعود. ن. تهذيب التهذيب (٥٨/٥). قال الحافظ العجلي في معرفة الثقات: (مُرْسَلُ الشعبي صحيح لا يكاد يُرْسِلُ إلا صحيحًا) معرفة الثقات (١٢/٢).

والذي يرجِّح رفع هذا الحديث ثبوت قصته بسند آخر، عن عمر بن الخطاب ﷺ، عند أبي داود، والترمذي، والحاكم، وغيرهم. فَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ؟ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا! قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ » قُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ؟ فَقَالَ ﷺ : «يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ » قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ! قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا!) أخرجه أبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في الكبرى، والدارمي، وعبد بن حميد. وقَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وصححه الحاكم على شرط مسلم. بينما حسنه الألباني في صحيح سنني الترمذي وأبي داود، وفي مشكاة المصابيح.

(١) رواه مسلم.

قَالَ: « لَا يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ! » (١) فالْـمَنَّانُ: هو الذي يتشدَّق بما أعطى أمام الناس، ويفخر به عليهم! و يُسَمِّعُ بِهِ تسميعًا؛ رغبةً منه في ذكر الناس له، والشهرة به! وهذا من أخطر محبطات الأعمال والعياذ باللَّه! وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! » (٢)، وفي حديث آخر: « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ! وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ! » (٣) بمعنى أن اللَّهَ يفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة! كما هو مُفصَّل في حديث أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ [اللَّهُ] نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: « فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ » قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ! قَالَ: « كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ! » ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِـي النَّارِ!.. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: « فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ » قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ! قَالَ: « كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ! فَقَدْ قِيلَ! » ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِـي النَّارِ!.. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْـمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: « فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ » قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ! قَالَ: « كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ! » ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ! » (٤).

صحيح أن الأمر في الحسنات والسيئات أن تُعْرَضَ على الميزان يوم القيامة، فمن ثقلت موازين حسناته دخل الجنة، وإلا فلا! ولكن الأعمال المدخولة بالرياء لا تعتبر شيئا أصلًا! ولا يكون لها وزن يوم القيامة!

الرسالة الخامسة: في أن مجال الدعوة والجهاد والإنفاق في سبيل اللَّه، من أكثر العبادات حساسيةً للعُجْبِ والرياء! إذ لا تُقْبَلُ فيه الأعمال إلا بإخلاص كامل للَّه! فكما قال النبيُّ ﷺ في الجهاد: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِـي سَبِيلِ اللَّهِ! » (٥)

---

(١) رواه أحمد والنسائي واللفظ له، وعبد الرزاق في مصنفه، والدارمي، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، وصحيح الجامع الصغير.
(٢) رواه البخاري. (٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم. (٥) متفق عليه.

فكذلك يقال في كلٍّ لوازمه كالإنفاق في سبيل اللَّه، وفي كل مقاصده كالدعوة إلى اللَّه. فلا يعتبر شيء منها إلا ما فُعِلَ على وِزَانِ: « **لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ!** » وقد سبق في الرسالة السابقة حديثُ قول اللَّه للمرائي: (« **كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا لِيُقَالَ؛ فَقَدْ قِيلَ!** » **ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ!**).

فما أحوج الداعية إلى الحذر الشديد من هذا! ذلك أن مجال الدعوة خاصَّة من أشدِّ المجالات تعرضًا لفتن الأهواء والرياء! إذ يجد الداعية نفسه - من حيث يقصد أو لا يقصد - في مواجهة الأضواء الإعلامية، والتفاف الأتباع، وهتاف الرعاع! فإن لم يعصمه اللَّه دَاخَلَهُ العُجْبُ والرياءُ فكان من الهالكين! وقد رأينا من ذلك في زماننا هذا نماذج شتى! ويدخل في ذلك ما يجده بعض المنتمين إلى الجماعات الإسلامية من الشعور بالفخر والاستعلاء، حتى على المسلمين أنفسهم، من غير المنتمين إلى جماعتهم وأحزابهم! وذلك بما يمارسونه من استعراضات وتصريحات - واضحة لا تحتاج إلى تأويل - في أنهم يبحثون عن عِزَّة دنيوية مَحْضَة! وأنهم إنما يفعلون ما يفعلون ليقال عنهم ما يقال! على وزان الحديث المذكور: « **وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا لِيُقَالَ؛ فَقَدْ قِيلَ!** » فمن كان هذا شأنه؛ فواللَّه إنه لعلى خطر عظيم! فعجبًا لمن يغامر بمصيره الأخروي! ليحقِّق مجده النفسي أو الاجتماعي بما يرفع من شعارات الدين! رزقنا اللَّه وإيَّاكم السَّلامة والعافية، وبَصَّرَنَا بعيوبنا أجمعين، وهدانا إلى الصراط المستقيم!

الرسالة السادسة: في أن الإمساك عن إيذاء المؤمنين بالأقوال والأفعال، أحب إلى اللَّه من التصدُّق بأموال كثيرة يتبعها أذى! فكرامة المؤمن عند اللَّه غالية مصونة! فمن جرحها فقد انتهك حرمة من حرمات اللَّه، وتعدَّى حَدًّا من حدود حِمَاهُ! وقد ثبت في ذلك أحاديثُ كثيرة، منها ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **قِتَالُ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ كُفْرٌ، وَسِبَابُهُ فُسُوقٌ!** »[1] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **لَا تَحَاسَدُوا! وَلَا تَنَاجَشُوا! وَلَا تَبَاغَضُوا! وَلَا تَدَابَرُوا! وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ! وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا! الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ.**

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في الشعب، وأبو يعلى في مسنده. وقال الترمذي: حسن صحيح. كما صححه الألباني في صحيح سننه، وفي السلسلة الصحيحة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « حديث صحيح، وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ».

التَّقْوَى هَاهُنَا! - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْـمُسْلِمَ! كُلُّ الْـمُسْلِمِ عَلَى الْـمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ! »(١).

الرسالة السابعة: في أن أمثال القرآن من أبلغ مَكَانِزِ الحِكَمِ الربانية، ومن أغزر مواطن الهدى المنهاجي. فلا ينبغي للمؤمن أن يقرأها بلا تفكّر ولا تدبُّر. بل واجب عليه أن يتأمَّلها طويلًا! وواجب عليه أن يجعلها قناديلَ في حياته، يهتدي بها للخروج من ظلمات الشهوات والأهواء، إلى نور الهدى الحادي إلى الله. ذلك أن أمثال القرآن حِكَمٌ كلها، وعِبَرٌ كلها، ومواعظُ كلها. فمن أعرض عنها ضَلَّ، ومن أخذ بها نَجَا، ومن تلقَّى أنوارَها صار من العلماء بالله! قال الله ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَـا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. وقال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]. ولو اِسْتَقْرَيْتَ بلاغاتِ القرآن ومواعظَه؛ لوجدتها قائمة في كثير من الأحيان على ضرب الأمثال. وكذلك هو المنهج النبوي في البيان. وليس ذلك راجعًا إلى الأغراض البلاغية فحسب؛ بل هو راجع - قبل ذلك - إلى كون الأمثال في الكتاب والسنة تَخْتَزِل من الحِكَمِ الربانية والعلوم الإلهية؛ ما يجعلها كنوزًا للمتقين، يتزودون منها ما لا يحصى من حقائق الإيمان.

وينبني على هذا أيضًا - من الهدى المنهاجي - أن على الداعية الحكيم أن يجعل خطابه مرتكزًا على ضرب الأمثال، وسَوْقِهَا للناس من مواطنها في الكتاب والسنة، فهي كنوز خالدة. وله أن يُنْشِئَ منها ما يفتح الله له، على حسب ظروف الزمان والمكان. وإنشاءُ الْمَثَلِ صناعةٌ ليست بالهينة، فمن أكرمه الله بها فقد أوتي خيرًا كثيرًا. فَرُبَّ مَثَلٍ فاشلٍ ينشئه الإنسان؛ يؤدِّي إلى عكس المقصود تمامًا! ورُبَّ مَثَلٍ آخر يثير سخرية الناس واستهجانهم! ورُبَّ مَثَلٍ ناجحٍ، مُوَفَّقٍ، بليغ؛ يباركُ الله فيه؛ فيهدي به من الخلق ما شاء الله! ويكون له من الأثر النفسي والروحي ما يفتح العقول، ويوقظ القلوب، ويحملها على التوبة إلى الله! وإنما مَنْشَأُ تعلم الأمثال وصناعتِها إِدْمَانُ التَّدَبُّرِ لأمثال القرآن والسنة، وسياقاتها. ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه الله.

(١) رواه مسلم. ومعنى التَّنَاجُشِ: التَّخَادُعُ، من النَّجْشِ، وهو الخِدَاعُ والغَدْرُ. وأما التَّدَابُرُ: فهو التَّعَادِي والمقاطعة.

٤ - مسلك التخلُّق:

وهو ههنا في بيان كيفيةِ اكْتِسَابِ خُلُقِ الإخلاص في إنفاق المال في سبيل اللّه، وفي الدعوة والجهاد في سبيل اللّه. ومسلكُ ذلك جميعًا راجعٌ إلى التحقُّق بِمَفْهُومَي القَبُولِ والبُطْلاَنِ! الْمُسْتَفَادَيْنِ مما تدارسناه بهذا المجلس، من قوله تعالى في حَالِ القَبُولِ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ... ﴾ .. الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ .. الآية. ثم قوله تعالى في حَالِ البُطْلاَنِ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ .. الآية، وقوله سبحانه: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ .. الآية.

فالأعمال جميعها هي متأرجحة بين هذين الحالين من القبول والبطلان، ولا ثالث لهما! ولذلك وجب على المؤمن - والداعية من باب أولى وأحرى - أن يراقب أعماله عند الدخول فيها على وِزَانِهِمَا. وليست الخسارة في هذا بالأمر الهين اليسير! إذ بذلك يتقرَّر المآل ويتحدَّد المصير..! وأما المدخل العملي للتحقُّق بهذا المقام العالي من المراقبة والمحاسبة، وبهذه المنزلة الكريمة من التصفية والتحلية، فهو دَوَامُ التَّذَكُّرِ لِلْمَلَكَيْنِ الكَاتِبَيْنِ، الْمُصَاحِبَيْنِ للإنسانِ عُمْرَهُ كُلَّهُ، قَاعِدَيْنِ عن يمينِه وشِمَالِه أبدًا حتى يموت! قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨]. فذلك أَثَرٌ من آثار الإيمان بالملائكة، وهو ركن من أركان الإيمان، والإيمانُ بالمَلَكَيْنِ الكَاتِبَيْنِ أَحَدُ حَقَائِقِهِ الكبرى. فتجديدُ الإيمان بهما، والاستحضارُ الدائم لوجودهما، والشهودُ القلبي لمقامهما؛ هو الأساس للتحقُّق بهذا المقام؛ حتى إذا أَقْدَمَ العبدُ على عَمَلٍ شَعُرَ بِوَجَلٍ في القلب، واضطراب في الفؤاد؛ وكأنه ينظر إلى المَلَكَيْنِ، يَتَرَقَّبُ مَنْ عَسَاهُ يتلقَّى عَمَلَهُ ذاك ويكتبه منهما! قالَ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

فهذا الْمَسْلَكُ كَفِيلٌ - إن شاء اللّه - بتمكين العبد من التخلُّق بمقام الإخلاص في الدعوة والجهاد، والإنفاق في سبيل اللّه، وفي سائر الأعمال والأقوال. لا تضره

فتنة، ولا يزلزله هوى! وإنما الثابت من ثبّته اللَّه. جعلني اللَّه وإياكم من عباده الْـمُخْلَصِينَ، وأوليائه الْـمُكْرَمِينَ. آمين!

فيَا نَفْسِيَ المغرورة! ويَا قَلْبِيَ الكَلِيلُ العَلِيل!.. أَيُّ عَمَلٍ مما قَدَّمْتَ تستطيع ضَمَانَ إِخْلاصِه؟ وأَيُّ فعل من الأفعال تَجْزِمُ بصفائه؟ وأيُّ عبادةٍ، أو نفقةٍ، أو دعوةٍ، أو موعظةٍ - مما عَمِلْتُ - أنا قَادِرٌ على الشَّهادة عليها أنها كانت خالصةً للَّه؟ وللَّه وحده دون سواه! لم يَخْرِمْهَا هَوًى خَفِيٌّ، أو حُبُّ شُهْرَةٍ، أو رغبةٌ في التسميع والتلميع، أو شَهْوَةٌ لسماع كَلِمَةِ مَدْحٍ، أو ثناءٍ من هذا أو ذاك! آهٍ آه..! فَوَاحَرَّ قَلْبَاهُ من ميزان دقيق! وَوَاحَرَّ قَلْبَاهُ من كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا! ويا لَخَوْفي من يَوْمٍ عظيم! ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

رَبَّاهُ!.. يَا سَيِّدِي ومَوْلايَ..! هَا أَنَا ذَا قَادِمٌ إليكَ بِقَلْبٍ عَلِيلٍ، وذَنْبٍ ثَقِيلٍ! لَيْسَ لي مِنْ عَمَلِي مَا أَعْرِضُهُ عَلَيْكَ، إِلَّا رَجَائِي في رَحْمَتِكَ، وطَمَعِي في عَفْوِكَ وغُفْرَانِكَ! أنَا عَبْدُكَ الفقيرُ الذَّلِيلُ بين يَدَيْكَ.. ليسَ مَنْ يَرْحَمُنِي سِوَاكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! لَا مَلْجَأَ لِي مِنْكَ إِلَّا إليكَ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ لي إِلَّا بِكَ! فاللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ! خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ. أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي! فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ! اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ الأَهْوَاءِ والأَدْوَاءِ! ومِنَ الدَّسَائِسِ والوَسَاوِسِ! ووَفِّقْنِي لإِخْلاصِ السَّيْرِ إِلَيْكَ، ولَا تَجْعَلْ في عَمَلِي حَظًّا لأحدٍ سواك! ولا هَوًى غَيْرَ نَيْلِ رِضَاكَ! أنتَ رَبِّي لَا رَبَّ لِي سِوَاكَ، فَثَبِّتْنِي بِالْحَقِّ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى أَلْقَاكَ! آمين!

* * *

المجلس السادس والثلاثون

في مقام التلقي لأسرار الإنفاق والصدقات، وما جعل الله فيها من الحكمة والبركات

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

هذا المقطع من الآيات متصلٌ بآيات المجلس السابق اتصالًا وثيقًا. ولولا خشية الإطالة لجعلناهما مجلسًا واحدًا؛ لأنهما يشكِّلان وحدةً موضوعيةً متكاملةً.

فكلاهما يعالج قضية الإنفاق، ولو أن لكل مقطع منهما تميزًا خاصًا. فالأول غالب سياقه في معالجة الجهاد المالي، والإنفاق « في سبيل اللَّه » بالمعنى القتالي؛ ولذلك كان يؤصل لقضية الإخلاص، وما رتب اللَّه للمنفقين من أجر مضاعَف يوم القيامة. ويحذر من الرياء والتسميع، وما يبوء به المنافق من خسران مبين يوم القيامة.

أما ههنا فالإنفاق وارد بالمعنى العام للصدقات، يشمل الجهاد المالي وغيره، من ضروب الإحسان للفقراء والمساكين؛ ولذلك فسياقه قائم على بيان طبيعة هذا الإنفاق، وأهميته، وطريقته، وبيان أهم مصارفه، والحكمة الكامنة خلف ذلك كله. فكان أول الآيات في بيان طبيعة المال الصالح للتصدُّق، وتحذير المؤمنين من الاستجابة لوساوس الشيطان، بالتصدُّق من خبيث المال وأرذله، دون طيبه وكريمه! منبهًا إيَّاهم إلى أن الصَّدَقات إنما هي للَّه لا لغيره، فلينظر العبد أي مال يستحق أن يهبه لربِّه! قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ فـ « الطيبات من الكسب » لفظ جامع لكلِّ رزق حلال يتمتع بالجودة والنفاسة! سواء كان منتوجًا تجاريًّا، أو فلاحيًّا، أو معدنيًّا، أو صناعيًّا... إلخ. وأما الْـمُخْرَجَاتُ من الأرض فهي عامَّة في غلال الزراعات والمعادن. فكل ذلك جميعًا مما تجب فيه الزكاة بشروطه.

وقد حذَّر اللَّه ﷻ من القصد إلى الرديء السيئ من تلك المنتوجات لدفعها في الزكاة! وكيف يتصدَّق المؤمن بشيء لو أُهْدِيَ له لما قَبِلَهُ؛ إلا بإغماض عينه فيه وإغضائه عنه! وقد اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه الآية هو أن الأنصار في المدينة - وكانوا أهل فلاحة - إذا حلَّت أيام جذاذ النخل أخرج كل واحد منهم زكاة نخله عراجينَ من البُسْرِ - وهو بلح التمر الْـمُزْهِي صُفْرَةً أو حُمْرَةً، على أجمل ما يكون! - وكانوا يعلِّقونها على حبل بين ساريتين في مسجد رسول اللَّه ﷺ، ليكتمل نضجُها فتصير رُطَبًا جَنِيًّا؛ فيأكل منها فقراءُ المهاجرين، من أهل الصُّفَّةِ وغيرهم. فجاء رجلٌ مرةً بعرجون من الْـحَشَفِ، فأدخله بين عراجين البُسْرِ! والحَشَفُ: هو البلح الذي فسد في أصله، فيبس قبل نضجه، وهو أَرْدَأُ التمر وأرذله! بل لا يسمى تمرًا إلا تجاوزًا! وإنما يُطْعَمُ في العادة علفًا للبهائم! فأنزل اللَّه تعالى:

﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ... ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [(١)]؛ ولذلك قال في آخر الآية: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾! أي: تيقنوا أن اللَّه ﴿ غَنِىٌّ ﴾ عن صدقاتكم، بل هو الذي أغناكم ورزقكم من طيبات التجارات والفلاحات! وهو تعالى ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي: محمودٌ بذاته، وبما أنعم على خلقه، وبسط لهم من فضله! وإنما شرع لكم ما شرع من الزكوات والصدقات؛ ابتلاءً لكم، ورفقًا بفقيركم، وإكرامًا لغنيكم، بما وعده الرحمن من الجزاء العظيم والثواب الكريم.

ومِن ثَمَّ نبه سبحانه إلى المدخل الخفي الذي يتسرَّب منه الشيطان إلى النفس؛ فيثبطها عن الخير، فتبخل بالزكاة، أو تُخرج فيها ما فسد من المال، أو ما خَبُثَ منه! قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. ذلك أن وسواس اللعين يعمل على تخويف الإنسان - وهو القَتُورُ الْهَلُوعُ بطبعه - من الفقر والحاجة، ومن قلة ذات اليد! ويهدده بنفاد المال وانقطاع الرزق؛ إن هو تَصَدَّقَ أو زكَّى! ثم يحجب نظرَه عن خزائن اللَّه التي لا تنفد. ومن ثم يأمره بالفحشاء، وهي: ما كَبُرَ من الذنوب والمعاصي. ذلك أن الامتناع عن أداء حقِّ اللَّه في الأموال لَهُوَ من الفحشاء والمنكر! فذلك وَعْدُ إبليس الكاذب، وذلك وسواسه الخبيث!

أما الرحمن - جَلَّ ثناؤه - فهو يَعِدُ عبادَه المؤمنين مغفرةً منه وفضلًا، إذ يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم؛ كلمَّا أنفقوا وتصدَّقوا. ويعدهم سبحانه فضلًا من أرزاق الدنيا والآخرة، أي خَلَفًا مباركًا في الدنيا، وخَلَفًا مضاعفًا في الآخرة. ذلك فضل اللَّه الذي لا ينقطع أبدًا! ولذلك قال: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، بمعنى أن فضله ذاك واسعٌ، يَسَعُ الخلقَ أجمعين، وأن خزائنه تعالى لا تنفد ولا تفنى! وهو تعالى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالصادقين المخلِصين من عباده، لا يخفى عليه شيء من صدقاتهم، ما قَلَّ منها أو كَثُرَ، يُحصِي كثيرَها وقليلَها، ولا يَنْقُصُ أحدًا أجرَه.

وإن الكشف عن مداخل الشيطان، والتعريف بمسالكه الخفية المظلمة، التي بها يثبط اللعينُ الناسَ عن أعمال الخير، وكذا التعريف بطرق التصدِّي له ولوساوسه

---

(١) ن. الروايات في تفسير الطبري للآية.

الخبيثة؛ لَهُوَ من أكرم العلم وأعزِّ الحكمة! وذلك ما بينه تعالى في هذه الآيات العظيمة؛ تذكرةً لأولي الألباب من المسلمين. ومن ثم قال سبحانه بعدها مباشرة: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. تلك حكمة اللّٰه يهبها لمن يشاء من عباده العقلاء المتقين، ويرزقهم العمل بها؛ فضلًا منه ونعمةً؛ ولذلك فقد قرَّر سبحانه هذه القاعدة الذهبية الكلية، وهذه السُّنة العلمية الغالية: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا). والحكمة: هي التصرُّف المناسب، في الوقت المناسب، والمكان المناسب؛ بما ينتج عنه خَيْرٌ لصاحبه وللناس معه. والخير: هو الشيء النافع المفيد. فمن رُزِقَ العِلْمَ ولم يُرْزَقْ حكمتَه؛ ربما أَضَرَّ نَفْسَهُ وأضر الناسَ؛ بما عنده من علم! كالطبيب الذي يعلم عن الأمراض وأدويتها الشيء الكثير، فَيُعْرَضُ عليه مريض بعلة ما، فيشخص مرضه بسهولة، ويكتب له وصفة الدواء المعلوم، لكنه لا ينتبه إلى أن ذلك المريض لديه حساسية لذلك الدواء خاصَّة؛ فيقتله من حيث أراد علاجه! ومعرفة مناسبة الدواء للمريض قبل مناسبته للمرض هو عين الحكمة! وكم من مُتَفَقِّه - غير فقيه - أهلك البلاد والعباد بفتواه! رغم موافقتها للأدلة الشرعية! وذلك بسبب عدم مراعاة ظروف الزمان والمكان قبل النطق بها! وهو معنى الحكمة. وغايتها الفهم السليم والتطبيق السليم. وبذلك يتمُّ الخير والنفع لصاحبه؛ ولذلك قال: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾! وهي قاعدة لها من الفروع والآثار ما لا ينحصر خيره ونفعه. وإنما الذين يتلقون حِكَمَ القرآن هم أهلُ العقل السليم والقلب الصافي؛ ولذلك قال في ختام الآية: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، أي: وما يستفيد من هذه الآيات ويتَّعظ بها إلا أصحاب الألباب الصافية، السليمة من الفتن والأهواء. والألباب جمع لُبّ وهو: العقل.

ثم استأنف تعالى تطمين عباده المؤمنين بمصير أعمالهم الصالحة، ومآل نفقاتهم الخالصة، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾. وهذا تبشير جديد للمؤمنين بأن اللّٰه تعالى يحصي لهم صدقاتهم، ونفقاتهم في سبيل اللّٰه؛ ليجزيهم بها أضعافًا مضاعفة يوم القيامة، وليبارك لهم في أرزاقهم هنا في الدنيا قبل الآخرة، ويخلف لهم ما أنفقوا،

ولا يبخسون شيئًا! سواء فيما تصدَّقوا، أو فيما نذروا للَّه. والنَّذْرُ: الالتزام بفعل طاعة غير واجبة، من صدقة، أو ذبح للَّه، أو صيام، أو نحو هذا وذاك؛ فيصير ذلك الفعل بعد نذره للَّه واجبًا على صاحبه، لا تبرأ نفسه منه إلا بأدائه! فأداء هذا وذاك كله بأجره عند اللَّه. وأما الظالمون بما مَنَعُوا من صدقاتهم وزكواتهم، أو بما غشُّوا فيها، وكذلك الظالمون في نذورهم؛ بعدم الوفاء بها، أو بجعلها لغير اللَّه ابتداءً، كالذين ينذرون الذبح على الأضرحة والقبور، ونحوها من الشركيات المظلمة؛ فهؤلاء وأولئك جميعًا لا نَاصِرَ لهم من عذاب اللَّه يوم القيامة!

ثم بَيَّنَ تعالى حكمةً أخرى من حِكَم الإنفاق، تتعلَّق بطريقة التصدُّق وصفته؛ قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ﴾ ذلك أن المؤمن إما أن يتصدَّق جَهْرًا أو خُفْيَةً، فإن أعلن صدقتَه وأَبْدَاهَا للناس بقصد إشاعة الخير فيهم، وتحميس المترددين على فعل الخير؛ فَنِعِمَّا هي! أي: أَكْرِمْ بها من صدقةٍ وأَنْعِمْ! لِمَا لها من أثر في سَنِّ الخير في الناس، واتِّباع صاحبِها على الهدى، والتأسِّي به؛ فله أَجْرُهَا وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة! وأما الْمُرَائِي بها فقد سبق بيان خسرانه. واللَّه تعالى لا تخفى عليه نيَّاتُ العباد ومقاصدهم. ثم إنه لا يَقْوَى على إعلان الصدقة سالمةً من الهوى، إلا أولو العزم من الصدِّيقين، الذين أَمِنُوا مَكْرَ الشيطان، وتحقَّقوا بعصمة الرحمن من خَوَاطِرِ العُجْبِ والرياء. وأما مَنْ أخفَى صدقتَه وجعلها في يد الفقير سِرًّا، كالذي لا تَعْلَمُ شمالُه ما أنفقت يمينُه؛ فهو خيرٌ له وأنفع، وأَحْوَطُ لسلامةِ إيمانه وأَصْلَحُ. وهذا وذاك كلاهما موعودٌ بتكفير السيئات والمغفرة من اللَّه؛ وذلك بما أخلصا اللَّه في صدقتهما. ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، أي: دَقِيقُ العِلْمِ بالمخلص من المرائي، بصيرٌ بما قدَّم لنفسه من خَيْرٍ قَلَّ أو كَثُرَ. وهذه الآيةُ ميزانٌ لطيفٌ لبيان حِكَمِ الإسرار والإعلان في الصدقات، نُرْجِىء بيانَ تفاصيلها إلى محلها من « رسالات الهدى المنهاجي » إن شاء اللَّه.

ثم ساق تعالى حِكْمَةً أخرى في بيان مصارف صدقات التطوُّع، حسب الانتماء الديني، والصلاح أو الطلاح. وذلك أن النبيَّ ﷺ وأصحابه كانوا في بداية الأمر لا يتصدَّقون على ذوي القرابة من المشركين، ولا على أهل الذمة من اليهود

والنصارى، ولا يَصِلُونَهُمْ بخير. وكأنهم يشترطون للاستفادة من الصدقات الدخولَ في الإسلام؛ فنزل القرآن يبين أن الهدى إنما هو بيد الله، فلا ينبغي تعليق الصدقات على ذلك، بل الواجب هو أن تُعْطَى لكل فقير، مسلمًا كان أو غير مسلم. وذلك حسب الأولويات، وعلى قَدْرِ الحاجات. قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾. فعن ابن عباس ﷺ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَأْمُرُ بِأَنْ لَا يُتَصَدَّق إِلَّا علَى أَهْلِ الإسلامِ! حتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهَا؛ فَأَمَر بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا علَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ!)[1] وعن ابن عباس ﷺ أيضًا قال: (كَانَ أُنَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ لَهُمْ أَنْسِبَاءٌ وَقَرَابَةٌ مِنْ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ، وَكَانُوا يَتَّقُونَ أَنْ يَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِمْ، وَيُرِيدُونَهُمْ أَنْ يُسْلِمُوا؛ فَنَزَلَتْ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾.. الآية)[2].

ولذلك قال في الآية: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾. بمعنى أن صدقة المؤمن إنما هي لنفسه، وأن أجرها إنما هو له؛ ما دام قد قَصَدَ بها وجْهَ اللَّه. فلا يهمه بعد ذلك معرفةُ في يَدِ مَنْ وقعت؛ أفي يَدِ بَرٍّ أم في يَدِ فاجِر. فإنما المؤمنون يتصدَّقون للَّه بما رزقهم من خير؛ وهو تعالى يجازيهم عليها - في جميع الأحوال - بأجر وَافٍ، الحسنةُ بعشر أمثالها، ولا يُظلَمون شيئًا.

والجمهور على أن ذلك خاص بصدقة التطوُّع، أما الزكاة المفروضة في الأموال والفِطْرِ، فإنها لا تُعْطَى إلا لمسلم. وقد حكى بعضهم الإجماع على ذلك[3].

ثم بَيَّنَ تعالى مصرفًا آخر من مصارف الصدقات، هو أولى بها في التطوُّع والفرض معًا، فقال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢) رواه الطبري عند تفسيره للآية، والنسائي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والبزار، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في مستدركه باختلاف في اللفظ، وصححه، ووافقه الذهبي. ثم صححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٣) ن. تفسير القرطبي للآية.

يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾. فهؤلاء هم فقراء المهاجرين يومئذ، ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين، ممن أُحْصِرُوا في سبيل اللَّه، أي: صاروا محاصرين ببلدهم بما فَرَّغُوا أنفسَهم للجهاد في سبيل اللَّه؛ وبما نصب لهم عدوهم من الحصار في كلِّ مكان! لا يستطيعون الضرب في الأرض، وهو السفر للتجارة والكسب؛ بسبب ما يتربَّص بهم من الخطر هنا وهناك. ثم بما يَعْدِمُونَ من رأس المال للاتجار والمضاربة به. كذلك كان وضع كثير من المهاجرين في المدينة قبل فتح مكة. وكذلك هو حال كثير من المؤمنين من الدعاة والمجاهدين في زماننا هذا. فهؤلاء أحق بالصدقات وأولى. ولعل الناظر إليهم ممن لا علم له بحالهم؛ يظنهم أغنياء؛ بما عصموا أنفسهم عن المسألة، وتعفَّفوا عن أموال الناس؛ صبرًا منهم على البأساء والضراء، واحتسابًا عند اللَّه. فهم ليسوا من قَبِيلِ المتسوِّلين المتخصِّصين، الذين يسألون الناس إِلْحَافًا، أي: إصرارًا وإلحاحًا. بل هم أهل ورع وعفاف، ورجال دعوة وجهاد. لكن سيماهم وعلاماتهم دالة على فقرهم وشدة حاجتهم؛ بما يُشَاهَدُ من رثاثة لباسهم، وتمزُّق أحذيتهم، وذبول وجوههم، ونحو هذا وذاك.

ولما كان هذا المصرف أعظم شأنًا عند اللَّه من المصرف السابق، الذي أجاز فيه التصدُّق على فقراء الكفَّار؛ فقد جعل أجره أعظم وأضخم! قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾! فهذا إجمال دَالٌّ على التفخيم والتعظيم؛ بما نُسِبَ فيه من العلم إلى اللَّه ذي الجلال! فليس المعنى منحصرًا في بيان علم اللَّه تعالى بما ينفقه هؤلاء المتصدقون من أموالهم فحسب؛ وإنما هو دالٌّ على علمه تعالى بما يبذلونه من جهد واجتهاد، في الكشف عن أحوال المحاصَرين في سبيل اللَّه، ومن مشقة في إيصال الخير إليهم، ثم ما فيه - قبل ذلك - من دعم للدعوة والجهاد في سبيل اللَّه؛ بكفاية رجالها حاجتَهم والقيام بخدمتهم.

ثم ختم السياق بآية جامعة مانعة، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾. وهذا بيانٌ من اللَّه - جَلَّ ثناؤه - وبشارةٌ منه تعالى،

عائدةٌ على جميع المنفقين أموالَهم على وجه الصدقة الخالصة للّه، في الفرض والنافلة سواء، الدائبون على الإنفاق في وجوه البِرّ، الثابتون عليه؛ حتى صار ذلك صفةً ثابتةً لهم، وخُلُقًا مُسْتَقِرًا بذواتهم، قد تقلبوا بأحواله المحمودة جميعًا، بالليل وبالنهار، وبالسرِّ وبالعلن. ما وجدوا خيرًا قط من ضروب الإنفاق إلا كانوا من السبَّاقين إليه. فهؤلاء هم المضمونون عند الله، الآمنون على أنفسهم يوم يفزع الناس، لا يصيبهم يومئذ خوف ولا حَزَنٌ. فقوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فيه دلالة على ضمانه، وعلى عظمته؛ بما أجمل من عدده وصورته. كما قال في الحديث القدسي: « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ: الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ؛ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ!** »(١) فعدم بيان ميزان الحسنات في الصوم، دَالٌّ على أنه أكبر مما ذُكِرَ من أضعاف. فكذلك الذين تخلَّقوا بصفة الإنفاق ليلًا ونهارًا، سِرًّا وعَلَنًا: ﴿ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لا يعلم قَدْرَهُ العظيمَ إلا اللَّهُ. وتلك إشارة إلى المنازل العليا في الجنة. جعلني اللّه وإيَّاكم من أهلها بفضله تعالى ورحمته.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في عَشْرِ رسالات، نلخِّصها فيما يلي:

الرسالة الأولى: في أن اللّه - جلَّ ثناؤه - طيب، لا يقبل من الصدقات إلا طيبًا. وأن الزكاة والصدقات من المال الحرام باطلة، كالمال المستفاد من الرِّبَا والرِّشَى وغيرهما. وقد وجدنا بعض الجهلة يودعون أموالهم في البنوك الربوية، ثم يتصدَّقون - زعموا - بفوائدها الحرام! واللّه تعالى لا يقبل صدقة من مال خبيث! فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَصْعَدُ السَّمَاءَ إِلَّا طَيِّبٌ - إِلَّا وَهُوَ يَضَعُهَا فِي يَدِ الرَّحْمَنِ، أَوْ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ؛ فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ**(٢)**؛ حَتَّى إِنَّ التَّمْرَةَ لَتَكُونُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ!** »(٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) متفق عليه.

(٢) الفَلُوُّ: المُهْرُ، هو ولد الفرس الصغير. والفَصِيلُ: ولد الناقة.

(٣) رواه الشيخان، وأحمد واللفظ له، وغيرهم. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط عن رواية أحمد: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا! وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ... ﴿١٧٢﴾ ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: « يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! » وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ » [١].

الرسالة الثانية: في أن الأرزاق قسمة ربانية، وقضاءٌ وقَدَرٌ. وأن الفقر والغِنَى بيد اللَّه. وإنما الأسبابُ حُجُبٌ تستر التدبير الإلهي الخفي؛ ابتلاءً للناس. وأن ضعف الإيمان بهذه الحقائق يُحْدِثُ ثَغْرَةً في قلب المسلم، يستغلها الشيطان لحمل النفس على البخل والشُّحِّ، وارتكاب شتى الفواحش؛ لجمع المال واحتكار الثروة! ولو تدبَّر المؤمنُ حقائقَ القرآن لأدرك أن الرزق لا يزيد بكسبٍ خبيث أو تسبب حرام، كما أنه لا ينقص بكسب طيب، أو تسبب حلال. تمامًا كما لا ينقص العمر بدَاءٍ، ولا يزيد بدَوَاءٍ! وإنما يبارك اللَّه للعبد الصالح في ماله الصالح. والعبد يدركه ما كتب اللَّه له من رزق لا محالة! وهو إما أن يطلبه من باب الإذن، وإما أن يطلبه من باب النهي. والرزق في النهاية واحدٌ، وإنما يُبْتَلَى الناسُ بنياتهم وسعيهم! وفي الحديث: عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ! » [٢] فالكَيِّسُ مَنْ طلب رزقه من باب الإذن، وتقرَّب إلى اللَّه بسعيه الطيب المباح.

الرسالة الثالثة: في أن الحكمة هي صُلْبُ العلم، وقلبه النابض بالحياة! وهي فَصُّ المنهاج النبوي في الجهاد والدعوة إلى اللَّه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ ... ﴿٢٦٩﴾ ﴾. وهي هبة ربانية ونعمة رحمانية؛ ولذلك قال قبلها: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ ﴾. وقال في حقِّ لقمان الحكيم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ ﴾ [لقمان: ١٢]. ونحو هذا في القرآن كثير. وقد سبق تعريف الحكمة بأنها: التصرُّف المناسب، في الوقت المناسب، والمكان المناسب؛ بما ينتج عنه خَيْرٌ لصاحبه وللناس معه. وإنما يُؤْتَى الداعيةُ الحكمةَ على قَدْرِ إخلاصه للَّه، وصدقه في

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان، والبزار، والطبراني، والبيهقي في شعبه. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

تـجرُّده من الأهواء والأدواء. وما أحسب فشل العمل الإسلامي في بعض البلاد؛ إلا بما يعانيه أصحابه من فُقْدَانٍ لهذا المعنى العظيم: الحكمة! سواء على المستوى التربوي، أو الوعظي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي... إلخ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وإن لشيخ المقاصد أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله لكلامًا عجيبًا، حقه أن يُكتب بماء الذهب! بَيَّنَ فيه مواصفات العالم الرباني الحكيم. وهي مواصفات تنطبق - رغم ارتباطها بالسياق الفقهي - على نموذج الداعية المطلوب لهذا الزمان تمامًا. قال رحمه الله في معنى الفقه المقاصدي الحكيم: (وضابطه: أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صَحَّت في ميزانها؛ فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله! فإن لم يُؤَدِّ ذِكْرُهَا إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول! فإن قبلتها؛ فلك أن تتكلَّم فيها، إما على العموم، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص، إن كانت غير لائقة بالعموم. وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية!) (١) فالتحقُّق بهذا المقام المقاصدي الحكيم هو المؤهل لصاحبه - عند أبي إسحاق - ليرتقي درجة الاجتهاد المقاصدي. قال رحمه الله: (ويُسَمَّى صاحبُ هذه المرتبة: الرَّبَّاني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفِّي كل أحد حقه، حسبما يليق به! وقد تـحقَّق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه. وفهم عن الله مراده. ومِن خاصَّته أمران، أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص (...) والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات!) (٢) فعلى ذلك الوِزَانِ تمامًا وجب أن تجري موازين الحكمة في العمل الإسلامي اليوم، سواء في الدعوة، أو في التربية، أو السياسة أو الإعلام... إلخ. ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه الله.

الرسالة الرابعة: في أن ميزان الإعلان والإسرار في الصدقات، راجع إلى

---

(١) الموافقات (٤/١٩١).

(٢) الموافقات (٤/٢٣٢).

ثلاثة ضوابط:

الضابط الأول: فارق ما بين الفرض والنافلة. ذلك أن صدقة الفرض كالزكاة الواجبة في المال والفِطْرِ، والْهَدْيِ في الحج، وتجهيز الجهاد في سبيل اللَّه، والنذر، حَقُّهَا أن تُعْلَنَ وتُشْهَرَ؛ لأنها شعيرة. ومنهج تشريع الشعائر في الإسلام قائم على الإعلان والإشهار، مثل: الصلوات الخمس، وصيام رمضان، والحج؛ ضمانًا لاستمرارها، وطبع المجتمع على حقائقها؛ حتى يشيخ عليها الكبار، وينشأ عليها الصغار، وتتوارثها الأجيال تلو الأجيال.

أما صدقة النافلة فالأصل فيها الإسرارُ، فَمِنْ بين سبعةٍ يظلهم اللَّه في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله: « **رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ!** » [1] وذلك هو الأصل أيضا في نوافل الصلوات. فقد ثبت في الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: « **صَلاةُ الرَّجُلِ تَطَوُّعًا حيثُ لَا يَرَاهُ النَّاسُ، تَعْدِلُ صلاتَه على أَعْيُنِ النَّاسِ خَمْسًا وعِشْرِينَ!** » [2] يعني: خَمْسًا وعِشْرِينَ ضِعْفًا أو دَرَجَةً. على عكس صلاة الفريضة تمامًا! وهي قاعدةٌ مُطَّرِدَةٌ في فارق ما بين النوافل والفرائض في جميع العبادات، إلا ما استثناه الدليل؛ ولذلك قال ابن عباس ﷺ في نوافل الصدقات: (جعلَ اللَّهُ صدقةَ السِّر في التطوع تَفْضُلُ علانيتَها بسبعين ضِعْفًا! وجعل صدقةَ الفريضةِ علانيتَها أَفْضَلَ من سِرِّهَا - يقال - بخمسة وعشرين ضِعْفًا! وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها!) [3].

الضابط الثاني: قَصْدُ السَّنِّ والاقتداءِ. وذلك أنه يجوز - بل يَحْسُنُ - ممن وَثِقَ من نفسه وإيمانه أن يُشهر صدقة تطوعه، في المواطن التي يُرْجَى فيها اقتداء الناس به. خاصَّة إذا كان الأمر يتعلَّق بنوازل جديدة، ومصالح شرعية حادثة، مما لم تَدْعُ إلى

---

(١) متفق عليه. ونصه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ! ».

(٢) رواه أبو يعلى، والديلمي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٣٨٢١).

(٣) رواه الطبري، وابن أبي حاتم في تفسيرهما لآية: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ...﴾.

مثله الحاجة من قبل، كتأسيس المدارس الإسلامية على نمط حديث، وتجهيز المستشفيات بالآلات الطبية، أو الإنفاق لتأسيس القنوات الإعلامية الفضائية.. إلى غير ذلك من المصالح الشرعية، التي دعت إليه ضرورة العصر. وفي هذا قال تعالى مما تدارسناه هاهنا: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ... ﴿٢٧١﴾ ﴾ وفي مثل ذلك أيضا قال النبي ﷺ « **مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ!** »[1] وهذا حديثٌ كان سياقه وسبب وروده في شأن صدقة التطوُّع أصلًا، فعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ، أَوِ الْعَبَاءِ[2]، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ. عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ؛ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾! إِلَى آخِرِ الآيَةِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٨] فقال: **تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**.. حَتَّى قَالَ: **وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ!** فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا! بَلْ قَدْ عَجَزَتْ! قال: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ! حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (..) فذكر الحديث السابق[3].

الضابط الثالث: أنَّ مَنْ خَشِيَ على نفسه العُجْبَ، وتَسَرُّبَ الرياء، وحبَّ التسميع، والطرب لمدح الناس وثنائهم؛ بما يُحَرِّفُ قَصْدَهُ، ويُفْسِدُ إخلاصه، وصفاءَ نيته، وتجرده لله؛ فحقه الإسرار بصدقة التطوع، ولو كان الموطن يدعو إلى السَّنِّ والاقتداء؛ لأن نجاة إخلاصه وسلامة إيمانه أولى! ولغيره ممن هو أوثق بإيمانه وعزيمته أن يعلن صدقته بذلك الموطن. ولهذا قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) قوله: « مُجْتَابِي النِّمَارِ » يعني: ممزقي الثياب، مُخَرَّقِي العباءات. والنِّمَارُ: جمع نَمِرَة، وهي لباس من صوف.

(٣) رواه مسلم.

وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴿٢٧١﴾﴾. ثبّتنا اللّه وإيّاكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. آمين!

الرسالة الخامسة: في أن ربط الدعوة إلى اللّه بالتطميع المادي، والرَّفَاهِ الاقتصادي، أمر مخالف لأصول المنهاج الدعوي الإسلامي. ذلك أن رسالة الإسلام رسالة أخروية بالقصد الأول، وما ورد رَفَاهُ الدنيا فيها إلا تبعًا. وهذه حقيقة كلية قطعية، تواترت بها نصوص الكتاب والسنة، وتأسست عليها أصول الدين وفروعه. قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] وعن عَمْرو بْنِ عَوْفٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قالَ: « **أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ! فَوَاللّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ! وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا؛ وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ!** »(١).

نعم؛ للدعاة أن يُبَشِّرُوا بمشاريع تنموية، وبرامج اقتصادية، وسياسيات نهضوية؛ بل عليهم العمل لذلك والدعوة إليه. ولكن في سياق الدعوة إلى أصول الإيمان، والتَّمْسِيكِ بحقائق القرآن، وإحياء أشواق الآخرة في النفوس، وأخلاق الأمانة والإخلاص للّه، والسير بالناس إلى صلاح دينهم، وتصحيح عبادتهم لربِّهم، والدخول تحت طاعته. وقد رأينا تجارب دعوية ناجحة في بعض البلاد الإسلامية، أَسَّست مشروعَها السياسي والاقتصادي على سنوات عديدة من التربية الروحية، والتزكية الإيمانية؛ فآتت أُكْلَهَا بإذن ربِّها ضِعْفَيْنِ. حيث كانت الدنيا عندهم حقلًا خصبًا لحرث الآخرة. وكذلك المنهاج النبوي كان. أما جعل الآخرة في الخطاب الدعوي والممارسة الإسلامية وسيلةً للدنيا؛ فذلك قلبٌ للميزان، ومخالفةٌ لمنهج القرآن. وهو حال كثير من الحركات الإسلامية الفاشلة في عصرنا هذا. واللّه المستعان.

أما بالنسبة لدعوة الكفار أصلًا إلى الدين، فهم أولى بالخطاب الإيماني الروحي؛ لأن حاجتهم إنما هي لسعادة الروح، وعلاج أدوائها؛ أكثر مما هي لشهوات الحياة الدنيا التي أتخمهم ترفها، ورغدها المادي الحقير. والعبرة - قبل ذلك وبعده -

---

(١) متفق عليه.

إنما هي بمقاصد القرآن والسنة، في الدعوة إلى اللَّه والتعريف به.

صحيحٌ أن النبيَّ ﷺ كان يُعْطِي طائفةَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ من أسهم الزكاة، ولكنه سهم شُرِعَ أصلًا لتثبيت ضِعَاف الإيمان، ممن لم يكن يُؤْمَنُ نكوصُهم على أعقابهم، وعودتُهم إلى الكفر! وكانت تُخْشَى غائلتهم وانقلابهم بالحرب على المسلمين! كما أُعْطِيَ لبعض رؤوس الكفر؛ لكسر الحواجز النفسية التي كانت تمنعهم من الإنصات لخطاب القرآن! حتى إذا مَنَحُوا أنفسهم فرصةً لسماع كلام اللَّه؛ أسلم من شاء اللَّه منهم، عن رغبةٍ صادقة واقتناع، لا عن طمع في الثروة والرفاه! ولذلك لما أعزَّ اللَّه الإسلام منعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أسهمهم! وقد كان عدد هؤلاء محدودًا جِدًّا. حتى إن أبا بكر بن العربي لم يتجاوز في عدِّهم تسعة وثلاثين رجلًا! (١) والمسلمون يومئذ في عهد رسول اللَّه بمئات الآلاف! ولا مانع أن يتجدَّد ذلك كلما تجدَّدت الحاجة إلى التأليف والتأنيس. ولكن العبرة أن العطاء لم يكن صلب المنهاج الدعوي الإسلامي؛ لإقناع الناس بالدين؛ بقدر ما كان من سياسة التدبير؛ لتثبيت الاستقرار في المجتمع الإسلامي. وهذا لا ينقض ما نحن فيه من أولوية الخطاب الإيماني على الخطاب الدنيوي، وتبعية هذا لذاك. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

الرسالة السادسة: في أن الصدقة على فقراء الكفَّار - من غير أهل الحرب - وعلى الفُسَّاق من المسلمين؛ إذا قُصِدَ بها وجهُ اللَّه، ولم تكن وسيلة للضغط العقدي عليهم؛ لِمَا تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ... ﴿٢٧٢﴾ ﴾؛ كانت لهم صلاحًا، وكانت لصاحبها أجرًا. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ! فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ! فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! قَالَ [الرَّجُلُ]: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ! لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ! فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ؛ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ! قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ! لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ! فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ؛ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ! فَأُتِيَ**

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي المعافري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة: ٦٠].

فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ! أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا! وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ! وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ! » [(١)].

وهذا حديث عظيم! فيه من العلم والحكمة ما يستحق دراسةً مستقلة! فهو يكشف عن جمال الإسلام وخلقه الكريم، ويبرز عظمة قلب المؤمن، وسَعَةِ احتضانه كل شرائح المجتمع، وقدرته على الانسجام الاجتماعي والعاطفي مع كل الناس، والعلاج التلقائي لجراحهم النفسية والخلقية، تمامًا كما يعالج قروح نفسه وجراحها. فأكرم به من حديث نبوي حكيم!

الرسالة السابعة: في أن للدعاة المحاصَرين في سبيل اللَّه حقًّا على المسلمين في كلِّ مكان. كما حصل لإخواننا في فلسطين - فَكَّ اللَّه أسرها - وغيرها من أقطار العالم الإسلامي. فأموال الزكوات وسائر ضروب الإنفاق الجهادي في سبيل اللَّه، يجب أن تقوم بكفاية العلماء المخلصين، والدعاة المجاهدين، ممن اشتهر صلاحهم، وتبين لأهل العلم صِدْقُهُمْ، وفرَّغوا أنفسهم لخدمة الدين، والقيام بتجديده في قلوب المسلمين، والقيادة لكتيبة الدعوة والتعليم. فهؤلاء واجبٌ على أهل الغِنَى كفايتُهم، وتجهيزهم، وكفالة أُسَرِهِمْ، خاصَّة إذا شرَّدهم الطغاة لا قدر اللَّه، أو تعرضوا لسجن، أو نفي، أو حصار، أو قتل، أو نحو هذا وذاك. فالجهاد المالي من أهم الدروع الكبرى؛ لحفظ الدين والدعوة، ومد الجهاد في سبيل اللَّه! لا يجوز للمسلمين التخلِّي عنه مهما كانت الظروف الأمنية والاقتصادية!

الرسالة الثامنة: في أن الفقير العفيف الشريف أولى بالصدقة من المتسوِّل الطوَّاف. وأن على المسلم أن يقوم هو بالبحث عن الفقير والمسكين، وطرق بابه عليه، ومفاجأته بالصدقة، من الغذاء والطعام والمال، وإدخال السرور عليه وعلى أطفاله! فذلك من أعظم الصدقة وأكرمها عند اللَّه! لما فيه من المشقة الزائدة، والبحث عن الفقراء والمساكين المستحقين للصدقات فعلًا، ولما فيه من تذليل كبرياء النفس، وتذليلها على طاعة اللَّه؛ بالسعي في خدمة الفقراء والمحتاجين! وهذا من أعظم المسالك التربوية في الإسلام! فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **« لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي**

---

(١) متفق عليه.

يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ! » قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا!** » (١) فلكي يفطن المسلم إلى أمثال هؤلاء؛ يجب عليه أن يكون إنسانًا اجتماعيًّا، يخالط كل طبقات المجتمع وشرائحه، ولا ينعزل في بيته، ولا حول ذاته ومصالحه الخاصَّة فقط! بل يشارك المجتمع همومه، يحمل الكَلَّ ويعين الضعيف.

الرسالة التاسعة: في أن التَّسَوُّلَ وتَكَفُّفَ الناسِ، سلوكٌ حَرَامٌ لا يجوز إلا لمضطر. وأن العمل والكدح أمر واجب في الإسلام على كل ذي قوة. فالإسلام دين لا يعترف بشيء اسمه البطالة! لأنها مرض نفسي وخلل اجتماعي، أكثر مما هي فقدان لفرص العمل! وإنما العجز الحقيقي راجع في الغالب إلى أمرين؛ أحدهما: الخمول النفسي، والثاني: فقدان القناعة وعدم الرضا بالقليل. ولو تحقق الشباب « العاطل » اليوم بهذا المبدأ الإسلامي العظيم، وبالمفهوم الإيماني لمعنى « الرزق »؛ لَـمَا ارتمت جموعهم بأحضان الانتظار الطويل لوظائف الدولة، ولما اصطفوا في طوابير الذلِّ والصغارِ، أمام السفارات الأروبية والأمريكية! متسوِّلين لتأشيرات يَمُنُّ بها عليهم أعداء اللَّه ورسوله، وأعداء الأمة المسلمة! وقد ثبت في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ؛ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ!** » (٢) فكيف به إذا أتى كافرًا؟ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا فِي وَجْهِهِ!** » قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا يُغْنِيهِ؟ قَالَ: « **خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ** » (٣). وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: (سَرَّحَتْنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [وفي رواية: أُعْوِزْنَا عَوْزًا شَدِيدًا؛ فَأَمَرَنِي أَهْلِي أَنْ آتِيَ النبيَّ ﷺ فَأَسْأَلَهُ شَيْئًا] فَأَتَيْتُهُ، وَقَعَدْتُ، فَاسْتَقْبَلَنِي وَقَالَ: « **مَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ! وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ! وَمَنِ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ! وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ**

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد، والحاكم، وأصحاب السنن، وغيرهم. وصححه الألباني في صحيح سننهم، وفي السلسلة الصحيحة.

أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ! » فَقُلْتُ [فِي نَفْسِي]: نَاقَتِي الْيَاقُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ أُوقِيَّةٍ! فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ!) (١).

الرسالة العاشرة: في أن المداومة على الصدقة بالليل والنهار، سِرًّا وعلانية، بما قَلَّ أو كَثُرَ؛ ترتقي بالعبد إلى مرتبة الْـمُتَصَدِّقِينَ الصِّدِّيقِينَ، أي الذين بلغوا مقامَ الصِّدِّيقِيَّةِ بصدقاتهم! وهم الذين يجدون متعتهم ولذتهم، في التصدُّق والإنفاق التعبُّدي، بل لا يجدون راحتهم إلا بعد التصدُّق بشيء من الخير! فهؤلاء قد جُعِلَتْ قُرَّةُ أعينهم في الصَّدقة! ولذلك يُؤْجَرُ أحدُهم على كلِّ ما ينفقه، ولو كان على أهله وعياله! فقد ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال لِسَعْد بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﵁:« وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أُجِزتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ! » (٢) يعني: (في فَم امرأتك). وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ الأَنْصَارِيِّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الْـمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا؛ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً! » (٣) وإنما يقع هذا للذين تطبعوا بالإنفاق التعبدي؛ حتى صار لهم سَجِيَّةً وخُلُقًا ثابتًا؛ ولذلك قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

٤ - مسلك التخلق:

وهو ههنا في كيفية التخلُّق بوصفِ « الْـمُتَصَدِّقِينَ الصِّدِّيقِينَ »، ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. وهم الذين صار لهم الإنفاقُ سَجِيَّةً وخُلُقًا ثابتًا؛ على ما بيناه في الرسالة الأخيرة. وأما المسلك العملي لذلك فهو يرتكز على **ثلاث مجاهَدات:**

المجاهَدة الأولى: إخراج ما ترتَّب على الذمة من حقوق اللَّه في الأموال أولًا. وهي

---

(١) رواه أحمد، والنسائي، والطبراني في الأوسط، وأبو يعلى، والدارقطني. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع الصغير، وصحيح سنن النسائي. وما بين معقوفتين من رواية الطبراني في الأوسط.

(٢) جزء حديث متفق عليه. (٣) متفق عليه.

فريضة الزكاة، الركن الثالث من أركان الإسلام، بعد الشهادتين والصلاة. وذلك لتزكية النفس والمال، والتحقُّق بسلامة الدين، وكمال الإسلام أولًا. فلا قبول لصدقة أخرى قبل التحقُّق بهذا. كما يصنعه بعض المرائين الجهلة، إذ يتظاهرون بالصدقات العلنية، وهم عن الزكاة المفروضة ناكصون! فلا قبول لصدقاتهم وتبرعاتهم، كَلَّا ولَا كرامة! وإنما هو كإلقاء الحَطَبِ اليابس في النار! فلا بد من فريضة الزكاة أولًا وقبل كل شيء!

المجاهَدة الثانية: تخصيص شيء من الصدقة الراتبة؛ لتجهيز الدعوة إلى اللَّه، والجهاد في سبيل اللَّه. ويندَرِج ضمن هذا وذاك الإنفاقُ على طلبة العلوم الشرعية والمدارس القرآنية، ووقف الأرزاق الجارية عليهم. وكذا مدارس العلوم المادية والتكنولوجية، ومؤسسات البحث العلمي الحديث، التي انخرطت بوعي وإخلاص في مشروع النهوض الإسلامي. كل ذلك مشمول بمعنى الإنفاق الجهادي. فالمال المخصص للعمل الدعوي والجهادي، يعود على صاحبه بأجر عظيم ومقام إيماني كريم. وكذلك سائر الخدمات الدعوية والجهادية. فوقف شيء من ذلك في سبيل اللَّه يجري على صاحبه صدقةً دائمة، لا تنقطع بركاتها أبدًا! على ما رواه الشيخان عن النبيِّ ﷺ قال: **« الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ. فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً، وَفَخْرًا، وَنِوَاءً عَلَى أَهْلِ الإِسْلامِ؛ فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ. وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا، وَلا رِقَابِهَا؛ فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ. وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِأَهْلِ الإِسْلامِ، فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ؛ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٍ! وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٍ! وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ [1]؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ! وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ! »** [2].

---

(١) قوله: (وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ)؛ فالطِّوَلُ: هو الحبل. وقوله: اسْتَنَّتْ: أي جَرَتْ وعَدَتْ. والشَّرَفُ: الأرض العالية، كالتَّلِّ والرَّبْوَةِ. والمقصود من العبارة: أن الخيل المربوطة في سبيل اللَّه، يجري أجرها لصاحبها على كلِّ حال، فيما أكلت وشربت، أو راثت وبالت! حتى ولو قطعت حبالها ووثاقها، وعدت فوق الروابي فكل ذلك بأجره! لما لصدقة الجهاد من مقام عظيم عند اللَّه.

(٢) متفق عليه.

فالشاهد في هذا الحديث هو كون ما خُصِّصَ للّٰه كان أجره دائمًا مستمرًا على كلِّ حال، وكانت حسناته متكاثرة بما يفوق العد والحصر! فإن جعله من الصدقة الجارية استمر أجره المضاعَفُ حتى بعد موته، لا ينقطع إلى قيام الساعة! كما في الحديث المشهور من قول النبي ﷺ: « **إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ!** »[1].

المجاهَدة الثالثة: في تخصيص شيء من الصدقة الراتبة، يخرجها العبدُ بانتظام محدد، يعين بها فقيرًا من قرابته أو غيرهم، ممن يَعْرِفُ هو حاجتَه، ولكنه لا يسأل الناس إلحافًا. وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ ينفق على ابن عمه مِسْطَحٍ ﷺ، فلما بلغه أنه ممن تكلَّم في عائشة ﷺ في حادثة الإفك؛ أقسم ألَّا ينفق عليه أبدًا! فنزل القرآن الكريم يعاتبه! قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] فلما قُرِئَتْ على أبي بكر ﷺ قال: (وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي! فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا!)[2] فلم يزل ينفق على مِسْطَحٍ ﷺ حتى مات!

فهذه المجاهَداتُ الثلاثُ كفيلةٌ - إن شاء اللّٰه - بترقية المؤمن إلى منزلةِ « الْـمُتَصَدِّقِينَ الصِّدِّيقِينَ »، أي الذين بلغوا مقامَ الصِّدِّيقِيَّةِ بصدقاتهم! وذلك بعد التحقُّق بأخلاقها، والإتمام لكلماتها، والفوز ببركاتها. وإنما بدء العمل هو الدخول في ابتلاءاتها، والتدرج بمسالكها. واللّٰه الموفق للخير والمعين عليه.

* * *

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

المجلس السابع والثلاثون

في مقام التلقي لمقاصد تحريم الربا في الإسلام
وما في التعامل به من خطر كبير على الدين والدنيا معًا!
وما تعانيه الأمة اليوم بسبب ذلك من تخبُّط في دينها ودنياها!

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا يضيف القرآن لَبِنَةً جديدة إلى صرح الأمة، ويضع أصلًا عظيمًا من أصول الاقتصاد الإسلامي، إلى جانب الزكاة والصدقات. ويرسِّخ في المجتمع المسلم سلوكًا ماليًّا شريفًا، يحظر الابتزاز والظلم والاستغلال! ويمنح هذه الأُمَّة خاصية كريمة من أعمق خصائصها الربانية؛ ألا وهي تحريم الربا!

ومعنى الرِّبَا في اللغة: الزيادة والاستزادة، من قولهم: رَبَا الشيءُ يَرْبُو، إذا نَمَا. وأما في الشرع: فهو الزيادة الباطلة المترتبة على رأس المالِ الْمُسْتَحَقِّ في تجارة

أو دَيْن، أو غيرهما؛ بسبب التأخير في الأداء. وهذا إنما هو مسمًّى: « رِبَا النَّسِيئَةِ »، وهو أصلُ كُلِّ رِبًا، كما سيأتي بيانه. وقد كان العرب في الجاهلية، ويهود المدينة، يُقْرِضُونَ المحتاجَ؛ بزيادة مُقَدَّرَةٍ على أصل الدَّيْنِ، فإذا حَلَّ أَجَلُ السداد قال الدَّائِنُ لِلْمَدِينِ: « إمَّا أَنْ تَقْضيَ وإمَّا أن تُربي! ».. كما كانوا يبيعون الرجلَ بِسَلَفٍ إلى أجل معلوم، فإذا حَلَّ الأجَلُ ولم يستطع الْمَدِينُ السَّدَادَ؛ قال للدائن: أمهلني أزدك! فيمهله الدائن بزيادة مالية على أصل الدَّيْنِ، تتضاعف بزيادات أخرى على كُلِّ تأخير في السداد! فإن تراكمت الزيادات على المدين؛ حتى عجز عن السداد؛ ألقى الدائنُ على رقبته حبلَ الرِّقِّ، فاستعبده لنفسه أو باعه لغيره! هذا هو ربا الجاهلية المشهور، وهو الذي يسميه الفقهاء: « رِبَا النَّسِيئَةِ ». والنَّسِيئَةُ، أو الإِنْسَاءُ، أو النَّسَاءُ: هو التأخير والتأجيل. وهو أصل كل ربا ظهر بعدُ.

كما كان عندهم ضرب آخر من الربا، وهو معكوس ربا النسيئة، حيث يحتاج الدائن مالَه قبل الإِبَّانِ المضروب أجلًا للسداد؛ فيقول للمدين: « ضَعْ وَتَعَجَّلْ! » أي: أَنْقُصْ من قَدْرِ رأسمال الدَّيْنِ، وَأَدِّهِ لي قبل موعد السداد المتفق عليه! وإنما قال له ذلك؛ لأن العرف الفاسد جرى باشتراطه، وهو نوع من ابتزاز المدين للدائن، واستغلال حاجته إلى ماله! وليس ذلك من قبيل التصدُّق والهبة. فلو كان كذلك فلا إشكال فيه. وإنما هو ضغط وإكراه. حيث يكون المدين أحيانًا أقوى من الدائن وأَمْنَعَ؛ مالًا وولدًا وقبيلةً. فلما جاء الإسلام حرَّم الصورتين معًا. وإنما نص على ربا النسيئة؛ لاشتهاره، ولغلبته على معاملات الجاهلية.

فهذه الآيات هي آيات تحريم الربا في القرآن، وهي أَصْرَحُ ما ورد في تحريمه. بل هي من أشد الآيات وعيدًا، وأرهبها تهديدًا! وأخطرها حظرًا لممنوع في القرآن! لِمَا فيها من إعلان ربِّ العزة ﷻ الحربَ على أهله وآكليه! فعقودُ الربا معاملةٌ مالية خبيثة وَسِخَةٌ، مناقضة تمامًا لطهارة الصدقات والزكوات؛ ولذلك جاءت آياته ههنا في مقابلة ما سبق ذكره من آيات الصدقات وما فيها من بركات؛ على عادة القرآن في إيراد الثنائيات المتناقضة في سياق واحد. وقد كان الكلام هناك عن المتصدقين الأبرار ونعيم الدرجات؛ بينما الكلام هنا عن الْمُرَابِينَ الأشرار وعذاب الدَّرَكَاتِ! ومِن ثَمَّ كان أَوَّلُ الوعيدِ وَصْفَ ما عليه أَكَلَةُ الربا من ضلال في الدين، وما يمارسونه من

تحريف وانحراف! وما يعانونه بسبب ذلك من تخبط نفسي، واقتصادي، واجتماعي! ومن تخبط جسدي أيضًا؛ بسبب العذاب الشديد في الآخرة! قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾، بمعنى أن الْـمُرَابِينَ لا يقومون من قبورهم عندما يُبْعَثُ الناس ليوم القيامة -كما أجمع عليه السلف [1] - إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ويتخبله؛ بما أصابه من الصرع! فلا يكاد يستوي قائمًا! فعَنْ عَوْفِ بن مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « إِيَّاكَ وَالذُّنُوبَ الَّتِي لا تُغْفَرُ: الْغُلُولُ؛ فَمَنْ غَلَّ شَيْئًا أَتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! وَآكِلُ الرِّبَا؛ فَمَنْ أَكَلَ الرِّبَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُتَخَبَّطُ! ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾! » [2].

والآية دالة أيضًا على تخبُّطهم في الدنيا، وأنهم لا تستقيم لهم حياة! بل يعيشون تعاسةً نفسية في كلِّ أحوالهم، النفسية والاجتماعية والاقتصادية! رغم ما يملكون من ثروة مزيفة! بل إنهم يشْقُون بما يملكون، ويَتْعسُون بما يكسبون! ذلك بأنهم حرَّفوا شريعة الرحمن، وزيفوا حقائق القرآن؛ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾. وهذا من أكبر التحريف والتزوير! وهي دعوى المرابين في كلِّ زمان. وهو نفسه المنطق المادي الخبيث الذي تقوم عليه فلسفة البنوك الربوية اليوم. التي تقوم باستئجار رؤوس الأموال وإيجارها بفائدة حرام! وقد أبطل الرحمن التسوية بين البيع والربا؛ حيث بَيَّنَ تعالى أنه أحل البيع وحرم الربا. ومعنى ذلك أن الربح الناتج عن البيع كسبٌ طيب حلال؛ لأنه عِوَضٌ عن خدمة تجارية يقوم بها البائع لصالح المشتري؛ إذ يوفر له السلعة ويجلبها له من مَحَالِّهَا، ويغامر بدفع رأسماله في أثمانها، فيتعرَّض لاحتمالات الربح والخسارة، واحتمالات الإنفاد أو الكساد. إلى غير ذلك من الجهود الإيجابية، التي تحرك الاقتصاد في المجتمع، ويسترزق بها كثير من الناس حوله، من أهل العمالة، والنقل، والخدمات... إلخ. فالبيع عمل وجهد ومشقة؛ ولذلك استحق صاحبه عِوَضًا شرعيًا، هو الربح الطيب

---

(١) ثبت ذلك عن ابن عباس بسند حسن، وهو من قبيل المرفوع. كما ثبت عن عدد من التابعين، ولم أر فيه خلافًا. ن. تفسير الطبري للآية.

(٢) رواه الطبراني في الكبير. وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب.

الحلال. وأما الربا فهو ضرب من الاستغلال البشع، بل هو أقذر معاملة مالية في تاريخ البشرية! فهو يقوم على احتكار مجموعة من المرابين للثروة، بصورة انتهازية قذرة! فالبنك الربوي اليوم يقوم بقرض عملائه أموالًا، هي في الأصل ودائعُ عُمَلاءٍ آخرين؛ فيفرض عليهم زيادات على حسب مدة القرض. إنه بعبارة أخرى يؤجر رؤوس أموال الناس للناس! ويستفيد زيادات غير مشروعة على رأس المال؛ لأن المال لا يلد المال، ولا الزمن يلد المال، وإنما استفاد المرابي فوائده المحرمة بهذين الاعتبارين. وإنما الذي ينتج المال حقيقةً هو العمل! سواء كان في التجارة أو الإجارة أو غيرهما من الخدمات. أما بيع الزمن أو كراء النقد، فإنما هو حيلة خبيثة، تؤول إلى نوع من الغصب والسرقة المقننة!

والبنوك المحلية والدولية في زماننا هذا شبكة عالمية واحدة! إنها عبارة عن أخطبوط أَذْرُعُهُ هي الأبناك المنتشرة في العالم هنا وهناك، سواء كانت في ملك مسلمين أو كفار، فهي ترجع إلى جسد واحد؛ للعلاقات الميكانيكية التي تربط بعضها ببعض. وأما رأسه فهي زمرة من اليهود ومن والاهم. من الذين يتربَّعون على عروش الأبناك الكبرى والبورصات العالمية العظمى. فالأبناك الصغرى تقوم بسف دماء المستضعفين في كلِّ مكان، ثم تضخُّها للأبناك المركزية اليهودية؛ مقابل هامش من الفوائد الربوية، لا يعتبر شيئًا بالنسبة إلى حجم ما يصل إلى يد البنوك العظمى، التي تتحكم في الاقتصاد العالمي، وفي اقتصاديات الدول الصغرى. فتكون الشبكة البنكية العالمية أشبه بعصابة إجرامية تعمل على استرقاق الشعوب، وتكبيلها بسلاسل الاستعباد، والتحكم في مقدراتها وأرزاقها؛ ظلمًا وعدوانًا! تمامًا كما كان يفعله الإنسان في العصر الجاهلي بصورة فردية جزئية! لكنه الآن تحول إلى استعمار عالمي كبير، وإلى لوبي دولي خطير! ترزح تحت أغلاله أغلب الدول الإسلامية إن لم يكن كلها! فزبون البنك هو الضحية دائمًا؛ لأنه يعمل من أجل أن يأكل المرابي، ويكدح من أجل أن يربح المرابي، ويشقى من أجل أن يتمتَّع المرابي! إنه مجرد عبد في خدمة سيده! أو ضحية في قبضة جلَّاده ومغتصبه! ذلك حال الدول العربية والإسلامية اليوم إزاء مؤسسات اليهود العالمية، كصندوق النقد الدولي، والأبناك العالمية الكبرى. فكثير من الحكام العرب قد باعوا شعوبهم لهؤلاء؛ مقابل دراهم معدودات، وضمانات للتربُّع على عروش السلطة ببلادهم إلى أجل غير محدود!

فكيف يكون البيع مثل الربا؟ كيف؟ وها قد حرم اللّٰه هذا وأحل ذاك! ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾! إن البيع عِزٌّ ومَنَعَةٌ، وكرامةٌ للبائع والمشتري معًا، بينما الربا استعلاء لآكِلِهِ واستكبارٌ، وَذُلٌّ لِمُوكِلِهِ وصغارٌ! وقد حرَّم اللّٰه ﷻ هذا وذاك على المسلمين تحريمًا غليظًا! ومِن ثَمَّ جاء هذا الحسم الإلهي في شأنه؛ فقال تعالى: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ بمعنى أن مَنْ تَلَقَّى موعظةَ اللّٰه، واستجاب لنهيه؛ فانقطع عن التعامل بالربا؛ فلا حرج عليه فيما أَكَلَ من الربا قَبْلُ، ولا يُطَالَبُ بِرَدِّ ما سلف أكله إلى أهله؛ لِمَا قد يكون من كثرته وعدم إحصائه؛ ولما يكون من الحرج في التكليف بمثل هذا؛ ولذلك كانت التوبة تغفر ما قبلها، كما كان الإسلام يَجُبُّ ما قبله؛ ولذلك قال: ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي: وأمر عفوه، وإسقاط التبعة عنه، فيما سلف له أكله من أموال الناس بالباطل؛ مردودٌ إلى اللّٰه. وهو تعبير دالٌّ على تحقُّق المغفرة من اللّٰه جَلَّ ثناؤه؛ إذِ المرءُ قد يتساءل ههنا: « وما مصير ما أخذ من أموال الناس من قبل؟ » خاصَّةً بعد أن قيل: ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ لأن الأصل في التوبة عن المظالم المالية هو رد الحقوق إلى أهلها؛ فأجاب اللّٰه تعالى بأنه هو يتولَّى ذلك؛ فقال: ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾. وأما من عاد إلى التعامل بالربا؛ بعد ورود هذه الآيات البينات الواضحات؛ فقد اقتحم النار على بصيرة! وأما الحكم عليه بالخلود في العذاب ههنا فله احتمالان، أحدهما: أنه بسبب كونه قد عاد إلى قول من قالوا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ ﴾؛ وهذا كفر يستوجب خلودًا حقيقيًّا في النار والعياذ باللّٰه؛ حيث استحلَّ ما حرَّم اللّٰه. وهو من الكفريات بالإجماع.

وإنما كان ذلك قول المنافقين بالمدينة، الذين هَالَهُمْ أن يُنزل اللّٰه تحريم الربا، وقد كان أساس تجارتهم! والثاني: أنه بسبب عود المسلم العاصي إلى التعامل به؛ فيكون خلوده في النار - ولا خلود لمسلم عاصٍ في النار كما تقرَّر عند علماء السنة - بمعنى بقائه فيها مدة طويلة والعياذ باللّٰه! وهو خلود نسبي! فكيف بإنسان يبقى في جهنم ألف سنة مثلًا؟ أو مائة ألف سنة؟ أو أكثر؟ نسأل اللّٰه العافية! وعَدُّ السنين هناك طبعا هو بالزمن الأخروي! حيث اليوم بألف سنة من زمن الدنيا؟ ألَا وإن ذلك لَضربٌ من الخلود وإن لم يكن مؤبَّدًا! وما ذاك إلا لشدة غضب اللّٰه ﷻ على أَكَلَةِ الربا والمتعاملين به! نجانا اللّٰه وإياكم من النار قليلها وكثيرها! وأدخلنا الجنة برحمته من غير سابقة عذاب! آمين!

ثم تابع الحقُّ ﷻ إحكامَه لتحريم الربا، والتشنيع الشديد على أهله؛ حيث توعدهم بالسحق والمحق، والخسران المبين في الدنيا والآخرة، فقال ﷻ: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ فَالْمَحْقُ: هو السحق، والمحو، بمعنى أنه تعالى يمحق بركةَ المال الربوي في الدنيا، ويصيب صاحبه بالهلع! ويجعل ماله كالماء المالح المر، كلما شرب منه ازداد عطشًا! فلا يزال كذلك حتى تنفجر بطنه! لأن المال الربوي مال خبيثٌ نَجِسٌ، عديم النفع، ممحوق البركة! ومِن ثَمَّ فلا يجد آكلُه ومُوكِلُهُ في الآخرة إلا جبالًا من الخطايا والسيئات! أما المتصدق فإنه يبارك اللّه له في رزقه في الدنيا؛ فينفعه سبحانه بقليله وكثيره، ثم يجد صدقاته في الآخرة قد رَبَتْ فعلًا عند اللّه ونَمَتْ! وقد سبق حديث النبي ﷺ « **مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَصْعَدُ السَّمَاءَ إِلَّا طَيِّبٌ - إِلَّا وَهُوَ يَضَعُهَا فِي يَدِ الرَّحْمَنِ، أَوْ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ؛ فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ** (١)؛ **حَتَّى إِنَّ التَّمْرَةَ لَتَكُونُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ!** » (٢) ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ والكَفَّارُ: هو الكافر الشديد الكفر. والأثيم: الذي استحق الإثم وغرق فيه. فهؤلاء قد حُرِمُوا محبةَ اللّه؛ بمعنى أنهم بَاؤُوا بسخطه وغضبه، والعياذ باللّه! وإنما عَنَى به ههنا المنافقين الذين استحلُّوا الربا! والنفاقُ من أخبث الكفر. وما يزال طابور المنافقين أخطر خلل في صرح الأمة إلى اليوم!

ومِن ثَمَّ ثَنَّى - كالعادة عند ذكر العذاب - بتطمين المؤمنين إلى رضا ربِّهم، وإلى ما ادخره لهم عنده من أجر عظيم ومقام كريم! وذلك بما صَدَقُوا اللّهَ في إيمانهم، وبما عملوا من الخير، وما قدَّموا لأنفسهم من الحسنات، مقيمين للصلاة، مؤدين للزكاة، لا يتخلفون عن القيام بحقٍّ من حقوق اللّه في أنفسهم وعباداتهم وأموالهم؛ فهؤلاء هم الآمنون يوم الفزع الأكبر، الذين لا يتحسَّرون على ما فاتهم من زهرة الحياة الدنيا، ولا يندمون على ما قَدَّمُوا من الأعمال الصالحة، ولا على ما فعلوا من الصدقات، وما تركوا من التعامل بالربا. بل يجدون عند اللّه ما يَسُرُّهم،

---

(١) الفَلُوُّ: الْمُهْرُ الصغير، وهو ولد الفَرس. والفَصِيلُ: ولد الناقة.

(٢) سبق تخريجه.

ويسعدهم السعادة الكبرى! فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ﴾.

ولِحَسْمِ حُكْمِ الربا، وقطعِ كُلِّ جَدَلٍ عقيم؛ خاطب اللّٰه تعالى المؤمنين بهذا الإعلان النهائي الرهيب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ ﴾ وهذا نهي شديد ووعيد أكيد، على التمادي في متابعة المدينين بما ترتَّب عليهم من الربا الخبيث، وبما بقي عليهم من فوائده الحرام! وقد ذكر المفسّرون - فيما ذكروا - أنها نزلت في قبيلة من العرب كانت تجارتهم الربا، فلما أسلموا اشترطوا قبض ما لهم من « فوائد » على قبيلة أخرى، وكان مالًا كثيرًا! فنزلت الآية بهذا الوعيد الشديد! [1].

وقد خاطب اللّٰه المؤمنين ههنا بصفة الإيمان؛ لتنبيههم إلى أن أكل الربا مخالف لكمال الإيمان! وأنما الْمُرَابَاةُ خُلُقٌ من أخلاق الكُفَّار! وأن تقوى اللّٰه ومعرفة ما أعده للمُرَابين من عذاب شديد؛ تقتضي من المؤمن الحقِّ الانقطاع التَّام عن الربا، أَكْلًا ومُآكَلَةً، وعدمَ متابعةِ المَدِينِ بما بقي له منه! ولذلك قال: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا من أشد الوعيد وأرهبه! لأن فيه إبطال ثمرة الإيمان، والتشكيك في حقيقته؛ للمسلم المصرِّ على التعامل بالربا! وليس معناه التكفيرَ العَقَدِيَّ، ولكنه ذَمٌّ للمرابي، وتشبيه لحاله ومآله بحال الكافر ومآله. وهو ما يُسَمَّى عند العلماء بالكفر العملي. ولذلك توعَّد المصرين على الربا بحرب منه ﷻ ، ومن رسوله! قال ابن عباس ﵄ في تفسير هذه الآية: (مَنْ كانَ مُقِيمًا على الربا لا يَنْزِعُ عنه؛ فَحَقٌّ علَى إِمَامِ المسلمين أن يَسْتَتِيبَهُ ، فَإِنْ نَزَعَ وإلَّا ضَرَبَ عُنُقَهُ!) [2] وقال الإمام البغوي في تفسيره: (قالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: حَرْبُ اللّٰهِ النَّارُ! وحَرْبُ رَسُولِ اللّٰهِ السَّيْفُ!) [3].

وقد نَكَّرَ تعالى عبارةَ « حَرْبٍ » هنا؛ للدلالة على التهويل والتعظيم! وهي حَرْبٌ

(١) ن. الآية في تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري للآية، وكذا تفسير ابن أبي حاتم، والدر المنثور للسيوطي.

(٣) ن. الآية في تفسير البغوي.

شاملة عامَّة، لا تصيب جانبًا من حياة المرابي دون جانب! بل هي تقع عليه في نفسه، وصحَّته، وماله، وتجارته، ومعيشته، وأسرته، وجميع مصالحه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية! تتنزَّل عليه الرزايا والبلايا من كلِّ نوع وفي كلِّ شيء! فلا يجد لنفسه ساعةَ راحةٍ أبدًا، ولا يذوق طعم سعادةٍ أبدًا، ولا يتمتع بلحظة أمانٍ أبدًا! بل يعيش حالةَ حرب شاملة! يمزِّق الخوفُ أعصابَه، ويحطم الهَلَعُ آمالَه! يَبِيتُ على أَرَقٍ، ويصبح على قَلَقٍ! حيثما توجَّه وجد اللَّهَ له بالمرصاد! وكيف لا؟ وقد أعلن عليه رَبُّ العزة الحربَ إعلانا! إذ قال ﷻ : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... ﴿٢٧٩﴾ ﴾ فهي حرب رهيبة معلنة! يجد المرابي التعيسُ جراحَها غَائِرَةً ظاهرةً؛ بما يصيبه في حياته من دمارٍ نفسي، وخرابٍ اقتصادي؛ إلى أن يموت مذمومًا مدحورًا! ولذلك لما نزلت هذه الآية قال الصحابة رضوان اللَّه عليهم: « لا طاقة لنا بحرب اللَّه ورسوله! » فتركوا الربا وانقطعوا عنه انقطاعًا! ومَنْ ذَا يتجَرأ على حربِ اللَّه إلا جاهلٌ باللَّه! أما من تاب فإن اللَّه يتوب عليه، وله أن يستردَّ رأسماله بلا زيادة ولا نقصان، فلا ضرر في الإسلام ولا ضرار. ومِن ثَمَّ فقد ترجم النبيُّ ﷺ هذا الإعلان الإلهي العظيم، بما رفعه من ندائه التاريخي الشهير يومَ الحج الأكبر، حيث أعلن للناس تحطيم صنم الربا، ووضعه تحت قدميه عليه الصلاة والسلام! ففي حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ في حجة الوداع، أنَّ النبي ﷺ قام في الناس خطيبًا، فقال فيما قال: « **أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَي مَوْضُوعٌ! (...) وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ! وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ!** »[١].

ثم أرشد اللَّه - جَلَّ ثناؤه - المؤمنين إلى هذا الـخُلُقِ الكريم، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ وهذا ما لا تعرفه الحضارة الغربية المادية المتوحِّشة في زماننا هذا على الإطلاق! كيف يُمْهِلُونَ الْـمَدِينَ الذي تَعَسَّرَتْ ظروفُه المالية؟ وكيف يُنْظِرُونَهُ دون أن يُثْقِلُوا كاهلَه بالزيادات الخبيثة؛ بما يجعله عبدًا لهم إلى أن يموت؟! أما المؤمن فمندوبٌ إلى إمهال الْـمُعْسِرِ إلى حين تتيسَّر أحواله، وتنفرج أَزْمَتُهُ، بل مندوبٌ إلى التصدق عليه ببعض رأس المال أو بِكُلِّهِ! وهذا مجال يتنافس فيه المؤمنون، كلٌّ على قدر إيمانه؛ ولذلك

---

(١) رواه مسلم.

قال: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ما أعدَّ اللَّه - جَلَّ ثناؤه - من الجزاء العظيم؛ للمتصدِّقين على الْمَدِينِينَ الْمُعْسِرِينَ!

ثم ختم السياق كله بهذه الآية العظيمة، فقال: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾. هذا أساس التشريع الإسلامي، وهذه قوَّته وعظمته، وهنا سر نجاحه واستمراره: ربط الأحكام بالإيمان! وتعميق وعي المؤمنين بحقيقة المآل الأخروي، والجزاء الموعود ليوم الحساب! ومِن ثَمَّ فقد أمر تعالى باتقاء اليوم الآخر؛ بما هو باعث على تقوى اللَّه، وعَبَّرَ سبحانه بتنكير لفظ « يَوْمٍ »، فقال: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ وذلك لتهويله وتعظيمه! فتنزجر القلوب، وترعوي النفوس، وتستقيم الأعمال على ميزان شرع اللَّه وأحكامه! وهذا ما لا يملكه قانون وضعي على الإطلاق! وتلك من أعظم ثغراته، ومن أخطر هَنَاتِهِ؛ إضافةً إلى كونه تشريعًا بغير ما أنزل اللَّه! فقد خاطب اللَّه ههنا المؤمنين المنهيين عن التعامل بالربا، والمأمورين بإمهال المعسرين والتصدُّق عليهم؛ بأن يتَّقوا اللَّه عمومًا، ويتَّقوه في معاملة الناس خصوصًا، وأن يستحضروا حقيقة اليوم الآخر، وما فيه من جزاء وحساب، ومن عرض الأعمال على اللَّه، حيث تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ، وما قَدَّمَتْ من صدقاتٍ وتيسيراتٍ على الْمُعْسِرِينَ؛ أَجْرًا مضاعَفًا! فلا يُبْخَسُ أحدٌ حَقَّهُ ولا يُنْتَقَصُ مؤمنٌ أَجْرَهُ. وكيف يُظْلَمُ أحدٌ عند اللَّه وهو - جَلَّ ثناؤه - الرحمن الرحيم الجواد الكريم؟ فاللَّهم ثبتنا على طريق الدين، وارزقنا جمال اليقين، واجعلنا لك من الشاكرين!

٣- الهدى المنهاجي:

وهو ههنا في الرسالات التسع التالية:

الرسالة الأولى: في أن الربا من أكبر الموبقات، ومن أخبث المحرمات! حرَّمه اللَّه على المسلمين تحريمًا، وتَوَعَّدَ أَهْلَهُ بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة! فَائِدَتُهُ سُحْتٌ، ورزقه خبيث، وربحه نَجِسٌ، والمعاملة به فُجُورٌ، وإِبْرَامُ عَقْدِهِ تَقَحُّمٌ للنار على بصيرة! ولا يتجرَّأ عليه إلا جاهل باللَّه وبسلطانه العظيم! وما تَوَعَّدَ اللَّهُ ﷻ الناسَ بوعيد أشد ولا أرهب - بعد الشرك والكفر - من التعامل بالربا! وقد رأيتَ ما أعلن اللَّه فيه من الحرب على أهله وآكليه! وكفى بذلك للمؤمنين نذيرًا! وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ الْـمُقَدَّسَةِ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِـي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِـي فِيهِ؛ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ! فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِـي فِيهِ بِحَجَرٍ؛ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ! فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ [الْـمَلَكُ]: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِـي النَّهْرِ آكِلُ الرِّبَا! » [١] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « الرِّبَا سَبْعُونَ حُوبًا [أي: وِزْرًا] أَيْسَرُهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ! » [٢] وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ غَسِيلِ الْـمَلائِكَةِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ؛ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً! » [٣].

فعجبًا من قوم مسلمين يُشَاحُّونَ في الربا! ويَسْعَوْنَ لاستصدار فتاوى باطلة، تجعل لهم مسلكًا إلى الحرام الخبيث؛ بذريعة الضرورة التي لا ضرورة لها! ألَا وإنه لا يتجرأ على حرمات اللَّه إلا جاهل باللَّه!

الرسالة الثانية: في أن اللَّه لعن في الربا ما لعن في الخمر! أعني: آكِلَ الربا، ومُوكِلَهُ، وكَاتِبَهُ، وشَاهِدَهُ، ووَكِيلَهُ، ووَسِيطَهُ، وكَاتِبَ عَقْدِهِ، وضاربَ خَاتِمِهِ، ومُدِيرَ مالِه، ومُوَظَّفَ إدارتِه، وسائقَ شَاحِنَتِهِ ...إلخ. والمقصود لعن كلٍّ من أسهم في خدمة المؤسسة الربوية! فكل أولئك ملعونون بلعنة اللَّه، ومعنى « لعنة اللَّه »: الطرد من رحمته تعالى والعياذ باللَّه! فَعَنْ جَابِرِ بنِ عبد اللَّه ﷺ قَالَ: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ! وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ!) [٤]؛ لأن منهج الإسلام في منع المحرمات هو ضرب الحصار عليها، وتحريم تجارتها، وجميع خدماتها! وما حرَّم اللَّه شيئًا إلا حرَّم الطرق الموصلة إليه؛ ولذلك كانت أطراف المعاملة الربوية كلها ملعونةً بلعنة اللَّه ورسوله ﷺ، سواء الآخذ والمعطي؛ لقوله ﷺ في حديث آخر أيضًا: « الآخِذُ وَالْمُعْطِي

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي في الشعب، وصححه الألباني في صحيح الترغيب وصحيح الجامع وصحيح ابن ماجه.

(٣) رواه أحمد، والبيهقي في الشعب، والدارقطني. وصححه الألباني في الصحيحة، وقال: « رجاله رجال الشيخين ». كما صححه في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

(٤) رواه مسلم.

فِيهِ سَوَاءٌ! » (١) وكذا كل من أسهم في إبرام عقوده، وتحرير وثائقه، وإصلاح آلاته وبناياته... إلخ. فكل أولئك يجري عليهم قول الرسول ﷺ في الحديث المذكور قبلُ: (هُمْ سَوَاءٌ!) أي: متساوون فيما يصيبهم من اللعنة، والعياذ بالله!

الرسالة الثالثة: في أن مِنْ عِلَلِ تحريم الربا - إضافةً إلى معنى استغلال الضعيف والمحتاج - تحريفَ شريعة الرحمن؛ بجعل ما شرعه تعالى لمقاصدِ البر والإحسان، وطلبِ وجه الله والدار الآخرة؛ وسيلةً لكسب الدنيا والربح الماديِّ الصِّرف! وهذا من باب تحويل العبادة إلى عادة! تمامًا كمن طلب أجرة دنيوية على صلاته وصيامه! وهذا من أخطر التحريف والتزوير! ومن أسوأ الافتئات على الله! ومن هذا الباب شارك مُوكِلُ الربا آكِلَهُ في الوِزْرِ، وكل من ساعد على تمام عقده، وخدمة مؤسسته! ذلك أن الله تعالى جعل القرض الحسن، والسَّلَفَ الطيب الكريم؛ أصلًا من أصول الأخلاق في الإسلام - كما سيأتي بيانه في الرسالة التالية - وذلك لتأسيس المجتمع الإسلامي على معاني التعاطف، والتَّوَادِّ، والتراحم، والتكافل، والتعاون الإحساني؛ بما يميز مجتمع المؤمنين عن مجتمع الكافرين. ومِن ثَمَّ كان السعي إلى تدمير هذا المعنى العظيم في الأمة؛ تَعَدِّيًا سَافِرًا على حَدٍّ جليل من حدود الله، وانتهاكًا خطيرًا لحرمةٍ من أعظم حرمات الله! ولذلك أعلن الجبار ﷻ الحربَ على فاعليه!

الرسالة الرابعة: في أَنَّ الْقَرْضَ الْحَسَنَ، وما يرتبط به من أخلاق التيسير على الْمُعْسِرِ؛ هو من أعظم القربات إلى الله. وهو أصل من أصول الاقتصاد الإسلامي، وأساس من أسس الضمان الاجتماعي، كالزكاة وأنواع الصدقات والمساعدات؛ ولذلك فقد رَتَّبَ الله للمقرض من الأجر نِصْفَ ما رتبه للمتصدق برأسماله؛ لأن القرض الحَسَنَ صدقةٌ حقيقيةٌ بالمتوقَّع من أرباحه، وصدقةٌ حقيقية بمنفعته؛ لاستغلاله فيما نَزَلَ بالمقترض من تفريج الأزمات، وسدِّ الخلات، وقضاء الحاجات.. إلخ. فعن ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « **كُلُّ قَرْضٍ صَدَقَةٌ!** » (٢) وعَنْهُ ﷺ أيضًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ السَّلَفَ يَجْرِي مَجْرَى شَطْرِ الصَّدَقَةِ!** » (٣) وعنه أيضًا ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَنْ أَقْرَضَ شيئًا مَرَّتَيْنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ**

---

(١) جزء حديث متفق عليه، وسيأتي بتمام نصه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه أحمد، وأبو يعلى. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، والإرواء، وصحيح الجامع. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

أَجْرِ أَحَدِهِمَا لَوْ تَصَدَّقَ بِهِ! » (١).

هذا في القرض الحاجي العادي. أما إن أقرض مُعْسِرًا مضطرًّا فإن اللّه يرتب له صدقةً كاملةً وزيادة! ولذلك فقد أثبت النبي ﷺ لصاحب القرض الحسن، الْمُمْهِلِ لِلْمُعْسِرِ، من الأجر ما هو أعظم من ذلك وأكرم! حيث ورد عنه ﷺ بيانٌ عجيبٌ في حديثٍ صَحيحٍ مَليحٍ، يَرْوِيهِ بُرَيْدَةُ ﷺ قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ!** » قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ!** » قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَقُولُ: « **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ** »، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: « **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ!** » فَقَالَ ﷺ: « **لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ. فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ!** » (٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ!** » (٣).

فالقرض الحسن - كما رأيت - ينبني على أسس متينة من الأخلاق الرحيمة، والشِّيَم الكريمة. وقد رُوِيَ في ذلك قصةٌ رفيعةٌ تدل على جمال الدين وجلاله، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ: (أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ ﷺ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ دَيْنٌ، وَكَانَ يَأْتِيهِ يَتَقَاضَاهُ فَيَخْتَبِئُ مِنْهُ! فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَخَرَجَ صَبِيٌّ فَسَأَلَهُ عَنْهُ؛ فَقَالَ: نَعَمْ، هُوَ فِي الْبَيْتِ يَأْكُلُ خَزِيرَةً! [وهي: حَسَاءُ نُخَالَةٍ] فَنَادَاهُ: « يَا فُلانُ! اخْرُجْ فَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكَ هَهُنَا! » فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا يُغَيِّبُكَ عَنِّي؟ قَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، وَلَيْسَ عِنْدِي! قَالَ:

---

(١) رواه ابن حبان، والطبراني في الكبير، وروى نحوه البيهقي في الكبرى وفي الشعب. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، والإرواء.

(٢) رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقي في الشعب، والحاكم وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، والصحيحة، والإرواء، وصحيح ابن ماجه. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه مسلم.

آللَّهِ إِنَّكَ مُعْسِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَبَكَى أَبُو قَتَادَةَ ﷺ ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ، أَوْ مَحَا عَنْهُ؛ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** »)[١] وفي لفظ مسلم: (**قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ!**) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا! فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ!** »[٢].

فهذه هي أخلاق القرض الحسن في الإسلام. ولا يُتَصَوَّرُ سَلَفُ مؤمنٍ صادقٍ من دونها. وكل ذلك من أصول الاقتصاد الإسلامي. ويخطئ من يظن أنها من الكماليات والجزئيات، بل هي من أصول الكليات، والقواعد الأساسيات! ثبت ذلك بالاستقراء القطعي لنصوص الكتاب والسنة.

الرسالة الخامسة: في أن الرِّبَا نوعان: رِبَا فَضْلٍ، ورِبَا نَسِيئَةٍ. فأما رِبَا النَّسِيئَةِ: فهو ما شرحناه في البيان العام، من فرض الفائدة على الْمَدِينِ في قرض أو تجارة؛ بزيادة على تأخير الأداء. ومعنى النسيئة والإِنْسَاءِ: التأخير والتأجيل. وهو رِبَا الجاهلية المشهور، الذي حرَّمه اللَّه بنصِّ القرآن. وهو الذي عليه أغلب المؤسسات البنكية المعاصرة.

وأما رِبَا الفَضْلِ: فهو الزيادةُ الْمُتَحَصِّلَةُ عن مُبَايَعَةٍ نَاجِزَةٍ، أي واقعة في الحين من غير تأجيل ولا تأخير؛ لأنه يؤول إلى نفس النتيجة التي من أجلها حُرِّمَ رِبَا النسيئة. وهو منحصر في ستِّ موادَّ تجارية هي أصول لما سواها مما يُقَاس عليها، وهي: الذهب، والفضة، والقمح، والشعير، والتمر، والملح.

ويتحقَّق الربا فيها بحصول أحد المتبايعين على زيادة ما؛ عند بيع الجنس الواحد منها بجنسه، كبيع ذَهَبٍ بِذَهَبٍ، ولو يَدًا بِيَدٍ - أي ولو بصورة ناجزة لا تأخير فيها - لكن بزيادة لصالح أحد الطرفين، أو بيع قنطار من القمح بقنطارين من القمح يَدًا بِيَدٍ. وهكذا. كما يتحقَّق الربا فيها بتأخير التقابض لأحد المبيعين، ولو اختلف الصنف مع اتحاد العِلَّة، كذهبٍ بفضةٍ، أو كقمحٍ بشعيرٍ أو تمرٍ أو ملحٍ. كما سيأتي بيانه قريبًا؛ لأنه مظنة لحصول الزيادة والنقصان بتأخر القبض؛ إذ القيمة في البضاعة تزيد وتنقص مع

---

(١) رواه مسلم وأحمد واللفظ له. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط عن رواية أحمد: « إسناده صحيح ».
(٢) متفق عليه.

الزمن، وهو عين الربا. وهذا قد تواتر تحريمه عن النبي ﷺ. فمن أشهر الأحاديث في ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ! وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ! وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ! وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ!** »(١) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ؛ مِثْلًا بِمِثْلٍ، يَدًا بِيَدٍ. فَمَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى؛ الآخِذُ وَالْـمُعْطِي فِيهِ سَوَاءٌ!** »(٢) والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى كثيرة.

وبيانه: أنه لا يجوز استبدال ذهبٍ بذهبٍ، ولا فضةٍ بفضةٍ، إلا بشرطين اثنين. الأول: أن يكونا متساويين، والثاني: أن يتم التبادل يدًا بيد، أي بدون تأخير في القبض أو العطاء من أحد الطرفين. وكذلك الأمر في سائر المطعومات الأربعة، إذا كانت البضاعة من صنف واحد، أي قمحًا بقمحٍ، أو شعيرًا بشعيرٍ...إلخ. أما إذا اختلفت الأصناف كذهب بفضة، أو كقمح بشعير أو بتمر، فيجوز التفاضل أي بزيادة في أحد الطرفين. ولكن لا تجوز النسيئة، وهي تأخير أحدهما قبضًا أو عطاءً. بل لا بد من تمام التقابض في المجلس.

ولا رِبًا في البيع بالفضل أو بالنسيئة عند اختلاف عِلَّتِهِ في المبيعين، كبيع ذهبٍ بقمحٍ. فأنت تلاحظ أن الذهب والفضة تجمعهما الثَّمَنِيَّةُ، أي كونهما ثَمَنًا للأشياء، وعِوَضًا لِلْمُقَوَّمَاتِ. وهما أساس القيمة في كل مال وبضاعة. كما أن القمح، والشعير، والتمر، والملح، يجمعها معنى واحد: هو كونها من المطعوم المقتات الْمُدَّخَرِ. أو بلغة العصر: من المواد الغذائية الضرورية بل هي أصولها. فالقمح والشعير هما أساس التغذية العالمية؛ ولذلك كانت العرب قديمًا تسميهما « الطعام »، هكذا بإطلاق؛ لكونهما غالبَ طعامهم وأساس قوتهم. ويقاس عليهما اليوم الأرز؛ لغلبته على معيشة كثير من الشعوب. وأما التمر فهو أساس المكمِّلات الغذائية في كثير من البلاد، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « **يَا عَائِشَةُ! بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ! بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ! قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا!** »(٣) ويقاس عليه الزبيب، والتين

---

(١) رواه البخاري. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

المجفف، والزيتون، وما شابهها من الأقوات المدخرة. وأما الملح فهو أساس التوابل والمطيِّبات، ويقاس عليه كُلُّ ما عَمَّتْ به البلوى في مثله. والعِبْرة في ذلك ما جرى به العرف الغذائي هنا أو هناك.

ويقاس على الذهب والفضة النقود المالية المعاصرة، كسائر العملات العالمية الورقية والمعدنية؛ لأن تحديد قيمتها راجعة إليهما. فما يشترط في الصنف الواحد منهما يشترط في الصنف الواحد من العملات الآن. وكذلك إذا اختلفت الأصناف النقدية كاستبدال عملة بأخرى غيرها، جاز آنئذ التفاضل وامتنع التأخير. كما يُقاس الْمُقْتَاتُ الْمُدَّخَرُ من المواد الغذائية المختلفة اليوم على ما ذُكر في الحديث، كالأرز والزيتون والزبيب مثلًا بالنسبة للبلاد التي تقتات به، فيجري عليه نفس الحكم مع نفسه، ومع غيره من المواد الغذائية الضرورية لقوت الناس، على حسب العرف والعادة الجارية. فكل ذلك يجري على القاعدة المذكورة أعلاه.

وخلاصة الأمر أن الربويات الستة تنقسم من حيث التعليل الربوي - باصطلاح الفقهاء - إلى **علتين اثنتين، العلة الأولى هي: الثَّمَنِيَّةُ**، ويندرج ضمنها الذهب والفضة، وما يقاس عليهما من نقد معاصر. **والعلة الثانية هي: القُوتِيَّةُ**، من المواد الغذائية الأساسية في حياة البشر. وتُتَصَوَّرُ عقودُ البيعِ فيها **على ثلاث حالات**، اثنتان منها ربوية محرمة، والثالثة جائزة لا ربا فيها. وبيان ذلك كالتالي:

الحالة الأولى: إذا اتحدت العِلَّةُ والصِّنْفُ في البَدَلَيْنِ؛ امتنع الفضلُ والنسيئةُ معًا؛ لأنهما يَؤُولانِ إلى الربا كما بيناه. وذلك كبيع ذهبٍ بذهبٍ. أو قمحٍ بقمحٍ، أو تمرٍ بتمرٍ. فلا بد فيهما من تساوي البضاعتين في الوزن، أو الكيل، ومن التقابض في المجلس من غير تأخير أحدهما. ولا عبرة بالجودة والرداءة في البضاعة، ما دامت من نفس الصنف! فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، كِلَيْهِمَا ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرَ، فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ [وَهُوَ تَمْرٌ رَفِيعُ الْجَوْدَةِ]؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟** » فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ مِنَ الْجَمْعِ، وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ! [والْجَمْعُ: رَدِيءُ التَّمْرِ، وهو الخَلْطُ]؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **فَلَا تَفْعَلْ! بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا!** »)[١].

(١) متفق عليه.

وكذلك الشأن في ذهب قديم بجديد، لا عبرة بنقشه ولا بشكله، كحلي متكسرة بحلي سليمة جديدة، لا تُستبدلان إلَّا وَزْنًا بوزنٍ، وَيَدًا بِيَدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أَرْبَى! وإلا فَلْتُبَعْ إحداهما بِنَقْدٍ نَاضٍّ، ثم تُشْتَرَى الأخرى بنقدٍ نَاضٍّ أيضًا. كما في حديث التمر المذكور.

الحالة الثانية: إذا اتحدت العلة واختلف الصنف جاز الفضل وحرمت النسيئة. كبيع ذهب بفضة، أو بيع قمح بشعير، فههنا يجوز أن يكون أحد البدلين أكبر من الآخر كَيْلًا أو وزنًا، لكن تحرم النسيئةُ، بمعنى أنه لا بد من التقابض في نفس المجلس؛ وإلا آل البيع إلى الربا؛ لأن قِيَمَ هذه الأمور تزيد وتنقص في الغالب تلقائيًا مع الزمن، كما هو حال العملات النقدية اليوم، فهي أسرع في الزيادة والنقصان ما بين اليوم والليلة!

الحالة الثالثة: إذا اختلفت العلة، فههنا قطعًا سيكون الصنف مختلفا؛ كبيع ذهبٍ بقمحٍ، أو بتمرٍ، أو بملحٍ؛ فهذا لا ربا فيه البتة. سواءٌ كَبُرَ كَيْلُ أَحَدِ البَدَلَيْنِ أو وَزْنُهُ، وسواءٌ تم التقابض في المجلس أو تأخر أحدهما؛ فلا ربا في كل ذلك. وهذا هو أصل البيع الذي أحله الله.

وقَصْرُ الشارع الحكيم اعتبارَ الربا في البيوع على هذه الأمور الستة، وعلى ما يُقَاسُ عليها مما ذكرنا؛ راجع إلى كونها أساس المعيشة البشرية في المال والتغذية، واضطرار جميع الخلق إليها. فتحريم الربا فيها ضَمَانٌ لوفرتها، ومَنْعٌ لاحتكارها، ولاستغلال الضعفاء بها. وهذا من أكرم التشريعات الإسلامية في المعاملات المالية. ومن أجمل الحِكَمِ الربانية في بناء اقتصاد الأمة الإسلامية. فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة!

هذا هو المعنى العام لِمَا يُسَمَّى بالربويات السِّت، وهذه أحكامها الشرعية على الإجمال دون تفصيل. وإنما القصد ههنا التنبيه. وفيها اجتهاداتٌ مختلفةٌ تعليلًا وتنزيلًا، لدى القدماءِ والْمُحْدَثِينَ. ولها نوازل لا تنحصر. والواجب على المؤمن أن يرجع فيما يُلِمُّ بِهِ من ذلك إلى استفتاء ثقات العلماء. فلا يُقْدِمُ على عَمَلٍ حتى يعلم حكم الله فيه. وهذا مما يجب على كلِّ مسلم مَعْرِفَتُهُ إجمالًا؛ ولذلك قيدناه في رسالات الهدى ههنا؛ لأن من أصول المنهاج الإسلامي تفقيهَ الجيلِ في كليات الأحكام الشرعية؛ مما لا يُعذَر أحد بجهله. ولا حرج بعد ذلك إذا غابت التفاصيل،

بل هي من اختصاص العلماء وطلبة العلم الشرعي [(١)].

الرسالة السادسة: في تحريم بيوعٍ ملحقةٍ بالربا؛ كالْمُزَابَنَةِ، والْمُحَاقَلَةِ، وبيعِ العِينَةِ، وأشباهها. وخلاصتها كما يلي:

فأما الْمُزَابَنَة: فهي بيع رُطَبِ النخل بالتمر. وهو ممنوع لما يؤول إليه من الربا؛ لأن الرُّطَبَ - وهو جديد التمر الذي لم يجفّ بعد - يَنْقُصُ وَزْنُهُ إذا جَفَّ وصار تمرًا. حيث يجري اصطلاح « التمر » على ما جفَّ منه. فَبيْع الرطب بالتمر ولو تساوى الكيل في الظاهر غرَرٌ؛ لأنه لا يُدْرَى وَزْنُ الرطب على الحقيقة ولا كَيْلُهُ حتى يجفَّ. فمنع النبيُّ ﷺ هذه الصورة من البيع. فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُزَابَنَةِ. وَالْمُزَابَنَةُ: بَيْعُ ثَمَرِ النَّخْلِ بِالتَّمْرِ كَيْلًا، وَبَيْعُ الزَّبِيبِ بِالْعِنَبِ كَيْلًا، وَعَنْ كُلِّ ثَمَرٍ بِخَرْصِهِ) [(٢)]. والخَرْصُ: التقدير التقريبي، غير المنضبط إلى وزن حقيقي.

وأما الْمُحَاقَلَةُ: فهي بيع القمح وهو ما يزال في سنبله في الحقل؛ بِخَرْصِهِ قَمْحًا جاهزًا في أكياسه أو بَيْدَرِهِ. وهو أيضا مَظِنَّةٌ للربا زيادةً ونقصًا؛ بسبب استحالة ضبط الوزن والكيل في السنبل؛ على ما يساوي القمح الجاهز. فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْمُخَابَرَةِ، وَالْمُحَاقَلَةِ، وَالْمُزَابَنَةِ، وَعَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى تُطْعِمَ، وَلا تُبَاعُ إِلَّا بِالدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ، إِلَّا الْعَرَايَا!) [(٣)] والعَرَايَا: جمع عَرِيَّةٍ، كهدِيْة. وهي: بيع رُطَبِ النخلة الواحدة والنخلتين بخرصها تمرًا، لا لغرض تجاري صرف، وإنما ارتفاقًا بالناس، وإحسانًا لمن لا رُطَبَ لهم، تأكله أسرتهم وأطفالهم. وإنما جاز ذلك في القليل، فإذا كَثُرَ صار مُزَابَنَةً.

وأما الْمُخَابَرَةُ فهي: كراء الأرض ببعض ما تُنتج من زرع أو خُضَرٍ. وقد مُنِعَتْ لعلة الغَرَرِ، وجهالة الثمن؛ حيث لا يُعْلَمُ مِقْدَارُ نتاجها، مع تعرضها للجوائح والآفات. فلا تُكْرَى إلا بالنقد. وقد قَعَّدَ الفقهاءُ قاعدةً جامعةً لكل ذلك، فقالوا: (الْجَهْلُ بِالْمُمَاثَلَةِ كَحَقِيقَةِ الْمُفَاضَلَةِ!).

---

(١) يُنْظَرُ لمن شاء المزيد كُتُبُ فقهِ الحديث، مثل كتاب الاستذكار لابن عبد البر، ونيل الأوطار للشوكاني، وسبل السلام للصنعاني، وكذا كتب الفقه المقارن كبداية المجتهد لابن رشد، وأضرابها.

(٢، ٣) متفق عليه.

وأما بيعُ العِينَةِ: فهو شِرَاءُ الرَّجُلِ سلعةً بثمن إلى أَجَلٍ، ثم بيعها لصاحبها بأقل من ذلك الثمن، نقدًا نَاجزًا. وهذه حِيلَةٌ وذريعةٌ لبيع نَقْدٍ بِنَقْدٍ تفاضلًا، وهي تَؤُولُ إلى قَضَاءِ سَلَفٍ بزيادةٍ ربويةٍ على أصله. وهو عين ربا النسيئة من ربا الجاهلية المذكور. وذلك كأن يشتري الرجلُ ثَلَّاجَةً مثلًا بسبعمائةٍ إلى أَجَلٍ، بمعنى أنه لا يؤدِّي ثمنها حينًا، وإنما يؤدِّيها على فترة أو فترات. ولك أن تتصوَّر ما شئت من العملات النقدية. ثم يبيعها لبائعها الأول بخمسمائة فقط نَاجِزَةً، أي يقبضها في حينه! فنتج عن ذلك أنه اقترض خمسمائة من التاجر على أن يؤدِّيها له بسبعمائة! هذا معنى بيع العِينَةِ. وهو عين الربا الغليظ! ولذلك شدَّد النبي ﷺ في النهي عنه، فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُم الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ!** »(١).

الرسالة السابعة: في أن من أهم أسباب التخبُّط الخلقي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، الذي تعيشه كثير من الأقطار الإسلامية، وكذا هيمنة الخوف الاجتماعي على الأفراد والمؤسسات، وانتشار الجريمة، وظهور عصابات الإجرام من مُعْلِنِي الحِرَابَةِ على المجتمع في كلِّ مكان؛ هو تعاطي الدولة للربا، وإقرارها إيَّاه في مؤسساتها الرسمية، وشبه الرسمية. كما أنه من أكبر أسباب الشقاء الذي تعيشه شعوبها؛ لإقبال كثير من الناس في المجتمع على التعامل به. وإنما ذلك كله من مقتضى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾ فالمجتمع المرابي مجتمع مجنون مهووس ممسوس! لِمَا يعانيه من الفوضى والهلع في اقتصاده، وسياسته، وفي علاقاته الاجتماعية والنفسية. ولِمَا يتعرَّض له من الفتن في كلِّ هذا وذاك! وماذا يُنْتَظَرُ لمجتمع آذَنَهُ اللَّه بالحرب والعياذ باللَّه؟ فلاَ أَمْنَ له ولا أمانَ حتى يتوب!

الرسالة الثامنة: في أن من أسباب ضعف الأمة وهوانها على أعدائها، ارتباطها بالشبكة الدولية للأبناك العالمية، مثل صندوق النقد الدولي، وما شَاكَلَهُ من مؤسسات مالية استعمارية. ومِن ثَمَّ فلا تحرير للأمة بغير تحرير الاقتصاد! لأنه لا جهاد

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، وعبد الرزاق في مصنفه، وأبو يعلى في مسنده. وصححه الألباني في الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح سنن أبي داود.

لشعب ما يزال رزقه رهين العدو! وتدبر ما سبق ذكره من قول رسول الله ﷺ « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُم الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ!** »(١) فهذا حديث يتضمَّن صورة واحدة كلية مركبة، وليس هو عدة صورٍ أو عدة أسبابٍ، بل هو في مجموعِه سببٌ واحد؛ لأنك لو أفردت بعضها لما استقام السياق مع مقاصد الشرع. كاتباع أذناب البقر: وهو كناية عن الحرث. والرضا بالزرع: وهو الفلاحة عمومًا. وكلاهما أمر حسن في أصله لا عيب فيه. وإنما العيب في ترك الجهاد والركون إلى الدنيا التي عبر عنها بالحرث والزرع. وقد قَرَنَ النبيُّ ﷺ ذلك بالتبايع بِالْعِينَةِ، وهي ضَرْبٌ من التحايل على الرِّبَا كما شرحناها من قبل. وهذا هو سر الذل والهوان؛ لأنه من أكبر المثبِّطات عن الجهاد في سبيل الله! بل إنه يستحيل على دولة ما تزال أموالها رهينةً في أبناك العدو؛ أن تخطو خطوةً واحدةً في طريق الجهاد! ويستحيل على دولة ما تزال تجارتها واقتصادياتها وأرزاقها رهينةَ التموين الأجنبي؛ أن تقول: لَا للغاصب! ولَا للعدوان على الأمة ومقدساتها! بل تُدِيرُ له خَدَّهَا الأيسرَ، بعد تَلَقِّي لطمتَه على الخَدِّ الأيمن! فأيُّ ذل بعد هذا وأي صَغَارٍ؟ فَأَعِدْ قراءةَ الحديثِ في ضوء هذا، ثم تَدَبَّرْ: « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُم الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ!**) فهذا الحرث والزرع المذكور في الحديث ليس عملًا إيجابيًا البتة؛ لأنما هو قائم بالتمويل الربوي والقروض الخبيثة الصادرة عن الأبناك المحلية والعالمية، تمامًا كما نشاهده في واقعنا المعاصر هذا! ولذلك فلا بركة فيه وفي نتاجه، والله المستعان!

الرسالة التاسعة: في أن من أولى الأولويات الدعوية العمل على توعية المسلمين بخطورة الربا في الدين والدنيا معًا! وضرورة فك الارتهان بالبنوك العالمية والاقتصاد الاستعماري، وأن ذلك من أهم شروط النهضة الشاملة. ومِن ثَمَّ فإن أول الخطو - بعد التزكية الإيمانية والتحقُّق بمنازل الإخلاص والصلاح - هو دعوة الجيل إلى فَكِّ الارتهان بالتموين الأجنبي، وفَكِّ الارتباط بالاقتصاد الربوي، أفرادًا ومؤسساتٍ.

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

وأنا أعلم أن دون ذلك ما دونه من عقبات وأزمات! ولكن لا بد من الجهاد في سبيل ذلك جهادًا كبيرًا. وهذا ينطلق أولًا من تربية النفس والمجتمع على أخلاق الزهد والقناعة، وعلى محاربة أخلاق الاستهلاك الكمالي، والشراء الشهواني، والتبذير الشيطاني للمال والثروة. وإنما أخلاقُ الاستهلاكِ ثقافةٌ استعمارية خطيرة! تنشرها في الأمة وسائلُ الإعلامِ المدمِّرةُ، والإعلاناتُ أو الإشهارات التجارية العميلة للشركات العالمية الكبرى. فمواجهة ذلك ومحاربته في النفوس هو أول الجهاد الاقتصادي، الذي هو دِرْعُ كل جهاد في سبيل اللَّه. وإنما النصر من عند اللَّه، واللَّه أكبر!

٤ - مسلك التخلق:

أما مسلك هذا المجلس فهو قائمٌ على التَّخَلُّقِ بِتَرْكٍ لا بِفِعْلٍ. وذلك الترك هو: مُقَاطَعَةُ الرِّبَا ومؤسساتِه. ويتحقَّق ذلك للمؤمن بأربعة أمور:

الأول: مجاهدة النفس على تحطيم صنم الربا في القلب. وذلك بمشاهدة ما توعَّد اللَّه به الْمُرَابِينَ من العذاب، مما بينه اللَّه في كتابه وسنة رسوله ﷺ. وباستحضارِ آياتِ الربا عند كلِّ عقد مالي، بَيْعًا وشراءً وسلفًا. واجعل شِعَارَكَ من ذلك كله قولَ اللَّه ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩ ﴾.

الثاني: الإِقْلاعُ عن العادات السيئة في الاستهلاك، وعَدَمُ المنافسة على الدنيا، والتحلِّي بالقناعة في العيش. ولو تَدَبَّرَ الإنسانُ ما في بَيْتِهِ من مَتَاعٍ وعُرُوضٍ؛ لَوَجَدَ أَغْلَبَهُ مما لا ضرورةَ له!

الثالث: الـحِرْصُ على تَطْيِيبِ المطعم على العموم؛ والاحتياطُ الشديد أن لا يدخل بيتَك إلا رزقٌ حَلَالٌ نظيفٌ. فإن النفس إذا تعودت ألَّا تأكلَ إلَّا حَلَالًا طيبًا؛ استقذرت مَالَ الربا الخبيث، وبضاعتَه الوَسِخَةَ، وكُلَّ رزقٍ حرام.

الرابع: التذكر بأن جميع المؤسسات الربوية تابعة لأعداء اللَّه ورسوله، ولأعداء الأمة الإسلامية، من أهل الحرب عليها. وأنَّ كل درهم من الربا تدفعه لها ينتهي إلى تقوية الذراع الصهيونية، والآلة العسكرية الاستعمارية، التي تُذَبِّحُ المسلمين في كل مكان!

فمن وفَّقه اللَّه للتحقُّق بهذه المسالك الأربعة؛ كان - إن شاء اللَّه - من المقاطعين للربا ومؤسساته، بل من الدعاة المجاهدين، العاملين على حربه ومحاصرته؛ نُصْرَةً للَّه، وابتغاءَ رحمته ومرضاته. ولنا أن نختم مجلسنا هذا؛ تذكيرًا لقلوبنا بما سبق بيانه من موعظة رَبِّنَا ﷻ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

* * *
* *
*

المجلس الثامن والثلاثون

في مقام التلقِّي لحكمة التوثيق وأمانة الشهادة وآثارهما
في حفظ الديون والأموال، وتثبيت أخلاق الأمانة والوفاء

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

لقد جَعَلَ اللَّهُ - جَلَّ ثناؤه - القَرْضَ الحسَنَ أصلًا من أصول المعاملات المالية في الإسلام، كما تبين في المجلس السابق. وقد أحاطه بسياج رفيع من الأخلاق الكريمة، الراجعة إلى قيم السماح، والإمهال، والتيسير، والعفو، والصدقة، والإحسان. وكلها أمورٌ إنما خوطب بها أهل الفضل من الدائنين. لكن ذلك كله ليس معناه تشجيع

المدينين على المماطلة، والتَّلَكُّؤ عمدًا عن الأداء، أو الجحود الصارخ لحقوق الدائنين. كلَّا طبعًا! بل لقد جعل الإسلامُ أحكامَ المداينات منضبطةً إلى تشريع حكيم متوازن، لا ضرر فيه ولا ضرار؛ ولذلك شدَّد من جهة أخرى في وجوب تَوْفِيَةِ الديون لأهلها، وأدائها في آجالها، ما لم يجد الْمَدِينُ عُذْرًا شرعيًّا، أو عجزًا حقيقيًّا. وتوعَّد من تماطل في أداء حق غريمه، أو جحده؛ بعذاب شديد في الدنيا والآخرة، كما سيأتي بيانه بشواهده إن شاء الله. وَمِنْ ثَمَّ ضَرَبَ الشَّارِعُ بقوة على يَدِ كل مَنْ جَحَدَ مَالًا لصاحبه! وخَوَّلَ للقضاء الشرعي في هذا سلطةً واسعةً. ولضمان تطبيق ذلك بمنهج قضائي سليم نَدَبَ الله ﷻ المسلمين إلى توثيق الديون وكتابتها، والإشهاد الأمين عليها؛ حفظًا لحقوق الغرماء والدائنين، سواء في القروض الحُسْنَى أو في التجارات النظيفة؛ وحفظا لدوام هذا الـخُلُقِ العظيمِ في المسلمين، أعني خلق العفو، والسماح، والتيسير، والأمانة، والثقة، والإخلاص. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ .. فهذه آية واحدة إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهي أطول آية في القرآن. وهي أهم أصل من أصول التوثيق في الإسلام. ومقتضاها إرشادُ المسلمين إلى توثيق ديونهم مطلقًا بالكتابة. سواء كانت الديونُ متعلقةً بمستحقات الأموال التجارية، أو مستحقات السلع والبضائع، مثل رأسمال القِرَاضِ (١)، أو بضائع السَّلَمِ (٢)، أو كانت من القروض الحسنى أصلًا، أو غيرها من الحقوق المالية، المترتبة دَيْنًا في الذمة. كل ذلك يحسن شرعًا توثيقه بكتابة عقوده وحقوقه؛ لأن التوثيق أحفظ للديون وأضبط، سواءٌ فيما يتعلَّق بِقَدْرِهَا، وطبيعتها، وميقاتها، ومحل تسليمها؛ أو فيما يتعلَّق بمعرفة طرفيها: الدائن فيها والمدين. كما أنه أَعْوَنُ للشاهد عليها وأضبط لشهادته؛ ولذلك فصَّل تعالى في منهج تطبيقها، وطريقة إملائها، وأصول كتابتها وصياغتها؛

(١) القِرَاضُ، ويُسَمَّى أيضا الْـمُضَارَبَة: وهو أن يعطي رَجُلٌ رأسمال لآخر يتاجر به؛ على أساس اقتسام الأرباح بينهما بنسبة متفق عليها. ولا خلاف في جوازه.

(٢) بيع السَّلَمِ أو بيع السَّلَفِ كلاهما بمعنى، وهو: أن يشتري الرجل بنقدٍ نَاجِزٍ سلعةً إلى أجل. ففي الصحيحين: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْـمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ فِي الثِّمَارِ السَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ؛ فَقَالَ: « مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ! ») متفق عليه.

فقال سبحانه: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ... ۞ ﴾ فأمر تعالى الكاتب أن يكتب عقد المداينة بالعدل، أي بالحقِّ والقسط. وأن لا يجور في صياغته على أحد الطرفين، كأن يعبر تعبيرًا مُجمَلًا، محتملًا لصالح أحدهما دون الآخر، بل لا يجوز له أن يكتب إلا مضمون ما اتفقا عليه، من غير زيادة ولا نقصان! ويجب أن تكون ألفاظ الوثيقة محكمة، قطعية الدلالة في نسبة الحقوق إلى أصحابها، وبيان شروطها، وآجالها، وغير ذلك مما اتفق عليه الطرفان. وفيه تنبيهٌ إلى وجوب اتخاذ كَاتِبٍ عَدْلٍ، وهو كُلُّ مُوَثِّقٍ رَضِيٍّ، غير ساقط العدالة، ولا مخروم المروءة.

وقد ألزم تعالى الكاتبَ بفعل الكتابةِ وُجُوبًا؛ متى دُعِيَ لها؛ طبعًا ما لم يشكل ذلك ضررًا عليه. كما ألزمه بالدقة في كتابة العقد، والإخلاص في النصح للمتعاقدين، على ما علَّمه اللّٰه من صناعة التوثيق. ونَدَبَ تعالى المْدِينَ أو الغَرِيمَ إلى المبادرة بإملالِ ما عليه من الحق للدائن. والإمْلالُ هو: الإمْلاءُ، فكلاهما بمعنى واحد. وهو من لغة أهلِ الحجاز [١]. فيملي المدينُ مضمونَ الوثيقةِ علانيةً، مُصرِّحًا بما عليه من الحقِّ لصاحبه؛ لِمَا في ذلك من الاعتراف الصريح بالدَّيْنِ لصاحبه، والتصريح بقدره، وأجله، وسائر شروطه. يملي ذلك إملاءً يوثقه الكاتب، ويسمعه الشاهدان، ليشهدا به متى طُلِبَ منهما ذلك؛ ولذلك أمر اللّٰه تعالى المدينَ بتقوى اللّٰه في إملائه على الكاتب، وذكَّره تعالى بمخافته فيما يصرِّح به؛ فلا يجور، ولا يُوَرِّي، ولا يتلاعب بالعبارات أو يتحايل في الكلمات! ولا يبخس صاحبَ الحقِّ شيئًا من حقِّه، ولا ينقصه شيئًا من شرطه.

أما إذا كان الْـمَدِينُ سَفِيهًا، بمعنى أنه قليل العقل ناقص الذكاء، غير عالم بطرق تدبير المال وصيانته، أو كان ضعيف الكلام مضطرب اللسان، غير خَبِيرٍ بطرق البيان؛ أو لا يستطيع الإملاء لعاهة أو مرض، أو لأي سبب من الأسباب؛ فيجب على وَلِيِّهِ - من أَبٍ، أو ابنٍ، أو أَخٍ، أو غيرهما - أن ينوب عنه، فيملي ما عليه من الحق بالعدل المطلوب.

---

(١) ن. مفاتيح الغيب للرازي عند تفسيره للآية.

ثم أتم تعالى إحكام التوثيق بالندب إلى استشهاد رجلين عَدْلَيْنِ من المسلمين، يسمعان ما يمليه المدينُ على الكاتب، وما يصرّح به على نفسه. فإن تعذّر وجود رجلين عدلين في محلّ العقد، فرجلٌ واحدٌ عَدْلٌ، وامرأتان صالحتان. قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ فجعل المرأتين في مقام شهادة الرجل الواحد الثقة. وعلَّل ذلك بقوله تعالى وهو أعلم بخلقه: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾. أي حتى إذا نسيت إحدى المرأتين شيئًا مما شَهِدت عليه، كنسيانها بندًا من البنود، أو حقًّا من الحقوق، أو شرطًا من الشروط التي قام عليها العقد المشهود عليه؛ ذكَّرتها الأخرى بما نسيت. وربما نسيت هذه ما لم تنسه تلك؛ فيتذاكَران ويتذكَّران؛ حتى تلتئم شهادتهما فتصير شهادةً واحدة. وهذه حقيقة قرآنية قطعية في أن قوة ذاكرة المرأة على النصف من ذاكرة الرجل. تلك سُنَّةُ اللَّه وحكمتُه فيما خلق من الذكر والأنثى، إلا ما شذ.

وقد أرشد سبحانه المسلمين إلى تحرِّي الثقة والعدالة في الشهود؛ ولذلك قال: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾، فالشاهد الْمَرْضِيُّ: هو الشاهد العَدْلُ الأمين. فلا تجوز شهادةُ فاسقٍ، ولا شهادةُ مَنْ حُدَّ في جريمة، أو عُزِّرَ في مخالفة شرعية. وإنما يُقْتَصَرُ في ذلك على خِيَارِ الناس وفضلائهم. وقد ألزم تعالى من شَهِدَ أمرًا من المسلمين أن يشهد بما علم منه؛ إذا طُلِبَ للشهادة. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾؛ ولذلك فجمهور الفقهاء على أن طلبَ تَحَمُّلِ الشهادةِ فَرْضُ كِفَايَةٍ، تأثم الجماعةُ بتركه؛ إذا لم يَقم به بعضهم. وذلك لما فيه من التعاون على البرِّ والتقوى، وإقامة المصالح العامَّة للأمة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ ﴾. وهذا تأكيدٌ عجيب من الرحمن - وهو الحكيم الخبير ﷻ - لأهمية التوثيق، والكتابة لعقود الديون، وسائر الحقوق المعلَّقة بآجالها. حيث أرشد سبحانه إلى عدم الاستهانة به ولو كان مقدارُ الدَّيْنِ قليلًا! فلا يكن هذا سببًا للتكاسل عن كتابته وتوثيق أجله! وأخبر تعالى بأن ذلك أقسط عند اللَّه، بمعنى أنه أحفظ للعدل في الأرض، على ما يريد من عباده. وأضمن لحقوقهم،

وأجدر برفع الخصومات والنزاعات بين المسلمين، وأبعد للشك والريبة والتردد، سواء عن شهادة الشاهد في نفسه، أو عند اختلاف الطرفين في مقدار الدَّيْنِ أو أجله، أو في أي شرط من شروطه. لأن الوثيقة الْمُحْكَمَةَ رافعةٌ لكل لبس.

اللَّهم إلا ما كان من تجارةٍ نَاجِزَةٍ في المجلس الواحد أخذًا وعطاءً، حيث ينصرف الطرفان ولا يبقى في ذِمَّة أحدهما حَقٌّ للآخر، سواء في جانب الثمن أو في جانب السلعة. فهذه لا بأس بعدم توثيقها وكتابتها؛ ولذلك قال بَعْدُ مباشرة: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ وقد قرئت (تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ) بالرفع على تمام فعل « كانَ »، بمعنى: « إِلَّا أَنْ [تُوجَدَ] تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ ». كما قرئت بالنصب على نقصان فعل « كان »، بتقدير: « إِلَّا أَنْ تَكُونَ [التِّجَارَةُ] تِجَارَةً حَاضِرَةً ». ومآل المعنيين في الحكم الشرعي واحد. وهو رفع الحرج عن عدم توثيق الصفقات التَّامَّة التقابض في المجلس الواحد.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ ﴾ وهذا أمر بالإشهاد عند البيع على الإطلاق، ولكنه أمر ندب وإرشاد. راجع على كل ما سبق. فالإشهاد مصلحة للمتبايعين معًا، سواء كان البيع بِأَجَلٍ في قبض الثمن، أو في تسلُّم البضاعة، أو كان ناجزًا تام التقابض فيهما معًا. إذ الشهادة في جميع الأحوال حافظة للحقوق. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَاتَّقُواْ اللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. بمعنى: ولا يتعمَّد الكاتب ولا الشاهد الإضرار بأحد الطرفين! ويحتمل أيضًا أن يكون المقصودُ النهيَ عن الإضرار بالكاتب والشاهد؛ بسبب قيامهما بالقسط، وثباتهما على الحقِّ، أو عدم تعويضهما ما نابهما من النفقة في أداء مهامهما. ويجوز أن يكون كل ذلك مقصودًا؛ لأن فعل « يُضَارَّ » ههنا مشترك الدلالة بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول. فسواءٌ أَضَرَّ الكاتبُ أو الشاهدُ بأحد طرفي العقد؛ بتزوير الكتابة والشهادة؛ أم كان الضرر واقعًا على الكاتب والشهيد أنفسهما؛ بسبب تجبر الدائن أو طغيان المدين؛ فإن ذلك في جميع الأحوال ظُلْمٌ وفسادٌ كبير! إذا وقع أدَّى إلى ضياع حقوق الناس، وفقدان الثقة، وذهاب الأمانة، وتَصَرُّم خيوط النسيج الاجتماعي! ولذلك قال تعالى في ختام الآية: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾؛ لأن تقوى اللَّه تصفِّي

البصيرة، وتغمر القلب بنور اللَّه، كما قال تعالى في موطن آخر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ لأن تقوى اللَّه باب من أهم أبواب العلم باللَّه! فكلما تزود العبد من تقوى اللَّه؛ ازداد معرفةً باللَّه، ومعرفةً بما يصلح دنياه وأخراه، وازداد علمًا بِحِكَمِ شرع اللَّه، وما فيه من مصالح وأسرار؛ فكان أَحْرَصَ على التزام أمره تعالى واجتناب نهيه. ومِن ثَمَّ ذَكَّرَ تعالى عبادَه بأنه ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، بمعنى أنه سبحانه لا يشرع حُكْمًا إلا لحكمة، ولا يُلْزِمُ بشيء إلا لمصلحة، ولا يرشد عبادَه إلا إلى خير. وأنه تعالى عَلِيمٌ بما خَفِيَ من مقاصد العباد ونياتهم، عَلِيمٌ بما ظهر من أقوالهم وفِعَالِهِمْ، فلا يخون عبدٌ في كتابة أو شهادة، أو غيرهما؛ إلا وهو سبحانه به عَلِيمٌ، يحصي عليه خيانتَه تلك إلى يوم الدين. ذلكم اللَّه رب العالمين.

ثم بَيَّنَ الحقُّ جَلَّ ثناؤه - في ختام السياق كله - أن جوهر التوثيق في الإسلام إنما هو الأمانة والوفاء. هذا هو أساس التوثيق. أما أمور الكتابة والشهادة وما يتعلَّق بهما من إجراءات مادية؛ فإنما هي مُكَمِّلات تشريعية؛ لحفظ الأمانة والوفاء في الأمة. لأن التوثيق المادي المحسوس هو نفسه راجع إلى ثبوت أخلاق الأمانة في الكَتَبَةِ والشُّهُودِ والقَضاءِ. وإنما شرع اللجوء إلى الكتابة والشهادة لتذكير الناسي أولًا، ثم لسد مداخل الشيطان إلى النفس، من التفكير في الجحود أو النكوص، ثم لمساعدة القضاء عند التنازع والخصام. وإلا فالعبرة في إقامة الحقوق كلها في الإسلام إنما هو توثيق الإيمان. هذا هو الرهان الأكبر في الدين لحفظ حقوق اللَّه وحقوق الناس. وما الحدود والتعازير وسائر العقوبات إلا أدواتٌ لحصار حالات الضعف الإيماني، وقطع الطريق أمام الوسواس الشيطاني، والحد من ظواهر التفلُّت الشهواني. ومن هنا قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾. ومعنى ذلك أنه في حال تعذُّر التوثيق لفقدان الكاتب، أو فقدان الشاهد، أو فقدان ما ييسر ذلك من أدوات التوثيق؛ فيجوز أن يقبض الدائن رَهْنًا ماديًّا من المدين، كأن يقبض منه ذهبًا أو آلة، أو سيارة... إلخ. مما يصحُّ ارتهانه. ضمانًا لاسترداد دَيْنِهِ منه، خاصَّة إذا كان ممن

لا يوثق به، أو كان « مجهول الحال »، باصطلاح المحدثين. ويجوز ذلك كله في حال تعذر التوثيق في السفر وفي الحضر. وأما التقييد بالسفر ههنا في الآية، فإنما « خَرَجَ مَخْرَجَ الغَالِبِ » بتعبير الفقهاء، أي أنه خُصَّ بالذكر؛ لغلبة فقدان الكَتَبَةِ والشهودِ الثِّقَات في الأسفار. ويختلف ذلك باختلاف الزمان والمكان. وقد يقع ذلك في الحضر لظروفٍ كثيرةٍ. كأن تكون البلاد في حالة حرب - لا قَدَّرَ اللَّه - أو يفقد فيها التوثيقُ جدواه؛ لغياب العدل في السلطة والقضاء أصلًا! مع ضعف الوازع الديني وانحطاط الأخلاق في سواد الناس! وغير ذلك من الفتن الكثيرة - والعياذ باللَّه - التي قد تضطر المسلمين إلى التعامل بالرهون.

ولكن الأصل في الأمة - ولَا يُعْدَمُ خيرٌ في الأمة بإطلاق - هو توثيق الإيمان، وخُلُقُ الوفاء، وعهد الأمان. ومِن ثَمَّ جعل الرحمنُ ختامَ الآية قولَه تعالى: ﴿ فَرِهَٰنٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾. أي فمن ائْتَمَنَ مَدِينَهُ ووَثِقَ به، وعَوَّلَ على صلاح دينه وتقواه؛ فله أن يَدَعَ كل ما ذُكِرَ من أمور التوثيق والإشهاد، ولا حرج عليه؛ ولذلك ذَكَّرَ اللَّهُ المؤمنَ المدينَ بتقوى اللَّه، وأمره تعالى بأداءِ أمانةِ الدَّيْنِ، بتمام قَدْرِهَا ومقدارها، على ما اتفقا عليه من شروط وآجال.

فقوله تعالى: ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ تعبيرٌ عَالٍ كريم! فيه من الدلالة اللطيفة والإشارة الجميلة - علاوةً على ما ذكرنا من وجوب الأداء والوفاء - تنبيهٌ للمَدِينِ المسلم إلى أن من حقِّ الإسلام عليه؛ أن يكون أهلًا لما وضعه فيه أخوه المسلم من الثقة والأمانة؛ عندما ائتمنه على دَيْنِهِ، ورفع عنه قيود الكتابة والشهادة والرهون! فمن حق اللَّه عليه أن لا يخون هذا الخلق الرباني الرفيع! وأن يعبر عن المستوى اللائق بدين الإسلام؛ بالتزام الوفاء والأداء! وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أن واجب الأمانة والوفاء قد صار أثقل على كاهله وعنقه، كما أن خيانته صارت أعظم وأفحش، وأخطر من أن لو قَيَّدَهُ غَرِيمُهُ بالكتابة والشهود، أو ربطه بضمانة الرهون؛ ذلك أن هذا المعنى اللطيف حَقٌّ للَّه وللإسلام، قبل أن يكون حقًّا للناس! ولذلك نَبَّهَ تعالى المدينَ بهذا التحذير الرهيب العميق! قال: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ... ۝ ﴾ ولم يقل فقط: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ رغم ما فيها من جلالٍ وعظمة، بل ذَكَّرَهُ بصفة الربوبية في ذاته ﷻ ، وذكَّره بأنما

هو عبدٌ لِرَبِّهِ، خاضع لسيده ومولاه، لا إفلات له أبدًا من قبضته جَلَّ علاه! فإذا ما تخلَّى الدائن عن توثيق دَيْنِهِ أو حقِّه، وتَوَكَّلَ فيه على ضمان اللَّه؛ فواللَّه لقد أَعْظَمَ الشهادة وأغلظَ الوثاق! ولا يخون ذلك إلا شَقِيٌّ جاهلٌ باللَّه! ومِن ثَمَّ أوصى اللَّه المؤمنين قاطبةً بالوفاء لِدِينِ اللَّه، مُذكِّرًا إيَّاهم بأن شهادتهم في الحقوق - باعتبارهم مسلمين - هي من شهادة اللَّه، فَمَنْ خانها فقد خان اللَّه! قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾. وهو ما بَيَّنَه مُفَصَّلًا في سورة النساء، قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] فَنَصَّ على أن الشهادة إنما هي للَّه! فَأَتْعِسْ بمن خان شهادة اللَّه!

ومِنْ ثَمَّ بَيَّنَ سبحانه - ههنا في البقرة - أن مجرد كتمانها، ولو من غير تحريف ظاهر، ولا تزوير سافر هو من أسوأ صور الخيانة! بل إن كتمان الشهادة - في موضع الحاجة إلى التصريح - هو من شهادة الزور! لِمَا فيه من قلب الحقائق ونصرة الباطل على الحقِّ؛ ولذلك أَثِمَ قَلْبُ كاتمها الْمُؤْتَمَنِ عليها، قال: ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ بمعنى أنه بَاءَ بإثم كبير، وفُجُورٍ مُبِينٍ. وعبَّر بالقلب؛ لأن إثمه أَمْرٌ خفي باطنٌ لا يظهر للناس، وإنما اللَّه وحده هو الذي يتولَّى حسابه. وكفى باللَّه حسيبًا! ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، بمعنى أنه تعالى عَلِيمٌ بأعمال القلوب، كما هو عليم بأعمال الجوارح، لا يخفى عليه شيءٌ من هذا ولا ذاك. وما من خيانةٍ ظاهرة أو خفيةٍ إلا ومرجعها إلى اللَّه. واللَّه سريع الحساب! فاللَّهُمَّ اغْفِرْ ذُنُوبَنَا، ويَسِّرْ حِسَابَنَا، وَاجْعَلْنَا مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ..!

٣- الهدى المنهاجي:

وهو في **الرسالات التسع التالية:**

الرسالة الأولى: في أن حقوق الناس من حقوق اللَّه. وأن أموالهم ودماءهم وأعراضهم من حرمات اللَّه. ذلك أن الإسلام دين اجتماعي، وأن حقوق اللَّه فيه مبنية على أن تعبده الأمة وحده لا شريك له. وقد شرع اللَّه لذلك أصول العبادات

الكبرى، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما تفرَّع عن هذه أو تلك، تشريعًا اجتماعيًّا، بمعنى أنه ﷻ جعلها شَعَائِرَ، لا تُؤَدَّى على تمام وجهها، وكمال مقصدها، إلا جماعة. ومِن ثَمَّ أنزل اللَّهُ من التشريع الإسلامي ما يقوي النسيج الاجتماعي؛ حتى صيَّر الأمة الإسلامية كالجسد الواحد. ربها واحد، وركوعها واحد، وسجودها واحد، وتوجهها إلى القبلة واحد. فكان ظلم الناس بعضهم لبعض، إفسادًا لهذا التناسق الواحد، وجرحًا لذلك الجسد الواحد. ولو عمتَّ البلوى بالظلم والمظالم؛ لأدَّت إلى تحطيم بناء الأمة الواحد؛ ثم لأدَّت إلى تعطيل عبادة اللَّه في الأرض! فكان لذلك التعدِّي على حقٍّ من حقوق الناس، تعديًا على حقٍّ من حقوق اللَّه! وقد جعل تعالى للمال في تلك الحقوق حظ الركن من التشريع؛ لما له من أثر كبير في استقرار الجماعة، ونمو العمران، الذي هو مناط العبادة الجماعية للَّه الواحد القهار. ومِن ثَمَّ كان حفظ المال أصلًا من أصول الضروريات الخمس، الْمُسْتَقْرَاةِ في مقاصد الشريعة الإسلامية، إلى جانب حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعرض؛ ولذلك قَطَعَ يَدَ سارقِه، وقَتَلَ مُعْلِنَ حِرَابَتِهِ [1]؛ ضمانًا منه تعالى لحقوق الناس، التي تؤول في النهاية إلى حقوق اللَّه.

الرسالة الثانية: في أن الأمانة من الإيمان، بمعنى أنها من ثماره، ومن أهم خصاله ولوازمه. فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: « **لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ! وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ!** » [2] ذلك أن المؤمن الحق إنما هو الذي أُشْرِبَتْ نَفْسُهُ أخلاقَ الدين، وعلى رأسها حفظ الأمانة والوفاء بالعهد. فلا نجاة لمن لا أمانة له، ولا فلاح لمن لا عهد له! قال تعالى في بيان صفات أهل الجنة: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٣٢ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٢، ٣٣]. وفقدانُ ذلك في الإنسان دليل على أن إيمانه باللَّه واليوم الآخر قد اختلَّ؛ إذ لا يُتَصَوَّرُ في مسلم

(١) سبق تعريف الحِرَابَةِ بأنها: حمل السلاح على المسلمين، قصد اغتصاب أموالهم وأعراضهم. كما يفعل قُطَّاع الطرق والعصابات المسلحة. قال ابن جزي الغرناطي ﵀ في تعريف الْمُحَارِبِ: (هو الذي شَهَرَ السلاحَ وقطع الطريقَ؟ وقَصَدَ سَلْبَ الناسِ، سواء أكان في مِصْرٍ أم قَفْرٍ (...) وإذا أُخِذَ المحاربُ قبل توبته؛ أُقِيمَ عليه الحدُّ، وهو: القتل، أو الصلب، أو قطع اليد والرجل، أو النفي!) القوانين الفقهية لابن جزي.

(٢) رواه أحمد، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، والطبراني في الأوسط. وابن حبان، وعبد بن حميد، والبزار. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

يخاف مقامَ ربه، ويَقْدُرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ثم هو يؤمن بالآخرة يقينًا، يعرف حسابها وعذابها مشاهدةً؛ لا يُتَصَوَّرُ فيه التَّجَرُّؤُ على خيانة الأمانة، تمامًا كما لا يُتَصَوَّرُ فيه التجرُّؤ على اقتحام الجحيم!

الرسالة الثالثة: في أن المؤمن الأمين، الذي يَفِي بعهده، ويَصْدُقُ في أمانته، ويُخْلِصُ في معاملته؛ يكرمه الله بولايته، ويُجْرِي على يديه كراماته؛ تأييدًا له وتبشيرًا. وقد حدَّث النبي الأكرم - عليه الصلاة والسلام - في قصة عجيبة عن رجلين صالحين، من صلحاء بني إسرائيل زمن استخلافهم، أكرمهما الله بكرامة عجيبة؛ تبشيرًا لهما وتكريمًا؛ على ما تخلَّقا به من وفاء وأمانة، وتوكُّلٍ على الحيِّ الذي لا يموت، جَلَّ جلالُه. ففي صحيح البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **(أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ! قَالَ: ائْتِنِي بِشُهَدَاءَ أُشْهِدُهُمْ! قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا! قَالَ: ائْتِنِي بِكَفِيلٍ! قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا! قَالَ: صَدَقْتَ! فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى. فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ. ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَقْدَمُ عَلَيْهِ؛ لِلأَجَلِ الَّذِي كَانَ أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا! فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا وَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مَعَهَا إِلَى صَاحِبِهَا، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا.** [أي: أَغْلَقَهُ]. **ثُمَّ أَتَى بِهَا الْبَحْرَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي اسْتَلَفْتُ مِنْ فُلَانٍ أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا؛ فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا؛ فَرَضِيَ بِكَ! وَسَأَلَنِي شَهِيدًا؛ فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا؛ فَرَضِيَ بِكَ! وَإِنِّي قَدْ جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالَّذِي لَهُ، فَلَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ، حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ! ثُمَّ انْصَرَفَ يَنْظُرُ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَطْلُبُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ.**

قَالَ: فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيءُ بِمَالِهِ؟ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا! فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ! ثُمَّ قَدِمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ؛ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ! قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا الَّذِي جِئْتُ فِيهِ؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ بِهِ فِي الْخَشَبَةِ! فَانْصَرِفْ بِأَلْفِكَ رَاشِدًا!) (١).

---

(١) رواه البخاري.

وكراماتُ الصالحين والصدِّيقين فروعٌ عن معجزات الأنبياء والمرسلين، كما بيناه قبل. والكرامة مستمرة إلى يوم الدين. ما دام في الأرض مؤمنون ربانيون، وصِدِّيقُونَ مخلصون.

الرسالة الرابعة: في أن من كمال أمانة التجارة في الإسلام، أن يُرَاعِي البائع للمشتري ما يراعيه لنفسه، وأن يُرَاعِي المشتري للبائع أيضًا ما يراعيه لنفسه! أي من الخير والفضل والمصلحة. وكذلك الشأن في سائر العقود المالية في الإسلام، كالإجارة، والكراء، والقرض، والقراض... إلخ. كما أن على كل مُتعاقِدٍ مع أي شخص ضعيف، ظهر عليه ضعفٌ في العقل، أو نقصٌ في الخبرة، أو جهلٌ بالتجارة، أو سَفَهٌ في المال؛ أن يجعل نفسه في مقام ولايته، ويقوم بمكارمته؛ إن هو غاب وَلِيُّهُ، وأن يراعي مصالحه عند الصفقة، كما يراعي مصالح نفسه تمامًا! وهذا كمال المثال في أخلاق الأمانة! ولْيُوقِنْ بعد ذلك بأن اللَّه سيراعي مصالحه هو جميعها! وسيجعل له وُدًّا ويعطيه خَلَفًا! ولولا أنه مثالٌ وقع فعلًا في التاريخ الإسلامي؛ لقال الناس: إنه ضرب من الخيال! فمن أعظم القصص الواردة في ذلك ما رواه الشيخان عن ابن عمر ﵄ قال: (ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **مَنْ بَايَعْتَ فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ!** » [أي: لَا خَدِيعَةَ!] فَكَانَ إِذَا بَايَعَ يَقُولُ: لَا خِيَابَةَ!) [1] لأنه لا يحسن نطقها لعاهة في لسانه! ولذلك ففي رواية أحمد قال ابن عمر: (فَوَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَسْمَعُهُ يُبَايِعُ وَيَقُولُ: لَا خِلَابَةَ، يُلَجْلِجُ بِلِسَانِهِ!).

وقد رويت قصته مفصلة في حديث صحيح عن أنس بن مالك ﵁ (أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْتَاعُ، وَفِي عُقْدَتِهِ ضَعْفٌ؛ فَأَتَى أَهْلُهُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! احْجُرْ عَلَى فُلَانٍ فَإِنَّهُ يَبْتَاعُ وَفِي عُقْدَتِهِ ضَعْفٌ! فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَنَهَاهُ عَنِ الْبَيْعِ! فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنِّي لَا أَصْبِرُ عَنِ الْبَيْعِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **إِنْ كُنْتَ غَيْرَ تَارِكٍ الْبَيْعَ؛ فَقُلْ: هَاءَ وَهَاءَ، وَلَا خِلَابَةَ!** ») [2] فكان يقولها، وكان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يراعونه، ويجعلون له الخيار في صفقته ثلاثًا. وهذا من كمال الأمانة في أخلاق الإسلام. فَأَكْرِمْ به وأَنْعِمْ من دِينٍ عَالٍ رفيع!

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وغيرهم. وصححه الألباني في صحيح سننهم، وصحيح الجامع الصغير، والسلسلة الصحيحة.

الرسالة الخامسة: في أن من أهم علامات انحطاط الأمة، ومن أسباب نَزْعِ البركةِ عنها، ومنع النصرِ والتأييدِ؛ ضَيَاعُ الأمانة! فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: (سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: « **قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ!** ») (١) يعني: أنه سَرِيعُ الحَلِفِ على شهادته؛ رغبةً في إخفاء كذبه وزوره! وفي رواية عمران بن حصين ﷺ: « **ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ! وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ! وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ! وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ!** » (٢) وكونهم « يَشْهَدُونَ ولَا يُسْتَشْهَدُونَ »، معناه: أنهم يتطفلون بالشهادة الكاذبة ولم يطلبها منهم أحد! فهم ما رَأَوْا ولا سمعوا، ومع ذلك يشهدون! (٣).

وعن حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ قَالَ: (حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِن الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِن السُّنَّةِ. وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: « **يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ! ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ! كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ! فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ! فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلانٍ رَجُلًا أَمِينًا!** [بِسَبَبِ نُدْرَةِ الأُمَنَاءِ!] **وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا أَظْرَفَهُ! وَمَا أَجْلَدَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ!** » قال حُذَيْفَةُ ﷺ: وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ! لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلامُ! وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ! فَأَمَّا الْيَوْم فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا!) (٤).

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه.

(٣) أما أداء شهادةٍ صادقةٍ لبيان الحق في الدماء والغصب ونحوهما، فهو أمر مطلوبٌ ممن شهد الوقيعة وإن لم يُسْتَشْهَدْ؛ لقول النبي ﷺ: « **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا!** » رواه مسلم. وسيأتي بيانه إن شاء الله قريبًا.

(٤) متفق عليه. ومعنى « الوَكْتِ »: نقطة تحدث بالشيء ذات لون مغاير لأصله، ومنه وَكْتُ التمر: وهو نقر الطيب البادي في أول باكوره. وأما الْمَجْلُ: فهو ما يقع بالكف من قروح تنتفخ يسيرًا بسبب العمل بفأس أو نحوها. وقوله: « كجمرٍ دَحْرَجْتَهُ على رِجْلِك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا » أي مثل جمر رميته برجلك فَنَفِطَ: أي انتفخ بسبب اشتعاله حتى فناء مادته؛ فيبقى مُنْتَبِرًا: بمعنى ظاهر الاتقاد والاحمرار على غير حقيقة. فهو في واقع الأمر جمر فانٍ، لا يوقد نارًا ولا يقدح فتيلًا، فلو نفخت فيه لطار رماده في الهواء ولم يبقَ منه شيء. وقد ضربه مثلًا للرجل الذي يبدو في ظاهره من أهل العدالة والوقار وهو خائن لا أمانة له ولا عهد.

ذلك قوله لزمانه؛ فكيف لو رأى زماننا هذا؟ ألا وإنَّ الأمة لن تستعيد مجدها ولا كرامتها إلا بعد استعادة أمانتها ووفائها، وجمال أخلاقها! وكيف يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً خائنةً أو ينصرها؟ كيف وقد قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨] فلهذا وذاك كان من أصول الهدى المنهاجي في تجديد الدين، البدء بتجديد الأخلاق، وعلى رأسها خلق الأمانة!

الرسالة السادسة: في أن الحضَّ على كتابة الوثائق وتدوين المعلومات؛ تدريبٌ للأمة على توثيق ذاكرتها العلميَّة، والاجتماعيَّة، والتاريخيَّة، والحضاريَّة عمومًا؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ « **قَيِّدُوا العِلْمَ بِالْكِتَابِ!** »[1] فبالتوثيق تستمر الحضارة، ويتوارث الأحفاد تراث الأجداد، وينمو العلم ويتراكم، ويتأصَّل الانتماء الوجداني للأمة، وتستمر الحضارة. وقد كان لكتابة عقود البيوع والديون وغيرها، أَثَرٌ عظيم في التاريخ الإسلامي. ذلك أنه - علاوةً على فائدتها التوثيقية لأهلها في زمانها - صارت بعد ذلك سِجِلًّا تاريخيًّا في الأزمنة اللاحقة، ووثائقَ ثمينةً لأجيال القرون المتأخرة، ولِمُؤَرِّخِيهَا على وجه الخصوص، يستنبطون منها كثيرًا من جوانب الحضارة الإسلامية، وحقائقها التاريخية، في التجارة، والزراعة، والسلع، والبضائع، وسائر طرق الكسب، والخِطَطِ، والوظائف، وقضايا الدولة، وتدبير الملك، وشؤون السياسة، والحرب والسلم، والعهود، والمواثيق، وكذا عادات البلدان في الطعام، والشراب، واللباس، وغيرها من الأمور المهمة في معرفة الذات الحضارية للأمة، ومراحل تطورها.

فالوثيقة أساس الحضارة، وأُمُّ التاريخ. ولولا أن رسول اللَّه ﷺ أَمَرَ بكتابة القرآن في زمانه - بإذن ربه ﷻ - لَمَا تَوَاتَرَ بُلُوغُهُ إلى الأمة عبر التاريخ. فمن تلك الصحف التي أملاها النبيُّ ﷺ، وكَتَبَهَا الصحابةُ - رضوان اللَّه عنهم - استخرج الصحابي الجليل عثمانُ بن عفان ﷺ المصحفَ الإمام، فانضبط إليه حِفْظُ المسلمين لكتاب اللَّه وقراءتُهم له. ولولا ذلك لَمَا كان لهذه الأمة اليوم وجود! ولكن اللَّه أراد فكانت! فَلَهُ الحمدُ على نعمة الإسلام، وله الشكر على حفظ كتابه العظيم!

---

(١) رواه الطبراني والحاكم عن عبد اللَّه بن عمرو مرفوعًا. وصححه الألباني بمجموع طرقه، في السلسلة الصحيحة وصحيح الجامع.

الرسالة السابعة: في أن الشهادة في الأموال والدماء وسائر الحقوق واجبٌ شرعي، وخُلُقٌ إسلامي اجتماعي، من باب التعاون على البرِّ والتقوى. فَرْضٌ على الأمة أداؤه. وقد سبق بيان قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ... ﴿٢٨٣﴾ ﴾ وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا!** »[1] والمقصود أن من حضر خصامًا بين المسلمين، أو شاهدَ سرقةً، أو غصبًا، أو جريمةَ قتلٍ، أو نحو هذا وذاك؛ فيجب عليه أن يُدْلِي بشهادته وإن لم تُطْلَبْ منه؛ إحقاقًا للحقِّ وإبطالًا للباطل، وتعاونًا على الواجب الكلي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حيث تَعَيَّنَ عليه ذلك؛ بسبب حضوره وشهوده للوقيعة. لكن اللَّه تعالى قال أيضًا: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ وفيه - إلى جانب الدلالة على منع الكاتب والشاهد من الإضرار بأحد الغريمين - الدَّلَالَةُ على وجوب حماية الكَتَبَةِ والشهودِ من لُحُوقِ الضرر بهما؛ بسبب التزامهما الحق في التوثيق والشهادة؛ ولذلك فإننا نقول: إنه غير واجب على الشاهد أن يُدْلِي بشهادته بين يدي محكمة ظالمة، أو عند قاضٍ غَشُومٍ؛ لِمَا قد يلحقه من الضرر بسبب شهادته، حيث لا صَوْنَ لحقوقه، ولا حفظ لكرامته! بل ربما عوقب بسبب قوله الحق، واتُّهم بشهادة الزور ظلمًا، وقُلِبَتْ عليه القضية! واللَّه يعلم إنه لمن الصادقين! ولكن العيب في الهيئة القضائية المرتشية. فأمثال هؤلاء لا يشهد لهم المسلم ولا كرامة!

الرسالة الثامنة: في أنه لا يحسن الالتجاء إلى الرهون إلا عند الضرورة كما يدل عليه سياق القرآن، من مثل فقدان الكَتَبَةِ والشهود، أو فقدان الأمانة في السلطة والقضاء. أما ما يمارسه كثير من الناس اليوم - في بعض الأقطار الإسلامية - باسم الرَّهْنِ، في كراء المنازل والدكاكين؛ فإنما هو عين الربا! ولا علاقةَ له بالرهن الشرعي إطلاقًا. وذلك أن الرجل إذا أراد أن يكتري منزلًا؛ يأتي إلى صاحب البيت الذي يعرضه للرهن - كما يعبرون - فيقرضه مبلغًا ماليًّا كبيرًا إلى أَجَلٍ؛ بشرط أن يكريه المنزل بثمن زهيد، أقل من سومته الكرائية في السوق بكثير. كأن يكون كراءُ البيتِ بِأَلْفٍ في الشهر مَثَلًا، فلا يدفع له منها إلا مِائَةً فقط لكل شهر! لِعِلَّةِ أنه قد أقرضه مبلغًا

---

(١) رواه مسلم.

بمقدار مِائَةِ أَلْفٍ مثلًا! على أساس أن المكتري عندما يعزم على إفراغ البيت؛ يرد له المكري دَيْنَهُ الذي له عليه، وهو مائة ألف في مثالنا هذا! فيؤول الأمر إلى أن المكتري قد استفاد رُخْصَ الكراءِ من ألف إلى مائة فقط؛ بسبب منفعة القرض الذي أقرضه للمكري! وهذا تحايل بغيض على الربا الغليظ! وهو عَيْنُ سَلَفٍ جَرَّ نفعًا المنهي عنه! فلا فرق بينه وبين الفائدة الربوية، المترتبة عن الديون في المؤسسات المالية الربوية. وقد ثبت عن غير واحد من الصحابة – منهم ابن عباس ﷺ – أنهم: (نَهَوْا عَنْ قَرْضٍ جَرَّ مَنْفَعَةً!) (١) وفي صحيح البخاري: عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الأَشعري ﷺ قَالَ: (قَدِمْتُ الْـمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ ﷺ فَقَالَ لِي: إِنَّكَ بِأَرْضٍ فِيهَا الرِّبَا فَاشٍ، فَإِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ؛ فَأَهْدَى إِلَيْكَ حِمْلَ تِبْنٍ، أَوْ حِمْلَ شَعِيرٍ، أَوْ حِمْلَ قَتٍّ؛ فَلَا تَأْخُذْهُ فَإِنَّهُ رِبًا!) (٢) وقد قَعَّدَ الفقهاءُ قاعدةً جامعة في هذا المعنى، نَصُّهَا: (كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ مَنْفَعَةً فَهُوَ رِبًا!) ولا خلاف في جواز الهدية بين الْـمُتَدَايِنَيْنِ إذا كان التهادي عادةً جاريةً بينهما قبل وقوع الدَّيْنِ.

الرسالة التاسعة: في أنَّ تَرْكَ الناس – أحيانًا – إلى ذِمَمِهِمْ وأماناتِهم، وَكِلَتَهُمْ إلى إيمانهم ودينهم، في إبرام العهود، والمواثيق، والديون، والبيوع، وسائر الحقوق، من غير توثيق ولا إشهاد؛ منهجٌ تربوي سليمٌ، وطريقةٌ نبوية في التزكية؛ القصدُ منها ترقية النفوس إلى ما ينبغي أن تكون عليه من كمال العدالة وجمال التقوى. وخير مثال على ذلك ما ذكرناه قَبْلُ – في الرسالة الثالثة – من حديث النبي ﷺ عن قصة المتداينين الصالحين من بني إسرائيل؛ حيث قال الدائن لِمَدِينِهِ: (ائْتِنِي بِشُهَدَاءَ أُشْهِدُهُمْ! قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا! قَالَ: ائْتِنِي بِكَفِيلٍ! قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا! قَالَ: صَدَقْتَ!) (٣) وقد بارك اللَّه لهما كما علمتَ، وأيدهما بكرامته العجيبة! وحتى لو خان المدينُ دائنَه، أو نقض أحد المتبايعين عهده؛ فإن عدم التوثيق عليه أو عدم الإشهاد، وتفويض أمره إلى اللَّه؛ يكون تربيةً غير مباشرة له ولغيره من الناس على

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى وفي المعرفة. وصححه الألباني في إرواء الغليل.

(٢) رواه البخاري. والأرض المقصودة: هي العراق يومئذ، وأما اليوم فكل الأرض على الربا والعياذ باللَّه. والقَتُّ: هو علف الدواب.

(٣) رواه البخاري. وقد سبق إيراده بتمام نصه.

المدى البعيد! لِمَا فيه من دعوة الأمة إلى التخلُّق بالأمانة، والارتقاء إلى مقام الثقة والوفاء. وهذا إنما يحسن في ظروف محددة. إذ لا يجوز وقوعه إلا بين المسلمين، وإلا عند كون الدائن أو صاحب الحق عمومًا من أهل العلم والفضل، قد اشتهر صلاحُه وتَوَاتَرَ وَرَعُهُ؛ حتى لا يُتَّهَمَ بالكذب في دعواه، وحتى يكون وَرَعُهُ موعظةً لغريمه، وقدوةً صالحةً له؛ لعل الله يتوب عليه بها.

وقد فعله النبي ﷺ في بيوعه وديونه؛ تربيةً لأصحابه ﷺ. فمن ذلك قصة ابتياع النبي ﷺ فَرَسًا من أعرابي بغير إشهاد، وما كان من نقض الأعرابي بَيْعَهُ على النبي ﷺ، ثم ما كان من حِكَم بليغة في ذلك للصحابة رضوان الله عليهم! فعن عمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِي أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَشْيَ، وَأَبْطَأَ الأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَ بِالْفَرَسِ! لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ؛ حَتَّى زَادَ بَعْضُهُم الأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ، عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي ابْتَاعَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ! فَنَادَى الأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ فَابْتَعْهُ وَإِلَّا بِعْتُهُ! فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الأَعْرَابِيِّ؛ فَقَالَ: « **أَوَلَيْسَ قَد ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟** » قَالَ الأَعْرَابِيُّ: لَا وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « **بَلَى! قَد ابْتَعْتُهُ مِنْكَ!** » فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُوذُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالأَعْرَابِيِّ، وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ. فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ! فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ: وَيْلَكَ! النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيَقُولَ إِلَّا حَقًّا! حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الأَعْرَابِيِّ، فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ! قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ! فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: « **بِمَ تَشْهَدُ؟** » فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ!)[1] وهذا من

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، وعبد الرزاق في مصنفه، والحاكم في مستدركه وصححه، ووافقه الذهبي. ثم صححه الألباني في الإرواء وصحيح سنني أبي داود والنسائي.

قلت: وهذا الحديث أولى في الاعتماد من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رَجُلٌ كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها. ورجلٌ كان له على رَجُلٍ مَالٌ فلم يُشْهِدْ عليه. ورَجُلٌ آتى سفيهًا مَالَهُ؟ وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: ٥] =

فِطْنَةِ خزيمة ﷺ وذكائِه. وقَصْدُهُ: أننا صدقناك فيما هو أعظم من هذا! وهو النبوة، وما يلزم عنها من تَلَقِّي الوحي ومخاطبةِ المَلَكِ؛ فكيف لا نصدقك في ابتياع فرس من أعرابي؟ وفيه من العِبَرِ أن التحلِّي بأخلاق الصدق والوفاء والأمانة، يجعل صاحبَه في مأمن من تهمة الناس، بل يجعله موضع ثقتهم العالية. والحديثُ على العموم دَرْسٌ من النبي ﷺ لأصحابه وسائرِ أمته، وتشجيعٌ لهم على الترقِّي بمدارج الصديقين. ولم تكن حادثة ابتياعه ﷺ الفرسَ بغير إشهاد قد وقعت منه ﷺ صُدْفَةً، أو فَلْتَةً من غير قصد. كلَّا! بل كانت لهذا المغزى التربوي العميق. واللَّه تعالى أعلم.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق في هذا المجلس دَائِرٌ على بيان منهج التحقق بِخُلُقِ الأمانة والوفاء. وهو راجع إلى **ثلاث مجاهَدات:**

أوْلاهنَّ: التحقُّقُ بمعرفة اللَّه واليوم الآخر، فإنما الأمانة إيمان. وإنما أمانةُ الْمَرْءِ على قَدْرِ إيمانه. فمسلك التخلُّق بها إذن رهينٌ بمجاهدة النفس على الترقِّي بمدارج العلم باللَّه ﷻ والتزود من حقائق اليوم الآخر، ومعرفة أحوال ما بعد الموت، إلى يوم البعث والنشور، إلى أن يقضي اللَّه بين العباد، ويسلك كل فريق سبيله إلى الجنة أو إلى النار. جعلني اللَّه وإياكم من أهل رحمته ونجاته! فتزود المسلم - على الدوام - من هذه الحقائق الإيمانية الكبرى، وتزكية نفسه بها؛ حتى يتعلَّق قلبه باللَّه رَغَبًا ورَهَبًا، وخوفًا ورجاءً؛ كفيلٌ إن شاء اللَّه بتحلية شخصيته بخلق الأمانة والوفاء والإخلاص. وأما مصدر ذلك الزاد المطلوب فقد قررنا مرارًا أنه القرآن العظيم، وبياناته من أحاديث النبيِّ ﷺ في التعريف باللَّه واليوم الآخر، وهي أكثر من أن تحصى.

الثانية: تدريب النفس على تذوُّق حلاوة الأخلاق في الإسلام، والتمتُّع بجمالها. وذلك بإدامة النظر في عوائد الناس وأخلاقهم، وجميع صفاتهم السلوكية، من خلال منظار القرآن الكريم والسنة النبوية؛ حتى تنكشف لك حقائقها، فتميز بين صحيحها

= رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. كما رواه البيهقي في الكبرى وفي الشعب. وصححه الألباني في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة. قلتُ: فأما ذم عدم الإشهاد ههنا فهو مخالَفٌ بما هو أصح منه كما رأيتَ! وقد استجاب اللَّه دعاءَ الرجل الصالح حيث استودع اللَّهَ مالَه في خشبة وألقاها في البحر؛ فأدَّى اللَّه عنه أمانته بإيصالها لصاحبها، وكان قد دعا اللَّهَ ذلك كما نصَّ عليه الحديث.

وسقيمها، وحقِّها وباطلها؛ ثم تتمكَّن بذلك من إصلاح ما فسد من فطرة الأخلاق في النفس. فيستقيم القلب على استقذار خُلُقِ الخيانة وخبائث التصرُّفات. ذلك أن الانغماس في العادات الجارية - بغير عاصم قرآني - يُبَلِّدُ الحسَّ، ويفسد حَاسَّةَ الذوق السليم! حتى يصبح القلب - كما في الحديث - «**كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!**»[1] وصَقْلُ مرآته بنور القرآن يُحْيِي إحساسه الفطري، ويجدد تذوقه السليم للمعاني والتصرُّفات؛ اسْتِحْلَاءً لمكارم الأخلاق، واستقذارًا لخبائثها.

الثالثة: مجاهدة النفس على التبرُّؤ من أَنَانِيتِهَا وشُحِّهَا وأَثَرَتِهَا، وتدريبُها على محبة الناس وإيثارهم بالخير. ويحصل ذلك بالتفقُّه في أحوال الدنيا وفنائها، وفي عدم دوامها لأهلها، والتحقُّق من أنه لا ملكية لأحد فيها، إلا على سبيل المجاز، وأن المالك الحق إنما هو اللَّه، وارث العباد والبلاد. فمن عرف الدنيا حق معرفتها ألقى من يده كل ما يمسكه منها! وأقبل على اللَّه ربِّه، وعلى النظر في آخرته؛ فتخلَّص من شُحِّهِ وأَثَرَتِهِ، وخَلَعَ رِدَاءَ أَنَانِيتِهِ!

فمن تحقَّق بهذه المسالك الثلاثة؛ تَخَلَّقَ بإيمانه، وتخلَّص من جَشَعِهِ، وفَقَدَ ما يدعوه إلى خيانة الخَلْقِ، وإلى التكالب على المال، ولم يجد الشيطانُ إلى فتنته في ذلك سبيلًا. وكان - إن شاء اللَّه - أَمِينًا حَقَّ أمين! بل كان من أهل الدرجاتِ العُلَى في التقوى والصلاح، ومَكَارِمِ الفضائل والأخلاق. واللَّهُ الموفِّقُ للخير والمعينُ عليه.

* * *

(١) رواه مسلم ونصه: عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ، عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ! وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَالآخَرُ: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!» فأما الصَّفَا: فهو الحَجَرُ الأملسُ المتين، الذي لا يعلق به وسخ ولا تراب. وأما الأَسْوَدُ الْـمُرْبَادُّ: فهو الذي يلمع من شدة السواد، أو الأسود الْـمُنْكَدِرُ، وهو كناية عن كثرة الأوساخ والذنوب. والكُوزُ: الإبريقُ وما في معناه. وكونه مُجَخِّيًا، أي: مَنْكُوسًا مقلوبًا، بحيث لا يمسك ما بداخله من شراب؛ فلا تبقى له فائدة.

المجلس التاسع والثلاثون

في مقام التلقي لأسرار الخواتيم وبركاتها
وما تتضمَّنه من مسلك إيماني عظيم!

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

٢- البيان العام:

هذه خواتيم سورة البقرة. وهي ثلاث آيات، خُصَّتْ منها الآيتان الأخيرتان بفضل عظيم، وسِرٍّ كريم، كما سيأتي بيانه بحول اللَّه. وقد جاء هذا الختم مناسبًا للسياق العامِّ والخاصِّ. فأما مناسبته للسياق الخاص؛ فهو ختمه لقضايا الْمُدَايَنَةِ، وأمانة الكَتَبَةِ والشُّهُودِ في الآيات السابقة، وما كان فيها من النهي عن المخالفة إلى الغدر والخيانة وكتمان الشهادة. ومِن ثَمَّ جاءَتِ الخواتيمُ تُحَذِّرُ العبادَ، وَتُذَكِّرُهُمْ بعظمة اللَّه وسَعَةِ مُلْكِهِ، وبعلمه المحيط بكلِّ شيء، الخبير ببواطن الأنفس وظواهرها، وأنه تعالى أعلم بما في صدور عباده، وبما قد يُسِرُّونَهُ من الخيانات، أو نقض العهود والأمانات، أو تزوير الوثائق والشهادات! وأنه ﷻ أَقْدَرُ على عقاب من يشاء، والمغفرة لمن يشاء. فانبنى عليه ما في الآيتين الأخيرتين، مما حكاه اللَّه عن المؤمنين العارفين به - جَلَّ ثناؤه وعُلَاه - من التسليم للَّه والاستسلام لما أراده وقضاه، ثم ما فيهما من دعاء جميل

رقيق، يَجْأَرُ به المؤمنون إلى اللّه؛ سائلين رَفْعَ الإِصْرِ والحرَجِ، وعَدَمَ تكليفِ ما لا يُطاق، وطالبين منه تعالى العفو، والمغفرة، والرحمة، والنصر على القوم الكافرين.

وأما مناسبته للسياق العام؛ فهو ختمه لسورة البقرة على الإجمال. حيث جاءت هذه الخواتيم - كما وصفنا - مُنَاسِبَةً لما تضمَّنته السورة على الإجمال، من العقائد، والقصص، والتشريع، والوعد والوعيد، الدائر جميعه على معنى إخلاص التطبيق للّه، وعدم التلجلج في تلقِّي أحكامه وحِكَمِهِ جَلَّ عُلَاه، والتحذير من مغبة التمرُّد عليه تعالى، أو التحايل على شريعته، كما تمرَّدت بنو إسرائيل من قبلُ وتحايلت! فكانت هذه الخواتيم الكريمة إذن تمييزًا لِأُمَّةِ ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾ عن أُمَّةِ ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٩٣﴾ ﴾ قال الزَّجَّاجُ رَحِمَهُ اللَّهُ في تقرير مُنَاسَبَةِ هذا المعنى الختامي: (لَمَّا ذَكَر اللَّهُ سبحانه في هذهِ السُّورَةِ فَرْضَ الصلاةِ والزكاةِ، وَبَيَّنَ أحكامَ الحجِّ، وحُكْمَ الحيضِ، والطلاقِ، والإيلاءِ، وأقاصيصَ الأنبياءِ، وَبَيَّنَ حُكْمَ الرِّبَا؛ ذَكَرَ تَعْظِيمَهُ [يعني: لِنَفْسِهِ] سبحانه بقوله: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾، ثم ذَكَرَ تصديقَ نَبِيِّهِ ﷺ، ثم ذَكَر تصديقَ المؤمنينَ بجميعِ ذلك، فقالَ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ومِن ثَمّ تضمَّنت هذه الخواتيم من الكرامات والأسرار؛ ما لا تجده في آية أخرى. وبيان ذلك هو كما يلي:

قال ﷻ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. قَرَأَ عَاصِمٌ وابنُ عَامِرٍ ﴿ فَيَغْفِرُ ﴾ ،﴿ وَيُعَذِّبُ ﴾ برفع الفعلين على الاستئناف، أي بتقدير: فهو يَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ. وأما الباقون فقرؤوا بالجزم؛ عطفًا على ﴿ يُحَاسِبْكُم ﴾. والمغزى واحد. وهو تقريرٌ منه تعالى وتذكيرٌ، وبيانٌ لوجه من وجوه قوته، وعظمة سلطانه، وسَعَةِ مُلْكِهِ، وقدرته على خلقه! فهذا الرب الكريم الذي شرع ما شرع، فأمر ونهى؛ قديرٌ على متابعة مآلات أمره ونهيه، في أعمال عباده، بل في بواطن أنفسهم، ودقائق خواطرهم، مما خَفِيَ من نياتهم ومقاصد أعمالهم. وكيف لا؟ وهو الذي له ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾، هكذا على العموم

---

(١) نقلا عن فتح القدير للشوكاني، عند تفسيره للآية.

الكامل، والاستغراق الشامل! يقوم بشؤونهن، وشؤون خلْقِهِنّ، فلا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه شيء، صَغُرَ أم كَبُرَ؛ ولذلك كان علمه ﷻ مُحيطًا بخفايا النفوس ومضمرات القلوب، لا تخطر بنفس خاطرة إلا أحصاها! فإما أن العبد ينبذها ويطردها فلا كلام عنها. وإما أنه يستحليها ويستجيب لشيطانها، ثم يعمل بها؛ فيحق عليه الحساب! وهو ههنا بين أمرين: إما أن يغفرها اللَّه ويتجاوز له عنها، وإما أن يؤاخذه ويعذبه بها. واللَّه تعالى يفعل من ذلك ما يشاء ويختار. وهو على كل شيء من هذا وذاك قدير.

وقد ذكر المفسِّرون أن لهذه الآية في نفسها، وفي علاقتها بما بعدها؛ قصةً عجيبةً! فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾؛ قَالَ: اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ! فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ. وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ:** ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٩٣﴾ ﴾؟ **بَلْ قُولُوا:** ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾! » قَالُوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾! فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾! فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾! قَالَ: نَعَمْ! ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾! قَالَ: نَعَمْ! ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ ﴾! قَالَ: نَعَمْ! ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾! قَالَ: نَعَمْ!) (١) يعني بقوله

---

(١) رواه مسلم.

« نعم »: قَدْ أَجَبْتُ! وفي رواية الترمذي عن ابن عباس: (قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ!) بدل قوله: (قَالَ: نَعَمْ!) [١].

وأما قول أبي هريرة ﷺ في الحديث: (فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى) فالنسخ ههنا بمعنى البيان، وليس بمعنى إزالة الحكم بعد ثبوته على الاصطلاح المشهور. بل هو بمعنى إزالة الوهم، ونسخ الفهم الخاطئ للآية، حيث إن ظاهرها محتمل لمحاسبةِ اللَّهِ العبادَ على ما يقع بأنفسهم من خواطر، ومؤاخذتهم به! وهو ما حَدَا بالصحابة ﷺ إلى قول ما قالوا. فنسخ اللَّه هذا الفهم أو هذا الاحتمال، بمعنى أنه تعالى بَيَّنَ بأن المقصود إنما هو ما تطوَّر من تلك الخواطر إلى أقوال وأفعال، دون ما بقي في إطار حديث النفس ووَسْوَاسها. ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ!** » [٢]؛ ولذلك فلا نسخ في الآية بالمعنى الاصطلاحي. وقد روى ابن جرير الطبري عن الربيع بن أنس، والضحَّاك، والحسن البصري: أن الآية محكمةٌ لا نسخ فيها. وهو روايةٌ عن ابن عباس أيضًا. واختاره الطبري رحمه الله في تفسيره [٣].

وقد بَيَّـنَ شيخُ الإسلام ابن تيمية ذلكَ بيانًا شافيًا، قال رحمه الله: (وفَصْلُ الْخِطَابِ أَنَّ لَفْظَ « النَّسْخِ » مُجْمَلٌ. فَالسَّلَفُ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا يُظَنُّ دَلَالَةُ الآيَةِ عَلَيْهِ مِنْ عُمُومٍ، أَوْ إِطْلَاقٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]، نُسِخَ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] وَلَيْسَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ تَنَاقُضٌ، لَكِنْ قَدْ يَفْهَمُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، و ﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ الأَمْرَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُهُ الْعَبْدُ؛ فَيُنْسَخُ مَا فَهِمَهُ هَذَا، كَمَا يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ وَيُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسْخُ ذَلِكَ نَسْخَ مَا أَنْزَلَهُ، بَلْ نَسْخَ مَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ! إمَّا مِنَ الأَنْفُسِ، أَوْ مِنَ الأَسْمَاعِ، أَوْ مِنَ اللِّسَانِ. وَكَذَلِكَ يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَقَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ فَهْمِ مَعْنًى، وَإِنْ كَانَتِ الآيَةُ لَمْ تَدُلَّ عَلَيْهِ. لَكِنَّهُ مُحْتَمَلٌ. وَهَذِهِ الآيَةُ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾..

---

(١) رواه الترمذي وقال: « هذا حديث حسن صحيح ». وصححه الألباني في صحيح سننه.

(٢) متفق عليه. (٣) ن. تفسيره للآية في جامع البيان.

الآيَةَ، إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُ بِمَا فِي النُّفُوسِ، لَا عَلَى أَنَّهُ يُعَاقِبُ عَلَى كُلِّ مَا فِي النُّفُوسِ (...) وَالصَّحَابَةُ إِنَّمَا هَرَبُوا وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ مِنْ هَذَا الجِنْسِ فَقَالُوا: «لَا طَاقَةَ لَنَا بِهَذَا! فَإِنَّهُ إِنْ كَلَّفَنَا مَا لَا نُطِيقُ عَذَّبَنَا!» فَنَسَخَ اللَّهُ هَذَا الظَّنَّ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا!)[1].

وبعد تقرير سَعَةِ مُلْكِهِ تعالى وعظمةِ سلطانه، وقدرته على محاسبة خلقه، فيما أسرُّوا وما أعلنوا؛ قَرَّرَ - جَلَّ ثناؤه - حقيقةَ الإيمان، وأركانَه الستة من خلال الآيتين الأخيرتين؛ تقريرًا بديعًا لا يوجد إلا في القرآن! فالآية الأولى نصٌّ في إثبات الأركان الأربعة: الإيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله. وهي أيضًا ظاهرة في إثبات الإيمان بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾﴾، وهو دَالٌّ على معنى الرضا باللَّه رَبًّا، والرضا بما قَضَى وقَدَّر، والتسليم له والاستسلام. وأما الإيمان باليوم الآخر فهو مفهومٌ مِن كُلِّ عبارات الدعاء في الآية الأولى والثانية. ولا معنى لطلب العفو والغفران غير ذلك؛ لأنه معنى أخروي صرف؛ ولذلك قال عَقِبَهُ: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ... ﴿٢٨٦﴾﴾، وما تبعها من الدعاء إلى آخر الآية. فاقرأ الآيتين مرة أخرى وتدبَّر!

قال ربُّ العِزَّة جَلَّ ثناؤه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

فقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ﴾، مَدْحٌ من اللَّه وثَنَاءٌ على رسوله محمد ﷺ وعلى الذين آمنوا معه، ومن تبعهم على الإيمان إلى يوم الدين؛ وذلك بما صدَّقوا بالوحي الذي أنزله اللَّه على قلب رسوله ﷺ، وبما خضعوا له واستسلموا واستجابوا. فأول المؤمنين محمدٌ ﷺ. وإيمانه هو على أعلى مقامات

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠١/١٤).

الإيمان بإطلاق؛ لأنه إيمانُ نبوةٍ، وإيمانُ يقينٍ مُعَايَنٍ. لم يبلغ أحدٌ قَدْرَهُ، لا قَبْلَهُ ولا بعده. حيث لم يبقَ إيمانه بالوحي والقرآن والنبوة مجرَّد تصديق، بل صار الإيمان وصفًا جَوْهَرِيًّا قائمًا بذاته ﷺ، لا ينفكُّ عن شخصيته، ولا ينفصل عن طبيعته؛ لأن نور الوحي لما أشرق على قلبه، فاض على كل كيانه ﷺ؛ فصار إيمانُه بالنبوة والقرآن إيمانًا بنفسه وبذاته. ومن ثم تَخَلَّقَ بالوحي، وصار القرآنُ كُلَّ خُلُقِهِ، وجميعَ شخصيته؛ لقول عائشة رضي الله عنها في الحديث المشهور: « كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ! » (١)، فكان بذلك أَكْرَمَ مؤمن على اللَّه، وأحبَّ عبد إلى اللَّه.

وأما المؤمنون فإنهم لما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كلام اللَّه رب العالمين، فهو دَالٌّ بنفسه على نفسه، ودَالٌّ بآياته العظيمة على المتكلِّم به! فآمنوا به يقينًا، وصدَّقوا به تصديقًا، حتى ذَلَّتْ له قلوبهم، وخضعتْ له أعناقهم، واستجابوا للَّه ولرسوله متى دعاهم، فهاجروا إلى اللَّه، وجاهدوا في سبيل اللَّه، بأموالهم وأنفسهم، فكان منهم صِدِّيقُونَ وشهداءُ وصالحون، وكانوا جميعًا مؤمنين حَقَّ مؤمنين!

ثم قال تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾. أي كُلٌّ من الرسول والمؤمنين آمَنَ باللَّه، كُلٌّ على قَدْرِ مقامه كما بَيَّنَاه. والإيمانُ باللَّه: هو الاعتقاد الجازم بأن اللَّه هو ربُّ العالمين، الخالق لكلِّ شيء، القيُّوم على كلِّ شيء. رَبٌّ واحدٌ أحد، لا يشاركه في ربوبيته تعالى للعالمين أحد، ولا في تدبيره لشؤون الخلق والملكوت أحد. ولا يشبهه في ذاته وصفاته أحد. وهو المستحق للعبادة وحده، المقصود بالخوف والرجاء وحده. لا مانع لما أعطى ولا مُعْطِي لما مانع. لا إله إلا هو.

وأما الإيمان بالملائكة: فهو الاعتقاد الجازم بوجودهم على ما وصف القرآن الكريم، وعلى ما ورد في السنة النبوية الصحيحة. وأنهم خَلْقٌ من خلق اللَّه، عبادٌ للَّه مكرمون. ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] لهم وظائف شتَّى لا يحصيها إلا اللَّه، فمنهم سكان السماوات، قائمون بعبادة اللَّه وذِكْرِهِ تعالى وتسبيحه، لا يفترون، ومنهم الموكَّلون بحراسة أبواب السماء ورجم الشياطين،

---

(١) رواه مسلم.

ومنهم الموكَّلون بتنزيل الوحي على رسل اللَّه في الأرض، ومنهم حَفَظَةٌ على بني آدم، ومنهم كَتَبَةُ الأعمال، ومنهم الموكَّلون بنفخ الأرواح عند الولادات، ومنهم الموكَّلون بقبضها عند الوفيات، ومنهم الموكَّلون بزجر السحاب ومكاييل الأمطار، ومنهم الموكَّلون بمباركة مجالس الأذكار.. إلى غير ذلك مما اللَّه به عليم. والملائكة مخلوقات من نور، لها أجسام لطيفة خفية، وأجنحة نورانية. لا يراها إلا الرسل والأنبياء، ومن أكرمه اللَّه بكرامته من الصالحين. قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١]. وفي الصحيحين عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ!) (١) وفي رواية أحمد عن عبد اللَّه ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « **رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عَلَيْهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ يُنْثَرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ!** » (٢) وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** » (٣) .وقد ثبت رؤية الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - للملائكة، ولجبريل في صورته البشرية مرارًا وتكرارًا (٤).

وبهذا الإيمان الصحيح والاعتقاد السليم ينجو المسلم من تأليه الملائكة، أو إنكار وجودهم البتة، أو التقوُّل فيهم على اللَّه بالباطل، كما هو شأن بعض الْمِلَلِ والنِّحَلِ. ثم به أيضا يكتسب المؤمن أحوال أُنْسٍ، ومقامَ تقوى وورع؛ لِمَا يشعر به من صحبة الملائكة على كلِّ حال، ولما يشهده بقلبه من رقابتهم لأعماله وأقواله، في حِلِّه وتَرْحَالِه: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الدلائل، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو نعيم. وحسنه الألباني في الإسراء والمعراج، وفي صحيح الجامع، كما حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٣) رواه مسلم.

(٤) من ذلك حديث جبريل المتفق عليه في الجملة، حيث يرويه البخاري عن أبي هريرة، ويرويه مسلم أكثر تفصيلًا عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولفظه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ =

وأما الإيمان بالكُتُبِ: فمعناه الاعتقاد الجازم بأنها وَحْيٌ من اللَّه تعالى أنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام. وقد ذكر اللَّه لنا منها: صُحُفَ إبراهيم وموسى، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن، وهو خاتمها وأجمعها وأعظمها. والإيمان بها جميعها واجب. غير أنه لا يجوز لمسلم الأخذ بشيء منها سوى القرآن الكريم؛ لِمَا لحقَّها من التحريف والتبديل؛ ولِمَا أكرم اللَّه به هذه الأمة من حفظ كتابها: القرآن العظيم، ولأن اللَّه جعله ناسخًا للكتب السابقة ومهيمنًا عليها. وهذا لا يناقض الإيمان بكلِّ الكتب من حيث الأصل والمبدأ. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨] ؛ ولذلك كان من لوازم الإيمان بالقرآن خاصَّة تحكيمُه في حياة المسلمين الفردية والجماعية.

وأما الإيمان بالرُّسُلِ: فمعناه الاعتقاد الجازم بأن اللَّه أكرمهم بالنبوة، وشرفهم بالرسالة، أي أنهم خوطبوا بالوحي النازل من عند اللَّه بواسطة الملك جبريل عليه السلام؛ فكلَّفهم اللَّه بتبليغ رسالاته إلى الناس؛ تعريفًا لهم بربِّهم، وبما له عليهم من حقِّ التوحيد والعبادة، وبتفاصيل الشرائع، وحقيقة اليوم الآخر والمصير. ومن أجمع ما ورد في القرآن من ذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]

= فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟)... الحديث. وقد رآه الصحابة مرة أخرى في غزوة بدر، ورأته عائشة يكلِّم رسول اللَّه ﷺ. كل ذلك في تشكُّله على الصورة البشرية. كما ثبت أن أسيد بن حُضير رضي الله عنه رأى الملائكة في هيئة نورانية، وهو يتلو القرآن ليلًا! وحديثه مُخرَّج في صحيح مسلم، وفيه: (فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ! [جمع سِراج: وهي المصابيح] عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا! قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ! وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ؟ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ! ») وفي الحديث تفصيل سبق ذكره.

وقال تعالى فيما نتدارسه ههنا من خواتيم البقرة: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾ بمعنى أنه لا يجوز الإيمان ببعض والكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى. بل نؤمن بهم جميعًا؛ تصديقًا لخبر اللّه ورسوله ﷺ. ففي الصحيحين: « **الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ!** »[١] أولهم آدم عليه السلام، وخاتمهم محمد ﷺ.

وأما عيسى فهو - على خلاف ما زعمت النَّصارى - عَبْدُ اللّه ورسوله، وكلمته وروح منه. نُنَزِّهه عن ادِّعاءِ الألوهية حاشاه! ونُنَزِّه اللّهَ ﷻ عن الزوجة والولد. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ: فيقتضي - بعد التصديق بكلِّ ما جاء به - العملَ بسنته، والتطبيقَ لأمره ونهيه. قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

وقد بَيَّنا أن هذه الخواتيم تتضمَّن أيضًا الإيمانَ بالقَدَرِ والإيمانَ باليوم الآخر، تمامَ أركان الإيمان الستة.

فأما الإيمانُ بالقَدَرِ: فمعناه الاعتقاد الجازم بأن اللّهَ ﷻ قد كتب أعمالَ بني آدم قبل خلقهم، وأن كُلَّ عَبْدٍ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له. وأن ذلك لا ينافي عَدْلَهُ تعالى وحكمته. وإنما معناه أن اللّه ﷻ قد عَلِمَ مقاديرَ الأشياءِ جميعها، خَلْقًا وحدوثًا وأجلًا، علم ذلك في الأزل قبل أن تكون! حتى إذا شاء خلقها بقدرته، وأحدثها بإرادته، في مكانها وزمانها، على وِفْقِ ما عَلِمَهُ منها أزَلًا. وأنه تعالى كتب المقادير كلها في اللوح المحفوظ قبل إحداثها. قال سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

---

(١) متفق عليه. والعَلاتُ: الضرائر من الزوجات. وأولاد العلات: هم الإخوة لأب.

مِن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [الحديد: ٢٢]. وفي الحديث: أَنَّ عُبَادَةَ ابْنَ الصَّامِتِ ﷺ قالَ لابْنِهِ في وصيته: (يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ؛ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ! قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ!** » يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي!** » [(١)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: « **يَا غُلامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ! احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ! إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ! وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ! وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ! وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ! رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ!** » [(٢)] وفي حديثِ جبريلَ المشهور، في سؤاله للنبي ﷺ (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: **أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ!**) [(٣)].

وأما الإيمان باليوم الآخر: فهو الاعتقاد الجازم بأن اللَّه يُحيي الموتى، ويبعث من في القبور، ثم يحشرهم ليوم النشور، وهو يوم الحساب، حيث يقضي اللَّه بين العباد، سواء فيما له عليهم من حقوق، أو فيما لبعضهم على بعض من حقوق. فتوضع أعمال ابن آدم في الميزان، فمن رجحت كفَّة حسناته على كفَّة سيئاته صار إلى الجنة برحمة اللَّه، ومن رجحت كفَّة سيئاته على كفَّة حسناته صار إلى النار بعدل اللَّه. نسأله تعالى أن يدخلنا في رحمته. وحقائقُ اليوم الآخر مُفَصَّلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. فوجب الإيمان بكلِّ ما ثبت منها، كالحشر، والميزان، وكتاب الأعمال، والصِّراط، وحوض النبيِّ ﷺ، وشفاعته للمؤمنين من أمته. ثم

---

(١) رواه الترمذي، وأبو داود، والبيهقي في الكبرى. وصححه الألباني في صحيح سننيهما، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، والترمذي واللفظ له، وقال: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». كما رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، والمشكاة، وشرح الطحاوية.

(٣) رواه مسلم.

الجنة ودرجاتها، وما يتعلَّق بنعيم أهلها، ورؤيتهم لربِّهم فيها. والنار ودركاتها، وما يتعلَّق بعذاب أهلها. نجَّانا اللَّه وإيَّاكُم منها!

تلك أركان الإيمان الستة التي لا يصحُّ إيمان مسلم ولا إسلامه إلا بها. ومِن ثَمَّ وَجَبَ التحقُّق بها واحدًا واحدًا، والتخلُّق بما تقتضيه جميعُها، من خُلُقٍ وسلوك في الأقوال والأفعال.

ثم قال تعالى بَعْدُ: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ وهذا حكايةٌ من اللَّه - جَلَّ ثناؤه - عن المؤمنين، وثناءٌ منه تعالى عليهم؛ بما أجابوا النبيَّ ﷺ بعد نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾ فكان منهم ما كان من خوف وتردُّد، ثم كان خضوعهم للَّه واستسلامهم له، وقالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ﴾ كما بيناه بدليله قبل. فنزل قوله تعالى في أصحاب النبي ﷺ وفي كلِّ من سلك مسلكهم من هذه الأمة إلى يوم الدين: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فكانت عبارةُ: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ﴾ عنوانَ هذه الأمة وخاصِّيتها الأولى تجاه ربِّها! فقد تَلَقَّتْهَا شهادةً كريمةً من اللَّه، حَلَّاهَا بها، وسِيمَاءَ رحمانية ميَّزها بها، وطابعًا ربانيًّا طبعها به، ففضَّلَها بذلك على سائر الشعوب والأمم! والتعبير بـ ﴿ سَمِعْنَا ﴾ ههنا لا يقف عند حَدِّ سماع الكلام بالمعنى الحِسِّي، بل يتعدَّاه إلى معنى الخضوع للكلام المسموع، والإيمان بكلِّ ما فيه والتصديق! وهو غير سماع متمردي بني إسرائيل الذين ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، لأن سماع هؤلاء مقصور على إدراك المعنى والعلم به، لكن دون الخضوع له والاستسلام، بل مع قصد التمرد عليه والكفران!

وأما « الطاعة » فهي: الاستجابة والانقياد؛ عن رغبة صادقة وإرادة. مشتق من الطوع والمطاوعة؛ ولذلك لا يُسَمَّى الفعلُ المؤدَّى تحت الإكراه طاعة. وإنما المطيع: هو الذي يؤدِّي عَمَلَه باختياره، بل بشوق إليه ومحبة! ولذلك قالوا: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وهذا - حسب السياق الخاص - دعاءٌ بالعفو والمغفرة من اللَّه عما بَدَر منهم من تردد إزاء قضائه وقدره، وما نزل قبلها من آياته! وهو - حسب السياق العام - طلبٌ من اللَّه ودعاءٌ بالتجاوز عن كلِّ زَلَّة وتقصير، سواء فيما كان من اضطراب الدخول في الطاعات، وعدم التحقُّق بالعبادات؛ أو فيما كان من

الوقوع في الزلات، واقتراف الذنوب والخطيئات. فعبارةُ « غفران » ههنا مَصْدَرٌ منصوبٌ بفعله، تقديرُه: « اِغْفِرْ غُفْرَانَكَ! » وأما إضافة الغفران إلى اللَّه - جَلَّ ثناؤه - عبر الضمير المتصل « الكاف »: ﴿ غُفْرَانَكَ ﴾؛ فهو دالٌّ على أن المقصود هو الغفرانُ الكاملُ الشاملُ، اللَّائِقُ برحمة اللَّه الواسعة، وعفوه العظيم! فكأنهم قالوا: إننا نطلب غفرانَك اللائق بكمال ربوبيتك، غفرانًا إلهيًّا يستوعب جميع الخطايا والآثام، كبيرَها وصغيرَها، خَفِيَّهَا وجَلِيَّهَا؛ ولذلك حَسُنَ قولُه تعالى بَعْدُ على سبيل النداء وتأكيد الدعاء: ﴿ رَبَّنَا ﴾.. وإنما طلبوا الغفران؛ لِمَا آمنوا به من حتمية الحساب الواقع في اليوم الآخر. وهو معنى قوله: ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ إقرارًا منهم بحقيقة المعاد والبعث والنشور، والوقوف بين يدي اللَّه الواحد القهَّار!.

وبعد ما كان من المؤمنين من خضوع للَّه واستسلام، ومن تعبير عميق عن خالص الإيمان، ودعاء بكامل الغفران؛ جاءت البشرى العظيمة من الرحمن، فقال جَلَّ ثناؤه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ وهذه قاعدة كلية من قواعد الدين، وأصل عظيم من أصول مقاصد الشريعة. إنها رَفْعُ تكليفِ ما لا يطاق. ذلك أن اللَّه - جَلَّ ثناؤه - أرحم بعباده؛ فلا يكلِّفهم من الدين إلا ما يطيقون. ومعنى وُسْعِ النَّفْسِ: ما تَتَّسِعُ له قُدْرَتُهَا، وتستوعبه طاقتُها. فالوُسْعُ هو الممكن المستطاع، والميسور المقدور عليه. تلك هي الشريعة الإسلامية، وتلك هي طبيعة التكاليف الإلهية للنفس الإنسانية. لا ضيق ولا حرج، ولا مشقة فوق المعتاد. ومِن ثَمَّ فلا تُحَاسَبُ نَفْسٌ إلا بما كسبت في ذلك الإطار من الطاقة والوسع. فلها ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شرٍّ. بمعنى أن كسب النفس في الخير لا ينتفع به - يوم القيامة - أحدٌ سواها، كما أن كسبها في الشرِّ لا يتضرَّر به أحدٌ سواها. وقد مَيَّزَ اللَّهُ تعالى الخيرَ ههنا بفعل « كَسَبَ » المجرَّدِ، كما مَيَّزَ الشرَّ بفعل « اكْتَسَبَ » الْمَزِيدِ؛ للدلالة على تقابل الفعلين وتضادهما، وأن جوهر هذا غير جوهر ذاك. وهو تمييز جمالي لحاجة هذا السياق خاصَّة. وليس بِمُطَّرِدٍ على الإطلاق.[1] و « الاكتساب » من « الافتعال »، استُعمل ههنا بما زِيدَ فيه

(١) وقد جعل بعض المفسرين فعل « كسب » في الخير مطلقًا، وفعل « اكتسب » في الشر مطلقًا. وهو غير مطرد؛ فقد ورد الأول في سياق الشر أيضًا، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ =

من الألف والتاء؛ للدلالة على الزيادة على حدِّ الخير، والخروج عن إطار ما ينبغي كسبه؛ ولذلك قال اللغويون: (كُلُّ زِيَادَةٍ في الْمَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ في الْمَعْنَى).

ومِن ثَمَّ كان هذا الختم النهائي الكريم مُطَيَّبًا بِمِسْكِ هذا الدعاء الرقيق الجميل: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.. وهذا إرشاد من الرحمن لعباده المؤمنين، وهدية كريمة لعباده الصالحين، وعطاء عظيم من كنوز فضله، ولطائف رحمته، وأسرار حكمته! خيرات وبركات خصَّ بها هذه الأمة، وفضَّلها على سائر الأمم.

فههنا يلتقي آخر السورة مع أولها، وتعود نهايتها بالبيان على بدايتها.. فأولئك المتقون المذكورون في أوائل السورة، الذين استيقنوا بحقيقة هذا الكتاب؛ فكان لهم هُدًى، وانخرطوا في مسلكه الرباني؛ بإيمانهم بالغيب، وإقامهم للصلاة، والإنفاق مما رزقهم اللَّه، والإيمان بما أُنْزِلَ إلى محمد ﷺ، وما أُنْزِلَ من قبله، وبالآخرة هم يوقنون؛ فحكم اللَّه لهم بهذا الثناء العظيم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ولكن بشرط النجاح الفعلي في التلقِّي لكلمات اللَّه، والدخول الحقيقي في ابتلاءاته الإيمانية، وأحكامه التشريعية! مما فصَّلت السورة في بيانه؛ أولئك هم الآن يقفون على نهاياتها؛ يتلقَّون من الرحمن جوائزهم! وهم يلهجون إلى اللَّه بهذا الدعاء الختامي الكريم.. بعد رحلة شاقة جهيدة، لكنها حلوةٌ لذيذة.. وبعد معاناة ناصبة شديدة، لكنها ممتعة جميلة..! فأكرمهم اللَّه بأسرار النهايات، كما أكرمهم بأشواق البدايات! فتخلَّقوا بالهدى وتحقَّقوا بالفلاح!

وقد كانت سورة البقرة فعلًا من أعظم المسالك لذلك؛ لِمَا قرَّرناه في مقدمتها من أنها منهاج كامل في بناء الأمة وتربيتها، وإخراجها من البذرة إلى الشجرة إلى الثمرة – فها هم المؤمنون وقد سلكوا مدارجها، وكابدوا تكاليفها، وقطعوا مسافتها، وعانوا رحلتها.. ها هم أولاء يتوجَّهون مُتَذَلِّلِينَ إلى اللَّه بالدعاء، كما علَّمهم اللَّه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ والمؤاخَذةُ: المتابعة والمعاقبة. وهذا دعاءٌ

= أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

نَدِيٌّ، ونداءٌ شَجِيٌّ، وتَوَجُّهٌ إلى اللَّه؛ بما هو ﴿ رَبَّنَا ﴾ الذي لا رَبَّ لنا سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه؛ سائلين إيَّاه السماح وعدم مؤاخذتنا بما فرطنا فيه من حقوقه، أو أضعنا من فرائضه؛ بسبب الغفلة والنسيان. وسائلين أيضًا عدم مؤاخذتنا بما وقعنا فيه من الخطايا والآثام سهوًا أو خطأً. وقد استجاب اللَّه للمؤمنين فيما طلبوا بهذا الدعاء - من أوله إلى آخره - حرفًا حرفًا! فعن أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ وابنِ عبَّاسٍ ﵄ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ! » (١).

ثم قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ والإِصْرُ: الحِمْلُ الثَّقِيلُ والتكليفُ الشَّاقُّ. وهذا دعاء بجعل هذه الشريعة يسيرةً سهلةً، كريمةً سَمْحَةً، لا ضيقَ فيها ولا حرج، ولا إِصْرَ فيها ولا أغلال! على عكس شريعة بني إسرائيل التي جعل اللَّه عليهم فيها الآصَارَ والأغلال؛ بما عصوا وكانوا يعتدون! ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وفي تكرار عبارة ﴿ رَبَّنَا ﴾ خلال الدعاء مرات؛ دلالة على معنى التقرُّب والتحبُّب إلى اللَّه الربِّ الرحيم. ومعنى الدعاء: ربنا لا تُحَمِّلْنَا من المصائب والبلاء ما لا قِبَلَ لنا به! وما لا قدرة لنا على تحمُّله والصبر عليه! ولا تُنْزِلْ علينا شيئًا من ذلك عقوبةً لنا!.. ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ برفع البلاء، وكشف الضر. ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ عَمْدَنَا في ذنوبنا، وإسرافَنا في أمرنا؛ مما يستحق نزول عقوبتك، وحلول سخطك!.. ﴿ وَٱرْحَمْنَآ ﴾ بعصمتك لنا من الوقوع في معصيتك، وبإجابة دعوتك، وإدخالنا وَاسِعَ جنتِك! وإن الجنة هي أعظم الرحمة وأعلاها. ففي الصحيحين: (قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي!) (٢).

هذا، ولما كان الجهاد في سبيل اللَّه من أشقِّ التكاليف على النفس - رغم أنه من سَعَتِهَا ومقدورها - وقد مَرَّ الأمرُ به في سورة البقرة، في أكثر من موطن ومناسبة؛

---

(١) رواه ابن ماجه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والأوسط، والدارقطني، وابن حبان، والحاكم وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ». ثم صححه الألباني في الإرواء، وصحيح ابن ماجه. ومعناه متواتر؛ فقد روي عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة. وهو معضَّد بنصوص القرآن.

(٢) جزء حديث متفق عليه.

قال سبحانه في ختام الدعاء: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أنت ولينا ونصيرنا، عليك نتوكل وبك نستعين في كلِّ أمورنا، وفي جهاد عدونا؛ فانصرنا على القوم الكافرين! ممن جحد دينك، أو أنكر وحدانيتك، أو كذَّب رسولك، أو حاربَ عبادك! ربنا فانصرنا عليهم آمين!

والختمُ بطلب النصر إشارةٌ دالةٌ على أن حفظ دين هذه الأمة، وصيانة عرضها وكرامتها، واستمرار دعوتها وحضارتها؛ لا يكون إلا باستمرار الجهاد في سبيل اللَّه! وأنه لا صلاح لأجيالها إلا بتربيتهم على حقائقه ومنازله الإيمانية. وأن هذا الصرح الإسلامي العظيم من العقائد والتشريعات، الذي تأسَّست أركانه في سورة البقرة؛ لن يبقى محفوظًا من غارات الطواغيت؛ إلا ببقاء راية الجهاد مرفوعة فوق أبراجه، ترفرف عاليًا في الهواء! لأن طبيعة الطاغوت مجبولة على الشرّ، وعلى هدم كل خير ارتفع بناؤه في أي مكان من الأرض؛ ولذلك شُرِعَ الجهادُ لدفعه كلما أغار على المسلمين، ثم لطلبه في عقر داره لتحطيم سلطانه وكسر طغيانه؛ حتى يأمن المؤمنون في الأرض من شرِّه وعدوانه؛ وحتى يُعْبَدَ اللَّهُ وحده من دون شريك باطل في أي مكان! ومِن ثَمَّ احتاج المؤمنون إلى استجلاب ولاية اللَّه ونصره، في ختم هذا الدعاء الرباني العظيم، بعد تقديم الاعتراف للَّه بحقائق الإيمان، والتعبير عن كمال السمع والطاعة، وطلب الرحمة والغفران، والعصمة من الخطايا والآثام. وكذلك ترتيب النصر في هذا الدين يكون؛ وإلَّا فَلَا!

وهذا دعاءٌ ثبتت به المناجاة بين اللَّه ﷻ وبين عباده المؤمنين، كلما رَتَّلُوهُ بإخلاص! كما هو واقع في سورة الفاتحة، حيث كان الربُّ - جَلَّ ثناؤه - يرد على القارئ في كل آية بما يناسب رغيبتها؛ فيقول: (« **حَمِدَنِي عَبْدِي!.. أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي!.. مَجَّدَنِي عَبْدِي!. هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ!** »)[1] كما بيناه مُفصَّلًا في مُدارسة سورة الفاتحة. ولذلك فالربُّ الجليل يرد على عباده ههنا أيضًا، عند كل مسألة يطلبونها، فيقول: (**قد فعلت! قد فعلت!**) كما أوردناه في الصحيح قَبْلُ؛ ولذلك قال مَلَكٌ من الملائكة لرسول اللَّه ﷺ (**فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا**

---

(١) سبق إيراده بتفصيله في بيان سورة الفاتحة، من حديث مسلم عن أبي هريرة.

إِلَّا أُعْطِيتَهُ!) [١] وكان معاذ بن جبل ﷺ كلما أتى على خواتيم البقرة قال: آمين! [٢] ذلك، والحمد لله ربِّ العالمين.

٣- الهدى المنهاجي:

ونلخِّصه من هذه الخواتيم المباركة في **عشر رسالات**، نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الآيتين من خواتيم سورة البقرة - ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾ إلى آخرة السورة - تتضمَّنان من كنوز الرحمة، وأسرار التوحيد، وجمال الإيمان، وحقائق المعرفة بالله؛ ما لا يمكن عَدُّهُ ولا إحصاؤه! وإنما ينال العبدُ من بركاتهما على قَدْرِ تحقُّقه بأخلاقهما، والتقرُّب إلى الله بحقائقهما، وأدعيتهما. فكَلِمَاتُهُمَا ضاربة في عمق الغيب بما لا يعرف مداه إلا الله! فقد تضمَّنتا من أسرار التوحيد والإخلاص ما يجعل العبدَ إذا تدَّرج بمدارجهما؛ ينال من مراتب العلم بالله والمعرفة به، ما لا قِبَلَ له به! وإن السرَّ فيهما دائر حول كنزين عظيمين، **الأول**: كنز التحقُّق بأركان الإيمان في امتدادها الغيبي العميق. **والثاني**: كنز التَّحَقُّق بكمال العبودية، وتمام الذلة لله، والخضوع لسلطانه العظيم، والسير إليه - خلال ذلك كله - بدعاءٍ رباني عميق، تلتهب منه أشواقُ القلبِ رَغَبًا ورَهَبًا! وذلك سر الإخلاص!

وإن هذه العبارات مما نكتب الآن، إنما هي عناوين تقريبية لمشاهد البركات والأسرار المتجلِّية عن تلك الخواتيم. أما حقيقتها فليس لبشر التعبير عنها على الإطلاق! وإنما السبيل الأوحد لذلك هو الدخول في مسالكها واحدًا واحدًا، وتَلَقِّي ابتلاءاتها كلمةً كلمةً! فبإشعال فتيل القلب من لهب المكابدة والمعاناة لحقائقها؛ تستنير الروح وتبصر معراجها، ثم تنطلق محلقة في فضائها! وهنالك تكتسب مقامها العالي الرفيع من منازل المعرفة بالله! مقامًا كريمًا يرتقي بأشواق الروح إلى ما تحت عرش الرحمن جَلَّ جلالُه! فغايةُ هذه الخواتيم إنما هي الوصول بالعبد إلى مقام المحبة الصادقة لله، وتذوق مواجيدها الحرَّى! فمن وجد ذلك فقد قَرَأَهَا حَقًّا، وأبصرها صدقًا، وفُتِحَ له فيها! ومن لم يجد فليبدأ المجاهدة من جديد، وليطرق الباب بإلحاح!

---

(١) رواه مسلم، وسيأتي تفصيله - بحول الله - قريبا في الهدى المنهاجي.

(٢) أخرجه الطبري عند تفسيره للآية.

وإن ذلك لمعنى عظيم لا تحيط به عبارات ولا تحده كلمات! وإنما لنا أن نتكلَّم فيه بما تواترت به الأحاديث الصحاح!

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغفاري ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي!** »[1] وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِي قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: « **اقْرَؤُوا هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَعْطَانِيهِنَّ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ!** »)[2] وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى! وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ [وفي روايةٍ: السَّابِعَةِ] إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا. وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا. قَالَ: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٦] قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ! قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ - لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا - الْمُقْحِمَاتُ!)[3] يعني: غُفِرَتْ له كَبَائِرُ الذنوبِ الْمُقْحِمَاتُ في النَّار! وقد تحقَّقت البشرى لرسول اللَّه ﷺ وأمته بأسرار هذه الخواتيم، وما فيها من بركات وأنوار - على وِزَانِ سورة الفاتحة - حتى إن اللَّه ﷻ أَذِنَ لِمَلَكٍ خاص ينزل من السماء - لم ينزل منها قط - لبلاغ هذا الخبر العظيم! فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ؛ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ! فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ! فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ! لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ!)[4].

ومِن ثَمَّ وجب على المؤمن ألا يقرأ هاتين الآيتين إلا مُتدبِّرًا مُتفكِّرًا؛ عسى أن يفتح اللَّه له باب المشاهدة لأنوارهما، ويكرمه بتيسير التدرُّج إليه من خلالهما، والتحقُّق بكراماتهما. وإنما الفتح من اللَّه للعبد على قدر صدقه وإخلاصه. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

---

(١) أخرجه أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان. والحاكم وقال الألباني: « هذا إسناد صحيح على شرط مسلم » السلسلة الصحيحة (٣/٤٧١).

(٢) رواه أحمد، والطبراني. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣، ٤) رواه مسلم.

الرسالة الثانية: في قاعدة أن اللَّه ﷻ يعلم السِّرَّ وأَخْفَى، وما لها من أثر عظيم على النفس. ذلك أنه سبحانه بما هو رب السموات والأرض، ومالك كل شيء فيهما، ومُدَبِّر شؤونهما؛ يراقب مصير دينه في أعمال عباده على الأرض، من أَدَقِّ خلجات النفس، وأخفى خواطرها، إلى ما تتصرَّف به من أقوالها وأفعالها: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾ يعلم ذلك ﷻ في كُلِّ نَفَس نَفْس، ويراقبه! فلا يشغله شيء عن شيء. وإن مشاهدة هذه الحقيقة في القلب لتملؤه بالرهبة من اللَّه ذي الجلال! ولتزيده معرفة به ﷻ ! فتستقيم خطوات النفس على صراط اللَّه العزيز الحميد. ثم إنه لتنقشع غشاوة الفتن من على سماء القلب؛ فيبصر وَاعِظَ اللَّه قائمًا عليه يبصِّره بالحقِّ، ويُرْشِده إلى الهدى؛ فلا يسمع المؤمنُ بعد ذلك إلا خيرًا، ولا يقول إلا خيرًا، ولا يفعل إلا خيرًا!

الرسالة الثالثة: في أن الحساب والعقاب إنما هو واقع على ما خرج من نطاق الخواطر، وحديث النفس؛ إلى نطاق القول باللسان والفعل بالجوارح. إلا أن النيات والمقاصد معتبرة في الأعمال، وعليها يكون الحساب في الأقوال والأفعال وسائر التصرُّفات. والفعل لا يُسَمَّى « فِعْلًا » إلا إذا كان مبنيًا على « قَصْدٍ »، كما هو مقرر عند علماء المقاصد والأصول. واللَّه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصدور. وعلى ذلك الوزان تُتَلَقَّى الأفعال، فَتُكْتَبُ لابن آدم أو عليه. كما هو ثابت في الحديث المشهور: « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى!** » (١) وطَرَفُ هذا الحديث صار لدى الفقهاء والأصوليين قاعدةً كلية استقرائية قطعية، قاضية على كلِّ العبادات والمعاملات، فلا عبرة لشيء منها إلا بما بني عليه من قَصْدٍ. وعليه يحمل قول اللَّه تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾ وهو حاكمٌ على الأعمال التي ظاهرها الصِّحَّة والصلاح، ولكنها مخرومة في باطنها بما أفسدها من نوايا النفاق، والرياء، والفخر، والخيلاء..!

الرسالة الرابعة: في أن مجاهدة خواطر السوء، ومدافعة وساوس الشيطان من أعظم الإيمان! وأن اللَّه رتَّب للعبد على ذلك أجرًا عظيمًا؛ فلا يفزعنَّ مؤمن من الخواطر السيئة، وإنما عليه أن يجاهدها ويدافعها. وإنما هي فرصة أكرمه اللَّه بها لنيل حسنات،

---

(١) رواه البخاري.

من غير فعل ظاهر ولا فعل جاهر؛ لما فيها من الجهاد النفسي، والتصفية الباطنية لمرآة الروح؛ حتى لا يرى المؤمن بَعْدُ إلا بنور اللَّه؛ ولذلك جعل الرحمنُ قتلَ الخاطرةِ السيئة في النفس قبل تطوُّرها إلى الفعل حسنة كاملة! فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: « إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ! » قَالَ: « وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟ » قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: « ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ! »)[١] وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً! فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ! وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً! فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً!**)[٢] ووساوس الشيطان، أو خواطر السوء، تصيب الناس في كلِّ الأعمار، لكنها في مرحلة الشباب أشد! وأعظم سلاح لجهادها هو القرآن العظيم! فتلاوته وتدبُّره، ومجاهدة النفس بحقائقه، كفيلةٌ - بإذن اللَّه - بتصفية القلب مِن كُلِّ خاطر شيطاني، وإخلاصه كاملًا للَّه ربِّ العالمين.

الرسالة الخامسة: في أن كشف السريرة للرحمن - وهو تعالى أعلم بما في الصدور - والاعتراف له بالذنب، والتوجُّه إليه بالدعاء الصادق، والتوبة والاستغفار؛ هو مسلك النجاة من سوء حسابه وعقابه! لأن الاعتراف بالذنب تعبيرٌ عن الشعور بالندم، وعن فقدان كل حيل التخلُّص والهروب! واعتراف للَّه ﷻ بعظمة ربوبيته، وسَعَةِ علمه، المطلع على خفايا السرائر. وهذا ضرب من التوحيد المحمود، المقدَّم بين يدي التوبة. مما يجعلها توبة نصوحًا بإذن اللَّه. وأنت ترى أن ما سمَّاه النبي ﷺ بـ « سيد الاستغفار » مبني على أساس الاعتراف للَّه بالذنب. فَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: (**سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: « اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ! أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي! فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ! » قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ، قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ! وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ!**)[٣].

---

(١) رواه مسلم. (٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.

الرسالة السادسة: في أن التحقُّق بأركان الإيمان الستة، والتخلُّق بمقتضياتها الإيمانية؛ هو المسلك الأساس للتحقُّق بجميع أوامر الشريعة ونواهيها. فالإيمانُ باللَّهِ، وملائكتِه، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ، خَيْرِهِ وشَرِّهِ، في امتداداتها الغيبية - على ما شرحناه في البيان العام ههنا - هو الأساس لتلقِّي شريعة الرحمن. وأي فتور يقع للعبد في الدين؛ راجع إلى ضعف تخلُّقه بحقائقها الإيمانية ومقاصدها التربوية. ومن هنا أهمية تجديد النظر فيها، والتدبُّر لحقائقها، رُكْنًا رُكْنًا. ثم النظر في النفس: ما حَظُّهَا من نور كُلِّ حقيقةٍ من حقائقها؟ وما تَزَوُّدُهَا من كُلِّ مِشْكَاةٍ من مَشَاكِيهَا؟ إنَّ أركان الإيمان ليست ألفاظًا تُحْفَظُ وتُسْتَظْهَرُ فحسب؛ ولكنها - علاوةً على ذلك - مناراتٌ ربانية، يجب الرُّقِيُّ بأبراجها العالية؛ لمشاهدة الملكوت من على صُرُوحِهَا، والترقِّي بمنازلها العالية! حتى يكون المؤمن في حصن منيع من الشيطان، ويزداد القلبُ معرفةً باللَّه ومحبةً له، وتجد الروحُ معنى الشوق حَقِّ الشوق إلى اللَّه! فيا صاح اجعل هذه البصائر بين عينيك، وأنت تتدبَّر حقائق أركان الإيمان؛ تَجِدْ عَجَبًا!

الرسالة السابعة: في أن قول: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾، بلسان الحال وإخلاص الجَنَانِ، عند الدخول في كلِّ تكليف شرعي، أو التَّلَقِّي لأي ابتلاء قَدَرِي؛ هو المدخل الرئيس للتحقُّق بمنزلة الإخلاص في الدين، ونيل الرضا والقَبول، والتحقُّق بيسر الأحوال كلها، ورفع الضيق والحرج، والفوز بالعفو، والمغفرة، والرحمة، والرضوان، والنصر والتمكين، وسائر ما هو مذكور في دعاء الخواتيم من بركات؛ ذلك أن مقام ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ دائر في فَلَكِ الإسلام للَّه ربِّ العالمين، بمعنى الاستسلام له والخضوع المطلق، على ما حكى اللَّه - جلَّ ثناؤه - عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فالتخلُّق بالسمع والطاعة في الدين معناه: التحقُّق بصفة العَبْدِيَّةِ الكاملة للَّه، التي هي أرفع منازل الإيمان وأقربها وأحبها إلى اللَّه؛ ولذلك كان قول: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ من أشد السهام، بل من أشد الرصاصات - ضمن ذخيرة الخواتيم الحية! - التي تُطْلَقُ على الشيطان؛ فيفر من البيت ولا يقربه أبدًا ما دامت تقرأ فيه! كما سيأتي بيانه في الحديث.

الرسالة الثامنة: في أن الدعوة إلى اللَّه والتعريف بدينه، قائم على خطاب اليسر والتيسير، ورفع الضيق والحرج، وعلى التدرُّج في عرض التكاليف الأَوْلَى فَالأَوْلَى، وخطابِ الناس على قَدْرِ وُسْعِهِمْ وما تطيقه عقولهم، شيئًا فشيئًا؛ إلى أن تتم نعمة اللَّه عليهم. وهذا المعنى من أعزِّ الحِكَمِ في منهاج تجديد الدين، والدعوة إلى اللَّه ربِّ العالمين. لكنه معنى لطيف دقيق؛ حيث لا يلزم عنه إباحة المحرمات! ولا إقرار الناس على الخطايا والموبقات! ولكنه تَكَلُّمٌ عما هو أولى في الشرع، ودعوةٌ إلى ما يرى العلماء الحكماءُ أنه قد آنَ أَوَانُهُ، وحَلَّ وَقْتُهُ وإِبَّانُهُ، والسُّكُوتُ الحكيمُ عمَّا لم يتهيأ ظَرْفُهُ وزَمَانُهُ. وليس ذلك إلى مطلق أهل العلم، وإنما هو إلى خاصَّة الراسخين فيه، المتحقِّقين بمقاصد الشريعة، أصولها وفروعها. المشتهرين بالتقوى والورع، المسدَّدين بهدى اللَّه، المبصَّرين بنور اللَّه؛ بما أخلصوا النصح للَّه، ولرسوله، ولعامَّة المسلمين.

الرسالة التاسعة: في أن الدعاء عمومًا، والاستغفار منه خصوصًا، من أهم المسالك الموصلة إلى اللَّه، وإلى نيل رضاه. وهو خصلة ربانية من أهم خصال الأنبياء والصِّدِّيقين. وهو سبب من الأسباب المشروعة لقضاء الحاجات، واستجلاب الرحمات، وتحقيق الانتصارات! ولذلك كان التخلُّق به تحقُّقًا بمقام إيماني عظيم. وهو - علاوة على ما فيه من منفعة قضاء الحاجات، من مصالح الدنيا والآخرة - تَرْبِيَةٌ في حدِّ ذاته للنفس، وحملٌ لها على أخلاق التواضع والافتقار إلى اللَّه، وذلك هو عين العبادة ومخها! وقد صحَّ الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: « **إِنَّ الدُّعَاءَ هو العِبَادَةُ!** » ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] [(١)] وقد خَصَّ الشارعُ منه الاستغفار بمزيد عناية؛ لِمَا فيه من تحقيقِ أَكبَرَ لِخُلُقِ العبودية، وحَالِ الافتقار إلى اللَّه. وقد ورد في القرآن بمواطن عديدة، وأما في السنة فأحاديثه أكثر من أن تحصى! قال تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

---

(١) والحديث أخرجه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، عن النعمان بن بشير ﷺ مرفوعًا. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: « إسناده صحيح ». كما أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان، والحاكم. وصححه الألباني أيضا في تحقيقه لسننهم. وأما وروده بلفظ « الدعاء مخ العبادة » فضعيف كما قال العلامة الألباني رحمه الله في مشكاة مصابيح السنة برقم: (٢٢٣٠)، وفي السلسلة الضعيفة.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قالَ: « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِـي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً! » [(١)] وعَنِ الأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِـي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ! » [(٢)] وقوله: « يُغَانُ » من الغَيْنِ، وهو: الغيم والسحاب. والمقصود به - كما قاله الشُّرَّاحُ - فُتُورُ القلبِ عن ذكر اللَّه. ذاك رسول اللَّه سيد ولد آدم ﷺ..! فما بالك بمن هو دونه؟ ومِن ثَمَّ فإنه لا يُعْقَلُ من مؤمنٍ - مُتَحَقِّقٍ بمعنى الإيمان - أن يهجر الدعاء والاستغفار على أي حال.

الرسالة العاشرة: في أن الآيتين الأخيرتين من خواتيم سورة البقرة من خيرة أذكار المؤمن، ومن أهم ما ينبغي اتخاذه وِرْدًا في الذكر والاستغفار يوميًّا. ذلك أن اللَّه - جلَّ ثناؤه - قد تكفَّل بإجابة دعائهما. كما أنه تعالى جَعَلَهُمَا حِصْنًا حَصِينًا للمؤمن من كُلِّ شيطان. ولقد سبق إيراد حديثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ - في سياق الرسالة الأولى - قَالَ: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ؛ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ! فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ! فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ! لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ!) [(٣)] وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ! أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ! وَلا يُقْرَآنِ فِـي دَارٍ ثَلاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ! » [(٤)] وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِـي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ! » [(٥)].

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان كيفية التحقُّق بِخُلُقِ الدعاء؛ أعني مقام المؤمن العارف باللَّه الذي يدعو ربَّه على كُلِّ حالٍ. إذ الدعاء في حد ذاته - كما بيناه - مسلك من أهم

---

(١) رواه البخاري. (٢، ٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، والترمذي، وقَالَ: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ». كما رواه النسائي في الكبرى، والحاكم وصححه. ورواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، والدارمي. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح الترمذي.

(٥) متفق عليه.

المسالك الموصلة إلى اللَّه [١]. والالتجاء إلى اللَّه بالدعاء في كلِّ صغيرة وكبيرة، وفي جميع أحوال اليسر والعسر، خُلُقٌ رباني مكتسب، وهِبَةٌ إيمانية من اللَّه. ومِن ثَمَّ فإن التحقُّق به مقامًا يكون بمجاهدة النفس للتخلُّق بالحقائق الإيمانية التالية:

الأولى: التحقُّق بمعنى ربوبية اللَّه ربِّ العالمين، أعني: تحقيق توحيد الربوبية في القلب، ومعرفة ما يملكه رب العزة ﷻ من النفع والضر لعباده، ومشاهدة الحقيقة الإيمانية العظمى، القاضية بأن مقادير الأشياء كلها بيده. والإيمان الجازم بأنه لا وصول إلى جلب منفعة من منافع الدنيا والآخرة، ولا إلى دفع مفسدة من مفاسدهما؛ إلا بإذن اللَّه ومشيئته تعالى. فما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن. وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. تلك عقيدة كبرى من عقائد الإسلام، وجب التحقُّق بها لذاتها أولًا. ثم لأنها الْمَدْرَجُ الأول لإشعار القلب بحاجته الكبيرة إلى اللَّه، والتخلُّق بمسلك دعائِه الدائم رَغَبًا ورَهَبًا.

الثانية: التحقُّق بمعرفة كَرَمِ اللَّه - جلَّ ثناؤه - وعظمةِ جوده، وسَعَةِ رحمته، وما يتعلَّق بذلك من جمال صفاته، وحُسْنِ أسمائه، وأنه تعالى سميع الدعاء، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. ما دعاه عبدٌ صادقًا إلا أجابه، ولا سأله مؤمن مخلصًا إلا أعطاه! قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾. فتغذيةُ القلب بهذه المعرفة الربانية، وإنارته بجمالها؛ يشعل فيه فتيل الشوق إلى الدعاء، ويملؤه بمشاعر الرَّغَبِ والرَّهَبِ، التي تثير الرغبة الدائمة في الدعاء الصادق والالتجاء الخالص إلى اللَّه. قال تعالى في وصف أنبيائه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الثالثة: التحقُّق بمعرفة معنى الدعاء في الإسلام، وأنه من أهم العبادات، بل هو عين العبادة ومُخُهَا وغايتها. وقد سبق حديث النبي ﷺ « إِنَّ الدُّعَاءَ هو العِبَادَةُ! » [٢] ومِن ثَمَّ فإن الذي لا يدعو ربَّه محرومٌ مخروم الإيمان، ناقص الفهم للإسلام. فالدعاء من القضاء؛ وقد ثبت في الحديث أن النبيَّ ﷺ قالَ: « لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ

---

(١) ن. مقدمة رسالتنا: « كاشف الأحزان ». (٢) سبق تخريجه.

إِلَّا الْبِرُّ! »[١] فهذه معرفة إيمانية ضرورية للسالك في مسلك التخلُّق بمقام الدعاء.

الرابعة: اتِّخَاذُ وِرْدٍ عَمَلِيٍّ مُخْتَصَرٍ، ينتظم أُصُولَ الأدعية القرآنية والنبوية؛ للتلاوة اليومية؛ تدريبًا للنفس على السير إلى اللَّه عبر مسلك الدعاء، وحَمْلًا لها على التخلُّق به، وتذوُّق حلاوته، ومشاهدة بركاته. فإنما الدعاء خُلُقٌ يُكْتَسَبُ بالتخلُّق. وفي الحديث الشريف: « **إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ!** »[٢].

تلك إذن مسالك أربعة، من تحقُّق بها جميعًا؛ عَرَفَ اللَّه حَقًّا، وعرف حاجتَه إليه حَقًّا؛ فلم يجد بُدًّا من التخلُّق بمقام الدعاء على كل حال، وكان من أهل اللَّه السائرين بِهِ إليه تعالى في السرِّ والعلن. ذلك، وإنما الموفَّق من وفَّقه اللَّه.

* * *
* *
*

---

(١) رواه الترمذي عن سلمان ﷺ مرفوعا، وحسنه. كما حسنه الشيخ الألباني في صحيح سننه، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه عن أبي هريرة، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع.

خاتمة منهاجية

هذا هو برنامج سورة البقرة العظيم.. برنامج يعرض على البشرية نموذج الأمة المسلمة. الأمة الشاهدة على الناس. يعرضه ابتداء من عرض مواقف البشر من الدين، وابتداء من عرض قصة الخلق والتكوين، وما كان من الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض، ثم ما كان من عهود الاستخلاف الإسرائيلي، وهي أطول عهود الاستخلاف الرسالي قبل هذه الأمة. وبعد ما كان من خيانة يهود، ومن تمرُّدهم المتكرر على اللَّه ربِّ العزة، وعلى رُسُلِه الكرام، عليهم الصلاة والسلام، وقتلهم الأنبياء والصِّدِّيقين خيرةَ الخلق! ألقى اللَّه ﷻ الرسالة إلى هذه الأمة! فميَّزها في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها، وأخرجها للناس إخراجًا. وقد حَلَّلَ الرحمنُ الشخصيةَ الإسرائيلية في هذه السورة تحليلًا! وكشف تعقيداتها النفسية والدينية كشفًا لا تجده بهذا البيان في سورة أخرى! لِمَا سبق في علمه ﷻ من أن اليهود سيكونون أكبر مواجه لهذا الدين إلى يوم القيامة! وأن لهم قضيةً مع المسلمين، لا تنتهي إلا بنهاية التاريخ!

ومِن ثَمَّ رافق هذا القَصُّ القرآني الحكيم عن طبيعة بني إسرائيل، القرارَ الرباني العظيم باستخلاف أمة محمد ﷺ في الأرض، وبناه عليه؛ ليقضي اللَّه أمرًا كان مفعولًا.

وجاءت هذه الأمةُ - كما هي موصوفة في سورة البقرة - مسلمةً للَّه، على خطا دين إبراهيم عليه السلام. تتميز بعقيدتها الخالصة من الشرك والشركاء، وبقِبْلَتِهَا الواحدة، وشريعتها الواحدة، وجهادها الخالص لإعلاء كلمة اللَّه في الأرض، وبشمولها الإيماني لجميع الرسل والأنبياء.. ميزة لم تعرفها أمة من الأمم!

وقد كانت سورة البقرة تأسيسًا منهاجيًا لكلِّ ذلك، وبناء للأمة على تلك الأصول جميعًا. ففيها تم بناء أصول الدين كله، سواء أركان الإسلام الخمسة، من شهادتين، وصلاة، وزكاة، وصيام، وحج. أو أركان الإيمان الستة: إيمانًا باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ. وبيانُ أصول المحرمات الكبرى من خبائث الأطعمة والأشربة، واكتساب الأموال الباطلة. جاء ذلك مبثوثًا خلالها مجتمعًا ومُتفرِّقًا، حسب مقتضيات السياق التربوي والتشريعي الخاص، هنا

أو هناك. كما أنها أسَّست النسيجَ الاجتماعي للأمة المسلمة؛ بتأسيس أركان البناء الأسري، ونظام المعاملات المالية، وأصول الاقتصاد الإسلامي. مع تربية الأمة على مفاهيم الجهاد في سبيل اللَّه، مبثوثة خلال تلك التشريعات جميعًا. غير مهملة تربية النفوس - خلال ذلك الطريق الشاقِّ الطويل - على تلقِّي تلك الأحكام والتشريعات، وتأهيلها للدخول في ابتلاءاتها؛ برقائق المواعظ الإلهية، وبليغِ الحِكَم الربانية، والسير بالقلوب إلى اللَّه عبر منازل الإيمان، وأشواق الروح، ومدارج التلاوة والتزكية والتعليم؛ ولذلك فقد تضمَّنت أعظم تعريف باللَّه وأبلغه: آية الكرسي! وأجمع تعريف بالإيمان والإخلاص وحقائقهما: الخواتيم!..وما دون هذه وتلك مما هو خادم لهما من آيات السورة كثيرٌ جِدًّا..!

تلك إذن أصول الهدى المنهاجي لبناء الأمة الإسلامية وتجديد دينها. وتلك كلياته وقواعده الكبرى، جاءت مجتمعة في سورة البقرة، من البذرة إلى الشجرة. وقد كانت لنا وقفات - في كلٍّ مجلس من مجالسها - لجنْيِ ما يسَّر اللَّهُ من ثمارها، وتَلَقِّي ما فتح به من رسالاتها.

ولنا الآن أن نقف في هذه الخاتمة على استخلاص الخطوط العريضة لقضايا السورة الكبرى، والقواعد الأساسية لوظائفها الإيمانية والدعوية. مما يمكن اعتباره خلاصةً كليةً للهدى المنهاجي الذي تضمَّنته سورة البقرة في بناء الدين والدعوة. ونستطيع جعله بحول اللَّه في **خمس قواعد منهاجية**، هي:

القاعدة الأولى: بيان أن كليات الدين، وأصول الإسلام مما ذُكِرَ في السورة، أعني: أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وأمهات الرذائل، مثل: كبائر المحرمات من الأطعمة والأشربة، وخبائث الأموال. وكذا ما أُسِّسَ فيها من أصول البناء الأسري، وثوابت الاقتصاد الإسلامي. ثم - قبل ذلك وبعده - ما بُنِي فيها من جمال الأخلاق ورفيع القيم، وحقائق التعريف باللَّه واليوم الآخر .. كل ذلك مما يجب أن ينهض به مشروع التجديد الإسلامي، وحركة الدعوة إلى اللَّه. الأولى فالأولى، على حسب ترتيبه في سلم العقائد والتشريعات.

القاعدة الثانية: بيان أن مفهوم: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾، هو أساس الدين الخالص، وهو مناط الاستخلاف في الأرض. ومعناه: إخلاص التوحيد للَّه ربِّ العالمين،

إخلاصًا لا يبقى معه في القلب تردُّد، ولا تلكُّؤ، ولا تمرُّد، ولا استدراك على اللَّه ﷻ. وهو مغزى قصة البقرة التي سُمِّيتْ بها السورة كلها، كما بيناه في محلِّه من مقدمتها وعند مدارسة قصتها. فالتعبير بقول: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾، هو في مقابل التعبير المتمرِّد لبني إسرائيل: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٩٣﴾ ﴾ .. وكل ذلك إنما هو تجلِّيات لحقيقة واحدة، هي قضية التوحيد الخالص للَّه ربِّ العالمين، وإخلاص الطاعة له وكمال الخضوع. وما ينبني عليه من العلم باللَّه ﷻ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى. والتزود من أنوارها المتجلِّية على القلوب الضارعة، والأرواح الخاشعة! حتى يتحقَّق المؤمن من كمال عبوديته للَّه! ذلك أن سورة البقرة هي سورة الْمِلَّةِ الخالصة، والعبودية الشاملة، والطاعة الكاملة للَّه، على منهاج ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وهذا هو أولى الأولويات، وأساس المقدمات في الدين والدعوة جميعًا. وهو مربط الفرس في قضية تربية الجيل، وبناء صرح الأمة، وتجديد دينها، واستئناف وظيفتها التعبدية والجهادية، وتحقيق شهادتها على الناس!

القاعدة الثالثة: بيان أن الإيمان بالغيب هو الزاد الذي يغذي هذه الأمة، ويحفظ وجودها، واستمرارها في التاريخ. وهو مصدرُ حياتها، وسرُّ قوتها، ومَوْرِدُ معرفتها! وأن حقائق الغيب جميعًا آيِلَةٌ إلى أصلين اثنين. **الأول**: هو معرفة اللَّه ﷻ ، وما أثبت لنفسه تعالى من الأسماء الحسنى، والصفات العلى. وما يتلقاه العبد عنها من حقائق الإيمان. **والثاني**: معرفة اليوم الآخر، والتفقُّه في علمه. ثم ما يخدم هاتين الكلِّيتين من أركان الإيمان الأخرى، أعني: الإيمان بالرسل، والكتب، والملائكة، والقَدَرِ. ومِن ثَمَّ فإن مناهج تحقيق مناط الدين، وعمران الأرض بحضارته، وإصلاحها على موازينه؛ قائم على ثنائية الغيب والشهادة. ولم تكن سورة البقرة - من أولها إلى آخرها - إلا تعبيرًا عن هذه الحقيقة العظمى.

ومعنى اعتماد ثنائية الغيب والشهادة: أنه لا بد للمؤمن في تحقيق مسيرته الدينية والدعوية؛ من توقيع خطواته على وِزَانِ خريطة الغيب؛ حتى يضمن الوصول واختصار الطريق. وأما المقصود بخريطة الغيب: فهو ما نُشِرَ في القرآن والسنة الصحيحة من مسالك السير إلى اللَّه، وسُنَنِ اللَّه في التاريخ والاجتماع البشري. ثم ما يتلقَّاه العبد بقلبه الصافي من إشارات ربانية، عند كلِّ استخارة، أو دعاء،

أو صلاة. ومقامات المؤمنين في ذلك تتفاوت بقدر تفاوت منازلهم الإيمانية، وصفاء أرواحهم، ومراتب إخلاصهم لله، ودرجة علمهم به تعالى ومعرفتهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] الآية ومثله قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] الآية ومن ذلك أيضًا حديث الولاية المشهور، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ! فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ! وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ!** »[1] والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى وما يخدمه كثير.

والمقصود من ذلك كله: بيانُ أنَّ إخلاص التجاوب مع حقائق الغيب في الإسلام، إيمانًا، ومعرفةً، ومَسْلَكًا تعبديًّا؛ يرسم الطريق للمؤمن في عالم الشهادة بوضوح! سواء في قضايا الدين والدعوة أو قضايا الدنيا والعمران البشري. ومن الخطأ الكبير عدم استمداد إشارات الغيب من الرحمن، في معالجة قضايا الشهادة! كما أنه من الخطأ عدم قراءة سنن الغيب المرسومة في القرآن الكريم، قراءةً متبصرة. والاكتفاء بحسابات عالم الشهادة المادي. بل الأمور تعالج عند المؤمنين بإعمال ثنائية الغيب والشهادة، والجمع بين ضبط الأسباب واستلهام الغيوب. وما الأدعية والصلوات والاستخارات، وغيرها من العبادات؛ إلا طُرُقٌ من طُرُقِ استبصار الحقِّ، وتَلَقِّي الهدى من اللَّه، في اتخاذ القرارات وترجيح الاختيارات؛ عن علم من اللَّه وبصيرة. ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه.

القاعدة الرابعة: بيان أن ما ذُكِرَ في السورة من تصنيفات إلهية للبشرية، من مؤمنين ومنافقين وكافرين، ثم صنفي أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ كل ذلك جميعًا يؤول - على امتداد التاريخ البشري كله - إلى فريقين اثنين: كُفَّار ومؤمنين. وأن المؤمنين جميعهم - أولهم وآخرهم - أمة واحدة، ربهم واحد، ودينهم واحد.

---

(١) رواه البخاري.

من عهد آدم ﷺ إلى أُمَّة محمد ﷺ. وأن قافلة الإسلام وقضيته واحدة عبر التاريخ. ولك أن تقول بكلٍّ ثقة ويقين: إن مؤمني بني إسرائيل هم سَلَفُ المسلمين لا سَلَفُ اليهود! وإنَّ حَوارِيِّي عيسى ﷺ هم سَلَفُ الصحابة رضوان اللَّه عليهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ لا سَلَف النصارى! وقد سبق قول النبي ﷺ: « **الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ!** » (١) وفي حديث عجيبٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ؛ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟** » فَقَالُوا: « هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ؛ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ؛ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا؛ فَنَحْنُ نَصُومُهُ ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ!** » فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ! (٢)، وقال مثل ذلك عن عيسى ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ! الأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلَّاتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ!** » (٣).

ومِنْ ثَمَّ فإن هذه الأمة الخاتمة هي وارثة الدين، ووارثة المقدَّسات، ووارثة الرسالة! وهي الشاهدة على الناس كُل الناس! وثمرة هذه القاعدة: أنه واجبٌ على المسلمين تحمُّل أمانة الدين والدعوة كاملة، وبكُلِّ ثقة؛ للتحقُّق برضا اللَّه أولًا، ثم لبلاغ الهدى والحق إلى العالمين. والجهاد في سبيل ذلك؛ حتى تتمَّ نعمة اللَّه على الناس أجمعين.

القاعدة الخامسة: في أن هذا القرآن وبياناته النبوية - علاوةً على مصدريته للدين عقيدةً وشريعةً - هو المصدر الوحيد للدعوة أيضًا، والأساسُ الرئيسُ لِمِنْهَاجِ التجديد الإسلامي. فهو الهدى كل الهدى في الدين والدعوة معًا. وأن تربية الجيل على تَلَقِّي حقائقه الإيمانية، والدخول في مسالكه التربوية والجهادية - كما كان جيل الصحابة الكرام - هو باب الخروج بالأمة من أزمتها الكبرى! وإنما يتم ذلك بتأسيس مجالس التدارس لآيات القرآن وسوره، ونشرها في كلِّ منطقة وقطاع؛ حتى يتمَّ التداول الاجتماعي لأحكامه وحِكَمِهِ؛ على ما بيناه في طريقة التَّلَقِّي لِهُدَاهُ المنهاجي، ورسالاته الربانية، والتحقُّق بمسالكه الأخلاقية، والمكابَدةِ لحقائقه الإيمانية، والدخول

(١) متفق عليه. والعَلَّاتُ: الضرائر من الزوجات. وأولاد العلات: هم الإخوة لأب.

(٢، ٣) متفق عليه.

في ابتلاءاته التكليفية، ومجاهداته التربوية، وغير ذلك من أصول منهج التدارس القرآني، الذي فصَّلناه في مدخل هذا الكتاب، والقائم أساسًا على اعتماد وظائف النبوة الثلاث: التلاوة بمنهج التلقِّي، والتزكية بمنهج التدبُّر، والتعلُّم والتعليم بمنهج التدارس.

وإن ذلك لحقيقة منهاجية كبرى، من حقائق هذه السورة، كابدناها خلال مدارستنا لآياتها، وتَلَقِّينا لرسالاتها الإيمانية، وهداها المنهاجي، في أكثر من مجلس من مجالسها. وقد تواتر التصريح بها بعبارات شتى، وفي سياقات شتى، من أول السورة إلى نهايتها؛ حتى صارت أساس حقائقها المنهاجية الكبرى، ومدار برنامجها في بناء الأمة وتجديد دينها.

تلك هي سورة البقرة.. السورة العظمى في القرآن! عظمى بما تضمَّنت من عدد الآيات؛ إذ هي أكبر وأطول سورة في القرآن على الإطلاق! وعظمى بما تضمَّنت من حقائقَ وأسرارٍ لا تجدها في سورة أخرى. فهي القاعدة الكبرى لسور القرآن كله، والأصل الكلي لجميع أحكامه وحِكَمِهِ. فَحُقَّ لها إذن أن تشغل مِن عُمْرِ الإنسان سنوات؛ لإتمام تَلَقِّي كلماتِها تخلُّقًا وتحقُّقًا! وإتمام الدخول في ابتلاءاتها كلمةً كلمةً، وإتمام المكابدة لحقائقها آيةً آيةً!

وأخيرًا، ليس لنا إلا أن نختم مدارستَنا هذه بما ختم اللّٰه به: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

آمين!



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

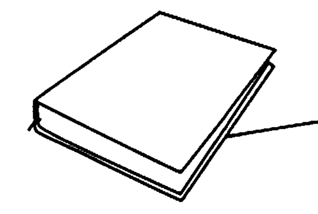
من التلقي إلى البلاغ

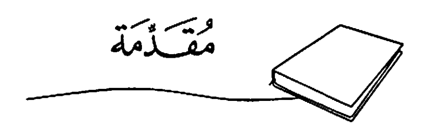
المدارسات القرآنية

١٠ - سورة آل عمران

وهي مدنية ، وعدد آياتها (٢٠٠)،

وتقع مُدارَسَتُهَا في ثلاثة وعشرين مَجْلِسًا





مُقَدِّمَة

هذا بابٌ لا يَلِجُهُ - بِحَقِّهِ - إلا المتخرِّجون من مدرسة البقرة! الأولياءُ الأَصْفِيَاءُ، الذين عرفوا ربَّهم فأحبوه؛ فكانوا على قَدْرِ محبتهم من السمع والطاعة، وعلى قَدْرِ معرفتهم من الخضوع التام والاستسلام؛ عبادًا للّٰه لا يرجون أحدًا سواه. قد استجابت أرواحهم لرياح الشوق؛ فَحَلَّقَتْ راحلةً إلى مولاها، تضرب في أفق السماء.. قلوبُهم ملتهبةٌ بمواجيد المحبة، وأجنحتُهم تتقلب رَغَبًا ورَهَبًا، وهي تخفق في معارج الخوف والرجاء..

فيا قلبي الضعيف! هذا أَوَانُ الْمَدَدِ.. فارفع جناحيك المرتعشين إلى اللّٰه مبتهلًا! وإذا بكيتَ فَابْكِ على قلَّة زادك، وضعف جهادك، وتَعثُّر خطوك في طريق مرادك! فقد أثقلتْ قَدَمَيْكَ زَلَّاتٌ وشهواتٌ، وأَرْبَكَتْ خطوَكَ هَنَاتٌ والتفاتاتٌ، وبَطَّأَتْ سَيْرَكَ هفواتُ وكَبَوَاتُ!

والطريق بعيدٌ.. وَا حَسْرَتَاهُ! والأحبةُ قد سَبَقُوا..! وها أنا ذا وحدي ما زلت أعالج مشكلات البدايات! والسَّادةُ الأتقياء حقًّا قد وصلوا.. يُشْرِفُونَ من معارجهم على أبواب النهايات! فإلى متى لا أتخلص من شهوات التراب؟ وإلى متى لا أتطهر من روائح الصلصال المسنون؟ إلى متى؟.. وحتى متى؟ والضَّرْبُ بعيدٌ.. وَا حَسْرَتَاهُ! والأحبةُ قد سَبَقُوا..! وما بقي من الدنيا الحزينة إلا خطوة أو خطوتان!

فيا قلبي الكليل! هذا مَشْفَى « آل عمران » فاطرق البابَ وَهْنًا؛ لعلك تُقْبَلُ بصفِّها مستمعًا.. ولعل يَدَ الرحمةِ تداوي قُرُوحَ جناحك، وتُضَمِّدُ جروحَ روحكِ وفؤادِك.. ولعلك بعد ذلك تَقْوَى فتطير..! ومن يدري؟ فربما ركبتَ بُرَاقَهَا فلحقتَ خيولَ السابقين! أَلَا وإنه لا يتحقَّق بمقام « البقرة » مُزَيَّنًا بأنوار « آل عمران » إلا السَّادةُ الكبار، أبطال القلوب وأمراء الروح! فيا صاح..! هذا مجلس الأحبة متحلقين حول مورد « آل عمران »، يرتوون من شلّالها الصافي، ومَعِينِهَا العذب الكريم.. قد حفّتهم الملائكة بأجنحتها الطاهرة، وأشرفت عليهم بأنوارها حِلَقًا فوق حِلَقٍ، حتى بلغت

عَنَانَ السماء.. مُرَفْرِفَةً بالدعوات لجلسائها والرحمات، في احتفال بهيج لا يعرفه إلا من رآه!.. فيا صاح ارفع الحجاب وادخل!

قال أهل المعاني:

هذه سُورَةُ « آلِ عِمْرَانَ »، وهي السُّورةُ الثالثةُ في الترتيب التعبُّدي للمصحف الكريم، والمرحلةُ التربوية الثالثة في تخريج الأمة الشاهدة على الناس. ومِن ثَمَّ فهي لَبِنَةٌ جديدة في بناء صرح الأمة الإسلامية، وخطوة أخرى في الترقِّي بمقامها الإيماني. فإذا كانت سورةُ « البقرة » دائرةً على مفهوم ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾، بمعنى الطاعة المتفانية، والاستسلام الكامل للَّه، في تلقِّي شرع اللَّه، والدخول تحت تكاليف دينه إيمانًا وعملًا؛ فإن سورة « آل عمران » ارتقاءٌ بهذا المعنى إلى أعلى مقاماته، وعُرُوجٌ به إلى أرفع منازله، وانتقالٌ به إلى مفهوم آخَرَ رَدِيفٍ له، بل هو منه وإليه، لكنه مُتَطَوِّرٌ عنه ومُنْبَنٍ عليه، ينتصب فوقه كأنه سقف لبنائه، وغايةٌ لمعراجه، ألا وهو مفهوم « الرَّبَّانية! ».

ولقد كانت الكلماتُ الأخيرة من سورة البقرة - كما رأيت - تعبيرًا عن الاستسلام الكامل للَّه؛ بما ورد فيها من إقرارٍ بأركان الإيمان، وتسليمٍ له تعالى بحقائقها الغيبية، وبما اخْتُتِمَتْ به من دُعَاءٍ رباني رقيق، وَالْتِجَاءٍ مُشْفِقٍ إلى اللَّه، تحمله خفقاتُ الرَّغَبِ والرَّهَبِ، ومَوَاجِيدُ الخوف والرجاء؛ طلبًا لعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان، ولرفع الإصر وتكليف ما لا يطاق، وطلبًا لجمال العفو والمغفرة والرحمة، وجلال النصرة على الكافرين، فكانت تلك الخواتيم المباركة ختمًا لقضايا سورة البقرة، وتمهيدًا لموضوع سورة آل عمران؛ وذلك بما تضمَّنت من تثبيت العبد على حقائق الإيمان والالتجاء بالدعاء - رَغَبًا ورَهَبًا - إلى الرحمن؛ تأهيلًا للمؤمن المتخرِّج من مدرسة ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾، وإعدادًا نفسيًّا له؛ للدخول في مسلك « الربانية ». فالربانيةُ بمعناها الشمولي - كما سَنُبَيِّنُها بحول اللَّه - لا يمكن أن يتخلَّق بها إلا من تحقَّق بكمال السَّمع والطاعة للَّه، وتخلَّق بتمام الاستسلام له وحده دون سواه. وتلك هي مدرسة سورة البقرة. ومِن ثَمَّ انتصب معراج سورة آل عمران بعدها مباشرةً؛ لاستقبال المتخرِّجين الحاصلين على مؤهِّل البقرة، أي: المتحققين بمفهوم « الإسلام »، بمعنى إسلام القلب والجوارح للَّه ربِّ العالمين؛ والرُّقِي بهم إلى مقام

« الرَّبَّانية »، عبر مجاهدَات جديدة ومكابَدات حميدة، من التوحيد إلى العبادة، ومن الجهاد إلى الاستشهاد، ومِن ثَمَّ كانت السورتان معًا - البقرة وآل عمران - كَدَفَّتَيْ كتاب، أو كالسورة الواحدة، في بناء الشخصية الإسلامية النموذجية، رغم استقلال كل واحدة منهما بموضوعها وشخصيتها، وليس عبثًا أن جاء الحديث النبوي الشريف بتمجيدهما معًا في سياق واحد، ومَثَلٍ واحد، كأنهما أَمْرٌ واحد. فعن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ أنه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: « **اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ! فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَاف، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا!** »[١].

قال أهل المعاني:

هذه السورة منسوبةٌ في التسمية إلى « آلِ عِمْرَانَ »، وهي أسرةٌ صالحة من أُسَرِ بني إسرائيل، كانت دارَ نبوة، وخِدْمَةٍ نموذجية للدين ولبيت المقدس، في آخر عهد الاستخلاف الإسرائيلي، منها خرجت الصدِّيقةُ مريم ابنةُ عمران، أمُّ نبي اللَّه عيسى المسيح عليه السلام الذي جدَّد دينَ بني إسرائيل. علَّمه اللَّه التوراة، وآتاه الإنجيل، ورزقه الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة. وقِصَّته هي مدار شطرٍ كبير من هذه السورة. وأما ما تـميَّزت به أسرة « آل عمران » في جملتها، من ربَّانية، وتبتل، وانقطاع لعبادة اللَّه رب العالمين، وما قدمت في سبيل ذلك من تضحيات جسام؛ فقد امتدت ظلاله عبر مفهوم « الربَّانية »، في تجليات شتى، من أول السورة إلى آخرها؛ ولذلك استحقت أن تسمى بسورة « آل عمران ». كما سيأتي بيانه مفصلا بحول اللَّه.

فأما « عِمْرَانُ »: فهو « عِمْرَانُ بْنُ يَاشِمَ »[٢]، رجلٌ صالح من خيرة بني إسرائيل.

---

(١) رواه مسلم. ونصه: عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ! اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ! فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَ؛ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا! اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ! فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ! » وقد روى مسلم نحوَه أيضًا عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ مرفوعًا.

(٢) أورد الطبري في تفسيره - نقلا عن ابن إسحاق - نسب عمران مُتَّصِلًا إلى سليمان بن داود عليهما السلام. وسمَّاه: « عمران بن ياشهم »، بينما قال كُلٌّ من ابن كثير وابن خلدون في تاريخه، نقلًا عن ابن إسحاق دائما: « ابن ياشم » كما ضبطناه في المتن.

من « بني مَاثَانَ »، وهم من أشراف بني إسرائيل، كانوا سَدَنَةَ بيت المقدس، يتوارثون خدمته خَلَفًا عن سلف. ينتهي نسبهم إلى سليمان بن داود عليهما السلام. وكان عِمْرَانُ كبيرَهم وسيدهم في عصر الطاغية « هِيرُودُس »، ملك اليهود، الذي كان يحكم القدس باسم إمبراطور الروم آنذاك. وقد كان الروم يحتلون بيت المقدس والشام كله.

وقد قيل: إن عمران كان نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل، وكان يشتغل بخدمة بيت المقدس وبكتابة نُسَخِ التوراة [1] وسياقُ القرآن يرجح أنه كان نبيًّا، لا مجرد رجل صالح. فقد ذكره اللَّه في سلسلة كبار الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وقد كان نبي اللَّه زَكَرِيَّا معاصرًا له، وهو « زَكَرِيَّا بْنُ دَان » [2]، ينتهي نسبه أيضًا إلى سليمان بن داود، من نسل نبي اللَّه يعقوب جد بني إسرائيل الأعلى. وهو ابن إسحاق بن إبراهيم. عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وكانت زوجاتهما أختين. ومِن ثَمَّ فقد كان يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا ابْنَ خالةِ مريم، وكان عيسى ابن ابنة خالته، عليهم السلام أجمعين. ذرية بعضهما من بعض.

وأما المحور الرئيس الذي تدور عليه هذه السورة، والقضية الأساس التي تبني عليها شخصيتها فهي - كما أشرنا إليه قبل - قضية « الرَّبَّانية »، الرَّبَّانية بجميع أبعادها. فالسورة من أولها إلى آخرها إنما تعالج هذا المفهوم، سواء في عمقه العقدي، أو السلوكي، أو الدعوي والجهادي، فمدار الربانية هو على إخلاص التوحيد للَّه، وكمال المعرفة به تعالى، ثم الفناء في خدمة الدين؛ بالدعوة إلى اللَّه والجهاد في سبيله حتى الاستشهاد [3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/١٤٣). وكذا تفسير الطبري وابن كثير لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

(٢) قال ابن كثير نقلًا عن تاريخ ابن عساكر: (زكريا بن برخيا، ويقال: زكريا بن دان، ويقال: زكريا ابن لدن.) البداية والنهاية (٢/٥٦) ونقل السيوطي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن زكريا بن دان أبا يحيى كان من أبناء الأنبياء الذين كانوا يكتبون الوحي ببيت المقدس). الدر المنثور: في تفسيره لأول سورة مريم.

(٣) جزم الإمام البقاعي رحمه الله بأن الغرض الرئيس للسورة هو « التوحيد ». قال رحمه الله: (المقاصد التي سيقت لها هذه السورة إثبات الوحدانية للَّه ﷻ (...) ومما يدل على أن القصد بها هو التوحيد تسميتها بآل عمران، فإنه لم يعرب عنه في هذه السورة [أكثر] ما أعرب عنه ما ساقه ﷻ فيها من أخبارهم، =

ونظرًا لتحريف مفهوم « الربانية » في كثير من أدبيات التراث الإسلامي، وقصره على زاوية السلوك الروحي المحض، دون عمقه التوحيدي، وجوهره الإخلاصي، ومنهجه الدعوي والجهادي؛ فإننا مضطرون - في هذا التقديم لسورة آل عمران - إلى إيراد توضيح لمفهوم « الربانية »، على ما قررناه في كتاب « الفطرية »، لكن بنوع من التصرف حسب ما يناسب السياق. وبيان ذلك هو كما يلي:

إن الربانية: هي رتبة الإمامة في مدارج العلم باللَّه والثقة به تعالى؛ وذلك بمجاهدة النفس بالقرآن، على الالتزام بحقائقه الإيمانية، والتخلق بِحِكْمَتِهِ الرحمانية؛ إخلاصًا للَّهِ أولًا وتوحيدًا له؛ حتى تفنى في دينها ودعوتها عن كل حظوظها، فلا يقوم شيء منها إلا للَّه وبه! ثم شهادةً بذلك على الناس، تربيةً ودعوةً وجهادًا، ثم صبرًا وثباتًا، وإيمانًا واحتسابًا.

ولنا أن ندرس حقائق هذا التعريف - بشواهده القرآنية - **من خلال العناصر التالية:**

١ - الربانية توحيد، وإخلاص للَّه وحده، وتجرد من كل حول علميٍّ، ومن كل قوةٍ ماديةٍ، وكل جاهٍ اجتماعيٍّ أو سياسيٍّ، وتبرؤ من الشرك والشركاء؛ ولذلك فالاستمدادُ فيها إنما هو من اللَّه، ومن اللَّه وحده. فهي مدرسة لإقامة الدين للَّه، على موازين الفطرة الخالصة، ومجاهدة دائمة للنفس، أن تنحرف عن قصد التعبد الخالص في الدين والدعوة، فتزيغ بها الأهواء إلى مراعاة الحظوظ الخسيسة، من شهوات الشهرة، ومفاتن المال والأعمال، ومراتب المناصب والألقاب! وغير ذلك من الخوارم المهلكة للدين والدعوة جميعًا!

فإنما الرَّبَّانية مسلك تربوي قائم أساسًا على التحقُّق بكمال المعرفة باللَّه والعلم به جَلّ عُلَاه. ومن ثم لا يجوز أن يخرج طَالِبُهَا أبدًا عن فَلَكِ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ إذ الربَّانيةُ لا تقوم إلا للَّه، ولا تستقيم إلا بِهِ جَلَّ عُلاه، عِلْمِيًّا ودعويًّا. فأول مدارجها تحقيقُ العَبْدِيَّةِ الكاملة للَّه، وتجريدُ القلب من سائر الأغيار

= بما فيها من الأدلة على القدرة التامّة الموجبة للتوحيد، الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه) ن. مقدمة تفسيره لسورة « آل عمران »، في كتابه: « نظم الدرر ». وقد أشار الطبري قبله إلى نحو هذا المعنى، ثم الإمام الرازي في تفسيره، ونحن جعلنا مدار السورة على مفهوم « الربانية »؛ لأنه يتضمَّن كل ما قالوا عن التوحيد في سياق أسرة « آل عمران »، ومجادلة النصارى في حقيقة الألوهية، ويستوعب - علاوة على ذلك - قضايا الشطر الثاني من السورة، مما يتعلَّق بجهاد النبي ﷺ وصحبه، كما بَيَّنَّاه بالمتن مُفَصَّلًا.

والأكدار، والتخلُّقُ بأخلاق القرآن الخالصة للَّه الواحد القهّار! ولذلك كان مأخذها من كتاب اللَّه رأسًا، تعلمًا وتعليمًا وتزكيةً. فهي مسلك تعليمي تربوي مأمور به شرعًا؛ لرعاية حقوق اللَّه وحفظ حقائق الإيمان في الناس، وتربيتهم على التوحيد الصافي والدين الخالص للَّه؛ ولذلك قال تعالى ههنا في سورة آل عمران: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

٢ – الربانية أمانة، فالربانيون هم الأمناء على وظائف النبوة، المستحفظون على أحكام الشريعة، ملتزمون بمقتضاها، لا يلتجئون إلى سواها. شهداء على ذلك عند اللَّه وأمام الناس. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾ [المائدة: ٤٤].

٣ – الربانية دعوة إلى الخير، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وجهاد في سبيل اللَّه. فالربانيون دعاة إلى اللَّه بالحكمة، مجاهدون، صابرون على ما أصابهم في سبيل اللَّه، محتسبون ذلك عند اللَّه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦١ – ٦٣].

ومن ثم فالربانية في نفسها مراتب. فقد يأخذ منها العبد على قدر ما رزقه اللَّه من عزيمة المجاهدة، والترقِّي بمدارج المعرفة باللَّه والثقة به تعالى؛ فتكون أعماله على قدر ربانيته؛ ولذلك فهي كالإيمان تزيد وتنقص، وتحتاج إلى تغذية دائمة، وتثبيت مستمر، كما سنراه مفصلا بحول اللَّه في مُدَارَسة « آل عمران ». وقد يبرز مؤمن في جانب من جوانبها دون غيره، وقد يجمعها آخر من جميع أطرافها، ويتحقق بكل خصالها. وهذا هو الرباني الكامل! (١).

---

(١) أورد الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه قولًا تفسيريًا لابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ... ﴿٧٩﴾ ﴾: =

وخلاصة الأمر في الربانية: أن مدارها هو على إخلاص الدين للّه، والرُّقِي بمدارج العلم به، والثقة به تعالى. والثبات على ذلك دعوةً وجهادًا.

وهذا هو الموضوع الرئيس لسورة آل عمران، والقضية الكبرى التي تعالجها، سواء فيما تضمنته من آيات التعريف باللّه وتوحيده، أو فيما تضمنته من قصة أسرة آل عمران وتجربتها الرائدة في هذا المسلك، وبيان حقيقة المسيح ودعوته، أو فيما تضمنته من مجادلة أهل الكتاب على هذا الأساس، أو فيما تضمنته من تثبيت المؤمنين على مبدأ الربانية والثقة باللّه في مواقف الجهاد والاستشهاد. ذلك هو موضوع السورة، المكون لشخصيتها، وتلك هي قضيتها المهيمنة عليها من أولها إلى آخرها.

ومن ثم فالسورة تنقسم في ذلك إلى قسمين:

القسم الأول: في تأسيس مفهوم الربانية من خلال قصة « آل عمران »، التي وقعت في آخر مرحلة الاستخلاف الإسرائيلي، وبيان فناء هذه الأسرة في توحيد اللّه وإخلاص العبادة له وحده دون سواه، وما كان من تضحيَاتها الجسام في سبيل ذلك. ومن هنا أخذت السورة تسميتها، فصار اسم « آل عمران » رمزًا لمعاني التوحيد والإخلاص والفناء في خدمة الدين. وهو معنى الربانية، الذي صرَّح القرآن بسيمائه في هذه السورة؛ تسميةً منه تعالى لهذه المعاني التوحيدية الخالصة، من بعد ما أبطل

= حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ). وقال الإمام البخاري بعد ذلك شارحًا: (وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ: الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ) صحيح البخاري، كتاب العلم. وإنما هذا جزء من معنى الربانية، كما رأيته بشواهده في مساقاته القرآنية. وقد حاول الإمام الرباني ابن القيم رحمه الله جمع تلك الصفات كلها - أو أغلبها - في بيان مفهوم العالم الرباني، وذلك في نصٍّ فريد قال فيه: (جهاد النفس أربع مراتب (...) إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحقّ الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتَها عِلْمُه شقيت في الدارين. الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها. الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل اللّه من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب اللّه. الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى اللّه، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله للّه.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين. فإن السلف مجمعون على أن العالِم لا يستحق أن يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حتى يعرفَ الحقَّ، ويعمل به، ويُعَلِّمَهُ. فمن عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فذاك يُدْعَى عظيمًا في ملكوت السموات!) زاد المعاد (٣/١٠).

مقالةَ النصارى في تأليه المسيح وأُمِّه عليهما السلام. وذلك قوله تعالى في الآية التاسعة والسبعين: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ وهذا مفهوم ينتشر خلال جميع آيات السورة، وتبرز حقائقه عبر تجلِّيات شتى، من أول السورة إلى آخرها، كما سيأتي بيانه بحول الله، في هذه المقدمة وفيما بعدها.

ويبتدئ هذا القسم من بداية السورة: ﴿ الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ... ﴿٤﴾ ﴾ الآية. فههنا يَرِدُ ذكر الإنجيل لأوَّلِ مَرَّةٍ في القرآن حسب ترتيبه التعبُّدي؛ تمهيدًا منه لمناقشة العقيدة النصرانية، وبيان طبيعة العلاقة بين المسلمين وبين النصارى. ويبتدئ تفصيل القضية النصرانية ومشكلاتها، وبيان تجليات مفهوم « الربانية » في أسرة آل عمران، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ فكان أول البذر توحيدًا للَّه، ونذرًا خالصًا له، مُحَرَّرًا له وحده جَلَّ عُلاه! ثم استمر القصُّ القرآني يجلي هذا المعنى في تنشئة مريم عليها السلام، وما كان من ربانيتها وقنوتها للَّه وتفرُّغها لعبادته وطاعته. وفي حقيقة ولادة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. ثم ما كان من دعوته إلى اللَّه وربانيته الخالصة له وحده دون سواه. ولما خطب في بني إسرائيل مستعرضًا ما آتاه اللَّه من آيات ومعجزات؛ كان آخر كلامه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ فآمَنَ به من آمَنَ، وكَفَر من كَفَر. لكن الكيد كان أعظم، والمكر كان أشد؛ حيث بدأ بنو إسرائيل يدبِّرون الخطط لقتله عليه السلام، لكن اللَّه تعالى نجَّاه منهم فرفعه إليه، وبذلك لم تدم دعوته في الأرض إلا قليلًا حتى اخترمها الانحراف والضلال، فانزلق النَّصارى إلى القول بتأليه المسيح وأُمِّه عليهما السلام، وتفرَّقوا في ذلك مذاهب شتى!

وعلى هذا تأسَّس حوار القرآن للنصارى، فجاءت الآيات ضمن هذا القسم تُجادِلهم، وتُذَكِّرهم بأصولهم التوحيدية، ومنطلقاتهم الربانية. حتى إذا كان من

تجلية القضية ما كان؛ ارتقى التحدِّي القرآني إلى أعلى مستوى، فدعاهم اللَّه ﷻ إلى « الْمُبَاهَلَةِ » مع المؤمنين! (١) قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣ ﴾ ثم قال بعدها مباشرة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤ ﴾ وهو التعبير عن كمال الربانية والإخلاص، وصفاء التوحيد للَّه ربِّ العالمين. وهو معنى مصطلح « الإسلام »، ومفهوم حقيقته الشرعية؛ ولذلك قال في مقدمات الحوار: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ ﴾ ثم قال في نتائج الحوار: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥ ﴾.

وأما القسم الثاني: فهو مُنْبَنٍ على الأول. وهو في تأسيس ربانية هذه الأمة الوارثة، وتربيتها على الإخلاص للَّه، وعلى التفاني في الدعوة والجهاد حتى الاستشهاد. وهو المعنى نفسه الذي خدمته أسرة آل عمران. وهو أساس الخلاف في العلاقة التي تربط المسلمين بالنَّصارى اليوم: نقض الربّانية! ولذلك فسترى أن كل الحوار والجدل الدائر في السورة، مع النَّصارى خاصَّة؛ إنما يدور حول هذا المحور.

ومِن ثَمَّ فقد تخصَّصت سورة آل عمران في محاورة النَّصارى، بعدما كانت سورة البقرة مُتخصِّصة في محاورة اليهود، وهذا لا يمنع من وجود آيات تتوجَّه بالنقد لليهود، كما وجدت في البقرة آيات تتوجَّه بالنقد للنَّصارى؛ حسب مقتضى السياق الخاص هنا أو هناك. لكن العبرة في الحكم العام بالسياق الكلي للسورة، وهو في سورة آل عمران ما ذكرناه.

---

(١) الْـمُباهَلَةُ: مصطلح مأخوذٌ من التبهُّلِ والابْتِهَالِ، أي: الدعاء سواء بالخير أو الشرِّ؛ ولذلك فهو قد يفيد معنى اللعن. والْـمُباهلة مصدرٌ دال على الْـمُشَارَكَةِ، كالملاعنة والمقاتَلة ونحوهما. ومعناه: اجتماع شخصين مختلفين على أمر، أو طائفتين متخاصمتين؛ لطلب الفصل في خلافهما من اللَّه بالدعاء، واستنزال اللعنة على الظالم أو الكاذب! وهي شبيهة بملاعنة الزوجين في تهمة الزنا.

وبعد تحرير مفهوم الربانية، وانقلاب بني إسرائيل عليه سواء بتحجُرِهم اليهودي، أو بانحرافهم النَّصْرَانِي؛ ألقى اللَّهُ ﷻ الرايةَ لأمة الإسلام! وحَمَّلَهُمْ أمانةَ الربانيةِ، توحيدًا، وعبادةً، ودعوةً، وجهادًا! ومِن ثَمَّ جعل القرآن الكريم يبرز تجلِّيات هذا المفهوم في مواقف الرسول ﷺ وأصحابه الكرام في تجردهم للدعوة إلى اللّه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي رفع راية الجهاد والاستشهاد في سبيل اللّه. ثم - قبل ذلك وبعده - في صلواتهم وأذكارهم، وأدعيتهم الملتهبة بالأشواق والرقة والإشفاق!

ويبتدئ القسم الثاني - تقريبًا - من قوله تعالى في منتصف السورة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾. وبعدها بآيتين من التثبيت للقلوب على الإيمان، وعلى الاعتصام بحبل اللّه، وعدم التفرق على دينه؛ قال تعالى في تأسيس الربانية الدعوية لهذه الأمة: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾. فلما تخلَّقت الأمة بهذا المعنى العظيم وتحقَّقت به؛ قال جَلَّ ثناؤه في حقِّها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ثم ثنَّى بعد ذلك على بيان تجليات الربانية في جهاد الأمة في سبيل اللّه. وقد شغل ذلك معظم القسم الثاني من السورة. وهو يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾. فذَكَّرَ المؤمنين بحقائق ربانية مما كان للَّه عليهم من مِنَّة وتثبيت في جهاد عدوهم، ومما كان لرسول اللّه ﷺ وخيرة أصحابه من مواقف ربانية في غزوات شتى، منها غزوة أحد، وغزوة بدر، وغزوة حمراء الأسد، أو غزوة بدر الصغرى.

والجديد في قضايا الجهاد في هذه السورة أنه تميز بدفع الشبهات والتشكيكات حول مفهومه، مما أثاره المنافقون في ذلك الزمان، وفي هذا الزمان! من مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾. ثم فصَّل بعد ذلك تفصيلات جميلة في بيان مفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الشهادة في سبيل اللَّه، مع ربط ذلك كله بمفهوم الربانية، والثبات عليها. ومن أعظم المواقف الربانية للرسول ﷺ وصحبه ما حكاه القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ وهذا مشهدٌ ربانيٌّ رفيعٌ؛ لما فيه من كمال العلم باللَّه والثقة به تعالى! ولذلك كان على ما كان عليه من الثبات على الحق والفناء فيه! وهو من أهم معاني الربانية، ومن أجلِّ آثارها وأكرمِ تجلِّياتها.

وقد تخلَّل السورةَ عددٌ من الأدعية الرقيقة، والابتهالات الجميلة، التي تُجلِّي مفهوم «الربانية» في عالم العواطف والمواجيد، ومدارج السير إلى اللَّه والتعريف به جل جلاله وعلاه. انتشر ذلك في السورة من أولها إلى آخرها. ففي أوائلها قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾.

وفي أواخرها قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

وقد ابْتُدِئَتِ السُّورةُ بتقرير عقيدة الربانية والتوحيد الخالص للّٰه، في مقطع قرآني عظيم، بدءًا بافتتاحها بآية من أعظم الآيات الواردة في توحيد اللّٰه، والتعريف به تعالى، من خلاله اسمه الأعظم: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ ﴾ وما كان بعد ذلك من تعريفات عظيمة باللّٰه الخالق العليم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ﴾ ثم قوله بعد: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ﴾ وجاء في أواخرها المنُّ بنعمة الرسالة، وما كان - ولا يزال - من تصريف وظائفها الربانية في الأمة، وما قام به الرسول ﷺ في ذلك من تلاوة وتزكية وتعليم. قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝ ﴾.

ومِن ثَمَّ خُتِمَتِ السورةُ كلها بهذه الآية التربوية الجهادية، الجامعة لمسلك الربانية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ ﴾.

فعلى هذا وذاك جميعًا ينبني مفهوم « الربانية »، على ما ركَّبناه في تعريفها بهذا التقديم. فكانت سورة « آل عمران » لذلك إذن مسلكًا إيمانيًا فريدًا، وبرنامجًا تربويًا رفيعًا، يرتقي بمن كابده إلى مستوى التحقُّق بمقام « الربانية »، والتخلُّق بخصالها الإيمانية، دينًا ودعوةً وجهادًا. ذلك ما سنشهده - إن شاء اللّٰه وبه الثقة - عند الدخول بمجالسها، والانخراط في مدارستها، والتلقي لرسالاتها. وإنه واللّٰه لخير عظيم! فلنسارع إلى جني ثماره! والتحلِّي بكريم أنواره! فإنما العاجز من أقعده الكسل عن طلب أوطاره! ومكابدة الكشف عن معادنه وأسراره! فلنفتتح إذن أبواب مدرسته، ولنحمل النفس على الدخول بمدرجته؛ فإنه لا كنوز ولا كشوف، ولا أنوار ولا أسرار؛ إلا بمكابدة قلع الصخور وكسر الأحجار! ذلك؛ واللّٰه الموفق للخير والمعين عليه، وإنما مفتاح الكنوز: « لا حول ولا قوة إلا باللّٰه! ».

تلك سورة آل عمران، وهذا أول أبوابها:

المجلس الأول

في مقام التلقي لأسرار جديدة من التعريف بالله

بما هو ﷻ في ذاته الله لا إله إلا هو، له الاسم الأعظم والأسماء الحسنى،

وبما أنزل من الكتب، وبما أحاط بكل شيء علمًا،

وبما خَلَقَ وصوَّر، وقدَّر ودبَّر..

وما للإيمان بذلك كله من بركات وأنوار



١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا
تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ
ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾.

٢ - البيان العام:

تُجمع الروايات على أن مناسبة نزول هذه السورة - من أولها إلى بضع وثمانين آية منها - هو قدوم وفد نصارى نَجْرَانَ [١] على النبيِّ ﷺ، ومجادلتهم إيَّاه في طبيعة

(١) نَجْرَانُ: مدينة عربية تقع في الجنوب الغربي لجزيرة العرب، ما بين صحراء الربع الخالي واليمن، وقد=

عيسى وأُمِّه عليهما السلام، وحقيقة الألوهية، وقضايا التوحيد والتثليث؛ ولذلك فقد انبنى موضوع السورة كلُّها على التعريف بالله ﷻ، وبيان تجلِّيات ذلك على قلوب المؤمنين، وما أكرمهم الله به من إخلاص الدين له، والثقة به تعالى، والثبات على ذلك كله دعوة وجهادًا. وهو ما ذكرناه من مفهوم « الرَّبَّانية »، الذي هو القضية الكبرى للسورة. ففي الصحيحين: عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: (جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلاعِنَاهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لا تَفْعَلْ! فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعَنَّا؛ لاَ نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا! قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا [مِنَ الْجِزْيَةِ] وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا! فَقَالَ ﷺ: « **لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ!** » فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنَ الْجَرَّاحِ! فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ!** »)(١).

وقد جاء تفصيل هذا الحديث عند الإمام الطبري، فيما رواه بسنده عن محمد ابن جعفر بن الزبير، نلخص قصته فيما يلي: قال رحمه الله: (قَدِمَ على رسول الله ﷺ وَفْدُ نَجْرَانَ: ستون راكبًا، فيهم أربعةَ عشرَ رجلًا من أشرافهم. في الأربعة عشر ثلاثةُ نَفَرٍ، إليهم يؤول أمرُهم: « العَاقِبُ » أميرُ القوم، واسمهُ: « عبد المسيح ». و «السيدُ » ثِمَالُهُمْ (٢)، وصاحب رَحْلهم ومجتمعهم، واسمه: « الأَيْهَمُ ». وأبو حارثة بن علقمة، أُسْقُفهُمْ، وحَبْرُهُمْ، وإمامهم، وصاحبُ مِدْرَاسِهِمْ (٣). وكان قد شَرُفَ فيهم ودَرَس كتبهم؛ حتى حَسُنَ عِلْمُهُ في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرَّفوه وموَّلوه وأخدَموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات؛ لِمَا يبلغهم عنه من عِلْمِهِ واجتهاده في دينهم. وقد قَدِمُوا على رسول الله ﷺ المدينةَ فدخلوا عليه في مسجده حين صلَّى العصر، عليهم ثيابُ الحِبَرَات جُبَبٌ وأَرْدِيَةٌ (٤)، وقد حانت صلاتهم فقاموا يصلُّون في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « **دعوهم!** »

= انتشر فيها الدين النصراني واليهودي منذ عهود الدولة الحميرية باليمن.

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) الثِّمَالُ: القائم بشؤون الخدمات والمصالح المادية.

(٣) المِدْرَاسُ: المدرسةُ، وكل مكان جُعِلَ للدراسة. والمقصود هنا الكنيسة.

(٤) الحِبَرَاتُ: جمع حِبَرَةٍ، وهي ثياب مزركشة بخطوط منمَّرة، كانت تصنع في اليمن.

فصلُّوا إلى المشرق! وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم في عيسى ﷺ. يقولون: « هو اللَّه »، ويقولون: « هو ولد اللَّه »، ويقولون: « هو ثالث ثلاثة »! وكذلك قول النصرانية! في كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، وذكر اللَّه لنبيه ﷺ فيه قولهم!

فلما كَلَّمَهُ الْحَبْرَانِ [العَاقِبُ والسَّيِّدُ] قال لهما رسولُ اللَّه: « أَسْلِمَا! » قالَا: قد أسلمنا قَبْلَكَ! قال: « **كذبتما! يمنعكما من الإسلام دُعَاؤُكُمَا للَّه ﷻ ولدًا! وعبادتُكما الصليبَ! وأَكْلُكُمَا الخنزيرَ!** » قالا: فَمَنْ أبوه يا محمد؟ فَصَمَتَ رسولُ اللَّه ﷺ عنهما فلم يُجبهما؛ فأنزل اللَّه في ذلك صَدْرَ سورة « آل عمران » إلى بضع وثمانين آية منها!)[1] فَكَشَفَ اللَّهُ حقيقةَ المسيح ﷺ بجلاء، ورَدَّ مقالةَ النصارى فيه، وبَيَّنَ مفهومَ التوحيد الخالص، وساق في كل ذلك آياتٍ مُحْكَمَاتٍ باهرة، لا يملك من قرأها إلا أن يُوَحِّدَ اللَّه وينزهه بقلب خاشع شكور. ومِن ثَمَّ فقد كان مطلع السورة مُجليًّا لهذه الحقيقة بقوة تعريفًا باللَّه ﷻ رَبًّا وإلَهًا واحدًا للعالمين؛ بما خَلَقَ وأَحْيَى ودَبَّرَ من أمر الخلق كله، وبما أنزل من الكُتُبِ على رسله عليهم الصلاة والسلام؛ هُدًى للناس. واضعًا بذلك مقدماتٍ حِجَاجية كبرى؛ لمجادلة أهل الكتاب عامَّة، والنَّصَارى منهم خاصَّة، وإبطال ما هم عليه من ضلال مبين. قال تعالى في مُفْتَتَحِ السورة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ هو - كما بيناه في مُفْتَتَحِ سورة البقرة - حروف عربية ثلاثة منقطعة: أَلِفْ، ولامْ، ومِيمْ؛ ولذلك فهي تُقرأ جميعها على الوقف، أي بسكون أواخرها. إلا من وصلها مع لفظ الجلالة « اللَّه »؛ فقد فتح الميم للوصل، وهذه الحروف رموز لما تضمَّن هذا الكتاب من أسرار على العموم، وهذه السورة منه على الخصوص، وقد بسَطْنا في ذلك بحثًا عند مدارسة افتتاحية سورة البقرة، لكننا نذكر ههنا ما يناسب السياق. وذلك أن « أَلِم » هذه هي غير « أَلِم » التي في مطلع سورة البقرة، ولا التي في مطلع سورة العنكبوت، أو الروم، أو لقمان، أو السجدة؛ لأننا على يقين بأن لا شيء من ألفاظ القرآن الكريم وآياته يتكرَّر إلا بمقام دلالي جديد!

---

(١) ن. الأثر مُفصَّلًا في تفسير صدر سورة آل عمران عند الطبري.

كما أثبته الاستقراء في الآيات البينات الواضحات. تماما كفاكهة الجنة! ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥] فالمنظر هو نفس المنظر، والفاكهة هي نفس الفاكهة، والطعام هو عين الطعام، لكن المذاق غير المذاق، واللذة متجددة!

فكذلك الشأن في « ألِم » وغيرها من الحروف المقطعة. ومِن ثَمَّ فالإشارة بها في هذه السورة إلى بيان جهل أهل الكتاب بالله، وتجرئهم عليه جَلَّ عُلَاه؛ بما نسبوا له من الولد سبحانه؛ وبما قالوا فيه ﷻ بغير علم، فنزلت سورة آل عمران في ذلك بالفُرقان القاطع، وبيان الحقِّ المبين. فكان التمهيد ببيان عظمة الله، وبيان عظمة كتابه الْمُعْجِزِ الحكيم. وكانت « ألِم » إشارة غيبية إلى ذلك كله، كما كانت في البقرة إشارة إلى العمق الإعجازي للقرآن الكريم؛ تمهيدًا لعرض هُدَى الله على العالمين. لكنها ههنا في آل عمران تنتصب علامةً للتحدِّي القرآني، وتمهيدًا لبيان إعجازه التوحيدي في سياق مجادلة أهل الكتاب، ومناظرة كُلٍّ من يقول في الله غير الحق من الضَّالين! ولذلك قال بعدها مباشرةً: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ ﴾. وقد تبين أن هذه العبارة من أجمع عبارات القرآن في التعريف بالله ﷻ . وقد رأيت أنها جُزْءٌ من آية الكرسي في سورة البقرة. وهي ههنا آية كاملة. وقد بَيَّنَّا ما يسَّر الله منها في آية الكرسي. لكننا ههنا نبين منها ما يقتضيه هذا السياق الجديد. وذلك أن عبارة التوحيد هذه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ۝ ﴾، بما فيها من تقرير وحدانية الله وتفرده بألوهية العالَم وربوبيته، وتنزيه نفسه تعالى عن الشركاء مما اتخذه الناس آلهة بالباطل؛ بيانٌ لكون هذه الحقيقة الكبرى هي أولى المقدمات لكلِّ معرفة بالعالَم ومن فيه، وطبيعته ومصيره، من مُبْتَدَئِهِ إلى منتهاه. فجملة التوحيد: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ۝ ﴾ هي المقدمة الأولى لبناء أيِّ حِجَاجٍ في محاورة المشركين بالله من أهل الكتاب وغيرهم. ومن لم يُسَلِّمْ بها وجب الانطلاق معه من أُولَى مقدماتها لإثباتها هي في نفسها أولًا! فلا وصول إلى وفاق في الدين - عند محاورة الكفار - قبل الاتفاق على توحيد الله ﷻ .

وأما اسمه تعالى: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ ﴾ فقد علمتَ أنه من أبرز التجليات لاسم الله الأعظم، كما فصَّلناه في آية الكرسي. وهو ههنا لبيان أن خصائص الربوبية إنما

هي منحصرة في اللّه ربِّ العالمين؛ لأنه تعالى هو وحده « الْحَيُّ » حقًّا، « القَيُّومُ » الذي يَقُومُ بتدبير شؤون العالَم كلِّه، عُلْوِيِّهِ وسُفْلِيِّهِ. إنه اللّهُ الحيُّ واهبُ الحياة، الذي لا يستمدُّ الحياة من أحد سواه. وأما ما عداه من المخلوقات فإنما حياته عارية، وهِبَةٌ من اللّه إلى حين! وما كان المسيح ﵇ وغيره إلا بشرًا ممن خلق، وهبهم اللّهُ الحياةَ من عنده. فمن ذا في العالمين - سواه تعالى - يحيا بذاته؟ ومن ذا غيره ﷻ يقوم بتدبير شؤون الخلق؟ مَنْ غَيْرُ « القَيُّومِ » يمسك السموات والأرض أن تزولا..؟ ومن سواه - جل عُلاه - يدبر أمر الأفلاك والمجرَّات، وبلايين النجوم والكواكب السيارات؟ من يحفظ النظام الكوني الرهيب من الاضطراب؟ ومن ذا يقوم بشأنه، وضبط مسيرته، وضمان صيانته، وأداء وظيفته، ويراقب كل حركاته من أعمق بدايته في مجاهيل عالم الغيب؛ إلى أقرب تجلِّياته في عالم الشهادة؟ من يقوم على معاش الخلق في الأرض، ويُقَدِّر أرزاقهم، ويرعى مصالحهم، ويلبي حاجاتهم في أبدانهم وأنفسهم؟ وأعدادُ الخلقِ - إذا راعيت جميع أجناس المخلوقات، كبيرِها وصغيرِها، جليلِها وحقيرِها - بملايير الملايير..!

ألَا إنه لمن السذاجة، والسخافة، والسفه الكبير؛ أن يُنسب شيء من ذلك إلى بشر، مهما كان شأنه ومقامه! وإن من أسْفه ما عرف العقل البشري في الممارسات الدينية جَعْلَهُ حقيقة الربوبية العظمى تتجلَّى في بشر ضعيف من لحمٍ ودم! بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق! وإن ذلك لظلم كبيرٌ كبيرٌ في حق العلم والمعرفة باللّه! مهما كانت المبررات والمسوغات! إن انزلاق النَّصارى إلى هوة تأليه المسيح ﵇ إنما هو رِدَّةٌ إلى تفاهات الوثنية، وارتكاسٌ إلى جاهلية تجسيم الربوبية! التي لا تظهر عادةً إلا في المجتمعات المتخلفة! وهو ما يدل على ضيق العقل النصراني عن استيعاب حقيقة التجريد والتفريد في الربوبية!

ومن هنا جاء هذا التقرير الإلهي الذي يزيد حقيقةَ الربوبية جلاءً.. فبيَّن أنه تعالى هو الذي يملك أمر الوحي! الوحي إلى عباده من أنبيائه ورسله. فاللّه هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ، وهو الذي أنزل التوراة على موسى، وأنزل الإنجيل على عيسى، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. ما كان لأحد منهم أن يتكلم عن اللّه بغير علم! وما كان لأحد منهم أن يُنْشِئ كلام اللّه من عنده، ولا أن ينتحله! كلَّا! كلَّا! بل اللّه

رب العالمين يتكلَّم بِوَحْيِهِ مع من اختاره هو من رسله، فيوحي إليه ما شاء، متى شاء، وكما شاء! وإلا فما معنى الربوبية؟ قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ۝ ﴾. فتوجيه الخطاب بصيغة الحضور إلى رسوله محمد ﷺ النبي الخاتم، فيه إظهار لكون هذا القرآن حلقة جديدة من حلقات كلام اللَّه المنزل على رسله عبر التاريخ، وأن النبي محمدًا ﷺ رسول من ربِّ العالمين حقيق، وأن هذا الكتاب الناطق بالحق؛ بما هو مصدِّقٌ لما نزل قبله من التوراة والإنجيل، مهيمنٌ على الكتب السابقة جميعًا! وإليه المرجع في كل ما اختلف فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى جميعًا. فهو الحق الناطق بالحق! وما بعد الحق إلا الضلال! فهذا الكتاب الذي يعرض حقيقة الألوهية، وحقيقة المسيح، ويكشف انحرافات اليهود والنصارى جميعًا في العقائد والشرائع، إنما يردُّهم ويهديهم إلى الحقِّ الذي خوطبوا به من قَبْلُ في التوراة والإنجيل؛ إن كانوا حقيقةً يؤمنون بالتوراة والإنجيل! إن الهدى الذي أنزله اللَّه على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، هو نفس الهدى الذي أنزل على محمد، عليه الصلاة والسلام.

والتعبير بلفظ « التنزيل »، وفِعْلِهِ المضعَّف: « نَزَّلَ »؛ دالٌّ - كما يقول علماء القرآن - على الإنزال المتراخي، أي المتقطِّع، والمنجَّم حسب الوقائع والحاجات. وتلك هي طبيعة نزول هذا القرآن، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. ونحو ذلك في القرآن كثير، كما أن التعبير بلفظ « الإنزال » الدال على المرة الواحدة موجودٌ أيضًا في الكتاب، ويستعمل عادة للدلالة على المصدرية الإلهية للقرآن. وهو دالٌّ أيضًا على « الإنزال » الكامل للقرآن دفعة واحدة، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، تمهيدًا لتنزيله بعد ذلك على محمد ﷺ في الأرض مُنَجَّمًا، بينما الكتب السابقة تلقاها الرسلُ صُحُفًا وألواحًا جملةً واحدةً، بلا تنجيم ولا تفريق! وفي ذلك ما فيه من الحِكَمِ العظيمة والأسرار، مما سنبينه بحول اللَّه في الهدى المنهاجي لهذا المجلس.

إلا أن التعبير بفعل « نَزَّلَ » ههنا في مطلع سورة آل عمران، إضافةً إلى ما فيه من معنى التنجيم للقرآن؛ فيه دلالةٌ على تأكيد ربانية هذا القرآن وهيمنته على ما قبله!

لِمَا في تضعيف الفعل من التوكيد والتشديد [(١)]، فهو تعالى: نَزَّلَ القرآنَ وأَنْزَلَ التوراةَ والإنجيل؛ فكان الْـمُـنَـزَّلُ حاكمًا على الْـمُـنْـزَلِ! وفي ذلك مقدمةٌ لبيان أن هذا القرآن هو الحَكَمُ فيما اختلف فيه أهل الكتاب من قضايا التوراة والإنجيل، وطبيعة المسيح عليه السلام؛ ولذلك سَمَّاهُ « الفُرْقَانَ »، حيث قال بَعْدُ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ۝ ﴾ وقد بيّنا أن القرآن « أُنْزِلَ » ثم « نُزِّلَ »، بينما الكتب الأخرى « أُنْزِلَتْ » فقط، وإنما المقصود ههنا بيان صفة « الفُرْقَانِيَّةِ » فيه؛ حيث سمَّاه « الكِتَابَ » أولًا؛ إبرازًا لطبيعته الربانية، ورفعًا لأي شك في مصدريته، وأنه من جنس « الكتاب » الذي أُنزل على موسى وعيسى عليهما السلام؛ إذ « الكتابُ » هو كلام الله الجامع المكتوب في اللوح المحفوظ. ثم سمَّاه « فُرْقَانًا »؛ لِمَا يعود به من الفصل والتفريق بين الحق والباطل عامَّةً، وبين ما اختلف فيه أهل الكتاب خاصَّةً، فكان ذلك أنسب للسياق؛ حيث بدأ بالكتاب أولًا؛ لإثبات الحجية والمصدرية، ثم ثَنَّى بالفرقان - بعد ذكر التوراة والإنجيل - لإثبات الوظيفة. فعبارةُ « الفُرْقَانِ » اسمٌ عَلَمٌ على كتاب الله القرآن، وصفةٌ له في الآن نفسه، دَالَّةٌ على وظيفة من أهم وظائفه، ألا وهي التفريق ما بين الحقِّ والباطلِ! وضبط حدود ما بينهما، وتوثيق مفاهيمهما؛ حتى لا يتلاعب بها المبطلون! وهذا من أعظم مقاصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من أخصِّ خصائص هذا الدين، وبه استمر في الوجود إلى يومنا هذا، ثم إلى يوم الدين، والفُرْقَانِيَّةُ ركنٌ من أركان « الربانية »؛ لأن الربانيين هم العلماء بالله الذين يرون بنور الله، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ بما جعل الله لهم من فرقان.

والفرقان هو البيان القاطع لكلِّ ريب، والنور الكاشف لكلِّ ضلال. فإذا وقع بين الناس فلا عذر بعده لكُفْر كافرٍ، ولا لتخليط ضَالٍّ؛ ولذلك قال بعدُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ ﴾ وإنما سُمِّيت « الآيَاتُ »

(١) الغريب أن الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه الله انتقد القول بالفرق بين التنزيل والإنزال، وسوَّى بينهما على التمام والكمال! (قواعد التدبر: ...) والقاعدة الثابتة أن: (كل زيادة في المعنى تدل على زيادة في المبنى)! ثم إن قاعدة الفرق بين الإنزال والتنزيل ثابتة بالاستقراء لمواقع اللفظين في كتاب الله، والسياق يدل عليها بوضوح في أكثر من موطن. وقد قال بها غير واحد من كبار علماء القرآن منهم العلامة الراغب الأصفهاني، قال رحمه الله: (والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفَرَّقًا، ومرة بعد أخرى. والإنزال عام) (مادة: نزل). قلت: وهو الأليق بكتاب الله.

بهذه العبارة لفرقانيتها، ولوضوحها في دلالتها على الله المتكلِّم بها! فعجبًا كيف يجحدها الجاحدون، ويُنْكِرُها الكافرون؟ كيف وهم إلى الله صائرون؟ واللهُ هو ربُّ العالمين، شديد العذاب، عزيزُ المقام، مَهِيبُ السلطان، ذو انتقام ولا كأي انتقام! وكيف لا؟ وهو الرب العظيم ذو العزة والجبروت! فمن يغامر بالتعرض لعذاب الله إلا مغرور جاهل بالله! فيا عجبًا لِمُتَقَوِّلٍ على الله مُفْتَئِتٍ على جلاله! فهذا يَدَّعِي له شريكًا، وذاك ينسب له ولدًا، وآخر يصفه بالباطل، وغيره ينكر وجوده! وظلماتُ جهنم دَرَكَاتٌ شتى! وملائكة الرحمن تكتب على كلِّ نفس أوزارها! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ ﴾ وهذا تعبير عجيب عن حقيقة عظمى من حقائق الربوبية، فهو إثبات لعلم الله الشامل الكامل بكلِّ شيءٍ، على سبيل العموم والاستغراق؛ أثبته بنفي الخفاء لأي شيء عن علمه، نفيًا قاضيًا على كلِّ شيءٍ في السموات والأرض! وعبارةُ « شيء » تقع على كل موجود بالحسِّ أو بالمعنى، من دقائق الكائنات إلى جلائلها، ومن الذرات إلى المجرات، ومما تنطق به الألسنة إلى ما تخفي الصدور، ومن وسوسة الشيطان إلى خاطرة المَلَك! فهو تعالى يعلم خطوة النملة، ويسمع طَنَّةَ البعوضة، ويبصر دبيب الجرثوم! لا يخفى عليه شيءٌ من أي شيءٍ في كل شيء! مهما دَقَّ أو بَعُدَ في مجاهيل السموات أو غيابات الأرض!

وكيف لا؟ وهو تعالى العليم الخبير، خالق الإنسان من ذرة منوية دقيقة لا تُدْرَكُ ببصر..! ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ والتصوير فعل إلهي عظيم! و« المصوِّرُ » اسم من أسماء الله الحسنى.. فهو - جَلَّ ثناؤه - إذ يخلق ما يخلق، يجعل لكلِّ مخلوق صورة، يصوِّرها كما يشاء..! فعالَمُ الرَّحِمِ مليء بدقائق الأسرار، من معجزات الخلق والتصوير..! ولم يزل علم الأجنة المعاصر - رغم ما حقَّقه من كشوفات - يقف حائرًا على ضفاف بحر الإعجاز الإلهي! وما ينطوي عليه من أسرار الوراثات الخِلْقِيَّةِ، ومطلق الإبداعات الربانية، وما يقدره الله من ذلك ويختاره للجنين من سيماء، يصوِّرها الرحمن بإرادته الكاملة تصويرًا! فلا مجال ههنا للصدفة ولا للعشوائية، كما يزعمه بعض علماء العصر في هذا الشأن! فهؤلاء ينظرون إلى علوم الأجنة والوراثة نظرة عوراء..!؛ لأنها تبني كثيرًا من نظرياتها على مجرد الاحتمالات العشوائية، والصُّدف التلقائية! كَلَّا! كَلَّا! بل هناك يد خفية! لا تلتقطها

الآلات المجهرية، ولا تصل إليها البحوث المادية الصرفة، التي تتعامل مع الجسم البشري على أنه تركيبة من قطع الميكانيك!

فما من صورة بشرية، وما من سيماء إنسانية؛ إلا والرحمن ﷻ هو الذي خلقها وصوَّرها بإرادته، وعلى تمام مشيئته! وما الرحم إلا غرفة التصوير الإلهي العجيب! فالفاعل لذلك إنما هو اللَّه وحده. فعجبًا لقوم يجعلون للمسيح عليه السلام مقام الألوهية، وما هو إلا بشر، خلقه اللَّه وصوَّره في رَحِمِ أُمِّه كيف يشاء! وإنما الخالق للعالم كله ربٌّ واحد، يشهد بذلك ختم إبداعه، وسيماء صنعه! ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾، عزيز في ربوبيته، منيع في سلطانه، لا يدانيه أحد، ولا يتطاول على شأنه مخلوق! حَكِيمٌ في خلقه، حَكِيمٌ في تصويره، حَكِيمٌ في كلِّ فعله! لا يخلق شيئًا إلا لفائدة، ولا يصوِّر صورة إلا لحكمة! كل شيء من فعله تعالى له مغزى، وكل شيء من خلقه له وظيفة، وكل سيماء لها دلالة، ومعنى بليغًا تعبر عنه تعبيرًا!

وههنا من بعد ما فرغ الخطاب من التعريف باللَّه توحيدًا وتفريدًا وتنزيهًا؛ بما خلق وأَحْيَى، وبما قام على رعاية خلقه، وتدبير شؤون مملكته، ثم بما أنزل من الكتب والرسالات هدى للناس، وكذا بما تفرَّد به من أخصِّ خصائص الربوبية، من تصوير الهيئات، وإبداع القسمات؛ عاد إلى بيان طبيعة الكتاب المنزَّل على محمد ﷺ، وتصنيف آياته حسب ما تنطوي عليه من ابتلاء! فقال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ... ۝٧ ﴾. فيثبت ههنا المصدرية الربانية للقرآن مرة أخرى، لكن في سياق جديد؛ سيق لبيان طبيعة القرآن الابتلائية من الناحية الدلالية؛ ليقيم الحجة على المتشككين والمرتابين، ويحيط بهم من كل جانب! فأكَّد أن هذا الكتاب هو من عند اللَّه، وهو كلام اللَّه، أنزله على رسول اللَّه ﷺ، نعم! وهو لِمَا سَيُبَيِّنه من حِكْمَةِ الابتلاء كان ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ... ۝٧ ﴾.

فَالْمُحْكَمُ من القرآن هو صُلْبُهُ الدلالي، الواضح الصريح البيِّن، الذي لا تضطرب فيه الفهوم ولا تختلف عليه العقول، سواء في العقائد أو التشريع، أو الحلال والحرام، أو القصص، أو الوعد والوعيد، أو غيرها، وهذا هو جمهور القرآن ومعظمه. فَأُمُّ الشيء: أصله وأساسه. ومنه آيات ﴿ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ... ۝٧ ﴾، أي: محتمِلات في دلالتها

لِمَا قد لا يُقْصَدُ منها، مع أن مَنْ ردَّها إلى المحكم فَهِمَ المقصود كله أو بعضه. فالاشتباه ههنا إذن نسبي. وكَشْفُ الاشتباه راجع في المنهج إلى ردِّ المتشابه إلى المحكم وفهمه في ضوئه. هذا منهج القرآن في فهم القرآن. وهي قاعدة علمية جارية في فهم كل نص. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فمن ردَّ ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكَّم مُحْكَمَهُ على متشابهه عنده؛ فقد اهتدى ومن عكس انعكس!) [1].

وأغلب المتشابه راجع إلى ما تكرَّم اللَّهُ به من الإشارة إلى بعض حقائق الإيمان الغيبية العميقة، مما لا يُتاح فهمه لكلِّ الناس. بل كُلٌّ يأخذ منه على قدر ما أذن اللَّه له، وعلى قدر ما خلق اللَّه فيه من استعداد علمي وروحي. ومِن ثَمَّ فَمَنْ لم تخالط بشاشةُ الإيمان قلبَه، فإنه يعمد إلى المتشابه ويضرب به المحكم! وذلك عين الزيغ والضلال! كأن يعمد إلى قوله تعالى مثلًا: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] ليثبت بها وحدة الوجود، أو عقيدة الحلول والاتحاد! مع أن الآيات المحكمات قاضية بأن اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ مترفع عن خلقه! وأنه تعالى ربُّ العالمين وكلُّ ما سواه عبدٌ فانٍ! على ما تواتر في محكمات العقائد في الإسلام، مما لا يختلف عليه اثنان، ولا يتناطح عليه كبشان! إلا من أزاغ اللَّه قلبه! ولذلك قال بعد: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ والزيغ: هو الضلال، والفسوق عن منهج الإيمان. والمقصود أصحاب النوايا الفاسدة في الدين، الذين لم تسكن قلوبهم إلى نور الإيمان باللَّه واليوم الآخر، فهؤلاء يعمدون إلى تتبع الآيات المتشابهات، وعزلها عن سياقها؛ لتأويلها على غير مرادها، بل بما يبطل يقين المحكَمات! وعلى هذا جرى أغلب ما سُمِّي اليوم (بالقراءات الجديدة) للقرآن، مما أنجزه بعض زنادقة العصر! قصد تسويغ ما هم عليه من ضلال من جهة، والعمل - من جهة ثانية - على فتنة المسلمين في دينهم، وإثارة الشكوك والتأويلات الفاسدة بين أبنائهم، ونصرة العقائد الباطنية والتيارات الإباحية!

والسياق يشير إلى ما يقوم به النَّصَارَى في التعامل مع كتبهم، من تتبع المتشابه وتأويله على غير محكمه! كأن يعمد أحدهم إلى مثل ما ورد في القرآن، من قول

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

اللَّه تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ فيثبت بذلك عقيدة التثليث، وبنوة المسيح للَّه، وأن اللَّه اتخذ صاحبة! تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا! أو يثبت ألوهية الروح القدس، وأنه أحد « الأقانيم الثلاثة » بقوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ [مريم: ١٧- ١٩]. ولقد قرأت لبعض النَّصارى العرب يُفسِّر « الأُقْنُومَ » باسم اللَّه تعالى: « القيوم »! بينما « الأُقْنُومُ » كلمة يونانية في الأصل، تدل على معنى « شخص »! ولذلك كان الإله أو الربُّ في عقيدة النصارى مُركَّبًا من ثلاثة أشخاص، هي ما يُسَمُّونه بـ « الأَقَانِيم الثلاثة »: الآب، والابن، والروح القُدُس!

وإنما هذه الآيات وأضرابها مُبيَّنَةٌ بمحكمات القرآن وقواطعه، بما لا يدع مجالًا للمبطلين والمتأولين! قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ﴾ وقال سبحانه في موطن آخر: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [النساء: ١٧١].

والسياق كله - كما ذكرنا - تأسيس منهجي لمقدمات حجاجية؛ لمجادلة النَّصارى في عقيدتهم من جهة؛ ولفضح منهج الملاحدة والإباحيين في التعامل مع القرآن الكريم، وتثبيت المؤمنين على حقائقه الإيمانية المحكمة، والتسليم بما تشابه منه؛ إيمانًا باللَّه واستسلامًا، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾ فالمؤمنُ الحقُّ عليمٌ بأن اللَّهَ أعلم بمراده، مُسَلِّمٌ له في مقصوده، من مُحْكَمِه ومُتَشَابِهه، وأنه تعالى أعلم بتأويله، وأقدر على بيان حقائقه، على أكمل ما يكون التأويل والبيان! ومن ذا أعلم بمراد اللَّه من اللَّه؟ ثم أَذِنَ اللَّهُ بعلم ما شاء من ذلك للراسخين في العلم من عباده، المؤمنين الخُشَّع.

وأما الرسوخ في العلم ههنا فهو: التحقُّق بأصول الإيمان، وكمال العلم باللَّه والمعرفة به، على غرار قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر: ٢٨]

هذا، مع التضلُّع بأصول العلم الشرعي، وقواعد اللسان العربي، ومنهج القرآن في التعبير والبيان، وما ينطوي عليه هذا وذاك من فروع. فأولئك هم الراسخون في العلم، العلماء الحكماء، والصدِّيقون الربانيون! الذين: ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ... ۝ ﴾ فمتى عَرَضَ لهم المتشابهُ، أو عُرِضَ عليهم؛ سلَّموا للَّه بمراده أولًا وآمنوا به، ثم كشف لهم الرحمن من علمه وتأويله على قدر ما ينفعهم في أنفسهم، وما ينفع الناسَ بهديهم وبيانهم. وقوله: « كُلٌّ » أي: كُلٌّ من المتشابه والمحكم هو من عند اللَّه ربنا، فالذي أنزل هذا هو الذي أنزل ذاك؛ فوجب الإيمان بالكل، ورَدُّ المتشابه إلى المحكم.

والتعبيرُ بقولهم: « رَبَّنَا » – في هذا المقام – مُشْعِرٌ بما يجدونه في قلوبهم من الخضوع للَّه، وكمال الطاعة له على كلِّ حال، وشهود تمامِ العَبْدِيَّةِ في أنفسهم لمقام ربوبيته ذي الجلال! وتلك هي حقيقة العلم باللَّه، والرسوخ في معرفته جل جلاله وعلاه. وذلك هو كمال العقل، وصفاء القلب؛ ولذلك قال سبحانه في تمام الآية: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾ فأولو الألباب: هم العقلاء الحكماء، الذين تقع آيات اللَّه من قلوبهم موقع الذكرى والاعتبار؛ لِمَا يشاهدون فيها من الدلالة على اللَّه، ولِمَا يدركون فيها من معنى الابتلاء للقلوب، والامتحان لأنفس العباد!

ومِن ثَمَّ فقد ناسب ذلك تعبيرَهم عن مواجيد الخوف والرجاء، والابتهال إلى اللَّه بهذا الدعاء الرباني الرقيق: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ ﴾ ذلك أنهم لما عرفوا ما عرفوا من الحقِّ، ولما وجدوا ما وجدوا من الهدى؛ أفزعهم خوف الانقلاب إلى ضدِّه، وخطر الانزلاق عن هَدْيِه! فجعلوا يجأرون إلى اللَّه بطلب التثبيت على الحقِّ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ... ۝ ﴾ والمؤمن الحكيم أحرص على الخير، خاصَّةً بعد إدراكه، وأخوف من فقده بعد ذوقه! فالنداء بصيغة ﴿ رَبَّنَا ﴾ مُكرَّرة؛ تعبير عن الشعور العميق الصادق، بما يجده المؤمن ويشاهده من جمال الانتساب التعبدي إلى اللَّه ربِّ العالمين، وبما يجده من حال الافتقار إلى خالقه وسيده، وحاجته الشديدة إليه؛ عساه يُديم عليه نعمة الهدى، ويحفظه من الزيغ والضلال!

ذلك أن العالِم بالله حقًّا، العارف بقدره ومقامه، يسبق الرَّهَبُ إلى قلبه، ويضطرب الخوفُ بوجدانه؛ إشفاقًا من أن ترتفع عنه رحمة الهدى، وتنحرف به الطريق؛ فيكون من الخاسرين! لِمَا عَلِمَ من أنه لا هدى ولا نجاة إلا برحمة الله! ولذلك كانت الجملة الثانية من الدعاء: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ ﴾ وأَيُّ رحمة أعظم في الدنيا من الْهُدَى؟ فهو أجمل الهبات، وأفضل العطاءات! و« الْوَهَّابُ » اسم جميلٌ من أسماء الله الحسنى، يُشْعِرُ العبدَ بجمال الأنس بالله، والاطمئنان إلى سَعَةِ فضله وكرمه وجوده؛ لأن ﴿ ٱلْوَهَّابُ ﴾ صيغة مبالغة من فعل الوهب، ومعناه: الذي يُعْطِي سماحًا قبل أن يُسْأَلَ. وهو أبلغ الكرم! وجَعْلُ ذلك في صيغة المبالغة ﴿ ٱلْوَهَّابُ ﴾ بلوغٌ بفعل الوهب إلى أقصى غاية! وهو في ذات الله لا حَدَّ له ولا حصر!

ومِن ثَمَّ تعلَّقت به القلوب الفقيرة، وهفت إليه الأرواحُ الْمَشُوقَةُ برحمة الله وعطائه الفياض! فَقَرَنَتْ دعاءَها بالثناء عليه تعالى بذلك الاسم الجميل، مُعَبِّرَةً عنه بجملةٍ اسميةٍ مُؤَكَّدَةٍ تأكيدًا: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ ﴾ أي المتفرد بهذه الصفة، والمختص بهذا الكرم. ومن ذا قدير على هِبَةِ الخَلْقِ رحمةَ الهدى سواه؟ ولذلك فقد كان التعبير في الدعاء بقولهم: ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ أي: من عندك. فـ « اللَّدُنِيَّةُ » و « العِنْدِيَّةُ » كلاهما تعبير دالٌّ على اختصاص الملكية وتفرد العطاء، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] ومِن ثَمَّ كانت الرحمة المقصودة بالطلب ههنا إنما هي عطاءٌ محضٌ من عطاء الله، وسِرًّا من مَكْنُونِ أسراره، لا يملكه أحدٌ سواه. وإن ذلك لمن أجمل معاني الربوبية وأجلها! ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

ثم ختموا دعاءهم بتقرير عقيدة اليوم الآخر؛ باعتبار أن ذلك المآل هو المقصود بالتزود من الهدى، وَاسْتِيهَابِ الرحمة من الله، وطلب الثبات على الحق، وعدم الزيغ عنه إلى يوم لِقَاهُ، قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ ﴾ والتعبير بالجملة الاسمية المؤكَّدة: ﴿ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ ... ۝ ﴾ دال على اليقين الراسخ في الإيمان بالبعث والنشور ليوم الجمع! ذلك اليوم الذي لا ريب فيه ولا شك! وكيف لا؟ وهو وعد الله الصريح القاطع، المتكرر وروده في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بما يفوق حد الحصر

والاستقراء! حتى كان من أهم أركان الإيمان، ومن أعظم أصول الإسلام، لا يصح إسلام امرئ بدونه!

وعبارةُ ﴿ جَامِعُ ٱلنَّاسِ ﴾ تصويرٌ بديع تُـجَلِّلُهُ الرهبةُ والجلال، وتشخيصٌ بليغ لبعث ملايير الناس من قبورهم المبعثرة، والمنتشرة في كلِّ مكان، وحشرهم جميعًا إلى صعيد واحد، هو ساحة الحشر، حيث تقف البشرية كلها بين يدي اللَّه لتعاطي الحساب! وإنها لمشاهد رهيبة جليلة! جاءت في هذا السياق العجيب مختزلة في جملة واحدة!.. ذلك وعد اللَّه، واللَّهُ ﷻ لا يخلف وعده. ولو كان الوعد بالشيء القليل الصغير، فكيف يخلفه إذا كان بالعظيم الكبير؟ ألَا ﷻ إنه لا يخلف الميعاد! وأنت ترى أن عبارات هذه الآية، كلها جمل متينة قوية، مؤكَّدة بشتى صيغ التوكيد، انبنى بعضها على بعض، فتراصَّت كما يتراصُّ الحجر في أساس البناء؛ للتعبير عن هذا اليقين الأخروي العظيم! حتى صار الإيمان باليوم الآخر حقيقة مشهودة كأنك تراها! وإن ذلك لأعظم سائق للقلوب في طريق السير إلى اللَّه!

ذلك مَطْلَعُ سورة آل عمران، وإنه لمن أعظم مواطن التعريف باللَّه في كتاب اللَّه! وإن ذلك لمن أولى المقدمات في ترتيب الحِجاج؛ لمن أراد مناظرة أهل الكتاب، أو أراد مناظرة شيطانه، ومجاهدة نفسه ووسواسه، والترقي في معراج معرفة اللَّه، والارتواء من كوثر اليقين. ذلك، وما الهدى إلا من اللَّه. جعلني اللَّه وإياكم من أهل رحمته، المخصوصين بجميل هبته وكريم نعمته، الثابتين بفضله على طريق الهدى والرشاد! آمين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الست التالية:

الرسالة الأولى: في أن تنزيل القرآن مُنَجَّمًا، أي مُفَرَّقًا على حسب النوازل والوقائع - من دون الكُتِبِ السابقة كالتوراة والإنجيل - له حكمةٌ عظيمةٌ في نفسه، دالة على أنه كتاب متجدد، كلما دَرَسَتْ حقائقُه في الواقع البشري، وضعف الالتزام بأحكامه وبهت؛ أمكن تجديدُ حقائقه الإيمانية في النفوس، واستئنافُ الالتزام بأحكامه وشريعته، والدعوةُ إلى ذلك كله وفق ما نتج عن تنجيمه من فقهِ دعويٍّ كُلِّي؛ وذلك لِـمَا في

التنجيم من الإشارة إلى منهاج تجديد الدين، وبيان فقه دعوته على الإجمال، والتنبيه إلى مبدأ التدرُّج في الدعوة. كما أن فيه ربط الأحكام والآيات بالحاجة البشرية الكلية، ومراعاة المراحل الدعوية الكبرى؛ حسب نضج الواقع واستعداده لتلقي هذا الأمر أو ذاك. وإن لم يلزم عن ذلك كله التقيد الحرفي بترتيب النزول على التفصيل! وإنما القصد أن التنجيم قد دلَّ على مبدأ التدرج بإطلاق، وعلى كثير من القواعد الكلية في الفقه الدعوي، مما اقتضاه علم المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، كالتركيز على قضايا الإيمان والإخلاص، والاهتمام بأمر الصلاة في البدايات، واستصحاب ذلك كله في النهايات.

ولا يعني ذلك كما ذكرنا التقيد الحرفي بترتيب النزول للسور والآيات! لأن ذلك الترتيب أمر تاريخي قد استنفد أغراضه من حيث التفصيل. وإنما جعله اللّٰه من حيث جزئياته التفصيلية تأسيسًا لمرحلة النبوة لا يتعدَّاها؛ ولذلك لم يحفظه اللّٰه للأمة، ولا رتَّب عليه كتابه الكريم، ولا تواتر منه شيء نَقْلًا، ولا حتى ثبت به حديث صحيح! ومِن ثَمَّ فالترتيب التعبُّدي المجمع عليه في المصحف العثماني هو المعتمد في بيان تناسق الكتاب المبين، وعرض حقائق الدين وأحكامه، منذ تمام الوحي إلى الأبد.

ونحسب أن الفرق بين التَّرتيبَيْنِ هو: أن الأول - أي الترتيب حسب النزول - قد وُضِعَ لتأسيس الدين، وقد تمَّ، وما عادت الأمة في حاجة إلى تأسيس، وإنما هي في حاجة إلى تجديد. بينما الثاني - وهو الترتيب التعبُّدي المصحفي - قد وُضِعَ لتجديد الدين، وهو أمر لا ينقطع إلى قيام الساعة؛ ولذلك حُفِظَ هذا ورُفِعَ ذاك! ولو كان في الأول مصلحة دائمة للأمة لَبَنَى اللّٰهُ عليه ترتيب كتابه، وإنما بناه تعالى على ما عَلِمَ فيه مصلحة الأمة وحاجتها الدائمة. وحِفْظُ الترتيب من حفظ الكتاب؛ ولذلك فالترتيب المصحفي عندنا ترتيب توقيفي لا اجتهاد للصحابة فيه؛ فتأمل!

ثم إن الأولويات الدعوية التفصيلية قد تختلف من بيئة إلى أخرى؛ ولذلك ربما وجدنا أن من الأولويات في قُطْرٍ من الأقطار الإسلامية اليوم الدعوةَ إلى مواجهة الزِّنَى والانحلال الخلقي، وتعاطي الخمر شربًا وإنتاجًا وتجارةً، وربما كانت الأولوية في قطر آخر مواجهة التعامل بالربا، وفي غيره حماية التشريع الأسري وأحكام الزواج والطلاق والإرث، وفي بلد آخر تجديد مفهوم التوحيد في القلوب ومحاربة

الشركيات والخرافيات، وفي آخر الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل اللَّه... وهكذا! مع ثبات أولوية التربية الإيمانية على كل حال، واستصحاب مسلك التعريف باللَّه وإخلاص الدين له في جميع المراحل والأطوار. مع أن الأولوية اليوم لا تعني إهمال شيء من الدين، أو إلغاءه بالمرة! كَلَّا كَلَّا!.. وإنما هي تقديم شيء على شيء، وجعله في بؤرة الصراع، والقضية الأولى للدعوة في مرحلة ما!

ومِن ثَمَّ فقد تختلف الأولويات اليوم في العالم الإسلامي حسب طبيعة المرض في المنطقة المقصودة بالدعوة والإصلاح، مع الاشتراك المنهجي عمومًا في قواعد التدرُّج، ومراعاة الأَوْلَى في الشرع من جهة، وفي واقع الناس من جهة أخرى، وإنما الذي يُحدِّد هذا وذاك هم العلماء بالدين ومقاصده، الخبراء في معرفة واقع الأمة وظروفها المحلية والعالمية. أما التقيد الحرفي في حركة تجديد الدين بمراعاة ترتيبٍ للسور لم يحفظه اللَّه للأمة؛ فهو أمر قد لا تحمد عقباه! وإنما العبرة بمبدأ التنجيم والتدرج، لا بجزئياته العينية التاريخية، إذ غاية ذلك كله - كما قلنا - استنباطُ قواعدَ دعويةٍ وتربويةٍ كلية - أغلبها مبثوث في كتب علوم القرآن والسيرة النبوية - تُنزَّلُ على الواقع البشري بشكلٍ منهجيٍّ، من خلال ما يُسَمَّى عند العلماء بـ « الاجتهاد في تحقيق المناط » (١). ذلك، واللَّه أعلم!

الرسالة الثانية: في أن التعريف باللَّه رَبًّا واحدًا أَحَدًا، بما له من أسماء حسنى وصفات عُلَى، وما يقتضي ذلك من توحيد وتفريد؛ هو أُولَى المقدمات لمحاورة أهل الكتاب وغيرهم، ومجادلة جميع أهل المِلَلِ والنِّحَلِ، وهو أول المنطلقات في بناء خطاب الدعوة إلى اللَّه. ذلك أن من عرف اللَّهَ عرف نفسَه، وعرف فقرَه وضعفَه، وحاجتَه إلى خالقه ومولاه. وأما من تَلَقَّى تجليات الجلال من اسم اللَّه الأعظم: « الحي القيوم »، أو لُقِّنَهَا تلقينًا؛ فإنه - إن كان يملك قلبًا خاليًا من الأهواء - امتلأ بمواجيد الرَّهَبِ، وانبهر بما شهد من جَلَالِ الربوبية العظمى! مما لا طاقة لقلب بشري

---

(١) الاجتهاد في تحقيق المناط: هو النظر في مناسبة الواقعة لعلة الحكم المراد تنزيله عليها، ومدى ملاءمتها له. وذلك كأن تعرف حكم « العدالة » مثلًا من خلال شروطها وصفاتها، كما هي عند المحدثين، ثم تنظر إلى شخص بعينه؛ لتتحقق من كونه « عدلًا » أم لا، بمعنى هل يحمل تلك الصفات ويتخلَّق بها؛ لتحكم عليه بصفة العدالة وتجري عليه أحكامها؟ فذلك هو الاجتهاد في تحقيق المناط، والمناط: هو علة الحكم. وهو جارٍ في كلِّ أحكام الشريعة العملية، سواء تعلَّقت بالأشخاص أو تعلَّقت بالظروف والأحوال.

أن يَتَمَلاهُ إلا أن يخرَّ لربه ساجدًا! فعندما تشهد أن حياتك بيد الحي الذي لا يموت، وأنه تعالى إن يرفع عنك خيط الروح اللطيف تلتحق مباشرة بعالم الفناء! وعندما تبصر بأن اللَّه ﷻ هو الذي خلقك وصوَّرك ولم تكن شيئا مذكورًا، وأنه تعالى هو وحده الذي يقوم بكل شؤونك، ويدبر كل أمورك مع أمور بلايين المخلوقات في هذا العالم؛ تدرك كم أنت في حاجة إلى اللَّه! نعم، إنَّ من عَرَفَ ربَّه عَرَفَ نَفْسَهُ، وشَهِدَ عَبْدِيَّتَهُ! ولذلك كان التعريف باللَّه أساس الطريق في الدعوة إلى اللَّه!

الرسالة الثالثة: في أن اعتماد آيات القرآن العظيم هو المنهاج الأقوم في الحِجَاج والمناظرة والدلالة على اللَّه! وأن القول بعدم جدوى الاستدلال بالقرآن لدى من لا يؤمن به خدعة شيطانية خبيثة! فالقرآن يحمل قوته في نفسه، ويطرق أبواب القلوب بما لا قِبَلَ للناس به! وذلك من مقتضيات معنى ﴿ ٱلْفُرْقَانَّ ﴾. إن القرآن المجيد مثل عصا موسى عليه السلام إذ يضرب بها الحجر فينفجر ماءً زُلَالًا! وإن القرآن لأعجب من ذلك وأغرب! إذ يضرب الداعي ببعض آياتِه صَخْرَ القلوب القاسية؛ فإذا هي تفيض دمعًا سخينًا! وإنك لترى كيف أن القرآن كان له من الأثر الإيجابي على كثير من الكفار، ما لا يخطر على بال، ولا يتوقَّعه خيال!

ولقد راجت بين كثير من الدعاة مقولة فاسدة باطلة، متسترة وراء منطق العقل، ومنهج الاستدلال، وهي أن الملحد أو الكافر عامَّة يجب مخاطبة عقله دون قلبه! وأنه لا فائدة من الاحتجاج عليه بالقرآن والسنة وهو لا يؤمن بهما! ولقد انخدعتُ بهذا المنطق الفاسد زمنًا، خاصَّةً في عهد المد الإلحادي الشيوعي! لكنني لما رجعتُ إلى القرآن وجدتُ اللَّهَ ﷻ يخاطبُ الكفار بكلِّ أصنافهم بالآيات الموقظة للقلوب إلى جانب الآيات الموقظة للعقول! بل آيات الوعد والوعيد هي أكثر الخطاب القرآني، وأساس الحجاج الرباني، وصُلْبُ الجدال الإلهي للكفّار عبر التاريخ! والسرُّ في ذلك كله أن القرآن ليس مجرد حُجَّة عقلية، من مثل ما نقيمه من الاستدلال المادي المحسوس، أو البرهان الرياضي المعقول، كلَّا! كلَّا! إنه - وإن تضمَّن ذلك جميعه بمنهج القرآن - خطاب اللَّه للفطرة الإنسانية! وهذا من أعمق أسراره الضاربة في عمق الغيب! إن الكافر عندما يتخلَّص من أهوائه، وهو يسمع كلام اللَّه، يستيقظ في قلبه حنينٌ مجهولٌ، غير قابل للتفسير والتحليل، وشوقٌ غريبٌ عجيبٌ إلى ربِّه!

إنه يجد أن هذا القرآن يوقظ في قلبه ذكرى الميثاق الرباني القديم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ ولذلك قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦]! فأَمَّنَ الكافرَ المستجير؛ بقصد إسماعه القرآن الكريم؛ عسى أن تستيقظ فطرتُه على ندائه الغيبي العميق! ولذلك وصف تعالى حالَ الصادقين من النَّصارى، الباحثين عن الحقِّ بإخلاص، إذ يسمعون آيات القرآن العظيم، فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] وهذا كله كما ترى لا علاقة له بالمنطق العقلي المجرد، ولا بالحجاج البرهاني الميت!

وقد ثبت في السنة مثل هذا كثيرًا.. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: « بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ [أسِيرًا]، يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ [أَيَّامًا]. فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: « أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ! » فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ! »[(١)] وذلك لِمَا عايش من مشاهد العبادة وسماع القرآن في المسجد طيلة أيام اعتقاله فيه! ولقد تواتر أن أغلب من أسلم من الصحابة إنما أسلم بسماع القرآن! ولذلك قال الله ﷻ على لسان رسوله الكريم ﷺ: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢] فانظر أي استدراج خبيث يمارسه الشيطان! وأي خدعة لئيمة يرمي بها في وجه كثير من الدعاة اليوم؛ عندما يقنعهم بأن لا فائدة من محاورة اليهود والنصارى، وعموم الملاحدة، بالقرآن الكريم! كَلَّا! كلَّا! فإنما نزل هذا القرآن لطرق أبواب القلوب الكافرة بقوة! ولعل الله يُحيي به قومًا ويُهلك آخرين! والعقلُ الذي يجحد حُجَّة الله القرآنية، ولم توقظه آياته ولا موعظته؛ فهو لغيرها أجحد! ولو أقمتَ عليه آلاف البراهين العقلية وآلاف الحجج المنطقية! لأن الهوى

---

(١) متفق عليه.

هو أشد أنواع العمى ظُلْمَةً، فأنَّى يكون صاحبه من المبصرين؟ وأما من يسمع لحجة العقل المجرد ويستجيب؛ فهو لكلمات اللَّه أسمع وأخضع! وما الهدى إلا من اللَّه!

ولقد قرأتُ لبعض الدعاة المعاصرين قصةً عجيبةً عن مرافعة أحد المحامين الصالحين، ودفاعه في المحكمة عن مجموعة من الدعاة، كانوا قد اعتقلُوا ظلمًا في بعض الأقطار العربية؛ فأدرج المحامي في نصِّ مرافعته موعظةً إيمانيةً بليغةً، وتذكيرًا باللَّه ﷻ، وبالدار الآخرة، معتمدًا في ذلك على تلاوة بعض آيات القرآن المجيد بصورة خطابية! فلما أطال جعل بعضُ الحضور من أهل الدعوة يأسف ويتحرَّق على خروج المحامي عن الموضوع! وينتقد عدم تركيزه على الحيثيات القانونية؛ لإقناع القاضي وهيئة المحكمة ببراءة المعتقلين! حتى قال بعضهم: سامح اللَّه فلان! أيظن نفسه في مسجد فهو يلقي فيه موعظة؟

لكن العجيب هو أن المحامي بمجرد ما أنهى مرافعته الإيمانية رفع رئيس المحكمة الجلسة! وما هي إلا أيامٌ حتى قَدَّمَ القاضي استقالتَه من وظيفته، والتحق بجماعة الدعوة الإسلامية! فعلم أصحابها آنئذ أن تلك المرافعة التي انتقدوها لم يكن لها أثر على تبرئة المعتقلين فحسب؛ بل قامت بتكسير أقفال الغفلة عن قلب القاضي، وإيقاظه على حقيقة الدِّين، ورقابة اللَّه ربِّ العالمين؛ فأصبح بإذن اللَّه من المهتدين! وهو ما لم يكن يتوقعه أحد منهم ولا كان يتخيله! ذلك هو الفرقان، كلام اللَّه العلي العظيم، القاهر فوق كلِّ حُجَّة، والغالب على كل دين!

الرسالة الرابعة: في أن تلاوة القرآن بمنهج التلقِّي راجعةٌ أساسًا إلى تلقِّي الآيات عن اللَّه إيمانًا وتسليمًا، لا استدراك ولا اعتراض! يستوي في ذلك المحكم والمتشابه. فمن علم - وهو يتلو القرآن - أنه إنما يتلقَّى عن اللَّه كلامَه؛ ويسمع قولَه وخطابَه؛ خضع عَقْلُهُ لربِّه، وذلَّتْ عُنُقُهُ لسيده ومولاه! فكان كما قال تعالى عن صالحي أهل الكتاب: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقد كان رسول اللَّه ﷺ حريصًا على تعليم أصحابه هذا الأدب الرباني الرفيع، في التعامل مع كتاب اللَّه؛ حتى صاروا كما قال اللَّه تعالى عنهم: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولذلك كان النبي ﷺ إذا رأى زلَّة أو فلتة عن هذا المنهج؛ غضب ﷺ لكتاب ربِّه، وقام ضدَّ الانحراف بقوة! فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَالْـمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ! - قَالَهَا ثَلاثًا - مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ! وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِـمِهِ** ﷻ »(١) وفي حديث رهيب حق رهيب! عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ ﷺ: (لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ! أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ! فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ: « **مَهْلًا يَا قَوْمِ! بِهَذَا أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ! بِاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ! إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا! فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ! وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ!** »)(٢).

الرسالة الخامسة: في أن الهدى إنما هو هِبَةٌ من اللَّه، ومحضُ رحمةٍ منه تعالى، وأن الدعاء، وإعلان الافتقار إلى اللَّه ﷻ من أهم الطرق الهادية إليه تعالى، وتَلَقِّي رحمته، والثبات على هُدَاهُ، فعن شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: (قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ!** ».. قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ: « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ! » قَالَ: « **يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ!** »)(٣) وعن النَّوَّاسِ

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢/١)، قال الألباني: سنده صحيح على شرط الشيخين . السلسلة الصحيحة (٢٦/٤). وكذلك قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢) رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند، كما صححه الألباني في شرح الطحاوية.

(٣) رواه أحمد، والترمذي وحسّنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع والسلسلة الصحيحة. كما صححه لغيره الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند. ذلك أن راوي الحديث « شَهْرَ بْنَ حَوْشَبٍ » =

ابْن سَمْعَانَ الْكِلابِي ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (« **مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ!** » قال النَّوَّاسُ: وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ!** ») [١] وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (« **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** » ثُمَّ قَالَ ﷺ : « **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ!** ») [٢]؛ ولذلك فقد ثبت أن النبي ﷺ كان كثيرًا ما يُقْسِمُ بهذا المعنى، مُسْنِدًا أَمْرَ الهدى والإضلال إلى اللَّه وحده، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ: « **لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ!** ») [٣].

فثبتَ أنَّ مَنِ اهْتَدَى فإنما هو برحمة اللَّه اهتدَى! وأنَّ مَنْ ضَلَّ فإنه بعدم توفيق اللَّه له ضَلَّ فكان الربانيون لذلك لا يكفون عن الدعاء بالثبات على الْهُدَى.. وذلك هو مسلك المؤمنين الخُلَّصِ!

فاللَّهُمَّ رَبَّنَا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذ هَدَيْتَنَا، وهَبْ لنَا من لَدُنْكَ رحمة! إنك أنتَ الوهاب! اللَّهُمَّ يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنَا على دينك، وصَرِّفْهَا على طاعتِك! واجعلنا لكَ من الشَّاكِرِينَ! آمين!

الرسالة السادسة: في أن من أهم واجبات الراسخين في العلم من العلماء الربانيين، القيام ببيان الحق لأهل الضلال، والرد على تأويلات أهل الزيغ والانحلال، وفضح تحريفات الزنادقة من أهل الأهواء المغرضين، وحماية عقيدة الأمة - عامتها وخاصتها - من التشوه والانحراف! فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (تَلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ ﴾؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِذَا رَأَيْتُم الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ!** ») [٤] ولذلك

= بالرغم من أنه ضعيفٌ؛ لسوء حفظه؛ فإن للحديث شواهد قوية، صحَّحه العلماء بها. منها حديث النواس ابن سمعان الوارد أعلاه. وحديث ابن عمرو عند مسلم. وغيرهما.

(١) رواه أحمد. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) متفق عليه.

فقد رَدَّ ابْنُ عباس ﭬ على تأويلات الخوارج الفاسدة، عندما اتبعوا ما تشابه منه، فكفَّروا خِيَارَ المسلمين واستحلوا دماءهم! فكشف للأمة ضلالهم، وهدى اللَّه على يديه منهم خَلْقًا كثيرًا. وعلى ذلك سار علماء الأمة من بعده عبر التاريخ. ومِن ثَمَّ فإن الفتنة إذا استشرت وجب على العلماء بيان حقيقتها للناس؛ حفظا لعقيدة الأمة وسلامة دينها.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلُّق بمجلسنا هذا راجع إلى بيان منهج التحقُّق بمرتبة « الرسوخ في العلم »، والتخلق بأخلاقها. وهي وإن كانت خاصَّةً بطلبة العلوم الشرعية من جهة، فإنها - من جهة أخرى - عامَّةٌ في كلِّ مسلم. وذلك من حيث مسلكُها الـخُـلُـقِيُّ، ومنهجُها الرَّبَّاني القائم على التعريف باللَّه. فما من مسلم إلا وله حظه من هذا المقام؛ ما أخذ بشرطه، وتحقَّق بمسلكه. فإذا جمع العبدُ بين العلم باللَّه والعلم بشرع اللَّه في مقام الربانية، فقد دخل في سلك « الراسخين في العلم ». وهذه المرتبة إنما تتحقَّق للعبد بمجاهدة نفسه، وحملها على السير إلى اللَّه ﷻ عبر **خمسة مسالك**، أخذناها مما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩ ﴾ وهي:

الأول: الترقِّي في مدارج العلم باللَّه رَبًّا واحدًا، له الأسماء الحسنى. ويكون ذلك بقراءة حوادث النفس وما حولها، إلى جميع حوادث العالَم، من خلال آيات القرآن الكريم الـمُـعَرِّفَة باللَّه ﷻ ، وما تضمَّنته من أسماء اللَّه تعالى وصفاته، وجليل أفعاله، وملاحظة تصرف القدرة الإلهية، والتدبير الرباني لجميع الملك والملكوت. فتدبُّر القرآن بهذا المنهاج والعيش على وفقه، هو الكفيل بتحقُّق العبد من مقام العلم باللَّه والرسوخ فيه.

الثاني: التسليم للَّه في كل ما قال وفعل، والإيمان به تصديقًا وخضوعًا واستسلامًا، والرضا بما حكم وقضى وقدَّر. فإن العبد إن فعل ذلك وَجَدَ في قلبه تجاوبًا رحمانيًا جميلًا! وآتاه اللَّه سكينةً وطمأنينةً ورحمة، وَشَعَرَ بوجود ربِّه قريبًا

قريبًا! وأحسَّ به إحساسًا روحيًا عظيمًا! وإن ذلك لمما يورث محبةَ اللَّه، ويذيق صاحبَه حلاوة الإيمان حقًّا، فينعم بثمرته الطيبة، وينشط للترقي بمعراج العلم باللَّه منازلَ ودرجات..!

الثالث: التفقُّه في علم الآخرة. فإن ذلك - كما رأيت - من أهم مستنَدات الراسخين في العلم! حيث قالوا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ ﴾ والتفقُّهُ في علوم الآخرة يقتضي من المؤمن مطالعةَ أخبار الموتى، وعالم البرزخ، وأمر البعث والنشور، وما يتضمَّنه اليوم الآخر من حقائق إيمانية، مثل الميزان، والصراط، والحوض النبوي، وما يكون عليه حال الأمم في ساحة المحشر، وكذا حال الرسل والأنبياء، ومشاهد صفوف الملائكة، ثم تجلِّي الرحمن للفصل بين العباد، إلى معرفة الجنة ونعيمها، ومعرفة النار وعذابها، وما ذكر اللَّه تعالى في هذا وذاك من تفاصيل ومشاهد جليلة! وكذا ما صَحَّتْ به السنة النبوية الثابتة من أخبار الآخرة وحقائقها، فإن ذلك كله يورث علمًا عظيمًا باللَّه ﷻ ، ويُكسب القلبَ أخلاق الخوف والرجاء، على أرفع ما يكون التخلُّق بها والتحقُّق.

الرابع: التزوُّد الدائم من وِرْدِ القرآن الكريم تلاوةً ومدارسةً، ثم تَبَتّلًا إلى اللَّه به في ناشئة الليل، قيامًا بين يدي اللَّه تعالى. فإن ذلك مما يُصقل مرآة القلب، ويلقي عليها من نور اللَّه؛ ما تُبصر به جمال الأسماء الحسنى، منعكسة أنوارُها على كل شيء فيكتسب القلب من معرفة ربه والعلم به أسرارًا أعلى وحقائق أغلى. فتلك المسالك الأربعة عامة في كلِّ سائر إلى اللَّه، عبر طريق التخلق بأخلاق الربانيِّين، من أهل المعرفة باللَّه. ويختص طلبة العلم الشرعي منهم بمسلك آخر، إضافةً إلى ما سبق ذكره، ألَا وهو:

الخامس: التضلُّع بعلوم الشريعة وقواعد اللسان العربي. وخاصَّة من ذلك كله مناهج الفهم والاستنباط، وأصول الفقه في الدين. وإن لفقه اللغة وقواعدها من ذلك لحظًّا كبيرًا جدًّا! أهمله - مع الأسف - كثير من طلبة العلم في زماننا هذا، والعجيب أن منهم من يظن أنه بدون ذلك يمكنه الانتساب صدقًا لأهل العلم المتحقِّقين به! وتاللَّه إنه لَبِمِثْلِ هذا الوهم الخطير هلك اليوم كثير من الناس! حيث أفتوا بغير رسوخ في العلم فضلُّوا وأضلُّوا! وما كان ذلك ليكون لولا جهلهم باللَّه،

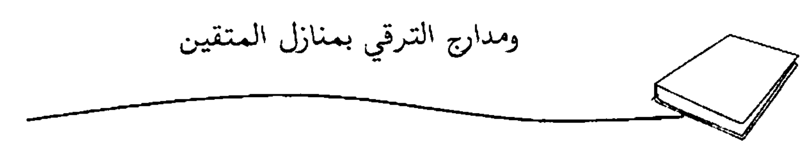
ولولا عدم التحقُّق بأصول شرعه وقواعده!

عصمني اللَّه وإيَّاكم من الزيغ والضلال، ومن شَرَكِ الغرور ومصايد الأوهام، وألْهِمْنَا مراشِدنا وجعلنا من الناجين!.. آمين!

* * *
* *
*

المجلس الثاني

في مقام التلقي لبيان مَصَارِعِ الكفار، وكيف خسرانهم في الدنيا والآخرة
وبيان مسلك النجاة، وأسباب النصر والهزيمة، والهدى والضلال
ومدارج الترقي بمنازل المتقين



١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾.

٢- البيان العام:

أما سياق هذه الآيات فهو مُنْبَنٍ على سياق آيات المجلس السابق؛ لأن أحكامها نتائجُ لتلك المقدمات المذكورة هناك. وبيان ذلك أن الذين في قلوبهم زيغٌ، فاتبعوا ما تشابه من القرآن؛ ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تحريفه بالتأويل الفاسد المغرض، إنما هم الذين كفروا بالله، وجحدوا الحقَّ بعدما سمعوه! سواء كانوا من منافقي العرب أو من

منافقي أهل الكتاب، أو غيرهم؛ إذ لا يُحرِّف كلام اللَّه باسم البيان والتأويل والتفسير، إلا منافق انطوى قلبه على كفر لئيم وجحود خبيث! فهؤلاء وأضرابهم من الكفار مطلقًا قد حكم اللَّه عليهم بالهلاك في الدنيا والخسران المبين في الآخرة! حيث لا ينفعهم ما يغترُّون به من كثرة الأموال والأولاد! سواء في الدنيا أو في الآخرة، فلا هو يدفع عنهم قضاء اللَّه النازل بهم ههنا، ولا هو ينقذهم من عذاب النار في الآخرة! ومن ينقذ من؟ كيف؟ وما المال والبنون إلا مملوكات حقيرة للَّه الواحد القهَّار! وأنَّى لولد أن يدفع عن والده شيئا، وقد تقطَّعت الأنساب وزالت الألقاب! والكل ينادي: نفسي!.. نفسي!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ ﴾ وقَدَّمَ ذِكْرَ الأموال على ذكر الأولاد؛ لأن الطغاة يعتدون بالمال أكثر مما يعتدون بالأولاد، وهم بسبب جهلهم باللَّه يظنون أن الثروة تصنع لهم كل شيء: المجد والقوة والسلطة! ولكنهم بمجرد ما يسقطون بين مخالب مرضٍ فتَّاك يدركون أنهم كانوا واهمين! وأن المال لا يدفع عن صاحبه شيئا إلا بإذن اللَّه! والتعبير الوارد في الآية هو من أشد الوعيد وأعظم الترهيب! فليس شيء أفزع للنفس من مشهد الكفار وهم تُسَعَّرُ بهم جهنم! فهم ليسوا مجرد معذَّبين بعذابها فحسب - وأتعس به من عذاب كيفما كان!.. - ولكنهم فوق ذلك وَقُودُ النار!.. إنهم كالحطب اليابس أو كالفحم الناضج، الذي بمجرد ما تشمه النار تنقضُّ عليه بأنيابها ومخالبها فتزداد به التهابًا، وتزداد به اتِّقادًا! فلا أمل لهم في النجاة، ولا أمل لهم في الفرار! نسأل اللَّه لنا ولكم النجاة والعافية!

وتلك سُنَّة اللَّه في كل جبَّار عنيد..! طغى في الأرض واستكبر على أهلها وتجبر، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ ﴾ والدَّأْبُ: العادة والسُّنة الجارية. والمقصود أن تلك سنة اللَّه التي خلت في الأمم السابقة فرعون ومن قبله، كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وفي كل من عمل عملهم وسار على دأبهم وعادتهم. ما طغت أمة في الأرض، وجحدت آيات اللَّه وتجبَّرت؛ إلا جعل اللَّه خاتمتها هلاكًا مبينًا! ومعنى الأخذ بالذنب: العقاب والانتقام!

وفي التعبير به دلالة على المفاجأة وقوة السلطان، كمن يُلْقَى عليه القبض على حين غِرَّة! وفي ذلك ما فيه من الفزع وهول المفاجأة! ولذلك قال في ختامها: ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾ إشارة إلى صورة أخذ اللّه الطغاة إذا أخذهم! كما قال ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢].

ومِن ثَمَّ كان هذا النذير الشديد اليقين! حيث توعَّد ربُّ العزة الكفارَ بالهزيمة النكراء في الدنيا والخُسار المبين في الآخرة! فأمر رسولَه - عليه الصلاة والسلام - بأن يلقي إليهم هذا التحدِّي الرهيب: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ وإنه لمن أشد التحطيم النفسي لغرورهم، وعجرفتهم، واعتدادهم بقوتهم وجيوشهم! وهو من جهة أخرى، فيه ما فيه من الرفع العظيم لمعنويات المؤمنين المستضعفين، والتقوية لعزائم المجاهدين! وإنه لَإِعْلان صارخ صريح: قُلْ يا محمد! قل لهم: أيها الكفرة المستكبرون! إنكم سَتُغْلَبُونَ وتُهْزَمُونَ!.. تُهْزَمُونَ بما تملكون من قوة جيوشكم، وكثرة عَدَدكم وعُدَّتكم، وبما عولتم عليه من ترسانتكم، واغتررتم به من عتادكم! بكلِّ ذلك سَتُغْلَبُونَ وتُهْزَمُونَ وتتحطَّمون أجمعين! ثم تُحْشَرُونَ بعد ذلك أذلةً إلى جهنَّم، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ والتعبير بالفعل الجامد ﴿ وَبِئْسَ ﴾ تعبير شديد، دالٌّ على منتهى الذّمِّ والاحتقار! بمعنى سَاءَ جِدًّا، وتَعِسَ ما تَمْهَدُونَ لأنفسكم من فُرُشِ جهنمَ ودركاتها! فَأَتْعِسْ به من مصيرٍ شَنِيعٍ، وعذاب مُرِيع!

وفي سياق ذلك يلفت الحق - تبارك وتعالى - الأبصار للاعتبار بفئة الحقِّ في مواجهة فئة الباطل مطلقًا، في ساحة القتال في سبيل اللّه، وما يكون من حسم القضية لصالح المؤمنين، وكسر شوكة الكافرين وتحطيم قوتهم، مهما كان في طريق ذلك من سجال، وتداول للنصر والهزيمة بينهما ما شاء اللّه؛ ليبتلي اللّه العباد بعضهم ببعض، فالنصر في النهاية محسوم لصالح المؤمنين الصادقين أبدًا! قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ قال المفسِّرون: إن سبب نزول ذلك أن رسول اللّه ﷺ لما نصره اللّه على كفار قريش في غزوة بدر، قام في يهود المدينة خطيبًا، مُنذرًا ومُحذِّرًا

من مصير كفار قريش، فأجابته يهود بالاستهجان والتحدِّي! وفي ذلك أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس ﭭ قال: (لَمَّا أصاب رسولُ الله ﷺ قريشًا يومَ بدرٍ فقدم المدينةَ، جَمَعَ يهودَ في سوق بني قَيْنُقَاعٍ، فقال: « **يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قريشًا** » فقالوا: يا محمد! لا تغرَّنكَ نفسُكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا من قريشٍ كانوا أَغْمَارًا لا يعرفون القتال! إنك والله لو قاتلتنا لَعَرَفْتَ أنَّا نحن الناس! وأنكَ لم تَأْتِ مِثْلَنَا! ».. فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ ... ﴿١٢﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾)(١).

فقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ... ﴿١٣﴾ ﴾ .. إلى آخر الآية، هو خطاب لكلِّ كافر، أو شاكٍّ متردد في نبوة محمد ﷺ وصحَّة دينه، ثم هو خطاب لأهل الكتاب على وجه الخصوص، لِمَا كان في غزوة بدر من الأسرار العجيبة، كما سيأتي بيان بعضه ههنا بحول الله. فالآية العلامة والحجة والبرهان، وغزوة بدر هي في حد ذاتها آية! وعلامةٌ على نبوة محمد رسول الله ﷺ ، آية يعرفها أهل الكتاب أكثر من غيرهم، وخاصةً يهود، فهي كانت معركة بين الإيمان والكفر، بين فئة مؤمنة قليلة، تقاتل في سبيل الله، وتزهق أرواحها فداء لدين الله، لا مصلحة لها في حظوظ الدنيا وحطامها أبدًا! وفئةٍ كافرة كثيرة كبيرة مشركة، طاغية، ظالمة، تقاتل من أجل كبريائها الجاهلي، وأصنامها التي هي رمز طغيانها واستكبارها، وسبب ترؤُّسها على قبائل العرب آنذاك، وعلوها في الأرض.

والآية العجيبة من ذلك كله أن عدد جيش المؤمنين، كان على تمام عدد مؤمني بني إسرائيل في جيش طالوت، في معركته ضد جالوت وقومه من العمالقة! مما جرى قبل ذلك بقرون! ففي صحيح البخاري عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﭬ قَالَ: (كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ!)(٢) وقد بيّنا في المجلس الواحد والثلاثين من سورة البقرة، كيف نصر الله الفئة المؤمنة القليلة من بني إسرائيل – طالوت وقومه – على الفئة الكافرة الكثيرة! وقد كان عدد الكفار من العمالقة أكثر من ضِعْفِ المؤمنين!

---

(١) ن. تفسير الطبري للآية. (٢) رواه البخاري.

وأقوى منهم عُدَّة وخيلًا وسلاحًا! فمعنى ﴿ مِّثْلَيْهِمْ ﴾ ههنا، أي: ضِعْفَيْهِمْ، سواء في غزوة بدر، أو في معركة طالوت وجالوت! فهذه سُنَّةٌ عجيبة من سنن الله في التاريخ..! كان يهود يرونها يومئذ في غزوة بدرٍ رأي العين! كما رآها المسلمون والكفار جميعًا! ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ... ﴿١٣﴾ ﴾، تلك قراءة عاصم. وفي قراءة نافع وغيره: (تَرَوْنَهُمْ) بتاء الخطاب، وهو أبلغ في مخاطبة اليهود يومئذ!

فهذه معركة طالوت ترونها مرة أخرى بأعينكم، تنتصر فيها قوة الإيمان على جيوش الطغيان وترسانة الكفران! وتلك آيةٌ دالةٌ على أن النصر إنما هو من عند اللَّه، وليس بقوة السلاح، ولا بتفوق في الآلة الحربية والتكنولوجية! كَلَّا كَلَّا! إنما النصر جزاء ربَّاني، يتفضل به اللَّه على الفئة المؤمنة الصادقة المخلصة، وَعْدًا منه تعالى لا يتخلَّف أبدًا! وإنَّ في ذلك لعبرةً لكم مَعْشَرَ يَهُود، وإنه لَدَرْسٌ بليغ.. لكم ولكل مُتَدَبِّرٍ لِسُنَّةِ اللَّه في التاريخ، أيًّا كان، وفي أي زمان كان ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ والأبصار ههنا بمعنى البصائر، والعقول المبصرة للحقائق، التي تخلصت من حُجِبِ الأهواء والأدواء، فأبصرت آيات اللَّه واضحة في سننه التاريخية والاجتماعية.

ومِن ثَمَّ نَاسَبَ أن ينتقل الخطابُ إلى بيان أسباب الْحُجِبِ، التي تمنع الإنسان من إبصار الحق بجلاء، وتعتقل خطوات القلب من اتباع الهدى والعمل به. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ وهذا تزيين فِطرِيٌّ جِبِلِّي، رُكِّبَ في غريزة الإنسان وطبيعته؛ ابتلاءً له بالخير والشر معًا! ذلك هو حب الشهوات! والشهوة: ما تشتهيه النفس وتستمتع به من صنوف الملذَّات. وإنما هي في أصلها نِعَمٌ من اللَّه، أنزلها على العباد ابتلاء لهم في الدنيا؛ ولذلك فهم فيها بين مَفْتُونٍ مغرور، وبين ذاكر للَّه شَكُورٍ! فالتزيين لا يكون دائما بالمعنى الشيطاني، بل قد يكون بالمعنى الغريزي كما هو واضح من هذا السياق؛ ولذلك فقد بُنِيَ الفعلُ فيه للمجهول: ﴿ زُيِّنَ ﴾، وقال: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ باعتبار جنسهم الإنساني وطبعهم البشري. وقد روى البخاري – تعليقًا –

عن عمر بن الخطاب ﷺ ما يفيد أن الفاعل الْـمُزَيِّنَ للناس ههنا هو اللَّه ﷻ . وهو ما ترجم له في صحيحه بقوله ﷺ: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « هَذَا الْـمَالُ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ »، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ۝ ﴾. قَالَ عُمَرُ: « اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا! اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ! » [١].

فالنفس الإنسانية بطبيعتها تتعلَّق بحبِّ الشهوات وهي المتع والملذات، من التزوُّج بالنساء والاستمتاع بعشرتهن، ثم التمتع بالأبناء، ذُكْرَانًا وإناثًا؛ لِمَا في حُبِّهم من الشعور الخفي بحبِّ الخلود، وامتداد العمر بامتداد النسل وعدم انقطاعه؛ ولذلك كان حُبُّ الولد من حبِّ النفس. ثم كثرة الأموال والأملاك، من الذهب والفضة عَيْنًا وحُلِيًّا، أو ما في معناهما من الأموال المعاصرة، كارتفاع أرصدة الأبناك، وأسهم البورصات ونحو هذا وذاك! وتكديس الثروات من شتى ضروب الممتلكات، من أنواع الفلاحات، وكثرة الضَّيْعَاتِ، وما يتبع ذلك من كسب أنواع الأنعام حسب اختلاف البيئات، من أبقار، أو أغنام، أو جِمال، أو خَيْلٍ مُسَوَّمَاتٍ! أي مُرْسَلاتٍ في المراعي على أجمل ما يكون منظرها. فالسَّوْمُ هنا بمعنى الرعي، والخيل - كسائر الأنعام - يزداد جمالها عندما تُرْسَلُ في المراعي الخضراء حرةً سارحةً، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٥، ٦].

والنفس الإنسانية لا تشبع أبدًا من حبِّ التملُّك، ولا تقنع بحدٍّ معين للغنى، ولذلك عبر بـ ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾ ! وهي مبالغة في بيان شهوة الحبِّ الشَّرِهِ للمال! فهي قناطيرُ يُقَنْطِرُهَا الْـمُقَـنْطِرُونَ من رجال المال والأعمال! والقنطار كان أعلى وحدة قياسية في موازين العرب! وفي ذلك إشارة إلى أصحاب الثروات الواسعة الفادحة، كما هو حال كثير من أغنياء العالم اليوم، من أصحاب الأرصدة الضخمة، والممتلكات الكثيرة، المقدَّرة بالملايير، مما لا يكاد يحصره عَدٌّ ولا يستقصيه إحصاء!

---

(١) صحيح البخاري. والباب المذكور من « كتاب الرِّقَاقِ ».

تلك هي حُجُبُ الإنسان التي تصدُّه عن سماع خطاب الهدى وقبوله! بل هي من أكبر الدوافع لحربه ومحاولة حصاره! وهذه يهود اليوم تتكالب على السيطرة على المال العالمي، والتحكم في الأبناك والبورصات والثروات، وتجعل ذلك كله في حرب الإسلام والمسلمين! تمامًا كما كان أجدادهم يفعلون من قبل!

وهو وصف عجيب لطبيعة الإنسان الشَّرِهَةِ! ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: **« لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا! وَلَا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ! وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ! »** (١)؛ ولذلك أيقظ اللَّه النفس السَّكْرَى بالشهوات على حقيقة فنائها وزوالها؛ فقال في آخر الآية: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤ ﴾ أي: إن هذه الشهوات الآسِرَة، إنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الخدَّاعة! واللَّه ﷻ أعد للمؤمنين أحسن من ذلك ثوابًا ومآبًا. ثم نبّه تعالى العباد إلى مشاهدة النعمة الخالدة، والتطلُّع إلى المتعة الحقيقية الماجدة! قال سبحانه: ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝١٥ ﴾ والسؤال هنا سؤال إغراء وتحريض على طلب الجواب، ومعرفة حقيقة الخبر! ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ ﴾ ألا ترغبون في معرفة ما هو أحسن مما أنتم فيه من متع وملذات؟ وما أنتم غارقون فيه من شهوات؟ ألا ترغبون في نِعَمٍ لا تفنى أبدًا ولا تزول! إنها قَطْعًا خير مما أنتم فيه من الاستمتاع الفاني القريب! هذا الاستمتاع الشهواني الكاذب، الذي لا يتعدى أيام العمر البشري القصير! لكنه خبر يُهِمّ فقط المؤمنين المتقين، الذين لم يغترُّوا بشهوات الحياة الدنيا، ولم يُفْتَنوا بها. فإذا كان اللَّه قد ابتلاهم بشيء منها فقد أدوا حقَّ اللَّه فيها، وأنفقوها في وجوهها المشروعة، فكانوا بها لربهم عابدين، حامدين شاكرين!

فهؤلاء هم وحدهم المبشَّرون بهذا النعيم الأبدي الْمُدَّخَرِ لهم ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ... ۝١٥ ﴾! إنها: ﴿ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ ... ۝١٥ ﴾ وفي تعبير: ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ بما فيه من الإضافة والاستناد، دلالةٌ

(١) متفق عليه. وقد رُوِيَ الحديثُ عن غير واحد من الصحابة مرفوعًا، منهم أنس بن مالك، وابن عباس، وسهل بن سعد الساعدي، وابن الزبير، وأبو موسى الأشعري رضوان اللَّه عنهم أجمعين.

جميلةٌ على الضمان الرباني، والكرم الرحماني، وتولي الرب لعباده المتقين بآلاء الجود والرحمة، وجمال النِّعَم! ما يشوق العباد إلى لقاء سيدهم، وإلى عطائه الثَّرِّ الكريم! ولفظ ﴿ جَنَّٰتٌ ﴾ - هكذا بالتنكير - دالٌّ على عِظَمِ ما تنطوي عليه تلك الجنات من النعيم والجمال! ومن أروع تعابير القرآن في وصف الجنة هذه الجملة الواردة في كتاب الله بِمَوَاطِنَ ومشاهد شتى: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إن أنهار الجنة مياه تنساب الْهُوَيْنَى على غير عمق مخيف! بل هي منبسطة راقراقة تتدفق برفق تحت الأشجار، تغمر حصباء اللؤلؤ، ورمال المسك؛ بما يبهر القلوب، ويبهت الأبصار! وعبارة ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ مشعرة بالانسياب الجميل الذلول لمياهها، وكأنه يتدفَّق هونًا طَوْعَ حاجة أشجارها، ووفق رغبة أهلها، في التملي والتحلي! وهذا المشهد الخارق الجمال والجلال، كاف للدلالة على ما تتضمَّنه الجنة من باقي الشهوات الأخرى، مما تشتاق إليه النفس الإنسانية وتهواه! كما قال تعالى في موطن آخر: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١] ولكنه مع ذلك نصَّ ههنا على شهوة تمتلك على الإنسان كل مشاعره الغريزية والعاطفية: النساء! فقال تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أزواج طاهرات من الحور العين، لا يعرفن حيضًا ولا نجاسةً ولا خَبَثًا! ولا يختلف إليهن أحد من غير أزواجهن المتقين!

وفي الأخير ثَمَّ نعمةٌ أخرى هي ألذ النعم وأرفعها على الإطلاق! إنها نعمة رضوان الله! وإذا رضي الله عن عبد بسط عليه من النعم ما لا طاقة للعبد على وصفه بالكلمات! ولذلك نَكَّرَ لفظَ ﴿ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ في الآية، وجعله ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، فقال: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ولا أعظم من رضوان الله إذا رضي! ولذلك قال في سورة التوبة: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] وقد جاء بيانه في السُّنة الصحيحةِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْـجَنَّـةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ! وَالْخَيْرُ فِـي يَدَيْكَ! فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ ، فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ؛ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: « أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ! » [١].

---

(١) متفق عليه.

ومن رضوان الله تجلي الرحمن لأهل الجنة، يرونه تعالى على أبهى ما يكون الجمال والجلال، فينعكس نورُه - جَلَّ ثناؤه - على وجوههم وقلوبهم، ويغمرهم من البهجة والبهاء ما يجعل منهم مرايا لكمال الجمال! فَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: « أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ! »).. الحديث [1] وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ؛ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً! فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً؛ فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً! » [2].

فأي جمال أبهى من هذا وأروع..؟ وأي نعيم ألذّ منه وأمتع؟ لكنه نعيم ليس لكلٍّ أحد، وإنما هو لمن أخلص قلبَه لله، وجاهد نفسه فيه وحارب هواه! وهو معنى قلبي عميق، لا يعلم حقيقتَه إلا الله! ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝ ﴾ أي: عليمٌ بالصادقين منهم والكاذبين، والمؤمنين والمنافقين! ثم جعل يبين صفات المتقين من العباد، التي بها اكتسبوا ذلك المقام الرفيع في الجنة، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝ ﴾ فالعباد المتقون هم أهل الحذر والاحتياط في الدين، الذين يؤمنون بالله على كمال الإيمان، والذين يتلقَّون أمره تعالى بتمام الرضا والتسليم، متواضعين لله خاضعين، يجتهدون ويعملون، ومع ذلك لا يرون من أعمالهم غير ذنوبهم! خوفًا من الله وفَرَقًا! فلا يزالون يتوبون إليه ويستغفرون، مُستعيذين به تعالى من النار! ومعنى هذا أنهم ترقَّوا في مدارج إيمانهم إلى مقام العلم بالله والمعرفة به، والعلم باليوم الآخر والتلبُّس بحقائقه، على درجة اليقين والشهود! فغلب الخوف على قلوبهم، وسيطرت الخشية على مواجيدهم! فكان ما تعلموه من إيمانهم: الذلة لله والافتقار، والسير إليه تعالى عبر مسلك الاستغفار! أولئك هم المتقون حقًّا!

ذلك أن قولهم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ... ۝ ﴾ هو - كما يدل عليه السياق -

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

بمعنى: رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا بكَ على قَدْرِ ما عرفناك! وعلى قَدْرِ ما تجلَّى علينا من جلالك وجمالك، وعظيم مقامك وأنوارك! وآمَنَّا بالآخرة وبكلٍّ أركان الإيمان، على قَدْرِ ما شاهدناه من حقائقها العظيمة بقلوبنا! ومِن ثَمَّ فهذا ليس مجرد إيمان تصديقي عامي، بل هو إيمان يقيني شهودي! إيمانٌ يَقَعُ القلبُ بِهِ في بحر الخوف والرَّهَبِ؛ بسبب ما عَرَفَ وعَلِم؛ فيكون ذلك سائقَه الرئيس في سيره إلى اللَّه!

ثم فَصَّلَ تعالى بعد ذلك من صفاتهم، أنهم مُتحقِّقون بمقام الصبر، والصبرُ: بلاء الإيمان، وثبات العزيمة، وامتحان القلب. ثم بمقام الصدق، والصدقُ: وفاء العهد، وإِتْبَاعُ القول العمل، وإخلاص القصد. ثم بمقام القُنوت، والقُنوت: كمال الطاعة، وطول القيام، وسكون الركوع والسجود! (١). ثم بمقام الإنفاق، والإنفاق: برهان الإيمان، وحجة الإسلام. ثم بمقام الاستغفار، وهو هنا أخَصُّ من الاستغفار الأول، إنه: الاستغفار الباكي خُفْيَةً بمسالك الليل الساجي.. استغفار الساجدين، الذين يسيرون إلى اللَّه فُرَادَى، تهجدًا وتَبَتُّلًا بين يديه تعالى، هنالك في معارج الأسحار..!، وقد عبّر تعالى في هذه الصفات كلها - كما رأيتَ - بصيغة اسم الفاعل؛ للدلالة على تلبس الفاعل بالفعل تلبسًا كاملًا، يجعله جزءًا لا يتجزأ من ماهيته وشخصيته!. تلك منازل « تقوى الشهود »، وسنعرض لبيان مسالكها منزلًا منزلًا، عند مدارسة « مسلك التخلق » إن شاء اللَّه. ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه! جعلني اللَّه وإياكم من عباده المتقين، الذين يتقون اللَّه حق تُقَاتِهِ، ويتغذون بخوفه ورجائه! آمين!

٣- الهُدى المنهاجي:

وهو ههنا في سبع رسالات، هي:

الرسالة الأولى: في عدم الاغترار بقوة الكفار المادية والعددية، ولا الفزع من ترسانتهم العسكرية والتكنولوجية، مهما بلغ شأنها فتكًا وتدميرًا! وأن الكفر باللَّه سبب كاف لهلاك الكفار على أيدي المؤمنين، لكن بشرط وجود فئة مؤمنة متحقِّقة بمقام الربانية! قال تعالى فيما تدارسناه ههنا: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ

---

(١) عن جابر ﷺ : (أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الصَّلاةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: « طُولُ القُنُوتِ! ») رواه مسلم. ومعناه - كما قال الشُرَّاحُ - طول السكون في القيام والركوع والسجود.

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ وقال ﷻ في سورة أخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] وهو معنى وارد في كتاب الله بصيغ شتى في مواطن شتَّى! وهي قاعدة جارية بشروطها إلى يوم الدين! أعني نصر الله الفئةَ المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة! فلا يفزع من ترسانة العدو وأسلحته - مهما بلغت قوتها التدميرية - إلا امرؤ ضعيف الإيمان، مهزوز الثقة بالله! فالعدو الكافر مهما تطاول وتجبَّر جبانٌ حقير؛ لأن غاية جبروته هو السيطرة على حطام هذه الدنيا الفانية! بينما المؤمن رجلٌ أخروي! يجعل متاع الدنيا كلها تحت قدميه؛ لبناء مجد الإيمان! وهذا هو سر قوته! فالمسلم لا يخاف الكافر أبدًا! لأنه لا يخاف الموت، بل يُقْبِلُ عليه في سبيل الله إقبال العاشق الولهان! ولذلك حرّم الله تعالى عليه الفرار يوم الزحف! وجعله من أكبر الكبائر مقرونا مع الشرك بالله، وغيره من الموبقات، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْـمُوبِقَـاتِ! » قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: « الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْـمُحْصَنَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ! » [1].

الرسالة الثانية: في ضرورة قراءة سنن الله في النصر والهزيمة، ومعرفة سنن الله في التاريخ. وأن الله ما خذل قط فئةً مؤمنةً صَفَتْ قلوبُها وصفوفُها لله الواحد القهار، واتحدت نفوسها على الإخلاص له وحده، وتبرأت من كلِّ الحظوظ والأهواء!

إن شرط الإيمان في الجهاد أساس النصر بإذن الله، وهو شرط راجع إلى تحرير قصد القتال لله، كما نصَّت عليه الآية! وهو جوهر القضية ومربط الفرس! وهو أخطر ثغرة أُتِيَتْ منها الأمة اليوم، لقد رفعت الدول العربية في حروبها رايات معادية لله ورسوله، فكان جزاؤها الخذلان المبين أكثر من قرن من الزمان! وعصفت الأهواء بقلوب بعض الطوائف المقاتلة باسم الدين، فلاقت نفس المصير! إن القتال الذي لا يخلص لله كاملًا، ولا تصفو مقاصده لوجهه الكريم؛ لا يُسَمَّى في شرع الله جهادًا!

---

(١) متفق عليه.

ولا ينال من عند اللَّه تأييدًا ولا نصرًا! لقد هُزِمَ المسلمون في غزوة أحد، وفيهم سيد الخلق محمد ﷺ ، ومعه خيرة أصحابه من الأنصار والمهاجرين! وذلك بسبب ارتماء طائفة منهم على حطام الدنيا في المعركة، وانصراف حراس جبل الرماة إلى جمع الغنائم قبل الأوان! فكانت تلك الهزيمة الأليمة! وكان ذلك الدرس القاسي البليغ!

بينما نُصِرُوا في بدر وهم قلة يكاد يتخطفهم الناس! وهُزِمَ عدوهم وهو أضعافُهم عُدَّةً وعَددًا! في مشهد لا يمكن أن يخضع للمقاييس المادية في قانون الغلبة على الإطلاق! ولذلك سجَّله اللَّه في القرآن في غير ما موضع، وَنَبَّهَ إلى أن سلاح « الإخلاص » هو أول الأسباب، التي تحسم المعركة لصالح المؤمنين عبر التاريخ! كما تدارسناه ههنا من قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ فالوصف الرئيس الذي وصف اللَّه تعالى به الفئتين هو طبيعة الراية المرفوعة! ﴿ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ... ﴿١٣﴾ ﴾ فالقضية كلها ههنا: أين الذي يقاتل في سبيل اللَّه حقًّا؟ لا عُجْبَ ولا كبرياء، ولا ضلال ولا أهواء! تلك هي القضية! ولقد نصر اللَّه الفئة المؤمنة القليلة على هذا الأساس غير ما مرة عبر التاريخ! وتلك سنة ثابتة لا تتغير أبدًا! بل هي عقيدة نؤمن بها كما نؤمن باللَّه يقينًا، لا يؤثر فيها تغيُّر زمان ولا تبدُّل مكان، ولا ينقضها تطوُّر سلاح ولا تفوُّق عدو، ولو استمطر السماء كلها بالنار على المسلمين! فإن يقيننا راسخ بأنه مهزوم مندحر! ما وَجَدَ أمامَه الفئةَ المؤمنة حقًّا، التي تقاتل في سبيل اللَّه صدقًا، فنصر اللَّه المؤمنين المتقين قَضَاءٌ وقَدَرٌ لا يُرَدُّ أبدًا، ولا يشك في هذا إلا شاكٌّ في كتاب اللَّه! ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

الرسالة الثالثة: في أن الميل المنحرف إلى شهوات الدنيا وزينتها كما أنه سبب لفتنة القلوب وضعف الإيمان، فإنه سبب لارتفاع ولاية اللَّه عن العبد، وتعرضه للهزيمة والخذلان! وإن من أخطر الأمراض التي تعاني منها الأمة اليوم، ويكبل انطلاقها وجهادها هو غرقها في شهواتها! وإن من أسوأ ما رمتها به الثقافة الغربية الاستعمارية،

هو إصابتها بداء الاستهلاك! فالناس اليوم يشترون كل شيء، لكن مما لا يحتاجون في لباس أو غذاء! فإن كان، فهو مما يزيد عن الحاجة، مما تفرضه عليهم ثقافة « الموضة » الفتّاكة! وهو عين الارتماء في أحضان الشهوات! وإن أمة ما تزال أسيرة الاستهلاك التافه، هي أمة متخلفة، لا يُرجَى لها نصر ولا تقدم! لقد أهلك المسلمين اليوم التسابقُ الشَّرِهُ إلى التكاثر فيما لا نفع فيه، من زينة الأشكال والألوان، مما لا يليق إلا بالعقل الطفولي الساذج! إنه السَّفَهُ المالي إدارةً واستهلاكًا! وإن أمة لم تتخلَّص من هذا الداء الاجتماعي الوبيل لهي أمة عاجزة عن مواجهة عدوها، وتحرير إيمانها، وإخلاص جهادها! وأَنَّى لمن عبَد صنم الشهوة أن يكون عبدًا خالصًا للَّه؟ وأَنَّى له أن يُقْبِلَ على مواطن الجهاد والاستشهاد؟

إن الدعوة الإسلامية المعاصرة يجب أن تضع في برنامج أولوياتها العمل على تخليص المسلمين من عبادة الشهوات، وتحريرهم من أسر الاستهلاك المدمر! حتى يستطيعوا أن يعيشوا للَّه، وللَّه وحده! فالأمة المقتصدة العابدة هي وحدها أمة الشهادة على الناس، ومن أمثال هؤلاء فقط يتخرج جيل المجاهدين في سبيل اللَّه!

الرسالة الرابعة: في أن من أخطر الفتن المعترضة للمؤمن فتنتين اثنتين: فتنة النساء وفتنة المال! فَمَنْ تخلّص منهما فقد نجا من خطر كبير، وقويت حظوظه في الوصول! عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﭭ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِن النِّسَاءِ!** »[1] وعن عمرو بن عَوْفٍ الأنصاري ﭬ أن النبي ﷺ قال: « **وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ! وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُم الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا؛ وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ!** »[2].

ومن هنا كانت مواجهة الانحلال الخلقي في الشباب من أهم القضايا الدعوية المستعجلة! كما أن ظاهرة العُرْي والتبرُّج المستشرية في صفوف النساء، والتي لا تزداد إلا اتساعًا في كثير من البلاد العربية والإسلامية، تعتبر من أخطر المدمرات للحياة الإيمانية النظيفة في المجتمع! بل من أخطر المهددات لتماسك النسيج الاجتماعي الإسلامي! إنها مثل النار الملتهبة إذ تنقض على بيوت القصب والخشب، أو منازل الوَبَرِ

(١، ٢) متفق عليه.

والشَّعر! وليس عبثًا أن نصَّ اللَّه تعالى على وجوب التزام المرأة المؤمنة للباس الساتر الوافر، في محكم القرآن الكريم، وجعله حُكْمًا قرآنيًا يُنقل نقلًا قطعيًا متواترًا، ويُتعبَّد بتلاوته في الصلوات والأذكار! ولم يتركه لمجرد البيان النبوي، بل تولَّى تشريعَه ﷻ بنفسه! وما ذلك كله إلا لبيان خطر هذا الأمر وأهميته الكبرى في الدين!

وإن الأمر المؤلم حقًّا أن ترى صفوفًا من النساء، ممن جعلن أنفسهن قيِّمات على الشأن الدعوي والديني، بدل أن يتجرَّدن لحرب الانحلال، ويتفرَّغن للدعوة إلى الحشمة والوقار، ينجرفن هن أنفسهن مع تيار الفتنة، فيطْلَعْن على العالم في الفضائيات، وغيرها من المجامع والمحافل، مُتَقَيِّنَاتٍ بألبسة حريرية براقة، ملطخات بالدهون والأصباغ، كأنهن عرائس أو عارضات أزياء! لا حشمة ولا وقار ولا حياء! فشاع تقليدهن-بين كثير من المسلمات في كل أنحاء العالم، على أساس أن ذلك هو لباس الإسلام! ليحملن أوزارهن وأوزار من قلدنهن، لا ينقصن من أوزارهن شيئًا! ولو فَقَهْن دين اللَّه حقًّا - هُنَّ ومن « يفتيهن » بذلك السفه - لتجردن لنصرة العفاف والحياء، والدعوة إلى الحشمة والورع! ولَقَدَّمْنَ مثالًا كريمًا للباس الشرعي الوافي والحياء الضافي! فما أحوج الأمة اليوم إلى معرفة مركزية الأخلاق في الإسلام، وخاصة خلق الحياء! ومشاهدة دور ذلك في حفظ الدين، وعصمة المسلمين من الغرق في مستنقعات الأهواء والشهوات! فعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **إنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلامِ الحَيَاءُ!** »[1] وإن هذا الحديث الشريف لمن أبلغ الأحاديث النبوية، الدالة على مفتاح الأخلاق في الإسلام. ذلك، وإنما الهُدى من اللَّه، من شاء هدى ومن شاء أزاغ!

الرسالة الخامسة: في أن من نجح في السيطرة على نفسه، وإخضاع شهواتها لأحكام شرع اللَّه، فسخَّر مُتع الحياة الدنيا، من النساء والبنين والأموال بشتى صورها، وجعلها لخدمة الدين، كان إن شاء اللَّه من السابقين! وقد قال فقراءُ

---

(١) رواه ابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير والأوسط. وهو يروى عن ابن عباس وعن أنس. كلاهما يرفعه إلى النبي ﷺ . وقد حسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، والسلسلة الصحيحة، وصحيح ابن ماجه.

الصحابةِ مِنْ قَبْلُ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ! يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ! فقال ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ! » [(١)] و« أَهْلُ الدُّثُورِ » كناية عن الأغنياء. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ! » [(٢)] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: المرأةُ الصالحةُ، والْمَسْكَنُ الواسِعُ، والجارُ الصالحُ، والْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ! وأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاءِ: الجارُ السوءُ، والمرأةُ السوءُ، والْمَرْكَبُ السوءُ، والْمَسْكَنُ الضَّيِّقُ! » [(٣)] وعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ! فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُم الأُمَمَ! » [(٤)] وعن عمرو ابن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: « يَا عَمْرُو! نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ! » [(٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قالَ: « الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ. فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً، وَفَخْرًا، وَنِوَاءً عَلَى أَهْلِ الإِسْلامِ؛ فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ. وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا، وَلَا رِقَابِهَا؛ فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ. وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِأَهْلِ الإِسْلامِ، فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ؛

---

(١) هذا مختصر حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. ورواه مسلم عن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه أيضًا. ونص حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ! فَقَالَ: « وَمَا ذَاكَ؟ » قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلا نُعْتِقُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ »، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ مَرَّةً . قَالَ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ! ») متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد بإسناد صحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه، واللفظ له، كما رواه الطيالسي، والطبراني، والبزار، والحاكم وصححه. ثم صححه الألباني في صحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة.

(٤) رواه أبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. ثم صححه الألباني في صحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة، وآداب الزفاف.

(٥) رواه أحمد، وابن حبان، وأبو يعلى، والبيهقي في الشعب، والحاكم وقال: « صحيح على شرط مسلم ». ووافقه الذهبي، ثم أقرهما الألباني، كما بينه في السلسلة الضعيفة (٥/٦١). كما صححه أيضا في المشكاة.

إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٍ! وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٍ! وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ (١)؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ، وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ! » (٢).

ولذلك قلنا في البيان العام: إن معنى « التزيين » المذكور في الآية من قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ... ⦗١٤⦘ ﴾ .. الآية. هو بمعنى الابتلاء. وإنما الاختيار الإنساني في منهج التعامل مع الشهوات هو الذي يحدد مسارها إلى الخير أو الشر.

الرسالة السادسة: في أن الاستغفار شِعَارُ الأبرار، وعلامةُ الأخيار..! والاستغفارُ بما هو توبة إلى اللَّه ﷻ ؛ فقد كان أول منازل السائرين إليه تعالى وكان هو خاتمتها. منه البدء وإليه المنتهى! فكذلك شرح العالم الرَّبَّاني الإمام ابن القيم رحمه الله منزلةَ التوبة في مدارج السالكين (٣). وهو المستنبَطُ من أدعية الربانيين الواردة في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ . ومنها ما تدارسناه ههنا من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ⦗١٦⦘ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ⦗١٧⦘ ﴾ فقد بدؤوا - كما ترى - بالاستغفار وانتهوا إلى الاستغفار. ولا شيء منه يتكرَّر من حيث المقام والحال. فلكل منزل منه مذاقه الخاصّ وطعمه الخاصّ. والحكمة من ذلك بيان أن المؤمن السائر إلى اللَّه، كلما ازداد معرفةً باللَّه وبمقامه المجيد، ازداد تعظيمُه لِقَدْرِهِ ولشأنه العظيم! ثم ازداد احتقاره لنفسه ولعمله! فإذا نظر إلى ذنوبه فَزِعَ؛ بما عَلِمَ من جبروت اللَّه! وإذا نظر إلى حسناته خَجِلَ؛ بما علم من رَحَمُوتِ اللَّه! فلا يبقى أمامه إلا أن يفر إلى التوبة والاستغفار! والتعبير عن مشاعر الحاجة إلى رحمة اللَّه وشدة الافتقار!.. من أول الطريق إلى آخر الطريق! وليس

---

(١) قوله: (وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ)؛ فالطِّوَلُ: هو الحبل. وقوله: اسْتَنَّتْ: أي جَرَتْ وعَدَتْ. والشَّرَفُ: الأرض العالية، كالتَّلِّ والرَّبْوَةِ. والمقصود من العبارة: أن الخيل المربوطة في سبيل اللَّه، يجري أجرها لصاحبها على كل حال، فيما أكلت وشربت، أو راثت وبالت! حتى ولو قطعت حبالها ووثاقها، وعدت فوق الروابي فكل ذلك بأجره! لما لصدقة الجهاد من مقام عظيم عند اللَّه.

(٢) متفق عليه.

(٣) مدارج السالكين (١/١٦٩). وكذا: (١/١٧٨).

بعيدًا عن هذا وصيةُ رسول اللّه ﷺ أصحابَه الكرام، بتجديد التوبة وكثرة الاستغفار، آنَاءَ الليل وأطرافَ النهار.. من ذلك ما رواه عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى اللَّهِ! فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ!** »[1] و عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: « **واللّهِ إني لأستغفر اللّهَ وأتوب إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرة!** »[2] ونحو هذا وذاك في الكتاب والسنة كثير.

الرسالة السابعة: في أن مقام « التقوى » على العموم درجاتٌ ومنازلُ شتى..! فمن « المتقين » من هم أهل النجاة، ومن « المتقين » من هم أهل الدرجات! والدرجات نفسها منازل ومقامات! والمتقون المذكورون في هذا السياق – من سورة آل عمران – هم أهل « تقوى الشهود »! وهي من الدرجات. والشهود: هو بمعنى الحضور والمشاهدة. ذلك أنهم تخلقوا بتقواهم؛ بسبب ما شاهدوا بقلوبهم من حقائق الإيمان، وما شَهِدُوا من تجلياته وأنواره! مما نالوا من العلم باللّه وبمقامه العظيم، ومن العلم بالآخرة وبمسلكها الرهيب! فكانت تقواهم على قدر علمهم باللّه وبأحوال الآخرة، والمتَّقون في هذا مراتب شتى أيضًا؛ ولذلك غلب عليهم الخوف والاستغفار كما تدارسناه في الآية، ولا بأس من إعادة قراءتها، قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧ ﴾.

وقد تدارسنا من قَبْلُ – في مطلع سورة البقرة – مرتبةَ النجاة، وهي « تقوى الفلاح »، وهي أول منازل التقوى. قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١ – ٥].

كما تدارسنا من قَبْلُ « تقوى البررة »، أو « تقوى أهل البِّر »، وهي رتبة أعلى؛

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

إذ هي من « تقوى الدرجات »؛ لِمَا فيها من مزيد المجاهدة والمكابدة، ولما فيها من كمال الصدق مع الله! وهي قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال بَعْدُ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ١٨٩] بمعنى التزم بمسلك التقوى على مقام ما ذكره من خصال البر في الآية التي قبلها هنا.

ومن تقوى الدرجات أيضًا « تقوى المحسنين »، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩]. وهذه المرتبة أعلى مما نحن فيه من مرتبة « تقوى الشهود » في سورة آل عمران، رغم تشابههما في الأعمال ظاهرًا؛ لأن « تقوى المحسنين » ارتقاء بالشهود إلى أعلى مراتبه! ومِن ثَمَّ فخوفهم أعظم! ولذلك فقد حَرَمَهُمُ النومَ إلا قليلًا! ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧] وهم يشتركون في ورد الاستغفار تهجدًا - وفي غيره من الأوراد - مع أهل الشهود. لكنهم يفوقونهم فيه كَمًّا و كَيْفًا. ومِن ثَمَّ فلا مقام من مقامات الإيمان إلا والناس فيه مراتب ومنازل. ذلك، وما التوفيق إلا بالله.

٤- مسلك التخلق:

وهو ههنا في محاولة التخلُّق بمقام « تقوى الشهود »، وبيان كيفية التدرُّج بمنازله، وتَلَقِّي أَحْوَالِهِ ومواهِبه. وإنما لنا أن نتكلَّم عن خصوص هذا المسلك؛ بما دلَّ عليه القرآن من مَعَالِمَ، وبما أرشد إليه من خطوات، على ما اقتضاه السياق القرآني مما تدارسناه بمجلسنا هذا، من قوله تعالى في وصف هذا الصنف من « المتقين »: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ فنقول مستعينين بالله:

إن التخلُّق بهذا المقام الرَّبَّاني الرفيع، يقتضي من المؤمن الصادق التشمير عن ساق

الجدِّ، والسير الكؤود في مسلك مجاهدة النفس، وحملها على السعي من أجل التحقق بالمنازل السبع التالية، وهي:

أولًا: السعي إلى مشاهدة حقائق الإيمان وتجلياته. وخاصَّة منها رُكْنَي الإيمان باللَّه واليوم الآخر. وذلك بطلب المعرفة باللَّه أولًا، والتدرُّج في مسلك العلم به ﷻ. ويكون ذلك بمداومة المطالعة لشؤون الربوبية في كتاب اللَّه، وتجليات القدرة الإلهية في تدبير شؤون الخلق، وتصرفات الإرادة الربانية في العالَم. ومدخل ذلك كله هو الوقوف المَلِيّ عند الآيات القرآنية الْمُعَرِّفَةِ باللَّه، حيث تتوارد أسماء اللَّه الحسنى وصفاتُه العُلَى، وحيث تتجلى أفعاله ﷻ في تدبير شؤون العالمين. ومَوَارِدُ ذلك في القرآن العظيم كثير..

ومن نظر - بعد ذلك - من خلال هذا المنظار، إلى مجاري أحداث العالم البشري صغيرها وكبيرها؛ شاهد بعين اليقين أنها جميعها مربوطة بخيوط نورانية لطيفة إلى أسماء اللَّه الحسنى! بل شاهد أنه ما من حركة أو سكنة، إلا وهي انعكاس لإرادة إلهية، وتدبير رَبَّانِي حكيم! وأن الناس في غمرة فتنتهم وتعلقهم بالأسباب عن ذلك عَمُونَ، محجوبون بغفلتهم عن مشاهدة تدبير اللَّه لكلِّ شيء! من أدنى تصرفات الإنسان وسعيه في معاشه اليومي إلى أكبر تحركات الدول والشعوب، وتدافعها السياسي، والعسكري، والتجاري، والاقتصادي، والثقافي، وقرارات الحرب والسلم، والمواصلة والمقاطعة، والمكر والخديعة... إلخ. كل ذلك جميعًا مُدَبَّرٌ من وراء حُجُبِ الغيب بحكمة اللَّه البالغة! والعلماء باللَّه يرون ذلك بما يتجلى على قلوبهم من أنور العلم باللَّه! فيشاهدون تصرفات الربوبية، وتجلِّيات أسماء اللَّه الحسنى على كل شيء! فمن عرف اللَّه على هذا المقام فقد عرفه حقًّا. وإنه لا يملك بعد ذلك إلا أن يقع قلبُه أسيرَ الرَّهَبِ والخوف من جلال اللَّه العظيم! وإذن يكون من المتقين لربِّه على ذلك الوِزَانِ! فتلك غاية الإيمان باللَّه على مقام الشهود، وتلك طريقه.

ويرتكز الإيمان المطلوب لمقام «تقوى الشهود» على قسم إيماني آخر، هو الإيمان الشهودي بالدار الآخرة. وإنما يتحقَّق ذلك للعبد بدوام التفكُّرِ في أحوال الموتى، وحقائق البرزخ، والبعث، والنشور، والحساب، والجزاء، وبالتفكُّرِ في تفاصيل هذا

وذاك، مما ثبت بالقرآن أو صحّت به الأحاديث النبوية الشريفة. وهذا عِلْمٌ جليل له أثره البالغ - لمن أخلص طَلَبَهُ - في رفع مستوى الإيمان باليوم الآخر إلى منزلة الشهود القلبي، والمعاينة الروحية الصافية!

وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على ترقية أصحابه إلى هذا المقام، كما هو ثابت في كثير من الأحاديث الصحيحة، منها ما أخرجه مسلمٌ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ ﷺ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: « لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ! قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ؛ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ! فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ؛ فَنَسِينَا كَثِيرًا! قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا! قَالَ حَنْظَلَةُ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « وَمَا ذَاكَ؟ » قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ! فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ، فنَسِينَا كَثِيرًا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ؛ لَصَافَحَتْكُم الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ! وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً!** » [قَالَهَا] ثَلاثَ مَرَّاتٍ! »[1].

ولا يعكر على مقصودنا شَكْوَى حَنْظَلَةَ ﷺ غيابَ شهودِه الروحي لأحوال الآخرة؛ بسبب مغادرة مجلس رسول الله ﷺ، ومخالطة الدنيا؛ لأن ما فَقَدَهُ حنظلةُ وأَبُو بَكْرٍ وغيرُهما - رضوان الله عليهم - إنما هو شهود حَالٍ لا شهود مَقَام! فالحال شعور إيماني عابر، يتوهَّج حينًا ويخمد حينًا آخر، بينما المقام وَصْفٌ إيماني ثابت، لا يفارق العبد على كل حال! ولذلك سُمِّيَ « مَقَامًا » و« مَنْزِلًا ». كمقام الصِّدِّيقِيَّةِ في أبي بكر الصديق ﷺ، فهذا وَصْفٌ لم يزل ملازمًا له حتى قُبِضَ ﷺ. وإنما « الحال »: هو ما ينزل على القلب من الشعور الطارئ؛ بسبب موعظة، أو ذكرى، أو نحوهما؛ فيكون له صدى من الحزن والبكاء، أو الاستبشار والسرور، أو غيرهما من المشاعر والمواجيد. فهذه بطبيعتها تجيء وتمضي، حسب الظروف

---

(١) رواه مسلم.

الروحية الطارئة. وهو المراد بقوله ﷺ في حديث حنظلة: « سَاعَةً وسَاعَةً! ».

والمقصود أن المؤمن يحقِّق بترقيه في علم الآخرة مقامًا ثابتًا، يزجره في طريقه إلى الله ويحدوه أبدًا. صحيح أن أحواله المتعلقة به تزدهر وتخبو - وذلك من معنى كون الإيمان يزيد وينقص - ولكن تحقُّقه الشهودي به ثابت ما ثَبَّته الله على مقامه! وهو الأمر الذي دعا حنظلةَ ﷺ إلى قول ما قال! فلو لم يكن له مقامٌ إيماني ثابتٌ لَمَا أَسِفَ على فقدان حاله الطارئ. ذلك أنه نظر إلى سروره بأطفاله وزوجته، واشتغاله بفلاحته، ونسيانه لأحزانه وخواطره القائمة بشهوده الأخروي؛ ففزع لذلك واستيقظ على زاجر الموت! وعلى واعظ إيمانه الشهودي بالآخرة! مما يدل على يقظة التقوى بوجدانه، وثبات شهودها بقلبه! وهو المطلوب من هذا التحرير.

بيان: ولا بد ههنا من بيان أن الإيمان يزيد وينقص، على مستوى المنازل والمقامات أيضًا، فقد يترقَّى العبد إلى مقام أعلى، وقد يزل إلى ما دونه والعياذ بالله، حسب الاجتهاد في العبادة والعمل، أو الفتور والتَّرَاخِي والكسل. ولكن حركة تغير « المقامات » لا تكون بسرعة تغير « الأحوال » ولا بصورتها؛ لأن « الأحوال » مشاعر، و« المقامات » صفات. وتغير « الحال » يكون بزوال أصله مطلقًا، كتغير البكاء إلى ضحك، والحزن إلى سرور. بينما تبدُّل المقام إنما يكون إلى مثله مما هو من جنسه، إلى أعلى أو إلى أدنى، كانتقال العبد من مقام الزهد إلى مقام التوكل، أو مقام اليقين، أو المحبة، أو غيرها مما هو من جنسها. اللَّهم إلا أن ينقلب على وجهه - والعياذ بالله - فيصير إلى نفاق كامل، أو إلى كفر صريح! فيخرج من مدارج المنازل والمقامات بالمرة! والقلوبُ كما سبق في الحديث: « بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ! »[1] ثبتنا الله وإيَّاكم على مَحَجَّة دينه، وزادنا من فضله وإحسانه!

ثانيا: الخوف من النار، ودوام التوبة والاستغفار، وهذا المسلك فرع عن الأول ونتيجة له. وذلك أن من تحقق بشهود الآخرة إيمانًا، هَالَهُ مشهد جهنم وعذابها، وأفزعه مصير أهلها بدركاتها! نسأل الله السلامة والنجاة! ومن عرف الله ومقامه العظيم، وشاهد عِظَمَ حقوقه على عباده أجمعين، أدرك يقينا أن: « مَنْ نُوقِشَ

---

(١) سبق تخريجه.

الْحِسَابَ عُذِّبَ! »[١] كما في الحديث الصحيح. فَعَمَرَ الخوفُ قلبَه! وفزع إلى التوبة المتجددة ودوام الاستغفار.. وجعل لنفسه من ذلك أورادًا يتلوها آناء الليل وأطراف النهار. وبذلك يدرك ما نصبو إليه من معنى التقوى، فيشهد جلالَها وجمالَها! وتكون له مقامًا ثابتًا، ومنزلًا كَاشِفًا!

ثالثا: الصبر، وهو النجاحُ في تجاوز ما يُلْقَى على القلب من ابتلاء وامتحان، وتلقي مَكَارِهِهِ برضا كامل، وتسليم جميل. والمقصودُ هنا: الثبات في مكابدة مشقات التقوى، وتجرُّع مَكَارِهِهَا بقوة! خاصَّةً فيما يتعلَّق بفتن الزمان وأهله! مما يلقيه العصر في طريق السالك من الموانع والمثبِّطات! وما يرمي به القلوبَ من الشبهات والشهوات! فمن صبر على التزام طريق مجاهداته، وعدم النزول إلى مستنقعات الأهواء، متحصنًا بحصنه ومعراجه، معتصمًا بحبل ربِّه، عَاضًّا بنواجذه على عبادته وأوراده، حاضرًا رغم قسوة الظروف في مواعيد مولاه؛ رَجَا - إن شاء اللَّه - أن ينال جائزة ربِّه؛ بتمكينه إيَّاه من شهود تجليات أسمائه وصفاته، وأنوار جلاله وجماله، فترسَّخ قَدَمُهُ بمقام تقوى الشهود، فلا يزال يسير إلى اللَّه بذلك رَغَبًا ورَهَبًا، لا تضره فتنة ولا تُزِلُّهُ شهوة. ذلك واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

رابعًا: الصدق، وهو توقيع القول على وِزَانِ العمل، وتوقيع العمل على وِزَانِ القول! والوفاء بعهد اللَّه على كل حال! وإخلاص السير إليه تعالى خطوةً خطوةً! ومعنى ذلك كله أن يلتزم العبدُ بمقتضى شهادته « أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه »، فيوفِّيها حقَّها؛ بِصِدْقِ اللَّهِ ورسولِه ﷺ فيما شهد لهما به على نفسه! توحيدًا للَّه وتفريدًا، وأداءً لحقوق ربوبيته وألوهيته، وفناءً كليًّا في خدمة دينه وسنة رسوله ﷺ ؛ حتى يَلْقَى اللَّه على ذلك اليقين!

خامسًا: القُنُوتُ، ومعناه - كما بيناه قَبْلُ - كمالُ الطاعة، وإِخْبَاتُ العبادة، وسكون الجوارح بين يدي رب العالمين، وطول السفر في معراج الساجدين! والمقصود ههنا: إفراد الوجهة للَّه، وتوحيد القصد نحوه جل علاه، وعدم الالتفات إلى ما سواه! فالعبدُ القَانِتُ: هو العبد الساكن في مقام مشاهدة جلال اللَّه وجماله!

---

(١) متفق عليه.

الذي شغله حُبُّهُ للَّه، وشوقُه إلى مولاه، وفناؤه في عبادته، عن كل شيء سواه! ومجاهدة النفس على التخلُّق بهذا المقام الرفيع تحصل للعبد بأمرين: الإخلاص في القصد، والتدرُّج في السير. وإنه لسهل على من سهَّله اللَّه عليه! وما جعل اللَّه على العباد في الدين من حرج. وإنما مَدْخَلُهُ: أن العبد إذا صلَّى لربِّه، فقام، أو ركع، أو سجد، سَكَنَ له بكلِّ جوارحه سكونًا عميقًا، وجَمَعَ قَلْبَهُ عليه تعالى وحده دون سواه، وجاهد وَسَاوِسَهُ على ذلك جهادًا كبيرًا! فإنه إن فعل وجد حلاوةَ ذلك يقينًا في قلبه، وشهودًا عظيمًا لأنوار ربه، ووقع بقلبه من معرفة مقام اللَّه ما لا قِبَلَ له به! وذاق حينئذ حقيقة معنى الخوف والرجاء، والرَّغَبِ والرَّهَبِ؛ وبذلك يتحقَّق من مقام تقوى الشهود بإذن اللَّه. وما الفتح إلا من اللَّه.

سادسًا: الإنفاق، ومعناه التحقُّق من توحيد المالكية! ولذلك كانت الصدقة بكلِّ أصنافها - الواجبة والمندوبة - برهانًا على كمال الإيمان! وشهادةً على مُشَاهَدَةِ صاحبها لكون المالِ مالَ اللَّه، وأنما البشر مستخلفون فيه! وأن المالك الحق إنما هو اللَّه رب العالمين! ولذلك كان الإنفاق في وجوه الخير مسلكًا تربويًّا رفيعًا، يسلك بالعبد إلى مشاهدة حقائق إيمانية أعلى، في شؤون الربوبية والمعرفة باللَّه، ثم يرتقي من تقوى النجاة إلى تقوى الدرجات، وينال من ذلك مقامًا شُهُودِيًّا، يملأ قلبه خوفًا حقيقيًّا من اللَّه! يُجْزَاهُ فُرْقَانًا مُبِينًا في الدنيا، ومنزلًا رفيعًا في الآخرة، إن شاء اللَّه!

سابعًا: الاستغفار بالأسحار، وهو رفع الدعاء به في صلوات السَّحَرِ، أي عند التهجُّد في ثلث الليل الآخِرِ. والمقصود: التفرد ليلًا بمناجاة اللَّه في خلوات الأسحار، والابتهال إليه بدموع التوبة والاستغفار، والتضرُّع إليه بعبودية التذلل والافتقار.. وهذا مقام أعلى من عموم وِرْدِ الاستغفار المذكور قَبْلُ. فههنا حضورٌ بموعد الْمَلِكِ الغفَّار! وشهودٌ لتجلِّي الواحد القهار! حيث: « **يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ!** »[1] فبَرَكَةُ هذا الوقتِ المشهود، تفتح على قَلْبِ العبدِ المستغفرِ رَبَّهُ، في سجودِه وركوعِه، وترتيلِه ومناجاته، بابَ المشاهدةِ لِكَرَمِ رَبِّه

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ .

وإحسانِه، وتكشف له عن أسرار وِصَالِهِ، وأنوارِ جماله وجلاله! فيقع بقلبه من حبِّ مولاه ما يَفْرَقُ أَشَدَّ الفَرَقِ من انقطاعه! ويخاف أعظمَ الخوف من فقدان أنواره، ويُشْفِقُ أكبر الإشفاق من حرمانه! فتكون تقواه لربِّه وتعظيمه لجلاله، على قَدْرِ شُهوده لأسراره، ومعرفته بِقَدْرِهِ ومَقَامِهِ!

تلك مسالك سبعة، أرشد إليها القرآنُ. من نجح في ابتلاءاتها، وفاز في مجاهداتها؛ تحقَّق بمقام « تقوى الشهود »، إن شاء اللَّه. وكان من الربانيين، العلماء باللَّه، المتحقِّقين بخشيته تعالى وتقواه.

ذلك ما يَسَّرَ اللَّهُ بيانَه ههنا من مسالك التخلُّق بالتقوى، على درجة الشهود القلبي، في طريق السير بمدارج « الربانية »، المنصوبة للمؤمنين الربانيين، بمعارج هذه السورة العظيمة: « آل عمران »، « الزهراء الثانية » في القرآن، أخت « الزهراء الأولى »: البقرة. جعلني اللَّه وإيَّاكم ممن عرف ربَّه تعالى، ووفَّقه للقيام بطاعته وعبادته، فَوَفَّاهُ حقَّه من العبادة والتعظيم! وغفر لنا ما أصابنا من العجز والتقصير، وما أثقل جناحَنا من الذنب الصغير والكبير!

ذلك، وإلى موعدنا بالمجلس الثالث من سورة الزهراء الثانية إن شاء اللَّه! سبحانك اللَّهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك!

* * *
* *
*

المجلس الثالث

في مقام التلقي لحجة اللّه البالغة في مجادلة أهل الكتاب
وأن الدين إنما يؤخذ بالعلم لا بالوهم
وأن الافتراء في دين اللّه والبغي فيه من أكبر المهلكات!

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

٢- البيان العام:

هاهنا ترتقي حُجَّةُ العلم باللّه إلى أعلى مراتبها!.. ويبلغ برهان التوحيد منتهاه، ويصل الإخلاص إلى كمال غايته، ومطلق حقيقته! ومع كمال العلم باللّه تتجلَّى الربانية في أرفع صورها، وأبهى مشاهدها! استمرارًا لما سلف من بيان حقائق التوحيد، ومنازل الربانية، منذ مطلع السورة حتى مقام شهادة اللّه بهذا المقطع الرباني الكريم!

فههنا يشهد اللَّه بنفسه على توحيد ذاته، إلهًا واحدًا، وربًّا واحدًا أحدًا لكلِّ العالمين!

وما تزال الآيات تتوارد على سياق الردِّ على أهل الكتاب، وتجادل أهل الضلال مطلقًا لإثبات وحدانية اللَّه ربِّ العالمين. وما تزال السورة تبني المقدمات لإبطال عقيدة النصارى، ودحض مقولات أهل الشرك والضلال جميعًا. حتى وصلت الحجة إلى أوج بيانها، وكمال حجيتها! قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

أما أول الكلام في مدارستنا هذه فيجب أن يكون عن شهادة اللَّه منفردة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لأن لها خصوصًا لا ينبغي لغيرها، ولها مقامًا لا يدانيه سواها. فشهادة اللَّه ﷻ قائمة على بيان حقيقة التوحيد: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ شهادةٌ تُؤَدَّى من على مقام الربوبية، ومن فوق عرش الألوهية! وتلك هي أم الحقائق وأرفع منازل العلم باللَّه!.. تتجلَّى للمؤمنين ههنا بشهادة اللَّه ذاته عليها! وإنه لأعلى مقام من مقامات العلم باللَّه! فمن ذا أعلم باللَّه من اللَّه؟ وأي شيء أعظم شهادةً من اللَّه؟ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٩] فاللَّه ﷻ شهد على وحدانيته ربًّا، وإلهًا واحدًا، بما خلق من الخلق وحده، وبما أحيا وحده، وبما أمات وحده، وبما رزق من الأرزاق وحده، وبما أنزل من الهدى وحده، وبما دبّر من شؤون العالمين وحده! وذلك عِلْمٌ لا يحيط به على كماله إلا اللَّه! فأما الملائكة فقد كانت شهادتُها أن تلقَّت ذلك بالإقرار، وإنما هي مخلوقاتٌ طَيِّعَةٌ للَّه الواحد القهار. وقد كانت شهادتها قائمة بما فطرها اللَّه عليه من التوحيد والإخلاص، وبما أذن لها سبحانه من مشاهدة ومعاينة. وأما أولو العلم باللَّه - وعلى رأسهم الرسل والأنبياء - فإنما كانت شهادتهم إيمانًا بما أنزل اللَّه من الهدى والتوحيد، ثم بما اكتسبوا من العلم والتفكُّر، فيما نصبه اللَّه لهم في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم، من دلائل التوحيد، ومدارج العلم باللَّه. فنتج عن ذلك كله أن الخالقَ ﷻ شَاهِدٌ، وأن المخلوق في الملأ الأعلى شَاهِدٌ، وأن المخلوق في الأرض شَاهِدٌ؛ بأن اللَّه واحد، لا إله إلا هو!

ولِشَهَادَةِ اللَّه على توحيده سِرٌّ عجيب! خاصَّة وأنه قد اجتمع في دليله الْمُدَّعِي والشاهد! فهو سبحانه صاحب الدعوى وهو ذاته الشاهد عليها، وهذا! ما قد

تستغرب له بعض العقول ابتداءً! فقد أخبر تعالى بوحدانيته وتوحيده، وتلك هي الدعوى - بلغة القضاء - ثم شهد على صِحَّتها بقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴾.. وهذا المعنى له تجلِّيات في القرآن كثيرةٌ جِدًّا! ففي غير ما موطن يَرُدُّ الله ﷻ على الكفار المنكرين لتوحيده، أو المنكرين لكتابه، أو الجاحدين لبعض صفاته، كبعث الموتى أو إرسال الرسل؛ فيخاطبهم بنفسه - سبحانه - من خلال قرآنه، مُضْرِبًا عن جحودهم لتوحيده، وإنكارهم لوحيه، ولبعثه لرسله، وقدرته على إحياء من في القبور؛ إمعانًا في نقض كفرهم، وبيان بطلانه، ودحض بهتانه! حيث يرد عليهم جحودهم وكفرهم بنفس ما يكفرون به ويجحدون، بأسلوب قرآني عجيب يملأ القلب رَهَبًا! وهو منطق لا يستقيم أبدًا في غير القرآن العظيم! حيث لا يمكنك أن تحتجَّ على المخالف بمقدمات غير مُسَلَّمَة عنده أصلًا، وكيف تجعل محلَّ النزاع ذاتَه دليلًا على الخصم؟ لكن القرآن له منطق آخر يتعالى على المنطق البشري ويعلو عليه؛ إذ يفحمه ويَحُجُّهُ، بل يَبْهَتُهُ ويَبْغَتُهُ ببرهان لا قِبَلَ لَهُ بِه! إذ يستخرج دليلَ الإثبات من أعماق فطرة الإنسان المنكِر نفسه! ويحتج على بطلان منطوق لسانه بمكنون ضميره! فَتَدَبَّرْ مثلًا قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨] وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقال ﷻ: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤] ومثله قوله تعالى عن اليهود: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

ففي كلِّ هذه الآيات - وأضرابها في القرآن كثير - يتوعَّد اللهُ ﷻ الكفَّار بما لا يؤمنون به أصلًا! بل بما يسخرون منه ويستهزئون! كما في الآية الأخيرة، حيث كانت يهود تُسيء القول لرسول الله ﷺ، مُشَكِّكَة في نبوته، فتقول: لو كان محمد نبيًّا لنزل علينا عذابٌ من الله بما نسخر منه ونُعَرِّضُ! فكان الجواب كما رأيت، وعيدًا بجهنم قرآنًا يُتْلَى على لسان محمد ﷺ، وهم له منكرون! وبذلك توعَّد الكفَّارَ والمنافقين جميعًا، وهم لا يؤمنون بالبعث والنشور أصلًا! كأولئك الذين يستعجلون

بالعذاب على سبيل الجحود والتحدِّي! فكان الردُّ عليهم - كما رأيت - قولَه تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩] وكان الأولى في المنطق البشري الضعيف أن يُثبت صحَّة البعث للجاحدين أولًا، ثم يثبت نبوة محمد ﷺ لأهل الكتاب. لكنه أضرب عن ذلك كله، وتوعَّدهم جميعًا بعذاب جهنم! رغم أنه ليس في الأصل إلا نتيجة لصِحَّة الاستدلال على وجود اليوم الآخر ونبوة الرسول ﷺ!

والسبب في ذلك كله - وهو سر من أسرار قوة الخطاب القرآني، وتميز حجته عن حجة البشر - أن اللَّه ﷻ لا يعترف لكافرٍ - أيًا كان - بإنكار حقائق التوحيد، والنبوة، والبعث والنشور، وسائر أصول الإيمان! ولا يعطي فرصة لجاحد أن يطمئن إلى جحوده، وكأنه تعالى يقول للكافر الذي ينكر وجود الحق تعالى، أو وجود بعض صفاته: « انظر واسمع! ها أنا ذا أتكلَّم معك! » ويقول للذي ينكر وجود الآخرة: « ويلك! انظر! ها هي ذي أمامك، » فإن لم تسمع ولم ترَ؛ فإنما أنت أعمى! ولعلك تؤمن عندما يُلْهِبُ سوطُ جهنم جلدَك! ويغمر عذابُ النار جسدك.. وعلى هذا يجري قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨] ومَثَلُ هذا الأسلوب المتين البليغ - ولله الْمَثَلُ الأعلى - كَمَثَلِ الجواب المباغت، لمن ينكر على شخص وجود الأسد في غابة، هما يسافران فيها، وبينما الرجل منهمك في نفيه وإنكاره؛ أَشْرَفَ عليه أَسَدٌ من جهته! قبل أن ينطق الرجل الْمُثْبِتُ بحجته! فكان في إشراف الأسد بذاته أبلغُ حجة وأقوى برهان! وهو أيضا - من حيث المفاجأة - أسلوبٌ يشبه نطق المسيح ﷺ في المهد، واحتجاجه بنفسه - بدلًا من والدته - على منكري حقيقته ونبوته!

فكذلك اللَّه ﷻ - له المثل الأعلى - يباغت الإنسان الكافر، الجاحد لوحدانيته، والمنكر لرسالته؛ ويفاجئه بقوة خطابه، ورهيب وعيده، وتهديده بنفس ما هو يجحده ويكفر به! فالكافر عندما يجْحَدُ النارَ ويكْفُر بها يجيبه الربُّ تعالى: « ويلك إنها ستحرقك! » وإنما هذا يدل على العمق الغيبي القوي للقرآن الكريم؛ لأنه يخاطب الإنسان ابتداءً - المؤمنَ والكافرَ على السواء - بما انطوت عليه فطرته العميقة - من حيث يشعر أو لا يشعر - من الإقرار بالتوحيد والإيمان! وباعتبار أن الكافر مجرد معاند، جاحد للحقيقة؛ ولذلك سمَّاه القرآن « كَافِرًا »؛ إذ الكفر في اللغة هو بمعنى

التغطية للشيء والحجب له؛ ولذلك سُمِّي الفلاح (كافرًا)؛ لأنه يَكْفُرُ الْحَبَّ في الأرض، ويُغَيِّبُ البُذُورَ في التربة، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد: ٢٠] فالكفار ههنا: هم الزُّرَّاعُ. وعليه؛ فلا حُجَّة لمعاند، ولا برهان لجاحد!

فباعتبار ذلك كله خاطب اللَّهُ الإنسان بحقائق التوحيد والإيمان، مُحتجًّا عليه بشهادته هو ذاته تعالى عليها! يستوي في ذلك المؤمن باللَّه، والكافر الجاحد لوجوده أو لوحدانيته! ومِن ثَمَّ فإن أعظم حقيقة خطابية في القرآن المجيد، هي أن القارئَ أو السامع يجد أن اللَّه – ذا الجلال – هو الذي يتكلَّم! فلا يزال مُتحيِّرًا من أمره مترددًا: أهو هو؟ لكنه – إذا صفت مِرْآتُهُ من الأهواء – لا يلبث إلا قليلًا حتى يغرق في أنوار اللَّه! وربما لو سألته: كيف؟ لقال لك: « لا أدري!.. لقد وقع بقلبي يقين بأن اللَّه الواحد هو الذي يتكلم! » وفي قصص من أسلم قديمًا وحديثًا من مثل هذا كثير.. وعليه يتخرَّج قول اللَّه تعالى فيما نتدارسه الساعةَ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿١٨﴾ ﴾ فدعواه تعالى ليست كأي دعوى، ولا شهادته كأي شهادة! إنها خطاب الفطرة القوي، الذي يكسر أقفال القلوب! ويحطِّم صخور كبريائها وجحودها! وذلك سر علو القرآن على كل خطاب بشري! فمن آمن فقد آمن، ومن كفر فكفى بذلك حجة عليه يوم القيامة! ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد قرَّر اللَّه ﷻ في شهادته، وفيما تبعها من شهادة الملائكة وأولي العلم، أنه اللَّه الواحد الذي لا إله إلا هو: ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾! أي: أن ربوبيته تعالى للعالمين قائمة على تدبير شؤون الخلق بالقسط، وهو: العدل. ذلك أنه سبحانه جعل العدل أساس بناء النظام الكوني كله! فالعدلُ صفة اللَّه تعالى القائمة بذاته أبدًا؛ ولذلك كان القيام بالقسط حَالًا من فعله سبحانه في كل شؤون ربوبيته للعالمين، حالًا ثابتة مستقرة، لا تتبدَّل ولا تتغيَّر. وعلى هذا الأساس أرسل الرسل وشرع الشرائع، وخلق الجنة والنار. وأما قوله بعدُ: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ للمرة الثانية في نفس الآية – فهو علاوة على ما فيه من معنى التوكيد – قد ورد بمعنى النتيجة للأولى؛ لأن الأولى هي بمثابة الدعوى والشهادة عليها، والثانية هي بمثابة الحكم الناتج عنها؛ حيث نتج عن شهادة اللَّه والملائكة وأولي العلم: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿١٨﴾ ﴾، الْحُكْمُ بأنه تعالى

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾! وما ذلك إلا لترسيخ اليقين في القلوب، بالتوحيد الكامل والإخلاص التام للّه الواحد القهار!

ثم ختم تعالى الآية بوصف نفسه أنه: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ بمعنى أنه ﷻ إذ تفرَّد بربوبيته وألوهيته، فإنه قد عَزَّ في مُلْكِهِ! والعِزَّةُ: قوةٌ ومَنَعَةٌ وسيطرةٌ وهيبةٌ. ثم إنه سبحانه « حَكِيمٌ » في كُلِّ فِعْلِهِ وخَلْقِهِ، وتدبير جميع شؤونه. لا يتصرَّف بشيء من خلقه وأمره إلا لحكمة بالغة. والفعل الحكيم: هو الفعل المناسب لغايته، المطابق لمصلحته ومنفعته، مُوَقَّتًا على ميزانه، وتمام موعده، في زمانه ومكانه. ولا يبلغ الفعل غاية كماله إلا إذا اجتمعت فيه العزةُ والحكمةُ معًا. فالعزة بغير حكمة قد تؤول إلى تدمير وتخريب، والحكمة بغير عزة قد تعجز عن الوصول إلى غايتها. أما إذا اقترنت الحكمة بعزتها فإنها تكون لها قوةً وسلطانًا، وضمانًا للتحقُّق في زمانها ومكانها على تمام موازينها؛ فَتَتَحَقَّقُ آنئذ فائدتُها التي هي عينُ الحكمة! ولذلك جعل اللّه الدين رحمةً للعالمين وتلك حكمته، وجعله سيفًا على الظالمين وتلك عزته! ولا قيام له إلا باجتماع هذين!

ثم كان من نتيجة تلك المقدمات التوحيدية جميعها أن قرَّر سبحانه أن الدين عنده هو الإسلام! الإسلام هو دين التوحيد الحق، دين الصدق والإخلاص، الدين الذي شهد اللّهُ وملائكته وأولو العلم أنه هو دين اللّه. الدين الذي جاءت به الرسل جميعًا من عهد آدم إلى نوح، ثم من عهد إبراهيم إلى محمد، مرورًا بموسى وعيسى، وسائر الأنبياء المجدِّدين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. ما من نبي أو رسول إلا جاء في أصوله بدين الإسلام. ولكن الناس اختلفوا بعدهم بأهوائهم، فبدَّلوا وغيَّروا؛ بَغْيًا بينهم وكفرًا باللّه، وتمرُّدًا عليه ﷻ ! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ فأغلب المختلفين على أنبيائهم، المحرفين لدين ربِّهم، هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.. وقد حملهم التباغض بين فِرَقِهِمْ وطوائفِهِم - كما نصَّ عليه القرآن، وكما هو معروف في تاريخ الأديان - على القول على اللّه بغير علم! وعلى اختلاق العقائد الباطلة، والافتراء على اللّه ربِّ العالمين، والافْتِيَئَاتِ عليه! رغبةً من بعضهم في الاستعلاء على بعض! وهو « البَغْيُ »

المذكور في الآية مفعولًا لأجله، على سبيل التعليل. ودخلت جميع طوائفهم في تناحر عَقَدِيٍّ دَامٍ، كان ضحيته سلامة دينهم، وصحَّة كتبهم من التوراة والزبور والإنجيل! حيث ما أبقوا من ذلك على أصله إلا قليلًا مما لا ينير طريقًا، ولا يهدي سبيلًا! بل أصبح دين التوحيد الذي أُوتُوهُ شركًا باللَّه، ووثنيةً غليظة تجعل مع اللَّه الواحد الأحد آلهةً أخرى! وصارت الكتب التي جاءتهم بوحي اللَّه وكلامه، عبارةً عن كراسات لأهواء بني إسرائيل من اليهود والنصارى أجمعين، وممن اتبعهم على ضلالهم إلى يوم الدين!

وقد سمَّى اللَّه الدين ههنا في هذه الآية بـ (العلم)؛ لِمَا له من الطبيعة اليقينية في التعريف باللَّه وبحقوقه جل جلاله وعلاه، وقطعية مسلكه في بيان حقائقه وأصوله على الإجمال. ثم لكشف ما صار إليه أهل الكتاب من الجهل العظيم باللَّه وبدينه؛ إذ أصبحوا يدينون بما تمليه عليهم أهواؤهم من الجهالات والضلالات! ومن ثم ما بقي من طريق في الأرض للعلم باللَّه إلا الإسلام! وما بقي من باب إلى معرفة دين اللَّه إلا محمد عليه الصلاة والسلام! ولذلك قال في بداية الآية: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ... ﴿١٩﴾ ﴾ هكذا على سبيل الشمول والاستغراق لعبارة دين! كأنه قال: « إن الدين - كل الدين - إنما هو دين الإسلام! » وفي ذلك ما فيه من معنى الحصر الذي يبطل كل دين في الأرض سوى الإسلام! ويجعل كلَّ من لم يسلك سبيل النبيِّ محمد ﷺ في زمرة الكافرين، الرافضين منهج اللَّه، الجاحدين دين اللَّه، الذي لا دين على الحق سواه! ولذلك ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ و ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ههنا: دلائله التوحيدية، وبراهينه الإيمانية، الدالة على مسلك دين إبراهيم، وموسى، وعيسى، على لسان محمد عليهم الصلاة والسلام. فالنَّاظر في القرآن بصدق يدرك يقينًا أنه الدين الذي كانت عليه تلك الرسل جميعًا، وأن ما عليه أهل الكتاب اليوم إن هو إلا ظلمات بعضها فوق بعض! فمن جحد نور اللَّه فقد كفر باللَّه. وليرتقبْ! ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي: سَيُوَفِّيهِ حسابَه، ويَأخذه بكلِّ ما عَلِمَ من الحقِّ فكفر به، آيةً آيةً! وطريقُ الحياة الدنيا قصير! فأي كفرانٍ بعد ذلك وأي خسرانٍ؟ وهذا أيضًا ما ستصرِّح به الآيات

بقوة - كما سيأتي في هذه السورة نفسها، بعد تطور نوعي وكمي في مجادلة أهل الكتاب - من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥ ﴾.

وإنما الخطاب ههنا ما يزال في بداية بناء النتائج على المقدِّمات، يلامس قلوب أهل الكتاب بالبيان الرفيق والتقريب الرقيق! مع ترهيب ضمني يوقظ القلوب، ويسوقها إلى اللَّه بحداء النذير والتحذير! ومِن ثَمّ قال لرسوله محمد ﷺ : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠ ﴾ أي: فإن لم يكتفوا بشهادة اللَّه وهي ما هي! ولا بشهادة ملائكته الكرام البررة! ولا بشهادة أولي العلم باللَّه، سواء كانوا من المسلمين أصالةً، أو كانوا ممن أسلم من أحبار اليهود والنصارى وقساوستهم، وهم عبر التاريخ كثير! فإن لم يكتفوا بذلك جميعًا، وجعلوا - رغم تلك الشهادات كلها - يجادلون في اللَّه ويمارون! فما عليك يا محمد إلا أن تقول لهم: « أما أنا فقد أسلمتُ وجهي للَّه ربِّ العالمين! وخضعتُ له واستسلمت! آمنتُ بما جاءَني من اللَّه ﷻ من العلم والتوحيد، وأنه لا إله إلا هو، مخلصًا له الدين، وأن لا دين إلا هذا الدين: الإسلام، الذي هو دين جميع الأنبياء. ذلك ما أنا عليه ومن اتبعني من المؤمنين الصادقين، الذين تخلَّصوا من أهوائهم وعنادهم فأسلموا وجوههم للَّه ربِّ العالمين.

وفي التعبير بـ « إسلام الوجه » دلالة عميقة على كمال الخضوع وجمال الخشوع؛ لِمَا في الوجه من الرمز إلى عزة الإنسان وأنفته وكبريائه! فالمؤمن إذ يخضع به للَّه، ويتوجَّه به إلى مولاه راكعًا، وساجدًا، وقائمًا؛ يُعبر عن كمال العبودية لربِّه، وتمام الذلة والخضوع. كما أن فيه دلالة على إخلاص التوحيد؛ لما في معنى « الوجه » من تركيز التوجه والاستقبال، وإفراد المتوجَّه إليه بالنظر والاهتمام! حيث يجعل العبدُ نفسَه ناظرًا إلى جهة معينة دون سواها، مُفْرِدًا إيَّاها بتوحيد النظر والاهتمام، وتفريد الفكر والاشتغال. فصار « إسلام الوجه » بذلك دالًّا على كل معاني التوحيد والخضوع والاستسلام للَّه. كما في قوله تعالى حكايةً عن نبيه إبراهيم عليه السلام بعدما

نبذ عبادة النجوم: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٩]؛ ولذلك قال لمحمد ﷺ ههنا: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ... ﴿٢٠﴾ ﴾.

تلك هي الحجة الأخيرة في هذا السياق الخاص، حجة قائمة على مجرد التقرير والبلاغ! وفي ذلك من التهديد الخفي والوعيد الضمني ما فيه! إذ هو بلاغ قائم على مجرد إقامة الحجة، وإظهار البينة؛ لتبوء بعد ذلك كل نفس بما كسبت! ومن ثم كان تتمة الخطاب تبرُّؤًا من كل ضلال يحصل من بعد تمام البلاغ! وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ أي: هل أسلمتم كما أنا أسلمت؟ وكما أسلم أبونا إبراهيم من قبل؟ وكما أسلم موسى وعيسى، والنبيون جميعًا! ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾؟ سؤالٌ تقريري أُمِرَ رسولُ اللَّه ﷺ بتوجيهه - لختم الجدال - إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإلى « الأُمِّيِّينَ »، وهم: المشركون، الذين لم ينزل فيهم كتاب ولا نبوة؛ فَنُسِبُوا بذلك إلى الأمية. قل لهم جميعا: أَ أَسْلَمْتُمْ؟ سؤال واحد لا ثاني له! هل خضعتم للَّه ربكم الذي خلقكم، واستسلمتم له، من بعدما جاءكم البلاغ المبين، وقامت عليكم حجة القرآن الكريم؛ أم أنكم من المتمرِّدين الجاحدين؟

فههنا يُصَنِّفُ الإنسانُ نفسَه بنفسِه! إما أن يختار طريق الإسلام للَّه، والدخول تحت سلطانه طوعًا، وإما أن يختار طريق الجحود والكبرياء، والتمرُّد على مولاه! ولكلِّ اختيارٍ حسابٌ، ولكلِّ قرار تَبِعَاتٌ! ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أما من أسلم وجهَه للَّه واستسلم، فقد اهتدى في قراره، وأصاب في اختياره؛ فعسى أن يكون من الناجين إن شاء اللَّه. وأما من أعرض ورفض، فقد قامت عليه الحجَّة، ووصله البلاغ! وكفى بذلك مسؤولية عظمى في وجوب الخضوع للخالق العظيم، والدخول تحت رِبْقِ العبودية للَّه ربِّ العالمين! واللَّه تعالى بصير بمقاصد العباد، خبير بنيَّاتهم، وخفايا توجُّهاتهم، ودوافع قراراتهم واختياراتهم، ثم بما يسلكونه من هذا الطريق أو ذاك! فإنما البشر عباده، خَلْقٌ ممن خَلَقَ، وهو تعالى أعلم بخلقه، لا يخفى عليه شيء. والسياق محمَّلٌ بوعيد شديد! وإن لم يصرِّح به تصريحًا وسِيقَ مساقَ التعريض! ذلك أن قوله تعالى

لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ بما فيه من معنى حصر وظيفة الرسول ﷺ في بلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، أمانة البيان - دَالٌّ أيضًا على معنى تولِّي رب العزة ﷻ وظيفةَ الحساب والعقاب! والانتقام ممن أعرض عن الدين، وامتنع من الاستجابة لربِّ العالمين! فهو سبحانه قد أحصى على كل نفسٍ ما كسبت من خير أو شرٍّ، لا يفوته شيء، قدير على متابعة كل شيء! ولذلك ختم الآية بهذا الحكم الرهيب: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ وإنه لرهيب حقًّا لمن تدبره! إذ فيه من وصف شؤون الربوبية ما توجل منه القلوب، وتَفْرَقُ منه النفوس! ويا لَتَعْسَ من توعَّده اللَّه بمناقشة الحساب!

وهو وإن تَلَطَّفَ في مجادلة أهل الكتاب ابتداءً، وأنذرهم تعريضًا وتلميحًا، فقد خصَّ اليهود منهم بصريح التهديد، وشديد الوعيد! وإن لم يذكر لهم اسمًا، ولم يَنْعَتْ لهم نَسَبًا، وإنما اكتفى بذكر بعض جرائمهم التي اشتهروا بها! وكفى بذلك تسميةً وتخصيصًا!

وإنما خصَّ اليهود بالإشارة في هذه الآيات - رغم أن النصارى مقصودون أيضًا بما قصد به اليهود، من حيث النذارة والبلاغ - لأنهم أعلم الكفار بحقيقة التوحيد، الذي شهد اللَّه به هو وملائكته وأولو العلم. وهم أدرى به من النصارى الذين ضلُّوا في متاهات التثليث ودعوى الطبيعة الإلهية للمسيح ﵇! بينما غلب على يهود البقاء على أصل التوحيد على الإجمال. وإن ضلُّوا في تقريره من حيث بيان صفات اللَّه ﷻ ما بين نفي شنيع وتجسيم فظيع! وأما القول بأن « عُزَيْرَ » ابنُ اللَّه - سبحانه وتعالى عمَّا يصفون - فإنما هو قول طائفة منهم، كما قرره غير واحد من المفسرين، والدارسين لمذاهبهم وفِرَقِهِمْ. وإنما غَالِبُ كُفْرِهُمْ وجُحُودِهِمْ تَرَكَّزَ في جرائم التمرد على اللَّه، والتحدِّي الجهول لإرادته، والقول عليه بغير الحق! وفي جحود رسالة محمد ﷺ ، والكيد الخبيث لدينه! وهم - مع ذلك - أيقن الناس بصدق نبوته! كما تواترت به الأخبار عن أحبار يهود منذ زمان النبوة! وإنما غاية حُجَّتهم القول بأنه هو نبي للعرب خاصَّة، من دون بني إسرائيل! وهي حُجَّة عنصرية استكبارية شنيعة!

ولذلك لما كانوا هم أعلم الخلق - من أهل الملل الأخرى - بشهادة اللَّه وملائكته

وأولي العلم بوحدانية اللَّه، وكانوا أدرى بصحة دين الإسلام، وأنه هو دين إبراهيم وموسى عليهما السلام، وجاءهم من آيات اللَّه في القرآن الكريم ما يطابق معلوماتهم من التوراة، ثم أصرُّوا على جحودهم ونكولهم، خصَّهم اللَّه ﷻ بهذا التقريع الشديد..! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فجعل يورد من الصفات الشنيعة، ما إذا ذُكِرَتْ كلها أو بعضها، عُلِمَ أن المقصود هم يهود خاصَّة! ولم يذكر لهم قبلها ولا بعدها لقبًا ولا نَسَبًا - على غير ما هو غالب التعبير في القرآن - وذلك إمعانًا في إهانتهم وإذلالهم!

فذكر تعالى من أوَّل خصالهم الكفر بآيات اللَّه، أي بالعلامات البينات، والمعجزات الدَّالة على صدق الرسالة، سواء فيما جاء به محمد ﷺ ، أو فيما جاء به الأنبياء قبله، ممن اضطهدتهم يهود، كزكريا، ويحيى، وعيسى، وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام. إذ كذَّبوا بعضَهم وقتلوا بعضهم! وقتلُ الأنبياء خصلةٌ أخرى من أخزى خصال بني إسرائيل! شنَّع اللَّه بها عليهم في غير ما موطن من كتابه!.. وإنها لخزي وعار باء به التاريخ اليهودي الفظيع! ولم يزالوا - إلى يومنا هذا - يقتلون الدعاة إلى الخير، وإلى إقامة القسط في الدين والدنيا! ولذلك فإن اللَّه ﷻ قد توعَّدهم بعذاب أليم!.. أليم على وِزَانِ ما تسبَّبوا للبشرية من آلام! بسبب ما تورَّطوا فيه من طمس معالم الهدى، وتقتيل الأنبياء والصالحين، وتعذيب ملايين المستضعفين! وبسبب طغيانهم في الأرض بغير الحق! وتجبُّرهم، وعلوهم، وإفسادهم الرهيب!

فهؤلاء الطغاة الفَجَرة قد أحبط اللَّه أعمالهم في الدنيا والآخرة، ومَحَقَهَا محقًا! والمقصود أعمالهم التي ظاهرها « الصلاح »، والخطوات التي يعلنون عنها باسم « الخير »، وتحت شعار « الإحسان »! ولم تزل يهود إلى يومنا هذا تخفي جرائمها تحت أغطية أعمال « خيرية »! ومنظَّمات « إغاثية »! وما ظنك بصدقة شيطان؟ كالمنظمات الصهيونية الماسونية، التي تزعم لنفسها أنها ترعى الفقراء والمحتاجين، هنا أو هناك! وما ذلك كله إلا خدعة لئيمة! وخدمة لثقافة التطبيع الشنيع، والخضوع

المريع، والرضا بسيطرة اليهود على البلاد والعباد! ألَا إنها أعمالٌ باطلةٌ خاسرةٌ! ما ينبغي لمسلم أن يغترَ بها! فقد حكم اللَّه عليها بالبطلان في الدنيا أولًا، حيث إنها لن تؤتي ثمارها السياسية ولا التطبيعية بإذن اللَّه! وبالبطلان في الآخرة، حيث لن يقبل اللَّه لهم منها شيئًا البتة! لأنها مبنية على قصد باطل، وما بُني على باطل فهو باطل! فلا محيص لهم من عذاب اللَّه الشديد! ولذلك قال في ختام الآية: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ بمعنى أنه لا منقذ لهم من عذاب اللَّه وعقابه الأليم! فالذين كانوا يستنصرونهم في الدنيا، من طغاة الصليبيين هم الآن معهم في نار جهنم يصطلون جميعًا!

ومن خصال يهود أيضًا أنهم يرفضون الاحتكام حتى إلى ما بقي بين أيديهم من التوراة! بله الاحتكام إلى كتاب اللَّه الخاتم: القرآن العظيم! فلا هم يستجيبون لهذا، ولا هم يستجيبون لذاك! ولذلك فقد عَجَّبَ اللَّهُ منهم رسولَه ﷺ تعجيبًا! فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وإنما غرَّهم ما افتروه على اللَّه في دينهم، من أنه تعالى لن يعذبهم في جهنم إلا أيامًا معدودات، قيل: هي أربعون يومًا، على قَدْرِ مدة عبادتهم العجلَ، أثناءَ غيبة موسى لموعد ربه! وقيل: إنما هي أسبوع واحد فقط! وإذن ليفعلوا بعد ذلك من الموبقات والجرائم ما شاؤوا..! فإنما تلك أقصى عقوبتهم! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ فأيُّ جهل باللَّه أشنع من هذا وأَغَرُّ!؟

أما هؤلاء فإنما الكلام معهم يومَ الدين! وإنما يُنَاقَشُونَ حسابَهم يومَ القيامة! ذلك اليوم الموعود حتمًا لا ريب فيه! اليوم المجموع له الناسُ كلهم، أَوَّلُهُمْ وآخِرُهُمْ! هناك تُوَفَّى كُلُّ نفس حسابَها، وتُعْطَى كُلُّ يَدٍ كتابَها! فمن دخل الجنة فإنما يدخلها برحمة الله وعفوه، ومن دخل النار فإنما يدخلها بعدل اللَّه وقِسْطِهِ! ولا ظلم في قضاء اللَّه البتة! وبذلك ختم اللَّه ﷻ هذا السياق فقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ والتعبير بـ « كَيْفَ » الاستفهامية الدالة على سؤال الحال، تهويلٌ منه تعالى لسوء مصيرهم، وبؤس حالهم في ذلك اليوم الرهيب! ألَا وَقَانَا اللَّه وإياكم سوءَ عقابه، وأدخلنا في رحمته ورضائه!

٣- الهُدى المنهاجي:

وهو في **ثماني رسالات منهاجية**، نوجزها فيما يلي:

الرسالة الأولى: في أن هذا القرآن شاهد بنفسه على نفسه، ولا حاجة له إلى دليل من غير ذاته، وذلك لِما يتضمنه من قوة الخطاب، ليس فيما يتعلّق بمقامه البلاغي فحسب، ولكن قبل ذلك وبعده، فيما يقوم عليه من عمق غيبي بعيد الغور، تتدفق بحاره على القارئ والمستمع، وتضخ أمواج الروح منه على قلبه الغافل، حتى يستيقظ من غفوته، ويؤوب إلى ربه رَغَبًا ورَهَبًا، ثم بسبب أن الفطرة تدرك بإحساسها العميق أن المتكلم في هذا القرآن وبه هو اللّه ربُّ العالمين، تدرك ذلك إدراكًا عميقًا لا تحتاج معه إلى برهان من خارج آيات القرآن، فما تلا هذا القرآنَ أو استمع إليه إنسانٌ سليمُ الذوق، غير ممسوخ الفطرة؛ إلا خضع له واستسلم لخطابه الإلهي العظيم، فالقرآن كلام اللّه وكتابه إلى العالمين. واللّهُ ﷻ حاضر في كتابه مُتَكَلِّمًا عظيمًا، شاهدًا بنفسه على نفسه، قبل شهادة خلقه.. وبذلك فقد جعل فيه تعالى حُجَّتَهُ وبرهانَه ونورَه. وما كلَّف الرُّسَل والدُّعاة بعد ذلك إلا بالبلاغ.

الرسالة الثانية: في أن العلم باللّه هو مسلك التحقُّق بمقام الرَّبَّانية. ذلك أن طلب العلم باللّه قائم على طلب معرفته، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومطالعة ما أَذِنَ به تعالى من مشاهدة شؤون ربوبيته، مما تجلى من تدبير أمر خلقه، ومُلكه، وملكوته. فهذا علم يورث القلب كمال التعظيم لمقام الربِّ العظيم، ويملؤه خشية للّه وورعًا. وهو مبتغى العارفين باللّه، وغاية العلماء به جلَّ عُلاه. وهو رأس العلم، وفصّ الحكمة. إنما لابد من التنبيه إلى أن طبيعة « العلم باللّه » ليست مجرد معلومات تُستظهر، ولا مقولات تحفظ، كلَّا كلَّا! بل هو علاوة - على ذلك - شهود قلبي لمقتضيات تلك المعلومات، من توحيد الأسماء والصفات، وما في معناها من الآيات، التي تكشف للعبد عن أسرارٍ ثمينةٍ من العلم باللّه، وتُنير له من قلبه على قدر ما جاهد نفسه لتلقِّي حقائقها، كلمةً كلمةً، واجتهد في العمل بمقتضى منازلها، خُلُقًا خُلُقًا، وكَابَدَ وَقْعَ بوارِقِها على قلبه، بارقةً بارقةً! وهو في ذلك كله ثابت لا يلتفت، ماضٍ في سيره إلى اللّه على مدارجها.. فمن تحقَّق بأنوار المعرفة باللّه فرقانًا يسلك به إلى ربِّه، ويوقع

خَطْوَهُ على ميزانه، حتى لم يعد يتصرف في شيء من أمور دينه ودنياه، إلا على مقام التوحيد والإخلاص، كان عبدًا ربانيًا حقًّا! مُتحقِّقًا بمقامه، ومشرفًا على نفسه من على ذروة سنامه!

الرسالة الثالثة: في أن العلم بالله يجعل الإنسان - وهو في الأرض - يعيش بروحه في السماء! فهو يرى ربَّه بقلبه، ويصحب ملائكته بروحه! ويشهد حقائقَ الإيمان بنوره! ويتحقَّق يقينًا بتوحيده وإخلاصه! فيتخذه ربُّه شاهدًا على خلقه! فأكرم به من مقام عالٍ رفيع! وفي حديث عجيب - حق عجيب - يوضِّح النبيُّ ﷺ أهمية الذكر وتلاوة القرآن - وهما من مسالك العلم بالله - وما يكون لهما من الأثر البليغ على القلب، ثم ما يكسبانه للعبد من حياة الروح في السماء، والأُنس بصحبة الملأ الأعلى! عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي! فَقَالَ: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ فقال: (**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ! وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلامِ! وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلاوَةِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ!**)[1] وأصل الرَّوْحِ: الريح اللطيف الذي ينعش الإنسان ويطربه. وعُبِّرَ به في القرآن والسنة للدلالة على جمال الرجاء في الله. فالعالم بالله عبدٌ يعيش بجسمه في الأرض، لكنه دائم السياحة بِرُوحِهِ في السماء، يتغذَّى من رَوْحِ الله، ويسعد بمشاهداته القلبية، وخواطره الملائكية، ويتلقَّى من عالم الرُّوح بوارقَ الرَّهَبِ والرَّغَبِ، عند كلِّ خطوة وخطرة. ثم يتنزَّل عليه من جلال الخشية، وجمال المحبة؛ ما يزيده علما بالله، ومعرفةً بمقامه العظيم! وفي الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ فِيمَا يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: « **يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي.. فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي! وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ! وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا! وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً!** »[2]..

---

(١) رواه أحمد، والطبراني في الصغير، وأبو يعلى، وأبو الشيخ في « ثواب الأعمال ». وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع الصغير، وصحيح الترغيب.

(٢) متفق عليه.

وبذلك السير يترقَّى العبدُ في مدارج العلم باللَّه.. ثم يترقَّى ويترقَّى؛ حتى يشهد على وحدانية اللَّه يقينًا مع صفِّ الملائكة الأطهار! فأكرم بها حياة الروح في الملأ الأعلى!

الرسالة الرابعة: في أن حقيقة دين الإسلام هي: إسلام الوجه للَّه ربِّ العالمين. على وِزَانِ ما فسَّرناه في البيان العام. تلك هي القضية التي وجب على الدعاة حمل رسالتها إلى الناس كل الناس، مُسْلِمِهِمْ وكافرِهم. فالمسلم في حاجة إلى التحقق من هذه البصيرة، ليعرف معنى كونه « مُسْلِمًا »؛ حتى يسلك إلى ربِّه بما أقرَّ به على نفسه، من شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه. ويدخل في مدارج السير الإيماني إلى اللَّه، عبر منازل التقوى والورع، وسائر منازل العبودية وأحوالها، عساه يتحقَّق بمقتضيات مفهوم « الإسلام »، مما يغرسه الدين في نفس المؤمن من صفات الخشوع والخضوع، وأخلاق الجمال والجلال.

وأما الكافر فإنما يُدْعَى إلى الإسلام - بهذا المفهوم - حتى يدخل في دين اللَّه الحق من بابه الحق! ألا وهو باب الاستسلام للَّه ربِّ العالمين، والخضوع لجلاله العظيم! وهو نفس الباب الذي دعا اللَّه ﷻ من خلاله نبيَّه وخليله إبراهيمَ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣١] وبذلك سَمَّى إبراهيمُ عليه السلام أتباعَه باسم: « المسلمين »؛ فصار هذا اللقبُ عَلَمًا على جميع المؤمنين إلى يوم الدين، أمة واحدة لا يشذ عنها إلا هالك. وهو نفس المعنى الذي نهجه نبينا محمد ﷺ في الانتساب إلى ربه دينًا ودعوةً وجهادًا. كما تدارسناه في بصائر هذه الآية العظيمة: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ذلك ما وجب تجديد التحقُّق به قلبًا وقالبًا في حركة تجديد الدين، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. وإن المسلمين اليوم لفي حاجة إلى إعادة وضع هذا السؤال على أنفسهم من جديد: ﴿ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾.. ليس بالمعنى العقدي الذي يجعل الإنسان على مفترق الطريق بين الإيمان والكفر، ولكن بالمعنى القلبي الذي يجعل المؤمن يحاسب نفسه بنفسه، ويراجعها على موازين الصدق والإخلاص، فيما أقرَّ به على نفسه من انتسابه للدين، ونطقه بشهادة المسلمين! فقد رأيتَ أنما « الإسلام » عهدٌ بين العبد وبين ربِّه!

فإلى أي حد صَدَقْتُ اللَّهَ - أنا وأنت - فيما تعهدتُ له به من أمر دينه؟ من حقيقة « إسلام الوجه » لجلال سلطانه! تلك هي القضية! وذلك هو السؤال الأبدي في معركة تجديد الدين! وما التوفيق إلا باللَّه.

الرسالة الخامسة: في أن الوسيلة الأولى للدعوة إلى اللَّه هي حسن البلاغ لحقائق الوحي، قولًا وعملًا. وإن حسن البلاغ قائم على جودة إيصال خطاب الوحي، مجردًا عن الحمولات النفسية، والظلال التاريخية، التي لحقت بالدين في ظروف انحطاط المسلمين عن مقام القرآن العالي المجيد. وتجريد بيانه مما ابتدعه أهل الفتن والأهواء، من الذين اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. فأداء البلاغ القرآني بدقة وأمانة، وإيصاله إلى الناس كما هو؛ كاف في وصول النور إلى الخلق!

وأما البلاغ المبين فهو راجعٌ إلى البيان بالقول والعمل معًا. ذلك أن الداعية كما يدعو إلى اللَّه ببلاغ حقائق الإيمان قولًا وخطابًا، يدعو إليه تعالى بما يمارسه في نفسه عمليا من مجاهدات ومكابدات؛ من أجل التحقق بمنازله الإيمانية! وإن ذلك لأبلغُ في الدلالة على اللَّه من مجرد الخطاب المفرَّغ من العمل! وأنت ترى أن محمد بن عبد اللَّه ﷺ حمل إلى الناس خطاب الوحي قرآنا يُتْلَى وسُنَّةً تُتبع! وإنما سُنَّتُهُ ﷺ هي كل حياته، وجميع سيرته بمعناها الشمولي. إنها طريقته العملية في تلقِّي آيات ربِّه، والسَّير إليه تعالى بمقتضى أمره ونهيه، حتى كان ﷺ أرفع نموذج بشري في بيان معنى العبودية للَّه ربِّ العالمين على الإطلاق! فكان بسبب ذلك لخطابه الدعوي ولتلاوته القرآن على الكفار أعظمُ الأثر، وأحسنُ البيان في أداء البلاغ عن اللَّه، وإيصال نور الوحي وحقائق الإيمان إلى كافَّة البشرية! وما من داعية ينحرف خطوة واحدة عن هذا المنهاج، إلا وعرَّض نفسه ودعوته للإفلاس والعياذ باللَّه!

الرسالة السادسة: في أنه واجب على كل إنسان أن يبحث عن خالقه، ويطلب معرفة ربِّه حتى قبل بلوغ خطابه! فإذا بلغه خبر رسوله ﷺ وكتابه، فقد قامت عليه حُجَّته ولا عذر له آنئذ بجهله! ومِن ثَمَّ فلا دين بعد محمد ﷺ إلا الإسلام! ذلك أنه ما من صقع في الأرض إلا وقد بلغه خبر هذا الدين على الإجمال، وما من إنسان إلا وقد وصله خبر محمد ﷺ على العموم. فلا قبول لدينٍ في الأرض غير دين اللَّه

الحق! حيث وجب على البشرية كلها أن تطلب معرفة تفاصيل هذا الخبر المجمل، وحقيقة ذلك النبي المرسَل؛ لأن ذلك حق الله الخالق لها، واجب عليها تنفيذه بمقتضى ربوبيته لها. وهو حق تنطق به الفطرة السليمة، والعقول القويمة. وما تخلف عنه بشر أنَّى كان، إلا بسبب استجابته لهواه الشهواني، ولوسواسه الشيطاني؛ وبذلك تقع عليه حجة ربه! عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ!** »[1] وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: « **أَسْلِمْ!** » فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ! فَأَسْلَمَ! فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: « **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ!** »)[2] وفي رواية أحمد: (أَنَّ غُلامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءَهُ، وَيُنَاوِلُهُ نَعْلَيْهِ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « **يَا فُلانُ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ!** » فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَسَكَتَ أَبُوهُ! فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ! فَقَالَ الْغُلامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: « **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ!** »)[3].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً!** »[4] وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما - مما تواتر بالوقائع المتعددة - أنه ﷺ أَرْسَلَ كُتُبَهُ ومبعوثيه إلى ملوك الأرض من العجم والعرب، داعيًا إيَّاهم إلى الله؛ امتثالًا لأمر الله في بلاغ الناس كافة. وهي سُنَّةٌ واجب على أولي الأمر من المسلمين اتباعها؛ بدعوة ملوك العالم ورؤسائه، من جميع أهل الملل والنِّحَلِ والمذاهب الوضعية، وكذا رؤساء المنظمات الدولية والمؤسسات العالمية، بشتى أنواعها وتخصصاتها. ثم دعوتهم بالطريقة المناسبة للعصر،

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد.

(٤) جزء حديث متفق عليه، ورواه أحمد وغيره، عن غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ، وحكم عليه الألباني في إرواء الغليل بالتواتر.

كعقد الندوات حول الإسلام، وتدشين الحوارات حول الإيمان، واستدعائهم لشهودها والمشاركة فيها، وغير ذلك من الوسائل المحققة لمعنى البلاغ المبين، الخالي من التحريف والتشويه الذي تمارسه وسائل الإعلام المعادية للدين. وهذا كما هو واجب على الصالحين من أولي الأمر من رجال السلطة، واجب أيضا على الدعاة والعلماء القادرين عليه، وعلى الجمعيات الإسلامية والمؤسسات الدعوية المختلفة. واجب عليهم تجاه الخلق أجمعين، وتجاه حكّامهم، خاصّة منهم أولئك الذين ساءت ظروف تربيتهم وتكوينهم؛ فنشأوا على جهل بدينهم وبحقوق اللّٰه ربِّهم؛ وظهرت آثار ذلك في سوء تدبيرهم لشؤون الأمة، دينًا ودُنْيا. هذا، وإن التزام الخطاب الحكيم ركن من أركان البلاغ المبين! وإنما الموفق من وفقه اللّٰه.

الرسالة السابعة: في أن بلاغ الحقِّ والدعوة إليه مسلكٌ مُحَاطٌ بشتى ضروب المحن والابتلاء، من التكذيب والتشويه الإعلامي، إلى التقتيل والاعتقال والتشريد! تتفاوت درجات ذلك على حسب ظروف الزمان والمكان. ولكن شيئًا منه لا بد أن يكون بصورة من الصور، متى أذن اللّٰه به! سنة من سنن اللّٰه الثابتة في طبيعة هذا الدين ودعوته. وكُلٌّ يبتلى فيه على قدر إيمانه ورسوخه! وما هو في النهاية إلا رفعًا للداعية المبتلى إلى درجات الصديقين أو الشهداء، وحطًّا لأعداء الدين إلى دركات الجحيم! على ما اقتضته حكمة اللّٰه في خلق هذه الحياة الدنيا وجعلها مسلكًا إلى الآخرة. ذلك ما قرَّره القرآن المجيد في غير ما آية وسورة، منه قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] وهو معنى كلي استقرائي من مجموع الكتاب والسنة الصحيحة. يشكل قاعدة ثابتة من قواعد الدين والدعوة. وما تشريع الجهاد في سبيل اللّٰه وجوبًا، إلا وجهٌ من وجوه هذا المعنى التعبُّدي الكريم! كما أن مجاهدة الكفار والمنافقين بحقائق القرآن المجيد؛ لتجلب بطبيعتها المحن للمؤمن الصادق في دعوته، المخلص في جهاده. فمن لم يتعرَّض لشيء من ذلك في

دعوته، ابتلي بالأدواء في بدنه، أو بنقص في ماله وولده. وكل ذلك وقع للأنبياء عبر التاريخ! فمن صبر واحتسب كان - إن شاء الله - من المفلحين.

- بصيرة: إلا أنه لا بد ههنا من بصيرة! ألا وهي أن ذلك كله مشروط بشرطين، الأول: موافقة تلك الدعوة، وذلك الجهاد، أو تلك المجاهدة، لمقتضى العلم، وقواعد الشرع، فهمًا لمراد الله، ولطبيعة بيانه. ثم تنزيلًا لِحُكْمِه على ما يناسب ظروفَ زمانِه ومكانه. وإنما يعرف ذلك العلماء الحكماء، المتحقِّقون بأصول الشريعة ومقاصدها. وأما الثاني: فهو التحقُّق بمقام الإخلاص والتجرُّد من نوازع الأهواء وردود الأفعال المتشنجة! مما يسبب تخلي الله عن أصحاب تلك الدعوة وكِلَتِهِمْ إلى أنفسهم! فلا يكون ما يقع عليهم من الابتلاء والفتنة إلا من باب الزجر الإلهي، والتنبيه الربَّاني، إلى سوء الاختيار، وفساد الاعتبار؛ بما خالطه من الأهواء والأدواء، فامتنع أن يكون خالصًا لله الواحد القهار! وإن ذلك لمزلقا زلَّت به أقدام كثير من الدعاة وغير قليل من التنظيمات والحركات! ودونك تاريخ المسلمين القديم والحديث فتأمل!

الرسالة الثامنة: في أن من أُوتي نصيبًا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وجب عليه أن يحتكم إليه في نفسه، وألا يلجأ إلى شيء غيره! ومن فعل ذلك فقد ارتكب إثما كبيرًا! ربما يبلغ به إلى هاوية الكفر والعياذ بالله! فيما إذا أدَّى به إلى الشَّكِّ في صلاحية الحكم بشريعة الله، ولو كان ذلك الشك في بعض جزئياتها القطعية، أو أحد أحكامها القرآنية! وهذا جارٍ على كلِّ المسلمين؛ لأنهم جميعًا قد أوتوا نصيبًا من الكتاب ولو على الإجمال؛ وذلك بمجرد إقرارهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فما من مسلم في الأرض إلا وقد لزمه الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ اللهم إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مطمئنٌ بالإيمان. وقد رأيتَ ما خَاطبَ اللَّهُ بني إسرائيل من الوعيد والإنكار الشديد، فيما تدارسناه ههنا من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾ وقد ناط الله ﷻ حقيقةَ الإيمان وبرهانَ صِدْقِهِ بقرار التحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، والرضا بما كان من حكم الله ورسوله! قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال ﷻ : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].. ولا خلاف بين أهل العلم في أن هذه الآيات وأضرابها جارية على إطلاقها وعمومها، في جميع المسلمين على مختلف الأزمنة والأمكنة. ومن هنا فلا أقل - إذا فُرِضَ على المسلم التحاكم إلى غير شريعة اللَّه - من أن يحتكم إلى اللَّه ورسوله فيما يخصه هو في نفسه، من أمر دينه ومعاشه، وألا يُلْجِئَ أحدًا إلى التَّحَاكُم إلى ما كان مخالفًا لشرع اللَّه من قانون البشر، إلا لضرورة معتبرة! وهذه حقيقة قرآنية قطعية، لا يجادل فيها إلا جاحد أو ضالّ! وما الهدى إلا من اللَّه.

٤- مسلك التخلق:

وهو دائر - في هذا المجلس - على معرفة كيفية التخلُّق بمقام العلم باللَّه، ومنزلة أهل المعرفة به تعالى، شهداءِ اللَّه على خلقه، وأهلِ محبته وقربه! وإنما مسلكه القريب هو التخلق بـ « آيات اللَّه »، والتحقُّق بأنوار وحيه! تلاوةً وعبادةً وتدبُّرًا، ثم ما تُحيل عليه تلك الآيات من مطالعة كتاب الخلق العظيم، كما بيَّنَّاه في غير ما مجلس من هذه المجالس.

لكننا نضيف ههنا ما يضيفه سياق هذه الآيات من بيان مسلك « العلم باللَّه »، وهو أن ذلك إنما يكون بتحقيق « إسلام الوجه للَّه ربِّ العالمين »، عند كلِّ خطوة وآية، والدخول تحت رِبْقِهَا عبدًا خالصًا للَّه الواحد القهَّار! بمعنى أن دخول باب التدبُّر والتلقِّي للآيات، في طريق التعرُّف إلى اللَّه، وطلب العلم به تعالى، يتقدَّمه إعلان الافتقار الكُلِّي إلى اللَّه، والتحقُّق من إخلاص التوحيد له - جل علاه - في ربوبيته وألوهيته، وما يلزم عن ذلك من توحيد حاكميته تعالى، والسير إليه في ذلك كله عبر مدارج التذلُّل له، والحمد والثناء، والتوكُّل عليه تعالى، وتقديم عبارات الإقرار بين يديه سبحانه بكلِّ حقائق الإيمان، تعبيرًا عن إسلام الوجه للَّه، توحيدًا وتفريدًا، ذلك ما يُنبئ عنه سياق الآيات من قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُۗ .. [إلى قوله:] فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ ... ۞ ﴾ .. إلى آخر الآيات. ذلك باب العلم بالله، وذلك مسلكه. وهو ما كان النبي ﷺ يُطبِّقه على كلِّ حال، وعند حال الدخول في عبادته لربِّه على وجه الخصوص، حيث كان يتوجَّه إلى الله بهذا الدعاء الرباني اللطيف، كلما قام يتهجَّد بناشئة الليل، ويتبتَّل إلى ربِّه تعالى.. فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: **« اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ! أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ! »**)(١) وهذا دعاء - كما ترى - جامعٌ لكلِّ معاني إسلام الوجه لله والاستسلام له، وتفسير لمعناه على أبين ما يكون البيان والتفسير.. وفيه من حقائق التوحيد والإخلاص، ما لو تحقَّق به العبد وتخلَّق به، نال من منازل العلم بالله ما يرفعه إلى أعلى الدرجات!

وخلاصة الكلام أن العبد كُلَّما أخلص التوحيد لله، وتحقق بمعنى « إسلام الوجه » له، ارتقى في مراتب العلم بالله. وهو ما يمكن تحقيقه بجميع العبادات على الإطلاق. إلا أن أقربها وصولًا تلاوةُ القرآن تدبُّرًا وتفكُّرًا، والحضور بموعد الله في ثلث الليل الآخر؛ لمناجاته تعالى في خلوات الأسحار، بشتى أنواع الدعاء والاستغفار.. فاللَّهم أعنا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك! وارزقنا الإخلاص في كلِّ ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بك!

* * *

* *

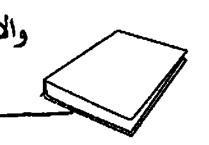
*

---

(١) متفق عليه.

المجلس الرابع

في مقام التلقي لمسلك التوحيد والإخلاص ومقتضياته الربانية والمنهاجية وأن الطاعة والاتباع هما برهان المحبة، وشرط القبول والوصول!



١- كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ
مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ
ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ
وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى
ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا
وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٢ - البيان العام:

هذا المقطع القرآني المتوشِّح بالجلال والجمال، مُنبَنٍ على سياق الآيات المدروسة بالمجلس السابق، ومُؤَسَّسٌ عليه، في سلسلة تربوية واحدة؛ لبناء صفات الربانية في هذه الأُمة. ذلك أن اللَّه - جلَّ ثناؤه - لما أَعْلَمَ الخلقَ بشهادته، وشهادة ملائكته وأولي العلم، فشهد سبحانه بتفرُّده في ألوهيته وربوبيته للعالمين، وأعلمَ أن الدين المترجِم لهذه الحقيقة إنما هو الإسلام، ثم أخبر بجحود أهل الكتاب ونكولهم عن الاعتراف بهذه الحقيقة الربَّانية اليقينية، أمر رسولَه محمدًا ﷺ ومن اتبعه من أمته،

بالاستقامة على كمال التوحيد، وصدق الإخلاص، والسير - من أجل ذلك - بمدارج التعرُّف إلى اللَّه، وطلب كمال العلم به ﷻ، ومخالفة أولئك المنكرين لوحدانيته، أو المتمرِّدين على ربوبيته، المخالفين لمقتضاها من جمال الطاعة وكمال الاتباع. فَصَاغ لنبيه الخاتم ﷺ ولأمته مسلك التوحيد في آيات عظيمة، هي عبارة عن دعاء كريم، يرتقي بالعبد في مدارج العلم باللَّه والتعريف الجليل به، إلى أعلى درجات الربانية! وهو دعاء دائر على تمجيد اللَّه - جلَّ ثناؤه - بما له من صفات العظمة في مُلْكِهِ، وبما له من حِكَمٍ بليغة في تدبير شؤون مملكته، على ميزان مشيئته، والتسليم له تعالى في كل ذلك، بما قضى وقدّر، من المنع أو العطاء، في أي شيء من أمور مُلكه؛ لأنه ليس للعبد تجاه سيده إلا الطاعة والرضا. وفي هذا تعريض ببني إسرائيل الذين رفضوا أن تخرج النبوة منهم، وتُرْفَعَ الخلافة من جنسهم ونسلهم، ثم تُعطى لقوم غيرهم من بني إسماعيل! وفيه ردّ أيضًا على النَّصارى عامَّة - وعلى نصارى نجران خاصَّة، الذين كانوا بين يدي رسول اللَّه ﷺ ساعتئذ - بما زعموا من ألوهية عيسى عليه السلام؛ فجعل سبحانه يذكر ما تفرَّد به في ذاته ﷻ من صفات الربوبية والملك، مما لا يمكن أن يتحقَّق في أحد سواه. قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

ألا وإنه لمعراج رباني رفيع رفيع! ترتقي فيه الروح مُحلقة بأجنحة الثناء على اللَّه، واصفةً إياه بما وصف به نفسه تعالى من جلال المُلْكِ الأوحد، وعظمة السلطان الأمجد، فتتلقى مواجيدها من بحار العلم باللَّه، مشاهداتٍ جليلةً، تبهر القلوب والأبصار! بما يتجلَّى عليها من ظلال العزة والجبروت، الممتدة على جميع الـمُلْكِ والملكوت! إنه دعاء كريم، وابتهال عظيم، انتظمت كلماته من كنوز الأسرار، وخزائن الأنوار! كلمات تنزّلت بركاتها من علم اللَّه العظيم، ونوره القديم! لتفتح أبواب السماء للأرواح المُشوّقة بحب اللَّه، توحيدًا وتفريدًا، فتناجي الرحمن ﷻ بما تجلّى عن شؤون الربوبية العظمى، من جمال التدبير وجلال التقدير..! إنها كلماتٌ

ما تحقَّق عبدٌ بمقتضياتها التعبدية، إلا ونال من نور العلم بالله، ما يُرَسِّخُ قدمَه بمقام التوحيد الخالص، على أعلى درجات الربانية! إنه هُدًى من الله! وبيانٌ منه تعالى، تفضُّلًا وتكرُّمًا؛ إذ أرشد نَبِيَّ هذه الأمة - عليه الصلاة والسلام - إلى باب هذا المعراج الكريم! فكانت له ﷺ قدم السبق إلى عتبته، وتاج الوصول إلى منتهى سدرته! وأُمَّتُهُ في ذلك له تبع، منازلهم بمدارج الربانية درجات.. منهم صديقون، وشهداء، وصالحون كثير..! كلٌّ على قدر ما أدرك من معراج العلم بالله.. فالنداء واحد، والمجاهدات درجات!

فيا قلبي الكليل! هذا معراج العلم بالله دعاءٌ كريم، قد انفتح عليك اليومَ بَابُهُ، فهل لأجنحتك المثقلة بالأهواء والأدواء، من عزيمة على نفض أغلال التراب؟ ألَا وإن برج المشاهدة عَالٍ عَالٍ! فتخفَّف يا صاح من أدرانك وحلِّق عاليًا! عساك تكون من المبصرين! وإنما يكون التخفُّف على قدر ما يذل الجناح للملك العظيم! فاسجد يا قلب لمولاك ثم قُلْ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.. فأن تنادي « مَالِكَ الْمُلْكِ » ﷻ يعني أنك تكشف الغطاء عن ملوك الأرض؛ فيظهر لك عجزهم وفقرهم وضعفهم وكل ما يربطهم - طوعًا أو كرهًا - بتراب العبودية لله الواحد القهار! وتشاهد يقينًا أن لا مُلك إلا لله ربِّ العالمين الذي يملك الموت والحياة والخلق والتدبير! وكل دعوى لِمِلك سواه كذبٌ مُبير! فإنما هو وحده « مالك الملك » كل الملك! وجميع الخلق عبيد! وبمشيئته تعالى يبتلي من شاء من عباده بملك دنيوي فان! يبتليه به على ميزان حكمته، في تدبير شؤون مملكته. فما أجهل من يظن أنه قد ملك حقا! وإنما هو - لو كان من المبصرين - ملك تحت ظل مالك الملك! لا يد له في ملكه إلا بمقدار ما أذن الله له فيه! فإنما ﴿ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ هو الذي مَلَّكَهُ؛ ابتلاءً له إلى حين، حتى إذا قضى أجله جعله من المحرومين المجردين، على أفقر ما يكون عوام المستضعفين! ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ وكم من « مَلِكٍ » رأيناه يُوَارَى تحت التراب، أضعفَ ما يكون، وأفقرَ ما يكون! فيا عجبًا لِمَلِكٍ لا يملك من أمره شيئًا! وما نسبة مُلْكٍ فانٍ على ذرة من تراب إلى مُلْكِ السموات والأرض وما

بينهما؟ وما نسبة مُلْكِ عبدٍ يموت إلى مُلْكِ الحي الذي لا يموت؟ فسبحانك اللَّهم مَالِكَ الْمُلْكِ! أنت الْمَلِكُ الذي لا يزول مُلكه، ولا يفنى سلطانه! أنت تعطي وتمنع، وأنت تضع وترفع! أنتَ الْمَلِكُ أنتَ الْمَلِكُ! فسبحانكَ سبحانكَ.. ما أعظم شَأنَكَ!

سبحانكَ لا عِزَّ إلَّا في حِمَى عِزَّتك! ولا عزيزَ إلا بإرادتك! الغَلَبَةُ من قَدَرِكَ ومحضِ نُصْرَتِكَ، والذِّلَّةُ من قَهْرِكَ، وطَوْعِ مشيئتك! تُلْقِي لباسَ العزة على قومٍ فتنةً وابتلاءً، وتُلْقِي لباسَ الذلة على آخرين امتحانًا وامْتِهَانًا! كل ذلك بمحض مشيئتك، وبقدرة سلطانك، على موازين حكمتك! ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ وإنك لا تَصْدُرُ في فعلك إلا عن إرادة خير، أنت رب الخير، وكل فعلك خير.. فأنت الْمَلِكُ الوهاب الذي لا يُعجزه شيء في السموات والأرض! ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكيف لا؟ وتلك قدرتك قد أحاطت بالسموات والأرض خَلْقًا وتدبيرًا، ورعايةً وتقديرًا! تُدبِّر أمر الملك كما تشاء، وتُسَيِّرُ حركة الأفلاك، وتُصرف دورة الزمان، وتزيد في الخلق ما تشاء، وتصرف أرزاق العباد من كل جنس ونوع! فسبحانك سبحانك يا مَنْ: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ وقد عُلِم أن إيلاج الليل في النهار من أعجب مشاهد الخلق، ومن أبهر تجليات الأسماء الحسنى المحيطة بالملكوت رعايةً وتدبيرًا! وإيلاج الليل في النهار مشهد لآثار القدرة الإلهية العظيمة في زحف الليل على النهار كلما أدبرت الشمس إلى مغربها، وزحف الليل من جهة المشرق يمتص آثار الضوء في الوجود ليعلن للناس ساعة الأوب إلى سكون الليل والدخول في اغتنام مواعيده التعبدية واستراحاته النفسية والجسدية! حتى إذا جعل الرحمن يولج النهار في الليل رأيت الحياة تستيقظ من جهة المشرق مرة أخرى، وانبثق الفجر تتدفق جداوله الفضية على السماء، مؤذنا بقرب قدوم موكب الشمس في موكب أشعتها الذهبي الجميل..! وانطلقت الحياة البشرية والحيوانية تسعى في مسالك الحياة العمرانية، تملأ الوجود بضجيجها وعجيجها! وإن ذلك لمشهدٌ عجيبٌ يتكرر يوميا لو تدبره ذو بصيرة لرأى حركة البعث والنشور من القبور ليوم القيامة تتجلى في تدبير اللَّه - جَلَّتْ قُدْرَتُه - لحركة الليل والنهار كل فجر جديد! ولرأى

العجب العجاب في قدرة اللّه؛ إذ يُخرج سبحانه الحيَّ من الميت والميتَ من الحي! ظاهرة متجلية في كل شيء من خلقه، تعكس أنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، بما يحيي ويميت، وهو الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا يقوم شيء إلا بأمره وقدرته وإرادته! ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧ ﴾ ومظاهر ذلك في الخلق شتى.. لا يحصرها عد ولا إحصاء! فانظر كيف يُخرج سبحانه الزروعَ والثمار من البذور الصغار، ويجعل منها جنات تجري من تحتها الأنهار! ثم كيف يجعلها بعد ذلك - إذا شاء - حطبًا أو هشيمًا تذروه الرياح! لا أثر فيها لحياة ولا لتغريد أطيار! وإن لتعاقب الفصول على النبات، وتداول الحقول والحدائق ما بين مظاهر الحياة والموت لعجبًا! فترى عيانا كيف يُخزِّن الرحمن سبحانه الحياة في بذر يابس ميت! حتى إذا شاء قال له كن فيكون نباتًا خضرًا وثمرًا يانعًا يفيض بالحيوية والحياة! وإنه لكذلك يخزن ﷻ الحياة في رميم الإنسان الميت ما شاء اللّه! حتى إذا كان يوم النشور قال له كن فيكون! وينبت كما ينبت البقل من تربته، وبذر جسمه البالي الرميم! وهي ظاهرة ربانية جارية في المعنويات كما هي جارية في الماديات والجسمانيات.. إذ يخرج سبحانه المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وكذلك النبوة تكون! فالنبوة التي بها حياة القلوب قد رفعها اللّه من بني إسرائيل، من بعدما انحرفوا عن موردها، وتنكروا لمشربها، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون! ثم نزع اللّه حياة الوحي من جنسهم ونسلهم! ونفخها في أمة أُمِّية لا تقرأ كتابًا ولا تخطه! وأخرجها من ظلمات صماء، وجاهلية عمياء؛ إلى حياة تتوهَّج بحياة الروح، وتفيض بالنور والنماء! ثم جعلها أمة شاهدة على الناس! وإن حياة الإيمان وبركات الوحي، لرزق من رزق اللّه، يرزقه لمن يشاء، كما يرزق من عباده من الأقوات والثراء ما يشاء بغير حساب! فالْمُلْكُ والحياة والموت والأرزاق، ومقادير ذلك كله، في جميع معانيه وتجلياته، جميعها بيده، يَرْزُقُ منها مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ! أي بلا تقتير ولا تضييق؛ إذ لا خوف عنده سبحانه على نفاد خزائنه! ولو تدبّر الناس حركة الحياة في الأرض من مظاهر ذلك جميعا لوجدوا أن خيوطها كلها تجتمع في النهاية منتظمة في عِقْدٍ واحد من إرادة اللّه الواحد القهار! أَلَا ذلكم اللّه

« مالك الملك »، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.. ولكن أكثر الناس لا يبصرون!

وإن لِمُشَاهَدَةِ جلال الملك وعظمة السلطان ههنا، لمقامًا عظيمًا من مقامات العلم بالله! مَنْ وقف على شُرفاته تلقى من أنواره ما يرتقي به إلى أعلى مراتب المعرفة به ﷻ! وليذوقنَّ حقيقةَ الشعور بالخوف من مقام الرب العظيم! فأكرم به من مسار في منازل التقوى والورع! وهنيئًا لك كرامات العلم بالله يا عبد الله!

ولعلك تلاحظ - في النهاية - أن هذه الآية إنما هي ديباجة لدعاء أو مقدمة لدعاء! فهي هُدًى كريم من الرحمن، وهديةٌ لعباده المؤمنين، الراغبين في دعائه؛ كي يسلكوا إليه عبر معراجها بتقديم عبارات التمجيد والثناء - كما هي عادة أدعية القرآن والسنة غالبًا - لما في ذلك عمومًا من طَرْق أبواب الرحمة، والرأفة، والرضا، والكرم، والعطاء، والجود، وغيرها من صفات الملك الكريم! حتى إذا لانت قلوب العباد لها وتخشعت، آن لها أن تبني عليها من طلب خيري الدنيا والآخرة ما تشاء! فتسأله تعالى الثبات على الهدى والنجاة من النار والفوز بالجنة وسعة الرزق والعفو والعافية... إلى غير ذلك من البركات والنعم. وقد كان النبي ﷺ يجعل هذه الآية - أو بعضها - قاعدةً لدعاء مخصوص، فيُعلمه أصحابه رضوان الله عنهم، فعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: « **ألَا أُعلِّمُكَ دُعَاءً تدعو بِهِ، لو كان عليك مِثْلُ جبل أُحُدٍ دَيْنًا لأَدَّاهُ اللَّهُ عنكَ؟ قل يا معاذ: اللَّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير! رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء! ارحمني رحمةً تُغنيني بها عن رحمةِ مَنْ سواك!** »[(١)] هذا إلى جانب ما في عبارات هذه الآية المجيدة من جلال التعريف بالله وبعظمة ملكه وسلطانه، وما فيها من بيان مسلك الربانية، ومعراج العبودية الخالصة لله ربِّ العالمين.

كانت تلك موعظة الله لخلقه بما أذن سبحانه من مشاهدة تجليات بعض قدرته، وبعض عظمة ملكه وسلطانه! فكان أن بنى سبحانه على ذلك دعوة عباده المؤمنين إلى تجديد الثقة بالله، وإلى عدم الخضوع لسلطان أحد سواه! وكيف يخضع عبد

(١) رواه الطبراني في الصغير، وقال المنذري في الترغيب: إسناده جيد، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب.

لغير ربِّه، وقد رأى من عظمة ملكه ورهبة سطوته ما توجل له القلوب، وترتجف له الأبصار! وكيف يكون لكافر - بعد ذلك - في قلب مؤمن رهبة أو سلطان؟ كيف وها الملك الجبار آخذ بناصية المؤمنين والكفار! ومِن ثَمَّ أنزل اللَّه ﷻ هذا الحكم التشريعي المتين ثمرة لما منّ به على عباده المؤمنين من العلم به تعالى والمعرفة بجلال سلطانه! ولا علم في الإسلام إلا وعليه ضريبة! ألا وهي العمل! قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ تلك هي عقيدة الولاء والبراء، وقد تقرَّرت في غير ما آية من كتاب اللَّه، وتواترت بها أحاديث رسول اللَّه ﷺ . وهي ههنا منتصبةٌ على حُكْمٍ قوي متين، جاء مُنَاسِبًا لسياق عرض مشاهد الملك والملكوت، فكانت عباراته تحمل من القوة والشدة ما يجعل القلوب تفر هاربة إلى اللَّه، وتدخل تحت ظلال الطاعة الكاملة والخُضُوعِ والخُشُوع! إنه نهي قوي حازم شديد! نهي عن ركون المؤمنين إلى الذلة وقد أعزهم اللَّه! وكيف يذل عبدٌ لِغير مَالِكِ الْمُلْكِ، الذي يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ!؟ فما كان لمؤمن صادق أن يتخذ كافرًا وَلِيًّا، أي حَلِيفًا يحبه وينصره، على حساب المؤمنين! فيخرم صفهم، ويهتك عورتهم، ويثلم حصنهم! كلاً كلاًّ! إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض، كلهم يَدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم! تلك طبيعة هذه الأمة، وحدة جهادية فرضها اللَّه عليها فرضًا! ومن خرمها أو خانها كان من الهالكين! وبرئت منه ذِمَّة اللَّه، وارتفعت عنه ولايته، جل جلاله وعلاه، ووكَّله إلى من تولاهم من القوم الكافرين وأحزاب الشياطين! ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ وهذا تبرؤ رهيب صادر عن ربِّ العِزَّة، في حقِّ الخونة الذين يتولَّون الكفار من دون المؤمنين! تبرؤ شامل كامل، قاطع بقوة - بما فيه من نفي العموم - لجميع صلات الرحمة المنزلة من الربِّ على عبده، حاكمة عليه بالطرد من صف الرضا والرضوان! والعياذ باللَّه! وأي حكم أشد من قوله: ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ ولكنه حكم على وفق ما اقترف من جريمة الغدر والخيانة! تولي أعداء اللَّه على حساب أولياء اللَّه! ونصرة المجرمين على المؤمنين!

بَيْدَ أن اللَّه جَلَّ ثناؤه - وهو الملك الحليم - جعل للمؤمن المستضعَف استثناءً رحيمًا، يدخله في باب العفو والغفران؛ مراعاةً منه تعالى لحالات الضرورة، حيث قد يجد المؤمن نفسه - في ظروف سياسية عصيبة، أو أوضاع عسكرية شديدة - مضطرًا لمجاملة الكافر بما لا يستحق؛ اتقاء شرّه وتجنبًا لاستفزازه بما يعود بالضرر العام على المسلمين، في وقت لا طاقة لهم فيه بدفعه ومجاهدته! ولذلك قال سبحانه بعد تقرير النهي الشديد عن موالاة الكفار، وتأسيس حكمه الأبدي فيه: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ... ﴿٢٨﴾ ﴾ لكنه ﷻ عليم بأن المنافقين ربما استغلوا هذا الاستثناء الرحماني؛ لخيانة الأمة وموالاة الكفار موالاة ظاهرها التقية، وباطنها الغدر الحقيقي بالأمة والنصرة التامة لأعدائها! فجعل خاتمة الآية هذا التحذير الإلهي الشديد: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وكفى به تحذيرًا ونذيرًا! فأن يُحَذِّرَ الملكُ أَحَدَ العبادِ نَفْسَهُ - والضمير يعود على ذات اللَّه ﷻ - فمعناه أن الربَّ مالك الملك يتوعَّده بانتقامه الذاتي! يتوعَّده بما يملك - جَلَّتْ عَظَمَتُه وسُلْطَانه - من عِزَّة وجبروت! فيا لَوَيْلَ من تجرد رب العالمين لحربه! وأنَّى للخائن أن ينجو من انتقام اللَّه إذا نزل به؟ أنَّى يفر أو أنَّى يقر؟ كيف وها الوجود كله راحل إلى اللَّه حتمًا!؟ كيف وها البشر مجموعون- أولهم وآخرهم - ليوم المصير، يوم الحساب العسير!؟ ألَا يَسَّرَ اللَّه حِسَابَنَا وغفر لنا ذنوبنا، وأدخلنا برحمته في رحمته! فما أحوج العبد ههنا إلى أن يجأر إلى اللَّه بدعاء: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ .. فينادي ربَّه بكلماته، مستغيثًا به باكيًا؛ عسى أن يتغمَّده اللَّه بعفوه ورحمته! وأنه لمن عجيب بيان القرآن أن يجد المؤمن نفسه وهو يجني ثمرات الخطاب ونتائجه، في حاجة إلى العودة إلى مقدماته! وكأنه ما جعل اللَّه ذلك الدعاء الرباني العظيم ببداية السياق؛ إلا لما علم سبحانه من حاجة المؤمن إليه أثناء تعرضه لبوارق الخوف خلال ما سيتلوه بعده من آيات وعلامات! تنفتح على قلبه بما لا طاقة له على مشاهدته من أنوار الرهبة والجلال! فلا يملك إلا أن يفرَّ إلى مولاه طلبا للأمان! وإلا خَرَّ على وجهه كما خَرَّ موسى صَعِقًا! وكيف لا؟ وهو اللَّه العظيم: « **حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ!** »[1].

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ .

ويزيد الربُّ ﷻ بيان تحذيره العبادَ نفسَه، فَيُذَكِّرُ النفوس الغافلةَ بشمولية علمه ودقته، وإحاطته بكلِّ شيء في السماوات والأرض، وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء فيهما، ولا في مكنون الصدور وخفايا النفوس! ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فسواء أخفى المنافق محبته للكافر وموالاته له القلبية، أو أعلنها - والعواطف النفسية من أخفى تصرفات الإنسان - فإن اللَّه الخالق عليم بما خلق! وعلمه تعالى بخلقه معجز كإعجاز خلقه لا فرق! فبما أبدع تعالى وأعجز وبهر في دقة صنعه، أبدع أيضًا وأعجز وبهر بدقة علمه وإحاطته! وكيف لا؟ وهو اللَّه رب العالمين، مالك الملك! العليم بما أودع في السموات والأرض، وما هن إلا محض خزائنه، محفوظة داخل أسوار مملكته! وهو ﷻ ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ خلقًا وحفظًا ورعايةً، وعلمًا وإحصاءً لكل شيءٍ، ثم حسابًا وجزاءً أو عقابًا! لا يعجز الرب ﷻ عن شيء البتة.. وإلا فما معنى « الربوبية »؟ ألَا ﷻ مالك الملك، ﷻ ! ولذلك ختم وعيده بالإشارة إلى يوم الحساب، كاشفا عن مشهد من مشاهده بمقام بياني رهيب، لا تجد له رديفًا في القرآن ولا نظيرًا! وما من آية في كتاب اللَّه تكرر أختها البتة! حتى ولو اتحدت في الكلمات والعبارات! إنها نوافذ متشابهة الأشكال والألوان، إلا أنها مفتوحة من طبقات بعضها أعلى من بعض، فُتريك هذه النافذة من المشاهد ما لا تريك تلك! عجبا! قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فلما نهى تعالى عن اتخاذ المؤمنينَ الكَافِرينَ أولياءَ من دون المؤمنين، وحذَّر المخالفين نَفْسَهُ تعالى، ثم بَيَّنَ أن موعد الحساب والعقاب مصير قدري آتٍ، وأن إحصاءه تعالى لذنوب عباده محقق بما له سبحانه من علم محيط بجميع ما يخفون وما يبدون؛ جعل تعالى - بعد ذلك كله - يُبين طبيعة ذلك اليوم الرهيب، ويكشف عن وجه من وجوه ذلك الموقف العصيب! وهو: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا... ﴾ إلى آخر الآية. فذلك النذير الشديد الذي حذَّر اللَّه فيه عباده نَفْسَهُ، هو واقع لا محالة في هذا اليوم! ولذلك نصب لفظ « يَوْمَ » على الظرفية مفعولًا فيه؛ تدقيقًا لموعد الجزاء، وإمعانًا في النذير، وبيانًا لمقتضى التحذير. فجاء هذا الوصف

المخيف ليملأ قلب المؤمن رَهَبًا ورَغَبًا! يومَ تجد كلُّ نفسٍ ما قدَّمت لآخرتها من خير، حسناتٍ تنتصب بين يدها حاجزًا كريمًا من النار، وجسرًا عظيمًا يسلك بها في أمان إلى الجنة! والتعبير بلفظ « مُحْضَرًا » فيه دلالة جميلة على كمال الإحصاء والضمان لعمل الخير، وأنه يُحْضَرُ يوم القيامة في الوقت المناسب؛ حيث تعرضه الملائكة ساعة الحساب والعرض على الرحمن - وهو تعالى أعلم بعبده وعمله - فيدخله جنته برحمته، وينقذه بعفوه الجميل من النار! فما قدّم العبد لنفسه من خير لا يغيب عنه في ساعة العسرة، كلا! بل يحضر بنفسه ليشهد له عند ربِّه!

وأما الشر والسوء فهو يحضر كما يحضر الخير، ولكن لأداء وظيفة الإهلاك والتخسير! ولذلك عبَّر بما يجده المجرم في نفسه؛ إذ يرى عمله السيئ مُنتصبًا بسواده المخيف بين يديه! فتفزع منه النفس وتصعق! و ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ تتمنى لو أن المسافات الطوال البعيدة من حواجز الزمان والمكان قد فصلت بينها وبين هذا العمل الشنيع! الذي حضر اليوم بين يديها ليقودها مغلولة إلى عذاب الجحيم! ولذلك قال للمرة الثانية: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ ﴾ وهو تحذير رغم تكرار لفظه يشرف علينا - كما ذكرنا - من مقام دلالي جديد! فالتحذير الأول كان مما ذكر من المخالفة لنهي الله عن موالاة الكافرين، وأما التحذير الثاني فهو عام في كلِّ عمل سيئ، كما تدل عليه نهاية السياق: ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ ﴾ فيكون العقاب على وِزانِ كل جُرم! فجاء قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ ﴾ للمرة الثانية؛ للدلالة على أنه كما لجنته ما لا يحصى من البركات والدرجات، فكذلك لجحيمه ما لا يحصى من النكالات والدركات!

لكنه سبحانه لا ينسى في مثل هذا السياق المخيف عباده الصالحين، ولا يدع أن يرشهم بوابل السكينة والتطمين، ورذاذ الرجاء الجميل فيختم الآية بهذا التذييل اللطيف: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ وكفى بهذا التعبير الكريم دلالة على أن المقصود بالعباد هم المؤمنون الصادقون في طلبهم لرضا الله، السائرون إليه متقلبين بين خوفٍ ورجاءٍ، فمهما زلّوا أو ضعفوا، ثم تابوا واستغفروا، فإن الرحمن يعاملهم برأفته

ويدخلهم في رحمته. ومن رأفته ومحض رحمته أن ساق لهم النذير قبل اليوم العسير! واللَّه رؤوف بالعباد! و« الرأفة »: دالة على معاني الشفقة والرحمة، والرفق في المعاملة والرعاية.

ثم يختم المقطع بهاتين الآيتين المنهاجيتين، الدالتين على مسلك الوصول إلى اللَّه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ فهو أمر إذن، لا يصح توحيدٌ بدونه، ولا يستقيم سير بغيره.. إنه شرط الدخول إلى مدرسة الربانية، وأول التدرج بمدارجها، وأساس الترقي نحو مقامها العالي الرفيع! ذلك هو الاتباع للرسول ﷺ فيما يبلغه عن اللَّه، قولًا وعملًا، والتزام مسلكه المعصوم، في سيره إلى اللَّه ﷻ وطلب المعرفة به سبحانه. وإنما الاتباع طاعةٌ للَّه ورسوله ﷺ في كل شيء على الإجمال والتفصيل. ذلك هو أساس المنهاج النبوي الكريم؛ للتحقق بمقام الربانية، دينًا ودعوةً! حيث إن اللَّه - جَلَّ ثناؤه - جعل اتباع سنة الرسول ﷺ ، والدخول تحت رِبْقَةِ الطاعة، سببًا لاستجلاب محبته تعالى وغفرانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ذلك أن كُلَّ مُدَّعٍ لمحبة اللَّه مُمتحن بهذا الشرط العظيم، ألَا وهو: اتباع سنة محمد ﷺ ، والتزام طريقته ومسلكه الرباني الكريم! فمن نجح في هذا واستجاب لشرط اللَّه فيه، كان من الفائزين بأعظم الجزاء: محبة اللَّه له وتفضله عليه بالغفران! فأما محبة اللَّه للعبد فذلك من أرفع غايات المؤمنين؛ لأن المحبوب عند اللَّه عبدٌ محمود عنده، مذكور في ملئه الأعلى، منشور له القبول في السماء والأرض، مشمول برداء الولاية! وتلك هي غاية العباد السائرين، ومنتهى مراد المؤمنين الربانيين. وأما الغفران فهو نعمة اللَّه على عباده ورحمته لأوليائه، فيما قدّموا وأخّروا من ذنوبهم، ما داموا على مقام متجدد من التوبة والاستغفار، مما زلّت به القدم عن مسلك الاتباع، أو شطَّت به الغفوة في متاهة النسيان، فغفران اللَّه ماسح لكلٍّ تلك اللطخات وغاسل لكل تلك الزلات! واللَّه غفور رحيم. يفتح أبواب عفوه للتوَّابين أبدًا، وينشر رداء رحمته على أوليائه سرمدًا!

ثم إن الاتباع والطاعة للَّه ورسوله ﷺ سبب أيضًا لضمان الوصول إلى اللَّه،

وضمان التوفيق في الطريق، وعدم الخذلان! ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ وأي عَبْدٍ أتعسُ ممن نَزَعَ اللَّه عنه رداءَ محبته؟ وطرده من حِمَى رحمتِه؟ وحَرَمَهُ أمانَ رِضَاه؟

وقد ذكر شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ... ﴿٣١﴾ ﴾ .. إلى آخر السياق، هو عودة إلى أصل سياق السورة، من مخاطبة وفد نصارى نجران، لما زعموا أنهم يحبون اللَّه، وأن دين النصرانية قائم على المحبة، فامتحنهم اللَّه تعالى بهاتين الآيتين! وجعل محبة محمد ﷺ واتباعه وطاعته شرطًا أساسًا للتحقُّق بمحبة اللَّه، وبرهانًا على صدق دعواهم في ذلك! ولذلك قال لرسوله ﷺ في سياق مجادلتهم ومحاورتهم: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وأصل المعنى: قل لهم يا محمد: إن كنتم صادقين فيما تزعمون من محبة اللَّه، وأن تقديسكم للمسيح إنما هو من محبة اللَّه، فاتبعوا هذا النبي الذي تجدونه مكتوبًا عندكم في الإنجيل! قد صحَّت به بشارة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقينًا! فهنالك فقط يكون لمحبتكم ماصدق صحيح، وتنالون من محبة اللَّه لكم ما ترتقون به إلى أقصى ما ترغبون فيه بمسلك العبادة والرهبانية! ثم تفوزون بغفران شامل لجميع ذنوبكم، مما أفرطتم وغاليتم في القول على اللَّه بغير علم، فنسبتم له الولد، وانزلقتم إلى شَرك التثليث الشنيع! ورغم فظاعة هذا القول وشناعته فإن اللَّه - جَلَّ ثناؤه - غفور لمن تاب منهم، رحيم بعباده؛ إذ يجعل الإسلامَ للَّهِ ناسخًا وماسحًا لما قبله من ذنوب العبد، جَابًّا لها جميعًا! ثم جدَّد الأمر لرسوله ﷺ بدعوتهم إلى طاعة اللَّه ورسوله فيما قَرره من أمر المسيح وأمه، وفيما جاءهم من الحقِّ عبر هذا القرآن إجمالًا وتفصيلًا! وأن ليس دون ذلك إلا الكفر باللَّه وبآياته، وإذن فلا سبيل إلى الوصول إلى محبته، ولو أوغلتم في رهبانيتكم الكاذبة ما أوغلتم! ذلك أن اللَّه لا يحب الكافرين بآياته وبرسوله ﷺ ، ولا هو يقبل ممن تكبَّر عن طاعته وطاعة رسوله صَرْفًا ولا عَدْلًا! فذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ومعنى « التولِّي » ههنا: الارتداد عن الحقِّ، والنكول عنه والإدبار. وما حَمَلَ أهلَ

الكتاب على ذلك إلا اتباعُ الهوى، وآفة العُجْبِ الاستكبار! وذلك أشنع الكفر وأكبره، والعياذ بالله! وهو علة إبليس التي بسببها باءَ بغضب الله ولعنته، فكان في الدرك الأسفل من النار!

ذلك أصل سياق السورة، والعبرة بعموم المقاصد والألفاظ؛ ولذلك فهذه القواعد المنهاجية جارية في حق المسلمين كما هي جارية في حق غيرهم. وإنما العبرة في نهاية المطاف بمن استجاب لله ولرسوله طاعةً واتباعًا، سواء في العقائد أو في سنن العبادة! ولذلك كانت هاتان الآيتان - كما بَيَّنَّا - هما صمام أمان مسلك الربانية، وشرط صِحَّة التزام طريقها. والله الموفق للخير والمعين عليه.

جعلني الله وإياكم من أهل رضاه ومحبته، المتبعين لما جاء به رسوله ﷺ من رحمته، صراطًا مستقيمًا في مِلَّتِه، يسلك بنا إلى جنته! آمين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات التالية:

الرسالة الأولى: في أن من شروط أدب الدعاء واستجابته، أن يُفْتَتَحَ بتمجيد الله، والثناء عليه بما يليق به - سبحانه - من الصفات الكريمة، والأسماء الجميلة، وبما يناسب الغرض المطلوب منها على وجه الخصوص. وهو أمر مطرد في أدعية القرآن، مما حكاه الله - جَلَّ ثناؤه - من ابتهالات الأنبياء والمرسلين. كما أنه هو المسلك المسلوك في سنة الرسول محمد ﷺ . وقد رأيتَ ما في قوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ - إلى آخر الآية - من التمجيد والتوحيد والتفريد! وجامع ذلك كله قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ذلك أن تمجيد الربِّ ﷻ، والثناء عليه بما هو أهله، هو صخرة العروج إلى الله - جَلَّ ثناؤه - بشتى ضروب الدعاء رَغَبًا ورَهَبًا، وبه يكون طرق أبواب السماء، والاستئذان على الملك الوهاب؛ لتقديم تعابير التذلُّل والحاجة والافتقار؛ عسى أن يتلقَّاها الرحمن بالقبول، ويقابلها بوابل الاستجابة والعطاء.

والسرُّ في ذلك كله هو ما يكتسبه العبد - بتمجيد الربِّ سبحانه والثناء عليه - من صفات العبودية، ومنازل الإيمان، التي بها يترقَّى في مقامات القرب، ومعارج

العلم بالله ﷻ ؛ حتى يكون من العباد المقربين، المتحقِّقين بمقام الربانية.

الرسالة الثانية: فِي أن مطالعة شؤون الربوبية، ومشاهدة عجائب الخلق والتكوين، وأسرار التدبير، وحِكَمِ التقدير، من أهم المسالك المعرفة بالله، والعلم به.

الرسالة الثالثة: في تقرير عقيدة الولاء والبراء.

الرسالة الرابعة: في أن التقية لا يجوز أن تبلغ بالعبد إلى حد الانحراف في الأفعال؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان!) إلا أنه لا تتعدَّى حالات الضرورة إلى الكذب المجاني والنفاق الخلقي الذي تمارسه بعض الفرق لخداع المسلمين باسم التقية! ومِن ثَمَّ فإنها لا تجوز إلا في حالة الإكراه البدني. وهي مخالفة لما يعتقده الشيعة الروافض.

الرسالة الخامسة: في أن من علامات الربانية وتجلياتها، توقيع الأفعال والأقوال على كفتي ميزان الخير والشرّ، المُحضرين في الدار الآخرة! وألَّا يتصرف العبد في شيء من الأعمال حتى يعلم موقعه من ذلك الميزان! فمن تحقَّق بهذا فهو الرباني حقًّا؛ لأنه تلقَّى عن الله علمه به وباليوم الآخر، على مقام اليقين! حتى إنه لك أن تقول: إن الربانية هي الأُخروية.

الرسالة السادسة: في أن الاتباع للرسول هو شرط القبول، وأن الطاعة لله ورسوله ﷺ هو شرط الوصول!

الرسالة السابعة: في أن المحبة هي غاية الربانية، وتاج معراجها. والمقصود منها الفوز بمحبة الله للعبد، والدخول تحت ردائها وجمالها! (قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تُحَب!).

٤ - مسلك التخلق:

وهو ههنا في بيان كيفية التحقُّق بمقام المحبة، الذي هو طريق الربانية ومسلكها القريب!

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

فريد الأنصاري.

- ولد بإقليم الرشيدية، جنوب شرق المغرب سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب - المحمدية، المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد ابن عبد اللّٰه، كلية الآداب، فاس، المغرب.

- عضو المجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية.

- رئيس المجلس العلمي المحلي بمكناس.

- عضو اللجنة العلمية لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان المولى إسماعيل.

- عضو مؤسس لمعهد الدراسات المصطلحية، التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان محمد بن عبد اللّٰه بفاس.

- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- رئيس سابق لشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب، جامعة السلطان المولى إسماعيل بمكناس، المغرب، لسنوات: (٢٠٠٠ - ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م).

- أستاذ زائر بدار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا بالرباط لسنتي: (٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م إلى ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م).

- أستاذ بمركز تكوين الأئمة والمرشدات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.

- رئيس وحدة الدراسات العليا: (الاجتهاد المقاصدي: التاريخ والمنهج)، بجامعة السلطان المولى إسماعيل بمكناس.

- وأستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة بالجامعة نفسها.

- ثم أستاذ كرسي التفسير بالجامع العتيق لمدينة مكناس.

صدر له من الدراسات العلمية:

١ - الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب: دراسة في التدافع الاجتماعي، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط. الأولى (٢٠٠٠م).

٢ - مفاتح النور: دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسل بإستنبول، ط. الأولى (٢٠٠٤م).

٣ - الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس/ المغرب، ط. الأولى (٢٠٠٧م).

٤ - بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٥ - جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٦ - الفطرية : بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٧ - قناديل الصلاة « كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة »، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٨ - مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ (ج ١). دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٩ - مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ (ج ٢). دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

١٠ - مفهوم العَالِميَّة، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

١١ - الدين هو الصلاة والسجود للّه باب الفرج، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٢ - سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٣ - كاشف الأحزان ومسالح الأمان، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٤ - المصطلح الأصولي عند الشاطبي: (أطروحة دكتوراه)، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٥ - ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى اللّه. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

١٦ - هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها؟ دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

ومن الأعمال الأدبية:

١ - جداول الروح: شعر مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي، مكناس (١٩٩٧م).

٢ - الوعد: شعر، مطبعة أنفوبرانت، فاس (١٩٩٧م).

٣ - ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب (١٩٩٩م).

٤ - آخر الفرسان: رواية، نشر دار النيل، إستنبول (٢٠٠٦م).

٥ - ديوان القصائد: شعر، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

٦ - كشف المحجوب: رواية. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

هذا، وقد توفاه اللّه تبارك وتعالى يوم الجمعة

(١٨ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ) الموافق (٦/ ١١/ ٢٠٠٩م).